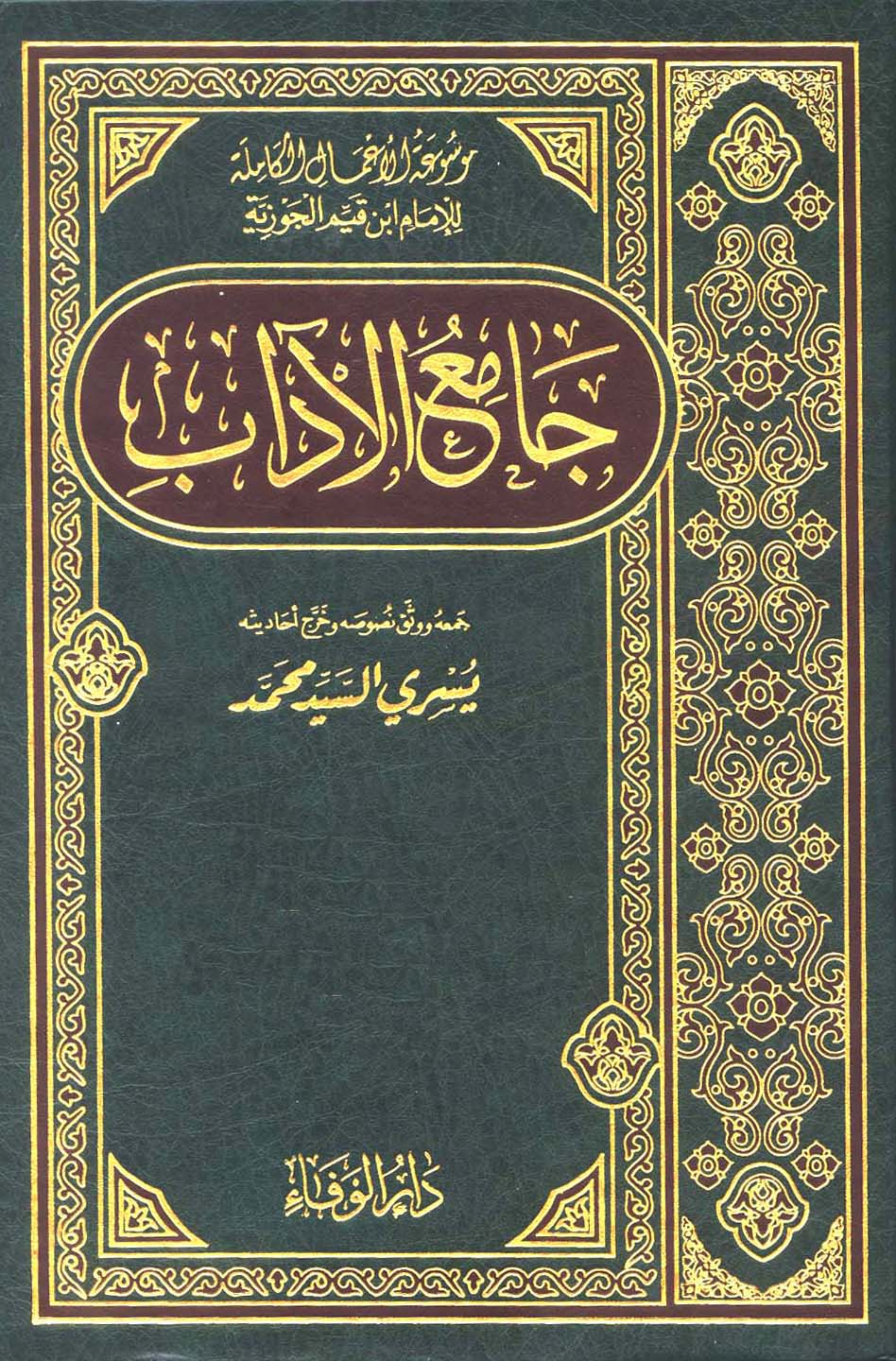


موسوعة الأعمال الكاملة
للإمام ابن قيم الجوزية
جامع الآداب
جمعه ووثق نصوصه وخرج أحاديثه
يسري السيد محمد
دار الوفاء

# فهرس الموضوعات

## كتاب العلم والعلماء

## كتاب لطائف الكلم

# فهرس الموضوعات

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

## كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

## كتاب الدعوة إلى الله عز وجل



## كتاب الأذكار

## كتاب اللباس والزينة

## كتاب الرؤيا



رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٣٣٨٤م

I.S.B.N:977-15-0375-8

# فهرس الموضوعات

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

## كتاب الطب

## كتاب المفاضلات

رقم الإيداع : ١٣٣٨٥/ ٢٠٠٢م
I.S.B.N:977-15-0376-6

# فهرس الموضوعات

## كتاب الفروق والمفارقات

رقم الإيداع : ١٣٣٨٤/ ٢٠٠٢م

I.S.B.N:977-15-0375-8

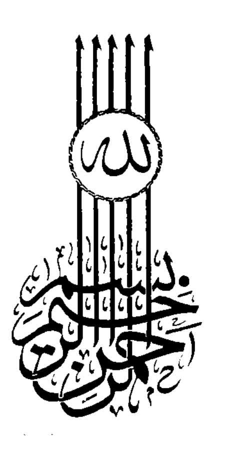
مَوسُوعَةُ الأعمَالِ الكَامِلَة
لِلإمَامِ ابنِ قيِّمِ الجَوزيَّة



# جَامِعُ الآدَابِ

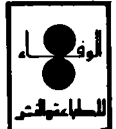
جمعه ووثّق نصوصه وخرّج أحاديثه
**يُسري السّيّد محمد**

الجُزءُ الأوَّلُ




جامع الآداب

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م




دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة
الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب:٢٣٠
ت:٢٢٥٦٢٢٠/ ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤/ ٠٥٠
المكتبة: أمام كلية الطب ت٢٢٤٩٥١٣/ ٠٥٠
E-Mail : DAR ELWAFA @ HOTMAIL. COM

**إهداء**

إلى اللذين ربيانى صغيرا

وبذلا النفس والنفيس

والدىَّ الكرام

جزاهما الله كل خير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك،وأشهد أن سيدنا محمد عبد الله ورسوله ﷺ .

**وبعد :**

كما ترى ـ حفظك الله تعالى ـ هذا العمل الذى بين يديك ضمن المشروع الذى أخذ أكثر من خمسة عشر عاماً بين الفهرسة والترتيب والتحقيق،مع ما يعترى الإنسان عموماً من مشاغل الحياة وهمومها ، ويعترى المسلم خصوصاً هَمٌّ من نوع خاص ألا وهو هَمٌّ الحال ، حاله مع ربه تعالى بين الطاعة والمعارف التى بها تنال محبة الله تعالى ، وبين العقبات التى تارة يغرسها الشيطان ،وتارة النفس، وأخرى شياطين الإنس.

وحاله مع الناس بين المحب المعين ،وبين المبغض الصارف عن الحق ، وبين أصحاب معاول الظلم والهدم والإرجاف ، الصادِّين عن الله ورسوله .

وحاله مع نفسه تارة يفطمها عن الشر بالخير ، وتارة تقوده إلى هلكته ،نعوذ بالله .

والسعيد حقاً من كانت نفسه لوامة ،ثم ارتقى بها إلى المطمئنة ، ولا يخلص إلى هذا حتى يخلع عنها ثوب الأمر بالسوء ، وأحوال النفس من العجائب والغرائب بمكان .

ولله در إمامنا ابن القيم ، فهو بحق الطبيب النفسانى الذى شرح هذه النفس ،وبين داءها ودواءها بالجواب الكافى ، ولو تدبر المتدبر لوجد أن « مدارج السالكين » ما هو إلا درجات لهذه النفس .

فكان من الضرورى وضع منهاج ضابط لأحوال النفس، حتى لا تتداوى بالعلل التى يلبسها الشيطان على بعضهم فيظنها دواء ، ويترك دواءها لجهله بنفعه .

ولا يخرج هذا المنهاج وهذا الضابط عن كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

وهذا أمر يدعيه كل أحد ، لكن الفيصل عندنا ما ذكره الإمام أحمد رحمه الله تعالى : « أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب النبى ﷺ ». نعم ، هذا الذى يجب أن يكون القصد والغاية .

والمتتبع بنظر الإنصاف ورجاحة العقل السليم ليرى كلام ابن القيم لا يخرج عن هذا

الأصل ،كما بيَّنا هذا فى مقدمة « بدائع التفسير »،و« جامع الفقه» وسنزيده بياناً فى مقدمة « البدائع فى علوم القرآن ».

ومن هنا كان هذا البناء الذى نسأل الله تعالى إتمامه وقبوله منا ، حيث رتبنا كلام الإمام ابن القيم وفق هذه الأبواب المعهودة لهذه العلوم ،والتى انتظمت أبوابها وفصولها وفوائدها ومسائلها فى الكتب التالية :

١ـ التوبة .
٢ـ العلم والعلماء .
٣ـ لطائف الكلم.
٤ـ الفتيا وآداب المفتين .
٥ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .
٦ـ الدعوة إلى الله عز وجل .
٧ـ الأذكار .
٨ـ اللباس والزينة .
٩ـ الرؤيا .
١٠ـ السلوك والزهد .
١١ـ النسب .
١٢ـ الخصائص .
١٣ـ الطب .
١٤ـ المفاضلات .
١٥ـ الأدب .
١٦ـ الفروق والمفارقات .

وستجد ـ أخى القارئ ـ وأنت تسبح فى هذا النهر الكريم درراً عليك بالتقاطها ، ووروداً عليك بضمها ، لعل الله تعالى ينفعك بها .

ولم نشأ صناعة ترجمة للإمام ابن القيم ، حيث كتبنا عنه فى « بدائع التفسير » و« جامع الفقه » ما فيه كفاية للمسترشد .

وقد سلكت فى تحقيق الكتاب نفس المنهج السابق ذكره فى مقدمة كتابى « بدائع التفسير» حيث اعتمدت فى التصحيح والتضعيف على كلام أئمة هذا الشأن ،وبالنسبة للسنن الأربعة ( أبى داود ـ الترمذى ـ النسائى ـ ابن ماجه ) فقد اعتمدت تصحيح أو تضعيف شيخنا العلامة الألبانى ، فما كان منها ضعيفا أشرت إليه ، وإن سكتُّ فهو من الصحيح أو الحسن ، مع ترك الاستطالة والتمادى والتخريج الذى لا حاجة فيه للقارئ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الهرم فى جمادى الأولى ١٤٢٣هـ
يوليو ٢٠٠٢م

وكتبه
يسرى السيد محمد الكولى



# كتاب التوبـــــة

# فصل
## فى حاجة العبد إلى التوبة

ومنزل « التوبة » أول المنازل ، وأوسطها ، وآخرها ، فلا يفارقه العبد السالك ، ولا يزال فيه إلى الممات . وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به ، واستصحبه معه ونزل به . فالتوبة هى بداية العبد ونهايته ، وحاجته إليها فى النهاية ضرورية ، كما أن حاجته إليها فى البداية كذلك . وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٣١) ﴾ [ النور ] وهذه الآية فى سورة مدنية ، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه ، بعد إيمانهم وصبرهم ، وهجرتهم وجهادهم . ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه ، وأتى بأداة « لعلَّ » المشعرة بالترجى ، إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح ، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون . جعلنا الله منهم .

قال تعالى : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** (١١) ﴾ [ الحجرات ] قسم العباد إلى تائب وظالم ، وما ثَمَّ قسم ثالث البتة . وأوقع اسم « الظالم » على من لم يتب ، ولا أظلم منه؛ لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله . وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « يا أيها الناس ، توبوا إلى الله ، فوالله إنى لأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » (١) ، وكان أصحابه يعدون له فى المجلس الواحد قبل أن يقوم : « رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الغفور » مائة مرة (٢) ، وما صلى قط بعد إذ أنزلت عليه : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ إلى آخرها ، إلا قال فيها : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى »(٣)، وصح عنه ﷺ أنه قال : « لن ينجى أحدا منكم عمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » (٤) .

---

(١) مسلم (٢٧٠٢ / ٤٢) فى الذكر والدعاء والاستغفار والتوبة ، باب : استحباب الاستغفار والاستكثار منه ، وأحمد ٤ / ٢٦١ ، ٥ / ٤١١ بلفظ : « مائة مرة » .

وفى البخارى (٦٣٠٧) فى الدعوات،باب:استغفار النبى ﷺ فى اليوم والليلة ، بدون لفظ:« يا أيها الناس » .

(٢) الترمذى (٣٤٣٤) فى الدعوات ، باب : ما يقول إذا قام من المجلس ، وقال : « حسن صحيح غريب » .

(٣) البخارى (٤٩٦٧) فى التفسير ، باب : سورة : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ ، ومسلم (٤٨٤ / ٢١٩) فى الصلاة ، باب : ما يقال فى الركوع والسجود ، والنسائى (١١٢٢ ، ١١٢٣) فى التطبيق ، باب (٦٤) ، وأحمد ٦ / ٤٣ ، ٤٩ ، ١٠٠ ، ١٩٠ .

(٤) البخارى (٦٤٦٣) فى الرقاق ، باب : القصد والمداومة على العمل بدون قوله : « وفضل » ،ومسلم (٢٨١٦ / ٧١) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : لن يدخل أحد الجنة بعمله . . . إلخ ، وأحمد ٢ / ٤٨٢ ، ٤٨٨ .

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية ، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها (١) .

## فصل
## في حقيقة التوبة

إن حقيقة « التوبة » الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يجب ، وترك ما يكره . فهى رجوع من مكروه إلى محبوب . فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها ، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر ؛ ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها ، فقال ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٣١) ﴾ [ النور ] ، فكل تائب مفلح ، ولا يكون مفلحا إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه . وقال تعالى ﴿ **وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** (١١) ﴾ [ الحجرات ] وتارك المأمور ظالم ، كما أن فاعل المحظور ظالم ، وزوال اسم « الظلم » عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين ، فالناس قسمان : تائب وظالم ، ليس إلا ، فالتائبون هم: ﴿ **الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ** ﴾ [ التوبة : ١١٢ ] فحفظ حدود الله جزء التوبة ، والتوبة هى مجموع هذه الأمور . وإنما سمى تائبا : لرجوعه إلى أمر الله من نهيه ، وإلى طاعته من معصيته ، كما تقدم .

فإذا : « التوبة » هى حقيقة دين الإسلام ، والدين كله داخل فى مسمى « التوبة » وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وإنما يحب الله من فعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه .

فإذا : « التوبة » هى الرجوع مما يكره الله ظاهرا وباطنا إلى ما يحبه ظاهرا وباطنا ، ويدخل فى مسماها الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، وتتناول جميع المقامات ؛ ولهذا كانت غاية كل مؤمن ، وبداية الأمر وخاتمته ـ كما تقدم ـ وهى الغاية التى وجد لأجلها الخلق . والأمر والتوحيد جزء منها ، بل هو جزؤها الأعظم الذى عليه بناؤها (٢) .

---
(١) مدارج السالكين (١ / ١٧٨ ، ١٧٩) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٠٥ ، ٣٠٦) .

# فصل
# فى اشتمال الفاتحة على بيان التوبة النصوص

ولما كانت « التوبة » هى رجوع العبد إلى الله ، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين ، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم . ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده ، فقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام ، وتضمنتها أبلغ تضمن . فمن أعطى الفاتحة حقها ـ علما وشهودا وحالا ومعرفة ـ علم أنه لا تصح له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النصوح ، فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب ، ولا مع الإصرار عليها . فإن الأول : جهل ينافى معرفة الهدى ، والثانى : غَى ينافى قصده وإرادته . فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب ، والاعتراف به ، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولا وآخرا .

قال فى المنازل (١) : « وهى أن تنظر فى الذنب إلى ثلاثة أشياء : إلى انخلاعك من العصمة حين إتيانه ، وفرحك عند الظفر به ، وقعودك على الإصرار عن تداركه ، مع تيقنك نظر الحق إليه » .

يحتمل أن يريد بالانخلاع عن العصمة : انخلاعه عن اعتصامه بالله ؛ فإنه لو اعتصم بالله لما خرج عن هداية الطاعة . قال الله تعالى: ﴿ **وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴿١٠١﴾ ﴾ [ آل عمران ] ، فلـو كملت عصمته بالله لم يخـذله أبدا . قال الله تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴿٧٨﴾ ﴾ [ الحج ] أى متى اعتصمتم به تولاكم ، ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان ، وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد ، وعداوتهما أضر من عدواة العدو الخارج . فالنصر على هذا العدو أهم ، والعبد إليه أحوج ، وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله .

ويحتمل أن يريد الانخلاع من عصمة الله له ،وأنك إنما ارتكبت الذنب بعد انخلاعك من توبة عصمته لك . فمتى عرف هذا الانخلاع وعظم خطره عنده ، واشتدت عليه مفارقته ، وعلم أن الهُلك كل الهلك بعده ـ وهو حقيقة الخذلان ـ فما خَلَّى اللهُ بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك،وخلى بينك وبين نفسك، ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنب إليك سبيلا.

فقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان : أن يكلك الله إلى نفسك ، ويخلى بينك وبينها . والتوفيق : ألا يكلك الله إلى نفسك .

---

(١) يقصد الإمام الهروى .

وله ـ سبحانه ـ فى هذه التخلية ـ بينك وبين الذنب وخذلانك حتى واقعته ـ حكم وأسرار .

وعلى الاحتمالين فترجع « التوبة » إلى اعتصامك به وعصمته لك .

قوله : « وفرحك عند الظفر به » .

الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها ، والجهل بقدر من عصاه ، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها ، ففرحه بها غطى عليه ذلك كله . وفرحه بها أشد ضررا عليه من مواقعتها . والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدا ، ولا يكمل بها فرحه ، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه ، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به . ومتى خلى قلبه من هذا الحزن ، واشتدت غبطته وسروره ، فليتهم إيمانه ، وليبك على موت قلبه ؛ فإنه لو كان حيا لأحزنه ارتكابه للذنب ، وغاظه وصعب عليه ، ولا يحس القلب بذلك ، فحيث لم يحس به فما لجرح بميت إيلام .

وهذه النكتة فى الذنب قل من يهتدى إليها أو ينتبه لها . وهى موضع مخوف جدا ، مترام إلى هلاك إن لم يتدارك بثلاثة أشياء : خوف من الموافاة عليه قبل التوبة ، وندم على مافاته من الله بمخالفة أمره ، وتشمير للجد فى استدراكه .

قوله : « وقعودك على الإصرار عن تداركه » .

الإصرار : هو الاستقرار على المخالفة ، والعزم على المعاودة ، وذلك ذنب آخر ، لعله أعظم من الذنب الأول بكثير . وهذا من عقوبة الذنب : أنه يوجب ذنبا أكبر منه ، ثم الثانى كذلك ، ثم الثالث كذلك ، حتى يستحكم الهلاك .

فالإصرار على المعصية معصية أخرى ، والقعود عن تدارك الفارط من المعصية إصرار ورضا بها ، وطمأنينة إليها ، وذلك علامة الهلاك .

وأشد من هذا كله : المجاهرة بالذنب ، مع تيقن نظر الرب جل جلاله من فوق عرشه إليه ، فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة فعظيم ، وإن لم يؤمن بنظره إليه واطلاعه عليه فكفر ، وانسلاخ من الإسلام بالكلية ، فهو دائر بين الأمرين : بين قلة الحياء ، ومجاهرة نظر الله إليه ، وبين الكفر والانسلاخ من الدين . فلذلك يشترط فى صحة التوبة تيقنه أن الله كان ناظرا ـ ولا يزال ـ إليه مطلعا عليه ، يراه جهرة عند مواقعة الذنب ؛ لأن التوبة لا تصح إلا من مسلم ، إلا أن يكون كافرا بنظر الله إليه جاحدا له . فتوبته دخوله فى الإسلام ، وإقراره بصفات الرب جل جلاله .

# فصل
# فى شرائط التوبة

قال [١] : « وشرائط التوبة ثلاثة : الندم ، والإقلاع ، والاعتذار » .

فحقيقة التوبة : هى الندم على ما سلف منه فى الماضى ، والإقلاع عنه فى الحال ، والعزم على ألا يعاوده فى المستقبل .

والثلاثة تجتمع فى الوقت الذى تقع فيه التوبة ، فإنه فى ذلك الوقت يندم ، ويقلع ، ويعزم . فحينئذ يرجع إلى العبودية التى خلق لها ، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة .

ولما كان متوقفا على تلك الثلاثة جعلت شرائط له .

فأما الندم : فإنه لا تتحقق التوبة إلا به ؛ إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به ، وإصراره عليه . وفى المسند : « الندم توبة » [٢] .

وأما الإقلاع : فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب .

وأما الاعتذار : ففيه إشكال ؛ فإن من الناس من يقول : من تمام التوبة ترك الاعتذار ، فإن الاعتذار محاجة عن الجناية ، وترك الاعتذار اعتراف بها ، ولا تصح التوبة إلا بعد الاعتراف . وفى ذلك يقول بعض الشعراء لرئيسه ، وقد عتب عليه فى شىء :

وما قابلت عَتْبك باعتـــذار ... ولكنى أقولُ كما تقـــول
وأطرق باب عفوك بانكسار ... ويحكم بيننا الخُلقُ الجميل

فلما سمع الرئيس مقالته قام وركب إليه من فوره ، وأزال عتبه عليه .

فتمام الاعتراف : ترك الاعتذار ، بأن يكون فى قلبه ولسانه : اللهم لا براءة لى من ذنب فأعتذر ، ولا قوة لى فأنتصر ، ولكنى مذنب مستغفر . اللهم لا عذر لى ، وإنما هو محض حقك ، ومحض جنايتى ، فإن عفوت وإلا فالحق لك .

والذى ظهر لى من كلام صاحب المنازل : أنه أراد بالاعتذار إظهار الضعف والمسكنة ، وغلبة العدو ، وقوة سلطان النفس ، وأنه لم يكن منى ما كان عن استهانة بحقك ، ولا جهلا به ، ولا إنكارا لاطلاعك ، ولا استهانة بوعيدك . وإنما كان من غلبة الهوى ،

---

(١) أى صاحب المنازل .

(٢) أحمد ١ / ٣٧٦ ، ٤٢٣ ، ٤٣٣ ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٣٥٦٨) : « إسناده صحيح » .

وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة ، وطمعا فى مغفرتك واتكالا على عفوك ، وحسن ظن بك ، ورجاء لكرمك ، وطمعا فى سعة حلمك ورحمتك ، وغرَّنى بك الغرور ، والنفس الأمارة بالسوء ، وسترك المرخى على ، وأعاننى جهلى ، ولا سبيل إلى الاعتصام لى إلا بك ، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك . ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار ، والاعتراف بالعجز ، والإقرار بالعبودية .

فهذا من تمام التوبة ، وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل ، والله يحب من عبده أن يتملق له .

وفى الحديث: « تملقوا لله »(١) ، وفى الصحيح : «لا أحد أحب إليه العذر من الله » (٢)، وإن كان معنى ذلك الإعذار . كما قال فى آخر الحديث : « من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين » . وقال تعالى : ﴿ **فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)** ﴾ [ المرسلات ] ، فإنه من تمام عدله وإحسانه أن أعذر إلى عباده . وألا يؤاخذ ظالمهم إلا بعد كمال الإعذار وإقامة الحجة عليه . فهو أيضا يحب من عبده أن يعتذر إليه ، ويتنصل إليه من ذنبه ، وفى الحديث : « من اعتذر إلى الله قبل الله عذره » (٣) فهذا هو الاعتذار المحمود النافع .

وأما الاعتذار بالقدر : فهو مخاصمة الله ، واحتجاج من العبد على الرب ، وحمل لذنبه على الأقدار ، وهذا فعل خصماء الله . كما قال بعض شيوخهم فى قوله تعالى : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ** ﴾ [ آل عمران : ١٤ ] قال : أتدرون ما المراد بهذه الآية ؟ قالوا : ما المراد بها ؟ قال : إقامة أعذار الخليقة .

وكذب هذا الجاهل بالله وكلامه . وإنما المراد بها : التزهيد فى هذا الفانى الذاهب ، والترغيب فى الباقى الدائم ، والإزراء بمن آثر هذا المزين واتبعه ، بمنزلة الصبى الذى يزين له ما يلعب به ، فيهش إليه ويتحرك له ، مع أنه لم يذكر فاعل التزيين ، فلم يقل « زينا للناس » .

والله تعالى يضيف تزيين الدنيا والمعاصى إلى الشياطين ، كما قال تعالى : ﴿ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣)** ﴾ [ الأنعام ] ، وقال : ﴿ **وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ** ﴾ [ الأنعام : ١٣٧ ]، وفى الحديث: « بعثت هاديا وداعيا ، وليس إلى من الهداية

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) البخارى (٧٤١٦) فى التوحيد ، باب : قول النبى ﷺ : « ولا شخص أغير من الله » ، ومسلم (٢٧٦٠ / ٣٥) التوبة ، باب : غيرة الله تعالى . . . إلخ ، و (١٤٩٩ / ١٧) فى اللعان ، وأحمد ٤ / ٢٤٨ .

(٣) أبو يعلى (٤٣٣٨) ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠ / ٣٠١ : « فيه الربيع بن سليمان الأزدى ، وهو ضعيف » .

شىء ، وبعث إبليس مغويا ومزينا . وليس إليه من الضلالة شىء » (١) ، ولا يناقض هذا قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [ الأنعام : ١٠٨ ] فإن إضافة التزيين إليه قضاء وقدرا ، وإلى الشيطان تسببا ، مع أن تزيينه تعالى عقوبة لهم على ركونهم إلى ما زينه الشيطان لهم . فمن عقوبة السيئة السيئة بعدها ، ومن ثواب الحسنة الحسنة بعدها .

والمقصود : أن الاحتجاج بالقدر مناف للتوبة . وليس هو من الاعتذار فى شىء . وفى بعض الآثار :« إن العبد إذا أذنب . فقال : يارب ، هذا قضاؤك ، وأنت قادر على ، وأنت حكمت على ، وأنت كتب على . يقول الله عز وجل : وأنت عملت ، وأنت كسبت ، وأنت أردت واجتهدت ، وأنا أعاقبك عليه . وإذا قال : يارب ، أنا ظلمت ، وأنا أخطأت ، وأنا اعتديت ، وأنا فعلت ، يقول الله عز وجل : وأنا قدرت عليك وقضيت وكتبت ، وأنا أغفر لك . وإذا عمل حسنة فقال : يارب أنا عملتها ، وأنا تصدقت، وأنا صليت ، وأنا أطعمت . يقول الله عز وجل : وأنا أعنتك ، وأنا وفقتك . وإذا قال : يارب ، أنت أعنتنى ووفقتنى ، وأنت مننت على . يقول الله : وأنت عملتها . وأنت أردتها ، وأنت كسبتها » .

فالاعتذار اعتذاران : اعتذار ينافى الاعتراف ، فذلك مناف للتوبة ، واعتذار يقرر الاعتراف ، فذلك من تمام التوبة .

## فصل
## فى حقائق التوبة

قال صاحب المنازل : « وحقائق التوبة ثلاثة أشياء : تعظيم الجناية ، واتهام التوبة ، وطلب أعذار الخليقة » .

**يريد بالحقائق** : ما يتحقق به الشىء ، وتتبين به صحته وثبوته ، كما قال النبى ﷺ لحارثة : « إن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » (٢) .

**فأما تعظيم الجناية** : فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها ، وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها ، فإن من استهان بإضاعة فلس ـ مثلا ـ لم يندم على إضاعته ، فإذا علم أنه

---

(١) الكامل فى ضعفاء الرجال ٣ / ٣٩ ، والضعفاء الكبير ٢ / ٩ ، والموضوعات لابن الجوزى ١ / ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، وتنزيه الشريعة ١ / ٣١٥ ، بلفظ : « بعثت داعيا ومبلغا » .

(٢) الطبرانى فى الكبير ٣ / ٢٦٦ (٣٣٦٧) ، وكشف الأستار ١ / ٢٦ (٣٢) ، قال البزار : « تفرد به يوسف وهو لين الحديث » ، وقال الهيثمى فى المجمع ١ / ٦٢ : « وفيه ابن لهيعة ، وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه » .

دينار اشتد ندمه ، وعظمت إضاعته عنده .

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء : تعظيم الأمر ، وتعظيم الآمر ، والتصديق بالجزاء .

## فصل

**وأما اتهام التوبة** : فلأنها حق عليه ، لا يتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه ، الذى ينبغى له أن يؤديه عليه ، فيخاف أنه ما وفاها حقها ، وأنها لم تقبل منه ، وأنه لم يبذل جهده فى صحتها ، وأنها توبة علة وهو لا يشعر بها ، كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس ، أو أنه تاب محافظة على حاله ، فتاب للحال لا خوفا من ذى الجلال ، أو أنه تاب طلبا للراحة من الكد فى تحصيل الذنب ، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه ، أو لضعف داعى المعصية فى قلبه ، وخمود نار شهوته ، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق ، ونحو ذلك من العلل التى تقدح فى كون التوبة خوفا من الله ، وتعظيما له ولحرماته ، وإجلالا له ، وخشية من سقوط المنزلة عنده ، وعن البعد والطرد عنه ، والحجاب عن رؤية وجهه فى الدار الآخرة . فهذه التوبة لون ، وتوبة أصحاب العلل لون .

**ومن اتهام التوبة أيضا** : ضعف العزيمة ، والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة ، وتذكر حلاوة مواقعته ، فربما تنفس ، وربما هاج هائجه .

**ومن اتهام التوبة** : طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب ، حتى كأنه قد أعطى منشورا بالأمان ، فهذا من علامات التهمة .

**ومن علاماتها** : جمود العين ، واستمرار الغفلة ، وألا يستحدث بعد التوبة أعمالا صالحة لم تكن له قبل الخطيئة .

فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات :

**منها** : أن يكون بعد التوبة خيرا مما كان قبلها .

**ومنها** : أنه لا يزال الخوف مصاحبا له لا يأمن مكر الله طرفة عين ؛ فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه ﴿ **أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴿٣٠﴾ ﴾ [ فصلت ] فهناك يزول الخوف .

**ومنها** : انخلاع قلبه ، وتقطعه ندما وخوفا . وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها ،

وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى : ﴿ **لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [ التوبة : ١١٠ ] قال : تقطعها بالتوبة . ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه ، وهذا هو تقطعه ، وهذا حقيقة التوبة ؛ لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه ، وخوفا من سوء عاقبته ، فمن لم يتقطع قلبه فى الدنيا على ما فرط حسرة وخوفا ، تقطع فى الآخرة إذا حقت الحقائق ، وعاين ثواب المطيعين ، وعقاب العاصين . فلابد من تقطع القلب إما فى الدنيا وإما فى الآخرة .

**ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضا** : كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شىء ، ولا تكون لغير المذنب ، لا تحصل بجوع ، ولا رياضة ، ولا حب مجرد . وإنما هى أمر وراء هذا كله ، تكسر القلب بين يدى الرب كسرة تامة ، قد أحاطت به من جميع جهاته ، وألقته بين يدى ربه طريحا ذليلا خاشعا ، كحال عبد جان آبق من سيده ، فأخذ فأحضر بين يديه ، ولم يجد من ينجيه من سطوته ، ولم يجد منه بدا ولا عنه غناء ، ولا منه مهربا ، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه فى رضاه عنه . وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته ، هذا مع حبه لسيده ، وشدة حاجته إليه ، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده ، وذله وعز سيده .

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ، ما أنفعها للعبد . وما أجدى عائدتها عليه ! وما أعظم جبره بها . وما أقربه بها من سيده ! فليس شىء أحب إلى سيده من هذه الكسرة ، والخضوع والتذلل ، والإخبات ، والانطراح بين يديه ، والاستسلام له . فلله ما أحلى قوله فى هذه الحال : « أسألك بعزك وذلى إلا رحمتنى ، أسألك بقوتك وضعفى ، وبغناك عنى وفقرى إليك ، هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدك سواى كثير ، وليس لى سيد سواك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعت لك رقبته ، ورغم لك أنفه ، وفاضت لك عيناه ، وذلَّ لك قلبه » .

يامن ألوذ به فيما أؤمّله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يَجبُرُ الناس عظما أنت كاسره ... ولا يهيضون عظما أنت جابره

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة . فمن لم يجد ذلك فى قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها ، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة . وما أسهلها باللسان والدعوى ! وما عالج الصادق بشىء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وأكثر الناس من المتنزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات : فى كبائر مثلها أو أعظم

منها أو دونها . ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها . فعندهم ـ من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم ، وصولة طاعاتهم ،ومنّهم على الخلق بلسان الحال ، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم، اقتضاء لا يخفى على أحد غيرهم ، وتوابع ذلك ـ ما هو أبغض إلى الله ، وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك . فإن تدارك الله أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه فيها ، ليكسر بها نفسه ، ويعرفه قدره ، ويذله بها ، ويخرج بها صولة الطاعة من قلبه . فهى رحمة فى حقه ، كما أنه إذا تدارك أصحاب الكبائر بتوبة نصوح ، وإقبال بقلوبهم إليه ، فهو رحمة فى حقهم ، وإلا فكلاهما على خطر .

## فصل

**وأما طلب أعذار الخليقة** : فهذا له وجهان : وجه محمود ، ووجه مذموم حرام .

فالمذموم : أن تطلب أعذارهم ؛ نظرا إلى الحكم القدرى ، وجريانه عليهم ، شاؤوا أم أبوا ، فتعذرهم بالقدر .

وهذا القدر ينتهى إليه كثير من السالكين ، الناظرين إلى القدر ، الفانين فى شهوده . وهو درب خطر جدا ، قليل المنفعة ، لا ينجى وحده .

وأظن هذا مراد صاحب المنازل ؛ لأنه قال بعد ذلك :

« مشاهدة العبد الحكم لم يدع له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة ؛ لصعوده من جميع المعانى إلى معنى الحكم » .

وهذا الشهود شهود ناقص مذموم ، إن طرده صاحبه ، فعذر أعداء الله ، وأهل مخالفته ومخالفة رسله ، وطلب أعذارهم : كان مضادا لله فى أمره ، عاذرا من لم يعذره الله ، طالبا عذر من لامه الله وأمر بلومه . وليست هذه موافقة لله ، بل موافقته لوم هذا ، واعتقاد أنه لا عذر له عند الله ، ولا فى نفس الأمر . فالله عز وجل قد أعذر إليه ، وأزال عذره بالكلية ، ولو كان معذورا فى نفس الأمر عند الله لما عاقبه البتة ؛ فإن الله عز وجل أرحم وأغنى وأعدل من أن يعاقب صاحب عذر ، فلا أحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب ، إزالة لأعذار خلقه ؛ لئلا يكون لهم عليه حجة .

ومعلوم أن طالب عذرهم ومصححه مقيم لحجة قد أبطلها الله من جميع الوجوه . فلله الحجة البالغة ، ومن له عذر من خلقه ـ كالطفل الذى لا يميز ، والمعتوه ، ومن لم تبلغه الدعوة ، والأصم الأعمى الذى لا يبصر ولا يسمع ـ فإن الله لا يعذب هؤلاء بلا

ذنب البتة . وله فيهم حكم آخر فى المعاد ، يمتحنهم بأن يرسل إليهم رسولا يأمرهم وينهاهم . فمن أطاع الرسول منهم ، أدخله الجنة ، ومن عصاه أدخله النار . حكى ذلك أبو الحسن الأشعرى عن أهل السنة والحديث فى مقالاته . وفيه عدة أحاديث بعضها فى مسند أحمد ، كحديث الأسود بن سريع ، وحديث أبى هريرة .

ومن طعن فى هذه الأحاديث بأن الآخرة دار جزاء لا دار تكليف : فهذه الأحاديث مخالفة للعقل ، فهو جاهل ؛ فإن التكليف إنما ينقطع بدخول دار القرار ، الجنة أو النار ، وإلا فالتكليف واقع فى البرزخ وفى العرصات ؛ ولهذا يدعوهم إلى السجود له فى الموقف ، فيسجد المؤمنون له طوعا واختيارا ، ويحال بين الكفار والمنافقين وبين السجود .

والمقصود : أنه لا عذر لأحد البتة فى معصية الله ، ومخالفة أمره . مع علمه بذلك ، وتمكنه من الفعل والترك . ولو كان له عذر لما استحق العقوبة واللوم ، لا فى الدنيا ولا فى العقبى .

فهذا أحد المعنيين فى قوله : « إن من حقائق التوبة : طلب أعذار الخليقة » .

**المعنى الثانى** : أن يكون مراده : إقامة أعذارهم فى إساءتهم إليك ، وجنايتهم عليك ، والنظر فى ذلك إلى الأقدار ، وأن أفعالهم بمنزلة حركات الأشجار ، فتعذرهم بالقدر فى حقك ، لا فى حق ربك ، فهذا حق . وهو من شأن سادات العارفين ، وخواص أولياء الله الكمل ، يفنى أحدهم عن حقه ، ويستوفى حق ربه ، ينظر فى التفريط فى حقه ، وفى الجناية عليه إلى القدر ، وينظر فى حق الله إلى الأمر ، فيطلب لهم العذر فى حقه ، ويمحو عنهم العذر ويطلبه فى حق الله .

وهذه كانت حال نبينا ﷺ ، كما قالت عائشة ﵂ : ما انتقم رسول الله لنفسه قط ، ولا نيل منه شىء فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله ، فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شىء ، حتى ينتقم لله (١) .

وقالت عائشة ﵂ أيضا : ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادما ، ولا دابة ، ولا شيئا قط ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله (٢) .

وقال أنس ﵁ : خدمت النبى ﷺ عشر سنين ، فما قال لى لشىء صنعته : لم صنعته ؟ ولا لشىء لم أصنعه : لم لم تصنعه ؟ وكان إذا عاتبنى بعض أهله يقول : « دعوه .

---

(١) التمهيد لابن عبد البر (٦ / ٢٣٥) فى الجنائز ، باب : التكبير على الجنائز .

(٢) أبو داود (٤٧٨٦) فى الأدب ، باب : فى التجاوز فى الأمر ، وابن ماجه (١٩٨٤) فى النكاح ، باب : ضرب النساء .

فلو قضى شيء لكان » [١] .

فانظر إلى نظره إلى القدر عند حقه ، وقيامه بالأمر ، وقطع يد المرأة عند حق الله [٢] ، ولم يقل هناك : القدر حكم عليها .

وكذلك عزمه على تحريق المتخلفين عن الصلاة معه فى الجماعة [٣] ، ولم يقل : لو قضى لهم الصلاة لكانت .

وكذلك رجمه المرأة والرجل لما زنيا [٤] ، ولم يحتج فى ذلك لهما بالقدر .

وكذلك فعله فى العرنيين الذين قتلوا راعيه ، واستاقوا الذود ، وكفروا بعد إسلامهم [٥]. ولم يقل: قدر عليهم، بل أمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف. وسمرت أعينهم. وتركوا فى الحرة يستسقون فلا يسقون، حتى ماتوا عطشا . إلى غير ذلك مما يطول بسطه .

وكان رسول الله ﷺ أعرف بالله وبحقه من أن يحتج بالقدر على ترك أمره ، ويقبل الاحتجاج به من أحد ، ومع هذا فعذر أنسا بالقدر فى حقه ، وقال : « لو قضى شيء لكان » فصلوات الله وسلامه عليه .

فهذا المعنى الثانى ـ وإن كان حقا ـ لكن ليس هو من شرائط التوبة ، ولا من أركانها ، ولا له تعلق بها ؛ فإنه لو لم يقم أعذارهم فى إساءتهم إليه لما نقص ذلك شيئا من توبته ، فما أراد إلا المعنى الأول ، وقد عرفت ما فيه .

ولا ريب أن صاحب المنازل إنما أراد أن يعذرهم بالقدر ، ويقيم عليهم حكم الأمر ، فينظر بعين القدر ويعذرهم بها ، وينظر بعين الأمر ويحملهم عليها بموجبها ، فلا يحجبه مطالعة الأمر عن القدر ، ولا ملاحظة القدر عن الأمر .

فهذا ـ وإن كان حقا لابد منه ـ فلا وجه لعذرهم ، وليس عذرهم من التوبة فى شيء البتة . ولو كان صحيحا ـ فضلا عن كونه باطلا ـ فلا هم معذورون ، ولا طلب عذرهم من حقائق التوبة ، بل التحقيق : أن الغيرة لله ، والغضب له ، من حقائق التوبة ،

---

(١) أحمد (٣ / ٢٣١) ، والسنة لابن أبى عاصم (١ / ١٥٧) رقم (٣٥٥) ، وقال العلامة الألبانى فى ظلال الجنة فى تخريج السنة : « إسناده صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجه » .

(٢) البخارى (٦٨٨٧) فى الحدود ، باب : إقامة الحدود على الشريف والوضيع ، ومسلم (٨/١٦٨٨) فى الحدود ، باب : قطع السارق الشريف وغيره ، والنهى عن الشفاعة فى الحدود .

(٣) البخارى (٦٤٤) فى الأذان ، باب : وجوب صلاة الجماعة ، ومسلم (٦٥١ / ٢٥١) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : فضل صلاة الجماعة ، وبيان التشديد فى التخلف عنها .

(٤) البخارى (٦٨١٤) فى الحدود ، باب : رجم المحصن ، والبخارى أيضا (٦٨٢٧ ، ٦٨٢٨) فى الحدود ، باب : الاعتراف بالزنا ، ومسلم (١٦٩٥ / ٢٢) فى الحدود ، باب : من اعترف على نفسه بالزنا .

(٥) البخارى (٦٨٩٩) فى الديات ، باب : القسامة ، ومسلم (١٦٧١ / ٩) فى القسامة ، باب : حكم المحاربين والمرتدين .

فتعطيل عذر الخليقة فى مخالفة الأمر والنهى ، وشدة الغضب : هو من علامات تعظيم الحرمة . وذلك بأن يكون من حقائق التوبة أولى من عذر مخالفة الأمر والنهى (١) .

## فصل
## فى سرائر حقيقة التوبة

قال صاحب المنازل : « وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة أشياء : تمييز التَّقيَّة من العزَّة، ونسيان الجناية ، والتوبة من التوبة ؛ لأن التائب داخل فى الجميع من قوله تعالى : ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٣١) ﴾ [ النور ] فأمر التائب بالتوبة » .

**تمييز التقية من العزة** : أن يكون المقصود من التوبة تقوى الله ، وهو خوفه وخشيته ، والقيام بأمره ، واجتناب نهيه ، فيعمل بطاعة الله على نور من الله ، يرجو ثواب الله . ويترك معصية الله على نور من الله ، ويخاف عقاب الله ، لا يريد بذلك عز الطاعة ، فإن للطاعة وللتوبة عزا ظاهرا وباطنا ، فلا يكون مقصوده العزة ، وإن علم أنها تحصل له بالطاعة والتوبة ، فمن تاب لأجل العزة فتوبته مدخولة ، وفى بعض الآثار : « أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء : قل لفلان الزاهد : أما زهدك فى الدنيا : فقد تعجلت به الراحة ، وأما انقطاعك إلى : فقد اكتسبت به العزة ، ولكن ما عملت فيما لى عليك ؟ قال : يارب ، وما لك على بعد هذا ؟ قال : هل واليت فى وليا ، أو عاديت فىَّ عدوا ؟ » .

يعنى أن الراحة والعز حظك ، وقد نلتهما بالزهد والعبادة . ولكن أين القيام بحقى ، وهو الموالاة فىَّ والمعاداة فىّ ؟ فالشأن فى التفريق فى الأوامر بين حظك وحق ربك علما وحالاً. وكثير من الصادقين قد يلتبس عليهم حال نفوسهم فى ذلك ، ولا يميزه إلا أولو البصائر منهم ، وهم فى الصادقين كالصادقين فى الناس .

## فصل

**وأما نسيان الجناية** : فهذا موضع تفصيل ، فقد اختلف فيه أرباب الطريق .

فمنهم : من رأى الاشتغال عن ذكر الذنب والإعراض عنه صفحا ، فصفاء الوقت مع الله تعالى أولى بالتائب وأنفع له ؛ ولهذا قيل : ذكر الجفا فى وقت الصفا جفا .

ومنهم : من رأى أن الأولى ألا ينسى ذنبه ، بل لا يزال جاعلا له نصب عينيه يلاحظه كل وقت ، فيحدث له ذلك انكسارا وذلا وخضوعا ، أنفع له من جمعيته وصفاء وقته .

(١) مدارج السالكين (١ / ١٨٠ ـ ١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧) .

قالوا : ولهذا نقش داود الخطيئة فى كفه ، وكان ينظر إليها ويبكى (١).

قالوا : ومتى تهت عن الطريق فارجع إلى ذنبك تجد الطريق .

ومعنى ذلك : أنك إذا رجعت إلى ذنبك انكسرت وذللت ، وأطرقت بين يدى الله عز وجل ، خاشعا ذليلا خائفا . وهذه طريق العبودية .

والصواب : التفصيل فى هذه المسألة ، وهو أن يقال : إذا أحس العبد من نفسه حال الصفاء غيما من الدعوى ، ورقيقة من العجب ونسيان المنة ، وَخَطَفَتْهُ نفسهُ عن حقيقة فقره ونقصه ، فذكر الذنب أنفع له ، وإن كان فى حال مشاهدته منة الله عليه ، وكمال افتقاره إليه ، وفنائه به ، وعدم استغنائه عنه فى ذرة من ذراته ، وقد خالط قلبه حال المحبة ، والفرح بالله ، والأنس به ، والشوق إلى لقائه ، وشهود سعة رحمته وحلمه وعفوه . وقد أشرقت على قلبه أنوار الأسماء والصفات ، فنسيان الجناية والإعراض عن الذنب أولى به وأنفع . فإنه متى رجع إلى ذكر الجناية توارى عن ذلك ، ونزل من علو إلى أسفل ، ومن حال إلى حال ، بينهما من التفاوت أبعد مما بين السماء والأرض ، وهذا من حسد الشيطان له ، أراد أن يحطه عن مقامه ، وسير قلبه فى ميادين المعرفة والمحبة ، والشوق : إلى وحشة الإساءة ، وحصر الجناية .

والأول يكون شهوده لجنايته منة من الله ،منّ بها عليه ؛ ليؤمنه بها من مقت الدعوى ، وحجاب الكبر الخفى الذى لا يشعر به . فهذا لون وهذا لون .

وهذا المحل فيه أمر وراء العبارة ، وبالله التوفيق ، وهو المستعان .

## فصل

**وأما التوبة من التوبة** : فهى من المجملات التى يراد بها حق وباطل ، ويكون مراد المتكلم بها حقا ، فيطلقه من غير تمييز .

فإن التوبة من أعظم الحسنات ، والتوبة من الحسنات من أعظم السيئات ، وأقبح الجنايات ، بل هى كفر ، إن أخذت على ظاهرها ، ولا فرق بين التوبة من التوبة والتوبة من الإسلام والإيمان ، فهل يسوغ أن يقال بالتوبة من الإيمان ؟ .

ولكن مرادهم : أن يتوب من رؤية التوبة ، فإنها إنما حصلت له بمنة الله ومشيئته ، ولو خلى ونفسه لم تسمح بها البتة ، فإذا رآها وشهد صدورها منه ووقوعها به ، وغفل عن منة الله عليه : تاب من هذه الرؤية والغفلة . ولكن هذه الرؤية والغفلة ليست هى التوبة ،

(١) كل ما لم يثبت عن نبى من أنبياء الله تعالى ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ بالكتاب والسنة لا يحتج به ؛ إ لا إذا كان فى مقام التبجيل لهم والله أعلم .

ولا جزءا منها ، ولا شرطا لها ، بل هى جناية أخرى عرضت له بعد التوبة ، فيتوب من هذه الجناية ، كما تاب من الجناية الأولى . فما تاب إلا من ذنب ، أولا وآخرا . فكيف يقال : يتوب من التوبة ؟

هذا كلام غير معقول ، ولا هو صحيح فى نفسه ، بل قد يكون فى التوبة علة ونقص ، وآفة تمنع كمالها ، وقد يشعر صاحبها بذلك ، وقد لا يشعر به ، فيتوب من نقصان التوبة ، وعدم توفيتها حقها .

وهذا أيضا ليس من التوبة ، وإنما هو توبة من عدم التوبة ، فإن القدر الموجود منها طاعة لا يتاب منها ، والقدر المفقود : هو الذى يحتاج أن يتوب منه .

فالتوبة من التوبة إنما تعقل على أحد هذين الوجهين .

نعم . ههنا وجه ثالث لطيف جدا ، وهو أن من حصل له مقام أنس بالله ، وصفا وقته مع الله ، بحيث يكون إقباله على الله ، واشتغاله بذكر آلائه وأسمائه وصفاته أنفع شيء له ، حتى نزل عن هذه الحالة ، واشتغل بالتوبة من جناية سالفة قد تاب منها ، وطالع الجناية واشتغل بها عن الله . فهذا نقص ينبغى له أن يتوب إلى الله منه ، وهو توبة من هذه التوبة ؛ لأنه نزول من الصفاء إلى الجفاء ، والله أعلم (١) .

## فصل
## فى لطائف أسرار التوبة

قال صاحب المنازل : « ولطائف أسرار التوبة ثلاثة أشياء : أولها : أن ينظر الجناية والقضية ، فيعرف مراد الله فيها ؛ إذ خلاَّك وإتيانها ؛ فإن الله عز وجل إنما خلى العبد والذنب لأجل معنيين :

**أحدهما** : أن يعرف عزته فى قضائه ، وبره فى ستره ، وحلمه فى إمهال راكبه ، وكرمه فى قبول العذر منه ، وفضله فى مغفرته .

**الثانى** : أن يقيم على عبده حجة عدله . فيعاقبه على ذنبه بحجته .

اعلم أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلى خمسة أمور :

**أحدها** : أن ينظر إلى أمر الله ونهيه ، فيحدث له ذلك الاعتراف بكونها خطيئة ، والإقرار على نفسه بالذنب .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٠١ ـ ٢٠٤) .

**الثانى** : أن ينظر إلى الوعد والوعيد ، فيحدث له ذلك خوفا وخشية ، تحمله على التوبة .

**الثالث** : أن ينظر إلى تمكين الله له منها ، وتخليته بينه وبينها ، وتقديرها عليه ، وأنه لو شاء لعصمه منها ، فيحدث له ذلك أنواعا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ، وحكمته ، ورحمته ، ومغفرته وعفوه ، وحلمه وكرمه ، وتوجب له هذه المعرفة عبودية بهذه الأسماء ، لا تحصل بدون لوازمها البتة . ويعلم ارتباط الخلق والأمر ، والجزاء والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته ، وأن ذلك موجب الأسماء والصفات ، وأثرها فى الوجود ، وأن كل اسم وصفة مقتض لأثره وموجبه ، متعلق به لابد منه .

وهذا المشهد يطلعه على رياض مونقة من المعارف والإيمان ، وأسرار القدر والحكمة ، يضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم .

**فمن بعضها** : ما ذكره الشيخ : « أن يعرف العبد عزته فى قضائه » ، وهو أنه ـ سبحانه ـ العزيز الذى يقضى بما يشاء ، وأنه لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه ، بأن قلب قلبه وصرف إرادته على ما يشاء ، وحال بين العبد وقلبه ، وجعله مريدا شائيا لما شاء منه العزيز الحكيم . وهذا من كمال العزة . إذ لا يقدر على ذلك إلا الله . وغاية المخلوق : أن يتصرف فى بدنك وظاهرك ، وأما جعلك مريدا شائيا لما يشاؤه منك ويريد، فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة .

فإذا عرف العبد عز سيده ولاحظه بقلبه ، وتمكن شهوده منه ، كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع له ؛ لأنه يصير مع الله لا مع نفسه .

**ومن معرفة عزته فى قضائه** : أن يعرف أنه مدبَّر مقهور ، ناصيته بيد غيره ، لا عصمة له إلا بعصمته . ولا توفيق له إلا بمعونته ، فهو ذليل حقير ، فى قبضة عزيز حميد .

**ومن شهود عزته أيضا فى قضائه** : أن يشهد أن الكمال والحمد ، والغناء التام ، والعزة ، كلها لله ، وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم ، والعيب والظلم والحاجة ، وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعيبه وفقره ، ازداد شهوده لعزة الله وكماله ، وحمده وغناه . وكذلك بالعكس ، فنقص الذنب وذلته يطلعه على مشهد العزة .

**ومنها** : أن العبد لا يريد معصية مولاه من حيث هى معصية . فإذا شهد جريان الحكم، وجعله فاعلا لما هو غير مختار له ، مريد بإرادته ومشيئته واختياره ، فكأنه مختار غير مختار ، مريد غير مريد ، شاء غير شاء ، فهذا يشهد عزة الله وعظمته ، وكمال قدرته .

**ومنها** : أن يعرف بره سبحانه فى ستره عليه حال ارتكاب المعصية ، مع كمال رؤيته له ، ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه . وهذا من كمال بره ، ومن أسمائه « البر » وهذا البر من سيده كان عن كمال غناه عنه ، وكمال فقر العبد إليه ، فيشتغل بمطالعة هذه المنة ، ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم ، فيذهل عن ذكر الخطيئة ، فيبقى مع الله سبحانه ، وذلك أنفع له من الاشتغال بجناياته ، وشهود ذل معصيته ، فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه : هو المطلب الأعلى ، والمقصد الأسنى .

ولا يوجب هذا نسيان الخطيئة مطلقا ، بل فى هذه الحال ، فإذا فقدها فليرجع إلى مطالعة الخطيئة ، وذكر الجناية ، ولكل وقت ومقام عبودية تليق به .

**ومنها** : شهود حلم الله سبحانه وتعالى فى إمهال راكب الخطيئة ، ولو شاء لعاجله بالعقوبة ، ولكنه الحليم الذى لا يعجل ، فيحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه باسمه « الحليم » ومشاهدة صفة « الحلم » والتعبد بهذا الاسم ، والحكمة والمصلحة الحاصلة من ذلك بتوسط الذنب : أحب إلى الله ، وأصلح للعبد ، وأنفع من فوتها ، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع .

**ومنها** : معرفة العبد كرم ربه فى قبول العذر منه إذا اعتذر إليه بنحو ما تقدم من الاعتذار لا بالقدر ؛ فإنه مخاصمة ومحاجة ، كما تقدم . فيقبل عذره بكرمه وجوده ، فيوجب له ذلك اشتغالا بذكره وشكره ، ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك ، فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به ، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها ، أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده ، والواقع شاهد بذلك ، فعبودية التوبة بعد الذنب لون ، وهذا لون آخر .

**ومنها** : أن يشهد فضله فى مغفرته ، فإن المغفرة فضل من الله ، وإلا فلو أخذك بمحض حقه ، كان عادلا محمودا ، وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك ، فيوجب لك ذلك أيضا شكرا له ومحبة ، وإنابة إليه ، وفرحا وابتهاجا به ، ومعرفة له باسمه « الغفار » ومشاهدة لهذه الصفة ، وتعبدا بمقتضاها . وذلك أكمل فى العبودية ، والمحبة والمعرفة .

**ومنها** : أن يكمّل لعبده مراتب الذل والخضوع والانكسار بين يديه ، والافتقار إليه ؛ فإن النفس فيها مضاهات للربوبية ، ولو قدرت لقالت كقول فرعون ، ولكنه قدر فأظهر ، وغيره عجز فأضمر ، وإنما يخلصها من هذه المضاهاة ذل العبودية ، وهو أربع مراتب :

**المرتبة الأولى** : مشتركة بين الخلق : وهى ذل الحاجة والفقر إلى الله ، فأهل السموات

والأرض جميعا محتاجون إليه ، فقراء إليه ، وهو وحده الغنى عنهم ، وكل أهل السموات والأرض يسألونه ، وهو لا يسأل أحدا .

**المرتبة الثانية** : ذل الطاعة ، والعبودية : وهو ذل الاختيار ، وهذا خاص بأهل طاعته ، وهو سر العبودية .

**المرتبة الثالثة** : ذل المحبة : فإن المحب ذليل بالذات ، وعلى قدر محبته له يكون ذله ، فالمحبة أسست على الذلة للمحبوب ، كما قيل :

اخضع وذل لمن تحـب فليس فى حكم الهوى أنف يشال ويعقد

وقال آخر :

مساكين أهـل الحب ، حتى قبورهم عليها تراب الذل بين المقابـر

**المرتبة الرابعة : ذل المعصية والجناية** : فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع ، كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم ، إذ يذل له خوفا وخشية ، ومحبة وإنابة ، وطاعة ، وفقرا وفاقة .

وحقيقة ذلك : هو الفقر الذى يشير إليه القوم ، وهذا المعنى أجل من أن يسمى بالفقر ، بل هو لب العبودية وسرها . وحصوله أنفع شىء للعبد ، وأحب شىء إلى الله .

فلابد من تقدير لوازمه : من أسباب الضعف ، والحاجة ، وأسباب العبودية والطاعة ، وأسباب المحبة والإنابة ، وأسباب المعصية والمخالفة ، إذ وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع ، والغاية من تقدير عدم هذا الملزوم ولازمه ، مصلحة وجوده خير من مصلحة فوته ، ومفسدة فوته أكبر من مفسدة وجوده ، والحكمة مبناها على دفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما ، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما ، وقد فتح لك الباب ، فإن كنت من أهل المعرفة فادخل ، وإلا فرد الباب وارجع بسلام .

**ومنها** : أن أسماءه الحسنى تقتضى آثارها اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها . فاسم « السميع ، البصير » يقتضى مسموعا ومبصرا ، واسم « الرزاق » يقتضى مرزوقا ، واسم « الرحيم » يقتضى مرحوما ، وكذلك أسماء « الغفور ، والعفو ، والتواب ، والحليم » يقتضى من يغفر له ، ويتوب عليه ، ويعفو عنه ، ويحلم . ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات ؛ إذ هى أسماء حسنى وصفات كمال ، ونعوت جلال ، وأفعال حكمة وإحسان وجود ، فلابد من ظهور آثارها فى العالم . وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حيث يقول : « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، ثم

يستغفرون فيغفر لهم » (١) .

وأنت إذا فرضت الحيوان بجملته معدوما ، فمن يرزق الرزاق سبحانه ؟ وإذا فرضت المعصية والخطيئة منتفية من العالم ، فلمن يغفر ؟ وعمن يعفو ؟ وعلى من يتوب ويحلم ؟ وإذا فرضت الفاقات كلها قد سدت ، والعبيد أغنياء معافون ، فأين السؤال والتضرع والابتهال ؟ والإجابة وشهود الفضل والمنة ، والتخصيص ، بالإنعام والإكرام ؟ (٢)

فسبحان من تعرف إلى خلقه بجميع أنواع التعرفات ، ودلهم عليه بأنواع الدلالات ، وفتح لهم إليه جميع الطرقات ، ثم نصب إليه الصراط المستقيم ، وعرفهم به ودلهم عليه ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ الأنفال ] .

**ومنها** : السر الأعظم ، الذى لا تقتحمه العبارة ، ولا تجسر عليه الإشارة ، ولا ينادى عليه منادى الإيمان على رؤوس الأشهاد ، بل شهدته قلوب خواص العباد ، فازدادت به معرفة لربها ومحبة له ، وطمأنينة به وشوقا إليه ، ولهجا بذكره ، وشهودا لبره ولطفه وكرمه وإحسانه ، ومطالعة لسر العبودية ، وإشرافا على حقيقة الإلهية ، وهو ماثبت فى الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ : « لله أفرح بتوبة عبده ـ حين يتوب إليه ـ من أحدكم ، كان على راحلة بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال ـ من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى ، وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » هذا لفظ مسلم (٣) .

وفى الحديث من قواعد العلم : أن اللفظ الذى يجرى على لسان العبد خطأ من فرح شديد ، أو غيظ شديد ،ونحوه ، لا يؤاخذ به ؛ ولهذا لم يكن هذا كافرا بقوله : « أنت عبدى ، وأنا ربك » .

## فصل

قوله « الثانى : أن يقيم على عبده حجة عدله ، فيعاقبه على ذنبه بحجته » .

اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان . أطاع أم عصى . فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول ، وإنزال الكتاب ، وبلوغ ذلك إليه ، وتمكنه من العلم به .

(١) مسلم (٢٧٤٨ / ٩) فى التوبة ، باب : سقوط الذنوب بالاستغفار .

(٢) وأيضًا لو افترضنا انعدام الحيوان بجملته ، لكان سبحانه وتعالى ولا يزال رازقًا سميعًا بصيرًا عفوًا غفورًا . فهذه أسماؤه وصفاته سبحانه وتعالى من كمال غناه وهو الغنى بذاته .

(٣) مسلم (٢٧٤٧ / ٧) فى التوبة ، باب : فى الحض على التوبة والفرح بها .

سواء علم أو جهل . فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه . فقصر عنه ولم يعرفه . فقد قامت عليه الحجة . والله سبحانه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه . فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه . قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴿١٥﴾ ﴾ [ الإسراء ] وقال : ﴿ **كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ** ﴿٨﴾ **قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ** ﴾ [ الملك ] ،وقال : ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴿١١٧﴾ ﴾ [ هود ] .

وفى الآية قولان :

**أحدهما** : ما كان ليهلكها بظلم منهم .

**الثانى** : ما كان ليهلكها بظلم منه .

والمعنى على القول الأول : ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم ، وهم مصلحون الآن ؛ أى : إنهم بعد أن أصلحوا وتابوا ، لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من الظلم .

وعلى القول الثانى : إنه لم يكن ظالما لهم فى إهلاكهم ، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون ، وإنما أهلكهم وهم ظالمون ، فهم الظالمون لمخالفتهم ، وهو العادل فى إهلاكهم ، والقولان فى آية الأنعام أيضا : ﴿ **ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ** ﴿١٣١﴾ ﴾ [ الأنعام ] .

قيل : لم يكن مهلكهم بظلمهم ، وشركهم وهم غافلون ، لم ينذروا ولم يأتهم رسول .

وقيل : لم يهلكهم قبل التذكير بإرسال الرسول ، فيكون قد ظلمهم ، فإنه ـ سبحانه ـ لا يأخذ أحدا ولا يعاقبه إلا بذنبه ، وإنما يكون مذنبًا إذا خالف أمره ونهيه ، وذلك إنما يعلم بالرسل .

فإذا شاهد العبد القدر السابق بالذنب ، علم أن الله ـ سبحانه ـ قدره سببا مقتضيا لأثره من العقوبة ، كما قدر الطاعة سببا مقتضيا للثواب ، وكذلك تقدير سائر أسباب الخير والشر ، كجعل السم سببا للموت ، والنار سببا للإحراق ، والماء سببا للإغراق .

فإذا أقدم العبد على سبب الهلاك ـ وقد عرف أنه سبب الهلاك ـ فهلك فالحجة مركبة عليه ، والمؤاخذة لازمة له ، كالحريق مثلا . والذنب ، كالنار ، وإتيانه له ، كتقديمه نفسه للنار ، وملاحظة الحكم فيما لا يجدى عليه شيئا ، فإنما الذى يشهده عند قيام الحجة عليه : ملاحظة الأمر ، لا ملاحظة القدر .

فجعل صاحب المنازل هذه اللطيفة من ملاحظة الجناية والقضية ليس بالبين ، بل هو من ملاحظة الجناية والأمر ، لكن مراده : أن سر التقدير أنه قد علم أن هذا العبد لا يصلح إلا للوقود ، كالشوك الذى لا يصلح إلا للنار ، والشجرة تشتمل على الثمر والشوك ، فاقتضى عدله ـ سبحانه ـ أن يسوق هذا العبد إلى مالا يصلح إلا له ، وأن يقيم عليه حجة عدله ، فإن قدر عليه الذنب فواقعه ، فاستحق ما خلق له ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)** ﴾ [ يس ] .

فأخبر ـ سبحانه ـ أن الناس قسمان : حى قابل للانتفاع ، يقبل الإنذار وينتفع به ، وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به ؛ لأن أرضه غير زاكية ولا قابلة لخير البتة ، فيحق عليه القول بالعذاب ، وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه ، لا بمجرد كونه غير قابل للهدى والإيمان ؛ بل لأنه غير قابل ولا فاعل ، وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول ، إذ لو عذبه بكونه غير قابل لقال : لو جاءنى رسول منك لامتثلت أمرك ، فأرسل إليه رسوله، فأمره ونهاه ، فعصى الرسول بكونه غير قابل للهدى ، فعوقب بكونه غير فاعل ، فحق عليه القول : أنه لا يؤمن ولو جاءه الرسول ، كما قال تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣)** ﴾ [ يونس ] وحق عليه العذاب ، كقوله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦)** ﴾ [ غافر ] .

فالكلمة التى حقت كلمتان : كلمة الإضلال ، وكلمة العذاب ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١)** ﴾ [ الزمر ] وكلمته ـ سبحانه ـ إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم ، فحقت عليهم كلمة حجته ، وكلمة عدله بعقوبته .

وحاصل هذا كله : أن الله ـ سبحانه ـ أمر العباد أن يكونوا مع مراده الدينى منهم ، لا مع مراد أنفسهم . فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم ، فاستحقوا كرامته ، وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده ، وعلم ـ سبحانه ـ منهم : أنهم لا يؤثرون مراده البتة ، وإنما يؤثرون أهواءهم ومرادهم ، فأمرهم ونهاهم . فظهر بأمره ونهيه من القدر الذى قدر عليهم من إيثارهم هوى أنفسهم ، ومرادهم على مرضاة ربهم ومراده ، فقامت عليهم بالمعصية حجة عدله ، فعاقبهم بظلمهم .

## فصل

قد ذكرنا أن العبد فى الذنب له نظر إلى خمسة (١) أمور : نظر إلى الأمر والنهى ، ونظر إلى الحكم والقضاء ، وذكرنا ما يتعلق بهذين النظرين (٢) .

النظر الرابع (٣) : النظر إلى محل الجناية ومصدرها . وهو النفس الأمارة بالسوء ، ويفيده نظره إليها أمورا .

**منها** : أن يعرف أنها جاهلة ظالمة ، وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح ، ومن وصفه الجهل والظلم لا مطمع فى استقامته واعتداله البتة ، فيوجب له ذلك بذل الجهد فى العلم النافع الذى يخرجها به عن وصف الجهل ، والعمل الصالح الذى يخرجها به عن وصف الظلم ، ومع هذا فجهلها أكثر من علمها وظلمها أعظم من عدلها .

فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يقيها شرها ، وأن يؤتيها تقواها ويزكيها ، فهو خير من زكاها ، فإنه ربها ومولاها ، وألا يكله إليها طرفة عين ؛ فإنه إن وكله إليها هلك ، فما هلك من هلك إلا حيث وكل إلى نفسه ، وقال النبى ﷺ لحصين بن المنذر : « قل : اللهم ألهمنى رشدى ، وقنى شر نفسى » (٤) وفى خطبة الحاجة : « الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستهديه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » (٥) . وقد قال تعالى : ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [ الحشر ] وقال ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾ [ يوسف : ٥٣ ] .

فمن عرف حقيقة نفسه وما طبعت عليه : علم أنها منبع كل شر ، ومأوى كل سوء ، وأن كل خير فيها ففضل من الله منَّ به عليها ، لم يكن منها ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا** ﴾ [ النور : ٢١ ] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** ⑦ ﴾ [ الحجرات ] ، فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا فى النفس ولا بها ، ولكن هو الله الذى مَنَّ بهما ، فجعل العبد بسببهما من الراشدين ﴿ **فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً** ﴾ [ الحجرات: ٨ ] ، « عليم » بمن يصلح لهذا الفضل ويزكو عليه وبه ، ويثمر عنده ، « حكيم » فلا

---

(١) فى المطبوعة : « أربعة » وهو خطأ .

(٢) كما تقدم ما يتعلق بالنظر الثالث : النظر إلى الوعد والوعيد .

(٣) فى المطبوعة : « الثالث » وهو خطأ .

(٤) الترمذى (٣٤٨٣) فى الدعوات ، باب : (٧٠) ، وقال : « غريب » ، وضعفه الألبانى .

(٥) أبو داود (١٠٩٧) فى الصلاة ، باب : الرجل يخطب على قوس ، وضعفه الألبانى .

يضعه عند غير أهله فيضيعه بوضعه فى غير موضعه .

**ومنها** : ما ذكره صاحب المنازل فقال :

« اللطيفة الثانية : أن يعلم أن نظر البصير الصادق فى سيئته لم يبق له حسنة بحال ؛ لأنه يسير بين مشاهدة المنة ، وتطلب عيب النفس والعمل » .

يريد : أن من له بصيرة بنفسه ، وبصيرة بحقوق الله ، وهو صادق فى طلبه : لم يبق له نظره فى سيئاته البتة ، فلا يلقى الله إلا بالإفلاس المحض ، والفقر الصرف ؛ لأنه إذا فتش عن عيوب نفسه وعيوب عمله علم أنها لا تصلح لله ، وأن تلك البضاعة لا تشترى بها النجاة من عذاب الله ، فضلا عن الفوز بعظيم ثواب الله ، فإن خلص له عمل وحال مع الله ، وصفا له معه وقت شاهد منة الله عليه به ، ومجرد فضله ، وأنه ليس من نفسه ، ولا هى أهل لذاك، فهو دائما مشاهد لمنة الله عليه ، ولعيوب نفسه وعمله ؛ لأنه متى تطلبها رآها .

وهذا من أجلّ أنواع المعارف وأنفعها للعبد ؛ ولذلك كان سيد الاستغفار : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى ، فاغفر لى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » (١) .

فتضمن هذا الاستغفار : الاعتراف من العبد بربوبية الله ، وإلهيته وتوحيده ، والاعتراف بأنه خالقه ، العالم به . إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه ، والاعتراف بأنه عبده الذى ناصيته بيده وفى قبضته ، لا مهرب له منه ، ولا ولى له سواه ، ثم التزام الدخول تحت عهده ـ وهو أمره ونهيه ـ الذى عهده إليه على لسان رسوله ، وأن ذلك بحسب استطاعتى ، لا بحسب أداء حقك ، فإنه غير مقدور للبشر ، وإنما هو جهد المقل ، وقدر الطاقة ؛ ومع ذلك فأنا مصدق بوعدك الذى وعدته لأهل طاعتك بالثواب ، ولأهل معصيتك بالعقاب ، فأنا مقيم على عهدك ، مصدق بوعدك ، ثم أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شر ما فرطت فيه من أمرك ونهيك ، فإنك إن لم تُعِذْنى من شره ، وإلا أحاطت بى الهلكة ، فإن إضاعة حقك سبب الهلاك ، وأنا أقر لك وألتزم بنعمتك على ، وأقر وألتزم وأبخع بذنبى ، فمنك النعمة والإحسان والفضل ، ومنى الذنب والإساءة ، فأسألك أن تغفر لى بمحو ذنبى ، وأن تعفينى من شره ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

فلهذا كان هذا الدعاء سيد الاستغفار . وهو متضمن لمحض العبودية ، فأى حسنة

(١) البخارى (٦٣٠٦) فى الدعوات ، باب : أفضل الاستغفار .

تبقى للبصير الصادق ، مع مشاهدته عيوب نفسه وعمله ، ومنة الله عليه ؟ فهذا الذى يعطيه نظره إلى نفسه ونقصه .

## فصل

النظر الخامس (١) : نظرة إلى الآمر له بالمعصية ، المزين له فعلها ، الحاض له عليها ، وهو شيطانه الموكل به .

فيفيده النظر إليه ، وملاحظته : اتخاذه عدوا ، وكمال الاحتراز منه ، والتحفظ واليقظة ، والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لا يشعر ؛ فإنه يريد أن يظفر به فى عقبه من سبع عقبات ، بعضها أصعب من بعض ، لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى مادونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها :

**العقبة الأولى** : عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه ، وبصفات كماله ، وبما أخبرت به رسله عنه ، فإنه إن ظفر به فى هذه العقبة بردت نار عداوته واستراح ، فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية ، وسلم معه نور الإيمان طلبه على :

**العقبة الثانية** : وهى عقبة البدعة ، إما باعتقاد خلاف الحق الذى أرسل الله به رسوله ، وأنزل به كتابه ، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله : من الأوضاع والرسوم المحدثة فى الدين ، التى لا يقبل الله منها شيئا . والبدعتان فى الغالب متلازمتان ، قل أن تنفك إحداهما عن الأخرى ، كما قال بعضهم : تزوجت بدعة الأقوال ببدعة الأعمال ، فاشتغل الزوجان بالعرس ، فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيثون فى بلاد الإسلام ، تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى .

وقال شيخنا : تزوجت الحقيقة الكافرة بالبدعة الفاجرة ، فتولد بينهما خسران الدنيا والآخرة .

فإن قطع هذه العقبة ، وخلص منها بنور السنة ، واعتصم منها بحقيقة المتابعة ، وما مضى عليه السلف الأخيار ، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب ، فإن سمحت به نصب له أهل البدع الحبائل ، وبغوه الغوائل ، وقالوا : مبتدع محدث .

فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة طلبه على :

---

(١) فى المطبوعة : « الرابع » وهو خطأ .

**العقبة الثالثة** : وهى عقبة الكبائر ، فإن ظفر به فيها زينها له ، وحسنها فى عينه ، وسوَّف به ، وفتح له باب الإرجاء ، وقال له : الإيمان هو نفس التصديق ، فلا تقدح فيه الأعمال ، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق ، وهى قوله : « لا يَضرُّ مع التوحيد ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك حسنة » ، والظفر به فى عقبة البدعة أحب إليه ؛ لمناقضتها الدين ، ودفعها لما بعث الله به رسوله ، وصاحبها لا يتوب منها ، ولا يرجع عنها ، بل يدعو الخلق إليها ، ولتضمنها القول على الله بلا علم ، ومعاداة صريح السنة ، ومعاداة أهلها ، والاجتهاد على إطفاء نور السنة ، وتولية من عزله الله ورسوله ، وعزل من ولاه الله ورسوله ، واعتبار ما رده الله ورسوله ، ورد ما اعتبره ، وموالاة من عاداه ، ومعاداة من والاه ، وإثبات مانفاه ، ونفى ماأثبته . وتكذيب الصادق ، وتصديق الكاذب ، ومعارضة الحق بالباطل ، وقلب الحقائق ، بجعل الحق باطلا ، والباطل حقا ، والإلحاد فى دين الله ، وتعمية الحق على القلوب ، وطلب العوج لصراط الله المستقيم ، وفتح باب تبديل الدين جملة .

فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها ، حتى ينسلخ صاحبها من الدين ، كما تنسل الشعرة من العجين . فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر ، والعميان ضالون فى ظلمة العمى ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ النور ] .

فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله ، أو بتوبة نصوح تنجيه منها ، طلبه على :

**العقبة الرابعة** : وهى عقبة الصغائر ، فكال له منها بالقفزان ، وقال : ماعليك إذا اجتنبت الكبائر ماغشيت من اللمم ، أو ماعلمت بأنها تكفر باجتناب الكبائر وبالحسنات ، ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يصر عليها ، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالا منه ، فالإصرار على الذنب أقبح منه ، ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار . وقد قال ﷺ : « إياكم ومحقرات الذنوب » ، ثم ضرب لذلك مثلا بقوم نزلوا بفلاة من الأرض ، فأعوزهم الحطب ، فجعل هذا يجىء بعود ، وهذا بعود ، حتى جمعوا حطبا كثيرا ، فأوقدوا نارا ، وأنضجوا خبزتهم ، فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه [١] .

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ ، ودوام التوبة والاستغفار ، وأتبع السيئة الحسنة ، طلبه على :

---

(١) أحمد (٥ / ٣٣١) ، وذكره الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (١١ / ٣٢٩) فى كتاب الرقاق ، باب ما يتقى من محقرات الذنوب ، وقال : « أخرجه أحمد بسند حسن » .

**العقبة الخامسة** : وهى عقبة المباحات التى لا حرج على فاعلها ، فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات ، وعن الاجتهاد فى التزود لمعاده ، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن ، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات ، وأقل ماينال منه : تقويته الأرباح ، والمكاسب العظيمة . والمنازل العالية . ولو عرف السعر لما فوت على نفسه شيئا من القربات ، ولكنه جاهل بالسعر .

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد ، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها ، وقلة المقام على الميناء ، وخطر التجارة ، وكرم المشترى ، وقدر مايعوض به التاجر ، فبخل بأوقاته ، وضن بأنفاسه أن تذهب فى غير ربح ، طلبه العدو على :

**العقبة السادسة** : وهى عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات ، فأمره بها ، وحسنها فى عينه ، وزينها له ، وأراه مافيها من الفضل والربح ، ليشغله بها عما هو أفضل منها ، وأعظم كسبا وربحا ؛ لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب ، طمع فى تخسيره كماله وفضله ، ودرجاته العالية . فشغله بالمفضول عن الفاضل ، وبالمرجوح عن الراجح ، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه ، وبالمرضى عن الأرضى له .

ولكن أين صاحب هذه العقبة ؟ فهم الأفراد فى العالم ، والأكثرون قد ظفر بهم فى العقبات الأول .

فإن نجا منها بفقه فى الأعمال ومراتبها عند الله ، ومنازلها فى الفضل ، ومعرفة مقاديرها ، والتميز بين عاليها وسافلها ، ومفضولها وفاضلها ، ورئيسها ومرؤوسها وسيدها ومسودها ، فإن فى الأعمال والأقوال سيدا ومسودا ، ورئيسا ومرؤوسا وذروة وما دونها ، كما فى الحديث الصحيح : « سيد الاستغفار : أن يقول العبد : اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت » الحديث (١) ، وفى الحديث الآخر : « الجهاد ذروة سنام الأمر » (٢) وفى الأثر الآخر : « إن الأعمال تفاخرت ، فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله ، وكان للصدقة مزية فى الفخر عليهن » ، ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولى العلم ، السائرين على جادة التوفيق ، قد أنزلوا الأعمال منازلها ، وأعطوا كل ذى حق حقه .

فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لابد منها ، ولو نجا منها أحد لنجا منها رسول الله وأنبياؤه ، وأكرم الخلق عليه ، وهى عقبة تسليط جنده عليه بأنواع

---

(١) سبق تخريجه ص ٣٣ .

(٢) الترمذى (٢٦١٦) فى الإيمان ، باب : ماجاء فى حرمة الصلاة ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٣٩٧٣) فى الفتن ، باب : كف اللسان فى الفتنة .

الأذى ، باليد واللسان والقلب ، على حسب مرتبته فى الخير ، فكلما علت علمت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله ، وظاهر عليه بجنده ، وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط ، وهذه العقبة لاحيلة له فى التخلص منها ، فإنه كلما جد فى الاستقامة والدعوة إلى الله ، والقيام له بأمره ، جد العدو فى إغراء السفهاء به ، فهو فى هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب ، وأخذ فى محاربة العدو لله وبالله ، فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين ، وهى تسمى عبودية المراغمة ، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة ، ولا شىء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه ، وإغاظته له ، وقد أشار ـ سبحانه ـ إلى هذه العبودية فى مواضع من كتابه :

أحدها قوله : ﴿ **وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً** ﴾ [ النساء : ١٠٠ ] سمى المهاجر الذى يهاجر إلى عبادة الله مراغما ، يراغم به عدو الله وعدوه ، والله يحب من وليه مراغمة عدوه ، وإغاظته ، كما قال تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠)** ﴾ [ التوبة ] وقال تعالى فى مثل رسول الله ﷺ وأتباعه : ﴿ **وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ** ﴾ [ الفتح : ٢٩ ] ، فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له ، فموافقته فيها من كمال العبودية . وشرع النبى ﷺ للمصلى إذا سها فى صلاته سجدتين ، وقال : « إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان » (١) وفى رواية : « ترغيما للشيطان » (٢) وسماها : « المرغمتين » .

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه ، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر ، وعلى قدر محبة العبد لربه وموالاته ومعاداته لعدوه ، يكون نصيبه من هذه المراغمة ، ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين والخيلاء ، والتبختر عند صدقة السر ، حيث لا يراه إلا الله ؛ لما فى ذلك من إرغام العدو ، وبذل محبوبه من نفسه وماله لله عز وجل .

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس ، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول .

وبالله المستعان ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان ، ولاحظه فى الذنب ، راغمه بالتوبة النصوح ، فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى .

---

(١، ٢) مسلم (٥٧١ / ٨٨) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : السهو فى الصلاة والسجود له ، وأبو داود (١٠٢٤) فى الصلاة ، باب : إذا صلى خمسا ، وابن ماجه (١٢١٠) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : ماجاء فيمن شك فى صلاته فرجع إلى اليقين .

فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار « التوبة » لا تستهزئ بها ، فلعلك لا تظفر بها فى مصنف آخر البتة ، ولله الحمد والمنة ، وبه التوفيق .

## فصل
## فى تصحيح الفهم للتوبة

قال صاحب المنازل : « اللطيفة الثالثة : أن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة ؛ لصعوده من جميع المعانى إلى معنى الحكم » .

هذا الكلام ـ إن أخذ على ظاهره ـ فهو من أبطل الباطل ، الذى لولا إحسان الظن بصاحبه وقائله ، ومعرفة قدره من الإمامة والعلم والدين ، لنسب إلى لازم هذا الكلام ، ولكن من عدا المعصوم ﷺ فمأخوذ من قوله ومتروك ، ومن ذا الذى لم تزل به القدم ، ولم يكب به الجواد (١).

ومعنى هذا : أن العبد مادام فى مقام التفرقة ، فإنه يستحسن بعض الأفعال . ويستقبح بعضها ، نظرا إلى ذواتها وما افترقت فيه ، فإذا تجاوزها نظر إلى مصدرها الأول ، وصدورها عن عين الحكم ، واجتماعها كلها فى تلك العين ، وانسحاب ذيل المشيئة عليها ، ووحدة المصدر، وهو المشيئة الشاملة العامة الموجبة فهى بالنسبة إلى مصدر الحكم وعين المشيئة ، لا توصف بحسن ولا قبح ؛ إذ الحسن والقبح إنما عرضا لها عند قيامها بالكون ، وجريانها عليه ، فهى بمنزلة نور الشمس واحد فى نفسه غير متلون. ولا يوصف بحمرة ولا صفرة ولا خضرة. فإذا اتصل بالمحال المتلونة وصف حينئذ بحسب تلك المحال ؛ لإضافته إليها،واتصاله بها،فيرى أحمر وأصفر وأخضر. وهو برىء من ذلك كله ، إذا صعد من تلك المحال إلى مصدره الأول ، المجرد عن القوابل. فهذا أحسن مايحمل عليه كلامه .

على أن له محملا آخر مبنيا على أصول فاسدة ؛ وهى أن إرادة الرب تعالى هى عين محبته ورضاه ، فكل ماشاءه فقد أحبه ورضيه ،وكل ما لم يشأه فهو مسخوط له مبغوض ، فالمبغوض المسخوط هو مالم يشأه ، والمحبوب المرضى هو ماشاءه .

هذا أصل عقيدة القدرية الجبرية ، المنكرين للحكم والتعليل والأسباب ، وتحسين العقل وتقبيحه ، وأن الأفعال كلها سواء ، لا يختص بعضها بما صار حسنا لأجله ، وبعضها بما صار قبيحا لأجله ، ويجوز فى العقل أن يأمر بما نهى عنه، وينهى عما أمر به ، ولا

---

(١) هذا الإنكار على المؤلف من باب إنكار الإمام أحمد رضي الله عنه ، على بعض كلام المحاسبى رحمه الله تعالى حين سمعه ، ولعل هذا وذاك من الاحتياط فى فهم الدين فهمًا يخرجه إلى التكلف والتنطع فى الفهم والمشقة فى التكليف ، ولهذا يجب أن نقف فى فهم الشرع على حدود الشرع .

وانظر من ص (٥٥) عند قول ابن القيم : والواجب . . . إلخ .

يكون ذلك مناقضا للحكمة ؛إذ الحكمة ترجع عندهم إلى مطابقة العلم الأزلى لمعلومه ، والإرادة الأزلية لمرادها ، والقدرة لمقدورها .

فإذا : الأفعال بالنسبة إلى المشيئة والإرادة مستوية ، لا توصف بحسن ولا قبح . فإذا تعلق بها الأمر والنهى صارت حينئذ حسنة وقبيحة ، وليس حسنها وقبيحها أمرا زائدا على كونها مأمورا بها ومنهيا عنها . فعلى هذا إذا صعد العبد من تفرقة الأمر والنهى إلى جمع المشيئة والحكم ، لم يستحسن حسنة ، ولم يستقبح قبيحة ، فإذا نزل فرق الأمر؛ صح له الاستحسان والاستقباح .

فهذا محمل ثان لكلامه .

وله محمل ثالث ـ هو أبعد الناس منه ، ولكن قد حمل عليه ـ وهو أن السالك مادام محجوبا عن شهود الحقيقة بشهود الطاعة والمعصية ، رأى الأفعال بعين الحسن والقبح ، فرأى منها الطاعة والمعصية ، فإذا ترقى إلى شهود الحقيقة الأولى ، وهى الحقيقة الكونية ، ورأى شمول الحكم الكونى للكائنات وإحاطته بها ، وعدم خروج ذرة منها عنه ، زال عنه استقباح شيء من الأفعال ، وشهدها كلها طاعات للأقدار والمشيئة . وفى مثل هذا الحال يقول : إن كنت عصيت الأمر ، فقد أطعت الإرادة ، ويقول :

أصبحت منفعلا لما تختاره ... منى ففعلى كله طاعات

فإذا ترقى مرتبة أخرى ، وزال عنه الفرق بين الرب والعبد ـ كما زال عنه فى المرتبة الثانية : الفرق بين المحبوب والمسخوط ، والمأمور والمحظور ـ قال : ما ثم طاعة ، ولا معصية؛ إذ الطاعة والمعصية إنما يكونان بين اثنين ضرورة ، والمطيع عين المطاع ، فما ههنا غير . فالوحدة المطلقة تنفى الطاعة والمعصية ، فالصعود من وحدة الفعل إلى وحدة الوجود ، يزيل عنه ـ بزعمه ـ توهم الانقسام إلى طاعة ومعصية ، كما كان الصعود من تفرقة الأمر إلى وحدة الحكم ، يزيل عنه ثبوت المعصية .

وهذا عند القوم من الأسرار التى لا يستجيزون كشفها إلا لخواصهم . وأهل الوصول منهم .

لكن صاحب المنازل برىء من هؤلاء وطريقتهم ، وهو مكفر لهم ، بل مخرج لهم من جملة الأديان ، ولكن ذكرنا ذلك ؛ لأنهم يحملون كلامه عليه ، ويظنونه منهم [1] .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٠٤ ـ ٢٠٩ ، ٢١٧ ـ ٢٢٩) .

# فصل
## ومن لطائف أسرار التوبة أيضا

أن مشاهدة حكمة الله فى أقضيته وأقداره التى يجريها على عباده باختياراتهم وإراداتهم ، هى من ألطف ماتكلم فيه الناس وأدقه وأغمضه ، وفى ذلك حكم لا يعلمها إلا الحكيم العليم سبحانه ، ونحن نشير إلى بعضها :

**فمنها** : أنه ـ سبحانه ـ يحب التوابين ، حتى إنه من محبته لهم يفرح بتوبة أحدهم أعظم من فرح الواحد براحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض الدوية المهلكة إذا فقدها وأيس منها [(١)] وليس فى أنواع الفرح أكمل ولا أعظم من هذا الفرح ، ولولا المحبة التامة للتوبة ولأهلها لم يحصل هذا الفرح .

ومن المعلوم أن وجود المسبب بدون سببه ممتنع ، وهل يوجد ملزوم بدون لازمه ، أو غاية بدون وسيلتها ؟ وهذا معنى قول بعض العارفين : ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم المخلوقات عليه . فالتوبة هى غاية كمال كل آدمى ، وإنما كان كمال أبيهم بها ، فكم بين حالة وقد قيل له : ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ (١١٩)** ﴾ [ طه ] ، وبين قوله : ﴿ **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)** ﴾ [ طه ]، فالحال الأولى حال أكل وشرب وتمتع ، والحال الأخرى حال اجتباء واصطفاء وهداية ، فيا بعد ما بينهما . ولما كان كماله بالتوبة كان كمال بنيه أيضا بها ، كما قال تعالى : ﴿ **لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ [ الأحزاب : ٧٣ ] ، فكمال الآدمى فى هذه الدار بالتوبة النصوح ، وفى الآخرة بالنجاة من النار ودخول الجنة ، وهذا الكمال مرتب على كماله الأول . والمقصود : أنه ـ سبحانه ـ لمحبته التوبة وفرحه بها يقضى على عبده بالذنب ، ثم إن كان ممن سبقت له الحسنى قضى له بالتوبة ، وإن كان ممن غلبت عليه شقاوته أقام عليه حجة عدله وعاقبه بذنبه .

**ومنها** : أنه ـ سبحانه ـ يجب أن يتفضل عليهم ، ويتم عليهم نعمه ، ويريهم مواقع بره وكرمه ، فلمحبته الإفضال والإنعام ينوعه عليهم أعظم الأنواع ، وأكثرها فى سائر الوجوه الظاهرة والباطنة . ومن أعظم أنواع الإحسان والبر أن يحسن إلى من أساء ، ويعفو عمن ظلم ، ويغفر لمن أذنب ، ويتوب على من تاب إليه ، ويقبل عذر من اعتذر إليه .

---

(١) سبق تخريجه ص٢٩ .

وقد ندب عباده إلى هذه الشيم الفاضلة والأفعال الحميدة ، وهو أولى بها منهم وأحق ، وكان له فى تقدير أسبابها من الحكم والعواقب الحميدة ما يبهر العقول ، فسبحانه وبحمده.

وحكى بعض العارفين أنه قال: طفت فى ليلة مطيرة شديدة الظلمة ، وقد خلا الطواف وطابت نفسى، فوقفت عند الملتزم ، ودعوت الله فقلت : اللهم اعصمنى حتى لا أعصيك. فهتف بى هاتف: أنت تسألنى العصمة، وكل عبادى يسألونى العصمة، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل ، ولمن أغفر ؟ قال : فبقيت ليلتى إلى الصباح أستغفر الله ؛ حياء منه .

هذا ولو شاء الله عز وجل ألا يعصى فى الأرض طرفة عين لم يعص ، ولكن اقتضت مشيئته ماهو موجب حكمته سبحانه ، فمن أجهل بالله ممن يقول : إنه يعصى قسرا بغير اختياره ومشيئته ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا .

**ومنها** : أنه ـ سبحانه ـ له الأسماء الحسنى ، ولكل اسم من أسمائه أثر من الآثار فى الخلق والأمر لابد من ترتبه عليه ، كترتب المرزوق والرزق على الرازق ، وترتب المرحوم وأسباب الرحمة على الراحم ، وترتب المرئيات والمسموعات على السميع والبصير ، ونظائر ذلك فى جميع الأسماء . فلو لم يكن فى عباده من يخطئ ويذنب ليتوب عليه ويغفر له ويعفو عنه ، لم يظهر أثر أسمائه الغفور والعفو والحليم والتواب وما جرى مجراها ، وظهور أثر هذه الأسماء ومتعلقاتها فى الخليقة كظهور آثار سائر الأسماء الحسنى ومتعلقاتها، فكما أن اسمه الخالق يقتضى مخلوقا ، والبارئ يقتضى مبروءًا، والمصور يقتضى مصورا ولابد ، فأسماؤه الغفار التواب تقتضى مغفورًا له ما يغفره له ، وكذلك من يتوب عليه وأمورا يتوب عليه من أجلها ، ومن يحلم عنه ويعفو عنه وما يكون متعلق الحلم والعفو ، فإن هذه الأمور متعلقة بالغير ومعانيها مستلزمة لمتعلقاتها . وهذا باب أوسع من أن يدرك ، واللبيب يكتفى منه باليسير ، وغليظ الحجاب فى واد ونحن فى واد :

وإن كان أثل الواد يجمع بيننا فغير خفى شيحه من خزامه

فتأمل ظهور هذين الاسمين : اسم الرزاق واسم الغفار فى الخليقة ترى ما يعجب العقول ، وتأمل آثارهما حق التأمل فى أعظم مجامع الخليقة ، وانظر كيف وسعهم رزقه ومغفرته ، ولولا ذلك لما كان له من قيام أصلا ، فلكل منهم نصيب من الرزق والمغفرة ، فإما متصلا بنشأته الثانية ، وإما مختصا بهذه النشأة .

**ومنها** : أنه ـ سبحانه ـ يعرف عباده عزه فى قضائه ، وقدره ونفوذ مشيئته وجريان حكمته ، وأنه لا محيص للعبد عما قضاه عليه ، ولا مفر له منه ، بل هو فى قبضة مالكه وسيده ، وأنه عبده ، وابن عبده ، وابن أمته ، ناصيته بيده ، ماض فيه حكمه ، عدل فيه

قضاؤه .

**ومنها** : أنه يعرف العبد حاجته إلى حفظه له ومعونته وصيانته ، وأنه كالوليد الطفل فى حاجته إلى من يحفظه ويصونه ، فإن لم يحفظه مولاه الحق ويصونه ويعينه فهو هالك ولابد ، وقد مدت الشياطين أيديها إليه من كل جانب تريد تمزيق حاله كله ، إفساد شأنه كله ، وأن مولاه وسيده إن وكله إلى نفسه وكله إلى ضيعة وعجز وذنب وخطيئة وتفريط ، فهلاكه أدنى إليه من شراك نعله . فقد أجمع العلماء بالله على أن التوفيق ألا يكل الله العبد إلى نفسه ، وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلى بينه وبين نفسه .

**ومنها** : أنه ـ سبحانه ـ يستجلب من عبده بذلك ما هو من أعظم أسباب السعادة له من استعاذته واستعانته به من شر نفسه ، وكيد عدوه ، ومن أنواع الدعاء والتضرع والابتهال والإنابة والفاقة والمحبة والرجاء والخوف ، وأنواع من كمالات العبد تبلغ نحو المائة ، ومنها مالاتدركه العبارة ، وإنما يدرك بوجوده ، فيحصل للروح بذلك قرب خاص لم يكن يحصل بدون هذه الأسباب ، ويجد العبد من نفسه كأنه ملقى على باب مولاه بعد أن كان نائيا عنه ، وهذا الذى أثمر له أن الله يحب التوابين وهو ثمرة « لله أفرح بتوبة عبده » ، وأسرار هذا الوجه يضيق عنها القلب واللسان ، فكم بين عبادة يدل صاحبها على ربه بعبادته شامخ بأنفه ، كلما طلب منه أوصاف العبد قامت صور تلك الأعمال فى نفسه فحجبته عن معبوده وإلهه ، وبين عبادة من قد كسر الذل قلبه كل الكسر وأحرق ما فيه من الرعونات والحماقات والخيالات ، فهو لا يرى نفسه إلا مسيئا ، كما لا يرى ربه إلا محسنا ، فهو لا يرضى أن يرى نفسه طرفة عين قد كسر ازدراؤه على نفسه قلبه وذلل لسانه وجوارحه ، وطأطأ منه ما ارتفع من غيره ، فقلبه واقف بين يدى ربه وقوف ناكس الرأس ، خاشع خاضع غاض البصر ، خاشع الصوت ، هادئ الحركات ، قد سجد بين يديه سجدة إلى الممات ، فلو لم يكن من ثمرة ذلك القضاء والقدر إلا هذا وحده لكفى به حكمة والله المستعان .

**ومنها** : أنه ـ سبحانه ـ يستخرج بذلك من عبده تمام عبوديته ، فإن تمام العبودية هو بتكميل مقام الذل والانقياد ، وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلا لله وانقيادا وطاعة ، والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذل ؛ فهو ذليل لعزه ، وذليل لقهره ، وذليل لربوبيته فيه وتصرفه ، وذليل لإحسانه إليه وإنعامه عليه ، فإن من أحسن إليك فقد استعبدك وصار قلبك معبدا له ، وذليلا تعبد له لحاجته إليه على مدى الأنفاس فى جلب كل ما ينفعه ، ودفع كل ما يضره ، وهنا نوعان من أنواع التذلل والتعبد لهما أثر عجيب ، يقتضيان من صاحبهما من الطاعة والفوز مالا يقتضيه غيرهما :

**أحدهما** : ذل المحبة وهو خاصة المحبة ولبها ، بل روحها وقوامها وحقيقتها ، وهو المراد على الحقيقة من العبد لو فطن ، وهذا يستخرج من قلب المحب من أنواع التقرب ، والتودد ، والتملق ، والإيثار ، والرضا ، والحمد ، والشكر ، والصبر ، والتندم ، وتحمل العظائم ، مالا يستخرجه الخوف وحده ، ولا الرجاء وحده ، كما قال بعض الصحابة إنه ليستخرج محبته من قلبى من طاعته مالا يستخرجه خوفه ، أو كما قال ، فهذا ذل المحبين .

**الثانى** : ذل المعصية ، فإذا انضاف هذا إلى هذا هناك فنيت الرسوم ، وتلاشت الأنفس ، واضمحلت القوى ، وبطلت الدعاوى جملة ، وذهبت الرعونات ، وطاحت الشطحانات ، ومحى من القلب واللسان أنا وأنا ، واستراح المسكين من شكاوى الصدود والإعراض والهجر ، وتجرد الشهودان ، فلم يبق إلا شهود العز والجلال ، الشهود المحض الذى تفرد به ذو الجلال والإكرام ، الذى لا يشاركه أحد من خلقه فى ذرة من ذراته ، وشهود الذل والفقر المحض من جميع الوجوه بكل اعتبار ، فيشهد غاية ذله وانكساره ، وعزة محبوبه وجلاله وعظمته وقدرته وغناه ، فإذا تجرد له هذان الشهودان ولم يبق ذرة من ذرات الذل والفقر والضرورة إلى ربه إلا شاهدها فيه بالفعل ، وقد شهد مقابلها هناك ، فلله أى مقام أقيم فيه هذا القلب إذ ذاك ، وأى قرب حظى به ، وأى نعيم أدركه ، وأى روح باشره . فتأمل الآن موقع الكسرة التى حصلت له بالمعصية فى هذا الموطن ما أعجبها ، وما أعظم موقعها ، كيف جاءت فمحقت من نفسه الدعاوى والرعونات وأنواع الأمانى الباطلة ، ثم أوجبت له الحياء والخجل من صالح ماعمل ، ثم أوجبت له استكثار قليل مايرد عليه من ربه ، لعلمه بأن قدره أصغر من ذلك ، وأنه لا يستحقه ، واستقلال أمثال الجبال من عمله الصالح بأن سيئاته وذنوبه تحتاج من المكفرات والماحيات إلى أعظم من هذا ، فهو لا يزال محسنا وعند نفسه المسىء المذنب ، متكسرا ذللا خاضعا ، لا يرتفع له رأس ، ولا يقام له صدر ، وإنما ساقه إلى هذا الذل ، والذى أورثه إياه مباشرة الذائب ، فأى شىء أنفع له من هذا الدواء .

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل

ونكتة هذا الوجه : أن العبد متى شهد صلاحه واستقامته شمخ بأنفه ، وتعاظمت نفسه ، وظن أنه وأنه ، أى عظيما ، فإذا ابتلى بالذنب تصاغرت إليه نفسه وذل وخضع ، وتيقن أنه وأنه ، أى عبدا ذليلا .

**ومنها** : أن العبد يعرف حقيقة نفسه ، وأنها الظالمة ، وأن ما صدر منها من شر فقد

صدر من أهله ومعدنه ، إذ الجهل والظلم منبع الشر كله ، وأن كل مافيها من خير وعلم وهدى وإنابة وتقوى فهو من ربها تعالى ، هو الذى زكاها به ، وأعطاها إياه لا منها ، فإذا لم يشأ تزكية العبد تركه مع دواعى ظلمه وجهله ، فهو تعالى الذى يزكى من يشاء من النفوس فتزكو ، وتأتى بأنواع الخير والبر ، ويترك تزكية من يشاء منها فتأتى بأنواع الشر والخبث . وكان من دعاء النبى ﷺ : « اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » (١) . فإذا ابتلى الله العبد بالذنب عرف نفسه ونقصها فرتب له على ذلك التعريف حكم ومصالح عديدة ؛ منها : أنه يأنف من نقصها ويجتهد فى كمالها ، ومنها : أنه يعلم فقرها دائما إلى من يتولاها ويحفظها ، ومنها : أنه يستريح ويريح العباد من الرعونات والحماقات التى ادعاها أهل الجهل فى أنفسهم من قدم أو اتصال بالقديم أو اتحاد به أو حلول فيه أو غير ذلك من المحالات ، فلولا أن هؤلاء غاب عنهم شهودهم لنقص أنفسهم وحقيقتها ، لم يقعوا فيما وقعوا فيه .

**ومنها** : تعريفه ـ سبحانه ـ عبده سعة حلمه وكرمه فى ستره عليه ، وأنه لو شاء لعاجله على الذنب ولهتكه بين عباده ، فلم يطب له معهم عيش أبدا ، ولكن جلله بستره ، وغشاه بحلمه ، وقيض له من يحفظه وهو فى حالته تلك ، بل كان شاهدا وهو يبارزه بالمعاصى والآثام ، وهو مع ذلك يحرسه بعينه التى لاتنام ، وقد جاء فى بعض الآثار : « يقول الله تعالى : أنا الجواد الكريم ، من أعظم منى جودا وكرما ، عبادى يبارزوننى بالعظائم وأنا أكلوهم فى منازلهم » ، فأى حلم أعظم من هذا الحلم ، وأى كرم أوسع من هذا الكرم ، فلولا حلمه وكرمه ومغفرته لما استقرت السموات والأرض فى أماكنها ،وتأمل قوله تعالى : **﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ ﴾** الآية [فاطر : ٤١ ] ، هذه الآية تقتضى الحلم والمغفرة ، فلولا حلمه ومغفرته لزالتا عن أماكنهما ، ومن هذا قوله : **﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) ﴾** [ مريم ] .

**ومنها** : تعريفه عبده أنه لا سبيل له إلى النجاة إلا بعفوه ومغفرته ، وأنه رهين بحقه ، فإن لم يتغمده بعفوه ومغفرته وإلا فهو من الهالكين لا محالة ، فليس أحد من خلقه إلا وهو محتاج إلى عفوه ومغفرته ، كما هو محتاج إلى فضله ورحمته .

**ومنها** : تعريفه عبده كرمه ـ سبحانه ـ فى قبول توبته ومغفرته له على ظلمه وإساءته ،

---

(١) مسلم (٢٧٢٢ / ٧٣) فى الذكر والدعاء ، والتوبة والاستغفار ، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر مالم يعمل ، وأحمد (٤ / ٣٧١) .

فهو الذى جاد عليه بأن وفقه للتوبة وألهمه إياها ، ثم قبلها منه فتاب عليه أولا وآخرا ، فتوبة العبد محفوفة بتوبة قبلها عليه من الله إذنا وتوفيقا ، وتوبة ثانية منه عليه قبولا ورضا ، فله الفضل فى التوبة والكرم أولا وآخرا ، لا إله إلا هو .

ومنها : إقامة حجة عدله على عبده ؛ ليعلم العبد أن لله عليه الحجة البالغة ، فإذا أصابه ما أصابه من المكروه فلا يقال : من أين هذا ؟ ولا من أين أتيت ؟ ولا بأى ذنب أصبت ؟ فما أصاب العبد من مصيبة قط دقيقة ولا جليلة إلا بما كسبت يداه ، وما يعفو الله عنه أكثر ، وما نزل بلاء قط إلا بذنب ، ولا رفع بلاء إلا بتوبة ؛ ولهذا وضع الله المصائب والبلايا والمحن رحمة بين عباده ، يكفر بها من خطاياهم ، فهى من أعظم نعمه عليهم وإن كرهتها أنفسهم ، ولا يدرى العبد أى النعمتين عليه أعظم ؛ نعمته عليه فيما يكره ، أو نعمته عليه فيما يحب ، وما يصيب المؤمن من هم ولا وصب ولا أذى حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياه ، وإذا كان للذنوب عقوبات ولابد ، فكل ما عوقب به العبد من ذلك قبل الموت خير له مما بعده ، وأيسر وأسهل بكثير .

**ومنها** : أن يعامل العبد بنى جنسه فى إساءتهم إليه وزلاتهم معه بما يحب أن يعامله الله به فى إساءته وزلاته وذنوبه ، فإن الجزاء من جنس العمل ، فمن عفا عفا الله عنه ، ومن سامح أخاه فى إساءته إليه سامحه الله فى سيئاته ، ومن أغضى وتجاوز تجاوز الله عنه ، ومن استقصى استقصى عليه . ولا تنس حال الذى قبضت الملائكة روحه فقيل له : هل عملت خيرا ؟ هل عملت حسنة ؟ قال : ما أعلمه ، قيل : تذكر ، قال : كنت أبايع الناس، فكنت أنظر الموسر ، وأتجاوز عن المعسر ، أو قال : كنت آمر فتيانى أن يتجاوزوا فى السكة ، فقال الله : نحن أحق بذلك منك (١) ، وتجاوز الله عنه ، فالله عز وجل يعامل العبد فى ذنوبه بمثل ما يعامل به العبد الناس فى ذنوبهم ، فإذا عرف العبد ذلك كان فى ابتلائه بالذنوب من الحكم والفوائد ماهو أنفع الأشياء له .

**ومنها** : أنه إذا عرف هذا فأحسن إلى من أساء اليه ولم يقابله بإساءته إساءة مثلها ، تعرض بذلك لمثلها من ربه تعالى ، وأنه ـ سبحانه ـ يقابل إساءته وذنوبه بإحسانه ، كما كان هو يقابل بذلك إساءة الخلق إليه ، والله أوسع فضلا وأكرم وأجزل عطاء ، فمن أحب أن يقابل الله إساءته بالإحسان فليقابل هو إساءة الناس إليه بالإحسان ، ومن علم أن الذنوب والإساءة لازمة للإنسان لم تعظم عنده إساءة الناس إليه ، فليتأمل هو حاله مع الله كيف هى مع فرط إحسانه إليه ، وحاجته هو إلى ربه ، وهو هكذا له ، فإذا كان العبد هكذا

(١) الحديث رواه الإمام مسلم بطرقه (١٥٦٠ /٢٦ ـ ٢٩ )،و ( ١٥٦١/ ٣٠) فى المساقاة ، باب: فضل إنظار المعسر.

لربه فكيف ينكر أن يكون الناس له بتلك المنزلة .

**ومنها** : أنه يقيم معاذير الخلائق ، وتتسع رحمته لهم ، ويتفرج بطانه ، ويزول عنه ذلك الحصر والضيق والانحراف ، وأكل بعضه بعضا ، ويستريح العصاة من دعائه عليهم وقنوطه منهم ، وسؤال الله أن يخسف بهم الأرض ويسلط عليهم البلاء ، فإنه حينئذ يرمى نفسه واحدا منهم ، فهو يسأل الله لهم ما يسأله لنفسه ، وإذا دعا لنفسه بالتوبة والمغفرة أدخلهم معه ، فيرجو لهم فوق ما يرجو لنفسه ، ويخاف على نفسه أكثر مما يخاف عليهم ، فأين هذا من حاله الأولى ، وهو ناظر إليهم بعين الاحتقار والازدراء ، لا يجد فى قلبه رحمة لهم ولا دعوة ولا يرجو لهم نجاة ، فالذنب فى حق مثل هذا من أعظم أسباب رحمته ، ومع هذا فيقيم أمر الله فيهم ، طاعة لله ورحمة بهم ، وإحسانا إليهم ، إذ هو عين مصلحتهم ، لا غلظة ولا قوة ولا فظاظة .

**ومنها** : أن يخلع صولة الطاعة من قلبه ، وينزع عنه رداء الكبر والعظمة الذى ليس له ، ويلبس رداء الذل والانكسار والفقر والفاقة ، فلو دامت تلك الصولة والعزة فى قلبه لخيف عليه ماهو من أعظم الآفات ، كما فى الحديث : « لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أشد من ذلك العجب »[1] أو كما قال ﷺ . فكم بين آثار العجب والكبر وصولة الطاعة وبين آثار الذل والانكسار ، كما قيل : يا آدم ، لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كيسك ، فقد استخرج منك داء العجب ، وألبست رداء العبودية . يا آدم ، لا تجزع من قولى لك : اخرج منها ، فلك خلقتها ، ولكن انزل إلى دار المجاهدة ، وابذر بذر العبودية ، فإذا كمل الزرع واستحصد فتعال فاستوفه .

لا يوحشنك ذاك العتب أن له　　　لطفا يريك الرضا فى حالة الغضب

فبينما هو لابس ثوب الإذلال الذى لا يليق بمثله ، تداركه ربه برحمته فنزعه عنه وألبسه ثوب الذل الذى لا يليق بالعبد غيره ، فما لبس العبد ثوبا أكمل عليه ولا أحسن ولا أبهى من ثوب العبودية ، وهو ثوب المذلة الذى لا عز له بغيره .

**ومنها** : أن لله عز وجل على القلوب أنواعا من العبودية ؛ من الخشية والخوف والإشفاق ، وتوابعها من المحبة والإنابة وابتغاء الوسيلة إليه وتوابعها ، وهذه العبوديات لها أسباب تهيجها وتبعث عليها ، فكل ما قيضه الرب تعالى لعبده من الأسباب الباعثة على ذلك المهيجة له ، فهو من أسباب رحمته له ، ورُبَّ ذنب قد هاج لصاحبه من الخوف والإشفاق والوجل والإنابة والمحبة والإيثار والفرار إلى الله ما لا يهيجه له كثير من

---

(١) الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٧٢ ) فى الزهد، باب: ما جاء فى العجب ، وقال : « رواه البزار ، وإسناده جيد ».

الطاعات، وكم من ذنب كان سببا لاستقامة العبد وفراره إلى الله وبعده عن طرق الغى ، وهو بمنزلة من خلط فأحس بسوء مزاجه،وكان عنده أخلاط مزمنة قاتلة وهو لا يشعر بها، فشرب دواء أزال تلك الأخلاط العفنة التى لو دامت لترامت به إلى الفساد والعطب ، وأن من تبلغ رحمته ولطفه وبره بعبده هذا المبلغ وما هو أعجب وألطف منه،لحقيق بأن يكون الحب كله له،والطاعات كلها ل،وأن يذكر فلا ينسى، ويطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر.

**ومنها** : أنه يعرف العبد مقدار نعمة معافاته وفضله فى توفيقه له وحفظه إياه ، فإنه من تربى فى العافية لا يعلم ما يقاسيه المبتلى ، ولا يعرف مقدار النعمة ، فلو عرف أهل طاعة الله أنهم هم المنعم عليهم فى الحقيقة ، وإن لله عليهم من الشكر أضعاف ما على غيرهم ، وإن توسدوا التراب ومضغوا الحصى ، فهم أهل النعمة المطلقة ، وإن من خلى الله بينه وبين معاصيه فقد سقط من عينه وهان عليه ، وإن ذلك ليس من كرامته على ربه ، وإن وسع الله عليه فى الدنيا ومد له من أسبابها ، فإنهم أهل الابتلاء على الحقيقة ، فإذا طالبت العبد نفسه بما تطالبه من الحظوظ والأقسام وأرته أنه فى بلية وضائقة تداركه الله برحمته وابتلاه ببعض الذنوب ، فرأى ما كان فيه من المعافاة والنعمة ، وأنه لا نسبة لما كان فيه من النعم إلى ما طلبته نفسه من الحظوظ ، فحينئذ يكون أكثر أمانيه وآماله العود إلى حاله ، وأن يمتعه الله بعافيته .

**ومنها** : أن التوبة توجب للتائب آثارا عجيبة من المقامات التى لا تحصل بدونها فتوجب له من المحبة والرقة واللطف وشكر الله وحمده والرضا عنه عبوديات أخر ، فإنه إذا تاب إلى الله تقبل الله توبته ، فرتب له على ذلك القبول أنواعا من النعم لا يهتدى العبد لتفاصيلها ، بل يزال يتقلب فى بركتها وآثارها مالم ينقضها ويفسدها .

**ومنها** : أن الله ـ سبحانه ـ يحبه ويفرح بتوبته أعظم فرح ، وقد تقرر أن الجزاء من جنس العمل ، فلا ينسى الفرحة التى يظفر بها عند التوبة النصوح ، وتأمل كيف تجد القلب يرقص فرحا وأنت لا تدرى بسبب ذلك الفرح ما هو ، وهذا أمر لا يحس به إلا حى القلب ، وأما ميت القلب فإنما يجد الفرح عند ظفره بالذنب ، ولا يعرف فرحا غيره ، فوازن إذا بين هذين الفرحين ، وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالذنب من أنواع الأحزان والهموم والغموم والمصائب ، فمن يشترى فرحة ساعة بغم الأبد ! وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالطاعة والتوبة النصوح من الانشراح الدائم والنعيم وطيب العيش ، ووازن بين هذا وهذا ، ثم اختر ما يليق بك ويناسبك ، وكل يعمل على شاكلته ، وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه .

**ومنها** : أنه إذا شهد ذنوبه ومعاصيه وتفريطه فى حق ربه ، استكثر القليل من نعم ربه

عليه ، ولا قليل منه ؛ لعلمه أن الواصل إليه فيها كثير على مسىء مثله ، واستقل الكثير من عمله ؛ لعلمه بأن الذى ينبغى أن يغسل به نجاسته وأوضاره وأوساخه أضعاف ما أتى به ، فهو دائما مستقل لعلمه كائنا ما كان ، مستكثر لنعمة الله عليه وإن دقت ، ولو لم يكن فى فوائد الذنب إلا هذا لكفى به ، فأين حال هذا من حال من لا يرى لله عليه نعمة إلا ويرى أنه كان ينبغى أن يعطى ما هو فوقها وأجل منها ، وأنه لا يقدر أن يتكلم ، وكيف يعاند القدر وهو مظلوم مع الرب لا ينصفه ولا يعطيه مرتبته ، بل هو مغرى بمعاندته لفضله وكماله ، وأنه كان ينبغى له أن ينال الثريا ويطأ بأخمصه هنالك ، ولكنه مظلوم مبخوس الحظ ، وهذا الضرب من أبغض الخلق إلى الله وأشدهم مقتا عنده ، وحكمة الله تقتضى أنهم لا يزالون فى سفال ، فهم بين عتب على الخالق وشكوى له وذل لخلقه وحاجة إليهم وخدمة لهم ، أشغل الناس قلوبا بأرباب الولايات والمناصب ، ينتظرون ما يقذفون به إليهم من عظامهم وغسالة أيديهم وأوانيهم ، وأفرغ الناس قلوبا عن معاملة الله والانقطاع إليه ، والتلذذ بمناجاته ، والطمأنينة بذكره ، وقرة العين بخشيته ، والرضاء به ، فيعاذا بالله من زوال نعمته ، وتحول عافيته ، وفجأة نقمته ، ومن جميع سخطه .

**ومنها** : أن الذنب يوجب لصاحبه التقيظ والتحرز من مصائد عدوه ومكامنه ، ومن أين يدخل عليه اللصوص والقطاع ومكامنهم ، ومن أين يخرجون عليه ، وفى أى وقت يخرجون ، فهو قد استعد لهم وتأهب ، وعرف بماذا يستدفع شرهم وكيدهم ، فلو أنه مر عليهم على غرة وطمأنينة لم يأمن أن يظفروا به ، ويجتاحوه جملة .

**ومنها** : أن القلب يكون ذاهلا عن عدوه ، معرضا عنه ، مشتغلا ببعض مهماته ، فإذا أصابه سهم من عدوه استجمعت له قوته وحاسته وحميته ، وطلب بثأره إن كان قلبه حرا كريما ، كالرجل الشجاع إذا جرح فإنه لا يقوم له شىء ، بل تراه بعدها هائجا طالبا مقداما، والقلب الجبان المهين إذا جرح كالرجل الضعيف المهين إذا جرح ، ولى هاربا ، والجراحات فى أكتافه ، وكذلك الأسد إذا جرح فإنه لا يطاق ، فلا خير فيمن لا مروءة له يطلب أخذ ثأره من أعدى عدوه ، فما شىء أشفى للقلب من أخذه بثأره من عدوه ، ولا عدو أعدى له من الشيطان ، فإن كان قلبه من قلوب الرجال المتسابقين فى حلبة المجد جد فى أخذ الثأر ، وغاظ عدوه كل الغيظ ، وأضناه ، كما جاء عن بعض السلف : إن المؤمن لينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره فى سفره .

**ومنها** : أن مثل هذا يصير كالطبيب ينتفع به المرضى فى علاجهم ودوائهم ، والطبيب الذى عرف المرض مباشرة وعرف دواءه وعلاجه أحذق وأخبر من الطبيب الذى إنما عرفه

وصفا ، هذا فى أمراض الأبدان ، وكذلك فى أمراض القلوب وأدوائها ، وهذا معنى قول بعض الصوفية : أعرف الناس بالآفات أكثرهم آفات ، وقال عمر بن الخطاب : إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة ، إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية . ولهذا كان الصحابة أعرف الأمة بالإسلام وتفاصيله وأبوابه وطرقه ، وأشد الناس رغبة فيه ومحبة له ، وجهادا لأعدائه ، وتكلما بإعلامه ، وتحذيرا من خلافه ؛ لكمال علمهم بضده ، فجاءهم الإسلام وكل خصلة منه مضادة لكل خصلة مما كانوا عليه ، فازدادوا له معرفة وحبا وفيه جهادا بمعرفتهم بضده ، وذلك بمنزلة من كان فى حصر شديد وضيق ومرض وفقر وخوف ووحشة ، فقيض الله له من نقله منه إلى فضاء وسعة وأمن وعافية وغنى وبهجة وسرور ، فإنه يزداد سروره وغبطته ومحبته بما نقل إليه بحسب معرفته بما كان فيه ، وليس حال هذا كمن ولد فى الأمن والعافية والغنى والسرور ، فإنه لم يشعر بغيره ، وربما قيضت له أسباب تخرجه عن ذلك إلى ضده وهو لا يشعر ، وربما ظن أن كثيرا من أسباب الهلاك والعطب تفضى به إلى السلامة والأمن والعافية ، فيكون هلاكه على يدى نفسه وهو لا يشعر ، وما أكثر هذا الضرب من الناس ، فإذا عرف الضدين وعلم مباينة الطرفين ، وعرف أسباب الهلاك على التفصيل ، كان أحرى أن تدوم له النعمة ، مالم يؤثر أسباب زوالها على علم ، وفى مثل هذا قال القائل :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

وهذه حال المؤمن يكون فطنا حاذقا ، أعرف الناس بالشر وأبعدهم منه ، فإذا تكلم فى الشر وأسبابه ظننته من شر الناس ، فإذا خالطته وعرفت طويته رأيته من أبر الناس ، والمقصود : أن من بلى بالآفات صار من أعرف الناس بطرقها ، وأمكنه أن يسدها على نفسه وعلى من استنصحه من الناس ومن لم يستنصحه .

**ومنها** : أنه ـ سبحانه ـ يذيق عبده ألم الحجاب عنه والبعد وزوال ذلك الأنس والقرب ليمتحن عبده ،فإن أقام على الرضا بهذه الحال ولم يجد نفسه تطالبه بحالها الأول مع الله ، بل اطمأنت وسكنت إلى غيره ، علم أنه لا يصلح ، فوضعه فى مرتبته التى تليق به وإن استغاث استغاثة الملهوف ، وتقلق تقلق المكروب ، ودعا دعاء المضطر ، وعلم أنه قد فاتته حياته حقا ، فهو يهتف بربه أن يرد عليه حياته ويعيد عليه ما لا حياة له بدونه ، علم أنه موضع لما أهل له فرد عليه أحوج ما هو إليه ، فعظمت به فرحته ، وكملت به لذته ، وتمت به نعمته ، واتصل به سروره ، وعلم حينئذ مقداره ، فعض عليه بالنواجذ ، وثنى عليه الخناصر ، وكان حاله كحال ذلك الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض

المهلكة إذا وجدها بعد معاينة الهلاك ، فما أعظم موقع ذلك الوجدان عنده ، ولله أسرار وحكم ومنبهات وتعريفات لا تنالها عقول البشر .

فقل لغليظ القلب ويحك ليس ذا بعشك فادرج طالبا عشك البالى
ولا تك ممن مــــد باعـا إلى جنـا فقصر عنه قال ذا ليس بالحالــى

فالعبد إذا بلى بعد الأنس بالوحشة وبعد القرب بنار البعاد ، اشتاقت نفسه إلى لذة تلك المعاملة فحنت وأنَّت وتصدعت ، وتعرضت لنفحات من ليس لها منه عوض أبدا ، ولا سيما إذا تذكرت بره ولطفه وحنانه وقربه ، فإن هذه الذكرى تمنعها القرار ، وتهيج منها البلابل ، كما قال القائل ـ وقد فاته طواف الوداع ، فركب الأخطار ورجع إليه :

ولما تذكرت المنازل بالحمــــى ولم يقض لى تسليمة المتزود
تيقنت أن العيش ليس بنافعى إذا أنا لم أنظر إليها بموعــــد

وإن استمر أعراضها ، ولم تحن إلى مهدها الأول ، ولم تحس بفاقتها الشديدة وضرورتها إلى مراجعة قربها من ربها ، فهى ممن إذا غاب لم يطلب ، وإذا أبق لم يسترجع ، وإذا جنى لم يستعتب ، وهذه هى النفوس التى لم تؤهل لما هنالك ، وبحسب المعترض هذا الحرمان ، فإنه يكفيه ، وذلك ذنب عقابه فيه .

**ومنها** : أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب فى الإنسان ، وهاتان القوتان فيه بمنزلة صفاته الذاتية لا ينفك عنهما ، وبهما وقعت المحنة والابتلاء ، وعرض لنيل الدرجات العلى واللحاق بالرفيق الأعلى ، والهبوط إلى أسفل سافلين ، فهاتان القوتان لا يدعان العبد حتى ينيلانه منازل الأبرار ، أو يضعانه تحت أقدام الأشرار ، ولن يجعل الله من شهوته مصروفة إلى ما أعد له فى دار النعيم ، وغضبه حمية لله ولكتابه ولرسوله ولدينه ، كمن جعل شهوته مصروفة فى هواه وأمانيه العاجلة ، وغضبه مقصور على حظه ولو انتهكت محارم الله وحدوده وعطلت شرائعه وسننه ، بعد أن يكون هو ملحوظا بعين الاحترام والتعظيم والتوقير ونفوذ الكلمة ، وهذه حال أكثر الرؤساء ـ أعاذنا الله منها ـ فلن يجعل الله هذين الصنفين فى دار واحدة ، فهذا صعد بشهوته وغضبه إلى أعلى عليين ، وهذا هوى بهما إلى أسفل سافلين . والمقصود : أن تركيب الإنسان على هذا الوجه هو غاية الحكمة ، ولابد أن يقتضى كل واحد من القوتين أثره ، فلابد من وقوع الذنب والمخالفات والمعاصى ، فلابد من ترتب آثار هاتين القوتين عليهما ، ولو لم يخلقا فى الإنسان لم يكن إنسانا بل كان ملكا ، فالترتب من موجبات الإنسانية ، كما قال

النبى ﷺ : « كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون »(١) فأما من اكتنفته العصمة وضربت عليه سرادقات الحفظ ، فهم أقل أفراد النوع الإنسانى ، وهم خلاصته ولبه .

**ومنها** : أن الله ـ سبحانه ـ إذا أراد بعبده خيرا أنساه رؤية طاعاته ، ورفعها من قلبه ولسانه ، فإذا ابتلى بالذنب جعله نصب عينيه ، ونسى طاعاته ، وجعل همه كله بذنبه ، فلا يزال ذنبه أمامه إن قام أو قعد ، أو غدا أو راح ، فيكون هذا عين الرحمة فى حقه ، كما قال بعض السلف : إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة ، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار . قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه كلما ذكرها بكى وندم ، وتاب واستغفر ، وتضرع وأناب إلى الله ، وذل له وانكسر ، وعمل لها أعمالا ، فتكون سبب الرحمة فى حقه ، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يمن بها ويراها ، ويعتد بها على ربه وعلى الخلق ، ويتكبر بها ، ويتعجب من الناس كيف لا يعظمونه ويكرمونه ويجلونه عليها ، فلا تزال هذه الأمور به حتى تقوى عليه آثارها فتدخله النار . فعلامة السعادة : أن تكون حسنات العبد خلف ظهره ، وسيئاته نصب عينيه ، وعلامة الشقاوة : أن يجعل حسناته نصب عينيه ، وسيئاته خلف ظهره ، والله المستعان .

**ومنها** : أن شهود العبد ذنوبه وخطاياه موجب له ألا يرى لنفسه على أحد فضلا ، ولا له على أحد حقا ، فإنه يشهد عيوب نفسه وذنوبه فلا يظن أنه خير من مسلم يؤمن بالله ورسوله ، ويحرم ما حرم الله ورسوله ، وإذا شهد ذلك من نفسه لم ير لها على الناس حقوقا من الإكرام يتقاضاهم إياها ، ويذمهم على ترك القيام بها ، فإنها عنده أخس قدرا ، وأقل قيمة من أن يكون له بها على عباد الله حقوق يجب عليهم مراعاتها ، أوله عليهم فضل يستحق أن يكرم ويعظم ويقدم لأجلها ، فيرى أن من سلم عليه أو لقيه بوجه منبسط فقد أحسن إليه وبذل له ما لا يستحقه ، فاستراح هذا فى نفسه وأراح الناس من شكايته وغضبه على الوجود وأهله ، فما أطيب عيشه وما أنعم باله ، وما أقر عينه ، وأين هذا ممن لا يزال عاتبا على الخلق شاكيا ترك قيامهم بحقه ، ساخطا عليهم ، وهم عليه أسخط .

**ومنها** : أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس والفكر فيها ، فإنه فى شغل بعيب نفسه ، فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وويل لمن نسى عيبه وتفرغ لعيوب الناس هذا من علامة الشقاوة ، كما أن الأول من أمارات السعادة .

**ومنها** : أنه إذا وقع فى الذنب شهد نفسه مثل إخوانه الخطائين ، وشهد أن المصيبة

---

(١) الترمذى (٢٤٩٩) فى صفة القيامة والرقائق والورع ، باب : (٤٩) ، وابن ماجه (٤٢٥١) فى الزهد ، باب : ذكر التوبة ، وحسنه الألبانى.

واحدة ، والجميع مشتركون فى الحاجة ، بل فى الضرورة إلى مغفرة الله وعفوه ورحمته ، فكما يحب أن يستغفر له أخوه المسلم ، كذلك هو أيضا ينبغى أن يستغفر لأخيه المسلم ، فيصير هجيراه : رب اغفر لى ولوالدى وللمسلمين والمسلمات وللمؤمنين والمؤمنات ، وقد كان بعض السلف يستحب لكل أحد أن يداوم على هذا الدعاء كل يوم سبعين مرة ، فيجعل له منه وردا لا يخل به . وسمعت شيخنا يذكره وذكر فيه فضلا عظيما لا أحفظه ، وربما كان من جملة أوراده التى لا يخل بها ، وسمعته يقول : إن جعله بين السجدتين جائز ، فإذا شهد العبد أن إخوانه مصابون بمثل ما أصيب به محتاجون إلى ما هو محتاج إليه لم يمتنع من مساعدتهم إلا لفرط جهل بمغفرة الله وفضله ، وحقيق بهذا ألا يساعد ، فإن الجزاء من جنس العمل ، وقد قال بعض السلف : إن الله لما عتب على الملائكة بسبب قولهم : ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** ﴾ [ البقرة : ٣٠ ] وامتحن هاروت وماروت بما امتحنهما به ، جعلت الملائكة بعد ذلك تستغفر لبنى آدم وتدعو الله لهم .

**ومنها** : أنه إذا شهد نفسه مع ربه مسيئا خاطئا مفرطا ، مع فرط إحسان الله إليه فى كل طرفه عين وبره به ودفعه عنه ، وشدة حاجته إلى ربه ، وعدم استغنائه عنه نفسا واحدا وهذه حاله معه ، فكيف يطمع أن يكون الناس معه كما يحب ، وأن يعاملوه بمحض الإحسان وهو لم يعامل ربه بتلك المعاملة ، وكيف يطمع أن يطيعه مملوكه وولده وزوجته فى كل ما يريد ولا يعصونه ولا يخلون بحقوقه ، وهو مع ربه ليس كذلك . وهذا يوجب له أن يستغفر لمسيئهم ، ويعفو عنه ويسامحه ، ويغضى عن الاستقصاء فى طلب حقه . فهذه الأثمار ونحوها متى اجتناها العبد من الذنب فهى علامة كونه رحمة فى حقه ، ومن اجتنى منه أضدادها وأوجبت له خلاف ما ذكرناه فهى والله علامة الشقاوة ، وأنه من هوانه على الله وسقوطه من عينه خلى بينه وبين معاصيه ؛ ليقيم عليه حجة عدله فيعاقبه باستحقاقه ، وتتداعى السيئات فى حق مثل هذا وتتألف ، فيتولد من الذنب الواحد ماشاء الله من المتالف والمعاطب التى يهوى بها فى دركات العذاب ، والمصيبة كل المصيبة الذنب الذى يتولد من الذنب ، ثم يتولد من الاثنين ثالث ، ثم تقوى الثلاثة فتوجب رابعا وهلم جرا ، ومن لم يكن له فقه نفس فى هذا الباب هلك من حيث لا يشعر ، فالحسنات والسيئات آخذ بعضها برقاب بعض ، يتلو بعضها بعضا ، ويثمر بعضها بعضا . قال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وإن من عقاب السيئة السيئة بعدها . وهذا أظهر عند الناس من أن تضرب له الأمثال وتطلب له الشواهد ، والله المستعان (١) .

---

(١) مفتاح دار السعادة (١ / ٢٨٦ ـ ٢٩٩) .

# فصل
# فى أقسام التوبة

**١ ـ توبة العامة :**

قال صاحب المنازل : « فتوبة العامة الاستكثار من الطاعة . وهو يدعو إلى جحود نعمة الستر والإمهال ، ورؤية الحق على الله . والاستغناء ـ الذى هو عين الجبروت ـ والتوثب على الله » .

« العامة » عندهم : من عدا باب الجمع والفناء ، وإن كانوا أهل سلوك وإرادة وعلم. وهذا مرادهم بالعامة ، ويسمونهم : « أهل الفرق » ويسميهم غلاتهم : « المحجوبين » .

ومراده : أن توبتهم مدخولة عند الخواص منقوصة ، فإن توبتهم من استكثارهم لما يأتون به من الحسنات والطاعات ، أى رؤيتهم كثرتها ، وذلك يتضمن ثلاث مفاسد عند الخاصة :

**إحداها** : أن حسناتهم التى يأتون بها : سيئات بالنسبة إلى مقام الخاصة ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهم محتاجون إلى التوبة من هذه الحسنات فلغفلتهم ـ باستكثارها ـ عن عيوبها ورؤيتها وملاحظتها : هم جاحدون نعمة الله فى سترها عليهم وإمهالهم ، كستره على أهل الذنوب الظاهرة تحت ستره وإمهاله ، لكن أهل الذنوب مقرون بستره وإمهاله ، وهؤلاء جاحدون لذلك ؛ لأنهم قد توفرت هممهم على استكثارهم من الحسنات ، دون مطالعة عيب النفس والعمل ، والتفتيش على دسائسهما ، وأن الحامل لهم على استكثارها رؤيتها والإعجاب بها ؛ ولو تفرغوا لتفتيشها ، ومحاسبة النفس عليها ، والتمييز بين مافيها من الحظ والحق ، لشغلهم ذلك عن استكثارها ، ولأجل هذا كان من عدم الحضور والمراقبة والجمعية فى العمل ، خف عليه واستكثر منه . فكثر فى عينه ، وصار بمنزلة العادة ، فإذا أخذ نفسه بتخليصها من الشوائب ، وتنقيتها من الكدر ، وما فى ذلك من شوك الرياء وشبرق الإعجاب ، وجمعية القلب والهم على الله بكليته : وجد له ثقلا كالجبال ، وقل فى عينه ، ولكن إذا وجد حلاوته سهل عليه حمل أثقاله ، والقيام بأعبائه ، والتلذذ والتنعم به مع ثقله .

وإذا أردت فهم هذا القدر كما ينبغى ، فانظر وقت أخذك فى القراءة إذا أعرضت عن واجبها وتدبرها وتعقلها . وفهم ما أريد بكل آية ، وحظك من الخطاب بها ، وتنزيلها على

أدواء قلبك والتقيد بها ، كيف تدرك الختمة ـ أو أكثرها ، أو ما قرأت منها ـ بسهولة وخفة ، مستكثرا من القراءة ، فإذا ألزمت نفسك التدبر ومعرفة المراد ، والنظر إلى ما يخصك منه والتعبد به ، وتنزيل دوائه على أدواء قلبك ، والاستشفاء به ، لم تكد تجوز السورة أو الآية إلى غيرها . وكذلك إذا جمعت قلبك كله على ركعتين ، أعطيتهما ما تقدر عليه من الحضور ، والخشوع والمراقبة : لم تكد أن تصلى غيرهما إلا بجهد ، فإذا خلا القلب من ذلك عددت الركعات بلا حساب . فالاستكثار من الطاعات دون مراعاة آفاتها وعيوبها ليتوب منها هى توبة العامة .

**المفسدة الثانية** : رؤية فاعلها أن له حقا على الله فى مجازاته على تلك الحسنات بالجنات والنعيم والرضوان . ولهذا كثرت فى عينه مع غفلته عن أعماله ، ولو كانت أعمال الثقلين لا تستقل بدخول الجنة ولا بالنجاة من النار ، وأنه لن ينجو أحد البتة من النار بعمله ، إلا بعفو الله ورحمته .

**الثالثة** : استشعارهم الاستغناء عن مغفرة الله وعفوه ، بما يشهدون من استحقاق المغفرة ، والثواب بحسناتهم وطاعاتهم ، فإن ظنهم أن حصول النجاة والثواب بطاعاتهم ، واستكثارهم منها لذلك ، وكثرتها فى عيونهم إظهار للاستغناء عن مغفرة الله وعفوه ، وذلك عين الجبروت والتوثب على الله .

ولا ريب أن مجرد القيام بأعمال الجوارح ، من غير حضور ولا مراقبة ، ولا إقبال على الله ، قد يتضمن تلك المفاسد الثلاث وغيرها ، مع أنه قليل المنفعة دنيا وأخرى ، كثير المؤنة ، فهو كالعمل على غير متابعة الأمر والإخلاص للمعبود . فإنه ـ وإن كثر ـ متعب غير مفيد ، فهكذا العمل الخارجى القشورى بمنزلة النخالة الكثيرة المنظر القليلة الفائدة ، فإن الله لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها .

وهكذا ينبغى أن يكون سائر الأعمال التى يؤمر بالحضور فيها والخشوع ، كالطواف ، وأعمال المناسك ونحوها .

فإن انضاف إلى ذلك إحسان ظنه بها ، واستكثارها ، وعدم التفاته إلى عيوبها ونقائصها ، والتوبة إلى الله ، واستغفاره منها : جاءت تلك المفاسد التى ذكرها وما هو أكثر منها .

ولا ريب أن من أظهر الاستغناء عن الله وطاعته ، وتوثب عليه ، وأورثته الطاعات جبروتا وحجبا عن رؤيته عيوب نفسه وعمله ، وكثرت حسناته فى عينه ، فهو أبغض الخلق إلى الله تعالى ، وأبعدهم عن العبودية ، وأقربهم إلى الهلاك ، لا من استكثر من الباقيات

الصالحات ، ومن مثل ما وصى به النبى ﷺ من سأله مرافقته فى الجنة . فقال : « أعنى على نفسك بكثرة السجود » (١) ومن قوله تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [ الذاريات ] . قال الحسن : مدوا الصلاة إلى السحر ، ثم جلسوا يستغفرون . وقال النبى ﷺ : « تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنو ، كما ينفى الكير خبث الحديد » (٢) ، وقال لمن سأله أن يوصيه بشىء يتشبث به : « لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله » (٣) .

والدين كله استكثار من الطاعات ، وأحب خلق الله إليه : أعظمهم استكثارا منها .

وفى الحديث الصحيح الإلهى : « ما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه » (٤) .

فهذا جزاؤه وكرامته للمستكثرين من طاعته ، لا لأهل الفناء المستغرقين فى شهود الربوبية .

وقال ﷺ لآخر : « عليك بكثرة السجود ، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك بها خطيئة » (٥) .

**٢ ـ توبة الأوساط :**

قال (٦) : « وتوبة الأوساط : من استقلال العبد المعصية ، وهو عين الجرأة والمبارزة ، ومحض التزين بالحمية ، والاسترسال للقطيعة » .

يريد : أن استقلال المعصية ذنب ؛ كما أن استكثار الطاعة ذنب . والعارف من صغرت حسناته فى عينه ، وعظمت ذنوبه عنده ، وكلما صغرت الحسنات فى عينك كبرت

---

(١) مسلم (٤٨٩ / ٢٢٦) فى الصلاة ، باب : فضل السجود والحث عليه .

(٢) الترمذى (٨١٠) فى الحج ، باب : ما جاء فى ثواب الحج والعمرة ، وقال : « حسن صحيح غريب » ، وابن ماجه (٢٨٨٧) فى المناسك ، باب : فضل الحج والعمرة ، وأحمد (١ / ٢٥) .

(٣) الترمذى (٣٣٧٥) فى الدعوات ، باب : ما جاء فى فضل الذكر ، وقال : « حديث غريب من هذا الوجه » ، وابن ماجه (٣٧٩٣) فى الأدب ، باب : فضل الذكر .

(٤) البخارى (٦٥٠٢) فى الرقاق ، باب : التواضع .

(٥) مسلم (٤٨٨ / ٢٢٥) فى الصلاة ، باب : فضل السجود والحث عليه .

(٦) أى صاحب المنازل .

عند الله ، وكلما كبرت وعظمت فى قلبك قلت وصغرت عند الله ، وسيئاتك بالعكس . ومن عرف الله وحقه وما ينبغى لعظمته من العبودية : تلاشت حسناته عنده ، وصغرت جدا فى عينه ، وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه ، وأن الذى يليق بعزته ، ويصلح له من العبودية : أمر آخر ، وكلما استكثر منها استقلها واستصغرها ؛ لأنه كلما استكثر منها فتحت له أبواب المعرفة بالله والقرب منه ، فشاهد قلبه من عظمته سبحانه وجلاله ما يستصغر معه جميع أعماله ، ولو كانت أعمال الثقلين . وإذا كثرت فى عينه وعظمت دل على أنه محجوب عن الله ، غير عارف به وبما ينبغى له ، وبحسب هذه المعرفة ومعرفته بنفسه يستكثر ذنوبه ، وتعظم فى عينه ؛ لمشاهدته الحق ومستحقه ، وتقصيره فى القيام به ، وإيقاعه على الوجه اللائق الموافق لما يحبه الرب ويرضاه من كل وجه .

إذا عرف هذا ، فاستقلال العبد المعصية عين الجرأة على الله ، وجهل بقدر من عصاه وبقدر حقه . وإنما كان مبارزة لأنه إذا استصغر المعصية واستقلها هان عليه أمرها ، وخفت على قلبه ، وذلك نوع مبارزة .

وأما قوله: « ومحض التزين بالحمية » ،أى: بالمحاماة عن النفس، وإظهار براءة ساحتها ، لاسيما إن انضاف إلى ذلك مشاهدة الحقيقة ، والاحتجاج بالقدر . وقوله : وأى ذنب لى ، والمحرك لى غيرى ، والفاعل فى سواى ؟ وإنما أنا كالميت بين يدى الغاسل ؟ وما حيلة من ليس له حيلة ، وما قدرة من ليس له قدرة ؟ ونحو هذا مما يتضمن الجرأة على الله ومبارزته ، والمحاماة عن النفس ، واستصغار ذنوبه ومعاصيه إذا أضافها إلى الحكم . فيسترسل إذًا للقطيعة ، وهى المقاطعة لربه ، والانقطاع عنه ، فيصير خصما لله مع نفسه وشيطانه . وهذا حال المحتجين بالقدر على الذنوب ، فإنهم خصماء الله عز وجل ، وهم مع الشياطين والنفوس على الله ، وهذا غاية البعد والطرد والانقطاع عن الله ؟

فإن قلت : فكيف كانت توبة العامة من استكثار الطاعات ؟ وتوبة من هم أخص منهم وأعلى درجة من استقلال المعصية ؟ وهلا كان الأمر بالضد ؟

قلت : الأوساط لما كانوا أشد طلبا لعيوب النفس والعمل ، وأكثر تفتيشا عليها : انكشف لهم من ذنوبهم ومعاصيهم ما لم ينكشف للعامة ؛ إذ حرص العامة على الاستكثار من الطاعات ؛ ولذلك كثرت فى أعينهم ، وحرص هؤلاء على تنقية أنفسهم من الآفات ، والتفتيش على عيوب الأعمال ، فاستقلال السيئات آفة هؤلاء ، وقاطع طريقهم ، واستكثار الحسنات وعظمها فى قلوب أولئك آفتهم ، وقاطع طريقهم . فذكر ما هو الأخص الأغلب على كل واحدة من الطائفتين .

**٣ ـ توبة الخواص :**

قال : « وتوبة الخواص : من تضييع الوقت ؛ فإنه يفضى إلى درك النقيصة ويطفئ نور المراقبة ، ويكدر عين الصحبة » .

ليس مراده بتضييع الوقت : إضاعته فى الاشتغال بمعصية أو لغو ، أو الإعراض عن واجبه وفرضه ، فإنهم لو أضاعوه بهذا المعنى لم يكونوا من الخواص ، بل هذه توبة العامة بعينها . و « الوقت » عند القوم : أخص منه فى لغة العرب ، حتى إن منهم من يقول : « الوقت : هو الحق » ، ومنهم من يقول : « استغراق رسم العبد فى وجود الحق » ، يشيرون إلى الفناء فى حضرة الجمع . والغالب على اصطلاحهم : أنه من الإقبال على الله بالمراقبة ، والحضور والفناء فى الوحدانية . ويقولون : هو صاحب وقت مع الله . فخصوا « الوقت » بهذا الاسم تخصيصا للفظ العام ببعض أفراده ، وإلا فكل من هو مشغول بأمر يعنى به فإن فى شهوده وطلبه ، فله وقت معه ، بل أوقاته مستغرقة فيه .

فتوبة هؤلاء من إضاعة هذا الوقت الخاص الذى هو وقت وجد صادق ، وحال صحيحة مع الله لا يكدرها الأغيار .

والقصد : أن إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلى درك النقيصة ، إذ صاحب حفظه مترق على درجات الكمال ، فإذا أضاعه لم يقف موضعه ، بل ينزل إلى درجات من النقص ، فإن لم يكن فى تقدم فهو متأخر ولا بد ، فالعبد سائر لا واقف ، فإما إلى فوق ، وإما إلى أسفل ، إما إلى أمام وإما إلى وراء ، وليس فى الطبيعة ، ولا فى الشريعة وقوف البتة ، ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طى إلى الجنة أو إلى النار ، فمسرع ومبطئ ، ومتقدم ومتأخر ، وليس فى الطريق واقف البتة ، وإنما يتخالفون فى جهة المسير ، وفى السرعة والبطء ﴿ **إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾** ﴾ [ المدثر ] ولم يذكر واقفا ، إذ لا منزل بين الجنة والنار ، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة ، فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة .

فإن قلت : كل مجد فى طلب شىء لابد أن يعرض له وقفة وفتور ، ثم ينهض إلى طلبه .

قلت : لابد من ذلك ، ولكن صاحب الوقفة له حالان : إما أن يقف ليجم نفسه ، ويعدها للسير ، فهذا وقفته سير ، ولا تضره الوقفة . فإن « لكل عمل شرة ، ولكل شرة

فترة »[1] .

وإما أن يقف لداع دعاه من ورائه ، وجاذب جذبه من خلفه ، فإن أجابه أخره ولا بد ، فإن تداركه الله برحمته ، وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره ، نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع ، ووثب وجمز واشتد سعيا ليلحق الركب ، وإن استمر مع داعى التأخر ، وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة ، وإجابة داعى الهوى حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دركا ، وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض ، فإنها أخطر منه وأصعب .

وبالجملة : فإن تدارك الله سبحانه وتعالى هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه ، وتخليصه ، وإلا فهو فى تأخر إلى الممات ، راجع القهقرى ، ناكص على عقبيه ، أو مول ظهره ، ولا قوة إلا بالله ، والمعصوم من عصمه الله .

وقوله : « ويطفئ نور المراقبة » : يعنى أن المراقبة تعطى نورا كاشفا لحقائق المعرفة والعبودية ، وإضاعة الوقت تغطى ذلك النور ، وتكدر عين الصحبة مع الله ، فإن صاحب الوقت مع صحبة الله ، وله مع الله معية خاصة ، بحسب حفظه وقته مع الله ، فإن كان مع الله كان الله معه ، فإذا أضاع وقته كدر عين هذه المعية الخاصة ، وتعرض لقطع هذه الصحبة ، فلا شىء أضر على العارف بالله من إضاعة وقته مع الله ، ويخشى عليه إن لم يتداركه بالرجوع : أن تستمر الإضاعة إلى يوم القيامة ، فتكون حسرته وندامته أعظم من حسرة غيره وندامته ، وحجابه عن الله أشد من حجاب من سواه ، ويكون حاله شبيها بحال قوم يؤمر بهم إلى الجنة ، حتى إذا عاينوها وشاهدوا مافيها ، صرفت وجوههم عنها إلى النار ،فإذن توبة الخواص تكون من تضييع أوقاتهم مع الله التى تدعو إلى هذه الأمور.

**٤ ـ توبة المحبين الصادقين :**

وفوق هذا مقام آخر من التوبة ، أرفع منه وأخص . لا يعرفه إلا الخواص المحبون ، الذين يستقلون فى حق محبوبهم جميع أعمالهم وأحوالهم وأقوالهم ، فلا يرونها قط إلا بعين النقص والإزراء عليها ، ويرون شأن محبوبهم أعظم ، وقدره أعلى من أن يرضوا نفوسهم وأعمالهم له ، فهم أشد شىء احتقارا لها ، وإزراء عليها ، وإذا غفلوا عن مراد

---

(١) الترمذى (٢٤٥٣) فى صفة القيامة والرقائق والورع ، باب : (٢١) ، وقال : « حسن صحيح غريب من هذا الوجه » ، وأحمد ( ٢ / ١٦٥) ، وقال العلامة أحمد شاكر (٦٥٣٩) : « إسناده صحيح » ، والسنة لابن أبى عاصم (١ / ٢٨) رقم (٥١) وقال الشيخ الألبانى : « إسناده صحيح على شرط الشيخين » وبقية الحديث : « فمن كانت فترته إلى سنتى فقد اهتدى ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك » .

محبوبهم منهم ، ولم يوفوه حقه ، تابوا إليه من ذلك توبة أرباب الكبائر منها ، فالتوبة لا تفارقهم أبدا ، وتوبتهم لون وتوبة غيرهم لون ﴿ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [ يوسف ] ، وكلما ازدادوا حبا له ازدادوا معرفة بحقه ، وشهودا لتقصيرهم ، فعظمت لذلك توبتهم ؛ ولذلك كان خوفهم أشد ، وإزراؤهم على أنفسهم أعظم ، وما يتوب منه هؤلاء قد يكون من كبار حسنات غيرهم .

وبالجملة : فتوبة المحبين الصادقين العارفين بربهم وبحقه : هى التوبة ، وسواهم محجوب عنها ، وفوق هذه توبة أخرى ، الأولى بنا الإضراب عنها صفحا .

## فصل
## فيما يتم به مقام التوبة

قال صاحب المنازل : « ولا يتم مقام التوبة إلا بالانتهاء إلى التوبة مما دون الحق ، ثم رؤية علة التوبة ، ثم التوبة من رؤية تلك العلة » .

التوبة مما دون الله : أن يخرج العبد بقلبه عن إرادة ما سوى الله تعالى ، فيعبده وحده لا شريك له بأمره وباستعانته ، فيكون كله له وبه .

وهذا أمر لا يصح إلا لمن استولى عليه سلطان المحبة ، فامتلأ قلبه من الله محبة له وإجلالا وتعظيما ، وذلا وخضوعا وانكسارا بين يديه ، وافتقارا إليه .

فإذا صح له ذلك بقيت عليه عندهم بقية أخرى ، هى علة فى توبته ، وهى شعوره بها ، ورؤيته لها ، وعدم فنائه عنها ، وذلك بالنسبة إلى مقامه وحاله ذنب ، فيتوب من هذه الرؤية .

فهاهنا ثلاثة أمور : توبته مما سوى الله ، ورؤيته هذه التوبة ، وهى علتها . وتوبته من رؤية تلك الرؤية ، وهذا عند القوم الغاية التى لا شىء بعدها ، والنهاية التى لا تكون إلا لخاصة الخاصة،ولعمر الله إن رؤية العبد فعله ، واحتجابه به عن ربه ، ومشاهدته له : علة فى طريقه موجبة للتوبة .

وأما رؤيته له واقعا بمنة الله وفضله ، وحوله وقوته وإعانته : فهذا أكمل من غيبته عنه ، وهو أكمل من المقام الذى يشيرون إليه ، وأتم عبودية ، وأدعى للمحبة وشهود المنة ، إذ يستحيل شهود المنة على شىء لا شعور للشاهد به البتة .

والذى ساقهم إلى ذلك : سلوك وادى الفناء فى الشهود ، فلا يشهد مع الحق سببا ،

ولا وسيلة ولا رسما البتة .

ونحن لا ننكر ذوق هذا المقام ، وأن السالك ينتهى إليه ، ويجد له حلاوة ووجدا ولذة لا يجدها لغيره البتة ، وإنما يطالب أربابه والمشمرون إليه بأمر وراءه ، وهو أن هذا هو الكمال ، وهو أكمل من حال من شهد أفعاله ورآها ، ورأى تفاصيلها مشاهدا لها ، صادرة عنه بمشيئة الله وإرادته ومعونته ، فشهد عبوديته مع شهود معبوده ، ولم يغب فى شهود العبودية عن المعبود ، ولا بشهود المعبود عن العبودية ، فكلاهما نقص . والكمال : أن تشهد العبودية حاصلة بمنة المعبود وفضله ومشيئته ، فيجتمع لك الشهودان ، فإن غبت بأحدهما عن الآخر فالمقام مقام توبة ، وهل فى الغيبة عن العبودية إلا هضم لها ؟

والواجب : أن يقع التحاكم فى ذلك إلى الله ورسوله ، وإلى حقائق الإيمان دون الذوق ، فإننا لا ننكر ذوق هذه الحال ، وإنما ننكر كونها أكمل من غيرها ، فأين الإشارة فى القرآن ، أو فى السنة ، أو فى كلام سادات العارفين من الصحابة ومن تبعهم إلى هذا الفناء ، وأنه هو الكمال ، وأن رؤية العبد لفعله بالله وحوله وفضله وشهوده له كذلك : علة تجب التوبة منها ؟

وهذا القدر مما يصعب إنكاره على القوم جدا ، ويرمون منكره بأنه محجوب من أهل الفرق ، وأنه لم يصل إلى هذا المقام ، ولو وصل إليه لما أنكره ، وليس فى شىء من ذلك حجة لتصحيح قولهم ، ولا جواب المطالبة ، فقد سألك هذا المحجوب عن مسألة شرعية ، وما ذكرتموه ليس بجواب لها .

ولعمر الله إنه يراكم محجوبين عن حال أعظم من هذه الحال ، ومقام أرفع منه ، وليس فى مجرد الفناء والاستغراق فى شهود القيومية ، وإسقاط الأسباب والعلل والحكم والوسائط كثير علم ، ولا معرفة ولا عبودية ، وهل المعرفة كل المعرفة ، والعبودية : إلا شهود الأشياء على ما هى عليه ؟ والقرآن كله مملوء من دعاء العباد إلى التفكر فى الآيات ، والنظر فى أحوال المخلوقات . ونظر الإنسان فى نفسه وتفاصيل أحواله ، وأخص من ذلك : نظره فيما قدم لغده ، ومطالعته لنعم الله عليه بالإيمان والتوفيق والهداية ، وتذكر ذلك والتفكر فيه ، وحمد الله وشكره عليه ، وهذا لا يحصل مع الفناء حتى عن رؤية الرؤية ، وشهود الشهود .

ثم إن هذا غير ممكن البتة ، فإنكم إذا جعلتم رؤيته لتوبته علة يتوب منها ، فإن رؤيته لتلك الرؤية أيضا علة توجب عليه توبة ، وهلم جرا . فلا ينتهى الأمر إلا بسقوط التمييز جملة ، والسكر والطمس المنافى للعبودية ، فضلا عن أن يكون غاية للعبودية (١) .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٥٧ ـ ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ـ ٢٧١) .

# فصل
## فيما يتعلق بأحكام التوبة

ونذكر نبذا تتعلق بأحكام التوبة ، تشتد الحاجة إليها ، ولا يليق بالعبد جهلها .

**منها** : أن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور ، ولا يجوز تأخيرها ، فمتى أخرها عصى بالتأخير ، فإذا تاب من الذنب بقى عليه توبة أخرى ، وهى توبته من تأخير التوبة . وقل أن تخطر هذه ببال التائب ، بل عنده : أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر ، وقد بقى عليه التوبة من تأخير التوبة . ولا ينجى من هذا إلا توبة عامة ، مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم ، فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه ، ولا ينفعه فى عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكنا من العلم . فإنه عاص بترك العلم والعمل ، فالمعصية فى حقه أشد . وفى صحيح ابن حبان : أن النبى ﷺ قال : « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل » . فقال أبو بكر : فكيف الخلاص منه يارسول الله ؟ قال : أن تقول : « اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » (١) .

فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب ، ولا يعلمه العبد .

وفى الصحيح عنه ﷺ : أنه كان يدعو فى صلاته : « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى ، وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى . اللهم اغفر لى جدى وهزلى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى . اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت إلهى لا إله إلا أنت » (٢) .

وفى الحديث الآخر : « اللهم اغفر لى ذنبى كله ، دقه وجله ، خطأه وعمده ، سره وعلانيته ، أوله وآخره » (٣) .

فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتى التوبة على ماعلمه العبد من ذنوبه ومالم يعلم (٤) .

---

(١) أحمد (٤ / ٤٠٣) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٢٢٦ ، ٢٢٧) فى التوبة ، باب : ما يقول إذا خاف شيئا من الرياء : « رجال أحمد رجال الصحيح غير أبى على ووثقه ابن حبان »، وقال الألبانى فى صحيح الجامع (٣٧٣١) : « صحيح » .

(٢) البخارى (٦٣٩٨، ٦٣٩٩) فى الدعوات، باب: قول النبى ﷺ :«اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت » ، ومسلم « ٢٧١٩ / ٧٠) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل .

(٣) مسلم (٤٨٣ / ٢١٦) فى الصلاة ، باب : ما يقال فى الركوع والسجود ، وأبو داود (٨٧٨) فى الصلاة ، باب: فى الدعاء فى الركوع والسجود .

(٤) مدارج السالكين (١ / ٢٧٢ ، ٢٧٣) .

## فصل

**ومن أحكام التوبة أنه** : هل يشترط فى صحتها ألا يعود إلى الذنب أبدا ، أم ليس ذلك بشرط ؟

فشرط بعض الناس : عدم معاودة الذنب ، وقال : متى عاد إليه تبيَّنا أن التوبة كانت باطلة غير صحيحة .

والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط ، وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب ، والندم عليه ، والعزم الجازم على ترك معاودته .

فإن كانت فى حق آدمى : فهل يشترط تحلله ؟ فيه تفصيل ـ سنذكره إن شاء الله ـ فإذا عاوده ، مع عزمه حال التوبة على ألا يعاوده ، صار كمن ابتدأ المعصية ، ولم تبطل توبته المتقدمة .

والمسألة مبنية على أصل . وهو : أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده ، فهل يعود إليه إثم الذنب الذى قد تاب منه ثم عاوده ، بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر ، إن مات مصرا ؟ أو إن ذلك قد بطل بالكلية ، فلا يعود إليه إثمه ، وإنما يعاقب على هذا الأخير ؟

وفى هذا الأصل قولان :

فقالت طائفة : يعود إليه إثم الذنب الأول ؛ لفساد التوبة ، وبطلانها بالمعاودة .

قالوا : لأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر ، والكافر إذا أسلم هدم إسلامه ماقبله من إثم الكفر وتوابعه ، فإذا ارتد عاد إليه الإثم الأول مع إثم الردة ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر » (١) . فهذا حال من أساء فى إسلامه . ومعلوم أن الردة من أعظم الإساءة فى الإسلام ، فإذا أخذ بعدها بما كان منه فى حال كفره ، ولم يسقطه الإسلام المتخلل بينهما ، فهكذا التوبة المتخللة بين الذنبين لا تسقط الإثم السابق ، كما لا تمنع الإثم اللاحق .

قالوا : ولأن صحة التوبة مشروطة باستمرارها ، والموافاة عليها . والمعلق على الشرط

---

(١) البخارى (٦٩٢١) فى استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ، باب : إثم من أشرك بالله وعقوبته فى الدنيا والآخرة ، ومسلم (١٢٠ / ١٨٩ ، ١٩٠) فى الإيمان ، باب : هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية .

يعدم عند عدم الشرط ، كما أن صحة الإسلام مشروطة باستمراره والموافاة عليه .

قالوا : والتوبة واجبة وجوبا مضيقا مدى العمر ، فوقتها مدة العمر ، إذ يجب عليه استصحاب حكمها فى مدة عمره ، فهى بالنسبة إلى العمر كالإمساك عن المفطرات فى صوم اليوم ، فإذا أمسك معظم النهار ، ثم نقض إمساكه بالمفطرات : بطل ماتقدم من صيامه . ولم يعتد به ، وكان بمنزلة من لم يمسك شيئا من يومه .

قالوا : ويدل على هذا : الحديث الصحيح ، وهو قوله ﷺ : « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » (١) ، وهذا أعم من أن يكون هذا العمل الثانى كفرا موجبا للخلود ، أو معصية موجبة للدخول ، فإنه لم يقل : « فيرتد فيفارق الإسلام » ،وإنما أخبر : أنه يعمل بعمل يوجب له النار ، وفى بعض السنن : « إن العبد ليعمل بطاعة الله ستين سنة ، فإذا كان عند الموت جار فى وصيته فدخل النار » (٢) ؛فالخاتمة السيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو بمعصية ، والأعمال بالخواتيم .

فإن قيل : فهذا يلزم منه إحباط الحسنات بالسيئات ، وهذا قول المعتزلة ، والقرآن والسنة قد دلا على أن الحسنات هى التى تحبط السيئات لا العكس ، كما قال : ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [ هود : ١١٤ ] ، وقال النبى ﷺ لمعاذ : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » (٣).

قيل : والقرآن والسنة قد دلا على الموازنة ، وإحباط الحسنات بالسيئات فلا يضرب كتاب الله بعضه ببعض ، ولا يرد القرآن بمجرد كون المعتزلة قالوه ـ فعل أهل الهوى والتعصب ـ بل نقبل الحق ممن قاله ، ونرد الباطل على من قاله .

فأما الموازنة : فمذكورة فى سورة الأعراف (٤) ،والأنبياء (٥) ، والمؤمنون (٦) ، والقارعة ، والحاقة (٧) .

---

(١) البخارى (٣٣٣٢) فى الأنبياء ، باب : خلق آدم وذريته ، ومسلم (٢٦٤٣ / ١) فى القدر ، باب : كيفية الخلق الآدمى فى بطن أمه ، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته .

(٢) أبو داود (٢٨٦٧) فى الوصايا ، باب : ما جاء فى كراهية الإضرار فى الوصية ، والترمذى (٢١١٧) فى الوصايا ، باب : ما جاء فى الضرار فى الوصية ، وقال : « حسن صحيح غريب » ، وابن ماجه (٢٧٠٤) فى الوصايا ، باب : الحيف فى الوصية ، وضعفه الألبانى .

(٣) الترمذى (١٩٨٧) فى البر والصلة ، باب :ماجاء فى معاشرة الناس ، وقال : « حسن صحيح » ، وأحمد (٥ / ٢٢٨) ، وقال الألبانى فى صحيح الجامع (٩٧) : « حسن » . .

(٤) الآيتان : ٨ ، ٩ .
(٥) الآية : ٤٧ .
(٦) الآيات : ١٠١ ـ ١١١ .
(٧) الآيات : ١٩ ـ ٣٧ .

وأما الإحباط : فقد قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ** (٣٣) ﴾ [ محمد ] وتفسير الإبطال هاهنا بالردة ؛ لأنها أعظم المبطلات ، لا لأن المبطل ينحصر فيها ، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ** ﴾ [ البقرة : ٢٦٤ ] فهذان سببان عرضا بعد للصدقة فأبطلاها . شبه سبحانه بطلانها ـ بالمن والأذى ـ بحال المتصدق رياء فى بطلان صدقة كل واحد منهما ، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** (٢) ﴾ [ الحجرات ] ،وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال : « من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله » (١) ، وقالت عائشة رضي الله عنها ، لأم ولد زيد بن أرقم ـ وقد باع بيع العينة : « أخبرى زيدا : أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ ؛ إلا أن يتوب » ، وقد نص أحمد على هذا فى رواية ، فقال : ينبغى للعبد أن يتزوج إذا خاف على نفسه . فيستدين ويتزوج ، لا يقع فى محظور فيحبط عمله .

فإذا استقرت قاعدة الشريعة ـ أن من السيئات ما يحبط الحسنات بالإجماع ومنها ما يحبطها بالنص ـ جاز أن تحبط سيئة المعاودة حسنة التوبة ، فتصير التوبة كأنها لم تكن ، فيلتقى العملان ولا حاجز بينهما ، فيكون التأثير لهما جميعا .

واحتج الفريق الآخر ـ وهم القائلون بأنه لا يعود إليه إثم الذنب الذى تاب منه بنقض التوبة ـ بأن ذلك الإثم قد ارتفع بالتوبة ، وصار بمنزلة ما لم يعمله ، وكأنه لم يكن ، فلا يعود إليه بعد ذلك ، وإنما العائد إثم المستأنف لا الماضى .

قالوا : ولا يشترط فى صحة التوبة العصمة إلى الممات ، بل إذا ندم وأقلع وعزم على الترك : محى عنه إثم الذنب بمجرد ذلك . فإذا استأنفه استأنف إثمه .

قالوا : فليس هذا كالكفر الذى يحبط الأعمال ، فإن الكفر له شأن آخر ؛ ولهذا يحبط جميع الحسنات ، ومعاودة الذنب لا تحبط ما تقدمه من الحسنات .

قالوا : والتوبة من أكبر الحسنات ، فلو أبطلتها معاودة الذنب : لأبطلت غيرها من الحسنات ، وهذا باطل قطعا . وهو يشبه مذهب الخوارج المكفرين بالذنب ، والمعتزلة المخلدين فى النار بالكبيرة ، التى تقدمها الألوف من الحسنات ، فإن الفريقين متفقان على خلود أرباب الكبائر فى النار ، ولكن الخوارج كفروهم ، والمعتزلة فسقوهم ، وكلا المذهبين باطل فى دين الإسلام ، مخالف للمنقول والمعقول ، وموجب العدل ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** (٤٠) ﴾ [ النساء ] .

---

(١) البخارى (٥٥٣) فى مواقيت الصلاة ، باب : من ترك صلاة العصر ، وأحمد (٥ / ٣٥٥) .

قالوا : وقد ذكر الإمام أحمد فى مسنده مرفوعا إلى النبى ﷺ : « إن الله يحب العبد المفتن التواب » (١) .

قلت : وهو الذى كلما فتن بالذنب تاب منه ، فلو كانت معاودته تبطل توبته لما كان محبوبا للرب ، ولكان ذلك أدعى إلى مقته .

قالوا : وقد علق الله ـ سبحانه ـ قبول التوبة بالاستغفار ، وعدم الإصرار ، دون المعاودة . فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) ﴾ [ آل عمران ] والإصرار : عقد القلب على ارتكاب الذنب متى ظفر به ، فهذا الذى يمنع مغفرته .

قالوا : وأما استمرار التوبة : فشرط فى صحة كمالها ونفعها ، لا شرط فى صحة مامضى منها . وليس كذلك العبادات ، كصيام اليوم ، وعدد ركعات الصلاة ، فإن تلك عبادة واحدة ، لا تكون مقبولة إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها ، وأما التوبة : فهى عبادات متعددة بتعدد الذنوب ، فكل ذنب له توبة تخصه ، فإذا أتى بعبادة وترك أخرى ، لم يكن ما ترك موجبا لبطلان مافعل .

بل نظير هذا : أن يصوم من رمضان ويفطر منه بلا عذر ، فهل يكون ما أفطره منه مبطلا لأجر ما صامه منه ؟

بل نظير من صلى ولم يصم ، أو زكى ولم يحج .

ونكتة المسألة : أن التوبة المتقدمة حسنة ، ومعاودة الذنب سيئة ، فلا تبطل معاودته هذه الحسنة ، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات .

قالوا : وهذا على أصول أهل السنة أظهر ، فإنهم متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين ، ويكون محبوبا لله مبغوضا له من وجهين أيضا ، بل يكون فيه إيمان ونفاق ، وإيمان وكفر ، ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر ، فيكون من أهله ، كما قال تعالى : ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ [ آل عمران : ١٦٧ ] وقال : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾ [ يوسف ] أثبت لهم الإيمان به ، مع مقارنة الشرك . فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم مامعهم من الإيمان بالله ، وإن كان معه تصديق لرسله ، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لاتخرجهم عن الإيمان بالرسل وباليوم الآخر ، فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق

---

(١) أحمد (١ / ٨٠) وقال العلامة أحمد شاكر (٦٠٥) : « إسناده ضعيف جدا » .

أرباب الكبائر .

وشركهم قسمان : شرك خفى ، وشرك جلى . فالخفى قد يغفر ، وأما الجلى فلا يغفره الله إلا بالتوبة منه ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به .

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار ، ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة ، لما قام بهم من السببين .

فإذا ثبت هذا ، فمعاود الذنب : مبغوض لله من جهة معاودة الذنب ، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة . فيرتب الله ـ سبحانه ـ على كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة ، ولا يظلم مثقال ذرة : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [ فصلت ] .

## فصل

وإذا استغرقت سيئاته الحديثات حسناته القديمات وأبطلتها ، ثم تاب منها توبة نصوحا خالصة : عادت إليه حسناته ، ولم يكن حكمه حكم المستأنف لها ، بل يقال له : تبت على ما أسلفت من خير ، فالحسنات التى فعلتها فى الإسلام أعظم من الحسنات التى يفعلها الكافر فى كفره : من عتاقة ، وصدقة ، وصلة . وقد قال حكيم بن حزام : يا رسول الله ، أرأيت عتاقة أعتقتها فى الجاهلية ، وصدقة تصدقت بها ، وصلة وصلت بها رحمى ، فهل لى فيها من أجر ؟ فقال : « أسلمت على ما أسلفت من خير »(١) وذلك لأن الاساءة المتخللة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة ، وصارت كأنها لم تكن ، فتلاقت الطاعتان واجتمعتا (٢) ، والله أعلم .

## فصل

**ومن أحكامها** : أن العاصى إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية ، وعجز عنها ، بحيث يتعذر وقوعها منه ، هل تصح توبته ؟ وهذا كالكاذب والقاذف ، وشاهد الزور إذا قطع لسانه ، والزانى إذا جب ، والسارق إذا أتى على أطرافه الأربعة ، والمزور إذا قطعت يده ، ومن وصل إلى حد بطلت معه دواعيه إلى معصية كان يرتكبها .

ففى هذا قولان للناس :

---

(١) البخارى (١٤٣٦) فى الزكاة ، باب : من تصدق فى الشرك ثم أسلم ، ومسلم (١٢٣ / ١٩٤) فى الإيمان ، باب : بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده .

(٢) وهذا بين فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [ الكهف ] وقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ ﴾ [ الزلزلة : ٧ ] ولا شك أن التوبة من الأعمال الحسنة الخيرة ، فلا يضيعها الله تعالى ، والله أعلم . وانظر تفصيل المسألة ص (٨٨) .

**فقالت طائفة** : لا تصح توبته ؛ لأن التوبة إنما تكون ممن يمكنه الفعل والترك ، فالتوبة من الممكن ، لا من المستحيل . ولهذا لا تتصور التوبة من نقل الجبال عن أماكنها ، وتنشيف البحار ، والطيران إلى السماء ، ونحوه .

قالوا : ولأن التوبة مخالفة داعي النفس ، وإجابة داعي الحق ، ولا داعي للنفس هنا ، إذ يعلم استحالة الفعل منها .

قالوا : ولأن هذا كالمكره على الترك المحمول عليه قهرا ، ومثل هذا لا تصح توبته.

قالوا : ومن المستقر فى فطر الناس وعقولهم : أن توبة المفاليس وأصحاب الجوائح : توبة غير معتبرة ، ولا يحمدون عليها ، بل يسمونها توبة إفلاس ، وتوبة جائحة .

قال الشاعر :

ورحت عن توبة سائلا　　　وجدتها توبة إفلاس

قالوا : ويدل على هذا أيضا : أن النصوص المتضافرة المتظاهرة قد دلت على أن التوبة عند المعاينة لا تنفع ؛ لأنها توبة ضرورة لا اختيار ، قال تعالى : **﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ⑰ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ⑱ ﴾** [ النساء ] و « الجهالة » هاهنا : جهالة العمل ، وإن كان عالما بالتحريم . قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ماعصى الله به فهو جهالة ، عمدا كان أو لم يكن ، وكل من عصى الله فهو جاهل .

وأما التوبة من قريب : فجمهور المفسرين : على أنها التوبة قبل المعاينة . قال عكرمة: قبل الموت . وقال الضحاك : قبل معاينة ملك الموت . وقال السدى والكلبي : أن يتوب فى صحته قبل مرض موته . وفى المسند وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » (١) وفى نسخة دراج ـ أبى الهيثم ـ عن أبى سعيد مرفوعا : « إن الشيطان قال : وعزتك يارب لا أبرح أغوى عبادك مادامت أرواحهم فى أجسادهم . فقال الرب عز وجل: وعزتى وجلالى وارتفاع مكانى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » (٢).

فهذا شأن التائب من قريب ، وأما إذا وقع فى السياق فقال : إنى تبت الآن ، لم

---

(١) الترمذى (٣٥٣٧) فى الدعوات ، باب : فى فضل التوبة والاستغفار ، وقال : « حسن غريب » ، وابن ماجه (٤٢٥٣) فى الزهد ، باب : ذكر التوبة ، وفى الزوائد : « فى إسناده الوليد بن مسلم وهو مدلس ، وقد عنعنه وكذلك مكحول الدمشقى » ، وقال الشيخ الألبانى : « حسن » . ، وأحمد (٢ / ١٣٢) ، وقال العلامة أحمد شاكر (٦١٦٠) : « إسناده صحيح » .

(٢) الحاكم فى المستدرك (٤ / ٢٦١) ، وقال : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبى ، وأحمد (٣ / ٢٩) ، وانظر تخريجه مفصل فى السلسلة الصحيحة للألبانى رقم (١٠٤) .

تقبل توبته ، وذلك لأنها توبة اضطرار لا اختيار ، فهى كالتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها ، ويوم القيامة ، وعند معاينة بأس الله .

قالوا : ولأن حقيقة التوبة : هى كف النفس عن الفعل الذى هو متعلق النهى ، والكف إنما يكون عن أمر مقدور . وأما المحال : فلا يعقل كف النفس عنه ، ولأن التوبة هى الإقلاع عن الذنب ، وهذا لا يتصور منه الإيقاع حتى يتأتى منه الإقلاع .

قالوا : ولأن الذنب عزم جازم على فعل المحرم ، يقترن به فعل المقدور ، والتوبة منه : عزم جازم على ترك المقدور ، يقترن به الترك . والعزم على غير المقدور محال ، والترك فى حق هذا ضرورى ، لا عزم غير مقدور ، بل هو بمنزلة ترك الطيران إلى السماء ، ونقل الجبال وغير ذلك .

**والقول الثانى** : وهو الصواب : أن توبته صحيحة ممكنة ،بل واقعة ، فإن أركان التوبة مجتمعة فيه ، والمقدور له منها الندم .وفى المسند مرفوعا : « الندم توبة » (١) ،فإذا تحقق ندمه على الذنب ولومه نفسه عليه،فهذه توبة . وكيف يصح أن تسلب التوبة عنه،مع شدة ندمه على الذنب ،ولومه نفسه عليه ؟ ولا سيما مايتبع ذلك من بكائه وحزنه وخوفه ،وعزمه الجازم،ونيته أنه لو كان صحيحا والفعل مقدورا له لما فعله .

وإذا كان الشارع قد نزَّل العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها ، إذا صحت نيته ، كقوله فى الحديث الصحيح : « إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحا مقيما » (٢). وفى الصحيح أيضا عنه : « إن بالمدينة أقواما ماسرتم مسيرا ، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم » . قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : « وهم بالمدينة ، حبسهم العذر » (٣) وله نظائر فى الحديث . فتنزيل العاجز عن المعصية ، التارك لها قهرا ـ مع نيته تركها اختيارا لو أمكنه ـ منزلة التارك المختار أولى .

يوضحه : أن مفسدة الذنب التى يترتب عليها الوعيد تنشأ من العزم عليه تارة ومن فعله تارة ، ومنشأ المفسدة معدوم فى حق هذا العاجز فعلا وعزما ، والعقوبة تابعة للمفسدة .

وأيضا ، فإن هذا تعذر منه الفعل ما تتعذر منه التمنى والوداد ، فإذا كان يتمنى ويود لو واقع الذنب ، ومن نيته : أنه لو كان سليما لباشره ، فتوبته بالإقلاع عن هذا الوداد والتمنى ، والحزن على فوته ، فإن الإصرار متصور فى حقه قطعا ، فيتصور فى حقه ضده ،

---

(١) أحمد (١ / ٣٧٦) ، وقال العلامة أحمد شاكر (٣٥٦٨) : « إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٢٩٩٦) فى الجهاد ، باب : يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل فى الإقامة ، وأحمد (٤ / ٤١٠) .

(٣) البخارى (٢٨٣٩) فى الجهاد ، باب : من حبسه العذر عن الغزو .

وهو التوبة ، بل هى أولى بالإمكان والتصور من الإصرار ، وهذا واضح .

والفرق بين هذا وبين المعاين ، ومن ورد القيامة : أن التكليف قد انقطع بالمعاينة وورود القيامة ، والتوبة إنما تكون فى زمن التكليف ، وهذا العاجز لم ينقطع عنه التكليف ، فالأوامر والنواهى لازمة له ، والكف متصور منه عن التمنى والوداد ، والأسف على فوته ، وتبديل ذلك الندم والحزن على فعله ، والله أعلم .

## فصل

**ومن أحكامها** : أن من توغل فى ذنب ، وعزم على التوبة منه ، ولا يمكنه التوبة منه إلا بارتكاب بعضه ، كمن أولج فى فرج حرام ، ثم عزم على التوبة قبل النزع الذى هو جزء الوطء ، وكمن توسط أرضا مغصوبة ، ثم عزم على التوبة ، ولا يمكنه إلا بالخروج ، الذى هو مشى فيها وتصرف ، فكيف يتوب من الحرام بحرام مثله ؟ وهل تعقل التوبة من الحرام بحرام ؟

فهذا مما أشكل على بعض الناس ، حتى دعاه ذلك إلى أن قال بسقوط التكليف عنه فى هذا الفعل الذى يتخلص به من الحرام .

قال : لأنه لا يمكن أن يكون مأمورا به وهو حرام ، وقد تعين فى حقه طريقا للخلاص من الحرام ، لايمكنه التخلص بدونه ، فلا حكم فى هذا الفعل البتة . وهو بمنزلة العفو الذى لا يدخل تحت التكليف .

وقالت طائفة : بل هو حرام واجب ، فهو ذو وجهين ؛ مأمور به من أحدهما ، منهى عنه من الآخر . فيؤمر به من حيث تعينه طريقا للخلاص من الحرام ، وهو من هذا الوجه واجب . وينهى عنه من جهة كونه مباشرة للحرام ، وهو من هذا الوجه محرم ، فيستحق عليه الثواب والعقاب .

قالوا : ولا يمتنع كون الفعل فى الشرع ذا وجهين مختلفين ، كالاشتغال عن الحرام بمباح ، فإن المباح إذا نظرنا إلى ذاته - مع قطع النظر عن ترك الحرام - قضينا بإباحته ، وإذا اعتبرناه من جهة كونه تاركا للحرام كان واجبا .

نعم ، غايته : أنه لا يتعين مباح دون مباح ، فيكون واجبا مخيرا .

قالوا : وكذلك الصلاة فى الدار المغصوبة ، هى حرام ، وهى واجبة . وستر العورة بثوب الحرير كذلك : حرام واجب ، من وجهين مختلفين .

والصواب : أن هذا النزع والخروج من الأرض : توبة ليس بحرام ، إذ هو مأمور به ، ومحال أن يؤمر بالحرام . وإنما كان النزع ـ الذى هو جزء الوطء ـ حراما بقصد التلذذ به ، وتكميل الوطء . وأما النزع الذى يقصد به مفارقة الحرام ، وقطع لذة المعصية ، فلا دليل على تحريمه ، لا من نص ولا إجماع ، ولا قياس صحيح يستوى فيه الأصل والفرع فى علة الحكم .

ومحال خلو هذه الحادثة عن حكم الله فيها . وحكمه فيها : الأمر بالنزع قطعا ، وإلا كانت الاستدامة مباحة ، وذلك عين المحال . وكذلك الخروج من الأرض المغصوبة : مأمور به ، وإنما تكون الحركة والتصرف فى ملك الغير حراما إذا كان على وجه الانتفاع بها ، المتضمن لإضرار مالكها ، أما إذا كان القصد ترك الانتفاع ، وإزالة الضرر عن المالك ، فلم يحرم الله ولا رسوله ذلك ، ولا دل على تحريمه نظر صحيح ، ولا قياس صحيح .

وقياسه على مشى مستديم الغصب ، وقياس نزع التائب على نزع المستديم : من أفسد القياس وأبينه بطلانا ، ونحن لا ننكر كون الفعل الواحد يكون له وجهان . ولكن إذا تحقق النهى عنه والأمر به : أمكن اعتبار وجهيه ، فإن الشارع أمر بستر العورة . ونهى عن لبس الحرير ، فهذا الساتر لها بالحرير قد ارتكب الأمرين ، فصار فعله ذا وجهين .

وأما محل النزاع : فلم يتحقق فيه النهى عن النزع ، والخروج عن الأرض المغصوبة من الشارع البتة ، لا بقوله ولا بمعقول قوله ، إلا باعتبار هذا الفرد بفرد آخر ، بينهما أشد تباين ، وأعظم فرق فى الحس والعقل والفطرة والشرع .

وأما إلحاق هذا الفرد بالعفو : فإن أريد به أنه : معفوٌ له عن المؤاخذة به فصحيح ، وإن أريد أنه لا حكم لله فيه ، بل هو بمنزلة فعل البهيمة والنائم ، والناسى والمجنون : فباطل . إذ هؤلاء غير مخاطبين ، وهذا مخاطب بالنزع والخروج ، فظهر الفرق ، والله الموفق للصواب .

فإن قيل : هذا يتأتى لكم فيما إذا لم يكن فى المفارقة بنزع أو خروج مفسدة ، فما تصنعون فيما إذا تضمن مفسدة ؟ مثل مفسدة الإقامة ، كمن توسط جماعة جرحى لسلبهم . فطرح نفسه على واحد ، إن أقام عليه قتله بثقله ، وإن انتقل عنه لم يجد بدا من انتقاله إلى مثله يقتله بثقله ، وقد عزم على التوبة ، فكيف تكون توبته ؟

قيل : توبة مثل هذا : بالتزام أخف المفسدتين ، من الإقامة على الذنب المعين أو الانتقال عنه ، فإن تساوت مفسدة الإقامة على الذنب ومفسدة الانتقال عنه من كل وجه ، فهذا يؤمر من التوبة بالمقدور له منها ، وهو الندم ، والعزم الجازم على ترك المعاودة ، وأما

الإقلاع : فقد تعذر فى حقه إلا بالتزام مفسدة أخرى مثل مفسدته .

فقيل : إنه لا حكم لله فى هذه الحادثة ، لاستحالة ثبوت شيء من الأحكام الخمسة فيها ، إذ إقامته على الجريح تتضمن مفسدة قتله ، فلا يؤمر بها ، ولا هو مأذون له فيها . وانتقاله عنه يتضمن مفسدة قتل الآخر ، فلا يؤمر بالانتقال ، ولا يؤذن له فيه ، فيعتذر الحكم فى هذه الحادثة على هذا ، فتتعذر التوبة منها .

والصواب : أن التوبة غير متعذرة ؛ فإنه لا واقعة إلا ولله فيها حكم ، علمه من علمه وجهله من جهله .

فيقال : حكم الله فى هذه الواقعة : كحكمه فى الملجأ ، فإنه قد أُلجئ قدرا إلى إتلاف أحد النفسين ولابد ، والملجأ ليس له فعل يضاف إليه ، بل هو آلة ، فإذا صار هذا كالملجأ ، فحكمه : ألا يكون منه حركة ولا فعل ولا اختيار ، فلا يعدل من واحد إلى واحد ، بل يتخلى عن الحركة والاختيار ، ويستسلم استسلام من هو عليه من الجرحى . إذ لا قدرة له على حركة مأذون له فيها البتة ، فحكمة الفناء عن الحركة والاختيار ، وشهود نفسه كالحجر الملقى على هذا الجريح . ولا سيما إن كان قد ألقى عليه بغير اختياره ، فليس له أن يلقى نفسه على جاره لينجيه بقتله ، والقدر ألقاه على الأول ، فهو معذور به . فإذا انتقل إلى الثانى انتقل بالاختيار والإرادة ، فهكذا إذا ألقى نفسه عليه باختياره ثم تاب وندم ، لا نأمره بإلقاء نفسه على جاره ، ليتخلص من الذنب بذنب مثله سواء .

وتوبة مثل هذا إنما تتصور بالندم والعزم فقط ، لا بالإقلاع . والإقلاع فى حقه مستحيل ، فهو كمن أولج فى فرج حرام ، ثم شد وربط فى حال إيلاجه بحيث لا يمكنه النزع البتة . فتوبته بالندم والعزم والتجافى بقلبه عن السكون إلى الاستدامة ، وكذلك توبة الأول بذلك ، وبالتجافى عن الإرادة والاختيار ، والله أعلم (١) .

## فصل

**ومن أحكام التوبة** : أن من تعذر عليه أداء الحق الذى فرط فيه ، ولم يمكنه تداركه ثم تاب ، فكيف حكم توبته ؟ وهذا يتصور فى حق الله سبحانه وحقوق عباده .

فأما فى حق الله : فكمن ترك الصلاة عمدا من غير عذر ، مع علمه بوجوبها وفرضها ، ثم تاب وندم . فاختلف السلف فى هذه المسألة .

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٧٦ ـ ٢٧٨ ، ٢٨٠ ـ ٢٨٩) .

فقالت طائفة : توبته بالندم ، والاشتغال بأداء الفرائض المستأنفة ، وقضاء الفرائض المتروكة . وهذا قول الأئمة الأربعة وغيرهم .

وقالت طائفة : توبته باستئناف العمل فى المستقبل ، ولا ينفعه تدارك ما مضى بالقضاء ، ولا يقبل منه ، فلا يجب عليه . وهذا قول أهل الظاهر ، وهو مروى عن جماعة من السلف .

وحجة الموجبين للقضاء قول النبى ﷺ : « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها » (١) .

قالوا : فإذا وجب القضاء على النائم والناسى ، مع عدم تفريطهما ، فوجوبه على العامد والمفرط أولى .

قالوا : ولأنه كان يجب عليه أمران : الصلاة ، وإيقاعها فى وقتها ، فإذا ترك أحد الأمرين بقى الآخر .

قالوا : ولأن القضاء ، إن قلنا : يجب عليه بالأمر الأول ، فظاهر . وإن قلنا : يجب عليه بأمر جديد ، فأمر النائم والناسى به : تنبيه على العامد .

قالوا : ولأن مصلحة الفعل إن لم يمكن العبد تداركها تدارك منها ما أمكن ، وقد فاتت مصلحة الفعل فى الوقت ، فيتدارك ما أمكن منها ، وهو الفعل فى خارج الوقت .

قالوا : وقد قال النبى ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم » (٢) وهذا قد استطاع الإتيان بالمأمور خارج الوقت ،وقد تعذر عليه الإتيان به فى وقته ، فيجب عليه الإتيان بالمستطاع .

قالوا : وكيف يظن بالشرع أنه يخفف عن هذا المتعمد المفرط العاصى لله ورسوله بترك الوجوب ؟ ويوجبه على المعذور بالنوم أو النسيان ؟

قالوا : ولأن الصلاة خارج الوقت بدل عن الصلاة فى الوقت ، والعبادة إذا كان لها بدل ، وتعذر المبدل : انتقل المكلف إلى البدل ، كالتيمم مع الوضوء ، وصلاة القاعد عند تعذر القيام ، والمضطجع عند تعذر القعود ، وإطعام العاجز عن الصيام ـ لكبر أو مرض غير مرجو البرء ـ عن كل يوم مسكينا ، ونظائر ذلك كثيرة فى الشرع .

---

(١) البخارى (٥٩٧) فى مواقيت الصلاة ، باب : من نسى صلاة فليصل إذا ذكرها ، ومسلم (٦٨٤ / ٣١٤) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها .

(٢) البخارى (٧٢٨٨) فى الاعتصام ، باب : الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ، ومسلم (١٣٣٧/ ١٣٠) فى الفضائل ، باب : توقيره ﷺ ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه .

قالوا : ولأن الصلاة حق مؤقت ، فتأخيره عن وقته لا يسقط إلا بمبادرته خارج الوقت ، كديون الآدميين المؤجلة .

قالوا : ولأن غايته : أنه أثم بالتأخير ، وهذا لا يسقط القضاء ، كمن أخر الزكاة عن وقت وجوبها تأخيرا أثم به ، أو أخر الحج تأخيرا أثم به .

قالوا : ولو ترك الجمعة حتى صلاها الإمام عمدا ، عصى بتأخيرها ، ولزمه أن يصلى الظهر ، ونسبة الظهر إلى الجمعة كنسبة صلاة الصبح بعد طلوع الشمس إلى صلاتها قبل الطلوع .

قالوا : وقد أخر النبى ﷺ صلاة العصر يوم الأحزاب إلى أن صلاها بعد غروب الشمس (١) . فدل على أن فعلها ممكن خارج الوقت فى العمد . سواء كان معذورا به كهذا التأخير ، وكتأخير من أخرها من الصحابة يوم بنى قريظة إلى بعد غروب الشمس ، أو لم يكن معذورا به ، كتأخير المفرط . فتأخيرهما إنما يختلف فى الإثم وعدمه ، لا فى وجوب التدارك بعد الترك .

قالوا : ولو كانت الصلاة خارج الوقت لا تصح ولا تجب ، لما أمر النبى ﷺ الصحابة يوم بنى قريظة بتأخير صلاة العصر إلى أن يصلوها فيهم (٢) . فأخرها بعضهم حتى صلاها فيهم بالليل ، فلم يعنفهم ، ولم يعنف من صلاها فى الطريق لاجتهاد الفريقين .

قالوا : ولأن كل تائب له طريق إلى التوبة . فكيف تسد عن هذا طريق التوبة ، ويجعل إثم التضييع لازما له ، وطائرا فى عنقه ؟ فهذا لا يليق بقواعد الشرع وحكمته ورحمته ، ومراعاته لمصالح العباد ، فى المعاش والمعاد .

فهذا أقصى ما يحتج به لهذه المقالة .

قال أصحاب القول الآخر : العبادة إذا أمر بها على صفة معينة ، أو فى وقت بعينه ، لم يكن المأمور ممتثلا للأمر إلا إذا أوقعها على الوجه المأمور به : من وصفها ووقتها ، وشرطها ، فلا يتناولها الأمر بدونه .

قالوا : وإخراجها عن وقتها كإخراجها عن استقبال القبلة مثلا ، وكالسجود على الخد بدل الجبهة ، والبروك على الركبة بدل الركوع ونحوه .

قالوا : والعبادات التى جعل لها ظرف من الزمان لا تصح إلا فيه كالعبادات التى جعل

---

(١) البخارى (٤١١٢) فى المغازى ، باب : غزوة الخندق وهى الأحزاب .

(٢) البخارى (٤١١٩) فى المغازى ، باب : مرجع النبى ﷺ من الأحزاب .

لها ظرف من المكان ، فلو أراد نقلها إلى أمكنة أخرى غيرها : لم تصح إلا فى أمكنتها . ولا يقوم مكان مقام مكان آخر . كأمكنة المناسك ـ من عرفة ومزدلفة والجمار ، والسعى بين الصفا والمروة ، والطواف بالبيت ـ فنقل العبادة إلى أزمنة غير أزمنتها التى جعلت أوقاتا لها شرعا إلى غيرها ، كنقلها عن أمكنتها التى جعلت لها شرعا إلى غيرها ، لا فرق بينهما فى الاعتداد وعدمه ، كما لا فرق بينهما فى الإثم .

قالوا : فنقل الصلاة المحدودة الوقت أولا وآخرا عن زمنها إلى زمن آخر ، كنقل الوقوف بعرفة عن زمنه إلى مزدلفة ، ونقل أشهر الحج عن زمنها إلى زمن آخر .

قالوا : فأى فرق بين من نقل صوم رمضان إلى شوال ، أو صلى العصر نصف الليل ، وبين من حج فى المحرم ووقف فيه ؟ فكيف تصح صلاة هذا وصيامه دون حج هذا ، وكلاهما مخالف لأمر الله تعالى ، عاص آثم ؟

قالوا : فحقوق الله المؤقتة لا يقبلها الله فى غير أوقاتها ، فكما لا تقبل قبل دخول أوقاتها لا تقبل بعد خروج أوقاتها . فلو قال : أنا أصوم شوال عن رمضان ، كان كما لو قال : أنا أصوم شعبان الذى قبله عنه .

قالوا: فإن الحق الليلى لا يقبل بالنهار ،والنهارى لا يقبل بالليل ؛ ولهذا جاء فى وصية الصديق لعمر رضي الله عنهما التى تلقاها بالقبول هو وسائر الصحابة : « واعلم أن لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار ، وحقا بالنهار لا يقبله بالليل » .

قالوا : ولأنها إذا فات وقتها المحدود لها شرعا لم تبق تلك العبادة بعينها ، ولكن شىء آخر غيرها ، فإذا فعلت العصر بعد غروب الشمس لم تكن عصرا فإن العصر صلاة هذا الوقت المحدود ، وهذه ليست عصرا ، فلم يفعل مصليها العصر البتة . وإنما أتى بأربع ركعات صورتها صورة صلاة العصر ، لا أنها هى .

قالوا : وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : « من ترك صلاة العصر حبط عمله » (١) وفى لفظ : « الذى تفوته صلاة العصر ، فكأنما وتر أهله وماله » (٢) ، فلو كان له سبيل إلى التدارك وفعلها صحيحة : لم يحبط عمله ، ولم يوتر أهله وماله ، مع صحتها منه وقبولها ؛ لأن معصية التأخير عندكم لا تحقق الترك والفوات ، لاستدراكه بالفعل فى الوقت الثانى .

قالوا : وهذه الصلاة مردودة بنص الشرع ، فلا يسوغ أن يقال بقبولها وصحتها ، مع

---

(١) سبق تخريجه ص ٦٥ .

(٢) البخارى (٥٥٢) فى مواقيت الصلاة ، باب : إثم من فاتته العصر .

تصريحه بردها وإلغائها ، كما ثبت فى الصحيح عنه ﷺ من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » (١) وفى لفظ : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » (٢) وهذا عمل على خلاف أمره ، فيكون ردا . و « الرد » بمعنى المردود ، كالخلق بمعنى المخلوق ، والضرب بمعنى المضروب .

وإذا ثبت أن هذه الصلاة مردودة . فليست بصحيحة ولا مقبولة .

قالوا : ولأن الوقت شرط فى سقوط الإثم ، وامتثال الأمر . فكان شرطا فى براءة الذمة والصحة ، كسائر شروطها ـ من الطهارة ، والاستقبال ، وستر العورة ـ فالأمر تناول الشروط تناولا واحدا ، فكيف ساغ التفريق بينها مع استوائها فى الوجوب والأمر والشرطية ؟

قالوا : وليس مع المصححين لها بعد الوقت لا نص ولا إجماع ، ولا قياس صحيح ، وسنبطل جميع أقيستهم التى قاسوا عليها ، ونبين فسادها .

قالوا : وفى مسند الإمام أحمد وغيره من حديث أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « من أفطر يوما من رمضان لغير عذر ، لم يقضه عنه صيام الدهر » (٣) فكيف يقال : يقضيه عنه يوم مثله ؟

قالوا : ولأن صحة العبادة : إن فسرت بموافقة الأمر ، فلا ريب أن هذه العبادة غير موافقة له ، فلا تكون صحيحة . وإن فسرت بسقوط القضاء ، فإنما يسقط القضاء ما وقع على الوجه المأمور به ، وهذا لم يقع كذلك ، ولا سبيل إلى وقوعه على الوجه المأمور به ، فلا سبيل إلى صحته . وإن فسرت بما أبرأ الذمة ، فهذه لم تبرئ الذمة من الإثم قطعا ، ولم يثبت بدليل يجب المصير إليه إبراؤها للذمة من توجه المطالبة بالمأمور .

قالوا : ولأن الصحيح من العبادات : ما اعتبره الشارع ورضيه وقبله ، وهذا لا يعلم إلا بإخباره عن صحتها ، أو بموافقتها أمره ، وكلاهما منتف عن هذه العبادة ، فكيف يحكم لها بالصحة ؟

قالوا : فالصحة والفساد حكمان شرعيان ، مرجعهما إلى الشارع . فالصحيح : ماشهد له بالصحة ، أو علم أنه وافق أمره ، أو كان مماثلا لما شهد له بالصحة ، فيكون حكم المثل مثله ، وهذه العبادة قد انتفى عنها كل واحد من هذه الأمور .

ومن أفسد الاعتبار : اعتبارها بالتأخير المعذور به ، أو المأذون فيه . وهو اعتبار الشيء

---

(١ ، ٢) البخارى (٢٦٩٧) فى الصلح ، باب : إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ، ومسلم (١٧١٨ / ١٨) فى الأقضية ، باب : نقض الأحكام الباطلة ، ورد محدثات الأمور .

(٣) أبو داود (٢٣٩٦) فى الصوم ، باب : التغليظ فيمن أفطر عمدا ، وأحمد (٢ / ٣٨٦) ، وضعفه الألبانى .

بضده ، وقياسه على مخالفه فى الحقيقة والشرع . وهو من أفسد القياس .

قالوا : وأما استدلالكم بقول النبى ﷺ : « من نام عن صلاة أو نسيها ، فليصلها إذا ذكرها » (١) ،فأوجب القضاء على المعذور ، فالمفرط أولى ، فهذه الحجة إلى أن تكون عليكم أقرب منها أن تكون لكم. فإن صاحب الشرع شرط فى فعلها بعد الوقت: أن يكون الترك عن نوم أو نسيان،والمعلق على الشرط يعدم عند عدمه،فلم يبق معكم إلا مجرد قياس المفرط العاصى المستحق للعقوبة على من عذره الله،ولم ينسب إلى تفريط ولا معصية . كما ثبت عنه فى الصحيح:«ليس فى النوم تفريط،وإنما التفريط فى اليقظة : أن يؤخر صلاة حتى يدخل وقت التى بعدها » (٢) ،وأى قياس فى الدنيا أفسد من هذا القياس وأبطل؟

قالوا : وأيضا فهذا لم يؤخر الصلاة عن وقتها ، بل وقتها المأمور به لمثله : حين استيقظ وذكر . كما قال النبى ﷺ : « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها » . فإن ذلك وقتها . فإن الله يقول : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴾ [ طه ] وهذه اللام عند كثير من النحاة اللام الوقتية ، أى عند ذكرى أو فى وقت ذكرى .

قالوا :والنبى ﷺ ما صلى الصبح يوم الوادى بعد طلوع الشمس إلا فى وقتها حقيقة .

قالوا : والأوقات ثلاثة أنواع : وقت للقادر المستيقظ الذاكر غير المعذور ، فهى خمسة . ووقت للذاكر المستيقظ المعذور وهى ثلاثة . فإن فى حقه : وقت الظهر والعصر واحد ، ووقت المغرب والعشاء واحد ، ووقت الفجر واحد ، فالأوقات فى حق هذا ثلاثة . وإذا أخر الظهر إلى أن فعلها فى وقت العصر فإنما صلاها فى وقتها .

ووقت فى حق غير المكلف بنوم أو نسيان ، فهو غير محدود البتة ؛ بل الوقت فى حقه : عند يقظته وذكره ، لا وقت له إلا ذلك .

هذا الذى دلت عليه نصوص الشرع وقواعده ، وهذا المفرط المضيع خارج عن هذه الأقسام ، وهو قسم رابع ، فبأيها تلحقونه ؟

قالوا : وقد شرع الله ـ سبحانه ـ قضاء رمضان لمن أفطره لعذر ، من حيض أو سفر أو مرض ، ولم يشرعه قط لمن أفطره متعمدا من غير عذر ، لا بنص ولا بإيماء ولا تنبيه ، ولا تقتضيه قواعده ، وإنما غاية ما معكم : قياسه على المعذور مع اطراد قواعد الشرع على التفريق بينهما ، بل قد أخبر الشارع : أن صيام الدهر لا يقضيه عن يوم يفطره بلا عذر .

---

(١) سبق تخريجه ص ٧٣

(٢) مسلم (٦٨١ / ٣١١) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها ، وأبو داود (٤٣٧) فى الصلاة ، باب : فى من نام عن الصلاة أو نسيها .

فضلا عن يوم مثله .

قالوا : وأما قولكم : « إنه كان يجب عليه أمران : العبادة ، وإيقاعها فى وقتها ، فإذا ترك أحدهما بقى عليه الآخر » فهذا إنما ينفع فيما إذا لم يكن أحد الأمرين مرتبطا بالآخر ارتباط الشرطية ، كمن أمر بالحج والزكاة فترك أحدهما ، لم يسقط عنه الآخر ، أما إذا كان أحدهما شرطا فى الآخر،وقد تعذر الإتيان بالشرط الذى لم يؤمر بالمشروط إلا به ، فكيف يقال : إنه يؤمر بالآخر بدونه ، ويصح منه بدون وصفه وشرطه ؟ فأين أمره الله بذلك ؟ وهل الكلام إلا فيه ؟

قالوا : وإن قلنا : إنما يجب القضاء بأمر جديد ، فلا أمر معكم بالقضاء فى محل النزاع . وقياسه على مواقع الإجماع : ممتنع . وإن قلنا : يجب بالأمر الأول ، فهذا فيما إذا كان القضاء نافعا ، ومصلحته كمصلحة الأداء ، كقضاء المريض والمسافر والحائض للصوم ، وقضاء المغمى عليه والنائم والناسى ، أما إذا كان القضاء غير مبرئ للذمة ، ولا هو معذور بتأخير الواجب عن وقته ، فهذا لم يتناوله الأمر الأول ولا أمر ثان ، وإنما هو القياس الذى علم افتراق الأصل والفرع فيه فى وصف ظاهر التأثير مانع للإلحاق .

قالوا : وأما قولكم : « إنه إذا لم يمكن تدارك مصلحة الفعل تدارك منها ما أمكن » فهذا إنما يفيد إذا لم يمكن حصول المصلحة على شرط تزول المصلحة بزواله ، والتدارك بعد فوات شرطه وخروجه عن الوجه المأمور به ممتنع ، إلا بأمر آخر : من التوبة ، وتكثير النوافل والحسنات ، وأما تدارك غير هذا الفعل فكلا ولما .

قالوا : وأما قوله ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم » (١) فقد أبعد النجعة من احتج به ، فإن هذا إنما يدل على أن المكلف إذا عجز عن جملة المأمور به أتى بما يقدر عليه منه ـ كمن عجز عن القيام فى الصلاة ، أو عن إكمال غسل أعضاء الوضوء ، أو عن إكمال الفاتحة ، أو عن تمام الكفاية فى الإنفاق الواجب ونحو ذلك ـ أتى بما يقدر عليه ، ويسقط عنه ما عجز منه ، أما من ترك المأمور به حتى خرج وقته عمدا وتفريطا بلا عذر ، فلا يتناوله الحديث ، ولو كان الحديث متناولا له لما توعده بإحباط عمله ، وتشبيهه بمن سلب أهله وماله ، وبقى بلا أهل ولا مال .

قالوا : وأما قولكم : « إنه لا يظن بالشرع تخفيفه عن هذا العامد المفرط بعدم إيجاب القضاء عليه ، وتكليف المعذور به » فكلام بعيد عن التحقيق ، بين البطلان . فإن هذا

(١) سبق تخريجه ص ٧٣ .

المعذور : إنما فعل ما أمر به فى وقته ، فهو فى فعل ما أمر به كغير المعذور الذى صلى فى وقته ، ونحن لم نسقط القضاء عن العامد المفرط تخفيفا عنه ، بل لأنه غير نافع له ، ولا مقبول منه ، ولا مأمور به ، فلا سبيل له إلى تحصيل مصلحة ما تركه ، فأين التخفيف عنه ؟

قالوا : وأما قولكم : « إن الصلاة خارج الوقت بدل عن الصلاة فى الوقت ، وإذا تعذر المبدل انتقل إلى بدله » فهل هذا إلا مجرد دعوى ؟ وهل وقع النزاع إلا فى هذا ؟ فما الدليل على أن صلاة هذا المفرط العامد بدل ؟ ونحن نطالبكم بالأمر بها أولا ، وبكونها مقبولة نافعة ثانيا، وبكونها بدلا ثالثا ، ولا سبيل لكم إلى إثبات شىء من ذلك البتة .

وإنما يعلم كون الشىء بدلا بجعل الشاعر له كذلك ، كشرعه التيمم عند العجز عن استعمال الماء ، والإطعام عند العجز عن الصيام ، وبالعكس ، كما فى كفارة اليمين . فأين جعل الشرع قضاء هذا المفرط المضيع بدلا عن فعله العبادة فى الوقت ؟ وهل ذلك إلا القياس الذى قد تبين فساده ؟

قالوا : وأما قياسكم فعلها خارج الوقت على صحة أداء ديون الآدميين بعد وقتها ، فمن هذا النمط ؛ لأن وقت الوجوب فى حقه ليس محدود الطرفين كوقت الصلاة ، فالوجوب فى حقه ليس مؤقتا محدودا ، بل هو على الفور ، كالزكاة والحج ، عند من يراه على الفور ، فلا يتصور فيه إخراج عن وقت محدود هو شرط لفعله .

نعم ، أولى الأوقات به : الوقت الأول على الفور ، وتأخيره عنه لا يوجب كونه قضاء .

فإن قيل : فما تصنعون بقضاء رمضان ، فإنه محدود على جهة التوسعة بما بين رمضانين ، ولا يجوز تأخيره مع القدرة إلى رمضان آخر ؟ ومع هذا لو أخره لزمه فعله ، وإطعام كل يوم مسكينا ، كما أفتى به الصحابة ﷺ . وهذا دليل على أن العبادة المؤقتة لا يتعذر فعلها بعد خروج وقتها المحدود لها شرعا ؟

قيل : قد فرق الشارع بين أيام رمضان وبين أيام القضاء ، فجعل أيام رمضان محدودة الطرفين ، لا يجوز تقدمها ولا تأخرها ، وأطلق أيام قضائه ، فقال سبحانه : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴾ [ البقرة ] ، فأطلق العدة ولم يوقتها ، وهذا يدل على أنها تجزئ فى أى أيام كانت ، ولم يجئ نص عن الله ولا عن رسوله ولا إجماع على

تقييدها بأيام لا تجزئ في غيرها ، وليس في الباب إلا حديث عائشة رضي الله عنها : كان يكون عليّ الصوم من رمضان ، فلا أقضيه إلا في شعبان ، من الشغل برسول الله ﷺ . ومعلوم أن هذا ليس صريحا في التوقيت بما بين الرمضانين ، كتوقيت أيام رمضان بما بين الهلالين ، فاعتبار أحدهما بالآخر ممتنع ، وجمع بين ما فرق الله بينهما ، فإنه جعل أيام رمضان محدودة بحد لا تتقدم عنه ولا تتأخر ، وأطلق أيام القضاء ، وأكد إطلاقها بقوله « أخر » ، وأفتى من أفتى من الصحابة بالإطعام لمن أخرها إلى رمضان آخر ، جبرا لزيادة التأخير عن المدة التي بين الرمضانين ، ولا تخرج بذلك عن كونها قضاء ، بل هي قضاء ، وإن فعلت بعد رمضان آخر ، فحكمها في القضاء قبل رمضان وبعده واحد ، بخلاف أيام رمضان .

يوضح هذا : أنه لو أفطر من أيام رمضان عمدا بغير عذر لم يتمكن أن يقيم مقامه يوما آخر مثله البتة . ولو أفطر يوما من أيام القضاء قام اليوم الذي بعده مقامه .

وسر الفرق : أن المعذور لم يتعين في حقه أيام القضاء . بل هو مخير فيها ، وأي يوم صامه قام مقام الآخر ، وأما غير المعذور : فأيام الوجوب متعينه في حقه لا يقوم غيرها مقامها .

قالوا : وأما من ترك الجمعة عمدا : فإنما أوجبنا عليه الظهر ؛ لأن الواجب في هذا الوقت أحد الصلاتين ولا بد ، إما الجمعة وإما الظهر ، فإذا ترك الجمعة فوقت الظهر قائم ، وهو مخاطب بوظيفة الوقت .

قالوا : ولا سيما عند من يجعل الجمعة بدلا من الظهر ، فإنه إذا فاته البدل رجع إلى الأصل ، وهذا إن كان القضاء ثابتا بالإجماع أو بالنص ، وإن كان فيه خلاف ، أجبنا بالجواب المركب .

فنقول : إن كان ترك الجمعة مساويا لترك الصلاة حتى يخرج وقتها ، فالحكم في الصورتين واحد ، ولا فرق حينئذ عملا بما ذكرنا من الدليل ، وإن كان بينهما فرق مؤثر بطل الإلحاق ، فامتنع القياس . فعلى التقديرين بطل القياس .

قالوا : وأما تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الأحزاب إلى غروب الشمس : فللناس في هذا التأخير هل هو منسوخ أم لا ؟ قولان :

**فقال الجمهور** ـ كأحمد والشافعي ومالك : هذا كان قبل نزول صلاة الخوف ، ثم نسخ بصلاة الخوف ، وكان ذلك التأخير كتأخير صلاة الجمع بين الصلاتين ، فلا يجوز اعتبار الترك المحرم به ، ويكون الفرق بينهما كالفرق بين تأخير النائم والناسي ، وتأخير المفرط ، بل أولى . فإن هذا التأخير حينئذ مأمور به ، فهو كتأخير المغرب ليلة جمع إلى مزدلفة .

**القول الثانى** : أنه ليس بمنسوخ ، بل هو باق . وللمقاتل تأخير الصلاة حال القتال ، واشتغاله بالحرب والمسايفة ، وفعلها عند تمكنه منها ، وهذا قول أبى حنيفة ويذكر رواية عن أحمد .

وعلى التقديرين : فلا يصح إلحاق تأخير العامد المفرط به ، وكذلك تأخير الصحابة العصر يوم بنى قريظة ، فإنه كان تأخيرا مأمورا به عند طائفة من أهل العلم ، كأهل الظاهر ، أو تأخيرا سائغا للتأويل عند بعضهم ؛ ولهذا لم يعنف النبى ﷺ من صلاها فى الطريق فى وقتها ، ولا من أخرها إلى الليل حتى صلاها فى بنى قريظة ؛ لأن هؤلاء تمسكوا بظاهر الأمر ، وأولئك نظروا إلى المعنى والمراد منهم ، وهو سرعة السير .

واختلف علماء الإسلام فى تصويب أى الطائفتين :

فقالت طائفة : لو كنا مع القوم لصلينا فى الطريق مع الذين فهموا المراد ، وعقلوا مقصود الأمر ، فجمعوا بين إيقاع الصلاة فى وقتها وبين المبادرة إلى العدو ، ولم يفتهم مشهدهم ، إذ المقدار الذى سبقهم به أولئك لحقوهم به ، لما اشتغلوا بالصلاة وقت النزول فى بنى قريظة .

قالوا : فهؤلاء أفقه الطائفتين ، جمعوا بين الامتثال والاجتهاد ، والمبادرة إلى الجهاد ، مع فقه النفس .

وقالت طائفة : لو كنا معهم لأخرنا الصلاة مع الذين أخروها إلى بنى قريظة ، فهم الذين أصابوا حكم الله قطعا ، وكان هذا التأخير واجبا ، لأمر رسول الله ﷺ به فهو الطاعة لله ذلك اليوم خاصة ، والله يأمر بما يشاء ، فأمره بالتأخير فى وجوب الطاعة ، كأمره بالتقديم . فهؤلاء كانوا أسعد بالنص ، وهم الذين فازوا بالأجرين . وإنما لم يعنف الآخرين لأجل التأويل والاجتهاد ؛ فإنهم إنما قصدوا طاعة الله ورسوله ، وهم أهل الأجر الواحد ، وهم كالحاكم الذى يجتهد فيخطئ الحق .

والمقصود : أن إلحاق المفرط العاصى بالتأخير بهؤلاء فى غاية الفساد .

قالوا : وأما قولكم : « هذا تائب نادم ، فكيف تسد عليه طريق التوبة ويجعل إثم التضييع لازما له وطائرا فى عنقه ؟ » فمعاذ الله أن نسد عليه بابا فتحه الله لعباده المذنبين كلهم ، ولم يغلقه عن أحد إلى حين موته ، أو إلى وقت طلوع الشمس من مغربها ، وإنما الشأن فى طريق توبته وتحقيقها ، هل يتعين لها القضاء أم يستأنف العمل ، ويصير مامضى لا له ولا عليه ، ويكون حكمه حكم الكافر إذا أسلم فى استئناف العمل وقبول التوبة ؟ فإن ترك فريضة من فرائض الإسلام ، لا يزيد على ترك الإسلام بجملته وفرائضه ، فإذا

كانت توبة تارك الإسلام مقبولة صحيحة ، لا يشترط فى صحتها إعادة مافاته فى حال إسلامه ـ أصليا كان أو مرتدا ـ كما أجمع عليه الصحابة فى ترك أمر المرتدين ـ لما رجعوا إلى الإسلام بالقضاء ـ فقبول توبة تارك الصلاة وعدم توقفها على القضاء أولى ، والله أعلم .

## فصل

**وأما فى حقوق العباد** : فيتصور فى مسائل :

**إحداها** : من غصب أموالا ، ثم تاب وتعذر عليه ردها إلى أصحابها ، أو إلى ورثتهم ، لجهله بهم ، أو لانقراضهم ، أو لغير ذلك ، فاختلف فى توبة مثل هذا ؟

فقالت طائفة : لا توبة له إلا بأداء هذه المظالم إلى أربابها ، فإذا كان ذلك قد تعذر عليه ، فقد تعذرت عليه التوبة ، والقصاص أمامه يوم القيامة بالحسنات والسيئات ليس إلا .

قالوا : فإن هذا حق لآدمى لم يصل إليه ، والله ـ سبحانه ـ لا يترك من حقوق عباده شيئا ، بل يستوفيها لبعضهم من بعض ، ولا يجاوزه ظلم ظالم ، فلا بد أن يأخذ للمظلوم حقه من ظالمه ، ولو لطمة ، ولو كلمة ، ولو رمية بحجر .

قالوا : وأقرب مالهذا فى تدارك الفارط منه : أن يكثر من الحسنات ، ليتمكن من الوفاء منها يوم لا يكون الوفاء بدينار ولا بدرهم ، فيتجر تجارة يمكنه الوفاء منها ، ومن أنفع ما له : الصبر على ظلم غيره له وأذاه ، وغيبته وقذفه ، فلا يستوفى حقه فى الدنيا ، ولا يقابله ليحيل خصمه عليه إذا أفلس من حسناته ، فإنه كما يؤخذ منه عليه يستوفى أيضا ما له، وقد يتساويان ، وقد يزيد أحدهما عن الآخر .

ثم اختلف هؤلاء فى حكم مابيده من الأموال .

فقالت طائفة : يوقف أمرها ، ولا يتصرف فيها البتة .

وقالت طائفة : يدفعها إلى الإمام أو نائبه ؛ لأنه وكيل أربابها ، فيحفظها لهم ، ويكون حكمها حكم الأموال الضائعة .

وقالت طائفة أخرى : بل باب التوبة مفتوح لهذا ، ولم يغلقه الله عنه ، ولا عن مذنب . وتوبته : أن يتصدق بتلك الأموال عن أربابها . فإذا كان يوم استيفاء الحقوق ، كان لهم الخيار ، بين أن يجيزوا مافعل ، وتكون أجورها لهم ، وبين ألا يجيزوا ، ويأخذوا من حسناته بقدر أموالهم ، ويكون ثواب تلك الصدقة له . إذ لا يبطل الله سبحانه ثوابها،

ولا يجمع لأربابها بين العوض والمعوض ، فيغرمه إياها ، ويجعل أجرها لهم ، وقد غرم من حسناته بقدرها .

وهذا مذهب جماعة من الصحابة ، كما هو مروى عن ابن مسعود ، ومعاوية وحجاج ابن الشاعر . فقد روى أن ابن مسعود اشترى من رجل جارية ، ودخل يزن له الثمن ، فذهب رب الجارية ، فانتظره حتى يئس من عوده ، فتصدق بالثمن . وقال : اللهم هذا عن رب الجارية ، فإن رضى فالأجر له ، وإن أبى فالأجر لى ، وله من حسناتى بقدره . و غل رجل من الغنيمة ، ثم تاب ، فجاء بما غله إلى أمير الجيش ، فأبى أن يقبله منه ، وقال : كيف لى بإيصاله إلى الجيش ، وقد تفرقوا ؟ فأتى حجاج بن الشاعر فقال : ياهذا ، إن الله يعلم الجيش وأسماءهم وأنسابهم ، فادفع خمسه إلى صاحب الخمس ، وتصدق بالباقى عنهم ، فإن الله يوصل ذلك إليهم ـ أو كما قال ـ ففعل، فلما أخبر معاوية قال : لأن أكون أفتيتك بذلك أحب إلى من نصف ملكى (١) .

## فصل

**المسألة الثانية** : إذا عاوض غيره معاوضة محرمة ، وقبض العوض ـ كالزانية ، والمغنىّ ، وبائع الخمر ، وشاهد الزور ونحوهم ـ ثم تاب والعوض بيده ؟

فقالت طائفة : يرده إلى مالكه ، إذ هو عين ماله ، ولم يقبضه بإذن الشارع . ولا حصل لربه فى مقابلته نفع مباح .

وقالت طائفة : بل توبته بالتصدق به ، ولا يدفعه إلى من أخذه منه ، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية . وهو أصوب القولين . فإن قابضه إنما قبضه ببذل مالكه له ، ورضاه ببذله ، وقد استوفى عوضه المحرم . فكيف يجمع له بين العوض والمعوض ؟ وكيف يرد عليه مالا قد استعان به على معاصى الله ، ورضى بإخراجه فيما يستعين به عليها ثانيا وثالثا ؟ وهل هذا إلا محض إعانته على الإثم والعدوان ؟ وهل يناسب هذا محاسن الشرع : أن يقضى للزانى بكل مادفعه إلى من زنى بها ، ويؤخذ منها ذلك طوعا أو كرها ، فيعطاه وقد نال عوضه ؟

وهب أن هذا المال لم يملكه الآخذ ، فملك صاحبه قد زال عنه بإعطائه لمن أخذه . وقد سلم له مافى قبالته من النفع ، فكيف يقال : ملكه باق عليه ، ويجب رده إليه ؟

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٧٤ ـ ٣٨٨) .

وهذا بخلاف أمره بالصدقة به . فإنه قد أخذه من وجه خبيث برضى صاحبه وبذله له بذلك ، وصاحبه قد رضى بإخراجه عن ملكه بذلك ، وألا يعود إليه ، فكان أحق الوجوه به : صرفه فى المصلحة التى ينتفع بها من قبضه ويخفف عنه الإثم ، ولا يقوى الفاجر به ويعان ، ويجمع له بين الأمرين .

وهكذا توبة من اختلط ماله الحلال بالحرام ، وتعذر عليه تمييزه : أن يتصدق بقدر الحرام ، ويطيب باقى ماله ، والله أعلم .

## فصل

إذا غصب مالا ومات ربه ، وتعذر رده عليه ، تعين عليه رده إلى وارثه . فإن مات الوارث رده إلىّ وارثه ، وهلم جرا . فإن لم يرده إلى ربه ، ولا إلى أحد ورثته فهل تكون المطالبة به فى الآخرة للموروث ، إذ هو ربه الأصلى ، وقد غصبه عليه ، أو للوارث الأخير ، إذ الحق قد انتقل إليه ؟

فيه قولان للفقهاء ، وهما وجهان فى مذهب الشافعى .

ويحتمل أن يقال : المطالبة للموروث ، ولكل واحد من الورثة ، إذ كل منهم قد كان يستحقه ، ويجب عليه الدفع إليه ، فقد ظلمه بترك إعطائه ماوجب عليه دفعه إليه ، فيتوجه عليه المطالبة فى الآخرة له .

فإن قيل : فكيف يتخلص بالتوبة من حقوق هؤلاء ؟

قيل طريق التوبة : أن يتصدق عنهم بمال تجرى منافع ثوابه عليهم بقدر ما فات كل واحد منهم من منفعة ذلك المال لو صار إليه ، متحريا للممكن من ذلك . وهكذا لو تطاولت على المال سنون ، وقد كان يمكن ربه أن ينميه بالربح . فتوبته بأن يخرج المال ومقدار ما فوته من ربح ماله .

فإن كان قد ربح فيه بنفسه ، فقيل : الربح كله للمالك ، وهو قول الشافعى وظاهر مذهب أحمد رحمهما الله .

وقيل : كله للغاصب ، وهو مذهب أبى حنيفة ومالك ـ رحمهما الله .

وكذلك لو أودعه مالا فاتجر به وربح، فربحه له دون مالكه عندهما ، وضمانه عليه .

وفيها قول ثالث : أنهما شريكان فى الربح ، وهو رواية عن أحمد ـ رحمه الله . واختيار شيخنا ـ رحمه الله ـ وهو أصح الأقوال ، فتضم حصة المالك من الربح إلى أصل

المال ، ويتصدق بذلك .

وهكذا لو غصب ناقة أو شاة ، فنتجت أولادا ، فقيل : أولادها كلها للمالك ، فإن ماتت ـ أو شيء من النتاج ـ رد أولادها وقيمة الأم وما مات من النتاج ، هذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عند أصحابه .

وقال مالك : إذا ماتت فربها بالخيار بين أخذ قيمتها يوم ماتت وترك نتاجها للغاصب ، وبين أخذ نتاجها وترك قيمتها . وعلى القول الثالث الراجح : يكون عليه قيمتها ، وله نصف النتاج ، والله أعلم (١) .

## فصل

**ومن أحكامها** (٢) : أنها إذا كانت متضمنة لحق آدمي : أن يخرج التائب إليه منه ، إما بأدائه وإما باستحلاله منه بعد إعلامه به ، وإن كان حقا ماليا أو جناية على بدنه أو بدون موروثه ، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض ، فليتحلله اليوم ، قبل ألا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات » (٣) .

وإن كانت المظلمة بقدح فيه ، بغيبة أو قذف : فهل يشترط في توبته منها إعلامه بذلك بعينه والتحلل منه ؟ أو إعلامه بأنه قد نال من عرضه ، ولا يشترط تعيينه ، أو لا يشترط لا هذا ولا هذا ، بل يكفي في توبته أن يتوب بينه وبين الله من غير إعلام من قذفه واغتابه ؟ على ثلاثة أقوال .

وعن أحمد روايتان منصوصتان في حد القذف ، هل يشترط في توبة القاذف : إعلام المقذوف ، والتحلل منه أم لا ؟ ويخرج عليهما توبة المغتاب والشاتم .

والمعروف في مذهب الشافعي ، وأبي حنيفة ، ومالك : اشتراط الإعلام والتحلل . هكذا ذكره أصحابهم في كتبهم .

والذين اشترطوا ذلك احتجوا بأن الذنب حق آدمي : فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٩٠ ـ ٣٩٢) .

(٢) أي : التوبة .

(٣) الترمذي (٢٤١٩) في صفة القيامة والرقائق والورع ،باب:ما جاء في شأن الحساب والقصاص ، وقال : « حسن صحيح غريب » ، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٦٤١) .

ثم من لم يصحح البراءة من الحق المجهول شرط إعلامه بعينه ، لا سيما إذا كان من عليه الحق عارفا بقدره ، فلا بد من إعلام مستحقه به ؛ لأنه قد لا تسمح نفسه بالإبراء منه إذا عرف قدره .

واحتجوا بالحديث المذكور ، وهو قوله ﷺ : « من كان لأخيه عنده مظلمة ـ من مال أو عرض ـ فليتحلله اليوم »[1] .

قالوا : ولأن فى هذه الجناية حقين : حقا لله ، وحقا للآدمى ، فالتوبة منها بتحلل الآدمى لأجل حقه ، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه .

قالوا : ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتمكين ولى الدم من نفسه ، إن شاء اقتص وإن شاء عفا ، وكذلك توبة قاطع الطريق .

والقول الآخر : أنه لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه ، بل يكفى توبته بينه وبين الله ،وأن يذكر المغتاب والمقذوف فى مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة ، فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه ، وذكر محاسنه ، وقذفه بذكر عفته وإحصانه ، ويستغفر له بقدر ما اغتابه .

وهذا اختيار شيخنا أبى العباس ابن تيمية قدّس الله روحه .

واحتج أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة ، لا تتضمن مصلحة فإنه لا يزيده إلا أذى وحنقا وغما ، وقد كان مستريحا قبل سماعه ، فإذا سمعه ربما لم يصبر على حمله ، وأورثته ضررا فى نفسه أو بدنه ، كما قال الشاعر :

فإن الذى يؤذيك منه سماعه ... وإن الذى قالوا وراءك لم يقل

وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه ، فضلا عن أن يوجبه ويأمر به .

قالوا : وربما كان إعلامه به سببا للعداوة والحرب بينه وبين القائل ، فلا يصفو له أبدا ، ويورثه علمه به عداوة وبغضاء مولدة لشر أكبر من شر الغيبة والقذف ، وهذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب ، والتراحم والتعاطف والتحابب .

قالوا : والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنايات الأبدان من وجهين :

**أحدهما** : أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه ، فلا يجوز إخفاؤها عنه ، فإنه محض حقه ، فيجب عليه أداؤه إليه . بخلاف الغيبة والقذف ، فإنه ليس هناك شئ ينفعه يؤديه إليه إلا

---

(١) سبق تخريجه ص ٨٤ .

إضراره وتهييجه فقط ، فقياس أحدهما على الآخر من أفسد القياس .

**والثانى** : أنه إذا أعلمه بها لم تؤذه ، ولم تهج منها غضبا ولا عداوة ، بل ربما سره ذلك وفرح به . بخلاف إعلامه بما مزق به عرضه طول عمره ليلا ونهارا ، من أنواع القذف والغيبة والهجو ، فاعتبار أحدهما بالآخر اعتبار فاسد ، وهذا هو الصحيح فى القولين كما رأيت ، والله أعلم (١) .

## فصل

اختلف الناس : هل من الذنوب ذنب لا تقبل توبته أم لا ؟

فقال الجمهور : التوبة تأتى على كل ذنب ، فكل ذنب يمكن التوبة منه وتقبل .

وقالت طائفة: لا توبة للقاتل، وهذا مذهب ابن عباس المعروف عنه ، وإحدى الروايتين عن أحمد . وقد ناظر ابن عباس فى ذلك أصحاب، فقالوا: « أليس قد قال الله تعالى فى سورة الفرقان : ﴿ **وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ** ﴾ إلى أن قال : ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠)** ﴾؟ فقال : كانت هذه الآية فى الجاهلية ، وذلك أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وزنوا، فأتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : إن الذى تدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة ، فنزل : ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ** ﴾ الآية ، فهذه فى أولئك ، وأما التى فى سورة النساء وهى قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)** ﴾ [ الآية ] ، فالرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه ، ثم قتل ، فجزاؤه جهنم » (٢) وقال زيد بن ثابت : « لما نزلت التى فى الفرقان : ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ** ﴾ عجبنا من لينها ، فلبثنا سبعة أشهر ، ثم نزلت الغليظة بعد اللينة فنسخت اللينة » وأراد بالغليظة : هذه الآية التى فى سورة النساء ، وباللينة : آية الفرقان . قال ابن عباس : « آية الفرقان مكية ، وآية النساء مدنية ، نزلت ولم ينسخها شىء » .

قال هؤلاء : ولأن التوبة من قتل المؤمن عمدا متعذرة ، إذ لا سبيل إليها إلا باستحلاله ، أو إعادة نفسه ـ التى فوتها عليه ـ إلى جسده ، إذ التوبة من حق الآدمى لا تصح إلا بأحدهما ، وكلاهما متعذر على القاتل ، فكيف تصح توبته من حق آدمى لم يصل إليه ، ولم يستحله منه ؟

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٨٩ ـ ٢٩١) .

(٢) البخارى (٣٨٥٥) فى مناقب الأنصار ، باب : مالقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة .

ولا يرد عليهم هذا فى المال إذا مات ربه ولم يوفه إياه ؛ لأنه يتمكن من إيصال نظيره إليه بالصدقة .

قالوا : ولا يرد علينا أن الشرك أعظم من القتل ، وتصح التوبة منه ، فإن ذلك محض حق الله ، فالتوبة منه ممكنة ، وأما حق الآدمى : فالتوبة موقوفة على أدائه إليه واستحلاله ، وقد تعذر .

واحتج الجمهور بقوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)** ﴾ [ الزمر ] فهذه فى حق التائب ، وبقوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [ النساء : ٤٨ ] فهذه فى حق غير التائب ؛ لأنه فرق بين الشرك وما دونه ، وعلق المغفرة بالمشيئة ، فخصص وعلق ، وفى التى قبلها عم وأطلق .

واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢)** ﴾ [ طه ] ، فإذا تاب هذا القاتل وآمن وعمل صالحا ، فإن الله عز وجل غفار له .

قالوا : وقد صح عن النبى ﷺ حديث الذى قتل المائة ثم تاب فنفعته توبته ، وألحق بالقرية الصالحة التى خرج إليها [١] . وصح عنه ﷺ ـ من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال ـ وحوله عصابة من أصحابه : « بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا ، فعوقب به فى الدنيا ، فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه فهو إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك » [٢] .

قالوا : وقد قال ﷺ ـ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : « ابن آدم ، لو لقيتنى بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا، لقيتك بقرابها مغفرة » [٣] ، وقال ﷺ :

---

(١) البخارى (٣٤٧٠) فى الأنبياء ، باب : (٥٤) ، ومسلم (٢٧٦٦ / ٤٦) فى التوبة ، باب : قبول توبة القاتل وإن كثر قتله .

(٢) البخارى (٧٢١٣) فى الأحكام ، باب : بيعة النساء ، ومسلم (١٧٠٩ / ٤١) فى الحدود ، باب : الحدود كفارات لأهلها .

(٣) الترمذى (٣٥٤٠) فى الدعوات ، باب : فى فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده ، وقال : « حديث غريب » ، وصححه الألبانى السلسلة الصحيحة (١٢٧ ، ١٢٨ ) .

« من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » (١) ، وقال : « من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله دخل الجنة » (٢) ، وقال : « إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغى بذلك وجه الله » (٣) ، وفى حديث الشفاعة : « أخرجوا من النار من فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » ، وفيه يقول الله تعالى : « وعزتى وجلالى ، لأخرجن من النار من قال : لا إله إلا الله » (٤) ، وأضعاف هذه النصوص كثير ، تدل على أنه لا يخلد فى النار أحد من أهل التوحيد .

قالوا : وأما هذه الآية التى فى النساء : فهى نظائر أمثالها من نصوص الوعيد كقوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ** (١٤) ﴾ ، وقوله : ﴿ **وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** (٢٣) ﴾ [ الجن ] ، وقوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** (١٠) ﴾ [النساء] ، وقوله ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة فحديدته يتوجأ بها خالدا مخلدا فى نار جهنم » (٥) ونظائره كثيرة .

وقد اختلف الناس فى هذه النصوص على طرق :

**أحدها** : القول بظاهرها ، وتخليد أرباب هذه الجرائم فى النار ، وهو قول الخوارج والمعتزلة ، ثم اختلفوا .

فقالت الخوارج : هم كفار ؛ لأنه لا يخلد فى النار إلا كافر . وقالت المعتزلة : ليسوا بكفار ، بل فساق ، مخلدون فى النار ، هذا كله إذا لم يتوبوا .

**وقالت فرقة** : بل هذا الوعيد فى حق المستحل لها . لأنه كافر ، وأما من فعلها معتقدا تحريمها : فلا يلحقه هذا الوعيد ـ وعيد الخلود ـ وإن لحقه وعيد الدخول .

وقد أنكر الإمام أحمد هذا القول ، وقال : لو استحل ذلك ولم يفعله كان كافرا ،

---

(١) البخارى (١٢٣٧ ، ١٢٣٨) فى الجنائز ، باب : فى الجنائز من كان آخر كلامه لا إله إلا الله ، ومسلم (٩٢ / ١٥٠ )، ( ٩٤ / ١٥٣) فى الإيمان ، باب : من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة .

(٢) أبو داود (٣١١٦) فى الجنائز ، باب : فى التلقين ، وأحمد (٥ / ٢٣٣ ، ٢٤٧) ، والحاكم فى المستدرك (١ / ٣٥١) فى الجنائز ، من كان آخر كلامه لا إله إلا الله ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى.

(٣) الحاكم فى المستدرك (١/ ٧٢) فى الإيمان، من قال لا إله إلا الله حقا من قلبه حرمه الله على النار، وقال: « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

(٤) البخارى (٢٢) فى الإيمان ، باب : تفاضل أهل الإيمان ، ومسلم (١٨٣ / ٣٠٢) فى الإيمان ، باب : معرفة طريق الرؤية .

(٥) البخارى (١٣٦٥) فى الجنائز ، باب : ما جاء فى قاتل النفس ، ومسلم (١٠٩ / ١٧٥) فى الإيمان ، باب : غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وأن من قتل نفسه بشىء عذب به فى النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة .

والنبى ﷺ إنما قال : من فعل كذا وكذا .

**وقالت فرقة ثالثة** : الاستدلال بهذه النصوص مبنى على ثبوت العموم ، وليس فى اللغة ألفاظ عامة . ومن هاهنا أنكر العموم من أنكره ، وقصدهم تعطيل هذه الأدلة عن استدلال المعتزلة والخوارج بها ، لكن ذلك يستلزم تعطيل الشرع جملة ، بل تعطيل عامة الأخبار ، فهؤلاء ردوا باطلا بأبطل منه ، وبدعة بأقبح منها ، وكانوا كمن رام أن يبنى قصرا فهدم مصرا .

**وقالت فرقة رابعة** : فى الكلام إضمار. قالوا : والإضمار فى كلامهم كثير معروف .

ثم اختلفوا فى هذا المضمر،فقالت طائفة :بإضمار الشرط ، والتقدير : فجزاؤه كذا ، إن جازاه ، أو إن شاء .

**وقالت فرقة خامسة** : بإضمار الاستثناء ، والتقدير : فجزاؤه كذا إلا أن يعفو . وهذه دعوى لا دليل فى الكلام عليها البتة ، ولكن إثباتها بأمر خارج عن اللفظ .

**وقالت فرقة سادسة** : هذا وعيد ، وإخلاف الوعيد لا يذم ، بل يمدح ، والله تعالى يجوز عليه إخلاف الوعيد ، ولا يجوز عليه خلف الوعد . والفرق بينهما : أن الوعيد حقه ، فإخلافه عفو وهبة وإسقاط ، وذلك موجب كرمه وجوده وإحسانه ، والوعد حق عليه ، أوجبه على نفسه ، والله لا يخلف الميعاد .

قالوا : ولهذا مدح به كعب بن زهير رسول الله ﷺ ، حيث يقول :

نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول

وتناظر فى هذه المسألة أبو عمرو بن العلاء ، وعمرو بن عبيد ، فقال عمرو بن عبيد : يا أبا عمرو ، لا يخلف الله وعده . وقد قال : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ [ النساء : ٩٣ ] الآية ، فقال له أبو عمرو : ويحك ياعمرو ، من العجمة أتيت ، إن العرب لا تعد إخلاف الوعيد ذما ، بل جودا وكرما ، أما سمعت قول الشاعر :

ولا يرهب ابن العم ما عشت صولتى ... ولا يختشى من سطوة المتهدد

وإنى إن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

**وقالت فرقة سابعة** : هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضى للعقوبة ، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده ، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء مانعه ، وغاية هذه النصوص : الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتض لها وقد قام الدليل على ذكر الموانع ، فبعضها بالإجماع ، وبعضها بالنص . فالتوبة مانع بالإجماع ، والتوحيد مانع بالنصوص

المتواترة التى لا مدفع لها ، والحسنات العظيمة الماحية مانعة ، والمصائب الكبار المكفرة مانعة ، وإقامة الحدود فى الدنيا مانع بالنص ، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص ، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين .

ومن هاهنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات ، اعتبارا بمقتضى العقاب ومانعه ، وإعمالا لأرجحها .

قالوا : وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما ، وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية ، والأحكام القدرية ، وهو مقتضى الحكمة السارية فى الوجود ، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقا وأمرا ، وقد جعل الله - سبحانه - لكل ضد ضدا يدافعه ويقاومه ، ويكون الحكم للأغلب منهما ، فالقوة مقتضية للصحة والعافية ، وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل الطبيعة وفعل القوة ، والحكم للغالب منهما ، وكذلك قوى الأدوية والأمراض . والعبد يكون فيه مقتض للصحة ومقتض للعطب ، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه ، فإذا ترجح عليه وقهره كان التأثير له .

ومن هاهنا يعلم انقسام الخلق إلى من يدخل الجنة ، ولا يدخل النار وعكسه ، ومن يدخل النار ، ثم يخرج منها ، ويكون مكثه فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث فى سرعة الخروج وبطئه .

ومن له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر الله به فى كتابه من أمر المعاد وتفاصيله ، حتى كأنه يشاهده رأى عين ، ويعلم أن هذا هو مقتض إلهيته سبحانه وربوبيته وعزته وحكمته ، وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك . ونسبة خلاف ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه، فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره ، وهذا يقين الإيمان ، وهو الذى يحرق السيئات كما تحرق النار الحطب .

وصاحب هذا المقام من الإيمان : يستحيل إصراره على السيئات ، وإن وقعت منه وكثرت ، فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله بعدد أنفاسه ، وهذا من أحب الخلق إلى الله .

فهذه مجامع طرق الناس فى نصوص الوعيد .

## فصل

واختلفوا فيما إذا تاب القاتل وسلم نفسه ، فقتل قصاصا ، هل يبقى عليه يوم القيامة للمقتول حق ؟

فقالت طائفة : لا يبقى عليه شىء ؛ لأن القصاص حده ، والحدود كفارة لأهلها ، وقد استوفى ورثة المقتول حق موروثهم ، وهم قائمون مقامه فى ذلك ، فكأنه قد استوفاه بنفسه ، إذ لا فرق بين استيفاء الرجل حقه بنفسه أو بنائبه ووكيله .

يوضح هذا : أنه أحد الجنايتين ، فإذا استوفيت منه لم يبق عليه شىء ، كما لو جنى على طرفه فاستقاد منه ، فإنه لا يبقى له عليه شىء .

وقالت طائفة : المقتول قد ظلم ، وفاتت عليه نفسه ، ولم يستدرك ظلامته ، والوارث إنما أدرك ثأر نفسه ، وشفاء غيظه ، وأى منفعة حصلت للمقتول بذلك ؟ وأى ظلامة استوفاها من القاتل ؟

قالوا : فالحقوق فى القتل ثلاثة : حق لله ، وحق للمقتول ، وحق للوارث .

فحق الله : لا يزول إلا بالتوبة ، وحق الوارث : قد استوفاه بالقتل ، وهو مخير بين ثلاثة أشياء : بين القصاص ، والعفو مجانا ، أو إلى مال ، فلو أحله ، أو أخذ منه مالا لم يسقط حق المقتول بذلك ، فكذلك إذا اقتص منه ؛ لأنه أحد الطرق الثلاثة فى استيفاء حقه، فكيف يسقط حق المقتول بواحد منها دون الآخرين ؟

قالوا : ولو قال القتيل : لا تقتلوه لأطالبه بحقى يوم القيامة ، فقتلوه ، أكان يسقط حقه ولم يسقطه ؟ فإن قلتم : يسقط ، فباطل ؛ لأنه لم يرض بإسقاطه ، وإن قلتم : لا يسقط ، فكيف تسقطونه إذا اقتص منه ، مع عدم العلم برضا المقتول بإسقاط حقه ؟

وهذه حجج ـ كما ترى ـ فى القوة لا تندفع إلا بأقوى منها أو بأمثالها .

فالصواب ـ والله أعلم ـ أن يقال : إذا تاب القاتل من حق الله ، وسلم نفسه طوعا إلى الوارث ليستوفى منه حق موروثه : سقط عنه الحقان ، وبقى حق الموروث لا يضيعه الله ، ويجعل من تمام مغفرته للقاتل تعويض المقتول ؛ لأن مصيبته لم تنجبر بقتل قاتله. والتوبة النصوح تهدم ماقبلها ، فيعوض هذا عن مظلمته ، ولا يعاقب هذا لكمال توبته ، وصار هذا كالكافر المحارب لله ولرسوله إذا قتل مسلما فى الصف ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، فإن الله ـ سبحانه ـ يعوض هذا الشهيد المقتول ، ويغفر للكافر بإسلامه ، ولا يؤاخذه بقتل المسلم ظلما ، فإن هدم التوبة لما قبلها كهدم الإسلام لما قبله .

وعلى هذا إذا سلم نفسه وانقاد ، فعفا عنه الولى ، وتاب القاتل توبة نصوحا ، فالله تعالى يقبل توبته ، ويعوض المقتول .

فهذا الذى يمكن أن يصل إليه نظر العالم واجتهاده ، والحكم بعد ذلك لله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [ النمل ] (١) .

(١) مدارج السالكين ( ١ / ٣٩٢ ـ ٣٩٩ ) .

## فصل

إن توبة القاذف : إكذابه نفسه ؛ لأنه ضد الذنب الذى ارتكبه ، وهتك به عرض المسلم المحصن . فلا تحصل التوبة منه إلا بإكذابه نفسه ، لينتفى عن المقذوف العار الذى ألحقه به بالقذف ، وهو مقصود التوبة .

وأما من قال : إن توبته أن يقول : « أستغفر الله » من القذف ، ويعترف بتحريمه ، فقول ضعيف ؛ لأن هذا لا مصلحة فيه للمقذوف ، ولا يحصل له به براءة عرضه مما قذفه به ، فلا يحصل به مقصود التوبة من هذا الذنب . فإن فيه حقين : حقا لله ، وهو تحريم القذف ، فتوبته منه باستغفاره ، واعترافه بتحريم القذف ، وندمه عليه ، وعزمه على أن لا يعود . وحقا للعبد ، وهو إلحاق العار به ، فتوبته منه بتكذيبه نفسه ، فالتوبة من هذا الذنب بمجموع الأمرين .

فإن قيل : إذا كان صادقا قد عاين الزنا ، فأخبر به ، فكيف يسوغ له تكذيب نفسه وقذفها بالكذب ، ويكون ذلك من تمام توبته ؟

قيل : هذا هو الإشكال الذى قال صاحب هذا القول لأجله ماقال : إن توبته الاعتراف بتحريم القذف والاستغفار منه . وهو موضع يحتاج فيه إلى بيان الكذب الذى حكم الله به على القاذف ، وأخبر أنه كاذب عنده ، ولو كان خبره مطابقا للواقع ، فنقول :

الكذب يراد به أمران :

**أحدهما** : الخبر غير المطابق لمخبره ، وهو نوعان : كذب عمد ، وكذب خطأ . فكذب العمد معروف ، وكذب الخطأ ككذب أبى السنابل بن بعكك فى فتواه للمتوفى عنها إذا وضعت حملها : « أنها لا تحل حتى تتم لها أربعة أشهر وعشرا » ، فقال النبى ﷺ : « كذب أبو السنابل » (١) ، ومنه قوله ﷺ : « كذب من قالها » (٢) لمن قال : « حبط عمل عامر ، حيث قتل نفسه خطأ » ، ومنه قول عبادة بن الصامت : « كذب أبو محمد » حيث قال : « الوتر واجب » (٣) ، فهذا كله من كذب الخطأ ، ومعناه : « أخطأ » قائل ذلك .

---

(١) أحمد (١ / ٤٤٧) ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥ / ٥ ، ٦) فى الصلاق ، باب : العدة : « رجاله رجال الصحيح » ، وقال العلامة أحمد شاكر (٤٢٧٣) : « إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٤١٩٦) فى المغازى ، باب : غزوة خيبر ، ومسلم (١٨٠٢ / ١٢٣) فى الجهاد والسير ، باب : غزوة خيبر .

(٣) أبو داود (١٤٢٠) فى الصلاة ، باب : فيمن لم يوتر ، والموطأ (١ / ١٢٣) (١٤) فى صلاة الليل ، باب : الأمر بالوتر ، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١ / ١٣٨) ، والسنة لابن أبى عاصم رقم (٩٦٧) .

**والثانى** : من أقسام الكذب : الخبر الذى لا يجوز الإخبار به ، وإن كان خبره مطابقا لمخبره ، كخبر القاذف المنفرد برؤية الزنا ، والإخبار به ، فإنه كاذب فى حكم الله ، وإن كان خبره مطابقا لمخبره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ** ﴿١٣﴾ ﴾ [ النور ] فحكم الله فى مثل هذا : أن يعاقب عقوبة المفترى الكاذب ، وإن كان خبره مطابقا ، وعلى هذا فلا تتحقق توبته حتى يعترف بأنه كاذب عند الله ، كما أخبر الله تعالى به عنه ، فإذا لم يعترف بأنه كاذب وجعله الله كاذبا ، فأى توبة له ؟ وهل هذا إلا محض الإصرار والمجاهرة بمخالفة حكم الله الذى حكم به عليه ؟

## فصل

واختلف فى توبة السارق إذا قطعت يده ، هل من شرطها : ضمان العين المسروقة لربها ؟

وأجمعوا على أن من شرط صحة توبته : أداؤها إليه ، إذا كانت موجودة بعينها ، وإنما اختلفوا إذا كانت تالفة ، فقال الشافعى وأحمد : من تمام توبته : ضمانها لمالكها ، ويلزمه ذلك ، موسرا كان أو معسرا . وقال أبو حنيفة : إذا قطعت يده ـ وقد استهلكت العين ـ لم يلزمه ضمانها ، ولا تتوقف صحة توبته على الضمان ؛ لأن قطع اليد هو مجموع الجزاء ، والتضمين عقوبة زائدة عليه لا تشرع .

قال : وهذا بخلاف ما إذا كانت العين قائمة . فإن صاحبها قد وجد عين ماله فلم يكن أخذها عقوبة ثانية ، بخلاف التضمين ، فإنه غرامة ، وقد قطع طرفه . فلا نجمع عليه غرامة الطرف وغرامة المال (١) .

## فصل

**ومن أحكامها** (٢) : أن العبد إذا تاب من الذنب : فهل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التى حطه عنها الذنب ، أو لا يرجع إليها ؟ اختلف فى ذلك .

فقالت طائفة : يرجع إلى درجته ؛ لأن التوبة تجب الذنب بالكلية ، وتصيره كأن لم يكن . والمقتضى لدرجته : ما معه من الإيمان والعمل الصالح ، فعاد إليها بالتوبة .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٦٣ ـ ٣٦٥) .

(٢) أى : التوبة .

قالوا : لأن التوبة حسنة عظيمة وعمل صالح ، فإذا كان ذنبه قد حطه عن درجته ، فحسنته بالتوبة رقته إليها ، وهذا كمن سقط فى بئر ، وله صاحب شفيق ، أدلى إليه حبلا تمسك به حتى رقى منه إلى موضعه . فهكذا التوبة والعمل الصالح مثل هذا القرين الصالح ، والأخ الشفيق .

وقالت طائفة : لا يعود إلى درجته وحاله ؛ لأنه لم يكن فى وقوف ، وإنما كان فى صعود . فبالذنب صار فى نزول وهبوط ، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذى كان مستعدا به للترقى .

قالوا : ومثل هذا مثل رجلين سائرين على طريق سيرا واحدا ، ثم عرض لأحدهما مارده على عقبه أو أوقفه ، وصاحبه سائر ، فإذا استقال هذا رجوعه ووقفته ، وسار بإثر صاحبه : لم يلحقه أبدا ؛ لأنه كلما سار مرحلة تقدم ذاك أخرى .

قالوا : والأول يسير بقوة أعماله وإيمانه ، وكلما ازداد سيرا ازدادت قوته ، وذلك الواقف الذى رجع قد ضعفت قوة سيره وإيمانه بالوقوف والرجوع .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يحكى هذا الخلاف ، ثم قال : والصحيح : أن من التائبين من لا يعود إلى درجته ، ومنهم من يعود إليها ، ومنهم من يعود إلى أعلى منها ، فيصير خيرا مما كان قبل الذنب ، وكان داود بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة .

قال : وهذا بحسب حال التائب بعد توبته ، وجده وعزمه ، وحذره وتشميره فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيرا مما كان وأعلى درجة ، وإن كان مثله عاد إلى مثل حاله ، وإن كان دونه لم يعد إلى درجته ، وكان منحطا عنها ، وهذا الذى ذكره هو فصل النزاع فى هذه المسألة .

ويتبين هذا بمثلين مضروبين :

**أحدهما** : رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمن ، فهو يعدو مرة ويمشى أخرى ، ويستريح تارة وينام أخرى ، فبينا هو كذلك إذ عرض له فى سيره ظل ظليل ، وماء بارد ومقيل ، وروضة مزهرة . فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن ، فنزل عليها ، فوثب عليه منها عدو ، فأخذه وقيده وكتفه ومنعه عن السير ، فعاين الهلاك ، وظن أنه منتطع به ، وأنه رزق الوحوش والسباع ، وأنه قد حيل بينه وبين مقصده الذى يؤمه ، فبينا هو على ذلك تتقاذفه الظنون ، إذ وقف على رأسه والده الشفيق القادر ، فحل كتافه وقيوده ، وقال له : اركب الطريق واحذر هذا العدو ، فإنه على منازل الطريق لك بالمرصاد ، واعلم

أنك مادمت حاذرا منه ، متيقظا له لا يقدر عليك ، فإذا غفلت وثب عليك ، وأنا متقدمك إلى المنزل ، وفرط لك فاتبعنى على الأثر .

فإن كان هذا السائر كيسا فطنا لبيبا ، حاضر الذهن والعقل ، استقبل سيره استقبالا آخر ، أقوى من الأول وأتم ، واشتد حذره ، وتأهب لهذا العدو ، وأعد له عدته ، فكان سيره الثانى أقوى من الأول ، وخيرا منه ، ووصوله إلى المنزل أسرع ، وإن غفل عن عدوه وعاد إلى مثل حاله الأول ، من غير زيادة ولا نقصان ولا قوة حذر ولا استعداد ، عاد كما كان . وهو معرض لما عرض له أولا .

وإن أورثه ذلك توانيا فى سيره وفتورا ، وتذكرا لطيب مقيله ، وحسن ذلك الروض أو عذوبة مائه ، وتفيؤ ظلاله ، وسكونا بقلبه إليه : لم يعد إلى مثل سيره ونقص عما كان .

**المثل الثانى** : عبد فى صحة وعافية جسم ، عرض له مرض أوجب له حمية وشرب دواء وتحفظا من التخليط ، ونقص بذلك مادة ردية كانت منقصة لكمال قوته وصحته ، فعاد بعد المرض أقوى مما كان قبله ، كما قيل :

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل

وإن أوجب له ذلك المرض ضعفا فى القوة ، وتداركه بمثل ما نقص من قوته ، عاد إلى مثل ما كان .

وإن تداركه بدون مانقص من قوته ، عاد إلى دون ما كان عليه من القوة ، وفى هذين المثلين كفاية لمن تدبرهما .

وقد ضرب لذلك مثل آخر برجل خرج من بيته يريد الصلاة فى الصف الأول ، لا يلوى على شىء فى طريقه ، فعرض له رجل من خلفه جبذ ثوبه وأوقفه قليلا ، يريد تعويقه عن الصلاة ، فله معه حالان :

**أحدهما** : أن يشتغل به حتى تفوته الصلاة ، فهذه حال غير التائب .

**الثانى** : أن يجاذبه على نفسه ، ويتفلت منه ، لئلا تفوته الصلاة .

ثم له بعد هذا التفلت ثلاثة أحوال :

**أحدهما** : أن يكون سيره جمزا ووثبا ، ليستدرك ما فاته بتلك الوقفة ، فربما استدركه وزاد عليه .

**الثانى** : أن يعود إلى مثل سيره .

**الثالث** : أن تورثه تلك الوقفة فتورا وتهاونا ، فيفوته فضيلة الصف الأول ، أو فضيلة

الجماعة وأول الوقت ، فهكذا حال التائبين السائرين سواء (١) .

## وأيضا

إن العبد إذا كان له حال أو مقام مع الله ثم نزل عنه إلى ذنب ارتكبه ثم تاب من ذنبه ، هل يعود إلى مثل ما كان ؟ أو لا يعود ، بل إن رجع رجع إلى أنزل من مقامه وأنقص من رتبته ؟ أو يعود خيرا مما كان ؟

فقالت طائفة : يعود بالتوبة إلى مثل حاله الأولى ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وإذا محى أثر الذنب بالتوبة صار وجوده كعدمه فكأنه لم يكن ، فيعود إلى مثل حاله .

قالوا : ولأن التوبة هى الرجوع إلى الله بعد الإباق منه ، فإن المعصية إباق العبد من ربه ، فإذا تاب إلى الله فقد رجع إليه ، وإذا كان مسمى التوبة هو الرجوع ، فلو لم يعد إلى حالته الأولى مع الله لم تكن توبته تامة ، والكلام إنما هو فى التوبة النصوح .

قالوا : ولأن التوبة كما ترفع أثر الذنب فى الحال بالإقلاع عنه وفى المستقبل بالعزم على ألا يعود فكذلك ترفع أثره فى الماضى جملة ، ومن أثره فى الماضى انحطاط منزلته عند الله ونقصانه عنده ، فلا بد من ارتفاع هذا الأثر بالتوبة ، وإذا ارتفع بها عاد إلى مثل حاله .

قالوا : ولأنه لو بقى نازلا من مرتبته منحطا عن منزلته بعد التوبة كما كان قبلها لم تكن التوبة قد محت أثر الذنب ولا أفادت فى الماضى شيئا ، وإن عاد إلى دون منزلته ولم يبلغها فبلوغه تلك الدرجة إنما كان بالتوبة ، فلو ضعف تأثير التوبة عن إعادته إلى منزلته الأولى لضعف عن تبليغه تلك المنزلة التى وصل إليها ، وإن لم تكن التوبة ضعيفة التأثير عن تبليغه تلك المنزلة لم تكن ضعيفة التأثير عن إعادته إلى المنزلة الأولى .

قالوا : وأيضا ، ربط ـ سبحانه ـ الجزاء بالأعمال ربط الأسباب بمسبباتها ، فالجزاء من جنس العمل ، فكما رجع التائب إلى الله بقلبه رجوعا تاما رجع الله عليه بمنزلته وحاله ، بل مارجع العبد إلى الله حتى رجع الله بقلبه إليه أولا فرجع الله إليه وتاب عليه ثانيا ، فتوبة العبد محفوفة بتوبتين من الله : توبة منه إذنا وتمكينا فتاب بها العبد ، وتاب الله عليه قبولا ورضى . فتوبة العبد بين توبتين من الله ، وهذا يدل على عنايته سبحانه وبره ولطفه بعبده التائب ، فكيف يقال : إنه لا يعبده مع هذا اللطف والبر إلى حاله ؟

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٩١ ـ ٢٩٤) .

قالوا : وأيضا ، فإن التوبة من أجل الطاعات وأوجبها على المؤمنين ، وأعظمها عناء عنهم ، وهم إليها أحوج من كل شيء ، وهى من أحب الطاعات إلى الله فإنه يحب التوابين، ويفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه أعظم فرح وأكمله ، وإذا كانت بهذه المثابة فالآتى بها آت بما هو من أفضل القربات وأجل الطاعات ، فإذا كان قد حصل له بالمعصية انحطاط ونزول مرتبة فبالتوبة يحصل له مزيد تقدم وعلو درجة ، فإن لم تكن درجته بعد التوبة أعلى فإنها لا تكون أنزل .

قالوا : وأيضا ، فإنا إذا قابلنا بين جناية المعصية والتقريب بالتوبة وجدنا الحاصل من التوبة أرجح من الأثر الحاصل من المعصية . والكلام إنما هو فى التوبة النصوح الكاملة ، وجانب الفضل أرجح من جانب العدل ، ولهذا كان فى جانب العدل آحاد بآحاد ، وجانب الفضل آحاد بعشرات إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، وهذا يدل على رجحان جانب الفضل وغلبته ، وكذلك مصدرهما من الغضب والرحمة فإن رحمة الرب تغلب غضبه .

قالوا : وأيضا ، فالذنب بمنزلة المرض ، والتوبة بمنزلة العافية ، والعبد إذا مرض ثم عوفى وتكاملت عافيته رجعت صحته إلى ما كانت ، بل ربما رجعت أقوى وأكمل مما كانت عليه ؛ لأنه ربما كان معه فى حال العافية آلام وأسقام كامنة ، فإذا اعتل ظهرت تلك الأسقام ، ثم زالت بالعافية جملة فتعود قوته خيرا مما كانت وأكمل ، وفى مثل هذا قال الشاعر :

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

وهذا الوجه هو أحد ما احتج به من قال : إنه يعود بالتوبة خيرا مما كان قبل التوبة .

واحتجوا لقولهم أيضا بأن التوبة تثمر للعبد محبة من الله خاصة لا تحصل بدون التوبة ، بل التوبة شرط فى حصولها، وإن حصل له محبة أخرى بغيرها من الطاعات فالمحبة الحاصلة له بالتوبة لا تنال بغيرها ، فإن الله يحب التوابين ، ومن محبته لهم : فرحه بتوبة أحدهم أعظم فرح وأكمله ، فإذا أثمرت له التوبة هذه المحبة ورجع بها إلى طاعاته التى كان عليها أولا انضم أثرها إلى أثر تلك الطاعات فقوى الأثران فحصل له المزيد من القرب والوسيلة، وهذا بخلاف ما يظنه من نقصت معرفته بربه من أنه سبحانه إذا غفر لعبده ذنبه فإنه لا يعود الود الذى كان له منه قبل الجناية .

واحتجوا فى ذلك بأثر إسرائيلى مكذوب أن الله قال لداود ـ عليه السلام : يا داود ، أما الذنب فقد غفرناه ، وأما الود فلا يعود . وهذا كذب قطعا ، فإن الود يعود بعد التوبة النصوح أعظم مما كان ، فإنه سبحانه يحب التوابين ، ولو لم يعد الود لما حصلت له محبته . وأيضا ، فإنه يفرح بتوبة التائب ، ومحال أن يفرح بها أعظم فرح وأكمله وهو لا يحبه .

وتأمل سر اقتران هذين الاسمين فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤)** ﴾ [ البروج ] تجد فيه من الرد والإنكار على من قال : لا يعود الود والمحبة منه لعبده أبدا ، ما هو من كنوز القرآن ولطائف فهمه ، وفى ذلك ما يهيج القلب السليم ويأخذ بمجامعه ويجعله عاكفا على ربه ـ الذى لا إله إلا هو ولا رب له سواه ـ عكوف المحب الصادق على محبوبه الذى لا غنى له عنه ولا بد له منه ولا تندفع ضرورته بغيره أبدا .

واحتجوا أيضا ، بأن العبد قد يكون بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة ؛ لأن الذنب يحدث له من الخوف والخشية والانكسار والتذلل لله والتضرع بين يديه والبكاء على خطيئته والندم عليها والأسف والإشفاء ما هو من أفضل أحوال العبد وأنفعها له فى دنياه وآخرته ، ولم تكن هذه الأمور لتحصل بدون أسبابها ، إذ حصول الملزوم بدون لازمه محال ، والله يحب من عبده كسرته وتضرعه وذله بين يديه واستعطافه وسؤاله أن يعفو عنه ويغفر له ويتجاوز عن جرمه وخطيئته ، فإذا قضى عليه بالذنب فترتبت عليه هذه الآثار المحبوبة له كان ذلك القضاء خيرا له ، وليس ذلك إلا للمؤمن ؛ ولهذا قال بعض السلف : لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما [ ابتلى ] (١) بالذنب أكرم الخلق عليه . وقيل : إن فى بعض الآثار يقول الله تعالى لداود ـ عليه السلام : يا داود ، كنت تدخل على دخول الملوك على الملوك ، واليوم تدخل على دخول العبيد على الملوك .

قالوا : وقد قال غير واحد من السلف : كان داود بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة ، قالوا : ولهذا قال سبحانه : ﴿ **فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)** ﴾ [ ص ] فزاده على المغفرة أمرين : الزلفى وهى درجة القرب منه ، وقد قال فيها سلف الأمة وأئمتها ما لا تحتمله عقول الجهمية وفراخهم ، ومن أراد معرفتها فعليه بتفاسير السلف . والثانى : حسن المآب وهو حسن المنقلب وطيب المأوى عند الله .

قالوا : ومن تأمل زيادة القرب التى أعطيها داود بعد المغفرة علم صحة ما قلنا ، وأن العبد بعد التوبة يعود خيرا مما كان .

قالوا : وأيضا ، فإن للعبودية لوازم وأحكاما وأسرارا وكمالات لا تحصل إلا بها ، ومن جملتها : تكميل مقام الذل للعزيز الرحيم ، فإن الله ـ سبحانه ـ يحب من عبده أن يكمل مقام الذل له وهذه هى حقيقة العبودية ، واشتقاقها يدل على ذلك ، فإن العرب تقول : طريق معبد أى مذلل بوطء الأقدام .

والذل أنواع ؛ **أكملها** : ذل المحب لمحبوبه .

(١) أضفناها ليستقيم السياق ، وفى بعض الطبعات : « لما أصاب بالذنب أكرم الخلق عليه » .

**الثانى** : ذل المملوك لمالكه .

**الثالث** : ذل الجانى بين يدى المنعم عليه ، المحسن إليه ،المالك له .

**الرابع** : ذل العاجز عن جميع مصالحه وحاجاته بين يدى القادر عليها التى هى فى يده وبأمره ، وتحت هذا قسمان : أحدهما : ذل له فى أن يجلب له ما ينفعه، والثانى : ذل له فى أن يدفع عنه ما يضره على الدوام ، ويدخل فى هذا ذل المصائب كالفقر والمرض وأنواع البلاء والمحن .

فهذه خمسة أنواع من الذل ، إذا وفَّاها العبد حقها وشهدها كما ينبغى وعرف ما يراد به منه ، وقام بين يدى ربه مستصحبا لها ، شاهدا لذله من كل وجه ، ولعزة ربه وعظمته وجلاله ، كان قليل أعماله قائما مقام الكثير من أعمال غيره .

قالوا : وهذه أسرار لا تدرك بمجرد الكلام ، فمن لا نصيب له منها فلا يضره أن يخلى المطى وحاديها ، ويعطى القوس باريها :

فللكثافة أقوام لها خلقوا ... وللمحبة أكباد وأجفان

قالوا : وأيضا ، فقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : « لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم أضل راحلته » .

قالوا : وهذا أعظم ما يكون من الفرح وأكمله ، فإن صاحب هذه الراحلة كان عليها مادة حياته من الطعام والشراب ، وهى مركبه الذى يقطع به مسافة سفره ، فلو عدمه لانقطع فى طريقه ، فكيف إذا عدم مع مركبه طعامه وشرابه ، ثم إنه عدمها فى أرض دوية لا أنيس بها ولا معين ، ولا من يأوى له ويرحمه ويحمله ، ثم إنها مهلكة لا ماء بها ولا طعام ، فلما أيس من الحياة بفقدها وجلس ينتظر الموت إذا هو براحلته قد أشرفت عليه ودنت منه ، فأى فرحة تعدل فرحة هذا ؟ ولو كان فى الوجود فرح أعظم من هذا لمثل به النبى ﷺ ، ومع هذا ففرح الله بتوبة عبده إذا تاب إليه أعظم من فرح هذا براحلته .

فرح الرب ـ سبحانه ـ هذا الفرح العظيم بتوبة عبده إذا تاب إليه هو من ملزومات محبته ولوازمها ، أعنى كونه محبا لعباده المؤمنين ، محبوبا لهم ، إنما خلق خلقه لعبادته المتضمنة لكمال محبته والخضوع له ، ولهذا خلق الجنة والنار ؛ ولهذا أرسل الرسل وأنزل الكتب ، وهذا هو الحق الذى خلق به السموات والأرض وأنزل به الكتاب ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ [ الحجر : ٨٥ ] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُم

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾ إلى قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ [ يونس ] وقوله : ﴿ الم (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ (٣) ﴾ [آل عمران]، فهذا أمره وتنزيله مصدره الحق ، والأول خلقه وتكوينه مصدره الحق أيضا ، فبالحق كان الخلق والأمر وعنه صدر الخلق والأمر ، وقال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات ] ، فأخبر ـ سبحانه ـ أن الغاية المطلوبة من خلقه هى عبادته التى أصلها كمال محبته ، وهو ـ سبحانه ـ كما أنه يحب أن يعبد ، يحب أن يحمد ويثنى عليه ويذكر بأوصافه العلى وأسمائه الحسنى ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « لا أحد أحب إليه المدح من الله ، ومن أجل ذلك أثنى على نفسه » (١) ، وفى المسند من حديث الأسود بن سريع أنه قال : يا رسول الله ، إنى حمدت ربى بمحامد فقال : « إن ربك يحب الحمد » (٢) فهو يحب نفسه ومن أجل ذلك يثنى على نفسه ، ويحمد نفسه ، ويقدس نفسه ، ويحب من يحبه ويحمده ويثنى عليه .

بل كلما كانت محبة عبده له أقوى كانت محبة الله له أكمل وأتم ، فلا أحد أحب إليه ممن يحبه ويحمده ويثنى عليه ، ومن أجل ذلك كان الشرك أبغض الأشياء إليه؛ لأنه ينقص هذه المحبة ويجعلها بينه وبين من أشرك به ؛ ولهذا لا يغفر الله أن يشرك به ؛ لأن الشرك يتضمن نقصان هذه المحبة ، والتسوية فيها بينه وبين غيره ، ولا ريب أن هذا من أعظم ذنوب المحب عند محبوبه التى يسقط بها من عينه ، وتنقص بها مرتبته عنده إذا كان من المخلوقين ، فكيف يحتمل رب العالمين أن يشرك بينه وبين غيره فى المحبة ، والمخلوق لا يحتمل ذلك ولا يرضى به ولا يغفر هذا الذنب لمحبه أبدا ، وعساه أن يتجاوز لمحبه عن غيره من الهفوات والزلات فى حقه ، ومتى علم بأنه يحب غيره كما يحبه لم يغفر له هذا الذنب ، ولم يقربه إليه . هذا مقتضى الطبيعة والفطرة ، أفلا يستحى العبد أن يسوى بين إلهه ومعبوده وبين غيره فى هذه العبودية والمحبة ؟ قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [ البقرة : ١٦٥ ] ، فأخبر ـ سبحانه ـ أن من أحب شيئا دون الله كما يحب الله فقد اتخذ ندا ، وهذا معنى قول المشركين لمعبوديهم : ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) ﴾ [الشعراء] فهذه تسوية فى المحبة والتأليه ، لا فى الذات والأفعال والصفات .

---

(١) البخارى (٧٤٠٣) فى التوحيد ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [ آل عمران : ٣٠ ] ، ومسلم (٢٧٦٠ / ٣٢) فى التوبة ، باب : غيرة الله تعالى ، وتحريم الفواحش .

(٢) أحمد (٣ / ٤٣٥) ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩ / ٦٩) : «رواه أحمد والطبرانى ، ورجالهما ثقات ، وفى بعضهم خلاف » .

والمقصود أنه ـ سبحانه ـ يحب نفسه أعظم محبة ويحب من يحبه ، وخلق خلقه لذلك ، وشرع شرائعه وأنزل كتبه لأجل ذلك ، وأعد الثواب والعقاب لأجل ذلك ، وهذا هو محض الحق الذى به قامت السموات والأرض وكان الخلق والأمر ، فإذا قام به العبد فقد قام بالأمر الذى خلق له فرضى عنه صانعه وبارئه وأحبه إذ كان يحب ويرضى ، فإذا صدف عن ذلك وأعرض عنه وأبق عن مالكه وسيده أبغضه ومقته ؛ لأنه خرج عما خلق له وصار إلى ضد الحال التى هو لها ، فاستوجب منه غضبه بدلا من رضاه وعقوبته بدلا من رحمته ، فكأنه استدعى من رحمته أن يعامله من نفسه بخلاف ما يحب ، سبحانه عفو يحب العفو ، محسن يحب الإحسان ، جواد يحب الجود ، سبقت رحمته غضبه . فإذا أبق منه العبد وخامر عليه ذاهبا إلى عدوه فقد استدعى منه أن يجعل غضبه غالبا على رحمته وعقوبته على إحسانه ، وهو ـ سبحانه ـ يحب من نفسه الإحسان والبر والإنعام ، فقد استدعى من ربه فعل ما غيره أحب إليه منه وهو بمنزلة عبد السوء الذى يحمل أستاذه من المخلوقين المحسن إليه ، الذى طبيعته الإحسان والكرم ، على خلاف مقتضى طبيعته وسجيته ، فأستاذه يحب لطبعه الإحسان ، وهو بإساءته ولؤمه يكلفه ضد طباعه ويحمله على خلاف سجيته فإذا راجع هذا العبد ما يحب سيده ورجع إليه وأقبل عليه ورجع عن عدوه فقد صار إلى الحال التى تقتضى محبة سيده له وإنعامه عليه وإحسانه إليه ، فيفرح به ولا بد أعظم فرح ، وهذا الفرح هو دليل غاية الكمال والغنى والمجد .

فليتدبر اللبيب وجود هذا الفرح ولوازمه وملزوماته يجد فى طيه من المعارف الإلهية ما لا تتسع له إلا القلوب المهيأة لهذا الشأن المخلوقة له ، وهذا فرح محسن بر لطيف جواد غنى حميد ، لا فرح محتاج إلى حصول متكمل به مستقيل له من غيره ، فهو عين الكمال، لازم للكمال ، ملزوم له ، وألطف من هذا الوجه أن الله ـ سبحانه ـ خلق عباده المؤمنين وخلق كل شيء لأجلهم ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [ لقمان : ٢٠ ] ، وكرمهم وفضلهم على كثير ممن خلق فقال : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾ ﴾ [ الإسراء ] ، وقال لصالحيهم وصفوتهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ آل عمران ] ، وقال لموسى : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ﴾ [ طه ] ، واتخذ منهم الخليلين ، والخلة أعلى درجات المحبة .

وقد جاء فى بعض الآثار : يقول تعالى : « ابن آدم خلقتك لنفسى ، وخلقت كل شيء لك ، فبحقى عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له » (١) ، وفى أثر آخر يقول تعالى : « ابن آدم ، خلقتك لنفسى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب . ابن

(١) انظر تفسير ابن كثير (٧ / ٤٢٦) ، سورة الذاريات آية (٥٦ ، ٥٧) .

آدم، اطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فتك فاتك كل شىء ، وأنا أحب إليك من كل شىء »(١): فالله ـ سبحانه ـ خلق عباده له ؛ولهذا اشترى منهم أنفسهم، وهذا عقد لم يعقده مع خلق غيرهم فيما أخبر به على لسان رسوله ﷺ ،ليسلموا إليه النفوس التى خلقها له. وهذا الشراء دليل على أنها محبوبة له، مصطفاة عنده ،مرضية لديه. وقدر السلعة يعرف بجلالة قدر مشتريها وبمقدار ثمنها، هذا إذا جهل قدرها فى نفسها.

فإذا عرف قدر السلعة وعرف مشتريها ، وعرف الثمن المبذول فيها ، علم شأنها ومرتبتها فى الجود . فالسلعة أنت ، والله المشترى ، والثمن جنته ، والنظر إلى وجهه، وسماع كلامه فى الأمن والسلام . والله لا يصطفى لنفسه إلا أعز الأشياء وأشرفها وأعظمها قيمة . وإذا كان قد اختار العبد لنفسه ، وارتضاه لمعرفته ومحبته ، وبنى له دارا فى جواره وقربه ، وجعل ملائكته خدمه يسعون فى مصالحه فى يقظته ومنامه وحياته وموته ، ثم إن العبد أبق عن سيده ومالكه ، معرضا عن رضاه ، ثم لم يكفه ذلك حتى خامر عليه وصالح عدوه ووالاه من دونه وصار من جنده ، مؤثرا لمرضاته على مرضاة وليه ومالكه ، فقد باع نفسه ـ التى اشتراها منه إلهه ومالكه وجعل ثمنها جنته والنظر إلى وجهه ـ من عدوه وأبغض خلقه إليه ، واستبدل غضبه برضاه ولعنته برحمته ومحبته . فأى مقت خلى هذا المخدوع عن نفسه لم يتعرض له من ربه ؟ قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً** (٥٠) ﴾ [ الكهف ] .

فتأمل ما تحت هذه المعاتبة وما فى طى هذا الخطاب من سوء هذا العبد وما تعرض له من المقت والخزى والهوان ، ومن استعطاف ربه واستعتابه ودعائه إياه إلى العود إلى وليه ومولاه الحق الذى هو أولى به ، فإذا عاد إليه وتاب إليه فهو بمثابة من أسر له العدو محبوبا له ، واستولوا عليه وحالوا بينه وبينه ، فهرب منهم ذلك المحبوب وجاء إلى محبه اختيارا وطوعا حتى توسد عتبة بابه ، فخرج المحب من بيته فوجد محبوبه متوسدا عتبة بابه واضعا خده وذقنه عليها ، فكيف يكون فرحه به ؟ ولله المثل الأعلى .

ويكفى فى هذا المثل الذى ضربه رسول الله ﷺ لمن فتح الله عين قلبه فأبصر مافى طيه وما فى ضمنه ، وعلم أنه ليس كلام مجاز ولا مبالغة ولا تخييل ، بل كلام معصوم فى منطقه وعلمه وقصده وعمله . كل كلمة منه فى موضعها ومنزلتها ومقرها لا يتعدى بها عنه ولا يقصر بها . والذى يزيد هذا المعنى تقريرا أن محبة الرب لعبده سبقت محبة العبد له

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٤٢٦) ، سورة الذاريات آية (٥٦ ، ٥٧) .

ـ سبحانه ـ فإنه لولا محبة الله له لما جعل محبته فى قلبه ، فإنه ألهمه حبه وآثره به ، فلما أحبه العبد جازاه على تلك المحبة محبة أعظم منها ، فإنه من تقرب إليه شبرا تقرب إليه ذراعا ، ومن تقرب إليه ذراعا تقرب إليه باعا ، ومن أتاه مشيا أتاه هرولة [١] ، وهذا دليل على أن محبة الله لعبده الذى يحبه فوق محبة العبد له .

وإذا تعرض هذا المحبوب لمساخط حبيبه فهو بمنزلة المحبوب الذى فر من محبه وآثر غيره عليه ، فإذا عاوده وأقبل إليه وتخلى عن غيره ، فكيف لا يفرح به محبه أعظم فرح وأكمله ، والشاهد أقوى شاهد يؤيده الفطرة والعقل ، فلو لم يخبر الصادق المصدوق بما أخبر به من هذا الأمر العظيم لكان فى الفطرة والعقل ما يشهد به ، فإذا انضافت الشرعة المنزلة إلى العقل المنور ، فذلك الذى لا غاية له بعده ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

## فصل

ومتى أراد العبد شاهد هذا من نفسه فلينظر إلى الفرحة التى يجدها بعد التوبة النصوح ، والسرور واللذة التى تحصل له ، والجزاء من جنس العمل ، فلما تاب إلى الله ففرح الله بتوبته أعقبه فرحا عظيما . وهاهنا دقيقة قل من يتفطن لها إلا فقيه فى هذا الشأن . وهى أن كل تائب لابد له فى أول توبته من عصرة وضغطة فى قلبه من هم أو غم أو ضيق أو حزن ، ولو لم يكن إلا تألمه بفراق محبوبه فينضغط لذلك وينعصر قلبه ويضيق صدره ، فأكثر الخلق رجعوا من التوبة ونكسوا على رؤوسهم لأجل هذه المحبة . والعارف الموفق يعلم أن الفرحة والسرور واللذة الحاصلة عقيب التوبة تكون على قدر هذه العصرة ، فكلما كانت أقوى وأشد كانت الفرحة واللذة أكمل وأتم ، ولذلك أسباب عديدة :

منها : أن هذه العصرة والقبض دليل على حياة قلبه ، وقوة استعداده ، ولو كان قلبه ميتا واستعداده ضعيفا لم يحصل له ذلك .

وأيضا ، فإن الشيطان لص الإيمان ، واللص إنما يقصد المكان المعمور ، وأما المكان الخراب الذى لا يرجو أن يظفر منه بشىء فلا يقصده ، فإذا قويت المعارضات الشيطانية والعصرة دل على أن فى قلبه من الخير ما يشتد حرص الشيطان على نزعه منه .

وأيضا ، فإن قوة المعارض والمضاد تدل على قوة معارضه وضده ، ومثل هذا إما أن يكون رأسا فى الخير أو رأسا فى الشر ، فإن النفوس الأبية القوية إن كانت خيرة رأست فى الخير ، وإن كانت شريرة رأست فى الشر .

---

(١) البخارى (٧٤٠٥) فى التوحيد ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : ٢٨] ، ومسلم (٢٦٧٥ / ١) فى التوبة ، باب : فى الحضّ على التوبة والفرح بها .

وأيضا ، فإن بحسب موافقته لهذا العارض وصبره عليه يثمر له ذلك من اليقين والثبات والعزم ما يوجب زيادة انشراحه وطمأنينته .

وأيضا ، فإنه كلما عظم المطلوب كثرت العوارض والموانع دونه ، هذه سنة الله فى الخلق : فانظر إلى الجنة وعظمها ، وإلى الموانع والقواطع التى حالت دونها حتى أوجبت أن ذهب من كل ألف رجل واحد إليها ، وانظر إلى محبة الله والانقطاع إليه والإنابة إليه والتبتل إليه وحده ، والأنس به واتخاذه وليا ووكيلا وكافيا وحسيبا ، هل يكتسب العبد شيئا أشرف منه ؟ وانظر إلى القواطع والموانع الحائلة دونه ، حتى قد تعلق كل قوم بما تعلقوا به دونه ، والطالبون له منهم الواقف مع عمله ، والواقف مع علمه ، والواقف مع حاله ، والواقف مع ذوقه وجمعيته وحظه من ربه ، والمطلوب منهم وراء ذلك كله .

والمقصود أن هذا الأمر الحاصل بالتوبة لما كان من أجل الأمور وأعظمها نصبت عليه المعارضات والمحن ؛ ليتميز الصادق من الكاذب ، وتقع الفتنة ، ويحصل الابتلاء ، ويتميز من يصلح ممن لا يصلح ، قال تعالى : ﴿ **الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣** ﴾ [ العنكبوت ] ، وقال : ﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾ [ الملك:٢] ، ولكن إذا صبر على هذه العصرة قليلا أفضت إلى رياض الأنس وجنات الانشراح ، وإن لم يصبر لها انقلب على وجهه . والله الموفق لا إله غيره ولا رب سواه .

والمقصود : أن هذا الفرح من الله بتوبة عبده ـ مع أنه لم يأت نظيره فى غيرها من الطاعات ـ دليل على عظم قدر التوبة وفضلها عند الله ، وأن التعبد له بها من أشرف التعبدات ، وهذا يدل على أن صاحبها يعود أكمل مما كان قبلها ، فهذا بعض ما احتج به لهذا القول .

**وأما الطائفة** التى قالت : لا يعود إلى مثل ما كان ، بل لابد أن ينقص حاله ، فاحتجوا بأن الجناية توجب الوحشة وزوال المحبة ونقص العبودية بلا ريب ، فليس العبد الموفر أوقاته على طاعة سيده كالعبد المفرط فى حقوقه ، وهذا مما لا يمكن جحده ومكابرته ، فإذا تاب إلى ربه ورجع إليه أثرت توبته ترك مؤاخذته بالذنب والعفو عنه ، وأما مقام القرب والمحبة فهيهات أن يعود .

قالوا : ولأن هذا فى زمن اشتغاله بالمعصية قد فاته فيه السير إلى الله ، فلو كان واقفا فى موضعه لفاته التقدم ، فكيف وهو فى زمن المعصية كان سيره إلى وراء وراء ؟ فإذا تاب واستقبل سيره فإنه يحتاج إلى سير جديد وقطع مسافة حتى يصل إلى الموضع الذى تأخر منه .

قالوا : ونحن لا ننكر أنه قد يأتى بطاعات وأعمال تبلغه إلى منزلته ، وهذا مما لا يكون ، فإنه بالتوبة قد وجه وجهه إلى الطريق ، فلا يصل إلى مكانه الذى رجع منه إلا بسير مستأنف يوصله إليه ، ونحن لا ننكر أن العبد بعد التوبة يعمل أعمالا عظيمة لم يكن ليعملها قبل الذنب توجب له التقدم .

قالوا : وأيضا ، فلو رجع إلى حاله التى كان عليها أو إلى أرفع منها لكان بمنزلة المداوم على الطاعة أو أحسن حالا منه ، فكيف يكون هذا ، وأين مسير صاحب الطاعة فى زمن اشتغال هذا بالمعصية ؟ وكيف يتلقى رجلان أحدهما سائر نحو المشرق والآخر نحو المغرب ، فإذا رجع أحدهما إلى طريق الآخر والآخر مجد على سيره فإنه لا يزال سابقه مالم يعرض له فتور أو توان ؟ هذا مما لا يمكن جحده ودفعه .

قالوا : وأيضا ، فمرض القلب بالذنوب على مثال مرض الجسم بالأسقام ، والتوبة بمنزلة شرب الدواء ، والمريض إذا شرب الدواء وصح فإنه لا تعود إليه قوته قبل المرض ، وإن عادت فبعد حين .

قالوا : وأيضا ، فهذا فى زمن معالجة التوبة ملبوك[1] فى نفسه ، مشغول بمداواتها ومعالجتها ، وفى زمن الذنب مشغول بشهوتها ، والسالم من ذلك مشغول بربه قد قرب منه فى سيره ، فكيف يلحقه هذا ؟ فهذا ونحوه مما احتجت به هذه الطائفة لقولها .

وجرت هذه المسألة بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية ، فسمعته يحكى هذه الأقوال الثلاثة حكاية مجردة ، فإما سألته وإما سئل عن الصواب منها . فقال : الصواب أن من التائبين من يعود إلى مثل حاله ، ومنهم من يعود إلى أكمل منها ، ومنهم من يعود إلى أنقص مما كان . فإن كان بعد التوبة خيرا مما كان قبل الخطيئة وأشد حذرا وأعظم تشميرا وأعظم ذلا وخشية وإنابة عاد إلى أرفع مما كان ، وإن كان قبل الخطيئة أكمل فى هذه الأمور ولم يعد بعد التوبة إليها عاد إلى أنقص مما كان عليه ، وإن كان بعد التوبة مثل ما كان قبل الخطيئة رجع إلى مثل منزلته ، هذا معنى كلامه[2] .

## باب منه

اختلف الناس : هل يعود بعد التوبة إلى درجته التى كان فيها ، بناء على أن التوبة تمحو أثر الذنب ، وتجعل وجوده كعدمه ، فكأنه لم يكن ، أو لا يعود ، بناء على أن التوبة تأثيرها فى إسقاط العقوبة ، وأما الدرجة التى فاتته فإنه لا يصل إليها ؟

---

(١) طريق الهجرتين (٢٣١ ـ ٢٣٤ ، ٢٣٨ ـ ٢٤٥) .
(٢) راجع اللسان مادة ( لبك ) .

قالوا : وتقرير ذلك : أنه كان مستعدا باشتغاله بالطاعة فى الزمن الذى عصى فيه لصعود آخر ، وارتقاء تحمله أعماله السالفة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذى يملكه ، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح ، فقد راح عليه فى زمن المعصية ارتفاع وربح تحمله أعماله ، فإذا استأنف العمل استأنف صعودا من نزول ، وكان قبل ذلك صاعدا من أسفل إلى أعلى ، وبينهما بون عظيم .

قالوا : ومثل ذلك مثل رجلين يرتقيان فى سلمين لا نهاية لهما ، وهما سواء ، فنزل أحدهما إلى أسفل ، ولو درجة واحدة ، ثم استأنف الصعود ، فإن الذى لم ينزل يعلو عليه ولا بد .

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بين الطائفتين حكما مقبولا ، فقال :

التحقيق أن من التائبين من يعود إلى أرفع من درجته ، ومنهم من يعود إلى مثل درجته ، ومنهم من لا يصل إلى درجته .

قلت : وهذا بحسب قوة التوبة وكمالها ، وما أحدثته المعصية للعبد من الذل والخضوع والإنابة ، والحذر والخوف من الله ، والبكاء من خشية الله ، فقد تقوى هذه الأمور ، حتى يعود التائب إلى أرفع من درجته ، ويصير بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة ، فهذا قد تكون الخطيئة فى حقه رحمة ، فإنها نفت عنه داء العجب ، وخلصته من ثقته بنفسه وإدلاله بأعماله ، ووضعت خد ضراعته وذله وانكساره على عتبة باب سيده ومولاه ، وعرفته قدره ، وأشهدته فقره وضرورته إلى حفظ سيده ومولاه له ، وإلى عفوه عنه ومغفرته له ، وأخرجت من قلبه صولة الطاعة ، وكسرت أنفه أن يشمخ أو يتكبر بها ، أو يرى نفسه بها خيرا من غيره ، وأوقفته بين يدى ربه موقف الخطائين المذنبين ، ناكس الرأس بين يدى ربه ، مستحييا منه خائفا وجلا ، محتقرا لطاعته ، مستعظما لمعصيته ، قد عرف نفسه بالنقص والذم ، وربه متفرد بالكمال والحمد والوفاء .

كما قيل :

استأثر الله بالوفاء وبالـــ ـــحمد ، وولى الملامة الرجلا

فأى نعمة وصلت من الله إليه استكثرها على نفسه ، ورأى نفسه دونها ، ولم يرها أهلا لها .

وأى نقمة أو بلية وصلت إليه رأى نفسه أهلا لما هو أكبر منها ورأى مولاه قد أحسن إليه ، إذ لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره ، ولا أدنى جزء منه .

فإن ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات ، فضلا عن هذا العبد الضعيف

العاجز ، فإن الذنب وإن صغر ـ فإن مقابله العظيم الذى لا شىء أعظم منه ، الكبير الذى لا شىء أكبر منه ، الجليل الذى لا أجل منه ولا أجمل ، المنعم بجميع أصناف النعم دقيقها وجليلها ـ من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها ، فإن مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر ، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالرذائل ، فكيف بعظيم السموات والأرض ، وملك السموات والأرض ، وإله السموات والأرض ؟ ولولا أن رحمته غلبت غضبه ، ومغفرته سبقت عقوبته ، لتدكدكت الأرض بمن قابله بما لا يليق مقابلته به ولولا حلمه ومغفرته لزلزلت السموات والأرض من معاصى العباد ، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** (٤١) ﴾ [ فاطر ] .

فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه وهما « الحليم ، والغفور » كيف نجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض ؟ .

وقد أخبر ـ سبحانه ـ عن بعض كفر عباده أنه : ﴿ **تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا** (٩٠) ﴾ [ مريم ] .

وقد أخرج الله ـ سبحانه ـ الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه ، وخالفا فيه نهيه ، ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات والأرض بذنب واحد ارتكبه ، وخالف فيه أمره ، ونحن معاشر الحمقى كما قيل :

نصل الذنوب إلى الذنوب ونرتجى ... درج الجنان لدى النعيم الخالد

ولقد علمنا أخـــرج الأبـوين من ... ملكوته الأعلى بذنب واحـد

والمقصود : أن العبد قد يكون بعد التوبة خيرا مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة ، وقد تضعف الخطيئة همته ، وتوهن عزمه ، وتمرض قلبه ، فلا يقوى دواء التوبة على إعادته إلى صحته الأولى ، فلا يعود إلى درجته ، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ، ويعود إلى مثل عمله ، فيعود إلى درجته .

هذا إذا كان نزوله إلى معصية ، فإذا كان نزوله إلى أمر يقدح فى أصل إيمانه ، مثل الشكوك والريب والنفاق ، فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود إلا بتجديد إسلامه من رأسه (١) .

---

(١) الداء والدواء (١٦٣ ـ ١٦٦) .

## فصل
## فى أجناس ما يتاب منه

ولا يستحق العبد اسم « التائب » حتى يتخلص منها ، وهى اثنا عشر جنسا مذكورة فى كتاب الله عز وجل ، هى أجناس المحرمات : الكفر ، والشرك ، والنفاق ، والفسوق ، والعصيان ، والإثم ، والعدوان ، والفحشاء ، والمنكر ، والبغى ، والقول على الله بلا علم ، واتباع غير سبيل المؤمنين .

فهذه الاثنا عشر جنسا عليها مدار كل ما حرم الله . وإليها انتهاء العالم بأسرهم إلا أتباع الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم . وقد يكون فى الرجل أكثرها وأقلها ، أو واحدة منها ، وقد يعلم ذلك ، وقد لا يعلم .

فالتوبة النصوح : هى بالتخلص منها ، والتحصن والتحرز من مواقعتها (١) .

## فصل
## فى حكم توبة المبتدع

من خط القاضى أبى يعلى : أبو الفرج الهمدانى : سمعت المروزى يقول : سئل أحمد عما ورد عن النبى ﷺ : « إن الله احتجز التوبة عن صاحب بدعة وحجب التوبة » (٢) إيش معناه ؟ فقال أحمد : لا يوفق ولا ييسر صاحب بدعة لتوبة . وقال النبى ﷺ لعائشة لما قرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [ الأنعام : ١٥٩ ] ، فقال النبى ﷺ : « هم أهل الأهواء والبدع ليست لهم توبة » (٣) (٤) .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٣٥) .

(٢) الطبرانى فى الأوسط (٤٢٠٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ١٩٢) فى التوبة ، باب : مما يخاف من الذنوب : « رجاله رجال الصحيح غير هارون بن موسى الفروى وهو ثقة » ، وابن أبى عاصم فى السنة (١ / ٢١) رقم (٣٧) ، وقال العلامة الألبانى فى ظلال الجنة فى تخريج السنة : « حديث صحيح ، إسناده ضعيف جدا » وانظره مفصلا فى السلسلة الصحيحة للألبانى رقم (١٦٢٠) .

(٣) انظر : الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠ / ١٩٢) فى التوبة ، باب : مما يخاف من الذنوب ، وقال : « رواه الطبرانى فى الصغير ، وفيه بقية وهو ضعيف » .

(٤) بدائع الفوائد (٤ / ٤٨) .

## فصل
## فى طلب التوبة من غير الله عز وجل

ومن أنواعه (١) : التوبة للشيخ ، فإنها شرك عظيم ، فإن التوبة لا تكون إلا لله ، كالصلاة ، والصيام ، والحج ، والنسك ، فهى خالص حق الله .

وفى المسند : أن رسول الله ﷺ أتى بأسير ، فقال : اللهم إنى أتوب إليك ، ولا أتوب إلى محمد ، فقال رسول الله ﷺ : « عرف الحق لأهله » (٢) .

فالتوبة عبادة لا تنبغى إلا لله . كالسجود والصيام (٣) .

## فصل
## فى توبة الفاسق

والفسوق الذى تجب التوبة منه أعم من الفسوق الذى ترد به الرواية والشهادة .

وكلامنا الآن فيما تجب التوبة منه . وهو قسمان : فسق من جهة العمل . وفسق من جهة الاعتقاد .

ففسق العمل نوعان : مقرون بالعصيان ، ومفرد .

فالمقرون بالعصيان : هو ارتكاب ما نهى الله عنه ، والعصيان : هو عصيان أمره . كما قال الله تعالى : ﴿ **لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ** ﴾ [ التحريم : ٦ ] ، وقال موسى لأخيه هارون عليهما السلام : ﴿ **مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣)** ﴾ [ طه ] ، وقال الشاعر :

أمرتك أمرا جازما فعصيتنى ... فأصبحت مسلوب الإمارة نادما

فالفسق أخص بارتكاب النهى ، ولهذا يطلق عليه كثيرا ، كقوله تعالى : ﴿ **وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ** ﴾ [ البقرة : ٢٨٢ ] والمعصية أخص بمخالفة الأمر ويطلق كل منهما على صاحبه ، كقوله تعالى : ﴿ **إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** ﴾ [ الكهف : ٥٠ ] فسمى مخالفته

---

(١) أى : الشرك .

(٢) أحمد (٣ / ٤٣٥) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٢٠٢) فى التوبة ، باب : التوبة إلى الله تعالى : « فيه محمد بن مصعب وثقه أحمد وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٣) مدارج السالكين (١ / ٣٤٥) .

للأمر فسقا . وقال : ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١)﴾ [ طه ] فسمى ارتكابه للنهى معصية . فهذا عند الإفراد ، فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر ، والآخر لمخالفة النهى .

و « التقوى » اتقاء مجموع الأمرين ، وبتحقيقها تصح التوبة من الفسوق والعصيان ، بأن يعمل العبد بطاعة الله على نور من الله ، يرجو ثواب الله ، ويترك معصية الله ، على نور من الله ، يخاف عقاب الله .

وفسق الاعتقاد : كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ، ويحرمون ما حرم الله ، ويوجبون ما أوجب الله ، ولكن ينفون كثيرا مما أثبت الله ورسوله ، جهلا وتأويلا ، وتقليدا للشيوخ ، ويثبتون مالم يثبته الله ورسوله كذلك .

وهؤلاء كالخوارج المارقة ، وكثير من الروافض ، والقدرية ، والمعتزلة ، وكثير من الجهمية الذين ليسوا غلاة فى التجهم .

وأما غالية الجهمية : فكغلاة الرافضة ، ليس للطائفتين فى الإسلام نصيب .

ولذلك أخرجهم جماعة من السلف من الثنتين والسبعين فرقة ، وقالوا : هم مباينون للملة .

وليس مقصودنا الكلام فى أحكام هؤلاء . إنما المقصود : تحقيق « التوبة » من هذه الأجناس العشرة .

فالتوبة من هذا الفسوق : بإثبات ما أثبته الله لنفسه ورسوله ، من غير تشبيه ولا تمثيل ، وتنزيهه عما نزه نفسه عنه ونزهه عنه رسوله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، وتلقى النفى والإثبات من مشكاة الواحى ، لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم التى هى منشأ البدعة والضلالة .

فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الاعتقادات الفاسدة : بمحض اتباع السنة ، ولا يكتفى منهم بذلك أيضا حتى يبينوا فساد ما كانوا عليه من البدعة ؛ إذ التوبة من ذنب هى بفعل ضده ؛ ولهذا شرط الله تعالى فى توبة الكاتمين ما أنزل الله من البينات والهدى : البيان ؛ لأن ذنبهم لما كان بالكتمان ، كانت توبتهم منه بالبيان ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)﴾ [ البقرة ] وذنب المبتدع فوق ذنب الكاتم ؛ لأن ذاك كتم الحق . وهذا كتمه ودعا إلى خلافه ، فكل مبتدع كاتم ولا ينعكس .

# فصل
## فى توبة المنافق

وشرط فى توبة المنافق : الإخلاص ؛ لأن ذنبه بالرياء . فقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ** ﴾ ثم قال : ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦)** ﴾ [ النساء : ١٤٥ ، ١٤٦ ] (١) .

# فصل

**هل المطيع الذى لم يعص خير من العاصى الذى تاب إلى الله توبة نصوحا أو هذا التائب أفضل منه ؟**

اختلف فى ذلك .

فطائفة رجحت من لم يعص على من عصى وتاب توبة نصوحا . واحتجوا بوجوه :

**أحدها** : أن أكمل الخلق وأفضلهم : أطوعهم لله . وهذا الذى لم يعص أطوع . فيكون أفضل .

**الثانى** : أن فى زمن اشتغال العاصى بمعصيته يسبقه المطيع عدة مراحل إلى فوق ، فتكون درجته أعلى من درجته . وغايته : أنه إذا تاب استقبل سيره ليلحقه ، وذاك فى سير آخر . فأنى له بلحاقه ؟ فهما بمنزلة رجلين مشتركين فى الكسب ، كلما كسب أحدهما شيئا كسب الآخر مثله ، فعمد أحدهما إلى كسبه فأضاعه ، وأمسك عن الكسب المستأنف ، والآخر مجد فى الكسب ، فإذا أدركته حمية المنافسة ، وعاد إلى الكسب : وجد صاحبه قد كسب فى تلك المدة شيئا كثيرا ، فلا يكسب شيئا إلا كسب صاحبه نظيره ، فأنى له بمساواته ؟

**الثالث** : أن غاية التوبة : أن تمحو عن هذا سيئاته ، ويصير بمنزلة من لم يعملها ، فيكون سعيه فى مدة المعصية لا له ولا عليه ، فأين هذا السعى من سعى من هو كاسب رابح ؟

**الرابع** : أن الله يمقت على معاصيه ومخالفة أوامره ، ففى مدة اشتغال هذا بالذنوب : كان حظه المقت ، وحظ المطيع الرضا ، فالله لم يزل عنه راضيا . ولا ريب أن هذا خير

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٦١ ـ ٣٦٣) .

ممن كان الله راضيا عنه ثم مقته ،ثم رضى عنه،فإن الرضا المستمر خير من الذى تخلله المقت.

**الخامس** : أن الذنب بمنزلة شرب السم . والتوبة ترياقه ودواؤه ، والطاعة هى الصحة والعافية ، وصحة وعافية مستمرة خير من صحة تخللها مرض وشرب سم أفاق منه ، وربما أديا به إلى التلف أو المرض أبدا .

**السادس** : أن العاصى على خطر شديد . فإنه دائر بين ثلاثة أشياء . أحدها : العطب والهلاك بشرب السم . الثانى : النقصان من القوة وضعفها ، إن سلم من الهلاك . والثالث : عود قوته إليه كما كانت أو خيرا منها بعيد .

والأكثر إنما هو القسمان الأولان ، ولعل الثالث نادر جدا ، فهو على يقين من ضرر السم ، وعلى رجاء من حصول العافية ، بخلاف من لم يتناول ذلك .

**السابع** : أن المطيع قد أحاط على بستان طاعته حائطا حصينا ، لا يجد الأعداء إليه سبيلا،فثمرته وزهرته وخضرته وبهجته فى زيادة ونمو أبدا،والعاصى قد فتح فيه ثغرا، وثلم فيه ثلمة ، ومكن منه السراق والأعداء ، فدخلوا فعاثوا فيه يمينا وشمالا : أفسدوا أغصانه، وخربوا حيطانه ، وقطعوا ثمراته ، وأحرقوا فى نواحيه ، وقطعوا ماءه . ونقصوا سقيه . فمتى يرجع هذا إلى حاله الأول ؟ فإذا تداركه قيمه ولم شعثه ، وأصلح ما فسد منه ، وفتح طرق مائه ، وعمر ما خرب منه ، فإنه إما أن يعود كما كان ، أو أنقص ، أو خيرا ، ولكن لا يلحق بستان صاحبه الذى لم يزل على نضارته وحسنه . بل فى زيادة ونمو ، وتضاعف ثمرة ، وكثرة غرس .

**والثامن** : أن طمع العدو فى هذا العاصى إنما كان لضعف علمه وضعف عزيمته ؛ ولذلك يسمى جاهلا . قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عصى الله به فهو جهالة . وكذلك قال الله تعالى فى حق آدم : ﴿ **وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** ﴿١١٥﴾ ﴾ [ طه ] وقال فى حق غيره : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ [ الأحقاف : ٣٥ ] ، وأما من قويت عزيمته ، وكمل علمه ، وقوى إيمانه : لم يطمع فيه عدوه ، وكان أفضل .

**التاسع** : أن المعصية لابد أن توثر أثرا سيئا ولا بد : إما هلاكا كليا ، وإما خسرانا وعقابا ، يعقبه : إما عفو ودخول الجنة ، وإما نقص درجة ، وإما خمود مصباح الإيمان . وعمل التائب فى رفع هذه الآثار والتكفير ، وعمل المطيع فى الزيادة ، ورفع الدرجات .

ولهذا كان قيام الليل نافلة للنبى ﷺ خاصة ، فإنه يعمل فى زيادة الدرجات ، وغيره يعمل فى تكفير السيئات ، وأين هذا من هذا ؟

**العاشر** : أن المقبل على الله المطيع له يسير بجملة أعماله ، وكلما زادت طاعاته

وأعماله ازداد كسبه بها وعظم . وهو بمنزلة من سافر فكسب عشرة أضعاف رأس ماله ، فسافر ثانيا برأس ماله الأول وكسبه ، فكسب عشرة أضعافه أيضا ، فسافر ثالثا أيضا بهذا المال كله ، وكان ربحه كذلك ، وهلم جرا ، فإذا فتر عن السفر فى آخر أمره ، مرة واحدة ، فاته من الربح بقدر جميع ما ربح أو أكثر منه ، وهذا معنى قول الجنيد ـ رحمه الله : « لو أقبل صادق على الله ألف عام ثم أعرض عنه لحظة واحدة ، كان مافاته أكثر مما ناله » وهو صحيح بهذا المعنى ، فإنه قد فاته فى مدة الإعراض ربح تلك الأعمال كلها ، وهو أزيد من الربح المتقدم ، فإذا كان هذا حال من أعرض ، فكيف من عصى وأذنب ؟ وفى هذا الوجه كفاية .

## فصل

وطائفة رجحت التائب ، وإن لم تنكر كون الأول أكثر حسنات منه واحتجت بوجوه :

**أحدها** : أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله ، وأكرمها عليه ؛ فإنه ـ سبحانه ـ يحب التوابين ، ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه ، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه . فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذى يوجب وقوع محبوبه من التوبة ، وزيادة محبته لعبده ، فإن للتائبين عنده محبة خاصة ، يوضح ذلك :

**الوجه الثانى** : أن للتوبة عنده ـ سبحانه ـ منزلة ليست لغيرها من الطاعات ؛ ولهذا يفرح ـ سبحانه ـ بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدر ، كما مثله النبى ﷺ بفرح الواجد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض الدوية المهلكة ، بعد ما فقدها ، وأيس من أسباب الحياة [١] ، ولم يجئ هذا الفرح فى شىء من الطاعات سوى التوبة . ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيرا عظيما فى حال التائب وقلبه ، ومزيده لا يعبر عنه . وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد ، فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية ، فيصير حبيبا لله ، فإن الله يحب التوابين ويحب العبد المفتن التواب ، ويوضحه :

**الوجه الثالث** : أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار ، والخضوع ، والتملق لله ، والتذلل له ، ماهو أحب من كثير من الأعمال الظاهرة ، وإن زادت فى القدر والكمية على عبودية التوبة ، فإن الذل والانكسار روح العبودية ، ومخها ولبها ، يوضحه :

**الوجه الرابع** : أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره ؛ فإنه قد

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٩ .

شارك من لم يذنب فى ذل الفقر ، والعبودية ، والمحبة ، وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية . والله ـ سبحانه ـ أقرب ما يكون إلى عبده عند ذله ، وانكسار قلبه ، كما فى الأثر الإسرائيلى : « يارب ،أين أجدك ؟ قال: عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » ولأجل هذا كان « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » يخرج ؛ لأنه مقام ذل وانكسار بين يدى ربه .

وتأمل قول النبى ﷺ ـ فيما يروى عن ربه عز وجل : أنه يقول يوم القيامة : « يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمنى . قال : يارب ، كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما لو أطعمته لوجدت ذلك عندى . ابن آدم ، استسقيتك فلم تسقنى . قال : يارب ، كيف أسقيك ، وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . أما لو سقيته لوجدت ذلك عندى . ابن آدم ، مرضت فلم تعدنى . قال : يارب ، كيف أعودك ، وأنت رب العالمين ؟ قال : أما إن عبدى فلانا مرض فلم تعده ، أما لو عدته لوجدتنى عنده » (١) فقال فى عيادة المريض : « لوجدتنى عنده »وقال فى الإطعام والإسقاء : « لوجدت ذلك عندى » فرق بينهما . فإن المريض مكسور القلب ، ولو كان من كان ، فلابد أن يكسره المرض ، فإذا كان مؤمنا قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده .

وهذا ـ والله أعلم ـ هو السر فى استجابة دعوة الثلاثة : المظلوم ، والمسافر ، والصائم ، للكسرة التى فى قلب كل واحد منهم . فإن غربة المسافر وكسرته مما يجده العبد فى نفسه . وكذلك الصوم ، فإنه يكسر سورة النفس السبعية الحيوانية ، ويذلها .

والقصد : أن شمعة الجبر والفضل والعطايا ، إنما تنزل فى شمعدان الانكسار ، وللعاصى التائب من ذلك أوفر نصيب ، يوضحه :

**الوجه الخامس** : أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة ، من كثير من الطاعات . وهذا معنى قول بعض السلف : قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة ، ويعمل الطاعة فيدخل بها النار ، قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه ، إن قام ، وإن قعد ، وإن مشى : ذكر ذنبه ، فيحدث له انكسارا ، وتوبة ، واستغفارا ، وندما ، فيكون ذلك سبب نجاته ، ويعمل الحسنة ، فلا تزال نصب عينيه ، إن قام وإن قعد وإن مشى ، كلما ذكرها أورثته عجبا وكبرا ومنة ، فتكون سبب هلاكه ، فيكون الذنب موجبا لترتب طاعات وحسنات ، ومعاملات قلبية ، من خوف الله والحياء منه ، والإطراق بين يديه منكسا رأسه خجلا ، باكيا نادما ، مستقيلا ربه . وكل واحد من هذه

(١) مسلم (٢٥٦٩ / ٤٣) فى البر والصلة ، باب : فضل عيادة المريض .

الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولة ، وكبرا ، وازدراء بالناس ، ورؤيتهم بعين الاحتقار .

ولا ريب أن هذا الذنب خير عند الله ، وأقرب إلى النجاة والفوز من هذا المعجب بطاعته ، الصائل بها ، المان بها ، وبحاله على الله عز وجل وعباده ، وإن قال بلسانه خلاف ذلك . فالله شهيد على مافى قلبه ، ويكاد يعادى الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه ، ويخضعوا له ، ويجد فى قلبه بغضة لمن لم يفعل به ذلك ، ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيها ذلك كامنا ، ولهذا تراه عاتبا على من لم يعظمه ويعرف له حقه ، متطلبا لعيبه فى قالب حمية لله ، وغضب له ، وإذا قام بمن يعظمه ويحترمه ، ويخضع له من الذنوب أضعاف ماقام بهذا ، فتح له باب المعاذير والرجاء ، وأغمض عنه عينه وسمعه ، وكف لسانه وقلبه ، وقال : باب العصمة عن غير الأنبياء مسدود ، وربما ظن أن ذنوب من يعظمه تكفر بإجلاله وتعظيمه وإكرامه إياه .

فإذا أراد الله بهذا العبد خيرا ألقاه فى ذنب يكسره به ، ويعرفه قدره ، ويكفى به عباده شره ، وينكس به رأسه ، ويستخرج به منه داء العجب والكبر والمنة عليه وعلى عباده ، فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة ، ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال ، كما قيل بلسان الحال فى قصة آدم وخروجه من الجنة بذنبه :

يا آدم ، لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كيسك ، فقد استخرج بها منك داء لا يصلح أن تجاورنا به ، وألبست بها حلة العبودية .

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل

يا آدم ، إنما ابتليتك بالذنب لأنى أحب أن أظهر فضلى ، وجودى وكرمى ، على من عصانى « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » (١) .

يا آدم ، كنت تدخل على دخول الملوك على الملوك ، واليوم تدخل على دخول العبيد على الملوك .

يا آدم ، إذا عصمتك وعصمت بنيك من الذنوب ، فعلى من أجود بحلمى ؟ وعلى من أجود بعفوى ومغفرتى ، وتوبتى ، وأنا التواب الرحيم ؟

يا آدم ، لا تجزع من قولى لك ( اخرج منها ) فلك خلقتها ، ولكن اهبط إلى دار المجاهدة ، وابذر بذر التقوى ، وأمطر عليه سحائب الجفون ، فإذا اشتد الحب واستغلظ،

(١) سبق تخريجه ص ٢٩ .

واستوى على سوقه ، فتعال فاحصده .

يا آدم ، ما أهبطتك من الجنة إلا لتتوسل إلى فى الصعود ، وما أخرجتك منها نفيا لك عنها ، ما أخرجتك منها إلا لتعود .

إن جرى بيننا وبينك عتب ... وتناءت منا ومنك الديار
فالوداد الذى عهدت مقيم ... والعثار الذى أصبت جبار

يا آدم ، ذنب تذل به لدينا ، أحب إلينا من طاعة تدل بها علينا .

يا آدم ، أنين المذنبين ، أحب إلينا من تسبيح المدلين .

« يابن آدم ، إنك ما دعوتنى ورجوتنى ، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ، يابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتنى غفرت لك . يابن آدم ، لو لقيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا أتيتك بقرابها مغفرة » (١) .

يذكر عن بعض العباد : أنه كان يسأل ربه فى طوافه بالبيت أن يعصمه ، ثم غلبته عيناه فنام ، فسمع قائلا يقول : أنت تسألنى العصمة ، وكل عبادى يسألوننى العصمة ، فإذا عصمتهم فعلى من أن تفضل وأجود بمغفرتى وعفوى ؟ وعلى من أتوب ؟ وأين كرمى وعفوى ومغفرتى وفضلى ؟ ونحو هذا من الكلام .

يابن آدم ، إذا آمنت بى ولم تشرك بى شيئا ، أقمت حملة عرشى ومن حوله يسبحون بحمدى ويستغفرون لك وأنت على فراشك ، وفى الحديث العظيم الإلهى حديث أبى ذر : « ياعبادى ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا . فمن علم أنى ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أبالى » (٢) ، ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)** ﴾ [ الزمر ] .

« ياعبدى ، لاتعجز ، فمنك الدعاء وعلى الإجابة ، ومنك الاستغفار وعلى المغفرة ، ومنك التوبة وعلى تبديل سيئاتك حسنات » ، يوضحه :

**الوجه السادس** : وهو قوله تعالى : ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠)** ﴾ [ الفرقان ] ، وهذا من أعظم البشارة للتائبين

---

(١) الترمذى (٣٥٤٠) فى الدعوات ، باب : فى فضل التوبة والاستغفار ، وقال : « حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » ، والدارمى (٢ / ٣٢٢) فى الرقاق ، باب : إذا تقرب العبد إلى الله ، وأحمد (٥ / ١٦٧) ، وصححه الألبانى السلسلة الصحيحة (١٢٧ ، ١٢٨) . .

(٢) الحاكم فى المستدرك (٤ / ٢٤١) فى التوبة والإنابة ، وقال : « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة » ، وسكت عنه الذهبى .

إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح ، وهو حقيقة التوبة . قال ابن عباس رضي الله عنهما : « ما رأيت النبى ﷺ فرح بشىء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت ، وفرحه بنزول : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾ [ الفتح ] (١) .

واختلفوا فى صفة هذا التبديل ، هل هو فى الدنيا ، أو فى الآخرة ؟ على قولين :

فقال ابن عباس وأصحابه : هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها ، فبدلهم بالشرك إيمانا ، وبالزنا عفة وإحصانا ، وبالكذب صدقا ، وبالخيانة أمانة .

فعلى هذا معنى الآية : أن صفاتهم القبيحة ، وأعمالهم السيئة ، بدلوا عوضها صفات جميلة ، وأعمالا صالحة ، كما يبدل المريض بالمرض صحة ، والمبتلى ببلائه عافية .

وقال سعيد بن المسيب ، وغيره من التابعين : هو تبديل الله سيئاتهم التى عملوها بحسنات يوم القيامة ، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة .

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذى فى جامعه : حدثنا الحسين بن حريث قال : حدثنا وكيع قال : حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى لأعلم آخر رجل يخرج من النار : يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، ويخبأ عنه كبارها ، فيقال : عملت يوم كذا كذا وكذا ، وهو مقر لا ينكر ، وهو مشفق من كبارها . فيقال : أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة . فيقول : إن لى ذنوبا ما أراها هاهنا » . قال أبو ذر : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه (٢) .

فهذا حديث صحيح ، ولكن فى الاستدلال به على صحة هذا القول نظر ، فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار ، ثم بعد ذلك أخرج منها ، وأعطى مكان كل سيئة حسنة ، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه ، وليس فى هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات ، إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب ، والكلام إنما هو فى تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة ، فزادت حسناته ، فأين فى هذا الحديث ما يدل على ذلك ؟

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به فى تفسير هذه الآية على هذا القول ، وقد

(١) ابن أبى عاصم فى السنة (٢ / ٤٧٠) رقم (٩٧٢) ، وقال الألبانى فى ظلال الجنة : « إسناده ضعيف » ، والطبرانى فى الكبير (١٢ / ٢١٧) (١٢٩٣٥) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧ / ٨٧٠) فى التفسير ، سورة الفرقان : « رواه الطبرانى من رواية على بن زيد عن يوسف بن مهران وقد وثقا ، وفيهما ضعف وبقية رجاله ثقات » .

(٢) الترمذى (٢٥٩٦) فى صفة جهنم ، باب : (٩) ، وقال : « حسن صحيح » ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى رقم (٢٧٣٦) .

علمت مافيه ، لكن للسلف غور ودقة فهم لا يدركها كثير من المتأخرين .

فالاستدلال به صحيح ، بعد تمهيد قاعدة ، إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به ودقته. وهى أن الذنب لابد له من أثر ، وأثره يرتفع بالتوبة تارة ، وبالحسنات الماحية تارة ، وبالمصائب المكفرة تارة ، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة ، وكذلك إذا اشتد أثره ، ولم تقو تلك الأمور على محوه ، فلا بد إذا من دخول النار ؛ لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث ، ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه ،فإذا بقى عليه شىء من خبث الذنوب أدخل كير الامتحان ، ليخلص ذهب إيمانه من خبيثه ، فيصلح حينئذ لدار الملك .

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح ، وهى أقوى الأسباب . وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره فى النار ، فإذا تطهر بالنار ، وزال أثر الوسخ والخبث عنه ، أعطى مكان كل سيئة حسنة ، فإذا تطهر بالتوبة النصوح ، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها ، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة ؛ لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار ، وأحب إلى الله ، وإزالة النار بدل منها . وهى الأصل ، فهى أولى بالتبديل مما بعد الدخول ، يوضحه :

**الوجه التاسع** : وهو أن التائب قد بدل كل سيئة بندمه عليها حسنة ، إذ هو توبة تلك السيئة ، والندم توبة ، والتوبة من كل ذنب حسنة ، فصار كل ذنب عمله زائلا بالتوبة التى حلت محله وهى حسنة، فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار ، فتأمله فإنه من ألطف الوجوه .

وعلى هذا ، فقد تكون هذه الحسنة مساوية فى القدر لتلك السيئة ، وقد تكون دونها ، وقد تكون فوقها . وهذا بحسب نصح هذه التوبة ، وصدق التائب فيها ، وما يقترن بها من عمل القلب الذى تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة ، وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها ، يوضحه :

**الوجه العاشر** : أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر ، وأعظم نفعا ، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب : من ذل وانكسار وخشية ، وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدون بحسنة أو حسنات أعظم منه ، حتى يقول الشيطان : ياليتنى لم أوقعه فيما أوقعته فيه ،ويندم الشيطان على إيقاعه فى الذنب ، كندامة فاعله على ارتكابه ، لكن شتان مابين الندمين ، والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه . هذا من العبودية من أسرار التوبة ، فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك ، وحصول محبوب الله من التوبة ، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا ، مايوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات .

وتأمل قوله : ﴿ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [ الفرقان : ٧٠ ] ، ولم يقل مكان كل واحدة واحدة ، فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل .

وأما فى الحديث : فإن الذى عذب على ذنوبه لم يبدلها فى الدنيا بحسنات ، من التوبة النصوح وتوابعها ، فلم يكن له مايجعل مكان السيئة حسنات ، فأعطى مكان كل سيئة حسنة واحدة ، وسكت النبى ﷺ عن كبار ذنوبه . ولما انتهى إليها ضحك ، ولم يبين ما يفعل الله بها ، وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة ، ولكن فى الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين :

**أحدهما** : قوله : « أخبئوا عنه كبارها » فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها ، وطمع فى تبديلها ، فيكون تبديلها أعظم موقعا عنده من تبديل الصغائر ، وهو به أشد فرحا واغتباطا .

**والثانى** : ضحك النبى ﷺ عند ذكر ذلك ، وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان ، وما يقر به على نفسه من الذنوب ، من غير أن يقرر عليها ولا يسأل عنها ، وإنما عرضت عليه الصغائر .

فتبارك الله رب العالمين ، وأجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، البر اللطيف ، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان ، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم (١) .

## فصل

## هل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره ؟

فيه قولان لأهل العلم ، وهما روايتان عن الإمام أحمد ، ولم يطلع على الخلاف من حكى الإجماع على صحتها ، كالنووى وغيره .

والمسألة مشكلة ، ولها غور ، ويحتاج الجزم بأحد القولين إلى دليل يحصل به الجزم . والذين صححوها احتجوا بأنه لما صح الإسلام ـ وهو توبة من الكفر ـ مع البقاء على معصية لم يتب منها ، فهكذا تصح التوبة من ذنب ، مع بقائه على آخر .

وأجاب الآخرون عن هذا بأن الإسلام له شأن ليس لغيره ؛ لقوته ونفاذه ، وحصوله

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٩٤ ـ ٣٠٤) .

ـ تبعا بإسلام الأبوين أو أحدهما ـ للطفل ، وكذلك بانقطاع نسب الطفل من أبيه ،أو بموت أحد أبويه فى أحد القولين ، وكذلك يكون بكون سابيه ومالكه مسلما ، فى أحد القولين أيضا ، وذلك لقوته ، وتشوف الشرع إليه ، حتى حصل بغير القصد بل بالتبعية .

واحتج الآخرون بأن التوبة : هى الرجوع إلى الله من مخالفته إلى طاعته . وأى رجوع لمن تاب من ذنب واحد ، وأصر على ألف ذنب ؟

قالوا : والله ـ سبحانه ـ إنما لم يؤاخذ التائب ؛ لأنه قد رجع إلى طاعته وعبوديته ، وتاب توبة نصوحا ، والمصر على مثل ماتاب منه ـ أو أعظم ـ لم يراجع الطاعة . ولم يتب توبة نصوحا .

قالوا : ولأن التائب إذا تاب إلى الله ، فقد زال عنه اسم « العاصى » كالكافر إذا أسلم زال عنه اسم « الكافر » ، وأما إذا أصر على غير الذنب الذى تاب منه فاسم « المعصية » لا يفارقه ، فلا تصح توبته .

وسر المسألة ، أن التوبة : هل تتبعض ، كالمعصية ، فيكون تائبا من وجه دون وجه ، كالإيمان والإسلام ؟

والراجح : تبعضها ؛ فإنها كما تتفاضل فى كيفيتها كذلك تفاضل فى كميتها ، ولو أتى العبد بفرض وترك فرضا آخر ، لا ستحق العقوبة على ما تركه دون مافعله ، فهكذا إذا تاب من ذنب وأصر على آخر ؛ لأن التوبة فرض من الذنبين ، فقد أدى أحد الفرضين وترك الآخر ، فلا يكون ماترك موجبا لبطلان مافعل . كمن ترك الحج وأتى بالصلاة والصيام والزكاة .

والآخرون يجيبون عن هذا بأن التوبة فعل واحد ، معناه الإقلاع عما يكرهه الله ، والندم عليه ، والرجوع إلى طاعته ، فإذا لم توجد بكمالها لم تكن صحيحة ، إذ هى عبادة واحدة ، فالإتيان ببعضها وترك بعض واجباتها كالإتيان ببعض العبادة الواجبة وترك بعضها ، فإن ارتباط أجزاء العبادة الواحدة بعضها ببعض أشد من ارتباط العبادات المتنوعات بعضها ببعض .

وأصحاب القول الآخر يقولون : كل ذنب له توبة تخصه ، وهى فرض منه ، لا تتعلق بالتوبة من الآخر ، كما لا يتعلق أحد الذنبين بالآخر .

والذى عندى فى هذه المسألة : أن التوبة لا تصح من ذنب ، مع الإصرار على آخر من نوعه ، وأما التوبة من ذنب ، مع مباشرة آخر لا تعلق له به ، ولا هو من نوعه :

فتصح ، كما إذا تاب من الربا ، ولم يتب من شرب الخمر مثلا ، فإن توبته من الربا صحيحة . وأما إذا تاب من ربا الفضل ، ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليه ، أو بالعكس ، أو تاب من تناول الحشيشة وأصر على شرب الخمر ، أو بالعكس : فهذا لا تصح توبته ، وهو كمن يتوب عن الزنا بامرأة ، وهو مصر على الزنا بغيرها غير تائب منها ، أو تاب من شرب عصير العنب المسكر ، وهو مصر على شرب غيره من الأشربة المسكرة . بخلاف من عدل عن معصية إلى معصية أخرى غيرها فى الجنس ، إما لأن وزرها أخف ، وإما لغلبة دواعى الطبع إليها ، وقهر سلطان شهوتها له . وإما لأن أسبابها حاضرة لديه عتيدة ، لا يحتاج إلى استدعائها ،بخلاف معصية يحتاج إلى استدعاء أسبابها ، وإما لاستحواذ قرنائه وخلطائه عليه، فلا يدعونه يثوب منها ، وله بينهم حظوة بها وجاه . فلا تطاوعه نفسه على إفساد جاهه بالتوبة ، كما قال أبو نواس لأبى العتاهية ، وقد لامه على تهتكه فى المعاصى:

أترانى ياعتــــاهى تاركا تلك المــــلاهى ؟
أترانى مفسدا بالنـ ـسك عند القوم جاهى ؟

فمثل هذا إذا تاب من قتل النفس ، وسرقة أموال المعصومين ، وأكل أموال اليتامى ، ولم يتب من شرب الخمر والفاحشة : صحت توبته مما تاب منه ، ولم يؤاخذ به ، وبقى مؤاخذا بما هو مصر عليه ، والله أعلم [١] .

## فصل
## بين الاستغفار والتوبة

الاستغفار نوعان : مفرد ومقرون بالتوبة . فالمفرد : كقول نوح عليه السلام لقومه : ﴿ **اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١)** ﴾ [ نوح ] ، وكقول صالح لقومه : ﴿ **لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦)** ﴾ [ النمل ] ، وكقوله تعالى : ﴿ **وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩)** ﴾ [ البقرة ] وقوله ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)** ﴾ [ الأنفال ] والمقرون كقوله تعالى : ﴿ **اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ** ﴾ [ هود : ٣ ] وقول هود لقومه: ﴿ **اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا** ﴾ [ هود : ٥٢ ] وقول صالح لقومه: ﴿ **هُوَ**

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٧٣ ـ ٢٧٦) .

أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) ﴾ [ هود ]، وقول شعيب : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) ﴾ [ هود ] ، فالاستغفار المفرد كالتوبة ، بل هو التوبة بعينها ، مع تضمنه طلب المغفرة من الله ، وهو محو الذنب ، وإزالة أثره ، ووقاية شره ، لا كما ظنه بعض الناس : أنها الستر ، فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له ، ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه ، فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم .

وحقيقتها : وقاية شر الذنب ، ومنه المغفر ، لما يقى الرأس من الأذى . والستر لازم لهذا المعنى ، وإلا فالعمامة لا تسمى مغفرا ، ولا القبع ونحوه مع ستره ، فلا بـد فى لفظ « المغفر» من الوقاية . وهذا الاستغفار هو الذى يمنع العذاب فى قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [ الأنفال ] فإن الله لا يعذب مستغفرا . وأما من أصر على الذنب ، وطلب من الله مغفرته ، فهذا ليس باستغفار مطلق ؛ ولهذا لا يمنع العذاب ، فالاستغفار يتضمن التوبة ، والتوبة تتضمن الاستغفار ، وكل منهما يدخل فى مسمى الآخر عند الإطلاق .

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى ، فالاستغفار : طلب وقاية شر ما مضى . والتوبة : الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه فى المستقبل من سيئات أعماله .

فهاهنا ذنبان : ذنب قد مضى ، فالاستغفار منه : طلب وقاية شره ، وذنب يخاف وقوعه ، فالتوبة : العزم على ألا يفعله ، والرجوع إلى الله يتناول النوعين : رجوع إليه ليقيه شر ما مضى ، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله .

وأيضا ، فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقا تؤديه إلى هلاكه ، ولا توصله إلى المقصود، فهو مأمور أن يوليها ظهره ، ويرجع إلى الطريق التى فيها نجاته ، والتى توصله إلى مقصوده ، وفيها فلاحه .

فهاهنا أمران لابد منهما : مفارقة شيء، والرجوع إلى غيره . فخصت « التوبة » بالرجوع ، و « الاستغفار » بالمفارقة ، وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين ؛ ولهذا جاء ـ والله أعلم ـ الأمر بهما مرتبا بقوله : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [ هود : ٩٠ ] ، فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل .

وأيضا ، فالاستغفار من باب إزالة الضرر ، والتوبة طلب جلب المنفعة . فالمغفرة أن يقيه شر الذنب ، والتوبة أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه ، وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده ، والله أعلم .

وهذا يتبين بذكر التوبة النصوح وحقيقتها ، قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ﴾ [ التحريم : ٨ ] فجعل وقاية شر السيئات ـ وهو تكفيرها ـ بزوال ما يكره العبد ، ودخول الجنات ـ وهو حصول مايحب العبد ـ منوطا بحصول التوبة النصوح . و « النصوح » على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصدا للمبالغة ، كالشكور والصبور . وأصل مادة ( ن ص ح ) لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة ، وهو ملاق فى الاشتقاق الأكبر لنصح إذا خلص ، فالنصح فى التوبة والعبادة والمشورة : تخليصها من كل غش ونقص وفساد ، وإيقاعها على أكمل الوجوه ، والنصح ضد الغش .

وقد اختلفت عبارات السلف عنها . ومرجعها إلى شيء واحد . فقال عمر بن الخطاب، وأبى بن كعب رضي الله عنهما : التوبة النصوح : أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه ، كما لا يعود اللبن إلى الضرع . وقال الحسن البصرى : هى أن يكون العبد نادما على ما مضى ، مجمعا على ألا يعود فيه . وقال الكلبى : أن يستغفر باللسان ، ويندم بالقلب ، ويمسك بالبدن . وقال سعيد بن المسيب : توبة نصوحا ، تنصحون بها أنفسكم . جعلها بمعنى ناصحة للتائب، كضروب المعدول عن ضارب .

وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول ؛ أى قد نصح فيها التائب ولم يَشُبْها بغش ، فهى إما بمعنى منصوح فيها ، كركوبة وحلوبة ، بمعنى مركوبة ومحلوبة ، أو بمعنى الفاعل ؛ أى ناصحة كخالصة وصادقة .

وقال محمد بن كعب القرظى : يجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللسان ، والإقلاع بالأبدان ، وإضمار ترك العود بالجنان ، ومهاجرة سيىء الإخوان .

قلت : النصح فى التوبة يتضمن ثلاثة أشياء :

**الأول** : تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها ، بحيث لا تدع ذنبا إلا تناولته .

**والثانى** : إجماع العزم والصدق بكليته عليها ، بحيث لا يبقى عنده تردد ، ولا تلوم ولا انتظار ، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرا بها .

**الثالث** : تخليصها من الشوائب والعلل القادحة فى إخلاصها ، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته ، والرغبة فيما لديه ، والرهبة مما عنده ، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته ، ومنصبه ورياسته ، ولحفظ حاله ، أو لحفظ قوته وماله ، أو استدعاء حمد الناس ، أو الهرب من ذمهم ، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء ، أو لقضاء نهمته من الدنيا ، أو لإفلاسه وعجزه ، ونحو ذلك من العلل التى تقدح فى صحتها وخلوصها لله عز وجل.

فالأول : يتعلق بما يتوب منه ، والثالث : يتعلق بمن يتوب إليه ، والأوسط : يتعلق بذات التائب ونفسه ، فنصح التوبة الصدق فيها ، والإخلاص ، وتعميم الذنوب بها . ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه ، وتمحو جميع الذنوب ، وهى أكمل ما يكون من التوبة ، والله المستعان ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

## فصل
## فى الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب

قد جاء فى كتاب الله تعالى ذكرهما مقترنين ، وذكر كلا منهما منفردا عن الآخر . فالمقترنان كقوله تعالى ـ حاكيا عن عباده المؤمنين : ﴿ **رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ** (١٩٣) ﴾ [ آل عمران ] ، والمنفرد كقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ** (٢) ﴾ [ محمد ] وقوله فى المغفرة : ﴿ **وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾ [ محمد : ١٥ ] وكقوله : ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا** ﴾ [ آل عمران : ١٤٧ ] ونظائره .

فهاهنا أربعة أمور : ذنوب ، وسيئات ، ومغفرة ، وتكفير .

فالذنوب : المراد بها الكبائر . والمراد بالسيئات : الصغائر ، وهى ما تعمل فيه الكفارة ، من الخطأ وما جرى مجراه ؛ ولهذا جعل لها التكفير ، ومنه أخذت الكفارة . ولهذا لم يكن لها سلطان ولا عمل فى الكبائر فى أصح القولين ، فلا تعمل فى قتل العمد ، ولا فى اليمين الغموس فى ظاهر مذهب أحمد وأبى حنيفة .

والدليل على أن السيئات هى الصغائر ، والتكفير لها : قوله تعالى : ﴿ **إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا** (٣١) ﴾ [ النساء ] ، وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان : مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » (١) .

ولفظ « المغفرة » أكمل من لفظ « التكفير » ولهذا كان مع الكبائر ، والتكفير مع الصغائر . فإن لفظ « المغفرة » يتضمن الوقاية والحفظ ، ولفظ « التكفير » يتضمن الستر والإزالة ، وعند الإفراد : يدخل كل منهما فى الآخر . فقوله تعالى: ﴿ **كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ** ﴾

---

(١) مسلم (٢٣٣ / ١٦) فى الطهارة ، باب : الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر .

[ محمد : ٢ ] ، يتناول صغائرها وكبائرها ، ومحوها ووقاية شرها ، بل التكفير المفرد يتناول أسوأ الأعمال ، كما قال تعالى : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ [ الزمر : ٣٥ ] .

وإذا فهم هذا فهم السر فى الوعد على المصائب والهموم والغموم والنصب والوصب بالتكفير دون المغفرة ، كقوله فى الحديث الصحيح : « ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا أذى ـ حتى الشوكة يشاكها ـ إلا كفر الله بها من خطاياه » (١) ، فإن المصائب لا تستقل بمغفرة الذنوب ، ولا تغفر الذنوب جميعها إلا بالتوبة ، أو بحسنات تتضاءل وتتلاشى فيها الذنوب ، فهى كالبحر لا يتغير بالجيف ، وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث .

فلأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها فى الدنيا ، فإن لم تف بطهرهم طهروا فى نهر الجحيم يوم القيامة : نهر التوبة النصوح ، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها ، ونهر المصائب العظيمة المكفرة . فإذا أراد الله بعبده خيرا أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة ، فورد القيامة طيبا طاهرا ، فلم يحتج إلى التطهير الرابع .

## فصل

## فى بيان أن توبة العبد بين توبتين من الله عز وجل

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليها قبلها ، وتوبة منه بعدها . فتوبته بين توبتين من ربه ، سابقة ولاحقة ، فإنه تاب عليه أولا إذنا وتوفيقا وإلهاما ، فتاب العبد . فتاب الله عليه ثانيا ، قبولا وإثابة ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾ [ التوبة ] فأخبر ـ سبحانه ـ أن توبته عليهم سبقت توبتهم ، وأنها هى التى جعلتهم تائبين ، فكانت سببا مقتضيا لتوبتهم ، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله عليهم ، والحكم ينتفى لانتفاء علته .

ونظير هذا : هدايته لعبده قبل الاهتداء ، فيهتدى بهدايته ، فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته ، فإن من ثواب الهدى الهدى بعده ، كما أن من عقوبة الضلالة الضلالة بعدها ، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [ محمد : ١٧ ] ،

(١) البخارى (٥٦٤٠ ـ ٥٦٤٢) فى المرضى ، باب ماجاء فى كفارة المرض ، ومسلم(٢٥٧٢ / ٤٧ ، ٢٥٧٣ / ٥٢) فى البر والصلة والآداب ، باب : ثواب المسلم فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك .

فهداهم أولا فاهتدوا ، فزادهم هدى ثانيا . وعكسه فى أهل الزيغ كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [ الصف : ٥ ] فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم .

وهذا القدر من سر اسميه : « الأول ، والآخر » فهو المعد ، وهو الممد ، ومنه السبب والمسبب ، وهو الذى يعيذ من نفسه بنفسه ، كما قال أعرف الخلق به : « وأعوذ بك منك » (١) ، والعبد تواب ، والله تواب . فتوبة العبد : رجوعه إلى سيده بعد الإباق ، وتوبة الله نوعان : إذن وتوفيق ، وقبول وإمداد .

## فصل
## فى مبدأ التوبة ومنتهاها

التوبة لها مبدأ ومنتهى .

**فمبدؤها** : الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم ، الذى نصبه لعباده ، موصلا إلى رضوانه ، وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ [ الأنعام : ١٥٣ ] ، وبقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [ الشورى ] ، وبقوله : ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) ﴾ [ الحج ] .

**ونهايتها** : الرجوع إليه فى المعاد ، وسلوك صراطه الذى نصبه موصلا إلى جنته ، فمن رجع إلى الله فى هذه الدار بالتوبة : رجع إليه فى المعاد بالثواب . وهذا هو أحد التأويلات فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) ﴾ [ الفرقان ] ، قال البغوى وغيره :« ﴿ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ : يعود إليه بعد الموت ، متابا حسنا يفضل على غيره » ، فالتوبة الأولى ـ وهى قوله : ﴿ وَمَن تَابَ ﴾ : رجوع عن الشرك ، والثانية: رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة .

**والتأويل الثانى** : أن الجزاء متضمن معنى الأوامر . والمعنى : ومن عزم على التوبة وأرادها ، فليجعل توبته إلى الله وحده ، ولوجهه خالصا ، لا لغيره .

**التأويل الثالث** : أن المراد لازم هذا المعنى ، وهو إشعار التائب وإعلامه بمن تاب إليه ، ورجع إليه . والمعنى : فليعلم توبته إلى من ؟ ورجوعه إلى من ؟ فإنها إلى الله لا إلى

---

(١) مسلم (٤٨٦ / ٢٢٢) فى الصلاة ، باب : ما يقال فى الركوع والسجود ، وأبو داود (٨٧٩) فى الصلاة ، باب: فى الدعاء فى الركوع والسجود .

غيره .

ونظيره هذا ـ على أحد التأويلين ـ قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ [ المائدة : ٦٧ ] أى اعلم ما يترتب على من عصى أوامره ولم يبلغ رسالته .

**والتأويل الرابع** : أن التوبة تكون أولا بالقصد والعزم على فعلها ، ثم إذا قوى العزم وصار جازما : وجد به فعل التوبة . فالتوبة الأولى : بالعزم والقصد لفعلها . والثانية : بنفس إيقاع التوبة وإيجادها . والمعنى : فمن تاب إلى الله قصدا ونية وعزما ، فتوبته إلى الله عملا وفعلا ، وهذا نظير قوله ﷺ : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » (١) (٢) .

## فصل
## فيمن ترك محبوبه حراما فبدل له حلالا أو أعاضه الله خيرا منه

إن من ترك لله شيئا عوضه الله خيرا منه ، كما ترك يوسف الصديق عليه السلام امرأة العزيز لله واختار السجن على الفاحشة فعوضه الله أن مكنه فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، وأتته المرأة صاغرة سائلة راغبة فى الوصل الحلال فتزوجها ، فلما دخل بها قال : هذا خير مما كنت تريدين . فتأمل كيف جزاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ضيق السجن أن مكنه فى الأرض ينزل منها حيث يشاء ، وأذل له العزيز وامرأته ، وأقرت المرأة والنسوة ببراءته ، وهذه سنته تعالى فى عباده قديما وحديثا إلى يوم القيامة .

ولما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيل التى شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس ، سخر الله له الريح يسير على متنها حيث أراد .

ولما ترك المهاجرون ديارهم لله وأوطانهم التى هى أحب شىء إليهم أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا وملكهم شرق الأرض وغربها .

ولو اتقى الله السارقُ وترك سرقة المال المعصوم لله لآتاه الله مثله حلالا ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾ [ الطلاق] ، فأخبر

---

(١) البخارى (٦٦٨٩) فى الأيمان والنذور ، باب : النية فى الأيمان ، ومسلم (١٩٠٧ / ١٥٥) فى الإمارة ، باب : قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنية » .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٠٧ ـ ٣١٥) .

الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه إذا اتقاه بترك أخذ ما لا يحل له رزقه الله من حيث لا يحتسب، وكذلك الزانى لو ترك ركوب ذلك الفرج حراما لله لأثابه الله بركوبه أو ركوب ما هو خير منه حلالا .

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن محارب بن دثار، عن صلة، عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «النظرة إلى المرأة سهم من سهام إبليس مسموم، من تركه خوف الله أثابه الله إيمانا يجد حلاوته فى قلبه» (١) .

وقال عمر بن شيبة : حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثنا عنبسة بن عبد الرحمن ، حدثنا أبو الحسن المدنى ، عن على ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « نظر الرجل فى محاسن المرأة سهم من سهام إبليس مسموم فمن أعرض عن ذلك السهم أعقبه الله عبادة تسره » (٢) .

وقال أبو الفرج بن الجوزى ـ رحمه الله تعالى : بلغنى عن بعض الأشراف أنه اجتاز بمقبرة ، فإذا جارية حسناء عليها ثياب سواد ، فنظر إليها فعلقت بقلبه فكتب إليها :

قد كنت أحسب أن الشمس واحدة ... والبدر فى منظر بالحسن موصوف
حتى رأيتك فى أثـــواب ثاكلــة ... سود وصدغك فوق الخد معطوف
فــرحت والقلب منى هائـم دنـف ... والكبد حرى ودمع العين مـذروف
رُدِّى الجواب ففيه الشكر واغتنمـى ... وصل المحب الذى بالحب مشغوف

ورمى بالرقعة إليها ، فلما قرأتها كتبت :

إن كنت ذا حسبٍ زاكٍ وذا نســبٍ ... إن الشريف بغض الطرف معـروف
إن الزناة أناس لا خلاق لهـــم ... فاعلم بأنك يـوم الدين موقــوف
واقطع رجاك لحاك الله(٣) من رجـل ... فإن قلبى عن الفحشاء مصـــروف

فلما قرأ الرقعة زجر نفسه وقال : أليس امرأة تكون أشجع منك ؟ ثم تاب ولبس مدرعة (٤) من الصوف والتجأ إلى الحرم ، فبينا هو فى الطواف يوما وإذا بتلك الجارية عليها درع من صوف ، فقالت له : ما أليق هذا بالشريف ، هل لك فى المباح ؟ فقال : قد

---

(١) الحاكم فى المستدرك (٤ / ٤١٣ ، ٤١٤) فى الرقاق ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وقال الذهبى : « إسحاق واه وعبد الرحمن هو الواسطى ضعفوه » ، وذكره الألبانى فى السلسلة الضعيفة رقم (١٠٦٥) ، وقال: « ضعيف جدا » .

(٢) ذكره الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين (٩ / ٣٤) .

(٣) لحاك الله : أى قبحك ولعنك .

(٤) المدرعة : ثوب من الصوف وجبة مشقوقة المقدم .

كنت أروم هذا قبل أن أعرف الله وأحبه ، والآن شغلنى حبه عن حب غيره ، فقالت له : أحسنت ، ثم طافت وهى تنشد :

فطفنا فلاحت فى الطواف لوائح   غنينا بها عن كل مرأى ومسمع

وقال الحسن البصرى : كانت امرأة بغى قد فاقت أهل عصرها فى الحسن لا تمكن من نفسها إلا بمائة دينار ، وإن رجلا أبصرها فأعجبته ، فذهب فعمل بيديه وعالج (١) فجمع مائة دينار ، فجاء فقال : إنك قد أعجبتنى فانطلقت فعملت بيدى وعالجت حتى جمعت مائة دينار . فقالت : ادفعها إلى القهرمان (٢) حتى ينقدها ويزنها ، فلما فعل قالت : ادخل، وكان لها بيت منجد وسرير من ذهب فقالت : هلم لك ، فلما جلس منها مجلس الخائن تذكر مقامه بين يدى الله فأخذته رعدة وطفئت شهوته فقال : اتركينى لأخرج ولك المائة دينار ، فقالت : مابدا لك ، وقد رأيتنى كما زعمت فأعجبتك ، فذهبت فعالجت وكدحت حتى جمعت مائة دينار ، فلما قدرت على فعلت الذى فعلت ؟ فقال : ما حملنى على ذلك إلا الفرق من الله ، وذكرت مقامى بين يديه ، قالت : إن كنت صادقا فمالى زوج غيرك قال : ذرينى لأخرج ، قالت : لا إلا أن تجعل لى عهدا أن تتزوجنى فقال : لا حتى أخرج ، قالت : عليك عهد الله إن أنا أتيتك أن تتزوجنى ، قال : لعل ، فتقنع بثوبه ثم خرج إلى بلده ، وارتحلت المرأة بدنياها نادمة على ما كان منها حتى قدمت بلده ، فسألت عن اسمه ومنزله فدلت عليه ، فقيل له : الملكة جاءت بنفسها تسأل عنك ، فلما رآها شهق شهقة فمات ، فأسقط فى يدها ، فقالت : أما هذا فقد فاتنى ، أما له من قريب؟ قيل : بلى أخوه رجل فقير ، فقالت : إنى أتزوجك حبا لأخيك ، قال : فتزوجته فولدت له سبعة أبناء .

وقال يحيى بن عامر التيمى : خرج رجل من الحى حاجا فورد بعض المياه ليلا ، فإذا هو بامرأة ناشرة شعرها ، فأعرض عنها فقالت له : هلم إلى فلم تعرض عنى ؟ فقال : إنى أخاف الله رب العالمين ، فتجلببت ، ثم قالت : هبْت والله مُهَابا ، إن أولى من شَركك فى الهيبة لمن أراد أن يشركك فى المعصية ، ثم ولت فتبعها ، فدخلت بعض خيام الأعراب ، قال : فلما أصبحت أتيت رجلا من القوم فسألته عنها وقلت : فتاة صفتها كذا وكذا فقال : هى والله ابنتى ، فقلت : هل أنت مزوجنى بها ؟ فقال : على الأكفاء فمن أنت ؟ فقلت : رجل من تيم الله ، قال : كفو كريم ، فما رمت حتى تزوجتها ودخلت بها ، ثم قلت :

---

(١) عالج الشىء معالجة وعلاجا : مارسه وزاوله .

(٢) القهرمان : الوكيل الخاص بتدبير أحوالها .

جهزوها إلى قدومى من الحج ، فلما قدمنا حملتها إلى الكوفة وها هى ذى ولى منها بنون وبنات ، قال : فقلت لها : ويحك ما كان تعرضك لى حينئذ ؟ فقالت : يا هذا ، ليس للنساء خير من الأزواج ، فلا تعجبن من امرأة تقول : هويت ، فوالله لو كان عند بعض السودان ما تريده من هواها لكان هو هواها .

وقال الحسن بن زيد : ولينا بديار مصر رجل ، فوجد على بعض عماله فحبسه وقيده ، فأشرفت عليه ابنة الوالى فهويته فكتبت إليه :

أيها الرامى بعينيه وفى الطـرف الحتـوف

إن ترد وصلا فقد أمكنك الظبى الألوف

فأجابها الفتى :

إن ترينى زانى العينين فالفــــرج عفيف

ليس إلا النظر الفاتر والشعـــر الظـريف

فأجابته :

قــــــد أردناك فألفينـــاك إنسانا عفيفا

فتأبيت فـــــــــلا زلت لقيديك حليفا

فأجابها :

مــا تأبيت لأنــــــى كنت للظبى عيـــوفـــا (١)

غير أنى خفت ربــــا كان بى بـــــرا لطـيفـا

فذاع الشعر وبلغت القصة الوالى فدعا به فزوجه إياها ودفعها إليه .

وذكر أن رجلا أحب امرأة وأحبته ، فاجتمعا ، فراودته المرأة عن نفسه فقال : إن أجلى ليس بيدى ، وأجلك ليس بيدك ، فربما كان الأجل قد دنا فنلقى الله عاصيين ، فقالت : صدقت ، فتابا وحسنت حالهما ، وتزوجت به .

وذكر بكر بن عبد الله المزنى : أن قصابا ولع بجارية لبعض جيرانه ، فأرسلها أهلها إلى حاجة فى قرية أخرى ، فتبعها فراودها عن نفسها ، فقالت : لا تفعل : لأنا أشد حبا لك منى ، ولكنى أخاف الله ، قال : فأنت تخافينه وأنا لا أخافه ؟ فرجع تائبا ، فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقه ، فإذا هو برسول لبنى إسرائيل ، فسأله فقال : مالك ؟ قال :

(١) عيوفا : كارها ، وعاف الشىء : تركه وزهد فيه .

العطش ، فقال : تعالى حتى ندعو الله حتى تظلنا سحابة حتى ندخل القرية ، قال : مالى من عمل فأدعوه ، قال : فأنا أدعوه وأمن أنت ، فدعا وأمن الرجل ، فأظلتهما سحابة حتى انتهيا إلى القرية فذهب القصاب إلى مكانه فرجعت السحابة معه ، فرجع إليه الرسول فقال : زعمت أن ليس لك عمل ، وأنا الذى دعوت وأنت أمنت ، فأظلتنا سحابة ثم تبعتك ، لتخبرنى ما أمرك ، فأخبره ، فقال الرسول : إن التائب إلى الله بمكان ليس أحد من الناس بمكانه .

وقال يحيى بن أيوب : كان بالمدينة فتى يعجب عمر بن الخطاب ﷺ شأنه ، فانصرف ليلة من صلاة العشاء فتمثلت له امرأة بين يديه ، فعرضت له بنفسها ففتن بها ومضت ، فأتبعها حتى وقف على بابها فأبصر وجلا عن قلبه وحضرته هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾ [ الأعراف ] ، فخر مغشيا عليه ، فنظرت إليه المرأة فإذا هو كالميت ، فلم تزل هى وجارية لها يتعاونان عليه حتى ألقياه على باب داره ، فخرج أبوه فرآه ملقى على باب الدار لما به ، فحمله وأدخله فأفاق ، فسأله ما أصابك يابنى ؟ فلم يخبره ، فلم يزل به حتى أخبره ، فلما تلا الآية شهق شهقة فخرجت نفسه ، فبلغ عمر ﷺ قصته فقال : ألا آذنتمونى بموته ؟ فذهب حتى وقف على قبره فنادى : يا فلان ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾ [ الرحمن ] فسمع صوتا من داخل القبر : قد أعطانى ربى يا عمر .

وذكر الحسن هذه القصة عن عمر ﷺ على وجه آخر قال : كان شاب على عهد عمر ابن الخطاب ﷺ ملازما للمسجد والعبادة ، فهويته جارية فحدث نفسه بها ، ثم إنه تذكر وأبصر فشهق شهقة فغشى عليه منها ، فجاء عم له فحمله إلى بيته ، فلما أفاق قال : ياعم ، انطلق إلى عمر فأقرئه منى السلام وقل له : ما جزاء من خاف مقام ربه ؟ فأخبر عمر فأتاه وقد مات فقال : لك جنتان .

وفى جامع الترمذى من حديث ابن عمر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « كان ذو الكفل لا يتورع من ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت ، فقال : ما يبكيك ؟ أكرهتك ؟ قالت : لا ولكن هذا عمل لم أعمله وإنما حملتنى عليه الحاجة ، قال : فتفعلين هذا وأنت لم تفعليه قط ؟ ثم قال : اذهبى والدنانير لك ، ثم قال : والله لا يعصى الله ذو الكفل أبدا ، فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه : قد غفر الله لذى الكفل » . قال الترمذى : هذا حديث حسن (١) .

---

(١) الترمذى (٢٤٩٦) فى صفة القيامة والرقائق والورع ،باب : (٤٨) ، وضعفه الألبانى السلسلة الضعيفة (٤٠٨٣) .

وقال أبو هريرة ، وابن عباس رضي الله عنهما : خطب رسول الله ﷺ قبل وفاته فقال فى خطبته : « ومن قدر على امرأة أو جارية حراما فتركها مخافة من الله أمنه الله يوم الفزع الأكبر ، وحرمه على النار وأدخله الجنة » .

وقال مالك بن دينار : جنات النعيم بين الفردوس وبين جنات عدن ، فيها جوار خلقن من ورد الجنة ، يسكنها الذين هموا بالمعاصى فلما ذكروا الله عز وجل راقبوه ، فانثنت رقابهم من خشية الله عز وجل .

قال ميمون بن مهران : الذكر ذكران : فذكر الله عز وجل باللسان حسن ، وأفضل منه أن تذكر الله عز وجل عندما تشرف على معاصيه .

وقال قتادة رضي الله عنه : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول : « لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به إلا مخافة الله عز وجل ، إلا أبدله فى عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك » (١) .

وقال عبيد بن عمير : صدق الإيمان وبره أن يخلو الرجل بالمرأة الحسناء فيدعها لا يدعها إلا لله عز وجل .

وقال أبو عمران الجونى : كان رجل من بنى إسرائيل لا يمتنع من شىء ، فجهد (٢) أهل بيت من بنى إسرائيل فأرسلوا إليه جارية منهم تسأله شيئا ، فقال : لا ، أو تمكنينى من نفسك ، فخرجت فجهدوا جهدا شديدا ، فرجعت إليه فقالت : أعطنا ، فقال : لا أو تمكنينى من نفسك ، فرجعت ، فجهدوا جهدا كثيرا فأرسلوها إليه فقال لها ذلك ، فقالت : دونك ، فلما خلا بها جعلت تنتفض كما تنتفض السعفة ، قال لها : مالك ؟ قالت : إنى أخاف الله رب العالمين ، هذا شىء لم أصنعه قط ، قال : أنت تخافين الله ولم تصنعيه وأفعله؟ أعاهد الله أنى لا أرجع إلى شىء مما كنت فيه ، فأوحى الله إلى نبى من أنبيائهم : أن فلانا أصبح فى كتب أهل الجنة .

وذكر أن شابا فى بنى إسرائيل لم يكن فيهم شاب أحسن منه كان يبيع المكاتل ، فبينا هو ذات يوم يطوف بمكاتله إذ خرجت امرأة من دار ملك من ملوك بنى إسرائيل ، فلما رأته رجعت مبادرة فقالت لابنة الملك : إنى رأيت شابا بالباب يبيع المكاتل لم أر شابا قط أحسن منه ، قالت : أدخليه ، فخرجت فقالت : ادخل فدخل ، فأغلقت الباب دونه ، ثم قالت : ادخل فدخل ، فأغلقت بابا آخر دونه ، ثم استقبلته بنت الملك كاشفة عن

---

(١) انظر : كنز العمال ( ٤٣١١٣ ) وعزاه إلى ابن جرير فى التفسير .

(٢) جهد أهل البيت : أجدبوا ، وجهد العيش : ضاق واشتد .

وجهها ونحرها ، فقال لها : استترى عافاك الله ، فقالت : إنا لم ندعك لهذا ، إنما دعوناك لكذا وراودته عن نفسه ، فقال لها :اتقى الله ، قالت : إنك إن لم تطاوعنى على ما أريد أخبرت الملك أنك إنما دخلت تكابرنى [١] على نفسى ، قال لها : فضعى لى وضوءا، فقالت : أعلى تتعلل ؟ ياجارية ، ضعى له وضوءا فوق الجوسق [٢] مكانا لا يستطيع أن يفر منه ، فلما صار فى الجوسق قال: اللهم إنى دعيت إلى معصيتك وإنى أختار أن ألقى نفسى من هذا الجوسق ولا أركب معصيتك ، ثم قال : بسم الله ، وألقى نفسه من أعلاه ،فأهبط الله ملكا أخذ بضبعيه ،فوقع قائما على رجليه ، فلما صار فى الأرض قال:اللهم إن شئت رزقتنى رزقا يغنينى عن بيع هذه المكاتل، فأرسل الله عليه رجلا [٣] من جراد من ذهب فأخذ منه حتى ملأ ثوبه ، فلما صار فى ثوبه قال : اللهم إن كان هذا رزقا رزقتنيه من الدنيا فبارك لى فيه ، وإن كان ينقصنى مما لى عندك فى الآخرة فلا حاجة لى فيه، فنودى: إن هذا الذى أعطيناك جزء من خمسة وعشرين جزءا لصبرك على إلقائك نفسك ، فقال: اللهم فلا حاجة لى فيما ينقصنى مما لى عندك فى الآخرة ،فرجع الجراد .

وذكر أبو الفرج بن الجوزى عن رجل من بعض المياسير [٤] قال : بينا أنا يوما فى منزلى إذ دخل علىَّ خادم لى فقال لى : رجل بالباب معه كتاب ، فقلت : أدخله أو خذ كتابه ، فأخذ الكتاب منه فإذا فيه :

تجنبك الردى ولقيت خيـرا ... وسلمك المليك من الغمـــوم
شكون بنات أحشائى إليكم ... وما إن تشتكين إلى ظلـــــوم
وسالتنى الكتاب إليك فيمـا ... يخامرها ـ فدتك ـ من الهموم
وهن يقلن يا بن الجود إنـا ... برمنا من مراعاة النجـــــوم
وعندك لو مننت شفاء سقم ... لأعضاء دمين من الكلُـــــوم

قال : فلما قرأت الأبيات قلت : عاشق ، فقلت للخادم : أدخله ، فخرج فلم يره فارتبت فى أمره ، فجعل الفكر يتردد فى قلبى ، فدعوت جوارىَّ كلهن فجمعتهن فقلت لهن : ما قصة هذا الكتاب ؟ فحلفن لى وقلن : يا سيدنا ، ما نعرف لهذا الكتاب سببا ، فمن جاءك به ؟ فقلت : قد فاتنى وما أردت سؤالكن إلا أنى ظننت له هوى فى بعضكن ،

---

(١) تكابرنى على نفسى : تراودنى عن نفسى .
(٢) الجوسق : القصر أو الحصن .
(٣) الرجل : طائفة عظيمة من الجراد .
(٤) جمع ميسور : ذو اليسار والغنى .

فمن عرفت منكم أنها صاحبته فهى له ، فلتذهب إليه ولتأخذ كتابى إليه ، وكتبت كتابا أشكره على فعله وأسأله عن حاله ، ووضعت الكتاب فى موضع فى الدار ، فمكث الكتاب فى موضعه حينا لا يأخذه أحد ولا أرى الرجل ، فاغتممت غما شديدا . ثم قلت : لعله بعض فتياننا ، ثم قلت : إن هذا الفتى قد أخبر عن نفسه بالورع ، وقد قنع ممن يحبه بالنظر ، فدبرت عليه فحجبت جوارىَّ عن الخروج ، فما كان إلا يوم وبعض الآخر إذ دخل على الخادم ومعه كتاب قال : أرسل به إليك فلان ، وذكر بعض أصدقائى ففضضته فإذا فيه مكتوب :

ماذا أردت إلى روح معلقـــــة ... عند التراقى وحادى الموت يحدوها
حثثت حاديها ظلما فجــد بهـــا ... فى السير حتى تولت عن تـراقيهـا
حجبت من كان تحيا عند رؤيتهـا ... روحى ومن كان يشفينى تـرائيهـا
فالنفس تجنح نحو الظلم جاهلة ... والقلب منى سليم مـا يـؤاتيهـــا
والله لو قيل لى تأتى بفاحشـــة ... وإن عقباك دنيـانـا ومـا فيهـــا
لقلت لا والذى أخشى عقــوبته ... ولا بأضعافـهـا مـاكـنت آتيهـــا
لولا الحياء لبحنا بالــذى كتمـت ... بنت الفــؤاد وأبـدينـــا تمنيهـــا

قال :فبهت وقلت : لا أدرى ما أحتال فى أمر هذا الرجل ، وقلت للخادم : لا يأتيك أحد بكتاب إلا قبضت عليه حتى تدخله على ، ثم لم أعرف له خبرا بعد ذلك ، فبينا أنا أطوف بالكعبة إذا فتى قد أقبل نحوى وجعل يطوف إلى جنبى ويلاحظنى ، وقد صار مثل العود ، فلما قضيت طوافى خرجت وأتبعنى فقال : ياهذا ، أتعرفنى ؟ قلت : لا أنكرك لسوء ، قال : أنا صاحب الكتابين ، فما تمالكت أن قبلت رأسه وبين عينيه وقلت : بأبى أنت وأمى ، والله لقد شغلت قلبى وأطلت غمى بشدة كتمانك لأمرك ، فهل لك فيما سألت وطلبت ؟ قال : بارك الله لك وأقر عينيك ، إنما أتيتك أستحلك من نظرة كنت نظرتها على غير حكم الكتاب والسنة ، والهوى داع إلى كل بلاء ، وأستغفر الله العظيم ، فقلت : يا حبيبى ، أحب أن تصير معى إلى منزلى فآنس بك وتجرى الحرمة بينى وبينك ، قال : ليس إلى ذلك سبيل ، فقلت : غفر الله لك ذنبك وقد وهبتها لك ومعها مائة دينار ، ولك فى كل سنة كذا وكذا ، قال : بارك الله لك فيها ، فلولا عهود عاهدت الله عليها وأشياء أكدتها على لم يكن فى الدنيا شىء أحب إلى من هذا الذى تعرضه على ، ولكن ليس إلى ذلك سبيل والدنيا منقطعة ، فقلت له : فإذا أبيت أن تقبل منى ذلك فأخبرنى من هى حتى أكرمها لأجلك ما بقيت ، فقال : ما كنت لأذكرها لأحد ، ثم قام وتركنى .

وذكر عبد الملك بن قريب قال : هوى رجل من النساء جارية فاشتد حبه لها ، فبعث إليها يخطبها ، فامتنعت وأجابته إلى غير ذلك ، فأبى وقال : لا إلا ما أحل الله ، ثم إن محبته ألقيت فى قلبها فبذلت له ما سأل ، فقال : لا والله لا حاجة لى بمن دعوتها إلى طاعة الله ودعتنى إلى معصيته .

وحكى المبرد عن شيخه أبى عثمان المازنى أنه قصده بعض أهل الذمة ليقرأ عليه : « كتاب سيبويه » ، وبذل له مائة دينار ، فامتنع ورده ، فقلت له: أترد هذا القدر مع شدة فاقتك ؟ فقال: إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله ، ولست أرى تمكين هذا الذمى منها غيرة على القرآن ، فاتفق أن غنت جارية بحضرة الواثق (١) بقول العرجى :

أظلوم إن مصابكم رجـلا    أهدى السلام تحية ظلم ؟

فاختلف أهل مجلسه فى إعراب رجل ، فمنهم من قال : هو نصب وجعله اسم إن ، ومنهم من رفعه على أنه خبرها ، والجارية أصرت على النصب وقالت : لقننى إياه كذلك شيخى أبو عثمان المازنى ، فأمر الواثق بإحضاره إلى بين يديه ، قال : فلما مثلت بين يديه قال : ممن الرجل ؟ قلت : من بنى مازن ، قال : أى الموازن ؟ أمازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة ؟ قلت : من مازن ربيعة ، فكلمنى بكلام قومى فقال لى : با اسمك ؟ وقومى يقلبون الميم باء والباء ميما ، فكرهت أن أواجهه بلفظة مكر ، فقلت : بكر يا أمير المؤمنين، ففطن لما قصدته وأعجب به ، فقال : ما تقول فى قول الشاعر :

أظلوم إن مصابكم رجـلا    أهدى السلام تحية ظلم ؟

أترفع رجلا أم تنصبه ؟ فقلت : الوجه النصب يا أمير المؤمنين : فقال : ولم ذلك ؟ فقلت : لأن مصابكم مصدر بمعنى إصابتكم ، فأخذ البزيدى فى معارضتى ، فقلت : هو بمنزلة قولك : إن ضربك زيدا ظلم ، فرجلا مفعول مصابكم ومنصوب به ، والدليل عليه أن الكلام معلق إلى أن تقول ظلم فيتم ، فاستحسنه الواثق وقال : هل لك من ولد ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين بُنَيَّة ، قال : فما قالت لك عند مسيرك إلينا ؟ قلت : أنشدت قول الأعشى :

أيـا أبتـا لا تـــرم عنـدنا    فإنـــا بخيـر إذا لـم تـــرم
ترانا إذا أضمرتك البــلا    د نُجفى وتُقَطّع منا الرحـم

قال : فما قلت لها ؟ قال : قلت قول جرير :

ثقى بالله ليس له شريك    ومن عند الخليفة بالنجـاح

---

(١) فى المطبوع : « الواتق » ، والصواب ما أثبتناه .

فقال : على النجاح إن شاء الله ، ثم أمر لى بألف دينار ، وردنى إلى البصرة مكرما ، فقال أبو العباس المبرد : فلما عاد إلى البصرة قال لى : كيف رأيت يا أبا العباس ؟ رددنا لله مائة دينار فعوضنا الله ألفا .

## فصل
## فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال الحرام

هذا باب إنما يدخل منه رجلان :

**أحدهما** : من تمكن من قلبه الإيمان بالآخرة وما أعد الله فيها من الثواب والعقاب لمن عصاه ، فآثر أدنى الفوتين ، واختار أسهل العقوبتين .

**والثانى** : رجل غلب عقله على هواه فعلم ما فى الفاحشة من المفاسد ، وما فى العدول عنها من المصالح ، فآثر الأعلى على الأدنى ، وقد جمع الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليوسف الصديق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بين الأمرين ، فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الحرام ، فقالت المرأة : ﴿ **وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)** ﴾ [ يوسف ] فاختار السجن على الفاحشة ، ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوته ، وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه فقال : ﴿ **وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ ، فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته ، ومتى ركن إلى ذلك تخلت عنه عصمة الله وأحاط به الخذلان . وقد قال الله تعالى لأكرم الخلق عليه وأحبهم إليه : ﴿ **وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤)** ﴾ [ الإسراء ] ؛ ولهذا كان من دعائه :« يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » (١) ، وكانت أكثر يمينه : « لا ومقلب القلوب» (٢) كيف وهو الذى أنزل عليه: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**﴾ [ الأنفال : ٢٤ ] ،وقد جرت سنة الله تعالى فى خلقه أن من آثر الألم العاجل على الوصال الحرام أعقبه ذلك فى الدنيا المسرة التامة ، وإن هلك فالفوز العظيم ، والله تعالى لا يضيع ما تحمّل عبده لأجله .

وفى بعض الآثار الإلهية :يقول الله سبحانه وتعالى:« بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى » .

---

(١) الترمذى (٣٥٢٢) فى الدعوات ، باب : (٩٠) ، وقال : « حسن » ، وصححه الألبانى ، صحيح الترمذى (٣٧٦٨) ، وفى ظلال الجنة رقم (٢٢٣) .

(٢) البخارى (٦٦٢٨) فى الأيمان والنذور ، باب : كيف كانت يمين النبى ﷺ .

وكل من خرج عن شئ منه لله حفظه الله عليه أو أعاضه الله ما هو أجل منه ؛ ولهذا لما خرج الشهداء عن نفوسهم لله جعلهم الله أحياء عنده يرزقون ، وعوضهم عن أبدانهم التى بذلوها له أبدان طير خضر جعل أرواحهم فيها تسرح فى الجنة حيث شاءت . وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش [١] ، ولما تركوا مساكنهم له عوضهم مساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم .

وقال وهب بن منبه : كان عابد من عباد بنى إسرائيل يتعبد فى صومعة فجعل رجل من بنى إسرائيل إلى امرأة بغى فبذل لها مالا وقال : لعلك أن تفتنيه ، فجاءته فى ليلة مطيرة فنادته فأشرف عليها ، فقالت : آونى إليك ، فتركها وأقبل على صلاته ، فقالت : يا عبد الله آونى إليك ، أما ترى الظلمة والمطر ؟ فلم تزل به حتى آواها ، فاضطجعت قريبا منه فجعلت تريه محاسنها حتى دعته نفسه إليها ، فقال : لا والله حتى أنظر كيف صبرك على النار ، فتقدم إلى المصباح فوضع إصبعا من أصابعه ، حتى احترقت ، ثم عاد إلى صلاته فدعته نفسه إليها ، فعاود المصباح فوضع إصبعه الأخرى حتى احترقت ، فلم يزل تدعوه نفسه وهو يعود إلى المصباح حتى احترقت أصابعه جميعا وهى تنظر ، فصعقت وماتت .

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن خالد ،حدثنا أمية بن شبل ،عن عبد الله بن وهب قال : لا أعلمه إلا ذكره عن أبيه أن عابدا من بنى إسرائيل كان فى صومعته يتعبد ، فإذا نفر من الغواة قالوا : لو استنزلناه بشيء فذهبوا إلى امرأة بغى فقالوا لها : تعرضى له،فجاءته فى ليلة مظلمة مطيرة ، فقالت : يا عبد الله ، آونى إليك ، وهو قائم يصلى ومصباحه ثاقب [٢] ، فلم يلتفت إليها ، فقالت : يا عبد الله ، الظلمة والغيث ، آونى إليك ، فلم تزل به حتى أدخلها إليه فاضطجعت وهو قائم يصلى ، فجعلت تتقلب وتريه محاسن خلقها حتى دعته نفسه إليها . فقال : لا والله حتى أنظر كيف صبرك على النار ، فدنا إلى المصباح فوضع إصبعا من أصابعه فيه حتى احترقت ، قال : ثم رجع إلى مصلاه ، قال : فدعته نفسه أيضا ، فعاد إلى المصباح فوضع إصبعه أيضا حتى احترقت أصابعه وهى تنظر إليه فصعقت فماتت . فلما أصبحوا غدوا لينظروا ما صنعت ، فإذا بها ميتة ، فقالوا : يا عدو الله يا مرائى ، وقعت عليها ثم قتلتها ، قال : فذهبوا به إلى ملكهم فشهدوا عليه ، فأمر بقتله ، فقال : دعونى حتى أصلى ركعتين ، قال : فصلى ثم دعا فقال : أى رب إنى أعلم أنك لم تكن لتؤاخذنى بما لم أفعل ، ولكن أسألك ألا أكون عارا على القرى [٣]

(١) مسلم (١٨٨٧) فى الإمارة ، باب : بيان أن أرواح الشهداء فى الجنة ، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون .
(٢) ثاقب : مضئ .
(٣) القرى: جمعه قوارى وهم الناس الصالحون . اللسان ( قرى )

بعدى، قال : فرد الله نفسها فقالت : انظروا إلى يده ، ثم عادت ميتة .

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، عن إبراهيم قال : بينما رجل عابد عند امرأة إذ عمد فضرب بيده على فخذها ، فأخذ يده فوضعها فى النار حتى نشت .

وقال حصين بن عبد الرحمن : بلغنى أن فتى من أهل المدينة كان يشهد الصلوات كلها مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان عمر يتفقده إذا غاب ، فعشقته امرأة من أهل المدينة ، فذكرت ذلك لبعض نسائها ، فقالت : أنا أحتال لك فى إدخاله عليك ،فقعدت له فى الطريق ، فلما مر بها قالت له : إنى امرأة كبيرة السن ولى شاة لا أستطيع أن أحلبها ، فلو دخلت فحلبتها لى ـ وكانوا أرغب شىء فى الخير ـ فدخل فلم ير شاة ، فقالت: اجلس حتى آتيك بها ، فإذا المرأة قد طلعت عليه ، فلما رأى ذلك عمد إلى محراب فى البيت فقعد فيه فأرادته عن نفسه فأبى ، وقال : اتقى الله أيتها المرأة ، فجعلت لا تكف ولا تلتفت إلى قوله ، فلما أبى عليها صاحت عليه فجاؤوها فقالت : إن هذا دخل على يريدنى عن نفسى ، فوثبوا عليه وجعلوا يضربونه وأوثقوه ، فلما صلى عمر الغداة فقده ،فبينا هو كذلك إذ جاؤوا به فى وثاق ، فلما رآه عمر قال : اللهم لا تخلف ظنى به ،قال: ما لكم؟ قالوا :استغاثت امرأة بالليل فجئنا فوجدنا هذا الغلام عندها فضربناه وأوثقناه ، فقال عمر رضي الله عنه :اصدقنى ، فأخبره بالقصة على وجهها ، فقال له عمر رضي الله عنه :أتعرف العجوز؟ فقال : نعم إن رأيتها عرفتها ، فأرسل عمر إلى نساء جيرانها وعجائزهن فجاء بهن فعرضهن ، فلم يعرفها فيهن ، حتى مرت به العجوز فقال:هذه يا أمير المؤمنين ، فرفع عمر عليها الدرة وقال : اصدقينى ، فقصت عليه القصة كما قصها الفتى ، فقال عمر : الحمد لله الذى جعل فينا شبيبة يوسف .

وقال أبو الزناد : كان راهب يتعبد فى صومعته فأشرف منها فرأى امرأة ففتن بها ، فأخرج رجله من الصومعة لينزل إليها ، فنزلت عليه العصمة فقال : رِجْلٌ خرجت من الصومعة لتعصى الله والله لا تعود معى فى صومعتى ، فتركها معلقة خارج الصومعة يسقط عليها الثلوج والأمطار حتى تناثرت وسقطت فشكر الله ذلك من صنعه ، ومدحه فى بعض كتبه بذى الرجل .

وقال مصعب بن عثمان : كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجها فدخلت عليه امرأة بيته ، فسألته نفسه فامتنع عليها ، فقالت : إذن أفضحك ، فخرج هاربا عن منزله وتركها فيه .

وقال جابر بن نوح : كنت بالمدينة جالسا عند رجل فى حاجة ، فمر بنا شيخ حسن

الوجه حسن الثياب ، فقام إليه ذلك الرجل فسلم عليه وقال : يا أبا محمد ، أسأل الله أن يعظم أجرك ، وأن يربط على قلبك بالصبر ، فقال الشيخ :

وكان يمينى فى الوغى ومساعــدى فأصبحت قد خانت يمينى ذراعها
وقد صرت حيرانا من الثكل باهتا أخـا كلف ضاقـت على رباعهـا

فقال له الرجل : أبشر فإن الصبر معول المؤمن ، وإنى لأرجو ألا يحرمك الله الأجر على مصيبتك ، فقلت له : من هذا الشيخ ؟ فقال : رجل منا من الأنصار ، فقلت : وما قصته ؟ قال : أصيب بابنه وكان به بارا قد كفاه جميع ما يعنيه ، ومنيته عجب ، قلت : وما كانت ؟ قال أحبته امرأة فأرسلت إليه تشكو حبه وتسأله الزيارة ، وكان لها زوج فألحت عليه ، فأفشى ذلك إلى صديق له ، فقال له : لو بعثت إليها بعض أهلك فوعظتها وزجرتها رجوت أن تكف عنك ، فأمسك ، وأرسلت إليه أما أن تزورنى وإما أن أزورك فأبى ، فلما يئست منه ذهبت إلى امرأة كانت تعمل السحر فجعلت لها الرغائب فى تهييجه ، فعملت لها فى ذلك ، فبينا هو ذات ليلة مع أبيه إذ خطر ذكرها بقلبه وهاج منه أمر لم يكن يعرفه واختلط ، فقام مسرعا فصلى واستعاذ والأمر يشتد ، فقال : يا أبه ، أدركنى بقيد ، فقال : يا بنى ، ما قصتك ؟ فحدثه بالقصة ، فقام وقيده وأدخله بيتا ، فجعل يضطرب ويخور كما يخور الثور ، ثم هدأ فإذا هو ميت والدم يسيل من منخره .

## فصل

وهذا ليس بعجيب من الرجال ولكنه من النساء أعجب . قال أبو إدريس الأودى : كان رجلان فى بنى إسرائيل عابدين ، وكانت جارية جميلة فأحباها وكتم كل منهما صاحبه ، واختبأ كل منهما خلف شجرة ينظر إليها ، فبصر كل منهما سره إلى صاحبه ، فاتفقا على أن يراوداها ، فلما قربت منهما قالا لها : قد عرفت منزلتنا فى بنى إسرائيل ، وإنك إن لم تؤاتينا وإلا قلنا إذا أصبحنا : إنا أصبنا معك رجلا ، وإنه أفلتنا ، وإنا أخذناك ، فقالت : ما كنت لأطيعكما فى معصية الله ، فأخذاها وقالا : إنا أصبنا معها رجلا فأفلتنا ، وأقبل نبى من أنبيائهم فوضعوا له كرسيا فجلس عليه وقال : أقضى بينكم ؟ فقالا : نعم اقض بيننا ، ففرق بين الرجلين وقال لأحدهما : خلف أى شجرة رأيتها ؟ قال : شجرة كذا وكذا ، وقال للآخر ، فقال : شجرة كذا وكذا غير التى ذكر صاحبه ، ونزلت نار من السماء فأحرقتهما وأفلتت المرأة .

وقال عبد الله بن المبارك : عشق هارون الرشيد جارية من جواريه فأرادها فقالت : إن

أباك مسنى ، فشغف بها وقال فيها :

أرى مـاء وبـى عطش شديـــد ولكـــن لا سبيل إلى الـــورود

أمـا يكفيك أنـك تملكينـــــى وأن الناس عنـدى كالعبيـــــد

وأنك لو قطعت يدى ورجلى لقلت من الرضا أحسنت زيدى

فسأل أبا يوسف عن ذلك فقال : أو كلما قالت جارية شيئا تصدق ؟ قال ابن المبارك : فلا أدرى ممن أعجب ، من هارون الرشيد حيث رغب فيها ، أو منها حيث رغبت عنه ، أو من أبى يوسف حيث سوغ له إتيانها .

وقال أبو عثمان التيمى : مر رجل براهبة من أجمل النساء فافتتن بها ، فتلطف فى الصعود إليها فراودها عن نفسها فأبت عليه وقالت : لا تغتر بما ترى وليس وراءه شىء، فأبى حتى غلبها على نفسها وكان إلى جانبها مجمرة فوضعت يدها فيها حتى احترقت ، فقال لها بعد أن قضى حاجته منها : ما دعاك إلى ما صنعت ؟ قالت : إنك لما قهرتنى على نفسى خفت أن أشاركك فى اللذة فأشاركك فى المعصية ففعلت ما رأيت ، فقال الرجل : والله لا أعصى الله أبدا وتاب مما كان عليه .

وذكر الحسين بن محمد الدامغانى : أن بعض الملوك خرج يتصيد وانفرد عن أصحابه ، فمر بقرية فرأى امرأة جميلة فراودها عن نفسها ، فقالت : إنى غير طاهر فأتطهر وآتيك ، فدخلت بيتها وخرجت إليه بكتاب فقالت : انظر فى هذا حتى آتيك ، فنظر فيه فإذا فيه ما أعد الله للزانى من العقوبة فتركها وذهب ، فلما جاء زوجها أخبرته الخبر ،فكره أن يقربها مخافة أن يكون للملك فيها حاجة فاعتزلها ، فاستعدى عليه أهل الزوجة إلى الملك وقالوا: إن لنا أرضا فى يد الرجل فلا هو يعمرها ولا هو يردها علينا وقد عطلها ، فقال الملك: ما تقول ؟ فقال : إنى رأيت فى هذه الأرض أسدا ، وأنا أتخوف دخولها منه ، ففهم الملك القصة فقال : أعمر أرضك فإن الأسد لا يدخلها ،ونعم الأرض أرضك .

وكانت بعض النساء المتعبدات وقعت فى نفس رجل موسر وكانت جميلة وكانت تخطب فتأبى ، فبلغ الرجل أنها تريد الحج ، فاشترى ثلاثمائة بعير ونادى : من أراد الحج فليكتر من فلان ، فاكترت منه المرأة ، فلما كان فى بعض الطريق جاءها فقال : إما أن تزوجينى نفسك ، وإما غير ذلك ، فقالت : ويحك اتق الله ! فقال : ماهو إلا ما تسمعين ، والله ما أنا بجمال ولا خرجت إلا من أجلك ،فلما خافت على نفسها قالت : ويحك انظر أبقى فى الرجال عين لم تنم ؟ فقال : لا . ناموا كلهم ، قالت : أفنامت عين رب العالمين؟ ثم شهقت شهقة خرت ميتة ،وخر الرجل مغشيا عليه ، فلما أفاق قال : ويحى قتلت نفسا ولم أبلغ شهوتى .

وقال وهب بن منبه : كان فى بنى إسرائيل رجل متعبد شديد الاجتهاد فرأى يوما امرأة فوقعت فى نفسه بأول نظرة ، فقام مسرعا حتى لحقها فقال : رويدك يا هذه ، فوقفت وعرفته فقالت : ما حاجتك ؟ قال : أذات زوج أنت ؟ قالت : نعم فما تريد ؟ قال : لو كان غير هذا لكان لنا رأى ، قالت : على ذلك وما هو ؟ قال : عرض بقلبى من أمرك عارض ، قالت : وما يمنعك من إنفاذه ؟ قال : وتتابعينى على ذلك ؟ قالت : نعم ، فحلت به فى موضع فلما رأته مجدا فى الذى سأل قالت : رويدك يا مسكين لا يسقط جاهك عنده ، فانتبه لها وذهب عنه ما كان يجد فقال : لا حرمك الله ثواب فعلك . ثم تنحى ناحية فقال لنفسه : اختارى إما عمى العين ، وإما الجب ، وإما السياحة مع الوحوش ، فاختارت السياحة مع الوحوش ، فكان كذلك إلى أن مات .

وأحب رجل جارية من العرب وكانت ذات عقل وأدب ، فما زال يحتال فى أمرها حتى اجتمع معها فى ليلة مظلمة شديدة السواد ، فحادثها ساعة ثم دعته نفسه إليها فقال : يا هذه ، قد طال شوقى إليك ، قالت : وأنا كذلك ،فقال :هذا الليل قد ذهب ، والصبح قد اقترب ، قالت : هكذا تفنى الشهوات وتنقطع اللذات ، فقال لها : لو دنوت منى . فقالت : هيهات ، أخاف البعد من الله ، قال : فما الذى دعاك إلى الحضور معى ؟ قالت شقوتى وبلائى ، قال لها : فمتى أراك ؟ قالت : ما أنساك ، وأما الاجتماع معك فما أراه يكون ، ثم تولت . قال : فاستحييت مما سمعت منها ، وأنشد :

توقت عذابا لا يطاق انتقامه ... ولم تأت ما تخشى به أن تعذبا
وقالت مقالا كدت من شدة الحيا ... أهيم على وجهى حيا وتعجبا
ألا أف للحب الذى يورث العمى ... ويورد نارا لا تمل التلهبا
فأقبل عودى فوق بدئى مفكرا ... وقد زال عن قلبى العمى فتسربا

وقال ابن خلف : أخبرنى أبو بكر العامرى قال : عشقت عاتكة المرية ابن عم لها ، فأرادها عن نفسها فامتنعت وقالت :

فما طعم ماء من سحاب مسروق ... تحدر من غر طوال الذوائب
بمنعرج أو بطن واد تطلعت ... عليه رياح الصيف من كل جانب
ترقرق ماء المزن فيهن والتقت ... عليهن أنفاس الرياض الغرائب
نفت جرية الماء القذى عن متونه ... فليس به عيب تراه لشارب
بأطيب مما يقصر الطرف دونه ... تقى الله واستحياء تلك العواقب(١)

(١) روضة المحبين ( ٤٤٥ ـ ٤٦٨ ) .

# العلم والعلماء

# فصل
## فى العلم وفضله وشرفه
## وبيان عموم الحاجة إليه وتوقف كمال العبد ونجاته فى معاشه ومعاده عليه

قال الله تعالى : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)** ﴾ [ آل عمران ] ،استشهد ـ سبحانه ـ بأولى العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده ، فقال : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ** ﴾ . وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه :

**أحدها** : استشهادهم دون غيرهم من البشر .

**والثانى** : اقتران شهادتهم بشهادته .

**والثالث** : اقترانها بشهادة ملائكته .

**والرابع** : أن فى ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم ، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول ، ومنه الأثر المعروف عن النبى ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » (١) .وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة : رأيت رجلا قدم رجلا إلى إسماعيل بن إسحاق القاضى فادعى عليه دعوى، فسأل المدعى عليه فأنكر، فقال للمدعى:ألك بينة ؟ قال : نعم فلان وفلان ، قال:أما فلان فمن شهودى ، وأما فلان فليس من شهودى . قال : فيعرفه القاضى ؟ قال : نعم . قال : بماذا ؟ قال : أعرفه بكتب الحديث : قال : فكيف تعرفه فى كتب الحديث ؟ قال : ما علمت إلا خيرا . قال : فإن النبى ﷺ قال : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله » (٢) ، فمن عدله رسول الله ﷺ أولى ممن عدلته أنت . فقال : قم فهاته ، فقد قبلت شهادته .

**الخامس** : أنه وصفهم بكونهم أولى العلم ، وهذا يدل على اختصاصهم به ،وأنهم أهله وأصحابه ، ليس بمستعار لهم .

**السادس** : أنه ـ سبحانه ـ استشهد بنفسه وهو أجل شاهد ، ثم بخيار خلقه وهم

---

(١ ، ٢) حديث حسن ،كنت قد جمعت كل ما يتعلق به سندًا ومتنًا ،فى تحقيقى لكتاب « شرف أصحاب الحديث» للخطيب،وراجع «بدائع التفسير (١/ ٤٧٩) ولذا لا يعتد بالتعليق رقم (١) (٧/ ١٣٠) فى جامع الفقه .

ملائكته ، والعلماء من عباده ، ويكفيهم بهذا فضلا وشرفا .

**السابع** : أنه استشهد بهم على أجل مشهود به ، وأعظمه وأكبره ، وهو شهادة : أن لا إله إلا الله ، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم .

**الثامن** : أنه ـ سبحانه ـ جعل شهادتهم حجة على المنكرين ؛ فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده .

**التاسع** : أنه ـ سبحانه ـ أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم ، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته ، وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته ، فكأنه ـ سبحانه ـ شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة ، فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقا وتعليما ، وهم الشاهدون بها له ، إقرارا واعترافا ، وتصديقا وإيمانا .

**العاشر** : أنه ـ سبحانه ـ جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة ، فإذا أدوها فقد أدوا الحق المشهود به ، فثبت الحق المشهود به ، فوجب على الخلق الإقرار به ، وكان ذلك غاية سعادتهم فى معاشهم ومعادهم ، وكل من ناله الهدى بشهادتهم وأقر بهذا الحق بسبب شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره ، وهذا فضل عظيم لا يدرى قدره إلا الله ، وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره أيضا ، فهذه عشرة أوجه فى هذه الآية .

**الحادى عشر فى تفضيل العلم وأهله** : أنه ـ سبحانه ـ نفى التسوية بين أهله وبين غيرهم ، كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، فقال تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [ الزمر : ٩ ] ، كما قال تعالى : ﴿ **لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ** ﴾ [ الحشر : ٢٠ ] ، وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم .

**الوجه الثانى عشر** : أنه ـ سبحانه ـ جعل أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون ، فقال : ﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ** ﴾ [ الرعد : ١٩ ] فما ثم إلا عالم أو أعمى ، وقد وصف ـ سبحانه ـ أهل الجهل بأنهم : صم بكم عمى فى غير موضع من كتابه .

**الوجه الثالث عشر** : أنه ـ سبحانه ـ أخبر عن أولى العلم بأنهم يرون أن ما أنزل إليه من ربه حقا ،وجعل هذا ثناء عليهم واستشهادا بهم ، فقال تعالى: ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** ﴾ [ سبأ : ٦ ] .

**الوجه الرابع عشر** : أنه ـ سبحانه ـ أمر بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم ، وجعل ذلك كالشهادة منهم ، فقال : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** (٧) ﴾ [ الأنبياء ] ، وأهل الذكر هم أهل العلم بما أنزل على الأنبياء .

**الوجه الخامس عشر** : أنه ـ سبحانه ـ شهد لأهل العلم شهادة فى ضمنها الاستشهاد بهم على صحة ما أنزل الله على رسوله ، فقال تعالى : ﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** (١١٤) ﴾ [ الأنعام ] .

**الوجه السادس عشر** : أنه ـ سبحانه ـ سَلَّى نبيه بإيمان أهل العلم به وأمره ألا يعبأ بالجاهلين شيئا ، فقال تعالى : ﴿ **وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً** (١٠٦) **قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا** (١٠٧) **وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً** (١٠٨) ﴾ [ الإسراء ] ، وهذا شرف عظيم لأهل العلم وتحته أن أهله العالمون قد عرفوه وآمنوا به وصدقوا ، فسواء آمن به غيرهم أو لا .

**الوجه السابع عشر** : أنه ـ سبحانه ـ مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات فى صدورهم ، وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم ، فقال تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ** (٤٧) **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** (٤٨) **بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ** (٤٩) ﴾ [ العنكبوت ] . وسواء كان المعنى أن القرآن مستقر فى صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ ، وهو فى نفسه آيات بينات ، فيكون أخبر عنه بخبرين : أحدهما : أنه آيات بينات ، الثانى : أنه محفوظ مستقر ثابت فى صدور الذين أوتوا العلم . أو كان المعنى أنه آيات بينات فى صدورهم ، أى كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت فى صدورهم ، والقولان متلازمان ليسا بمختلفين . وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم فى ضمنه الاستشهاد بهم ، فتأمله .

**الوجه الثامن عشر** : أنه ـ سبحانه ـ أمر نبيه أن يسأله مزيد العلم ، فقال تعالى : ﴿ **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** (١١٤) ﴾ [ طه ] وكفى بهذا شرفا للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه .

**الوجه التاسع عشر** : أنه ـ سبحانه ـ أخبر عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصة ، فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ**

**خَبِيرٌ (١١)** ﴾ [ المجادلة ] ، وأخبر ـ سبحانه ـ فى كتابه برفع الدرجات فى أربعة مواضع : أحدها هذا . والثانى : قوله : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)** ﴾ [ الأنفال ] . والثالث : قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥)** ﴾ [ طه ] . والرابع : قوله تعالى : ﴿ **وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً** ﴾ [ النساء : ٩٥ ، ٩٦ ] . فهذه أربعة مواضع فى ثلاثة منها الرفعة بالدرجات لأهل الإيمان الذى هو العلم النافع والعمل الصالح . والرابع : الرفعة بالجهاد فعادت رفعة الدرجات كلها إلى العلم والجهاد اللذين بهما قوام الدين .

**الوجه العشرون** : أنه ـ سبحانه ـ استشهد بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار فقال تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦)** ﴾ [ الروم ] .

**الوجه الحادى والعشرون** : أنه ـ سبحانه ـ أخبر أنهم أهل خشيته ، بل خصهم من بين الناس بذلك ، فقال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)** ﴾ [ فاطر ] ، وهذا حصر لخشيته فى أولى العلم ، وقال تعالى : ﴿ **جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)** ﴾ [ البينة ] ، وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء ، فدل على أن هذا الجزاء المذكور للعلماء بمجموع النصين . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : كفى بخشية الله علما ، وكفى بالاغترار بالله جهلا .

**الوجه الثانى والعشرون** : أنه ـ سبحانه ـ أخبر عن أمثاله التى يضربها لعباده يدلهم على صحة ما أخبر به أن أهل العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها ، فقال تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣)** ﴾ [ العنكبوت ] وفى القرآن بضعة وأربعون مثلا ، وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه يبكى ويقول : لست من العالمين .

**الوجه الثالث والعشرون** : أنه ـ سبحانه ـ ذكر مناظرة إبراهيم لأبيه وقومه وغلبته لهم بالحجة ، وأخبر عن تفضيله بذلك ورفعة درجته بعلم الحجة ، فقال تعالى ـ عقيب مناظرته لأبيه وقومه فى سورة الأنعام : ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)** ﴾ [ الأنعام ] . قال زيد بن أسلم رضي الله عنه : نرفع درجات من نشاء بعلم الحجة .

**الوجه الرابع والعشرون** : أنه ـ سبحانه ـ أخبر أنه خلق الخلق ووضع بيته الحرام والشهر الحرام والهدى والقلائد ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، فقال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)** ﴾ [ الطلاق ] ، فدل على أن علم العباد بربهم وصفاته وعبادته وحده هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر .

**الوجه الخامس والعشرون** : أن الله ـ سبحانه ـ أمر أهل العلم بالفرح بما آتاهم ، وأخبر أنه خير مما يجمع الناس ، فقال تعالى : ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)** ﴾ [ يونس ] ،وفسر فضل الله بالإيمان ورحمته بالقرآن ،والإيمان والقرآن هما العلم النافع والعمل الصالح والهدى ودين الحق ، وهما أفضل علم وأفضل عمل .

**الوجه السادس والعشرون** : أنه ـ سبحانه ـ شهد لمن آتاه العلم بأنه قد آتاه خيرا كثيرا ، فقال تعالى : ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [ البقرة : ٢٦٩ ] . قال ابن قتيبة والجمهور : الحكمة إصابة الحق والعمل به ، وهى العلم النافع والعمل الصالح .

**الوجه السابع والعشرون** : أنه ـ سبحانه ـ عدد نعمه وفضله على رسوله ، وجعل من أجلها أن آتاه الكتاب والحكمة ، وعلمه مالم يكن يعلم ، فقال تعالى : ﴿ **وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)** ﴾ [ النساء ] .

**الوجه الثامن والعشرون** : أنه ـ سبحانه ـ ذكر عباده المؤمنين بهذه النعمة وأمرهم بشكرها ، وأن يذكروه على إسدائها إليهم ، فقال تعالى : ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)** ﴾ [ البقرة ] .

**الوجه التاسع والعشرون** : أنه ـ سبحانه ـ لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل فى الأرض خليفة قالوا له : ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)** ﴾ [ البقرة ] إلى آخر قصة آدم ،وأمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى إبليس فلعنه وأخرجه من السماء . وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه :

**أحدها** : أنه ـ سبحانه ـ رد على الملائكة لما سألوه كيف يجعل فى الأرض من هم أطوع له منه ! فقال : ﴿ **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠)** ﴾ [ البقرة ] فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن

الأمور وحقائقها مالا يعلمونه وهو العليم الحكيم، فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورسله وأنبيائه وصالحى عباده والشهداء والصديقين والعلماء وطبقات أهل العلم والإيمان من هو خير من الملائكة وظهر من إبليس من هو شر العالمين، فأخرج ـ سبحانه ـ هذا وهذا، والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا ، ولا بما فى خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة .

**الثانى** : أنه ـ سبحانه ـ لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ميزه عليهم بالعلم ، فعلمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : ﴿ **أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ جاء فى التفسير أنهم قالوا : لن يخلق ربنا خلقا هو أكرم عليه منا فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذى يجعله الله فى الأرض ، فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة أقروا بالعجز وجهل مالم يعلموه ، فقالوا : ﴿ **قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصه به من العلم فقال : ﴿ **يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ** ﴾ أقروا له بالفضل .

**الثالث** : أنه ـ سبحانه ـ لما أن عرفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه قال لهم : ﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)** ﴾ [ البقرة ] فعرفهم ـ سبحانه ـ نفسه بالعلم ، وأنه أحاط علما بظاهرهم وباطنهم، وبغيب السموات والأرض فتعرف اليهم بصفة العلم وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم ، وعجزهم عما آتاه آدم من العلم ، وكفى بهذا شرفا للعلم .

**الرابع** : أنه ـ سبحانه ـ جعل فى آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات ، وأراد ـ سبحانه ـ أن يظهر لملائكته فضله وشرفه ، فأظهر لهم أحسن ما فيه ، وهو علمه ، فدل على أن العلم أشرف ما فى الإنسان ، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم ، ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف عليه السلام لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم ، أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير ، فحينئذ قدمه ومكنه وسلم إليه خزائن الأرض ،وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حسن وجهه وجمال صورته ، ولما ظهر له حسن صورة علمه وجمال معرفته ، أطلقه من الحبس ومكنه فى الأرض ، فدل على أن صورة العلم عند بنى آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية ، ولو كانت أجمل صورة .

وهذا وجه مستقل فى تفضيل العلم مضاف إلى ما تقدم ، فتم به ثلاثون وجها .

**الوجه الحادى والثلاثون** : أنه ـ سبحانه ـ ذم أهل الجهل فى مواضع كثيرة من كتابه ، فقال

تعالى : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [ الأنعام ] ، وقال : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [ الدخان ] ، وقال تعالى : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٤﴾﴾ [ الفرقان ] فلم يقتصر سبحانه على تشبيه الجهال بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلا منهم ، وقال : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [ الأنفال ] أخبر أن الجهال شر الدواب عنده على اختلاف أصنافها من الحمير والسباع والكلاب والحشرات وسائر الدواب ، فالجهال شر منهم وليس على دين الرسل أضر من الجهال ، بل أعداؤهم على الحقيقة ، وقال تعالى لنبيه وقد أعاذه : ﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [ الأنعام ] ،وقال كليمه موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾[البقرة] وقال لأول رسله نوح عليه السلام : ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [ هود ] فهذه حال الجاهلين عنده ، والأول حال أهل العلم عنده ، وأخبر ـ سبحانه ـ عن عقوبته لأعدائه أنه منعهم علم كتابه ومعرفته وفقهه ، فقال تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [ الإسراء ] ، وأمر نبيه بالإعراض عنهم فقال : ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [ الأعراف]،وأثنى على عباده بالإعراض عنهم ومتاركتهم ،كما في قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾[ القصص]، وقال تعالى﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾﴾[ الفرقان] وكل هذا يدل على قبح الجهل عنده وبغضه للجهل وأهله وهو كذلك عند الناس فإن كل أحد يتبرأ منه وإن كان فيه .

**الوجه الثاني والثلاثون** : أن العلم حياة ونور ، والجهل موت وظلمة ، والشر كله سببه عدم الحياة والنور ، والخير كله سببه النور والحياة ، فإن النور يكشف عن حقائق الأشياء ، ويبين مراتبها ، والحياة هى المصححة لصفات الكمال الموجبة لتسديد الأقوال والأعمال ، فكلما تصرف من الحياة فهو خير كله كالحياء الذى سببه كمال حياة القلب ، وتصوره حقيقة القبح ونفرته منه، وضده الوقاحة والفحش ، وسببه موت القلب وعدم نفرته من القبيح ، وكالحياء الذى هو المطر الذى به حياة كل شيء ، قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [ الأنعام : ١٢٢ ] ، كان ميتا بالجهل قلبه ، فأحياه بالعلم ،وجعل له من الإيمان نورا يمشى به فى الناس،وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [ الحديد ] ، وقال تعالى :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) ﴾[ البقرة ]، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [ الشورى ] ، فأخبر أنه روح تحصل به الحياة ، ونور يحصل به الإضاءة والإشراق فجمع بين الأصلين الحياة والنور.

وقال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾ [ المائدة ] ، وقال تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) ﴾ [ التغابن ] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) ﴾ [ النساء] ، وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [ الطلاق ]، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾[ النور ] فضرب سبحانه مثلا لنوره الذى قذفه فى قلب المؤمن كما قال أبى بن كعب رضي الله عنه مثل نوره فى قلب عبده المؤمن وهو نور القرآن والإيمان الذى أعطاه إياه كما قال فى آخر الآية : ﴿ نُّورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ [النور:٣٥] يعنى نور الإيمان على نور القرآن، كما قال بعض السلف: يكاد المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بالأثر ، فإذا سمع فيها بالأثر كان نورا على نور ، وقد جمع الله سبحانه بين ذكر هذين النورين وهما الكتاب والإيمان فى غير موضع من كتابه كقوله: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [ الشورى :٥٢] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس ] ففضل الله الإيمان ورحمته القرآن . وقوله تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [ الأنعام : ١٢٢ ]، وقد تقدمت هذه الآيات . وقال فى آية النور: ﴿ نُّورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ وهو نور الإيمان على نور القرآن .

وفى حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أن الله ضرب مثلا صراطا مستقيما وعلى كتفى الصراط داران لهما أبواب مفتحة على الأبواب ستور وداع يدعو على الصراط وداع يدعو فوقه ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) ﴾ [ يونس ] والأبواب التى على كتفى الصراط حدود الله ، فلا يقع أحد فى حدود الله حتى يكشف

الستر ، والذى يدعو من فوقه واعظ ربه » رواه الترمذى وهذا لفظه (١) . والإمام أحمد ولفظه : « والداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مؤمن » (٢) فذكر الأصلين ؛ وهما داعى القرآن ، وداعى الإيمان . وقال حذيفة : حدثنا رسول الله ﷺ : « إن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن ، فعلموا من الإيمان ، ثم علموا من القرآن» (٣) .

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه عن النبى ﷺ : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة ،طعمها طيب ولا ريح لها . ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كالريحانة ،ريحها طيب وطعمها مر ،ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها»(٤) فجعل الناس أربعة أقسام :أهل الإيمان والقرآن وهم خير الناس .الثانى: أهل الإيمان الذين لا يقرؤون القرآن وهم دونهم فهؤلاء هم السعداء ، والأشقياء قسمان : أحدهما : من أوتى قرآنا بلا إيمان فهو منافق . والثانى : من لا أوتى قرآنا ولا إيمانا . والمقصود : أن القرآن والإيمان : هما نور يجعله الله فى قلب من يشاء من عباده ، وأنهما أصل كل خير فى الدنيا والآخرة ، وعلمهما أجل العلوم وأفضلها ؛ بل لا علم فى الحقيقة ينفع صاحبه إلا علمهما : ﴿ **وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** (٢١٣) ﴾ [ البقرة ] .

**الوجه الثالث والثلاثون** : أن الله ـ سبحانه ـ جعل صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها، وأباح صيد الكلب المعلم، وهذا أيضا من شرف العلم أنه لا يباح إلا صيد الكلب العالم، وأما الكلب الجاهل فلا يحل أكل صيده ،فدل على شرف العلم وفضله، قال الله تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (٤) ﴾[ المائدة ] ولولا مزية العلم والتعليم وشرفهما كان صيد الكلب المعلم والجاهل سواء .

**الوجه الرابع والثلاثون** : أن الله ـ سبحانه ـ أخبرنا عن صفيه وكليمه الذى كتب له التوراة بيده ، وكلمه منه إليه ، أنه رحل إلى رجل عالم يتعلم منه ويزداد علما إلى علمه ، فقال : ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا** (٦٠) ﴾ [ الكهف ] ،

(١) الترمذى (٢٨٥٩) فى الأمثال ، باب : ما جاء فى مثل الله لعباده ، وقال : « غريب » .

(٢) أحمد (٤ / ١٨٢ ، ١٨٣) ، وصححه الحاكم (١ / ٧٣) ، ووافقه الذهبى .

(٣) البخارى (٦٤٩٧) فى الرقاق ، باب : رفع الأمانة ، ومسلم (١٤٣ / ٢٣٠) فى الإيمان ، باب : رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب ، وعرض الفتن على القلوب .

(٤) البخارى (٥٠٢٠) فى فضائل القرآن ، باب : فضل القرآن على سائر الكلام ، ومسلم (٧٩٧ / ٢٤٣) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : فضيلة حافظ القرآن .

حرصا منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلم منه ، فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلم مع معلمه ، وقال له : ﴿ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) ﴾ [ الكهف ] فبدأه بعد السلام بالاستئذان على متابعته ، وأنه لا يتبعه إلا بإذنه ، وقال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) ﴾ [ الكهف ] فلم يجئ ممتحنا ولا متعنتا ، وإنما جاء متعلما مستزيدا علما إلى علمه ، وكفى بهذا فضلا وشرفا للعلم ، فإن نبى الله وكليمه سافر ورحل ، حتى لقى النصب من سفره فى تعلم ثلاث مسائل من رجل عالم ، ولما سمع به لم يقر له قرار حتى لقيه وطلب منه متابعته وتعليمه ، وفى قصتهما عبر وآيات وحكم ليس هذا موضع ذكرها .

**الوجه الخامس والثلاثون** : قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [ التوبة ] ، ندب تعالى المؤمنين إلى التفقه فى الدين ، وهو تعلمه ، وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم وهو التعليم ، وقد اختلف فى الآية ، فقيل : المعنى إن المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم ؛ بل ينبغى أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة تتفقه تلك الطائفة ، ثم ترجع تعلم القاعدين ، فيكون النفير على هذا نفير تعلم ، والطائفة تقال على الواحد فما زاد . قالوا : فهو دليل على قبول خبر الواحد ، وعلى هذا حملها الشافعى وجماعة . وقالت طائفة أخرى : المعنى وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلهم ؛ بل ينبغى أن تنفر طائفة للجهاد ، وفرقة تقعد تتفقه فى الدين ، فإذا جاءت الطائفة التى نفرت فقهتها القاعدة وعلمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام . وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا ﴾ ، ﴿ وَلِيُنذِرُوا ﴾ للفرقة التى نفرت منها طائفة ، وهذا قول الأكثرين ، وعلى هذا فالنفير نفير جهاد على أصله ، فإنه حيث استعمل إنما يفهم منه الجهاد ، قال الله تعالى : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [ التوبة : ٤١ ] ، وقال النبى ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » (١) وهذا هو المعروف من هذه اللفظة . وعلى القولين فهو ترغيب فى التفقه فى الدين وتعلمه وتعليمه ، فإن ذلك يعدل الجهاد ؛ بل ربما يكون أفضل منه كما سيأتى تقريره فى الوجه الثامن والمائة إن شاء الله تعالى .

**الوجه السادس والثلاثون** : قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [ العصر ] . قال الشافعى رضي الله عنه : لو فكر الناس كلهم فى هذه السورة لكفتهم ، وبيان ذلك : أن المراتب أربعة ، وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله : إحداها : معرفة الحق . الثانية : عمله به . الثالثة : تعليمه

---

(١) البخارى (٣٠٧٧) فى الجهاد ، باب : لا هجرة بعد الفتح ، ومسلم (٨٥/١٣٥٣) فى الإمارة ، باب : المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير ، وبيان معنى : « لا هجرة بعد الفتح » .

من لا يحسنه . الرابعة : صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه ، فذكر تعالى المراتب الأربعة فى هذه السورة ، وأقسم ـ سبحانه ـ فى هذه السورة بالعصر أن كل أحد فى خسر ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به فهذه مرتبة ، ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى ، ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ وصى به بعضهم بعضا تعليما وارشادا ، فهذه مرتبة ثالثة ؛ ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ صبروا على الحق ، ووصى بعضهم بعضا بالصبر عليه والثبات ، فهذه مرتبة رابعة ، وهذا نهاية الكمال . فإن الكمال أن يكون الشخص كاملا فى نفسه مكملا لغيره ، وكماله بإصلاح قوتيه ؛ العلمية والعملية ، فصلاح القوة العلمية بالإيمان ، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات ، وتكميله غيره بتعليمه إياه ، وصبره عليه ، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل ، فهذه السورة على اختصارها هى من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره ، والحمد لله الذى جعل كتابه كافيا عن كل ما سواه ، شافيا من كل داء ، هاديا إلى كل خير .

**الوجه السابع والثلاثون** : أنه ـ سبحانه ـ ذكر فضله ومنته على أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده بما آتاهم من العلم ، فذكر نعمته على خاتم أنبيائه ورسله بقوله : ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ﴾ [ النساء ] ، وقد تقدمت هذه الآية ، وقال فى يوسف : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [ يوسف ]، وقال فى كليمه موسى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾ [ القصص ] ولما كان الذى آتاه موسى من ذلك أمرا عظيما خصه به على غيره ولا يثبت له إلا الأقوياء أولو العزم هيأه له بعد أن بلغ أشده واستوى يعنى تم وكملت قوته ،وقال فى حق المسيح: ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ [ المائدة : ١١٠ ] ،وقال فى حقه: ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ فجعل تعليمه مما بشر به أمه وأقر عينها به ،وقال فى حق داود: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) ﴾ [ ص ] ، وقال فى حق الخضر صاحب موسى وفتاه : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ [ الكهف ] فذكر من نعمه عليه تعليمه وما آتاه من رحمته .

وقال تعالى يذكر نعمته على داود وسليمان: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [ الأنبياء] ،فذكر النبيين الكريمين ،وأثنى عليهما بالحكم والعلم،وخص بفهم القضية أحدهما، وقد ذكرت الحكمين الداوودى والسليمانى ووجههما ومن صار من الأئمة إلى هذا ،ومن

صار إلى هذا ، وترجيح الحكم السليمانى من عدة وجوه ، وموافقته للقياس وقواعد الشرع فى كتاب الاجتهاد والتقليد .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ﴾ [ الأنعام : ٩١ ] يعنى الذى أنزله جعل ـ سبحانه ـ تعليمهم مالم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلا على صحة النبوة والرسالة؛ إذ لا ينال هذا العلم إلا من جهة الرسل ،فكيف يقولون: ﴿ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾[ الأنعام:٩١]،وهذا من فضل العلم وشرفه،وأنه دليل على صحة النبوة والرسالة،والله الموفق للرشاد .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾ [ آل عمران ] ، وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) ﴾ [ الجمعة ] يعنى وبعث فى آخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وقد اختلف فى هذا اللحاق المنفى ، فقيل : هو اللحاق فى الزمان أى يتأخر زمانهم عنهم ، وقيل : هو اللحاق فى الفضل والسبق وعلى التقديرين ، فامتن عليهم ـ سبحانه ـ بأن علمهم بعد الجهل ، وهداهم بعد الضلالة ، ويالها من منة عظيمة ، فأتت المنن وجلت أن يقدر العباد لها على ثمن .

**الوجه الثامن والثلاثون** : أن أول سورة أنزلها الله فى كتابه سورة العلق ، فذكر فيها ما من به على الإنسان من تعليمه مالم يعلم ، فذكر فيها فضله بتعليمه وتفضيله الإنسان بما علمه إياه ، وذلك يدل على شرف التعليم والعلم ، فقال تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [ العلق ] ،فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم وذكر خلقه خصوصا وعموما ، فقال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) ﴾ وخص الإنسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته ،وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ،وذكر هنا مبدأ خلقه من علق لكون العلقة مبدأ الأطوار التى انتقلت إليها النطفة ، فهى مبدأ تعلق التخليق ، ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبرا عن نفسه بأنه الأكرم،وهو الأفعل من الكرم ،وهو كثرة الخير ولا أحد أولى بذلك منه ـ سبحانه ـ فإن الخير كله بيديه ، والخير كله منه ،والنعم كلها هو موليها ، والكمال كله والمجد كله له ، فهو الأكرم حقا ، ثم ذكر تعليمه عموما وخصوصا ، فقال :

﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس،ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصا ، فقال: ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فاشتملت هذه الكلمات على أنه معطى الموجودات كلها بجميع أقسامها فإن الوجود له مراتب أربعة: إحداها: مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله: ﴿خَلَقَ ﴾ المرتبة الثانية : الذهنية المدلول عليها بقوله : ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . المرتبة الثالثة والرابعة : اللفظية والخطية ،فالخطية مصرح بها فى قوله : ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ، واللفظية من لوازم التعليم بالقلم ،فإن الكتابة فرع النطق والنطق فرع التصور ، فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها ، وأنه ـ سبحانه ـ هو معطيها بخلقه وتعليمه ،فهو الخالق المعلم،وكل شىء فى الخارج فبخلقه وجد،وكل علم فى الذهن فبتعليمه حصل، وكل لفظ فى اللسان أو خط فى البنان فبإقداره وخلقه وتعليمه ،وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . والمقصود : أنه ـ سبحانه ـ تعرف إلى عباده بما علمهم إياه بحكمته من الخط واللفظ والمعنى ، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه،بل من أعظمها وأظهرها ، وكفى بهذا شرفا وفضلا له .

**الوجه التاسع والثلاثون** : أنه ـ سبحانه ـ سمى الحجة العلمية سلطانا . قال ابن عباس رضي الله عنه : كل سلطان فى القرآن فهو حجة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [ يونس ] يعنى : ماعندكم من حجة بما قلتم إن هو إلا قول على الله بلا علم ، وقال تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [النجم : ٢٣] يعنى ما أنزل بها حجة ولا برهانا ؛ بل هى من تلقاء أنفسكم وآبائكم ،وقال تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) ﴾ [ الصافات ] يعنى حجة واضحة ، فائتوا بها إن كنتم صادقين فى دعواكم إلا موضعا واحدا اختلف فيه ، وهو قوله: ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾ [ الحاقة ] فقيل : المراد به القدرة والملك أى : ذهب عنى مالى وملكى فلا مال لى ولا سلطان ، وقيل :هو على بابه أى : انقطعت حجتى وبطلت فلا حجة لى . والمقصود : أن الله ـ سبحانه ـ سمى علم الحجة سلطانا ؛ لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره ، فله بها سلطان على الجاهلين ؛ بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد ؛ ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد ، فإن الحجة تنقاد لها القلوب،وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن ، فالحجة تأسر القلب وتقوده وتذل المخالف وإن أظهر العناد والمكابرة ، فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها ؛ بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يساس به فهو بمنزلة سلطان السباع ، والأسود ونحوها قدرة بلا علم ، ولا رحمة بخلاف سلطان الحجة ، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة ، ومن لم يكن له اقتدار فى علمه فهو إما لضعف حجته وسلطانه ، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له ، وإلا فالحجة ناصرة نفسها ظاهرة على الباطل قاهرة له .

**الوجه الأربعون** : أن الله تعالى وصف أهل النار بالجهل ، وأخبر أنه سد عليهم طرق العلم ، فقال تعالى حكاية عنهم : ﴿ **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)** ﴾ [ الملك ] فأخبروا أنهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون ، والسمع والعقل هما أصل العلم وبهما ينال ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)** ﴾ [ الأعراف ] فأخبر - سبحانه - أنهم لم يحصل لهم علم من جهة من جهات العلم الثلاث ، وهى العقل والسمع والبصر ، كما قال فى موضع آخر : ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (١٧١)** ﴾ [ البقرة ] ، وقال تعالى : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)** ﴾ [ الحج ] وقال تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦)** ﴾ [ الأحقاف ] فقد وصف أهل الشقاء كما ترى بعدم العلم ، وشبههم بالأنعام تارة ، وتارة بالحمار الذى يحمل الأسفار ، وتارة جعلهم أضل من الأنعام ، وتارة جعلهم شر الدواب عنده ، وتارة جعلهم أمواتا غير أحياء ، وتارة أخبر أنهم فى ظلمات الجهل والضلال ، وتارة أخبر أن على قلوبهم أكنة وفى آذانهم وقرا وعلى أبصارهم غشاوة ، وهذا كله يدل على قبح الجهل ، وذم أهله وبغضه لهم ، كما أنه يحب أهل العلم ويمدحهم ويثنى عليهم ، كما تقدم ، والله المستعان .

**الوجه الحادى والأربعون** : ما فى الصحيحين من حديث معاوية رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » (١) وهذا يدل على أن من لم يفقهه فى دينه لم يرد به خيرا ، كما أن من أراد به خيرا فقهه فى دينه ، ومن فقهه فى دينه فقد أراد به خيرا إذا أريد بالفقه العلم المستلزم للعمل ، وأما أن أريد به مجرد العلم فلا يدل على أن من فقه فى الدين فقد أريد به خيرا ، فإن الفقه حينئذ يكون شرطا لإرادة الخير ، وعلى الأول يكون موجبا ، والله أعلم .

**الوجه الثانى والأربعون** : ما فى الصحيحين أيضا من حديث أبى موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله

(١) البخارى (٧١) فى العلم ، باب : من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، ومسلم (١٠٣٧ / ٩٨) فى الزكاة ، باب : النهى عن المسألة .

به فعلم وعلم ،ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ،ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » (١)
شبه ﷺ العلم والهدى الذى جاء به بالغيث ؛ لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة والمنافع والأغذية والأدوية، وسائر مصالح العباد ، فإنها بالعلم والمطر ، وشبه القلوب بالأراضى التى يقع عليها المطر؛ لأنها المحل الذى يمسك الماء فينبت سائر أنواع النبات النافع، كما أن القلوب تعى العلم فيثمر فيها ويزكو وتظهر بركته وثمرته ، ثم قسم الناس إلى ثلاثة أقسام ، بحسب قبولهم واستعدادهم لحفظه وفهم معانيه، واستنباط أحكامه واستخراج حكمه وفوائده.

**أحدها** : أهل الحفظ والفهم الذين حفظوه وعقلوه وفهموا معانيه ، واستنبطوا وجوه الأحكام والحكم والفوائد منه ، فهؤلاء بمنزلة الأرض التى قبلت الماء ، وهذا بمنزلة الحفظ فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وهذا هو الفهم فيه والمعرفة والاستنباط فإنه بمنزلة إنبات الكلأ والعشب بالماء ، فهذا مثل الحفاظ الفقهاء أهل الرواية والدراية .

**القسم الثانى** : أهل الحفظ الذين رزقوا حفظه ونقله وضبطه ، ولم يرزقوا تفقها فى معانيه ، ولا استنباطا ولا استخراجا لوجوه الحكم والفوائد منه ، فهم بمنزلة من يقرأ القرآن ويحفظه ويراعى حروفه وإعرابه ، ولم يرزق فيه فهما خاصا عن الله ، كما قال على بن أبى طالب رضي الله عنه : « إلا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه ».

والناس متفاوتون فى الفهم عن الله ورسوله أعظم تفاوت، فرب شخص يفهم من النص حكما أو حكمين، ويفهم منه الآخر مائة أو مائتين ، فهؤلاء بمنزلة الأرض التى أمسكت الماء للناس فانتفعوا به، هذا يشرب منه وهذا يسقى وهذا يزرع ، فهؤلاء القسمان هم السعداء، والأولون أرفع درجة وأعلى قدرا : ﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** (٤) ﴾ [ الجمعة ] .

**القسم الثالث** : الذين لا نصيب لهم منه لا حفظا ولا فهما ولا رواية ولا دراية ، بل هم بمنزلة الأرض، التى هى قيعان لا تنبت ولا تمسك الماء ، وهؤلاء هم الأشقياء ، والقسمان الأولان اشتركا فى العلم والتعليم كل بحسب ما قبله ووصل إليه ، فهذا يعلم ألفاظ القرآن ويحفظها ، وهذا يعلم معانيه وأحكامه وعلومه .

**والقسم الثالث** : لا علم ولا تعليم ، فهم الذين لم يرفعوا بهدى الله رأسا ولم يقبلوه ، وهؤلاء شر من الأنعام ، وهم وقود النار . فقد اشتمل هذا الحديث الشريف العظيم على التنبيه على شرف العلم والتعليم وعظم موقعه ، وشقاء من ليس من أهله ، وذكر أقسام بنى آدم بالنسبة فيه إلى شقيهم وسعيدهم ، وتقسم سعيدهم إلى سابق مقرب ، وصاحب يمين

---

(١) البخارى (٧٩) فى العلم ، باب : فضل من عَلِمَ و عَلَّم ، ومسلم (٢٢٨٢ / ١٥) فى الفضائل ، باب : بيان مثل ما بعث النبى ﷺ من الهدى والعلم .

مقتصد ، وفيه دلالة على أن حاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر ؛ بل أعظم ، وأنهم إذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الأرض التى فقدت الغيث .

قال الإمام أحمد : الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب ؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه فى اليوم مرة أو مرتين ، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس .

وقد قال تعالى : ﴿ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ** ﴾ [ الرعد : ١٧] شبه ـ سبحانه ـ العلم الذى أنزله على رسوله بالماء الذى أنزله من السماء لما يحصل لكل واحد منهما من الحياة ومصالح العباد فى معاشهم ومعادهم ، ثم شبه القلوب بالأودية ، فقلب كبير يسع علما كثيرا ، كواد عظيم يسع ماء كثيرا ، وقلب صغير إنما يسع علما قليلا كواد صغير إنما يسع ماء قليلا ، فقال : ﴿ **فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا** ﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته ، فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة فيطفوا على وجه القلب ، كما يستخرج السيل من الوادى زبدا يعلو فوق الماء ، وأخبر ـ سبحانه ـ أنه راب يطفو ويعلو على الماء لا يستقر فى أرض الوادى ، كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب وطفت فلا تستقر فيه ؛ بل تجفى وترمى ، فيستقر فى القلب ما ينفع صاحبه والناس من الهدى ودين الحق ، كما يستقر فى الوادى الماء الصافى ويذهب الزبد جفاء ، وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون .

ثم ضرب ـ سبحانه ـ لذلك مثلا آخر ، فقال : ﴿ **وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ** ﴾ يعنى : أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه ، وهو الزبد الذى تلقيه النار وتخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها ، فإنه يقذف ويلقى به ويستقر الجوهر الخالص وحده ، وضرب ـ سبحانه ـ مثلا بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة ، ومثلا بالنار لما فيها من الإضاءة والإشراق والإحراق ، فآيات القرآن تحيى القلوب كما تحيا الأرض بالماء ، وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخائمها كما تحرق النار ما يلقى فيها ، وتميز جيدها من زبدها كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه منه . فهذا بعض ما فى هذا المثل العظيم من العبر والعلم . قال الله تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ** (٤٣) ﴾ [ العنكبوت ] .

**الوجه الثالث والأربعون** : ما فى الصحيحين أيضا من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال لعلى رضي الله عنه : « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم » (١) ، وهذا يدل على فضل العلم والتعليم وشرف منزلة أهله ، بحيث إذا اهتدى

---

(١) البخارى (٢٩٤٢) فى الجهاد ، باب : دعاء النبى ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة ، ومسلم (٢٤٠٦ / ٣٤) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل على بن أبى طالب رضي الله عنه .

رجل واحد بالعالم كان ذلك خيرا له من حمر النعم ، وهى خيارها وأشرفها عند أهلها ، فما الظن بمن يهتدى به كل يوم طوائف من الناس .

**الوجه الرابع والأربعون** : ما روى مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » (١) . أخبر ﷺ : أن المتسبب إلى الهدى بدعوته له مثل أجر من اهتدى به ، والمتسبب إلى الضلالة بدعوته عليه مثل إثم من ضل به ؛ لأن هذا بذل قدرته فى هداية الناس ، وهذا بذل قدرته فى ضلالتهم ، فنزل كل واحد منهما بمنزلة الفاعل التام ، وهذه قاعدة الشريعة ، كما هو مذكور فى غير هذا الموضع ، قال تعالى : ﴿ **لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ** (٢٥) ﴾ [ النحل ] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ** ﴾ [ العنكبوت : ١٣ ] ، وهذا يدل على أن من دعا الأمة إلى غير سنة رسول الله ﷺ فهو عدوه حقا ؛ لأنه قطع وصول أجر من اهتدى بسنته إليه ، وهذا من أعظم معاداته نعوذ بالله من الخذلان .

**الوجه الخامس والأربعون** : ما خرجا فى الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها» (٢) . فأخبر ﷺ: أنه لا ينبغى لأحد أن يحسد أحدا يعنى حسد غبطة ، ويتمنى مثل حاله من غير أن يتمنى زوال نعمة الله عنه إلا فى واحدة من هاتين الخصلتين ، وهى الإحسان إلى الناس بعلمه أو بماله ، وما عدا هذين فلا ينبغى غبطته ولا تمنى مثل حاله لقلة منفعة الناس به .

**الوجه السادس والأربعون** : قال الترمذى: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا سلمة ابن رجاء ، حدثنا الوليد بن حميد ، حدثنا القاسم عن أبى أمامة الباهلى قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عالم والآخر عابد فقال رسول الله ﷺ: « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم» ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض، حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى البحر، ليصلون على معلمى الناس الخير» . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، سمعت أبا عمار الحسين ابن حريث

---

(١) مسلم (٢٦٧٤ / ١٦) فى العلم ، باب : من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة .

(٢) البخارى (٧٣١٦) فى الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب : ما جاء فى اجتهاد القضاء بما أنزل الله تعالى ، ومسلم (٨١٦ / ٢٦٨) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : من يقوم بالقرآن ويعلم ، وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها .

الخزاعى قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول : عالم عامل معلم يدعى كبيرا فى ملكوت السموات [١] . وهذا مروى عن الصحابة قال ابن عباس : علماء هذه الأمة رجلان ، فرجل أعطاه الله علما فبذله للناس ولم يأخذ عليه صفدا ، ولم يشتر به ثمنا ، أولئك يصلى عليهم طير السماء ، وحيتان البحر ، ودواب الأرض ، والكرام الكاتبون ، ورجل آتاه الله علما فضن به عن عباده ، وأخذ به صفدا ، أو اشترى به ثمنا ، فذلك يأتى يوم القيامة يلجم بلجام من نار ، ذكره ابن عبد البر مرفوعا وفى رفعه نظر [٢] . وقوله : « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض يصلون على معلم الناس الخير » ؛ لما كان تعليمه للناس الخير سببا لنجاتهم وسعادتهم وزكاة نفوسهم ، جازاه الله من جنس عمله ، بأن جعل عليه من صلاته وصلاة ملائكته وأهل الأرض ما يكون سببا لنجاته وسعادته وفلاحه. وأيضا فإن معلم الناس الخير لما كان مظهرا لدين الرب وأحكامه ، ومعرفا لهم بأسمائه وصفاته جعل الله من صلاته وصلاة أهل سمواته وأرضه عليه ما يكون تنويها به وتشريفا له وإظهارا للثناء عليه بين أهل السماء والأرض .

**الوجه السابع والعشرين**: ما رواه أبو داود والترمذى من حديث أبى الدرداء ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« من سلك طريقا يبتغى فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » [٣]. وقد رواه الوليد بن مسلم عن خالد بن يزيد عن عثمان بن أيمن عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:« من غدا لعلم يتعلمه فتح الله له به طريقا إلى الجنة، وفرشت له الملائكة أكنافها ، وصلت عليه ملائكة السماء وحيتان البحر . وللعالم من الفضل على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، والعلماء ورثة الأنبياء. إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذ بالعلم أخذ بحظ وافر ، وموت العالم مصيبة لا تجبر ، وثلمة لا تسد ونجم طمس ، وموت قبيلة أيسر من موت عالم» [٤] . وهذا حديث حسن ، والطريق التى يسلكها إلى الجنة جزاء

---

(١) الترمذى (٢٦٨٥) فى العلم ، باب: ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (١٥٩٦) .

(٢) ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله (١ / ٣٨) .

(٣) أبو داود (٣٦٤١) فى العلم ، باب : الحث على طلب العلم ، والترمذى (٢٦٨٢) فى العلم ، باب : ما جاء فى عالم المدينة ، وقال : « ليس هو عندى بمتصل » .

(٤) أبو داود (٣٦٤٢) فى العلم ، باب : الحث على طلب العلم ، والحديث بسنده ولفظه رواه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله (١ / ٣٧) .

على سلوكه فى الدنيا طريق العلم الموصلة إلى رضا ربه ، ووضع الملائكة أجنحتها له تواضعا له وتوقيرا وإكراما ؛ لما يحمله من ميراث النبوة ويطلبه ، وهو يدل على المحبة والتعظيم ، فمن محبة الملائكة له وتعظيمه تضع أجنحتها له ؛ لأنه طالب لما به حياة العالم ونجاته ففيه شبة من الملائكة، وبينه وبينهم تناسب ، فإن الملائكة أنصح خلق الله وأنفعهم لبنى آدم ،وعلى أيديهم حصل لهم كل سعادة وعلم وهدى ،ومن نفعهم لبنى آدم ونصحهم أنهم يستغفرون لمسيئهم ، ويثنون على مؤمنيهم،ويعينونهم على أعدائهم من الشياطين ، ويحرصون على مصالح العبد أضعاف حرصه على مصلحة نفسه؛ بل يريدون له من خير الدنيا والآخرة ما لا يريده العبد ولا يخطر بباله ،كما قال بعض التابعين : وجدنا الملائكة أنصح خلق الله لعباده ، ووجدنا الشياطين أغش الخلق للعباد ، وقال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)** ﴾ [ غافر ] فأى نصح للعباد مثل هذا إلا نصح الأنبياء ، فإذا طلب العبد العلم فقد سعى فى أعظم ما ينصح به عباد الله،فلذلك تحبه الملائكة وتعظمه حتى تضع أجنحتها له رضا ومحبة وتعظيما . وقال أبو حاتم الرازى: سمعت ابن أبى أويس يقول : سمعت مالك بن أنس يقول :معنى قول رسول الله ﷺ : « تضع أجنحتها » يعنى : تبسطها بالدعاء لطالب العلم بدلا من الأيدى .

وقال أحمد بن مروان المالكى فى ( كتاب المجالسة ) له : حدثنا زكريا بن عبد الرحمن البصرى ، قال :سمعت أحمد بن شعيب يقول : كنا عند بعض المحدثين بالبصرة فحدثنا بحديث النبى ﷺ : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم » ، وفى المجلس معنا رجل من المعتزلة ، فجعل يستهزئ بالحديث ، فقال : والله لأطرقن غدا نعلى بمسامير فأطأ بها أجنحة الملائكة ، ففعل ومشى فى النعلين ، فجفت رجلاه جميعا ، ووقعت فيهما الأكلة .

وقال الطبرانى : سمعت أبا يحيى زكريا بن يحيى الساجى قال : كنا نمشى فى بعض أزقة البصرة إلى باب بعض المحدثين ، فأسرعنا المشى ، وكان معنا رجل ماجن منهم فى دينه ، فقال : ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ ، فما زال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط .

وفى السنن والمسانيد من حديث صفوان بن عسال قال : قلت : يا رسول الله ، إنى جئت أطلب العلم قال : « مرحبا بطالب العلم ، إن طالب العلم لتحف به الملائكة وتظله

بأجنحتها ، فيركب بعضهم بعضا حتى تبلغ السماء الدنيا من حبهم لما يطلب » .وذكر حديث المسح على الخفين (١) . قال أبو عبد الله الحاكم : إسناده صحيح (٢) . وقال ابن عبد البر هو حديث صحيح حسن ثابت محفوظ مرفوع (٣) ، ومثله لا يقال بالرأى ، ففى هذا الحديث : حف الملائكة له بأجنحتها إلى السماء ، وفى الأول : وضعها أجنحتها له ، فالوضع تواضع وتوقير وتبجيل ، والحف بالأجنحة حفظ وحماية وصيانة ، فتضمن الحديثان تعظيم الملائكة له وحبها إياه ، وحياطته وحفظه ، فلو لم يكن لطالب العلم إلا هذا الحظ الجزيل لكفى به شرفا وفضلا . وقوله ﷺ : « إن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء » (٤) ، فإنه لما كان العالم سببا فى حصول العلم ، الذى به نجاة النفوس من أنواع المهلكات ، وكان سعيه مقصورا على هذا ، وكانت نجاة العباد على يديه جوزى من جنس عمله ، وجعل من فى السموات والأرض ساعيا فى نجاته من أسباب الهلكات باستغفارهم له ، وإذا كانت الملائكة تستغفر للمؤمنين ، فكيف لا تستغفر لخاصتهم وخلاصتهم . وقد قيل : إن من فى السموات ومن فى الأرض المستغفرين للعالم عام فى الحيوانات ناطقها وبهيمها وطيرها وغيره ،ويؤكد هذا قوله :« حتى الحيتان فى الماء وحتى النملة فى جحرها » (٥) .

فقيل : سبب هذا الاستغفار : أن العالم يعلم الخلق مراعاة هذه الحيوانات ، ويعرفهم ما يحل منها وما يحرم ، ويعرفهم كيفية تناولها واستخدامها وركوبها والانتفاع بها ، وكيفية ذبحها على أحسن الوجوه ، وأرفقها بالحيوان ، والعالم أشفق الناس على الحيوان ، وأقومهم ببيان ما خلق له ، وبالجملة فالرحمة والإحسان التى خلق بهما ولهما الحيوان وكتب لهما حظهما منه إنما يعرف بالعلم ، فالعالم معرف لذلك ، فاستحق أن تستغفر له البهائم ، والله أعلم .

وقوله : « وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب » تشبيه مطابق لحال القمر والكواكب ، فإن القمر يضىء الآفاق ويمتد نوره فى أقطار العالم ، وهذه حال العالم ، وأما الكوكب فنوره لا يجاوز نفسه أو ما قرب منه ، وهذه حال العابد الذى يضىء

---

(١) أحمد (٤ / ٢٣٩) ، والترمذى (٣٥٣٦) فى الدعوات ، باب : فى فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده ، وقال : « حسن صحيح »،والنسائى (١٥٨) فى الطهارة ، باب:الوضوء من الغائط والبول .
(٢) الحاكم فى المستدرك (١ / ١٠٠) .
(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١ / ٣٢ ، ٣٣) .
(٤ ، ٥) سبق تخريجهما ص (١٦٣) .

نور عبادته عليه دون غيره ، وإن جاوز نور عبادته غيره فإنما يجاوزه غير بعيد ، كما يجاوز ضوء الكوكب له مجاوزة يسيرة ، ومن هذا الأثر المروى :« إذا كان يوم القيامة يقول الله للعابد : ادخل الجنة ، فإنما كانت منفعتك لنفسك ،ويقال للعالم :اشفع تشفع ، فإنما كانت منفعتك للناس » (١) .

وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنه :« إذا كان يوم القيامة يؤتى بالعابد والفقيه ، فيقال : للعابد : ادخل الجنة ، ويقال : للفقيه اشفع تشفع » وفى التشبيه المذكور لطيفة أخرى وهو : أن الجهل كالليل فى ظلمته وحندسه ، والعلماء والعباد بمنزلة القمر والكواكب الطالعة فى تلك الظلمة ، وفضل نور العالم فيها على نور العابد كفضل نور القمر على الكواكب . وأيضا فالدين قوامه وزينته وإضاءته بعلمائه وعباده ، فإذا ذهب علماؤه وعباده ذهب الدين ، كما أن السماء إضاءتها وزينتها بقمرها وكواكبها ، فإذا خسف قمرها وانتثرت كواكبها أتاها ما توعد ، وفضل علماء الدين على العباد كفضل ما بين القمر والكواكب .

فإن قيل : كيف وقع تشبيه العالم بالقمر دون الشمس وهى أعظم نورا ؟

قيل : فيه فائدتان :

**إحداهما** : أن نور القمر لما كان مستفادا من غيره كان تشبيه العالم الذى نوره مستفاد من شمس الرسالة بالقمر أولى من تشبيهه بالشمس .

**الثانية** : أن الشمس لا يختلف حالها فى نورها ، ولا يلحقها محاق ولا تفاوت فى الإضاءة ، وأما القمر فإنه يقل نوره ويكثر ويمتلئ وينقص ، كما أن العلماء فى العلم على مراتبهم من كثرته وقلته ، فيفضل كل منهم فى علمه بحسب كثرته وقلته وظهوره وخفائه ، كما يكون القمر كذلك ، فعالم كالبدر ليلة تمه ، وآخر دونه بليلة وثانية وثالثة وما بعدها إلى آخر مراتبه ، وهم درجات عند الله .

فإن قيل : تشبيه العلماء بالنجوم أمر معلوم ، كقوله ﷺ : « أصحابى كالنجوم » (٢) ؛ ولهذا هى فى تعبير الرؤيا عبارة عن العلماء ، فكيف وقع تشبيههم هنا بالقمر ؟

قيل : أما تشبيه العلماء بالنجوم ،فإن النجوم يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وكذلك العلماء ، والنجوم زينة للسماء،فكذلك العلماء زينة للأرض ، وهى رجوم للشياطين

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١ / ٢٢) عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ .

(٢) ضعيف . وقال بعض العلماء:موضوع ، انظر : تخريجه مفصلا فى : التلخيص الكبير للحافظ ابن حجر (٤ / ٣٥٠) رقم (٢٥٩٤) ، والسلسلة الضعيفة للألبانى رقم(٥٨)

حائلة بينهم وبين استراق السمع ؛ لئلا يلبسوا بما يسترقونه من الوحى الوارد إلى الرسل من الله على أيدى ملائكته ، وكذلك العلماء رجوم لشياطين الإنس والجن الذى يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، فالعلماء رجوم لهذا الصنف من الشياطين ، ولولاهم لطمست معالم الدين بتلبيس المضلين .

ولكن الله ـ سبحانه ـ أقامهم حراسا حفظة لدينه ،ورجوما لأعدائه وأعداء رسله ، فهذا وجه تشبيههم بالنجوم ، وأما تشبيههم بالقمر ، فذلك كان فى مقام تفضيلهم على أهل العبادة المجردة ، وموازنة ما بينهما من الفضل ،والمعنى أنهم يفضلون العباد الذين ليسوا بعلماء ، كما يفضل القمر سائر الكواكب ، فكل من التشبيهين لائق بموضعه والحمد لله . وقوله : «إن العلماء ورثة الأنبياء » (١) هذا من أعظم المناقب لأهلْ العلم ، فإن الأنبياء خير خلق الله ، فورثتهم خير الخلق بعدهم .

ولما كان كل موروث ينتقل ميراثه إلى ورثته إذ هم الذين يقومون مقامه من بعده ، ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم فى تبليغ ما أرسلوا به إلا العلماء كانوا أحق الناس بميراثهم ، وفى هذا تنبيه على أنهم أقرب الناس إليهم ، فإن الميراث إنما يكون لأقرب الناس إلى الموروث ، وهذا كما أنه ثابت فى ميراث الدينار والدرهم ، فكذلك هو فى ميراث النبوة ، والله يختص برحمته من يشاء ، وفيه أيضا إرشاد وأمر للأمة بطاعتهم واحترامهم وتعزيزهم وتوقيرهم وإجلالهم ، فإنهم ورثة من هذه بعض حقوقهم على الأمة وخلفاؤهم فيهم . وفيه تنبيه على أن محبتهم من الدين وبغضهم مناف للدين كما هو ثابت لموروثهم، وكذلك معاداتهم ومحاربتهم معاداة ومحاربة لله كما هو فى موروثهم . قال على ـ كرم الله وجه ورضى عنه : محبة العلماء دين يدان به .

وقال ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل : « من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة » (٢) وورثة الأنبياء سادات أولياء لله عز وجل ، وفيه تنبيه للعلماء على سلوك هدى الأنبياء وطريقتهم فى التبليغ من الصبر والاحتمال ، ومقابلة إساءة الناس إليهم بالإحسان ، والرفق بهم واستجلابهم إلى الله بأحسن الطرق ، وبذل ما يمكن من النصيحة لهم ، فإن بذلك يحصل لهم نصيبهم من هذا الميراث العظيم قدره ، الجليل خطره .

وفيه أيضا تنبيه لأهل العلم على تربية الأمة ، كما يربى الوالد ولده فيربونهم بالتدريج

(١) سبق تخريجه ص (١٦٢) .

(٢) الحاكم فى المستدرك (٤ / ٣٢٨) فى الرقاق ، خصائص أولياء الله وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

والترقى من صغار العلم إلى كباره ، وتحميلهم منه ما يطيقون كما يفعل الأب بولده الطفل فى إيصال الغذاء إليه ، فإن أرواح البشر بالنسبة إلى الأنبياء والرسل كالأطفال بالنسبة إلى آبائهم ؛ بل دون هذه النسبة بكثير ؛ ولهذا كل روح لم تربها الرسل لم تفلح ولم تصلح لصالحة كما قيل :

ومن لا يربيه الرسول ويسقه ... لبانا له قد در من ثدى قدسه

فذاك لقيط مالـه نسبة الولا ... ولا يتعدى طـور أبناء جنسه

وقوله : « إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما ورثوا العلم » (١) هذا من كمال الأنبياء ، وعظم نصحهم للأمم ، وتمام نعمة الله عليهم ، وعلى أممهم أن أزاح جميع العلل ، وحسم جميع المواد التى توهم بعض النفوس أن الأنبياء من جنس الملوك الذين يريدون الدنيا وملكها ، فحماهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ من ذلك أتم الحماية .

ثم لما كان الغالب على الناس أن أحدهم يريد الدنيا لولده من بعده ، ويسعى ويتعب ، ويحرم نفسه لولده سد هذه الذريعة عن أنبيائه ورسله ، وقطع هذا الوهم الذى عساه أن يخالط كثيرا من النفوس التى تقول ، فلعله إن لم يطلب الدنيا لنفسه فهو يحصلها لولده ، فقال ﷺ : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة » (٢) فلم تورث الأنبياء دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم . وأما قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ [ النمل : ١٦ ] فهو ميراث العلم والنبوة لا غير . وهذا باتفاق أهل العلم من المفسرين غيرهم ؛ وهذا لأن داود عليه السلام كان له أولاد كثيرة سوى سليمان ، فلو كان الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصا به .

وأيضا ، فإن كلام الله يصان عن الأخبار بمثل هذا ، فإنه بمنزلة أن يقال : مات فلان وورثه ابنه . ومن المعلوم أن كل أحد يرثه ابنه ، وليس فى الأخبار بمثل هذا فائدة .

وأيضا ، فإن ما قبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهذه الوراثة وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ [ النمل ] وإنما سيق هذا لبيان فضل سليمان وما خصه الله به من كرامته وميراثه ما كان لأبيه من أعلى المواهب ، وهو العلم والنبوة : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾ [ النمل ] ، وكـذلك قـول زكريا عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ

(١) سبق تخريجه ص (١٦٣) .

(٢) البخارى (٦٧٢٦ ، ٦٧٢٧) فى الفرائض ، باب : قول النبى ﷺ : « لا نورث ما تركنا صدقة » .

**مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)** ﴾ [ مريم ]، فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى الله ، وإلا فلا يظن بنبى كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوه ماله ، فيسأل الله العظيم ولدا يمنعهم ميراثه ، ويكون أحق به منهم ، وقد نزه الله أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله ، فبعدا لمن حرف كتاب الله ، ورد على رسوله كلامه ونسب الأنبياء إلى ماهم برآء منزهون عنه ، والحمد لله على توفيقه وهدايته .

ويذكر عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه مر بالسوق ، فوجدهم فى تجاراتهم وبيوعاتهم ، فقال : أنتم ههنا فيما أنتم فيه ، وميراث رسول الله ﷺ يقسم فى مسجده ، فقاموا سراعا إلى المسجد ، فلم يجدوا فيه إلا القرآن والذكر ومجالس العلم ، فقالوا : أين ما قلت يا أبا هريرة . فقال : هذا ميراث محمد ﷺ يقسم بين ورثته وليس بمواريثكم ودنياكم ، أو كما قال .

وقوله : « فمن أخذه أخذ بحظ وافر » (١) أعظم الحظوظ وأجداها ما نفع العبد ودام نفعه له ، وليس هذا إلا حظه من العلم والدين ، فهو الحظ الدائم النافع الذى إذا انقطعت الحظوظ لأربابها فهو موصول له أبد الآبدين ؛ وذلك لأنه موصول بالحى الذى لا يموت ، فلذلك لا ينقطع ولا يفوت ، وسائر الحظوظ تعدم وتتلاشى بتلاشى متعلقاتها ، كما قال تعالى : ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣)** ﴾ [ الفرقان ] ، فإن الغاية لما كانت منقطعة زائلة تبعتها أعمالهم ، فانقطعت عنهم أحوج ما يكون العامل إلى عمله ، وهذه هى المصيبة التى لا تجبر عياذا بالله واستعانة به وافتقارا وتوكلا عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقوله : « موت العالم مصيبة لا تجبر ، وثلمة لا تسد ، ونجم طمس ، وموت قبيلة أيسر من موت عالم » (٢) لما كان صلاح الوجود بالعلماء ، ولولاهم كان الناس كالبهائم بل أسوأ حالا ، كان موت العالم مصيبة لا يجبرها إلا خلف غيره له .

وأيضا ، فإن العلماء هم الذين يسوسون العباد والبلاد والممالك ، فموتهم فساد لنظام العالم ؛ ولهذا لا يزال الله يغرس فى هذا الدين منهم خالفا عن سالف ، يحفظ بهم دينه وكتابه وعباده ، وتأمل إذا كان فى الوجود رجل قد فاق العالم فى الغنى والكرم وحاجتهم إلى ما عنده شديدة ، وهو محسن إليهم بكل ممكن ، ثم مات وانقطعت عنهم تلك المادة ، فموت العالم أعظم مصيبة من موت مثل هذا بكثير ، ومثل هذا يموت بموته أمم وخلائق ،

---

(١) سبق تخريجه ص (١٦٣) .

(٢) سبق تخريجه ص (١٦٣) .

كما قيل :

تعلم ما الرزية فقد مـــال ولا شاة تموت ولا بعير
ولكن الرزية فقـد حـــر يمـوت بموته بشر كثيـر

وقال آخر

فما كان قيس هلكه هلك واحـد ولكنه بنيان قـوم تهدمـا

**الوجه الثامن والأربعون** : ما روى الترمذى من حديث الوليد بن مسلم : حدثنا روح ابن جناح عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد » . قال الترمذى : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الوليد بن مسلم (١) . قلت : قد رواه أبو جعفر محمد بن الحسن بن على اليقطينى : حدثنا عمر بن سعيد بن سنان ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا روح بن جناح عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال الخطيب : والأول هو المحفوظ عن روح عن مجاهد ، عن ابن عباس ، وما أرى الوهم وقع فى هذا الحديث إلا من أبى جعفر ؛ لأن عمر بن سنان عنده عن هشام بن عمار ، عن الوليد ، عن روح عن الزهرى ، عن سعيد حديث : « فى السماء بيت يقال له البيت المعمور حيال الكعبة»(٢) وحديث ابن عباس كانا فى كتاب ابن سنان عن هشام ، يتلو أحدهما الآخر ، فكتب أبو جعفر إسناد حديث أبى هريرة رضي الله عنه ثم عارضه لسهو أو زاغ نظره ، فنزل إلى متن حديث ابن عباس ، فركب متن هذا على إسناد هذا ، وكل واحد منهما ثقة مأمون برىء من تعمد الغلط .

وقد رواه أبو أحمد بن عدى عن محمد بن سعيد بن مهران : حدثنا شيبان أبو الربيع السمان ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل شىء دعامة ، ودعامة الإسلام الفقه فى الدين، والفقيه أشد على الشيطان من ألف عابد » (٣)ولهذا الحديث علة، وهو أنه روى من كلام أبى هريرة، وهو أشبه، رواه همام بن يحيى: حدثنا يزيد بن عياض، حدثنا صفوان بن سليم عن سليمان، عن يسار، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ماعبد الله بشىء أفضل من فقه فى الدين». قال: وقال أبو هريرة لأن أفقه ساعة أحب إلى من أن أحيى ليلة أصليها حتى أصبح، والفقيه أشد على

(١) الترمذى (٢٦٨١) فى العلم ، باب : ما جاء فى عالم المدينة وقال الألبانى : « موضوع » .
(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١ / ٢٦) .
(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١ / ٢٠٦) ، والكامل فى ضعفاء الرجال لابن عدى (١ / ٣٧٨) .

الشيطان من ألف عابد،ولكل شيء دعامة،ودعامة الدين الفقه[١].

وقد روى بإسناد فيه من لا يحتج به من حديث عاصم بن أبى النجود ، عن زر بن حبيش ، عن عمر بن الخطاب يرفعه : « إن الفقيه أشد على الشيطان من ألف ورع وألف مجتهد وألف متعبد » . وقال المزنى : روى عن ابن عباس أنه قال : إن الشياطين قالوا لإبليس : يا سيدنا ، مالنا نراك تفرح بموت العالم مالا تفرح بموت العابد ، والعالم لا نصيب منه والعابد نصيب منه ؟ قال : انطلقوا ، فانطلقوا إلى عابد فأتوه فى عبادته فقالوا: إنا نريد أن نسألك ، فانصرف ، فقال إبليس : هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى جوف بيضة ؟ فقال : لا أدرى ، فقال : أترونه كفر فى ساعة ، ثم جاؤوا إلى عالم فى حلقته يضحك أصحابه ويحدثهم ، فقالوا : إنا نريد أن نسألك فقال : سل ، فقال : هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى جوف بيضة ؟ قال : نعم : قالوا : كيف ؟ قال : يقول : كن فيكون ، فقال : أترون ذلك لا يعدو نفسه ، وهذا يفسد على عالما كثيرا .

وقد رويت هذه الحكاية على وجه آخر : وإنهم سألوا العابد فقالوا : هل يقدر ربك أن يخلق مثل نفسه ؟ فقال : لا أدرى ، فقال : أترونه لم تنفعه عبادته مع جهله ، وسألوا عن ذلك ؟ فقال : هذه المسألة محال ؛ لأنه لو كان مثله لم يكن مخلوقا ، فكونه مخلوقا وهو مثل نفسه مستحيل ؛ فإذا كان مخلوقا لم يكن مثله ؛ بل كان عبدا من عبيده وخلقا من خلقه ، فقال : أترون هذا يهدم فى ساعة ما أبنيه فى سنين ، أو كما قال .

وروى عن عبد الله بن عمرو : فضل العالم على العابد سبعين درجة بين كل درجتين حضر راجعها فى اللسان الفرس [٢]سبعين عاما ، وذلك أن الشيطان يضع البدعة فيبصرها العالم وينهى عنها،والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها . وهذا معناه صحيح ؛ فإن العالم يفسد على الشيطان ما يسعى فيه ، ويهدم ما يبنيه ، فكل ما أراد إحياء بدعة وإماتة سنة حال العالم بينه وبين ذلك ، فلا شيء أشد عليه من بقاء العالم بين ظهرانى الأمة،ولا شيء أحب إليه من زواله من بين أظهرهم ؛ ليتمكن من إفساد الدين وإغواء الأمة.وأما العابد فغايته أن يجاهد ليسلم منه فى خاصة نفسه ، وهيهات له ذلك[٣].

**الوجه التاسع والأربعون** : ما روى الترمذى من حديث أبى هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ، وعالم ومتعلم » . قال الترمذى : هذا حديث حسن [٤] . ولما كانت الدنيا حقيرة عند الله لا

---

(١) الدارقطنى (٣ / ٧٩) (٢٩٤) فى البيوع ، والهيثمى فى مجمع الزوائد (١ / ١٢٦) فى العلم ، باب : فى فضل العلم ، وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه يزيد بن عياض وهو كذاب » .

(٢) حضر الفرس : ارتفاع الفرس فى عدوه . اللسان ( حضر ) .

(٣) وفى هذا الوجه وغيره أبلغ رد على من يصرفون أوقاتهم وأعمارهم من دعوة الناس ـ وهذا أمر محمود ولكنهم لا يتسلحون بالعالم ويصل الأمر بهم إلى تهوين شأن العلم ، وهم ـ من حيث لا يشعرون ـ يهدمون ولا يبنون .

(٤) الترمذى (٢٣٢٢) فى الزهد ، باب : ما جاء فى هوان الدنيا على الله عز وجل .

تساوى لديه جناح بعوضة ، كانت وما فيها فى غاية البعد منه ، وهذا هو حقيقة اللعنة ، وهو ـ سبحانه ـ إنما خلقها مزرعة للآخرة ومعبرا إليها يتزود منها عباده إليه ، فلم يكن يقرب منها إلا ما كان متضمنا لإقامة ذكره ، ومفضيا إلى محابه ، وهو العلم الذى به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويثنى عليه ويمجد ؛ ولهذا خلقها وخلق أهلها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [ الذاريات ].

وقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) ﴾ [ الطلاق ] ، فتضمنت هاتان الآيتان أنه ـ سبحانه ـ إنما خلق السموات والأرض وما بينهما ، ليعرف بأسمائه وصفاته وليعبد ، فهذا المطلوب ، وما كان طريقا إليه من العلم والتعلم فهو المستثنى من اللعنة ، واللعنة واقعة على ما عداه ، إذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه ، وهذا هو متعلق العقاب فى الآخرة ، فإنه كما كان متعلق اللعنة التى تتضمن الذم والبغض فهو متعلق العقاب ، والله ـ سبحانه ـ إنما يحب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته ولوازم ذلك وما أفضى إليه ، وما عداه فهو مبغوض له مذموم عنده .

**الوجه الخمسون** : ما رواه الترمذى من حديث أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب [1] ، رواه بعضهم فلم يرفعه ، وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله ؛ لأن به قوام الإسلام كما أن قوامه بالجهاد ، فقوام الدين بالعلم والجهاد ، ولهذا كان الجهاد نوعين : جهاد باليد والسنان ، وهذا المشارك فيه كثير ، والثانى : الجهاد بالحجة والبيان ، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل وهو جهاد الأئمة ، وهو أفضل الجهادين ؛ لعظم منفعته ، وشدة مؤنته ، وكثرة أعدائه .

قال تعالى فى سورة الفرقان ـ وهى مكية : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) ﴾، فهذا جهاد لهم بالقرآن ، وهو أكبر الجهادين وهو جهاد المنافقين أيضا ، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين ؛ بل كانوا معهم فى الظاهر . وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم ومع هذا ، فقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [ التحريم : ٩ ] ، ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن .

والمقصود : أن سبيل الله هى الجهاد وطلب العلم ودعوة الخلق به إلى الله ؛ ولهذا قال معاذ رضي الله عنه : عليكم بطلب العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، ومدارسته عبادة ، ومذاكرته

---

(١) الترمذى (٢٦٤٧) فى العلم ، باب : فضل طلب العلم ، وضعفه الألبانى .

تسبيح ، والبحث عنه جهاد . ولهذا قرن ـ سبحانه ـ بين الكتاب المنزل والحديد الناصر ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾ [ الحديد ] فذكر الكتاب والحديد ، إذ بهما قوام الدين ، كما قيل :

فما هو إلا الوحى أوحد مرهف ... تميل ظباه أخدعا كل مايـــل

فهذا شفاء الداء من كل عاقـــل ... وهذا دواء الداء من كل جاهـل

ولما كان كل من الجهاد بالسيف والحجة يسمى سبيل الله ، فسر الصحابة قوله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [ النساء : ٥٩ ] بالأمراء والعلماء ، فإنهم المجاهدون فى سبيل الله ، هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألسنتهم ، فطلب العلم وتعليمه من أعظم سبيل الله عز وجل .

قال كعب الأحبار : طالب العلم كالغادى الرايح فى سبيل الله عز وجل . وجاء عن بعض الصحابة ﷺ : إذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال مات وهو شهيد . وقال سفيان بن عيينة : من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل . وقال أبو الدرداء : من رأى الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص فى عقله ورأيه .

**الوجه الحادى والخمسون** : ما رواه الترمذى : حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا أبو أسامة عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة » ، قال الترمذى : هذا حديث حسن (١) . قال بعضهم : ولم يقل فى هذا الحديث : صحيح ؛ لأنه يقال : دلس الأعمش فى هذا الحديث ؛ لأنه رواه بعضهم فقال : حدثت عن أبى صالح ، والحديث رواه مسلم فى صحيحه من أوجه عن الأعمش عن أبى صالح (٢) . قال الحاكم فى المستدرك : هو صحيح على شرط البخارى ومسلم (٣) ، رواه عن الأعمش جماعة منهم زايدة وأبو معاوية وابن نمير ، وقد تقدم حديث أبى الدرداء فى ذلك (٤) ، والحديث محفوظ وله أصل ، وقد تظاهر الشرع والقدر على أن الجزاء من جنس العمل ، فكما سلك طريقا يطلب فيه حياة قلبه ونجاته من الهلاك سلك الله به طريقا يحصل له ذلك .

---

(١) الترمذى (٢٦٤٦) فى العلم ، باب : فضل طلب العلم .

(٢) مسلم (٢٦٩٩ / ٣٨) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر .

(٣) الحاكم فى المستدرك (١ / ٨٩) فى العلم ، من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة .

(٤) سبق تخريجه ص (١٦٣) .

وقد روى من حديث عائشة ، رواه ابن عدى من حديث محمد بن عبد الملك الأنصارى عن الزهرى ، عن عروة عنها مرفوعا ولفظه : « أوحى الله إلى : أنه من سلك مسلكا يطلب العلم سهلت له طريقا إلى الجنة » (١) .

**الوجه الثاني والخمسون** : أن النبى ﷺ دعا لمن سمع كلامه ووعاه وبلغه بالنضرة ، وهى البهجة ونضارة الوجه وتحسينه ، ففى الترمذى وغيره من حديث ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : « نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها وحفظها وبلغها ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم ؛ إخلاص العمل لله ، ومناصحة أئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم » (٢) . وروى هذا الأصل عن النبى ﷺ ابن مسعود ، ومعاذ بن جبل (٣) ، وأبو الدرداء (٤) ، وجبير بن معطعم (٥) ، وأنس بن مالك (٦) ، وزيد بن ثابت (٧) ، والنعمان بن بشير (٨) ، قال الترمذى : حديث ابن مسعود حديث حسن صحيح ، وحديث زيد بن ثابت حديث حسن . وأخرج الحاكم فى صحيحه حديث جبير بن مطعم ، والنعمان بن بشير وقال فى حديث جبير : على شرط البخارى ومسلم ، و ولو لم يكن فى فضل العلم إلا هذا وحده لكفى به شرفا ، فإن النبى ﷺ دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه وبلغه ، وهذه هى مراتب العلم :

أولها وثانيها : سماعه وعقله ، فإذا سمعه وعاه بقلبه أى عقله ، واستقر فى قلبه كما

---

(١) ذكره ابن عدى فى الكامل فى ضعفاء الرجال (٦ / ١٦٠) .

(٢) الترمذى (٢٦٥٧) فى العلم ، باب : ما جاء فى الحث على تبليغ السماع ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٢٣٢) فى المقدمة ، باب من بلغ علما .

(٣) انظر : الهيثمى فى مجمع الزوائد (١ / ١٤٣) فى العلم ، باب فى سماع الحديث وتبليغه ، وقال : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، إلا أنه قال فى الأوسط : رب حامل كلمه بدل فقه ، وفيه عمرو بن واقد رمى بالكذب وهو منكر الحديث » .

(٤) مجمع الزوائد للهيثمى (١ / ١٤٢) فى العلم ، باب : فى سماع الحديث وتبليغه ، وقال : « رواه الطبرانى فى الكبير ومداره على عبد الرحمن بن زيد وهو منكر الحديث قاله البخارى » .

(٥) ابن ماجه (٢٣١) فى المقدمة ، باب : من بلغ علما ، والحاكم فى المستدرك (١ / ٨٧) فى العلم ، باب : نضر الله عبدا سمع مقالتى فوعاها .

(٦) ابن ماجه (٢٣٦) فى المقدمة ، باب : من بلغ علما .

(٧) الترمذى (٢٦٥٦) فى العلم ، باب : ما جاء فى الحث على تبليغ السماع ، وقال : « حسن » ، وابن ماجه (٢٣٠) فى المقدمة ، باب : من بلغ علما .

(٨) الحاكم فى المستدرك (١ / ٨٨) فى العلم ، باب : فرب حامل فقه لا فقه له ، وقال : « حديث النعمان بن بشير من شرط الصحيح » ، وقال الذهبى : « على شرط مسلم » ، والهيثمى فى مجمع الزوائد (١ / ١٤٣) فى العلم ، باب : فى سماع الحديث وتبليغه ، وقال : « رواه الطبرانى فى الكبير ، وفيه عيسى الخياط وهو متروك الحديث » .

يستقر الشيء الذى يوعى فى وعائه ، ولا يخرج منه ، وكذلك عقله هو بمنزلة عقل البعير والدابة ونحوها حتى لا تشرد وتذهب ؛ ولهذا كان الوعى والعقل قدرا زائدا على مجرد إدراك العلوم .

المرتبة الثالثة : تعامده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب .

المرتبة الرابعة : تبليغه وبثه فى الأمة ؛ ليحصل به ثمرته ومقصوده وهو بثه فى الأمة ، فهو بمنزلة الكنز المدفون فى الأرض الذى لا ينفق منه وهو معرض لذهابه ، فإن العلم ما لم ينفق منه ويعلم فإنه يوشك أن يذهب ، فإذا أنفق منه نما وزكا على الانفاق ، فمن قام بهذه المراتب الأربع دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن ، فإن النضرة هى البهجة والحسن الذى يكساه الوجه من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به وفرح القلب وسروره والتذاذه به ، فتظهر هذه البهجة والسرور والفرحة نضارة على الوجه ؛ ولهذا يجمع له ـ سبحانه ـ بين البهجة والسرور والنضرة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا** (١١) ﴾ [ الإنسان ] ، فالنضرة فى وجوههم ، والسرور فى قلوبهم ، فالنعيم وطيب القلب يظهر نضارة فى الوجه ، كما قال تعالى : ﴿ **تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ** (٢٤) ﴾ [ المطففين ] .

والمقصود : أن هذه النضرة فى وجه من سمع سنة رسول الله ﷺ ووعاها وحفظها وبلغها ، فهى أثر تلك الحلاوة والبهجة والسرور الذى فى قلبه وباطنه .

وقوله ﷺ : « رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » تنبيه على فائدة التبليغ ، وإن المبلغ قد يكون أفهم من المبلغ ، فيحصل له فى تلك المقالة ما لم يحصل للمبلغ ، أو يكون المعنى أن المبلغ قد يكون أفقه من المبلغ ، فإذا سمع تلك المقالة حملها على أحسن وجوهها، واستنبط فقهها وعلم المراد منها .

وقوله ﷺ : « ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم » إلى آخره أى : لا يحمل الغل ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة ، فإنها تنفى الغل والغش ، وهو فساد القلب وسخايمه ، فالمخلص لله إخلاصه يمنع غل قلبه ويخرجه ويزيله جملة ؛ لأنه قد انصرفت دواعى قلبه وإرادته إلى مرضاة ربه ، فلم يبق فيه موضع للغل والغش ، كما قال تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** (٢٤) ﴾ [ يوسف ] فلما أخلص لربه صرف عنه دواعى السوء والفحشاء ، فانصرف عنه السوء والفحشاء ؛ ولهذا لما علم إبليس أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص استثناهم من شرطته التى اشترطها للغواية والإهلاك فقال : ﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** (٨٢) **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** (٨٣) ﴾ [ ص ] ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ**

﴿ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) ﴾ [ الحجر ] فالإخلاص هو سبيل الخلاص ، والإسلام هو مركب السلامة ، والإيمان خاتم الأمان .

وقوله : « ومناصحة أئمة المسلمين » (١) هذا أيضا مناف للغل والغش ، فإن النصيحة لا تجامع الغل ؛ إذ هى ضده ، فمن نصح الأئمة والأمة فقد برئ من الغل .

وقوله : « ولزوم جماعتهم » هذا أيضا مما يطهر القلب من الغل والغش ، فإن صاحبه للزومه جماعة المسلمين يحب لهم ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لها ، ويسوؤه ما يسوؤهم ، ويسره ما يسرهم ، وهذا بخلاف من انحاز عنهم ، واشتغل بالطعن عليهم والعيب والذم لهم ، كفعل الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم ، فإن قلوبهم ممتلئة غلا وغشا ؛ ولهذا تجد الرافضة أبعد الناس من الإخلاص ، وأغشهم للأئمة والأمة ، وأشدهم بعدا عن جماعة المسلمين ، فهؤلاء أشد الناس غلا وغشا بشهادة الرسول والأمة عليهم وشهادتهم على أنفسهم بذلك ، فإنهم لا يكونون قط إلا أعوانا وظهرا على أهل الإسلام ، فأى عدو قام للمسلمين كانوا أعوان ذلك العدو وبطانته ،وهذا أمر قد شاهدته الأمة منهم ، ومن لم يشاهد فقد سمع منه ما يصم الآذان ويشجى القلوب .

وقوله : « فإن دعوتهم تحيط من ورائهم » هذا من أحسن الكلام وأوجزه وأفخمه معنى ، شبه دعوة المسلمين بالسور والسياج المحيط بهم المانع من دخول عدوهم عليهم ، فتلك الدعوة ـ التى هى دعوة الإسلام ، وهم داخلونها ـ لما كانت سورا وسياجا عليهم ، أخبر أن من لزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التى هى دعوة الإسلام ، كما أحاطت بهم ، فالدعوة تجمع شمل الأمة ، وتلم شعثها وتحيط بها ، فمن دخل فى جماعتها أحاطت به وشملته .

**الوجه الثالث والخمسون** : أن النبى ﷺ أمر بتبليغ العلم عنه ، ففى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » (١) . وقال : « ليبلغ الشاهد منكم الغائب » . روى ذلك أبو بكرة (٢) ، ووابصة بن معبد (٣) ، وعمار

---

(١) البخارى (٣٤٦١) فى الأنبياء ، باب : ما ذكر عن بنى إسرائيل ، ولم يعزه صاحب التحفة من هذا الطريق لمسلم (٦ / ٣٩٩) .

(٢) البخارى (٦٧) فى العلم باب : قول النبى ﷺ : « رب مبلغ أوعى من سامع » ، ومسلم (١٦٧٩ / ١٩) فى القسامة ، باب : تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال .

(٣) أبو يعلى (١٥٨٩ ، ١٥٩٠) قال الهيثمى فى المجمع (٣ / ٢٧٣) فى الحج ، باب : الخطب فى الحج : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورواه أبو يعلى ورجاله ثقات » ، وفى مجمع الزوائد أيضا (١ / ١٤٤) فى العلم ، باب:=

ابن ياسر [١] ، وعبد الله بن عمر [٢] ، وعبد الله بن عباس [٣] ، وأسماء بنت يزيد بن السكن [٤] ، وحجير [٥] ، وأبو قريع [٦] ، وسرى بنت نبهان [٧] ، ومعاوية بن حيدة القشيرى [٨] ، وعم أبى حرة [٩] وغيرهم . فأمر ﷺ بالتبليغ عنه ؛ لما فى ذلك من حصول الهدى بالتبليغ ، وله ﷺ أجر من بلغ عنه وأجر من قبل ذلك البلاغ ، وكلما كثر التبليغ عنه تضاعف له الثواب ، فله من الأجر بعدد كل مبلغ وكل مهتد بذلك البلاغ سوى ماله من أجر عمله المختص به،فكل من هدى واهتدى بتبليغه فله أجره ؛ لأنه هو الداعى إليه ، ولو لم يكن فى تبليغ العلم عنه إلا حصول ما يحبه ﷺ لكفى به فضلا .

وعلامة المحب الصادق أن يسعى فى حصول محبوب محبوبه ، ويبذل جهده وطاقته فيها ، ومعلوم أنه لا شئ أحب إلى رسول الله ﷺ من إيصاله الهدى إلى جميع الأمة ، فالمبلغ عنه ساع فى حصول محابه ، فهو أقرب الناس منه وأحبهم إليه ، وهو نائبه وخليفته فى أمته ، وكفى بهذا فضلا وشرفا للعلم وأهله .

**الوجه الرابع والخمسون** : أن النبى ﷺ قدم بالفضائل العلمية فى أعلا الولايات الدينية وأشرفها ، وقدم بالعلم بالأفضل على غيره . فروى مسلم فى صحيحه من حديث أبى مسعود البدرى عن النبى ﷺ : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم إسلاما أو سنا » وذكر الحديث [١٠] ،

= فى سماع الحديث وتبليغه وقال : « رواه البزار ورجاله موثقون » .

(١) أبو يعلى (١٦٢٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٣ / ٢٧٢) فى الحج ، باب : الخطب فى الحج : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، وفيه من لم أعرفه » .

(٢) ابن ماجه (٢٣٥) فى المقدمة ، باب : من بلغ علما ، وصححه الألبانى .

(٣) الطبرانى فى الكبير (١١ / ١٧٢) (١١٣٩٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٣ / ٢٧٤) فى الحج ، باب : الخطب فى الحج : « رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات » .

(٤) أحمد ٦ / ٤٥٦ .

(٥) الطبرانى فى الكبير (٤ / ٣٤ ، ٣٥) (٣٥٧٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٣ / ٢٧٣) فى الحج ، باب : الخطب فى الحج : « رواه الطبرانى فى الكبير من رواية مخشى بن حجير ، ولم أجد من ترجمه » .

(٦) ذكره ابن حجر فى الإصابة (٤ / ١٦٠) وعزاه لابن منده .

(٧) الطبرانى فى الكبير (٢٤ / ٣٠٧ ، ٣٠٨) (٧٧٧) ، والأوسط (٢٤٣٠) ، وقال فى مجمع الزوائد (٣ / ٢٧٦) فى الحج ، باب : الخطب فى الحج : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، ورجاله ثقات » .

(٨) ابن ماجه (٢٣٤) فى المقدمة ، باب من بلغ علما ، وأحمد ٥ / ٥ ، وصححه الألبانى .

(٩) أحمد (٥ / ٧٢ ، ٧٣) ، وأبو يعلى (١٥٦٩ ، ١٥٧٠) ، والبزار (٢٥٢٤) ، والطبرانى فى الكبير (٤ / ٥٣) (٣٦٠٩) ، وقال الهيثمى(٣ / ٢٦٨) فى الحج ، باب : الخطب فى الحج : « أبو حرة الرقاشى وثقه أبو داود ، وضعفه ابن معين ، وفيه على بن زيد وفيه كلام » .

(١٠) مسلم (٦٧٣ / ٢٩٠) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : من أحق بالإمامة .

فقدم فى الإمامة تفضيله العلم على تقدم الإسلام والهجرة ، ولما كان العلم بالقرآن أفضل من العلم بالسنة لشرف معلومه على معلوم السنة قدم العلم به ثم قدم العلم بالسنة على تقدم الهجرة ، وفيه من زيادة العمل ما هو متميز به ، لكن إنما راعى التقديم بالعلم ثم بالعمل ، وراعى التقديم بالعلم بالأفضل على غيره ، وهذا يدل على شرف العلم وفضله ، وأن أهله هم أهل التقدم إلى المراتب الدينية .

**الوجه الخامس والخمسون** : ما ثبت فى صحيح البخارى من حديث عثمان بن عفان ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (١) وتعلم القرآن وتعليمه يتناول تعلم حروفه وتعليمها وتعلم معانيه وتعليمها ، وهو أشرف قسمى علمه وتعليمه ، فإن المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة إليه، فتعلم المعنى وتعليمه تعلم الغاية وتعليمها ، وتعلم اللفظ المجرد وتعليمه تعلم الوسائل وتعليمها ، وبينهما كما بين الغايات والوسائل .

**الوجه السادس والخمسون** : ما رواه الترمذى وغيره فى نسخة عمرو بن الحارث ، عن دراج ، عن أبى الهيثم عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال : « لن يشبع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة » قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب (٢) ، وهذه نسخة معروفة رواها الناس وساق أحمد فى المسند أكثرها أو كثيرا منها ، ولهذا الحديث شواهد ، فجعل النبى ﷺ النهمة فى العلم وعدم الشبع منه من لوازم الإيمان وأوصاف المؤمنين ، وأخبر أن هذا لا يزال دأب المؤمن حتى دخوله الجنة ؛ ولهذا كان أئمة الإسلام إذا قيل لأحدهم : إلى متى تطلب العلم ؟ فيقول : إلى الممات . قال نعيم بن حماد : سمعت عبد الله بن المبارك ﷺ يقول ـ وقد عابه قوم فى كثرة طلبه للحديث فقالوا له . إلى متى تسمع : قال : إلى الممات . وقال الحسين بن منصور الجصاص : قلت : لأحمد بن حنبل ﷺ : إلى متى يكتب الرجل الحديث ؟ قال : إلى الموت . وقال عبد الله بن محمد البغوى : سمعت أحمد بن حنبل ﷺ يقول : إنما أطلب العلم إلى أن أدخل القبر . وقال محمد بن إسماعيل الصائغ : كنت أصوغ مع أبى ببغداد ، فمر بنا أحمد بن حنبل وهو يعدو ونعلاه فى يديه ، فأخذ أبى بمجامع ثوبه فقال : يا أبا عبد الله ، ألا تستحى ! إلى متى تعدو مع هؤلاء ؟ قال : إلى الموت . وقال عبد الله بن بشر الطالقانى : أرجو أن يأتينى أمر ربى والمحبرة بين يدى ، ولم يفارقنى العلم والمحبرة . وقال حميد بن محمد بن يزيد البصرى :

---

(١) البخارى (٥٠٢٧) فى فضائل القرآن ، باب : خيركم من تعلم القرآن وعلمه .

(٢) الترمذى (٢٦٨٦) فى العلم ، باب : ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ، وضعفه الألبانى .

جاء ابن بسطام الحافظ يسألنى عن الحديث فقلت له : ما أشد حرصك على الحديث ؟ فقال : أو ما أحب أن أكون فى قطار آل رسول الله ﷺ . وقيل لبعض العلماء : متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟قال : ما حسنت به الحياة ، وسئل الحسن عن الرجل له ثمانون سنة أيحسن أن يطلب العلم ؟ قال : إن كان يحسن به أن يعيش .

**الوجه السابع والخمسون** : ما رواه الترمذى أيضا من حديث إبراهيم بن الفضل ، عن المقبرى ، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها ». قال الترمذى: هذا حديث غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المدينى المخزومى يضعف فى الحديث من قبل حفظه (١) . وهذا أيضا شاهد لما تقدم وله شواهد ، والحكمة هى العلم فإذا فقده المؤمن فهو بمنزلة من فقد ضالة نفيسة من نفائسه ، فإذا وجدها قر قلبه وفرحت نفسه بوجدانها ، كذلك المؤمن إذا وجد ضالة قلبه وروحه ، التى هو دائما فى طلبها ونشدانها والتفتيش عليها ، وهذا من أحسن الأمثلة ، فإن قلب المؤمن يطلب العلم حيث وجده ، أعظم من طلب صاحب الضالة لها .

**الوجه الثامن والخمسون** : قال الترمذى : حدثنا أبو كريب ، حدثنا خلف بن أيوب ، عن عوف ، عن ابن سيرين ، عن أبى هريرة رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ : « خصلتان لا يجتمعان فى منافق ؛ حسن سمت ، وفقه فى الدين » . قال الترمذى : هذا حديث غريب ، ولا يعرف هذا الحديث من حديث عوف إلا من حديث هذا الشيخ خلف بن أيوب العامرى ، ولم أر أحدا يروى عنه غير أبى كريب محمد بن العلاء ، ولا أدرى كيف هو (٢) . وهذه شهادة بأن من اجتمع فيه حسن السمت والفقه فى الدين ، فهو مؤمن ، وأحرى بهذا الحديث أن يكون حقا ، وإن كان إسناده فيه جهالة ، فإن حسن السمت والفقه فى الدين من أخص علامات الإيمان ، ولن يجمعهما الله فى منافق ، فإن النفاق ينافيهما وينافيانه .

**الوجه التاسع والخمسون** : قال الترمذى : حدثنا مسلم بن حاتم الأنصارى ، حدثنا أبو حاتم البصرى ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى ، عن أبيه ، عن على بن زيد ، عن سعيد بن المسيب قال : قال أنس بن مالك رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « يا بنى إن قدرت، أن تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش لأحد فافعل ، ثم قال : يا بنى ، وذلك من سنتى ، ومن أحيا سنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى كان معى فى الجنة » ، وفى الحديث قصة طويلة. قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، ومحمد بن عبد الله

---

(١) الترمذى (٢٦٨٧) فى العلم ، باب : ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ، وقال الألبانى : « ضعيف جدا » .
(٢) الترمذى (٢٦٨٤) فى العلم ، باب : ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ، وصححه الألبانى .

الأنصارى صدوق ، وأبوه ثقة ، وعلى بن زيد صدوق إلا أنه ربما يرفع الشىء الذى يوقفه غيره ، سمعت محمد بن بشارة يقول : قال أبو الوليد : قال شعبة : حدثنا على بن زيد وكان رفاعا . قال الترمذى : ولا يعرف لسعيد بن المسيب عن أنس رواية إلا هذا الحديث بطوله ، وقد روى عباد المنقرى هذا الحديث ، عن على بن زيد عن أنس ولم يذكر فيه عن سعيد بن المسيب . وذاكرت به محمد بن إسماعيل فلم يعرفه ، ولم يعرف لسعيد بن المسيب عن أنس هذا الحديث ولا غيره . ومات أنس سنة ثلاث وتسعين وسعيد بن المسيب سنة خمس وتسعين بعده بسنتين (١) .

قلت : ولهذا الحديث شواهد ؛ منها : ما رواه الدارمى عبد الله : حدثنا محمد بن عيينة ، عن مروان بن معاوية الفزارى ، عن كثير بن عبد الله ، عن أبيه ، عن جده : أن النبى ﷺ قال لبلال بن الحارث : « اعلم » قال : ما أعلم يارسول الله ؟ قال : « اعلم يا بلال » قال : ما أعلم يا رسول الله ؟ قال : « أنه من أحيا سنة من سنتى قد أميتت بعدى كان له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئا » رواه الترمذى عنه ، وقال : حديث حسن . قال : ومحمد بن عيينة مصيصى شامى ، وكثير بن عبد الله هو ابن عمرو بن عوف المزنى (٢) . وفى حديثه ثلاثة أقوال لأهل الحديث : منهم من يصححه ، ومنهم من يحسنه ، وهما للترمذى ، ومنهم من يضعفه ولا يراه حجة كالإمام أحمد وغيره ، ولكن هذا الأصل ثابت من وجوه كحديث : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه » (٣) وهو صحيح من وجوه ، وحديث : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » وهو حديث حسن رواه الترمذى وغيره(٤) ، فهذا الأصل محفوظ عن النبى ﷺ ، فالحديث الضعيف فيه بمنزلة الشواهد والمتابعات فلا يضر ذكره .

**الوجه الستون** : أن النبى ﷺ : أوصى بطلبة العلم خيرا ، وما ذاك إلا لفضل مطلوبهم وشرفه . قال الترمذى : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا أبو داود الحفرى ، عن

---

(١) الترمذى (٢٦٧٨) فى العلم ، باب : ما جاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع ، وضعفه الألبانى .

(٢) الترمذى (٢٦٧٧) فى العلم ، باب : ما جاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع ، وابن ماجه (٢٠٩) فى المقدمة ، باب : من أحيا سنة قد أميتت ، وضعفه الألبانى .

(٣) مسلم (٢٦٧٤ / ١٦) فى العلم ، باب : من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة ، وأبو داود (٤٦٠٩) فى السنة ، باب : لزوم السنة .

(٤) مسلم (١٨٩٣ / ١٣٣) فى الإمارة ، باب : فضل إعانة الغازى فى سبيل الله بمركوب وغيره ، وخلافته فى أهله بخير ، والترمذى (٢٦٧١) فى العلم ، باب : ما جاء فى الدال على الخير كفاعله .

سفيان ، عن أبى هارون قال : كنا نأتى أبا سعيد فيقول : مرحبا بوصية رسول الله ﷺ إن النبى ﷺ قال : « إن الناس لكم تبع ، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين ، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا »(١) . حدثنا قتيبة ، حدثنا روح بن قيس ، عن أبى هارون العبدى ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى ﷺ قال : « يأتيكم رجال من قبل المشرق يتعلمون ، فإذا جاؤوكم فاستوصوا بهم خيرا » . فكان أبو سعيد إذا رآنا قال : مرحبا بوصية رسول الله ﷺ . قال الترمذى : هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث هارون العبدى عن أبى سعيد . قال أبو بكر العطار : قال على بن المدينى ، قال يحيى بن سعيد : كان شعبة يضعف أبا هارون العبدى . قال يحيى : وما زال ابن عوف يروى عن أبى هارون حتى مات ، وأبو هارون اسمه عمارة بن جوين (٢) .

**الوجه الحادى والستون** : ما رواه الترمذى من حديث أبى داود ، عن عبد الله بن سنحبرة، عن سخبرة ، عن النبى ﷺ قال : « من طلب العلم كان كفارة لما مضى » (٣) هذا الأصل لم أجد فيه إلا هذا الحديث ، وليس بشىء ، فإن أبا داود هو نفيع الأعمى غير ثقة ، ولكن قد تقدم أن العالم يستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض ، وقد رويت آثار عديدة عن جماعة من الصحابة فى هذا المعنى (٤) . منها : ماروواه الثورى ، عن عبد الكريم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : أن ملكا موكلا بطالب العلم حتى يرده من حيث أبداه مغفورا له . ومنها : ماروواه قطر بن خليفة ، عن أبى الطفيل عن على : ما انتعل عبد قط ، ولا تخفف ، ولا لبس ثوبا ليغدو فى طلب العلم ، إلا غفرت ذنوبه حيث يخطو عند باب بيته ، وقد رواه ابن عدى مرفوعا (٥) . وقال : ليس يرويه عن قطر غير إسماعيل بن يحيى التميمى .

قلت : وقد رواه إسماعيل بن يحيى هذا ، عن الثورى ، حدثنا محمد بن أيوب الجوزجانى ، عن مجالد ، عن الشعبى ، عن الأسود ، عن عائشة مرفوعا : « من انتعل ليتعلم خيرا ، غفر له قبل أن يخطو » ، وقد رواه عبد الرحمن بن محمد المحاربى عن قطر ، عن أبى الطفيل ، عن على (٦) . وهذه الأسانيد وإن لم تكن بمفردها حجة فطلب العلم من

(١ ، ٢) الترمذى (٢٦٥٠ ، ٢٦٥١) فى العلم ، باب : ما جاء فى الاستيصاء بمن يطلب العلم ، وضعفه الألبانى .

(٣) الترمذى (٢٦٤٨) فى العلم ، باب : فضل طلب العلم ، وقال : « هذا حديث ضعيف الإسناد » وقال الألبانى: « موضوع » .

(٤) تقدمت الأحاديث والآثار ص (١٦٣) .

(٥) الكامل فى ضعفاء الرجال لابن عدى (١ / ٣٠٧) .

(٦) الطبرانى فى الأوسط (٥٧٢٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ١٣٧ ، ١٣٨) فى العلم ، باب : فيمن يخرج فى طلب العلم والخير :« فيه إسماعيل بن يحيى التيمى وهو كذاب » .

أفضل الحسنات ، والحسنات يذهبن السيئات ، فجدير أن يكون طلب العلم ابتغاء وجه الله يكفر مامضى من السيئات ، فقد دلت النصوص أن إتباع السيئة الحسنة تمحوها فكيف بما هو من أفضل الحسنات وأجل الطاعات؟ فالعمدة على ذلك لا على حديث أبى داود ، والله أعلم . وقد روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة ، فإذا سمع العلم خاف ورجع وتاب ، فانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب ، فلا تفارقوا مجالس العلماء .

**الوجه الثانى والستون** : ما رواه ابن ماجه فى سننه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال خرج رسول الله ﷺ ، فإذا فى المسجد مجلسان ؛ مجلس يتفقهون ، ومجلس يدعون الله تعالى ويسألونه فقال : « كلا المجلسين إلى خير ؛ أما هؤلاء فيدعون الله ، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل ، هؤلاء أفضل ، بالتعليم أرسلت » (١) ثم قعد معهم .

**الوجه الثالث والستون** : أن الله تبارك وتعالى يباهى ملائكته بالقوم الذين يتذاكرون العلم ويذكرون الله ، ويحمدونه على مامن عليهم به منه . قال الترمذى : حدثنا محمد ابن بشار ، حدثنا مرحوم بن عبد العزيز العطار ، حدثنا أبو نعامة ، عن أبى عثمان ، عن أبى سعيد قال : خرج معاوية إلى المسجد فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا جلسنا نذكر الله عز وجل قال : الله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : الله ما أجلسنا إلا ذلك . قال : أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، وما كان أحد بمنزلتى من رسول الله ﷺ أقل حديثا عنه منى أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه قال : « ما يجلسكم ؟ » قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده لما هدانا للإسلام ، ومن علينا بك . قال : « الله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ » قالوا : الله ما أجلسنا إلا ذلك . قال : « أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، أنه أتانى جبريل فأخبرنى أن الله تعالى يباهى بكم الملائكة » . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وأبو نعامة السعدى اسمه عمرو بن عيسى ، وأبو عثمان النهدى اسمه عبد الرحمن بن مل (٢) . فهؤلاء كانوا قد جلسوا يحمدون الله بذكر أوصافه وآلائه ، ويثنون عليه بذلك ، ويذكرون حسن الإسلام ، ويعترفون لله بالفضل

---

(١) ابن ماجه (٢٢٩) فى المقدمة ، باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم ، وفى الزوائد : « إسناده ضعيف ، داود ، وبكر ، وعبد الرحمن كلهم ضعفاء » ، وضعفه الألبانى .

(٢) الترمذى (٣٣٧٩) فى الدعوات ، باب : ما جاء فى القوم يجلسون فيذكرون الله عز وجل مالهم من الفضل ، والحديث رواه مسلم (٢٧٠١ / ٤٠) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر .

العظيم ، إذ هداهم له ومن عليهم برسوله ، وهذا أشرف علم على الإطلاق ، ولا يعنى به إلا الراسخون فى العلم ، فإنه يتضمن معرفة الله وصفاته وأفعاله ودينه ورسوله ، ومحبة ذلك وتعظيمه والفرح به ، وأحرى بأصحاب هذا العلم أن يباهى الله بهم الملائكة ، وقد بشر النبى ﷺ الرجل الذى كان يحب سورة الإخلاص ، وقال : أحبها لأنها صفة الرحمن عز وجل فقال : « حبك إياها أدخلك الجنة » ، وفى لفظ آخر : « أخبروه أن الله يحبه »(١)، فدل على أن من أحب صفات الله أحبه الله وأدخله الجنة .

والجهمية أشد الناس نفرة وتنفيرا عن صفاته ونعوت كماله ، يعاقبون ويذمون من يذكرها ويقرؤها ويجمعها ويعتنى بها ؛ ولهذا لهم المقت والذم عند الأمة ، وعلى لسان كل عالم من علماء الإسلام ، والله تعالى أشد بغضا ومقتا لهم ؛ جزاء وفاقا .

**الوجه الرابع والستون** : أن أفضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوة ، فالله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، وكيف لا يكون أفضل الخلق عند الله من جعلهم وسائط بينه وبين عباده فى تبليغ رسالاته ، وتعريف أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه ومراضيه ومساخطه وثوابه وعقابه ، وخصهم بوحيه ، واختصهم بتفضيله ، وارتضاهم لرسالته إلى عباده ، وجعلهم أزكى العالمين نفوسا ، وأشرفهم أخلاقا ، وأكملهم علوما وأعمالا ، وأحسنهم خلقة ، وأعظمهم محبة وقبولا فى قلوب الناس ، وبرأهم من كل وصم وعيب ، وكل خلق دنىء ، وجعل أشرف مراتب الناس بعدهم مرتبة خلافتهم ونيابتهم فى أممهم ، فإنهم يخلفونهم على منهاجهم ، وطريقهم من نصيحتهم للأمة ، وإرشادهم الضال ، وتعليمهم الجاهل ، ونصرهم المظلوم ، وأخذهم على يد الظالم ، وأمرهم بالمعروف وفعله ، ونهيهم عن المنكر وتركه ، والدعوة إلى الله بالحكمة للمستجيبين ، والموعظة الحسنة للمعرضين الغافلين ، والجدال بالتى هى أحسن للمعاندين المعارضين . فهذه حال أتباع المرسلين وورثة النبيين ، قال تعالى : ﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾ [ يوسف : ١٠٨ ] .

وسواء كان المعنى : أنا ومن اتبعنى على بصيرة وأنا أدعو إلى الله ، أو المعنى : أدعو إلى الله على بصيرة ، والقولان متلازمان ، فإنه لا يكون من أتباعه حقا إلا من دعا إلى الله على بصيرة ، كما كان متبوعه يفعل ﷺ ، فهؤلاء خلفاء الرسل حقا وورثتهم دون الناس ، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علما وعملا ، وهداية وإرشادا وصبرا وجهادا ، وهؤلاء هم الصديقون ، وهم أفضل أتباع الأنبياء ورأسهم ، وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه .

---

(١) البخارى (٧٧٤) فى الأذان ، باب : الجمع بين السورتين فى الركعة ، وأحمد (٣ / ١٥٠) .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [ النساء ] فذكر مراتب السعداء ، وهى أربعة ، وبدأ بأعلاهم مرتبة ، ثم الذين يلونهم إلى آخر المراتب ، وهؤلاء الأربعة هم : أهل الجنة الذين هم أهلها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه .

**الوجه الخامس والستون** : أن الإنسان إنما يميز على غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان ، وإلا فغيره من الدواب والسباع أكثر أكلا منه ، وأقوى بطشا ، وأكثر جماعا وأولادا ، وأطول أعمارا ، وإنما ميز على الدواب والحيوانات بعلمه ، وبيانه ، فإذا عدم العلم بقى معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب ، وهى الحيوانية المحضة ، فلا يبقى فيه فضل عليهم ؛ بل قد يبقى شرا منهم ، كما قال تعالى فى هذا الصنف من الناس : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ الأنفال ] فهؤلاء هم الجهال ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ [ الأنفال : ٢٣ ] أى ليس عندهم محل قابل للخير ( ولو ) كان محلهم قابلا للخير ( لأسمعهم ) أى : لأفهمهم والسمع ههنا سمع فهم ، وإلا فسمع الصوت حاصل لهم وبه قامت حجة الله عليهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [ الأنفال ] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [ البقرة ] وسواء كان المعنى : ومثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتا مجردة ، أو كان المعنى : ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذى ينعق بها ، فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء ، فالقولان متلازمان ؛ بل هما واحد ، وإن كان التقدير الثانى أقرب إلى اللفظ ، وأبلغ فى المعنى ، فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل للأنعام ، فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التى يميز بها صاحبها عن سائر الحيوان .

والسمع يراد به : إدراك الصوت ، ويراد به فهم المعنى ، ويراد به القبول والإجابة ، والثلاثة فى القرآن .

**فمن الأول** : قوله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [ المجادلة ] وهذا أصرح ما يكون فى إثبات صفة السمع ، وذكر الماضى والمضارع واسم الفاعل سمع ويسمع ، وهو سميع وله السمع كما قالت عائشة ﵂ : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى

رسول الله ﷺ ، وأنا فى جانب البيت ، وإنه ليخفى على بعض كلامها ؛ فأنزل الله : ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا** ﴾ .

**والثانى** : سمع الفهم كقوله : ﴿ **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ** ﴾ أى لأفهمهم ﴿ **وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ** (٢٣) ﴾ [ الأنفال ] لما فى قلوبهم من الكبر ، والإعراض عن قبول الحق ، ففيهم آفتان ؛ إحداهما : أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم ؛ ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم ، وهذا غاية النقص والعيب .

**والثالث** : سمع القبول والإجابة كقوله تعالى : ﴿ **لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ** ﴾ [ التوبة : ٤٧ ] أى : قابلون مستجيبون ، ومنه قوله : ﴿ **سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ** ﴾ [ المائدة : ٤٢ ] أى : قابلون له مستجيبون لأهله ، ومنه قول المصلى : سمع الله لمن حمده . أى أجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه ، وقول النبى ﷺ : « إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا : ربنا ولك الحمد ، يسمع الله لكم » (١) أى : يجيبكم ، والمقصود : أن الإنسان إذا لم يكن له علم بما يصلحه فى معاشه ومعاده كان الحيوان البهيم خيرا منه ؛ لسلامته فى المعاد مما يهلكه دون الإنسان الجاهل .

**الوجه السادس والستون** : أن العلم حاكم على ما سواه ولا يحكم عليه شىء ، فكل شىء اختلف فى وجوده وعدمه ، وصحته وفساده ، ومنفعته ومضرته، ورجحانه ، ونقصانه ، وكماله ونقصه ، ومدحه وذمه ، ومرتبته فى الخير وجودته ، ورداءته وقربه وبعده ، وإفضائه إلى مطلوب كذا ، وعدم إفضائه وحصول المقصود به ، وعدم حصوله إلى سائر جهات المعلومات ، فإن العلم حاكم على ذلك كله ، فإذا حكم العلم انقطع النزاع ووجب الإتباع ، وهو الحاكم على الممالك والسياسات والأموال والأقلام فملك لا يتأيد بعلم لا يقوم ، وسيف بلا علم مخراق لاعب ، وقلم بلا علم حركة عابث ، والعلم مسلط حاكم على ذلك كله ، ولا يحكم شىء من ذلك على العلم .

وقد اختلف فى تفضيل مداد العلماء على دم الشهداء وعكسه ، وذكر لكل قول وجوه من التراجيح والأدلة ، ونفس هذا النزاع دليل على تفضيل العلم ومرتبته ، فإن الحاكم فى هذه المسألة هو العلم ، فبه وإليه وعنده يقع التحاكم والتخاصم ، والمفضل منهما من حكم له بالفضل .

فإن قيل : فكيف يقبل حكمه لنفسه ؟

---

(١) البخارى (٧٩٥) فى الأذان ، باب : ما يقول الإمام ومن خلفه إذا رفع رأسه من الركوع ، ومسلم (٣٩٢ / ٢٨) فى الصلاة باب : إثبات التكبير فى كل خفض ورفع فى الصلاة إلا رفعه من الركوع فيقول فيه : سمع الله لمن حمده .

قيل : وهذا أيضا دليل على تفضيله وعلو مرتبته وشرفه ، فإن الحاكم إنما لم يسغ أن يحكم لنفسه لأجل مظنة التهمة ، والعلم لا تلحقه تهمة فى حكمه لنفسه ، فإنه إذا حكم حكم بما تشهد العقول والنظر بصحته وتتلقاه بالقبول ويستحيل حكمه لتهمة ، فإنه إذا حكم بها انعزل عن مرتبته ، وانحط عن درجته ، فهو الشاهد المزكى العدل ، والحاكم الذى لا يجور ولا يعزل .

فإن قيل : فماذا حكمه فى هذه المسألة التى ذكرتموها ؟

قيل : هذه المسألة كثر فيها الجدال واتسع المجال ، وأدلى كل منهما بحجته ، واستعلى بمرتبته ، والذى يفصل النزاع ويعيد المسألة إلى مواقع الإجماع الكلام فى أنواع مراتب الكمال ، وذكر الأفضل منهما والنظر فى أى هذين الأمرين أولى به وأقرب إليه ، فهذه الأصول الثلاثة تبين الصواب ، ويقع بها فصل الخطاب . فأما مراتب الكمال فأرفع : النبوة ، والصديقية ، والشهادة ، والولاية . وقد ذكرها الله ـ سبحانه ـ فى قوله : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾** ﴾ [ النساء ] ، وذكر تعالى هؤلاء الأربع فى سورة الحديد ، فذكر تعالى الإيمان به وبرسوله ، ثم ندب المؤمنين إلى أن تخشع قلوبهم لكتابه ووحيه ، ثم ذكر مراتب الخلائق شقيهم وسعيدهم ، فقال : ﴿ **إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾** ﴾، وذكر المنافقين قبل ذلك ، فاستوعبت هذه الآية أقسام العباد شقيهم وسعيدهم .

والمقصود : أنه ذكر فيها المراتب الأربعة : الرسالة ، والصديقية ، والشهادة ، والولاية ، فأعلا هذه المراتب النبوة والرسالة ، ويليها الصديقية فالصديقون هم أئمة أتباع الرسل ، ودرجتهم أعلا الدرجات بعد النبوة ، فإن جرى قلم العالم بالصديقية وسال مداده بها كان أفضل من دم الشهيد الذى لم يلحقه فى رتبة الصديقية ، وإن سال دم الشهيد بالصديقية وقطر عليها كان أفضل من مداد العالم الذى قصر عنها فأفضلهما صديقهما ، فإن فى الصديقية استويا فى المرتبة ،والله أعلم. والصديقية: هى كمال الإيمان بما جاء به الرسول علما وتصديقا وقياما به، فهى راجعة إلى نفس العلم،فكل من كان أعلم بما جاء به الرسول وأكمل تصديقا له كان أتم صديقية ، فالصديقية : شجرة أصولها العلم ، وفروعها التصديق ، وثمرتها العمل . فهذه كلمات جامعة فى مسألة العالم والشهيد وأيهما أفضل .

**الوجه السابع والستون** : أن النصوص النبوية قد تواترت بأن أفضل الأعمال إيمان بالله ، فهو رأس الأمر ، والأعمال بعده على مراتبها ومنازلها ، والإيمان له ركنان : أحدهما : معرفة ما جاء به الرسول والعلم به . والثانى : تصديقه بالقول والعمل ، والتصديق بدون العلم والمعرفة محال ، فإنه فرع العلم بالشىء المصدق به ؛ فإذا العلم من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ، ولا تقوم شجرة الإيمان إلا على ساق العلم والمعرفة ؛ فالعلم إذا أجل المطالب وأسنى المواهب .

**الوجه الثامن والستون** : أن صفات الكمال كلها ترجع إلى العلم والقدرة والإرادة ، والإرادة فرع العلم ، فإنها تستلزم الشعور بالمراد ، فهى مفتقرة إلى العلم فى ذاتها وحقيقتها ، والقدرة لا تؤثر إلا بواسطة الإرادة ، والعلم لا يفتقر فى تعلقه بالمعلوم إلى واحدة منهما ، وأما القدرة والإرادة فكل منها يفتقر فى تعلقه بالمراد والمقدور إلى العلم ، وذلك يدل على فضيلته وشرف منزلته .

**الوجه التاسع والستون** : أن العلم أعم الصفات تعلقا بمتعلقه وأوسعها ، فإنه يتعلق بالواجب والممكن والمستحيل والجائز والموجود والمعدوم ، فذات الرب ـ سبحانه ـ وصفاته وأسماؤه معلومة له ويعلم العباد من ذلك ما علمهم العليم الخبير ، وأما القدرة والإرادة فكل منهما خاص التعلق ، أما القدرة فإنما تتعلق بالممكن خاصة لا بالمستحيل ولا بالواجب ، فهى أخص من العلم من هذا الوجه وأعم من الإرادة ، فإن الإرادة لا تتعلق إلا ببعض الممكنات ، وهو ما أريد وجوده ، فالعلم أوسع وأعم وأشمل فى ذاته ومتعلقه .

**الوجه السبعون** : أن الله ـ سبحانه ـ أخبر عن أهل العلم بأنه جعلهم أئمة يهدون بأمره ويأتم بهم من بعدهم ، فقال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** (٢٤) ﴾ [ السجدة ] ، وقال فى موضع آخر : ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** (٧٤) ﴾ [ الفرقان ] أى أئمة يقتدى بنا من بعدنا . فأخبر ـ سبحانه ـ أن بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين ، وهى أرفع مراتب الصديقين ، واليقين : هو كمال العلم وغايته ، فبتكميل مرتبة العلم تحصل إمامة الدين ، وهى ولاية آلتها العلم يختص الله بها من يشاء من عباده .

**الوجه الحادى والسبعون** : أن حاجة العباد إلى العلم ضرورية فوق حاجة الجسم إلى الغذاء ؛ لأن الجسم يحتاج إلى الغذاء فى اليوم مرة أو مرتين ، وحاجة الإنسان إلى العلم بعدد الأنفاس ؛ لأن كل نفس من أنفاسه فهو محتاج فيه إلى أن يكون مصاحبا لإيمان أو حكمة، فإن فارقه الإيمان أو حكمة فى نفس من أنفاسه ، فقد عطب وقرب هلاكه ، وليس إلى حصول ذلك سبيل إلا بالعلم ، فالحاجة إليه فوق الحاجة إلى الطعام والشراب ؛ وقد ذكر الإمام أحمد هذا المعنى بعينه فقال : الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب

لأن الطعام والشراب يحتاج إليه فى اليوم مرة أو مرتين ، والعلم يحتاج إليه كل وقت .

**الوجه الثانى والسبعون** : أن صاحب العلم أقل تعبا وعملا وأكثر أجرا ، واعتبر هذا بالشاهد ، فإن الصناع والأجراء يعانون الأعمال الشاقة بأنفسهم ، والأستاذ المعلم يجلس يأمرهم وينهاهم ، ويريهم كيفية العمل ، ويأخذ أضعاف ما يأخذونه .

وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المعنى حيث قال : « أفضل الأعمال إيمان بالله ، ثم الجهاد »[1] ، فالجهاد فيه بذل النفس ، وغاية المشقة والإيمان علم القلب وعمله وتصديقه ، وهو أفضل الأعمال ، مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة ؛ وهذا لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها ، وفاضلها من مفضولها ، وراجحها من مرجوحها ، فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال ، والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة فى كثرة المشقة ، فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانيه مفضولا ، ورب عمل فاضل والمفضول أكثر مشقة منه ، واعتبر هذا بحال الصديق فإنه أفضل الأمة . ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملا وحجا وصوما وصلاة وقراءة منه . قال أبو بكر بن عياش : ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ، ولكن بشىء وقر فى قلبه ، وهذا موضوع المثل المشهور .

من لى بمثل سيرك المدلل ... تمشى رويدا وتجى فى الأول

**الوجه الثالث والسبعون** : أن العلم إمام العمل وقائد له ، والعمل تابع له ومؤتم به ، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتديا به فهو غير نافع لصاحبه ؛ بل مضرة عليه ، كما قال بعض السلف : من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، والأعمال إنما تتفاوت فى القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له ، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول ، والمخالف له هو المردود ، فالعلم هو الميزان وهو المحك .

قال تعالى : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** (٢) ﴾ [ الملك ] قال الفضيل بن عياض : هو أخلص العمل وأصوبه . قالوا : يا أبا على ، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا ، فالخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة . وقد قال تعالى : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** (١١٠) ﴾ [ الكهف ] فهذا هو العمل المقبول الذى لا يقبل الله من الأعمال سواه ، وهو أن يكون موافقا لسنة رسول الله ﷺ مرادا به وجه الله ، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم ، فإنه إن لم يعلم ما جاء

---

(١) البخارى (١٥١٩) فى الحج ، باب : فضل الحج المبرور .

به الرسول لم يمكنه قصده ، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده ، فلولا العلم لما كان عمله مقبولا ، فالعلم هو الدليل على الإخلاص وهو الدليل على المتابعة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) ﴾ [ المائدة ] وأحسن ما قيل فى تفسير الآية : إنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه فى ذلك العمل ، وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره ، وهذا إنما يحصل بالعلم ، وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله ، والله أعلم .

**الوجه الرابع والسبعون** : أن العامل بلا علم كالسائر بلا دليل ، ومعلوم أن عطب مثل هذا أقرب من سلامته وإن قدر سلامته اتفاقا نادرا فهو غير محمود ؛ بل مذموم عند العقلاء ، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : من فارق الدليل ضل السبيل ، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول . قال الحسن : العامل على غير علم كالسالك على غير طريق ، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح ، فاطلبوا العلم طلبا لا تضروا بالعبادة ، واطلبوا العبادة طلبا لا تضروا بالعلم ، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ ، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا ، والفرق بين هذا وبين ما قبله أن العلم مرتبته فى الوجه الأول مرتبة المطاع المتبوع المقتدى به ، المتبع حكمه ، المطاع أمره ، ومرتبته فى هذا الوجه مرتبة الدليل المرشد إلى المطلوب الموصل إلى الغاية .

**الوجه الخامس والسبعون** : أن النبى ﷺ ثبت فى الصحيحين عنه أنه كان يقول : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » (١) . وفى بعض السنن : أنه كان يكبر تكبيرة الإحرام فى صلاة الليل ثم يدعو بهذا الدعاء (٢) . والهداية : هى العلم بالحق مع قصده وإيثاره على غيره ، فالمهتدى : هو العامل بالحق المريد له ، وهى أعظم نعمة لله على العبد ؛ ولهذا أمرنا ـ سبحانه ـ أن نسأله هداية الصراط المستقيم كل يوم وليلة فى صلواتنا الخمس ، فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذى يرضى الله فى كل حركة ظاهرة وباطنة ؛ فإذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق ، فيجعل إرادته فى قلبه ، ثم إلى من يقدر على فعله ، ومعلوم أن ما يجهله العبد أضعاف أضعاف ما يعلمه ، وإن كل ما يعلم أنه حق لا

---

(١) مسلم (٧٧٠ / ٢٠٠) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ، ولم يعزه صاحب التحفة (١٢ / ٣٧٠) من هذا الطريق للبخارى .

(٢) أبو داود (٧٦٧) فى الصلاة ، باب : ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ، والترمذى (٣٤٢٠) فى الدعوات ، باب: ما جاء فى الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل ، وقال : « حسن غريب » ، وصححه الألبانى .

تطاوعه نفسه على إرادته ، ولو أراده لعجز عن كثير منه ، فهو مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضى والحال والمستقبل ، أما الماضى فهو محتاج إلى محاسبة نفسه عليه ، وهل وقع على السداد فيشكر الله عليه ويستديمه ؟ أم خرج فيه عن الحق فيتوب إلى الله تعالى منه ويستغفره ، ويعزم على ألا يعود ؟

وأما الهداية فى الحال فهى مطلوبة منه ، فإنه ابن وقته فيحتاج أن يعلم حكم ما هو متلبس به من الأفعال ، هل هو صواب أم خطأ ؟ وأما المستقبل فحاجته فى الهداية أظهر ليكون سيره على الطريق .

وإذا كان هذا شأن الهداية علم أن العبد أشد شىء اضطرارا إليها ، وأن ما يورده بعض الناس من السؤال الفاسد ، وهى أنا إذا كنا مهتدين فأى حاجة بنا أن نسأل الله أن يهدينا ، وهل هذا إلا تحصيل الحاصل أفسد سؤال وأبعده عن الصواب ؟ وهو دليل على أن صاحبه لم يحصل معنى الهداية ، ولا أحاط علما بحقيقتها ومسماها ؛ فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه : بأن المعنى : ثبتنا على الهداية وأدمها لنا ، ومن أحاط علما بحقيقة الهداية وحاجة العبد إليها علم أن الذى لم يحصل له منها أضعاف ما حصل له ، وأنه كل وقت محتاج إلى هداية متجددة ، لا سيما والله تعالى خالق أفعال القلوب والجوارح ، فهو كل وقت محتاج أن يخلق الله له هداية خاصة ، ثم إن لم يصرف عنه الموانع والصوارف التى تمنع موجب الهداية وتصرفها ، لم ينتفع بالهداية ولم يتم مقصودها له ، فإن الحكم لا يكفى فيه وجوه مقتضية ؛ بل لابد مع ذلك من عدم مانعه ومنافيه .

ومعلوم أن وساوس العبد وخواطره وشهوات الغى فى قلبه ، كل منها مانع وصول أثر الهداية إليه ، فإن لم يصرفها الله عنه لم يهتد هدى تاما ، فحاجاته إلى هداية الله له مقرونه بأنفاسه ، وهى أعظم حاجة للعبد .

وذكر النبى ﷺ فى الدعاء العظيم القدر من أوصاف الله وربوبيته ما يناسب المطلوب ، فإن فطر السموات والأرض توسل إلى الله بهذا الوصف فى الهداية للفطرة التى ابتدأ الخلق عليها ، فذكر كونه فاطر السموات والأرض ، والمطلوب تعليم الحق والتوفيق له ، فذكر علمه ـ سبحانه ـ بالغيب والشهادة ، وأن من هو بكل شىء عليم جدير أن يطلب منه عبده أن يعلمه ويرشده ويهديه ، وهو بمنزلة التوسل إلى الغنى بغناه ، وسعة كرمه أن يعطى عبده شيئا من ماله ، والتوسل إلى الغفور بسعة مغفرته أن يغفر لعبده ، وبعفوه أن يعفو عنه ، وبرحمته أن يرحمه ، ونظائر ذلك ، وذكر ربوبيته تعالى لجبريل وميكائيل وإسرافيل ؛ وهذا ـ والله أعلم ـ لأن المطلوب هدى يحيا به القلب ، وهؤلاء الثلاثة الأملاك قد جعل الله تعالى على أيديهم أسباب حياة العباد .

أما جبريل فهو صاحب الوحى الذى يوحيه الله إلى الأنبياء ، وهو سبب حياة الدنيا والآخرة .

وأما ميكائيل فهو موكل بالقطر الذى به سبب حياة كل شىء .

وأما إسرافيل فهو الذى ينفخ فى الصور فيحيى الله الموتى بنفخته ؛ فإذا هم قيام لرب العالمين .

والهداية لها أربع مراتب وهى مذكورة فى القرآن :

**المرتبة الأولى** : الهداية العامة ، وهى هداية كل مخلوق من الحيوان والآدمى لمصالحه التى بها قام أمره ، قال الله تعالى : ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣** ﴾ [ الأعلى ] ، فذكر أمورا أربعة : الخلق ، والتسوية ، والتقدير ، والهداية . فسوى خلقه وأتقنه وأحكمه ، ثم قدر له أسباب مصالحه فى معاشه وتقلباته وتصرفاته ، وهداه إليها ، والهداية تعليم ، فذكر أنه الذى خلق وعلم كما ذكر نظير ذلك فى أول سورة أنزلها على رسوله وقد تقدم ذلك ، وقال تعالى حكاية عن عدوه فرعون أنه قال لموسى : ﴿ **فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠** ﴾ [ طه ] وهذه المرتبة أسبق مراتب الهداية وأعمها .

**المرتبة الثانية** : هداية البيان والدلالة التى أقام بها حجته على عباده ، وهذه لا تستلزم الاهتداء التام ، قال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ** ﴾ [ فصلت : ١٧ ] يعنى : بينا لهم ودللناهم وعرفناهم ، فآثروا الضلالة والعمى ، وقال تعالى : ﴿ **وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨** ﴾ [ العنكبوت ] وهذه المرتبة أخص من الأولى ، وأعم من الثانية ، وهى هدى التوفيق والإلهام ، قال الله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥** ﴾ [ يونس ] فعم بالدعوة خلقه ، وخص بالهداية من شاء منهم ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [ القصص : ٥٦ ] مع قوله : ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢** ﴾ [ الشورى ] ، فأثبت هداية الدعوة والبيان ونفى هداية التوفيق والإلهام ، وقال النبى ﷺ فى تشهد الحاجة : « من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له »(١) ، وقال تعالى : ﴿ **إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ** ﴾ [ النحل : ٣٧ ] أى : من يضله الله لا يهتدى أبدا ، وهذه الهداية الثالثة هى الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء . وأما الثانية : فشرط لا موجب ، فلا يستحيل تخلف الهدى عنها

(١) مسلم (٨٦٨ / ٤٦) فى الجمعة ، باب : تخفيف الصلاة والخطبة .

بخلاف الثالثة ، فإن تخلف الهدى عنها مستحيل .

**المرتبة الرابعة** : الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة والنار ، قال تعالى : ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)** ﴾ [الصافات ] ، وأما قول أهل الجنة : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾ [ الأعراف : ٤٣ ] ، فيحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة ، وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم ، ولو قيل : إن كلا الأمرين مراد لهم وإنهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ ، وقد ضرب الله تعالى لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلا مطابقا لحاله ، فقال تعالى : ﴿ **قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١)** ﴾ [ الأنعام ] .

**الوجه السادس والسبعون** : أن فضيلة الشيء وشرفه يظهر تارة من عموم منفعته ، وتارة من شدة الحاجة إليه وعدم الاستغناء عنه ، وتارة من ظهور النقص والشر بفقده ، وتارة من حصول اللذة والسرور والبهجة بوجوده ؛ لكونه محبوبا ملائما ، فإدراكه يعقب غاية اللذة ، وتارة من كمال الثمرة المترتبة عليه وشرف علته الغائية وإفضاله إلى أجل المطالب ، وهذه الوجوه ونحوها تنشأ وتظهر من متعلقه ، فإذا كان في نفسه كمالا وشرفا بقطع النظر عن متعلقاته جمع جهات الشرف والفضل في نفسه ومتعلقاته ، ومعلوم أن هذه الجهات بأسرها حاصلة للعلم، فإنه أعم شيء نفعا وأكثره وأدومه، والحاجة إليه فوق الحاجة إلى الغذاء، بل فوق الحاجة إلى التنفس ؛ إذ غاية ما يتصور من فقدهما فقد حياة الجسم .

وأما فقد العلم ففيه فقد حياة القلب والروح ، فلا غنى للعبد عنه طرفة عين ؛ ولهذا إذا فقد من الشخص كان شرا من الحمير ، بل كان شرا من الدواب عند الله ، ولا شيء أنقص منه حينئذ ، وأما حصول اللذة والبهجة بوجوده ؛ فلأنه كمال في نفسه وهو ملائم غاية الملاءمة للنفوس ، فإن الجهل مرض ونقص ، وهو في غاية الإيذاء والإيلام للنفس ، ومن لم يشعر بهذه الملاءمة والمنافرة فهو لفقد حسه ونفسه .

وما لجرح ميت إيلام

فحصوله للنفس إدراك منها لغاية محبوبها واتصال به ، وذلك غاية لذتها وفرحتها ، وهذا بحسب المعلوم في نفسه ومحبة النفس له ولذتها بقربه ، والعلوم والمعلومات متفاوتة في ذلك أعظم التفاوت وأبينه ، فليس علم النفوس بفاطرها وباريها ومبدعها ومحبته

والتقرب إليه كعلمها بالطبيعة وأحوالها وعوارضها وصحتها وفسادها وحركاتها .

**وهذا يتبين بالوجه السابع والسبعين وهو** : أن شرف العلم تابع لشرف معلومه ؛ لوثوق النفس بأدلة وجوده وبراهينه ولشدة الحاجة إلى معرفته ، وعظم النفع بها ، ولا ريب أن أجل معلوم وأعظمه وأكبره فهو الله الذى لا إله إلا هو رب العالمين ، وقيوم السموات والأرضين ، الملك الحق المبين ، الموصوف بالكمال كله ، المنزه عن كل عيب ونقص ، وعن كل تمثيل وتشبيه فى كماله ، ولا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأفضلها ، ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات ، وكما أن العلم به أجل العلوم وأشرفها ، فهو أصلها كلها كما أن كل موجود فهو مستند فى وجوده إلى الملك الحق المبين ، ومفتقر إليه فى تحقق ذاته وأينيته ، وكل علم فهو تابع للعلم به مفتقر فى تحقق ذاته إليه ، فالعلم به أصل كل علم كما أنه ـ سبحانه ـ رب كل شيء ومليكه وموجده .

ولا ريب أن كمال العلم بالسبب التام ، وكونه سببا يستلزم العلم بمسببه ، كما أن العلم بالعلة التامة ومعرفة كونها علة يستلزم العلم بمعلوله ، وكل موجود سوى الله فهو مستند فى وجوده إليه استناد المصنوع إلى صانعه ، والمفعول إلى فاعله ، فالعلم بذاته ـ سبحانه ـ وصفاته وأفعاله يستلزم العلم بما سواه ، فهو فى ذاته رب كل شيء ومليكه ، والعلم به أصل كل علم ومنشؤه ، فمن عرف الله عرف ما سواه ، ومن جهل ربه فهو لما سواه أجهل ، قال تعالى : ﴿ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ** ﴾ [ الحشر : ١٩ ] ، فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفا عظيما ، وهو أن من نسى ربه أنساه ذاته ونفسه ، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه ، بل نسى ما به صلاحه وفلاحه فى معاشه ومعاده ، فصار معطلا مهملا بمنزلة الأنعام السائبة ، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه ؛ لبقائها هداها الذى أعطاها إياه خالقها ، وأما هذا فخرج عن فطرته التى خلق عليها فنسى ربه فأنساه نفسه وصفاته ، وما تكمل به وتزكو به وتسعد به فى معاشها ومعادها ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)** ﴾ [ الكهف ] فغفل عن ذكر ربه فانفرط عليه أمره وقلبه ، فلا التفات له إلى مصالحه وكماله وما تزكو به نفسه وقلبه ، بل هو مشتت القلب مضيعه مفرط الأمر حيران لا يهتدى سبيلا .

والمقصود : أن العلم بالله أصل كل علم ، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ، ومصالح دنياه وآخرته ، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به

وتفلح به ، فالعلم به سعادة العبد ، والجهل به أصل شقاوته ، يزيده إيضاحا :

**الوجه الثامن والسبعون** : أنه لا شيء أطيب للعبد ولا ألذ ولا أهنأ ولا أنعم لقلبه وعيشه من محبة فاطره وباريه ، ودوام ذكره والسعى فى مرضاته ، وهذا هو الكمال الذى لا كمال للعبد بدونه ، وله خلق الخلق ، ولأجله نزل الوحى وأرسلت الرسل ، وقامت السموات والأرض ، ووجدت الجنة والنار ، ولأجله شرعت الشرائع ووضع البيت الحرام ، ووجب حجه على الناس إقامة لذكره الذى هو من توابع محبته ، والرضا به وعنه ، ولأجل هذا أمر بالجهاد وضرب أعناق من أباه ، وآثر غيره عليه ، وجعل له فى الآخرة دار الهوان ، خالدا مخلدا ، وعلى هذا الأمر العظيم أسست الملة ونصبت القبلة ، وهو قطب رحى الخلق والأمر الذى مدارهما عليه ، ولا سبيل إلى الدخول إلى ذلك إلا من باب العلم ، فإن محبة الشيء فرع عن الشعور به ، وأعرف الخلق بالله أشدهم حبا له ، فكل من عرف الله أحبه ومن عرف الدنيا وأهلها زهد فيهم ، فالعلم يفتح هذا الباب العظيم الذى هو سر الخلق والأمر ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

**الوجه التاسع والسبعون** : أن اللذة بالمحبوب تضعف وتقوى بحسب قوة الحب وضعفه ، فكلما كان الحب أقوى كانت اللذة أعظم ، ولهذا تعظم لذة الظمآن بشرب الماء البارد بحسب شدة طلبه للماء ، وكذلك الجائع ، وكذلك من أحب شيئا كانت لذته على قدر حبه إياه ، والحب تابع للعلم بالمحبوب ومعرفة جماله الظاهر والباطن ، فلذة النظر إلى الله بعد لقائه بحسب قوة حبه وإرادته ، وذلك بحسب العلم به وبصفات كماله ؛ فإذا العلم هو أقرب الطرق إلى أعظم اللذات ، وسيأتى تقرير هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى .

**الوجه الثمانون** : أن كل ما سوى الله يفتقر إلى العلم لا قوام له بدونه ، فإن الوجود وجودان : وجود الخلق ووجود الأمر ، والخلق والأمر مصدرهما علم الرب وحكمته ، فكل ما ضمه الوجود من خلقه ، وأمره صادر عن علمه وحكمته ، فما قامت السموات والأرض وما بينهما إلا بالعلم ، ولا بعثت الرسل وأنزلت الكتب إلا بالعلم ، ولا عبد الله وحده وحمد وأثنى عليه ومجد إلا بالعلم ، ولا عرف الحلال من الحرام إلا بالعلم ، ولا عرف فضل الإسلام على غيره إلا بالعلم .

واختلف هنا فى مسألة ، وهى أن العلم صفة فعلية أو انفعالية ، فقالت طائفة : هو صفة فعلية ؛ لأنه شرط أو جزء وسبب فى وجود المفعول ، فإن الفعل الاختيارى يستدعى حياة الفاعل وعلمه وقدرته وإرادته ، ولا يتصور وجوده بدون هذه الصفات . وقالت طائفة : هو انفعالى فإنه تابع للمعلوم متعلق به على ما هو عليه ، فإن العالم يدرك المعلوم

على ما هو به ، فإدراكه تابع له ، فكيف يكون متقدما عليه ؟

والصواب : أن العلم قسمان : علم فعلى : وهو علم الفاعل المختار بما يريد أن يفعله، فإنه موقوف على إرادته الموقوفة على تصوره المراد وعلمه به ، فهذا علم قبل الفعل متقدم عليه مؤثر فيه ، وعلم انفعالى : وهو العلم التابع للمعلوم الذى لا تأثير له فيه ، كعلمنا بوجود الأنبياء والأمم والملوك وسائر الموجودات ، فإن العلم لا يؤثر فى المعلوم ولا هو شرط فيه ، فكل من الطائفتين نظرت جزئيا وحكمت كليا ، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس ، وكلا القسمين من العلم صفة كمال ، وعدمه من أعظم النقص ، يوضحه :

**الوجه الحادى والثمانون** : أن فضيلة الشيء تعرف بضده ، فالضد يظهر حسنه الضد ، وبضدها تتبين الأشياء ، ولا ريب أن الجهل أصل كل فساد ، وكل ضرر يلحق العبد فى دنياه وأخراه فهو نتيجة الجهل ، وإلا فمع العلم التام بأن هذا الطعام مثلا مسموم من أكله قطع أمعاءه فى وقت معين لا يقدم على أكله وإن قدر أنه قدم عليه لغلبة جوع أو استعجال وفاة ، فهو لعلمه بموافقة أكله لمقصوده الذى هو أحب إليه من العذاب بالجوع أو بغيره .

**وهنا اختلف فى مسألة عظيمة ، وهى** : أن العلم هل يستلزم الاهتداء ، ولا يتخلف عنه الهدى إلا لعدم العلم أو نقصه ، وإلا فمع المعرفة الجازمة لا يتصور الضلال ، وأنه لا يستلزم الهدى ، فقد يكون الرجل عالما . وهو ضال على عمد ؟ هذا مما اختلف فيه المتكلمون وأرباب السلوك وغيرهم .فقالت فرقة : من عرف الحق معرفة لا يشك فيها استحال ألا يهتدى ، وحيث ضل فلنقصان علمه ، واحتجوا من النصوص بقوله تعالى : ﴿ **لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ** ﴾ [ النساء : ١٦٢ ] ، فشهد تعالى لكل راسخ فى العلم بالإيمان ، وبقوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [ فاطر : ٢٨ ] ، وبقوله تعالى : ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** ﴾ [ سبأ : ٦ ] ، وبقوله تعالى : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ** ﴾ [ آل عمران : ١٨ ] ، وبقوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى** ﴾ [ الرعد : ١٩ ] ، قسم الناس قسمين : أحدهما : العلماء بأن ما أنزل إليه من ربه هو الحق . والثانى : العمى ، فدل على أنه لا واسطة بينهما . وبقوله تعالى فى وصف الكفار : ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١)** ﴾ [ البقرة ] ، وبقوله : ﴿ **وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٩٣)** ﴾ [ التوبة ] ، وبقوله تعالى : ﴿ **خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ** ﴾ [ البقرة : ٧ ] . وهذه مدارك العلم الثلاث قد فسدت عليهم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ**

وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾ [ الجاثية ] ، وقوله : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ قال سعيد بن جبير : على علمه تعالى فيه . قال الزجاج : أى على ما سبق فى علمه تعالى أنه ضال قبل أن يخلقه ، ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ ﴾ أى : طبع عليه فلم يسمع الهدى ، ﴿ وَقَلْبِهِ ﴾ فلم يعقل الهدى ، ﴿ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ فلا يبصر أسباب الهدى ، وهذا فى القرآن كثير مما يبين فيه منافاة الضلال للعلم . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [ محمد : ١٦ ] فلو كانوا علموا ما قال الرسول لم يسألوا أهل العلم ماذا قال، ولما كان مطبوعا على قلوبهم ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ [ الأنعام : ٣٩ ]

وقال تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) ﴾ [ الإسراء ] ، فهذه شهادة من الله تعالى لأولى العلم بالإيمان به وبكلامه ، وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣) ﴾ [ العنكبوت ] أخبر تعالى أنه لا يعقل أمثاله إلا العالمون ، والكفار لا يدخلون فى مسمى العالمين فهم لا يعقلونها ، وقال تعالى : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ﴾ [ الروم : ٢٩ ] . وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ [ البقرة : ١١٨ ] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [ الزمر : ٩ ] ، ولو كان الضلال يجامع العلم لكان الذين لا يعلمون أحسن حالا من الذين يعلمون ، والنص بخلافه ، والقرآن مملوء بسلب العلم والمعرفة عن الكفار ، فتارة يصفهم بأنهم لا يعلمون ، وتارة بأنهم لا يعقلون ، وتارة بأنهم لا يشعرون ، وتارة بأنهم لا يفقهون ، وتارة بأنهم لا يسمعون . والمراد بالسمع المنفى سمع الفهم ، وهو سمع القلب لا إدراك الصوت ، وتارة بأنهم لا يبصرون، فدل ذلك كله على أن الكفر مستلزم للجهل مناف للعلم لا يجامعه ؛ ولهذا يصف ـ سبحانه ـ الكفار بأنهم جاهلون ، كقوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ [ الفرقان ] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) ﴾ [ القصص ] ، وقوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾ [الأعراف]

وقال النبى ﷺ لما بلغ قومه من أذاه ذلك المبلغ : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا

يعلمون » (١) . وفى الصحيحين عنه : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » (٢) ، فدل على أن الفقه مستلزم لإرادة الله الخير فى العبد ، ولا يقال : الحديث دل على أن من أراد الله به خيرا فقهه فى الدين ، ولا يدل على أن كل من فقهه فى الدين فقد أراد به خيرا وبينهما فرق ، ودليلكم إنما يتم بالتقدير الثانى ، والحديث لا يقتضيه ؛ لأنا نقول : النبى ﷺ جعل الفقه فى الدين دليلا وعلامة على إرادة الله بصاحبه خيرا ، والدليل يستلزم المدلول ولا يتخلف عنه ، فإن المدلول لازمه ووجود الملزوم بدون لازمه محال .

وفى الترمذى وغيره عنه ﷺ : « خصلتان لا يجتمعان فى منافق : حسن سمت وفقه فى الدين » (٣) ، فجعل الفقه فى الدين منافيا للنفاق ، بل لم يكن السلف يطلقون اسم الفقه إلا على العلم الذى يصحبه العمل ، كما سئل سعد بن إبراهيم عن أفقه أهل المدينة ؟ قال : أتقاهم ، وسأل فرقد السنجى الحسن البصرى عن شىء ؟ فأجابه فقال : إن الفقهاء يخالفونك . فقال الحسن : ثكلتك أمك فريقد ، وهل رأيت بعينيك فقيها ! إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا ، الراغب فى الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه ، الذى لا يهمز من فوقه ، ولا يسخر بمن دونه ، ولا يبتغى على علم علمه الله تعالى أجرا .

وقال بعض السلف : إن الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم مكر الله ،ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : كفى بخشية الله علما ، وبالاغترار بالله جهلا . قالوا : فهذا القرآن والسنة وإطلاق السلف من الصحابة والتابعين يدل على أن العلم والمعرفة مستلزم للهداية ، وأن عدم الهداية دليل على الجهل وعدم العلم . قالوا : ويدل عليه أن الإنسان مادام عقله معه لا يؤثر هلاك نفسه على نجاتها ، وعذابها العظيم الدائم على نعيمها المقيم والحس شاهد بذلك ؛ ولهذا وصف الله ـ سبحانه ـ أهل معصيته بالجهل فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** (١٧) ﴾ [ النساء ] .

قال سفيان الثورى : كل من عمل ذنبا من خلق الله فهو جاهل كان جاهلا أو عالما ؛ إن كان عالما فمن أجهل منه ، وإن كان لا يعلم فمثل ذلك . وقوله : ﴿ **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن**

---

(١) البخارى (٦٩٢٩) فى استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ، باب : (٥) ، ومسلم (١٧٩٢ / ١٠٥ ) فى الجهاد والسير ، باب : غزوة أحد .

(٢) البخارى (٧١) فى العلم ، باب : من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، ومسلم (١٠٣٧ / ٩٨) فى الزكاة ، باب : النهى عن المسألة .

(٣) سبق تخريجه ص ( ١٧٨) .

**قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٨)** ﴾ [ النساء ] ، قال : قبل الموت ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ذنب المؤمن جهل منه .

قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل شيء عصى الله فيه فهو جهالة . وقال السدي : كل من عصى الله فهو جاهل .

قالوا : ويدل على صحة هذا أن مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد ، فإنه لو رأى صبيا يتطلع عليه من كوة لم تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة ، فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله إليه ورؤيته له وعقابه على الذنب وتحريمه له وسوء عاقبته ، فلابد من غفلة القلب على هذا العلم وغيبته عنه ، فحينئذ يكون وقوعه في المعصية صادرا عن جهل وغفلة ونسيان مضاد للعلم ، والذنب محفوف بجهلين ؛ جهل بحقيقة الأسباب الصارفة عنه ، وجهل بحقيقة المفسدة المترتبة عليه ، وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة ، فما عصى الله إلا بالجهل وما أطيع إلا بالعلم ، فهذا بعض ما احتجت به هذه الطائفة .

وقالت الطائفة الأخرى : العلم لا يستلزم الهداية ، وكثيرا ما يكون الضلال عن عمد وعلم لا يشك صاحبه فيه ، بل يؤثر الضلال والكفر وهو عالم بقبحه ومفسدته .

قالوا : وهذا شيخ الضلال وداعي الكفر وإمام الفجرة إبليس عدو الله ، قد علم أمر الله له بالسجود لآدم ولم يشك فيه ، فخالفه وعاند الأمر ، وباء بلعنة الله وعذابه الدائم ، مع علمه بذلك ومعرفته به ، وأقسم له بعزته أنه يغوي خلقه أجمعين إلا عباده منهم المخلصين ، فكان غير شاك في الله ، وفي وحدانيته ، وفي البعث الآخر ، وفي الجنة والنار ، ومع ذلك اختار الخلود في النار ، واحتمال لعنة الله وغضبه ، وطرده من سمائه وجنته عن علم بذلك ومعرفة لم يحصل لكثير من الناس ؛ ولهذا ﴿ **قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩)** ﴾ [ ص ] وهذا اعتراف منه بالبعث وقرار به ، وقد علم قسم ربه ليملأن جهنم منه ومن أتباعه ، فكان كفره كفر عناد محض لا كفر جهل .

وقال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ** ﴾ [ فصلت : ١٧ ] يعني بينا لهم وعرفناهم فعرفوا الحق وتيقنوه ، وآثروا العمى عليه ، فكان كفر هؤلاء عن جهل . وقال تعالى حاكيا عن موسى أنه قال لفرعون : ﴿ **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢)** ﴾ [ الإسراء ] ، أي : هالكا ، على قراءة من فتح التاء ، وهي قراءة الجمهور ، وضمها الكسائي وحده ، وقراءة الجمهور أحسن وأوضح وأفخم معنى ، وبها تقوم الدلالة ، ويتم الإلزام بتحقق كفر فرعون وعناده ، ويشهد لها قوله تعالى إخبارا عنه وعن قومه : ﴿ **فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣)**

**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)** ﴾ [ النمل ] فأخبر ـ سبحانه ـ أن تكذيبهم وكفرهم كان عن يقين ، وهو أقوى العلم ظلما منهم وعلوا لا جهلا .

وقال تعالى لرسوله : ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)** ﴾ [ الأنعام ] يعنى : أنهم قد عرفوا صدقك ، وأنك غير كاذب فيما تقول ، ولكن عاندوا وجحدوا بالمعرفة ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والمفسرون . قال قتادة : يعلمون أنك رسول ولكن يجحدون ، قال تعالى : ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)** ﴾ [ آل عمران ] يعنى : تكفرون بالقرآن وبمن جاء به وأنتم تشهدون بصحته وبأنه الحق ، فكفركم كفر عناد ، وجحود عن علم وشهود لا عن جهل وخفاء .

وقال تعالى عن السحرة من اليهود : ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ** ﴾ [ البقرة : ١٠٢ ] أى : علموا من أخذ السحر وقبله لا نصيب له فى الآخرة ، ومع هذا العلم والمعرفة فهم يشترونه ويقبلونه ويتعلمونه .

وقال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** ﴾ [ البقرة : ١٤٦ ] ذكر هذه المعرفة عن أهل الكتاب فى القبلة كما فى سورة البقرة ، وفى التوحيد كقوله فى الأنعام : ﴿ **أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ** ﴾ [ الأنعام ] وفى الكتاب أنه منزل من عند الله : كقوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ** ﴾ [ الأنعام : ١١٥ ]

وقال تعالى : ﴿ **كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)** ﴾ [ آل عمران ] ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : هم قريظة والنضير ، ومن دان بدينهم كفروا بالنبى ﷺ بعد أن كانوا قبل مبعثه مؤمنين به ، وشهدوا له بالنبوة ، وإنما كفروا بغيا وحسدا . قال الزجاج : أعلم الله عز وجل أنه لا جهة لهدايتهم ؛ لأنهم قد استحقوا أن يضلوا بكفرهم ؛ لأنهم كفروا بعد البينات ، ومعنى ﴿ **كَيْفَ يَهْدِي** ﴾ أى : أنه لا يهديهم ؛ لأن القوم عرفوا الحق وشهدوا به وتيقنوه وكفروا عمدا ، فمن أين تأتيهم الهداية ؟ فإن الذى ترتجى هدايته من كان ضالا ولا يدرى أنه ضال ؛ بل يظن أنه على هدى ، فإذا عرف الهدى اهتدى ، وأما من عرف الحق وتيقنه وشهد به

قلبه ثم اختار الكفر والضلال عليه ، فكيف يهدى الله مثل هذا .

وقال تعالى عن اليهود : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [ البقرة ] . قال ابن عباس رضي الله عنه : لم يكن كفرهم شكا ولا اشتباها ، ولكن بغيا منهم حيث صارت النبوة فى ولد إسماعيل . ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [ البقرة ] ، فلما شبههم فى فعلهم هذا بمن لا يعلم ، دل على أنهم نبذوه عن علم كفعل من لا يعلم ، تقول : إذا خاطبت من عصاك عمدا : كأنك لم تعلم ما فعلت ، أو كأنك لم تعلم بنهى إياك ؟ ومنه على أحد القولين قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ النحل ] . قال السدى : يعنى محمدا ﷺ ، واختاره الزجاج ، فقال : يعرفون أن أمر محمد ﷺ حق ، ثم ينكرون ذلك ، وأول الآية يشهد لهذا القول .

وقال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ [الأعراف] . قالوا : فهل بعد هذه الآية بيان ، فإن هذا آتاه الله آياته فانسلخ منها وآثر الضلال والغى ، وقصته معروفة حتى قيل : إنه كان أوتى الاسم الأعظم ، ومع هذا فلم ينفعه علمه وكان من الغاوين ، فلو استلزم العلم والمعرفة الهداية لاستلزمه فى حق هذا .

وقال تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ العنكبوت ] وهذا يدل على أن قولهم : ﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [ هود ] إما بهت منهم وجحود ، وإما نفى لآيات الاقتراح والعنت، ولا يجب الإتيان بها ، وقد وصف ـ سبحانه ـ ثمـود بأنها كفرت عن علم وبصيرة بالحق ، ولهذا قال : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [ الإسراء : ٥٩ ] أى بينة مضيئة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [ الإسراء : ١٢ ] أى مضيئة ، وحقيقة اللفظ أنها تجعل من رآها مبصرا ، فهى توجب له البصر فتبصره أى: تجعله ذا بصر فهى موضحة مبينة . يقال : بصر به إذا رآه كقوله تعالى : ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ [ القصص: ١١ ] ، وقوله : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ [ طه : ٩٦ ].

وأما أبصره فله معنيان : أحدهما : جعله باصرا بالشىء أى : ذا بصر به كآية النهار وآية ثمود . والثانى : بمعنى رآه كقولك : أبصرت زيدا ، وفى حديث أبى شريح العدوى : أحدثك

قولا قال به رسول الله ﷺ يوم الفتح فسمعته أذناى ، ووعاه قلبى وأبصرته عيناى حين تكلم به (١) . ومنه قوله تعالى : ﴿ **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾** ﴾ [ الصافات ] قيل : المعنى : أبصرهم وما يقضى عليهم من الأسر والقتل والعذاب فى الآخرة فسوف يبصرونك ، وما يقضى لك من النصر والتأييد وحسن العاقبة ، والمراد : تقريب المبصر من المخاطب ، حتى كأنه نصب عينيه ورأى ناظريه .

والمقصود : أن الآية أوجبت لهم البصيرة فآثروا الضلال والكفر عن علم ويقين ؛ ولهذا ـ والله أعلم ـ ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم فى سورة ﴿ **وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا** ﴾ ؛ لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلى الزكية الراشدة المهتدية ، وإلى الفاجرة الضالة الغاوية ، وذكر فيها الأصلين : القدر والشرع ، فقال : ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾** ﴾ [ الشمس ] ، فهذا قدره وقضاؤه ، ثم قال : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾** ﴾ [ الشمس ] ، فهذا أمره ودينه ، وثمود هداهم فاستحبوا العمى على الهدى ؛ فذكر قصتهم ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور على التقوى ، والتدسية على التزكية ، والله أعلم بما أراد .

قالوا : ويكفى فى هذا إخباره تعالى عن الكفار أنهم يقولون بعدما عاينوا العذاب ، ووردوا القيامة ورأوا ما أخبرت به الرسل : ﴿ **يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾** ﴾ [ الأنعام ] فأى علم أبين من علم من ورد القيامة ، ورأى ما فيها وذاق عذاب الآخرة ، ثم لو رد إلى الدنيا لاختار الضلال على الهدى ، ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾** ﴾ [ الأنعام ] فهل بعد نزول الملائكة عيانا ، وتكليم الموتى لهم ، وشهادتهم للرسول بالصدق ، وحشر كل شىء فى الدنيا عليهم من بيان وإيضاح للحق وهدى ؟ ومع هذا فلا يؤمنون ، ولا ينقادون للحق ، ولا يصدقون الرسول ومن نظر فى سيرة رسول الله ﷺ مع قومه ومع اليهود علم أنهم كانوا جازمين بصدقه ﷺ ، لا يشكون أنه صادق فى قوله أنه رسول الله ، ولكن اختاروا الضلال والكفر على الإيمان .

قال المسور بن مخرمة رضي الله عنه لأبى جهل وكان خاله : أى خال ، هل كنتم تتهمون محمدا بالكذب قبل أن يقول مقالته التى قالها ؟ قال أبو جهل ـ لعنه الله تعالى : يا ابن أخى ، والله لقد كان محمد فينا وهو شاب يدعى الأمين ، وما جربنا عليه كذبا قط ، فلما

---

(١) البخارى (١٠٤) فى العلم ، باب : ليبلغ العلم الشاهد الغائب .

وخطه الشيب لم يكن ليكذب على الله . قال : يا خال ، فلم لا تتبعونه ؟ قال : يا بن أخى ، تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف ، فأطعموا وأطعمنا ، وسقوا وسقينا ، وأجاروا وأجرنا ، فلما تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى ، فمتى ندرك هذه ؟ وهذا أمية بن أبى الصلت ، كان ينتظره يوما بيوم ، وعلمه عنده قبل مبعثه ، وقصته مع أبى سفيان لما سافرا معا معروفة ، وإخباره برسول الله ﷺ ، ثم لما تيقنه وعرف صدقه قال : لا أومن بنبى من غير ثقيف أبدا ، وهذا هرقل تيقن أنه رسول الله ﷺ ، ولم يشك فيه، وآثر الضلال والكفر استبقاء لملكه .

ولما سأله اليهود عن التسع آيات البينات فأخبرهم بها قبلوا يده ، وقالوا : نشهد أنك نبى، قال :« فما يمنعكم أن تتبعونى ؟ » قالوا : إن داود عليه السلام دعا ألا يزال فى ذريته نبى ، وإنا نخشى إن اتبعناك أن تقتلنا يهود ، فهؤلاء قد تحققوا نبوته ، وشهدوا له بها ، ومع هذا فآثروا الكفر والضلال ، ولم يصيروا مسلمين بهذه الشهادة ، فقيل : لا يصير الكافر مسلما بمجرد شهادة أن محمدا رسول الله ﷺ حتى يشهد لله بالوحدانية ، وقيل : يصير بذلك مسلما ، وقيل : إن كان كفره بتكذيب الرسول كاليهود صار مسلما بذلك ، وإن كان كفره بالشرك مع ذلك لم يصر مسلما إلا بالشهادة بالتوحيد كالنصارى والمشركين ، وهذه الأقوال الثلاثة فى مذهب الإمام أحمد وغيره .

وعلى هذا ، فإنما لم يحكم لهؤلاء اليهود الذين شهدوا له بالرسالة بحكم الإسلام ؛ لأن مجرد الإقرار والإخبار بصحة رسالته لا يوجب الإسلام إلا أن يلتزم طاعته ومتابعته ، وإلا فلو قال : أنا أعلم أنه نبى ولكن لا أتبعه ولا أدين بدينه ، كان من أكفر الكفار ، كحال هؤلاء المذكورين وغيرهم ، وهذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة السنة : أن الإيمان لا يكفى فيه قول اللسان بمجرده ، ولا معرفة القلب مع ذلك ؛ بل لابد فيه من عمل القلب ، وهو حبه لله ورسوله ، وانقياده لدينه ، والتزامه طاعته ومتابعة رسوله ، وهذا خلاف من زعم أن الإيمان هو مجرد معرفة القلب وإقراره ، وفيما تقدم كفاية فى إبطال هذه المقالة ، ومن قال : إن الإيمان هو مجرد اعتقاد صدق الرسول فيما جاء به ، وإن لم يلتزم متابعته وعاداه وأبغضه وقاتله لزمه أن يكون هؤلاء كلهم مؤمنين ، وهذا إلزام لا محيد عنه ؛ ولهذا اضطرب هؤلاء فى الجواب عن ذلك لما ورد عليهم ، وأجابوا بما يستحى العاقل من قوله ، كقول بعضهم : إن إبليس كان مستهزئا ، ولم يكن يقر بوجود الله ، ولا بأن الله ربه وخالقه ، ولم يكن يعرف ذلك ، وكذلك فرعون وقومه لم يكونوا يعرفون صحة نبوة موسى ولا يعتقدون وجود الصانع ، وهذه فضائح نعوذ بالله من الوقوع

فى أمثالها ، ونصرة المقالات وتقليد أربابها تحمل على أكثر من هذا ، ونعوذ بالله من الخذلان .

قالوا : وقد بين القرآن أن الكفر أقسام :

**أحدها** : كفر صادر عن جهل وضلال وتقليد الأسلاف،وهو كفر أكثر الأتباع والعوام.

**الثانى** : كفر جحود وعناد وقصد مخالفة الحق ككفر من تقدم ذكره ، وغالب ما يقع هذا النوع فيمن له رياسة علمية في قومه من الكفار ، أو رياسة سلطانية ، أو من له مأكل وأموال فى قومه ، فيخاف هذا على رياسته ، وهذا على ماله ومأكله ، فيؤثر الكفر على الإيمان عمدا .

**الثالث** : كفر إعراض محض لا ينظر فيما جاء به الرسول ولا يحبه ولا يبغضه ولا يواليه ولا يعاديه ؛ بل هو معرض عن متابعته ومعاداته ، وهذان القسمان أكثر المتكلمين ينكرونهما ولا يثبتون من الكفر إلا الأول ، ويجعلون الثانى والثالث كفرا ؛ لدلالته على الأول لا لأنه فى ذاته كفر فليس عندهم الكفر إلا مجرد الجهل .

ومن تأمل القرآن والسنة وسير الأنبياء فى أممهم ودعوتهم لهم وما جرى لهم معهم ، جزم بخطأ أهل الكلام فيما قالوه ، وعلم أن عامة كفر الأمم عن تيقن وعلم ومعرفة بصدق أنبيائهم وصحة دعواهم وما جاؤوا به ، وهذا القرآن مملوء من الأخبار عن المشركين عباد الأصنام أنهم كانوا يقرون بالله ، وأنه هو وحده ربهم وخالقهم ، وأن الأرض وما فيها له وحده ، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، وأنه بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ، وأنه هو الذى سخر الشمس والقمر ، وأنزل المطر ، وأخرج النبات والقرآن ، مناد عليهم بذلك ، محتج بما أقروا به فى ذلك على صحة ما دعتهم إليه رسله . فكيف يقال : إن القوم لم يكونوا مقرين قط بأن لهم ربا وخالقا ؟ وهذا بهتان عظيم ، فالكفر أمر وراء مجرد الجهل ، بل الكفر الأغلظ هو ما أنكره هؤلاء وزعموا أنه ليس بكفر.

قالوا : والقلب عليه واجبان لا يصيره مؤمنا إلا بهما جميعا ؛ واجب المعرفة والعلم ، وواجب الحب والانقياد والاستسلام . فكما لا يكون مؤمنا إذا لم يأت بواجب العلم والاعتقاد ، لا يكون مؤمنا إذا لم يأت بواجب الحب والانقياد والاستسلام ؛ بل إذا ترك هذا الواجب مع علمه ومعرفته به كان أعظم كفرا ، وأبعد عن الإيمان من الكافر جهلا . فإن الجاهل إذا عُرِّفَ وعُلِّمَ فهو قريب إلى الانقياد والاتباع ، وأما المعاند فلا دواء فيه ، قال تعالى : ﴿ **كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ**

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) ﴾ [ آل عمران ] .

قالوا : فحب الله ورسوله ؛ بل كون الله ورسوله أحب إلى العبد من سواهما لا يكون العبد مسلما إلا به ، ولا ريب أن الحب أمر وراء العلم ، فما كل من عرف الرسول أحبه كما تقدم .

قالوا : وهذا الحاسد يحمله بغض المحسود على معاداته ، والسعى فى أذاه بكل ممكن، مع علمه بفضله وعلمه ، وأنه لا شىء فيه يوجب عداوته إلا محاسنه وفضائله ؛ ولهذا قيل : الحاسد عدو للنعم والمكارم ، فالحاسد لم يحمله على معاداة المحسود جهله بفضله وكماله ، وإنما حمله على ذلك إفساد قصده وإرادته ، كما هى حال الرسل وورثتهم مع الرؤساء الذين سلبهم الرسل ووارثوهم رئاستهم الباطلة ، فعادوهم وصدوا النفوس عن متابعتهم ، ظنا أن الرياسة تبقى لهم وينفردون بها ، وسنة الله فى هؤلاء أن يسلبهم رياسة الدنيا والآخرة ، ويصغرهم فى عيون الخلق مقابلة لهم بنقيض قصدهم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [ فصلت ] .

فهذا موارد احتجاج الفريقين ، وموقف أقدام الطائفتين ، فاجلس أيها المنصف منهما مجلس الحكومة ، وتوخ بعلمك وعدلك فصل هذه الخصومة ، فقد أدلى كل منهما بحجج لا تعارض ولا تمانع ، وجاء ببينات لا ترد ولا تدافع ، فهل عندك شىء غير هذا يحصل به فصل الخطاب ، وينكشف به لطالب الحق وجه الصواب ، فيرضى الطائفتين ويزول به الاختلاف من البين ، وإلا فخل المطى وحاديها وأعط النفوس باريها ؟

دع الهوى لأناس يعرفون به قد كابدوا الحب حتى لان أصعبه

ومن عرف قدره وعرف لذى الفضل فضله ، فقد قرع باب التوفيق ، والله الفتاح العليم ، فنقول وبالله التوفيق : كلا الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم ، ولا عدلت عن سنن الحق ، وإنما الاختلاف والتباين بينهما من عدم التوارد على محل واحد ، ومن إطلاق ألفاظ مجملة بتفصيل معانيها يزول الاختلاف ، ويظهر أن كل طائفة موافقة الأخرى على نفس قولها .

وبيان هذا : أن المقتضى قسمان : مقتض لا يتخلف عنه موجبه ومقتضاه ، لقصوره فى نفسه ، بل يستلزمه استلزام العلة التامة لمعلولها . ومقتض غير تام ، يتخلف عنه مقتضاه ؛ لقصوره فى نفسه عن التمام أو لفوات شرط اقتضائه ، أو قيام مانع منع تأثيره ، فإن أريد بكون العلم مقتضيا للاهتداء والاقتضاء التام الذى لا يتخلف عنه أثره بل يلزمه

الاهتداء بالفعل ، فالصواب قول الطائفة الثانية : وإنه لا يلزم من العلم حصول الاهتداء المطلوب وإن أريد بكونه موجبا أنه صالح للاهتداء مقتض له ، وقد يتخلف عنه مقتضاه لقصوره ، أو فوات شرط ، أو قيام مانع ، فالصواب قول الطائفة الأولى .

وتفصيل هذه الجملة : أن العلم بكون الشيء سببا لمصلحة العبد ولذاته وسروره قد يتخلف عنه عمله بمقتضاه لأسباب عديدة :

**السبب الأول** : ضعف معرفته بذلك .

**السبب الثانى** : عدم الأهلية ، وقد تكون معرفته به تامة لكن يكون مشروطا بزكاة المحل وقبوله للتزكية ، فإذا كان المحل غير زكى ولا قابل للتزكية كان كالأرض الصلدة التى لا يخالطها الماء ، فإنه يمتنع النبات منها لعدم أهليتها وقبولها ، فإذا كان القلب قاسيا حجريا لا يقبل تزكية ، ولا تؤثر فيه النصائح لم ينتفع بكل علم يعلمه ، كما لا تنبت الأرض الصلبة ولو أصابها كل مطر وبذر فيها كل بذر ، كما قال تعالى فى هذا الصنف من الناس : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٩٧)** ﴾ [ يونس ] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [ الأنعام : ١١١ ] ، وقال تعالى : ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١)** ﴾ [ يونس ] وهذا فى القرآن كثير ، فإذا كان القلب قاسيا غليظا جافيا لا يعمل فيه العلم شيئا ، وكذلك إذا كان مريضا مهينا مائيا لا صلابة فيه ولا قوة ولا عزيمة لم يؤثر فيه العلم .

**السبب الثالث** : قيام مانع وهو إما حسد أو كبر ، وذلك مانع إبليس من الانقياد للأمر ، وهو داء الأولين والآخرين إلا من عصم الله ، وبه تخلف الإيمان عن اليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ ، وعرفوا صحة نبوته ومن جرى مجراهم ، وهو الذى منع عبد الله بن أبى من الإيمان ، وبه تخلف الإيمان عن أبى جهل ، وسائر المشركين ، فإنهم لم يكونوا يرتابون فى صدقه ، وأن الحق معه ، لكن حملهم الكبر والحسد على الكفر، وبه تخلف الإيمان عن أمية ، وأضرابه ممن كان عنده علم بنبوة محمد ﷺ .

**السبب الرابع** : مانع الرياسة والملك ، وإن لم يقم بصاحبه حسد ولا تكبر عن الانقياد للحق لكن لا يمكنه أن يجتمع له الانقياد وملكه ورياسته فيضن بملكه ورياسته ، كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار ، الذين علموا نبوته وصدقه وأقروا بها باطنا ، وأحبوا الدخول فى دينه لكن خافوا على ملكهم ، وهذا داء أرباب الملك والولاية والرياسة ، وقل من نجا منه إلا من عصم الله ، وهو داء فرعون وقومه ؛ ولهذا قالوا : ﴿ **أَنُؤْمِنُ**

﴿ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ المؤمنون ] أنفوا أن يؤمنوا ويتبعوا موسى وهارون وينقادوا لهما وبنو إسرائيل عبيد لهم ؛ ولهذا قيل : إن فرعون لما أراد متابعة موسى وتصديقه شاور هامان وزيره فقال : بينا أنت إله تعبد تصير عبدا تعبد غيرك ، فأبى العبودية واختار الرياسة والإلهية المحال .

**السبب الخامس** : مانع الشهوة والمال ، وهو الذى منع كثيرا من أهل الكتاب من الإيمان خوفا من بطلان مأكلهم وأموالهم التى تصير إليهم من قومهم ، وقد كانت كفار قريش يصدون الرجل عن الإيمان بحسب شهوته ، فيدخلون عليه منها ، فكانوا يقولون لمن يحب الزنا : إن محمدا يحرم الزنا ويحرم الخمر ، وبه صدوا الأعشى الشاعر عن الإسلام ، وقد فاوضت غير واحد من أهل الكتاب فى الإسلام وصحته ، فكان آخر ما كلمنى به أحدهم : أنا لا أترك الخمر وأشربها أمنا ، فإذا أسلمت حلتم بينى وبينها وجلدتمونى على شربها . وقال آخر منهم ، بعد أن عرف ما قلت له : لى أقارب أرباب أموال ، وإنى إن أسلمت لم يصل إلى منها شىء ، وأنا أؤمل أن أرثهم أو كما قال ، ولا ريب أن هذا القدر فى نفوس خلق كثير من الكفار ، فتتفق قوة داعى الشهوة والمال ، وضعف داعى الإيمان ، فيجيب داعى الشهوة والمال ، ويقول : لا أرغب بنفسى عن آبائى وسلفى .

**السبب السادس** : محبة الأهل والأقارب والعشيرة ، يرى أنه إذا اتبع الحق وخالفهم أبعدوه وطردوه عنهم ، وأخرجوه من بين أظهرهم ، وهذا سبب بقاء خلق كثير على الكفر بين قومهم وأهاليهم وعشائرهم .

**السبب السابع** : محبة الدار والوطن ، وإن لم يكن له بها عشيرة ولا أقارب ، لكن يرى أن فى متابعة الرسول خروجه عن داره ووطنه إلى دار الغربة والنوى فيضن بوطنه .

**السبب الثامن** : تخيل أن فى الإسلام ومتابعة الرسول إزراء وطعنا منه على آبائه وأجداده وذما لهم ، وهذا هو الذى منع أبا طالب وأمثاله عن الإسلام ، استعظموا آباءهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال ، وأن يختاروا خلاف ما اختار أولئك لأنفسهم ، ورأوا أنهم إن أسلموا سفهوا أحلام أولئك ، وضللوا عقولهم ورموهم بأقبح القبائح وهو الكفر والشرك ؛ ولهذا قال أعداء الله لأبى طالب عند الموت : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فكان آخر ما كلمهم به : هو على ملة عبد المطلب ، فلم يدعه أعداء الله إلا من هذا الباب ؛ لعلمهم بتعظيمه أباه عبد المطلب ، وأنه إنما حاز الفخر والشرف به ، فكيف يأتى أمرا يلزم منه غاية تنقيصه وذمه ؟ ولهذا قال : لولا أن تكون مسبة على بنى عبد المطلب لأقررت بها عينك ، أو كما قال . وهذا شعره يصرح فيه بأنه قد علم وتحقق

نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصدقه ، كقوله :

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البريـــة دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

وفى قصيدته اللامية :

فو الله لولا أن تكون مســـبة ... تجر على أشياخنا فى المحافـــل
لكنا اتبعناه على كل حـــالـه ... مـن الدهر جدا غير قول التـهازل
لقد علموا أن ابننا لا مـكـذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطــــل

والمسبة التى زعم أنها تجر على أشياخه شهادته عليهم بالكفر والضلال ، وتسفيه الأحلام وتضليل العقول ، فهذا هو الذى منعه من الإسلام بعد تيقنه .

**السبب التاسع** : متابعة من يعاديه من الناس للرسول ، وسبقه إلى الدخول فى دينه وتخصصه وقربه منه ، وهذا القدر منع كثيرا من اتباع الهدى يكون للرجل عدو ، ويبغض مكانه ولا يحب أرضا يمشى عليها ، ويقصد مخالفته ومناقضته ، فيراه قد اتبع الحق ، فيحمله قصد مناقضته ومعاداته على معاداة الحق وأهله ، وإن كان لا عداوة بينه وبينهم ، وهذا كما جرى لليهود مع الأنصار ، فإنهم كانوا أعداءهم وكانوا يتواعدونهم بخروج النبى ﷺ ، وأنهم يتبعونه ويقاتلونهم معه ، فلما بدرهم إليه الأنصار ، وأسلموا ، حملهم معاداتهم على البقاء على كفرهم ويهوديتهم .

**السبب العاشر** : مانع الألف والعادة والمنشأ ، فإن العادة قد تقوى حتى تغلب حكم الطبيعة ؛ ولهذا قيل : هى طبيعة ثانية ، فيربى الرجل على المقالة ، وينشأ عليها صغيرا ، فيتربى قلبه ونفسه عليها كما يتربى لحمه وعظمه على الغذاء المعتاد ولا يعقل نفسه إلا عليها ، ثم يأتيه العلم وهلة واحدة يريد إزالتها وإخراجها من قلبه ، وأن يسكن موضعها فيعسر عليه الانتقال ، ويصعب عليه الزوال ، وهذا السبب وإن كان أضعف الأسباب معنى ، فهو أغلبها على الأمم وأرباب المقالات والنحل ، ليس مع أكثرهم ، بل جميعهم إلا ما عسى أن يشذ الإعادة ومربى تربى عليه طفلا لا يعرف غيرها ولا يحسن به ، فدين العوايد هو الغالب على أكثر الناس ،فالانتقال عنه كالانتقال عن الطبيعة إلى طبيعة ثانية ، فصلوات الله وسلامه على أنبيائه ورسله ، خصوصا على خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ ، كيف غيروا عوائد الأمم الباطلة ؟ ونقلوهم إلى الإيمان ، حتى استحدثوا به طبيعة ثانية خرجوا بها عن عادتهم ، وطبيعتهم الفاسدة . ولا يعلم مشقة هذا على النفوس إلا من زاول نقل رجل

واحد عن دينه ومقالته إلى الحق ، فجزى الله المرسلين أفضل ما جزى به أحدا من العالمين .

إذا عرف أن المقتضى نوعان ؛ فالهدى المقتضى وحده لا يوجب الاهتداء ، والهدى التام يوجب الاهتداء . فالأول : هدى البيان والدلالة والتعليم ، ولهذا يقال : هدى فما اهتدى . والثانى : هدى البيان والدلالة ، مع إعطاء التوفيق ، وخلق الأرادة ، فهذا الهدى الذى يستلزم الاهتداء . ولا يتخلف عنه موجبه ، فمتى وجد السبب وانتفت الموانع لزم وجود حكمه ، وههنا دقيقة بها ينفصل النزاع ، وهى أنه هل ينعطف من قيام المانع وعدم الشرط على المقتضى أمر يضعفه فى نفسه ، ويسلبه اقتضاءه وقوته أو الاقتضاء بحاله ، وإنما غلب المانع فكان التأثير له .

ومثال ذلك فى مسئلتنا : أنه بوجود هذه الموانع المذكورة أو بعضها ، هل يضعف العلم حتى لا يصير مؤثرا البتة ، أو العلم بحاله ؟ ولكن المانع بقوته غلب فكان الحكم له . هذا سر المسألة وفقهها ، فأما الأول فلا شك فيه ، ولكن الشأن فى القسم الثانى ، وهو بقاء العلم بحاله والتحقيق أن الموانع تحجبه وتعميه، وربما قلبت حقيقته من القلب ، والقرآن قد دل على هذا ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** (٥) ﴾ [ الصف ] فعاقبهم ـ سبحانه ـ بإزاغة قلوبهم عن الحق لما زاغوا عنه ابتداء .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** (١١٠) ﴾ [ الأنعام ] ولهذا قيل : من عرض عليه حق فرده فلم يقبله عوقب بفساد قلبه وعقله ورأيه ، ومن هنا قيل : لا رأى لصاحب هوى ، فإن هواه يحمله على رد الحق فيفسد الله عليه رأيه وعقله .

قال تعالى : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ** ﴾ [ النساء : ١٥٥ ] أخبر ـ سبحانه ـ أن كفرهم بالحق بعد أن علموه كان سببا لطبع الله على قلوبهم ﴿ **بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ** ﴾ [ النساء : ١٥٥ ] ، حتى صارت غلفا ، والغلف جمع أغلف وهو القلب الذى قد غشيه غلاف كالسيف الذى فى غلافه ، وكل شئ فى غلافه فهو أغلف ، وجمعه غلف يقال : سيف أغلف ، وقوس غلفاء ، ورجل أغلف وأقلف ؛ إذا لم يختتن . والمعنى : قلوبنا عليها غشاوة وغطاء فلا تفقه ما تقول يا محمد ﷺ ، ولم تع شيئا . من قال : إن المعنى : أنها غلف للعلم والحكمة ، أى أوعية لها فلا يحتاج إلى قولك ، ولا تقبله استغناء بما عندهم لوجوه :

**أحدها** : أن غلف جمع أغلف كقلف وأقلف ، وحمر وأحمر ، وجرد وأجرد ،

وغلب وأغلب ونظائره ، والأغلف من القلوب : هو الداخل فى الغلاف ، هذا هو المعروف من اللغة .

**الثانى** : أنه ليس من الاستعمال السائغ المشهور أن يقال : قلب فلان غلاف لكذا ، وهذا لا يكاد يوجد فى شىء من نثر كلامهم ولا نظمه .ولا نظير له فى القرآن ، فيحمل عليه ولا هو من التشبيه البديع المستحسن فلا يجوز حمل الآية عليه .

**الثالث** : أن نظير قول هؤلاء قول الآخرين من الكفار : ﴿ **قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ** ﴾ [ فصلت : ٥ ] ، والأكنة هنا : هى الغلف التى قلوب هؤلاء فيها ، والأكنة كالأوعية والأغطية التى تغطى المتاع ، ومنه الكنانة لغلاف السهام .

**الرابع** : أن سياق الآية لا يحسن مع المعنى الذى ذكروه ، ولا يحسن مقابلته بقوله : ﴿ **بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ** ﴾ ، وإنما يحسن مع هذا المعنى أن يسلب عنهم العلم والحكمة التى ادعوها كما قيل لهم لما ادعوا ذلك : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** (٨٥) ﴾ [ الإسراء ] ، وأما هنا فلما أدعوا أن قلوبهم فى أغطية وأغشية لا تفقه قوله ، قوبلوا بأن عرفهم أن كفرهم ونقضهم ميثاقهم وقتلهم الأنبياء كان سببا لأن طبع على قلوبهم . ولا ريب أن القلب إذا طبع عليه أظلمت صورة العلم فيه وانطمست ، وربما ذهب أثرها حتى يصير السبب الذى يهتدى به المهتدون سببا لضلال هذا ، كما قال تعالى : ﴿ **يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** (٢٧) ﴾ [ البقرة ] ، فأخبر تعالى أن القرآن سبب لضلال هذا الصنف من الناس ، وهو هداه الذى هدى به رسوله وعباده المؤمنين ؛ ولهذا أخبر ـ سبحانه ـ أنه إنما يهتدى به من اتبع رضوان الله .

قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ** (١٢٥) ﴾ [ التوبة ] ، ولا شىء أعظم فسادا لمحل العلم من صيرورته بحيث يضل بما يهتدى به ، فنسبته إلى الهدى والعلم نسبة الفم الذى قد استحكمت فيه المرارة إلى الماء العذب ، كما قيل :

ومن يك ذا فم مر مريض    يجد مرا به الماء الزلالا

وإذا فسد القلب فسد إدراكه ، وإذا فسد الفم فسد إدراكه ، وكذلك إذا فسدت العين . وأهل المعرفة من الصيارفة يقولون : إن من خاف فى نقده نسى النقد وسلبه ، فاشتبه عليه الخالص بالزغل . ومن كلام بعض السلف : يهتف العلم بالعمل ، فإن أجابه حل وإلا

ارتحل وقال بعض السلف : كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به ، فترك العمل بالعلم من أقوى الأسباب فى ذهابه ونسيانه . وأيضا ، فإن العلم يراد للعمل ، فإنه بمنزلة الدليل للسائر ، فإذا لم يسر خلف الدليل لم ينتفع بدلالته ، فنزل منزلة من لم يعلم شيئا ؛ لأن من علم ولم يعمل بمنزلة الجاهل الذى لا يعلم ، كما أن من ملك ذهبا وفضة وجاع وعرى ولم يشتر منها ما يأكل ويلبس ، فهو بمنزلة الفقير العادم ، كما قيل :

ومن ترك الإنفاق عند احتياجه مخافة فقر فالذى فعل الفقر

والعرب تسمى الفحش والبذاء جهلا ، إما لكونه ثمرة الجهل فيسمى باسم سببه وموجبه ، وإما لأن الجهل يقال فى جانب العلم والعمل ، قال الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومن هذا قول موسى لقومه وقد قالوا : ﴿ **أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** (٦٧) ﴾ [ البقرة ] فجعل الاستهزاء بالمؤمنين جهلا . ومنه قوله تعالى حكاية عن يوسف أنه قال : ﴿ **وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ** (٣٣) ﴾ [ يوسف ] . ومن هذا قوله تعالى : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** (١٩٩) ﴾ [ الأعراف ] ليس المراد إعراضه عمن لا علم عنده فلا يعلمه ولا يرشده ، وإنما المراد إعراضه عن جهل من جهل عليه فلا يقابله ولا يعاتبه .

قال مقاتل وعروة والضحاك وغيرهم : صن نفسك عن مقابلتهم وعلى سفههم ، وهذا كثير فى كلامهم ، ومنه الحديث : « إذا كان صوم أحدكم فلا يصخب ولا يجهل »[(١)]، ومن هذا تسمية المعصية جهلا . قال قتادة : أجمع أصحاب محمد أن كل من عصى الله فهو جاهل ، وليس المراد أنه جاهل بالتحريم ؛ إذا لو كان جاهلا لم يكن عاصيا، فلا يترتب الحد فى الدنيا والعقوبة فى الآخرة على جاهل بالتحريم ؛ بل نفس الذنب يسمى جهلا ، وإن علم مرتكبه بتحريمه إما أنه لا يصدر إلا عن ضعف العلم ونقصانه ، وذلك جهل فسمى باسم سببه ، وإما تنزيلا لفاعله منزلة الجاهل به .

**الثانى** : أنهم لما ردوا الحق ورغبوا عنه عوقبوا بالطبع والرين وسلب العقل والفهم ، كما قال تعالى عن المنافقين : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** (٣) ﴾ [ المنافقون ]

**الثالث** : أن العلم الذى ينتفع به ويستلزم النجاة والفلاح لم يكن حاصلا لهم ، فسلب

---

(١) النسائى (٢٢١٦) فى الصيام ، باب : فى فضل الصيام ، وأحمد (٢ / ٢٧٣) ، وقال العلامة أحمد شاكر (٧٦٧٩) : « إسناده صحيح » .

عنهم حقيقته ، والشيء قـد ينتـفى لنفى ثـمرته والمراد منه . قال تعالى فى ساكن النار : ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ (٧٤) ﴾ [ طه ] نفى الحياة لانتفاء فائدتها والمراد منها ويقولون : لا مال إلا ما أنفق ولا علم إلا ما نفع ؛ ولهذا نفى عنه ـ سبحانه ـ عن الكفار الأسماع والأبصار والعقول لما لم ينتفعوا بها .

وقال تعالى : ﴿ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [ الأحقاف : ٢٦ ] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [ الأعراف : ١٧٩ ] .

ولما لم يحصل لهم الهدى المطلوب بهذه الحواس كانوا بمنزلة فاقديها ، قال تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾ [ البقرة ] فالقلب يوصف بالبصر والعمى والسمع والصم والنطق والبكم ، بل هذه له أصلا وللعين والأذن واللسان تبعا ، فإذا عدمها القلب فصاحبه أعمى مفتوح العين ، أصم ولا آفة بأذنه ، أبكم وإن كان فصيح اللسان ، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [ الحج ] فلا تنافى بين قيام الحجة بالعلم وبين سلبه ونفيه بالطبع والختم والقفل على قلوب من لا يعمل بموجب الحجة وينقاد لها .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) ﴾ [ الإسراء ] ، فأخبر ـ سبحانه ـ أنه منعهم فقه كلامه ، وهو الإدراك الذى ينتفع به من فقهه ، ولم يكن ذلك مانعا لهم من الإدراك الذى تقوم به الحجة عليهم ، فإنهم لو لم يفهموه جملة ماولوا على أدبارهم نفورا عند ذكر توحيد الله ، فلما ولوا عند ذكر التوحيد دل على أنهم كانوا يفهمون الخطاب ، وأن الذى غشى قلوبهم كالذى غشى آذانهم ، ومعلوم أنهم لم يعدموا السمع جملة ويصيروا كالأصم ؛ ولذلك ينفى ـ سبحانه ـ عنهم السمع تارة ويثبته أخرى .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ ﴾ [ الأنفال : ٢٣ ] ، ومعلوم أنهم قد سمعوا القرآن ، وأمر الرسول بإسماعهم إياه ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) ﴾ [ الملك ] ، فهذا السمع المنفى عنهم سمع الفهم والفقه ، والمعنى : ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم سمعا ينتفعون به ، وهو فقهه المعنى وعقله ، وإلا فقد سمعوه سمعا تقوم به عليهم الحجة ، لكن لما سمعوه مع شدة بغضه وكراهته

ونفرتهم عنه لم يفهموه ولم يعقلوه ، والرجل إذا اشتدت كراهته للكلام ونفرته عنه لم يفهم ما يراد به ، فينزل منزلة من لم يسمعه ، قال تعالى : ﴿ **مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ** (٢٠) ﴾ [ هود ] نفى عنهم استطاعة السمع مع صحة حواسهم وسلامتها ، وإنما لفرط بغضهم ونفرتهم عنه وعن كلامه صاروا بمنزلة من لا يستطيع أن يسمعه ولا يراه ، وهذا استعمال معروف للخاصة والعامة ، يقولون : لا أطيق أنظر إلى فلان ، ولا أستطيع أن أسمع كلامه من بغضه ونفرته عنه .

وبعض الجبرية يحتج بهذه الآية وشبهها على مذهبهم ولا دلالة فيها ؛ إذ ليس المراد سلبهم السمع والبصر الذى تقوم به الحجة قطعا ، وإنما المراد سلب السمع الذى يترتب عليه فائدته وثمرته والقدر حق ، ولكن الواجب تنزيل القرآن منازله ، ووضع الآيات مواضعها ، واتباع الحق حيث كان ، ومثل هذا إذا لم يحصل له فهم الخطاب لا يعذر بذلك ؛ لأن الآفة منه وهو بمنزلة من سد أذنيه عند الخطاب فلم يسمعه فلا يكون ذلك عذرا له ، ومن هذا : ﴿ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ** ﴾ [ فصلت : ٥ ] يعنون أنهم فى ترك القبول منه ، ومحبة الإسماع لما جاء به ، وإيثار الإعراض عنه ، وشدة النفار عنه بمنزلة من لا يعقله ولا يسمعه ، ولا يبصر المخاطب لهم به ، فهذا هو الذى يقولون لا خلود فى النار : ﴿ **لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** (١٠) ﴾ [ الملك : ١٠ ] ؛ ولهذا جعل ذلك مقدورا لهم وذنبا اكتسبوه ، فقال تعالى : ﴿ **فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ** (١١) ﴾ [ الملك ] .

والله تعالى ينفى تارة عن هؤلاء العقل والسمع والبصر ، فإنها مدارك العلم وأسباب حصوله ، وتارة ينفى عنهم السمع والعقل ، وتارة ينفى عنهم السمع والبصر ، وتارة ينفى عنهم العقل والبصر ، وتارة ينفى عنهم وحده ، فنفى الثلاثة نفى لمدارك العلم بطريق المطابقة ، ونفى بعضها نفى له بالمطابقة والآخر باللزوم ، فإن القلب إذا فسد فسد السمع والبصر ، بل أصل فسادهما من فساده ، وإذا فسد السمع والبصر فسد القلب ، فإذا أعرض عن سمع الحق وأبغض قائله بحيث لا يحب رؤيته امتنع وصول الهدى إلى القلب ففسد ، وإذا فسد السمع والعقل تبعهما فساد البصر فكل مدرك من هذه يصح بصحة الآخر ويفسد بفساده ؛ فلهذا يجىء فى القرآن نفى ذلك صريحا ولزوما .

وبهذا التفصيل يعلم اتفاق الأدلة من الجانبين ، وفى استدلال الطائفة الثانية بقوله : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** ﴾ [ البقرة : ١٤٦ ] ، ونظائرها نظر ، فإن الله تعالى حيث قال : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ** ﴾ لم يكونوا إلا ممدوحين مؤمنين ، وإذا أراد

ذمهم والإخبار عنهم بالعناد وإيثار الضلال ، أتى بلفظ الذين أتوا الكتاب مبنيا للمفعول .

**فالأول** : كقوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُوْلَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا** ﴾ الآيات [ القصص : ٥٢ - ٥٤ ]، وكقوله تعالى : ﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤)** ﴾ [ الأنعام ] ، فهذا فى سياق مدحهم والاستشهاد بهم ، ليس فى سياق ذمهم والإخبار بعنادهم وجحودهم ، كما استشهدهم فى قوله تعالى : ﴿ **قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)** ﴾ [ الرعد ] ، وفى قوله : ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣)** ﴾ [ النحل ] .

وقال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُوْلَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)** ﴾ [ البقرة ] . واختلف فى الضمير فى ﴿ **يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ** ﴾ فقيل : هو ضمير الكتاب الذى أوتوه . قال ابن مسعود : يحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ويقرؤونه كما أنزل ، ولا يحرفونه عن مواضعه . قالوا : وأنزلت فى مؤمنى أهل الكتاب . وقيل : هذا وصف للمسلمين ، والضمير فى ﴿ **يَتْلُونَهُ** ﴾ للكتاب الذى هو القرآن . وهذا بعيد ، إذا عرف أن القرآن يأباه .

ولا يرد على ما ذكرنا قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)** ﴾ [ البقرة ] ، بل هذا حجة لنا أيضا لما ذكرنا فإنه أخبر فى الأول عن معرفتهم برسوله ﷺ ودينه وقبلته كما يعرفون أبناءهم ، استشهادا بهم على من كفر وثناء عليهم ؛ ولهذا ذكر المفسرون أنهم عبد الله بن سلام وأصحابه ، وخص فى آخر الآية بالذم طائفة منهم ، فدل على أن الأولين غير مذمومين ، وكونهم دخلوا فى جملة الأولين بلفظ المضمر لا يوجب أن يقال : آتيناهم الكتاب عند الإطلاق ، فإنهم دخلوا فى هذا اللفظ ضمنا وتبعا ، فلا يلزم تناوله لهم قصدا واختيارا .

وقال تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ **أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ** ﴾ [ الأنعام : ١٩ ، ٢٠ ] ، قيل : الرسول وصدقه ، وقيل : المذكور هو التوحيد ، والقولان متلازمان . إذ ذلك فى معرض الاستشهاد والاحتجاج على المشركين لا فى معرض ذم الذين آتاهم الكتاب ، فإن السورة مكية ، والحجاج كان فيها مع أهل الشرك ، والسياق يدل على الاحتجاج لا ذم المذكورين من أهل الكتاب .

وأما الثانى : فكقوله : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ [ البقرة ]، فهذا شهادته ـ سبحانه ـ للذين أوتوا الكتاب . والأول شهادته للذين آتاهم الكتاب بأنهم مؤمنون.

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا ﴾ [ النساء : ٤٧ ] ، وقال تعالى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ [ آل عمران : ٢٠ ] وهذا خطاب لمن لم يسلم منهم ، وإلا فلم يؤمر ﷺ أن يقول هذا لمن أسلم منهم وصدق به ؛ ولهذا لا يذكر ـ سبحانه الذين أتوا نصيبا من الكتاب إلا بالذم أيضا كقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ الآية [ النساء : ٥١ ] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) ﴾ [ النساء ] ، وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ﴾ [ آل عمران ] ، فالأقسام أربعة : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وهذا لا يذكره ـ سبحانه ـ إلا فى معرض المدح . و ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ لا يكون قط إلا فى معرض الذم . و ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أعم منه ، فإنه قد يتناولهما ولكن لا يفرد به الممدوحون قط . و ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ يعم الجنس كله ويتناول الممدوح منه والمذموم ، كقوله : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية [ آل عمران ] ، وقال فى الذم : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ ﴾ [ البينة : ١ ] .

وهذا الفصل ينتفع به جدا فى أكبر مسائل أصول الإسلام وهى مسألة الإيمان ، واختلاف أهل القبلة فيه . وقد ذكرنا فيه نكتا حسانا يتضح بها الحق فى المسألة ، والله أعلم .

**الوجه الثانى والثمانون** : أن الله ـ سبحانه ـ فاوت بين النوع الإنسانى أعظم تفاوت يكون بين المخلوقين ، فلا يعرف اثنان من نوع واحد بينهما من التفاوت ما بين خير البشر وشرهم ، والله ـ سبحانه ـ خلق للملائكة عقولا بلا شهوات ، وخلق الحيوانات ذوات شهوات بلا عقول ، وخلق الإنسان مركبا من عقل وشهوة ، فمن غلب عقله شهوته كان خيرا من الملائكة ، ومن غلبت شهوته عقله كان شرا من الحيوانات . وفاوت ـ سبحانه ـ بينهم فى العلم ، فجعل عالمهم معلم الملائكة ، كما قال تعالى : ﴿ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾

[ البقرة : ٣٣ ] وتلك مرتبة لا مرتبة فوقها ، وجعل جاهلهم بحيث لا يرضى الشيطان به ولا يصلح له ، كما قال الشيطان لجاهلهم الذى أطاعه فى الكفر : ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ ﴾ [ الحشر : ١٦ ] وقال لجهلتهم الذين عصوا رسول :ه ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ ﴾ [ الأنفال : ٤٨ ] ، فلله ما أشد هذا التفاوت بين شخصين ؛ أحدهما تسجد له الملائكة ويعلمها مما الله علمه ، والآخر لا يرضى الشيطان به وليا ، وهذا التفاوت العظيم إنما حصل بالعلم وثمرته ، ولو لم يكن فى العلم إلا القرب من رب العالمين والالتحاق بعالم الملائكة وصحبة الملأ الأعلى لكفى به فضلا وشرفا ، فكيف وعز والدنيا والآخرة منوط به ومشروط بحصوله .

**الوجه الثالث والثمانون** : أن أشرف مافى الإنسان محل العلم منه وهو قلبه وسمعه وبصره . ولما كان القلب هو محل العلم والسمع رسوله الذى يأتيه به ، والعين طليعته ، كان ملكا على سائر الأعضاء يأمرها فتأتمر لأمره ، ويصرفها فتنقاد له طائعة بما خص به من العلم دونها ، فلذلك كان ملكها والمطاع فيها . وهكذا العالم فى الناس ، كالقلب فى الأعضاء .

ولما كان صلاح الأعضاء بصلاح ملكها ومطاعها وفسادها بفساده ، كانت هذه حال الناس مع علمائهم وملوكهم ، كما قال بعض السلف : صنفان إذا صلحا صلح سائر الناس ، وإذا فسدا فسد سائر الناس : العلماء والأمراء . قال عبد الله بن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا الملو ... ك وأحبار سوء ورهبانها

ولما كان للسمع والبصر من الإدراك ما ليس لغيرهما من الأعضاء ، كانا فى أشرف جزء من الإنسان وهو وجهه ، وكانا من أفضل ما فى الإنسان من الأجزاء والأعضاء والمنافع .

**الوجه الرابع والثمانون** : أن الله ـ سبحانه ـ فى القرآن يعدد على عباده من نعمه عليهم أن أعطاهم آلات العلم ، فيذكر الفؤاد والسمع والأبصار ، ومرة يذكر اللسان الذى يترجم به عن القلب ، فقال تعالى فى سورة النعم ـ وهى سورة النحل التى ذكر فيها أصول النعم وفروعها ومتمماتها ومكملاتها ، فعدد نعمه فيها على عباده ، وتعرف بها إليهم واقتضاهم شكرها ، وأخبر أنه يتمها عليهم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها ، فأولها فى أصول النعم وآخرها فى مكملاتها ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [ النحل ] فذكر ـ سبحانه ـ نعمته عليهم بأن أخرجهم لا علم لهم ، ثم أعطاهم الأسماع والأبصار والأفئدة التى نالوا بها من العلم ما نالوه ، وأنه فعل بهم ذلك ليشكروه .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا

**أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ** ﴾ [ الأحقاف : ٢٦ ] ، وقال تعالى : ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)** ﴾ [ البلد ] ، فذكر هنا العينين التى يبصر بهما فيعلم المشاهدات ، وذكر هداية النجدين وهما طريقا الخير والشر ، وفى ذلك حديث مرفوع ومرسل ، وهو قول أكثر المفسرين ، وتدل عليه الآية الأخرى : ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)** ﴾ [ الإنسان ] والهداية تكون بالقلب والسمع ، فقد دخل السمع فى ذلك لزوما ، وذكر اللسان والشفتين اللتين هما آلة التعليم ، فذكر آلات العلم والتعليم وجعلها من آياته الدالة عليه وعلى قدرته ووحدانيته ونعمه ، التى تعرف بها إلى عباده .

ولما كانت هذه الأعضاء الثلاثة التى هى أشرف الأعضاء وملوكها والمتصرفة فيها والحاكمة عليها ، خصها ـ سبحانه ـ وتعالى بالذكر فى السؤال عنها ، فقال : ﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦)** ﴾ [ الإسراء ] ، فسعادة الإنسان بصحة هذه الأعضاء الثلاثة وشقاوته بفسادها . قال ابن عباس : يسأل الله العباد فيما استعملوا هذه الثلاثة السمع والبصر والفؤاد ، والله تعالى أعطى العبد السمع ليسمع به أوامر ربه ونواهيه وعهوده ، والقلب ليعقلها ويفقهها ، والبصر ليرى آياته فيستدل بها على وحدانيته وربوبيته، فالمقصود بإعطائه هذه الآلات العلم وثمرته ومقتضاه .

**الوجه الخامس والثمانون** : أن أنواع السعادة التى تؤثرها النفوس ثلاثة :

**سعادة خارجية عن ذات الإنسان** ، بل هى مستعارة له من غيره ، تزول باسترداد العارية ، وهى سعادة المال والحياة ، فبينا المرء بها سعيدا ملحوظا بالعناية مرموقا بالأبصار ، إذا أصبح فى اليوم الواحد أذل من وتد بقاع يشج رأسه بالفهرواجى ، فالسعادة والفرح بهذه كفرح الأقرع بجمة ابن عمه ، والجمال بها كجمال المرء بثيابه وبزينته ، فإذا جاوز بصرك كسوته ، فليس وراء عبادان قرية .

ويحكى عن بعض العلماء : أنه ركب مع تجار فى مركب ، فانكسرت بهم السفينة ، فأصبحوا بعد عز الغنى فى ذل الفقر ، ووصل العالم إلى البلد فأكرم ، وقصد بأنواع التحف والكرامات ، فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم قالوا له : هل لك إلى قومك كتاب أو حاجة ؟ فقال : نعم ، تقولون لهم : إذا اتخذتم مالا لا يغرق إذا انكسرت السفينة ، فاتخذوا العلم تجارة . واجتمع رجل ذو هيئة حسنة ولباس جميل ورواء برجل عالم ، فجس المخاضة فلم ير شيئا ، فقالوا : كيف رأيته ؟ فقال : رأيت دارا حسنة مزخرفة ، ولكن ليس بها ساكن .

**السعادة الثانية** : سعادة فى جسمه وبدنه ، كصحته واعتدال مزاجه ، وتناسب أعضائه ،

وحسن تركيبة ، وصفاء لونه ، وقوة أعضائه ، فهذه ألصق به من الأولى ، ولكن هى فى الحقيقة خارجة عن ذاته وحقيقته ، فإن الإنسان إنسان بروحه وقلبه لا بجسمه وبدنه ، كما قيل :

يا خادم الجسم كى يشقى بخدمته     فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

فنسبة هذه إلى روحه وقلبه كنسبة ثيابه ولباسه إلى بدنه ، فإن البدن ـ أيضا ـ عارية للروح وآلة لها ، ومركب من مراكبها ، فسعادتها بصحته وجماله وحسنه سعادة خارجة عن ذاتها وحقيقتها .

**السعادة الثالثة** : هى السعادة الحقيقية ، وهى سعادة نفسانية روحية قلبية ، وهى سعادة العلم النافع ثمرته ، فإنها هى الباقية على تقلب الأحوال ، والمصاحبة للعبد فى جميع أسفاره ، وفى دوره الثلاثة ؛ أعنى دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار . وبها يترقى معارج الفضل ودرجات الكمال .

**أما الأولى** : فإنها تصحبه فى البقعة التى فيها ماله وجاهه .

**والثانية** : تعرضه للزوال والتبدل بنكس الخلق والرد إلى الضعف ، فلا سعادة فى الحقيقة إلا فى هذه الثالثة التى كلما طال الأمد ازدادت قوة وعلوا ، وإذا عدم المال والجاه فهى مال العبد وجاهه ، وتظهر قوتها وأثرها بعد مفارقة الروح البدن إذا انقطعت السعادتان الأوليتان ، وهذه السعادة لا يعرف قدرها ويبعث على طلبها إلا العلم بها ، فعادات السعادة كلها إلى العلم ومايقتضيه ، والله يوفق من يشاء ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع . وإنما رغب أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها وعورة طريقها ومرارة مباديها وتعب تحصيلها ، وأنها لا تنال إلا على جد من التعب ، فإنها لا تحصل إلا بالجد المحض بخلاف الأولين ، فإنهما حظ قد يحوزه غير طالبه ، وبخت قد يحوزه غير جالبه من ميراث، أو هبة أو غير ذلك . وأما سعادة العلم فلا يورثك إياها إلا بذل الوسع ، وصدق الطلب ، وصحة النية ، وقد أحسن القائل فى ذلك :

فقل لمرجى معالى الأمـــور     بغير اجتهاد رجوت المحالا

وقال آخر :

لـولا المشقة ساد الناس كلهم     الجود يفقر والإقـدام قتال

ومن طمحت همته إلى الأمور العالية ، فواجب عليه أن يشد على محبة الطرق الدينية وهى السعادة ، وإن كانت فى ابتدائها لا تنفك عن ضرب من المشقة والكره والتأذى ، وأنها متى أكرهت النفس عليها ، وسيقت طائعة وكارهة إليها ، وصبرت على لأوائها وشدتها ،

أفضت منها إلى رياض مونقة ، ومقاعد صدق ، ومقام كريم ، تجد كل لذة دونها لعب الصبى بالعصفور بالنسبة إلى لذات الملوك ، فحينئذ حال صاحبها ، كما قيل :

وكنت أرى أن قد تناهى بى الهوى إلى غاية ما بعدها لى مذهب
فلما تلاقينا وعاينت حسنهـــــــا تيقنت أنى إنما كنت ألعـــب

فالمكارم منوطة بالمكاره ، والسعادة لا يعبر إليها إلا على جسر المشقة ، فلا تقطع مسافتها إلا فى سفينة الجد والاجتهاد . قال مسلم فى صحيحه : قال يحيى بن أبى كثير : لا ينال العلم براحة الجسم . وقد قيل : من طلب الراحة ترك الراحة .

فياوصل الحبيب أما إليه بغير مشقة أبدا طريق

ولولا جهل الأكثرين بحلاوة هذه اللذة وعظم قدرها ، لتجالدوا عليها بالسيوف ، ولكن حفت بحجاب من المكاره ، وحجبوا عنها بحجاب من الجهل ؛ ليختص الله لها من يشاء من عباده ، والله ذو الفضل العظيم .

**الوجه السادس والثمانون :** أن الله تعالى خلق الموجودات ، وجعل لكل شىء منها كما لا يختص به هو غاية شرفه ، فإذا عدم كماله انتقل إلى الرتبة التى دونه واستعمل فيها ، فكان استعماله فيها كمال أمثاله ، فإذا عدم تلك أيضا نقل إلى ما دونها ولا تعطل . وهكذا أبدا ، حتى إذا عدم كل فضيلة صار كالشوك وكالحطب الذى لا يصلح إلا للوقود ، فالفرس إذا كانت فيه فروسيته التامة أعد لمراكب الملوك ، وأكرم إكرام مثله ، فإذا نزل عنها قليلا أعد لمن دون الملك ، فإن ازداد تقصيره فيها أعد لآحاد الإجناد ، فإن تقاصر عنها جملة استعمل استعمال الحمار ، وإما حول المدار ، وإما لنقل الزبل ونحوه ، فإن عدم ذلك استعمل استعمال الأغنام للذبح والإعدام . كما يقال فى المثل : إن فرسين التقيا ، أحدهما تحت ملك ، والآخر تحت الروايا ، فقال فرس الملك ، أما أنت صاحبى ، وكنت أنا وأنت فى مكان واحد ، فما الذى نزل بك إلى هذه المرتبة ؟ فقال : ما ذاك إلا أنك هملجت قليلا وتكسعت أنا .

وهكذا السيف إذا نبا عما هيئ له ولم يصلح له ، ضرب منه فاس أو منشار ونحوه .

وهكذا الدور العظام الحسان إذا خرجت وتهدمت،اتخذت حظائر للغنم أو الإبل وغيرها .

وهكذا الآدمى إذا كان صالحا لاصطفاء الله له برسالته ونبوته اتخذه رسولا ونبيا ، كما قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ [ الأنعام : ١٢٤ ] ، فإذا كان جوهره قاصرا عن هذه الدرجة صالحا لخلافة النبوة وميراثها ، رشحه لذلك وبلغه إياه ، فإذا كان قاصرا عن ذلك قابلا لدرجة الولاية رشح لها ، وإن كان ممن يصلح للعمل والعبادة دون المعرفة

والعلم ، جعل أهله حتى ينتهى إلى درجة عموم المؤمنين(١) ، فإن نقص عن هذه الدرجة ولم تكن نفسه قابلة لشىء من الخير أصلا ، استعمل حطبا ووقودا للنار .

وفى أثر إسرائيلى : إن موسى سأل ربه عن شأن من يعذبهم من خلقه . فقال : يا موسى ، ازرع زرعا ، فزرعه ، فأوحى إليه أن احصده ، ثم أوحى إليه أن انسفه وذره ، ففعل وخلص الحب وحده ، والعيدان والعصف وحده ، فأوحى إليه : إنى لأجعل فى النار من العباد من لا خير فيه بمنزلة العيدان والشوك التى لا يصلح إلا للنار .

وهكذا الإنسان يترقى فى درجات الكمال درجة بعد درجة حتى يبلغ نهاية ما يناله أمثاله منها ، فكم بين حاله فى أول كونه نطفة ، وبين حاله والرب يسلم عليه فى داره وينظر إلى وجهه بكرة وعشيا . والنبى ﷺ فى أول أمره لما جاءه الملك فقال له : اقرأ فقال : « ما أنا بقارئ » (٢) وفى آخره أمره بقول الله له : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي** ﴾ [ المائدة : ٣ ] ، وبقوله له خاصة : ﴿ **وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)** ﴾ [ النساء ] .

وحكى أن جماعة من النصارى تحدثوا فيما بينهم ، فقال قائل منهم : ما أقل عقول المسلمين ، يزعمون أن نبيهم كان راعى الغنم ، فكيف يصلح راعى الغنم للنبوة ؟ فقال له آخر من بينهم : أما هم فو الله أعقل منا ، فإن الله بحكمته يسترعى النبى الحيوان البهيم ، فإذا أحسن رعايته والقيام عليه نقله منه إلى رعاية الحيوان الناطق ، حكمة من الله وتدريجا لعبده ، ولكن نحن جئنا إلى مولود خرج من امرأة يأكل ويشرب ويبول ويبكى فقلنا : هذا إلهنا الذى خلق السموات والأرض ، فأمسك القوم عنه .

فكيف يحسن بذى همة قد أزاح الله عنه علله ، وعرفه السعادة والشقاوة ، أن يرضى بأن يكون حيوانا وقد أمكنه أن يصير إنسانا ، وبأن يكون إنسانا وقد أمكنه أن يكون ملكا ، وبأن يكون ملكا وقد أمكنه أن يكون ملكا فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، فتقوم الملائكة فى خدمته ، وتدخل عليهم من كل باب ﴿ **سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)** ﴾ [ الرعد ] .

وهذا الكمال إنما ينال بالعلم ورعايته والقيام بموجبه ، فعاد الأمر إلى العلم وثمرته ، والله تعالى الموفق . وأعظم النقص وأشد الحسرة نقص القادر على التمام وحسرته على تفويته كما قال بعض السلف : إذا كثرت طرق الخير كان الخارج منها أشد حسرة ، وصدق

---

(١) هذا التقسيم جيد ، فالأول لقوله تعالى فى الآيه السابقة ، أما جعل الولاية درجة ، ثم العبادة والعمل دونها ، ففيه نظر لأن كل عامل عابد ولى من أولياء الله تعالى بشرط الإخلاص والتقوى ، وكذلك عموم المؤمنين لهم نصيب من الولاية كل بقدر وإخلاص وتقواه ، والله تعالى أعلم . وراجع ص (٢٦٣) .

(٢) البخارى (٣) فى بدء الوحى ، باب : (٣) .

القائل :

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

فثبت أنه لا شىء أقبح بالإنسان من أن يكون غافلا عن الفضائل الدينية والعلوم النافعة والأعمال الصالحة ، فمن كان كذلك فهو من الهمج الرعاع الذين يكدرون الماء ويغلون ، إن عاش عاش غير حميد ، وإن مات مات غير فقيد ، فقدهم راحة للبلاد والعباد ، ولا تبكى عليهم السماء ، ولا تستوحش له الغبراء .

**الوجه السابع والثمانون** : أن القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه ، إذا استحكما فيه كان هلاكه وموته ، وهما مرض الشهوات ومرض الشبهات ، هذان أصل داء الخلق إلا من عافاه الله ، وقد ذكر الله تعالى هذين المرضين فى كتابه .

أما مرض الشبهات ـ وهو أصعبها وأقتلهما للقلب ، ففى قوله فى حق المنافقين : ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا** ﴾ [ البقرة : ١٠ ] ، وقوله : ﴿ **وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً** ﴾ [ المدثر : ٣١ ] ، وقال تعالى : ﴿ **لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [ الحج : ٥٣ ] ، فهذه ثلاثة مواضع المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة .

وأما مرض الشهوة ، ففى قوله : ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ** ﴾ [ الأحزاب : ٣٢ ] أى لا تلن فى الكلام فيطمع الذى فى قلبه فجور وزناء . قالوا : والمرأة ينبغى لها إذا خاطبت الأجانب أن تغلظ كلامها وتقويه ، ولا تلينه وتكسره ،فإن ذلك أبعد من الريبة والطمع فيها وللقلب أمراض أخر من الرياء ، والكبر ، والعجب ، والحسد ، والفخر ، والخيلاء ، وحب الرياسة ، والعلو فى الأرض . وهذا المرض مركب من مرض الشبهة والشهوة ، فإنه لابد فيه من تخيل فاسد وإرادة باطلة ؛ كالعجب ، والفخر ، والخيلاء ، والكبر المركب من تخيل عظمته وفضله ، وإرادة تعظم الخلق له ومحمدتهم ، فلا يخرج مرضه عن شهوة أو شبهة أو مركب منهما .

وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل ودواؤها العلم ، كما قال النبى ﷺ فى حديث صاحب الشجة الذى أفتوه بالغسل فمات : « قتلوه قتلهم الله ، ألا سألوا إذ لم يعلموا إنما شفاء العى السؤال » (١) . فجعل العى ـ وهو عى القلب عن العلم ، واللسان عن النطق ـ

---

(١) أبو داود (٣٣٧) فى الطهارة ، باب : فى المجروح يتيمم ، وابن ماجه (٥٧٢) فى الطهارة وسننها ، باب : فى المجروح تصيبه الجنابة فيخاف على نفسه إن اغتسل ، وفى الزوائد : « إسناده منقطع » ، وحسنه الألبانى ، وأحمد (١ / ٣٣٠) : وقال العلامة أحمد شاكر (٣٠٥٧) : « إسناده صحيح » .

مرضا ، وشفاؤه سؤال العلماء . فأمراض القلوب أصعب من أمراض الأبدان ؛ لأن غاية مرض البدن أن يفضى بصاحبه إلى الموت . وأما مرض القلب فيفضى بصاحبه إلى الشقاء الأبدى ، ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم ؛ ولهذا سمى الله تعالى كتابه شفاء لأمراض الصدور ، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** (٥٧) ﴾ [ يونس ] ؛ ولهذا السبب نسبة العلماء إلى القلوب كنسبة الأطباء إلى الأبدان ، وما يقال للعلماء : أطباء القلوب ، فهو لقدر ما جامع بينهما ، وإلا فالأمر أعظم ، فإن كثيرا من الأمم يستغنون عن الأطباء ، ولا يوجد الأطباء إلا فى اليسير من البلاد وقد يعيش الرجل عمره أو برهة منه لا يحتاج إلى طبيب .

وأما العلماء بالله وأمره فهم حياة الموجود وروحه ، ولا يستغنى عنهم طرفة عين ، فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفس فى الهواء بل أعظم . وبالجملة ، فالعلم للقلب مثل الماء للسمك ، إذا فقده مات ، فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها، وكنسبة سمع الأذن، وكنسبة كلام اللسان إليه ، فإذا عدمه كان كالعين العمياء ، والأذن الصماء ، واللسان الأخرس ؛ ولهذا يصف ـ سبحانه ـ أهل الجهل بالعمى والصم والبكم ، وذلك صفة قلوبهم ، حيث فقدت العلم النافع فبقيت على عماها وصممها وبكمها ، قال تعالى : ﴿ **وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا** (٧٢) ﴾ [ الإسراء ] والمراد عمى القلب فى الدنيا . وقال تعالى : ﴿ **وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ** ﴾ [ الإسراء : ٩٧ ] لأنهم هكذا كانوا فى الدنيا ، والعبد يبعث على ما مات عليه .

واختلف فى هذا العمى فى الآخرة ، فقيل : هو عمى البصيرة ؛ بدليل إخباره تعالى عن رؤية الكفار مافى القيامة ، ورؤية الملائكة ، ورؤية النار . وقيل : هو عمى البصر ، ورجح هذا بأن الإطلاق ينصرف إليه ، وبقوله : ﴿ **قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا** (١٢٥) ﴾ [ طه ] وهذا عمى العين ، فإن الكافر لم يكن بصيرا بحجته . وأجاب هؤلاء عن رؤية الكفار فى القيامة : بأن الله يخرجهم من قبورهم إلى موقف القيامة بصراء ، ويحشرون من الموقف إلى النار عميا ، قاله الفراء وغيره .

**الوجه الثامن والثمانون** : أن الله ـ سبحانه ـ بحكمته سلط على العبد عدوا عالما بطرق هلاكه وأسباب الشر الذى يلقيه فيه ، متفننا فيها ، خبيرا بها حريصا عليها ، لا يفتر يقظة ولا مناما ، ولا بد له من واحدة من ست ينالها منه : أحدها ـ وهى غاية مراده منه : أن يحول بينه وبين العلم والإيمان فيلقيه فى الكفر ، فإذا ظفر بذلك فرغ منه واستراح ، فإن

فاتته هذه وهدى للإسلام حرص على تلو الكفر وهى البدعة ، وهى أحب إليه من المعصية، فإن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها ؛ لأن صاحبها يرى أنه على هدى . وفى بعض الآثار يقول إبليس : أهلكت بنى آدم بالذنوب ، وأهلكونى بالاستغفار وبلا إله إلا الله ، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء ؛ فهم يذنبون ولا يتوبون ؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . فإذا ظفر منه بهذه صيره من رعاته وأمرائه ، فإن أعجزته شغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليرتج عليه الذى بينهما وهى الخامسة ، فإن أعجزه ذلك صار إلى السادسة وهى : تسليط حزبه عليه ، يؤذونه ويشتمونه ويبهتونه ، ويرمونه بالعظائم ؛ ليحزنه ويشغل قلبه عن العلم والإرادة وسائر أعماله .

فكيف يمكن أن يحترز منه من لا علم له بهذه الأمور ، ولا بعدوه ، ولا بما يحصنه منه ، فإنه لا ينجو من عدوه إلا من عرفه وعرف طريقه التى يأتيه منها ، وجيشه الذى يستعين به عليه ، وعرف تداخله ومخارجه ، وكيفية محاربته ، وبأى شىء يحاربه ، وبماذا يداوى جراحته ، وبأى شىء يستمد القوة لقتاله ودفعه . وهذا كله لا يحصل إلا بالعلم ، فالجاهل فى غفلة وعمى عن هذا الأمر العظيم والخطب الجسيم ؛ ولهذا جاء ذكر العدو وشأنه وجنوده ومكايده فى القرآن كثيرا جدا ؛ لحاجة النفوس إلى معرفة عدوها ، وطرق محاربته ومجاهدته ، فلولا أن العلم يكشف عن هذا لما نجا من نجا منه ، فالعلم هو الذى تحصل به النجاة .

**الوجه التاسع والثمانون** : أن أعظم الأسباب التى يحرم بها العبد خير الدنيا والآخرة ، ولذة النعيم فى الدارين، ويدخل عليه عدو منها: هو الغفلة المضادة للعلم ، والكسل المضاد للإرادة والعزيمة، هذان أصل بلاء العبد وحرمانه منازل السعداء ، وهما من عدم العلم.

**أما الغفلة** : فمضادة للعلم منافية له ، وقد ذم ـ سبحانه ـ أهلها ، ونهى عن الكون منهم وعن طاعتهم والقبول منهم ، قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ** (٢٠٥) ﴾ [ الأعراف ] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا** ﴾ [ الكهف : ٢٨ ] وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** (١٧٩) ﴾ [ الأعراف]. وقال النبى ﷺ فى وصيته لنساء المؤمنين : « لا تغفلن فتنسين الرحمة » (١) . وسئل بعض العلماء عن عشق الصور ، فقال : قلوب غفلت عن ذكر الله ، فابتلاها الله بعبودية غيره فالقلب الغافل مأوى الشيطان ، فإنه وسواس خناس ، قد التقم قلب الغافل يقرأ عليه أنواع الوساوس

(١) الترمذى (٣٥٨٣) فى الدعوات ، باب : فى فضل التسبيح والتهليل والتقديس ، وقال : « غريب » ، وحسنه الألبانى ، وأحمد (٦ / ٣٧١) .

والخيالات الباطلة ، فإذا تذكر وذكر الله انجمع وانضم وخنس وتضاءل لذكر الله ،فهو دائما بين الوسوسة والخنس . وقال عروة بن رويم : إن المسيح ﷺ سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم فجلى له ، فإذا رأسه رأس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب ، فإذا ذكر العبد ربه خنس ، وإذا لم يذكر وضع رأسه على ثمرة قلبه ، فمناه وحدثه وقد روى فى هذا المعنى حديث مرفوع ، فهو دائما يترقب غفلة العبد ، فيبذر فى قلبه بذر الأمانى والشهوات والخيالات الباطلة ، فيثمر كل حنظل وكل شوك وكل بلاء ، ولا يزال يمده بسقيه حتى يغطى القلب ويعميه .

**وأما الكسل** : فيتولد عنه الإضاعة والتفريط والحرمان وأشد الندامة ، وهو مناف للإرادة والعزيمة التى هى ثمرة العلم، فإن من علم أن كماله ونعيمه فى شىء طلبه بجهده ، وعزم عليه بقلبه كله ، فإن كان أحد يسعى فى تكميل نفسه ولذته ، ولكن أكثرهم أخطأ الطريق ؛ لعدم علمه بما ينبغى أن يطلبه ، فالإرادة مسبوقة بالعلم والتصور ، فتخلفها فى الغالب إنما يكون لتخلف العلم والإدراك ، وإلا فمع العلم التام بأن سعادة العبد فى هذا المطلب ونجاته وفوزه كيف يلحقه كسل فى النهوض إليه ؛ ولهذا استعاذ النبى ﷺ من الكسل ، ففى الصحيح عنه أنه كان يقول :« اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، والعجز والكسل ، والجبن والبخل ،وضلع الدين وغلبة الرجال »(١) . فاستعاذ من ثمانية أشياء ، كل شيئين منها قرينان ،والفرق بينهما أن المكروه الوارد على القلب إما أن يكون على ما مضى أو لما يستقبل . فالأول هو الحزن والثانى الهم . وإن شئت قلت : الحزن على المكروه الذى فات ولا يتوقع دفعه ، والهم على المكروه المنتظر الذى يتوقع دفعه وتأمله .

والعجز والكسل قرينان ، فإن تخلف مصلحة العبد وكماله ولذته وسروره عنه إما أن يكون مصدره عدم القدرة فهو العجز ، أو يكون قادرا عليه لكن تخلف لعدم إرادته فهو الكسل ،وصاحبه يلام عليه مالا يلام على العجز ،وقد يكون العجز ثمرة الكسل فيلام عليه أيضا ، فكثيرا ما يكسل المرء عن الشىء الذى هو قادر عليه ، وتضعف عنه إرادته ، فيفضى به إلى العجز عنه ، وهذا هو العجز الذى يلوم الله عليه فى قول النبى ﷺ : « إن الله يلوم على العجز »(٢) وإلا فالعجز الذى لم تخلق له قدرة على دفعه ولا يدخل معجوزه تحت القدرة لا يلام عليه . قال بعض الحكماء فى وصيته : إياك والكسل والضجر ، فإن الكسل لا ينهض لمكرمة ، والضجر إذا نهض إليها لا يصبر عليها ، والضجر متولد عن

---

(١) البخارى (٦٣٦٣) فى الدعوات ، باب : التعوذ من غلبة الرجال .

(٢) أبو داود (٣٦٢٧) فى الأقضية ، باب : الرجل يحلف على حقه ، وضعفه الألبانى .

الكسل والعجز ، فلم يفرده فى الحديث بلفظ .

ثم ذكر الجبن والبخل ، فإن الإحسان المتوقع من العبد إما بماله وإما ببدنه ، فالبخيل مانع لنفع ماله ، والجبان مانع لنفع بدنه ، والمشهور عند الناس أن البخل مستلزم الجبن من غير عكس ؛ لأن من بخل بماله فهو بنفسه أبخل ، والشجاعة تستلزم الكرم من غير عكس لأن من جاد بنفسه فهو بماله أسمح وأجود وهذا الذى قالوه ليس بلازم أكثره ، فإن الشجاعة والكرم وأضدادها أخلاق وغرائز ، قد تجمع فى الرجل ، وقد يعطى بعضها دون بعض . وقد شاهد الناس من أهل الإقدام والشجاعة والبأس من هو أبخل الناس ، وهذا كثير ما يوجد فى أمة الترك ، يكون أشجع من ليث وأبخل من كلب ، فالرجل قد يسمح بنفسه ويضن بماله ؛ ولهذا يقاتل عليه حتى يقتل ، فيبدأ بنفسه دونه ، فمن الناس من يسمح بنفسه وماله ، ومنهم من يبخل بنفسه ، ومنهم من يسمح بماله ويبخل بنفسه ، وعكسه ، والأقسام الأربعة موجودة فى الناس .

ثم ذكر ضلع الدين وغلبة الرجال ، فإن القهر الذى ينال العبد نوعان : أحدهما : قهر بحق وهو ضلع الدين . والثانى : قهر بباطل وهو غلبة الرجال ، فصلوات الله وسلامه على من أوتى جوامع الكلم ، واقتبست كنوز العلم والحكمة من ألفاظه .

والمقصود أن الغفلة والكسل اللذين هما أصل الحرمان سببهما عدم العلم ، فعاد النقص كله إلى عدم العلم والعزيمة ، والكمال كله إلى العلم والعزيمة ، والناس فى هذا على أربعة أضرب :

**الضرب الأول** : من رزق علما وأعين على ذلك بقوة العزيمة على العمل ، وهذا الضرب خلاصة الخلق، وهم الموصوفون فى القرآن بقوله : ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [ العصر : ٣ ] ،وقوله : ﴿**أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ** (٤٥)﴾ [ ص ] ، وبقوله : ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [ الأنعام : ١٢٢ ] فبالحياة تنال العزيمة ، وبالنور ينال العلم ، وأئمة هذا الضرب هم أولو العزم من الرسل .

**الضرب الثانى** : من حرم هذا وهذا ، وهم الموصوفون بقوله : ﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ** (٢٢) ﴾ [ الأنفال ] ، وبقوله : ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** (٤٤) ﴾ [ الفرقان ] ، وبقوله : ﴿ **إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ** ﴾ [ النمل : ٨٠ ] ، وقوله : ﴿ **وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ** (٢٢) ﴾ [ فاطر ] وهذا الصنف شر البرية ، يضيقون الديار، ويغلون الأسعار ، وعند أنفسهم أنهم يعلمون

ولكن ظاهرا من الحياة الدنيا وهـم عن الآخـرة هم غافلون ، ويعلمون ولكن ما يضرهم ولا ينفعهم ،وينطقون ولكن عن الهوى ينطقون ويتكلمون ، ولكن بالجهل يتكلمون ويؤمنون ، ولكن بالجبت والطاغوت ، ويعبدون ولكن يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ،ويجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق ، ويتفكرون ويبيتون ولكن مالا يرضى من القول ، يبيتون ويدعون ولكن مع الله إلها آخر ، يدعون ويذكرون ولكن إذا ذكروا لايذكرون ، ويصلون ولكنهم من المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ، ويحكمون ولكن حكم الجاهلية يبغون ، ويكتبون ولكن يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كسبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون ، ويقولون : إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . فهذا الضرب ناس بالصورة وشياطين بالحقيقة ، وجلهم إذا فكرت لها حمير أو كلاب أو ذئاب ، وصدق البحترى فى قوله :

لم يبق من جل هذا الناس باقية ينالها الوهم إلا هذه الصور

وقال الآخر :

لا تخدعنك اللحاء والصور تسعة أعشار من ترى بقر

فى شجـر السدر منهم مثـل لها رواء وما لها ثمـــــر

وأحسن من هذا كله قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ** ﴾ [ المنافقون : ٤ ] عالمهم كما قيل فيه :

زوامل للأسفار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأبـــاعر

لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا بأوساقه أوراح مافى الغرائر

وأحسن من هذا وأبلغ وأوجز وأفصح قوله تعالى : ﴿ **كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥)** ﴾ [ الجمعة ] .

**الضرب الثالث** : من فتح له باب العلم وأغلق عنه باب العزم والعمل ، فهذا فى رتبة الجاهل أو شر منه . وفى الحديث المرفوع : « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » (١) . ثبته أبو نعيم وغيره ، فهذا جهله كان خيرا له وأخف لعذابه من علمه ، فما زاده العلم إلا وبالا وعذابا ، وهذا لا مطمع فى صلاحه ، فإن التائه عن الطريق يرجى

(١) انظر مجمع الزوائد للهيثمى (١ / ١٩٠) فى العلم ، باب : فيمن لم ينتفع بعلمه ، وقال : « رواه الطبرانى فى الصغير ، وفيه عثمان البرى ، قال الفلاس : صدوق لكنه كثير الغلط ، صاحب بدعة ، « ضعفه أحمد والنسائى والدارقطنى » .

له العود إليها إذا أبصرها ، فإذا عرفها وحاد عنها عمدا فمتى ترجى هدايته ، قال تعالى : ﴿ **كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴿٨٦﴾ ﴾ [ آل عمران ] .

**الضرب الرابع** : من رزق حظا من العزيمة والإرادة ولكن قل نصيبه من العلم والمعرفة ، فهذا إذا وفق له الاقتداء بداع من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** ﴿٦٩﴾ **ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا** ﴿٧٠﴾ ﴾ [ النساء ] رزقنا الله من فضله ، ولا أحرمنا بسوء أعمالنا ، إنه غفور رحيم .

**الوجه التسعون** : أن كل صفة مدح الله بها العبد فى القرآن فهى ثمرة العلم ونتيجته ، وكل ذم ذمه فهو ثمرة الجهل ونتيجته ، فمدحه بالإيمان وهو رأس العلم ولبه ، ومدحه بالعمل الصالح الذى هو ثمرة العلم النافع ،ومدحه بالشكر ، والصبر والمسارعة فى الخيرات ،والحب له ،والخوف منه ، والرجاء ،والإنابة ، والحلم ،والوقار ، واللب والعقل ، والعفة ، والكرم ، والإيثار على النفس ، والنصيحة لعباده ، والرحمة بهم ، والرأفة وخفض الجناح ، والعفو عن مسيئهم ، والصفح عن جانيهم ، وبذل الإحسان لكافتهم ، ودفع السيئة بالحسنة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والصبر فى مواطن الصبر ، والرضا بالقضاء ، واللين للأولياء ، والشدة على الأعداء ، والصدق فى الوعد ، والوفاء بالعهد ، والإعراض عن الجاهلين ، والقبول من الناصحين ، واليقين ،والتوكل ، والطمأنينة ، والسكينة ، والتواصل والتعاطف ، والعدل فى الأقوال والأفعال ، والأخلاق ، والقوة فى أمره ، والبصيرة فى دينه ، والقيام بأداء حقه واستخراجه من المانعين له ، والدعوة إليه وإلى مرضاته وجنته ، والتحذير عن سبيل أهل الضلال ، وتبيين طرق الغى وحال سالكيها ، والتواصى بالحق والتواصى بالصبر ، والحض على طعام المسكين ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وبذل السلام لكافة المؤمنين ، إلى سائر الأخلاق المحمودة والأفعال المرضية التى أقسم الله ـ سبحانه ـ على عظمها ، فقال تعالى : ﴿ **نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴿١﴾ **مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ** ﴿٢﴾ **وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ** ﴿٣﴾ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴿٤﴾ ﴾ [ القلم ] . قالت عائشة رضي الله عنها ـ وقد سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : كان خلقه القرآن (١) ، فاكتفى بذلك السائل وقال : فهمت أن أقوم ولا أسأل عن شىء بعدها ، فهذه الأخلاق ونحوها هى ثمرة شجرة العلم .

---

(١) مسلم (٧٤٦ / ١٣٩) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : جامع صلاة الليل ، ومن نام عنه أو مرض .

وأما شجرة الجهل فتثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر ، والفساد ، والشرك ، والظلم ، والبغى ، والعدوان ، والجزع ، والهلع ، والكنود ، والعجلة ، والطيش ، والحدة ، والفحش ، والبذاء ، والشح ، والبخل ؛ ولهذا قيل فى حد البخل : جهل مقرون بسوء الظن . ومن ثمرته : الغش للخلق ، والكبر عليهم ، والفخر ، والخيلاء ، والعجب ، والرياء ، والسمعة ، والنفاق ، والكذب ، وإخلاف الوعد ، والغلظة على الناس ، والانتقام ، ومقابلة الحسنة بالسيئة ، والأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، وترك القبول من النصاحين ، وحب غير الله ورجائه ، والتوكل عليه ، وإيثار رضاه على رضا الله ، وتقديم أمره على أمر الله ، والتماوت عند حق الله ، والوثوق بما عند حق نفسه ، والغضب لها ، والانتصار لها ، فإذا انتهكت حقوق نفسه لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم بأكثر من حقه ، وإذا انتهكت محارم الله لم ينبض له عرق غضبا لله ، فلا قوة فى أمره ، ولا بصيرة فى دينه . ومن ثمرتها : الدعوة إلى سبيل الشيطان وإلى سلوك طرق البغى ، واتباع الهوى ، وإيثار الشهوات على الطاعات ، وقيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، ووأد البنات ، وعقوق الأمهات ، وقطيعة الأرحام ، وإساءة الجوار ، وركوب مركب الخزى والعار .

وبالجملة ، فالخير بمجموعه ثمر يجتنى من شجرة العلم ، والشر بمجموعه شوك يجتنى من شجرة الجهل ، فلو ظهرت صورة العلم للأبصار لزاد حسنها على صورة الشمس والقمر ، ولو ظهرت صورة الجهل لكان منظرها أقبح منظر ، بل كل خير فى العالم فهو من آثار العلم الذى جاءت به الرسل ومسبب عنه ، وكذلك كل خير يكون إلى قيام الساعة وبعدها فى القيامة . وكل شر وفساد حصل فى العالم ويحصل إلى قيام الساعة وبعدها فى القيامة ، فسببه مخالفة ما جاءت به الرسل فى العلم والعمل ، ولو لم يكن للعلم أب ومرب وسائس ووزير إلا العقل الذى به عمارة الدارين ، وهو الذى أرشد إلى طاعة الرسل ، وسلم القلب والجوارح ونفسه إليهم ، وانقاد لحكمه وعزل نفسه ، وسلم الأمر إلى أهله ، لكفى به شرفا وفضلا . وقد مدح الله ـ سبحانه ـ العقل وأهله فى كتابه فى مواضع كثيرة منه ، وذم من لا عقل له ، وأخبر أنهم أهل النار الذين لا سمع لهم ولا عقل ، فهو آلة كل علم ، وميزانه الذى به يعرف صحيحه من سقيمه ، وراجحه من مرجوحه ، والمرآة التى يعرف بها الحسن من القبيح .

قد قيل : العقل ملك ، والبدن روحه وحواسه ، وحركاته كلها رعية له . فإذا ضعف عن القيام عليها وتعهدها وصل الخلل إليها كلها . ولهذا قيل : من لم يكن عقله أغلب

خصال الخير عليه ، كان حتفه فى أغلب خصال الشر عليه . وروى أنه لما هبط آدم من الجنة أتاه جبريل ، فقال : إن الله أحضرك العقل والدين والحياء لتختار واحدا منها ، فقال : أخذت العقل ، فقال الدين والحياء : أمرنا ألا نفارق العقل حيث كان ، فانحاز إليه والعقل عقلان : عقل غريزة ، وهو أب العلم ومربيه ومثمره . وعقل مكتسب مستفاد ، وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته ، فإذا اجتمعا فى العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، واستقام له أمره ، وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب . وإذا فقد أحدهما فالحيوان البهيم أحسن حالا منه ، وإذا انفرد انتقص الرجل بنقصان أحدهما ، ومن الناس من يرجح صاحب العقل الغريزى ، ومنهم من يرجح صاحب العقل المكتسب .

والتحقيق : أن صاحب العقل الغريزى الذى لا علم ولا تجربة عنده ، آفته التى يؤتى منها الإحجام ، وترك انتهاز الفرصة ؛ لأن عقله يعقله عن انتهاز الفرصة لعدم علمه بها وصاحب العقل المكتسب يؤتى من الإقدام ، فإن علمه بالفرص وطرقها يلقيه على المبادرة إليها ، وعقله الغريزى لا يطيق رده عنه ، فهو غالبا يؤتى من إقدامه والأول من إحجامه ، فإذا رزق العقل الغريزى عقلا إيمانيا مستفادا من مشكاة النبوة لا عقلا معيشيا نفاقيا ، يظن أربابه أنهم على شيء ، ألا إنهم هم الكاذبون ، فإنهم يرون العقل أن يرضوا الناس على طبقاتهم ، ويسالموهم ويستجلبوا مودتهم ومحبتهم ، وهذا مع أنه لا سبيل إليه فهو إيثار للراحة والدعة ومؤونة الأذى فى الله والموالاة فيه والمعاداة فيه ، وهو وإن كان أسلم عاجلة فهو الهلك فى الآجلة ، فإنه ماذاق طعم الإيمان من لم يوال فى الله ويعاد فيه ، فالعقل كل العقل ما أوصل إلى رضا الله ورسوله ، والله الموفق المعين .

وفى حديث مرفوع ذكره ابن عبد البر وغيره : « أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل : قل لفلان العابد : أما زهدك فى الدنيا فقد تعجلت به الراحة ، وأما انقطاعك إلى فقد اكتسبت به العز ، فما عملت فيما لى عليك ؟ قال : وما لك على ؟ قال : هل واليت فى وليا ؟ أو عاديت فى عدوا ؟ » (١) وذكر أيضا : « أنه أوحى الله إلى جبريل أن اخسف بقرية كذا وكذا ، قال : يارب ، إن فيهم فلانا العابد ، قال : به فابدأ ، إنه لم يتمعر وجهه فى يوما قط » .

**الوجه الحادى والتسعون** : حديث ابن عمر عن النبى ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » ، قالوا : يا رسول الله ، وما رياض الجنة ؟ قال : « حلق الذكر ، فإن لله

(١) التمهيد لابن عبد البر (١٦ / ٤١ ، ٤٢) .

سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر ، فإذا أتوا عليهم صفوا بهم » (١) . قال عطاء : مجالس الذكر مجالس الحلال والحرام ، كيف يشترى ويبيع ، ويصوم ويصلى ويتصدق ، وينكح ويطلق ، ويحج . ذكره الخطيب فى كتاب ( الفقيه والمتفقه ) .

**الوجه الثانى والتسعون** : ما رواه الخطيب أيضا عن ابن عمر يرفعه : « مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة » (٢) ، وفى رفعه نظر .

**الوجه الثالث والتسعون** : ما رواه أيضا من حديث عبد الرحمن بن عوف يرفعه : « يسير الفقه خير من كثير من العبادة » (٣) ، ولا يثبت رفعه .

**الوجه الرابع والتسعون** : ما رواه أيضا من حديث أنس يرفعه : « فقيه أفضل عند الله من ألف عابد » (٤) . وهو فى الترمذى من حديث روح ابن جناح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا (٥)، وفى ثبوتهما مرفوعين نظر ، والظاهر أن هذا من كلام الصحابة فمن دونهم .

**الوجه الخامس والتسعون** : ما رواه أيضا عن ابن عمر يرفعه : « أفضل العبادة الفقه » (٦).

**الوجه السادس والتسعون** : ما رواه أيضا من حديث نافع عن ابن عمر يرفعه : « ما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى دين » (٧) .

**الوجه السابع والتسعون** : ما رواه عن على أنه قال : العالم أعظم أجرا من الصائم القائم الغازى فى سبيل الله .

**الوجه الثامن والتسعون** : ما رواه المخلص عن صاعد: حدثنا القاسم بن الفضيل بن بزيع ،حدثنا حجاج بن نصير ،حدثنا هلال بن عبد الرحمن الجعفى ،عن عطاء بن أبى ميمونة ، عن أبى هريرة وأبى ذر أنهما قالا :باب من العلم يتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعا ،وباب من العلم نعلمه عمل به أو لم يعمل ، أحب إلينا من مائة ركعة تطوعا . وقالا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول : « إذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال

(١) الترمذى (٣٥١٠) فى الدعوات ، باب:(٨٣) ، وقال:« حسن غريب » ،وحسنه الألبانى، وأحمد (٣/ ١٥٠) .
(٢) انظر الفقيه والمتفقه للخطيب (١ / ١٤) ، وتنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة (١ / ٢٧٨) .
(٣) الفقيه والمتفقه للخطيب (١ / ١٤ ، ١٥) .
(٤) الفقيه والمتفقه للخطيب (١ / ١٨) .
(٥) الترمذى (٢٦٨١) فى العلم ، باب : ماجاء فى فضل الفقه على العباد ، وقال : « غريب » ، وقال الألبانى : « موضوع » .
(٦ ، ٧) الفقيه والمتفقه للخطيب (١ / ٢١) .

مات شهيدا » (١) . ورواه ابن أبى داود عن شاذان عن حجاج به . قلت : وشاهده مامر من حديث الترمذى عن أنس يرفعه : « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » (٢) .

**الوجه التاسع والتسعون** : ما رواه الخطيب أيضا عن أبى هريرة قال : لأن أعلم باب من العلم فى أمر أو نهى ، أحب إلى من سبعين غزوة فى سبيل الله . وهذا إن صح فمعناه : أحب إلى من سبعين غزوة بلا علم ؛ لأن العمل بلا علم فساد أكثر من صلاحه ، أو يريد علما يتعلمه ويعلمه ، فيكون له أجر من عمل به إلى يوم القيامة ، وهذا لا يحصل فى الغزو المجرد .

**الوجه المائة** : ما رواه الخطيب أيضا عن أبى الدرداء : أنه قال : مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة .

**الوجه الحادى والمائة** : ما رواه عن الحسن قال : لأن أتعلم باب من العلم فأعلمه مسلما ، أحب إلى من أن يكون لى الدنيا فى سبيل الله .

**الوجه الثانى والمائة** : قال مكحول : ما عبد الله بأفضل من الفقه .

**الوجه الثالث والمائة** : قال سعيد بن المسيب : ليست عبادة الله بالصوم والصلاة ، ولكن بالفقه فى دينه . وهذا الكلام يراد به أمران : أحدهما : أنها ليست بالصوم والصلاة الخالیین عن العلم ، ولكن بالفقه الذى يعلم به كيف الصوم والصلاة . والثانى : أنها ليست الصوم والصلاة فقط بل الفقه فى دينه من أعظم عباداته .

**الوجه الرابع والمائة** : قال إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة : أقرب الناس من درجة النبوة العلماء وأهل الجهاد ، والعلماء دلوا الناس على ما جاءت به الرسل . وقد تقدم الكلام فى تفضيل العالم على الشهيد وعكسه .

**الوجه الخامس والمائة** : قال سفيان بن عيينة : أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده ، وهم الرسل والعلماء .

**الوجه السادس والمائة** : قال محمد بن شهاب الزهرى : ما عبد الله بمثل الفقه . وهذا الكلام ونحوه يراد به : أنه ما يعبد الله بمثل أن يتعبد بالفقه فى الدين ، فيكون نفس التفقه عبادة . كما قال معاذ بن جبل : عليكم بالعلم ، فإن طلبه لله عبادة ، وسيأتى إن شاء الله ذكر كلامه بتمامه . وقد يراد به أنه ما عبد الله بعبادة أفضل من عبادة يصحبها الفقه فى

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب (١ / ١٦)، وهو ضعيف كشاهده .

(٢) الترمذى (٢٦٤٧) فى العلم ، باب : فضل طلب العلم ، وقال : « حسن غريب » ، وضعفه الألبانى .

الدين ؛ لعلم الفقيه فى دينه بمراتب العبادات ومفسداتها وواجباتها وسننها وما يكملها وما ينقصها ، وكلا المعنيين صحيح .

**الوجه السابع والمائة** : قال سهل بن عبد الله التسترى : من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء . وهذا لأن العلماء خلفاء الرسل فى أممهم ووارثوهم فى علمهم ، فمجالسهم مجالس خلافة النبوة .

**الوجه الثامن والمائة** : أن كثيرا من الأئمة صرحوا بأن أفضل الأعمال بعد الفرائض طلب العلم . فقال الشافعى: ليس شىء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم ،وهذا الذى ذكر أصحابه عنه أنه مذهبه ،وكذلك قال سفيان الثورى وحكاه الحنفية عن أبى حنيفة .

وأما الإمام أحمد فحكى عنه ثلاث روايات : إحداهن : أنه العلم ، فإنه قيل له : أى شىء أحب إليك أجلس بالليل أنسخ أو أصلى تطوعا ؟ قال : نسخك تعلم به أمور دينك فهو أحب إلى . وذكر الخلال عنه فى كتاب العلم نصوصا كثيرة فى تفضيل العلم ، ومن كلامه فيه: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب ، وقد تقدم . والرواية الثانية: أن أفضل الأعمال بعد الفرائض صلاة التطوع ، واحتج لهذه الرواية بقوله ﷺ : «واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة » (١) ، وبقوله فى حديث أبى ذر وقد سأله عن الصلاة فقال :« خير موضوع » (٢) ،وبأنه أوصى من سأله موافقته فى الجنة بكثرة السجود وهو الصلاة (٣) ،وكذلك قوله فى الحديث الآخر : « عليك بكثرة السجود ، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ،وحط عنك بها خطيئة » (٤) ،وبالأحاديث الدالة على تفضيل الصلاة . والرواية الثالثة : أنه الجهاد ، فإنه قال : لا أعدل بالجهاد شيئا ، ومن ذا يطيقه ؟ ولا ريب أن أكثر الأحاديث فى الصلاة والجهاد .

وأما مالك ، فقال ابن القاسم : سمعت مالكا يقول : إن أقواما ابتغوا العبادة وأضاعوا العلم ، فخرجوا على أمة محمد ﷺ بأسيافهم ، ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك . قال مالك : وكتب أبو موسى الأشعرى إلى عمر بن الخطاب : أنه قرأ القرآن عندنا

---

(١) ابن ماجه (٢٧٩) فى الطهارة ، باب : المحافظة على الوضوء ، وفى الزوائد : « إسناده ضعيف لضعف التابع » ، ومالك فى الموطأ (١ / ٣٤) (٣٦) فى الطهارة ، باب : جامع الوضوء ، وضعفه الألبانى .

(٢) أحمد (٥ / ١٧٨ ، ١٧٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ١٦٤ ، ١٦٥) فى العلم ، باب السؤال للانتفاع وإن كثر : « فيه المسعودى وهو ثقة ولكنه اختلط » ، والحاكم فى المستدرك (٢ / ٥٩٧) فى التاريخ ، وقال الذهبى : « السعدى ليس بثقة » ، وسكت عنه الحاكم .

(٣) مسلم (٤٨٩ / ٢٢٦) فى الصلاة ، باب : فضل السجود والحث عليه .

(٤) مسلم (٤٨٨ / ٢٢٥) فى الصلاة ، باب : فضل السجود والحث عليه .

عدد كذا وكذا . فكتب إليه عمر : أن أفرض لهم من بيت المال ، فلما كان فى العام الثانى كتب إليه : أنه قد قرأ القرآن عندنا عدد كثير لأكثر من ذلك . فكتب إليه عمر : أن امحهم من الديوان ، فإنى أخاف من أن يسرع الناس فى القرآن أن يتفقهوا فى الدين فيتأولوه على غير تأويله . وقال ابن وهب كنت بين يدى مالك بن أنس ، فوضعت ألواحى وقمت إلى الصلاة ، فقال : ما الذى قمت إليه بأفضل من الذى تركته .

قال شيخنا وهذه الأمور الثلاثة التى فضل كل واحد من الأئمة بعضها وهى الصلاة والعلم والجهاد ، هى التى قال فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لولا ثلاث فى الدنيا لما أحببت البقاء فيها : لولا أن أحمل أو أجهز جيشا فى سبيل الله ، ولولا مكابدة هذا الليل ، ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب التمر لما أحببت البقاء . فالأول : الجهاد ، والثانى : قيام الليل ، والثالث : مذاكرة العلم ، فاجتمعت فى الصحابة بكمالهم وتفرقت فيمن بعدهم .

**الوجه التاسع والمائة** : ما ذكره أبو نعيم وغيره عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ : أنه قال : « فضل العلم خير من نفل العمل ، وخير دينكم الورع » (١) وقد روى هذا مرفوعا من حديث عائشة رضي الله عنها . وفى رفعه نظر ، وهذا الكلام هو فصل الخطاب فى هذه المسألة ، فإنه إذا كان كل من العلم والعمل فرضا فلابد منهما كالصوم والصلاة ، فإذا كانا فضلين ـ وهما النفلان المتطوع بهما ـ ففضل العلم ونفله خير من فضل العبادة ونفلها ؛ لأن العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه ، والعبادة يختص نفعها بصاحبها ؛ ولأن العلم تبقى فائدته وعلمه بعد موته ، والعبادة تنقطع عنه ، ولما مر من الوجوه السابقة .

**الوجه العاشر بعد المائة** : ما رواه الخطيب وأبو نعيم وغيرهما عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يحسنه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، به يعرف الله ويعبد ، وبه يوحد ،وبه يعرف الحلال من الحرام ، وتوصل الأرحام ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على السراء ، والمعين على الضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواما ، فيجعلهم فى الخير قادة وسادة ، يقتدى بهم أدلة فى الخير ، تقتص آثارهم ، وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة فى

---

(١) الحاكم فى المستدرك (١ / ٩٣) ، ومجمع الزوائد للهيثمى (١ / ١٢٥) فى العلم ، باب : فضل العلم ، وقال: « رواه الطبرانى فى الأوسط والبزار ، وفيه عبد الله بن عبد القدوس وثقه البخارى وابن حبان ، وضعفه ابن معين » ، وقال ابن الجوزى فى العلل المتناهية رقم (٧٦) : « هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ » .

خلتهم ، وبأجنحتهم تمسحهم ، يستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ، والعلم حياة القلوب من العمى ، ونور للأبصار من الظلم ، وقوة للأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ، التفكر فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، وهو إمام للعمل والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء . هذا الأثر معروف عن معاذ ، ورواه أبو نعيم فى المعجم من حديث معاذ مرفوعا إلى النبى ﷺ ولا يثبت ، وحسبه أن يصل إلى معاذ .

**الوجه الحادى عشر بعد المائة** : ما رواه يونس بن عبد الأعلى عن ابن أبى فديك : حدثنى عمرو بن كثير ، عن أبى العلاء ، عن الحسن ، عن رسول الله ﷺ قال : « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام فبينه وبين الأنبياء فى الجنة درجة النبوة » (١) . وقد روى من حديث على بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ . وهذا وإن كان لا يثبت إسناده فلا يبعد معناه من الصحة ، فإن أفضل الدرجات النبوة ، وبعدها الصديقية ، وبعدها الشهادة ، وبعدها الصلاح . وهذه الدرجات الأربع التى ذكرها الله تعالى فى كتابه فى قوله : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩)** ﴾ [ النساء ] ، فمن طلب العلم ليحيى به الإسلام فهو من الصديقين ، ودرجته بعد درجة النبوة .

**الوجه الثانى عشر بعد المائة** : قال الحسن فى قوله تعالى : ﴿ **رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً** ﴾ هى العلم والعبادة ﴿ **وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً** ﴾ [ البقرة : ٢٠١ ] هى الجنة ، وهذا من أحسن التفسير ، فإن أجل حسنات الدنيا العلم النافع والعمل الصالح .

**الوجه الثالث عشر بعد المائة** : قال ابن مسعود : عليكم بالعلم قبل أن يرفع ، ورفعه هلاك العلماء ، فوالذى نفسى بيده ليودن رجال قتلوا فى سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء ؛ لما يرون من كرامتهم ، وإن أحدا لم يولد عالما ، وإنما العلم بالتعلم .

**الوجه الرابع عشر بعد المائة** : قال ابن عباس وأبو هريرة وبعدهما أحمد بن حنبل : تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلينا من إحيائها .

**الوجه الخامس عشر بعد المائة** : قال عمر رضي الله عنه : أيها الناس ، عليكم بالعلم ، فإن لله ـ سبحانه ـ رداء يحبه ، فمن طلب بابا من العلم رداه الله بردائه، فإن أذنب ذنبا استعتبه لئلا يسلبه رداءه ذلك حتى يموت به . قلت : ومعنى استعتاب الله عبده : أن يطلب منه أن يعتبه ، أى يزيل عتبه عليه بالتوبة والاستغفار والإنابة ، فإذا أناب إليه رفع عنه عتبه فيكون

(١) الدارمى (١ / ١٠٠) فى العلم ، باب : فضل العلم والعالم .

قد أعتب ربه ، أى أزال عتبه عليه ، والرب تعالى قد استعتبه ؛ أى طلب منه أن يعتبه . ومن هذا قول ابن مسعود ـ وقد وقعت زلزلة بالكوفة : إن ربكم يستعتبكم فاعتبوه . وهذا هو الاستعتاب الذى نفاه ـ سبحانه ـ فى الآخرة فى قوله : ﴿ **فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** (٣٥) ﴾ [ الجاثية ] أى لا نطلب منهم إزالة عتبنا عليهم ، فإن إزالته إنما تكون بالتوبة وهى لا تنفع فى الآخرة ، وهذا غير استعتاب العبودية كما فى قوله تعالى : ﴿ **فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ** (٢٤) ﴾ [ فصلت ] فهذا معناه : أن يطلبوا إزالة عتبنا عليهم والعفو ﴿ **فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ** ﴾ أى ماهم ممن يزال العتب عليهم ، وهذا الاستعتاب ينفع فى الدنيا دون الآخرة .

**الوجه السادس عشر بعد المائة :** قال عمر رضي الله عنه : موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه . ووجه قول عمر : أن هذا العالم يهدم على إبليس كل ما يبنيه بعلمه وإرشاده ، وأما العابد فنفعه مقصور على نفسه .

**الوجه السابع عشر بعد المائة :** قول بعض السلف : إذا أتى علىَّ يوم لاأزداد فيه علما يقربنى إلى الله ، فلا بورك لى فى شمس ذلك اليوم . وقد رفع هذا إلى رسول الله ﷺ ، ورفعه إليه باطل ، وحسبه أن يصل إلى واحد من الصحابة أو التابعين . وفى مثله قال القائل : إذا مر بى يوم ولم أستفد هدى ولم أكتسب علما فما ذلك من عمرى .

**الوجه الثامن عشر بعد المائة :** قال بعض السلف: الإيمان عريان ، ولباسه التقوى ، وزينته الحياء ، وثمرته العلم . وقد رفع هذا أيضا ،ورفعه باطل .

**الوجه التاسع عشر بعد المائة :** إنه فى بعض الآثار : بين العالم والعابد مائة درجة ، بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة . وقد رفع هذا أيضا ، وفى رفعه نظر .

**الوجه العشرون بعد المائة :** ما رواه حرب فى مسائله مرفوعا إلى النبى ﷺ : « يجمع الله تعالى العلماء يوم القيامة ، ثم يقول : يا معشر العلماء ، إنى لم أضع علمى فيكم إلا لعلمى بكم ، ولم أضع علمى فيكم لأعذبكم ، اذهبوا فقد غفرت لكم » [١] . وهذا وإن كان غريبا فله شواهد حسان .

**الوجه الحادى والعشرون بعد المائة :** قول ابن المبارك ـ وقد سئل : من الناس ؟ قال :

---

(١) انظر : الدر المنثور (١ / ٣٥٠) وعزاه للطبرانى ، والترغيب والترهيب للمنذرى (١ / ١٠١) وعزاه للطبرانى فى الكبير وقال : « رواته ثقات » .

العلماء . قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد . قيل : فمن السفلة ؟ قال : الذى يأكل بدينه .

**الوجه الثانى والعشرون بعد المائة :** أن من أدرك العلم لم يضره مافاته بعد إدراكه ، إذ هو أفضل الحظوظ والعطايا ، ومن فاته العلم لم ينفعه ما حصل له من الحظوظ ، بل يكون وبالا عليه وسببا لهلاكه . وفى هذا قال بعض السلف : أى شىء أدرك من فاته العلم وأى شىء فاته من أدرك العلم ! .

**الوجه الثالث والعشرون بعد المائة :** قال بعض العارفين : أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت ؟ قالوا : بلى ، قالوا : فكذلك القلب إذا منع عنه العلم والحكمة ثلاثة أيام يموت . وصدق ، فإن العلم طعام القلب وشرابه ودواؤه ، وحياته موقوفة على ذلك ، فإذا فقد القلب العلم فهو موت ولكن لا يشعر بموته ، كما أن السكران الذى قد زال عقله ، والخائف الذى قد انتهى خوفه إلى غايته ، والمحب والمفكر قد يبطل إحساسهم بألم الجراحات فى تلك الحال ، فإذا صحوا وعادوا إلى حال الاعتدال أدركوا آلامها ، وهكذا العبد ، إذا حط عنه الموت أحمال الدنيا وشواغلها اختص بهلاكه وخسرانه .

فحتام لا تصحو وقد قرب المـــدى ... وحتام لا ينجاب عن قلبك السكر

بل سوف تصحـو حين ينكشف الغطا ... وتذكر قولى حين لا ينفع الذكــر

فإذا كشف الغطاء ، وبرح الخفاء ، وبليت السرائر ، وبدت الضمائر ، وبعثر مافى القبور ، وحصل مافى الصدور ، فحينئذ يكون الجهل ظلمة على الجاهلين ، والعلم حسرة على الباطلين .

**الوجه الرابع والعشرون بعد المائة :** قال أبو الدرداء : من رأى أن الغدو إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص فى رأيه وعقله . وشاهد هذا قول معاذ ، وقد تقدم .

**الوجه الخامس والعشرون بعد المائة :** قول أبى الدرداء أيضا : لأن أتعلم مسألة أحب إلى من قيام ليلة .

**الوجه السادس والعشرون بعد المائة :** قوله أيضا : العالم والمتعلم شريكان فى الأجر ، وسائر الناس همج لا خير فيهم .

**الوجه السابع والعشرون بعد المائة :** ما رواه أبو حاتم بن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيرا أو ليعلمه كان كالمجاهد فى سبيل الله ، ومن دخل لغير ذلك كان كالناظر إلى ما ليس له »[1] .

---

(١) ابن حبان (٨٧) فى العلم ، باب : ذكر التسوية بين طالب العلم ومعلمه وبين المجاهد فى سبيل الله .

**الوجه الثامن والعشرون بعد المائة** : ما رواه أيضا فى صحيحه من حديث الثلاثة الذين انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو جالس فى حلقة ، فأعرض أحدهم ، واستحى الآخر فجلس خلفهم ، وجلس الثالث فى فرجة فى الحلقة ، فقال النبى ﷺ : « أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه » (١) . فلو لم يكن لطالب العلم إلا أن الله يؤويه إليه ولا يعرض عنه لكفى به فضلا .

**الوجه التاسع والعشرون بعد المائة** : ما رواه كميل بن زياد النخعى قال : أخذ على ابن أبى طالب رضي الله عنه بيدى فأخرجنى ناحية الجبانة ، فلما أصحر جعل يتنفس ، ثم قال : يا كميل بن زياد،القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها ، احفظ عنى ما أقول لك ، الناس ثلاثة : فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ،ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق . العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم يزكو على الإنفاق وفى رواية :على العمل ـ والمال تنقصه النفقة ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، ومحبة العلم دين يدان بها ، العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، وصنيعة المال تزول بزواله مات خزان الأموال وهم أحياء ،والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة . هاه هاه إن ههنا علما ـ وأشار بيده إلى صدره ـ لو أصبت له حملة بل أصبته لقنا غير مأمون عليه يستعمل آلة الدين للدنيا يستظهر حجج الله على كتابه وبنعمه على عباده ، أو منقادا لأهل الحق لا بصيرة له فى أحنائه ، ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة لا ذا ولا ذاك ، أو منهوما للذات سلس القياد للشهوات ، أو مغرى بجمع الأموال والادخار ليسا من دعاة الدين ، أقرب شبها بهم الأنعام السائمة ؛ لذلك يموت العلم بموت حامليه . اللهم بك لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته لكيلا تبطل حجج الله وبيناته ، أولئك الأقلون عددا ، الأعظمون عند الله قيلا ، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم ، ويزرعوها فى قلب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعر منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى ، أولئك خلفاء الله فى أرضه ودعاته إلى دينه . هاه هاه ، شوقا إلى رؤيتهم ، وأستغفر الله لى ولك ، إذا شئت فقم . ذكره أبو نعيم فى الحلية وغيره .

---

(١) ابن حبان (٨٦) فى العلم ، باب : ذكر أمان الله جل وعلا من آوى إلى مجلس علم ونيته فيه صحيحة .

قال أبو بكر الخطيب : هذا حديث حسن من أحسن الأحاديث معنى ،وأشرفها لفظا ، وتقسيم أمير المؤمنين للناس فى أوله تقسيم فى غاية الصحة ونهاية السداد ؛ لأن الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام التى ذكرها مع كمال العقل وإزاحة العلل ؛ إما أن يكون عالما أو متعلما أو مغفلا للعلم ، وطلبه ليس بعالم ولا طالب له ، فالعالم الربانى هو الذى لا زيادة على فضله لفاضل ، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد ، وقد دخل فى الوصف له بأنه ربانى وصفه بالصفات التى يقتضيها العلم لأهله ويمنع وصفه بما خالفها . ومعنى الربانى فى اللغة : الرفيع الدرجة فى العلم ، العالى المنزلة فيه . وعلى ذلك حملوا قوله تعالى : ﴿ **لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ** ﴾ [ المائدة : ٦٣ ] ، وقوله : ﴿ **كُونُوا رَبَّانِيِّينَ** ﴾ [ آل عمران : ٧٩ ] . قال ابن عباس : حكماء فقهاء . وقال أبو رزين : فقهاء علماء . وقال أبو عمر الزاهد : سألت ثعلبا عن هذا الحرف ، وهو الربانى، فقال : سألت ابن الأعرابى : فقال : إذا كان الرجل عالما عاملا معلما قيل له : هذا ربانى ، فإن خرم عن خصلة منها لم نقل له ربانى .

قال ابن الأنبارى عن النحويين : إن الربانيين منسوبون إلى الرب ، وأن الألف والنون زيدتا للمبالغة فى النسب كما تقول : لحيانى وجبهانى ؛ إذا كان عظيم اللحية والجبهة . وأما المتعلم على سبيل النجاة فهو الطالب بتعلمه ، والقاصد به نجاته من التفريط فى تضييع الفروض الواجبة عليه ، والرغبة بنفسه عن إهمالها وإطراحها ، والأنفة من مجالسة البهائم . ثم قال: وقد نفى بعض المتقدمين عن الناس من لم يكن من أهل العلم . وأما القسم الثالث : فهم المهملون لأنفسهم الراضون بالمنزلة الدنية والحال الخسيسة ، التى هى فى الحضيض الأسقط والهبوط الأسفل ، التى لا منزلة بعدها فى الجهل ولا دونها فى السقوط . وما أحسن ما شبههم بالهمج الرعاع ، وبه يشبه دناة الناس وأراذلهم والرعاع المتبدد المتفرق وللناعق الصائح ، وهو فى هذا الموضع الراعى ، يقال : نعق الراعى بالغنم ينعق إذا صاح بها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١)** ﴾ [ البقرة ] .

ونحن نشير إلى بعض مافى هذا الحديث من الفوائد :

فقوله ﷺ :القلوب أوعية : يشبه القلب بالوعاء والإناء والوادى ؛ لأنه وعاء للخير والشر . وفى بعض الآثار : إن لله فى أرضه آنية وهى القلوب، فخيرها أرقها وأصلبها وأصفاها ، فهى أوانى مملوءة من الخير وأوانى مملوءة من الشر ،كما قال بعض السلف : قلوب الأبرار تغلى بالبر ، وقلوب الفجار تغلى بالفجور . وفى مثل هذا قيل فى المثل : وكل إناء بالذى فيه ينضح . وقال تعالى : ﴿ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا** ﴾ [ الرعد: ١٧]،

شبه العلم بالماء النازل من السماء والقلوب فى سعتها وضيقها بالأودية ، فقلب كبير واسع يسع علما كثيرا كواد كبير واسع يسع ماء كثيرا ، وقلب صغير ضيق يسع علما قليلا كواد صغير ضيق يسع ماء قليلا ؛ ولهذ قال النبى ﷺ: « لا تسموا العنب الكرم ، فإن الكرم قلب المؤمن » فإنهم كانوا يسمون شجر العنب الكرم لكثرة منافعه وخيره ، والكرم كثيرة الخير والمنافع ، فأخبرهم أن قلب المؤمن أولى بهذه التسمية لكثرة مافيه من الخير والمنافع .

وقوله : « فخيرها أوعاها » : يراد به أسرعها وعيا وأثبتها وعيا ، ويراد به أيضا : أحسنها وعيا ، فيكون حسن الوعى الذى هو إيعاء لما يقال له فى قلبه هو سرعته وكثرته وثباته ، والوعاء من مادة الوعى ، فإنه آلة ما يوعى فيه كالغطاء والفراش والبساط ونحوها ، ويوصف بذلك القلب والأذن كقوله تعالى :﴿ **إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ** ﴿١١﴾ **لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ** ﴿١٢﴾ ﴾ [ الحاقة ] . قال قتادة : أذن سمعت ، وعقلت عن الله ما سمعت . وقال الفراء : لتحفظها كل أذن فتكون عظة لمن يأتى بعد . فالوعى توصف به الأذن كما يوصف به القلب ، يقال : قلب واع وأذن واعية ؛ لما بين الأذن والقلب من الارتباط . فالعلم يدخل من الأذن إلى القلب ، فهى بابه ، والرسول الموصل إليه العلم ، كما أن اللسان رسوله المؤدى عنه ، ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الأذن أحقها أن توصف بالوعى ، وأنها إذا وعت وعى القلب، وفى حديث جابر فى المثل الذى ضربته الملائكة للنبى ﷺ ولأمته وقول الملك له : « اسمع سمعت أذنك ، وعقل قلبك » (١) فلما كان القلب وعاء والأذن مدخل ذلك الوعاء وبابه ، كان حصول العلم موقوفا على حسن الاستماع وعقل القلب ، والعقل هو ضبط ما وصل إلى القلب وإمساكه حتى لا يتفلت منه . ومنه عقل البعير والدابة ، والعقال لما يعقل به ، وعقل الإنسان يسمى عقلا ؛ لأنه يعقله عن اتباع الغى والهلاك ؛ ولهذا يسمى حجرا لأنه يمنع صاحبه كما يمنع الحجر ماحواه ، فعقل الشىء أخص من علمه ومعرفته ؛ لأن صاحبه يعقل ما علمه فلا يدعه يذهب ، كما تعقل الدابة التى يخاف شرودها .

وللإدراك مراتب بعضها أقوى من بعض ؛ فأولها الشعور ، ثم الفهم ، ثم المعرفة ،ثم العلم، ثم العقل . ومرادنا بالعقل المصدر لا القوة الغريزية التى ركبها الله فى الإنسان، فخير القلوب ما كان واعيا للخير ضابطا له ، وليس كالقلب القاسى الذى لا يقبله ، فهذا قلب حجرى ، ولا كالمائع الأخرق الذى يقبل ولكن لا يحفظ ولا يضبط . فتفهيم الأول

---

(١) الترمذى (٢٨٦٠) فى الأمثال ، باب : ما جاء فى مثل الله لعباده ، وقال : « حديث مرسل » ، وقال الألبانى: « ضعيف الإسناد » .

كالرسم فى الحجر ، وتفهيم الثانى كالرسم على الماء ، بل خير القلوب ما كان لينا صلبا يقبل بلينه ما ينطبع فيه ويحفظ صورته بصلابته ، فهذا تفهيمه كالرسم فى الشمع وشبهه .

وقوله : ( الناس ثلاثة فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل النجاة ، وهمج رعاع ) : هذا تقسيم خاص للناس وهو الواقع ، فإن العبد إما أن تكون قد حصل كماله من العلم والعمل أو لا ، فالأول العالم الربانى ، والثانى إما أن يكون نفسه متحركة فى طلب ذلك الكمال ساعية فى إدراكه أولا ، والثانى هو المتعلم على سبيل النجاة ، الثالث وهو الهمج الرعاع ، فالأول هو الواصل ، والثانى هو الطالب ، والثالث هو المحروم .

**والعالم الربانى** : قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو المعلم ، أخذه من التربية ، أى يربى الناس بالعلم ويربيهم به كما يربى الطفل أبوه . وقال سعيد بن جبير : هو الفقيه العليم الحكيم . قال سيبويه : زادوا ألفا ونونا فى الربانى إذا أرادوا تخصيصا بعلم الرب تبارك وتعالى ، كما قالوا : أشعرانى ولحيانى ، ومعنى قول سيبويه ـ رحمه الله : إن هذا العالم لما نسب إلى علم الرب تعالى الذى بعث به رسوله وتخصص به نسب إليه دون سائر من علم علما .

قال الواحدى : فالربانى على قوله منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بعلم الرب ، أى يعلم الشريعة وصفات الرب تبارك وتعالى .وقال المبرد : الربانى الذى يرب العلم ويرب الناس به ، أى يعلمهم ويصلحهم ، وعلى قوله : فالربانى من رب يرب ربا أى يربيه ، فهو منسوب إلى التربية ، يربى علمه ليكمل ويتم بقيامه عليه وتعاهده إياه ، كما يربى صاحب المال ماله ، ويربى الناس به كما يربى الأطفال أولياؤهم . وليس هذا من قوله : ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ** ﴾ [ آل عمران : ١٤٦ ] . فالربيون هنا الجماعات بإجماع المفسرين . قيل : إنه من الربة ـ بكسر الراء ـ وهى الجماعة . قال الجوهرى : الربى واحد الربيين وهم الألوف من الناس ، قال تعالى : ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ** ﴾. ولا يوصف العالم بكونه ربانيا حتى يكون عاملا بعلمه معلما له ، فهذا قسم .

**والقسم الثانى** : متعلم على سبيل نجاة ، أى قاصدا بعلمه النجاة ، وهو المخلص فى تعلمه ، المتعلم ما ينفعه ، العامل بما علمه ، فلا يكون المتعلم على سبيل نجاة إلا بهذه الأمور الثلاثة ، فإنه إن تعلم ما يضره ولا ينفعه لم يكن على سبيل نجاة ، وإن تعلم ما ينتفع به لا للنجاة فكذلك ، وإن تعلمه ولم يعمل به لم يحصل له النجاة ؛ ولهذا وصفه بكونه على السبيل أى على الطريق التى تنجيه ، وليس حرف على وما عمل فيه متعلقا

بمتعلم إلا على وجه التضمين ، أى مفتش متطلع على سبيل نجاته ، فهذا فى الدرجة الثانية ، وليس ممن تعلمه ليمارى به السفهاء ، أو يجارى به العلماء ، أو يصرف وجوه الناس إليه ، فإن هذا من أهل النار كما جاء فى الحديث وثبته أبو نعيم أيضا . قوله ﷺ :« من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا ، لم يجد رائحة الجنة»(١) . قال : وثبت أيضا قوله ﷺ : « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » (٢). فهؤلاء ليس فيهم من هو على سبيل نجاة بل على سبيل الهلكة ، نعوذ بالله من الخذلان .

**القسم الثالث** : المحروم المعرض ، فلا عالم ولا متعلم ، بل همج رعاع ، والهمج من الناس حمقاؤهم وجهلتهم ، وأصله من الهمج جمع همجة ، وهو ذباب صغير كالبعوض ، يسقط على وجوه الغنم والدواب وأعينها ، فشبه همج الناس به . والهمج أيضا مصدر ، قال الراجز :

قد هلكت جارتنا من الهمج     وإن تجع تأكل عتودا أو ثلج

والهمج هنا مصدر ، ومعناه : سوء التدبير فى أمر المعيشة . وقولهم : همج هامج مثل ليل لايل . والرعاع من الناس : الحمقى الذين لا يعتد بهم .

وقوله : ( أتباع كل ناعق ) : أى من صاح بهم ودعاهم تبعوه ، سواء دعاهم إلى هدى أو إلى ضلال ، فإنهم لا علم لهم بالذى يدعون إليه أحق هو أم باطل ، فهم مستجيبون لدعوته . وهؤلاء من أضر الخلق على الأديان ، فإنهم الأكثرون عددا ، الأقلون عند الله قدرا ، وهم حطب كل فتنة ، بهم توقد ويشب ضرامها ، فإنها يهتزلها أولو الدين ، ويتولاها الهمج الرعاع . وسمى داعيهم ناعقا تشبيها لهم بالأنعام التى ينعق بها الراعى ، فتذهب معه أين ذهب ، قال تعالى : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ** (١٧١) ﴾ [ البقرة ] ، وهذا الذى وصفهم به أمير المؤمنين هو من عدم علمهم وظلمة قلوبهم ، فليس لهم نور ولا بصيرة يفرقون بها بين الحق والباطل ، بل الكل عندهم سواء .

وقوله رضي الله عنه : ( يميلون مع كل ريح ) وفى رواية : ( مع كل صائح ) : شبه عقولهم الضعيفة بالغصن الضعيف ، وشبه الأهوية والآراء بالرياح . والغصن يميل مع الريح حيث مالت ، وعقول هؤلاء تميل مع كل هوى وكل داع ، ولو كانت عقولا كاملة كانت كالشجرة

(١) جامع بيان العلم وفضله (١ / ١٩٠) .
(٢) سبق تخريجه ص (٢٢٤) .

الكبيرة التى لا تتلاعب بها الرياح . وهذا بخلاف المثل الذى ضربه النبى ﷺ للمؤمنين بالخامة من الزرع تفيئه الريح مرة وتقيمه أخرى ، والمنافق كشجرة الأرز التى لا تقطع حتى تستحصد (١) ،فإن هذا المثل ضرب للمؤمن وما يلقاه من عواصف البلاء والأوجاع والأوجال وغيرها ، فلا يزال بين عافية وبلاء ومحنة ومنحة وصحة وسقم وأمن وخوف وغير ذلك ، فيقع مرة ويقوم أخرى ، ويميل تارة ويعتدل أخرى ، فيكفر عنه بالبلاء ، ويمحص به ويخلص من كدره . والكافر كله خبث ، ولا يصلح إلا للوقود ، فليس فى إصابته فى الدنيا بأنواع البلاء من الحكمة والرحمة مافى إصابة المؤمن ، فهذه حال المؤمن فى الابتلاء . وأما مع الأهواء ودعاة الفتن والضلال والبدع فكما قيل :

تزول الجبال الراسيات وقلبه … على العهد لا يلوى ولا يتغير

وقوله ﷺ : ( لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق ) : بين السبب الذى جعلهم بتلك المثابة ، وهو أنه لم يحصل لهم من العلم نور يفرقون به بين الحق والباطل ، كما قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ** ﴾ [ الحديد : ٢٨ ] ، وقال تعالى : ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [ الأنعام : ١٢٢ ] ، وقوله تعالى : ﴿ **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ الآية [ المائدة : ١٦ ] ، وقوله تعالى : ﴿**وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ [ الشورى : ٥٢ ] ، فإذا عدم القلب هذا النور صار بمنزلة الحيران الذى لا يدرى أين يذهب ، فهو لحيرته وجهله بطريق مقصوده يؤم كل صوت يسمعه ، ولم يسكن قلوبهم من العلم ما تمتنع به من دعاة الباطل ، فإن الحق متى استقر فى القلب قوى به وامتنع مما يضره ويهلكه ؛ ولهذا سمى الله الحجة العلمية سلطانا وقد تقدم ذلك ، فالعبد يؤتى من ظلمة بصيرته ومن ضعف قلبه ، فإذا استقر فيه العلم النافع استنارت بصيرته ، وقوى قلبه ، وهذان الأصلان هما قطب السعادة ـ أعنى العلم والقوة ـ وقد وصف بهما ـ سبحانه ـ المعلم الأول جبريل صلوات الله وسلامه عليه فقال : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥)** ﴾ [ النجم ] ، وقال تعالى فى سورة التكوير : ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠)** ﴾ [ التكوير ] ،فوصفه بالعلم والقوة ، وفيه معنى أحسن من هذا ، وهو الأشبه بمراد على ﷺ وهو : أن هؤلاء ليسوا من أهل البصائر الذين استضاؤوا بنور العلم ولا لجؤوا إلى عالم

(١) مسلم (٢٨٠٩ / ٥٨) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجرة الأرز ، والترمذى (٢٨٦٦) فى الأمثال ، باب : ما جاء فى مثل المؤمن القارئ للقرآن وغير القارئ .

مستبصر فقلدوه ، ولا متبعين لمستبصر ، فإن الرجل إما أن يكون بصيرا أو أعمى متمسكا ببصير يقوده ، أو أعمى يسير بلا قائد .

وقوله ﷺ :( العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ) : يعنى : أن العلم يحفظ صاحبه ويحميه من موارد الهلكة ومواقع العطب ، فإن الإنسان لا يلقى نفسه فى هلكة إذا كان عقله معه ، ولا يعرضها لمتلف إلا إذا كان جاهلا بذلك لا علم له به ، فهو كمن يأكل طعاما مسموما ، فالعلم بالسم وضرره يحرسه علمه ويمتنع به من أكله ، والجاهل به يقتله جهله ، فهذا مثل حراسة العلم للعالم ، وكذا الطبيب الحاذق يمتنع بعلمه عن كثير ما يجلب له الأمراض والأسقام ، وكذا العالم بمخاوف طريق سلوكه ومعاطبها يأخذ حذره منها فيحرسه علمه من وساوس الهلاك ، وهكذا العالم بالله وبأمره وبعدوه ،ومكائده ومداخله على العبد يحرسه علمه من الشيطان وخطراته ، وإلقاء الشك والريب والكفر فى قلبه ،فهو بعلمه يمتنع من قبول ذلك ، فعلمه يحرسه من الشيطان ، فكلما جاء ليأخذه صاح به حرس العلم والإيمان فيرجع خاسئا خائبا . وأعظم مايحرسه من هذا العدو المبين العلم والإيمان ، فهذا السبب الذى من العبد والله من وراء حفظه وحراسته وكلاءته ، فمتى وكله إلى نفسه طرفة عين تخطفه عدوه .

قال بعض العارفين : أجمع العارفون على أن التوفيق ألا يكلك الله إلى نفسك ، وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلى بينك وبين نفسك .

وقوله : ( العلم يزكو على الإنفاق والمال تنقصه النفقة ) : العالم كلما بذل علمه للناس وأنفق منه تفجرت ينابيعه ، فازداد كثرة وقوة وظهورا ، فيكتسب بتعليمه حفظ ما علمه ،ويحصل له به علم مالم يكن عنده ، وربما تكون المسألة فى نفسه غير مكشوفة ولا خارجة من حيز الإشكال ، فإذا تكلم بها وعلمها اتضحت له وأضاءت ، وانفتح له منها علوم أخر . وأيضا . فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما علم الخلق من جهالتهم جزاه الله بأن علمه من جهالته ، كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار عن النبى ﷺ أنه قال فى حديث طويل : « وإن الله قال لى: أنفق أنفق عليك » (١) . وهذا يتناول نفقة العلم ، إما بلفظه ، وإما بتنبيهه وإشارته وفحواه . ولزكاء العلم ونحوه طريقان : أحدهما : تعليمه ، والثانى : العمل به ، فإن العمل به أيضا ينميه ويكثره ، ويفتح لصاحبه أبوابه وخباياه .

---

(١) مسلم (٩٩٣ / ٣٦) فى الزكاة ، باب : الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف .

وقوله : ( المال تنقصه النفقة ) : لا ينافى قول النبى ﷺ : « ما نقصت صدقة من مال » (١) ، فإن المال إذا تصدقت منه وأنفقت ذهب ذلك القدر وخلفه غيره ، وأما العلم فكالقبس من النار ، لو اقتبس منها العالم لم يذهب منها شىء ، بل يزيد العلم بالاقتباس منه ، فهو كالعين التى كلما أخذ منها قوى ينبوعها وجاش معينها .

قوله : ( محبة العلم أو العالم دين يدان بها ) : لأن العلم ميراث الأنبياء، والعلماء ورثتهم ، فمحبة العلم وأهله محبة لميراث الأنبياء وورثتهم ، وبغض العلم وأهله بغض لميراث الأنبياء وورثتهم ، فمحبة العلم من علامات السعادة،وبغض العلم من علامات الشقاوة . وهذا كله إنما هو فى علم الرسل الذى جاؤوا به وورثوه للأمة ، لا فى كل ما يسمى علما .

وأيضا ، فإن محبة العلم تحمل على تعلمه واتباعه ، وذلك هو الدين ، وبغضه ينهى عن تعلمه واتباعه وذلك هو الشقاء والضلال ، وأيضا فإن الله ـ سبحانه ـ عليم يحب كل عليم ، وإنما يضع علمه عند من يحبه ، فمن أحب العلم وأهله فقد أحب ما أحب الله وذلك مما يدان به .

قوله : ( العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته وجميل الأحدوثة بعد مماته يكسبه ذاك) : أى يجعله كسبا له ويورثه إياه ، ويقال: كسبه ذلك عزا وطاعة ، وأكسبه ، لغتان ، ومنه حديث خديجة ﵂ : « إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم » (٢) روى بفتح التاء وضمها ، ومعناه : تكسب المال والغنى ، هذا هو الصواب . وقالت طائفة : من رواه بضمها فذلك من أكسبه مالا وعزا ، ومن رواه بفتحها فمعناه : تكسب أنت المال المعدوم بمعرفتك وحذقك بالتجارة ، ومعاذ الله من هذا الفهم ، وخديجة أجل قدرا من تكلمها بهذا فى هذا المقام العظيم أن تقول لرسول الله ﷺ : أبشر ، فوالله لا يخزيك الله ، إنك تكسب الدرهم والدينار ، وتحسن التجارة ! ومثل هذه التحريفات إنما تذكر لئلا يغتر بها فى تفسير كلام الله ورسوله .

والمقصود : أن قوله :( العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته ): أى يجعله مطاعا ؛ لأن الحاجة إلى العلم عامة لكل أحد للملوك فمن دونهم ،فكل أحد محتاج إلى طاعة العالم ، فإنه يأمر بطاعة الله ورسوله فيجب على الخلق طاعته ، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [ النساء : ٥٩ ] ، وفسر أولى الأمر بالعلماء

(١) مسلم (٢٥٨٨ / ٦٩) فى البر والصلة والآداب ، باب : استحباب العفو والتواضع .

(٢) البخارى (٣) فى بدء الوحى ، باب : (٣) ، ومسلم (١٦٠ / ٢٥٢) فى الإيمان ، باب : بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ .

قال ابن عباس : هم الفقهاء والعلماء أهل الدين ، الذين يعلمون الناس دينهم ، أوجب الله تعالى طاعتهم . وهذا قول مجاهد والحسن والضحاك وإحدى الروايتين عن الإمام أحمد . وفسروا بالأمراء وهو قول ابن زيد وإحدى الروايتين عن ابن عباس وأحمد ، والآية تتناولها جميعا ، فطاعة ولاة الأمر واجبة إذا أمروا بطاعة الله ورسوله ، وطاعة العلماء كذلك ، فالعالم بما جاء به الرسول العامل به أطوع فى أهل الأرض من كل أحد ، فإذا مات أحيا الله ذكره ونشر له فى العالمين أحسن الثناء ، فالعالم بعد وفاته ميت وهو حى بين الناس ، والجاهل فى حياته حى وهو ميت بين الناس ، كما قيل :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهلـه     وأجسامهم قبل القبور قبـــور
وأرواحهم فى وحشة من جسومهم     وليس لهم حتى النشور نشور

وقال الآخر :

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم     وعاش قوم وهم فى الناس أموات

وقال آخر :

وما دام ذكر العبد بالفضل باقيا     فذلك حى وهو فى التراب هالك

ومن تأمل أحوال أئمة الإسلام كأئمة الحديث والفقه ، كيف هم تحت التراب وهم فى العالمين كأنهم أحياء بينهم ، لم يفقدوا منهم إلا صورهم ، وإلا فذكرهم وحديثهم والثناء عليهم غير منقطع ، وهذه هى الحياة حقا ، حتى عد ذلك حياة ثانية ، كما قال المتنبى :

ذكر الفتى عيشه الثانى وحاجته     مافاته وفضول العيش أشغال

قوله : ( وصنيعة المال تزول بزواله ) : يعنى : أن كل صنيعة صنعت للرجل من أجل ماله من إكرام ومحبة وخدمة وقضاء حوائج وتقديم واحترام وتولية وغير ذلك ، فإنها هى مراعاة لماله ، فإذا زال ماله وفارقه زالت تلك الصنائع كلها ، حتى إنه ربما لا يسلم عليه من كان يدأب فى خدمته ويسعى فى مصالحه . وقد أكثر الناس من هذا المعنى فى أشعارهم وكلامهم وفى مثل قولهم : من ودك لأمر ملك عند انقضائه ، قاله بعض العرب .

ومن هذا ما قيل : إذا أكرمك الناس لمال أو سلطان فلا يعجبنك ذلك ، فإن زوال الكرامة بزوالهما ، ولكن ليعجبك إن أكرموك لعلم أو دين . وهذا أمر لا ينكر فى الناس ، حتى إنهم ليكرمون الرجل لثيابه ، فإذا نزعها لم ير منهم تلك الكرامة ، وقال مالك : بلغنى أن أبا هريرة دعى إلى وليمة فأتى فحجب ، فرجع فلبس غير تلك الثياب فأدخل ، فلما وضع الطعام أدخل كمه فى الطعام فعوتب فى ذلك ، فقال : إن هذه الثياب هى التى

أدخلت ، فهى تأكل . حكاه ابن مزين الطليطلى فى كتابه ، وهذا بخلاف صنيعة العلم ، فإنها لا تزول أبدا ، بل كل مآلها فى زيادة ، مالم يسلب ذلك العالم علمه ، وصنيعة العلم والدين أعظم من صنيعة المال ؛ لأنها تكون بالقلب واللسان والجوارح ، فهى صادرة عن حب وإكرام لأجل ما أودعه الله تعالى إياه من علمه وفضله به على غيره . وأيضا فصنيعة العلم تابعة لنفس العالم وذاته ، وصنيعة المال تابعة لماله المنفصل عنه . وأيضا فصنيعة المال صنيعة معاوضة ، وصنيعة العلم والدين صنيعة حب وتقرب وديانة . وأيضا فصنيعة المال تكون مع البر والفاجر والمؤمن والكافر ، وأما صنيعة العلم والدين فلا تكون إلا مع أهل ذلك . وقد يراد من هذا أيضا معنى آخر وهو أن من اصطنعت عنده صنيعة بمالك إذا زال ذلك المال وفارقه عدمت صنيعتك عنده ، وأما من اصطنعت إليه صنيعة علم وهدى ، فإن تلك الصنيعة لا تفارقه أبدا ، بل ترى فى كل وقت ، كأنك أسديتها إليه حينئذ .

وقوله: ( مات خازن الأموال وهم أحياء ) قد تقدم بيانه ، وكذا قوله : ( والعلماء باقون ما بقى الدهر ) .

وقوله : ( أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة ) : المراد بأمثالهم صورهم العلمية ووجودهم المثالى ، أى وإن فقدت ذواتهم فصورهم وأمثالهم فى القلوب لا تفارقها ، وهذا هو الوجود الذهنى العلمى ؛ لأن محبة الناس لهم واقتداءهم بهم وانتفاعهم بعلومهم يوجب ألا يزالوا نصب عيونهم وقبلة قلوبهم ، فهم موجودون معهم وحاضرون عندهم وإن غابت عنهم أعيانهم ، كما قيل :

ومن عجب أنى أحن إليهـــم ... وأسأل عنهم من لقيت وهم معى
وتطلبهم عينى وهم فى سوادها ... ويشتاقهم قلبى وهم بين أضلعـى

وقال آخر :

ومن عجب أن يشكو البعد عاشق ... وهل غاب عن قلب المحب حبيب
خيالك فى عينى وذكرك فى فمى ... ومثـــواك فى قلبى فأيـــن تغيب

قوله: ( آه ، إن هاهنا علما ـ وأشار إلى صدره ): يدل على جواز إخبار الرجل بما عنده من العلم والخير ليقتبس منه ولينتفع به ،ومنه قول يوسف الصديق عليه السلام :﴿ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)** ﴾ [ يوسف ] ،فمن أخبر عن نفسه بمثل ذلك ليكثر به ما يحبه الله ورسوله من الخير فهو محمود ، وهذا غير من أخبر بذلك ليتكثر به عند الناس ويتعظم،وهذا يجازيه الله بمقت الناس له وصغره فى عيونهم ، والأول بكثرة فى قلوبهم وعيونهم ،وإنما الأعمال بالنيات . وكذلك إذا أثنى الرجل على نفسه ليخلص بذلك من مظلمة وشر ، أو ليستوفى بذلك حقا له يحتاج فيه إلى التعريف بحاله ، أو ليقطع عنه

أطماع السفلة فيه ، أو عند خطبته إلى من لا يعرف حاله ، والأحسن فى هذا أن يوكل من يعرف به وبحاله ، فإن لسان ثناء المرء على نفسه قصير ، وهو فى الغالب مذموم ، لما يقترن به من الفخر والتعاظم .

ثم ذكر أصناف حملة العلم الذين لا يصلحون لحمله وهم أربعة :

**أحدهم** : من ليس هو بمأمون عليه وهو الذى أوتى ذكاء وحفظا ولكن مع ذلك لم يؤت ذكاء ، فهو يتخذ العلم الذى هو آلة الدين آلة الدنيا ، يستجلبها به ، ويتوسل بالعلم إليها ، ويجعل البضاعة التى هى متجر الآخرة متجر الدنيا ، وهذا غير أمين على ما حمله من العلم ، ولا يجعله الله إماما فيه قط ؛ فإن الأمين هو الذى لا غرض له ولا إرادة لنفسه إلا اتباع الحق وموافقته ، فلا يدعو إلى إقامة رياسته ولا دنياه . وهذا الذى قد اتخذ بضاعة الآخرة ومتجرها متجرا للدنيا ، قد خان الله ، وخان عباده ، وخان دينه . فلهذا قال : غير مأمون عليه .

وقوله :( يستظهر بحجج الله على كتابه وبنعمه على عباده ) : هذه صفة هذا الخائن إذا أنعم الله عليه استظهر بتلك النعمة على الناس،وإذا تعلم علما استظهر به على كتاب الله . ومعنى (استظهاره بالعلم على كتاب الله ): تحكيمه عليه وتقديمه وإقامته دونه ، وهذه حال كثير ممن يحصل له علم ، فإنه يستغنى به ويستظهر به ويحكمه ، ويجعل كتاب الله تبعا له، يقال :استظهر فلان على كذا بكذا : أى ظهر عليه به وتقدم ،وجعله وراء ظهره .وليست هذه حال العلماء ، فإن العالم ـ حقا ـ يستظهر بكتاب الله على كل ما سواه، فيقدمه ويحكمه ،ويجعله عيارا على غيره مهيمنا عليه،كما جعله الله تعالى كذلك،فالمستظهر به موفق سعيد ، والمستظهر عليه مخذول شقى ، فمن استظهر على الشىء فقد جعله خلف ظهره مقدما عليه ما استظهر به ، وهذا حال من اشتغل بغير كتاب الله عنه، واكتفى بغيره منه ، وقدم غيره وأخره .

**والصنف الثانى** : من حملة العلم المنقاد الذى لم يثلج له صدره ولم يطمئن به قلبه ، بل هو ضعيف البصيرة فيه ، لكنه منقاد لأهله ، وهذه حال أتباع الحق من مقلديهم . وهؤلاء وإن كانوا على سبيل نجاة ، فليسوا من دعاة الدين ، وإنما هم من مكثرى سواد الجيش ، لا من أمرائه وفرسانه .

وقوله : ( ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة ): هذا لضعف علمه وقلة بصيرته ، إذا وردت على قلبه أدنى شبهة قدحت فيه الشك والريب بخلاف الراسخ فى العلم لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ما أزالت يقينه ولا قدحت فيه شكا ؛ لأنه

قد رسخ فى العلم فلا تستفزه الشبهات ، بل إذا وردت عليه ردها حرس العلم وجيشه مغلولة مغلوبة . والشبهة وارد يرد على القلب ، يحول بينه وبين انكشاف الحق له ، فمتى باشر القلب حقيقة العلم لم تؤثر تلك الشبهة فيه ، بل يقوى علمه ويقينه بردها ومعرفة بطلانها ، ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق قلبه قدحت فيه الشك بأول وهلة ، فإن تداركها وإلا تتابعت على قلبه أمثالها حتى يصير شاكا مرتابا . والقلب يتوارده جيشان من الباطل ؛ جيش شهوات الغى ، وجيش شبهات الباطل ، فأيما قلب صغا إليها وركن إليها تشربها وامتلأ بها ، فينضح لسانه وجوارحه بموجبها ، فإن أشرب شبهات الباطل تفجرت على لسانه الشكوك والشبهات والإيرادات ، فيظن الجاهل أن ذلك لسعة علمه ، وإنما ذلك من عدم علمه ويقينه .

وقال لى شيخ الإسلام ﷺ - وقد جعلت أورد عليه إيرادا بعد إيراد : لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها ، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة ، تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها ، فيراها بصفائه ، ويدفعها بصلابته ، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقرا للشبهات ، أو كما قال . فما أعلم أنى انتفعت بوصية فى دفع الشبهات كانتفاعى بذلك . وإنما سميت الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها ، فإنها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل . وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر ، فينظر الناظر فيما ألبسته من اللباس فيعتقد صحتها . وأما صاحب العلم واليقين فإنه لا يغتر بذلك ، بل يجاوز نظره إلى باطنها وما تحت لباسها فينكشف له حقيقتها . ومثال هذا : الدرهم الزائف ، فإنه يغتر به الجاهل بالنقد ، نظرا إلى ما عليه من لباس الفضة . والناقد البصير يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك فيطلع على زيفه ، فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف والمعنى كالنحاس الذى تحته . وكم قد قتل هذا الاعتذار من خلق لا يحصيهم إلا الله .

وإذا تأمل العاقل الفطن هذا القدر وتدبره ، رأى أكثر الناس يقبل المذهب والمقالة بلفظ ويردها بعينها بلفظ آخر . وقد رأيت أنا من هذا فى كتب الناس ما شاء الله ، وكم رد من الحق بتشنيعه بلباس من اللفظ قبيح . وفى مثل هذا قال أئمة السنة ، منهم الإمام أحمد وغيره : لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة شنعت . فهؤلاء الجهمية يسمون إثبات صفات الكمال لله من حياته وعلمه وكلامه وسمعه وبصره وسائر ما وصف به نفسه تشبيها وتجسيما ، ومن أثبت ذلك مشبها فلا ينفر من هذا المعنى الحق لأجل هذه التسمية الباطلة إلا العقول الصغيرة القاصرة خفافيش البصائر ، وكل أهل نحلة ومقالة يكسون نحلتهم ومقالتهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ ، ومقالة مخالفيهم أقبح ما يقدرون

عليه من الألفاظ ، ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف بها حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل ، ولا تغتر باللفظ . كما قيل فى هذا المعنى :

تقول هذا جنى النحل تمدحــــه وإن نشأ قلت ذا قىء الزنابير

مدحا وذما وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتريه ســوء تعبير

فإذا أردت الاطلاع على كنه المعنى : هو حق أو باطل ؟ فجرده من لباس العبارة ، وجرد قلبك عن النفرة والميل ، ثم أعط النظر حقه ، ناظرا بعين الإنصاف ، ولا تكن ممن ينظر فى مقالة أصحابه ومن يحسن ظنه نظرا تاما بكل قلبه ، ثم ينظر فى مقالة خصومه ، وممن يسىء ظنه به كنظر الشزر والملاحظة ، فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوئ والناظر بعين المحبة عكسه ، وما سلم من هذا إلا من أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحق . وقد قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويــا

وقال آخر :

نظــروا بعين عداوة لــو أنها عين الرضا لا ستحسنوا ما استقبحوا

فإذا كان هذا فى نظر العين الذى يدرك المحسوسات ولا يتمكن من المكابرة فيها ، فما الظن بنظر القلب الذى يدرك المعانى التى هى عرضة المكابرة . والله المستعان على معرفة الحق وقبوله ، ورد الباطل وعدم الاغترار به .

وقوله :( بأول عارض من شبهة): هذا دليل ضعف عقله ومعرفته ، إذ تؤثر فيه البداآت ،ويستفز بأوئل الأمور ، بخلاف الثابت التام العاقل ، فإنه لا تستفزه البداآت ، ولا تزعجه وتقلقله، فإن الباطل له دهشة وروعة فى أوله ، فإذا ثبت له القلب رد على عقبيه ، والله يحب من عنده العلم والأناة فلا يعجل ، بل يثبت حتى يعلم ويستيقن ما ورد عليه ، ولا يعجل بأمر من قبل استحكامه ، فالعجلة والطيش من الشيطان ، فمن ثبت عند صدمة البداآت استقبل أمره بعلم وجزم ،ومن لم يثبت لها استقبله بعجلة وطيش وعاقبته الندامة ، وعاقبة الأول حمد أمره ، ولكن للأول آفة متى قرنت بالحزم والعزم نجا منها وهى الفوت ، فإنه لا يخاف من التثبيت إلا الفوت ، فإذا اقترن به العزم والحزم تم أمره ؛ ولهذا فى الدعاء الذى رواه الإمام أحمد والنسائى عن النبى ﷺ : « اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر ، والعزيمة على الرشد » (١) .وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح وما أتى العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما ، فما أتى أحد إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز البداآت

(١) النسائى (١٣٠٤) فى السهو ، باب : نوع آخر من الدعاء ، وأحمد ٤ / ١٢٤ ، ١٢٥ ، وضعفه الألبانى .

له ، أو من باب التهاون والتمات وتضييع الفرصة بعد مواتاتها ، فإذا حصل الثبات أولا والعزيمة ثانيا أفلح كل الفلاح ، والله ولى التوفيق .

**الصنف الثالث** : رجل نهمته فى نيل لذته ،فهو منقاد لداعى الشهوة أين كان ،ولا ينال درجة وراثة النبوة مع ذلك ،ولا ينال العلم إلا بهجر اللذات وتطليق الراحة .قال مسلم فى صحيحه : قال يحيى بن أبى كثير:لا ينال العلم براحة الجسم . وقال إبراهيم الحربى : أجمع عقلاء كل أمة أن النعيم لا يدرك بالنعم ،ومن آثر الراحة فاتته الراحة ، فما لصاحب اللذات وما لدرجة وراثة الأنبياء !

فدع عنك الكتابة لست منها          ولو سودت وجهك بالمداد

فإن العلم صناعة القلب وشغله ، فما لم تتفرغ لصناعته وشغله لم تنلها وله وجهة واحدة ، فإذا وجهت وجهته إلى اللذات والشهوات انصرفت عن العلم ، ومن لم يغلب لذة إدراكه العلم وشهوته على لذة جسمه وشهوة نفسه لم ينل درجة العلم أبدا ، فإذا صارت شهوته فى العلم ولذته فى كل إدراكه رجى له أن يكون من جملة أهله . ولذة العلم لذة عقلية روحانية من جنس لذة الملائكة ، ولذة شهوات الأكل والشراب والنكاح لذة حيوانية يشارك الإنسان فيها الحيوان ، ولذة الشر والظلم والفساد والعلوى فى الأرض شيطانية يشارك صاحبها فيها إبليس وجنوده . وسائر اللذات تبطل بمفارقة الروح البدن إلا لذة العلم والإيمان ، فإنها تكمل بعد المفارقة ؛ لأن البدن وشواغله كان ينقصها ويقللها ويحجبها ، فإذا انطوت الروح عن البدن التذت لذة كاملة بما حصلته من العلم النافع والعمل الصالح ، فمن طلب اللذة العظمى وآثر النعيم المقيم فهو فى العلم والإيمان اللذين بهما كمال سعادة الإنسان ، وأيضا فإن تلك اللذات سريعة الزوال ، وإذا انقضت أعقبت هما وغما ، وألا يحتاج صاحبها أن يداويه بمثلها دفعا لألمه ، وربما كان معاودته لها مؤلما له كريها إليه ، لكن يحمله عليه مدواة ذلك الغم والهم ، فأين هذا من لذة العلم ولذة الإيمان بالله ومحبته والإقبال عليه والتنعم بذكره ، فهذه هى اللذة الحقيقية .

**الصنف الرابع** : من حرصه وهمته فى جمع الأموال وتثميرها وادخارها ، فقد صارت لذته فى ذلك وفنى بها عما سواه ، فلا يرى شيئا أطيب له مما هو فيه ، فمن أين هذا ودرجة العلم ؟

فهؤلاء الأصناف الأربعة ليسوا من دعاة الدين ولا من أئمة العلم ، ولا من طلبته الصادقين فى طلبه . ومن تعلق منهم بشىء منه فهو من المتسلقين عليه المتشبهين بحملته وأهله ، المدعين لوصاله المبتوتين من حباله . وفتنة هؤلاء فتنة لكل مفتون ، فإن الناس

يتشبهون بهم لما يظنون عندهم من العلم ، ويقولون : لسنا خيرا منهم ، ولا نرغب بأنفسنا عنهم ، فهم حجة لكل مفتون ؛ ولهذا قال فيهم بعض الصحابة الكرام : احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون .

وقوله : ( أقرب شبها بهم الأنعام السائمة ) : وهذا التشبيه مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤) ﴾ [ الفرقان ] فما أقصر ـ سبحانه ـ على تشبيههم بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلا منهم . والسائمة : الراعية . وشبه أمير المؤمنين هؤلاء بها لأن همتهم فى سعى الدنيا وحطامها ، والله تعالى يشبه أهل الجهل والغى تارة بالأنعام وتارة بالحمر ، وهذا تشبيه لمن تعلم علما ولم يعقله ولم يعمل به ، فهو كالحمار الذى يحمل أسفارا . وتارة بالكلب ، وهذا لمن انسلخ عن العلم ، وأخلد إلى الشهوات والهوى .

وقوله : ( كذلك يموت العلم بموت حامليه ) : هذا من قول النبى ﷺ فى حديث عبد الله بن عمر وعائشة ﷺ وغيرهما :« إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الرجال ،ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا ، فأفتوا بغير علم ،فضلوا وأضلوا » رواه البخارى فى صحيحه (١). فذهاب العلم إنما هو بذهاب العلماء . قال ابن مسعود يوم مات عمر رضي الله عنه : إنى لأحسب تسعة أعشار العلم اليوم قد ذهب . وقد تقدم قول عمر رضي الله عنه : موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه .

وقوله :( اللهم بك لن تخلو الأرض من مجتهد قائم لله بحجج الله ) : ويدل عليه الحديث الصحيح عن النبى ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى على الحق ،لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » (٢) . ويدل عليه أيضا مارواه الترمذى عن قتيبة : حدثنا حماد بن يحيى الأبح ، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل أمتى مثل المطر ، لا يدرى أوله خير أم آخره » قال : هذا حديث حسن غريب (٣) . ويروى عن عبد الرحمن بن مهدى أنه كان يثبت حماد بن يحيى الأبح ، وكان يقول :هو من شيوخنا . وفى الباب عن عمار وعبد الله بن عمرو ، فلو لم يكن فى أواخر الأمة قائم بحجج الله مجتهد لم يكونوا موصوفين بهذه الخيرية . وأيضا فإن هذه الأمة أكمل الأمم ، وخير أمة أخرجت للناس ، ونبيها خاتم النبيين لا نبى بعده ، فجعل الله

(١) البخارى (١٠٠) فى العلم ، باب : كيف يقبض العلم ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص .
(٢) مسلم (١٩٢٠ / ١٧٠) فى الإمارة ، باب قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم » .
(٣) الترمذى (٢٨٦٩) فى الأمثال ، باب : (٦) ، وقال الألبانى: « حسن صحيح » .

العلماء فيها كلما هلك عالم خلفه عالم ؛ لئلا تطمس معالم الدين وتخفى أعلامه . وكان بنو إسرائيل كلما هلك نبى خلفه نبى ، فكانت تسوسهم الأنبياء . والعلماء لهذه الأمة كالأنبياء فى بنى إسرائيل . وأيضا ففى الحديث الآخر : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » (١) . وهذا يدل على أنه لا يزال محمولا فى القرون قرنا بعد قرن . وفى صحيح أبى حاتم من حديث الخولانى قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال الله يغرس فى هذا الدين غرسا يستعملهم فى طاعته ، وغرس الله هم أهل العلم والعمل ، فلو خلت الأرض من عالم خلت من غرس الله » (٢) ولهذا القول حجج كثيرة لها موضع آخر .

وزاد الكذابون فى حديث على : ( إما ظاهرا مشهورا وإما خفيا مستورا ) ، وظنوا أن ذلك دليل لهم على القول بالمنتظر ، ولكن هذه الزيادة من وضع بعض كذابيهم ، والحديث مشهور عن على لم يقل أحد عنه هذه المقالة إلا كذاب ، وحجج الله لا تقوم بخفى مستور لا يقع العالم له على خبر ، ولا ينتفعون به فى شىء أصلا ، فلا جاهل يتعلم منه ، ولا ضال يهتدى به ، ولا خائف يأمن به ، ولا ذليل يتعزز به ، فأى حجة لله قامت بمن لا يرى له شخص ، ولا يسمع منه كلمة ، ولا يعلم له مكان ، ولا سيما على أصول القائلين به ، فإن الذى دعاهم إلى ذلك أنهم قالوا : لابد منه فى اللطف بالمكلفين وانقطاع حجتهم عن الله ، فيا لله العجب ! أى لطف حصل بهذا المعدوم لا المعصوم ؟ ! وأى حجة أثبتم للخلق على ربهم بأصلكم الباطل ؟ ! فإن هذا المعدوم إذا لم يكن لهم سبيل قط إلى لقائه والاهتداء به فهل فى تكليف مالا يطاق أبلغ من هذا ؟ وهل فى العذر والحجة أبلغ من هذا ؟ فالذى فررتم منه وقعتم فى شر منه ، وكنتم فى ذلك كما قيل :

المستجير بعمرو عند كربته    كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولكن أبى الله إلا أن يفضح من تنقص بالصحابة الأخيار وبسادة هذه الأمة ، وأن يرى الناس عورته ويغريه بكشفها ، ونعوذ بالله من الخذلان ، ولقد أحسن القائل :

ما أنا للسرداب أن يلد الذى    حملتموه بزعمكم ما آنا

فعلى عقولكم العفاء فإنكم    ثلثتم العنقاء والغيلانا

---

(١) كشف الأستار (١ / ٨٦) رقم (١٤٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ١٤٥) فى العلم ، باب: أخذ الحديث من الثقات :«رواه البزار وفيه عمرو بن خالد القرشى كذبه يحيى بن معين وأحمد بن حنبل ونسبه إلى الوضع ».

(٢) ابن ماجه (٨) فى المقدمة ، باب : اتباع سنة رسول الله ﷺ ، وأحمد (٤ / ٢٠٠)، وقال الألبانى:« حسن ». .

ولقد بطلت حجج استودعها مثل هذا الغائب وضاعت أعظم ضياع ، فأنتم أبطلتم حجج الله من حيث زعمتم حفظها ، وهذا تصريح من أمير المؤمنين ﷺ بأن حامل حجج الله فى الأرض بحيث يؤديها عن الله ويبلغها إلى عباده مثله ﷺ ، ومثل إخوانه من الخلفاء الراشدين ومن اتبعهم إلى يوم القيامة .

وقوله : ( لكيلا تبطل حجج الله وبيناته ) : أى لكيلا تذهب من بين يدى الناس وتبطل من صدورهم ، وإلا فالبطلان محال عليها ؛ لأنها ملزوم ما يستحيل عليه البطلان .

وقوله : ( أولئك الأقلون عددا الأعظمون عند الله قدرا ) يعنى : هذا الصنف من الناس أقل الخلق عددا ، وهذا سبب غربتهم ، فإنهم قليلون فى الناس ، والناس على خلاف طريقهم ، فلهم نبأ ، وللناس نبأ . قال النبى ﷺ : « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء »[1] . فالمؤمنون قليل فى الناس ، والعلماء قليل فى المؤمنين ، وهؤلاء قليل فى العلماء ، وإياك أن تغتر بما يغتر به الجاهلون فإنهم يقولون : لو كان هؤلاء على حق لم يكونوا أقل الناس عددا والناس على خلافهم . فاعلم أن هؤلاء هم الناس ، ومن خالفهم فمشبهون بالناس وليسوا بناس ، فما الناس إلا أهل الحق وإن كانوا أقلهم عددا . قال ابن مسعود : لا يكن أحدكم إمعة ، يقول : أنا مع الناس ، ليوطن أحدكم نفسه على أن يؤمن ولو كفر الناس . وقد ذم ـ سبحانه ـ الأكثرين فى غير موضع ، كقوله : ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [ الأنعام : ١١٦ ] ، وقال : ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** (١٠٣) ﴾ [ يوسف ] ، وقال : ﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** (١٣) ﴾ [ سبأ ] ، وقال : ﴿ **وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ [ ص : ٢٤ ] . وقال بعض العارفين : انفرادك فى طريق طلبك دليل على صدق الطلب .

مت بداء الهوى وإلا فخاطـــر ... واطرق الحى والعيون نواظـر
لا تخف وحشة الطريق إذا سـر ... ت وكن فى خفارة الحق سائر

وقوله : ( بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم ، ويزرعوها فى قلوب أشباههم ) : وهذا لأن الله ـ سبحانه ـ ضمن حفظ حججه وبيناته ، وأخبر رسول الله ﷺ أنه لا تزال طائفة من أمته على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة[2] ، فلا يزال غرس الله الذين غرسهم فى دينه يغرسون العلم فى قلوب من أهّلهم

(١) مسلم (١٤٥ / ٢٣٢) فى الإيمان ، باب : بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا .
(٢) سبق تخريجه ص (٢٤٩)

الله لذلك وارتضاهم ، فيكونوا ورثة لهم كما كانوا هم ورثة لمن قبلهم ، فلا تنقطع حجج الله والقائم بها من الأرض . وفى الأثر المشهور : لا يزال الله يغرس فى هذا الدين غرسا يستعملهم بطاعته ؛ وكان من دعاء بعض من تقدم : اللهم اجعلنى من غرسك الذين تستعملهم بطاعتك . ولهذا ما أقام الله لهذا الدين من يحفظه ثم قبضه إليه إلا وقد زرع ما علمه من العلم والحكمة ، إما فى قلوب أمثاله ، وإما فى كتب ينتفع بها الناس بعده ، وبهذا وبغيره فضل العلماء العباد ، فإن العالم إذا زرع علمه عند غيره ثم مات جرى عليه أجره وبقى له ذكره ،وهو عمر ثان وحياة أخرى ، وذلك أحق ما تنافس فيه المتنافسون ، ورغب فيه الراغبون .

وقوله : ( هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا مما استوحش منه الجاهلون ) : الهجوم على الرجل الدخول عليه بلا استئذان ، ولما كانت طريق الآخرة وعرة على أكثر الخلق ـ لمخالفتها لشهواتهم ومباينتها لإرادتهم ومألوفاتهم ـ قل سالكوها ، وزاهدهم فيها قلة علمهم أو عدمه بحقيقة الأمر وعاقبة العباد ومصيرهم ، وما هيئوا له وهيئ لهم ، فقل علمهم بذلك ، واستلانوا مركب الشهوة والهوى على مركب الإخلاص والتقوى ، وتوعرت عليهم الطريق ، وبعدت عليهم الشقة ، وصعب عليهم مرتقى عقابها ، وهبوط أوديتها ، وسلوك شعابها ، فأخلدوا إلى الدعة والراحة ، وآثروا العاجل على الآجل وقالوا : عيشنا اليوم نقد ، وموعودنا نسيئة ، فنظروا إلى عاجل الدنيا ، وأغمضوا العيون عن آجلها ، ووقفوا مع ظاهرها ، ولم يتأملوا باطنها ، وذاقوا حلاوة مباديها وغاب عنهم مرارة عواقبها ، ودر لهم ثديها فطاب لهم الارتضاع ، واشتغلوا به عن التفكر فى الفطام ومرارة الانقطاع ، وقال مغترهم بالله وجاحدهم لعظمته وربوبيته متمثلا فى ذلك :

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به

وأما القائمون لله بحجته خلفاء نبيه فى أمته ، فإنهم لكمال علمهم وقوته نفد بهم إلى حقيقة الأمر ، وهجم بهم عليه ، فعاينوا ببصائرهم ما عشيت عنه بصائر الجاهلين ، فاطمأنت قلوبهم به ، وعملوا على الوصول إليه لما باشرها من روح اليقين رفع لهم علم السعادة فشمروا إليه ، وأسمعهم منادى الإيمان النداء فاستبقوا إليه ، واستيقنت أنفسهم ما وعدهم به ربهم فزهدوا فيما سواه ، ورغبوا فيما لديه . علموا أن الدنيا دار ممر لا دار مقر ، ومنزل عبور لا مقعد حبور ، وأنها خيال طيف أو سحابة صيف ، وإن من فيها كراكب ، قال تحت ظل شجرة ثم راح عنها وتركها ، وتيقنوا أنها أحلام نوم ، أو كظل زائل :

إن اللبيب بمثلها لا يخدع

وأن واصفها صدق فى وصفها إذ يقول :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنهم فيها عراة وجـــوع
أراها وإن كانت تحب فإنـــها سـحابة صيف عن قليل تقشع

فرحلت عن قلوبهم مدبرة كما ترحلت عن أهلها موليه ، وأقبلت الآخرة إلى قلوبهم مسرعة كما أسرعت إلى الخلق مقبلة ، فامتطوا ظهور العزائم ، وهجروا لذة المنام ، وما ليل المحب بنائم . علموا طول الطريق وقلة المقام فى منزل التزود ، فسارعوا فى الجهاز ، وجد بهم السير إلى منازل الأحباب ، فقطعوا المراحل ، وطووا المفاوز .

وهذا كله من ثمرات اليقين ، فإن القلب إذا استيقن ما أمامه من كرامة الله وما أعد لأوليائه بحيث كأنه ينظر إليه من وراء حجاب الدنيا ، ويعلم أنه إذا زال الحجاب رأى ذلك عيانا ، زالت عنه الوحشة التى يجدها المتخلفون ؛ ولأن له ما استوعره المترفون . وهذه المرتبة هى أول مراتب اليقين ، وهى علمه وتيقنه ، وهى انكشاف المعلوم للقلب بحيث يشاهده ولا يشك فيه كانكشاف المرئى للبصر ، ثم يليها المرتبة الثانية وهى :مرتبة عين اليقين ،ونسبتها إلى العين كنسبة الأول إلى القلب ، ثم تليها المرتبة الثالثة وهى : حق اليقين ،وهى مباشرة المعلوم وإدراكه الإدراك التام ، فالأولى كعلمك بأن فى هذا الوادى ماء ، والثانية كرؤيته ،والثالثة كالشرب منه .

ومن هذا ما يروى فى حديث حارثة وقول النبى ﷺ : « كيف أصبحت يا حارثة ؟ » قال : أصبحت مؤمنا حقا . قال : « إن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفت نفسى عن الدنيا وشهواتها ، فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وإلى أهل النار يتعاوون فيها. قال:« عبد نور الله قلبه »(١) فهذا هو هجوم العلم بصاحبه على حقيقة الأمر ، ومن وصل إلى هذا استلان ما يستوعره المترفون ، وأنس مما يستوحش منه الجاهلون ، ومن لم يثبت قدم إيمانه على هذه الدرجة فهو إيمان ضعيف ،وعلامة هذا انشراح الصدر لمنازل الإيمان وانفساحه،وطمأنينة القلب لأمر الله،والإنابة إلى ذكر الله ومحبته ،والفرح بلقائه، والتجافى عن دار الغرور، كما فى الأثر المشهور : إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح ، قيل:وما علامة ذلك ؟ قال:التجافى عن دار الغرور ،والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد

(١) الطبرانى فى الكبير ٣ / ٢٦٦ (٣٣٦٧) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ٦٢) : « فيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه » والعقيلى فى الضعفاء الكبير ٤ / ٤٥٥ وقال : ليس لهذا الحديث إسناد يثبت .

للموت قبل نزوله . وهذه هى الحال التى كانت تحصل للصحابة عند النبى ﷺ إذا ذكرهم الجنة والنار ، كما فى الترمذى وغيره من حديث الجريرى عن أبى عثمان النهدى عن حنظلة الأسدى - وكان من كتاب النبى ﷺ - أنه مر بأبى بكر رضي الله عنه وهو يبكى فقال : مالك يا حنظلة فقال : نافق حنظلة يا أبا بكر ، نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأنا رأى عين ، فإذا رجعنا إلى الأزواج والضيعة نسينا كثير . قال :فوالله ،إنا لكذلك . انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ ، فانطلقنا ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « مالك يا حنظلة؟ » قال : نافق حنظلة يا رسول الله ، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى عين، فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ، ونسينا كثيرا . قال : فقال رسول الله ﷺ : «لو تدومون على الحال التى تقومون بها من عندى لصافحتكم الملائكة فى مجالسكم وفى طرقكم وعلى فرشكم ،ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ساعة وساعة » . قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح (١). وفى الترمذى أيضا نحوه من حديث أبى هريرة .

والمقصود : أن الذى يهجم بالقلب على حقيقة الإيمان ويلين له ما يستوعره غيره ويؤنسه بما يستوحش منه سواء العلم التام والحب الخالص ، والحب تبع للعلم ، يقوى بقوته ويضعف بضعفه ، والمحب لا يستوعر طريقا توصله إلى محبوبه ولا يستوحش فيها .

وقوله : ( صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى - وفى رواية : بالمحل الأعلى ) : الروح فى هذا الجسد بدار غربة ، ولها وطن غيره ، فلا تستقر إلا فى وطنها ، وهى جوهر علوى مخلوق من مادة علوية ، وقد اضطرت إلى مساكنة هذا البدن الكثيف ، فهى دائما تطلب وطنها فى المحل الأعلى ، وتحن إليه حنين الطير إلى أوكارها ، وكل روح ففيها ذلك ولكن لفرط اشتغالها بالبدن، وبالمحسوسات المألوفة أخلدت إلى الأرض ، ونسيت معلمها ووطنها الذى لا راحة لها فى غيره ، فإنه لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه ، والدنيا سجنه حقا ، فلهذا تجد المؤمن بدنه فى الدنيا ، وروحه فى المحل الأعلى - وفى الحديث المرفوع : « إذا نام العبد وهو ساجد باهى الله به الملائكة فيقول : انظروا إلى عبدى ، بدنه فى الأرض وروحه عندى » (٢) رواه تمام وغيره . وهذا معنى قول بعض السلف . القلوب جوالة ، فقلب حول الحشر ، وقلب يطوف مع الملائكة حول العرش ، فأعظم عذاب الروح انغماسها وتدسيسها فى أعماق البدن ، واشتغالها بملاذه ، وانقطاعها

(١) الترمذى (٢٥١٤) فى صفة القيامة والرقائق والورع ، باب : (٥٩) ، ورواه مسلم (٢٧٥٠ / ١٢) فى التوبة ، باب : فضل دوام الذكر والفكر فى أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك فى بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا ، وابن ماجه (٤٢٣٩) فى الزهد ، باب : المداومة على العمل .

(٢) أحمد فى الزهد ص ٢٨٠ ، وقال ابن حجر فى التلخيص الحبير رقم (١٦٣) : « حديث منقطع » .

عن ملاحظة ما خلقت له وهيئت له وعن وطنها ومحلها ومحل أنسها ومنزل كرامتها ، ولكن سكر الشهوات يحجبها عن مطالعة هذا الألم والعذاب ، فإذا صحت من سكرها ، وأفاقت من غمرتها ، أقبلت عليها جيوش الحسرات من كل جانب ، فحينئذ تتقطع حسرات على مافاتها من كرامة الله وقربه والأنس به ، والوصول إلى وطنها الذى لا راحة لها إلا فيه ، كما قيل :

صحبتك إذ عينى عليها غشاوة  فلما انجلت قطعت نفسى ألومها

ولو تنقلت الروح فى المواطن كلها والمنازل ، لم تستقر ولم تطمئن إلا فى وطنها ومحلها الذى خلقت له ، كما قيل :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى  ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل فى الأرض يألفه الفتــى  وحنينه أبــدا لأول مــنزل

وإذا كانت الروح تحن أبدا إلى وطنها من الأرض مع قيام غيره مقامه فى السكنى ، وكثيرا ما يكون غير وطنها أحسن وأطيب منه ، وهى دائما تحن إليه ، مع أنه لا ضرر عليها ولا عذاب فى مفارقته إلى مثله ، فكيف بحنينها إلى الوطن الذى فى فراقها له عذابها وآلامها وحسرتها التى لا تنقضى ، فالعبد المؤمن فى هذه الدار سبى من الجنة إلى دار التعب والعناء ، ثم ضرب عليه الرق فيها ، فكيف يلام على حنينه إلى داره التى سبى منها ، وفرق بينه وبين من يحب ، وجمع بينه وبين عدوه ، فروحه دائما معلقة بذلك الوطن وبدنه فى الدنيا ، ولى من أبيات فى ذلك :

وحى على جنات عـدن فإنها  منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبى العدو فهل تـرى  نعــود إلى أوطاننا ونسلم

وكلما أراد منه العدو نسيان وطنه وضرب الذكر عنه صفحا وإيلافه وطنا غيره ، أبت ذلك روحه وقلبه ، كما قيل :

يراد من القلب نسيانكم  وتأبى الطباع على الناقل

ولهذا كان المؤمن غريبا فى هذه الدار أين حل منها ، فهو فى دار غربة ، كما قال النبى ﷺ : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل »(١) ، ولكنها غربة تنقضى ويصير إلى وطنه ومنزله ، وإنما الغربة التى لا يرجى انقطاعها فهى غربة فى دار الهوان ، ومفارقة

---

(١) البخارى (٦٤١٦) فى الرقاق ، باب : قول النبى ﷺ : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » ، والترمذى (٢٣٣٣) فى الزهد ، باب : ما جاء فى قصر الأمل ، وابن ماجه (٤١١٤) فى الزهد ، باب : مثل الدنيا ، وأحمد ٢ / ٢٤ .

وطنه الذى كان قد هيئ وأعد له ، وأمر بالتجهيز إليه والقدوم عليه ، فأبى إلا اغترابه عنه ومفارقته له ، فتلك غربة لا يرجى إيابها ، ولا يجبر مصابها ، ولا تبادر إلى إنكار كون البدن فى الدنيا والروح فى الملأ الأعلى ، فللروح شأن وللبدن شأن ، والنبى ﷺ كان بين أظهر أصحابه وهو عند ربه يطعمه ويسقيه ، فبدنه بينهم ، وروحه وقلبه عند ربه . وقال أبو الدرداء : إذا نام العبد عرج بروحه إلى تحت العرش ، فإن كان طاهرا أذن لها بالسجود ، وإن لم يكن طاهرا لم يؤذن لها بالسجود . فهذه ـ والله أعلم ـ هى العلة التى أمر الجنب لأجلها أن يتوضأ إذا أراد النوم . وهذا الصعود إنما كان لتجرد الروح عن البدن بالنوم ، فإذا تجردت بسبب آخر حصل لها من الترقى والصعود بحسب ذلك التجرد ، وقد يقوى الحب بالمحب حتى لا يشاهد منه بين الناس إلا جسمه وروحه فى موضع آخر عند محبوبه ، وفى هذا من أشعار الناس وحكاياتهم ما هو معروف .

وقوله :( أولئك خلفاء الله فى أرضه،ودعاته إلى دينه)هذا حجة أحد القولين فى أنه يجوز أن يقال :فلان خليفة الله فى أرضه واحتج أصحابه أيضا بقوله تعالى للملائكة : ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [ البقرة : ٣٠ ] ، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ** ﴾ [ فاطر : ٣٩ ] ،وهذا خطاب لنوع الإنسان ، وبقوله تعالى: ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ** ﴾ [ النمل : ٦٢ ] ،وبقول موسى لقومه: ﴿**عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)** ﴾ [ الأعراف ] ، وبقول النبى ﷺ : « إن الله ممكن لكم فى الأرض ومستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء » (١) . واحتجوا بقول الراعى يخاطب أبا بكر رضي الله عنه :

خليفة الرحمن إنا معشـــر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى لله فى أموالنا حق الزكـــاة منزلا تنزيلا

ومنعت طائفة هذا الإطلاق وقالت:لا يقال لأحد أنه خليفة الله؛ فإن الخليفة إنما يكون عمن يغيب ويخلفه غيره ،والله تعالى شاهد غائب ، قريب غير بعيد ، راء وسامع ، فمحال أن يخلفه غيره ، بل هو ـ سبحانه ـ الذى يخلف عبده المؤمن فيكون خليفته ، كما قال النبى ﷺ فى حديث الدجال :« إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ،وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مؤمن» (٢) والحديث فى

(١) مسلم (٢٧٤٢) فى الذكر ، باب : أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء ، والترمذى (٢١٩١) فى الفتن ، باب : ما جاء ما أخبر النبى ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وابن ماجه (٤٠٠٠) فى الفتن ، باب : فتنة النساء ، وأحمد ٣ / ١٩ .

(٢) مسلم (٢١٣٧ / ١١٠) فى الفتن وأشراط الساعة ، باب : ذكر الدجال وصفته وما معه .

الصحيح. وفى صحيح مسلم أيضا من حديث عبد الله بن عمرو ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا سافر: «اللهم أنت الصاحب فى السفر ،والخليفة فى الأهل والحضر » الحديث(١). وفى الصحيح : أن النبى ﷺ قال: « اللهم اغفر لأبى سلمة ، وارفع درجته فى المهديين ، واخلفه فى أهله » (٢) ،فالله تعالى هو خليفة العبد ؛ لأن العبد يموت فيحتاج إلى من يخلفه فى أهله قالوا : ولهذا أنكر الصديق رضي الله عنه على من قال له : يا خليفة الله . قال : لست بخليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله ، وحسبى ذلك .

قالوا : وأما قوله تعالى :﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [ البقرة : ٣٠ ] فلا خلاف أن المراد به آدم وذريته ، وجمهور أهل التفسير من السلف والخلف على أنه جعله خليفة عمن كان قبله فى الأرض ، قيل : عن الجن الذين كانوا سكانها ، وقيل : عن الملائكة الذين سكنوها بعد الجن ، وقصتهم مذكورة فى التفاسير .

وأما قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ ﴾ [ فاطر : ٣٩ ] فليس المراد به خلائف عن الله ، وإنما المراد به : أنه جعلكم يخلف بعضكم بعضا ، فكلما هلك قرن خلفه قرن ، إلى آخر الدهر . ثم قيل : إن هذا خطاب لأمة محمد ﷺ خاصة ، أى جعلكم خلائف من الأمم الماضية فهلكوا ، وورثتم أنتم الأرض من بعدهم . ولا ريب أن هذا الخطاب للأمة ، والمراد نوع الإنسان الذى جعل الله أباهم خليفة عمن قبله ، وجعل ذريته يخلف بعضهم بعضا إلى قيام الساعة ؛ ولهذا جعل هذا آية من آياته كقوله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ [ النمل : ٦٢ ] .

وأما قول موسى لقومه : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ [ الأعراف : ١٢٩ ] فليس ذلك استخلافا عنه ، وإنما هو استخلاف عن فرعون وقومه ، أهلكهم وجعل قوم موسى خلفاء من بعدهم ، وكذا قول النبى ﷺ : « إن الله مستخلفكم فى الأرض » (٣) أى من الأمم التى تهلك ، وتكونون أنتم خلفاء من بعدهم .

قالوا : وأما قول الراعى فقول شاعر قال قصيدة فى غيبة الصديق، لا يدرى أبلغت أبا بكر أم لا ؟ ولو بلغته فلا يعلم أنه أقره على هذه اللفظة أم لا ؟ قلت : إن أريد بالإضافة إلى الله أنه خليفة عنه فالصواب قول الطائفة المانعة منها ، وإن أريد بالإضافة أن الله

---

(١) مسلم (١٣٤٢ / ٤٢٥) فى الحج ، باب : ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره .

(٢) مسلم (٩٢٠ / ٧) فى الجنائز ، باب : فى إغماض الميت والدعاء له إذا حضر ، وأبو داود (٣١١٨) فى الجنائز ، باب : تغميض الميت .

(٣) سبق تخريجه ص (٢٥٦) .

استخلفه عن غيره ممن كان قبله فهذا لا يمتنع فيه الإضافة ، وحقيقتها خليفة الله الذى جعله الله خلفا عن غيره ، وبهذا يخرج الجواب عن قول أمير المؤمنين : ( أولئك خلفاء الله فى أرضه ) .

فإن قيل : هذا لا مدح فيه ؛ لأن هذا الاستخلاف عام فى الأمة ، وخلافة الله التى ذكرها أمير المؤمنين خاصة بخواص الخلق .

فالجواب : أن الاختصاص المذكور أفاد اختصاص الإضافة ، فالإضافة هنا للتشريف والتخصيص كما يضاف إليه عباده،كقوله تعالى : **﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾**[ الحجر : ٤٢ ] . **﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾**[ الفرقان:٦٣] ونظائرهما . ومعلوم أن كل الخلق عباد له ، فخلفاء الأرض كالعباد فى قوله: **﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾**[ آل عمران] **﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾** [غافر ] ، وخلفاء الله فى قوله : **﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾** [ الحجر : ٤٢ ] ونظائره .

وقوله :( ودعاته إلى دينه ): الدعاة جمع داع ، كقاض وقضاة ورام ورماة ، وإضافتهم إلى الله للاختصاص ، أى الدعاة المخصوصون به ، الذين يدعون إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته، وهؤلاء هم خواص خلق الله وأفضلهم عند الله منزلة ، وأعلاهم قدرا ، يدل على ذلك :

**الوجه الثلاثون بعد المائة** : وهو قوله تعالى : **﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾** [ فصلت ] . قال الحسن : هو المؤمن أجاب الله فى دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحا فى إجابته ، فهذا حبيب الله ، هذا ولى الله . فمقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد ، قال تعالى : **﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾** [ الجن ] .

وقال تعالى : **﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾** [ النحل : ١٢٥ ] جعل ـ سبحانه ـ مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق ، فالمستجيب القابل الذكى الذى لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة ، والقابل الذى عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة ،وهى الأمر والنهى المقرون بالرغبة والرهبة ، والمعاند الجاحد يجادل بالتى هى أحسن . هذا هو الصحيح فى معنى هذه الآية ، لا ما يزعم أسير منطق اليونان أن الحكمة قياس البرهان وهى دعوة الخواص ، والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهى دعوة العوام ،والمجادلة بالتى هى أحسن القياس الجدلى ، وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلى مسلم المقدمات . وهذا باطل ، وهو مبنى على أصول الفلسفة وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [ يوسف : ١٠٨ ] . قال الفراء وجماعة : ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ معطوف على الضمير فى ﴿ أَدْعُو ﴾ يعنى : ومن اتبعنى يدعو إلى الله كما أدعو . وهذا قول الكلبى ، قال : حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ، ويذكر بالقرآن والموعظة . ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة . قال ابن الأنبارى : ويجوز أن يتم الكلام عند قوله : ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ ثم يبتدئ بقوله : ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ ،فيكون الكلام على قوله جملتين أخبر فى أولاهما أنه يدعو إلى الله وفى الثانية بأنه من أتباعه على بصيرة ، والقولان متلازمان ،فلا يكون الرجل من أتباعه حقا حتى يدعو إلى مادعا إليه . وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة ، وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهى لا تحصل إلا بالعلم الذى يدعو به وإليه، بل لابد فى كمال الدعوة من البلوغ فى العلم إلى حد يصل إليه السعى، ويكفى هذا فى شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام ،والله يؤتى فضله من يشاء .

**الوجه الحادى والثلاثون بعد المائة** : أنه لو لم يكن من فوائد العلم إلا أنه يثمر اليقين الذى هو أعظم حياة القلب ، وبه طمأنينته وقوته ونشاطه وسائر لوازم الحياة ؛ ولهذا مدح الله ـ سبحانه ـ أهله فى كتابه ، وأثنى عليهم بقوله : ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④﴾ [ البقرة ] ، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا (١) الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ⑱⑪﴾ [ البقرة ] ، وقوله فى حق خليله إبراهيم : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ⑦⑤﴾ [ الأنعام ] ، وذم من لا يقين عنده فقال : ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ⑧②﴾ [ النمل ] .

وفى الحديث المرفوع من حديث سفيان الثورى عن سليمان التيمى ، عن خيثمة ، عن عبد الله بن مسعود ـ يرفعه : « لا ترضين أحدا بسخط الله ، ولا تحمدن أحدا على فضله ، ولا تذمن أحدا على مالم يؤتك الله ، فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص ، ولا يرده عنك كراهية كاره ، وأن الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة والفرح فى الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط » (٢) . فإذا باشر القلب اليقين امتلأ نورا ، وانتفى عنه كل ريب وشك ، وعوفى من أمراضه القاتلة ، وامتلأ شكرا لله وذكرا له ، ومحبة وخوفا ، فحى عن بينة . واليقين والمحبة هما ركنا الإيمان ، وعليهما ينبنى ، وبهما قوامه ، وهما يمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية ، وعنهما تصدر ، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال ، وبقوتهما قوتها .

(١) فى المطبوعة : « كذلك نفصل » .

(٢) الطبرانى فى الكبير ١٠ / ٢٦٦ (٤ / ١٠٥) ، وقال الهيثمى فى المجمع(٤ / ٧٤) : « فيه خالد بن يزيد العمرى واتهم بالوضع » .

وجميع منازل السائرين ومقامات العارفين إنما تفتح بهما ، وهما يثمران كل عمل صالح ، وعلم نافع ، وهدى مستقيم . قال شيخ العارفين الجنيد : اليقين هو استقرار العلم الذى لا ينقلب ولا يتحول ولا يتغير فى القلب . وقال سهل : حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله . وقيل : من علاماته الالتفات إلى الله فى كل نازلة ، والرجوع إليه فى كل أمر ، والاستعانة به فى كل حال ، وإرادة وجهه بكل حركة وسكون . وقال السرى : اليقين السكون عند جولان الموارد فى صدرك لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقضيا . قلت : هذا إذا لم تكن الحركة مأمورا بها ، فإذا كانت مأمورا بها فاليقين فى بذل الجهد فيها واستفراغ الوسع .

وقيل : إذا استكمل العبد حقيقة اليقين صار البلاء عنده نعمة والمحنة منحة ، فالعلم أول درجات اليقين ؛ ولهذا قيل : العلم يستعملك واليقين يحملك ، فاليقين أفضل مواهب الرب لعبده ، ولا تثبت قدم الرضاء إلا على درجة اليقين ، قال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ [ التغابن : ١١ ] . قال ابن مسعود : هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله فيرضى ويسلم ؛ فلهذا لم يحصل له هداية القلب والرضا والتسليم إلا بيقينه .

**الوجه الثانى والثلاثون بعد المائة** : ما رواه أبو يعلى الموصلى فى مسنده من حديث أنس ابن مالك ـ يرفعه إلى النبى ﷺ ـ قال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (١) . وهذا وإن كان فى سنده حفص بن سليمان وقد ضعف ، فمعناه صحيح ، فإن الإيمان فرض على كل واحد ، وهو ماهية مركبة من علم وعمل ، فلا يتصور وجود الإيمان إلا بالعلم والعمل .

ثم شرائع الإسلام واجبة على كل مسلم ، ولا يمكن أداؤها إلا بعد معرفتها والعلم بها ، والله تعالى أخرج عباده من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا ، فطلب العلم فريضة على كل مسلم ، وهل تمكن عبادة الله ـ التى هى حقه على العباد كلهم ـ إلا بالعلم ؟ وهل ينال العلم إلا بطلبه ؟ ثم إن العلم المفروض تعلمه ضربان .

ضرب منه فرض عين ، لا يسع مسلما جهله ، وهو أنواع :

**النوع الأول** : علم أصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فإن من لم يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل فى باب الإيمان ، ولا يستحق اسم المؤمن ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ** ﴾ [ البقرة : ١٧٧ ] ، وقال :

---

(١) أبو يعلى فى مسنده (٢٨٣٧) ، والحديث رواه أيضا ابن ماجه (٢٢٤) فى المقدمة ، باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم ، وقال البوصيرى فى مصباح الزجاجة ١/ ٣٠ : « هذا إسناد ضعيف ؛ لضعف حفص بن سليمان » ، وصححه الألبانى .

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴿١٣٦﴾ ﴾ [ النساء ] .
ولما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » قال : صدقت [1] . فالإيمان بهذه الأصول فرع معرفتها والعلم بها .

**النوع الثانى** : علم شرائع الإسلام ، واللازم منها علم ما يخص العبد من فعلها كعلم الوضوء والصلاة والصيام والحج والزكاة وتوابعها وشروطها ومبطلاتها .

**النوع الثالث** : علم المحرمات الخمسة ، التى اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الإلهية ، وهى المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ الأعراف ] فهذه محرمات على كل واحد ، فى كل حال ، على لسان كل رسول ، لا تباح قط ؛ ولهذا أتى فيها بإنما المفيدة للحصر مطلقا ، وغيرها محرم فى وقت مباح فى غيره ، كالميتة والدم ولحم الخنزير ونحوه ، فهذه ليست محرمة على الإطلاق والدوام ، فلم تدخل تحت التحريم المحصور المطلق .

**النوع الرابع** : علم أحكام المعاشرة والمعاملة التى تحصل بينه وبين الناس خصوصا وعموما ، والواجب فى هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم ، فليس الواجب على الإمام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله وجيرته ، وليس الواجب على من نصب نفسه لأنواع التجارات مِنْ تعلم أحكام البياعات، كالواجب على من لا يبيع ولا يشترى إلا ما تدعو الحاجة إليه .

وتفصيل هذه الجملة لا ينضبط بحد لاختلاف الناس فى أسباب العلم الواجب ، وذلك يرجع إلى ثلاثة أصول : اعتقاد وفعل وترك ، فالواجب فى الاعتقاد مطابقته للحق فى نفسه ، والواجب فى العمل معرفته وموافقة حركات العبد الظاهرة والباطنة الاختيارية للشرع أمر وإباحة ، والواجب فى الترك معرفة موافقة الكف والسكون لمرضات الله ، وأن المطلوب منه إبقاء هذا الفعل على عدمه المستصحب ، فلا يتحرك فى طلبه أو كف النفس عن فعله على الطريقتين . وقد دخل فى هذه الجملة علم حركات القلوب والأبدان .

وأما فرض الكفاية : فلا أعلم فيه ضابطا صحيحا ، فإن كل أحد يدخل فى ذلك ما يظنه فرضا ،فيدخل بعض الناس فى ذلك علم الطب وعلم الحساب وعلم الهندسة والمساحة ،وبعضهم يزيد على ذلك علم أصول الصناعة كالفلاحة والحياكة والحدادة والخياطة ونحوها ، وبعضهم يزيد على ذلك علم المنطق وربما جعله فرض عين ، وبناه على

(١) البخارى (٥٠) فى الإيمان ، باب : سؤال جبريل النبى ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان ، ومسلم (٩ / ٥) فى الإيمان ، باب : بيان الإيمان والإسلام والإحسان .

عدم صحة إيمان المقلد ، وكل هذا هوس وخبط ، فلا فرض إلا ما فرضه الله ورسوله ـ فياسبحان الله ! هل فرض الله على كل مسلم أن يكون طبيبا حجاما ، حاسبا مهندسا ، أو حائكا ، أو فلاحا ، أو نجارا ، أو خياطا ، فإن فرض الكفاية كفرض العين فى تعلقه بعموم المكلفين ، وإنما يخالفه فى سقوطه بفعل البعض ، ثم على قول هذا القائل يكون الله قد فرض على كل أحد جملة هذه الصنائع والعلوم ، فإنه ليس واحد منها فرضا على معين والآخر على معين آخر ، بل عموم فرضيتها مشتركة بين العموم ، فيجب على كل أحد أن يكون حسابا حائكا خياطا نجارا فلاحا طبيبا مهندسا ، فإن قال المجموع فرض على المجموع لم يكن قولك : إن كل واحد منها فرض كفاية صحيحا ، لأن فرض الكفاية يجب على العموم .

وأما المنطق : فلو كان علما صحيحا كان غايته أن يكون كالمساحة والهندسة ونحوها ، فكيف وباطله أضعاف حقه وفساده ، وتناقض أصوله واختلاف مبانيه توجب مراعاتها للذهن أن يزيغ فى فكره ، ولا يؤمن بهذا إلا من قد عرفه وعرف فساده وتناقضه ، ومناقضة كثير منه للعقل الصريح . وأخبر بعض من كان قد قرأه وعنى به أنه لم يزل متعجبا من فساد أصوله وقواعده ، ومباينها لصريح المعقول ، وتضمنها لدعاو محضة غير مدلول عليها ، وتفريقه بين متساويين ، وجمعه بين مختلفين ، فيحكم على الشىء بحكم وعلى نظيره بضد ذلك الحكم ، أو يحكم على الشىء بحكم ثم يحكم على مضاده أو مناقضه به . قال : إلى أن سألت بعض رؤسائه وشيوخ أهله عن شىء من ذلك ، فأفكر فيه ثم قال : هذا علم قد صقلته الأذهان ، ومرت عليه من عهد القرون الأوائل ـ أو كما قال ـ فينبغى أن نتسلمه من أهله ، وكان هذا من أفضل ما رأيت فى المنطق . قال : إلى أن وقفت على رد متكلمى الإسلام عليه ،وتبيين فساده وتناقضه ، فوقفت على مصنف لأبى سعيد السيرافى النحوى فى ذلك ،وعلى رد كثير من أهل الكلام والعربية عليهم ، كالقاضى أبى بكر بن الطيب والقاضى عبد الجبار ، والجبائى وابنه ، وأبى المعالى ، وأبى القاسم الأنصارى ، وخلق لا يحصون كثرة ، ورأيت استشكالات فضلائهم ورؤسائهم لمواضع الإشكال ومخالفتها ، ما كان ينقدح لى كثير منه . ورأيت آخر من تجرد للرد عليهم شيخ الإسلام ـ قدس الله روحه ـ فإنه أتى فى كتابيه الكبير والصغير بالعجب العجاب ، وكشف أسرارهم وهتك أستارهم ، فقلت فى ذلك :

واعجبا لمنطق اليونان ... كم فيه من إفك ومن بهتان

مخبط لجيد الأذهان ... ومفسد لفطرة الإنسان

مضطرب الأصول والمباني ... على شفا هار بناه الباني
أحوج ما كان إليه العاني ... يخونه في السر والإعلان
يمشي به اللسان في الميدان ... مشي مقيد على صفوان
متصل العثار والتواني ... كأنه السراب بالقيعان
بدا لعين الظمئ الحيراني ... فأمه بالظن والحسبان
يرجو شفاء غلة الظمآن ... فلم يجد ثم سوى الحرمان
فعاد بالخيبة والخسران ... يقرع سن نادم حيران
قد ضاع منه العمر في الأماني ... وعاين الخفة في الميزان

وما كان من هوس النفوس بهذه المنزلة ، فهو بأن يكون جهلا أولى منه بأن يكون علما تعلمه فرض كفاية أو فرض عين . وهذا الشافعى وأحمد وسائر أئمة الإسلام وتصانيفهم وسائر أئمة العربية وتصانيفهم وأئمة التفسير وتصانيفهم ، لمن نظر فيها هل راعوا فيها حدود المنطق وأوضاعه ؟ وهل صح لهم علمهم بدونه أم لا ؟ بل هم كانوا أجل قدرا وأعظم عقولا من أن يشغلوا أفكارهم بهذيان المنطقيين ، وما دخل المنطق على علم إلا أفسده ، وغير أوضاعه ، وشوش قواعده .

ومن الناس من يقول : إن علوم العربية من التصريف والنحو واللغة والمعانى والبيان ونحوها تعلمها فرض كفاية ؛ لتوقف فهم كلام الله ورسوله عليها . ومن الناس من يقول : تعلم أصول الفقه فرض كفاية؛ لأنه العلم الذى يعرف به الدليل ومرتبته ، وكيفية الاستدلال .

وهذه الأقوال وإن كانت أقرب إلى الصواب من القول الأول ، فليس وجوبها عاما على كل أحد ولا فى كل وقت ،وإنما يجب وجوب الوسائل فى بعض الأزمان وعلى بعض الأشخاص ، بخلاف الفرض الذى يعم وجوبه كل أحد ، وهو علم الإيمان وشرائع الإسلام ،فهذا هو الواجب وأما ما عداه فإن توقفت معرفته عليه فهو من باب مالا يتم الواجب إلا به ، ويكون الواجب منه القدر الموصل إليه ، دون المسائل التى هى فضلة لا يفتقر معرفة الخطاب وفهمه إليها . فلا يطلق القول بأن علم العربية واجب على الإطلاق ، إذ الكثير منه ومن مسائله وبحوثه لا يتوقف فهم كلام الله ورسوله عليها ، وكذلك أصول الفقه القدر الذى يتوقف فهم الخطاب عليه منه يجب معرفته دون المسائل المقررة والأبحاث التى هى فضلة ، فكيف يقال : إن تعلمها واجب ؟ ! وبالجملة ، فالمطلوب الواجب من

العبد من العلوم والأعمال إذا توقف على شىء منها ، كان ذلك الشىء واجبا وجوب الوسائل . ومعلوم أن ذلك التوقــف يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والألسنة والأذهان ، فليس لذلك حد مقدر ، والله أعلم .

**الوجه الثالث والثلاثون بعد المائة** : ما رواه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة ـ يرفعه إلى النبى ﷺ ـ قال : « سأل موسى ربه عن ست خصال ، كان يظن أنها له خالصة ، والسابعة لم يكن موسى يحبها قال : يا رب ، أى عبادك أتقى ؟ قال : الذى يذكر ولا ينسى ، قال : فأى عبادك أهدى ؟ قال : الذى يتبع الهدى ، قال : فأى عبادك أحكم ؟ قال : الذى يحكم للناس ما يحكم لنفسه ، قال : أى عبادك أعلم ؟ قال : عالم لا يشبع من العلم ، يجمع علم الناس إلى علمه ، قال : فأى عبادك أعز ؟ قال : الذى إذا قدر عفا ، قال : فأى عبادك أغنى ؟ قال : الذى يرضى بما أوتى ، قال : فأى عبادك أفقر ؟ قال : صاحب منقوص » (١) . فأخبر فى هذا الحديث أن أعلم عباده الذى لا يشبع من العلم ، فهو يجمع علم الناس إلى علمه ؛ لنهمته فى العلم وحرصه عليه . ولا ريب أن كون العبد أعظم عباد الله من أعظم أوصاف كماله ،وهذا هو الذى حمل موسى على الرحلة إلى عالم الأرض ليعلمه مما علمه الله . هذا وهو كليم الرحمن ، وأكرم الخلق على الله فى زمانه ،وأعلم الخلق . فحمله حرصه ونهمته فى العلم على الرحلة إلى العالم الذى وصف له ، فلولا أن العلم أشرف ما بذلت فيه المهج وأنفقت فيه الأنفاس لاشتغل موسى عن الرحلة إلى الخضر بما هو بصدده من أمر الأمة ، وعن مقاساة النصب والتعب فى رحلته وتلطفه للخضر فى قوله : ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** (٦٦) ﴾ [ الكهف ] فلم ير اتباعه حتى استأذنه فى ذلك ، وأخبره أنه جاء متعلما مستفيدا . فهذا النبى الكريم كان عالما بقدر العلم وأهله ، صلوات الله وسلامه عليه .

**الوجه الرابع والثلاثون بعد المائة** : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الخلق لعبادته الجامعة لمحبته ، وإيثار مرضاته المستلزمة لمعرفته ، ونصب للعباد علما لا كمال لهم إلا به ، وهو أن تكون حركاتهم كلها موافقة على وفق مرضاته ومحبته ؛ ولذلك أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، وشرع شرائعه . فكمال العبد الذى لا كمال له إلا به أن تكون حركاته موافقة لما يحبه الله منه ويرضاه له ؛ ولهذا جعل اتباع رسوله دليلا على محبته ، قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٣١) ﴾ [ آل عمران ] ، فالمحب الصادق يرى خيانة منه لمحبوبه أن يتحرك بحركة اختيارية فى غير مرضاته، وإذا فعل

---

(١) ابن حبان (٦١٨٤) .

فعلا مما أبيح له بموجب طبيعته وشهوته تاب منه كما يتوب من الذنب ، ولا يزال هذا الأمر يقوى عنده حتى تنقلب مباحاته كلها طاعات ، فيحتسب نومه وفطره وراحته كما يحتسب قومته وصومه واجتهاده ، وهو دائما بين سراء يشكر الله عليها ، وضراء يصبر عليها ، فهو سائر إلى الله دائما فى نومه ويقظته .

قال بعض العلماء : الأكياس عاداتهم عبادات الحمقى،والحمقى عباداتهم عادات .

وقال بعض السلف حبذا نوم الأكياس وفطرهم ، يغبنون به سهر الحمقى وصومهم ، فالمحب الصادق إن نطق نطق لله وبالله ،وإن سكت سكت لله ،وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فسكونه استعانة على مرضات الله،فهو لله وبالله ومع الله ،ومعلوم أن صاحب هذا المقام أحوج خلق الله إلى العلم، فإنه لا تتميز له الحركة المحبوبة لله من غيرها،ولا السكون المحبوب له من غيره إلا بالعلم ، فليست حاجته إلى العلم كحاجة من طلب العلم لذاته ،ولأنه فى نفسه صفة كمال ، بل حاجته إليه كحاجته إلى مابه قوام نفسه وذاته ؛ ولهذا اشتدت وصاة شيوخ العارفين[1] لمريديهم بالعلم وطلبه ، وأنه من لم يطلب العلم لم يفلح ،حتى كانوا يعدون من لا علم له من السفلة .

قال ذو النون ـ وقد سئل : من السفلة ؟ فقال : من لا يعرف الطريق إلى الله تعالى ، ولا يتعرفه .

وقال أبو يزيد :و نظرتم إلى الرجل ـ وقد أعطى من الكرامات حتى يتربع فى الهواء ـ فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى،وحفظ الحدود ،ومعرفة الشريعة.

وقال أبو حمزة البزاز : من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق الا متابعة الرسول فى أقواله وأفعاله وأحواله .

وقال محمد بن الفضل الصوفى الزاهد : ذهاب الإسلام على يدى أربعة أصناف من الناس : صنف لا يعملون بما يعلمون ، وصنف يعملون بما لا يعلمون ، وصنف لا يعملون ولا يعلمون ، وصنف يمنعون الناس من التعلم .

قلت :

**الصنف الأول** : من له علم بلا عمل فهو أضر شىء على العامة ، فإنه حجة لهم فى كل نقيصة ومنحسة .

---

(١) العارف بالله عند المحققين من علماء السنة : يراد به من يزهد الناس فى الدنيا ويرغبهم فى الآخرة ويحببهم فى الله تعالى ورسوله وعمل الخيرات،على الإخلاص ووفق الاتباع،لا الابتداع ،على خلاف ما يعتقده كثير من أدعياء التصوف بلا علم حيث العارف عندهم من يتوسل به إلى الله تعالى ولو كان قد مات منذ زمن أو يقدس فى حياته ويعظم بما يضعه بما لا يليق بالبشر. والله أعلم .

**والصنف الثانى** : العابد الجاهل ، فإن الناس يحسنون الظن به لعبادته وصلاحه فيقتدون به على جهله ، وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف فى قوله : ( احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم ، فإذا كان العلماء فجرة والعباد جهلة عمت المصيبة بهما ، وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة ) .

**والصنف الثالث** : الذين لا علم لهم ولا عمل وإنما هم كالأنعام السائمة .

**والصنف الرابع** : نواب إبليس فى الأرض ، وهم الذين يثبطون الناس عن طلب العلم والتفقه فى الدين ، فهؤلاء أضر عليهم من شياطين الجن ، فإنهم يحولون بين القلوب وبين هدى الله وطريقه .

فهؤلاء الأربعة أصناف هم الذين ذكرهم هذا العارف ـ رحمة الله عليه ـ وهؤلاء كلهم على شفا جرف هار وعلى سبيل الهلكة . وما يلقى العالم الداعى إلى الله ورسوله ما يلقاه من الأذى والمحاربة إلا على أيديهم ، والله يستعمل من يشاء فى سخطه كما يستعمل من يحب فى مرضاته ، إنه بعباده خبير بصير ، ولا ينكشف سر هذه الطوائف وطريقتهم إلا بالعلم . فعاد الخير بحذافيره إلى العلم وموجبه ، والشر بحذافيره إلى الجهل وموجبه .

**الوجه الخامس والثلاثون بعد المائة** : أن الله ـ سبحانه ـ جعل العلماء وكلاء وأمناء على دينه ووحيه ،وارتضاهم لحفظه والقيام به والذب عنه ،وناهيك بها منزلة شريفة ومنقبة عظيمة ، قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾** ﴾ [ الأنعام ] ،وقد قيل : إن هؤلاء القوم هم الأنبياء ، وقيل : أصحاب رسول الله ﷺ ،وقيل : كل مؤمن . هذه أمهات الأقوال بعد أقوال متفرعة عن هذه ، كقول من قال :هم الأنصار أو المهاجرون والأنصار ، أو قوم من أبناء فارس ، وقال آخرون : هم الملائكة . قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصواب أنهم الأنبياء الثمانية عشر الذين سماهم فى الآيات قبل هذه الآية . قال : وذلك أن الخبر فى الآيات قبلها عنهم مضى وفى التى بعدها عنهم ذكر ، فما يليها بأن يكون خبرا عنهم أولى وأحق بأن يكون خبرا عن غيرهم ، فالتأويل : فإن يكفر قومك من قريش يا محمد بآياتنا وكذبوا بها وجحدوا حقيقتها ، فقد استحفظناها ، واسترعينا القيام بها رسلنا وأنبياءنا من قبلك الذين لا يجحدون حقيقتها ، ولا يكذبون بها ، ولكنهم يصدقون بها ويؤمنون بصحتها .

قلت : السورة مكية ،والإشارة بقوله ﴿ **هَؤُلاءِ** ﴾ إلى من كفر به من قومه أصلا ومن

عداهم تبعا ، فيدخل فيها كل من كفر بما جاء به من هذه الأمة . والقوم الموكلون بها هم الأنبياء أصلا والمؤمنون بهم تبعا ، فيدخل كل من قام بحفظها والذب عنها والدعوة إليها . ولا ريب أن هذا للأنبياء أصلا وللمؤمنين بهم تبعا ، وأحق من دخل فيها من أتباع الرسول خلفاؤه فى أمته وورثته ، فهم الموكلون بها ، وهذا ينتظم فى الأقوال التى قيلت فى الآية .

وأما قول من قال : إنهم الملائكة ، فضعيف جدا ، لا يدل عليه السياق ، وتأباه لفظة ( قوما ) ، إذ الغالب فى القرآن بل المطرد تخصيص القوم ببنى آدم دون الملائكة .

وأما قول إبراهيم لهم : ﴿ قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴾ فإنما قاله لما ظنهم من الإنس ، وأيضا فلا يقتضيه فخامة المعنى ومقصوده ؛ ولهذا لو أظهر ذلك وقيل : فإن يكفر بها كفار قومك فقد وكلنا بها الملائكة ، فإنهم لا يكفرون بها لم نجد منه من التسلية وتحقير شأن الكفرة بها ، وبيان عدم تأهلهم لها والإنعام عليهم ، وإيثار غيرهم من أهل الإيمان الذين سبقت لهم الحسنى عليهم لكونهم أحق بها وأهلها ، والله أعلم حيث يضع هداه ويختص به من يشاء .

وأيضا ، فإن تحت هذه الآية إشارة وبشارة بحفظها ، وأنه لا ضيعة عليها ، وأن هؤلاء وإن ضيعوها ولم يقبلوها فإن لها قوما غيرهم يقبلونها ويحفظونها ، ويرعونها ويذبون عنها . فكفر هؤلاء بها لا يضيعها ولا يذهبها ولا يضرها شيئا ، فإن لها أهلا ومستحقا سواهم . فتأمل شرف هذا المعنى وجلالته ، وما تضمنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة إليها ، والمسارعة إلى قبولها ، وما تحته من تنبيههم على محبته لهم ، وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائه الكافرين ، وما تحته من احتقارهم وازدرائهم ، وعدم المبالاة والاحتفال بهم ، وإنكم وإن تؤمنوا بها فعبادى المؤمنون بها الموكلون بها سواكم كثير ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴿١٠٨﴾ ﴾ [ الإسراء ] .

وإذا كان للملك عبيد قد عصوه وخالفوا أمره ولم يلتفتوا إلى عهده ، وله عبيد آخرون سامعون له مطيعون قابلون مستجيبون لأمره ، فنظر إليهم وقال : إن يكفر هؤلاء نعمى ويعصوا أمرى ويضيعوا عهدى ، فإن لى عبيدا سواهم وهم أنتم ، تطيعون أمرى وتحفظون عهدى ، وتؤدون حقى ، فإن عبيده المطيعين يجدون فى أنفسهم من الفرح والسرور والنشاط وقوة العزيمة ما يكون موجبا لهم المزيد من القيام بحق العبودية ، والمزيد من كرامة سيدهم ومالكهم ، وهذا أمر يشهد به الحس والعيان .

وأما توكيلهم بها فهو يتضمن توفيقهم للإيمان بها ،والقيام بحقوقها ،ومراعاتها والذب عنها والنصيحة لها ، كما يوكل الرجل غيره بالشىء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه و( بها )

الأولى متعلقة بوكلنا ، و ( بها ) الثانية متعلقة بكافرين ، والباء فى ( بكافرين ) لتأكيد النفى .

فإن قلت : فهل يصح أن يقال لأحد هؤلاء المؤكلين : إنه وكيل الله بهذا المعنى كما يقال: ولى الله .

قلت : لا يلزم من إطلاق فعل التوكل المقيد بأمر ما أن يصاغ منه اسم فاعل مطلق ، كما أنه لا يلزم من إطلاق فعل الاستخلاف المقيد أن يقال : خليفة الله لقوله : ﴿ **وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ** ﴾ [ الأعراف : ١٢٩ ] وقوله : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ [ النور : ٥٥ ] ،فلا يوجب هذا الاستخلاف أن يقال لكل منهم : إنه خليفة الله ؛ لأنه استخلاف مقيد . ولما قيل للصديق : يا خليفة الله ، قال : لست بخليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله وحسبى ذلك . ولكن يسوغ أن يقال : هو وكيل بذلك ، كما قال تعالى : ﴿ **فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا** ﴾ [ الأنعام : ٨٩ ] .

والمقصود : أن هذا التوكيل خاص بمن قام بها علما وعملا وجهادا لأعدائها ، وذبا عنها ونفيا لتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين . وأيضا ، فهو توكيل رحمة وإحسان وتوفيق واختصاص لا توكيل حاجة ، كما يوكل الرجل من يتصرف عنه فى غيبته لحاجة إليه؛ ولهذا قال بعض السلف : ( فقد وكلنا بها قوما ) يقول : رزقناها قوما . فلهذا لا يقال لمن رزقها ورحم بها : أنه وكيل لله . وهذا بخلاف اشتقاق ولى الله من الموالاة ، فإنها المحبة والقرب ، فكما يقال : عبد الله وحبيبه ، يقال : وليه ، والله تعالى يوالى عبده إحسانا إليه ، وجبرا له ورحمة ، بخلاف المخلوق فإنه يوالى المخلوق لتعززه به وتكثره بموالاته لذل العبد وحاجته ، وأما العزيز الغنى فلا يوالى أحدا من ذل ولا حاجة ، قال تعالى : ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)** ﴾ [ الإسراء ] ، فلم ينف الولى نفيا عاما مطلقا ، بل نفى أن يكون له ولى من الذل ، وأثبت فى موضع آخر أن له أولياء بقوله : ﴿ **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)** ﴾ [ يونس ] ،وقوله: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [ البقرة : ٢٥٧ ] ، فهذا موالاة رحمة وإحسان وجبر ، والموالاة المنفية موالاة حاجة وذل ، يوضح هذا :

**الوجه السادس والثلاثون بعد المائة :** وهو ما روى عن النبى ﷺ من وجوه متعددة أنه قال : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » (١) ، فهذا الحمل المشار إليه فى هذا الحديث هو التوكل المذكور فى الآية ، فأخبر ﷺ أن العلم الذى جاء به يحمله عدول أمته من كل خلف حتى

(١) سبق تخريجه ص (٢٥٠) .

لا يضيع ويذهب ، وهذا يتضمن تعديله ﷺ لحملة العلم الذى بعث به ، وهو المشار إليه فى قوله :« هذا العلم » ، فكل من حمل العلم المشار إليه لابد وأن يكون عدلا ؛ ولهذا اشتهر عند الأمة عدالة نقلته وحملته اشتهارا لا يقبل شكا ولا امتراء . ولا ريب أن من عدله رسول الله ﷺ لا يسمع فيه جرح ، فالأئمة الذين اشتهروا عند الأمة بنقل العلم النبوى وميراثه كلهم عدول بتعديل رسول الله ﷺ ؛ ولهذا لا يقبل قدح بعضهم فى بعض ، وهذا بخلاف من اشتهر عند الأمة جرحه والقدح فيه ، كأئمة البدع ومن جرى مجراهم من المتهمين فى الدين ، فإنهم ليسوا عند الأمة من حملة العلم ، فما حمل علم رسول الله ﷺ إلا عدل ، ولكن قد يغلط فى مسمى العدالة ، فيظن أن المراد بالعدل من لا ذنب له وليس كذلك ، بل هو عدل مؤتمن على الدين ، وإن كان منه ما يتوب إلى الله منه فإن هذا لا ينافى العدالة كما لا ينافى الإيمان والولاية .

**الوجه السابع والثلاثون بعد المائة :** أن بقاء الدين والدنيا فى بقاء العلم ، وبذهاب العلم تذهب الدنيا والدين ، فقوام الدين والدنيا إنما هو بالعلم . قال الأوزاعى : قال ابن شهاب الزهرى : الاعتصام بالسنة نجاة ، والعلم يقبض قبضا سريعا ، فنعش العلم ثبات الدين والدنيا ، وذهاب العلم ذهاب ذلك كله . وقال ابن وهب : أخبرنى يزيد عن ابن شهاب قال : بلغنا عن رجال من أهل العلم أنهم كانوا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة ، والعلم يقبض قبضا سريعا ، فنعش العلم ثبات الدين والدنيا ، وذهاب العلم ذهاب ذلك كله .

**الوجه الثامن والثلاثون بعد المائة :** أن العلم يرفع صاحبه فى الدنيا والآخرة مالا يرفعه الملك ولا المال ولا غيرهما ، فالعلم يزيد الشريف شرفا ، ويرفع العبد المملوك حتى يجلسه مجالس الملوك ، كما ثبت فى الصحيح من حديث الزهرى عن أبى الطفيل : أن نافع بن عبد الحارث أتى عمر بن الخطاب بعسفان ، وكان عمر استعمله على أهل مكة ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادى ؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبزى . فقال :من ابن أبزى ؟ فقال : رجل من موالينا . فقال عمر : استخلفت عليهم مولى، فقال : إنه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض ، فقال عمر : أما إن نبيكم ﷺ قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين » (١) .

قال أبو العالية : كنت آتى ابن عباس وهو على سريره وحوله قريش ، فيأخذ بيدى فيجلسنى معه على السرير فتغامز بى قريش ، ففطن لهم ابن عباس فقال : كذا هذا العلم ،

---

(١) مسلم (٢٦٩) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ، وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها .

يزيد الشريف شرفا ، ويجلس المملوك على الأسرة .

وقال إبراهيم الحربى : كان عطاء بن أبى رباح عبدا أسود لامرأة من مكة ، وكان أنفه كأنه باقلاة ، قال : وجاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه ، فجلسوا إليه وهو يصلى ، فلما صلى انفتل إليهم ، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج ، وقد حول قفاه إليهم ، ثم قال سليمان لابنيه : قوما ، فقاما . فقال : يا بنى ،لا تنيا فى طلب العلم، فإنى لا أنسى ذلنا بين يدى هذا العبد الأسود . قال الحربى : وكان محمد بن عبد الرحمن الأوقص عنقه داخل فى بدنه ، وكان منكباه خارجين كأنهما زجان ، فقالت أمه : يا بنى ، لا تكون فى مجلس قوم إلا كنت المضحوك منه المسخور به ، فعليك بطلب العلم، فإنه يرفعك . فولى قضاء مكة عشرين سنة . قال : وكان الخصم إذا جلس إليه بين يديه يرعد حتى يقوم ، قال : ومرت به امرأة وهو يقول : اللهم اعتق رقبتى من النار ، فقالت له: يا ابن أخى ، وأى رقبة لك ؟

وقال يحيى بن أكثم : قال الرشيدى : ما أنبل المراتب ؟ قلت : ما أنت فيه يا أمير المؤمنين ،قال : فتعرف أجل منى ؟ قلت : لا ، قال : لكنى أعرفه ، رجل فى حلقة يقول: حدثنا فلان ، عن فلان ، عن رسول الله ﷺ . قال : قلت : يا أمير المؤمنين ، أهذا خير منك وأنت ابن عم رسول الله ﷺ وولى عهد المؤمنين ؟ قال : نعم ويلك ، هذا خير منى لأن اسمه مقترن باسم رسول الله ﷺ ، لا يموت أبدا ونحن نموت ونفنى، والعلماء باقون ما بقى الدهر .

وقال خيثمة بن سليمان : سمعت أبى الخناجر يقول : كنا فى مجلس ابن هارون والناس قد اجتمعوا إليه ، فمر أمير المؤمنين فوقف علينا فى المجلس ، وفى المجلس ألوف ، فالتفت إلى أصحابه وقال : هذا الملك .

وفى تاريخ بغداد للخطيب : حدثنى أبو النجيب عبد الغفار بن عبد الواحد قال : سمعت الحسن بن على المقرى يقول : سمعت أبا الحسن بن فارس يقول : سمعت الأستاذ ابن العميد يقول : ما كنت أظن أن فى الدنيا حلاوة ألذ من الرياسة والوزارة التى أنا فيها، حتى شهدت مذاكرة سليمان بن أيوب بن أحمد الطبرانى وأبى بكر الجعابى بحضرتى ، فكان الطبرانى يغلب بكثرة حفظه ، وكان الجعابى يغلب الطبرانى بفطنته ، وزكا أهل بغداد حتى ارتفعت أصواتهم ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه ، فقال الجعابى : عندى حديث

ليس فى الدنيا إلا عندى ، فقال هاته ، فقال :حدثنا أبو خليف ، حدثنا سليمان بن أيوب، وحدث بالحديث . فقال الطبرانى : أنبأنا سليمان بن أيوب ، ومنى سمع أبو خليفة ، فاسمع من حتى يعلو إسنادك ، فإنك تروى عن أبى خليفة عنى . فخجل الجعابى وغلبه الطبرانى . قال ابن العميد : فوددت فى مكانى أن الوزارة والرياسة ليتها لم تكن لى وكنت الطبرانى ، وفرحت مثل الفرح الذى فرح الطبرانى لأجل الحديث ، أو كما قال .

وقال المزنى : سمعت الشافعى يقول : من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن نظر فى الفقه نبل مقداره ، ومن تعلم اللغة رق طبعه ، ومن تعلم الحساب جزل رأيه ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه . وقد روى هذا الكلام عن الشافعى من وجوه متعددة .

وقال سفيان الثورى : من أراد الدنيا والآخرة فعليه بطلب العلم . وقال عبد الله بن داود : سمعت سفيان الثورى يقول : إن هذا الحديث عز ، فمن أراد به الدنيا وجدها ، ومن أراد به الآخر وجدها .

وقال النضر بن شميل : من أراد أن يشرف فى الدنيا والآخرة فليتعلم العلم ، وكفى بالمرء سعادة أن يوثق به فى دين الله ، ويكون بين الله وبين عباده . وقال حمزة بن سعيد المصرى : لما حدث أبو مسلم اللخمى أول يوم حدث قال لابنه : كم فضل عندنا من أثمان غلاتنا ؟ قال : ثلاثمائة دينار ، قال : فرقها على أصحاب الحديث والفقراء شكرا أن أباك اليوم شهد على رسول الله ﷺ فقبلت شهادته . وفى ( كتاب الجليس والأنيس ) لأبى الفرج المعافى بن زكرياء الجريرى : حدثنا محمد بن الحسين بن دريد ، حدثنا أبو حاتم عن العتبى عن أبيه قال : ابتنى معاوية بالأبطح مجلسا ، فجلس عليه ومعه ابنه قرظة ، فإذا هو بجامعة على رحال لهم ، وإذا شاب منهم قد رفع عقيرته يتغنى :

من يساجلنى يساجل ماجدا    يملأ الدلو إلى عقد الكرب

قال : من هذا ؟ قالوا : عبد الله بن جعفر ، قال : خلوا له الطريق ، ثم إذا هو بجامعة فيهم غلام يتغنى :

بينما يذكـــرننى أبصرننى    عند قيد الميل يسعى بى الأغر
قلن تعرفن الفتى قلن نعم    قد عرفناه وهل يخفى القمـر

قال : من هذا ؟ قالوا : عمر بن أبى ربيعة ، قال : خلوا له الطريق فليذهب ، قال : ثم إذا هو بجماعة ، وإذا فيهم رجل يسأل ، فيقال له : رميت قبل أن أحلق ، وحلقت

قبل أن أرمى ، فى أشياء أشكلت عليهم من مناسك الحج ، فقال : من هذا ؟ قالوا : عبد الله بن عمر ، فالتفت إلى ابنه قرظة وقال : هذا وأبيك الشرف ، هذا والله شرف الدنيا والآخرة .

وقال سفيان بن عيينة : أرفع الناس منزلة عند الله من كان بين الله وبين عباده وهم الأنبياء والعلماء .

وقال سهل التسترى : من أراد أن ينظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء ، يجيء الرجل فيقول : يافلان ، أيش تقول فى رجل حلف على امرأته بكذا وكذا ، فيقول : طلقت امرأته . ويجيء آخر فيقول : حلفت بكذا وكذا ، فيقول : ليس يحنث بهذا القول . وليس هذا إلا لنبى أو عالم ، فاعرفوا لهم ذلك .

**الوجه التاسع والثلاثون بعد المائة :** أن النفوس الجاهلة التى لا علم عندها قد ألبست ثوب الذل والإزراء عليها ، والتنقص بها أسرع منه إلى غيرها ، وهذا أمر معلوم عند الخاص والعام . قال الأعمش : إنى لأرى الشيخ لا يروى شيئا من الحديث فاشتهى أن ألطمه . وقال معاوية : سمعت الأعمش يقول : من لم يطلب الحديث أشتهى أن أصفعه بنعلى . وقال هشام بن على : سمعت الأعمش يقول : إذا رأيت الشيخ لم يقرأ القرآن ولم يكتب الحديث فاصفع له،فإنه من شيوخ القمراء. قال أبو صالح : قلت لأبى جعفر : ما شيوخ القمراء ؟ قال : شيوخ دهريون يجتمعون فى ليالى القمر ، يتذاكرون أيام الناس، ولا يحسن أحدهم أن يتوضأ للصلاة . وقال المزنى : كان الشافعى إذا رأى شيخا سأله عن الحديث والفقه ، فإن كان عنده شيء وإلا قال له : لا جزاك الله خيرا عن نفسك ولا عن الإسلام ، قد ضيعت نفسك ، وضيعت الإسلام .

وكان بعض خلفاء بنى العباس يلعب بالشطرنج فاستأذن عليه عمه ، فأذن له وغطى الرقعة ، فلما جلس قال له : ياعم ، هل قرأت القرآن ؟ قال : لا ، قال : هل كتبت شيئا من السنة ؟ قال : لا ، قال : فهل نظرت فى الفقه واختلاف الناس ؟ قال : لا ، قال : فهل نظرت فى العربية وأيام الناس ؟ قال : لا ، قال : فقال الخليفة : اكشف الرقعة . ثم أتم اللعب ، وزال احتشامه وحياؤه منه ، وقال له ملاعبه : يا أمير المؤمنين ، تكشفها ومعنا من تحتشم منه ، قال : اسكت فما معنا أحد .

وهذا لأن الإنسان إنما تميز عن سائر الحيوانات بما خص به من العلم والعقل والفهم ، فإذا عدم ذلك لم يبق فيه إلا القدر المشترك بينه وبين سائر الحيوانات وهى الحيوانية البهيمية ، ومثل هذا لا يستحى منه الناس ، ولا يمنعون بحضرته وشهوده مما يستحيا منه من أولى الفضل والعلم .

**الوجه الأربعون بعد المائة** : أن كل صاحب بضاعة سوى العلم إذا علم أن غير بضاعته خير منها زهد فى بضاعته ، ورغب فى الأخرى ، وود أنها له عوض بضاعته إلا صاحب بضاعة العلم ، فإنه ليس يحب أن له بحظه منها حظ أصلا . وكان سفيان الثورى إذا رأى الشيخ لم يكتب الحديث قال : لا جزاك الله عن الإسلام خيرا .

قال أبو جعفر الطحاوى : كنت عند أحمد بن أبى عمران ، فمر بنا رجل من بنى الدنيا ، فنظرت إليه وشغلت به عما كنت فيه من المذاكرة ، فقال لى : كأنى بك قد فكرت فيما أعطى هذا الرجل من الدنيا ، قلت له : نعم ، قال : هل أدلك على خلة ؟ هل لك أن يحول الله إليك ما عنده من المال ويحول إليه ما عندك من العلم فتعيش أنت غنيا جاهلا ويعيش هو عالما فقيرا ؟ فقلت : ما أختار أن يحول الله ما عندى من العلم إلى ما عنده ، فالعلم غنى بلا مال ، وعز بلا عشيرة ، وسلطان بلا رجال ، وفى ذلك قيل :

العلم كنز وذخـــــر لا نفاد لــه ... نعم القرين إذا ما صاحب صحبا
قد يجمع المرء مالا ثم يحـــــرمه ... عما قليل فيلقى الذل والحــــربا
وجامع العلم مغبوط به أبـــــدا ... ولا يحاذر منه الفـــوت والسلبا
يا جامـع العلم نعم الذخـر تجمعه ... لا تعدلن بـــه درا ولا ذهبـــــا

**الوجه الحادى والأربعون بعد المائة** : أن الله ـ سبحانه ـ أخبر أنه يجزى المحسنين أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ، وأخبر ـ سبحانه ـ أنه يجزى على الإحسان بالعلم ، وهذا يدل على أنه من أحسن الجزاء . أما المقام الأول ففى قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)** ﴾ [ الزمر ] ، وهذا يتناول الجزاءين الدنيوى والأخروى ، وأما المقام الثانى ففى قوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)** ﴾ [ يوسف ] . قال الحسن : من أحسن عبادة الله فى شبيبته لقاه الله الحكمة عند كبر سنه ، وذلك قوله : ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤)** ﴾ [ القصص ] . ومن هذا قال بعض العلماء : تقول الحكمة : من التمسنى فلم يجدنى فليعمل بأحسن ما يعلم ، وليترك أقبح ما يعلم ، فإذا فعل ذلك فأنا معه وإن لم يعرفنى .

**الوجه الثانى والأربعون بعد المائة** : أن الله ـ سبحانه ـ جعل العلم للقلوب كالمطر للأرض ، فكما أنه لا حياة للأرض إلا بالمطر ، فكذلك لا حياة للقلب إلا بالعلم . وفى الموطأ قال لقمان لابنه : يابنى ، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله تعالى يحيى

القلوب الميتة بنور الحكمة ، كما يحيى الأرض بوابل المطر ؛ ولهذا فإن الأرض إنما تحتاج إلى المطر فى بعض الأوقات ، فإذا تتابع عليها احتاجت إلى انقطاعه ، وأما العلم فيحتاج إليه بعدد الأنفاس ، ولا تزيده كثرته إلا صلاحا ونفعا .

**الوجه الثالث والأربعون بعد المائة** : أن كثيرا من الأخلاق التى لا تحمد فى الشخص بل يذم عليها تحمد فى طالب العمل كالملق ، وترك الاستحياء والذل ، والتردد إلى أبواب العلماء ونحوها . قال ابن قتيبة : جاء فى الحديث : ليس الملق من أخلاق المؤمنين إلا فى طلب العلم . وهذا أثر عن بعض السلف . وقال ابن عباس : ذللت طالبا فعززت مطلوبا . وقال : وجدت عامة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحى من الأنصار ، إن كنت لأقيل عند باب أحدهم ولو شئت أذن لى ، ولكن أبتغى بذلك طيب نفسه .

وقال أبو إسحاق : قال على : كلمات لو رحلتم المطى فيهن لأفنيتموهن قبل أن تدركوا مثلهن : لا يرجون عبد إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه ، ولا يستحيى من لا يعلم أن يتعلم ، ولا يستحيى إذا سئل عما لا يعلم أن يقول : لا أعلم ، واعلموا أن منزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد ، وإذا ذهب البصر ذهب الإيمان .

ومن كلام بعض العلماء : لا ينال العلم مستحى ولا متكبر ، هذا يمنعه حياؤه من التعلم ، وهذا يمنعه كبره ، وإنما حمدت هذه الأخلاق فى طلب العلم لأنها طريق تحصيله ، فكانت من كمال الرجل ومفضية إلى كماله . ومن كلام الحسن : من استتر عن طلب العلم بالحياء لبس للجهل سرباله ، فاقطعوا سرابيل الحياء ، فإنه من رق وجهه رق عمله . وقال الخليل : منزلة الجهل بين الحياء والأنفة . ومن كلام على رضى الله تعالى عنه : قرنت الهيبة بالخيبة ، والحياء بالحرمان . وقال إبراهيم لمنصور : سل مسألة الحمقى ، واحفظ حفظ الأكياس ، وكذلك سؤال الناس هو عيب ونقص فى الرجل ، وذلة تنافى المروءة إلا فى العلم ، فإنه عين كماله ومروءته وعزه . كما قال بعض أهل العلم : خير خصال الرجل السؤال عن العلم . وقيل : إذا جلست إلى عالم فسل تفقها لا تعنتا .

وقال رؤبة بن العجاج : أتيت النسابة البكرى فقال : من أنت ؟ قلت : أنا ابن العجاج . قال : قصرت وعرفت ، لعلك كقوم إن سكت لم يسألونى ، وإن تكلمت لم يعوا عنى . قلت : أرجو ألا أكون كذلك . قال : ما أعداء المروءة ؟ قلت : تخبرنى قال : بنو عم السوء ، إن رأوا حسنا ستروه ، وإن رأوا سيئا أذاعوه . ثم قال : إن العلم آفة ونكدا وهجنة ، فآفته نسيانه ، وهجنته نشره عند غير أهله . وأنشد ابن الأعرابى :

مـا أقـرب الأشيـاء حين يسوقها قـدروا بعـدها إذا لـم تقـدر
فسل الفقـيه تكـن فقيهـا مـثله مـن يسـع فـى علـم بـذل يمهر
فتدبـر العلـم الـذى تفتـى بـه لا خـير فـى علـم بغـير تدبـر
ولقـد يجـد المـرء وهـو مقصر ويخيـب جـد المرء غـير مقصر
ذهـب الرجـال المقتـدى بفعالهم والمنكـرون لـكـل أمـر منكـر
وبقـيت فـى خلـف يزين بعضهم بعضـا ليدفـع معـور عـن معور

وللعلم ست مراتب :

**أولها** : حسن السؤال .

**الثانية** : حسن الإنصات والاستماع .

**الثالثة** : حسن الفهم .

**الرابعة** : الحفظ .

**الخامسة** : التعليم .

**السادسة** ـ وهى ثمرته : وهى العمل به ومراعاة حدوده .

فمن الناس من يحرمه لعدم سؤاله ، إما لأنه لا يسأل بحال أو يسأل عن شىء وغيره أهم إليه منه ، كمن يسأل عن فضوله التى لا يضر جهله بها ، ويدع مالا غنى له عن معرفته . وهذه حال كثير من الجهال المتعلمين . ومن الناس من يحرمه لسوء إنصاته ، فيكون الكلام والممارات آثر عنده وأحب إليه من الإنصات ، وهذه آفة كامنة فى أكثر النفوس الطالبة للعلم ، وهى تمنعهم علما كثيرا ولو كان حسن الفهم .

ذكر ابن عبد البر عن بعض السلف أنه قال : من كان حسن الفهم ردىء الاستماع ، لم يقم خيره بشره . وذكر عبد الله بن أحمد فى ( كتاب العلل ) له قال : كان عروة بن الزبير يحب مماراة ابن عباس ، فكان يخزن علمه عنه ، وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة يلطف له فى السؤال فيعزه بالعلم عزا . وقال ابن جريج : لم أستخرج العلم الذى استخرجت من عطاء إلا برفقى به . وقال بعض السلف : إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول . وقد قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴿٣٧﴾ ﴾ [ ق ] .

فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم ، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى ؟ وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها ؟ فإنه ـ سبحانه ـ أمر

عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة والمرئية المشهودة ، بما تكون تذكرة لمن كان له قلب ، فإن من عدم القلب الواعى عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه ولو مرت به كل آية ، ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورها على من لا بصر له ، فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات ، فإنه يراها ، ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين : أحدهما : أن يحضره ويشهده لما يلقى إليه. فإن كان غائبا عنه مسافرا فى الأمانى والشهوات والخيالات لا ينتفع به ، فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يلقى سمعه ويصغى بكليته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه .

وهاهنا ثلاثة أمور : أحدها : سلامة القلب وصحته وقبوله . الثانى : إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق . الثالث : إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال على الذكر . فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة فى هذه الآية . قال ابن عطية : القلب هنا عبارة عن العقل إذ هو محله ، والمعنى : لمن كان له قلب واع ينتفع به . قال : وقال الشبلى : قلب حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفة عين . وقوله : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ معناه : صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة وأثبته فى سمعه ، فذلك إلقاء له عليها ، ومنه قوله : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ أى أثبتها عليك ، وقوله : ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ قال بعض المتأولين : معناه : وهو شاهد مقبل على الأمر ، غير معرض عنه ولا مفكر فى غير ما يسمع . قال : وقال قتادة : هى إشارة إلى أهل الكتاب ، فكأنه قال : إن هذه العبر لتذكرة لمن له فهم فتدبر الأمر ، أو لمن سمعها من أهل الكتاب فشهد بصحتها ؛ لعلمه بها من كتابه التوراة وسائر كتب بنى إسرائيل . قال : فشهيد على التأويل الأول من المشاهدة ، وعلى التأويل الثانى من الشهادة . وقال الزجاج : معنى ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [ ق : ٣٧ ] : من شرف قلبه إلى التفهم ، ألا ترى أن قوله : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [ البقرة : ١٨ ] أنهم لم يستمعوا استماع مستفهم مسترشد ، فجعلوا بمنزلة من لم يسمع كما قال الشاعر :

أصم عما ساءه سميع

ومعنى ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يستمع ، والعرب تقول : ألق إلىَّ سمعك : أى استمع منى ، ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أى : قلبه فيما يسمع ، وجاء فى التفسير : أنه يعنى به أهل الكتاب الذين عندهم صفة النبى ﷺ فالمعنى : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ ق : ٣٧ ] : أشاهد أن صفة النبى ﷺ فى كتابه ، وهذا هو الذى حكاه ابن عطية عن قتادة ، وذكر أن شهيدا فيه بمعنى شاهد أى مخبر . وقال صاحب الكشاف : لمن كان له قلب واع ؛ لأن من لا يعى قلبه فكأنه لا قلب له ، وإلقاء السمع الإصغاء ، ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ : أى حاضر بفطنته ؛ لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب ، أو هو مؤمن شاهد

على صحته وأنه وحى من الله ، وهو بعض الشهداء فى قوله : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [ البقرة : ١٤٣ ] ، وعن قتادة : وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعته عنده ، فلم يختلف فى أن المراد بالقلب الواعى ، وأن المراد بإلقاء السمع إصغاؤه وإقباله على المذكر ، وتفريغ سمعه له .

واختلف فى الشهيد على أربعة أقوال ، أحدها : أنه من المشاهدة وهى الحضور ، وهذا أصح الأقوال ، ولا يليق بالآية غيره . الثانى : أنه شهيد من الشهادة ، وفيه على هذا ثلاثة أقوال : أحدها : أنه شاهد على صحة مامعه من الإيقان ، الثانى : أنه شاهد من الشهداء على الناس يوم القيامة ، الثالث : أنه شهادة من الله عنده على صحة نبوة رسول الله ﷺ بما علمه من الكتب المنزلة .

والصواب القول الأول ، فإن قوله : ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ جملة حالية والواو فيها واو الحال ، أى ألقى السمع فى هذه الحال ، وهذا يقتضى أن يكون حال إلقائه السمع شهيدا ، وهذا هو من المشاهدة والحضور ، ولو كان المراد به الشهادة فى الآخرة أو الدنيا لما كان لتقييدها بإلقاء السمع معنى ، إذ يصير الكلام : إن فى ذلك لآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع حال كونه شاهدا بما معه فى التوراة ، أو حال كونه شاهدا يوم القيامة . ولا ريب أن هذا ليس هو المراد بالآية . وأيضا فالآية عامة فى كل من له قلب وألقى السمع ، فكيف يدعى تخصيصها بمؤمنى أهل الكتاب الذين عندهم شهادة من كتبهم على صفة النبى ﷺ . وأيضا فالسورة مكية ، والخطاب فيها لا يجوز أن يختص بأهل الكتاب ، ولا سيما مثل هذا الخطاب الذى علق فيه حصول مضمون الآية ومقصودها بالقلب الواعى وإلقاء السمع ، فكيف يقال : هى فى أهل الكتاب ؟

فإن قيل : المختص بهم قوله : ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ فهذا أفسد وأفسد ؛ لأن قوله : ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ يرجع الضمير فيه إلى جملة من تقدم وهو من له قلب أو ألقى السمع ، فكيف يدعى عوده إلى شىء غايته أن يكون بعض المذكور أولا ولا دلالة فى اللفظ عليه ؟ وأيضا، فإن المشهود به محذوف ولا دلالة فى اللفظ عليه ، فلو كان المراد به وهو شاهد بكذا لذكر المشهود به ، إذ ليس فى اللفظ ما يدل عليه ، وهذا بخلاف ما إذا جعل من الشهود وهو الحضور ، فإنه لا يقتضى مفعولا مشهودا به ليتم الكلام بذكره وحده . وأيضا ، فإن الآية تضمنت تقسيما وترديدا بين قسمين ؛ أحدهما : من كان له قلب ، والثانى : من ألقى السمع وحضر بقلبه ولم يغب ، فهو حاضر القلب ، شاهده لا غائبه . وهذا ـ والله أعلم ـ سر الإتيان بأو دون الواو ؛ لأن المنتفع بالآيات من الناس نوعان :

**أحدهما** : ذو القلب الواعى الزكى ، الذى يكتفى بهدايته بأدنى تنبيه ، ولا يحتاج إلى أن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاته ، بل قلبه واع زكى ، قابل للهدى غير معرض عنه ، فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الهدى إليه فقط ؛ لكمال استعداده وصحة فطرته ، فإذا جاءه الهدى سارع قلبه إلى قبوله كأنه مكتوبا فيه ، فهو قد أدركه مجملا ، ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملا ، وهذه حال أكمل الخلق استجابة لدعوة الرسل ، كما هى حال الصديق الأكبر رضي الله عنه .

**والنوع الثانى** : من ليس له هذا الاستعداد والقبول ، فإذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه ، وأحضر قلبه ، وجمع فكرته عليه ، وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله . وهذه طريقة أكثر المستجيبين ، ولهم نوع ضرب الأمثال وإقامة الحجج ، وذكر المعارضات والأجوبة عنها . والأولون هم الذين يدعون بالحكمة ، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة ، فهؤلاء نوعا المستجيبين .

وأما المعارضون المدعون للحق فنوعان : نوع يدعون بالمجادلة بالتى هى أحسن ، فإن استجابوا وإلا فالمجالدة . فهؤلاء لابد لهم من جدال أو جلاد . ومن تأمل دعوة القرآن وجدها شاملة لهؤلاء الأقسام ، متناولة لها كلها ، كما قال تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [ النحل : ١٢٥ ] فهؤلاء المدعوون بالكلام ، وأما أهل الجلاد فهم الذين أمر الله بقتالهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله .

وأما من فسر الآية بأن المراد بمن كان له قلب : هو المستغنى بفطرته عن علم المنطق ، وهو المؤيد بقوة قدسية ينال بها الحد الأوسط بسرعة ، فهو لكمال فطرته مستغن عن مراعات أوضاع المنطق ، والمراد بمن ألقى السمع وهو شهيد : من ليست له هذه القوة ـ فهو محتاج إلى تعلم المنطق ليوجب له مراعاته ، وإصغاؤه إليه ألا يزيغ فى فكره . وفسر قوله : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ** ﴾ : أنها القياس البرهانى ، و ﴿ **وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ : القياس الخطابى ، و ﴿ **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ : القياس الجدلى . فهذا ليس من تفاسير الصحابة ولا التابعين ، ولا أحد من أئمة التفسير ، بل ولا من تفاسير المسلمين ، وهو تحريف لكلام الله تعالى ، وحمل له على اصطلاح المنطقية المبخوسة الحظ من العقل والإيمان . وهذا من جنس تفاسير القرامطة والباطنية وغلاة الإسماعيلية لما يفسرونه من القرآن ، وينزلونه على مذاهبهم الباطلة ، والقرآن برىء من ذلك كله ، منزه عن هذه الأباطيل والهذيانات . وقد ذكرنا بطلان ما فسر به المنطقيون هذه الآية التى نحن فيها والآية الأخرى فى موضع آخر من وجوه متعددة ، وبينا بطلانه عقلا وشرعا ولغة وعرفا ، وأنه

يتعالى كلام الله عن حمله على ذلك ، وبالله التوفيق .

والمقصود : بيان حرمان العلم من هذه الوجوه الستة : أحدها : ترك السؤال . الثانى : سوء الانصات وعدم إلقاء السمع . الثالث : سوء الفهم . الرابع : عدم الحفظ . الخامس : عدم نشره وتعليمه ، فإن من خزن علمه ولم ينشره ولم يعلمه ابتلاه الله بنسيانه وذهابه منه ، جزاء من جنس عمله ، وهذا أمر يشهد به الحس والوجود . السادس : عدم العمل به ، فإن العمل به يوجب تذكره وتدبره ومراعاته والنظر فيه ، فإذا أهمل العمل به نسيه .

قال بعض السلف : كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به . وقال بعض السلف أيضا : العلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه حل وإلا ارتحل ، فالعمل به من أعظم أسباب حفظه وثباته ، وترك العمل به إضاعة له ، فما استدر العلم ولا استجلب بمثل العمل ، قال الله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾** [ الحديد : ٢٨ ] ، وأما قوله تعالى : **﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾** [ البقرة : ٢٨٢ ] فليس من هذا الباب ، بل هما جملتان مستقلتان ، طلبية وهى الأمر بالتقوى ، وخبرية وهى قوله تعالى : **﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾** أى : والله يعلمكم ما تتقون ، وليست جوابا للأمر بالتقوى ، ولو أريد بها الجزاء لأتى بها مجزومة مجردة عن الواو فكان يقول : واتقوا الله يعلمكم أو إن تتقوه يعلمكم ، كما قال : **﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ﴾** [ الأنفال : ٢٩ ] فتدبره .

**الوجه الرابع والأربعون بعد المائة** : أن الله ـ سبحانه ـ نفى التسوية بين العالم وغيره ، كما نفى التسوية بين الخبيث والطيب ، وبين الأعمى والبصير ، وبين النور والظلمة ، وبين الظل والحرور ، وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وبين الأبكم العاجز الذى لا يقدر على شىء ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، وبين المؤمنين والكفار ، وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين فى الأرض ، وبين المتقين والفجار . فهذه عشرة مواضع فى القرآن نفى فيها التسوية بين هؤلاء الأصناف ، وهذا يدل على أن منزلة العالم من الجاهل كمنزلة النور من الظلمة ، والظل من الحرور ، والطيب من الخبيث ، ومنزلة كل واحد من هذه الأصناف مع مقابله ، وهذا كاف فى شرف العلم وأهله ، بل إذا تأملت هذه الأصناف كلها وجدت نفى التسوية بينها راجعا إلى العلم وموجبه ، فبه وقع التفضيل ، وانتفت المساواة .

**الوجه الخامس والأربعون بعد المائة** : أن سليمان لما توعد الهدهد بأن يعذبه عذابا شديدا أو يذبحه ، إنما نجا منه بالعلم ، وأقدم عليه فى خطابه له بقوله : **﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾** [ النمل : ٢٢ ] خبرا . وهذا الخطاب إنما جرأه عليه العلم ، وإلا فالهدهد مع

ضعفه لا يتمكن من خطابه لسليمان مع قوته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم . ومن هذا الحكاية المشهورة : أن بعض أهل العلم سئل عن مسألة فقال : لا أعلمها ، فقال : أحد تلامذته : أنا أعلم هذه المسألة . فغضب الأستاذ وهم به ، فقال له : أيها الأستاذ ، لست أعلم من سليمان بن داود ولو بلغت فى العلم ما بلغت ، ولست أنا أجهل من الهدهد وقد قال لسليمان : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ فلم يعتب عليه ولم يعنفه .

**الوجه السادس والأربعون بعد المائة** : أن من نال شيئا من شرف الدنيا والآخرة فإنما ناله بالعلم . وتأمل ما حصل لآدم من تميزه على الملائكة ، واعترافهم له بتعليم الله له الأسماء كلها ، ثم ما حصل له من تدارك المصيبة والتعويض عن سكنى الجنة بما هو خير له منها بعلم الكلمات التى تلقاها من ربه . وما حصل ليوسف من التمكين فى الأرض والعزة والعظمة بعلمه بتعبير تلك الرؤيا ، ثم علمه بوجوه استخراج أخيه من إخوته بما يقرون به ويحكمون هم به ، حتى آل الأمر إلى ما آل إليه من العز والعاقبة الحميدة وكمال الحال التى توصل إليها بالعلم ، كما أشار إليها ـ سبحانه ـ فى قوله : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [ يوسف ] جاء فى تفسيرها : نرفع درجات من نشاء بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته بالعلم . وقال فى إبراهيم ﷺ : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ [ الأنعام : ٨٣ ] فهذه رفعة بعلم الحجة ، والأول رفعة بعلم السياسة . وكذلك ما حصل للخضر بسبب علمه من تلمذة كليم الرحمن له وتلطفه معه فى السؤال ، حتى قال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) ﴾ [ الكهف ] . وذلك ما حصل لسليمان من علم منطق الطير حتى وصل إلى ملك سبأ وقهر ملكتهم واحتوى على سرير ملكها ودخولها تحت طاعته ولذلك قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾ [ النمل ]. وكذلك ما حصل لداود من علمه نسج الدروع من الوقاية من سلاح الأعداء،وعدد ـ سبحانه ـ هذه النعمة بهذا العلم على عباده فقال: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) ﴾ [ الأنبياء ]. وكذلك ما حصل للمسيح من علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل،ما رفعه الله به إليه وفضله وكرمه. وكذلك ما حصل لسيد ولد آدم من العلم الذى ذكره الله به نعمة عليه فقال: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣ ] .

**الوجه السابع والأربعون بعد المائة** : أن الله ـ سبحانه ـ أثنى على إبراهيم خليله بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ ﴾ [ النحل ] فهذه أربع أنواع من الثناء ، افتتحها بأنه أمة ، والأمة هو القدوة الذى يؤتم به .

قال ابن مسعود : والأمة المعلم للخير . وهى فعلة من الائتمام كقدوة ، وهو الذى يقتدى به .

الثانى : قوله : ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ : قال ابن مسعود : القانت المطيع ، والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة .

الثالث : قوله : ﴿ حَنِيفًا ﴾ : والحنيف المقبل على الله ، ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه ، فالميل لازم معنى الحنيف لا أنه موضوعه لغة .

الرابع : قوله : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ : والشكر للنعم مبنى على ثلاثة أركان : الأقرار بالنعمة وإضافتها إلى المنعم بها ، وصرفها فى مرضاته ، والعمل فيها بما يجب . فلا يكون العبد شاكرا إلا بهذه الأشياء الثلاثة . والمقصود : أنه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه ، وتعليمه ونشره ، فعاد الكمال كله إلى العلم ، والعمل بموجبه، ودعوة الخلق إليه .

**الوجه الثامن والأربعون بعد المائة** : قوله ـ سبحانه ـ عن المسيح أنه قال : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [ مريم ] . قال سفيان بن عيينة : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ : قال : معلما للخير ، وهذا يدل على أن تعليم الرجل الخير هو البركة التى جعلها الله فيه ، فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه ، وهذا فى الحقيقة ليس إلا فى العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه ؛ ولهذا سمى ـ سبحانه ـ كتابه مباركا ، كما قال تعالى : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ [ الأنبياء : ٥٠ ] ، وقال : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ [ ص : ٢٩ ] . ووصف رسوله بأنه مبارك كما فى قول المسيح : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [ مريم : ٣١] فبركة كتابه ورسوله هى سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى والدعوة إلى الله .

**الوجه التاسع والأربعون بعد المائة** : مافى الصحيح عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » رواه مسلم فى الصحيح (١) . وهذا من أعظم الأدلة على شرف العلم وفضله وعظم ثمرته ، فإن ثوابه يصل إلى الرجل بعد موته مادام ينتفع به ، فكأنه حى لم ينقطع عمله ، مع ماله من حياة الذكر والثناء، فجريان أجره عليه إذا انقطع عن الناس ثواب أعمالهم حياة ثانية . وخص النبى ﷺ هذه الأشياء الثلاثة بوصول الثواب إلى

(١) مسلم (١٦٣١ / ١٤) فى الوصية ، باب : ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته .

الميت لأنه سبب لحصولها ، والعبد إذا باشر السبب الذى يتعلق به الأمر والنهى يترتب عليه مسببه ، وإن كان خارجا عن سعيه وكسبه ، فلما كان هو السبب فى حصول هذا الولد الصالح والصدقة الجارية والعلم النافع ، جرى عليه ثوابه وأجره لتسببه فيه ، فالعبد إنما يثاب على ما باشره أو على ما تولد منه . وقد ذكر تعالى هذين الأصلين فى كتابه فى سورة براءة فقال : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠)** ﴾ [ التوبة ] ، فهذه الأمور كلها متولدات عن أفعالهم غير مقدورة لهم ، وإنما المقدور لهم أسبابها التى باشروها ، ثم قال : ﴿ **وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)** ﴾ [ التوبة ] ، فالنفقة وقطع الوادى أفعال مقدورة لهم ، وقال فى القسم الأول : ﴿ **كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ** ﴾ إلا أن المتولد حاصل عن شيئين : أفعالهم وغيرها ، فليست أفعالهم سببا مستقلا فى حصول المتولد بل هى جزء من أجزاء السبب ، فيكتب لهم فى ذلك ما كان مقابلا لأفعالهم .

وأيضا ، فإن الظمأ والنصب وغيظ العدو ليس من أفعالهم فلا يكتب لهم نفسه ، ولكن لما تولد عن أفعالهم كتب لهم به عمل صالح . وأما القسم الآخر : وهو الأفعال المقدورة نفسها كالإنفاق وقطع الوادى فهو عمل صالح ، فيكتب لهم نفسه ، إذ هو مقدور لهم ، حاصل بإرادتهم وقدرتهم ، فعاد الثواب إلى الأفعال المقدورة والمتولد عنها ، وبالله التوفيق .

**الوجه الخمسون بعد المائة** : ماذكره ابن عبد البر عن عبد الله بن داود قال : إذا كان يوم القيامة عزل الله تبارك وتعالى العلماء عن الحساب ، فيقول : ادخلوا الجنة على ما كان فيكم ، إنى لم أجعل علمى فيكم إلا لخير أردته بكم . قال ابن عبد البر : وزاد غيره فى هذا الخبر : أن الله يحبس العلماء يوم القيامة فى زمرة واحدة حتى يقضى بين الناس ، ويدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، ثم يدعو العلماء فيقول : يامعشر العلماء ، إنى لم أضع حكمتى فيكم وأنا أريد أن أعذبكم ، قد علمت أنكم تخلطون من المعاصى ما يخلط غيركم فسترتها عليكم وغفرتها لكم ، وإنما كنت أعبد بفتياكم وتعليمكم عبادى ، ادخلوا الجنة بغير حساب . ثم قال : لا معطى لما منع ، ولا مانع لما أعطى . قال وروى نحو هذا المعنى بإسناد متصل مرفوع . وقد روى حرب الكرمانى فى مسائله نحوه مرفوعا ، وقال إبراهيم : بلغنى أنه إذا كان يوم القيامة توضع حسنات الرجل فى كفة ، وسيئاته فى الكفة الأخرى ، فتشيل حسناته ، فإذا يئس فظن أنها النار جاء شىء مثل السحاب حتى يقع من حسناته فتشيل سيئاته . قال : فيقال له : أتعرف هذا من عملك ؟ فيقول : لا ، فيقال: هذا ما علمت الناس من الخير فعمل به من بعدك .

فإن قيل : فقواعد الشرع تقتضى أن يسامح الجاهل بما لا يسامح به العالم ، وأنه يغفر له مالا يغفر للعالم ، فإن حجة الله عليه أقوم منها على الجاهل ، وعلمه بقبح المعصية وبغض الله لها وعقوبته عليها أعظم من علم الجاهل ، ونعمة الله عليه بما أودعه من العلم أعظم من نعمته على الجاهل ، وقد دلت الشريعة وحكم الله على أن من حبى بالإنعام وخص بالفضل والإكرام ثم أسام نفسه مع ميل الشهوات فأرتعها فى مراتع الهلكات ، وتجرأ على انتهاك الحرمات ، واستخف بالتبعات والسيئات ، أنه يقابل من الانتقام والعتب بما لا يقابل به من ليس فى مرتبته ، وعلى هذا جاء قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴿٣٠﴾ ﴾ [ الاحزاب ] ولهذا كان حد الحر ضعف حد العبد فى الزنا والقذف وشرب الخمر لكمال النعمة على الحر ، ومما يدل على هذا : الحديث المشهور الذى أثبته أبو نعيم وغيره عن النبى ﷺ أنه قال : « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » (١) . قال بعض السلف : يغفر للجاهل سبعون ذنبا قبل أن يغفر للعالم ذنب . وقال بعضهم أيضا : إن الله يعافى الجهال ما لا يعافى للعلماء ؟

**فالجواب** : إن هذا الذى ذكرتموه حق لا ريب فيه ، ولكن من قواعد الشرع والحكمة أيضا : أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له فى الإسلام تأثير ظاهر فإنه يحتمل له مالا يحتمل لغيره ، ويعفى عنه مالا يعفى عن غيره ، فإن المعصية خبث ، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث ، بخلاف الماء القليل فإنه لا يحمل (٢) أدنى خبث . ومن هذا قول النبى ﷺ لعمر : « وما يدريك ، لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (٣) . وهذا هو المانع له ﷺ من قتل من جس عليه وعلى المسلمين ، وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم ، فأخبر ﷺ أنه شهد بدرا ، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم ، لكن منع من ترتب أثره عليه ماله من المشهد العظيم ، فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة فى جنب ما له من الحسنات .

ولما حض النبى ﷺ على الصدقة ، فأخرج عثمان رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة قال : «ماضر عثمان ما عمل بعدها » (٤) . وقال لطلحة ـ لما تطأطأ للنبى ﷺ حتى صعد على

---

(١) الهيثمى فى مجمع الزوائد ( ١ / ١٩٠ ) وقال : رواه الطبرانى فى الصغير وفيه عثمان البرى ، قال الفلاس : صدوق لكنه كثير الغلط صاحب بدعة ، ضعفه أحمد والنسائى والدارقطنى .

(٢) هكذا بالأصل ولعلها : « يحمل » بالإثبات .

(٣) البخارى (٣٩٨٣) فى المغازى ، باب : فضل من شهد بدرا ، ومسلم (٢٤٩٤ / ١٦١) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم .

(٤) الترمذى (٣٧٠١) فى المناقب ، باب : فى مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقال الترمذى : « حسن غريب من هذا الوجه » ، وحسنه الألبانى ، وأحمد ٥ / ٦٣ .

ظهره إلى الصخرة : « أوجب طلحة » (١) . وهذا موسى كليم الرحمن عز وجل ، ألقى الألواح التى فيها كلام الله الذى كتبه له ، ألقاها على الأرض حتى تكسرت ، ولطم عين ملك الموت ففقأها ، وعاتب ربه ليلة الإسرى فى النبى ﷺ وقال : شاب بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى ، وأخذ بلحية هارون وجره إليه وهو نبى الله ، وكل هذا لم ينقص من قدره شيئا عند ربه ، وربه تعالى يكرمه ويحبه ، فإن الأمر الذى قام به موسى ، والعدو الذى برز له ، والصبر الذى صبره والأذى الذى أوذيه فى الله ، أمر لا تؤثر فيه أمثال هذه الأمور ، ولا تعير فى وجهه ، ولا تخفض منزلته .

وهذا أمر معلوم عند الناس ، مستقر فى فطرهم : أن من له ألوف من الحسنات فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها ، حتى أنه ليختلج داعى عقوبته على إساءته ، وداعى شكره على إحسانه ، فيغلب داعى الشكر لداعى العقوبة ، كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحـــد جاءت محاسنه بألف شفيع

وقال آخر :

فإن يكن الفعل الذى ساء واحدا فأفعاله اللاتى سررن كثيـر

والله سبحانه يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته ، فأيهما غلب كان التأثير له، فيفعل بأهل الحسنات الكثيرة ـ الذين آثروا محابه ومراضيه وغلبتهم دواعى طبعهم أحيانا من العفو والمسامحة ـ مالا يفعله مع غيرهم .

وأيضا ، فإن العالم إذا زل فإنه يحسن إسراع الفيئة ، وتدارك الفارط ، ومداواة الجرح . فهو كالطبيب الحاذق البصير بالمرض وأسبابه وعلاجه ، فإن زواله على يده أسرع من زواله على يد الجاهل .

وأيضا ، فإن معه من معرفته بأمر الله وتصديقه بوعده ووعيده وخشيته منه ، وإزرائه على نفسه بارتكابه ، وإيمانه بأن الله حرمه وأن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به إلى غير ذلك من الأمور المحبوبة للرب ، ما يغمر الذنب ويضعف اقتضائه ويزيل أثره ، بخلاف الجاهل بذلك أو أكثره ، فإنه ليس معه إلا ظلمة الخطيئة وقبحها وآثارها المردية ، فلا يستوى هذا وهذا . وهذا فصل الخطاب فى هذا الموضع ، وبه يتبين أن الأمرين حق ، وأنه لا منافاة بينهما ، وأن كل واحد من العالم والجاهل إنما زاد قبح الذنب منه على الآخر بسبب جهله وتجرد خطيئته عما يقاومها ، ويضعف تأثيرها ، ويزيل أثرها ، فعاد القبح فى الموضعين إلى

(١) الترمذى (٣٧٣٨) فى المناقب ، باب : مناقب طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه ، وقال : « حسن صحيح غريب » ، وأحمد ١ / ١٦٥ ، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٤١٧) : « إسناده صحيح » .

الجهل وما يستلزمه ، وقلته وضعفه إلى العلم وما يستلزمه ، وهذا دليل ظاهر على شرف العلم وفضله ، وبالله التوفيق .

**الوجه الحادى والخمسون بعد المائة :** أن العالم مشتغل بالعلم والتعليم ، لا يزال فى عبادة . فنفس تعلمه وتعليمه عبادة . قال ابن مسعود : لا يزال الفقيه يصلى ، قالوا : وكيف يصلى ؟ قال : ذكر الله على قلبه ولسانه . ذكره ابن عبد البر . وفى حديث معاذ مرفوعا وموقوفا : تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله حسنة ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح . وقد تقدم ، والصواب أنه موقوف .

وذكر ابن عبد البر عن معاذ مرفوعا : لأن تغدو فتتعلم بابا من أبواب العلم خير لك من أن تصلى مائة ركعة . وهذا لا يثبت رفعه .

وقال ابن وهب : كنت عند مالك بن أنس ، فحانت صلاة الظهر أو العصر وأنا أقرأ عليه وأنظر فى العلم بين يديه ، فجمعت كتبى وقمت لأركع ، فقال لى مالك : ما هذا ؟ فقلت : أقوم إلى الصلاة ، فقال : إن هذا لعجب ، ما الذى قمت إليه أفضل من الذى كنت فيه إذا صحت فيه النية . وقال الربيع : سمعت الشافعى يقول : طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة .

وقال سفيان الثورى : ما من عمل أفضل من طلب العلم إذا صحت فيه النية .

وقال رجل للمعافى بن عمران : أيما أحب : الليل أقوم أصلى إليك كله أو أكتب الحديث ؟ فقال : حديث تكتبه أحب إلى من قيامك من أول الليل إلى آخره . وقال أيضا : كتابة حديث واحد أحب إلى من قيام ليلة .

وقال ابن عباس : تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها ،وفى مسائل إسحاق ابن منصور ، قلت لأحمد بن حنبل : قوله : تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلىَّ من إحيائها أى علم أراد ؟ قال : هو العلم الذى ينتفع به الناس فى أمر دينهم . قلت : فى الوضوء والصلاة والصوم والحج والطلاق ونحو هذا ؟ قال : نعم . قال إسحاق : وقال لى إسحاق بن راهويه هو كما قال أحمد .

وقال أبو هريرة : لأن أجلس ساعة فأتفقه فى دينى ، أحب إلى من إحياء ليلة إلى الصباح .

وذكر ابن عبد البر من حديث أبى هريرة يرفعه :« لكل شىء عماد ، وعماد هذا الدين الفقه ، وما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى الدين » [1] الحديث ، وقد تقدم .

وقال محمد بن على الباقر : عالم ينتفع بعلمه أفضل من ألف عابد ، وقال أيضا :

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١ / ٢٦ .

رواية الحديث وبثه فى الناس أفضل من عبادة ألف عابد . ولما كان طلب العلم والبحث عنه وكتابته والتفتيش عليه من عمل القلب والجوارح ، كان من أفضل الأعمال ، ومنزلته من عمل الجوارح كمنزلة أعمال القلب من الإخلاص والتوكل والمحبة والإنابة والخشية والرضا ونحوها من الأعمال الظاهرة .

**الوجه الثانى والخمسون بعد المائة :** ماوراه الإمام أحمد والترمذى من حديث أبى كبشة الأنمارى قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالا وعلما ، فهو يتقى فى ماله ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقا ، فهذا بأحسن المنازل عند الله . ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا ، فهو يقول : لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، وهما فى الأجر سواء . ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما ، فهو يخبط فى ماله ، ولا يتقى فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقا ، فهذا بأسوأ المنازل عند الله . ورجل لم يؤته الله مالا ولا علما ، فهو يقول : لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، وهما فى الوزر سواء » حديث صحيح ، صححه الترمذى والحاكم وغيرهما (١) .

فقسم النبى ﷺ أهل الدنيا أربعة أقسام : خيرهم من أوتى علما ومالا فهو محسن إلى الناس وإلى نفسه بعلمه وماله . ويليه فى المرتبة من أوتى علما ولم يؤت مالا وإن كان أجرهما سواء ، فذلك إنما كان بالنية ، وإلا فالمنفق المتصدق فوقه بدرجة الإنفاق والصدقة ، والعالم الذى لا مال له إنما ساواه فى الأجر بالنية الجازمة المقترن بها مقدورها وهو القول المجرد . الثالث : من أوتى مالا ولم يؤت علما فهذا أسوأ الناس منزلة عند الله ؛ لأن ماله طريق إلى هلاكه ، فلو عدمه لكان خيرا له ، فإنه أعطى ما يتزود به إلى الجنة ، فجعله زادا له إلى النار . الرابع : من لم يؤت مالا ولا علما ، ومن نيته أنه لو كان له مال لعمل فيه بمعصية الله ، فهذا يلى الغنى الجاهل فى المرتبة ، ويساويه فى الوزر بنيته الجازمة المقترن بها مقدورها ، وهو القول الذى لم يقدر على غيره . فقسم السعداء قسمين ، وجعل العلم والعمل بموجبه سبب سعادتهما . وقسم الأشقياء قسمين ، وجعل الجهل وما يترتب عليه سبب شقاوتهما ، فعادت السعادة بجملتها إلى العلم وموجبه ، والشقاوة بجملتها إلى الجهل وثمرته .

**الوجه الثالث والخمسون بعد المائة :** ما ثبت عن بعض السلف أنه قال : تفكر ساعة

---

(١) الترمذى (٢٣٢٥) فى الزهد ، باب : ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر ، وقال : « حسن صحيح » ، وصححه الألبانى، وأحمد ٤ / ٢٣١ .

خير من عبادة ستين سنة . وسأل رجل أم الدرداء بعد موته عن عبادته ، فقالت : كان نهاره أجمعه فى بادية التفكر . وقال الحسن : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وقال الفضل: التفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك .وقيل لإبراهيم : إنك تطيل الفكرة ، فقال : الفكرة مخ العقل . وكان سفيان كثيرا ما يتمثل :

إذا المرء كانت له فكرة ففى كل شىء له عبرة

وقال الحسن فى قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [ الأعراف : ١٤٦ ] قال : أمنعهم التفكر فيها . وقال بعض العارفين : لوطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ماقدر فى حجب الغيب من خير الآخرة ، لم يصف لهم فى الدنيا عيش ، ولم تقر لهم فيها عين .وقال الحسن : طول الوحدة أتم للفكرة ، وطول الفكرة دليل على طريق الجنة . وقال وهب : ما طالت فكرة أحد قط إلا علم ، وما علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة فى نعم الله من أفضل العبادة . وقال عبد الله بن المبارك لبعض أصحابه ـ وقد رآه مفكرا : أين بلغت ؟ قال : الصراط وقال بشر : لو فكر الناس فى عظمة الله ما عصوه . وقال ابن عباس : ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب . وقال أبو سليمان : الفكر فى الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية ، والفكرة فى الآخرة تورث الحكمة ، وتجلى القلوب . وقال ابن عباس : التفكر فى الخير يدعو إلى العمل به . وقال الحسن : إن أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر والفكر على الذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة . ومن كلام الشافعى : استعينوا على الكلام بالصمت ، وعلى الاستنباط بالفكرة . وهذا لأن الفكرة عمل القلب ، والعبادة عمل الجوارح ، والقلب أشرف من الجوارح ، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح .

وأيضا ، فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرد ، فإن التفكر يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له وتميز مراتبها فى الخير والشر ، ومعرفة مفضولها من فاضلها ، وأقبحها من قبيحها ، ومعرفة أسبابها الموصلة إليها ، وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها ، والتمييز بين ما ينبغى السعى فى تحصيله وبين ما ينبغى السعى فى دفع أسبابه ، والفرق بين الوهم والخيال المانع لأكثر النفوس من انتهاز الفرص بعد إمكانها وبين السبب المانع حقيقة ، فيشتغل به دون الأول ، فما قطع العبد عن كماله وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطع أعظم من الوهم الغالب على النفس ، والخيال الذى هو مركبها ، بل بحرها الذى لا تنفك سابحة فيه ، وإنما يقطع هذا العارض بفكرة

صحيحة ، وعزم صادق يميز به بين الوهم والحقيقة .

وكذلك إذا فكر فى عواقب الأمور وتجاوز فكره مباديها وضعها مواضعها ، وعلم مراتبها ، فإذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة فتجاوز فكره لذته ، وفرح النفس به إلى سوء عاقبته ، وما يترتب عليه من الألم والحزن الذى لا يقاوم تلك اللذة والفرحة ، ومن فكر فى ذلك فإنه لا يكاد يقدم عليه ، وكذلك إذا ورد على قلبه وارد الراحة والدعة والكسل والتقاعد عن مشقة الطاعات وتعبها ، حتى عبر بفكره إلى ما يترتب عليها من اللذات والخيرات والأفراح التى تغمر تلك الآلام ، التى فى مباديها بالنسبة إلى كمال عواقبها ، وكلما غاص فكره فى ذلك اشتد طلبه لها ، وسهل عليه معاناتها ، واستقبلها بنشاط وقوة وعزيمة ، وكذلك إذا فكر فى منتهى ما يستعبده من المال والجاه والصور ، ونظر إلى غاية ذلك بعين فكره ، استحى من عقله ونفسه أن يكون عبدا لذلك ، كما قيل :

لو فكر العاشق فى منتهى ... حسن الذى يسبيه لم يسبه

وكذلك إذا فكر فى آخر الأطعمة المفتخرة التى تفانت عليها نفوس أشباه الأنعام ، وما يصير أمرها إليه عند خروجها ، ارتفعت همته عن صرفها إلى الاعتناء بها ، وجعلها معبود قلبه الذى إليه يتوجه ، وله يرضى ويغضب ، ويسعى ويكدح ، ويوالى ويعادى ، كما جاء فى المسند عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله جعل طعام ابن آدم مثل الدنيا ، وإن قزحه وملحه فإنه يعلم إلى ما يصير » (١) أو كما قال ﷺ . فإذا وقع فكره على عاقبة ذلك وآخر أمره ، وكانت نفسه حرة أبية ، ربأ بها أن يجعلها عبدا لما آخره أنتن شىء وأخبثه وأفحشه .

إذا عرف هذا ، فالفكر هو إحضار معرفتين فى القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة . ومثال ذلك : إذا أحضر فى قلبه العاجلة وعيشها ونعيمها وما يقترن به من الآفات وانقطاعه وزواله ، ثم أحضر فى قلبه الآخرة ونعيمها ولذته ودوامه وفضله على نعيم الدنيا وجزم بهذين العلمين ، أثمر له ذلك علما ثالثا وهو : أن الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولى عند كل عاقل بإيثاره من العاجلة المنقطعة المنغصة ، ثم له فى معرفة الآخرة حالتان :

**إحداهما** : أن يكون قد سمع ذلك من غيره من غير أن يباشر قلبه برد اليقين به ، ولم يفض قلبه إلى مكافحة حقيقة الآخرة . وهذا حال أكثر الناس ، فيتجاذبه داعيان : أحدهما داعى العاجلة وإيثارها ، وهو أقوى الداعيين عنده ؛ لأنه مشاهد له محسوس . وداعى الآخرة ، وهو أضعف الداعيين عنده ؛ لأنه داع عن سماع لم يباشر قلبه اليقين به ، ولا

---

(١) أحمد ٥ / ١٣٦ ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٢٩١) : « رجاله رجال الصحيح غير عتى ، وهو ثقة » .

كافحه حقيقته العلمية ، فإذا ترك العاجلة للآخرة تريه نفسه بأنه قد ترك معلوما لمظنون ، أو متحققا لموهوم ، فلسان الحال ينادى عليه : لا أدع ذرة منقودة لذرة موعودة . وهذه الآفة هى التى منعت النفوس من الاستعداد للآخرة ، وأن يسعى لها سعيها ، وهى من ضعف العلم بها وتيقنها ، وإلا فمع الجزم التام الذى لا يخالج القلب فيه شك لا يقع التهاون بها وعدم الرغبة فيها ؛ ولهذا لو قدم لرجل طعام فى غاية الطيب واللذة وهو شديد الحاجة إليه ، ثم قيل له : إنه مسموم ، فإنه لا يقدم عليه ؛ لعلمه بأن سوء ما تجنى عاقبة تناوله تربو فى المضرة على لذة أكله ، فما بال الإيمان بالآخرة ! لا يكون فى قلبه بهذه المنزلة ما ذاك إلا لضعف شجرة العلم والإيمان بها فى القلب ، وعدم استقرارها فيه . وكذلك إذا كان سائرا فى طريق فقيل له : إن بها قطاعا ولصوصا يقتلون من وجدوه ويأخذون متاعه ، فإنه لا يسلكها إلا على أحد وجهين : إما ألا يصدق المخبر ، وإما أن يثق من نفسه بغلبتهم وقهرهم والانتصار عليهم ، وإلا فمع تصديقه للخبر تصديقا لا يتمارى فيه ، وعلمه من نفسه بضعفه وعجزه عن مقاومتهم ، فإنه لا يسلكها ، ولو حصل له هذان العلمان فيما يرتكبه من إيثار الدنيا وشهواتها لم يقدم على ذلك ، فعلم أن إيثاره للعاجلة وترك استعداده للآخرة ، لا يكون قط مع كمال تصديقه وإيمانه أبدا .

**الحالة الثانية** : أن يتيقن ويجزم جزما لا شك فيه بأن له دارا غير هذه الدار ، ومعادا له خلق ، وإن هذه الدار طريق إلى ذلك المعاد ، ومنزل من منازل السائرين إليه ، ويعلم مع ذلك أنها باقية ونعيمها وعذابها لا يزول ، ولا نسبة لهذا النعيم والعذاب العاجل إليه إلا كما يدخل الرجل أصبعه فى اليم ثم ينزعها ، فالذى تعلق بها منه هو كالدنيا بالنسبة إلى الآخرة، فيثمر له هذا العلم إيثار الآخرة وطلبها والاستعداد التام لها ، وأن يسعى لها سعيها، وهذا يسمى تفكرا وتذكرا ، ونظرا وتأملا ، واعتبارا وتدبرا واستبصارا . وهذه معان متقاربة تجتمع فى شىء ، وتتفرق فى آخر .

ويسمى تفكرا ؛ لأنه استعمال الفكرة فى ذلك وإحضاره عنده . ويسمى تذكرا ؛ لأنه إحضار للعلم الذى يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** (٢٠١) ﴾ [ الأعراف ] . ويسمى نظرا ؛ لأنه التفات بالقلب إلى المنظور فيه . ويسمى تأملا ؛ لأنه مراجعة للنظر كرة بعد كرة حتى يتجلى له وينكشف لقلبه . ويسمى اعتبارا ، وهو افتعال من العبور ؛ لأنه يعبر منه إلى غيره ، فيعبر من ذلك الذى قد فكر فيه إلى معرفة ثالثة وهى المقصود من الاعتبار ؛ ولهذا يسمى عبرة ، وهى على بناء الحالات كالجلسة والركبة والقتلة ، إيذانا بأن هذا العلم والمعرفة قد صار حالا لصاحبه يعبر منه إلى المقصود به ، وقال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ**

**لعبرة لمن يخشى ﴿٢٦﴾** ﴾ [ النازعات ] ، وقال : ﴿ **إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴿٤٤﴾** ﴾ [ النور ] . ويسمى تدبرا ؛ لأنه نظر فى إدبار الأمور وهى أواخرها وعواقبها ، ومنه تدبر القول . وقال تعالى : ﴿ **أفلم يدبروا القول** ﴾ [ المؤمنون : ٦٨ ] ، ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴿٨٢﴾** ﴾ [ النساء ] ، وتدبر الكلام أن ينظر فى أوله وآخره ثم يعيد نظره مرة بعد مرة ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين . وسمى استبصارا ، وهو استفعال من التبصر ، وهو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة .

وكل من التذكر والتفكر له فائدة غير فائدة الآخر ، فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ، ولا ينمحى فيذهب أثره من القلب جملة ، والتفكر يفيد تكثير العلم واستجلاب ماليس حاصلا عند القلب . فالتفكر يحصله والتذكر يحفظه ؛ ولهذا قال الحسن : مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة ، فالتفكر والتذكر بذار العلم ، وسقيه مطارحته ، ومذاكرته تلقيحه . كما قال بعض السلف : ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها . فالمذاكرة بها لقاح العقل ، فالخير والسعادة فى خزانة مفتاحها التفكر ، فإنه لابد من تفكر وعلم يكون نتيجته الفكر ، وحال يحدث للقلب من ذلك العلم ، فإن كل من علم شيئا من المحاب أو المكروه لابد أن يبقى لقلبه حالة ، وينصبغ بصبغة من علمه ، وتلك الحال توجب له إرادة ، وتلك الإرادة توجب وقوع العمل . فهاهنا خمسة أمور : الفكر ، وثمرته العلم ، وثمرتهما الحالة التى تحدث للقلب ، وثمرة ذلك الإرادة ، وثمرتها العمل . فالفكر إذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها ، وهذا يكشف لك عن فضل التفكر وشرفه ، وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له ، حتى قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة .

فالفكر هو الذى ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة ، ومن المكاره إلى المحاب ، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة ، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه ، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله والتجافى عن دار الغرور ، ومن مصيبة العمى والصمم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه ، ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين وثلج الصدور .

وبالجملة ، فأصل كل طاعة إنما هى الفكر ، وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة ، فإن الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة فيبذر فيها حب الأفكار الردية ، فيتولد منه الإرادات ، والعزوم فيتولد منها العمل ، فإذا صادف أرض القلب مشغولة ببذر الأفكار النافعة فيما خلق له ، وفيما أمر به ، وفيم هيئ له وأعد له من النعيم

المقيم أو العذاب الأليم ، لم يجد لبذره موضعا ، وهذا كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى        فصادف قلبا فارغا فتمكنا

فإن قيل : فقد ذكرتم الفكر ومنفعته وعظم تأثيره فى الخير والشر ، فما متعلقه الذى ينبغى أن يوقع عليه ويجرى فيه ، فإنه لا يتم المقصود منه إلا بذكر متعلقه الذى يقع الفكر فيه وإلا ففكر بغير متفكر فيه محال .

قيل : مجرى الفكر ومتعلقه أربعة أمور :

**أحدها** : غاية محبوبة مرادة الحصول .

**الثانى** : طريق موصلة إلى تلك الغاية .

**الثالث** : مضرة مطلوبة الإعدام مكروهة الحصول .

**الرابع** : الطريق المفضى إليها الموقع عليها ، فلا تتجاوز أفكار العقلاء هذه الأمور الأربعة ، وأى فكر تخطاها فهو من الأفكار الردية والخيالات والأمانى الباطلة ، كما يتخيل الفقير المعدم نفسه من أغنى البشر ، وهو يأخذ ويعطى ، وينعم ويحرم . وكما يتخيل العاجز نفسه من أقوى الملوك ، وهو يتصرف فى البلاد والرعية ، ونظير ذلك من أفكار القلوب الباطولية التى من جنس أفكار السكران والمحشوش والضعيف العقل ، فالأفكار الردية هى قوت الأنفس الخسيسة التى هى فى غاية الدناءة ، فإنها قد قنعت بالخيال ورضيت بالمحال ، ثم لا تزال هذه الأفكار تقوى بها وتتزايد حتى توجب لها آثارا ردية ، ووساوس وأمراضا بطيئة الزوال .

وإذا كان الفكر النافع لا يخرج عن الأقسام الأربعة التى ذكرناها ، فله أيضا محلان ومنزلان : أحدهما : هذه الدار والآخر: دار القرار ، فأبناء الدنيا الذين ليس لهم فى الآخرة من خلاق عمروا بيوت أفكارهم بتلك الأقسام الأربعة فى هذه الدار ، فأثمرت لهم أفكارهم فيها ما أثمرت ، ولكن إذا حقت الحقائق وبطلت الدنيا وقامت الآخرة ، تبين الرابح من المغبون ، وخسر هنالك المبطلون . وأبناء الآخرة الذين خلقوا لها عمروا بيوت أفكارهم على تلك الأقسام الأربعة فيها ، ونحن نفصل ذلك بعون الله وفضله فنقول :

كل طالب لشىء فهو محب له ، مؤثر لقربه ، ساع فى طريق تحصيله ، متوصل إليه بجهده . وهذا يوجب له تعلق أفكاره بجمال محبوبه وكماله وصفاته التى يحب لأجلها ، وتعلقها بما يناله به من الخير والفرح والسرور ، ففكره فى حال محبوبه دائر بين الجمال والإجمال والحسن والإحسان ، فكلما قويت محبته ازداد هذا الفكر وقوى وتضاعف حتى

يستغرق أجزاء القلب ، فلا يبقى فيه فضل لغيره ، بل يصير بين الناس بقالبه وقلبه كله فى حضرة محبوبه ، فإن كان هذا المحبوب هو المحبوب الحق الذى لا تنبغى المحبة إلا له ولا يحب غيره إلا تبعا لمحبته ، فهو أسعد المحبين به ، وقد وضع الحب موضعه ، وتهيأت نفسه لكمالها الذى خلقت له ، والذى لا كمال لها بدونه بوجه . وإن كانت تلك المحبة لغيره من المحبوبات الباطلة الملاشية التى تفنى وتبقى حزازات القلوب بها على حالها ، فقد وضع المحبة فى غير موضعها ، وظلم نفسه أعظم ظلم وأقبحه ، وتهيأت بذلك نفسه لغاية شقائها وألمها .

وإذا عرف هذا ، عرف أن تعلق المحبة بغير الإله الحق هو عين شقاء العبد وخسرانه ، فأفكاره المتعلقة بها كلها باطلة ، وهى مضرة عليه فى حياته وبعد موته ، والمحب الذى قد ملك المحبوب أفكار قلبه لا يخرج فكره عن تعلقه بمحبوبه أو بنفسه ، ثم فكره فى محبوبه لا يخرج عن حالتين : إحداهما : فكرته فى جماله وأوصافه . والثانية : فكرته فى أفعاله وإحسانه وبره ولطفه الدالة على كمال صفاته .

وإن تعلق فكره بنفسه لم يخرج أيضا عن حالتين : إما أن يفكر فى أوصافه المسخوطة ، التى يبغضها محبوبه ويمقته عليها ويسقطه من عينه ، فهو دائما يتوقع بفكره عليها ليتجنبها ويبعد منها . والثانية : أن يفكر فى الصفات والأخلاق والأفعال التى تقربه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها . فالفكرتان الأولتان توجب له زيادة محبته وقوتها وتضاعفها ، والفكرتان الآخرتان توجب محبة محبوبه له وإقباله عليه وقربه منه وعطفه عليه وإيثاره على غيره ، فالمحبة التامة مستلزمة لهذه الأفكار الأربعة . فالفكرة الأولى والثانية تتعلق بعلم التوحيد وصفات الإله المعبود ـ سبحانه ـ وأفعاله . والثالثة والرابعة تتعلق بالطريق الموصلة إليها وقواطعها وآفاتها ، وما يمنع من السير فيها إليه .

فتفكره فى صفات نفسه يميز له المحبوب لربه منها من المكروه له ، وهذه الفكرة توجب ثلاثة أمور : أحدها : أن هذا الوصف هل هو مكروه مبغوض لله أم لا ؟ الثانى : هل العبد متصف به أم لا ؟ والثالث : إذا كان متصفا به فما طريق دفعه والعافية منه ، وإن لم يكن متصفا به فما طريق حفظ الصحة وبقائه على العافية والاحتراز منه ؟

وكذلك الفكرة فى الصفة المحبوبة تستدعى ثلاثة أمور : أحدها : أن هذه الصفة هل هى محبوبة لله مرضية له أم لا ؟ الثانى : هل العبد متصف بها أم لا ؟ الثالث : أنه إذا كان متصفا بها فما طريق حفظها ودوامها ، وإن لم يكن متصفا بها فما طريق اجتلائها والتخلق بها ؟ ثم فكرته فى الأفعال على هذين الوجهين أيضا سواء ، ومجارى هذه الأفكار

ومواقعها كثيرة جدا لاتكاد تنضبط : و إنما يحصرها ستة أجناس : الطاعات الظاهرة والباطنة، والمعاصى الظاهرة والباطنة ، والصفات والأخلاق الحميدة ، والأخلاق والصفات الذميمة .

فهذه مجارى الفكرة فى صفات نفسه وأفعالها . وأما الفكرة فى صفات المعبود وأفعاله وأحكامه فتوجب له التميز بين الإيمان والكفر ، والتوحيد والشرك ، والإقرار والتعطيل ، وتنزيه الرب عما لا يليق به ووصفه بما هو أهله من الجلال والإكرام .

ومجارى هذه الفكرة تدبر كلامه وما تعرف به ـ سبحانه ـ إلى عباده على ألسنة رسله من أسمائه وصفاته وأفعاله ، وما نزه نفسه عنه مما لا ينبغى له ولا يليق به ـ سبحانه ـ وتدبر أيامه وأفعاله فى أوليائه وأعدائه التى قصها على عباده ، وأشهدهم إياها ليستدلوا بها على أنه إلههم الحق المبين ، الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، ويستدلوا بها على أنه على كل شىء قدير ، وأنه بكل شىء عليم ، وأنه شديد العقاب ، وأنه غفور رحيم ، وأنه العزيز الحكيم ، وأنه الفعال لما يريد ، وأنه الذى وسع كل شىء رحمة وعلما ، وأن أفعاله كلها دائرة بين الحكمة والرحمة ، والعدل والمصلحة ، لا يخرج شىء منها عن ذلك . وهذه الثمرة لا سبيل إلى تحصيلها إلا بتدبر كلامه ، والنظر فى آثار أفعاله .

وإلى هذين الأصلين ندب عباده فى القرآن فقال فى الأصل الأول : ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ** ﴾ [ النساء : ٨٢ ] ، ﴿ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ** ﴾ [ المؤمنون: ٦٨ ] ، ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ** ﴾ [ ص : ٢٩ ] ، ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)** ﴾ [ يوسف ] ، ﴿ **كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣)** ﴾ [ فصلت ] . وقال فى الأصل الثانى : ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [ يونس : ١٠١ ] ، ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [ آل عمران ] ، ﴿ **إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥)** ﴾ [ الجاثية ] ، ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ [ الروم : ٩ ] ، ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ** ﴾ [ الروم : ٤٢ ] ، ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ**

﴿ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [ الروم ] .

ونوع ـ سبحانه ـ الآيات فى هذه السور ، فجعل خلق السموات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم ؛ لاشتراكهم فى العلم بذلك ، وظهوره ووضوح دلالته ، وجعل خلق الأزواج التى تسكن إليها الرجال وإلقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون ، فإن سكون الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكرة والبصيرة ، فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التى صدر عنها ذلك ، دله فكره على أنه الإله الحق المبين الذى أقرت الفطر بربوبيته وإلهيته وحكمته ورحمته .

وجعل المنام بالليل والنهار للتصرف فى المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون ، وهو سمع الفهم ، وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له ، مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم ، وقيامهم من قبورهم ، كما أحياهم ـ سبحانه ـ بعد موتهم وأقامهم للتصرف فى معاشهم . فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغى إليه ، واستدل بهذه الآية عليه .

وجعل إراءتهم البرق ، وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون ، فإن هذه أمور مرتبطة بالأبصار ، مشاهدة بالحس ، فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله ، استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته ، وإمكان ما أخبر به من حياة الخلائق بعد موتهم كما أحيا هذه الأرض بعد موتها . وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل ، فإن الحس دل على الآية ، والعقل دل على ما جعلت له آية ، فذكر ـ سبحانه ـ الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل فقال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) ﴾ [ الروم ] فتبارك الذى جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما فى الصدور .

وبالجملة ، فلا شىء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر ، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين ، وهو الذى يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر ، وسائر الأحوال التى بها حياة القلب وكماله ، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التى بها فساد القلب وهلاكه . فلو علم الناس مافى قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها ، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاج إليها فى شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم ، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن ، وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم

الآية إلى الصباح . وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قام بآية يرددها حتى الصباح ، وهى قوله : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [ المائدة ] (١) . فقراءة القرآن بالتفكر هى أصل صلاح القلب ، ولهذا قال ابن مسعود : لاتهذوا القرآن هذ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل ، وقفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب . لايكن هم أحدكم آخر السورة . وروى أبو أيوب عن أبى جمرة قال : قلت لابن عباس : إنى سريع القراءة، إنى أقرأ القرآن فى ثلاث . قال : لأن أقرأ سورة من القرآن فى ليلة فأتدبرها وأرتلها، أحب إلىَّ من أن أقرأ القرآن كما تقرأ .

والتفكر فى القرآن نوعان : تفكر فيه ليقع على مراد الرب تعالى منه ، وتفكر فى معانى ما دعا عباده إلى التفكر فيه ، فالأول تفكر فى الدليل القرآنى ، والثانى تفكر فى الدليل العيانى . الأول تفكر فى آياته المسموعة ، والثانى تفكر فى آياته المشهودة ؛ ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به ، لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه . قال الحسن البصرى : أنزل القرآن ليعمل به ، فاتخذوا تلاوته عملا (٢) .

## فصل

**من منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « العلم » .**

وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه فى الطريق إلى آخر قدم ينتهى إليه ، فسلوكه على غير طريق . وهو مقطوع عليه طريق الوصول ، مسدود عليه سبل الهدى والفلاح ، مغلقة عنه أبوابها . وهذا إجماع من الشيوخ العارفين ، ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق منهم ، ونواب إبليس وشُرطه .

قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد ـ رحمه الله (٣) : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ .

وقال : من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث ، لا يقتدى به فى هذا الأمر ؛ لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال : مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة .

---

(١) النسائى (١٠١٠) فى الافتتاح ، باب : ترديد الآية ، وابن ماجه (١٣٥٠) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : ما جاء فى القراءة فى صلاة الليل ، وحسنه الألبانى .

(٢) مفتاح دار السعادة (٤٨ ـ ١٨٧) .

(٣) الجنيد هو الإمام القدوة المحدث ، شيخ الصوفية ، الفقيه الفاضل ، والمحدث الصدوق (٤٦٦ ـ ٥٤٧) رحمه الله تعالى .سير أعلام النبلاء ( ١٥ / ٧٦) ط / دار الفكر .

وقال أبو حفص ـ رحمه الله : من لم يزن أفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسنة ، ولم يتهم خواطره ، فلا يعد فى ديوان الرجال .

وقال أبو سليمان الدارانى ـ رحمه الله : ربما يقع فى قلبى النكتة من نكت القوم أياما ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب ، والسنة .

وقال سهل بن عبد الله ـ رحمه الله : كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء ـ طاعة كان أو معصية ـ فهو عيش النفس . وكل فعل يفعله العبد بالاقتداء : فهو عذاب على النفس .

وقال السرى: التصوف اسم لثلاثة معان: لا يطفئ نور معرفته نور ورعه،ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب،ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله.

وقال أبو يزيد: عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدت شيئا أشد على من العلم ومتابعته ، ولولا اختلاف العلماء لبقيت ،واختلاف العلماء رحمة ،إلا فى تجريد التوحيد .

وقال مرة لخادمه : قم بنا إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالصلاح لنزوره ، فلما دخلا عليه المسجد تنخع ، ثم رمى بها نحو القبلة ، فرجع ولم يسلم عليه ، وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه ؟

وقال : لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفينى مؤنة النساء . ثم قلت : كيف يجوز لى أن أسأل الله هذا ، ولم يسأله رسول الله ﷺ ؟ ولم أسأله . ثم إن الله كفانى مؤنة النساء ، حتى لا أبالى استقبلتنى امرأة أو حائط .

وقال : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات إلى أن يرتفع فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة ؟

وقال أحمد بن أبى الحوارى ـ رحمه الله : من عمل عملا بلا اتباع سنة ، فباطل عمله .

وقال أبو عثمان النيسابورى ـ رحمه الله : الصحبة مع الله : بحسن الأدب ، ودوام الهيبة والمراقبة ، والصحبة مع الرسول ﷺ : باتباع سنته ، ولزوم ظاهر العلم ، ومع أولياء الله : بالاحترام والخدمة ، ومع الأهل : بحسن الخلق ، ومع الإخوان : بدوام البشر ، مالم يكن إثما ، ومع الجهال: بالدعاء لهم والرحمة .

زاد غيره : ومع الحَافِظَين (١) : بإكرامهما واحترامهما ،وإملائهما ما يحمدانك عليه ،

(١) يقصد الملكين الحَافَظين ، فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [ ق ] .

ومع النفس : بالمخالفة ، ومع الشيطان : بالعداوة .

وقال أبو عثمان أيضا : من أَمَّر السنة على نفسه قولا وفعلا : نطق بالحكمة ، ومن أمـر الهوى على نفسه قولا وفعلا : نطق بالبدعة ، قال الله تعالى : ﴿ **وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** ﴾ [ النور : ٥٤ ]

وقال أبو الحسين النووى : من رأيتموه يدعى مع الله عز وجل حالة تخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تقربوا منه .

وقال محمد بن الفضل البامجى من مشايخ القوم الكبار : ذهاب الإسلام من أربعة : لا يعملون بما يعلمون ، ويعملون بما لا يعلمون ، ولا يتعلمون ما يعملون ويمنعون الناس من التعلم والتعليم .

وقال عمرو بن عثمان المكى: العلم قائد، والخوف سائق، والنفس حرون بين ذلك، جموح خداعة رواغة، فاحذرها وراعها بسياسة العلم، وسقها بتهديد الخوف: يتم لك ما تريد.

وقال أبو سعيد الخراز : كل باطن يخالفه الظاهر فهو باطل .

وقال ابن عطاء : من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب فى أوامره وأفعاله وأخلاقه .

وقال : كل ما سألت عنه فاطلبه فى مفازة العلم ، فإن لم تجده ففى ميدان الحكمة ، فإن لم تجده فزنه بالتوحيد ، فإن لم تجده فى هذه المواضع الثلاثة فاضرب به وجه الشيطان .

وألقى بُنان الحمال(١) بين يدى السبع ، فجعل السبع يشمه ولا يضره ، فلما أخرج قيل له: ما الذى كان فى قلبك حين شمك السبع ؟ قال : كنت أتفكر فى اختلاف العلماء فى سؤر السباع .

وقال أبوحمزة البغدادى : من أكابر الشيوخ ، وكان أحمد بن حنبل يقول له فى المسائل: ماتقول ياصوفى ؟ من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول ﷺ فى أحواله وأقواله وأفعاله .

ومر الشيخ أبو بكر محمد بن موسى الواسطى يوم الجمعة إلى الجامع ، فانقطع شسع نعله ، فأصلحه له رجل صيدلانى. فقال: تدرى لم انقطع شسع نعلى؟ فقلت: لا . فقال: لأنى ما اغتسلت للجمعة . فقال: ههنا حمام تدخله ؟ فقال : نعم . فدخل واغتسل .

---

(١) هو بُنان الحمّال ، الإمام المحدث الزاهد ، شيخ الإسلام أبو الحسن بن محمد بن حمدان بن سعيد الواسطى . السير (١١ / ٤٣٨ ) ط / دار الفكر .

وقال أبو إسحاق الرقى ـ من أقران الجنيد : علامة محبة الله : إيثار طاعته ، ومتابعة رسوله ﷺ .

وقال أبو يعقوب النهرجورى : أفضل الأحوال : ماقارن العلم .

وقال أبو القاسم النصراباذى ـ شيخ خراسان فى وقته : أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع ، وتعظيم كرامات المشايخ ، ورؤية أعذار الخلق ، والمداومة على الأوراد ، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات .

وقال أبو بكر الطمستانى ـ من كبار شيوخ الطائفة : الطريق واضح ، والكتاب والسنة قائم بين أظهرنا ، وفضل الصحابة معلوم ؛ لسبقهم إلى الهجرة ولصحبتهم ، فمن صحب الكتاب والسنة ، وتغرب عن نفسه وعن الخلق ، وهاجر بقلبه إلى الله : فهو الصادق المصيب .

وقال أبو عمرو بن نجيد : كل حال لا يكون عن نتيجة علم ، فإن ضرره على صاحبه أكثر من نفعه . وقال : التصوف الصبر تحت الأوامر والنواهى .

وكان بعض أكابر الشيوخ المتقدمين يقول : يامعشر الصوفية ، لاتفارقوا السواد فى البياض تهلكوا (١) .

## فصل
## ومن فضائل العلم

به تعرف الشرائع والأحكام ، ويتميز الحلال من الحرام ، وبه توصل الأرحام، وبه تعرف مراضى الحبيب ، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب .

وهو إمام ، والعمل مأموم . وهو قائد ، والعمل تابع . وهو الصاحب فى الغربة والمحدث فى الخلوة ، والأنيس فى الوحشة ، والكاشف عن الشبهة ، والغنى الذى لافقر على من ظفر بكنزه ، والكنف الذى لاضيعة على من آوى إلى حرزه .

مذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وطلبه قربة ، وبذله صدقة ، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام . والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام .

قال الإمام أحمد ﷺ : الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب ؛ لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب فى اليوم مرة أو مرتين ، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه .

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٦٤ ـ ٤٦٨) .

وروينا عن الشافعى رضى الله تعالى عنه أنه قال : طلب العلم أفضل من صلاة النافلة . ونص على ذلك أبو حنيفة ﷺ .

وقال ابن وهب : كنت بين يدى مالك ﷺ ، فوضعت ألواحى وقمت أصلى . فقال : ما الذى قمت إليه بأفضل مما قمت عنه . ذكره ابن عبد البر وغيره .

واستشهد الله عز وجل بأهل العلم على أجَلّ مشهود به وهو « التوحيد » ، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته . وفى ضمن ذلك تعديلهم ، فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يستشهد بمجروح .

ومن ههنا ـ والله أعلم ـ يؤخذ الحديث المعروف : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وتأويل المبطلين » (١) .

وهو حجة الله فى أرضه ، ونوره بين عباده ، وقائدهم ودليلهم إلى جنته ، ومدنيهم من كرامته .

ويكفى فى شرفه : أن فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وأن الملائكة لتضع لهم أجنحتها ، وتظلهم بها ، وأن العالم يستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض ، حتى الحيتان فى البحر ، وحتى النمل فى جحرها ، وأن الله وملائكته يصلون على معلمى الناس الخير .

ولقد رحل كليم الرحمن موسى بن عمران ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى طلب العلم هو وفتاه ، حتى مسهما النصب فى سفرهما فى طلب العلم ، حتى ظفر بثلاث مسائل ، وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به .

وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [ طه ] .

وحرم الله صيد الجوارح الجاهلة ، وإنما أباح للأمة صيد الجوارح العالمة . فهكذا جوارح الإنسان الجاهل لا يجدى عليه صيدها من الأعمال شيئا ، والله سبحانه وتعالى أعلم (٢) .

## فصل
## ومن أسباب شرح الصدور

العلم ، فإنه يشرح الصدر يوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا ، والجهل يورثه الضيق

(١) سبق تخريجه ص (٢٥٠) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٧٠ ، ٤٧١) .

والحصر والحبس ، فكلما اتسع علم العبد انشرح صدره واتسع ، وليس هذا لكل علم ، بل للعلم الموروث عن الرسول ﷺ ، وهو العلم النافع ، فأهله أشرح الناس صدرا وأوسعهم قلوبا وأحسنهم أخلاقا وأطيبهم عيشا (١) .

## فصل
## فى تهذيب الأخلاق بالعلم

أما تهذيب الأخلاق بالعلم : فالمراد به إصلاحها وتصفيتها بموجب العلم ، فلا يتحرك بحركة ظاهرة أو باطنة إلا بمقتضى العلم ، فتكون حركات ظاهره وباطنه موزونة بميزان الشرع (٢) .

## فصل
## فى بيان فضل العالم

فإن قيل : قد ذكرتم : أن المحب يسامح بما لا يسامح به غيره ، ويعفى للولى عما لا يعفى لسواه . وكذلك العالم أيضا ، يغفر له مالا يغفر للجاهل ، كما روى الطبرانى بإسناد جيد ـ مرفوعا إلى النبى ﷺ : « إن الله ـ سبحانه ـ إذا جمع الناس يوم القيامة فى صعيد واحد ، قال للعلماء : إنى كنت أعبد بفتواكم ، وقد علمت أنكم كنتم تخلطون كما يخلط الناس ، وإنى لم أضع علمى فيكم وأنا أريد أن أعذبكم ، اذهبوا فقد غفرت لكم » (٣) هذا معنى الحديث . وقد روى مسندا ومرسلا .

فهذا الذى ذكرتم صحيح ، وهو مقتضى الحكمة والجود والإحسان ، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التى ورد التهديد بها فى حق أولئك إن وقع منهم مايكره ؟ كقوله تعالى : ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ** ﴾ [ الأحزاب : ٣٠ ] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)** ﴾ [ الإسراء ] أى : لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشىء ، ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب

---

(١) زاد المعاد (٢ / ٢٤ ) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٤٧٦) .

(٣) الطبرانى فى الصغير (٥٩١) ،وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ١٣١) : « رواه الطبرانى فى الكبير وفيه موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف جدا »، وقال الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٨٦٨) : « ضعيف جدا » .

الممات ؛ أى ضاعفنا لك العذاب فى الدنيا والآخرة . وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾** ﴾ [ الحاقة ] أى : لو أتى بشىء من عند نفسه لأخذنا منه بيمينه ، وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه . وقد أعاذه الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه ، ومن التقول عليه سبحانه . وكم من راكن إلى أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعبأ به ، كأرباب البدع كلهم ، المتقولين على أسمائه وصفاته ودينه .

فالجواب: أن هذا أيضا حق ، ولا تنافى بين الأمرين . فإن من كملت عليه نعمة الله ، واختصه منها بما لم يختص به غيره : فى إعطائه منها ما حرمه غيره ، فحبى بالإنعام ، وخص بالإكرام . وخص بمزيد التقريب ، وجعل فى منزلة الولى الحبيب ، اقتضت حاله من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص : بأن يراعى مرتبته من أدنى مشوش وقاطع . فلشدة الاعتناء به ، ومزيد تقريبه ، واتخاذه لنفسه ، واصطفائه على غيره ، تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم ، ونعمه عليه أكمل ، والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره . فهو إذا غفل وأخل بمقتضى مرتبته نبه بما لم ينبه عليه البعيد البرانى ، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك أيضا . فيجتمع فى حقه الأمران .

وإذا أردت معرفة اجتماعهما ، وعدم تناقضهما ، فالواقع شاهد به . فإن الملك يسامح خاصته وأولياءه بما لم يسامح به من ليس فى منزلتهم ، ويأخذهم ، ويؤدبهم بما لم يأخذ به غيرهم . وقد ذكرنا شواهد هذا وهذا ، ولا تناقض بين الأمرين .

وأنت إذا كان لك عبدان ، أو ولدان ، أو زوجتان ، أحدهما : أحب إليك من الآخر، وأقرب إلى قلبك ، وأعز عليك : عاملته بهذين الأمرين ، واجتمع فى حقه المعاملتان بحسب قربه منك ، وحبك له ، وعزته عليك . فإذا نظرت إلى كمال إحسانك إليه ، وإتمام نعمتك عليه : اقتضت معاملته بما لا تعامل به من دونه ، من التنبيه وعدم الإهمال . وإذا نظرت إلى إحسانه ومحبته لك ، وطاعته وخدمته ، وكمال عبوديته ونصحه : وهبت له وسامحته ، وعفوت عنه ، بما لا تفعله مع غيره . فالمعاملتان بحسب ما منك وما منه .

وقد ظهر اعتبار هذا المعنى فى الشرع ، حيث جعل حد من أنعم عليه بالتزوج إذا تعداه إلى الزنا : الرجم ، وحد من لم يعطه هذه النعمة الجلد . وكذلك ضاعف الحد على الحر الذى قد ملكه نفسه ، وأتم عليه نعمته ، ولم يجعله مملوكا لغيره . وجعل حد العبد المنقوص بالرق ، الذى لم تحصل له هذه النعمة : نصف ذلك .

فسبحان من بهرت حكمته فى خلقه وأمره وجزائه عقول العالمين ، وشهدت بأنه أحكم الحاكمين .

لله سر تحت كل لطيفة فأخو البصائر غائص يتملق (١)

## وأيضا

لما كان الجلاد بالسيف والسنان ، والجدال بالحجة والبرهان كالأخوين الشقيقين والقرينين المتصاحبين ، كانت أحكام كل واحد منهما شبيهة بأحكام الآخر ومستفادة منه .

فالإصابة فى الرمى والنضال كالإصابة فى الحجة والمقال ، والطعن والتبطيل : نظير إقامة الحجة ، وإبطال حجة الخصم والخروج : نظير الإيراد والاحتراز منه ، وجواب القرن عند دخوله عليك : كجواب الخصم عما يورده عليك .

فالفروسية فروسيتان : فروسية العلم والبيان ، وفروسية الرمى والطعان . ولما كان أصحاب النبى ﷺ أكمل الخلق فى الفروسيتين فتحوا القلوب بالحجة والبرهان ، والبلاد بالسيف والسنان . وما الناس إلا هؤلاء الفريقان ومن عداهما ، فإن لم يكن ردءا وعونا لهما فهو كَلٌّ على نوع الإنسان ، وقد أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله ﷺ بجدال الكفار والمنافقين وجلاد أعدائه المشاقين والمحاربين ، فعلم أن الجدال والجلاد من أهم العلوم وأنفعها للعباد فى المعاش والمعاد ، ولا يعدل مداد العلماء إلا دم الشهداء ، والرفعة وعلو المنزلة فى الدارين إنما هى لهاتين الطائفتين وسائر الناس رعية لهما منقادون لرؤسائهما (٢) .

## فصل
## فى بيان فضل الراسخين فى العلم

الطبقة الرابعة (٣) : ورثة الرسل وخلفاؤهم فى أممهم ، وهم القائمون بما بعثوا به علما وعملا ودعوة الخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم . وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة ، وهى مرتبة الصديقية ، ولهذا قرنهم الله فى كتابه بالأنبياء ، فقال تعالى : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** (٦٩) ﴾ [ النساء ] ، فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٣٣ ـ ٣٣٥) .

(٢) الفروسية (٧٠ ، ٧١) .

(٣) من طبقات المكلفين فى الدار الآخرة .

النبوة ، وهؤلاء هم الربانيون ، وهم الراسخون فى العلم ، وهم الوسائط بين الرسول وأمته ، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه ، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك ، وقال الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** ﴾ [ الحديد : ١٩ ] وقيل : إن الوقف على قوله تعالى ﴿ **هُمُ الصِّدِّيقُونَ** ﴾ ثم يبتدئ ﴿ **وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ ، فيكون الكلام جملتين أخبر فى إحداهما عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم الصديقون ، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه ، وأخبر فى الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم .

ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ؛ ولهذا قدمهم عليهم فى الآيتين ، هنا وفى سورة النساء ، وهكذا جاء ذكرهم مقدما على الشهداء فى كلام النبى ﷺ فى قوله : « أثبت أحد ، فإنما عليك نبى وصديق وشهيد » (١) ؛ ولهذا كان نعت الصديقية وصفا لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبى بكر الصديق ، ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتا له رضي الله عنه .

وقيل : إن الكلام كله جملة واحدة ، وأخبر عن المؤمنين بأنهم الصديقون والشهداء عند ربهم ، وعلى هذا فالشهداء هم الذين يستشهدهم الله على الناس يوم القيامة ، وهو قوله تعالى : ﴿ **لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ [ البقرة : ١٤٣ ] وهم المؤمنون ، فوصفهم بأنهم صديقون فى الدنيا وشهداء على الناس يوم القيامة ، ويكون الشهداء وصفا لجملة المؤمنين الصديقين . وقيل : الشهداء هم الذين قتلوا فى سبيل الله ، وعلى هذا القول يترجح أن يكون الكلام جملتين ، ويكون قوله : ﴿ **وَالشُّهَدَاءُ** ﴾ مبتدأ خبره ما بعده ؛ لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيدا فى سبيل الله (٢) .

## فصل
## فى خشية العلماء لله عز وجل

الخشية أخص من الخوف ، فإن الخشية للعلماء بالله ، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [ فاطر : ٢٨ ] فهى خوف مقرون بمعرفة ، وقال النبى ﷺ : « إن

---

(١) البخارى (٣٦٧٥) فى فضائل الصحابة ، باب : قول النبى ﷺ : « لو كنت متخذا خليلا » .
(٢) طريق الهجرتين (٣٥١) .

أتقاكم لله وأشدكم له خشية » (١) (٢) .

## وأيضا

على قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية ، كما قال النبى ﷺ : « إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية » ، وفى رواية : « خوفا » ، وقال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى » (٣) (٤) .

## فصل
## فى تقديم الأعلم

ينبغى الاستعانة فى كل علم وصناعة بأحذق من فيها ، فالأحذق ، فإنه إلى الإصابة أقرب . وهكذا يجب على المستفتى أن يستعين على ما نزل به بالأعلم فالأعلم ؛ لأنه أقرب إصابة ممن هو دونه .

وكذلك من خفيت عليه القبلة فإنه يقلد أعلم من يجده وعلى هذا فطر الله عباده كما أن المسافر فى البر والبحر إنما سكون نفسه وطمأنينته إلى أحذق الدليلين وأخبرهما ، وله يقصد ، وعليه يعتمد ، فقد اتفقت على هذا الشريعة والفطرة والعقل (٥) .

## فصل
## فى بيان فضل التفقه فى دين الله عز وجل

وهذا الكلام (٦) لا يفقه معناه إلا الفقيه فى دين الله ، فإن من شهد حقيقة الخلق

---

(١) البخارى (٥٠٦٤) فى النكاح ، باب : الترغيب فى النكاح ، ومسلم (١١١٠ / ٧٩) فى الصيام ، باب : صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٥١٢) .

(٣) الترمذى (٢٣١٢) فى الزهد ، باب : قول النبى ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا » ، وقال : « حسن غريب » ، وابن ماجه (٤١٩٠) فى الزهد ، باب : الحزن والبكاء .

(٤) مدارج السالكين (١ / ٥١٣) .

(٥) زاد المعاد (٤ / ١٣٢) .

(٦) إشارة إلى ما تقدم من قوله : « قال بعض السلف : لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس فى ذات الله ، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتا » .

وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم ، بل تفريطهم وإضاعتهم لحق الله وإقبالهم على غيره ، وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفانى، لم يجد بدا من مقتهم ، ولا يمكنه غير ذلك البتة ، ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره وكان على بصيرة من ذلك: كان لنفسه أشد مقتا واستهانة ، فهذا هو الفقيه (١) .

## فصل
## فى الحث على طلب العلم

المرتبة الخامسة (٢) : الحياة التى أشار إليها المصنف وهى « حياة العلم من موت الجهل » فإن الجهل موت لأصحابه ، كما قيل :

وفى الجهل ـ قبل الموت ـ موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبـــور
وأرواحهم فى وحشة من جسـومهـم ... فليس لهم حتى النشور نشور

فإن الجاهل ميت القلب والروح وإن كان حى البدن ، فجسده قبر يمشى به على وجه الأرض ، قال الله تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [ الأنعام : ١٢٢ ] ، وقال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) ﴾ [ يس ] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ [ الروم : ٥٢ ] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) ﴾ [ فاطر ] ، وشبههم ـ فى موت قلوبهم ـ بأهل القبور ، فإنهم قد ماتت أرواحهم ، وصارت أجسامهم قبورا لها ، فكما أنه لا يسمع أصحاب القبور كذلك لا يسمع هؤلاء ، وإذا كانت الحياة هى الحس والحركة وملزومهما ، فهذه القلوب لما لم تحس بالعلم والإيمان ولم تتحرك له ، كانت ميتة حقيقة ، وليس هذا تشبيها لموتها بموت البدن ، بل ذلك موت القلب والروح .

وقد ذكر الإمام أحمد فى ( كتاب الزهد ) من كلام لقمان أنه قال لابنه : « يابنى ، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل القطر » .

وقال معاذ بن جبل : « تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ،

---
(١) مدارج السالكين (١ / ٤٣٨) .
(٢) من مراتب الحياة .

ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ؛ لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبل أهل الجنة ، وهو الأنيس فى الوحشة ، والصاحب فى الغربة ، والمحدث فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والزين عند الأخلاء ، يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة وأئمة تقتضى آثارهم ، ويقتدى بأفعالهم ، وينتهى إلى رأيهم ، ترغب الملائكة فى خلتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، يستغفر لهم كل رطب ويابس ، وحيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل ، ومصابيح الأبصار من الظلم ، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة . التفكر فيه يعدل الصيام ، ومدارسته تعدل القيام ، به توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال من الحرام ، وهو إمام العمل ، والعمل تابع له ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء » . رواه الطبرانى وابن عبد البر وغيرهما وقد روى مرفوعا إلى النبى ﷺ والوقف أصح .

والمقصود : قوله : « لأن العلم حياة القلوب من الجهل » فالقلب ميت وحياته بالعلم والإيمان (١) .

## فصل
## فى فضل تعلم العلم وتعليمه

جهاد النفس أربع مراتب :

**إحداها** : أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذى لا فلاح لها ، ولا سعادة فى معاشها ومعادها إلا به ، ومتى فاتها علمه شقيت فى الدارين .

**الثانية** : أن يجاهدها على العمل به بعد علمه ، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها .

**الثالثة** : أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه ، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ، ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله .

**الرابعة** : أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ، ويتحمل ذلك كله لله ، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين ، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيا حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه ، فمن علم

---
(١) مدارج السالكين (٣ / ٢٦١ ـ ٢٦٣) .

وعمل وعلم فذاك يدعى عظيما فى ملكوت السموات (١) .

## فصل
## فى الجود بالعلم وبذله

الجود بالعلم وبذله من أعلى مراتب الجود ، والجود به أفضل من الجود بالمال ؛ لأن العلم أشرف من المال .

والناس فى الجود به على مراتب متفاوتة ، وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ ألا ينفع به بخيلا أبدا .

ومن الجود به : أن تبذله لمن يسألك عنه بل تطرحه عليه طرحا . ومن الجود بالعلم : أن السائل إذا سألك عن مسألة ، استقصيت له جوابها جوابا شافيا ، لا يكون جوابك له بقدر ماتدفع به الضرورة ، كما كان بعضهم يكتب فى جواب الفتيا : « نعم » أو « لا » مقتصرا عليها .

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ فى ذلك أمرا عجيبا : كان إذا سئل عن مسألة حكمية ، ذكر فى جوابها مذاهب الأئمة الأربعة إذا قدر ، ومأخذ الخلاف ، وترجيح القول الراجح ، وذكر متعلقات المسألة التى ربما تكون أنفع للسائل من مسألته . فيكون فرحه بتلك المتعلقات واللوازم أعظم من فرحه بمسألته . وهذه فتاويه ـ رحمه الله ـ بين الناس ، فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك .

فمن جود الإنسان بالعلم : أنه لا يقتصر على مسألة السائل ، بل يذكر له نظائرها ، ومتعلقها ، ومأخذها ، بحيث يشفيه ويكفيه .

وقد سأل الصحابة ﭫ النبى ﷺ عن التوضئ بماء البحر ؟ فقال : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » (٢) ، فأجابهم عن سؤالهم وجاد عليهم بما لعلهم فى بعض الأحيان إليه أحوج مماسألوه عنه .

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبههم على علته وحكمته ، كما سألوه عن بيع الرطب

---

(١) زاد المعاد (٣ / ١٠) .

(٢) أبو داود (٨٣) فى الطهارة ، باب : الوضوء بماء البحر ، والترمذى (٦٩) فى الطهارة ، باب : ما جاء فى ماء البحر ، وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى (٥٩) فى الطهارة ، باب : ماء البحر ، وابن ماجه (٣٨٦) فى الطهارة ، باب : الوضوء بماء البحر ، والدارمى ١ / ١٨٦ فى الطهارة ، باب : الوضوء من ماء البحر ، وأحمد ٢ / ٢٣٧ .

بالتمر ؟ فقال : « أينقص الرطب إذا جف ؟ » قالوا : نعم ، قال :« فلا إذن »[١] . ولم يكن يخفى عليه ﷺ نقصان الرطب بجفافه ، ولكن نبههم على علة الحكم .

وهذا كثير جدا فى أجوبته ﷺ ، مثل قوله : « إن بعت من أخيك ثمرة ، فأصابتها جائحة فلا يحل لك أن تأخذ من مال أخيك شيئا ، بم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق ؟ »[٢] ، وفى لفظ : « أرأيت إن منع الله الثمرة ، بم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق ؟ »[٣] ، فصرح بالعلة التى يحرم لأجلها إلزامه بالثمن ، وهى منع الله الثمرة التى ليس للمشترى فيها صنع .

وكان خصومه ـ يعنى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ يعيبونه بذلك ويقولون : سأله السائل عن طريق مصر ـ مثلا ـ فيذكر له معها طريق مكة والمدينة وخراسان والعراق والهند ، وأى حاجة بالسائل إلى ذلك ؟

ولعمر الله ليس ذلك بعيب ، وإنما العيب : الجهل والكبر ، وهذا موضع المثل المشهور :

لقبوه بحامض وهو خل ... مثل من لم يصل إلى العنقود[٤]

## فصل
## فى درجات العلم

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله : « العلم ماقام بدليل ، ورفع الجهل » .

يريد : أن للعلم علامة قبله ، وعلامة بعده . فعلامته قبله : ماقام به الدليل ، وعلامته بعده : رفع الجهل .

قال : « وهو على ثلاث درجات : الدرجة الأولى : علم جلى ، به يقع العيان ، واستفاضة صحيحة ، أو صحة تجربة قديمة » .

يريد بالجلى : الظاهر ، الذى لاخفاء به ، وجعله ثلاثة أنواع .

---

(١) أبو داود (٣٣٥٩) فى البيوع ، باب : فى التمر بالتمر ، والترمذى (١٢٢٥) فى البيوع ، باب : ما جاء فى النهى عن المحاقلة والمذابنة ، وقال : « حسن صحيح » .

(٢) مسلم (١٥٥٤ / ١٤) فى المساقاة ، باب : وضع الجوائح .

(٣) البخارى (٢١٩٨) فى البيوع ، باب : إذا باع الثمار قبل أن يبدو صلاحها ثم أصابته عاهة فهو من البائع ، ومسلم (١٥٥٥ / ١٥) فى المساقاة ، باب : وضع الجوائح .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٢٩٣ ـ ٢٩٥) .

**أحدها** : ماوقع عن عيان ، وهو البصر .

**والثانى** : ما استند إلى السمع ، وهو علم الاستفاضة .

**والثالث** : ما استند إلى العقل ، وهو علم التجربة .

فهذه الطرق الثلاثة ـ وهى السمع ، والبصر ، والعقل ـ وهى طرق العلم وأبوابه ولا تنحصر طرق العلم فيما ذكره ، فإن سائر الحواس توجب العلم .

وكذا مايدرك بالباطن ، وهى الوجدانيات .

وكذا مايدرك بخبر المخبر الصادق ، وإن كان واحدا .

وكذا ما يحصل بالفكر والاستنباط ، وإن لم يكن عن تجربة .

فالعلم لا يتوقف على هذه الثلاثة التى ذكرها فقط .

قال : « الدرجة الثانية : علم خفى ، ينبت فى الأسرار الطاهرة من الأبدان الزاكية ، بماء الرياضة الخالصة ، ويظهر فى الأنفاس الصادقة لأهل الهمة العالية ، فى الأحايين الخالية ، والأسماع الصاحية ، وهو علم يظهر الغائب ، ويغيب الشاهد ، ويشير إلى الجمع » .

يعنى : أن هذا العلم خفى على أهل الدرجة الأولى ، وهو المسمى بالمعرفة عند هذه الطائفة .

قوله : « ينبت فى الأسرار الطاهرة » : لفظ « السر » يطلق فى لسانهم ويراد به أمور :

**أحدها** : اللطيفة المودعة فى هذا القالب ، التى حصل بها الإدراك والمحبة والإرادة والعلم ، وذلك هو الروح .

**الثانى** : معنى : قائم بالروح ، نسبته إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن ، وغالب مايريدون به : هذا المعنى .

وعندهم : أن القلب أشرف مافى البدن ، والروح أشرف من القلب ، والسر ألطف من الروح .

وعندهم : للسر سر آخر ، لا يطلع عليه غير الحق سبحانه ، وصاحبه لا يطلع عليه ، وإن اطلع على سره . فيقولون : « السر » مالك عليه إشراف ، و « سر السر » مالا اطلاع عليه لغير الحق ـ سبحانه .

والمعنى الثالث : يراد به مايكون مصونا مكتوبا بين العبد وبين ربه ، من الأحوال والمقامات . كما قال بعضهم : أسرارنا بكر ، لم يفتضها وهم واهم .

ويقول : قائلهم : لو عرف زرى سرى لطرحته .

والمقصود قوله : « ينبت فى الأسرار الطاهرة » ، يعنى : الطاهرة من كدر الدنيا والاشتغال بها ، وعلائقها التى تعوق الأرواح عن ديار الأفراح . فإن هذه أكدار ، وتنفسات فى وجه مرآة القلب والروح ، فلا تنجلى فيها صور الحقائق كما ينبغى ، والنفس تنفس فيها دائما بالرغبة فى الدنيا والرهبة من فوتها ، فإذا جليت المرآة بإذهاب هذه الأكدار صفت ، وظهرت فيها الحقائق والمعارف .

وأما « الأبدان الزكية » : فهى التى زكت بطاعة الله ، ونبتت على أكل الحلال . فمتى خلصت الأبدان من الحرام ، وأدناس البشرية ، التى ينهى عنها العقل والدين والمروءة ، وطهرت الأنفس من علائق الدنيا : زكت أرض القلب ، فقبلت بذر العلوم والمعارف . فإن سقيت ـ بعد ذلك ـ بماء الرياضة الشرعية النبوية المحمدية ـ وهى التى لا تخرج عن علم ، ولا تبعد عن واجب ، ولا تعطل سنة ـ أنبتت من كل زوج كريم ، من علم وحكمة وفائدة وتعرف ، فاجتنى منها صاحبها ومن جالسه أنواع الطرف والفوائد ، والثمار المختلفة الألوان ، والأذواق ، كما قال بعض السلف : إذا عقدت القلوب على ترك المعاصى ، جالت فى الملكوت ، ثم رجعت إلى أصحابها بأنواع التحف والفوائد .

قوله : « وتظهر فى الأنفاس الصادقة » : يريد بالأنفاس أمرين :

**أحدهما** : أنفاس الذكر والمعرفة .

**والثانى** : أنفاس المحبة والإرادة ، وما يتعلق بالمعروف المذكور ، وبالمحبوب المراد من الذاكر والمحب . و « صدقها » : خلوصها من شوائب الأغيار والحظوظ .

وقوله : « لأهل الهمم العالية » : فهى التى لا تقف دون الله عز وجل ، ولا تعرج فى سفرها على شئ سواه . وأعلى الهمم : ما تعلق بالعلى الأعلى . وأوسعها : ما تعلق بصلاح العباد ، وهى همم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، وورثتهم .

وقوله : « فى الأحايين الخالية » : يريد بها : ساعات الصفاء مع الله تعالى ، وأوقات النفحات الإلهية ، التى من تعرض لها يوشك ألا يحرمها . ومن أعرض عنها فهى عنه أشد إعراضا .

وقوله : « فى الأسماع الصاحية » : فهى التى صحت من تعلقها بالباطل واللغو ، وأصاخت لدعوة الحق ، ومنادى الإيمان . فإن الباطل واللغو خمر الأسماع والعقول ، فصحوها بتجنبه والإصغاء إلى دعوة الحق .

قوله : « وهو علم يظهر الغائب » : أى يكشف ما كان غائبا عن العارف .

قوله : « ويغيب الشاهد » : أى يغيبه عن شهود ماسوى مشهوده الحق .

« ويشير إلى الجمع » وهو مقام الفردانية ، واضمحلال الرسوم ، حتى رسم الشاهد نفسه ، والله سبحانه أعلم .

قال : « الدرجة الثالثة : علم لدنى ، إسناده وجوده ، وإدراكه عيانه ، ونعته حكمه ، وليس بينه وبين الغيب حجاب » .

يشير القوم بالعلم « اللدنى » إلى ما يحصل للعبد من غير واسطة ، بل بإلهام من الله ، وتعريف منه لعبده ، كما حصل للخضر عليه السلام بغير واسطة موسى ، قال الله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ [ الكهف ] .

وفرق بين الرحمة والعلم وجعلهما « من عنده » و « من لدنه » ، إذ لم ينلهما على يد بشر ، وكان « من لدنه » أخص وأقرب من « عنده » ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) ﴾ [ الإسراء ] فـ « السلطان النصير » الذى من لدنه سبحانه : أخص وأقرب مما عنده ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ ، وهو الذى أيده به . والذى من عنده : نصره بالمؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) ﴾ [ الأنفال ] .

و « العلم اللدنى » ثمرة العبودية والمتابعة ، والصدق مع الله ، والإخلاص له ، وبذل الجهد فى تلقى العلم من مشكاة رسوله ، وكمال الانقياد له . فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به ، كما قال على بن أبى طالب رضي الله عنه ـ وقد سئل : هل خصكم رسول الله ﷺ بشئ دون الناس ؟ ـ فقال : لا ، والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، إلا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه ، فهذا هو العلم اللدنى الحقيقى .

وأما علم من أعرض عن الكتاب والسنة ، ولم يتقيد بهما : فهو من لدن النفس والهوى ، والشيطان . فهو لدنى ، لكن من لدن من ؟ وإنما يعرف كون العلم لدنيا رحمانيا : بموافقته لما جاء به الرسول ﷺ عن ربه عز وجل . فالعلم اللدنى نوعان : لدنى رحمانى ، ولدنى شيطانى بطناوى . والمحك : هو الوحى ، ولا وحى بعد رسول الله ﷺ .

وأما قصة موسى مع الخضر عليهما السلام : فالتعلق بها فى تجويز الاستغناء عن الوحى بالعلم اللدنى إلحاد ، وكفر مخرج عن الإسلام ، موجب لإراقة الدم .

والفرق : أن موسى لم يكن مبعوثا إلى الخضر ، ولم يكن الخضر مأمورا بمتابعته ،

ولو كان مأمورا بها لوجب عليه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه ؛ ولهذا قال له : « أنت موسى نبى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم » ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين ، فرسالته عامة للجن والإنس ، فى كل زمان ، ولو كان موسى وعيسى عليهما السلام حيين لكانا من أتباعه ، وإذا نزل عيسى ابن مريم عليهما السلام فإنما يحكم بشريعة محمد ﷺ .

فمن ادعى أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى ، أو جوز ذلك لأحد من الأمة : فليجدد إسلامه ، وليتشهد شهادة الحق ؛ فإنه بذلك مفارق لدين الإسلام بالكلية ، فضلا عن أن يكون من خاصة أولياء الله ، وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه .

وهذا الموضع مقطع ومفرق بين زنادقة القوم ، وبين أهل الاستقامة منهم ، فحرك تره .

قوله : « إسناده وجوده » : يعنى : أن طريق هذا العلم : وجدانه ، كما أن طريق غيره : هو الإسناد .

و « إدراكه عيانه » : أى إن هذا العلم لا يؤخذ بالفكر ، والاستنباط ، وإنما يؤخذ عيانا وشهودا .

« ونعته حكمه » يعنى : أن نعوته لا يوصل إليها إلا به ، فهى قاصرة عنه ، يعنى أن شاهده منه ، ودليله وجوده وإنيته (١) لميته ، فبرهان الإن فيه هو برهان اللم ، فهو الدليل وهو المدلول ؛ ولذلك لم يكن بينه وبين الغيوب حجاب ، بخلاف ما دونه من العلوم ، فإن بينه وبين العلوم حجابا .

والذى يشير إليه القوم هو نور من جناب المشهود ، يمحو قوى الحواس وأحكامها ، ويقوم لصاحبها مقامها ، فهو المشهود بنوره ، ويفنى ماسواه بظهوره ، وهذا عندهم معنى الأثر الإلهى : « فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، فبى يسمع ، وبى يبصر » (٢) .

والعلم اللدنى الرحمانى : هو ثمرة هذه الموافقة ، والمحبة التى أوجبها التقرب بالنوافل بعد الفرائض .

واللدنى الشيطانى : ثمرة الإعراض عن الوحى ، وتحكيم الهوى والشيطان . والله المستعان (٣) .

---

(١) المراد بالإنية ، والبرهان الإنى : الاستدلال بالمعلول على العلة ، وهو منسوب إلى « إن » التوكيدية . وبالبرهان «اللمى » الاستدلال بالعلة على المعلول ، وهو منسوب إلى « لم ؟ » الاستفهامية والمراد أن العلة والمعلول متساويان فى هذا العلم ، أحدهما عين الآخر .

(٢) البخارى (٦٥٠٢) فى الرقاق ، باب : التواضع .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٤٧١ ـ ٤٧٧) .

## وأيضا

فالعلم اللدنى : ما قام الدليل الصحيح عليه : أنه جاء من عند الله على لسان رسله ، وما عداه فلدنى من لدن نفس الإنسان ، منه بدأ وإليه يعود . وقد انبثق سد العلم اللدنى ورخص سعره ، حتى ادعت كل طائفة أن علمهم لدنى ، وصار من تكلم فى حقائق الإيمان والسلوك وباب الأسماء والصفات بما يسنح له ويلقيه شيطانه فى قلبه : يزعم أن علمه لدنى .

فملاحدة الاتحادية وزنادقة المتنسبين إلى السلوك يقولون : إن علمهم لدنى . وقد صنف فى العلم اللدنى متهوكو المتكلمين ، وزنادقة المتصوفين ، وجهلة المتفلسفين ، وكل يزعم أن علمه لدنى ، وصدقوا وكذبوا ، فإن « اللدنى » منسوب إلى « لدن » بمعنى « عند » ، فكأنهم قالوا : العلم العندى ولك الشأن فيمن هذا العلم من عنده ومن لدنه .

وقد ذم الله بأبلغ الذم من ينسب إليه ماليس من عنده ، كما قال تعالى : ﴿ **وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (٧٨) ﴾ [ آل عمران ] ، وقال تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ [ البقرة : ٧٩ ] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ : أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ** ﴾ [ الأنعام : ٩٣ ] .

فكل من قال : هذا العلم من عند الله وهو كاذب فى هذه النسبة ، فله نصيب وافر من هذا الذم وهذا فى القرآن كثير ، يذم الله ـ سبحانه ـ من أضاف إليه مالا علم له به ومن قال عليه مالا يعلم ؛ ولهذا رتب ـ سبحانه ـ المحرمات أربع مراتب . وجعل أشدها : القول عليه بلا علم ، فجعله آخر مراتب المحرمات التى لا تباح بحال ، بل هى محرمة فى كل ملة وعلى لسان كل رسول . فالقائل : « إن هذا علم لدنى » لما لا يعلم أنه من عند الله ، ولا قام عليه برهان من الله أنه من عنده : كاذب مفتر على الله ، وهو من أظلم الظالمين ، وأكذب الكاذبين (١) .

## فصل
## فى مراتب العلم والعمل

ومراتب العلم والعمل ثلاثة :

(١) مدارج السالكين (٣ / ٤٣٢ ، ٤٣٣) .

« رواية » : وهى مجرد النقل وحمل المروى .

و « دراية » : وهى فهمه وتعقل معناه .

و « رعاية » : وهى العمل بموجب ما علمه ومقتضاه .

فالنقلة همتهم الرواية ، والعلماء همتهم الدراية ، والعارفون همتهم الرعاية ، وقد ذم الله من لم يرع ما اختاره وابتدعه من الرهبانية حق رعايته (١) .

## فصل

## من مراتب العلم والهداية إليه من الله عز وجل

**المرتبة الرابعة** (٢) : مرتبة التحديث ، وهذه دون مرتبة الوحى الخاص ، وتكون دون مرتبة الصديقين ، كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كما قال النبى ﷺ : « إنه كان فى الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن فى هذه الأمة فعمر بن الخطاب » (٣) .

وسمعت شيخ الإسلام تقى الدين ابن تيمية رحمه الله يقول : جزم بأنهم كائنون فى الأمم قبلنا ، وعلق وجودهم فى هذه الأمة بـ « إن » الشرطية ، مع أنها أفضل الأمم ؛ لاحتياج الأمم قبلنا إليهم ، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته ، فلم يحوج الله الأمة بعده إلى محدث ولا ملهم ، ولا صاحب كشف ولا منام ، فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها .

والمحدث : هو الذى يحدث فى سره وقلبه بالشىء ، فيكون كما يحدث به .

قال شيخنا : والصديق أكمل من المحدث . لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف ، فإنه قد سلم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول ، فاستغنى به عما منه .

قال : وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ماجاء به الرسول ، فإن وافقه قبله ، وإلا رده ، فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث .

قال : وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات : « حدثنى قلبى عن ربى »

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٦٠) .

(٢) من مراتب الهداية الخاصة والعامة .

(٣) البخارى (٣٦٨٩) فى فضائل الصحابة ، باب : مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن أبى هريرة ، وعن عائشة عند مسلم (٢٣٩٨ / ٢٣) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل عمر رضي الله عنه .

فصحيح أن قلبه حدثه ، ولكن عمن ؟ عن شيطانه ، أو عن ربه ؟ فإذا قال : « حدثنى قلبى عن ربى » كان مسندا الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به ، وذلك كذب . قال : ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك ، ولا تفوه به يوما من الدهر ، وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك ، بل كتب كاتبه يوما : « هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فقال لا ، امحه ، واكتب : هذا ما رأى عمر بن الخطاب ، فإن كان صوابا فمن الله ، وإن كان خطأ فمن عمر ، والله ورسوله منه برىء » ، وقال فى الكلالة : « أقول فيها برأيى ، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان » ، فهذا قول المحدث بشهادة الرسول ﷺ . وأنت ترى الاتحادى والحلولى والإباحى الشطاح ، والسماعى : مجاهر بالقحة والفرية ، يقول : « حدثنى قلبى عن ربى » .

فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين . وأعط كل ذى حق حقه ، ولا تجعل الزغل والخالص شيئا واحدا .

## فصل

**المرتبة الخامسة** : مرتبة الإفهام: قال الله تعالى : ﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ [ الأنبياء] فذكر هذين النبيين الكريمين ، وأثنى عليهما بالعلم والحكم ، وخص سليمان بالفهم فى هذه الواقعة المعينة . وقال على بن أبى طالب ـ وقد سئل : هل خصكم رسول الله ﷺ بشىء دون الناس ؟ ـ فقال : « لا ، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه ، وما فى هذه الصحيفة . وكان فيها العقل ، وهو الديات ، وفكاك الأسير ، وألا يقتل مسلم بكافر » . وفى كتاب عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى رضي الله عنهما : « والفهم الفهم فيما أدلى إليك » ، فالفهم نعمة من الله على عبده ، ونور يقذفه الله فى قلبه ، يعرف به ، ويدرك مالا يدركه غيره ، ولا يعرفه ، فيفهم من النص مالا يفهمه غيره ، مع استوائهما فى حفظه ، وفهم أصل معناه .

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية ، ومنشور الولاية النبوية ، وفيه تفاوتت مراتب العلماء ، حتى عد ألف بواحد . فانظر إلى فهم ابن عباس ، وقد سأله عمر ، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾** ﴾ [ النصر ] ، وما خص به ابن عباس من فهمه منها : « أنها نعى الله ـ سبحانه ـ نبيه إلى نفسه » ، وإعلامه بحضور أجله ، وموافقة عمر له على ذلك ، وخفائه عن غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنا . وأين تجد فى هذه السورة الإعلام بأجله ، لولا الفهم الخاص ؟ ويدق

هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس ، فيحتاج مع النص إلى غيره ، ولا يقع الاستغناء بالنصوص فى حقه ، وأما فى حق صاحب الفهم : فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها .

## فصل

**المرتبة السادسة : مرتبة البيان العام** ، وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه ، بحيث يصير مشهودا للقلب ، كشهود العين للمرئيات .

وهذه المرتبة هى حجة الله على خلقه ، التى لا يعذب أحدا ولا يضله إلا بعد وصوله إليها ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ** ﴾ [ التوبة: ١١٥ ] ، فهذا الإضلال عقوبة منه لهم ، حين بين لهم ، فلم يقبلوا ما بينه لهم ، ولم يعملوا به ، فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى ، وما أضل الله ـ سبحانه ـ أحدا قط إلا بعد هذا البيان .

وإذا عرفت سر القدر ، وزالت عنك شكوك كثيرة ، وشبهات فى هذا الباب ، وعلمت حكمة الله فى إضلاله من يضله من عباده . والقرآن يصرح بهذا فى غير موضع ، كقوله : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ [ الصف : ٥ ] وقولهم : ﴿ **قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ** ﴾ [ النساء : ١٥٥ ] فالأول : كفر عناد . والثانى : كفر طبع ، وقوله : ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)** ﴾ [ الأنعام ] فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه ، بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له . فتأمل هذا الموضع حق التأمل ، فإنه موضع عظيم .

وقال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ** ﴾ [ فصلت : ١٧ ] فهذا هدى بعد البيان والدلالة ، وهو شرط لاموجب ؛ فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء ، وهو هدى التوفيق والإلهام .

وهذا البيان نوعان : بيان بالآيات المسموعة المتلوة ، وبيان بالآيات المشهودة المرئية ، وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله ، وصدق ما أخبرت به رسله عنه ، ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكر فى آياته المشهودة ، ويحضهم على التفكر فى هذه وهذه . وهذا البيان هو الذى بعثت به الرسل ، وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم ، وبعد ذلك يضل الله من يشاء ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)** ﴾ [ إبراهيم ] فالرسل تبين ،

والله هو الذى يضل من يشاء ويهدى من يشاء بعزته وحكمته .

## فصل

**المرتبة السابعة : البيان الخاص** ، وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة ، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء ، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عن الهداية البتة ، قال تعالى فى هذه المرتبة : ﴿ **إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ** ﴾ [ النحل : ٣٧ ] ، وقال : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [ القصص : ٥٦ ] فالبيان الأول شرط ، وهذا موجب .

## فصل

**المرتبة الثامنة : مرتبة الإسماع** ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣)** ﴾ [ الأنفال ] ، وقد قال تعالى : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣)** ﴾ [ فاطر ] وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ . فإن ذلك حاصل لهم ، وبه قامت الحجة عليهم ، لكن ذاك إسماع الآذان ، وهذا إسماع القلوب ، فإن الكلام له لفظ ومعنى ، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما . فسماع لفظه حظ الأذن ، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب . فإنه ـ سبحانه ـ نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذى هو حظ القلب ، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذى هو حظ الأذن فى قوله : ﴿ **مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ** ﴾ [ الأنبياء ] وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه ، أو تمكنه منها . وأما مقصود السماع وثمرته ، والمطلوب منه: فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه ، بل يخرج السامع قائلا للحاضر معه : ﴿ **مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** ﴾ [ محمد : ١٦ ] (١) .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٩ ـ ٤٤) .

# فصل
# فى بيان فضل الله عز وجل
# على خلقه فيما أعطاهم من العلم وما منعه عنهم

تأمل حكمة اللطيف الخبير فيما أعطى الإنسان علمه بما فيه صلاح معاشه ومعاده ، ومنع عنه علم ما لا حاجة له به ، فجهله به لا يضر ، وعلمه به لا ينتفع به انتفاعا طائلا ، ثم يسر عليه طرق ما هو محتاج إليه من العلم أتم تيسير ، وكل ما كانت حاجته إليه من العلم أعظم كان تيسيره إياه عليه أتم ، فأعطاه معرفة خالقه وبارئه ومبدعه ـ سبحانه ـ والإقرار به ، ويسر عليه طرق هذه المعرفة ، فليس فى العلوم ما هو أجل منها ، ولا أظهر عند العقل والفطرة ، وليس فى طرق العلوم التى تنال بها أكثر من طرقها ، ولا أدل ولا أبين ولا أوضح ، فكل ما تراه بعينك أو تسمعه بأذنك أو تعقله بقلبك ، وكل ما يخطر ببالك وكل ما نالته حاسة من حواسك ، فهو دليل على الرب تبارك وتعالى ، فطرق العلم بالصانع فطرية ضرورية ليس فى المعلوم أجلى منها ، وكل ما استدل به على الصانع فالعلم بوجوده أظهر من دلالته ؛ ولهذا قالت الرسل لأممهم : ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾ [ إبراهيم : ١٠ ] فخاطبوهم مخاطبة من لا ينبغى أن يخطر له شك ما فى وجود الله ـ سبحانه ـ ونصب من الأدلة على وجوده ووحدانيته وصفات كماله الأدلة على اختلاف أنواعها ، ولا يطيق حصرها إلا الله ، ثم ركز ذلك فى الفطرة ووضعه فى العقل جملة .

ثم بعث الرسل مذكرين به ؛ ولهذا يقول تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ [ الذاريات ] ، وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) ﴾ [ الأعلى ] ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾ [ الغاشية ] ، وقوله : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) ﴾ [ المدثر ] وهو كثير فى القرآن .

ومفصلين لما فى الفطرة والعقل العلم به جملة ، فانظر كيف وجد الإقرار به وبتوحيده وصفات كماله ونعوت جلاله وحكمته فى خلقه وأمره ، المقتضية إثبات رسالة رسله ، ومجازاة المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، مودعا فى الفطرة مركوزا فيها ، فلو خليت على ما خلقت عليه لم يعرض لها ما يفسدها ويحولها ويغيرها عما فطرت عليه ، ولأقرت بوحدانيته ووجوب شكره وطاعته وبصفاته وحكمته فى أفعاله وبالثواب والعقاب ، ولكنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذى خلقت عليه أنكرت ما أنكرت وجحدت ماجحدت ، فبعث الله رسله مذكرين لأصحاب الفطر الصحيحة السليمة ، فانقادوا طوعا واختيارا

ومحبة وإذعانا بما جعل من شواهد ذلك في قلوبهم ، حتى أن منهم من لم يسأل عن المعجزة والخارق بل علم صحة الدعوة من ذاتها ، وعلم أنها دعوة حق برهانها فيها .

ومعذرين ومقيمين البينة على أصحاب الفطر الفاسدة ؛ لئلا تحتج على الله بأنه ما أرشدها ولا هداها ، فيحق القول عليها بإقامة الحجة ، فلا يكون ـ سبحانه ـ ظالما لها بتعذيبها وإشقائها . وقد بين ذلك ـ سبحانه ـ في قوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [ يس ] .

فتأمل كيف ظهرت معرفة الله والشهادة له بالتوحيد ، وإثبات أسمائه وصفاته ورسالة رسله ، والبعث للجزاء مسطورة مثبتة في الفطرة ، ولم يكن ليعرف بها أنها ثابتة في فطرته، فلما ذكرته الرسل ونبهته رأى ما أخبروه به مستقرا في فطرته شاهدا به عقله ، بل وجوارحه ولسان حاله ، وهذا أعظم ما يكون من الإيمان ، وهو الذي كتبه ـ سبحانه ـ في قلوب أوليائه وخاصته فقال : ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ [ المجادلة : ٢٢ ] .

والمقصود : أن الله ـ سبحانه ـ أعطى العبد من هذه المعارف وطرقها ويسرها عليه ما لم يعطه من غيرها ؛ لعظم حاجته في معاشه ومعاده إليها ، ثم وضع في العقل من الإقرار بحسن شرعه ودينه الذي هو ظله في أرضه وعدله بين عباده ونوره في العالم ، مالو اجتمعت عقول العالمين كلهم ، فكانوا على عقل أعقل رجل واحد منهم لما أمكنهم أنه يقترحوا شيئا أحسن منه ولا أعدل ولا أصلح ولا أنفع للخليقة في معاشها ومعادها ، فهو أعظم آياته ، وأوضح بيناته ، وأظهر حججه على أنه الله الذي لا إله إلا هو ، وإنه المتصف بكل كمال ، المنزه عن كل عيب ومثال ، فضلا عن أن يحتاج إلى إقامة شاهد من خارج عليه بالأدلة والشواهد لتكثير طرق الهدى ، وقطع المعذرة ، وإزاحة العلة والشبهة : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ الأنفال ] .

فأثبت في الفطرة حسن العدل والإنصاف ، والصدق والبر والإحسان ، والوفاء بالعهد، والنصيحة للخلق ، ورحمة المسكين ، ونصر المظلوم ، ومواساة أهل الحاجة والفاقة ، وأداء الأمانات ، ومقابلة الإحسان بالإحسان ، والإساءة بالعفو والصفح ، والصبر في مواطن الصبر ، والبذل في مواطن البذل ، والانتقام في موضع الانتقام ، والحلم في موضع الحلم ، والسكينة والوقار ، والرأفة والرفق والتؤدة ، وحسن الأخلاق، وجميل المعاشرة مع الأقارب والأباعد ، وستر العورات ، وإقالة العثرات ، والإيثار عند الحاجات وإغاثة اللهفات ، وتفريج الكربات ، والتعاون على أنواع الخير والبر ، والشجاعة، والسماحة ، والبصيرة ، والثبات والعزيمة ، والقوة في الحق ، واللين لأهله ،

والشدة على أهل الباطل والغلظة عليهم ، والإصلاح بين الناس ، والسعى فى إصلاح ذات البين ، وتعظيم من يستحق التعظيم ، وإهانة من يستحق الإهانة ، وتنزيل الناس منازلهم ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، وأخذ ماسهل عليهم وطوعت به أنفسهم من الأعمال والأموال والأخلاق ، ولإرشاد ضالهم ، وتعليم جاهلهم ، واحتمال جفوتهم ، واستواء قريبهم وبعيدهم فى الحق .

فأقربهم إليه أولاهم بالحق وإن كان بعيدا ، وأبعدهم عنه أبعدهم من الحق وإن كان حبيبا قريبا ، إلى غير ذلك من معرفة العقل الذى وضعه بينهم فى المعاملات والمناكحات والجنايات ، وما أودع فى فطرهم من حسن شكره وعبادته وحده لاشريك له ، وأن نعمه عليهم توجب بذل قدرتهم وطاقتهم فى شكره والتقرب إليه ، وإيثاره على ماسواه . وأثبت فى الفطر علمها بقبيح أضداد ذلك .

ثم بعث رسله فى الأمر بما أثبت فى الفطر حسنه وكماله ، والنهى عما أثبت فيها قبحه وعيبه وذمه ، فطابقت الشريعة المنزلة للفطرة المكملة مطابقة التفصيل بجملته ، وقامت شواهد دينه فى الفطر تنادى للإيمان : حى على الفلاح ، وصدعت تلك الشواهد والآيات دياجى ظلم الإباء ، كما صدع الليل ضوء الصباح ، وقبل حاكم الشريعة شهادة العقل والفطرة لما كان الشاهد غير متهم ولا معرض للجراح .

وكذلك أعطاهم من العلوم المتعلقة بصلاح معاشهم ودنياهم بقدر حاجاتهم ؛ كعلم الطب والحساب ، وعلم الزراعة والغراس ، وضروب الصنائع ، واستنباط المياه ، وعقد الأبنية ، وصنعة السفن ، واستخراج المعادن وتهيئتها لما يراد منها ، وتركيب الأدوية ، وصنعة الأطعمة ، ومعرفة ضروب الحيل فى صيد الوحش والطير ودواب الماء ، والتصرف فى وجوه التجارب ، ومعرفة وجوه المكاسب ، وغير ذلك مما فيه قيام معايشهم . ثم منعهم ـ سبحانه ـ علم ماسوى ذلك مما ليس فى شأنهم ،ولا فيه مصلحة لهم،ولا نشأتهم قابلة له ؛ كعلم الغيب ، وعلم ما كان وكل ما يكون،والعلم بعدد القطر وأمواج البحر،وذرات الرمال ،ومساقط الأوراق،وعدد الكواكب ومقاديرها،وعلم ما فوق السموات وما تحت الثرى،وما فى لجج البحار وأقطار العالم،وما يكنه الناس فى صدورهم،وما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، إلى سائر ما عزب عنهم علمه.

فمن تكلف معرفة ذلك فقد ظلم نفسه ، وبخس من التوفيق حظه ، ولم يحصل إلا على الجهل المركب والخيال الفاسد فى أكثر أمره ، وجرت سنة الله وحكمته أن هذا الضرب من الناس أجهلهم بالعلم النافع ، وأقلهم صوابا . فترى عند من لا يرفعون به

رأسا من الحكم والعلم الحق النافع مالا يخطر ببالهم أصلا ، وذلك من حكمة الله فى خلقه وهو العزيز الحكيم ، ولا يعرف هذا إلا من اطلع على ما عند القوم من أنواع الخيال ، وضروب المحال ، وفنون الوساوس والهوى ، والهوس والخبط ، وهم يحسبون أنهم على شيء ، ألا إنهم هم الكاذبون ، فالحمد لله الذى من على المؤمنين : ﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾ [ آل عمران ] .

ومن حكمته ـ سبحانه ـ ما منعهم من العلم : علم الساعة ومعرفة آجالهم ، وفى ذلك من الحكمة البالغة مالا يحتاج إلى نظر ، فلو عرف الإنسان مقدار عمره فإن كان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش ، وكيف يتهنأ به وهو يترقب الموت فى ذلك الوقت ، فلولا طول الأمل لخربت الدنيا ، وإنما عمارتها بالآمال ، وإن كان طويل العمر وقد تحقق ذلك فهو واثق بالبقاء ، فلا يبالى بالانهماك فى الشهوات والمعاصى وأنواع الفساد ، ويقول : إذا قرب الوقت أحدثت توبة . وهذا مذهب لا يرتضيه الله عز وجل من عباده ، ولا يقبله منهم ، ولا تصلح عليه أحوال العالم ، ولا يصلح العالم إلا على هذا الذى اقتضته حكمته وسبق فى علمه .

فلو أن عبدا من عبيدك عمل على أن يسخطك أعواما ، ثم يرضيك ساعة واحدة إذا تيقن أنه صائر إليك ، لم تقبل منه ، ولم يفز لديك بما يفوز به من همه رضاك . وكذا سنة الله عز وجل أن العبد إذا عاين الانتقال إلى الله تعالى لم ينفعه توبة ولا إقلاع ، قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ ﴾ [ النساء : ١٨ ] ، وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ [ غافر ] .

والله تعالى إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه على وجه غلبة الشهوة وقوة الطبيعة ، فيواقع الذنب مع كراهته له من غير إصرار فى نفسه ، فهذا ترجى له مغفرة الله وصفحه وعفوه ؛ لعلمه تعالى بضعفه وغلبة شهوته له ، وأنه يرى كل وقت ما لا صبر له عليه ، فهو إذا واقع الذنب واقعه مواقعة ذليل خاضع لربه ، خائف مختلج فى صدره شهوة النفس الذنب ، وكراهة الإيمان له ، فهو يجيب داعى النفس تارة وداعى الإيمان تارات .

فأما من بنى أمره على ألا يقف عن ذنب ، ولا يقدم خوفا ، ولا يدع لله شهوة ، وهو فرح مسرور ، يضحك ظهرا لبطن إذ ظفر بالذنب ، فهذا الذى يخاف عليه أن يحال

بينه وبين التوبة ولا يوفق لها ، فإنه من معاصيه وقبائحه على نقد عاجل يتقاضاه سلفا وتعجيلا ، ومن توبته وإيابه ورجوعه إلى الله على دين مؤجل إلى انقضاء الأجل .

وإنما كان هذا الضرب من الناس يحال بينهم وبين التوبة غالبا ؛ لأن النزوع عن اللذات والشهوات إلى مخالفة الطبع والنفس والاستمرار على ذلك شديد على النفس ، صعب عليها ، أثقل من الجبال ، ولا سيما إذا انضاف إلى ذلك ضعف البصيرة ، وقلة النصيب من الإيمان ، فنفسه لا تطوع له أن يبيع نقدا بنسيئة ، ولا عاجلا بآجل ، كما قال بعض هؤلاء وقد سئل : أيما أحب إليك درهم اليوم أو دينار غدا ؟ فقال : لا هذا ولا هذا ، ولكن ربع درهم من أول أمس . فحرام على هؤلاء أن يوفقوا للتوبة إلا أن يشاء الله ، فإذا بلغ العبد حد الكبر ، وضعفت بصيرته ، ووهت قواه ، وقد أوجبت له تلك الأعمال قوة فى غيه ، وضعفا فى إيمانه ، صارت كالملكة له بحيث لا يتمكن من تركها ، فإن كثرة المزاولات تعطى الملكات فتبقى للنفس هيئة راسخة وملكة ثابتة فى الغى والمعاصى ، وكلما صدر عنه واحد منها أثر أثرا زائدا على أثر ما قبله ، فيقوى الأثران وهلم جرا ، فيهجم عليه الضعف والكبر ووهن القوة على هذه الحال ، فينتقل إلى الله بنجاسته وأوساخه وأدرانه ، لم يتطهر للقدوم على الله ، فما ظنه بربه .

ولو أنه تاب وأناب وقت القدرة والإمكان لقبلت توبته ، ومحيت سيئاته ، ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون ، ولا شىء لمن انتقل إلى الله على هذه الحال من التوبة ، ولكن فرط فى أداء الدين حتى نفذ المال ، ولو أداه وقت الإمكان لقبله ربه ، وسيعلم المسرف والمفرط أى ديان أدان وأى غريم يتقاضاه ، يوم يكون الوفاء من الحسنات ، فإن فنيت فيحمل السيئات . فبان أن من حكمة الله ونعمه على عباده أن ستر عنهم مقادير آجالهم ومبلغ أعمارهم ، فلا يزال الكيس يترقب الموت وقد وضعه بين عينيه ، فينكف عما يضره فى معاده ، ويجتهد فيما ينفعه ويسر به عند القدوم (١) .

## فصل
## فى الجمع بين العلم والحال

قال (٢) : « والمعنى الثانى : اسم الطريق سالك ، يسير بين تمكن وتلون ، لكنه إلى التمكن ما هو ؟ يسلك الحال ويلتفت إلى العلم ، فالعلم يشغله فى حين ، والحال يحمله

(١) مفتاح دار السعادة (٢٨٠ ـ ٢٨٤) .

(٢) أى صاحب منازل السائرين .

فى حين ، فبلاؤه بينهما ، يذيقه شهودا طورا ، ويكسوه عبرة طورا ، ويريه غيره تفرقًا طورا » .

هذا المعنى هو المعنى الثانى من المعانى الثلاثة من معانى الوقت عنده .

قوله : « اسم لطريق سالك » : هو على الإضافة ، أى لطريق عبد سالك .

قوله : « يسير بين تمكن وتلون » : أى ذلك العبد يسير بين تمكن وتلون . و« التمكن » : هو الانقياد إلى أحكام العبودية بالشهود والحال ، و« التلون » ـ فى هذا الموضع خاصة : هو الانقياد إلى أحكام العبودية بالعلم . فالحال يجمعه بقوته وسلطانه فيعطيه تمكينا ، والعلم بلونه بحسب متعلقاته وأحكامه .

قوله : « لكنه إلى التمكن ما هو ؟ يسلك الحال ، ويلتفت إلى العلم » : يعنى أن هذا العبد هو سالك إلى التمكن ما دام يسلك الحال ويلتفت إلى العلم . فأما إن سلك العلم والتفت إلى الحال ، لم يكن سالكا إلى التمكن .

فالسالكون ضربان : سالكون على الحال ، ملتفتون إلى العلم ، وهم إلى التمكن أقرب ، وسالكون على العلم ملتفتون إلى الحال ، وهم إلى التلون أقرب هذا حاصل كلامه .

وهذه الثلاثة : هى المفرقة بين أهل العلم وأهل الحال ، حتى كأنهما غيران وحزبان ، وكل فرقة منهما لا تأنس بالأخرى ، ولا تعاشرها إلا على إغماض ونوع استكراه .

وهذا من تقصير الفريقين ، حيث ضعف أحدهما عن السير فى العلم . وضعف الآخر عن الحال فى العلم ، فلم يتمكن كل منهما من الجمع بين الحال والعلم ، فأخذ هؤلاء العلم ، وسعته ونوره ، ورجحوه ، وأخذ هؤلاء الحال وسلطانه وتمكينه ، ورجحوه ، وصار الصادق الضعيف من الفريقين : يسير بأحدهما متلفتا إلى الآخر .

فهذا مطيع للحال ، وهذا مطيع للعلم ، لكن المطيع للحال متى عصى به العلم كان منقطعا محجوبا ، وإن كان له من الحال ما عساه أن يكون ، والمطيع للعلم متى أعرض به عن الحال كان مضيعا منقوصا ، مشتغلا بالوسيلة عن الغاية .

وصاحب التمكين يتصرف علمه فى حاله ، ويحكم عليه فينقاد لحكمه ، ويتصرف حاله فى علمه فلا يدعه أن يقف معه بل يدعوه إلى غاية العلم . فيجيبه ويلبى دعوته . فهذه حال الكمل من هذه الأمة ، ومن استقرأ أحوال الصحابة ﷺ وجدها كذلك .

فلما فرق المتأخرون بين الحال والعلم : دخل عليهم النقص والخلل ، والله المستعان

**﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾** [ الشورى ] ، فكذلك يهب لمن يشاء علما ، ولمن يشاء حالا ، ويجمع بينهما لمن يشاء ، ويخلى منهما من يشاء .

قوله : « فالعلم يشغله فى حين » : أى يشغله عن السلوك إلى تمكن الحال ؛ لأن العلم متنوع التعلقات ، فهو يفرق والحال يجمع ؛ لأنه يدعوه إلى الفناء ، وهناك سلطان الحال .

قوله : « والحال يحمله فى حين » : أى يغلب عليه الحال تارة ، فيصير محمولا بقوة الحال وسلطانه على السلوك ، فيشتد سيره بحكم الحال ، يعنى : وإذا غلبه العلم شغله عن السلوك . وهذا هو المعهود من طريقة المتأخرين : أن العلم عندهم يشغل عن السلوك ؛ ولهذا يعدون السالك من سلك على الحال ملتفتا عن العلم .

وأما على ما قررناه ـ من أن العلم يعين على السلوك ، ويحمل عليه ، ويكون صاحبه سالكا به وفيه ـ فلا يشغله العلم عن سلوكه ، وإن أضعف سيره على درب الفناء . فلا ريب أن العلم لا يجامع الفناء ، فالفناء ليس هو غاية السالكين إلى الله ، بل ولا هو لازم من لوازم الطريق ، وإن كان عارضا من عوارضها ، يعرض لغير الكمل .

فبينا أن الفناء الكامل ، الذى هو الغاية المطلوبة : هو الفناء عن محبة ماسوى الله وإرادته ، فيفنى بمحبة الله عن محبة ماسواه ، وبإرادته ورجائه ، والخوف منه ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه عن إرادة ماسواه ، وخوفه ورجائه والتوكل عليه .

وهذا الفناء لا ينافى العلم بحال ، ولا يحول بين العبد وبينه ، بل قد يكون فى أغلب الأحوال من أعظم أعوانه ، وهذا أمر غفل عنه أكثر المتأخرين ، بحيث لم يعرفوه ولم يسلكوه ، ولكن لم يخل الله الأرض من قائم به ، داع إليه .

قوله : « فبلاؤه بينهما » : أى عذابه وألمه بين داعى الحال وداعى العلم ، فإيمانه يحمله على إجابة داعى العلم ، ووارده يحمله على إجابة داعى الحال ، فيصير كالغريم بين مطالبين ، كل منهما يطالبه بحقه ، وليس بيده إلا ما يقضى أحدهما .

وقد عرفت أن هذا من الضيق ، وإلا فمع السعة يوفى كلا منهما حقه .

قوله : « يذيقه شهودا طورا » : أى ذلك البلاء الحاصل بين الداعيين يذيقه شهودا طورا ، وهو الطور الذى يكون الحاكم عليه فيه هو العلم .

قوله : « ويكسوه عبرة طورا » : الظاهر : أنه عبرة بالباء الموحدة والعين ، أى اعتبارا

بأفعاله ، واستدلالا عليه ، فإنه ـ سبحانه ـ دل على نفسه بأفعاله ، فالعلم يكسو صاحبه اعتبارًا واستدلالا على الرب بأفعاله .

ويصح أن يكون « غيرة » بالغين المعجمة والياء المثناة من تحت ، ومعناه : أن العلم يكسوه غيرة من حجابه عن مقام صاحب الحال ، فيغار من احتجابه عن الحال بالعلم ، وعن العيان بالاستدلال ، وعن الشهود ـ الذى هو مقام الإحسان ـ بالإيمان ، الذى هو إيمان بالغيب .

قوله : « ويريه غيره تفرق طورا » : هذا بالغين المعجمة ليس إلا ، أى : ويريه العلم غيره تفرقه فى أوديته ، فيفرق بين أحكام الحال وأحكام العلم ، وهو حال صحو وتمييز .

وكأن الشيخ يشير إلى أن صاحب هذا المقام تغار تفرقته من جمعيته على الله ، فنفسه تفر من الجمعية على الله إلى تفرق العلم ، فإنه لا أشق على النفوس من جمعيتها على الله ، فهى تهرب من الله إلى الحال تارة ، وإلى العمل تارة ، وإلى العلم تارة ، هذه نفوس السالكين الصادقين (١) .

## وأيضا

قال أبو يعقوب النهرجورى : « أفضل الأحوال ما قارن العلم » . وهذا كثير فى كلام المشايخ ، وإنما وصوا بذلك لما يعلمونه من حال كثير من السالكين : أنه يجرى مع ذوقه ووجده وما يراه وما يهواه غير متبع لسبيل الله التى بعث بها رسوله ، وهذا هو اتباع الهوى بغير هدى من الله .

ولا ريب أن السماع المحدث من أعظم المحركات للهوى ولهذا سمى بعض الأئمة المصنفين كتابه فى إبطاله وذمه بالدليل الواضح فى النهى عن ارتكاب الهوى الفاضح ولهذا يأمر المشايخ المستقيمون منهم باتباع العلم ويعنون به الشريعة ، كقول أبى يزيد البسطامى : عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدت شيئا أشد على من العلم ومتابعته . وقال أبو الحسين النورى : من رأيته يدعى مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تقربن منه . وقال أبو عثمان النيسابورى : الصحبة مع الله بحسن الأدب ، ودوام الهيبة والمراقبة . والصحبة مع الرسول ﷺ باتباع سنته ، ولزوم ظاهر العلم . والصحبة مع أولياء الله بالاحترام والخدمة . والصحبة مع الأهل بحسن الخلق . والصحبة من الإخوان بدوام بشر

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ١٣٣ ـ ١٣٦) .

مالم يكن إثما . والصحبة من الجهال بالدعاء لهم والرحمة والشفقة عليهم ؛ وذلك لأنه لما كان أصل الطريق هو الإرادة والقصد والعمل وذلك يتضمن الحب ، فكثيرا مايعمل السالك بمقتضى ما يجده فى قلبه من المحبة ، وما يدركه بذوقه من طعم العبادة ، وهذا إذا لم يكن موافقا لأمر الله ورسوله فصاحبه فى ضلال ، وهو ممن اتبع هواه ، قال تعالى : ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً** (٤٣) ﴾ [ الفرقان ] ، وقال : ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (٥٠) ﴾ [ القصص ] ، فجعل كل ما خالف الأمر فصاحبه متبع هواه ، فما ثم واسطة بل إما الأمر وإما الهوى ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ** (١٢٠) ﴾ [ البقرة ] ، وقال : ﴿ **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ** (١٤٥) ﴾ [ البقرة ] (١) .

## وأيضا

دخل الداخل على أكثر السالكين وانعكس سيرهم ، حيث أحالوا العلم على الحال وحكموه عليه .

وسير أولياء الله وعباده الأبرار والمقربين بخلاف هذا ، وهو إحالة الحال على العلم وتحكيمه عليه ، وتقديمه ووزنه به ، وقبول حكمه ، فإن وافقه العلم وإلا كان حالا فاسدا منخرفا عن أحوال الصادقين بحسب بعده عن العلم ، فالعلم حاكم والحال محكوم عليه ، والعلم راع والحال من رعيته ، فمن لم يكن هذا أصل بناء سلوكه فسلوكه فاسد ، وغايته : الانسلاخ من العلم والدين ، كما جرى ذلك لمن جرى له ، والله المستعان (٢) .

## وأيضا

وأما إبقاء العلم يجرى مجراه : فالذهاب مع داعى العلم أين ذهب به ، والجرى معه فى تياره أين جرى .

وحقيقة ذلك : الاستسلام للعلم ، وألا تعارضه بجمعية ولا ذوق ولا حال ، بل امض معه حيث ذهب ، فالواجب تسليط العلم على الحال وتحكيمه عليه ، وألا يعارض به .

(١) الكلام على مسألة السماع (٢٧٩) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٢٨٨) .

وهذا صعب جدا إلا على الصادقين من أرباب العزائم ، فلذلك كان من أنواع الرياضة .

ومتى تمرنت النفس عليه وتعودته صار خلقا ، وكثير من السالكين إذا لاحت له بارقة أو غلبه حال أو ذوق خلى العلم وراء ظهره ، ونبذه وراءه ظهريا ، وحكم عليه الحال . هذا حال أكثر السالكين ، وهى حال أهل الانحراف الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ؛ ولهذا عظمت وصية أهل الاستقامة من الشيوخ بالعلم والتمسك به (١) .

## وأيضا

العلم خير من الحال ، العلم حاكم والحال محكوم عليه ، والعلم هاد والحال تابع ، والعلم آمر ناه ، والحال منفذ قابل ، والحال سيف ، إن لم يصحبه علم ألقى صاحبه فى المهالك والمتالف ، والحال كالمال يؤتاه البر والفاجر ، فإن لم يصحبه نور العلم كان وبالا على صاحبه .

الحال بلا علم كالسلطان الذى لا يزعه عن سطوته وازع .

الحال بلا علم كالنار التى لا سائس لها .

نفع الحال لا يتعدى صاحبه ، ونفع العلم كالغيث يقع على الظراب والآكام وبطون الأودية ومنابت الشجر .

دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة . ودائرة الحال تضيق عن غير صاحبه . وربما ضاقت عنه .

العلم هاد والحال الصحيح مهتد به ، وهو تركة الأنبياء وتراثهم ، وأهله عصبتهم وورائهم ، وهو حياة القلوب . ونور البصائر . وشفاء الصدور ، ورياض العقول ، ولذة الأرواح ، وأنس المستوحشين ، ودليل المتحيرين ، وهوالميزان الذى به توزن الأقوال والأعمال والأحوال .

وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين ، والغى والرشاد ، والهدى والضلال .

به يعرف الله ويعبد ، ويذكر ويوحد ، ويحمد ويمجد . وبه اهتدى إليه السالكون ، ومن طريقه وصل إليه الواصلون ، ومن بابه دخل عليه القاصدون (٢) .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٧٧) .

(٢) المرجع السابق (٢ / ٤٦٩) .

# فصل
# فى الجمع بين العلم والعمل

السائر إلى الله والدار الآخرة ، بل كل سائر إلى مقصد ، لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين : قوة علمية ، وقوة عملية . فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائرا فيها ، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل . فقوته العلمية كنور عظيم بيده ، يمشى فى ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشى فى الظلمة فى مثله من الوهاد والمتالف ، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره ، ويبصر بذلك النور أيضا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضل عنها ، فيكشف له النور عن الأمرين : أعلام الطريق ، ومعاطبها . وبالقوة العملية يسير حقيقة ، بل السير هو حقيقة القوة العملية ، فإن السير هو عمل المسافر .

وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها ، وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها ، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح ، وبقى عليه الشطر الآخر وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر ، مسافرا فى الطريق ، قاطعا منازلها منزلة بعد منزلة ، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرى ، واستشعر القرب من المنزل فهانت عليه مشقة السفر ، وكلما سكنت نفسه من كلال السير ومواصلة الشد والرحيل ، وعدها قرب التلاقى وبرد العيش عند الوصول ، فيحدث لها ذلك نشاطا وفرحا وهمة ،فهو يقول : يانفس ، أبشرى فقد قرب المنزل ، ودنا التلاقى ، فلا تنقطعى فى الطريق دون الوصول ، فيحال بينك وبين منازل الأحبة . فإن صبرت وواصلت المسرى وصلت حميدة مسرورة جذلة ، وتلقتك الأحبة بأنواع التحف والكرامات ، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة ، فإن الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة ، وعمرك درجة من درج تلك الساعة ، فالله الله ، لا تنقطعى فى المفازة ، فهو ـ والله ـ الهلاك والعطب لو كنت تعلمين .

فإن استصعبت عليه فليذكرها ما أمامها من أحبابها ، وما لديهم من الإكرام والإنعام ، وما خلفها من أعدائها ، وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء ، فإن رجعت فإلى أعدائها رجوعها ، وإن تقدمت فإلى أحبابها مصيرها ، وإن وقفت فى طريقها أدركها أعداؤها ، فإنهم وراءها فى الطلب ، ولا بد لها من قسم من هذه الأقسام الثلاثة ، فلتختر أيها شاءت ، وليجعل حديث الأحبة حاديها وسائقها ، ونور معرفتهم وإرشادهم هاديها

ودليلها ، وصدق ودادهم وحبهم غذاءها وشرابها ودواءها ، ولا يوحشه انفراده فى طريق سفره . ولا يغتر بكثرة المنقطعين ، فألم انقطاعه وبعاده واصل إليه دونهم ، وحظه من القرب والكرامة مختص به دونهم ، فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم ؟ وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم ، بل هى من عوارض الطريق ، فسوف تبدو له الخيام ، وسوف يخرج إليه المتلقون يهنئونه بالسلام والوصول إليهم ، فياقرة عينه إذ ذاك ، ويافرحته إذ يقول : ﴿ **لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)** ﴾ [ يس ] .

ولا يستوحش مما يجده من كثافة الطبع وذوب النفس وبطء سيرها ، فكلما أدمن على السير وواظب عليه ، غدوا ورواحا وسحرا ، قرب من الدار ، وتلطفت تلك الكثافة وذابت تلك الخبائث والأدران ، فظهرت عليه همة المسافرين وسيماهم فتبدلت وحشته أنسا ، وكثافته لطافة ، ودرنه طهارة (١) .

## وأيضا

لما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهما الهدى ودين الحق ، وبتكميله لغيره فى هذين الأمرين كما قال تعالى : ﴿ **وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)** ﴾ [ العصر ] أقسم ـ سبحانه ـ أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان ، وقوته العملية بالعمل الصالح ، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه . فالحق هو الإيمان والعمل ، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما والتواصى بهما كان حقيقا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره ، بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية ويخلص به من الخسران المبين ، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره ، واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه ، وصرف العناية إليه ، والعكوف بالهمة عليه ، فإنه الكفيل بمصالح العباد فى المعاش والمعاد ، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد، فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد الصحيحة كلها لا تقتبس إلا من مشكاته ولا تستثمر إلا من شجراته (٢) .

## وأيضا

إن العبد إما أن يكون عالما بالحق أو جاهلا به ، والعالم بالحق إما أن يكون عاملا بموجبه أو مخالفا له . فهذه أقسام المكلفين لا يخرجون عنها البتة .

(١) طريق الهجرتين (١٨٣ ، ١٨٤) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٦) .

فالعالم بالحق العامل به : هو المنعم عليه ، وهو الذى زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهو المفلح : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ ﴾ [ الشمس ] . والعالم به المتبع هواه : هو المغضوب عليه . والجاهل بالحق : هو الضال ، والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل ، والضال مغضوب عليه لضلاله من العلم الموجب للعمل ، فكل منهما ضال مغضوب عليه ، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به ، ومن ههنا كان اليهود أحق به ، وهو متغلظ فى حقهم كقوله تعالى فى حقهم : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ [ البقرة : ٩٠ ] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ۝٦٠ ﴾ [ المائدة ] .

والجاهل بالحق : أحق باسم الضلال ، ومن هنا وصفت النصارى به فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ۝٧٧ ﴾ [ المائدة ] ، فالأولى : فى سياق الخطاب مع اليهود ، والثانية : فى سياقه مع النصارى . وفى الترمذى وصحيح ابن حبان من حديث عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » (١) (٢) .

## فصل
## فى تقسيم الناس من حيث القوة العلمية والعملية

من الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها ، وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه ، ويكون ضعيفا فى القوة العملية يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها ، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقاها ، فهو فقيه مالم يحضر العمل ، فإذا حضر العمل شارك الجهال فى التخلف وفارقهم فى العلم ، وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم ، والمعصوم من عصمه الله ولا قوة إلا بالله .

ومن الناس من تكون له القوة العملية الإرادية وتكون أغلب القوتين عليه ، وتقتضى هذه القوة السير والسلوك ، والزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة ، والجد والتشمير فى العمل ، ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات فى العقائد والانحرافات فى الأعمال

(١) الترمذى (٢٩٥٤) فى تفسير القرآن ، باب : ومن سورة فاتحة الكتاب .
(٢) مدارج السالكين (١ / ١١) .

والأقوال والمقامات ، كما كان الأول ضعيف العقل عند ورود الشهوات ، فداء هذا من جهله ، وداء الأول من فساد إرادته ، وضعف عقله ، وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم ، بل على طريق الذوق والوجد والعادة ، يرى أحدهم أعمى عن مطلوبه لا يدرى من يعبد ولا بماذا يعبده ، فتارة يعبده بذوقه ووجده وتارة يعبده بعادة قومه وأصحابه من لبس معين أو كشف رأس أو حلق لحية ونحوها ، وتارة يعبده بالأوضاع التى وضعها بعض المتحذلقين وليس له أصل فى الدين ، وتارة يعبده بما تحبه نفسه وتهواه كائنا ما كان .

وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا رب العباد . فهؤلاء كلهم عمى عن ربهم وعن شريعته ودينه ، لا يعرفون شريعته ودينه الذى بعث به رسله وأنزل به كتبه ، ولا يقبل من أحد دينا سواه ، كما أنهم لا يعرفون صفات ربهم التى تعرف بها إلى عباده على ألسنة رسله ، ودعاهم إلى معرفته ومحبته من طريقها ، فلا معرفة له بالرب ولا عبادة له .

ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره إلى الله ، ورجى له النفوذ وقوى على رد القواطع والموانع بحول الله وقوته ، فإن القواطع كثيرة شأنها شديد ، لا يخلص من حبائلها إلا الواحد بعد الواحد ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين ، ولو شاء الله لأزالها وذهب بها ، ولكن الله يفعل ما يريد . والوقت ، كما قيل : سيف ، فإن قطعته وإلا قطعك ، فإذا كان السير ضعيفا ، والهمة ضعيفة ، والعلم بالطريق ضعيفا ، والقواطع الخارجة والداخلة كثيرة شديدة ، فإنه جهد البلاء ، ودرك الشقاء ،وشماتة الأعداء، إلا أن يتداركه الله برحمته من حيث لا يحتسب ، فيأخذ بيده ويخلصه من أيدى القواطع ، والله ولى التوفيق (١) .

## فصل
## فى بدعة التزهيد فى العلم

الكلمات التى تروى عن بعضهم : من التزهد فى العلم ، والاستغناء عنه ، كقول من قال : « نحن نأخذ علمنا من الحى الذى لا يموت ، وأنتم تأخذونه من حى يموت » .

وقول الآخر ـ وقد قيل له: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق ؟ ـ فقال : ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق ، من يسمع من الخلاق ؟

(١) طريق الهجرتين (١٨٤ ، ١٨٥) .

وقول الآخر : العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل .

وقول الآخر : إذا رأيت الصوفى يشتغل بـ « أخبرنا » و « حدثنا » فاغسل يدك منه .

وقول الآخر : لنا علم الحرف ، ولكم علم الورق .

ونحو هذا من الكلمات التى أحسن أحوال قائلها : أن يكون جاهلا يعذر بجهله ، أو شاطحا معترفا بشطحه ، وإلا فلولا عبد الرزاق وأمثاله ، ولولا « أخبرنا » و « حدثنا » لما وصل إلى هذا وأمثاله شىء من الإسلام .

ومن أحالك على غير « أخبرنا » و « حدثنا » فقد أحالك إما على خيال صوفى ، أو قياس فلسفى ، أو رأى نفسى . فليس بعد القرآن و « أخبرنا » و « حدثنا » إلا شبهات المتكلمين ، وآراء المنحرفين ، وخيالات المتصوفين ، وقياس المتفلسفين . ومن فارق الدليل ضل عن سواء السبيل ، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة ، وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهى من طرق الجحيم ، والشيطان الرجيم [1] .

## فصل
## فى أن أساس العلم ملازمة الكتاب والسنة

كان الجنيد يقول دائما : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يحفظ القرآن ، ويكتب الحديث ، ولم يتفقه لا يقتدى به .

وقال غيره من العارفين : كل حقيقة لا تتبعها شريعة فهى كفر .

وقال الجنيد : علمنا هذا متشبك بحديث رسول الله ﷺ .

وقال أبو سليمان الدارانى : إنه لتمر بقلبى النكتة من نكت القوم ، فلا أقبلها إلا بشاهدى عدل ، من الكتاب والسنة . وقال النصر أبادى : أصل هذا المذهب : ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع ، والاقتداء بالسلف ، وترك ما أحدثه الآخرون ، والإقامة على ما سلكه الأولون .

فهذا العلم الصافى ، المتلقى من مشكاة الوحى والنبوة : يهذب صاحبه لسلوك طريق العبودية . وحقيقتها : التأدب بآداب رسول الله ﷺ باطنا وظاهرا ، وتحكيمه باطنا وظاهرا ، والوقوف معه حيث وقف بك ، والمسير معه حيث سار بك ، بحيث تجعله بمنزلة شيخك

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٦٨ ، ٤٦٩) .

الذى قد ألقيت إليه أمرك كله ، سره وظاهره ، واقتديت به فى جميع أحوالك ، ووقفت مع ما يأمرك به ، فلا تخالفه البتة . فتجعل رسول الله ﷺ لك شيخا وإماما وقدوة وحاكما ، وتعلق قلبك بقلبه الكريم ، وروحانيتك بروحانيته ، كما يعلق المريد روحانيته بروحانية شيخه . فتجيبه إذا دعاك ، وتقف معه إذا استوقفك ، وتسير إذا سار بك ، وتقيل إذا قال ، وتنزل إذا نزل ، وتغضب لغضبه ، وترضى لرضاه ، وإذا أخبرك عن شىء أنزلته منزلة ما تراه بعينك ، وإذا أخبرك عن الله بخبر أنزلته منزلة ما تسمعه من الله بأذنك .

وبالجملة : فتجعل الرسول شيخك وأستاذك ، ومعلمك ومربيك ومؤدبك ، وتسقط الوسائط بينك وبينه إلا فى التبليغ ، كما تسقط الوسائل بينك وبين المرسل فى العبودية ، ولا تثبت وساطة إلا فى وصول أمره ونهيه ورسالته إليك .

وهذان التجريدان : هما حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله . والله وحده هو المعبود المألوه ، الذى لا يستحق العبادة سواه ، ورسوله المطاع المتبع ، المهتدى به ، الذى لا يستحق الطاعة سواه . ومن سواه فإنما يطاع إذا أمر الرسول بطاعته . فيطاع تبعا للأصل .

وبالجملة : فالطريق مسدودة إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ ، واقتدى به فى ظاهره وباطنه .

فلا يتعنى السالك على غير هذا الطريق ، فليس حظه من سلوكه إلا التعب ، وأعماله **﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾** [ النور ] .

ولا يتعنى السالك على هذا الطريق ، فإنه واصل ولو زحف زحفا ، فاتباع الرسول ﷺ إذا قعدت بهم أعمالهم ، قامت بهم عزائمهم وهممهم ومتابعتهم لنبيهم ، كما قيل :

من لى بمثل سيرك المدلل      تمشى رويدا وتجى فى الأول

والمنحرفون عن طريقه ، إذا قامت بهم أعمالهم واجتهاداتهم ، قعد بهم عدولهم عن طريقه .

فهم فى السرى لم يبرحوا من مكانهم      وما ظعنوا فى السير عنه ، وقد كلوا (١)

(١) مدارج السالكين (٣ / ١٤٢ ـ ١٤٥) .

## فصل
## فى بيان خطورة الجهل

الجهل نوعان : عدم العلم بالحق النافع ، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه ، فكلاهما جهل لغة وعرفا وشرعا وحقيقة ، قال موسى : ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [البقرة ] لما قال له قومه : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ أى من المستهزئين ، وقال يوسف الصديق : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ يوسف ] أى من مرتكبى ما حرمت عليهم ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ [ النساء : ١٧ ] قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل ماعصى الله به فهو جهالة ، وقال غيره : أجمع الصحابة أن كل من عصى الله فهو جاهل . وقال الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وسمى عدم مراعاة العلم جهلا ؛ إما لأنه لم ينتفع به فنزل منزلة الجهل ، وإما لجهله بسوء ما تجنى عواقب فعله (١) .

## فصل
## فى أن دواء الجهل سؤال العلماء

قد جعل النبى ﷺ الجهل داء ، وجعل دواءه سؤال العلماء ، فروى أبو داود فى سننه من حديث جابر بن عبد الله قال : خرجنا فى سفر ، فأصاب رجلا منا حَجَرٌ ، فَشَجَّهُ فِى رَأْسِهِ ، ثم احتلم ، فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لى رخصة فى التيمم ؟ قالوا : ما نجد لك رخصة ، وأنت تقدر على الماء ، فاغتسل فمات ، فلما قدمنا على النبى ﷺ أخبر بذلك ، فقال : « قتلوه ، قتلهم الله ! ألا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العى السؤال ، إنما كان يكفيه أن يتيمم وَيَعْصِرَ ـ أَوْ يَعْصِبَ ـ عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً ، ثم يمسح عليها ، ويغسل سائر جسده » (٢) .

فأخبر أن الجهل داء ، وأن شفاءه السؤال .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٦٩) .

(٢) الداء والدواء (١٩) ، أبو داود (٣٣٦) فى الطهارة ، باب : فى المجروح يتيمم .

# فصل
# فى حرمة القول على الله بغير علم

إن المحرمات نوعان : محرم لذاته لا يباح بحال ، ومحرم تحريما عارضا فى وقت دون وقت ، قال الله تعالى فى المحرم لذاته : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ، ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال: ﴿ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه . فقال : ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال : ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ [ الأعراف ] فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثما ، فإنه يتضمن الكذب على الله ، ونسبته إلى ما لا يليق به ، وتغيير دينه وتبديله ، ونفى ما أثبته وإثبات ما نفاه ، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه ، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه ، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه ، ووصفه بما لا يليق به فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله .

فليس فى أجناس المحرمات أعظم عند الله منه ، ولا أشد إثما ، وهو أصل الشرك والكفر ، وعليه أسست البدع والضلالات ، فكل بدعة مضلة فى الدين أساسها القول على الله بلا علم .

ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها ، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض ، وحذروا فتنتهم أشد التحذير ، وبالغوا فى ذلك ما لم يبالغوا مثله فى إنكار الفواحش ، والظلم والعدوان . إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد ، وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شئ أو تحريمه من عنده بلا برهان من الله ، فقال : ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ الآية [ النحل : ١١٦ ] .

فكيف بمن نسب إلى أوصافه ـ سبحانه وتعالى ـ ما لم يصف به نفسه ؟ أو نفى عنه منها ما وصف به نفسه ؟ .

قال بعض السلف : ليحذر أحدكم أن يقول : أحل الله كذا ، وحرم الله كذا . فيقول الله : كذبت ، لم أحل هذا ، ولم أحرم هذا .

يعنى التحليل والتحريم بالرأى المجرد ، بلا برهان من الله ورسوله .

وأصل الشرك والكفر : هو القول على الله بلا علم ؛ فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبودا من دون الله ، يقربه إلى الله ، ويشفع له عنده ، ويقضى حاجته بواسطته ، كما

تكون الوسائط عند الملوك ، فكل مشرك قائل على الله بلا علم ، دون العكس . إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع فى دين الله ، فهو أعم من الشرك ، والشرك فرد من أفراده .

ولهذا كان الكذب على رسول الله ﷺ موجبا لدخول النار ، واتخاذ منزلة منها مبوأ ، وهو المنزل اللازم الذى لا يفارقه صاحبه ؛ لأنه متضمن للقول على الله بلا علم ، كصريح الكذب عليه ؛ لأن ما انضاف إلى الرسول فهو مضاف إلى المرسل ، والقول على الله بلا علم صريح افتراء الكذب عليه : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [ الأنعام : ١٤٤ ] .

فذنوب أهل البدع كلها داخلة تحت هذا الجنس فلا تتحقق التوبة منه إلا بالتوبة من البدع .

وأنى بالتوبة منها لمن لم يعلم أنها بدعة ، أو يظنها سنة ، فهو يدعو إليها ، ويحض عليها ؟ فلا تنكشف لهذا ذنوبه التى تجب عليه التوبة منها إلا بتضلعه من السنة ، وكثرة اطلاعه عليها ، ودوام البحث عنها والتفتيش عليها ، ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبدا .

فإن السنة ـ بالذات ـ تمحق البدعة ، ولا تقوم لها . وإذا طلعت شمسها فى قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة ، وأزالت ظلمة كل ضلالة ، إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس . ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة ، ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة ، إلا المتابعة ، والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله ، بالاستعانة والإخلاص ، وصدق اللجأ إلى الله ، والهجرة إلى رسوله ، بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله »(١) ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه فى الدنيا والآخرة ، والله المستعان(٢) .

## فصل
## فى المناظرة فى العلم وفوائدها

المناظرة فى العلم نوعان :

**أحدهما** : للتمرن والتدرب على إقامة الحجج ودفع الشبهات .

---

(١) البخارى (١) فى بدء الوحى ، باب : كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ ، ومسلم (١٩٠٧ / ١٥٥) فى الإمارة ، باب : قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنية » ، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٧٢ ـ ٣٧٤) .

**والثاني** : لنصر الحق وكبت الباطل .

والأول يشبه السباق والنضال ، والثاني يشبه الجهاد وقتال الكفار ، قال تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ** ﴾ [ الأنعام : ٨٣ ] ، قال مالك : قال زيد ابن أسلم : بالعلم ، فعلم الحجة يرفع درجة صاحبه .

فإن العلم بالحجج والقوة على الجهاد مما رفع الله تعالى به درجات الأنبياء ، وأتباعهم ، كما قال تعالى : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [ المجادلة : ١١ ] ، وقال تعالى : ﴿ **وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥)** ﴾ [ ص ] فالأيدي : القوى التي يقدرون بها على إظهار الحق وأمر الله وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه ، والأبصار : البصائر في دينه ؛ ولهذا يسمى الله ـ سبحانه ـ الحجة سلطانا . قال ابن عباس : كل سلطان في القرآن فهو الحجة ، كما قال الله تعالى : ﴿ **أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧)** ﴾ [ الصافات ] ، وقال تعالى : ﴿ **إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ** ﴾ [ النجم : ٢٣ ] ، وقال تعالى : ﴿ **أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥)** ﴾ [ الروم ] ، وهذا لأن الحجة تسلط صاحبها على خصمه ، فصاحب الحجة له سلطان وقدرة على خصمه وإن كان عاجزا عنه بيده . وهذا هو أحد أقسام النصرة التي نصر الله تعالى بها رسله والمؤمنين في الدنيا كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١)** ﴾ [ غافر ] (١) .

# فصل
## فى تثبيت العلم وتأكيده

فى « الصحيحين » : عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ ، إذ أتى بجمار نخلة ، فقال النبى ﷺ : « إن من الشجرة شجرة مثلها مثل الرجل المسلم لا يسقط ورقها ، أخبرونى ماهى ؟ » فوقع الناس فى شجر البوادى ، فوقع فى نفسى أنها النخلة ، فأردت أن أقول : هى النخلة ، ثم نظرت فإذا أنا أصغر القوم سنا ، فسكت ، فقال رسول الله ﷺ : « هى النخلة » فذكرت ذلك لعمر فقال : لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا (٢) .

---

(١) الفروسية (٩٥ ، ٩٦) .

(٢) البخارى (٦١) فى العلم ، باب : قول المحدث : « حدثنا » أو « أخبرنا » و « أنبأنا » ، ومسلم (٢٨١١ / ٦٣) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : مثل المؤمن مثل النخلة .

ففى هذا الحديث إلقاء العالم المسائل على أصحابه وتمرينهم واختبار ما عندهم .

وفيه ضرب الأمثال والتشبيه .

وفيه ما كان عليه الصحابة من الحياء من أكابرهم وإجلالهم وإمساكهم عن الكلام بين أيديهم .

وفيه فرح الرجل بإصابة ولده وتوفيقه للصواب .

وفيه أنه لا يكره للولد أن يجيب بما يعرف بحضرة أبيه وإن لم يعرفه الأب ، وليس فى ذلك إساءة أدب عليه .

وفيه ما تضمنه تشبيه المسلم بالنخلة ؛ من كثرة خيرها ، ودوام ظلها ، وطيب ثمرها ، ووجوده على الدوام [١] .

## فصل
## فى الوكالة فى إلقاء العلم

ومنها [٢] : توكيل العالم لبعض أصحابه أن يتكلم عنه ، ويجيب عنه [٣] .

## فصل
## فى تعليم المرأة الكتابة

وفى الحديث [٤] دليل على جواز تعليم النساء الكتابة [٥] .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٣٩٧) .

(٢) أى من الفقه فى قصة قدوم وفد بنى حنيفة على النبى ﷺ .

(٣) زاد المعاد (٣ / ٦١٣) .

(٤) هو حديث الشفاء بنت عبد الله قالت : دخل على رسول الله ﷺ وأنا عند حفصة فقال : « ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة » أبو داود (٣٨٨٧) .

(٥) زاد المعاد (٤ / ١٨٥) .



# كتاب لطائف الكلم

## العمل بالقرآن

قال بعض السلف : أنزل الله القرآن ليعمل به ، فاتخذوا تلاوته عملا (١) .

## الأخذ بالكتاب والسنة

قال أبو سليمان الدارانى : تعرض علىّ النكتة من نكت القوم ،فلا أقبلها إلا بشاهدى عدل : الكتاب والسنة .

وقال الجنيد : مذهبنا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث ، لا يقتدى به فى طريقنا (٢) .

## الصلاة المقبولة

قال بعض السلف : الصلاة كجارية تهدى إلى ملك من الملوك، فما الظن بمن يهدى إليه جارية شلاء أو عوراء أو عمياء أو مقطوعة اليد والرجل أو مريضة أو دميمة أو قبيحة ، حتى يهدى إليه جارية ميتة بلا روح وجارية قبيحة ،فكيف بالصلاة التى يهديها العبد ويتقرب بها إلى ربه تعالى ؟ والله طيب لا يقبل إلا طيبا ،وليس من العمل الطيب : صلاة لا روح فيها ، كما أنه ليس من العتق الطيب عتق عبد لا روح فيه (٣) .

## السعادة فى تحقيق العبودية

كان شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول :من أراد السعادة الأبدية ، فليلزم عتبة العبودية (٤) .

---

(١) الداء والدواء (٢٧٢) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٠) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ٥٢٦) .
(٤) مدارج السالكين (١ / ٤٣١) .

## إحسان الله عز وجل إلى الخلق

إن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها ، وأى إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصى ، وهو يُمِدُّه بنعمه ، ويعامله بألطافه ، ويُسْبِل عليه ستره (١) .

إن الحبيب يسامح بما لا يسامح به سواه ؛ لأن المحبة أكبر شفعائه وإذا هفا (٢) هفوة ملكه (٣) عاقبتها ، بأن جعلها سببا لرفعته وعلو درجته ، فيجعل تلك الهفوة سببًا لتوبة نصوح وذل خاص ، وانكسار بين يديه ، وأعمال صالحة تزيد فى قربه منه أضعاف ما كان عليه قبل الهفوة ، فتكون تلك الهفوة أنفع له مـن حسنات كثيرة . وهذا من علامات اعتناء الله بالعبد ، وكونه من أحبابه وحزبه .

وقد استشهد الشيخ بقصة سليمان عليه السلام حين ألهته الخيل عن صلاة العصر ، فأخذته الغضبة لله والحمية ، فحملته على أن مسح عراقيبها وأعناقها بالسيف ، وأتلف مالاً شغله عن الله فى الله ، فعوضه الله منه : أن حمله على متن الريح فملكه الله تعالى عاقبة هذه الهفوة وجعلها سببًا لنيل تلك المنزلة الرفيعة ،واستشهد بقصة موسى ﷺ حين ألقى الألواح وفيها كلام الله عن رأسه وكسرها ، وجر بلحية أخيه وهو نبى مثله ولم يعاتبه الله على ذلك كما عتب على آدم عليه السلام فى أكل لقمة من الشجرة ، وعلى نوح فى ابنه حين سأل ربه أن ينجيه ،وعلى داود فى شأن امرأة أوريا ، وعلى يونس فى شأن المغاضبة .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : وكذلك لطم موسى عين ملك الموت ففقأها ولم يعتب عليه ربه ، وفى ليلة الإسراء عاتب ربه فى النبى ﷺ إذ رفعه فوقه ورفع صوته بذلك ، ولم يعتبه الله على ذلك ، قال: لأن موسى عليه السلام قام تلك المقامات العظيمة التى أوجبت له هذا الدلال ؛ فإنه قاوم فرعون ـ أكبر أعداء الله تعالى ـ وتصدى له ولقومه ، وعالج بنى إسرائيل أشد المعالجة ، وجاهد فى الله أعداء الله أشد الجهاد ، وكان شديد الغضب لربه فاحتمل له ما لم يحتمله لغيره .

وذو النون لما لم يكن فى هذا المقام ،سجنه فى بطن الحوت من غضبة ،وقد جعل الله لكل شئ قدراً (٤) .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٣٢) .

(٢) أى : العبد .

(٣) أى : الله عز وجل .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٤٥٥) .

## سعادة المرء بربه عز وجل

مِنْ أحسن كلام العامة قولهم : لا هَمَّ مع الله [١] .

## حاجة الإنسان إلى الله عز وجل

أكثر النوع الإنساني ليس له قاهر من نفسه،فاحتياجه إلى قاهر فوقه يدخله تحت سياسة وإياله : ينتظم بها أمره ضرورة ، كحاجته إلى مصالحه من الطعام والشراب واللباس [٢] .

## حُسْن الفهم مِنَّةٌ من الله عز وجل

حُسْن الفهم عن الله ورسوله مَنٌّ يمن الله به على من يشاء من عباده [٣] .

## محبة الله عز وجل

قال بعض المحبين : مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها ، قالوا : وما أطيب ما فيها ؟ قال : محبة الله ، والأنس به ، والشوق إلى لقائه ، والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه ـ أو نحو هذا من الكلام [٤] .

## محبة الله عز وجل والقرآن

قال بعض الصحابة : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله [٥] .

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٧١) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٤٠٤) .
(٣) زاد المعاد (٤ / ٤١٤) .
(٤) مدارج السالكين (٢ / ٤٥٤) .
(٥) الكلام على مسألة السماع (٤٧٦).

## أنواع الرجاء

الرجاء ثلاثة أنواع : نوعان محمودان ونوع غرور مذموم .

**فالأولان** : رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله ، فهو راج لثوابه ، ورجل أذنب ذنوبًا ثم تاب منها ، فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه ، وجوده وحلمه وكرمه .

**والثالث** : رجل متماد في التفريط والخطايا ، يرجو رحمة الله بلا عمل ، فهذا هو الغرور والتمنى والرجاء الكاذب (١) .

## الخوف والرجاء

قال بعض السلف : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى ،ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن . وقد جمع تعالى هذه المقامات الثلاث بقوله : ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** ﴾ [ الإسراء : ٥٧ ] . فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه ، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف ،فهذه طريقة عباده وأوليائه، وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات ،ويقول : المحب لا يضره ذنب .وصنف بعضهم فى ذلك مصنفا وذكر فيه أثرا مكذوبا « إذا أحب الله العبد لم تضره الذنوب » وهذا كذب قطعا مناف للإسلام ،فالذنوب تضر بالذات لكل أحد كضرر السم للبدن ، ولو قدر أن هذا الكلام صح عن بعض الشيوخ ، وأما عن رسول الله ﷺ فمعاذ الله من ذلك ، فله محمل ؛ وهو أنه إذا أحبه لم يدعه حبه إياه إلى أن يصر على ذنب؛ لأن الإصرار على الذنب مناف لكونه محبا لله ،وإذا لم يصر على الذنب بل بادر إلى التوبة النصوح منه فإنه يمحى أثره ولا يضره الذنب ، وكلما أذنب وتاب إلى الله زال عنه أثر الذنب وضرره ، فهذا المعنى صحيح .

والمقصود : أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع فى هذه المعاطب ، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما شرد، فكأن الخوف سوط يضرب به مطيته لئلا

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣٦) .

تخرج عن الدرب ، والرجاء حاد يحدوها ، يطيب لها السير ، والحب قائدها وزمامها الذى يسوقها ، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصا يردها إذا حادت عن الطريق ،وتركت تركب التعاسيف ،خرجت عن الطريق وضلت عنها ،فما حفظت حدود الله ومحارمه ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته ، فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة فسد فسادا لا يرجى صلاحه أبدا ، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه .

فتأمل أسرار القرآن وحكمته فى اقتران الخيفة بالذكر والخفية بالدعاء ،مع دلالته على اقتران الخيفة بالدعاء والخفية بالذكر أيضًا ،فإنه قال: ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ**﴾[ الاعراف: ٢٠٥ ] فلم يحتج بعدها أن يقول : خفية ،وقال فى الدعاء: ﴿ **وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾ [ الاعراف:٥٦] فلم يحتج أن يقول فى الأول :ادعوا ربكم تضرعا وخيفة،فانتظمت كل واحدة من الآيتين للخيفة والخفية والتضرع أحسن انتظام ،ودلت على ذلك أكمل دلالة،وذكر الطمع الذى هو الرجاء فى آية الدعاء ؛ لأن الدعاء مبنى عليه،فإن الداعى مالم يطمع فى سؤله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه ، إذ طلب مالا طمع فيه ممتنع ،وذكر الخوف فى آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه .

فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين (١) .

## وأيضا

قال أبو على الروذبارى :الخوف والرجاء كجناحى الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا صار الطائر فى حد الموت (٢) .

## العبودية والحرية

الناس فى هذا المقام ثلاثة : عبد محض ، وحر محض ، ومكاتب قد أدى بعض كتابته وهو يسعى فى بقية الأداء .

**فالعبد المحض** : عبد الماء والطين ، الذى قد استعبدته نفسه وشهوته وملكته وقهرته ، فانقاد لها انقياد العبد إلى سيده الحاكم عليه .

---

(١) بدائع الفوائد (٣ / ١١ ـ ١٢ ) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٦) .

**والحر المحض** : هو الذى قهر شهوته ونفسه وملكها ، فانقادت معه وذلت له ، ودخلت تحت رقه وحكمه .

**والمكاتب** : من قد عُقد له سبب الحرية وهو يسعى فى كمالها ، فهو عبد من وجه حر من وجه ، وبالبقية التى بقيت عليه من الأداء يكون عبدًا ما بقى عليه درهم ،فهو عبد ما بقى عليه حظ من حظوظ نفسه .

فالحر من تخلص من رق الماء والطين ، وفاز بعبودية رب العالمين ، فاجتمعت له العبودية والحرية ، فعبوديته من كمال حريته ، وحريته من كمال عبوديته (١) .

## حبس النفس على الله

أشق ما على النفوس : جمعيتها على الله وهى تناشد صاحبها ألا يوصلها إليه ،وأن يشغلها بما دونه ، فإن حبس النفس على الله شديد ،وأشد منه :حبسها على أوامره وحبسها عن نواهيه ، فهى دائماً ترضيك بالعلم عن العمل ، وبالعمل عن الحال ، وبالحال عن الله سبحانه وتعالى ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من شد مئزر سيره إلى الله ، وعلم أن كل ما سواه فهو قاطع عنه (٢) .

## خشية الله عز وجل

قال أحمد بن عاصم : من كان بالله أعرف ، كان له أخوف ، ويدل على هذا قوله تعالى :﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [ فاطر : ٢٨] .وقول النبى ﷺ :« أنا أعرفكم بالله ، وأشدكم له خشية » (٣) (٤) .

## إيثار مرضاة الله عز وجل

إنه ما آثر عبد مرضاة الله عز وجل على مرضاة الخلق ،وتحمل ثقل ذلك ومؤنته ،

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ٧٤) .
(٢) مدارج السالكين (٣ / ١٣٧) .
(٣) مدارج السالكين (٣ / ٣٣٩) .
(٤) البخارى معلقا ( الفتح ١ / ٧٠ ) فى الإيمان ، باب : قول النبى ﷺ : « أنا أعلمكم بالله » ، وانظر : المقاصد الحسنة (١٨٤) ، وكشف الخفاء (٦٠٧) .

وصبر على محنته ؛ إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة ومعونة بقدر ما تحمل من مرضاته، فانقلبت مخاوفه أمانًا ،ومظان عطبه نجاة ، وتعبه راحة ، ومؤنته معونة ، وبليته نعمة ، ومحنته منحة ، وسخطه رضى . فياخيبة المتخلفين ، ويا ذلة المتهيبين !

هذا ،وقد جرت سنة الله ـ التى لا تبديل لها ـ أن من آثر مرضاة الخلق على مرضاته: أن يسخط عليه من آثر رضاه ويخذله من جهته،ويجعل محنته على يديه فيعود حامده ذامًا، ومن آثر مرضاته ساخطاً فلا على مقصوده منهم حصل ،ولا إلى ثواب مرضاة ربه وصل ، وهذا أعجز الخلق وأحمقهم .

هذا مع أن رضى الخلق : لا مقدور ولا مأمور ولا مأثور ، فهو مستحيل ، بل لابد من سخطهم عليك ، فلأن يسخطوا عليك وتفوز برضى الله عنك ، أحب إليك وأنفع لك من أن يسخطوا عليك والله عنك غير راض ، فإذا كان سخطهم لابد منه ـ على التقديرين ـ فآثر سخطهم الذى ينال به رضى الله ، فإن هم رضوا عنك بعد هذا وإلا فأهون شىء رضى من لا ينفعك رضاه ، ولا يضرك سخطه فى دينك ولا فى إيمانك ولا فى آخرتك ، فإن ضرك فى أمر يسير فى الدنيا فمضرة سخط الله أعظم وأعظم ،وخاصة العقل : احتمال أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما ، وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما ، فوازن بعقلك ثم انظر أى الأمرين خير فآثره ،وأيهما شر فابعد عنه . فهذا برهان قطعى ضرورى فى إيثار رضى الله على رضى الخلق .

هذا ، مع أنه إذا آثر رضى الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق ، وإذا آثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه .

قال بعض السلف : لمصانعة وجه واحد أيسر عليك من مصانعة وجوه كثيرة ، إنك إذا صانعت ذلك الوجه الواحد كفاك الوجوه كلها .

وقال الشافعى ﵁ :رضى الناس غاية لا تدرك ، فعليك بما فيه صلاح نفسك فالزمه.

ومعلوم : أنه لا صلاح للنفس إلا بإيثار رضى ربها ومولاها على غيره ، ولقد أحسن أبو فراس فى هذا المعنى ـ إلا أنه أساء كل الإساءة فى قوله ـ إذ يقوله لمخلوق لا يملك له ولا لنفسه نفعا ولا ضرا :

فليتك تحلو والحياة مريرة　　　وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذى بينى وبينك عامر     وبينى وبين العالمين خـــراب
إذا صح منك الود فالكل هين     وكل الذى فوق التراب تراب[١]

## الهجرة إلى الله ورسوله ﷺ

إن كل متوجه إلى الله بالصدق والإخلاص فإنه من المهاجرين إليه فلا ينبغى أن يتخلف عن هذه الهجرة ، بل ينبغى أن يصحبها سرمدا . حتى يلحق بالله عز وجل .

فما هى إلا ساعة ثم تنقضى     ويحمد غب السير من هو سائر

ولله على كل قلب هجرتان وهما فرض لازم له على الأنفاس :

هجرة إلى الله سبحانه بالتوحيد والإخلاص والإنابة والحب والخوف والرجاء والعبودية.

وهجرة إلى رسوله ﷺ : بالتحكيم له والتسليم والتفويض والانقياد لحكمه وتلقى أحكام الظاهر والباطن من مشكاته فيكون تعبده به أعظم من تعبد الركب بالدليل الماهر فى ظلم الليل ومتاهات الطريق .

فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحث على رأسه الرماد وليراجع الإيمان من أصله. فيرجع وراءه ليقتبس نورًا قبل أن يحال بينه وبينه،ويقال له ذلك على الصراط من وراء السور . والله المستعان [٢].

## حد الخوف

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : حد الخوف ما حجزك عن معاصى الله ، فما زاد على ذلك فهو غير محتاج إليه [٣] .

## الخوف من الله عز وجل

كل أحد إذا خفته هربت منه ، إلا الله عز وجل ، فإنك إذا خفته هربت إليه [٤].

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣٠٠) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٦٣) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ٣٩٤) .
(٤) مدارج السالكين (١ / ٥١٣) .

## وأيضًا

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « وددت أنى نجوت من هذا الأمر كفافا ، لا لِى ولا علىَّ »، يريد الخلافة ؛ خشية ألا يكون قد قام بحقوقها .

فَخَوْفُه كان يحمله على ذلك القول ، ولم يقل ذلك فى أبى بكر بل ما زال يشهد له فى القيام فى الخلافة بالحق (١) .

## الاعتصام بحبل الله عز وجل

الاعتصام بحبل الله يحمى من البدعة وآفات العمل (٢) .

## منازل العبودية

من زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد فهو زنديق كافر بالله وبرسوله ، وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله والانسلاخ من دينه ، بل كلما تمكن العبد فى منازل العبودية كانت عبوديته أعظم والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه ؛ ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ ـ بل على جميع الرسل ـ أعظم من الواجب على أممهم،والواجب على أولى العزم أعظم من الواجب على من دونهم ،والواجب على أولى العلم أعظم من الواجب على من دونهم ، وكل أحد بحسب مرتبته (٣) .

## ما يحبه الله عز وجل ويرضاه

لا سبيل إلى معرفة ما يحبه(٤) ويرضاه إلا بوزنه بميزان الوحى ونقده على محك الأمر،وعرضه على حاكم الشرع ، وتلقيه من مشكاة النبوة ، ثم اعتباره بدار الضرب ، فإن كان نقش سكته : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » (٥) فهو المحبوب المرضى لله

---

(١) الكلام على مسألة السماع (٤٤٧) . (٢) مدارج السالكين (١ / ٤٦٢) .

(٣) مدارج السالكين (١ / ١٠٤) . (٤) أى : الله عز وجل .

(٥) البخارى (٢٦٩٧) فى الصلح ، باب : إذا اصطلحوا على صلح جور فهو مردود ، ومسلم (١٧١٨ / ١٧ ) فى الأقضية ، باب : نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ، وأبو داود (٤٦٠٦) فى السنة ، باب : فى لزوم

الذى يقبله من عبده ويكرمه عليه ، وإن كان عليه ضرب السكك المحدثة الصادرة على الآراء والأفكار والرسوم والأوضاع فهو المزيف المردود ، فإذا وقع التحاكم إلى هذا الأصل تقرب كل واحد من المتنازعين من صاحبه ، وإلا رفيقك قيسى وأنت يمانى (١) .

## وأيضًا

ويجب أن يعرف أن المرجع فى القرب والطاعات والديانات بين ما يحبه الله ويرضاه وبين ما يسخطه ويكرهه إلى الله ورسوله ، لا إلى رأى ، ولا قياس ، ولا ذوق ولا وجد ، ولا استحسان ، ولا تقليد ، ولا منام ، ولا كشف ، ولا حدثنى قلبى عن أبى ، ولا خوطبت وقيل لى ، ولا رأيت فلانًا يفعل وهو ممن أعتقد فيه الخير ، أو كان فلان يفعل وهو ممن يحسن به الظن ، ونحو ذلك .

فليس لأحد أن يبتدع دينًا لم يأذن به الله ويقول : هذا يحبه الله ؛ لأنه يوصل إلى محبوب الله ،بل هذه الطريق بدل دين الله وشرائعه ،وابتدع الشرك وكل ما لم ينزل به سلطانًا ،وكل ما فى الكتاب والسنة وكلام السلف والأئمة ومشايخ الطريق من الحض على اتباع ما أنزل إلينا من ربنا ، ونهى عن غيره ، فهو لأجل هذا قال تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [ الملك : ٢ ] وهو الخالص لله الموافق لأمره ،كما قاله الفضيل بن عياض وغيره(٢) .

## الطريق إلى الله عز وجل

إن الله لا يصل إليه أحد إلا من الطريق التى فتحها ونهجها على ألسن رسله ونصبها لعباده ، وسد جميع الطرق إليه دونها ، فلم يفتح لأحد قط إلا من تلك الطريق ، فالسالك من غيرها لا يصل إليه أبدا ،وكل من لم يصل إليه فهو واصل إلى سقر . قال أبو القاسم الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريق رسول الله ﷺ . وقال : يقول

= السنة ، وابن ماجه (١٤) فى المقدمة ، باب : تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه كلهم بلفظ : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » . والحديث باللفظ المذكور فى تفسير القرطبى (١/ ٣٦٧) ، وفى صحيح البخارى (٣ / ٩١) فى البيوع ، باب: النجش فى الترجمة .

(١) الكلام على مسألة السماع (٢٧٥) .

(٢) الكلام على مسألة السماع (٢٧٦) .

الله عز وجل :« وعزتى وجلالى لو أتونى من كل طريق واستفتحوا من كل باب ما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك » (١) (٢) .

## أنواع المحبة

المحبة أنواع متعددة :

فأفضلها وأجلها : المحبة فى الله ولله ، وهى تستلزم محبة ما أحب الله ، وتستلزم محبة الله ورسوله .

ومنها : محبة الاتفاق فى طريقة ، أو دين ، أو مذهب ، أو نحلة، أو قرابة ، أو صناعة ، أو مراد ما .

ومنها : محبة لنيل غرض من المحبوب ؛ إما من جاهه أو من ماله ، أو من تعليمه وإرشاده ، أو قضاء وطر منه ، وهذه هى المحبة العرضية التى تزول بزوال موجبها ، فإن من وَدَّك لأمر ، ولَّى عنك عند انقضائه .

وأما محبة المشاكل والمناسبة التى بين المحب والمحبوب ، فمحبة لازمة لا تزول إلا لعارض يزيلها (٣) .

## حقيقة محبة الله عز وجل

قال أبو بكر الكتانى : جرت مسألة فى المحبة بمكة ـ أعزها الله تعالى ـ أيام الموسم فتكلم الشيوخ فيها ، وكان الجنيد أصغرهم سنًا . فقالوا : هات ما عندك يا عراقى ، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ، ثم قال : عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرقت قلبه أنوار هيبته ،وصفا شربه من كأس وُدِّه ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ،وإن نطق فعن الله ،وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ، ولله ،ومع الله . فبكى الشيوخ وقالوا : ما على هذا مزيد ، جزاك الله ياتاج العارفين (٤) .

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) الكلام على مسألة السماع (٤١٩) .

(٣) زاد المعاد (٤ / ٢٧٠ ) .

(٤) مدارج السالكين (٣ / ١٦) .

## سير العارف إلى الله عز وجل

قال شيخ الإسلام : العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنة ، ومطالعة عيب النفس والعمل [١] .

## وأيضًا

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : العارف لا يرى له على أحد حقًا ولا يشهد له على غيره فضلا ؛ ولذلك لا يعاب ،ولا يطالب ولا يضارب [٢] .

## تعظيم الله عز وجل

من كملت عظمة الحق تعالى فى قلبه ،عظمت عنده مخالفته [٣] .

## حجب القلب عن الله عز وجل

**الحُجُب عشرة :**

حجاب التعطيل ، ونفى حقائق الأسماء والصفات ، وهو أغلظها ، فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله ، ولا يصل إليه البتة إلا كما يتهيأ للحجَر أن يصعد إلى فوق .

**الثانى** : حجاب الشرك ، وهو أن يتعبد قلبه لغير الله .

**الثالث** : حجاب البدعة القوليّة ، كحجاب أهل الأهواء ، والمقالات الفاسدة على اختلافها .

**الرابع** : حجاب البدعة العملية ، كحجاب أهل السلوك المبتدعين فى طريقهم وسلوكهم .

---

(١) الوابل الصيب (٩) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٥٢٣) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ١٤٤) .

**الخامس** : حجاب أهل الكبائر الباطنة ، كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد ، والفخر والخيلاء ونحوها .

**السادس** : حجاب أهل الكبائر الظاهرة ، وحجابهم أرق من حجاب إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة ، مع كثرة عباداتهم ، وزهاداتهم ، واجتهاداتهم . فكبائر هؤلاء أقرب إلى التوبة من كبائر أولئك ؛ فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها فى قوالب عبادة ومعرفة ، فأهل الكبائر الظاهرة : أدنى إلى السلامة منهم ، وقلوبهم خير من قلوبهم .

**السابع** : حجاب أهل الصغائر .

**الثامن** : حجاب أهل الفضلات ، والتوسع فى المباحات .

**التاسع** : حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خلقوا له وأريد منهم ، وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته .

**العاشر** : حجاب المجتهدين السالكين ، المشمرين فى السير عن المقصود .

فهذه عشر حجب بين القلب وبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ تحول بينه وبين هذا الشأن . وهذه الحجب تنشأ من أربعة عناصر : عنصر النفس ، وعنصر الشيطان ، وعنصر الدنيا ، وعنصر الهوى ، فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها فى القلب البتة .

وهذه الأربعة العناصر تفسد القول ، والعمل ، والقصد ، والطريق ، بحسب غلبتها وقلتها ، فتقطع طريق القول والعمل والقصد أن يصل إلى القلب . وما وصل منه إلى القلب قطعت عليه الطريق أن يصل إلى الرب . فبين القول والعمل وبين القلب مسافة يسافر فيها العبد إلى قلبه ليرى عجائب ما هنالك . وفى هذه المسافة قطاع الطريق المذكورون؛ فإن حاربهم وخلَص العملُ إلى قلبه دار فيه ، وطلب النفوذ من هناك إلى الله، فإنه لا يستقر دون الوصول إليه ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ [ النجم : ٤٢] ، فإذا وصل إلى الله ـ سبحانه ـ أثابه عليه مزيدًا فى إيمانه ويقينه ، ومعرفته وعقله ، وجَمَّلَ به ظاهره وباطنه ، فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال ، وصرف عنه به سيئ الأخلاق والأعمال . وأقام الله ـ سبحانه ـ من ذلك العمل للقلب جندًا يحارب به قطاع الطريق للوصول إليه ، فيحارب الدنيا بالزهد فيها ، وإخراجها من قلبه ، ولا يضره أن تكون فى يده وبيته ، ولا يمنع ذلك من قوة يقينه بالآخرة ، يحارب الشيطان بترك الاستجابة لداعى الهوى ، فإن الشيطان مع الهوى لا يفارقه ، ويحارب الهوى بتحكيم الأمر المطلق ،

والوقوف معه،بحيث لا يبقى له هوى فيما يفعله ويتركه. ويحارب النفس بقوة الإخلاص .

هذا كله إذا وجد العمل منفذًا من القلب إلى الرب ـ سبحانه وتعالى ـ وإن دار فيه ولم يجد منفذًا وَثَبَتْ عليه النفس ،فأخذته وصيرته جندًا لها،فصالت به وعَلَتْ وطغت، فتراه أزهد ما يكون ، وأعبد ما يكون ، وأشده اجتهادًا ،وهو أبعد ما يكون عن الله ، وأصحاب الكبائر أقرب قلوبًا إلى الله منه، وأدنى منه إلى الإخلاص والخلاص.

فانظر إلى السجاد العباد ، الزاهد الذى بين عينيه أثر السجود ،كيف أورثه طغيان عمله: أن أنكر على النبى ﷺ ،وأورث أصحابه احتقار المسلمين ،حتى سلوا عليهم سيوفهم ، واستباحوا دماءهم .

وانظر إلى الشريب السكير ، الذى كان كثيرًا ما يؤتى به إلى النبى ﷺ ، فيحده على الشراب ، كيف قامت به قوة إيمانه ويقينه ، ومحبته لله ورسوله ، وتواضعه وانكساره لله، حتى نهى رسول الله ﷺ عن لعنته .

فظهر بهذا : أن طغيان المعاصى أسلم عاقبة من طغيان الطاعات .

وقد روى الإمام أحمد فى كتاب الزهد : « أن الله ـ سبحانه ـ أوحى إلى موسى ﷺ: يا موسى ، أنذر الصديقين ، فإنى لا أضع عدلى على أحد إلا عذبته ، من غير أن أظلمه، وبشر الخطائين ؛ فإنه لا يتعاظمنى ذنب أن أغفره »(١) .

## ما يسأل عنه الأولون والآخرون

قال أبو العالية : كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون :

ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟ (٢) .

## التوكل على الله عز وجل

مَنْ صدق توكله على الله فى حصول شىء ناله ، فإن كان محبوبًا له مرضيًا كانت له فيه العاقبة المحمودة ، وإن كان مسخوطًا مبغوضًا كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه ،وإن

(١) مدارج السالكين (٣ / ٢٢٣ ـ ٢٢٥) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٤١) .

كان مباحًا حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه إن لم يستعن به على طاعته، والله أعلم [١] .

## وأيضًا

لو توكل العبد على الله حق توكله فى إزالة جبل عن مكانه وكان مأمورًا بإزالته لأزاله[٢] .

## الأخذ بالأسباب

الالتفات إليها [٣] بالكلية شرك مناف للتوحيد ، وإنكار أن تكون أسبابًا بالكلية قدح فى الشرع والحكمة ، والإعراض عنها ـ مع العلم بكونها أسبابًا ـ نقصان فى العقل ، وتنزيلها منازلها ومدافعة بعضها ببعض وتسليط بعضها على بعض وشهود الجمع فى تفرقها والقيام بها : هو محض العبودية والمعرفة وإثبات التوحيد والشرع والقدر والحكمة [٤] .

## وأيضًا

مصالح الدنيا والآخرة وإن كانت مفروغا منها قضاء وقدرا ، فهى منوطة بأسبابها التى يتوقف حصولها عليها شرعا وخلقا [٥] .

## كلام الله عز وجل

قال غير واحد من السلف : من أنكر أن يكون الله متكلمًا أو يكون القرآن كلامه فقد أنكر رسالة محمد ﷺ ، بل ورسالة جميع الرسل التى حقيقتها : تبليغ كلام الله تبارك وتعالى [٦] .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ١١٤) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٨١) .
(٣) أى : الأسباب .
(٤) مدارج السالكين (١ / ٢٤٤) .
(٥) طريق الهجرتين (٣٤١) .
(٦) مدارج السالكين (١ / ٧٠) .

## وأيضا

الشافعى أخذ عن إسماعيل بن علية وهو من أكبر شيوخه ، وأما ابنه إبراهيم تلميذ عبد الرحمن بن كيسان الأصم فكان الشافعى يذمه ويقول فيه : « أنا مخالف لابن علية فى كل شيء حتى فى قول لا إله إلا الله، فإنى أقول: لا إله إلا الله الذى كلم موسى من وراء حجاب ، وهو يقول : لا إله إلا الله الذى خلق فى الهواء كلامًا أسمعه موسى ، وهذا هو الذى يذكر له أقوال شاذة فى الفقه وأصوله ، ويظن من لا علم عنده أنه إسماعيل وليس الأمر كذلك ، فإن أباه إسماعيل من أجل شيوخ الشافعى وأحمد وطبقتهما(١).

## القَدَر

قال ابن عباس رضي الله عنهما : الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده ، ومن آمن بالقدر صدق إيمانه توحيده (٢) .

## وأيضًا

الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا إلا أنا فانفتحت لى فيه روزنة فتنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والرجل من يكون منازعًا للقدر لا من يكون مستسلمًا مع القدر(٣) .ولا تتم مصالح العباد فى معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض فكيف فى معادهم (٤) .

## الشفاعة

ثلاثة أصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها : لا شفاعة إلا بإذنه ، ولا يأذن إلا لمن رضى قوله وعمله ، ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسوله (٥) .

---

(١) الكلام على مسألة السماع (٣٥٥) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٤١٠) .
(٣) من كلام الشيخ عبد القادر الكيلانى .
(٤) مدارج السالكين (١ / ١٩٩) .
(٥) مدارج السالكين (١ / ٣٤١) .

## جنة الدنيا

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة (١) .

## وأيضًا

قال بعض العارفين : إنه ليمر بالقلب أوقات . أقول : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا، إنهم لفى عيش طيب (٢) .

## أطيب ما فى الدنيا

قال بعض المحبين : مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وماذاقوا أطيب ما فيها ، قالوا : وما أطيب ما فيها ؟ قال : محبة الله ، والأنس به ، والشوق إلى لقائه ، والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه ، أو نحو هذا من الكلام (٣) .

## حظ العبد من الدنيا

كل ما خالف مراد الله الدينى من العبد فهو حظه وشهوته مالاً كان أو رياسة ، أو صورة ، أو حالاً أو ذوقًا ، أو وجدًا (٤) .

ومن علاجها (٥) : أن يعلم أن حظه من المصيبة ما تحدثه له ، فمن رضى فله الرضى، ومن سخط فله السخط ، فحظك منها ما أحدثته لك ، فاختر خير الحظوظ أو شرها ، فإن أحدثت له سخطًا وكفرًا ، كتب فى ديوان الهالكين ، وإن أحدثت له جزعًا وتفريطًا فى ترك واجب ، أو فعل محرم ،كتب فى ديوان المفرطين ، وإن أحدثت له شكاية ، وعدم صبر، كتب فى ديوان المغبونين ،وإن أحدثت له اعتراضًا على الله ، وقدحًا فى حكمته ، فقد قرع باب الزندقة أو ولجه ، وإن أحدثت له صبرًا وثباتًا لله ، كتب فى ديوان الصابرين، وإن

---

(١ ـ ٣) مدارج السالكين (١ / ٤٥٤) .

(٤) مدارج السالكين (١ / ٤٩٥) .

(٥) أى : المصيبة .

أحدثت له الرضى عن الله ، كتب فى ديوان الراضين ، وإن أحدثت له الحمد والشكر، كتب فى ديوان الشاكرين ، وكان تحت لواء الحمد مع الحمادين ،وإن أحدثت له محبة واشتياقا إلى لقاء ربه ، كتب فى ديوان المحبين المخلصين .

وفى مسند الإمام أحمد ، والترمذى ، من حديث محمود بن لبيد يرفعه : « إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضى ، ومن سخط فله السخط » (١) . زاد أحمد : « ومن جزع فله الجزع » (٢) .

قال بعض الحكماء : العاقل يفعل فى أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام ، ومن لم يصبر صبر الكرام ، سلا سلو البهائم ،وفى الصحيح مرفوعاً :« الصبر عند الصدمة الأولى » (٣) .وقال الأشعث بن قيس: إنك إن صبرت إيماناً واحتسابًا ، وإلا سلوت سلو البهائم (٤) .

إن المصيبة كير العبد الذى يسبك به حاصله ، فإما أن يخرج ذهبًا أحمر، وإما أن يخرج خبيثًا كله ، كما قيل :

سبكناه ونحسبه لجينا فأبدى الكير عن خبث الحديد

فإن لم ينفعه هذا الكير فى الدنيا ، فبين يديه الكير الأعظم ، فإذا علم العبد أن إدخاله كير الدنيا ومسبكها خير له من ذلك الكير والمسبك ، وأنه لا بد من أحد الكيرين ، فليعلم قدر نعمة الله عليه فى الكير العاجل (٥) .

## مصائب الدنيا

قال بعض السلف : لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس (٦) .

---

(١) الترمذى : (٢٣٩٦) فى الزهد ، باب : ما جاء فى الصبر على البلاد ، وقال :« حسن غريب » ، واللفظ له، وأحمد (٥ / ٤٢٨ ، ٤٢٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ١٩٤) فى الجنائز ، باب : فيمن يبتلى : «رجاله ثقات » .

(٢) زاد المعاد (٤ / ١٩٢ ، ١٩٣) .

(٣) البخارى : ( ١٣٠٢) فى الجنائز ، باب : الصبر عند الصدمة الأولى ومسلم (٩٢٦ / ١٤ ) فى الجنائز ، باب : فى الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى ، والترمذى (٩٨٨) فى الجنائز ، باب : ما جاء أن الصبر فى الصدمة الأولى .

(٤) زاد المعاد ( ٤ / ١٩٣ ) .

(٥) زاد المعاد (٤ / ١٩٤ ، ١٩٥ ) .

(٦) زاد المعاد (٤ / ١٩٢ ) .

## اقتفاء هدى النبي ﷺ

مصباح الموحد السالك على درب الرسول وطريقه : يتوقد ﴿ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ [ النور : ٣٥ ] (١).

## وأيضًا

الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ (٢) .

## وأيضًا

إذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك وينبو فهمك عنه ، فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك ، وأن تحته كنزاً من كنوز العلم ، ولم تؤت مفاتحه بعد . هذا فى حق نفسك، وأما بالنسبة إلى غيرك : فاتهم آراء الرجال على نصوص الوحى ، وليكن ردها أيسر شىء عليك للنصوص ، فمالهم تفعل ذلك فلست على شىء ، ولو ... ولو ... وهذا لاخلاف فيه بين العلماء .

قال الشافعى ـ قدس الله روحه : أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ : لم يحل له أن يدعها لقول أحد (٣) .

## عصمة النبي ﷺ

إن كل واحد ـ غير المعصوم ﷺ ـ فمأخوذ من قوله ومتروك ، وكل سبيل لا يوافق سبيله فمهجور غير مسلوك (٤).

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٩٨) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ١٠٠) .

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٣٣٤) .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٢٤٩) .

## فصاحة النبى ﷺ

العرب أفصح الأمم ، وقريش أفصح العرب ، وهو (١) فى نفسه كان أفصح قريش على الإطلاق (٢) .

## الحق فيما جاء به النبى ﷺ

الشبلى ومن هو أكبر من الشبلى من الشيوخ لابد من عرض أحواله وأقواله على ما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق ، فيقبل منها ما وافق الحق ، ويرد منها ما خالفه، وما احتمل الأمرين جعل من المحتملات التى لا تقبل مطلقًا ولا ترد مطلقًا ، وبهذا الميزان يوزن كلام من دون رسول الله ﷺ وأفعاله وأحواله كائنًا من كان (٣) .

## وأيضًا

مدار الأمر كله على المتابعة للشريعة النبوية فى الأقوال والأفعال والنيات ، فمهما ثبت أنه قد قاله أو فعله فهو الحق الذى لا معدل عنه ولاحق وراءه ، وما لم يقله ولم يفعله فهو من البدع التى قال ﷺ :« عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عَضُّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ،فإن كل محدثة بدعة ،وكل بدعة ضلالة » (٤)، وفى لفظ : « وكل ضلالة فى النار » (٥) ، وثبت فى الصحيح أنه ﷺ قال: « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » (٦) ، وروى عنه أنه ﷺ قال : « ما تركت شيًا يقربكم إلى الجنة إلا أمرتكم به ، وما تركت شيئًا يباعدكم عن النار إلا وقد بينته لكم» (٧)، وعنه قال :

---

(١) أى : النبى ﷺ . (٢) الصواعق المرسلة (٢ / ٦٥١ ) .

(٣) الكلام على مسألة السماع (٤٢٦) .

(٤) أبو داود : (٤٦٠٧) فى السنة ، باب : فى لزوم السنة ، والترمذى (٢٦٧٦) فى العلم ، باب : ما جاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٤٢) فى المقدمة ، باب : اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ، وأحمد ٤ / ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٥) أبو داود (٤٦٠٧) ، وابن ماجه (٤٢) فى الكتب والأبواب السابقة ، وأحمد (٤ / ١٢٦ ، ١٢٧ ) . .

(٦) سبق تخريجه ص ٣٤٩ برقم (٥) .

(٧) عبد الرزاق : (٢٠١٠٠) فى باب : القدر مرسلاً .

«تركتكم على البيضاء ، ليلها ونهارها ، لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك » (١) .

وقال الله تعالى : ﴿ **وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** ﴾ [ النور : ٥٤ ] ، وقال : ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[ النور : ٦٣] ، ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ الآية [ آل عمران : ٣١ ](٢) .

## وأيضًا

كل من بعد رسول الله ﷺ يجب عرض أقواله وأفعاله وأحواله على ما جاء به الرسول ، فإن كانت مقبولة لديه قبلت وإلا ردت . فأبى الظالمون المفتنون إلا عرض ما جاء به الرسول ﷺ على أقوال الشيوخ وطريقتهم فأضلهم ، فعم بذلك المصاب ، وعظمت المحنة ، واشتدت الزرية ، واشتدت غربة الدين وأهله ، وظن بهم الجاهلون أنهم هم أهل البدع ، وأصحاب الطرائق والآراء هم أهل السنة ، ويأبى الله إلا أن يقيم دينه ويتم نوره ، ويعلى كلماته وكلمات رسوله ، وينصر حزبه ولو كره المبطلون (٣) .

## وأيضًا

قيل لبعض الإعراب ـ وقد أسلم لما عرف دعوته ﷺ : عن أى شىء أسلمت ؟ وما رأيت منه مما دلك على أنه رسول الله ﷺ ؟ قال : « ما أمر بشىء فقال العقل : ليته نهى عنه ، ولا نهى عن شىء فقال العقل : ليته أمر به ،ولا أحل شيئًا فقال العقل: ليته حرمه، ولا حرم شيئًا فقال العقل : ليته أباحه » (٤) .

## فضل صحابة النبى ﷺ

كان الصحابة ﷺ أحرص شىء على استنباط أحاديث رسول الله ﷺ من القرآن ، ومن ألزم نفسه ذلك وقرع بابه ووجه قلبه إليه واعتنى به بفطرة سليمة وقلب ذكى ، رأى

---

(١) ابن ماجه (٥) فى المقدمة ، باب : اتباع سنة رسول الله ﷺ و (٤٣) باب : اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، وأحمد (٤ / ١٢٦) .

(٢) الكلام على مسألة السماع (٤٧٤) . (٣) الكلام على مسألة السماع (١٤٥) .

(٤) مدارج السالكين (١/ ٢٣٥) .

السنة كلها تفصيلاً للقرآن ، وتبيينا لدلالته ، وبيانا لمراد الله منه ، وهذا أعلى مراتب العلم فمن ظفر به فليحمد الله ، ومن فاته فلا يلومن إلا نفسه وهمته وعجزه (١) .

## وأيضًا

وقد قال بعض السلف: مثل أصحاب محمد مثل العين ، ودواء العين ترك مسها (٢) .

## الاقتداء بالصحابة رضي الله عنهم

قد قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** ﴾ [ص: ٨٦ ]،وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :« من كان منكم مُسْتَنًّا فليستَن بمن قد مات ،فإن الحى لا يؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد: أَبَرُّ هذه الأمة قلوبًا ،وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلفًا ،قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ،فاعرفوا لهم حقهم ،وتمسكوا بهديهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » .

فلا تجد هذا التكلف الشديد ، والتعقيد فى الألفاظ والمعانى عند الصحابة أصلا.

وإنما يوجد عند من عَدَل عن طريقهم ، وإذا تأمله العارف وجده :« كلحم جمل غث، على رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقل »،فيطول عليك الطريق، ويوسع لك العبارة ، ويأتى بكل لفظ غريب ومعنى أغرب من اللفظ ، فإذا وصلت لم تجد معك حاصلا طائلا ، ولكن تسمع جعجعة ولا ترى طِحنًا ، فالمتكلمون فى جعاجع الجواهر والأعراض والأكوان والألوان ، والجوهر الفرد ، والأحوال والحركة والسكون ، والوجود والماهية والانحياز،والجهات والنسب والإضافات،والغيرين والخلافين،والضدين والنقيضين، والتماثل والاختلاف ،والعرض هل يبقى زمانين ؟ وما هو الزمان والمكان ؟ ويموت أحدهم ولم يعرف الزمان والمكان ،ويعترف بأنه لم يعرف الوجود : هل هو ماهية الشىء ، أو زائد عليها ؟ ويعترف : أنه شاك فى وجود الرب : هل هو وجود محض ، أو وجود مقارن للماهية ؟ ويقول : الحق عندى الوقف فى هذه المسألة .

(١) زاد المعاد (٥ / ١٢٨) .
(٢) زاد المعاد (٤ / ١٠٩) .

ويقول أفضلهم ـ عند نفسه ـ عند الموت : أخرج من الدنيا وما عرفت إلا مسألة واحدة، وهى أن الممكن يفتقر إلى واجب . ثم قال : الافتقار أمر عدمى ، فأموت ولم أعرف شيئًا . وهذا أكثر من أن يذكر،كما قال بعض السلف : أكثر الناس شكا عند الموت : أرباب الكلام .

وآخرون أعظم تكلفًا من هؤلاء وأبعد شيء عن العلم النافع ، وهم : أرباب الهيولى والصورة والاصطقصات ،والأركان والعلل الأربعة ، والجواهر العقلية ، والمفارقات ، والمجردات ،والمقولات العشر ،والكليات الخمس ،والمختلطات والموجهات ، والقضايا المسوارات ، والقضايا المهملات . فهم أعظم الطوائف تكلفًا ، وأقلهم تحصيلا للعلم النافع والعمل الصالح .

وكذلك المتكلفون من أصحاب الإرادة والسلوك ، وأرباب الحال والمقام ،والوقت والمكان ، والبادى والباذه والوارد ،والخاطر والواقع والقادح واللامع ، والغيبة والحضور، والمحق والحق ،والسكر ،واللوائح والطوالع ،والعطش ، والدهش ،والتلبيس ، والتمكين والتلوين ،والاسم والرسم ، والجمع وجمع الجمع ، وجمع الشواهد وجمع الوجود ، والأثر ،والكون ،والبون،والاتصال والانفصال،والمسامرة والمشاهدة،والمعاينة ، والتجلى ، والتخلى،وأنا بلا أنا ،وأنت بلا أنت،ونحن بلا نحن،وهو بلا هو . وكل ذلك أدنى إشارة إلى تكلف هؤلاء الطوائف وتنطعهم .

وكذلك كثير من المنتسبين إلى الفقه لهم مثل هذا التكلف وأعظم منه . فكل هؤلاء محجوبون بما لديهم ، موقوفون على ما عندهم ، خاضوا ـ بزعمهم ـ بحار العلم ، وما ابتلت أقدامهم . وكدوا أفكارهم وأذهانهم وخواطرهم ، وما استنارت بالعلم الموروث عن الرسل قلوبهم وأفهامهم ، فرحين بما عندهم من العلوم راضين بما قيدوا به من الرسوم . فهم فى واد ورسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ فى واد ، والله يعلم أنا لم نتجاوز فيهم ، بل قصرنا فيما ينبغى لنا أن نقوله ، فذكرنا غَيضا من فيض ، وقليلا من كثير .

وهؤلاء كلهم داخلون تحت الرأى ، الذى اتفق السلف على ذمه وذم أهله . فهم أهل الرأى حقا ، الذين قال فيهم عمر بن الخطاب ﷺ : « إياكم وأصحاب الرأى ، فإنهم أعداء السنن ، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأى ، فضلوا وأضلوا » ، وقال أيضا : « أصحاب الرأى أعداء السنن ، أعيتهم أن يعوها ،وتفلتت عليهم أن يرووها ، فاشتغلوا عنها بالرأى »،وقال أبو بكر الصديق ﷺ : « أى أرض تُقِلُّنى ؟ وأى سماء تُظِلنى؟ إن قلت

فى كتاب الله برأيى ، أو بما لا أعلم » ، وقال عمر رضي الله عنه :« يا أيها الناس ، إن الرأى كان من رسول الله ﷺ مصيبًا ؛ لأن الله عز وجل كان يريه ، وإنما هو منا الظن والتكلف»،وقال ابن عباس رضي الله عنهما :« من أحدث رأيا ليس فى كتاب الله ،ولم تمض به سنة من رسول الله ﷺ ، لم يرد ما هو على ما هو منه إذا لقى الله عز وجل » ، وقال عمر رضي الله عنه : يا أيها الناس ، اتهموا رأيكم على الدين ، فقد رأيتُنى ، وإنى لأرد أمر رسول الله ﷺ برأيى ، أجتهد . والله ما آلو ذلك يوم أبى جَنْدَل والكتاب يكتب،فقالوا : تكتب باسمك اللهم ، فرضى رسول الله ﷺ وأبيت ، فقال : « يا عمر ، ترانى قد رضيت وتأبى ؟ » [1] وقال ﷺ فى الحديث الذى رويناه من طريق مسدد حدثنا يحيى بن سعيد ، عن ابن جريج ، أخبرنى سليمان بن عتيق ، عن طلق بن حبيب ، عن الأحنف ابن قيس ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ألا هلك المتنطعون ، ألا هلك المتنطعون ، ألا هلك المتنطعون » [2] فإن لم تكن هذه الألفاظ والمعانى التى تجدها فى كثير من كلام هؤلاء تنطعًا فليس للتنطع حقيقة ، والله سبحانه وتعالى أعلم » [3] .

## فضل الصديق رضي الله عنه

ما سبق الصديق الصحابة بكثرة عمل ، وقد كان فيهم من هو أكثر صيامًا وحجًا وقراءة وصلاة منه ، ولكن بأمر آخر قام بقلبه ، حتى إن أفضل الصحابة كان يسابقه ولا يراه إلا أمامه [4] .

## مكانة السلف

لا بد من مخاطبة أهل الزمان باصطلاحهم ، إذ لا قوة لهم للتشمير إلى تلقى السلوك عن السلف الأول وكلماتهم وهديهم ولو بزر لهم هديهم وحالهم لأنكروه ولعدوه سلوكًا

---

(١) الطبرانى فى الكبير ( ١ / ٧٢ (٨٢ ) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ١٨٤) فى العلم ، باب فى القياس والتقليد : « رواه أبو يعلى ، ورجاله موثقون وإن كان فيهم مبارك بن فضالة » ، وقلت : « ولم أقف عليه عند أبى يعلى » .

(٢) مسلم (٢٦٧٠ / ٧) فى العلم ، باب : هلك المتنطعون ، وأبو داود (٤٦٠٨) فى السنة ، باب فى لزوم السنة ، وأحمد (١ / ٣٨٦ ) .

(٣) مدارج السالكين (٣ / ٤٣٦ ـ ٤٣٩) .

(٤) مدارج السالكين (١ / ٤٣٨) .

عاميًا وللخاصة سلوك آخر كما يقول ضلال المتكلمين وجهلتهم : « إن القوم كانوا أسلم ، وإن طريقنا أعلم » ، وكما يقول من لم يقدر قدرهم من المنتسبين إلى الفقه : « إنهم لم يتفرغوا لاستنباطه وضبط قواعده وأحكامه ، اشتغالاً منهم بغيره ، والمتأخرون تفرغوا لذلك، فهم أفقه » .

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف، وعن عمق علومهم ، وقلة تكلفهم، وكمال بصائرهم .وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التى كانت همة القوم مراعاة أصولها ،وضبط قواعدها ،وشد معاقدها ،وهممهم مشمرة إلى المطالب العالية فى كل شىء .

فالمتأخرون فى شأن والقوم فى شأن و﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [ الطلاق : ٣ ] (١).

## وأيضًا

للسلف غَوْرٌ ودِقَّة فَهْمٍ ، لا يدركها كثير من المتأخرين (٢) .

## الاستغفار

قلت لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ يومًا : سئل بعض أهل العلم : أيهما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار ؟ فقال : إذا كان الثوب نقيا فالبخور وماء الورد أنفع له ، وإن كان دنسا فالصابون والماء الحار أنفع له ، فقال لى رحمه الله تعالى : فكيف والثياب لا تزال دنسة ؟ ! (٣) .

## وأيضًا

قد قيل :علامة رضى الله عنك :إعراضك عن نفسك ،وعلامة قبول عملك :احتقاره واستقلاله وصغره فى قلبك ، حتى إن العارف ليستغفر الله عقيب طاعته ، وقد كان رسول الله ﷺ إذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثًا ، وأمر الله عباده بالاستغفار عقيب الحج ، ومدحهم على الاستغفار عقيب قيام الليل ،وشرع النبى ﷺ عقيب الطهور التوبة والاستغفار .

(١) مدارج السالكين (١ / ١٣٩) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٠٢) .
(٣) الوابل الصيب (١٨٨) .

فمن شهد واجب ربه ومقدار عمله وعيب نفسه ، لم يجد بدًا من استغفار ربه منه ، واحتقاره إياه ،واستصغاره (١) .

## التوبة

أكثر الناس لا يعرفون قدر « التوبة » ولا حقيقتها فضلاً عن القيام بها علمًا وعملا وحالاً ، ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه(٢) .

## وأيضًا

لا ينجى من هذا (٣) إلا توبة عامة ، مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم ، فإن مالا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه ولا ينفعه فى عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكنًا من العلم، فإنه عاص بترك العلم والعمل ، فالمعصية فى حقه أشد . وفى صحيح ابن حبان أن النبى ﷺ قال: « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل » . فقال أبو بكر : فكيف الخلاص منه يا رسول الله ؟ قال : أن تقول : « اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » (٤) (٥).

## الإخلاص

قيل : الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق ، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله .

ومن كلام الفضيل : ترك العمل من أجل الناس : رياء ، والعمل من أجل الناس : شرك ، والإخلاص : أن يعافيك الله منهما (٦) .

---

(١) مدارج السالكين ( ٢ / ٦٢ ) .

(٢) مدارج السالكين ( ١ / ٣٠٦ ) .

(٣) إشارة إلى تأخير التوبة .

(٤) البخارى فى الأدب المفرد ( ٧١٦ ) ، وعزاه لابن السنى فى عمل اليوم والليلة ، باب : الشرك ، والدر المنثور (٤ / ٥٤) ، وعزاه لابن المنذر وابن أبى حاتم .

(٥) مدارج السالكين (١ /٢٧٣) .

(٦) مدارج السالكين (٢ / ٩١) .

## وأيضا

إذا غُرست شجرة المحبة فى القلب ، وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب ، أثمرت أنواع الثمار وآتت أكلها كل حين بإذن ربها ، أصلها ثابت فى قرار القلب ، وفرعها متصل بسدرة المنتهى (١) .

## وأيضا

من لم يكن الله مراده أراد ما سواه ، ومن لم يكن هو وحده معبوده عبد ما سواه ، ومن لم يكن عمله لله فلا بد أن يعمل لغيره . وقد تقدم هذا (٢) .

## وأيضا

قال الفضيل بن عياض : العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا على، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل ، حتى يكون خالصًا صوابًا ، والخالص : ما كان لله ، والصواب : ما كان على السنة (٣) .

## المراقبة

أرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى فى الخواطر سبب لحفظها فى حركات الظواهر ، فمن راقب الله فى سره حفظه الله فى حركاته فى سره وعلانيته (٤) .

## وأيضا

قال أبو حفص لأبى عثمان النيسابورى : إذا جلست للناس فكن واعظًا لقلبك

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٩) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٢٧) .

(٣) مدارج السالكين (١ / ٨٣) .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٦٦) .

ونفسك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك ؛ فإنهم يراقبون ظاهرك ،والله يراقب باطنك (١) .

## الصبر

قد أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى كتابه بالصبر الجميل ، والصفح الجميل ، والهجر الجميل . فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: « الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه ولا معه ، والصفح الجميل هو الذى لا عتاب معه ، والهجر الجميل هو الذى لا أذى معه » (٢) .

## وأيضًا

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها: أكمل من صبره على إلقاء إخوته له فى الجب وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه ،فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر ، وأما صبره عن المعصية : فصبر اختيار روضى ومحاربة للنفس ، ولا سيما مع الأسباب التى تقوى ،معها دواعى الموافقة ، فإنه كان شابا ، وراعية الشباب إليها قوية ، وعزبا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته ، وغريبًا ، والغريب لا يستحى فى بلد غربته مما يستحى منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله ، ومملوكًا ، والمملوك أيضًا ليس وازعه كوازع الحر ، والمرأة جميلة ، وذات منصب ، وهى سيدته ،وقد غاب الرقيب ،وهى الداعية له إلى نفسها ،والحريصة على ذلك أشد الحرص ،ومع ذلك توعدته إن لم يفعل : بالسجن والصغار ، ومع هذه الدواعى كلها :صبر اختيارا وإيثارًا لما عند الله ، وأين هذا من صبره فى الجب على ما ليس من كسبه ؟

وكان يقول :الصبر على أداء الطاعات :أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل ؛ فإن مصلحة فعل الطاعة : أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ومفسدة عدم الطاعة : أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية (٣) .

## وأيضا

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : بالصبر واليقين تنال

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٦٦) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ١٦٠) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ١٥٦) .

الإمامة فى الدين ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [ السجدة : ٢٤ ] (١) .

## وأيضا

إن حال الصبر حال المحافظ على الصحة والقوة ، وحال الشاكر حال المتداوى بأنواع الأدوية لإزالة مواد السقم (٢) .

## الصدق

الشطحات ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات ، ويستغرقها كمال الصدق ، وصحة المعاملة، وقوة الإخلاص ، وتجريد التوحيد ،ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول ﷺ (٣).

## وأيضا

إن من بذل نفسه لله بصدق كره بقاءه معها ؛ لأنه يريد أن يتقبلها من بذلت له؛ ولأنه قد قربها له قربانا ،ومن قرب قرباناً فتقبل منه ، ليس كمن رد عليه قربانه ، فبقاء نفسه معه دليل على أنه لم يتقبل قربانه (٤) .

## صدق الطلب

قال بعض الصادقين : انفرادك فى طريق طلبك : دليل على صدق الطلب ، وقال آخر : لا تستوحش فى طريقك من قلة السالكين ، ولا تغتر بكثرة الهالكين (٥) .

## التواضع

النفس قرينة الشيطان ومصاحبته ، وتشبهه فى صفاته . ومواهب الرب تبارك وتعالى

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٥٤) .
(٢) عدة الصابرين (١٥٠) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ٣٩) .
(٤) مدارج السالكين (٢ / ٧) .
(٥) مدارج السالكين (٢ / ٥) .

تنزل على القلب والروح ، فالنفس تسترق السمع ، فإذا نزلت على القلب تلك المواهب : وثبت لتأخذ قسطها منها وتصيره من عدتها وحواصلها ، فالمسترسل معها الجاهل بها : يدعها تستوفى ذلك ، فبينا هو فى موهبة القلب والروح وعدة وقوة له ، إذا صار ذلك كله من حاصل النفس وآلتها وعددها ، فصالت به وطغت ؛ لأنها رأت غناها به . والإنسان يطغى أن رآه استغنى بالمال ، فكيف بما هو أعظم خطرا وأجل قدراً من المال بما لا نسبة بينهما : من علم أو حال أو معرفة أو كشف ؟ فإذا صار ذلك من حاصلها : انحرف العبد به ـ ولابد ـ إلى طرف مذموم من جرأة أو شطح أو إدلال ونحو ذلك .

فوالله كم ههنا من قتيل وسليب وجريح يقول : من أين أتيت ؟ ومن أين دهيت ؟ ومن أين أصبت ؟ وأقل ما يعاقب به من الحرمان بذلك : أن يغلق عنه باب المزيد ؛ ولهذا كان العارفون وأرباب البصائر : إذا نالوا شيئاً من ذلك انحرفوا إلى طرف الذل والانكسار ومطالعة عيوب النفس ، واستدعوا حارس الخوف ، وحافظوا على الرباط بملازمة الثغر بين القلب وبين النفس ، ونظروا إلى أقرب الخلق من الله وأكرمهم عليه ، وأدناهم منه وسيلة وأعظمهم عنده جاها ، وقد دخل مكة يوم الفتح وذقنه تمس قُربوس سرجة : انخفاضا وإنكساراً وتواضعاً لربه تعالى فى مثل تلك الحال التى عادة النفوس البشرية فيها : أن يملكها سرورها ، وفرحها بالنصر والظفر والتأييد ويرفعها إلى عنان السماء .

فالرجل : من صان فتحه ونصيبه من الله ، وواراه عن استراق نفسه وبخل عليها به، والعاجز : من جاد لها به . فياله من جود ما أقبحه ، وسماحة ما أسفه صاحبها ، والله المستعان (١) .

## وأيضا

لقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره . وكان يقول كثيرا : مالى شيء ،ولا منى شيء، ولا فيَّ شيء ، وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت.

أنا المُكَدّى وابن المكدى      وهكذا كان أبى وجدى

(١) مدارج السالكين ( ٢ / ٣٩٤) .

وكان إذا أثنى عليه فى وجهه يقول : والله ، إنى إلى الآن أجدد إسلامى كل وقت ، وما أسلمت بعد إسلاماً جيدا .

وبعث إلىَّ فى آخر عمره قاعدة فى التفسير بخطة ، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسكين فى مجموع حالاتى
أنا الظلوم لنفسى وهى ظالمتى ... والخير إن يأتنا من عنده يأتى
لا أستطيع لنفسى جلب منفعة ... ولا عن النفس لى دفع المضرات
وليس لى دونه مولًى يُدَبِّرنى ... ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتى
إلا بإذن من الرحمن خالقنا ... إلى الشفيع كما قد جاء فى الآيات
ولست أملك شيئًا دونه أبدًا ... ولا شريك أنا فى بعض ذرات
ولا ظهير له ، كى يستعين به ... كما يكون لأرباب الولايات
والفقر لى وصف ذات لازم أبدا ... كما الغنى أبدا وصف له ذاتى
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم ... وكلهم عنده عبد له آتى
فمن بغى مطلبا من غير خالقه ... فهو الجهول الظلوم المشرك العاتى
والحمد لله مِلء الكون أجمعه ... ما كان منه وما من بعد قديأتى (١)

## الشكر

الشكر قيد النعم (٢).

## النصيحة

من دقيق الفطنة : أنك لا ترد على المطاع خطأه بين الملأ فتحمله رتبته على نصره الخطأ وذلك خطأ ثان ، ولكن تلطف فى إعلامه به حيث لا يشعر به غيره (٣) .

---

(١) مدارج السالكين ( ١ / ٥٢٤ ـ ٥٢٥) .
(٢) عدة الصابرين (١٢٢) .
(٣) الطرق الحكمية (٤٠) .

## الفراسة

لولا أن الحق لله ورسوله ، وأن كل ما عدا الله ورسوله فمأخوذ من قوله ومتروك وهو عرضه الوهم والخطأ : لما اعترضنا على من لا نلحق غبارهم ، ولا نجرى معهم فى مضمارهم ، ونراهم فوقنا فى مقامات الإيمان ومنازل السائرين كالنجوم الدرارى ، ومن كان عنده علم فليرشدنا إليه ، ومن رأى فى كلامنا زيغًا أو نقصًا وخطأ ، فليهد إلينا الصواب ، ونشكر له سعيه،ونقابله بالقبول والإذعان والانقياد والتسليم ، والله أعلم وهو الموفق (١).

## وأيضا

قال عمرو بن نجيد : كان شاه الكرمانى حاد الفراسة لا يخطئ ، ويقول : من غض بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعمر باطنه بالمراقبة ، وظاهره باتباع السنة ، وتعود أكل الحلال لم تخطئ فراسته (٢) .

## وأيضا

قال ابن مسعود ﷺ : أفرس الناس ثلاثة : العزيز فى يوسف حيث قال لامرأته : **﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾** [ يوسف : ٢١] ، وابنة شعيب حين قالت لأبيها فى موسى : **﴿اسْتَأْجِرْهُ﴾** [ القصص : ٢٦ ] وأبو بكر فى عمر ﷺ حيث استخلفه . وفى رواية أخرى ، وامرأة فرعون حين قالت : **﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾** [ القصص : ٩ ] (٣) .

## الزهد

قال الإمام أحمد بن حنبل : الزهد على ثلاثة أوجة :

الأول : ترك الحرام وهو زهد العوام .

---

(١) مدارج السالكين ( ٢ / ١٣٧) .
(٢) مدارج السالكين ( ٢ / ٤٨٤) .
(٣) مدارج السالكين ( ٢ / ٤٨٥) .

**والثانى** : ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص .

**والثالث** : ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين (١) .

## وأيضا

العاقل يقف على البساط ويحذر من الانبساط ، وهذا شأن عقلاء أهل الدنيا ورؤسائهم : إذا ما ورد عليهم ما يسرهم ويبسطهم ويهيج أفراحهم ، قابلوه بالسكون والثبات والاستقرار ، حتى كأنه لم يهجم عليهم. وقال كعب بن زهير فى مدح المهاجرين:

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم ... قومًا وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا (٢)

## وأيضا

مِنْ أحسن ما قيل فى الزهد كلام الحسن أو غيره : ليس الزهد فى الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المصيبة ـ إذا أصبت بها ـ أرغب منك فيها لو لم تصبك . فهذا من أجمع كلام فى الزهد وأحسنه (٣) .

## وأيضا

متى كان المال فى يدك وليس فى قلبك لم يضرك ولو كثر ، ومتى كان فى قلبك ضرك، ولو لم يكن فى يدك منه شىء . قيل للإمام أحمد : أيكون الرجل زاهدًا ومعه ألف دينار ؟ قال : نعم على شريطة ألا يفرح إذا زادت ، ولا يحزن إذا نقصت ؛ ولهذا كان الصحابة أزهد الأمة مع ما بأيديهم من الأموال (٤) .

## حسن الخلق

حُسْن الخلق يقوم على أربعة أركان ، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها : الصبر والعفة

---

(١) مدارج السالكين ( ٢ / ١٢) .

(٢) مدارج السالكين ( ٢ / ٣٧٤) .

(٣) مدارج السالكين ( ٢ / ١٣) .

(٤) مدارج السالكين ( ١ / ٤٦٥) .

والشجاعة والعدل .

**فالصبر** : يحمله على الاحتمال ، وكظم الغيظ ، وكف الأذى ، والحلم والأناة والرفق ، وعدم الطيش والعجلة .

**والعفة** : تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل ، وتحمله على الحياء وهو رأس كل خير ، وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنميمة .

**والشجاعة** : تحمله على عزة النفس ، وإيثار معالى الأخلاق والشيم ، وعلى البذل والندى الذى هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته ، وتحمله على كظم الغيظ والحلم ، فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش، كما قال النبى ﷺ: « ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»(١). وهو حقيقة الشجاعة ، وهى ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه .

**والعدل** : يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه فيها بين طرفى الإفراط والتفريط . فيحمله على خلق الجود والسخاء الذى هو توسط بين الذل والقحة ، وعلى خلق الشجاعة الذى هو توسط بين الجبن والنهور ، وعلى خلق الحلم الذى هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس .

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة (٢) .

## وأيضا

قال صاحب المنازل : « الخلق : ما يرجع إليه المتكلف من نعمته » ، أى خلق كل متكلف : فهو ما اشتملت عليه نعوته . فتكلفه يرده إلى خلقه ، كما قيل :

إن التخلق يأتى دونه الخلق

وقال آخر :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

فمتكلف ما ليس من نعته ولا شيمته : يرجع إلى شيمته ونعته وسجيته (٣) .

---

(١) البخارى (٦١١٤) فى الأدب ، باب : الحذر من الغضب ، ومسلم (٢٦٠٩ / ١٠٧) فى البر والصلة والآداب، باب : فضل من يملك نفسه عند الغضب ، وأحمد (٢ / ٢٣٦) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٠٧ ، ٣٠٨) .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٣١٦) .

## المجاهدة

من ترك المجاهد بالكلية ضعف فيه باعث الدين ،وقوى فيه باعث الشهوة . ومتى عود نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد [١] .

## فضل الصمت

الكلام أسيرك ، فإذا خرج من فيك صرت أنت أسيره [٢] .

## وأيضا

لو أمسك عن الكلام من لا يعلم لقل الخلاف [٣] .

## اللسان ينبئ عن القلب

قال يحيى بن معاذ : القلوب كالقدور تغلى بما فيها ، وألسنتها مغارفها . فانظر إلى الرجل حين يتكلم ، فإن لسانه يغترف لك مما فى قلبه ، حلو وحامض ، وعذب وأجاج، وغير ذلك ، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه [٤] .

## آفات اللسان

أكثر آفات الناس من الألفاظ ، ولا سيما فى هذه المواضع التى يعز فيها تصور الحق على ما هو عليه والتعبير المطابق ، فيتولد من ضعف التصور وقصور التعبير : نوع تغبيط ، ويتزايد على ألسنة السامعين له وقلوبهم ، بحسب قصورهم وبعدهم من العلم فتفاقم الخطب وعظم الأمر ، والتبس طريق أولياء الله الصادقين بطرائق الزنادقة الملحدين [٥] .

(١) عدة الصابرين ( ٨١ ) .
(٢) الداء والدواء ( ٢٨١ ) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ٤٢١) .
(٤) الداء والدواء (٢٧٦) .
(٥) مدارج السالكين ( ٣ / ٧٨ ) .

## حسن اختيار الألفاظ

الأَوْلى العدول عن لفظ « المسامرة » (١) إلى « المناجاة » ، فإنه اللفظ الذى اختاره رسول الله ﷺ فى هذا . وعبر به عن حال العبد بقوله :« إذا قام أحدكم فى الصلاة فإنه يناجى ربه » (٢) ،وفى الحديث الآخر : « كلكم يناجى ربه ، فلا يجهر بعضكم على بعض» (٣) ، فلا تعدل عن ألفاظه ﷺ فإنها معصومة وصادرة عن معصوم ، والإجمال والإشكال فى اصطلاحات القوم وأوضاعهم وبالله والتوفيق (٤) .

## وأيضا

إياك ثم إياك والألفاظ المجملة المشتبهة التى وقع اصطلاح القوم عليها ، فإنها أصل البلاء وهى مورد الصديق والزنديق ، فإذا سمع الضعيف المعرفة والعلم بالله تعالى لفظ «اتصال وانفصال ومسامرة ومكالمة ، وأنه لا وجود فى الحقيقة إلا وجود الله ، وأن وجود الكائنات خيال ووهم وهو بمنزلة وجود الظل القائم بغيره » فاسمع منه ما يملك الآذان من حلول واتحاد وشطحات .

والعارفون من القوم أطلقوا هذه الألفاظ ونحوها ، وأرادوا بها معانى صحيحة فى أنفسها ، فغلط الغالطون فى فهم ما أرادوه ونسبوهم إلى إلحادهم وكفرهم ، واتخذوا كلماتهم المتشابهة ترسًا لهم وجنة حتى قال قائلهم :

ومنك بدا حب بعز تمازجا ... بنا ووصالا كنت أنت وصلته
ظهرت لمن أبقيت بعد فنائه ... وكـان بـلا كـون لأنـك كنته

فيسمع الغر « التمازج والوصال » فيظن أنه ـ سبحانه ـ نفس كون العبد فلا يشك أن هذا هو غاية التحقيق ونهاية الطريق (٥) .

---

(١) بمعنى : مناجاة القلب ربه .

(٢) البخارى (٥٣١) فى مواقيت الصلاة ، باب : المصلى يناجى ربه عز وجل .

(٣) الطبرانى فى الكبير ١٢ / ٤٢٨ (١٣٥٧٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ٢٦٨) فى الصلاة، باب : الجهر بالقرآن وكيف يقرأ : « وفيه محمد بن أبى ليلى وفيه كلام ، قلت : وفى الصحيح منه الاعتكاف » .

(٤) مدارج السالكين (٣ / ٩٩) .

(٥) مدارج السالكين (٣ / ١٥١) .

## كلام الأولين والآخرين

كلامهم (١) قليل فيه البركة ، وكلام المتأخرين كثير طويل قليل البركة (٢) .

## قبول الكلام أو رده

أكثر العقول كما عهدت تقبل القول بعبارة وترده بعينه بعبارة أخرى (٣) .

## الفتوّة

قال الإمام أحمد رضي الله عنه فى رواية ابنه عبد الله عنه وقد سئل عن الفتوة ؟ فقال : ترك ما تهوى لما تخشى .

ولا أعلم لأحد من الأئمة الأربعة فيها سواه (٤) .

## الهمة

ولله الهمم : ما أعجب شأنها ، وأشد تفاوتها فهمة متعلقة بمن فوق العرش وهمة حائمة حول الأنتان والحش ، والعامة تقول : قيمة كل امرئ ما يحسنه ، والخاصة تقول : قيمة المرء ما يطلبه ، وخاصة الخاصة تقول : همة المرء إلى مطلوبه .

وإذا أردت أن تعرف مراتب الهمم ، فانظر إلى همة ربيعة بن كعب الأسلمى رضي الله عنه وقد قال له رسول الله ﷺ : « سلنى » فقال : أسألك مرافقتك فى الجنة (٥) .

وكان غيره يسأله ما يملأ بطنه أو يوارى جلده .

وانظر إلى همة رسول الله ﷺ حين عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأباها ، ومعلوم أنه لو أخذها لأنفقها فى طاعة ربه تعالى ، فأبت له تلك الهمة العالية أن يتعلق منها

---

(١) أى أئمة الطريق أمثال أبى سليمان الدارانى وسهل بن عبد الله التسترى .

(٢) مدارج السالكين (١ / ١٣٩) .

(٣) الصواعق المرسلة (٣ / ٩٤٤) .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٣٤١) .

(٥) مسلم (٤٨٩ / ٢٢٦) فى الصلاة ، باب : فضل السجود والحث عليه ، وأبو داود (١٣٢٠) فى الصلاة ، باب: وقت قيام النبى ﷺ من الليل ، والنسائى (١١٣٨) فى التطبيق ، باب فضل السجود ، وأحمد ٤ / ٥٩ .

بشئ مما سوى الله ومحابه ، وعرض عليه أن يتصرف بالملك فأباه ، واختار التصرف بالعبودية المحضة ، فلا إله إلا الله خالق هذه الهمة ، وخالق نفس تحملها ، وخالق همم لا تعدو همم أخس الحيوانات (١) .

## وأيضا

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : فى بعض الآثار الإلهية يقول الله تعالى : « إنى لا أنظر إلى كلام الحكيم ، وإنما أنظر إلى همته » .

قال : والعامة تقول : قيمة كل امرئ ما يحسن ،والخاصة تقول قيمة كل امرئ ما يطلب ، يريد : أن قيمة المرء همته ومطلبه » (٢) .

## وأيضا

من لم تكن همته التقدم فهو فى تأخر ولا يشعر فإنه لا وقوف فى الطبيعة ولا فى السير ، بل إما إلى قدام وإما إلى وراء ، فالسالك الصادق لا ينظر إلى ورائه ، ولا يسمع النداء إلا من أمامه لا من ورائه (٣) .

## محاسبة النفس

هذا سيد أهل الأذواق والمواجيد والكشوف والأحوال من هذه الأمة ، المحدث المكاشف عمر ﷺ لا يلتفت إلى ذوقه ووجده ومخاطباته فى شيء من أمور الدين حتى ، ينشد عنه الرجال والنساء والأعراب ، فإذا أخبروه عن رسول الله ﷺ بشيء لم يلتفت إلى ذوقه ولا إلى وجده وخطابه ، بل يقول : « ولو لم نسمع بهذا لقضينا بغيره » ، ويقول : « أيها الناس ، رجل أخطأ ، وامرأة أصابت » ، فهذا فعل الناصح لنفسه وللأمة ﷺ ليس كفعل من غش نفسه والدين والأمة (٤) .

## وأيضا

قال بعض السلف : لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس فى ذات الله ، ثم ترجع إلى

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٤٧) .
(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣) .
(٣) مدارج السالكين (١/ ٤٧٧) .
(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٩٦) .

نفسك فتكون لها أشد مقتًا (١) .

## وأيضا

قال الحسن ﷺ : إن المؤمن ـ بالله ـ لا تراه إلا قائماً على نفسه : ما أردت بكلمة كذا؟ ما أردت بأكله ؟ ما أردت بمدخل كذا ومخرج كذا ؟ ما أردت بهذا ؟ مالى ولهذا ؟ والله لا أعود إلى هذا ، ونحو هذا من الكلام (٢) .

## وأيضا

كلما صغرت الحسنات فى عينك كبرت عند الله ، وكلما كبرت وعظمت فى قلبك قَلَّت وصغرت عند الله وسيئاتك بالعكس . ومن عـرف الله وحقه وما ينبغى لعظمته من العبودية: تلاشت حسناته عنده وصغرت جداء فى عينه ، وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه (٣) .

## أعز الخَلْق

يذكر عن سفيان الثورى رحمه الله أنه قال : أعز الخلق خمسة أنفس : عالم زاهد ، وفقيه صوفى، وغنى متواضع ، وفقير شاكر ، وشريف سنى .

وقال عروة بن الزبير ﷺ : رأيت عمر بن الخطاب ﷺ على عاتقه قربة ماء ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ لا ينبغى لك هذا . فقال : لما أتانى الوفود سامعين مطيعين ، دخلت نفسى نخوة فأردت أن أكسرها .

وولى أبو هريرة ﷺ إمارة مرة ، فكان يحمل حزمة الحطب على ظهره ، ويقول : طرقوا للأمير .

وركب زيد بن ثابت مرة ، فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه ، فقال : مه يا ابن عم رسول الله ؛ فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بكبرائنا ، فقال : أرنى يدك . فأخرجها إليه فقبلها . فقال : هكذا أمرنا نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ .

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٣٨) .

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٥١٠) .

(٣) مدارج السالكين (١/ ٢٦٥) .

وقسم عمر بن الخطاب ﷺ بين الصحابة رضى الله عنهم حللاً ، فبعث إلى معاذ حلة مثمنة فباعها ، واشترى بثمنها ستة أعبد وأعتقهم . فبلغ ذلك عمر ، فبعث إليه بعد ذلك حلة دونها . فعاتبه معاذ ، فقال عمر : لأنك بعت الأولى . فقال معاذ : وما عليك؟ ادفع لى نصيبى ، وقد حلفت لأضربن بها رأسك . فقال عمر ﷺ : رأسى بين يديك . وقد يرفق الشاب بالشيخ .

ومر الحسن على صبيان معهم كسر خبز ، فاستضافوه . فنزل فأكل معهم ، ثم حملهم إلى منزله . فأطعمهم وكساهم وقال : اليد لهم لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعمونى ، ونحن نجد أكثر منه .

ويذكر أن أبا ذر ﷺ عير بلالا ﷺ بسواده،ثم ندم فألقى بنفسه . فحلف : لا رَفَعْتُ رأسى حتى يطأ بلال خدى بقدمه ، فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال .

وقال رجاء بن حيوية : قومت ثياب عمر بن عبد العزيز ﷺ وهو يخطب ـ باثنى عشر درهماً ، وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة .

ورأى محمد بن واسع ابناً له يمشى مشية منكرة . فقال : تدرى بكم شريت أمك ؟ بثلاثمائة درهم وأبوك ـ لا كثَّر الله فى المسلمين مثله ـ أنا ـ وأنت تمشى هذه المشية ؟ (١).

## أعقل الخَلْق

إن أعقل الخلق على الإطلاق الرسل ، وأتباعهم بعدهم أعقل الأمم ، وأهل الكتاب والشرائع الكبار أعقلهم ، وأعقل هؤلاء المسلمون ، وأعقل المسلمين أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان ، وأهل السنة والحديث أعقل الأمة بعدهم على الإطلاق (٢) .

## البصيرة

من له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر الله به فى كتابه فى أمر المعاد وتفاصيله ، حتى كأنه يشاهده رأى عين ، ويعلم أن هذا هو مقتضى إلهيته ـ سبحانه ـ وربوبيته وعزته وحكمته ،وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك ، ونسبة خلاف ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه،فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره ،وهذا يقين

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٣٠) .

(٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٥١٤) .

الإيمان،وهو الذى يحرق السيئات كما تحرق النار الحطب .

وصاحب هذا المقام من الإيمان : يستحيل إصراره على السيئات وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله بعدد أنفاسه ، وهذا من أحب الخلق إلى الله (١) .

## وأيضا

إنما كانت الغيرة عند شيخ الإسلام من تمام « البصيرة » ؛ لأنه على قدر المعرفة بالحق ومستحقه ومحبته وإجلاله : تكون الغيرة عليه أن يضيع والغضب على من أضاعه ، فإن ذلك دليل على محبة صاحب الحق وإجلاله وتعظيمه وذلك عين البصيرة ، فكما أن الشك القادح فى كمال الامتثال معم لعين البصيرة،فكذلك عدم الغضب والغيرة على حقوق الله ـ إذا ضيعت ومحارمه إذا انتهكت ـ مع العين البصيرة (٢) .

## لسان العلم

الكلام بلسان العلم أوسع من الكلام بلسان الذوق ، وأقرب إلى الحجة والبرهان (٢).

## الاطلاع والقراءة

يا أيها القارئ له والناظر فيه (٣) ، هذه بضاعة صاحبها المزجاة المسوقة إليك ، وهذا فهمه وعقله معروض عليك ، لك غنمه ، وعلى مؤلفة غرمه ، ولك ثمرته وعليه عائدته ، فإن عدم منك حمدا وشكرا فلا يعدم منك عذرا ، وإن أبيت إلا الملام فبابه مفتوح ، وقد استأثر الله بالثناء وبالحمد ، وولى الملامة الرجلا (٤) .

## المفلس من العلم

إن كل من اعتقد عقيدة وارتاض وصقل قلبه بأنواع الرياضة وجزم بما اعتقده ، تجلت له صورة معتقده فى عالم نفسه ، فيظن ذلك كشفاً صحيحاً . وإن كان صادقاً فى طلبه

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٩٧) .
(٢) مدارج السالكين ( ٢/ ١٠) .
(٣) يقصد : كتاب طريق الهجرتين .
(٤) طريق الهجرتين ( ٧ ، ٨ ) .

وحبه لما اعتقده : كان له فيه حال وتأثير بحسبه ، فالحوالة على الحال حوالة مفلس من العلم على غير مليء به (١) .

## ميزان المعرفة الصحيحة

العلم الصحيح والعمل المستقيم : هما ميزان المعرفة الصحيحة والحال الصحيح ، وهما كالبدنين لروحيهما (٢) .

## نشر العلم

من كان عنده فضل علم فليجد به أو فليعذر ، ولا يبادر إلى الإنكار . فكم بين الهدهد ونبي الله سليمان ؟ وهو يقول له : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢](٣) .

## القدح فى العلم

قال بعضهم : متى رأيت الصوفى الفقير يقدح فى العلم ، فاتهمه على الإسلام (٤) .

## تحصيل العلم

قد قيل : من أخذ العلم من عين العلم ثبت ، ومن أخذه من جريانه أخذته أمواج الشبة ، ومالت إليه العبادات ، واختلفت عليه الأقوال (٥) .

## العلم والعلماء

قال الحسن البصرى : ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت (٦) .

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٨٨) .
(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٠٠) .
(٣) مدارج السالكين (٢/ ٥٢) .
(٤) مدارج السالكين (٢/ ٣٧٢) .
(٥) مدارج السالكين (٢/ ٦) .
(٦) مدارج السالكين (١/ ٤٤١) .

## اقتضاء العلم العمل

النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به [١] .

## وأيضا

قال بعض السلف : إذا أردت أن يقبل منك الأمر والنهى : فإذا أمرت بشىء فكن أول الفاعلين له المؤتمرين به ،وإذا نهيت عن شىء فكن أول المنتهين عنه [٢] .

## آفة العلوم

لا عبرة بجدل من قل فهمه ، وفتح عليه باب الشك والتشكيك فهؤلاء هم آفة العلوم وبلية الأذهان والفهوم [٣] .

## فساد العالم

قال سفيان بن عيينة : من فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى ، ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ؛ لأن النصارى عبدوا بغير علم ، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه [٤] .

## قيام الليل

قال محمد بن ابراهيم : رأيت الجنيد فى النوم ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : طاحت تلك الإشارات ، وغابت تلك العبارات ، وفنيت تلك العلوم ، ونفدت تلك الرسوم ، وما نفعنا إلا ركعات كنا نركعها فى الأسحار . وتذاكروا بين يديه أهل المعرفة وما استهانوا به من الأوراد والعبادات بعدما وصلوا إليه فقال : الجنيد : العبادة على العارفين أحسن من التيجان على رؤوس الملوك [٥] .

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٤٦) .
(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٤٧) .
(٣) مدارج السالكين (١/ ٧٧) .
(٤) إغاثة اللهفان (١/ ٢٤) .
(٥) مدارج السالكين (٣/ ١٢١) .

## وأيضا

قال عمر بن الخطاب ﷺ : « لو لا ثلاث لما أحببت البقاء : لولا أن أحمل على جياد الخيل فى سبيل الله ، ومكابدة الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطيب الكلام كما ينتقى أطيب الثمر » .

يريد ﷺ : الجهاد والصلاة والعلم النافع وهذه درجات الفضائل . وأهلها هم أهل الزلفى والدرجات العليا .

قال معاذ ﷺ عند موته : « اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب البقاء لجرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ولا لنكح الأزواج ، ولكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة الليل ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر » (١) .

## وأيضا

كان قيام الليل نافلة للنبى ﷺ خاصة ، فإنه يعمل فى زيادة الدرجات ، وغيره يعمل فى تكفير السيئات ، وأين هذا من هذا ؟ (٢) .

## قيمة الوقت

إن الواردات سريعة الزوال ، تمر أسرع من السحاب وينقضى الوقت بما فيه فلا يعود عليك منه إلا أثره وحكمه فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك ، فإنه عائد عليك لا محالة . لهذا يقال للسعداء : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [ الحاقة ] ، ويقال للأشقياء ﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [ غافر ](٣) .

## وأيضا

قال الشافعى ﷺ : صحبت الصوفية ، فما انتفعت منهم إلا بكلمتين ؛ سمعتهم يقولون : الوقت سيف فإن قطعته وإلا قطعك ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٨١) .
(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٩٦) .
(٣) مدارج السالكين (٣/ ٥٠) .

بالباطل [١] .

## الاجتهاد والتأويل

التأويل والاجتهاد من باب المعارض فى حق بعض الناس يدفع به عنه العقوبة كما يدفع بالتوبة والحسنات الماحية ،وهذا إنما هو لمن استفرغ وسعه فى طلب الحق ما استطاع [٢] .

## وأيضا

الذين حضروا هذا اللهو [٣] متأولين من أهل الصلاح والزهد والخير، غمرت حسناتهم ما كان فيهم من السيئات ،والخطأ من هذا ومن غيره ، وهذا سبيل كل صالح فى هذه الأمة فى خطئه وزلله ، قال تعالى: **﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)﴾** [ الزمر ] .

وهذا كالمتأولين من صالحى الكوفيين فى النبيذ المسكر وان كان خمرا ،وكذلك المتأولون من صالحى أهل مكة فى المتعة والصرف وإن كان سبيلهما سبيل الزنا والربا ،وهم من أبعد الناس عن ذلك ،وكذلك المتأولون فى حل بعض ما حرمه الشارع من الأطعمة من أهل المدينة وغيرهم ،وكذلك المتأولون فى مسألة حشوش النساء،وكذلك المتأولون فى القتال فى الفتنة إلى أمثال ذلك مما تأول فيه قوم من أهل العلم والدين ، من مطعوم أو مشروب أو منكوح أو مسموع أو عقد ونحو ذلك ، مما قد علم أن الله ورسوله حرمه لم يجز اتباعهم فى ذلك ،وإن كان مغفوراً لهم أو من السعى الذى يؤجرون عليه لاجتهادهم أجراً واحداً ، فالرب ـ سبحانه ـ يمحو السيئات بالحسنات ،ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات [٤] .

## التقليد

إن المقلد المتعصب لا يترك من قلده ولو جاءته كل آية ، وأن طالب الدليل لا يأتم

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٢٩) .
(٢) الكلام على مسألة السماع (٣٠٣) .
(٣) أى السماع .
(٤) الكلام على مسألة السماع (٣٢٧) .

بسواه ، ولا يُحكم إلا إياه ، ولكل من الناس مورد لا يتعداه وسبيل لا يتخطاه ، ولقد عذر من حمل ما انتهت إليه قواه ، وسعى إلى حيث انتهت إليه خطاه (١) .

## وأيضا

هذا منتهى أقدام الطائفتين فى هذه المسألة (٢) الضيقة المعترك الوعرة المسلك التى يتجاذب أعنة أدلتها الفرسان ، وتتضاءل لدى صولتها شجاعة الشجعان ، وإنما نبهنا على مأخذها وأدلتها ليعلم الغر الذى بضاعته من العلم مزجاة أن هناك شيئا آخر وراء ما عنده ، وأنه إذا كان ممن قصر فى العلم باعه فضعف خلف الدليل ،وتقاصر عن جنى ثماره ذراعه، فليعذر من شمر عن ساق عزمه ، وحام حول آثار رسول الله ﷺ وتحكيمها والتحاكم إليها بكل همة ،وإن كان غير عاذر لمنازعه فى قصوره ورغبته عن هذا الشأن البعيد فليعذر منازعه فى رغبته عما ارتضاه لنفسه من محض التقليد ، ولينظر مع نفسه أيهما هو المعذور ، وأى السعيين أحق بأن يكون هو السعى المشكور ، والله المستعان وعليه التكلان ، وهو الموفق للصواب الفاتح لمن أم بابه طالبا لمرضاته من الخير كل باب (٣) .

## وأيضا

ليس التحاكم فى هذه المسألة (٤) إلى مقلد متعصب ولا هياب للجمهور ، ولا مستوحش من التفرد إذا كان الصواب فى جانبه ، وإنما التحاكم فيها إلى راسخ فى العلم قد طال فيه باعه ، ورحب بنيله ذراعه ، وفرق بين الشبهة والدليل ، وتلقى الأحكام من نفس مشكاة الرسول ، وعرف المراتب وقام فيها بالواجب ، وباشر قلبه أسرار الشريعة وحكمها الباهرة، وما تضمنته من المصالح الباطنة والظاهرة ، وخاض فى مثل هذه المضايق لججها ، واستوفى من الجانبين حججها ، والله المستعان ، وعليه التكلان (٥) .

## غض البصر

قيل : الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده (٦) .

(١) زاد المعاد (٥/ ٢٢١) .
(٢) أى مسألة : هل يقع الطلاق البدعى أم لا ؟
(٣) زاد المعاد (٥/ ٢٤٠ ـ ٢٤١) .
(٤) أى مسألة : وقوع الثلاث طلقات بكلمة واحدة .
(٥) زاد المعاد (٥/ ٢٩٦) .
(٦) الداء والدواء (٢٦٨) .

## وأيضا

قد قيل : إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات [١] .

## الطاعة

كل من استعان به [٢] على أمره وسأله إياه ولم يكن عونا على طاعته : كان مبعداً له عن مرضاته قاطعا له عنه ولابد [٣] .

## المعاصى بريد الكفر

قال بعض السلف « المعاصى بريد الكفر ، كما أن الحمى بريد الموت » [٤] .

## الفرح بالمعصية

الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها والجهل بقدر من عصاه ، والجهل بسوء عاقبتها ، وعظم خطرها . ففرحه بها غطى عليه ذلك كله ، وفرحه بها أشد ضرراً عليه من مواقعتها ، والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدًا ولا يكمل بها فرحه ، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه ، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به ومتى خلى قلبه من هذا الحزن واشتدت غبطته وسروره فليتهم إيمانه ، وليبك على موت قلبه ، فإنه لو كان حيًا لأحزنه ارتكابه للذنب ، وغاظه وصعب عليه ، ولا يحس القلب بذلك ، فحيث لم يحس به فما لجرح بميت إيلام .

وهذا النكتة فى الذنب قل من يهتدى إليها أو ينتبه لها وهى موضع مخوف جدًا ، ومترام إلى هلاك إن لم يتدارك بثلاثة أشياء : خوف من الموافاة عليه قبل التوبة ، وندم على مافاته من الله بمخالفة أمره وتشمير للجد فى استدراكه [٥] .

---

(١) الداء والدواء (٢٦٩) .

(٢) أى : بالله عز وجل .

(٣) مدارج السالكين (١/ ٧٩) .

(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٢٥)

(٥) مدارج السالكين (١/ ٧٩) .

## فضل الطاعات والمصائب

الطاعات ترفع الدرجات والمصائب تحط السيئات [١] .

## عقوبة السيئة

مِنْ عقوبة السيئة ، السيئة بعدها ، ومن ثواب الحسنة ، الحسنة بعدها [١] .

## أنواع المعاصى

المعاصى ثلاثة أنواع : نوع عليه حد مقدر فلا يجمع بينه وبين التعزير ، ونوع لاحد فيه ولا كفارة فهذا يردع فيه بالتعزير ، ونوع فيه كفارة ولاحد فيه كالوطء فى الإحرام والصيام . فهل يجمع فيه بين الكفارة والتعزير ؟ على قولين للعلماء وهما وجهان لأصحاب أحمد، والقصاص يجرى مجرى الحد فلا يجمع بينه وبين التعزير [٣] .

## آثار الطاعة والمعصية

مَنْ له معرفة بأحوال العالم ومبدئه يعرف أن جميع الفساد فى جوه ونباته وحيوانه، وأحوال أهله حادث بعد خلقه بأسباب اقتضت حدوثه ، ولم تزل أعمال بنى آدم ومخالفتهم للرسل تحدث لهم من الفساد العام والخاص ما يجلب عليهم من الآلام ، والأمراض والأسقام ، والطواعين ، والقحوط ، والجروب ، وسلب بركات الأرض وثمارها ، ونباتها، وسلب منافعها ، أو نقصانها أموراً متتابعة يتلو بعضها بعضًا .

فإن لم يتسع علمك لهذا فاكتف بقوله تعالى : **﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾** [ الروم : ٤١ ] ، ونزل هذه الآية على أحوال العالم ، وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت فى الثمار والزرع والحيوان ، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات آخر متلازمة ، بعضها آخذ برقاب بعض ، وكلما أحدث الناس ظلمًا وفجوراً ، أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل فى أغذيتهم

---

(١) عدة الصابرين (١١٥) .

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٨٤)

(٣) زاد المعاد (٥ / ٢١) .

وفواكههم ، وأهويتهم ومياههم ، وأبدانهم وخلقهم، وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ،ما هو موجب أعمالهم ، وظلمهم وفجورهم .

ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هى اليوم،كما كانت البركة فيها أعظم . وقد روى الإمام أحمد بإسناده : أنه وجد فى خزائن بعض بنى أمية صرة فيها حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليها : هذا كان ينبت أيام العدل . وهذه القصة ، ذكرها فى « مسنده » على أثر حديث رواه .

وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة بقية عذاب عذبت به الأمم السالفة ، ثم بقيت منها بقية مرصدة لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم ، حكمًا قسطًا ، وقضاء عدلاً ، وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا بقوله فى الطاعون : « إنه بقية رجز أو عذاب أرسل على بنى إسرائيل»(١) ، وكذلك سلط الله ـ سبحانه وتعالى ـ الريح على قوم سبع ليال وثمانية أيام ، ثم أبقى فى العالم منها بقية فى تلك الأيام ، وفى نظيرها عظة وعبرة .

وقد جعل الله ـ سبحانه ـ أعمال البر والفاجر مقتضيات لآثارها فى هذا العالم اقتضاء لابد منه ، فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سببًا لمنع الغيث من السماء ، والقحط والجدب ، وجعل ظلم المساكين ، والبخس فى المكاييل والموازين ، وتعدى القوى على الضعيف سببًا لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استرحموا ، ولا يعطفون إن استعطفوا ، وهم فى الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت فى صور ولاتهم ، فإن الله ـ سبحانه ـ بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم فى قوالب وصور تناسبها ، فتارة بقحط وجدب ، وتاره بعدو ، وتارة بولاة جائرين ، وتاره بأمراض عامة ، وتاره بهموم وآلام وغموم تحصرها نفوسهم لا ينفكون عنها ، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم ، وتارة بتسليط الشياطين عليهم توزهم إلى أسباب العذاب أزًا ، لتحق عليهم الكلمة ، وليصير كل منهم إلى ما خلق له ، والعاقل يسير بصيرته بين أقطار العالم ، فيشاهده ، وينظر مواقع عدل الله وحكمته ، وحينئذ يتبين له أن الرسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة ، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون ، وإلى دار البوار صائرون ، والله بالغ أمره ، لا معقب لحكمه، ولاراد لأمره ، وبالله التوفيق (٢) .

---

(١) البخارى (٣٤٧٣) فى أحاديث الأنبياء ، باب (٥٤) ، ومسلم (٢٢١٨ / ٩٢ ) فى السلام ، باب : الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها ، ومالك ٢ / ٨٩٦ (٢٣) فى الجامع ، باب : ما جاء فى الطاعون ،وشرح السنة للبغوى ٥ /٢٥٤ .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٣٦٢ ـ ٣٦٤ ) .

## الغناء

من مكايد عدو الله ومصايده ، التى كاد بها من قَلَّ نصيبه من العلم والعقل والدِّين ، وصاد بها قلوب الجاهلين والباطلين : سماع المكاء والتَّصدية ، والغناء بالآلات المحرَّمة ، الذى يَصُدُّ القلوب عن القرآن ، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان . فهو قرآن الشيطان ، والحجاب الكثيف عن الرحمن ، وهو رُقْيَة اللواط والزِّنا ، وبه يَنالُ العاشق الفاسق غاية المنى ، كاد به الشيطان النفوس المبطلة ، وحَسَّنه لها مكرًا منه وغرورا ، وأوحى إليها الشبَه الباطلة على حُسْنه فقبلتْ وَحْيه واتخذت لأجله القرآن مهجورا ، فلو رأيتهم عند ذيَّاك السماع وقد خَشَعَتْ منهم الأصوات ، وهدأت منهم الحركات ، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه ، وانصبت انصبابة واحدةً إليه ، فتمايلوا له ولا كتمايل النَّشْوان ، وتكسَّرُوا فى حركاتهم ورَقصهم ،أرأيت تكسُّر المخانيث والنسوان ؟ ويحق لهم ذلك ، وقد خالطَ خمارُه النفوس ، ففعل فيها أعظم ما يفعله حُمَيَّا الكؤوس ، فلغير الله ، بل للشيطان ، قلوبٌ هناك تُمزَّق ، وأثوابُ تُشقَّق . وأموال فى غير طاعة الله تُنْفَق ، حتى إذا عمل السكر فيهم عمله ، وبلغ الشيطان منهم أُمنيته وأمَله ، واستفزَّهم بصوته وحَيْله ، وأجْلَب عليهم بِرجْله وخيلِه وخَزَ فى صدورهم وَخزًا ، وأزَّهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزًّا ، فطورًا يجعلهم كالحمير حول المدَار ، وتارة كالدباب ترقصُ وسيط الديار .

فيارحمتا للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام ، وياسوأتا من أشباه الحمير والأنعام، وياشماتة أعداء الإسلام ، بالدين يزعمون أنهم خواصُّ الإسلام ، قضوا حياتهم لذة وطربا، واتخذوا دينهم لهوا ولعبا . مزامير الشيطان أحبُّ إليهم من استماع سور القرآن ، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرَّك له ساكنا ، ولا أزعج له قاطنًا ، ولا أثار فيه وَجْدًا . ولا قدح فيه من لواعِج الشوق إلى الله زَنْدًا ، حتى إذا تُلى عليه قرآنُ الشيطان ، وولج مزموره سمعه ، تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت ، وعلى أقدامه فرقصت ، وعلى يديه فصفقت وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت ، وعلى أنفاسه فتصاعدت ، وعلى زفراته فتزايدت ، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت .

فيا أيها الفاتن المفتون ، والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسر مغبون، هلا كانت هذه الأشجان ، عند سماع القرآن ؟ وهذه الأذواق والمواجيد ، عند قراءة القرآن المجيد ؟ وهذه الأحوال السَّنيَّات ، عند تلاوة السور والآيات ؟ ولكن كل امرئ يَصْبوا إلى ما يناسبه ، ويميل إلى ما يشاكله ، والجنسيَّةُ علَّةُ الضَّمِّ قدرا وشرعا ، والمشاكلة سبب الميل عقلا وطبعا ، فمن أين هذا الإخاء والنسَب ؟ لولا التعلقُ من الشيطان بأقوى

سبب ، ومن أين هذه المصالحة التى أوقعت فى عقد الإيمان وعهد الرحمن خللا ؟ ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠)﴾[1] [ الكهف ] .

## المعازف

الذى شاهدناه ـ نحن وغيرنا ـ وعرفناه بالتجارب : أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو فى قوم وفشت فيهم واشتغلوا بها إلا سلط الله عليهم العدو وبلوا بالقحط والجدب وولاة السوء والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر ، والله المستعان [2] .

## السماع وآفاته

قال عارف القوم وسيدهم بلا مدافع الشيخ عبد القادر الكيلانى بعد ذكر آداب السماع : «ولو صدق القوم فى قصدهم وتجردهم وتصوفهم لما انزعجوا فى قلوبهم وجوارحهم بغير سماع كتاب الله عز وجل ، إذ هو كلام محبوبهم وصفته ، وفيه ذكره وذكرهم ، وذكر الأولين والآخرين ، والماضين والغابرين ، والمحب والمحبوب ، والمريد والمراد ، وعتاب المدعين لمحبته ولومهم وغير ذلك ، فلما اختل قصدهم وصدقهم وظهرت دعواهم من غير بينة وزورهم وقيامهم مع الرسم والعادة من غير غريزة باطنة وصدق السريرة والمعرفة والمكاشفة والعلوم الغريبة ، والاطلاع على الأسرار ، والقرب والأنس ، والوصول إلى المحبوب ، والسماع الحقيقى وهو القرآن والحديث ، والكلام الذى سنه الله مع العلماء به والخلص من الأولياء والأبدال والأعيان ، وخلت بواطنهم من ذلك كله ، وقفوا مع القوال والأبيات والأشعار التى تثير الطباع ، وتهيج ثائرة العشق بالطباع لا بالقلوب والأرواح » ، فهذا كلام من خير السماع وعلم ما فيه من الآفات [3] .

## وأيضا

تزندق بالسماع طوائف لا يحصيهم إلا الله ، كما تزندق بالكلام ، ولم يكن أضر على الأمة من هاتين الطائفتين أهل السماع وأهل الكلام ، وقد ذم الشافعى رحمه الله الطائفتين ، وبالغ فى ذمهم وشهد على إحداهما بأن طريقتهم من إحداث الزنادقة ، وحكم على الأخرى بأن تضرب بالجريد والنعال ويطاف بها فى القبائل والعشائر لعلمه ﷺ بالضرر

---

(١) إغاثة اللهفان (١ / ٢٢٤ ، ٢٢٥) . (٢) مدارج السالكين (١ / ٥٠٠) .
(٣) الكلام على مسألة السماع (١٥٠) .

الداخل على الأمة والدين من الطائفتين ، وتلغى شهادة هذا الذائق للسماع بأن من أصغى إليه بنفس تزندق (١) .

## وأيضا

ليس العجب من جاهل قلبه فى غطاد عن العلم لا يفرق بين ما فعل الرسول وما يفعله هؤلاء ، ولكن العجب ممن نصب نفسه للعلم والتأليف ، ويعد نفسه من الأئمة الهداة المرشدين لا يفرق بين هذا وهذا ، ويحتج على جواز الاستماع على الوجه المذكور بسماع صوت الزمارة وسماع غناء الجويريتين ، فهلا فعلتم مثل فعل الجويريات ، وأخذتم الدفوف وضربتهم بها فى الطرقات وغنيتم بغنائهن ، واقتصرتم على ذلك ولم تضموا إليه سائر المحرمات والقبائح ؟ فلو فعلتم ذلك مع قبحه لكان أسهل وأقل إثما وأدنى إلى الخلاص(٢).

## وأيضا

مجرد طيب القلب ليس دليلا على أنه إنما طاب بما يحبه الله ويرضاه ، بل قد يطيب بما لا يحبه الله ويرضاه ، بل بما يكرهه ويسخطه لا سيما القلوب التى أشربت حب الأصوات الملحنة ، فإنها تطيب بما ينبت النفاق فى القلب (٣) .

## الغنى والفقر

إنه ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الغنى والفقر مطيتين للابتلاء والامتحان ، ولم ينزل المال لمجرد الاستمتاع به ، كما فى المسند عنه ﷺ قال : « يقول الله تعالى : إنا نزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو كان لابن آدم واد من مال لابتغى له ثانياً ، ولو كان له ثان لابتغى له ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب » (٤) . فأخبر ـ سبحانه ـ أنه أنزل المال ليستعان به على إقامة حقه بالصلاة ، وإقامة حق عباده بالزكاة ، لا للاستمتاع والتلذذ كما تأكل الأنعام . فإذا زاد المال عن ذلك أو خرج عن هذين المقصودين ، فإن الغرض والحكمة التى أنزل لها كان التراب أولى ، فرجع هو والجوف الذى امتلأ به بما خلق له من الإيمان والعلم والحكمة ، فإنه خلق لأن يكون وعاء لمعرفة ربه وخالقه والإيمان به ومحبته وذكره ،

---

(١) الكلام على مسألة السماع (٩٩٩) .
(٢) الكلام على مسألة السماع (٤١٦) .
(٣) الكلام على مسألة السماع (٤٤٥) .
(٤) أحمد ٥/ ٢١٩ .

وأنزل عليه من المال ما يستعين به على ذلك . فعطل الجاهل بالله ، وبأمر الله ، وبتوحيد الله ، وبأسمائه وصفاته ، جوفه عما خلق له ، وملأه بمحبة المال الفانى الذاهب الذى هو ذاهب عن صاحبه أو بالعكس ، وجمعه والاستكثار منه . ومع ذلك فلم يمتلئ ، بل ازداد فقراً وحرصاً إلى أن امتلأ جوفه بالتراب الذى خلق منه ، فرجع إلى مادته الترابية التى خلق منها هو وماله ، ولم تتكمل مادته بامتلاء جوفه من العلم والإيمان الذى بهما كماله وفلاحه وسعادته فى معاشه ومعاده .

فالمال إن لم ينفع صاحبه ضره ولابد ، وكذلك العلم والملك والقدرة ، كل ذلك إن لم ينفعه ضره ، فإن هذه الأمور وسائل لمقاصد يتوسل بها إليها فى الخير والشر ، فإن عطلت عن التوسل بها إلى المقاصد والغايات المحمودة توسل بها إلى أضدادها ، فأربح الناس من جعلها وسائل إلى الله والدار الآخرة ، وذلك الذى ينفعه فى معاشه ومعاده ، وأخسر الناس من توسل بها إلى هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة ، فخسر الدنيا والآخرة ، فهذا لم يجعل الوسائل مقاصد ، ولو جعلها كذلك لكان خاسراً ، لكنه جعلها وسائل إلى ضد ما جعلت له، فهو بمثابة من توسل بأسباب اللذة إلى أعظم الآلام وأدوائها .

فالأقسام أربعة لا خامس لها :

**أحدهما** : معطل الأسباب معرض عنها .

**الثانى** : مكب عليها واقف مع جمعها وتحصيلها .

**الثالث** : متوصل بها إلى ما يضره ولا ينفعه فى معاشه ومعاده ـ فهؤلاء الثلاثة فى الخسران .

**الرابع** : متوصل بها إلى ما ينفعه فى معاشه ومعاده وهو الرابح ، قال تعالى : **﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)﴾** [هود] .

وقد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس ؛ حيث فهموا منها أن من كان له إرادة فى الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد ، ثم اختلفوا فى معناها ، فقالت طائفة ـ منهم ابن عباس: من كان يريد تعجيل الدنيا ، فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب . قالوا : والآية فى الكفار خاصة على قول ابن عباس .

وقال قتادة : من كانت الدنيا همه وسَدَمه (١) ونيته وطلبه ، جازاه الله فى الدنيا

(١) السدم : الفهم ، أو مع ندم ، أو الغيظ مع حزن . ( القاموس ) .

بحسناته ، ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها ، وأما المؤمن فيجزى فى الدنيا بحسناته ، ويثاب عليها فى الآخرة .

قال هؤلاء : فالآية فى الكفار بدليل قوله : ﴿ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [هود] . قالوا : المؤمن من يريد الدنيا والآخرة، فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما فى رواية أبى صالح عنه : نزلت فى أهل القبلة .

وقال مجاهد : هم أهل الرياء

وقال الضحاك : من عمل صالحاً من أهل الإيمان من غير تقوى عجل له ثواب عمله فى الدنيا .

واختار الفراء هذا القول وقال : من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثوابه ولم يبخس .

وهذا القول أرجح ، ومعنى الآية على هذا : من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها. وهذا لا يكون مؤمناً ؛ فإن العاصى والفاسق ولو بالغا فى المعصية والفسق فإيمانهما يحملهما على أن يعملا أعمال البر لله ، فيريدان بأعمال البر وجه الله وإن عملا بمعصيته . فأما من لم يرد بعمله وجه الله ، وإنما أراد به الدنيا وزينتها ، فهذا لا يدخل فى دائرة أهل الإيمان .

وهذا هو الذى فهمه معاوية من الآية ، واستشهد بها على حديث أبى هريرة الذى رواه مسلم فى صحيحه فى الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة : القارىء الذى قرأ القرآن ليقال فلان قارئ ، والمتصدق الذى أنفق أمواله ليقال فلان جواد ، والغازى الذى قتل فى الجهاد ليقال هو جرىء (١) (٢) .

## وأيضا

إن الغنى وصف ذاتى للرب ، والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتى للعبد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ والفقر لى وصف ذات لازم أبداً ، كما الغنى أبداً وصف لله ذاتى (٣) .

---

(١) مسلم (١٩٠٥ / ١٥٢) فى الإمارة ، باب : من قاتل للرياء والسمعة استحق النار .

(٢) عدة الصابرين (٢٠٣ ـ ٢٠٥) . (٣) مدارج السالكين (١/ ٤٤٠) .

## البدعة

قال بعض السلف : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها (١) .

## وأيضا

قال بعضهم : تزوجت بدعة الأقوال ببدعة الأعمال ، فاشتغل الزوجان بالعرس فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيثون فى بلاد الإسلام ، تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى(٢) .

## وأيضا

قال شيخنا : تَزَوَّجَتِ الحقيقة الكافرة بالبدعة الفاجرة ، فتولد بينهما خسران الدنيا والآخرة (٣) .

## السنة والبدعة

إن السنة ـ بالذات ـ تمحق البدعة ولا تقوم لها ، وإذا طلعت شمسها فى قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة ، وأزالت ظلمه كل ضلالة ، إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس ، ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة إلا المتابعة والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله بالاستعانة والإخلاص ، وصدق اللجأ إلى الله والهجرة إلى رسوله بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله » (٤) ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه فى الدنيا والآخرة ، والله المستعان (٥) .

---

(١) الداء والدواء (٢٥٥) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٢٢٢) .

(٣) مدارج السالكين (١ / ٢٢٣) .

(٤) البخارى (٦٦٨٩) فى الأيمان والنذور ، باب : النية فى الأيمان ، ومسلم (١٩٠٧ / ١٥٥) فى الإمارة ، باب : قوله ﷺ :« إنما الأعمال بالنية » وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الاعمال .

(٥) مدارج السالكين (١ / ٣٧٤) .

## أقسام الصوفية

قد قسم بعضهم الصوفية أربعة أقسام : أصحاب السوابق ، وأصحاب العواقب ، وأصحاب الوقت ، وأصحاب الحق . قال :

**فأما أصحاب السوابق** : فقلوبهم أبداً فيما سبق لهم من الله ؛ لعلمهم أن الحكم الأزلى لا يتغير باكتساب العبد . ويقولون : من أقصته السوابق لم تدنه الوسائل . ففكرهم فى هذا أبداً ، ومع ذلك : فهم يجدون فى القيام بالأوامر واجتناب النواهى ، والتقرب إلى الله بأنواع القرب ، غير واثقين بها ولا ملتفتين إليها ، ويقول قائلهم :

من أيـن أرضـيك إلا أن توفقنـى ... هيهات هيهات ما التوفيق من قبلى
إن لم يكن لى فى المقدور سابقة ... فليس ينفـع ما قدمـت مـن عمـلى

**وأما أصحاب العواقب** : فهم متفكرون فيما يختم به أمرهم ، فإن الأمور بأواخرها ، والأعمال بخواتيمها ، والعاقبة مستورة ، كما قيل :

لا يغـرنك صفـا الأوقات ... فإن تحتها غوامض الآفات

فكم من ربيع نورت أشجاره ، وتفتحت أزهاره ، وزهت ثماره ، لم يلبث أن أصابته جائحة سماوية ، فصار كما قال الله عز وجل : **﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** [ يونس : ٢٤ ].

فكم من مريد كبا به جواد عزمه ... فخر صريعاً لليدين والفم

وقيل لبعضهم ـ وقد شوهد منه خلاف ما كان يعهد عليه : ما الذى أصابك ؟

فقال : حجاب وقع ، وأنشد :

أحسنت ظنك بالايام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالـى فاغتررت بهـا ... وعند صفو الليالى يحدث الكدر

ليس العجب ممن هلك كيف هلك ؟ إنما العجب ممن نجا كيف نجا ؟ .

تعجـــبين مــــن سقــمى ... صــحتى هـــى العجـــب !!

الناكصون على أعقابهم أضعاف أضعاف من اقتحم العقبة :

خذ مـن الألــف واحــدا ... واطــرح الكـل مــن بعــده

**وأما أصحاب الوقت** : فلم يشتغلوا بالسوابق ولا بالعواقب ، بل اشتغلوا بمراعاة الوقت وما يلزمهم من أحكامه . وقالوا : العارف ابن وقته ، لا ماضى له ولا مستقبل .

ورأى بعضهم الصديق رضي الله عنه فى منامه ، فقال له : أوصنى . فقال له : كن ابن وقتك .

**وأما أصحاب الحق** : فهم مع صاحب الوقت والزمان ومالكهما ومدبرهما ، مأخوذون بشهوده عن مشاهدة الأوقات ، لا يتفرغون لمراعاة وقت ولا زمان كما قيل :

لست أدرى : أطال ليلى أم لا ... كيف يدرى بذاك من يتقلى ؟

لو تفرغت لاستطالة ليلى ... ولرعى النجوم كنت مخلى

إن للعاشقين عن قصر الليـ ... ـل وعن طوله من العشق شغلاً

قال الجنيد : دخلت على السرى يوماً فقلت له : كيف أصبحت ؟ فأنشأ يقول :

ما فى النهار ولا فى الليل لى فرج ... فلا أبالى أطال الليل أم قصرا

ثم قال : ليس عند ربكم ليل ولا نهار . يشير إلى أنه غير متطلع إلى الأوقات ، بل هو مع الذى يقدر الليل والنهار (١) .

## عبادة الصوفية

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يحكى عن بعض العارفين أنه قال: الناس يعبدون الله ، والصوفية يعبدون أنفسهم .

أراد أنهم واقفون مع مرادهم من الله ، لا مع مراد الله منهم ، وهذا عين عبادة النفس. فليتأمل اللبيب هذا الموضع حق التأمل ، فإنه محك وميزان ، والله المستعان (٢) .

## الكِبْر

سمعت شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : التكبر شر من الشرك ، فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى والمشرك يعبد الله وغيره (٣) .

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ١٣٠) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٢٥٨) .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٣٣٢) .

## وأيضا

لولا مانع الكبر والحسد ، والرياسة والمعاداة فى الكفار ، لكانت الرسل أحب إليهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، ولما زال هذا المانع من قلوب أتباعهم ، كانت محبتهم لهم فوق محبة الأنفس والأهل والمال (١) .

## علاج الكبرياء

كثيرا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ تدفع الرياء ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [ الفاتحة : ٤ ] تدفع الكبرياء (٢) .

## العُجْب

لا ريب أن هذا الذنب (٣) خير عند الله وأقرب إلى النجاة والفوز من هذا المعجب بطاعته ، الصائل بها ، المان بها وبحاله على الله عز وجل وعباده ، وإن قال بلسانه خلاف ذلك . فالله شهيد على ما فى قلبه ، ويكاد يعادى الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه ويغضوا له، ويجد فى قلبه بغضة لمن لم يفعل به ذلك ، ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيها ذلك كامناً ؛ ولهذا تراه عاتباً على من لم يعظمه ويعرف له حقه ، متطلبا لعيبه فى قالب حمية لله وغضب له ، وإذا قام بمن يعظمه ويحترمه ويخضع له من الذنوب أضعاف ما قام بهذا ، فتح له باب المعازير والرجاء وأغمض عنه عينه وسمعه وكف لسانه وقلبه وقال : باب العصمة عن غير الأنبياء مسدود ، وربما ظن أن ذنوب من يعظمه تكفر بإجلاله وتعظيمه وإكرامه إياه .

فإذا أراد الله بهذا العبد خيراً ألقاه فى ذنب يكسره به ، ويعرفه قدره ، ويكفى به عباده وشره ، وينكسر به رأسه ، ويستخرج به منه داء العجب والكبر والمنة عليه وعلى عباده ، فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة ، ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال (٤) .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٢٧١) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٥٤) .

(٣) أى : الذنب المقترن بالتوبة .

(٤) مدارج السالكين (١/ ٢٩٩) .

## تلازم الظاهر والباطن

فى الغالب يكون بين جمال الظاهر والباطن تلازم ، وبين قبح الظاهر والباطن تلازم ، فإن لكل باطن عنوانا من الظاهر يدل عليه ويعرف به ، وقد جعل الله ـ سبحانه ـ بين الخلق والخلق والظاهر والباطن ارتباطًا والتئامًا وتناسبًا ، وم هاهنا تكلم الناس فى الفراسة، واستنبطوا علمها وهو من ألطف العلوم وأدقها ، وأصله معرفة المشاكله والمناسبة والآخرة التى عقدها الله سبحانه بين المتشاكلين ، ومن لم يكن له نصيب منها لم يكد ينتفع بنفسه ولا بغيره .

وأنت إذا تأملت العالم فقل أن ترى خلقا مشوها إلا وثم خلق قبيح وفعل يناسبه ، وقوله يناسبه ، اللهم إلا لمعارض من تأدب وتعلم يخرجه من مقتضى طبعه ، كما يحصل لكثير من الحيوان البهيم من التعليم والتأديب والتمرين ما يخرجه عن مقتضى طباعه ، وقل أن ترى خلقا جميلا إلا وثم خلق وفعل وقول يناسبه ، اللهم إلا لمعارض سوء أخرجه عن مقتضى طبعه، كالطفل الذى ولد على الفطرة فلو خلى لما نشأ إلا على فطرة الإسلام ، لكن معارض الكفر أخرجه عن فطرته ، والنبى ﷺ ذكر « إن الله جميل يحب الجمال »(١) للفرق بين الكبر الذى يبغضه الله وأنه ليس من الجمال ، وبين الجمال الذى يحبه ، فإنه لما قال : « لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر » قالوا : يا رسول الله ، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ، ونعله حسنًا أفمن الكبر ذلك ، فقال : « لا إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس » (٢) فأخبر أن تحسين الثوب والنعل قد يكون من الجمال الذى يحبه الله كما قال تعالى : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : ٣١]، فإذا كان الظاهر جميلا والباطن جميلا أحبه الله ، وإذا كان الباطل جميلا والظاهر غير جميل لم يضره عند الله شيئًا وإن كان كاسدًا عند الناس ، فإنه عند الله عزيز غال ، فإذا كان للعبد صوت حسن ولو من أحسن الأصوات وبذا بصوته واستعمله فى الغناء أبغض الله ورسوله كما يبغض الصورة المستعملة فى الفواحش ولو كانت من أجمل الصور وأحسنها (٣) .

(١ ، ٢) مسلم (٩١ / ١٤٧) فى الإيمان ، باب : تحريم الكبر وبيانه .

(٣) الكلام (٣٧٤ ـ ٣٧٦) .

## وأيضا

قال بعض العارفين : حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن (١) .

## ذنب أفضل من حسنة !

إذا أراد الله بعبده خيرا فتح له من أبواب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجأ إليه ، ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به رحمته ، حتى يقول عدو الله : يا ليتنى تركته ولم أوقعه.

وهذا معنى قول بعض السلف : إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة ، ويعمل الحسنة ويدخل بها النار . قالوا : كيف ؟ قال : يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفا منه مشفقا وجلا باكيا نادما مستحيا من ربه تعالى ، ناكس الرأس بين يديه ، منكسر القلب له ، فيكون ذلك الذنب سبب سعادة العبد وفلاحه حتى يكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التى بها سعادة العبد وفلاحه ، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة .

ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه ، ويتكبر بها ، ويرى نفسه ، ويعجب بها ، ويستطيل بها ، ويقول : فعلت ، وفعلت ، فيورثه ذلك من العجب والكبر ، والفخر والاستطالة ، ما يكون سبب هلاكه . فإذا أراد الله بهذا المسكين خيرًا ابتلاه بأمر يكسره به، ويذل به عنقه ، ويصغر به نفسه عنده ، وان أراد به غير ذلك ، خلاه وعجبه وكبره ، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه (٢) .

## الموت

وروى أنه لما حضرت الخطيئة الوفاة قال :

لكل جديد لذة غير أننى　　　وجدت جديد الموت غير لذيذ (٣)

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٥٢١) .　　(٢) الوابل الصيب (٨) .

(٣) بدائع الفوائد (٤ / ٢١١) .

## ذم الكلام

ذكر قول الإمام فخر الدين الرازى[1] فى آخر كتبه ـ وهو كتاب « أقسام اللذات » الذى صنفه فى آخر عمره وهو كتاب مفيد :

ذكر فيه أقسام اللذات وبين أنها ثلاثة : الحسية كالأكل والشرب والنكاح واللباس واللذة الخيالية الوهمية كلذة الرياسة والأمر والنهى والترفع ونحوها .واللذة العقلية كلذة العلوم والمعارف وتكلم عن كل واحد من هذه الأقسام إلى أن قال : وأما اللذة العقلية فلا سبيل إلى الوصول إليها والتعلق بها فلهذا السبب نقول ياليتنا بقينا على العدم الأول وليتنا ما شهدنا هذا العالم وليت النفس لم تتعلق بهذا البدن ، وفى هذا المعنى قلت :

نهايـة إقـدام العقـول عقـال ... وأكثـر سعى العالمين ضـلال

وأرواحنا فى وحشة من جسومنا ... وحاصـل دنيانـا أذى ووبـال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالـوا

وكم قد رأينا من رجـال ودولـة ... فبادوا جميعًا مسرعـين وزالـوا

وكم من جبال قـد علت شرفاتها ... رجـال فزالـوا والجبـال جبـال

واعلم أنه بعد التوغل فى هذه المضايق والتعميق فى الاستكشاف عن أسرار هذه الحقائق رأيت الأصوب الأصلح فى هذا الباب طريقة القرآن العظيم ، والفرقان الكريم وهو ترك التعمق ، والاستدلال بأقسام السموات والأرضين على وجود رب العالمين ، ثم المبالغة فى التعظيم من غير خوض فى التفاصيل فاقرأ فى التنزيه قوله تعالى :

﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [ محمد : ٣٨ ]، وقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى : : ١١]وقوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [ الإخلاص ] وقوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ⑤﴾ [ طه ] ، واقرأ فى الإثبات قوله : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وقوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ [فاطر : ١٠] وقوله تعالى : ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [ النساء : ٧٨] وفى تنزيه عما لا ينبغى وقوله : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [ النساء : ٧٩] الآية وعلى هذا القانون فقس وختم الكتاب[2].

---

(١) أى قوله فى إثبات الصفات ، والفوقية وعلو الله على عرشه .

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٣٠٤ ـ ٣٠٦) .

## مخالطة الخَلْق

حدثنى بعض أقارب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ قال : كان فى بداية أمره يخرج أحيانًا إلى الصحراء يخلو عن الناس لقوة ما يرد عليه ، فتبعته يوما ، فلما أصحر تنفس الصعداء ثم جعل يتمثل بقول الشاعر ـ وهو لمجنون ليلى فى قصيدته الطويلة :

وأخرج من بين البيوت لعلنى ... أحدث عنك النفس بالسر خاليًا

وصاحب هذه الحال : إن لم يرده الله سبحانه إلى الخلق بتثبيت وقوة ، وإلا فإنه لا صبر له على مخالطتهم [١].

## طغيان النعمة

كثرة النعم تطغى العبد وتحمله على أن يصرفها فى وجوهها وغير وجوهها ، وهى تدعو إلى أن يتناول العبد بها ما حل وما لا يحل ، وأكثر المُنْعَم عليهم لا يقتصرون فى صرف النعمة على القدر الحلال ، بل يتعداه إلى غيره [٢] .

## العوارض والمحن

قال لى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مرة : العوارض والمحن هى كالحر والبرد ،فإذا علم العبد أنه لابد منهما لم يغضب لورودهما،ولم يغتم لذلك ولم يحزن[٣] .

## الوسطية

والعدل يحمله [٤] على اعتدال أخلاقه وتوسطه فيها بين طرفى الإفراط والتفريط ، فيحمله على خلق الجود والسخاء الذى هو توسط بين الذل والقحة وعلى خلق الشجاعة الذى هو توسط بين الجبن والتهور على خلق الحلم الذى هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس [٥] .

(١) مدارج السالكين (٣ / ٥٩) .
(٢) مدارج السالكين (٣ / ٣٤٣) .
(٣) مدارج السالكين (٣ / ٣٨٩) .
(٤) أى الشخص المتصف بالعدل .
(٥) مدارج السالكين (٢ / ٣٠٨) .

## وسطية الإسلام

ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان : إما إلى تفريط وإضاعة ، وإما إلى إفراط وغلو . ودين الله وسط بين الجافى عنه والغالى فيه كالوادى بين جبلين ، والهدى بين ضلالتين ، والوسط بين طرفين ذميمين ، فكما أن الجافى عن الأمر مضيع له ، فالغالى فيه مضيع له .. هذا بتقصيره عن الحد ، وهذا بتجاوزه الحد (١) .

## غلبة الطبع

إن أصعب ما على الطبيعة الإنسانية تغيير الأخلاق التى طبعت النفوس عليها ، وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها ولم يظفر أكثرهم بتبديلها ، لكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها ، فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز كسر جيوش الرياضة وشتتها ، واستولى على مملكة الطبع (٢) .

## بمَ يُدرك النعيم

أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم وأن من رافق الراحة فارق الراحة، وحصل على المشقة وقت الراحة فى دار الراحة ، فإن قدر التعب تكون الراحة .

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتى على قدر الكريم الكرائم
ويكبر فى عين الصغير صغيرها ... وتصغر فى عين العظيم العظائم (٣)

## الدعوى الكاذبة

إن الدعوى الصادقة تطفئ نور المعرفة ، فكيف بالكاذبة ؟ (٤) .

## قبول العمل

سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : إذا لم تجد للعمل حلاوة

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٩٦) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣١١) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ١٦٦) .
(٤) مدارج السالكين (٢ / ١١٠) .

فى قلبك وانشراحا فاتهمه ، فإن الرب تعالى شكور ، يعنى أنه لا بد أن يثيب العامل على عمله فى الدنيا من حلاوة يجدها فى قلبه ، وقوة انشراح وقرة عين ، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول (١) .

## آفات العمل

يعرض للعامل فى عمله ثلاث آفات : رؤيته ، وملاحظته ، وطلب العوض عليه ورضاه به وسكونه إليه (٢) .

## آفات العبد

قال بعضهم : آفة العبد رضاه عن نفسه . ومن نظر إلى نفسه باستحسان شىء منها فقد أهلكها ، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور (٣) .

## العفو عن الخطأ

لو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة وأهدرت محاسنه ،لفسدت العلوم والصناعات والحكم ، وتعطلت معالمها (٤) .

## المرء على دين خليله

صاحب الصورة والخلقة المعتدلة يكتسب بالمقارنة والمعاشرة أخلاق من يقارنه ويعاشره، ولو أنه من الحيوان البهيم فيصير من أخبث الناس أخلاقا وأفعالا ، وتعود له تلك طباعا، ويتعذر ـ أو يتعسر ـ عليه الانتقال عنها .

وكذلك صاحب الخلقة والصورة المنحرفة عن الاعتدال يكتسب بصحبة الكاملين بخلطتهم أخلاقا وأفعالاً شريفة ، تصير له كالطبيعة ، فإن العوائد والمزاولات تعطى الملكات والأخلاق (٥) .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٦٨) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٩٢) .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٩٤) .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٣٩) .

(٥) مدارج السالكين (٢ / ٤٨٨) .

## المريد

قال أبو على الدقاق : المريد متحمل والمراد محمول ، وقد كان موسى ﷺ مريداً إذ ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه : ٥٢]، ونبيا ﷺ كان مراداً إذ قيل له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ①﴾ [الشرح] (١) .

## وأيضا

المريد الصادق هو الذى قرأ القرآن وحفظ السنة ، والله يرزقه ببركة صدقه ونور قلبه فَهْماً فى كتابه وسنة رسوله ، يغنيه عن تقليد فهم غيره (٢) .

## الإمامة فى الدين

إذا تزوج الصبر باليقين ، ولد بينهما حصول الإمامة فى الدين ، قال الله تعالى ـ وبقوله يهتدى المهتدون : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ㉔ ﴾ [السجدة ] (٣) .

## مفاسد الفهم القاصر

ما أكثر ما ينقل الناس المذاهب الباطلة عن العلماء بالأفهام القاصرة ، ولو ذهبنا نذكر ذلك لطال جداً (٤) .

## أنفع الأدب

قال ابن المبارك : نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم ، وسئل الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ عن أنفع الأدب ، فقال : التفقه فى الدين ، والزهد فى الدنيا ، والمعرفة بما لله عليك (٥) .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٥٣) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٦٨) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ٣٩٧) .
(٤) مدارج السالكين (٢ / ٤٣١) .
(٥) مدارج السالكين (٢ / ٣٧٦) .

## تَحرٍّ الحق

الصادق الذكى يأخذ من كل منهم (١) ما عنده من الحق فيستعين به على مطلبه ، ولا يرد ما يجده عنده من الحق لتقصيره فى الحق الآخر ويهدره به ، فالكمال المطلق لله رب العالمين ، وما من العباد إلا له مقام معلوم (٢) .

## اتهام النفس

إن جهة كون الشىء مستلذاً للحاسة ملائما لها ، لا يدل على إباحته ولا تحريمه ولا كراهته ولا استحبابه (٣) .

## دواعى النفس

إن فى النفس ثلاثة دواع متجاذبة : داع يدعوها إلى الاتصاف بأخلاق الشيطان : من الكبر والحسد والعلو والبغى والشر والأذى والفساد والغش .

وداع يدعوها إلى أخلاق الحيوان ، وهو داعى الشهوة .

وداع يدعوها إلى أخلاق المَلَك : من الإحسان والنصح والبر والعلم والطاعة .

فحقيقة المروءة : بغض ذينك الداعيين ، وإجابة الداعى الثالث . وقلة المروءة وعدمها: هو الاسترسال مع ذينك الداعيين والتوجه لدعوتهما أين كانت .

فالإنسانية والمروءة والفتوة : كلها فى عصيان الداعيين وإجابة الداعى الثالث كما قال بعض السلف : خلق الله الملائكة عقولاً بلا شهوة ، وخلق البهائم شهوة بلا عقول ، وخلق ابن آدم وركب فيه العقل والشهوة ، فمن غلب عقله شهوته : التحق بالملائكة ، ومن غلبت شهوته عقله : التحق بالبهائم (٤) .

---

(١) أى من أرباب البصائر ممن تكلم فى السير وصفة المنازل ، وممن تكلم فى الآفات والقواطع ، وممن تكلم فى التوحيد وحقائق الأسماء والصفات .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٢) . (٣) مدارج السالكين (١ / ٤٩١) .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٣٥١) .

## فضل المجاهدين

قال الأوزاعى وابن المبارك : « إذا اختلف الناس فى شىء فانظروا ما عليه أهل الثغر » يعنى أهل الجهاد ،فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ [ العنكبوت] (١) .

## الكبائر والصغائر

قال مالك بن مغول : الكبائر ذنوب أهل البدع والسيئات ذنوب أهل السنة ، قلت : يريد أن البدعة من الكبائر ، وأنها أكبر من كبائر أهل السنة .

فكبائر أهل السنة صغائر بالنسبة إلى البدع ، وهذا معنى قول بعض السلف : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ؛ لأن البدعة لا يتاب منها والمعصية يتاب منها (٢) .

## الأيمان الكاذبة

أهل الريبة يكذبون ويحلفون ؛ ليحسب السامع أنهم صادقون ، قد ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ﴾ [ المنافقون ] (٣) .

## النفاق

زرع النفاق ينبت على ساقيتين : ساقية الكذب وساقية الرياء ، ومخرجهما من عينين : عين ضعف البصيرة وعين ضعف العزيمة ، فإذا تمت هذه الأركان الأربع : استحلم نبات النفاق وبنيانه ، ولكنه بمدارج السيول على شفا جرف هار فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تبلى السرائر وكشف المستور ، وبعثر ما فى القبور ، وحصل ما فى الصدور ، تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق : إن حواصله التى حصلها كانت كالسراب ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور ](٤).

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٥١١) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٢٢) .
(٣) مدارج السالكين (١ /٣٥٣) .
(٤) مدارج السالكين (١ / ٣٥٨) .

## أثر الغذاء على الطبع

كل من ألف ضربًا من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه ، فإن تغذى بلحمه كان الشبه أقوى ، فإن الغاذى شبيه بالمغتذى (١) .

## أنفع الدعاء

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه : تأملت أنفع الدعاء ، فإذا هو سؤال العون على مرضاته،ثم رأيته فى الفاتحة فى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾(٢).

## جحد الحق

إن كل من أعرض عن شيء من الحق وجحده وقع فى باطل مقابل لما أعرض عنه من الحق وجحده ولابد ، حتى فى الأعمال من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق ، فرغب عن العمل لمن ضره ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده ، فابتلى بالعمل لمن لا يملك له شيئًا من ذلك ، وكذلك من رغب عن إنفاق ماله فى طاعة الله ابتلى بإنفاقه لغير الله ، وهو راغم ، وكذلك من رغب عن التعب لله ابتلى بالتعب فى خدمه الخلق ولا بد ، وكذلك عن رغب من الهدى بالوحى ، ابتلى بكناسة الآراء ، وزبالة الأذهان ، ووسخ الأفكار (٣) .

## الاستدراج بالنعم

كم من مستدرج بالنعم وهو لا يشعر ، مفتون بثناء الجهال عليه ، مغرور بقضاء الله ، حوائجه وستره عليه : وأكثر الخلق عندهم : أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح ذلك مبلغهم من العلم (٤) .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٠٣) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٧٨) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ١٦٥) .
(٤) مدارج السالكين (١ / ١٧١) .

## الجفاء

قيل : ذكر الجفا فى وقت الصفا جفا [١] .

## الأعمال بالخواتيم

الخاتمة السيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو بمعصية ، والأعمال بالخواتيم [٢] .

## البخل

الفقير الآخذ لصدقتك يستخرج منك داء البخل كالحجام يستخرج منك الدم المهلك[٣].

## المال الحرام

إذا كان أكثر مال الرجل حراما فلا يعجبنى أن يؤكل ماله ، وهذا على سبيل التحريم[٤].

## كثرة الاختلاف فى المتأخرين

كلما تأخر الزمان كثر النزاع ، وحدث من الاختلاف بين المتأخرين ما لم يكن فى الذين قبلهم[٥] .

## حب التفرّد

شأن النفوس أنها موكلة بكل غريب تستحسنه وتؤثره وتنافس فيه ، حتى إذا كثر ورخص وناله المثرى والمقل زهدت فيه ، مع كونه أنفع لها وخيرا لها ، ولكن لرخصه وكثرة الشركاء فيه وتطلب ما تتميز به من غيرها للذة التفرد والاختصاص [٦].

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٠٢) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٢٧٧) .
(٣) عدة الصابرين (١٥٠)
(٤) إعلام الموقعين (١/ ٤١ ) .
(٥) الصواعق المرسلة (٢ / ٦٥٣) .
(٦) الصواعق المرسلة (٢ / ٤٤٩) .

## من آثر الأدنى على الأعلى

قد جرت عادة الله ـ سبحانه ـ أن يذل من آثر الأدنى على الأعلى ويجعله عبرة العقلاء(١) .

## اتباع الهوى

كل ما الناس فيه فإما طاعة للرسول وإما هوى لنفوس ، لا يخرج عن الأمرين ، وكل ما ليس بطاعة للرسول فهو هوى للأنفس .

قال تعالى : ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)** ﴾ [ القصص ] .

والقلب متى لم يكن على قلب الرسول وأصحابه فى القصد والعلم والمحبة والكراهة والتصديق واستحسان ما استحسنوه وإيثاره ، واستقباح ما استقبحوه واجتنابه ، كان فيه من الانحراف عن الإيمان بقدر انحرافه عن ذلك حتى تعود القلوب كما قال : حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : القلوب على أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر فذاك قلب المؤمن ، فإنه أجرد أى متجرد من هذا الانحراف فى قصده وحبه وعلمه ، متجرد عن شهوات الغى وشبهات الباطل ، متجرد عن معارضات أمـر الله بالتأويل والشهوات ، وعن معارضات خبره بالتقليد والشبهات ، وفيه من الإيمان ومباشرة روحه له سراج يزهر ، فهذا هو القلب السليم . . . (٢).

## ما يُذَمّ به العبد

إن الله ـ سبحانه ـ لا يذم العبد على ما ليس من كسبه وفعله كما لا يذمه على دمامته وقبح شكله ،وإنما يذم العبد بأفعاله الاختيارية دون ما لا اختيار له فيه، وإنما ذم ـ سبحانه ـ ما يكون باختيار العبد من رفع الصوت الرفيع المنكر ، كما يوجد ذلك فى أهل الغلظ

---

(١) الصواعق المرسلة (٢ / ٤٣٣) .

(٢) الكلام على مسألة السماع (٩٩) .

والجفاء من الفدادين الصخَّابين بالأسواق ، كما قال النبى ﷺ : « الجفا والغلظ وقسوة القلب فى الفدادين من أهل الوبر » (١) وهم الصياحون صياحًا منكرا ، وفى صفة النبى ﷺ: « ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق » (٢) (٣) .

## الطب

كل طبيب لا يداوى العليل ، بتفقد قلبه وصلاحه ، وتقوية روحه وقواه بالصدقة ، وفعل الخير ، والإحسان ، والإقبال على الله والدار الآخرة فليس بطبيب ، بل متطبب قاصر. ومن أعظم علاجات المرض فعل الخير والإحسان والذكر والدعاء ، والتضرع والابتهال إلى الله ، والتوبة ، ولهذه الأمور تأثير فى دفع العلل ، وحصول الشفاء أعظم من الأدوية الطبيعية، ولكن بحسب استعداد النفس وقبولها وعقيدتها فى ذلك ونفعه(٤) .

## صلاح حال العبد فى الدارين

لا يتم صلاح العبد فى الدارين إلا باليقين والعافية ، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا فى قلبه وبدنه (٥) .

## رياضة الأعضاء

أى عضو كثرت رياضته قوى ، وخصوصًا على نوع تلك الرياضة ، بل كل قوة فهذا شأنها ، فإن من استكثر من الحفظ قويت حافظته ، ومن استكثر من الفكر قويت قوته المفكرة ، ولكل عضو رياضة تخصه (٦) .

## الروح تميل إلى ما يناسبها

الأرواح الطيبة تحب الرائحة الطيبة ، والأرواح الخبيثة تحب الرائحة الخبيثة ، وكل روح تميل إلى ما يناسبها ، فالخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين ،

---

(١) البخارى (٣٣٠٢) فى بدء الخلق ، باب : خير مال المسلم غنم يتبع بها سعف الجبال ، ومسلم (٥١ / ٨١) فى الإيمان باب : تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه ، وأحمد (٤ / ١١٨) .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى (١ / ٢٩١) فى جماع أبواب صفة رسول الله ﷺ ، باب حديث هند بن أبى هالة .

(٣) الكلام على مسألة السماع (٣٥٣) .

(٤) زاد المعاد (٤ / ١٤٤) .

(٥) زاد المعاد (٤ / ٢١٦) .

(٦) زاد المعاد (٤ / ٢٤٧) .

والطيبون للطيبات ، وهذا وإن كان فى النساء والرجال ، فإنه يتناول الأعمال والأقوال ، والمطاعم والمشارب ، والملابس والروائح ، وإما بعموم لفظه ، أو بعموم معناه (١) .

## فضل يوم الجمعة

إنه (٢) اليوم الذى يستحب أن يتفرغ فيه للعبادة ، وله على سائر الأيام مزية بأنواع من العبادات واجبة ومستحبة ، فالله سبحانه جعل لأهل كل ملة يومًا يتفرغون فيه للعبادة ويتخلون فيه عن أشغال الدنيا ، فيوم الجمعة يوم عبادة وهو فى الأيام كشهر رمضان فى الشهور ، وساعة الإجابة فيه كليلة القدر فى رمضان ، ولهذا من صح له يوم جمعته وسلم سلمت له سائر جمعته ، ومن صح له رمضان وسلم سلمت له سائر سنته ، ومن صحت له حجته وسلمت له صح له سائر عمره ، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع ، ورمضان ميزان العام ، والحج ميزان العمر ، وبالله التوفيق (٣) .

## احتمال المشقة لخير منتظر

العمال فى الدنيا إنما يتصرفون بناء على الغالب المعتاد الذى طردت به العادة وإن لم يجزموا به ، فإن الغالب صدق العادة واطرادها عند قيام أسبابها ، فالتاجر يحمل مشقة السفر فى البر والبحر،بناء على أنه يسلم ويغنم ، فلو طرد هذا القياس الفاسد ،وقال : السفر مشقة متحققة والكسب أمر موهوم ، لتعطلت أسفار الناس بالكلية ، وكذلك عمال الآخرة لو قالوا : تعب العمل ومشقته أمر متحقق وحسن الخاتمة أمر موهوم ، لعطلوا الأعمال جملة ، وكذلك الأجراء والصناع والملوك والجند وكل طالب أمر من الأمور الدنيوية والأخروية ،لولا بناؤه على الغالب وما جرت به العادة لما احتمل المشقة المتيقنة لأمر منتظر(٤) .

## ارتكاب أخف الضررين

العقلاء قاطبة متفقون على أنه يحسن إتلاف جزء لسلامة كل ، كقطع الأصبع أو اليد المتآكلة لسلامة سائر البدن ، ولذلك يحسن الإيلام لدفع إيلام أعظم منه كقطع العروق وبط الخراج ونحوه (٥) .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٢٧٩) .
(٢) أى : يوم الجمعة .
(٣) زاد المعاد (١ / ٣٩٨) .
(٤) مفتاح دار السعادة (٢ / ٩٨ ، ٩٩ ) .
(٥) مفتاح دار السعادة (٢ / ٩٨) .

## المشاحنة فى الاصطلاحات

المشاحنة فى الاصطلاحات لا تنفع طالب الحق ،ولا تجدى عليه إلا المناكدة والتعنت(١).

## حبك الشىء يعمى ويصم

لو تَجَرَّدتْ (٢) من حب من ولدته ، وبغض من خالفته ، وجردت النظر ، وصابرت العلم ، وتابعت المسير فى المسألة إلى آخرها ، لأوشك أن تعلم الحق من الباطل ولكن حبك الشىء يعمى ويصم ، والناظر بعين البغض يرى المحاسن مساوى. هذا فى إدراك البصر مع ظهوره ووضوحه ، فكيف فى إدراك البصيرة ، لا سيما إذا صادف مشكلا فهذه بلية أكثر العالم .

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة      وإلا فإنى لا إخالك ناجيا (٣)

## الشهادة بالقسط

فليتأمل اللبيب الفاضل ماذا يعود إليه نصر المقالات والتعصب لها ، والتزام لوازمها ، وإحسان الظن بأربابها ، بحيث يرى مساويهم محاسن ، وإساءة الظن بخصومهم ، بحيث يرى محاسنهم مساوئ .كم أفسد هذا السلوك من فطرة ، وصاحبها من الذين ﴿ **يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ** ﴿١٨﴾ ﴾ [ المجادلة ] ، ولا يتعجب من هذا ، فإن مرآة القلب لا يزال يتنفس فيها منها حتى يستحكم صداؤها ، فليس ببدع لها أن ترى الأشياء على خلاف ما هى عليه ، فمبدأ الهدى والفلاح صقال تلك المرآة ، ومنع الهوى من التنفس فيها وفتح عين البصيرة فى أقوال من يسىء الظن بهم ، كما يقبحها فى أقوال من يحسن الظن به وقيامك لله وشهادتك بالقسط ، وألا يحملك بغض منازعيك وخصومك على جحد دينهم، وتقبيح محاسنهم،وترك العدل فيهم، فإن الله لا يعتد بتعب من هذا ثناء ولا يجدى علمه نفعاً أحوج ما يكون إليه، والله يحب المقسطين ولا يحب الظالمين (٤) .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢ / ٦٥) .

(٢) أى : العقول .

(٣) مفتاح دار السعادة (٢ / ٧١) .

(٤) مفتاح دار السعادة (٢ / ٧٥) .

## فعل العبد من الحقيقة والصورة

إن استواء الفعلين فى الصورة لا يوجد استواءهما فى الحقيقة ، ومدعى ذلك فى غاية المكابرة ، وهل يدل استواء السجود لله والسجود للصنم فى الصورة الظاهرة وهو وضع الجبهة على الأرض على أنهما سواء فى الحقيقة حتى يتحير العقل بينهما ويتعارضان فيه ، ويكفى فى فساد هذا إطباق العقلاء قاطبة على قبح القتل الذى هو ظلم وبغى وعدوان ، وحسن القتل الذى هو جزاء وقصاص وردع وزجر ، والفرق بين هذين مثل الفرق بين الزنا والنكاح ، بل أعظم وأظهر ، بل الفرق بينهما من جنس الفرق بين الإصلاح فى الأرض والإفساد فيها ، فما تعارض فى عقل صحيح قط هذان الأمران حتى يتحير بينهما أيهما يؤثره ويختاره (١) .

## لا عصمة للولىّ

ليس من شرط ولى الله العصمة ، وقد تقاتل أولياء الله فى صفين بالسيوف ، ولما سار بعضهم إلى بعض كان يقال : سار أهل الجنة إلى أهل الجنة ، وكون ولى الله يرتكب المحظور والمكروه متأولاً أو عاصيا لا يمنع ذلك من الإنكار عليه ، ولا يخرجه عن أصل ولاية الله (٢) .

## التوفيق فى ترتيب الدليل

ما كُلّ من علم شيئا أمكنه أن يستدل عليه ولا كل من أمكنه الاستدلال عليه يحسن ترتيب الدليل وتقريره والجواب عن المعارض (٣) .

## باب جامع

من أراد من العمال أن ينظر قدره عند السلطان فلينظر ماذا يوليه . وحدّ زيد وما رأى الرسول ، وكفر ابن أُبىّ وقد صلى معه القبلتين . لما تقدم اختبار الطين المنهبط صعد على

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢ / ٩٧) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٥٠٠) .

(٣) مدارج السالكين (٣ / ٤٨٧) .

النار المرتفعة فكانت الغلبة لآدم فى حرب إبليس . سبق العلم بنبوة موسى وإيمان آسية ، فسبق تابوته إلى بيتها ، فجاء طفل بلا أم إلى امرأة بلا ولد . يا من هو من جملة عسكر الرسول أيحسن بك كل يوم هزيمة . الحيوانات تذل فى طلب القوت ، والفيل يتملق حتى يأكل :

إن كان يوجب صبرى رحمتى فرضى ... بسوء حالى وحل للضنا بدنى
منحتك القلب لا أبغى به ثمنا ... إلا رضاك ووافقرى إلى الثمن

قال غيره :

أحن بأطراف النهار صبابة ... وبالليل يدعونى الهوى فأجيب

غيره :

سأتعب نفسى أو أصادف راحة ... فإن هوان النفس أكرم للنفس

يا من هو من أرباب الخبرة ، هل عرفت قيمة نفسك ، إنما خلقت الأكوان كلها لك . يا من غذى بلبان البر ، وقلب بأيدى الألطاف ، كل الأشياء شجرة وأنت الثمرة ، وصورة وأنت المعنى ، وصدف وأنت الدر ، ومخيض وأنت الزبد ، منشور اختيارنا لك واضح الخط ، ولكن استخراجك ضعيف ، متى رمت طلبى فاطلبنى عندك ، ويحك لو عرفت قدر نفسك ما أهنتها بالمعاصى ، إنما أبعدنا إبليس لأنه لم يسجد لك وأنت فى صلب أبيك . فوا عجبا كيف صالحته وتركتنا ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً** ﴾ [الكهف : ٥٠] ،لو كان فى قلبك محبة لبان أثرها على جسدك . عجب ربنا من رجل ثار عن وطائه ولحافه إلى صلاته . تأمل معنى ثار ولم يقل : قام لأن القيام قد يقع بفتور ، فأما الثوران فلا يكون إلا بإسراع حذرا من فائت ما . انتفع آدم فى بلية وعصى بكمال وعلم ، ولا رد عنه عز اسجدوا ، وإنما خلصه ذل ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا** ﴾ [ الأعراف : ٢٣]، لما عشقت للبلاء به الشجر تعلقت طلبا للعناق ، فقيل لها مع الكثافة : لا يمكن ، فرضيت بالنحول والتفت .

تلقى قلبى فقد أرسلته عجلا ... إلى لقائك والأشواق تقدمه
ولا تكلنى على بعد الديار إلى ... صبرى الضعيف فصبرى أنت تعلمه

قال الشاعر :

إذ لم يكن بينى وبينك مرسل فريح الصبا منى إليك رسول

ملؤوا مراكب القلوب متاعا لا ينفق إلا على الملك ، فلما هبت رياح السحر أقلعت تلك المراكب قطعوا بادية الهوى بأقدام الجد ، فما كان إلا القليل حتى قدموا من السفر فاعتنقتهم الراحة فى طريق التلقى ، فدخلوا بلد الوصل وقد حازوا ربح الأبد .

فرغ القوم قلوبهم من الشواغل فضربت فيها سرادقات المحبة ، فأقاموا العيون تحرس تارة وترسق الأرض أخرى . سرادق المحبة لا تضرب إلا فى قاع فارغ نزه .

فرغ لى بيتا أسكنه أعرف مقدار ما ضاع منك ، وابك بكاء من يدرى مقدار الفائت . لو تخيلت قرب الأحباب لأقمت المأتم على بعدك . لو استنشقت ريح الأسحار لأفاق قلبك المخمور . من استطال الطريق ضعف مشيه .

وما أنت بالمشتاق إن قلت بيننا طوال الليالى أو بعيد المفاوز

أما علمت أن الصادق «إذا هم ألقى بين عينيه عزمه» . إذا نزل آب فى القلب سكن آذار فى العين . من قبل فم اللذة لا ينكر عض أسنان الندامة . هان سهر الحراس لما علموا أن أصواتهم بمسمع الملك « رفيقك قيسى ، وأنت يمانى » . إذا كنت كلما لاحت لك شهوة طفيل العرائس فانتظر قبلة وضاح اليمن . من لاح له كمال الآخرة هان عليه فراق الدنيا . إذا لاح للباشق الصيد نسى مألوف الكف . يا أقدم الصبر احملى بقى القليل . تذكر حلاوة الوصال يهن عليك مر المجاهدة . قد علمت أين المنزل فأحد لها نسر. قال أبو يزيد : ما زلت أسوق نفسى إلى الله وهى تبكى حتى سقتها إليه وهى تضحك . الهمة العلية من استعد صاحبها للقاء الحبيب وقدم التقادم بين يدى الملتقى فاستبشر عند القدوم ﴿**وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ**﴾ [ البقرة : ٢٢٣ ] . الجنة ترضى منك بأداء الفرائض والنار تندفع عنك بترك المعاصى ، والمحبة لا تقنع منك إلا ببذل الروح ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ** ﴾ [ التوبة :١١١] بدم المحب يباع وصلهم ، فمن الذى يبتاع بالثمن، لله ما أحلى زيارة تسعى بها أقدام الرضى على أرض الاشتياق .

زرناك شوقا ولو أن النوى بسط فرش الفلا بيننا جمرا لزرناك

ما سافر الخليل سفرا ، ولا سلك طريقا أطيب من الفلاة التى دخلها حين خرج من كفة المنجنيق ، رآه جبريل قد ودع بلد العادة فظن ضعف قدم التوكل ، فعرض عليه زاد : ألك حاجة ؟ فرده بأنفة : أما إليك فلا . لما تكاملّ وفاؤه ما أمر به جاءته خلعته ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ** ﴿٣٧﴾ ﴾ [ النجم ].

قالت لطيف خيال زارها ومضى — بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
فقال خلفته لو مات من ظمأ — وقلت قف عن ورود الماء لم يرد
قالت صدقت الوفا فى الحب شيمته — يا برد ذاك الذى قالت على كبدى

وقال غيره :

إن قومى بانوا فرقوا بينه وبينى — فإذا كنت أنا الرهن فمن يقبض دينى

وقال غيره :

وكم مغرم بين تلك الخيا — م تحسبه بعض أطنابها

للنفس حظ وعليها حق ، فلا تميلوا كل الميل ، وزنوا بالقسطاط المستقيم . وإن رأيتم منها فتوراً فاضربوها بسوط الهجر فى المضاجع فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . ارفقوا بمطايا الأبدان ، فقد ألفت الترف ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن . إن هذا الدين متين ، فأوغلوا فيه برفق ، ولا تحملوا على النفوس فوق الطاقة إلى أن تتمكن المحبة فلها حينئذ حكمها . شراب الهوى حلو ولكنه يورث الشرق .من تذكر خنق الفخ هان عليه هجران الحبة . يا معرقلا فى شرك الهوى حموة عزم وقد خرقت الشبكة ، لابد من نفوذ القدر ، فاجنح للسلم أى تصرف ،بقى لك فى قلبك وهو بين أصبعين .يا منقطعين عن القوم سيروا فى بادية الدجى ،وانتحوا بوادى الذل ، فإذا فتح باب للواصلين فدونكم فاهجموا هجوم اللوانين ، وابسطوا أكف ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [ يوسف : ٨٨ ] . لعل هاتف الرحمة يقول ﴿لا تَثْرِيبَ﴾ [ يوسف : ٩٢ ] . ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [ آل عمران : ١٨٩ ] . واستقرض منك حبة فبخلت بها ، وخلق سبعة أبحر واستقرض دمعة فقحطت عينك بها . إطلاق البصر ينقش فى القلب صورة المنظور والقلب كعبة ، وما يرضى المعبود بمزاحمة الأصنام . لذات الدنيا كسوداء وقد غلبت عليك ، والحور العين يعجبن من سوء اختيارك عليهن،غير أن زوبعة الهوى إذا ثارت سفت فى عين البصيرة فخفيت الجادة تدور عينك على المحرمات كأنك قد ضاع منك شيء ، ورواحل همتك فى الهوى ما تحمل لها قتب . إن قهر نفسك حب الفانى فذكرها العيش الباقى فإن أبت إلا بيع الغبن فاحجر عليها حجر السفيه وغط بصر باشقك إلى أن ينسى ما رأى ، واغسل باطن عينيك بطهور المدامع ، وكلما تذكرت ما أبصرت فاطرق بدمعة ، لعل فرط البكاء يدفع فساد البصر فيصلح لرؤية الحبيب .

وكيف ترى ليلى بعين ترى بهـا سواهـا وما طهـرتها بالمدامـع
وتسمع منها لفظة بعد ما جرى حديث سواها فى خروق المسامع

قال غيره :

إذا لم أنل منكم حديثا ونظرة إليكم فما نفعى بسمعى وناظرى

تزينت الجنة للخطاب فجدوا فى تحصيل المهور . تعرّف رب العزة المحبين فعملوا على اللقاء ، وأنت مشغول بالجيف ما يساوى ربع الدينار ، خجل الفضيحة فكيف بألم القطع . المعرفة بساط لا يطأ عليه إلا مقرب ، والمحبة نشيد لا يطرب عليه إلا محب مغرم ، والحب غدير فى صحراء ليس عليه جادة ؛ فلهذا قل وراده . المحب يهرب إلى العزلة والخلوة بمحبوبه والتعلق بذكره ، كهرب الحوت إلى الماء ، والطفل إلى أمه .

وأخرج من بين البيوت لعلنى أحدث عنك النفس بالسر خاليا

لو رأيت المحبين فى الدجى تمر عليهم زمر النجوم مر الوصائف إلى أن تقبل هوادج ، هل من سائل فينثرون عليه الأرواح نثر الفراش على النار . ليس للعابدين مستراح إلا تحت شجرة طوبى ، ولا للمحبين قرار إلا يوم المزيد ، فمثل لقلبك الاستراحة تحت شجرة طوبى يهن عليك النصب واستحضر يوم المزيد يهن عليك ما تتحمل من أجله . كنوز الجواهر مودعة فى مصر الليل فتتبع آثار المحبين ، لعلك تظفر بكنز. أنت طفل فى حجر العادة مشدود بقماط الهوى فمالك ولمزاحمة الرجال، أين أنت والمحبة وأنت أسير الحبة . تمسكت بالدنيا تمسك الرضيع بالظئر والقوم ما أعاروها الطرف . أف لبدوى لا يطربه ذكر حاجر . انقسم الصالحون عند السباق، فمنهم من أخذه القلق فكان يقول : ويل لى إن لم يغفرها ، أنا أمضى إلى النار أو يغفر .ومنهم من غلب عليه الرجاء كبلال ، كانت زوجته تقول : واحزناه ، وهو يقول : واطرباه ، غداً ألقى الأحبة محمداً وحزبه .

واهاً لبلال علم أن الإمام لا ينسى المؤذن . اشتغل به فى الحياة يكفلك ما بعد الموت . دق كؤوس الرحيل فسار الركب وتأهبوا للمسير ،وعكمت أحمال الزاد وسار رفقة المجدين،وأنت فى الرقدة الأولى بعد كيف تطيق السهر مع الشبع ، أم كيف تزاحم أهل العزائم بمناكب الكسل ؟ هيهات ما وصل القوم إلى المنزل إلا بعد مواصلة السرى ،ولا عبروا إلى مقر الراحة إلا على جسر التعب .

وأطيب الأرض ما للقلب فيه هوى سم الخياط مع المحبوب ميدان

لو رأيت أهل القبور فى وثائق الأسر فلا يستطيعون الحركة إلى نجاة ، وحيل بينهم

وبين ما يشتهون ، يا منفقا بضاعة العمر فى مخالفة حبيبه والبعد منه ليس فى أعدائك أشد شرا عليك منك .

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

غيره :

هذا المحب لديك فانظر هل ترى ... قلباً فإن صادفت قلباً فاعذل

غاية العاذل إيصال اللوم إلى الأذن فأما القلب فلا سبيل له إليه . سفر الليل لا يطيقه إلا مضمر المجاعة . تمر النجائب فى الأول وحاملات الزاد فى الآخر ، ولو وردت ماء مدين لوجدت عليه أمة من الناس يسقون . إقبال الليل عند المحبين كقميص يوسف في أجفان يعقوب . لو أحببت المخدوم حضر قلبك فى خدمته .

فيا دارها بالحزن إن مزارها ... قريب ولكن دون ذلك أهوال

العروس تلبس عند العرض تحت الثياب شعار الخوف من الرد ، وفوق الثياب حلة الانكسار ، وحمرة الخجل تغنيها عن تخمير مستعار ؛ لأنها لا تدرى على ماذا تقدم ، فكيف يسكن من لا يعرف العواقب . مداراة قيس ممكن ولكن لا مع ذكر ليلى . انقسم العباد ثلاثة أقسام : فمنهم من لاحظ الحصاد فزاد فى البذر ، ومنهم من رأى حق المخدوم فقام بأدائه ، ومنهم من خدم حبا وشوقا فتلذذ بالخدمة ، وهذه الخدمة لا ثقل لها ؛ لأن محركها الحب وغيرها ثقيل على البدن . نوق أبدان المحبين لا تحس بالنصب وأسماعها مشغولة بصوت الحادى،وقلوبها معلقة بالمنزل . من عبده خوفا أمنه ، ومن عبده رجاء أعطاه أمله ، ومن عبده حبا فلا تعلم نفس ما أخفى لها .

يراها بعين الشوق قلبى على النوى ... فتحظى ولكن من لعينى برؤياها

وهبكم منعتم أن يراها بعينه ... فهل تمنعون القلب أن يتمناها

كم دخل المجلس عاص فى باطنه باطية خمر ، فما زالت تعمل فيها حدة شمس التذكير حتى انقلبت خلا فحلت .

يكون أجاجا دونكم فإذا انتهى ... إليكم تلقى نشركم فيطيب (١)

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٢١٣ ـ ٢١٩) .

## وأيضا

متى رأيت العقل يؤثر الفانى على الباقى فاعلم أنه قد مسخ ، ومتى رأيت القلب قد ترحل عنه حب الله والاستعداد للقائه وحل فيه حب المخلوق والرضى بالحياة الدنيا والطمأنينة بها فاعلم أنه قد خسف به ، ومتى أقحطت العين من البكاء من خشية الله تعالى، فاعلم أن قحطها من قسوة القلب . وأبعد القلوب من الله القلب القاسى . ومتى رأيت نفسك تهرب من الأنس به إلى الأنس بالخلق ، ومن الخلوة مع الله إلى الخلوة مع الأغيار، فاعلم أنك لا تصلح له . ومتى رأيته يستزيد غيرك وأنت لا تطلب ، ويستدنى سواك وأنت لا تقرب ، فإن تحركت لك قدم فى الزيارة تخلف قلبك فى المنزل ، فاعلم أنه الحجاب والعذاب . مزاج الإيمان منحرف عن الصحة ، ونبض الهوى شديد الخفقان . تحكمت أخلاط الشهوات فى أعضاء الكسل فثبطت عن الحركة ، فتولدت الأمراض المختلفة ، هذا وما يسهل عليك شرب مسهل ، فإن تداركت المرض وإلا قتل . لو احتميت ساعة لم تحتج إلى معالجة الدواء مدة . من ركب ظهر التفريط والتوانى نزل به دار العسرة والندامة . ربك يحب حياة نفسك وأنت تريد قتلها .يريد بك اليسر وأنت تريد العسر. يريد بها الكرامة وأنت جاهد فى إهانتها.

ما يبلغ الأعداء من جاهل  ما يبلغ الجاهل من نفسه

من أدلج فى غَيَاهِب الليل على نجائب الصبر صبح منزل السرور . ومن نام على فراش الكسل أصبح ملقى بوادى الأسف . الجد كله حركة ، والكسل كله سكون . فتورك عن السعى فى طلب الفضائل دليل على تأنيث العزم . إذا أردت أن تعرف الديك من الدجاجة وقت خروجه من البيضة فعلقه بمنقاره فإن تحرك فديك وإلا فدجاجة .

الدنيا كامرأة بغى ، لا تثبت مع زوج ، فلذلك عيب عشاقها .

ميـزت بـين جمالهـا وفعالهـا  فإذا الملاحة بالقباحة لا تفى
حلفت لنـا ألا تخـون عهودهـا  فكـأنما حلفـت لنـا ألا تفـى

ما حظى الدينار بنقش اسم الملك فيه حتى صبرت سبيكته على الترداد إلى النار ، فنفت عنها كل خبث ، ثم صبرت على تقطيعها دنانير ، ثم صبرت على ضربها على السكة، فحينئذ يظهر عليها رقم النقش فكيف يطمع فى نقش كتب فى قلوبهم الإيمان من كله خبث . مكابدة البادية تهون عند ذكر البيت المضحى بوادى الجوع ، والمعشى بوادى

السهر ، إلى أن تلوح أعلام المنزل . إذا ونت الركاب فى السير فبثوا حداة العزم فى نواحيها يطيب لها السرى . إذا حال غيم الهوى بين القلوب وبين شمس الهدى تحير السالك . الحيوان البهيم يتأمل العواقب،وأنت لا ترى إلا الحاضر .ما تكاد تهتم بمؤونة الشتاء حتى يقوى البرد ، ولا بمؤونة الصيف حتى يقوى الحر .والذر يدخر الزاد من الصيف لأيام الشتاء وهذا الطائر إذا علم أن الأنثى قد حملت أخذ ينقل العيدان لبناء العش قبل الوضع ، أفتراك ما علمت قرب رحيلك إلى القبر ، فهلا بعثت فراش ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ** (٤٤) ﴾ [ الروم ] .وهذا اليربوع لا يتخذ بيتا إلا فى موضع صلب ليسلم من الحافر ، ويكون مرتفعا ليسلم من السيل ، ويكون عند أكمة أو صخرة لئلا يضل عنه ، ثم يجعل له أبوابا ويرقق بعضها فلا ينفذه ، فإذا أتى من باب مفتوح دفع برأسه ما رقّ من التراب وخرج منه ، وأنت قد ضيقت على نفسك الخناق ، فما أبقيت للنجاة موضعا . النفس كالعدو إن عرفت صولة الجد منك استأسرت لك ، وإن أنست عنك المهانة أسرتك أتمنعها ملذوذ مباحاتها ليقع الصلح على ترك الحرام ، إذا احتجت لطلب المباح ﴿ **فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً** ﴾ [ محمد : ٤ ] . الدنيا والشيطان عدوان خارجان عنك والنفس عدو بين جنبيك . ومن سنة الجهاد ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم** ﴾ [ التوبة : ١٢٣] .أليس المبارز بالمحاربة كالكمين الذى يطلع عليك من حيث لا تشعر . أقل ما تفعل النفس معك أنها تمزق العمر بكف التبذير والبطالة ،اخل معها فى بيت الفكر سويعة ، ثم انظر هل هى معك أو عليك؟ ثم عاملها بما تعامل به واحدا منهما . من لم تبك الدنيا عليه لم تضحك الآخرة إليه. سينقشع غيم التعب عن فجر الآخرة . كم صبر بشر عن شهوة حتى سمع : كل يا من لم يأكل . يا من حسد سجاف نعم العبد على قبة ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ** ﴾ [ مريم : ٥٣] حتى وصل على قدر ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا** ﴾ [ ص : ٤٤ ] كيف يفلح من يشكو الليل إلى ربه من طول نومه والنهار من قبيح فعله . كيف يفلح من هو جيفة بالليل قطرب بالنهار، ينصب بميزان البخس وميكال التطفيف ، والقدر ثالثة الأثافى . لو فكر الطائر فى الذبح ما حام حول القمح . لولا صبر المضمرات على قلة العلف ما قيل لها سوابق .

مما أضــر بأهــل العشــق أنهــم ... هووا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا
تفنــى نفوسهـم شوقـا وأعينهـم ... فــى أثــر كل قبيـح وجهه حسن
تحمــل حميلكم كــل رابحـــة ... فكـــل بين على اليوم مؤتمـــن
ما فى هوادجكم من مهجتى عوض ... إن مت شوقا ولا فيـها لهـا ثمـن

سهرت بعد رحيل وحشة لكم ثم استمر مريرى وارعوى الوسن
لا تلق دهرك إلا غير مكترث ما دام تصحب فيه روحك البدن
فما يديم سرورا قد سررت به ولا يرد عليك الغائب الحزن

إذا لم تكن من أنصار الرسول فتنازل الحرب فكن من حراس الخيام ، فإن لم تفعل فكن من نظارة الحرب الذين يتمنون الظفر للمسلمين ، ولا تكن الرابعة فتهلك . إذا رأيت الباب مسدود فى وجهك فاقنع بالوقوف خارج الدار مستقبل الباب سائلا مستعطيا فعسى ، ولكن لا تول ظهرك وتقول : ما حيلتى وقد سد الباب دونى . لما نادى منادى الأفضال ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [ الأنعام : ١٦٠] سارت نجائب الأعمال قام الجزاء يصبح بالدليل ﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ ﴾ [ الإسراء : ٧٤ ] فقال ما منكم من ينجيه عمله إن لم تقدر على مشارع أرباب العزائم فرد باقى الحياض ، فمن لم يكن عنده ابن لبون قبلت منه ابنة مخاض، لا تحتقر معصية فكم أحرقت شررة : أما عرفت سر ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة : ٣٥].لو قنع آدم لاكتفى ،ولكن المحنة كانت فى الشره.الخلوة شرك لصيد المؤانسة . أخفى الصيادين شخصا وأقلهم حركة أكثرهم التقاطا للصيد . ما صاد هرنوا ، أى صوت .

أبدًا نفوس العاشقـ ـين إلى ربوعكم تحن
وكذا القلوب بذكركم بعد المخافة تطمئن

غيره:

طلولى إذا يشكو إليها متيم شكى غير ذى نطق إلى غير ذى فهم

غيره :

وإنما عمر الفتى سوق له يصدر عنه غانما أو خاسرا

غيره :

نراع إذا الجنائز قابلتنا ونلهو حين تخفى ذاهبات
كروعة ثلة لظهور ذئب فلما غاب عادت راتعات

خذ نفسك بالعزائم لا ترخص .حائط الباطن خراب فعلام ذا تجصص . العلم والعمل توأمان أمهما علو الهمة . والجهل والبطالة توأمان أمهما إيثار الكسل . أيها المعلم، تثبت على المبتدى وقدر فى السرد ، فللعالم رسوخ وللمتعلم قلق .ويا أيها الطالب ، تواضع فى

الطلب ، فإن التراب بيننا هو تحت الأخمص صار طهورا للوجه . تجلى عليك عروس المعرفة ،ولكن على غير كفؤ . وإنما يحل النظر إذا كان العقد جائزا . فغض الطرف إنك من نمير . ليس العالم شخصا واحدًا ،العالم عالم تصانيف . العالم أولاده المخلدون دون أولاده . من خلق للعلم شف جوهره من الصغر . طول السهر مفض إلى طيب المرقد، والهوان فى ظلل الهوينا كامن . وجلالة الأخطار فى ركوب الأخطار . مياه المعانى مخزونة فى قلب العالم ، يفتح منها للسقى سيحا بعد سيح ، ويدخر أصفاها لأهل الصفا، فإذا تكاثرت عليه نادى للسبيل فيبقى علمه سيح ولهذا يتضاعف عليه زكاة الشكر. كل وقت تسافر بضائع فكره من مدينة قلبه إلى قلوب الطالبين ، فينادى عليها دلال لسانه وهو يعرضها فى مواسم النصح على تجار الطلب والإرادة ، من يشترى حكمة وعلما بتخبير الثمن . فيا من يرى علو تلك المرتبة لا تنس الدرج . كم خاض بحرا ملحا حتى وقع بالعذب ، وكم تاه فى مهمه قفر حتى سمى بالدليل ، وكم أنض مراكب الجسم ، وفض شهوات الحس ، وواصل السرى ليلا ونهارا ، وأوقد نار الصبر فى دياجى الهوى ، فإن وثقتم بأمانته فهذا تخبير السرى . فالدنيا تفوق سهامها نحو بنيها وتقول : خذوا حذركم ، فلهذا دم قتلاها هدر . غاب الهدهد عن سليمان ساعة ، فتوعده ، فيا من أطال الغيبة عن ربه هل أمنت غضبه . تخلف الثلاثة عن الرسول فى غزوة واحدة فجرى لهم ما سمعت ، فكيف بمن عمره فى التخلف عنه . إذا سكر الغراب بشراب الحرص تنقل بالجيف ، فإذا صحى من خماره ندم على الطلل . خالف موسى الخضر فى طريق الصحبة ثلاث مرات فحل عقدة الوصال بيد هذا ﴿ **قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ** ﴾ [ الكهف : ٧٨ ] أفما تخاف يا من لم يف لربه قط أن تقول فى بعض زلاتك ﴿ **هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ** ﴾ .أعظم عذاب أهل جهنم جهلهم بالمعذب . لو صحت معرفتهم بما لمالك هنالك لما استغاثوا بمـالك ﴿ **يَا مَالِكُ** ﴾ [ الزخرف : ٧٧ ] . وقع بينهم شخص ليس من الجنس كان فى باطنه ذرة من المعرفة ، فكلما حملت عليه النار اتقاها بدرع : يا حنان ، يا منان . كان موته فى المعاصى سكنة فقير فى جهنم ، فلما تحرك الروح فى الباطن أخرج من القبر . حرص العصفور يخنقه ،وقنع العنكبوت فى زاوية الضعف يسوق إليها الذباب قوتا لها . رب ساع لقاعد . أرسلت قلبك مع كل مطلوب من الهوى ثم تبعث وراءه وقت الصلاة ، فربما لا يلقاه الرسول فتصلى بلا قلب .

خلفت قلبك فى الأظعان إذ نزلت ... بالمأزمين غداة النفر بالنفر
ورحت تطلب فى أرض العراق ضحى ... ما ضاع عند منى فاعجب لذا الخبر
لما طرقنا منى كان الفؤاد معى ... فضل عنى بين الضال والسمر

بأرجل العيس تنبيك الرمال فما أمشى بوجدى غدا إلا على الأثر

يا من فقد قلبه لا تيأس من عوده .

فقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كلّ الظن ألا تلاقيا

الهوى قاطن والصواب خاطر ، وطرد القاطن صعب وإمساك الخاطر أصعب . إنك لم تزل فى حبس ، فأول الحبوس :صلب الأب ، والثانى : بطن الأم ، والثالث : القماط والمهد ، والرابع : المكتب ، والخامس : الكد على العيال ،والسادس : مرض الموت ، والسابع : القبر ، فإن وقعت فى الثامن نسيت مرارة كل حبس تقدم ، ادخل حبس التقوى باختيارك أياما ليحصل لك الإطلاق على الدوام ، ولا تؤثر إطلاق نفسك فيما تحب ، فإنه يؤثر حبس الأبد. العذل على حمل العشق علاوة . ومريخ قطب الشم يوجده ، فروى له خبر التعذيب فعزضا متى تركت المعصية ، وما حللت عقد الإصرار لم يفد شيئا ، كما لو سكن المرض من غير استفراغ ، فإنه على حاله ، إن لم يتحقق قصد القلب لم يؤثر النطق شيئا . يمين المكره لا تنعقد ، ويحك نفسك سلعتك وقد استامها المشترى بأفخر الثمن ، فاجهد فى إصلاح عيوبها لعله يرضى بها منام المنى أضغاث ، ورائد الآمال كذوب ، ومرتع الشهوات وخيم . العجز شريك الحرمان ، التفريط مصائب الكسل ،قفل قلبك رومى ما يقع عليه غش : متى خامر من جنود عزمك عليك واحد ،لم يأمن قلبك الهزيمة عليه . وإذا كان فى الأنابيب خلف وقع الطيش فى رؤوس الصعاد ، كن قيما على جوارحك ورعيتك إذا وفيتها المحظوظ فاستوف منها الحقوق . تأمل قوله تعالى : ﴿ **فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ** (١١٧) ﴾ [طه ] كيف شرك بينما فى الخروج ، وخص الذكر بالشقاء لاشتغاله بالكسب والمعاش ، والمرأة فى خدرها .

تزود من الماء القراح فلن يرى بوادى الغضا ماء نقاحا ولا بردا

فهل من نسيم البان والرند نفحة فهيهات واد ينبت البان والرندا

وكر إلى نجد بطرفك إنه متى تسر لا تنظر عقيقا ولا نجدا

انظر يمنة فهل ترى محنة ، ثم اعطف يسرة فهل ترى إلا حسرة ، أما الربع العامر فدرس ، وأما أسر الممات فغرس . وأما الراكب فكبت به الفرس ، ساروا فى ظلم ظلامتهم فما عندهم قبس ، وقفت بهم سفن نجاتهم ، لأن البحر يبس . وانقلبت تلك الدور كلها فى تعس . وجاء منكر بآخر سبأ ونكير بأول عبس . أفلا يقوم لنجاته من طال ما قد جلس .

يا نفــس ما هــى إلا صــبر أيام كان مدتها أضغــاث أحــلام

يا نفس جودى عن الدنيا ولذتها وخل عنها فإن العيش قدامى

ألا يصبر طائر الهوى عن حبة مجهولة العاقبة ، وإنما هى ساعة ويصل إلى برج أمنه وكم فيه من حبة .

وإن حننت للحمى وروضه فبالغضا ماء وروضات أخر

حامل الكتب من الطير أقوى عزيمة ، فلعل وضعك على غير الاعتدال . لا تكون الروح الصافية إلا فى بدن معتدل ، ولا الهمة العالية إلا فى نفس نفيسة ، إذا حمل الطائر الرسالة صابر العزيمة ، ولازم بطون الأودية فإن خفيت عليه الطريق تنسم الرياح ، وتلمح قرص الشمس وتستر ،وهو مع شدة جوعه يحذر الحب الملقى ، خوفا من دفينة فخ توجب تعرقل الجناح ، يضيع ما حمل ، فإذا بلغ الرسالة أطلق نفسه فى أغراضها داخل البرج . فيا حاملى كتب الأمانة أكثركم على غير الجادة ،وما يستدل منكم من قد راقه الحب فنزل بما حمل فارتهن وربح ، فيسلم تعرقل جناحه وينتظر الذبح ، فلا الحبة حصلت ، ولا الرسالة وصلت .

قطاة غرها شرك فباتــت تجاذبه وقـد علـق الجنـاح

فلا فى الليل نالت ما تمنت ولا فى الصبح كان لها سراح

لو صابرتم مشقة الطريق لانتهى السفر فتوطنتم مستريحين فى جنات عدن ، ويا مهملى النظر فى العواقب أسلفوا فى وقت الرخص ، فما يؤمن تغير الأسعار . لا ترم بسهام النظر فإنها والله فيك تقع ، رب راع مقلة أهملها فأغير على السرح .

كل الحوادث مبدؤها مـن النظـر ومعظم النـار مـن مستصغر الشرر

كم نظرة فعلت فى قلب ناظرهـا فعل السهام بـلا قـوس لا وتـــر

غيره :

وأرى السهام نام من يرمى بها فعلام سهم اللحظ يصمى من رمى

اعرف قدر لطفه بل وحفظه لك . إنما نهاك عن المعاصى حماية لك وصيانة لك ، لا بخلا منه عليك ، وإنما أمـرك بالطاعة رحمة وإحسانا ، ولا حاجة منه إليك ، لما عرفته بالعقل حرم ما يزيله وهو الخمر ؛ صيانة لبيت المعرفة ، يا متناولا للمسكر لا تفعل ، يكفيك سكـر جهلك فـلا تجمع بين سكـرين . سلعة ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾ [ طه : ٨٢ ] لا تبذل إلا

بثمن﴿ لِمَن تَابَ﴾ [ طه:٨٢] لمن تاب يا خارجا من سبيله وأمن عن سكه وعمل صالحا . من دار ضرب ثم اهتدى، إن لم تقدر على الجد فى العمل فقف على باب الطلب . تعرض لنفحة من نفحات الرب ، ففى لحظة أفلح السحرة .

لا تجزعن من كل خطب عرى ... ولا ترى الأعداء ما يشمت
واصبر فبالصبر تنال المنى ... إذا لقيتم فئة فاثبتوا

ثمن المعالى الجد ، والفتور داء أمر من السلوة . أفى عينيك آيات وآثار ، إذا ما برد القلب فما تسخنه النار . الوجود بحر، والعلماء جواهره ،والزهاد عنبره ،والتجار حيتانه، والأشرار تماسيحه ، والجهال على ظهره كالزبد . لو كشفت لك الدنيا ما تحت نقابها لرأيت المعشوقة عجوزا وما ترضى إلا بقتل عشاقها ، وكم تدللت عليهم بالنشوز . أذاقتهم برد كانون الأمانى ، وإذا هم فى وسط تموز . تطلب مشاركة الغانمين ، وما شهدت الحرب . تحل الغنيمة لمن شهد الوقعة . البلايا تظهر جواهر الرجال ، وما أسرع ما يفتضح المدعى.

تنام عيناك وتشكو الهوى ... لو كنت صبا لم تكن هكذا

يا مؤثرا ما يفنى على ما يبقى ، هذا رأى هواك ، فهلا استشرت العقل لتعلم أنصحهما لك . لا تحقرن يسير المعصية ، كالعشب الضعيف يفتل منه حبال تجر السفن . أو ما نفذت فى سد سبأ حيلة جرذ . العمر ثوب غير مكفوف ، وكل نفس خيط يسل منه . أنت أجير وعليك عمل ، فأخر ثياب الراحة إلى انقضاء العمل . كم غرقت سفينة فى بحر شوق ، ساروا وما يسألون ما فعل الفجر ، ولا كيف مالت الشهب . عودهم هجرهم ، مطالبة الراحات أن يظفروا بما طلبوا . الشجاع يلبس القلب على الدرع،والجبان يلبس الدرع على القلب . أعظم البلايا تردد الركب إلى بلد الحبيب يودعون الدمن .

ومعال لو ادعاها سواهم ... لزمته جناية السراق
نالوا السماء وحطوا من نفوسهم ... إن الكرام إذا انحطوا فقد صعدوا

لو صدق عزمك قذفتك ديار الكسل إلى بيداء الطلب . الناقد يخاف دخول المبهرج عليه واختلاطه بماله ، والبهرج آمنة . هذا الصديق يمسك بلسانه ويقول : هذا أوردنى الموارد ، وعمر يناشد حذيفة : هل أنا منهم ، والمخلط على بساط الأمن . إذا جن الليل وقع الحرب بين النوم والسهر ، فكان الشوق والخوف فى مقدمة عسكر اليقظة ، وصار الكسل والتوانى فى كتيبة الغفلة ، فإذا حمل الغريم حملة صادقة هزم جنود الفتور والنوم فحصل الظفر والغنيمة ، فما يطلع الفجر إلا وقد قسمت السهمان ، وما عند النائمين خبر.

قام المتهجدون على أقدام الجد تحت ستر الدجى ، يبكون على زمن ضاع فى غير الوصال ، ما زالت مطايا السهر تذرع بيداء الدجى ، وعيون آمالها لا ترى إلا المنزل وحادى العزم يقول:

يا رفقة الليل طاب السير فاغتنموا المسرى فمن نام طول الليل لم يصل

إلى أن هب نسيم السحر ، فقام الصادح يبغى ظلام الليل ، فلما هم بالرحيل تشبث القوم بأذياله يبكون على فراق المحبوب ، فلما طلع الفجر حدى حاديهم عند الصباح : يحمد القوم السرى. يا من يستعظم أحوال القوم تنقل فى المراقى تصل . من جمع بين العلم بالسنة ومتابعتها انتحى له المعانى البديعة ، فهى تنادى على رؤوس الأشهاد : ولدت من نكاح لا من سفاح . ومن قرن بين البدعة والهوى انتحى له ضروب الهذيان ، فهى تنادى على رؤوس الأشهاد: أيها الفطن لا تغتر إذا فتحت الوردة عينها فرأت الشوك حولها، فلتصبر على مجاورته قليلا ، فوحدها تقصد وتقبل وتشم . إذا تكلم من يريد الدنيا بكلامه فإنه كلما حفر فى قليب قلبه ، وأمعن فى الاستنباط انهار عليه تراب الطمع فطمه . إذا رأيت سربال الدنيا قد تقلص عنك فاعلم أنه لطف بك ؛ لأن المنعم لم يقبضه بخلا أن يتمزق ، ولكن رفقا بالساعى أن يتعثر . فتش على القلب الضائع قبل الشروع ، فحضور القلب أول منزل من منازل الصلاة ، فإذا نزلته انتقلت إلى بادية المعنى ، فإذا رحلت عنها أنخت بباب المناجاة ، فكان أول قرى ضيف اليقظة كشف الحجاب لعين القلب ، فكيف يطمع فى دخول مكة من لا يخرج إلى البادية بعد . إذا كانت مشاهدة مخلوق يوم **﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَ﴾** [ يوسف : ٣١ ] استغرقت إحساس الناظرات فقطعن أيديهن وما شعرن ،فكيف بالحال يوم المزيد . لو أحببت المعبود لحضر قلبك فى عبادته . قيل لعامر بن عبد القيس : أما تسهو فى صلاتك ؟ قال : أو حديث أحب إلىّ من القرآن حتى أشتغل به . وكان مسلم ابن يسار لا يلتفت فى صلاته حتى انهدمت ناحية من نواحى المسجد فزع لها أهل السوق ، فما التفت وكان إذا دخل منزله سكت أهل بيته ، فإذا قام يصلى تكلموا وضحكوا علما منهم بالغيبة . وقيل لبعضهم : إنا لنوسوس فى صلاتنا . قال : بأى شىء ، بالجنة ، أو الحور العين ، والقيامة ؟ قالوا : لا بل بالدنيا . فقال : لأن تختلف فىّ الأسنة أحب إلىّ من ذلك ، تقف فى صلاتك بجسدك ، وقد وجهت وجهك إلى القبلة ، ووجهت قلبك إلى قطر آخر . ويحك ،ما تصلح هذه الصلاة مهرا للجنة ، فكيف تصلح ثمنا للمحبة . رأت فأرة جملا فأعجبها ، فجرت خطامه فتبعها ، فلما وصلت إلى باب بيتها وقف فنادى بلسان الحال : إما أن تتخذى دارا تليق بمحبوبك أو محبوبا يليق بدارك . وهكذا أنت إما

أن تصلى صلاة تليق بمعبودك ، وإما أن تتخذ معبودا يليق بصلاتك . تعاهد قلبك ، فإن رأيت الهوى قد أمال أحد الحملين فاجعل فى الجانب الآخر ذكر الجنة والنار ليعتدل الحمل، فإن غلبك الهوى فاستعنت بصاحب القلب يعينك على الحمل ، فإن تأخرت الإجابة فابعث رائد الانكسار خلفها ، تجده عند المنكسرة قلوبهم . اللطف مع الضعف أكثر فتضاعف ما أمكنك . لما كانت الدجاجة لا تحنو على الولد أخرج كاسيا ، ولما كانت النملة ضعيف البصر أعينت بقوة الشم ، فهى تجد ريح المطعوم من البعد . ولما كانت الخلد عمياء ألهمت وقتِ الحلجة إلى القوت أن تفتح فاها،فيبعث إليها الذباب فيسقط فيه فتتناول منه حاجتها . الأطيار تترنم طول النهار فقيل ، للضفدع :مالك لا تنطقين ؟ فقالت : مع صوت المزمار يستبشع صوتى ،ولكن الليل أجمل بى . لا تنس العناية بالسحرة جاؤوا يحاربونه ويحاربون رسله ، وخلع الصلح قد فصلت ، وتيجان الرضى قد وضعت ، وشراب الوصال مروق ، فمدوا أيديهم إلى ما اعتصروا من خمر الهوى ، فإذا بها قد انقلبت خلا ، فأفطروا عليه فسكروا بشراب المحبة ، فلما عربدت عليهم المحبة صلبوا فى جذوع النخل . واعجبا لعزمات ما ثناها لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ، سجدوا له سجدة واحدة فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا منازلهم من الجنة ، فغلبهم الوجد وتمكن منهم الشوق ، فقالوا: ﴿**فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾ [ طه : ٧٢ ] .

تمر الصبا صبحا بساكن ذى الغضا ... ويصدع قلبى أن يهب هبوبها
قريبة عهد بالحبيب وإنما ... هوى كل نفس أين حل حبيبها

قطعت نياق جدهم بادية الليل ولم تجد مس التعب ، فالطريق إلى المحبوب لا تطول .

بعيد على كسلان أو ذى ملالة ... وأما على المشتاق فهو قريب

يا حاضرين معنا بنية النزهة لستم معنا ، عودوا إلى أوكار الكسل،فالحرب طعن وضرب . ويا مودعين ارجعوا فقد عبرنا العذيب ، وعن قريب تأتيكم أخبارنا بعد قليل ، ويا أيها الحادى ، عرس بالخيف من منى تعلمك الدموع كيف ترمى حصا الجمار . ضيف المحبة ما له قرى إلا المهج. إذا رأيت محبا.ولم تدر لمن وضع يدك على نبضه وسم له من تطبه به ، فإن النبض ينزعج عند ذكره . ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [ الأنفال:٢] . حر الخوف صيف الذوبان ،وبرودة الرجاء شتاء العطلة ،ومن لطف به فزمانه كله فصل الربيع .

عين تسر إذا رأتك وأختها ... تبكى لطول تباعد وفراق
فاحفظ لواحدة دوام سرورها ... وعد التى أبكيتها بتلاق

إذا رزقت يقظة فصنها فى بيت عزلة ، فإن أيدى المعاشرة نهابة ، واحذر معاشرة البطالين ، فإن الطبع لص . لا تصادقن فاسقا ولا تثق إليه ، فإن من خان أول منعم عليه لا يفى لك . يا فرح التوبة ، لازم ذكر الخلوة ، فإن هر الهوى صيود . إياك والتقريب من طرف الوكر والخروج من بيت العزلة حتى تتكامل نبات الخوافى ، وإلا كنت رزق الصائد . الأنس بالخلوة دبق ، أول ما يعلق جناح الطير ، والمخالطة توجب التخليط ، وأيسرها تشتيت الهمة وضعف العزيمة .

أقل ما فى سقوط الذئب فى غنم إن لم يصب بعضها أن تنفر الغنم

إن لم تكن من جملة المستحقين للميراث ، فكن من رفقة : ﴿**وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى**﴾ [ النساء : ٨ ] . ويحك لا تحقر نفسك ، فالتائب حبيب ، والمنكسر صحيح . إقرارك بالإفلاس عين الغنى. تنكيس رأسك بالندم هو الرفعة . اعترافك بالخطأ نفس الإصابة . عرضت سلعة العبودية فى سوق البيع فبذلت الملائكة نقد : ﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ**﴾ [ البقرة:٣٠] فقال آدم : ما عندى إلا فلوس الإفلاس ، نقشها : ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا**﴾ [ الأعراف : ٢٣] فقيل : هذا الذى ينفق على خزانة الخاص. أنين المذنبين أحب إلينا من زجل المسبحين . إن كان يأجوج الطبع ومأجوج الهوى قد عاثوا فى أرض القلوب فأفسدوا فيها ، فأعينوا الملك بقوة ، يجعل بينكم وبينهم ردما . اجمعوا له من العزائم ما يشابه زبر الحديد ، ثم تفكروا فيما أسلفتم ليثور صعد الأسف فلا يحتاج إلى أن يقول لكم : انفخوا . شدوا بنيان العزم بهجر المألوفات والعوائد ، وقد استحكم البناء ، فحينئذ أفرغوا عليه : قطر الصبر. وهكذا بنى الأولياء قبلكم فجاء العدو ، ﴿**فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا** (٩٧) ﴾ [ الكهف ]. ضاقت أيام الموسم، فأسرعوا بالإبل . لا تفتكم الوقفة إذا لم تخلص فلا تتعب . لا تحد ومالك بعير. لا تمد القوس وما لها وتر . كم بذل نفسه مراء ليمدحه الخلق فذهبت نفسه ، فانقلب المدح ذما . ولو بذلها لله لبقيت ما بقى الدهر . عمل المرائى بصلة كلها قشوره المرائى يحشو جراب الزوادة رملا يثقله فى الطريق وما ينفعه . ريح الرياء جيفة تجافاها مشام القلوب . لما أخذ دود القز ينسج أقبلت العنكبوت تشبهه ، وقالت : لك نسج ولى نسج ، فقالت دودة القز : ولكن نسجى أردية الملوك ، ونسجك شبكة الذباب ، وعند مس الحاجة يتبين الفرق .

إذا اشتبكت دموع فى خدود تبين من بكا ممن تباكا

شجرة الصنوبر تثمر فى ثلاثين سنة ، وشجرة الدباء تصعد فى أسبوعين ، فتقول للصنوبرة : إن الطريق التى قطعتها فى ثلاثين سنة قطعتها فى أسبوعين ، ويقال: لى شجرة ولك شجرة . فقالت لها الصنوبرة : مهلا حتى تهب رياح الخريف ، فإن ثبت لها تم

فخرك . كان التصوف والفقر فى مواطن القلوب ، فصار فى ظواهر الثياب . كان خرقة فصار حرفة . غير ذيك أيها المرائى ، فإنه يصيح بك : خذونى . السيف والدرع لتزيين هيئتك ، فضيحة البهرج تبين عند المحك . لو أبصرت طلائع الصديقين فى أوائل الركب ، أو سمعت استغاثة المحبين فى وسط الركب ، أو شاهدت ساقة المستغفرين فى آخر الركب ، لعلمت أنك قد انقطعت تحت شجر أمّ غيلان . واحسرتا لمنقطع دون الركب يعد المنازل .

أعد الليالى ليــلة بعــد ليــلة     وقد عشت دهراً لا أعد اللياليا

وقد يجمع الله الشتيتين بعدمـا     يظـنان كـل الظن أن لا تلاقيا

إلام الرواح فى الهوى والتفليس ، وحتام السعى فى صحبة إبليس وكم بهرجة فى العمل وتدليس . أين أقرانك ؟ هل تسمع لهم من حسيس . أعلمت أنهم اشتد ندمهم وحسرتهم على إيثار الخسيس . تالله لقد ودوا أن لو كانوا طلقوا الدنيا قبل المسيس .

عين المنية تغضى غير مطرقة     وطرف مطلوبها مذ كان وسنان

جهلا تمكن منه حين مولده     فالنطق صاح ولب المرء سكران

لا تنفع الرياضة إلا فى نجيب . لو سقى الحنظل بماء السكر لم يخرج إلا مرًا ، شجر الأثل والصفصاف والحور ونحوها ، ولو دام الماء فى عروقها لا تثمر أبدا . سحاب الهوى قد طبق بيداء الأكوان ، وأمطر مشارق الأرض ومغاربها ، ولكن قيعان أرض قلبك قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، ومع هذا فلا تيأس ، فقد يستحيل الخمر خلا ، ولكن إنما ذلك لطيب العنصر . خلا الفكر فى القلب فى بيت التلاوة ، فجرى ذكر الحبيب وأوصافه ، فنهض الشوق على قدم السعى ، يا من لم يشاهد جمال يوسف لم يعرف ما الذى آلم قلب يعقوب .

من لم يبت والحب حشو فؤاده     لم يدر كيف تفتت الأكباد

يا من هبت على قلبه جنوب المجانبة ، فتكاثفت عليه غيوم الغفلة ، فأظلم أفق المعرفة. لا تيأس فالشمس تحت الغيم . لو تصاعد منك نفس أسف ، استحالت شمالا فتقطع السحاب ، فبانت الشمس تحته . لما كان رزق الطائر اختلاسا لم يجعل له أسنان ، لأن زمن الانتهاب لا يحتمل المضغ ، وجعل له حـوصلة كالمخـلاة ينقل إليها ما يستلب ، ثم تنقله إلى القانصة فى زمن الإمكان ، فإن كانت له أفراخ أسهمهم قبل النقل . كلما طالت ساق الحيوان طال عنقه ليمكنه تناول الأطعمة من الأرض . رميت صخرة الهوى على ينبوع الفطنة فاحتبس الماء ، فإن لم تطق رفعها فانقب حولها ، لعل ينابيع الماء تتفجر .

لو بعت لحظة من إقبالك على الله بمقدار عمر نوح في ملك قارون،لكنت مغبونا فى العقد. عشاق الدنيا بين مقتول ومأسور﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾[ الأحزاب: ٢٣] .

يا طالبى العلم قد كتبتم ودرستم ، فلو طلبكم العلم فى بيت العمل فلستم ،وإن ناقشكم على الإخلاص أفلستم. شجرة الإخلاص أصلها ثابت لا يضرها زعازع: ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢)﴾[ القصص] .وأما شجرة الدباء فإنها تجتث عند نسمة «من كان يعبد شيئا فليتبعه » (١) .رياء المرائين صير مسجد الضرار مزبلة ،وخربه ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [التوبة : ١٠٨] وإخلاص المخلصين رفع قدر التفث « رب أشعث أغبر » (٢) قلب من ترائيه بيد من أعرضت عنه يصرفه عنك إلى غيرك فلا على ثواب المخلصين حصلت ،ولا إلى ما قصدته بالرياء وصلت ،وفات الأجر والمدح ، فلا هذا ولا هذا لا تنقش على الدرهم الزائف اسم الملك، فإنه لا يدخل الخزانة إلا بعد النقد .المخلص يتبهرج على الخلق بستر حاله وببهرجته يصح له النقد .والمرائى يتبرطل على باب الملك ، يوهم أنه من الخواص وهو غريب ، فسله عن أسرار الملك يفتضح ، فإن خفى عليك فانظر حاله مع خاصة الملك ، يا من لم يصبر عن الهوى صبر يوسف يتعين عليه بكاء يعقوب .فإن لم يطق فذل أخوته يوم ﴿تَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ [ يوسف : ٨٨] إذا طاب لبث الطين على حافات الأنهار تكامل ريه ،فإذا نضب عنه الماء استلبت الشمس ما فيه من الرطوبة فيشتد شوقه إلى الماء . فلو وضعت منه قطعة على لسانك لأمسكه وعلق به شوقا إلى الورد . فيا من نضب ماء معاملته ، هل أحسست بالعطش .

مداراة الضعفاء باللطف ، فإذا قووا شدد عليهم . مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم على تركها لعشر . كان الإسلام فى بدايته كالنطفة ، فاقتنع بكلمة التوحيد ، فلما نفخ فيه الروح احتاج إلى الغذاء ففرضت الصلاة ، فلما تحرك وجبت الهجرة ، فلما اشتد وجبت الزكاة ، فلما قربت الولادة لزم الحج ، فلما ظهر طفلا حبى بلطف ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ﴾ [ البقرة: ١٨٥] فلما خاف من الزلل والعقاب جاءت بشارة ﴿ لَا تَقْنَطُوا ﴾ [ الزمر : ٥٣] فلما ترعرع قال المؤدب : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [ النساء : ١٢٣] فلما بلغ أشده واستوى جاء ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [ آل عمران : ٣٠] .المتعبدون بالليل يقربون إلى نوق الأبدان خيط الرقاد ، فإذا تناولت سد الفاقة رفعت رؤوسها ، فإذا الدليل على الجادة فتأخذ فى السير . من النجوم الجوارى مؤذن ومنها مقيم ، فأرباب العزائم يؤذن فى محلتهم بليل ،ويقاوم لهم أول الوقت ،ومن دونهم يصلون فى أول الوقت ،وأهل الفتور فى آخره . إذا هجمت جنود الرقاد على العيون ، صاح حارس اليقظة بالمتعبدين: الصلاة خير من النوم ،وهتف

---

(١) السنة لابن أبى عاصم ( ٤٧٥ ) ،وصححه الألبانى .

(٢) الطبرانى فى الأوسط ( ٨٦١ )،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٦٧) فى الزهد ،باب : فيمن لا يؤبه له : « فيه عبد الله بن موسى التيمى ،وقد وثق ، بقية رجاله الصحيح ».

رقيب المعاتبة كذب من ادعى محبتى حتى إذا جنه الليل نام عنى ، فيصيح المشتاق :

سلوا الليل عنى مذ تناءت دياركم ... هل اكتحلت بالغمض لى فيه أجفان

ثم تمر بالمتهجدين سيارة النجوم فيبعثون مع كل فج رسالة ، فتسلم أخباره إلى الركب السحر ، فتهب لمجيئها رياح الأسحار ، فيقول المنتظر : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ [ يوسف : ٩٤]، سبحان من أنعم على الموجودات بإيجادها من غير طلب ، فلما وجدت بسطت أكف السؤال لطلب تكميلها . فالأجنة فى بطون الأمهات تطلب تكميل الخلق ، والبذر تحت التراب يطلب قوته من الرى . ومخ الثمار ينتظر من فضله كمال نضجه ، ومراكب البحار ترجو تحريكها بالرياح . وأصحاب البضائع ينتظرون وجود الأرباح عليهم . وطلاب العلم يسألون فتح منغلق الفهم .وأهل المجاهدة يرومون المعاونة على الطبع . والمظلوم يترقب طلوع فجر النصر . والمريض يتململ بين يديه طلبا للطفه . والمكروب ينتظر كشف ما به . والخائف يترقب بريد الأمن والأبدان المتمزقة فى اللحود تنتظر جمع الشمل بعد الشتات . وعرائس الجنان يسألن سلامة بعوالتهن وتعجيل اللقاء . فإذا قام الخلق من أطباق التراب بأنعاش البعث يسألنى نكس صاحب الزلل رأس الندم طلبا للعفو . ومد العابد يد التقاضى بالمسلم فيه عند حلول الأجل ، وحدق الزاهد إلى جزاء الصبر . وأشرف المحب على أطلال الشوق إلى الحبيب . وصاح العارف بلسان الوجد إذا لم يبق وقت للصمت :

لى عندكم دين فواعجبا ... الدين لى وفؤادى الرهن

من شاء باهلنى باهلته بهم ... وبعد عند ورود الحوض نستبق

غيره :

عدمت دوائى بالعراق وربما ... وجدت بنجد لى طبيبا مداويا

ويا جبل الريان إن تعر منهم ... فإنى سأكسوك الدموع الجواريا

ومن حذرى لا أسأل الركب عنهم ... وإغلاق وجدى باقيات كما هيا

ومن يسأل الركبان عن كل غائب ... فلا بد أن يلقى بشيرا وناعيا(١)

## وأيضا

من نبت جسمه على الحرام فمكاسبه كبريت به يوقد عليه . الحجر المغصوب فى البناء أساس الخراب . أتراهم نسوا طىّ الليالى لمن تقدمهم﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾[ سبا: ٤٥] ،

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٢٢٤ ـ ٢٣٩) .

فما هذا الاغترار﴿ **وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلات** ﴾ [الرعد:٦] ، ﴿ **فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِم** ﴾[ يونس:١٠٢] ،من لهم إذا طلبوا العودة فحيل بينهم وبين ما يشتهون سبحان الله،كم بكت فى تنعم الظالم عين أرملة،واحترقت كبد يتيم وجرت دمعة مسكين،﴿ **كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦)** ﴾ [ المرسلات ]، ﴿ **وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)** ﴾ [ ص] ، ما ابيض لون رغيفهم حتى اسود لون ضعيفهم .وما سمنت أجسامهم حتى انتحلت أجسام ما استأثروا عليه .لا تحتقر دعاء المظلوم فشرر قلبه محمول بعجيج صوته إلى سقف بيتك . ويحك نبال أدعيته مصيبة وإن تأخر الوقت .قوسه قلبه المقروح ، ووتره سواد الليل ، وأستاذه صاحب «لأنصرنك ولو بعد حين» ،وقد رأيت ولكن لست تعتبر ، احذر عداوة من ينام وطرفه باك يقلب وجهه فى السماء .يرمى سهامًا ما لها غرض سوى الأحشاء منك ، فربما ولعلها إذا كانت راحة اللذة تثمر ثمر العقوبة لم يحسن تناولها . ما تساوى لذة سنة غم ساعة فكيف والأمر بالعكس . كم فى يم الغرور من تمساح فاحذر يا غائص . ستعلم أيها الغريم قصتك عند تعلق الغرماء بك .

إذا التقى كل ذى دين وماطله ... ستعلم ليلى أى دين تداينت

من لم يتتبع بمنقاش العدل شوك الظلم من أيدى التصرف أثر ما لا يؤمن تعديه إلى القلب . يا أرباب الدول ، لا تعربدوا فى سكر القدرة فصاحب الشرطة بالمرصاد . سليمان الحكم قد حبس عاصف العقوبة فى حصن﴿ **فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)** ﴾ [ مريم ] وأجرى رحا الرخا ﴿ **لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ** ﴾[ النساء :١٦٥] فلو هبت سموم الجزاء من مهب ﴿ **وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ** ﴾ [الأنبياء: ٤٦] . قلعت سكرى ﴿ **أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ** ﴾ [ آل عمران : ١٧٨] فإذا طوفان التلف ينادى فيهم ﴿ **لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ [ هود : ٤٣]. فالحذر أن تقول نفس ﴿ **يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ** ﴾ [ الزمر : ٥٦ ]. وأنت أيها المظلوم فتذكر من أين أتيت،فإنك لا تلقى كدرا إلا من طريق جناية﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [ الرعد : ١١]. ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ** ﴾ [ الشورى : ٣٠]. كان لبان يشوب الماء باللبن فجاء سيل فذهب بالغنم ، فجعل يبكى فهتف به هاتف :اجتمعت تلك القطرات فصارت سيلا ، ولسان الجزاء يناديه : يداك أوقدتا ، وفوك نفخ . اذكر غفلتك عن الأمر والأمر وقت الكسب . ولا تنس اطراح التقوى عند معاملة الخلق ، فإذا انقض غاصب فسمعت صوت سوطه يضرب عقد المكسب جزاء لخيانته العقود فلا تستعظم ذاك ، فأنت الجانى ،والبادى أظلم (١) .

---

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٢٤٢ ـ ٢٤٣) .

مَوسُوعَةُ الأعمَالِ الكَامِلَة
لِلإمَامِ ابنِ قيِّمِ الجَوزِيَّة

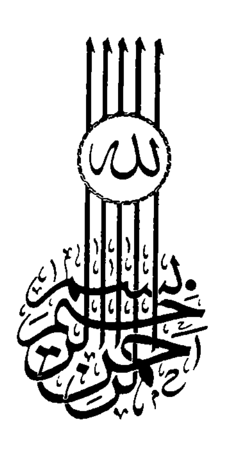


# جَامِعُ الآدَابِ

جمعهُ ووثّق نصُوصَه وخرّج أحاديثه

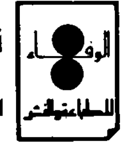
**يُسري السَّيِّد محمَّد**

الجُزءُ الثَّانِي




جامع الآداب

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة
الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب:٢٣٠
ت:٢٢٥٦٢٢٠/ ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤/ ٠٥٠
المكتبة: أمام كلية الطب ت٢٢٤٩٥١٣/ ٠٥٠
E-Mail : DAR ELWAFA @ HOTMAIL. COM

# كتاب

# الفتيا وآداب المفتين

## فصل
## فى أن النبى ﷺ أول المفتين

أول من قام بهذا المنصب الشريف سيدُ المرسلين ، وإمام المتقين ،وخاتم النبيين ، عبد الله ورسوله ، وأمينُه على وحيه ، وسفيره بينه وبين عباده ، فكان يفتى عن الله بوحيه المبين ، وكان كما قال له أحكم الحاكمين : ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ ص : ٨٦ ] ، فكانت فتاويه ﷺ جوامع الأحكام ،ومشتملة على فصل الخطاب ، وهى فى وجوب اتباعها وتحكيمها والتحاكم إليها ثانية الكتاب وليس لأحد من المسلمين العدول عنها ما وجد إليها سبيلا . وقد أمر الله عباده بالرد إليها حيث يقول: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩].

## فصل
## فى قيام الصحابة بالفتوى بعد النبى ﷺ

ثم قام بالفتوى بعده برَك الإسلام ، وعصابة الإيمان ، وعسكر القرآن،وجند الرحمن، أولئك أصحابه ﷺ ألينُ الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، وأحسنها بيانا ، وأصدقها إيمانا ، وأعمها نصيحة ، وأقربها إلى الله وسيلة . وكانوا بين مكثر منها ، ومقل ومتوسط .

والذين حفظت عنهم الفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ مائة ونيف وثلاثون نفسا ما بين رجل وامرأة .

وكان المكثرون منهم سبعة : عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعائشة أم المؤمنين،وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر . قال أبو محمد بن حزم : ويمكن أن يجمع من فتوى كل واحد منهم سفر ضخم . قال : وقد جمع أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب ابن أمير المؤمنين المأمون فتيا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فى عشرين كتابا .

وأبو بكر محمد المذكور أحد أئمة الإسلام فى العلم والحديث .

قال أبو محمد : المتوسطون منهم فيما روى عنهم من الفتيا : أبو بكر الصديق ، وأم سلمة ، وأنس بن مالك ، وأبو سعيد الخدرى ، وأبو هريرة ، وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن عمر بن العاص ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو موسى الأشعرى ، وسعد بن أبى وقاص ، وسلمان الفارسى ، وجابر بن عبد الله ، ومعاذ بن جبل : فهؤلاء ثلاثة عشر يمكن أن يجمع من فتيا كل واحد منهم جزء صغير جدا ، ويضاف إليهم طلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ،وعمران بن حصين ،وأبو بكَرَةَ ،وعبادة بن الصامت ،ومعاوية بن أبى سفيان .

والباقون منهم مقلون فى الفتيا لا يروى عن الواحد منهم إلا المسألة والمسألتان ، والزيادة اليسيرة عن ذلك ، يمكن أن يجمع من فتيا جميعهم جزء صغير فقط بعد التقصى والبحث ، وهم : أبو الدرداء ، وأبو اليسر ، وأبو سلمة المخزومى ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسعيد بن زيد ، والحسن والحسين ابنا على ، والنعمان بن بشير ، وأبو مسعود، وأُبىّ بن كعب ، وأبو أيوب ، وأبو طلحة ، وأبو ذرٍّ ، وأم عطية ، وصفية أم المؤمنين ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وأسامة بن زيد ، وجعفر بن أبى طالب ، والبراء بن عازب ، وقرظة بن كعب ، ونافع أخو أبى بكَرَةَ لأمه ، والمقداد بن الأسود ، وأبو السنابل ، والجارود ،والعبدى ، وليلى بنت قائف ، وأبو محذورة ، وأبو شريح الكعبى ، وأبو برزة الأسلمى ، وأسماء بنت أبى بكر ، وأم شريك ، والخولاء بنت تويت،وأسيد بن الحضير ، والضحاك بن قيس ، وحبيب بن مسلمة ، وعبد الله بن أنيس ، وحذيفة بن اليمان ، وثُمامَة بن أثال ، وعمار بن ياسر ، وعمرو بن العاص ،وأبو الغادية السلمى ، وأم الدرداء الكبرى ، والضحاك بن خليفة المازنى ، والحكم بن عمرو الغفارى ، ووابصة بن معبد الأسدى ، وعبد الله بن جعفر البرمكى ، وعوف بن مالك ، وعدى بن حاتم ، وعبد الله ابن أبى أوفى ، وعبد الله بن سَلام ، وعمرو بن عبسة ، وعتاب بن أسيد ، وعثمان بن أبى العاص ، وعبد الله بن سرجس ، وعبد الله بن رواحة ، وعقيل بن أبى طالب ، وعائذ بن عمرو ، وأبو قتادة عبد الله بن معمر العدوى ، وعُمَىّ بن سُعلة ، وعبدَ الله بن أبى بكر الصديق ، وعبد الرحمن أخوه ، وعاتكة بنت زيد بن عمرو ، وعبد الله بن عوف الزهرى ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وأبو منيب ، وقيس بن سعد ، وعبد الرحمن بن سهل ، وسَمُرَة بن جندب ، وسهل بن سعد الساعدى، وعمرو بن مقرن ، وسويد بن مقرن ، ومعاوية بن الحكم ، وسهلة بنت سهيل ، وأبو حذيفة بن عتبة ، وسلمة بن الأكوع ، وزيد بن أرقم ، وجرير بن عبد الله البجلى ، وجابر بن سلمة ،

وجويرية أم المؤمنين ، وحسان بن ثابت ، وحبيب بن عدى ، وقدامة بن مظعون ، وعثمان ابن مظعون ، وميمونة أم المؤمنين ، ومالك بن الحويرث . وأبو أمامة الباهلى ، ومحمد ابن مسلمة ، وخباب بن الأرت ، وخالد بن الوليد ، وضمرة بن الفيض ، وطارق بن شهاب ، وظهير بن رافع ، ورافع بن خديج ، وسيدة نساء العالمين : فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وفاطمة بنت قيس ، وهشام بن حكيم بن حزام ، وأبوه : حكيم بن حزام ، وشُرَحبيل بن السمط ، وأم سلمة ، ودحية بن خليفة الكلبى ، وثابت بن قيس بن الشماس ، وثوبان مولى رسول الله ﷺ ، والمغيرة بن شعبة ، وبُرَيدة بن الحصيب الأسلمى ، ورويفع بن ثابت ، وأبو حميد ، وأبو أسيد ، وفضالة بن عبيد ، وأبو محمد روينا عنه وجوب الوتر ـ قلت :أبو محمد هو : مسعود بن أوس الأنصارى نجارى بدرى ـ وزينب بنت أم سلمة ، وعتبة بن مسعود ، وبلال المؤذن ، وعروة بن الحارث ، وسياه بن روح أو روح بن سياه ، وأبو سعيد بن المعلى ،والعباس بن عبد المطلب ، وبشر بن أرطاة، وصهيب بن سنان ، وأم أيمن ، وأم يوسف ،والغامدية ،وماعز ،وأبو عبد الله البصرى .

فهؤلاء من نقلت عنهم الفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ ، وما أدرى بأى طريق عد معهم أبو محمد الغامدية وماعزاً ، ولعله تخيل أن إقدامهما على جواز الإقرار بالزنا من غير استئذان لرسول الله ﷺ فى ذلك هو فتوى لأنفسهما بجواز الإقرار ، وقد أقر عليها ، فإن كان تخيل هذا فما أبعده من خيال !! أو لعله ظفر عنهما بفتوى فى شىء من الأحكام .

## فصل
## فى أن الصحابة رضى الله عنهم سادة المفتين من الأمة

وكما أن الصحابة سادة الأمة وأئمها وقادتها ، فهم سادات المفتين والعلماء . قال الليث ، عن مجاهد : العلماء أصحاب محمد ﷺ . وقال سعيد عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ [ سبأ : ٦ ] قال : أصحاب محمد ﷺ .

وقال يزيد بن عمير : لما حضر معاذ بن جبل الموت ، قيل:يا أبا عبد الرحمن أوصنا ، قال: « أجلسونى ، إن العلم والإيمان مكانهما من ابتغاهما وجدهما » يقول ذلك ثلاث مرات: التمس العلم عند أربعة رهط :عند عويمر بن أبى الدرداء ، وعند سلمان

الفارسى، وعند عبد الله بن مسعود ، وعند عبد الله بن سلام .

وقال مالك بن يخامر : لما حضر معاذ الوفاة بكيت ، فقال: ما يبكيك ؟ قلت : والله ما أبكى على دنيا كنت أصيبها منك ، ولكن أبكى على العلم والإيمان اللذين كنت أتعلمهما منك ، فقال : إن العلم والإيمان مكانهما من ابتغاهما وجدهما ، اطلب العلم عند أربعة فذكر هؤلاء الأربعة ، ثم قال : فإن عجز عنه هؤلاء فسائر أهل الأرض عنه أعجز ، فعليك بمعلم إبراهيم ، قال : فما نزلت بى مسألة عجزت عنها إلا قلت : يا معلم إبراهيم .

وقال أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن أبى إسحاق ، قال : قال عبد الله : علماء الأرض ثلاثة ، فرجل بالشام ، وآخر بالكوفة ، وآخر بالمدينة ، فأما هذان فيسألان الذى بالمدينة ، والذى بالمدينة لا يسألهما عن شىء .

وقال الشعبى: ثلاثة يستفتى بعضهم من بعض ، فكان عمر وعبد الله وزيد بن ثابت ، يستفتى بعضهم من بعض ، وكان على ، وأُبىّ بن كعب ، وأبو موسى الأشعرى يستفتى بعضهم من بعض .

قال الشيبانى : فقلت للشعبى : وكان أبو موسى بذاك ؟ فقال : ما كان أعلمه !! قلت : فأين معاذ ؟ فقال : هلك قبل ذلك .

وقال : أبو البخترى : قيل لعلى بن أبى طالب : حدثنا عن أصحاب رسول الله ﷺ، قال : عن أيهم ؟ قال : عن عبد الله بن مسعود . قال : قرأ القرآن ، وعلم السنة ثم انتهى ، وكفاه بذلك . قال : فحدثنا عن حذيفة ، قال : أعلم أصحاب محمد بالمنافقين ، قالوا : فأبو ذر ؟ قال : كنيف ملئ علما ، عجز فيه . قالوا : فعمار ؟ قال : مؤمن نسى إذا ذكرته ذكر ،خلط الله الإيمان بلحمه ودمه ، ليس للنار فيه نصيب . قالوا:فأبو موسى ؟ قال : صبغ فى العلم صبغة . قالوا : فسلمان ؟ قال : علم العلم الأول والآخر ، بحر لا ينزح ، منا أهل البيت . قالوا : فحدثنا عن نفسك يا أمير المؤمنين ، قال : إياها أردتم ، كنت إذا سئلت أعطيت وإذا سكت ابتديت .

وقال مسلم ، عن مسروق : شاممت أصحاب محمد ﷺ فوجدت علمهم ينتهى إلى ستة : إلى على ، وعبد الله ، وعمر ، وزيد بن ثابت ، وأبى الدرداء ، وأبى بن كعب ، ثم شاممت الستة ، فوجدت علمهم انتهى إلى على ، وعبد الله .

وقال مسروق أيضا : جالست أصحاب محمد ﷺ فكانوا كالإخاذ ، الإخاذة تروى الراكب ، والإخاذة تروى الراكبين ، والإخاذة تروى العشرة ، والإخاذة لو نزل بها أهل

الأرض لأصدرتهم ، وإن عبد الله من تلك الإخاذ .

وقال الشعبى : إذا اختلفت الناس فى شىء فخذوا بما قال عمر .

وقال ابن مسعود : إنى لأحسب عمر ذهب بتسعة أعشار العلم .

وقال أيضا : لو أن علم عمر وضع فى كفة الميزان ، ووضع علم أهل الأرض فى كفة لرجح علم عمر .

وقال حذيفة : كأن علم الناس مع علم عمر دس فى جحر .

وقال الشعبى : قضاة هذه الأمة عمر وعلى وزيد وأبو موسى .

وقال سعيد بن المسيب : كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن .

وشهد رسول الله ﷺ لعبد الله بن مسعود بأنه عليم معلم ، وبدأ به فى قوله : « خذ القرآن من أربعة : من ابن أم عبد ، ومن أبى بن كعب ، ومن سالم مولى أبى حذيفة ، ومن معاذ بن جبل » (١) .

ولما ورد أهل الكوفة على عمر أجازهم ، وفضل أهل الشام عليهم فى الجائزة ، فقالوا: يا أمير المؤمنين ، تفضل أهل الشام علينا ؟ فقال : يا أهل الكوفة أجزعتم أن فضلت أهل الشام عليكم لبعد شقتهم ، وقد آثرتكم بابن أم عبد ؟!

وقال عقبة بن عمرو : ما أرى أحداً أعلم بما أنزل على محمد ﷺ من عبد الله ، فقال أبو موسى : إن تقل ذلك ، فإنه كان يسمع حين لا نسمع ، ويدخل حين لا ندخل .

وقال عبد الله : ما أنزلت سورة إلا وأنا أعلم فيم أنزلت ، ولو أنى أعلم أن رجلا أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لأتيته .

وقال زيد بن وهب : كنت جالسا عند عمر فأقبل عبد الله فدنا منه ، فأكب عليه ، وكلمه بشىء ، ثم انصرف ، فقال عمر : كنيف ملئ علما ، وقال الأعمش عن إبراهيم : إنه كان لا يعدل بقول عمر وعبد الله إذا اجتمعا ، فإذا اختلفا ، كان قول عبد الله أعجب إليه ؛ لأنه كان ألطف .

وقال أبو موسى لمجلس كنت أجالسه : عبد الله أوثق فى نفسى من عمل سنة .

---

(١) البخارى (٣٨٠٨) فى مناقب الأنصارى ، باب : مناقب أبى بن كعب رضى الله عنه ، ومسلم (٢٤٦٤ / ١١٦) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما ، والترمذى (٣٨١٠) فى المناقب ، باب : مناقب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وأحمد (٢ / ١٩٠ ، ١٩١) ، كلهم بلفظ: «خذوا».

وقال عبد الله بن بريدة فى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ [ محمد : ١٦ ] قال : هو عبد الله بن مسعود .

وقيل لمسروق : كانت عائشة تحسن الفرائض ، وقال : والله لقد رأيت الأحبار من أصحاب رسول الله ﷺ يسألونها عن الفرائض .

وقال أبو موسى : ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ حديث قط ، فسألناه عائشة إلا وجدنا عندها منه علما .

وقال ابن سيرين :كانوا يرون أن أعلمهم بالمناسك عثمان بن عفان ثم ابن عمر بعده .

وقال شهر بن حوشب : كان أصحاب محمد ﷺ إذا تحدثوا ، وفيهم معاذ نظروا إليه هيبة له .

وقال على : أبو ذر أوعى علما ثم أوكى عليه ، فلم يخرج منه شيئا حتى قُبِض .

وقال مسروق : قدمت المدينة فوجدت زيد بن ثابت من الراسخين فى العلم .

وقال الجريرى عن أبى تميمة : قدمنا الشام ، فإذا الناس مجتمعون ، يطيفون برجل ، قال : قلت من هذا ؟ قالوا : هذا أفقه من بقى من أصحاب النبى ﷺ ، هذا عمرو البكالى .

وقال سعيد :قال ابن عباس وهو قائم على قبر زيد بن ثابت : هكذا يذهب العلم .

وكان ميمون بن مهران إذا ذكر ابن عباس ، وابن عمر عنده ، يقول : ابن عمر أورعهما ، وابن عباس أعلمهما .

وقال أيضا : ما رأيت أفقه من ابن عمر ، ولا أعلم من ابن عباس .

وكان ابن سيرين يقول : اللهم أبقنى ما أبقيت ابن عمر ، أقتدى به .

وقال ابن عباس : ضمنى رسول الله ﷺ ، وقال :« اللهم علمه الحكمة » (١) .

وقال أيضا : دعانى رسول الله ﷺ فمسح على ناصيتى ، وقال :« اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب » (٢) .

---

(١) البخارى (٣٧٥٦) فى فضائل الصحابة ، باب : ذكر ابن عباس رضي الله عنهما ، والترمذى (٢٦٢٤) فى المناقب ، باب : مناقب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ،وأحمد ١/ ٣٥٩ بلفظ : «الكتاب» بدل : «الحكمة »

(٢) الطبقات الكبرى (٢ / ٢٧٨) ، وابن ماجه (١٦٦) فى المقدمة ، باب :فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، وانفرد بلفظ:« ضمنى رسول الله ﷺ » .
وكنز العمال (٣٣٥٨٦) ، وانظر التعليق عليه : فتح البارى (١ / ١٧٠) .

ولما مات ابن عباس قال محمد بن الحنفية : مات ربانى هذه الأمة .

وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : ما رأيت أحدا أعلم بالسنة ، ولا أجلد رأيا ولا أثقب نظرا حين ينظر مثل ابن عباس ، وإن كان عمر بن الخطاب ليقول له : قد طرأت علينا عضل أقضية ، أنت لها ولأمثالها .

وقال عطاء بن أبى رباح :ما رأيت مجلسا قط أكرم من مجلس ابن عباس ، أكثر فقها، وأعظم . إن أصحاب الفقه عنده وأصحاب القرآن ، وأصحاب الشعر عنده يصدرهم كلهم فى واد واسع .

وقال ابن عباس:كان عمر بن الخطاب يسألنى مع الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ.

وقال ابن مسعود : لو أن ابن عباس أدرك أسناننا ما عسره منا رجل .

وقال مكحول : قيل لابن عباس : أنى أصبت هذا العلم ؟ قال : بلسان سؤول ، وقلب عقول .

وقال مجاهد : كان ابن عباس يسمى البحر من كثرة علمه .وقال طاوس :أدركت نحوا من خمسين من أصحاب رسول الله ﷺ ، إذا ذكر ابن عباس شيئا ، فخالفوه لم يزل بهم حتى يقررهم .

وقيل لطاوس : أدركت أصحاب محمد ﷺ ، ثم انقطعت إلى ابن عباس ، فقال : أدركت سبعين من أصحاب محمد ﷺ إذا تدارؤوا فى شىء انتهوا إلى قول ابن عباس .

وقال ابن أبى نجيح : كان أصحاب ابن عباس يقولون : ابن عباس أعلم من عمر ، ومن على ، ومن عبد الله ، ويعدون ناسا ، فيثب عليهم الناس ، فيقولون : لا تعجلوا علينا إنه لم يكن أحد من هؤلاء إلا وعنده من العلم ما ليس عند صاحبه ، وكان ابن عباس قد جمعه كله .

وقال الأعمش : كان ابن عباس إذا رأيته ، قلت : أجمل الناس ، فإذا تكلم قلت : أفصح الناس ، فإذا حدث قلت : أعلم الناس .

وقال مجاهد : كان ابن عباس إذا فسر الشىء رأيت عليه النور .

قال الشعبى : من سره أن يأخذ بالوثيقة فى القضاء فليأخذ بقول عمر .

وقال مجاهد : إذا اختلف الناس فى شىء فانظروا ما صنع عمر ، فخذو به .

وقال ابن المسيب : ما أعلم أحدا بعد رسول الله ﷺ أعلم من عمر بن الخطاب .

وقال أيضا : كان عبد الله يقول : لو سلك الناس واديا وشعبا ، وسلك عمر واديا وشعبا ، لسلكت وادى عمر وشعبه .

وقال بعض التابعين : دفعت إلى عمر ، فإذا الفقهاء عنده مثل الصبيان قد استعلى عليهم فى فقهه وعلمه .

وقال محمد بن جرير : لم يكن أحد له أصحاب معروفون حرروا فتياه ومذاهبه فى الفقه غير ابن مسعود ، وكان يترك مذهبه وقوله لقول عمر ، وكان لا يكاد يخالفه فى شىء من مذاهبه ، ويرجع من قوله إلى قوله ، وقال الشعبى : كان عبد الله لا يقنت ، وقال : ولو قنت عمر لقنت عبد الله .

وكان من المفتين : عثمان بن عفان ، قال ابن جرير : غير أنه لم يكن له أصحاب يعرفون ، والمبلغون عن عمر فتياه ومذاهبه وأحكامه فى الدين بعده كانوا أكثر من المبلغين عن عثمان والمؤدين عنه .

وأما على بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ فانتشرت أحكامه وفتاويه ، ولكن قاتل الله الشيعة ، فإنهم أفسدوا كثيرا من علمه بالكذب عليه ، ولهذا تجد أصحاب الحديث من أهل الصحيح لا يعتمدون من حديثه وفتواه ، إلا ما كان من طريق أهل بيته ، وأصحاب عبد الله بن مسعود كعبيدة السلمانى، وشريح ، وأبى وائل ونحوهم .

وكان ـ رضى الله عنه وكرم وجهه ـ يشكو عدم حملة العلم الذى أودعته ، كما قال : إن ههنا علما لو أصبت له حملة .

والدين والفقه والعلم انتشر فى الأمة عن أصحاب ابن مسعود ، وأصحاب زيد بن ثابت ، وأصحاب عبد الله بن عمر ، وأصحاب عبد الله بن عباس . فعلم الناس عامته عن أصحاب هؤلاء الأربعة ، فأما أهل المدينة فعلمهم عن أصحاب زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر ، وأما أهل مكة فعلمهم عن أصحاب عبد الله بن عباس ، وأما أهل العراق فعلمهم عن أصحاب عبد الله بن مسعود : قال ابن جرير : وقد قيل : إن ابن عمر وجماعة ممن عاش بعده بالمدينة من أصحاب رسول الله ﷺإنما كانوا يفتون بمذاهب زيد بن ثابت ، وما كانوا أخذوا عنه مما لم يكونوا حفظوا فيه عن رسول الله ﷺ قولا . وقال ابن وهب : حدثنى موسى بن على اللخمى عن أبيه : أن عمر بن الخطاب خطب الناس بالجابية ، فقال: من أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه ، يأت معاذ بن جبل ، ومن أراد المال فليأتنى .

وأما عائشة فكانت مقدمة فى العلم والفرائض والأحكام والحلال والحرام ، وكان من الآخذين عنها الذين لا يكادون يتجاوزون قولها المتفقهين بها : القاسم بن محمد بن أبى بكر ابن أخيها ، وعروة بن الزبير ابن أختها أسماء . قال مسروق : لقد رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ يسألونها عن الفرائض . وقال عروة بن الزبير : ما جالست أحدا قط كان أعلم بقضاء ، ولا بحديث بالجاهلية ، ولا أروى للشعر ، ولا أعلم بفريضة ، ولا طب من عائشة .

## فصل
## فى المفتين من التابعين

ثم صارت الفتوى فى أصحاب هؤلاء كسعيد بن المسيب راوية عمرو حامل علمه ، قال جعفر بن ربيعة : قلت لعراك بن مالك : من أفقه أهل المدينة ؟ قال : أما أفقههم فقها ، وأعلمهم بقضايا رسول الله ﷺ ، وقضايا أبى بكر ، وقضايا عمر ، وقضايا عثمان ، وأعلمهم بما مضى عليه الناس سعيد بن المسيب ، وأما أغزرهم حديثا فعروة بن الزبير ، ولا تشاء أن تفجر من عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود بحرا إلا فجرته .

قال عراق : وأفقههم عندى ابن شهاب؛لأنه جمع علمهم إلى علمه ، وقال الزهرى : كنت أطلب العلم من ثلاثة : سعيد بن المسيب ، وكان أفقه الناس ، وعروة بن الزبير ، وكان بحرا لا تكدره الدلاء ، وكنت لا تشاء أن تجد عند عبيد الله طريقة من علم لا تجدها عند غيره إلا وجدت .

وقال الأعمش : فقهاء المدينة أربعة : سعيد بن المسيب ، وعروة ، وقبيصة ، وعبد الملك .

## فصل

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لما مات العبادلة عبد الله بن عباس ، وعبد الله ابن الزبير ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، صار الفقه فى جميع البلدان إلى الموالى ، فكان فقيه أهل مكة : عطاء بن أبى رباح ، وفقيه أهل اليمن : طاوس ، وفقيه أهل اليمامة:يحيى بن أبى كثير ، وفقيه أهل الكوفة : إبراهيم ، وفقيه أهل البصرة : الحسن ، وفقيه أهل الشام : مكحول ، وفقيه أهل خراسان : عطاء الخرسانى ، إلا المدينة فإن الله

خصها بقرشى ، فكان فقيه أهل المدينة سعيد بن المسيب غير مدافع .

وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب، قال :مررت بعبد الله بن عمر ، فسلمت عليه ، ومضيت ، قال : فالتفت إلى أصحابه ، فقال : لو رأى رسول الله ﷺ هذا لسره ، فرفع يديه جدا وأشار بيده إلى السماء ، وكان سعيد بن المسيب صهر أبى هريرة زوجه أبو هريرة ابنته وكان إذا رآه قال:أسأل الله أن يجمع بينى وبينك فى سوق الجنة ، ولهذا أكثر عنه من الرواية .

## فصل

**وكان المفتون بالمدينة من التابعين** : ابن المُسَيَّب ، وعروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد ، وخارجة بن زيد ، وأبا بكر بن عبد الرحمن بن حارث بن هشام ، وسليمان بن يسار ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وهؤلاء هم الفقهاء ، وقد نظمهم القائل ، فقال :

إذا قيل من فى العلم سبعة أبحر روايتهم ليست عن العلم خارجة

فقل : هم عبيد الله ، عروة ، قاسم ، سعيد ، أبو بكر ، سليمان ، خارجة

وكان من أهل الفتوى أبان بن عثمان وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ونافع وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وعلى بن الحسين . وبعد هؤلاء : أبو بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم ، وابناه محمد وعبد الله وعبد الله بن عمر بن عثمان ، وابنه محمد ، وعبد الله ، والحسين ابنا محمد بن الحنفية ، وجعفر بن محمد بن على، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر ، ومحمد بن المنكدر ، ومحمد بن شهاب الزهرى ، وجمع محمد بن نوح فتاويه فى ثلاثة أسفار ضخمة على أبواب الفقه ، وخلق سوى هؤلاء .

## فصل

**وكان المفتون بمكة** : عطاء بن أبى رباح ، وطاوس بن كيسان ، ومجاهد بن جبر ، وعبيد بن عمير ، وعمرو بن دينار ، وعبد الله بن عبيد الله بن أبى مليكة : وعبد الرحمن ابن سابط ، وعكرمة مولى ابن عباس ثم بعدهم : أبو الزبير المكى وعبد الله بن طاوس، ثم بعدهم : عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، وسفيان بن عيينة .

وكان أكثر فتواهم فى المناسك ،وكان يتوقف فى الطلاق ، وبعدهم : مسلم بن خالد الزنجى ، وسعيد بن سالم القداح ، وبعدهما : الإمام محمد بن إدريس الشافعى، ثم عبد الله بن الزبير الحميدى، وإبراهيم بن محمد الشافعى ابن عم محمد ، وموسى بن أبى الجارود وغيرهم .

## فصل

**وكان من المفتين بالبصرة** : عمرو بن سلمة الجرمى ، وأبو مريم الحنفى ، وكعب بن سَوْد ، والحسن البصرى ، وأدرك خمسمائة من الصحابة ، وقد جمع بعض العلماء فتاويه فى سبعة أسفار ضخمة ، قال أبو محمد بن حزم : وأبو الشعثاء جابر بن زيد ، ومحمد بن سيرين ، وأبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمى ، ومسلم بن يسار ، وأبو العالية ، وحميد بن عبد الرحمن ،ومطرف بن عبد الله الشخير : وزرارة بن أبى أوفى وأبو بردة بن أبى موسى ثم بعدهم أيوب السختيانى ، وسليمان التيمى ، وعبد الله بن عوف ، ويونس بن عبيد ، القاسم بن ربيعة وخالد بن أبى عمران ، وأشعث بن عبد الملك الحمرانى ، وقتادة ، وحفص بن سليمان ، وإياس بن معاوية القاضى ، وبعدهم : سوار القاضى ، وأبو بكر العتكى ، وعثمان بن سليمان البتى وطلحة بن إياس القاضى ، وعبيد الله بن الحسن العنبرى ، وأشعث بن جابر بن زيد .

ثم بعد هؤلاء : عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى ، وسعيد بن أبى عروبة ، وحماد ابن سلمة ، وحماد بن زيد ، وعبد الله بن داود الحرشَى ،وإسماعيل بن علية ، وبشر بن المفضل ، ومعاذ بن معاذ العنبرى ، ومعمر بن راشد ، والضحاك بن مخلد ، ومحمد بن عبد الله الأنصارى .

## فصل

**وكان من المفتين بالكوفة** : علقمة بن قيس النخعى ، والأسود بن يزيد النخعى ، وهو عم علقمة ، وعمرو بن شُرَحبيل الهمدانى ، ومسروق بن الأجدع الهمدانى ، وعبيدة السلمانى ، وشريح بن الحارث القاضى ، وسليمان بن ربيعة الباهى ، وزيد بن صوحان ، وسويد بن غفلة ، والحارث بن قيس الجعفى ، وعبد الرحمن بن يزيد النخعى ، وعبد الله

ابن عتبة بن مسعود القاضى ، وخيثمة بن عبد الرحمن ، وسلمة بن صهيب ، ومالك بن عامر ، وعبد الله بن سخبرة ، وزِرّ بن حبيش ، وخلاس بن عمرو ، وعمرو بن ميمون الأودى ، وهمام بن الحارث ، والحارث بن سويد ، ويزيد بن معاوية النخعى ، والربيع بن خثيم ، وعتبة بن فرقد ، وصلة بن زُفر ، وشريك بن حنبل ، وأبو وائل : شقيق بن سلمة ، وعبيد بن نضلة . وهؤلاء أصحاب على وابن مسعود ، وأكابر التابعين كانوا يفتون فى الدين ، ويستفتيهم الناس وأكابر الصحابة حاضرون ، يجوزون لهم ذلك ، وأكثرهم أخذ عن عمر وعائشة وعلىّ ، ولقى عمرو بن ميمون الأودى معاذ بن جبل وصحبه وأخذ عنه وأوصاه معاذ عند موته أن يلحق بابن مسعود ، فيصحبه ، ويطلب العلم عنده ، ففعل ذلك .

ويضاف إلى هؤلاء أبو عبيدة ، وعبد الرحمن ابنا عبد الله بن مسعود ، وعبد الرحمن ابن أبى ليلى ، وأخذ عن مائة وعشرين من الصحابة ، وميسرة ، وزاذان والضحاك .

بعدهم إبراهيم النخعى ، وعامر الشعبى ، وسعيد بن جبير ، والقاسم بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن مسعود ، وأبو بكر بن أبى موسى ، ومحارب بن دثار ، والحكم بن عتيبة ، وجبلة بن سحيم ، وصحب ابن عمر ، ثم بعدهم : حماد بن أبى سليمان ، وسليمان بن المعتمر ، وسليمان الأعمش ، ومسعر بن كدام ، ثم بعدهم : محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، وعبد الله بن شبرمة ، وسعيد بن أشوع ، وشريك القاضى ، والقاسم بن معن ، وسفيان الثورى ، وأبو حنيفة والحسن بن صالح بن حى .

ثم بعدهم : حفص بن غياث ، ووكيع بن الجراح ، وأصحاب أبى حنيفة كأبى يوسف القاضى ، وزفر بن الهذيل ، وحماد بن أبى حنيفة ، والحسن بن زياد اللؤلؤى القاضى ، ومحمد بن الحسن قاضى الرقة ، وعافية القاضى ، وأسد بن عمرو ، ونوح بن دراج القاضى ، وأصحاب سفيان الثورى كالأشجعى ، والمعافى بن عمران ، وصاحبى الحسن بن حى الزولى ، ويحيى بن آدم .

## فصل

**وكان من المفتين بالشام** : أبو إدريس الخَوْلاَنى ، وشُرَحْبِيل بن السِّمْطِ ، وعبد الله ابن أبى زكريا الخزاعى ، وقَبِيصَة بن ذُؤَيْبِ الخزاعى ، وحبَّان بن أمية ، وسليمان بن حبيب المُحارِبى ، والحارث بن عميرة الزّبيدى ، وخالد بن مَعْدَان ، وعبد الرحمن بن غَنْم الأشعرى ، وجُبَير بن نُفَير ، ثم كان بعدهم : عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، ومكحول ،

وعمر بن عبد العزيز ، ورجاء بن حيوة ، وكان عبد الملك بن مروان يُعَد فى المفتين قبل أن يَلِى ما وَلِى ، وحدير بن كريب ، ثم كان بعدهم يحيى بن حمزة القاضى ، وأبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى،وإسماعيل بن أبى المهاجر ،وسليمان بن موسى الأموى ، وسعيد بن عبد العزيز ، ثم مخلد بن الحسين ، والوليد بن مسلم ، والعباس بن يزيد صاحب الأوزاعى ،وشعيب بن إسحاق صاحب أبى حنيفة ، وأبو إسحاق الفزارى صاحب ابن المبارك.

## فصل

**فى المفتين من أهل مصر** : يزيد بن أبى حبيب ، وبكير بن عبد الله بن الأشج ، وبعدهما : عمرو بن الحارث ، وقال ابن وهب : لو عاش لنا عمرو بن الحارث ما احتجنا معه إلى مالك ، ولا إلى غيره ، والليث بن سعد ، وعبيد الله بن أبى جعفر ، وبعدهم : أصحاب مالك كعبد الله بن وهب ، وعثمان بن كنانة ، وأشهب ، وابن القاسم على غَلَبَةِ تقليده لمالك إلا فى الأقل ، ثم أصحاب الشافعى كالمزنِى ، والبُوَيْطِىّ وابن عبد الحكم، ثم غلب عليهم تقليدُ مالك وتقليد الشافعى إلا قوما قليلا لهم اختيارات ، كمحمد بن على بن يوسف،وأبى جعفر الطحاوى ،وكان بالقيروان سَحْنُونُ بن سعيد ، وله كثير من الاختيار ، وسعيد بن محمد الحداد ، وكان بالأندلس ممن له شيء من الاختيار يحيى بن يحيى ، وعبدُ الملك بن حبيب ، وبقى بن مخلد ، والقاسم بن محمد صاحب الوثائق ، تحفظ لهم فتاوٍ يسيرة ،وكذلك مسلمة بن عبد العزيز القاضى ، ومنذر بن سعيد. قال أبو محمد : وممن أدركنا من أهل العلم على الصفة التى من بلغها استحق الاعتداد به فى الاختلاف : مسعود ابن سليمان ، ويوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر.

## فصل

**وكان باليمن** : مُطَرِّف بن مازن قاضى صنعاء ، وعبد الرزاق بن همام ، وهشام بن يوسف ، ومحمد بن ثور ، وسماك بن الفضل .

## فصل

وكان بمدينة السلام من المفتين خلق كثير ، ولما بناها المنصور أقدم إليها من الأئمة

والفقهاء والمحدثين بَشَرًا كثيرا ، فكان من أعيان المفتين بها أبو عبيد القاسم بن سلام ، وكان جبلا نفخ فيه الرُّوح علما وجلالة ونُبْلا وأدبًا ، وكان منهم : أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبى صاحب الشافعى ، وكان قد جالس الشافعى وأخذ عنه ، وكان أحمد يعظمه ويقول : هو فى سلاخ الثورى .

وكان بها إمام أهل السنة على الإطلاق أحمد بن حنبل ، الذى ملأ الأرض علما وحديثًا وسنة ، حتى إن أئمة الحديث والسنة بعده هم أتباعه إلى يوم القيامة ، وكان ﷺ شديد الكراهة لتصنيف الكتب ،وكان يحب تجريد الحديث ، ويكره أن يكتب كلامه ، ويشتد عليه جدا ، فعلم الله حسن نيته وقصده ، فكتب من كلامه وفتواه أكثر من ثلاثين سفرًا ، ومنَّ الله ـ سبحانه ـ علينا بأكثرها ، فلم يفتنا منها إلا القليل .

وجمع الخلال نصوصه فى الجامع الكبير ، فبلغ نحو عشرين سفرًا أو أكثر ، ورويت فتاويه ومسائله ، وحُدِّث بها قرنا بعد قرن ، فصارت إماما وقدوة لأهل السنة على اختلاف طبقاتهم ، حتى إن المخالفين لمذهبه بالاجتهاد ، والمقلدين لغيره لَيعظِّمون نصوصه وفتاواه ، ويعرفون لها حقها وقربها من النصوص ، وفتاوى الصحابة . ومن تأمل فتاواه وفتاوى الصحابة رأى مطابقة كل منها على الأخرى ورأى الجميع كأنها تخرج من مِشْكاة واحدة ، حتى إن الصحابة إذا اختلفوا على قولين جاء عنه فى المسألة روايتان ، وكان تحريه لفتاوى الصحابة كمتحرّى أصحابه لفتاويه ونصوصه بل أعظم ، حتى إنه ليقدم فتاواهم على الحديث المرسل ، قال إسحاق بن إبراهيم بن هانئ فى مسائله : قلت لأبى عبد الله : حديث عن رسول الله ﷺ مرسل برجال ثَبْت ، أحب إليك أو حديث عن الصحابة والتابعين متصل برجال ثبْت ؟ قال أبو عبد الله ـ رحمه الله : عن الصحابة أعجب إلى[(١)].

## فصل
## فى عِظَم أمر الفتوى

عن محمد بن المنكدر قال: إن العالم بين الله وبين خلقه ، فلينظر كيف يدخل بينهم .

وقال سهل بن عبد الله : من أراد أن ينظر إلى محاسن الأنبياء فلينظر إلى محاسن العلماء، يجىء الرجل فيقول : يا فلان أيش تقول فى رجل حلف على امرأته بكذا وكذا ، فيقول : طلقت امرأته ، وهذا مقام للأنبياء ، فاعرفوا لهم ذلك .

---

(١) إعلام الموقعين (١ / ١١ ـ ٢٩) .

قال عبد الرحمن بن أبى ليلى : أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يسأل أحدهم المسألة فيردها هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا ، حتى ترجع إلى الأول، ما منهم من أحد إلا ودّ أن أخاه كفاه الفتيا .

وقال ابن مسعود : من أفتى الناس فى كل ما يستفتونه فهو مجنون . وعن ابن عباس رضي الله عنهما نحوه . وقال حصين الأسدى : إن أحدكم ليفتى فى المسألة ،لو ردت على عمر بن الخطاب لجمع لها أهل بدر . وعن الحسن والشعبى مثله .

وقال الحاكم : سمعت أبا عبد الله الصفار يقول : سمعت عبد الله بن أحمد يقول : سمعت أبى يقول : سمعت الشافعى يقول : سمعت مالك بن أنس يقول : سمعت محمد ابن عجلان يقول : إذا أخطأ العالم لا أدرى أصيبت مقاتله . وروى ذلك بنحوه عن ابن عباس . وذكر أبو عمر عن القاسم بن محمد : أنه جاءه رجل فسأله عن شىء ، فقال القاسم: لا أحسنه، فجعل الرجل يقول : إنى دفعت إليك لا أعرف غيرك ، فقال القاسم : لا تنظر إلى طول لحيتى وكثرة الناس حولى ، والله لا أحسنه . فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه : يا ابن أخى ، الزمها ، فوالله ما رأيت فى مجلس أبيك مثل اليوم، فقال القاسم : والله لئن يقطع لسانى أحب إلى من أن أتكلم بما لا أعلم .

وذكر أبو عمر عن ابن عيينة وسحنون : أجسر الناس على الفتيا أقلهم علما . وكان مالك يقول : من أجاب فى مسألة فينبغى من قبل أن يجيب فيها أن يعرض نفسه على الجنة أو النار ، وكيف يكون خلاصه فى الآخرة .وسئل عن مسألة فقال : لا أدرى ، فقيل له : إنها مسألة خفيفة سهلة ، فغضب وقال : ليس فى العلم شىء خفيف ، ألم تسمع قوله جل ثناؤه : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥ ﴾ [المزمل ] ، فالعلم كله ثقيل وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة وقال : كان أصحاب رسول الله ﷺ تصعب عليهم المسائل ولا يجيب أحدهم فى مسألة حتى يأخذ رأى صاحبه ، مع ما رزقوا من السداد والتوفيق مع الطهارة ، فكيف بنا الذى غطت الخطايا والذنوب قلوبنا .

وقال عبد الرحمن بن مهدى : جاء رجل إلى مالك يسأله عن شىء أياما ما يجيبه ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنى أريد الخروج وقد طال التردد إليك ، فأطرق طويلا ثم رفع رأسه وقال : ماشاء الله ، يا هذا إنى إنما أتكلم فيما أحتسب فيه الخير ، ولست أحسن مسألتك هذه .

وسئل الشافعى عن مسألة فسكت ، فقيل له : ألا تجيب ـ يرحمك الله ـ فقال : حتى أدرى الفضل فى سكوتى أو فى الجواب . وكان سعيد بن المسيب لا يكاد يفتى فتيًا ولا

يقول شيئًا إلا قال :اللهم سلمنى،وسلم منى . وقال سحنون : أشقى الناس من باع آخرته بدنياه ، وأشقى منه من باع آخرته بدنيا غيره ، فقال : تفكرت فيه ، وجدته المفتى يأتيه الرجل قد حنث فى امرأته ورقيقه ، فيقول له : لا شىء عليك ، فيذهب الحانث فيستمتع بامرأته ورقيقته ، وقد باع المفتى دينه بدنيا هذا .

وجاء رجل إلى سحنون يسأله عن مسألة ، فأقام يتردد إليه ثلاثة أيام ، فقال : مسألتى أصلحك الله ، اليوم ثلاثة أيام ، فقال له : وما أصنع بمسألتك ، مسألتك معضلة ، وفيها أقاويل ، وأنا متحير فى ذلك ، فقال : وأنت ـ أصلحك الله ـ لكل معضلة ، فقال سحنون : هيهات يا بن أخى ، ليس بقولك هذا أبذل لحمى ودمى للنار ، وما أكثر ما لا أعرف ، إن صبرت رجوت أن تنقلب بمسألتك ، وإن أردت تمضى إلى غيرى فامض تجاب فى مسألتك فى ساعة ، فقال : إنما جئت إليك ولا أستفتى غيرك ، قال : فاصبر ، ثم أجابه بعد ذلك . وقيل له : إنك تسأل عن المسألة لو سئل عنها أحد من أصحابك لأجاب فيها فتتوقف فيها ، فقال : إن فتنة الجواب بالصواب أشد من فتنة المال.

وقال بعض العلماء : قلّ من حرص على الفتوى وسابق إليها وثابر عليها إلا قل توفيقه،واضطرب فى أمره ، وإن كان كارها لذلك غير مختار له ما وجد مندوحة عنه وقدر أن يحيل بالأمر فيه إلى غيره كانت المعونة له من الله أكثر ، والصلاح فى جوابه وفتاويه أغلب . وقال بشر الحافى : من أحب أن يسأل فليس : بأهل أن يسأل . وذكر أبو عمر عن مالك : أخبرنى رجل أنه دخل على ربيعة فوجده يبكى ، فقال : ما يبكيك ، أمصيبة دخلت عليك ؟ وارتاع لبكائه ، فقال : لا ، ولكن أستفتى من لا علم له وظهر فى الإسلام أمر عظيم . قال ربيعة : ولبعض من يفتى هاهنا أحق بالحبس من السرَّاق (١).

## فصل
## فى تحريم الفتوى بغير علم

قوله تعالى : ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ [ الأعراف ] يتناول القولَ على الله بغير علم فى أسمائه وصفاته وشَرْعه ودينه .

حديث أبى هريرة المرفوع : « من أفتى بفُتْيَا غير ثَبْت فإنما إثمه على من أفتاه » (٢)

(١) بدائع الفوائد : (٣ / ٢٧٥ ـ ٢٧٧) .

(٢) ابن ماجه (٥٣) فى المقدمة ، باب:اجتناب الرأى والقياس،وأحمد (٢ / ٣٢١) وأبو داود (٣٦٥٧) فى العلم ، =

وروى الزهرى عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : سمع النبى ﷺ قوما يتمارَوْن فى القرآن فقال : « إنما هلك من كان قبلكم ، بهذا ضربوا كتاب الله بعضُه بعضًا، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضا، ولا يكذب بعضه بعضا فما علمتم منه فقولوا ، وما جهلتم منه فكلُوه إلى عالِمه » (١) (٢)، فأمر من جهل شيئًا من كتاب الله يكله إلى عالمه، ولا يتكلف القولَ بما لا يعلمه .

وروى مالك بن مِغْوَل ، عن أبى حصين ، عن مجاهد ، عن عائشة : أنه لما نزل عذرها قبَّل أبو بكر رأسَها ، قالت : فقلت : ألا عذرتنى عند النبى ﷺ ؟ فقال : أىّ سماء تُظلُّنى ، وأى أرض تُقلُّنى ، إذا قلت ما لا أعلم .

وروى أيوب عن ابن أبى مُلَيكة قال : سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن آية فقال : أى أرض تُقلَّنى ، وأى سماء تُظِلّنى ، وأين أذهب ، وكيف أصنع إذا أنا قلت فى كتاب الله بغير ما أراد الله بها ؟

وذكر البيهقى من حديث مسلم بن أبى عمران البطين عن عزرة التميمى ، قال : قال على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه فى الجنة: وَابَرْدهَا على كبدى ! ثلاث مرات ، قالوا : يا أمير المؤمنين ، وما ذاك ؟ قال : أن يسأل الرجل عما لا يَعلم ، فيقول : الله أعلم .

وذكر أيضًا عن على رضي الله عنه قال : خمس إذا سافر فيهن رجل إلى اليمن كن فيه عوضا من سفره : لا يخشى عبد إلا ربَّه ، ولا يخاف إلا ذنبه ، ولا يستحى مَنْ لا يعلم أن يتعلم، ولا يستحى مَنْ يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول : الله أعلم ، والصبر من الدين بمنزلة الرأس من الجسد .

وقا الزهرى عن خالد بن أسلم ـ وهو أخو زيد بن أسلم: خرجنا مع ابن عمر نمشى ، فلحقنا أعرابى ، فقال : أنت عبد الله بن عمر ؟ قال : نعم ، قال : سألت عنك ، فدللت عليك ، فأخبرنى : أترث العمة ؟ قال : لا أدرى ، قال : أنت لا تدرى ؟ ! قال : نعم ، اذهب إلى العلماء بالمدينة ، فاسألهم ، فلما أدبر قبل يديه ، وقال : نِعْم ما قال أبو عبد الرحمن ، سئل عما لا يدرى ، فقال : لا أدرى.

---

= باب : التوقى فى الفتيا بنحوه .

(١) أحمد (٢ / ١٨٥) واللفظ له ، وابن ماجه (٨٥) فى المقدمة ، باب : فى القدر ، بنحوه ، وشرح السنة (١ / ٢٦٠) ، وقال الشيخ شاكر (٦٧٤١) : « إسناده صحيح » .

(٢) إعلام الموقعين (١ / ٣٩) .

وقال ابن مسعود : من كان عنده علم فليقل به ، ومن لم يكن عنده علم فليقل : الله أعلم ، فإن الله قال لنبيه : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) ﴾ [ص ]، وصح عن ابن مسعود ، وابن عباس : من أفتى الناس فى كل ما يسألونه عنه فهو مجنون .

وقال ابن شبرمة : سمعت الشعبى إذا سئل عن مسألة شديدة ، قال : رُبَّ ذات وَبَر لا تنقاد ، ولا تنساق ، ولو سُئِل عنها الصحابة لعَضَلَتْ بهم .

وقال أبو حصين الأسدى : إن أحدهم ليفتى فى المسألة ، ولو وردت على عمر لجمع لها أهلَ بدر .

وقال ابن سيرين : لأن يموت الرجل جاهلا ، خير له من أن يقول ما لا يعلم .

وقال القاسم : من إكرام الرجل نفسه ألا يقول إلا ما أحاط به علمه .

وقال : يا أهل العراق ، والله لا نعلم كثيرًا مما تسألونا عنه ، ولأن يعيش الرجل جاهلا إلا أن يعلم ما فرض الله عليه خير له من أن يقول على الله ورسوله ما لايعلم .

وقال مالك : من فقه العالم أن يقول : لا أعلم ، فإنه عسى أن يتهيأ له الخير .

وقال : سمعت ابن هُرْمُز يقول : ينبغى للعالم أن يورث جلساءه من بعده : لا أدرى ، حتى يكون ذلك أصلا فى أيديهم يفزعون إليه.

وقال الشعبى : لا أدرى : نصفُ العلم .

وقال ابن جبير : ويل لمن يقول لما لا يعلم : إنى أعلم .

وقال الشافعى : سمعت مالكا يقول : سمعت ابن عجلان يقول : إذا أغفل العالم لاأدرى أصيبت مَقاتله ، وذكره ابن عجلان عن ابن عباس .

وقال عبد الرحمن بن مهدى : جاء رجل إلى مالك ، فسأله عن شىء . فمكث أيامًا ما يجيبه . فقال: يا أبا عبد الله ، إنى أريد الخروج ، فأطرق طويلا ، ورفع رأسه ، فقال : ما شاء الله يا هذا ، إنى أتكلم فيما أحتسب فيه الخير ولست أحسن مسألتك هذه .

وقال ابن وهب : سمعت مالكا يقول : العجلة فى الفتوى نوعٌ من الجهل والخرَق . قال : وكان يقال : التأنى من الله ، والعجلة من الشيطان . وهذا الكلام قد رواه الليث بن سعد عن يزيد بن أبى حبيب ، عن سعد بن سنان عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: « التأنى من الله ، والعجلة من الشيطان » (١) ، وإسناده جيد .

---

(١) أبو يعلى : (٤٢٥٦) ، والبيهقى فى الكبرى (١٠ / ١٠٤) فى آداب القاضى ، باب : التثبت فى الحكم ، وقال الهيثمى فى المجمع (٨ / ٢٢) : « رجاله رجال الصحيح » .

وقال ابن المنكدر : العالم بين الله وبين خلقه . فلينظر كيف يدخل بينهم .

وقال ابن وهب : قال لى مالك وهو ينكر كثرة الجواب فى المسائل : يا عبد الله ، ما علمت فقل ، وإياك أن تقلد الناسَ قِلادة سوء .

وقال مالك : حدثنى ربيعة . قال : قال لى أبو خلدة ـ وكان نعم القاضى : يا ربيعة ، أراك تفتى الناس ، فإذا جاءك الرجل يسألك ، فلا يكن همك أن تتخلص مما سألك عنه .

وكان ابن المسيب لا يكاد يفتى إلا قال : اللهم سلمنى وسلم منى .

وقال مالك : ما أجبت فى الفتوى حتى سألت مَن هو أعلم منى ، وهل ترانى موضعًا لذلك ؟ سألت ربيعة ، وسألت يحيى بن سعيد ، فأمرانى بذلك، فقيل له: يا أبا عبد الله ، فلو نهوْك ؟ قال : كنت انتهى .

وقال ابن عباس لمولاه عكرمة : اذهب فأفْت الناس ، وأنا لك عون . فمن سألك عما يعنيه فأفته ، ومن سألك عما لا يعنيه ، فلا تُفْته ، فإنك تطرح عن نفسك ثلثى مؤنة الناس .

وكان أيوب إذا سأله السائل ، قال له : أعِدْ ، فإن أعاد السؤال كما سأله عنه أولا أجابه ، وإلا لم يجبه ، وهذا من فهمه وفطنته رحمه الله .

وفى ذلك فوائد عديدة :

منها : أن المسألة تزداد وضوحًا وبيانًا بتفهم السؤال .

ومنها : أن السائل لعله أهمل فيها أمرًا يتغير به الحكم ، فإذا أعادها ربما بينه له .

ومنها : أن المسؤول قد يكون ذاهلا عن السؤال أولا ، ثم يحضر ذهنه بعد ذلك .

ومنها : أنه ربما بان له تعنت السائل ، وأنه وضع المسألة ، فإذا غيَّر السؤال ، وزاد فيه ونقص ، فربما ظهر أن المسألة لا حقيقة لها ، وأنها من الأغْلُوطات أو غير الواقعات التى لا يجب الجواب عنها ، فإن الجواب بالظن إنما يجوز عند الضرورة ، فإذا وقعت المسألة صارت حال ضرورة ، فيكون التوفيق إلى الصواب أقرب ، والله أعلم [1] .

## وأيضا

قد حرم الله ـ سبحانه ـ القول عليه بغير علم فى الفتيا والقضاء ، وجعله من أعظم

(١) إعلام الموقعين (٢ / ١٦٤ ـ ١٦٨) .

المحرمات بل جعله فى المرتبة العليا منها ، فقال تعالى **﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾** [ الأعراف : ٣٣ ] فرتب المحرمات أربع مراتب ، وبدأ بأسهلها ، وهو الفواحش ، ثم ثنى بما هو أشد تحريما منه ، وهو الإثم والظلم ، ثم ثلث بما هو أعظم تحريما منهما ، وهو الشرك به سبحانه ، ثم ربع بما هو أشد تحريما من ذلك كله ، وهو القول عليه بلا علم،وهذا يعم القول عليه ـ سبحانه ـ بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله، وفى دينه وشرعه ،وقال تعالى : **﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾** [ النحل ] فتقدم إليهم ـ سبحانه ـ بالوعيد على الكذب عليه فى أحكامه ، وقولهم لما لم يحرمه : هذا حرام ، ولما لم يحله: هذا حلال ، وهذا بيان منه ـ سبحانه ـ أنه لا يجوز للعبد أن يقول : هذا حلال ، وهذا حرام إلا بما علم أن الله ـ سبحانه ـ أحله وحرمه .

وقال بعض السلف : لِيَتَّقِ أحدُكم أن يقول : أحل الله كذا ، وحرم كذا ، فيقول الله له : كذبت ، لم أحل كذا ، ولم أحرم كذا . فلا ينبغى أن يقول لما لا يعلم : ورد الوحى المبين بتحليله وتحريمه : أحله الله وحرمه الله لمجرد التقليد أو بالتأويل .

وقد نهى النبى ﷺ فى الحديث الصحيح أميره « بريدة » أن ينزل عدوه إذا حاصرهم على حكم الله وقال :« فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم ، أم لا ؟ ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك » (١)، فتأمل كيف فرق بين حكم الله، وحكم الأمير المجتهد، ونهى أن يسمى حكم المجتهدين حكم الله .

ومن هذا لما كتب الكاتب بين يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حكما حكم به، فقال : هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر ، فقال : لا تقل : هكذا ، ولكن قل : هذا ما رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

وقال ابن وهب : سمعت مالكا يقول : لم يكن من أمر الناس ، ولا من مضى من سلفنا ، ولا أدركت أحدا اقتدى به يقول فى شىء : هذا حلال وهذا حرام ، وما كانوا يجترئون على ذلك ، وإنما كانوا يقولون : نكره كذا ، ونرى هذا حسنا فينبغى هذا ، ولا نرى هذا ، ورواه عنه عتيق بن يعقوب ، وزاد : ولا يقولون: حلال ولا حرام ،أما سمعت

(١) أبو داود (٢٦١٢) فى الجهاد ، باب فى دعاء المشركين ، وابن ماجة (٢٨٥٨) فى الجهاد ، باب وصية الإمام ، وأحمد (٥ / ٣٥٨) .

قول الله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [ يونس : ٥٩ ] الحلال : ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله .

والمقصود : أن الله ـ سبحانه ـ حرم القول عليه بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه ، والمفتى يخبر عن الله عز وجل وعن دينه ، فإن لم يكن خبره مطابقا لما شرعه كان قائلا عليه بلا علم ، ولكن إذا اجتهد واستفرغ وسعه فى معرفة الحق وأخطأ لم يلحقه الوعيد وعفى له عما أخطأ به وأثيب على اجتهاده ، ولكن لا يجوز أن يقول لما أداه إليه اجتهاده ، ولم يظفر فيه بنص عن الله ورسوله : إن الله حرم كذا وأوجب كذا ، وأباح كذا ،وأن هذا هو حكم الله. قال ابن وضاح : ثنا يوسف بن عدى ، ثنا عبيدة بن حميد ، عن عطاء بن السائب قال : قال الربيع بن خثيم : إياكم أن يقول الرجل لشىء : إن الله حرم هذا ، أو نهى عنه ، فيقول الله : كذبت لم أحرمه ، ولم أنه عنه ، أو يقول: إن الله أحل هذا ، أو أمر به ، فيقول الله : كذبت لم أحله ولم آمر به . قال أبو عمر : وقد روى عن مالك أنه قال فى بعض ما كان ينزل به ، فيسأل عنه ، فيجتهد فيه رأيه :﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [ الجاثية : ٣٢ ] (١) .

## فصل
## فى تحريم الإفتاء بما يخالف النصوص والأدلة من القرآن والسنة وأقوال الأئمة

قال الله تعالى :﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ [ الأحزاب : ٣٦ ] ،وقال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [ الحجرات : ١] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [ النور : ٥١ ] ، وقوله تعالى :﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [ النساء : ١٠٥ ] ، وقال تعالى : ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [ الأعراف : ٣ ] ،

---

(١) إعلام الموقعين (١ / ٣٩ ـ ٤١، ٤٥ ، ٤٦ ) .

وقال تعالى : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [ الأنعام : ١٥٣ ] ، وقال تعالى: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [ الأنعام : ٥٧ ] ، وقال تعالى: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [ الكهف : ٢٦ ] ،وقال تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [ المائدة: ٤٤ ]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [ المائدة : ٤٥ ] ، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [ المائدة : ٤٧ ] ، فأكد هذا التأكيد، وكرر هذا التقرير فى موضع واحد لعظم مفسدة الحكم بغير ما أنزله ، وعموم مضرته وبلية الأمة به ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [ الأعراف : ٣٣ ] ، وأنكر تعالى على من حاج فى دينه بما ليس له به علم فقال تعالى : ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [ آل عمران : ٦٦ ] ، ونهى أن يقول أحد : هذا حلال ، وهذا حرام لما لم يحرمه الله ورسوله نصا ، وأخبر أن فاعل ذلك مفتر على الله الكذب ،فقال : ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [ النحل ] والآيات فى هذا المعنى كثيرة .

وأما السنة ففى الصحيحين من حديث ابن عباس ، أن هلال بن أمية قذف امرأته بشريك ابن السحْماء عند النبى ﷺ ، فذكر حديث اللعان ، وقول النبى ﷺ « أبصروها ، فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين ، فهو لشريك ابن السحْماء ، وإن جاءت به كذا وكذا،فهو لهلال بن أمية » فجاءت به على النعت المكروه ، فقال النبى ﷺ : « لولا ما مضى من كتاب الله لكان لى ولها شأن »(١) يريد والله ورسوله أعلم بكتاب الله قوله تعالى : ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ [ النور : ٨ ] ويريد بالشأن ـ والله أعلم ـ أنه كان يحدها لمشابهة ولدها للرجل الذى رميت به ، ولكن كتاب الله فصل الحكومة ، وأسقط كل قول وراءه ، ولم يبق للاجتهاد بعده موقع .

---

(١) البخارى (٤٧٤٧) فى التفسير واللفظ له ، باب ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ﴾ [النور : ٨ ] ، ومسلم (١٤٩٦ / ١١) فى اللعان ولكن بدون الجملة الأخيرة .

وقال الشافعى : أخبرنا سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبى يزيد ، عن أبيه ، قال : أرسل عمر بن الخطاب إلى شيخ من زهرة كان يسكن دارنا ، فذهبت معه إلى عمر رضي الله عنه ، فسأله عن ولاد من ولاد الجاهلية ، فقال : أما الفراش فلفلان ، وأما النطفة فلفلان ، فقال عمر : صدقت ، ولكن ﷺ قضى بالفراش (١) .

قال الشافعى : وأخبرنى من لا أتهم عن ابن أبى ذئب ، قال : أخبرنى مخلد بن خفاف قال : ابتعت غلاما ، فاستغللته ، ثم ظهرت منه على عيب ، فخاصمت فيه إلى عمر بن عبد العزيز ، فقضى لى برده ، وقضى على برد غلته ، فأتيت عروة ، فأخبرته ، فقال : أروح إليه العشية فأخبره أن عائشة أخبرتنى أن رسول الله ﷺ قضى فى مثل هذا أن الخراج بالضمان (٢) ، فعجلت إلى عمر ، فأخبرته بما أخبرنى به عروة ، عن عائشة ، عن رسول الله ﷺ ، فقال عمرو : فما أيسر هذا على من قضاء قضيته ، اللهم إنك تعلم أنى لم أرد فيه إلا الحق ، فبلغتنى فيه سنة عن رسول الله ﷺ فارد قضاء عمر وأنفذ سنة رسول الله ﷺ ، فراح إليه عروة ، فقضى لى أن آخذ الخراج من الذى قضى به علىّ له .

قال الشافعى : وأخبرنى من لا أتهم من أهل المدينة عن ابن أبى ذئب ، قال : قضى سعد بن إبراهيم على رجل بقضية برأى ربيعة بن أبى عبد الرحمن ، فأخبرته عن النبى ﷺ بخلاف ما قضى به ، فقال سعد لربيعة : هذا ابن أبى ذئب ، وهو عندى ثقة يخبرنى عن النبى ﷺ بخلاف ما قضيت به ، فقال له ربيعة : قد اجتهدت ، ومضى حكمك ، فقال سعد : وا عجبا أنفذ قضاء سعد ابن أم سعد ، وأرد قضاء رسول الله ﷺ ، بل أرد قضاء سعد ابن أم سعد ، وأنقذ قضاء رسول الله ﷺ ، فدعا سعد بكتاب القضية ، فشقه وقضى للمقضى عليه .

فليوحشنا المقلدون ، ثم أوحش الله منهم .

وقال أبو النضر هاشم بن القاسم : حدثنا محمد بن راشد عن عبدة بن أبى لبابة ، عن هشام بن يحيى المخزومى: أن رجلا من ثقيف أتى عمر بن الخطاب ، فسأله عن امرأة حاضت ، وقد كانت زارت البيت يوم النحر : ألها أن تنفر ؟ فقال عمر : لا ، فقال له الثقفى : إن رسول الله ﷺ أفتانى فى مثل هذه المرأة بغير ما أفتيت به ، فقام إليه عمر يضربه بالدرة ، ويقول: لم تستفتينى فى شىء قد أفتى فيه رسول الله ﷺ ؟ ورواه أبو داود

(١) ترتيب مسند الإمام الشافعى ١/ ٣٥٠ (٩٠٣) .
(٢) ترتيب مسند الإمام الشافعى ٢ / ١٤٤ (٤٨٢) .

بنحوه (١) .

وقال أبو بكر بن أبى شيبة : ثنا صالح بن عبد الله ، ثنا سفيان بن عامر ، عن عتاب ابن منصور قال : قال عمر بن عبد العزيز : لا رأى لأحد مع سنة سنها رسول الله ﷺ .

وقال الشافعى : أجمع الناس على أن من استبانت له سنة عن رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس .

وتواتر عنه أنه قال : إذا صح الحديث فاضربوا بقولى الحائط .

وصح عنه أنه قال : إذا رويت عن رسول الله ﷺ حديثا ، ولم آخذ به ، فاعلموا أن عقلى قد ذهب

وصح عنه أنه قال : لا قول لأحد مع سنة رسول الله ﷺ .

وقال إسرائيل عن أبى إسحاق ، عن سعد بن إياس ، عن ابن مسعود : أن رجلا سأله عن رجل تزوج امرأة ، فرأى أمها فأعجبته ، فطلق امرأته ليتزوج أمها ، فقال : لا بأس ، فتزوجها الرجل ، وكان عبد الله على بيت المال ، فكان يبيع نفاية بيت المال يعطى الكثير ، ويأخذ القليل ، حتى قدم المدينة ، فسأل أصحاب محمد ﷺ فقالوا : لا تحل لهذا الرجل هذه المرأة، ولا تصلح الفضة إلا وزنا بوزن ، فلما قدم عبد الله انطلق إلى الرجل ، فلم يجده ووجد قومه فقال: إن الذى أفتيت به صاحبكم لا يحل، وأتى الصيارفة ، فقال : يا معشر الصيارفة ، إن الذى كنت أبايعكم لا يحل ، لا تحل الفضة إلا وزنا بوزن . وفى صحيح مسلم : من حديث الليث عن يحيى بن سعيد ، عن سليمان بن يسار : أن أبا هريرة وابن عباس وأبا سلمة بن عبد الرحمن تذاكروا فى المتوفى عنها الحامل، تضع عند وفاة زوجها ، فقال ابن عباس : تعتد آخر الأجلين ، فقال أبو سلمة : تحل حين تضع ، فقال أبو هريرة : وأنا مع ابن أخى ، فأرسلوا إلى أم سلمة ، فقالت : قد وضعت سبيعة بعد وفاة زوجها بيسير ، فأمرها رسول الله ﷺ أن تتزوج (٢) .

وقد تقدم من ذكر رجوع عمر رضي الله عنه وأبى موسى وابن عباس عن اجتهادهم إلى السنة ما فيه كفاية .

وقال شداد بن حكيم عن زفر بن الهذيل : إنما نأخذ بالرأى ما لم نجد الأثر ، فإذا جاء الأثر تركنا الرأى ، وأخذنا بالأثر .

---

(١) أبو داود (٢٠٠٤) فى الحج ، باب : الحائض تخرج بعد الإفاضة .

(٢) مسلم (١٤٨٥ / ٥٧) فى الطلاق ، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل .

وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة الملقب بإمام الأئمة: لا قول لأحد مع رسول الله ﷺ إذا صح الخبر عنه ، وقد كان إمام الأئمة ابن خزيمة ـ رحمه الله تعالى ـ له أصحاب ينتحلون مذهبه ، ولم يكن مقلدا ، بل إماما مستقلا ، كما ذكر البيهقى فى مدخله عن يحيى بن محمد العنبرى .

قال : طبقات أصحاب الحديث خمسة : المالكية والشافعية والحنبلية ، والراهوية والخزيمية أصحاب ابن خزيمة .

وقال الشافعى :إذا حدث الثقة عن الثقة إلى أن ينتهى إلى رسول الله ﷺ فهو ثابت ، ولا يترك لرسول الله ﷺ حديث أبدا إلا حديث وجد عن رسول الله ﷺ آخر يخالفه .

وقال : فى كتاب اختلافه مع مالك : ما كان الكتاب والسنة موجودين فالعذر على من سمعهما مقطوع إلا بإتيانهما .

وقال الشافعى : قال لى قائل : دلنى على أن عمر عمل شيئا ، ثم صار إلى غيره لخبر نبوى ، قلت له : حدثنا سفيان عن الزهرى عن ابن المسيب أن عمر كان يقول : الدية للعاقلة ، ولا ترث المرأة من دية زوجها حتى أخبره الضحاك بن سفيان أن رسول الله ﷺ كتب إليه أن يورث امرأة الضبابى من ديته ، فرجع إليه عمر (١) .

وأخبرنا ابن عيينة عن عمرو وابن طاوس أن عمر قال: أذكر الله امرأ سمع من النبى ﷺ فى الجنين شيئا ، فقام حمل بن مالك بن النابغة ، فقال : كنت بين جارتين لى، فضربت إحداهما الأخرى بمسطح ، فألقت جنينا ميتا ، فقضى فيه رسول الله ﷺ بغرة فقال عمر : لو لم نسمع فيه هذا لقضينا فيه بغير هذا ، أو قال : إن كدنا لنقضى فيه برأينا(٢) ، فترك اجتهاده رضي الله عنه للنص .

وهذا هو الواجب على كل مسلم إذ اجتهاد الرأى إنما يباح للمضطر ، كما تباح له الميتة والدم عند الضرورة ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيم** ﴾ [البقرة: ١٧٣ ] ، وكذلك القياس إنما يصار إليه عند الضرورة .

قال الإمام أحمد : سألت الشافعى عن القياس ، فقال : عند الضرورة ، ذكره البيهقى فى مدخله .

---

(١) الرسالة للإمام الشافعى ص٤٢٦ ، والأم (٦/ ٨٨ ، ٨٩) فى جراح العمد ، باب : ميراث الدية ، والبيهقى فى الكبرى (٨/ ١٣٤) فى القسامة ، باب : ميراث الدية .

(٢) الأم (٦ / ١٠٧) فى ديات الخطأ ، باب : دية الجنين ، والبيهقى فى الكبرى (٨ / ١١٤) فى الديات ، باب : دية الجنين .

وكان زيد بن ثابت لا يرى للحائض أن تنفر ، حتى تطوف طواف الوداع ، وتناظر فى ذلك هو وعبد الله بن عباس ، فقال له ابن عباس : إما لا ، فسل فلانة الأنصارية : هل أمرها بذلك ﷺ ، فرجع زيد يضحك ويقول : ما أراك إلا قد صدقت . ذكره البخارى فى صحيحه بنحوه [١] .

وقال ابن عمر: كنا نخابر ولا نرى بذلك بأسا، حتى زعم رافع أن رسول الله ﷺ نهى عنها [٢]، فتركناها من أجل ذلك، وقال عمرو بن دينار عن سالم بن عبد الله أن عمر ابن الخطاب نهى عن الطيب قبل زيارة البيت، وبعد الجمرة، فقالت عائشة: طيبت رسول الله ﷺ بيدى لإحرامه قبل أن يحرم، ولحله قبل أن يطوف بالبيت [٣]، وسنة رسول الله ﷺ أحق .

قال الشافعى : فترك سالم قول جده لروايتها . قلت : لا كما تصنع فرقة التقليد .

وقال الأصم : أخبرنا الربيع بن سليمان : لنعطينك جملة تغنيك إن شاء الله : لا تدع لرسول الله ﷺ حديثا أبدا إلا أن يأتى عن رسول الله ﷺ خلافه ، فتعمل بما قلت لك فى الأحاديث إذا اختلفت .

قال الأصم : وسمعت الربيع يقول : سمعت الشافعى يقول : إذا وجدتم فى كتابى خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ، ودعوا ما قلت .

وقال أبو محمد الجارودى : سمعت الربيع يقول : سمعت الشافعى يقول : إذا وجدتم سنة عن رسول الله ﷺ خلاف قولى ، فخذوا بالسنة ، ودعوا قولى فإنى أقول بها.

وقال أحمد بن على بن عيسى بن ماهان الرازى: سمعت الربيع يقول: سمعت الشافعى يقول: كل مسألة تكلمت فيها صح الخبر فيها عن النبى ﷺ عند أهل النقل، بخلاف ما قلت، فأنا راجع عنها فى حياتى، وبعد موتى. وقال حرملة بن يحيى، قال الشافعى: ما قلت ، وقد كان النبى ﷺ قد قال بخلاف قولى مما يصح، فحديث النبى ﷺ أولى ، لا تقلدونى .

وقال الحاكم : سمعت الأصم يقول : سمعت الربيع يقول : سمعت الشافعى يقول : وروى حديثا ، فقال له رجل : تأخذ بهذا يا أبا عبد الله ؟ فقال : متى رويت عن رسول الله ﷺ حديثا صحيحا فلم آخذ به فأشهدكم أن عقلى قد ذهب، وأشار بيده إلى رؤوسهم.

---

(١) البخارى (١٧٥٨ ، ١٧٥٩) فى الحج ، باب : إذا حاضت المرأة بعدما أفاضت ، ومسلم (١٣٢٨ / ٣٨١) فى الحج ، باب : وجوب طواف الوداع وسقوطه عن الحائض ، واللفظ لمسلم .

(٢) مسلم (١٥٤٧ / ١٠٦) فى البيوع ، باب : كراء الأرض ، والبيهقى فى المعرفة ٨ / ٣٤٤ (١٢١٣٨) فى الصلح، باب : المزارعة .

(٣) البخارى (١٧٥٤) فى الحج ، باب الطيب بعد رمى الجمار ، ومسلم (١١٨٩ / ٣٣) فى الحج ، باب : الطيب للمحرم عند الإحرام ، والنسائى (٢٦٨٥) فى المناسك ، باب : إباحة الطيب عند الإحرام .

وقال الحميدى : سأل رجل الشافعى عن مسألة ، فأفتاه ، وقال : قال النبى ﷺ كذا ، فقال الرجل : تقول بهذا ؟ قال : أرأيت فى وسطى زنارا ، أترانى خرجت من الكنيسة ؟ أقول : قال النبى ﷺ ، وتقول لى : أتقول بهذا ؟ روى عن النبى ﷺ ، ولا أقول به ؟ وقال الحاكم : أنبأنى أبو عمرو السماك مشافهة أن أبا سعيد الجصاص حدثهم، قال : سمعت الربيع بن سليمان ، يقول : سمعت الشافعى يقول وسأله رجل عن مسألة ، فقال : روى عن النبى ﷺ أنه قال : كذا وكذا ، فقال له السائل : يا أبا عبد الله ، أتقول بهذا ؟ فارتعد الشافعى واصفر وحال لونه ، وقال : ويحك أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى ، إذا رويت عن ﷺ شيئا ، فلم أقل به، نعم على الرأس والعينين، نعم على الرأس والعينين .

قال : وسمعت الشافعى يقول : ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ ، وتعزب عنه ، فمهما قلت من قول ، أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت ، فالقول ما قال رسول الله ﷺ ، وهو قولى ، وجعل يردد هذا الكلام .

وقال الربيع : قال الشافعى : لم أسمع أحدا نسبته عامة أو نسب نفسه إلى علم يخالف فى أن فرض الله اتباع أمر رسول الله ﷺ والتسليم لحكمه، فإن الله لم يجعل لأحد بعده إلا اتباعه، وأنه لا يلزم قول رجل قال إلا بكتاب الله أو سنة رسوله، وأن ما سواهما تبع لهما ، وأن فرض الله علينا، وعلى من بعدنا وقبلنا فى قبول الخبر، عن رسول الله ﷺ واحد، لا يختلف فيه الفرض، وواجب قبول الخبر، عن رسول الله ﷺ إلا فرقة سأصف قولها إن شاء الله .

قال الشافعى : ثم تفرق أهل الكلام فى تثبيت خبر الواحد عن رسول الله ﷺ تفرقا متباينا ، وتفرق عنهم ممن نسبته العامة إلى الفقه تفرقا أتى بعضهم فيه أكثر من التقليد أو التحقيق من النظر والغفلة والاستعجال بالرياسة .

وقال عبد الله بن أحمد : قال أبى: قال لنا الشافعى : إذا صح لكم الحديث عن النبى ﷺ فقولوا لى ، حتى أذهب إليه . وقال الإمام أحمد : كان أحسن أمر الشافعى عندى : أنه كان إذا سمع الخبر لم يكن عنده قال به ، وترك قوله .

وقال الربيع : قال الشافعى : لا نترك الحديث عن رسول الله ﷺ بألا يدخله القياس، ولا موضع للقياس لموقع السنة .

وقال الربيع : وقد روى عن النبى ﷺ - بأبى هو وأمى - أنه قضى فى بروع بنت واشق أنكحت بغير مهر ، فمات زوجها ، فقضى لها بمهر نسائها ، وقضى لها بالميراث (١) ،

(١) أبو داود : (٢١١٥ ، ٢١١٦) فى النكاح ، باب : فيمن تزوج ولم يسم صداقًا حتى مات ، والترمذى (١١٤٥) فى النكاح ، باب : ما جاء فى الرجل يتزوج المرأة فيموت عنها قبل أن يفرض لها ، والنسائى (٣٣٥٤ - ٣٣٥٨) فى النكاح ، باب : إباحة التزوج بغير صداق ، وابن ماجه (١٨٩١) فى النكاح ، باب : الرجل يتزوج ولا يفرض لها فيموت على ذلك ، وأحمد (١ / ٤٤٧ ، ٤٤٨) .

فإن كان ثبت عن النبى ﷺ فهو أولى الأمور بنا ، ولا حجة فى قول أحد دون النبى ﷺ ، ولا فى قياس ، ولا فى شىء إلا طاعة الله بالتسليم له ، وإن كان لا يثبت عن النبى ﷺ لم يكن لأحد أن يثبت عنه ما لم يثبت ، ولم أحفظه من وجه يثبت مثله ، هو مرة عن معقل بن يسار ، ومرة عن معقل بن سنان ، ومرة عن بعض أشجع لا يسمى .

وقال الربيع : سألت الشافعى عن رفع الأيدى فى الصلاة ، فقال : يرفع المصلى يديه إذا افتتح الصلاة حذو منكبيه ، وإذا أراد أن يركع ، وإذا رفع رأسه من الركوع رفعهما كذلك ، ولا يفعل ذلك فى السجود قلت له : فما الحجة فى ذلك ؟ فقال : أنبأنا ابن عُيَينة عن الزهْرى ، عن سالم عن أبيه عن النبى ﷺ مثل قولنا (١) . قال الربيع : فقلت له : فإنا نقول : يرفع فى الابتداء ، ثم لا يعود .

قال الشافعى : أنا مالك ، عن نافع : أن ابن عمر كان إذا افتتح الصلاة رفع يديه حذو منكبيه ، وإذا رفع رأسه من الركوع رفعهما كذلك ، قال الشافعى : وهو يعنى مالكا يروى عن النبى ﷺ أنه كان إذا افتتح الصلاة رفع يديه حذو منكبيه ، وإذا رفع رأسه من الركوع رفعها كذلك (٢) ، ثم خالفتم رسول الله ﷺ وابن عمر ، فقلتم : لا يرفع يديه إلا فى ابتداء الصلاة، وقد رويتم عنهما أنهما رفعاهما فى الابتداء ، وعند الرفع من الركوع، أفيجوز لعالم أن يترك فعل النبى ﷺ وفعل ابن عمر لرأى نفسه ، أو فعل النبى ﷺ لرأى ابن عمر ثم القياس على قول ابن عمر ، ثم يأتى موضع آخر يصيب فيه ، فيترك على ابن عمر ما روى عن النبى ﷺ فكيف لم ينهه بعض هذا عن بعض ؟ أرأيت إذا جاز له أن يروى عن النبى ﷺ أن يرفع يديه فى مرتين أو ثلاث .

وعن ابن عمر فيه اثنتين، أنأخذ بواحدة ، ونترك واحدة؟ أيجوز لغيره ترك الذى أخذ به؟ وأخذ الذى ترك ؟ أو يجوز لغيره ترك ما روى عن النبى ﷺ ؟ فقلت له : فإن صاحبنا قال: فما معنى الرفع؟ قال: معناه تعظيم لله، واتباع لسنة النبى ﷺ، ومعنى الرفع فى الأولى معنى الرفع الذى خالفتم فيه النبى ﷺ عند الركوع ، وعند رفع الرأس من الركوع ، ثم خالفتم فيه روايتكم ، عن النبى ﷺ وابن عمر معا .

ويروى ذلك عن النبى ﷺ ثلاثة عشر رجلا أو أربعة عشر رجلا ، وروى عن أصحاب النبى ﷺ من غير وجه ، ومن تركه فقد ترك السنة .

---

(١) البخارى(٧٣٥) فى الأذان ، باب : رفع اليدين مع التكبيرة الأولى مع الافتتاح سواء ، ومسلم (٣٩٠ / ٢١) فى الصلاة ، باب : استحباب رفع اليدين حذو المنكبين . . .إلخ ، والأم (١/ ١٠٣) .

(٢) مالك فى الموطأ ١ / ٧٥(١٦) فى الصلاة ، باب : افتتاح الصلاة ، ورواه البخارى فى الموضع السابق ومسلم فى الموضع السابق .

قلت: وهذا تصريح من الشافعى بأن تارك رفع اليدين عند الركوع والرفع منه تارك للسنة.

ونص أحمد على ذلك أيضا فى إحدى الروايتين عنه، وقال الربيع : سألت الشافعى عن الطيب قبل الإحرام بما يبقى ريحه بعد الإحرام، وبعد رمى الجمرة والحلاق، وقبل الإفاضة، فقال : جائز وأحبه ولا أكرهه لثبوت السنة فيه عن النبى ﷺ والأخبار عن غير واحد من الصحابة، فقلت : وما حجتك فيه ؟ فذكر الأخبار فيه والآثار، ثم قال : أنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار، عن سالم، قال : قال عمر : من رمى الجمرة، فقد حل له ما حرم عليه إلا النساء والطيب، قال سالم : وقالت عائشة : طيبت رسول الله ﷺ بيدى (١)، وسنة رسول الله ﷺ أحق أن تتبع .

قال الشافعى : وهكذا ينبغى أن يكون الصالحون وأهل العلم، فأما ما تذهبون إليه من ترك السنة وغيرها، وترك ذلك لغير شيء، بل لرأى أنفسكم فالعلم إذا إليكم، تأتون منه ما شئتم، وتدعون ما شئتم .

وقال فى الكتاب القديم رواية الزعفرانى فى مسألة بيع المدبر فى جواب من قال له : إن بعض أصحابك قد قال خلاف هذا .

قال الشافعى : فقلت له : من تبع سنة رسول الله ﷺ وافقته ومن خلط فتركها، خالفته، حتى صاحبى الذى لا أفارق الملازم الثابت مع رسول الله ﷺ، وإن بعد . والذى أفارق : من لم يقل بحديث رسول الله ﷺ وإن قرب .

وقال فى خطبة كتابه إبطال الاستحسان : الحمد لله على جميع نعمه بما هو أهله وكما ينبغى له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، بعثه بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فهدى بكتابه ثم على لسان رسوله ﷺ، ثم أنعم عليه، وأقام الحجة على خلقه، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وقال : ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً** ﴾ [ النحل : ٨٩ ]، وقال : ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ [ النحل : ٤٤ ]، وفرض عليهم اتباع ما أنزل إليهم، وسن رسول الله ﷺ لهم فقال : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا** ﴾ [ الأحزاب : ٣٦ ]، فأعلم أن معصيته فى ترك أمره، وأمر رسول الله ﷺ، ولم يجعل لهم إلا اتباعه، وكذلك قال لرسول الله ﷺ : ﴿ **وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي**

---

(١) سبق تخريجه ص٣١ .

به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله ﴾ [الشورى:٥٢]، مع ما علم الله نبيه ، ثم فرض اتباع كتابه فقال: ﴿ فاستمسك بالذي أوحي إليك ﴾ [ الزخرف: ٤٣ ] ، وقال : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ﴾ [ المائدة : ٤٩] ، وأعلمهم أنه أكمل لهم دينهم فقال عز وجل: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ [ المائدة:٣ ] ، إلى أنه قال : ثم من عليهم بما آتاهم من العلم فأمرهم بالاقتصار عليه ، وألا يقولوا غيره إلا ما علمهم فقال لنبيه: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ [ الشورى:٥٢ ] ، وقال لنبيه : ﴿ قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ [الأحقاف: ٩ ] ، وقال لنبيه : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا (٢٣) إلا أن يشاء الله ﴾ [ الكهف ] ، ثم أنزل على نبيه ، أن غفر له ما تقدم من ذنبه،وما تأخر ، يعنى والله أعلم ما تقدم من ذنبه قبل الوحى ،وما تأخر قبل أن يعصمه ، فلا يذنب ، فعلم ما يفعل به من رضاه عنه ، وأنه أول شافع ومشفع يوم القيامة وسيد الخلائق،وقال لنبيه :﴿ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ [ الإسراء : ٣٦ ] ، وجاءه ﷺ رجل فى امرأة رجل رماها بالزنا ، فقال له : يرجع ، فأوحى الله إليه آية اللعان ، فلاعن بينهما وقال : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ [ النمل:٦٥ ] ، وقال : ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام ﴾ الآية [ لقمان : ٣٤ ] ، وقال لنبيه : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها (٤٢) فيم أنت من ذكراها﴾ [ النازعات ] ، فحجب عن نبيه علم الساعة ، وكان من عدا ملائكة الله المقربين وأنبياءه المصطفين من عباد الله أقصر علما من ملائكته ، وأنبيائه. والله عز وجل فرض على خلقه طاعة نبيه ، ولم يجعل لهم من الأمر شيئا .

وقد صنف الإمام أحمد رضي الله عنه كتابا فى طاعة الرسول ﷺ ، رد فيه على من احتج بظاهر القرآن فى معارضة سنن رسول الله ﷺ وترك الاحتجاج بها ، فقال فى أثناء خطبته: إن الله جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، بعث محمداً بالهدى ، ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، وأنزل عليه كتابه الهدى والنور لمن اتبعه ، وجعل رسوله الدال على ما أراد من ظاهره وباطنه ، وخاصه وعامه ، وناسخه ومنسوخه ، وما قصد له الكتاب ، فكان رسول الله ﷺ هو المعبر عن كتاب الله الدال على معانيه ، شاهده فى ذلك أصحابه الذين ارتضاهم الله لنبيه ، واصطفاهم له ، ونقلوا ذلك عنه فكانوا هم أعلم الناس برسول الله ﷺ ، وبما أراد الله من كتابه بمشاهدتهم ، وما قصد له الكتاب ، فكانوا

هم المعبرين عن ذلك بعد رسول الله ﷺ .

قال جابر: ورسول الله ﷺ بين أظهرنا عليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا، ثم ساق الآيات الدالة على طاعة الرسول، فقال جل ثناؤه في أول آل عمران: ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) ﴾ [ آل عمران ] ، وقال : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) ﴾ [آل عمران ]، وقال في النساء: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾[ النساء]، وقال﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ﴾ [ النساء ] ، وقال : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) ﴾ [النساء ] ، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) ﴾ [ النساء ] ، وقال : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤) ﴾ [ النساء ] ، وقال: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [ النساء ] ، وقال في المائدة : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٩٢) ﴾ [المائدة ] ، وقال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) ﴾ [ الأنفال ]، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾ [ الأنفال ] ، وقال: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) ﴾ [ الأنفال] ، وقال: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) ﴾ [ النور ] ، وقال: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) ﴾ [ النور ] ، وقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [ النور ] ، وقال: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [ النور] ، وقال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [ النور ]، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [ الأحزاب] وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [ الأحزاب ]، وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [ الأحزاب ] ، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ محمد ] ، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [ الحجرات ] ، فكان الحسن يقول : لا تذبحوا قبل ذبحه وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ الحجرات ]، وقال: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ [ الفتح ] ، وقال: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [ النجم ] ، وقال: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [ الحشر ] ، وقال: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾ [ التغابن ] ، وقال: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [ الطلاق ] ، وقال: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا

وَنَذِيراً ⑧ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ⑨ ﴾ [ الفتح ] ، وقال: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود]، قال ابن عباس: هو جبريل، وقاله مجاهد، وقال: ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ⑰ ﴾ [هود ] ، قال سعيد بن جبير: الأحزاب: الملل ، ثم ذكر حديث يعلى بن أمية : طفت مع عمر ، فلما بلغنا الركن الغربى الذى يلى الأسود جررت بيده ليستلم، فقال: ما شأنك ؟ فقلت: ألا تستلم ؟ فقال : ألم تطف مع النبى ﷺ ؟ فقلت: بلى، قال : أفرأيته يستلم هذين الركنين الغربيين ؟ قال : لا ، قال : أليس لك فيه أسوة حسنة ؟ قلت : بلى ، قال : فانفذ عنك (١) .

قال: وجعل معاوية يستلم الأركان كلها، فقال له ابن عباس : لم تستلم هذين الركنين، ولم يكن رسول الله ﷺ يستلمهما ؟ فقال معاوية : ليس شيء من البيت مهجوراً، فقال ابن عباس : لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، فقال معاوية : صدقت ، ثم ذكر أحمد الاحتجاج على إبطال قول من عارض السُّنَنَ بظاهر القرآن ، وردها بذلك، وهذا فعل الذين يستمسكون بالتشابه فى رَدِّ المحكم، فإن لم يجدوا لفظًا متشابهاً غير المحكم يردونه به، استخرجوا من المحكم وصفًا متشابهًا ، وردوه به . فلهم طريقان فى رد السنن :

أحدهما : ردها بالمتشابه من القرآن أو من السنن .

الثانى : جعلهم المحكم متشابهًا ؛ ليعطلوا دلالتَه .

وأما طريقة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، كالشافعى ، والإمام أحمد ومالك ، وأبى حنيفة ، وأبى يوسف ، والبخارى ، وإسحاق ؛ فعكس هذه الطريق ، وهى أنهم يردون المتشابه إلى المحكم ، ويأخذون من المحكم ما يفسر لهم المتشابه ، ويبينه لهم ، فتتفق دلالته مع دلالة المحكم ، وتوافق النصوص بعضها بعضا ، ويصدق بعضها بعضا ، فإنها كلها من عند الله ، وما كان من عند الله ، فلا اختلاف فيه ، ولا تناقض ، وإنما الاختلاف والتناقض فيما كان من عند غيره (٢) .

---

(١) أحمد (١ / ٣٧ ، ٤٥ ، ٧١ ، ٤ / ٢٢٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٣ / ٢٤٣) : « رجاله رجال الصحيح، ورواه ـ أى الإمام أحمد ـ من طريق آخر وفيه رجل لم يسم » .

(٢) إعلام الموقعين (٢ / ٢٧٩ ـ ٢٩٦) .

## فصل
## فى كراهية السلف والأئمة الفتيا

كان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع فى الفتوى ، ويود كل واحد منهم أن يكفيه إيّاها غيرُه ، فإذا رأى أنها قد تعينت عليه بذل اجتهادَه فى معرفة حكمها من الكتاب والسنة ، أو قول الخلفاء الراشدين ثم أفتى .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا سفيان عن عطاء بن السائب ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، قال : أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ ـ أراه قال : فى المسجد ـ فما كان منهم محدث إلا وَدَّ أن أخاه كفاه الحديث ، ولامُفْتٍ إلا وَدَّ أنَّ أخاه كفاه الفُتْيا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا جرير ، عن عطاء بن السائب ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، قال : أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم رجل يسأل عن شىء إلا ود أن أخاه كفاه ، ولا يحدث حديثًا إلا ودَّ أن أخاه كفاه .

وقال مالك عن يحيى بن سعيد : قال : قال ابن عباس : إن كل من أفتى الناس فى كل ما يسألونه عنه لمجنون . قال مالك : وبلغنى عن ابن مسعود مثل ذلك ، رواه ابن وضاح عن يوسف بن عدى ، عن عبيد بن حميد ، عن الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله، ورواه حبيب بن أبى ثابت عن أبى وائل عن عبد الله ، وقال سَحْنُون بن سعيد : أجسر الناس على الفتيا أقلُّهم علما ، يكون عند الرجل البابُ الواحد من العلم يظن أن الحقَّ كله فيه .

قلت : الجرأة على الفتيا تكون : من قلة العلم ، ومن غزارته وسعته ، فإذا قلّ علمه أفتى عن كل ما يُسْأل عنه بغير علم ، وإذا اتسع علمُه اتسعت فُتياه ؛ ولهذا كان ابن عباس من أوسع الصحابة فتيا ، وأن فتاواه جمعت فى عشرين سفرًا ، وكان سعيد بن المسيب أيضًا واسع الفتيا ،وكانوا يسمونه الجرىء،كما ذكر ابن وهب،عن مُد بن سليمان المرادى ، عن أبى إسحاق ، قال: كنت أرى الرجل في ذلك الزمان وإنه ليدخل يسأل عن الشىء فيدفعه الناس عن مجلس إلى مجلس، حتى يدفع إلى مجلس سعيد بن المسيب ، كراهية للفتيا ، قال : وكانوا يدعونه سعيد بن المسيب الجرىء .

وقال سحنون : إنى لأحفظ مسائل منها ما فيه ثمانية أقوال من ثمانية أئمة من

العلماء، فكيف ينبغى أن أعجل بالجواب قبل الخبر ، فلم ألام على حبس الجواب ؟!

وقال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب جامع فضل العلم: حدثنا خلف بن القاسم، حدثنا يحيى بن الربيع، ثنا محمد بن حماد المصيصى ، ثنا إبراهيم بن واقد ، ثنا المطلب بن زياد ، قال: حدثنى جعفر بن حسين إمامنا ، قال : رأيت أبا حنيفة فى النوم ، فقلت : ما فعل الله بك يا أبا حنيفة ؟قال : غفر لى ، فقلت له : بالعلم ، فقال : ما أضر الفتيا على أهلها !! فقلت : فبم ؟ قال : بقول الناس فىّ ما لم يعلم الله أنه منى . قال أبو عمر : وقال سحنون يوما : إنا لله !! ما أشقى المفتى والحاكم !! ثم قال : ها أنذا يتعلم منى ما تضرب به الرقاب ، وتوطأ به الفروج ، وتؤخذ به الحقوق ، أما كنت عن هذا غنيا ؟! قال أبو عمر : وقال أبو عثمان الحداد : القاضى أيسر مأثما وأقرب إلى السلامة من الفقيه - يريد المفتى - لأن الفقيه من شأنه إصدار ما يرد عليه من ساعته بما حضره من القول ، والقاضى شأنه الأناة والتثبت ، ومن تأنى وتثبت تهيأ له من الصواب ما لا يتهيأ لصاحب البديهة . انتهى .

وقال غيره : المفتى أقرب إلى السلامة من القاضى ، لأنه لا يلزم بفتواه ، وإنما يخبر بها من استفتاه ، فإن شاء قبل قوله ، وإن شاء تركه ، وأما القاضى فإنه يلزم بقوله ، فيشترك هو والمفتى فى الإخبار عن الحكم ، ويتميز القاضى بالإلزام والقضاء ، فهو من هذا الوجه خطره أشد .

ولهذا جاء فى القاضى من الوعيد والتخويف ما لم يأت نظيره فى المفتى ، كما رواه أبو داود الطيالسى من حديث عائشة ﵂ : أنها ذكر عندها القضاة فقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« يؤتى بالقاضى العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين اثنين فى تمرة قط »[(١)] ، وروى الشعبى عن مسروق عن عبد الله يرفعه : « ما من حاكم يحكم بين الناس إلا وكل به ملك آخذ بقفاه ، حتى يقف به على شفير جهنم ، فيرفع رأسه إلى الله ، فإن أمره أن يقذفه قذفه فى مهوى أربعين خريفا»[(٢)] .

وفى السنن من حديث ابن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ :« القضاة ثلاثة: اثنان فى النار وواحد فى الجنة ، رجل عرف الحق فقضى به فهو فى الجنة ، ورجل قضى

(١) مسند الطيالسى (١٥٤٦) .

(٢) ابن ماجه (٢٣١١) فى الأحكام ، باب التغليظ فى الحيف والرشوة ، وكشف الأستار ٢ / ١٣٣ (١٣٥١) فى الأحكام ، باب : فيمن ولى شيئا وفيه :« سبعين خريفا » ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ١٩٦) :« فيه مجالد ابن سعيد ، وثقه النسائى وضعفه جماعة » .

بين الناس بالجهل فهو فى النار ، ورجل عرف الحق فجار هو فى النار » (١) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ويل لديان من فى الأرض من ديان من فى السماء يوم يلقونه ، إلا من أمر بالعدل ، وقضى بالحق ، ولم يقض على هوى ، ولا على قرابة ، ولا على رغب ولا رهب ، وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه .

وفى سنن أبى داود من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال :« من طلب قضاء المسلمين حتى يناله .ثم غلب عدله جوره ،فله الجنة،ومن غلب جوره عدله فله النار»(٢) .

وفى سنن البيهقى من حديث ابن جُرَيْج عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ :« الله مع القاضى ما لم يجر ، فإذا جار برئ الله منه ، ولزمه الشيطان » (٣) . وفيه من حديث حسين المعلم عن الشيبانى عن ابن أبى أوفى قال:قال رسول الله ﷺ:« إن الله مع القاضى ما لم يجر ، فإذا جار وكله إلى نفسه » (٤) .

وفى السنن الأربعة من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ :« من قعد قاضيا بين المسلمين فقد ذبح نفسه بغير سكين » (٥) .

وفى سنن البيهقى من حديث أبى حازم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : قال :« ويل للأمراء ، وويل للعرفاء ، وويل للأمناء ، ليتمنين أقوام يوم القيامة أن نواصيهم كانت معلقة بالثريا يتجلجلون بين السماء والأرض ، وأنهم لم يلوا عملا » (٦) .

وأما المفتى ، ففى سنن أبى داود من حديث مسلم بن يسار قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ :« من قال على ما لم أقل فليتبوأ بيتا فى جهنم ، ومن أفتى بغير علم كان إثمه على من أفتاه ، ومن أشار على أخيه بأمر يعلم الرشد فى غيره ، فقد

---

(١) أبو داود (٣٥٧٣) فى الأقضية ، باب : فى القاضى يخطئ ، والترمذى (١٣٢٢م) فى الأحكام ، باب : ما جاء عن رسول الله ﷺ فى القاضى ، وابن ماجه (٢٣١٥) فى الأحكام ، باب : الحاكم يجتهد فيصيب الحق .

(٢) أبو داود (٣٥٧٥) فى الأقضية ، باب : فى القاضى يخطئ ، وضعفه الألبانى .

(٣) البيهقى فى الكبرى (١٠ / ٨٨) فى آداب القاضى ، باب : فضل من ابتلى بشىء من الأعمال فقام فيه بالقسط وقضى بالحق .

(٤) البيهقى فى الكبرى (١ / ٨٨) فى الكتاب والباب السابقين .

(٥) أبو داود (٣٥٧١، ٣٥٧٢) فى الأقضية ، باب : فى طلب القضاء ، والترمذى (١٣٢٥) فى الأحكام ، باب : ما جاء عن رسول الله ﷺ فى القاضى وقال :« حسن غريب من هذا الوجه » والنسائى فى الكبرى (٥٩٢٣ ، ٥٩٢٥) فى القضاء ، باب : التغليظ فى الحكم ، وقال :« عثمان بن محمد الأخنسى : ليس بذاك القوى ، وابن ماجه (٢٣٠٨) فى الأحكام ، باب : فى ذكر القضاة .

(٦) البيهقى فى الكبرى ( ١٠ / ٩٦) فى آداب القاضى ، باب : كراهية الإمارة وكراهية تولى أعمالها . . .إلخ .

خانه »[١] فكل خطر على المفتى ، فهو على القاضى ، وعليه من زيادة الخطر ما يختص به، ولكن خطر المفتى أعظم من جهة أخرى ،فإن فتواه شريعة عامة تتعلق بالمستفتى وغيره . وأما الحاكم فحكمه جزئى خاص لا يتعدى إلى غير المحكوم عليه ، وله ، فالمفتى يفتى حكما عاما كليا أن من فعل كذا ترتب عليه كذا ، ومن قال كذا لزمه كذا ، والقاضى يقضى قضاء معينا على شخص معين ، فقضاؤه خاص ملزم ، وفتوى العالم عامة غير ملزمة فكلاهما أجره عظيم وخطره كبير [٢] .

## فائدة

سأله [٣] رجل عن مسألة فقال : لا أدرى ، فردها الرجل عليه فقال : أَكُلُّ العلم نحسنه نحن ! قال : فاذهب إلى هؤلاء فاسألهم ـ يعنى أصحاب الرأى ـ فقال : لا أنظر إلى من يذهب إلى رأى أهل المدينة [٤] .

## فصل
## فى جواز الفتوى بالآثار السلفية والفتاوى الصحابية

الفتوى بالآثار السلفية والفتاوى الصحابية ، أولى بالأخذ بها من آراء المتأخرين وفتاويهم ، وأن قربها إلى الصواب بحسب قرب أهلها من عصر الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ـ وأن فتاوى الصحابة أولى أن يؤخذ بها من فتاوى التابعين ، وفتاوى التابعين أولى من فتاوى تابعى التابعين ، وهلم جرا . وكلما كان العهد بالرسول أقرب كان الصواب أغلب ، وهذا حكم بحسب الجنس ، لا بحسب كل فرد من المسائل ، كما أن عصر التابعين وإن كان أفضل من عصر تابعيهم فإنما هو بحسب الجنس لا بحسب كل شخص شخص ، ولكن المفضلون فى العصر المتقدم أكثر من المفضلين فى العصر المتأخر .

---

(١) أبو داود (٣٦٥٦) فى العلم ، باب : التوقى فى الفتيا .
(٢) إعلام الموقعين (١ / ٣٥ ، ٣٧ ـ ٣٩) .
(٣) من مسائل أبى جعفر محمد بن على الوراق .
(٤) بدائع الفوائد (٤ / ٦٤) .

وهكذا الصواب في أقوالهم أكثر من الصواب في أقوال من بعدهم ؛ فإن التفاوت بين علوم المتقدمين والمتأخرين كالتفاوت الذي بينهم في الفضل والدين ، ولعله لا يسع المفتي والحاكم عند الله أن يفتي ويحكم بقول فلان وفلان من المتأخرين من مقلدي الأئمة ، ويأخذ برأيه وترجيحه ، ويترك الفتوى والحكم بقول البخاري وإسحاق بن راهويه وعلي ابن المَديني ومحمد بن نصر المروزي وأمثالهم ، بل يترك قول ابن المبارك والأوزاعي وسفيان الثوري ، وسفيان بن عيينة ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة وأمثالهم ، بل لا يلتفت إلى قول ابن أبي ذئب والزهري والليث بن سعد وأمثالهم ، بل لا يعد قول سعيد ابن المسيب والحسن والقاسم وسالم وعطاء وطاوس وجابر بن زيد ، وشريح وأبي وائل وجعفر بن محمد وأضرابهم ، مما يسوغ الأخذ به ، بل يرى تقديم قول المتأخرين من أتباع من قلده على فتوى أبي بكر الصديق ، وعمر ، وعثمان وعلي ، وابن مسعود، وأبيّ بن كعب ، وأبي الدرداء ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعُبادة بن الصامت ، وأبي موسى الأشعري وأضرابهم ، فلا يدري ما عذره غدا عند الله إذا سوى بين أقوال أولئك وفتاويهم وأقوال هؤلاء وفتاويهم ، فكيف إذا رجحها عليها ؟ فكيف إذا عين الأخذ بها حكما وإفتاء ، ومنع الأخذ بقول الصحابة ، واستجاز عقوبة من خالف المتأخرين لها ، وشهد عليه بالبدعة والضلالة ومخالفة أهل العلم، وأنه يكيد الإسلام ؟ تالله لقد أخذ بالمثل المشهور : رمتني بدائها وانسلّتْ ، وسمى ورثة الرسول باسمه هو وكساهم أثوابه ، ورماهم بدائه ، وكثير من هؤلاء يصرخُ ويصيح ويقول ويعلن : أنه يجب على الأمة كلهم الأخذ بقول من قلدناه ديننا ، ولا يجوز الأخذ بقول أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من الصحابة . وهذا كلام من أخذ به ، وتقلده ولَّه الله ما تولى ، ويجزيه عليه يوم القيامة الجزاء الأوفى . والذي ندين الله به ضدُّ هذا القول ، والرد عليه ، فنقول :

إذا قال الصحابي قولا ، فإما أن يخالفه صحابي آخر أولا يخالفه ، فإن خالفه مثله لم يكن قول أحدهما حجة على الآخر ، وإن خالفه أعلم منه ، كما إذا خالف الخلفاء الراشدون أو بعضهم غيرهم من الصحابة في حكم ، فهل يكون الشق الذي فيه الخلفاء الراشدون ، أو بعضهم حجة على الآخرين ؟ فيه قولان للعلماء ، وهما روايتان عن الإمام أحمد .

والصحيح أن الشق الذي فيه الخلفاء أو بعضهم أرجح وأولى أن يؤخذ به من الشق الآخر .

فإن كان الأربعة فى شق فلا شك أنه الصواب ، وإن كان أكثرهم فى شق ، فالصواب فيه أغلب .

وإن كانوا اثنين واثنين ، فشق أبى بكر وعمر أقرب إلى الصواب ، فإن اختلف أبو بكر وعمر فالصواب مع أبى بكر . وهذه جملة لا يعرف تفصيلها إلا من له خبرة واطلاع على ما اختلف فيه الصحابة وعلى الراجح من أقولهم .

ويكفى فى ذلك معرفة رجحان قول الصديق فى الجد والإخوة ، وكون الطلاق الثلاث بفم واحد مرة واحدة وإن تلفظ فيه بالثلاث ، وجواز بيع أمهات الأولاد ، وإذا نظر العالم المنصف فى أدلة هذه المسائل من الجانبين تبين له أن جانب الصديق أرجح ، ، ولا يحفظ للصديق خلاف نص واحد أبدًا ، ولا يحفظ له فتوى ، ولا حكم مأخذها ضعيف أبدًا ، وهو تحقيق لكون خلافته خلافة نبوة .

وإن لم يخالف الصحابى صحابيًا آخر ، فإما أن يشتهر قوله فى الصحابة أولا يشتهر ، فإن اشتهر فالذى عليه جماهير الطوائف من الفقهاء أنه إجماع وحجة .

وقالت طائفة منهم : هو حجة ، وليس بإجماع ، وقالت شرذمة من المتكلمين وبعض الفقهاء المتأخرين : لا يكون إجماعًا ولا حجة ، وإن لم يشتهر قوله ، أو لم يعلم هل اشتهر أم لا،فاختلف الناس : هل يكون حجة أم لا ؟ فالذى عليه جمهور الأمة أنه حجة . هذا قول جمهور الحنفية ، صرح به محمد بن الحسن وذكر عن أبى حنيفة نصًا ، وهو مذهب مالك وأصحابه ، وتصرفه فى موطئه دليل عليه . وهو قول إسحاق بن راهويه وأبى عبيد ، وهو منصوص الإمام أحمد فى غير موضع عنه واختيار جمهور أصحابه ، وهو منصوص الشافعى القديم والجديد ، أما القديم فأصحابة مُقرُّون به ،وأما الجديد فكثير منهم يحكى عنه فيه أنه ليس بحجة ، وفى هذه الحكاية عنه نظر ظاهر جدًا ؛ فإنه لا يحفظ له فى الجديد حرف واحد أن قول الصحابى ليس بحجة ، وغاية ما يتعلق به من نقل ذلك أنه يحكى أقوالا للصحابة فى الجديد ثم يخالفها ، ولو كانت عنده حجة لم يخالفها ، وهذا تعلق ضعيف جدًا ، فإن مخالفة المجتهد الدليل المعين لما هو أقوى فى نظره منه لا يدل على أنه لا يراه دليلا من حيث الجملة ، بل خالف دليلاً لدليل أرجح عنده منه ، وقد تعلق بعضهم بأنه يراه فى الجديد إذا ذكر أقوال الصحابة موافقًا لها لا يعتمد عليها وحدها كما يفعل بالنصوص ، بل يعضده بضروب من الأقيسة ؛ فهو تارة يذكرها ، ويصرح بخلافها ، وتارة يوافقها ولا يعتمد عليها بل يعضدها بدليل آخر ، وهذا أيضًا تعلق أضعف من الذى

قبله ؛ فإن تظافر للأولة وتعاضدها وتناصرها من عادة أهل العلم قديمًا وحديثًا ، ولا يدل ذكرهم دليلا ثانيًا وثالثًا على أن ما ذكروه قبله ليس بدليل .

وقد صرح الشافعى فى الجديد من رواية الربيع عنه ، بأن قول الصحابة حجة يجب المصير إليه ، فقال (١) : المحدثات من الأمور ضربان : أحدهما : ما أحدث يخالف كتابًا أو سنة أو إجماعًا أو أثرًا فهذه البدعة الضلالة ، والربيع إنما أخذ عنه بمصر ، وقد جعل مخالفة الأثر الذى ليس بكتاب ولا سنة ولا إجماع ضلالة ، وهذا فوق كونه حجة .

وقال البيهقى فى كتاب مدخل السنن له : باب ذكر أقوال الصحابة إذا تفرقوا ، قال الشافعى : أقاويل الصحابة إذا تفرقوا فيها نصير إلى ما وافق الكتاب والسنة أو الإجماع إذا كان أصح فى القياس ، وإذا قال الواحدُ منهم القول لا يحفظ عن غيره منهم فيه له موافقة ولا خلاف صرتُ إلى اتباع قوله إذا لم أجد كتابًا ولا سنة ولا إجماعًا ولا شيئًا فى معناه يحكم له بحكمه أو وجد معه قياس .

قال البيهقى : وقال فى كتاب اختلافه مع مالك : ما كان الكتاب والسنة موجودين فالعذر على من سمعه مقطوع إلا بإتيانه ، فإن لم يكن ذلك صرنا إلى أقاويل الصحابة أو واحد منهم ، ثم كان قول الأئمة أبى بكر وعمر وعثمان إذا صرنا إلى التقليد أحبّ إلينا وذلك إذا لم نجد دلالة فى الاختلاف تدل على أقرب الاختلاف من الكتاب والسنة فنتبع القول الذى معه الدلالة ؛ لأن قول الإمام مشهور بأنه يلزم الناس ، ومن لزم قوله الناس كان أشهر ممن يفتى الرجل أو النفر وقد يأخذ بفتياه ويدعها ، وأكثر المفتين يفتون الخاصة فى بيوتهم ومجالسهم ولا يعتنى العامة بما قالوا عنايتهم بما قال الإمام ، وقد وجدنا الأئمة ينتدبون فيسألون عن العلم من الكتاب والسنة فيما أرادوا أن يقولوا فيه ويقولون فيخبرون بخلاف قولهم ،فيقبلون من المخبر ، ولا يستنكفون عن أن يرجعوا لتقواهم الله وفضلهم ، فإذا لم يوجد عن الأئمة فأصحاب رسول الله ﷺ عليه فى الدين فى موضع الأمانة أخذنا بقولهم ، وكان اتباعهم أولى بنا من اتباع من بعدهم (٢) .

---

(١) تراجع « أدلة وجوب اتباع الصحابة » فى كتابنا (جامع السيرة ـ مناقب الصحابة ) لابن القيم .

(٢) إعلام الموقعين (٤ / ١٥١ ـ ١٥٦) .

## فائدة

القاضى والمفتى مشتركان فى أن كلا مهما يجب عليه إظهار حكم الشرع فى الواقعة ويتميز الحاكم بالإلزام به وإمضائه ، فشروط الحاكم ترجع إلى شروط الشاهد والمفتى والوالى ، فهو مخبر عن حكم الشارع بعلمه مقبول بعدالته منفذ بقدرته (١) .

## فصل
## فى فوائد تتعلق بالفتوى

**الفائدة الأولى** : أسئلة السائلين لا تخرج عن أربعة أنواع لا خامس لها :

**الأول** : أن يسأل عن الحكم فيقول : ما حكم كذا وكذا .

**الثانى** : أن يسأل عن دليل الحكم .

**الثالث** : أن يسأل عن وجه دلالته .

**الرابع** : أن يسأل عن الجواب عن معارضه .

فإن سأل عن الحكم فللمسؤول حالتان . إحداهما : أن يكون عالمًا به ، والثانية : أن يكون جاهلا به .

فإن كان جاهلا به حرم عليه الإفتاء بلا علم ، فإن فعل فعليه إثمه وإثم المستفتى ، فإن كان يعرف فى المسألة ما قاله الناس ولم يتبين له الصواب من أقوالهم فله أن يذكر له ذلك ، فيقول : فيها اختلاف بين العلماء ، ويحكيه إن أمكن للسائل .

وإن كان عالمًا بالحكم فللسائل حالتان :

**إحداهما** : أن يكون قد حضره وقت العمل وقد احتاج إلى السؤال ، فيجب على المفتى المبادرة على الفور إلى جوابه ، فلا يجوز له تأخير بيان الحكم له عن وقت الحاجة .

**والحالة الثانية** : أن يكون قد سأل عن الحادثة قبل وقوعها ، فهذا لا يجب على المفتى أن يجيبه عنها ، وقد كان السلف الطيب إذا سئُل أحدهم عن مسألة يقول للسائل : هل

---

(١) بدائع الفوائد (٤ / ٢٢) .

كانت أو وقعت ؟ فإن قال : لا ، لم يجبه عنها ، وقال : دعنا فى عافية ، وهذا لأن الفتوى بالرأى لا تجوز إلا عند الضرورة ؛ فالضرورة تبيحه كما تبيح الميتة عند الاضطرار ، وهذا إنما هو فى مسألة لا نص فيها ولا إجماع ، فإن كان فيها نص أو إجماع فعليه تبليغه بحسب الإمكان ، فمن سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار، هذا إذا أمن المفتى غائلة الفتوى ، فإن لم يأمن غائلتها وخاف من ترتب شر أكثر من الإمساك عنها أمسك عنها ، ترجيحًا لدفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما .

وقد أمسك النبى ﷺ عن نقض الكعبة وإعادتها على قواعد إبراهيم لأجل حدثان عهد قريش بالإسلام ، وأن ذلك ربما نفَّرهم عنه بعد الدخول فيه (١) .

وكذلك إن كان عقل السائل لا يحتمل الجواب عما سأله عنه ، خاف المسؤول أن يكون فتنة له ، أمسك عن جوابه . قال ابن عباس رضي الله عنه لرجل سأله عن تفسير آية : وما يؤمنك أنى لو أخبرتك بتفسيرها كفرت به ؟ أى جحدته وأنكرته وكفرت به ، ولم يرد أنك تكفر بالله ورسوله .

## للمفتى العدول عن جواب المستفتى

**الفائدة الثانية** : يجوز للمفتى أن يعدل عن جواب المستفتى عما سأله عنه إلى ما هو أنفع له منه ، ولا سيما إذا تضمن ذلك بيان ما سأل عنه ، وذلك من كمال علم المفتى وفقهه ونصحه ، وقد قال تعالى : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** (٢١٥) ﴾ [ البقرة ] ، فسألوه عن المنفق فأجابهم بذكر المصرف؛إذا هو أهم مما سألوه عنه ، ونبههم عليه بالسياق ، مع ذكره لهم فى موضع آخر ، وهو قوله تعالى : ﴿ **قُلِ الْعَفْوَ** ﴾ [ البقرة : ٢١٩] وهو ما سهل عليهم إنفاقه ولا يضرهم إخراجه ، وقد ظن بعضهم أن من ذلك قوله تعالى : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ** ﴾ [ البقرة : ١٨٩ ] ، فسألوه عن سبب ظهور الهلال

(١) البخارى (١٥٨٣ ـ ١٥٨٦) فى الحج ،باب : فضل مكة وبنيانها ، ومسلم (١٣٣٣ / ٣٩٨ ـ ٤٠٤) فى الحج ، باب : نقض الكعبة وبنائها ، والنسائى (٢٩٠٠ ـ ٢٩٠٣) فى الحج ، باب : بناء الكعبة ، ومالك (١ / ٣٦٣) رقم (١٠٤) فى الحج ، باب : ما جاء فى بناء الكعبة ، وأحمد (٦ / ١١٣) .

خفيًا ثم لا يزال يتزايد فيه النور على التدريج حتى يكمل ثم يأخذ فى النقصان ، فأجابهم عن حكمة ذلك من ظهور مواقيت الناس التى بها تمام مصالحهم فى أحوالهم ومعاشهم ومواقيت أكبر عبادتهم وهو الحج ، وإن كانوا قد سألوا عن السبب فقد أجيبوا بما هو أنفع لهم مما سألوا عنه ،وإن كانوا إنما سألوا عن حكمة ذلك فقد أجيبوا عن عين ما سألوا عنه . ولفظ سؤالهم محتمل ؛ فإنهم قالوا : ما بال الهلال يبدو دقيقًا ثم يأخذ فى الزيادة حتى يتم ثم يأخذ فى النقص ؟

## للمفتى أن يجيب بأكثر مما سئل عنه

**الفائدة الثالثة** : يجوز للمفتى أن يجيب السائل بأكثر مما سأله عنه ، وهو من كان نصحه وعلمه وإرشاده ؛ ومن عاب ذلك فلقلة علمه وضيق عطنه وضعف نصحه ؛ وقد ترجم البخارى لذلك فى صحيحه فقال : باب من أجاب السائل بأكثر مما سأل عنه ؛ ثم ذكر حديث ابن عمر رضي الله عنهما ما يلبس المحرم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا يلبس القمص ؛ ولا العمائم ؛ ولا السراويلات ؛ ولا الخفاف ، إلا ألا يجد نعلين فليلبس الخفين وليقطعهما أسفل من الكعبين »[1] ، فسئل رسول الله ﷺ عما يلبس المحرم ، فأجاب عما لا يلبس ، وتضمن ذلك الجواب عما يلبس ، فإن مالا يلبس محصور ، وما يلبسه غير محصور ، فذكر لهم النوعين ، وبين لهم حكم لبس الخف عندهم عدم النعل ، وقد سألوه عن الوضوء بماء البحر ؛ فقال لهم : « هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته »[2] .

## للمفتى أن يدل السائل على ما هو عوض عن الممنوع

**الفائدة الرابعة** : من فقه المفتى ونصحه إذا سأله المستفتى عن شىء فمنعه منه وكانت حاجته تدعوه إليه ، أن يدله على ما هو عوض له منه ، فيسد عليه باب المحظور ، ويفتح له باب المباح ، وهذا لا يتأتى إلا من عالم ناصح مشفق قد تاجر الله وعامله بعلمه ، فمثاله فى العلماء مثال الطبيب العالم الناصح فى الأطباء يحمى العليل عما يضره ، ويصف

(١) البخارى (١٣٤) فى العلم ، باب : من أجاب السائل بأكثر مما سأله .

(٢) أبو داود (٨٣) فى الطهارة ، باب : الوضوء بماء البحر ، والترمذى (٦٩) فى الطهارة ، باب : ما جاء فى ماء البحر أنه طهور ، وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى (٥٩) فى الطهارة ، باب : ماء البحر ، وابن ماجه (٣٨٦) فى الطهارة وسننها، باب : الوضوء بماء البحر ، وأحمد (٢ / ٣٦١) .

له ما ينفعه ، فهذا شأن أطباء الأديان والأبدان .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « ما بعث الله من نبي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم » (١) . وهذا شأن خلق الرسل وورثتهم من بعدهم .

ورأيت شيخنا ـ قدس الله روحه ـ يتحرى ذلك في فتاويه مهما أمكنه ، ومن تأمل فتاويه وجد ذلك ظاهرا فيها ، وقد منع النبي ﷺ بلالا أن يشترى صاعا من التمر الجيد بصاعين من الرديء ، ثم دله على الطريق المباح ، فقال : « بِعِ الجمع بالدراهم ، ثم اشتر بالدراهم جنيبا »(٢). فمنعه من الطريق المحرم ، وأرشده إلى الطريق المباح .

ولما سأله عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث والفضل بن عباس أن يستعملهما في جباية الزكاة ، ليصيبا ما يتزوجان به ، منعهما من ذلك ، وأمر مَحميةَ بن جزء ـ وكان على الخمس ـ أن يعطيهما ما ينكحان به (٣) ، فمنعهما من الطريق المحرم ، وفتح لهما الطريق المباح ، وهذا اقتداء منه بربه تبارك وتعالى ، فإنه يسأله عبده الحاجة فيمنعه إياها ، ويعطيه ما هو أصلح له وأنفع منها ، وهذا غاية الكرم والحكمة .

## على المفتي تنبيه السائل على وجه الاحتراز

**الفائدة الخامسة** : إذا أفتى المفتي للسائل بشيء ينبغي له أن ينبهه على وجه الاحتراز مما قد يذهب إليه الوهم منه من خلاف الصواب ، وهذا باب لطيف من أبواب العلم والنصح والإرشاد ، ومثال هذا قوله ﷺ : « لا يقتل مؤمن بكافر ، ولا ذو عهد في عهده » (٤) . فتأمل كيف أتبع الجملة الأولى بالثانية رفعا لتوهم إهدار دماء الكفار مطلقا وإن كانوا في عهدهم ؛ فإنه لما قال : « لا يقتل مؤمن بكافر » . فربما ذهب الوهم إلى أن دماءهم هدر ،

(١) مسلم (١٨٤٤ / ٤٦) في الإمارة ، باب :وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء ،والنسائي (٤١٩١) في البيعة ، باب :ذكر ما على مَن بايع الإمام وأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه ،وابن ماجه (٣٩٥٦) في الفتن ،باب :ما يكون من الفتن .

(٢) البخاري (٢٢٠١ ، ٢٢٠٢) في البيوع ، باب : إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه ، ومسلم (١٥٩٣ / ٩٥) في المساقاة ، باب : بيع الطعام مثلا بمثل ، ومالك (٢ / ٦٢٢) رقم (٢٠ / ٢١) في البيوع ، باب : ما يكره من بيع التمر .

(٣) مسلم (١٠٧٢ / ١٦٧) في الزكاة ، باب : استعمال آل النبي على الصدقة ، وأبو داود (٢٩٨٥) في الخراج والإمارة والفيء ، باب : بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذي القربى ، وأحمد (٤ / ١٦٦) .

(٤) أبو داود (٤٥٣٠) في الديات ، باب : أيقاد المسلم بالكافر؟ ، والنسائي (٤٧٣٥) في القسامة ، باب :القود بين الأحرار والمماليك في النفس ،وابن ماجه (٢٦٦٠) في الديات ،باب لا يقتل مسلم بكافر ،وأحمد (١/ ١١٩) .

ولهذا لو قتل أحدهم مسلم لم يقتل به ، فرفع هذا التوهم بقوله : ولا ذو عهد فى عهده، ولقد خفيت هذه اللطيفة الحسنة على من قال : يقتل المسلم بالكافر المعاهد . وقدر فى الحديث : ولا ذو عهد فى عهده بكافر ، ومنه قوله ﷺ :« لا تجلسوا على القبور ، ولا تُصلّوا إليها » (١) .

فلما كان نهيه عن الجلوس عليها نوع تعظيم لها عقبه بالنبى عن المبالغة فى تعظيمها حتى تجعل قبلة، وهذا بعينه مشتق من القرآن ، كقوله تعالى لنساء نبيه: ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢)** ﴾ [ الأحزاب ] ، فنهاهن عن الخضوع بالقول ، فربما ذهب الوهم إلى الإذن فى الإغلاظ فى القول والتجاوز ، فرفع هذا التوهم بقوله : ﴿ **وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا** ﴾ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ** ﴾ [ الطور : ٢١ ] ، لما أخبر ـ سبحانه ـ بإلحاق الذرية ولا عمل لهم بآبائهم فى الدرجة فربما توهم متوهم أن يُحطَّ الآباء إلى درجة الذرية ، فرفع هذا التوهم بقوله : ﴿ **وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ** ﴾ أى : ما نقصنا من الآباء شيئًا من أجور أعمالهم ، بل رفعنا ذريتهم إلى درجتهم ، ولم نحطهم إلى درجتهم بنقص أجورهم ، ولما كان الوهم قد يذهب إلى أنه يفعل ذلك بأهل النار كما يفعله بأهل الجنة قطع هذا الوهم بقوله تعالى : ﴿ **كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)** ﴾ [ الطور :٢١ ]،ومن هذا قوله : ﴿ **إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ** ﴾ [ النمل : ٩١ ]، فلما كان ذكر ربوبيته البلدة الحرام قد يوهم الاختصاص عقبه بقوله : ﴿ **وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ** ﴾ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)** ﴾ [ الطلاق : ٣ ] ، فلما ذكر كفايته للمتوكل عليه فربما أوهم ذلك تعجل الكفاية وقت التوكل فعقبه بقوله : ﴿ **قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** ﴾ أى وقتا لا يتعداه فهو يسوقه إلى وقته الذى قدره له ، فلا يستعجل المتوكل ويقول : قد توكلت ودعوت فلم أر شيئًا ولم تحصل لى الكفاية، فالله بالغ أمره فى وقته الذى قدر له ، وهذا كثير جدًا فى القرآن والسنة ، وهو باب لطيف من أبواب فهم النصوص .

---

(١) مسلم (٩٧/٩٧٢ ، ٩٨) فى الجنائز ، باب : النهى عن الجلوس على القبر والصلاة عليه ، وأبو داود (٣٢٢٩) فى الجنائز ، باب فى كراهية العقود على القبر ، والترمذى (١٠٥٠ ، ١٠٥١) فى الجنائز ، باب : ما جاء فى كراهية المشى على القبور والجلوس عليها والصلاة إليها ، وأحمد (١٣٥/٤) .

## على المفتى أن يذكر دليل الحكم ومأخذه وعلته

**الفائدة السادسة** : ينبغى للمفتى أن يذكر دليل الحكم ومأخذه ما أمكنه من ذلك ، ولا يلقيه إلى المستفتى ساذجًا مجردًا عن دليله ومأخذه ، فهذا لضيق عطنه وقلة بضاعته من العلم ، ومن تأمل فتاوى النبى ﷺ الذى قوله حجة بنفسه رآها مشتملة على التنبيه على حكمة الحكم ونظيره ووجه مشروعيته ، وهذا كما سئل عن بيع الرطب بالتمر فقال : «أينقص الرطب إذا جف ؟ » قالوا : نعم ، فزجر عنه (١) ، ومن المعلوم أنه كان يعلم نقصانه بالجفاف ، ولكن نبههم على علة التحريم وسببه . ومن هذا قوله لعمر وقد سأله عن قبلة امرأته وهو صائم ،فقال : « أرأيت لو تمضمضت ثم مججته ، أكان يضر شيئًا ؟ » قال : لا (٢) .فنبَّه على أن مقدمة المحظور لا يلزم أن تكون محظورة ، فإن غاية القبلة أنها مقدمة الجماع ، فلا يلزم من تحريمه تحريم مقدمته،كما أن وضع الماء فى الفم مقدمة شربه ، وليست المقدمة محرمة .

ومن هذا : قوله ﷺ : « لا تنكح المرأة على عمتها ، ولا على خالتها ، فإنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » (٣) ، فذكر لهم الحكم ، ونبههم على علة التحريم .

ومن ذلك قوله لأبى النعمان بن بشير وقد خصَّ بعض ولده بغلام نحله إياه ، فقال: « أيسُرك أن يكونوا لك فى البر سواء ؟ » قال : نعم ، قال : « فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم » (٤) . وفى لفظ : « إن هذا لا يصلح » (٥) ، وفى لفظ : « إنى لا أشهد على

---

(١) كنز العمال (١٠١٠٥) ، ورواه أبو داود (٣٣٥٩) فى البيوع باب : فى التمر بالتمر ، والترمذى (١٢٢٥) فى البيوع ، باب : ما جاء فى النهى عن المحاقلة والمزابنة ، وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى (٤٥٤٥ ، ٤٥٤٦) فى البيوع ، باب : اشتراء التمر بالرطب ، وابن ماجه (٢٢٦٤) فى التجارات ، باب : بيع الرطب بالتمر ، وبلفظ : « إذا يبس » .

(٢) أبو داود (٢٣٨٥) فى الصوم ، باب القبلة للصائم ، وأحمد (١ / ١٢) ، والحاكم فى المستدرك ١ / ٤٣١ وقال: « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

(٣) الطبرانى فى الكبير ١١ / ٣٣٧ (١١٩٣١)،والكامل فى الضعفاء (١٥٩/٤) ، وابن حبان (٤١٠٤) ولفظه:« إنكن إن فعلتن ذلك قطعتن أرحامكن » .

(٤) مسلم (١٧/١٦٢٣) فى الهبات ، باب : كراهة تفضيل بعض الأولاد فى الهبة ، وأبو داود (٣٥٤٢) فى البيوع، باب : فى الرجل يفضل بعض ولده فى النحل .

(٥) مسلم (١٩/١٦٢٤) فى الهبات ، باب : كراهة تفضيل بعض الأولاد فى الهبة ، وأبو داود (٣٥٤٥) فى الكتاب والباب السابقين .

جور » (١) ، وفى لفظ : « أشهد على هذا غيرى » (٢) ، تهديدًا ، لا إذنًا ، فإنه لا يأذن فى الجور قطعًا ، وفى لفظ : رده ، والمقصود أنه نبهه على علة الحكم .

ومن هذا : قوله ﷺ لرافع بن خديج وقد قال له : إنا لاقو العدو غدًا وليس معنا مدى، أفنذبخ بالقصب ؟ فقال :« ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه ، فكل ، ليس السِّن والظفر ، وسأحدثك عن ذلك ، أما السن فعظم ، وأما الظفر فمدى الحبشة » (٣) ، فنبه على علة المنع من التذكية بهما بكون أحدهما عظما ، وهذا تنبيه على عدم التذكية بالعظام إما لنجاسة بعضها وإما لتنجيسه على مؤمنى الجن ، ولكون الآخر مدى الحبشة ، ففى التذكية بها تشبه بالكفار . ومن ذلك قوله : « إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الإنسية ، فإنها رجس » (٤) .

ومن ذلك : قوله فى الثمرة تصيبها الجائحة : « أرأيت إن منع الله الثمرة ، فبم يأكل أحدكم مال أخيه بغير حق ؟ » (٥) وهذا التعليل بعينه ينطبق على من استأجر أرضًا للزراعة فأصيب الزرع آفة سماوية لفظا ومعنى ، فيقال للمؤجر : أرأيت إن منع الله الزرع فبم تأكل مال أخيك بغير حق ؟ وهذا هو الصواب الذى ندين الله به فى المسألة ،وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية .

والمقصود بأن الشارع مع كون قوله حجة بنفسه يرشد الأمة إلى علل الأحكام ومداركها وحكمها ، فورثته من بعده كذلك .

ومن ذلك : نهيه عن الخذْف وقال : « إنه يفقأ العين ويكسر السن » (٦) .

---

(١ ، ٢) مسلم (١٦٢٣/ ١٤، ١٥) فى الكتاب والباب السابقين ، وأبو داود (٣٥٤٢) فى الكتاب والباب السابقين .

(٣) البخارى (٥٤٩٨) فى الذبائح والصيد ، باب : التسمية على الذبيحة ومن ترك متعمدًا ، ومسلم (١٩٦٨/ ٢٠) فى الأضاحى ، باب : جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر وسائر العظم ، وأبو داود (٢٨٢١) فى الضحايا ، باب : فى الذبيحة بالمروة ، والترمذى (١٤٩١) فى الأحكام والفوائد ، باب : ما جاء فى الزكاة بالقصب وغيره .

(٤) أحمد (٣ / ١١١) .

(٥) البخارى : (٢١٩٨) فى البيوع ، باب : إذا باع الثمار قبل أن يبدو صلاحها ، ومسلم (١٥٥٥ / ١٥ ، ١٦) فى المساقاة ، باب : وضع الجوائح بلفظ مقارب ، والنسائى (٤٥٢٦) فى البيوع ، باب : شراء الثمار قبل أن يبدو صلاحها ، ومالك (٢/٦١٨) رقم (١١) فى البيوع ، باب : النهى عن بيع الثمر قبل بدو صلاحها .

(٦) البخارى (٦٢٢٠) فى الأدب ، باب : النهى عن الخذف ، ومسلم (١٩٥٤/ ٥٤-٥٦) فى الصيد والذبائح ، باب : إباحة ما يستعان به على الاصطياد والعدو ، وكراهة الخذْف ، وابن ماجه (١٧) فى المقدمة ، باب : تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه ، وأحمد (٥ / ٥٤ ، ٥٥) .

ومن ذلك : إفتاؤه للعاضِّ يدَ غيره بإهدار دية ثنيته لما سقطت بانتزاع المعضوض يده من فيه ، ونبه على العلة بقوله : «أيدع يده فى فيك تقضمها كما يقضم الفحل» (١) ، وهذا من أحسن التعليل وأبينه ؛ فإن العاض لما صال على المعضوض جاز له أن يرد صياله عنه بانتزاع يده من فمه ، فإذا أدى ذلك إلى إسقاط ثناياه كان سقوطها بفعل مأذون فيه من الشارع فلا يقابل بالدية ، وهذا كثير جدا فى السنة ؛ فينبغى للمفتى أن ينبه السائل على علة الحكم ومأخذه إن عرف ذلك ، وإلا حرم عليه أن يفتى بلا علم .

وكذلك أحكام القرآن يرشد سبحانه فيها إلى مداركها وعللها ، كقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ [ البقرة : ٢٢٢ ]، فأمر ـ سبحانه ـ نبيه أن يذكر لهم علة الحكم قبل الحكم ، وكذلك قوله : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر : ٧ ]، وكذلك قوله: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [ المائدة : ٣٨ ]،وقال فى جزاء الصيد: ﴿ لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ [ المائدة : ٩٥].

## التمهيد للحكم المستغرب

**الفائدة السابعة** : إذا كان الحكم مستغربا جدا مما لم تألفه النفوس وإنما ألفت خلافه ، فينبغى للمفتى أن يوطئ قلبه ما يكون مؤذنا به كالدليل عليه والمقدمة بين يديه،فتأمل ذكره ـ سبحانه ـ قصة زكريا وإخراج الولد منه بعد انصرام عصر الشبيبة وبلوغه السن الذى لا يولد فيه لمثله فى العادة ، فذكر قصته مقدمه بين يدى قصة المسيح وولادته من غير أب ؛ فإن النفوس لما آنست بولد من بين شيخين كبيرين لا يولد لهما عادة سهل عليها التصديق بولادة ولد من غير أب ، وكذلك ذكر ـ سبحانه ـ قبل قصة المسيح موافاة مريم رزقها فى غير وقته وغير إبانه،وهذا الذى شجع نفس زكريا وحركها لطلب الولد وإن كان فى غير إبانه، وتأمل قصة نسخ القبلة لما كانت شديدة على النفوس جدا كيف وطأ سبحانه قبلها عدة موطئات :

منها : ذكر النسخ .

ومنها : أنه يأتى بخير من المنسوخ أو مثله .

---

(١) البخارى (٢٩٧٣) فى الجهاد ، باب : الأجير ، ومسلم (١٦٧٣/ ٢١) فى القسامة ، باب الصائل على نفس الإنسان أو عضوه ، وأحمد (٤/ ٢٢٢) .

ومنها : أنه على كل شىء قدير ، وأنه بكل شىء عليم ؛ فعموم قدرته وعلمه صالح لهذا الأمر الثانى كما كان صالحا للأول .

ومنها : تحذيرهم من الاعتراض على رسوله كما اعترض من قبلهم على موسى ، بل أمرهم بالتسليم والانقياد .

ومنها : تحذيرهم بالإصغاء إلى اليهود ، وألا تستخفهم شبههم ، فإنهم يودون أن يردوهم كفارا من بعدما تبين لهم الحق .

ومنها : إخباره أن دخول الجنه ليس بالتهود ولا بالتنصر ، وإنما هو بإسلام الوجه والقصد والعمل والنية لله مع متابعة أمره .

ومنها: إخباره ـ سبحانه ـ عن سعته ، وأنه حيث ولى المصلى وجهه فثم وجهه تعالى ، فإنه واسع عليم ، فذكر الإحاطتين الذاتية والعلمية ، فلا يتوهمون أنهم فى القبلة الأولى لم يكونوا مستقبلين وجهه تبارك وتعالى ولا فى الثانية ،بل حيثما توجهوا فثم وجهه تعالى.

ومنها : أنه ـ سبحانه وتعالى ـ حذر نبيه ﷺ عن اتباع أهواء الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ، بل أمر أن يتبع هو وأمته ما أوحى إليه فيستقبلونه بقلوبهم وحده .

ومنها : أنه ذكر عظمة بيته الحرام ، وعظمة بانيه وملته ، وسفه من يرغب عنها ، وأمر باتباعها ، فنوه بالبيت وبانيه وملته ، وكل هذا توطئة بين يدى التحويل ، مع ما فى ضمنه من المقاصد الجليلة والمطالب السنية .

ثم ذكر فضل هذه الأمة ، وأنهم الأمة الوسط العدل الخيار ، فاقتضى ذلك أن يكون نبيهم ﷺ أوسط الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وخيارهم ، وكتابهم كذلك ، ودينهم كذلك وقبلتهم التى يستقبلونها كذلك ، فظهرت المناسبة شرعا وقدرا فى أحكامه تعالى الأمرية والقدرية ، وظهرت حكمته الباهرة ، وتجلت للعقول الزكية المستنيرة بنور ربها تبارك وتعالى .

والمقصود : أن المفتى جدير أن يذكر بين يدى الحكم الغريب الذى لم يؤلف مقدمات تؤنس به ، وتدل عليه ، وتكون توطئة بين يديه ، وبالله التوفيق .

## للمفتى أن يحلف على ثبوت الحكم عنده

**الفائدة الثامنة**: يجوز للمفتى والمناظر أن يحلف على ثبوت الحكم عنده ، وإن لم يكن

حلفه موجبا لثبوته عند السائل والمنازع ، ليشعر السائل والمنازع له أنه على ثقة ويقين مما قال له ، وأنه غير شاك فيه ، فقد تناظر رجلان فى مسألة ، فحلف أحدهما على ما يعتقده ، فقال له منازعه : لا يثبت الحكم بحلفك ، فقال : إنى لم أحلف ليثبت الحكم عندك ، ولكن لأعلمك أنى على يقين وبصيرة من قولى ،وأن شبهتك لا تغير عندى فى وجه يقينى بما أنا جازم به ، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يحلف على ثبوت الحق الذى جاء به فى ثلاثة مواضع من كتابه ، أحدها : قوله تعالى : ﴿ **وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَق** ﴾ [يونس: ٥٣ ]، والثانى : قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ** ﴾ [ سبأ : ٣ ] ، والثالث : قوله تعالى : ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ** ﴾ [ التغابن : ٧ ] ، وقد أقسم النبى ﷺ على ما أخبر به من الحق فى أكثر من ثمانين موضعا ، وهى موجودة فى الصحاح والمسانيد .

وقد كان الصحابة ﷺ يحلفون على الفتاوى والرواية ، فقال على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - لابن عباس فى متعة النساء : إنك امرؤ تائه ، فانظر ما تفتى به فى متعة النساء : فوالله وأشهد بالله ، لقد نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولما ولى عمر ﷺ حمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أيها الناس ،إن رسول الله ﷺ أحل المتعة ثلاثا ، ثم حرمها ثلاثا ، فأنا أقسم بالله قسما لا أجد أحدا من المسلمين متمتعا إلا رجمته ، إلا أن يأتى بأربعة من المسلمين يشهدون أن رسول الله ﷺ أحلها بعد أن حرمها . وقد حلف الشافعى فى بعض أجوبته ، فقال محمد بن الحكم : سألت الشافعى ﷺ عن المتعة كان يكون فيها طلاق أو ميراث أو نفقة أو شهادة ؟ فقال : لا والله ما أدرى . وقال يزيد بن هارون : من قال : القرآن مخلوق أو شىء منه مخلوق ، فهو والله عندى زنديق .

وسئل عن حديث جرير فى الرؤية ، فقال : والله الذى لا إله هو من كذب به ما هم إلا زنادقة . وأما الإمام أحمد رحمة الله عليه ورضوانه فإنه حلف على عدة مسائل من فتاويه ، قيل : أيزيد الرجل فى الوضوء على ثلاث مرات ؟ فقال : لا والله ، إلا رجل مبتلى ، يعنى بالوسواس . وسئل عن تخليل الرجل لحيته إذا توضأ ، فقال : إى والله .

وسئل : يكون الرجل فى الجهاد بين الصفين يُبارز علجًا بغير إذن الإمام ، فقال : لا والله . وقيل له : أتكره الصلاة فى المقصورة ؟ فقال : إى والله ، قلت : وهذا لما كانت المقصورة تُحْمى للأمراء وأتباعهم . وسئل : أيؤجرُ على بُغْض من خالف حديث رسول

الله ﷺ ؟ فقال : إى والله . وسئل : من قال : القرآن مخلوق كافر ؟ فقال : إى والله . وسئل : هل صح عندك فى النبيذ حديث ؟ فقال : والله ما صح عندى حديث واحد إلا على التحريم .

وسئل : أيكره الخضاب بالسواد ؟ فقال : إى والله . وسئل عن الرجل يؤم أباه ويصلى الأب خلفه ، فقال : إى والله . وسئل : هل يُكره النفخ فى الصلاة ؟ فقال : إى والله .

وسئل عن تزوج الرجل المسلم الأمة من أهل الكتاب ، فقال : لا والله . وسئل عن المرأة تستلقى على قفاها وتنام ، يكره ذلك ؟ فقال : إى والله .

وسئل عن الرجل يَرْهن جاريته فيطؤها وهى مرهونة ، فقال : لا والله .

وسئل عن حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قضى فى رجل استسقى قومًا وهو عطشان فلم يسقوه فمات فأغرمهم عمر الديَّة ، تقول أنت كذا ؟ فقال : إى والله .

وسئل عن الرجل إذا حُدَّ فى القذف ثم قذف زوجته يلاعنها ؟ فقال : إى والله .

وسئل أيضرب الرجل رقيقه ؟ فقال : إى والله . ذكر هذه المسائل القاضى أبو على الشريف .

وقال الإمام أحمد فى رواية ابنه صالح : والله لقد أعطيت المجهود من نفسى ، ولوددت أنى أنجو من هذا الزمر كفافًا لا على ولا لى . وقال فى روايته أيضًا : والله لقد تمنيت الموت فى الأمر الذى كان ؛ وإنى لأتمنى الموت فى هذا وهذا فتنة الدنيا . وقال إسحاق بن منصور لأحمد : يكره الخاتم من ذهب أو حديد ؟ فقال : إى والله .

وقال إسحاق أيضا : قلت : قلت لأحمد : يؤجرُ الرجل يأتى أهله وليس له شهوة فى النساء ؟ فقال : إى والله ، يحتسب الولد ، وإن لم يرد الولد ، إلا أنه يقول : هذه امرأة شابة . وقال له محمد بن عون : يا أبا عبد الله ، يقولون : إنك وقفت على عثمان ، فقال : كذبوا والله علىّ ، وإنما حدثتهم بحديث ابن عمر : كنا نفاضل بين أصحاب رسول الله ﷺ ، نقول : أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على ، فيبلغ ذلك النبى ﷺ ، فلم يكره، ولم يقل النبى ﷺ : لا تخايروا بعد هؤلاء ، فمن وقف على عثمان ولم يربع بعلى عليه السلام فهو على غير السنة .

وسئل أحمد : هل المقام بالثغر أفضل من المقام بمكة ؟ فقال : إى والله .

وذكر أبو أحمد بن عدى فى الكامل : أن أيوب بن إسحاق بن سافرى قال : سألت أحمد بن حنبل فقلت : يا أبا عبد الله ، ابن إسحاق إذا انفرد بحديث تقبله ؟ فقال : لا والله ، إنى رأيته يُحدّث عن جماعة بالحديث ولا يفصل كلام ذا من كلام ذا .

وقال صالح بن أحمد : قلت لأبى : تقتل الحية والعقرب فى الصلاة ؟ فقال : إى والله . وقال أيضًا : قلت لأبى : تجهرُ بآمين ؟ فقال : إى والله ، الإمام وغير الإمام . وقال أيضًا : قلت لأبى : يفتح على الإمام ؟ قال : إى والله .

وقال الميمونى : قلت لأحمد : ونحن نحتاج فى رمضان أن نُبيِّتَ الصوم من الليل ؟ فقال : إى والله . وقال الميمونى أيضا : تباع الفرس الحبيس إذا عطبت وإذا فسدت ؟ فقال : إى والله . وقال الميمونى أيضا : قلت لأحمد : هل ثبت عن النبى ﷺ فى العقيقة شىء ؟ فأملى على أبى : إى والله ، وفى غير حديث عن النبى ﷺ : « عن الغلام شاتان مكافيتان ، وعن الجارية شاة » (١) .

وقال إسحاق بن منصور : قلت لأحمد ، التسبيح للرجال والتصفيق للنساء ؟ قال : إى والله .

وقال الكوسج أيضًا : قلت لأحمد : قال سفيان : تجزئه تكبيرة إذا نوى بها افتتاح الصلاة ؟ قال أحمد : إى والله ، تجزئة إذا نوى ، ابن عمر وزيد . وقال أيضا : قلت لأحمد : المؤذن يجعل أصبعيه فى أذنيه ؟ قال : إى والله . وقال أيضا : قلت لأحمد : سُئل سفيان عن امرأة ماتت وفى بطنها ولد يتحرك ، ما أرى بأسًا أن يشق بطنها ، قال أحمد : بئس والله ما قال ، يردد ذلك ، سبحان الله ! بئس ما قال : وقال أيضا : قلت لأحمد : تجوز شهادة رجل وامرأتين فى الطلاق ؟ قال : لا والله . وقال أيضا : قلت لأحمد : المرجئ إذا كان داعيًا ، قال : إى والله يُجْفَى ويُقْصَى .

وقال أبو طالب : قلت لأحمد : رجل قال : القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، ولكن لفظى هذا به مخلوق ، قال : من قال هذا فقد جاء بالأمر كله ، إنما هو كلام الله على كل حال ، والحجة فيه حديث أبى بكر ﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) ﴾ [ الروم : ١ ] فقيل له : هذا مما جاء به صاحبك ؟ فقال : لا والله ، ولكنه كلام الله ، هذا وغيره ، وإنما هو كلام الله، قلت : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**

(١) أبو داود (٢٨٤٢) فى الضحايا ، باب : فى العقيقة ، والترمذى (١٥١٣) فى الأضاحى ، باب : ما جاء فى العقيقة وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٣١٦٢) فى الذبائح ، باب : العقيقة .

﴿ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ ﴾ [ الأنعام : ١] هذا الذى قرأت الساعة كلام الله ؟ قال : إى والله هو كلام الله . ومن قال : « لفظى بالقرآن مخلوق » فقد جاء بالأمر كله .

وقال الفضل بن زياد : سألت أبا عبد الله عن حديث ابن شبرمة عن الشعبى فى رجل نذر أن يطلق امرأته ، فقال له الشعبى : أوف بنذرك ، أترى ذلك ؟ فقال : لا والله .

وقال الفضل أيضا : سمعت أبا عبد الله ، وذكر يحيى بن سعيد القطان ، فقال : لا والله ، ما أدركنا مثله .

وذكر أحمد فى رسالته إلى مسدد : ولا عين نظرت بعد النبى ﷺ خيرًا من أبى بكر ، ولا بعد أبى بكر عين نظرت خيرًا من عمر ، ولا بعد عمر عين نظرت خيرًا من عثمان ، ولا بعد عثمان عين نظرت خيرًا من على بن أبى طالب ﷺ ! ثم قال أحمد : وهم والله الخلفاء الراشدون المهديون .

وقال الميمونى : قلت لأحمد : جابر الجعفى ، قال : كان يرى التشيع ، قلت : قد يتهم فى حديثه بالكذب ؟ قال : إى والله .

قال القاضى :فإن قيل: كيف استجاز الإمام أحمد أن يحلف فى مسائل مختلف فيها ؟

قيل : أما مسائل الأصول فلا يسوغ فيها اختلاف فهى إجماع ، وأما مسائل الفروع فإنه لما غلب على ظنه صحة ذلك حلف عليه ، كما لو وجد فى دفتر أبيه أن له على فلان دينًا جاز له أن يدعيه لغالبة الظن بصدقه ، قلت : ويحلف عليه .

قال : فإن قيل : أليس قد امتنع من اليمين على إسقاط الشفعة بالجوار ؟

قيل : لأن اليمين هناك عند الحاكم ، والنية فيه للخصم ، قلت : ولم يمنع أحمد اليمين لهذا بل شفعة الجوار عنده مما يسوغ القول بها ،وفيها أحاديث صحاح لا ترد ، ولهذا اختلف قوله فيها ، فمرة نفاها ، ومرة أثبتها ، ومرة فصل بين أن يشتركا فى حقوق الملك كالطريق والماء وغيره ، وبين ألا يشتركا فى الشىء من ذلك فلا يثبت ، وهذا هو الصواب الذى لا ريب فيه ، وبه تجتمع الأحاديث ، وهو اختيار شيخ الإسلام ، ومذهب فقهاء البصرة ، ولا يختار غيره .

وقد روى أحمد عن جماعة من الصحابة والتابعين أنهم حلفوا فى الرواية والفتوى وغيرها تحقيقًا وتأكيدًا للخبر لا إثباتًا له باليمين ، وقد قال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣ ﴾ [ الذاريات : ٢٣ ] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ

حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية [ النساء : ٦٥ ] ، :وقال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ [ الحجر ] ، وكذلك أقسم بكلامه كقوله تعالى : ﴿ يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [ يس ] ، : ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) ﴾ [ ق ] ، ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾ [ ص ] ، وأما إقسامه بمخلوقاته التى هى آيات دالة عليه فكثير جداً .

## على المفتى استعمال لفظ النص فى فتواه

**الفائدة التاسعة** : ينبغى للمفتى أن يفتى بلفظ النص مهما أمكنه ؛ فإنه يتضمن الحكم، والدليل مع البيان التام ، فهو حكم مضمون له الصواب ، متضمن للدليل عليه فى أحسن بيان، وقول الفقيه المعين ليس كذلك ، وقد كان الصحابة والتابعون والأئمة الذين سلكوا على منهاجهم يتحرون ذلك غاية التحرى ، حتى خلفت من بعدهم خلُوف رغبوا عن النصوص ، واشتقوا لهم ألفاظًا غير ألفاظ النصوص ، فأوجب ذلك هجر النصوص ، ومعلوم أن تلك الألفاظ لا تفى بما تفى به النصوص من الحكم والدليل وحسن البيان ، فتولد من هجران ألفاظ النصوص والإقبال على الألفاظ الحادثة ، وتعليق الأحكام بها على الأمة من الفساد ما لا يعلمه إلا الله ، فألفاظ النصوص عصمة ، وحجة بريئة من الخطأ والتناقض والتعقيد والاضطراب .

ولما كانت هى عصمة عهدة الصحابة ، وأصولهم التى إليها يرجعون كانت علومهم أصح من علوم من بعدهم ، وخطؤهم فيما اختلفوا فيه أقل من خطأ من بعدهم ، ثم التابعون بالنسبة إلى من بعدهم كذلك ، وهلم جراً .

ولما استحكم هجران النصوص عند أكثر أهل الأهواء والبدع كانت علومهم فى مسائلهم وأدلتهم فى غاية الفساد والاضطراب والتناقض ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سئلوا عن مسألة يقولون: قال الله كذا ، قال رسول الله ﷺ كذا،أو فعل رسول الله كذا ، ولا يعدلون عن ذلك ما وجدوا إليه سبيلا قط ، فمن تأمل أجوبتهم وجدها شفاء لما فى الصدور ، فلما طال العهد وبُعد الناس من نور النبوة صار هذا عيبًا عند المتأخرين أن يذكروا فى أصول دينهم وفروعه : قال الله ، وقال رسول الله .

أما أصول دينهم فصرحوا فى كتبهم أن قول الله ورسوله لا يفيد اليقين فى مسائل أصول الدين ، وإنما يحتج بكلام الله ورسوله فيها الحشوية والمجسمة والمشبهة .

وأما فروعهم فقنعوا بتقليد من اختصر لهم بعض المختصرات التى لا يذكر فيها نص عن الله ولا عن رسول الله ﷺ ، ولا عن الإمام الذى زعموا أنهم قلدوه دينهم ، بل عمدتهم فيما يفتون ويقضون به وينقلون به الحقوق ويبيحون به الفروج والدماء والأموال على قول ذلك المصنف ، وأجلهم عند نفسه وزعيمهم عند بنى جنسه : من يستحضر لفظ الكتاب ، ويقول : هكذا قال ، وهذا لفظه ؛ فالحلال ما أحله ذلك الكتاب ، والحرام ما حرمه ، والواجب ما أوجبه ، والباطل ما أبطله ، والصحيح ما صححه .

هذا وأنىَّ لنا بهؤلاء فى مثل هذه الأزمان ، فقد دفعنا إلى أمر تضج منه الحقوق إلى الله ضجيجًا ، وتعج منه الفروج والأموال والدماء إلى ربها عجيجًا ، تبدل فيه الأحكام ، ويقلب فيه الحلال بالحرام ، ويجعل المعروف فيه أعلى مراتب المنكرات ، والذى لم يشرعه الله ورسوله من أفضل القربات ، والحق فيه غريب ، وأغرب منه من يعرفه ، وأغرب منهما من يدعو إليه وينصح به نفسه والناس ؛ قد فلق بهم فالق الإصباح صبحه عن غياهب الظلمات ،وأبان طريقه المستقيم من بين تلك الطرق الجائرات ، وأراه بعين قلبه ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه مع ما عليه أكثر الخلق من البدع المضلات ، رفع له علم الهداية فشمر إليه ، ووضح له الصراط المستقيم فقام واستقام عليه ، وطوبى له من وحيد على كثرة السكان ، غريب على كثرة الجيران ، بين أقوام رؤيتهم قذى العيون ، وشجى الحلوق، وكرب النفوس ،وحمى الأرواح وغم الصدور ، ومرض القلوب ، وإن أنصفتهم لم تقبل طبيعتهم الإنصاف ، وإن طلبته منهم فأين الثرايا من يد الملتمس ، قد انتكست قلوبهم ، وعمى عليهم مطلوبهم ، رضوا بالأمانى ، وابتلوا بالحظوظ ، وحصلوا على الحرمان . وخاضوا بحار العلم لكن بالدعاوى الباطلة وشقائق الهذيان ؛ ولا والله ما ابتلَّت من وشله (١) أقدامهم ، ولا زكت به عقولهم وأحلامهم ؛ ولا ابيضت به لياليهم ؛ وأشرقت بنوره أيامهم ؛ ولا ضحكت بالهدى والحق منه وجوه الدفاتر إذا بُلَّتْ بمداده أقلامهم ، أنفقوا فى غير شىء نفائس الأنفاس ؛ وأتعبوا أنفسهم وحيروا من خلفهم من الناس ،ضيعوا الأصول،فحرموا الوصل ، وأعرضوا عن الرسالة فوقعوا فى مهامه الحيرة ، وبيداء الضلالة .

---

(١) الوشل : الماء القليل .

والمقصود : أن العصمة مضمونة فى ألفاظ النصوص ومعانيها فى أتم بيان وأحسن تفسير ، ومن رام إدراك الهدى ودين الحق من غير مشكاتها فهو عليه عسير غير يسير .

## على المفتى أن يضرع إلى الله ليلهمه الصواب

**الفائدة العاشرة** : ينبغى للمفتى الموفق إذا نزلت به المسألة أن ينبعث من قلبه الافتقار الحقيقى الحالى ، لا العلمى المجرد إلى مُلْهِم الصواب ،ومعلم الخير ، وهادى القلوب ، أن يلهمه الصواب ، ويفتح له طريق السداد ، ويدله على حكمه الذى شرعه لعباده فى هذه المسألة ، فمتى قرع هذا الباب فقد قرع باب التوفيق ، وما أجدر من أمَّل فضل ربه ألا يحرمه إياه ! فإذا وجد من قلبه هذه الهمة فهى طلائع بشرى التوفيق ، فعليه أن يوجه وجهه ويحدق نظره إلى منبع الهدى ومعدن الصواب ومطلع الرشد وهو النصوص من القرآن والسنة وآثار الصحابة ، فيستفرغ وسعه فى تعرف حكم تلك النازلة منها ، فإن ظفر بذلك أخبر به،وإن اشتبه عليه بادر إلى التوبة والاستغفار والإكثار من ذكر الله ، فإن العلم نور الله يقذفه فى قلب عبده،والهوى والمعصية رياح عاصفة تطفئ ذلك النور أو تكاد ، ولا بد أن تضعفه .

وشهدت شيخ الإسلام ـ قدس الله روحه ـ إذ غشيته المسائل ، واستصعبت عليه ، فَرَّ منها إلى التوبة والاستغفار والاستعانة بالله واللَّجَأ إليه ، واستنزال الصواب من عنده ، والاستفتاح من خزائن رحمته ، فقلَّما يلبث المدد الإلهى أن يتتابع عليه مدًا ، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ ، ولا ريب أن من وفق لهذا الافتقار علمًا وحالا ، وسار قلبه فى ميادينه بحقيقة وقصد فقد أعطى حظه من التوفيق ، ومن حرمه فقد منع الطريق والرفيق . فمتى أعين مع هذا الافتقار ببذل الجهد فى درك الحق فقد سلك به الصراط المستقيم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

## لا يحل للمفتى الإفتاء إلا بما يكون منه على بينة

**الفائدة الحادية عشرة** : إذا نزلت بالحاكم أو المفتى النازلة ، فإما أن يكون عالمًا بالحق فيها ، أو غالبًا على ظنه بحيث قد استفرغ وسعه فى طلبه ومعرفته . أو لا ، فإن لم يكن عالمًا بالحق فيها ، ولا غلب على ظنه لم يحل له أن يفتى ، ولا يقضى بما لا يعلم ، ومتى أقدم على ذلك فقد تعرض لعقوبة الله ، ودخل تحت قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ**

**الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣)** ﴾ [ الأعراف ] ، فجعل القول عليه بلا علم أعظم المحرمات الأربعة التى لا تباح بحال؛ ولهذا حصر التحريم فيها بصيغة الحصر ، ودخل تحت قوله تعالى : ﴿ **وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (١٦٩)** ﴾ [ البقرة ] ، ودخل فى قول النبى ﷺ : « من أفتى بغير علم فإنما إثمه على من أفتاه » (١) وكان أحد القضاة الثلاثة الذين ثلثاهم فى النار .

وإن كان قد عرف الحق فى المسألة علمًا أو ظنًا غالبًا لم يحل له أن يفتى ولا يقضى بغيره بالإجماع المعلوم بالضرورة من دين الإسلام ، وهو أحد القضاة الثلاثة والمفتين الثلاثة والشهود الثلاثة ، وإذا كان من أفتى أو حكم أو شهد بغير علم مرتكبًا لأعظم الكبائر فكيف من أفتى أو حكم أو شهد بما يعلم خلافه ؟ فالحاكم والمفتى والشاهد كل منهم مخبر عن حكم الله ؛ فالحاكم مخبر منفذ ، والمفتى مخبر غير منفذ ، والشاهد مخبر عن الحكم الكونى القدرى المطابق للحكم الدينى الأمرى ؛ فمن أخبر منهم عما يعلم خلافه ، فهو كاذب على الله عمدًا : ﴿ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)** ﴾ [ الزمر ] ،ولا أظلم ممن كذب على الله وعلى دينه . وإن أخبروا بما لم يعلموا فقد كذبوا على الله جهلا ، وإن أصابوا فى الباطن ، وأخبروا بما لم يأذن الله لهم فى الإخبار به ، وهم أسوأ حالا من القاذف إذا رأى الفاحشة وحده فأخبر بها فإنه كاذب عند الله ، وإن أخبر بالواقع ؛ فإن الله لم يأذن له فى الإخبار بها إلا إذا كان رابع أربعة ، فإن كان كاذبًا عند الله فى خبر مطابق لمخبره حيث لم يأذن له فى الإخبار به فكيف بمن أخبر عن حكمه بما لم يعلم أن الله حكم به ولم يأذن له فى الإخبار به ؟ قال الله تعالى : ﴿ **وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧)** ﴾ [النحل] ،وقال تعالى: ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ** ﴾ [ الزمر:٣٢] ، والكذب على الله يستلزم التكذيب بالحق والصدق ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ**

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٠ .

عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) ﴾ [ هود ] ،وهذه الآيات وإن كانت فى حق المشركين والكفار فإنها متناولة لمن كذب على الله فى توحيده ودينه وأسمائه وصفاته وأفعاله، ولا تتناول المخطئ المأجور إذا بذل اجتهاده ، واستفرغ وسعه فى إصابة حكم الله وشرعه ، فإن هذا هو الذى فرضه الله عليه ، فلا يتناول المطيع لله وإن أخطأ ، وبالله التوفيق .

## المفتى ممن يظهر حكم الله على لسانه

**الفائدة الثانية عشرة** : حكم الله ورسوله يظهر على أربعة ألسنة:لسان الراوى ، ولسان الحاكم ، ولسان الشاهد ، فالراوى يظهر على لسانه لفظ حكم الله ورسوله .

والمفتى يظهر على لسانه معناه وما استنبطه من لفظه .

والحاكم يظهر على لسانه الإخبار بحكم الله وتنفيذه .

والشاهد يظهر على لسانه الإخبار بالسبب الذى يثبت حكم الشارع .

والواجب على هؤلاء الأربعة أن يخبروا بالصدق المستند إلى العلم ، فيكونون عالمين بما يخبرون به ، صادقين فى الإخبار به .

وآفة أحدهم الكذب والكتمان ، فمتى كتم الحق أو كذب فيه فقد حادَّ الله فى شرعه ودينه ، وقد أجرى الله سنته أن يمحق عليه بركة علمه ودينه ودنياه إذا فعل ذلك ، كما أجرى عادته ـ سبحانه ـ فى المتبايعين إذا كتما وكذبا أن يمحق بركة بيعها ، ومن التزم الصدق والبيان منهم فى مرتبته بورك له فى علمه ووقته ودينه ودنياه ، وكان مع النبيين والصدقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقًا ، وذلك الفضل من الله وكفى بالله عليمًا ، فبالكتمان يعزل الحق عن سلطانه ، وبالكذب يقلبه عن وجهه ، والجزاء من جنس العمل ، فجزاء أحدهم أن يعزله الله عن سلطان المهابة والكرامة والمحبة والتعظيم الذى يلبسه أهل الصدق والبيان ، ويلبسه ثوب الهوان والمقت والخزى بين عباده ، فإذا كان يوم القيامة جازى الله ـ سبحانه ـ من يشاء من الكاذبين الكاتمين بطمس الوجوه وردها على أدبارها كما طمسوا وجه الحق وقلبوه عن وجهه جزاء وفاقًا ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [ فصلت ] .

## لا يجوز لمفت الحكم على الشيء إلا بما حكم الله به

**الفائدة الثالثة عشرة** : لا يجوز للمفتي أن يشهد على الله ورسوله بأنه أحل كذا أو حرمه ؛ أو أوجبه أو كرهه ، إلا لما يعلم أن الأمر فيه كذلك مما نص الله ورسوله على إباحته أو تحريمه أو إيجابه أو كراهته . وأما ما وجده في كتابه الذي تلقاه عمن قلده دينه ، فليس له أن يشهد على الله ورسوله به ؛ ويغر الناس بذلك ، ولا علم له بحكم الله ورسوله .

قال غير واحد من السلف : ليحذر أحدكم أن يقول : أحل الله كذا ؛ أو حرم الله كذا ، فيقول الله له : كذبت ، لم أحل كذا ولم أحرمه .

وثبت في صحيح مسلم من حديث بُريدَة بن الحصيب أن رسول الله ﷺ قال : « وإذا حاصرت حصنًا فسألوك أن تنزلهم على يحكم الله ورسوله ؛ فلا تنزلهم على حكم الله ورسوله ؛ فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا ؛ ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك » (١) .

وسمعت شيخ الإسلام يقول : حضرت مجلسًا فيه القضاة وغيرهم ؛ فجرت حكومة حكم فيها أحدهم بقول زُفَر ؛ فقلت له : ما هذه الحكومة ؟ قال : هذا حكم الله . فقلت له : صار قول زُفَر هو حكم الله الذي حكم به وألزم به الأمة ؟ ! . قل هذا حكم زفر ، ولا تقل : هذا حكم الله ؛ أو نحو هذا من الكلام .

## أحوال السائل وموقف المفتي منه

**الفائدة الرابعة عشرة** : المفتي إذا سئل عن مسألة ، فإما أن يكون قصد السائل فيها معرفة حكم الله ورسوله ليس إلا ، وإما أن يكون قصده معرفة ما قاله الإمام الذي شهر المفتي نفسه باتباعه وتقليده دون غيره من الأئمة ، وإما أن يكون مقصوده معرفة ما ترجح عند ذلك المفتي وما يعتقده فيها لاعتقاده علمه ودينه وأمانته ، فهو يرضى تقليده هو ، وليس له غرض في قول إمام بعينه ؛ فهذه أجناس الفُتيا التي ترد على المفتين .

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٤ .

ففرض المفتى فى القسم الأول أن يجيب بحكم الله ورسوله إذا عرفه وتيقنه ، لا يسعه غير ذلك .

وأما فى القسم الثانى ، فإذا عرف قول الإمام نفسه وسعه أن يخبر به ، ولا يحل له أن ينسب إليه القول ، ويطلق عليه أنه قوله بمجرد ما يراه فى بعض الكتب التى حفظها أو طالعها من كلام المنتسبين إليه ، فإنه قد اختلطت أقوال الأئمة وفتاويهم بأقوال المنتسبين إليهم واختياراتهم . فليس كل ما فى كتبهم منصوصًا عن الأئمة ، بل كثير منه يخالف نصوصهم ، وكثير منه لا نص لهم فيه ، وكثير منه يخرج على فتاويهم ، وكثير منه أفتوا به بلفظه أو بمعناه ، فلا يحل لأحد أن يقول : هذا قول فلان ومذهبه إلا أن يعلم يقينًا أنه قوله ومذهبه ، فما أعظم خطر المفتى وأصعب مقامه بين يدى الله تعالى !

وأما القسم الثالث ، فإنه يسعه أن يخبر المستفتى بما عنده فى ذلك مما يغلب على ظنه أنه الصواب ؛ بعد بذل جهده واستفراغ وسعه . ومع هذا فلا يلزم المستفتى الأخذ بقوله ؛ وغايته أنه يسوغ الأخذ به .

فلينزل المفتى نفسه فى منزلة من هذه المنازل الثلاث ، وليقم بواجبها ؛ فإن الدين دين الله ، والله سبحانه ولا بُدَّ سائله عن كل ما أفتى به،وهو مَوْقِر عليه، ومُحَاسب ولا بد ، والله المستعان .

## لا يجوز لمفت الفتوى بمذهب ما

**الفائدة الخامسة عشرة** : ليحذر المفتى الذى يخاف مقامه بين يدى الله ـ سبحانه ـ أن يفتى السائل بمذهبه الذى يقلده ، وهو يعلم مذهب غيره فى تلك المسألة أرجح من مذهبه ، وأصح دليلا ، فتحمله الرياسة على أن يقتحم الفتوى بما يغلب على ظنه أن الصواب فى خلافه ، فيكون خائنًا لله ورسوله وللسائل وغاشًا له ، والله لا يهدى كيد الخائنين ؛ وحرم الجنة على من لقيه وهو غاش للإسلام وأهله ، والدين النصحية ، والغش مضاد للدين كمضادة الكذب للصدق ،والباطل للحق ، وكثيرًا ما ترد المسألة نعتقد فيها خلاف المذهب ، فلا يسعنا أن نفتى بخلاف ما نعتقده ، فنحكى المذهب الراجح ، ونرجحه ، ونقول هذا هو الصواب ؛ وهو أولى أن يؤخذ به ، وبالله التوفيق .

## على المفتى أن يكون بيانه واضحًا

**الفائدة السادسة عشرة** : لا يجوز للمفتى الترويج وتخيير السائل وإلقاؤه فى الإشكال والحيرة ، بل عليه أن يبين بيانًا مزيلا للإشكال ، متضمنًا لفصل الخطاب ، كافيًا فى حصول المقصود ، لا يحتاج معه إلى غيره ، ولا يكون كالمفتى الذى سئل عن مسألة فى المواريث فقال : يقسم بين الورثة على فرائض الله عز وجل ، وكتبه فلان .

وسئل آخر عن صلاة الكسوف فقال : تصلى على حديث عائشة ؛ وإن كان هذا أعلم من الأول .

وسئل آخر عن مسألة من الزكاة فقال : أما أهل الإيثار ، فيخرجون المال كله ؛ وأما غيرهم فيخرج القدر الواجب عليه ، أو كما قال .

وسئل آخر عن مسألة فقال : فيها قولان ، ولم يزد .

قال أبو محمد بن حزم . وكان عندنا مُفْتٍ إذا سئل عن مسألة لا يفتى فيها حتى يتقدمه من يكتب ، فيكتب هو : جوابى فيها مثل جواب الشيخ ، فقدر أن مفتيين اختلفا فى الجواب ، فكتب تحت جوابهما : جوابى مثل جواب الشيخين ، فقيل له : إنهما قد تناقضا ، فقال . وأنا أتناقض كما تناقضا .

وكان فى زماننا رجل مُشار إليه بالفتوى ، وهو مقدم فى مذهبه ، وكان نائب السلطان يرسل إليه فى الفتاوى فيكتب : يجوز كذا ، أو يصح كذا ، أو ينعقد بشرطه ، فأرسل إليه يقول له : تأتينا فتاوى منك فيها يجوز أو ينعقد أو يصح بشرطه ، ونحن لا نعلم شرطه ، فإما أن تبين شرطه ، وإما ألا تكتب ذلك .

وسمعت شيخنا يقول : كل أحد يحسن أن يفتى بهذا الشرط ، فإن أى مسألة وردت عليه يكتب فيها يجوز بشرطه ، أو يصح بشرطه ، أو يقبل بشرطه ونحو ذلك ، وهذا ليس يعلم ، ولا يفيد فائدة أصلا سوى حيرة السائل ، وتنكده .

وكذلك قول بعضهم فى فتاويه ، يرجع فى ذلك إلى رأى الحاكم ، فيا سبحان الله ، والله لو كان الحاكم شُرَيحًا وأشباهه لما كان مردُّ أحكام الله ورسوله إلى رأيه فضلا عن حكام زماننا ، فالله المستعان .

وسئل بعضهم عن مسألة فقال : فيها خلاف ، فقيل له : كيف يعمل المفتى ؟ فقال : يختار له القاضى أحد المذهبين .

قال أبو عمرو بن الصلاح : كنت عند أبى السعادات ابن الأثير الجزرى ، فحكى لى عن بعض المفتين أنه سئل عن مسألة فقال : فيها قولان ، فأخذ يزرى عليه ، وقال : هذا حيد عن الفتوى ، ولم يخلص السائل من عمايته ، ولم يأت بالمطلوب .

قلت : وهذا فيه تفصيل ؛ فإن المفتى المتمكن من العلم ، المضلع به قد يتوقف فى الصواب فى المسألة المتنازع فيها ، فلا يقدم على الجزم بغير علم ، وغاية ما يمكنه أن يذكر الخلاف فيها للسائل، وكثيراً ما يسأل الإمام أحمد رضي الله عنه وغيره من الأئمة عن مسألة فيقول : فيها قولان ، أو قد اختلفوا فيها ، وهذا كثير فى أجوبة الإمام أحمد لسعة علمه وورعه ، وهو كثير فى كلام الإمام الشافعى رضي الله عنه ، يذكر المسألة ثم يقول : فيها قولان .

وقد اختلف أصحابه هل يضاف القولان اللذان يحكيهما إلى مذهبه وينسبان إليه أم لا؟ على طريقين ، وإذا اختلف علىّ وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وزيد وأبىّ وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم ولم يتبين للمفتى القول الراجح من أقوالهم فقال: هذه مسألة اختلف فيها فلان وفلان من الصحابة ، فقد انتهى إلى ما يقدر عليه من العلم .

قال أبو إسحاق الشيرازى : سمعت شيخنا أبا الطيب الطبرى يقول : سمعت أبا العباس الحضرمى يقول: كنت جالسًا عند أبى بكر بن داود الظاهرى ، فجاءته امرأة فقالت : ما تقول فى رجل له زوجة لا هو ممسكها ولا هو مطلقها ؟فقال لها : اختلف فى ذلك أهل العلم ، فقال قائلون : تؤمر بالصبر والاحتساب ويبعث على التطلب والاكتساب ، وقال قائلون : يؤمر بالإنفاق ولا يحمل على الطلاق ، فلم تفهم المرأة قوله ، فأعادت المسألة ، فقال : يا هذه أجبتك عن مسألتك ، وأرشدتك إلى طلبك ، ولست بسلطان فأمضى ، ولا قاض فأقضى ، ولا زوج فأرضى ؛ فانصرفى .

## الإفتاء فى الوقف

**الفائدة السابعة عشرة** : إذا سئل عن مسألة فيها شرط واقف لم يحل له أن يلزم بالعمل به ، بل ولا يسوغه على الإطلاق ، حتى ينظر فى ذلك الشرط ، فإن كان يخالف حكم الله ورسوله فلا حرمة له ، ولا يحل له تنفيذه ، ولا يسوغ تنفيذه ، وإن لم يخالف حكم الله ورسوله فلينظر : هل فيه قربة أو رجحان عند الشارع أم لا ؟ فإن لم يكن فيه قربة ولا رجحان لم يجب التزامه ، ولم يحرم ، فلا تضر مخالفته ، وإن كان فيه قربة وهو راجح على خلافه ، فلينظر : هل يفوت بالتزامه والتقييد به ما هو أحب إلى الله ورسوله

وأرضى له وأنفع للمكلف وأعظم تحصيلا لمقصود الواقف من الأجر ؟ فإن فات ذلك بالتزامه لم يجب التزامه ولا التقييد به قطعًا ، وجاز العدول بل يستحب إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله وأنفع للمكلف وأكثر تحصيلا لمقصود الواقف .

وإن كان فيه قربة وطاعة ، ولم يفت بالتزامه ما هو أحب إلى الله ورسوله منه وتساوى هو وغيره فى تلك القربة ، ويحصل غرض الواقف بحيث يكون هو وغيره طريقين موصلين إلى مقصوده ، ومقصود الشارع من كل وجه لم يتعين عليه التزام الشرط ، بل له العدول عنه إلى ما هو أسهل عليه ، وأرفق به . وإن ترجح موجب الشرط ، كان قصد القربة والطاعة فيه أظهر وجب التزامه .

فهذا هو القول الكلى فى شروط الواقفين ، وما يجب التزامه منها ، وما يسوغ ، وما لا يجب .

ومن سلك غير هذا المسلك تناقض أظهر تناقض ، ولم يثبت له قدم يعتمد عليه .

فإذا شرط الواقف أن يصلى الموقوف عليه فى هذا المكان المعين الصلوات الخمس ولو كان وحده وإلى جانبه المسجد الأعظم وجماعة المسلمين لم يجب عليه الوفاء بهذا الشرط ، بل ولا يحل له التزامه إذا فاتته الجماعة ؛ فإن الجماعة إما شرط لا تصلح الصلاة بدونها ، وإما واجبة يستحق تاركها العقوبة وإن صحت صلاته ،وإما سنة مؤكدة يقاتل تاركها ، وعلى كل تقدير فلا يصلح التزامه شرط يخل بها .

وكذلك إذا شرط الواقف العزوبية ، وترك التأهل لم يجب الوفاء بهذا الشرط بل ولا التزامه ، بل من التزمه رغبة عن السنة ، فليس من الله ورسوله فى شىء ؛فإن النكاح عند الحاجة إليه إما فرض يعصى تاركه ، وإما سنة الاشتغال بها أفضل من صيام النهار ، وقيام الليل ، وسائر أوراد التطوعات ، وإما سنة يثاب فاعلها كما يثاب فاعل السنن والمندوبات ، وعلى كل تقدير ، فلا يجوز اشتراط تعطيله أو تركه ؛ إذ يصير مضمون هذا الشرط أنه لا يستحق تناول الوقف إلا من عطل ما فرض الله عليه ، وخالف سنة رسول الله ﷺ ، ومن فعل ما فرضه الله عليه وقام بالسنة لم يحل له أن يتناول من هذا الوقف شيئًا ، ولا يخفى ما فى التزام هذا الشرط والإلزام به من مضادة الله ورسوله ، وهو أقبح من اشتراطه ترك الوتر والسنن الراتبة وصيام الخميس والاثنين والتطوع بالليل ، بل أقبح من اشتراطه ترك ذكر الله بكرة وعشيا ونحو ذلك .

ومن هذا : اشتراطه أن يصلى الصلوات فى التربة المدفون بها ويدع المسجد ، وهذا

أيضا مضاد لدين الإسلام أعظم مضادة ؛ فإن رسول الله ﷺ لعن المتخذين قبور أنبيائهم مساجد (١) ، فالصلاة فى المقبرة معصية لله ورسوله ، باطلة عند كثير من أهل العلم ، لا يقبلها الله ولا تبرأ الذمة بفعلها ، فكيف يجوز التزامه شرط الواقف لها وتعطيل شرط الله ورسوله ؟ فهذا تغيير الدين لولا أن الله ـ سبحانه ـ يقيم له من يبين أعلامه ويدعو إليه .

ومن ذلك : اشتراط إيقاد سراج أو قنديل على القبر ؛ فلا يحل للواقف اشتراط ذلك، ولا للحاكم تنفيذه ، ولا للمفتى تسويغه ، ولا للموقوف عليه فعله والتزامه ، فقد لعن رسول الله ﷺ المتخذين السرج على القبور (٢)، فكيف يحل للمسلم أن يلزم أو يسوغ فعل ما لعن رسول الله ﷺ فاعله ؟

وحضرت بعض قضاة الإسلام يوما ، وقد جاءه كتاب وقف على تربة ليثبته ، وفيه : وأنه يوقد على القبر كل ليلة قنديل ، فقلت له : كيف يحل لك أن تثبت هذا الكتاب وتحكم بصحته مع علمك بلعنة رسول الله ﷺ للمتخذين السرج على القبور ؟ فأمسك عن إثباته وقال : الأمر كما قلت ، أو كما قال (٣) .

## على المفتى ألا يطلق الجواب فى مسألة فيها تفصيل

**الفائدة الثامنة عشرة** : ليس للمفتى أن يطلق الجواب فى مسألة فيها تفصيل إلا إذا علم أن السائل إنما سأل عن أحد تلك الأنواع ، بل إذا كانت المسألة تحتاج إلى التفصيل استفصله ، كما استفصل النبى ﷺ ماعزا لما أقر بالزنا : هل وجد منه مقدماته أو حقيقته ؟ فلما أجابه عن الحقيقة استفصله :هل به جنون فيكون إقراره غير معتبر أم هو عاقل ؟ فلما علم عقله استفصله بأن أمر باستنكاهه ؟ ليعلم هل هو سكران أم صاح ؟ فلما علم أنه صاح استفصله : هل أحصن أم لا ؟ فلما علم أنه قد أحصن أقام عليه الحد (٤) .

ومن هذا قوله لمن سألته : هل على المرأة من غسل إذا هى احتلمت ؟ فقال :« نعم ،

---

(١) إعلام الموقعين (٤ / ٢٠٢ ـ ٢٣٣) .

(٢) أبو داود (٣٢٣٦) فى الجنائز ، باب : فى زيارة النساء القبور ، والترمذى (٣٢٠) فى الصلاة ، باب : ما جاء فى كراهية أن يتخذ على القبر مسجدا ، والنسائى(٢٠٤٣) فى الجنائز ، باب : التغليظ فى اتخاذ السرج على القبور ، وأحمد (١ / ٢٢٩ ، ٢٨٧ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧) ، وضعفه الألبانى .

(٣) إعلام الموقعين (٤ / ٢٠٢ ـ ٢٣٣) .

(٤) مسلم (١٦٩٥/٢٢) فى الحدود ، باب : من اعترفه على نفسه بالزنا ، وأبو داود (٤٤٣٠) فى الحدود ، باب : رجم ماعز بن مالك ، والترمذى (١٤٢٩) فى الحدود ، باب : درء الحد عن المعترف إذا رجع ، وقال:«حسن صحيح » .

إذا رأت الماء » (١)، فتضمن هذا الجواب الاستفصال بأنها يجب عليها الغسل في حال ، ولا يجب عليها في حال .

ومن ذلك : أن أبا النعمان بن بشير سأل رسول الله ﷺ أن يشهد على غلام نحله ابنه، فاستفصله ، وقال :« أكل ولدك نحلته كذلك ؟ » فقال : لا (٢) ، فأبى أن يشهد . وتحت هذا الاستفصال أن ولدك إن كانوا اشتركوا في النحل صح ذلك ، وإلا لم يصح .

ومن ذلك : أن ابن أم مكتوم استفتاه : هل يجد له رخصة أن يصلي في بيته ؟ فقال:« هل تسمع النداء ؟ » ، قال: نعم ، قال :« فأجب » (٣)، فاستفصله بين أن يسمع النداء أو لا يسمعه .

ومن ذلك : أنه لما استفتي عن رجل وقع على جاريه امرأته فقال :« إن كان استكرهها فهي حرة وعليه مثلها ، وإن كانت طاوعته فهي له وعليه لسيدتها مثلها » (٤)، وهذا كثير في فتاويه ﷺ .

فإذا سئل المفتي عن رجل دفع ثوبه إلى قصار يقصره ، فأنكر القصار الثوب ثم أقر به، هل يستحق الأجرة على القصارة أم لا ؟ فالجواب بالإطلاق خطأ نفيا وإثباتا ، والصواب : التفصيل ، فإن كان قصره قبل الجحود فله أجرة القصارة ؛ لأنه قصره لصاحبه ، وإن كان قصره بعد جحوده فلا أجرة له لأنه قصره لنفسه .

وكذلك إذا سئل عن رجل حلف لا يفعل كذا وكذا ، ففعله ، لم يجز له أن يفتي

---

(١) البخاري (٦٠٩١) في الأدب ، باب : التبسم والضحك ، ومسلم (٣١٣ / ٣٢) في الحيض ، باب : وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها ، والنسائي (١٩٧) في الطهارة ، باب : غسل المرأة ترى في منامها ما يرى الرجل ، وابن ماجه (٦٠٠) في الطهارة ، باب : في المرأة ترى في منامها ما يرى الرجل ، وأحمد (٦ / ٢٩٢).

(٢) البخاري (٢٥٨٦) في الهبة ، باب : الهبة للولد ، ومسلم (١٦٢٣ / ٩) في الهبات ، باب : كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة ، والترمذي (١٣٦٧) في الأحكام ، باب : ما جاء في النحل والتسوية بين الولد ، والنسائي (٣٦٧٢) في النُّحل ، باب : ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر النعمان بن بشير في النحل ، وابن ماجه (٢٣٧٦) في الهبات ، باب : الرجل ينحل ولده ، وأحمد (٤ / ٢٦٨) .

(٣) مسلم (٦٥٣ / ٢٥٥) في المساجد ومواضع الصلاة ، باب : يجب إتيان المسجد على من سمع النداء وهو عن رجل أعمى لم يسم ، وأبو داود (٥٥٢) في الصلاة ، باب : في التشديد في ترك الجماعة ، والنسائي (٨٥١) في الإمامة ، باب : المحافظة على الصلوات حيث ينادى بهن ، وابن ماجه (٧٩٢) في المساجد والجماعات ، باب : التغليظ في التخلف عن الجماعة ، وأحمد (٣ / ٤٢٣) .

(٤) النسائي (٣٣٦٣) في النكاح ، باب : إحلال الفرج ، وأحمد (٦/٥) ، والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٤٠) في الحدود ، باب : ما جاء فيمن أتى جارية امرأته ، وضعفه الألباني .

بحنثه حتى يستفصله . هل كان ثابت العقل وقت فعله أم لا ؟ وإذا كان ثابت العقل فهل كان مختارا فى يمينه أم لا ؟ وإذا كان مختارا فهل استثنى عقيب يمينه أم لا ؟ وإذا لم يستثن فهل فعل المحلوف عليه عالما ذاكرا مختارا ، أم كان ناسيا أو جاهلا أو مكرها ؟ وإذا كان عالما مختارا ، فهل كان المحلوف عليه داخلا فى قصده ونيته أو قصد عدم دخوله فخصصه بنيته أو لم يقصد دخوله ولا نوى تخصيصه ؟ فإن الحنث يختلف باختلاف ذلك كله .

ورأينا من مفتى العصر من بادر إلى التحنيث ، فاستفصلناه ، فوجده غير حانث فى مذهب من أفتاه ، وقع ذلك مرارا ؛ فخطر المفتى عظيم ، فإنه مُوَقِّع عن الله ورسوله ، زاعم أن الله أمر بكذا وحرم كذا أو أوجب كذا .

والمقصود : التنبيه على وجوب التفصيل إذا كان يجد السؤال محتملا ، وبالله التوفيق، فكثيرا ما يقع غلط المفتى فى هذا القسم ، فالمفتى ترد إليه المسائل فى قوالب متنوعة جدا ، فإن لم يتفطن لحقيقة السؤال وإلا هلك وأهلك ، فتارة تورد عليه المسألتان صورتهما واحدة وحكمها مختلف ؛ فصورة الصحيح والجائز صورة الباطل والمحرم ويختلفان بالحقيقة ، فيذهل بالصورة عن الحقيقة ، فيجمع بين ما فرق الله ورسوله بينه ، وتارة تورد عليه المسألتان صورتهما مختلفة وحقيقتهما واحدة وحكمهما واحد ، فيذهل باختلاف الصورة عن تساويهما فى الحقيقة ، فيفرق بين ما جمع الله بينه ، وتارة تورد عليه المسألة مجملة تحتها عدة أنواع ، فيذهب وَهْمه إلى واحد منها ، ويذهل عن المسؤول عنه منها ،فيجيب بغير الصواب ، وتارة تورد عليه المسألة الباطلة فى دين الله فى قالب مزخرف ولفظ حسن ،فيتبادر إلى تسويغها وهى من أبطل الباطل ، وتارة بالعكس ؛فلا إله إلا الله، كم هاهنا من مزلة أقدام ،ومجال أوهام ، وما دعى محق إلى حق إلا أخرجه الشيطان على لسان أخيه ووليه من الإنس فى قالب تنفر عنه خفافيش البصائر وضعفاء العقول وهم أكثر الناس ، وما حذر أحد من باطل إلا أخرجه الشيطان على لسان وليه من الإنس فى قالب مزخرف يستخف به عقول ذلك الضرب من الناس فيستجيبون له ، وأكثر الناس نظرهم قاصر على الصور لا يتجاوزونها إلى الحقائق ، فهم محبوسون فى سجن الألفاظ ، مقيدون بقيود العبارات ، كما قال تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣)** ﴾ [ الأنعام ] .

وأذكر لك من هذا مثالا وقع فى زماننا ، وهو أن السلطان أمر أن يلزم أهل الذمة

بتغيير عمائمهم ، وأن تكون خلاف ألوان عمائم المسلمين ، فقامت لذلك قيامتهم ، وعظم عليهم ، وكان فى ذلك من المصالح وإعزاز الإسلام ، وإذلال الكفرة ما قرت به عيون المسلمين ، فألقى الشيطان على ألسنة أوليائه وإخوانه أن صوروا فتيا يتوصلون بها إلى إزالة هذا الغبار ، وهى : ما تقول السادة العلماء فى قوم من أهل الذمة ألزموا بلباس غير لباسهم المعتاد ، وزى غير زيهم المألوف ، فحصل لهم بذلك ضرر عظيم فى الطرقات والفلوات وتجرأ عليهم بسببه السفهاء والرعاة وآذوهم غاية الأذى ، فطمع بذلك فى إهانتهم ، والتعدى عليهم ، فهل يسوغ للإمام ردهم إلى زيهم الأول ، وإعادتهم إلى ما كانوا عليه مع حصول التمييز بعلامة يعرفون بها ؟ وهل فى ذلك مخالفة للشرع أم لا ؟ فأجابهم من مُنِع التوفيق ، وصُدًّ عن الطريق بجواز ذلك ، وأن للإمام إعادتهم إلى ما كانوا عليه .

قال شيخنا : فجاءتنى الفتوى ، فقلت : لا تجوز إعادتهم ، ويجب إبقاؤهم على الزى الذى يتميزون به عن المسلمين ، فذهبوا ، ثم غيروا الفتوى، ثم جاؤوا بها فى قالب آخر ، فقلت : لا تجوز إعادتهم ، فذهبوا ثم أتوا بها فى قالب آخر ، فقلت : هى المسألة المعينة ، وإن خرجت فى عدة قوالب ، ثم ذهب إلى السلطان ، وتكلم عنده بكلام عجب منه الحاضرون ، فأطبق القوم على إبقائهم ، ولله الحمد (١) .

## ليس للمفتى أن يستفصل إلا حيث تدعو الحاجة

**الفائدة التاسعة عشرة** : إذا سئل عن مسألة من الفرائض لم يجب عليه أن يذكر موانع الإرث فيقول : بشرط ألا يكون كافرًا ولا رقيقًا ولا قاتلا ، وإذا سئل عن فريضة فيها أخ وجب عليه أن يقول : إن كان لأب فله كذا ، وإن كان لأم فله كذا ، وكذلك إذا سئل عن الأعمام وبنيهم ، وبنى الإخوة ، وعن الجد والجدة فلا بد من التفصيل ، والفرق بين الموضعين أن السؤال المطلق فى الصورة الأولى يدل على الوارث الذى لم يقم به مانع من الميراث ، كما لو سئل عن رجل باع أو آجَرَ أو تزوج أو أقر لم يجب عليه أن يذكر موانع الصحة من الجنون والإكراه ونحوهما إلا حيث يكون الاحتمال متساويًا .

ومن تأمل أجوبة النبى ﷺ رآه يستفصل حيث تدعو الحاجة إلى الاستفصال ، ويتركه حيث لا يحتاج إليه ، ويحيل فيه مرة على ما علم من شرعه ودينه من شروط الحكم وتوابعه، بل هذا كثير فى القرآن كقوله تعالى : ﴿ **وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ** ﴾ [ النساء : ٢٤ ]،

---

(١) إعلام الموقعين (٤ / ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧) .

وقوله: ﴿ **فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ** ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾ [ المائدة : ٥ ].

ولا يجب على المتكلم والمفتى أن يستوعب شرائط الحكم وموانعه كلها عند ذكر حكم المسألة ، ولا ينفع السائل والمتكلم والمتعلم قوله : بشرطه ، وعدم موانعه ، ونحو ذلك ، فلا بيان أتم من بيان الله ورسوله ، ولا هدى أكمل من هدى الصحابة والتابعين ، وبالله التوفيق .

## لا يجوز للمقلد الإفتاء بما هو مقلد فيه

**الفائدة العشرون** : لا يجوز للمقلد أن يفتى فى دين الله بما هو مقلد فيه ، وليس على بصيرة فيه سوى أنه يقول من قلده دينه ، وهذا إجماع من السلف كلهم ، وصرح به الإمام أحمد والشافعى رضي الله عنهما وغيرهما .

قال أبو عمرو بن الصلاح : قطع أبو عبد الله الحليمى إمام الشافعيين بما وراء النهر والقاضى أبو المحاسن الرويانى صاحب بحر المذهب وغيرهما بأنه لا يجوز للمقلد أن يفتى بما هو مقلد فيه .

وقال : وذكر الشيخ أبو محمد الجوينى فى شرحه لرسالة الشافعى عن شيخه أبى بكر القفال المروزى أنه يجوز لمن حفظ كلام صاحب مذهب ونصوصه أن يفتى به ، وإن لم يكن عارفًا بغوامضه وحقائقه ، وخالفه الشيخ أبو محمد وقال : لا يجوز أن يفتى بمذهب غيره إذا لم يكن متبحرًا فيه عالمًا بغوامضه وحقائقه ، كما لا يجوز للعامى الذى جمع فتاوى المفتين أن يفتى بها ، وإذا كان متبحرًا فيه جاز أن يفتى به .

وقال أبو عمرو : من قال : لا يجوز له أن يفتى بذلك ، معناه : لا يذكره فى صورة ما يقوله من عند نفسه ، بل يضيفه إلى غيره ، ويحكيه عن إمامه الذى قلده : فعلى هذا من عددناه فى أصناف المفتين المقلدين ليسوا على الحقيقة من المفتين ، ولكنهم قاموا مقام المفتين ، وادعوا عنهم ، فعدُّوا منهم ، وسبيلهم فى ذلك أن يقولوا مثلا : مذهب الشافعى كذا وكذا ، ومقتضى مذهبه كذا وكذا ، وما أشبه ذلك ، ومن ترك منهم إضافة ذلك إلى إمامه، فإن كان ذلك اكتفاءً منه بالعلوم عن الصريح فلا بأس .

قلت : ما ذكره أبو عمرو : حسن ، إلا أن صاحب هذه المرتبة يحرم عليه أن يقول : مذهب الشافعى ، لما لا يعلم أنه نصه الذى أفتى به ، أو يكون شهرته بين أهل المذهب

شهرة لا يحتاج معها إلى الوقوف على نصه ، كشهرة مذهبه فى الجهر بالبسملة ، والقنوت فى الفجر ، ووجوب تبييت النية للصوم فى الفرض من الليل ، ونحوه ذلك ، فأما مجرد ما يجد فى كتب من انتسب إلى مذهبه من الفروع فلا يسعه أن يضيفها إلى نصه ومذهبه بمجرد وجودها فى كتبهم ، فكم فيها من مسألة لا نص فيها البتة ولا ما يدل عليه ! وكم فيها من مسألة نصه على خلافها ! وكم فيها من مسألة اختلف المنتسبون إليه فى إضافتها إلى مقتضى نصه ومذهبه ! فهذا يضيف إلى مذهبه إثباتها ، وهذا يضيف إليه نفيها ، فلا ندرى كيف يسع المفتى عند الله أن يقول : هذا مذهب الشافعى ، وهذا مذهب مالك وأحمد وأبى حنيفة ؟

وأما قول الشيخ أبى عمرو : إن لهذا المفتى أن يقول : هذا مقتضى مذهب الشافعى مثلا ، فلعمر الله لا يقبل ذلك من كل من نصب نفسه للفتيا ، حتى يكون عالمًا بمأخذ صاحب المذهب ومداركه وقواعده جمعًا وفرقًا ، ويعلم أن ذلك الحكم مطابق لأصوله وقواعده بعد استفراغ وسعه فى معرفة ذلك فيها إذا أخبر أن هذا مقتضى مذهبه كان له حكم أمثاله ممن قال بمبلغ علمه ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

وبالجملة ، فالمفتى مخبر عن الحكم الشرعى ، وهو إما مخبر عما فهمه عن الله ورسوله ، وإما مخبر عما فهمه عن كتابه أو نصوص من قلده دينه ، وهذا لون وهذا لون، فكما لا يسع الأول أن يخبر عن الله ورسوله إلا بما علمه ، فكذا لا يسع الثانى أن يخبر عن إمامه الذى قلده دينه إلا بما يعلمه ، وبالله التوفيق .

## لا يجوز تقليد قاصر فى معرفة الكتاب والسنة فى الفتوى

**الفائدة الحادية والعشرون** : إذا تفقه الرجل وقرأ كتابا من كتب الفقه أو أكثر ، وهو مع ذلك قاصر فى معرفة الكتاب والسنة ، وآثار السلف والاستنباط والتجريح فهل يسوغ تقليده فى الفتوى ؟

فيه للناس أربعة أقوال : الجواز مطلقا ، والمنع مطلقا ، والجواز عند عدم المجتهد ، ولا يجوز مع وجوده ، والجواز إن كان مطلعا على مأخذ من يفتى بقولهم ، والمنع إن لم يكن مطلعا .

والصواب : فيه التفصيل ، وهو أنه إن كان السائل يمكنه التوصل إلى عالم يهديه السبيل لم يحل له استفتاء مثل هذا ، ولا يحل لهذا أن ينسب نفسه للفتوى مع وجود هذا

العالم ، وإن لم يكن فى بلده أو ناحيته غيره بحيث لا يجد المستفتى من يسأله سواه ، فلا ريب أن رجوعه إليه أولى من أن يقدم على العمل بلا علم ، أو يبقى مرتبكا فى حيرته مترددا فى عماه وجهالته ، بل هذا هو المستطاع من تقواه المأمور بها .

ونظير هذه المسألة : إذا لم يجد السلطان من يوليه إلا قاضيا عاريا من شروط القضاء ، لم يعطل البلد عن قاض ، وولى الأمثل فالأمثل .

ونظير هذا : لوكان الفسق هو الغالب على أهل تلك البلد ، وإن لم تقبل شهادة بعضهم على بعض وشهادته له تعطلت الحقوق وضاعت ، قبل شهادة الأمثل فالأمثل .

ونظيرها : لو غلب الحرام المحض أو الشبهة حتى لم يجد الحلال المحض ، فإنه يتناول الأمثل فالأمثل .

ونظير هذا : لو شهد بعض النساء على بعض بحق فى بدن أو عرض أو مال ، وهن منفردات . بحيث لا رجل معهن كالحمامات والأعراس ، قبلت شهادة الأمثل فالأمثل منهن قطعا ، ولا يضيع الله ورسوله حق المظلوم ، ولا يعطل إقامة دينه فى مثل هذه الصورة أبدا ، بل قد نبه الله تعالى على القبول فى مثل هذه الصورة بقبول شهادة الكفار على المسلمين فى السفر فى الوصية فى آخر سورة أنزلت فى القرآن ، ولم ينسخها شىء البتة ، ولا نسخ هذا الحكم كتاب ولا سنة ولا أجمعت الأمة على خلافه ، ولا يليق بالشريعة سواه ؛ فالشريعة شرعت لتحصيل مصالح العباد بحسب الإمكان ، وأى مصلحة لهم فى تعطيل حقوقهم إذا لم يحضر أسباب تلك الحقوق شاهدان حران ذكران عدلان ؟

بل إذا قلتم : تقبل شهادة الفساق حيث لا عدل ، وينفذ حكم الجاهل والفاسق إذا خلا الزمان عن قاض عالم عادل ، فكيف لا تقبل شهادة النساء إذا خلا جمعهن عن رجل، أو شهادة العبيد إذا خلا جمعهم عن حر ، أو شهادة الكفار بعضهم على بعض إذا خلا جمعهم عن مسلم ؟

وقد قبل ابن الزبير شهادة الصبيان بعضهم على بعض فى تجارحهم ، ولم ينكره عليه أحد من الصحابة ، وقد قال به مالك والإمام أحمد ـ رحمهما الله تعالى ـ فى إحدى الروايتين عنه حيث يغلب على الظن صدقهم بأن يجيبوا قبل أن يجتنبوا أو يتفرقوا إلى بيوتهم ، وهذا هو الصواب ، وبالله التوفيق .

وكلام أصحاب أحمد فى ذلك يخرج على وجهين ؛ فقد منع كثير منهم الفتوى والحكم بالتقليد ، وجوزه بعضهم لكن على وجه الحكاية لقول المجتهد،كما قال أبو إسحاق

ابن شاقلا ،وقد جلس فى جامع المنصور ، فذكر قول أحمد : أن المفتى ينبغى له أن يحفظ أربعمائة ألف حديث ثم يفتى ، فقال له رجل : أنت تحفظ هذا ؟ فقال : إن لم أحفظ هذا فأنا أفتى بقول من كان يحفظه .

وقال أبو الحسن بن بشار من كبار أصحابنا : ما ضر رجلا عنده ثلاث مسائل أو أربع من فتاوى الإمام أحمد يستند إلى هذه السارية ويقول : قال أحمد بن حنبل .

## هل يجوز للعامى الإفتاء بمسألة يعرف دليلها ؟

**الفائدة الثانية والعشرون** : إذا عرف العامى حكم حادثة بدليلها فهل له أن يفتى به ، ويسوغ لغيره تقليده فيه ؟

ففيه ثلاثة أوجه للشافعية وغيرهم .

**أحدها** : الجواز ؛ لأنه قد حصل له العلم بحكم تلك الحادثة عن دليلها كما حصل للعالم ، وإن تميز العالم عنه بقوة يتمكن بها من تقرير الدليل ودفع المعارض له ، فهذا قدر زائد على معرفة الحق بدليله .

**والثانى** : لا يجوز له ذلك مطلقا ؛ لعدم أهليته للاستدلال ، وعدم علمه بشروطه وما يعارضه ، ولعله يظن دليلا ما ليس بدليل .

**والثالث** : إن كان الدليل كتابا أو سنة جاز له الإفتاء ، وإن كان غيرهما لم يجز ؛ لأن القرآن والسنة خطاب لجميع المكلفين ، فيجب على المكلف أن يعمل بما وصل إليه من كتاب ربه تعالى وسنة نبيه ﷺ ، ويجوز له أن يرشد غيره إليه ويدله عليه .

## صفات يجب أن يكون المفتى متصفا بها

**الفائدة الثالثة والعشرون** :ذكر أبو عبد الله بن بطة فى كتابه فى الخلع عن الإمام أحمد أنه قال : لا ينبغى للرجل أن ينصب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال :

**أولها** : أن تكون له نية ، فإن لم يكن له نية لم يكن عليه نور ولا على كلامه نور .

**والثانية** : أن يكون له علم وحلم ووقار وسكينة .

**الثالثة** : أن يكون قويا على ما هو فيه وعلى معرفته .

**الرابعة** : الكفاية وإلا مضغه الناس .

**الخامسة** : معرفة الناس .

وهذا مما يدل على جلالة أحمد ومحله من العلم والمعرفة ؛ فإن هذه الخمسة هى دعائم الفتوى ، وأى شىء نقص منها ظهر الخلل فى المفتى بحسبه .

فأما النية ، فهى رأس الأمر وعموده وأساسه وأصله الذى عليه يبنى ؛ فإنها روح العمل وقائده وسائقه ، والعمل تابع لها يبنى عليها ، يصح بصحتها ويفسد بفسادها ، وبها يستجلب التوفيق ،وبعدمها يحصل الخذلان ،وبحسبها تتفاوت الدرجات فى الدنيا والآخرة، فكم بين مريد بالفتوى وجه الله ورضاه والقرب منه وما عنده ، ومريد بها وجه المخلوق ورجاء منفعته وما ينال منه تخويفا أو طمعا ، فيفتى الرجلان بالفتوى الواحدة وبينهما فى الفضل والثواب أعظم مما بين المشرق والمغرب . هذا يفتى لتكون كلمة الله هى العليا ودينه هو الظاهر ، ورسوله هو المطاع ، وهذا يفتى ؛ ليكون قوله هو المسموع وهو المشار إليه ، وجاهه هو القائم ، سواء وافق الكتاب والسنة أو خالفهما ، فالله المستعان .

وقد جرت عادة الله التى لا تبدل وسنته التى لا تحول أن يلبس المخلص من المهابة والنور والمحبة فى قلوب الخلق وإقبال قلوبهم إليه ما هو بحسب إخلاصه ونيته ومعاملته لربه ، ويلبس المرائى اللابس ثوبى الزور من المقت والمهانة والبغضة ما هو اللائق به ؛ فالمخلص له المهابة والمحبة ، وللآخر المقت والبغضاء .

وأما قوله : أن يكون له حلم ووقار وسكينة ، فليس صاحب العلم والفتيا إلى شىء أحوج منه إلى الحلم والسكينة والوقار فإنها كسوة علمه وجماله ، وإذا فقدها كان علمه كالبدن العارى من اللباس .

وقال بعض السلف : ما قرن شىء إلى شىء أحسن من علم إلى حلم .

والناس هاهنا أربعة أقسام ،فخيارهم من أوتى الحلم والعلم ، وشرارهم من عدمهما ، الثالث من أوتى علمًا بلا حلم ، الرابع : عكسه ، فالحلم : زينة العلم وبهاؤه وجماله. وضد الطيش والعجلة والحسد والتسرع وعدم الثبات؛فالحليم لا يستفزه البدوات ، ولا يستخفه الذين لا يعلمون ، ولا يقلقه أهل الطيش والخفة والجهل . بل هو وقور ثابت ذو أناة يملك نفسه عند ورود أوائل الأمور عليه ، ولا تملكه أوائلها ، وملاحظته للعواقب تمنعه من أن تستخفه دواعى الغضب والشهوة ؛ فبالعلم تنكشف له مواقع الخير والشر والصلاح والفساد ، وبالحلم يتمكن من تثبيت نفسه عند الخير ، فيؤثره ويصبر عليه، وعند الشر فيصبر عنه ؛ فالعلم يعرفه رشده والحلم يثبته عليه ، وإذا شئت أن ترى بصيراً بالخير والشر لا صبر له على هذا ولا عن هذا رأيته ، وإذا شئت أن ترى صابراً على المشاق لا

بصيرة له رأيته ، وإذا شئت أن ترى من لا صبر له ولا بصيرة رأيته ، وإذا شئت أن ترى بصيرًا صابرًا لم تكد ، فإذا رأيته فقد رأيت إمام هدى حقًا فاستمسك بغرزه . والوقار والسكينة ثمرة الحلم ونتيجته (١) .

أما قوله : أن يكون قويًا على ما هو فيه وعلى معرفته أى مستظهرًا مضطلعًا بالعلم متمكنًا منه ، غير ضعيف فيه ؛ فإنه إذا كان ضعيفًا قليل البضاعة غير مضطلع به أحجم عن الحق فى موضع ينبغى فيه الإقدام لقلة علمه بمواضع الإقدام والإحجام فهو يُقدم فى غير موضعه ، ويحجم فى غير موضعه ، ولا بصيرة له بالحق ، ولا قوة له على تنفيذه ؛ فالمفتى محتاج إلى قوة فى العلم وقوة فى التنفيذ ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له .

وأما قوله : الرابعة : الكفاية وإلا مضغه الناس ، فإنه إذا لم يكن له كفاية احتاج إلى الناس وإلى الأخذ مما فى أيديهم ، فلا يأكل منهم شيئًا إلا أكلوا من لحمه وعرضه أضعافه، وقد كان لسفيان الثورى شىء من مال،وكان لا يتروى فى بذله ويقول: لولا ذلك لتمندل(٢) بنا هؤلاء ، فالعلم إذا منح غناء ، فقد أعين على تنفيذ علمه ، وإذا احتاج إلى الناس فقد مات علمه وهو ينظر .

وأما قوله : الخامسة : معرفة الناس ، فهذا أصل عظيم يحتاج إليه المفتى والحاكم ، فإن لم يكن فقيهًا فيه فقيها فى الأمر والنهى ، ثم يطبق أحدهما على الآخر ، وإلا كان ما يُفسد أكثر مما يصلح ، فإنه إذا لم يكن فقيهًا فى الأمر له معرفة بالناس تصور له الظالم بصورة المظلوم وعكسه ، والمحق بصورة المبطل وعكسه ، وراج عليه المكر والخداع والاحتيال ، وتصور له الزنديق فى صورة الصديق ، والكاذب فى صورة الصادق ، ولبس كل مبطل ثوب زور تحتها الإثم والكذب والفجور ، وهو لجهله بالناس وأحوالهم وعوائدهم وعرفياتهم ، لا يميز هذا من هذا ، بل ينبغى له أن يكون فقيهًا فى معرفة مكر الناس وخداعهم واحتيالهم وعوائدهم وعرفياتهم فإن الفتوى تغير بتغير الزمان والمكان والعوائد والأحوال ، وذلك كله من دين الله وبالله التوفيق .

## الإمام أحمد يبين الصفات اللازمة للمفتى

**الفائدة الرابعة والعشرون** : فى كلمات حفظت عن الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ورضى عنه ـ فى أمر الفتيا ، سوى ما تقدم آنفا.

---

(١) إعلام الموقعين : (٤ / ٢٤٧ ـ ٢٥٦)

(٢) تمندل : تمسح .

قال فى رواية ابنه صالح : ينبغى للرجل إذا حمل نفسه على الفُتْيا أن يكون عالمًا بوجوه القرآن ، عالمًا بالأسانيد الصحيحة ، عالما بالسنن .

وقال فى رواية أبى الحارث : لا تجوز الفتيا إلا لرجل عالم بالكتاب والسنة .

وقال فى رواية حنبل : ينبغى لمن أفتى أن يكون عالمًا بقول من تقدم ، وإلا فلا يفتى.

وقال فى رواية يوسف بن موسى : أحب أن يتعلم الرجل كل ما تكلم فيه الناس . وقال فى رواية ابنه عبد الله ، وقد سأله عن الرجل يريد أن يسأله من أمر دينه مما يبتلى به من الأيمان فى الطلاق وغيره ، وفى مصره من أصحاب الرأى ، وأصحاب الحديث لا يحفظون ، ولا يعرفون الحديث الضعيف ، ولا الإسناد القوى ، فلمن يسأل ؟ لهؤلاء ، أو لأصحاب الحديث على قلة معرفتهم ؟ فقال : يسأل أصحاب الحديث ، ولا يسأل أصحاب الرأى ، ضعيف الحديث خير من الرأى .

وقال فى رواية محمد بن عبيد الله بن المنادى ، وقد سمع رجلا يسأله : إذا حفظ الرجل مائة ألف حديث يكون فقيهًا ؟ قال : لا : فمائتى ألف ؟ قال : لا ، قال : فثلاثمائة ألف ؟ قال : لا ، قال : فأربعمائة ألف ؟ قال : بيده هكذا ، وحركها ، قال حفيده أحمد بن جعفر بن محمد : فقلت لجدى : كم كان يحفظ أحمد ؟ فقال : أجاب عن ستمائة ألف .

وقال عبد الله بن أحمد : سألت أبى عن الرجل يكون عنده الكتب المصنفة فيها قول رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين ، وليس للرجل بصر بالحديث الضعيف المتروك ولا الإسناد القوى من الضعيف ، فيجوز أن يعمل بما شاء ويتخير منها فيفتى به ويعمل به ؟ قال: لا يعمل حتى يسأل ما يؤخذ به منها فيكون يعمل على أمر صحيح ، ويسأل عن ذلك أهل العلم .

وقال أبو داود : سمعت أحمد وسئل عن مسألة ، فقال : دعْنا من هذه المسائل المحدثة ، وما أحصى ما سمعت أحمد سئل عن كثير مما فيه الاختلاف من العلم فيقول : لا أدرى ، وسمعته يقول : ما رأيت مثل ابن عيينة فى الفتيا أحسن فتيًا منه ، كان أهون عليه أن يقول « لا أدرى » مَن يحسن مثل هذا ؟ سل العلماء .

وقال أبو داود : قلت لأحمد : الأوزاعى هو أتبع من مالك ، فقال : لا تقلد دينك أحدًا من هؤلاء ، ما جاء عن النبى ﷺ وأصحابه فخذ به ، ثم التابعين بعد ، الرجل فيه مخير . وقال إسحاق بن هانئ : سألت أبا عبد الله عن الذى جاء فى الحديث :« أجرؤكم

على الفتيا أجرؤكم على النار » ، فقال : يفتى بما لم يسمع .

وقال أيضًا :قلت لأبى عبد الله: يطلب الرجل الحديث بقدر ما يظن أنه قد انتفع به ، قال : العلم لا يعدله شيء . وجاءه رجل يسأل عن شيء فقال : لا أجيبك فى شيء ، ثم قال : قال عبد الله بن مسعود : إن كل من يفتى الناس فى كل ما يستفتونه لمجنون ، قال الأعمش : فذكرت ذلك للحاكم ، فقال : له حدثتنى به قبل اليوم ما أفتيت فى كثير مما كنت أفتى به . قال ابن هانئ : وقيل لأبى عبد الله : يكون الرجل فى قرية فيسأل عن الشيء الذى فيه اختلاف ، قال : يفتى بما وافق الكتاب والسنة ؛ وما لم يوافق الكتاب والسنة أمسك عنه ، قيل له : أفتخاف عليه ؟ قال : لا ، قيل له : ما كان من كلام إسحاق بن راهويه وما كان وضع فى الكتاب وكلام أبى عبيد ومالك ترى النظر فيه ؟ فقال : كل كتاب ابتدع فهو بدعة، أو كل كتاب محدث فهو بدعة ، وأما ما كان عن مناظرة يخير الرجل بما عنده وما يسمع من الفتيا فلا أرى به بأسًا ، قيل له : فكتاب أبى عبيد غريب الحديث ؟ قال ذلك شيء حكاه عن قوم أعراب ، قيل له :فهذه الفوائد التى فيها المناكير ترى أن تكتب ؟ قال : المنكر أبدًا منكر .

## دلالة العالم للمستفتى على غيره

**الفائدة الخامسة والعشرون** : فى دلالة العالم للمستفتى على غيره ، وهو موضع خطر جدًا ، فلينظر الرجل ما يحدث من ذلك فإنه متسبب بدلالته إما إلى الكذب على الله ورسوله فى أحكامه أو القول عليه بلا علم ،فهو معين على الإثم والعدوان وإما معين على البر والتقوى ، فلينظر الإنسان إلى من يدل عليه ، وليتق الله ربه، فكان شيخنا ـ قدس الله روحه ـ شديد التجنب لذلك ، ودللت مرة بحضرته على مفْتٍ أو مذهب ، فانتهرنى وقال :مالك وله ؟ دعه ، ففهمت من كلامه إنك لتبوء بما عساه يحصل له من الإثم ولمن أفتاه ، ثم رأيت هذه المسألة بعينها منصوصة عن الإمام أحمد.

قال أبو داود فى مسائله : قلت لأحمد : الرجل يسأل عن المسألة فأدله على إنسان يسأله ؟ فقال : إذا كان ـ يعنى الذى أرشدته إليه ـ متبعًا ويفتى بالسنة ، فقيل لأحمد : إنه يريد الاتباع وليس كل قوله يصيب ، فقال أحمد : ومن يصيب فى كل شيء ؟ قلت له : فرأى مالك ، فقال : لا تتقلد فى مثل هذا بشيء ! قلت : وأحمد كان يدل على أهل

المدينة ويدل على الشافعى ويدل على إسحاق ولا خلاف عنه فى استفتاء هؤلاء ، ولا خلاف عنه فى أنه لا يستفتى أهل الرأى المخالفون لسنة رسول الله ﷺ ، وبالله التوفيق ، ولا سيما كثير من المنتسبين إلى الفتوى فى هذا الزمان وغيره ، وقد رأى رجل ربيعة بن أبى عبد الرحمن يبكى ، فقال :ما يبكيك ؟ فقال : أستفتى من لا علم له ، وظهر فى الإسلام أمر عظيم ، قال : ولبعض من يفتى هاهنا أحق بالسجن من السُّراق، قال بعض العلماء : فكيف لو رأى ربيعة زماننا ، وإقدام من لا علم عنده على الفتيا ، وتوثبه عليها ، ومدَّ باع التكلف إليها ، وشغله بالجهل والجراءة عليها مع قلة الخبرة وسوء السيرة وشؤم السريرة ، وهو من بين أهل العلم منكر أو غريب ، فليس له فى معرفة الكتاب والسنة وآثار السلف نصيب ، ولا يبدى جوابًا بإحسان ، وإن ساعد القدر فتواه كذلك يقول فلان ابن فلان .

يمدون للإفتاء باعًا قصيرة وأكثرهم عند الفتوى يُكذْ لكُ

وكثير منهم نصيبهم مثل ما حكاه أبو محمد بن حزم ، قال : كان عندنا مُفت قليل البضاعة ، فكان لا يفتى حتى يتقدمه من يكتب الجواب ، فيكتب تحته : جوابى مثل جواب الشيخ ،فقدر أن اختلف مفتيان فى جواب ، فكتب تحتهما مثل :جواب الشيخين ، فقيل له : إنهما قد تناقضا ، فقال : وأنا أيضًا تناقضت كما تناقضا . وقد أقام الله ـ سبحانه ـ لكل عالم ورئيس وفاضل من يظهر مماثلته ، ويرى الجهال وهم الأكثرون مساجلته ومشاكلته ، وأنه يجرى معه فى الميدان ، وأنهما عند المسابقة كفرسى رهان ، ولا سيما إذا طوَّل الأردان ، وأرخى الذوائب الطويلة وراءه كذنب الأتان ، وهدر باللسان ، وخلا له الميدان الطويل من الفرسان .

فلو لبس الحمار ثياب خز لقال الناس : يالك من حمار !!

وهذا الضرب إنما يستفتون بالشكل لا بالفضل ، وبالمناصب لا بالأهلية ، قد غرهم عكوف من لا علم عنده عليهم ، ومسارعة أجهل منهم إليهم ، تعجُّ منهم الحقوق إلى الله تعالى عجيجًا ، وتضج منهم الأحكام إلى من أنزلها ضجيجًا . فمن أقدم بالجرأة على ما ليس له بأهل من فتيا أو قضاء أو تدريس ، استحق اسم الذم ، ولم يحل قبول فتياه ولا قضائه ، هذا حكم دين الإسلام.

وإن رَغِمتْ أنوفٌ من أناس فقل : يا رب لا ترغم سواها

## حكم كذلكة المفتى

**الفائدة السادسة والعشرون** : فى حكم كذلكة المفتى ، ولا يخلو من حالين :

إمَّا أن يعلم صواب جواب من تقدمه بالفتيا أو لا يعلم ، فإن علم صواب جوابه فله أن يكذلك ، وهل الأولى له الكذلكة أو الجواب المستقل ؟ فيه تفصيل ، فلا يخلو المبتدئ إما أن يكون أهلا أو متسلِّقًا متعاطيًا ما ليس له بأهل ، فإن كان الثانى فتركه الكذلكة أولى مطلقا إذ فى كذلكته تقرير له على الإفتاء ، وهو كالشهادة له بالأهلية .

وكان بعض أهل العلم يضرب على الفتوى من كتب ، وليس بأهل ، فإن لم يتمكن من ذلك خوف الفتنة منه ، فقد قيل : لا يكتب معه فى الورقة ، ويرد السائل ، وهذا نوع تحامل .

والصواب : أنه يكتب فى الورقة الجواب ، ولا يأنف من الإخبار بدين الله الذى يجب عليه الإخبار به لكتابة من ليس بأهل ؛ فإن هذا ليس عذرًا عند الله ورسوله وأهل العلم فى كتمان الحق ، بل هذا نوع رياسة وكبر ، والحق لله عز وجل ، فكيف يجوز أن يعطل حق الله ويكتم دينه لأجل كتابة من ليس بأهل ؟

وقد نص الإمام أحمد على أن الرجل إذا شهد الجنازة ، فرأى فيها منكرًا لا يقدر على إزالته أنه لا يرجع ، ونص على أنه إذا دعى إلى وليمة عُرس ، فرأى فيها منكرًا لا يقدر على إزالته أنه يرجع ، فسألت شيخنا عن الفرق فقال : لأن الحق فى الجنازة للميت ، فلا يترك حقه لما فعله الحى المنكر ، والحق فى الوليمة لصاحب البيت ، فإذا أتى فيها بالمنكر فقد أسقط حقه من الإجابة .

وإن كان المبتدئ بالجواب أهلا للإفتاء ، فلا يخلو إما أن يعلم المكذلِك صواب جوابه أو لا يعلم ، فإن لم يعلم صوابَه لم يجز له أن يكذلِك تقليدًا له ؛ إذ لعله أن يكون قد غلط ، ولو نبه لرجح ، وهو معذور ، وليس المكذلك معذورًا ، بل مُفتٍ بغير علم ، ومن أفتى بغير علم فإثمه على من أفتاه ، وهو أحد المفتين الثلاثة الذين ثلثاهم فى النار .

وإن علم أنه قد أصاب فلا يخلو إما أن تكون المسألة ظاهرة لا يخفى وجه الصواب فيها بحيث لا يظن بالمكذلك أنه قلده فيما لا يعلم أو تكون خفية ،فإن كانت ظاهرة فالأولى الكذلكة ؛لأنه إعانة على البر والتقوى ، وشهادة للمفتى بالصواب ، وبراءة من الكبر والحمية ، وإن كانت خفية بحيث يظن بالمكذلك أنه وافقه تقليدًا محضًا فإن أمكنه إيضاح

ما أشكله الأولى وزيادة بيان أو ذكر قيد أو تنبيه على أمر أغفله كالجواب المستقل أولى ، وإن لم يمكنه ذلك فإن شاء كذلك وإن شاء أجاب استقلالا .

فإن قيل : ما الذى يمنعه من الكذلكة إذا لم يعلم صوابه تقليداً له كما قلد المبتدئ من فوقه ؟ فإذا أفتى الأولى بالتقليد المحض فما الذى يمنع المكذلك من تقليده ؟

قيل : الجواب من وجوه:

**أحدها** : أن الكلام فى المفتى الأول أيضًا ، فقد نص الإمام الشافعى وأحمد وغيرهما من الأئمة على أنه لا يحل للرجل أن يفتى بغير علم ، حكى فى ذلك الإجماع ، وقد تقدم ذكر ذلك مستوفى .

**الثانى** : أن هذا الأول وإن جاز له التقليد للضرورة فهذا المكذلك المتكلف لا ضرورة له إلى تقليده ، بل هذا من بناء الضعيف على الضعيف ، وذلك لا يسوغ ، كما لا تسوغ الشهادة على الشهادة ، وكما لا يجوز المسح على الخفين على طهارة التيمم ، ونظائر ذلك كثيرة .

**الثالث** : أن هذا لو ساغ لصار الناس كلهم مفتين ، إذا ليس هذا بجوار تقليد المفتى أولى من غيره ، وبالله التوفيق .

## يجوز للمفتى أن يفتى أباه وابنه ومن لا تقبل شهادته

**الفائدة السابعة والعشرون** :يجوز للمفتى أن يفتى أباه وابنه وشريكه ومن لا تقبل شهادته له ، وإن لم يجز أن يشهد له ولا يقضى له ، والفرق بينهما أن الإفتاء يجرى مجرى الرواية،فكأنه حكم عام ، بخلاف الشهادة والحكم ، فإنه يخص المشهود له والمحكوم له ، ولهذا يدخل الراوى فى حكم الحديث الذى يرويه ، ويدخل فى حكم الفتوى التى يفتى بها ، ولكن لا يجوز له أن يحابى من يفتيه فيفتى أباه أو ابنه أو صديقه بشىء ويفتى غيرهم بضده محاباة ، بل هذا يقدح فى عدالته ، إلا أن يكون ثم سبب يقتضى التخصيص غير المحاباة ، ومثال هذا أن يكون فى المسألة قولان ؛ قول بالمنع وقول بالإباحة ، فيفتى ابنه وصديقه بقول الإباحة والأجنبى بقول المنع .

فإن قيل : هل يجوز له أن يفتى نفسه ؟

قيل : نعم ، إذا كان له أن يفتى غيره ، وقد قال النبى ﷺ :« استفت قلبك وإن

أفتاك المفتون »[1] ،فيجوز له أن يفتى نفسه بما يفتى غيره به ، ولا يجوز له أن يفتى نفسه بالرخصة وغيره بالمنع ، ولا يجوز له إذا كان فى المسألة قولان قول بالجواز وقول بالمنع أن يختار لنفسه قول الجواز ولغيره قول المنع ، وسمعت شيخنا يقول : سمعت بعض الأمراء يقول عن بعض المفتين من أهل زمانه ، يكون عندهم فى المسألة ثلاثة أقوال ، أحدها الجواز ، والثانى المنع ، والثالث التفصيل : فالجواز لهم ، والمنع لغيرهم ، وعليه العمل .

## لا يجوز للمفتى أن يعمل من غير نظر فى الترجيح

**الفائدة الثامنة والعشرون:** لا يجوز للمفتى أن يعمل بما يشاء من الأقوال والوجوه من غير نظر فى الترجيح ولا يعتد به ، بل يكتفى فى العمل بمجرد كون ذلك قولا قاله إمام أو وجها ذهب إليه جماعة ، فيعمل بما يشاء من الوجوه والأقوال حيث رأى القول وفق إرادته وغرضه عمل به ، فإرادته وغرضه هو المعيار وبها الترجيح ، وهذا حرام باتفاق الأمة ، وهذا مثل ما حكى القاضى أبو الوليد الباجى عن بعض أهل زمانه ممن نصب نفسه للفتوى أنه كان يقول : إن الذى لصديقى على إذا وقعت له حكومة أو فتيا أن أفتيه بالرواية التى توافقه ، وقال : وأخبرنى من أثق به أنه وقعت له واقعة فأفتاه جماعة من المفتين بما يضره؛ وأنه كان غائبا ، فلما حضر سألهم بنفسه ، فقالوا : لم نعلم أنها لك ، وأفتوه بالرواية الأخرى التى توافقه ، قال : وهذا مما لا خلاف بين المسلمين ممن يعتد بهم فى الإجماع أنه لا يجوز ، وقد قال مالك ـ رحمه الله ـ فى اختلاف الصحابة رضي الله عنهم : مخطئ ومصيب ، فعليك بالاجتهاد .

وبالجملة فلا يجوز العمل والإفتاء فى دين الله بالتشهى والتخير وموافقة الغرض ، فيطلب القول الذى يوافق غرضه وغرض من يحابيه فيعمل به ، ويفتى به ، ويحكم به ، ويحكم على عدوه ويفتيه بضده ، وهذا من أفسق الفسوق وأكبر الكبائر ، والله المستعان .

## أقسام المفتين

**الفائدة التاسعة والعشرون:** المفتون الذين نصبوا أنفسهم للفتوى أربعة أقسام :

(١) حلية الأولياء (٩ / ٤٤) ، وكنز العمال (٢٩٣٣٩) بلفظ :« استفت نفسك . . .» ، وانظره فى صحيح الجامع (٩٤٨) .

**أحدهم** : العالم بكتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابة ؛ فهو المجتهد فى أحكام النوازل ، يقصد فيها موافقة الأدلة الشرعية حيث كانت ، ولا ينافى اجتهاده تقليده لغيره أحيانا ، فلا تجد أحدا من الأئمة إلا وهو مقلد من هو أعلم منه فى بعض الأحكام ، وقد قال الشافعى ـ رحمه الله ورضى عنه ـ فى موضع من الحج : قلته تقليدا لعطاء ؛ فهذا النوع الذى يسوغ لهم الإفتاء ، ويسوغ استفتاؤهم ويتأدى بهم فرض الاجتهاد ، وهم الذين قال فيهم النبى ﷺ :« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»(١) ، وهم غرس الله الذين لا يزال يغرسهم فى دينه ، وهم الذين قال فيهم على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه : لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته .

**النوع الثانى** : مجتهد مقيد فى مذهب من ائتم به ؛ فهو مجتهد فى معرفة فتاويه وأقواله ومآخذه وأصوله ، عارف بها ، متمكن من التخريج عليها وقياس ما لم ينص من أئتم به عليه على منصوصه من غير أن يكون مقلدا لإمامه لا فى الحكم ولا فى الدليل ، لكن سلك طريقه فى الاجتهاد والفتيا ودعا إلى مذهبه ورتبه وقرره ، فهو موافق له فى مقصده وطريقه معا .

وقد ادعى هذه المرتبة من الحنابلة القاضى أبو يعلى والقاضى أبو على بن أبى موسى فى شرح الإرشاد الذى له .

ومن الشافعية خلق كثير،وقد اختلف الحنفية فى أبى يوسف ومحمد وزفر بن الهذيل، والشافعية فى المزنى وابن سريج ، وابن المنذر ، ومحمد بن نصر المروزى .

والمالكية فى أشهب وابن عبد الحكم وابن القاسم وابن وهب .

والحنابلة فى أبى حامد والقاضى : هل كان هؤلاء مستقلين بالاجتهاد أو متقيدين بمذاهب أئمتهم ؟ على قولين ، ومن تأمل أحوال هؤلاء وفتاويهم واختياراتهم علم أنهم لم يكونوا مقلدين لأئمتهم فى كل ما قالوه ، وخلافهم لهم أظهر من أن ينكر ، وإن كان منهم المستقل والمستكثر ، ورتبة هؤلاء دون رتبة الأئمة فى الاستقلال بالاجتهاد .

**النوع الثالث** : من هو مجتهد فى مذهب من انتسب إليه ، مقرر له بالدليل ، متقن لفتاويه ، عالم بها ، لكن لا يتعدى أقواله وفتاويه ولا يخالفها ، وإذا وجد نص إمامه لم

---

(١) أبو داود (٤٢٩١) فى الملاحم ، باب : ما يذكر فى قرن المائة ، والحاكم فى المستدرك (٤ / ٥٢٢) فى الفتن والملاحم ، باب : ذكر بعض المجددين فى هذه الأمة ، وسكت عنه هو والذهبى ، والبيهقى فى المعرفة (٤٢٢) فى المقدمة ، باب : ذكر مولد الشافعى رحمه الله وتاريخ وفاته .

يعدل عنه إلى غيره البتة ، وهذا شأن أكثر المصنفين فى مذاهب أئمتهم ، وهو حال أكثر علماء الطوائف ، وكثير منهم يظن أنه لا حاجة به إلى معرفة الكتاب والسنة والعربية لكونه مجتزيا بنصوص إمامه ، فهى عنده كنصوص الشارع ، قد اكتفى بها من كلفة التعب والمشقة، وقد كفاه الإمام استنباط الأحكام ومؤنة استخراجها من النصوص ، وقد يرى إمامه ذكر حكما بدليله ؛ فيكتفى هو بذلك الدليل من غير بحث عن معارض له .

وهذا شأن كثير من أصحاب الوجوه والطرق والكتب المطولة والمختصرة ، وهؤلاء لا يدعون الاجتهاد ، ولا يقرون بالتقليد ، وكثير منهم يقول : اجتهدنا فى المذاهب فرأينا أقربها إلى الحق مذهب إمامنا ، وكل منهم يقول ذلك عن إمامه ، ويزعم أنه أولى بالاتباع من غيره ، ومنهم من يغلو فيوجب اتباعه ، ويمنع من اتباع غيره .

فيا لله العجب من اجتهاد نهض بهم إلى كون متبوعهم ومقلدهم أعلم من غيره ، أحق بالاتباع من سواه ، وأن مذهبه هو الراجح ، والصواب دائر معه ، وقعد بهم عن الاجتهاد فى كلام الله ورسوله ، واستنباط الأحكام منه ، وترجيح ما يشهد له النص ، مع استيلاء كلام الله ورسوله على غاية البيان ، وتضمنه لجوامع الكلم ، وفصله للخطاب ، وبراءته من التناقض والاختلاف والاضطراب ، فقعدت بهم هممهم واجتهادهم عن الاجتهاد فيه ، ونهضت بهم إلى الاجتهاد فى كون إمامهم أعلم الأمة وأولاها بالصواب ، وأقواله فى غاية القوة وموافقة السنة والكتاب ، والله المستعان .

**النوع الرابع** : طائفة تفقهت فى مذاهب من انتسبت إليه ، وحفظت فتاويه وفروعه ، وأقرت على أنفسها بالتقليد المحض من جميع الوجوه ، فإن ذكروا الكتاب والسنة يوما ما فى مسألةٍ فعلى وجه التبرك والفضيلة لا على وجه الاحتجاج والعمل ، وإذا رأوا حديثا صحيحا مخالفا لقول من انتسبوا إليه أخذوا بقوله وتركوا الحديث ، وإذا رأوا أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وغيرهم من الصحابة ﷺ قد أفتوا بفتيا ، ووجدوا لإمامهم فتيا تخالفها أخذوا بفتيا إمامهم وتركوا فتاوى الصحابة قائلين :الإمام أعلم بذلك منا ، ونحن قد قلدناه فلا نتعداه ولا نتخطاه ، بل هو أعلم بما ذهب إليه منا ، ومن عدا هؤلاء فمتكلف متخلف قد دنا بنفسه عن رتبة المشتغلين ،وقصر عن درجة المحصلين ، فهو مكذلك مع المكذلكين ، وإن ساعد القدر واستقل بالجواب قال : يجوز بشرطه ، ويصح بشرطه ، ويجوز ما لم يمنع منه مانع شرعى ، ويرجع فى ذلك إلى رأى الحاكم ، ونحو ذلك من الأجوبة التى يستحسنها كل جاهل ، ويستحيى منها كل فاضل .

ففتاوى القسم الأول من جنس توقيعات الملوك وعلمائهم ، وفتاوى النوع الثانى من

جنس توقيعات نوابهم وخلفائهم ، وفتاوى النوع الثالث والرابع من جنس توقيعات خلفاء نوابهم ، ومن عداهم فمتشبع بما لم يُعط ، متشبه بالعلماء ، محاك للفضلاء ، وفى كل طائفة من الطوائف متحقق بغية ومحاك له متشبه به ، والله المستعان .

## هل للمجتهد فى مذهب إمام أن يفتى بقول إمامه ؟

**الفائدة الثلاثون** :إذا كان الرجل مجتهدا فى مذهب إمام،ولم يكن مستقلا بالاجتهاد، فهل له أن يفتى بقول ذلك الإمام ؟ على قولين وهما وجهان لأصحاب الشافعى وأحمد :

**أحدهما** : الجواز ، ويكون متبعه مقلدا للميت ، لا له ؛ وإنما له مجرد النقل عن الإمام .

**والثانى** :لا يجوز له أن يفتى ؛ لأن السائل مقلد له ،لا للميت ، وهو لم يجتهد له ، والسائل يقول له : أنا أقلدك فيما تفتينى به .

والتحقيق أن هذا فيه تفصيل ؛ فإن قال له السائل : أريد حكم الله تعالى فى هذه المسألة ، وأريد الحق فيما يخلصنى ، ونحو ذلك لم يسعه إلا أن يجتهد له فى الحق ، ولا يسعه أن يفتيه بمجرد تقليد غيره من غير معرفة بأنه حق أو باطل ، وإن قال له : أريد أن أعرف فى هذه النازلة قول الإمام ومذهبه ، ساغ له الإخبار به ، ويكون ناقلا له ، ويبقى الدرك على السائل ؛ فالدرك فى الوجه الأول على المفتى ، وفى الثانى على المستفتى .

## هل يجوز للحى تقليد الميت

**الفائدة الحادية والثلاثون**:هل يجوز للحى تقليد الميت والعمل بفتواه من غير اعتبارها بالدليل الموجب لصحة العمل بها ؟ فيه وجهان لأصحاب الإمام أحمد والشافعى ؛ فمن منعه قال : يجوز تغيير اجتهاده لو كان حيا ؛ فإنه كان يجدد النظر عند نزول هذه النازلة إما وجوبا وإما استحبابا ، على النزاع المشهور ، ولعله لو جدد النظر لرجع عن قوله الأول .

والثانى : الجواز ، وعليه عمل جميع المقلدين فى أقطار الأرض ، وخيار ما بأيديهم من التقليد تقليد الأموات ، ومن منع منهم تقليد الميت فإنما هو شىء يقوله بلسانه ، وعمله فى فتاويه وأحكامه بخلافه ، والأقوال لا تموت بموت قائلها ، كما لا تموت الأخبار بموت رواتها وناقليها .

## هل للمجتهد فى نوع من العلم الإفتاء فيه ؟

**الفائدة الثانية والثلاثون** :الاجتهاد حالة تقبل التجزؤ والانقسام ، فيكون الرجل مجتهدا فى نوع من العلم مقلدا فى غيره ، أو فى باب من أبوابه ، كمن استفرغ وسعه فى نوع العلم بالفرائض وأدلتها واستنباطها من الكتاب والسنة دون غيرها من العلوم ، أو فى باب الجهاد أو الحج ، أو غير ذلك ؛ فهذا ليس له الفتوى فيما لم يجتهد فيه ، ولا تكون معرفته بما اجتهد فيه مسوغة له الإفتاء بما لا يعلم فى غيره ، وهل له أن يفتى فى النوع الذى اجتهد فيه ؟ فيه ثلاثة أوجه :

**أصحها** : الجواز ، بل هو الصواب المقطوع به .

**والثانى** : المنع .

**والثالث** : الجواز فى الفرائض دون غيرها .

فحجة الجواز أنه قد عرف الحق بدليله ، وقد بذل جهده فى معرفة الصواب ؛ فحكمه فى ذلك حكم المجتهد المطلق فى سائر الأنواع .

وحجة المنع تعلق أبواب الشرع وأحكامه بعضها ببعض ، فالجهل ببعضها مظنة التقصير فى الباب والنوع الذى قد عرفه ، ولا يخفى الارتباط بين كتاب النكاح والطلاق والعدة وكتاب الفرائض ، وكذلك الارتباط بين كتاب الجهاد وما يتعلق به ، وكتاب الحدود والأقضية والأحكام ، وكذلك عامة أبواب الفقه .

ومن فرق بين الفرائض وغيرها رأى انقطاع أحكام قسمة المواريث ومعرفة الفروض ومعرفة مستحقها عن كتاب البيوع والإجارات والرهون والنضال وغيرها ، وعدم تعلقاتها ، وأيضا فإن عامة أحكام المواريث قطعية ، وهى منصوص عليها فى الكتاب والسنة .

فإن قيل : فما تقولون فيمن بذل جهده فى معرفة مسألة أو مسألتين ، هل له أن يفتى بهما ؟

قيل : نعم يجوز فى أصح القولين ، وهما وجهان لأصحاب الإمام أحمد ، وهل هذا إلا من التبليغ عن الله وعن رسوله ، وجزى الله من أعان الإسلام ولو بشطر كلمة خيرا ، ومنع هذا من الإفتاء بما علم خطأ محض ، وبالله التوفيق .

## من أفتى الناس وهو ليس بأهل

**الفائدة الثالثة والثلاثون** : من أفتى الناس وليس بأهل للفتوى فهو آثم عاص ، ومن أقره من ولاة الأمور على ذلك فهو آثم أيضًا .

قال أبو الفرج بن الجوزى ـ رحمه الله : ويلزم ولى الأمر منهم كما فعل بنو أمية ، وهؤلاء بمنزلة من يدل الركب ، وليس له علم بالطريق ، وبمنزلة الأعمى الذى يرشد الناس إلى القبلة ، وبمنزلة من لا معرفة به بالطب وهو يطب الناس ، بل هو أسوأ حالا من هؤلاء كلهم ، وإذا تعين على ولى الأمر منع من لم يحسن التطبب من مداواة المرضى ، فكيف بمن لم يعرف الكتاب والسنة ولم يتفقه فى الدين ؟

وكان شيخنا رضي الله عنه شديد الإنكار على هؤلاء ، فسمعته يقول : قال لى بعض هؤلاء : أجعلت محتسبًا على الفتوى ؟ فقلت له : يكون على الخبازين والطباخين محتسب ، ولا يكون على الفتوى محتسب ؟!

وقد روى الإمام أحمد وابن ماجه عن النبى ﷺ مرفوعًا : « من أفتى بغير علم كان إثم ذلك على الذى أفتاه » (١) .

وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبى ﷺ: « إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور الرجال ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا : فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » (٢) .

وفى أثر مرفوع ذكره أبو الفرج وغيره : من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء وملائكة الأرض .

وكان مالك ـ رحمه الله ـ يقول : من سئل عن مسألة فينبغى له قبل أن يجيب فيها أن يعرض نفسه على الجنة والنار ، وكيف يكون خلاصه فى الآخرة ، ثم يجيب فيها ، وسئل عن مسألة فقال : لا أدرى ، فقيل له : إنها مسألة خفيفة سهلة ، فغضب وقال : ليس فى العلم شيء خفيف ، أما سمعت قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾ ﴾ [المزمل : ٥] فالعلم كله ثقيل ، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة.

---

(١) أحمد ٢ / ٣٢١ ، وصححه الشيخ شاكر (٨٢٤٩) ، وابن ماجه (٥٣) فى المقدم ، باب : اجتناب الرأى والقياس تلاها بلفظ : ( ٥٣) « غير ثبت » .

(٢) البخارى (١٠٠) فى العلم ، باب : كيف يقبض ، ومسلم ( ٢٦٧٣ / ١٣) فى العلم ، باب : رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن آخر الزمان .

وقال : ما أفتيت حتى شهد لى سبعون أنى أهل لذلك ، وقال : لا ينبغى لرجل أن يرى نفسه أهلا لشىء حتى يسأل من هو أعلم منه ، وما أفتيت حتى سألت ربيعة ويحيى ابن سعيد ، فأمرانى بذلك ، ولو نهانى انتهيت ، قال : وإذا كان أصحاب رسول الله ﷺ تصعب عليهم المسائل ، ولا يجيب أحد منهم عن مسألة حتى يأخذ رأى صاحبه مع ما رزقوا من السداد والتوفيق والطهارة ، فكيف بنا الذين غطت الذنوب والخطايا قلوبنا ؟ ! وكان ـ رحمه الله ـ إذا سئل عن مسألة فكأنه واقف بين الجنة والنار . وقال عطاء بن أبى رباح : أدركت أقوامًا إن كان أحدهم يسأل عن شىء فيتكلم وإنه ليرعد ، وسئل النبى ﷺ: أى البلاد شر ؟ فقال : « لا أدرى حتى أسأل جبريل » ، فسأله فقال : أسواقها (١).

وقال الإمام أحمد : من عرض نفسه للفتيا فقد عرضها لأمر عظيم ، إلا أنه قد تلجئ الضرورة .

وسئل الشعبى عن مسألة ، فقال : لا أدرى ، فقيل له : ألا تستحيى من قولك : لا أدرى ، وأنت فقيه أهل العراق ؟ فقال : لكن الملائكة لم تستحى حين قالوا : ﴿ **لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا** ﴾ [ البقرة : ٣٣ ] ، . وقال بعض أهل العلم :« تعلم لا أدرى » فإنك إن قلت : « لا أدرى » علموك حتى تدرى ، وإن قلت : « أدرى » سألوك حتى لا تدرى . وقال عتبة بن مسلم : صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهرًا ، فكان كثيرًا ما يسأل فيقول : لا أدرى . وكان سعيد بن المسيب لا يكاد يفتى فتيا ، ولا يقول شيئًا إلا قال : اللهم سلمنى وسلم منى ، وسئل الشافعى عن مسألة ، فسكت ، فقيل : ألا تجيب ؟ فقال : حتى أدرى الفضل فى سكوتى أو فى الجواب .

وقال ابن أبى ليلى : أدركت مائة وعشرين من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يُسأل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا ، حتى ترجع إلى الأول ، وما منهم من أحد يحدث بحديث أو يسأل عن شىء إلا وَدَّ أن أخاه كفاه . وقال أبو الحسين الأزدى : إن أحدهم ليفتى فى المسألة لو وردت على عمر بن الخطاب لجمع لها أهل بدر . وسئل القاسم بن محمد عن شىء فقال : إنى لا أحسنه ، فقال له السائل : إنى جئتك لا أعرف غيرك . فقال له القاسم : لا تنظر إلى طول لحيتى وكثرة الناس حولى ، والله ما أحسنه ، فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه : يا بن أخى ، الزمها ، فوالله ما رأيناك

(١) أحمد (٤ / ٨١ ) ، وأبو يعلى (٧٤٠٣) ، والطبرانى فى الكبير (٢ / ١٢٨) رقم (١٥٤٥ ، ١٥٤٦) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ٧٩) : « رجال أحمد وأبى يعلى رجال الصحيح ، خلا عبد الله بن محمد بن عقيل وهو حسن الحديث وفيه كلام » .

فى مجلس أنبل منك اليوم ، فقال القاسم : والله لأن يُقطع لسانى أحب إلىَّ من أن أتكلم بما لا علم لى به . وكتب سلمان إلى أبى الدرداء رضي الله عنهما وكان بينهما مؤاخاة : بلغنى أنك قعدت طبيبًا فاحذر أن تكون متطببًا أو تقتل مسلمًا فكان ربما جاءه الخصمان فيحكم بينهما ثم يقول : ردوهما علىَّ ، متطبب والله أعيدا علىَّ قضيتكما .

## حكم العامى لا يجد من يفتيه

**الفائدة الرابعة والثلاثون** : إذا نزلت بالعامى نازلة وهو فى مكان لا يجد من يسأله عن حكمها ففيه طريقان للناس :

**أحدهما** : أن له حكم ما قبل الشرع ، على الخلاف فى الحظر والإباحة والوقف ؛ لأن عدم المرشد فى حقه بمنزلة عدم المرشد بالنسبة إلى الأمة .

**والطريقة الثانية** : أنه يُخَرَّج على الخلاف فى مسألة تعارض الأدلة عند المجتهد ، هل يعمل بالأخف أو بالأشد أو يتخير ؟ والصواب أنه يجب عليه أن يتقى الله ما استطاع ، ويتحرى الحق بجهده ومعرفة مثله ، وقد نصب الله تعالى على الحق أمارات كثيرة ، ولم يسوِّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بين ما يحبه وبين ما يسخطه من كل وجه بحيث لا يتميز هذا من هذا ، ولا بد أن تكون الفِطَرُ السليمة مائلة إلى الحق ، مؤثرة له ، ولا بد أن يقوم لها عليه بعض الأمارات المرجحة ولو بمنام أو بإلهام ، فإن قدر ارتفاع ذلك كله وعدمت فى حقه جميع الأمارات فهنا يسقط التكليف عنه فى حكم هذه النازلة ، ويصير بالنسبة إليها كمن لم تبلغه الدعوة ، وإن كان مكلفا بالنسبة إلى غيره ؛ فأحكام التكليف تتفاوت بحسب التمكن من العلم والقدرة ، والله أعلم .

## من تجوز له الفتيا ، ومن لا تجوز

**الفائدة الخامسة والثلاثون** :الفتيا أوسع من الحكم والشهادة ، فيجوز فتيا العبد والحر، والمرأة والرجل ، والقريب والبعيد والأجنبى ، والأمى والقارئ ، والأخرس بكتابته والناطق ، والعدو ،والصديق ، وفيه وجه أنه لا تقبل فتيا العدو ولا من لا تقبل شهادته له كالشهادة ،والوجهان فى الفتيا كالوجهين فى الحكم ، وإن كان الخلاف فى الحاكم أشهر ، وأما فتيا الفاسق فإن أفتى غيره لم تقبل فتواه ، وليس للمستفتى أن يستفتيه ، وله أن يعمل بفتوى نفسه ، ولا يجب عليه أن يفتى غيره ، وفى جواز استفتاء مستور الحال وجهان ،

والصواب جواز استفتائه وإفتائه .

قلت : وكذلك الفاسق إلا أن يكون معلنا بفسقه داعيا إلى بدعته ، فحكم استفتائه حكم إمامته وشهادته ، وهذا يختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة والقدرة والعجز ؛ فالواجب شيء والواقع شيء ، والفقيه من يطبق بين الواقع والواجب وينفذ الواجب بحسب استطاعته ، لا من يلقى العداوة بين الواجب والواقع ، فلكل زمان حكم ، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، وإذا عم الفسوق وغلب على أهل الأرض فلو منعت إمامة الفساق وشهاداتهم وأحكامهم وفتاويهم وولاياتهم لعطلت الأحكام ، وفسد نظام الخلق ، وبطلت أكثر الحقوق ، ومع هذا فالواجب اعتبار الأصلح فالأصلح ، وهذا عند القدرة والاختيار ، وأما عند الضرورة والغلبة بالباطل فليس إلا الاصطبار ، والقيام بأضعف مراتب الإنكار .

## لا فرق بين القاضي وغيره في جواز الإفتاء

**الفائدة السادسة والثلاثون** : لا فرق بين القاضي وغيره في جواز الإفتاء بما تجوز الفتيا به ، ووجوبها إذا تعينت ، ولم يزل أمر السلف والخلف على هذا فإن منصب الفتيا داخل في ضمن منصب القضاء عند الجمهور ، والذين لا يجوزون قضاء الجاهل فالقاضي مُفْت ومثبت ومنفذ لما أفتى به ، وذهب بعض الفقهاء من أصحاب الإمام أحمد والشافعي إلى أنه يكره للقاضي أن يفتي في مسائل الأحكام المتعلقة به ، دون الطهارة والصلاة والزكاة ونحوها ، واحتج أرباب هذا القول بأن فتياه تصير كالحكم منه على الخصم ، ولا يمكن نقضه وقت المحاكمة ، قالوا : ولأنه قد يتغير اجتهاده وقت الحكومة أو تظهر له قرائن لم تظهر له عند الإفتاء ، فإن أصر على فتياه والحكم بموجبها حكم بخلاف ما يعتقد صحته ، وإن حكم بخلافها طرق الخصم إلى تهمته والتشنيع عليه بأنه يحكم بخلاف ما يعتقده ويفتي به ، ولهذا قال شريح : أنا أقضي لكم ولا أفتي ، حكاه ابن المنذر ، واختار كراهية الفتوى في مسائل الأحكام .

وقال الشيخ أبو حامد الإسفرائيني : لأصحابنا في فتواه في مسائل الأحكام جوابان :

**أحدهما** : أنه ليس له أن يفتي فيها ؛ لأن لكلام الناس عليه مجالا ولأحد الخصمين عليه مقالا .

**والثاني** : له ذلك ، لأنه أهل له .

## حكم فتيا الحاكم

**الفائدة السابعة والثلاثون** : فتيا الحاكم ليست حكما منه ، ولو حكم غيره بخلاف ما أفتى به لم يكن نقضًا لحكمه ، ولا هى كالحكم ، ولهذا يجوز أن يفتى الحاضر والغائب ومن يجوز حكمه له ومن لا يجوز ، ولهذا لم يكن فى حديث هند دليل على الحكم على الغائب ؛ لأنه ﷺ إنما أفتاها فتوى مجردة ، ولم يكن ذلك حكمًا على الغائب ؛ فإنه لم يكن غائبًا عن البلد،وكانت مراسلته وإحضاره ممكنة ، ولا طلب البينة على صحة دعواها ، وهذا ظاهر بحمد الله .

## إذا سئل المفتى عن شىء لم يقع

**الفائدة الثامنة والثلاثون** : إذا سأل المستفتى عن مسألة لم تقع ، فهل تستحب إجابته أو تكره أو تخير ؟ فيه ثلاثة أقوال ، وقد حكى عن كثير من السلف أنه كان لا يتكلم فيما لم يقع ، وكان بعض السلف إذا سأله الرجل عن مسألة قال : هل كان ذلك ؟ فإن قال : نعم تكلف له الجواب ، وإلا قال : دعنا فى عافية .

وقال الإمام أحمد لبعض أصحابه : إياك أن تتكلم فى مسألة ليس لك فيها إمام .

والحق التفصيل ، فإن كان فى المسألة نص من كتاب الله أو سنة عن رسول الله ﷺ أو أثر عن الصحابة لم يكره الكلام فيها ، وإن لم يكن فيها نص ولا أثر ، فإن كانت بعيدة الوقوع أو مقدرة لا تقع لم يستحب له الكلام فيها ، وإن كان وقوعها غير نادر ولا مستبعد وغرض السائل الإحاطة بعلمها ليكون منها على بصيرة إذا وقعت استحب له الجواب بما يعلم لا سيما إن كان السائل يتفقه بذلك ويعتبر بها نظائرها ، ويفرع عليها ، فحيث كانت مصلحة الجواب راجحة كان هو الأولى ، والله أعلم .

## لا يجوز للمفتى تتبع الحيل

**الفائدة التاسعة والثلاثون** : لا يجوز للمفتى تتبع الحيل المحرمة والمكروهة ، ولا تتبع الرُّخص لمن أراد نفعه ، فإن تتبع ذلك فسق ، وحرم استفتاؤه ، فإن حسن قصده فى حيلة جائزة لا شبهة فيها ولا مفسدة لتخليص المستفتى بها من حرج ، جاز ، بل استحب ، وقد أرشد الله تعالى نبيه أيوب عليه السلام إلى التخلص من الحنث بأن يأخذ بيده ضِغْثًا ، فيضرب به المرأة ضربة واحدة . وأرشد النبى ﷺ بلالا إلى بيع التمر بدراهم ثم يشترى بالدراهم تمرًا

آخر فيتخلص من الربا [١] . فأحسن المخارج ما خلص من المآثم ، وأقبح الحيل ما أوقع فى المحارم ، أو أسقط ما أوجبه الله ورسوله من الحق اللازم ، وقد ذكرنا من النوعين ما لعلك لا تظفر بجملته فى غير هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب .

## حكم رجوع المفتى عن فتياه

**الفائدة الأربعون** : فى حكم رجوع المفتى عن فتياه : إذا أفتى المفتى بشىء ثم رجع عنه فإن علم المستفتى برجوعه ولم يك عمل بالأول فقيل : يحرم عليه العمل به ، وعندى فى المسألة تفصيل ، وأنه لا يحرم عليه الأول بمجرد رجوع المفتى ، بل يتوقف حتى يسأل غيره ، فإن أفتاه بموافقة الأول استمر على العمل به ، وإن أفتاه بموافقة الثانى ، ولم يُفْتِهِ أحد بخلافه ، حرم عليه العمل بالأول ، وإن لم يكن فى البلد إلا مُفْتٍ واحد سأله عن رجوعه عما أفتاه به ، فإن رجع إلى اختيار خلافه مع تسويفه لم يحرم عليه ، وإن رجع لخطأ بان له وأن ما أفتاه به لم يكن صوابًا حرم عليه بالأول ، هذا إذا كان رجوعه لمخالفة دليل شرعى ، فإن كان رجوعه لمجرد ما بان له أن ما أفتى به خلاف مذهبه لم يحرم على المستفتى ما أفتاه به أولا إلا أن تكون المسألة إجماعية .

فلو تزوج بفتواه ودخل ثم رجع المفتى لم يحرم عليه إمساك امرأته إلا بدليل شرعى يقتضى تحريمها ، ولا يجب عليه مفارقتها بمجرد رجوعه ، ولا سيما إن كان إنما رجع لكونه تبين له أن ما أفتى به خلاف مذهبه وإن وافق مذهب غيره ، هذا هو الصواب.

وأطلق بعض أصحابنا وأصحاب الشافعى وجوب مفارقتها عليه ، وحكوا فى ذلك وجهين ، ورجحوا وجوب المفارقة . قالوا : لأن الرجوع عنه ليس مذهبًا له كما لو تغير اجتهاد من قلده فى القبلة فى أثناء الصلاة فإنه يتحول مع الإمام فى الأصح .

فيقال لهم : المستفتى قد دخل بامرأته دخولا صحيحا سائغا ، ولم يفهم ما يوجب مفارقته لها من نص ولا إجماع ، فلا يجب عليه مفارقتها بمجرد تغير اجتهاد المفتى ، وقد رجع عمر بن الخطاب ﷺ عن القول بالتشريك وأفتى بخلافه ولم يأخذ المال من الذين شرك بينهم أولا ، وأما قياسكم ذلك على من تغير اجتهاده فى معرفة القبلة فهو حجة عليكم ؛ فإنه لا يبطل ما فعله المأموم بالاجتهاد الأول ، ويلزمه التحول ثانيا ؛ لأنه مأمور بمتابعة الإمام . بل نظير مسألتنا ما لو تغير اجتهاده بعد الفراغ من الصلاة ؛ فإنه لا تلزمه

(١) سبق تخريجه ص ٤٨ .

الإعادة ، ويصلى الثانية بالاجتهاد الثانى .

وأما قول أبى عمرو بن الصلاح وأبى عبد الله بن حمدان من أصحابنا : إذا كان المفتى إنما يفتى على مذهب إمام معين فإذا رجع لكونه بان له قطعا أنه خالف فى فتواه نص مذهب إمامه فإنه يجب نقضه ، وإن كان ذلك فى محل الاجتهاد ؛ لأن نص مذهب إمامه فى حقه كنص الشارع فى حق المفتى المجتهد المستقل ، فليس كما قالا ، ولم ينص على هذه المسألة أحد من الأئمة ، ولا تقتضيها أصول الشريعة ، ولو كان نص إمامه بمنزلة نص الشارع لحرم عليه وعلى غيره مخالفته وفسق بخلافه . ولم يوجب أحد من الأئمة نقض حكم الحاكم ولا إبطال فتوى المفتى بكونه خلاف قول زيد أو عمرو ، ولا يعلم أحد سوغ النقض بذلك من الأئمة والمتقدمين من أتباعهم ، وإنما قالوا : ينقض من حكم الحاكم ما خالف نص كتابه أو سنة أو إجماع الأمة ، ولم يقل أحد : ينقض من حكمه ما خالف قول فلان أو فلان، وينقض من فتوى المفتى ما ينقض من حكم الحاكم ،فكيف يسوغ نقض أحكام الحكام وفتاوى أهل العلم بكونها خالفت قول واحد من الأئمة ؟ ولا سيما إذا وافقت نصا عن رسول الله ﷺ أو فتاوى الصحابة يسوغ نقضها لمخالفة قول فلان وحده ، ولم يجعل الله تعالى ولا رسوله ﷺ ولا أحد من الأئمة قول فقيه من الأمة بمنزلة نص الله ورسوله بحيث يجب اتباعه ويحرم خلافه ، فإذا بان للمفتى أنه خالف إمامه ووافق قول الأئمة الثلاثة لم يجب على الزوج أن يفارق امرأته ويخرب بيته ويشتت شمله وشمل أولاده بمجرد كون المفتى ظهر له أن ما أفتى به خلاف نص إمامه ، ولا يحل له أن يقول له: فارق أهلك ، بمجرد ذلك ، ولا سيما إن كان النص مع قول الثلاثة . وبالجملة فبطلان هذا القول أظهر من أن نتكلف بيانه .

فإن قيل : فما تقولون لو تغير اجتهاد المفتى ، فهل يلزمه إعلام المستفتى ؟

قيل : اختلف فى ذلك ؛ فقيل : لا يلزمه إعلامه ، فإنه عمل أولا بما يسوغ له ، فإذا لم يعلم بطلانه لم يكن آثما فهو فى سعة من استمراره ، وقيل :بل يلزمه إعلامه ؛ لأن ما رجع عنه قد اعتقد بطلانه ، وبان له أن ما أفتاه به ليس من الدين ، فيجب عليه إعلامه ، كما جرى لعبد الله بن مسعود حين أفتى رجلا بحل أم امرأته التى فارقها قبل الدخول ، ثم سافر إلى المدينة وتبين له خلاف هذا القول ، فرجع إلى الكوفة ، وطلب هذا الرجل ، وفرق بينه وبين أهله ، وكما جرى للحسن بن زياد اللؤلؤى لما استفتى فى مسألة فأخطأ فيها، ولم يعرف الذى أفتاه به ، فاستأجر مناديا ينادى أن الحسن بن زياد استفتى فى يوم كذا وكذا فى مسألة فأخطأ فمن كان أفتاه الحسن بن زياد بشىء فليرجع إليه ، ثم لبث أياما

لا يفتى حتى جاء صاحب الفتوى فأعلمه أنه قد أخطأ ؛ وأن الصواب خلاف ما أفتاه به .

قال القاضى أبو يعلى فى كفايته : من أفتى بالاجتهاد ثم تغير اجتهاده لم يلزمه إعلامه المستفتى بذلك إن كان قد عمل به ، وإلا أعلمه . والصواب التفصيل فإن كان المفتى ظهر له الخطأ قطعا لكونه خالف نص الكتاب أو السنة التى لا معارض لها أو خالف إجماع الأمة فعليه إعلام المستفتى ، وإن كان إنما ظهر له أنه خالف مجرد مذهبه أو نص إمامه لم يجب عليه إعلام المستفتى . وعلى هذا تخرج قصة ابن مسعود ﷺ ، فإنه لما ناظر الصحابة فى تلك المسألة ، بينوا له أن صريح الكتاب يحرمها لكون الله تعالى أبهمها فقال تعالى: ﴿**وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ**﴾ وظن عبد الله أن قوله : ﴿ **اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِن** ﴾ [ النساء : ٢٣ ] راجع إلى الأول والثانى ، فبينوا له أنه إنما يرجع إلى أمهات الربائب خاصة ، فعرف أنه الحق ، وأن القول بحلها خلاف كتاب الله تعالى ، ففرق بين الزوجين ولم يفرق بينهما بكونه تبين له أن ذلك خلاف قول زيد أو عمرو ، والله أعلم .

## هل يضمن المفتى المال أو النفس إذا بان خطؤه ؟

**الفائدة الحادية والأربعون** :إذا عمل المستفتى بفتيا مفت فى إتلاف نفس أو مال ، ثم بان خطؤه ، قال أبو إسحاق الإسفرائينى من الشافعية : يتضمن المفتى إن كان أهلا للفتوى وخالف القاطع ، وإن لم يكن أهلا فلا ضمان عليه ؛ لأن المستفتى قصر فى استفتائه وتقليده ، ووافقه على ذلك أبو عبد الله بن حمدان فى كتاب : آداب المفتى والمستفتى له ، ولم أعرف هذا لأحد قبله من الأصحاب ثم حكى وجها آخر فى تضمين من ليس بأهل قال: لأنه تصدى لما ليس له بأهل وغر من استفتاه بتصديه لذلك .

قلت : خطأ المفتى كخطأ الحاكم والشاهد .

وقد اختلفت الرواية فى خطأ الحاكم فى النفس أو الطرف ،فعن الإمام أحمد فى ذلك روايتان :

**إحداهما** : أنه فى بيت المال ؛ لأنه يكثر منه ذلك الحكم ، فلو حملته العاقلة لكان ذلك إضرارا عظيما بهم .

**والثانية** :أنه على عاقلته كما لو كان الخطأ بسبب غير الحاكم ،وأما خطؤه فى المال فإذا حكم بحق ثم بان كفر الشهود أو فسقهم نقض حكمه ، ثم رجع المحكوم عليه ببدل المال على المحكوم له ،وكذلك إذا كان الحكم بقود رجع أولياء المقتول ببدله على المحكوم له .

وكذلك إن كان الحكم بحق الله بإتلاف مباشر أو بالسراية ففيه ثلاثة أوجه .

**أحدها** : أن الضمان على المزكين ؛ لأن الحكم إنما وجب بتزكيتهم .

**والثانى** : يضمنه الحاكم ؛ لأنه لم يتثبت ، بل فرط فى المبادرة إلى الحكم وترك البحث والسؤال .

**والثالث** : أن للمستحق تضمين أيهما شاء ، والقرار على المزكين ؛ لأنهم ألجؤوا الحاكم إلى الحكم ،فعلى هذا إن لم يكن ثم تزكية فعلى الحاكم .وعن أحمد رواية أخرى: أنه لا ينقض بفسقهم ، فعلى هذا لا ضمان .

وعلى هذا ، إذا استفتى الإمام أو الوالى مفتيا فأفتاه ثم بان له خطؤه فحكم المفتى مع الإمام حكم المزكين مع الحاكم ، وإن عمل المستفتى بفتواه من غير حكم حاكم ولا إمام فأتلف نفسا أو مالا : فإن كان المفتى أهلا فلا ضمان عليه ، والضمان على المستفتى وإن لم يكن أهلا فعليه الضمان ؛لقول النبى ﷺ:«من تطبب ولم يعرف منه طب فهو ضامن»(١) ، وهذا يدل على أنه إذا عرف منه طب وأخطأ لم يضمن ، والمفتى أولى بعدم الضمان من الحاكم والإمام ؛ لأن المستفتى مخير بين قبول فتواه وردها ، فإن قوله لا يلزم ، بخلاف حكم الحاكم والإمام ، وأما خطأ الشاهد فإما أن يكونوا شهودا بمال أو طلاق أو عتق أو حد أو قود ، فإن بان خطؤهم قبل الحكم لم يحكم بذلك ، وإن بان بعد الحكم باستيفاء القود وقبل استيفائه لم يستوف قطعا ، وإن بان بعد استيفائه فعليهم دية ما تلف ، ويتسقط الغرم على عددهم . وإن بان خطؤهم قبل الحكم بالمال لغت شهادتهم ولم يضمنوا ، وإن بان بعد الحكم به نقض حكمه ، كما لو شهدوا بموت رجل باستفاضة فحكم الحاكم بقسم ميراثه ثم بانت حياته فإنه ينقض حكمه ، وإن بان خطؤهم فى شهادة الطلاق من غير جهتهم كما لو شهدوا أنه طلق يوم كذا وكذا وظهر للحاكم أنه فى ذلك اليوم كان محبوسا لا يصل إليه أحد أو كان مغمى عليه ، فحكم ذلك حكم ما لو بان كفرهم أو فسقهم فإنه ينقض حكمه وترد المرأة إلى الزوج ولو تزوجت بغيره ، بخلاف ما إذا قالوا : رجعنا عن الشهادة ، فإن رجوعهم إن كان قبل الدخول ضمنوا نصف المسمى ؛ لأنهم قرروه عليه ، ولا تعود إليه الزوجة إذا كان الحاكم قد حكم بالفرقة ، وإن رجعوا بعد الدخول ففيه روايتان :

---

(١) أبو داود (٤٥٨٦) فى الديات ، باب : فيمن تطبب بغير علم فأعنت ، والنسائى (٤٨٣٠) فى القسامة ، باب : صفة شبه العمد وعلى من دية الأجنة وشبه العمد ، وابن ماجه (٣٤٦٦) فى الطب ، باب : من تطبب ولم يعلم منه طب .

**إحداهما** : أنهم لا يغمرون شيئا ؛ لأن الزوج استوفى المنفعة بالدخول فاستقر عليه عوضها .

**والثانية** : يغرمون المسمى كله ؛ لأنهم فوتوا عليه البضع بشهادتهم ، وأصلهما أن خروج البضع من يد الزوج هل هو متقوم أولا ؟ وأما شهود العتق فإن بان خطؤهم تبينا أنه لا عتق ، وإن قالوا رجعنا غرموا للسيد قيمة العبد .

## أحوال لا يجوز للمفتي الإفتاء وهو فيها

**الفائدة الثانية والأربعون** : ليس للمفتي الفتوى فى حال غضب شديد ، أو جوع مفرط ، أو هم مقلق ، أو خوف مزعج ، أو نعاس غالب ، أو شغل قلب مستول عليه ، أو حال مدافعة الأخبثين ، بل متى أحس من نفسه شيئا من ذلك يخرجه عن حال اعتداله وكمال تثبته وتبينه أمسك عن الفتوى ، فإن أفتى فى هذه الحالة بالصواب صحت فتياه . ولو حكم فى مثال هذه الحالة فهل ينفذ حكمه أو لا ينفذ ؟ فيه ثلاثة أقوال : النفوذ ، وعدمه ، والفرق بين أن يعرض له الغضب بعد فهم الحكومة فينفذ وبين أن يكون سابقا على فهم الحكومة فلا ينفذ ، والثلاثة فى مذهب الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى .

## على المفتي الإلمام بالأعراف فى بعض المسائل

**الفائدة الثالثة والأربعون** : لا يجوز له أن يفتى فى الإقرار والأيمان والوصايا وغيرها مما يتعلق باللفظ بما اعتاده هو من فهم تلك الألفاظ دون أن يعرف عرف أهلها والمتكلمين بها فيحملها على ما اعتادوه وعرفوه وإن كان مخالفا لحقائقها الأصلية ، فمتى لم يفعل ذلك ضل وأضل ؛ فلفظ الدينار عند طائفة اسم لثمانية دراهم ، وعند طائفة اسم لاثنى عشر درهما ، والدرهم عند غالب البلاد اليوم اسم للمغشوش ، فإذا أقر له بدراهم أو حلف ليعطينه إياها أو أصدقها امرأة لم يجز للمفتي ولا للحاكم أن يلزمه بالخالصة ، فلو كان فى فى بلد إنما يعرفون الخالصة لم يجز له أن يلزم المستحق بالمغشوشة وذلك فى ألفاظ الطلاق والعتاق ، فلو جرى عرف أهل بلد أو طائفة فى استعمالهم لفظ الحرية فى العفة دون العتق، فإذا قال أحدهم عن مملوكه : إنه حر ، أو عن جاريته : إنها حرة ، وعادته استعمال ذلك فى العفة لم يخطر بباله غيرها لم يعتق بذلك قطعا ، وإن كان اللفظ صريحا عند من ألف استعماله فى العتق ، وكذلك إذا جرى عرف طائفة فى الطلاق بلفظ التسميح بحيث لا يعرفون لهذا المعنى غيره ، فإذا قلت : اسمح لى ، فقال : سمحت لك، فهذا

صريح فى الطلاق عندهم ،وقد تقدم الكلام فى هذا الفصل مشبعا وأنه لا يسوغ أن يقبل تفسير من قال :لفلان على مال جليل ، أو عظيم ،بدانق أو درهم ،ونحو ذلك ، ولا سيما إن كان المقر من الأغنياء المكثرين أو الملوك .

وكذلك لو أوصى له بقوس فى محلة لا يعرفون إلا أقواس البندق أو الأقواس العربية أو أقواس الرجل .

أو حلف لا يشم الريحان فى محل لا يعرفون الريحان إلا هذا الفارسى .

أو حلف لا يركب دابة فى موضع عرفهم بلفظ الدابة الحمار أو الفرس .

أو حلف لا يأكل ثمرا فى بلد عرفهم فى الثمار نوع واحد منها لا يعرفون غيره .

أو حلف لا يلبس ثوبا فى بلد عرفهم فى الثياب القمص وحدها دون الأردية والأزر والجباب ونحوها ، تقيدت يمينه بذلك وحده فى جميع هذه الصور ، واختصت بعرفه دون موضوع اللفظ لغة أو فى عرف غيره ، بل لو قالت المرأة لزوجها الذى لا يعرف التكلم بالعربية ولا يفهمها : قل لى : أنت طالق ثلاثا ، وهو لا يعلم موضوع هذه الكلمة ، فقال لها ، لم تطلق قطعا فى حكم الله تعالى ورسوله ، وكذلك لو قال الرجل لآخر ، أنا عبدك ومملوكك ، على جهة الخضوع له كما يقوله الناس لم يستبح ملك رقبته بذلك ، ومن لم يراع المقاصد والنيات والعرف فى الكلام فإنه يلزمه أن يجوز له بيع هذا القائل وملك رقبته بمجرد هذا اللفظ .

وهذا باب عظيم يقع فيه المفتى الجاهل ، فيغر الناس ، ويكذب على الله ورسوله ، ويغير دينه ، ويحرم ما لم يحرمه الله ، ويوجب ما لم يوجبه الله ، والله المستعان .

## يحرم على المفتى التحيل لمعصية الله

**الفائدة الرابعة والأربعون** :يحرم عليه إذا جاءته مسألة فيها تحيل على إسقاط واجب أو تحيل محرم أو مكر أو خداع أن يعين المستفتى فيها ، ويرشده إلى مطلوبه ، أو يفتيه بالظاهر الذى يتوصل به إلى مقصوده ، بل ينبغى له أن يكون بصيرا بمكر الناس وخداعهم وأحوالهم ، ولا ينبغى له أن يحسن الظن بهم ، بل يكون حذرا فطنا فقيها بأحوال الناس وأمورهم ، يؤازره فقهه فى الشرع ، وإن لم يكن كذلك زاغ وأزاغ ، وكم من مسألة ظاهرها ظاهر جميل ، وباطنها مكر وخداع وظلم ؟ فالغبى ينظر إلى ظاهرها ويقضى بجوازه ، وذو البصيرة يتفقد مقصدها وباطنها ، فالأول يروج عليه زغل المسائل كما يروج

على الجاهل بالنقد زغل الدراهم ، والثانى يخرج زيفها كما يخرج الناقد زيف النقود .

وكم من باطل يخرجه الرجل بحسن لفظه وتنميقه وإبرازه فى صورة حق ؟ وكم من حق يخرجه بتهجينه وسوء تعبيره فى صورة باطل ؟ ومن له أدنى فطنة وخبرة لا يخفى عليه ذلك ، بل هذا أغلب أحوال الناس ، ولكثرته وشهرته يستغنى عن الأمثلة . بل من تأمل المقالات الباطلة والبدع كلها وجدها قد أخرجها أصحابها فى قوالب مستحسنة وكسوها ألفاظا يقبلها بها من لم يعرف حقيقتها ولقد أحسن القائل :

تقول هذا جناء النحل تمدحه وإن تشأ قلت : ذا قىء الزنابير

مدحا وذما ، وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتريه سوء تعبير

ورأى بعض الملوك كأن أسنانه قد سقطت ، فعبرها له معبر بموت أهله وأقاربه ، فأقصاه وطرده ، واستدعى آخر فقال له : لا عليك ، تكون أطول أهلك عمرا ، فأعطاه وأكرمه وقربه ، فاستوفى المعنى ، وغير له العبارة ، وأخرج المعنى فى قالب حسن .

والمقصود أنه لا يحل له أن يفتى بالحيل المحرمة ، ولا يعين عليها ، ولايدل عليها ، فيضاد الله فى أمره ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [ آل عمران ] ، وقال تعالى : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [ النمل ] ، وقال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [ البقرة ] ، وقال تعالى : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ الأنفال ] ، وقال تعالى: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [ فاطر : ٤٣ ] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [ النساء :١٤٢]، وقال تعالى : ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [ الأنعام ] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة ] .

وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال :« ملعون من ضار مسلما أو مكر به » (١).

وقال :« لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » (٢) .

---

(١) لم يعزه صاحب التحفة (٥ / ٣٠٤) إلا للترمذى (١٩٤١) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى الخيانة والغش ، وقال :« حديث غريب » وضعفه الألبانى .

(٢) ابن بطة فى إبطال الحيل ص٤٢ ، وصححه ابن كثير فى التفسير (٣ / ٤٩٣) .

وقال :« المكر والخديعة فى النار » [١] ، وفى سنن ابن ماجه وغيره عنه ﷺ :« ما بال أقوام يلعبون بحدود الله ،ويستهزئون بآياته ،طلقتك راجعتك ،طلقتك راجعتك ؟ » [٢].

وفى لفظ :« خلعتك راجعتك ، خلعتك راجعتك » [٣] .

وفى الصحيحين عنه ﷺ :« لعن الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فجملوها وباعوها وأكلوا أثمانها » [٤] .

وقال أيوب السختيانى : يخادعون الله كما يخادعون الصبيان . وقال ابن عباس : من يخادع الله يخدعه . وقال بعض السلف: ثلاث من كن فيه كن عليه :المكر والبغى والنكث.

وقال تعالى :﴿ **وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ** ﴾ [ فاطر : ٤٣ ] ،وقال تعالى :﴿ **إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم** ﴾ [ يونس : ٢٣ ] ، وقال تعالى : ﴿ **فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ** ﴾ [الفتح : ١٠ ] . وقال الإمام أحمد : هذه الحيل التى وضعها هؤلاء ، عمدوا إلى السنن فاحتالوا فى نقضها أتوا إلى الذى قيل لهم: إنه حرام فاحتالوا فيه حتى حللوه . وقال : ما أخبثهم ! ـ يعنى أصحاب الحيل ـ يحتالون لنقض سنن رسول الله ﷺ . وقال : من احتال بحيلة فهو حانث . وقال : إذا حلف على شىء ثم احتال بحيلة فصار إليها فقد صار إلى الذى حلف عليه بعينه . حاجة إلى إعادته .

## حكم أخذ المفتى أجرة أو هدية أو رزقا على الفتوى

**الفائدة الخامسة والأربعون** :فى أخذ الأجرة والهدية والرزق على الفتوى ، فيه ثلاث صور مختلفة السبب والحكم :

فأما أخذه الأجرة فلا يجوز له ؛ لأن الفتيا منصب تبليغ عن الله ورسوله ، فلا تجوز

---

(١) الكامل فى ضعفاء الرجال (٢ / ٥٨) ، والبيهقى فى الشعب (١١٢١٠) باب : فى أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه ، وصححه الألبانى عن قيس بن سعد ، والحاكم فى المستدرك (٤ / ٦٠٧) فى الأهوال ، باب : المكر والخديعة والخيانة فى النار ، من حديث أنس بزيادة :« والخيانة » وسكت عنه هو والذهبى .

(٢) ابن ماجه (٢٠١٧) فى الطلاق ، باب : حدثنا سويد بن سعيد وفى الزوائد :« إسناده حسن ، مؤمل بن إسماعيل اختلف فيه » ، والبيهقى فى الكبرى (٧ / ٣٢٢) فى الخلع والطلاق ، باب : ما جاء فى كراهية الطلاق .

(٣) لم أقف عليه .

(٤) البخارى (٢٢٢٤) فى البيوع ، باب : لا يذاب شحم الميتة ولا يباع ودكه ، ومسلم (١٥٨٢ / ٧٢) فى المساقاة ، باب : تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام .

المعارضة عليه ، كما لو قال له : لا أعلمك الإسلام أو الوضوء أو الصلاة إلا بأجرة ، أو سئل عن حلال أو حرام فقال للسائل : لا أجيبك عنه إلا بأجرة ، فهذا حرام قطعًا ، ويلزمه رد العوض ، ولا يملكه .

وقال بعض المتأخرين : إن أجاب بخطه فله أن يقول للسائل : لا يلزمنى أن أكتب لك خطى إلا بأجرة ، وله أخذ الأجرة ، وجعله بمنزلة أجرة الناسخ ؛ فإنه يأخذ الأجرة على خطه ، لا على جوابه ، وخطه قدر زائد على جوابه .

والصحيح خلاف ذلك ، وأنه يلزمه الجواب مجانًا لله بلفظه وخطه ، ولكن لا يلزمه الورق ولا الحبر .

وأما الهدية ففيها تفصيل ، فإن كانت بغير سبب الفتوى كمن عادته يهاديه أو من لا يعرف أنه مُفتٍ فلا بأس بقبولها ، والأولى أن يكافئ عليها ، وإن كانت بسبب الفتوى ، فإن كانت سببًا إلى أن يفتيه بما لا يفتى به غيره ممن لا يهدى له لم يجز له قبول هديته ، وإن كان لا فرق بينه وبين غيره عنده فى الفتيا ، بل يفتيه به الناس ، كره له قبول الهدية ؛ لأنها تشبه المعاوضة على الإفتاء .

وأما أخذ الرزق من بيت المال فإن كان محتاجًا إليه جاز له ذلك ، وإن كان غنيًا ففيه وجهان ، وهذا فرع متردد بين عامل الزكاة وعامل اليتيم فمن ألحقه بعامل الزكاة قال : النفع فيه عام ، فله الأخذ ، ومن ألحقه بعامل اليتيم منعه من الأخذ ، وحكم القاضى فى ذلك حكم المفتى ، بل القاضى أولى بالمنع والله أعلم .

## الإفتاء فى الوقائع المتماثلة

**الفائدة السادسة والأربعون** : إذا أفتى فى واقعة ثم وقعت له مرة أخرى ، فإن ذكرها ، وذكر مستندها ولم يتجدد له ما يوجب تغير اجتهاده أفتى بها من غير نظر ولا اجتهاد ، وإن ذكرها ونسى مستندها فهل له أن يفتى بها دون تجديد نظر واجتهاد ؟ فيه وجهان لأصحاب الإمام أحمد والشافعى :

**أحدهما** : أن يلزمه تجديد النظر ؛ لاحتمال تغير اجتهاده وظهور ما كان خافيًا عنه .

**والثانى** : لا يلزمه تجديد النظر ؛ لأن الأصل بقاء ما كان على ما كان ، وإن ظهر له ما يغير اجتهاده لم يجز له البقاء على القول الأول ، ولا يجب عليه نقضه ، ولا يكون اختلافه مع نفسه قادحًا فى علمه ، بل هذا من كمال علمه وورعه ، ولأجل هذا خرج عن

الأئمة فى المسألة قولان فأكثر ، وسمعت شيخنا ـ رحمه الله تعالى يقول : حضرت عقد مجلس عند نائب السلطان فى وقف أفتى فيه قاضى البلد بجوابين مختلفين ، فقرأ جوابه الموافق للحق ، فأخرج بعض الحاضرين جوابه الأول ، وقال : هذا جوابك بضد هذا فكيف تكتب جوابين متناقضين فى واقعة واحدة ؟ فوجم الحاكم ، فقلت : هذا من علمه ودينه أفتى أولا بشىء ، ثم تبين له الصواب فرجع إليه ، كما يُفتى إمامه بقول ثم يتبين له خلافة فيرجع إليه ، ولا يقدح ذلك فى علمه ولا دينه ، وكذلك سائر الأئمة ، فسر القاضى بذلك وسرى عنه .

## أخذ المفتى بالحديث

**الفائدة السابعة والأربعون** : قول الشافعى ـ رحمه الله تعالى : إذا وجدتم فى كتابى خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلته ، وكذلك قوله : إذا صح الحديث عن النبى ﷺ وقلت أنا قولا فأنا راجع عن قولى وقائل بذلك الحديث ، وقوله : إذا صح الحديث عن رسول الله ﷺ ، فاضربوا بقولى الحائط ، وقوله : إذا رويت حديثًا عن رسول الله ﷺ ولم أذهب إليه فاعلموا أن عقلى قد ذهب ، وغير ذلك من كلامه فى هذا المعنى صريح فى مدلوله ، وأن مذهبه ما دل عليه الحديث ، لا قول له غيره ، ولا يجوز أن ينسب إليه ما خالف الحديث ويقال : هذا مذهب الشافعى ، ولا يحل الإفتاء بما خالف الحديث على أنه مذهب الشافعى ، ولا الحكم به ، صرح بذلك جماعة من أئمة أتباعه ، حتى كان منهم من يقول للقارئ إذا قرأ عليه مسألة من كلامه : قد صح الحديث بخلافها ، اضرب على هذه المسألة فليست مذهبه .

وهذا هو الصواب قطعًا ، ولو لم ينص عليه ، فكيف إذا نص عليه وأبدى فيه وأعاد وصرح فيه بألفاظ كلها صريحة فى مدلولها ؟ فنحن نشهد بالله أن مذهبه وقوله الذى لا قول له سواه ما وافق الحديث ، دون ما خالفه وأن من نسب إليه خلافه فقد نسب إليه خلاف مذهبه ، ولا سيما إذا ذكر هو ذلك الحديث وأخبر أنه إنما خالفه لضعف فى سنده أو لعدم بلوغه له من وجه يثقُ به ، ثم ظهر للحديث سند صحيح لا مطعن فيه وصححه أئمة الحديث من وجوه لم تبلغه ، فهذا لا يشك عالم ولا يُمارى فى أنه مذهبه قطعًا ، وهذا كمسألة الجوائح ؛ فإنه عَلَّل حديث سفيان بن عُيينة بأنه كان ربما ترك ذكر الجوائح ، وقد صح الحديث من غير طريق سفيان صحة لا مرية فيها ولا علة ولا شُبهة بوجه ؛ فمذهب الشافعى وضع الجوائح ، وبالله التوفيق .

وقد صرح بعض أئمة الشافعية بأن مذهبه أن الصلاة الوسطى صلاة العصر وأن وقت المغرب يمتد إلى مغيب الشفق ، وأن من مات وعليه صيام صام عنه وليه ، وأن أكل لحوم الإبل ينقض الوضوء ، وهذا بخلاف الفطر بالحجامة ، وصلاة المأموم قاعدًا إذا صلى إمامه كذلك ؛ فإن الحديث وإن صح فى ذلك فليس بمذهبه ، فإن الشافعى قد رواه وعرف صحته، ولكن خالفه ، لاعتقاده نسخه . وهذا شىء وذاك شىء ، ففى هذا القسم يقع النظر فى النَّسْخ وعدمه ، وفى الأول يقع النظر فى صحة الحديث وثقة السند ، فاعرفه .

## هل للرجل أن يفتى بما عنده من كتب الحديث ؟

**الفائدة الثامنة والأربعون** : إذا كان عند الرجل الصحيحان أو أحدهما أو كتاب من سنن رسول الله ﷺ موثوق بما فيه ، فهل له أن يفتى بما يجده فيه ؟ فقالت طائفة من المتأخرين : ليس له ذلك ، لأنه قد يكون منسوخًا ، أو له معارض ، أو يفهم من دلالته خلاف ما يدل عليه ، أو يكون أمر ندب فيفهم منه الإيجاب يكون عامًا له مخصص ، أو مطلقًا له مقيد ، فلا يجوز له العمل ولا الفتيا به حتى يسأل أهل الفقه والفتيا .

وقالت طائفة : بل له أن يعمل به ، ويفتى به ، بل يتعين عليه ، كما كان الصحابة يفعلون ؛ إذا بلغهم الحديث عن رسول الله ﷺ وحدَّث به بعضهم بعضًا بادروا إلى العمل به من غير توقف ولا بحث عن معارض ، ولا يقول أحد منهم قط : هل عمل بهذا فلان وفلان ؟ ولو رأوا من يقول ذلك لأنكروا عليه أشد الإنكار ، وكذلك التابعون ، وهذا معلوم بالضرورة لمن له أدنى خبرة بحال القوم وسيرتهم ، وطول العهد بالسنة ، وبعد الزمان وعتقها لا يسوغ ترك الأخذ بها والعمل بغيرها ، ولو كانت سنن رسول الله ﷺ لا يسوغ العمل بها بعد صحتها حتى يعمل بها فلان أو فلان لكان قول فلان أو فلان عيارًا على السنن ، ومُزكيًّا لها ، وشرطًا فى العمل بها ، وهذا من أبطل الباطل ، وقد أقام الله الحجة برسوله دون آحاد الأمة ،وقد أمر النبى ﷺ بتبليغ سننه ، ودعا لمن بَلَّغها ؛ فلو كان مَنْ بلغته لا يعمل بها حتى يعمل بها الإمام فلان والإمام فلان لم يكن فى تبليغها فائدة ، وحصل الاكتفاء بقول فلان وفلان.

قالوا : والنسخ الواقع فى الأحاديث الذى أجمعت عليه الأمة لا يبلغ عشرة أحاديث البتة بل ولا شطرها ؛ فتقدير وقوع الخطأ فى الذهاب إلى المنسوخ أقل بكثير من وقوع الخطأ فى تقليد من يصيب ويخطئ ،ويجوز عليه التناقض والاختلاف،ويقول القول ويرجع عنه، ويحكى عنه فى المسألة الواحدة عدة أقوال ، ووقع الخطأ فى فهم كلام المعصوم أقل بكثير

من وقوع الخطأ فى فهم كلام الفقيه المعين ؛ فلا يفرض احتمال خطأ لمن عمل بالحديث وأفتى به إلا وأضعاف أضعافه حاصل لمن أفتى بتقليد من لا يعلم خطؤه من صوابه .

والصواب فى هذه المسألة التفصيل ؛ فإن كانت دلالة الحديث ظاهرة بينة لكل من سمعه لا يحتمل غير المراد فله أن يعمل به ، ويفتى به ، ولا يطلب له التزكية من قول فقيه أو إمام ، بل الحجة قول رسول الله ﷺ وإن خالفه من خالفه ، وإن كانت دلالته خفية لا يتبين المراد منها لم يجز له أن يعمل ، ولا يفتى بما يتوهمه مرادًا حتى يسأل ويطلب بيان الحديث ووجه ، وإن كانت دلالته ظاهرة كالعام على أفراده ، والأمر على الوجوب ، والنهى على التحريم ؛ فهل له العمل والفتوى به ؟ يخرج على الأصل وهو العمل بالظواهر قبل البحث عن المعارض ، وفيه ثلاثة أقوال فى مذهب أحمد وغيره : الجواز ، والمنع ، والفرق بين العام والخاص فلا يعمل به قبل البحث عن المخصص ، والأمر والنهى فيعمل به قبل البحث عن المعارض ، وهذا كله إذا كان ثم نوع أهلية ولكنه قاصر فى معرفة الفروع وقواعد الأصوليين والعربية ، وإذا لم تكن ثمة أهلية قط ففرضه ما قال الله تعالى : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [ النحل : ٤٣ ، الأنبياء : ٧ ] .

وقول النبى ﷺ : « ألا سألوا إذا لم يعملوا ، إنما شفاء العى السؤال » (١) .

وإذا جاز اعتماد المستفتى على ما يكتبه المفتى من كلامه أو كلام شيخه وإن علا وصعد فمن كلام إمامه ؛ فلأن يجوز اعتماد الرجل على ما كتبه الثقات من كلام رسول الله ﷺ أولى بالجواز ، وإذا قدر أنه لم يفهم الحديث كما لو لم يفهم فتوى المفتى فيسأل من يعرفه معناه ، كما يسأل من يعرفه معنى جواب المفتى ، وبالله التوفيق .

## هل للمنتسب إلى مذهب الإفتاء بغيره ؟

**الفائدة التاسعة والأربعون** : هل للمنتسب إلى تقليد إمام معين أن يفتى بقول غيره ؟ لا يخلو الحال من أمرين : إما أن يُسأل عن مذهب ذلك الإمام فقط فيقال له : ما مذهب الشافعى مثلا فى كذا وكذا ؟ أو يُسأل عن حكم الله الذى أداه إليه اجتهاد ؛ فإن سئل عن مذهب ذلك الإمام لم يكن له أن يخبره بغيره إلا على وجه الإضافة إليه ، وإن سئل عن

---

(١) أبو داود (٣٣٦) فى الطهارة ، باب: فى المجروح يتيمم ، والدارقطنى (١ / ١٨٩ ، ١٩٠) رقم (٣) فى الطهارة، باب : جواز التيمم لصاحب الجراح مع استعمال الماء وتعصيب الجرح ، والبيهقى فى الكبرى (١ / ٢٢٨) فى الطهارة باب : المسح على العصائب والجبائر ، وضعفه الألبانى .

حكم الله من غير أن يقصد السائل قول فقيه معين ؛ فهاهنا يحب عليه الإفتاء بما هو راجح عنده وأقرب إلى الكتاب والسنة من مذهب إمامه أو مذهب من خالفه ، لا يسعه غير ذلك، فإن لم يتمكن منه وخاف أن يؤدى إلى ترك الإفتاء فى تلك المسألة لم يكن له أن يفتى بما لا يعلم أنه صواب ؛ فكيف بما يغلب على ظنه أن الصواب فى خلافه ؟ ولا يسع الحاكم والمفتى غير هذا البتة ؛ فإن الله سائلهما عن رسوله وما جاء به ، لا عن الإمام المعين وما قاله، وإنما يُسأل الناس فى قبورهم ويوم معادهم عن الرسول الله ﷺ ؛ فيقال له فى قبره : ما كنت تقول فى هذا الرجل الذى بُعث فيكم ؟ ﴿ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ** (٦٥) ﴾ [ القصص ] ،ولا يسأل أحد قط عن إمام ولا شيخ ولا متبوع غيره ، بل يسأل عمن اتبعه وائتم به غيره ، فلينظر بماذا يجيب ؟ وليعدَّ للجواب صوابًا .

وقد سمعت شيخنا ـ رحمه الله ـ يقول : جاءنى بعض الفقهاء من الحنفية فقال : أستشيرك فى أمر ، قلت : ما هو ؟ قال : أريد أن أنتقل عن مذهبى ، قلت له : ولم ؟ قال : لأنى أرى الأحاديث الصحيحة كثيراً تخالفه ، واستشرت فى هذا بعض أئمة أصحاب الشافعى فقال لى : لو رجعت عن مذهبك لم يرتفع ذلك من المذهب ، وقد تقررت المذاهب ، ورجوعك غير مفيد ، وأشار علىَّ بعض مشايخ التصوف بالافتقار إلى الله والتضرع إليه وسؤال الهداية لما يحبه ويرضاه ، فماذا تشير به أنت علىَّ ؟ قال : فقلت له : اجعل المذهب ثلاثة أقسام ، قسم الحقُّ فيه ظاهر بين موافق للكتاب والسنة فاقض به وأفت به طيب النفس منشرح الصدر ، وقسم مرجوح ومخالفه معه الدليل فلا تُفْتِ به ولا تحكم به وادفعه عنك ، وقسم من مسائل الاجتهاد التى الأدلة فيها متجاذبة ؛ فإن شئت أن تفتى به وإن شئت أن تدفعه عنك ، فقال : جزاك الله خيراً ، أو كما قال .

وقالت طائفة أخرى ـ منهم أبو عمرو بن الصلاح ، وأبو عبد الله بن حمدان : من وجد حديثًا يخالف مذهبه فإن كملت آلة الاجتهاد فيه مطلقًا أو فى مذهب إمامه أو فى ذلك النوع أو فى تلك المسألة فالعمل بذلك الحديث أولى ، وإن لم تكمل آلته ووجد فى قلبه حزازة من مخالفة الحديث بعد أن بحث فلم يجد لمخالفته عنده جوابًا شافيًا فلينظر : هل عمل بذلك الحديث إمام مستقل أم لا ؟ فإن وجده فله أن يتمذهب بمذهبه فى العمل بذلك الحديث ويكون ذلك عذراً له فى ترك مذهب إمامه فى ذلك ، والله أعلم .

## هل للمفتى أن يفتى بمذهب غير مذهب إمامه ؟

**الفائدة الخمسون** : هل للمفتى المنتسب إلى مذهب إمام بعينه أن يفتى بمذهب غيره إذا ترجَّحَ عنده ؟ فإن كان سالكًا سبيل ذلك الإمام فى الاجتهاد ومتابعة الدليل أين كان ـ وهذا هو المتبع للإمام حقيقة ـ فله أن يفتى بما ترجح عنده من قول غيره ، وإن كان مجتهدًا متقيدًا بأقوال ذلك الإمام لا يعدوها إلى غيرها فقد قيل : ليس له أن يفتى بغير قول إمامه ، فإن أراد ذلك حكاه عن قائله حكاية محضة .

والصواب بأنه إذا ترجح عنده قول غير إمامه بدليل راجح فلا بد أن يخرج على أصول إمامه وقواعده ؛ فإن الأئمة متفقة على أصول الأحكام ، ومتى قال بعضهم قولا مرجوحًا فأصوله تردَّه وتقتضى القول الراجح ، فكل قول صحيح فهو يخرج على قواعد الأئمة بلا ريب ؛ فإذا تبين لهذا المجتهد المقيد رجحان هذا القول وصحة مأخذه خرج على قواعد إمامه فله أن يفتى به وبالله التوفيق .

وقد قال القفال : لو أدى اجتهادى إلى مذهب أبى حنيفة قلت : مذهب الشافعى كذا، لكنى أقول بمذهب أبى حنيفة ؛ لأن السائل إنما يسألنى عن مذهب الشافعى ؛ فلا بد أن أعرفه أن الذى أفتيته به غير مذهبه ، فسألت شيخنا ـ قدس الله روحه ـ عن ذلك ، فقال : أكثر المستفتين لا يخطر بقلبه مذهب معين عند الواقعة التى سأل عنها ، وإنما سؤاله عن حكمها وما يعمل به فيها ، فلا يسع المفتى أن يفتيه بما يعتقد الصواب فى خلافه .

## ماذا يصنع المفتى إذا اعتدل قولان

**الفائدة الحادية والخمسون** : إذا اعتدل عند المفتى قولان ولم يترجح له أحدهما على الآخر ، فقال القاضى أبو يعلى :له أن يفتى بأيهما شاء ،كما يجوز له أن يعمل بأيهما شاء. وقيل : بل يخير المستفتى فيقول له : أنت مخير بينهما ؛ لأنه إنما يفتى بما يراه ، والذى يراه هو التخيير ، وقيل : بل يفتيه بالأحوط من القولين .

قلت : الأظهر أنه يتوقف ، ولا يفتيه بشىء حتى يتبين له الراجح منهما ؛ لأن أحدهما خطأ ، فليس له أن يفتيه بما لا يعلم أنه صواب ، وليس له أن يخيره بين الخطأ والصواب ، وهذا كما إذا تعارض عند الطبيب فى أمر المريض أمران خطأ وصواب ، ولم يتبين له أحدهما لم يكن له أن يقدم على أحدهما ، ولا يخيره ، وكما لو استشاره فى أمر،

فتعارض عنده الخطأ والصواب من غير ترجيح لم يكن له أن يشير بأحدهما ولا يخيره،وكما لو تعارض عنده طريقان مهلكة وموصلة ولم يتبين له طريق الصواب لم يكن له الإقدام ولا التخيير ، فمسائل الحلال والحرام أولى بالتوقف ، والله أعلم .

## أتباع الائمة يفتون بما رجع عنه الأئمة من أقوال

**الفائدة الثانية والخمسون** : أتباع الأئمة يفتون كثيرا بأقوالهم القديمة التى رجعوا عنها ، وهذا موجود فى سائر الطوائف .

فالحنفية يفتون بلزوم المنذورات التى مخرجها مخرج اليمين كالحج والصوم والصدقة ، وقد حكوا هم عن أبى حنيفة أنه رجع قبل موته بثلاثة أيام إلى التكفير .

والحنابلة يفتى كثير منهم بوقوع طلاق السكران ، وقد صرح الإمام أحمد بالرجوع عنه إلى عدم الوقوع كما تقدم حكايته .

والشافعية يفتون بالقول القديم فى مسألة التثويب ، وامتداد وقت المغرب ومسألة التباعد عن النجاسة فى الماء الكثير ، وعدم استحباب قراءة السورة فى الركعتين الأخيرتين ، وغير ذلك من المسائل ، وهى أكثر من عشرين مسألة ومن المعلوم أن القول الذى صرح بالرجوع عنه لم يبق مذهبا له ، فإذا أفتى المفتى به مع نصه على خلافه لرجحانه عنده لم يخرجه ذلك عن التمذهب بمذهبه ، فما الذى يحرم عليه أن يفتى بقول غيره من الأئمة الأربعة وغيرهم إذا ترجح عنده .

فإن قيل : الأول قد كان مذهبا له مرة ، بخلاف ما لم يقل به قط .

قيل ، هذا فرق عديم التأثير ؛ إذ ما قال به وصرح بالرجوع عنه بمنزلة ما لم يقله ، وهذا كله مما يبين أن أهل العلم لا يتقيدون بالتقليد المحض الذى يهجرون لأجله قول كل من خالف من قلدوه .

وهذه طريقة ذميمة وخيمة ، حادثة فى الإسلام ، مستلزمة لأنواع من الخطأ ومخالفة الصواب ، والله أعلم .

## على المفتى أن يلتزم النص فى الفتوى

**الفائدة الثالثة والخمسون**: يحرم على المفتى أن يفتى بضد لفظ النص وإن وافق مذهبه.

ومثاله : أن يسأل عن رجل صلى من الصبح ركعة ثم طلعت الشمس ، هل يتم صلاته أم لا ؟ فيقول : لا يتمها ، ورسول الله ﷺ يقول :« فليتم صلاته »(١) .

ومثل أن يسأل عمن مات وعليه صيام : هل يصوم عنه وليه ؟ فيقول : لا يصوم عنه وليه ، وصاحب الشرع ﷺ قال :« من مات وعليه صيام صام عنه وليه »(٢) .

ومثل أن يسأل عن رجل باع متاعه ثم أفلس المشترى فوجده بعينه ، هل هو أحق به ؟ فيقول : ليس أحق به ، وصاحب الشرع يقول :« فهو أحق به »(٣) .

ومثل أن يسأل عن رجل أكل فى رمضان أو شرب ناسيا ، هل يتم صومه ؟ فيقول : لا يتم صومه ، وصاحب الشرع يقول :« فليتم صومه »(٤) .

ومثل أن يسأل عن أكل كل ذى ناب من السباع ،هل هو حرام ؟ فيقول :ليس بحرام، ورسوله ﷺ يقول :« أكل كل ذى ناب من السباع حرام »(٥) .

ومثل أن يسأل عن الرجل : هل له منع جاره من غرز خشبة فى جداره ؟ فيقول : له أن يمنعه ، وصاحب الشرع يقول :« لا يمنعه »(٦) .

ومثل أن يسأل : هل تجزى صلاة من لا يقيم صلبه من ركوعه وسجوده ؟ فيقول :

---

(١) البخارى (٥٧٩) فى مواقيت الصلاة ، باب : من أدرك من الفجر ركعة ، ومسلم (٦٠٨ / ١٦٣) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك تلك الصلاة ، والترمذى (١٨٦) فى الصلاة، باب : ما جاء فيمن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس ، وابن ماجه (٦٩٩ ، ٧٠٠) فى الصلاة ، باب : وقت الصلاة فى العذر والضرورة .

(٢) البخارى (١٩٥٢) فى الصوم ، باب : من مات وعليه صوم ، ومسلم (١١٤٧ / ١٥٣) فى الصيام ، باب : قضاء الصيام عن الميت ، وأبو داود (٢٤٠٠) فى الصوم ، باب : فيمن مات وعليه صوم .

(٣) البخارى (٢٤٠٢) فى الاستقراض ، باب : إذا وجد ماله عند مفلس فى البيع والقرض والوديعة فهو أحق به ، ومسلم (١٥٥٩ / ٢٢) فى المساقاة ، باب : من أدرك ما باعه عند المشترى وقد أفلس فله الرجوع فيه ، وأبو داود (٣٥١٩) فى البيوع ، باب : فى الرجل يفلس فيجد الرجل متاعه بعينه عنده ، والترمذى (١٢٦٢) فى البيوع ، باب : ما جاء إذا أفلس للرجل غريم فيجد عنده متاعه ، والنسائى (٤٦٧٦) فى البيوع ، باب : الرجل يبتاع البيع فيفلس ويوجد المتاع بعينه ، وابن ماجه (٢٣٥٨) فى الأحكام ، باب : من وجد متاعه بعينه عند رجل قد أفلس ، وأحمد ( ٢ / ٢٢٨ ، ٢٥٨ ) .

(٤) البخارى (١٩٣٣) فى الصوم ، باب : الصائم إذا أكل أو شرب ناسيا .

(٥) النسائى (٤٣٢٤) فى الصيد والذبائح ، باب : تحريم أكل السباع ، وابن ماجه (٣٢٣٣) فى الصيد ، باب : أكل كل ذى ناب من السباع ، ومالك (٢ / ٤٩٦) رقم (١٣ ، ١٤) ، وأحمد ٢ / ٣٦ ، ٤١٨) .

(٦) البخارى (٢٤٦٣) فى المظالم ، باب : لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة فى جداره ، ومسلم (١٦٠٩ / ١٣٦) فى المساقاة ، باب : غررز الخشب فى جدار الجار ، وأبو داود (٣٦٣٤) فى الأقضية ، أبواب من القضاء ، وابن ماجه (٢٣٣٥) فى الأحكام ، باب : الرجل يضع خشبه على جدار جاره .

تجزيه صلاته ، وصاحب الشرع ، يقول :« لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيها صلبه بين ركوعه وسجوده » (١) .

أو يسأل عن الرجل يصلى خلف الصف وحده : هل له صلاة أم لا صلاة له ؟ وهل يؤمر بالإعادة ؟ فيقول : نعم له صلاة ، ولا يؤمر بالإعادة ، وقد قال صاحب الشرع :« لا صلاة له » (٢) ، وأمره بالإعادة .

أو يسأل :هل للرجل رخصة فى ترك الجماعة من غير عذر ؟ فيقول : نعم له رخصة، ورسول الله ﷺ يقول :« لا أجد لك رخصة » (٣) .

أو يسأل عن رجل أسلف رجلا ماله وباعه سلعة : هل يحل ذلك ؟ فيقول نعم يحل ذلك ، وصاحب الشرع يقول :« لا يحل سلف وبيع » (٤) .

ونظائر ذلك كثيرة جدا ، وقد كان السلف الطيب يشتد نكيرهم وغضبهم على من عارض حديث رسول الله ﷺ برأى أو قياس أو استحسان أو قول أحد من الناس كائنا من كان ، ويهجرون فاعل ذلك ، وينكرون على من يضرب له الأمثال ، ولا يسوغون غير الانقياد له والتسليم والتلقى بالسمع والطاعة ، ولا يخطر بقلوبهم التوقف فى قبوله حتى يشهد له عمل أو قياس أو يوافق قول فلان وفلان ، بل كانوا عاملين بقوله :﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ [ الأحزاب:٣٦]، وبقوله تعالى: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)** ﴾ [ النساء ] ،وبقوله تعالى : ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن**

(١) الترمذى (٢٦٥) فى الصلاة ، باب : ما جاء فيمن لا يقيم صلبه فى الركوع والسجود وقال :«حسن صحيح »، والنسائى (١٠٢٧) فى الافتتاح ، باب : إقامة الصلب فى الركوع ، وابن ماجة (٨٧٠) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : الركوع فى الصلاة .

(٢) أبو داود (٦٨٢) فى الصلاة ، باب :ما جاء الرجل يصلى وحده خلف الصف ،والترمذى (٢٣٠) فى الصلاة، باب : ما جاء فى الصلاة خلف الصف وحده ، وقال :« حسن »، وابن ماجه (١٠٠٣) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : صلاة الرجل خلف الصف وحده ، وفى الزوائد :« إسناده صحيح ، رجاله ثقات ، وأحمد (٤ /٢٣) .

(٣) مسلم (٦٥٣/ ٢٥٥) فى المسجد ومواضع الصلاة ، باب : يجب إتيان المسجد على من سمع النداء ، وأبو داود (٥٥٢) فى الصلاة ، باب: فى التشديد فى ترك الجماعة ، وابن ماجه (٧٩٢) فى المساجد والجماعات ، باب : التغليظ فى التخلف عن الجماعة .

(٤) أبو داود (٣٥٠٤) فى البيوع ، باب : فى الرجل يبيع ما ليس عنده ، والترمذى (١٢٣٤) فى البيوع ، باب : ما جاء فى كراهية بيع ما ليس عندك وقال :« حسن صحيح » ، والنسائى (٤٦٣٠) فى البيوع ، باب : شرطان فى بيع ، وأحمد (٢ / ١٧٥) .

رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [ الأعراف : ٣ ] ، وأمثالها ، فدفعنا إلى زمان إذا قيل لأحدهم : ثبت عن النبى ﷺ أنه قال كذا وكذا ،يقول:من قال هذا ؟ ويجعل هذا دفعا فى صدر الحديث أو يجعل جهله بالقائل به حجة له فى مخالفته وترك العمل به ، ولو نصح نفسه لعلم أن هذا الكلام من أعظم الباطل ،وأنه لا يحل له دفعه سنن رسول الله ﷺ بمثل هذا الجهل ، وأقبح من ذلك عذره فى جهله ؛ إذ يعتقد أن الإجماع منعقد على مخالفة تلك السنة ، وهذا سوء ظن بجماعة المسلمين ، إذ ينسبهم إلى اتفاقهم على مخالفة سنة رسول الله ﷺ، وأقبح من ذلك عذره فى دعوى هذا الإجماع ، وهو جهله وعدم علمه بمن قال بالحديث ، فعاد الأمر إلى تقديم جهله على السنة ، والله المستعان .

ولا يعرف إمام من أئمة الإسلام البتة قال : لا نعمل بحديث رسول الله ﷺ حتى نعرف من عمل به ، فإن جهل من بلغه الحديث من عمل به لم يحل له أن يعمل به كما يقوله هذا القائل .

## لا يجوز إخراج النص عن ظاهره

**الفائدة الرابعة والخمسون** : إذا سئل عن تفسير آية من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ فليس له أن يخرجها عن ظاهرها بوجوه التأويلات الفاسدة لموافقة نحلته وهواه ، ومن فعل ذلك استحق المنع من الإفتاء والحجر عليه ، وهذا الذى ذكرناه هو الذى صرح به أئمة الإسلام قديما وحديثا .

قال أبو حاتم الرازى : حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال : قال لى محمد بن إدريس الشافعى : الأصل قرآن أو سنة ، فإن لم يكن فقياس عليهما ، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله ﷺ وصح الإسناد به فهو المنتهى ، والإجماع أكبر من الخبر الفرد ، والحديث على ظاهره ،وإذا احتمل المعانى فما أشبه منها ظاهره أولاها به ،فإذا تكافأت الأحاديث فأصحها إسنادا أولاها ، وليس المنقطع بشىء ، ما عدا منقطع سعيد بن المسيب ، ولا يقاس أصل على أصل ولا يقال لأصل : لم ؟ وكيف ؟ وإنما يقال للفرع : لم ؟ فإذا صح قياسه على الأصل صح وقامت به الحجة . رواه الأصم عن ابن أبى حاتم .

وقال أبو المعالى الجوينى فى الرسالة النظامية ، فى الأركان الإسلامية : ذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل ، وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب تعالى ، والذى نرتضيه رأيا وندين الله به عقد اتباع سلف الأمة ؛ فالأولى :الاتباع ،

وترك الابتداع ، والدليل السمعى القاطع فى ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة ، وهو مستند معظم الشريعة ، ،قد درج صحب الرسول ﷺ ، ورضى عنهم على ترك التعرض لمعانيها ، ودرك ما فيها ، وهم صفوة الإسلام ، والمستقلون بأعباء الشريعة ، وكانوا لا يألون جهدا فى ضبط قواعد الملة والتواصى بحفظها ، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها ، ولو كان تأويل هذه الظواهر مسوغا أو محتوما لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة ،وإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين لهم على الإضراب عن التأويل ، كان ذلك قاطعا بأنه الوجه المتبع ؛ فحق على ذى الدين أن يعتقد تنزيه البارى عن صفات المحدثين ، ولا يخوض فى تأويل المشكلات ، ويكل معناها إلى الرب تعالى . وعند إمام القراء وسيدهم الوقوف على قوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهِ** ﴾ ومن العزائم ثم الابتداء بقوله: ﴿**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِه** ﴾ [ آل عمران : ٧ ] .

ومما استحسن من كلام مالك أنه سئل عن قوله تعالى :﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾ [طه:٥ ] ، كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب،والسؤال عنه بدعة ،فلتجر آية الاستواء والمجىء ،وقوله :﴿ **لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾ [ص: ٧٥ ] ، وقوله :﴿ **وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ** ﴾ [ الرحمن: ٢٧ ] ،وقوله:﴿ **تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا** ﴾ [ القمر: ١٤] ، وما صح من أخبار الرسول كخبر النزول (١) وغيره على ما ذكرنا . انتهى كلامه .

وقال أبو حامد الغزالى : الصواب للخلف سلوك مسلك السلف فى الإيمان المرسل والتصديق المجمل ، وما قاله الله ورسوله ، بلا بحث وتفتيش .

وقال فى كتاب التفرقة : الحق : الاتباع والكف عن تغيير الظاهر رأسا ، والحذر عن اتباع تأويلات لم يصرح بها الصحابة ، وحسم باب السؤال رأسا ، والزجر عن الخوض فى الكلام والبحث .

إلى أن قال : ومن الناس من يبادر إلى التأويل ظنا لا قطعا ، فإن كان فتح هذا الباب والتصريح به يؤدى إلى تشويش قلوب العوام بدع صاحبه ،وكل ما لم يؤثر عن السلف ذكره وما يتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة فيجب تكفير من يغير الظواهر بغير برهان قاطع .

---

(١) البخارى (٧٤٩٤) فى التوحيد ، باب : قول الله تعالى:﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ** ﴾ [ الفتح : ١٥ ] ، ومسلم (٧٥٨ / ١٦٨) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب:الترغيب فى الدعاء والذكر فى آخر الليل والإجابة فيه ، وأبو داود (١٣١٥) فى الصلاة ، باب :أى الليل أفضل ؟ ، والترمذى (٤٤٦) فى الصلاة ، باب: ما جاء فى نزول الرب عز وجل إلى السماء الدنيا كل ليلة

وقال أيضا : كل ما يحتمل التأويل فى نفسه ، وتواتر نقله ، ولم يتصور أن يقوم على خلافه برهان ، فمخالفته تكذيب محض ، وما تطرق إليه احتمال تأويل ولو بمجاز بعيد ، فإن كان برهانه قاطعا وجب القول به ، وإن كان البرهان يفيد ظنا غالبا ، ولا يعظم ضرره فى الدين فهو بدعة ، وإن عظم ضرره فى الدين فهو كفر .

قال : ولم تجر عادة السلف بهذه المجادلات ، بل شددوا القول على من يخوض فى الكلام ، ويشتغل بالبحث والسؤال .

وقال أيضا : الإيمان المستفاد من الكلام ضعيف ، والإيمان الراسخ إيمان العوام الحاصل فى قلوبهم فى الصبا بتواتر السماع ، وبعد البلوغ بقرائن يتعذر التعبير عنها .

قال : وقال شيخنا أبو المعالى : يحرص الإمام ما أمكنه على جمع عامة الخلق على سلوك سبيل السلف فى ذلك . انتهى .

وقال بعض أهل العلم : كيف لا يخشى الكذب على الله ورسوله من يحمل كلامه على التأويلات المستنكرة والمجازات المستكرهة التى هى بالألغاز والأحاجى أولى منها بالبيان والهداية ؟ وهل يأمن على نفسه أن يكون ممن قال الله فيهم : **﴿ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾** [الأنبياء : ١٨ ] قال الحسن : هى والله لكل واصف كذبا إلى يوم القيامة ، وهل يأمن أن يتناوله قوله تعالى : **﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾** [ الأعراف : ١٥٢ ] قال ابن عيينة : هى لكل مفتر من هذه الأمة إلى يوم القيامة ، وقد نزه ـ سبحانه ـ نفسه عن كل ما يصفه به خلقه إلا المرسلين فإنهم إنما يصفونه بما أذن لهم أن يصفوه به ؛ فقال تعالى : **﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾** [ الصفات ] ، وقال تعالى : **﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾** [ الصافات ] .

ويكفى المتأولين كلام الله ورسوله بالتأويلات التى لم يردها ولم يدل عليها كلام الله أنهم قالوا برأيهم على الله ، وقدموا آراءهم على نصوص الوحى ، وجعلوها عيارا على كلام الله ورسوله ، ولو علموا أى باب شر فتحوا على الأمة بالتأويلات الفاسدة ، وأى بناء للإسلام هدموا بها ، وأى معاقل وحصون استباحوها لكان أحدهم أن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتعاطى شيئا من ذلك ، فكل صاحب باطل قد جعل ما تأوله المتأولون عذرا له فيما تأوله هو ، وقال : ما الذى حرم على التأويل وأباحه لكم ؟ فتأولت الطائفة المنكرة للمعاد نصوص المعاد ، وكان تأويلهم من جنس تأويل منكرى الصفات ، بل أقوى منه لوجوه عديدة يعرفها من وازن بين التأويلين ، وقالوا : كيف نحن نعاقب على

تأويلنا ، وتؤجرون أنتم على تأويلكم ؟

قالوا : ونصوص الوحى بالصفات أظهر وأكثر من نصوصه بالمعاد ، ودلالة النصوص عليها أبين فكيف يسوغ تأويلها بما يخالف ظاهرها ولا يسوغ لنا تأويل نصوص المعاد ؟ وكذلك فعلت الرافضة فى أحاديث فضائل الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم ، وكذلك فعلت المعتزلة فى تأويل أحاديث الرؤية والشفاعة ، وكذلك القدرية فى نصوص القدر ، وكذلك الحرورية وغيرهم من الخوارج فى النصوص التى تخالف مذاهبهم ، وكذلك القرامطة والباطنية طردت الباب ، وطمت الوادى على القرى (١) ، وتأولت الدين كله ، فأصل خراب الدين والدنيا إنما هو من التأويل الذى لم يرده الله ورسوله بكلامه ولا دل عليه أنه مراده ، وهل اختلفت الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل ؟ وهل وقعت فى الأمه فتنة كبيرة أو صغيرة إلا بالتأويل ؟ فمن بابه دخل إليها ، وهل أريقت دماء المسلمين فى الفتن إلا بالتأويل ؟(٢) .

## لا يجوز العمل بمجرد فتوى المفتى

**الفائدة السادسة والخمسون** : لا يجوز العمل بمجرد فتوى المفتى إذا لم تطمئن نفسه ، وحاك فى صدره من قبوله ، وتردد فيها ، لقوله ﷺ :« استفت نفسك وإن أفتاك الناس وأفتوك » (٣) . فيجب عليه أن يستفتى نفسه أولا ، ولا تخلصه فتوى المفتى من الله إذا كان يعلم أن الأمر فى الباطن بخلاف ما أفتاه،كما لا ينفعه قضاء القاضى له بذلك ،كما قال النبى ﷺ :« من قضيت له بشىء من حق أخيه فلا يأخذه،فإنما أقطع له قطعة من نار»(٤) .

والمفتى والقاضى فى هذا سواء ، ولا يظن المستفتى أن مجرد فتوى الفقيه تبيح له ما سأل عنه إذا كان يعلم أن الأمر بخلافه فى الباطن . سواء تردد أو حاك فى صدره ، لعلمه بالحال فى الباطن ، أو لشكه فيه ، أو لجهله به ، أو لعلمه جهل المفتى أو محاباته فى فتواه أو عدم تقييده بالكتاب والسنة أو لأنه معروف بالفتوى بالحيل والرخص المخالفة للسنة وغير ذلك من الأسباب المانعة من الثقة بفتواه وسكون النفس إليها ؛ فإن كان عدم الثقة

(١) طم الماء: غمر ، وطم الإناء :ملأه ، والقرى كغنى :مسيل الماء من التلاع أو موقعه من الربو إلى الروضة .
(٢) إعلام الموقعين (٤ / ٢٦٠ ـ ٣١٧) .
(٣) سبق تخريجه ص ٨٤ .
(٤) مسلم (١٧١٣ / ٤) فى الأقضية ، باب : الحكم بالظاهر واللحن بالحجة ، وأبو داود (٣٥٨٣) فى الأقضية ، باب : فى قضاء القاضى إذا أخطأ ، ومالك ٢ / ٧١٩ (١) فى الأقضية ، باب : الترغيب فى القضاء بالحق .

والطمأنينة لأجل المفتى يسأل ثانيا وثالثا حتى تحصل له الطمأنينة ؛ فإن لم يجد فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، والواجب تقوى الله بحسب الاستطاعة .

فإن كان فى البلد مفتيان أحدهما أعلم من الآخر ، فهل يجوز استفتاء المفضول مع وجود الفاضل ؟ فيه قولان للفقهاء ، وهما وجهان لأصحاب الشافعى وأحمد ؛ فمن جوز ذلك رأى أنه يقبل قوله إذا كان وحده ، فوجود من هو أفضل منه لا يمنع من قبول قوله كالشاهد ، ومن منع استفتاءه قال : المقصود حصول ما يغلب على الظن الإصابة ، وغلبة الظن بفتوى الأعلم أقوى فيتعين ، والحق التفصيل بأن المفضول إن ترجح بديانة أو ورع أو تحر للصواب ، وعدم ذلك الفاضل ، فاستفتاء المفضول جائز إن لم يتعين ، وإن استويا ، فاستفتاء الأعلم أولى ، والله أعلم .

## للمفتى إقامة ترجمان

**الفائدة السابعة والخمسون** : إذا لم يعرف المفتى لسان السائل ، أو لم يعرف المستفتى لسان المفتى ، أجزأ ترجمة واحد بينهما ؛ لأنه خبر محض فيكتفى فيه بواحد كأخبار الديانات والطب ، وطرد هذا الاكتفاء بترجمة الواحد فى الجرح والتعديل ، والرسالة ، والدعوى ، والإقرار ، والإنكار بين يدى الحاكم ، والتعريف ،فى إحدى الروايتين ، وهى مذهب أبى حنيفة ، واختارها أبو بكر إجراء لها مجرى الخبر ، والرواية الثانية لا يقبل فى هذه المواضع أقل من اثنين ، إجراء لها مجرى الشهادة ، وسلوكا بها سبيلها ؛ لأنها تثبت الإقرار عند الحاكم ، وتثبت عدالة الشهود وجرحهم ، فافتقرت إلى العدد ، كما لو شهد على إقراره شاهد واحد ؛ فإنه لا يكتفى به ، وهذا بخلاف ترجمة الفتوى والسؤال ؛ فإنه خبر محض ، فافترقا .

## موقف المفتى من سؤال يحتمل عدة صور

**الفائدة الثامنة والخمسون** : إذا كان السؤال محتملا لصور عديدة ؛ فإن لم يعلم المفتى الصورة المسؤول عنها لم يجب عن صورة واحده منها ، وإن علم الصورة المسؤول عنها فله أن يخصها بالجواب ، ولكن يقيد لئلا يتوهم أن الجواب عن غيرها فيقول : إن كان الأمر كيت وكيت ، أو كان المسؤول عنه كذا وكذا ؛ فالجواب كذا وكذا ، وله أن يفرد كل صورة بجواب ؛فيفصل الأقسام المحتملة ،ويذكر حكم كل قسم ،ومنع بعضهم من ذلك لوجهين:

**أحدهما** : أنه ذريعة إلى تعليم الحيل ، وفتح باب لدخول المستفتى وخروجه من حيث شاء.

**الثاني**: أنه سبب لازدحام أحكام تلك الأقسام على فهم العامىٍّ فيضيع مقصوده .

والحق التفصيل ؛ فيكره حيث استلزم ذلك ولا يكره ـ بل يستحب ـ إذا كان فيه زيادة إيضاح وبيان وإزالة لبس ، وقد فصل النبى ﷺ فى كثير من أجوبته بقوله : إن كان كذا فالأمر كذا ، كقوله فى الذى وقع على جارية امرأته ، إن كان استكرهها فهى حرة ، وعليه لسيدتها مثلها،وإن كانت مطاوعة فهى له،وعليه لسيدتها مثلها (١)،وهذا كثير فى فتاويه ﷺ.

## يجب على المفتى الاحتراز مما يفسد جوابه

**الفائدة التاسعة والخمسون** : وهى مما ينبغى التفطن له : إن رأى المفتى خلال السطور بياضًا يحتمل أن يُلحق به ما يفسد الجواب فليحترز منه ، فربما دخل من ذلك عليه مكروه ، فإما أن يأمر بكتابة غير الورقة ، وإما أن يخط على البياض أو يشغله ، كما يحترز منه كتاب الوثائق ، والمكاتيب .

وبالجملة فليكن حذرًا فطنًا ، ولا يحسن ظنه بكل أحد ، وهذا الذى حمل بعض المفتين على أنه كان يقيد السؤال عنده فى ورقة ثم يجيب فى ورقة السائل ، ومنهم من كان يكتب السؤال فى ورقة من عنده ثم يكتب الجواب ، وليس شىء من ذلك بلازم ، والاعتماد على قرائن الأحوال ومعرفة الواقع والعادة .

## ينبغى للمفتى مشاورة من وثق بعلمه ودينه

**الفائدة الستون** : إن كان عنده من يثق بعلمه ودينه فينبغى له أن يشاوره ، ولا يستقل بالجواب ، ذهابًا بنفسه وارتفاعًا بها ، أن يستعين على الفتاوى بغيره من أهل العلم ،و هذا من الجهل ، فقد أثنى الله ـ سبحانه ـ على المؤمنين بأن أمرهم شورى بينهم ، وقال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ [ آل عمران : ١٥٩] ، وقد كات المسألة تنزل بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فيستشير لها من حضر من الصحابة ، وربما جمعهم وشاورهم ، حتى كان يشاور ابن عباس رضي الله عنهما وهو إذ ذاك أحدث القوم سنًا ، وكان يشاور عليًا ـ كرم الله وجهه ـ وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ ولا سيما إذا قصد بذلك تمرين أصحابه وتعليمهم ، وشحذ أذهانهم .

---

(١) سبق تخريجه ص ٧٠ .

قال البخارى فى صحيحه : باب إلقاء العالم المسألة على أصحابه ، وأولى ما ألقى عليهم المسألة سئل عنها ، هذا ما لم يعارض ذلك مفسدة من إفشاء سر السائل أو تعريضه للأذى ، أو مفسدة لبعض الحاضرين ، فلا ينبغى له أن يرتكب ذلك ، وكذلك الحكم فى عابر الرؤيا ، فالمفتى والمعبر والطبيب يطَّلعون من أسرار الناس وعوراتهم على ما لا يطلع غيرهم ؛ فعليهم استعمال الستر فيما لا يحسن إظهاره .

## إكثار التوسل بحديث الاستخارة والدعاء عند الهم بالفتوى

**الفائدة الحادية والستون:** حقيق بالمفتى أن يكثر الدعاء بالحديث الصحيح « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » (١) .

وكان شيخنا كثير الدعاء بذلك ، وكان إذا أشكلت عليه المسائل يقول يا مُعَلم إبراهيم، علِّمنى ، ويكثر الاستعانة بذلك اقتداء بمعاذ بن جبل رضي الله عنه قال لمالك بن يخامر السكْسكىِّ عند موته ، وقد رآه يبكى ، فقال :والله ما أبكى على دنيا كنتُ أصيبها منك ، ولكن أبكى على العلم والإيمان اللذين كنت أتعلمهما منك ، فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه :إن العلم والإيمان مكانهما ، من ابتغاهما وجدهما ، اطلب العلم عند أربعة : عند عويمر أبى الدرداء، وعند عبد الله بن مسعود ، وأبى موسى الأشعرى ، وذكر الرابع ، فإن عجز عنه هؤلاء فسائر أهل الأرض عنه أعجز ، فعليك بمعلِّم إبراهيم ـ صلوات الله عليه .

وكان بعض السلف يقول عند الإفتاء : سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

وكان مكحول يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وكان مالك يقول : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وكان بعضهم يقول : ﴿ **رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨)** ﴾ [ طه ] ،وكان بعضهم يقول: اللهم

(١) مسلم (٧٧٠ / ٢٠٠ ) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ، وأبو داود (٧٦٧) فى الصلاة، باب : ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ، والترمذى (٣٤٢٠) فى الدعوات ، باب : ما جاء فى الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل ، والنسائى (١٦٢٥) فى قيام الليل وتطوع النهار ، باب : بأى شىء تستفتح صلاة الليل،وابن ماجه (١٣٥٧) فى إقامة الصلاة والسنة فيها،باب: فى الدعاء إذا قام الرجل من الليل .

وفقنى واهدنى وسدِّدْنى،واجمع لى بين الصواب والثواب ، وأعِذنى من الخطأ والحرمان .
وكان بعضهم يقرأ الفاتحة وجربنا نحن ذلك فرأيناه من أقوى أسباب الإصابة .

والمعوَّل فى ذلك كله على حسن النية،وخلوص القصد ،وصدق التوجه فى الاستمداد من المعلم الأول معلم الرسل والأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ فإنه لا يرد من صدق فى التوجه إليه لتبيلغ دينه وإرشاد عبيده ونصيحتهم والتخلص من القول عليه بلا علم ، فإذا صدقت نيته ورغبته فى ذلك لم يعدم أجرًا إن فاته أجران ، والله المستعان .

وسئل الإمام أحمد ،فقيل له : ربما اشتد علينا الأمر من جهتك ، فلمن نسأل بعدك ؟ فقال : سلوا عبد الوهاب الوراق ، فإنه أهل أن يوفق للصواب .

واقتدى الإمام أحمد بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون ؛ فإنهم تجلى لهم أمور صادقة ، وذلك لقرب قلوبهم من الله ،وكلما قرب من الله زالت عليه معارضات السوء ،وكان نور كشفه للحق أتم وأقوى ، وكلما بعد عن الله كثرت عليه المعارضات ، وضعف نور كشفه للصواب ؛ فإن العلم نور يقذفه الله فى القلب ، يفرق به العبد بين الخطأ والصواب .

وقال مالك للشافعى رضي الله عنهما فى أول ما لقيه : إنى أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا ، فلا تطفئه بظلمة المعصية ، وقد قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا** ﴾ [ الأنفال : ٢٩ ] ،ومن الفرقان النور الذى يفرق به العبد بين الحق والباطل ، وكلما كان قلبه أقرب إلى الله كان فرقانه أتم ، وبالله التوفيق .

## لا يجوز الإمساك عن الفتوى التى تخالف غرض السائل

**الفائدة الثانية الستون:** قد تكرر لكثير من أهل الإفتاء الإمساك عما يفتون به مما يعلمون أنه الحق إذا خالف غرض السائل ولم يوافقه ، وكثير منهم يسأله عن غرضه ، فإن صادفه عنده كتب له ، وإلا دله على مفت أو مذهب يكون غرضه عنده ، وهذا غير جائز على الإطلاق ، بل لابد فيه من تفصيل ، فإن كان المسؤول عنه من مسائل العلم والسنة أو من المسائل العلميات التى فيها نص عن رسول الله ﷺ لم يسع المفتى تركه إلى غرض السائل ، بل لا يسعه توقفه فى الإفتاء به على غرض السائل ، بل ذلك إثـم عظـيم ، وكيف يسعه من الله أن يُقدِّم غرض السائل على الله ورسوله .

وإن كانت المسألة من المسائل الاجتهادية التى يتجاذب أعنتها الأقوال والأقيسة ، فإن لم

يترجح له قول منها لم يسع له أن يترجح لغرض السائل ، وإن ترجح له قول منها وظن أنه الحق فأولى بذلك ؛ فإن السائل إنما يسأل عما يلزمه فى الحكم ويسعه عند الله ، فإن عرفه المفتى أفتاه به ، سواء وافق غرضه أو خالفه ، ولا يسعه ذلك أيضًا إذا علم أن السائل يدور على من يفتيه بغرضه فى تلك المسألة ، فيجعل استفتاءه تنفيذًا لغرضه ، لا تعبدًا لله بأداء حقه ، ولا يسعه أن يدله على غرضه أين كان ، بل ولا يجب عليه أن يفتى هذا الضرب من الناس ؛ فإنهم لا يستفتون ديانة ، وإنما يستفتون توصلا إلى حصول أغراضهم بأى طريق اتفق ، فلا يجب على المفتى مساعدتهم ؛ فإنهم لا يريدون الحق ، بل يريدون أغراضهم بأى طريق وافق ، ولهذا إذا وجدوا أغراضهم فى أى مذهب اتفق اتبعوه فى ذلك الموضع وتمذهبوا به ، كما يفعله أرباب الخصومات بالدعاوى عند الحكام ، ولا يقصد أحدهم حاكمًا بعينه ، بل أى حاكم نفذ غرضه عنده صار إليه .

وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ مرة : أنا مخير بين إفتاء هؤلاء وتركهم ؛ فإنهم لا يستفتون للدين ، بل لوصولهم إلى أغراضهم حيث كانت ،ولو وجدوها عند غيرى لم يجيؤوا إلى، بخلاف من يسأل عن دينه ، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ فى حق من جاءه يتحاكم إليه لأجل غرضه لا لالتزامه لنبيه ﷺ من أهل الكتاب : ﴿ **فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا** ﴾ [ المائدة : ٤٢ ] ،فهؤلاء لما لم يلتزموا دينه لم يلزمه الحكم بينهم ، والله تعالى أعلم .

## على المفتى ذكر الفتوى مع دليلها

**الفائدة الثالثة والستون:** عاب بعض الناس ذكر الاستدلال فى الفتوى ؛ وهذا العيب أولى بالعيب بل جمال الفتوى وروحها هو الدليل فكيف يكون ذكر كلام الله ورسوله وإجماع المسلمين وأقوال الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ والقياس الصحيح عيبًا ؟ وهل ذكر قول الله ورسوله إلا طراز الفتاوى ؟ وقول المفتى ليس بموجب للأخذ به ، فإذا ذكر الدليل فقد حرم على المستفتى أن يخالفه ، وبرئ هو من عهدة الفتوى بلا علم .

وقد كان رسول الله ﷺ يسأل عن المسألة فيضرب لها الأمثال ويشبهها بنظائرها ، هذا وقوله وحده حجة ، فما الظن بمن ليس قوله بحجة ولا يجب الأخذ به ؟ وأحسن أحواله وأعلاها أن يسوغ له قبول قوله ، وهيهات أن يسوغ بلا حجة ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سئل أحدهم عن مسألة أفتى بالحجة نفسها ، فيقول : قال الله كذا ، وقال

رسول الله ﷺ كذا ، أو فعل كذا ، فيشفى السائل ، ويبلغ القائل ، وهذا كثير جدًا فى فتاويهم لمن تأملها ، ثم جاء التابعون والأئمة بعدهم فكان أحدهم يذكر الحكم ثم يستدل عليه ، وعلمه يأبى أن يتكلم بلا حجة ، والسائل يأبى قبول قوله بلا دليل .

ثم طال الأمد ، وبعد العهد بالعلم ، وتقاصرت الهمم إلى أن صار بعضهم يجيب بنعم أو لا فقط،ولا يذكر للجواب دليلا ولا مأخذًا ، ويعترف بقصوره وفضل من يفتى بالدليل، ثم نزلنا درجة أخرى إلى أن وصلت الفتوى إلى عيب من يفتى بالدليل وذمه ، ولعله أن يحدث للناس طبقة أخرى لا يدرى ما حالهم فى الفتوى ، والله المستعان .

## هل يجوز للمفتى تقليد الميت ؟

**الفائدة الرابعة الستون:** هل يجوز للمفتى تقليد الميت إذا علم عدالته ، وأنه مات عليها من غير أن يسأل الحى ؟ فيه وجهان لأصحاب أحمد والشافعى ، أصحهما له ذلك ؛ فإن المذاهب لا تبطل بموت أصحابها ، ولو بطلت بموتهم لبطل ما بأيدى الناس من الفقه عن أئمتهم ،ولم يسغ لهم تقليدهم والعمل بأقولهم ، وأيضًا لو بطلت أقوالهم بموتهم لم يعتد بهم فى الإجماع والنزاع ، ولهذا لو شهد الشاهدان ثم ماتا بعد الأداء وقبل الحكم بشهادتهما لم تبطل شهادتهما ، وكذلك الراوى لا تبطل روايته بموته و فكذلك المفتى لا تبطل فتواه بموته ، ومن قال تبطل فتواه بموته قال : أهليته زالت بموته ،ولو عاش لوجب عليه تجديد الاجتهاد ؛ ولأنه قد يتغير اجتهاده ، وممن حكى الوجهين فى المفتى أبو الخطاب فقال : إن مات المفتى قبل عمل المستفتى فله العمل بها ، وقيل : لا يعمل بها ، والله أعلم .

## هل يستفتى فى الوقعات المتكررة

**الفائدة الخامسة والستون:** إذا استفتاه عن حكم حادثة فأفتاه وعمل بقوله ثم وقعت له مرة ثانية ، فهل له أن يعمل بتلك الفتوى الأولى أم يلزمه الاستفتاء مرة ثانية ؟ فيه وجهان لأصحاب أحمد والشافعى ، فمن لم يلزمه بذلك قال : الأصل بقاء ما كان على ما كان ؛ فله أن يعمل بالفتوى وإن أمكن تغير اجتهاده ؛ كما أن له أن يعمل بها مدة من وقت الإفتاء؛ وإن جاز تغير اجتهاده. ومن منعه من ذلك قال : ليس على ثقة من بقاء المفتى على اجتهاده الأول ، فلعله أن يرجع عنه فيكون المستفتى قد عمل بما هو خطأ عند من استفتاه ،

ولهذا رجح بعضهم العمل بقول الميت على قول الحى ، واحتجوا بقول ابن مسعود : من كان منكم مُستنًا فليستَنَّ بمن قد مات ، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة .

## هل يلزم المستفتى البحث عن الأعلم ؟

**الفائدة السادسة والستون**: هل يلزم المستفتى أن يجتهد فى أعيان المفتين ويسأل الأعلم والأدين أم لا يلزمه ذلك ؟ فيه مذهبان والصحيح أنه يلزمه ؛ لأنه المستطاع من تقوى الله تعالى المأمور بها كل أحد .

## الحكم إذا أفتاه مفتيان

**الفائدة السابعة والستون**: فإن اختلفت عليه مفتيان فأكثر ، فهل يأخذ بأغلظ الأقوال ، أو بأخفها ، أو يتخير ، أو يأخذ بقول الأعلم أو الأورع ، أو يعدل إلى مفت آخر ، فينظر من يوافق من الأولين فيعمل بالفتوى التى يوقع عليها،أو يجب عليه أن يتحرى ويبحث عن الراجح بحسبه ؟ فيه سبعة مذاهب أرجحها السابع ؛ فيعمل كما يعمل عند اختلاف الطريقين أو الطبيبين أو المشيرين وبالله التوفيق .

## هل فتوى المفتى موجبة ؟

**الفائدة الثامنة والستون**: إذا استفتى فأفتاه المفتى ، فهل تصير فتواه موجبة على المستفتى العمل بها بحيث يكون عاصيًا إن لم يعمل بها أو لا يوجب عليه العمل ؟ فيه أربعة أوجه لأصحابنا وغيرهم :

**أحدها** : أنه لا يلزمه العمل بها إلا أن يلتزمه هو .

**والثانى** : أنه يلزمه إذا شرع فى العمل ؛ فلا يجوز له حينئذ الترك .

**والثالث** : أنه إن وقع فى قلبه صحة فتواه وأنها حق لزمه العمل بها .

**والرابع** : أنه إذا لم يجد مفتيًا آخر لزمه الأخذ بفتياه ؛ فإن فرضه التقليد وتقوى الله ما استطاع ، وهذا هو المستطاع فى حقه ، وهو غاية ما يقدر عليه ، وإن وجد مفتيًا آخر فإن وافق الأول فأبلغ فى لزوم العمل ، وإن خالفه فإن استبان له الحق فى إحدى الجهتين

لزمه العمل به ، وإن لم يستبن له الصواب فهل يتوقف ، أو يأخذ بالأحوط ، أو يتخير ، أو يأخذ بالأسهل ؟ فيه وجوه تقدمت (١) .

## يجوز العمل بالفتوى المكتوبة وإن لم يسمعها

**الفائدة التاسعة والستون**: يجوز له العمل بخط المفتى وإن لم يسمع الفتوى من لفظه إذا عرف أنه خطه أو أعلمه به من يسكن إلى قوله ، ويجوز له قبول قول الرسول : إن هذا خطه وإن كان عبدًا أو امرأة أو صبياً أو فاسقًا ، كما يقبل قوله فى الهدية والإذن فى دخول الدار اعتماداً على القرائن والعرف ، وكذا يجوز اعتماد الرجل على ما يجده من كتابة الوقف على كتاب أو رباط ، أو خان أو نحوه فيدخله وينتفع به .

وكذلك يجوز له الاعتماد على ما يجده بخط أبيه فى برنامجه أن له على فلان كذا وكذا ، فيحلف على الاستحقاق ، وكذا يجوز للمرأة الاعتماد على خط الزوج أنه أبانها فلها أن تتزوج بناء على الخط ، وكذا الوصى والوارث يعتمد على خط الموصى فينفذ ما فيه وإن لم يشهد شاهدان .

وكذا إذا كتب الراوى إلى غيره حديثًا جاز له أن يعتمد عليه ويعمل به ، ويرويه بناء على الخط إذا تيقن ذلك كله ، هذا عمل الأمة قديمًا وحديثًا من عهد نبينا ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وإلى الآن ، وإن أنكره من أنكره .

ومن العجب أن من أنكر ذلك وبالغ فى إنكاره ، ليس معه فيما يفتى به إلا مجرد كتاب قيل : إنه كتاب فلان ، فهو يقضى به ويفتى ويحل ويحرم ، ويقول : هكذا فى الكتاب ، والله الموفق .

وقد كان رسول الله ﷺ يرسل كتبه إلى الملوك وإلى الأمم يدعوهم إلى الإسلام ، فتقوم عليهم الحجة بكتابه ، وهذا أظهر من أن ينكر ، وبالله التوفيق .

## إذا حدثت حادثة لم يفت فيها أحد

**الفائدة السبعون**: إذا حدثتْ حادثة ليس فيها قول لأحد من العلماء ، فهل يجوز الاجتهاد فيها بالإفتاء والحكم أم لا ؟ فيه ثلاثة أوجه :

---

(١) راجع الفائدة السادسة والعشرين .

**أحدها** : يجوز ، وعليه تدل فتاوى الأئمة وأجوبتهم ؛ فإنهم كانوا يسألون عن حوادث لم تقع قبلهم فيجتهدون فيها ، وقد قال النبى ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر » (١) ،وهذا يعم ما اجتهد فيه مما لم يعرف فيه قول من قبله وما عرف فيه أقوالا واجتهد فى الصواب منها ، وعلى هذا درج السلف والخلف ، والحاجة داعية إلى ذلك لكثرة الوقائع واختلاف الحوادث ، ومن له مباشرة لفتاوى الناس يعلم أن المنقول وإن اتسع غاية الاتساع فإنه لا يفى بوقائع العالم جميعا ، وأنت إذا تأملت الوقائع رأيت مسائل كثيرة واقعة وهى غير منقولة ، ولا يعرف فيها كلام لأئمة المذاهب ولا لأتباعهم .

**والثانى** : لا يجوز له الإفتاء ولا الحكم ، بل يتوقف حتى يظفر فيها بقائل .قال الإمام أحمد لبعض أصحابه : إياك أن تتكلم فى مسألة ليس لك فيها إمام .

**والثالث** : يجوز ذلك فى مسائل الفروع ، لتعلقها بالعمل ، وشدة الحاجة إليها وسهولة خطرها ، ولا يجوز فى مسائل الأصول .

والحق : التفصيل ، وأن ذلك يجوز ، بل يستحب أو يجب ، عند الحاجة وأهلية المفتى والحاكم ، فإن عدم الأمران لم يجز ، وإن وجد أحدهما دون الآخر احتمل الجواز ، والمنع ، والتفصيل ، فيجوز للحاجة دون عدمها ، والله أعلم (٢) .

## فصل
## من صفات المفتى

لما كان التبليغ عن الله ـ سبحانه ـ يعتمد العلم بما يبلغ ، والصدق فيه لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفتيا إلا لمن اتصف بالعلم والصدق ، فيكون عالما بما يبلغ ،صادقا فيه ، ويكون مع ذلك حسن الطريقة مرضى السيرة ، عدلا فى أقواله وأفعاله ، متشابه السر والعلانية فى مدخله ومخرجه وأحواله .

وإذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحل الذى لا ينكر فضله ولا يجهل قدره ، وهو من أعلى المراتب السنيات ، فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسموات ، فحقيق بمن

(١) البخارى (٧٣٥٢) فى الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب : أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ، ومسلم (١٧١٦ / ١٥) فى الأقضية ، باب : بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ .

(٢) إعلام الموقعين (٤ / ٣٢٢ ـ ٣٣٦) .

أقيم فى هذا المنصب أن يعد له عدته . وأن يتأهب له أهبته ، وأن يعلم قدر المقام الذى أقيم فيه ، ولا يكون فى صدره حرج من قول الحق والصدع به ، فإن الله ناصره وهاديه . وكيف ،وهو المنصب الذى تولاه بنفسه رب الأرباب فقال تعالى : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ [ النساء : ١٢٧ ] ، وكفى بما تولاه الله بنفسه شرفا وجلالة ،إذ يقول فى كتابه: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ [ النساء : ١٧٦ ] ، وليعلم المفتى عمن ينوب فى فتواه ، وليوقن أنه مسؤول غدا ،وموقوف بين يدى الله (١) .

## فصول
## فى كلام الأئمة فى أدوات الفتيا وشروطها ومن ينبغى له أن يفتى وأين يسع قول المفتى : لا أدرى

قال الإمام أحمد فى رواية ابنه صالح عنه : ينبغى للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالما بوجوه القرآن ، عالما بالأسانيد الصحيحة ، عالما بالسنن ، وإنما جاء خلاف من خالف لقلة معرفتهم بما جاء عن النبى ﷺ ، وقلة معرفتهم بصحيحها من سقيمها . وقال فى رواية ابنه عبد الله : إذا كان عند الرجل الكتب المصنفة فيها قول رسول الله ﷺ واختلاف الصحابة والتابعين ، فلا يجوز أن يعمل بما شاء ،ويتخير فيقضى به ،ويعمل به ، حتى يسأل أهل العلم ما يؤخذ به ، فيكون يعمل على أمر صحيح . وقال فى رواية أبى الحارث : لا يجوز الإفتاء إلا لرجل عالم بالكتاب والسنة . وقال فى رواية حنبل : ينبغى لمن أفتى أن يكون عالما بقول من تقدم ، وإلا فلا يفتى .

وقال محمد بن عبد الله بن المنادى : سمعت رجلا يسأل أحمد : إذا حفظ الرجل مائة ألف حديث يكون فقيها ؟ قال : لا ، قال : فمائتى ألف ؟ قال : لا ، قال : فثلاثمائة ألف ؟ قال : لا ، قال : فأربعمائة ألف ؟ قال : بيده هكذا وحرك يده .

قال أبو الحسين : وسألت جدى محمد بن عبيد الله ، قلت : فكم كان يحفظ أحمد ابن حنبل ؟ قال : أخذ عن ستمائة ألف .

قال أبو حفص : قال لى أبو إسحاق : لما جلست فى جامع المنصور للفتيا ذكرت هذه المسألة ، فقال لى رجل : فأنت هو ذا لا تحفظ هذا المقدار حتى تفتى للناس ، فقلت له :

(١) إعلام الموقعين (١ / ١١) .

عافاك الله ، إن كنت لا أحفظ هذا المقدار ، فإنى هو ذا أفتى الناس بقول من كان يحفظ هذا المقدار وأكثر منه .

قال القاضى أبو يعلى : وظاهر هذا الكلام أنه لا يكون من أهل الاجتهاد إذا لم يحفظ من الحديث هذا القدر الكثير الذى ذكره ،وهذا محمول على الاحتياط والتغليظ فى الفتوى، ثم ذكر حكاية أبى إسحاق لما جلس فى جامع المنصور قال : وليس هذا الكلام من أبى إسحاق مما يقتضى أنه كان يقلد أحمد فيما يفتى به ، لأنه قد نص فى بعض تعاليقه على كتاب العلل على الدلالة على منع الفتوى بغير علم لقوله تعالى :﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْم** ﴾ [ الإسراء: ٣٦ ] .

قلت : هذه المسألة فيها ثلاثة أقوال لأصحاب أحمد :

**أحدها** :أنه لا يجوز الفتوى بالتقليد ؛ لأنه ليس بعلم ، والفتوى بغير علم حرام ، ولا خلاف بين الناس أن التقليد ليس بعلم ، وأن المقلد لا يطلق عليه اسم عالم ، وهذا قول أكثر الأصحاب وقول جمهور الشافعية .

**والثانى** : أن ذلك يجوز فيما يتعلق بنفسه ، فيجوز له أن يقلد غيره من العلماء إذا كانت الفتوى لنفسه ، ولا يجوز أن يقلد العالم فيما يفتى به غيره ، وهذا قول ابن بطة وغيره من أصحابنا . قال القاضى : ذكر ابن بطة فى مكاتباته إلى البرمكى : لا يجوز له أن يفتى بما يسمع من يفتى ، إنما يجوز أن يقلد لنفسه،فأما أن يتقلد لغيره ، ويفتى به ، فلا .

**والقول الثالث** : أنه يجوز ذلك عند الحاجة ، وعدم العالم المجتهد ، وهو أصح الأقوال ، وعليه العمل . قال القاضى : ذكر أبو حفص فى تعاليقه قال : سمعت أبا على الحسن بن عبد الله النجاد يقول : سمعت أبا الحسين بن بشر يقول : ما أعيب على رجل يحفظ عن أحمد خمس مسائل استند إلى بعض سوارى المسجد يفتى بها .

وقال الشافعى فيما رواه عنه الخطيب فى كتاب الفقيه والمتفقه له : لا يحل لأحد أن يفتى فى دين الله إلا رجلا عارفا بكتاب الله بناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، وتأويله وتنزيله ، ومكيه ومدنيه ، وما أريد به. ويكون بعد ذلك بصيرا بحديث رسول الله ﷺ وبالناسخ والمنسوخ ، ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن ، ويكون بصيرا باللغة ، بصيراً بالشعر ، وما يحتاج إليه للسنة والقرآن ، ويستعمل هذا مع الإنصاف ، ويكون بعد هذا مشرفا على اختلاف أهل الأمصار ، وتكون له قريحة بعد هذا ، فإذا كان هكذا ، فله أن يتكلم ويفتى فى الحلال والحرام ، وإذا لم يكن هكذا فليس له أن يفتى .

وقال صالح بن أحمد : قلت لأبى : ما تقول فى الرجل يسأل عن الشىء ، فيجيب بما

فى الحديث ، وليس بعالم فى الفقه ، فقال : ينبغى للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالما بالسنن ، عالما بوجوه القرآن ، عالما بالأسانيد الصحيحة ، وذكر الكلام المتقدم.

وقال على بن شقيق : قيل لابن المبارك : متى يفتى الرجل ؟ قال : إذا كان عالما بالأثر ، بصيرا بالرأى . وقيل ليحيى بن أكثم : متى يجب للرجل أن يفتى ؟ فقال : إذا كان بصيرا بالرأى بصيرا بالأثر .

قلت : يريدان بالرأى القياس الصحيح والمعانى ، والعلل الصحيحة التى علق الشارع بها الأحكام ، وجعلها مؤثرة فيها طردا وعكسا .

## فصل

## فى تحريم الإفتاء فى دين الله بالرأى المتضمن لمخالفة النصوص والرأى الذى لم تشهد له النصوص بالقبول

قال الله : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ﴾ [ القصص ] ،فقسم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما ، إما الاستجابة لله والرسول ، وما جاء به وإما اتباع الهوى ، فكل ما لم يأت به الرسول ،فهو من الهوى. وقال تعالى : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ ص: ٢٦ ] ،فقسم ـ سبحانه ـ طريق الحكم بين الناس إلى الحق ، وهو الوحى الذى أنزله الله على رسوله ، وإلى الهوى ، وهو ما خالفه .

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩)﴾ [الجاثية ] ،فقسم الأمر بين الشريعة التى جعله هو ـ سبحانه ـ عليها ،وأوحى إليه العمل بها ، وأمر الأمة بها ، وبين اتباع أهواء الذين لا يعلمون ، فأمر بالأول ، ونهى عن الثانى . وقال تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾ [ الأعراف ] ،فأمر باتباع المنزل منه خاصة .

واعلم أن من اتبع غيره فقد اتبع من دونه أولياء ، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** (٥٩) ﴾ [ النساء ] ،فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأعاد الفعل إعلاما بأن طاعة الرسول تجب استقلالا من غير عرض ما أمر به على الكتاب ، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقا سواء كان ما أمر به فى الكتاب أو لم يكن فيه ، فإنه أوتى الكتاب ومثله معه ولم يأمر بطاعة أولى الأمر استقلالا ، بل حذف الفعل، وجعل طاعتهم فى ضمن طاعة الرسول إيذانا بأنهم إنما يطاعون تبعا لطاعة الرسول ، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته ، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول ، فلا سمع له، ولا طاعة كما صح عنه ﷺ أنه قال:« ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » (١) وقال: «إنما الطاعة فى المعروف » (٢) ، وقال فى ولاة الأمور :« من أمركم منهم بمعصية الله ، فلا سمع له ولا طاعة » (٣) وقد أخبر ﷺ عن الذين أرادوا دخول النار لما أمرهم أميرهم بدخولها :« إنهم لو دخلوا لما خرجوا منها » (٤) مع أنهم إنما كانوا يدخلونها طاعة لأميرهم، وظنا أن ذلك واجب عليهم ، ولكن لما قصروا فى الاجتهار، وبادروا إلى طاعة من أمر بمعصية الله ، وحملوا عموم الأمر بالطاعة بما لم يرده الآمر ﷺ ، وما قد علم من دينه إرادة خلافه ، فقصروا فى الاجتهاد وأقدموا على تعذيب أنفسهم وإهلاكها من غير تثبيت وتبيين ، هل ذلك طاعة لله ورسوله أم لا ، فما الظن بمن أطاع غيره فى صريح مخالفة ما بعث الله به رسوله ؟ ثم أمر تعالى برد ما تنازع فيه المؤمنون إلى الله ورسوله إن كانوا مؤمنين ، وأخبرهم أن ذلك خير لهم فى العاجل وأحسن تأويلا فى العاقبة .

وفى صحيح البخارى من حديث أبى الأسود عن عروة بن الزبير قال:حج علينا عبد الله ابن عمرو بن العاص فسمعته يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله لا ينزع العلم بعد إذ أعطاكموه انتزاعًا ، ولكن ينزعه مع قبض العلماء بعلمهم ، فيبقى ناس جهال

---

(١) ابن أبى شيبة ١٢ / ٥٤٦ (١٥٥٦٤) ، وتاريخ بغداد ٣ / ١٤٥ .

(٢، ٤) البخارى (٧٢٥٧) فى أخبار الآحاد ، باب :ما جاء فى إجازة خبر الواحد الصدوق . . .إلخ ، ومسلم (١٨٤٠/ ٣٩) فى الإمارة ، باب : فى وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية وتحريمها فى المعصية ،وأبو داود (٢٦٢٥) فى الجهاد ، باب : فى الطاعة ، والنسائى (٤٢٠٥) فى البيعة ، باب : جزاء من أمر بمعصية فأطاع .

(٣) ابن ماجه (٢٨٦٣) فى الجهاد ، باب : لا طاعة فى معصية الله ، وابن أبى شيبة (١٢ / ٥٤٣) ، وابن عساكر (٧ / ٣٥٥) .

يُسْتفْتَوْن فيفتون برأيهم ، فيُضِلُون ويَضلُّون » (١) ، وقال وكيع : حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال ، قال رسول الله ﷺ : « لا ينزع الله العلم من صدور الرجال ، ولكن ينزع العلم بموت العلماء ، فإذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالا ، فقالوا بالرأى فضلوا وأضلوا » (٢) ، وفى الصحيحين من حديث عروة بن الزبير قال : قالت عائشة ، يابن أخى بلغنى أن عبد الله بن عمرو مارٌّ بنا إلى الحج فالقه ، فاسأله ، فإنه حمل عن النبى ﷺ علمًا كثيرًا ، قال : فلقيته ، فسألته عن أشياء يذكرها عن رسول الله ﷺ ، قال عروة : فكان فيما ذكر أن النبى ﷺ قال : « إن الله لا ينزع العلم من الناس انتزاعًا ، ولكن يقبض العلماء ، فيرفع العلم معهم ويبقى فى الناس رؤوس جهال ، يفتونهم بغير علم فيضلون ويَضلون » (٣) . وقال عروة : فلما حدثت عائشة بذلك أعظمت ذلك ، وأنكرته ، قال : أحدَّثك أنه سمع رسول الله يقول هذا ؟ قال عروة : نعم ، حتى إذا كان عام قابل ، قالت لى : إن ابن عمرو قد قدم ، فالقه ، ثم فاتحه حتى تسأله عن الحديث الذى ذكره لك فى العلم ، قال فلقيته ، فسألته ، فذكر لى نحو ما حدثنى به فى المرة الأولى ، قال عروة : فلما أخبرتها بذلك قالت : ما أحسبه إلا قد صدق أراه لم يزد فيه شيئا ولم ينقص (٤) .

## فصل
## فيما روى عن صدّيق الأمة وأعلمها من إنكار الرأى

روينا عن عبد بن حميد : حدثنا أبو أسامة عن نافع عن عمر الجمحى عن ابن أبى مليكة ، قال ، قال أبو بكر رضي الله عنه : أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى ، إن قلت فى آية من كتاب الله برأيى أو بما لا أعلم .

وذكر الحسن بن على الحلوانى ، حدثنا عارم عن حماد بن زيد عن سعيد بن أبى صدقة عن ابن سيرين قال : لم يكن أحد أهْيَبَ بما لا يعلم من أبى بكر رضي الله عنه ، ولم يكن أحد بعد أبى بكر أهيب بما لا يعلم من عمر رضي الله عنه ، وإن أبا بكر نزلت به قضية ، فلم يجد

(١) البخارى (٧٣٠٧) فى الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب : ما يذكر من ذم الرأى وتكلف القياس .
(٢) انظر : فتح البارى (١٣ / ٢٨٤ ، ٢٨٥) .
(٣) البخارى (١٠٠) فى العلم ، باب : كيف يقبض العلم ، ومسلم (٢٦٧٣ / ١٤) فى العلم ، باب : رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن فى آخر الزمان .
(٤) إعلام الموقعين (١ / ٤٦ ـ ٥١ ، ٥٥) .

فى كتاب الله منها أصلا ، ولا فى السنة أثرًا فاجتهد برأيه ، ثم قال : هذا رأيى ، فإن يكن صوابا ، فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ، وأستغفر الله .

## فصل
## فى المنقول من ذلك عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال ابن وهب : حدثنا يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال، وهو على المنبر : يا أيها الناس ، إن الرأى إنما كان من رسول الله ﷺ مصيبًا ، أن الله كان يُريه ، وإنما هو منا الظن والتكلف .

قلت : مراد عمر رضي الله عنه قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ** ﴾ [ النساء : ١٠٥ ] ، فلم يكن له رأى غير ما أراه الله إياه . وأما ما رأى غيره فظن وتكلف .

قال سفيان الثورى : ثنا أبو إسحاق الشيبانى ، عن أبى الضحى ، عن مسروق قال : كتب كاتب لعمر بن الخطاب: هذا ما رأى الله ، ورأى عمر ، فقال : بئس ما قلت ، قل : هذا ما رأى عمر، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمن عمر .

وقال ابن وهب : أخبرنى ابن لهيعة عن عبد الله بن أبى جعفر ، قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : السنة ما سنه الله ورسوله ﷺ لا تجعلوا خطأ الرأى سنة للأمة . قال ابن وهب : وأخبرنى ابن لهيعة عن أبى الزناد عن محمد بن إبراهيم التيمى : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : أصبح أهل الرأى أعداء السنن ، أعيتهم أن يعوها ، وتفلَّتَتْ منهم أن يرْوُوها فاستبقوها بالرأى .

قال ابن وهب : وأخبرنى عبد الله بن عباس عن محمد بن عجلان ، عن عبيد الله ابن عمر أن ابن الخطاب قال :اتقوا الرأى فى دينكم ، وذكر ابن عجلان عن صدقة بن أبى عبد الله أن عمر بن الخطاب كان يقول : أصحاب الرأى أعداء السنن ، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها ، وتفلَّتت منهم أن يعوها ، واستحيوا حين سُئلوا أن يقولوا : لا نعلم ، فعارضوا السنن برأيهم ، فإياكم وإياهم .

وذكر ابن الهادى عن محمد إبراهيم بن التيمى ، قال : قال عمر بن الخطاب : إياكم والرأى ، فإن أصحاب الرأى أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يعوها وتفلتت منهم أن

يحفظوها ، فقالوا فى الدين برأيهم .

وقال الشعبى ، عن عمرو بن حارث قال : قال عمر بن الخطاب ﷺ : إياكم وأصحاب الرأى ، فإنهم أعداء السنن ، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها ، فقالوا بالرأى ، فضلوا وأضلوا . وأسانيد هذه الآثار عن عمر فى غاية الصحة .

وقال محمد بن عبد السلام الخشنى : ثنا محمد بن بشار ، حدثنا يونس بن عبيد العمرى ، ثنا مبارك بن فضالة ، عن عبيد الله بن عمر عن نافع ، عن ابن عمر عن عمر ابن الخطاب أنه قال : أيها الناس ، اتهموا الرأى فى الدين ، فلقد رأيتنى وإنى لأرد أمر رسول الله ﷺ برأيى ، فأجتهد ولا آلو ، وذلك يوم أبى جندل، والكتاب يكتب ، وقال . « اكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم »، فقال : يكتب باسمك اللهم ، فرضى رسول الله ﷺ وأبيْتُ ، فقال : « يا عمر ترانى قد رضيت ، وتأبى » (١) .

وقال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا عبد الأعلى عن محمد بن إسحاق عن يزيد بن حبيب عن معمر بن أبى حبيبة مولى بنت صفوان ، عن عبيد بن رفاعة ، عن أبيه رفاعة بن رافع قال : بينما أنا عند عمر بن الخطاب ﷺ إذ دخل عليه رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا زيد بن ثابت يفتى الناس فى المسجد برأيه فى الغسل من الجنابة، فقال عمر : علىَّ به ، فجاء زيد فلما رآه عمر ، فقال عمر : أى عدوَّ نفسه ، قد بلغت أن تفتى الناس برأيك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، والله ما فعلت ، ولكن سمعت من أعمامى حديثًا فحدثت به من أبى أيوب ، ومن أبىّ بن كعب ، ومن رفاعة بن رافع ، فقال عمر : علىَّ برفاعة بن رافع ، فقال : قد كنتم تفعلون ذلك إذا أصاب أحدُكم المرأة فأكسل أن يغتسل ، قال : كنا نفعل ذلك على عهد رسول الله ﷺ لم يأتنا فيه عن الله تحريم ، ولم يكن فيه عن رسول الله ﷺ شيء . فقال عمر : ورسول الله ﷺ يعلم ذلك ؟ قال : ما أدرى ، فأمر عمر بجمع المهاجرين والأنصار ، فجُمعوا فشاورهم ، فشار الناس ألا غسل ، إلا ما كان من معاذ وعلى ، فإنهما قالا : إذا جاوز الختانُ الختان وجب الغسل ، فقال عمر هذا وأنتم أصحاب بدر قد اختلفتم ، فمن بعدكم أشد اختلافا ، فقال على ؓ : يا أمير المؤمنين ، إنه ليس أحد أعلم بهذا من شأن رسول الله ﷺ من أزواجه ، فأرسل إلى

(١) الطبرانى فى الكبير (١ / ٧٢) رقم ( ٨٢) وعزاه الهيثمى فى المجمع ( ١/ ١٧٩) لأبى يعلى ، وليس فى مسنده ، وقال : رجاله موثقون ، وإن كان فيه مبارك بن فضالة .

حفصة ، فقالت : لا علم لى ، فأرسل إلى عائشة فقالت : إذا جاوز الختان فقد وجب الغسل ، فقال : لا أسمع برجل فعل ذلك إلا أوجعته ضربًا.

## قول عبد الله بن مسعود فى ذم الرأى

قال البخارى : حدثنا جنيد ثنا يحيى بن زكريا عن مجالد ، عن الشعبى ، عن مسروق، عن عبد الله ، قال : لا يأتى علكيم عام إلا وهو شرٌّ من الذى قبله ، أما إنى لا أقول : أمير خير من أمير ، ولا عام أخصبُ من عام ، ولكن فقهاؤكم يذهبون ، ثم لا يجدون منهم خلفًا ويجىء قوم يقيسون الأمور برأيهم .

وقال ابن وهب : ثنا شقيق عن مجالد به ، قال : ولكن ذهاب خياركم وعلمائكم ثم يحدث قوم يقيسون الأمور برأيهم ، فينهدم الإسلام ويُثَّلم .

وقال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا أبو خالد الأحمر عن مجالد عن الشعبى ، عن مسروق قال : قال عبد الله بن مسعود : علماؤكم يذهبون ، ويتخذ الناس رؤوسًا جهالا يقيسون الأمور برأيهم .

وقال سُنيد بن داود : حدثنا محمد بن فضل عن سالم بن أبى حفصة عن منذر الثورى عن الربيع بن خُثَيْم أنه قال : قال عبد الله : ما علمك الله فى كتابه فاحمد الله ، وما استأثر به عليك من علم،فكلْه إلى عالمه ،ولا تتكلف ، فإن الله عز وجل يقول لنبيه : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [ ص ] ، يروى هذا عن الربيع بن خثيم وعن عبد الله .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا خلف بن خليفة ، ثنا أبو زيد عن الشعبى ، قال : قال ابن مسعود : إياكم ، وأرأيت أرأيت ، فإنما هلك من كان قبلكم بأرأيت أرأيت ، ولا تقيسوا شيئًا فتزل قدم بعد ثبوتها ، وإذا سئل أحدكم عما لا يعلم ، فليقل : لا أعلم فإنه ثلث العلم ، وصح عنه فى المفوضة أنه قال : أقول فيها برأيى ، فإن يكن صوابًا ، فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ، ومن الشيطان ، والله ورسوله برىء .

## قول عثمان بن عفان فى ذم الرأى

قال محمد بن إسحاق : حدثنى يحيى بن عباد عن عبيد الله بن الزبير ، قال :أنا

والله مع عثمان بن عفان بالجحفة إذ قال عثمان ـ وذكر له التمتع بالعمرة إلى الحج ـ أتموا الحج وأخلصوه فى أشهر الحج ، فلو أخرتم هذه العمرة ، حتى تزوروا هذا البيت زورتين، كان أفضل ، فإن الله قد أوسع فى الخير ، فقال على ، عمدت إلى سنة رسول الله ﷺ ورخصة الله للعباد بها فى كتابه تضيق عليهم فيها ، وتنهى عنها ، وكانت لذى الحاجة ولنائى الدار ، ثم أهل على بعمرة وحج معًا ، فأقبل عثمان بن عفان رضي الله عنه على الناس ، فقال : أنهيت عنها ، وإنى لم أنه عنها ، إنما كان رأيا أشرتُ به ، فمن شاء أخذه ، ومن شاء تركه ، فهذا عثمان يخبر عن رأيه أنه ليس بلازم للأمة الأخذ به ، بل من شاء أخذ به ومن شاء تركه بخلاف سنة رسول الله فإنه لا يسع أحدًا تركها لقول أحد كائنًا من كان .

## قول على فى ذم الرأى

قال أبو داود : حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء ، ثنا حفص بن غياث ، عن الأعمش عن أبى إسحاق السبيعى ، عن عبد خير عن على رضي الله عنه ، أنه قال : لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه (١) .

## قول ابن عباس فى ذم الرأى

قال ابن وهب : أخبرنى بشر بن بكر عن الأوزاعى عن عبدة بن أبى لبابة ، عن ابن عباس أنه قال : من أحدث رأيا ليس فى كتاب الله ، ولم تمض به سنة من رسول الله ﷺ لم يدر على ما هو منه إذا لقى الله عز وجل .

وقال عثمان بن مسلم الصفار: حدثنا عبد الرحمن بن زياد حدثنا الحسن بن عمرو الفقيمى، عن أبى فزارة ، قال :قال ابن عباس : إنما هو كتاب الله ، وسنة رسول الله ﷺ فمن قال بعد ذلك برأيه ، فلا أدرى أفى حسناته يجد ذلك ، أم فى سيئاته . وقال عبد بن حميد: حدثنا حسين بن على الجعفى عن زائدة ، عن ليث عن بكر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : من قال فى القرآن برأيه ، فليتبوأ مقعده من النار .

## قول سهل بن حنيف

قال البخارى : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا أبو عوانة عن الأعمش عن أبى

(١) أبو داود ( ١٦٢ ) فى الطهارة ، باب : كيف المسح .

وائل قال : قال سهل بن حنيف : أيها الناس ، اتهموا رأيكم على دينكم ، لقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته .

## قول عبد الله بن عمر رضي الله عنه

قال ابن وهب : أخبرنى عمرو بن الحارث أن عمرو بن دينار ، قال : أخبرنى طاوس عن عبيد الله بن عمر أنه كان إذا لم يجد فى الأمر يسأل عنه شيئا ، قال : إن شئتم أخبرتكم بالظن .

وقال البخارى: قال لى صدقة ، عن الفضل بن موسى بن عقبة ، عن الضحاك ، عن جابر بن زيد ، قال : لقينى ابن عمر ، فقال : يا جابر ، إنك من فقهاء البصرة ، وتستفتى فلا تفتين إلا بكتاب ناطق ، أو سنة ماضية . وقال مالك عن نافع عنه : العلم ثلاث : كتاب الله الناطق ، وسنة ماضية ، ولا أدرى .

## قول زيد بن ثابت

قال البخارى : حدثنا سنيد بن داود ، حدثنا يحيى بن زكريا مولى ابن أبى زائدة ، عن إسماعيل بن خالد ، عن الشعبى ، قال : أتى زيد بن ثابت قوم فسألوه عن أشياء ، فأخبرهم بها فكتبوها ، ثم قالوا : لو أخبرناه ، قال : فأتوه ، فأخبروه ، فقال : أعذرا ، لعل كل شيء حدثتكم خطأ ، إنما اجتهد لكم برأيى .

## قول معاذ بن جبل

قال حماد بن سلمة : حدثنا أيوب السختيانى عن أبى قلابة ، عن يزيد بن أبى عميرة عن معاذ بن جبل ، قال : تكون فتن ، فيكثر فيها المال ، ويفتح القرآن حتى يقرأه الرجل والمرأة والصغير والكبير والمنافق والمؤمن ، فيقرأه الرجل ، فلا يتبع ، فيقول : والله لأقرأنه علانية ،فيقرأه علانية ،فلا يتبع فيتخذه مسجدا ، ويبتدع كلاما ليس من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله ﷺ ، فإياكم وإياه ، فإنه بدعة وضلالة . قاله معاذ ثلاث مرات .

## قول أبى موسى الأشعرى

قال البغوى : حدثنا الحجاج بن المنهال ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن حميد عن أبى

رجاء العطاردى ، قال : قال أبو موسى الأشعرى : من كان عنده علم ، فليعلمه الناس ، وإن لم يعلم ، فلا يقولن ما ليس له به علم ، فيكون من المتكلفين ، ويمرق من الدين .

## قول معاوية

قال البخارى: حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب عن الزهرى ، قال : كان محمد بن جبير بن مطعم ، يحدث أنه كان عند معاوية وفد من قريش ، فقام معاوية ، فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فإنه قد بلغنى أن رجالا فيكم يتحدثون بأحاديث ليست فى كتاب الله ، ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ ، فأولئكم جهالكم .

فهؤلاء من الصحابة أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى ابن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وزيد ابن ثابت ، وسهل بن حنيف ، ومعاذ بن جبل ، ومعاوية خال المؤمنين وأبو موسى الأشعرى ﷺ يخرجون الرأى عن العلم ويذمونه ويحذرون منه ، وينهون عن الفتيا به ، ومن اضطر منهم إليه أخبرا أنه ظن،وأنه ليس على ثقة منه ، وأنه يجوز أن يكون منه ومن الشيطان ، وأن الله ورسوله برىء منه ، وأن غايته أن يسوغ الأخذ به عند الضرورة من غير لزوم لاتباعه ، ولا العمل به ، فهل تجد من أحد منهم قط أنه جعل رأى رجل بعينه دينا تترك له السنن الثابتة عن رسول الله ﷺ ، ويبدع ويضلل من خالفه إلى اتباع السنن ، فهؤلاء برك الإسلام وعصابة الإيمان ، وأئمة الهدى ومصابيح الدجى ، وأنصح الأئمة للأمة ، وأعلمهم بالأحكام وأدلتها ، وأفقههم فى دين الله وأعمقهم علما ، وأقلهم تكلفا وعليهم دارت الفتيا ، وعنهم انتشر العلم وأصحابهم هم فقهاء الأمة .

ومنهم من كان مقيما بالكوفة ، كعلى ، وابن مسعود .

وبالمدينة ، كعمر بن الخطاب ، وابنه ، وزيد بن ثابت .

وبالبصرة ، كأبى موسى الأشعرى .

وبالشام ، كمعاذ بن جبل ، ومعاوية بن أبى سفيان .

وبمكة ، كعبد الله بن عباس .

وبمصر ، كعبد الله بن عمرو بن العاص .

وعن هذه الأمصار انتشر العلم فى الآفاق ، وأكثر من روى عنه التحذير من الرأى من كان بالكوفة إرهاصا بين يدى ما علم الله ـ سبحانه ـ أنه يحدث فيها بعدهم .

## محاولة الدفاع عن الرأى

قال أهل الرأى : وهؤلاء الصحابة ومن بعدهم من التابعين والأئمة وإن ذموا الرأى ، وحذروا منه ، ونهوا عن الفتيا والقضاء به وأخرجوه من جملة العلم ، فقد روى عن كثير منهم الفتيا والقضاء به ،والدلالة عليه ،والاستدلال به ،كقول عبد الله بن مسعود فى المفوضة : أقول فيها برأيى ، وقول عمر بن الخطاب لكاتبه : قل : هذا ما رأى عمر بن الخطاب ، وقول عثمان بن عفان فى الأمر بإفراد العمرة عن الحج : إنما هو رأى رأيته ، وقول على فى أمهات الأولاد : اتفق رأيى ورأى عمر على أن لا يبعن ، وفى كتاب عمر ابن الخطاب إلى شريح : إذا وجدت شيئا فى كتاب الله فاقض به ، ولا تلفت إلى غيره ، وإن أتاك شىء ليس فى كتاب الله فاقض بما سن رسول الله ﷺ ، فإن أتاك ما ليس فى كتاب الله ، ولم يسن رسول الله ﷺ ، فاقض بما أجمع عليه الناس ، وإن أتاك ما ليس فى كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك ، فإن شئت أن تجتهد : رأيك فتقدم ، وإن شئت أن تتأخر ، فتأخر ، وما أرى التأخر إلا خيرا لك ، ذكره سفيان الثورى عن الشيبانى عن الشعبى عن شريح أن أن عمر كتب إليه .

وقال أبو عبيد فى كتاب القضاء : حدثنا كثير بن هشام عن جعفر بن برقان عن ميمون ابن مهران قال : كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكم نظر فى كتاب الله تعالى ، فإن وجد فيه ما يقضى به قضى به،وإن لم يجد فى كتاب الله نظر فى سنة رسول الله ﷺ، فإن وجد فيها ما يقضى به قضى به ، فإن أعياه سأل الناس : هل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى فيه بقضاء ، فربما قام إليه القوم ، فيقولون : قضى فيه بكذا وكذا ، فإن لم يجد سنة سنها النبى ﷺ جمع رؤساء الناس فاستشارهم ، فإذا اجتمع رأيهم على شىء ، قضى به ، وكان عمر يفعل ذلك إذا أعياه أن يجد ذلك فى الكتاب والسنة سأل : هل كان أبو بكر قضى فيه بقضاء ، فإن كان لأبى بكر قضاء ، قضى به ، وإلا جمع علماء الناس واستشارهم ، فإذا اجتمع رأيهم على شىء ، قضى به .

وقال أبو عبيد : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش ، عن عمارة ، عن عمير ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن ابن مسعود قال : أكثروا عليه ذات يوم ، فقال : إنه قد أتى علينا زمان ، ولسنا نقضى ، ولسنا هناك ، ثم إن الله بلغنا ما ترون ، فمن عرض عليه قضاء بعد

اليوم، فليقض بما فى كتاب الله ، فإن جاءه أمر ليس فى كتاب الله ، ولا قضى به نبيه ﷺ، فليقض بما قضى به الصالحون ، فإن جاءه أمر ليس فى كتاب الله ولا قضى به نبيه ﷺ ولا قضى به الصالحون فليجتهد رأيه ، ولا يقل : إنى أرى ، وإنى أخاف ، فإن الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك مشتبهات ، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك .

وقال محمد بن جرير الطبرى : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، أنا هشيم ، أنا سيار ، عن الشعبى قال : لما بعث عمر شريحا على قضاء الكوفة ، قال له : انظر ما يتبين لك فى كتاب الله فلا تسأل عنه أحدا ، وما لم يتبين لك فى كتاب الله ، فاتبع فيه سنة رسول الله ﷺ ؛ وما لم يتبين لك فيه السنة فاجتهد فيه رأيك .

وفى كتاب عمر إلى أبى موسى : اعرف الأشياء والأمثال ، وقس الأمور .

وقايس على بن أبى طالب وزيد بن ثابت فى المكاتب ، وقايسه فى الجد والإخوة ، فشبهه على بسيل انشعبت منه شعبة ، ثم انشعبت من الشعبة شعبتان ، وقايسه زيد على شجرة انشعب منها غصن ، وانشعب من الغصن غصنان ، وقولهما فى الجد : إنه لا يحجب الإخوة ، وقاس ابن عباس الأضراس بالأصابع ، وقال : اعتبرها بها .

وسئل على رضي الله عنه عن مسيره إلى صفين : هل كان بعهد عهده إليه رسول الله ﷺ أم رأى رآه ؟ قال : بل رأى رأيته .

وقال عبد الله بن مسعود وقد سئل عن المفوضة : أقول فيها برأيى ، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله ورسوله منه برىء .

وقال ابن أبى خيثمة : ثنا أبى ، ثنا محمد بن خازم ، عن الأعمش ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد الله بن مسعود ، قال: من عرض له منكم قضاء فليقض بما فى كتاب الله ، فإن لم يكن فى كتاب الله ، فليقض بما قضى فيه نبيه ﷺ، فإن جاء أمر ليس فى كتاب الله ، ولم يقض فيه نبيه ﷺ ، فليقض بما قضى به الصالحون، فإن جاء أمر ليس فى كتاب الله ولم يقض به نبيه ولم يقض به الصالحون فليجتهد رأيه، فإن لم يحسن ، فليقم ، ولا يستحى .

وذكر سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبى يزيد قال : سمعت ابن عباس إذا سئل عن شىء ، فإن كان فى كتاب الله قال به ، وإن لم يكن فى كتاب الله ، وكان عن رسول الله ﷺ قال به ، فإن لم يكن فى كتاب الله ، ولا عن رسول الله ﷺ وكان عن أبى بكر وعمر قال به ، فإن لم يكن فى كتاب الله ولا عن رسول الله ﷺ ولا عن أبى بكر وعمر

اجتهد رأيه .

وقال ابن أبى خيثمة : حدثنى أبى ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن سفيان ، عن عبد الملك بن أبجر عن الشعبى ،عن مسروق ،قال : سألت أبى بن كعب عن شيء فقال: أكان هذا ؟ قلت : لا ، قال : فأجمنا (١) حتى يكون ، فإذا كان اجتهدنا لك رأينا . قال أبو عمر بن عبد البر : وروينا عن ابن عباس أنه أرسل إلى زيد بن ثابت : أفى كتاب الله ثلث ما بقى ؟ فقال : أنا أقول برأيى ، وتقول برأيك .وعن ابن عمر أنه سئل عن شيء فعله : أرأيت رسول الله ﷺ فعل هذا أو شيء رأيته ؟ قال : بل شيء رأيته . وعن أبى هريرة أنه كان إذا قال فى شيء برأيه قال : هذه من كيسى. ذكره ابن وهب عن سليمان ابن بلال عن كثير بن زيد عن وليد بن رباح عن أبى هريرة .

وكان أبو الدرداء يقول : إياكم وفراسة العلماء ، احذروا أن يشهدوا عليكم شهادة تكبكم على وجوهكم فى النار ، فوالله إنه للحق يقذفه الله فى قلوبهم . قلت : وأصل هذا فى الترمذى مرفوعا :« اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » (٢) ثم قرأ :﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [ الحجر : ٧٥ ] .

وقال أبو عمر : ثنا عبد الوارث بن سفيان ، ثنا قاسم بن أصبغ ، ثنا محمد بن عبد السلام الخشنى ، ثنا إبراهيم بن أبى الفياض البرقى الشيخ الصالح ، ثنا سليمان بن بزيع الإسكندرانى ، ثنا مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد الأنصارى ، عن سعيد بن المسيب ، عن على ، قال : قلت : يا رسول الله ، الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه القرآن ، ولم تمض فيه منك سنة ، قال :« اجمعوا له العالمين ـ أو قال : العابدين ـ من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأى واحد » (٣) وهذا غريب جدا من حديث مالك ، وإبراهيم البرقى وسليمان ليسا ممن يحتج بهما ، وقال عمر لعلى وزيد : لولا رأيكما لاجتمع رأيى ورأى أبى بكر ، كيف يكون ابنى ، ولا أكون أباه ، يعنى : الجد.

وعن عمر أنه لقى رجلا فقال : ما صنعت ؟ قال ، قضى على وزيد بكذا ، قال : لو

---

(١) أى : أرحنا .

(٢) الترمذى (٣١٢٧) فى تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الحجر ، وقال :« غريب »، والطبرانى فى الكبير ٨ / ١٢١(٧٤٩٧) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٢٦٨) :« إسناده حسن »، والكامل فى الضعفاء (٤ / ٢٠٧)، وضعفه الألبانى .

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢ / ٥٩)، وانظر الكلام عليه فى : كنز العمال (٤١٨٨) .

كنت أنا لقضيت بكذا ، قال : فما منعك والأمر إليك ؟ قال : لو كنت أدرك إلى كتاب الله أو إلى سنة نبيه ﷺ لفعلت ، ولكنى أدرك إلى رأى ، والرأى مشترك ، فلم ينقض ما قال على وزيد .وذكر الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود أنه قال : إن الله اطلع فى قلوب العباد، فرأى قلب محمد ﷺ خير القلوب فاختاره لرسالته ،ثم اطلع فى قلوب العباد بعده، فرأى قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فاختارهم لصحبته ،فما رآه المؤمنون حسنا ، فهو عند الله حسن ، وما رآه المؤمنون قبيحا ، فهو عند الله قبيح .

وقال ابن وهب عن ابن لهيعة أن عمر بن عبد العزيز استعمل عروة بن محمد السعدى على اليمن ، وكان من صالحى عمال عمر ، وأنه كتب إلى عمر يسأله عن شىء من أمر القضاء ، فكتب عليه عمر : لعمرى ما أنا بالنشيط على الفتيا ما وجدت منها بدا ، وما جعلتك إلا لتكفينى ، وقد حملت ذلك فاقض فيه برأيك .

وقال محمد بن سعد : أخبرنى روح بن عبادة ، ثنا حماد بن سلمة عن الجريرى أن أبا سلمة بن عبد الرحمن ،قال للحسن : أرأيت ما تفتى به الناس أشىء سمعته ،أم برأيك؟ فقال الحسن :لا والله ما كل ما نفتى به سمعناه ، ولكن رأينا لهم خير من رأيهم لأنفسهم.

وقال محمد بن الحسن :من كان عالما بالكتاب والسنة وبقول أصحاب رسول الله ﷺ، وبما استحسن فقهاء المسلمين ، وسعه أن يجتهد رأيه فيما ابتلى به ويقضى به ويمضيه فى صلاته وصيامه وحجه ، وجميع ما أمر به ، ونهى عنه ، فإذا اجتهد ونظر وقاس على ما أشبه ، ولم يأل وسعه العمل بذلك ، وإن أخطأ الذى ينبغى أن يقول به .

## تفسير الرأى وتوضيح المراد مما سبق

ولا تعارض بحمد الله بين هذه الآثار عن السادة الأخيار ، بل كلها حق ، وكل منها له وجه ، وهذا إنما يتبين بالفرق بين الرأى الباطل الذى ليس من الدين ، والرأى الحق الذى لا مندوحة عنه لأحد المجتهدين ، فنقول وبالله المستعان :

الرأى فى الأصل: مصدر رأى الشىء يراه رأيا ،ثم غلب استعماله على المرئى نفسه من باب استعمال المصدر فى المفعول،كالهوى فى الأصل مصدر هويه يهواه هوى ، ثم استعمل فى الشىء الذى يهوى، فيقال : هذا هوى فلان ، والعرب تفرق بين مصادر فعل الرؤية بحسب محالها ، فتقول : رأى كذا فى النوم رؤيا ، ورآه فى اليقظة رؤية ، ورأى كذا لما يعلم بالقلب ، ولا يرى بالعين رأيا ، ولكنهم خصوه بما يراه القلب ، بعد فكر وتأمل

وطلب لمعرفة وجه الصواب ، مما تتعارض فيه الأمارات ، فلا يقال لمن رأى بقلبه أمرا غائبا عنه مما يحس به أنه رأيه ،ولا يقال : أيضا للأمر المعقول الذى لا تختلف فيه العقول، ولا تتعارض فيه الأمارات أنه رأى وإن احتاج إلى فكر وتأمل كدقائق الحساب ونحوها .

وإذا عرف هذا فالرأى ثلاثة أقسام :

رأى باطل بلا ريب ، ورأى صحيح ، ورأى هو موضع الاشتباه . والأقسام الثلاثة قد أشار إليها السلف فاستعملوه الرأى الصحيح ، وعملوا به ، وأفتوا به .وسوغوا القول به وذموا الباطل ، ومنعوا من العمل والفتيا والقضاء به ، وأطلقوا ألسنتهم بذمه وذم أهله .

والقسم الثالث:سوغوا العمل والفتيا والقضاء به عند الاضطرار إليه حيث لا يوجد منه بد ولم يلزموا أحدا العمل به ، ولم يحرموا مخالفته ، ولا جعلوا مخالفه مخالفا للدين ، بل غايته أنهم خيروا بين قبوله ورده فهو بمنزلة ما أبيح للمضطر من الطعام والشراب الذى يحرم عند عدم الضرورة إليه كما قال الإمام أحمد : سألت الشافعى عن القياس فقال لى : عند الضرورة ، وكان استعمالهم لهذا النوع بقدر الضرورة لم يفرطوا فيه ويفرعوه ويولدوه ويوسعوه كما صنع المتأخرون بحيث اعتاضوا به عن النصوص والآثار ، وكان أسهل عليهم من حفظها ، كما يوجد كثير من الناس يضبط قواعد الإفتاء لصعوبة النقل عليه ، وتعسر حفظه ، فلم يتعدوا فى استعماله قدر الضرورة ، ولم يبغوا بالعدول إليه مع تمكنهم من النصوص والآثار كما قال الله تعالى فى المضطر إلى الطعام المحرم: ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [ البقرة : ١٧٣] ، فالباغى الذى يبتغى الميتة مع قدرته على التوصل إلى المذكى ، والعادى الذى يتعدى قدر الحاجة بأكلها .

فالرأى الباطل أنواع :

**أحدها** : الرأى المخالف للنص ، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام فساده وبطلانه ، ولا تحل الفتيا به ، ولا القضاء وإن وقع فيه من وقع بنوع تأويل وتقليد .

**النوع الثانى** : هو الكلام فى الدين بالخرص والظن مع التفريط والتقصير فى معرفة النصوص وفهمها ، واستنباط الأحكام منها ، فإن من جهلها وقاس برأيه ، فما سئل عنه بغير علم ، بل لمجرد قدر جامع بين الشيئين الحق ، أحدهما بالآخر أو لمجرد قدر فارق يراه بينهما ، يفرق بينهما فى الحكم من غير نظر إلى النصوص والآثار ، فقد وقع فى الرأى المذموم الباطل .

**وأصل النوع الثالث** :الرأى المتضمن تعطيل أسماء الرب وصفاته وأفعاله بالمقاييس

الباطلة التى وضعها أهل البدع والضلال من الجهمية والمعتزلة والقدرية ، ومن ضاهاهم حيث استعمل أهله قياساتهم الفاسدة وآراءهم الباطلة ، وشبههم الداحضة فى رد النصوص الصحيحة الصريحة ،فردوا لأجلها ألفاظ النصوص التى وجدوا السبيل إلى تكذيب رواتها، وتخطئتهم معانى النصوص التى لم يجدوا إلى رد ألفاظها سبيلا ، فقابلوا النوع الأول بالتكذيب، والنوع الثانى بالتحريف والتأويل فأنكروا لذلك رؤية المؤمنين لربهم فى الآخرة ، وأنكروا كلامه وتكليمه لعباده ،وأنكروا مباينته للعالم،واستواءه على عرشه ،وعلوه على المخلوقات وعموم قدرته على كل شىء،بل أخرجوا أفعال عباده من الملائكة والأنبياء والجن والإنس عن تعلق قدرته ومشيئته وتكوينه لها ، ونفوا لأجلها حقائق أخبر به عن نفسه وأخبر به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله ،وحرفوا لأجلها النصوص عن موضعها، وأخرجوها عن معانيها وحقائقها بالرأى المجرد الذى حقيقته أنه ذبالة الأذهان ، ونخالة الأفكار ، وعفارة الآراء ، ووساوس الصدور ، فملؤوا به الأوراق سوادا ، والقلوب شكوكا ، والعالم فسادا .

وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأى على الوحى ، والهوى على العقل ، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان فى قلب إلا استحكم هلاكه ، وفى أمة إلا وفسد أمرها أتم فساد ، فلا إله إلا الله . كم نفى بهذه الآراء من حق . وأثبت بها من باطل ، وأميت بها من هدى . وأحيى بها من ضلالة ، وكم هدم بها من معقل الإيمان ، وعُمر بها من دين الشيطان ، وأكثر أصحاب الجحيم : هم أهل هذه الآراء الذين لا سمع لهم ،ولا عقل ، بل هم شر من الحُمر ،وهم الذين يقولون يوم القيامة :﴿ **لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** (١٠) ﴾ [ الملك ] .

**النوع الرابع** : الرأى الذى أحدثت به البدع ، وغيرت به السنن ، وعم به البلاء وتربى عليه الصغير ، وهرم فيه الكبير ، فهذه الأنواع الأربعة من الرأى الذى اتفق سلف الأمة وأئمتها ، على ذمه وإخراجه من الدين .

**النوع الخامس** : ما ذكره أبو عمر بن عبد البر عن جمهور أهل العلم أن الرأى المذموم فى هذه الآثار عن النبى ﷺ ، وعن أصحابه والتابعين ﷺ أنه القول فى أحكام شرائع الدين بالاستحسان والظنون ، والاشتغال بحفظ المعضلات والأغلوطات ، ورد الفروع بعضها على بعض قياسا دون ردها على أصولها والنظر فى عللها واعتبارها ، فاستعمل فيها الرأى قبل أن ينزل ، وفرعت وشقت قبل أن تقع ، وتكلم فيها قبل أن يكون بالرأى المضارع للظن ،قالوا :وفى الاشتغال بهذا والاستغراق فيه تعطيل السنن والبعث على

جهلها، وترك الوقوف على ما يلزم الوقوف عليه منها ، ومن كتاب الله عز وجل ومعانيه ، احتجوا على ما ذهبوا إليه بأشياء (١) .

## الآثار عن التابعين فى ذم الرأى

قالوا : ومن تدبر الآثار المروية فى ذم الرأى وجدها لا تخرج عن هذه الأنواع المذمومة، ونحن نذكر آثار التابعين ، ومن بعدهم بذلك ، ليتبين مرادهم ، قال الخشنى : ثنا محمد بن بشار ، ثنا يحيى بن سعيد القطان ،عن مجالد ،عن الشعبى .قال : لعن الله أرأيت ،قال :يحيى بن سعيد :وحدثنا صالح بن مسلم ،قال :سألت الشعبى عن مسألة من النكاح، فقال إن أخبرتك برأيى قبُلْ عليه قالوا : فهذا قول الشعبى فى رأيه، وهو من كبار التابعين ،وقد لقى مائة وعشرين من الصحابة ،وأخذ عن جمهورهم.

وقال الطحاوى : ثنا سليمان بن شعيب ، حدثنا عبد الرحمن بن خالد ، ثنا مالك بن مغول عن الشعبى ، قال :ما جاءكم به هؤلاء من أصحاب رسول الله ﷺ ، فخذوه ، وما كان من رأيهم ، فاطرحوه فى الحش (٢) .

وقال البخارى : ثنا سنيد بن داود ، ثنا حماد بن زيد ، عن زيد ، عن عمرو بن دينار قال : قيل لجابر بن زيد :إنهم يكتبون ما يسمعون منك ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون : يكتبونه وأنا أرجع عنه غدا .

قال إسحاق بن راهويه ، قال سفيان بن عيينة : اجتهاد الرأى هو مشاورة أهل العلم، لا أن يقول هو برأيه .

وقال ابن أبى خيثمة : حدثنا الحوطى ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن سوادة بن زياد وعمرو بن المهاجر ، عن عمر بن عبد العزيز : أنه كتب إلى الناس أنه لا رأى لأحد مع سنة سنها رسول الله ﷺ . قال أبو بصيرة :سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن يقول للحسن البصرى : بلغنى أنك تفتى برأيك فلا تفت برأيك إلا أن يكون سنة عن رسول الله ﷺ .

وقال البخارى : حدثنى محمد بن محبوب ، حدثنا عبد الواحد ، حدثنا ابن الزبرقان، ابن عبد الله الأسيدى أن أبا وائل شقيق بن سلمة قال : إياك ومجالسة من يقول : أرأيت أرأيت .

---

(١) إعلام الموقعين (١ / ٥٧ ـ ٧٣) .

(٢) الحش بضم الحاء وفتحها وكسرها : البستان والمخرج أيضا ، لأنهم كانوا يقضون حوائجهم فى البساتين.

وقال أبان بن عيسى بن دينار ، عن أبيه ، عن ابن القسم ، عن مالك ، عن ابن شهاب ، قال : دعوا السنة تمضى لا تعرضوا لها بالرأى .

وقال يونس عن أبى الأسود ، وهو محمد بن عبد الرحمن بن نوفل سمعت عروة بن الزبير يقول : ما زال أمر بنى إسرائيل معتدلا ، حتى نشأ فيهم المولدون أبناء سبايا الأمم ، فأخذوا فيهم بالرأى ، فأضلوهم . وذكر ابن وهب عن ابن شهاب أنه قال وهو يذكر ما وقع فيه الناس من هذا الرأى ، وتركهم السنن ، فقال : إن اليهود والنصارى إنما انسلخوا من العلم الذى بأيديهم حين اتبعوا الرأى ، وأخذوا فيه .وقال ابن وهب :حدثنى ابن لهيعة أن رجلا سأل سالم بن عبد الله بن عمر عن شيء فقال : لم أسمع فى هذا شيئا ، فقال له الرجل : فأخبرنى أصلحك الله برأيك ، فقال : لا ، ثم أعاد عليه ، فقال : إنى أرضى برأيك ، فقال سالم : إنى لعلى إن أخبرتك برأيى ثم تذهب . فأرى بعد ذلك رأيا غيره ، فلا أجدك .

وقال البخارى :حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الأويسى ،حدثنا مالك بن أنس ، قال : كان ربيعة يقول لابن شهاب : إن حالى ليس يشبه حالك أنا أقول برأيى ، من شاء أخذه ، وعمل به ، ومن شاء تركه .

وقال الفريابى :حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقى،قال :سمعت عبد الرحمن بن مهدى يقول : سمعت حماد بن زيد يقول : قيل لأيوب السختيانى : مالك لا تنظر فى الرأى ؟ فقال أيوب : قيل للحمار : مالك لا تجتر ؟ قال : أكره مضغ الباطل .

وقال الفريابى : حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد : أخبرنى أبى ، قال سمعت الأوزاعى يقول : عليك بآثار من سلف ، وإن رفضك الناس ، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوا لك القول .

وقال أبو زرعة : حدثنا أبو مسهر ، قال : كان سعيد بن عبد العزيز إذا سئل لا يجيب حتى يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، هذا الرأى ، والرأى يخطئ ويصيب .

وقد روى أبو يوسف ، والحسن بن زياد ، كلاهما عن أبى حنيفة أنه قال : علمنا هذا الرأى ، وهو أحسن ما قدرنا عليه ، ومن جاءنا بأحسن منه قبلناه منه .

وقال الطحاوى :حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ،ثنا أشهب بن عبد العزيز، قال : كنت عند مالك فسئل عن البتة ، فأخذت ألواحى ؛ لأكتب ما قال ،فقال لى مالك :

لا تفعل ، فعسى فى العشى أقول : إنها واحدة . وقال معن بن عيسى القزاز : سمعت مالكا يقول : إنما أنا بشر أخطئ وأصيب ، فانظروا فى قولى ، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به،وما لم يوافق الكتاب والسنة ، فاتركوه . فرضى الله عن أئمة الإسلام ، وجزاهم عن نصيحتهم خيرًا ، ولقد امتثل وصيتهم ، وسلك سبيلهم أهل العلم والدين من أتباعهم .

وأما المتعصبون فإنهم عكسوا القضية ونظروا فى السنة فما وافق أقوالهم منها ،قبلوه ، وما خالفها تحيلوا فى رده دلالته ، وإذا جاء نظير ذلك ، أو أضعف منه سندًا ودلالة ، وكان يوافق قولهم قبلوه ، ولم يستجيزوا رده ، واعترضوا به على منازعيهم ، وأشاحوا وقرروا الاحتجاج بذلك السند ودلالته ، فإذا جاء ذلك السند بعينه ، أو أقوى منه ، ودلالتُه كدلالة ذلك أو أقوى منه فى خلاف قولهم ، دفعوه . ولم يقبلوه ؛ وسنذكر من هذا ـ إن شاء الله ـ طرفا عند ذكر غائلة التقليد وفساده ، والفرق بينه وبين الاتباع .

## كلام أئمة الفقهاء عن الرأى

وقال بقى بن مخلد : ثنا سحنون ؛ والحارث بن مسكين ، عن ابن القاسم، عن مالك أنه كان يكثر أن يقول : ﴿ **إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢)** ﴾ [ الجاثية ] .

وقال القعْنَبى : دخلت على مالك بن أنس فى مرضه الذى مات فيه ، فسلمت عليه ، ثم جلست ، فرأيته يبكى ، فقلت له : يا أبا عبد الله ، ما الذى يبكيك : فقال لى: يا بن قَعْنَب ، وما لى لا أبكى ، ومن أحق بالبكاء منى ؟ والله لوددت أنى ضربت بكل مسألة أفنيت فيها بالرأى سوطًا،وقد كانت لى السعة فيما قد سبقت إليه ، وليتنى لم أفْت بالرأى.

وقال ابن أبى داود : ثنا أحمد بن سنان ، قال : سمعت الشافعى يقول : مثل الذى ينظر فى الرأى ، ثم يتوب منه مثل المجنون الذى عولج حتى برأ ، فأعْقَلُ ما يكون قد هاج به .

وقال ابن أبى داود حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : سمعت أبى يقول : لا تكاد ترى أحدًا نظر فى الرأى إلا وفى قلبه دَغَلٌ . وقال عبد الله بن أحمد أيضًا : سمعت أبى يقول : الحديث الضعيف أحب إلىّ من الرأى ، فقال عبد الله :سألت أبى عن الرجل يكون ببلد ،لا يجد فيه إلا صاحب حديث،لا يعرف صحيحه من سقيمه، وأصحاب رأى ، فتنزل به النازلة ، فقال أبى : يسأل أصحاب الحديث ، ولا يسأل أصحاب الرأى ، ضعيف

الحديث أقوى من الرأى :

وأصحاب أبى حنيفة ـ رحمه الله ـ مجمعون على أن مذهب أبى حنيفة أن ضعيف الحديث عنده أولى من القياس والرأى ، وعلى ذلك بنى مذهبه كما قدم حديث القَهْقَهَة مع ضعْفه على القياس والرأى ، وقدم حديث الوضوء بنبيذ التمر فى السفر مع ضعفه على الرأى والقياس ، ومنع قطع السارق بسرقة أقل من عشرة دراهم ، والحديث فيه ضعيف ، وجعل أكثر الحيض عشرة أيام ، والحديث فيه ضعيف ، وشرط فى إقامة الجمعة المِصْرَ ، والحديث فيه كذلك ، وترك القياس المحض فى مسائل الآبار لآثار فيها غير مرفوعة ، فتقدم الحديث الضعيف ، وآثار الصحابة على القياس والرأى قوله وقول الإمام أحمد .

وليس المراد بالحديث الضعيف فى اصطلاح السلف هو الضعيف فى اصطلاح المتأخرين، بل ما يسميه المتأخرون حسنًا قد يسميه المتقدمون ضعيفًا ، كما تقدم بياه .

والمقصود أن السلف جميعهم على ذم الرأى والقياس المخالف للكتاب والسنة ، وأنه لا يحل العمل به لا فُتيا ولا قضى ، وأن الرأى الذى لا يعلم مخالفته للكتاب والسنة ، ولا موافقته ، فغايته أن يسوغ العمل به عند الحاجة إليه من غير إلزام ، ولا إنكار على من خالفه .

قال أبو عمر بن عبد البر: حدثنا عبد الرحمن بن يحيى ، ثنا أحمد بن سعيد بن حزم ، ثنا عبد الله بن يحيى ، عن أبيه أنه كان يأتى ابن وهب ، فيقول له : من أين ؟ فيقول له من عند ابن القاسم ، فيقول له ابن وهب : اتق الله ، فإن أكثر هذه المسائل رأى.

وقال الحافظ أبو محمد ، ثنا عبد الرحمن بن سلمة ، ثنا أحمد بن خليل ، ثنا خالد ابن سعيد ، أخبرنى محمد بن عمر بن كنانة ، ثنا أبان بن عيسى بن دينار ، قال كان أبى قد أجمع على ترك الفتيا بالرأى ، وأحب الفتيا بما روى من الحديث ، فأعجلته المنية عن ذلك.

وقال أبو عمر : وروى الحسن بن واصل أنه قال : إنما هلك من كان قبلكم حين تشعبت بهم السُّبُل ، وحادوا عن الطريق ، وتركوا الآثار ، وقالوا فى الدين برأيهم ، فَضلُّوا وأضَلُّوا . قال أبو عمر : وذكر نعيم بن حماد ، عن أبى معاوية ، عن الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق : من يرغب برأيه عن أمر الله يضل .

وذكر ابن وهب قال : أخبرنى بكر بن نصر عن رجل من قريش أنه سمع ابن شهاب يقول : وهو يذكر ما وقع فيه الناس من هذا الرأى ، وتركهم السنن، فقال : إن اليهود

والنصارى إنما انسلخوا من العلم الذى كان بأيديهم حين اشتقوا الرأى ، وأخذوا فيه .

وذكر ابن جرير فى كتاب تهذيب الآثار له عن مالك . قال : قبض رسول الله ﷺ ، وقد تم هذا الأمر ، واستكمل ، فإنما ينبغى أن تتبع آثار رسول الله ﷺ ولا يتبع الرأى ، فإنه من اتبع الرأى جاء رجل آخر أقوى منه فى الرأى ، فاتبعه ، فأنت كلما جاء رجل غلبك اتبعته .

وقال نعيم بن حماد حدثنا ابن المبارك ، عن عبد الله بن وهب أن رجلا جاء إلى القاسم بن محمد ، فسأله عن شىء ، فأجابه ، فلما ولى الرجل ، دعاه ، فقال له : لا تقل إن القاسم زعم أن هذا هو الحق ، ولكن إذا اضطررت إليه عملت به .

وقال أبو عمر : قال ابن وهب : قال لى مالك بن أنس ـ وهو ينكر كثرة الجواب للمسائل : يا أبا عبد الله ، ما علمته ، فقل به ودل عليه ، وما لم تعلم فاسكت ، وإياك أن تتقلد للناس قلادة سوء ، قال أبو عمر : وذكر محمد بن الحارث بن أسد الخشنى : أنبأنا أبو عبد الله محمد بن عباس النحاس ، قال : سمعت أبا عثمان سعيد بن محمد الحداد ، يقول : سمعت سحنون بن سعيد ، يقول : ما أدرى ما هذا الرأى سفكت به الدماء ، واستحلت به الفروج ، واستحقت به الحقوق غير أنا رأينا رجلا صالحا ، فقلدناه .

وقال سلمة بن شبيب : سمعت أحمد يقول : رأى الشافعى ، ورأى مالك ، ورأى أبى حنيفة كله عندى رأى ، وهو عندى سواء ، وإنما الحجة فى الآثار ، وقال أبو عمر بن عبد البر : أنشدنى عبد الرحمن بن يحيى ، أنشدنا أبو على الحسن بن الخضر الأسيوطى بمكة ، أنشدنا عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه :

دين النبى محمد آثار ... نعم المطية للفتى الأخبار
لا تخدعن عن الحديث وأهله ... فالرأى ليل ، والحديث نهار
ولربما جهل الفتى طرق الهدى ... والشمس طالعة لها أنوار

ولبعض أهل العلم :

العلم : قال الله ، قال رسوله ... قال الصحابة ليس خلف فيه
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين النصوص ، وبين رأى سفيه
كلا ولا نصب الخلاف جهالة ... بين الرسول ، وبين رأى فقيه
كلا ولا رد النصوص تعمدا ... حذرا من التجسيم والتشبيه

حاشا النصوص من الذى رميت بـه     من فرقـة التعطيـل والتمـويه (١)

# فصل
# فى الرأى المحمود

**وهو أنواع :**

**النوع الأول** : رأى أفقه الأمة ، وأبر الأمة قلوبا ، وأعمقهم علما ، وأقلهم تكلفا ، وأصحهم قصودا ، وأكملهم فطرة ،وأتمهم إدراكا ،وأصفاهم أذهانا الذين شاهدوا التنزيل، وعرفوا التأويل ، وفهموا مقاصد الرسول فنسبة آراءهم وعلومهم وقصورهم إلى ما جاء به الرسول ﷺ كنسبتهم إلى صحبته . والفرق بينهم وبين من بعدهم فى ذلك كالفرق بينهم وبينهم فى الفضل ، فنسبة رأى من بعدهم إلى رأيهم كنسبة قدرهم إلى قدرهم .

**النوع الثانى** : من الرأى المحمود : الرأى الذى يفسر النصوص ، ويبين وجه الدلالة منها ، ويقررها ، ويوضح محاسنها ، ويسهل طريق الاستنباط منها ، كما قال عبدان : سمعت عبد الله بن المبارك يقول : ليكن الذى تعتمد عليه الأثر ، وخذ من الرأى ما يفسر لك الحديث ،وهذا هو الفهم الذى يختص الله ـ سبحانه ـ به من يشاء من عباده .

**النوع الثالث** من الرأى المحمود : الذى تواطأت عليه الأمة ، وتلقاه خلفهم عن سلفهم ، فإن ما تواطؤوا عليه من الرأى لا يكون إلا صوابا، كما تواطؤوا عليه من الرواية والرؤيا ، وقد قال النبى ﷺ لأصحابه ، وقد تعددت منهم رؤيا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان :« أرى رؤياكم قد تواطأت فى السبع الأواخر » فاعتبر ﷺ تواطؤ رؤيا المؤمنين ، فالأمة معصومة فيما توطأت عليه من روايتها ورؤياها ، ولهذا كان من سداد الرأى وإصابته أن يكون شورى بين أهله ، ولا ينفرد به واحد ، وقد مدح الله ـ سبحانه ـ المؤمنين بكون أمرهم شورى بينهم ، وكانت النازلة إذا نزلت بأمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ليس عنده فيها نص عن الله ، ولا عن رسوله ، جمع لها أصحاب رسول الله ﷺ ثم جعلها شورى بينهم .

قال البخارى :حدثنا سنيد ، حدثنا يزيد عن العوام بن حوشب عن المسيب بن رافع ، قال : كان إذا جاءه الشيء من القضاء ، ليس فى الكتاب ، ولا فى السنة سمى صوافى الأمر ، فرفع إليهم فجمع له أهل العلم ، فإذا اجتمع عليه رأيهم الحق .

(١) إعلام الموقعين (١ / ٧٧ ـ ٨٤) .

وقال محمد بن سليمان الباغندى : حدثنا عبد الرحمن بن يونس ، حدثنا عمر بن أيوب، أخبرنا عيسى بن المسيب ، عن عامر عن شريح القاضى ، قال : قال لى عمر بن الخطاب : أن اقض بما استبان لك من قضاء رسول الله ﷺ ، فإن لم تعلم كل أقضية رسول الله ، فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين ، فإن لم تعلم كل ما قضت به أئمة المهتدين ، فاجتهد رأيك ، واستشر أهل العلم والصلاح .

وقال الحميدى : ثنا سفيان ، حدثنا الشيبانى ، عن الشعبى ، قال : كتب عمر إلى شريح : إذا حضرك أمر لابد منه ، فانظر ما فى كتاب الله ، فاقض به ، فإن لم يكن ، ففيما قضى به رسول الله ﷺ ، فإن لم يكن ففيما قضى به الصالحون ، وأئمة العدل ، فإن لم يكن فأنت بالخيار، فإن شئت أن تجتهد رأيك، فاجتهد رأيك، وإن شئت أن تؤامرنى، ولا أرى مؤامرتك إياى إلا خيرا لك والسلام .

**النوع الرابع** : من الرأى المحمود أن يكون بعد طلب علم الواقعة من القرآن ، فإن لم يجدها فى القرآن ، ففى السنة ، فإن لم يجدها فى السنة فبما قضى به الخلفاء الراشدون أو اثنان منهم أو واحد ، فإن لم يجده فيما قاله واحد من الصحابة رضي الله عنهم فإن لم يجده اجتهد رأيه ، ونظر إلى أقرب ذلك من كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، وأقضية أصحابه ، فهذا هو الرأى الذى سوغه الصحابة ، واستعملوه وأقر بعضهم بعضا عليه .

قال على بن الجعد : أنبأنا شعبة عن سيار عن الشعبى ، قال : أخذ عمر فرسا من رجل على سوم ، فحمل عليه ، فعطب ، فخاصمه الرجل ، فقال عمر : اجعل بينى وبينك رجلا ، فقال الرجل : إنى أرضى بشريح العراقى ، فقال شريح : أخذته صحيحا سليما ، فأنت له ضامن حتى ترده صحيحا سليما ، قال : فكأنه أعجبه ، فبعثه قاضيا ، وقال : ما استبان لك من كتاب الله ، فلا تسأل عنه ، فإن لم يستبن فى كتاب الله ، فمن السنة ، فإن لم تجده فى السنة ، فاجتهد رأيك .

وقال أبو عبيد : ثنا كثير بن هشام عن جعفر بن برقان، وقال أبو نعيم عن جعفر بن برقان ، عن معمر البصرى ، عن أبى العوام ، وقال سفيان بن عيينة ثنا إدريس أبو عبد الله ابن إدريس قال: أتيت سعيد بن أبى بردة فسألته عن رسل عمر بن الخطاب التى كان يكتب بها إلى أبى موسى الأشعرى ، وكان أبو موسى قد أوصى إلى أبى بردة ، فأخرج إليه كتبا ،

(١) البخارى (٢٠١٥) فى فضل ليلة القدر ، باب : التماس ليلة القدر فى السبع الأواخر ، ومسلم (١١٦٥ / ٢٠٥) فى الصيام، باب : فضل ليلة القدر والحث على طلبها ، ومالك ١ / ٣٣١ (١٤) فى الاعتكاف ، باب : ما جاء فى ليلة القدر .

فرأيت فى كتاب منها (١) .

## فصل
## فى الفهم الواجب على المفتى

ولا يتمكن المفتى، ولا الحاكم من الفتوى، والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم أحدهما: فهم الواقع ، والفقه فيه ، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات ، حتى يحيط به علما ، والنوع الثانى : فهم الواجب فى الواقع ،وهو فهم حكم الله الذى حكم به فى كتابه ، أو على لسان رسوله فى هذا الواقع ، ثم يطبق أحدهما على الآخر ، فمن بذل جهده ، واستفرغ وسعه فى ذلك ، لم يعدم أجرين أو أجرا ، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفه حكم الله ورسوله ، كما توصل شاهد يوسف بشق القميص من دبر إلى معرفة براءته وصدقه ، وكما توصل سليمان صلى الله عليه وسلم بقوله :« ائتونى بالسكين حتى أشق الولد بينكما » (٢) إلى معرفة عين الأم،وكما توصل أمير المؤمنين على عليه السلام بقوله للمرأة التى حملت كتاب حاطب لما أنكرته: « لتخرجن الكتاب ، أو لنجردنك » (٣) إلى استخراج الكتاب منها ، وكما توصل الزبير بن العوام ، بتعذيب أحد بنى أبى الحقيق بأمر رسول الله ﷺ حتى دلهم على كنز حيى،لما ظهر له كذبه فى دعوى ذهابه بالإنفاق بقوله :المال كثير ،والعهد أقرب من ذلك(٤)، وكما توصل النعمان بن بشير بضرب المتهمين بالسرقة إلى ظهور المال المسروق عندهم،فإن ظهر وإلا ضرب من اتهمهم،كما ضربهم وأخبر أن هذا حكم رسول الله ﷺ.

ومن تأمل الشريعة وقضايا الصحابة وجدها طافحة بهذا ، ومن سلك غير هذا أضاع على الناس حقوقهم ونسبه إلى الشريعة التى بعث الله بها رسوله (٥) .

---

(١) إعلام الموقعين (١ / ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٩ ـ ٩١) .

(٢) البخارى (٣٤٢٧) فى الأنبياء ، باب : قول الله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص ] ، ومسلم (١٧٢٠ / ٢٠) فى الأقضية، باب : بيان اختلاف المجتهدين ، والنسائى (٥٤٠٢) فى القضاة ، باب : حكم الحاكم بعلمه ، وأحمد (٢ / ٣٤٠) .

(٣) البخارى(٣٠٨١) فى الجهاد ، باب : إذا اضطر الرجل إلى النظر فى شعور أهل الذمة والمؤمنات إذا عصين الله وتجريدهن ، وأحمد (١ / ١٠٥) .

(٤) ابن حبان (٥١٧٦) فى المزارعة ، والبيهقى فى الكبرى(٩ / ١٣٧) فى السير ، باب : من رأى قسمة الأراضى المغنومة ومن لم يرها .

(٥) إعلام الموقعين (١ / ٩٤ ، ٩٥) .

# كتاب

# الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

## فصل
## فى قيام الرسل عليهم السلام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

إنما بعث الله رسله ،وأنزل كتبه بالإنكار على الخلق بما هم عليه من أحكام البشرية وغيرها. فلهذا أرسلت الرسل ،وأنزلت الكتب ،وانقسمت الدار إلى دار سعادة للمنكرين ، ودار شقاوة للمنكر عليهم. فالطعن فى ذلك: طعن فى الرسل والكتب،والتخلص من ذلك: انحلال من ربقة الدين.

ومن تأمل أحوال الرسل مع أممهم: وجدهم كانوا قائمين بالإنكار عليهم أشد القيام،حتى لقوا الله تعالى،وأوصوا من آمن بهم بالإنكار على من خالفهم،وأخبر النبى ﷺ: أن المتخلص من مقامات الإنكار الثلاثة ليس معه من الإيمان حبة خردل ،وبالغ فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أشد المبالغة،حتى قال: « إن الناس إذا تركوه ؛ أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » [١].

وأخبر: أن تركه يمنع إجابة دعاء الأخيار ،ويوجب تسلط الأشرار.

وأخبر: أن تركه يوقع المخالفة بين القلوب والوجوه،ويحل لعنة الله ،كما لعن الله بنى إسرائيل على تركه [٢] .

## فصل
## فى جواب النبى عن قوله تعالى:
## ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾

سئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [ المائدة:١٠٥] فقال: « بل ائتمروا بالمعروف،وتناهوا عن المنكر،حتى إذا رأيت شحا مطاعاً ،وهوى متبعاً ،ودنيا مؤثرة،وإعجاب كل ذى رأى ،فعليك بخاصة نفسك،ودع عنك أمر العوام [٣] [٤] .

---

(١) أبو داود (٤٣٣٨) فى الملاحم ،باب: الأمر والنهى ،والترمذى (٢١٦٨)فى الفتن ، باب: ماجاء فى نزول العذاب إذا لم يغير المنكر ،وقال: « هذا حديث صحيح »،وابن ماجه (٤٠٠٥) فى الفتن ، باب :الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٢٣).

(٣) أبو داود (٤٣٤١) فى الملاحم،باب: الأمر والنهى،والترمذى (٣٠٥٨) فى تفسير القرآن ،باب: ومن سورة المائدة،وقال الترمذى: « حسن غريب »،وابن ماجه (٤٠١٤) فى الفتن ،باب: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

(٤) إعلام الموقعين (٤/ ٣٤٤).

# فصل
# فى والى الحسبة

وأما الحكم بينهم (١) فيما لا يتوقف على الدعوى: فهو المسمى بالحسبة، والمتولى له: والى الحسبة .

وقد جرت العادة بإفراد هذا النوع بولاية خاصة، كما أفردت ولاية المظالم بولاية خاصة. والمتولى لها يسمى والى المظالم، وولاية المال قبضاً وصرفاً بولاية خاصة، والمتولى لذلك يسمى وزيراً ، وناظر البلد لإحصاء المال ووجوهه وضبطه ، تسمى ولايته : ولاية استيفاء . والمتولى لاستخراجه وتحصيله ممن هو عليه ، تسمى ولايته ولاية السر ، والمتولى لفصل الخصومات ، وإثبات الحقوق ، والحكم فى الفروج والأنكحة ، والطلاق والنفقات، وصحة العقود وبطلانها: المخصوص باسم الحاكم والقاضى، وإن كان هذا الاسم يتناول كل حاكم بين اثنين وقاض بينهما. فيدخل أصحاب هذه الولايات جميعهم تحت قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾ [النساء:٥٨]، وتحت قوله تعالى : ﴿ **فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** (٤٤) ﴾ [المائدة ]، وقوله: ﴿ **فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** (٤٥) ﴾ [المائدة ]، وقوله: ﴿ **فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** (٤٧) ﴾ [المائدة] ، وتحت قوله: ﴿**وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ**﴾ [المائدة:٤٩]، وقوله ﷺ: « القضاة ثلاثة » (٢)؛ وقوله: « من ولى القضاء فقد ذبح بغير سكين » (٣) وقوله ﷺ: « المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ـ وكلتا يديه يمين ـ الذين يعدلون فى حكمهم، وأهليهم وما ولوا» (٤).

والمقصود: أن الحكم بين الناس فى النوع الذى لايتوقف على الدعوى: هو المعروف بولاية الحسبة.

وقاعدته وأصله: هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى بعث الله به رسله، وأنزل

---

(١) أى :الناس.

(٢) الحاكم فى المستدرك (٤/ ٩٠) ،وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه. . .إلخ »، وقال الذهبى : « ابن بكير الغنوى منكر الحديث ».

(٣) أبو داود (٣٥٧١) فى الأقضية ، باب : فى طلب القضاء.

(٤) مسلم (١٨/١٨٢٧) فى الإمارة باب : فضيلة الإمام العادل . . . إلخ ،والنسائى (٥٣٧٩) فى آداب القضاة ، باب : فضل الحاكم العادل فى حكمه ، وأحمد (٢/ ١٦٠).

به كتبه، ووصف به هذه الأمة ، وفضلها لأجله على سائر الأمم التى أخرجت للناس ، وهذا واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض كفاية ويصير فرض عين على القادر الذى لم يقم به غيره من ذوى الولاية والسلطان فعليهم من الوجوب ماليس على غيرهم ، فإن مناط الوجوب: هو القدرة؛ فيجب على القادر مالا يجب على العاجز، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وقال النبى ﷺ: « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم » (١).

وجميع الولايات الإسلامية: مقصودها الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، لكن من المتولين من يكون بمنزلة الشاهد المؤتمن، والمطلوب منه: الصدق، مثل صاحب الديوان، الذى وظيفته : أن يكتب المستخرج والمصروف ، والنقيب والعريف الذى وظيفته :إخبار ولى الأمر بالأحوال، ومنهم من يكون بمنزلة الآمر المطاع، والمطلوب منه: العدل، مثل الأمير والحاكم والمحتسب.

ومدار الولايات كلها على الصدق فى الإخبار ، والعدل فى الإنشاء ، وهما قرينان فى كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ . قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] وقال النبى ﷺ - لما ذكر الأمراء الظلمة: « من صدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم، فليس منى، ولست منه، ولا يرد على الحوض، ومن لم يصدقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم، فهو منى وأنا منه وسيرد على الحوض» (٢) وقال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢)﴾ [الشعراء] «فالأفاك » الكاذب، و« الأثيم » الظالم والفاجر . وقال تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) ﴾ [العلق] ، وقال النبى ﷺ: « عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة. وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار »(٣).

ولهذا يجب على كل ولى أمر أن يستعين فى ولايته بأهل الصدق والعدل ، والأمثل فالأمثل ، وإن كان فيه كذب وفجور ؛ فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لاخلاق لهم . قال عمر رضي الله عنه : « من قلد رجلاً على عصابة ، وهو يجد فى تلك العصابة

---

(١) البخارى (٧٢٨٨) فى الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب : الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ ...إلخ ، ومسلم (١٣٣٧/ ٤١٢) فى الحج، باب فرض الحج مرة فى العمر.

(٢) النسائى (٤٢٠٧) فى البيعة ، باب : ذكر الوعيد لمن أعان أميراً على الظلم ، وأحمد (٥/ ٣٨٤).

(٣) البخارى (٦٠٩٤) فى الأدب ، باب : قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾ [التوبة] وما ينهى عن الكذب ، ومسلم (٢٦٠٧/ ١٠٥) فى البر والصلة والآداب ، باب: قبح الكذب وحسن الصدق وفضله.

من هو أرضى لله منه؛ فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين ».

والغالب: أنه لايوجد الكامل فى ذلك، فيجب تحرى خير الخيرين ، ودفع شر الشرين. وقد كان الصحابة ﷺ يفرحون بانتصار الروم والنصارى على المجوس عباد النار؛ لأن النصارى أقرب إليهم من أولئك ، وكان يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ نائباً لفرعون مصر ، وهو وقومه مشركون، وفعل من الخير والعدل ما قدر عليه، ودعا إلى الإيمان بحسب الإمكان.

إذا عرف هذا ؛ فعموم الولايات وخصوصها، وما يستفيده المتولى بالولاية: يتلقى من الألفاظ والأحوال والعرف، وليس لذلك حد فى الشرع. فقد يدخل فى ولاية ـ القضاء ـ فى بعض الأزمنة ـ ما يدخل فى ولاية الحرب فى زمان ومكان آخر، وبالعكس. وكذلك الحسبة، وولاية المال. وجميع هذه الولايات فى الأصل ولايات دينية، ومناصب شرعية ، فمن عدل فى ولاية من هذه الولايات، وساسها بعلم وعدل، وأطاع الله ورسوله بحسب الإمكان؛ فهو من الأمراء الأبرار العادلين ، ومن حكم فيها بجهل وظلم؛ فهو من الظالمين المعتدين ، و﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)** ﴾ [ الانفطار ].

فولاية الحرب فى هذه الأزمنة ، فى البلاد الشامية والمصرية وما جاورها تختص بإقامة الحدود: من القتل ، والقطع، والجلد ، ويدخل فيها الحكم فى دعاوى التهم التى ليس فيها شهود ولا إقرار ، كما تختص ولاية القضاء بما فيه كتاب وشهود وإقرار ، من الدعاوى التى تتضمن إثبات الحقوق، والحكم بإيصالها إلى أربابها ، والنظر فى الأبضاع والأموال التى ليس لها ولى معين، والنظر فى حال نظار الوقوف، وأوصياء اليتامى ، وغير ذلك.

وفى بلاد أخرى ـ كبلاد الغرب ـ ليس لوالى الحرب مع القاضى حكم ، فى شيء، إنما هو منفذ لما يأمر به متولى القضاء.

وأما ولاية الحسبة : فخاصتها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيما ليس من خصائص الولاة والقضاء وأهل الديوان ونحوهم . فعلى متولى الحسبة أن يأمر العامة بالصلوات الخمس فى مواقيتها ، ويعاقب من لم يصلِ بالضرب والحبس

وأما القتل : فإلى غيره . ويتعاهد الأئمة والمؤذنين فمن فرط منهم فيما يجب عليه من حقوق الأمة ، وخرج عن المشروع ؛ ألزمه به واستعان فيما يعجز عنه بوالى الحرب والقاضى (١).

---

(١) الطرق الحكمية (٢٤٥ ـ ٢٤٩).

# فصل
## فى قيام ولى الأمر بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

إن ولى الأمر يجب عليه أن يمنع من اختلاط الرجال بالنساء فى الأسواق، والفرج، ومجامع الرجال.

قال مالك رحمه الله و رضي الله عنه: أرى للإمام أن يتقدم إلى الصناع فى قعود النساء إليهم، وأرى لايترك المرأة الشابة تجلس إلى الصناع. فأما المرأة المتجالة والخادم الدون، التى لا تتهم على القعود، ولايتهم من تقعد عنده، فإنى لا أرى بذلك بأساً. انتهى.

فالإمام مسؤول عن ذلك والفتنة به عظيمة، قال ﷺ: « ماتركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » (١)، وفى حديث آخر: أنه قال للنساء: « لكن حافات الطريق» (٢).

ويجب عليه منع النساء من الخروج متزينات متجملات، ومنعهن من الثياب التى يكن بها كاسيات عاريات، كالثياب الواسعة والرقاق، ومنعهن من حديث الرجال فى الطرقات، ومنع الرجال من ذلك.

وإن رأى ولى الأمر أن يفسد على المرأة ـ إذا تجملت وتزينت وخرجت ـ ثيابها بحبر ونحوه، فقد رخص فى ذلك بعض الفقهاء وأصاب، وهذا من أدنى عقوبتهن المالية.

وله أن يحبس المرأة إذا أكثرت الخروج من منزلها، ولا سيما إذا خرجت متجملة، بل إقرار النساء على ذلك إعانة لهن على الإثم والمعصية، والله سائل ولى الأمر عن ذلك.

وقد منع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه النساء من المشى فى طريق الرجال، والاختلاط بهم فى الطريق.

فعلى ولى الأمر أن يقتدى به فى ذلك.

وقال الخلال فى جامعه: أخبرنى محمد بن يحيى الكحال: أنه قال لأبى عبد الله: أرى الرجل السوء مع المرأة؟ قال: صح به. وقد أخبر النبى ﷺ: « أن المرأة إذا تطيبت

---

(١) البخارى (٥٠٩٦) فى النكاح، باب: ما يتقى من شؤم المرأة وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ [ التغابن: ١٤]، ومسلم (٩٧/٢٧٤٠) فى الذكر والدعاء، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر... إلخ.

(٢) أبو داود (٥٢٧٢) فى الأدب باب: فى مشى النساء مع الرجال فى الطريق.

وخرجت من بيتها فهى زانية » (١) .

ويمنع المرأة إذا أصابت بخوراً أن تشهد عشاء الآخرة فى المسجد ، فقد قال النبى ﷺ : « المرأة إذا خرجت استشرفها الشيطان » (٢).

ولا ريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال: أصل كل بلية وشر وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة، كما أنه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة، واختلاط الرجال بالنساء سبب لكثرة الفوحش والزنا ، وهو من أسباب الموت العام ، والطواعين المتصلة.

ولما اختلط البغايا بعسكر موسى ،وفشت فيهم الفاحشة : أرسل الله عليهم الطاعون، فمات فى يوم واحد سبعون ألفاً . والقصة مشهورة فى كتب التفاسير.

فمن أعظم أسباب الموت العام: كثرة الزنا ، بسبب تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال، والمشى بينهم متبرجات متجملات. ولو علم أولياء الأمر مافى ذلك من فساد الدنيا والرعية ـ قبل الدين ـ لكانوا أشد شىء منعاً لذلك.

قال عبدالله بن مسعود ﷺ :« إذا ظهر الزنا فى قرية أذن الله بهلاكها».

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنا إبراهيم بن الأشعث حدثنا عبدالرحمن بن زيد العمى عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ماطفف قوم كيلاً، ولا بخسوا ميزاناً، إلا منعهم الله عز وجل ـ القطر ،ولا ظهر فى قوم الزنا إلا ظهر فيهم الموت، ولا ظهر فى قوم عمل قوم لوط إلا ظهر فيهم الخسف، وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا لم ترفع أعمالهم، ولم يسمع دعاؤهم»(٣) (٤).

## فصل

وعليه (٥) أن يمنع اللاعبين بالحمام على رؤوس الناس؛ فإنهم يتوسلون بذلك إلى الإشراف عليهم والتطلع على عوراتهم ،وقد روى أبو داود فى سننه من حديث أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ : أنه رأى رجلاً يتبع حمامة فقال : « شيطان يتبع شيطانه » (٦) وقال

---

(١) الترمذى (٢٧٨٦) فى الأدب ، باب : ما جاء فى كراهية خروج المرأة متعطرة ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح »، وأحمد (٤/ ٤١٤).

(٢) الترمذى (١١٧٣) فى الرضاع، باب: ماجاء فى كراهية الدخول على المغيبات، وقال: « هذا حديث حسن غريب».

(٣) نحوه ابن ماجه (٤٠١٩) فى الفتن باب: العقوبات ، عن عبدالله بن عمر .

(٤) الطرق الحكمية (٢٨٧ ـ ٢٨٩).

(٥) أى : ولى الأمر.

(٦) أبو داود (٤٩٤٠) فى الأدب ، باب فى اللعن بالحمام.

إبراهيم النخعى: من لعب بالحمام الطيارة لم يمت حتى يذوق ألم الفقر. وقال الحسن: شهدت عثمان ابن عفان وهو يخطب وهو يأمر بذبح الحمام وقتل الكلاب ، ذكره البخارى . وقال خالد الحذاء ـ عن بعض التابعين ـ قال: كان تلاعب آل فرعون الحمام (١).

## فصل
## فى تحقيق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

لما كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لا يتم إلا بالعقوبات الشرعية ،فإن « الله يزع بالسلطان مالم يزع بالقرآن» (٢) فاقامة الحدود واجبة على ولاة الأمور.

والعقوبة تكون على فعل محرم أو ترك واجب .

والعقوبات منها ماهو مقدر ومنها ماهو غير مقدر، وتختلف مقاديرها وأجناسها وصفاتها باختلاف أحوال الجرائم ،وكبرها وصغرها ، وبحسب حال المذنب فى نفسه (٣).

## فصل
## فى حكمة الشريعة من إنكار المنكر وبيان درجات إنكاره

إن النبى ﷺ شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر؛ ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله ،فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ،ماهو أنكر منه، وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه، ويمقت أهله، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم؛ فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر ، وقد استأذن الصحابة رسول الله ﷺ فى قتال الأمراء الذين يوخرون الصلاة عن وقتها، وقالوا : أفلا نقاتلهم؟ فقال : « لا، ما أقاموا الصلاة » (٤) ،وقال: «من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ،ولا ينزعن يداً من طاعته» (٥) ومن تأمل ماجرى على الإسلام فى الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل، وعدم الصبر على منكر، فطلب إزالته، فتولد منه ماهو أكبر منه، فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة

---

(١) الطرق الحكمية (٢٨٢).

(٢) ابن كثير (٥/ ١١١) ط. دار طيبة ، فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ۝٨٠ ﴾ [ الإسراء: ٨٠]

(٣) الطرق الحكمية (٢٧٢).

(٤) مسلم (١٨٥٥/ ٦٥) فى الإمارة ، باب: خيار الأئمة وشرارهم عن عوف بن مالك ،وأحمد (٣/ ٢٨، ٢٩) عن أبى سعيد الخدرى.

(٥) البخارى (٧٠٥٤) فى الفتن ، باب: ستروان من بعدى أموراً تنكرونها ،ومسلم (١٨٤٩/ ٥٥) فى الإمارة ، باب : وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن.

أكبر المنكرات، ولايستطيع تغييرها، بل لما فتح الله مكه ، وصارت دار إسلام عزم على تغيير البيت، ورده على قواعد إبراهيم، ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك؛ لقرب عهدهم بالإسلام، وكونهم حديثى عهد بكفر؛ ولهذا لم يأذن فى الإنكار على الأمراء باليد لما يترتب عليه من وقوع ماهو أعظم منه، كما وجد سواء.

فإنكار المنكر أربع درجات:

**الأولى**: أن يزول ويخلفه ضده.

**الثانية**: أن يقل وإن لم يزل بجملته.

**الثالثة**: أن يخلفه ما هو مثله.

**الرابعة**: أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة: موضع اجتهاد، والرابعة محرمة، فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا اذا نقلتهم منه إلى ماهو أحب إلى الله ورسوله كرمى النشاب ، وسباق الخيل، ونحو ذلك، واذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب أو سماع مكاء وتصدية، فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد، وإلا كان تركهم على ذلك خيراً من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك، فكان ماهم فيه شاغلاً لهم عن ذلك، وكما إذا كان الرجل مشتغلاً بكتب المجون ونحوها، وخفت من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحرة؛ فدعه وكتبه الأولى، وهذا باب واسع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ، ونور ضريحه يقول : مررت أنا وبعض أصحابى فى زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر ، فأنكر عليهم من كان معى ، فأنكرت عليه ، وقلت له : إنما حرم الله الخمر ؛ لأنها تصد عن ذكر الله ، وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبى الذرية، وأخذ الأموال، فدعهم (١).

## فصل
## فى ثواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

إنه ما آثر عبد مرضاة الله عز وجل على مرضاة الخلق ، وتحمل ثقل ذلك ومؤنته ، وصبر على محنته : إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة ، ومعونة بقدر ما تحمل من مرضاته ، فانقلبت مخاوفه أماناً ، ومظان عطبه نجاة، وتعبه راحة ، ومؤنته معونة، وبليته نعمة ، ومحنته منحة ، وسخطه رضى . فياخيبة المتخلفين ، وياذلة المتهيبين.

---

(١) إعلام الموقعين (٣/٦، ٧).

هذا ،وقد جرت سنة الله ـ التى لاتبديل لها ـ أن من آثر مرضاة الخلق على مرضاته: أن يسخط عليه من آثر رضاه ،ويخذله من جهته ، ويجعل محنته على يديه ، فيعود حامده ذاماً. ومن آثر مرضاته ساخطاً ،فلا على مقصوده منهم حصل،ولا إلى ثواب مرضاة ربه وصل ،وهذا أعجز الخلق وأحمقهم.

هذا مع أن رضى الخلق: لا مقدور،ولا مأمور ،ولا مأثور .فهو مستحيل. بل لابد من سخطهم عليك. فلأن يسخطوا عليك وتفوز برضى الله عنك أحب إليك،وأنفع لك من أن يسخطوا عليك والله عنك غير راض. فإذا كان سخطهم لابد منه ـ على التقديرين ـ فآثر سخطهم الذى ينال به رضى الله ، فإن هم رضوا عنك بعد هذا،وإلا فأهون شيء رضى من لاينفعك رضاه ،ولا يضرك سخطه فى دينك،ولا فى إيمانك ،ولا فى آخرتك. فإن ضرك فى أمر يسير فى الدنيا،فمضرة سخط الله أعظم وأعظم. وخاصة العقل: احتمال أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما. وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما،فوازن بعقلك،ثم انظر أى الأمرين خير فآثره،وأيهما شر فابعد عنه .فهذا برهان قطعى ضرورى فى إيثار رضى الله على رضى الخلق.

هذا مع أنه إذا آثر رضى الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق،وإذا آثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه.

قال بعض السلف: لمصانعة وجه واحد أيسر عليك من مصانعة وجوه كثيرة. إنك إذا صانعت ذلك الوجه الواحد كفاك الوجوه كلها.

وقال الشافعى رضي الله عنه : رضى الناس غاية لاتدرك ،فعليك بما فيه صلاح نفسك فالزمه.

ومعلوم: أنه لاصلاح للنفس إلا بإيثار رضى ربها ومولاها على غيره. ولقد أحسن أبو فراس فى هذا المعنى إلا أنه أساء كل الإساءة فى قوله ـ إذ يقوله لمخلوق لا يملك له ولا لنفسه نفعاً ولا ضراً:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

ثم ذكر الشيخ ـ رحمه الله ـ ما يستطاع به هذا الإيثار العظيم الشأن. فقال: « ويستطاع هذا بثلاثة أشياء: بطيب العود ، وحسن الإسلام ،وقوة الصبر ».

من المعلوم : أن المؤثر لرضى الله متصد لمعاداة الخلق وأذاهم ، وسعيهم فى إتلافه ولابد. هذه سنة الله فى خلقه ، وإلا فما ذنب الأنبياء والرسل، والذين يأمرون بالقسط من

الناس ، والقائمين بدين الله ، الذابين عن كتابه وسنة رسوله عندهم ؟

فمن آثر رضى الله فلابد أن يعاديه رذالة العالم وسقطهم ، وغرثاهم وجهالهم، وأهل البدع والفجور منهم ، وأهل الرياسات الباطلة ، وكل من يخالف هديه . فما يقدم على معاداة هؤلاء إلا طالب الرجوع إلى الله ، عامل على سماع خطاب ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٣٠)** ﴾ [الفجر]،ومن إسلامه صلب كامل لاتزعزعه الرجال،ولا تقلقله الجبال،ومن عقد عزيمة صبره محكم لاتحله المحن والشدائد والمخاوف.

قلت: وملاك ذلك أمران: الزهد فى الحياة والثناء. فما ضعف من ضعف، وتأخر من تأخر إلا بحبه للحياة والبقاء،وثناء الناس عليه،ونفرته من ذمهم له. فإذا زهد فى هذين الشيئين؛ تأخرت عنه العوارض كلها. وانغمس حينئذ فى العساكر.

وملاك هذين الشيئين بشيئين: صحة اليقين ،وقوة المحبة.

وملاك هذين بشيئين أيضاً: بصدق اللجأ والطلب،والتصدى للأسباب الموصلة إليهما.

فإلى ههنا تنتهى معرفة الخلق وقدرتهم. والتوفيق بعد بيد من أزمة الأمور كلها بيده ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)** ﴾(١) [ الإنسان ] .

## وأيضـا

المشهد الثامن(٢): مشهد « الجهاد » وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من جهاده فى سبيل الله، وأمرهم بالمعروف،ونهيهم عن المنكر،وإقامة دين الله،وإعلاء كلماته

وصاحب هذا المقام: قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن. فإن أراد أن يسلم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها،فلا حق له على من آذاه ،ولا شىء له قبله ،إن كان قد رضى بعقد هذا التبايع ؛فإنه قد وجب أجره على الله.

وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابه ﷺ ولهذا منع النبى ﷺ المهاجرين من سكنى مكة ـ أعزها الله ـ ولم يرد على أحد منهم داره ولا ماله الذى أخذه الكفار،ولم يضمنهم دية من قتلوه فى سبيل الله.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٠ ـ ٣٠٢).

(٢) من المشاهد التى يشهدها العبد فيما يصيبه من أذى الخلق.

ولما عزم الصديق رضي الله عنه على تضمين أهل الردة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم . قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمشهد من الصحابة رضي الله عنهم : « تلك دماء وأموال ذهبت فى الله ،وأجورها على الله ، ولا دية لشهيد » فأصفق الصحابة على قول عمر، ووافقه عليه الصديق.

فمن قام لله حتى أوذى فى الله :حرم الله عليه الانتقام .كما قال لقمان لابنه : ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ⑰﴾ (1) [ لقمان ] .

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٢١).

# كتاب
# الدعوة إلى الله عز وجل

## فصل
## فى ترتيب الدعوة ولها مراتب

**المرتبة الأولى**: النبوة.

**الثانية** : إنذار عشيرته [١] الأقربين.

**الثالثة**: إنذار قومه.

**الرابعة**: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله، وهم العرب قاطبة.

**الخامسة**: إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر.

## فصل

وأقام ﷺ ثلاث سنين يدعو إلى الله ـ سبحانه ـ مستخفياً ،ثم نزل عليه: **﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾** [الحجر: ٩٤]. فأعلن ﷺ بالدعوة،وجاهر قومه بالعداوة ، واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين ، حتى أذن الله لهم بالهجرتين [٢].

## فصل
## فى الصبر على الدعوة إلى الله عز وجل

ومنها [٣] : التأنى والصبر فى الدعوة إلى الله ، وألايعجل بالعقوبة والدعاء على العصاة [٤].

---

(١) أى : النبى ﷺ.
(٢) زاد المعاد (١/ ٨٦).
(٣) أى :من الحكم المستفادة من قدوم وفد دوس على رسول الله ﷺ.
(٤) زاد المعاد (٣/ ٦٢٧).

# فصل
# فى دعوة أهل الكتاب

ومنها (١) جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم، وإقامة الحجة عليهم ، ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة ، فليول ذلك إلى أهله ، وليخل بين المطى وحاديها، والقوس وباريها ، ولولا خشية الإطالة لذكرنا من الحجج التى تلزم أهل الكتابين الإقرار بأنه رسول الله بما فى كتبهم، وبما يعتقدونه بما لا يمكنهم دفعه ما يزيد على مائة طريق، ونرجو من الله سبحانه إفرادها بمصنف مستقل.

ودار بينى وبين بعض علمائهم مناظرة فى ذلك، فقلت له فى أثناء الكلام: ولا يتم لكم القدح فى نبوة نبينا ﷺ إلا بالطعن فى الرب تعالى والقدح فيه، ونسبته إلى أعظم الظلم والسفه والفساد، تعالى الله عن ذلك، فقال: كيف يلزمنا ذلك ؟ قلت: بل أبلغ من ذلك ، لا يتم لكم ذلك إلا بجحوده وإنكار وجوده تعالى.

وبيان ذلك: أنه إذا كان محمد عندكم ليس بنبى صادق ، وهو بزعمكم ملك ظالم، فقد تهيأ له أن يفترى على الله ، ويتقول عليه ما لم يقله، ثم يتم له ذلك، ويستمر حتى يحلل ويحرم ، ويفرض الفرائض ، ويشرع الشرائع ، وينسخ الملل، ويضرب الرقاب، ويقتل أتباع الرسل ، وهم أهل الحق ، ويسبى نساءهم وأولادهم ، ويغنم أموالهم وديارهم، ويتم له ذلك حتى يفتح الأرض ، وينسب ذلك كله إلى أمر الله تعالى له به ومحبته له ، والرب تعالى يشاهده ، وما يفعل بأهل الحق وأتباع الرسل، وهو مستمر فى الافتراء عليه ثلاثاً وعشرين سنة، وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره ، ويعلى أمره ، ويمكن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر ، وأعجب من ذلك أنه يجيب دعواته، ويهلك أعداءه من غير فعل منه نفسه ولا سبب، بل تارة بدعائه ، وتارة يستأصلهم ـ سبحانه ـ من غير دعاء منه ﷺ، ومع ذلك يقضى له كل حاجة سأله إياها، ويعده كل وعد جميل ، ثم ينجز له وعده على أتم الوجوه، وأهنئها، وأكملها، هذا وهو عندكم فى غاية الكذب والافتراء والظلم ، فإنه لا أكذب ممن كذب على الله، واستمر على ذلك ، ولا أظلم ممن أبطل شرائع أنبيائه ورسله، وسعى فى رفعها من الأرض، وتبديلها بما يريد هو ، وقتل أولياءه وحزبه وأتباع

---

(١) أى : من الحكم المستفادة من قدوم وفد نجران على رسول الله ﷺ.

رسله، واستمرت نصرته عليهم دائماً ، والله تعالى فى ذلك كله يقره ، ولا يأخذ منه باليمين، ولا يقطع منه الوتين ، وهو يخبر عن ربه أنه أوحى إليه أنه لا ﴿ **أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ** ﴾ [الأنعام: ٩٣] فيلزمكم معاشر من كذبه أحد أمرين لا بد لكم منهما:

إما أن تقولوا: لا صانع للعالم، ولا مدبر، ولو كان للعالم صانع مدبر قدير حكيم، لأخذ على يديه ، ولقابله أعظم مقابلة. وجعله نكالاً للظالمين إذا لا يليق بالملوك غير هذا، فكيف بملك السموات والأرض، وأحكم الحاكمين؟.

الثانى: نسبة الرب مالا يليق به من الجور. والسفه، والظلم، وإضلال الخلق دائمًا أبد الآباد ، لا بل نصرة الكاذب ، والتمكين له من الأرض، وإجابة دعواته ، وقيام أمره من بعده، وإعلاء كلماته دائماً ، وإظهار دعوته ، والشهادة له بالنبوة قرناً بعد قرن على رؤوس الأشهاد فى كل مجمع وناد ، فأين هذا من فعل أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين، فلقد قدحتم فى رب العالمين أعظم قدح، وطعنتم فيه أشد طعن، وأنكرتموه بالكلية ، ونحن لا ننكر أن كثيراً من الكذابين قام فى الوجود ، وظهرت له شوكة ، ولكن لم يتم له أمره، ولم تطل مدته ، بل سلط عليه رسله وأتباعهم ، فمحقوا أثره ، وقطعوا دابره ، واستأصلوا شأفته . هذه سنته فى عباده منذ قامت الدنيا، وإلى أن يرث الأرض ومن عليها.

فلما سمع منى هذا الكلام ، قال : معاذ الله أن نقول: إنه ظالم أو كاذب ، بل كل منصف من أهل الكتاب يقر بأن من سلك طريقه ، واقتفى أثره ، فهو من أهل النجاة والسعادة فى الأخرى. قلت له : فكيف يكون سالك طريق الكذاب، ومقتفى أثره بزعمكم من أهل النجاة والسعادة ؟ فلم يجد بدًا من الاعتراف برسالته، ولكن لم يرسل إليهم. قلت: فقد لزمك تصديقه، ولا بد وهو قد تواترت عنه الأخبار بأنه رسول رب العالمين إلى الناس أجمعين ؛ كتابيهم وأميهم، ودعا أهل الكتاب إلى دينه ، وقاتل من لم يدخل فى دينه منهم حتى أقروا بالصغار والجزية ، فبهت الكافر ، ونهض من فوره.

والمقصود: أن رسول الله ﷺ لم يزل فى جدال الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم إلى أن توفى، وكذلك أصحابه من بعده، وقد أمره الله ـ سبحانه ـ بجدالهم بالتى هى أحسن فى السورة المكية والمدنية ، وأمره أن يدعوهم بعد ظهور الحجة إلى المباهلة، وبهذا قام الدين، وإنما جعل السيف ناصرًا للحجة، وأعدل السيوف سيف ينصر حجج الله وبيناته، وهو سيف رسوله وأمته (١).

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٣٩ ـ ٦٤٢).

## فصل
## فى السنة فى دعوة أهل الكتاب ومجادلتهم

ومنها (١): أن السنة فى مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله، ولم يرجعوا، بل أصروا على العناد أن يدعوهم إلى المباهلة، وقد أمر الله ـ سبحانه ـ بذلك رسوله، ولم يقل: إن ذلك ليس لأمتك من بعدك، ودعا إليه ابن عمه عبدالله بن عباس لمن أنكر عليه بعض مسائل الفروع، ولم ينكر عليه الصحابة، ودعا إليه الأوزاعى سفيان الثورى فى مسألة رفع اليدين، ولم ينكر عليه ذلك، وهذا من تمام الحجة(٢).

## فصل
## فى ابتلاء الدعاة وحكمته

أكمل الخلق عند الله، من كمل مراتب الجهاد كلها، والخلق متفاوتون فى منازلهم عند الله، تفاوتهم فى مراتب الجهاد؛ ولهذا كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه ورسله، فإنه كمل مراتب الجهاد، وجاهد فى الله حق جهاده، وشرع فى الجهاد من حين بعث إلى أن توفاه الله عز وجل، فإنه لما نزل عليه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)** ﴾ [ المدثر ] شمر عن ساق الدعوة، وقام فى ذات الله أتم قيام، ودعا إلى الله ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، ولما نزل عليه: ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ** ﴾ [ الحجر: ٩٤]، فصدع بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، والأحمر والأسود والجن والإنس.

ولما صدع بأمر الله. وصرح لقومه بالدعوة، وناداهم بسب آلهتهم، وعيب دينهم، اشتد أذاهم له، ولمن استجاب له من أصحابه، ونالوه ونالوهم بأنواع الأذى، وهذه سنة الله عز وجل فى خلقه، كما قال تعالى: ﴿ **مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ** ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ** ﴾[ الأنعام: ١١٢]، وقال ﴿ **كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣)** ﴾ [ الذاريات ]

(١) أى: من الحكم المستفادة من قدوم وفد نجران على رسول الله ﷺ.
(٢) زاد المعاد (٣/ ٦٤٣).

فعزى ـ سبحانه ـ نبيه بذلك ،وأن له أسوة بمن تقدمه من المرسلين،وعزى أتباعه بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾ [البقرة ]، وقوله: ﴿ الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [ العنكبوت ] .

فليتأمل العبد سياق هذه الآيات،وما تضمنته من العبر وكنوز الحكم ،فإن الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنا ،وإما ألا يقول ذلك ، بل يستمر على السيئات والكفر ،فمن قال: آمنا ،امتحنه ربه وابتلاه ، وفتنه ، والفتنة :الابتلاء والاختبار، ليتبين الصادق من الكاذب،ومن لم يقل: آمنا ،فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه ، فإنه إنما يطوى المراحل فى يديه.

وكيف يفر المرء عنه بذنبه إذا كان تطوى فى يديه المراحل

فمن آمن بالرسل وأطاعهم ،عاداه أعداؤهم وآذوه ،فابتلى بما يؤلمه وإن لم يؤمن بهم ولم يطعهم ،عوقب فى الدنيا والآخرة ،فحصل له ما يؤلمه ، وكان هذا المؤلم له أعظم ألما وأدوم من ألم اتباعهم ، فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت أو رغبت عن الإيمان ، لكن المؤمن يحصل له الألم فى الدنيا ابتداء ، ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء ،ثم يصير إلى الألم الدائم. وسئل الشافعى ـ رحمه الله: أيما أفضل للرجل،أن يمكن أو يبتلى ؟فقال: لا يمكن حتى يبتلى. والله تعالى ابتلى أولى العزم من الرسل فلما صبروا مكنهم ،فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم

البتة ،وإنما يتفاوت أهل الآلام فى العقول ، فأعقلهم من باع ألما مستمراً عظيماً بألم منقطع يسير، وأشقاهم من باع الألم المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر.

فإن قيل :كيف يختار العاقل هذا ؟ قيل : الحامل له على هذا :النقد والنسيئة.

والنفس موكلة بحب العاجل :

﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ [ القيامة: ٢٠]، ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً﴾ [ الدهر:٢٧]. وهذا يحصل لكل أحد، فإن الإنسان مدنى بالطبع، لابد له أن يعيش مع الناس ،والناس لهم إرادات وتصورات ، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها ،فإن لم يوافقهم ، آذوه وعذبوه ،وإن وافقهم ،حصل له الأذى والعذاب ،تارة منهم ، وتارة من غيرهم ،كمن عنده دين وتقى حل بين قوم فجار ظلمة ،ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم ، أو سكوته عنهم ، فإن وافقهم ،أو سكت عنهم ، سلم من شرهم فى الابتداء ، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء ، لو أنكر عليهم وخالفهم ،وإن سلم منهم ، فلا بد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم ، فالحزم كل الحزم فى الأخذ بما قالت عائشة أم المؤمنين لمعاوية :« من أرضى الله بسخط الناس ، كفاه الله مؤنة الناس ،ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً » (١).

ومن تأمل أحوال العالم ،رأى هذا كثيراً فيمن يعين الرؤساء على أغراضهم الفاسدة ، وفيمن يعين أهل البدع على بدعهم هربًا من عقوبتهم فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه شر نفسه، امتنع من الموافقة على فعل المحرم ،وصبر على عدوانهم، ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة. كما كانت للرسل وأتباعهم، كالمهاجرين،والأنصار ،ومن ابتلى من العلماء، والعباد ، وصالحى الولاة ، والتجار ، وغيرهم.

ولما كان الألم لا محيص منه البتة ، عزى الله ـ سبحانه ـ من اختار الألم اليسير المنقطع على الألم العظيم المستمر بقوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⑤﴾ [ العنكبوت ]،فضرب لمدة هذا الألم أجلاً. لا بد أن يأتى ،وهو يوم لقائه،فيلتذ العبد أعظم اللذة بما تحمل من الألم من أجله ،وفى مرضاته ،وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم فى الله ولله ،وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه ،

(١) الترمذى (٢٤١٤) فى الزهد ، باب : ماجـاء فى حفظ اللسان ، بلفـظ : « من التمس رضاء الله بسخط الناس . . . إلخ »، وابن حبان (١٥٤١ ، ١٥٤٢/ موارد من طريق آخر) .

ليحمل العبد اشتياقه إلى لقاء ربه ووليه على تحمل مشقة الألم العاجل ، بل ربما غيبه الشوق إلى لقائه عن شهود الألم والإحساس به ،ولهذا سأل النبى ﷺ ربه الشوق إلى لقائه ، فقال فى الدعاء الذى رواه أحمد وابن حبان: « اللهم إنى أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق،أحينى إذا كانت الحياة خيرًا لى ،وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى،وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ،وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ،وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء،وأسألك برد العيش بعد الموت،وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة ،ولا فتنة مضلة ، اللهم زيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين » (١).

فالشوق يحمل المشتاق على الجد فى السير إلى محبوبه ، ويقرب عليه الطريق ، ويطوى له البعيد ، ويهون عليه الآلام والمشاق ، وهو من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده ، ولكن لهذه النعمة أقوال وأعمال ،هما السبب الذى تنال به ،والله ـ سبحانه ـ سميع لتلك الأقوال، عليم بتلك الأفعال ،وهو عليم بمن يصلح لهذه النعمة ، ويشكرها، ويعرف قدرها ، ويحب المنعم عليه ، فتصلح عنده هذه النعمة ، ويصلح بها كما قال تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** ﴿٥٣﴾ ﴾ [ الأنعام ] ،فإذا فاتت العبد نعمة من نعم ربه ، فليقرأ على نفسه : ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾ .

ثم عزاهم تعالى بعزاء آخر،وهو أن جهادهم فيه إنما هو لأنفسهم ، وثمرته عائدة عليهم ،وأنه غنى عن العالمين ، ومصلحة هذا الجهاد ، ترجع إليهم ، لا إليه ـ سبحانه ـ ثم أخبر أنه يدخلهم بجهادهم وإيمانهم فى زمرة الصالحين.

ثم أخبر عن حال الداخل فى الإيمان بلا بصيرة ، وأنه إذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس له كعذاب الله ،وهى أذاهم له ، ونيلهم إياه بالمكروه والألم الذى لا بد أن يناله الرسل وأتباعهم ممن خالفهم ،جعل ذلك فى فراره منهم، وتركه السبب الذى ناله ، كعذاب الله الذى فر منه المؤمنون بالإيمان،فالمؤمنون لكمال بصيرتهم،فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان ، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قريب ، وهذا لضعف بصيرته فر من ألم عذاب أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم ،ففر من ألم عذابهم إلى عذاب الله،فجعل ألم فتنة الناس فى الفرار منه ،بمنزلة ألم عذاب الله، وغبن كل الغبن إذ استجار

(١) أحمد (٤/ ٢٦٤) ، وابن حبان (٥٠٩/ موارد ).

من الرمضاء بالنار ،وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد ،وإذا نصر الله جنده وأولياءه ، قال: إنى كنت معكم،والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق.

والمقصود: أن الله ـ سبحانه ـ اقتضت حكمته أنه لا بد أن يمتحن النفوس ويبتليها ، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها ،ومن يصلح لموالاته وكراماته ،ومن لايصلح ، وليمحص النفوس التى تصلح له ويخلصها بكير الامتحان ،كالذهب الذى لا يخلص ولا يصفو من غشه ،إلا بالامتحان ،إذ النفس فى الأصل جاهلة ظالمة ،وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية ، فإن خرج فى هذه الدار ،وإلا ففى كير جهنم ، فإذا هُذِّب العبد ونقى ،أذن فى دخول الجنة (١) .

## فصل
## من فقه الداعية

ومنها (٢): حسن سياسة الوفد وتلطفهم حتى تمكنوا من إبلاغ ثقيف ما قدموا به، فتصوروا لهم بصورة المنكر لما يكرهونه الموافق لهم فيما يهوونه حتى ركنوا إليهم واطمأنوا، فلما علموا أنه ليس لهم بد من الدخول فى دعوة الإسلام أذعنوا ، فأعلمهم الوفد أنهم بذلك قد جاؤوهم ولو فاجؤوهم به من أول وهلة لما أقروا به ولا أذعنوا وهذا من أحسن الدعوة وتمام التبليغ ولا يتأتى إلا مع ألباء الناس وعقلائهم (٣).

## فصل
## فى بعث الإمام الدعاة

ومنها (٤): بعث الإمام الرجل العالم إلى أهل الهدنة فى مصلحة الإسلام ،وأنه ينبغى أن يكون أمينا وهو الذى لاغرض له ولا هوى ، وإنما مراده مجرد مرضاة الله ورسوله لا يشوبها بغيرها ، فهذا هو الأمين حق الأمين، كحال أبى عبيدة بن الجراح (٥).

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١٢ ـ ١٨).

(٢) أى :من الحكم المستفادة من قدوم وفد ثقيف على رسول اللهﷺ.

(٣) زاد المعاد (٣/ ٦٠١).

(٤) أى بين الحكم المستفادة من قدوم وفد نجران على رسول الله ﷺ.

(٥) زاد المعاد (٣/ ٦٤٤).

# كتاب الأذكار

# فصل
# فى فضل الذكر

وقوله ﷺ :«وآمُرُكُم أنْ تَذْكُرُوا اللّه تعالى ، فإنَّ مثل ذلك كمثل رجُل خرج العدوُّ فى أثَره سرَاعاً ،حتى إذا أتى إلى حصن حصين ،فأحرز نفْسهُ منهم ،كذلك العبدُ لا يُحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر اللّه »[١] :فلو لم يكن فى الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة ، لكان حقيقاً بالعبد ألا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى ، وألا يزال لهجاً بذكره، فإن لا يحرز نفسهُ من عدوه إلا بالذكر ،ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة ،فهو يرصده ، فإذا غفل وثب عليه وافترسه ،وإذا ذكر اللّه تعالى انخنس عدو اللّه تعالى وتصاغر ، وانقمع، حتى يكون كالوصع[٢] وكالذباب ،ولهذا سمى ﴿ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤﴾ [الناس] أى يوسوس فى الصدور ، فإذا ذكر الله تعالى خنس ، أى : كف وانقبض .

وقال ابن عباس : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر اللّه تعالى خنس .

وفى « مسند الإمام أحمد » عن عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون ، عن زياد بن أبى زياد مولى عبد الله بن عياش بن أبى ربيعة ، أنه بلغه عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ :« ما عمل آدمى عملا قطُّ أنْجَى لهُ من عذاب اللّه من ذكْر اللّه عزَّ وجلَّ » .

وقال معاذ: قال رسول اللّه ﷺ :« ألا أخبركم بخيْر أعْمالكم وأزكاها عند مليككُم، وأرْفعها فى درجاتكم ،وخيرٌ لكُمْ من إنفاق الذَّهب والفضَّة ،ومنْ أن تلقُوا عدوَّكُمْ فتضربُوا أعناقهُم ، ويضربوا أعناقكم ؟ » ، قالوا : بلى يا رسول اللّه . قال:«ذكرُ اللّه عزَّ وجل »[٣] .

وفى « صحيح مسلم » ،عن أبى هريرة قال: كان رسُولُ اللّه ﷺ يسيرُ فى طريقِ مكة، فمرَّ على جبل يُقال لهُ : جُمْدان،فقال: « سيروا، هذا جمدان ، سبق المُفَرِّدون » . قيل : وما المفرِّدون يا رسول اللّه ؟ قال : « الذَّاكرُون اللّه كثيرا والذاكرات »[٤] .

---

(١) الترمذى ( ٢٨٦٣ ) فى الأدب ، باب: ما جاء فى مثل الصلاة والصيام والصدقة .وقال: «حسن صحيح غريب » .

(٢) طائر أصغر من العصفور .

(٣) أحمد ٥/ ٢٣٩ .

(٤) مسلم ( ٢٦٧٦ / ٤ ) فى الذكر ، باب : الحث على ذكر اللّه .

وفى« السنن » عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :« ما مِن قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله تعالى فيه ، إلا قاموا عن مِثْل جيفة حمارٍ ،وكان عليهم حسرة»(١).

وفى رواية الترمذى :« ما جَلَسَ قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ،ولم يُصَلُّوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرَة ، فإن شاء عذَّبهم ، وإن شاء غفر لهم » (٢).

وفى «صحيح مسلم»،عن الأغرَّ أبى مسلم قال:أشهدُ على أبى هريرة وأبى سعيد، أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال:«لا يقعُدُ قومٌ فى مجلسٍ يذكُرُون الله فيه إلا حَفَّتهم الملائكةُ ،وغَشيتْهُم الرَّحْمةُ ،ونزلتْ عليهمُ السَّكينةُ ،وذكرهُمُ الله فيمنْ عندهُ »(٣).

وفى الترمذى عن عبد الله بن بسر أن رجلا قال: يا رسول الله ، إنَّ أبواب الخيْر كثيرة ،ولا أستطيع القيام بكُلِّها ، فأخبرْنِى بشىءٍ أتشبَّثُ به ، ولا تُكثِرْ علىَّ فأنسى . وفى رواية : إنَّ شرائع الإسلام قدْ كثُرت علىّ ،وأنا قد كبِرْتُ ، فأخبرنى بشىءٍ أتشبَّثُ به . قال:« لا يزالُ لسانُك رطباً بذكر الله تعالى » (٤).

وفى الترمذى أيضا عن أبى سعيد ، أن رسول الله ﷺ سُئل: أىُّ العبادِ أفْضلُ وأرْفَعُ درجةً عِند الله يومَ القيامة ؟ قال: الذَّاكرُون الله كثيرا» ، قيل: يا رسول الله ، ومن الغازِى فى سبيل الله ؟ قال:« لو ضرب بسيفه فِى الكُفار والمُشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله أفْضل منهُ درجةً »(٥) .

وفى « صحيح البخارى» ، عن أبى موسى ، عن النبى ﷺ قال: « مثلُ الذى يذْكُرُ ربَّهُ ، والذى لا يذْكُر ربَّهُ . مثلُ الحىِّ والميت » (٦).

وفى « الصحيحين » عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :« يقُولُ اللهُ تبارك وتعالى : أنا عند حسن ظن عبْدى بى ، وأنا معهُ إذا ذكرنى ،فإنْ ذكرنى فى نفسه ، ذكرتُهُ فى نفسى ، وإنْ ذكرنى فى ملأٍ ، ذكرتُهُ فى ملأٍ خيْر منهُم ،وإنْ تقرَّب إلىّ شبرا تقرَّبتُ

(١) أبو داود ( ٤٨٥٥ ) فى الأدب ، باب : كراهية أن يقوم الرجل من مجلسه ولا يذكر الله .

(٢) الترمذى ( ٣٣٨٠ ) فى الدعوات ، باب : القوم يجلسون ولا يذكرون الله ، وقال: « حسن صحيح » .

(٣) مسلم ( ٢٧٠٠ / ٣٩ ) فى الذكر والدعاء والاستغفار ، باب : فضل الاجتماع على تلاوة القرآن .

(٤) الترمذى ( ٣٣٧٥ ) فى الدعوات ،باب : فضل الذكر ، وقال: « حسن غريب » .

(٥) الترمذى ( ٣٣٧٦ ) فى الدعوات ، باب (٥) ، وقال : « غريب »، وضعفه الألبانى .

(٦) البخارى ( ٦٤٠٧ ) فى الدعوات ، باب : فضل ذكر الله عز وجل .

إليه ذراعا ، وإنْ تقرب إليَّ ذِراعاً ، تقرَّبتُ منْهُ باعاً ، وإذا أتانى يمشى ، أتيتُهُ هرولة » (١).

وفى الترمذى عن أنس ، أن رسول اللّه ﷺ قال: « إذا مررتُم برياض الجنَّة فارتَعُوا » قالوا : يا رسُول اللّه ، وما رياضُ الجنَّة ؟ قال: « حِلقُ الذِّكْر » (٢).

وفى الترمذى أيضاً عن النبى ﷺ، عن اللّه عز وجل أنه يقول : « إنَّ عبْدى كُلَّ عبْدى الذى يذْكرنى وهو مُلاقٍ قرنهُ » (٣).

وهذا الحديث هو فصل الخطاب فى التفضيل بين الذاكر والمجاهد ، فإن الذاكر المجاهد أفضل من الذاكر بلا جهاد والمجاهد الغافل ، والذاكر بلا جهاد أفضل من المجاهد الغافل عن اللّه تعالى .

فأفضل الذاكرين المجاهدون، وأفضل المجاهدين الذاكرون .

قال اللّه تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) ﴾** [ الأنفال ]، فأمرهم بالذكر الكثير والجهاد معاً ، ليكونوا على رجاء من الفلاح، وقد قال تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيراً (٤١) ﴾**[الأحزاب]، وقال تعالى: **﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾**[ الأحزاب: ٣٥ ] أى : كثيراً ، وقال تعالى: **﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾** [ البقرة : ٢٠٠ ] .

ففيه الأمر بالذكر بالكثرة والشدة لشدة حاجة العبد إليه ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فأى لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله عز وجل كانت عليه لا له ، وكان خسرانه فيها أعظم مما ربح فى غفلته عن اللّه .

وقال بعض العارفين : لو أقبل عبد على اللّه تعالى كذا وكذا سنة ، ثم أعرض عنه لحظة، لكان ما فاته أعظم مما حصله .

وذكر البيهقى عن عائشة ، عن النبى ﷺ أنه قال: « ما مِنْ ساعةٍ تَمُرُّ بابْن آدم لا يذْكُر اللّه تعالى فيها إلا تحسَّر عليْها يوم القيامة » (٤).

وذكر عن معاذ بن جبل يرفعه أيضاً : « لَيْس تحسُّرُ أهْل الجنَّة إلا على ساعة مرَّتْ بهم

---

(١) البخارى ( ٧٤٠٥ ) فى التوحيد ، باب : قول الله تعالى: **﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾** [ آل عمران : ٢٨ ] ، ومسلم ( ٢٦٧٥ / ١ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب : الحث على ذكر الله تعالى .

(٢) الترمذى (٣٥٠٩ ) فى الدعوات ، باب ( ٨٣ ) ، وقال: « حسن غريب »، وضعفه الألبانى .

(٣) الترمذى ( ٣٥٨٠ ) فى الدعوات ، باب (١١٩ ) ، وقال : « غريب » ، وضعفه الألبانى

(٤) شعب الإيمان (٥١١ ) باب: فى محبة اللّه عز وجل، فصل : فى إدامة ذكر الله عز وجل ، وقال : « فى هذا الإسناد ضعف غير أن له شواهد من حديث معاذ »، ورواه أبو نعيم فى الحلية ٥/ ٣٦٢ .

لَمْ يذكُرُوا اللّه عزَّ وجل فيها »(١).

وعن أم حبيبة زوج النبى ﷺ قالت: قال رسول اللّه ﷺ: « كلامُ ابن آدم كُلُّه عليه لا له ، إلا أمرًا بمعروف ، أو نهياً عنْ منكرٍ ،أو ذكرا لله عز وجل » (٢).

وعن معاذ بن جبل قال : سألت رسول اللّه ﷺ :أى الأعمال أحب إلى الله عز وجل؟ قال: « أن تموت ولسانك رطب من ذكر اللّه عز وجل »(٣).

وقال أبو الدرداء ﷺ عنه :لكل شىء جلاء ،وإن جلاء القلوب ذكر اللّه عز وجل.

وذكر البيهقى مرفوعا من حديث عبد اللّه بن عمرو ﷺ عن النبى ﷺ أنه كان يقول: « لكُلِّ شىء صقالة ،وإن صقالة القلوب ذكر اللّه عز وجل ،وما من شىء أنجى من عذاب الله عز وجل من ذكر اللّه عز وجل » قالوا: ولا الجهادُ فى سبيل اللّه عز وجل؟ قال: «ولو أن يضرب بسيفه حتى ينقطع» (٤).

ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس الفضة وغيرهما ، وجلاؤه بالذكر ،فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء ، فإذا ترك الذكر صدئ ،فإذا ذكره جلاه .

وصدأ القلب بأمرين : بالغفلة والذنب ،وجلاؤه بشيئين :بالاستغفار والذكر ، فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته ،كان الصدأ متراكباً على قلبه ،وصدؤه بحسب غفلته ،وإذا صدئ القلب ، لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هى عليه ، فيرى الباطل فى صورة الحق ،والحق فى صورة الباطل ؛ لأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم ، فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هى عليه .

فإذا تراكم عليه الصدأ واسود، وركبه الران ، فسد تصوره وإدراكه ، فلا يقبل حقاً ، ولا ينكر باطلاً ،وهذا أعظم عقوبات القلب .وأصل ذلك من الغفلة ،واتباع الهوى،

(١) شعب الإيمان ( ٥١٢ ، ٥١٣ ) فى باب : محبة الله عز وجل ، فصل : فى إدامة ذكر الله عز وجل ، وفيه: « يتحسر» وقال المنذرى فى الترغيب والترهيب (٢/ ٤٠١ ) فى الذكر والدعاء ، باب: الترغيب فى الإكثار من ذكر الله سراً وجهرا : « رواه البيهقى بأسانيد أحدها جيد » . .

(٢) الترمذى ( ٢٤١٢ ) فى الزهد ، باب ( ٦٣ ) ، وقال : « حسن غريب » ، وابن ماجه ( ٣٩٧٤ ) فى الفتن ، باب :كف اللسان فى الفتنة ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٥١٤ ) وضعفه الألبانى .

(٣) الطبرانى فى الكبير ٢٠ / ١٠٦، ١٠٧ ، (٢٠٨ ، ٢١٢ ) ، وكشف الأستار ( ٣٠٥٩ ) ، وابن حبان ( ٨١٥ ) فى الأذكار ، باب ، ذكر أن المداومة على ذكر الله أحب الأعمال إلى الله ،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٧٧) فى الأذكار ، باب: فضل ذكر الله تعالى والإكثار منه :«رواه الطبرانى بأسانيد ، وفى هذه الطريق : خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أبى مالك ، وضعفه جماعة، ووثقه أبو زرعة الدمشقى وغيره،وبقية رجاله ثقات،ورواه البزار من غير طريقه وإسناده حسن » .

(٤) شعب الإيمان ( ٥٢٢) ،باب : فى محبة الله عز وجل ،فصل : فى إدامة ذكر الله عز وجل وفيه ،سقالة بالسين بدل الصاد.

فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾[ الكهف ] .

فإذا أراد العبد أن يقتدى برجل فلينظر : هل هو من أهل الذكر ، أو من الغافلين ؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحى ؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة،وأمره فرط ،لم يقتد به ، ولم يتبعه فإنه يقوده إلى الهلاك .

ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع، أى : أمره الذى يجب أن يلزمه ويقوم به وبه رشده وفلاحه ضائع قد فرط فيه ، وفسر بالإسراف ، أى :قد أفرط ،وفسر بالهلاك ،وفسر بالخلاف للحق . وكلها أقوال متقاربة .

والمقصود أن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات ،فينبغى للرجل أن ينظر فى شيخه وقدوته ومتبوعه ، فإن وجده كذلك فليبعد عنه ،وإن وجده ممن غلب عليه ذكر اللّه تعالى واتباع السنة ، وأمره غير مفروط عليه ، بل هو حازم فى أمره ، فليتمسك بعروته ،ولا فرق بين الحى الميت إلا بالذكر ، فمثل الذى يذكر ربه ، والذى لا يذكر ربه ،كمثل الحى والميت .

وفى « المسند » مرفوعاً :« أكثروا من ذكر اللّه تعالى حتى يقال :مجنون » (١) (٢).

# فصل
## فى المداومة على ذكر اللّه عز وجل

قال بعض السلف : إن اللّه يجب أن يذكر على الأحوال إلا فى حال الجماع وقضاء الحاجة . وأوحى اللّه عز وجل إلى موسى ﷺ أن اذكرنى على جميع أحوالك ،واللّه تعالى لا يضيع أجر ذكر اللسان المجرد ،بل يثيب الذاكر وإن كان قلبه غافلاً . ولكن ثواب دون ثواب (٣).

وسأله ﷺ رجل فقال: إن شرائع الإسلام قد كثرت على فأوصنى بشىء أتشبث به، فقال: « لا يزال لسانك رطبا من ذكر اللّه »(٤) ذكره أحمد (٥).

---

(١) أحمد ٣/٦٨ ، ٧١ ، وضعفه الألبانى .
(٢) الوابل الصيب ( ٧٢ ـ ٨٣ ) .
(٣) روضة المحبين ( ٣٠٩ ) .
(٤) أحمد ٤ / ١٨٨ .
(٥) إعلام الموقعين ( ٤/٤٠٢ ) .

## فصل
## فى مكان الذكر والشكر

مبنى الدين على قاعدتين : الذكر والشكر ، قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾ [ البقرة ] .

وقال النبى ﷺ لمعاذ : « والله إنى لأحبك ، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك »(١) ، وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان بل الذكر القلبى واللسانى .وذكره يتضمن ذكر أسمائه وصفاته وذكر أمره ونهيه وذكره بكلامه،وذلك يستلزم معرفته والإيمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثناء عليه بأنواع المدح . وذلك لا يتم إلا بتوحيده . فذكره الحقيقى يستلزم ذلك كله ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه .

وأما الشكر فهو القيام له بطاعته والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهرا وباطنا ،وهذان الأمران هما جماع الدين ،فذكره مستلزم لمعرفته وشكره، متضمن لطاعته ،وهذان هما الغاية التى خلق لأجلها الجن والإنس والسموات والأرض،ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكتب،وأرسل الرسل،وهى الحق الذى به خلقت السموات والأرض وما بينهما، وضدها هو الباطل والعبث الذى يتعالى ويتقدس عنه،وهو ظن أعدائه به. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[ ص: ٢٧] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾[الدخان]، وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ ﴾ [ الحجر: ٨٥ ].

وقال بعد ذكر آياته فى أول سورة يونس: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ [ يونس: ٥ ]. وقال : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) ﴾ [القيامة ]،وقال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [ المؤمنون ]،وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات] ، ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ

---

(١) أبو داود ( ١٥٢٢ ) فى الصلاة ، باب : فى الاستغفار ،وأحمد (٥/ ٢٤٥) ،والنسائى فى الكبرى ( ٩٩٣٧ ) فى عمل اليوم والليلة ، باب :الحث على قول :« رب أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » دبر الصلوات، والحاكم فى المستدرك ١/ ٢٧٣ وقال :« صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى.

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾[ الطلاق]، وقال: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾[ المائدة ].

فثبت بما ذكر أن غاية الخلق والأمر أن يذكر وأن يشكر ، يذكر فلا ينسى ،ويشكر فلا يكفر، وهو سبحانه ذاكر لمن ذكره ،شاكر لمن شكره ، فذكره سبب كذكره ، وشكره سبب لزيادته من فضله ،فالذكر للقلب واللسان ،والشكر للقلب محبة وإنابة،وللسان ثناء وحمد، وللجوارح طاعة وخدمة [١].

# فصل
## فى فوائد الذكر

وفى الذكر نحو من مائة فائدة :

**إحداها** : أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره .

**الثانية** : أنه يرضى الرحمن عز وجل .

**الثالثة** : أنه يزيل الهم والغم عن القلب.

**الرابعة** : أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط .

**الخامسة** : أنه يقوى القلب والبدن.

**السادسة** :أنه ينوّر الوجه والقلب.

**السابعة** : أنه يجلب الرزق .

**الثامنة** : أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة.

**التاسعة** :أنه يورثه المحبة التى هى روح الإسلام ،وقطب رحى الدين ،ومدار السعادة والنجاة .وقد جعل اللّه لكل شيء سبباً ،وجعل سبب المحبة دوام الذكر ،فمن أراد أن ينال محبة اللّه عز وجل ، فليلهج بذكره، فإنه الدرس والمذاكرة كما أنه باب العلم، فالذكر باب المحبة ، وشارعها الأعظم ، وصراطها الأقوم .

(١) الفوائد ( ١٧٤ ـ ١٧٦ ) .

**العاشرة** : أنه يورثه المراقبة حتى يدخله فى باب الإحسان ، فيعبد اللّه كأنه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان ، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت.

**الحادية عشرة** :أنه يورثه الإنابة،وهى الرجوع إلى اللّه عز وجل ، فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره ،أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه فى كل أحواله،فيبقى الله عز وجل مفزعه وملجأه، وملاذه ومعاذه وقبلة قلبه ومهربه عند النوازل والبلايا .

**الثانية عشرة** : أنه يورثه القرب منه ، فعلى قدر ذكره للّه عز وجل يكون قربه منه ، وعلى قدر غفلته يكون بعده منه .

**الثالثة عشرة** : أنه يفتح له بابا عظيما من أبواب المعرفة ، وكلما أكثر من الذكر ازداد من المعرفة .

**الرابعة عشرة** : أنه يورثه الهيبة لربه عز وجل وإجلاله ، لشدة استيلائه على قلبه وحضوره مع اللّه تعالى، بخلاف الغافل ، فإن حجاب الهيبة رقيق فى قلبه .

**الخامسة عشرة** : أنه يورثه ذكر اللّه تعالى له ، كما قال تعالى: ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم** ﴾ [ البقرة:١٥٢]، ولو لم يكن فى الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلا وشرفاً .

وقال ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى :« من ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خيرٍ منهم »(١) .

**السادسة عشرة** : أنه يورث حياة القلب ، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله تعالى روحه ـ يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك ، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء ؟

**السابعة عشرة** : أنه قوت القلب والروح ، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته .

وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ، ثم جلس يذكر اللّه تعالى إلى قريب من انتصاف النهار ، ثم التفت إلىّ وقال: هذه غدوتى ولو لم أتغذّ هذا الغذاء سقطت قوتى ، أو كلاما قريبا من هذا . وقال لى مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسى وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر ، أو كلاما هذا معناه .

**الثامنة عشرة** : أنه يورث جلاء القلب من صدئه ،وكل شىء له صدأ ، وصدأ القلب

---

(١) سبق تخريجه ص ١٧٨ .

الغفلة والهوى، وجلاؤه الذكر والتوبة والاستغفار.

**التاسعة عشرة**: أنه يحط الخطايا ويذهبها ، فإنه من أعظم الحسنات ، والحسنات يذهبن السيئات .

**العشرون**: أنه يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى ، فإن الغافل بينه وبين الله عز وجل وحشة لا تزول إلا بالذكر.

**الحادية والعشرون**: أن ما يذكر به العبد ربه عز وجل من جلاله وتسبيحه وتحميده ، يذكر بصاحبه عند الشدة ، فقد روى الإمام أحمد فى « المسند » عن النبى ﷺ أنه قال: «إن ما تذكرون من جلال الله عز وجل من التهليل والتكبير والتحميد يتعاطفن حول العرش لهُن دوى كدوى النحل يذكرن بصاحبهن ، أفلا يحب أحدكم أن يكون له ما يذكر به »[١] ؟ هذا الحديث أو معناه .

**الثانية والعشرون** :أن العبد إذا تعرف إلى الله تعالى بذكره فى الرخاء ،عرفه فى الشدة،وقد جاء أثر معناه : أن العبد المطيع الذاكر لله تعالى، إذا أصابته شدة أو سأل الله تعالى حاجة ،قالت الملائكة: يا رب صوت معروف ،من عبد معروف . والغافل المعرض عن الله عز وجل إذا دعاه وسأله ، قالت الملائكة: يا رب ، صوت منكر ،من عبد منكر.

**الثالثة والعشرون**:أنه منجاة من عذاب الله تعالى،كما قال معاذ رضي الله عنه. ويروى مرفوعاً:« ما عمل آدمى عملا أنجى له من عذاب الله عز وجل من ذكر الله تعالى »[٢].

**الرابعة والعشرون**:أنه سبب نزول السكينة، وغشيان الرحمة ،وحفوف الملائكة بالذاكر كما أخبر به النبى ﷺ[٣] .

**الخامسة والعشرون**:أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة،والكذب ، والفحش، والباطل ، فإن العبد لا بد له من أن يتكلم ، فإن لم يتكلم بذكر الله تعالى وذكر أوامره ، تكلم بهذه المحرمات أو بعضها ، ولا سبيل إلى السلامة منها البتة إلا بذكر الله تعالى .

والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك ، فمن عوّد لسانه ذكر الله ، صان لسانه عن الباطل واللغو، ومن يبس لسانه عن ذكر الله تعالى ، ترطّب بكل باطل ولغو وفحش ،ولا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) أحمد ( ٤ / ٢٦٨ ، ٢٧١ ) .

(٢) سبق تخريجه ص ١٧٧ .

(٣) سبق تخريجه ص ١٧٨ .

**السادسة والعشرون** :أن مجالس الذكر مجالسة الملائكة ، ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين، فليتخيّر العبد أعجبهما إليه، وأولاهما به ، فهو مع أهله فى الدنيا والآخرة.

**السابعة والعشرون** : أنه يسعد الذاكر بذكره ، ويسعد به جليسه ، وهذا هو المبارك أين ما كان، والغافل واللاغى يشقى بلغوه وغفلته ، ويشقى به مجالسه .

**الثامنة والعشرون** : أنه يؤمِّن العبد من الحسرة يوم القيامة ، فإن كان مجلس لا يذكر العبد فيه ربه تعالى كان عليه حسرة وترة يوم القيامة .

**التاسعة والعشرون** : أنه مع البكاء فى الخلوة سبب لإظلال الله تعال العبد يوم الحرّ الأكبر فى ظل عرشه، والناس فى حر الشمس قد صهرتهم فى الموقف ،وهذا الذاكر مستظل بظل عرش الرحمن عز وجل .

**الثلاثون** : أن الاشتغال به سبب لعطاء اللّه للذاكر أفضل ما يعطى السائلين ، ففى الحديث عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللّه ﷺ :« قال سبحانه وتعالى: من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »[١] .

**الحادية والثلاثون** : أنه أيسر العبادات ، وهو من أجلها وأفضلها ، فإن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها ، ولو تحرك عضو من الإنسان فى اليوم والليلة بقدر حركة لسانه لشق عليه غاية المشقة ، بل لا يمكنه ذلك .

**الثانية والثلاثون** : أنه غراس الجنة ، فقد روى الترمذى فى « جامعه » من حديث عبد اللّه بن مسعود قال : قال رسول اللّه ﷺ :« لقيتُ ليلة أسرى بى إبراهيم الخليل عليه السلام فقال: يا محمد ، أقْرئْ أمتك منى السلام ،وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ،عذبة الماء، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان اللّه ، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه اللّه أكبر »[٢]. قال الترمذى: حديث حسن غريب من حديث ابن مسعود .

وفى الترمذى من حديث أبى الزبير ،عن جابر عن النبى ﷺ قال:« من قال : سبحان الله وبحمده ، غرست له نخلة فى الجنة»[٣] . قال الترمذى :حديث حسن صحيح.

---

(١) الترمذى ( ٢٩٢٦ ) بلفظ : « من شغله القرآن عن ذكرى » فى فضائل القرآن ، باب ( ٢٥ ) ، وقال : « حسن غريب » ، والدارمى ( ٢/٤٤١ ) فى فضائل القرآن ، باب: فضل كلام اللّه على سائر الكلام . كلاهما عن أبى سعيد الخدرى . وضعفه الألبانى .

(٢) الترمذى ( ٣٤٦٢ ) فى الدعوات ، باب ( ٥٩ ) ،وصححه الألبانى .

(٣) الترمذى ( ٢٤٦٤ ) فى الدعوات ، باب ( ٦٠ ) ،وقال : « حسن صحيح غريب ». و( ٢٤٦٥ ) وقال :«حسن غريب » .

**الثالثة والثلاثون** :أن العطاء والفضل الذى رتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال.

ففى « الصحيحين » عن أبى هريرة رضي الله عنه ،أن رسول الله ﷺ قال:« من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ،فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة ،ومحيت عنه مائة سيئة،وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى،ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه،ومن قال:سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» (١).

وفى صحيح مسلم » عن أبى هريرة قال:قال رسول الله ﷺ: « لأن أقول : سبحان الله والحمد لله ،ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إلى مما طلعت عليه الشمس » (٢).

وفى الترمذى من حديث أنس ،أن رسول الله ﷺ قال:« من قال حين يصبح أو يمسى:اللهم إنى أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك ،وملائكتك ،وجميع خلقك ، أنك أنت الله لا إله إلا أنت ،وأن محمد عبدك ورسولك ،أعتق الله ربعه من النار ،ومن قالها مرتين أعتق الله نصفه من النار،ومن قالها ثلاثا، أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار،ومن قالها أربعا ،أعتقه الله تعالى من النار »(٣).

وفيه عن ثوبان، أن رسول الله ﷺ قال:« من قال حين يمسى وإذا أصبح: رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينا ،وبمحمد ﷺ رسولا ، كان حقا على الله أن يرضيه » (٤).

وفى الترمذى :« من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت ،وهو حى لا يموت بيده الخير، وهو على كل شىء قدير ،كتب الله له ألف ألف حسنة ،ومحا عنه ألف ألف سيئة ، ورفع له ألف ألف درجة » (٥).

**الرابعة والثلاثون** : أن دوام ذكر الرب تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه الذى هو

---

(١) البخارى ( ٦٤٠٣ ) فى الدعوات ،باب : فضل التهليل ، ومسلم ( ٢٦٩١ / ٢٨ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : فضل التهليل والتسبيح والدعاء ، واللفظ له .

(٢) مسلم ( ٢٦٩٥ / ٣٢ ) فى الكتاب والباب السابقين .

(٣) أبو داود ( ٥٠٦٩ ) فى الأدب، باب :ما يقول إذا أصبح ،ورواية الترمذى غير الرواية المذكورة وهى بلفظ:«من قال حين يصبح : اللهم أصبحنا نشهدك ونشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك بأنك لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك ،إلا غفر له ما أصاب فى يومه ذلك ، وإن قالها حين يمسى غفر الله له ما أصاب فى تلك الليلة من ذنب » .

(٤) الترمذى ( ٣٣٨٩ ) فى الدعوات ،باب : ما جاء فى الدعوات إذا أصبح وإذا أمسى وقال : «حسن غريب » ، وضعفه الألبانى .

(٥) الترمذى ( ٣٤٢٨ ) فى الدعوات ، باب : ما يقول إذا دخل السوق ، وقال: « غريب » .

سبب شقاء العبد فى معاشه ومعاده ، فإن نسيان الرب ـ سبحانه وتعالى ـ يوجب نسيان نفسه ومصالحها ،قال تعالى: **﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩)﴾** [ الحشر ] .

وإذا نسى العبد نفسه ،أعرض عن مصالحها ونسيها،واشتغل عنها ،فهلكت وفسدت ولا بد، كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذلك مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه ، فأهمله ونسيه ، واشتغل عنه بغيره ، وضيع مصالحه ، فإنه يفسد ولا بد .

هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه ، فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها ، واشتغل عن مصالحها ، وعطّل مراعاتها ، وترك القيام عليها بما يصلحها ؟ فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان، وهذا هو الذى صار أمره كله فرطاً فانفرط عليه أمره، وضاعت مصالحه ، وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك، ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى واللهج به، وألا يزال اللسان رطبا به ،وأن ينزله منزلة حياته التى لا غنى له عنها ،ومنزلة غذائه الذى إذا فقده فسد جسمه وهلك ، وبمنزلة الماء عند شدة العطش ، وبمنزلة اللباس فى الحر والبرد ، وبمنزلة الكن فى شدة الشتاء والسموم .

فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم ،فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده ؟ هذا هلاك لا بد منه ، وقد يعقبه صلاح الأبد ،وأما هلاك القلب والروح ،فهلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح ،ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ولو لم يكن فى فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها ، لكفى بها فمن نسى الله تعالى أنساه نفسه فى الدنيا ،ونسيه فى العذاب يوم القيامة .قال تعالى: **﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٥) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦)﴾**[ طه ]، أى تنسى فى العذاب كما نسيت آياتنا : فلم تذكرها ولم تعمل بما فيها .

وإعراضه عن ذكره يتناول إعراضه عن الذكر الذى أنزله ،وهو كتابه ،وهو المراد بتناول إعراضه عن أن يذكر ربه بكتابه ،وأسمائه وصفاته وأوامره وآلائه ،ونعمه فإن هذه كلها توابع إعراضه عن كتاب ربه تعالى ، فإن الذكر فى الآية إما مصدر مضاف إلى معموله الذى هو المذكور ،وإما اسم مضاف إلى الفاعل ، أو مضاف إضافة الأسماء المحضة ، أى: من

أعرض عن كتابى ولم يتله، ولم يعمل به ، ولا فهمه ، فإن حياته ومعيشته لا تكون إلا مضيقة عليه منكدة معذبا فيها .

والضنك : الضيق والشدة والبلاء . ووصف المعيشة نفسها بالضنك مبالغة ، وفسرت هذه المعيشة بعذاب البرزخ ، والصحيح: أنها تتناول معيشته فى الدنيا وعذابه فى البرزخ ، فإنه يكون فى ضنك فى الدارين ، وهو شدة وجهد وضيق . وفى الآخرة يَنسى فى العذاب. وهذا عكس أهل السعادة والفلاح، فإن حياتهم فى الدنيا أطيب الحياة، ولهم فى البرزخ وفى الآخرة أفضل الثواب .

قال تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** ﴾[النحل: ٩٧] ، فهذا فى الدنيا ، ثم قال: ﴿**وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (٩٧)﴾[النحل] ، فهذا فى البرزخ والآخرة . قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** (٤١)﴾[ النحل ]، وقال تعالى: ﴿ **وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾، فهذا فى الدنيا، قال: ﴿**وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ** ﴾ [ هود : ٣ ]، فهذا فى الآخرة .

وقال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** (١٠) ﴾ [ الزمر ] .

فهذه أربعة مواضع ذكر تعالى فيها أنه يجزى المحسن بإحسانه جزاءين :جزاءً فى الدنيا، وجزاءً فى الآخرة . فالإحسان له جزاءٌ معجَّل ولا بد ، والإساءة لها جزاء معجل ولا بد .

ولو لم يكن إلا ما يجازى به المحسن : من انشراح صدره وانفساح قلبه وسروره، ولذته بمعاملة ربه عز وجل ، وطاعته ، وذكره ، ونعيم روحه بمحبته وذكره ، وفرحه بربه ـ سبحانه وتعالى ـ أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه .

وما يجازى به المسيء :من ضيق الصدر ، وقسوة القلب، وتشتته ، وظلمته، وحزازته ، وغمه . وهمه، وحَزنه ، وخوفه، وهذا أمر لا يكاد من له أدنى حس وحياة يرتاب فيه ، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق : عقوبات عاجلة ، ونار دنيوية ، وجهنم حاضرة.

والإقبال على الله تعالى ، والإنابة إليه ، والرضا به وعنه ، وامتلاء القلب من محبته، واللهج بذكره ، والفرح والسرور بمعرفته : ثواب عاجل ، وجنة، وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة .

وقال لى مرة : ما يصنع أعدائى بى ؟ أنا جنتى وبستانى فى صدرى ، إن رحت فهى معى لا تفارقنى ، إن حبسى خلوة ، وقتلى شهادة ، وإخراجى من بلدى سياحة .

وكان يقول فى محبسه فى القلعة : لو بذلت لهم ملء هذه القلعة ذهبا ما عدل عندى شكر هذه النعمة ، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لى فيه من الخير ، ونحو هذا .

وكان يقول فى سجوده وهو محبوس : « اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » ما شاء الله .

وقال لى مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه .

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) ﴾ [ الحديد ] .

وعلم الله ما رأيت أحدا أطيب عيشا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش ، وخلاف الرفاهية والنعيم ، بل ضدها ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشا ، وأشرحهم صدرا ، وأقواهم قلبا، وأسرَّهم نفسا ، تلوح نضرة النعيم على وجهه .

وكنا إذا اشتد بنا الخوف ، وساءت منا الظنون ، وضاقت بنا الأرض، أتيناه ، فما هو إلا أن نراه ، ونسمع كلامه ، فيذهب ذلك كله عنا وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة .

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه ، وفتح لهم أبوابها فى دار العمل ، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها .

وكان بعض العارفين يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه ، لجالدونا عليه بالسيوف .

وقال آخر: مساكين أهل الدنيا ، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال : محبة الله تعالى ومعرفته وذكره ، أو نحو هذا .

وقال آخر : إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا .

وقال آخر : إنه لتمر بى أوقات أقول: إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب .

فمحبة اللّه تعالى معرفته، ودوام ذكره ،والسكون إليه ،والطمأنينة إليه، وإفراده بالحب، والخوف ،والرجاء ،والتوكل ،والمعاملة ، بحيث يكون هو وحده المستولى على هموم العبد وعزماته وإرادته ، هو جنة الدنيا ، والنعيم الذى لا يشبهه نعيم ،وهو قرة عين المحبين ، وحياة العارفين .

وإنما تقر أعين الناس بهم على حسب قرة أعينهم بالله عز وجل، فمن قرت عينه باللّه ، قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه باللّه ، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات .

وإنما يصدق بهذه الأمور من فى قلبه حياة ،وأما ميت القلب، فيوحشُك ما له ثم ، فاستأنس بغيبته ما أمكن ، فإنك لا يوحشك إلا حضوره عندك، فإذا ابتليت به فأعطه ظاهرك ، وترحل عنه بقلبك ، وفارقه بسرك ،ولا تشغل به عما هو أولى بك .

واعلم أن الحسرة كل الحسرة الاشتغال بمن لا يجر عليك الاشتغال به إلا فوت نصيبك وحظك من اللّه عز وجل ، وانقطاعك عنه وضياع وقتك عليك وشتات قلبك ، وضعف عزيمتك ، وتفرق همك .

فإذا بليت بهذا ـ ولا بد لك منه ـ فعامل الله تعالى فيه ، واحتسب عليه ما أمكنك، وتقرب إلى اللّه تعالى بمرضاته فيه ، واجعل اجتماعك به متجرا لك ، لا تجعله خسارة ، وكن معه كرجل سائر فى طريقه عرض له رجل أوقفه عن سيره ، فاجتهد أن تأخذه معك وتسير به ، فتحمله ولا يحملك ، فإن أبى ولم يكن فى سيره مطمع ، فلا تقف معه بل اركب الدرب ، ودعه ولا تلتفت إليه ،فإنه قاطع الطريق ولو كان من كان ، فانج بقلبك ، وضن بيومك وليلتك ، لا تغرب عليك الشمس قبل وصول المنزلة ،فتؤخذ أو يطلُعُ عليك الفجر وأنت فى المنزلة ، فتسير الرفاق فتصبح وحدك ، وأنى لك بلحاقهم .

**الخامسة والثلاثون** : أن الذكر يسير العبد وهو قاعد على فراشه، وفى سوقه ، وفى حال صحته وسقمه ،وفى حال نعيمه ولذته ، ومعاشه وقيامه وقعوده واضطجاعه وسفره وإقامته ،فليس فى الأعمال شىء يعم الأوقات والأحوال مثله،حتى إنه يسير العبد وهو نائم على فراشه ، فيسبق القائم مع الغفلة ، فيصبح هذا النائم وقد قطع الركب وهو مستلق على فراشه ، ويصبح ذلك القائم الغافل فى ساقة الركب ،وذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء.

وحكى : عن رجل من العُباد أنه نزل برجل من العباد ضيفا ، فقام العابد ، ليله يصلى، وذلك الرجل مستلق على فراشه ، فلما أصبحا قال له العابد : سبقك الركب ، أو كما قال ، قال: ليس الشأن فيمن بات مسافراً وأصبح مع الركب ،الشأن فيمن بات على فراشه وأصبح قد قطع الركب .

وهذا ونحوه له محمل صحيح، ومحمل فاسد ، فمن حمله على أن الراقد المضطجع على فراشه يسبق القائم القانت ، فهو باطل ، وإنما محمله أن هذا المستلقى على فراشه علق قلبه بربه عز وجل ، وألصق حبة قلبه بالعرش ، وبات قلبه يطوف حول العرش مع الملائكة ، قد غاب عن الدنيا ومن فيها ، وقد عاقه عن قيام الليل عائق من وجع أو برد يمنعه القيام ، أو خوف على نفسه من رؤية عدو يطلبه ، أو غير ذلك من الأعذار ، فهو مستلق على فراشه ، وفى قلبه ما اللّه تعالى به عليم .

وآخر قائم يصلى ويتلو ،وفى قلبه من الرياء والعجب ، وطلب الجاه ،والمحمدة عند الناس ، ما اللّه به عليم ، أو قلبه فى وادٍ ،وجسمه فى واد ، فلا ريب أن ذلك الراقد يصبح وقد سبق هذا القائم بمراحل كثيرة ، فالعمل على القلوب ، لا على الأبدان ، والمعوّل على الساكن ، لا على الأطلال ، والاعتبار بالمحرك الأول ، فالذكر يثير العزم الساكن ، ويهيج الحب المتوارى ، ويبعث الطلب المبيت .

**السادسة والثلاثون** : أن الذكر نور للذاكر فى الدنيا ،ونور له فى قبره ، ونور له فى معاده ، يسعى بين يديه على الصراط ، فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر اللّه تعالى .

قال اللّه تعالى : **﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾** [ الأنعام: ١٢٢] .فالأول هو المؤمن استنار بالإيمان باللّه ومحبته ومعرفته وذكره ، والآخر هو الغافل عن اللّه تعالى ،المعرض عن ذكره ومحبته ، والشأن كل الشأن ، والفلاح كل الفلاح ، فى النور، والشقاء كل الشقاء فى فواته .

ولهذا كان النبى ﷺ يبالغ فى سؤال ربه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعله فى لحمه ، وعظامه ، وعصبه ، وشعره ، وبشره ، وسمعه ، وبصره ، ومن فوقه ،ومن تحته ، وعن يمينه ، وعن شماله ، وخلفه، وأمامه ، حتى يقول: « واجعلنى نورا» (١)، فسأل ربه تبارك وتعالى أن يجعل النور فى ذراته الظاهرة والباطنة،وأن يجعله محيطا به من جميع جهاته ، وأن يجعل ذاته ،وجملته نوراً .

---

(١) مسلم ( ٧٦٣ / ١٨٧ ) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : الدعاء فى صلاة الليل وقيامه .

فدين الله عز وجل نور ، وكتابه نور ، ورسوله نور ،وداره التى أعدها لأوليائه نور يتلألأ ، وهو تبارك وتعالى نور السموات والأرض، ومن أسمائه النور ، وأشرقت الظلمات لنور وجهه.

وفى دعاء النبى ﷺ يوم الطائف: « أعُوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ،أن يحل علىّ غضبك ، أو ينزل بى سخطك ،لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » [١].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه :ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات والأرض من نور وجهه،وفى بعض ألفاظ هذا الأثر: نور السموات من نور وجهه ،ذكره عثمان الدارمى، وقد قال تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [ الزمر :٦٩ ].

فإذا جاء تبارك وتعالى يوم القيامة للفصل بين عباده ،وأشرقت بنوره الأرض ، وليس إشراقها يومئذ بشمس ولا قمر ،فإن الشمس تكوّر ،والقمر يخسف ،ويذهب نورهما ، وحجابه تبارك وتعالى النور .

قال أبو موسى ؛ قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: « إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، ولكنه يخفض القسط ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[٢] .

ثم قرأ أبو عبيدة : ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [ النمل : ٨ ] .

فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه ،ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى إليه بصره . ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل ،وكشف من الحجاب شيئا يسيراً ، ساخ الجبل فى الأرض ، وتدكدك ،ولم يقم لربه تبارك وتعالى .

وهذا معنى قول ابن عباس فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾[ الأنعام: ١٠٣] قال : ذلك الله عز وجل ،إذا تجلى بنوره لم يقم له شىء . وهذا من بديع فهمه رضى الله تعالى عنه،ودقيق فطنته،كيف لا ؟! وقد دعا له رسول الله ﷺ أن يعلمه الله التأويل .

---

(١) الطبرانى فى الكبير ٢٥ / ٣٤٦ ، وقال الهيثمى فى المجمع ( ٦/ ٣٥ ) فى المغازى والسير ، باب خروج النبى ﷺ إلى الطائف وعرضه نفسه على القبائل : « فيه ابن إسحاق ، وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات» .

(٢) مسلم ( ١٧٩/٢٩٣) فى الإيمان ، باب : فى قوله :« نور أنى أراه » ،وابن ماجه ( ١٩٥ ) فى المقدمة ، باب: فيما أنكرت الجهمية ، وأحمد ( ٤/ ٤٠٥ ) .

فالرب تبارك وتعالى يرى يوم القيامة بالأبصار عيانا ،ولكن يستحيل إدراك الأبصار له وإن رأته، فالإدراك أمر وراء الرؤية ، وهذه الشمس ـ ولله المثل الأعلى ـ نراها ندركها كما هى عليه ،ولا قريبا من ذلك، ولذلك قال ابن عباس لمن سأله عن الرؤية وأورد عليه ﴿ **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ** ﴾ فقال :ألست ترى السماء قال: بلى،قال : أفتدركها ؟قال: لا، قال : فالله تعالى أعظم وأجل .

وقد ضرب سبحانه وتعالى النور فى قلب عبده مثلا لا يعقله إلا العالمون ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)** ﴾[ النور ] .

قال أبى بن كعب : مثل نوره فى قلب المسلم ،وهذا هو النور الذى أودعه فى قلبه من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره ،وهو نوره الذى أنزله إليهم ، فأحياهم به ، وجعلهم يمشون به بين الناس،وأصله فى قلوبهم ،ثم تقوى مادته ، فتتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم ، بل وثيابهم ودورهم ، يبصره من هو من جنسهم ، وسائر الخلق له منكرون ، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور ، وصار بإيمانهم يسعى بين أيديهم فى ظلمة الجسر حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه فى قلوبهم فى الدنيا ، فمنهم من نوره كالشمس ، وآخر كالقمر ،وآخر كالنجم ، وآخر كالسراج ، وآخر يعطى نورا على إبهام قدمه ، يضىء مرة ، ويطفأ أخرى ، إذا كانت هذه حال نوره فى الدنيا ، فأعطى على الجسر بمقدار ذلك ، بل هو نفس نوره ظهر له عيانا ، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت فى الدنيا ، بل كان نوره ظاهراً ، لا باطناً ، أعطى نوراً ظاهراً مآله إلى الظلمة والذهاب .

وضرب الله عز وجل لهذا النور ،ومحله ، وحامله ،ومادته مثلا بالمشكاة ،وهى الكُوّة فى الحائط ، فهى مثل الصدر ،وفى تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج ، وحتى شبّهت بالكوكب الدُّرِّىّ فى بياضه وصفائه ،وهى مثل القلب ،وشبهت بالزجاجة ؛ لأنها جمعت أوصافا هى فى قلب المؤمن ،وهى : الصفاء ، والرقة ، والصلابة ، فيرى الحق والهدى بصفائه ،وتحصل منه الرأفة والرحمة ،والشفقة برقّته ،ويجاهد أعداء الله تعالى ، ويغلظ عليهم،ويشتد فى الحق ،ويصلب فيه بصلابته ،ولا تبطل صفة منه صفة أخرى،ولا

تعارضها ،بل تساعدها وتعاضدها ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[ الفتح:٢٩]،وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[ آل عمران: ١٥٩] ، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٣ ] .

وفى أثر :« القلوب آنية اللّه تعالى فى أرضه ، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها ».

وبإزاء هذا القلب مذمومان فى طرفى نقيض . أحدهما : قلب حجرى قاس لا رحمة فيه ، ولا إحسان ولا برّ ، ولا له صفاء يرى به الحق ، بل هو جبار جاهل . لا عالم بالحق .ولا راحم بالخلق .وبإزائه قلب ضعيف مائى ، لا قوة فيه ، ولا استمساك ، بل يقبل كل صورة ، وليس له قوة حفظ تلك الصور ، ولا قوة التأثير فى غيره ،وكل ما خالطه أثر فيه ، من قوى وضعيف ، وطيب وخبيث . وفى الزجاجة مصباح ، وهو النور الذى فى الفتيلة ، وهى حاملته ، ولذلك النور مادة ، وهو زيت قد عصر من زيتونة فى أعدل الأماكن تصيبها الشمس أول النهار وآخره فزيتها من أصفى الزيت وأبعده من الكدر،حتى إنه ليكاد من صفائه يضىء بلا نار ، فهذه مادة نور المصباح .

وكذلك مادة نور المصباح الذى فى قلب المؤمن ، هو من شجرة الوحى التى هى أعظم الأشياء بركة ، وأبعدها من الانحراف ، بل هى أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها ،لم تنحرف انحراف النصرانية ،ولا انحراف اليهودية ، بل هى وسط بين الطرفين المذمومين فى كل شىء ، فهذه مادة مصباح الإيمان فى قلب المؤمن .

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضىء بنفسه ، ثم خالط النار ، فاشتدت بها إضاءته، وقويت مادة ضوء النار به ، كان ذلك نوراً على نور .

وهكذا المؤمن قلبه مضىء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ، ولكن لا مادة له من نفسه، فجاءت مادة الوحى ، فباشرت قلبه، وخالطت بشاشته ، فازداد نوراً بالوحى على نوره الذى فطره اللّه تعالى عليه ، فاجتمع له نور الوحى إلى نور الفطرة ، فصار نورا على نور ،فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثرا ، ثم يسمع الأثر مطابقا لما شهدت به فطرته، فيكون نوراً على نور ، فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملا ، ثم يسمع الأثر جاء به مفصلا ، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحى والفطرة .

فليتأمل اللبيب هذه الآية العظيمة ، ومطابقتها لهذه المعانى الشريفة، فذكر ـ سبحانه

وتعالى ـ نوره فى السموات والأرض ، ونوره فى قلوب عباده المؤمنين ، النور المعقول المشهود بالبصائر والنور الذى استنارت به البصائر والقلوب ،والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذى استنارت به أقطار العالم العلوى والسفلى ، فهما نوران عظيمان ، أحدهما أعظم من الآخر ، وكما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع ، لم يعش فيه آدمى ولا غيره ؛ لأن الحيوان إنما يتكون حيث النور ، ومواضع الظلمة التى لا يشرق عليها نور ، لا يعيش فيها حيوان ،ولا يتكون البتة ، فكذلك أمة فقد فيها نور الوحى والإيمان ، وقلب فقد منه هذا النور ميت ولا بد، لا حياة له البتة،كما لا حياة للحيوان فى مكان لا نور فيه .

واللّه ـ سبحانه وتعالى ـ يقرن بين الحياة والنور ،كما فى قوله عز وجل: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾[ الأنعام: ١٢٢]،وكذلك قوله عز وجل: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ [الشورى: ٥٣ ].

وقد قيل: إن الضمير فى ﴿ **جَعَلْنَاهُ** ﴾ عائد إلى الأمر، وقيل : إلى الكتاب ، وقيل : إلى الإيمان ، والصواب: أنه عائد إلى الروح أى : جعلنا ذلك الروح الذى أوحيناه إليك نوراً: فسماه روحاً لما يحصل به من الحياة ، وجعله نوراً لما يحصل به من الإشراق والإضاءة ،وهما متلازمان ، فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح ،وجدت الإضاءة والاستنارة ،وحيث وجدت الاستنارة والإضاءة وجدت الحياة ، فمن لم يقبل قلبه هذا الروح ، فهو ميت مظلم ،كما أن من فارق بدنه روح الحياة فهو هالك مضمحل .

فلهذا يضرب ـ سبحانه وتعالى ـ المثلين : المائى والنارى معا ، لما يحصل بالماء من الحياة وبالنار من الإشراق والنور ، كما ضرب ذلك فى أول سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧)** ﴾[ البقرة ]،وقال: ﴿ **ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ** ﴾ولم يقل: بنارهم، لأن النار فيها الإحراق والإشراق ، فذهب بما فيه الإضاءة والإشراق ،وأبقى عليهم ما فيه الأذى والإحراق .

وكذلك حال المنافقين:ذهب نور إيمانهم بالنفاق ،وبقى فى قلوبهم حرارة الكفر والشكوك والشبهات تغلى فى قلوبهم ،وقلوبهم قد صليت بحرّها وأذاها وسمومها ووهجها فى الدنيا ،فأصلاها اللّه تعالى إياها يوم القيامة ناراً موقدة تطّلع على الأفئدة .

فهذا مثل من لم يصحبه نور الإيمان فى الدنيا ، بل خرج منه وفارقه بعد أن استضاء به،وهو حال المنافق عرف ثم أنكر ، وأقر ثم جحد ، فهو فى ظلمات أصم أبكم أعمى، كما قال تعالى فى حق إخوانهم من الكفار : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ٣٩ ]،وقال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾[ البقرة :١٧١]،وشبه تعالى حال المنافقين فى خروجهم من النور بعد أن أضاء لهم بحال مستوقد النار وذهاب نورها عنه بعد أن أضاءت ما حوله ؛ لأن المنافقين بمخالطتهم المسلمين وصلاتهم معهم،وصيامهم معهم،وسماعهم القرآن، ومشاهدتهم أعلام الإسلام ومناره، قد شاهدوا الضوء ،ورأوا النور عياناً ؛ ولهذا قال تعالى فى حقهم: ﴿ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (١٨) ﴾ [البقرة ] إليه ،لأنهم فارقوا الإسلام بعد أن تلبسوا به واستناروا ، فهم لا يرجعون إليه .

وقال تعالى فى حق الكفار :﴿فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ ؛لأنهم لم يعقلوا الإسلام ،ولا دخلوا فيه ،ولا استناروا به ،بل لا يزالون فى ظلمات الكفر ،صم بكم عمى ،فسبحان من جعل كلامه لأدواء الصدور شافيا، وإلى الإيمان وحقائقه مناديا ، وإلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم داعيا، وإلى طريق الرشاد هاديا . لقد أسمع منادى الإيمان لو صادف آذانا واعية ، وشفت مواعظ القرآن لو وافقت قلوبا من غيها خالية ،ولكن عصفت على القلوب أهوية الشبهات والشهوات ، فأطفأت مصابيحها ،وتمكنت منها أيدى الغفلة والجهالة ، فأغلقت أبواب رشدها ، وأضاعت مفاتيحها ،وران عليها كسبها ، فلم ينفع فيها الكلام ، وسكرت بشهوات الغى وشبهات الباطل ، فلم تصغ بعده إلى الملام ،ووعظت بمواعظ أنكى فيها من الأسنة والسهام ،ولكن ماتت فى بحر الجهل والغفلة ، وأسر الهوى والشهوة، و «ما لجرح بميت إيلام » .

**والمثل الثانى المائى** : قوله تعالى :﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) ﴾[ البقرة ] . الصيب: المطر الذى يصوب من السماء، أى: ينزل منها بسرعة ،وهو مثل القرآن الذى به حياة القلوب ،كالمطر الذى به حياة الأرض والنبات والحيوان ،فأدرك المؤمنين ذلك منه ،وعلموا ما يحصل به من الحياة التى لا خطر لها ، فلم يمنعهم منها ما فيه من الرعد والبرق، وهو الوعيد والتهديد ،والعقوبات والمثلات التى حذر الله بها من خالف أمره، وأخبر أنه منزلها بمن كذب رسول الله ﷺ ،أو ما فيه من الأوامر الشديدة ، كجهاد الأعداء ، والصبر على

اللأواء ، أو الأوامر الشاقة على النفوس التى هى بخلاف إرادتها ، فهى كالظلمات والرعد والبرق ، ولكن من علم مواقع الغيث وما يحصل به من الحياة لم يستوحش لما معه من الظلمة والرعد والبرق ، بل يستأنس لذلك ، ويفرح به لما يرجو من الحياة والخصب .

وأما المنافق ، فإنه لعمى قلبه، لم يجاوز بصره الظلمة ، ولم ير إلا برقا يكاد يخطف البصر ، ورعدا عظيما وظلمة ، فاستوحش من ذلك وخاف منه ، فوضع أصابعه فى أذنيه لئلا يسمع صوت الرعد ، وهاله مشاهدة ذلك البرق، وشدة لمعانه ، وعظم نوره ، فهو خائف أن يختطف معه بصره ؛ لأن بصره أضعف أن يثبت معه ، فهو فى ظلمة يسمع أصوات الرعد القاصف ، ويرى ذلك البرق الخاطف ، فإن أضاء له ما بين يديه مشى فى ضوئه ، وإن فقد الضوء قام متحيرا لا يدرى أين يذهب ،ولجهله لا يعلم أن ذلك من لوازم الصيب الذى به حياة الأرض والنبات،وحياته هو فى نفسه، بل لا يدرك إلا رعداً، وبرقاً ، وظلمة ، ولا شعور له بما وراء ذلك ،فالوحشة لازمة له ، والرعب والفزع لا يفارقه .

وأما من أنس بالصيّب ، وعلم ما يحصل به من الخيرات والحياة والنفع أنه لا بد فيه من رعد وبرق وظلمة بسبب الغيم ، استأنس بذلك ولم يستوحش منه ،ولم يقطعه ذلك عن أخذه بنصيبه من الصيب .

فهذا مثل مطابق للصيِّب الذى نزل به جبريل ﷺ من عند رب العالمين تبارك وتعالى على قلب رسول الله ﷺ ليحيى به القلوب والوجود أجمع ، اقتضت حكمته أن يقارنه من الغيم والرعد والبرق ما يقارن الصيِّب من الماء حكمة بالغة وأسبابا منتظمة نظمها العزيز الحكيم.

فكان حظ المنافق من ذلك الصيِّب سحابه ورعوده وبروقه فقط ، لم يعلم ما وراءه ، فاستوحش بما أنس به المؤمنون ، وارتاب بما اطمأن به العالمون ،وشك فيما تيقّنه المبصرون العارفون ، فبصره فى المثل النارى كبصر الخفاش نحو الظهيرة ،وسمعه فى المثل المائى كسمع من يموت من صوت الرعد . وقد ذكر عن بعض الحيوانات أنها تموت من صوت الرعد.

وإذا صادف هذه العقول والأسماع والأبصار شبهات شيطانية ، وخيالات فاسدة ، وظنون كاذبة ،جالت فيها وصالت ،وقامت بها وقعدت، واتسع فيها مجالها ،وكثر بها قيلها وقالها ، فملأت الأسماع من هذيانها ،والأرض من دويانها ،وما أكثر المستجيبين لهؤلاء ، والقابلين منهم ، والقائمين بدعوتهم ،والمحامين عن حوزتهم ،والمقاتلين تحت ألويتهم ،

والمُكثِّرين لسوادهم عدداً ،وما أقلهم عند الله وأوليائه قدراً .

ولعموم البلية بهم،وضرر القلوب بكلامهم،هتك الله أستارهم فى كتابه غاية الهتك، وكشف أسرارهم غاية الكشف ، وبين علاماتهم وأعمالهم وأقوالهم ،ولم يزل عز وجل يقول:( ومنهم... ومنهم ... ومنهم ...) حتى انكشف أمرهم ، وبانت حقائقهم، وظهرت أسرارهم .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى أول سورة ( البقرة ) أوصاف المؤمنين والكفار والمنافقين ،فذكر فى أوصاف المؤمنين ثلاث آيات ،وفى أوصاف الكفار آيتين ، وفى أوصاف هؤلاء بضع عشرة آية ، لعموم الابتلاء بهم وشدة المصيبة بمخالطتهم فإنهم من الجلدة ، مظهرون الموافقة والمناصرة ، بخلاف الكافر الذى قد تأبد بالعداوة ، وأظهر السريرة ، ودعاك بما أظهره إلى مزايلته ومفارقته .

ونظير هذين المثلين المثلان المذكوران فى سورة (الرعد) فى قوله تعالى: **﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾** [ الرعد: ١٧] ، **فهذا هو المثل المائى** ، شبَّه الوحى الذى أنزله بحياة القلوب ، بالماء الذى أنزله من السماء ، وشبه القلوب الحاملة له ، بالأدوية الحاملة للسيل .

فقلب كبير يسع علمًا عظيمًا كوادٍ كبير يسع ماءً كثيراً ،وقلب صغير كوادٍ صغير يسع علماً قليلاً ، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها ،كما سالت الأودية بقدرها .

ولما كنت الأودية ومجارى السيول فيها الغثاء ونحوها مما يمر عليه السيل فيحتمله السيل فيطفو على وجه الماء زبدًا عاليًا يمر عليه متراكباً ،ولكن تحته الماء الفرات الذى به حياة الأرض فيقذف الوادى ذلك الغثاء إلى جنبتيه حتى لا يبقى منه شىء ويبقى الماء الذى تحت الغثاء يسقى الله به الأرض فيحيى به البلاد والعباد،والشجر والدواب ، والغثاء يذهب جفاءً يجفى ، ويطرح على شفير الوادى .

فكذلك العلم والإيمان الذى أنزله من السماء فى القلوب فاحتملته ، فأثار منها بسبب مخالطته لها ما فيها من غثاء الشهوات وزبد الشبهات الباطلة ، فطفا فى أعلاها ،واستقر العلم والإيمان والهدى فى جذر القلب وهو أصله ومستقره ،كما قال النبى ﷺ:« نزل الإيمان فى جذر قُلُوب الرجال » رواه البخارى من حديث حذيفة ، فلا يزال ذلك الغثاء والزبد يذهب جفاء ،ويزول شيئا فشيئا،حتى يزول كله،ويبقى العلم النافع والإيمان الخالص فى جذر القلب يرده الناس ، فيشربون ويسقون ويمرعون.

وفى « الصحيح » من حديث أبى موسى عن النبى ﷺ قالك :« مثل ما بعثنى اللّه تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، فكان منها طائفة طيبة ، قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير ، وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء ، فسقى الناس وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ،إنما هى قيعان ، لا تُمسك ماء ،ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ، ونفعه بما بعثنى اللّه به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ،ولم يقبل هدي اللّه الذى أرسلتُ به » (١).

فجعل النبى ﷺ الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات :

**الطبقة الأولى** : ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،وهم الذين قاموا بالدين علماً وعملاً ودعوة إلى اللّه عز وجل ورسوله ﷺ ،فهؤلاء أتباع الرسل ـ صلوات اللّه عليهم وسلامه ـ حقا ، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التى زكت ، فقبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير،فزكت فى نفسها ، وزكا الناس بها .

وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة فى الدين والقوة على الدعوة، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء صلى الله عليهم وسلم الذين قال اللّه تعالى فيهم: ﴿ **وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ** (٤٥)﴾ [ ص ] ،فالأيدى: القوة فى أمر اللّه ، والأبصار : البصائر فى دين اللّه عز وجل : فالبصائر يدرك الحق ويعرف ، وبالقوة يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه ،فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهمَ فى الدين والبصر بالتأويل، ففجَّرت من النصوص أنهار العلوم ، واستنبطت منها كنوزها ،ورزقت فيها فهما خاصا، كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب وقد سئل : هل خصكم رسول اللّه ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال:لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهْما يؤتيه اللّه عبدا فى كتابه (٢).

فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذى أنبتته الأرض ، وهو الذى تميزت به هذه الطبقة عن الطبقة الثانية .

فإنها(٣) حفظت النصوص ، وكان همها حفظها وضبطها ، فوردها الناس وتلقَّونها منهم،فاستنبطوا منها ، واستخرجوا كنوزها ، واتجروا فيها ،وبذروها فى أرض قابلة للزرع

---

(١) البخارى ( ٧٩ ) فى العلم ، باب : فضل من علم وعلم ، ومسلم ( ٢٢٨٢ / ١٥ ) فى الفضائل ، باب : بيان ما بعث النبى ﷺ من الهدى والعلم ، وأحمد ٤/ ٣٩٩ .

(٢) البخارى ( ٣٠٤٧ ) فى الجهاد ، باب : فكاك الأسير ، والترمذى ( ١٤١٢ ) فى الديات ، باب: ما جاء لا يقتل مسلم بكافر ،والنسائى ( ٤٧٤٤) فى القسامة ، باب: سقوط القود من المسلم للكافر،وأحمد ١/ ٧٩.

(٣) أى الطبقة الثانية .

والنبات، فاستخرجوا غوامضها وأسرارها، ووردوها كلّ بحسبه ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [ البقرة: ٦٠ ]وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبى ﷺ :« نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها، ثم أداها كما سمعها ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»(١).

وهذا عبد الله بن عباس حبْر الأمة وترجمان القرآن ، مقدار ما سمع من النبى ﷺ لم يبلغ نحو العشرين حديثاً الذى يقول فيه :سمعت ،ورأيت ،وسمع الكثير من الصحابة، وبورك فى فهمه والاستنباط منه حتى ملأ الدنيا علمًا وفقها .

قال أبو محمد ابن حزم : وجمعت فتاويه فى سبعة أسفار كبار وهى بحسب ما بلغ جامعها ، وإلا فعلم ابن عباس كالبحر ، وفقهه واستنباطه وفهمه فى القرآن بالموضع الذى فاق به الناس،وقد سمع كما سمعوا ،وحفظ القرآن كما حفظوا ، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضى وأقبلها للزرع ، فبذر فيها النصوص ، فأنبتت من كل زوج كريم: ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾[ الجمعة ] .

وأين تقع فتاوى ابن عباس ،وتفسيره،واستنباطه، من فتاوى أبى هريرة وتفسيره ؟ وأبو هريرة أحفظ منه ، بل هو حافظ الأمة على الإطلاق : يؤدى الحديث كما سمعه ، ويدرسه بالليل درسا، فكانت همته مصروفة إلى الحفظ وتبليغ ما حفظه كما سمعه،وهمة ابن عباس مصروفة إلى التفقُّه والاستنباط وتفجير النصوص ، وشق الأنهار منها ، واستخراج كنوزها.

وهكذا الناس بعده قسمان :

قسم حفاظ معتنون بالضبط ،والحفظ ،والأداء ،كما سمعوا ،ولا يستنبطون ولا يستخرجون كنوز ما حفظوه .

وقسم معتنون بالاستنباط واستخراج الأحكام من النصوص ، والتفقُّه فيها .

فالأول كأبى زرعة،وأبى حاتم، وابن دارة. وقبلهم :كبندار محمد بن بشار، وعمرو الناقد ،وعبد الرزاق ،وقبلهم كمحمد بن جعفر غندر ، وسعيد بن أبى عُروبة ،وغيرهم من أهل الحفظ ، والإتقان والضبط لما سمعوه من غير استنباط وتصرف ، واستخراج الأحكام من ألفاظ النصوص .

---

(١) ابن ماجه ( ٣٠٥٦ ) فى المناسك باب : الخطبة يوم النحر ، قال فى الزوائد : «هذا إسناد فيه محمد بن إسحاق، وهو مدلس وقد رواه بالعنعنة ، والإسناد على حاله صحيح » . وأحمد ٤/ ٨٠ ، ٨٢ ، والحاكم (١/ ٨٧) فى العلم ، باب : ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن ، وقال: « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

**والقسم الثاني**: كمالك ، والليث ،وسفيان ، وابن المبارك ، والشافعي ، والأوزاعي، وإسحاق ، والإمام أحمد بن حنبل ، والبخاري ، وأبي داود ، ومحمد بن نصر المروزي ،وأمثالهم ممن جمع الاستنباط والفقه إلى الرواية ، فهاتان الطائفتان هما أسعد الخلق بما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ، وهم الذين قبلوه ورفعوا به رأساً .

**الطبقة الثالثة** :وأما الطائفة الثالثة وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأساً ،فلا حفظ ، ولا فهم ، ولا رواية ، ولا دراية ،ولا رعاية .

**فالطبقة الأولى** :أهل رواية ورعاية ودراية .

**والطبقة الثانية** : أهل رواية ورعاية ، ولهم نصيب من الدراية ، بل حظهم من الرواية أوفر .

**والطبقة الثالثة** : الأشقياء ، لا رواية ،ولا دراية ،ولا رعاية .

﴿ **إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** (٤٤)﴾ [ الفرقان ]،فهم الذين يضيقون الديار ، ويغلون الأسعار ، إن همة أحدهم إلا بطنُه وفرجه ، فإن ترقَّت همته كان همه ـ مع ذلك ـ لباسه وزينته ، فإن ترقت همّته فوق ذلك ، كان في داره وبستانه ومركوبه ، فإن ترقت همته فوق ذلك ، كان همه في الرياسة والانتصار للنفس الكلبية، فإن ارتفعت همته عن نصرة النفس الكلبية ، كان همه في نصرة النفس السبعية ،وأما النفس الملكية فلم يعطها أحد من هؤلاء .

فإن النفوس كلبية وسبعية وملكية .

فالكلبية : تقنع بالعظم ، والكسرة ، والجيفة ، والعذرة .

والسبعية : لا تقنع بذلك ، بل بقهر النفوس ، والاستعلاء عليها بالحق والباطل .

وأما الملكية : فقد ارتفعت عن ذلك ، وشمَّرت إلى الرفيق الأعلى ، فهمَّتُها العلم والإيمان ،ومحبة الله تعالى ، والإنابة إليه ، والطمأنينة به ، والسكون إليه ، وإيثار محبته ومرضاته، وإنما تأخذ من الدنيا ما تأخذ لتستعين به على الوصول إلى فاطرها وربّها ووليّها، لا لتنقطع به عنه .

ثم ضرب ـ سبحانه وتعالى ـ مثلاً ثانيا، وهو المثل الناري ، فقال:﴿ **وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُه** ﴾[ الرعد:١٧] ،وهو الحديد والنحاس ، والفضة والذهب وغيرها ،فإنها تدخل الكير لتمحص وتخلص من الخبث ، فيخرج خبثها فيرمى به ويطرح ،

ويبقى خالصها ، فهو الذى ينفع الناس .

ولما ضرب اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ هذين المثلين ذكر حكم من استجاب له ، ورفع بهداه رأساً ، وحكم من لم يستجب له ، ولم يرفع بهداه رأساً ، فقال: ﴿ **لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨)** ﴾[ الرعد ] .

والمقصود : أن اللّه تعالى جعل الحياة حيث النور ،والموت حيث الظلمة ، فحياة الوجودين ، الروحى والجسمى بالنور ، وهو مادة الحياة، كما أنه مادة الإضاءة ، فلا حياة بدونه ، كما لا إضاءة بدونه ، وكما أنه به حياة القلب ،فبه انفساحه وانشراحه وسعته ، كما فى الترمذى عن النبى ﷺ :« إذا دخل النُّور القلب انفسخ وانشرح » قالوا:وما علامة ذلك ؟ قال: « الإنابة إلى دار الخُلود ، والتجافى عن دار الغُرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله » (١).

ونور العبد هو الذى يصعد عمله وكلمه إلى اللّه تعالى ، فإن اللّه تعالى لا يصعد إليه من الكلم إلى الطيب ،وهو نور ومصدر عن النور ، ولا من العمل إلا الصالح ،ولا من الأرواح إلا الطيبة ،وهى أرواح المؤمنين التى استنارت بالنور الذى أنزله على رسوله ﷺ والملائكة الذين خلقوا من نور ،كما فى « صحيح مسلم »، عن عائشة ﵂ عن النبى ﷺ قال:« خلقت الملائكة من نور ،وخلقت الشياطين من نار ،وخُلق آدم مما وصف لكُم»(٢).

فلما كانت مادة الملائكة من نور ، كانوا هم الذين يعرجون إلى ربهم تبارك وتعالى ، وكذلك أرواح المؤمنين هى التى تعرج إلى ربها وقت قبض الملائكة لها ، فيفتح لها باب السماء الدنيا ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، ثم الرابعة ، إلى أن ينتهى بها إلى السماء السابعة، فتوقف بين يدى اللّه عز وجل ، ثم يأمر أن يكتب كتابه فى أهل عليين . فلما كانت هذه الروح روحاً زاكية طيبة نيّرة مشرقة صعدت إلى اللّه عز وجل مع الملائكة .

وأما الروح المظلمة الخبيثة الكدرة ،فإنها لا تفتح لها أبواب السماء،ولا تصعد إلى اللّه تعالى ، بل ترد من السماء الدنيا إلى عالمها وعنصرها ؛ لأنها أرضية سفلية ،والأولى علوية

(١) نوادر الأصول ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، والحاكم فى المستدرك ( ٤/ ٣١١ ) فى الرقاق ، باب : إعلام النور فى الصدر ، وضعفه الألبانى .

(٢) مسلم ( ٢٩٩٦ / ٦٠ ) فى الزهد ، باب: فى أحاديث متفرقة ، وفيه : « وخلق الجان من مارج من نار » .

سماوية ، فرجعت كل روح إلى عنصرها وما هى منه ، وهذا مبين فى حديث البراء بن عازب الطويل الذى رواه الإمام أحمد،وأبو عوانة الإسفراييني فى « صحيحه » ،والحاكم وغيرهم ،وهو حديث صحيح (١).

**والمقصود** : أن الله عز وجل لا يصعد إليه من الأعمال والأقوال والأرواح إلا ما كان منها نوراً ،وأعظم الخلق نوراً أقربهم إليه وأكرمهم عليه .

وفى « المسند » من حديث عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ: « إن الله تعالى خلق خلقه فى ظُلمة ، وألقى عليهم من نوره ، فمن أصاب من ذلك النُّور اهتدى ، ومن أخطأ ضل ، فلذلك أقول : جفَّ القلمُ على علْم الله تعالى » (٢).

وهذا الحديث العظيم أصل من أصول الإيمان ، وينفتح به باب عظيم من أبواب سر القدر وحكمته ، والله تعالى الموفق .

وهذا النور الذى ألقاه عليهم ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى أحياهم وهداهم ، فأصاب الفطرة منه حظًّها ،ولكن لما لم يستقل بتمامه وكماله ، أكمله لهم ،وأتمه بالروح الذى ألقاه على رسله عليهم الصلاة والسلام،والنور الذى أوحاه إليهم، فأدركته الفطرة بذلك النور السابق الذى حصل لها يوم إلقاء النور ، فانضاف نور الوحى والنبوة إلى نور الفطرة ، نور على نور ، فأشرقت منه القلوب ، واستنارت به الوجوه ، وحييت به الأرواح ، وأذعنت به الجوارح للطاعات طوعاً واختياراً ، فازدادت به القلوب حياة إلى حياتها .

ثم دلها ذلك النور على نور آخر هو أعظم منه وأجل ،وهو نور الصفات العليا الذى يضمحل فيه كل نور سواه ، فشاهدته ببصائر الإيمان مشاهدة نسبتها إلى القلب كنسبة المرئيات إلى العين ، ذلك لاستيلاء اليقين عليها ، وانكشاف حقائق الإيمان لها ، حتى كأنها تنظر إلى عرش الرحمن تبارك وتعالى بارزاً ، وإلى استوائه عليه ، كما أخبر به سبحانه وتعالى فى كتابه ، وكما أخبر به عنه رسوله ﷺ ،يدبِّر أمر الممالك ، ويأمر وينهى ، ويخلق ويرزق ، ويميت ويحيى ،ويقضى وينفذ ،ويعزّ ويذلُّ ،ويقلب الليل والنهار ، ويداول الأيام بين الناس ، ويقلب الدول ، فيذهب بدولة،ويأتى بأخرى .

والرسل من الملائكة عليهم الصلاة والسلام بين صاعد إليه الأمر ، ونازل من عنده به،

---

(١) أبو داود ( ٤٧٥٣ ) فى السنة ، باب : فى المسألة فى القبر وعذاب القبر ، والنسائى ( ٢٠٥٧ ) فى الجنائز ، باب: عذاب القبر ، وأحمد ٤/ ٢٨٧ ، ٢٨٨ ،والحاكم فى المستدرك ( ١/ ٣٧ ـ ٤٠) فى الإيمان ، باب: مجىء ملك الموت عند قبض الروح، وقال: هذه الأسانيد التى ذكرتها صحيحة على شرط الشيخين »، ووافقه الذهبى.

(٢) أحمد ٢/ ١٧٦ ، ١٩٧ ، وصححه الشيخ شاكر ( ٦٦٤٤) .

وأوامره ومراسيمه متعاقبة على تعاقب الأوقات ، نافذة بحسب إرادته ومشيئته ، فما شاء كان كما شاء فى الوقت الذى يشاء على الوجه الذى يشاء ، من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقدُّم ولا تأخُّر ،وأمره وسلطانه نافذ فى السموات وأقطارها ، وفى الأرض وما عليها وما تحتها ، وفى البحار والجو ،وفى سائر أجزاء العالم وذرَّاته ، يقلِّبها ويصرفها ، ويحدث فيها ما يشاء ، وقد أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً ، ووسع كل شىء رحمة وحكمة ،ووسع سمعه الأصوات ،فلا تختلف عليه ولا تشتبه عليه ، بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها على تفنن حاجاتها ،فلا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه كثرة المسائل ، ولايتبرم بإلحاح الملحين ذوى الحاجات ،وأحاط بصره بجميع المرئيات ،فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء فى الليلة الظلماء ،فالغيب عنده شهادة ،والسر عنده علانية، يعلم السر وأخفى من السر .

فالسر ما انطوى عليه ضمير العبد ، وخطر بقلبه ،ولم تتحرك به شفتاه ،وأخفى منه ما لم يخطر بقلبه بعد ،فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا فى وقت كذا وكذا له الخلق والأمر ،وله الملك وله الحمد وله الدنيا والآخرة ،وله النعمة ،وله الفضل،وله الثناء الحسن،وله الملك كله ،وله الحمد ، وبيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، شملت قدرته كل شىء ،ووسعت رحمته كل شىء ،ووسعت نعمته إلى كل حى **﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾** [ الرحمن] : يغفر ذنباً ، ويفرِّج همًّا ،ويكشف كربا، ويجبر كسيرا ،ويغنى فقيرا ،ويُعلم جاهلا،ويهدى ضالا ، ويرشد حيراناً ،ويغيث لهفانا ، ويفكُّ عانيا، ويُشبع جائعاً ،ويكسو عاريا ،ويشفى مريضا ، ويُعافى مبتلى ،ويقيل تائباً ،ويجزى مُحسنا ،وينصر مظلوما ، ويقصم جبارا ،ويُقبل عثرة، ويستر عورة ، ويؤمِّن روعة ،ويرفع أقواما ،ويضع آخرين ،لا ينام ،ولا ينبغى له أن ينام ،يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ،وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ، يمينه ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار .

أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق ، فإنه لم يغض ما فى يمينه، قلوب العباد ونواصيهم بيده، وأزمَّة الأمور معقودة بقضائه وقدره ، الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، يقبض سمواته كلها بيده الكريمة ، والأرض باليد الأخرى ، ثم يهزُّهن ، ثم يقول :أنا الملك ، أنا الذى بدأت الدنيا ولم تكن شيئا ،وأنا الذى أعيدها كما بدأتها .ولا يتعاظمه ذنب يغفره ، ولا حاجة يسألها أن يعطيها.

لو أن أهل سماواته ، وأهل أرضه ،وأول خلقه وآخرهم ،وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجل منهم ، ما زاد فى ملكه شيئا، ولو أن أول خلقه وآخرهم ، وإنسهم وجنهم ، كانوا على أفجر قلب رجل منهم ، ما نقص ذلك من ملكه شيئاً ،ولو أن أهل سمواته ،وأهل أرضه،وإنسهم وجنهم،وحيهم وميتهم ويابسهم ، قاموا فى صعيد واحد ، فسألوه ، فأعطى كلا منهم، ما سأله ، ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة .

ولو أن أشجار الأرض كلها من حين وجدت إلى أن تنقضى الدنيا أقلام ،والبحر وراءه سبعة أبحر تمده من بعده مداد ، فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد ،لفنيت الأقلام ، ونفد المداد،ولم تنفد كلمات الخالق تبارك وتعالى. وكيف تفنى كلماته جل جلاله وهى لا بداية لها ولا نهاية ، والمخلوق له بداية ونهاية ، فهو أحق بالفناء والنفاد وكيف يفنى المخلوق غير المخلوق .

هو الأول الذى ليس قبله شىء ،والآخر ليس بعده شىء ، والظاهر الذى ليس فوقه شىء ، والباطن الذى ليس دونه شىء .

تبارك وتعالى ، أحق من ذكر ، وأحق من عبد ،وأحق من حمد ،وأولى من شكر، وأنصر من ابتغى، وأرأف من ملك ،وأجود من سئل ،وأعفى من قدر ،وأكرم من قصد، وأعدل من انتقم ، حكمه بعد علمه ،وعفوه بعد قدرته،ومغفرته عن عزته ،ومنعه عن حكمته،وموالاته عن إحسانه ورحمته .

ما للعبـاد عليـه حـق واجبٌ كـلا ولا سـعْى لديــه ضـائـعُ
إن عـذِّبـوا فبعدْلـه أو نُعّموا فبفضْله ،وهو الكريم الواسـعُ

هو الملك الذى لا شريك له ، والفرد فلا ندَ له ،والغنى فلا ظهير له ، والصمد فلا ولد له ، ولا صاحبة له ، والعلى فلا شبيه له ، ولا سمىَّ له ،كلُّ شىء هالك إلا وجهه ، وكلُّ ملك زائل إلا ملكه ،وكل ظل قالص إلا ظله ، وكل فضل منقطع إلا فضله ، لن يطاع إلا بإذنه ورحمته ، ولن يعصى إلا بعلمه وحكمته ، يُطاع فيشكر ،ويعصى فيتجاوز ويغفر ، كل نقمة منه عدل ، وكل نعمة منه فضل، أقرب شهيد ، وأدنى حفيظ ، حال دون النفوس ،وأخذ بالنواصى ،وسجَّل الآثار ، وكتب الآجال ، فالقلوب له مفضية ؛ والسر عنده علانية ، والغيب عنده شهادة ، عطاؤه كلام، وعذابه كلام ،﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴿٨٢﴾ ﴾[ يس ] .

فإذا أشرقت على القلب أنوار هذه الصفات ، اضمحل عندها كل نور ،ووراء هذا ما

لا يخطر بالبال ،ولا تناله عبارة .والمقصود : أن الذكر ينوِّر القلب والوجه والأعضاء، وهو نور العبد فى دنياه ،وفى البرزخ ،وفى القيامة .

وعلى حسب نور الإيمان فى قلب العبد ، تخرج أعماله وأقواله، ولها نور وبرهان ، حتى إن من المؤمنين من يكون نور أعماله إذا صعدت إلى اللّه تبارك وتعالى كُنور الشمس ، وهكذا نور روحه إذا قدم بها على اللّه عز وجل،وهكذا يكون نوره الساعى بين يديه على الصراط، وهكذا يكون نور وجهه فى القيامة ، واللّه تعالى المستعان وعليه الاتكال .

**السابعة والثلاثون** : أن الذكر رأس الأمور ،وطريق عامة الطائفة ،ومنشور الولاية ، فمن فتح له فيه فقد فتح له باب الدخول على اللّه عز وجل ، فليتطهر وليدخل على ربه عز وجل يجد عنده كل ما يريد ، فإن وجد ربه عز وجل وجد كل شىء ، وإن فاته ربه عز وجل فاته كل شىء .

**الثامنة والثلاثون** :أن فى القلب خلّة وفاقة لا يسدُّها شىء البتة إلا ذكر اللّه عز وجل، فإذا صار الذكر شعار القلب ،بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة ،واللسان تبع له، فهذا هو الذكر الذى يسد الخلة،ويغنى الفاقة،فيكون صاحبه غنيا بلا مال،عزيزاً بلا عشيرة، مهيبا بلا سلطان ، فإذا كان غافلا عن ذكر اللّه عز وجل ، فهو بضد ذلك ، فقير مع كثرة جدته، ذليل مع سلطانه ، حقير مع كثرة عشيرته .

**التاسعة والثلاثون** : أن الذكر يجمع المتفرّق ، ويفرّق المجتمع ،ويقرّب البعيد ، ويبعد القريب .

فيجمع ما تفرَّق على العبد من قلبه وإرادته ، همومه وعزومه ، والعذاب كل العذاب فى تفرقتها وتشتتها عليه، وانفراطها له .

والحياة والنعيم فى اجتماع قلبه وهمه ، وعزمه وإرادته ،ويفرق ما اجتمع عليه من الهموم ، والغموم ،والأحزان ، والحسرات على فوت حظوظه ،ومطالبه، ويفرق أيضاً ما اجتمع عليه من ذنوبه وخطاياه وأوزاره، حتى تتساقط عنه وتتلاشى وتضمحل ،ويفرق أيضا ما اجتمع على حربه من جند الشيطان ، فإن إبليس لا يزال يبعث له سرية بعد سرية، وكلما كان أقوى طلبا للّه سبحانه وتعالى ، وأشد تعلقا به وإرادة له ، كانت السرية أكثف وأكثر وأعظم شوكة ، بحسب ما عند العبد من مواد الخير والإرادة ولا سبيل إلى تفريق هذا الجمع إلا بدوام الذكر .

وأما تقريبه البعيد ، فإنه يقرب إليه الآخرة التى يبعدها منه الشيطان والأمل، فلا يزال

يلهج بالذكر حتى كأنه قد دخلها وحضرها، فحينئذ تصغر فى عينه الدنيا ، وتعظم فى قلبه الآخرة .

ويبعد القريب إليه وهى الدنيا التى هى أدنى إليه من الآخرة ، فإن الآخرة متى قربت من قلبه بعدت منه الدنيا ، كلما قرب من هذه مرحلة بعد من هذه مرحلة ، ولا سبيل إلى هذا إلا بدوام الذكر والله المستعان .

**الأربعون**: أن الذكر ينبه القلب من نومه ، ويوقظه من سنته ، والقلب إذا كان نائما فاتته الأرباح والمتاجر ، وكان الغالب عليه الخسران، فإذا استيقظ وعلم ما فاته فى نومته شد المئزر،وأحيا بقية عمره ،واستدرك ما فاته ، ولا تحصل يقظته إلا بالذكر ، فإن الغفلة نوم ثقيل .

**الحادية والأربعون** : أن الذكر شجرة تثمر المعارف والأحوال التى شمر إليها السالكون، فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر، وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها، كان أعظم لثمرتها ، فالذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد ، وهو أصل كل مقام، وقاعدته التى ينبنى ذلك المقام عليها ، كما يبنى الحائط على أُسِّه ، وكما يقوم السقف على حائطه ، وذلك أن العبد إن لم يستيقظ ، لم يمكنه قطع منازل السير ،ولا يستيقظ إلا بالذكر كما تقدم ، فالغفلة نوم القلب أو موته .

**الثانية والأربعون**: أن الذاكر قريب من مذكوره،ومذكوره معه،وهذه المعية معية خاصة غير معية العلم والإحاطة العامة ،فهى معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق ، كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا**﴾[ النحل : ١٢٨] ، ﴿ **وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** (٢٤٩)﴾ [ البقرة ]، ﴿ **وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** (٦٩) ﴾ [ العنكبوت ] ﴿**لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [ التوبة : ٤٠ ]. وللذاكر من هذه المعية نصيب وافر ، كما فى الحديث الإلهى:« أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه »(١).

وفى أثر آخر:« أهل ذكرى أهل مجالستى ،وأهل شكرى أهل زيادتى، وأهل طاعتى أهل كرامتى ،وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى،إن تابوا فأنا حبيبهم،فإنى أحب التوابين، وأحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا ،فأنا طبيبهم ،أبتليهم بالمصائب،لأطهرهم من المعائب » .

---

(١) البخارى تعليقاً ( فتح ١٣ / ٤٩٩ ) فى التوحيد ، باب : قول الله تعالى : ﴿ **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ** (١٦) ﴾ [ القيامة ] ، وابن ماجه ( ٣٧٩٢ ) فى الأدب ، باب : فضل الذكر ، والحاكم فى المستدرك( ١/ ٤٩٦ ) فى الدعاء، باب : أنا مع عبدى إذا هو ذكرنى ، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ،ووافقه الذهبى .

والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شيء ،وهى أخص من المعية الحاصلة للمحسن والمتقى ، وهى معية لا تدركها العبارة ، ولا تنالها الصفة ، وإنما تعلم بالذوق : وهى مزلة أقدام إن لم يصحب العبد فيها تمييز بين القديم والمحدث ، بين الرب والعبد، بين الخالق والمخلوق ، بين العابد والمعبود ، وإلا وقع فى حلول يضاهى به النصارى ، أو اتحاد يضاهى به القائلين بوحدة الوجود ،وأن وجود الرب عين وجود هذه المخلوقات، بل ليس عندهم رب وعبد ، ولاخلق وحق ، بل الرب هو العبد ، والعبد هو الرب ،والخلق المشبَّه هو الحق المنزه ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً .

**والمقصود** : أنه إن لم يكن مع العبد عقيدة صحيحة ، وإلا فإذا استولى عليه سلطان الذكر ، وغاب بمذكوره عن ذكره وعن نفسه،ولج فى باب الحلول والاتحاد ولا بد .

**الثالثة والأربعون** :أن الذكر يعدل عتق الرقاب ،ونفقة الأموال،والحمل على الخيل فى سبيل الله عز وجل ، ويعدل الضرب بالسيف فى سبيل الله عز وجل،وقد تقدم أن«من قال فى يوم مائة مرة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكُتبت له مائة حسنة ، ومُحيت عنه مائة سيئة، وكانت لهُ حِرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى . . . » الحديث [1].

وذكر ابن أبى الدنيا ،عن الأعمش ، عن سالم بن أبى الجعد قال : قيل لأبى الدرداء: إن رجلا أعتق مائة نسمة. قال : إن مائة نسمة من مال رجل كثير ، وأفضل من ذلك إيمان ملزُوم بالليل والنهار ، وألا يزال لسان أحدكم رطبا من ذكر الله عز وجل .

وقال ابن مسعود : لأن أسبح الله تسبيحات أحب إلى من أنفق عددهن دنانير فى سبيل الله عز وجل .

وجلس عبد الله بن عمرو، وعبد الله بن مسعود، فقال عبد الله بن مسعود: لأن آخذ فى طريق أقول فيه: سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر أحب إلىَّ من أن أنفق عددهن دنانير فى سبيل الله عز وجل، فقال عبد الله بن عمرو : لأن آخذ فى طريق ، فأقولهن أحبُّ إلى من أن أحمل عددهن على الخيل فى سبيل الله عز وجل.

وقد تقدَّم حديث أبى الدرداء قال:قال رسول الله ﷺ:« ألا أنبِّئكُم بخيْرِ أعمالكم، وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم ،وخيرٍ لكم من إنفاق الورق والذهب،وخيرٍ لكم من أن تلقوا عدوَّكُم فتضربوا أعناقكم،ويضربوا أعناقكم »؟ قالوا: بلى يا رسول الله،

(١) سبق تخريجه ص ١٨٧ .

قال: « ذكرُ اللّه » (١) رواه ابن ماجه والترمذى ، وقال الحاكم: صحيح الإسناد .

**الرابعة والأربعون** : أن الذكر رأس الشكر ،فما شكر اللّه تعالى من لم يذكره.

وذكر البيهقى عن زيد بن أسلم، أن موسى عليه السلام قال: ربّ قد أنعمت علىَّ كثيراً ، فدلنى على أن أشكرك كثيراً ، قال: اذكرنى كثيراً ،فإذا ذكرتنى كثيرا فقد شكرتنى كثيراً ، وإذا نسيتنى فقد كفرتنى .

وقد ذكر البيهقى أيضاً فى شعب الإيمان،عن عبد اللّه بن سلام قال:قال موسى عليه السلام: يا رب ،ما الشكر الذى ينبغى لك ؟ فأوحى اللّه تعالى إليه ألا يزال لسانك رطباً من ذكرى، قال: يا رب إنى أكون على حال أجلك أن أذكرك فيها .قال :وما هى ؟ قال: أكون جنباً، أو على الغائط ، أو إذا بلت . فقال: وإن كان . قال: يا رب ،فما أقول؟ قال : تقول: «سبحانك وبحمدك وجنبنى الأذى ، وسبحانك وبحمدك فقنى الأذى » .

قلت: قالت عائشة : كان رسول اللّه ﷺ يذكرُ اللّه تعالى على كل أحيانه (٢).

ولم تستثن حالة من حاله ،وهذا يدل على أنه كان يذكر ربه تعالى فى حال طهارته وجنابته . وأما فى حال التخلى ، فلم يكن يشاهده أحد يحكى عنه ، ولكن شرع لأمته من الأذكار قبل التخلى وبعده ما يدل على مزيد الاعتناء بالذكر ، وأنه لا يخل به عند قضاء الحاجة وبعدها ، وكذلك شرع لأمته من الذكر عند الجماع أن يقول أحدكم :«بسم اللّه ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا »(٣) . وأما الذكر عند نفس قضاء الحاجة ، وجماع الأهل ، فلا ريب أنه لا يكره بالقلب ؛ لأنه لا بد لقلبه من ذكر ، ولا يمكنه صرف قلبه عن ذكر من هو أحب شىء إليه ، فلو كلِّف القلب نسيانه لكان تكليفه بالمحال ، كما قال القائل :

يُراد من القلب نِسيانكُم ... وتأبى الطِّباع على الناقل

---

(١) الترمذى ( ٣٣٧٧ ) فى الدعوات ، باب ( ٦ ) ، وابن ماجه (٣٧٩٠ ) فى الأدب ،باب: فضل الذكر ، والحاكم فى المستدرك ( ١/٤٩٦ ) فى الدعاء ، باب : «أنا مع عبدى إذا ذكرنى وتحركت بى شفتاه » .

(٢) مسلم ( ٣٧٣ / ١١٧ ) فى الحيض ، باب : ذكر اللّه تعالى فى حال الجنابة وغيرها ، وأبو داود (١٨) فى الطهارة ، باب : فى الرجل يذكر اللّه تعالى على غير طهر ، والترمذى ( ٣٣٨٤ ) فى الدعوات ، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة ، وقال: «غريب » ؛ وابن ماجه ( ٣٠٢ ) فى الطهارة ، باب: ذكر اللّه عز وجل على الخلاء والخاتم فى الخلاء ، وأحمد ٦/ ٧٠، ١٥٣ .

(٣) البخارى ( ١٤١) فى الوضوء ،باب : التسمية على كل حال وعند الوقاع، ومسلم(١٤٣٤/١١٦)فى النكاح، باب: ما يستحب أن يقوله عند الجماع ؛ وأبو داود ( ٢١٦١ ) فى النكاح ، باب :جامع النكاح ، وابن ماجه (١٩١٩ ) فى النكاح ، باب :ما يقول الرجل إذا دخلت عليه امرأته ، وأحمد ٢١٧/١ .

فأما الذكر باللسان على هذه الحالة، فليس مما شرع لنا ، ولا ندبنا إليه رسول الله ﷺ، ولا نقل عن أحد من الصحابة ﷺ .

وقال عبد الله بن أبى الهذيل : إن الله تعالى ليُحبُّ أن يُذكر فى السوق ، ويحبُّ أن يذكر على كُلِّ حال ، إلا على الخلاء .

ويكفى فى هذه الحال استشعار الحياء ، والمراقبة ، والنعمة عليه فى هذه الحالة ، وهى من أجل الذكر ، فذكر كل حال بحسب ما يليق بها . واللائق بهذه الحال ، التقنُّع بثوب الحياء من الله تعالى ، وإجلاله، وذكر نعمته عليه ، وإحسانه إليه فى إخراج هذا القذر المؤذى له الذى لو بقى فيه لقتله . فالنعمة فى تيسير خروجه ، كالنعمة فى التغذى به .

وكان على بن أبى طالب إذا خرج من الخلاء ، مسح بطنه وقال: يا لها نعْمةٌ لو يعلمُ الناسُ قدرها .

وكان بعض السلف يقول: الحمد لله الذى أذاقنى لذّته، وأبقى فى منفعته ، وأذهب عنى مضرته .

وكذلك ذكره حال الجماع ذكر النعمة التى من بها عليه، وهى أجل نعم الدنيا . فإذا ذكر نعمة الله تعالى عليه بها ، هاج من قلبه هائج الشكر ، فالذكر رأس الشكر .

وقال النبى ﷺ لمعاذ : « والله يا معاذ إنى لأحبك ، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك ، وحسن عبادتك » (١).

جمع بين الذكر والشكر ، كما جمع سبحانه وتعالى بينهما فى قوله تعالى : **﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾** [ البقرة ] فالذكر والشكر جماع السعادة والفلاح .

**الخامسة والأربعون:** أن أكرم الخلق على الله تعالى من المتقين من لا يزال لسانه رطباً بذكره ، فإنه اتقاه فى أمره ونهيه ، وجعل ذكره شعاره .

فالتقوى أوجبت له دخول الجنة والنجاة من النار ، وهذا هو الثواب والأجر.

والذكر يوجب له القرب من الله عز وجل والزلفى لديه ، وهذه هى المنزلة .

وعمال الآخرة على قسمين : منهم من يعمل على الأجر والثواب، ومنهم من يعمل على المنزلة والدرجة ، فهو ينافس غيره فى الوسيلة والمنزلة عند الله تعالى ، ويسابق إلى

---

(١) سبق تخريجه ص ١٨٢ .

القرب منه، وقد ذكر اللّه تعالى النوعين فى سورة الحديد فى قول الله تعالى: ﴿ **إنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾** ﴾[ الحديد ]، فهؤلاء أصحاب الأجور والثواب، ثم قال: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ** ﴾ [الحديد:١٩] ،فهؤلاء أصحاب المنزلة والقرب ،ثم قال: ﴿ **وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** ﴾[ الحديد:١٩] فقيل: هذا عطف على الخبر من ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ** ﴾ أخبر عنهم بأنهم هم الصديقون ،وأنهم الشهداء الذين يشهدون على الأمم ، ثم أخبر بخبر آخر: أن لهم أجراً ، وهو قوله تعالى: ﴿ **لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** ﴾، فيكون قد أخبر عنهم بأربعة أمور:

أنهم صديقون، وشهداء .فهذه هى المرتبة والمنزلة . قيل: تم الكلام عند قوله تعالى: ﴿ **الصِّدِّيقُونَ** ﴾ ، ثم ذكر بعد ذلك حال الشهداء، فقال: ﴿ **وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** ﴾،فيكون قد ذكر المتصدقين أهل البر والإحسان،ثم المؤمنين الذين قد رسخ الإيمان فى قلوبهم وامتلؤوا منه ، فهم الصديقون ، وهم أهل العلم والعمل ، والأولون أهل البر والإحسان ، ولكن هؤلاء أكمل صدِّيقيَّة منهم .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ الشهداء ، وأنه تعالى يجرى عليهم رزقهم ونورهم ؛ لأنهم لما بذلوا أنفسهم للّه تعالى أثابهم اللّه تعالى عليها ، أن جعلهم أحياء عنده يرزقون ، فيجرى عليهم رزقهم ونورهم ، فهؤلاء السعداء .

ثم ذكر الأشقياء فقال: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾** ﴾ [المائدة ]

**والمقصود** : أنه ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر أصحاب الأجور والمراتب ، وهذان الأمران هما اللذان وعدهما فرعون السحرة إن غلبوا موسى عليه الصلاة والسلام فقالوا: ﴿ **أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾** ﴾ [ الشعراء ] أى : أجمع لكم بين الأجر ، والمنزلة عندى والقرب منى .

فالعمال عملوا على الأجور ، والعارفون عملوا على المراتب المنزلة والزلفى عند اللّه ، وأعمال هؤلاء القلبية أكثر من أعمال أولئك ، وأعمال أولئك البدنية قد تكون أكثر من أعمال هؤلاء .

وذكر البيهقى عن محمد بن كعب القرظى رحمه اللّه تعالى قال: قال موسى عليه السلام: يا رب ، أى خلقك أكرَم عليك ؟ قال: الذى لا يزال لسانُه رطباً بذكرى . قال: يارب، فأىُّ خلقك أعلم ؟ قال: الذى يلتمسُ إلى علمه علم غيْره . قال : يا ربٌّ ، أىُّ خلقك أعْدلُ ؟ قال: الذى يقضى على نفسه مثلما يقضى على الناس . قال : يا ربٌّ ، أىّ خلقك أعظم ذنباً ؟ قال: الذى يتَّهمُنى . قال: يا ربٌّ وهلّ يتهمك أحدٌ ؟ قال: الذى يستخيرنى ولا يرضى بقضائى .

وذكر أيضا عن ابن عباس قال: لما وفد موسى عليه السلام إلى طور سيناء قال: يا ربٌّ ، أىُّ عبادك أحبُّ إليك ؟ قال: الذى يذكُرنى ولاينسانى .

وقال كعب: قال موسى عليه السلام : يا رب ، أقريبٌ أنت فأناجيك ، أم بعيدٌ فأناديك ؟ فقال تعالى : يا موسى ، أنا جليس منّ ذكرنى . قال : إنى أكون على حال أجلّك عنها . قال: ما هى يا موسى ؟ قال: عند الغائط والجنابة . قال : اذكرنى على كلّ حال .

وقال عبيد بن عمير : تسبيحة بحمد اللّه فى صحيفة مؤمن خير له من جبال الدنيا تجرى معه ذهباً .

وقال الحسن : إذا كان يوم القيامة نادى مناد : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ، أين الذين كانت : ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** (١٦) ﴾ [ السجدة ] ،قال: فيقومون فيتخطون رقاب الناس . قال: ثم ينادى مناد : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ، أين كانت: ﴿ **لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [النور : ٣٧] ، قال : فيقومون فيتخطون رقاب الناس ، قال : ثم ينادى منادٍ : وسيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ، أين الحمَّادون للّه على كل حال؟ قال: فيقومونَ وهم كثير ، ثم تكون التبعة والحساب فيمن بقى .

وأتى رجل أبا مسلم الخولانى فقال له : أوصنى يا أبا مسلم ، قال :اذكر اللّه تعالى تحت كل شجرة ومدرة ، فقال : زدنى، فقال : اذكر اللّه تعالى حتى يحسبك الناس من ذكر اللّه تعالى مجنوناً ، قال:وكان أبو مسلم يكثر ذكر اللّه تعالى ، فرآه رجل وهو يذكر اللّه تعالى ، فقال : أمجنون صاحبكم هذا؟ فسمعه أبو مسلم فقال: ليس هذا بالجنون يابن أخى ، ولكن هذا دواء الجنون .

**السادسة والأربعون**: أن فى القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر اللّه تعالى ، فينبغى للعبد أن يداوى قسوة قلبه بذكر اللّه تعالى .

وذكر حماد بن زيد ،عن المعلى بن زياد ، أن رجلاً قال للحسن : يا أبا سعيد، أشكو

إليك قسوة قلبي ، قال: أذِبهُ بالذكر . وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة ،اشتدت به القسوة ، فإذا ذكر اللّه تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار،فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر اللّه عز وجل .

**السابعة والأربعون** :أن الذكر شفاءُ القلب ودواؤه ،والغفلة مرضه ،فالقلوب مريضة، وشفاؤها ،ودواؤها في ذكر اللّه تعالى .

قال مكحول: ذكر الله تعالى شفاء ، وذكر الناس داءٌ .

وذكر البيهقي عن مكحول مرفوعاً ومرسلاً : فإذا ذَكَرْتَهُ شفاها وعافاها، فإذا غفلت عنه انتكست ،كما قيل :

إذا مرضْنا تداويْنا بذكرِكُمُ ... فنترُكُ الذِّكر أحيانا فننتكسُ

**الثامنة والأربعون** :أن الذكر أصل موالاة اللّه عز وجل ورأسها ،والغفلة أصل معاداته ورأسها ،فإن العبد لا يزال يذكر ربه عز وجل حتى يحبه فيواليه ،ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه فيعاديه .

قال الأوزاعي : قال حسان بن عطية : ما عادى عبد ربه بشيء أشد عليه من أن يكره ذكره أو من يذكره .

فهذه المعاداة سببها الغفلة ،ولا تزال بالعبد حتى يكره ذكر اللّه ويكره من يذكره ، فحينئذ يتخذه عدوا كما اتخذ الذاكر وليا .

**التاسعة والأربعون** : أنه ما استجلبت نعم اللّه عز وجل واستدفعت نقمه بمثل ذكر اللّه تعالى ، فالذكر جلاب للنعم ، دافع للنقم ، قال سبحانه وتعالى :﴿ **إنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾، وفي القراءة الأخرى: ﴿ **إنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ** ﴾ [ الحج : ٣٨ ] ، فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله ، ومادّة الإيمان وقوته بذكر الله تعالى ، فمن كان أكمل إيماناً ، وأكثر ذكراً ،كان دفع اللّه تعالى عنه ودفاعه أعظم ، ومن نقص نقص ذكراً بذكر ،ونسياناً بنسيان ،وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم** ﴾ [ إبراهيم : ٧ ] .

واالذكر رأس الشكر ، والشكر جلاب النعم ،وموجب للمزيد .

قال بعض السلف ـ رحمة اللّه عليهم :ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغْفل عن ذكرك.

**الخمسون** :أن الذكر يوجب صلاة الله عز وجل وملائكته على الذاكر،ومن صلى الله تعالى عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح ،وفاز كل الفوز ،قال سبحانه وتعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣)** ﴾ [ الأحزاب ].

فهذه الصلاة منه تبارك وتعالى ومن ملائكته ، إنما هى على الذاكرين له كثيرا ، وهذه الصلاة منه ومن الملائكة هى سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور ، وإذا حصلت لهم الصلاة من الله تبارك وتعالى وملائكته ،وأخرجوهم من الظلمات إلى النور، فأى خير لم يحصل لهم بذلك ، وأى شر لم يدفع عنهم ؟ فيا حسرة الغافلين عن ربهم ماذا حرموا من خيره وفضله ، وبالله والتوفيق .

**الحادية والخمسون** : أن من شاء الله أن يسكن رياض الجنة فى الدنيا ، فليستوطن مجالس الذكر ، فإنها رياض الجنة .

وقد ذكر ابن أبى الدنيا وغيره من حديث جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال:« يا أيها الناس ارتعوا فى رياض الجنة » قلنا : يا رسول الله ، وما رياض الجنة؟ قال :« مجالس الذكر » ،ثم قال : « اغدوا وروحوا واذكروا ، فمن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله تعالى ؛ فلينظر كيف منزلة الله تعالى عنده ، فإن الله تعالى ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه » (١).

**الثانية والخمسون** :أن مجالس الذكر مجالس الملائكة ، فليس من مجالس الدنيا لهم مجلس إلا مجلس يذكر الله تعالى فيه ، كما أخرجا فى « الصحيحين » من حديث الأعمش، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« إن لله ملائكة فضلا عن كتاب الناس يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال: فيسألهم ربهم تعالى ـ وهو أعلم بهم : ما يقول عبادى ؟ قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ،ويحمدونك، ويمجدونك . قال: فيقول : هل رأونى ؟ قال : فيقولون: لا والله ما رأوك ، قال: فيقول : كيف لو رأونى ؟ قال: فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك

(١) الحاكم فى المستدرك ( ١/ ٤٩٤ ) فى الدعاء ؛ باب : من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده ، وقال :صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وتعقبه الذهبى فقال : « عمر ـ أى ابن عبد الله مولى غُفْرة ـ ضعيف » .

عبادة ،وأشد لك تحميدا وتمجيدا ، وأكثر لك تسبيحا. قال: فيقول : ما يسألونى ؟ قال: يسألونك الجنة . قال: فيقول: وهل رأوها ؟ قال: يقولون : لا والله يا رب ، ما رأوها. قال: فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا، وأشد لها طلبا ، وأعظم فيها رغبة . قال : فيقول: فمم يتعوذون ؟ قال: من النار. قال: يقول:وهل رأوها ؟ قال: يقولون:لا والله يا رب ، ما رأوها . قال : يقول : فكيف لو رأوها ، قال : يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارا،وأشد لها مخافة. قال: يقول: فأُشهدكم أنى قد غفرت لهم . قال : فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة . قال : هم الجلساء لا يشقى به جليسهم » (١).

فهذا من بركتهم على نفوسهم وعلى جليسهم ، فلهم نصيب من قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١] ، فهكذا المؤمن مبارك أين حل ، والفاجر مشؤوم أين حل .

فمجالس الذكر : مجالس الملائكة ، ومجالس الغفلة : مجالس الشياطين،وكل مضاف إلى شكله وأشباهه ، وكل امرئ يصير إلى ما يناسبه .

**الثالثة والخمسون** : أن الله عز وجل يباهى بالذاكرين ملائكته ، كما روى مسلم فى «صحيحه » عن أبى سعيد الخدرى قال : خرج معاوية على حلقة فى المسجد ، فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله تعالى . قال : آلله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك . قال : أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، وما كان أحد بمنزلتى من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثا منى ، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه ، فقال: «ما أجلسكم ؟ » قالوا: جلسنا نذكر الله تعالى ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنّ به علينا. قال: « آلله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ » قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك . قال : «أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتانى جبريل فأخبرنى : أن الله تبارك وتعالى يباهى بكم الملائكة » (٢) .

فهذه المباهاة من الرب تبارك وتعالى دليل على شرف الذكر عنده ،ومحبته له، وأن له

---

(١) البخارى ( ٦٤٠٨ ) فى الدعوات، باب : فضل ذكر الله عز وجل ،ومسلم ( ٢٦٨٩ / ٢٥ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ،باب : فضل مجالس الذكر .

(٢) مسلم ( ٢٧٠١/ ٤٠ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر .

مزية على غيره من الأعمال .

**الرابعة والخمسون**: أن مُدمن الذكر يدخل الجنة وهو يضحك ،لما ذكر ابن أبى الدنيا عن عبد الرحمن بن مهدى ، عن معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمى عن أبيه ،عن أبى الدرداء قال: الذين لا تزال ألسنتهم رطبة من ذكر الله عز وجل يدخل أحدهم الجنة وهو يضحك .

**الخامسة والخمسون**: أن جميع الأعمال إنما شرعت إقامة لذكر اللّه تعالى ، والمقصود بها تحصيل ذكر اللّه تعالى .

قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** ⑭﴾.[ طه ] . قيل : المصدر مضاف إلى الفاعل ،أى :لأذكرك بها ،وقيل :مضاف إلى المذكور ،أى:لتذكرونى بها .واللام فى هذا لام التعليل. وقيل:هى اللام الوقتية ، أى: أقم الصلاة عند ذكرى .كقوله: ﴿ **أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ** ﴾[ الإسراء:٧٨]،وقوله تعالى: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ [الأنبياء: ٤٧]،وهذا المعنى يراد بالآية ، لكن تفسيرها به يجعل معناها فيه نظر ؛ لأن هذه اللام الوقتية يليها أسماء الزمان والظروف ،والذكر مصدر إلا أن يقدر زمان محذوف ، أى: عند وقت ذكرى ، وهذا محتمل .

والأظهر :أنها لام التعليل ، أى : أقم الصلاة لأجل ذكرى ، ويلزم من هذا أن تكون إقامتها عند ذكره ،وإذا ذكر العبد ربه ، فذكر الله تعالى سابق على ذكره، فإنه لما ذكره ألهمه ذكره ، فالمعانى الثلاثة حق .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾[ العنكبوت:٤٥ ] .

**فقيل**: المعنى : إنكم فى الصلاة تذكرون الله ، وهو ذاكر من ذكره ،ولذكر اللّه تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه. وهذا يروى عن ابن عباس ،وسلمان ،وأبى الدرداء،وابن مسعود ﭬ .

وذكر ابن أبى الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية :﴿ **وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾ قال:هو قوله تعالى : ﴿ **فاذكرونى أذكركم** ﴾ فذكراللّه تعالى لكم أكبر من ذكركم إياه .

وقال ابن زيد وقتادة :معناه : وذكر الله أكبر من كل شىء .

وقيل : لسلمان : أى الأعمال أفضل ؟ فقال: أما تقرأ القرآن: ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾. ويشهد لهذا حديث أبى الدرداء: « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ،وخير لكم من إنفاق الذهب والورِق . . . » الحديث (١).

وكان شيخ الإسلام أبو العباس ـ قدس اللّه روحه ـ يقول: الصحيح : أن معنى الآية: أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان ، وأحدهما أعظم من الآخر ، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ،وهى مشتملة على ذكر الله تعالى، ولما فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

وذكر ابن أبى الدنيا عن ابن عباس أنه سئل :أى العمل أفضل؟ قال: ذكر الله أكبر .

وفى « السنن » عن عائشة ،عن النبى ﷺ قال: « إنما جُعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمى الجمار لإقامة ذكر الله تعالى ». رواه أبو داود والترمذى وقال :حديث حسن صحيح (٢).

**السادسة والخمسون**:أن أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكرا للّه عز وجل ،فأفضل الصوام ،أكثرهم ذكرا لله عز وجل فى صومهم،وأفضل المتصدقين ،أكثرهم ذكراً لله عز وجل، وأفضل الحجاج ، أكثرهم ذكرا للّه عز وجل . وهكذا سائر الأعمال .

وقد ذكر ابن أبى الدنيا حديثاً مرسلا فى ذلك : أن النبى ﷺ سئل : أى أهل المسجد خير؟ قال:« أكثرهُم ذكرا لله عز وجل » قيل: أى أهل الجنازة خير ؟ قال: « أكثرهم ذكرا لله عز وجل ». قيل : فأى المجاهدين خير ؟ قال: « أكثرهم ذكرا لله عز وجل » . قيل: فأى الحجاج خير ؟ قال : « أكثرهم ذكرا لله عز وجل » قيل : وأى العواد خير ؟ قال : «أكثرهم ذكرا لله عز وجل » . قال أبو بكر : ذهب الذاكرون بالخير كله (٣).

وقال عبيد بن عمير :إن أعظمكم هذا الليل أن تكابدوه ، وبخلتم بالمال أن تنفقوه، وجبنتم عن العدو أن تقاتلوه ، فأكثروا من ذكر اللّه عز وجل .

---

(١) سبق تخريجه ص ٢١٠ .

(٢) أبو داود ( ١٨٨٨ ) فى المناسك ، باب : فى الرمل ، والترمذى ( ٩٠٢ ) فى الحج باب: ما جاء كيف يرمى الجمار .

(٣) أحمد ( ٣ / ٤٣٨ ) والطبرانى فى الكبير ٢٠ / ١٨٦ ( ٤٠٧ ) . وقال الهيثمى فى المجمع (٧٧/١٠ ) فى الأذكار ، باب : فضل ذكر الله تعالى والإكثار منه : « فيه زبان بن فائد وهو ضعيف ،وقد وثق،وكذلك ابن لهيعة ،وبقية رجال أحمد ثقات » .

**السابعة والخمسون** :أن إدامة الذكر تنوب عن التطوعات ،وتقوم مقامها ، سواء كانت بدنية ، أومالية ، أو بدنية مالية ، كحج التطوع .

وقد جاء ذلك صريحا فى حديث أبى هريرة : أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ،ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلى ،والنعيم المقيم، يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ،ولهم فضل أموالهم ، يحجون بها ،ويعتمرون ، ويجاهدون ويتصدقون . فقال: « ألا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم ،وتسبقون به من بعدكم ،ولا أحد يكون أفضل منكم إلا من صنع ما صنعتم » ؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: « تسبحون،وتحمدون ، وتكبرون خلف كل صلاة . . » الحديث متفق عليه(١) .

فجعل الذكر عوضاً لهم عما فاتهم من الحج والعمرة والجهاد، وأخبر أنهم يسبقونهم بهذا الذكر ، فلما سمع أهل الدُّثُور بذلك عملوا به ، فازدادوا ـ إلى صدقاتهم وعبادتهم بمالهم ـ التعبد بهذا الذكر ، فحازوا الفضيلتين ،فنافسهم الفقراء ،وأخبروا رسول الله ﷺ بأنهم قد شاركوهم فى ذلك ، فانفردوا عنهم بما لا قدرة لهم عليهم ، فقال:« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (٢).

وفى حديث عبد الله بن بسر قال: جاء أعرابى فقال: يا رسول الله، كثرت على خلال الإسلام وشرائعه ،فأخبرنى بأمر جامع يكفينى .قال:« عليك بذكر الله تعالى» قال: ويكفينى يا رسول الله ؟ قال :« نعم ،ويفضل عنك » (٣).

فدله الناصح ﷺ على شىء يعينه على شرائع الإسلام والحرص عليها والاستكثار منها،فإنه إذا اتخذ ذكر الله تعالى شعاره أحبه وأحب ما يحب ، فلا شىء أحب من التقرب بشرائع الإسلام ،فدله ﷺ على ما يتمكن به من شرائع الإسلام،وتسهل به عليه، وهو ذكر الله عز وجل ، توضحه :

**الثامنة والخمسون** : أن ذكر الله عز وجل من أكبر العون على طاعته، فإنه يحببها

---

(١) البخارى ( ٨٤٣ ) فى الصلاة ، باب : الذكر بعد الصلاة ، ومسلم ( ١٤٢/٥٩٥ ) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة .

(٢) مسلم ( ١٤٢/٥٩٥ ) فى الكتاب والباب السابقين .

(٣) رواه بمعناه الترمذى ( ٣٣٧٦ ) فى الدعوات ، باب ( ٥ ) ،وقال : « غريب » ،وابن ماجه ( ٣٧٩٣) فى الأدب،باب : فضل الذكر ، والحاكم ( ١/ ٤٩٤ ) فى الدعاء، باب: مداومة الذكر وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

إلى العبد،ويسهلها عليه ،ويلذذها له،ويجعل قرة عينه فيها ، ونعيمه وسروره بها ، بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة والثقل ما يجد الغافل، والتجربة شاهدة بذلك ، توضحه :

**الستون** :أن ذكر اللّه عز وجل يذهب عن القلب مخاوفه كلها ، وله تأثير عجيب فى حصول الأمن،فليس للخائف الذى قد اشتد خوفه أنفع من ذكر الله عز وجل ، إذ بحسب ذكره يجده الأمن ويزول خوفه ، حتى كأن المخاوف التى يجدها أمانا له ،والغافل خائف مع أمنه حتى كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف ،ومن له أدنى حسن قد جرب هذا وهذا .والله المستعان.

**الحادية والستون** : أن الذكر يعطى الذاكر قوة ،حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يطق فعله بدونه ، وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية فى مشيته ،وكلامه ، وإقدامه وكتابته ، أمرا عجيباً ، فكان يكتب فى اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ فى جمعة وأكثر، وقد شاهد العسكر من قوته فى الحرب أمراً عظيماً .

وقد علم النبى ﷺ ابنته فاطمة وعليا رضى اللّه تعالى عنهما أن يسبِّحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثا وثلاثين ، ويحمدا ثلاثا وثلاثين ، ويكبرا أربعا وثلاثين ، لما سألته الخادم ، وشكت إليه ما تقاسيه من الطحْن والسعى والخدمة ، فعلمها ذلك وقال: « إنه خير لكما من خادم » .

فقيل : إن من داوم على ذلك وجد قوة فى بدنه مغنية عن خادم .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللّه تعالى ـ يذكر أثراً فى هذا الباب ويقول: إن الملائكة لما أمروا بحمل العرش قالوا: يا ربنا ،كيف نحمل عرشك وعليه عظمتك وجلالك ؟ فقال : قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله ، فلما قالوا ، حملوه ، حتى رأيت ابن أبى الدنيا قد ذكر هذا الأثر بعينه عن الليث بن سعد ، عن معاوية بن صالح قال: حدثنا مشيختنا أنه بلغهم : أن أول ما خلق الله عز وجل ـ حين كان عرشه على الماء ـ حملة العرش ، قالوا : ربنا ،لم خلقتنا ؟ قال : خلقتكم لحمل عرشى . قالوا : ربنا ، ومن يقوى على حمل عرشك وعليه عظمتك وجلالك ووقارك ؟ قال: لذلك خلقتكم . فأعادوا عليه ذلك مراراً ، فقال لهم : قولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فحملوه .

وهذه الكلمة لها تأثير عجيب فى معاناة الأشغال الصعبة ،وتحمل المشاق والدخول على الملوك ،ومن يخاف ، وركوب الأهوال . ولها أيضاً تأثير عجيب فى دفع الفقر ، كما روى

ابن أبى الدنيا عن الليث بن سعد، عن معاوية بن صالح،عن أسد بن وداعة ـ رحمه اللّه ـ قال:قال رسول اللّه ﷺ :« من قال : لا حول ولا قوة إلا باللّه ، مائة مرة فى كل يوم ، لم يصبه فقر أبدا » (١) .

وكان حبيب بن سلمة يستحب إذا لقى عدوا ،أو ناهض حصنا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله ،وإنه ناهض يوما حصنا للروم، فانهزم فقالها المسلمون وكبروا ، فانهدم الحصن.

**الثانية والستون** : أن عمال الآخرة كلهم فى مضمار السباق، والذاكرون هم أسبقهم فى ذلك المضمار، ولكن القَتَرة والغبار يمنع من رؤية سبقهم ، فإذا انجلى الغبار وانكشف ؛ رآهم الناس وقد حازوا قصب السبق .

قال الوليد بن مسلم : حدثنا محمد بن عجلان : سمعت عمر مولى غفرة يقول : إذا انكشف الغطاء للناس يوم القيامة عن ثواب أعمالهم ، لم يروا عملا أفضل ثوابا من الذاكرين، فيتحسر عند ذلك أقوام فيقولون : ما كان شيء أيسر علينا من الذكر .

وقال أبو هريرة : قال رسول اللّه ﷺ:« سيروا ، سبق المفرِّدون » قالوا: وما المفرِّدون. قال:« الذين أهتِرُوا فى ذكر اللّه تعالى يضع الذكر عنهم أوزارهم » (٢). اهتروا بالشىء وفيه : أولعوا به ولزموه وجعلوه دأبهم . فى بعض ألفاظ الحديث: « المستهترون بذكر اللّه » (٣).

ومعناه : الذين أولعوا به ،يقال :استهتر فلان بكذا : إذا أولع به .

وفيه تفسير آخر : أن « أهتروا فى ذكر اللّه » أى : كبروا ، وهلك أقرانُهم وهم فى ذكر اللّه تعالى. يقال : أهْتر الرجل ، فهو مُهتر : إذا سقط فى كلامه من الكبر ، والهتر : السقط من الكلام ، كأنه بقى فى ذكر اللّه تعالى حتى خرف وأنكر عقله ،والهتر:الباطل أيضا، ورجل مستهتر : إذا كان كثير الأباطيل . وفى حديث ابن عمر : أعوذ بالله أن أكون من المستهترين .

وحقيقة اللفظ : أن الاستهتار : الإكثار من الشىء،والولوع به ، حقا؛كان أو باطلا ، وغلب فى عرف الناس استعماله على المبطل، حتى إذا قيل : فلان مستهتر ، لايفهم منه إلا

(١) الترغيب والترهيب ( ٢ / ٤٤٩ ) ، وقال: « رواته ثقات إلا أسداً ».
(٢) أحمد ( ٢ / ٣٢٣ ) .
(٣) الترمذى ( ٣٥٩٦ ) فى الدعوات ، باب: ( ١٢٨ ) ، وقال: « حسن غريب » ، وضعفه الألبانى .

الباطل ،وإنما إذا قيد بشيء تقيد به، نحو : هو مستهتر ،وقد اهتر فى ذكر الله تعالى، أى: أولع به وأُغرِى به .

ويقال : استُهتر فيه وبه. وتفسير هذا فى الأثر الآخر : « أكثروا ذكر الله تعالى حتى يقال: مجنون » (١) .

**الثالثة والستون**: أن الذكر سبب لتصديق الرب عز وجل عبده ،فإنه أخبر عن اللّه تعالى بأوصاف كماله ونعوت جلاله ، فإذا أخبر بها العبد صدَّقه ربه ،ومن صدقه اللّه تعالى ،لم يحشر مع الكاذبين ، ورجى له أن يحشر مع الصادقين .

روى أبو إسحاق عن الأغرّ أبى مسلم،أنه شهد على أبى هريرة وأبى سعيدالخدرى رضي الله عنهما أنهما شهدا على رسول اللّه ﷺ أنه قال:« إذاقال العبد :لا إله إلا اللّه واللّه أكبر، قال: يقول اللّه تبارك وتعالى: صدق عبدى. لا إله إلا أنا وأنا أكبر ، وإذا قال : لا إله إلا اللّه وحده ، قال: صدق عبدى ،لا إله إلا أنا وحدى ، وإذا قال:لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، قال:صدق عبدى لا إله إلا أنا ،لا شريك لى ،وإذا قال : لا إله إلا الله له الملك وله الحمد ،قال : صدق عبدى ، لا إله إلا أنا ، لى الملك ولى الحمد ،وإذا قال : لا إله إلا اللّه ،ولا حول ولا قوة إلا باللّه، قال :صدق عبدى لا إله إلا أنا ،ولا حول ولا قوة إلا بى » قال أبو إسحاق : ثم قال الأغر شيئا لم أفهمه ، قلت لأبى جعفر : ما قال ؟ قال: « من رزقهن عند موته لم تمسه النار »(٢) .

**الرابعة والستون** : أن دور الجنة تبنى بالذكر ، فإذا أمسك الذاكر عن الذكر ، أمسكت الملائكة عن البناء .فإذا أخذ فى الذكر أخذوا فى البناء .

وذكر ابن أبى الدنيا فى كتابه ، عن حكيم بن محمد الأخنسى قال: بلغنى أن دور الجنة تبنى بالذكر، فإذا أمسك عن الذكر أمسكوا عن البناء ، فيقال لهم، فيقولون : حتى تأتينا نفقة.

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال:« من قال سبحان الله

(١) سبق تخريجه ص١٨١ .

(٢) الترمذى ( ٣٤٣٠ ) فى الدعوات ، باب: ما يقول العبد إذا مرض ،وقال « حسن غريب »،والنسائى فى الكبرى ( ٩٨٥٨ ) فى عمل اليوم والليلة ، باب : ثواب من قال: لا إله إلا الله والله أكبر ..إلخ ،وابن ماجه( ٣٧٩٤) فى الأدب ، باب: فضل لا إله إلا الله .

وبحمده، سبحان اللّه العظيم ـ سبع مرات ـ بنى له بُرج فى الجنة » (١).

وكما أن بناءها بالذكر ، فغراس بساتينها بالذكر كما تقدم فى حديث النبى ﷺ عن إبراهيم الخليل عليه السلام :« أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ،وأن غراسها : سبحان اللّه ، والحمد لله ،ولا إله إلا الله ،والله أكبر » (٢) .فالذكر غراسها وبناؤها .

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « أكثروا من غراس الجنة » ، قالوا : يارسول اللّه ، وما غراسها ؟ قال : « ما شاء اللّه ، لاحَول ولا قوة إلا باللّه » (٣).

**الخامسة والستون** : أن الذكر سد بين العبد وبين جهنم ،فإذا كانت له إلى جهنم طريق من عمل من الأعمال ،كان الذكر سدا فى تلك الطريق ، فإذا كان ذكرا دائما كاملا ، كان سدا محكما لامنفذ فيه ، وإلا فبحسبه .

قال عبد العزيز بن أبى روَّاد:كان رجل بالبادية قد اتخذ مسجدا ، فجعل فى قبلته سبعة أحجار،كان إذا قضى صلاته قال: يا أحجار ، أشهدكم أنه لا إله إلا الله ،قال:فمرض الرجل ، فعُرج بروحه ،قال: فرأيت فى منامى أنه أمر بى إلى النار ،قال: فرأيت حجراً من تلك الأحجار أعرفه قد عظم ، فسدَّ عنى بابا من أبواب جهنم ، ثم أتى إلى الباب الآخر ، فإذا حجر من تلك الأحجار أعرفه قد عظم ، فسد عنى باباً من أبواب جهنم ، حتى سد عنى بقية الأحجار أبواب جهنم .

**السادسة والستون** :أن الملائكة تستغفر للذاكر كما تستغفر للتائب ،كما روى حسين المعلم عن عبد الله بن بريدة ، عن عامر الشعبى ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أجد فى كتاب الله المنزل : أن العبد إذا قال:« الحمد للّه » قالت الملائكة :« رب العالمين»، وإذا قال : « الحمد لله رب العالمين » ، قالت الملائكة : « اللهم اغفر لعبدك » ،وإذا قال:«سبحان الله وبحمده » ، قالت الملائكة :« اللهم اغفر لعبدك » ، وإذا قال :« سبحان الله » ، قالت الملائكة : « وبحمده » وإذا قال: « لا إله إلا الله» قالت الملائكة:« والله

(١) لم أقف عليه ،ويغنى عنه حديث الترمذى الذى سبق ص ١٤ .

(٢) سبق تخريجه ص ١٨٦ .

(٣) روى بنحوه الطبرانى فى الكبير ١٢/ ٣٦٤(١٣٣٥٤ )، وقال الهيثمى فى المجمع( ١٠/ ١٠١ ) فى الأذكار، باب: ما جاء فى لا حول ولا قوة إلا بالله : فيه عقبة بن على وهو ضعيف » ، وقال محققه : « فيه أيضا عبد اللّه بن عمر » .

أكبر »، وإذا قال: «لا إله إلا الله والله أكبر» قالت الملائكة: « اللهم اغفر لعبدك » .

**السابعة والستون** : إن الجبال والقِفار تتباهى ، وتستبشر بمن يذكر الله عز وجل عليها.

قال ابن مسعود: إن الجبل لينادى الجبل باسمه: أمرَّ بك اليوم أحد يذكر الله عز وجل؟ فإذا قال: نعم ، استبشر .

قال عون بن عبد الله: إن البقاع لينادى بعضها بعضا: يا جارتاه، أمرّ بك اليوم أحد يذكر الله؟ فقائلة :نعم ، وقائلة : لا ،فقال الأعمش عن مجاهد : إن الجبل لينادى الجبل باسمه :يا فلان هل مر بك اليون ذاكر للّه عز وجل؟ فمن قائل : لا ، ومن قائل : نعم .

**الثامنة والستون** : أن كثرة ذكر الله عز وجل أمان من النفاق ، فإن المنافقين قليلو الذكر لله عز وجل .

قال الله عز وجل فى المنافقين : ﴿ **وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴿١٤٢﴾ ﴾[ النساء ] .

وقال كعب : من أكثر ذكر الله عز وجل برئ من النفاق . ولهذا ـ واللّه أعلم ـ ختم اللّه تعالى سورة المنافقين بقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴿٩﴾ ﴾ [ المنافقون ]، فإن فى ذلك تحذيرا من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر اللّه عز وجل، فوقعوا فى النفاق.

وسئل بعض الصحابة ﷺ عن الخوارج : منافقون هم ؟ قال : المنافقون لا يذكرون اللّه إلا قليلاً .

فهذا من علامة النفاق :قلة ذكر اللّه عز وجل ،وكثرة ذكره أمان من النفاق ،واللّه عز وجل أكرم من أن يبتلى قلباً ذاكراً بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله عز وجل .

**التاسعة والستون** : أن للذكر من بين الأعمال لذة لا يشبهها شىء، فلو لم يكن للعبد من ثوابه إلا اللذة الحاصلة للذاكرة. والنعيم الذى يحصل لقلبه، لكفى به؛ ولهذا سميت مجالس الذكر رياض الجنة .

قال مالك بن دينار: ما تلذَّذ المتلذِّذون بمثل ذكر اللّه عز وجل، فليس شىء من الأعمال أخف مؤونة منه ،ولا أعظم لذة، ولا أكثر فرحة .وابتهاجا للقلب .

**السبعون** : أنه يكسو الوجه نضرة فى الدنيا ، ونوراً فى الآخرة، فالذاكرون أنضر الناس وجوهًا فى الدنيا ،وأنورهم فى الأخرة .

ومن المراسيل عن النبى ﷺ قال: « من قال كل يوم مائة مرة : لا إله إلا اللّه وحده لا

شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير ، أتى الله تعالى يوم القيامة ،ووجهه أشد بياضاً من القمر ليلة البدر » (١).

**الحادية والسبعون** :أن فى دوام الذكر فى الطريق ،والبيت،والحضر،والسفر، والبقاع، تكثيراً لشهود العبد يوم القيامة،فإن البقعة ، والدار ،والجبل ، والأرض ، تشهد للذاكر يوم القيامة.

قال تعالى : ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا**﴾ [ الزلزله] .

فروى الترمذى فى « جامعه » ، من حديث سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④**﴾ ،قال : « أتدرون ما أخبارها ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم، قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول:عمل يوم كذا ؛كذا وكذا » قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (٢).

والذاكر لله عز وجل فى سائر البقاع مكثر شهوده ،ولعلهم أو أكثرهم أن يقبلوه يوم القيامة يوم قيام الأشهاد،وأداء الشهادات ، فيفرح ويغتبط بشهادتهم .

**الثانية والسبعون**:أن فى الاشتغال بالذكر اشتغالاً عن الكلام الباطل من الغيبة، والنميمة،واللغو ،ومدح الناس ، وذمهم ،وغير ذلك ، فإن اللسان لا يسكت البتة .

فإما لسان ذاكر ، وإما لسان لاغ ، ولا بد من أحدهما ، فهى النفس إن لم تشغلها بالحق ، شغلتك بالباطل ، وهو القلب إن لم تسكنه محبة الله عز وجل ،سكنته محبة المخلوقين ولا بد،وهو اللسان ،إن لم تشغله بالذكر،شغلك باللغو ، وهو عليك ولا بد ، فاختر لنفسك إحدى الخطتين ، وأنزلها فى إحدى المنزلتين .

**الثالثة والسبعون** : وهى التى بدأنا بذكرها ،وأشرنا إليها إشارة ،فنذكرها ها هنا مبسوطة لعظيم الفائدة بها ،وحاجة كل أحد،بل ضرورته إليها،وهى أن الشياطين قد احتوشت العبد وهم أعداؤه ،فما ظنك برجل قد احتوشه أعداؤه المحنقون عليه غيظاً ، وأحاطوا به،وكل منهم يناله بما يقدر عليه من الشر والأذى، ولاسبيل إلى تفريق جمعهم عنه إلا بذكر الله عز وجل .

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

(٢) الترمذى ( ٣٣٥٣) فى التفسير ، باب : من سورة إذا زلزلت ، وضعفه الألبانى .

وفى هذا الحديث العظيم ، الشريف القدر ، الذى ينبغى لكل مسلم أن يحفظه ، فنذكره بطوله لعموم فائدته، وحاجة الخلق إليه ،وهو حديث سعيد بن المسيب ،عن عبد الرحمن بن سمرة بن جندب قال:

خرج علينا رسول الله ﷺ يوما ،وكنا فى صفه بالمدينة، فقام علينا وقال: « إنى رأيت البارحة عجبا :رأيت رجلا من أمتى أتاه ملك الموت ليقبض روحه ، فجاءه برُّه بوالديه ، فرد ملك الموت عنه ، ورأيت رجلا من أمتى قد بسط عليه عذاب القبر ، فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك، ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله عز وجل ، فطرد الشيطان عنه، ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب ، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، وأيت رجلا من أمتى يلهب وفى رواية : يلهث عطشا ، كلما دنا من حوض منع وطرد، فجاءه صيام شهر رمضان ، فاسقاهُ وأرواه ،ورأيت رجلا من أمتى ، ورأيت النبيين جلوساً حلقاً حِلقاً ، كلما دنا إلى حلقة طرد ، فجاءه غسله من الجنابة ، فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى ،ورأيت رجلا من أمتى بين يديه ظلمة ، ومن خلفه ظلمة ، وعن يمينه ظلمة،وعن يساره ظلمة،ومن فوقه ظلمة ، ومن تحته ظلمة ، وهو متحير فيها ، فجاء حجه وعمرته ، فاستخرجاه من الظلمة ،وأدخلاه فى النور ، ورأيت رجلا من أمتى يتقى بيده وهج النار وشرره ، فجاءته صدقته ، فصارت سترة بينه وبين النار ،وظلت على رأسه ، ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين ولا يكلمونه،فجاءته صلته لرحمه فقالت: يا معشر المسلمين ، إنه كان وصُولا لرحمه فكلِّموه فكلمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم .

ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الزبانية ، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، فاستنقذه من أيديهم ،وأدخله فى ملائكة الرحمة ورأيت رجلا من أمتى جاثيا على ركبتيه ، وبينه وبين الله عز وجل حجاب، فجاءه حسن خلقه، فأخذه بيده، فأدخله على الله عز وجل، ورأيت رجلا من أمتى قد ذهبت صحيفته من قبل شماله ، فجاءه خوفه من الله عز وجل ، فأخذ صحيفته فوضعها فى يمينه ، ورأيت رجلاً من أمتى خف ميزانه ، فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه، ورأيت رجلاً من أمتى قائما على شفير جهنم ، فجاءه رجاؤه فى اللّه عز وجل ، فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلا من أمتى قد أهوى فى النار ، فجاءته دمعته التى بكى من خشية اللّه عز وجل ، فاستنقذته من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمتى قائماً على الصراط يرعدُ كما ترعد السعفة فى ريح عاصف ، فجاءه حُسن ظنه باللّه عز وجل ، فسكن رعدته ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتى يزحف على الصراط ، ويحبو أحيانا ، ويتعلق أحيانا ، فجاءته صلاته علىَّ فأقامته على قدميه ، وأنقذته ، ورأيت رجلاً من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه ، فجاءته شهادة أن لا إله إلا اللّه ، ففتحت له الأبواب ،وأدخلته الجنة ». ورواه الحافظ أبو موسى المدينى فى كتاب « الترغيب فى الخصال

المنجية ،والترهيب من الخلال المردية»[1]، بنى كتابه عليه وجعله شرحا له ، وقال :هذا حديث حسن جدا ،ورواه عن سعيد بن المسيب: عمر بن ذر، وعلى بن زيد بن جدعان،وهلال أبو جبلة .وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدس اللّه روحه يعظم شأن هذا الحديث،وبلغنى عنه أنه كان يقول :شواهد الصحة عليه .

والمقصود منه قوله ﷺ :« ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشه الشياطين، فجاءه ذكر اللّه عز وجل، فطرد الشياطين عنه» فهذا مطابق لحديث الحارث الأشعرى الذى شرحناه فى هذه الرسالة . وقوله فيه : « وآمركم بذكر الله عز وجل ، وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدوّ ، فانطلقوا فى طلبه سراعا ،وانطلق حتى أتى حصنا حصينا ،فأحرز نفسه فيه »[2] .

فكذلك الشيطان لا يحرز العباد أنفسهم منه إلا بذكر الله عز وجل ،وفى الترمذى عن أنس بن مالك قال:قال رسول الله ﷺ :« من قال ـ يعنى:إذا خرج من بيته ـ بسم الله، توكلت على اللّه ،لا حول ولا قوة إلا بالله ،يقال له: كُفيت وهديت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان ، فيقول لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هُدى وكفى ووقى ؟ » رواه أبو داود والنسائى والترمذى وقال :حديث حسن [3].

وقد تقدم قوله ﷺ : « من قال فى يوم مائة مرة : لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، كانت له حرزاً من الشيطان حتى يُمسى»[4].

وذكر سفيان عن أبى الزبير ، عن عبد الله بن ضمرة ، عن كعب قال: إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله، قال الملك : هُديت ، وإذا قال: توكلت على الله ، قال الملك : كفيت ،وإذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله ،قال الملك : حُفظت . فيقول الشياطين بعضهم لبعض : ارجعوا ،ليس لكم عليه سبيل ، كيف لكم بمن كُفى وهُدى وحفظ ؟

وقال أبو خلاد المصرى : من دخل فى الإسلام ، دخل فى حصن ،ومن دخل

---

(١) الطبرانى فى الأحاديث الطوال ( ٣٩ ) باختصار ، وقال الهيثمى فى المجمع ( ١٠ / ١٨١ ) فى التعبير ، باب : فيما رآه النبى ﷺ فى المنام : « رواه الطبرانى بإسنادين فى أحدهما سليمان بن أحمد الواسطى ، وفى الآخر خالد بن عبد الرحمن المخزومى ، وكلاهما ضعيف »

(٢) سبق تخريجه ص ١٧٧ .

(٣) أبو داود ( ٥٠٩٥ ) فى الأدب ، باب: ما يقول إذا خرج من بيته ، والترمذى ( ٣٤٢٦ ) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا خرج من بيته : « حسن صحيح غريب » ، والنسائى فى الكبرى ( ٩٩١٧ ) فى عمل اليوم والليلة ، باب: ما يقول إذا خرج من بيته .

(٤) سبق تخريجه ص ١٨٧ .

المسجد، فقد دخل فى حصنين، ومن جلس فى حلقة يذكر الله عز وجل فيها، فقد دخل فى ثلاثة حصون .

وقد روى الحافظ أبو موسى فى كتابه من حديث أبى عمران الجونى،عن أنس ،عن النبى ﷺ قال: « إذا وضع العبد جنبه عن فراشه، فقال: بسم الله ،وقرأ فاتحة الكتاب،أمن من شر الجن والإنس ، ومن شر كل شىء » (١).

وفى « صحيح البخارى » عن محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة ، قال : ولانى رسول الله ﷺ زكاة رمضان أن أحتفظ بها، فأتانى آتى،فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته ، فقال : دعنى فإنى فإنى لا أعود . . . فذكر الحديث ، وقال : فقال له فى الثالثة : أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ،إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسى من أولها إلى آخرها، فإنه لا يزال عليك من الله حافظ،ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخلى سبيله ، فأصبح، فأخبر النبى ﷺ بقوله ، فقال: « صدقك ، وهو كذوب»(٢).

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبى الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا أوى الإنسان إلى فراشه، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك: اختم بخير ، ويقول الشيطان:اختم بشر. فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه ـ يعنى النوم ـ طرد الملك الشيطان وبات يكلؤه ، فإذا استيقظ ،ابتدره ملك وشيطان،فيقول الملك ،افتح بخير ،ويقول الشيطان ، افتح بشر،فإن قال:- الحمد لله الذى أحيا نفسى بعد موتها ولم يمتها فى منامها ، الحمد لله الذى يُمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، الحمد لله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ،ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ،الحمد لله الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض إلابإذنه ،طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه» (٣).

وفى « الصحيحين »:من حديث سالم بن أبى الجعد ،عن كريب ، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ :« أما لو إن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فيولد بينهما ولد لا يضره شيطان أبدا » (٤).

---

(١) كنز العمال ( ٤١٢٩٩ ) وعزاه للديلمى عن أنس ، بزيادة : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ،وانظر:ضعيف الجامع (٨٢٢).
(٢) البخارى ( ٣٢٧٥ ) فى بدء الخلق ، باب: صفة إبليس وجنوده .
(٣) أبو يعلى ( ١٧٩١ ) ،وقال الهيثمى فى المجمع ( ١٠/ ١٢٣) فى الأذكار ، باب: ما يقول إذا أوى إلى فراشه وإذا انتبه : « رجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن الحجاج الشامى ،وهو ثقة » .
(٤) سبق تخريجه ص٢١٠ .

وذكر الحافظ أبو موسى ،عن الحسن بن على قال: أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين الآية أن يعصمه الله تعالى من كل شيطان ظالم، ومن كل شيطان مريد ، ومن كل سبع ضار ،ومن كل لص عاد : آية الكرسى ، وثلاث آيات من الأعراف: ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ**﴾ [ الأعراف: ٥٤ ـ ٥٧ ]، وعشرا من الصافات [ ١ـ ١٠ ] ،وثلاث آيات من الرحمن ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ...** ﴾ [ الرحمن ٣٣ ـ ٣٤ ]، وخاتمة سورة الحشر ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ...**﴾[ الحشر: ٢١] .

وقال محمد بن أبان : بينما رجل يصلى فى المسجد ،إذا هو بشىء إلى جنبه ، فجفل منه ، فقال : ليس عليك منى بأس،إنما جئتك فى الله تعالى، ائت عروة فسله : ما الذى يتعوذ به ؟ يعنى من إبليس الأباليس ، قال : قل آمنت بالله العظيم وحده ،وكفرت بالجبت والطاغوت ، واعتصمت بالعروة الوثقى لا نفصام لها ،والله سميع عليم ، حسبى الله وكفى ، سمع الله لمن دعا ، ليس وراء الله منتهى .

وقال بشر بن منصور : عن وهب بن الورد قال: خرج رجل إلى الجبانة بعد ساعة من الليل ، قال: فسمعت حسا أو أصواتا شديدة ،وجىء بسرير حتى وضع ، وجاء شىء حتى جلس عليه ، قال: واجتمعت إليه جنوده ،ثم صرخ فقال : من لى بعروة بن الزبير ؟ فلم يجبه أحد حتى تتابع ما شاء الله عز وجل من الأصوات ،فقال واحد: أنا أكفيكه . قال: فتوجه نحو المدينة وأنا ناظر ،ثم أوشك الرجعة، فقال لا سبيل إلى عروة، قال: ويلك لم؟ قال: وجدته يقول كلمات إذا أصبح وإذا أمسى ، فلا نخلص إليه معهن ، قال الرجل ، فلما أصبحت ، قلت لأهلى: جهزونى ، فأتيت المدينة ، فسألت عنه حتى دللت عليه ، فإذا شيخ كبير ، فقلت : أشيئًا تقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت ؟ فأبى أن يخبرنى، فأخبرته بما رأيت وما سمعت ، فقال: ما أدرى، غير أنى أقول إذا أصبحت : آمنت بالله العظيم ، وكفرت بالجبت والطاغوت ، واستمسكت بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، والله سميع عليم. إذا أصبحت قلت ثلاث مرات ،وإذا أمسيت قلت ثلاث مرات .

وذكر أبو موسى عن مسلم البطين قال: قال جبريل للنبى ﷺ: إن عفريتا من الجن يكيدك ،فإذا أويت إلى فراشك فقل : أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن برٌ ولا فاجر ،من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ،ومن شر ما ذرأ فى الأرض وما يخرج منها ،ومن شر فتن الليل والنهار،ومن شر طوارق الليل والنهار، إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن (١).

---

(١) النسائى فى الكبرى ( ١٠٧٩٢ ) فى عمل اليوم والليلة ، باب: ذكر ما يكب العفريت ويطفئ شعلته، موصولا،=

وقد ثبت فى « الصحيحين » أن الشيطان يهرب من الأذان.

قال سهيل بن أبى صالح : أرسلنى أبى إلى بنى حارثة ومعى غلام أو صاحب لنا ، فنادى مناد من حائط باسمه، فأشرف الذى معى على الحائط ،فلم ير شيئاً ، فذكرت ذلك لأبى، فقال: لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك ،ولكن إذا سمعت صوتا فناد بالصلاة، فإنى سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إن الشيطان إذا نودى بالصلاة، ولى وله حصاص » (١).

وفى رواية : « إذا سمع النداء ولى وله ضراط ، حتى لا يسمع التأذين . . . » (٢) الحديث.

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبى رجاء ، عن أبى بكر الصديق قال : قال رسول الله ﷺ : « استكثروا من قول لا إله إلا الله والاستغفار ، فإن الشيطان قال : قد أهلكتهم بالذنوب ،وأهلكونى بقول لا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك منهم، أهلكتهم بالأهواء حتى يحسبون أنهم مهتدون ، فلا يستغفرون »(٣).

وذكر أيضا عن إبراهيم بن الحكم ،عن أبيه ،عن عكرمة قال: بينا رجل مسافر ، إذ مر برجل نائم، ورأى عنده شيطانين، فسمع المسافر أحد الشيطانين يقول لصاحبه : اذهب فأفسد على هذا النائم قلبه ، فلما دنا منه رجع إلى صاحبه فقال : لقد نام على آية مالنا إليه سبيل ، فذهب إلى النائم ،فلما دنا منه رجع قال: صدقت ،فذهب ، ثم إن المسافر أيقظه وأخبره بما رأى من الشيطانين ، فقال : أخبرنى على أى آية نمت ؟ قال على هذه الآية : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** (٥٤) ﴾ [الأعراف] .

وقال أبو النضر هاشم بن القاسم: كنت أرى فى دارى فقيل: يا أبا النضر ، تحول عن

---

= ومالك ٢/ ٩٥١ ، ٩٥٢ (١٠) ، فى الشعر ، باب :ما يؤمر به التعوذ مرسلاً .

(١) مسلم ( ٣٨٩/ ١٨ ) فى الصلاة ،باب: فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه .

(٢) البخارى ( ٦٠٨ ) فى الأذان ، باب : فضل التأذين ،ومسلم ( ٣٨٩/ ١٩).فى الصلاة ، باب : فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه ،وأبو داود ( ٥١٦ ) فى الصلاة ،باب : رفع الصوت بالأذان ،والنسائى ( ٦٧٠ ) فى الأذان ، باب: فضل التأذين .

(٣) أبو يعلى (١٣٦) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢١٠) فى التوبة ، باب: ما جاء فى الاستغفار : « فيه عثمان ابن مطر وهو ضعيف » .

جوارنا ،قال: فاشْتدّ ذلك عليّ ، فكتبت إلى الكوفة إلى ابن إدريس ، والمحاربى ،وأبى أسامة ،فكتب إلى المحاربى:إن بئرا بالمدينة كان يقطع رشاؤها ،فنزل بهم ركب ،فشكوا ذلك إليهم ،فدعوا بدلْو من ماء، ثم تكلموا بهذا الكلام،فصبوه فى البئر ، فخرجت نار من البئر ،فطفئت على رأس البئر،قال أبو النضر:فأخذت تورا من ماء ،ثم تكلمت فيه بهذا الكلام ،ثم تتبعت به زوايا الدار ،فرششته ،فصاحوا بى :أحرقتنا ، نحن نتحول عنك. وهو:بسم الله ،أمسينا بالله الذى ليس منه شيء ممتنع،وبعزة الله التى لا ترام ولا تضام ، وبسلطان اللّه المنيع نحتجب ، وبأسمائه الحسنى كلها عائذ من الأبالسة ،ومن شر شياطين الإنس والجن،ومن شر كل معلن أو مسر،ومن شر ما يخرج بالليل ويكمن بالنهار، ويكمن بالليل ويخرج بالنهار ،ومن شر ما خلق وذرأ وبرأ،ومن شر إبليس وجنوده،ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ، أعوذ بالله بما استعاذ به موسى وعيسى وإبراهيم الذى وفى من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر إبليس وجنوده ومن شر ما يبغى .أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : **﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)﴾** [الصافات ] .

فهذا بعض ما يتعلق بقوله ﷺ لذلك العبد :« لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى » (١) (٢) .

## باب منه

إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا اللّه وحده تحمل الله ـ سبحانه ـ حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه،وفرغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره،وجوارحه لطاعته . وإن أصبح وأمسى والدنيا همه حمله الله همومها وغمومها وانكادها،ووكله إلى نفسه ،فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق،ولسانه عن ذكره بذكرهم،وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم،فهو يكدح كدح الوحش فى خدمة غيره ، كالكير ينفخ بطنه يعصر أضلاعه فى نفخ غيره.فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته بلى بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته.قال تعالى: **﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾** [ الزخرف: ٣٦] .

---

(١) الوابل الصيب (٨٤ ـ ١٧٧) . (٢) سبق تخريجه ص ١٧٧ .

قال سفيان بن عيينة : لا تأتون بمثل مشهور للعرب إلا جئتكم به من القرآن . فقال له قائل: فأين في القرآن: « أعط أخاك تمرة، فإن لم يقبل فأعطه جمرة؟» فقال: في قوله: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا ﴾الآية [ الزخرف:٣٦ ] (١).

## فصل
## في أن الذكر من أسباب انشراح الصدر

من أسباب شرح الصدر دوام ذكره على كل حال وفي كل موطن، فللذكر تأثير عجيب في انشراح الصدر ونعيم القلب ، وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه (٢).

## فصل
## في أن الذاكر يحب ربه عز وجل

محبة ذكره ـ سبحانه وتعالى ـ من علامة محبته ، فإن المحب لا يشبع من ذكر محبوبه بل لا ينساه فيحتاج إلى من يذكره به (٣) .

## فصل
## في بيان حَمْد العبد وشكره لله عز وجل على نعمه

قال أبو المليح :قال موسى: يا رب ،ما أفضل الشكر؟ قال: أن تشكرني على كل حال.

وقال بكر بن عبد الله :قلت لأخ لي: أوصني ، فقال:ما أدري ما أقول غير أنه ينبغي لهذا العبد ألا يفتر من الحمد والاستغفار ؛ فإن ابن آدم بين نعمة وذنب،ولا تصلح النعمة إلا بالحمد والشكر،ولا يصلح الذنب إلا بالتوبة والاستغفار، فأوسعني علماً ما شئت.

وقال عبد العزيز بن أبي داود: رأيت في يد محمد بن واسع قرحة، فكأنه رأى ما شق عليّ منها ، فقال لي: أتدري ماذا لله عليّ في هذه القرحة من نعمة حين لم يجعلها في حدقتي ،ولا طرف لساني ،ولا على طرف ذكرتي ؛ فهانت عليّ قرحته .

---

(١) الفوائد ( ١٤ / ١١٥) . (٢) زاد المعاد ( ٢/ ٢٥ ) .

(٣) روضة المحبين ( ٢٠١ ) .

وروى الجريرى ، عن أبى الورد ، عن اللجلاج ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى علىّ رجل وهو يقول : اللهم إنى أسألك تمام النعمة فقال: « ابن آدم، هل تدرى ما تمام النعمة ؟ » قال: يا رسول الله ، دعوت دعوة أرجو بها الخير ،فقال: «إن تمام النعمة فوز من النار ودخول فى الجنة » (١) .

وقال سهم بن سلمة : حدثت أن الرجل إذا ذكر اسم الله على أول طعامه وحمده على آخره ، لم يُسأل عن نعيم ذلك الطعام .

ويدل على فضل الشكر على الصبر،أن الله سبحانه يحب أن يسأل العافية، وما يسأل شيئا أحب إليه من العافية، كما فى المسند عن أبى صالح ،عن أبى هريرة رضي الله عنه ، قال: قام أبو بكر رضي الله عنه على المنبر ، ثم قال: سلوا الله العافية؛ فإنه لم يعط عبدا بعد اليقين خيرا من العافية .

وفى حديث آخر : « إن الناس لم يعطوا فى هذه الدنيا شيئا أفضل من العفو والعافية؛ فسلوهما الله عز وجل » (٢).

وقال لعمه العباس:« يا عم، أكثر من الدعاء بالعافية » (٣). وفى الترمذى ، قلت : يا رسول الله ،علمنى شيئا أسأل الله ؟ قال:« سل الله العافية»،فمكثت أياما ثم جئت فقلت:علمنى شيئا أسأله الله ؟فقال لى:« يا عباس ،يا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سل الله العافية فى الدنيا والآخرة » (٤).

وقال فى دعائه يوم الطائف:« إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ، غير أن عافيتك أوسع لى » (٥) ،فلاذ بعافيته ،كما استعاذ بها فى قوله:« أعوذ برضاك من سخطك، أعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك » (٦).

وفى حديث آخر:« سلوا العفو والعافية والمعافاة » (٧).وهذا السؤال يتضمن العفو عما مضى ، والعافية فى الحال ،والمعافاة فى المستقبل بدوام العافية واستمرارها .

---

(١) الترمذى ( ٣٥٢٧ ) فى الدعوات ، باب: ( ٩٤ ) ،وقال: « حسن » . وأحمد ( ٥/ ٢٣١ ) .
(٢) أحمد ( ١/ ٧ ) ،وقال الشيخ شاكر (٣٤): « إسناده صحيح » .
(٣، ٤) الترمذى ( ٣٥١٤) فى الدعوات ، باب(٨٥) ، وقال: « صحيح » ، وأحمد (١/ ٢٠٩) .
(٥) سبق تخريجه ص١٩٣ .
(٦) أبو داود ( ٨٧٩ ) فى الصلاة ، باب: فى الدعاء فى الركوع والسجود ، والترمذى ( ٣٤٩٣ ) فى الدعوات، باب: (٧٦ ) ، وقال : « حسن » ، والنسائى (١٦٩) فى الطهارة ، باب: ترك الوضوء من مس الرجل امرأته من غير شهوة .
(٧) أحمد ( ١/ ٨ ) .

وكان عبد الأعلى التيمى يقول : أكثروا من سؤال الله العافية ؛ فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذى لا يأمن البلاء،وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس ، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم، ولو كان البلاء يجر إلى خير ما كنا من رجال البلاء ؛ إنه رب بلاء قد أجهد فى الدنيا وأخزى فى الآخرة؛ فما يؤمن من أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقى له فى بقية عمره من البلاء ما يجهده فى الدنيا ويفضحه فى الآخرة ، ثم يقول بعد ذلك : الحمد لله الذى إن نعد نعمه لا نحصيها، وإن نذأب له عملاً لا نجزيها ،وإن نعمر فيها لا نبليها .

ومر رسول الله ﷺ برجل يسأل الله الصبر ، فقال : « لقد سألت البلاء فاسأل العافية» (١). وفى صحيح مسلم : أنه ﷺ عاد رجلا قد هفت ـ أى هزل ـ فصار مثل الفرخ ؛ فقال ﷺ : « هل كنت تدعو الله بشىء أو تسأله إياه؟» قال :نعم ،كنت أقول اللهم ما كنت معاقبنى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا . فقال رسول الله ﷺ :« سبحانه لا تطيقه ولا تستطيعه، أفلا قلت : اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» ،فدعا الله له فشفاه (٢).

وقال الترمذى،من حديث أبى هريرة رضي الله عنه ،قال: دعاء حفظته من رسول الله لا أدعه : « اللهم اجعلنى أعظم شكرك ، وأكثر ذكرك ، وأتبع نصيحتك ، وأحفظ وصيتك » (٣).

وقال شيبان : كان الحسن إذا جلس مجلساً يقول: لك الحمد بالإسلام، ولك الحمد بالقرآن ،ولك الحمد بالأهل والمال؛ بسطت رزقنا ، وأظهرت أمننا، وأحسنت معافاتنا ، ومن كل ما سألناك أعطيتنا ؛ فلك الحمد كثيرا كما تنعم كثيرا؛ أعطيت خيرا كثيرا ، وصرفت شرا كثيرا ؛ فلوجهك الجليل الباقى الدايم الحمد .

وكان بعض السلف يقول:اللهم ما أصبح بنا من نعمة ،أو عافية، أو كرامة فى دين ، أو دنيا جرت علينا فيما مضى وهى جارية علينا فيما بقى؛فإنها منك وحدك لا شريك لك ؛ فلك الحمد بذلك علينا ،ولك المن ولك الفضل ، ولك الحمد عدد ما أنعمت به علينا وعلى جميع خلقك لا إله إلا أنت .

وقال مجاهد :إذا كان ابن عمر فى سفر ،فطلع الفجر رفع صوته ونادى :سمع سامع

---

(١) الترمذى ( ٣٥٢٧ ) فى الدعوات ،باب : ( ٩٤ )، وقال : « حسن » ، وأحمد ( ٥/ ٢٣١) ، وضعفه الألبانى.

(٢) مسلم ( ٢٦٨٨ / ٢٣) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة فى الدنيا.

(٣) الترمذى (٥/ ٧٨٠) وقال:غريب ،وأحمد (٢/ ٣١١، ٤٧٧)،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٧٥):«رواه أحمد من طريق أبى سعيد المدينى،وفى رواية:عن أبى سعد الحمصى ولم أعرفها وبقية رجاله ثقات»،وضعفه الألبانى .

بحمد الله ونعمه وحسن بلائه علينا ثلاثا، اللهم صاحبنا فأفضل علينا، عائذ بالله من النار، ولا حول ولا قوة إلا بالله ثلاثاً .

وذكرالإمام أحمد: أن الله سبحانه أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام: « يا موسى، كن يقظان مرتاداً لنفسك أخدانا، وكل خدن لا يواتيك على مسرتى فلا تصحبه؛ فإنه عدو لك، وهو يقسى قلبك، وأكثر من ذكرى حتى تستوجب الشكر وتستكمل المزيد.

وقال الحسن :خلق الله آدم حين خلقه، فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى ، وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى ، فدبوا على وجه الأرض منهم : الأعمى والأصم المبتلى ، فقال آدم : يا رب ألا سويت بين ولدى؟ قال : يا آدم إنى أريد أن أشكر.

وفى السنن عنه ﷺ : « من قال حين يصبح : اللهم ما أصبح بى من نعمتك أو بأحد من خلقك، فمنك وحدك لا شريك لك ؛ فلك الحمد ولك الشكر إلا أدى شكر ذلك اليوم . ومن قال ذلك حين يمسى، فقد أدى شكر ليلته »[1].

ويذكر عن النبى ﷺ : « من ابتلى فصبر ، وأعطى فشكر ، وظلم فغفر ، وظلم فاستغفر ؛ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » [2].

ويذكر عنه ﷺ: أنه أوصى رجلاً بثلاث، فقال: « أكثر من ذكر الموت يشغلك عما سواه، وعليك بالدعاء فإنك لا تدرى متى يستجاب لك، وعليك بالشكر فإن الشكر زيادة»[3].

ويذكر عنه ﷺ : أنه كان إذا أكل قال : « الحمد لله الذى أطعمنى وسقانى وهدانى ، وكل بلاء حسن أبلانى ، الحمد لله الرازق ذى القوة المتين ؛ اللهم لا تنزع منا صالحا أعطيتنا ولا صالحا رزقتنا ، واجعلنا لك من الشاكرين » [4] ويذكر عنه ﷺ : أنه إذا أكل قال : «الحمد لله الذى أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجا »[5].

وكان عروة بن الزبير إذا أتى بطعام لم يزل مخمرا حتى يقول هذه الكلمات: الحمد لله الذى هدانا وأطعمنا وسقانا ونعمنا ، الله أكبر . . اللهم ألفتنا نعمتك ونحن بكل شر

(١) أبو داود ( ٥٠٧٣ ) فى الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح ، وموارد الظمآن ( ٢٣٦١ ) فى الأذكار ، باب: ما يقول إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أوى إلى فراشه .

(٢) شعب الإيمان (٤٤٣١) فى باب: تعديد نعم الله ، والطبرانى فى الكبير ١٣٨/٧ (٦٦١٣ ) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٨٧ ) فى الزهد ، باب: ما جاء فى الشكر والصبر: « فيه أبو داود الأعمى وهو متروك » .

(٣) حلية الأولياء ( ٣٠٥/٧ ) ، والمطالب العالية ( ٣٠٩٨) فى الرقائق، باب :ذكر الموت وقصر الأمل .

(٤) الحاكم فى المستدرك ( ٥٤٦/١ ) فى الدعاء ، باب : دعاء يقال بعد فراغ الطعام ، وقال : « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى ، وابن أبى الدنيا فى الشكر ( ١٦٧ ) .

(٥) أبو داود ( ٣٨٥١ ) فى الأطعمة ، باب: ما يقول الرجل إذا طعم .

فأصبحنا وأمسينا بخير ، نسأل تمامها وشكرها ،لا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك ، إله الصالحين ورب العالمين.. الحمد لله ، لا إله إلا الله ،ماشاء الله لا قوة إلا بالله.. اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار .

وقال وهب بن منبه : رؤوس النعم ثلاثة : فأولها: نعمة الإسلام التى لا تتم نعمة إلا بها، والثانية:العافية التى لا تطيب إلا بها ، والثالثة:نعمة الغنى التى لا يتم العيش إلا به .

وقدم سعيد الجريرى من الحج فجعل يقول: أنعم الله علينا فى سفرنا بكذا وكذا ،ثم قال: تعداد النعم من الشكر .

ومر وهب بمبتلى أعمى مجذوم ، مقعد عريان ،به وضح ،وهو يقول: الحمد لله على نعمه ، فقال رجل كان مع وهب :أى شىء بقى عليك من النعمة تحمد الله عليها؟ فقال له المبتلى: ارم ببصرك إلى أهل المدينة ،فانظر إلى كثرة أهلها ،أفلا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيرى .

ويذكر عن النبى ﷺ أنه قال:« إذا أنعم اللّه على عبد نعمة فحمده عندها فقد أدى شكرها » (١) .

وذكر على بن أبى طالب رضي الله عنه أن بختنصر أتى بدانيال ، فأمر به فحبس فى جب وأضرى أسدين ثم خلى بينهما وبينه ،ثم فتح عليه بعد خمس أيام فوجده قائما يصلى والأسدان فى ناحية الجب لم يعرضا له ؛ فقال له : ما قلت حين دفع عنك ؟ قال : قلت: « الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ،والحمد لله الذى لا يخيب رجاه ،والحمد لله الذى لا يكل من توكل عليه إلى غيره ،والحمد لله الذى هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل ، والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا،والحمد لله الذى يكشف عنا ضرنا بعد كربتنا ، والحمد لله الذى يجزى بالإحسان إحسانا، والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة».

ويذكر عنه ﷺ أنه كان إذا نظر فى المرآة قال:« الحمد لله الذى أحسن خلقى وخُلُقى، وزان منى ما شان من غيرى »(٢).

وقال ابن سيرين:كان ابن عمر يكثر النظر فى المرآة ، وتكون معه فى الأسفار ، فقلت له : ولم ؟ قال: أنظر فما كان فى وجهى زين فهو فى وجه غيرى شين أحمد الله عليه .

وسئل أبو بكر بن أبى مريم :ما تمام النعمة ؟ قال: أن تضع رجلا على الصراط ورجلا فى الجنة .

---

(١) ابن أبى الدنيا فى الشكر ( ١٧٢ ) .

(٢) ابن أبى الدنيا فى الشكر (١٧٤ ) .

وقال بكر بن عبد الله : يا بن آدم ،إن أردت أن تعرف قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك .

وقال مقاتل فى قوله : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [ لقمان : ٢٠] ، قال: أما الظاهرة : فالإسلام ،وأما الباطنة : فستره عليكم المعاصى .

وقال ابن شوذب : قال عبد الله - يعنى ابن مسعود رضي الله عنه : إن لله على أهل النار منّة لو شاء أن يعذبهم بأشد من النار لعذبهم .

وقال أبو سليمان الدارنى : جلساء الرحمن يوم القيامة مَنْ جعل فيه خصالاً : الكرم، والسخاء، والحلم ،والرأفة ،والرحمة ،والشكر ، والبر ، والصبر .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : من رأى صاحب بلاء فقال: « الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به ،وفضلنى عليك وعلى جميع خلقه تفضيلا » فقد أدى شكر تلك النعمة ، وقال عبد الله بن وهب : سمعت عبد الرحمن بن زيد يقول: الشكر يأخذ بجذم الحمد وأصله وفرعه ،قال: ينظر فى نعم الله : فى بدنه ،وسمعه ،وبصره، ويديه ،ورجليه ، وغير ذلك ، ليس من هذا شىء إلا فيه نعمة من الله ، حق على العبد أن يعمل فى النعمة التى هى فى بدنه لله فى طاعته ، ونعمة أخرى فى الرزق وحق عليه أن يعمل لله فيما أنعم عليه به من الرزق بطاعته ؛ فمن عمل بهذا كان قد أخذ بجذم الشكر وأصله وفرعه .

وقال كعب : ما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا ، فشكرها لله وتواضع بها لله، إلا أعطاه الله نفعها فى الدنيا ،ورفع له بها درجة فى الأخرى. وما أنعم الله على عبد نعمة فى الدنيا ،فلم يشكرها لله ولم يتواضع بها ،إلا منعه الله نفعها فى الدنيا ،وفتح له طبقات من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه .

وقال الحسن : من لا يرى لله عليه نعمة إلا فى مطعم أو مشرب أو لباس، فقد قصر علمه وحضر عذابه .

وقال الحسن يوما لبكر المزنى : هات يا أبا عبد الله دعوات لإخوانك ؛ فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : والله ما أدرى أى النعمتين أفضل علىّ وعليكم: أنعمة المسلك أم نعمة المخرج إذا أخرجه منا ؟ قال الحسن: إنها لمن نعمة الطعام.

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما من عبد يشرب الماء القراح، فيدخل بغير أذى ويخرج الأذى، إلا وجب عليه الشكر .

قال الحسن: يا لها من نعمة تدخل كل لذة وتخرج مسرحا، لقد كان ملك من ملوك هذه القرية يرى الغلام من غلمانه يأتى الحب فيكتال منه ثم يجرجر قائما ، فيقول : يا ليتنى

مثلك ما يشرب حتى يقطع عنه العطش ،فإذا شرب كان له فى تلك الشربة موتات يا لها من نعمة .

وكتب بعض العلماء إلى أخ له: أما بعد ، فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا تحصيه مع كثرة ما تعصيه ، فما ندرى أيهما نشكر: أجميل ما يستر أم قبيح ما ستر .

وقيل للحسن: ها هنا رجل لا يجالس الناس ، فجاء إليه فسأله عن ذلك، فقال: إنى أمسى وأصبح بين ذنب ونعمة، فرأيت أن أشغل نفسى عن الناس بالاستغفار من الذنب والشكر لله على النعمة ؛ فقال له الحسن : أنت عندى يا عبد الله أفقه من الحسن ، فالزم ما أنت عليه .

وقال ابن المبارك : سمعت علياً بن صالح يقول فى قوله تعالى : ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُم** ﴾[ إبراهيم:٧] ، قال: أى من طاعتى ،والتحقيق أن الزيادة من النعم ،وطاعته من أجل نعمه .

وذكر ابن أبى الدنيا:أن محارب بن دثار ،كان يقوم بالليل ويرفع صوته أحيانا :أنا الصغير الذى ربيته فلك الحمد، وأنا الضعيف الذى قويته فلك الحمد،وأنا الفقير الذى أغنيته فلك الحمد،وأنا الصعلوك الذى مولته فلك الحمد،وأنا العزب الذى زوجته فلك الحمد ،وأنا الساغب الذى أشبعته فلك الحمد ،وأنا العارى الذى كسوته فلك الحمد ،وأنا المسافر الذى صاحبته فلك الحمد،وأنا الغائب الذى رددته فلك الحمد ،وأنا الراجل الذى حملته فلك الحمد،وأنا المريض الذى شفيته فلك الحمد ،وأنا السائل الذى أعطيته فلك الحمد، وأنا الداعى الذى أجبته فلك الحمد. . ربنا ولك الحمد حمداً كثيرا .

وكان بعض الخطباء يقول فى خطبته:اختط لك الأنف فأقامه وأتمه فأحسن تمامه،ثم أدار منك الحدقة فجعلها بجفون مطبقة ،وبأشفار معلقة، ونقلك من طبقة إلى طبقة ، وحنن عليك قلب الوالدين برقة ومقة؛ فنعمه عليك مورقة ، وأياديه بك محدقة .

وكان بعض العلماء يقول فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا** ﴾ [إبراهيم: ٣٤ ] ، سبحان من لم يجعل لحد معرفة نعمه إلا العلم بالتقصير عن معرفتها كما لم يجعل لحد إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك،فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكراً ، كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله إيماناً ، علماً منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك .

وقال عبد الله بن المبارك : أخبرنا مثنى بن الصباح ،عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه، عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « خصلتان من كانتا فيه كتبه الله صابراً شاكرا، ومن لم يكونا فيه ، لم يكتبه الله صابرا شاكرا : من نظر فى دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به ، ومن نظر فى دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه ، كتبه الله صابرا

شاكرا ومن نظر فى دينه إلى من هو دونه ونظر فى دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته منه لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً » (١)، وبهذا الإسناد عن عبد الله بن عمرو موقوفا عليه : أربع خصال من كنَّ فيه بنى الله له بيتاً فى الجنة : من كان عصمة أمره لا إله إلا الله ،وإذا أصابته مصيبة قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ،وإذا أعطى شيئا قال: الحمد لله ، وإذا أذنب قال: أستغفر الله .

وقال ابن المبارك: عن شبل ،عن أبى نجيح ،عن مجاهد فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[ الإسراء:٣] ،قال:لم يأكل شيئا إلا حمد الله عليه،ولم يشرب شرابا قط إلا حمد الله عليه،ولم يبطش بشىء قط إلا حمد الله عليه فأثنى الله عليه أنه كان عبدا شكوراً.

وقال محمد بن كعب : كان نوح إذا أكل قال : الحمد لله ،وإذا شرب قال: الحمد لله، وإذا لبس قال: الحمد لله ، وإذا ركب قال : الحمد لله فسماه الله كان عبدا شكوراً .

وقال ابن أبى الدنيا : بلغنى عن بعض الحكماء قال: لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغى ألا يعصى لشكر نعمته (٢).

# فصل
# فى أفضل الذكر

وأما المسألة الثانية (٣) وهى :تفضيل « سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، ورضا نفسه، وزنة عرشه ،ومداد كلماته» (٤) على مجرد الذكر بسبحان الله أضعافا مضاعفة ،فإن ما يقوم بقلب الذاكر حين يقول:« سبحان الله وبحمده عدد خلقه » من معرفته وتنزيهه وتعظيمه من هذا القدر المذكور من العدد : أعظم مما يقوم بقلب القائل:« سبحان الله » فقط .

وهذا يُسمى : الذكر المضاعف ،وهو أعظم ثناء من الذكر المفرد .

فلهذا كان أفضل منه ، وهذا إنما يظهر فى معرفة هذا الذكر وفهمه. فإن قول المسبح: « سبحان الله وبحمده عدد خلقه » يتضمن إنشاءً وإخباراً عما يستحقه الرّبُّ من التسبيح

---

(١) الترمذى (٢٥١٢) فى صفة القيامة والرقائق والورع ،باب:( ٥٨ )،وقال:«حسن غريب » ،وضعفه الألبانى .
(٢) عدة الصابرين ( ١٧٧ ـ ١٨٥ ) .
(٣) أى من المسائل التى سئل عنها الإمام ابن القيم رحمه الله .
(٤) مسلم ( ٢٧٢٦ / ٧٩ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم ،وأبو داود ( ١٥٠٣ ) فى الصلاة ، باب : التسبيح بالحصى ،والترمذى ( ٣٥٥٥) فى الدعوات، باب(١٠٤)، والنسائى (١٣٥٢) فى السهو ، باب: نوع آخر من عدد التسبيح .

عدد كل مخلوق كان أو هو كائن ،إلى ما لا نهاية له .

فتضمّن الإخبار عن تنزيهه الربّ وتعظيمه والثناء عليه هذا العدد العظيم، الذى لا يبلغه العادُّون ، ولا يحصيه المحصون. وتضمن إنشاء العبد لتسبيح هذا شأنه ،لا أن ما أتى به العبد من التسبيح هذا قدره وعدده ، بل أخبر أن ما يستحقه الرب ـ سبحانه وتعالى ـ من التسبيح : هو تسبيح يبلغ هذا العدد الذى لو كان فى العدد ما يزيد لذكره ، فإن تجدد المخلوقات لا ينتهى عدداً ،ولا يُحصى الحاضر .

وكذلك قوله: « ورضا نفسه » فهو يتضمن أمرين عظيمين : أحدُهما: أن يكون المراد تسبيحاً هو والعظمة والجلال سيَّان ولرضا نفسه كما أنه فى الأول مخبر عن تسبيح مساوٍ لعدد خلقه، ولا ريب أن رضا نفس الرب لا نهاية له فى العظمة والوصف. والتسبيح: ثناء عليه ـ سبحانه ـ يتضمن التعظيم والتنزيه .

فإذا كانت أوصاف كماله ونعوتُ جلاله لا نهاية لها ولا غاية، بل هى أعظم من ذلك وأجل، كان الثناء عليه بها كذلك إذا هو تابع لها إخباراً وإنشاءً . وهذا المعنى ينتظم المعنى الأول من غير عكس .

وإذا كان إحسانه ـ سبحانه ـ وثوابه وبركته وخيره لا منتهى له ، وهو من موجبات رضاه وثمرته فكيف بصفة الرضا ؟

وفى الأثر:«إذا باركتُ لم يكن لبركتى منتهى» فكيف بالصفة التى صدرت عنها البركة؟

والرضا يستلزم المحبة، والإحسان ،والجود ،والبر ، والعفو ، والصفح ،والمغفرة .

والخلق :يستلزم العلم، والقدرة ، والإرادة ،والحياة،والحكمة . وكلٌّ ذلك داخل فى رضا نفسه ، وصفة خلقه .

وقوله :« وزنة عرشه » فيه إثبات للعرش ،وإضافته إلى الربّ سبحانه وتعالى وأنه أثقل المخلوقات على الإطلاق ،إذ لو كان شيء أثقل منه لوزن به التسبيح .وهذا يرد على من يقول: إن العرش ليس بثقيل ولا خفيف .وهذا لم يعرف العرش ، ولا قدره حق قدره.

فالتضعيف الأول: للعدد والكمية ،والثانى: للصفة والكيفية ،والثالث: للعظم والثقل، وليس للمقدار .

وقوله :« ومداد كلماته » هذا يعمُّ الأقسام الثلاثة ويشملها . فإن مداد كلماته سبحانه وتعالى لا نهاية لقدره ،ولا لصفته ،ولا لعدده . قال تعالى: **﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾** [الكهف]، وقال تعالى : **﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ**

اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ [ لقمان] .

ومعنى هذا : أنه لو فُرِض البحرُ مداداً ،وبعده سبعة أبحر تمدُّه كلُّها مدادا ، وجميع أشجار الأرض أقلاما وهو ما قام منها على ساق من النبات،والأشجار المثمرة وغير المثمرة، وتستمد بذلك المداد لفنيت البحار والأقلام ،وكلمات الرب لا تفنى ولا تنفد. فسبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه ،وزنة عرشه ،ومداد كلماته .

فأين هذا من وصف من يصفه بأنه ما تكلم ولا يتكلم ،ولا يقوم به كلام أصلا؟ وقول من وصف كلامه بأنه معنى واحد، لا ينقضى ولا يتجزأ ولا له بعضٌ ولا كلٌ، ولا هو سور وآيات، ولا حُروف وكلمات ؟

والمقصود: أن فى هذا التسبيح من صفات الكمال ونعوت الجلال ما يوجب أن يكون أفضل من غيره ،وأنه لو وزن غيره به لوزن وزاد عليه .

وهذا بعض ما فى هذه الكلمات من المعرفة بالله ،والثناء عليه بالتنزيه والتعظيم ، مع اقترانه بالحمد المتضمن لثلاثة أصول:

**أحدها**: إثبات صفات الكمال له سبحانه ،والثناء عليه.

**الثانى**: محبته والرضا به .

**الثالث**: فإذا انضاف هذا الحمد إلى التسبيح والتنزيه على أكمل الوجوه، وأعظمها قدرا، وأكثرها عددا ،وأجزلها وصفا ، واستحضر العبد ذلك عند التسبيح ، وقام بقلبه معناه كان له من المزية والفضل ما ليس لغيره ،وبالله التوفيق(١).

## وأيضا

من الذاكرين :من يبتدئ بذكر اللسان وإن كان على غفلة، ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطآ على الذكر .ومنهم: من لا يرى ذلك ولا يبتدئ على غفلة بل يسكن حتى يحضر قلبه فيشرع فى الذكر بقلبه ،فإذا قوى استتبع لسانه فتواطآ جميعاً . فالأول : ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه . والثانى: ينتقل من قلبه إلى لسانه ، من غير أن يخلو قلبه منه ،بل يسكن أولاً حتى يحس بظهور الناطق فيه. فإذا أحس بذلك نطق قلبه ، ثم انتقل النطق القلبى إلى الذكر اللسانى، ثم يستغرق فى ذلك حتى يجد كل شىء منه ذاكراً .

وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان،وكان من الأذكار النبوية ، وشهد الذاكر معاينة ومقاصده (٢).

---

(١) المنار المنيف ( ٣٤ ـ ٣٨ ) .

(٢) الفوائد ( ٢٦٠ ) .

# فصل
# فى بيان أن الذكر أفضل من الدعاء

الذكر أفضل من الدعاء ؛ لأن الذكر ثناء على الله عز وجل بجميل أوصافه وآلائه وأسمائه ،والدعاء سؤال العبد حاجته ،فأين هذا من هذا ؟

ولهذا جاء فى الحديث :« من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» (١).

ولهذا كان المستحب فى الدعاء أن يبدأ الداعى بحمد الله تعالى، والثناء عليه بين يدى حاجته ، ثم يسأل حاجته . كما فى حديث فضالة بن عبيد :أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو فى صلاته لم يحمد الله تعالى ولم يصل على النبى ﷺ فقال رسول الله ﷺ: « لقد عجل هذا » ثم دعاه فقال له أو لغيره: « إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه عز وجل والثناء عليه، ثم يصلى على النبى ﷺ ،ثم يدعو بعد بما شاء» رواه الإمام أحمد،والترمذى وقال: حديث حسن صحيح. ورواه الحاكم فى « صحيحه» (٢).

وهكذا دعاء ذى النون عليه السلام الذى قال فيه النبى ﷺ : « دعوة أخى ذى النون ، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كُربته: لا إله إلا أنت،سبحانك إنى كنت من الظالمين » وفى الترمذى:«دعوة أخى ذى النون إذْ دعا وهو فى بطن الحوت «لا إله إلا أنت، سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدْعُ بها مُسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له»(٣).

وهكذا عامة الأدعية النبوية على قائلها أفضل الصلاة والسلام.

ومنه قوله ﷺ فى دعاء الكرب :«لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم » (٤).

---

(١) سبق تخريجه ص١٨٦ برقم (١) .

(٢) أحمد (٦ /١٨) ،والترمذى ( ٣٤٧٧) فى الدعوات ، باب :(٦٥) وقال : « حسن غريب » ، والحاكم فى المستدرك (١/ ٢٣٠) فى الصلاة ، باب : إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه والثناء عليه ، وقال:« صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

(٣) الترمذى (٣٥٠٥ ) فى الدعوات، باب ( ٨٢ ) ، وأحمد ( ١ / ١٧٠)، وقال الشيخ شاكر (١٤٦٢) : « إسناده صحيح » ، والحاكم فى المستدرك ( ١/ ٥٠٥ ) فى الدعاء ، باب:من دعا بدعوة ذى النون استجاب الله له . وقال :« صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

(٤) البخارى ( ٦٣٤٦ ) فى الدعوات ، باب :الدعاء عند الكرب ،مسلم ( ٢٧٣٠ / ٨٣) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب :دعاء الكرب ، والترمذى ( ٣٤٣٥ ) فى الدعوات ،باب:ما جاء ما يقول عند الكرب، وابن ماجه ( ٣٨٨٣ ) فى الدعاء ، باب : عند الكرب .

ومنه حديث بريدة الأسلمى الذى رواه أهل السنن ، وابن حبان فى « صحيحه » : أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يدعو وهو يقول : اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ،فقال: «والذى نفسى بيده،لقد سأل الله باسمه الأعظم ،الذى إذا دُعى به أجاب ،وإذا سئل به أعطى»(١).

وروى أبو داود،والنسائى من حديث أنس: أنه كان مع النبى ﷺ جالساً ورجل يصلى ثم دعا :اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ،لا إله إلا أنت ،المنان،بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حى يا قيوم . فقال النبى ﷺ:« لقد دعا الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ،وإذا سئل به أعطى » (٢).

فأخبر النبى ﷺ أن الدعاء يستجاب إذا تقدمه هذا الثناء والذكر،وأنه اسم الله الأعظم، فكان ذكر الله عز وجل والثناء عليه أنجح ما طلب به العبد حوائجه.

وهذه فائدة أخرى من فوائد الذكر والثناء ، أنه يجعل الدعاء مستجاباً .

فالدعاء الذى يتقدمه الذكر والثناء، أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد،فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته ، وافتقاره واعترافه ، كان أبلغ فى الإجابة وأفضل،فإنه يكون قد توسل المدعو بصفات كماله وإحسانه وفضله،وعرّض بل صرح بشدة حاجته وضرورته وفقره ومسكنته، فهذا المقتضى منه ،وأوصاف المسؤول مقتضى من الله ، فاجتمع المقتضى من السائل ،والمقتضى من المسؤول فى الدعاء ،وكان أبلغ وألطف موقعاً ، وأتم معرفة وعبودية .

وأنت ترى فى الشاهد ـ ولله المثل الأعلى ـ أن الرجل إذا توسل إلى من يريد معروفه بكرمه وجوده وبره،وذكر حاجته هو ،وفقره ومسكنته ،كان أعطف لقلب المسؤول،وأقرب لقضاء حاجته .

فإذا قال له : أنت جودك قد سارت به الركبان ، وفضلك كالشمس لا تنكر ، ونحو ذلك ، وقد بلغت بى الحاجةوالضرورة مبلغا لا صبر معه ونحو ذلك ، كان أبلَغ فى قضاء حاجته من أن يقول ابتداء : أعطنى كذا وكذا .

---

(١) أبوداود (١٤٩٣) فى الصلاة، باب: الدعاء ،والترمذى ( ٣٤٧٥ ) فى الدعوات، باب:جامع الدعوات، وقال : حسن غريب ،وابن ماجه ( ٣٨٥٧ ) فى الدعاء ، باب: اسم الله الأعظم ،وابن حبان (٨٨٩) فى الرقائق، باب:الأدعيه.

(٢) أبو داود (١٤٩٥ ) فى الصلاة ، باب : الدعاء ،والنسائى ( ١٣٠٠ ) فى السهو، باب : الدعاء بعد الذكر .

فإذا عرفت هذا ، فتأمل قول موسى ﷺ فى دعائه : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ القصص ] وقول ذى النون ﷺ فى دعائه ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [ الأنبياء ] ، وقول أبينا آدم ﷺ: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ الأعراف ] .

وفى « الصحيحين » : أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله ، علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى : فقال :« قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظُلما كثيرًا ،وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم » (١).

فجمع فى هذا الدعاء الشريف العظيم القدر ، بين الاعتراف بحاله، والتوسل إلى ربه عز وجل بفضله وجوده ، وأنه المنفرد بغفران الذنوب ، ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معا، فهكذا أدب الدعاء وآداب العبودية .

## فصل
## فى أن قراءة القرآن أفضل من الذكر

قراءة القرآن أفضل من الذكر ،والذكر أفضل من الدعاء ، هذا من حيث النظر إلى كل منهما مجرداً .

وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل، بل يعينه ، فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل ،وهذا كالتسبيح فى الركوع والسجود ،فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما ، بل القراءة فيهما منهى عنها نهى تحريم أو كراهة ، وكذلك التسميع(٢) والتحميد فى محلهما أفضل من القراءة ، وكذلك التشهد ، وكذلك : « رب اغفر لى وارحمنى واهدنى وعافنى وارزقنى» بين السجدتين أفضل من القراءة، وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة ـ ذكر التهليل ، والتسبيح،والتكبير ،والتحميد ـ أفضل من الاشتغال عنه بالقراءة ،وكذلك إجابة المؤذن ، والقول كما يقول أفضل من القراءة ،وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل الله تعالى على خلقه،لكن لكل مقام مقال ، متى فات مقاله فيه وعدل عنه إلى غيره ، اختلت الحكمة ،وفاتت المصلحة المطلوبة منه .

وهكذا الأذكار المقيدة بمحال مخصوص أفضل من القراءة المطلقة ، والقراءة المطلقة أفضل من الأذكار المطلقة ،اللهم إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر أو الدعاء أنفع له من

---

(١) البخارى (٨٣٤) فى الأذان باب:الدعاء قبل السلام،ومسلم (٢٧٠٥ / ٤٨) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب : استحباب خفض الصوت بالذكر .

(٢) أى :سمع الله لمن حمده .

قراءة القرآن، مثاله :

أن يتفكر فى ذنوبه، فيحدث ذلك له توبة واستغفار ، أو يعرض له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن ،فيعدل إلى الأذكار والدعوات التى تحصنه وتحوطه .

وكذلك أيضاً قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة أو ذكر لم يحضر قلبه فيهما ،وإذا أقبل على سؤالها والدعاء لها ، اجتمع قلبه كله على الله تعالى ، وأحدث له تضرعاً وخشوعا وابتهالا ، فهذا قد يكون اشتغاله بالدعاء والحالة هذه أنفع ، وإن كان كل من القراءة والذكر أفضل وأعظم أجراً .

وهذا باب نافع يحتاج إلى فقه نفس ،وفرقان بين فضيلة الشيء فى نفسه وبين فضيلته العارضة ، فيعطى كل ذى حق حقه ،ويوضع كل شيء موضعه .

فللعين موضع ،وللرِّجل موضع ،وللماء موضع،وللحم موضع ،وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التى هى نظام الأمر والنهى ،والله تعالى الموفق .

وهكذا الصابون والأشنان ، أنفع للثوب فى وقت ،والتجمير وماء الورد وكيُّه أنفع له فى وقت.

وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يوماً : سئل بعض أهل العلم :أيما أنفع للعبد ، التسبيح أو الاستغفار ؟ فقال: إذا كان الثوب نقياً ، فالبخور وماء الورد أنفع له، وإن كان دنساً فالصابون والماء الحار أنفع له ، فقال لى رحمه الله تعالى: فكيف والثياب لا تزال دنسة ؟ .

ومن هذا الباب:أن سورة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① ﴾ [ الإخلاص] تعدل ثلث القرآن ،ومع هذا فلا تقوم مقام آيات المواريث، والطلاق، والخلع ،والعدد ونحوها، بل هذه الآيات فى وقتها وعند الحاجة إليها أنفع من تلاوة سورة الإخلاص .

ولما كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذكر الدعاء ، وهى جامعة لأجزاء العبودية على أتم الوجوه ، كانت أفضل من كل القراءة والذكر والدعاء بمفرده ،لجمعها ذلك كله مع عبودية سائر الأعضاء.

فهذا أصل نافع جدا ، يفتح للعبد باب معرفة مراتب الأعمال وتنزيلها منازلها ، لئلا يشتغل بمفضولها عن فاضلها،فيربح إبليس الفضل الذى بينهما ،أو ينظر إلى فاضلها فيشتغل به عن مفضولها وإن كان ذلك وقته ، فتفوته مصلحته بالكلية ،لظنه أن اشتغاله بالفاضل أكثر ثوابا وأعظم أجراً .

وهذا يحتاج إلى معرفة بمراتب الأعمال ،وتفاوتها ، ومقاصدها ، وفقه فى إعطاء كل

عمل منها حقه، وتنزيله فى مرتبته ،وتفويته لما هو أهم منه ،أو تفويت ما هو أولى منه وأفضل، لإمكان تداركه والعود إليه ، وهذا المفضول إن فات لا يمكن تداركه ،فالاشتغال به أولى ـ وهذا كترك القراءة لرد السلام ،وتشميت العاطس ـ وإن كان القرآن أفضل ، لأنه يمكنه الاشتغال بهذا المفضول والعود إلى الفاضل ، بخلاف ما إذا اشتغل بالقراءة فاتته مصلحة رد السلام وتشميت العاطس ،وهكذا سائر الأعمال إذا تزاحمت .والله الموفق(١).

## فصل
## فى أحب الكلام إلى الله عز وجل بعد القرآن

ثبت فى «صحيح مسلم » عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ :« أحب الكلام إلى الله تعالى أربع، لا يضرك بأيهن بدأت :سبحان الله ،والحمد لله ،ولا إله إلا الله ، والله أكبر» (٢).

وفى أثر آخر :« أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن:سبحان الله ،والحمد لله ،ولا إله إلا الله ،والله أكبر »(٣).

وفى أثر آخر :« أفضل الكلام ما اصطفى الله لملائكته :سبحان الله وبحمده »(٤).

وفى «الصحيحين » عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ،حبيبتان إلى الرحمن:سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »(٥).

فى « صحيح مسلم » عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال:« لأن أقول :سبحان الله، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ،والله أكبر ،أحب إلىَّ مما طلعت عليه الشمس»(٦) .

## فصل
## فى الذكر المضاعف

فى « صحيح مسلم » عن جويرية أم المؤمنين: أن النبى ﷺ خرج من عندها بكرة حين

---

(١) الوابل الصيب ( ١٨٢ ـ ١٨٩ ) .

(٢) مسلم ( ٢١٣٧ / ١٢) فى الآداب ، باب : كراهية التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه .

(٣) أحمد ( ٥/ ٢٠ ) .

(٤) البخارى ( ٦٤٠٦ ) فى الدعوات ، باب : فضل التسبيح .

(٥) ومسلم ( ٢٦٩٤ / ٣١ ) فى الذكر والدعاء والاستغفار ، باب : فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

(٦) مسلم (٢٦٩٥/ ٣٢ ) فى الكتاب والباب السابقين .

صلى الصبح وهى فى مسجدها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة ، فقال: « ما زلت على الحال التى فارقتك عليها ؟» قالت : نعم . فقال النبى ﷺ : « لقد قُلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات ،لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ،سبحان الله مداد كلماته »(١) .

وعن سعد بن أبى وقاص : أنه دخل مع رسول الله ﷺ على امرأة وبين يديها نوى أو حصى تسبح به فقال : « أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا وأفضل» فقال: « سبحان الله عدد ما خلق فى السماء ، سبحان اللّه عدد ما خلق فى الأرض ، سبحان اللّه عدد ما بين ذلك ،سبحان الله عدد ما هو خالق ، واللّه أكبر مثل ذلك ،ولا إله إلا اللّه مثل ذلك، والحمد لله مثل ذلك ،ولا حول ولا قوة إلا باللّه مثل ذلك » (٢) .رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن(٣) .

# فصل
# فى أنواع الذكر

الذكر نوعان :

**أحدهما :**

ذكر أسماء الرب تبارك وتعالى وصفاته ، والثناء عليه بهما ، وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به تبارك وتعالى ، وهذا أيضاً نوعان :

**أحدهما** : إنشاء الثناء عليه بها من الذكر ، وهذا النوع هو المذكور فى الأحاديث ، نحو: «سبحان اللّه والحمد لله ،ولا إله إلا الله ،والله أكبر » و« سبحان الله وبحمده » ، و « لا إله إلا اللّه وحدهُ لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير » ، ونحو ذلك . فأفضل هذا النوع ، أجمعه للثناء ،وأعمه ، نحو «سبحان اللّه عدد خلقه » ، فهذا أفضل من مجرد « سبحان اللّه » ، وقولك : « الحمد للّه عدد ما خلق فى السماء ، وعدد ما خلق فى الأرض ، وعدد ما بينهما،وعدد ما هو خالق » أفضل من مجرد قولك : «الحمد لله » .

وهذا فى حديث جويرية ، أن النبى ﷺ قال لها : « لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث

(١) مسلم ( ٢٧٢٦/ ٧٩ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: التسبيح أول النهار .

(٢) أبو داود ( ١٥٠٠ ) فى الصلاة ، باب: التسبيح بالحصى واللفظ له ، والترمذى ( ٣٥٦٨ ) فى الدعوات ، باب: فى دعاء النبى ﷺ وتعوذه دبر كل صلاة وقال: « حسن غريب ». وقال الألبانى : « منكر » .

(٣) الوابل الصيب ( ٣٢٤ ـ ٣٢٦ ) .

مرات ،لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن :سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته » رواه مسلم (١).

وفى الترمذى وسنن أبى داود ،عن سعد بن أبى وقاص: أنه دخل مع رسول الله ﷺ على امرأة بين يديها نوى أو حصى تسبّح بها ، فقال: « أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا أو أفضل » فقال: « سبحان الله عدد ما خلق فى السماء ، وسبحان الله عدد ما خلق فى الأرض ، وسبحان الله عدد ما بين ذلك ، وسبحان الله عدد ما هو خالق ، والله أكبر مثل ذلك ، والحمد لله مثل ذلك ، ولا إله إلا الله مثل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك » (٢).

**النوع الثانى** : الخبر عن الرب تعالى بأحكام أسمائه وصفاته ، نحو قولك : الله عز وجل يسمع أصوات عباده ، ويرى حركاتهم ، ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم ، وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم ،وهو على كل شىء قدير ، وهو أفرح بتوبة عبده من الفاقد راحلته الواجد ونحو ذلك .

وأفضل هذا النوع : الثناء عليه بما أثنى به على نفسه،وبما أثنى به عليه رسول الله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل .وهذا النوع أيضاً ثلاثة أنواع :حمدٌ ، وثناءٌ ، ومجدٌ .

فالحمد لله الإخبار عنه بصفات كماله سبحانه وتعالى ، مع محبته والرضا به فلا يكون المحب الساكت حامداً،ولا المثنى بلا محبة حامداً حتى تجتمع له المحبة والثناء،فإن كرر المحامد شيئا بعد شىء كانت ثناءً،فإن كان المدح بصفات الجلال العظمة والكبرياء والملك كان مجداً.

وقد جمع الله تعالى لعبده الأنواع الثلاثة فى أول الفاتحة:« فإذا قال العبد: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ قال الله: حمدنى عبدى،وإذا قال: ﴿ **الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ** ﴾ قال:أثنى علىّ عبدى، وإذا قال: ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ قال: مجدنى عبدى » (٣) .

**النوع الثانى** ـ من الذكر:

ذكر أمره ونهيه وأحكامه ،وهو أيضًا نوعان :

**أحدهما** : ذكره بذلك إخباراً عنه بأنه أمر بكذا ،ونهى عن كذا، وأحب كذا ،وسخط

(١) مسلم ( ٢٧٢٦ / ٧٩ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم .

(٢) انظر : تخريجه فى الصفحة السابقة رقم (٢) .

(٣) جزء حديث رواه مسلم ( ٣٩٥ / ٣٨ ) فى الصلاة ، باب : وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة ومالك ١/ ٨٤، ٨٥ (٣٩) فى الصلاة ، باب : القراءة خلف الإمام .

كذا ، ورضى كذا .

**والثانى** :ذكره عند أمره ،فيبادر إليه ، وعند نهيه فيهرب منه ، فذكر أمره ونهيه شىء، وذكره عند أمره ونهيه شىء آخر، فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر فذكره أفضل الذكر وأجلُّه وأعظمه فائدة .

فهذا الذكر من الفقه الأكبر ،وما دونه أفضل الذكر إذا صحت فيه النية .

ومن ذكره سبحانه وتعالى : ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه، ومواقع فضله على عبيده،وهذا أيضاً من أجل أنواع الذكر.

فهذه خمسة أنواع :

وهى تكون بالقلب واللسان تارة ،وذلك أفضل الذكر .

وبالقلب وحده تارة ، وهى الدرجة الثانية .

وباللسان وحده تارة ، وهى الدرجة الثالثة .

فأفضل الذكر : ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده،لأن ذكر القلب يثمر المعرفة ، ويهيج المحبة ، ويثير الحياء ، ويبعث على المخافة،ويدعو إلى المراقبة،ويزع عن التقصير فى الطاعات،والتهاون فى المعاصى والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئاً من هذه الآثار ،وإن أثمر شيئاً منها ، فثمرة ضعيفة (١).

## فصل
## فى حكم رفع الصوت بالذكر

رفع الأصوات بالذكر المشروع مكروه إلا حيث جاءت به السنة كالآذان والتلبية ، وفى الصحيح عن أبى موسى قال: « كنا مع رسول اللّه ﷺ ـ فى سفر ، فكنا إذا علونا ارتفعت أصواتنا بالتكبير فقال : « يا أيها الناس ، اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سمعيا قريباً،إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » (٢) وقد قال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) ﴾ [ الأعراف ] ، وقال :

(١) الوابل الصيب ( ١٧٨ ـ ١٨١ ) .

(٢) البخارى (٦٣٨٤) فى الدعوات ، باب : الدعاء إذا علا عقبة ، ومسلم (٢٧٠٤ / ٤٤) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب : استحباب خفض الصوت بالذكر ، وأبو داود (١٥٢٨) فى الصلاة ، باب : فى الاستغفار ، وأحمد ٤ / ٣٩٤ .

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)﴾[ الأعراف ]،وقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)﴾[ مريم ]،وقال الحسن البصرى :« رفع الصوت بالدعاء بدعة » ونص عليه الإمام أحمد وغيره ، وقال قيس بن عباد من كبار التابعين:« كانوا يستحبون خفض الصوت عند الذكر وعند الجنائز وعند القتال» وهذه المواطن الثلاث تطلب فيها النفوس الحركة الشديدة عند الذكر والدعاء لما فيه من الحلاوة ومحبة ذكر اللّه ودعائه وعند الجنائز بالحزن والبكاء وعند القتال بالغضب والحمية .

ومضرة رفع الصوت بذلك أعظم من منفعته ، بل قد يكون ضرراً محضا وإن كانت النفس تشتفى به ، وتبرأ النبى ﷺ من الصالقة ـ وهى التى ترفع صوتها بالمصيبة ـ فكيف بالمغنية التى ترفع صوتها بالغناء ، وأما القتال فالسنة فيه أيضا خفض الصوت .

وأما هذه الدبادب والأبواق والطبول فإنها لم تكن على عهد الخلفاء الراشدين ولا من بعدهم من أمراء المسلمين ، وإنما حدثت من جهة بعض ملوك المشرق من أهل فارس ، وانتشرت فى الأرض وتداولها الملوك حتى ربا فيها الصغير وهرم عليها الكبير لا يعرفون غير ذلك وينكرون على من ينكره .

ويزعم بعض الجهال أن هذا من إحداث عثمان وليس الأمر كذلك ، بل ولا من فعل من بعده من الخلفاء،وإنما ورثته الأمة من الأعاجم ولم يكن منه بد تحقيقاً لقول النبى ﷺ: « لتأخذن أمتى مأخذ الأمم قبلها شبرا بشبر وذراعاً بذراع » فقالوا : فارس والروم قال : « ومن الناس إلا هؤلاء » (١) وكما فى الحديث الآخر : « لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ،حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه » قالوا: يا رسول اللّه،اليهود النصارى؟ قال :« فمن » (٢) والحديثان فى الصحيح،فأخبر أنه لا بد من أن يكون فى الأمة من يتشبه باليهود والنصارى وبفارس والروم.

وظهور هذا الشبه فى الطوائف إنما يعرفه من عرف الحق وضده وعرف الواجب الواقع،وطابق بين هذا وهذا ،ووازن بين ما عليه الناس اليوم وبين ما كان عليه السلف الصالح، فإذا كان رفع الصوت فى مواطن العبادات بالذكر والدعاء الذى يحبه الله ويرضاه بدعة مكروهة لا يتقرب بها إلى اللّه ، فكيف يكون رفعه بالغناء الذى هو قرآن الشيطان قربة وطاعة ،وقد سماه النبى ﷺ صوتا ،فاجرا أحمق ونهى عنه(٣) .

---

(١) الكلام فى مسألة السماع ( ٣٤٨ ـ ٣٥١ ) .

(٢) البخارى (٧٣١٩) فى الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب : قول النبى ﷺ : « التتبعن سنن من كان قبلكم » .

(٣) أحمد ٤ / ١٢٥ ، والطبرانى فى الكبير ٧ / ٢٨١ (٧١٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٧ / ٢٦٤) فى الفتن ، باب فى اتباع سنن من مضى : « ورجاله مختلف فيهم » .

# فصل
## فى أن القرآن والدعاء من أقوى الأسباب
## فى حصول المطلوب ودفع المكروه

وقد أخبر ـ سبحانه ـ عن القرآن أنه شفاء ،فقال تعالى: ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ** ﴾[ فصلت:٤٤]، وقال: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [ الإسراء :٨٢ ] .

و﴿ **مِن** ﴾ ها هنا لبيان الجنس لا للتبعيض ؛ فإن القرآن كله شفاء ،كما قال فى الآية المتقدمة، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل الشك والريب ، فلم ينزل الله تعالى من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع فى إزالة الداء من القرآن .

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى سعيد قال:« انطلق نفر من أصحاب النبى ﷺ فى سفرةٍ سافروها ، حتى نزلوا على حى من أحياء العرب فاستضافوهم ، فأبوا أن يضيفوهم. فلدغ سيد ذلك الحى ، فسعوا له بكل شىء لا ينفعه شىء ، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا ، لعله أن يكون عند بعضهم شىء ،فأتوهم، فقالوا : يا أيها الرهط ، إن سيدنا لدغ ، وسعينا له بكل شىء لا ينفعه شىء . فهل عند أحد منكم من شىء ؟ فقال بعضهم : والله إنى لأرقى ،ولكن والله لقد استضفناكم فلم تُضيفونا ،فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لى جُعلا ، فصالحوهم على قطيع من الغنم،فانطلق يتفل عليه ويقرأ ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [ الفاتحة :٢] فكأنما نشط من عقال. فانطلق يمشى ،وما به قلبة. فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه . فقال بعضهم : اقتسموا ، فقال الذى رقى: لا نفعل حتى نأتى النبى ﷺ فنذكر له الذى كان،فننظر ما يأمرنا. فقدموا على رسول الله ﷺ، فذكروا له ذلك. فقال: «وما يدريك أنها رُقية ؟ » ثم قال : « قد أصبتم ، اقتسموا واضربوا لى معكم سهما » (١).

فقد أثر هذا الدواء فى هذا الداء وأزاله حتى كأنه لم يكن،وهو أسهل دواء وأيسره، ولو أحسن العبد التداوى بالفاتحة لرأى لها تأثيرا عجيباً فى الشفاء .

ومكثت بمكة مدة يعترينى أدواء ولا أجد طبيبًا ولا دواء ،فكنت أعالج نفسى بالفاتحة ، فأرى لها تأثيراً عجيبًا ، فكنت أصف ذلك لمن يشتكى ألما، فكان كثير منهم يبرأ سريعاً .

---

(١) البخارى (٢٢٧٦) فى الإجارة ، باب : ما يعطى فى الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب ، ومسلم (٢٢٠١/٦٥) فى السلام ، باب : جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار .

ولكن هاهنا أمر ينبغى التفطن له ، وهو أن الأذكار والآيات أو الأدعية التى يستشفى بها ويرقى بها ، هى فى نفسها نافعة شافية .ولكن تستدعى قبول المحل ،وقوة همة الفاعل؛ وتأثيره ، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل ،أو لعدم قبول المنفعل ،أو لمانع قوى فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء . كما يكون ذلك فى الأدوية والأدواء الحسية؛ فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء ،وقد يكون لمانع قوى يمنع من اقتضائه أثره،فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول. فكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويز بقبول تام ، وكان للراقى نفس فعالة مؤثرة؛ أثر فى إزالة الداء.

وكذلك الدعاء ، فإنه من أقوى الأسباب فى دفع المكروه وحصول المطلوب ، لكن قد يتخلف عنه أثره ،إما لضعفه فى نفسه ـ بأن يكون دعاء لا يحبه اللّه ،لما فيه من العدوان ـ وإما لضعف القلب وعدم إقباله على اللّه وجمعيته عليه وقت الدعاء ،فيكون بمنزلة القوس الرخو جدا ،فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفا ،وإما لحصول المانع من الإجابة: من أكل الحرام،والظلم،ورين الذنوب على القلوب،واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها .

كما فى مستدرك الحاكم من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «ادعوا اللّه وأنتم موقنون بالإجابة ،واعلموا أن اللّه لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه » (١).

فهذا دواء نافع مزيل للداء ،ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته ،وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها .

كما فى « صحيح مسلم» من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:« أيها الناس، إن اللّه طيب ،لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾[ المؤمنون ] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾[ البقرة: ١٧٢] ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يا رب، يا رب ، يا رب، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام، وملبسه حرام ،وغذى بالحرام ، فأنى يُستجاب لذلك ؟» (٢).

وذكر عبد اللّه بن الإمام أحمد فى كتاب « الزهد » لأبيه: « أصاب بنى إسرائيل بلاء ، فخرجوا مخرجاً ،فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم : أنكم تخرجون إلى الصعيد

---

(١) الحاكم فى المستدرك ( ١ / ٤٩٣ ) فى الدعاء ، باب : لا يقبل الله دعاء من قلب غافل لاه ، وقال : «مستقيم الإسناد » وتعقبه الذهبى فقال : « صالح متروك » .

(٢) مسلم ( ١٠١٥ / ٦٥ ) فى الزكاة،باب : قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها .

بأبدان نجسه ،وترفعون إلى أكفاً قد سفكتم بها الدماء،وملأتم بها بيوتكم من الحرام ،الآن حين اشتد غضبى عليكم ؟ ولن تزدادوا منى إلا بعداً » .

وقال أبو ذر : يكفى من الدعاء مع البر ، ما يكفى الطعام من الملح.

والدعاء من أنفع الأدوية ،وهو عدو البلاء ، يدافعه ويعالجه،ويمنع نزوله، ويرفعه ، أو يخففه إذا نزل ،وهو سلاح المؤمن .

كما روى الحاكم فى صحيحه من حديث على بن أبى طالب ﵁ قال:قال رسول اللّه: «الدعاء سلاح المؤمن ،وعماد الدين ،ونور السموات والأرض » (١).

**وله مع البلاء ثلاث مقامات :**

**أحدها** : أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه .

**الثانى** : أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء ،فيصاب به العبد ،ولكن قد يخففه ،وإن كان ضعيفاً .

**الثالث** : أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه .

وقد روى الحاكم فى صحيحه من حديث عائشة ﵂،قالت:قال لى رسول اللّه ﷺ : « لا يغنى حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ،وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة » (٢).

وفيه أيضاً من حديث ابن عمر عن النبى ﷺ قال:« الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء »(٣) .

وفيه أيضًا من حديث ثوبان عن النبى ﷺ:« لا يرد القدر إلا الدعاءُ ،ولا يزيد فى العمر إلا البر ،وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » (٤) (٥) .

---

(١) الحاكم فى المستدرك ( ١/ ٤٩٢ ) فى الدعاء ، باب: الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ، وقال: « صحيح ، فإن محمد بن الحسن هذا هو التل ،وهو صدوق فى الكوفيين » ووافقه الذهبى .

(٢) الحاكم فى المستدرك ( ١/ ٤٩٢ ) فى الدعاء ،باب :الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ،وقال :« صحيح الإسناد »، وتعقبه الذهبى فقال :« زكريا مجمع على ضعفه » .

(٣) الحاكم فى المستدرك ( ١/ ٤٩٣ ) فى الدعاء ، باب :الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وسكت عنه وتعقبه الذهبى فقال :« عبد الرحمن واه » .

(٤) الحاكم فى المستدرك (١/ ٤٩٣ ) فى الدعاء ، باب : لا يرد القدر إلا الدعاء ، وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

(٥) الداء والدواء ( ١٩ ـ ٢٥ ) .

## وأيضًا

الدعاء من أقوى الأسباب ، إذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال: لا فائدة فى الدعاء ،كما لا يقال: لا فائدة فى الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال. وليس شىء من الأسباب أنفع من الدعاء ،ولا أبلغ فى حصول المطلوب .

ولما كان الصحابة رضي الله عنهم أعلم الأمة بالله ورسوله ﷺ وأفقههم فى دينه ،كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستنصرون به على عدوه ، وكان أعظم جنديه ، وكان يقول لأصحابه : « لستم تنصرون بكثرة ،وإنما تنصرون من السماء »،وكان يقول: « إنى لا أحمل هم الإجابة ولكن هم الدعاء ، فإذا ألهمتم الدعاء فإن الإجابة معه ، وأخذ الشاعر هذا المعنى فنظمه ، فقال :

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه    من جود كفيك ما عودتنى الطلبا

فمن ألهم الدعاء فقد أريد به الإجابة ،فإن الله سبحانه يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [ غافر: ٦٠] ، وقال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [ البقرة: ١٨٦]

وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم يسأل الله يغضب عليه » (١).

وهذا يدل على أن رضاءه فى سؤاله وطاعته . وإذا رضى الرب تبارك وتعالى فكل خير فى رضاه ، كما أن كل بلاء ومعصية فى غضبه .

وقد ذكر الإمام أحمد فى « كتاب الزهد » أثرا :« أنا الله ،لا إله إلا أنا ، إذا رضيت باركت ، وليس لبركتى منتهى ، وإذا غضبت لعنت ، ولعنتى تبلغ السابع من الولد » .

ولقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم ـ على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها ـ على أن التقرب إلى رب العالمين ، وطلب مرضاته ، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر ، فما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمته بمثل طاعته والتقرب إليه ، والإحسان إلى خلقه (٢) .

---

(١) ابن ماجه ( ٣٨٢٧ ) فى الدعاء ، باب : فضل الدعاء بلفظ : « من لم يدع الله يغضب عليه ».

(٢) الداء والدواء (٣٧ ـ ٣٩) .

# فصل
## فى آداب دعاء العبادة ودعاء المسألة

قوله عز وجل : ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)** ﴾ [ الأعراف ] هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعى الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة ، فإن الدعاء فى فى القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة ،ويراد به مجموعهما وهما متلازمان .فإن دعاء المسألة : هو طلب ما ينفع الداعى ،وطلب كشف ما يضره أو دفعه ، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقا ، والمعبود لا بد وأن مالكا للنفع والضر ؛ ولهذا أنكر اللّه تعالى على عبد من دونه مالا يملك ضرا ولا نفعا ، وذلك كثير فى القرآن كقوله تعالى : ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ** ﴾ [ يونس:١٨ ]،وقوله تعالى: ﴿**وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ** ﴾[ يونس:١٠٦ ] ،وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦)** ﴾[ المائدة ]،وقوله تعالى: ﴿ **أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [الأنبياء] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣)** ﴾ [الشعراء ] ، وقوله تعالى: ﴿ **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا (٣)** ﴾[ الفرقان ] ، وقال تعالى : ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥)** ﴾ [ الفرقان]، فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر القاصر والمتعدى فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم ، وهذا فى القرآن كثير بين أن المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر ، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة ويدعى خوفاً ورجاء دعاء العبادة .

فعلم أن النوعين متلازمان ، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [ البقرة: ١٨٦ ] يتناول نوعى الدعاء ،وبكل منهما فسرت الآية ، قيل:أعطيه إذا سألنى ، وقيل : أثيبه إذا عبدنى،والقولان متلازمان ، وليس هذا من

استعمال اللفظ المشترك فى معنييه كليهما ،أو استعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه ،بل هذا استعمال له فى حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً فتأمله،فإنه موضع عظيم النفع قل من يفطن له،وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعدا هى من هذا القبيل ، ومثال ذلك قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ [ الإسراء: ٧٨ ] ، فسر الدلوك : بالزوال ، وفسر بالغروب : وحكيا قولين فى كتب التفسير وليسا بقولين ، بل اللفظ يتناولهما معا ،فإن الدلوك : هو الميل ، ودلوك الشمس ميلها؛ ولهذا الميل مبدأ ومنتهى، فمبدؤه الزوال ومنتهاه الغروب ، فاللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار لا بتناول المشترك لمعنييه ولا اللفظ لحقيقته ومجازه ، ومثاله أيضا تفسير الغاسق بالليل والقمر وإن ذلك ليس باختلاف بل يتناولهما لتلازمهما فإن القمر آية الليل ونظائره كثيرة .

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُم ﴾[ الفرقان:٧٧ ]، قيل: لولا دعاؤكم إياه ، وقيل : دعاؤه إياكم إلى عبادته،فيكون المصدر مضافا إلى المفعول ، وعلى الأول مضافا إلى الفاعل وهو الأرجح من القولين ، وعلى هذا فالمراد به نوعا الدعاء وهو فى دعاء العبادة أظهر،أى ما يعبؤ بكم ربى لولا أنكم تعبدونه .وعبادته تستلزم مسألته، فالنوعان داخلان فيه .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[ غافر: ٦٠]،فالدعاء يتضمن النوعين وهو فى دعاء العبادة أظهر ،ولهذا عقبه بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾ [ غافر ]، فسر الدعاء فى الآية بهذا وهذا ، وقد روى سفيان عن منصور،عن ذر،عن نسيع الكندى ، عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر : « إن الدعاء هو العبادة » ثم قرأ : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ . إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾ رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح(١) .وأما قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ [ الحج :٧٣ ] ،وقوله: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا ﴾ [ النساء: ١١٧ ]، وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ [ فصلت: ٤٨ ] ،وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأصنامهم وآلهتهم، فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة، فهو فى دعاء العبادة أظهر لوجوه ثلاثة :

---

(١) الترمذى ( ٣٣٧٢ ) فى الدعوات ، باب : ما جاء فى فضل الدعاء .

أحدها : أنهم قالوا: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم هو عبادتهم لهم .

الثانى : أن اللّه تعالى فسر هذا الدعاء فى مواضع أخر بأنه العبادة كقوله: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) ﴾ [ الشعراء ] وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) ﴾[الكافرون]، وهو كثير فى القرآن، فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم لها.

الثالث : أنهم إنما كانوا يعبدونها ويتقربون بها إلى اللّه ، فإذا جاءتهم الحاجات والكربات والشدائد دعوا اللّه وحده وتركوها ، ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم، ويطلبون منها ، وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة .

وقوله تعالى: ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [ غافر: ١٤] هو دعاء العبادة والمعنى : اعبدوه وحده وأخلصوا عبادته ، لا تعبدوا معه غيره .

وأما قول إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) ﴾ [ إبراهيم ] فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص وهو سمع الإجابة والقبول لا السمع العام، لأنه سميع لكل مسموع ، وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء ودعاء الطلب وسمع الرب تبارك وتعالى له إثابته على الثناء وإجابته للطلب ، فهو سميع لهذا وهذا .

وأما قول زكريا : ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) ﴾ [ مريم ] فقد قيل : إنه دعاء المسألة، والمعنى : إنك عودتنى إجابتك وإسعافك ولم تشقنى بالرد والحرمان ، فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه ،كما حكى أن رجلا سأل رجلا وقال: أنا الذى أحسنتَ إلىَّ وقت كذا وكذا ، فقال: مرحبا بمن توسل إلينا بنا ، وقضى حاجته ، وهذا ظاهر ههنا ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد ، وجعله وسيلة إلى ربه ، فطلب منه أن يجاريه على عادته التى عوده من قضاء حوائجه وإجابته إلى ما سأله .

وأما قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء: ١١٠ ] ، فهذا الدعاء المشهور ، وأنه دعاء المسألة ، وهو سبب النزول قالوا: كان النبى ﷺ يدعو ربه فيقول مرة : يا الله ، ومرة : يا رحمن فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعو إلهين ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية ، قال ابن عباس: سمع المشركون النبى ﷺ يدعو فى سجوده يا رحمن ، يا رحيم ، فقالوا : هذا يزعم أنه يدعو واحدا ، وهو يدعو مثنى مثنى ، فأنزل اللّه هذه الآية : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾، وقيل: إن الدعاء ههنا بمعنى التسمية ، كقولهم دعوت ولدى سعيدا ، وادعه بعبد اللّه ونحوه. والمعنى: سموا اللّه أو سموا الرحمن ، فالدعاء ههنا بمعنى التسمية ،وهذا قول الزمخشرى. والذى حمله على

هذا قوله: ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، فإن المراد بتعدده معنى أى وعمومها ههنا تعدد الأسماء ليس إلا ،والمعنى . أى اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى إما الله وإما الرحمن فله الأسماء الحسنى ، أى فللمسمى سبحانه الأسماء الحسنى ،والضمير فى ( له ) يعود إلى المسمى ، فهذا الذى أوجب له أن يحمل الدعاء فى هذه الآية على التسمية ،وهذا الذى قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء فى الآية ، وليس هو عين المراد ، بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد فى القرآن ،وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء ،ولكنه متضمن معنى التسمية ، فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب، بل التسمية الواقعة فى دعاء الثناء والطلب ، فعلى هذا المعنى يصح أن يكون فى ( تدعوا ) معنى: تسموا ، فتأمله .والمعنى: أياما تسموا فى ثنائكم ودعائكم وسؤالكم والله أعلم .

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ الطور ] ، فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة ، والمعنى : إنا كنا من قبل نخلص له العبادة ، وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجى وغيره ،فإن الله ـ سبحانه ـ يسأله من فى السموات ومن فى الأرض ،والفوز والنجاة إنما هى بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب ،وكذلك قول الفتية أصحاب الكهف: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا ﴾ [ الكهف:١٤] أى: لن نعبد غيره،وكذلك قوله تعالى: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[ الصافات] ،وأما قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [ القصص ] فهذا من دعاء المسألة يبكتهم الله عز وجل ويخزيهم يوم القيامة بإراءتهم أن شركاءهم لا يستجيبون لدعوتهم، وليس المراد :اعبدوهم ،وهو نظير قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾[ الكهف: ٥٢ ].

وهذا التقرير نافع فى مسألة الصلاة وأنها :هل نقلت عن مسماها فى اللغة فصارت حقيقة شرعية منقولة ،أو استعملت فى هذه العبادة مجازا للعلاقة بينها وبين المسمى اللغوى، أو هى باقية على الوضع اللغوى وضم إليها أركان وشرائط ؟ وعلى ما قررناه لا حاجة إلى شىء من ذلك ، فإن المصلى من أول صلاته إلى آخرها لا ينفك عن دعاء،إما دعاء عبادة وثناء أو دعاء طلب ومسأله ، وهو فى الحالين داع ، فما خرجت الصلاة عن حقيقة الدعاء ، فتأمله، إذا عرف هذا فقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف:٥٥ ] يتناول نوعى الدعاء لكنه ظاهر فى دعاء المسألة متضمن دعاء العبادة ؛ ولهذا أمر بإخفائه وإسراره . قال الحسن : بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً ، ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم،

وذلك أن اللّه تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وإن اللّه ذكر عبدا صالحا ورضى بفعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ③﴾ [ مريم ] (١) .

# فصل
## فى أنفع الدعـاء

الناس فى هذين الأصلين ـ وهما العبادة والاستعانة ـ أربعة أقسام .

أجلها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة باللّه عليها ، فعبادة اللّه غاية مرادهم ، وطلبهم منه أن يعينهم عليها ، ويوفقهم للقيام بها ؛ ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى: الإعانة على مرضاته ، وهو الذى علَّمه النبى ﷺ لحبه معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال: «يا معاذ ، واللّه إنى لأحبك ، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » (٢).

فأنفع الدعاء : طلب العون على مرضاته ، وأفضل المواهب: إسعافه بهذا المطلوب ، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا ، وعلى دفع ما يضاده ، وعلى تكميله وتيسير أسبابه. فتأملها .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس اللّه روحه: تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته ، ثم رأيته فى الفاتحة فى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤﴾ [الفاتحة]، ومقابل هؤلاء : القسم الثانى . وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به. فلا عبادة ولا استعانة ، بل إن سأله أحدهم واستعان به ، فعلى حظوظه وشهواته ، لا على مرضاة ربه وحقوقه ، فإنه ـ سبحانه ـ يسأله من فى السموات والأرض : يسأله أولياؤه وأعداؤه ، ويمدُّ هؤلاء وهؤلاء. وأبغض خلقه : عدوه إبليس ، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها ، ومتعه بها ، ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته ، كانت زيادة له فى شقوته ، وبعده عن اللّه وطرده عنه . وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ، ولم يكن عوناً على طاعته : كان مبعداً له عن مرضاته ، قاطعًا له عنه ولا بد .

وليتأمل العاقل هذا فى نفسه وفى غيره. وليعلم أن إجابة اللّه لسائليه ليست لكرامة

---

(١) بدائع الفوائد ( ٣ / ٢ ـ ٦ ) .
(٢) سبق تخريجه ص ١٨٢ .

السائل عليه ، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له ، وفيها هلاكه وشقوته . ويكون قضاؤها له من هوانه عليه ، وسقوطه من عينه. ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له . فيمنعه حماية وصيانة وحفظا ، لا بخلا، وهذا إنما يفعله بعبده الذى يريد كرامته ومحبته ويعامله بلطفه، فيظن ـ بجهله ـ أن الله لا يحبه ولا يكرمه ، ويراه يقضى حوائج غيره ، فيسىء ظنه بربه ، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به . والمعصوم من عصمه الله ، والإنسان على نفسه بصيرة ، وعلامة هذا : حمله على الأقدار . وعتابه الباطن لها ، كما قيل :

وعاجز الرأى مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه ، وأنه قد كان ينبغى أن يكون كذا وكذا ، ولكن ما حيلتى ، والأمر ليس إلىّ ؟ والعاقل خصم نفسه ، والجاهل خصم أقدار ربه .

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيناً خيرته وعاقبته مغيبة عنك ، وإذا لم تجد من سؤاله بدا ، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة ، وقدم بين يدى سؤالك الاستخارة،ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة ، بل استخارة من لا علم له بمصالحه ، ولا قدرة له عليها ،و لا اهتداء له إلى تفاصيلها ، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك ، وانفرط عليه أمره .

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال : تسأله أن يجعله عوناً لك على طاعته وبلاغاً إلى مرضاته،ولا يجعله قاطعاً لك عنه ،ولا مبعداً عن مرضاته ،ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه؛ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه،ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان ،يمتحن بهما عباده ، قال الله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا** ﴾[ الفجر] أى ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته: فقد أكرمته ،وماذاك لكرامته على. ولكنه ابتلاء منى ، وامتحان له : أيشكرنى فأعطيه فوق ذلك ، أم يكفرنى فأسلبه إياه ، وأخوّل فيه غيره ؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه ، وجعلته بقدر لا يفضل عنه ، فذلك من هوانه علىّ ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له : أيصبر ؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق ، أم يتسخط ، فيكون حظه السخط .

فرد الله ـ سبحانه ـ على من ظن أن سعة الرزق إكرام ،و أن الفقر إهانة ، فقال : لم أبتل عبدى بالغنى لكرامته علىّ ، ولم أبتله بالفقر لهوانه علىّ . فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه ـ سبحانه ـ يوسع على الكافر لا لكرامته،

ويقتِّر على المؤمن لا لإهانته ، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته ، فله الحمد على هذا وعلى هذا، هو الغنى الحميد .فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾(١) .

# فصل
## فى الأخذ بوسائل قبول الدعاء

لما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب ونيله أشرف المواهب ، علم الله عباده كيفية سؤاله،وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده ،ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم فهاتان وسليتان إلى مطلوبهم:توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته،وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان فى حديثى الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان فى صحيحه والإمام أحمد والترمذى .

**أحدهما** :حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: سمع النبى ﷺ رجلا يدعو ويقول: اللهم إنى إسألك بأنى أشهد أنك الله الذى لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.فقال:« والذى نفسى بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ،وإذا سئل به أعطى » (٢) . قال الترمذى :حديث صحيح . فهذا توسل إلى الله بتوحيده وشهادة الداعى له بالوحدانية وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد»، وهو كما قال ابن عباس :« العالم الذى كمل علمه ، القادر الذى كملت قدرته» .

وفى رواية عنه:« هو السيد الذى قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد »،وقال أبو وائل:«هو السيد الذى انتهى سؤدده » وقال سعيد بن جبير :« هو الكامل فى جميع صفاته وأفعاله وأقواله » ،وبنفى التشبيه والتمثيل عنه بقوله:« ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص ] ، وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة والتوسل بالإيمان بذلك والشهادة به هو الاسم الأعظم .

**والثانى** : حديث أنس : أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو : اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنّان ، بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام يا حى يا قيوم فقال:« لقد سأل الله باسمه الأعظم » (٣) . فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته ، وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين ، وهما : التوسل بالحمد والثناء عليه وتمجيده ، والتوسل إليه بعبوديته

(١) مدارج السالكين ( ١/ ٧٨ ـ ٨٠ ) .
(٢ ، ٣) سبق تخريجهما ص ٢٤٣ .

وتوحيده ، ثم جاء سؤال أهم المطالب وأنجح الرغائب - وهو الهداية بعد الوسيلتين ، فالداعى به حقيق بالإجابة ونظير هذا دعاء النبى ﷺ الذى كان يدعو به إذا قام يصلى من الليل . رواه البخارى فى صحيحه من حديث ابن عباس : « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك حق ،ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، والساعة حق ، ومحمد حق . اللهم لك أسلمت ،و بك آمنت ،وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ،وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ،وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهى لا إله إلا أنت »[(١)] فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له ثم سأله المغفرة [(٢)].

## وأيضا

إذا جُمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب ، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة وهى :

الثلث الأخير من الليل ، وعند الأذان ، وبين الأذان والإقامة ، وأدبار الصلوات المكتوبات ، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم ، وآخر ساعة بعد العصر .

وصادف خشوعاً فى القلب ،وانكساراً بين يدى الرب ، وذلاً له وتضرعا ورقة .

واستقبل الداعى القبلة .

وكان على طهارة .

ورفع يديه إلى الله .

وبدأ بحمد الله والثناء عليه .

ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله .

ثم قدّم بين يدى حاجته التوبة والاستغفار .

ثم دخل على الله ، وألح عليه المسألة ، وتملقه ودعاه رغبة ورهبة .

وتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده .

وقدّم بين يدى دعائه صدقة ، فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبدا .

---

(١) البخارى ( ١١٢٠ ) فى التهجد ، باب: التهجد بالليل . (٢) مدارج السالكين ( ١ / ٢٣ ) .

ولا سيما إن صادف الأدعية التى أخبر النبى ﷺ أنها مظنة الإجابة ، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم .

فمنها ما فى السنن وصحيح ابن حبان من حديث عبد اللّه بن بريدة عن أبيه أن رسول اللّه ﷺ سمع رجلا يقول: اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت اللّه لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . فقال: « لقد سأل اللّه بالاسم الذى إذا سُئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب » وفى لفظ: « لقد سألت اللّه باسمه الأعظم »(١).

فى السنن وصحيح ابن حبان أيضاً من حديث أنس بن مالك: أنه كان مع رسول اللّه ﷺ جالسا ورجل يصلى ، ثم دعا فقال: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حى يا قيوم . فقال النبى ﷺ : « لقد دعا اللّه باسمه العظيم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى »(٢).

وأخرج الحديثين الإمام أحمد فى مسنده .

وفى جامع الترمذى ، من حديث أسماء بنت يزيد أن النبى ﷺ قال: « اسم اللّه الأعظم فى هاتين الآيتين : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾ [ البقرة ] وفاتحة آل عمران ﴿الٓمٓ (١) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢)﴾ » وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح(٣).

وفى مسند الإمام أحمد وصحيح الحاكم من حديث أبى هريرة وأنس بن مالك وربيعة ابن عامر عن النبى ﷺ أنه قال: « ألظُّوا بياذا الجلال الإكرام »(٤) ، يعنى تعلقوا بها والزموها وداوموا عليها .

وكثيرا ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم ، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على اللّه ، أو حسنة تقدمت منه جعل اللّه ـ سبحانه ـ إجابة دعوته شكراً لحسنته ، أو صادف وقت إجابة ونحو ذلك فأجيبت دعوته ، فيظن الظان أن السر فى لفظ ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التى قارنته من ذلك الداعى . وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعا ، فى الوقت الذى ينبغى استعماله ، على الوجه الذى ينبغى، فانتفع به ، فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرده كاف فى حصول المطلوب، كان

---

(١ ، ٢) سبق تخريجهما ص ٢٤٣ .

(٣) الترمذى ( ٣٤٧٨ ) فى الدعوات ، باب : ( ٦٥ ) .

(٤) أحمد ( ٤ / ١٧٧ ) ، والحاكم فى المستدرك ( ١/ ٤٩٩ ) ، فى الدعاء ، باب: ألظوا بياذا الجلال والإكرام ، وقال: « صحيح » ، ووافقه الذهبى .

غالطا، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس .

ومن هذا أنه قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب ، فيظن الجاهل أن السر للقبر، ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى اللّه ، فإذا حصل ذلك فى بيت من بيوت الله ، كان أفضل وأحب إلى اللّه .

والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح ،والسلاح بضاربه، لابحدّه فقط .فمتى كان السلاح سلاحاً لا آفة به ،والساعد ساعد قوى، والمانع مفقود،حصلت به النكاية فى العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير. فإذا كان الدعاء فى نفسه غير صالح، أو الداعى لم يجمع بين قلبه ولسانه فى الدعاء،أو كان ثمّ مانع من الإجابة ،لم يحصل الأثر (١).

## فائدة

## فى قوله ﷺ : « اتقوا اللّه وأجملوا فى الطلب» (٢)

جمع النبى ﷺ فى قوله:«فاتقوا اللّه وأجملوا فى الطلب» بين مصالح الدنيا والآخرة،ونعيمها ولذاتها إنما ينال بتقوى اللّه،وراحة القلب والبدن وترك الاهتمام والحرص الشديد والتعب والعناد والكد والشقاء فى طلب الدنيا ، إنما ينال بالإجمال فى الطلب فمن اتقى الله فاز بلذة الآخرة ونعيمها ومن أجمل فى الطلب استراح من نكد الدنيا وهمومها ، فالله المستعان .

قد نادت الدنيا على نفسها لو كان فى ذا الخلق من يسمع
كم واثق بالعيش أهلكته وجامع فرقت ما يجمع

## فصل

## فى الأخذ بالأسباب مع الدعاء

سمع بعض أهل العلم رجلا يدعو بالعافية فقال له: يا هذا استعمل الأدوية ، وادع بالعافية فإن اللّه تعالى إذا كان قد جعل إلى العافية طريقا وهو التداوى . ودعوته بالعافية ربما كان جوابه : قد عافيتك بما جعلته ووضعته سببا للعافية ، وما هذا إلا بمثابة من بين زرعه وبين الماء ثلمة يدخل منها الماء يسقى زرعه ، فجعل يصلى ويستسقى لزرعه ويطلب

(١) الداء والدواء ( ٢٧ ـ ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٥ ) .

(٢) ابن ماجه ( ٢١٤٤ ) فى التجارات ، باب: الاقتصاد فى طلب المعيشة ، وفى الزوائد : « إسناده ضعيف ؛ لأن فيه الوليد بن مسلم وابن جريج وكل منهما يدلس » .

المطر ، مع قدرته على فتح تلك الثلمة لسقى زرعه ، فإن ذلك لا يحسن منه شرعا ولا عقلا، ولم يكن ذلك إلا لأنه سبق بإعطاء الأسباب ، فهو إعطاء بأحد الطريقين ، وله أن يعطى بسبب وبغير سبب،وبالسبب ليتبين به ما أفاض من صنعه، وما أودع فى مخلوقاته من القوى والطبائع والمنافع ، وإعطاؤه بغير سبب ليتبين للعباد أن القدرة غير مفتقرة إلى واسطة فى فعله، فإذا دعوته بالعافية فاستنقذ ما أعطاك من العتائد والأرزاق ، فإن وصلت بها وإلا فاطلب طلب من أفلس من مطلوبه فرغب إلى المعدن ، كما قال سيد الخلائق :« اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك »(١) قلت : هذا كلام حسن، وأكمل منه أن يبذل الأسباب ، ويسأل سؤال من لم يدل بشىء البتة .

**والناس فى المقام أربعة أقسام :**

فأعجزهم من لم يبذل السبب ولم يكثر الطلب ، فذاك أمهن الخلق .

**والثانى** :مقابله وهو أحزم الناس من أدلى بالأسباب التى نصبها اللّه مفضية إلى المطلوب، وسأل سؤال من لم يدل بسبب أصلا ،بل سؤال مفلس بائس ليس له حيلة ولا وسيلة .

**الثالث** :من استعمل الأسباب وصرف همته إليها ، وقصر نظره عليها، فهذا وإن كان له حظ مما رتبه اللّه عليها ولكنه منقوص منقطع نصب الآفات المعارضات ، لا يحصل له إلا بعد جهد ، فإذا حصل فهو وشيك الزوال سريع الانتقال غير معقب له توحيدا ولا معرفة، ولا كان سببا لفتح الباب بينه وبين معبوده .

**الرابع** : مقابله وهو رجل نبذ الأسباب وراء ظهره ، وأقبل على الطلب والدعاء والابتهال فهذا يحمد فى موضع ويذم فى موضع ويشينه الأمر فى موضع . فيحمد عند كون تلك الأسباب غير مأمور بها ، إذ فيها مضرة عليه فى دينه ، فإذا تركها وأقبل على السؤال والابتهال والتضرع للّه كان محمودا ، ويذم حيث كانت الأسباب مأموراً بها فتركها وأقبل على الدعاء ، كمن حصره العدو وأمره بجهاده ،فترك جهاده وأقبل على الدعاء والتضرع أن يصرفه اللّه عنه ،وكمن جهده العطش وهو قادر على تناول الماء ، فتركه أقبل يسأل اللّه تعالى أن يرويه ، وكمن أمكنه التداوى الشرعى فتركه وأقبل يسأل العافية ، ونظائر هذا . يشتبه الأمر فى الأسباب التى لا يتبين له عواقبها وفيها بعض الاشتباه ولها لوازم قد يعجز عنها ، وقد يتولد عنها ما يعود بنقصان دينه ، فهذا موضع اشتباه وخطر، والحاكم فى ذلك كله الأمر ، فإن خفى فالاستخارة وأمر اللّه وراء ذلك (٢).

---

(١) أبو داود (٤١٢٤) فى النكاح ، باب : فى القسم بين النساء ، والترمذى (١١٤٠) فى النكاح ، باب : ما جاء فى التسوية بين الضرائر ، والنسائى (٣٩٤٣) فى عشرة النساء ، باب : ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض ، وابن ماجه (١٩٧١) فى النكاح ، باب : القسم بين النساء ، وأحمد ٦/ ١٤٤ ، وضعفه الألبانى .

(٢) بدائع الفوائد ( ٣ / ١٧٨ ـ ١٨٠ ) .

## فصل
## فى الدعاء بأطيب ما فى الدنيا والآخرة

قد جمع النبى صلى اللّه تعالى عليه وسلم بين هذين الأمرين فى الدعاء الذى رواه النسائى والإمام أحمد ، وابن حبان فى صحيحه وغيرهم ، من حديث عمار بن ياسر : أن رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم كان يدعو به : « اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحينى ما علمت الحياة خيرا لى ،وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى، وأسألك خشيتك فى الغيب الشهادة، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا، وأسألك القصد فى الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفدُ ، وأسألك قُرّة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برْد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك ، فى غير ضراء مُضرّة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ،واجعلنا هُداة مهتدين » (١).

فجمع فى هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شىء فى الدنيا ، وهو الشوق إلى لقائه ـ سبحانه ـ وأطيب شىء فى الآخرة ، وهو النظر إلى وجهه ـ سبحانه ـ ولما كان كل ذلك وتمامه موقوفاً على عدم ما يضر فى الدنيا ويفتن فى الدين قال: « فى غير ضرَّاء مُضرّة ولا فتنة مُضلة » .

ولما كان كمال العبد فى أن يكون عالما بالحق متبعا له معلما لغيره ، مرشداً له قال : « واجْعَلنَا هُداةً مهتَدين » .

ولما كان الرضا النافع المحصل للمقصود هو الرضا بعد وقوع القضاء لا قبله ،فإن ذلك عزم على الرضا ، فإذا وقع القضاء انفسخ ذلك العزم ،سأل الرضا بعده ،فإن المقدور يكتنفه أمران : الاستخارة قبل وقوعه ،والرضا بعد وقوعه. فمن سعادة العبد أن يجمع بينهما ، كما فى المسند وغيره عنه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم :« إن من سعادة ابن آدم استخارة اللّه ورضاه بما قضى اللّه، وإن من شقاوة ابن آدم تركُ استخارة اللّه ، وسخطه بما قضى اللّه تعالى» (٢).

---

(١) النسائى ( ١٣٠٥ ، ٣١٠٦ ) فى السهو ، باب: نوع آخر ، وأحمد ( ٤/ ٢٦٤ ) ، وابن حبان ( ١٩٦٨ ) فى صفة الصلاة ، باب: دعاء المرء فى الصلاة بما ليس فى كتاب اللّه .

(٢) الترمذى ( ٢١٥١ ) فى القدر باب :ما جاء فى الرضا بالقضاء وقال :« غريب »، وأحمد ( ١/ ١٦٨ ) ،وقال: « غريب »، وقال الشيخ أحمد شاكر ( ١٤٤٤ ) : « إسناده ضعيف » .

ولما كانت خشية اللّه عزّ وجل رأس كل خير فى المشهد والمغيب ، سأله خشيته فى الغيب والشهادة .

ولما كان أكثر الناس إنما يتكلم بالحق فى رضاه ،فإذا غضب أخرجه غضبه إلى الباطل، وقد يدخله أيضاً رضاه فى الباطل ، سأل اللّه عز وجل أن يوفقه لكلمة الحق فى الغضب والرضا ، ولهذا قال بعض السلف : لا تكن ممن إذا رضى أدخله رضاه فى الباطل، وإذا غضب أخرجه غضبه من الحق .

ولما كان الفقر والغنى بليلتين ومحنتين ، يبتلى اللّه بهما عبده ، ففى الغنى يبسط يده ، وفى الفقر يقبضها ، سأل اللّه عز وجل القصد فى الحالين، وهو التوسط الذى ليس معه إسراف ولا تقتير .

ولما كان النعيم نوعين : نوعا للبدن . ونوعا للقلب وهو قرة العين ، وكماله بدوامه واستمراره ، جمع بينهما فى قوله : « أسألك نعيما لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع » .

ولما كانت الزينة زينتين : زينة البدن ، وزينة القلب ، وكانت زينة القلب أعظمهما قدراً وأجلهما خطراً ،وإذا حصلت زينة البدن على أكمل الوجوه فى العُقْبى ،سأل ربه الزينة الباطنة فقال:« زينا بزينة الإيمان » .

ولما كان العيش فى هذه الدار لا يبرد لأحد كائناً من كان ، بل هو محشو بالغصص والنكد ،ومحفوف بالآلام الباطنة والظاهرة ، سأل برد العيش بعد الموت .

**والمقصود** : أنه جمع فى هذا الدعاء بين أطيب ما فى الدنيا ،وأطيب ما فى الآخرة، فإن حاجة العباد إلى ربهم فى عبادتهم إياه وتأليههم له ،كحاجتهم إليه فى خلقه لهم ، ورزقه إياهم ،ومعافاة أبدانهم ،وستر عوراتهم ، وتأمين روعاتهم ، بل حاجتهم إلى تأليهه ومحبته وعبوديته أعظم،فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم،لا صلاح لهم ولا نعيم ولا فلاح ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال ،ولهذا كانت « لا إله إلا اللّه » أحسن الحسنات ، وكان توحيد الإلهية رأس الأمر ،أما توحيد الربوبية الذى أقر به المسلم والكافر ،وقرره أهل الكلام فى كتبهم ، فلا يكفى وحده ، بل هو الحجة عليهم ، كما بين ذلك ـ سبحانه ـ فى كتابه الكريم فى عدة مواضع ؛ولهذا كان حق اللّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، كما فى الحديث الصحيح الذى رواه معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: « أتدرى ما حق اللّه على عباده ؟ » قلت : اللّه ورسوله أعلم ، قال: « حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » ، أتدرى ما حق العباد على اللّه إذا فعلوا ذلك ؟ » قلت : اللّه

ورسوله أعلم ،قال: «حقهم عليه ألا يعذبهم بالنار» [(١)]؛ ولذلك يحب ـ سبحانه ـ عباده المؤمنين الموحدين ويفرح بتوبتهم ،كما أن فى ذلك أعظم لذة العبد وسعادته ونعيمه ،فليس فى الكائنات شيء غير اللّه عز وجل يسكن القلب إليه،ويطمئن به ويأنس به ،ويتنعم بالتوجه إليه ،ومن عبد غيره ـ سبحانه ـ وحصل له به نوع منفعة ولذة ، فمضرته بذلك أضعاف أضعاف منفعته ،وهو بمنزلة أكل الطعام المسموم اللذيذ ،وكما أن السموات والأرض لو كان فيهما آلهة غيره سبحانه لفسدتا، كما قال تعالى : ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ [ الأنبياء :٢٢ ] فكذلك القلب إذا كان فيه معبود غير اللّه تعالى فسد فسادا لا يرجى صلاحه إلا بأن يخرج ذلك المعبود منه،ويكون اللّه تعالى وحده إلهه ومعبوده الذى يحبه ويرجوه ،ويخافه ويتوكل عليه وينيب إليه[(٢)] .

# فصل
## فى فوائد إخفاء الدعاء

وفى إخفاء الدعاء فوائد عديدة .

**أحدها** : أنه أعظم إيمانا ،لأن صاحبه يعلم أن اللّه يسمع دعاء الخفى وليس كالذى قال: إن اللّه يسمع إن جهرنا ، ولا يسمع أن أخفينا !

**وثانيها** : أنه أعظم فى الأدب والتعظيم ، ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات ، وإنما تخفض عندهم الأصوات، ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه ، ومن رفع صوته لديهم مقتوه ، وللّه المثل الأعلى ،فإذا كان يسمع الدعاء الخفى ،فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

**وثالثها** : أنه أبلغ فى التضرع والخشوع الذى هو روح الدعاء ولبه ومقصوده ، فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه وذلت جوارحه ، وخشع صوته ، حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته و سكنته وكسره وضراعته إلى أن ينكسر لسانه

---

(١) البخارى ( ٢٨٥٦ ) فى الجهاد والسير ، باب: اسم الفرس والحمار ، ومسلم ( ٢٩ / ٥٠ ) فى الإيمان ، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا ،والترمذى ( ٢٦٤٣ ) فى الإيمان ، باب: ما جاء فى افتراق هذه الأمة ، وأحمد ( ٥/ ٢٣٠ ) .

(٢) إعلام الموقعين (١ / ٢٨ ـ ٣٠ ) .

فلا يطاوعه بالنطق، فقلبه سائل طالب مبتهل ، ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت ، وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلا .

**ورابعها** : أنه أبلغ فى الإخلاص .

**وخامسها** : أنه أبلغ فى جمعية القلب على اللّه فى الدعاء ، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته ، فكلما خفض صوته كان أبلغ فى صمده وتجريد همته وقصده للمدعو سبحانه وتعالى .

**وسادسها**: وهو من النكت السرية البديعة جدا : أنه دال على قرب صاحبه من اللّه ، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شىء إليه فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد ، ولهذا أثنى ـ سبحانه ـ على عبده زكريا بقوله : ﴿ **إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا** (٣) ﴾ [ مريم ] فكلما استحضر القلب قرب اللّه تعالى منه ، وأنه أقرب إليه من كل قريب ، وتصور ذلك أخفى دعاءه ما أمكنه ، ولم يتأت له رفع الصوت به ، بل يراه غيرمستحسن ، كما أن من خاطب جليسا له يسمع خفى كلامه فبالغ فى رفع الصوت استهجن ذلك منه ، وللّه المثل الأعلى ـ سبحانه .

وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المعنى بعينه بقوله فى الحديث الصحيح ، لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير ، وهم معه فى السفر ، فقال: « اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريباً، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »(١) ، وقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [ البقرة : ١٨٦ ] ، وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا: يا رسول اللّه، ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه ، فأنزل اللّه عز وجل : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾(٢) وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة فى الدعاء لا للنداء الذى هو رفع الصوت ، فإنهم عن هذا سألوا ، فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب لا يحتاج فى دعائه وسؤاله إلى النداء ، وإنما يسأل مسألة القريب المناجى ، لا مسألة البعيد المنادى . وهذا القرب من الداعى هو قرب خاص ليس قربا عاما من كل أحد ، فهو قريب من داعيه وقريب من عابده ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة الذى لم يثبت أكثر المتكلمين سواه ، بل هو قرب خاص من الداعى والعابد ، كما قال النبى ﷺ راويا عن ربه تبارك وتعالى: « من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ، ومن تقرب منى

(١) سبق تخريجه ص ٢٤٩ .

(٢) ابن جرير فى التفسير ٢/ ٩٢ .

ذراعاً تقربت منه باعا »(١)، فهذا قربه من عابده ، وأما قربه من داعيه وسائله فكما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[ البقرة :١٨٦ ] وقوله :﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [ الأعراف: ٥٥ ] فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب. وأما قربه تبارك وتعالى من محبه فنوع آخر ،وبنوع آخر ، وشأن آخر ،كما قد ذكرناه فى كتاب التحفة المكية ، على أن العبارة تنبو عنه ،ولا تحصل فى القلب حقيقة معناه أبدا ، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب ، وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية أو يقع فى قلبك غير معناها ومرادها ، فتزل قدم بعد ثبوتها ، وقد ضعف تمييز خلائق فى هذا المقام ، وساء تعبيرهم فوقعوا فى أنواع من الطامات والشطح وقابلهم من غلط حجابهم فأنكر محب العبد لربه جملة وقربه منه وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوف فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء وهؤلاء فى كتاب التحفة أكثر من مائة طريق والمقصود ههنا الكلام على هذه الآية .

**وسابعها**: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال ، فإن اللسان لا يمل ، والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يكل لسانه ، وتضعف بعض قواه . وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعاً صوته ، فإنه لا يطول له ذلك ، بخلاف من يخفض صوته .

**وثامنها** : أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات ،فإن الداعى إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره ،وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والباطولية والخبيثة من الجن والإنس فشوشت عليه ولا بد ، وما نعته وعارضته ، ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفى ،ومن له تجربة يعرف هذا ، فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة.

**وتاسعها**: أن أعظم النعم الإقبال على الله والتعبد له،والانقطاع إليه، والتبتل إليه، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلت ، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة ، فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها ، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد ، وألا يقصد إظهارها له . وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ ﴾ [ يوسف ] ،وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار ، فأصبح يقلب كفيه ؛ ولهذا يوصى العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله وألا يطلعوا عليه أحدا ، ويتكتمون به غاية التكتم

---

(١) البخارى ( ٨٥٣٧ ) فى التوحيد ، باب: ذكر النبى ﷺ وروايته عن ربه ، ومسلم ( ٢٦٧٥ / ١ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : فضل الحث على ذكر الله تعالى ، والترمذى ( ٣٦٠٣ ) فى الدعوات ، باب : فى حسن الظن بالله عز وجل ، وابن ماجه ( ٣٨٢١ ) فى الأدب ، باب: فضل العمل ، وأحمد (٢/ ٢٥١) .

كما أنشد بعضهم فى ذلك :

من سارروه فأبدى السر مجتهدا ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وأبعدوه فلم يظفر بقربهم ... وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا
لا يأمنون مذيعا بعض سرهم ... حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

والقوم أعظم شىء كتمانا لأحوالهم مع الله ،ولا سيما للمبتدى والسالك ، فإذا تمكن أحدهم وقوى وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء فى قلبه بحيث لا يخشى عليه من العواصف ، فإنه إذا أبدى حاله شأنه مع اللّه ليقتدى به ويؤتم به لم يبال . وهذا باب عظيم النفع ، وإنما يعرفه أهله . وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على اللّه ، فهو من أعظم الكنوز التى هى أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين ،وهذه فائدة شريفة نافعة .

**وعاشرها** : أن الدعاء هو ذكر للمدعو ـ سبحانه ـ متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه ، فهو ذكر وزيادة ، كما أن الذكر سمى دعاء لتضمنه الطلب ، كما قال النبى ﷺ : « أفضل الدعاء الحمد للّه » (١) فسمى الحمد للّه دعاء وهو ثناء محض ؛ لأن الحمد يتضمن الحب والثناء ؛ والحب أعلا أنواع الطلب للمحبوب ، فالحامد طالب لمحبوبه فهو أحق أن يسمى داعيا من السائل الطالب من ربه حاجة ما، فتأمل هذا الموضع ولا تحتاج إلى ما قيل: إن الذاكر متعرض للنوال وإن لم يكن مصرحاً بالسؤال ، فهو داع بما تضمنه ثناؤه من التعرض ، كما قال أمية بن أبى الصلت :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوما ... كفاه من تعرضه الثناء

وعلى هذه الطريقة التى ذكرناها فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب وهو طلب المحب ،فهو دعاء حقيقة،بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذى هو دونه، والمقصود : أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه ،وقد قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [ الأعراف:٢٠٥ ] فأمر تعالى نبيه أن يذكره فى نفسه . قال مجاهد وابن جريج : أمر أن يذكروه فى الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت أو الصياح ،وقد تقدم حديث أبى موسى : كنا مع النبى ﷺ

---

(١) الترمذى ( ٣٣٨٣ ) فى الدعوات ، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة ، وقال : « غريب » ، وابن ماجه ( ٣٨٠٠ ) فى الأدب ، باب: فضل الحامدين .

في سفر فارتفعت أصواتنا بالتكبير فقال: « يا أيها الناس ، أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا قريبا أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »(١) .

وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وفي آية الدعاء : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[ الأعراف: ٥٥ ]، فذكر التضرع فيهما معاً وهو التذلل والتمسكن والانكسار وهو روح الذكر والدعاء، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها ،وخص الذكر بالخفية لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولابد، فمن أكثر من ذكر الله أثمر له ذلك محبته ،والمحبة ما لم تقرن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها ، بل قد تضره لأنها توجب الإدلال والانبساط ، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات وقالوا : المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب وإقباله على الله ومحبته له وتألهه له ، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل .

ولقد حدثني رجل أنه أنكر على رجل من هؤلاء خلوة له ترك فيها حضور الجمعة، فقال له الشيخ : أليس الفقهاء يقولون : إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط عنه؟ فقال له : بلى ، فقال له : فقلب المريد أعز عليه من ضياع عشرة دراهم أو كما قال: وهو إذا خرج ضاع قلبه فحفظُه لقلبه عذرٌ مسقط للجمعة في حقه فقال له : هذا غرور بل الواجب عليه الخروج إلى أمر الله ، وحفظ قلبه مع الله ، فالشيخ المربي العارف يأمر المريد بأن يخرج إلى الأمر ،ويراعي حفظ قلبه أو كما قال .

فتأمل هذا الغرور العظيم كيف آل بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام كانسلاخ الحية من قشرها ، وهو يظن أنه من خاصته الخاصة ،وسبب هذا عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته ؛ ولهذا قال بعض السلف : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ،ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء ، فهو مؤمن . وقد جمع تعالى هذه المقامات الثلاث بقوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [ الإسراء: ٥٧ ] فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه ،ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف ،فهذه طريقة عباده وأوليائه، وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات ،ويقول: المحب لا يضره ذنب .

(١) سبق تخريجه ص ٢٤٩ .

وصنف بعضهم فى ذلك مصنفا وذكر فيه أثرا مكذوبا: « إذا أحب اللّه العبد لم تضره الذنوب » ،وهذا كذب قطعا ،مناف للإسلام ، فالذنوب تضر بالذات لكل أحد كضرر السم للبدن لو قدر أن هذا الكلام صح عن بعض الشيوخ ، وأما عن رسول اللّه ﷺ فمعاذ اللّه من ذلك فله محمل وهو أنه إذا أحبه لم يدعه حبه إياه إلى أن يصر على ذنب؛ لأن الإصرار على الذنب مناف لكونه محبا للّه ،وإذا لم يصر على الذنب بل بادر إلى التوبة النصوح منه فإنه يمحى أثره ، ولا يضره الذنب،وكلما أذنب وتاب إلى اللّه زال عنه أثر الذنب وضرره ، فهذا المعنى صحيح .

والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع فى هذه المعاطب،فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما شرد ،فكأن الخوف سوط يضرب به مطيته لئلا تخرج عن الدرب ،والرجاء حاد يحدوها يطيب لها السير، والحب قائدها وزمامها الذى يسوقها ، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصا يردها إذا حادت عن الطريق ،وتركت تركب التعاسيف، خرجت عن الطريق وضلت عنه .فما حفظت حدود اللّه ومحارمه ،ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته ،فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة فسد فسادا لا يرجى صلاحه أبدا، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه ، فتأمل أسرار القرآن وحكمته فى اقتران الخيفة بالذكر والخفية بالدعاء ، مع دلالته على اقتران الخيفة بالدعاء والخيفة بالذكر أيضا ، فإنه قال: ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ** ﴾[ الأعراف:٢٠٥ ] فلم يحتج بعدها أن يقول: خفية، وقال فى الدعاء: ﴿ **وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا** ﴾ [ الأعراف: ٥٦ ] فلم يحتج أن يقول فى الأول: ادعوا ربكم تضرعاً وخفية فانتظمت كل واحدة من الآيتين للخيفة والخفية والتضرع أحسن انتظام، ودلت على ذلك أكمل دلالة ، وذكر الطمع الذى هو الرجاء فى آية الدعاء؛ لأن الدعاء مبنى عليه ،فإن الداعى ما لم يطمع فى سؤله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه ، إذ طلب مالا طمع فيه ممتنع ، وذكر الخوف فى آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه ،فذكر فى كل آية ما هو اللائق بها والأولى بها من الخوف والطمع فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين (١).

---

(١) بدائع الفوائد ( ٣/٦ ـ ١٢ ) .

## فصل
## فى الإلحاح فى الدعاء

ومن أنفع الأدوية : الإلحاح فى الدعاء .

وقد روى ابن ماجه فى سننه من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :«من لم يسأل الله يغضب عليه» (١).

وفى صحيح الحاكم من حديث أنس عن النبى ﷺ :« لا تعجزوا فى الدعاء، فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد » (٢).

وذكر الأوزاعى عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «إن الله يحب الملحين فى الدعاء » (٣).

وفى « كتاب الزهد » للإمام أحمد عن قتادة قال: قال مُورِّق: ما وجدت للمؤمن مثلا إلا رجلا فى البحر على خشبة، فهو يدعو: يا رب يا رب ،لعل الله عز وجل أن ينجيه(٤).

## فصل
## فى أنه « لا حول ولا قوة إلا بالله »

ليس فى الوجود الممكن سبب واحد مستقل بالتأثير ، بل لا يؤثر سبب البتة إلا بانضمام سبب آخر إليه وانتفاء مانع يمنع تأثيره . هذا فى الأسباب المشهودة بالعيان ، وفى الأسباب الغائبة والأسباب المعنوية كتأثير الشمس فى الحيوان والنبات فإنه موقوف على أسباب أخر ،من وجود محل قابل ، وأسباب أخر تنضم إلى ذلك السبب .وكذلك حصول الولد موقوف على عدة أسباب غير وطء الفحل ، وكذلك جميع الأسباب مع مسبباتها ، فكل ما يخاف ويرجى من المخلوقات فأعلى غاياته أن يكون جزء سبب غير مستقل بالتأثير، ولا يستقل بالتأثير وحده دون تأثيره على غيره إلا الله الواحد القهار ، فلا ينبغى أن يرجى ولا يخاف غيره .وهذا برهان قطعى على أن تعلق الرجاء والخوف بغيره باطل؛ فإنه لو

---

(١) سبق تخريجه ص٢٥٤ .

(٢) الحاكم فى المستدرك ( ١ / ٤٩٤ ) فى الدعاء ، باب: لا يهلك مع الدعاء أحد، وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، وقال الذهبى « لا أعرف عمراً تعبت عليه » . .

(٣) الضعفاء الكبير ( ٤/٤٥٢ ) ، الكامل فى ضعفاء الرجال ( ٧/ ١٦٤ ) ، وقال الألبانى « باطل » .

(٤) الزهد للإمام أحمد ،الوابل الصيب ( ٢٥ ، ٢٦ ).

فرض أن ذلك سبب مستقل وحده بالتأثير لكانت سببيته من غيره لا منه ، فليس له من نفسه قوة يفعل بها ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله ،فهو الذى بيده الحول كله والقوة كلها،فالحول والقوة التى يرجى لأجلهما المخلوق ويخاف إنما هما لله وبيده فى الحقيقة. فكيف يخاف ويرجى من لا حول له ولا قوة،بل خوف المخلوق ورجاؤه أحد أسباب الحرمان ونزول المكروه ممن يرجوه ويخافه ؛فإنه على قدر خوفك من غير الله يسلط عليك، وعلى قدر رجائك لغيره يكون الحرمان.وهذا حال الخلق أجمعه وإن ذهب عن أكثرهم علما وحالا ، فما شاء الله كان ولا بد وما لم يشأ لم يكن ولو اتفقت عليه الخليقة (١).

## فصل
## فى تأثير « لا إله إلا الله » عند الموت

لشهادة « أن لا إله إلا الله » عند الموت تأثير عظيم فى تكفير السيئات وإحباطها ؛ لأنها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها ، قد ماتت منه الشهوات ولانت نفسه المترددة ، وانقادت بعد إبائها واستعصائها ، وأقبلت بعد إعراضها وذلت بعد عزها ، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها ، واستخزت بين يدى ربها وفاطرها ومولاها الحق أذل ما كانت وأرجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته . وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه ، فزالت منها تلك المنازعات التى كانت مشغولة بها ، واجتمع همها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجه العبد وجهه بكليته إليه ،وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه ، فاستسلم وحده ظاهرا وباطنا ،واستوى سره وعلانيته فقال: لا إله إلا الله ، مخلصا من قلبه . وقد تخلص قلبه من التعليق بغيره والالتفات إلى ما سواه . قد خرجت الدنيا كلها من قلبه وشارف القدوم على ربه ، وخمدت نيران شهوته ، وامتلأ قلبه من الآخرة فصارت نصب عينيه ،وصارت الدنيا وراء ظهره ،فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله، فطهرته من ذنوبه،وأدخلته على ربه؛ لأنه لقى ربه بشهادة صادقة :خالصة، وافق ظاهرها باطنها ، وسرها علانيتها ، فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه فى أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها ،وفر إلى الله من الناس ،وأنس به دون ما سواه ، لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحب الحياة وأسبابها ،ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله .فلو تجردت كتجردها. عند الموت،لكان لها نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمى ، والله المستعان .

(١) الفوائد ( ٧١ ، ٧٢ ) .

ماذا يملك من أمره من ناصيته بيد اللّه ونفسه بيده ، وقلبه بين أصبعين من أصابعه يقلبه كيف يشاء ، وحياته بيده وموته بيده ، وسعادته بيده ، وشقاوته بيده ، وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله بإذنه ومشيئته . فلا يتحرك إلا بإذنه ، ولا يفعل إلا بمشيئته إن وكله إلى نفسه وكله إلى عجز وضيعة وتفريط وذنب وخطيئة و إن وكله إلى غيره وكله إلى من لا يملك له ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وإن تخلى عنه استولى عليه عدوه وجعله أسيرا له ، فهو لا غنى له عنه طرفة عين ، بل هو مضطر إليه على مدى الأنفاس فى كل ذرة من ذراته باطنا وظاهرا ، فاقته تامة إليه ، ومع ذلك فهو متخلف عنه معرض عنه ، يتبغض إليه بمعصيته ،مع شدة الضرورة إليه من كل وجه ، قد صار لذكره نسيا واتخذه وراءه ظهريا ،هذا وإليه مرجعه وبين يديه موقفه(١) .

# فصل
## فى سيد الاستغفار

فى الحديث الصحيح حديث : « سيد الاستغفار ،أن يقول العبد : اللهم إنك ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استعطت، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبى ، فاغفر لى، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات من يومه دخل الجنة ،ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة » (٢).

وفى حديث أبى بكر الصديق من طريق أبى هريرة وعبد اللّه بن عمر :أن رسول اللّه ﷺ علمه ما يقوله إذا أصبح ،وإذا أمسى،وإذا أخذ مضجعه:« اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسى سوءًا أو أجره إلى مسلم. قله إذا أصبحت ،وإذا أمسيت ،وإذا أخذت مضجعك » (٣).

وكان النبى ﷺ يقول فى خطبته:« الحمد للّه ، نستعينه ونستغفره ،ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا »(٤) .

---

(١) الفوائد ( ٧٦ ـ ٧٧ )
(٢) البخارى (٦٣٠٦) فى الدعوات ، باب : أفضل الاستغفار ، والترمذى (٣٣٩٣) فى الدعوات ، باب (١٥) .
(٣) الترمذى (٣٥٢٩) فى الدعوات ، باب (٩٥) ، وقال : « حسن غريب من هذا الوجه » ،وأحمد ١/ ١٤ .
(٤) الهيثمى فى المجمع (٢ / ١٩١) وقال : « رواه الطبرانى فى الكبير ، ورجاله ثقات » .

وقد قال النبى ﷺ : « إنى آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تهافتون تهافت الفراش »(١) ، شبههم بالفراش لجهله وخفة حركته ،وهى صغيرة النفس ؛ فإنها جاهلة سريعة الحركة .

وفى الحديث : « مثل القلب مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة »(٢)وفى حديث آخر: «للقلب أشد تقلبا من القدر إذا استجمعت غلياناً »(٣).ومعلوم سرعة حركة الريشة وسرعة حركة القدر مع الجهل،ولهذا يقال لمن أطاع من يغويه : إنه استخفه . قال عن فرعون : « إنه استخف قومه فأطاعوه » (٤) ، وقال تعالى: ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠)** ﴾ [الروم] فإن الخفيف لا يثبت بل يطيش ،وصاحب اليقين ثابت ، يقال : أيقن إذا كان مستقراً ، واليقين : استقرار الإيمان فى القلب علماً وعملاً، فقد يكون علم العبد جيداً لكن نفسه لا تصبر عند المصائب بل تطيش .

قال الحسن البصرى : إذا شئت أن ترى بصيراً لا صبر له رأيته ، وإذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيته ، فإذا رأيت بصيراً صابرا فذاك ، قال تعالى :﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)** ﴾ [ السجدة ] .

ولهذا تشبه النفس بالنار فى سرعة حركتها وإفسادها وغضبها ، وشهوتها من النار والشيطان من النار .

فى السنن عن النبى ﷺ أنه قال : « الغضب من الشيطان والشيطان من النار ،وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » (٥). وفى الحديث الآخر : « الغضب جمرة توقد فى جوف ابن آدم » (٦)، ألا ترى إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ، وهو غليان دم القلب لطلب الانتقام . وفى الحديث المتفق على صحته : « الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » (٧).

وفى الصحيحين : أن رجلين استبا عند النبى ﷺ وقد اشتد غضب أحدهما ، فقال النبى ﷺ : « إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » (٨) ، وقد قال تعالى : ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ**

---

(١) البخارى (٦٤٨٣) فى الرقاق ، باب : الانتهاء عن المعاصى ، ومسلم (٢٢٨٥ / ١٩) فى الفضائل ، باب : شفقته ﷺ على أمته ، ومبالغته فى تحذيرهم مما يضرهم .

(٢) الهيثمى فى المجمع (٢/ ٢٩٦) ، وقال : « رواه البزار وفيه أحمد بن عبد الجبار العطاردى ، وثقه الدارقطنى وغيره ، وقال ابن عدى ، رأيت أهل العراق مجمعين على ضعفه » .

(٣) أحمد ٦/ ٤ ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٤) : « رواه الطبرانى بأسانيد ورجال أحدها ثقات » .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ** ﴾ [ الزخرف : ٥٤ ]

(٥) أحمد ٤ / ٢٢٦ .

(٦) الترمذى (٢١٩١) فى الفتن ، باب (٢٦) وقال : « حسن صحيح » ، وأحمد ٣ / ١٩ .

(٧) البخارى (٧١٧١) فى الأحكام ، باب : الشهادة تكون عند الحاكم فى ولاية القضاء أو قبل ذلك الخصم .

(٨) انظر : مشكاة المصابيح (٢٤١٨) .

عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾ [فصلت] .

وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) ﴾ [ الأعراف ] .

وقال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾ [ المؤمنون ] .

## فصل
## فى الاعتداء فى الدعاء

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)﴾ [ الأعراف ] قيل : المراد :أنه لا يحب المعتدين فى الدعاء ؛ كالذى يسأل ما لا يليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك ، وقد روى أبو داود فى سننه من حديث حماد بن سلمة عن سعيد الجريرى عن أبى نعامة : أن عبد اللّه ابن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها . فقال: يا بنى سل اللّه الجنة ، وتعوذ به من النار ، فإنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إنه سيكون فى هذه الأمة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء»[1] .

وعلى هذا فالاعتداء فى الدعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات ، وتارة بأن يسأل مالا يفعله اللّه ، مثل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب ، أو يسأله أن يطلعه على غيبه ، أو يسأله أن يجعله من المعصومين ،أو يسأله أن يهب له ولدا من غير زوج ولا أمة ، ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء .

فكل سؤال يناقض حكمة اللّه ، أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره ، أو يتضمن خلاف ما أخبر به فهو اعتداء لا يحبه اللّه ولا يحب سائله وفسر الاعتداء برفع الصوت أيضا فى

(١) البيهقى فى الكبرى ( ١ / ١٩٧ ) فى الطهارة .

الدعاء ، قال ابن جريج: من الاعتداء رفع الصوت فى الدعاء ،والنداء فى الدعاء والصياح.

وبعد فالآية أعم من ذلك كله ، وإن كان الاعتداء فى الدعاء مرادًا بها، فهو من جملة المراد ، والله لا يحب المعتدين فى كل شيء ، دعاء أو غيره ، كما قال: ﴿ **وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)** ﴾ .

وعلى هذا فيكون قد أمر بدعائه وعبادته ،وأخبر أنه لا يحب أهل العدوان وهم يدعون معه غيره، فهؤلاء أعظم المعتدين عدوانا ،فإن أعظم العدوان الشرك ، وهو وضع العبادة فى غير موضعها ، فهذا العدوان لا بد أن يكون داخلا فى قوله : ﴿ **إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)** ﴾ .

ومن العدوان : أن يدعوه غير متضرع ، بل دعاء مدل كالمستغنى بما عنده المدل على ربه به، وهذا من أعظم الاعتداء المنافى لدعاء الضارع الذليل الفقير المسكين من كل جهة فى مجموع حالاته ، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد ومن الاعتداء: أن تعبده بما لم يشرعه وتثنى عليه بما لم يثن به على نفسه ولا أذن فيه ، فإن هذا اعتداء فى دعاء الثناء والعبادة ،وهو نظير الاعتداء فى دعاء المسألة والطلب ، وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين :

**أحدهما** : محبوب للرب تبارك وتعالى مرضى له ، وهو الدعاء تضرعا وخفية .

**والثانى** : مكروه له مبغوض مسخوط ، وهو الاعتداء ، فأمر بما يحبه الله وندب إليه ، وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير ، وهو أنه لا يحب فاعله ، ومن لم يحبه الله فأى خير يناله .

وفى قوله : ﴿ **إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)** ﴾ عقب قوله : ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً** ﴾ دليل على أن من لم يدعه تضرعا وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم ، فقسمت الآية الناس إلى قسمين داع لله تضرعاً وخفية ، ومعتد بترك ذلك(١).

---

(١) بدائع الفوائد ( ٣/ ١٢ ـ ١٤ ) .

## فائدة
## فى الاستعاذة

**قوله** :« اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ،والعجز والكسل ،والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال »[١] : استعاذ من ثمانية أشياء ، كل اثنين منها قرينان، فالهم والحزن قرينان ،وهما من آلام الروح ومعذباتها ، والفرق بينهما : أن الهم توقع الشر فى المستقبل ، والحزن التألم على حصول المكروه فى الماضى أو فوات المحبوب ، وكلاهما تألم عذاب يرد على الروح ، فإن تعلق بالماضى سمى حزنا ،وإن تعلق بالمستقبل سمى هما .

والعجز والكسل قرينان ،وهما من أسباب الألم ،لأنهما يستلزمان فوات المحبوب ، فالعجز يستلزم عدم القدرة ،والكسل يستلزم عدم إرادته ، فتتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به والتذاذها بإدراكه لو حصل .

والجبن والبخل قرينان ؛ لأنهما عدم النفع بالمال والبدن وهما من أسباب الألم ؛ لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة ، لا تنال إلا بالبذل والشجاعة ، والبخل يحول بينه دونها أيضا ، فهذان الخلقان من أعظم أسباب الآلام .

وضلع الدين وقهر الرجال قرينان وهما مؤلمان للنفس معذبان لها ،أحدهما قهر بحق وهو ضلع الدين ، والثانى قهر بباطل وهو غلبة الرجال ، وأيضا فضلع الدين قهر بسبب من العبد فى الغالب وغلبة الرجال قهر بغير اختياره .

ومن ذلك تعوذه ﷺ « من المأثم والمغرم »[٢] فإنهما يسببان الألم العاجل ،ومن ذلك قوله: « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك » [٣]،والسخط سبب الألم، والعقوبة هى الألم ، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها [٤].

---

(١) البخارى ( ٢٨٩٣ ) فى الجهاد ، باب : من غزا بصبى للخدمة .
(٢) البخارى ( ٨٣٢ ) فى الأذان ، باب : الدعاء قبل السلام .
(٣) مسلم ( ٤٨٦ / ٢٢٢ ) فى الصلاة ، باب : ما يقال فى الركوع والسجود .
(٤) بدائع الفوائد ( ٢ / ٢٠٧ ) .

## فصل
## فى معنى دعاء النبى ﷺ : « اللهم طهرنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد »

سألت شيخ الإسلام عن معنى دعاء النبى ﷺ :« اللهم طهرنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد » ، كيف يطهر الخطايا بذلك ؟ وما فائدة التخصيص بذلك وقوله فى لفظ آخر : « والماء البارد » والحار أبلغ فى الإنقاء ؟

فقال: الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفاً ، فيرتخى القلب وتضطرم فيه نار الشهوة وتنجسه ،فإن الخطايا والذنوب له بمنزل الحطب الذى يمد النار ويوقدها ؛ ولهذا كلما كثرت الخطايا اشتدت نار القلب وضعفه،والماء يغسل الخبث ويطفئ النار ، فإن كان بارداً أورث الجسم صلابة وقوة ، فإن كان معه ثلج وبرد كان أقوى فى التبريد وصلابة الجسم وشدته ، فكان أذهب لأثر الخطايا . هذا معنى كلامه ،وهو محتاج إلى مزيد بيان وشرح .

فاعلم أن هاهنا أربعة أمور : أمران حسيان وأمران معنويان ، فالنجاسة التى تزول بالماء هى ومزيلها حسيان،وأثر الخطايا التى تزول بالتوبة والاستغفار هى ومزيلها معنويان ، وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم إلا بهذا وهذا ، فذكر النبى صلى اللّه عليه وآله وسلم من كل شطر قسما نبه به على القسم الآخر ، فتضمن كلامه الأقسام الأربعة فى غاية الاختصار وحسن البيان كما فى حديث الدعاء بعد الوضوء « اللهم اجعلنى من التوابين ، واجعلنى من المتطهرين » فإنه يتضمن ذكر الأسماء الأربعة .

ومن كمال بيانه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم وتحقيقه لما يخبر به ويأمر به : تمثيله الأمر المطلوب المعنوى بالأمر المحسوس ،وهذا كثير فى كلامه ،كقوله فى حديث على بن أبى طالب : « سل اللّه الهدى والسداد ، واذكر بالهدى هدايتك الطريق، وبالسداد سداد السهم » إذ هذا من أبلغ التعليم والنصح ، حيث أمره أن يذكر إذا سأل اللّه الهدى إلى طريق رضاه وجنته : كونه مسافرا وقد ضل عن الطريق ولا يدرى أين يتوجه فطلع له رجل خبير بالطريق عالم بها ، فسأله أن يدله على الطريق ، فهكذا شأن طريق الآخرة تمثيلا لها بالطريق المحسوس للمسافر وحاجة المسافر إلى اللّه سبحانه :إلى أن يهديه تلك الطريق أعظم من حاجة المسافر إلى بلد إلى من يدله على الطريق الموصل إليها .

وكذلك السداد ـ وهو إصابة القصد قولاً وعملاً ـ فمثله مثل رامى السهم إذا وقع سهمه فى نفس الشىء الذى رماه فقد سدد سهمه وأصاب ولم يقع باطلا، فهكذا المصيب للحق فى قوله وعمله بمنزلة المصيب فى رميه . وكثيرا ما يقرن فى القرآن هذا وهذا ، فمنه قوله تعالى ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [ البقرة :١٩٧] أمر الحاج بأن يتزودوا لسفرهم ولا يسافروا بغير زاد ،ثم نبههم على أن زاد سفر الآخرة هو التقوى ، فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يبلغه إياه ، فكذلك المسافر إلى الله تعالى والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى ، فجمع بين الزادين .

ومنه قوله تعالى﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [ الأعراف : ٢٦ ]جمع بين الزينتين : زينة البدن باللباس وزينة القلب بالتقوى ، زينة الظاهر والباطن وكمال الظاهر والباطن .

ومنه قوله تعالى﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه ] فنفى عنه الضلال الذى هو عذاب القلب والروح الشقاء الذى هو عذاب البدن والروح أيضا ، فهو منعم القلب والبدن بالهدى والفلاح .

ومنه قول امرأة العزيز عن يوسف عليه السلام لما أرته النسوة اللائمات لها فى حبه : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ [ يوسف :٣١ ] فأرتهن جماله الظاهر، ثم قالت : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ [ يوسف : ٣١ ] فأخبرت عن جماله الباطن بعفته فأخبرتهن بجمال باطنه وأرتهن جمال ظاهره .

فنبه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: اللهم طهرنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد» على شدة حاجة البدن والقلب إلى ما يطهرهما ويبردهما ويقويهما، وتضمن دعاؤه سؤال هذا وهذا ، والله تعالى أعلم .

وقريب من هذا :أنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان إذا خرج من الخلاء قال : « غفرانك » (١)،وفى هذا من السر ـ والله أعلم ـ:أن النجو يثقل البدن ويؤذيه باحتباسه ، والذنوب تثقل القلب وتؤذيه باحتباسها فيه ،فهما مؤذيان مضران بالبدن والقلب، فحمد

(١) أبو داود ( ٣٠ ) فى الطهارة ، باب : ما يقول الرجل إذا خرج من الخلاء ، والترمذى (٧) فى الطهارة ،باب : ما يقول إذا خرج من الخلاء ، وقال : « حسن غريب » ، وصححه الألبانى .

الله عند خروجه على خلاصه من هذا المؤذى لبدنه ، وخفة البدن وراحته ، وسأل أن يخلصه من المؤذى الآخر ، ويريح قلبه منه ويخففه ، وأسرار كلماته وأدعيته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فوق ما يخطر بالبال(١) .

# فصل

## فى علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه

إن سائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانب النفس ، فالمواد الفاسدة كلها إليها تنصب ثم تنبعث منها إلى الأعضاء ، وأول ما تنال القلب .وقد كان رسول الله ﷺ يقول فى خطبة الحاجة :« الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » (٢).

وفى المسند والترمذى من حديث حصين بن عبيد ورد أن رسول الله ﷺ قال له :« يا حصين ، كم تعبد ؟» قال :سبعة ، ستة فى الأرض وواحد فى السماء. قال: «فمن الذى تُعِد لرغبتك ورهبتك ؟ » ، قال : الذى فى السماء ، قال : أسلم حتى أعلمك كلمات ينفَعك الله بها » فأسلم . فقال :« قل :اللهم ألهمنى رشدى ، وقنى شر نفسى » (٣) .

وقد استعاذ ﷺ من شرها عموماً ومن شر ما يتولد منها من الأعمال ، ومن شر ما يترتب على ذلك من المكاره والعقوبات ،وجمع بين الاستعاذة من شر النفس ومن سيئات الأعمال . وفيه وجهان:

**أحدهما** :أنه من باب إضافة النوع إلى جنسه ، أى أعوذ بك من هذا النوع من الأعمال .

**والثانى** : أن المراد به عقوبات الأعمال التى تسوء صاحبها .

**فعلى الأول** : يكون قد استعاذ من صفة النفس وعملها، وعلى الثانى : يكون قد استعاذ سن العقوبات وأسبابها (٤).

---

(١) إغاثة اللهفان ( ١ / ٥٧ ـ ٥٩ ) .

(٢) أبو داود ( ٢١١٨ ) فى النكاح ، باب : فى خطبة النكاح .

(٣) الترمذى ( ٣٤٨٣ ) وقال : « غريب » ، وضعفه الألبانى .

(٤) إغاثة اللهفان ( ١ / ٧٤، ٧٥ ) .

# فصل
# فى الدعاء والقدر

هاهنا سؤال مشهور ، وهو :

أن المدعوّ به إن كان قد قدر لم يكن بد من وقوعه ، دعا به العبد أو لم يدْعُ ، وإن لم يكن قد قُدر لم يقع، سواء سأله العبد أو لم يسأله.

فظنت طائفة صحة هذا السؤال ، فتركت الدعاء وقالت : لا فائدة فيه. وهؤلاء ـ مع فرط جهلهم وضلالهم ـ متناقضون ، فإن طرد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب ، فيقال لأحدهم :

إن كان الشبع والرى قد قُدِّرا لك فلابد من وقوعهما ، أكلت أو لم تأكل ، وإن لم يقدرا لم يقعا ، أكلت أو لم تأكل .

وإن كان الولد فد قدر لك فلا بد منه، وطئت الزوجة أو الأمة أو لم تطأ، وإن لم يقدر ذلك لم يكن ؛ فلا حاجة إلى التزوج والتسرى . وهلم جرا .

فهل يقول هذا عاقل أو آدمى ؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التى بها قوامه وحياته ، فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً .

وتكايس[1] بعضهم وقال: الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يثيب اللّه عليه الداعى، من غير أن يكون له تأثير فى المطلوب بوجه ما ، ولا فرق عند هذا المتكيس بين الدعاء وبين الإمساك عنه بالقلب واللسان فى التأثير فى حصول المطلوب . وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ، ولا فرق .

وقالت طائفة أخرى أكيس من هؤلاء : بل الدعاء علامة مجردة نصبها اللّه ـ سبحانه ـ أمارة على قضاء الحاجة ، فمتى وفق اللّه العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمارة على أن حاجته قد قضيت ، وهذا كما إذا رأينا غيما أسود بارداً فى زمن الشتاء ، فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر .

**قالوا** : وهكذا حكم الطاعات مع الثواب،والكفر والمعاصى مع العقاب ، هى أمارات

---

(١) أى تظرَّف .

محضة لوقوع الثواب والعقاب ،لا أنها أسباب له .

وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار ، و الحرق مع الإحراق، والإزهاق مع القتل، ليس شيء من ذلك سبباً البتة،ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه ، إلا مجرد الاقتران العادى ، لا التأثير السببى ،وخالفوا بذلك الحس والعقل ،والشرع والفطرة ،وسائر طوائف العقلاء، بل أضحكوا عليهم العقلاء .

**والصواب** : أن هاهنا قسما ثالثا،غير ما ذكره السائل،وهو أن هذا المقدّر قدر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء. فلم يقدر مجرداً عن سببه ،ولكن قدّر بسببه ، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ،ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور ،وهذا كما قدر الشبع والرى بالأكل والشرب،وقدر الولد بالوطء،وقدر حصول الزرع بالبذر، وقدر خروج نفس الحيوان بالذبح،وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال ،ودخول النار بالأعمال ،وهذا القسم هو الحق، وهذا الذى حرمه السائل ولم يوفق له (١) .

# فصل

## فى آفات الدعاء

من الآفات التى تمنع ترتب أثر الدعاء عليه : أن يستعجل العبد ، ويستبطئ الإجابة ، فيستحسر ويدعُ الدعاء ، وهو بمنزلة من بذر بذرا أو غرس غرسا ، فجعل يتعهده ويسقيه ، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله .

وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « يُستجابُ لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوتُ فلم يُستجب لى » (٢).

وفى صحيح مسلم عنه : « لا يزالُ يستجابُ للعبد ،ما لم يدْع بإثم أو قطيعة رحم،ما لم يستعجل » قيل : يا رسول الله ، وما الاستعجال ؟ قال: « يقول: دعوت وقد دعوت ، فلم يستجاب لى ، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء » (٣) .

وفى مسند من حديث أنس قال: قالرسول ﷺ: « لايزال العبد بخير يستعجل: قالوا : يا رسول الله ، كيف يستعجل؟ قال : يقول: قد دعوت ربى فلم يستجب لى » (٤) (٥) .

---

(١) الداء والداء ( ٣٥ ـ ٣٧ ) .

(٢) البخارى ( ٦٣٤٠ ) فى الدعوات ، باب: يستجاب للعبد ما لم يعجل .

(٣) مسلم ( ٢٧٣٥ / ٩٢ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: بيان أنه يستجاب للداعى ما لم يعجل فيقول: دعوت فلم يستجب لى

(٤) أحمد ١٩٣/٣ ، ٢١٠ .

(٥) الداء والدواء ( ٢٦ ، ٢٧ ) .

## وأيضا

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [ الطلاق ]: لما ذكر كفايته للمتوكل عليه فربما أوهم ذلك تعجل الكفاية وقت التوكل فعقبه بقوله : ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾. أى وقتا لا يتعداه فهو يسوقه إلى وقته الذى قدره له. فلا يستعجل المتوكل ويقول: قد توكلت ودعوت فلم أر شيئاً ولم تحصل لى الكفاية ، فاللّه بالغ أمره فى وقته الذى قدر له (١).

## فصل
## فى فساد ذكر اللّه بالاسم المفرد

قوله تعالى :﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ [ الأنعام:٩١ ] : رتب على ذلك بعضهم(٢) أن الذكر بالاسم المفرد وهو « اللّه، اللّه » أفضل من الذكر بالجملة المركبة كقوله: « سبحان اللّه ،والحمد للّه، ولا إله إلا اللّه، والله أكبر » وهذا فاسد مبنى على فاسد. فإن الذكر بالاسم المفرد غيرمشروع أصلا ، ولا مفيد شيئا ، ولا هو كلام أصلا ،ولا يدل على مدح ولا تعظيم ، ولا يتعلق به إيمان ،ولا ثواب ، ولا يدخل به الذاكر فى عقد الإسلام جملة ، فلو قال الكافر : « اللّه ، اللّه » من أول عمره إلى آخره لم يصر بذلك مسلما ،فضلا عن أن يكون من جملة الذكر ، أو يكون أفضل الأذكار ، وبالغ بعضهم فى ذلك حتى قال: الذكر بالاسم المضمر أفضل من الذكر بالاسم الظاهر! فالذكر بقوله : « هو ، هو » أفضل من الذكر بقولهم : « الله ، اللّه » ، كل هذا من أنواع الهوس والخيالات الباطلة المفضية بأهلها إلى أنواع من الضلالات ، فهذا فساد هذا البناء الهائر ، وأما فساد المبنى عليه فإنهم ظنوا أن قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ [ الأنعام : ٩١ ] أى قل:هذا الاسم ، فقل : الله الله ، وهذ من عدم فهم القوم لكتاب الله ، فإن اسم الله هذا جواب لقوله : ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [ الأنعام:٩١ ] إلى أن قال: « الله » أى وقال اللّه أنزله . فإن السؤال معاد فى الجواب فيتضمنه فيحذف اختصارا كما يقول : من خلق السموات والأرض؟ فيقال: الله . أى اللّه خلقها ، فيحذف الفعل لدلالة السؤال عليه . فهذا معنى الآية الذى لا تحتمل غيره (٣).

---

(١) إعلام الموقعين ( ٤ / ٢٠٧ ، ٢٠٨ ) .
(٢) من المتصوفة .
(٣) طريق الهجرتين ( ٣٣٨ ، ٣٣٩ ) .

## باب
## فى هديه ﷺ فى الذكر

كان النبى ﷺ أكمل الخلق ذكرا لله عز وجل ، بل كان كلامه كلّه فى ذكر الله وما والاه ، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرا منه للّه، وإخباره عن أسماء الربّ وصفاته ، أحكامه، وأفعاله ، ووعده ووعيده ، ذكراً منه له ، وثناؤه عليه بآلائه ،وتمجيده وحمده وتسبيحه ذكراً منه له ، وسؤاله دعاؤه إياه ، ورغبته ورهبته ذكرا منه له ، وسكوته وصمته ذكرا منه له بقلبه ، فكان ذاكراً للّه فى كل أحيانه، وعلى جميع أحواله ،وكان ذكره للّه يجرى مع أنفاسه ، قائما وقاعدا وعلى جنبه ، وفى مشيه وركوبه ،ومسيره ، ونزوله وظعنه وإقامته [1] .

## فصل
## فى ذكر طرفى النهار وهما بين الصبح وطلوع الشمس ، وما بين العصر والغروب

قال سبحانه وتعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢)** ﴾ [ الأحزاب ] والأصيل:قال الجوهرى :هو الوقت بعد العصر إلى المغرب وجمعه : أصل وآصال وأصائل ، كأنه جمع أصيلة .

**قال الشاعر :**

لعمـرى لأنت البيت أكـرم أهـله ... وأقْعُـدُ فى أفْيـائـه بالأصَـائـل

ويجمع أيضاً على أصلان ، مثل بعير وبُعْران ،ثم صغّروا الجمع فقالوا : أُصيْلان، ثم أبدلوا من النون لاماً ، فقالوا : أُصَيْلال .

**قال الشاعر :**

وقفـتُ فيـها أصيْلالا أُسـائلُها ... أعيتْ جـوابـا مـا بالربْـع من أحـدِ

(١) زاد المعاد ( ٢ / ٣٦٥ ) .

وقال تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٥٥) ﴾ [ غافر ]، فالإبكار: أول النهار، والعشى: آخره، وقال تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) ﴾[ ق ]، وهذا تفسير ما جاء فى الأحاديث: من قال كذا وكذا حين يصبح وحين يمسى، أن المراد به: قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وأن محل هذه الأذكار بعد الصبح وبعد العصر.

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: « من قال حين يصبح وحين يمسى: سبحان الله وبحمده مائة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به، إلا أحد قال مثل ما قال، أو زاد عليه » (١).

وفى صحيحه أيضا عن ابن مسعود قال: كان نبى الله ﷺ إذا أمسى قال: « أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، رب أسألك خير ما فى هذه الليلة، وخير ما بعدها وأعوذ بك من شرِّ ما فى هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب وأعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر » وإذا أصبح قال ذلك أيضا: « أصبحنا وأصبح الملك لله » (٢).

وفى « السنن » عن عبد الله بن خُبيب قال: قال رسول الله ﷺ: « قل » قلت: يا رسول الله، ما أقول؟ قال: « قُلْ: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ والمعوذتين، وحين تُمسى، وحين تُصبح ثلاث مرات تكفيك من كلِّ شىء ». قال الترمذى: حديث حسن صحيح (٣).

وفى الترمذى أيضا عن أبى هريرة، أن النبى ﷺ كان يعلم أصحابه يقول: « إذا أصبح أحدكم فليقل: اللهم بك أصبحنا، وبك أمسينا، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك النشور، وإذا أمسى فليقل: اللهم بك أمسينا، وبك أصبحنا، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك المصير »، قال الترمذى: حديث حسن صحيح (٤).

وفى صحيح البخارى عن شداد بن أوس، عن النبى ﷺ قال: « سيدُ الاستغفار: اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على، وأبوء بذنبى، فاغفر لى، فإنه لا

---

(١) مسلم ( ٢٦٩٢/ ٢٩ ) فى الذكر والدعاء، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء.
(٢) مسلم ( ٢٧٢٣ / ٧٥ ) فى الذكر والدعاء، باب: التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل.
(٣) أبو داود ( ٥٠٨٢ ) فى الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح، والترمذى ( ٣٥٧٥ ) فى الدعوات، باب (١١٧)، وقال: « حسن صحيح غريب »، والنسائى ( ٥٤٢٨ ) فى الاستعاذة.
(٤) الترمذى ( ٣٣٩١ ) فى الدعوات، باب: ما جاء فى الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى، وقال: « حسن ».

يغفر الذنوب إلا أنت ،من قالها حين يُمسى ، فمات من ليلته دخل الجنة، ومن قالها حين يُصبح ، فمات من يومه دخل الجنة » (١).

وفى الترمذى عن أبى هريرة :أن أبا بكر الصديق قال لرسول الله ﷺ: مرنى بشىء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت. قال: « قُل : اللهم عالمُ الغيب والشهادة ، فاطر السموات والأرض ،رب كلُ شىء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه ،وأن نقترف سوءا على أنفسنا أو نجرّه إلى مسلم (٢). قله إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ،وإذا أخذت مضجعك ».قال الترمذى : حديث حسن صحيح(٣) .

وفى الترمذى أيضا عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ :« ما من عبد يقول فى صباح كل يوم ومساء كل ليلة : بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهوالسميع العليم ـ ثلاث مرات ـ فيضره شىء ». وقال الترمذى: حديث حسن صحيح (٤).

وفيه أيضاً عن ثوبان وغيره ، أن رسول الله ﷺ قال:« من قال حين يُمسى وإذا أصبح : رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ، كان حقا على الله أن يرضيه ». وقال :حديث حسن صحيح (٥).

وفى الترمذى أيضا :عن أنس ،أن رسول الله ﷺ قال:« من قال حين يصبح أو يمسى:اللهم إنى أصبحت أشهدك ؛وأشهد حملة عرشك ،وملائكتك ،وجميع خلقك؛ أنك أنت الله لا إله إلا أنت ،وأن محمدا عبدك ورسولك ،أعتق الله رُبعه من النار، ومن قالها مرتين ،أعتق الله نصفه من النار ،ومن قالها ثلاثا ، أعتق الله ثلاث أرباعه من النار ، ومن قالها أربعا ، أعتقه الله من النار » (٦).

وفى « سنن أبى داود » عن عبد الله بن غنام ،أن رسول اللهﷺ قال:« من قال حين يصبح : اللهم ما أصبح بى نعمة أو بأحد من خلقك ،فمنك وحدك لا شريك لك، لك

(١) البخارى ( ٦٣٠٦ ) فى الدعوات ، باب: أفضل الاستغفار .
(٢) جملة : « وأن نقترف سوءا على أنفسنا أو نجره إلى مسلم » من رواية أخرى ، الترمذى ( ٣٥٢٩ ) فى الدعوات، باب: ( ٩٥ ) وقال: « حسن غريب من هذا الوجه » .
(٣) الترمذى ( ٣٣٩٢) فى الدعوات ، باب ( ١٤ ) .
(٤) الترمذى ( ٣٣٨٨ ) فى الدعوات ، باب: ما جاء فى الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى ، وقال:« حسن صحيح غريب » .
(٥) الترمذى ( ٣٣٨٩ ) فى الدعوات ، باب : ما جاء فى الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى .
(٦) أبو داود ( ٥٠٦٩ ) فى الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح ، وضعفه الألبانى .

الحمد ولك الشكر،فقد أدى شكر يومه، ومن قال مثل ذلك حين يُمسى ،فقد أدى شكر ليلته» (١).

وفى السنن و صحيح الحاكم عن عبد اللّه بن عمر قال: « لم يكن النبى ﷺ يدع هؤلاء الكلمات حين يمسى ،وحين يصبح:« اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة،اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى ،وأهلى ومالى،اللهم استر عوراتى،وآمن روعاتى ،اللهم احفظنى من بين يدى ،ومن خلفى ،وعن يمينى، وعن شمالى ،ومن فوقى ،وأعوذ بنعمتك أن أغتال من تحتى »(٢) قال وكيع : يعنى الخسف .

وعن طلق بن حبيب قال: جاء رجل إلى أبى الدرداء فقال: يا أبا الدرداء ،قد احترق بيتك .فقال:ما احترق ،لم يكن اللّه ليفعل ذلك ،لكلمات سمعتهن من رسول اللّه ﷺ ، من قالها أول النهار لم تصبه مصيبة حتى يمسى ، ومن قالها آخر النهار لم تصبه مصيبة حتى يصبح :« اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ،عليك توكلت ،وأنت رب العرش العظيم، ما شاء اللّه كان ، وما لم يشأ لم يكن ،ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم ، أعلم أن اللّه على كل شىء قدير ،وأن اللّه قد أحاط بكل شىء علما . اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم » (٣) (٤) .

## وأيضا

كان ﷺ إذا صلى الصبح ، جلس فى مصلاه حتى تطلع الشمس يذكر الله عز وجل.

وكان يقول إذا أصبح : « اللهم بك أصبحنا ، وبك أمسينا ، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك النشور »(٥) حديث صحيح .

وكان يقول :« أصبحنا وأصبح الملك للّه ،والحمد لله ،ولا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، له الملك، وله الحمد ، وهو على كلّ شىء قدير ، رب أسألك خير ما فى

(١) أبو داود ( ٥٠٧٣ ) فى الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح ، وضعفه الألبانى .

(٢) أبو داود ( ٥٠٧٤ ) فى الأدب ، باب: ما يقول: إذا أصبح ، وابن ماجه ( ٣٨٧١ ) فى الدعاء ، باب: ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى ، والحاكم فى المستدرك ١/٥١٧ فى الدعاء ، باب: دعاء الصبح والمساء ، وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

(٣) ابن السنى فى عمل اليوم والليلة ( ٥٧ ، ٥٨ ) ، وقال العراقى فى تخريج الإحياء : « رواه الطبرانى بسند ضعيف » .

(٤) الوابل الصيب ( ١٩٢ ـ ٢٠١ ) .

(٥) أبو داود (٥٠٦٨) فى الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح ، والترمذى (٣٣٨٨) فى الدعوات ، باب : ما جاء فى الدعاء إذا أصبح .

هذا اليوم ، وخير ما بعده ، وأعوذ بك من شر هذا اليوم ، وشر ما بعده ، رب أعوذ بك من الكسل ، وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذاب فى النار ، وعذاب فى القبر ، وإذا أمسى قال: أمسينا وأمسى الملك لله . . . » إلى آخره ، ذكره مسلم (١).

وقال له أبو بكر الصديق ﷺ : مرنى بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت ، قال: قلْ :« اللهم فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ،رب كل شيء ومليكه ومالكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسى ، ومن شر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسى سوءا أو أجره إلى مسلم » قال:« قُلها إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك » (٢) ،حديث صحيح .

وقال ﷺ :« ما من عبد يقول فى صباح كل يوم ومساء كل ليلة : بسم اللّه الذى لا يضر مع اسمه شيء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ، ثلاث مرات ، إلان يضره شيء » حديث صحيح(٣) .

وقال :« من قال حين يصبح وحين يمسى : رضيت باللّه ربا وبالإسلام دينا ،وبمحمد نبيا ، كان حقا على اللّه أن يرضيه » صححه الترمذى والحاكم (٤).

وقال:« من قال حين يصبح وحين يمسى : اللهم إنى أصبحت أشهدك ، وأشهد حملة عرشك وملائكتك ، وجميع خلقك ،أنك أنت الله الذى لا إله إلا أنت، وأن محمد عبدك ورسولك ؛ أعتق اللّه ربعه من النار ، وإن قالها مرتين ، أعتق اللّه نصفه من النار ، وإن قالها ثلاثاً أعتق ثلاثة أرباعه من النار ، وإن قالها أربعاً أعتقه اللّه من النار » حديث حسن(٥) .

وقال :« من قال حين يصبح :اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك، فمنك وحدك لا شريك لك ، لك الحمد ،ولك الشكر، فقد أدى شكر يومه ،ومن قال ذلك حين يمسى ،فقد أدى شكر ليلته » (٦) حديث حسن .

وكان يدعو حين يصبح وحين يمسى بهذه الدعوات « اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة ،واللهم إنى أسألك العفو العافية فى الدنيا والآخرة ،اللهم إنى أسألك العفو العافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى ،وآمن روعاتى ،اللهم احفظنى

---

(١) مسلم ( ٢٧٢٣ / ٧٥ ) فى الذكر والدعاء ، باب : التعوذ من شر ما عمل وشر ما لم يعمل .
(٢) سبق تخريجه ص ٢٨٩ .
(٣) سبق تخريجه ص ٢٨٩.
(٤) الترمذى (٣٣٨٩) فى الدعوات ، باب : ما جاء فى الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى ، والحاكم ( ١ / ٥١٨ ) .
(٥) أبو داود ( ٥٠٦٩ ) فى الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح . وضعفه الألبانى .
(٦) سبق تخريجه ص ٢٩٠.

من بين يدى ،ومن خلفى ،وعن يمينى وعن شمالى ،ومن فوقى، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » صححه الحاكم(١) .

وقال: « إذا أصبح أحدكم فليقل: أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين ،اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وبركته وهدايته ،وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده ،ثم إذا أمسى ، فليقل مثل ذلك » حديث حسن(٢) .

وذكر أبو داود عنه أنه قال لبعض بناته :«قولى حين تصبحين: سبحان اللّه وبحمده ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم ، ما شاء اللّه كان ، وما لم يشأ لم يكن، أعلم أن اللّه على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ، فإنه من قالهن حين يصبح، حفظ حتى يمسى ،ومن قالهن حين يمسى حفظ حتى يصبح » (٣).

وقال لرجل من الأنصار :« ألا أعلمك كلاما إذا قلته أذهب الله همك ، وقضى عنك دينك » قلتُ : بلى يا رسول اللّه ،قال:« قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ،وأعوذ بك من العجز والكسل ،وأعوذ بك من الجبن البخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » قال: فقلتهن ،فأذهب اللّه همى ،وقضى عنى دينى (٤).

وكان إذا أصبح قال: « أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد ﷺ ، وملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين » (٥) .

هكذا فى الحديث« ودين محمد ﷺ » وقد استشكله بعضهم وله حكم نظائره كقوله فى الخطب والتشهد فى الصلاة « أشهد أن محمداً رسول اللّه » فإنه ﷺ مكلف بالإيمان بأنه رسول اللّه ﷺ إلى خلقه ، ووجوب ذلك عليه أعظم من وجوبه على المرسل إليهم، فهو نبى إلى نفسه وإلى الأمة التى هو منهم ، وهو رسول اللّه إلى نفسه وإلى أمته .

ويذكر عنه ﷺ أنه قال لفاطمة ابنته :« ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به: أن تقولى إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حى يا قيوم بك أستغيث ، فأصلح لى شأنى ،ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين »(٦).

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٩٠ .

(٢) أبو داود ( ٥٠٨٤ ) فى الأدب ، باب ما يقول إذا أصبح . وضعفه الألبانى .

(٣) أبو داود ( ٥٠٧٥ ) فى الأدب ، باب: ما يقول إذا أصبح ،وضعفه الألبانى .

(٤) أبو داود ( ١٥٥٥ ) فى الصلاة ، باب: فى الاستعاذة ، وضعفه الألبانى .

(٥) أحمد ٣/٤٠٦ ، ٤٠٧ ، وقال الهيثمى فى المجمع ( ١٠/١١٨ ، ١١٩ ) فى الأذكار ، باب: ما يقول إذا أصبح وإذا أمسى : فيه إسماعيل بن يحيى بن سلمة بن كهيل ، وهو متروك » .

(٦) الحاكم فى المستدرك ( ١/٥٤٥ ) فى الدعاء ،باب: ما يقال إذا أصبح وإذا أمسى ،وقال :«صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى . قال الأرناؤوطى:«وفيه عثمان بن موهب وليس عثمان بن عبد الله ابن موهب كما فى المستدرك. قال أبو حاتم : صالح الحديث وباقى رجاله ثقات » .

ويذكر عنه ﷺ أنه قال لرجل شكا إليه إصابة الآفات « قل: إذا أصبحت: بسم الله على نفسى .وأهلى ومالى ، فإنه لا يذهب عليك شىء » (١).

ويذكر عنه أنه كان إذا أصبح قال:« اللهم إنى أسألك علما نافعا ،ورزقا طيباً ، وعملاً متقبلاً » (٢).

يذكر عنه ﷺ:أن العبد إذا قال حين يُصبح ثلاث مرات:« اللهم إنى أصبحت منك فى نعمة عافية وستر ،فأتم على نعمتك وعافيتك وسترك فى الدنيا والآخرة ،وإذا أمسى، قال ذلك ، كان حقا على اللّه أن يتم عليه» (٣) .

ويذكر عنه ﷺ أنه قال:« من قال فى كلّ يوم حين يصبح وحبن يُمسى : حسبى اللّه لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات، كفاه اللّه ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة »(٤) .

ويذكر عنه ﷺ أنه من قال هذه الكلمات فى أول نهاره ، لم تُصبه مصيبة حتى يُمسى، ومن قالها آخر نهاره لم تُصبه مصيبة حتى يُصبح : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، عليك توكلت ،وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه العلى العظيم ، أعلم أن الله على كل شىء قدير ، وأن اللّه قد أحاط بكل شىء علماً ، اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى وشر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربى على صراط مستقيم » (٥) وقد قيل لأبى الدرداء :قد احترق بيتك فقال: ما احترق،ولم يكن اللّه عز وجل ليفعل ، لكلمات سمعتهن من رسول اللّه ﷺ فذكرها .

وقال :« سيد الاستغفار: أنت ربى، لا إله إلا أنت حلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ،أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها حين يصبح موقنا بها فمات من يومه ، دخل الجنة ،ومن قالها حين يُمسى موقنا بها ، فمات من ليلته ، دخل الجنة » (٦).

(١) الأذكار للنووى ( ٢١٣ ) وضعف إسناده .

(٢) ابن ماجه ( ٩٢٥ ) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : ما يقال بعد التسليم .

(٣) الأذكار للنووى ( ٢١٥ ) وعزاه لابن السنى .

(٤) أبو داود ( ٥٠٨١ ) فى الأدب ، باب: ما يقول إذا أصبح موقوفا على أبى الدرداء بزيادة :« صادقا كان بها أو كاذبا » ، وضعفه الألبانى .

(٥) كنز العمال ( ٣٥٨٣ ) وعزاه للديلمى .

(٦) البخارى ( ٦٣٠٦ ) فى الدعوات ، باب: أفضل الاستغفار .

« من قال حين يصبح وحين يمسى : سبحان الله وبحمده مائة مرة ،لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال ، أو زاد عليه » (١).

وقال : «من قال حين يصبح عشر مرات لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، كتب الله له بها عشر حسنات ، ومحا عنه بها عشر سيئات ، وكانت كعدل عشر رقاب ، وأجاره الله يومه من الشيطان الرجيم، وإذا أمسى فمثل ذلك حتى يصبح » (٢).

وقال :« من قال حين يصبح: لا إله إلا الله وحده لا شريك له،له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير ، وفى اليوم مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتب له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ،وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه » (٣).

وفى « المسند » وغيره أنه ﷺ علم زيد بن ثابت، وأمره أن يتعاهد به أهله فى كل صباح « لبّيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ،والخير فى يديك ،ومنك وبك وإليك ، اللهم ما قلت من قول ، أو حلفت من حلف . أو نذرت من نذر .فمشيئتك بين يدى ذلك كله، ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن،ولا حول ولا قوة إلا بك ،إنك على كل شىء قدير، اللهم ما صليت من صلاة فعلى من صليت ،وما لعنت من لعنة فعلى من لعنت ، أنت وليى فى الدنيا الآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ، اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة ،ذا الجلال والإكرام ،فإنى أعهد إليك فى هذه الحياة الدنيا ، وأشهدك ـ وكفى بك شهيدا ـ بأنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك،لك الملك، ولك الحمد ،وأنت على كل شىء قدير ،وأشهد أن محمدا عبدك ورسولك ، وأشهد أن وعدك حق .ولقاءك حق ،والساعة حق آتية لا ريب فيها ،وأنك تبعث من فى القبور، وأشهد أنك إن تكلنى إلى نفسى تكلنى إلى ضعف وعورة وذنب وخطيئة،وإنى لا أثق إلا برحمتك ،فاغفر لى ذنوبى كلها إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ،وتب على إنك أنت

---

(١) البخارى ( ٦٤٠٥ ) فى الدعوات ، باب: فضل التسبيح ، ومسلم ( ٢٦٩٢ / ٢٩ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : فضل التهليل والتسبيح والدعاء ، واللفظ لمسلم .

(٢) أبو داود ( ٥٠٧٧ ) فى الأدب ،باب : ما يقول إذا أصبح ، وابن ماجه ( ٣٨٦٧ ) فى الدعاء ، باب: : ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى .

(٣) البخارى ( ٦٤٠٣ ) فى الدعوات ، باب : فضل التهليل، ومسلم ( ٢٦٩١ / ٢٨ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : فضل التهليل والتسبيح والدعاء

التواب الرحيم » (١) (٢).

## باب : منه

عن أبى هريرة رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ :أنه كان يقول إذا أصبح :« اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحْيا ، وبك نموت ، وإليك النشور ، وإذا أمسى قال: اللهم بك أمسينا، وبك نحيا ،وبك نموت ، وإليك النشور » .

وأخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه . وقال الترمذى : حسن(٣) .

ولفظ النسائى فيه: أن النبى ﷺ كان يقول إذا أصبح :« اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا، وبك نحيا ، وبك نموت، ،وإليك النشور » فقط .

ورواه أبو حاتم بن حبان فى صحيحه ، وقال: إن النبى ﷺ كان يقول إذا أصبح : «اللهم بك أصبحنا ، وبك أمسينا ، وبك نحيا ، وبك نموت ،وإليك النشور ، وإذا أمسى قال:اللهم بك أمسينا ، وبك أصبحنا ،وبك نحيا ، وبك نموت ، وإليك المصير » .

فرواية أبى داود فيها « النشور » فى المساء ، و « المصير » فى الصباح .

ورواية الترمذى فيها « النشور » فى المساء، و « المصير» فى الصباح .

ورواية الترمذى وابن حبان فيها « النشور » فى الصباح و « المصير » فى المساء ، وهى أولى الروايات أن تكون محفوظة ، لأن الصباح والانتباه من النوم : بمنزلة النشور ،وهو الحياة بعد الموت .والمساء والصيرورة إلى النوم : بمنزلة الموت ،والمصير إلى الله؛ولهذا جعل الله ـ سبحانه ـ فى النوم الموت والانتباه بعده دليلا على البعث النشور ؛ لأن النوم أخو الموت ،والانتباه نشور وحياة قال تعالى :﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** (٢٣)﴾ [ الروم ].ويدل عليه أيضا ما رواه البخارى فى صحيحه عن حذيفة : أن النبى ﷺ وكان إذا استيقظ قال :« الحمد لله الذى أحيانا بعد ما

---

(١) أحمد ( ٥/ ١٩١ ).

(٢) زاد المعاد ( ٢ / ٣٧٠ ـ ٣٧٩ ) .

(٣) أبو داود ( ٥٠٦٨ ) فى الأدب ، باب : ما يقول : إذا أصبح والترمذى ( ٣٣٩١ ) فى الدعوات ، باب: ما جاء فى الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى ،والنساء فى الكبرى ( ١٠٣٩٩ ) فى عمل اليوم الليلة ،باب : ما يقول: إذا أمسى ، وابن ماجه ( ٣٨٦٨ ) ، فى الدعاء ، باب: ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى .

أماتنا وإليه النشور » (١) (٢).

وعن أبى عياش رضي الله عنه ، أن رسول اللّه ﷺ قال: « من قال إذا أصبح : لا إله إلا اللّه وحده ،لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ،وهو على كل شىء قدير :كان له عدلُ رقبة من ولد إسماعيل،وكتب له عشر حسنات،وحُط عنه عشر سيئات،ورفع له عشر درجات،وكان فى حرز من الشيطان حتى يمسى ؛ وإن قالها إذا أمسى : كان له مثل ذلك حتى يصبح » قال فى حديث حماد ـ وهو ابن سلمة ـ فرأى رجل رسول اللّه ﷺ فيما يرى النائم ،فقال: يا رسول اللّه ، إن أبا عياش يحدث عنك بكذا وكذا ؟ قال : « صدق أبو عياش»(٣). قال أبو داود : رواه إسماعيل بن جعفر عن سهيل عن أبيه عن ابن عائش .

وقال أبو بكر الخطيب : عند القاضى ـ يعنى أبا عمر الهاشمى شيخه ـ ابن أبى عائش. وكذا عند غيره .

وأخرجه النسائى وابن ماجه (٤). وفى حديثهما : عن أبى عياش الزرقى .

وأبو عياش الزرقى الأنصارى:اسمه زيد بن الصامت . وقيل : غير ذلك ، وهو بفتح العين المهملة وتشديد الياء آخر الحروف وفتحها وبعد الألف شين معجمة ، وذكره أبو أحمد الكرابيسى فى كتاب الكنى وقال: له صحبة من النبى ﷺ ،ليس حديثه من وجه صحيح وذكر له هذا الحديث .

وقد أخرجا فى الصحيحين عن أبى أيوب الأنصارى عن النبى ﷺ قال: « من قال: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ،له الملك وله الحمد ،وهو على كل شىء قدير ،عشر مرات كان كمن أعتق عشرة أنفس من ولد إسماعيل » (٥).

وقال البخارى : « رقبة من ولد إسماعيل » رواه تعليقاً .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: « من قال: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير فى يوم مائة مرة ، كانت

---

(١) البخارى ( ٧٣٩٤ ) فى التوحيد ، باب : السؤال بأسماء اللّه تعالى والاستعاذة بها .

(٢) تهذيب السنن ( ٧ / ٣٣٠ ، ٣٣١ ) .

(٣) أبو داود ( ٥٠٧٧ ) فى الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح .

(٤) النسائى فى الكبرى ( ٩٨٥٥ ) فى عمل اليوم والليلة ، باب: من قال ذلك مائة مرة ، وابن ماجه ( ٣٨٦٧ ) فى الدعاء ، باب : ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى .

(٥) البخارى ( ٦٤٠٤ ) فى الدعوات، باب : فضل التهليل ، ومسلم ( ٢٦٩٣ / ٣٠ ) فى الذكر الدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : فضل التهليل والتسبيح والدعاء .

له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ،ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك ،ومن قال: سبحان الله وبحمده ،فى يوم مائة مرة ،حطت عنه خطاياه ،وإن كانت مثل زبد البحر »(١) .

فهذا الحديث يدل على أن كل رقبة يعدلها عشر مرات تهليلا ،وهو يوافق رواية البخارى فى الحديث الذى قبله .

وحديث ابن عباس يدل على أن كل مرة برقبة ، ويوافقه حديث أبى أيوب الذى رواه مسلم ، ولكن حديث أبى أيوب قد اختلف فيه البخارى ومسلم .

وحديث أبى هريرة صريح بأن المائة تعدل عشر رقاب ،ولم يختلف فيه ،فيترجح من هذا الوجه على خبر أبى أيوب ، تترجح رواية مسلم لحديث أيوب : بحديث ابن عباس المتقدم فقد تقابل الترجيحان .

وقد يقال :خبر ابن عباس قد تكلم فيه ، وأنه لا يصح ،وخبر أبى أيوب قد اختلف فى لفظه ،وخبر أبى هريرة :صحيح ،لا علة فيه ولا اختلاف،فوجب تقديمه ،والله أعلم.

وقد روى الترمذى من حديث زيد بن أبى أنيسة عن عبد الرحمن بن غنم عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال:« من قال فى دبر كل صلاة الفجر ،وهو ثان رجليه ، قبل أن يتكلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ،يحيى ويميت ،وهو على كل شىء قدير ، عشر مرات ، كتب له عشر حسنات ، ومحيى عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات . وكان يومه ذلك كله فى حرز من كل مكروه ، وحرس من الشيطان ، ولم ينبغى لذنب أن يدركه ذلك اليوم إلا الشرك بالله » وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » (٢) .

وأما الحديث الذى رواه الترمذى فى جامعه عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال:« من دخل السوق ، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو حى لا يموت ، بيده الخير ،وهو على كل شىء قدير ، كتب له ألف ألف حسنة ،ومحى عنه ألف ألف سيئة ،ورفع له ألف ألف

---

(١) البخارى ( ٦٤٠٣ ) فى الدعوات ، باب : فضل التهليل ، ( ٦٤٠٥ ) فى الدعوات ، باب: فضل التسبيح ، ومسلم ( ٢٦٩١ / ٢٨ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء .
(٢) الترمذى ( ٣٤٧٤ ) فى الدعوات ، باب : ٦٣ .

درجة » (١). فهو حديث معلول لا يثبت مثله ،وذكر له الترمذى طرقاً :

**أحدها** :أحمد بن منيبع :حديثا أزهر بن سنان حدثنا محمد بن واسع قال:قدمت مكة فلقينى أخى سالم بن عبد الله بن عمر ، فحدثنى عن أبيه عن جده : أن رسول الله ﷺ - فذكره وقال: هذا حديث غريب .

**والثانى** : رواه عمرو بن دينار ، قهرمان آل الزبير ، عن سالم نحوه .

قال الترمذى :حدثنا أحمد بن عبدة حدثنا حماد بن عبدة حدثنا حماد بن زيد والمعتمر ابن سليمان قالا حدثنا عمرو بن دينار - وهو قهرمان آل الزبير - عن سالم عن جده .

وقال:« وبنى له بيت فى الجنة » ولم يقل: « ألف ألف درجة » .

**والثالث** : رواه يحيى بن سالم الطائفى عن عمران بن مسلم عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن النبى ﷺ ، ولم يذكر عمر ، ذكره الترمذى تعليقاً عن يحيى(٢).

فأما الطريق الأولى فهى أمثل طرقه ،وأزهر بن سنان لا بأس به ، قد تكلم فيه بعض الأئمة ،وقد ذكر حديثه هذا الحافظ أبو عبد الله المقدسى فى المختارة .

**وأما الطريق الثانية** :ففيها عمرو بن دينار قهرمان آل الزبير،قال البخارى فى التاريخ:فيه نظر ،وذكر هذا الإسناد بعينه ،ولم يذكر له أمتنا ، فقال:قال موسى بن عبد الرحمن حدثنا زيد بن خباب حدثنا سعيد بن زيد عن عمرو بن دينار مولى الأنصارى عن سالم عن أبيه عن عمر ، وقال الترمذى : تكلم فيه بعض أصحاب الحديث ، وقد روى عن سالم أحاديث لا يتابع عليها .

**وأما الطريقة الثالثة** :ففيها عمران بن مسلم ، وليس هو عمران بن مسلم القصير، فإن ذاك من رجال الصحيح ،وهذا منكر الحديث ، قاله البخارى وغيره .

وقد قيل: إنه القصير والله أعلم (٣).

---

(١) الترمذى ( ٣٤٢٨ ) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا دخل السوق .

(٢) انظر : الترمذى ٥/٤٥٧ / ٤٥٨ .

(٣) تهذيب السنن ( ٧/ ٣٣٥ - ٣٣٧ )

# فصــل
# فى أذكـار النـوم

فى « الصحيحين » عن حذيفة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن ينام قال: «باسمك اللهم أموت وأحيا» وإذا استيقظ من منامه قال: « الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور » (١).

وفى « الصحيحين » أيضا ، عن عائشة، أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ، ثم نفث فيهما يقرأ فيهما : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ثم يسمح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات (٢).

وفى «صحيح البخارى » عن أبى هريرة أنه أتاه آت يحثو من الصدقة ، وكان قد جعله النبى ﷺ عليها ليلة بعد ليلة فلما كان فى الليلة الثالثة قال: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال : دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ـ وكان أحرص شىء على الخير ـ فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ حتى ختمها، فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح . فقال النبى ﷺ : «صدقك وهو كذوب »(٣).

وقد روى الإمام أحمد نحو هذه القصة فى « مسنده » أنها جرت لأبى الدرداء ، ورواها الطبرانى فى « مجمعه » أنها جرت لأبى بن كعب .

وفى « الصحيحين » عن أبى مسعود الأنصارى ، عن النبى ﷺ قال: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » (٤).

الصحيح : أن معناها : كفتاه من شر ما يؤذيه ، وقيل : كفتاه من قيام الليل ، وليس بشىء .

(١) البخارى ( ٦٣٢٤ ) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا أصبح ، ومسلم ( ٢٧١١/ ٥٩ ) فى الذكر والدعاء ، والتوبة والاستغفار باب : ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ، وهو عن البراء وليس عن حذيفة .

(٢) البخارى ( ٥٠١٧ ) فى فضائل القرآن ، باب: فضل المعوذات ، ولم يعزه صاحب التحفة إلا للبخارى ١٢/ ٦٠.

(٣) البخارى ( ٢٣١١ ) فى الوكالة ، باب : إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا فأجازه الموكل فهو جائز .

(٤) البخارى ( ٥٠٠٩ ) فى فضائل القرآن ، باب: فضل سورة البقرة ، ومسلم ( ٨٠٨ / ٢٥٦ ) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة .

وقال على بن أبى طالب : ما كنت أرى أحدا يعقل وينام قبل أن يقرأ الآيات الثلاث الأواخر من سورة البقرة .

وفى « الصحيحين » عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « إذا قام أحدكم عن فراشه ، ثم رجع إليه ، فلينفضه بصنفة إزاره ثلاث مرات؛ فإنه لا يدرى ما خلفه عليه بعده ، وإذا اضطجع فليقل؛ باسمك اللهم ربى وضعت جنبى ،وبك أرفعه ، فإن أمسكت نفسى فارحمها ،وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » [١].

وفى « الصحيحين » عنه عن النبى ﷺ :« إذا استيقظ أحدكم من نومه فليقل :الحمد لله الذى عافانى فى جسدى ، ورد على روحى ، وأذن لى بذكره » [٢].

وقد تقدم[٣] حديث على، ووصية النبى ﷺ له ولفاطمة رضي الله عنها :أن يسبحا إذا أخذا مضاجعهما للنوم ثلاثا وثلاثين ، ويحمدا ثلاثا وثلاثين ، ويكبرا أربعا وثلاثين ، وقال: «هو خير لكما من خادم » [٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه : بلغنا أنه من حافظ على هذه الكلمات لم يأخذه إعياء فيما يعانيه من شغل وغيره .

وفى « سنن أبى داود » عن حفصة أم المؤمنين : أن النبى ﷺ كان إذا أراد يرقد ، وضع يده اليمنى تحت خده ثم يقول:« اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك » ثلاث مرات، قال الترمذى : حديث حسن[٥] .

وفى «صحيح مسلم » عن أنس أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال:« الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا ، فكم ممن لا كافى له ،ولا مُؤوى »[٦] .

فى « صحيحه » أيضا ، عن ابن عمر أنه أمر رجلا إذا أخذ مضجعه أن يقول: «اللهم

---

(١) البخارى ( ٧٣٩٣ ) فى التوحيد ،باب: السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها ، ومسلم ( ٢٧١٤ ٦٤ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ،باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع .

(٢) كنز العمال ( ٢١٤١٨ ) وعزاه لابن السنى.

(٣) انظر : الوابل الصيب ( ١٥٦ ) .

(٤) البخارى ( ٣٧٠٥ ) فى فضائل الصحابة ،باب : مناقب على ابن طالب ، ومسلم ( ٢٧٢٧/ ٨٠ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: التسبيح أول النهار وعدم النوم .

(٥) أبو داود ( ٥٠٤٥ ) فى الأدب ،باب: ما يقال عند النوم ،والترمذى ( ٣٣٩٩ ) فى الدعوات ، باب: ١٨ وهو عن البراء بن عازب .

(٦) مسلم (٢٧١٥/ ٦٤) فى الذكر والدعاء والتوب والاستغفار ، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع

أنت خلقت نفسى ، وأنت تتوفاها ، لك مماتها ومحياها ،إن أحييتها فاحفظها ،وإن أمتها فاغفر لها ، اللهم إنى أسألك العافية » قال ابن عمر: سمعتهن من رسول الله ﷺ(١) .

وفى الترمذى ، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ : « من قال حين يأوى إلى فراشه : أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب ـ ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر ، وإن كانت عدد ورق الشجر وإن كانت عدد رمل عالج ،وإن كانت عدد أيام الدنيا » (٢).

وفى « صحيح مسلم »،عن أبى هريرة أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «اللهم رب السموات ،ورب الأرض ،ورب العرش العظيم ،ربنا ورب كل شىء ، فالق الحب والنوى ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته ،أنت الأول فليس قبلك شىء ،وأنت الآخر فليس بعدك شىء ،وأنت الظاهر فليس فوقك شىء،وأنت الباطن فليس دونك شىء،اقض عنا الدين ،وأغننا من الفقر»(٣).

وفى « الصحيحين » عن البراء بن عازب قال: قال لى رسول الله ﷺ :« إذا أتيت مضجعك ، فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل :اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ،ووجهت وجهى إليك ،وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت ،فإن مت من ليلتك مت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تقول» (٤).

## فصل
## فى أذكار الانتباه من النوم

روى البخارى فى «صحيحه » ، عن عبادة بن الصامت ، عن النبى ﷺ قال:«من تعارّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير . الحمد لله ، وسبحان الله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة

(١) مسلم ( ٢٧١٢ / ٦٠) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع .
(٢) الترمذى ( ٣٣٩٧) فى الدعوات ، باب : ١٧ ، وقال : « حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » .
(٣) مسلم ( ٢٧١٣ / ٦١ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : ما يقول عند النوم وأخذ المضجع .
(٤) البخارى ( ٦٣١٣ ) فى الدعوات ، باب: ما يقول: إذا نام ، ومسلم ( ٢٧١٠ / ٥٦ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : ما يقول عند النوم وأخذ المضجع .

إلا بالله ، ثم قال: اللهم اغفر لى ، أو دعا ، استجيب له ، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته » (١).

وفى الترمذى عن أبى أمامة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أوى إلى فراشه طاهراً ، وذكر الله تعالى حتى يدركه النعاسُ ، لم ينقلب ساعة من الليل يسأل الله تعالى فيها خَيرا ـ من خير الدنيا والآخرة ـ إلا أعطاه إياه »حديث حسن(٢) .

وفى « سنن أبى داود » ، عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل قال: «لا إله إلا أنت ، سبحانك اللهم، أستغفرك لذنبى، وأسألك رحمتك، اللهم زدنى علما، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » (٣).

## فصل
## فى أذكار الفزع فى النوم والقلق

روى الترمذى عن بريدة قال :شكا خالد بن الوليد إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، ما أنام الليل من الأرق . فقال النبى ﷺ : « إذا أويت إلى فراشك فقُل : اللهم رب السموات السبع وما أظلت، ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلّت ، كن لى جارا من شر خلقك كلهم جميعا ، أن يفرط على أحد منهم ، أو يبغى على ، عز جارك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك ، لا إله إلا أنت »(٤).

وفى « سنن أبى داود » والترمذى عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم من الفزع كلمات: « أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، وشر عباده ، ومن همزات الشياطين ، وأن يحضرون » (٥).

وكان عبد الله بن عمرو يعلمهن من عقل من بنيه ، ومن لم يعقل كتبه وعلقه عليه.

(١) البخارى ( ١١٥٤ ) فى التهجد باب: فضل من تعار من الليل فصلى .

(٢) الترمذى ( ٣٥٢٦ ) فى الدعوات ، باب: ٩٣ .

(٣) أبو داود ( ٥٠٦١ ) فى الأدب ، باب: ما يقول الرجل إذا تعار من الليل .

(٤) الترمذى ( ٣٥٢٣ ) فى الدعوات ، باب: ٩١ ، وقال: « هذا حديث ليس إسناده بالقوى » .

(٥) أبو داود ( ٣٨٩٣ ) فى الطب ، باب: كيف الرقى ؟ والترمذى ( ٣٥٢٨ ) فى الدعوات . باب: ٩٤، وقال: «هذا حديث حسن غريب » .

# فصل
# فى أذكار من رأى رؤيا يكرهها أو يحبها

فى « الصحيحين » عن أبى قتادة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم الشىء يكرهه فلينفس عن يساره ثلاث مرات إذا استيقظ ، وليتعوذ بالله من شرّها ، فإنها لن تضره إن شاء الله » (١). قال أبو قتادة: كنت أرى الرؤيا تمرضنى ، حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الرؤيا الصالحة من اللّه ، فإذا رأى أحدكم ما يُحب فلا يحدث به إلا من يحب ، وإذا رأى ما يكره فلا يحدث به ،وليتفل عن يساره ثلاثا ، وليتعوذ باللّه من الشيطان الرجيم، ومن شرّ ما رأى فإنها لا تضره » (٢).

وفى « صحيح مسلم » عن جابر ،عن رسول الله ﷺ قال: « إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها ، فليبصق عن يساره ثلاث مرات ،وليستعذ باللّه من الشيطان ثلاثا ،وليتحول عن جنبه الذى كان عليه » (٣).

ويذكر عن النبى ﷺ أن رجلا قص عليه رؤيا فقال: « خيراً رأيت ،وخيرا يكون »(٤).

وفى رواية: « خيرا تلقاه ،وشرا توقاه .خيرا لنا ، وشرا على أعدائنا ،والحمد لله رب العالمين »(٥) (٦) .

## وأيضا

وكان ﷺ إذا أوى إلى فراشه للنوم قال: « باسمك اللهم أحيا وأموت »(٧) . وكان يجمع كفيه ثم ينفث فيهما ، وكان يقرأ فيهما : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات (٨).

---

(١) البخارى ( ٥٧٤٧ ) فى الطب ، باب: النفث فى الرقية ، ومسلم ( ٢٢٦١ / ١ ) فى أول الرؤيا .

(٢) مسلم ( ٢٢٦١ / ٤ ) فى أول الرؤيا . (٣) مسلم ( ٢٢٦٢ / ٥ ) فى أول الرؤيا .

(٤) كنز العمال ( ٣٠٣٧ ) وعزاه لابن السنى فى عمل يوم وليلة عن أبى موسى .

(٥) الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧/ ١٨٦، ١٨٧ وقال : « رواه الطبرانى وفيه سليمان بن عطاء القرشى وهو ضعيف »، وكنز العمال ( ٤١٤٧٠ ) .

(٦) الوابل الصيب (٢٠٢ ـ ٢١٤ ) .

(٧) البخارى (٦٣١٢) فى الدعوات ، باب:ما يقول إذا نام ، وأبو داود (٥٠٤٩) فى الأدب ، باب:ما يقال عند النوم .

(٨) البخارى ( ٥٠١٧ ) فى فضائل القرآن ، باب: فضل المعوذات، وأبو داود ( ٥٠٥٦ ) فى الأدب ، باب: ما يقال عند النوم

وكان ينام على شقه الأيمن ويضع يده اليمنى تحت خده الأيمن ثم يقول: « اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك »(١) وكان يقول إذا أوى إلى فراشه :« الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا ، فكم ممن لا كافى له ولا مؤوى »ذكره مسلم (٢). وذكر أيضا أنه كان يقول إذا أوى إلى فراشه : « اللهم رب السموات والأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل ذى شيء أنت أخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ،وأنت الباطن ، فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر » (٣).

وكان إذا استيقظ من منامه فى الليل قال:« لا إله إلا أنت سبحانك ، اللهم إنى أستغفرك لذنبى ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علماً ، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى ، وهب لى من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب » (٤).

وكان إذا انتبه من نومه قال:« الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور »(٥) ثم يتسوك ، وربما قرأ العشر الآيات من آخر ( آل عمران ) من قوله :﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ** ...... ﴾ إلى آخرها [ آل عمران: ١٩٠ ـ ٢٠٠ ] وقال:« اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد ، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ،ولك الحمد ،أنت الحق، ووعدك الحق ،ولقاؤك حق ،والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ،ومحمد حق ،والساعة حق ،اللهم لك أسلمت ،وبك آمنت ، وعليك توكلت ،وإليك أنبت ، بك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ،أنت إلهى لا إله إلا أنت»(٦) (٧).

## وأيضا

كان إذا استيقظ قال: « الحمد للّه الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

(١) أبو داود ( ٥٠٤٥) فى الأدب ، باب: ما يقال عند النوم .
(٢) مسلم ( ٢٧١٥ / ٦٤ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع .
(٣) مسلم ( ٢٧١٣ / ٦١ ) فى الذكر والدعاء والتوبة الاستغفار ، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع .
(٤) أبو داود ( ٥٠٦١ ) فى الأدب ، باب: ما يقال عند النوم .
(٥) البخارى ( ٦٣٢٥) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا أصبح .
(٦) البخارى ( ٦٣١٧ ) فى الدعوات ، باب: الدعاء إذا انتبه من الليل ، ومسلم (٧٦٩ / ١٩٩ ) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب: الدعاء فى صلاة الليل وقيامه .
(٧) زاد المعاد ( ١ / ١٥٥ ـ ١٥٨ ) .

وقالت عائشة : كان إذا هبّ من الليل ، كبّر الله عشرا ، وحمد الله عشرا، وقال : « سبحان الله وبحمده » عشرا ،« سبحان الملك القدوس» عشرا ،و« أستغفر اللّه عشرا ، وهلل عشرا ، ثم قال : « اللهم إنى أعوذ بك من ضيق الدنيا ،وضيق يوم القيامة»[(١)] عشرا ، ثم يستفتح الصلاة .

وقالت : أيضا :كان إذا استيقظ من الليل قال: « لا إله إلا أنت سبحانك ، اللهم أستغفرك لذنبى ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علما ، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى ، وهب لى من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب » ذكرهما أبو داود [(٢)].

وأخبر أن من استيقظ من الليل فقال:« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك، وله الحمد ،وهو على كل شىء قدير ، الحمد لله ، وسبحان الله ، ولا إله إلا الله، والله أكبر ،ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ثم قال: اللهم اغفر لى ـ أو دعا بدعاء آخرـ استجيب له ، فإن توضأ وصلى ، قبلت صلاته »[(٣)] ذكره البخارى وقال ابن عباس عنه ﷺ ليلة مبيته عنده: إنه لما استيقظ ، رفع رأسه إلى السماء وقرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة ( آل عمران )﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ** ﴾ إلى آخرها .

ثم قال :« اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ،ولك الحمد ، أنت قيمُ السماوات والأرض ومن فيهن ،ولك الحمد ،أنت الحق ،ووعدك الحق ، وقولك الحق ،ولقاؤك حق ، والجنة حق ،والنار حق،والنبيون حق ،ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ،وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهى ، لا أله إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » [(٤)] .

وقالت عائشة ﵂ كان إذا قام من الليل قال : « الله رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » [(٥)].

وربما قالت : كان يفتتح صلاته بذلك . وكان إذا أوتر ، ختم وتره بعد فراغه بقوله:

---

(١) أبو داود ( ٥٠٨٥ ) فى الأدب ،باب: ما يقول إذا أصبح ، وأحمد ( ٦/ ١٤٣ ) .

(٢) أبو داود ( ٥٠٦١ ) فى الأدب ، باب: ما يقول الرجل إذا تعار من الليل .

(٣) البخارى (١١٥٤ ) فى التهجد ، باب : فضل من تعار من الليل فصلى .

(٤) البخارى ( ١١٢٠ ) فى التهجد ، باب : التهجد بالليل ، ،ومسلم ( ٧٦٩ / ١٩٩ ) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب: الدعاء فى صلاة الليل وقيامه .

(٥) مسلم ( ٧٧٠ / ٢٠٠ ) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب: الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ،وأبو داود ( ٧٦٧) فى الصلاة ، باب: ما يستفتح به الصلاة من الدعاء .

« سبحان الملك القدوس » ثلاثا، ويمدُّ بالثالثة صوته(١) .

## وأيضا

وشكى إليه ﷺ خالد بن الوليد الأرق بالليل ،فقال له : « إذا أويت إلى فراشك فقل: اللهم رب السموات السبع وما أظلت ،ورب الأرضين السبع وما أقلّت ،ورب الشياطين وما أضلت ، كن لى جارا من شر خلقك كلهم جميعا من أن يفرط أحد منهم على ،أو أن يطغى على ، عز جارك ،وجل ثناؤك ،ولا إله إلا أنت » (٢).

وكان ﷺ يُعلم أصحابه من الفزع : « أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه ومن شرّ عباده ومن شر همزات الشياطين ، وأن يحضرون » (٣).

ويذكر أن رجلا شكى إليه ﷺ أنه يفزع فى منامه ، فقال : « إذا أويت إلى فراشك فقل . . . » ثم ذكرها ، فقالها فذهب عنه(٤) .

## وأيضا

صح عنه ﷺ :« الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان ، فمن رأى رؤيا يكره منها شيئا ، فلينفث عن يساره ثلاثا ،وليتعوذ بالله من الشيطان ،فإنها لا تضره، ولا يخبر بها أحداً . وإن رأى رؤيا حسنة ، فليستبشر ، ولا يخبر بها إلا من يحب »(٥).

وأمر من رأى ما يكرهه أن يتحول عن جنبه الذى كان عليه ، وأمره أن يصلى (٦).

فأمره بخمسة أشياء : أن ينفث عن يساره ، وأن يستعيذ بالله من الشيطان ، وألا يخبر بها أحدا، وأن يتحول عن جنبه الذى كان عليه .وأن يقوم يصلى ، ومتى فعل ذلك ، لم تضره الرؤيا المكروهة ، بل هذا يدفع شرها.

---

(١) زاد المعاد ( ٢/ ٣٦٥ ـ ٣٦٨ ) .

(٢) الترمذى ( ٣٥٢٣ ) فى الدعوات ، باب : ٩١ ، وقال : « ليس إسناده بالقوى » .

(٣) أبو داود ( ٣٨٩٣ ) فى الطب ،باب : كيف الرقى ، والترمذى ( ٣٥٢٨ ) فى الدعوات ، باب: ٩٤ ، وقال : « حسن غريب » .

(٤) زاد المعاد ( ٢/ ٤٦٧ ، ٤٦٨ ) .

(٥) البخارى ( ٦٩٩٥ ) فى التعبير ، باب: من رأى النبى ﷺ فى المنام ، ومسلم ( ٢٢٦١ / ٣ ) فى أول الرؤيا .

(٦) مسلم ( ٢٢٦٢ / ٥ ) فى أول الرؤيا .

وقال : « الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبّر ، فإذا عُبّرت وقعت ،ولا يقُصُّها إلا على وادٍّ ، أو ذى رأى » (١).

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إذا قُصت عليه الرؤيا ، قال: اللهم إن كان خيرا فلنا ، وإن كان شرا ، فلعدونا.

ويُذكر عن النبى ﷺ: « من عُرضت عليه رؤيا ، فليقُل لمن عرض عليه خيرا »(٢) .

ويذكر عنه أنه كان يقول للرائى قبل أن يعبرها له:« خيرا رأيت » (٣) .ثم يعبرها .

وذكر عبد الرزاق ،عن معمر ، عن أيوب ،عن ابن سيرين ،قال:كان أبو بكر الصديق إذا أراد أن يعبر رؤيا ، قال:إن صدقت رؤياك يكون كذا وكذا (٤).

## فصل
## فى أذكار الخروج من المنزل

فى « السنن » عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:« من قال: يعنى إذا خرج من بيته: بسم الله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » يقال له : « كفيت ووقيت وهديت ، وتنحى عنه الشيطان ،فيقول لشيطان آخر، كيف لك برجل قد هُدى وكفى ووقى؟ » (٥).

وفى مسند الإمام أحمد :« بسم الله ،آمنت بالله،واعتصمت بالله ،توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله » حديث حسن (٦).

وفى السنن الأربع ،عن أم سلمة قالت :ما خرج رسول الله ﷺ من بيتى إلا رفع طرفه إلى السماء فقال:« اللهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أضل ، أو أزِل أو أُزَل ، أو أظْلِم

(١) أبو داود ( ٥٠٢٠ ) فى الأدب ، باب: ما جاء فى الرؤيا ، والترمذى ( ٢٢٧٩ ) فى الرؤيا ، باب : ما جاء فى تعبير الرؤيا ، وقال: « حسن صحيح » ، واللفظ لأبى داود .

(٢)انظر : الأذكار للنووى ص ١٢٦ .

(٣) كنز العمال ( ٣٠٣٧ ) ، وعزاه لابن السنى فى عمل اليوم والليلة عن أبى موسى .

(٤) عبد الرزاق ( ٢٠٥٨ ) فى الجامع ، باب: الرؤيا .

(٥) أبو داود ( ٥٠٩٥ ) فى الأدب ،باب:ما جاء فيمن خرج من بيته ما يقول ،والترمذى ( ٣٤٢٦ ) فى الدعوات ، باب : ما يقول إذا خرج من بيته ، وقال هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، والنسائى ( ٥/٩٩١٧ ) فى عمل اليوم والليلة ، باب : ما يقول إذا خرج من بيته، وابن ماجه ( ٣٨٨٦) فى الدعاء ، باب: ما يدعو به الرجل إذا خرج من بيته .

(٦) أحمد ( ٦٦/١ ) ، وقال الشيخ شاكر ( ٤٧١ ) :« إسناده ضعيف » .

أو أُظلَم ، أو أجهل أو يُجْهل عليّ » . قال الترمذى :حديث حسن صحيح (١).

وكان إذا خرج من بيته يقول : « بسم الله ، توكلت على الله ، اللهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أُضلّ ، أو أزل أو أُزَلَّ ، أو أظلم أو أُظلم ، أو أجهل أو يُجهل عليّ » حديث صحيح(٢) .

وقال ﷺ :« من قال إذا خرج من بيته: بسم الله ، توكلت على اللّه ،ولا حول ولا قوة إلا بالله ،يقال له :هُديت ،وكفيت ،ووقيت ،وتنحى عنه الشيطان »حديث حسن (٣).

وقال ابن عباس عنه ليلة مبيته عنده :إنه خرج إلى صلاة الفجر وهو يقول: « اللهم اجعل فى قلبى نورا ،واجعل فى لسانى نورا ،واجعل فى سمعى نورا ،واجعل فى بصرى نورا ، واجعل من خلفى نورا، ومن أمامى نورا ، واجعل من فوقى نورا ، واجعل من تحتى نورا ، اللهم أعظم لى نورا »(٤) .

وقال فضيل بن مرزوق ،عن عطية العوفى ، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ :« ما خرج رجل من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا إليك ، فإنى لم أخرج بطرا ولا أشرا ، ولا رياء ، ولا سمعة، وإنما خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، إلا وكل اللّه به سبعين ألف ملك يستغفرون له ، وأقبل الله عليه بوجهه حتى يقضى صلاته »(٥) (٦).

---

(١ ، ٢) أبو داود ( ٥٠٩٤ ) فى الأدب ، باب:ما جاء فيمن خرج من بيته ما يقول، والترمذى ( ٣٤٢٧ ) فى الدعوات، باب: ما يقول إذا خرج من بيته ، وقال: « هذا حديث حسن صحيح» ، والنسائى فى الكبرى (٩٩١٣) فى عمل اليوم والليلة باب: ما يقول إذا خرج من بيته، وابن ماجه ( ٣٨٨٤ ) فى الدعاء ، باب : ما يدعو به الرجل إذا خرج من بيته .

(٣) الترمذى ( ٣٤٢٦) فى الدعوات ،باب ما يقول إذا خرج من بيته ، وكان « حسن صحيح غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه » .

(٤) البخارى ( ٦٣١٦ ) فى الدعوات ، باب: الدعاء إذا انتبه من الليل ، مسلم ( ٧٦٣ / ١٩١ ) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب: الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ، واللفظ لمسلم .

(٥) أحمد ( ٣/ ٢١ ) ، وابن ماجه ( ٧٧٨ ) فى المساجد والجماعات ، باب المشى إلى الصلاة .

(٦) زاد المعاد ( ٢ / ٣٦٨ ، ٣٦٩ ) .

# فصل
# فى أذكار دخول المنزل

فى « صحيح مسلم » عن جابر ، قال :سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه ، قال :الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء » (١).

وفى « سنن أبى داود » عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا ولج الرجل بيته ، فليقل : اللهم إنى أسألك خير المولج ،وخير المخرج ، بسم الله ولجنا، وبسم الله خرجنا ،وعلى الله ربنا توكلنا ، ثم ليسلم على أهله »(٢) .

وفى الترمذى عن أنس ،قال :قال لى رسول الله ﷺ : « يا بنى إذا دخلت على أهلك فسلّم يكُن بركة عليك وعلى أهل بيتك » (٣). قال الترمذى : حديث حسن صحيح(٤).

## وأيضا

يذكر عنه ﷺ أنه كان يقول إذا انقلب إلى بيته : « الحمد لله الذى كفانى ، وآوانى، والحمد لله الذى أطعمنى وسقانى ، والحمد لله الذى منَّ علىَّ فأفضل ، أسألك أن تجيرنى من النار » (٥) .

وثبت عنه ﷺ أنه قال لأنس : « إذا دخلت على أهلك فسلم يكن بركة عليك وعلى أهلك » قال الترمذى : حديث حسن صحيح(٦).

وفى السنن عنه ﷺ « إذا ولج الرجل بيته ، فليقل: اللهم إنى أسألك خير المولج ، وخير المخرج ، بسم الله ولجنا ، وعلى الله ربنا توكلنا ، ثم ليسلم على أهله » (٧).

---

(١) أحمد ( ٣/ ٣٤٧ ، ٣٨٣ ) ، مسلم ( ٢٠١٨ / ١٠٣ ) فى الأشربة ، باب :آداب الطعام والشراب وأحكامهما.

(٢) أبو داود ( ٥٠٩٦ ) فى الأدب ، باب: ما جاء فيمن دخل بيته ما يقول .

(٣) الترمذى ( ٢٦٩٨ ) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى التسليم إذا دخل بيته ، وقال : « حسن غريب » .

(٤) الوابل الصيب ( ٢١٦ ، ٢١٧ ) .

(٥) الحاكم فى المستدرك ( ١/ ٥٤٥ ، ٥٤٦ ) فى الدعاء ، باب : دعاء إذا أوى إلى فراشه وقال: « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

(٦) الترمذى ( ٢٦٩٨ ) فى الاستئذان ، باب: ما جاء فى التسليم إذا دخل بيته ، وقال: «حسن غريب » .

(٧) أبو داود ( ٥٠٩٦ ) فى الأدب ، باب ، ما جاء فيمن دخل بيته ما يقول، ولم يعزه صاحب التحفة ٩/ ٢٨١ إلا لأبى داود .

وفيها عنه ﷺ : « ثلاثة كلهم ضامن على الله : رجل خرج غازيا فى سبيل الله ، فهو ضامن على الله حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يرده بما نال من أجر وغنيمة ، ورجل راح إلى المسجد ،فهو ضامن على الله حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يرده بما نال من أجر وغنيمة، ورجل دخل بيته بسلام، فهو ضامن على الله » حديث صحيح(١) .

وصح عنه ﷺ: « إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه ، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء ، وإذا دخل ، فلم يذكر الله عند دخوله ، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت العشاء » ذكره مسلم (٢)(٣).

## فصل
## فى أذكار دخول المسجد والخروج منه

فى « صحيح مسلم » ، عن أبى حميد ، أو أبى أسيد قال: قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أحدكم إلى المسجد ، فليسلم على النبى ﷺ وليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك »(٤) .

وفى « سنن أبى داود » عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ : أنه كان إذا دخل المسجد قال: « أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ،وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم » فإذا قال ذلك ، قال الشيطان : حفظ منى سائر اليوم (٥) (٦).

## أيضا

ذكر أبو داود عنه ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال: « أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم ،» فإذا قال ذلك قال الشيطان : حُفظ منى سائر اليوم .

---

(١) أبو داود ( ٢٤٩٤ ) فى الجهاد ، باب: فضل الغزو فى البحر .
(٢) مسلم ( ٢٠١٨ / ١٠٣ ) فى الأشربة ، باب: آداب الطعام والشراب وأحكاها .
(٣) زاد المعاد ( ٢/ ٣٨١ ـ ٣٨٣ ) .
(٤)مسلم ( ٧١٣ / ٦٨ ) فى صلاة المسافرين وقصرها ،باب: ما يقول إذا دخل المسجد .
(٥) أبو داود ( ٤٦٦ ) فى الصلاة ، باب:فيما يقوله الرجل عند دخوله المسجد .
(٦) الوابل الصيب ( ٢١٧ ، ٢١٨ ) .

وقال ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد ، فليسلم على النبى ﷺ ، وليقل: اللهم افتح لى أبواب رحمتك ، فإذا خرج ، فليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك » (١).

وذكر عنه أنه كان إذا دخل المسجد صلى على محمد وآله وسلم ، ثم يقول: «اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك» ، فإذا خرج صلى على محمد وآله وسلم ، ثم يقول: « اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب فضلك » (٢) (٣).

# فصل
## فى أذكار الآذان

فى « الصحيحين » عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ : « إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن » (٤).

وفى « صحيح مسلم » عن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « إذا سمعتم المؤذن ، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىّ ، فإنه من صلى علىّ صلاة ، صلى اللّه عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة » (٥).

وفى «صحيح مسلم » عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللّه ﷺ: « إذا قال المؤذن: الله أكبر الله أكبر ، فقال أحدكم : الله أكبر الله أكبر ، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم قال : أشهد أن محمدا رسول الله ، قال: أشهد أن محمدا رسول الله، ثم قال: حى على الصلاة ، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: حى الفلاح قال : لا حول ولا قو إلا بالله ، ثم قال الله أكبر الله أكبر ، قال: الله أكبر الله أكبر ، ثم قال: لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا الله من قلبه ، دخل الجنة»(٦).

(١) أبو داود ( ٤٦٥ ) فى الصلاة ، باب: فيما يقوله الرجل عند دخوله المسجد .

(٢) الترمذى ( ٣١٤ ) فى الصلاة ، باب: ما جاء ما يقول عند دخول المسجد ، وقال: « حديث فاطمة حديث حسن، وليس إسناده بمتصل »، وابن ماجه ( ٧٧١ ) فى المساجد والجماعات، باب: الدعاء عند دخول المسجد .

(٣) زاد المعاد ( ٢ / ٣٦٩ ، ٣٧٠ )

(٤) البخارى ( ٦١١ ) فى الأذان ، باب: ما يقول إذا سمع المنادى ، ومسلم ( ٣٨٣ / ١٠ ) فى الصلاة ، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلى على النبى ﷺ.

(٥) مسلم (٣٨٤ / ١١) فى الصلاة ، باب :استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلى على النبى ﷺ .

(٦) مسلم ( ٣٨٥ / ١٢) فى الصلاة ، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلى على النبى ﷺ .

وفى « صحيح البخارى » عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محمودا الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة »(١) .

وفى « سنن أبى داود» عن عبد الله بن عمرو قال: يا رسول الله، إن المؤذنين يفضلوننا ، فقال رسول الله ﷺ : « قُل كما يقولون ، فإذا انتهيت ، فسَلْ تعْطَهْ »(٢).

وفى الترمذى عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: « الدعاء لا يردّ بين الأذان والإقامة». قالوا : فماذا نقول يا رسول الله؟ قال: « سلوا الله العافية فى الدنيا والآخرة »، قال الترمذى: حديث حسن صحيح (٣).

وفى « سنن أبى داود » عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ : « ثنتان لا تردان ، أو قلما تُردان : الدُّعاءُ عند النداء ، وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً »(٤).

وفى «سنن أبى داود » عن أم سلمة قالت: علمنى رسول الله ﷺ أن أقول عند المغرب: «اللهم هذا إقبال ليلك ، وإدبار نهارك ، وأصوات دعاتك ، وحضور صلواتك ، فاغفر لى » (٥).

ففى « سنن أبى داود » عن بعض أصحاب النبى ﷺ ، أن بلالا أخذ فى الإقامة ، فلما أن قال : قد قامت الصلاة، قال النبى ﷺ : « أقامها الله وأدامها » (٦).

فهذه خمس سنن فى الأذان : إجابته ، وقول : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً حين يسمع التشهد ، وسؤال الله تعالى لرسوله ﷺ الوسيلة ، والصلاة عليه ﷺ، والدعاء لنفسه ما شاء .

وعن سعد بن أبى وقاص، عن رسول الله ﷺ قال: « من قال حين يسمع المؤذن : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمد عبده ورسوله، رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا ، غفر الله له ذنوبه » (٧) (٨).

---

(١) البخارى ( ٦١٤ ) فى الأذان ، باب: الدعاء عند النداء .

(٢) أبو داود ( ٥٢٤ ) فى الصلاة ، باب: ما يقول إذا سمع المؤذن ، بلفظ : « عن عبد الله بن عمرو أن رجلا قال : يا رسول الله . . . ».

(٣) الترمذى ( ٣٥٩٤ ) فى الدعوات ، باب: فى العفو والعافية، وقال: « حسن » .

(٤) أبو داود ( ٢٥٤٠ ) فى الجهاد ، باب: الدعاء عند اللقاء .

(٥) أبو داود ( ٥٣٠ ) فى الصلاة ، باب: ما يقول عند أذان المغرب .

(٦) أبو داود ( ٥٢٨ ) فى الصلاة ، باب: ما يقول إذا سمع الإقامة .

(٧) أبو داود ( ٥٢٥ ) فى الصلاة ، باب: ما يقول إذا سمع المؤذن .

(٨) الوابل الصيب ( ٢١٩ ـ ٢٢٣ ) .

## باب منه

أما هديه ﷺ فى الذكر عند الأذان وبعده ، فشرع لأمته منه خمسة أنواع :

**أحدها** : أن يقول السامع ، كما يقول المؤذن ، إلا فى لفظ « حى على الصلاة »«حى الفلاح » فإنه صح عنه إبدالُهما بـ « لا حول ولا قوّة إلا بالله » (١) ولم يجئ عنه الجمع بينها وبين « حى على الصلاة » « حى على الفلاح » ولا الاقتصار على الحيعلة ، وهديه ﷺ الذى صح عنه إبدالهما بالحوقلة ،وهذا مقتضى الحكمة المطابقة لحال المؤذن والسامع، فإن كلمات الأذان ذكر ،فسن للسامع أن يقولها ، وكلمة الحيعلة ، إلى الصلاة لمن سمعه، فسن للسامع أن يستعين على هذه الدعوة بكلمة الإعانة وهى « لا حول ولا قوة إلا بالله » العلى العظيم .

**الثانى** : أن يقول:وأنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسولُ الله ، رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، وأخبر أن من قال ذلك غُفر له ذنبه (٢).

**الثالث**: أن يُصلى على النبىّ ﷺ بعد فراغه من إجابة المؤذن ، وأكمل ما يصلى عليه به ،ويصلى إليه ، هى الصلاة الإبراهيمية كما علّم أمته أن يصلوا عليه ، فلا صلاة عليه أكمل منها ،وإن تحذلق المتحذلقون .

**الرابع** :أن يقول بعد صلاته عليه :« اللهم ربّ هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محموداً الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد »(٣) هذا جاء بهذا اللفظ « مقاما محمودا » بلا ألف ولا لام، وهكذا صح عنه ﷺ.

**الخامس** : أن يدعو لنفسه بعد ذلك ، ويسأل اللّه من فضله ، فإنه يُستجاب له ، كما فى « السنن » عنه ﷺ : « قل كما يقولون يعنى المؤذنين ، فإذا انتهيت فسل تُعطه » (٤).

وذكر الإمام أحمد عنه ﷺ: « من قال حين ينادى المنادى : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة النافعة ،صلِّ على محمد وارض عنه رضى لا سخط بعده ،استجاب الله له

---

(١) أبو داود ( ٥٢٧ ) فى الصلاة ، باب: ما يقول إذا سمع المؤذن .

(٢) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة .

(٣) البخارى ( ٦١٤ ) فى الأذان ، باب: الدعاء عند النداء دون لفظة : « أنك لا تخلف الميعاد » ، والبيهقى فى الكبرى ( ١/ ٤١٠ ) فى الصلاة ، باب: ما يقول إذا فرع من ذلك ،واللفظ له .

(٤) أبو داود ( ٥٢٤ ) فى الصلاة ، باب: ما يقول إذا سمع المؤذن .

دعوته » (١).

وقالت أم سلمة رضي الله عنها : علمنى رسول الله ﷺ أن أقول عند أذان المغرب : « اللهم إن هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك ، وأصوات دعاتك ، فاغفر لى » ذكره الترمذى(٢).

وذكر الحاكم فى « المستدرك » من حديث أبى أمامة يرفعه أنه كان إذا سمع الأذان قال: « اللهم رب هذه الدعوة التامة المستجابة ،والمستجاب لها ، دعوة الحق وكلمة التقوى، توفنى عليها وأحينى عليها ، واجعلنى من صالحى أهلها عملا يوم القيامة » وذكره البيهقى من حديث ابن عمر موقوفاً عليه (٣).

وذكر عنه ﷺ أنه كان يقول عند كلمة الإقامة : « أقامها الله وأدامها » (٤).

وفى السنن عنه ﷺ : « الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة » قالوا : فما نقول يا رسول الله ؟ قال: « سلُوا اللّه العافية فى الدنيا والآخرة » حديث صحيح (٥).

وفيها عنه : « ساعتان ، يفتح الله فيهما أبواب السماء ، وقلما تُرد على داع دعوته: عند حضور النداء ، والصف فى سبيل الله »(٦) (٧).

## فصل
## فى أذكار الاستفتاح

فى « الصحيحين » أن النبى ﷺ كان يقول فى استفتاحه:« اللهم باعدْ بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقنى من خطاياى ،كما ينقى الثوب الأبيض

---

(١) أحمد ( ٣٣٧٣ ) .

(٢) الترمذى ( ٣٥٨٩ ) فى الدعوات ، باب : دعاء أم سلمة ، وقال: « غريب » .

(٣) الحاكم فى المستدرك ١ / ٥٤٦ ( ٥٤٧ ) فى الدعاء ، باب: إجابة الأذان والدعاء بعده ، وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وتعقبه الذهبى وقال: « عفير واه جدا » ، والبيهقى فى الكبرى ( ١/ ٤١١ ) فى الصلاة ، باب: ما يقول إذا سمع الإقامة .

(٤) أبو داود ( ٥٢٨ ) فى الصلاة ، باب: ما يقول إذا سمع الإقامة .

(٥) أبو داود ( ٥٢١ ) فى الصلاة ، باب : ما جاء فى الدعاء بين الأذان والإقامة ، والترمذى ( ٣٥٩٤ ) فى الدعوات ، باب: فى العفو والعافية وقال : « حسن » ، واللفظ له ، والنسائى فى الكبرى ( ٩٨٩٥ ) فى عمل اليوم والليلة ، باب: الترغيب فى الدعاء بين الأذان والإقامة .

(٦) أبو داود ( ٢٥٤٠ ) فى الجهاد ، باب : الدعاء عند اللقاء.

(٧) زاد المعاد ( ٢/ ٣٩١ ـ ٣٩٤ ) .

من الدنس ، اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد » (١).

وفى « سنن أبى داود » ،عن جبير بن مطعم ،أنه رأى رسول الله ﷺ يصلى صلاة قال: « الله أكبر كبيرًا ، والحمد لله كثيرًا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ـ ثلاثًا ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه » (٢). قال : نفثه : الشعر ، ونفخه: الكبر ، وهمزه : الموتة .

وفى « السنن الأربعة »،عن عائشة وأبى سعيد وغيرهما ،أن النبى ﷺ كان إذا استفتح الصلاة قال: «سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ،وتعالى جدك ،ولا إله غيرك»(٣). وهو فى « صحيح مسلم » عن عمر موقوف عليه (٤) .

وفى « صحيح مسلم » عن على بن أبى طالب قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة قال: « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ،اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربى وأنا عبدك ،ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنوبى جميعا ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ،واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ،والخير كله فى يديك ،والشر ليس إليك، أنا بك وإليك ، تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك » (٥).

وفى «صحيح مسلم » ، عن عائشة: كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل: « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل،فاطر السموات والأرض،عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ،اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » (٦).

---

(١) البخارى ( ٧٤٤ ) فى الأذان ، باب: ما يقول بعد التكبير ، ومسلم ( ٥٩٨ / ١٤٧ ) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة .

(٢) أبو داود ( ٧٦٤ ) فى الصلاة ، باب: ما تستفتح به الصلاة من الدعاء .

(٣) أبو داود ( ٧٧٦ ) فى الصلاة ،باب: من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك ، والترمذى ( ٢٤٣ ) فى الصلاة، باب:ما يقول عند افتتاح الصلاة وقال: « هذا حديث لا نعرفه من حديث عائشة إلا من هذا الوجه »، والنسائى ( ٨٩٩ ) فى الافتتاح ، باب: الذكر بين افتتاح الصلاة وبين القراءة ،وابن ماجه ( ٨٠٦ ) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب: افتتاح الصلاة .

(٤) مسلم ( ٣٩٩ / ٥٢ ) فى الصلاة ، باب: حجة من قال : لا يجهر بالبسملة .

(٥) مسلم ( ٧٧١ / ٢٠١ ) فى صلاة المسافرين وقصرها . ، باب: الدعاء فى صلاة الليل وقيامه .

(٦) مسلم ( ٧٧٠ / ٢٠٠ ) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب: الدعاء فى صلاة الليل وقيامه .

وفى « الصحيحين » : عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل : « اللهم لك الحمد ، أنت نُور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت قيّام السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ،ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك حق ، والساعة حق . اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهى لا إله إلا أنت » (١).

# فصل
## فى ذكر الركوع والسجود والفصل بينهما وبين السجدتين

فى « السنن الأربعة » عن حذيفة رضى الله تعالى عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا ركع :« سبحان ربى العظيم » ثلاث مرات،وإذا سجد قال « سبحان ربى الأعلى » ثلاث مرات (٢).

وفيه حديث على رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه :« اللهم لك ركعت ، وبك آمنت، ولك أسلمت خشع لك سمعى وبصرى، ومخى وعظمى وعصبى»وإذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سمع اللّه لمن حمده ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شىء بعد » وإذا سجد يقول فى سجوده: «اللهم لك سجدت وبك آمنت ،ولك أسلمت سجد وجهى للذى خلقه وصوّره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » (٣).

وفى « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده :« سبحانك اللهم ربنا وبحمدك .اللهم اغفر لى »(٤).

---

(١) البخارى ( ١١٢٠ ) فى التهجد، باب: التهجد بالليل ،ومسلم ( ١٩٩/٧٦٩ ) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب: الدعاء فى صلاة الليل وقيامه .

(٢) أبو داود ( ٨٧١ ) فى الصلاة ، باب: ما يقول الرجل فى ركوعه وسجوده ، والترمذى ( ٢٦٢ ) فى الصلاة ، باب:ما جاء فى التسبيح فى الركوع والسجود وقال :« حسن صحيح » ،والنسائى ( ١٠٤٦) فى الافتتاح ، باب: الذكر فى الركوع ،وابن ماجه ( ٨٨٨ ) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب: التسبيح فى الركوع والسجود

(٣) مسلم (٧٧١/٢٠١) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ، والترمذى (٣٣٢١) فى الدعوات ، باب (٣٢) .

(٤) البخارى ( ٧٩٤ ) فى الأذان ،باب: الدعاء فى الركوع ، ومسلم ( ٢١٧/٤٨٤ ) فى الصلاة ، باب: ما يقال فى الركوع والسجود .

وفى « صحيح مسلم » عنها ﵂ : كان رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه وسجوده : «سبّوح قدّوس، رب الملائكة والروح » (١).

وفى « سنن أبى داود » عن عوف بن مالك ﵁، أن النبى ﷺ كان يقول فى ركوعه وسجوده: « سبحان ذى الجبروت ، والملكوت ، والكبرياء ، والعظمة » (٢).

وفى « صحيح مسلم » عن أبى سعيد ﵁ قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: « اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شىء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولامعطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»(٣) .

وفى « صحيح البخارى » عن رفاعة بن رافع ﵁ قال : كنا نصلى يوما وراء النبى ﷺ ، فلما رفع رأسه من الركعة قال: « سمع الله لمن حمده » ، فقال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، فلما انصرف قال: « من المتكلم ؟» قال: أنا يا رسول الله . قال: « لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أول »(٤) .

وفى « صحيح مسلم » عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء »(٥) .

وعنه ﵁ : أن رسول الله ﷺ كان يقول فى سُجوده: « اللهم اغفر لى ذنبى كله ، دقَّه ، وجِلَّه ، وأوَّله وآخره ، وعلانيته ، وسرَّه » (٦).

وقالت عائشة ﵂ :افتقدت النبى ﷺ ذات ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: « اللهم إنى أعُوذ برضاك من سخطك ، وبمُعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »(٧). روى مسلم هذه الأحاديث .

وفى « سنن أبى داود » عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما قال:كان رسول الله ﷺ

(١) مسلم ( ٤٨٧ / ٢٢٣ ) فى الصلاة ، باب: ما يقال فى الركوع والسجود .
(٢) أبو داود ( ٨٧٣ ) فى الصلاة ، باب: ما يقول الرجل فى ركوعه وسجوده .
(٣) مسلم ( ٤٧٧ / ٢٠٥ ) فى الصلاة ، باب : ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع
(٤) البخارى ( ٧٩٩ ) فى الأذان ، باب: ١٢٦ .
(٥) مسلم ( ٤٨٢ / ٢١٥ ) فى الصلاة ، باب: ما يقال فى الركوع والسجود .
(٦) مسلم ( ٤٨٣/ ٢١٦ ) فى الصلاة ، باب: ما يقال فى الركوع والسجود .
(٧) مسلم ( ٤٨٦ / ٢٢٢ ) فى الصلاة ، باب: ما يقال فى الركوع والسجود .

يقول بين السجدتين : « اللهم اغفر لى وارحمنى ، واهدنى، واجبرنى ، وعافنى وارزقنى »(١) .

وفى « السنن » أيضا عن حذيفة ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ أن رسول الله ﷺ كان يقول بين السجدتين : « رب اغفر لى ، رب اغفر لى » (٢) .

## فصل
## فى أدعية الصلاة بعد التشهد

فى « الصحيحين » عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر ، فليتعوذ بالله من أربع : من عذاب القبر ، ومن عذاب جهنم ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال » (٣) .

وفيهما أيضا عن عائشة ﵂ ، أن النبى ﷺ كان يدعو فى الصلاة : « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، اللهم إنى أعوذ بك من المأثم والمغرم » ، فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم فقال : «إن الرجل إذا غَرِم حدَّث فكذَّب ، ووعد فأخلف »(٤) .

وقد تقدم فى « الصحيحين » ، أن أبا بكر الصديق ﵁ قال لرسول اللّه ﷺ : علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى ، فقال: « قُل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيرا ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم»(٥) .

وفى « صحيح مسلم » من حديث على فى صفة صلاة رسول اللّه ﷺ أنه كان يقول من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: « اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت

(١) أبو داود ( ٨٥٠ ) فى الصلاة ، باب: الدعاء بين السجدتين .

(٢) أبو داود ( ٨٧٤ ) فى الصلاة ، باب : ما يقول الرجل فى ركوعه وسجوده ، والترمذى فى الشمائل ص ١٩٠، والنسائى ( ١١٤٥ ) فى التطبيق ، باب: الدعاء بين السجدتين ، وابن ماجه ( ٨٩٧ ) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب: ما يقول بين السجدتين .

(٣) البخارى ( ١٣٧٧ ) فى الجنائز ، باب: التعوذ من عذاب القبر ، ومسلم ( ٥٨٨ / ١٣٠ ) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب: ما يستعاذ منه فى الصلاة .

(٤) البخارى ( ٨٣٢ ) فى الأذان ، باب: الدعاء قبل السلام ، ومسلم ( ٥٨٩ / ١٢٩ ) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب: ما يستعاذ منه فى الصلاة .

(٥) البخارى ( ٨٣٤ ) فى الأذان ، باب: الدعاء قبل السلام ، ومسلم ( ٢٧٠٥ / ٤٨ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر .

وما أعلنت وما أسرفت ،وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت»[١].

وفى « سنن أبى داود » أن النبى ﷺ قال لرجل : « كيف تقول فى الصلاة » ؟ قال: أتشهد وأقول: اللهم إنى أسألك الجنة ، وأعوذ بك من النار ، أما إنى لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ ، فقال النبى ﷺ :« حولها ندندن » [٢].

وفى « المسند » و « السنن » ، عن شداد بن أوس رضي الله عنه ،أن رسول الله ﷺ كان يقول فى صلاته : « اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر ،والعزيمة على الرشد ، وأسألك شُكر نعمتك ، وحُسن عبادتك ، وأسألك قلبا سليما ، ولسانا صادقا ، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب » [٣].

وفى « سنن النسائى » : أن عمار بن ياسر صلى صلاة ،ودعا فيها بدعوات وقال: سمعتهن من رسول الله ﷺ .« اللهم بعلمك الغيب ،وقدرتك على الخلق ، أحينى إذا علمت الحياة خيرا لى ،وتوفنى إذا علمت الوفاة خيراً لى ،الله إنى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا. وأسألك نعيما لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع ،وأسألك القصد فى الفقر والغنى ،وأسألك الرضا بعد القضاء ،وأسألك برد العيش بعد الموت ،وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم ،والشوق إلى لقائك ، فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينًا بزينة الإيمان، واجعلنا هُداة مهتدين»[٤].

## فصل
## فى الأذكار المشروعة بعد السلام ، وهو إدبار السجود

فى«صحيح مسلم» عن ثوبان رضي الله عنه :كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر اللّه ثلاثا وقال:«اللهم أنت السلام ،ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام » [٥].

وفى « الصحيحين » عن المغيرة بن شعبة أن رسول اللّه ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة قال: « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء

(١) مسلم ( ٧٧١ / ٢٠١ ) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : الدعاء فى صلاة الليل وقيامه.
(٢) أبو داود ( ٧٩٢ ) فى الصلاة، باب : فى تخفيف الصلاة .
(٣) أحمد ( ٤/ ١٢٥ ) ، والترمذى ( ٣٤٠٧ ) فى الدعوات ، باب: ٢٣ ، وقال : هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه ، والنسائى ( ١٣٠٤ ) فى السهو ، باب: نوع آخر من الدعاء .
(٤) النسائى ( ١٣٠٥ ) فى السهو ، باب : ٦٢ نوع آخر .
(٥) مسلم ( ٥٩١ / ١٣٥ ) فى المساجد ومواضع الصلاة ،باب: استحباب الذكر بعد الصلاة ، وبيان صفته .

قدير ،اللهم لا مانع لما أعطيت ،ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»(١).

وفى « صحيح مسلم » عن عبد اللّه بن الزبير رضى الله تعالى عنهما ، أن رسول اللّه ﷺ كان يهلل دُبر كل صلاة حين يسلم بهؤلاء الكلمات :« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ،وله الثناءُ الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون »(٢) .

وفى « صحيح مسلم » عن أبى هريرة ، عن رسول اللّه ﷺ قال:« من سبح اللّه فى دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، وكبر الله ثلاثا وثلاثين ، وحمد الله ثلاثا وثلاثين ، وقال تمام المائة :لا إله إلا الله وحده لا شريك له،له الملك، وله الحمد ،وهو على شيء قدير ، غُفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » (٣).

وفى « السنن » عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ قال: « خصلتان ـ أو خلتان ـ لا يحافظ عليهما عبد مسلم إلا دخل الجنة ، هما يسير ، ومن يعمل بهما قليل: يُسبح اللّه فى دبر كل صلاة عشراً ، ويحمده عشراً ،ويكبره عشراً ، فذلك خمسون ومائة باللسان، وألف وخمسمائة فى الميزان.ويكبر أربعا وثلاثين إذا أخذ مضجعه ، ويحمد ثلاثا وثلاثين ، ويسبح ثلاثا وثلاثين ، فذلك مائة باللسان ،وألف فى الميزان » قال:ولقد رأيت رسول اللّه ﷺ يعقدها بيده .قالوا:يا رسول الله ، كيف هما يسير ومن يعمل بهما قليل ؟ قال:« يأتى أحدكم ـ يعنى الشيطان ـ فى منامه ، فيُنومه قبل أن يقولهما ،ويأتيه فى صلاته فيذكره حاجته قبل أن يقولهما »(٤) .

وفى « السنن » عن عقبة بن عامر : أمرنى رسول اللّه ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين دبُر كل صلاة (٥).

---

(١) البخارى (٨٤٤) فى الأذان ، باب: الذكر بعد الصلاة ، ومسلم ( ٥٩٣ / ١٣٧ ) فى المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة .

(٢) مسلم ( ٥٩٤ / ١٣٩ ) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب:استحباب الذكر بعد الصلاة ، وبيان صفته .

(٣) مسلم ( ٥٩٧ / ١٤٦) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته .

(٤) أبو داود ( ٥٠٦٥ ) فى الأدب ،باب: فى التسبيح عند النوم ، والترمذى (٣٤١٠ ) فى الدعوات ، باب:٢٥، وقال :« حسن صحيح» ، والنسائى (١٣٤٨) فى السهو، باب: عدد التسبيح بعد التسليم ،وابن ماجه (٩٢٦) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : ما يقال بعد التسليم .

(٥) أبو داود ( ١٥٢٣ ) فى الصلاة ، باب : فى الاستغفار ، والترمذى( ٢٩٠٣ ) فى فضائل القرآن، باب: ما جاء فى المعوذتين، وقال:« حسن غريب »، والنسائى ( ١٣٣٦) فى السهو ، باب : الأمر بقراءة المعوذات بعد التسليم من الصلاة .

وفى « النسائى الكبير » عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ :من قرأ آية الكرسى عقب كل صلاة ،لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت » (١) يعنى : لم يكن بينه وبين دخول الجنة إلا الموت .

وبلغنى عن شيخ الإسلام ابن تيمية، قال: ما تركته عقيب كل صلاة إلا نسياناً أو نحوه.

**قلت** : وقد بالغ أبو الفرج ابن الجوزى فى إدخاله هذا الحديث فى الموضوعات، وقال شيخنا : أبو الحجاج المزى ـ رحمه الله : إسناده على شرط البخارى .

## فصل
## فى ذكر التشهد

ثبت فى « الصحيحين » عن عبد الله بن مسعود قال: علمنى رسول الله ﷺ التشهد ـ وكفى بين كفيه ـ كما يعلمنى سورة من القرآن: « التحيات لله، والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عبادنا الصالحين ،أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » (٢).

وفى « صحيح مسلم » عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن ، وكان يقول: « التحيات المباركات ،الصلوات ، الطيبات لله، السلام عليك أيها النبىُّ ورحمةُ الله وبركاته، السلام علينا على عباد الله الصالحين. أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله »(٣) .

وفى « صحيح مسلم » ،عن أبى موسى ،أن النبى ﷺ علمهم التشهد: « التحياتُ الطيبات ،الصلوات لله ،السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ،السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » (٤).

وروى أبو داود عن ابن عمر بن الخطاب ،عن رسول الله ﷺ فى التشهد: « التحيات لله الصلوات الطيبات ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله ـ قال ابن عمر : وزاد فيها : وحده لا شريك له ـ وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله » (٥) .

---

(١) النسائى فى الكبرى ( ٩٩٢٨ ) فى عمل اليوم والليلة ، باب: ثواب من قرأ آية الكرسى دبر كل صلاة .
(٢) البخارى (٦٢٦٥) فى الاستئذان،باب: الأخذ باليد ،ومسلم (٥٩/٤٠٢) فى الصلاة، باب:التشهد فى الصلاة.
(٣) مسلم ( ٤٠٣/ ٦٠) فى الصلاة ، باب: التشهد فى الصلاة .
(٤) مسلم ( ٤٠٤ / ٦٢) فى الصلاة ،باب:التشهد فى الصلاة .
(٥) أبو داود ( ٩٧١ ) فى الصلاة ، باب : التشهد .

وروى أبو داود ، عن سمرة بن جندب : أما بعد : أمرنا رسول اللّه ﷺ إذا كان في وسط الصلاة ، أو حين انقضائها ، فابدؤوا قبل السلام فقولوا: « التحيات الطيبات والصلوات، والملك للّه ، ثم سلموا على اليمين ، ثم على قارئكم وعلى أنفسكم » (١).

وذكر مالك فى «الموطأ »: أن عمر كان يعلم الناس التشهد وهو على المنبر يقول: قولوا: « التحيات للّه،الزاكيات للّه ، الصلوات الطيبات للّه ،السلام عليك أيها النبى ورحمة اللّه وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا اللّه ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله »(٢) .

فأى تشهد أتى به من هذه التشهدات أجزأه .

وذهب الإمام أحمد وأبو حنيفة إلى تشهد ابن مسعود ، وذهب الشافعى إلى تشهد ابن عباس ، وذهب مالك إلى تشهد عمر رضي الله عنه ، والكل كافٍ يجزئ .

## فصل
## فى ذكر الصلاة على النبى ﷺ

فى « الصحيحين » عن كعب بن عجرة قال: خرج علينا رسول اللّه ﷺ فقلنا: قد عرفنا كيف نسلم عليك ، فكيف نصلى عليك ؟ قال: « قولوا اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم ،وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ،اللهم بارك على محمد ،وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد »(٣) .

وفى «الصحيحين» أيضاً : عن أبى حميد الساعدى أنهم قالوا: يا رسول اللّه ، كيف نصلى عليك ؟ قال: « قولوا : اللهم صلّ على محمد ،وعلى أزواجه وذريته ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد ، وعلى أزواجه وذريته ،كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » (٤).

وفى « صحيح مسلم » عن أبى مسعود الأنصارى قال : أتانا رسول اللّه ﷺ ونحن

---

(١) أبو داود ( ٩٧٥ ) فى الصلاة ، باب: التشهد .

(٢) مالك فى الموطأ ١/ ٩٠ ، ٩١ (٥٣) فى الصلاة ، باب: التشهد فى الصلاة .

(٣) البخارى ( ٦٣٥٧ ) فى الدعوات ، باب: الصلاة على النبى ﷺ ، ومسلم ( ٤٠٦/٦٦ ) فى الصلاة ، باب: الصلاة على النبى ﷺ بعد التشهد .

(٤) البخارى ( ٦٣٦٠ ) فى الدعوات ، باب : هل يصلى على غير النبى ﷺ ، ومسلم ( ٤٠٧/٦٩) فى الصلاة، باب: الصلاة على النبى ﷺ بعد التشهد .

فى مجلس سعد بن عبادة ،فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلى عليك يا رسول الله ، كيف نصلى عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله. ثم قال رسول الله ﷺ : « قولوا : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم ، فى العالمين إنك حميد مجيد . والسلام كما قدْ علمتم » (١) .

ذكر ابن ماجه فى« سننه » عن عبد الله بن مسعود قال: إذا صليتم على رسول الله فأحسنوا الصلاة عليه ، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه .قال: فقالوا له: فعلمنا، قال:قولوا: اللهم اجعل صلاتك ،ورحمتك،وبركاتك على سيد المرسلين ،وإمام المتقين، وخاتم النبيين ،محمد عبدك ورسولك ،إمام الخير ،وقائد الخير ،ورسول الرحمة،اللهم ابعثه مقاما محمودا يغبطُه به الأولون والآخرون ،اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ،إنك حميد مجيد،اللهم بارك على محمد ، وعلى آل محمد ،كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد (٢).

## فصل
## فى ذكر الاستخارة

فى « صحيح البخارى » عن جابر قال :كان رسول الله ﷺ يُعلمنا الاستخارة فى الأمر كما يعلمنا السورة من القرآن ،يقول:« إذا هم أحدكم بالأمر ، فليركع ركعتين من غير الفريضة ،ثم ليقُل :اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علاّم الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسمى حاجته - خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، فاقدره لى ، ويسره لى ،ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى، فاصرفه عنى ، واصرفنى عنه ،واقدر لى الخير حيث كان ، ثم أرضنى به » (٣).

وفى « مسند الإمام أحمد » ، من حديث سعد بن أبى وقاص ، عن النبى ﷺ أنه قال:« من سعادة ابن آدم استخارة الله ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله ،ومن شقوة

---

(١) مسلم ( ٤٠٥ / ٦٥ ) فى الصلاة ، باب: الصلاة على النبى ﷺ بعد التشهد .

(٢) ابن ماجه ( ٩٠٦) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب: الصلاة على النبى ﷺ.

(٣) البخارى ( ٦٣٨٢ ) فى الدعوات ، باب: الدعاء عند الاستخارة .

ابن آدم تركه استخارة اللّه ، ومن شقوة ابن آدم سخطه بما قضى اللّه » [١] .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ يقول : ما ندم من استخار الخالق .وشاور المخلوقين، وتثبت فى أمره . وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾[ آل عمران : ١٥٩ ] .

وقال قتادة : ما تشاور قوم يبتغون وجه اللّه إلا هدوا إلى أرشد أمرهم .

## فصل
## فى أذكار الكرب والغم والحزن والهم

فى « الصحيحين »: عن ابن عباس ، أن رسول اللّه ﷺ كان يقول عند الكرب: « لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا اللّه رب العرش العظيم لا إله إلا اللّه رب السموات ، ورب الأرض ،رب العرش الكريم » [٢].

وفى الترمذى عن أنس رضي الله عنه ، أن النبى ﷺ كان إذا حزبه أمر قال:« يا حى يا قيوم ، برحمتك أستغيث » [٣].

و فيه أيضا : عن أبى هريرة ، أن النبى ﷺ كان إذا أهمه الأمر ، رفع رأسه إلى السماء فقال :« سبحان اللّه العظيم » ،وإذا اجتهد فى الدعاء قال:« يا حى يا قيوم » [٤].

وفى «سنن أبى داود » عن أبى بكرة ،أن رسول اللّه ﷺ قال:«دعواتُ المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ،وأصلح لى شأنى كلِّه ،لا إله إلا أنت » [٥].

وفى « السنن » أيضا ، عن أسماء بنت عميس قالت : قال رسول اللّه ﷺ : «ألا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب ؟ اللّه اللّه ربى لا أشرك به شيئاً » [٦] .

---

(١) أحمد ( ١/١٦٨ ) ، وقال الشيخ شاكر (١٤٤٤ ):« إسناده ضعيف » .

(٢) البخارى (٦٣٤٦) فى الدعوات ، باب : الدعاء عند الكرب ، ومسلم ( ٢٧٣٠/ ٨٣) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ) باب : دعاء الكرب .

(٣) الترمذى ( ٣٥٢٤ ) فى الدعوات ، باب : ٩٢ وقال : « غريب ».

(٤) الترمذى ( ٣٤٣٦ ) فى الدعوات ، باب: ما جاء ما يقول عند الكرب ، وقال : « غريب » .

(٥) أبو داود ( ٥٠٩٠ ) فى الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح .

(٦) أبو داود ( ١٥٢٥ ) فى الصلاة، باب: فى الاستغفار ،والنسائى فى الكبرى ( ١٠٨٥ ) فى عمل اليوم والليلة ، باب : ما يقول عند الكرب إذا نزل به ، وابن ماجه ( ٣٨٨٢ ) فى الدعاء ، باب الدعاء عند الكرب.

فى رواية أنها تقال سبع مرات .

وفى الترمذى عن سعد بن أبى وقاص قال: قال رسول الله ﷺ : « دعوة ذى النون إذا دعا وهو فى بطن الحوت : ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [ الأنبياء ] لم يدْعُ بها رجل مسلم فى شيء قط ، إلا استجاب الله له »(١).

وفى رواية « إنى لأعلمك كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج الله عنه ، كلمة أخى يونس عليه السلام »(٢).

وفى « مسند الإمام أحمد » و « صحيح ابن حبان» عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال : « ما أصاب عبدا هم ولا حزن فقال: اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ماض فىّ حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور بصرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ، إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحاً » (٣) (٤) .

## باب : منه

فى جامع الترمذى من حديث أبى هريرة رضي الله عنه : أن النبى ﷺ كان إذا أهمه الأمر رفع رأسه إلى السماء ، وإذا اجتهد فى الدعاء قال: « يا حى يا قيوم » (٥).

وفيه أيضًا من حديث أنس بن مالك ، قال : كان النى ﷺ إذا كربه أمر قال: « يا حى يا قيوم ، برحمتك أستغيث » (٦).

وفى صحيح الحاكم من حديث أبى أمامة عن النبى ﷺ أنه قال : « اسم الله الأعظم فى ثلاث سور من القرآن : البقرة وآل عمران وطه » ، قال القاسم : فالتمستها فإذا هى آية ( الحى القيوم ) (٧) .

وفى جامع الترمذى وصحيح الحاكم من حديث سعد بن أبى وقاص عن النبى ﷺ

---

(١) الترمذى ( ٣٥٠٥ ) فى الدعوات، باب: ٨٢ .

(٢) كنز العمال ( ٣٤٢٧) فى أدعية الهم والكرب والحزن ، وعزاه لابن السنى فى عمل يوم وليلة عن سعد .

(٣) أحمد ( ١/ ٣٩١ ) ، وابن حبان ( ٩٦٨ ) فى الرقائق ، باب: ذكر الأمر لمن أصابه حزن أن يسأل الله ذهابه عنه وإبداله إياه فرجا .

(٤) الوابل الصيب ( ٢٢٣ ـ ٢٥٠ ) .

(٥) الترمذى ( ٣٤٣٦ ) فى الدعوات ، باب :ما جاء ما يقول عند الكرب ، وقال: « حسن غريب ».

(٦) الترمذى ( ٣٥٢٤ ) فى الدعوات ، باب: ٩٢ ، وقال : « غريب » .

(٧) الحاكم فى المستدرك ( ١/ ٥٠٥ ) فى الدعاء ، باب: اسم الله الأعظم الحى القيوم ، وسكت عنه هو والذهبى.

قال: « دعوة ذى النون ، إذا دعا وهو فى بطن الحوت : ﴿ **لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** (٨٧) ﴾ [ الأنبياء ] إنه لم يدع بها مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له» قال الترمذى: حديث صحيح(١).

وفى مستدرك الحاكم أيضا من حديث سعد عن النبى ﷺ : «ألا أخبركم بشىء إذا نزل برجل منكم أمر مهم ، فدعا به يفرّج الله عنه ؟ دُعاء ذى النون »(٢) .

وفى صحيحه أيضا عنه أنه سمع النبى ﷺ وهو يقول:«هل أدلكم على اسم الله الأعظم ؟ دُعاءُ يونس » . قال رجل:يا رسول الله،هل كانت ليونس خاصّة ؟ فقال : « ألا تسمع قوله تعالى: ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ** (٨٨) ﴾ [الأنبياء:٨٨ ]، فأيما مسلم دعا بها فى مرضه أربعين مرة فمات فى مرضه ذلك أُعطى أجر شهيد ، وإن برأ برأ مغفورًا له »(٣) .

وفى الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب : «لا إله إلا الله العظيم الحليم ،لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب العرش الكريم » (٤).

وفى مسند الإمام أحمد من حديث على بن أبى طالب رضي الله عنه قال: علمنى رسول الله ﷺ إذ نزل بى كرب أن أقول :« لا إله إلا الله الحليم الكريم ،سُبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين » (٥).

وفى مسنده أيضا من حديث عبد الله بن مسعود . قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أصاب أحداً قط همّ ولا حُزن ، فقال : اللّهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك، ماض فىّ حكمك ، عدلٌ فىّ قضاؤك ، أسألك اللهم بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو علمته أحدًا من خلقك ، أو أنزلته فى كتابك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ،وجلاء حزنى ، وذهاب همى، إلا أذهب الله عز وجل همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحا» ، فقيل : يا رسول الله ، أنتعلمها ؟ قال :« بلى ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها » (٦).

---

(١) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة .

(٢) الحاكم فى المستدرك ( ١ / ٥٠٥ ) فى الدعاء ، باب : اسم الله الأعظم الحى القيوم،وسكت عنه هو والذهبى.

(٣) الحاكم فى المستدرك (١ /٥٠٦) فى الدعاء ، باب اسم الله الأعظم الحى القيوم ، وسكت عنه وهو والذهبى .

(٤) البخارى ( ٦٣٤٦ ) فى الدعوات ، باب: الدعاء عند الكرب ، ومسلم (٢٧٣ / ٨٣ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: دعاء الكرب.

(٥) أحمد ( ٩١/١ ) ، وقال الشيخ شاكر ( ٧٠١ ) : « إسناده صحيح ».

(٦) أحمد ( ٣٩١/١ ) ،وقال الشيخ شاكر ( ٣٧١٢ ) : « إسناده صحيح »

وقال ابن مسعود : « ما كرب نبى من الأنبياء ،إلا استغاث بالتسبيح » .

وذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب « المجابين فى الدعاء » عن الحسن قال: « كان رجل من أصحاب النبى ﷺ من الأنصار يكنى أبا معلق ، وكان تاجراً يتجر بمال له ولغيره ، يضرب به الآفاق ، وكان ناسكا ورعاً ، فخرج مرة فلقيه لصّ مقنع فى السلاح. فقال له: ضع ما معك ، فإنى قاتلك ، قال: ما تريده من دمى ؟ شأنك بالمال . قال: أما المال فلى ، ولست أريد إلا دمك. قال: أما إذا أبيت فذرنى أصلى أربع ركعات . قال:صلّ ما بدا لك. فتوضأ ثم صلى أربع ركعات . فكان من دعائه فى آخر سجدة أن قال: يا ودود، يا ذا العرش المجيد ، يا فعالاً لما تريد، أسألك بعزك الذى لا يرام ، وبملكك الذى لا يضام ،وبنورك الذى ملأ أركان عرشك :أن تكفينى شر هذا اللص. يا مغيث أغثنى يا مغيث أغثنى. ثلاث مرات . فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذنى فرسه ، فلما بصُر باللص أقبل نحوه ، فطعنه فقتله. ثم أقبل إليه فقال : قم .فقلت : من أنت بأبى أنت وأمى ؟ فقد أغاثنى اللّه بك اليوم . فقال : أنا ملك من أهل السماءالرابعة ، دعوت بدعائك الأول فسمعت لأهل السماء قعقعة ، ثم دعوت بدعائك الثانى فسمعت لأهل السماء ضجة .ثم دعوت بدعائك الثالث ، فقيل لى : دعاء مكروب . فسألت اللّه أن يولينى قتله . قال الحسن :فمن توضأ وصلى أربع ركعات،ودعا بهذا الدعاء، استجيب له ، مكروبا كان أو غير مكروب (١).

## فوائد
## فى حديث إزالة الهم والحزن

فى المسند وصحيح أبى حاتم من حديث عبد اللّه بن مسعود قال: قال رسول اللّه ﷺ: « ما أصاب عبداً هم ولا حزن فقال :اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ،ماض فى حكمك ، عدل فىّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك ،أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى،وجلاء حزنى ،وذهاب همى وغمى، إلا أذهب همه وغمه ، وأبدله مكانه فرحاً » . قالوا : يا رسول اللّه،أفلا نتعلمهن ؟ قال:« بلى، ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن»(٢). فتضمن هذا الحديث العظيم أموراً من المعرفة والتوحيد

(١) الداء والدواء ( ٣٠ ـ ٣٤ ، ٣٤٩ ) .

(٢) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة .

والعبودية: منها: أن الداعى به صدر سؤاله بقوله: « إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك »، وهذا يتناول من فوقه من آبائه وأمهاته إلى أبويه آدم وحواء، وفى ذلك تملق له واستخذاء [1] بين يديه واعتراف بأنه مملوكه وآباؤه مماليكه، وأن العبد ليس له غير باب سيده وفضله وإحسانه، وأن سيده إن أهمله وتخلى عنه هلك ولم يؤه أحد ولم يعطف عليه بل يضيع أعظم ضيعة. فتحت هذا الاعتراف: إنى لا غنى بى عنك طرفة عين، وليس لى من أعوذ به وألوذ به غير سيدى الذى أنا عبده، وفى ضمن ذلك الاعتراف بأنه مربوب مدبر مأمور منهى، إنما يتصرف بحكم العبودية لا بحكم الاختيار لنفسه. فليس هذا شأن العبد بل شأن الملوك والأحرار. وأما العبيد فتصرفهم على محض العبودية، فهؤلاء عبيد الطاعة المضافون إليه سبحانه فى قوله:

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [ الحجر: ٤٢]، وقوله: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [ الفرقان: ٦٣]، ومن عداهم عبيد القهر والربوبية، فإضافتهم إليه كإضافة سائر البيوت إلى ملكه، وإضافه أولئك كإضافة البيت الحرام إليه، وإضافة ناقته إليه وداره التى هى الجنة إليه، وإضافة عبودية رسوله إليه بقوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [ البقرة: ٢٣ ]، ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ [ الإسراء: ١ ]، ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [ الجن: ١٩ ].

وفى التحقيق بمعنى قوله: « إنى عبدك » التزام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة وامتثال أمر سيده واجتناب نهيه ودوام الافتقار إليه، واللجأ إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وعياذ العبد به ولياذه به وألا يتعلق قلبه بغيره محبة وخوفاً ورجاء، وفيه أيضاً: إنى عبد من جميع الوجوه: صغيراً وكبيراً، حياً وميتاً، مطيعاً وعاصياً، معافى ومبتلى بالروح والقلب واللسان والجوارح، وفيه أيضا: أن مالى ونفسى ملك لك، فإن العبد وما يملك لسيده، وفيه أيضا: إنك أنت الذى مننت على بكل ما أنا فيه من نعمة، فذلك كله من إنعامك على عبدك. وفيه أيضاً: إنى لا أنصرف فيما خولتنى من مالى ونفسى إلا بأمرك، كما لا يتصرف العبد إلا بإذن سيده وإنى لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. فإن صح له شهود ذلك فقد قال: إنى عبدك حقيقة.

ثم قال: «ناصيتى بيدك »، أى أنت المتصرف فى، تصرفنى كيف تشاء، لست أنا المتصرف فى نفسى وكيف يكون له فى نفسه تصرف من نفسه بيد ربه وسيده وناصيته بيده وقلبه بين أصبعين من أصابعه، وموته وحياته وسعادته وشقاوته وعافيته وبلاؤه كله إليه

(١) أى انكسار.

سبحانه ،ليس إلى العبد منه شيء،بل هو فى قبضة سيده أضعف من مملوك ضعيف حقير ، ناصيته بيد سلطان قاهر مالك له تحت تصرفه وقهره بل الأمر فوق ذلك.

ومتى شهد العبد أن ناصيته ونواصى العباد كلها بيد اللّه وحده و يصرفهم كيف يشاء لم يخفهم بعد ذلك ، ولم يرجهم ولم ينزلهم منزلة المالكين ، بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين ، المتصرف فيهم سواهم والمدبر لهم غيرهم ، فمن شهد نفسه بهذا المشهد صار فقره وضرورته إلى ربه وصفاً لازماً له ، ومتى شهد الناس كذلك لم يفتقر إليهم ولم يعلق أمله ورجاءه بهم ، فاستقام توحيده وتوكله وعبوديته ؛ ولهذا قال هود لقومه :﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾ [هود:٥٦ ]

**وقوله** : « ماض فى حكمك ،عدل فى قضاؤك » تضمن هذا الكلام أمرين :

**أحدهما**: مضاء حكمه فى عبده .

**والثانى** : يتضمن حمده وعدله وهو ـ سبحانه ـ له الملك وله الحمد ، وهذا معنى قول نبيه هود :﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ ثم قال:﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾أى مع كونه مالكًا قاهراً متصرفاً فى عباده ، نواصيهم بيده فهو على صراط مستقيم . وهو العدل الذى يتصرف به فيهم فهو على صراط مستقيم فى قوله وفعله وقضائه وقدره وأمره ونهيه وثوابه وعقابه . فخبره كله صدق ،وقضاؤه كله عدل وأمره كله مصلحة، والذي نهى عنه كله مفسدة،وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله ،ورحمته وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته .

وفرق بين الحكم والقضاء وجعل المضاء للحكم والعدل للقضاء،فإن حكمه ـ سبحانه ـ يتناول حكمه الدينى الشرعى وحكمه الكونى القدرى . والنوعان نافذان فى العبد ماضيان فيه ، وهو مقهور تحت الحكمين قد مضيا فيه ونفذا فيه شاء أم أبى ، لكن الحكم الكونى لا يمكنه مخالفته ،وأما الدينى الشرعى فقد يخالفه .

ولما كان القضاء هو الإتمام والإكمال ، وذلك إنما يكون بعد مضيه ونفوذه قال:« عدل فى قضاؤك » أى الحكم الذى أكملته وأتممته ونفذته فى عبدك عدل منك فيه . وأما الحكم فهو ما يحكم به ـ سبحانه ـ وقد يشاء تنفيذه وقد لا ينفذه ،فإن كان حكماً دينياً فهو ماض فى العبد ،وإن كان كونياً ، فإن نفذه ـ سبحانه ـ مضى فيه وإن لم ينفذه اندفع عنه ، فهو ـ سبحانه ـ يقضى ما يقضى به. وغيره قد يقضى بقضاء ويقدر أمراً ولا يستطيع تنفيذه.وهو ـ

سبحانه ـ يقضى ويمضى فله القضاء والإمضاء .

وقوله: «عدل فى قضاؤك» يتضمن جميع أقضيته فى عبده من كل الوجوه ،من صحة،وسقم ، وغنى ، وفقر ، ولذة ، وألم ،وحياة ، وموت ،وعقوبة ، وتجاوز وغير ذلك ، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم**﴾ [ الشورى: ٣٠ ]، وقال: ﴿**وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨)**﴾[ الشورى: ٤٨ ] ، فكل ما يقضى على العبد فهو عدل فيه .

فإن قيل: فالمعصية عندكم بقضائه وقدره ! فما وجه العدل فى قضائها ؟ فإن العدل فى العقوبة عليها غير ظاهر . قيل : هذا سؤال له شأن ، ومن أجله زعمت طائفة أن العدل هو المقدور والظلم ممتنع لذاته . قالوا :لأن الظلم هو التصرف فى ملك الغير ،والله له كل شىء ، فلا يكون تصرفه فى خلقه إلا عدلاً .

وقالت طائفة: بل العدل أنه لا يعاقب على ما قضاه وقدره ، فلما حسن منه العقوبة على الذنب علم أنه ليس بقضائه وقدره ، فيكون العدل هو جزاؤه على الذنب بالعقوبة والذم، إما فى الدنيا وإما فى الآخرة . وصعب على هؤلاء الجمع بين العدل وبين القدر ، فزعموا أن من أثبت القدر لم يمكنه أن يقول بالعدل ومن قال بالعدل لم يمكنه أن يقول بالقدر . كما صعب عليهم الجمع بين التوحيد وإثبات الصفات ،فزعموا أنهم لا يمكنهم إثبات التوحيد إلا بإنكار الصفات ، فصار توحيدهم تعطيلاً وعدلهم تكذيباً بالقدر .

وأما أهل السنة فهم مثبتون للأمرين ، والظلم عندهم هو وضع الشىء فى غير موضعه كتعذيب المطيع ومن لا ذنب له ، وهذا قد نزه الله نفسه عنه فى غير موضع من كتابه ، وهو ـ سبحانه ـ وإن أضل من شاء وقضى بالمعصية وألغى على من شاء فذلك محض العدل فيه ؛ لأنه وضع الإضلال والخذلان فى موضعه اللائق به ، كيف ومن أسمائه الحسنى العدل الذى كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق وهو ـ سبحانه ـ قد أوضح السبل وأرسل الرسل وأنزل الكتب وأزاح العلل ومكن من أسباب الهداية والطاعة بالأسماع والأبصار والعقول ، وهذا عدله ، ووفق من شاء بمزيد عناية وأراد من نفسه أن يعينه ويوفقه ،فهذا فضله، وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله ،وخلى بينه وبين نفسه ،ولم يرد ـ سبحانه ـ من نفسه أن يوفقه فقطع عنه فضله ولم يحرمه عدله ، وهذا نوعان :

**أحدهما** : ما يكون جزاء منه للعبد على إعراضه عنه وإيثار عدوه فى الطاعة والموافقة عليه وتناسى ذكره وشكره ،فهو أهل أن يخذله ويتخلى عنه .

**والثانى** : ألا يشاء له ذلك ابتداء لما يعلم منه أنه لا يعرف قدر نعمة الهداية ،ولا يشكره عليها ،ولا يثنى عليه بها ،ولا يحبه ، فلا يشاؤها له لعدم صلاحية محله .قال

تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣].

فإذا قضى على هذه النفوس بالضلال والمعصية كان ذلك محض العدل، كما إذا قضى على الحية بأن تقتل وعلى المعصية كان ذلك محض العدل، كما إذا قضى على الحية بأن تقتل وعلى العقرب وعلى الكلب العقور كان ذلك عدلاً فيه وإن كان مخلوقاً على هذه الصفة.

**والمقصود**: أن قوله ﷺ: «ماض فى حكمك، عدل فى قضاؤك» رد على الطائفتين: القدرية الذين ينكرون عموم أقضية الله فى عبده، ويخرجون أفعال العباد عن كونها بقضائه وقدره، ويردون القضاء إلى الأمر والنهى. وعلى الجبرية الذين يقولون: كل مقدور عدل، فلا يبقى لقوله: «عدل فى قضاؤك» فائدة، فإن العدل عندهم كل ما يمكن فعله والظلم هو المحال لذاته، فكأنه قال: ماض ونافذ فى قضاؤك، وهذا هو الأول بعينه.

**وقوله**: «أسألك بكل اسم» إلى آخره، توسل إليه بأسمائه كلها ما علم العبد منها وما لم يعلم. وهذه أحب الوسائل إليه، فإنها وسيلة بصفاته وأفعاله التى هى مدلول أسمائه.

**وقوله**: «أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى» الربيع: المطر الذى يحيى الأرض، شبه القرآن به لحياة القلوب به، وكذلك شبهه الله بالمطر، وجمع بين الماء الذى تحصل به الحياة، والنور الذى تحصل به الإضاءة والإشراق، كما جمع بينهما ـ سبحانه ـ فى قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ [الرعد: ١٧].

وفى قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧]. ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩].

وفى قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾ [النور: ٣٥].

ثم قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ [النور: ٤٣].

فتضمن الدعاء أن يحيى قلبه بربيع القرآن، وأن ينور به صدره، فتجتمع له الحياة والنور، قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ولما كان الصدر أوسع من القلب كان النور الحاصل له يسرى منه إلى القلب ؛ لأنه قد حصل لما هو أوسع منه . ولما كانت حياة البدن والجوارح كلها بحياة القلب تسرى الحياة منه إلى الصدر ثم إلى الجوارح سأل الحياة له بالربيع الذى هو مادتها ، ولما كان الحزن والهم والغم يضاد حياة القلب واستنارته سأل أن يكون ذهابها بالقرآن،فإنها أحرى ألا تعود ، وأما إذا ذهبت بغير القرآن من صحة أو دنيا أو جاه أو زوجة أو ولد فإنها تعود بذهاب ذلك. والمكروه الوارد على القلب إن كان من أمر ماض أحدث الحزن ، وإن كان من مستقبل أحدث الهم ،وإن كان من أمر حاصر أحدث الغم ، والله أعلم(١) .

## فصل
## فى الأذكار الجالبة للرزق الدافعة للضيق والأذى

قال الله سبحانه وتعالى عن نبيه نوح ﷺ : ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢)** ﴾ [ نوح ] .

وفى بعض « المسانيد »،عن ابن عباس :أن رسول الله ﷺ قال:« من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ،ومن كل ضيق مخرجا ،ورزقه من حيث لا يحتسب » (٢).

وذكر أبو عمر بن عبد البر فى « التمهيد » له حديثاً مرفوعاً إلى النبى :« من قرأ سورة الواقعة كل يوم لم تصبه فاقة أبداً » (٣).

## فصل
## فى الذكر عند لقاء العدو ومن يخاف سلطاناً وغيره

فى « سنن أبى داود » و« النسائى »، عن أبى موسى، أن النبى ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: « اللهم إنا نجعلُك فى نُحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم » (٤).

---

(١) الفوائد ( ٣٣ ـ ٤١ ) .
(٢) أحمد ( ١ / ٢٤٨ ) ،وقال الشيخ شاكر ( ٢٢٣٤ ) : « إسناده صحيح » .
(٣) ابن عبد البر فى التمهيد ( ١٥ / ٣٧٥ ) فى العين ، باب: تعالج المريض .
(٤) أبو داود ( ١٥٣٧ ) فى الصلاة ، باب: ما يقول إذا خاف قوما ، والنسائى فى الكبرى ( ٨٦٣١ ) فى السير، باب: الدعاء إذا خاف قوما .

ويذكر عن النبى ﷺ أنه كان يقول عند لقاء العدو: « اللهم أنت عضُدى ، وأنت ناصرى ، وبك أقاتِلُ » (١).

وعنه ﷺ أنه كان فى غزوة فقال: « يا ملك يوم الدين ، إياك أعبُدُ ، وإياك أستعين ، قال أنس: فلقد رأيتُ الرجال تصرعها الملائكة من بين يديها ، ومن خلفها » (٢).

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : إذا خفت سلطاناً أو غيره فقل: لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، لا إله إلا أنت، عز جارك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك » (٣).

وفى « صحيح البخارى » عن ابن عباس قال: ﴿ **حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴿١٧٣﴾ ﴾ قالها إبراهيم ﷺ حين ألقى فى النار ، وقالها محمد ﷺ حين قال له الناس: ﴿**إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ**﴾ [ آل عمران ] (٤) .

## فصل
## فى الأذكار التى تطرد الشيطان

قد تقدم « أن من آية الكرسى عند نومه لم يقربه شيطان »(٥)، و « أن من قرأ الآيتين من آخر من آخر سورة البقرة كفتاه »(٦) ، « ومن قال فى يوم مائة مرة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وهو على كل شىء قدير ، كانت له حرزاً من الشيطان يومه كلَّه » (٧).

---

(١) أبو داود ( ٢٦٣٢ ) فى الجهاد ، باب: ما يدعى عند اللقاء ، وأحمد ( ٣ / ١٨٤ ) .

(٢) الطبرانى فى الأوسط ( ٨١٦٣ ) ، وقال الهيثمى فى المجمع ٣٣١/٥ :« وفيه عبد السلام بن هاشم وهو ضعيف » .

(٣) ضعيف الجامع (٥٧٨) ، وقال : « رواه ابن السنى عن ابن عمر وهو حديث ضعيف جداً » .

(٤) البخارى (٤٥٦٣ ) فى التفسير ، باب: ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴿١٧٣﴾ ﴾ .

(٥) الترمذى ( ٢٨٧٩ ) فى فضائل القرآن ، باب : ما جاء فى فضل سورة البقرة وآية الكرسى ، بمعناه وقال : « غريب» .

(٦) البخارى ( ٥٠٥١ ) فى فضائل القرآن ، باب: فى كم يقرأ القرآن ، ومسلم ( ٨٠٨ / ٢٥٦) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ، الترمذى ( ٢٨٨١ ) فى فضائل القرآن ، باب: ما جاء فى آخر سورة البقرة .

(٧) البخارى ( ٦٤٠٣ ) فى الدعوات ، باب: فضل التهليل ، ومسلم ( ٢٦٩١/ ٢٨) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء .

وقد قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾ [ المؤمنون ] .

وكان النبي ﷺ يقول: « أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه » (١).

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾ [ فصلت ] .

وعن زيد بن أسلم : أنه ولى معادن ، فذكروا كثرة الجن بها، فأمرهم أن يؤذّنوا كل وقت ، ويكثروا من ذلك ، فلم يكونوا يرون بعد ذلك شيئاً .

وفى « صحيح مسلم » عن عثمان بن أبى العاص رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، إن الشيطان حال بينى وبين صلاتى وبين قراءتى يلبسها على ، فقال رسول الله ﷺ : «ذاك شيطان يقال له : خنزب ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه ، واتفل عن يسارك ثلاثا » ففعلت ذلك ،فأذهبه الله عز وجل عنى » (١) .

وأمر ابن عباس رجلاً وجد فى نفسه شيئًا من الوسوسة والشك أن يقرأ : ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾ [ الحديد ].

ومن أعظم ما يندفع به شره بقراءة المعوذتين ،وأول ﴿ الصافات ﴾ وآخر ﴿ الحشر﴾ .

## فصل
## فى الذكر الذى تحفظ به النعم ، وما يقال عند تجددها

قال الله سبحانه وتعالى فى قصة الرجلين : ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ [ الكهف: ٣٩ ] . فينبغى لمن دخل بستانه ، أو داره ، أو رأى فى ماله وأهله ما يعجبه أن يبادر إلى هذه الكلمة ،فإنه لا يرى فيه سوءًا .

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : « ما أنعم الله على عبد نعمة فى أهل ومال

(١) أبو داود ( ٧٧٥ ) فى الصلاة ، باب: من رأى الاستفتاح بسبحانك اللّهم وبحمدك ، والترمذى ( ٢٤٢ ) فى الصلاة ، باب: ما يقول عند افتتاح الصلاة .

(٢) مسلم ( ٢٢٠٣ / ٦٨ ) فى السلام ، باب: التعوذ من شيطان الوسوسة فى الصلاة .

وولد فقال : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ فيرى فيها آفة دون الموت »(١) .

وعنه ﷺ أنه كان إذا رأى ما يسره قال: « الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات »، وإذا رأى ما يسوؤه قال: « الحمد لله على كل حال »(٢) .

# فصل
## فى الذكر عند المصيبة

قال الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾ [ البقرة ].

ويذكر عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « ليسترجع أحدكم فى كل شىء حتى فى شسع نعله فإنها من المصائب »(٣) .

وقالت أم سلمة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من عبد تُصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى ،وأخلف لى خيراً منها ، إلا آجره الله تعالى فى مصيبته ،وأخلف له خيراً منها » قالت : فلما توفى أبو سلمة قلت كما أمرنى رسول الله ﷺ ،فأخلف الله لى خيراً منه ، رسول الله ﷺ (٤).

وروى أيضاً عنها رضي الله عنها قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبى سلمة وقد شق بصره، فأغمضه، ثم قال : « إنّ الرّوح إذا قُبض تبعه البصر » فضج ناس من أهله ، فقال: « لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير ، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون » ثم قال: « اللهم اغفر لأبى سلمة ، وارفع درجتهُ فى المهديين، واخلفه فى عقبه فى الغابرين ،واغفر لنا وله يا رب العالمين ، وافسح له فى قبره ، ونوّر له فيه » (٥).

---

(١) الطبرانى فى الأوسط ( ٤٢٦١ ) ،وقال الهيثمى فى المجمع ( ١٠ / ١٤٣ ) : « رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه عبد الملك بن زرارة وهو ضعيف » ، والبيهقى فى شعب الإيمان ( ٤٥٢٥ ) باب فى تعديد نعم الله عز وجل وما يجب من شكرها ، والدر المنثور ( ٤/ ٢٢٣ ) .

(٢) الحاكم فى المستدرك ( ١/ ٤٩٩) فى الدعاء، باب: أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وسكت عنه الذهبى . وابن أبى شيبة (٩٦٠٣) فى الدعاء ، باب: ما يدعو إذا رأى الأمر يعجبه .

(٣) كنز العمال (٦٦٣٦) فى الصبر على المصائب مطلقا ، وعزاه لابن السنى فى عمل اليوم والليلة عن أبى هريرة.

(٤) مسلم ( ٩١٨ / ٣) فى الجنائز ، باب: ما يقال عند المصيبة ، وأبو داود ( ٣١١٩) فى الجنائز ، باب: فى الاسترجاع ، والترمذى ( ٣٥١١) فى الدعوات باب: ٨٤، واللفظ لمسلم .

(٥) مسلم ( ٩٢٠ / ٧ ) فى الجنائز ، باب: فى إغماض الميت والدعاء له إذا حُضر، وأبو داود( ٣١١٨) فى الجنائز، باب: تغميض الميت .

## فصل
## فى الذكر الذى يدفع به الدين ويرجى قضاؤه

وفى الترمذى عن على رضي الله عنه ، أن مُكاتباً جاءه فقال: إنى عجزتُ عن كتابتى فأعنى، فقال: ألا أعلمك كلمات علّمنيهن رسول الله ﷺ ، لو كان عليك مثل جبل أحد دينا إلا أداه الله عنك ، قل: « اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك ، وأغننى بفضلك عمن سواك » قال الترمذى : حديث حسن (١).

## فصل
## فى الذكر الذى يرقى به من اللسعة واللدغة وغيرهما

فى « صحيح البخارى » عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعوذُ الحسين رضي الله عنه ويقول: « إن أباكما كان يعوذُ بهما إسماعيل وإسحاق : أعيذكما بكلمات الله التامة ،من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » (٢).

وفى « الصحيحين » عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رجلاً من أصحاب النبى ﷺ رقى لديغا بفاتحة الكتاب ، فجعل يتفل عليه ويقرأ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ ﴾ ،فكأنما نشط من عقال ، فانطلق يمشى وما به قلبة . . . الحديث(٣).

وفى « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها : أن النبى ﷺ كان إذا اشتكى الإنسان الشىء ، أو كانت قرحة به ،أو جرح ، قال النبى ﷺ بإصبعه هكذا ـ ووضع سفيان بن عيينة إصبعه بالأرض ثم رفعها ـ وقال : « بسم الله ، تربة أرضنا بريقة بعضنا ، يشفى به سقيمنها ، بإذن ربنا » (٤).

وفى « الصحيحين » أيضا عنها رضي الله عنها : « أن النبى ﷺ كان يعوِّذ بعض أهله، يمسح بيده

---

(١) الترمذى (٣٥٦٣ ) فى الدعوات ، باب: ١١١ ، وقال :« حسن غريب » .

(٢) البخارى ( ٣٣٧١) فى الأنبياء ، باب : حديث أبى ذر أى مسجد وضع فى الأرض أول .

(٣) البخارى ( ٥٧٣٦ ) فى الطب ، باب: الرقى بفاتحة الكتاب ، ومسلم ( ٢٢٠١/ ٦٥ )فى السلام ، باب: جواز أخذ الأجرة على الرقية

(٤) البخارى ( ٥٧٤٥ ) فى الطب ، باب: رقيه النبى ﷺ ،ومسلم ( ٢١٩٤ / ٥٤ ) فى السلام ، باب: استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة .

اليمنى ويقول: « اللهم رب الناس، أذهب البأس، واشف أنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر شقما »(١) . وفى « صحيح مسلم » عن عثمان بن أبى العاص ﷺ : أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده فى جسده منذ أسلم ، فقال النبى ﷺ : « ضع يدك على الذى يألم من جسدك وقلْ : بسم الله ـ ثلاثا ـ وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » (٢).

وفى « السنن » عن ابن عباس ﷺ، عن النبى ﷺ قال: «من عاد مريضا لم يحضر أجله، فقال عنده سبع مرات : أسأل الله العظيم ، رب العرش العظيم أن يشفيك ، إلا عافاه الله تعالى » (٣).

وفى «سنن أبى داود والنسائى »، عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اشتكى منكم ، أو اشتكى أخ له فليقل: ربُّنا الله الذى فى السماء ، تقدس اسمك ، أمرك فى السماء والأرض ، كما رحمتُك فى السماء، فاجعل رحمتك فى الأرض، اغفر لنا حَوْبنا وخطايانا ، أنت رب الطيبين ، أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع ، فيبرأ » (٤).

## فصل
## فى ذكر دخول المقابر

فى « صحيح مسلم » عن بريدة بن الحصيب قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر ، أن يقول قائلهم: « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إنْ شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية » (٥).

وفى «سنن ابن ماجه » عن عائشة، قالت: فقدت النبى ﷺ : فإذا هو بالبقيع فقال:

(١) البخارى ( ٥٧٤٣ ) فى الطب ، باب: رقية النبى ﷺ ، ومسلم ( ٢١٩١/٤٦ ) فى السلام ، باب: استحباب رقية المريض .

(٢) مسلم ( ٢٢٠٢ / ٦٧ ) فى السلام ، باب: استحباب وضع يده على موضع الألم .

(٣) أبو داود ( ٣١٠٦ ) فى الجنائز ، باب: الدعاء للمريض عند العيادة ، والترمذى ( ٢٠٨٣) فى الطب ، باب: ٣٢وقال: حسن غريب ، والنسائى فى الكبرى ( ١٠٨٨٤ ) فى عمل اليوم الليلة ، باب: موضع مجلس الإنسان من المريض عند الدعاء له .

(٤) أبو داودو ( ٣٨٩٢) فى الطب ، باب: كيف الرقى ، والنسائى فى الكبرى ( ١٠٨٧٧ ) فى عمل اليوم والليلة ، باب: ما يقول من كان به أسر .

(٥) مسلم ( ٩٧٥ / ١٠٤ ) فى الجنائز ، باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها .

« السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، أنتم لنا فرط ،وإنا بكم لاحقون ، اللهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم » (١).

# فصل
## فى ذكر الاستسقاء

قال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [ نوح].

عن جابر بن عبد الله قال: أتت النبى ﷺ بواك فقال: «اللهم اسقنا غيثا مُغيثا ،مريئًا، نافعا غير ضار ، عاجلا غير آجل » فأطبقت عليهم السماء(٢) .

وعن عائشة :شكا الناس إلى رسول اللهﷺ قحوط المطر ،فأمر بمنبر فوضع له فى المصلى ،ووعد الناس يوما يخرجون فيه ،فخرج رسول الله ﷺ حين بدا حاجب الشمس، فقعد على المنبر ،فكبر وحمد اللّه عز وجل ، ثم قال: « إنكم شكوتم جدب دياركم ، واستئخار المطر عن إبان زمانه عنكم ، وقد أمركم اللّه سبحانه وتعالى أن تدعوه ، ووعدكم أن تستجيب لكم ». ثم قال: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾، لا إله إلا اللّه، يفعل ما يريد، اللهم أنت اللّه لا إله إلا أنت الغنى ، ونحن الفقراء ، أنزل علينا الغيث ،واجعل ما أنزلته علينا قوة وبلاغا إلى حين »، ثم رفع يديه ،فلم يزل فى الرفع حتى بدا بياض إبطيه ، ثم حول إلى الناس ظهره ، وقلب ـ أو حول ـ رداءه وهو رافع يديه ،ثم أقبل على الناس ،فنزل ، فصلى ركعتين، فأنشأ اللّه عز وجل سحابة ،فرعدت وبرقت ، ثم أمطرت بإذن اللّه تعالى ،فلم يأت مسجده حتى سالت السيول ،فلما رأى سرعتهم إلى الكن ،ضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه وقال: « أشهد أن الله على كل شيء قدير ، وأنى عبد الله ورسوله » (٣).

وفى « سنن أبى داود » عن عبد اللّه بن عمرو : كان رسول اللّه ﷺ إذا استسقى قال: « اللهم اسق عبادك وبهائمك، وانشر رحمتك ،وأحى بلدك الميت» (٤).

وقال الشعبى : خرج عمر يستسقى ، فلم يزد على الاستغفار . فقالوا : ما رأيناك

---

(١) ابن ماجه ( ١٥٤٦ ) فى الجنائز ،باب: ما جاء فيما يقال إذا دخل المقابر .
(٢) أبو داود ( ١١٦٩ ) فى الصلاة ، باب: رفع اليدين فى الاستسقاء .
(٣) أبو داود ( ١١٧٣ ) فى الصلاة ، باب: رفع اليدين فى الاستسقاء .
(٤) أبو داود ( ١١٧٦) فى الصلاة ، باب: رفع اليدين فى الاستسقاء .

استسقيت ، فقال: لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التى يستنزلون بها المطر ، ثم قرأ : ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ⑩ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ⑪﴾ [ نوح ]، ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [ هود : ٣] .

## فصل
## فى أذكار الريح إذا هاجت

قال أبو هريرة :سمعت رسول اللّه ﷺ يقول:« الريح من روح اللّه تعالى ، تأتى بالرحمة ، وتأتى بالعذاب ، فإذا رأيتموها فلا تسبوها، واسألوا اللّه من خيرها ،واستعيذوا باللّه من شرها » رواه أبو داود(١) .

وفى « صحيح مسلم » عن عائشة قالت:كان النبى ﷺ إذا عصفت الريح قال:« اللهم إنى أسألك خيرها ، وخير ما فيها ،وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » (٢).

وفى « سنن أبى داود » عن عائشة أيضاً رضي الله عنها :« أن النبى ﷺ كان إذا رأى ناشئاً فى أفق السماء ترك العمل وإن كان فى صلاة ، ثم يقول:« اللهم إنى أعوذ بك من شرها» فإن مطر قال:« اللهم صيبا هنيئاً » (٣).

## فصل
## فى الذكر عند الرعد

كان عبد اللّه بن الزبير رضي الله عنه إذا سمع الرعد ترك الحديث فقال: سبحان الذى﴿ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [ الرعد ١٤ ] .

وعن كعب أنه قال: من قال ذلك ثلاثا، عوفى من ذلك الرعد .

وفى الترمذى عن عبد اللّه بن عمر رضى الله تعالى عنهما ، أن رسول اللّه ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: « اللهم لا تقتلنا بغضبك ،ولا تهلكنا بعذابك ،

---

(١) أبو داود ( ٥٠٩٧ ) فى الأدب ، باب:ما يقول إذا هاجت الريح .

(٢) مسلم ( ٨٩٩ / ١٥ ) فى صلاة الاستسقاء، باب : التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح بالمطر .

(٣) أبو داود ( ٥٠٩٩ ) فى الأدب ، باب:ما يقول إذا هاجت الريح .

وعافنا قبل ذلك » (١).

## فصل
## فى الذكر عند نزول الغيث

فى « الصحيحين » عن زيد بن خالد الجُهنى قال : صلى بنا رسول اللّه ﷺ صلاة الصبح بالحديبية فى إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: « هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : اللّه ورسوله أعلم . قال : « قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل اللّه ، ورحمته ، فذلك مؤمن بى ، وكافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك كافر بى ، مؤمن بالكواكب» (٢).

وقد قيل : إن الدعاء عند نزول الغيث مستجاب .

وفى « صحيح البخارى » عن عائشة رضي الله عنها : أن النبى ﷺ كان إذا رأى المطر قال : « صيباً نافعاً » (٣).

وفى « صحيح مسلم » عن أنس رضي الله عنه قال : أصابنا ونحن مع رسول اللّه ﷺ مطر، فحسر رسول اللّه ﷺ ثوبه حتى أصابه من المطر ، فقلنا ، يا رسول اللّه ، لم صنعت هذا؟ قال : « لأنه حديث عهد بربه» (٤).

## فصل
## فى الذكر والدعاء عند زيادة المطر
## وكثرة المياه والخوف منها

فى « الصحيحين » عن أنس قال: دخل رجل المسجد يوم جمعة ورسول اللّه ﷺ قائم يخطب الناس، فقال: يا رسول اللّه، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع اللّه يغيثنا،

---

(١) الترمذى ( ٣٤٥٠) فى الدعوات ، باب: مايقول إذا سمع الرعد وقال: « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » .

(٢) البخارى ( ٨٤٦) فى الأذان ، باب: يستقبل الإمام الناس إذا سلم ، ومسلم ( ٧١/ ١٢٥) فى الإيمان ، باب : بيان كفر من قال مطرنا بالنوء .

(٣) البخارى ( ١٠٣٢ ) فى الاستسقاء ، باب: ما يقال إذا أمطرت .

(٤) مسلم ( ٨٩٨ / ١٣) فى صلاة الاستسقاء ، باب: الدعاء فى الاستسقاء .

فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: « اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا » قال أنس . ولا والله ما نرى فى السماء من سحاب ولا قزعة ، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار ، فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس،فلما توسطت السماء انتشرت ،ثم أمطرت ، فلا والله ما رأينا الشمس سبْتاً ، ثم دخل رجل من ذلك الباب فى الجمعة المقبلة ،ورسول الله ﷺ قائم يخطب،فاستقبله قائما ، فقال : يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يُمسكها عنا ، فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال : « اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام والظّراب ، وبطون الأودية ، ومنابت الشجر » قال : فأقلعت ، وخرجنا نمشى فى الشمس » (١).

## فصل
## فى الذكر عند رؤية الهلال

عن عبد الله بن عمر قال: كان رسول اللهَ ﷺ إذا رأى الهلال قال:« الله أكبر ، اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان ، والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى ،ربنا وربك الله » (٢).

وفى «سنن أبى داود» عن قتادة ، أنه بلغه : أن نبى الله ﷺ كان إذا رأى الهلال قال: «هلال خير ورشد ،هلال خير ورشد ،هلال خير ورشد ، آمنت بالله الذى خلقك » ثلاث مرات ثم يقول:« الحمد لله الذى ذهب بشهر كذا ،وجاء بشهر كذا » (٣) (٤).

### وأيضا

يُذكر عنه ﷺ أنه كان يقول:« اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان ،والسلامة والإسلام، ربى وربك الله » قال الترمذى :حديث حسن (٥).

---

(١) البخارى ( ١٠١٤ ) فى الاستسقاء ، باب : الاستسقاء فى خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، ومسلم ( ٨/٨٩٧) فى صلاة الاستسقاء ، باب: الدعاء فى الاستسقاء .

(٢) الدارمى ( ٣/٢ ، ٤ ) فى الصوم ، باب : الصوم لرؤية الهلال .

(٣) أبو داود ( ٥٠٩٢) فى الأدب ، باب: ما يقول الرجل إذا رأى الهلال .

(٤) الوابل الصيب ( ٢٥١ ـ ٢٧٠ ) .

(٥)الترمذى ( ٣٤٥١ ) فى الدعوات ، باب: ما يقول عند رؤية االهلال ، وقال : « حسن غريب ».

ويُذكر عنه أنه كان يقول عند رؤيته : « اللّه أكبر، اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان ، والسلامة والإسلام والتوفيق لما يحب ربنا ويرضى، ربُّنا وربك اللّه » ذكره الدارمى(١) .

وذكر أبو داود عن قتادة أنه بلغه أن نبى اللّه ﷺ كان إذا رأى الهلال قال: « هلال خير ورشد ، هلال خير ورشد ، آمنت بالذى خلقك ثلاث مرات ثم يقول: الحمد للّه الذى ذهب بشهر كذا ، وجاء بشهر كذا » (٢) . وفى أسانيدها لين .

ويُذكر عن أبى داود وهو فى بعض نسخ سننه أنه قال : ليس فى هذا الباب عن النبى ﷺ حديث مسند صحيح (٣) .

## فصل
## فى الذكر للصائم وعند فطره

عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: « ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم، الصائم حتى يُفطر، والإمام العادل ،ودعوة المظلوم » رواه الترمذى وقال: حديث حسن(٤) .

وروى ابن ماجه ، عن ابن أبى مليكة ، عن عبد اللّه بن عمرو :سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد » (٥) .

وقال ابن أبى مليكة : سمعت عبد اللّه بن عمرو رضى اللّه تعالى عنهما يقول إذا أفطر : اللهم إنى أسألك برحمتك التى وسعت كل شىء أن تغفر لى .

ويذكر عن النبى ﷺ أنه كان إذا أفطر قال: «اللهم لك صُمت، وعلى رزقك أفطرت»(٦).

ومن وجه آخر: «اللهم لك صُمنا ،وعلى رزقك أفطرنا ، فتقبل منا .إنك أنت السميع العليم »(٧).

---

(١ ، ٢) سبق تخريجهما ص ٣٤١ .

(٣) زاد المعاد ( ٢ /٣٩٦ ـ ٣٩٧ ) .

(٤) الترمذى ( ٣٥٩٨ ) فى الدعوات ، باب: فى العفو والعافية .

(٥) ابن ماجه ( ١٧٥٣ ) فى الصيام ، باب: فى الصائم لا ترد دعوته .

(٦) أبو داود ( ٢٣٥٨ ) فى الصوم ، باب: القول عند الإفطار .

(٧) الدارقطنى ٢/ ١٨٥ ( ٢١ ) فى الصيام ، باب: القبلة للصائم.

# فصل
# فى أذكار السفر

روى الطبرانى عن النبى ﷺ أنه قال: « ما خلف أحد عند أهله أفضل من ركعتين يركعهما عندهم حين يريد سفراً » (١).

وفى « مسند الإمام أحمد » عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ أنه قال: « من أراد سفراً فليقُل لمن يُخلِّفُ : أستودعكُم الله الذى لا تضيع ودائعه » (٢).

وفى « المسند » أيضاً ، عن ابن عمر عن النبى ﷺ، قال: « إن الله إذا استودع شيئاً حفظه » (٣).

وقال سالم: كان ابن عمر يقول لرجل إذا أراد سفراً : ادْنُ منى أودّعْك ، كما كان رسول الله ﷺ يودعُنا ، فيقول: « أستودعُ الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك »(٤).

ومن وجه آخر : كان النبى ﷺ إذا ودع رجلاً أخذ بيده ، فلا يدعْها حتى يكون الرجل هو الذى يدعُ يد النبى ﷺ . . . وذكر تمام الحديث (٥). قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وقال أنس ﷺ : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى أريد سفراً فزودنى . فقال : « زودك الله التقوى » ، قال: زدنى ، قال: « وغفر ذنبك » ، قال: زدنى ، قال: « ويسر لك الخير حيثما كنت » قال الترمذى : حديث حسن (٦).

وعن أبى هريرة أن رجلا قال: يا رسول الله، إنى أريد أن أسافر فأوصنى ، قال: عليك بتقوى الله عز وجل ، والتكبير على كل شرف » فلما ولى الرجل قال: « اللهم اطو له البعد ، وهوّن عليه السفر » قال الترمذى : حديث حسن (٧).

---

(١) السلسلة الضعيفة ( ٣٧٢ ) ، والأذكار ( ٥٣٣ ) .

(٢) أحمد ( ٢ / ٤٠٣ ) .

(٣) أحمد ( ٢/ ٨٧ ).

(٤) أبو داود ( ٢٦٠٠ ) فى الجهاد ، باب : فى الدعاء عند الوداع ، والترمذى ( ٣٤٤٣ ) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا ودع إنسانا وقال: «حسن صحيح غريب » ، وأحمد ( ٢/ ٢٥ ) .

(٥) الترمذى ( ٣٤٤٢ ) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا ودع إنسانا وقال : « غريب من هذا الوجه » .

(٦) الترمذى ( ٣٤٤٤ ) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا ودع إنسانا ،وقال : « حسن غريب » .

(٧) الترمذى ( ٣٤٤٥ ) فى الدعوات ، باب: ٤٦ .

# فصل
## فى ركوب الدابة والذكر عنده

قال على بن ربيعـة : شهدت على بن أبى طالب رضي الله عنه أُتى بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله فى الركـاب قـال : بسم اللّه ، فلما استوى على ظهرها قال : الحمد للّه ، ثم قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤) ﴾ [ الزخرف ] ثم قال: « الحمد للّه » ثلاث مرات ،ثم قال : « اللّه أكبر ثلاث مرات ، ثم قال : سبحانك إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ثم ضحك. فقيل: يا أمير المؤمنين ! من أى شىء ضحكت ، فقال : رأيت النبى ﷺ فعل كما فعلت ، ثم ضحك ، فقلت: يا رسول اللّه ،من أى شىء ضحكت؟ فقال: « إن ربك سبحانه وتعالى يعجب من عبده إذا قال: اغفر لى ذنوبى ،يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيرى » رواه أهل السنن ، وصححه الترمذى (١).

وفى « صحيح مسلم » عن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول اللّه ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر ، كبر ثلاثا ثم قال: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤) ﴾ [ الزخرف ] اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ،ومن العمل ما ترضى ،اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده،اللهم أنت الصاحب فى السفر ،والخليفة فى الأهل،اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر،وكآبة المنظر،وسوء المنقلب فى المال والأهل » ،وإذا رجع قالهن وزاد فيهن : « آيبون ، تائبون، عابدون ، لربنا حامدون »(٢) .

وفى وجه آخر :« كان رسول اللّه ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إذا علوا الثنايا كبروا ،وإذا هبطوا سبّحوا » (٣) .

---

(١) أبو داود ( ٢٦٠٢) فى الجهاد ، باب: ما يقول الرجل إذا ركب ، والترمذى ( ٣٤٤٦ ) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا ركب الناقة .

(٢) مسلم ( ١٣٤٢/ ٤٢٥ ) فى الحج ، باب: ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره .

(٣) أبو داود ( ٢٥٩٩ ) فى الجهاد ، باب: ما يقول الرجل إذا سافر .

## فصل
## فى ذكر الرجوع من السفر

قال عبد اللّه بن عمر : « كان رسول اللّه ﷺ إذا قفل من حج أو عمرة أو غزوٍ ، يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ، ثم يقول: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير، آيبون، تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون، صدق اللّه وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ». رواه البخارى ومسلم(١).

## فصل
## فى الذكر على الدابة إذا استصعبت

قال يونس بن عبيد : ليس رجل يكون على دابة صعبة فيقول فى أذنها : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [آل عمران] إلا وقفت بإذن اللّه تعالى .

قال شيخنا ـ قدس اللّه روحه : وقد فعلنا ذلك فكان كذلك .

## فصل
## فى الدابة إذا انفلتت وما يذكر عند ذلك

عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن رسول اللّه ﷺ قال: «إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة، فليناد: يا عباد اللّه، احبسوا ، يا عباد اللّه احبسوا، فإن للّه عز وجل حاضرا سيحبسه »(٢) .

---

(١) البخارى ( ٦٣٨٥ ) فى الدعوات ، باب: الدعاء إذا أراد سفرا أو رجع ، ومسلم ( ١٣٤٤/٤٢٨ ) فى الحج ، باب: ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره .

(٢) مسند أبى يعلى ( ٥٢٦٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع ( ١٠/ ١٣٥ ) فى الأذكار ، باب: ما يقول إذا انفلتت دابته أو أراد غوثا أو أضل شيئًا : « رواه أبو يعلى والطبرانى وزاد سيحبسه عليكم ، وفيه معروف بن حسان وهو ضعيف ، والسلسلة الضعيفة ( ٦٥٥ ) .

## فصل
## فى الذكر عند دخول القرية أو البلدة إذا أراد دخولها

عن صهيب رضي الله عنه ، أن النبى ﷺ لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها : « اللهم رب السموات السبع وما أظللن ،ورب الأرضين السبع وما أقللن ،ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما ذرين ،أسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، وأعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها » رواه النسائى (١).

## فصل
## فى ذكر المنزل يريد نزوله

قالت خولة بنت حكيم رضي الله عنها : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات اللّه التامات من شر ما خلق ، لم يضره شىء حتى يرتحل من منزله ذلك ». رواه مسلم (٢).

وعن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال:« يا أرض ، ربى وربك اللّه ، أعوذ باللّه من شرك وشر ما فيك ، وشر ما خلق فيك ،وشر ما يدب عليك ،وأعوذ باللّه من أسد وأسود ، ومن الحية والعقرب ،ومن ساكن البلد ، ومن والد وما ولد » . رواه أبو داود (٣) (٤).

## وأيضا

ذكر البيهقى وغيره ، عن أنس رضي الله عنه قال : لم يُرد النبى ﷺ سفرا قطّ إلا قال حين ينهض من جلوسه :« اللهم بك انتشرتُ وإليك توجهت ، وبك اعتصمت ، وعليك

---

(١) النسائى فى الكبرى ( ١٠٣٧٨ ) فى عمل اليوم والليلة ، باب: ما يقول إذا رأى قرية يريد دخولها .

(٢) مسلم ( ٢٧٠٨/ ٥٤ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: فى التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره .

(٣) أبو داود ( ٢٦٠٣ ) فى الجهاد ، باب : ما يقول الرجل إذا نزل المنزل ، وهو عن عبد اللّه بن عمرو وليس عبد اللّه بن عمر .

(٤) الوابل الصيب ( ٢٧٠ ـ ٢٨٠ ) .

توكلت، اللهم أنت ثقتى وأنت رجائى ، اللهم اكفنى ما أهمنى وما لا أهتمّ له، وما أنت أعلم به منى ، عز جارك ،وجل ثناؤك ،ولا إله غيرك ، اللهم زودنى التقوى ، واغفر لى ذنبى ، ووجهنى للخير أينما توجهت » (١)، ثم يخرج .

وكان إذا ركب راحلته ، كبّر ثلاثا ،ثم قال:« سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين،وإنا إلى ربنا لمنقلبون ». ثم يقول:« اللهم إنى أسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هوّن علينا سفرنا هذا ، واطو عنا بعده ، اللهم أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل ، اللهم اصحبنا فى سفرنا ، واخلفنا فى أهلنا » وإذا رجع قالهن وزاد فيهن : « آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون » (٢).

وذكر أحمد عنه ﷺ أنه كان يقول: « أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل ، اللهم إنى أعوذ بك من الضُّبنة فى السفروالكآبة فى المنقلب ،اللهم اقبض لنا الأرض ، وهوّن علينا السفر » ، وإذا أراد الرجوع قال :« آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون » ، وإذا دخل أهله قال : توباً توباً لربنا أوبًا ، لا يغادر علينا حوْباً » (٣).

وفى « صحيح مسلم» : أنه كان إذا سافر يقول: « اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، ومن الحور بعد الكور ، ومن دعوة المظلوم، ومن سوء المنظر فى الأهل والمال » (٤).

وكان إذا وضع رجله فى الرّكاب لركوب دابته . قال:« بسم اللّه » فإذا استوى على ظهرها، قال:« الحمد للّه » ثلاثا « الله أكبر » ثلاثا ثم يقول:« سبحان الذى سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » ثم يقول : « الحمد للّه » ثلاثا ، « واللّه أكبر » ثلاثا، ثم يقول :« سبحان اللّه » ثلاثا ،ثم يقول : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، سبحانك إنى ظلمت نفسى ، فاغفر لى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »(٥).

وكان إذا ودّع أصحابه فى السفر يقول لأحدهم: « أستودع اللّه دينك وأمانتك ،

---

(١) البيهقى فى الكبرى ( ٥/ ٢٥٠ ) فى الحج ، باب:الدعاء إذا سافر ، ومسند أبى يعلى ( ٢٧٧٠ ) ، وقال الهيثمى فى المجمع ( ١٠ / ١٣٣ ) فى الأذكار ، باب: ما يقول إذا نهض للسفر : « وفيه عمر بن مساور وهو ضعيف» .

(٢) مسلم ( ١٣٤٢ / ٤٢٥) فى الحج ، باب: ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره ، وأبو داود ( ٢٥٩٩ ) فى الجهاد ، باب : ما يقول الرجل إذا سافر .

(٣) أحمد ( ١ / ٢٥٦ ) .

(٤) مسلم ( ١٣٤٣ / ٤٢٦ ) فى الحج ، باب: ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره .

(٥) أبو داود ( ٢٦٠٢ ) فى الجهاد ، باب : ما يقول الرجل إذا ركب ، والترمذى (٣٤٤٦) فى الدعوات ، باب : ما يقول إذا ركب الناقة ،وقال: « حسن صحيح » .

وخواتيم عملك » (١).

وجاء إليه رجل وقال: يا رسول اللّه ، إنى أريد سفرا ، فزودنى فقال: « زودك اللّه بالتقوى ». قال: زدنى . قال: « وغفر لك ذنبك » . قال :زدنى . قال:« ويسر لك الخير حيثما كنت» (٢). وقال رجل : إنى أريد سفراً، فقال: « أوصيك بتقوى اللّه ، والتكبير على كل شرف » فلما ولّى ، قال:« اللهم ازو له الأرض ، وهوّن عليه السفر » (٣).

وكان النبى ﷺ وأصحابه ، إذا علوا الثنايا ،كبروا، وإذا هبطوا ، سبحوا ، فوضعت الصلاة على ذلك (٤).

وقال أنس: كان النبى ﷺ إذا علا شرفا من الأرض ،أو نشزا ، قال:« اللهم لك الشرف على كل شرفٍ ،ولك الحمد على كل حمدٍ » (٥).

وكان سيرُه فى حجه العنقَ ، فإذا وجد فجوة ،رفع السير فوق ذلك ، وكان يقول: «لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب ولا جرس » (٦).

وكان يكره للمسافر وحده أن يسير بالليل،فقال: « لو يعلم الناس ما فى الوحدة ما سار أحد وحده بليل » (٧).

بل كان يكره السفر للواحد بلا رفقة،وأخبر:«أن الواحد شيطان، والاثنان شيطانان، والثلاثة ركْب »(٨).

وكان يقول: « إذا نزل أحدكم منزلاً فلْيقل : أعُوذ بكلمات اللّه التامات من شر ما خلق، فإنه لا يضره شىء حتى يرتحل منه » .

ولفظ مسلم:« من نزل منزلاً ثم قال: أعُوذُ بكلمات اللّه التامات من شرّ ما خلق،

---

(١) أبو داود ( ٢٦٠٠ ) فى الجهاد ، باب: فى الدعاء عند الوداع ، والترمذى ( ٣٤٤٣ ) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا ودع إنسانا ، وقال : « حسن صحيح غريب » .

(٢) الترمذى ( ٣٤٤٤ ) فى الدعوات ، باب: ٤٥ ، وقال : « حسن غريب » .

(٣) الترمذى ( ٣٤٤٥ ) فى الدعوات ، باب: ٤٦ ، وقال: « حسن » .

(٤) أبو داود ( ٢٥٩٩) فى الجهاد ، باب: ما يقول الرجل إذا سافر .

(٥) أحمد ( ٣/١٢٧ ) .

(٦) مسلم (٢١١٣ / ١٠٣ ) فى اللباس والزينة ، باب: كراهة الكلب والجرس فى السفر ، وأبو داود ( ٢٥٥٥) فى الجهاد ، باب: فى تعليق الأجراس ، والترمذى ( ١٧٠٣) فى الجهاد ، باب: ما جاء فى كراهية الأجراس على الخيل .

(٧) البخارى ( ٢٩٩٨ ) فى الجهاد ، باب: السير وحده ، وابن ماجه ( ٣٧٦٨ ) فى الأدب ، باب: كراهية الوحدة، وأحمد ( ٢/ ٢٣ ) .

(٨) أبو داود ( ٢٦٠٧ ) فى الجهاد ، باب: فى الرجل يسافر وحده ، وأحمد ( ٢/ ١٨٦ ) .

فإنه لا يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك »(١) .

وذكر أحمد عنه أنه كان إذا غزا أو سافر، فأدركه الليل، قال: « يا أرض، ربى وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما دبَّ عليك، أعوذ بالله من شر كلّ أسد وأسود، وحيّة وعقرب، ومن شر ساكن البلد، ومن شر والد، وما ولد»(٢).

وكان يقول: « إذا سافرتم فى الخِصب، فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم فى السنة، فبادروا نقيها ». وفى لفظ: « فأسرعوا عليها السير، وإذا عرَّستم، فاجتنبوا الطريق، فإنها طرق الدواب ومأوى الهوام بالليل »(٣).

وكان إذا رأى قرية يريد دخولها قال حين يواها: « اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها »(٤).

وكان إذا بدا له الفجر فى السفر، قال: « سمع سامع بحمد الله وحُسن بلائه علينا، ربنا صاحبنا وأفضل علينا عائذاً بالله من النار »(٥).

وكان ينهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، مخافة أن يناله العدو(٦).

وكان ينهى المرأة أن تسافر بغير محرم، ولو مسافة بريد(٧).

وكان يأمر المسافر إذا قضى نهمته من سفره، أن يعجل الأوبة إلى أهله(٨).

---

(١) مسلم ( ٢٧٠٨/ ٥٤، ٥٥ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فى التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره .

(٢) أحمد ( ٢ / ١٣٢ ) .

(٣) مسلم ( ١٩٢٦/ ١٧٨ ) فى الإمارة، باب: مراعاة مصلحة الدواب فى السير، والنهى عن التعريس فى الطريق.

(٤) سبق تخريجه ص ٣٤٦ .

(٥) مسلم ( ٢٧١٨/ ٨ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، وأبو داود ( ٥٠٨٦ ) فى الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح .

(٦) البخارى ( ٢٩٩٠ ) فى الجهاد، باب: كراهية الضرب إلى أرض العدو بالمصاحف، ومسلم ( ١٨٦٩/ ٩٢) فى الإمارة، باب: النهى أن يسافر بالمصاحف إلى أرض الكفار، وأبو داود( ٢٦١٠ ) فى الجهاد، باب: فى المصحف يسافر به إلى أرض العدو، وابن ماجه (٢٨٧٩) فى الجهاد، باب : النهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، ومالك ٢/ ٤٤٦ (٧) فى الجهاد، باب: النهى عن أن يسافر بالقرآن إلى أوض العدو، وأحمد ٢/ ٦، ٧ .

(٧) أبو داود ( ١٧٢٥ ) فى المناسك، باب : فى المرأة تحج بغير محرم، والحاكم فى المستدرك ١/ ٤٤٢، وقال : «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذا اللفظ »، ووافقه الذهبى .

(٨) البخارى ( ١٨٠٤ ) فى العمرة، باب: السفر قطعة من العذاب، ومسلم ( ١٩٢٧ / ١٧٩) فى الإمارة، باب: السفر قطعة من العذاب، وابن ماجه ( ٢٨٨٢ ) فى المناسك، باب : الخروج إلى الحج، ومالك ٢/ ٩٨٠ (٣٩) فى الاستئذان، باب: ما يؤمر به من العمل فى السفر، وأحمد ٢/ ٢٣٦ .

وكان إذا قفل من سفره يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ، ثم يقول: «لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له،له الملك،وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون ، عابدون ،لربنا حامدون ،صدق اللّه وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» (١).

وكان ينهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً إذا طالت غيبتُهُ عنهم (٢).

وفى « الصحيحين » : كان لا يطرق أهله ليلاً يدخل عليهن غدوة أو عشية (٣).

وكان إذا قدم من سفره يلقى بالولدان من أهل بيته. قال عبد اللّه بن جعفر: وأنه قدم مرة من سفر فسبِق بى إليه ، فحملنى بين يديه،ثم جيء بأحد ابنى فاطمة ، إما حسن وإما حسين،فأردفه خلفه . قال: فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة(٤).

وكان يعتنق القادم من سفره ،ويقبله إذا كان من أهله. قال الزهرى: عن عروة ، عن عائشة :قدم زيد بن حارثة المدينة ،ورسول اللّه ﷺ فى بيتى،فأتاه ،فقرع الباب ، فقام إليه رسول اللّه ﷺ عُريانا يجرُّ ثوبه ،واللّه ما رأيته عُريانا قبله ولا بعده ، فاعتنقه وقبّله (٥).

قالت عائشة: لما قدم جعفر وأصحابه، تلقاه النبى ﷺ ،فقبّل ما بين عينيه واعتنقه(٦).

قال الشعبى :وكان أصحاب رسول اللّه ﷺ إذا قدموا من سفر، تعانقوا .

وكان إذا قدم من سفر ، بدأ بالمسجد ، فركع فيه ركعتين (٧) (٨).

---

(١) البخارى ( ١٧٩٧ ) فى العمرة. ، باب: ما يقول إذا رجع من الحج أو العمرة أو الغزو ، وأبو داود ( ٢٧٧٠ ) فى الجهاد ، باب:فى التكبير على كل شرف فى السير ، ومالك ١/ ٤٢١ ( ٢٤٣) فى الحج، باب: جامع الحج، وأحمد ٣/ ٦٣ .

(٢) البخارى ( ٥٢٤٦ ) فى النكاح ، باب: طلب الولد ،ومسلم ( ٧١٥/ ١٨٣ ) فى الإمارة ، باب:كراهة الطروق، وأبو داود ( ٢٧٧٦) فى الجهاد ، باب: فى الطروق ،والترمذى (٢٧١٢) فى الاستئذان باب: ما جاء فى كراهية طروق الرجل أهله ليلا، والدارمى ( ٢/ ٢٧٥ ) فى الاستئذان باب: فى النهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً ، وأحمد ٣/ ٣٠٢ .

(٣) البخارى ( ١٨٠٠ ) فى العمرة ، باب: الدخول بالعشى ، ومسلم ( ١٩٢٨/ ١٨٠) فى الإمارة ، باب: كراهة الطروق .

(٤) مسلم ( ٢٤٢٨ / ٦٦ ) فى فضائل الصحابة ، باب : فضائل عبد اللّه بن جعفر رضي الله عنه .

(٥) الترمذى (٢٧٣٢ ) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى المعانقة، وقال: « حسن غريب » ، وضعفه الألبانى .

(٦) أبو داود ( ٥٢٢٠ ) فى الأدب ، باب: فى قبلة ما بين العينين .

(٧) البخارى ( ٤٤١٨ ) فى المغازى ، باب: حديث كعب بن مالك ، ومسلم ( ٢٧٦٩/ ٥٣ ) فى التوبة ، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ، وأبو داود ( ٢٧٨١ ) فى الجهاد ، باب: فى الصلاة عند القدوم من السفر .

(٨) زاد المعاد ( ٢/ ٤٤٥ ـ ٤٥٤ ) .

# فصل
## فى ذكر الطعام والشراب

قال سبحانه وتعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** (١٧٢) ﴾[ البقرة ].

قال عمر بن أبى سلمة ﷺ : قال لى رسول الله ﷺ : « يا بُنَىّ ، سم اللّه وكل بيمينك ، وكلْ مما يليك » متفق عليه(١) .

وقالت عائشة ﷺ :قال رسول الله ﷺ:« إذا أكل أحدكم فليذكر اسم اللّه تعالى فى أوله ، فإن نسى أن يذكر اسم اللّه تعالى فى أوله فلْيقل : بسم اللّه أوله وآخره » ، قال الترمذى : حديث حسن صحيح (٢).

وقال أميّة بن مخشى ﷺ : كان رسول اللّه ﷺ جالساً ورجل يأكل ، فلم يسم حتى لم يبق من طعامه إلا لقمة ، فلما رفعها إلى فيه قال: بسم الله أوله وأخره ، فضحك النبى ﷺ ثم قال: ما زال الشيطان يأكل معه ، فلما ذكر اسم الله تعالى استقاء ما فى بطنه» رواه أبو داود (٣).

وقال رسول اللّه ﷺ:« إن اللّه ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها » .رواه مسلم فى « صحيحه » من حديث أنس ﷺ (٤) .

وقال أبو هريرة:« ما عاب رسول اللّه ﷺ طعاماً قط، إنْ اشتهاه أكله ،وإلا تركه» . متفق عليه (٥).

وعن وحشى : أن أناساً قالوا: يارسول اللّه ، إنا نأكل ولا نشبع ،قال: « فلعلكم تفترقون » ؟ قالوا ؛ نعم . قالوا:« فاجتمعوا على طعامكم ،واذكروا اسم اللّه تعالى يبارك

(١) البخارى ( ٥٣٧٦ ) فى الأطعمة ، باب: التسمية على الطعام والأكل باليمين ، ومسلم ( ٢٠٢٢/١٠٨) فى الأشربة ، باب: آداب الطعام والشراب وأحكامهما .

(٢) الترمذى ( ١٨٥٨) فى الأطعمة ، باب: ما جاء فى التسمية على الطعام.

(٣) أبو داود (٣٧٦٨) فى الأطعمة ، باب: التسمية على الطعام ، وضعفه الألبانى .

(٤) مسلم ( ٢٧٣٤/٨٩) فى الذكر والدعاء ، باب: استحباب حمد اللّه تعالى بعد الأكل والشرب .

(٥) البخارى ( ٥٤٠٩ ) فى الأطعمة ، باب: ما عاب النبى ﷺ طعاماً ، ومسلم ( ٢٠٦٤/١٨٧) فى الأشربة ، باب: لا يعيب الطعام .

لكم فيه » رواه أبو داود (١).

وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :« من أكل أو شرب فقال: الحمد لله الذى أطعمنى هذا الطعام ،ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة ، غُفِر له ما تقدم من ذنبه »، قال الترمذى : حديث حسن (٢).

وعن أبى سعيد رضي الله عنه : أن النبى ﷺ كان إذا فرغ من طعامه قال:« الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين» رواه أبو داود والترمذى (٣).

وذكر النسائى عن رجل خدم النبى ﷺ أنه كان يسمع النبى ﷺ إذا قرب إليه طعامه يقول :« بسْمِ الله » وإذا فرغ من طعامه قال: « اللهم أطعمت وسقيت ، وأغنيت وأقنيت، وهديت وأحييت ، فلك الحمد على ما أعطيت » (٤) .

وفى « صحيح البخارى » عن أبى أمامة رضي الله عنه، أن النبى ﷺ كان إذا رفع مائدته قال: « الحمد لله كثيراً مباركاً فيه ، غير مكفى ولا مودع ، ولا مستغنى عنه ربنا » (٥) (٦) .

## وأيضا

كان ﷺ إذا رفع الطعام من بين يديه يقول:« الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا عز وجل» ذكره البخارى (٧). وربما كان يقول:« الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين » (٨) ،وكان يقول:« الحمد لله الذى أطعم وسقى وسوّغه وجعل له مخرجاً »(٩) ،وذكر البخارى عنه أنه كان يقول:« الحمد لله الذى كفانا

(١) أبو داود ( ٣٧٦٤) فى الأطعمة ، باب: الاجتماع على الطعام .

(٢) الترمذى ( ٣٤٥٨ ) فى الدعوات، باب: ما يقول إذا فرغ من الطعام ، وقال: « حسن غريب ».

(٣) أبو داود ( ٣٨٥٠ ) فى الأطعمة ، باب :ما يقول الرجل إذا طعم ، والترمذى ( ٣٤٥٧ ) فى الدعوات، باب: ما يقول إذا فرغ من الطعام ، وضعفه الألبانى .

(٤) النسائى فى الكبرى( ٦٨٩٨ ) فى الدعاء بعد الأكل ، باب: ما يقول إذا رفعت مائدته .

(٥) البخارى ( ٥٤٥٨) فى الأطعمة، باب: ما يقول إذا فرغ من طعامه .

(٦) الوابل الصيب ( ٢٨٠ ـ ٢٨٤ ) .

(٧) انظر : تخريج الحديث السابق .

(٨) سبق تخريجه فى الصفحة نفسها برقم ٣ .

(٩) أبو داود ( ٣٨٥١ ) فى الأطعمة ، باب:ما يقول الرجل إذا طعم .

وآوانـا » [١] ، وذكـر الترمـذى عنـه أنـه قـال : « مـن أكـل طعاماً فقال : الحمد للّه الذى أطعمنى هذا من غير حول منى ولا قوة،غفر الله لـه مـا تقدم من ذنبه » [٢] حديث حسن، ويذكر عنه أنه كان إذا قرب إليه الطعام قال:« بسم اللّه » فإذا فرغ من طعامه قال:« اللهم أطعمـت وسقيت وأغنيت وأقنيت وهديـت وأحييت ، فلـك الحمـد علـى مـا أعطيـت» [٣] وإسناده صحيح.

وفى السنن عنه أنه كان يقول إذا فرغ:« الحمد للّه الذى منّ علينا وهدانا ،والذى أشبعنا وأروانا، ومن كل الإحسان آتانا »[٤] حديث حسن، وفى السنن عنه أيضاً :إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل :« اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه »،ومن سقاه الله لبناً فليقل: «اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ،فإنه ليس شىء ويجزئ عن الطعام والشراب غير اللبن »[٥] حديث حسن ويذكر عنـه أنـه إذا شرب فـى الإناء تنفس ثلاث أنفاس ، ويحمد اللّه فى كل نفس ويشكره فى آخرهن[٦] [٧] .

## وأيضاً

كان ﷺ إذا وضع يده فى الطعام قال: «بسم اللّه »[٨]ويأمر الآكل بالتسمية، ويقول: «إذا أكل أحدكم ، فليذكر اسم اللّه تعالى ، فإن نسى أن يذكر اسم اللّه فى أوله ، فليقل: بسم الله فى أوله وآخره » [٩] حديث صحيح [١٠] .

---

(١) البخارى ( ٥٤٥٩ ) فى الأطعمة ، باب: ما يقول إذا فرغ من طعامه .

(٢، ٣) سبق تخريجهما ص ٣٥٢ .

(٤) الأذكار للنووى( ٥٩٧ ).

(٥) الترمذى ( ٣٤٥٥) فى الدعوات ، باب:ما يقول إذا أكل طعاماً .

(٦) انظر: النسائى فى الكبرى ( ٦٨٨٤ ـ ٦٨٨٨ ) فى آداب الشراب، باب: الرخصة فى التنفس فى الإناء .

(٧) زاد المعاد ( ٢/ ٤٠٠ ، ٤٠١ ) .

(٨) سبق تخريجه ص ٣٥٢ .

(٩) سبق تخريجه ص ٣٥١ .

(١٠) زاد المعاد( ٢/ ٣٩٧ ) .

## فصل
## فى ذكر الضيف إذا نزل بقوم

عن عبد الله بن بسر قال: نزل رسول الله ﷺ على أبى طالب، فقربنا إليه طعاماً ووطبة ، فأكل منها ، ثم أتى بتمر ، فكان يأكله ويلقى النوى بين إصبعيه ، ويجمعُ السبابة والوسطى قال شعبة : هو ظنى ، وهو فيه إن شاء الله إلقاء النوى بين الإصبعين . ثم أُتى بشراب فشربه ،ثم ناوله الذى عن يمينه ، قال: فقال أبى ـ وأخذ بلجام دابته ـ ادع الله لنا ، فقال: « اللهم بارك لهم فيما رزقتهم ،واغفر لهم وارحمهم» رواه مسلم (١).

وعن أنس : أن النبى ﷺ جاء إلى سعد بن عبادة ، فجاء بخبزٍ وزيت فأكل، ثم قال النبى ﷺ:« أفطر عندكم الصائمون،وأكل طعامكم الأبرار ،وصلت عليكم الملائكة »رواه أبو داود (٢).

وعن جابر قال: صنع أبو الهيثم بن التيهان للنبى ﷺ طعاماً،فدعا النبى ﷺ وأصحابه، فلما فرغوا قال:« أثيبوا أخاكم » قالوا :يا رسول اللّه ،وما إثابته ؟ قال:« إن الرجل إذا دخل بيته فأُكِل طعامُهُ وشرابُهُ ، فادعوا له، فذلك إثابته» رواه أبو داود (٣).

## فصل
## فى السلام

عن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول اللّه ﷺ: أى الإسلام خير ؟ قال: «تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » ، متفق عليه (٤).

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ :« لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»

(١) مسلم ( ٢٠٤٢ / ١٤٦ ) فى الأشربة ،باب : استحباب وضع النوى خارج التمر .

(٢) أبو داود ( ٣٨٥٤ ) فى الأطعمة ، باب: ما جاء فى الدعاء لرب الطعام .

(٣) أبو داود ( ٣٨٥٣ ) فى الأطعمة ، باب: ما جاء فى الدعاء لرب الطعام إذا أكل عنده .

(٤) البخارى (١٢) فى الإيمان ، باب: إطعام الطعام من الإسلام ، ومسلم ( ٦٣/٣٩) فى الإيمان ، باب: بيان تفاضل الإسلام .

رواه أبو داود(١).

وقال عمار بن ياسر رضي الله عنه: « ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار »، ذكره البخارى(٢).

وقال عمران بن حصين: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: السلام عليكم، فرد عليه، ثم جلس، فقال النبى ﷺ « عشرٌ »، ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه، جلس، فقال: « عشرون » ثم جاء آخرفقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه، فجلس، فقال: « ثلاثون ». قال الترمذى: حديث حسن (٣).

وعن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: « إن أولى الناس بالله من ابتدأهم بالسلام» قال الترمذى: حديث حسن (٤).

وخرج أبو داود، عن على رضي الله عنه، عن النبى ﷺ قال: « يجزئ عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ويُجزئ عن الجلوس أن يرد أحدهم»(٥).

وقال أنس: مرّ النبى ﷺ على صبيان يلعبون، فسلم عليهم. حديث صحيح (٦).

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام، فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة »(٧).

## فصل
## فى الذكر عند العطاس

قال أبو هريرة عن النبى ﷺ: « إنّ الله يحب العُطاس، ويكره التثاؤب، فإذا عطس

(١) أبو داود ( ٥١٩٣ ) فى الأدب، باب: فى إفشاء السلام، الحديث فى مسلم ( ٥٤ / ٩٣ ) فى الإيمان، باب: بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمن، والترمذى ( ٢٦٨٨ ) فى الاستئذان، باب: ما جاء فى إفشاء السلام، وابن ماجه ( ٦٨ ) فى المقدمة، باب: فى الإيمان.

(٢) البخارى معلقاً وموقوفًا ( الفتح ١/ ٨٢ ) فى الإيمان، باب: إفشاء السلام من الإسلام.

(٣) الترمذى (٢٦٨٩) فى الاستئذان، باب: ما ذكر فى فضل السلام، وقال: « حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

(٤) الترمذى ( ٢٦٩٤ ) فى الاستئذان، باب: ما جاء فى فضل الذى يبدأ بالسلام.

(٥) أبو داود ( ٥٢١٠ ) فى الأدب، باب: ما جاء فى رد الواحد عن الجماعة.

(٦) البخارى ( ٦٢٤٧ ) فى الاستئذان، باب: التسليم على الصبيان، ومسلم ( ٢١٦٨ / ١٥ ) فى السلام، باب: استحباب السلام على الصبيان، وأبو داود ( ٥٢٠٢ ) فى الأدب، باب: السلام على الصبيان، والترمذى ( ٢٦٩٦ ) فى الاستئذان، باب: ما جاء فى التسليم على الصبيان.

(٧) أبو داود ( ٥٢٠٨ ) فى الأدب، باب: فى السلام إذا قام من المجلس، والترمذى ( ٢٧٠٦ ) فى الاستئذان، باب: ما جاء فى التسليم عند القيام وعند النوم، وقال: « حسن ».

أحدكم وحمد الله ، كان حقاً على كل مسلم سمعه أن يقول : يرحمك الله، وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم ،فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك الشيطان منه» ، رواه البخارى [(١)].

وعنه أيضاً عن النبى ﷺ قال: « إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله ، وليقل له أخوه أو صاحبه :يرحمكم الله ، فإن قال له : يرحمكم الله ، فليقل : يهديكم الله ويصلح بالكم » ، رواه البخارى[(٢)] ، وفى لفظ أبى داود: « الحمد لله على كل حال » [(٣)].

وقال أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول:« إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه ،فإن لم يحمد الله ، فلا تشمتوه» رواه مسلم [(٤)] [(٥)].

## وأيضا

عن أبى هريرة رضي الله عنه ، قال: كان رسول الله ﷺ إذا عطس وضع يده ، أو ثوبه على فيه ، خفض أو عضَّ، بها صوته[(٦)] ـ شك يحيى ، وهو القطان .

وأخرجه الترمـذى . وقال : حسن صحيح [(٧)]. وفى إسناده : محمد بن عجلان

وعنه رضي الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ: « خمسٌ تجب للمسلم على أخيه: رد السلام ، وتشميت العاطس، وإجابة الدعوة ، وعيادة المريض، واتباع الجنازة » [(٨)].

وأخرجه البخارى ، ومسلم والنسائى [(٩)]،فى لفظ لمسلم:« حق المسلم على المسلم ست» [(١٠)] وزاد : « وإذا استنصحك فانصح له » .

وقد أخرج الترمذى عن نافع :أن رجلاً عطس إلى جنب ابن عمر ،فقال:الحمد لله ،

---

(١) البخارى ( ٦٢٢٣ ) فى الأدب ، باب : ما يستحب من العطاس وما يكره من التثاؤب .
(٢) البخارى ( ٦٢٢٤ ) فى الأدب ، باب: إذا عطس كيف يشمت .
(٣) أبو داود ( ٥٠٣٣ ) فى الأدب ، باب: ما جاء فى تشميت العاطس .
(٤) مسلم ( ٢٩٩٢/ ٥٤ ) فى الزهد ، باب: تشميت العاطس وكراهة التثاؤب .
(٥) الوابل الصيب ( ٢٨٥ ـ ٢٩٠ ) .
(٦) أبو داود ( ٥٠٢٩ ) فى الأدب ، باب: فى العطاس .
(٧) الترمذى ( ٢٧٤٥ ) فى الأدب ، باب: ما جاء فى خفض الصوت وتخمير الوجه عند العطاس.
(٨) أبو داود ( ٥٠٣٠ ) فى الأدب ، باب: فى العطاس .
(٩) البخارى (١٢٤٠) فى الجنائز ، باب:الأمر باتباع الجنائز ،ومسلم ( ٢١٦٢/ ٤) فى السلام ، باب:من حق المسلم للمسلم رد السلام ،والنسائى فى الكبرى ( ١٠٠٤٩ ) فى عمل اليوم والليلة ، باب: ما يقول إذا عطس .
(١٠) مسلم ( ٢١٦٢ / ٥) فى السلام ،باب: من حق المسلم للمسلم رد السلام.

والسلام على رسول اللّه ، قال ابن عمر: وأنا أقول: الحمد لله ، والسلام على رسول اللّه، وليس هكذا علمنا رسول اللّه ﷺ أن نقول ، علمنا أن نقول: « الحمد لله على كل حال»[١] .وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث زياد بن الربيع.

وفى الترمذى أيضًا من حديث سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: « لما خلق اللّه آدم ، ونفخ فيه الروح عطس، فقال : الحمد لله،فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: رحمك اللّه يا آدم ، اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملأ منهم جلوس، فقال: السلام عليكم ، قالوا: وعليك السلام ورحمة اللّه ،ثم رجع إلى ربه ،فقال: إن هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم » [٢]وذكر الحديث ،وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وقد روى من غير وجه عن النبى ﷺ،ورواه زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة[٣].

## وأيضاً

عن أنس رضي الله عنه ، قال: عطس رجلان عند النبى ﷺ ، فشمّت أحدهما وترك الآخر، قال: فقيل : يا رسول الله، رجلان عطسا، فشمت أحدهما ـ قال أحمد،وهو ابن يونس ـ وتركت الآخر؟ فقال : إن هذا حمد اللّه ،وإن هذا لم يحمد اللّه » [٤].

وأخرجه البخارى ومسلم والترمذى [٥].

وقد تقدم حديث أبى هريرة وفيه: « فإذا عطس أحدكم ، وحمد الله، كان حقاً على كل مسلم سمعه أن يقول: يرحمك الله» [٦].

وترجم الترمذى على حديث أنس : باب ما جاء فى إيجاب التشميت بحمد العاطس ، وهذا يدل على أنه واجب عنده وهو الصواب للأحاديث الصريحة الظاهرة فى كل الوجوب من غير معارضة ، والله أعلم .

فمنها : حديث أبى هريرة وقد تقدم ، ومنها: حديثه الآخر:« خمس للمسلم على

(١) الترمذى ( ٢٧٣٨ ) فى الأدب ، باب: ما يقول العاطس إذا عطس.

(٢) الترمذى ( ٣٣٦٨) فى تفسير القرآن ، باب: ٩٤ .

(٣) تهذيب السنن ( ٧/ ٣٠٤ ـ ٣٠٦ ) .

(٤) أبو داود ( ٥٠٣٩ ) فى الأدب ، باب: فيمن يعطس ولا يحمد الله .

(٥) البخارى ( ٦٢٢٥ ) فى الأدب ، باب: لا يشمت العاطس إذا لم يحمد الله ، ومسلم ( ٢٩٩١/ ٥٣) فى الزهد والرقائق ، باب: تشميت العاطس وكراهة التثاؤب ، والترمذى ( ٢٧٤٢) فى الأدب ، باب:ما جاء فى إيجاب التشميت بحمد العاطس .

(٦) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة .

أخيه » (١)، ومنها :حديث سالم من عبيد وفيه: «وليقل له من عنده : يرحمك الله »(٢) ، ومنها: ما رواه الترمذى عن على قال: قال رسول الله ﷺ:« للمسلم على المسلم ست بالمعروف: يسلم عليه إذا لقيه ، ويجيبه إذا دعاه ، ويشمته إذا عطس ، ويعوده إذا مرض ، ويتبع جنازته إذا مات ،ويحب له ما يحب لنفسه » (٣)وقال: هذا حديث حسن ، قد روى من غير وجه عن النبى ﷺ وقد تكلم بعضهم فى الحارث الأعور ، فى الباب عن أبى هريرة وأبى أيوب والبراء وأبى مسعود .

**ومنها** :ما رواه الترمذى عن أبى أيوب : أن رسول الله ﷺ قال:« إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله ،وليقل : على كل حال ، وليقل الذى يرد عليه:يرحمك الله ، وليقل هو: يهديكم الله ويصلح بالكم » (٤).

فهذه أربعة طرق من الدلالة:

**أحدها** : التصريح ثبوت وجوب التشميت بلفظه الصريح الذى لا يحتمل تأويلا .

**الثانى** : إيجاب بلفظ الحق .

**الثالث** : إيجابه بلفظ « على» الظاهر فى الوجوب.

**الرابع** : الأمر به،ولا ريب ،فى إثبات واجبات كثيرة بدون هذه الطرق ،والله تعالى أعلم (٥).

## وأيضاً

عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه ؓ:أن رجلاً عطس عند النبى ﷺ ، فقال له: « يرحمك الله ».ثم عطس ، فقال النبى ﷺ :« الرجل مزكوم » (٦).

وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه (٧).

---

(١) سبق تخريجه ص ٣٥٦ .

(٢) أبو داود ( ٥٠٣١ ) فى الأدب ، باب: ما جاء فى تشميت العاطس ، والترمذى ( ٢٧٤٠) فى الأدب، باب: ما جاء كيف تشميت العاطس .

(٣) الترمذى ( ٢٧٣٦ ) فى الأدب ، باب: ما جاء فى تشميت العاطس .

(٤) الترمذى ( ٢٧٤١ ) فى الأدب ، باب: ما جاء كيف تشميت العاطس.

(٥) تهذيب السنن ( ٧/ ٣١١ ـ ٣٢١ ) .

(٦) أبو داود ( ٥٠٣٧ ) فى الأدب ، باب : كم مرة يشمت العاطس .

(٧) مسلم ( ٢٩٩٣ / ٥٥) فى الزهور والرقائق، باب: تشميت العاطس وكراهة التثاؤب ، والترمذى ( ٢٧٤٣) فى الأدب ، باب: ماجاء كم يشمت العاطس ، والنسائى فى الكبرى( ١٠٠٥١ ) فى عمل اليوم والليلة، باب: كم مرة يشمت ، وابن ماجه ( ٣٧١٤ ) فى الأدب، باب: تشميت العاطس .

ذكر حديث أبى داود: أن رجلاً عطس فقال له :« يرحمك الله »، ثم عطس، فقال النبى ﷺ :« الرجل مزكوم » .

هذا لفظ أبى داود ، ولفظ مسلم : « ثم عطس أخرى » ولفـظ النسائى : « ثم عطس الثانية » ، فقال: إنه مزكوم » .

وأما ابن ماجه فلفظه :« يشمت العاطس ثلاثاً ، فما زاد فهو مزكوم » رواه عن على ابن محمد حدثنا وكيع،عن عكرمة بن عمار،عن إياس بن سلمة،عن أبيه، عن النبى ﷺ. وهذا يوافق رواية أبى هريرة ، وعبيد بن رفاعة فى حد ذلك بالثلاث.

وأما الترمذى فلفظه فيه:عن إياس بن سلمة عن أبيه قال:«عطس رجل عند النبى ﷺ، وأنا شاهد ، فقال رسول اللهﷺ:« يرحمك الله » ،« ثم عطس الثانية ، أو الثالثة، فقال رسول الله ﷺ : « هذا رجل مزكوم» رواه من حديث سويد عن ابن المبارك عن عكرمة ابن عمار.

ثم قال: حدثنا محمد بن يسار، حدثنا يحيى بن يسار ، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عكرمة بن عمار ، عن إياس بن سلمة ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ نحوه، إلا أنه قال له فى الثالثة :« إنك مزكوم » .

قال الترمذى : وهذا أصح من حديث ابن المبارك ، وقد روى شعبة عن عكرمة بن هذا الحديث نحو رواية يحيى بن سعيد (١).

## وأيضاً

ثبت عنه ﷺ :« إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب ،فإذا عطس أحدكم وحمد الله كان حقاً على كل مسلم سمعه أن يقول له : يرحمك الله ، وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان» ذكره البخارى (٢). وثبت عنه فى « صحيحه » : « إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله ، وليقل له أخـوه أو صاحبه : يرحمك الله ، فإذا قال له : يرحمك الله ، فليقل : يهديكم الله ويصلح بالكم » (٣).

(١) تهذيب السنن ( ٧/ ٣١٠ ) .
(٢) البخارى ( ٦٢٢٦ ) فى الأدب ، باب: إذا تثاءب فليضع يده على فيه .
(٣) البخارى ( ٦٢٢٤ ) فى الأدب ، باب: إذا عطس كيف يشمت ؟

وفى« الصحيحين »عن أنس : أنه عطس عنده رجلان فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر، فقال الذى لم يشمته : عطس فلان فشمته ،وعطس فلم تشمتنى ،فقال:«هذا حمد الله وأنت لم تحمد الله»(١).

وثبت عنه فى « صحيح مسلم »:« إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه ،فإن لم يحمد فلا تشمتوه » (٢)، وثبت عنه فى« صحيحه » :من حديث أبى هريرة:« حق المسلم على المسلم ست إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ،وإذا استنصحك فانصح له،وإذا عطس وحمد الله فشمته ،وإذا مرض فعده ،وإذا مات فاتبعه » (٣) .

وروى أبو داود عنه بإسناد صحيح:« إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله على كل حال، وليقل أخوه أو صاحبه : يرحمك الله،وليقل هو :يهديكم الله ويصلح بالكم»(٤) .

وروى الترمذى أن رجلاً عطس عند ابن عمر فقال:الحمد لله والسلام على رسول الله، فقال ابن عمر: وأنا أقول: الحمد لله والسلام على رسول الله ﷺ ،وليس هكذا علمنا رسول الله ﷺ ولكن علمنا أن نقول: « الحمد على كل حال » (٥).

وذكر مالك عن نافع عن ابن عمر: كان إذا عطس فقيل له:يرحمك الله ، قال: يرحمنا الله وإياكم ، ويغفر لنا ولكم.فظاهر الحديث المبدوء به : أن التشميت فرض عين على كل من سمع العاطس يحمد الله، ولا يجزئ تشميت الواحد عنهم ، وهذا أحد قولى العلماء واختاره ابن أبى زيد وأبو بكر بن العربى المالكيان ولا دافع له .

وقد روى أبو داود:أن رجلا عطس عند النبى ﷺ فقال: السلام عليكم ، فقال رسول الله ﷺ: « وعليك السلام وعلى أمك» ،ثم قال: « إذا عطس أحدكم فليحمد الله » قال: فذكر بعض المحامد ،وليقل له من عنده: « يرحمك الله ، وليرد ـ يعنى عليهم : يغفر الله لنا ولكم » (٦) (٧) .

---

(١) سبق تخريجه ص ٣٥٧ .

(٢) مسلم ( ٢٩٩٢ / ٥٤) فى الزهد والرقائق، باب : تشميت العاطس وكراهة التثاؤب .

(٣) مسلم ( ٢١٦٢ / ٥ ) فى السلام ، باب: من حق المسلم للمسلم رد للسلام .

(٤) أبو داود ( ٥٠٣٣ ) فى الأدب ، باب: ما جاء فى تشميت العاطس .

(٥) سبق تخريجه ص ٣٥٧ .

(٦) أبو داود ( ٥٠٣١ ) فى الأدب، باب: ما جاء فى تشميت العاطس .

(٧) زاد المعاد ( ٢/ ٤٣٥ ، ٤٣٧ ) .

# فصل
# فى ذكر النكاح والتهنئة به
# وذكر الدخول بالزوجة

قال ابن مسعود : علمنا رسول الله ﷺ خطبة النكاح :

« الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ،ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » ـ وفى رواية زيادة :« أرسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدى الساعة ،من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** (١٠٢) ﴾ [ آل عمران] . ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** (١) ﴾ [ النساء ] ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً** (٧٠) **يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً** (٧١) ﴾ [ الأحزاب ] .

رواه أهل السنن الأربعة، وقال الترمذى: حديث حسن(١) .

وعن أبى هريرة ، أن النبى ﷺ كان إذا رفّأ الإنسان إذا تزوج قال: « بارك الله لك ، وبارك عليك وجمع بينكما فى خير وعافية » .

قال الترمذى: حديث حسن صحيح (٢).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده ، عن النبى ﷺ قال:« إذا تزوج أحدكم امرأة ،أو اشترى خادماً فليقل: اللهم إنى أسألك خيرها،وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه ،وأعوذ بك من شرها وشر من جبلتها عليه،وإذا اشترى

(١) أبو داود ( ٢١١٨ ) فى النكاح ، باب: فى خطبة النكاح، والترمذى ( ١١٠٥ ) فى النكاح ، باب: ما جاء فى خطبة النكاح ، والنسائى ( ١٤٠٤ ) فى الجمعة ، باب: كيفية الجمعة ،وابن ماجه ( ١٨٩٢ ) فى النكاح ، باب: خطبة النكاح .

(٢) أبو داود ( ٢١٣٠ ) فى النكاح ، باب : ما يقال للمتزوج ،والترمذى ( ١٠٩١ ) فى النكاح ، باب: ما جاء فيما يقال للمتزوج ،وابن ماجه ( ١٩٠٥ ) فى النكاح ، باب: تهنئة النكاح .

بعيراً ،فليأخذ بذِرْوة سنامه وليقُل مثل ذلك » رواه أبو داود (١).

وفى الصحيحين عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال :« لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ،وجنب الشيطان ما رزقتنا، فقضى بينهما ولد ، لم يضره الشيطان أبداً » (٢) (٣).

## وأيضاً

ثبت عنه ﷺ أنه علمهم خُطبة الحاجة: « الحمد للّه نحمده،ونستعينه،ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا، من يهدى الله ،فلا مضل له،ومن يضلل فلا هادى له،وأشهد أن لا إله إلا اللّه،وأشهد أن محمد عبده ورسوله،ثم يقرأ الآيات الثلاث: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِه وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴿١٠٢﴾ ﴾ [ آل عمران] ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** ﴿١﴾ ﴾ [ النساء ] ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً** ﴿٧٠﴾ **يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً** ﴿٧١﴾ ﴾ [ الأحزاب ] (٤).

قال شعبة : قلت لأبى إسحاق: هذه فى خطبة النكاح، أو فى غيرها ؟ قال: فى كل حاجة .

وقال: « إذا أفاد أحدكم امرأة ، أو دابة ،أو خادماً ، أو دابة ، فليأخذ بناصيتها،وليدع اللّه بالبركة ويُسمى الله عز وجل،وليقل:اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما جلبت عليه»(٥).

وكان يقول للمتزوج : « بارك اللّه لك وبارك عليك ،وجمع بينكما فى خير» (٦).

وقال : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله ،قال:بسم اللّه ، اللهم جنِّبنا الشيطان،

---

(١) أبو داود ( ٢١٦٠) فى النكاح، باب : فى جامع النكاح .

(٢) البخارى ( ٥١٦٥ ) فى النكاح ، باب: ما يقول الرجل إذا أتى أهله ، ومسلم ( ١١٦/١٤٣٤) فى النكاح ، باب: ما يستحب أن يقوله عند الجماع .

(٣) الوابل الصيب ( ٢٩٠ ـ ٢٩٣ ).

(٤) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة .

(٥ ، ٦) سبق تخريجهما فى الصفحة نفسها .

وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولدٌ فى ذلك ، لم يضره الشيطان أبداً»(١) (٢).

# فصل

## فى الذكر عند الولادة والذكر المتعلق بالولد

يذكر أن فاطمة رضي الله عنها لما دنا ولادها ، أمر النبى ﷺ أم سلمة وزينب بنت جحش أن تأتيا فتقرآ عليها آية الكرسى ،و ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ** ﴾إلى آخرالآيتين [ الأعراف :٥٤ ـ ٥٥ ]، وتعوذاها بالمعوذتين (٣).

وقال أبو رافع : رأيتُ رسول اللّه ﷺ أذن فى أذن الحسن بن على حين ولدته فاطمة بالصلاة ، قال الترمذى :حديث حسن صحيح (٤).

ويذكر عن الحسين بن على قال: قال رسول اللّه ﷺ :« من ولد له مولود ، فأذن فى أذنه اليمنى ،وأقام فى أذنه اليسرى لم تضره أمُّ الصّبيان » (٥) .

وقالت عائشة : كان النبى ﷺ يؤتى بالصبيان ، فيدعو لهم بالبركة ويحنكُهُم ، رواه أبو داود(٦).

وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : أن النبى ﷺ أمر بتسمية المولود يوم سابعه، ووضع الأذى عنه ،والعقّ. قال الترمذى: حديث حسن (٧).

وقد سمى النبى ﷺ ابنه إبراهيم،وإبراهيم بن أبى موسى ،وعبد الله بن أبى طلحة ، والمنذر بن أبى أسيد قريباً من ولادتهم .

وعن أبى الدرداء قال: قال رسول اللّه ﷺ : « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فأحسنوا أسماءكم » ذكره أبو داود (٨).

---

(١) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة .
(٢) زاد المعاد ( ٢ / ٤٥٤ ـ ٤٥٦ ) .
(٣) الأذكار للنووى ( ٧٢٧) .
(٤) الترمذى ( ١٥١٤) فى الأضاحى ، باب: الأذان فى أذن المولود .
(٥) الأذكار للنووى ( ٧٢٩ ) .
(٦) أبو داود ( ٥١٠٦ ) فى الأدب ، باب : الصبى يولد فيؤذن فى أذنه .
(٧) الترمذى ( ٢٨٣٢ ) فى الأدب ،باب: ما جاء فى تعجيل اسم المولود ، وقال : « حسن غريب » .
(٨) أبو داود ( ٤٩٤٨ ) فى الأدب ، باب:فى تغيير الأسماء ، وضعفه الألبانى .

وذكر مسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: « إن أحب أسمائكم إلى الله عز وجل : عبد الله ، عبد الرحمن » (١).

وعن أبى وهب الجشمى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « تسموا بأسماء الأنبياء وإن أحب الأسماء إلى الله عز وجل:عبد الله ،وعبد الرحمن، وأصدقها :حارث وهمام ، وأقبحها : حرب ومرّة » رواه أبو داود والنسائى (٢).

وغير النبى ﷺ الأسماء المكروهة إلى أسماء حسنة ، فغير اسم برة إلى زينب ، وغير اسم حزن إلى سهل ،وغير اسم عاصية فسماها جميلة ، وغير أصرم إلى زُرعة .

وسمى حربا سلماً،وسمى المضطجع المنبعث،وسمى أرضا يقال لها: عفْرة ، خضرة ، وشعْب الضلالة سماه شعب الهدى ،وبنو الزنية سماهم بنى الرشد .

## فصل
## فى صياح الديكة والنهيق والنباح

فى« الصحيحين » عن أبى هريرة رضي الله عنه ،عن النبى ﷺ قال:«إذا سمعتم نُهاق الحمير، فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانا ،وإذا سمعتم صياح الديكة ،فسلوا الله من فضله ، فإنها رأت ملكاً » (٣).

وفى « سنن أبى داوَد » عن جابر قال:قال رسول الله ﷺ:« إذا سمعتم نُباح الكلاب ونهيق الحمير بالليل ،فتعوذوا بالله منهن ،فإنهن يرين ما لا ترون ».رواه أبو داود(٤) (٥).

---

(١) مسلم ( ٢١٣٢ / ٢ ) فى الآداب، باب : النهى عن التكنى بأبى القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء.

(٢) أبو داود ( ٤٩٥٠ ) فى الأدب ، باب: فى تغيير الأسماء ، والنسائى ( ٣٥٦٥ ) فى الخيل ، باب: ما يستحب من شية الخيل ، وقال الألبانى:صحيح دون قوله : « تسموا بأسماء الأنبياء » .

(٣) البخارى (٣٣٠٣ ) فى بدء الخلق ، باب: خير مال المسلم غنم ، ومسلم ( ٢٧٢٩/ ٨٢ )فى الذكر والدعاء ، باب : استحباب الدعاء عند صياح الديك .

(٤) أبو داود ( ٥١٠٣) فى الأدب ، باب: ما جاء فى الديك والبهائم .

(٥) الوابل الصيب ( ٢٩٣ ـ ٢٩٧ ) ، وزاد المعاد ( ٢/ ٤٦٦ ) .

# فصل
## فى الذكر يطفأ به الحريق

يذكر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا رأيتم الحريق فكبروا ، فإن التكبير يطفئه» (١) (٢).

# فصل
## فى كفارة المجلس

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : من جلس مجلساً ، فكثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك سبحانك اللّهم وبحمدك،أشهد أن لا إله إلا أنت ،أستغفرك وأتوب إليك،إلا كُفر له ما كان فى مجلسه ذلك».قال الترمذى:حديث حسن صحيح(٣).

وفى حديث آخر : أنه إن كان فى مجلس خير كان كالطابع له ،وإن كان فى مجلس تخليط كان كفارة له (٤).

وفى « السنن » عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله تعالى فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار،وكان عليهم حسرة » (٥).

وعن ابن عمر قال: قلّما كان رسول الله ﷺ يقوم فى مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ،اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا ،واجعل ثأرنا على من ظلمنا ،وانصرنا على من عادانا،ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ،ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ،ولا مبلغ علمنا،ولا تسلط علينا من لا يرحمنا ». قال الترمذى : حديث حسن(٦) (٧).

---

(١) الأذكار للنووى ( ٧٦٦ ) .

(٢) الوابل الصيب ( ٢٩٨ ) ، وزاد المعاد ( ٢/٤٦٦ ) .

(٣) الترمذى ( ٣٤٣٣ ) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا قام من مجلسه ، وقال الترمذى : « حسن غريب صحيح» .

(٤) الحاكم فى المستدرك وقال : « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى » .

(٥) أبو داود ( ٤٨٥٥ ) فى الأدب ، باب: كراهية أن يقوم الرجل من مجلسه ولا يذكر الله .

(٦) الترمذى ( ٣٥٠٢ ) فى الدعوات ، باب ( ٨٠ ) .

(٧) الوابل الصيب (٢٩٨ ، ٢٩٩ ) .

## وأيضاً

كره ﷺ لأهل المجلس أن يُخلوا مجلسهم من ذكر اللّه عز وجل ،وقال:« ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة الحمار » (١).

وقال: « من قعد مقعداً لم يذكر اللّه فيه كانت عليه من اللّه ترَةٌ ومن اضطجع مضجعا لا يذكر الله فيه ، كانت عليه من اللّه ترة» (٢). والتِّرَةُ : الحسرة .

وفى لفظ :« وما سلك أحد طريقاً لم يذكر الله فيه ، إلا كانت عليه تِرَةٌ » (٣) .

وقال ﷺ :« من جلس فى مجلس ، فكثر فيه لغطُهُ ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك (٤) .

وفى « سنن أبى داود » و « مستدرك الحاكم » أنه ﷺ كان يقول ذلك إذا أراد أن يقوم من المجلس ، فقال له رجل : يا رسول اللّه ،إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى . قال:« ذلك كفارة لما يكون فى المجلس» (٥) (٦).

## فصل
## فيما يقال ويفعل عند الغضب

قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

وقال سليمان بن صرد : كنت جالساً مع النبى ﷺ ورجلان يستبّان ،أحدهما قد احمر وجهه وانتفخت أوداجه ، فقال النبى ﷺ:« إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ،

---

(١) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة .

(٢) أبو داود ( ٤٨٥٦ ) فى الأدب ، باب: كراهية أن يقوم الرجل من مجلسه ولا يذكر اللّه .

(٣) أحمد ٢/ ٤٣٢ .

(٤) سبق تخريجه بالصفحة السابقة .

(٥) أبو داود ( ٤٨٥٩ ) فى الأدب ،باب: كفارة المجلس، والحاكم ١/ ٥٣٧ وسكت عنه هو والذهبى .

(٦) زاد المعاد ( ٢/ ٤٦٦ ، ٤٦٧ ) .

لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجدُ » متفق عليه (١).

وعن عطية بن عروة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خُلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » رواه أبو داود (٢).

وفى حديث آخر : « أنه أمر من غضب إذا كان قائماً أن يجلس، وإذا كان جالساً أن يضطجع » (٣) (٤) .

## وأيضاً

لما كان الغضبُ والشهوةُ جمرتين من نار فى قلب ابن آدم ، أمر أن يُطفئَهما بالوضوء، والصلاة والاستعاذة من الشيطان الرجيم ،كما قال تعالى : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُم** ﴾ [ البقرة : ٤٤ ] ، وهذا إنما يحمل عليه شدة الشهوة ، فأمرهم بما يُطفئون بها جمرتها ، وهو الاستعانة بالصبر والصلاة ، وأمر تعالى بالاستعاذة من الشيطان عند نزغاته ولما كانت المعاصى كلها تتولد من الغضب والشهوة ،وكان نهايةُ قوة الغضب القتل ، ونهاية قوة الشهوة الزنا ،جمع الله تعالى بين القتل والزنا، وجعلهما قرينين فى سورة الأنعام ، وسورة الإسراء ،وسورة الفرقان ، وسورة الممتحنة .

**والمقصود** : أنه ـ سبحانه ـ أرشد عباده إلى ما يدفعون به شرّ قوتى الغضب والشهوة من الصلاة والاستعاذة (٥).

---

(١) البخارى ( ٦٠٤٨ ) فى الأدب، باب: ما ينهى من السباب واللعن ، ومسلم ( ٢٦١٠ / ١٠٩ ) فى الأدب ، باب: ما يقال عند الغضب .

(٢) أبو داود ( ٤٧٨٤ ) فى الأدب ، باب: ما يقال عند الغضب ، وضعفه الألبانى .

(٣) أبو داود ( ٤٧٨٢ ) فى الكتاب والباب السابقين ،وأحمد ٥/ ١٥٢ .

(٤) الوابل الصيب ( ٣٠٠ ، ٣٠١ ) .

(٥) زاد المعاد ( ٢/ ٤٦٣) .

## فصل

## فيما يقال عند رؤية أهل البلاء

عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال: « من رأى مُبتلى فقال: الحمد للّه الذى عافانى مما ابتلاك به ،وفضلنى على كثير ممن خلق تفضيلاً ،لمْ يُصبه ذلك البلاءُ »(١). قال الترمذى: حديث حسن (٢).

## فصل

## فى الذكر عند دخول السوق

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ :« من دَخل السُّوق فقال: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يُحيى ويميت ، وهو حى لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير، كتب اللّه له ألف ألف حسنة ، ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة » رواه الترمذى(٣) .

وعن بريدة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل السوق قال:« بسم الله ، اللهم إنى أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها ، وأعوذ بك من شرّها وشر ما فيها ،اللهم إنى أعوذ بك أن أُصيب بها يمينا فاجرة ، أو صفقة خاسرة »(٤) .

## فصل

## فى الرجل إذا خدرت رجله

عن الهيثم بن حنش قال: كنا عند عبد اللّه بن عمر ﷺ، فخدرت رجله ،فقال له رجل : اذكر أحب الناس إليك ، فذكر محمداً ، فكأنما نشط من عقال.

(١) الترمذى (٣٤٣٢ ) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا رأى مبتلى وقال : « غريب » .
(٢) الوابل الصيب ( ٣٠١ )، وزاد المعاد ( ٢/ ٤٥٦ ) .
(٣) الترمذى ( ٣٤٢٨ ) فى الدعوات ، باب: ما يقول إذا دخل السوق ، وقال : « غريب » .
(٤) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٣٩) وقال : « إسناده صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ، وقال الذهبى : « أبو عمرو لا يعرف والمدائنى متروك »، وضعفه الألبانى .

وعن مجاهد رحمه الله قال: خدرت رجلُ رجلٍ عند ابن عباس رضي الله عنهما فقال : اذكر أحب الناس إليك ،فقال: محمد رسول الله ، فذهب خدره .

## فصل

## فى الدابة إذا عثرت

عن أبى المليح عن رجل قال: كنتُ رديف النبى ﷺ فعثرت دابتُه ، فقلت : تعس الشيطان ، فقال:« لا تقُل : تعس الشيطان ، فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت ،ولكن قلْ : بسم الله ، فإنك إذا قُلتَ ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذُّباب »(١) .

## فصل

## فيمن أهدى هديه أو تصدق بصدقة

## فدعا له ،ماذا يقول ؟

عن عائشة رضي الله عنها قالت : أُهديتْ لرسول الله ﷺ شاة فقال : « اقسميها »،وكانت عائشة رضي الله عنها إذا رجعت الخادم تقول: ماذا قالوا ؟ تقول الخادم : قالوا: بارك الله فيكم ، تقول عائشة رضي الله عنها : وفيهم بارك الله ،نرد عليهم مثل ما قالوا ويبقى أجرنا لنا(٢) .

وقد روى عنها فى الصدقة مثل ذلك(٣) .

## وأيضاً

كان ﷺ يدعو لمن تقرّب إليه بما يُحب وبما يناسب ، فلما وضع له ابن عباس وضوءه قال:« اللهم فقّهه فى الدين ، وعلّمهُ التأويل» (٤).

ولما دعّمه أبو قتادة فى مسيره بالليل لمّا مال عن راحلته ،قال: « حفظك الله بما

(١) أبو داود ( ٤٩٨٣ ) فى الأدب ، باب: لا يقال : خبثت نفسى.

(٢) الأذكار للنووى ( ٨١٥ ).

(٣) الوابل الصيب ( ٣٠٢ ـ ٣٠٤ ) .

(٤) أحمد ١/ ٢٦٦ ،وقال الشيخ شاكر ( ٢٣٩٧ ) : « إسناده صحيح » .

حفظت به نبيّه » (١).

وقال :« من صُنع إليه معروف ، فقال لفاعله: جزاك اللّه خيراً ، فقد أبلغ فى الثناء»(٢).

واستقرض من عبد الله بن أبى ربيعة مالا،ثم وفاه إياه، وقال: « بارك الله لك فى أهلك ومالك ، إنما جزاءُ السلف الحمد والأداء » (٣).

ولما أراحه جرير بن عبد الله البجلى من ذى الخلصة ـ صنم دوس ـ برّك على خيل قبيلته أحمس ورجالها خمس مرات (٤).

وكان ﷺ إذا أُهديت إليه هدية فقبلها ، كافأ عليها بأكثر منها (٥)، وإن ردها اعتذر إلى مهديها،كقوله ﷺ للصعب بن جثامة لما أهدى إليه لحم الصيد : « إنا لم نرده عليك إلا أنا حُرُم »(٦) واللّه أعلم(٧) .

# فصل
## فيمن أميط عنه أذى

عن أبى أيوب رضي الله عنه ،أنه تناول من لحية رسول اللّه ﷺ أذى، فقال رسول اللّه ﷺ : « مسح الله عنك يا أبا أيوب ما تكره » .

وفى لفظ آخر : « لا يكن بك السوءُ يا أبا أيوب» (٨).

وعن عمر رضي الله عنه ، أنه أخذ عن رجل شيئاً ، فقال: الرجل: صرف الله عنك السوء ،

(١) مسلم ( ٦٨١ / ٣١١ ) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب: قضاء الصلاة الفائتة .

(٢) الترمذى ( ٢٠٣٥) فى البر والصلة ، باب: ما جاء فى المتشبع بما لم يعط .وقال : « حسن جيد غريب » .

(٣) النسائى ( ٤٦٨٣ ) فى البيوع ، باب: الاستقراض ، وابن ماجه ( ٢٤٢٤ ) فى الصدقات ، باب: حسن القضاء، وأحمد ( ٣٦/٤ ) .

(٤) البخارى ( ٤٣٥٦ ) فى المغازى ، باب: غزوة ذى الخلصة ، ومسلم ( ٢٤٧٦ / ١٣٧ ) فى فضائل الصحابة ، باب: من فضائل جرير بن عبد الله رضي الله عنه ، وأحمد ٤/ ٣٦٢ .

(٥) البخارى ( ٢٥٨٥ ) فى الهبة ،باب: المكافأة فى الهبة ، وأبو داود ( ٣٥٣٦) فى البيوع ، باب: قبول الهدايا ، والترمذى ( ١٩٥٣) فى البر والصلة ، باب: ما جاء فى قبول الهدية والمكافأة عليها .

(٦) البخارى (٢٥٧٣) فى الهبة ،باب: قبول الهدية ،ومسلم ( ١١٩٣/ ٥٠) فى الحج، باب: تحريم الصيد للمحرم .

(٧) زاد المعاد ( ٤٦٤ ، ٤٦٥ ) .

(٨) الأذكار للنووى ( ٨١٧ ) .

فقال عمر ﷺ : صرف الله عنا السوء منذُ أسلمنا ، ولكن إذا أخذ عنك شيء فقل : أخذت يداك خيراً .

## فصل
## فى رؤية باكورة الثمرة

قال أبو هريرة ﷺ : كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاؤوا به إلى رسول الله ﷺ فقال : « اللهم بارك لنا فى ثمرنا ، وبارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى صاعنا ، وبارك لنا فى مدنا » ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان . رواه مسلم (١) (٢).

## فصل
## فى الشىء يراه ويعجبه ويخاف عليه العين

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ [الكهف: ٣٩ ]

وقال النبى ﷺ : « العين حق ، ولو كان شىء سابق القدر لسبقته العين » حديث صحيح (٣).

ويذكر عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدكم ما يعجبه فى نفسه أو ماله فليبرك عليه، فإن العين حق » (٤).

ويذكر عنه ﷺ أنه قال: « من رأى شيئاً فأعجبه فقال: ما شاء اللّه ، لا قوة إلا بالله لم يضره (٥) .

ويذكر عنه ﷺ فيمن خاف أن يصيب شيئاً بعينه قال : « اللهم بارك لنا فيه ولا تضره » (٦).

وقال أبو سعيد :كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجانّ ،وعين الإنس، حتى نزلت

(١) مسلم ( ١٣٧٣ / ٤٧٣) فى الحج ، باب: فضل المدينة .

(٢) مسلم ( ٢١٨٨ / ٤٢ ) فى السلام ، باب: الطب والمرض والرقى، وأحمد ١/ ١٧٤ .

(٣) الوابل الصيب ( ٣٠٥ ، ٣٠٦ ) .

(٤) أحمد ٣/ ٤٨٦ ، والحاكم فى المستدرك ٣/ ٤١١ ، ٤١٢ وقال : « على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ،وسكت عنه الذهبى .

(٥) الأذكار للنووى ( ٨٤٠ ) .

(٦) الأذكار للنووى ( ٨٣٩ ) .

المعوذتان ، فلما نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما ». قال الترمذى : حديث حسن ، ورواه ابن ماجه فى سننه» (١) (٢).

## فصل
## فى الفأل والطيرة

قال النبى ﷺ: لا عدوى ولا طيرة ، وأصدقُها الفألُ »قيل:وما الفأل ؟ قال: «الكلمة الحسنة يسمعها الرجل » (٣).

وكان النبى ﷺ يعجبه الفأل.

كما كان فى سفر الهجرة فلقيهم رجل فقال:« ما اسْمُك » ؟ قال بريدة .قال «برُد أمرنا»(٤).

وقال ﷺ:« رأيتُ فى منامى ،كأنّى فى دار عُقبة بن رافع ،وأتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولتهما الرفعة لنا فى الدنيا، والعاقبة لنا فى الآخرة ،وأن ديننا قد طاب »(٥).

وأما الطيرة:فقال معاوية بن الحكم قلت : يا رسول الله ، منا رجال يتطيرون. قال : « ذلك شيء تجدونه فى صدوركم فلا يصدنكم » وهذه الأحاديث فى« الصحاح»(٦).

وعن عقبة بن عامر قال : سئل رسول الله ﷺ عن الطيرة فقال: أصدقُها الفأل، ولا تردّ مسلما، وإذا رأيتم من الطيرة شيئاً تكرهونه، فقولوا: اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت،ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله» (٧) (٨).

---

(١) الترمذى ( ٢٠٥٨ ) فى الطب ، باب: الرقية بالمعوذتين ، وابن ماجه ( ٣٥١١ ) فى الطب ، باب: من استرقى من العين .

(٢) الوابل الصيب ( ٣٠٥ ـ ٣٠٧ )

(٣) البخارى ( ٥٧٥٥ ) فى الطب ، باب : الفأل ، ومسلم ( ٢٢٢٣ / ١١٠ ) فى السلام ، باب : الطيرة والفأل ، وأبو داود ( ٣٩١٦) فى الطب، باب: فى الطيرة .

(٤) الاستيعاب بهامش الإصابة ( ١/ ١٧٤ ، ١٧٥ ) ،وأسد الغابة ( ١/ ١٧٦ ) .

(٥) مسلم ( ٢٢٧٠ / ١٨ ) فى الرؤيا،باب:رؤيا النبى ﷺ ،وأبو داود (٥٠٢٥) فى الأدب،باب:ما جاء فى الرؤيا .

(٦) مسلم ( ٥٣٧ / ٣٣ ) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب: تحريم الكلام فى الصلاة، ونسخ ما كان من إباحة، وأبو داود ( ٩٣٠ ) فى الصلاة ،باب: تشميت العاطس فى الصلاة ، والنسائى (١٢١٨) فى السهو، باب : الكلام فى الصلاة .

(٧) ابن أبى شيبة ( ١٠ / ٣٣٥ ، ٣٣٦ ) فى الدعاء ، باب: ما يقول الرجل إذا تطيره ، وهو عن عروة بن عامر وليس عقبة بن عامر .

(٨) الوابل الصيب ( ٣٠٨ ـ ٣١٠ ) .

## وأيضاً

ذكر عنه ﷺ أنه ذكرت الطيرةُ عنده ، فقال : « أحسنُها الفأل ولا تردُّ مسلماً ، فإذا رأيت من الطيرة ما تكره فقل : اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ،ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك » (١).

وكان كعب يقول: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك ،ولا رب غيرك ، ولا حول ولا قوة إلا بك ، والذى نفسى بيده ، إنها لرأسُ التوكل ، وكنز العبد فى الجنة، ولا يقولهن عبد عند ذلك ، ثم يمضى إلا لم يضره شىء (٢).

## فصل
## فى الحمام

يذكر عن أبى هريرة أنه قال: نعم البيت الحمَّام يدخلُه المسلم ، إذا دخله سأل الله الجنة ،واستعاذ به من النار .

## فصل
## فى الذكر عند دخول الخلاء والخروج منه

فى « الصحيحين » عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبى ﷺ إذا دخل الخلاء قال: « اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث »(٣)وزاد سعيد بن منصور« بسم الله ».

وفى« مسند الإمام أحمد » عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ:« إن هذه الحشوش محتضرة ، فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل : أعوذ بالله من الخبث والخِبائث »(٤).

---

(١) أبو داود ( ٣٩١٩ ) فى الطب ، باب: فى الطيرة .

(٢) زاد المعاد ( ٢/ ٤٥٧ ) .

(٣) البخارى ( ١٤٢ ) فى الوضوء، باب: ما يقول عند الخلاء ، ومسلم ( ٣٧٥/ ١٢٢ ) فى الحيض ، باب: ما يقول إذا أراد دخول الخلاء .

(٤) أحمد ( ٤/ ٣٦٩ ) .

وفى « سنن ابن ماجه» عن أبى أمامة أن رسول اللّه ﷺ قال: « لا يعجز أحدكم إذا دخل مرفقه أن يقول: اللهم إنى أعوذ بك من الرجس والنجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم » (١).

وفى الترمذى عن على رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: « سترُ ما بين الجنّ وعورات بنى آدم إذا دخل الكنيف أن يقول: « بسم اللّه » (٢).

وقالت عائشة: كان رسول اللّه ﷺ إذا خرج من الغائط قال: « غُفرانك » رواه الإمام أحمد وأهل السنن (٣).

وفى« سنن ابن ماجه » عن أنس رضي الله عنه: كان النبى ﷺ إذا خرج من الخلاء قال: «الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى وعافانى » (٤) (٥).

## وأيضاً

ثبت عنه فى « الصحيحين » أنه كان يقول عند دخوله الخلاء: « اللهم إنى أعوذ بك من الخُبث والخبائث » (٦).

وذكر أحمد عنه أنه أمر من دخل الخلاء أن يقول ذلك (٧).

ويُذكر عنه: « لا يعجز أحدكم إذا دخل مرفقه أن يقول: « اللهم إنى أعوذ بك من الرجس النجس ،الخبيث المخبث الشيطان الرجيم »(٨).

ويذكر عنه ﷺ قال: « سترُ ما بين الجنّ وعورات بنى آدم إذا دخل أحدكم الكنيف أن يقول: بسم الله » (٩).

---

(١) ابن ماجه (٢٩٩) فى الطهارة وسننها، باب: ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء، وفى الزوائد: « إسناده ضعيف ».

(٢) الترمذى (٦٠٦) فى الصلاة، باب: ما ذكر من التسمية عند دخول الخلاء، وقال: « غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ».

(٣) أحمد (٦/ ١٥٥) وأبو داود (٣٠) فى الطهارة، باب: ما يقول الرجل إذا خرج من الخلاء، والترمذى (٧) فى الطهارة، باب: ما يقول إذا خرج من الخلاء، وقال: « حسن غريب »، وابن ماجه (٣٠٠) فى الطهارة وسننها، باب: ما يقول إذا خرج من الخلاء.

(٤) ابن ماجه (٣٠١) فى الطهارة وسننها، باب: ما يقول إذا خرج من الخلاء.

(٥) الوابل الصيب (٣١٠ ـ ٣١٣).

(٦، ٧) سبق تخريجهما بالصفحة السابقة.

(٨، ٩) سبق تخريجهما بنفس الصفحة.

وثبت عنه ﷺ أن رجلاً سلَّم عليه وهو يبول فلم يرد عليه (١).

وأخبرأن اللّه ـ سبحانه ـ يمقت الحديث على الغائط: فقال: «لا يخرج الرجلان يضربان الغائط كاشفين عن عورتهما يتحدثان، فإن الله عز وجل يمقت على ذلك» (٢) (٣).

وكان إذا خرج من الخلاء قال: « غفرانك »، ويذكر عنه أنه كان يقول: «الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى، وعافانى ». ذكره ابن ماجه(٤) (٥).

## فصل
## فى الذكر عند إرادة الوضوء

ثبت فى النسائى عنه ﷺ أنه وضع يده فى الجفنة وقال: « توضؤوا ببسم الله» (٦).

وفى « صحيح مسلم» عن جابر رضي الله عنه فى حديثه الطويل، وفيه: « يا جابر، ناد بوضوء» فقلت: ألا وضوء؟ ألا وضوء ؟ ألا وضوء؟ وفيه فقال: « خُذ يا جابر فصُبَّ علىَّ وقلْ: بسم اللّه » فصببت عليه، وقلت: بسم الله، فرأيت الماء يفور من بين أصابع رسول اللّه ﷺ (٧).

وفى « المسند »و « السنن » من حديث سعيد بن زيد عن النبى ﷺ: « لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه »(٨).

قال البخارى: هذا أحسن شىء فى هذا الباب.

وعن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ« لا صلاة لمن لاوضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » رواه الإمام أحمد وأبو داود (٩).

وفى « المسند » من حديث أبى سعيد رضي الله عنه عن النبى ﷺ : لا وضوء لمن لم

---

(١) مسلم ( ٣٧٠ / ١١٥ ) فى الحيض، باب : التيمم، وأبو داود (١٧) فى الطهارة، باب: أيرد السلام وهو يبول ؟، والترمذى( ٩٠ ) فى الطهارة، باب: فى كراهة رد السلام غير متوضئ .

(٢) أبو داود ( ١٥) فى الطهارة، باب: كراهية الكلام عند الحاجة، وأحمد ( ٣/ ٣٦ ) .

(٣) زاد المعاد ( ٢/ ٣٨٣ ، ٣٨٤ ) .

(٤) سبق تخريجه بالصفحة السابقة.

(٥) زاد المعاد ( ٢/ ٣٨٦ ، ٣٨٧ ) .

(٦) النسائى ( ٧٨ ) فى الطهارة، باب : التسمية عند الوضوء .

(٧) مسلم ( ٣٠١٣ ) فى الزهد والرقائق، باب: حديث جابر الطويل، وقصة أبى اليسر .

(٨) أحمد (٢ / ٤١٨)، والترمذى ( ٢٥) فى الطهارة، باب : فى التسمية عند الوضوء، وابن ماجه ( ٣٩٨) فى الطهارة وسننها، باب: ما جاء فى التسمية فى الوضوء .

(٩) أحمد ( ٢/ ٤١٨ )، وأبو داود ( ١٠١ ) فى الطهارة، باب: التسمية على الوضوء .

يذكر اسم الله عليه »(١).

## فصل
## فى الذكر بعد الفراغ من الوضوء

روى مسلم فى «صحيحه » عن عمر بن الخطاب عن النبى ﷺ قال: « ما منكم من أحد يتوضأ فيُبلِغُ ـ أو فيُسبغ ـ الوضوء ثم يقول: « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»(٢).

وزاد فيه الترمذى بعد ذكر الشهادتين « اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين» (٣).

وفى بعض طرقه ذكرها أبو داود والإمام أحمد : « فأحسن الوضوء ثم رفع نظره إلى السماء فقال . . . » وذكره(٤).

وفى لفظ للإمام أحمد :« من توضأ فأحسن الوضوء ثم قال ثلاث مرات :أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . . . » (٥).

وفى « سنن النسائى» عن أبى سعيد الخدرى قال:«من توضأ ففرغ من وُضوئه وقال: «سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك، طُبع عليها، بطابع ،ثم رفعت تحت العرش فلم تكسر إلى يوم القيامة ».هكذا رواه من قول أبى سعيد رضي الله عنه (٦). ورواه بقى بن مخلد فى « مسنده » من حديثه أيضاً مرفوعاً .

وأما الأذكار التى يقولها العامة على الوضوء عند كل عضو فلا أصل لها عن رسول الله ﷺ ولا عن أحد من الصحابة والتابعين ولا الأئمة الأربعة، وفيها حديث كذب على رسول الله ﷺ (٧).

---

(١) أحمد ( ٣/ ٤١ ) .

(٢) مسلم ( ٢٣٤ / ١٧ ) فى الطهارة ، باب : الذكر المستحب عقب الوضوء .

(٣) الترمذى ( ٥٥) فى الطهارة ، باب: فيما يقال بعد الوضوء .

(٤) أبو داود ( ١٧٠ ) فى الطهارة ، باب: ما يقول الرجل إذا توضأ ، وأحمد ( ٤/ ١٥٠ ، ١٥١ ) .

(٥) أحمد ( ١/ ١٩ ، ٢٠ ) .

(٦) النسائى فى الكبرى ( ٩٩٠٩ ) فى عمل اليوم والليلة، باب: ما يقول إذا فرغ من وضوئه .

(٧) الوابل الصيب ( ٣١٣ ـ ٣١٦ ) .

## وأيضاً

ثبت عنه ﷺ أنه وضع يديه فى الإناء الذى فيه الماء ،ثم قال للصحابة : « توضؤوا بسم اللّه » (١) .

وثبت عنه أنه قال لجابر رضي الله عنه « نادِ بوضوء » فجىء بالماء ، فقال: « خذ يا جابر فصب علىّ وقلْ بسم اللّه » قال: فصببتُ عليه ، وقلتُ : بسم الله ، قال: فرأيت الماء يفور من بين أصابعه (٢).

وذكر أحمد عنه من حديث أبى هريرة ، وسعيد بن زيد ، وأبى سعيد الخدرى رضي الله عنهم : « لا وضُوء لمن لم يذكر اسم اللّه عليه » (٣).

وفى أسانيدها لين .

وصحّ عنه ﷺ أنه قال:« من أسبغ الوضوء ثُم قال : أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » ذكره مسلم(٤) .

وزاد الترمذى بعد التشهد:« اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين » (٥) وزاد الإمام أحمد : ثم رفع نظره إلى السماء(٦) وزاد ابن ماجه مع أحمد قول ذلك ثلاث مرات.

وذكر بقىّ بن مخلد فى « مسنده » من حديث أبى سعيد الخدرى مرفرعاً :« من توضأ ففرغ من وضوئه ، ثم قال : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، كتب فى رق وطبع عليها بطابع، ثم رُفعت تحت العرش فلم يكسر إلى يوم القيامة ». ورواه النسائى فى كتابه الكبير من كلام أبى سعيد الخدرى(٧)،وقال النسائى : باب ما يقول بعد فراغه من وضوئه فذكر بعض ما تقدم. ثم ذكر بإسناد صحيح من حديث أبى موسى الأشعرى قال: أتيتُ رسول اللّه ﷺ بوضوءٍ فتوضأ ، فسمعته يقول ويدعو : اللهم اغفر لى ذنبى ، ووسع لى فى دارى ، وبارك لى فى رزقى » ، فقلتُ: يا نبى اللّه ، سمعتك تدعو بكذا وكذا ، قال : « وهل تركت من شىء ؟ » وقال ابن السنى : باب ما

---

(١ ـ ٣) سبق تخريجها ص ٣٧٥ .

(٤ ـ ٧) سبق تخريجها بالصفحة السابقة .

يقول بين ظهرانى وضوئه . . . فذكره (١) (٢) .

## فصل
## فى ذكر صلاة الجنازة

فى« صحيح مسلم » عن عوف بن مالك قال :صلى رسول اللّه ﷺ على جنازة ، فحفظت من دعائه وهو يقول: « اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه ، وأكرم نزله ، ووسع مدخله ،واغسله بالماء والثلج والبرد ،ونقه من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ،وأبدله داراً خيراً من داره ،وأهلا خيراً من أهله،وزوجاً خيراً من زوجه ، وأدخله الجنة ،وأعذْه من عذاب القبر» قال: حتى تمنيتُ أن أكون أنا ذلك الميت، لدعاء رسول اللّه ﷺ .وفى لفظ : « وقه فتنة القبر وعذاب النار » (٣).

وفى « سنن أبى داود » عن أبى هريرة قال: صلى رسول اللّه ﷺ على جنازة فقال: «اللهم اغفر لحيِّنا وميِّتنا ،وشاهدنا وغائبنا، وصغيرنا وكبيرنا ،وذكرنا وأنثانا، اللهم من أحييته منا ، فأحيه على الإسلام ، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان،اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تضلنا بعده » (٤).

وفى «سنن أبى داود » أيضاً عن واثلة بن الأسقع قال : صلى رسول اللّه ﷺ على رجل من المسلمين فسمعته يقول:« اللهم إن فُلان بن فلان فى ذمتك وحبل جوارك ، فقه فتنة القبر وعذاب النار ، وأنت أهل الوفاء والحمد ، اللهم فاغفر له وارحمه ، إنك أنت الغفور الرحيم » (٥).

وسأل مروان أبا هريرة : كيف سمعت رسول اللّه ﷺ يصلى على الجنازة ؟ قال: «اللهم أنت ربُّها ،وأنت خلقتها ، وأنت هديتها للإسلام ،وأنت قبضت روحها ،وأنت أعلم بسرها وعلانيتها ،جئناك شُفعاء فاغفر له » رواه الإمام أحمد وأبو داود (٦).

---

(١) النسائى فى الكبرى ( ٩٩٠٨ ) فى عمل اليوم والليلة ، باب: ما يقول إذا توضأ .
(٢) زادُ المعاد ( ٣٨٧ ـ ٣٨٩ )
(٣) مسلم ( ٩٦٣ / ٨٥ ، ٨٦ ) فى الجنائز ، باب : الدعاء للميت فى الصلاة .
(٤) أبو داود ( ٣٢٠١ ) فى الجنائز ، باب: الدعاء للميت .
(٥) أبو داود ( ٣٢٠٢ ) فى الجنائز ، باب: الدعاء للميت .
(٦) أحمد ( ٢/٢٥٦ ) ، وأبو داود ( ٣٢٠٠ ) فى الجنائز ، باب: الدعاء للميت .

# فصل
## فى الذكر إذا قال هجراً أو جرى على لسانه ما يسخط ربه عز وجل

ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: « من حلف منكم فقال فى حلفه :واللات والعزى، فليقل : لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه : تعال أقامرك ، فليتصدق » (١).

فكل من حلف بغير الله فهذه كفارته ؛ لأن النبى ﷺ قال: « من حلف بغير الله فقد أشرك » حديث صحيح (٢).

وكفارة الشرك : التوحيد ، وهو كلمة« لا إله إلا الله ». ومن قال : تعال أقامرك،فقد تكلم بهجر وفحش يتضمن أكل المال وإخراجه بالباطل ، وكفارة هذه الكلمة بضد القمار ، وهو إخراج المال فى أحق مواضعه وهو الصدقة.

وقال مصعب بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه :حلفتُ باللات والعزى ـ وكان العهد قريباً ـ فذكرت ذلك للنبى ﷺ فقال:« قد قُلت هُجراً ، قُل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وانفُثْ عن يسارك سبعاً ،ولا تعد » (٣).

# فصل
## فيما يقول من اغتاب أخاه المسلم

يذكر عن النبى ﷺ:أن كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته تقول:«اللهم اغفر لنا وله» ذكره البيهقى فى كتاب « الدعوات الكبير » وقال: فى إسناده ضعف .

---

(١) البخارى ( ٦٦٥٠ ) فى الأيمان والنذور ، باب: لا يحلف باللات والعزى، ومسلم ( ١٦٤٧ / ٥ ) فى الأيمان ، باب: من حلف باللات والعزى ، فليقل: لا إله إلا الله ، وأبو داود ( ٣٢٤٧ ) فى الأيمان. ، باب : فى كراهية الحلف بالآباء .

(٢) أبو داود ( ٣٢٥١ ) فى الأيمان والنذور ، باب: فى كراهية الحلف بالآباء ، والترمذى ( ١٥٣٥) فى النذور والأيمان ، باب: ما جاء فى كراهية الحلف بغير الله ،وقال : «حسن » .

(٣) النسائى ( ٣٧٧٦ ) فى الأيمان والنذور ،باب: الحلف باللات والعزى ، وابن ماجه ( ٢٠٩٧ ) فى الكفارات باب: النهى أن يحلف بغير الله ، وأحمد ( ١٨٣/١ ) ، وكلهم بلفظ : « ثم انفث عن يسارك ثلاثاً » بدل « سبعاً ».

وهذه المسألة فيها قولان للعلماء ـ هما روايتان عن الإمام أحمد ـ وهما هل يكفى فى التوبة من الغيبة الاستغفار للمغتاب ، أم لا بد من إعلامه وتحليله ؟

والصحيح أنه لا يحتاج إلى إعلامه ، بل يكفيه الاستغفار له وذكره بمحاسن ما فيه فى المواطن التى اغتابه فيها . وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره .

والذين قالوا :لا بد من إعلامه، جعلوا الغيبة كالحقوق المالية ، والفرق بينهما ظاهر ، فإن الحقوق المالية ينتفع المظلوم بعود نظير مظلمته إليه فإن شاء أخذها وإن شاء تصدق بها.

وأما فى الغيبة،فلا يمكن ذلك ،ولا يحصل له بإعلامه إلا عكس مقصود الشارع ﷺ، فإنه يوغر صدره ويؤذيه إذا سمع ما رمى به ، ولعله يهيج عداوته ولايصفو له أبداً ، وما كان هذا سبيله ، فإن الشارع الحكيم ﷺ لا يبيحه ولا يجوزه ، فضلاً عن أن يوجبه ويأمر به ، ومدار الشريعة على تعطيل المفاسد وتقليلها ،لا على تحصيلها وتكميلها ، والله تعالى أعلم .

## فصل
## فيما يقال ويفعل عند كسوف الشمس وخسوف القمر

فى « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها عن النبى ﷺ قال:«إنّ الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فكبروا ،وادعوا الله وصلوا وتصدقوا »[(١)].

وفى « صحيح مسلم » عن عبد الرحمن بن سمرة قال : بينما أنا أرمى بأسهم لى فى حياة رسول اللّه ﷺ إذ كسفت الشمس ، فنبذتهن وقلت : لأنظرنّ إلى ما يحدث لرسول الله ﷺ فى انكساف الشمس اليوم ،فانتهيت إليه وهو رافع يديه يدعو ويكبر ويحمد ويهلل ويدعو ،حتى جُلّى عن الشمس ، فقرأ بسورتين وركع ركعتين[(٢)] .

والنبى ﷺ أمر فى الكسوف بالصلاة والعتاقة،والمبادرة إلى ذكر الله تعالى ، والصدقة، فإن هذه الأمور تدفع أسباب البلاء .

---

(١) البخارى ( ١٠٥٨ ) فى الكسوف ، باب: لا تنكسف الشمس لموت أحد ولا لحياته ، ومسلم ( ٩٠١/١) فى الكسوف ، باب : صلاة الكسوف .

(٢) مسلم ( ٩١٣ / ٢٥ ) فى الكسوف ، باب: ذكر النداء بصلاة الكسوف.

## فصل
## فيما يقول من ضاع له شيء ويدعو به

ذكر علي بن المديني عن سفيان عن ابن عجلان عن عمر بن كثير بن أفلح قال: كان ابن عمر يقول للرجل إذا أضل شيئاً : قل : اللهم رب الضالة ،هادى الضالة، تهدى من الضلالة ، رُد على ضالتي بقدرتك وسلطانك ،فإنها من عطائك وفضلك .

وفي وجه آخر : سئل ابن عمر رضي الله عنه عن الضالة فقال : يتوضأ ويصلي ركعتين ، ثم يتشهد ، ثم يقول : اللهم راد الضالة ، هادى الضلالة ، تهدى من الضلال ، رُد عليَّ ضالتي بعزك وسلطانك ، فإنها من فضلك وعطائك ، قال البيهقي : هذا موقوف ، وهو حسن.

وقد قيل : إن من ضاع له شيء فقال : يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه رد عليَّ ضالتي ، ردها الله تعالى عليه .

## فصل
## في عقد التسبيح بالأصابع وأنه أفضل من السبحة

روى الأعمش عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال: « رأيت رسول الله يعقد التسبيح بيمينه »، رواه أبو داود (١).

وروت يسيرة إحدى المهاجرات رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ، ولا تغفلن فتنسين الرحمة ، واعقدن بالأنامل فإنهن مسؤولات ومستنطقات» (٢).

(١) أبو داود ( ١٥٠٢ ) في الصلاة ، باب: التسبيح بالحصى .
(٢) الترمذي ( ٣٥٨٣ ) في الدعوات ، باب: في فضل التسبيح والتهليل والتقديس . وقال : « غريب » .

## فصل
## فيما يقال لمن حصل له وحشة

روينا فى « معجم الطبرانى » عن البراء بن عازب أن رجلاً اشتكى إلى رسول الله ﷺ الوحشة ، فقال : « قلْ : سبحان اللّه الملك القدوس، رب الملائكة والروح، جُلّلت السموات والأرض بالعزة والجبروت » فقالها الرجل ، فأذهب الله عنه الوحشة (١).

## فصل
## فى الذكر الذى يقوله أو يقال له
## إذا لبس ثوباً جديداً

عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال: كان رسول اللّهﷺ إذا استجدّ ثوباً سماه باسمه قميصاً أو إزاراً أو عمامة يقول: « اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ،أسألك من خيره وخير ما صُنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صُنع له »(٢).

قال أبو نضرة : وكان أصحاب رسول اللّه ﷺ إذا رأى أحدهم على صاحبه ثوباً قال: تبلى ويخلف الله تعالى . ذكره البيهقى .

وعن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول اللّه ﷺ قال: « من لبس ثوباً جديداً فقال :الحمد للّه الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة ، غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » (٣) (٤).

## وأيضاً

كان ﷺ إذا استجد ثوباً سمّاه باسمه ، عمامة ، أو قميصاً ، أو رداء ، ثم يقول: «اللهم لك الحمدُ ،أنت كسوتنيه ، أسألك خيره، وخير ما صنع له ،وأعوذ بك من شرّه ،

---

(١) الطبرانى فى الكبير ٢/ ٢٤ ( ١١٧١ ) ، وقال الهيثمى فى المجمع ( ١٠/ ١٣١ ) :« فيه محمد بن أبان الجعفى، وهو ضعيف » .

(٢) أبو داود (٤٠١٦) فى اللباس، فى فاتحته ،والترمذى (١٧٦٧) فى اللباس ، باب : ما يقول إذا لبس ثوبًا جديدًا ، وقال « حسن غريب صحيح » والنسائى فى الكبرى ، فى عمل اليوم والليلة ، باب : ما يقول إذا استجد ثوبا (١٠١٤١ / ١) بنحوه .

(٣) أبو داود ( ٤٠٢٣ ) فى أول كتاب اللباس .

(٤) الوابل الصيب ( ٣١٧ ـ ٣٢٨ ) .

وشر ما صُنع له » حديث صحيح(١).

ويذكر عنه أنه قال: « من لبس ثوباً فقال: الحمد للّه الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حولْ منى ولا قوة، غفر الله له ما تقدم من ذنبه »(٢).

وفى «جامع الترمذى» عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «من لبس ثوباً جديداً فقال: الحمد للّه الذى كسانى ما أُوارى به عورتى، وأتجمل به فى حياتى، ثم عمد إلى الثوب الذى أخلق فتصدق به، كان فى حفظ الله، وفى كنف الله، وفى سبيل الله، حيًا وميتًا »(٣).

وصح عنه أنه قال لأم خالد لما ألبسها الثوب الجديد: «أبلى وأخلقى، ثم أبلى وأخلقى » مرتين (٤).

وفى «سنن ابن ماجه » أنه ﷺ رأى على عُمر ثوباً فقال: «أجديدٌ هذا، أم غسيلٌ ؟» فقال: بل غسيل، فقال: «الْبسْ جديداً، وعش حميداً، ومُت شهيداً » (٥) (٦).

## فصل
## فيما يقال عند رؤية الفجر

روى ابن وهب عن سليمان بن بلال عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا كان فى سفر فبدا له الفجر قال: « سمع سامع بحمد اللّه ونعمته وحُسن بلائه علينا، ربنا صاحبنا فأفضل علينا، عائذا باللّه من النار »يقول ذلك ثلاث مرات، ويرفع بها صوته. هذا إسناد صحيح على شرط مسلم(٧) (٨).

---

(١ ، ٢) سبق تخريجهما بالصفحة السابقة.

(٣) الترمذى ( ٣٥٦٠ ) فى الدعوات، باب: ١٠٨، وقال: «غريب».

(٤) البخارى ( ٥٨٤٥ ) فى اللباس، باب: ما يدعى لمن لبس ثوباً جديداً.

(٥) ابن ماجه ( ٣٥٥٨ ) فى اللباس، باب: ما يقول الرجل إذا لبس ثوباً جديداً، وفى الزوائد: « إسناده صحيح».

(٦) زاد المعاد ( ٢/٣٧٩، ٣٨٠ ).

(٧) مسلم ( ٢٧١٨ / ٦٨ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعويذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، وأبو داود ( ٥٠٨٦ ) فى الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح، والحاكم فى المستدرك( ١/٤٤٦) فى المناسك، باب: الدعاء عند بدء الفجر فى السفر، واللفظ للحاكم.

(٨) الوابل الصيب ( ٣٢٨ ).

## فصل
## فيما يقوله من رأى ما يحب أو ما يكره

وكان ﷺ إذا رأى ما يحب ، قال :« الحمد للّه الذى بنعمته تتم الصالحات ».وإذا رأى ما يكره ، قال : « الحمد للّه على كل حال »(١) (٢) .

## فصل
## فيما يقوله ويفعله من ابتلى بالوسواس ، وما يستعين به على الوسوسة

روى صالح بن كيسان ، عن عبيد الله بن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود ، عن ابن مسعود يرفعه: « إن للملك الموكل بقلب ابن آدم لمّة ،وللشيطان لمّة،فلمّه : الملك إيعاد بالخير، وتصديق بالحق ،ورجاء صالح ثوابه ،ولمة الشيطان ، إيعاد بالشر ،وتكذيب بالحق، وقنوط من الخير ،فإذا وجدتم لمة الملك ، فاحمدوا الله ، وسلوه من فضله ، وإذا وجدتم لمّة الشيطان ، فاستعيذوا بالله واستغفروه »(٣) .

وقال له عثمان بن أبى العاص : يا رسول اللّه ، إن الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى وقراءتى ، قال: « ذاك شيطان يقال له : خنزَبُ ، فإذا أحسستُه ،فتعوذْ باللّه منه ، واتفُل عن يسارك ثلاثاً » (٤).

وشكى إليه الصحابة أن أحدهم يجد فى نفسه ـ يُعرض بالشىء ـ لأن يكون حُمَمَةً أحبٌ إليه من أن يتكلم به ، فقال:« الله أكبر اللّه أكبر، الحمد للّه الذى رد كيده إلى الوسوسة» (٥).

وأرشد من بُلى بشىء من وسوسة التسلسل فى الفاعلين ، إذا قيل له :هذا اللّه خلق الخلق ،فمن خلق اللّه؟ أن يقرأ :﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٣) ﴾ [ الحديد ] .

---

(١) ابن ماجه ( ٣٨٠٣ ) فى الأدب ، باب :فضل الحامدين ، وفى الزوائد :« إسناده صحيح، ورجاله ثقات ».
(٢) زاد المعاد ( ٢/ ٤٦٤ ).
(٣) الترمذى ( ٢٩٨٨) فى تفسير القرآن ، باب: ومن سورة البقرة، وقال: « حسن غريب » ، وابن جرير فى التفسير ( ٣/ ٥٩) .
(٤) مسلم ( ٢٢٠٣ /٦٨ ) فى السلام ، باب: التعوذ من شيطان الوسوسة فى الصلاة ،وأحمد ( ٤/ ٢١٦ ) .
(٥) أبو داود ( ٥١١٢ ) فى الأدب باب: فى رد الوسوسة ، وأحمد ( ١/ ٣٤٠ ) .

كذلك قال ابن عباس لأبى زُميل سماك بن الوليد الحنفى وقد سأله: ما شيء أجده فى صدرى ؟ قال: ما هو؟ قال: قلت: والله لا أتكلم به قال: قال لى: أشيء من شك؟ قلت: بلى ، فقال لى: ما نجا من ذلك أحد، حتى أنزل الله عز وجل: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ﴾[ يونس: ٩٤ ] قال: فقال لى: فإذا وجدت فى نفسك شيئاً ، فقل: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ③ ﴾ (١).

فأرشدهم بهذه الآية إلى بطلان التسلسل الباطل ببديهة العقل ،وأن سلسلة المخلوقات فى ابتدائها تنتهى إلى أول ليس قبله شيء . كما تنتهى فى آخرها إلى آخر ليس بعده شيء، كما أن ظهوره هو العلو الذى ليس فوقه شيء ،وبطونه هو الإحاطة التى لا يكون دونه فيها شيء ،ولو كان قبله شيء يكون مؤثراً فيه ، لكان ذلك هو الرب الخلاق،ولا بد أن ينتهى الأمر إلى خالق غير مخلوق ، وغنى عن غيره وكلُّ شيء موجود به. قديم لا أول له ، وكلُّ ما سواه فوجوده بعد عدمه ،باق بذاته ،وبقاء كل شيء به ،فهو الأول الذى ليس قبله شيء ، والآخر الذى ليس بعده شيء ، الظاهر الذى ليس فوقه شيء ، الباطن الذى ليس دونه شيء .

وقال ﷺ: « لا يزال الناس يتساءلون حتى يقول قائلهم : هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً ، فليستعذْ بالله ولْينته» (٢) ،وقد قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ㊱ ﴾ [ فصلت ] .

ولما كان الشيطان على نوعين: نوع يُرى عياناً ،وهو شيطان الإنس ، ونوع لا يُرى ، وهو شيطان الجن ، أمر سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يكتفى من شر شيطان الإنس بالإعراض عنه،والعفو ،والدفع بالتى هى أحسن، ومن شيطان الجن بالاستعاذة منه ،وجمع بين النوعين فى سورة الأعراف ، وسورة المؤمنين ، وسورة فصلت ، والاستعاذة فى القراءة والذكر أبلغ فى دفع شر شياطين الجن، والعفو والإعراض والدفع بالإحسان أبلغ فى دفع شر شياطين الإنس ، قال:

فما هـو إلا الاستعـاذة ضـارعـاً ... أو الدفـع بالحسنى هُما خـــير مطلوب
فهذا دواءُ الدّاء من شـرّ ما يـرى ... وذاك دواء الـداء من شـر محجـوب(٣)

(١) أبو داود ( ٥١١٠ ) فى الأدب ، باب : فى رد الوسوسة .
(٢) البخارى ( ٣٢٧٦ ) فى بدء الخلق ، باب: صفة إبليس وجنوده ، ومسلم ( ٢١٢/١٣٤ ) فى الإيمان، باب : بيان الوسوسة ،وأبو داود ( ٤٧٢١) فى السنة ، باب: فى الجهمية .
(٣) زاد المعاد ( ٢/ ٤٦٠ ـ ٤٦٣ ) .

## فصل
## فى الإكثار من الذكر فى عشر ذى الحجة

وكان ﷺ يُكثر الدعاء فى عشر ذى الحجة ، ويأمر فيه بالإكثار من التهليل والتكبير والتحميد .

ويُذكر عنه أنه كان يُكبّر من صلاة الفجر يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق ، فيقول: « اللّه أكبر ، اللّه أكبر ، لا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، الله أكبر وللّه الحمد»[1]، وهذا وإن كان لا يصح إسناده فالعمل عليه ، ولفظه هكذا يشفع التكبير وأما كونه ثلاثا ، فإنما رُوى عن جابر وابن عباس من فعلهما ثلاثاً فقط ، وكلاهما حسن. قال الشافعى: إن زاد فقال: اللّه أكبر كبيراً،والحمد للّه كثيراً ،وسبحان الله بكرة وأصيلاً لا إله إلا اللّه ، ولا نعبد إلا إياه،مخلصين له الدين ولوكره الكافرون، لا إله إلا الله وحده ،صدق وعده ، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله والله أكبر، كان حسناً [2].

## فصل
## فى جوامع من أدعية النبى ﷺ
## وتعوذاته لا غنى للمرء عنها

قالت عائشة : كان النبى ﷺ يحب الجوامع من الدعاء ويدع ما بين ذلك .

وفى المسند والنسائى وغيرهما :أن سعداً سمع ابناً له يقول: اللهم إنى أسألك الجنة وغُرفها وكذا وكذا،وأعوذ بك من النار وأغلالها وسلاسلها ، فقال سعد رضي الله عنه : لقد سألت اللّه خيراً كثيراً ،وتعوذت من شر كثير،وإنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول:« سيكون قوم يعتدون فى الدعاء » وبحسبك أن تقول :اللهم إنى أسألك من الخير كله ما علمت منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشرّ كله ما علمت منه وما لم أعلم »[3].

وفى « مسند الإمام » ،و « سنن النسائى » عن ابن عباس قال: كان من دعاء النبى

---

(١) الدارقطنى ٢/ ٥٠ ( ٢٩) فى العيدين .

(٢) زاد المعاد ( ٢/ ٣٩٥ ، ٣٩٦ ) .

(٣) أحمد ( ١/ ١٧٢ ) ، وأبو داود ( ١٤٨٠) فى الصلاة ، باب: الدعاء ولم يعزه صاحب التحفة (٣/ ٣٢٣) إلا لأبى داود.

ﷺ:«رب أعنّى ولا تُعن علىّ، وانصرنى ولا تنصر علىّ،وامكر لى ولا تمكر علىّ وانصرنى على من بغى علىّ،رب اجعلنى لك شكّاراً ،لك ذكّاراً ، لك رهّاباً، لك مطواعًا، لك مخْبتا ، إليك أوّاها مُنيباً، رب تقبل توبتى ، واغسل حوْبتى ، وأجبْ دعوتى ، وثبت حُجتى ، واهد قلْبى ، وسدد لسانى ، واسلُل سخيمة قلْبى » . هذا حديث صحيح ورواه الترمذى وحسنه وصححه (١).

وفى « الصحيحين » من حديث أنس بن مالك قال: كنت أخدم النبى ﷺ ، فكنت أسمعه يكثر أن يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ،والعجز والكسل، والبخل والجبن ،وضلع الديْن وغلبة الرجال » (٢).

وفى « صحيح مسلم » عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال:لا أقول لكم إلا كما كان رسول اللّه ﷺ يقول : كان يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والجُبن والبُخل والهرم وعذاب القبر ، اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها وأنت وليها ومولاها ، اللهم إنى أعوذ بك من قلب لا يخشع، ونفس لا تشبع ،وعلم لا ينفع ، ودعوة لا يستجاب لها » (٣).

وفى « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها أن رسول اللّه ﷺ كان يدعو:« اللهم أنى أعوذ بك من عذاب القبر ،وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ،وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، اللهم إنى أعوذ بك من المأثم والمغرم » فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم يا رسول اللّه ! فقال :« إن الرجل إذا غرم ، حدث فكذب ، ووعد فأخلف » (٤).

وفى « صحيح مسلم » عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان من دعاء النبى ﷺ :« اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك،وتحوُّل عافيتك ، ومن فُجاءة نقمتك ،ومن جميع سخطك»(٥).

---

(١) أحمد ( ١/ ٢٢٧ ) ، والنسائى فى الكبرى ( ١٠٤٤٣ ) فى عمل اليوم والليلة ،باب: الاستنصار عند اللقاء ، والترمذى ( ٣٥٥١ ) فى الدعوات ، باب: فى دعاء النبى ﷺ .

(٢) البخارى ( ٦٣٦٩) فى الدعوات ، باب: الاستعاذة من الجبن والكسل ، ومسلم ( ٢٧٠٦ / ٥٠ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: التعوذ من العجز والكسل وغيره ، بمعناه ، واللفظ للبخارى .

(٣) مسلم ( ٢٧٢٢ / ٧٣ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: التعوذ من شر ما عمل ، ومن شر ما لم يعمل .

(٤) البخارى ( ٨٣٢ ) فى الأذان ، باب : الدعاء قبل السلام ، ومسلم ( ٥٨٩ / ١٢٩ ) فى المساجد ومواضع الصلاة، باب: ما يستعاذ منه فى الصلاة .

(٥) مسلم ( ٢٧٣٩ / ٩٦ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأكثر أهل النار النساء .

وفى الترمذى عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن وافقت ليلة القدر ما أسأل ؟ قال: « قولى: اللهم إنك عفوّ تُحب العفو فاعف عنى» قال الترمذى: صحيح(١).

وفى « مسند الإمام أحمد » عن أبى بكر الصديق، عن النبى ﷺ أنه قال: « عليكم بالصدق، فإنه مع البر وهما فى الجنة ، وإياكم والكذب ، فإنه مع الفجور وهما فى النار، وسلوا الله المعافاة ، فإنه لم يؤت رجل بعد اليقين خيراً من المعافاة »(٢).

وفى « صحيح الحاكم » عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: « ما سئل الله عز وجل شيئاً أحب إليه من أن يسأل العافية » (٣) .

وذكر الفريابى فى كتاب الذكر من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: أى الدعاء أفضل ؟ قال: « تسأل الله العفو والعافية ، فإذا أُعطيت ذلك فقد أفلحت»(٤).

وفى « الدعوات » للبيهقى عن معاذ بن جبل قال: مرّ رسول الله ﷺ برجل يقولُ : اللهم إنى أسألك الصبر ، قال: « سألت الله البلاء ، فسل العافية» ومر برجل يقولُ : اللهم إنى أسألك تمام النعمة ؟ فقال: « وما تمام النعمة»، قال: سألتُ وأنا أرجو الخير ، قال له: «تمام النعمة الفوز من النار ، ودُخول الجنة »(٥) .

وفى « صحيح مسلم » عن أبى مالك الأشجعى عن أبيه رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلم من أسلم أن يقول: « اللهم اغفر لى، واهدنى، وارزقنى ، وعافنى، وارحمنى »(٦).

وفى « المسند » عن بسر بن أرطاة رضي الله عنه ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة»(٧).

وفى « المسند » و « صحيح الحاكم » عن ربيعة بن عامر عن النبى ﷺ : ألظوا بياذا الجلال والإكرام » (٨) أى : الزموها وداوموا عليها .

---

(١) الترمذى ( ٣٥١٣ ) فى الدعوات ، باب: ٨٥ ، وقال : «حسن صحيح ».

(٢) أحمد ( ١/ ٥ ) .

(٣) الحاكم فى المستدرك ( ١/ ٤٩٨) فى الدعاء ، باب: من فتح له فى الدعاء منكم فتحت له أبواب الجنة ، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وتعقبه الذهبى وقال: المليكى ضعيف .

(٤) انظر : الترمذى ( ٣٥١٢ ) فى الدعوات ، باب: ٨٥ ، وقال : « حسن غريب من هذا الوجه » .

(٥) انظر : الترمذى ( ٣٥٢٧ ) فى الدعوات ، باب: ٩٤ ، وقال الترمذى : « حسن » .

(٦) مسلم ( ٢٦٩٧ / ٣٤ ، ٣٥) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

(٧) أحمد ( ٤/ ١٨١) .

(٨) أحمد ( ٤/ ١٧٧ ) ، والحاكم فى المستدرك (١/ ٤٩٨، ٤٩٩) فى الدعاء، باب: ألظوا بياذا الجلال والإكرام، وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

وفى «صحيح الحاكم» أيضاً عن أبى هريرة ،أن رسول اللّه ﷺ قال: لهم: «أتُحبون أيها الناس أن تجتهدوا فى الدعاء» ؟ قالوا : نعم يا رسول اللّه . قال : قولوا : اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » (١).

وفى الترمذى وغيره : أن النبى ﷺ أوصى معاذاً أن يقولها ، فى دبر كل صلاة (٢).

وفى « صحيحه » أيضاً : عن أنس قال: كنا مع النبى ﷺ فى حلقة ، ورجل قائم يصلى، فلما ركع وسجد تشهد ودعا فقال فى دعائه: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حى يا قيوم ، فقال النبى ﷺ : « لقد سألت باسمه الأعظم الذى إذا دُعى به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى »(٣) .

وفى« المسند » و « صحيح الحاكم »أيضاً ، عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال لى رسول الله: « يا شدادُ ، إذا رأيت الناس يكنزون الذهب والفضة ، فاكنُزْ هؤلاء الكلمات : اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر ،والعزيمة على الرشد ، وأسألك شكر نعمتك،وحسن عبادتك ،وأسألك قلباً سليماً ، ولساناً صادقاً ، وأسألك من خير ما تعلم ،وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب » (٤).

وفى الترمذى :أن حصين بن خلف الخزاعى رضي الله عنه ،قال له النبى ﷺ :« كم تعبد إلهاً»؟ قال :سبعة :ستة فى الأرض ،وواحد فى السماء .قال:« فأيهم تُعد لرغبتك ورهبتك» ؟ قال: الذى فى السماء . قال : « أما لو أسلمت لعلمتك كلمتين تنفعانك » ، فلما أسلم قال: يا رسول اللّه ،علمنى الكلمتين اللتين وعدتنى ، قال :« قل اللهم ألهمنى رُشدى، وقنى شرّ نفسى » حديث صحيح (٥).

وزاد الحاكم فيه فى « صحيحه »: « اللهم قنى شر نفسى ،واعزم لى على أرشد أمرى، اللهم اغفر لى ما أسررت وما أعلنت وما أخطأت وما تعمدت ، ما علمتُ وما جهلت» وإسناده على شرط « الصحيحين » (٦).

---

(١) الحاكم فى المستدرك ( ١/ ٤٩٩) فى الدعاء ، باب: ألظوا بياذا الجلال والإكرام ،وقال:«صحيح الإسناد . . . » ، ووافقه الذهبى .

(٢) أبو داود ( ١٥٢٢ ) فى الصلاة ، باب: فى الاستغفار ،ولم يعزه صاحب التحفة ( ٨/ ٤٠٦ ) للترمذى .

(٣) الحاكم فى المستدرك ( ١/ ٥٠٣ ، ٥٠٤ ) فى الدعاء ، باب: اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى ، وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ،ووافقه الذهبى .

(٤) أحمد ( ٤/ ١٢٣ ) ،والحاكم فى المستدرك ( ١/ ٥٠٨) فى الدعاء ، وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى.

(٥) الترمذى ( ٣٤٨٣ ) فى الدعوات ، باب: ٧٠ ، وقال : « غريب » .

(٦) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥١٠ ) فى الدعاء ، باب: دعاء وقاية شر النفس .

وفى « صحيح الحاكم » : عن عائشة قالت : دخل علىّ أبو بكر رضي الله عنه فقال: هل سمعت من رسول الله ﷺ دعاء علمنيه ؟ قلت :ما هو ؟ قال: كان عيسى ابن مريم ﷺ يعلمه أصحابه ، قال: « لو كان على أحدكم جبل ذهب ديناً ، فدعا الله بذلك لقضاه الله عنه: « اللهم فارج الهم ، كاشف الغم ، مُجيب دعوة المضطرين ، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ،أنت ترحمنى فارحمنى رحمة تُغنينى بها عن رحمة من سواك» (١).

وفى « صحيحه » أيضاً عن أم سلمة عن النبى ﷺ : هذا ما سأل محمد ربه : «اللهم إنى أسألك خير المسألة ، وخير الدعاء ، وخير النجاح ،وخير العمل ،وخير الثواب ، وخير الحياة،وخير الممات ، وثبتنى ، وثقل موازينى ،وحقق إيمانى ،وارفع درجتى ،وتقبل صلاتى، واغفر خطيئتى،وأسألك الدرجات العلى من الجنة ، اللهم إنى أسألك فواتح الخير وخواتمه وجوامعه ،وأوله وآخره ، وظاهره وباطنه ، والدرجات العلى من الجنة آمين.

اللهم إنى أسألك خير ما آتى ، وخير ما أفعل ، وخير ما بطن، وخير ما ظهر والدرجات العلى من الجنة آمين .

اللهم إنى أسألك أن ترفع ذكرى ،وتضع وزرى ،وتصلح أمرى،وتطهر قلبى ،وتحصن فرجى ، وتنور لى قلبى، وتغفر لى ذنبى ،وأسألك الدرجات العلى من الجنة آمين .

اللهم إنى إسألك أن تبارك لى فى نفسى،وفى سمعى،وفى بصرى ،وفى روحى، وفى خلقى وفى خُلُقى وفى أهلى ،وفى محياى ،وفى مماتى ،وفى عملى ،وتقبل حسناتى ، وأسألك الدرجات العُلى من الجنة آمين» (٢) .

وفى« صحيحه » أيضاً من حديث معاذ قال: أبطأ عنا رسول الله ﷺ بصلاة الفجر حتى كادت أن تدركنا الشمس ، ثم خرج ، فصلى بنا فخفف ، ثم انصرف فأقبل علينا بوجهه فقال :« على مكانكم ،أخبركمْ ما أبطأنى عنكم اليوم ؟ إنى صليت فى ليلتى هذه ما شاء الله ،ثم ملكتنى عينى فنمت ،فرأيت ربى تبارك وتعالى ، فألهمنى أن قلت: « اللهم إنى أسألك الطيبات ، وفعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحبَّ المساكين ، وأن تتوب علىَّ، وتغفر لى وترحمنى ، وإذا أردت فى خلقك فتنة فنجنى إليك منها غير مفتون ، اللهم وأسألك حبك ، وحب من يُحبك ،وحب عمل يقربنى إلى حبك » ثم أقبل علينا

---

(١) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥١٥ ) فى الدعاء ، باب: دعاء قضاء الدين ، وقال : قد احتجم البخارى بعبد الله ابن عمر النميرى وهذا حديث صحيح غير أنهما لم يحتجا بالحكم بن عبد عبد الله الأيلى ، ووافقه الذهبى .

(٢) الحاكم فى المستدرك ( ١/ ٥٢٠ ) فى الدعاء ، باب: الدعاء الجامع ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه »، ووافقه الذهبى .

رسول الله ﷺ فقال : « تعلموهن وادرسوهن، فإنهن حق» ورواه الترمذى والطبرانى وابن خزيمة وغيرهم بألفاظ أخر (١).

وفى « صحيح الحاكم » أيضاً : عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ يدعو :« اللهم قنعنى بما رزقتنى ،وبارك لى فيه ، واخلفْ على كل غائبة لى بخير » (٢).

وفيه عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ما ينفعنى ، وارزقنى علماً ينفعنى »(٣).

وفيه أيضاً عن عائشة : أن رسول الله ﷺ أمرها أن تدعو بهذا الدعاء:« اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ،ما علمت منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار ، وما قرب إليها من قول أو عمل وأسألك من خير ما سألك عبدك ورسولك محمد ﷺ ، وأعوذ بك من شر ما استعاذ بك منه عبدك ووسولك محمد ﷺ ، وأسألك ما قضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشدا » (٤).

وفيه عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ أوصى سلمان الخير فقال له: « إنى أريد أن أمنحك كلمات تسألهن الرحمن ، وترغب إليه فيهن ،وتدعو بهن فى الليل والنهار، قل : اللهم إنى أسألك صحة فى إيمان ،وإيمان فى حسن خُلق، ،ونجاحاً يتبعه فلاح، ورحمة منك وعافية، ومغفرة منك ورضواناً »(٥).

وفيه أيضاً : عن أم سلمة عن النبى ﷺ أنه كان يدعو بهؤلاء الدعوات: « اللهم أنت الأول لا شىء قبلك ، وأنت الآخر لا شىء بعدك ، أعوذ بك من كلّ دابة ناصيتها بيدك، وأعوذ بك من الإثم والكسل ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة الغنى ، ومن فتنة الفقر ، وأعوذ بك من المأثم والمغرم ، اللهم نق قلبى من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من

---

(١) الحاكم فى المستدرك ( ١/٥٢٩ ) فى الدعاء ، باب: أمر الرب تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يقول : اللهم إنى أسألك الطيبات وترك المنكرات ، والترمذى ( ٣٢٣٥ ) فى تفسير القرآن ، باب : ومن سورة ص ، وقال: «حسن صحيح » ، والطبرانى فى الكبير ٢٠/١٤١ ، ١٤٢ ( ٢٩٠ ) ، وأحمد ( ٥/٢٤٣ ) .

(٢) الحاكم فى المستدرك ( ١/ ٥١٠ ) فى الدعاء ، وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

(٣) الحاكم فى المستدرك( ١/ ٥١٠ ) فى الدعاء ، باب: دعاء حصول النفع بالعلم ،وقال : « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

(٤) الحاكم فى المستدرك ( ١/٥٢١ ، ٥٢٢ ) فى الدعاء ، باب: الدعاء الجامع الجامع الكامل وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه »،ووافقه الذهبى .

(٥) الحاكم فى المستدرك ( ١/٥٢٣ ) فى الدعاء ، باب : الدعاء الذى علم النبى ﷺ سلمان الخير ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وسكت عن الذهبى .

الدنس،اللهم بعّد بينى وبين خطيئتى كما بعَّدْت بين المشرك والمغرب»(١).

وفى « مسند الإمام أحمد » و « صحيح الحاكم » أيضاً ، عن عمار بن ياسر رضي الله عنه ، أنه صلى صلاة أوجز فيها ،فقيل له فى ذلك، قال : لقد دعوت الله فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله ﷺ :« اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق، أحينى ما علمت الحياة خيراً لى ،وتوفنى إذا علمت الوفاة خيراً لى ،اللهم وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا،وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ،وأسألك قُرة عين لا تنقطع ،وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت ،وأسألك لذة النظر إلى وجهك ،وأسألك الشوق إلى لقائك، من غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ،واجعلنا هداة مهتدين »(٢) .

وفى « صحيح الحاكم » أيضاً : عن ابن مسعود قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك ،وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل برّ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار » (٣).

وفيه أيضاً : عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو :« اللهم احفظنى بالإسلام قائماً ، واحفظنى بالإسلام قاعداً، واحفظنى بالإسلام راقداً ، ولا تُشمّتْ بى عدوا حاسداً ، اللهم إنى أسألك من كل خير خزائنه بيدك، وأعوذ بك من كل شر خزائنه بيدك » (٤).

وعن النواس بن سمعان : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه »(٥) .

وكان رسول الله ﷺ يقول :« يا مُقلب القلوب ، ثبت قلبى على دينك ، والميزان بيد الرحمن عز وجل، يرفع أقواما ويخفض آخرين إلى يوم القيامة » حديث صحيح رواه الإمام أحمد والحاكم فى « صحيحه »(٦) .

وفى « صحيح الحاكم » أيضاً عن ابن عمر ، أنه لم يكن يجلس مجلساً ـ كان عنده

---

(١) الحاكم فى المستدرك ( ١/ ٥٢٤ ) فى الدعاء ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

(٢) أحمد ( ٤/ ٢٦٤ ) ، والحاكم فى المستدرك ( ١/ ٥٢٤ ، ٥٢٥ ) فى الدعاء ، باب: دعاء عمار بن ياسر رضي الله عنه الذى كان يدعو به فى الصلاة ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه »، ووافقه الذهبى .

(٣) الحاكم فى المستدرك ( ١/ ٥٢٥ ) فى الدعاء ، وقال:« صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه »،ووافقه الذهبى.

(٤) الحاكم فى المستدرك ( ١/ ٥٢٥ ) فى الدعاء ، باب: كان يدعو :اللهم احفظنى بالإسلام قائما ،وقال: « صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه » ،وتعقبه الذهبى وقال: « أبو الصهباء لم يخرج له البخارى » .

(٥ ، ٦) أحمد ( ٤/ ١٨٢ )، والحاكم فى المستدرك ( ١/ ٥٢٥ ) فى الدعاء باب: ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وقال : « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

أحد أو لم يكن ـ إلا قال: « اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت، وما أنت أعلم به منى ، اللهم ارزقنى من طاعتك ما تحول به بينى وبين معصيتك ، وارزقنى من خشيتك ما تبلغنى به رحمتك ، وارزقنى من اليقين ما تهون به علىّ مصائب الدنيا، وبارك لى فى سمعى وبصرى ، واجعلهما الوارث منى ، اللهم اجعل ثأرى على من ظلمنى ، وانصرنى على من عادانى ، ولا تجعل الدنيا أكبر همى ، ولا مبلغ علمى، اللهم لا تسلط علىّ من لا يرحمنى ». فسئل عنهن ابن عمر فقال: كان رسول اللّه ﷺ يختم بهن مجلسه (١) (٢).

## فصل جامع
## فى فتاوى النبى ﷺ فى الذكر والدعاء

سئل ﷺ : أى المجاهدين أعظم أجراً ؟ قال: « أكثرهم ذكراً لله » ، قيل: فأى الصائمين أعظم أجراً ؟ قال: « أكثرهم للّه ذكراً» ، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك يقول: « أكثرهم للّه ذكراً »، فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنه: ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال رسول اللّه ﷺ : « أجل» . ذكره أحمد (٣).

وسئل ﷺ عن المفردين الذين هم أهل السبق ، فقال: « الذاكرون للّه كثيراً ، وفى لفظ : « المشتهرون بذكر اللّه ، يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافاً » . ذكره الترمذى(٤) .

وسئل ﷺ عن أهل الجنة ، فقال: «حِلَقُ الذكر»(٥).

وسئل ﷺ عن أهل الكرم الذين يقال لهم يوم القيامة : سيعلم أهل الجمع من أهل الكرم ،فقال: « هم أهل الذكر فى المساجد » ذكره أحمد (٦).

وسئل عن غنيمة مجالس الذكر ، فقال: « غنيمة مجالس الذكر : الجنة » . ذكره أحمد (٧).

---

(١) الحاكم فى المستدرك ( ١/ ٥٢٨ ) فى الدعاء ، باب:الدعاء الجامع الذى يختم به المجلس ، وقال: « صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .
(٢) الوابل الصيب ( ٣٣١ ـ ٣٣٤ ) . (٣) أحمد ( ٣/ ٤٣٨ ) .
(٤) الترمذى ( ٣٥٩٦ ) فى الدعوات ، باب : فى العفو والعافية ، وقال: « حسن غريب » .
(٥) أحمد ( ٣/ ١٥٠ ) (٦) أحمد ( ٣/ ٦٨ ) .
(٧) أحمد (٢/ ١٧٧ ) .

وسئل ﷺ عن قوم غزوا فقالوا : ما رأينا أفضل غنيمة ، ولا أسرع رجعة منهم ، فقال : « أدلكم على قوم أفضل غنيمة منهم ، وأسرع رجعة ، قوم شهدوا صلاة الصبح، ثم جلسوا يذكرون الله حتى طلعت الشمس، فأولئك أسرع رجعة وأفضل غنيمة » . ذكره الترمذى (١).

وسئل ﷺ عن خيار الناس ،فقال :« الذين إذا رأوا ذكر اللّه ذكروا ».ذكره أحمد(٢).

وسئل ﷺ عن خير الأعمال وأزكاها عند الله وأرفعها فى الدرجات ، فقال: « ذكره اللّه »، ذكره أحمد (٣).

وسئل ﷺ :أى الدعاء أسمع؟ فقال:« جوف الليل الآخر،ودبر الصلوات المكتوبات». ذكره أحمد (٤)، وقال: « الدعاء بين الأذان والإقامة لا يُرد» ، قالوا: فماذا نقول يا رسول اللّه ؟ قال: « سلوا الله العافية فى الدنيا والآخرة » . ذكره الترمذى (٥).

وسئل ﷺ : بأى شىء نختم الدعاء ؟ فقال : « آمين ». ذكره أبو داود .

وسئل ﷺ عن تمام النعمة ،فقال: « الفوز بالجنة والنجاة من النار ».ذكره الترمذى(٦)، فنسأل الله تمام نعمته بالفوز بالجنة والنجاة من النار .

وسئل ﷺ عن الاستعجال المانع من إجابة الدعاء ، فقال: « يقول: قد دعوت ، قد دعوت فلم يُستجب لى، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء » ، ذكره مسلم (٧). وفى لفظ : «يقول: قد سألت ، قد سألت فلم أعط شيئاً » .

وسئل ﷺ عن الباقيات الصالحات ، فقال: « التكبيرُ والتهليل والتسبيح والتحميد،ولا حول ولا قوة إلا بالله» . ذكره أحمد (٨).

وسأله ﷺ الصديقُ رضي الله عنه أن يُعلمه دعاء يدعو به فى صلاته ، فقال: « قل: اللهم

---

(١) الترمذى ( ٣٥٦١ ) فى الدعوات ،باب: ( ١٠٩ ) ، وقال: « غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » .
(٢) أحمد ( ٤/ ٢٢٧ ) .
(٣) أحمد ( ٥/ ٢٣٩ ) .
(٤) أحمد ( ٤/ ٣٨٥ ، ٣٨٧ )
(٥) الترمذى ( ٣٥٩٤ ) فى الدعوات ، باب : فى العفو والعافية ، وقال: « حسن ».
(٦) الترمذى ( ٣٥٢٧ ) فى الدعوات ، باب: (٩٤) ، وقال: « حسن ».
(٧) مسلم ( ٢٧٣٥/ ٩٢ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: بيان أنه يستجاب للداعى ما لم يعجل فيقول: دعوت فلم يستجب لى .
(٨) أحمد ( ٣/ ٧٥ ) .

إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم » . متفق عليه (١).

وسأله ﷺ الأعرابىُّ الذى علمه أن يقول: « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله رب العالمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم ». فقال : هذا لربى فما لى ؟ فقال: « قل اللهم اغفر لى وارحمنى ، واهدنى وارزقنى وعافنى ؛ فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك ». ذكره مسلم(٢) .

وسئل ﷺ عن رياض الجنة ، فقال: « المساجد »، فسئل ﷺ عن الرَّتع فيها ، فقال: «سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله، والله أكبر ». ذكره الترمذى (٣).

واستفتاه ﷺ رجلٌ فقال: لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً فعلمنى ما يجزينى ، قال: « قل :سبحان الله ،والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ». قال: يا رسول الله،هذا لله ،فما لى؟ قال :« قل: اللهم ارحمنى وعافنى ، واهدنى وارزقنى »، فقال: هكذا بيده وقبضها، فقال رسول الله ﷺ : « أما هذا فقد ملأ يده من الخير». ذكره أبو داود (٤).

ومرّ ﷺ بأبى هُريرة وهو يغرس غرْساً ، فقال: « ألا أدلك على غِراس خير لك من هذا؟سبحان الله ،والحمد لله ، ولا إله إلا الله،والله أكبر ، يغرس لك بكل واحدة شجرة فى الجنة » .ذكره ابن ماجه (٥).

وسئل ﷺ : كيف يكسب أحدُنا كل يوم ألف حسنة ؟ قال: « يسبح مائة تسبيحة، يكتب له ألف حسنة أو يحط عنه خطيئة ». ذكره مسلم (٦).

وأفتى ﷺ من قال له : لدغتنى عقرب ، بأنه لو قال حين أمسى: « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم تضره » . ذكره مسلم (٧).

وسأله ﷺ رجلٌ أن يعلمه تعوذا يتعوذ به ،فقال:« اللهم إنى أعوذ بك من شر

---

(١) البخارى ( ٨٣٤ ) فى الأذان ، باب: الدعاء قبل السلام ، ومسلم ( ٢٧٠٥ / ٤٨ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : استحباب خفض الصوت بالذكر .

(٢) مسلم ( ٢٦٩٦/ ٣٣ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء .

(٣) الترمذى ( ٣٥٠٩ ) فى الدعوات ، باب: (٨٣) ، وقال : « حسن غريب » .

(٤) أبو داود ( ٨٣٢ ) فى الصلاة ، باب : ما يجزئ الأمى والأعجمى من القراءة .

(٥) ابن ماجه ( ٣٨٠٧ ) فى الأدب ، باب: فضل التسبيح ، وفى الزوائد : « إسناده حسن » .

(٦) مسلم ( ٢٦٩٨ / ٣٧ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء .

(٧) مسلم ( ٢٧٠٩ ) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فى التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره .

سمعى، وشر بصرى ، وشر لسانى ، وشر قلبى ، وشر هَنى » يعنى : الفرج . ذكره النسائى(١).

وسئل ﷺ عن كيفية الصلاة عليه. فقال: « قولوا : اللهم صلّ على محمد، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ؛ إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » . متفق عليه(٢) (٣).

---

(١) النسائى ( ٥٤٨٤ ) فى الاستعاذة ، باب: الاستعاذة من شر الذّكر .

(٢) البخارى (٣٣٧٠) فى الأنبياء، باب: حديث أبى ذر : أى مسجد وضع فى الأرض أول ، ومسلم ( ٤٠٦/٦٦) فى الصلاة ، باب: الصلاة على النبى ﷺ بعد التشهد .

(٣) إعلام الموقعين ( ٤/ ٣٨٦ ـ ٣٨٩ ) .

# كتاب

# اللباس والزينة

# فصل
# في هديه ﷺ في اللباس

كان له ﷺ ثلاث جباب يلبسها في الحرب .قيل فيها: جبة سندس أخضر ، والمعروف أن عروة بن الزبير كان له يلمق من ديباج ، بطانته سندس أخضر ،يلبسه في الحرب ، والإمام أحمد في إحدى روايتيه يجوز لبس الحرير في الحرب (١).

ولبس حلة حمراء ، والحلة :إزار ورداء ولا تكون الحلة إلا اسماً للثوبين معاً ،وغلط من ظن أنها كانت حمراء بحتًا لا يخالطها غيره ،وإنما الحلة الحمراء :بردان يمانيان منسوجان بخطوط حمر مع الأسود كسائر البرود اليمنية ، وهي معروفة بهذا الاسم باعتبار ما فيها من الخطوط الحمر ، وإلا فالأحمر البحت منهي عنه أشد النهي،ففي « صحيح البخاري » :أن النبي ﷺ نهى عن المياثر الحمر(٢)،وفي « سنن أبي داود » عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ رأى عليه ريطة مضرجة بالعصفر ،فقال:« ما هذه الريطة التي عليك؟» فعرفت ما كره فأتيت أهلي وهم يسجرون تنور لهم فقذفتها فيه ،ثم أتيته من الغد فقال:« يا عبد الله ،ما فعلت الريطة؟» فأخبرته ،فقال:« هلا كسوتها بعض أهلك،فإنه لابأس بها للنساء» (٣) ،وفي « صحيح مسلم » عنه أيضاً قال:رأى النبي ﷺ عليَّ ثوبين معصفرين فقال:« إن هذه من لباس الكفار فلاتلبسها » (٤)،وفي « صحيحه » أيضاً عن علي رضي الله عنه قال:نهى النبي ﷺ عن لباس المعصفر (٥)،ومعلوم أن ذلك إنما يصبغ صبغاً أحمر.

وفي بعض « السنن » أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر ، فرأى على رواحلهم أكسية فيها خطوط حمراء ، فقال:« ألا أرى هذه الحمرة قد علتكم !» فقمنا سراعاً لقول رسول الله ﷺ حتى نفر بعض إبلنا ، فأخذنا الأكسية فنزعناها عنها . رواه أبو داود (٦).

وفي جواز لبس الأحمر من الثياب والجوخ وغيرها نظر ،وأما كراهته فشديدة جداً، فكيف يظن بالنبي ﷺ أنه لبس الأحمر القاني ؟! كلا ، لقد أعاذه الله منه ، وإنما وقعت

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٣١).
(٢) البخاري (٥٨٤٩) في اللباس ، باب :الميثرة الحمراء.
(٣) أبو داود (٤٠٦٦) في اللباس ، باب : في الحمرة.
(٤) مسلم (٢٠٧٧/ ٢٧) في اللباس والزينة ، باب : النهي عن لبس الرجل الثوب المعصفر.
(٥) مسلم (٢٠٧٨/ ٢٩) في اللباس والزينة ، باب : النهي عن لبس الرجل الثوب المعصفر.
(٦) أبو داود (٤٠٧٠) في اللباس ، باب:في الحمرة ، وضعفه الألباني .

الشبهة من لفظ الحلة الحمراء ، والله أعلم[١] .

واشترى سراويل ، والظاهر أنه انما اشتراها ليلبسها ،وقد روى فى غير حديث أنه لبس السراويل ، وكانوا يلبسون السراويلات بإذنه ، ولبس الخفين ،ولبس النعل الذى يسمى التاسومة،ولبس الخاتم ، واختلفت الأحاديث هل كان فى يمينه أو يسراه؟ وكلها صحيحة السند .ولبس البيضة التى تسمى:الخوذة ، ولبس الدرع التى تسمى:الزودية،وظاهر يوم أحد بين الدرعين[٢].وكان قميصه من قطن،وكان قصير الطول قصير الكمين ، وأما هذه الأكمام الواسعة الطوال التى هى كالأخراج ، فلم يلبسها هو ولا أحد من أصحابه البتة ، وهى مخالفة لسنته ،وفى جوازها نظر ؛فإنها من جنس الخيلاء [٣].ولبس ﷺ خاتما من ذهب ثم رمى به ، ونهى عن التختم بالذهب ، ثم اتخذ خاتماً من فضة ولم ينه عنه[٤]،وأما حديث أبى داود أن النبىﷺ نهى عن أشياء ، وذكر منها:ونهى عن لبوس الخاتم ، إلا لذى سلطان . فلا أدرى ماحال الحديث ولا وجهه ،والله أعلم.

وكان يجعل فص خاتمه مما يلى باطن كفه ، وذكر الترمذى أنه كان إذا دخل الخلاء نزع خاتمه ، وصححه ،وأنكره أبو داود [٥] [٦].

وكانت مخدته ﷺ من أدم حشوها ليف،فالذين يمتنعون عما أباح الله من الملابس والمطاعم والمناكح تزهداً وتعبداً بإزائهم طائفة قابلوهم فلا يلبسون إلا أشرف الثياب ،ولا يأكلون إلا أطيب الطعام .فلا يرون لبس الخشن ولا أكله تكبراً وتجبراً ،وكلا الطائفتين هديه مخالف لهدى النبى ﷺ؛ولهذا قال بعض السلف:كانوا يكرهون الشهرتين من الثياب: العالى والمنخفض.

وفى « السنن » عن ابن عمر يرفعه إلى النبى ﷺ:« من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوب مذلة ثم تلهب فيه النار » [٧] ؛ وهذا لأنه قصد به الاختيال والفخر فعاقبه الله بنقيض ذلك فأذله ، كما عاقب من أطال ثيابه خيلاء بأن خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٣٧ ـ ١٣٩).

(٢) زاد المعاد (١/ ١٣٩ـ ١٤٠).

(٣) زاد المعاد (١/ ١٤٠).

(٤) أبو داود (٤٢١٨) فى الخاتم ،باب:ما جاء فى اتخاذ الخاتم.

(٥) الترمذى (١٧٤٦) فى اللباس،باب :ماجاء فى لبس الخاتم فى اليمين ،وقال:« هذا حديث حسن غريب » ، وضعفه الألبانى ،وأبو داود (١٩) فى الطهارة،باب:الخاتم يكون فيه ذكر الله يدخل به الخلاء ،وضعفه الألبانى.

(٦) زاد المعاد (١/ ١٤١).

(٧) أبو داود (٤٠٢٩) فى اللباس،باب :فى لبس الشهرة،وابن ماجه (٣٦٠٧) فى اللباس،باب:من لبس شهرة من الثياب ،وأحمد (٢/ ١٣٩).

إلى يوم القيامة ،وفى « الصحيحين » عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ: « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة »(١)،وفى « السنن » عنه أيضاً ﷺ قال: « الإسبال فى الإزار والقميص والعمامة من جر شيئاً منها خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»(٢)،وفى « السنن » عن ابن عمر أيضاً قال: ما قال رسول الله ﷺ فى الإزار فهو فى القميص(٣) .

## فصل
## فيما يمدح ويذم من اللباس

لبس الدنىء من الثياب يذم فى موضع ، ويحمد فى موضع ، فيذم إذا كان شهرة وخيلاء ، ويمدح إذا كان تواضعاً واستكانة ،كما أن لبس الرفيع من الثياب يذم إذا كان تكبراً وفخرًا وخيلاء ، ويمدح إذا كان تجملاً وإظهارًا لنعمة الله،ففى « صحيح مسلم » عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من كبر،ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان » ، فقال رجل: يا رسول الله،إنى أحب أن يكون ثوبى حسناً ونعلى حسنة ، أفمن الكبر ذاك ؟فقال: « لا،إن الله جميل يحب الجمال ،الكبر: بطر الحق،وغمط الناس » (٤) (٥) .

## فصل
## فى أنواع الملابس وخواصها

الملابس ثلاثة أقسام: قسم يسخن البدن ويدفئه،وقسم يدفئه ولا يسخنه،وقسم لا يسخنه ولا يدفئه . وليس هناك ما يسخنه ولا يدفئه ، إذ ما يسخنه فهو أولى بتدفئته ، فملابس الأوبار والأصواف تسخن وتدفئ ، وملابس الكتان والحرير والقطن تدفئ ولا تسخن ؛

---

(١) البخارى (٥٧٩١) فى اللباس ،باب: من جر ثوبه من الخيلاء ، ومسلم (٢٠٨٥/٤٤) فى اللباس والزينة ، باب : تحريم جر الثوب خيلاء . . . إلخ.

(٢) أبو داود (٤٠٩٤) فى اللباس ، باب: فى قدر موضع الإزار ، وابن ماجه (٣٥٧٦) فى اللباس ، باب: طول القميص كم هو؟

(٣) أبو داود (٤٠٩٥) فى اللباس ،باب: فى قدر موضع الإزار ، وأحمد (٢/ ١١٠ ، ١٣٧) ، والحديث رواه البخارى (٥٧٩١) فى اللباس ، باب : من جر ثوبه من الخيلاء.

(٤) مسلم (٩١/١٤٧) فى الإيمان ، باب: تحريم الكبر وبيانه.

(٥) زاد المعاد (١/ ١٤٦ ، ١٤٧).

فثياب الكتان باردة يابسة ، وثياب الصوف حارة يابسة ، وثياب القطن معتدلة الحرارة ، وثياب الحرير ألين من القطن وأقل حرارة منه (١).

## فصل
## فى تأثير الثياب على القلب

بين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة ؛ولذلك تدل ثياب المرء فى المنام على قلبه وحاله ،ويؤثر كل منهما فى الآخر؛ولهذا نهى عن لباس الحرير والذهب وجلود السباع ؛ لما تؤثر فى القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع.

وتأثير القلب والنفس فى الثياب أمر خفى، يعرفه أهل البصائر ، من نظافتها ودنسها ، ورائحتها ، وبهجتها وكسفتها ،حتى إن ثوب البَرّ ليعرف من ثوب الفاجر وليسا عليهما (٢).

## فصل
## فى إباحة الحرير للنساء وتحريمه على الرجال إلا لحاجة

الذى استقرت عليه سنته ﷺ إباحة الحرير للنساء مطلقًا ،وتحريمه على الرجال إلا لحاجة ومصلحة راجحة ، فالحاجة إما من شدة البرد ولا يجد غيره أو لا يجد سترة سواه . ومنها : لباسه للجرب والمرض والحكة وكثرة القمل ، كما دل عليه حديث أنس هذا الصحيح (٣).

والجواز : أصح الروايتين عن الإمام أحمد ، وأصح قولى الشافعى ، إذ الأصل عدم التخصيص،والرخصة إذا ثبتت فى حق بعض الأمة لمعنى ، تعدت إلى كل من وجد فيه ذلك المعنى ؛ إذ الحكم يعم بعموم سببه.

ومن منع منه،قال:أحاديث التحريم عامة ، وأحاديث الرخصة يحتمل اختصاصها

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٧٩).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٢١).

(٣) البخارى (٢٩١٩ ـ ٢٩٢٢) فى الجهاد ، باب :الحرير فى الحرب ، ومسلم (٢٠٧٦/ ٢٥، ٢٦) فى اللباس والزينة، باب:إباحة لبس الحرير للرجل إذا كان به حكة أو نحوها.

بعبد الرحمن بن عوف والزبير ، ويحتمل تعديها إلى غيرهما. وإذا احتمل الأمران كان الأخذ بالعموم أولى؛ ولهذا قال بعض الرواة فى هذا الحديث : فلا أدرى أبلغت الرخصة مَنْ بعدهما أم لا ؟

والصحيح : عموم الرخصة؛ فإنه عرف خطاب الشرع فى ذلك ما لم يصرح بالتخصيص ، وعدم إلحاق غير من رخص له أولى به ، كقوله لأبى بردة فى تضحيته بالجذعة من المعز : « تجزيك ولن تجزى عن أحد بعدك » (١)، وكقوله تعالى لنبيه ﷺ فى نكاح من وهبت نفسها له: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ الأحزاب: ٥٠] .

وتحريم الحرير: إنما كان سدًا للذريعة ؛ ولهذا أبيح للنساء ، وللحاجة ، والمصلحة الراجحة، وهذه قاعدة ماحرم لسد الذرائع ، فإنه يباح عند الحاجة والمصلحة الراجحة ، كما حرم النظر سدًا لذريعة الفعل ، وأبيح منه ما تدعو إليه الحاجة والمصلحة الراجحة وكما حرم التنفل بالصلاة فى أوقات النهى ؛ سدًا لذريعة المشابهة الصورية بعباد الشمس ، وأبيحت للمصلحة الراجحة. وكما حرم ربا الفضل سداً لذريعة ربا النسيئة ، وأبيح منه ما تدعو إليه الحاجة من العرايا. وقد أشبعنا الكلام فيما يحل ويحرم من لباس الحرير فى كتاب « التحبير لما يحل ويحرم من لباس الحرير » (٢) .

## وأيضا

سئل ابن عقيل: هل يجوز أن يتخذ النساء السفر والمطارح والمخاد وغير ذلك حريرا ؟ فقال: لا بل ملابس فقط (٣) .

## فصل
## فى النهى عن الذهب والحرير للصبيان

قال أبو حنيفة وصاحباه : يكره أن يُلبس الذكر من الصبيان الذهب والحرير، وقد صرح الأصحاب أنه حرام ، وقالوا: إن التحريم لما ثبت فى حق الذكور ، وتحريم اللبس يحرم الإلباس ، كالخمر لما حرم شربها حرم سقيها، وكذلك قالوا: يكره منديل الحرير الذى يتمخط

---

(١) أحمد (٤/ ٣٠٣) .
(٢) زاد المعاد (٤/ ٧٧).
(٣) بدائع الفوائد (٤/ ٤٢).

فيه ويتمسح من الوضوء ، ومرادهم :التحريم (١) .

## وأيضا

والجمال منه ما يحبه الله ومنه ما يبغضه ،فإن الله يبغض التجمل بلباس الحرير والذهب ،ويبغض التجمل بلباس الخيلاء وإن كان ذلك جمالاً ، فالجمال ثلاثة أنواع : جمال خال عن معارضة مفسدة فهذا يحبه الله ، وجمال مشتمل على مفسدة مبغوضة لله فهذا يكرهه الله (٢).

## فصل
## فى نسخ تحريم الذهب على النساء

عن أسماء بنت يزيد ،أن رسول الله ﷺ قال:« أيما امرأة تقلدت قلادة من ذهب قلدت فى عنقها مثلها من النار يوم القيامة ،وأيما امرأة جعلت فى أذنها خرصاً من ذهب جعل فى أذنها مثله من النار يوم القيامة » (٣) . وأخرجه النسائى (٤) .

والخرص:الحلقة.وحمله بعضهم على أنه قال ذلك فى الزمان الأول،ثم نسخ وأبيح للنساء التحلى بالذهب،لقوله ﷺ:« هذان حرام على ذكور أمتى ،حل لإناثها » (٥) .

وقيل:هذا الوعيد فيمن لايؤدى زكاة الذهب،دون من أداها.والله عز وجل أعلم.

قال ابن القطان:وعلة هذا الخبر أن محمود بن عمرو ـ راويه عن أسماء ـ مجهول الحال،وإن كان قد روى عنه جماعة.

وروى النسائى عن أبى هريرة قال: كنت قاعداً عند النبى ﷺ،فأتته امرأة فقالت:يارسول الله،سواران من ذهب؟ قال : « سواران من نار»،قالت:طوق من ذهب؟ قال:« طوق من نار »، قالت:قرطان من ذهب؟قال:« قرطان من نار ».قال:وكان عليها

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٤٣).

(٢) الكلام على مسألة السماع (٣٧٣).

(٣) أحمد (٦/ ٤٦١).

(٤) النسائى (٥١٣٩) فى الزينة ،باب:الكراهية للنساء فى إظهار الحلى والذهب،وضعفه الألبانى.

(٥) البيهقى فى الكبرى (٢/ ٤٢٥) فى الصلاة ،باب:الرخصة فى الحرير والذهب للنساء ،موارد الظمآن (١٤٦٥)فى اللباس ، باب:ما جاء فى الحرير والذهب وغير ذلك.

سواران من ذهب فرمت بها ، فقالت: يارسول الله،إن المرأة إذا لم تتزين لزوجها صلفت عنده. فقال: « مايمنع إحداكن أن تصنع قرطين من فضة ، ثم تصفره بزعفران أو بعبير» (١) .

قال ابن القطان: وعلته أن أبا زيد راويه عن أبى هريرة مجهول،ولا نعرف روى عنه غير أبى الجهم. ولا يصح هذا.

وفى النسائى أيضًا عن ثوبان قال: جاءت بنت هبيرة إلى رسول الله ﷺ وفى يدها فتخ. فقال : كذا ، وفى كتاب : أى : خواتيم ضخام . فجعل رسول الله ﷺ يضرب يدها. فدخلت على فاطمة بنت رسول الله ﷺ تشكو إليها الذى صنع بها رسول الله ﷺ. فانتزعت فاطمة سلسلة فى عنقها من ذهب. قالت: هذه أهداها إلى أبو حسن. فدخل رسول الله ﷺ والسلسة فى يدها. قال: « يا فاطمة أيغرك أن يقول الناس: ابنة رسول الله ﷺ وفى يدها سلسلة من نار؟» ثم خرج ،ولم يعقد . فأرسلت فاطمة بالسلسلة إلى السوق فباعتها ، واشترت بثمنها غلاماً ـ وقال مرة: عبداً ـ وذكر كلمة معناها : فأعتقته ، فحدث بذلك ، فقال : « الحمد لله الذى أنجى فاطمة من النار» (٢) .

قال ابن القطان: وعلته أن الناس قد قالوا: إن رواية يحيى بن أبى كثير عن أبى سلام الرحبى منقطعة ،على أن يحيى قد قال: حدثنى أبو سلام،وقد قيل: إنه دلس ذلك،ولعله كان أجازه زيد بن سلام فجعل يقول: حدثنا زيد .

وفى النسائى أيضا عن عقبة بن عامر: أن النبى ﷺ كان يمنع أهله الحلية والحرير ، ويقول: « إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوها فى الدنيا » (٣) ،فاختلف الناس فى هذه الأحاديث وأشكلت عليهم .

فطائفة: سلكت بها مسلك التضعيف ، وعللتها كلها.

وطائفة: ادعت أن ذلك كان أول الإسلام ثم نسخ،واحتجت بحديث أبى موسى عن النبى ﷺ قال : « أحل الذهب والحرير للإناث من أمتى،وحرم على ذكورها » ، قال الترمذى : حديث صحيح (٤) .

---

(١) النسائى (٥١٤٢) فى الزينة ، باب :الكراهية للنساء فى إظهار الحلى والذهب ، وضعفه الألبانى.
(٢) النسائى (٥١٤٠) فى الزينة ، باب:الكراهية للنساء فى إظهار الحلى والذهب.
(٣) النسائى (٥١٣٦) فى الزينة ، باب:الكراهية للنساء فى إظهار الحلى والذهب.
(٤) الترمذى (١٧٢٠) فى اللباس ، باب:ما جاء فى الحرير والذهب .

ورواه ابن ماجه فى سننه من حديث على [١]، وعبد الله بن عمر [٢] ، عن النبى ﷺ.

وطائفة: حملت أحاديث الوعيد على من لم يؤد زكاة حليها، فأما من أدته فلا يلحقها هذا الوعيد.

واحتجوا بحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن امرأة من اليمن أتت رسول الله ﷺ ، ومعها ابنة لها، وفى يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب ، فقال لها: « أتؤدين زكاة هذا ؟ » قالت: لا ، قال: « أيسرك أن يسورك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار؟» قال: فخلعتهما فألقتهما إلى النبى ﷺ ، وقالت: هما لله ولرسوله [٣] .

وبما روى أبو داود عن أم سلمة قالت: كنت ألبس أوضاحاً من ذهب. فقلت: يا رسول الله، أكنز هو ؟ فقال: « ما بلغ أن تؤدى زكاته فزكى ، فليس بكنز » [٤] ، وهذا من أفراد ثابت ابن عجلان ، والذى قبله من أفراد عمرو بن شعيب . وطائفة من أهل الحديث حملت أحاديث الوعيد على من أظهرت حليتها وتبرجت بها ، دون من تزينت بها لزوجها .

قال النسائى فى سننه ـ وقد ترجم على ذلك: الكراهة للنساء فى إظهار الحلى والذهب ، ثم ساق أحاديث الوعيد. والله أعلم.

ثم حديث ميمون فيه: «وعن لبس الذهب إلا مقطعاً »[٥] ففيه الانقطاع فى موضعين ، وقد رواه النسائى من حديث أبى البيهس بن فهدان، عن أبى شيخ الهنائى، عن معاوية . وقد تقدم الكلام على هذا الإسناد فى الحج[٦] ، ورواه عن أبى شيخ، عن أبى حمان أنه سمع معاوية [٧] ، ورواه النسائى أيضاً من حديث بيهس بن فهدان: أنا أبو شيخ ، قال: سمعت ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ عن لبس الذهب إلا مقطعاً [٨].

وقد روى فى حديث آخر احتج به أحمد فى رواية الأثرم: « من تحلى بخريصة كوى بها يوم القيامة »: فقال الأثرم: فقلت : أى شىء خريصة؟ قال: شىء صغير مثل الشعيرة ، وقال غيره: من عين الجرادة.

---

(١) ابن ماجه (٣٥٩٥) فى اللباس ، باب: لبس الحرير والذهب للنساء.

(٢) ابن ماجه (٣٥٩٧) فى اللباس ، باب: لبس الحرير والذهب للنساء.

(٣) أبو داود (١٥٦٣) فى الزكاة ، باب: الكنز ما هو ؟ وزكاة الحلى، والنسائى (٢٤٧٩) فى الزكاة ، باب: زكاة الحلى.

(٤) أبو داود (١٥٦٤) فى الزكاة، باب: الكنز ما هو ؟ وزكاة الحلى، وضعفه الألبانى.

(٥) أبو داود (٤٢٣٩) فى الخاتم ، باب: ما جاء فى الذهب للنساء ، والنسائى (٥١٥٠) فى الزينة ، باب: تحريم الذهب على الرجال.

(٦) النسائى (٥١٥٩) فى الزينة ، باب : تحريم الذهب على الرجال.

(٧) النسائى (٥١٥٣) فى الزينة ، باب : تحريم الذهب على الرجال.

(٨) النسائى (٥١٦٠) فى الزينة ، باب: تحريم الذهب على الرجال.

وسمعت شيخ الاسلام يقول: حديث معاوية فى إباحة الذهب مقطعاً: هو فى التابع غير المفرد ، كالزر والعلم ونحوه ، وحديث الخريصة : هو فى الفرد ، كالخاتم وغيره .فلا تعارض بينهما . والله أعلم (١) .

## فصل
## فى النهى عن الجلوس على فراش الحرير

المثال الثامن والأربعون (٢) : رد السنة الصحيحة الصريحة المحكمة فى النهى عن الجلوس على فراش الحرير،كما فى صحيح البخارى من حديث حذيفة: نهانا رسول الله ﷺ أن نشرب فى آنية الذهب والفضة،وأن نأكل فيها ،وعن الحرير والديباج ،وأن نجلس عليه، وقال: «هو لهم فى الدنيا ،ولنا فى الآخرة »(٣).ولو لم يأت هذا النص لكان النهى عن لبسه متناولا لافتراشه ،كما هو متناول للالتحاف به،وذلك لبس؛ لغةً وشرعاً ،كما قال أنس: قمت إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس ،ولو لم يأت اللفظ العام المتناول لافتراشه بالنهى لكان القياس المحض موجباً لتحريمه ،إما قياس المثل أو قياس الأولى ،فقد دل على تحريم الافتراش النص الخاص ، واللفظ العام ،والقياس الصحيح ، ولا يجوز رد ذلك كله بالمتشابه من قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [ البقرة : ٢٩ ] .

ومن القياس على ما إذا كان الحرير بطانة الفراش دون ظهارته ،فإن الحكم فى ذلك التحريم على أصح القولين ، والفرق على القول الآخر مباشرة الحرير وعدمها ، كحشو الفراش به ، فإن صح الفرق بطل القياس ،وإن بطل الفرق منع الحكم.

وقد تمسك بعموم النهى عن افتراش الحرير طائفة من الفقهاء ، فحرموه على الرجال والنساء ، وهذه طريقة الخراسانيين من أصحاب الشافعى ،حرم عليه وقابلهم من أباحه للنوعين .

والصواب : التفصيل ، وأن من أبيح له لبسه أبيح له افتراشه،ومن حرم عليه حرم عليه، وهذا قول الأكثرين ،وهى طريقة العراقيين من الشافعية (٤) .

---

(١) تهذيب السنن (٦/ ١٢٥ ـ ١٢٨).

(٢) من أمثلة المحتجين بظاهر القرآن فى معارضة السنن .

(٣) البخارى (٥٨٣٧) فى اللباس ، باب :افتراش الحرير .

(٤) إعلام الموقعين (٢/ ٣٨٩، ٣٩٠).

## فصل
## فى إباحة خاتم الفضة

ثبت أن رسول الله ﷺ كان خاتمه من الفضة وفصّه منه، وكانت قبيعة سيفه فضة، ولم يصح عنه فى المنع من لباس الفضة والتحلى بها البتة، كما صح عنه المنع من الشرب فى آنيتها، وباب الآنية أضيق من باب اللباس والتحلى؛ ولهذا يباح للنساء لباسًا وحلية ما يحرم عليهن استعماله آنية، فلا يلزم من تحريم الآنية تحريم اللباس والحلية.

وفى «السنن» عنه: «وأما الفضة فالعبوا بها لعباً» (١)، فالمنع يحتاج إلى دليل يبينه، إما نص أو إجماع، فإن ثبت أحدهما وإلا ففى القلب من تحريم ذلك على الرجال شىء، والنبى ﷺ أمسك بيده ذهبًا وبالأخرى حريرًا، وقال: «هذان حرام على ذكور أمتى، حل لإناثهم» (٢)، والفضة سر من أسرار الله فى الأرض وطلسم الحاجات، وإحسان أهل الدنيا بينهم، وصاحبها مرموق بالعيون بينهم، معظم فى النفوس، مصدَّر فى المجالس، لا تغلق دونه الأبواب، ولا تمل مجالسته ولا معاشرته، ولا يستثقل مكانه، تشير الأصابع إليه وتعقد العيون نطاقها عليه، إن قال سمع قوله، وإن شفع قبلت شفاعته، وإن شهد زكيت شهادته، وإن خطب فكفء لا يعاب، وإن كان ذا شيبة بيضاء فهى أجمل عليه من حلية الشباب (٣).

## فصل
## فى النهى عن اتخاذ المكحلة والمرود من الفضة

قال (٤) فى رواية جعفر بن محمد النسائى: لا يعجبنى المكحلة والمرود؛ يعنى من الفضة. وقد صرح بالتحريم فى عدة مواضع، وهو مذهبه بلا خلاف (٥).

---

(١) أبو داود (٤٢٣٦) فى الخاتم، باب: ما جاء فى الذهب للنساء، وأحمد (٢/ ٣٣٤، ٣٧٨).

(٢) سبق تخريجه ص٤٠٤.

(٣) زاد المعاد (٤/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٤) أى: الإمام أحمد رحمه الله.

(٥) إعلام الموقعين (١/ ٤٢).

# فصل
## فيما جاء فى ترك الخاتم

عن إبراهيم بن سعد ،عن ابن شهاب ، عن أنس رضي الله عنه : أنه رأى فى يد النبى ﷺ خاتما من ورق يوماً واحداً ،فصنع الناس فلبسوا ، وطرح النبى ﷺ فطرح الناس [(١)]. وأخرجه البخارى ومسلم والنسائى [(٢)] .

وقال أبو داود: رواه عن الزهرى زياد بن سعد، وشعيب ،وابن مسافر، كلهم قال: « من ورق »، هذا آخر كلامه.

وهؤلاء الذين ذكرهم أبو داود قد أشار إليهم البخارى فى صحيحه.

وقد أخرج البخارى ومسلم من حديث يونس بن يزيد عن الزهرى ، وفيه : « من ورق » [(٣)] فهؤلاء خمسة من ثقات أصحاب الزهرى. رووه عنه كذلك.

وقد قيل: إن هذا عند جميع أصحاب الحديث وَهْمٌ من ابن شهاب: « من خاتم الذهب».

ويدل على وهم ابن شهاب: ما رواه البخارى فى صحيحه من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ اتخذ خاتماً من ذهب ، فجعل فصه مما يلى كفه، فاتخذه الناس ، فرمى به واتخذ خاتماً من ورق أو فضة [(٤)] .

فهذا يدل على أن الذى طرحه النبى ﷺ: هو خاتم الذهب، ويدل على أن خاتم الفضة استمر فى يده ولم يطرحه ،ولبسه بعده أبو بكر وعمر وعثمان صدراً من خلافته .

وقال النسائى: أخبرنا محمد بن معمر، حدثنا أبو عاصم، عن المغيرة بن زياد ، حدثنا نافع عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ لبس خاتماً من ذهب ثلاثة أيام ، فلما رآه أصحابه فشت خواتيم الذهب، فرمى به ،فلا يدرى مافعل ! ثم أمر بخاتم من فضة ، فأمر أن ينقش فيه: « محمد رسول الله »، وكان فى يد رسول الله ﷺ حتى مات، وفى يد أبى بكر حتى

---

(١) أبو داود (٤٢٢١) فى الخاتم ، باب: ماجاء فى ترك الخاتم.

(٢) الفتح (١٠/٣١٨) فى اللباس ، باب : (٤٧) ، ومسلم (٢٠٩٣/٥٩) فى اللباس والزينة ، باب : فى طرح الخواتم ، والنسائى (٥٢٩١) فى الزينة ، باب: طرح الخاتم وترك لبسه.

(٣) البخارى (٥٨٦٨) فى اللباس ، باب: خاتم الذهب ، ومسلم (٢٠٩٤/ ٦١) فى اللباس والزينة ، باب: فى خاتم الورق فصّه حبش.

(٤) البخارى (٥٨٦٥) فى اللباس ، باب : خاتم الفضة.

مات ،وفى يد عمر حتى مات ،وفى يد عثمان ست سنين من عمله ،فلما كذب عليه دفعه إلى رجل من الأنصار فكان يختم به ، فخرج الأنصارى إلى قليب لعثمان ، فسقط ، فالتمس ، فلم يوجد ، فأمر بخاتم مثله ونقش فيه : « محمد رسول الله » (١) .

وفى الصحيحين من حديث الليث عن نافع عن عبد الله: أن رسول الله ﷺ اصطنع خاتمًا من ذهب ،وكان يجعل فصه فى باطن كفه إذا لبسه ، فصنع الناس ، ثم إنه جلس على المنبر فنزعه ، وقال: « إنى كنت ألبس هذا الخاتم وأجعل فصه من داخل »، فرمى به ، وقال: « والله لا ألبسه أبدًا » ، فنبذ الناس خواتيمهم (٢) . فهذا الحديث متفق عليه ،وله طرق عديدة فى الكتابين.

وقد روى عن البراء بن عازب ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أنهم لبسوا خواتيم الذهب.

وهذا - إن صح عنهم - فلعلهم لم يبلغهم النهى. وهم فى ذلك كمن رخص فى لبس الحرير من السلف ،وقد صحت السنة بتحريمه على الرجال وإباحته للنساء. والله أعلم(٣) .

## فصل
## فى لباس الشهرة

عن ابن منيب الجرشى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « من تشبه بقوم فهو منهم » (٤) .

فى إسناده: عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان . وهو ضعيف .

وأخرجه الإمام أحمد فى المسند أتم منه. ولفظه: « بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لاشريك له، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ،وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » (٥) (٦) .

---

(١) النسائى (٥٢٩٣) فى الزينة ، باب: طرح الخاتم وترك لبسه.

(٢) البخارى (٥٨٦٦) فى اللباس ، باب : خاتم الفضة ، ومسلم (٢٠٩١/ ٥٥) فى اللباس والزينة ، باب : لبس النبى ﷺ خاتماً من ورق . . . إلخ.

(٣) تهذيب السنن (٦/ ١١١ - ١١٣).

(٤) أبو داود (٤٠٣١) فى اللباس ، باب : فى لبس الشهرة.

(٥) أحمد (٢/ ٥٠) ،وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ٥٢) فى المغازى والسير، باب: قوله: بعثت بين يدى الساعة بالسيف ،وقال: « فيه عبد الرحمن بن ثابت : وثقه ابن المدينى وغيره ، وضعفه أحمد وغيره ،وبقية رجاله ثقات » بدون قوله « ومن تشبه بقوم فهو منهم ».

(٦) تهذيب السنن (٦/ ٢٤ ، ٢٥).

## فصل
## فى لبس ما نسجه الكفار من الثياب

إقرارهم (١) على لبس ما نسخه الكفار من الثياب (٢).

## فصل
## فى لبس الإزار وكيفيته

سأله ﷺ رجلٌ فقال: أين أتزر ؟ فأشار إلى عظم ساقه ،وقال: « هاهنا اتزر »،قال: فإن أبيت ؟ قال: « فهاهنا أسفل من ذلك ،فإن أبيت فهاهنا فوق الكعبين ،فإن أبيت ،فإن الله لايحب كل مختال فخور ». ذكره أحمد (٣) .

وسأله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : إن إزارى يسترخى إلا أن أتعاهده ، فقال : « إنك لست ممن يفعله خيلاء » . ذكره البخارى (٤) . وقال : « من جر إزاره خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » . فقالت أم سلمة: فكيف تصنع النساء بذيولهن ؟ قال : « يرخينه شبرا ». فقالت : إذا تنكف أقدامهن . قال : « يرخين ذراعاً لايزدن عليه » (٥) (٦) .

## وأيضا

سألته (٧) عن الإزار تحت السرة أعجب إليك أم فوق السرة ؟فقال :تحت السرة (٨) .

---

(١) أى : إقرار النبى ﷺ للصحابة.

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٤١٦).

(٣) أحمد ( ٣/ ٤٨٢ ).

(٤) البخارى (٥٧٨٤) فى اللباس ،باب:من جر إزاره من غير خيلاء .

(٥) الترمذى (١٧٣١) فى اللباس ، باب : ما جاء فى جر ذيول النساء ، والنسائى (٥٣٣٦) فى الزينة ، باب : ذيول النساء، وابن ماجه (٣٥٨٠) فى اللباس ، باب :ذيل المرأة كم يكون ، وأحمد (٦/ ٣١٥).

(٦) إعلام الموقعين (٤/ ٤٠٥ ـ ٥٠٥).

(٧) من مسائل الفضل بن زياد القطان للإمام أحمد رحمه الله .

(٨) بدائع الفوائد (٤/ ٦٩).

## فصل
## فى لبس الطيلسان

أما الطيلسان فلم ينقل عنه أنه ﷺ لبسه ولا أحد من أصحابه، بل قد ثبت فى «صحيح مسلم» من حديث أنس بن مالك، عن النبى ﷺ أنه ذكر الدجال فقال: «يخرج معه سبعون ألفًا من يهود أصبهان عليهم الطيالسة» (١)، ورأى أنس جماعة عليهم الطيالسة، فقال. ما أشبههم بيهود خيبر. ومن هاهنا كره لبسها جماعة من السلف والخلف، لما روى أبو داود والحاكم فى «المستدرك» عن ابن عمر، عن النبى ﷺ أنه قال: «من تشبه بقوم فهو منهم» (٢)، وفى الترمذى عنه ﷺ: «ليس منا من تشبه بقوم غيرنا» (٣). وأما ما جاء فى حديث الهجرة أن النبى ﷺ جاء إلى أبى بكر متقنعًا بالهاجرة (٤)، فإنما فعله النبى ﷺ تلك الساعة ليختفى بذلك، ففعله للحاجة، ولم تكن عادته التقنع، وقد ذكر أنس عنه ﷺ أنه كان يكثر القناع، وهذا إنما كان يفعله ـ والله أعلم ـ للحاجة من الحر ونحوه وأيضاً ليس التقنع من التطليس (٥).

## فصل
## فى لبس العمامة السوداء

فى القصة (٦): أنه دخل مكة، وعليه عمامة سوداء، ففيه دليل على جواز لبس السواد أحياناً، ومن ثم جعل خلفاء بنى العباس لبس السواد شعاراً لهم ولولاتهم وقضاتهم، والنبى ﷺ لم يلبس لباساً راتباً، ولا كان شعاره فى الأعياد والجمع والمجامع العظام البتة، وإنما اتفق له لبس العمامة السوداء يوم الفتح دون سائر الصحابة، ولم يكن سائر لباسه يومئذ السواد بل كان لواؤه أبيض (٧).

---

(١) مسلم (٢٩٤٤/ ١٢٤) فى الفتن وأشراط الساعة، باب: فى بقية من أحاديث الدجال.

(٢) أبو داود (٤٠٣١) فى اللباس، باب: فى لبس الشهرة، ولم نعثر عليه فى الحاكم.

(٣) الترمذى (٢٦٩٥) فى الاستئذان، باب: ما جاء فى كراهية إشارة اليد بالسلام.

(٤) البخارى (٥٨٠٧) فى اللباس، باب: التقنع، وأبو داود (٤٠٨٣) فى اللباس، باب: فى التقنع، وأحمد (٦/ ١٩٨).

(٥) زاد المعاد (١/ ١٤٢).

(٦) أى قصة فتح مكة.

(٧) زاد المعاد (٣/ ٤٥٨، ٤٥٩).

## فصل
## فى لبس المنطقة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لم يبلغنا أن النبى ﷺ شد على وسطه منطقة (١) .

## فصل
## فى إرخاء الذؤابة بين الكتفين

كان شيخنا أبو العباس ابن تيمية ـ قدس الله روحه فى الجنة ـ يذكر فى سبب الذؤابة شيئاً بديعاً ،وهو أن النبى ﷺ إنما اتخذها صبيحة المنام الذى رآه فى المدينة ،لما رأى رب العزة تبارك وتعالى ، فقال: « يا محمد ،فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت: لا أدرى ، فوضع يده بين كتفى فعلمت ما بين السماء والأرض . . . » الحديث ،وهو فى الترمذى (٢) ، وسئل عنه البخارى فقال: صحيح. قال: فمن تلك الحال أرخى الذؤابة بين كتفيه ،وهذا من العلم الذى تنكره ألسنة الجهال وقلوبهم ،ولم أر هذه الفائدة فى إثبات الذؤابة لغيره (٣) .

## فصل
## فى صبغ الثوب بالحمرة

عن عمرو بن شعيب،عن أبيه ،عن جده قال: هبطنا مع رسول الله ﷺ من ثنية، فالتفت إلى وعلىَّ ريطة مضرجة بالعصفر، فقال: « ما هذه الريطة عليك؟» فعرفت ما كره ، فأتيت أهلى وهم يسجرون تنوراً لهم فقذفتها فيه، ثم أتيته من الغد، فقال : « يا عبد الله، مافعلت الريطة ؟ » فأخبرته ، فقال: «ألا كسوتها بعض أهلك، فانه لا بأس به للنساء» (٤) .

وحكى عن هشام بن الغاز أنه قال: المضرجة التى ليست بمشبعة ولا الموردة. هذا آخر كلامه.

وقال غيره: ضرجت الثوب، إذا صبغته بالحمرة. وهو دون المشبع ،وفوق المورد.

(١) زاد المعاد (١/ ١٣١).

(٢) الترمذى (٣٢٣٣) فى تفسير القرآن ، باب: « ومن سورة ص ».

(٣) زاد المعاد (١/ ١٣٦).

(٤) سبق تخريجه ص ٣٩٩ .

وأخرجه ابن ماجه (١) .

وقد روى مسلم في صحيحه عن علي بن أبي طالب قال : نهى رسول الله ﷺ عن لباس القسي والمعصفر، وعن تختم الذهب، وعن قراءة القرآن في الركوع (٢) .

وروى أيضاً في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال: رأى علي رسول الله ﷺ ثوبين معصفرين فقال: « أمك أمرتك بهذا ؟» قلت: أغسلهما ؟قال: « بل احرقهما » (٣) .

وروى أيضاً في صحيحه عن عبد الله بن عمرو أيضاً قال: رأى عليَّ رسول الله ﷺ ثوبين معصفرين، فقال: « إن هذه من لباس الكفار ، فلا تلبسها » (٤) .

وهذه الأحاديث صريحة في التحريم، لا معارض لها، فالعجب ممن تركها.

وقد عارضها بعض الناس بحديث البراء بن عازب، قال: رأيت رسول الله ﷺ في حلة حمراء، لم أر شيئاً قط أحسن منه. متفق عليه (٥) .

وكان بعض المنتسبين إلى العلم يخرج إلى أصحابه في الثوب المصبغ حمرة، ويزعم أنه يقصد اتباع هذا الحديث. وهذا وَهْمٌ وغلط بين.

فإن الحلة هي البرود التي قد صبغ غزلها ونسج الأحمر مع غيره ،فهي برد فيه أسود وأحمر، وهي معروفة عند أهل اليمن قديماً وحديثا. والحلة إزار ورداء مجموعهما يسمى حلة. فإذا كان البرد فيه أحمر وأسود قيل: برد أحمر، وحلة حمراء. فهذا غير المضرج المصبغ حمرة.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن النهي إنما هو عن المعصفر خاصة، فأما المصبوغ بغير العصفر من الأصباغ التي تحمر الثوب ،كالمدر والمغرة ، فلا بأس به.

قال الترمذي في حديث النهي عن المعصفر: معناه عند أهل الحديث: أنه كره المعصفر. قال: ورأوا أن ماصبغ بالحمرة من مدر أو غيره فلا بأس به مالم يكن معصفراً (٦) .

---

(١) ابن ماجه (٣٦٠٣) في اللباس ، باب :كراهية المعصفر للرجال .

(٢) سبق تخريجه ص٣٩٩ .

(٣) مسلم (٢٠٧٧/٢٨) في اللباس والزينة ، باب :النهي عن لبس الرجل الثوب المعصفر.

(٤) سبق تخريجه ص ٣٩٩ .

(٥) البخاري (٣٥٥١) في المناقب ، باب : صفة النبي ﷺ ،ومسلم (٢٣٣٧/ ٩١) في الفضائل ، باب: صفة النبي ﷺ وأنه كان أحسن وجها.

(٦) تهذيب السنن (٦/ ٣٩ ، ٤٠) .

## فصل

## فى الذكر عند اتخاذ ثوب جديد

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه ،قال « كان رسول الله ﷺ إذا استجد ثوباً سماه باسمه: إما قميصاً ،أو عمامة،ثم يقول : « اللهم لك الحمد ،أنت كسوتنيه ،أسألك من خيره ، وخير ما صنع له ،وأعوذ بك من شره ،وشر ما صنع له » (١) .

قال أبو نضرة: فكان أصحاب النبى ﷺ إذا لبس أحدهم ثوباً جديداً قيل له: تبلى ويخلف الله تعالى.

قال أبو داود :عبدالوهاب الثقفى لم يذكر فيه أبا سعيد ،وحماد بن سلمة قال: عن الجريرى عن أبى العلاء عن النبى ﷺ. يعنى أنهما أرسلاه.

وأخرج الترمذى والنسائى المسند منه فقط،وقال الترمذى: حديث حسن (٢) .

وروى أبو بكر بن عاصم فى فوائده من حديث عنبسة بن عبد الرحمن،عن رجل، عن أنس : أن النبى ﷺ كان إذا استجد ثوباً لبسه يوم الجمعة (٣) (٤) .

## فصل

## فى شعر الخنزير

وسئل (٥) عن شعر الخنزير ،فقال: لا يعجبنى ، وهذا على التحريم (٦) .

## فصل

## فيما روى ألا يستنفع بإهاب الميتة

عن عبد الله بن عكيم قال : قرئ علينا كتاب رسول الله ﷺ بأرض جهينة ،وأنا غلام

---

(١) أبو داود (٤٠٢٠) أول كتاب اللباس .

(٢) الترمذى (١٧٦٧) فى اللباس ، باب : ما يقول إذا لبس ثوبا جديدا ،والنسائى فى الكبرى (١٠٠٤١) فى عمل اليوم والليلة ، باب : ما يقول إذا استجد ثوباً .

(٣) انظر: شرح السنة للبغوى (٣١١٤) فى اللباس ، باب :مايقول إذا لبس جديدا ، وكنز العمال (١٨٦٨) ،وعزاه للخطيب .

(٤) تهذيب السنن (٦/ ٢١) .

(٥) أى الإمام أحمد رحمه الله .

(٦) إعلام الموقعين (١/ ٤٢).

شاب: « ألا تستمتعوا من الميتة بإهاب ولا عصب » (١) .

وقال أبو الفرج بن الجوزى : حديث ابن عكيم مضطرب جداً ، فلا يقام الأول. واختلف مالك والفقهاء فى حديث ابن عكيم وأحاديث الدباغ .

فطائفة قدمت أحاديث الدباغ عليه ؛ لصحتها وسلامتها من الاضطراب ،وطعنوا فى حديث ابن عكيم بالاضطراب فى إسناده.

وطائفة قدمت حديث ابن عكيم؛ لتأخره وثقة رواته ،ورأوا أن هذا الاضطراب لا يمنع الاحتجاج به.

وقد رواه شعبة عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن عبيد الله بن عكيم ، فالحديث محفوظ.

قالوا: ويؤيده ما ثبت عن النبى ﷺ من النهى عن افتراش جلود السباع والنمور (٢) .

وطائفة علمت بالأحاديث كلها، ورأت أنه لا تعارض بينها ،فحديث ابن عكيم إنما فيه النهى عن الانتفاع بإهاب الميتة.

والإهاب: هو الجلد الذى لم يدبغ ،كما قاله النضر بن شميل، وقال الجوهرى: الإهاب الجلد ما لم يدبغ ، والجمع : أهب . وأحاديث الدباغ: تدل على الاستماع بها بعد الدباغ ، فلا تنافى بينها.

وهذه الطريق حسنة، لولا أن قوله فى حديث ابن عكيم: «كنت رخصت لكم فى جلود الميتة ،فإذا أتاكم كتابى فلا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب » ،والذى كان رخص فيه هو المدبوغ بدليل حديث ميمونة (٣) .

وقد يجاب عن هذا من وجهين:

**أحدهما:** أن هذه الزيادة لم يذكرها أحد من أهل السنن فى هذا الحديث، وإنما ذكروا قوله ﷺ« لا تنتفعوا من الميتة . . .» الحديث (٤) . وإنما ذكرها الدارقطنى ، وقد رواه خالد الحذاء وشعبة، عن الحكم ،فلم يذكرا: «كنت رخصت لكم»، فهذه اللفظة فى ثبوتها شىء .

---

(١) أبو داود (٤١٢٧) فى اللباس ، باب: من روى ألا ينتفع بإهاب الميتة.

(٢) الترمذى (١٧٧٠م) فى اللباس ، باب :ما جاء فى النهى عن جلود السباع.

(٣) أبو داود (٤١٢٠) فى اللباس ، باب: فى أهب الميتة ، وابن ماجه (٣٦١٠) فى اللباس ، باب: لبس جلود الميتة إذا دبغت.

(٤) أبو داود (٤١٢٨) فى اللباس ، باب :من روى ألا ينتفع بإهاب الميتة.

**والوجه الثانى** : أن الرخصة كانت مطلقة غير مقيدة بالدباغ ،وليس فى حديث الزهرى ذكر الدباغ ،ولهذا كان ينكره ،ويقول:« نستمتع بالجلد على كل حال »،فهذا هو الذى نهى عنه أخيراً ، وأحاديث الدباغ قسم آخر ، لم يتناولها النهى ،وليست بناسخة ولا منسوخة، وهذه أحسن الطرق.

ولا يعارض ذلك نهيه عن جلود السباع ، فإنه نهى عن ملابستها باللبس والافتراش، كمانهى عن أكل لحومها،لما فى أكلها ولبس جلودها من المفسدة ،وهذا حكم ليس بمنسوخ ، ولا ناسخ أيضاً ،وإنما هو حكم ابتدائى رافع لحكم الاستصحاب الأصلى.

وبهذه الطريقة تأتلف السنن ،وتستقر كل سنة منها فى مستقرها ،وبالله التوفيق (١) .

## وأيضاً

قيل له (٢) : تذهب إلى حديث عبد الله بن عكيم أن النبى ﷺ قال:« لاتنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب » (٣) قال:نعم ،قيل له:وقد رواه خالد الحذاء عمن سمع عبد الله ابن عكيم،قال:قد رواه شعبة عن الحكم عن ابن أبى ليلى عن عبد الله بن عكيم أصح من هذا ،وقد رواه عباد، ورواه شعبة عن الحكم ،كأنه صححه من غير حديث خالد (٤) .

## فصل
## فى اتخاذ البطة (٥) من جلود الحمر

نص (٦) على كراهة البطة من جلود الحمر،وقال:تكون ذكية،ولا يختلف مذهبه فى التحريم (٧) .

(١) تهذيب السنن (٦/ ٦٧، ٦٨) .
(٢) أى :لأحمد بن حنبل رحمه الله.
(٣) سبق تخريجه ص ٤١٦ .
(٤) بدائع الفوائد (٤/ ٧٣).
(٥) البطة :رأس الخلف بلا ساق.
(٦) أى الإمام أحمد رحمه الله.
(٧) إعلام الموقعين (١/ ٤٢).

## فصل
## فى اتخاذ القد [١] من جلود الحمير

قال [٢]: يكره القد من جلود الحمير ذكيا وغير ذكى ؛ لأنه لا يكون ذكيا، وأكرهه لمن يعمل وللمستعمل [٣] .

## فصل
## فى الخضاب

عن أبى هريرة ﷺ - يبلغ به النبى ﷺ - قال: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون ، فخالفوهم» [٤] وأخرجه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه [٥] .

والصواب أن الأحاديث فى هذا الباب لا اختلاف بينها بوجه ، فإن الذى نهى عنه النبى ﷺ من تغيير الشيب أمران : أحدهما : نتفه. والثانى : خضابه بالسواد.

والذى أذن فيه : هو صبغه وتغييره بغير السواد ، كالحناء والصفرة ، وهو الذى عمله الصحابة ﷺ .

قال الحكم بن عمرو الغفارى : دخلت أنا وأخى رافع على عمر بن الخطاب ، وأنا مخضوب بالحناء، وأخى مخضوب بالصفرة ،فقال عمر: هذا خضاب الإسلام، وقال لأخى: هذا خضاب الإيمان.

وأما الخضاب بالسواد: فكرهه جماعة من أهل العلم، وهو الصواب بلا ريب .

وقيل للإمام أحمد : تكره الخضاب بالسواد ؟ قال : إى والله.

وهذه المسألة من المسائل التى حلف عليها ، وقد جمعها أبو الحسن ؛ ولأنه يتضمن

---

(١) القد : السير يقد من جلد غير مدبوغ.
(٢) أى الإمام أحمد ـ رحمه الله .
(٣) إعلام الموقعين (١/ ٤٢).
(٤) أبو داود (٤٢٠٣) فى الترجل ، باب :فى الخضاب.
(٥) البخارى (٥٨٩٩) فى اللباس ، باب:الخضاب ، ومسلم (٢١٠٣/ ٨٠) فى اللباس والزينة ، باب :فى مخالفة اليهود فى الصبغ ، والنسائى (٥٠٢٧) فى الزينة ، باب: الإذن بالخضاب ،وابن ماجه (٣٦٢١) فى اللباس ، باب: الخضاب بالحناء.

التلبيس ، بخلاف الصفرة.

ورخص فيه آخرون ،منهم أصحاب أبى حنيفة ،وروى ذلك عن الحسن والحسين، وسعد بن أبى وقاص ،وعبد الله بن جعفر ،وعقبة بن عامر.

وفى ثبوته عنهم نظر ،ولو ثبت فلا قول لأحد مع رسول الله ﷺ ،وسنته أحق بالاتباع،ولو خالفها من خالفها.

ورخص فيه آخرون للمرأة تتزين به لبعلها ، دون الرجل. وهذا قول إسحاق بن راهويه، وكأنه رأى أن النهى إنما جاء فى حق الرجال،وقد جوز للمرأة من خضاب اليدين والرجلين ما لم يجوز للرجال،والله أعلم (١) .

## وأيضا

إنه ﷺ نهى عن التشبه بأهل الكتاب فى أحاديث كثيرة ، كقوله: « إن اليهود والنصارى لا يصبغون ، فخالفوهم » (٢) .

وروى الترمذى عنه: « ليس منا من تشبه بغيرنا » (٣) .

وروى الإمام أحمد عنه: « من تشبه بقوم فهو منهم» (٤) .

وسر ذلك أن المشابهة فى الهدى الظاهر ذريعة إلى الموافقة فى القصد والعمل (٥) .

فإن قيل: فقد ثبت فى «صحيح مسلم» النهى عن الخضاب بالسواد فى شأن أبى قحافة لما أتى به ورأسه ولحيته كالثغامة بياضًا ،فقال: « غيروا هذا الشيب وجنبوه السواد » (٦) ، والكتم يسود الشعر.

فالجواب من وجهين:

**أحدهما**: أن النهى عن التسويد البحت،فأما إذا أضيف إلى الحناء شىء آخر كالكتم ونحوه فلا بأس به،فإن الكتم والحناء يجعل الشعر بين الأحمر والأسود بخلاف الوسمة فإنها تجعله أسود فاحماً،وهذا أصح الجوابين .

---

(١) تهذيب السنن (٦/١٠٣، ١٠٤).

(٢) سبق تخريجه من الصفحة السابقة

(٣) سبق تخريجه ص٤١٢ .

(٤) سبق تخريجه ص ٤١٠ .

(٥) إعلام الموقعين (٣/١٨١، ١٨٢).

(٦) مسلم (٢١٠٢/٧٨ ، ٧٩) فى اللباس والزينة ، باب: استحباب خضاب الشيب بصفرة. . .إلخ.

**الجواب الثانى**: أن الخضاب بالسواد المنهى عنه خضاب التدليس؛ كخضاب شعر الجارية والمرأة الكبيرة تغر الزوج والسيد بذلك، وخضاب الشيخ يغر المرأة بذلك، فإنه من الغش والخداع، فأما إذا لم يتضمن تدليسًا ولاخداعًا فقد صح عن الحسن والحسين رضي الله عنهما أنهما كانا يخضبان بالسواد، ذكر ذلك ابن جرير عنهما فى كتاب «تهذيب الآثار»، وذكره عن عثمان ابن عفان، وعبد الله بن جعفر، وسعد بن أبى وقاص، وعقبة بن عامر، والمغيرة بن شعبة، وجرير ابن عبد الله، وعمرو بن العاص، وحكاه عن جماعة. من التابعين منهم: عمرو بن عثمان، وعلى بن عبد الله بن عباس وأبو سلمة بن عبد الرحمن وعبد الرحمن بن الأسود وموسى ابن طلحة، والزهرى، وأيوب، وإسماعيل بن معدى كرب، وحكاه ابن الجوزى عن محارب ابن دثار، ويزيد، وابن جريج، وأبى يوسف، وأبى إسحاق، وابن أبى ليلى، وزياد بن علاقة، وغيلان ابن جامع، ونافع بن جبير، وعمرو بن على المقدمى، والقاسم بن سلام (١).

## فصل
## فى الأخذ من اللحية

قال ابن هانئ: سألت أبا عبد الله عن الرجل يأخذ عارضيه؟ قال: يأخذ من اللحية بما فضل عن القبضة. قلت له: فحديث النبى ﷺ: «احفوا الشوارب واعفوا عن اللحى» (٢)، قال: يأخذ من طولها ومن تحت حلقه، ورأيت أبا عبد الله يأخذ من عارضيه ومن تحت حلقه. قال: ورأيت أبا عبد الله يأخذ من حاجبه بالمقراض (٣).

## فصل
## فى النهى عن الجلوس بالطرقات إلا بحقها

إنه ﷺ نهى عن الجلوس بالطرقات؛ وما ذاك إلا لأنه ذريعة إلى النظر إلى المحرم، فلما أخبروه أنه لا بد لهم من ذلك، قال: «أعطوا الطريق حقه»، قالوا: وما حقه؟ قال: «غض البصر وكف الأذى، ورد السلام» (٤) (٥).

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٦٧).

(٢) البخارى (٥٨٩٣) فى اللباس، باب: إعفاء اللحى... إلخ، ومسلم (٢٥٩/ ٥٢ ـ ٥٤) فى الطهارة، باب: خصال الفطرة، وأحمد (٢/ ١٦).

(٣) بدائع الفوائد (٤/ ٧٨).

(٤) البخارى (٢٤٦٥) فى المظالم، باب: أفنية الدور والجلوس فيها... إلخ، (٦٢٦٩) فى الاستئذان، باب: قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾، ومسلم (٢١٢١/ ١١٤) فى اللباس والزينة، باب: النهى عن الجلوس فى الطرقات وإعطاء الطريق حقه، وأبو داود (٤٨١٥) فى الأدب، باب: فى الجلوس فى الطرقات، وأحمد (٣/ ٣٦).

(٥) إعلام الموقعين (٣/ ١٩٢).

## وأيضا

نهاهم ﷺ عن الجلوس بالطرقات إلا بحقها، فسئل عن حق الطريق، فقال: « غض البصر، وكفُّ الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر» (١) (٢) .

## فصل

## فى النهى عن البراز فى قارعة الطريق

إنه ﷺ نهى عن البراز فى قارعة الطريق والظل والموارد؛ لأنه ذريعة لاستجلاب اللعن كما علل به ﷺ بقوله: « اتقوا الملاعن الثلاث»، وفى لفظ: « اتقوا اللاعنين »، قالوا: وما اللاعنان يارسول الله؟ قال: « الذى يتخلى فى طريق الناس، وفى ظلهم » (٣) (٤) .

## فصل

## فى الرجل يضع إحدى رجليه على الأخرى

عن جابر ـ وهو ابن عبد الله ـ قال : نهى رسول الله ﷺ : أن يضع ـ وقال قتيبة : يرفع ـ الرجل إحدى رجليه على الأخرى . زاد قتيبة : وهو مستلق على ظهره (٥) . وأخرجه مسلم والترمذى مختصراً ومطولا (٦) .

وأما الحديث الذى رواه الحاكم عن الأصم، عن محمد بن إسحاق الصنعانى ، عن إبراهيم بن المنذر الخرامى ، عن محمد بن فليح ، عن أبيه ، عن سعيد بن الحارث ، عن عبيد بن حنين قال: بينما أنا جالس فى المسجد إذ جاءه قتادة بن النعمان ، فجلس فتحدث، فثاب إليه أناس ، ثم قال: انطلق بنا إلى أبى سعيد الخدرى ، فإنى قد أخبرت أنه اشتكى ،

---

(١) سبق تخريجه الصفحة السابقة

(٢) إعلام الموقعين (٤/ ٥٠٩).

(٣) أبو داود (٢٥) فى الطهارة ، باب : المواضع التى نهى النبى ﷺ عن البول فيها ، ابن ماجه (٣٢٨) فى الطهارة وسننها ، باب : النهى عن الخلاء على قارعة الطريق ، وأحمد (١/ ٢٩٩).

(٤) إعلام الموقعين (٣/ ١٩٠).

(٥) أبو داود (٤٨٦٥) فى الأدب ، باب: فى الرجل يضع إحدى رجليه على الأخرى.

(٦) مسلم (٢٠٩٩/ ٧٢) فى اللباس والزينة ، باب: فى منع الاستلقاء على الظهر . . . إلخ ، والترمذى (٢٧٦٦) فى الأدب ، باب: ما جاء فى الكراهية فى ذلك.

فانطلقنا حتى دخلنا على أبى سعيد الخدرى ، فوجدناه مستلقياً واضعاً رجله اليمنى على اليسرى، فسلمنا وجلسنا. فرفع قتادة يده إلى رجل أبى سعيد الخدرى فقرصها قرصة شديدة. فقال أبو سعيد: سبحان الله ! يا بن أم، أوجعتنى، قال: ذلك أردت ـ فذكر حديث الاستلقاء ـ وقال فيه :« لا ينبغى لأحد من خلقى أن يفعل مثل هذا »[١] .

فهذا الحديث له علتان:

**إحداهما**: انفراد فليح بن سليمان به. وقد قال عباس الدورى :سمعت يحيى بن معين يقول: فليح بن سليمان لايحتج بحديثه ،وقال فى رواية عثمان الدارمى :فليح بن سليمان ضعيف. وقال النسائى :ليس بالقوى.

**والعلة الثانية** :أنه حديث منقطع ؛فإن قتادة بن النعمان مات فى خلافة عمر، وصلى عليه عمر ، وعبيد بن حنين ، مات سنة خمس ومائة ، وله خمس وسبعون سنة فى قول الواقدى ، وابن بكير، فتكون روايته عن قتادة بن النعمان منقطعة ،والله أعلم[٢] .

## فصل
## فى المرأة تستلقى على قفاها

وسئل[٣] عن المرأة تستلقى على قفاها وتنام ، يكره ذلك ؟ فقال: إى والله[٤] .

(١) انظر: السنة لابن أبى عاصم (٥٦٨) ،وضعفه الألبانى.
(٢) تهذيب السنن (٧/ ٢٠٧ ـ ٢٠٩).
(٣) أى :الإمام أحمد رحمه الله.
(٤) إعلام الموقعين (٤/ ٢١٤)

# كتاب

# الرؤيا

# فصل
# فيما جاء فى الرؤيا

عن زفر بن صعصعة ،عن أبيه ، عن أبى هريرة :أن رسول الله ﷺ:كان إذا انصرف من صلاة الغداة يقول:« هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟»، ويقول:« إنه ليس يبقى بعدى من النبوة إلا الرؤيا الصالحة » (١).وأخرجه النسائى من حديث زفر بن صعصعة، عن أبى هريرة ، من غير ذكر صعصعة (٢) ، والمحفوظ من حديث الإمام مالك بن أنس : إثبات صعصعة فى إسناده.

وقد روى البخارى فى صحيحه من حديث الزهرى:حدثنى سعيد بن المسيب:أن أبا هريرة قال:سمعت رسول الله ﷺ يقول:« لم يبق من النبوة إلا المبشرات ».قالوا:وما المبشرات؟ قال:« الرؤيا الصالحة » (٣).وأخرجه مسلم من حديث ابن عباس (٤) (٥).

# فصل
# فى أن الرؤيا الصالحة من بشرى المؤمن

سئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [ يونس : ٦٤ ] ، فقال ﷺ : « هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له »(٦) (٧).

# وأيضا

سئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [ يونس :٦٤] فقال:« هى الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له » .ذكره أحمد (٨) (٩).

---

(١) أبو داود (٥٠١٧) فى الأدب ، باب:ما جاء فى الرؤيا.
(٢) النسائى فى الكبرى (٧٦٢١) فى التعبير ، باب الرؤيا.
(٣) البخارى (٦٩٩٠) فى التعبير ، باب:المبشرات .
(٤) مسلم (٤٧٩/٢٠٧) فى الصلاة ، باب:النهى عن قراءة القرآن فى الركوع والسجود.
(٥) تهذيب السنن (٧/ ٢٩٥).
(٦) الترمذى (٢٢٧٥) فى الرؤيا ، باب :قوله: ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾، وابن ماجه (٣٨٩٨) فى تعبير الرؤيا ، باب:الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له.
(٧) إعلام الموقعين (٤/ ٣٤٥).
(٨) أحمد (٥/ ٣١٥).
(٩) إعلام الموقعين (٤/ ٥٠٥).

## فصل

## فى أن الرؤيا الصادقة جزء من أجزاء النبوة

المرتبة العاشرة من مراتب الهداية: الرؤيا الصادقة. وهى من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة » (١).

وقد قيل فى سبب هذا التخصيص المذكور: إن أول مبتدأ الوحى كان هو الرؤيا الصادقة، وذلك نصف سنة. ثم انتقل إلى الوحى اليقظة مدة ثلاث وعشرين سنة، من حين بعث إلى أن توفى صلوات الله وسلامه عليه. فنسبة مدة الوحى فى المنام من ذلك: جزء من ستة وأربعين جزءا. وهذا حسن لولا ماجاء فى الرواية الأخرى الصحيحة: « إنها جزء من سبعين جزءاً » (٢).

وقد قيل فى الجمع بينهما: إن ذلك بحسب حال الرائى، فإن رؤيا الصديقين من ستة وأربعين، ورؤيا عموم المؤمنين الصادقة من سبعين، والله أعلم.

والرؤيا: مبدأ الوحى، وصدقها بحسب صدق الرائى، وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً، وهى عند اقتراب الزمان لاتكاد تخطئ، كما قال النبى ﷺ (٣). وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها، فيتعوض المؤمنون بالرؤيا. وأما فى زمن قوة نور النبوة: ففى ظهور نورها وقوته ما يغنى عن الرؤيا.

ونظير هذا الكرامات التى ظهرت بعد عصر الصحابة، ولم تظهر عليهم، لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم، واحتياج من بعدهم إليها لضعف إيمانهم. وقد نص أحمد على هذا المعنى. وقال عبادة بن الصامت: رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده فى المنام. وقد قال النبى ﷺ: « لم يبق من النبوة إلا المبشرات». قيل: وما المبشرات، يارسول الله؟ قال: «الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو ترى له »(٤). وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب. وقد قال النبى ﷺ ـ لما أروا ليلة القدر فى العشر الأواخر ـ قال: « أرى رؤياكم قد تواطأت فى

(١) البخارى (٦٩٨٣) فى التعبير، باب: رؤيا الصالحين، وابن ماجه (٣٨٩٣) فى تعبير الرؤيا، باب: الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، وأحمد (١٢٦/٣).

(٢) ابن ماجه (٣٨٩٥) فى تعبير الرؤيا، باب: الرؤيا الصالحة

(٣) البخارى (٧٠١٧) فى التعبير، باب: القيد فى المنام، ومسلم (٦/٢٢٦٣) فى أول الرؤيا.

(٤) سبق تخريجه ص ٣٩٩.

العشر الأواخر، فمن كان منكم متحريها فليتحرها فى العشر الأواخر من رمضان »[(١)].

والرؤيا كالكشف، منها رحماني، ومنها نفساني، ومنها شيطاني. وقال النبى ﷺ: « الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه فى اليقظة، فيراه فى المنام »[(٢)].

والذى هو من أسباب الهداية: هو الرؤيا التى من الله خاصة.

ورؤيا الأنبياء وحى، فإنها معصومة من الشيطان، وهذا باتفاق الأمة؛ ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا.

وأما رؤيا غيرهم: فتعرض على الوحى الصريح، فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.

فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة، أو تواطأت؟

قلنا: متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحى، بل لا تكون إلا مطابقة له، منبهة عليه، أو منبهة على اندراج قضية خاصة فى حكمه، لم يعرف الرائى اندراجها فيه، فيتنبه بالرؤيا على ذلك. ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال، والمحافظة على الأمر والنهى، ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة، ويذكر الله حتى تغلبه عيناه، فإن رؤياه لاتكاد تكذب البتة.

وأصدق الرؤيا: رؤيا الأسحار، فإنه وقت النزول الإلهى، واقتراب الرحمة والمغفرة، وسكون الشياطين. وعكسه رؤيا العتمة، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية. وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: « رؤيا المؤمن كلام، يكلم به الرب عبده فى المنام ».

وللرؤيا ملك موكل بها، يريها العبد فى أمثال تناسبه وتشاكله، فيضربها لكل أحد بحسبه. وقال مالك: الرؤيا من الوحى وحى. وزجر عن تفسيرها بلا علم. وقال: « أتتلاعب بوحى الله؟».

ولذكر الرؤيا وأحكامها وتفاصيلها وطرق تأويلها مظان مخصوصة بها، يخرجنا ذكرها عن المقصود، والله أعلم[(٣)].

---

(١) البخارى (١١٥٨) فى التهجد، باب: فضل من تعار من الليل فصلى، ومسلم (٢٠٧/١١٦٥) فى الصيام، باب: فضل ليلة القدر ... إلخ، وأحمد (٨/٢).

(٢) مسلم (٦/٢٢٦٣) فى أول الرؤيا، والترمذى (٢٢٧٠) فى الرؤيا، باب: أن رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة، وأبو داود (٥٠١٩) فى الأدب، باب: ما جاء فى الرؤيا، وأحمد (٢٦٩/٢).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٥٠ ـ ٥٢).

# فصل
# فى أصول وقواعد لعلم تعبير الرؤيا

إنها (١) مبنية على القياس والتمثيل واعتبار المعقول بالمحسوس ،ألا ترى أن الثياب فى التأويل كالقمص تدل على الدين ،فما كان فيها من طول أو قصر أو نظافة أو دنس ، فهو فى الدين ، كما أول النبى ﷺ القميص بالدين والعلم (٢)،والقدر المشترك بينهما أن كلا منهما يستر صاحبه ويجمله بين الناس ، فالقميص يستر بدنه ، والعلم والدين يستر روحه وقلبه ويجمله بين الناس ،ومن هذا تأويل اللبن بالفطرة لما فى كل منهما من التغذية الموجبة للحياة وكمال النشأة ، وأن الطفل إذا خلى وفطرته لم يعدل عن اللبن ، فهو مفطور على إيثاره على ماسواه. وكذلك فطرة الإسلام التى فطر الله عليها الناس.

ومن هذا: تأويل البقر بأهل الدين والخير الذين بهم عمارة الأرض ، كما أن البقر كذلك ،مع عدم شرها ،وكثرة خيرها،وحاجة الأرض وأهلها إليها ،ولهذا لما رأى النبى ﷺ بقراً تنحر (٣) كان ذلك نحراً فى أصحابه.

ومن ذلك تأويل الزرع والحرث بالعمل ؛لأن العامل زارع للخير والشر ، ولابد أن يخرج لـه ما بذره كما يخرج للباذر زرع ما بذره ،فالدنيا مزرعة ، والأعمال : البذر ، ويوم القيامة يوم طلوع الزرع وحصاده .

ومن ذلك تأويل الخشب المقطوع المتساند بالمنافقين ،والجامع بينهما أن المنافق لا روح فيه ،ولا ظل ولا ثمر ، فهو بمنزلة الخشب الذى هو كذلك ؛ولهذا شبه الله تعالى المنافقين بالخشب المسندة؛لأنهم أجسام خالية عن الإيمان والخير ،وفى كونها مسندة نكتة أخرى،وهى أن الخشب إذا انتفع به جعل فى سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع ، ومادام متروكا فارغاً غير منتفع به،جعل مسنداً بعضه إلى بعض،فشبه المنافقين بالخشب فى الحالة التى لا ينتفع فيها بها.

ومن ذلك : تأويل النار بالفتنة لإفساد كل منهما ما يمر عليه ويتصل بـه ، فهـذه تحرق الأثاث والمتاع والأبدان ، وهذه تحرق القلوب والأديان والإيمان.

---

(١) أى الرؤيا.

(٢) البخارى (٧٠٠٨) فى التعبير ، باب: القميص فى المنام .

(٣) البخارى (٧٠٣٥) فى التعبير ، باب : إذا رأى بقرا تنحر .

ومن ذلك تأويل النجوم بالعلماء والأشراف؛لحصول هداية أهل الأرض بكل منهما، ولارتفاع الأشراف بين الناس كارتفاع النجوم .

ومن ذلك:تأويل الغيث بالرحمة والعلم والقرآن والحكمة وصلاح حال الناس.

ومن ذلك خروج الدم فى التأويل يدل على خروج المال،والقدر المشترك أن قوام البدن بكل واحد منهما.

ومن ذلك الحدث فى التأويل يدل على الحدث فى الدين ، فالحدث الأصغر ذنب صغير، والأكبر ذنب كبير .

ومن ذلك أن اليهودية والنصرانية فى التأويل بدعة فى الدين ، فاليهودية تدل على فساد القصد واتباع غير الحق ، والنصرانية تدل على فساد العلم والجهل والضلال.

ومن ذلك الحديد فى التأويل وأنواع السلاح ، يدل على القوة والنصر بحسب جوهر ذلك السلاح ومرتبته.

ومن ذلك الرائحة الطيبة تدل على الثناء الحسن،وطيب القول والعمل،والرائحة الخبيثة بالعكس ، والميزان يدل على العدل،والجراد يدل على الجنود والعساكر،والغوغاء الذين يموج بعضهم فى بعض ، والنحل يدل على من يأكل طيباً ويعمل صالحاً ، والديك رجل عالى الهمة بعيد الصيت، والحية:عدو أو صاحب بدعة يهلك بسمه ، والحشرات:أوغاد الناس ، والخلد رجل أعمى يتكفف الناس بالسؤال ، والذئب : رجل غشوم ظلوم غادر فاجر ، والثعلب رجل غادر مكار محتال مراوغ عن الحق ،والكلب : عدو ضعيف كثير الصخب والشر فى كلامه وسبابه ، أو رجل مبتدع متبع هواه مؤثر له على دينه ، والسنور : العبد والخادم الذى يطوف على أهل الدار، والفأرة :امرأة سوء فاسقة فاجرة ، والأسد:رجل قاهر مسلط،والكبش:الرجل المنيع المتبوع.

ومن كليات التعبير:أن كل ما كان وعاء للماء ، فهو دال على الأثاث ، وكل ما كان وعاء للمال كالصندوق والكيس والجراب،فهو دال على القلب ،وكل مدخول بعضه فى بعض وممتزج ومختلط فدال على الاشترك والتعاون أو النكاح،وكل سقوط وخرور من علو إلى أسفل فمذموم،وكل صعود وارتفاع فمحمود إذا لم يجاوز العادة ،وكان ممن يليق به،وكل ماأحرقته النار فجائحة ، وليس يرجى صلاحه ولا حياته ، وكذلك ما انكسر من الأوعية التى لاينشعب مثلها ،وكل ماخطف وسرق من حيث لايرى خاطفه ولا سارقه ، فإنه ضائع لايرجى،وما عرف خاطفه أو سارقه أو مكانه أو لم يغب عن عين صاحبه،فإنه

يرجى عوده.

وكل زيادة محمودة فى الجسم والقامة واللسان والذكر واللحية واليد والرجل ، فزيادة خير، وكل زيادة متجاوزة للحد فى ذلك فمذمومة وشر وفضيحة . وكل ما رُئى من اللباس فى غير موضعه المختص به فمكروه ؛ كالعمامة فى الرجل ، والخف فى الرأس ،والعقد فى الساق،وكل من استقضى أو استخلف أو أمر أو استوزر أو خطب ممن لايليق به ذلك، نال بلاء من الدنيا وشراً ،وفضيحة وشهوة ، وشهرة قبيحة.

وكل ما كان مكروها من الملابس فخلقه أهون على لابسه من جديده ، والجوز : مال مكنوز ، فإن تفقع كان قبيحاً وشراً ، ومن صار له ريش أو جناح صار له مال ، فإن طار سافر ، وخروج المريض من داره ساكتاً يدل على موته ، ومتكلما يدل على حياته ، والخروج من الأبواب الضيقة يدل على النجاة ، والسلامة من شر وضيق هو فيه ، وعلى توبة ، ولا سيما إن كان الخروج إلى فضاء وسعة فهو خير محض،والسفر والنقلة من مكان إلى مكان انتقال من حال إلى حال بحسب حال المكانين.

ومن عاد فى المنام إلى حال كان فيها فى اليقظة عاد إليه ما فارقه من خير أو شر ، وموت الرجل ربما دل على توبته ورجوعه إلى الله ؛لأن الموت رجوع إلى الله ، قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ** ﴾ [ الأنعام: ٦٢] ،والمرهون مأسور بدين أو بحق عليه لله أو لعبيده ، ووداع المريض أهله أو توديعهم له دال على موته.

وبالجملة : فما تقدم من أمثال القرآن كلها أصول وقواعد لعلم التعبير لمن أحسن الاستدلال بها ، وكذلك من فهم القرآن ، فإنه يعبر به الرؤيا أحسن تعبير،وأصول التعبير الصحيحة إنما أخذت من مشكاة القرآن ، فالسفينة : تعبر بالنجاة لقوله تعالى: ﴿ **فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ** ﴾ [العنكبوت: ١٥] ،وتعبر بالتجارة،والخشب بالمنافقين ،والحجارة بقساوة القلب،والبيض بالنساء،واللباس أيضاً بهن ،وشرب الماء بالفتنة ، وأكل لحم الرجل بغيبته ، والمفاتيح بالكسب والخزائن والأموال .والفتح يعبر مرة بالدعاء ومرة بالنصر . وكالملك يرى فى محلة لا عادة له بدخولها يعبر بإذلال أهلها وفسادها ، والحبل يعبر بالعهد والحق والعضد ، والنعاس قد يعبر بالأمن ، والبقل والبصل والثوم والعدس يعبر لمن أخذه بأنه قد استبدل شيئاً أدنى بما هو خير منه ؛ من مال أو رزق أو علم أو زوجة أو دار . والمرض يعبر بالنفاق والشك وشهوة الزنا.

والطفل الرضيع يعبر بالعدو ؛ لقوله تعالى : ﴿ **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا**

وَحَزَنًا﴾ [ القصص : ٨ ]. والنكاح بالبناء ،والرماد بالعمل الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ [ إبراهيم:١٨] والنور يعبر بالهدى. والظلمة بالضلال ، ومن هاهنا قال عمر بن الخطاب لحابس بن سعد الطائى وقد ولاه القضاء ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنى رأيت الشمس والقمر يقتتلان ، والنجوم بينهما نصفين ، فقال عمر: مع أيهما كنت ؟ فقال: مع القمر على الشمس، قال : كنت مع الآية الممحوة ، اذهب فلست تعمل لى عملا، ولا تقتل إلا فى لبس من الأمر ،فقتل يوم صفين.

وقيل لعابر: رأيت الشمس والقمر دخلا فى جوفى، فقال: تموت ،واحتج بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ⑦ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ⑧ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ⑨ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ⑩ ﴾ [ القيامة ] . وقال رجل لابن سيرين :رأيت معى أربعة أرغفة خبز ، فطلعت الشمس، فقال: تموت إلى أربعة أيام، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ㊺ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ㊻﴾ [الفرقان ] ، وأخذ هذا التأويل أنه حمل رزق أربعة أيام ، وقال له آخر : رأيت كيسى مملوءاً أرضة، فقال: أنت ميت ، ثم قرأ: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ﴾ [سبأ: ١٤].

والنخلة: تدل على الرجل المسلم وعلى الكلمة الطيبة. والحنظلة: تدل على ضد ذلك. والصنم: يدل على العبد السوء الذى لاينفع. والبستان: يدل على العمل، واحتراقه: يدل على حبوطه لما تقدم فى أمثال القرآن، ومن رأى أنه ينقض غزلا أو ثوباً ليعيده مرة ثانية ، فإنه ينقض عهداً وينكثه . والمشى سوياً فى طريق مستقيم يدل على استقامته على الصراط المستقيم . والأخذ فى بنيات الطريق يدل على عدوله عنه إلى ما خالفه ، وإذا عرضت له طريقان ذات يمين وذات شمال، فسلك أحدهما ، فإنه من أهلها، وظهور عورة الإنسان له ذنب يرتكبه ويفتضح به. وهروبه وفراره من شىء نجاة وظفر. وغرقه فى الماء : فتنة فى دينه ودنياه. وتعلقه بحبل بين السماء والأرض: تمسكه بكتاب الله وعهده واعتصامه بحبله ،فإن انقطع به فارق العصمة إلا أن يكون ولى أمرا ،فإنه قد يقتل أو يموت.

فالرؤيا أمثال مضروبة، يضربها الملك الذى قد وكله الله بالرؤيا ليستدل الرائى بما ضرب له من المثل على نظيره، ويعبر منه إلى شبهه؛ ولهذا سمى تأويلها: تعبيراً، وهو تفعيل من العبور، كما أن الاتعاظ يسمى اعتباراً وعبرة لعبور المتعظ من النظير إلى نظيره ،ولولا أن حكم الشىء حكم مثله ، وحكم النظير حكم نظيره لبطل هذا التعبير والاعتبار ، ولما وجد إليه سبيل (١).

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٠٧ ـ ٢١٢).

## وأيضا

عن ابن عباس رضي الله عنهما : قال كان أبو هريرة يحدث : أن رجلا أتى إلى رسول الله ﷺ فقال: إنى أرى الليلة ظلة ينطف منها السمن والعسل، فأرى الناس يتكففون بأيديهم، فالمستكثر والمستقل ،وأرى سبباً واصلا من السماء إلى الأرض ،فأراك يارسول الله أخذت به، فعلوت ، ثم أخذ به رجل آخر فعلاً ، ثم أخذ به رجل آخر فعلا ، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع ثم وصل ، فعلاً به ، قال أبو بكر : بأبى وأمى ، لتدعنى فلأعبرنها ، فقال : « اعبرها» قال :أما الظلة: فظلة الإسلام، وأما ما ينطف من السمن والعسل: فهو القرآن لينه وحلاوته ،وأما المستكثر والمستقل: فهو المستكثر من القرآن، والمستقل منه ،وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض: فهو الحق الذى أنت عليه: نأخذ به ، فيعليك الله ،ثم يأخذ به بعدك رجل فيعلو به ، ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به ، ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع ، ثم يوصل له فيعلو به ، أى رسول الله لتحدثنى : أصبت أم أخطأت ؟ فقال : «أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً » ، فقال : أقسمت يا رسول الله ، لتحدثنى : ما الذى أخطأت، فقال النبى ﷺ «لاتقسم ». وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة (١).

وهذا يشكل عليه شيئان:

**أحدهما** :أن فى نفس الرؤيا « ثم وصل له، فعلا به » فتفسير الصديق لذلك مطابق لنفس الرؤيا .

**والثانى** :أن قتل عثمان رضي الله عنه لا يمنع أن يوصل له، بدليل أن عمر قد قتل ،ومع هذا فأخذ به وعلا به، ولم يكن قتله مانعاً من علوه به.

وقد يجاب عنهما:

**أما الأول**: فلفظة « ثم وصل له» لم يذكر هذا البخارى، ولفظ حديثه « ثم أخذ به رجل آخر، فانقطع به، ثم وصل »فقط ،وهذا لا يقتضى أن يوصل له بعد انقطاعه به، وقال الصديق فى تفسيره فى نفس حديث البخارى: « فينقطع به ثم يوصل له » فهذا موضع الغلط ،وهذا مما يبين فضل صدق معرفة البخارى ،وغور علمه فى إعراضه عن لفظة « له » فى الأول وإنما انفرد بها مسلم.

**وأما الثانى** : فيجاب عنه : بأن عمر رضي الله عنه لم ينقطع به السبب من حيث علا به . وإنما

(١) مسلم (١٧/٢٢٦٩) فى الرؤيا ، باب: فى تأويل الرؤيا ، والترمذى (٢٢٩٣) فى الرؤيا ، باب: ماجاء فى رؤيا النبى ﷺ فى الميزان والدلو ،والنسائى فى الكبرى (٧٦٤٠) فى التعبير ،باب: السمن والعسل ،وابن ماجه (٣٩١٨) فى تعبير الرؤيا ، باب : تعبير الرؤيا.

انقطع به بالأجل المحتوم ، كما ينقطع الأجل بالسم وغيره ، وأما عثمان فانقطع به من حيث وصل له من الجهة التى علا بها ، وهى الخلافة ، فإنه إنما أريد منه أن يخلع نفسه ، وإنما قتلوه لعدم إجابتهم إلى خلع نفسه ، فخلعوه هم بالقتل ظلما وعدواناً ، فانقطع به من الجهة التى أخذ به منها ، ثم وصل لغيره ﷺ، وهذا سر سكوت النبى ﷺ عن تعيين موضع خطأ الصديق.

فإن قيل: فلم تكلفتم أنتم بيانه، وقد منع النبى ﷺ الصديق من تعرفه، والسؤال عنه؟

قيل: منعه من هذا: ما ذكرناه من تعلق ذلك بأمر الخلافة ، وما يحصل للرابع من المحنة ، وانقطاع السبب به ، فأما وقد حدث ذلك ووقع ، فالكلام فيه كالكلام فى غيره من الوقائع التى يحذر الكلام فيها قبل وقوعها؛ سدًا للذريعة؛ ودرءًا للمفسدة ، فإذا وقعت زال المعنى الذى سكت عنها لأجله (١).

وعن أنس بن مالك ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: « رأيت الليلة كأنا فى دار عقبة بن رافع، وأتينا برطب من رطب ابن طاب ، فأولت: أن الرفعة لنا فى الدنيا ، والعاقبة فى الآخرة، وأن ديننا قد طاب» ، أخرجه مسلم والنسائى (٢).

ولم يشك البخارى فيه، بل قال: « من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة ، ولا يتمثل الشيطان بى » (٣).

وفى الصحيحين من حديث أبى قتادة قال : قال رسول الله ﷺ : « من رآنى فى المنام فقد رأى الحق » (٤).

وأخرجه البخارى من حديث أبى سعيد، وزاد: « فإن الشيطان لايتكوننى »(٥).

وفى لفظ له فى حديث أبى قتادة: « فإن الشيطان لايتراءى بى » (٦).

وفى صحيح مسلم عن جابر عن النبى ﷺ: « من رآنى فى النوم فقد رآنى ، فإنه لاينبغى للشيطان أن يتمثل فى صورتى » (٧).

---

(١) تهذيب السنن (٧/ ٢٠ ـ٢٢).

(٢) مسلم(٢٢٧٠/ ١٨) فى الرؤيا، باب: رؤيا النبى ﷺ ، والنسائى فى الكبرى(٧٣٤٤) فى التعبير، باب: الرطب.

(٣) البخارى (٦٩٩٣) فى التعبير، باب: من رأى النبى ﷺ فى المنام.

(٤) البخارى(٦٩٩٦)فى التعبير، باب: من رأى النبى ﷺ فى المنام، ومسلم(٢٢٦٧/ ١١)فى الرؤيا، باب: قول النبى ﷺ: « من رآنى فى المنام فقد رآنى » .

(٥) البخارى (٦٩٩٧) فى التعبير، باب: من رأى النبى ﷺ فى المنام.

(٦) البخارى (٦٩٩٥) فى التعبير، باب: من رأى النبى ﷺ فى المنام .

(٧) مسلم (٢٢٦٨/ ١٢) فى الرؤيا ، باب : قول النبى ﷺ : « من رآنى فى المنام فقد رآنى ».

وفى لفظ آخر: « فإنه لاينبغى للشيطان أن يتشبه بى » (١) (٢).

وسألته ﷺ خديجة ﵂ عن ورقة بن نوفل ، فقالت : إنه كان صدقك، ومات قبل أن تظهر ، فقال : « رأيته فى المنام ، وعليه ثياب بيض ، ولو كان من أهل النار،لكان عليه لباس غير ذلك » (٣).

وسأله ﷺ رجل رأى فى المنام كأن رأسه ضرب فتدحرج فاشتد فى أثره.فقال:« لا تحدث الناس بتلعب الشيطان بك فى منامك ».ذكره مسلم (٤).

وسألته ﷺ أم العلاء فقالت:رأيت لعثمان بن مظعون عيناً تجرى ، يعنى بعد موته،فقال:« ذاك عمله يجرى له »(٥) (٦).

وأما تعبيره (٧) حلق رأسه بوضعه ،فهذا لأن حلق الرأس وضع شعره على الأرض وهو لايدل بمجرده على وضع رأسه ،فإنه دال على خلاص من هم أو مرض أو شدة لمن يليق به ذلك وعلى فقر ونكد وزوال رياسة وجاه لمن لا يليق به ذلك ولكن فى منام الطفيل قرائن اقتضت أنه وضع رأسه ،منها أنه كان فى الجهاد ،ومقاتلة العدو ذى الشوكة والبأس.

ومنها:أنه دخل فى بطن المرأة التى رآها ،وهى الأرض التى هى بمنزلة أمه ،ورأى أنه قد دخل فى الموضع الذى خرج منه ، وهذا هو إعادته إلى الأرض ،كما قال تعالى: ﴿ **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ** ﴾ [طه:٥٥]،فأول المرأة بالأرض إذ كلاهما محل الوطء، وأول دخوله فى فرجها بعوده إليها كما خلق منها،وأول الطائر الذى خرج من فيه بروحه، فإنها كالطائر المحبوس فى البدن،فإذا خرجت منه كانت كالطائر الذى فارق حبسه،فذهب حيث شاء؛ولهذا أخبر النبى ﷺ:«أن نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة»(٨)،وهذا هو الطائر الذى رؤى داخلاً فى قبر ابن عباس لما دفن ، وسمع قارئ يقرأ : ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨)** ﴾ [الفجر] . وعلى حسب بياض هذا الطائر

---

(١) مسلم (٢٢٦٨/١٣) فى الرؤيا، باب:قول النبى ﷺ :« من رآنى فى المنام فقد رآنى ».

(٢) تهذيب السنن (٧/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢).

(٣) الترمذى (٢٢٨٨) فى الرؤيا ، باب:ماجاء فى رؤيا النبى (ص) فى الميزان والدلو ،وضعفه الألبانى.

(٤) مسلم (٢٢٦٨/١٥) فى الرؤيا ، باب:لا يخبر بتلعب الشيطان به فى المنام.

(٥) البخارى (٧٠١٨) فى التعبير ، باب:العين الجارية فى المنام ، والبيهقى فى الكبرى (٤/ ٧٦) فى الجنائز ، باب:لايشهد لأحد بجنة ولابنار. . .إلخ.

(٦) إعلام الموقعين (٤/ ٥٠٥، ٥٠٦).

(٧) أى : الطفيل بن عمرو .

(٨) النسائى (٢٠٧٣) فى الجنائز،باب:أرواح المؤمنين ،وابن ماجه (٤٢٧١) فى الزهد،باب:ذكر القبر والبلى ،وأحمد (٣/ ٤٥٥، ٤٥٦) ،ومالك فى الموطأ (٤٩) فى الجنائز ، باب:جامع الجنائز.

وسواده وحسنه وقبحه ،تكون الروح،ولهذا كانت أرواح آل فرعون فى صورة طيور سود ترد النار بكرة وعشية،وأول طلب ابنه له باجتهاده فى أن يلحق به فى الشهادة،وحبسه عنه هو مدة حياته بين وقعة اليمامة واليرموك. والله أعلم (١).

## وأيضا

إن من النفوس البشرية ما هى على نفوس الحيوانات العادية وغيرها. وهذا هو تأويل سفيان بن عيينة فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٣٨]، وعلى هذا الشبه اعتماد أهل التعبير للرؤيا فى رؤية هذه الحيوانات فى المنام عند الإنسان وفى داره أو أنها تحاربه ،وهو كما اعتمدوه ،وقد وقع لنا ولغيرنا من ذلك فى المنام وقائع كثيرة فكان تأويلها مطابقا لأقوام على طباع تلك الحيوانات . وقد رأى النبى ﷺ فى قصة أحد بقرا تنحر » (٢). فكان من أصيب من المؤمنين بنحر الكفار،فإن البقر أنفع الحيوانات للأرض وبها صلاحها وفلاحها،مع ما فيها من السكينة والمنافع والذل ـ بكسر الذال ـ فإنها ذلول مذللة منقادة غير أبية والجواميس كبارهم ورؤساؤهم،ورأى عمر بن الخطاب كأن ديكا نقره ثلاث نقرات فكان طعن أبى لؤلؤة له والديك رجل أعجمى شرير (٣) (٤).

### فائدة

تفسير النبى ﷺ البقر التى رآها فى النوم تنحر بالنفر الذين أصيبوا من أصحابه يوم أحد، قيل: وجه هذا التأويل: أن البقر والنفر مشتركان فى صورة الخط،ويمتاز أحدهما عن الآخر بالنقط وهذه جهة من جهات التعبير،وهذا قول فاسد جداً،ولم يكن النبى ﷺ يدرك شيئا من الخط أصلا ولا هذه جهة صحيحة من جهات التأويل ،فلا يؤول النرد بالبرد،ولا الزيد بالزند،ولا العين بالغين ،ولا الحية بالجنة،وأمثال ذلك.

وقيل: وجه الشبه أن البقر معها أسلحتها التى تقاتل بها وهى قرونها،وكانت العرب تستعمل الصياصى والقرون فى الرماح عند عدم الأسنة. وهذا أغرب من الأول ولكنهم مشترك بين المسلمين والكفار،فإن كل طائفة معها سلاحها. وأجود من هذين أن يقال وجه التشبيه: أن الأرض لاتعمر ولا تفلح إلا بالبقر ،فهم عمارة الأرض،وبها صلاح العالم وبقاء معيشتهم وقوام أمرهم،وهكذا المؤمنون بهم إصلاح الأرض وأهلها،وهم زينتها،وأنفع أهل

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٢٧، ٦٢٨).

(٢) سبق تخريجه ، ص٤٠٢ .

(٣) مسلم (٥٦٧/ ٧٨) فى المساجد ومواضع الصلاة ،باب:نهى من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا أو نحوها،وأحمد(١/ ١٥).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٠٢).

الأرض للناس ، كما أن البقر أنفع الدواب للأرض . ومن وجه آخر وهو : أن البقر تثير الأرض وتهيئها لقبول البذر وإنباته ، وهكذا أهل العلم والإيمان يثيرون القلوب ويهيئونها لقبول بذر الهدى فيها ونباته وكماله، والله أعلم (١).

## فصل
## فى قص الرؤيا على النساء

حديث النهى أن تقص الرؤيا على النساء، قال العقيلى: لا يحفظ من وجه يثبت (٢).

## فصل
## فى رؤية الحى للميت فى منامه

وقد دل على التقاء أرواح الأحياء والأموات أن الحى يرى الميت فى منامه فيستخبره ويخبره الميت بما لا يعلم الحى فيصادف خبره كما أخبر فى الماضى والمستقبل، وربما أخبره بمال دفنه الميت فى مكان لم يعلم به سواه ، وربما أخبره بدين عليه وذكر له شواهده وأدلته.

وأبلغ من هذا أنه يخبر بما عمله من عمل لم يطلع عليه أحد من العالمين ، وأبلغ من هذا أنه يخبره أنك تأتينا إلى وقت كذا وكذا فيكون كما أخبر ، وربما أخبره عن أمور يقطع الحى أنه لم يكن يعرفها غيره، وقد ذكرنا قصة الصعب بن جثامة وقوله لعوف بن مالك ما قال له، وذكرنا قصة ثابت بن قيس بن شماس وأخباره لمن رآه تدعه وما عليه من الدين.

وقصة صدقة بن سليمان الجعفرى وأخبار ابنه له بما عمل من بعده ، وقصة شبيب بن شيبة، وقول أمه له بعد الموت: جزاك الله خيرا ، حيث لقنها لا إله إلا الله ، وقصة الفضل ابن الموفق مع ابنه وإخباره إياه بعلمه بزيارته .

وقال سعيد بن المسيب التقى عبد الله بن سلام وسلمان الفارسى، فقال أحدهما للآخر: إن مت قبلى فالقنى فأخبرنى مالقيت من ربك، وإن أنا مت قبلك لقيتك فأخبرتك. فقال الآخر: وهل تلتقى الأموات والأحياء؟ قال: نعم أرواحهم فى الجنة تذهب حيث تشاء قال: فمات فلان فلقيه فى المنام، فقال: توكل وأبشر، فلم أر مثل التوكل قط. وقال العامر بن عبد المطلب: كنت أشتهى أن أرى عمر فى المنام، فما رأيته إلا عند قرب الحول، فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول: هذا أوان فراغى، إن كاد عرشى ليهد، لولا أن لقيت رؤوفا رحيما.

ولما حضرت شريح بن عابد الثمالى الوفاة دخل عليه غضيف بن الحارث وهو يجود

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٩٩).

(٢) المنار المنيف (١٣٢).

بنفسه، فقال: يا أبا الحجاج ، إن قدرت على أن تأتينا بعد الموت فتخبرنا بما ترى فافعل. قال: وكانت كلمة مقبولة فى أهل الفقه. قال : فمكث زمانا لا يراه ، ثم رآه فى منامه فقال له: أليس قدمت؟ قال: بلى. قال: فكيف حالك ؟ قال: تجاوز ربنا عنا الذنوب، فلم يهلك منا إلا الأحراض. قلت: وما الأحراض؟ قال: الذين يشار إليهم بالأصابع فى الشىء.

وقال عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز: رأيت أبى فى النوم بعد موته كأنه فى حديقة فدفع إلى تفاحات، فأولتهن الولد، فقلت: أى الأعمال وجدت أفضل؟ فقال: الاستغفار أى بنى.

ورأى مسلمة بن عبدالملك عمر بن عبدالعزيز بعد موته، فقال: يا أمير المؤمنين ، ليت شعرى إلى أى الحالات صرت بعد الموت؟ قال: يا مسلمة، هذا أوان فراغى، والله ما استرحت إلا الآن. قال: قلت: فأين أنت يا أمير المؤمنين؟ قال: مع أئمة الهدى فى جنة عدن.

قال صالح البراد: رأيت زرارة بن أوفى بعد موته، فقلت: رحمك الله، ماذا قيل لك وماذا قلت ؟ فأعرض عنى ، قلت : فما صنع الله بك ؟ قال : تفضل على بجوده وكرمه، قلت: فأبو العلاء بن يزيد أخو مطرف؟ قال : ذاك فى الدرجات العلى. قلت: فأى الأعمال أبلغ فيما عندكم؟ قال: التوكل وقصر الأمل.

قال مالك بن دينار: رأيت مسلم بن يسار بعد موته، فسلمت عليه فلم يرد على السلام، فقلت: ما يمنعك أن ترد السلام؟ قال: أنا ميت، فكيف أرد عليك السلام، فقلت له : ماذا لقيت بعد الموت؟ قال: لقيت والله أهوالا وزلازل عظاما شدادا ، قال: قلت له : فما كان بعد ذلك ؟ قال: وما تراه يكون من الكريم، قبل منا الحسنات، وعفا لنا عن السيئات، وضمن عنا التبعات. قال: ثم شهق مالك شهقة خر مغشيا عليه، قال: فلبث بعد ذلك مريضاً، ثم انصدع قلبه فمات.

وقال سهيل أخو حزم : رأيت مالك بن دينار بعد موته ، فقلت : يا أبا يحيى ، ليت شعرى ، ماذا قدمت به على الله؟ قال : قدمت بذنوب كثيرة، محاها عنى حسن الظن بالله عز وجل.

ولما مات رجاء بن حيوة رأته امرأة عابدة ، فقالت : يا أبا المقدم ، إلام صرتم: قال: إلى خير، ولكن فزعنا بعدكم فزعة ظننا أن القيامة قد قامت. قالت: قلت: ومم ذلك؟ قال: دخل الجراح وأصحابه الجنة بأثقالهم حتى ازدحموا على بابها.

وقال جميل بن مرة: كان مورق العجلى لى أخا وصديقاً، فقلت له ذات يوم: أينا مات قبل صاحبه فليأت صاحبه فليخبره بالذى صار إليه. قال: فمات مورق، فرأت أهلى فى منامها كأنه أتانا كما كان يأتى، فقرع الباب كما كان يقرع. قالت: فقمت ففتحت له كما كنت أفتح، وقلت: أدخل يا أبا المعتمر إلى باب أخيك. فقال: كيف أدخل وقد ذقت الموت، إنما

جئت لأعلم جميلا بما صنع الله بى، أعلميه أنه جعلنى فى المقربين.

ولما مات محمد بن سيرين حزن عليه بعض أصحابه حزنا شديداً ،فرآه فى المنام فى الحال حسنة، فقال: يا أخى، قد أراك فى حال يسرنى فما صنع الحسن؟قال: رفع فوقى بسبعين درجة، قلت: ولم ذاك وقد كنا نرى أنك أفضل منه ؟قال: ذاك بطول حزنه.

وقال ابن عيينة: رأيت سفيان الثورى فى النوم فقلت: أوصنى. قال: أقل من معرفة الناس.

وقال عمار بن سيف : رأيت الحسن بن صالح فى منامى ، فقلت : قد كنت متمنيا للقائك ، فماذا عندك فتخبرنا به. فقال: أبشر، فإنى لم أر مثل حسن الظن بالله شيئاً.

ولما مات ضيغم العابد، رآه بعض أصحابه فى المنام فقال: أما صليت على؟قال: فذكرت علة كانت، فقال: أما لوكنت صليت على ربحت رأسك.

ولما ماتت رابعة رأتها امرأة من أصحابها وعليها حلة إستبرق وخمار من سندس، وكانت كفنت فى جبة وخمار من صوف ، فقالت لها : ما فعلت الجبة التى كفنتك فيها وخمار الصوف؟ قالت: والله إنه نزع عنى، وأبدلت به هذا الذى ترين على ،وطويت أكفانى وختم عليها ،ورفعت فى عليين ليكمل لى ثوابها يوم القيامة. قالت: فقلت لها: لهذا كنت تعملين أيام الدنيا !فقالت: وما هذا عند ما رأيت من كرامة الله لأوليائه ،فقلت لها: فما فعلت عبدة بنت كلاب ؟ فقالت : هيهات ، سبقتنا والله إلى الدرجات العلى ، قالت : قلت وبم وقد كنت عند الناس أعبد منها ؟ فقالت : إنها لم تكن تبالى على أى حال أصبحت من الدنيا أو أمست ، فقلت : فما فعل أبومالك ـ تعنى ضيغما ؟ فقالت : يزور الله تبارك وتعالى متى شاء ، قالت: قلت فما فعل بشر بن منصور؟ قالت: بخ بخ، أعطى والله فوق ماكان يأمل. قالت: قلت: مرينى بأمر أتقرب به إلى الله تعالى. قالت: عليك بكثرة ذكر الله، فيوشك أن تغتبطى بذلك فى قبرك.

ولما مات عبد العزيز بن سليمان العابد رآه بعض أصحابه وعليه ثياب خضر، وعلى رأسه إكليل من لؤلؤ، فقال: كيف كنت بعدنا؟وكيف وجدت طعم الموت؟ وكيف رأيت الأمر هناك؟ قال: أما الموت فلا تسأل عن شدة كربه وغمه إلا أن رحمة الله وارت عنا كل عيب، وما تلقانا إلا بفضله.

وقال صالح بن بشر: لما مات عطاء السلمى رأيته فى منامى، فقلت: يا أبا محمد ،ألست فى زمرة الموتى؟ قال: بلى، قلت: فماذا صرت إليه بعد الموت ؟قال: صرت والله إلى خير

كثير،ورب غفور شكور ،قال:قلت:أما والله لقد كنت طويل الحزن فى دار الدنيا،فتبسم وقال : والله لقد أعقبنى ذلك راحة طويلة وفرحا دائماً ، قلت : ففى أى الدرجات أنت ؟ قال:مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

ولما مات عاصم الجحدرى رآه بعض أهله فى المنام ، فقال : أليس قد مت ؟ قال: بلى. قال :فأين أنت ؟ قال : أنا والله فى روضة من رياض الجنة ، أنا ونفر من أصحابى، نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزنى فنتلقى أخباركم ، قال: قلت: أجسادكم أم أرواحكم ؟ قال :هيهات ، بليت الأجساد ، وإنما تتلاقى الأرواح.

ورئى الفضيل بن عياض بعد موته ،فقال:لم أر للعبد خيرا من ربه .

وكان مرة الهمدانى قد سجد حتى أكل التراب جبهته ، فلما مات رآه رجل من أهله فى منامه وكأن موضع سجوده كهيئة الكوكب الدرى ، فقال : ما هذا الأثر الذى أرى بوجهك ؟ قال : كسى موضع السجود بأكل التراب له نورا ، قال : قلت : فما منزلتك فى الآخرة ؟ قال .خير منزل ،دار لا ينتقل عنها أهلها ولا يموتون .

وقال أبو يعقوب القارئ :رأيت فى منامى رجلا آدما طوالا والناس يتبعونه ،قلت:من هذا ؟ قالوا : أويس القرنى ، فاتبعته ، فقلت : أوصنى يرحمك الله ، فكلح فى وجهى، فقلت:مسترشد فأرشدنى رحمك الله،فأقبل على فقال:ابتغ رحمة الله عند محبته؛واحذر نقمته عند معصيته ،ولا تقطع رجاءك منه فى خلال ذلك ،ثم ولى وتركنى.

وقال ابن السماك : رأيت مسعرا فى النوم ، فقلت : أى الأعمال وجدت أفضل؟ قال:مجالس الذكر . وقال الأجلح :رأيت سلمة بن كهيل فى النوم ، فقلت : أى الأعمال وجدت أفضل؟ قال:قيام الليل.

وقال أبو بكر بن أبى مريم:رأيت وفاء بن بشر بعد موته،فقلت:ما فعلت يا وفاء؟ قال:نجوت بعد كل جهد ، قلت :فأى الأعمال وجدتموها أفضل؟قال:البكاء من خشية الله عز وجل.

وقال الليث بن سعد عن موسى بن وردان :أنه رأى عبد الله بن أبى حبيبة بعد موته، فقال : عرضت على حسناتى وسيئاتى فرأيت فى حسناتى حبات رمان التقطتهن فأكلتهن ، ورأيت فى سيئاتى خيطى حرير كانا فى قلنسوتى.

وقال سعيد بن داود : حدثنى ابن أخى جويرية بن أسماء قال: كنا بعبادان: فقدم علينا شاب من أهل الكوفة متعبد، فمات بها فى يوم شديد الحر، فقلت: نبرد ثم نأخذ فى جهازه ، فنمت فرأيت كأنى فى المقابر ، فإذا بقبة جوهر تتلألأ حسناً وأنا أنظر إليها ، إذا انفلقت ، فأشرفت منها جارية ما رأيت مثل حسنها ، فأقبلت على فقالت : بالله لا تحبسه عنا إلى الظهر ، قال فانتبهت فزعاً وأخذت فى جهازه ، وحفرت له قبراً فى الموضع الذى رأيت فيه القبة فدفنته فيه.

وقال عبد الملك بن عتاب الليثى: رأيت عامر بن عبد قيس فى النوم، فقلت: أى الأعمال وجدت أفضل؟ قال: ما أريد به وجه الله عز وجل.

وقال يزيد بن هارون : رأيت أبا العلاء أيوب بن مسكين فى المنام ، فقلت : ما فعل بك ربك ؟ قال : غفر لى ، قلت : بماذا ؟ قال : بالصوم ، والصلاة قلت : أرأيت منصور بن زاذان ؟ قال : هيهات ذاك نرى قصره من بعيد .

وقال يزيد بن نعامة: هلكت جارية فى طاعون الجارف فلقيها أبوها بعد موتها، فقال لها: يا بنية ، أخبرينى عن الآخرة ، قالت: يا أبت ، قدمنا على أمر عظيم نعلم ولا نعمل، وتعملون ولا تعلمون، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان فى صحيفة عملى أحب إلى من الدنيا وما فيها.

وقال كثير بن مرة : رأيت فى منامى كأنى دخلت درجة علياء فى الجنة، فجعلت أطوف بها وأتعب منها ، فإذا أنا بنساء من نساء المسجد فى ناحية منها، فذهبت ـ حتى سلمت عليهن ثم قلت : بما بلغتن هذه الدرجة ، قلن: بسجدات وتكبيرات.

وقال مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز ، عن فاطمة بنت عبدالملك ـ امرأة عمر بن عبد العزيز : قالت: انتبه عمر بن عبد العزيز ليلة فقال : لقد رأيت رؤيا معجبة . قالت فقلت : جعلت فداءك فأخبرنى بها، فقال: ما كنت لأخبرك بها حتى أصبح، فلما طلع الفجر خرج فصلى ثم عاد إلى مجلسه، قالت : فاغتنمت خلوته فقلت: أخبرنى بالرؤيا التى رأيت. قال: رأيت كأنى رفعت إلى أرض خضراء واسعة كأنها بساط أخضر، وإذا فيها قصر أبيض كأنه الفضة ، وإذا خارج قد خرج من ذلك القصر فهتف بأعلى صوته يقول: أين محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب ؟ أين رسول ﷺ ؟ إذ أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل القصر: قال: ثم إن آخر خرج من ذلك القصر فنادى: أين أبو بكر الصديق؟ أين ابن أبى قحافة؟ إذ أقبل أبو بكر حتى دخل ذلك القصر. ثم خرج آخر فنادى : أين عمر بن الخطاب؟ فأقبل عمر حتى دخل ذلك القصر. ثم خرج آخر فنادى: أين عثمان بن عفان؟ فأقبل حتى دخل

ذلك القصر. ثم خرج آخر فنادى: أين على بن أبى طالب؟ فأقبل حتى دخل ذلك القصر. ثم إن آخر خرج فنادى : أين عمر بن عبد العزيز ؟ قال عمر: فقمت حتى دخلت ذلك القصر. قال : فدفعت إلى رسول الله ﷺ والقوم حوله ، فقلت بينى وبين نفسى : أين أجلس ؟ فجلست إلى جنب أبى عمر بن الخطاب ، فنظرت فإذا أبو بكر عن يمين النبى ﷺ، وإذا عمر عن يساره، فتأملت، فإذا بين رسول الله ﷺ وبين أبى بكر رجل ، فقلت : من هذا الرجل الذى بين رسول الله ﷺ وبين أبى بكر؟ فقال: هذا عيسى ابن مريم ، فسمعت هاتفا يهتف وبينى وبينه ستر نور : يا عمر بن عبد العزيز ، تمسك بما أنت عليه ، واثبت على ما أنت عليه. ثم كأنه أذن لى فى الخروج فخرجت من ذلك القصر، فالتفت خلفى ، فإذا أنا بعثمان ابن عفان وهوخارج من ذلك القصر يقول : الحمد لله الذى نصرنى ، وإذا على بن أبى طالب فى دائرة خارج من ذلك القصر وهو يقول: الحمد لله الذى غفر لى.

وقال سعيد بن أبى عروة عن عمر بن عبد العزيز. رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر وعمر جالسان عنده، فسلمت وجلست، فبينا أنا جالس إذ أتى بعلى ومعاوية فأدخلا بيتاً وأجيف عليهما الباب، وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن يخرج على وهو يقول: قضى لى ورب الكعبة، وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول: غفر لى ورب الكعبة.

وقال حماد بن أبى هاشم: جاء رجل إلى عمر بن عبدالعزيز فقال: رأيت رسول الله ﷺ فى المنام، وأبو بكر عن يمينه، وعمر عن شماله، وأقبل رجلان يختصمان وأنت بين يديه جالس ، فقال لك : يا عمر ، إذا عملت فاعمل بعمل هذين أبى بكر وعمر، فاستحلفه عمر بالله : أرأيت هذه الرؤيا؟ فحلف فبكى عمر.

وقال عبدالرحمن بن غنم : رأيت معاذ بن جبل بعد وفاته بثلاث على فرس أبلق ، وخلفه رجال بيض عليهم ثياب خضر على خيل بلق، وهو قدامهم ، وهو يقول: ﴿**يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾ [يس: ٢٧]، ثم التفت عن يمينه وشماله يقول: يا بن رواحة، يا بن مظعون ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**﴾ [ الزمر: ٧٤] ثم صافحنى وسلم على.

وقال قبيصة بن عقبة: رأيت سفيان الثورى فى المنام بعد موته، فقلت: مافعل الله بك؟ فقال:

نظرت إلى ربى عيانا فقال لى ... هنيئا رضايا عنك يا بن سعيد
فقد كنت قواماً إذا الليل قد دجا ... بعبرة محزون وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر تريده ... وزرنى فإنى منك غير بعيد

وقال سفيان بن عيينة: رأيت سفيان الثورى بعد موته يطير فى الجنة من نخلة إلى شجرة، ومن شجرة إلى نخلة، وهو يقول: ﴿ **لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ** ﴾ [ الصافات: ٦١] فقيل له: بما أدخلت الجنة؟ قال: بالورع بالورع، قيل له: فما فعل على بن عاصم؟ قال: ما نراه إلا مثل الكوكب.

وكان شعبة بن الحجاج ومسعر بن كدام حافظين، وكانا جليلين، قال أبو أحمد البريدى: فرأيتهما بعد موتها، فقلت: أبا بسطام، ما فعل الله بك؟ فقال: وفقك الله لحفظ ما أقول:

حبانى إلهى فى الجنان بقبة ... لها ألف باب من لجين وجوهرا
وقال لى الرحمن يا شعبة الذى ... تبحر فى جمع العلوم فأكثرا
تنعم بقربى إننى عنك ذو رضا ... وعن عبدى القوام فى الليل مسعرا
كفا مسعرا عزا بأن سيزرونى ... وأكشف عن وجهى الكريم لينظرا
وهذا فعالى بالذين تنسكوا ... ولم يألفوا فى سالف الدهر منكرا

قال أحمد بن محمد اللبدى: رأيت أحمد بن حنبل فى النوم، فقلت: يا أبا عبد الله، مافعل الله بك؟ قال: غفر لى، يا أحمد، ضربت فى ستين سوطاً؟ قلت: نعم يا رب، قال هذا وجهى، قد أبحتك فانظر إليه.

وقال أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج: حدثنى رجل من أهل طرطوس، قال: دعوت الله عز وجل أن يرينى أهل القبور، حتى أسألهم عن أحمد بن حنبل ما فعل الله به؟ فرأيت بعد عشر سنين فى المنام كأن أهل القبور قد قاموا على قبورهم فبادرونى بالكلام، فقالوا: يا هذا، كم تدعو الله عز وجل أن يريك إياناً، تسألنا عن رجل لم يزل منذ فارقكم تحليه الملائكة تحت شجرة طوبى.

قال أبو محمد عبدالحق: وهذا الكلام من أهل القبور إنما هو إخبار عن علو درجة أحمد بن حنبل، وارتفاع مكانه، وعظم منزلته، فلم يقدروا أن يعبروا عن صفة حاله وعما هو فيه إلا بهذا وما هو فى معناه.

وقال أبو جعفر السقاء، صاحب بشر بن الحارث : رأيت بشرا الحافى ومعروفا الكرخى وهما جائيان ، فقلت: من أين ، قالا: من جنة الفردوس ، زرنا كليم الله موسى.

وقال عاصم الجزرى: رأيت فى النوم كأنى لقيت بشر بن الحارث ، فقلت: من أين يا أبا نصر؟ قال: من عليين ، قلت: فما فعل أحمد بن حنبل ؟ قال: تركته الساعة مع عبد الوهاب الوراق بين يدى الله عز وجل يأكلان ويشربان، قلت له: فأنت؟ قال: علم قلة رغبتى فى الطعام فأباحنى النظر إليه.

وقال أبو جعفر السقاء: رأيت بشر بن الحارث فى النوم بعد موته فقلت: أبا نصر ما فعل الله بك؟ قال: ألطفنى ورحمنى ، وقال لى: يا بشر ، لو سجدت لى فى الدنيا على الجمر ما أديت شكر ما حشوت قلوب عبادى منك، وأباح لى نصف الجنة فأسرح فيها حيث شئت ، ووعدنى أن يغفر لمن تبع جنازتى ، فقلت : ما فعل أبو نصر التمار؟ فقال: ذاك فوق الناس بصبره على بلائه وفقره. قال عبد الحق: لعله أراد بقوله ( نصف الجنة ) نصف نعيمها ؛ لأن نعيمها نصفان؛ نصف روحانى ونصف جسمانى، فيتنعمون أولاً بالروحانى، فإذا ردت الأرواح إلى الأجساد أضيف لهم النعيم الجسمانى إلى الروحانى، وقال غيره : نعيم الجنة مرتب على العلم والعمل ، وحظ بشر من العمل كان أوفى من حظه فى العلم، والله أعلم.

وقال بعض الصالحين: رأيت أبا بكر الشبلى فى المنام، وكأنه قاعد فى مجلس الرصافة بالموضع الذى كان يعقد فيه، وإذا به قد أقبل وعليه ثياب حسان ، فقمت إليه وسلمت عليه، وجلست بين يديه فقلت له: من أقرب أصحابك إليك ؟ قال: أكثرهم لذكر الله، وأقومهم بحق الله ، وأسرعهم مبادرة فى مرضاة الله.

وقال أبو عبد الرحمن الساحلى: رأيت ميسرة بن سليم فى المنام بعد موته ، فقلت له: طالت غيبتك، فقال : السفر الطويل ، فقلت له : فما الذى قدمت عليه؟ فقال: رخص لى لأنا كنا نفتى بالرخص، فقلت: فما تأمرنى به ؟ قال: اتباع الآثار ، وصحبة الأخيار ، ينجيان من النار، ويقربان من الجبار.

وقال أبو جعفر الضرير: رأيت عيسى بن زاذان بعد موته، فقلت: ما فعل الله بك؟ فأنشأ يقول:

لو رأيت الحسان فى الخلد حولى　　وأكـاويـب معهـا للشـراب
يترغـن بالكتـاب جميعـاً　　يتمشيـن مسبلات الثيـاب

وقال بعض أصحاب ابن جريج: رأيت كأنى جئت إلى المقبرة التى بمكة، فرأيت على

عامتها سرادقاً، ورأيت منها قبراً عليه سرادق وفسطاط وسدرة ، فجئت حتى دخلت فسلمت عليه ، فإذا بمسلم بن خالد الزنجى فسلمت عليه وقلت : يا أبا خالد ما بال هذه القبور عليها سرادق وقبرك عليه سرادق وفسطاط وفيه سدرة؟ ، فقال: إنى كنت كثير الصيام، فقلت : فأين قبر ابن جريج وأين محله؟ فقد كنت أجالسه وأنا أحب أن أسلم عليه ، فقال :هكذا بيده ، هيهات، وأدار أصبعه السبابة وأين قبر ابن جريج ؟ رفعت صحيفته فى عليين !

ورأى حماد بن سلمة فى النوم أصحابه، فقال له: ما فعل الله بك؟فقال: قال لى : طال ما كددت نفسك فى الدنيا ، فاليوم أطيل راحتك وراحة المتعبين.

وهذا باب طويل جداً، فإن لم تسمح نفسك بتصديقه ، وقلت: هذه منامات ، وهى غير معصومة ، فتأمل من رأى صاحباً له أو قريباً أو غيره فأخبره بأمر لا يعلمه إلا صاحب الرؤيا ، أو أخبره بمال دفنه ، أو حذره من أمر يقع ، أو بشره بأمر يوجد فوقع كما قال ، أو أخبره بأنه يموت هو أو بعض أهله إلى كذا وكذا فيقع كما أخبر ، أو أخبره بخصب أو جدب أو عدو أو نازلة أو مرض أو بغرض له فوقع كما أخبره، والواقع من ذلك لا يحصيه إلا الله والناس مشتركون فيه، وقد رأينا نحن وغيرنا من ذلك عجائب.

وأبطل من قال: إن هذه كلها علوم وعقائد فى النفس تظهر لصاحبها عند انقطاع نفسه عن الشواغل البدنية بالنوم، وهذا عين الباطل والمحال ، فإن النفس لم يكن فيها قط معرفة هذه الأمور التى يخبر بها الميت ، ولا خطرت ببالها ولا عندها علامة عليها ولا أمارة بوجه ما ، ونحن لاننكر أن الأمر قد يقع كذلك.

وإن من الرؤيا ما يكون من حديث النفس وصورة الاعتقاد، بل كثير من مرائى الناس إنما هى من مجرد صور اعتقادهم المطابق وغير المطابق.

فإن الرؤيا على ثلاثة أنواع: رؤيا من الله، ورؤيا الشيطان، ورؤيا من حديث النفس.

والرؤيا الصحيحة أقسام: منها إلهام يلقيه الله ـ سبحانه ـ فى قلب العبد وهو كلام يكلم به الرب عبده فى المنام ، كما قال عبادة بن الصامت وغيره.

ومنها : مثل يضربه له ملك الرؤيا الموكل بها.

ومنها: التقاء روح النائم بأرواح الموتى من أهله وأقاربه وأصحابه وغيرهم، كما ذكرنا.

ومنها: عروج روحه إلى الله ـ سبحانه ـ وخطابها له.

ومنها: دخول روحه إلى الجنة ومشاهدتها وغير ذلك، فالتقاء أرواح الأحياء والموتى نوع

من أنواع الرؤيا الصحيحة، التى هى عند الناس من جنس المحسوسات.

وهذا موضع اضطرب فيه الناس، فمن قائل: إن العلوم كلها كامنة فى النفس، وإنما اشتغالها بعالم الحس يحجب عنا مطالعتها، فإذا تجردت بالنوم رأت منها بحسب استعدادها، ولما كان تجردها بالموت أكمل كانت علومها ومعارفها هناك أكمل، وهذا، فيه حق وباطل، فلا يرد كله ولا يقبل كله. فإن تجرد النفس يطلعها على علوم ومعارف لا تحصل بدون التجرد، لكن لو تجردت كل التجرد لم تطلع على علم الله الذى بعث به رسوله، وعلى تفاصيل ما أخبر به عن الرسل الماضية والأمم الخالية، وتفاصيل المعاد وأشراط الساعة، وتفاصيل الأمر والنهى والأسماء والصفات والأفعال، وغير ذلك مما لا يعلم إلا بالوحى، ولكن تجرد النفس عون لها على معرفة ذلك وتلقيه من معدنه أسهل وأقرب وأكثر مما يحصل للنفس المنغمسة فى الشواغل البدنية.

ومن قائل: إن هذه المرائى علوم علقها الله فى النفس ابتداء بلا سبب، وهذا قول منكرى الأسباب والحكم القوى، وهو قول مخالف للشرع والعقل والفطرة.

ومن قائل: إن الرؤيا أمثال مضروبة يضربها الله للعبد بحسب استعداد ألفه على يد ملك الرؤيا، فمرة يكون مثلاً مضروباً، ومرة يكون نفس ما رآه الرائى، فيطابق الواقع مطابقة العلم لمعلومه.

وهذا أقرب من القولين قبله، ولكن الرؤيا ليست مقصورة عليه، بل لها أسباب أخرى كما تقدم من ملاقات الأرواح وإخبار بعضها بعضاً، من إلقاء الملك الذى فى القلب والروع، ومن رؤية الروح للأشياء مكافحة بلا واسطة.

وقد ذكر أبو عبد الله بن منده الحافظ فى (كتاب النفس والروح) من حديث محمد بن حميد: حدثنا عبد الرحمن بن مغراء الدوسى، حدثنا الأزهر بن عبد الله الأزدى، عن محمد ابن عجلان، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه قال: لقى عمر بن الخطاب على بن أبى طالب، فقال له: يا أبا الحسن، ربما شهدت وغبنا، وشهدنا وغبت؟ ثلاث أسألك عنهن عندك منهن علم، فقال على بن أبى طالب: وما هن؟ فقال: الرجل يحب الرجل ولم ير منه خيراً، والرجل يبغض الرجل ولم ير منه شراً، فقال على: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الأرواح جنود مجندة، تلتقى فى الهواء فتشام، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»، فقال: واحدة. قال عمر: والرجل يحدث الحديث إذ نسيه، فبينا هو وما نسيه إذ ذكره؟ فقال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما فى القلوب قلب إلا وله سحابة

كسحابة القمر ، بينما القمر مضيء إذا تجللته سحابة فأظلم إذ تجلت فأضاء ، وبينا القلب يتحدث إذ تجللته سحابة فنسى، إذ تجلت عنه فيذكر » . قال عمر: اثنتان. قال : والرجل يرى الرؤيا ، فمنها ما يصدق ومنها ما يكذب ؟فقال: نعم ،سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من عبد ينام يتملى نوماً إلا عرج بروحه إلى العرش، فالذى لا يستيقظ دون العرش، فتلك الرؤيا التى تصدق ، والذى يستيقظ دون العرش فهى التى تكذب » . فقال عمر: ثلاث كنت فى طلبهن ، فالحمد لله الذى أصبتهن قبل الموت (١).

وقال بقية بن الوليد: حدثنا صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر الحضرمى قال: قال عمر بن الخطاب: عجبت لرؤيا الرجل يرى الشىء لم يخطر له على بال، فيكون كأخذ بيد ويرى الشىء فلا يكون شيئاً ، فقال على بن أبى طالب : يا أمير المؤمنين ، يقول الله عز وجل: أنه ﴿ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [ الزمر: ٤٢]، قال: والأرواح يعرج بها فى منامها ، فما رأت وهى فى السماء فهو الحق، فإذا ردت إلى أجسادها تلقتها الشياطين فى الهواء فكذبتها ، فما رأت من ذلك فهو الباطل ، قال: فجعل عمر يتعجب من قول على. قال ابن منده: هذا خبر مشهور عن صفوان بن عمرو وغيره ، وروى عن أبى الدرداء.

وذكر الطبرانى من حديث على بن أبى طلحة: أن عبدالله بن عباس قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، أشياء أسألك عنها. قال: سل عما شئت . قال: يا أمير المؤمنين، مم يذكر الرجل؟ ومم ينسى ؟ ومم تصدق الرؤيا ومم تكذب؟ فقال له عمر: إن على القلب طخاوة كطخاوة القمر، فإذا تغشت القلب نسى ابن آدم، فإذا انجلت ذكر ما كان نسى، وأما مم تصدق الرؤيا ومم تكذب؟ فإن الله عز وجل يقول: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢] ، فمن دخل منها فى ملكوت السماء فهى التى تصدق، وما كان منها دون ملكوت السماء فهى التى تكذب.

وروى ابن لهيعة عن عثمان بن نعيم الرعينى، عن أبى عثمان الأصبحى، عن أبى الدرداء قال: إذا نام الإنسان عرج بروحه حتى يؤتى بها العرش ، فإن كان طاهراً أذن لها بالسجود، وإن كان جنباً لم يؤذن لها بالسجود.

وروى جعفر بن عون عن إبراهيم الهجرى، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود أنه قال : إن الأرواح جنود مجندة ، تتلاقى فتشام كما تشام الخيل ، فما تعارف منها ائتلف

---

(١) الطبرانى فى الأوسط (٥٢٢٠) ، والفردوس بمأثور الخطاب للديلمى (٦١٧٣).

وما تناكر منها اختلف.

ولم يزل الناس قديماً وحديثاً تعرف هذا وتشاهده. قال جميل بن معمر الغنوى:

أظل نهارى مستهاماً وتلتقى مع الليل روحى فى المنام وروحها

فإن قيل: فالنائم يرى غيره من الأحياء يحدثه ويخاطبه، وربما كان بينهما مسافة بعيدة ويكون المرء يقظان، روحه لم تفارق جسده، فكيف التقت روحاهما، قيل: هذا إما أن يكون مثلاً مضروباً ضربه ملك الرؤيا للنائم، أو يكون حديث نفس من الرائى تجرد له فى منامه، كما قال حبيب بن أوس:

سقياً لطيفك من زور أتاك به حديث نفسك عنه وهو مشغول

وقد تتناسب الروحان وتشتد علاقة أحدهما بالأخرى، فيشعر كل منهما ببعض ما يحدث لصاحبه، وإن لم يشعر بما يحدث لغيره؛ لشدة العلاقة بينهما، وقد شاهد الناس من ذلك عجائب.

والمقصود: أن أرواح الأحياء تتلاقى فى النوم، كما تتلاقى أرواح الأحياء والأموات، قال بعض السلف: إن الأرواح تتلاقى فى الهواء فتتعارف أو تتناكر، فيأتيها ملك الرؤيا بما هو لاقيها من خير أو شر. قال: وقد وكل الله بالرؤيا الصادقة ملكاً علمه وألهمه معرفة كل نفس بعينها واسمها ومتقلبها فى دينها ودنياها وطبعها ومعارفها، لا يشتبه عليه منها شىء ولا يغلط فيها، فتأتيه نسخة من علم غيب الغيب من أم الكتاب بما هو مصيب لهذا الإنسان، من خير وشر، فى دينه ودنياه، ويضرب له فيها الأمثال والأشكال على قدر عادته، فتارة يبشره بخير قدمه أو يقدمه، وينذره من معصية ارتكبها أو همَّ بها، ويحذره من مكروه انعقدت أسبابه ليعارض تلك الأسباب بأسباب تدفعها، ولغير ذلك من الحكم والمصالح التى جعلها الله فى الرؤيا؛ نعمة منه ورحمة وإحساناً وتذكيراً وتعريفها، وجعل أحد طرق ذلك تلاقى الأرواح وتذاكرها وتعارفها، وكم من كانت توبته وصلاحه وزهده وإقباله على الآخرة عن منام رآه أو رئى له، وكم ممن استغنى وأصاب كنزاً دفيناً عن منام.

وفى (كتاب المجالسة) لأبى بكر أحمد بن مروان المالكى عن ابن قتيبة، عن أبى حاتم، عن الأصمعى، عن المعتمر بن سليمان عمن حدثه قال: خرجنا مرة فى سفر وكنا ثلاثة نفر، فنام أحدنا، فرأينا مثل المصباح خرج من أنفه فدخل غاراً قريباً منه، ثم رجع فدخل أنفه، فاستيقظ يمسح وجهه وقال: رأيت عجبًا، رأيت فى هذا الغار كذا وكذا، فدخلناه فوجدنا فيه بقية من كنز كان.

وهذا عبد المطلب دل فى النوم على زمزم ، وأصاب الكنز الذى كان هناك».

وهذا عمير بن وهب أتى فى منامه، فقيل له: قم إلى موضع كذا وكذا من البيت، فاحفره تجد مال أبيك، وكان أبوه قد دفن مالاً ومات ولم يوص به، فقام عمير من نومه فاحتفر حيث أمره، فأصاب عشرة آلاف درهم وتبرا كثيراً ، فقضى دينه ، وحسن حاله وحال أهل بيته، وكان ذلك عقب إسلامه. فقالت له الصغرى من بناته: يا أبت ، ربنا هذا الذى حبانا بدينه خير من هبل والعزى، ولو أنه كذلك ما ورثك هذا المال، وإنما عبدته أياماً قلائل.

قال على بن أبى طالب القيروانى العابر: وما حديث عمر هذا واستخراجه المال بالمنام، بأعجب مما كان عندنا وشاهدناه فى عصرنا بمدينتنا من أبى محمد عبد الله البغانشى . وكان رجلاً صالحاً مشهوراً برؤية الأموات ، وسؤالهم عن الغائبات ، ونقله ذلك إلى أهلهم وقراباتهم حتى اشتهر بذلك وكثر منه، فكان المرء يأتيه فيشكو إليه أن حميمه قد مات من غير وصية وله مال لا يهتدى إلى مكانه، فيعده خيراً ويدعو الله تعالى فى ليلته ، فيتراآى له الميت الموصوف فيسأله عن الأمر فيخبره به.

فمن نوادره: أن امرأة عجوزاً من الصالحات توفيت ولامرأة عندها سبعة دنانير وديعة ، فجاءت إليه صاحبة الوديعة وشكت إليه ما نزل بها وأخبرته باسمها واسم الميتة صاحبتها، ثم عادت إليه من الغد، فقال لها: تقول لك فلانة: عدى من سقف بيتى سبع خشبات تجدى الدنانير فى السابعة ، فى خرقة صوف ، ففعلت ذلك فوجدتها كما وصف لها.

قال: وأخبرنى رجل لا أظن به كذباً: استأجرتنى امرأة من أهل الدنيا على هدم دار لها وبنائها بمال معلوم، فلما أخذت فى الهدم لزمت الفعلة هى ومن معها فقلت: مالك؟ قالت: والله ما لى إلى هذه الدار من حاجة ، لكن أبى مات وكان ذا يسار كثير فلم نجد له كثير شيء، فخلت أن ماله مدفون فعمدت إلى هدم الدار لعلى أجد شيئاً: فقال لها بعض من حضر. لقد فاتك ما هو أهون عليك من هذا، قالت: وما هو؟ قال: فلان تمضين إليه، وتسألينه أن يبيت قصتك الليلة، فلعله ير أباك فيدلك عن مكان ماله بلا تعب ولا كلفة. فذهبت إليه ثم عادت إلينا ، فزعمت أنه كتب اسمها واسم أبيها عنده ، فلما كان من الغد بكرت إلى العمل، وجاءت المرأة من عند الرجل فقالت: إن الرجل قال لى: رأيت أباك وهو يقول: المال فى الحنية . قال : فجعلنا نحفر تحت الحنية وفى جوانبها حتى لاح لى شق ، وإذا المال فيه. قال: فأخذنا فى التعجب والمرأة تستخف بما وجدت وتقول: مال أبى كان أكثر من هذا، ولكنى أعود إليه، فمضت فأعلمته ثم سألته المعاودة، فلما كان من الغد أتت وقالت: إنه

قال لها: إن أباك يقول لك: احفرى تحت الجابية التى فى مخزن الزيت، قال: ففتحت المخزن فإذا بجابية مربعة فى الركن، فأزلناها وحفرنا تحتها، فوجدنا كوزاً كبيراً، فأخذته ثم دام بها الطمع فى المعاودة ففعلت، فرجعت من عنده وعليها الكآبة، فقالت: زعم أنه رآه وهو يقول له: قد أخذت ما قدر لها، وأما مابقى فقد جلس عليه عفريت من الجن يحرسه إلى من قدر له، والحكايات فى هذا الباب كثيرة جداً.

وأما من حصل له الشفاء باستعمال دواء رأى من وصفه له فى منامه فكثير جداً وقد حدثنى غير واحد ممن كان غير مائل إلى شيخ الإسلام ابن تيمية، أنه رآه بعد موته وسأله عن شيء كان يشكل عليه من مسائل الفرائض وغيرها فأجابه بالصواب.

وبالجملة، فهذا أمر لا ينكره إلا من هو أجهل الناس بالأرواح وأحكامها وشأنها، وبالله التوفيق (١).

## فصل
## فى الرؤيا تظهر آثارها فى اليقظة

إن روح النائم يحصل لها فى المنام آثار فتصبح يراها على البدن عيانا، وهى من تأثير الروح فى الروح، كما ذكر القيروانى فى ( كتاب البستان ) عن بعض السلف.

قال: كان لى جار يشتم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما كان ذات يوم أكثر من شتمهما، فتناولته وتناولنى، فانصرفت إلى منزلى وأنا مغموم حزين، فنمت وتركت العشاء، فرأيت رسول الله ﷺ فى المنام، فقلت: يا رسول الله، فلان يسب أصحابك، قال: من أصحابى؟ قلت: أبو بكر وعمر، فقال: خذ هذه المدية فاذبحه بها، فأخذتها، فأضجعته وذبحته، ورأيت كأن يدى أصابها من دمه، فألقيت المدية وأهويت بيدى إلى الأرض لأمسحها، فانتبهت وأنا أسمع الصراخ من نحو داره فقلت: ما هذا الصراخ؟ قالوا: فلان مات فجأة، فلما أصبحنا جئت فنظرت إليه، فإذا خط موضع الذبح.

وفى ( كتاب المنامات ) لابن أبى الدنيا عن شيخ من قريش قال: رأيت رجلا بالشام قد اسود نصف وجهه وهو يغطيه، فسألته عن ذلك؟ فقال: قد جعلت لله على ألا يسألنى أحد عن ذلك إلا أخبرته به، كنت شديد الوقيعة فى على بن أبى طالب رضي الله عنه، فبينما أنا ذات ليلة نائم، إذ أتانى آت فى منامى فقال لى: أنت صاحب الوقيعة فىَّ؟ فضرب شق وجهى، فأصبحت وشق وجهى أسود كما ترى.

---
(١) الروح (٥١ ـ ٧٠)

وذكر مسعدة عن هشام بن حسان، عن واصل مولى أبى عيينة ،عن موسى بن عبيدة ، عن صفية بنت شيبة قالت : كنت عند عائشة رضي الله عنها فأتتها امرأة مشتملة على يدها ، فجعل النساء يولعن بها ، فقالت: ما أتيتك إلا من أجل يدى أبى ،كان رجلا سمحا ، وإنى رأيت فى المنام حياضاً عليها رجال، معهم آنية يسقون من أتاهم ،فرأيت أبى قلت: أين أمى؟ فقال : انظرى ، فنظرت فإذا أمى ليس عليها إلا قطعة خرقة ، فقال : إنها لم تتصدق قط إلا بتلك الخرقة ، وشحمة من بقرة ذبحوها، فتلك الشحمة تذاب وتطرف بها وهى تقول : واعطشاه ! قالت : فأخذت إناء من الآنية فسقيتها، فنوديت من فوقى: من سقاها أيبس الله يده، فأصبحت يدى كما ترين.

وذكر الحارث بن أسد المحاسبى وأصبغ وخلف بن القاسم وجماعة عن سعيد بن مسلمة قال: بينما امرأة عند عائشة إذ قالت : بايعت رسول الله ﷺ ألا أشرك بالله شيئاً ، ولا أسرق ، ولا أزنى ، ولا أقتل ولدى ، ولا آتى ببهتان أفتريه من بين يدى ورجلى ، ولا أعصى فى معروف ، فوفيت لربى ووفى لى ربى ، فوالله لا يعذبنى الله ،فأتاها فى المنام ملك ، فقال لها : كلا إنك تتبرجين ، وزينتك تبدين ، وخيرك تكندين ، وجارك تؤذين ، وزوجك تعصين ، ثم وضع أصابعه الخمس على وجهها،وقال: خمس بخمس، ولو زدت زدناك ، فأصبحت أثر الأصابع فى وجهها.

وقال عبدالرحمن بن القاسم صاحب مالك: سمعت مالكا يقول: إن يعقوب بن عبدالله ابن الأشج كان من خيار هذه الأمة ، نام فى اليوم الذى استشهد فيه ،فقال لأصحابه: إنى قد رأيت أمراً ولأخبرنه ،إنى رأيت كأنى أدخلت الجنة فسقيت لبناً، فاستقاء فقاء اللبن، واستشهد بعد ذلك .قال أبو القاسم :وكان فى غزوة البحر بموضع لا لبن فيه ، وقد سمعت غير مالك يذكره ويذكر أنه معروف ، فقال: إنى رأيت كأنى أدخل الجنة، فسقيت فيها لبناً، فقال له بعض القوم: أقسمت عليك لما تقيأت ، فقاء لبناً يصلد أى يبرق ، وما فى السفينة لبناً ولا شاة ، قال ابن قتيبة :قوله:( يصلد ) أى يبرق ، يقال: صلد اللبن يصلد، ومنه حديث عمر: إن الطبيب سقاه لبناً، فخرج من الطعنة أبيض يصلد.

وكان نافع القارئ إذا تكلم يشم من فيه رائحة المسك ، فقيل له: كلما قعدت تتطيب ، فقال: ما أمس طيباً ولا أقربه ، ولكن رأيت النبى ﷺ فى المنام وهو يقرأ فى فمى، فمن ذلك الوقت يشم من فىَّ هذه الرائحة.

وذكر مسعدة فى كتابه فى الرؤيا عن ربيع بن زيد الرقاشى قال: أتانى رجلان ،فقعدا إلى فاغتابا رجلا فنهيتهما، فأتانى أحدهما بعد فقال: إنى رأيت فى المنام كأن زنجياً أتانى

بطبق عليه جنب خنزير ، لم أر قط أسمن منه ، فقال لى : كل ،فقلت:آكل لحم خنزير ؟ فتهددنى فأكلت ،فأصبحت وقد تغير فمى، فلم يزل يجد الريح فى فمه شهرين وكان العلاء ابن زيادة له وقت يقوم فيه ، فقال لأهله تلك الليلة : إنى أجد فترة فإذا كان وقت كذا أيقظونى فلم يفعلوا قال:فأتانى آت فى منامى ، فقال:قم يا علاء بن زياد اذكر الله يذكرك،وأخذ شعرات فى مقدم رأسى ، فقامت تلك الشعرات فى مقدم رأسى،فلم تزل قائمة حتى مات . قال يحيى بن بسطام:فلقد غسلناه يوم مات ،وإنهن لقيام فى رأسه .

وذكر ابن أبى الدنيا عن أبى حاتم الرازى عن محمد بن على قال : كنا بمكة فى المسجد الحرام قعوداً ، فقام رجل نصف وجهه أسود ونصفه أبيض ، فقام : يا أيها الناس ، اعتبروا بى ، فإنى كنت أتناول الشيخين وأشتمهما ، فبينما أنا ذات ليلة نائم إذ أتانى آت ، فرفع يده فلطم وجهى،وقال لى:يا عدو الله، يافاسق ، ألست تسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فأصبحت وأنا على هذه الحالة.

وقال :محمد بن عبد الله المهلبى:رأيت فى المنام كأنى فى رحبة بنى فلان ،وإذا النبى ﷺ جالس على أكمة ومعه أبو بكر ، وعمر واقف قدامه ، فقال له عمر:يا رسول الله ، إن هذا يشتمنى ويشتم أبا بكر ،فقال:جئ به يا أبا حفص ،فأتى برجل ، فإذا هو العمانى،وكان مشهوراً بسبهما ، فقال له النبى ﷺ : أضجعه ، فأضجعه ثم قال:اذبحه ، فذبحه ، قال :فما نبهنى إلا صياحه، فقلت:ما لى أخبره؟عسى أن يتوب ،فلما تقربت من منزله سمعت بكاء شديداً ،فقلت:ما هذا البكاء؟ فقالوا:العمانى ذبح البارحة على سريره . قال: فدنوت من عنقه ،فإذا من أذنه إلى أذنه طريقة حمراء كالدم المحصور.

وقال القيروانى:أخبرنى شيخ لنا من أهل الفضل قال:أخبرنى أبو الحسن المطلبى إمام مسجد النبى ﷺ قال : رأيت بالمدينة عجباً ! كان رجل يسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، فبينما نحن يوماً من الأيام بعد صلاة الصبح،إذ أقبل رجل وقد خرجت عيناه وسالتا على خديه ، فسألناه : ما قصتك ؟ فقال : رأيت البارحة رسول الله ﷺ ،وعلى بين يديه،ومعه أبو بكر وعمر ، فقالا :يا رسول الله،هذا الذى يؤذينا ويسبنا ! فقال لى رسول الله ﷺ: من أمرك بهذا يا أبا قيس؟فقلت له:وأشرت عليه ، فأقبل على على بوجهه ويده ،وقد ضم أصابعه وبسط السبابة والوسطى،وقصد بها إلى عينى ، فقلت:إن كنت كذبت ففقأ الله عينيك ، وأدخل أصبعيه فى عينى ، فانتبهت من نومى وأنا على هذه الحال ، فكان يبكى ويخبر الناس ، وأعلن بالتوبة.

قال القيروانى:وأخبرنى شيخ من أهل الفضل قال:أخبرنى فقيه قال:كان عندنا رجل يكثر الصوم ويسرده ، ولكنه كان يؤخر الفطر ،فرأى فى المنام كأن أسودين آخذين بضبعيه

وثيابه إلى تنور محمى ليلقياه فيه. قال: فقلت لهما: على ماذا ؟فقالا: على خلافك لسنة رسول الله ﷺ ، فإنه أمر بتعجيل الفطر وأنت تؤخره ، قال : فأصبح وجهه قد اسود من وهج النار ،فكان يمشى متبرقعاً فى الناس.

وأعجب من هـذا الرجل يرى فـى المنام وهو شديد العطش والجوع والألم أن غيره قد سقاه وأطعمه ،أو داواه بدواء ، فيستيقظ وقد زال عنه ذلك كله،وقد رأى الناس من هذا عجائب.

وقد ذكر مالك عن أبى الرجال،عن عمرة،عن عائشة: أن جارية لها سحرتها ، وأن سيدها دخل عليها وهى مريضة ،فقال: إنك سحرت ، قالت: ومن سحرنى ؟قال: جارية فى حجرها صبى قد بال عليها فدعت جاريتها ، فقالت : حتى أغسل بولا فى ثوبى ، فقالت لها : أسحرتنى ؟ قالت : نعم،قالت: وما دعاك إلى ذلك ؟ قالت: أردت تعجيل العتق ، فأمرت أخاها أن يبيعها من الأعراب ممن يسىء ملكها،فباعها ،ثم إن عائشة رأت فى منامها: أن اغتسلى من ثلاثة آبار ،يمد بعضها بعضاً ،فاستسقى لها ،فاغتسلت ،فبرأت.

وكان سماك بن حرب قد ذهب بصره،فرأى إبراهيم الخليل فى المنام ، فمسح على عينيه وقال: اذهب إلى الفرات فانغمس فيه ثلاثاً ، ففعل فأبصر.

وكان إسماعيل بن بلال الحضرمى قد عمى،فأتى فى المنام ،وقيل له: قل : يا قريب ، يا مجيب ، يا سميع الدعاء ، يالطيف بمن يشاء رد على بصرى ،فقال الليث بن سعد: أنا رأيته قد عمى، ثم أبصر.

وقال عبيد الله بن أبى جعفر: اشتكيت شكوى فجهدت منها،فكنت أقرأ آية الكرسى،فنمت فإذا رجلان قائمان بين يدى،فقال أحدهما لصاحبه أن يقرأ آية فيها ثلاثمائة وستون رحمة ، أفلا يصيب هذا المسكين فيها رحمة واحدة؟فاستيقظت فوجدت خفة.

قال ابن أبى الدنيا: اعتلت امرأة من أهل الخير والصلاح بوجع المعدة ،فرأت فى المنام قائلا يقول لها: لا إله إلا الله ،المغلى وشراب الورد. فشربته ، فأذهب الله عنها ما كانت تجد.

قال : وقالت أيضاً : رأيت فى المنام كأنى أقول : السناء والعسل وماء الحمص الأسود شفاء لوجع الأوراك . فلما استيقظت أتتنى امرأة تشكو وجعاً بوركها ، فوصفت لها ذلك فاستنفعت به.

وقال جالينوس : السبب الذى دعانى إلى فصد العروق والضوارب ؛ أنى أمرت به فى منامى مرتين. قال: كنت إذا ذاك غلاما، قال: وأعرف إنساناً شفاه الله من وجع كان به فى

جنبه ، يفصد العرق الضارب لرؤيا رآها فى منامه .

وقال ابن الخراز : كنت أعالج رجلا ممعوداً ، فغاب عنى ، ثم لقيته فسألته عن حاله فقال : رأيت فى المنام إنساناً فى زى ناسك متوكئاً على عصا ، وقف على وقال: أنت رجل ممعود (١) ؟ فقلت نعم ، فقال : عليك بالكباء والجلنجبين ، فأصبحت فسألت عنهما ، فقيل لى : الكباء والمصطكى والجلجنبين والورد والمربى بالعسل فاستعملتها أياماً فبرأت ، فقلت له :قال ذلك جالينوس.

والوقائع فى هذا الباب أكثر من أن تذكر . قال بعض الناس : إن أصل الطب من المنامات ، ولا ريب أن كثيراً من أصوله مستند إلى الرؤيا ، كما أن بعضها عن التجارب ، وبعضها عن القياس ، وبعضها عن إلهام، ومن أراد الوقوف على ذلك فلينظر فى ( تاريخ الأطباء ) وفى ( كتاب البستان للقيروانى ) وغير ذلك (٢).

## فصل
## فى رؤية النبى ﷺ فى المنام

عن أبى هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ :« من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة ،أو لكأنما رآنى فى اليقظة ، ولا يتمثل الشيطان بى ».وأخرجه البخارى ومسلم(٣).

ولم يشك البخارى فيه، بل قال:« من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة ،ولا يتمثل الشيطان ».

وفى الصحيحين من حديث أبى قتادة قال: قال رسول الله ﷺ يقول : « من رآنى فى المنام فقد رأى الحق » (٤).

وأخرجه البخارى من حديث أبى سعيد ، وزاد : « فإن الشيطان لا يتكوننى » (٥) . وفى لفظ له من حديث أبى قتادة:« فإن الشيطان لا يتراءى به » (٦).

وفى صحيح مسلم عن جابر عن النبى ﷺ:« من رآنى فى النوم فقد رآنى ، فإنه لا ينبغى للشيطان أن يتمثل فى صورتى » (٧).

وفى لفظ آخر:« فإنه لا ينبغى للشيطان أن يتشبه بى » (٨) (٩).

---

(١) ممعود : أى فسدت معدته فلم يستمرئ ما يأكله . ( القاموس ) .

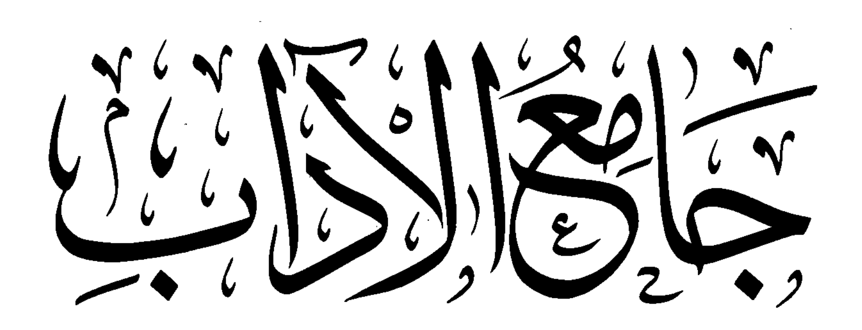
(٢) الروح ( ٢٨٩ ـ ٢٩٤).

(٣ ـ ٧) سبق تخريجه ص ٤٠٧ .

(٨) سبق تخريجه ص ٤٠٦ .

(٩) تهذيب السنن (٧/ ٣٠١).

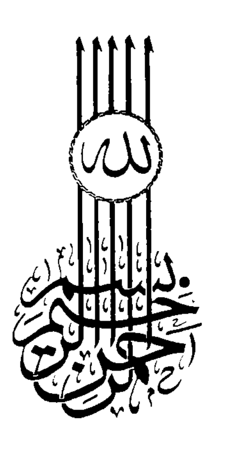
موسوعة الأعمال الكاملة
للإمام ابن قيّم الجوزيّة




جمعه ووثّق نصوصه وخرّج أحاديثه

**يسري السيّد محمّد**

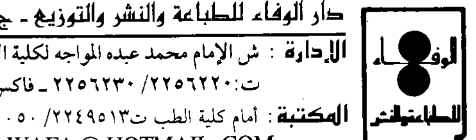
## الجزء الثالث




جامع الآداب

الطَّبْعَةُ الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م




دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة
الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠
ت: ٢٢٥٦٢٢٠/ ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤/ ٠٥٠
المكتبة: أمام كلية الطب ت٢٢٤٩٥١٣/ ٠٥٠
E-Mail : DAR ELWAFA @ HOTMAIL. COM

# كتاب السلوك والزهد

# فصل
# فى القلب ومنزلته

انفذ من ساحة الصدر إلى مشاهدة القلب ،تجد ملكاً عظيماً جالساً على سرير مملكته ، يأمر، وينهى ، ويولى ، ويعزل . وقد حف به الأمراء والوزراء والجند ، كلهم فى خدمته، إن استقاموا استقاموا وإن زاغ زاغوا، وإن صح صحوا، وإن فسد فسدوا. فعليه المعول، وهو محل نظر الرب تعالى،ومحل معرفته ، ومحبته وخشيته ،والتوكل عليه،والإنابة إليه ، والرضا به،وعنه،والعبودية عليه أولاً وعلى رعيته وجنده تبعاً.

**القلب أشرف ما فى الإنسان :**

فأشرف ما فى الإنسان قلبه ، فهو العالم بالله ، الساعى إليه ، المحب له . وهو محل الإيمان والعرفان ، وهو المخاطب المبعوث إليه الرسل ، المخصوص بأشرف العطايا ، من الإيمان والعقل.

وإنما الجوارح أتباع للقلب يستخدمها استخدام الملوك للعبيد ،والراعى للرعية ،والذى يسرى إلى الجوارح من الطاعات والمعاصى ، إنما هى آثاره . فإن أظلم أظلمت الجوارح ، وإن استنار استنارت ،ومع هذا فهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل.

فسبحان مقلب القلوب ومودعها ما يشاء من أسرار الغيوب الذى يحول بين المرء وقلبه، ويعلم ما ينطوى عليه من طاعته ودينه ، مصرف القلوب كيف أراد وحيث أراد. أوحى إلى قلوب الأولياء أن أقبلى إلى ،فبادرت وقامت بين يدى رب العالمين، وكره عز وجل انبعاث آخرين فثبطهم،وقيل اقعدوا مع القاعدين.

كانت أكثر يمين رسول الله ﷺ : « لا ومقلب القلوب » (١) وكان من دعائه: « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك » (٢). قال بعض السلف: للقلب أشد تقلبًا من القدر إذا استجمعت غليانها. وقال آخر: القلب أشد تقلباً من الريشة بأرض فلاة فى يوم ريح عاصف. ويطلق القلب على معنيين:

---

(١) البخارى (٦٦٢٨) فى الأيمان والنذور ، باب:كيف كانت يمين النبى ﷺ ، والترمذى (١٥٤٠) فى النذور والأيمان،باب: ماجاء كيف كان يمين النبى ﷺ ، وابن ماجه (٢٠٩٢) فى الكفارات ،باب : يمين رسول الله ﷺ التى كان يحلف بها،وأحمد (٢/ ٢٦).

(٢) الترمذى (٢١٤٠) فى القدر، باب: ماجاء أن القلوب بين أصبعى الرحمن ، وابن ماجه (٣٨٣٤) فى الدعاء ، باب : دعاء رسول الله ﷺ.

**أحدهما** : أمر حسى ، وهو العضو اللحمى الصنوبرى الشكل ، المودع فى الجانب الأيسر من الصدر ، وفى باطنه تجويف وفى التجويف دم أسود ، وهو منبع الروح .

**والثانى** : أمر معنوى وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية ، لها بهذا العضو تعلق واختصاص ، وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسانية.

وللقلب جندان: جند يرى بالأبصار ، وجند يرى بالبصائر. فأما جنده المشاهد فالأعضاء الظاهرة والباطنة ،وقد خلقت خادمة له لا تستطيع له خلافاً. فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت ، وإذا أمر اللسان بالكلام تكلم،وإذا أمر اليد بالبطش بطشت ،وإذا أمر الرجل بالسعى سعت ،وكذا جميع الأعضاء ذللت له تذليلاً.

ولما خلق القلب للسفر إلى الله والدار الآخرة وحصل فى هذا العالم ليتزود منه،افتقر إلى المركب والزاد لسفره الذى خلق لأجله. فأعين بالأعضاء والقوى ،وسخرت له ،وأقيمت له فى خدمته لتجلب له ما يوافقه من الغذاء والمنافع ،ويدفع عنه ما يضره ويهلكه ،فافتقر إلى جندين: باطن: وهو الإرادة والشهوة والقوى . وظاهر: وهو الأعضاء.

فخلق فى القلب من الإرادات والشهوات ما احتاج إليه،وخلقت له الأعضاء التى هى آلة الإرادة ،واحتاج فى دفع المضار إلى جندين :باطن: وهو الغضب الذى يدفع المهلكات،وينتقم به من الأعداء،وظاهر: وهو الأعضاء التى ينفذ بها غضبه ،كالأسلحة للقتال. ولا يتم ذلك إلا بمعرفة ما يجلب وما يدفع ،فأعين الجند من العلم بما يكشف له حقائق ما ينفعه وما يضره.

ولما سلطت عليه الشهوة والغضب والشيطان أعين بجند من الملائكة ،وجعل له محل من الحلال ينفذ فيه شهواته ،وجعل بإزائه أعداء له ينفذ فيهن غضبه ،فما ابتلى بصفة من الصفات إلا وجعل لها مصرفا ومحلا ينفذها فيه ، فجعل لقوة الحسد فيه مصرفا ، وهو المنافسة فى فعل الخير ،والغبطة عليه ،والمسابقة إليه،ولقوة الكبر مصرفا وهو التكبر على أعداء الله تعالى وإهانتهم ،وقد قال النبى ﷺ لمن رآه يختال بين الصفين فى الحرب: « إنها لمشية يبغضها الله إلا فى هذا المواطن »(١) وقد أمر الله ـ سبحانه ـ بالغلظة على أعدائه.

وجعل لقوة الحرص مصرفًا، وهو الحرص على ما ينفع، كما قال النبى ﷺ: « احرص على ما ينفعك » (٢) ولقوة الشهوة مصرفاً ، وهو التزوج بأربع ، والتسرى بما شاء .

---

(١) البيهقى فى دلائل النبوه (٣/ ٢٣٤) ،والبداية والنهاية (٤/ ١٦).

(٢) مسلم (٢٦٦٤/ ٣٤) فى القدر ، باب فى الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله. . .إلخ ،وابن ماجه (٧٩) فى المقدمة ، باب : فى القدر ، وأحمد (٢/ ٣٦٦).

ولقوة حب المال مصرفًا ، وهو إنفاقه فى مرضاته تعالى ، والتزود منه لمعاده ، فمحبة المال على هذا الوجه لا تذم.

ولمحبة الجاه مصرفًا ، وهو استعماله فى تنفيذ أوامره ، وإقامة دينه ، ونصر المظلوم ، وإغاثة الملهوف، وإغاثة الضعيف، وقمع أعداء الله، فمحبة الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة.

وجعل لقوة اللعب واللهو مصرفًا ، وهو لهوه مع امرأته، أو بقوسه وسهمه، أو تأديبه فرسه ، وكل ما أعان على الحق.

وجعل لقوة التحيل والمكر فيه مصرفًا ، وهو التحيل على عدوه وعدو الله تعالى بأنواع التحيل ، حتى يراغمه ويرده خاسئًا ، ويستعمل معه من أنواع المكر ما يستعمله عدوه معه.

وهكذا جميع القوى التى ركبت فيه جعل لها مصرفاً، وقد ركبها الله فيه لمصالح اقتضتها حكمته، ولا يطلب تعطيلها ،وإنما تصرف مجاريها من محل إلى محل،ومن موضع إلى موضع ، ومن تأمل هذا الموضع وتفقه فيه علم شدة الحاجة إليه ، وعظم الانتفاع به .

## فصل
## فى صيانة القلب

وجماع الطرق والأبواب التى يصان منها القلب وجنوده أربعة ،فمن ضبطها وعدلها وأصلح مجاريها وصرفها فى محالها اللائقة بها استفاد منها قلبه وجوارحه ، ولم يشمت به عدوه ، وهى : الحرص ، والشهوة ، والغضب، والحسد. فهذه الأربعة هى أصول مجامع طرق الشر والخير ، وكما هى طرق إلى العذاب السرمدى،فهى طرق إلى النعيم الأبدى.

فآدم أبو البشر ﷺ أخرج من الجنة بالحرص ، ثم أدخل إليها بالحرص،ولكن فرق بين حرصه الأول وحرصه الثانى.

وأبو الجن أخرج منها بالحسد ، ثم لم يوفق لمنافسة وحسد يعيده إليها ، وقد قال النبى ﷺ : « لاحسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار » (١).

وأما الغضب فهو غول العقل،يغتاله كما يغتال الذئب الشاة،وأعظم ما يفترسه الشيطان

(١) البخارى (٧٣) فى العلم،باب:الاغتباط فى العلم والحكمة ،وأحمد (٢/ ٩ ، ٣٦).

عند غضبه وشهوته ،وإذا كان حرصه إنما هو على ما ينفعه ،وحسده منافسة فى الخير،وغضبه لله على أعدائه ،وشهوته مستعملة فيما أبيح له وعوناً له على ما أمر به،لم تضره هذه الأربعة بل انتفع بها أعظم الانتفاع.

## فصل
## فى القلب بين الملك والشيطان

وإذا تأملت حال القلب مع الملك والشيطان ، رأيت أعجب العجائب ، فهذا يلم به مرة ، وهذا يلم به مرة ، فإذا ألم به الملك حدث من لمته الانفساح ، والانشراح ، والنور، والرحمة ، والإخلاص ، والإنابة ، ومحبة الله ، وإيثاره على ما سواه ، وقصر الأمل ، والتجافى عن دار البلاء ، والامتحان ، والغرور ، فلو دامت له تلك الحالة لكان فى أهنأ عيش وألذه وأطيبه . ولكن تأتيه لمة الشيطان ، فتحدث له من الضيق ، والظلمة ، والهم، والغم، والخوف، والسخط على المقدور، والشك فى الحق، والحرص على الدنيا وعاجلها، والغفلة عن الله ما هو من أعظم عذاب القلب.

ثم للناس فى هذه المنحة مراتب لا يحصيها إلا الله : فمنهم من تكون لمة الملك أغلب من لمة الشيطان وأقوى، فإذا ألم به الشيطان وجد من الألم والضيق والحصر وسوء الحال، بحسب ما عنده من حياة القلب، فيبادر إلى طرد تلك اللمة ولا يدعها تستحكم فيصعب تداركها ، فهو دائمًا فى حرب بين اللمتين ، يدال له مرة ، ويدال عليه مرة أخرى ، والعاقبة للتقوى.

ومنهم من تكون لمة الشيطان أغلب عليه وأقوى ،فلا تزال تغلب لمة الملك حتى تستحكم ويصير الحكم لها ، فيموت القلب ، ولا يحس ما ناله الشيطان به ، مع أنه فى غاية العذاب والضيق والحصر ، ولكن سكر الشهوة والغفلة حجب عنه الإحساس بذلك الألم ، فإذا كشف أمكنه تداركه بالدواء وحسمه ، وإن عاد الغطاء عاد الأمر كما كان ، حتى ينكشف عنه وقت المفارقة للدنيا ، فتظهر حينئذ تلك الآلام والهموم والغموم والأحزان، وهى لم تتجدد له،وإنما كانت كامنة تواريها الشواغل ، فلما زالت الشواغل ظهر ما كان كامناً ،وتجدد له أضعافه.

# فصل
## فى إلمام الشيطان ببعض القلوب

والشيطان يلم بالقلب لما كان هناك جواذب تجذبه ، وهى نوعان : صفات، وإرادات . فإذا كانت الجواذب صفات قوى سلطانه هناك ، واستفحل أمره ووجد موطناً ومقرًا ، فتأتى الأذكار والدعوات والتعوذات كحديث النفس ، لا تدفع سلطان الشيطان ؛ لأن مركبه صفة لازمة.

فإذا قلع العبد تلك الصفات وعمل على التطهر منها والاغتسال ، بقى للشيطان بالقلب خطرات ووساوس ولمات من غير استقرار. وذلك يضعفه، ويقوى لمة الملك فتأتى الأذكار ، والدعوات والتعوذات ، فتدفعه بأسهل شىء.

وإذا أردت لذلك مثالاً مطابقًا : فمثله كلب جائع شديد الجوع ، وبينك وبينه لحم أو خبز، وهو يتأملك ويراك لا تقاومه وهو أقرب منك . فأنت تزجره ، وتصيح عليه ، وهو يأبى إلا التحوم عليك،والغارة على ما بين يديك. فالأذكار بمنزلة الصياح عليه والزجر له،ولكن معلومه ومراده عندك،وقد قربته عليك،فإذا لم يكن بين يديك شىء يصلح له وقد تأملك فرآك أقوى منه فإنك يزجره وتصيح عليه فيذهب ، وكذلك القلب الخالى عن قوة الشيطان يزجره بمجرد الذكر.

وأما القلب الذى فيه تلك الصفات التى هى مركبه وموطنه ، فيقع الذكر فى حواشيه وجوانبه ، ولا يقوى على إخراج العدو منه ، ومصداق ذلك تجده فى الصلاة ، فتأمل فى الحال ، وانظر : هل تخرج الصلاة بأذكارها وقراءتها الشيطان من قبلك ، وتفرغه كله لله تعالى بكليته وتقيمه بين يدى ربه مقبلاً بكليته عليه ، يصلى لله تعالى ، كأنه يراه قد اجتمع همه كله على الله ؟ وصار ذكره ومراقبته ومحبته والأنس به فى محل الخواطر والوساوس أم لا ؟ والله المستعان.

وها هنا نكتة ينبغى التفطن لها ، وهى أن القلوب الممتلئة بالأخلاص الرديئة ، فالعبادات ، والأذكار ، والتعوذات ، أدوية لتلك الأخلاط كما يثير الدواء أخلاط البدن ، فإن لم يكن قبل الدواء وبعده حمية لم يزد الدواء على إثارته ، وإن أزال منه شيئاً ما ، فمدار الأمر على شيئين: الحمية،واستعمال الأدوية.

## فصل
## فى نزعات الشيطان وعلاجها

وأول ما يطرق القلب الخطرة ، فإن دفعها استراح مما بعدها ، وإن لم يدفعها قويت فصارت وسوسة ، فكان دفعها أصعب ، فإن بادر ودفعها ، وإلا قويت ، وصارت شهوة ، فإن عالجها ، وإلا صارت إرادة ، فإن عالجها وإلا صارت عزيمة . ومتى وصلت إلى هذه الحال لم يمكن دفعها ، واقترن بها الفعل ولابد ، وما يقدر عليه مرة بدون مقدماته.

وحينئذ ينتقل العلاج إلى أقوى الأدوية ، وهو الاستفراغ التام بالتوبة النصوح . ولا ريب أن دفع مبادىء هذا الداء من أوله أيسر وأهون من استفراغه بعد حصوله ـ إن ساعد القدر وأعان التوفيق ، وإن الدفع أولى به . وإن تألمت النفس بمفارقة المحبوب ، فليوازن بين فوات هذا المحبوب الأخس المنقطع النكد المشوب بالآلام والهموم، وبين فوات المحبوب الأعظم الدائم الذى لا نسبة لهذا المحبوب إليه البتة لا فى قدره ، ولا فى بقائه. وليوازن بين ألم فوته وبين ألم فوت المحبوب الأخس، وليوازن بين لذة الإنابة والإقبال على الله تعالى، والتنعم بحبه ، وذكره ، وطاعته ، ولذة الإقبال على الرذائل، والإنتان والقبائح . وليوازن بين لذة الظفر بالذنب، ولذة الظفر بالعدو وبين لذة الذنب ، ولذة العفة ، ولذة الذنب، ولذة القوة ، وقهر العدو . وبين لذة الذنب ، ولذة إرغام عدوه ، ورده خاسئاً ذليلاً . وبين لذة الذنب ، ولذة الطاعة التى تحول بينه وبين مراده وبين فوت مراده وفوت ثناء الله تعالى وملائكته عليه ، وفوت حسن جزائه وجزيل ثوابه ، وبين فرحة إدراكه وفرحة تركه لله تعالى عاجلاً ، وفرحة ما يثنيه عليه فى دنياه وآخرته. والله المستعان (١).

## فصل
## فى تفاوت الناس يوم القيامة بحسب أعمالهم

وقد أشار النبى ﷺ إلى أن كمال ما يستمتع به من الطيبات فى الآخرة بحسب كمال ما قابله من الأعمال فى الدنيا: فرأى قنوا من حشف معلقا فى المسجد للصدقة فقال: « إن صاحب هذا يأكل الحشف يوم القيامة » (٢) ، فأخبر أن جزاءه يكون من جنس عمله فيجزى

---

(١) التبيان (٥٢٣ ـ ٥٣٥).

(٢) أبو داود (١٦٠٨) فى الزكاة، باب: مالايجوز من الثمرة فى الصدقة ، والنسائى (٢٤٩٣) فى الزكاة ، باب: قوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ [ البقرة : ٢٦٧ ]، وابن ماجه (١٨٢١) فى الزكاة، باب: النهى أن يخرج فى الصدقة شر ماله.

على تلك الصدقة بحشف من جنسها .

وهذا الباب يفتح لك أبواباً عظيمة من فهم المعاد ، وتفاوت الناس فى أحواله وما يجرى فيه من الأمور المتنوعة .

فمنها : خفة حمل العبد على ظهره وثقله إذا قام من قبره ، فإنه بحسب خفة وزره وثقله ، إن خف خف ، وإن ثقل ثقل .

ومنها : استظلاله بظل العرش أو ضحاؤه للحر والشمس ، إن كان له من الأعمال الصالحة والخالصة والإيمان ما يظله فى هذه الدار من حر الشرك والمعاصى والظلم ، استظل هناك فى ظل أعماله تحت عرش الرحمن ، وإن كان ضاحيا هنا للمناهى والمخالفات والبدع والفجور ، ضحى هناك للحر الشديد .

ومنها : طول وقوفه فى الموقف ومشقته عليه وتهوينه « عليه » . إن طال وقوفه فى الصلاة ليلاً ونهاراً لله وتحمل لأجله المشاق فى مرضاته وطاعته ، خف عليه الوقوف فى ذلك اليوم وسهل عليه ، وإن آثر الراحة هنا والدعة والبطالة والنغمة ، طال عليه الوقوف هناك واشتدت مشقته عليه .

وقد أشعار تعالى إلى ذلك فى قوله : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً** (٢٣) **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا** (٢٤) **وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** (٢٥) **وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً** (٢٦) **إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً** (٢٧) ﴾ [الإنسان] ، فمن سبح الله ليلاً طويلا لم يكن ذلك اليوم ثقيلاً عليه ، بل كان أخف شىء عليه.

ومنها : أن ثقل ميزانه هناك بحسب تحمله ثقل الحق فى هذه الدار ، لا بحسب مجرد كثرة الأعمال، وإنما يثقل الميزان باتباع الحق والصبر عليه وبذله إذا سئل ، وأخذه إذا بذل ، كما قال الصديق فى وصيته لعمر : ( واعلم أن لله حقًا بالليل لا يقبله بالنهار ، وله حق بالنهار لا يقبله بالليل ، واعلم أنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق ، وثقل ذلك عليهم فى دار الدنيا وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل فى دار الدنيا وخفته عليهم ،وحق لميزان لا يوضع فيه إلا باطل أن يكون خفيفاً. . . ) .

ومنها : أن ورود الناس الحوض وشربهم منه يوم العطش الأكبر بحسب ورودهم سنة رسول الله ﷺ وشربهم منها ، فمن وردها فى هذه الدار وشرب منها وتضلع ورد هناك

حوضه وشرب منه وتضلع ، فله ﷺ حوضان عظيمان حوض فى الدنيا وهو سنته وما جاء به ، وحوض فى الآخرة ، فالشاربون من هذا الحوض فى الدنيا هم الشاربون من حوضه يوم القيامة فشار ومحروم ومستقل ومستكثر ، والذين يذودهم هو والملائكة عن حوضه يوم القيامة هم الذين كانوا يذودون أنفسهم وأتباعهم عن سنته ، ويؤثرون عليها غيرها،فمن ظمأ من سنته فى هذه الدنيا ولم يكن له منها شرب،فهو فى الآخرة أشد ظمأ وأحر كبداً،وإن الرجل ليلقى الرجل فيقول . يا فلان ،أشربت فيقول:نعم والله ، فيقول:لكنى والله ما شربت،واعطشاه.

فرد أيها الظمآن والورد ممكن ... فإن لم ترد فاعلم بأنك هالك

وإن لم يكن رضوان يسقيك شربه ... سيسقكها إذ أنت ظمآن مالك

وإن لم ترد فى هذه الدار حوضه ... ستصرف عنه يوم يلقاك آنك

ومنها : قسمه الأنوار فى الظلمة دون الجسر، فإن العبد يعطى من النور هناك، بحسب قوة نور إيمانه ومتابعته للرسول فى دار الدنيا، فمنهم.من يكون نوره كالشمس، ودون ذلك كالقمر، ودونه كأشد كوكب فى السماء إضاءة.

ومنهم:من يكون نوره كالسراج فى قوته وضعفه ،وما بين ذلك.

ومنهم:من يعطى نور على إبهام قدمه،يضيء مرة ويطفى أخرى ، بحسب ما كان معه من نور الإيمان فى دار الدنيا ، فهو هذا النور بعينه ، أبرزه الله لعبده فى الآخرة ظاهرا يرى عيانا بالأبصار ، ولا يستضيء به غيره ، ولا يمشى أحد إلا فى نور نفسه إن كان له نور مشى فى نوره ، وإن لم يكن له نور أصلاً لم ينفعه نور غيره .

ولما كان المنافق فى الدنيا قد حصل له نور ظاهر غير مستمر ولا متصل بباطنه ، ولا له مادة من الإيمان أعطى في الآخرة نورا ظاهرا لا مادة له ، ثم يطفى عنه أحوج ما كان إليه.

ومنها : أن مشيهم على الصراط فى السرعة والبطء بحسب سرعة سيرهم وبطئه على صراط الله المستقيم فى الدنيا ، فأسرعهم سيراً هنا أسرعهم هناك ، وأبطأهم هنا أبطأهم هناك.

وأشدهم ثباتاً على الصراط المستقيم ، هنا أثبتهم هناك ،ومن خطفته كلاليب الشهوات والشبهات والبدع المضلة هنا خطفته الكلاليب التى كأنها شوك السعدان هناك ، ويكون تأثير الكلاليب فيه هناك على حسب تأثير كلاليب الشهوات والشبهات والبدع فيه ، هاهنا ، فناج مسلم ، ومخدوش مسلم ، ومخزول أى مقطع بالكلاليب مكردس فى النار ، كما أثرت

فيهم تلك الكلاليب فى الدنيا ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [ النبأ ] ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [ فصلت ]

والمقصود : أن الله تبارك وتعالى ضرب لعباده المثلين المائى والنارى فى سورة البقرة، وفى سورة الرعد،وفى سورة النور لما تضمن المثلان من الحياة والإضاءة فالمؤمن حي القلب مستنيره والكافر والمنافق ميت القلب مظلمه ، قال الله تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ الآية [ الأنعام: ١٢٢ ]، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ ﴾ الآية [ فاطر ]، فجعل من اهتدى بهداه واستنار بنوره ، يصير حيًا فى ظل يقيه من حر الشبهات والضلال والبدع والشرك ، مستنيراً بنوره ، والآخر أعمى ميتاً فى حر الكفر والشرك والضلال ، منغمساً فى الظلمات ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية [ الشورى : ٥٢ ] ،وقد اختلف فى مفسر الضمير من قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا ﴾ فقيل: هو الإيمان؛ لكونه أقرب المذكورين. وقيل: هو الكتاب، فإنه النور الذى هدى به عباده . وقال شيخنا:والصواب أنه عائد على الروح المذكور فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا ﴾ الآية أى : جعلنا ذلك الروح نورًا نهدى به من نشاء من عبادنا ، فسمى وحيه روحًا لما يحصل به من حياة القلوب ، والأرواح التى هى الحياة فى الحقيقة ومن عدمها فهو ميت لا حى ، والحياة الأبدية السرمدية فى دار النعيم هى ثمرة حياة القلب بهذا الروح الذى أوحى إلى رسوله ﷺ ، فمن لم يحيى به فى الدنيا فهو ممن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، وأعظم الناس حياة فى الدور الثلاث ، دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار الجزاء ، أعظمهم نصيبًا من هذه الحياة بهذا الروح.

وسماه روحًا فى غير موضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ ﴿١٥﴾ ﴾ [ غافر ] ، وقال تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل].

وسماه نوراً لما يحصل به من استنارة القلوب وإضاءتها، وكمال الروح بهاتين الصفتين: بالحياة والنور، ولا سبيل إليهما إلا على أيدى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم والاهتداء

بما بعثوا به ، وتلقى العلم النافع والعمل الصالح من مشكاتهم، وإلا فالروح ميتة مظلمة ، فإن كان العبد مشاراً إليه بالزهد والفقه والفضيلة والكلام والبحوث ، فإن الحياة والاستنارة بالروح الذى أوحاه الله تعالى إلى رسول الله ﷺ،وجعله نوراً يهدى به من يشاء من عباده وراء ذلك كله ، فليس العلم كثرة النقل والبحث والكلام ،ولكن نور يميز به صحيح الأقوال من سقيمها ، وحقها من باطلها ،وما هو من مشكاة النبوة مما هو من آراء الرجال، ويميز النقد الذى عليه سكة المدينة النبوية الذى لا يقبل الله عز وجل ثمناً لجنته سواه ، من النقد الذى عليه ( سكة ) جنكيزخان ونوابه من الفلاسفة ، والجهمية ، والمعتزلة . وكل من اتخذ لنفسه سكة ضرباً ونقدا يروجه بين العالم فهذه أحوج ما يكون إليها ، وتكون من الأعمال التى قدم الله تعالى عليها فجعلها هباءًا منثورًا ، ولصاحبها نصيب وافر من قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [ الكهف ] ، وهذا حال أرباب الأعمال التى كانت لغير الله عز وجل ،أو على غير سنة رسول الله ﷺ،وحال أرباب العلوم والأنظار التى لم يتلقوها عن مشكاة النبوة ولكن تلقوها عن زبالة أذهان الرجال وكناسة أفكارهم ، فأتعبوا قواهم وأفكارهم وأذهانهم فى تقرير آراء الرجال،أو الانتصار لهم ، وفهم ماقالوه وبثه فى المجالس والمحاضر ،وأعرضوا عما جاء به الرسول ﷺ صفحاً،ومن به رمق منهم يعيره أدنى التفات طلباً للفضيلة (١).

## فصل
## فى وقوع كرامات الأولياء

ومنها (٢) : وقوع كرامات الأولياء ، وأنها إنما تكون لحاجة فى الدين ، أو لمنفعة للإسلام والمسلمين ، فهذه هى الأحوال الرحمانية سببها متابعة الرسول ، ونتيجتها إظهار الحق ، وكسر الباطل ، والأحوال الشيطانية ضدها سببا ونتيجة (٣).

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (٨٤ ـ ٩٠).
(٢) أى مما يستفاد من قصة قدوم وفد دوس على رسول الله ﷺ.
(٣) زاد المعاد (٣/ ٦٢٧).

# فصل
# فى عشق الصور

عشق الصور وما فيه من المفاسد العاجلة والآجلة أضعاف ما يذكره ذاكر ؛ فإنه يفسد القلب بالذات ، وإذا فسد القلب فسدت الإرادات والأقوال والأعمال، وفسد ثغر التوحيد.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس وهم اللوطية والنساء . فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به ، وأخبر عن الحال التى صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه ، مع أن الذى ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله ، فإن مواقعة الفعل بحسب قوة الداعى وزوال المانع ، وكان الداعى هاهنا فى غاية القوة ، وذلك من وجوه.

**أحدها** : ما ركبه الله ـ سبحانه ـ فى طبع الرجل من ميله إلى المرأة ، كما يميل العطشان إلى الماء ، والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء ، وهذا لا يذم إذا صادف حلاً ، بل يحمد كما فى كتاب « الزهد » للإمام أحمد من حديث يوسف بن عطية الصفار عن ثابت البنانى عن أنس عن النبى ﷺ : «حبب إلى من دنياكم النساء والطيب، وأصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن » (١) .

**الثانى** : أن يوسف عليه السلام كان شابًا ، وشهوة الشاب وحدته أقوى .

**الثالث** : أنه كان عزبًا ، ليس له زوجة ولا سرية تكسر ثورة الشهوة .

**الرابع** : أنه كان فى بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له فى وطنه، وبين أهله ومعارفه.

**الخامس** : أن المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

**السادس** : أنها غير ممتنعة ولا أبية ؛ فإن كثيراً من الناس يزيل رغبته فى المرأة إباؤها وامتناعها ؛ لما يجد فى نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها ، وكثير من الناس يزيده الإباء

---

(١) النسائى (٣٩٣٩) فى عشرة النساء ، باب : حب النساء ، وأحمد (٣/ ١٢٨)، والحاكم فى المستدرك (٢/ ١٦٠) وقال : « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى ، كلهم بلفظ : « حبب إلى من دنياكم النساء والطيب ، وجعل قرة عينى فى الصلاة » دون ذكر لفظ : « أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن » وهى فى رواية أحمد فى الزهد من طريق يوسف بن عطية الصفار وهو مجمع على ضعفه كما فى المجروحين لابن حبان (٣/ ١٣٤) .

والامتناع إرادة وحبًا ، كما قال الشاعر :

وزادنى كلفًا فى الحب أن منعت أحب شىء إلى الإنسان ما منعا

فطباع النفس مختلفة ؛ فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها ، ويضمحل عند إبائها وامتناعها ، وأخبرنى بعض القضاة أن إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع امرأته أو سريته وإبائها ، بحيث لا يعاودها ، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع فيشتد شوقه كلما منع، ويحصل له من اللذة بالظفر نظيرها ما يحصل من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره ، واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها .

**السابع** :أنها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد ؛ فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها ، بل كانت هى الراغبة الذليلة ،وهو العزيز المرغوب إليه.

**الثامن** :أنه فى دارها وتحت سلطانها وقهرها ؛ بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له؛فاجتمع داعى الرغبة والرهبة.

**التاسع** : أنه لا يخشى أن تنم عليه هى ولا أحد من جهتها، فإنها هى الطالبة الراغبة، وقد غلقت الأبواب وغيبت الرقباء .

**العاشر** : أنه كان فى الظاهر مملوكاً لها فى الدار ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه ، وكان الأنس سابقاً على الطلب ، وهو من أقوى الدواعى ، كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب : ما حملك على الزنا ؟ قالت : « قرب الوساد ، وطول السواد » ، تعنى قرب وساد الرجل من وسادتى ،وطول السواد بيننا.

**الحادى عشر** :أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال ، فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن فقال : ﴿ **وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ** (٣٣) ﴾ [ يوسف ] .

**الثانى عشر** : أنها توعدته بالسجن والصغار ، وهذا نوع إكراه ، إذا هو تهديد من يغلب على الظن وقوع ما هدد به ، فيجتمع داعى الشهوة وداعى السلامة من ضيق السجن والصغار.

**الثالث عشر**:أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ،ويبعد كلاً منهما عن صاحبه ، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف: ﴿ **أَعْرِضْ عَنْ هَذَا** ﴾ [ يوسف : ٢٩ ] ، وللمرأة : ﴿ **وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ** (٢٩) ﴾ [ يوسف ] . وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع،وهذا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدواعى كلها فآثر مرضاة الله وخوفه ، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنا : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [ يوسف : ٣٣ ] ، وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه ،وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه وكان من الجاهلين،وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه.

وفى هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة،لعلنا إن وفق الله أن نفردها فى مصنف مستقل (١).

## فصل

## فى أحاديث لم تصح فى الأبدال والأقطاب وغيرهما

من ذلك: أحاديث الأبدال ، والأقطاب ، والأغواث ، والنقباء والنجباء ، والأوتاد ، كلها باطلة على رسول الله ﷺ.

وأقرب ما فيها : « لا تسبوا أهل الشام ، فإن فيهم البدلاء ، كلما مات رجل منهم أبدل الله مكان رجلاً آخر » رواه أحمد (٢) ، ولايصح أيضا ، فإنه منقطع (٣) .

(١) الداء والدواء (٣٥٠ ـ ٣٥٣).

(٢) الحديث بهذا اللفظ عزاه فى الكنز (٣٥٠٢٢) للطبرانى فى الأوسط، ولم نقف عليه ، ولفظ أحمد (١/ ١١٢) : «الأبدال يكونون بالشام » ،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٦٥) فى المناقب ، باب : ماجاء فى الأبدال وأنهم بالشام : « رجاله رجال الصحيح غيرشريح بن عبيد وهو ثقة ، وقد سمع من المقداد وهو أقدم من على » ، وقال العلامة أحمد شاكر (٨٩٦) : « إسناده ضعيف لانقطاعه » .

(٣) المنار المنيف (١٣٦).

# كتاب النسب

## فصل

## فى أن النبى ﷺ خير أهل الأرض نسبًا

هو ﷺ خير أهل الأرض نسبًا على الإطلاق ، فلنسبه من الشرف أعلى ذروة، وأعداؤه كانوا يشهدون له بذلك ؛ ولهذا شهد له به عدوه إذ ذاك أبو سفيان بين يدى ملك الروم. فأشرف القوم قومه ، وأشرف القبائل قبيلته، وأشرف الأفخاذ فخذه.

فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانه بن خزيمة بن مدركة ابن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

إلى هاهنا معلوم الصحة متفق عليه بين النسابين ولا خلاف فيه البتة، وما فوق «عدنان» مختلف فيه ولا خلاف بينهم أن « عدنان » من ولد إسماعيل (١) .

## فصل

## فى حكمه ﷺ فى لحوق النسب بالزوج

ثبت عنه فى « الصحيحين » أن رَجلاً قال له : إن امرأتى ولدت غلامًا أسْوَدَ كأنه يُعرِّضُ بنفيه ، فقال النبى ﷺ : « هل لك من إبل» ؟ قال : نعم . قال : « ما لونها ؟ » قال: حمر . قال : « فهل فيها من أورق ؟ » قال : نعم . قال رسول الله ﷺ: « فأنى أتاها ذلك ؟ » قال : لعله يا رسول الله يكون نزعه عرق . فقال النبى ﷺ : « وهذا لعله يكون نزعه عرق» (٢) .

وفى هذا الحديث من الفقه أن الحد لا يجب بالتعريض إذا كان على وجه السؤال والاستفتاء ، ومن أخذ منه أنه لا يجب بالتعريض ولو كان على وجه المقابحة والمشاتمة، فقد أبعد النجعة، ورب تعريض أفهم ، وأوجع للقلب ، وأبلغ فى النكاية من التصريح، وبساط الكلام وسياقه يرد ما ذكروه من الاحتمال، ويجعل الكلام قطعى الدلالة على المراد.

---

(١) زاد المعاد (١/ ٢٧١) .

(٢) البخارى (٥٣٠٥) فى الطلاق ، باب : إذا عرض بنفى الولد ، ومسلم (١٥٠٠/ ١٨) فى أول كتاب اللعان.

وفيه أن مجرد الريبة لا يسوغ اللعان ونفى الولد .

وفيه ضرب الأمثال والأشباه والنظائر فى الأحكام، ومن تراجم البخارى فى «صحيحه» على هذا الحديث : باب من شبه أصلا معلوما بأصل مبين قد بين الله حكمه ليفهم السائل ، وساق معه حديث : « أرأيت لو كان على أمك دين ؟ » [١] .

## وأيضا

تأمل قوله ﷺ للرجل الذى استفتاه عن امرأته وقد ولدت غلاما أسود فأنكر ذلك، فقال له النبى ﷺ : « ألك إبل؟ » قال : نعم . « فما لونها ؟ » قال : أسود.

قال : « هل فيها من أورق ؟ » قال : نعم ، قال : « فأنى له ذلك ؟ » قال: عسى أن يكون نزعه عرق، قال: « وهذا عسى أن يكون نزعه عرق» [٢] . كيف تضمن إلغاء هذا الوصف الذى لا تأثير له فى الحكم وهو مجرد اللون ومخالفة الولد للأبوين فيه، وإن مثل هذا لا يوجب ريبة، وإن نظيره فى المخلوقات مشاهد بالحس، والله خالق الإبل وخالق بنى آدم ، وهو الخلاق العليم ، فكما أن الجمل الأورق قد يتولد من بين أبوين أسودين ، فكذلك الولد الأسود قد يتولد من بين أبوين أبيضين ، وإن ما جوز به من سبب ذلك فى الإبل هو بعينه قائم فى بنى آدم، فهذه من أصح المناظرات والإرشاد إلى اعتبار ما يجب اعتباره من الأوصاف ، وإلغاء ما يجب إلغاؤه منها وإن حكم الشىء حكم نظيره، وإن العلل والمعانى حق شرعًا وقدراً [٣] .

## فصل
## فى جهات ثبوت النسب

ثبت فى « الصحيحين » ، من حديث عائشة ﵂ ، قالت : اختصم سعد بن أبى وقاص، وعبد بن زمعة فى غلام ، فقال سعد : هذا يا رسول الله ابن أخى عتبة بن أبى وقاص عهد إلى أنه ابنه ، انظر إلى شبهه، وقال عبد بن زمعة : هذا أخى يا رسول الله ولد على فراش أبى من وليدته، فنظر رسول الله ﷺ ، فرأى شبها بينا بعتبة ، فقال: «هو

---

(١) البخارى (١٨٥٢) فى جزاء الصيد، باب : الحج والنذر عن الميت والرجل يحج عن المرأة .
(٢) زاد المعاد (٥/٤٠٩) .
(٣) بدائع الفوائد ( ٤ / ١٢٧ ، ١٢٨) .

لك يا عبد بن زمعة ، الولد للفراش ، وللعاهر الحجر واحتجبى منه يا سودة» ، فلم تره سودة قط (١) .

فهذا الحكم النبوى أصل فى ثبوت النسب بالفراش ، وفى أن الأمة تكون فراشا بالوطء ، وفى أن الشبه إذا عارض الفراش ، قدم عليه الفراش، وفى أن أحكام النسب تتبعض ، فتثبت من وجه دون وجه ، وهو الذى يسميه بعض الفقهاء حكما بين حكمين ، وفى أن القافة حق ، وأنها من الشرع .

فأما ثبوت النسب بالفراش ، فأجمعت عليه الأمة ، وجهات ثبوت النسب أربعة : الفراش، والاستلحاق ، والبينة ، والقافة ، فالثلاثة الأول ، متفق عليها، واتفق المسلمون على أن النكاح يثبت به الفراش ، واختلفوا فى التسرى ، فجعله جمهور الأمة موجبا للفراش ، واحتجوا بصريح حديث عائشة الصحيح، وأن النبى ﷺ قضى بالولد لزمعة ، وصرح بأنه صاحب الفراش ، وجعل ذلك علة للحكم بالولد له ، فسبب الحكم ومحله إنما كان فى الأمة ، فلا يجوز إخلاء الحديث منه وحمله على الحرة التى لم تذكر البتة ، وإنما كان الحكم فى غيرها، فإن هذا يستلزم إلغاء ما اعتبره الشارع وعلق الحكم به صريحا، وتعطيل محل الحكم الذى كان لأجله فيه .

ثم لو لم يرد الحديث الصحيح فيه ، لكان هو مقتضى الميزان الذى أنزله الله تعالى ليقوم الناس بالقسط ، وهو التسوية بين المتماثلين ، فإن السرية فراش حسا وحقيقة وحكما، كما أن الحرة كذلك ، وهى تراد لما تراد له الزوجة من الاستمتاع والاستيلاد ، ولم يزل الناس قديما وحديثا يرغبون فى السرارى لاستيلادهن واستفراشهن ، والزوجة إنما سميت فراشا لمعنى هى والسرية فيه على حد سواء .

وقال أبو حنيفة : لا تكون الأمة فراشا بأول ولد ولدته من السيد ، فلا يلحقه الولد إلا إذا استلحقه ، فيلحقه حينئذ بالاستلحاق ، لا بالفراش ، فما ولدت بعد ذلك لحقه إلا أن ينفيه ، فعندهم ولد الأمة لا يلحق السيد بالفراش ، إلا أن يتقدمه ولد مستلحق ، ومعلوم أن النبى ﷺ ألحق الولد بزمعة وأثبت نسبه منه ، ولم يثبت قط أن هذه الأمة ولدت له قبل ذلك غيره ، ولا سأل النبى ﷺ عن ذلك ولا استفصل فيه.

قال منازعوهم : ليس لهذا التفصيل أصل فى كتاب ولا سنة ، ولا أثر عن صاحب، ولا تقتضيه قواعد الشرع وأصوله ، قالت الحنفية : ونحن لا ننكر كون الأمة فراشا فى

---

(١) البخارى (٢٧٤٥) فى الوصايا ، باب : قول الموصى لوصيه : تعاهد ولدى . . .إلخ، ومسلم (٣٦/١٤٥٧) فى الرضاع، باب : الولد للفراش وتوقى الشبهات.

الجملة ، ولكنه فراش ضعيف ، وهى فيه دون الحرة ، فاعتبرنا ما تعتق به بأن تلد منه ولدا فيستلحقه ، فما ولدت بعد ذلك ، لحق به إلا أن ينفيه ، وأما الولد الأول، فلا يلحقه إلا بالاستلحاق. ولهذا قلتم : إنه إذا استلحق ولدا من أمته لم يلحقه ما بعده إلا باستلحاق مستأنف، بخلاف الزوجة ، والفرق بينهما : أن عقد النكاح إنما يراد للوطء والاستفراش ، بخلاف ملك اليمين ، فإن الوطء والاستفراش فيه تابع ؛ ولهذا يجوز وروده على من يحرم عليه وطؤها بخلاف عقد النكاح . قالوا : والحديث لا حجة لكم فيه ؛ لأن وطء زمعة لم يثبت، وإنما ألحقه النبى ﷺ لعبد أخا؛ لأنه استلحقه فألحقه باستلحاقه، لا بفراش الأب.

قال الجمهور: إذا كانت الأمة موطوءة ، فهى فِراش حقيقة وحكما، واعتبار ولادتها السابقة فى صيرورتها فراشا اعتبار ما لا دليل على اعتباره شرعا ، والنبى ﷺ لم يعتبره فى فراش زمعة ، فاعتباره تحكم .

وقولكم : إن الأمة لا تراد للوطء ، فالكلام فى الأمة الموطوءة التى اتخذت سرية وفراشا، وجعلت كالزوجة أو أحظى منها لا فى أمته التى هى أخته من الرضاع ونحوها.

وقولكم : إن وطء زمعة لم يثبت حتى يلحق به الولد ، ليس علينا جوابه، بل جوابه على من حكم بلحوق الولد بزمعة ، وقال لابنه : هو أخوك.

وقولكم : إنما ألحقه بالأخ لأنه استلحقه : باطل ، فإن المستلحق إن لم يقر به جميع الورثة ،لم يلحق بالمقر إلا أن يشهد منهم اثنان أنه ولد على فراش الميت ، وعبد لم يكن يقر له جميع الورثة ، فإن سودة زوجة النبى ﷺ أخته ، وهى لم تقر به ولم تستلحقه ، وحتى لو أقرت به مع أخيها عبد، لكان ثبوت النسب بالفراش لا بالاستلحاق، فإن النبى ﷺ صرح عقيب حكمه بإلحاق النسب، بأن الولد للفراش، معللا بذلك، منبها على قضية كلية عامة تتناول هذه الواقعة وغيرها . ثم جواب هذا الاعتراض الباطل المحرم ، أن ثبوت كون الأمة فراشا بالإقرار من الواطئ ، أو وارثه كاف فى لحوق النسب، فإن النبى ﷺ ألحقه به بقوله : ابن وليدة أبى ولد على فراشه ، كيف وزمعة كان صهر النبى ﷺ ، وابنته تحته ، فكيف لا يثبت عنده الفراش الذى يلحق به النسب؟

وأما ما نقضتم به علينا أنه إذا استلحق ولدا من أمته، لم يلحقه ما بعده إلا بإقرار مستأنف، فهذا فيه قولان لأصحاب أحمد، هذا أحدهما، والثانى: أنه يلحقه وإن لم يستأنف إقرارا، ومن رجح القول الأول قال: قد يستبرئها السيد بعد الولادة، فيزول حكم الفراش بالاستبراء ، فلا يلحقه ما بعد الأول إلا باعتراف مستأنف أنه وطئها ، كالحال فى أول ولد ، ومن رجح الثانى قال: قد يثبت كونُها فراشا أولا، والأصل بقاء الفراش حتى

يثبت ما يزيله ، إذ ليس هذا نظير قولكم : إنه لا يلحقه الولد مع اعترافه بوطئها حتى يستلحقه ، وأبطل من هذا الاعتراض قول بعضهم، إنه لم يلحقه به أخا، وإنما جعله له عبدا ، ولهذا أتى فيه بلام التمليك فقال: « هو لك » ، أى : مملوك لك ، وقوى هذا الاعتراض بأن فى بعض ألفاظ الحديث « هو لك عبد » ، وبأنه أمر سودة أن تحتجب منه، ولو كان أخا لها لما أمرها بالاحتجاب منه، فدل على أنه أجنبى منها.

قال : وقوله : «الولد للفراش » ، تنبيه على عدم لحوق نسبه بزمعة أى : لم تكن هذه الأمة فراشا له ، لأن الأمة لا تكون فراشا ، والولد إنما هو للفراش، وعلى هذا يصح أمر احتجاب سودة منه ، قال : ويؤكده أن فى بعض طرق الحديث « احتجبى منه ، فإنه ليس لك بأخ » قالوا : وحينئذ فتبين أنا أسعد بالحديث وبالقضاء النبوى منكم.

قال الجمهور : الآن حمى الوطيس ، والتقت حلقتا البطان فنقول والله المستعان : أما قولكم : إنه لم يلحقه به أخا ، وإنما جعله عبدا ، يرده ما رواه محمد بن إسماعيل البخارى فى «صحيحه » فى هذا الحديث : « هولك، هو أخوك يا عبد بن زمعة » (١) ، وليس اللام للتمليك، وإنما هى للاختصاص ، كقوله : « الولد للفراش » ، فأما لفظة قوله: « هو لك عبد »، فرواية باطلة لا تصح أصلا ، وأما أمره سودة بالاحتجاب منه، فإما أن يكون على طريق الاحتياط والورع لمكان الشبهة التى أورثها الشبه البين بعتبة ، وإما أن يكون مراعاة للشبهين وإعمالا للدليلين ، فإن الفراش دليل لحوق النسب ، والشبه بغير صاحبه دليل نفيه، فأعمل أمر الفراش بالنسبة إلى المدعى لقوته، وأعمل الشبه بعتبة بالنسبة إلى ثبوت المحرمية بينه وبين سودة، وهذا من أحسن الأحكام وأبينها، وأوضحها ، ولا يمنع ثبوت النسب من وجه دون وجه ، فهذا الزانى يثبت النسب منه بينه وبين الولد فى التحريم والبعضية دون الميراث والنفقة والولاية وغيرها ، وقد يتخلف بعض أحكام النسب عنه مع ثبوته لمانع ، وهذا كثير فى الشريعة ، فلا ينكر من تخلف المحرمية بين سودة وبين هذا الغلام لمانع الشبه بعتبة ، وهل هذا إلا محض الفقه ؟ وقد علم بهذا معنى قوله : «ليس لك بأخ » ، لو صحت هذه اللفظة مع أنها لا تصح ، وقد ضعفها أهل العلم بالحديث، ولا نبالى بصحتها مع قوله لعبد : « هو أخوك » ، وإذا جمعت أطراف كلام النبى ﷺ وقرنت قوله : « هو أخوك » بقوله : « الولد للفراش ، وللعاهر الحجر » ، تبين لك بطلان ما ذكروه من التأويل ، وأن الحديث صريح فى خلافه لا يحتمله بوجه والله أعلم .

---

(١) سبق تخريجه ص٢٥.

والعجب أن منازعينا فى هذه المسألة يجعلون الزوجة فراشا لمجرد العقد، وإن كان بينها وبين الزوج بعد المشرقين ، ولا يجعلون سريته التى يتكرر استفراشه لها ليلا ونهارا فراشا .

واختلف الفقهاء فيما تصير به الزوجة فراشا، على ثلاثة أقوال:

**أحدها** : أنه نفس العقد وإن علم أنه لم يجتمع بها، بل لو طلقها عقيبه فى المجلس ، وهذا مذهب أبى حنيفة.

**والثانى** : أنه العقد مع إمكان الوطء ، وهذا مذهب الشافعى وأحمد.

**والثالث** : أنه العقد مع الدخول المحقق لا إمكانه المشكوك فيه، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وقال: إن أحمد أشار إليه فى رواية حرب، فإنه نص فى روايته فيمن طلق قبل البناء ، وأتت امرأته بولد ، فأنكره أنه ينتفى عنه بغير لعان ، وهذا هو الصحيح المجزوم به ، وإلا فكيف تصير المرأة فراشا ولم يدخل بها الزوج ، ولم يبن بها لمجرد إمكان بعيد ؟ وهل يعد أهل العرف واللغة المرأة فراشا قبل البناء بها، وكيف تأتى الشريعة بإلحاق نسب بمن لم يبن بامرأته ، ولا دخل بها ، ولا اجتمع بها بمجرد إمكان ذلك ؟ وهذا الإمكان قد يقطع بانتفائه عادة ، فلا تصير المرأة فراشا إلا بدخول محقق ، وبالله التوفيق ، وهذا الذى نص عليه فى رواية حرب ، هو الذى تقتضيه قواعده وأصول مذهبه والله أعلم.

واختلفوا أيضا فيما تصير به الأمة فراشا :

**فالجمهور** : على أنها لا تصير فراشا إلا بالوطء، وذهب بعض المتأخرين من المالكية إلى أن الأمة التى تشترى للوطء دون الخدمة، كالمرتفعة التى يفهم من قرائن الأحوال أنها إنما تراد للتسرى، فتصير فراشا بنفس الشراء والصحيح أن الأمة والحرة لا تصيران فراشا إلا بالدخول.

فهذا أحد الأمور الأربعة التى يثبت بها النسب وهو الفراش .

**الثانى** : الاستلحاق وقد اتفق أهل العلم على أن للأب أن يستلحق، فأما الجد، فإن كان الأب موجودا لم يؤثر استلحاقه شيئا، وإن كان معدوما، وهو كل الورثة ، صح إقراره، وثبت نسب المقر به ، وإن كان بعض الورثة وصدقوه ، فكذلك ، وإلا لم يثبت نسبه إلا أن يكون أحد الشاهدين فيه.

والحكم فى الأخ كالحكم فى الجد سواء ، والأصل فى ذلك أن من حاز المال يثبت

النسب بإقراره واحدا كان أو جماعة، وهذا أصل مذهب أحمد والشافعى ؛ لأن الورثة قاموا مقام الميت ، وحلوا محله . وأورد بعض الناس على هذا الأصل ، أنه لو كان إجماع الورثة على إلحاق النسب يثبت النسب ، للزم إذا اجتمعوا على نفى حمل من أمة وطئها الميت أن يحلوا محله فى نفى النسب ، كما حلوا محله فى إلحاقه ، وهذا لا يلزم ؛ لأنا اعتبرنا جميع الورثة والحمل من الورثة ، فلم يجمع الورثة على نفيه.

فإن قيل : فأنتم اعتبرتم فى ثبوت النسب إقرار جميع الورثة، والمقر هاهنا إنما هو عبد، وسودة لم تقر به وهى أخته ، والنبى ﷺ ألحقه بعبد باستلحاقه ، ففيه دليل على استلحاق الأخ وثبوت النسب بإقراره ، ودليل على أن استلحاق أحد الأخوة كافٍ.

قيل : سودة لم تكن منكرة ، فإن عبدا استلحقه، وأقرته سودة على استلحاقه، وإقرارها وسكوتها على هذا الأمر المتعدى حكمه إليها من خلوته بها . ورؤيته إياها وصيرورته أخا لها تصديق لأخيها عبد، وإقرار بما أقر به ، وإلا لبادرت إلى الإنكار والتكذيب ، فجرى رضاها وإقرارها مجرى تصديقها ، هذا إن كان لم يصدر منها تصديق صريح ، فالواقعة واقعة عين، ومتى استلحق الأخ أو الجد أو غيرهما نسب من لو أقر به مورثهم لحقه ، ثبت نسبُه ما لم يكن هنا وارث منازع، فالاستلحاق مقتض لثبوت النسب، ومنازعة غيره من الورثة مانع من الثبوت، فإذا وجد المقتضى ، ولم يمنع مانع من اقتضائه، ترتب عليه حكمه . ولكن هاهنا أمر آخر ، وهو أن إقرار من حاز الميراث واستلحاقه : هل هو إقرار خلافة عن الميت أو إقرار شهادة ؟ هذا فيه خلاف :

فمذهب أحمد والشافعى رحمهما الله: أنه إقرار خلافه، فلا تشترط عدالة المستلحق، بل ولا إسلامه، بل يصح ذلك من الفاسق والدين .

وقالت المالكية : هو إقرار شهادة، فتعتبر فيه أهلية الشهادة ، وحكى ابن القصار عن مذهب مالك : أن الورثة إذا أقروا بالنسب لحق ، وإن لم يكونوا عدولا ، والمعروف من مذهب مالك خلافه.

**الثالث** : البينة ، بأن يشهد شاهدان أنه ابنه ، أو أنه ولد على فراشه من زوجته ، أو أمته ، وإذا شهد بذلك اثنان من الورثة لم يلتفت إلى إنكار بقيتهم ، وثبت نسبة ، ولا يعرف فى ذلك نزاع.

**الرابع** : القافة ، حكم رسول الله ﷺ وقضاؤه باعتبار القافة وإلحاق النسب بها.

ثبت فى « الصحيحين » : من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخل على رسول الله ﷺ ذات يوم مسرورا تبرق أسارير وجهه ، فقال : « ألم ترى أن مجززا المدلجى نظر آنفا إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد وعليهما قطيفة قد غطيا رؤوسهما وبدت أقدامهما ، فقال:

إن هذه الأقدام بعضها من بعض » (١) ، فسر النبى ﷺ بقول القائف ولو كانت كما يقول المنازعون من أمر الجاهلية كالكهانة ونحوها لما سر بها ، ولا أعجب بها ، ولكانت بمنزلة الكهانة . وقد صح عنه وعيد من صدق كاهنا.

قال الشافعى : والنبى ﷺ أثبته علما ، ولم ينكره ، ولو كان خطأ لأنكره ؛ لأن فى ذلك قذف المحصنات ، ونفى الأنساب، انتهى.

كيف والنبى ﷺ قد صرح فى الحديث الصحيح بصحتها واعتبارها ، فقال فى ولد الملاعنة : إن جاءت به كذا وكذا فهو لهلال بن أمية ، وإن جاءت به كذا وكذا فهو لشريك ابن سحماء ، فلما جاءت به على شبه الذى رميت به قال : « لولا الأيمان لكان لى ولها شأن» (٢) وهل هذا إلا اعتبار للشبه وهو عين القافة ، فإن القائف يتبع أثر الشبه، وينظر إلى من يتصل ، فيحكم به لصاحب الشبه، وقد اعتبر النبى ﷺ الشبه وبين سببه، ولهذا لما قالت له أم سلمة : أو تحتلم المرأة ، فقال: « مم يكون الشبه » (٣) .

وأخبر فى الحديث الصحيح ، « أن ماء الرجل إذا سبق ماء المرأة، كان الشبه له ، وإذا سبق ماؤها ماءه، كان الشبه لها » (٤) . فهذا اعتبار منه للشبه شرعًا وقدرًا ، وهذا أقوى ما يكون من طرق الأحكام أن يتوارد عليه الخلق والأمر والشرع والقدر ، ولهذا تبعه خلفاؤه الراشدون فى الحكم بالقافة .

قال سعيد بن منصور : حدثنا سفيان ، عن يحيى بن سعيد ، عن سليمان بن يسار ، عن عمر فى امرأة وطئها رجلان فى طهر ، فقال القائف قد اشتركا فيه جميعا، فجعله بينهما .

قال الشعبى : وعلى يقول: هو ابنهما ، وهما أبواه يرثانه، ذكره سعيد أيضا .

وروى الأثرم بإسناده ، عن سعيد بن المسيب ، فى رجلين اشتركا فى طهر امرأة ، فحملت ، فولدت غلاما يشبههما ، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب ، فدعا القافة ، فنظروا ، فقالوا : نراه يشبههما ، فألحقه بهما ، وجعله يرثهما ويرثانه.

---

(١) البخارى (٦٧٧٠) فى الفرائض ، باب : القائف ، ومسلم (١٤٥٩/٣٨) فى الرضاع، باب: العمل بإلحاق القائف الولد .

(٢) أبو داود (٢٢٥٦) فى الطلاق ، باب : فى اللعان ، وأحمد (٢٣٨/١ ، ٢٣٩) وقال العلامة أحمد شاكر (٢١٣١): « إسناده صحيح ».

(٣) البخاري (١٣٠) فى العلم، باب : الحياء فى العلم ، ومسلم (٣١٣/ ٣٢) فى الحيض ، باب: وجوب الغسل على المرأة بخروج المنى منها.

(٤) البخارى (٣٣٢٩) فى الأنبياء، باب: خلق آدم وذريته.

ولا يعرف قط فى الصحابة من خالف عمر وعليا رضي الله عنهما فى ذلك، بل حكم عمر بهذا فى المدينة ، وبحضرته المهاجرون والأنصار، فلم ينكره منهم منكر.

قالت الحنفية : قد أجلبتم علينا في القافة بالخيل والرجل ، والحكم بالقيافة تعويل على مجرد الشبه والظن والتخمين ، ومعلوم أن الشبه قد يوجد من الأجانب، وينتفى عن الأقارب ، وذكرتم قصة أسامة وزيد ، ونسيتم قصة الذى ولدت امرأته غلاما أسود يخالف لونهما ، فلم يمكنه النبى ﷺ من نفيه ، ولا جعل للشبه ولا لعدمه أثرًا ، ولو كان للشبه أثر، لاكتفى به فى ولد الملاعنة ، ولم يحتج إلى اللعان ، بل كان لا يصح نفيه مع وجود الشبه بالزوج ، وقد دلت السنة الصحيحة الصريحة على نفيه عن الملاعن، ولو كان الشبه له، فإن النبى ﷺ قال: « أبصروها فإن جاءت به كذا وكذا ، فهو لهلال بن أمية » ، وهذا قاله بعد اللعان ونفى النسب عنه، فعلم أنه لو جاء على الشبه المذكور ، لم يثبت نسبه منه، وإنما كان مجيئه على شبهه دليلا على كذبه ، لا على لحوق الولد به .

قالوا : وأما قصة أسامة وزيد ، فالمنافقون كانوا يطعنون فى نسبه من زيد لمخالفة لونه لون أبيه ، ولم يكونوا يكتفون بالفراش، وحكم الله ورسوله فى أنه ابنه ، فلما شهد به القائف وافقت شهادته حكم الله ورسوله ، فسر به النبى ﷺ لموافقتها حكمه ، ولتكذيبها قول المنافقين ، لا أنه أثبت نسبه بها ، فأين فى هذا إثبات النسب بقول القائف ؟

قالوا: وهذا معنى الأحاديث التى ذكر فيها اعتبار الشبه، فإنها إنما اعتبرت فيه الشبه بنسب ثابت بغير القافة ، ونحن لا ننكر ذلك . قالوا: وأما حكم عمر وعلى ، فقد اختلف على عمر ، فروى عنه ما ذكرتم ، وروى عنه أن القائف لما قال له: قد اشتركا فيه، قال: وَالِ أيهما شئت (١) فلم يعتبر قول القائف.

قالوا : وكيف تقولون بالشبه، ولو أقر أحد الورثة بأخ ، وأنكره الباقون ، والشبه موجود، لم تثبتوا النسب به، وقلتم : إن لم تتفق الورثة على الإقرار به لم يثبت النسب ؟

قال أهل الحديث : من العجب أن ينكر علينا القول بالقافة ، ويجعلها من باب الحدس والتخمين من يلحق ولد المشرقى بمن فى أقصى المغرب، مع القطع بأنهما لم يتلاقيا طرفة عين ، ويلحق الولد باثنين مع القطع بأنه ليس ابنا لأحدهما ، ونحن إنما ألحقنا الولد بقول القائف المستند إلى الشبه المعتبر شرعا وقدرا ، فهو استناد إلى ظن غالب، ورأى راجح، وأمارة ظاهرة بقول من هو من أهل الخبرة ، فهو أولى بالقبول من قول المقومين ، وهل ينكر مجىء كثير من الأحكام مستندا إلى الأمارات الظاهرة ، والظنون الغالبة ؟

---

(١) مالك فى الموطأ (٢٢) فى الأقضية ، باب : القضاء بإلحاق الولد بأبيه .

وأما وجود الشبه بين الأجانب ، وانتفاؤه بين الأقارب ، وإن كان واقعا، فهو من أندر شيء وأقله ، والأحكام إنما هي للغالب الكثير ، والنادر في حكم المعدوم.

وأما قصة من ولدت امرأته غلاما أسود ، فهو حجة عليكم؛ لأنها دليل على أن العادة التي فطر الله عليها الناس اعتبار الشبه ، وأن خلافه يوجب ريبة ، وأن في طباع الخلق إنكار ذلك ولكن لما عارض ذلك دليل أقوى منه وهو الفراش ، كان الحكم للدليل القوى ، وكذلك نقول نحن وسائر الناس : إن الفراش الصحيح إذا كان قائما، فلا يعارض بقافة ولا شبه ، فمخالفة ظاهر الشبه لدليل أقوى منه ـ وهو الفراش ـ غير مستنكر ، وإنما المستنكر مخالفة هذا الدليل الظاهر بغير شيء .

وأما تقديم اللعان على الشبه ، وإلغاء الشبه مع وجوده، فكذلك أيضا هو من تقديم أقوى الدليلين على أضعفهما ، وذلك لا يمنع العمل بالشبه مع عدم ما يعارضه ، كالبينة تقدم على اليد والبراءة الأصلية ، ويُعمل بهما عند عدمهما .

وأما ثبوت نسب أسامة من زيد بدون القيافة ، فنحن لم نثبت نسبه بالقيافة ، والقيافة دليل آخر موافق لدليل الفراش، فسرور النبي ﷺ ، وفرحه بها ،واستبشاره لتعاضد أدلة النسب وتضافرها ،لا لإثبات النسب بقول القائف وحده ،بل هو من باب الفرح بظهور أعلام الحق وأدلته وتكاثرها ،ولو لم تصلح القيافة دليلاً لم يفرح بها ولم يسر ،وقد كان النبي ﷺ يفرح ويسر إذا تعاضدت عنده أدلة الحق ،ويخبر بها الصحابة ،ويجب أن يسمعوها من المخبر بها ،لأن النفوس تزداد تصديقاً بالحق إذا تعاضدت أدلته ،وتسر به وتفرح ،وعلى هذا فطر الله عباده ،فهذا حكم اتفقت عليه الفطرة والشرعة وبالله التوفيق.

وأما ما روى عن عمر أنه قال: وال أيهما شئت ، فلا تعرف صحته عن عمر ، ولو صح عنه لكان قولاً عنه ، فإن ما ذكرنا عنه في غاية الصحة ، مع أن قوله : وال أيهما شئت ليس بصريح في إبطال قول القائف ،ولو كان صريحاً في إبطال قوله،لكان في مثل هذا الموضع إذا ألحقه باثنين ،كما يقوله الشافعي ومن وافقه.

وأما إذا أقر أحد الورثة بأخ ، وأنكره الباقون ، فإنما لم يثبت نسبه لمجرد الإقرار، فأما إذا كان هناك شبه يستند إليه القائف ، فإنه لا يعتبر إنكار الباقين ، ونحن لا نقصر القافة على بني مدلج ، ولا نعتبر تعدد القائف ، بل يكفي واحد على الصحيح بناء على أنه خبر،وعن أحمد رواية أخرى:أنه شهادة ، فلابد من اثنين ، ولفظ الشهادة بناء على اشتراط اللفظ.

فإن قيل: فالمنقول عن عمر أنه ألحقه بأبوين ، فما تقولون فيما إذا ألحقته القافة

بأبوين، هل تلحقونه بهما ، أو لا تلحقونه إلا بواحد ،وإذا ألحقتموه بأبوين ، فهل يختص ذلك باثنين ،أم يلحق بهم وإن كثروا ،وهل حكم الاثنين فى ذلك حكم الأبوين أم ماذا حكمهما ؟

قيل:هذه مسائل فيها نزاع بين أهل العلم ، فقال الشافعى ومن وافقه : لا يلحق بأبوين ، ولا يكون للرجل إلا أب واحد ، ومتى ألحقته القافة باثنين ،سقط قولها ، وقال الجمهور : بل يلحق باثنين ، ثم اختلفوا، فنص أحمد فى رواية منها بن يحيى : أنه يلحق بثلاثة ، وقال صاحب المغنى :ومقتضى هذا أنه يلحق بمن ألحقته القافة به وإن كثروا ،لأنه إذا جاز إلحاقه باثنين ، جاز إلحاقه بأكثر من ذلك ،وهذا مذهب أبى حنيفة ،لكنه لا يقول بالقافة ، فهو يلحقه بالمدعين وإن كثروا ، وقال القاضى : يجب ألا يلحق بأكثر من ثلاثة، وهو قول محمد بن الحسن ، وقال ابن حامد : لا يلحق بأكثر من اثنين ، وهو قول أبى يوسف ، فمن لم يلحقه بأكثر من واحد ، قال : قد أجرى الله سبحانه عادته أن للولد أبا واحداً ، وأماً واحدة ، ولذلك يقال : فلان ابن فلان وفلان ابن فلانة فقط . ولو قيل: فلان ابن فلان وفلان، لكان ذلك منكرًا وعد قذفاً ،ولهذا إنما يقال يوم القيامة: أين فلان ابن فلان ؟ وهذه غدرة فلان ابن فلان ، ولم يعهد قط فى فى الوجود نسبة ولد إلى أبوين قط، ومن ألحقه باثنين، احتج بقول عمر، وإقرار الصحابة له على ذلك ، وبأن الولد قد ينعقد من ماء رجلين كما ينعقد من ماء الرجل والمرأة ، ثم قال أبو يوسف : إنما جاء الأثر بذلك ، فيقتصر عليه.وقال القاضى : لا يتعدى به ثلاثة ؛ لأن أحمد إنما نص على الثلاثة، والأصل ألا يلحق بأكثر من واحد، وقد دل قول عمر على إلحاقه باثنين مع انعقاده من ماء الأم ، فدل على إمكان انعقاده من ماء ثلاثة ، وما زاد على ذلك، فمشكوك فيه.

قال الملحقون له بأكثر من ثلاثة : إذا جاز تخليقه من ماء رجلين وثلاثة ، جاز خلقه من ماء أربعة وخمسة ، ولا وجه لاقتصاره على ثلاثة فقط ، بل إما أن يلحق بهم وإن كثروا ، وإما ألا يتعدى به أحد ، ولا قول سوى القولين والله أعلم.

فإن قيل: إذا اشتمل الرحم على ماء الرجل ، وأراد الله أن يخلق منه الولد،انضم عليه أحكم انضمام ، وأتمه حتى لا يفسد ، فكيف يدخل عليه ماء آخر ؟ قيل : لا يمتنع أن يصل الماء الثانى إلى حيث وصل الأول ، فينضم عليهما ،وهذا كما أن الولد ينعقد من ماء الأبوين ، وقد سبق ماء الرجل ماء المرأة أو بالعكس ،ومع هذا فلا يمتنع وصول الماء الثانى إلى حيث وصل الأول ، وقد علم بالعادة أن الحامل إذا توبع وطؤها ، جاء الولد عبل الجسم ما لم يعارض ذلك مانع ؛ ولهذا ألهم الله سبحانه الدواب إذا حملت ألا تمكن

الفحل أن ينزو عليها ، بل تنفر عنه كل النفار ، وقال الإمام أحمد : إن الوطء الثانى يزيد فى سمع الولد وبصره ، وقد شبهه النبى ﷺ بسقى الزرع ، ومعلوم أن سقيه يزيد فى ذاته والله أعلم .

فإن قيل: فقد دل الحديث على حكم استلحاق الولد ، وعلى أن الولد للفراش ، فما تقولون لو استلحق الزانى ولداً لا فراش هناك يعارضه ، هل يلحقه نسبه ، ويثبت له أحكام النسب ؟

قيل : هذه مسألة جليلة اختلف أهل العلم فيها ، فكان إسحاق بن راهويه يذهب إلى أن المولود من الزنا إذا لم يكن مولوداً على فراش يدعيه صاحبه، وادعاه الزانى، ألحق به، وأول قول النبى ﷺ : « الولد للفراش» ، على أنه حكم بذلك عند تنازع الزانى وصاحب الفراش ، كما تقدم ، وهذا مذهب الحسن البصرى ، رواه عنه إسحاق بإسناده ، فى رجل زنى بامرأة ، فولدت ولداً ، فادعى ولدها فقال: يجلد ويلزمه الولد ،وهذا مذهب عروة بن الزبير، وسليمان بن يسار ذكر عنهما أنهما قالا: أيما رجل أتى إلى غلام يزعم أنه ابن له ، وأنه زنى بأمه ولم يدع ذلك الغلام أحد ، فهو ابنه ،واحتج سليمان ،بأن عمر بن الخطاب كان يليط أولاد الجاهلية بمن ادعاهم فى الإسلام ، وهذا المذهب كما تراه قوة ووضوحًا ، وليس مع الجمهور أكثر من « الولد للفراش » وصاحب هذا المذهب أول قائل به ، والقياس الصحيح يقتضيه ، فإن الأب أحد الزانيين ، وهو إذا كان يلحق بأمه ، وينسب إليها ، وترثه ويرثها ، ويثبت النسب بينه وبين أقارب أمه مع كونها زنت به ، وقد وجد الولد من ماء الزانيين ، وقد اشتركا فيه ، واتفقا على أنه ابنهما ، فما المانع من لحوقه بالأب إذا لم يدعه غيره ؟ فهذا محض القياس ، وقد قال جريج للغلام الذى زنت أمه بالراعى : من أبوك يا غلام ؟ قال : فلان الراعى ، وهذا إنطاق من الله لا يمكن فيه الكذب .

فإن قيل : فهل لرسول الله ﷺ فى هذه المسألة حكم ؟ قيل : قد روى عنه فيها حديثان ، نحن نذكر شأنهما [١].

## وأيضا

ومن العجب منعهم [٢] إلحاق النسب بالقيافة التى هى من أظهر الأدلة ، وقد اعتبرها النبى ﷺ وعمل بها الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وإلحاقهم النسب برجل تزوج امرأة بأقصى المشرق وهو بأقصى المغرب وبينهما مالا يقطعه البشر وقال : تزوجت فلانة

(١) زاد المعاد (٥/ ٤١٠ ـ ٤٢٦).

(٢) أى بعض الفقهاء.

وهى طالق ثلاثا عقب القبول ثم جاءت بولد ، فقالت: هو منه.

ومن العجب إلحاقهم الولد فى هذه الصورة وزعمهم أن الرجل إذا كانت له سرية وهو يطأها دائمًا فأتت بولد على فراشه لم يلحقه إلا أن يستلحقه (١).

## وأيضًا

قوله ﷺ: « أبصروها فإن جاءت به كذا وكذا فهو لهلال بن أمية ،وإن جاءت به كذا وكذا فهو لشريك بن سحماء »(٢) إرشاد منه ﷺ إلى اعتبار الحكم بالقافة ،وأن للشبه مدخلاً فى معرفة النسب وإلحاق الولد بمنزله الشبه وإنما لم يلحق بالملاعن لو قدر أن الشبه له لمعارضة اللعان الذى هو أقوى من الشبه له(٣).

## فصل

## ذكر حكم رسول الله ﷺ فى استلحاق ولد الزنا وتوريثه

ذكر أبو داود فى « سننه » : من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا مساعاة فى الإسلام ، من ساعى فى الجاهلية فقد لحق بعصبته ، ومن ادعى ولدا من غير رشدة ، فلا يرث ولا يورث » (٤).

المساعاة : الزنا ، وكان الأصمعى يجعلها فى الإيماء دون الحرائر ؛ لأنهن يسعين لمواليهن ، فيكتسبن لهم ، وكان عليهن ضرائب مقررة ، فأبطل النبى ﷺ المساعاة فى الإسلام ، ولم يلحق النسب بها، وعفا عما كان فى الجاهلية منها، وألحق النسب به. وقال الجوهرى : يقال : زنى الرجل وعهر ، فهذا قد يكون فى الحرة والأمة ، ويقال فى الأمة خاصة : قد ساعاها . ولكن فى إسناد هذا الحديث رجل مجهول ، فلا تقوم به حجة.

وروى أيضاً فى « سننه » من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده : أن النبىﷺ ، قضى أن كل مستلحق استلحق بعد أبيه الذى يدعى له ،ادعاه ورثته ، فقضى

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٣٠) .

(٢) البخارى (٤٧٧٤) فى التفسير ، باب : ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ﴾ ، ومسلم (١٤٩٧/ ١١) فى أول اللعان ، عن أنس ، والترمذى (٣١٧٩) فى تفسير القرآن ، باب : (٢٥) ، ومن سورة النور وقال : «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث هشام بن حسان . . . إلخ ».

(٣) زاد المعاد (٥/ ٤٠٣).

(٤) أبو داود (٢٢٦٤) فى الطلاق ، باب: فى ادعاء ولد الزنا ، وضعفه الألبانى .

أن كل من كان من أمة يملكها يوم أصابها ، فقد لحق بمن استلحقه ، وليس له مما قسم قبله من الميراث ، وما أدرك من ميراث لم يقسم ، فله نصيبه ، ولا يلحق إذا كان أبوه الذى يدعى له أنكره ، وإن كان من أمة لم يملكها ،أو من حرة عاهر بها ،فإنه لا يلحق ولا يرث ، وإن كان الذى يدعى له هو ادعاه ، فهو من ولد زنية من حرة كان أو أمة (١).

وفى رواية: وهو ولد زنا لأهل أمة من كانوا حرة أو أمة ،وذلك فيما استلحق فى أول الإسلام ، فما اقتسم من مال قبل الإسلام ،فقد مضى (٢) وهذا لأهل الحديث فى إسناده مقال ؛ لأنه من رواية محمد بن راشد المكحولى.

وكان قوم الجاهلية لهم إماء بغايا ، فإذا ولدت أمة أحدهم وقد وطئها غيره بالزنا ، فربما ادعاه سيدها ، وربما ادعاه الزانى ، واختصما فى ذلك ، حتى قام الإسلام ، فحكم النبى ﷺ بالولد للسيد ؛ لأنه صاحب الفراش ، ونفاه على الزانى.

ثم تضمن هذا الحديث أمورًا .

منها: أن المستلحق إذا استلحق بعد أبيه الذى يدعى له ادعاه ورثته ، فإن كان الولد من أمة يملكها الواطئ يوم أصابها ، فقد لحق بمن استلحقه ، يعنى إذا كان الذى استلحقه ورثة مالك الأمة ، وصار ابنه من يومئذ ، وليس له مما قسم قبله من الميراث شىء ،لأن هذا تجديد حكم نسبه ، ومن يومئذ يثبت نسبه ، فلا يرجع بما اقتسم قبله من الميراث،إذا لم يكن حكم البنوة ثابتاً ، وما أدرك من ميراث لم يقسم ، فله نصيبه منه ؛ لأن الحكم ثبت قبل قسمه الميراث ، فيستحق منه نصيبه ،وهذا نظير من أسلم على ميراث قبل قسمه، قسم له فى أحد قولى العلماء ،وهو إحدى الروايتين عن أحمد ، وإن أسلم بعد قسم الميراث ، فلا شىء له ،فثبوت النسب هاهنا بمنزلة الإسلام بالنسبة إلى الميراث.

قوله : « ولا يلحق إذا كان أبوه الذى يدعى له أنكره » هذا ، يبين أن التنازع بين الورثة ، وأن الصورة الأولى أن يستلحقه ورثة أبيه الذى كان يدعى له ، وهذه الصورة إذا استلحقه ورثته وأبوه الذى يدعى له كان ينكر ، فإنه لا يلحق ، لأن الأصل الذى الورثة خلف عنه منكر له ، فكيف يلحق به مع إنكاره ؟ فهذا إذا كان من أمة يملكها ، أما إذا كان من أمه لم يملكها ، أو من حرة عاهر بها ، فإنه لا يلحق ، ولا يرث ، وإن ادعاه الواطئ وهو ولد زنية من أمة كان أو من حرة ، وهذا حجة الجمهور على إسحاق ومن قال بقوله: إنه لا يلحق بالزانى إذا ادعاه ،ولا يرثه ،وأنه ولد زنا لأهل أمه من كانوا حرة كانت أمة.

---

(١) أبو داود (٢٢٦٥) فى الطلاق ، باب فى ادعاء ولد الزنا .

(٢) أبو داود (٢٢٦٦) فى الكتاب والباب السابقين .

وأما ما اقتسم من مال قبل الإسلام ، فقد مضى ، فهذا الحديث يرد قول إسحاق ومن وافقه ، لكن فيه محمد بن راشد ، ونحن نحتج بعمرو بن شعيب ، فلا يعلل الحديث به ، فإن ثبت هذا الحديث ، تعين القول بموجبه ، والمصير إليه ، وإلا فالقول قول إسحاق ومن معه ، والله المستعان.

## فصل

## في ذكر الحكم الذى حكم به على بن أبى طالب رضي الله عنه فى الجماعة الذين وقعوا على امرأة فى طهر واحد ، ثم تنازعوا الولد

ذكر أبو داود والنسائى فى « سننهما » ، من حديث عبدالله بن الخليل ، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كنت جالساً عند النبى ﷺ ، فجاء رجل من أهل اليمن ، فقال : إن ثلاثة نفر من أهل اليمن أتوا علياً يختصمون إليه فى ولد ، قد وقعوا على امرأة فى طهر واحد ، فقال لاثنين: طيبا بالولد لهذا فَغَلَيَا ، ثم قال لاثنين: طيبا بالولد لهذا ، فغليا ، ثم قال لاثنين: طيبا بالولد لهذا، فغليا، فقال: أنتم شركاء متشاكسون، إنى مقرع بينكم فمن قرع، فله الولد وعليه لصاحبيه ثلثا الديه ، فأقرع بينهم ، فجعله لمن قرع ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت أضراسه أو نواجذه (١) . وفى إسناده يحيى بن عبدالله الكندى الأجلح ولا يحتج بحديثه ، لكن رواه أبو داود والنسائى بإسناد كلهم ثقات إلى عبد خير ، عن زيد بن أرقم. قال: أتى على بن أبى طالب بثلاثة وهو باليمن وقعوا على امرأة فى طهر واحد ، فسأل اثنين أتقران لهذا بالولد ؟ قالا : لا ، حتى سألهم جميعاً ، فجعل كلما سأل اثنين قالا: لا ، فأقرع بينهم ، فألحق الولد بالذى صارت عليه القرعة، وجعل عليه ثلثى الدية، قال: فذكر ذلك للنبى ﷺ ، فضحك حتى بدت نواجذه (٢) . وقد أعل هذا الحديث بأنه روى عن عبد خير بإسقاط زيد بن أرقم ، فيكون مرسلاً. قال النسائى : وهذا أصوب . وهذا أعجب ، فإن إسقاط زيد بن أرقم من هذا الحديث لا يجعله مرسلاً ، فإن عبد خير أدرك عليًا وسمع منه ، وعلى صاحب القصة ، فهب أن زيد بن أرقم لا ذكر له فى السند فمن أين يجىء الإرسال ، إلا أن يقال : عبد خير لم يشاهد ضحك النبى ﷺ ، وعلى إذ

(١) أبو داود (٢٢٦٩) فى الطلاق ، باب: من قال بالقرعة إذا تنازعوا فى الولد ، والنسائى (٣٤٩٠) فى الطلاق، باب : القرعة فى الولد إذا تنازعو فيه . . . إلخ .

(٢) أبو داود (٢٢٧٠) فى الطلاق، باب: من قال بالقرعة إذا تنازعوا فى الولد ، والنسائى (٣٤٨٨) فى الطلاق ، باب: القرعة فى الولد إذا تنازعوا فيه

ذاك كان باليمن ، وإنما شاهد ضحكه ﷺ زيد بن أرقم أو غيره من الصحابة ، وعبد خير لم يذكر من شاهد ضحكه ، فصار الحديث به مرسلاً. فيقال إذا : قد صح السند عن عبد خير ، عن زيد بن أرقم ، متصلاً ، فمن رجح الاتصال ؛ لكونه زيادة من الثقة فظاهر ، ومن رجح رواية الأحفظ والأضبط ، وكان الترجيح من جانبه ولم يكن على قد أخبره بالقصة ، فغايتها أن تكون مرسلة ، وقد يقوى الحديث بروايته من طريق أخرى متصلاً .

وبعد ،فاختلف الفقهاء فى هذا الحكم ، فذهب إليه إسحاق بن راهويه ، وقال : هو السنة فى دعوى الولد ، وكان الشافعى يقول به فى القديم ، وأما الإمام أحمد ، فسئل عن هذا الحديث ، فرجح عليه حديث القافة ، وقال : حديث القافة أحب إلى .

وهاهنا أمران ، أحدهما : دخول القرعة فى النسب ، والثانى : تغريم من خرجت له القرعة ثلثى دية ولده لصاحبيه . وأما القرعة ، فقد تستعمل عند فقدان مرجح سواها من بينة أو إقرار ، أو قافة ، وليس ببعيد تعيين المستحق بالقرعة فى هذه الحال ، إذ هى غاية المقدور عليه من أسباب ترجيح الدعوى ، ولها دخول فى دعوى الأملاك المرسلة التى لا تثبت بقرينة ولا أمارة ، فدخولها فى النسب الذى يثبت بمجرد الشبه الخفى المستند إلى قول القائف أولى وأحرى . وأما أمر الدية فمشكل جداً ، فإن هذا ليس بموجب الدية ، وإنما هو تفويت نسبه بخروج القرعة ، فيقال : وطء كل واحد صالح لجعل الولد له ، فقد فوته كل واحد منهم على صاحبيه بوطئه ، ولكن لم يتحقق من كان له الولد منهم ، فلما أخرجته القرعة لأحدهم ، صار مفوتاً لنسبه عن صاحبيه ، فأجرى ذلك مجرى إتلاف الولد، ونزل الثلاثة منزلة أب واحد ، فحصة المتلف منه ثلث الدية ، إذ قد عاد الولد له ، فيغرم لكل من صاحبيه ما يخصه ،وهو ثلث الدية.

ووجه آخر أحسن من هذا ، أنه لما أتلفه عليهما بوطئه ولحوق الولد به ،وجب عليه ضمان قيمته ،وقيمة الولد شرعاً هى ديته ،فلزمه لهما ثلثا قيمته ،وهى ثلثا الدية ،وصار هذا كمن أتلف عبداً بينه وبين شريكين له،فإنه يجب عليه ثلثا القيمة لشريكيه ،فإتلاف الولد الحر عليهما بحكم القرعة ،كإتلاف الرقيق الذى بينهم.

ونظير هذا تضمين الصحابة المغرور بحرية الأمة قيمة أولاده لسيد الأمة لما فات رقهم على السيد لحريتهم ، وكانوا بصدد أن يكونوا أرقاء ، وهذا ألطف ما يكون من القياس وأدقه، وأنت إذا تأملت كثيراً من أقيسة الفقهاء وتشبيهاتهم ، وجدت هذا أقوى منها، وألطف مسلكاً ، وأدق مأخذاً ، ولم يضحك منه النبى ﷺ سدى.

وقد يقال : لا تعاض بين هذا وبين حديث القافة ، بل إن وجدت القافة تعين العمل

بها ، وإن لم توجد قافة ،أو أشكل عليهم ، تعين العمل بهذا الطريق ، والله أعلم (١) .

## وأيضا

مما أشكل على جمهور الفقهاء وظنوه فى غاية البعد عن القياس الحكم الذى حكم به على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه فى الجنة ـ فى الجماعة الذين وقعوا على امرأة فى طهر واحد ، ثم تنازعوا الولد ، فأقرع بينهم فيه.

ونحن نذكر هذه الحكومة ونبين مطابقتها للقياس .فذكر أبو داود والنسائى من حديث عبدالله بن الخليل . عن زيد بن أرقم ، قال : كنت جالساً عند النبى ﷺ ، فجاء رجل من أهل اليمن ، فقال : إن ثلاثة نفر من أهل اليمن أتوا عليا يختصمون إليه فى ولد ، قد وقعوا على امرأة فى طهر واحد ، فقال لاثنين : طيبا بالولد لهذا ، فقالا : لا ، ثم قال لاثنين : طيبا بالولد لهذا ، فقالا : لا ، ثم قال لاثنين : طيبا بالولد لهذا ، فقالا : لا ، فقال: أنتم شركاء متشاكسون ، إنى مقرع بينكم ، فمن قرع ، فله الولد ، وعليه لصاحبيه ثلثا الدية ، فأقرع بينهم ، فجعله لمن قرع له ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت أضراسه أو نواجذه (٢).

وفى إسناده يحيى بن عبدالله الكندى الأجلح، ولا يحتج بحديثه ، لكن رواه أبو داود والنسائى بإسناد كلهم ثقات إلى عبد خير عن زيد بن أرقم ، قال : أتى على بثلاثة ، وهو باليمن وقعوا على امرأة فى طهر واحد ، فقال لاثنين : أتقران لهذا ؟ قالا : لا ؛ حتى سألهم جميعاً ، فجعل كلما سأل اثنين ، قالا : لا ، فأقرع بينهم ، فألحق الولد بالذى صارت له القرعة ، وجعل لصاحبيه عليه ثلثى الدية ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه . وقد أعل هذا الحديث بأنه روى عن عبد خير بإسقاط زيد بن أرقم ، فيكون مرسلا، قال النسائى: وهذا أصوب قلت: وهذا ليس بعلة ، ولا يوجب إرسالا للحديث، فإن عبد خير سمع من على ، وهو صاحب القصة ، فهب أن زيد بن أرقم لا ذكر له فى المتن ، فمن أين يجىء الإسال ؟

وبعد ، فقد اختلف الفقهاء فى حكم هذا الحديث فذهب إلى القول به إسحاق ابن راهويه، وقال: هو السنة فى دعوى الولد. وكان الشافعى يقول به فى القديم ، وأما الإمام

---

(١) زاد المعاد (٥/ ٤٢٦ ـ ٤٣٢).

(٢) سبق تخريجه ص ٣٧ .

أحمد، فسئل عنه، فرجح عليه حديث القافة، وقال: حديث القافة أحب إلى، وههنا أمران:

**أحدهما**: دخول القرعة فى النسب.

**والثانى**: تغريم من خرجت له القرعة ثلثى دية ولده لصاحبيه ،وكل منهما بعيد عن القياس ، فلذلك قالوا : هذا من أبعد شىء عن القياس ، فيقال : القرعة قد تستعمل عند فقدان مرجح سواهما من بينة أو إقرار ، أو قافة وليس ببعيد تعيين المستحق بالقرعة فى هذه الحال ،إذ هى غاية المقدور عليه من أسباب ترجيح الدعوى ،ولها دخول فى دعوى الأملاك المرسلة التى لا تثبت بقرينة ،ولا أمارة ،فدخولها فى النسب الذى يثبت بمجرد الشبه الخفى المستند إلى قول القائف أولى وأحرى ،وأما أمر الدية ، فمشكل جداً فإن هذا ليس بقتيل يوجب الدية،وإنما هو تفويت نسبه بخروج القرعة له ، فيمكن أن يقال: وطء كل واحد صالح لجعل الولد له ،فقد فوته كل واحد عنهم على صاحبه بوطئه ،ولكن لم يتحقق من كان له الولد منهم ، فلما أخرجته القرعة لأحدهم صار مفوتا لنسبه على صاحبيه ،فأجرى ذلك مجرى إتلاف الولد ،ونزل الثلاثة منزلة أب واحد ،فحصة المتلف منه ثلث الدية ،إذ قد عاد الولد له ،فيغرم لكل من صاحبيه ما يخصه ،وهو ثلث الدية.

ووجه آخر أحسن من هذا: أنه لما أتلفه عليهما بوطئه ولحوق الولد به ،وجب عليه ضمان قيمته .وقيمة الولد شرعا هى ديته ،فلزمه لها ثلثا قيمته ،وهى ثلثا الدية. وصار هذا كمن أتلف عبداً بينه وبين شريكين له فإنه يجب عليه ثلثا القيمة لشريكيه ،فإتلاف الولد الحر عليهما بحكم القرعة ،كإتلاف الرقيق الذى بينهم .ونظير هذا تضمين الصحابة المغرور بحرية الأمة لما فات رقهم على السيد بحريتهم ،وكانوا بصدد أن يكونوا أرقاء له ،وهذا من ألطف ما يكون من القياس وأدقه. ولا يهتدى إليه إلا أفهام الراسخين فى العلم. وقد ظن طائفة أن هذا أيضاً على خلاف القياس. وليس كما ظنوا .بل هو محض الفقه. فإن الولد تابع للأم فى الحرية والرق؛ ولهذا ولد الحر من أمة الغير رقيق ،وولد العبد من الحرة حر.

قال الإمام أحمد: إذا تزوج الحر بالأمة رق نصفه ؛وإذا تزوج العبد بالحرة عتق نصفه، فولد الأمة المزوجة بهذا المغرور ، كانوا بصدد أن يكونوا أرقاء لسيدها ، ولكن لما دخل الزوج على حرية المرأة ، دخل على أن يكون أولاده أحراراً ،والولد يتبع اعتقاد الواطئ، فانعقد ولده أحراراً ، وقد فوتهم على السيد ، وليس مراعاة أحدهما بأولى من مراعاة الآخرى، ولا تفويت حق أحدهما بأولى من حق صاحبه، فحفظ الصحابة الحقين، وراعوا الجانبين، فحكموا بحرية الأولاد ، وإن كانت أمهم رقيقة ؛ لأن الزوج إنما دخل على حرية أولاده ، ولو توهم رقهم لم يدخل على ذلك ،ولم يضيعوا حق السيد ،بل حكموا على

الواطئ بفداء أولاده ،وأعطوا العدل حقه،فأوجبوا فداءهم بمثلهم تقريباً لا بالقيمة ، ثم وفوا العدل ، بأن مكنوا المغرور من الرجوع بما غرمه على من غره ؛ لأن غرمه كان بسبب غروره ، والقياس والعدل يقتضى أن من تسبب إلى إتلاف مال شخص أو تغريمه، أنه يضمن ما غرمه، كما يضمن ما أتلفه ؛ إذ غايته أنه إتلاف بسبب؛ وإتلاف المتسبب كإتلاف المباشر فى أصل الضمان.

فإن قيل: وبعد ذلك كله؛ فهذا خلاف القياس أيضاً؛ فإن الولد كما هو بعض الأم وجزء منها؛ فهو بعض الأب، وبعضيته للأب أعظم من بعضيته للأم؛ ولهذا يذكر الله ـ سبحانه ـ فى كتابه تخليقه من ماء الرجل كقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧)﴾ [ الطارق ] ، وقوله: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ﴾ [ القيامة : ٣٧ ] ونظائرها من الآيات التى إن لم تختص بماء الرجل؛ فهى فيه أظهر؛ وإذا كان جزءاً من الواطئ ؛وجزءاً من الأم؛ فكيف كان ملكا لسيد الأم دون سيد الأب؟!

ويخالف القياس من وجه آخر ، وهو أن الماء بمنزلة البذر ؛ ولو أن رجلاً أخذ بذر غيره ، فزرعه فى أرضه ،كان الزرع لصاحب البذر ؛وإن كان عليه أجرة الأرض.

قيل: لا ريب أن الولد منعقد من ماء الأب؛ كما هو منعقد من ماء الأم ؛ ولكن إنما تكوَّن وصار مالاً متقوماً فى بطن الأم ؛فالأجزاء التى صار بها كذلك من الأم أضعاف أضعاف الجزء الذى من الأب مع مساواتها له فى ذلك الجزء ؛ فهو إنما تكون فى أحشائها من لحمها ودمها ، ولما وضعه الأب لم يكن له قيمة أصلا، بل كان كما سماه الله ماء مهيناً لا قيمة له ، ولهذا لو نزا فحل رجل على رَمَكة آخر كان الولد لمالك الأم باتفاق المسلمين، وهذا بخلاف البذر ؛ فإنه مال متقوم ، له قيمة قبل وضعه فى الأرض ، يعاوض عليه بالأثمان، وعسب الفحل لا يعاوض عليه ، فقياس أحدهما على الآخر من أبطل القياس.

فإن قيل : فهلا طردتم ذلك فى النسب ، وجعلتموه للأم ؛كما جعلتموه للأب؟

قيل: قد اتفق المسلمون على أن النسب للأب ، كما اتفقوا على أنه يتبع الأم فى الحرية والرق ،وهذا هو الذى تقتضيه حكمة الله شرعاً وقدراً، فإن الأب هو المولود له ، والأم وعاء وإن تكوَّن فيها ، والله ـ سبحانه ـ جعل الولد خليفة أبيه وشجنته والقائم مقامه ، ووضع الأنساب بين عباده ، فيقال : فلان بن فلان ، ولا تتم مصالحهم وتعارفهم ومعاملاتهم إلا بذلك كما قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [ الحجرات:١٣] ، فلولا ثبوت الأنساب من قبل الآباء لما حصل التعارف، ولفسد نظام العباد ، فإن النساء محتجبات مستورات عن العيون ، فلا يمكن فى الغالب أن تعرف عين الأم ، فيشهد على نسب الولد منها ، فلو جعلت الأنساب للأمهات لضاعت

وفسدت ، وكان ذلك مناقضاً للحكمة والرحمة والمصلحة ؛ ولهذا إنما يدعى الناس يوم القيامة بآبائهم ،لا بأمهاتهم ،قال البخارى فى صحيحه: باب يدعى الناس بآبائهم يوم القيامة،ثم ذكر حديث: « لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته ، يقال: هذه غدرة فلان بن فلان » (١) فكان من تمام الحكمة أن جعل الحرية والرق تبعا للأم ، والنسب تبعا للأب، والقياس الفاسد إنما يجمع بين ما فرق الله بينه،أو يفرق بين ما جمع الله بينه.

فإن قيل: فهلا طردتم ذلك فى الولاء بل جعلتموه لموالى الأم ، والولاء لحمة كلحمة النسب؟

قيل: لما كان الولاء من آثار الرق وموجباته ،كان تابعا له فى حكمه،فكان لموالى الأم،ولما كان فيه شائبة النسب ،وهو لحمة كلحمته رجع إلى موالى الأب عند انقطاعه عن موالى الأم ،فروعى فيه الأمران ورتب عليه الأثران.

فإن قيل: فهلا جعلتم الولد فى الدين تابعا لمن له النسب ، بل ألحقتموه بأبيه تارة وبأمه تارة. قيل: الطفل لا يستقل بنفسه ،بل لا يكون إلا تابعا لغيره ، فجعله الشارع تابعا لخير أبويه فى الدين تغليباً لخير الدينين ، فإنه إذا لم يكن له بد من التبعية لم يجز أن يتبع من هو على دين الشيطان ، وتنقطع تبعيته عمن هو على دين الرحمن،فهذا محال فى حكمة الله تعالى وشرعه.

فإن قيل: فاجعلوه تابعا لسابيه فى الإسلام،وإن كان معه أبواه ،أو أحدهما فإن تبعيته لأبويه قد انقطعت ،وصار السابى هو أحق به.

قيل: نعم ،وهكذا نقول سواء،وهو قول إمام أهل الشام عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعى ،ونص عليه أحمد ،واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية.

وقد أجمع الناس على أنه يحكم بإسلامه تبعا لسابيه إذا سبى وحده ،قالوا: لأن تبعيته قد انقطعت عن أبويه وصار تابعا لسابيه ،واختلفوا فيما إذا سبى مع أحدهما على ثلاثة مذاهب:

**أحدها**: يحكم بإسلامه ، نص عليه أحمد فى إحدى الروايتين ، وهى المشهورة من مذهبه ، وهو قول الأوزاعى.

**والثانى**: لا يحكم بإسلامه ؛ لأنه لم ينفرد عن أبويه.

(١) البخارى (٦١٧٧) فى الأدب ، باب: ما يدعى الناس بآبائهم.

**والثالث**: أنه إن سبى مع الأب تبعه فى دينه . وإن سبى مع الأم وحدها، فهو مسلم، وهو قول مالك وقول الأوزاعى، وفقهاء أهل الثغر أصح وأسلم من التناقض. فإن السابى قد صار أحق به، وقد انقطعت تبعيته لأبويه ولم يبق لهما عليه حكم ، فلا فرق بين كونهما فى دار الحرب ، وبين كونهما أسيرين فى أيدى المسلمين ، بل انقطاع تبعيته لهما فى حال أسرهما وقهرهما ، وإذلالهما واستحقاق قتلهما أولى من انقطاعها حال قوة شوكتهما. وخوف معرتهما. فما الذى يسوغ له الكفر بالله والشرك به ، وأبواه أسيران فى أيدى المسلمين ومنعه من ذلك وأبوه فى دار الحرب ، وهل هذا إلا تناقض محض ، وأيضاً، فيقال لهم: إذا سبى الأبوان ، ثم قتلا فهل يستمر الطفل على كفره عندكم أو تحكمون بإسلامه؟ فمن قولكم أنه يستمر على كفره ، كما لو ماتا ، فيقال : وأى كتاب أو سنة أو قياس صحيح ، أو معنى معتبر . أو فرق مؤثر بين أن يقتلا فى حال الحرب . أو بعد الأسر والسبى، وهل يكون المعنى الذى حكم بإسلامه لأجله إذا سبى وحده زائلا بسبائهما ثم قتلهما بعد ذلك. وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلين.

وأيضا: فهل تعتبرون وجود الطفل والأبوين فى ملك ساب واحد أو يكون معهما فى جملة العسكر؟ فإن اعتبرتم الأول طولبتم بالدليل على ذلك وإن اعتبرتم الثانى فمن المعلوم انقطاع تبعيته لهما واستيلائهما عليه واختصاصه بسابيه ووجودهما بحيث لا يمكنان منه ، ومن تربيته وحضانته ، واختصاصهما به لا أثر له ، وهو كوجودهما فى دار الحرب سواء.

وأيضا: فإن الطفل لما لم يستقل بنفسه ، لم يكن بد من جعله تابعا لغيره وقد دار الأمر بين أن يجعل تابعا لمالكه وسابيه ، ومن هو أحق الناس به، أو بين أن يجعل تابعا لأبويه ولاحق لهما فيه بوجه .

وأيضاً: فإن ولاية الأبوين قد زالت بالكلية ، وقد انقطع الميراث وولاية النكاح ، وسائر الولايات ، فما بال ولاية الدين الباطل باقية وحدها ؟

وقد نص الإمام أحمد على منع أهل الذمة أن يشتروا رقيقا من سبى المسلمين وكتب بذلك عمر بن الخطاب إلى الأمصار ، واشتهر ولم ينكره منكر؛ فهو إجماع من الصحابة ، وإن نازع فيه بعض الأئمة ، وما ذاك إلا أن فى تمليكه للكافر ونقله عن يد المسلم قطعا لما كان بصدده من مشاهدة معالم الإسلام وسماعه القرآن فربما دعاه ذلك إلى اختياره ، فلو كان تابعا لأبويه على دينهما ، لم يمنعا من شراه وبالله التوفيق.

فإن قيل: فيلزمكم على هذا أنه لو مات الأبوان أن تحكموا بإسلام الطفل لانقطاع تبعيته للأبوين ، ولا سيما وهو مسلم بأصل الفطرة ، وقد زال معارض الإسلام وهو تهويد الأبوين

وتنصيرهما. قيل: قد نص على ذلك الإمام أحمد فى رواية جماعة من أصحابه واحتج بقوله ﷺ: « ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه »(١) فإذا لم يكن له أبوان فهو على أصل الفطرة فيكون مسلما.

فإن قيل: فهل تطردون هذا فما لو انقطع نسبه عن الأب مثل كونه ولد زنا أو منفيا بلعان؟

قيل: نعم لوجود المقتضى لإسلامه بالفطرة وعدم المانع ، وهو وجود الأبوين ، ولكن الراجح فى الدليل قول الجمهور ، وأنه لا يحكم بإسلامه بذلك ، وهو الرواية الثانية عنه ، اختارها شيخ الإسلام.

وعلى هذا فالفرق بين هذه المسألة ومسألة المسبى أن المسبى قد انقطعت تبعيته لمن هو على دينه ، وصار تابعا لسابيه المسلم بخلاف من مات أبواه أو أحدهما فإنه تابع لأقاربه ، أو وصى أبيه ، فإن انقطعت تبعيته لأبويه ، فلم تنقطع لمن يقوم مقامهما من أقاربه أو أوصيائه والنبى ﷺ أخبر عن تهويد الأبوين وتنصيرهما بناء على الغالب، وهذا لا مفهوم له لوجهين:

**أحدهما:** أنه مفهوم لقب.

**الثانى:** أنه خرج مخرج الغالب ومما يدل على ذلك: العمل المستمر من عهد الصحابة وإلى اليوم بموت أهل الذمة وتركهم الأطفال، ولم يتعرض أحد من الأئمة ولا ولاة الأمور لأطفالهم ، ولم يقولوا هؤلاء مسلمون ، ومثل هذا لا يهمله الصحابة والتابعون وأئمه المسلمين.

فإن قيل: فهل تطردون هذا الأصل فى جعله تبعاً للمالك ، فتقولون إذا اشترى المسلم طفلا كافرا يكون مسلما تبعاً له أو تتناقضون ، فتفرقون بينه وبين السابى؟

وصورة المسألة فيما إذا زوج الذمى عبده الكافر من أمته ، فجاءت بولد أو تزوج الحر منهم بأمه فأولدها ، ثم باع السيد هذا الولد لمسلم.

قيل: نعم نطرده ونحكم بإسلامه قاله شيخنا ـ قدس الله ورحه ـ ولكن جادة المذهب أنه باق على كفره ، كما لو سبى مع أبويه وأولى والصحيح قول شيخنا ؛ لأن تبعيته للأبوين قد زالت وانقطعت الموالاة والميراث والحضانة بين الطفل والأبوين ، وصار المالك أحق به، وهو تابع له فلا يفرد عنه بحكم ، فكيف يفرد عنه فى دينه ، وهذا طرد الحكم بإسلامه

(١) أحمد ٢/ ٣١٥، ٣٤٦ ، ٣٤٧.

فى مسألة السباء، وبالله التوفيق (١).

## فصل
## فى نسب قبائل من العرب

سئل ﷺ عن سبأ: هل هو أرض أم امرأة ،فقال:« ليس بأرض ولا امرأة ،ولكنه رجل ولد عشرة من العرب ، فتيامن منهم ستة ،وتشاءم منهم أربعة ، فأما الذين تشاءموا: فلخم وجذام وغسان وعاملة ،وأما الذين تيامنوا: فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار ».

فقال رجل: يا رسول الله ،وما أنمار ؟فقال :« الذين منهم خثعم وبجيلة » (٢) (٣).

## فصل
## فيما كان من أحكام تتعلق بالنسب فى قدوم وفد كندة على رسول الله ﷺ

إن من كان ولد النضر بن كنانة فهو من قريش.

وللنبى ﷺجدة من كندة مذكورة ، وهى أم كلاب بن مرة أن من انتسب إلى غير أبيه، فقد انتفى من أبيه ،وقفى أمه ، أى رماها بالفجور. أن كندة ليسوا من ولد النضر بن كنانة .وأن من أخرج رجلا عن نسبه المعروف ، جلد حد القذف (٤).

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٢٥ ـ ٣٤)

(٢) أبو داود (٣٩٨٨) أول كتاب الحروف والقراءات ، والترمذى (٣٢٢٢) فى تفسير القرآن ، باب:(٣٥) « ومن سورة سبأ ».

(٣) إعلام الموقعين (٤/ ٣٤٥).

(٤) زاد المعاد (٣/ ٦١٨).

# كتاب الخصائص

## فصل
## من خصائص النبى ﷺ

قد ذكر فى الحديث ما يدل على أن الوصال من خصائصه فقال : « إنى لست كهيئتكم» (١) (٢).

## وأيضا

رسول الله ﷺ لايفتقر نكاحه إلى ولى. وقال ابن عقيل: ظاهركلام أحمد أن النبى ﷺ لا يشترط فى نكاحه الولى، وأن ذلك من خصائصه(٣).

## فصل
## من خصائص البلد الحرام

ومن هذا (٤) اختياره ـ سبحانه وتعالى ـ من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها ، وهى البلد الحرام. فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ اختاره لنبيه ﷺ، وجعله مناسك لعباده، وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق، فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين ، كاشفى رؤوسهم، متجردين عن لباس أهل الدنيا ، وجعله حرماً آمناً لا يسفك فيه دم، ولا تعضد به شجرة ، ولا ينفر له صيد ، ولا يختلى خلاه ، ولا تلتقط لقطته للتمليك بل للتعريف ليس إلا ، وجعل قصده مكفراً لما سلف من الذنوب ، ماحياً للأوزار، حاطاً للخطايا، كما فى « الصحيحين »عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من أتى هذا البيت، فلم يرفث ، ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه » (٥)، ولم يرض لقاصده من الثواب دون الجنة، ففى «السنن» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب

---

(١) البخارى (١٩٦٧) فى الصوم ، باب : الوصال إلى السحر، ومسلم (١١٠٢/٥٦) فى الصوم ، باب: النهى عن الوصال فى الصوم، وأحمد (١٢٨/٢).

(٢) زاد المعاد (٣٧/٢).

(٣) زاد المعاد (١٠٨/١).

(٤) إشارة إلى تخصيص الله عز وجل بعض الأشياء فى الفضل على بعض.

(٥) البخارى (١٨١٩) فى المحصر ، باب: قوله الله عزوجل : ﴿ ولا فسوق ولا جدال فى الحج ﴾ ، ومسلم (١٣٥٠/٤٣٨) فى الحج ، باب : فى فضل الحج والعمرة ويوم عرفه.

والفضة ،وليس للحجة المبرورة ثواب دون الجنة » (١) وفى « الصحيحين » عن أبى هريرة أن رسول اللهﷺ قال: « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ،والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » (٢) ،فلو لم يكن البلد الأمين خير بلاده،وأحبها إليه ،ومختاره من البلاد ،لما جعل عرصاتها مناسك لعباده ،فرض عليهم قصدها ،وجعل ذلك من آكد فروض الإسلام ، وأقسم به فى كتابه العزيز فى موضعين منه ،فقال تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين:٣]،وقال تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد:١]،وليس على وجه الأرض بقعة يجب على كل قادر السعى إليها والطواف بالبيت الذى فيها غيرها ،وليس على وجه الأرض موضع يشرع تقبيله واستلامه ،وتحط الخطايا والأوزار فيه غير الحجر الأسود ،والركن اليمانى. وثبت عن النبى ﷺ أن الصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ، ففى « سنن النسائى » و « المسند » بإسناد صحيح عن عبد الله بن الزبير،عن النبى ﷺ أنه قال:«صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ،وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة » (٣) ، ورواه ابن حبان فى « صحيحه» (٤) وهذا صريح فى أن المسجد الحرام أفضل بقاع الأرض على الإطلاق ، ولذلك ،كان شد الرحال إليه فرضاً ،ولغيره مما يستحب ولا يجب ،وفى « المسند »، والترمذى والنسائى ،عن عبدالله بن عدى بن الحمراء أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته بالحزورة من مكة يقول: « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت » قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح (٥) .

بل ومن خصائصها كونها قبلة لأهل الأرض كلهم ،فليس على وجه الأرض قبلة غيرها.

ومن خواصها أيضاً أنه يحرم استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة دون سائر

---

(١) الترمذي (٨١٠) فى الحج ،باب: ماجاء فى ثواب الحج والعمرة ، والنسائى (٢٦٣١) فى مناسك الحج ، باب: فضل المتابعة بين الحج والعمرة ،وابن ماجه (٢٨٨٧) فى المناسك ، باب: فضل الحج والعمرة عن عمر ، وفى الزوائد: « مدار الإسنادين على عاصم بن عبيد الله وهو ضعيف . . . إلخ » ،وأحمد (١/ ٢٥).

(٢) البخاري (١٧٧٣) فى العمرة،باب :العمرة ،وجوب العمرة وفضلها ،ومسلم (١٣٤٩/ ٤٣٧) في الحج ، باب: فى فضل الحج والعمرة ويوم عرفة .

(٣) النسائى فى السنن الكبرى (٧٧٣) فى المساجد ،باب: فضل مسجد النبي (ﷺ) والصلاة فيه عن أبى هريرة ، وأحمد ٤/ ٥.

(٤) ابن حبان (١٦٢٣).

(٥) الترمذى(٣٩٢٥) فى المناقب ،باب: فضل مكة ،وقال الترمذى: « هذا حديث حسن غريب صحيح » ، وابن ماجه (٣١٠٨) فى المناسك ،باب :فضل مكة.

بقاع الأرض.

وأصح المذاهب فى هذه المسألة: أنه لا فرق فى ذلك بين القضاء والبنيان، لبضعة عشر دليلاً قد ذكرت فى غير هذا الموضع، وليس مع المفرق ما يقاومها البتة، مع تناقضهم فى مقدار الفضاء والبنيان، وليس هذا موضع استيفاء الحجاج من الطرفين.

ومن خواصها أيضاً أن المسجد الحرام أول مسجد وضع فى الأرض، كما فى «الصحيحين» عن أبى ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع فى الأرض؟ فقال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أى؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون عاماً»(١). وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به، فقال: معلوم أن سليمان بن داود هو الذى بنى المسجد الأقصى، وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام، وهذا من جهل هذا القائل، فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده، لا تأسيسه، والذى أسسه هو يعقوب بن إسحاق صلى الله عليهما وآلهما وسلم بعد بناء إبراهيم الكعبة بهذا المقدار.

ومما يدل على تفضيلها أن الله تعالى أخبر أنها أم القرى، فالقرى كلها تبع لها. وفرع عليها. وهى أصل القرى، فيجب ألا يكون لها فى القرى عديل. فهى كما أخبر النبى ﷺ عن (الفاتحة) أنها أم القرآن ولهذا لم يكن لها فى الكتب الإلهية عديل.

ومن خصائصها أنها لا يجوز دخولها لغير أصحاب الحوائج المتكررة إلا بإحرام، وهذه خاصية لا يشاركها فيها شىء من البلاد، وهذه المسألة تلقاها الناس عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد روى عن ابن عباس بإسناد لا يحتج به مرفوعاً: «لا يدخل أحد مكة إلا بإحرام، من أهلها ومن غير أهلها»(٢) ذكره أبو أحمد بن عدى، ولكن الحجاج بن أرطاة فى الطريق. وآخر قبله من الضعفاء.

وللفقهاء فى المسألة ثلاثة أقوال: النفى، والإثبات، والفرق بين من هو داخل المواقيت ومن هو قبلها، فمن قبلها لا يجاوزها إلا بإحرام، ومن هو داخلها. فحكمه حكم أهل مكة، وهو قول أبى حنيفة، والقولان الأولان للشافعى وأحمد.

ومن خواصه أنه يعاقب فيه على الهم بالسيئات وإن لم يفعلها، قال تعالى: ﴿ **وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [الحج: ٢٥]، فتأمل كيف عدى فعل الإرادة هاهنا

---

(١) البخارى (٣٣٦٦) فى الأنبياء، باب (١٠)، ومسلم (٥٢٠) فى أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٢) الكامل فى الضعفاد (٦/ ٢٧٣).

بالباء، ولا يقال: أردت بكذا إلا لما ضمن معنى فعل « هم » ، فإنه يقال : هممت بكذا، فتوعد من هم بأن يظلم فيه بأن يذيقه العذاب الأليم.

ومن هذا تضاعف مقادير السيئات فيه لا كمياتها ، فإن السيئة جزاؤها سيئة لكن سيئة كبيرة، وجزاؤها مثلها ، وصغيرة جزاؤها مثلها، فالسيئة فى حرم الله وبلده وعلى بساطه آكد وأعظم منها فى طرف من أطراف الأرض، ولهذا ليس من عصى الملك على بساط ملكه كمن عصاه فى الموضع البعيد من داره وبساطه ، فهذا فصل النزاع فى تضعيف السيئات ، والله أعلم.

وقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص فى انجذاب الأفئدة، وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين ، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد ، فهو الأولى بقول القائل:

محاسنه هيولى كل حسن ومغناطيس أفئدة الرجال

ولهذا أخبر ـ سبحانه ـ أنه مثابة للناس ، أى: يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار ، ولا يقضون منه وطراً ، بل كلما ازدادوا له زيارة ، ازدادوا له اشتياقاً.

لا يرجع الطرف عنها حين ينظرها حتى يعود إليها الطرف مشتاقا

فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح ، وكم أنفق فى حبها من الأموال والأرواح ، ورضى المحب بمقارفة فلذ الأكباد والأهل ، والأحباب والأوطان ، مقدماً بين يديه أنواع المخاوف والمتالف ، والمعاطف والمشاق، وهو يستلذ ذلك كله ويستطيبه ، ويراه ـ لو ظهر سلطان المحبة فى قلبه ـ أطيب من نعيم المتحلية وترفههم ولذاتهم

وليس محبا من يعد شفاءه عذابا إذا بما كان يرضى حبيبه (١)

# فصل

## من خصائص يوم الجمعة

كان ﷺ يقرأ فى فجره بسورتى ﴿ **الٓمٓ تَنزِيل** ﴾ [ سورة السجدة ] و﴿ **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإنسَانِ** ﴾ [سورة الإنسان]. ويظن كثير ممن لا علم عنده أن المراد تخصيص هذه الصلاة بسجدة زائدة ، ويسمونها سجدة الجمعة ، وإذا لم يقرأ أحدهم هذه السورة ، استحب قراءة سورة أخرى فيها سجدة ؛ ولهذا كره من كره من الأئمة المداومة على قراءة هذه السورة فى

(١) زاد المعاد (١/ ٤٦ ـ ٥٢).

فجر الجمعة ، دفعاً لتوهم الجاهلين .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إنما كان النبى ﷺ يقرأ هاتين السورتين فى فجر الجمعة؛ لأنهما تضمنتا ما كان ويكون فى يومها ، فإنهما اشتملتا على خلق آدم ،وعلى ذكر المعاد ،وحشر العباد ،وذلك يكون يوم الجمعة ،وكان فى قراءتهما فى هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون ،والسجدة جاءت تبعاً ليست مقصودة حتى يقصد المصلى قراءتها حيث اتفقت . فهذه خاصة من خواص يوم الجمعة.

**الخاصة الثانية** : استحباب كثرة الصلاة على النبى ﷺ فيه وفى ليلته ،لقوله ﷺ: «أكثروا من الصلاة على يوم الجمعة وليلة الجمعة » (١).

ورسول الله ﷺ سيد الأنام ، ويوم الجمعة سيد الأيام ، فللصلاة عليه فى هذا اليوم مزية ليست لغيره مع حكمة أخرى ، وهى أن كل خير نالته أمته فى الدنيا والآخرة ،فإنما نالته على يده ، فجمع الله لأمته به بين خيرى الدنيا والآخرة ، فأعظم كرامة تحصل لهم ، إنما تحصل يوم الجمعة ؛ فإن فيه بعثهم إلى منازلهم وقصورهم فى الجنة ، وهو يوم المزيد لهم إذا دخلوا الجنة ، وهو يوم عيد لهم فى الدنيا ، ويوم فيه يسعفهم الله تعالى بطلباتهم وحوائجهم ،ولا يرد سائلهم ، وهذا كله إنما عرفوه وحصل لهم بسببه وعلى يده ، فمن شكره وحمده وأداء القليل من حقه ﷺ أن نكثر من الصلاة عليه فى هذا اليوم وليلته.

**الخاصة الثالثة**: صلاة الجمعة التى هى من آكد فروض الإسلام ،ومن أعظم مجامع المسلمين ،وهى أعظم من كل مجمع يجتمعون فيه وأفرضه سوى مجمع عرفة ، ومن تركها تهاوناً بها ، طبع الله على قلبه ، وقرب أهل الجنة يوم القيامة ، وسبقهم إلى الزيارة يوم المزيد بحسب قربهم من الإمام يوم الجمعة وتبكيرهم.

**الخاصة الرابعة**: الأمر بالاغتسال فى يومها ،وهو أمر مؤكد جداً ،ووجوبه أقوى من وجوب الوتر ، وقراءة البسملة فى الصلاة ،ووجوب الوضوء من مس النساء ،ووجوب الوضوء من مس الذكر ،ووجوب الوضوء من القهقهة فى الصلاة ،ووجوب الوضوء من الرعاف ،والحجامة ،والقيء ،ووجوب الصلاة على النبىﷺ فى التشهد الأخير ،ووجوب القراءة على المأموم.

وللناس فى وجوبه ثلاثة أقوال: النفى والإثبات، والتفصيل بين من به رائحة يحتاج إلى إزالتها ،فيجب عليه، ومن هو مستغن عنه ،فيستحب له، والثلاثة لأصحاب أحمد.

---

(١) البيهقى فى السنن الكبرى (٣/ ٢٤٩).

**الخاصة الخامسة:** التطيب فيه،وهو أفضل من التطيب فى غيره من أيام الأسبوع.

**الخاصة السادسة:** السواك فيه،وله مزية على السواك فى غيره.

**الخاصة السابعة:** التبكير للصلاة.

**الخاصة الثامنة:** أن يشتغل بالصلاة ،والذكر ،والقراءة حتى يخرج الإمام.

**الخاصة التاسعة:** الإنصات للخطبة إذا سمعها وجوباً فى أصح القولين ، فإن تركه ، كان لاغيا ، ومن لغا ، فلا جمعة له ، وفى « المسند » مرفوعاً : « والذى يقول لصاحبه: أنصت،فلا جمعة له» (١).

**الخاصة العاشرة:** قراءة سورة الكهف فى يومها ،فقد روى عن النبى ﷺ:« من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة ، سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضىء به يوم القيامة ،وغفر له ما بين الجمعتين »(٢).

وذكره سعيد بن منصور من قول أبى سعيد الخدرى وهو أشبه.

**الحادية عشرة:** أنه لا يكره فعل الصلاة فيه وقت الزوال عند الشافعى ـ رحمه الله ـ ومن وافقه ،وهو اختيار شيخنا أبى العباس ابن تيمية ،ولم يكن اعتماده على حديث ليث،عن مجاهد ،عن أبى الخليل ،عن أبى قتادة،عن النبى ﷺ،أنه كره الصلاة نصف النهار إلا يوم الجمعة. وقال:« إن جهنم تسجر إلا يوم الجمعة » (٣) وإنما كان اعتماده على أن من جاء إلى الجمعة يستحب له أن يصلى حتى يخرج الإمام ،وفى الحديث الصحيح : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة،ويتطهر ما استطاع من طهر ،ويدهن من دهنه ، أو يمس من طيب بيته .ثم يخرج .فلا يفرق بين اثنين ، ثم يصلى ما كتب له ،ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى». رواه البخارى (٤) فندبه إلى الصلاة ما كتب له، ولم يمنعه عنها إلا فى وقت خروج الإمام؛ ولهذا قال غير واحد من السلف ،منهم عمر ابن الخطاب رضي الله عنه،وتبعه عليه الإمام أحمد بن حنبل: خروج الإمام يمنع الصلاة ،وخطبته تمنع الكلام،فجعلوا المانع من الصلاة خروج الإمام لا انتصاف النهار.

---

(١) أحمد (١/ ٩٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٨٠ :« روى أبو داود طرفا منه يسيرو فيه رجل لم يسم » ، وقال الشيخ أحمد شاكر:« إسناده ضعيف لجهالة مولى امرأة عطاء الخرسانى ».

(٢) البيهقى فى السنن الكبرى (٣/ ٢٤٩) ،والحاكم فى المستدرك ٢/ ٣٦٨ ،وقال:« هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه »،ووافقه الذهبى.

(٣) أبو داود (١٠٨٣) فى الصلاة ، باب: الصلاة يوم الجمعة قبل الزوال ، وضعفه الألبانى.

(٤) البخارى (٨٨٣) فى الجمعة ، باب: الدهن للجمعة.

وأيضا : فإن الناس يكونون فى المسجد تحت السقوف ، ولا يشعرون بوقت الزوال، والرجل يكون متشاغلاً بالصلاة لا يدرى بوقت الزوال ولا يمكنه أن يخرج ، ويتخطى رقاب الناس، وينظر إلى الشمس ويرجع ولا يشرع له ذلك.

وحديث أبى قتادة هذا، قال أبو داود: هو مرسل؛ لأن أبا الخليل لم يسمع من أبى قتادة والمرسل إذا اتصل به عمل ،وعضده قياس ،أو قول صحابى ،أو كان مرسله معروفاً باختيار الشيوخ ورغبته عن الرواية عن الضعفاء والمتروكين ونحو ذلك مما يقتضى قوته عمل به.

وأيضاً، فقد عضده شواهد أخر ،منها ما ذكره الشافعى فى كتابه فقال: روى عن إسحاق ابن عبدالله ،عن سعيد بن أبى سعيد ،عن أبى هريرة ،أن النبى ﷺ نهى عن الصلاة نصف النهار حتى تزول الشمس إلا يوم الجمعة هكذا رواه ـ رحمه الله ـ فى كتاب « اختلاف الحديث » [1] ورواه فى «كتاب الجمعة»: حدثنا إبراهيم بن محمد ،عن إسحاق .ورواه أبو خالد الأحمر ،عن شيخ من أهل المدينة ،يقال له: عبدالله بن سعيد المقبرى ،عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ [2]. وقد رواه البيهقى فى « المعرفة » من حديث عطاء بن عجلان، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد وأبى هريرة قالا: كان النبى ﷺ ينهى عن الصلاة نصف النهار، إلا يوم الجمعة .ولكن إسناده فيه من لا يحتج به. قاله البيهقى، قال: ولكن إذا انضمت هذه الأحاديث إلى حديث أبى قتاده أحدثت بعض القوة.

قال الشافعى: من شأن الناس التهجير إلى الجمعة ،والصلاة إلى خروج الإمام ،قال البيهقى: الذى أشار إليه الشافعى موجود فى الأحاديث الصحيحة، وهو أن النبى ﷺ رغب فى التبكير إلى الجمعة، وفى الصلاة إلى خروج الامام من غير استثناء ،وذلك يوافق هذه الأحاديث التى أبيحت فيها الصلاة نصف النهار يوم الجمعة ،وروينا الرخصة فى ذلك عن عطاء ، وطاووس ،والحسن ،ومكحول.

قلت: اختلف الناس فى كراهة الصلاة نصف النهار على ثلاثة أقوال:

**أحدها**: أنه ليس وقت كراهة بحال، وهو مذهب مالك.

**الثانى**: أنه وقت كراهة فى يوم الجمعة وغيرها، وهو مذهب أبى حنيفة، والمشهور من مذهب أحمد.

**والثالث**: أنه وقت كراهة إلا يوم الجمعة، فليس بوقت كراهة، وهذا مذهب الشافعى.

---

(١) اختلاف الحديث للشافعى ص ٨٠ ،طبعة دار الكتب العلمية.
(٢) الأم للشافعى (١/ ١٩٧) ،طبعة دار المعرفة.

**الثانية عشرة**: قراءة (سورة الجمعة )و(المنافقين)،أو (سبح والغاشية )فى صلاة الجمعة، فقد كان رسول الله ﷺ يقرأ بهن فى الجمعة، ذكره مسلم فى « صحيحه » (١).

وفيه أيضاً: أنه ﷺ، كان يقرأ فيها بـ (الجمعة )و(هل أتاك حديث الغاشية )(٢) ثبت عنه ذلك كله.

ولا يستحب أن يقرأ من كل سورة بعضها ،أو يقرأ إحداهما فى الركعتين ،فإنه خلاف السنة ،وجهال الأئمة يداومون على ذلك.

**الثالثة عشرة**: أنه يوم عيد متكرر فى الأسبوع ،وقد روى أبو عبدالله ابن ماجه فى «سننه » من حديث أبى لبابة بن عبدالمنذر قال: قال رسول الله ﷺ: « إن يوم الجمعة سيد الأيام، وأعظمها عند الله ،وهو أعظم عند الله من يوم الأضحى ،ويوم الفطر ،فيه خمس خلال: خلق الله فيه آدم ،وأهبط فيه آدم إلى الأرض ،وفيه توفى الله آدم ،وفيه ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئاً إلا أعطاه ،ما لم يسأل حراماً ،وفيه تقوم الساعة ،ما من ملك مقرب ،ولا سماء ،ولا أرض ،ولا رياح ،ولا جبال ،ولا شجر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة » (٣).

**الرابعة عشرة**: أنه يستحب أن يلبس فيه أحسن الثياب التى يقدر عليها ،فقد روى الإمام أحمد فى « مسنده» من حديث أبى أيوب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان له ،ولبس من أحسن ثيابه ،ثم خرج وعليه السكينة يأتى المسجد ،ثم يركع إن بدا له ، ولم يؤذ أحداً ، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلى ، كانت كفارة لما بينهما » (٤).

وفى سنن أبى داود ، عن عبدالله بن سلام ،أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر فى يوم الجمعة : « ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مهنته » (٥).

وفى سنن ابن ماجه ،عن عائشة ﵂ ،أن النبى ﷺ خطب الناس يوم الجمعة ،فرأى عليهم ثياب النمار، فقال ، : « ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى

---

(١) مسلم (٦١/١٧٧) فى الجمعة ، باب: ما يقرأ فى صلاة الجمعة.
(٢) مسلم (٦٣/١٧٨) فى الجمعة ، باب: ما يقرأ فى صلاة الجمعة .
(٣) ابن ماجه (١٠٨٤) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب: في فضل الجمعة.
(٤) أحمد ( ٥/ ٤٢٠ ) .
(٥) أبو داود (١٠٧٨) فى الصلاة باب: اللبس للجمعة.

ثوبى مهنته » (١).

**الخامسة عشرة**: أنه يستحب فيه تجمير المسجد، فقد ذكر سعيد ابن منصور، عن نعيم بن عبدالله المجمر، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر أن يجمر مسجد المدينة كل جمعة حين ينتصف النهار.

قلت: ولذلك سمى نعيم المجمر.

**السادسة عشرة**: أنه لا يجوز السفر فى يومها لمن تلزمه الجمعة قبل فعلها بعد دخول وقتها، وأما قبله، فللعلماء ثلاثة أقوال، وهى روايات منصوصات عن أحمد، أحدها: لا يجوز، والثانى: يجوز، والثالث: يجوز للجهاد خاصة.

وأما مذهب الشافعى - رحمه الله - فيحرم عنده إنشاء السفر يوم الجمعة بعد الزوال، ولهم فى سفر الطاعة وجهان، أحدهما: تحريمه، وهو اختيار النووى، والثانى: جوازه وهو اختيار الرافعى.

وأما السفر قبل الزوال، فللشافعى فيه قولان: القديم: جوازه والجديد: أنه كالسفر بعد الزوال.

وأما مذهب مالك، فقال صاحب « التفريع »: ولا يسافر أحد يوم الجمعة بعد الزوال حتى يصلى الجمعة، ولا بأس أن يسافر قبل الزوال، والاختيار: أن لا يسافر إذا طلع الفجر وهو حاضر حتى يصلى الجمعة.

وذهب أبو حنيفة إلى جواز السفر مطلقاً، وقد روى الدارقطنى فى« الأفراد »، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « من سافر من دار إقامته يوم الجمعة، دعت عليه الملائكة ألا يصحب فى سفره »(٢). وهو من حديث ابن لهيعة.

وفى مسند الإمام أحمد من حديث الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة فى سرية، فوافق ذلك يوم الجمعة، قال: فغدا أصحابه، وقال: أتخلف وأصلى مع رسول الله ﷺ، ثم ألحقهم، فلما صلى النبى ﷺ، رآه، فقال: « ما منعك أن تغدو مع أصحابك ؟» فقال: أردت أن أصلى معك، ثم ألحقهم، فقال: « لو أنفقت ما فى الأرض ما أدركت فضل غدوتهم» (٣).

---

(١) ابن ماجه (١٠٩٦) فى إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ماجاء فى الزينة يوم الجمعة.

(٢) انظر التلخيص الحبير (٢/٦٦).

(٣) أحمد ١/ ٢٢٤، وقال الشيخ أحمد شاكر: « إسناده صحيح ».

وأعل هذا الحديث، بأن الحكم لم يسمع من مقسم

هذا إذا لم يخف المسافر فوت رفقته ، فإن خاف فوت رفقته وانقطاعه بعدهم ، جاز له السفر مطلقاً ، لأن هذا عذر يسقط الجمعة والجماعة ولعل ما روى عن الأوزاعى ـ أنه سئل عن مسافر سمع أذان الجمعة وقد أسرج دابته ، فقال: ليمض على سفره ـ محمول على هذا، وكذلك قول ابن عمر رضي الله عنه: الجمعة لا تحبس عن السفر. وإن كان مرادهم جواز السفر مطلقاً ، فهى مسألة نزاع. والدليل: هو الفاصل على أن عبدالرزاق قد روى فى «مصنفه» عن معمر ، عن خالد الحذاء ، عن ابن سيرين أو غيره ، أن عمر بن الخطاب رأى رجلاً عليه ثياب سفر بعد ما قضى الجمعة ، فقال: ما شأنك ؟ قال: أردت سفراً ، فكرهت أن أخرج حتى أصلى ، فقال عمر: إن الجمعة لا تمنعك السفر مالم يحضر وقتها (١). فهذا قول من يمنع السفر بعد الزوال ، ولا يمنع منه قبله.

وذكره عبدالرزاق أيضاً عن الثورى ، عن الأسود بن قيس ، عن أبيه قال: أبصر عمر بن الخطاب رجلاً عليه هيئة السفر ، وقال الرجل: إن اليوم يوم الجمعة ولولا ذلك لخرجت ، فقال عمر: إن الجمعة لا تحبس مسافراً ، فاخرج ما لم يحن الرواح (٢).

وذكر أيضاً عن الثورى ، عن ابن أبى ذئب ، عن صالح بن كثير ، عن الزهرى قال: خرج رسول الله ﷺ مسافراً يوم الجمعة ضحى قبل الصلاة (٣).

وذكر عن معمر قال: سألت يحيى بن أبى كثير: هل يخرج الرجل يوم الجمعة؟ فكرهه، فجعلت أحدثه بالرخصة فيه، فقال لى: قلما يخرج رجل فى يوم الجمعة إلا رأى ما يكرهه ، لو نظرت فى ذلك وجدته كذلك (٤).

وذكر ابن المبارك ، عن الأوزاعى ، عن حسان بن أبى عطية ، قال: إذا سافر الرجل يوم الجمعة ، دعا عليه النهار ألا يعان على حاجته ، ولا يصاحب فى سفره (٥).

وذكر الأوزاعى ، عن ابن المسيب ، أنه قال: السفر يوم الجمعة بعد الصلاة . قال ابن جريج: قلت لعطاء: أبلغك أنه كان يقال: إذا أمسى فى قرية جامعة من ليلة الجمعة ، فلا يذهب حتى يجمع ؟ قال: إن ذلك ليكره. قلت: فمن يوم الخميس؟ قال: لا، ذلك النهار فلا يضره (٦).

---

(١) مصنف عبدالرزاق (٥٥٣٦) فى الجمعة ، باب: السفر يوم الجمعة.
(٢) مصنف عبد الرزاق (٥٥٣٧) فى الجمعة، باب: السفر يوم الجمعة.
(٣) مصنف عبدالرزاق (٥٥٤٠) فى الجمعة ، باب: السفر يوم الجمعة.
(٤) مصنف عبد الرزاق (٥٥٤١) فى الجمعة ، باب: السفر يوم الجمعة.
(٥) مصنف عبدالرزاق (٥٥٤٢) فى الجمعة ، باب: السفر يوم الجمعة.
(٦) مصنف عبدالرزاق (٥٥٤٣) فى الجمعة ، باب: السفر يوم الجمعة.

**السابعة عشرة:** أن للماشى إلى الجمعة بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها ،قال عبدالرزاق: عن معمر ،عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى قلابة، عن أبى الأشعث الصنعانى،عن أو من بن أوس ،قال: قال رسول الله ﷺ: « من غسل واغتسل يوم الجمعة، وبكر وابتكر ،ودنا من الإمام ،فأنصت ،كان له بكل خطوة يخطوها صيام سنة وقيامها ، وذلك على الله يسير » (١). ورواه الإمام أحمد فى « مسنده » (٢).

قال الإمام أحمد: غسل ،بالتشديد: جامع أهله ،وكذلك فسره وكيع .

**الثامنة عشرة:** أنه يوم تكفير السيئات ،فقد روى الإمام أحمد فى « مسنده » عن سليمان قال: قال لى رسول الله ﷺ: « أتدرى ما يوم الجمعة؟» قلت: هو اليوم الذى جمع الله فيه أباكم آدم قال: « ولكنى أدرى ما يوم الجمعة، لا يتطهر الرجل فيحسن طهوره ،ثم يأتى الجمعة ،فينصت حتى يقضى الإمام صلاته ،إلا كانت كفارة لما بينه وبين الجمعة المقبلة ما اجتنبت المقتلة » (٣).

وفى « المسند » أيضاً من حديث عطاء الخراسانى، عن نبيشة الهذلى ،أنه كان يحدث عن رسول الله ﷺ: « إن المسلم إذا اغتسل يوم الجمعة ،ثم أقبل إلى المسجد لا يؤذى أحداً، فإن لم يجد الإمام خرج ،صلى ما بدا له ،وإن وجد الإمام قد خرج جلس ، فاستمع وأنصت حتى يقضى الإمام جمعته وكلامه ،إن لم يغفر له فى جمعته تلك ذنوبه كلها ،أن تكون كفارة للجمعة التى تليها » (٤).

وفى صحيح البخارى، عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ،ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ، ثم يخرج، فلا يفرق بين اثنين ، ثم يصلى ماكتب له ،ثم ينصت اذا تكلم الإمام ،إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى » (٥).

وفى مسند أحمد، من حديث أبى الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: « من اغتسل يوم الجمعة ،ثم لبس ثيابه، ومس طيباً إن كان عنده ،ثم مشى إلى الجمعة وعليه السكينة، ولم

---

(١) مصنف عبدالرزاق (٥٥٧٠) فى الجمعة ، باب: عظم يوم الجمعة.

(٢) أحمد (٤/٨).

(٣) أحمد ٥/ ٤٣٩ ،وقال الهيثمى فى المجمع (٢/ ١٧٧): « روى النسائى بعضه، ورواه الطبرانى فى الكبير وإسناده حسن ».

(٤) أحمد (٥/ ٧٥)، وقال الهيثمى فى المجمع (٢/ ١٧٤): « رجاله رجال الصحيح خلا شيخ أحمد وهو ثقه ».

(٥) سبق تخريجه ص ٥٤ .

يتخط أحداً ،ولم يؤذه ،وركع ما قضى له ،ثم انتظر حتى ينصرف الإمام ،غفر له ما بين الجمعتين » (١).

**التاسعة عشرة** :أن جهنم تسجركل يوم إلا يوم الجمعة .وقد تقدم حديث أبى قتادة فى ذلك ،وسر ذلك - والله أعلم - أنه أفضل الأيام عند الله ،ويقع فيه من الطاعات،والعبادات ،والدعوات ،والابتهال إلى الله سبحانه وتعالى ،ما يمنع من تسجير جهنم فيه .ولذلك تكون معاصى أهل الإيمان فيه أقل من معاصيهم فى غيره ،حتى إن أهل الفجور ليمتنعون فيه مما لا يمتنعون منه فى يوم السبت وغيره.

وهذا الحديث الظاهر منه أن المراد سجر جهنم فى الدنيا ،وأنها توقد كل يوم إلا يوم الجمعة ،وأما يوم القيامة ،فإنه لا يفتر عذابها ،ولا يخفف عن أهلها الذين هم أهلها يوماً من الأيام ،ولذلك يدعون الخزنة أن يدعوا ربهم ليخفف عنهم يوماً من العذاب ،فلا يجيبونهم إلى ذلك.

**العشرون** : أن فيه ساعة الإجابة،وهى الساعةالتى لا يسأل الله عبد مسلم فيها شيئاً إلا أعطاه ،ففى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة ﷺ،قال:قال رسول الله ﷺ: « إن فى الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلى يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه،وقال:بيده يقللها» (٢).

وفى المسند من حديث أبى لبابة بن عبد المنذر ،عن النبى ﷺ قال:« سيد الأيام يوم الجمعة ،وأعظمها عند الله ،وأعظم عند الله من يوم الفطر ،ويوم الأضحى ،وفيه خمس خصال:خلق الله فيه آدم ،وأهبط الله فيه آدم إلى الأرض، وفيه توفى الله عز وجل آدم ، وفيه ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئاً إلا آتاه الله إياه ما لم يسأل حراماً ، وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك مقرب ،ولا أرض ،ولا رياح ،ولا بحر ،ولا جبال ،ولا شجر ،إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة » (٣) (٤).

---

(١) أحمد (٥/ ١٩٨)،وقال الهيثمى فى المجمع (٢/ ١٧٤):« رواه الطبرانى فى الكبير ،عن حرب بن قيس ،عن أبى الدرداء ،وحرب لم يسمع من أبى الدرداء ١٢٢.

(٢) البخارى (٩٣٥) فى الجمعة ،باب: الساعة التى فى يوم الجمعة ،ومسلم (٨٥٢/ ١٣) فى الجمعة ،باب:فى الساعة التى فى الجمعة .

(٣) أحمد ٣/ ٤٣٠ ،وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٦٦:« فيه عبدالله بن محمد بن عقيل ،وفيه كلام ،وقد وثق، وبقية رجالة ثقات ».

(٤) زاد المعاد (١/ ٣٧٥ - ٣٨٨).

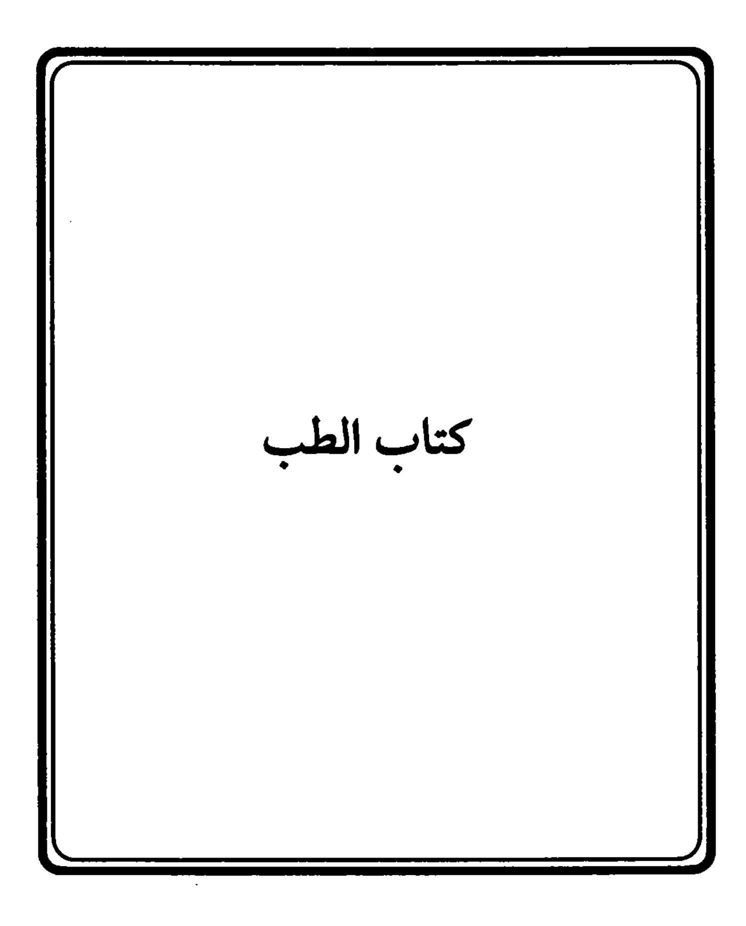
## وأيضا

إن فيه [١] صلاة الجمعة التى خصت من بين سائر الصلوات المفروضات بخصائص لا توجد فى غيرها ؛ من الاجتماع ،والعدد المخصوص ،واشتراط الإقامة والاستيطان والجهر بالقراءة [٢].

---

(١) أى :يوم الجمعة .

(٢) زاد المعاد (١/ ٣١٧).



# كتاب الطب

# فصل

## فى الحث على التداوى وطلب الشفاء

روى مسلم فى « صحيحه » من حديث أبى الزبير ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبى ﷺ ، أنه قال : « لكل داء داوء ،فإذا أصيب دواء الداء ، برأ بإذن الله عز وجل » (١) .

وفى « الصحيحين » عن عطاء ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء » (٢) .

وفى « مسند الإمام أحمد » من حديث زياد بن علاقة ، عن أسامة بن شريك ، قال : كنت عند النبى ﷺ ، وجاءت الأعراب ، فقالوا : يا رسول الله ، أنتداوى ؟ فقال :« نعم يا عباد الله تداووا ، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داءٍ واحدٍ » ، قالوا : ماهو ؟ قال : « الهرم » (٣) .

وفى لفظ : « إن الله لم ينزل داءً إلا أنزل له شفاءً ، علمه من علمه وجهله من جهله» (٤).

وفى « المسند » من حديث ابن مسعود يرفعه : « إن الله عز وجل لم ينزل داءً إلا أنزل له شفاءً ، علمه من علمه ، وجهله من جهله » (٥) .

وفى « المسند » و « السنن » عن أبى خزامة ، قال : قلت : يا رسول الله ، أرأيت رقى نسترقيها ، ودواءً نتداوى به ، وتقاة نتقيها ،هل ترد من قدر الله شيئًا ؟ فقال : « هى من قدر الله » (٦) .

فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات ، وإبطال قول من أنكرها ، ويجوز أن يكون قوله : « لكل داء دواء » . على عمومه حتى يتناول الأدواء القاتلة ، والأدواء التى لا يمكن لطبيب أن يبرئها ، ويكون الله عز وجل قد جعل لها أدوية تبرئها ، ولكن طوى علمها عن البشر ، ولم يجعل لهم إليه سبيلا ؛ لأنه لا علم للخلق إلا ما

(١) مسلم (٢٢٠٤ / ٦٩) فى السلام ، باب : لكل داء دواء واستحباب التداوى .

(٢) البخارى (٥٦٧٨) فى الطب ، باب : ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء ، ولم يعزه صاحب التحفة (١٠ / ٢٦٦) لمسلم .

(٣ ، ٤) أحمد (٤/٢٧٨) ، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (٣٤٣٦) .

(٥) أحمد (١ / ٣٧٧) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٣٥٧٨) : « إسناده صحيح » .

(٦) أحمد (٣ / ٤٢١) ، والترمذى (٢٠٦٥) فى الطب ، باب : ما جاء فى الرقى والأدوية ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٣٤٣٧) فى الطب ، باب : ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء ، وضعفه الألبانى .

علمهم الله ؛ ولهذا علق النبى ﷺ الشفاء على مصادفة الدواء للداء ، فإنه لا شىء من المخلوقات إلا له ضد ، وكل داء له ضد من الدواء يعالج بضده ، فعلق النبى ﷺ البرء بموافقة الداء للدواء ،وهذا قدر زائد على مجرد وجوده، فإن الدواء متى جاوز درجة الداء فى الكيفية ، أو زاد فى الكمية على ما ينبغى ، نقله إلى داء آخر ، ومتى قصر عنها لم يف بمقاومته ، وكان العلاج قاصرًا ، ومتى لم يقع المداوى على الدواء ، أو لم يقع الدواء على الداء ، لم يحصل الشفاء ، ومتى لم يكن الزمان صالحًا لذلك الدواء ، لم ينفع ، ومتى كان البدن غير قابل له ، أو القوة عاجزة عن حمله، أو ثَمَّ مانع يمنع من تأثيره ، لم يحصل البرء لعدم المصادفة ، ومتى تمت المصادفة حصل البرء بإذن الله ولابد ، وهذا أحسن المحملين فى الحديث .

**والثانى** : أن يكون من العام المراد به الخاص ، لا سيما والداخل فى اللفظ أضعاف الخارج منه ،وهذا يستعمل فى كل لسان ، ويكون المراد أن الله لم يضع داءً يقبل الدواء إلا وضع له دواء ، فلا يدخل فى هذا الأدواء التى لا تقبل الدواء ، وهذا كقوله تعالى فى الريح التى سلطها على قوم عاد : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف : ٢٥] أى كل شىء يقبل التدمير ، ومن شأن الريح أن تدمره ، ونظائره كثيرة .

ومن تأمل خلق الأضداد فى هذا العالم ، ومقاومة بعضها لبعض ، ودفع بعضها ببعض ، وتسليط بعضها على بعض ، تبين له كمال قدرة الرب تعالى ، وحكمته ، وإتقان ما صنعه ،وتفرده بالربوبية ،والوحدانية ،والقهر ، وأن كل ما سواه فله ما يضاده ويمانعه ، كما أنه الغنى بذاته ، وكل ما سواه محتاج بذاته .

وفى الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوى ، وأنه لا ينافى التوكل ، كما لا ينافيه دفع داء الجوع ، والعطش ، والحر ، والبرد بأضدادها ، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التى نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعًا ، وأن تعطيلها يقدح فى نفس التوكل ، كما يقدح فى الأمر والحكمة ، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى فى التوكل ، فإن تركها عجزًا ينافى التوكل الذى حقيقته اعتماد القلب على الله فى حصول ما ينفع العبد فى دينه ودنياه ، ودفع ما يضره فى دينه ودنياه ، ولابد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب ، وإلا كان معطلا للحكمة والشرع ، فلا يجعل العبد عجزه توكلا ، ولا توكله عجزًا .

وفيها رد على من أنكر التداوى ، وقال : إن كان الشفاء قد قدر ، فالتداوى لا يفيد ، وإن لم يكن قد قدر ، فكذلك ، وأيضًا ، فإن المرض حصل بقدر الله ، وقدر الله لا يدفع

ولا يرد ، وهذا السؤال هو الذى أورده الأعراب على رسول الله ﷺ . وأما أفاضل الصحابة ، فأعلم بالله وحكمته وصفاته من أن يوردوا مثل هذا ، وقد أجابهم النبى ﷺ بما شفى وكفى ، فقال : هذه الأدوية والرقى والتقى هى من قدر الله ، فما خرج شىء عن قدره ، بل يرد قدره بقدره ، وهذا الرد من قدره ، فلا سبيل إلى الخروج عن قدره بوجه ما ، وهذا كرد قدر الجوع ، والعطش الحر ، والبرد بأضدادها ، وكرد قدر العدو بالجهاد ، وكلٌ من قدر الله الدافع والمدفوع والدفع .

ويقال لمورد هذا السؤال : هذا يوجب عليك ألا تباشر سببًا من الأسباب التى تجلب بها منفعة ، أو تدفع بها مضرة ، لأن المنفعة و المضرة إن قدرتا ، لم يكن بد من وقوعهما ، وإن لم تقدرا لم يكن سبيل إلى وقوعهما، وفى ذلك خراب الدين والدنيا ، وفساد العالم، وهذا لا يقوله إلا دافع للحق ، معاند له ، فيذكر القدر ليدفع حجة المحق عليه ، كالمشركين الذين قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ﴾ [ الأنعام : ١٤٨] ، و﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا ﴾ [ النحل : ٣٥] ، فهذا قالوه دفعًا لحجة الله عليهم بالرسل .

وجواب هذا السائل أن يقال : بقى قسم ثالث لم تذكره ، وهو أن الله قدر كذا وكذا بهذا السبب ، فإن أتيت بالسبب حصل المسبب ، وإلا فلا . فإن قال : إن كان قدر لى السبب، فعلته ، وإن لم يقدره لى لم أتمكن من فعله .

قيل : فهل تقبل هذا الاحتجاج من عبدك ، وولدك ، وأجيرك إذا احتج به عليك فيما أمرته به ، ونهيته عنه فخالفك ؟ فإن قبلته ، فلا تلم من عصاك ، وأخذ مالك ، وقذف عرضك ، وضيع حقوقك ، وإن لم تقبله ، فكيف يكون مقبولا منك فى دفع حقوق الله عليك . وقد روى فى أثر إسرائيلى : إن إبراهيم الخليل قال : يا رب ، ممن الداء ؟ قال : « منى » . قال : « فممن الدواء » ؟ قال : « منى » . قال : فما بال الطبيب ؟ . قال : « رجل أرسل الدواء على يديه » .

وفى قوله ﷺ : « لكل داء دواء » ، تقوية لنفس المريض والطبيب ، وحث على طلب ذلك الدواء والتفتيش عليه ، فإن المريض إذا استشعرت نفسه أن لدائه دواء يزيله ، تعلق قلبه بروح الرجاء ، وبردت عنده حرارة اليأس ، وانفتح له باب الرجاء ، ومتى قويت نفسه انبعثت حرارته الغريزية ، وكان ذلك سببًا لقوة الأرواح الحيوانية النفسانية والطبيعية ، ومتى قويت هذه الأرواح ، قويت القوى التى هى حاملة لها ، فقهرت المرض ودفعته .

وكذلك الطبيب إذا علم أن لهذا الداء دواء أمكنه طلبه والتفتيش عليه ، وأمراض

الأبدان على وزان أمراض القلوب ، وما جعل الله للقلب مرضًا إلا جعل له شفاء بضده ، فإن علمه صاحب الداء واستعمله ، وصادف داء قلبه ، أبرأه بإذن الله تعالى (١) .

## وأيضًا

قد ثبت فى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء » (٢) .

وفى صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله » (٣) .

وفى مسند الإمام أحمد من حديث أسامة بن شريك عن النبى ﷺ قال : « إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء ، علمه من علمه وجهله من جهله » (٤) ، وفى لفظ : « إن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء،إلا داء واحدًا » قالوا: يا رسول الله ما هو ؟ قال : « الهرم » قال الترمذى : هذا حديث صحيح (٥) (٦) .

## وأيضًا

سأله ﷺ ناس من الأعراب ، فقالوا : أفتنا فى كذا ، أفتنا فى كذا ، أفتنا فى كذا ، أفتنا فى كذا ، فقال : « أيها الناس ؛ إن الله قد وضع عنكم الحرج ، إلا من اقترض من عرض أخيه ؛ فذلك الذى حرج وهلك »،قالوا : أفنتداوى يا رسول الله ؟ قال : « نعم ، إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له دواء ، غير داء واحد ، قالوا: يا رسول الله وما هو قال : « الهرم » (٧) (٨) .

## وأيضًا

سئل ﷺ : أيغنى الدواء شيئا ؟ فقال : « سبحان الله ! وهل أنزل الله تبارك وتعالى

(١) زاد المعاد (٤ / ١٣ ـ ١٧) .
(٢) سبق تخريجه ص ٦٥
(٣) سبق تخريجه ص ٦٥.
(٤) سبق تخريجه ص ٦٥ .
(٥) الترمذى (٢٠٣٩) فى الطب ، باب : ما جاء ما يطعم المريض ، وقال : « حسن صحيح » .
(٦) الداء والدواء (١٧ ، ١٨) .
(٧) ابن حبان (٤٨٦) .
(٨) إعلام الموقعين (٤ / ٤٠٠) .

من داء فى الأرض إلا جعل له شفاء » (١) (٢) .

## فصل
## فى أصول الطب

أصول الطب ثلاثة : الحمية ، وحفظ الصحة ، واستفراغ المادة المضرة وقد جمعها الله تعالى له ولأمته فى ثلاثة مواضع من كتابه ، فحمى المريض من استعمال الماء خشية من الضرر ، فقال تعالى : ﴿ **وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا** ﴾ [ النساء : ٤٣ ، والمائدة : ٦] ، فأباح التيمم للمريض حمية له كما أباحه للعادم .

وقال فى حفظ الصحة : ﴿ **فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴾ [ البقرة : ١٨٤] . فأباح للمسافر الفطر فى رمضان حفظًا لصحته ، لئلا يجتمع على قوته الصوم ومشقة السفر فيضعف القوة والصحة .

وقال فى الاستفراغ فى حلق الرأس للمحرم : ﴿ **فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ** ﴾ [ البقرة : ١٩٦] فأباح للمريض ومن به أذى من رأسه وهو محرم أن يحلق رأسه و يستفرغ المواد الفاسدة والأبخرة الرديئة التى تولد عليه القمل ، كما حصل لكعب بن عجرة أو تولد عليه المرض .

وهذه الثلاثة هى قواعد الطب وأصوله ، فذكر من كل جنس منها شيئًا وصورة تنبيها بها على نعمته على عباده فى أمثالها من حميتهم وحفظ صحتهم واستفراغ مواد أذاهم ، رحمة لعباده ، ولطفًا بهم ، ورأفة بهم ، وهو الرؤوف الرحيم(٣) .

## فصل
## فى أنواع المرض

المرض : نوعان : مرض القلوب ، ومرض الأبدان ، وهما مذكوران فى القرآن .

ومرض القلوب : نوعان : مرض شبهة وشك ، ومرض شهوة وغى ، وكلاهما فى

(١) البخارى (٥٦٧٨) فى الطب ، باب : ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء .

(٢) إعلام الموقعين (٤/٣٩٦) .

(٣) زاد المعاد (١ / ١٦٤ ، ١٦٥) .

القرآن. قال تعالى فى مرض الشبهة : ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا** ﴾ [ البقرة : ١٠ ] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً** ﴾ [ المدثر : ٣١] ، وقال تعالى فى حق من دعى إلى تحكيم القرآن والسنة ، فأبى وأعرض : ﴿ **وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)** ﴾ [ النور ] ، فهذا مرض الشبهات والشكوك .

وأما مرض الشهوات ، فقال تعالى : ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ** ﴾ [ الأحزاب : ٣٢] ، فهذا مرض شهوة الزنا، والله أعلم .

وأما مرض الأبدان، فقال تعالى : ﴿ **لَّيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ** ﴾ [ النور : ٦١] ، وذكر مرض البدن فى الحج والصوم والوضوء لسر بديع يبين لك عظمة القرآن والاستغناء به لمن فهمه وعقله عن سواه ، وذلك أن قواعد طب الأبدان ثلاثة : حفظ الصحة ، والحمية عن المؤذى ، واستفراغ المواد الفاسدة ، فذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة فى هذه المواضع الثلاثة .

فقال فى آية الصوم : ﴿ **فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴾ [ البقرة : ١٨٤] ، فأباح الفطر للمريض لعذر المرض ،وللمسافر طلبًا لحفظ صحته وقوته لئلا يذهبها الصوم فى السفر لاجتماع شدة الحركة ، وما يوجبه من التحليل ، وعدم الغذاء الذى يخلف ما تحلل ، فتخور القوة ، وتضعف ، فأباح للمسافر الفطر حفظًا لصحته وقوته عما يضعفها .

وقال فى آية الحج : ﴿ **فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ** ﴾ [ البقرة : ١٩٦] ،فأباح للمريض ، ومن به أذى من رأسه ، من قمل ، أو حكة ، أو غيرهما ، أن يحلق رأسه فى الإحرام استفراغًا لمادة الأبخرة الرديئة التى أوجبت له الأذى فى رأسه باحتقانها تحت الشعر ، فإذا حلق رأسه ، تفتحت المسام ، فخرجت تلك الأبخرة منها ، فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذى انحباسه . والأشياء التى يؤذى انحباسها ومدافعتها عشرة : الدم إذا هاج ، والمنى إذا تبيغ ، والبول ، والغائط ، والريح ، والقىء ، والعطاس ، والنوم ، والجوع ، والعطش . وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داء من الأدواء بحسبه .

وقد نبه ـ سبحانه ـ باستفراغ أدناها ، وهو البخار المحتقن فى الرأس على استفراغ ما هو أصعب منه ، كما هى طريقة القرآن التنبيه بالأدنى على الأعلى .

أما الحمية : فقال تعالى فى آية الوضوء : ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [ النساء : ٤٣] ، فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب حمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه ، وهذا تنبيه على الحمية عن كل مؤذٍ له من داخل أو خارج ، فقد أرشد ـ سبحانه ـ عباده إلى أصول الطب ومجامع قواعده ، ونحن نذكر هدى رسول الله ﷺ فى ذلك ، ونبين أن هديه فيه أكمل هدى .

فأما طب القلوب ، فمسلم إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ولا سبيل إلى حصوله إلا من جهتهم وعلى أيديهم، فإن صلاح القلوب أن تكون عارفة بربها ،وفاطرها ، وبأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وأحكامه ، وأن تكون مؤثرة لمرضاته ومحابه ، متجنبة لمناهيه ومساخطه ، ولا صحة لها ولا حياة البتة إلا بذلك ، ولا سبيل إلى تلقيه إلا من جهة الرسل ، وما يظن من حصول صحة القلب بدون اتباعهم ، فغلط ممن يظن ذلك ، وإنما ذلك حياة نفسه البهيمية الشهوانية ، وصحتها وقوتها، وحياة قلبه وصحته وقوته عن ذلك بمعزل ، ومن لم يميز بين هذا وهذا ، فليبك على حياة قلبه ، فإنه من الأموات ، وعلى نوره ، فإنه منغمس فى بحار الظلمات .

وأما طب الأبدان : فإنه نوعان :

نوع قد فطر الله عليه الحيوان ناطقه وبهيمه ، فهذا لا يحتاج فيه إلى معالجة طبيب ، كطب الجوع ، والعطش ، والبرد ، والتعب بأضدادها وما يزيلها .

**والثانى** : ما يحتاج إلى فكر وتأمل ، كدفع الأمراض المتشابهة الحادثة فى المزاج ، بحيث يخرج بها عن الاعتدال ، إما إلى حرارة ، أو برودة ، أو يبوسة ، أو رطوبة ، أو ما يتركب من اثنين منها ، وهى نوعان : إما مادية ، وإما كيفية ، أعنى إما أن يكون بانصباب مادة ، أو بحدوث كيفية ، والفرق بينهما أن أمراض الكيفية تكون بعد زوال المواد التى أوجبتها ، فتزول موادها ، ويبقى أثرها كيفية فى المزاج .

وأمراض المادة أسبابها معها تمدها ، وإذا كان سبب المرض معه ، فالنظر فى السبب ينبغى أن يقع أولاً ، ثم فى المرض ثانيًا ، ثم فى الدواء ثالثًا . أو الأمراض الآلية وهى التى تخرج العضو عن هيئته ، إما فى شكل ، أو تجويف ، أو مجرى ،أو خشونة،أو ملاسة ،

أو عدد ، أو عظم ، أو وضع ، فإن هذه الأعضاء إذا تألفت وكان منها البدن سمى تألفها اتصالا ، والخروج عن الاعتدال فيه يسمى تفرق الاتصال ، أو الأمراض العامة التى تعم المتشابهة والآلية .

والأمراض المتشابهة ، هى التى يخرج بها المزاج عن الاعتدال ، وهذا الخروج يسمى مرضًا بعد أن يضر بالفعل إضراراً محسوسًا .

وهى على ثمانية أضرب : أربعة بسيطة ، وأربعة مركبة، فالبسيطة : البارد ، والحار ، والرطب ، واليابس ، والمركبة : الحار الرطب ، والحار اليابس ، والبارد الرطب ، والبارد اليابس ، وهى إما أن تكون بانصباب مادة ، أو بغير انصباب مادة ، وإن لم يضر المرض بالفعل يسمى خروجًا عن الاعتدال صحة .

وللبدن ثلاثة أحوال : حال طبيعية ، وحال خارجة عن الطبيعية ، وحال متوسطة بين الأمرين .فالأولى:بها يكون البدن صحيحًا ، والثانية : بها يكون مريضًا . والحال الثالثة : هى متوسطة بين الحالتين ، فإن الضدد لا ينتقل إلى ضده إلا بمتوسط ، وسبب خروج البدن عن طبيعته ، إما من داخله ؛ لأنه مركب من الحار والبارد ، والرطب واليابس ، وإما من خارج ، فلأن ما يلقاه قد يكون موافقًا ، وقد يكون غير موافق ، والضرر الذى يلحق الإنسان قد يكون من سوء المزاج بخروجه عن الاعتدال ، وقد يكون من فساد فى العضو ، وقد يكون من ضعف فى القوى ، أو الأرواح الحاملة لها ، ويرجع ذلك إلى زيادة ما الاعتدال فى عدم زيادته ، أو نقصان ما الاعتدال فى عدم نقصانه ، أو تفرق ما الاعتدال فى اتصاله،أو اتصال ما الاعتدال فى تفرقه ، أو امتداد ما الاعتدال فى انقباضه ، أو خروج ذى وضع وشكل عن وضعه وشكله بحيث يخرجه عن اعتداله .

فالطبيب : هو الذى يفرق ما يضر بالإنسان جمعه ، أو يجمع فيه ما يضره تفرقه ، أو ينقص منه ما يضره زيادته ، أو يزيد فيه ما يضر بالإنسان جمعه ، أو يجمع فيه ما يضره تفرقه ، أو ينقص منه ما يضره زيادته ، أو يزيد فيه ما يضره نقصه ، فيجلب الصحة المفقودة،أو يحفظها بالشكل والشبه ، ويدفع العلة الموجودة بالضد والنقيض ، ويخرجها ، أو يدفعها بما يمنع من حصولها بالحمية ، وسترى هذا كله فى هدى رسول الله ﷺ شافيًا كافيًا بحول الله وقوته ، وفضله ومعونته (١) .

---

(١) زاد المعاد ( ٤ / ٥ ـ ١٠ ) .

## فصل

فكان من هديه ﷺ فعل التداوى فى نفسه ، والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه ، ولكن لم يكن من هديه ولا هدى أصحابه استعمال هذه الأدوية المركبة التى تسمى أقرباذين ، بل كان غالب أدويتهم بالمفردات ، وربما أضافوا إلى المفرد ما يعاونه ، أو يكسر سورته ، وهذا غالب طب الأمم على اختلاف أجناسها من العرب والترك ، وأهل البوادى قاطبة ، وإنما عنى بالمركبات الروم واليونانيون ، وأكثر طب الهند بالمفردات .

وقد اتفق الأطباء على أنه متى أمكن التداوى بالغذاء لا يعدل عنه إلى الدواء ، ومتى أمكن بالبسيط لا يعدل عنه إلى المركب .

قالوا : وكل داء قدر على دفعه بالأغذية والحمية لم يحاول دفعه بالأدوية .

قالوا : ولا ينبغى للطبيب أن يولع بسقى الأدوية ،فإن الدواء إذا لم يجد فى البدن داء يحلله ، أو وجد داء لا يوافقه ، أو وجد ما يوافقه فزادت كميته عليه ، أو كيفيته ، تشبَّثْ بالصحة ، وعبث بها . وأرباب التجارب من الأطباء طبهم بالمفردات غالبًا ، وهم أحد فرق الطب الثلاث .

والتحقيق فى ذلك أن الأدوية من جنس الأغذية ، فالأمة والطائفة التى غالب أغذيتها المفردات : أمراضها قليلة جداً ، وطبها بالمفردات ، وأهل المدن الذين غلبت الأغذية المركبة يحتاجون إلى الأدوية المركبة وسبب ذلك أن أمراضهم فى الغالب مركبة ، فالأدوية المركبة أنفع لها وأمراض أهل البوادى والصحارى مفردة ، فيكفى فى مداواتها الأدوية المفردة ، فهذا برهان بحسب الصناعة الطبية .

ونحن نقول :إن ها هنا أمراً آخر ، نسبة طب الأطباء إليه كنسبة طب الطرقية والعجائز إلى طبهم ، وقد اعترف به حذاقهم وأئمتم ، فإن ما عندهم من العلم بالطب منهم من يقول : هو قياس ، ومنهم من يقول : هو تجربة . ومنهم من يقول : هو إلهامات ، ومنامات ، وحدس صائب . ومنهم من يقول : أخذ كثير منه من الحيوانات البهيمية ، كما نشاهد السنانير إذا أكلت ذوات السموم تعمد إلى السراج ، فتلغ فى الزيت تتداوى به ، وكما رؤيت الحيات إذا خرجت من بطون الأرض ، وقد عشت أبصارها تأتى إلى ورق الرازيانج فتمر عيونها عليها ، وكما عهد من الطير الذى يحتقن بماء البحر عند انحباس

طبعه ، وأمثال ذلك مما ذكر فى مبادئ الطب .

وأين يقع هذا وأمثاله من الوحى الذى يوحيه الله إلى رسوله بما ينفعه ويضره ، فنسبة ما عندهم من الطب إلى هذا الوحى كنسبة ما عندهم من العلوم إلى ما جاءت به الأنبياء ، بل ها هنا من الأدوية التى تشفى من الأمراض مالم يهتد إليها عقول أكابر الأطباء ، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم ، وأقيستهم من الأدوية القلبية ، والروحانية ، وقوة القلب ، واعتماده على الله ، والتوكل عليه ، والالتجاء إليه ، والانطراح والانكسار بين يديه ، والتذلل له ، والصدقة ، والدعاء ، والتوبة ، والاستغفار ، والإحسان إلى الخلق ، وإغاثة الملهوف ، والتفريج عن المكروب ، فإن هذه الأدوية قد جربتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها ، فوجدوا لها من التأثير فى الشفاء ما لايصل إليه علم أعلم الأطباء ، ولا تجربته ، ولا قياسه .

وقد جربنا نحن وغيرنا من هذا أمرًا كثيرة ،ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية ، بل تصير الأدوية الحسية عندها بمنزلة أدوية الطرقية عند الأطباء ، وهذا جار على قانون الحكمة الإلهية ليس خارجًا عنها ، ولكن الأسباب متنوعة ، فإن القلب متى اتصل برب العالمين ، وخالق الداء والدواء ، ومدبر الطبيعة ومصرفها على ما يشاء كانت له أدوية أخرى غير الأدوية التى يعانيها القلب البعيد منه المعرض عنه ، وقد علم أن الأرواح متى قويت ، وقويت النفس والطبيعة تعاونا على دفع الداء وقهره ،فكيف ينكر لمن قويت طبيعته ونفسه ، وفرحت بقربها من بارئها ، وأنسها به ، وحبها له ، وتنعمها بذكره ، وانصراف قواه كلها إليه ،وجمعها عليه ، واستعانتها به ، وتوكلها عليه ، أن يكون ذلك لها من أكبر الأدوية ، وأن توجب لها هذه القوة دفع الألم بالكلية ، ولا ينكر هذا إلا أجهل الناس ، وأغلظهم حجابًا ، وأكثفهم نفسًا ، وأبعدهم عن الله وعن حقيقة الإنسانية ، وسنذكر إن شاء الله السبب الذى به أزالت قراءة الفاتحة داء اللدغة عن اللديغ التى رقى بها ، فقام حتى كأن ما به قلبه (١) .

(١) زاد المعاد (٤ / ١٠ ـ ١٢ ) .

# فصل

## فى هديه ﷺ فى الاحتماء من التخم ، والزيادة فى الأكل على قدر الحاجة ، والقانون الذى ينبغى مراعاته فى الأكل والشرب

فى « المسند » وغيره : عنه ﷺ أنه قال : « ما ملأ آدمى وعاءً شرًا من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا بد فاعلا ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » (١) .

**الأمراض نوعان** : أمراض مادية تكون عن زيادة مادة أفرطت فى البدن حتى أضرت بأفعاله الطبيعية ، وهى الأمراض الأكثرية ، وسببها إدخال الطعام على البدن قبل هضم الأول ، والزيادة فى القدر الذى يحتاج إليه البدن ، وتناول الأغذية القليلة النفع ، البطيئة الهضم ، والإكثار من الأغذية المختلفة التراكيب المتنوعة ، فإذا ملأ الآدمى بطنه من هذه الأغذية ، واعتاد ذلك ، أورثته أمراضًا متنوعة ، منها بطىء الزوال وسريعه ، فإذا توسط فى الغذاء ، وتناول منه قدر الحاجة ، وكان معتدلا فى كميته وكيفيته ، كان انتفاع البدن به أكثر من انتفاعه بالغذاء الكثير .

**ومراتب الغذاء ثلاثة** : أحدها : مرتبة الحاجة ، والثانية : مرتبة الكفاية . والثالثة : مرتبة الفضلة . فأخبر النبى ﷺ : أنه يكفيه لقيمات يقمن صلبه ، فلا تسقط قوته ، ولا تضعف معها ، فإن تجاوزها ، فليأكل فى ثلث بطنه ، ويدع الثلث الآخر للماء ، والثالث للنفس ، وهذا من أنفع ما للبدن والقلب ، فإن البطن إذا امتلأ من الطعام ضاق عن الشراب ، فإذا ورد عليه الشراب ضاق عن النفس ، وعرض له الكرب والتعب بحمله بمنزلة حال الحمل الثقيل،هذا إلى ما يلزم ذلك من فساد القلب ، وكسل الجوارح عن الطاعات ، وتحركها فى الشهوات التى يستلزمها الشبع .فامتلاء البطن من الطعام مضر للقلب والبدن .

هذا إذا كان دائمًا أو أكثريًا،وأما إذا كان فى الأحيان،فلا بأس به،فقد شرب أبو هريرة بحضرة النبى ﷺ من اللبن ، حتى قال : والذى بعثك بالحق ، لا أجد له مسلكًا (٢) ، وأكل الصحابة بحضرته مرارًا حتى شبعوا .

---

(١) الترمذى (٢٣٨٠) فى الزهد ، باب : ما جاء فى كراهية كثرة الأكل ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٣٣٤٩) فى الأطعمة ، باب : الاقتصاد فى الأكل وكراهة الشبع ، وأحمد (٤ / ١٣٢) .

(٢) البخارى (٦٤٥٢) فى الرقاق ، باب : كيف كان عيش النبى ﷺ وأصحابه وتخليهم عن الدنيا .

والشبع المفرط يضعف القوى والبدن ، وإن أخصبه ، وإنما يقوى البدن بحسب ما يقبل من الغذاء ، لا بحسب كثرته ، ولما كان فى الإنسان جزء أرضى ، وجزء هوائى ، وجزء مائى ، قسم النبى ﷺ طعامه وشرابه ونفسه على الأجزاء الثلاثة ، فإن قيل : فأين حظ الجزء النارى ؟

قيل : هذه مسألة تكلم فيها الأطباء ، وقالوا : إن فى البدن جزءًا ناريًا بالفعل ، وهو أحد أركانه واسطقساته (١) .

ونازعهم فى ذلك آخرون من العقلاء من الأطباء وغيرهم ، وقالوا : ليس فى البدن جزءٌ نارى بالفعل ، واستدلوا بوجوه :

**أحدها** : أن ذلك الجزء النارى إما أن يدعى أنه نزل عن الأثير ، واختلط بهذه الأجزاء المائية والأرضية ، أو يقال : إنه تولد فيها وتكون ، والأول مستبعد لوجهين ، أحدهما : أن النار بالطبع صاعدة ، فلو نزلت ، لكانت بقاسر من مركزها إلى هذا العالم . الثانى : أن تلك الأجزاء النارية لابد فى نزولها أن تعبر على كرة الزمهرير التى هى فى غاية البرد ، ونحن نشاهد فى هذا العالم أن النار العظيمة تنطفئ بالماء القليل ، فتلك الأجزاء الصغيرة عند مرورها بكرة الزمهرير التى هى فى غاية البرد ، ونهاية العظم أولى بالانطفاء .

**وأما الثانى** ـ وهو أن يقال : إنها تكونت هاهنا ـ فهو أبعد وأبعد ؛ لأن الجسم الذى صار نارًا بعد أن لم يكن كذلك ، قد كان قبل صيرورته إما أرضًا ، وإما ماءً ، وإما هواء لانحصار الأركان فى هذه الأربعة ، وهذا الذى قد صار نارًا أولا ، كان مختلطًا بأحد هذه الأجسام ، ومتصلاً بها ، والجسم الذى لا يكون نارًا إذا اختلط بأجسام عظيمة ليست بنار ولا واحد منها ، لا يكون مستعدًا لأن ينقلب نارًا لأنه فى نفسه ليس بنار ، والأجسام المختلطة باردة ، فيكف يكون مستعدًا لانقلابه نارًا .

فإن قلتم : لم لا تكون هناك أجزاء نارية تقلب هذه الأجسام ، وتجعلها نارًا بسبب مخالطتها إياها ؟

قلنا : الكلام فى حصول تلك الأجزاء النارية كالكلام فى الأول ، فإن قلتم :إنا نرى من رش الماء على النورة المطفأة تنفصل منها نار ، وإذا وقع شعاع الشمس على البلورة ، ظهرت النار منها ، وإذا ضربنا الحجر على الحديد ، ظهرت النار ، وكل هذه النارية حدثت عند الاختلاط ، وذلك يبطل ما قررتموه فى القسم الأول أيضًا .

---

(١) المقصود به : أصوله ومفرده « اسطقس » ، وهو لفظ يونانى .

قال المنكرون : نحن لا ننكر أن تكون المصاكة الشديدة محدثة للنار ، كما فى ضرب الحجارة على الحديد ، أو تكون قوة تسخين الشمس محدثة للنار ، كما فى البلورة ، لكنا نستبعد ذلك جدًا فى أجرام النبات والحيوان ، إذ ليس فى أجرامها من الاصطكاك ما يوجب حدوث النار ، ولا فيها من الصفاء والصقال ما يبلغ إلى حد البلورة ، كيف وشعاع الشمس يقع على ظاهرها ، فلا تتولد النار البتة ، فالشعاع الذى يصل إلى باطنها كيف يولد النار .

**الوجه الثانى فى أصل المسألة** : أن الأطباء مجمعون على أن الشراب العتيق فى غاية السخونة بالطبع ، فلو كانت تلك السخونة بسبب الأجزاء النارية ، لكانت محالاً إذ تلك الأجزاء النارية مع حقارتها كيف يعقل بقاؤها فى الأجزاء المائية الغالبة دهرًا طويلاً ، بحيث لا تنطفئ مع أنا نرى النار العظيمة تطفأ بالماء القليل .

**الوجه الثالث** : أنه لو كان فى الحيوان والنبات جزء نارى بالفعل ، لكان مغلوبًا بالجزء المائى الذى فيه ، وكان الجزء النارى مقهوراً به ، وغلبة بعض الطبائع والعناصر على بعض يقتضى انقلاب طبيعة المغلوب إلى طبيعة الغالب ، فكان يلزم بالضرورة انقلاب تلك الأجزاء النارية القليلة جدًا إلى طبيعة الماء الذى هو ضد النار .

**الوجه الرابع** : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر خلق الإنسان فى كتابه فى مواضع متعددة ، يخبر فى بعضها أنه خلقه من ماء ، وفى بعضها أنه خلقه من تراب ، وفى بعضها أنه خلقه من المركب منهما وهو الطين ، وفى بعضها أنه خلقه من صلصال كالفخار ، وهو الطين الذى ضربته الشمس والريح حتى صار صلصالاً كالفخار ، ولم يخبر فى موضع واحد أنه خلقه من نار بل جعل ذلك خاصية إبليس . وثبت فى « صحيح مسلم » : عن النبى ، قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » (١) ، وهذا صريح فى أنه خلق مما وصفه الله فى كتابه فقط ، ولم يصف لنا سبحانه أنه خلقه من نار ، ولا أن فى مادته شيئًا من النار .

**الوجه الخامس** : أن غاية ما يستدلون به ما يشاهدون من الحرارة فى أبدان الحيوان ، وهى دليل على الأجزاء النارية ، وهذا لا يدل ، فإن أسباب الحرارة أعم من النار ، فإنها تكون عن النار تارة ، وعن الحركة أخرى ، وعن انعكاس الأشعة ، وعن سخونة الهواء ، وعن مجاورة النار ، وذلك بواسطة سخونة الهواء أيضًا ، وتكون عن أسباب أخر ، فلا يلزم من الحرارة النار .

---

(١) مسلم (٢٩٩٦ / ٦٠) فى الزهد والرقائق ، باب : فى أحاديث متفرقة .

قال أصحاب النار : من المعلوم أن التراب والماء إذا اختلطا فلا بد لهما من حرارة تقتضى طبخهما وامتزاجهما ، وإلا كان كل منهما غير ممازج للآخر ، ولا متحدًا به ، وكذلك إذا ألقينا البذر فى الطين بحيث لا يصل إليه الهواء ولا الشمس فسد ، فلا يخلو ؛ إما أن يحصل فى المركب جسم منضج طابخ بالطبع أولا ،فإن حصل فهو الجزء النارى ، وإن لم يحصل ، لم يكن المركب مسخنًا بطبعه ، بل إن سخن كان التسخين عرضيًا ، فإذا زال التسخين العرضى،لم يكن الشيء حارًا فى طبعه ،ولا فى كيفيته ، وكان باردًا مطلقًا ، لكن من الأغذية والأدوية ما يكون حارًا بالطبع ، فعلمنا أن حرارتها إنما كانت ؛ لأن فيها جوهرًا ناريًا .

وأيضًا ، فلو لم يكن فى البدن جزء مسخن لوجب أن يكون فى نهاية البرد ، لأن الطبيعة إذا كانت مقتضية للبرد ، وكانت خالية عن المعاون والمعارض ، وجب انتهاء البرد إلى أقصى الغاية ، ولو كان كذلك لما حصل لها الإحساس بالبرد ؛ لأن البرد الواصل إليه إذا كان فى الغاية كان مثله ، والشيء لا ينفعل عن مثله ، وإذا لم ينفعل عنه لم يحس به، وإذا لم يحس به لم يتألم عنه ، وإن كان دونه فعدم الانفعال يكون أولى ، فلو لم يكن فى البدن جزء مسخن بالطبع لما انفعل عن البرد ، ولا تألم به ، قالوا : وأدلتكم إنما تبطل قول من يقول : الأجزاء النارية باقية فى هذه المركبات على حالها ،وطبيعتها النارية ، ونحن لا نقول بذلك ، بل نقول : إن صورتها النوعية تفسد عند الامتزاج .

قال الآخرون : لم لا يجوز أن يقال : إن الأرض والماء والهواء إذا اختلطت ، فالحرارة المنضجة الطابخة لها هى حرارة الشمس وسائر الكواكب ، ثم ذلك المركب عند كمال نضجه مستعد لقبول الهيئة التركيبية بواسطة السخونة نباتًا كان أو حيوانًا أو معدنًا ، وما المانع أن تلك السخونة والحرارة التى فى المركبات هى بسبب خواص وقوى يحدثها الله تعالى عند ذلك الامتزاج لا من أجزاء نارية بالفعل ؟ ولا سبيل لكم إلى إبطال هذا الإمكان البتة ، وقد اعترف جماعة من فضلاء الأطباء بذلك .

وإما حديث إحساس البدن بالبرد،فنقول : هذا يدل على أن فى البدن حرارة وتسخينًا، ومن ينكر ذلك لكن ما الدليل على انحصار المسخن فى النار،فإنه وإن كان كل نار مسخنًا، فإن هذه القضية لا تنعكس كلية ، بل عكسها الصادق بعض المسخن نار .

وأما قولكم بفساد صورة النار النوعية ، فأكثر الأطباء على بقاء صورتها النوعية ، والقول بفسادها قول فاسد قد اعترف بفساده أفضل متأخريكم فى كتابه المسمى بالشفاء ، وبرهن على بقاء الأركان أجمع على طبائعها فى المركبات ، وبالله التوفيق .

وكان علاجه ﷺ للمرض ثلاثة أنواع :

أحدها : بالأدوية الطبيعية .

والثانى : بالأدوية الإلهية .

والثالث : بالمركب من الأمرين .

وهذا إنما نشير إليه إشارة ، فإن رسول الله ﷺ إنما بعث هاديًا ، وداعيًا إلى الله ، وإلى جنته ، ومعرفًا بالله ، ومبينًا للأمة مواقع رضاه وآمرًا لهم بها ، ومواقع سخطه وناهيًا لهم عنها ، ومخبرهم أخبار الأنبياء والرسل وأحوالهم مع أممهم ، وأخبار تخليق العالم ، وأمر المبدأ والمعاد ، وكيفية شقاوة النفوس وسعادتها ، وأسباب ذلك .

وأما طب الأبدان : فجاء من تكميل شريعته ، ومقصودًا لغيره ، بحيث إنما يستعمل عند الحاجة إليه ، فإذا قدر على الاستغناء عنه ، كان صرف الهمم والقوى إلى علاج القلوب والأرواح ، وحفظ صحتها ، ودفع أسقامها ، وحميتها مما يفسدها هو المقصود بالقصد الأول، وإصلاح البدن بدون إصلاح القلب لا ينفع ، وفساد البدن مع إصلاح القلب مضرته يسيرة جدًا ، وهى مضرة زائلة تعقبها المنفعة الدائمة التامة ، وبالله التوفيق (١) .

## فصل
## فى النهى عن التشاؤم بالمرض

عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا عدوى ولا صفر ولا هامة » . فقال أعرابى : ما بال الإبل تكون فى الرمل كأنها الظباء ، فيخالطها البعير الأجرب فيجربها ؟ قال : « فمن أعدى الأول » (٢) .

قال معمر : قال الزهرى : فحدثنى رجل عن أبى هريرة : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « لا يوردنَّ ممرض على مصحّ » ، قال : فراجعه الرجل ، فقال : أليس قد حدثتنا : أن النبى ﷺ قال : « لا عدوى ، ولا صفر ، ولا هامة ؟ » قال : لم أحدثكموه ، قال الزهرى : قال أبو سلمة : قد حدث به ، وما سمعت أبا هريرة نسى حديثا قط غيره .

وأخرجه البخارى ومسلم مطولا ومختصرا (٣) .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ١٧ ـ ٢٤) .

(٢) أبو داود (٣٩١١) فى الطب ، باب : فى الطيرة .

(٣) البخارى (٥٧٥٧) فى الطب ، باب : لا هامة ، ومسلم (٢٢٢٣) فى السلام ، باب : الطيرة والفأل ، وما يكون فيه من الشؤم .

قيل : « لا يورد ممرض على مصح » منسوخ بقوله ﷺ : « لا عدوى » .

وقيل : ليس بينهما تناف ، ولكن نفى العدوى ، وهى اعتقاد كون بعض الأمراض يفعل فى غيرها بطبيعتها . وأما أن يكون سببًا يخلق البارئ ـ سبحانه وتعالى ـ عندها مرض من وردت عليه ، فلم ينفه ، ونهى أن يورد الممرض على المصح ؛ لئلا تمرض الصحاح من قبل الله جلت قدرته عند ورود الممرض ، فيكون المرض لا لسبب فيها .

وقيل المراد بهذا : الاحتياط على اعتقاد الناس ؛ لئلا يتشاءموا بالمريضة ، ويعتقدوا أنها أمرضت إبلهم ، فيأثموا فى هذا الاعتقاد .

ذهب بعضهم إلى أن قوله: « لا يورد ممرض على مصحّ » منسوخ بقوله: « لا عدوى ».

وهذا غير صحيح ، وهو مما تقدم آنفًا : أن المنهى عنه نوع غير المأذون فيه .

فإن الذى نفاه النبى ﷺ فى قوله : « لا عدوى ولا صفر » هو ما كان عليه أهل الإشراك من اعتقادهم ثبوت ذلك على قياس شركهم ، وقاعدة كفرهم .

والذى نهى عنه النبى ﷺ ـ من إيراد الممرض على المصح ـ فيه تأويلان :

أحدهما : خشية توريط النفوس فى نسبة ما عسى أن يقدره الله تعالى من ذلك إلى العدوى وفيه التشويش على من يورد عليه ، وتعريضه لاعتقاد العدوى ، فلا تنافى بينها بحال .

والتأويل الثانى : أن هذا إنما يدل على أن إيراد الممرض على المصح : قد يكون سببًا يخلق الله تعالى به فيه المرض ، فيكون إيراده سببًا ، وقد يصرف الله سبحانه تأثيره بأسباب تضاده ، أو تمنعه قوة السببية ، وهذا محض التوحيد ، بخلاف ما كان عليه أهل الشرك .

وهذا نظير نفيه ـ سبحانه ـ الشفاعة فى يوم القيامة بقوله : ﴿ **لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ**﴾ [ البقرة : ٢٥٤] فإنه لا تضاد الأحاديث المتواترة المصرحة بإثباتها ، فإنه ـ سبحانه ـ إنما نفى الشفاعة التى كان أهل الشرك يثبتونها ، وهى شفاعة يتقدم فيها الشافع بين يدى المشفوع عنده ، وإن لم يأذن له ، وأما التى أثبتها الله ورسوله : فهى الشفاعة التى تكون من بعد إذنه ، كقوله : ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** ﴾ [ البقرة : ٢٥٥] وقوله : ﴿ **وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى** ﴾ [ الأنبياء : ٢٨] وقوله : ﴿ **وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** ﴾ [ سبأ: ٢٢] والله الموفق للصواب (١).

(١) تهذيب السنن (٥ / ٣٧٥ ـ ٣٧٧) .

## فصل
## فى معرفة الأطباء لقوى الأدوية وطبائعها

الأطباء لا يصلح لهم علم الطب وعمله إلا بمعرفة قوى الأدوية والأمزجة والأغذية وطبائعها ، ونسبة بعضها إلى بعض ، ومقدار تأثير بعضها فى بعض ، وانفعال بعضها عن بعض ، والموازنة بين قوة الدواء وقوة المرض وقوة المريض ، ودفع الضد بضده ، وحفظ ما يريدون حفظه بمثله ومناسبه .

فصناعة الطب وعمله مبنى على معرفة الأسباب والعلل،والقوى والطبائع والخواص ، فلو نفوا ذلك وأبطلوه ، وأحالوا على محض المشيئة وصرف الإرادة المجردة عن الأسباب والعلل ، وجعلوا حقيقة النار مساوية لحقيقة الماء ، وحقيقة الدواء مساوية لحقيقة الغذاء ليس فى أحدهما خاصية ولا قوة يتميز بها عن الآخر : لفسد علم الطب ولبطلت حكمة الله فيه ، بل العالم مربوط بالأسباب والقوى والعلل الفاعلية والغائية (١) .

## فصل
## فى الرعاية الصحية للمولود

ينبغى أن يكون رضاع المولود من غير أمه بعد وضعه يومين أو ثلاثة ، وهو الأجود لما فى لبنها ذلك الوقت من الغلظ والأخلاط ، بخلاف لبن من قد استقلت على الرضاع ، وكل العرب تعتنى بذلك حتى تسترضع أولادها عند نساء البوادى ، كما استرضع النبى ﷺ فى بنى سعد .

وينبغى أن يمنع حملهم والطواف بهم حتى يأتى عليهم ثلاثة أشهر فصاعدًا لقرب عهدهم ببطون الأمهات ، وضعف أبدانهم .

وينبغى أن يقتصر بهم على اللبن وحده إلى نبات أسنانهم لضعف معدتهم وقوتهم الهاضمة عن الطعام ، فإذا نبتت أسنانه قويت معدته ، وتغذى بالطعام ، فإن الله سبحانه أخر إنباتها إلى وقت حاجته إلى الطعام لحكمته ولطفه ، ورحمة منه بالأم وحلمة ثديها ، فلا يعضه الولد بأسنانه .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٤٢) .

وينبغى تدريجهم فى الغذاء ، فأول ما يطعمونهم : الغذاء اللَّيِّن ، فيطعمونهم الخبز المنقوع فى الماء الحار ،واللبن والحليب، ثم بعد ذلك الطبيخ ،والأمراق الخالية من اللحم ، ثم بعد ذلك ما لطف جدًا من اللحم بعد إحكام مضغه ، أو رضّه رضًا ناعمًا .

فإذا قربوا من وقت التكلم ، وأريد تسهيل الكلام عليهم ، فليدلك ألسنتهم بالعسل والملح الأندرانى ؛ لما فيهما من الجلاء للرطوبات الثقيلة المانعة من الكلام ، فإذا كان وقت نطقهم فليلقنوا : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وليكن أول ما يقرع مسامعهم معرفة الله سبحانه ،وتوحيده ، وأنه ـ سبحانه ـ فوق عرشه ينظر إليهم ، ويسمع كلامهم ، وهو معهم أينما كانوا ، وكان بنو إسرائيل كثيرًا ما يسمون أولادهم بـ « عمانويل » ومعنى هذه الكلمة : إلهنا معنا ، ولهذا كان أحب الأسماء إلى الله : عبد الله ، وعبد الرحمن ، بحيث إذا وعى الطفل وعقل ، علم أنه : عبد الله ، وأن الله هو سيده ومولاه .

فإذا حضر وقت نبات الأسنان ، فينبغى أن يدلك لثاهم كل يوم بالزبد والسمن ، ويمرخ خرز العنق تمريخًا كثيرًا ، ويحذر عليهم كل الحذر وقت نباتها إلى حين تكاملها وقوتها من الأشياء الصلبة ، ويمنعون منها كل المنع ، لما فى التمكن منها من تعريض الأسنان لفسادها وتعويجها وخللها .

ولا ينبغى أن يشق على الأبوين بكاء الطفل وصراخه،ولا سيما لشربه اللبن إذا جاع ، فإنه ينتفع بذلك البكاء انتفاعًا عظيمًا،فإنه يروض أعضاءه ويوسع أمعاءه ، ويفسح صدره ، ويسخن دماغه ، ويحمى مزاجه ، ويثير حرارته الغريزية ، ويحرك الطبيعة لدفع ما فيها من الفضول ، ويدفع فضلات الدماغ من المخاط وغيره .

وينبغى ألا يهمل أمر قماطه ورباطه ، ولو شق عليه إلى أن يصلب بدنه ، وتقوى أعضاؤه ، ويجلس على الأرض ، فحينئذ يمرن ويدرب على الحركة والقيام قليلاً قليلاً إلى أن يصير له ملكة وقوة يفعل ذلك بنفسه .

وينبغى أن يوقى الطفل كل أمر يفزعه : من الأصوات الشديدة الشنيعة ، والمناظر الفظيعة ، والحركات المزعجة ، فإن ذلك ربما أدى إلى فساد قوته العاقلة لضعفها ، فلا ينتفع بها بعد كبره ، فإذا عرض له عارض من ذلك ، فينبغى المبادرة إلى تلافيه بضده ، وإيناسه بما ينسيه إياه ، وأن يلقم ثديه فى الحال ، ويسارع إلى رضاعه ليزول عنه ذلك المزعج له ، ولا يرتسم فى قوته الحافظة ، فيعسر زواله ، ويستعمل تمهيده بالحركة اللطيفة إلى أن ينام ، فينسى ذلك ، ولا يهمل هذا الأمر ، فإن فى إهماله إسكان الفزع والروع فى قلبه ، فينشأ على ذلك ، يعسر زواله ويتعذر إسكان الفزع والروع فى قلبه ، فينشأ على

ذلك ، ويعسر زواله ويتعذر .

ويتغير حال المولود عند نبات أسنانه ، ويهيج به القيء ،والحميات ، وسوء الأخلاق ، ولاسيما إذا كان نباتها فى وقت الشتاء والبرد ، أو فى وقت الصيف وشدة الحر ،وأحمد أوقات نباتها : الربيع والخريف ، ووقت نباتها لسبعة أشهر ، وقد تنبت فى الخامس ، وقد تتأخر إلى العاشر ، فينبغى التلطف فى تدبيره وقت نباتها ، وأن يكرر عليه دخول الحمام ، وأن يغذى غذاء يسيراً ، فلا يملأ بطنه من الطعام ، وقد يعرض له انطلاق البطن ، فيعصب بما يكفيه مثل عصابة صوف عليها كمون ناعم ، وكرفس ، وأنيسون ، وتدلك لثته بما تقدم ذكره ، ومع هذا فانطلاق بطنه فى ذلك الوقت خير له من اعتقاله ، فإن كان بطنه معتقلاً عند نبات أسنانه ، فينبغى أن يبادر إلى تليين طبيعته ، فلا شيء أضر على الطفل عند نبات أسنانه من اعتقال طبيعته ، ولا شيء أنفع له من سهولتها باعتدال .

وأحمد ما تلين به ، عسل مطبوخ يتخذ من فتائل ويحمل بها ، أو حبق مسحوق معجون بعسل يتخذ منه فتائل كذلك وينبغى للمرضع فى ذلك الوقت تلطيف طعامها وشرابها ، وتجنب الأغذية المضرة .

## فصل
## فى كيفية فطام الرضيع صحيًا

قال الله تعالى : ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ [ البقرة: ٢٣٣].

فدلت الآية على عدة أحكام :

**أحدها** : أن تمام الرضاع حولين ،وذلك حق للولد إذا احتاج إليه ، ولم يستغن عنه ، وأكدهما « بكاملين » لئلا يحمل اللفظ على حول وأكثر .

**وثانيها** :أن الأبوين إذا أراد فطامه قبل ذلك بتراضيهما وتشاورهما مع عدم مضرة الطفل ، فلهما ذلك .

**وثالثها** : أن الأب إذا أرادا أن يسترضع لولده مرضعة أخرى غير أمه فله ذلك وإن

كرهت الأم ، إلا أن يكون مضاراً بها أو بولدها ، فلا يجاب إلى ذلك ، ويجوز أن تستمر الأم على رضاعه بعد الحولين إلى نصف الثالث ، أو أكثر .

وأحمد أوقات الفطام إذا كان الوقت معتدلاً فى الحر والبرد ، وقد تكامل نبات أسنانه وأضراسه ، وقويت على تقطيع الغذاء وطحنه ، ففطامه عند ذلك الوقت أجود له ، ووقت الاعتدال الخريفى أنفع فى الفطام من وقت الاعتدال الربيعى ، لأنه فى الخريف يستقبل الشتاء ، والهواء يبرد فيه ، والحرارة الغريزية تنشأ فيه وتنمو ، والهضم يزداد قوة ، وكذلك الشهوة .

وينبغى للمرضع إذا أرادت فطامه أن تفطمه على التدريج ، ولا تفاجئه بالفطام وهلة واحدة ، بل تعوده إياه ، وتمرنه عليه ؛ لمضرة الانتقال عن الإلف والعادة مرة واحدة ، كما قال بقراط فى فصوله : استعمال الكبير بغتة مما يملأ البدن ، أو يستفرغه ، أو يسخنه ، أو يبرده ، أو يحركه بنوع آخر من الحركة أى نوع كان ، فهو خطر ، وكلما كان كثيراً فهو معاد للطبيعة ، وكلما كان قليلاً فهو مأمون .

ومن سوء التدبير للأطفال ، أن يمكنوا من الامتلاء من الطعام وكثرة الأكل والشرب ، ومن أنفع التدبير لهم أن يعطوا دون شبعهم ليجود هضمهم وتعتدل أخلاطهم ، وتقل الفضول فى أبدانهم ، وتصح أجسادهم ، وتقل أمراضهم لقلة الفضلات فى المواد الغذائية .

قال بعض الأطباء : وأنا أمدح قومًا ، ذكرهم حيث لا يطعمون الصبيان إلا دون شبعهم ، ولذلك ترتفع قاماتهم ، وتعتدل أجسامهم ، ويقل فيهم ما يعرض لغيرهم من الكزاز ووجع القلب ، وغير ذلك . قال : فإن أحببت أن يكون الصبى حسن الجسد ، مستقيم القامة ، غير منحدب ، فقه كثرة الشبع ، فإن الصبى إذا امتلأ وشبع ، فإنه يكثر النوم من ساعته ويسترخى ، ويعرض له نفخة فى بطنه ، ورياح غليظة .

وقال جالينوس : ولست أمنع هؤلاء الصبيان من شرب الماء البارد أصلا ، لكنى أطلق لهم شربة تعقب الطعام فى أكثر الأمر ، وفى الأوقات الحارة فى زمن الصيف إذا تاقت أنفسهم إليه ، قلت : وهذا لقوة وجود الحار الغريزى فيهم ، ولا يضرهم شرب الماء البارد فى هذه الأوقات ، ولا سيما عقيب الطعام ، فإنه يتعين تمكينهم منه بقدر ، لضعفهم عن احتمال العطش باستيلاء الحرارة .

ومما ينبغى أن يحذر ، أن يحمل الطفل على المشى قبل وقته لما يعرض فى أرجلهم

بسبب ذلك من الانفتال والاعوجاج بسبب ضعفها وقبولها لذلك ، واحذر كل الحذر أن تحبس عنه ما يحتاجه إليه فى قىء ،أو نوم ، أو طعام ، أو شراب ، أو عطاس ، أو بول ، أو إخراج دم ، فإن لحبس ذلك عواقب رديئة فى حق الطفل والكبير (١) .

## فصل

## فى حكم نظر الطبيب إلى بدن المريض ومسه بيده

قال مخلد بن الحسين : حدثنا هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين قال : كان عمر ابن الخطاب يعس بالليل فسمع صوت امرأة تغنى وتقول :

هل من سبيل إلى خمر فاشربها أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

فقال: أما وعمر حى فلا . فلما أصبح بعث إلى نصر بن حجاج ، فإذا رجل جميل فقال : اخرج فلا تساكنى بالمدينة ، فخرج حتى أتى البصرة وكان يدخل على مجاشع ابن مسعود ، وكانت له امرأة جميلة فأعجبها نصر ، فأحبها وأحبته فكان يقعد هو ومجاشع يتحدثان والمرأة معهما ، فكتب لها نصر فى الأرض كتابًا ، فقالت : وأنا ، فعلم مجاشع أنها جواب كلام ، وكان مجاشع لا يكتب والمرأة تكتب ، فدعا بإناء فأكفاه على المكتوب ودعا كاتبا فقرأه فإذا هو : إنى لأحبك حبًا لو كان فوقك لأظلك ولو كان تحتك لأقلك ، وبلغ نصرًا ما صنع مجاشع فاستحيا ولزم بيته وضنى جسمه حتى كان كالفرخ ، فقال مجاشع لامرأته : اذهبى إليه فأسنديه إلى صدرك ، وأطعميه الطعام بيدك ، فأبت ، فعزم عليها فأتته فأسندته إلى صدرها وأطعمته الطعام بيدها ، فلما تحامل خرج من البصرة .

إن الذين بخير كنت تذكرهم هم أهلكوك وعنهم كنت أنهاكا

لا تطلبن شفاء عند غيرهم فليس يحييك إلا من توفاكا

فإن قيل : فهل تبيح الشريعة مثل ذلك ؟ قيل : إذا تعين طريقًا للدواء ونجاة العبد من الهلكة لم يكن بأعظم من مداواة المرأة للرجل الأجنبى ، ومداواته لها ، ونظر الطبيب إلى بدن المريض ومسه بيده للحاجة ، وأما التداوى بالجماع فلا يبيحه الشرع بوجه ما، وأما

(١) تحفة المودود (٢٥٧ ـ ٢٦٣) .

التداوى بالضمّ والقبلة فإن تحقق الشفاء به كان نظير التداوى بالخمر عند من يبيحه(١) ، بل هذا أسهل من التداوى بالخمر ، فإن شربه من الكبائر ، وهذا الفعل من الصغائر (٢) .

## فصل
## فى الغَيْل وأثره على الصحة

عن أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تقتلوا أولادكم سراً، فإن الغيل يدرك الفارس فيدعثره عن فرسه » وأخرجه ابن ماجه (٣) .

وقد روى مسلم فى صحيحه عن سعد بن أبى وقاص : أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إنى أعزل عن امرأتى ، فقال رسول الله ﷺ : « لم تفعل ذلك ؟ » قال : أشفق على ولدها ، أو على أولادها ، فقال رسول الله ﷺ : « لو كان ذلك ضاراً ضر فارس والروم » (٤) .

وهذا الحديث: أصح من حديث أسماء بنت يزيد، وهو حديث شامى يرويه عمرو بن مهاجر عن أبيه المهاجر بن أسلم مولى أسماء بنت يزيد ـ يعد فى الشاميين ـ عن أسماء بنت يزيد، فإن كان صحيحًا فيكون النهى عنه أولا إرشادًا وكراهة، لا تحريمًا والله تعالى أعلم (٥).

## فصل
## فى هديه ﷺ فى العلاج بشرب العسل ، والحجامة ، والكى

فى « صحيح البخارى » عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ ، قال : « الشفاء فى ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار ، وأنا أنهى أمتى عن الكى » (٦) .

قال أبو عبد الله المازرى : الأمراض الامتلائية : إما أن تكون دموية ، أو صفراوية ، أو بلغمية ، أو سوداوية . فإن كانت دموية ، فشفاؤها إخراج الدم ، وإن كانت من

(١) أما قوله : « ونظر الطبيب بدن المريض ومسه بيده للحاجة » ، فهذا مقبول وإن كان أجنبيًا وهى مسلمة ، أما أن يكون من التداوى بالضم والقبلة مظنة تحقق الشفاء ، فأرى أن ابن القيم لو كان نوقش فى هذا لتوقف عنه ، والله تعالى أعلم .

(٢) روضة المحبين (٣٧٨ ـ ٣٨٠) .

(٣) أبو داود (٣٨٣٨) فى الطب، باب: فى الغيل ، وابن ماجه (٢٠١٢) فى النكاح ، باب: الغيل، وضعفه الألبانى .

(٤) مسلم (١٤٤٣ / ١٤٣) فى النكاح ، باب : جواز الغيلة وهى وطء المرضع ، وكراهة العزل .

(٥) تهذيب السنن (٥ / ٣٦١ ، ٣٦٢) .

(٦) البخارى (٥٦٨٠) فى الطب ، باب : الشفاء فى ثلاث .

الأقسام الثلاثة الباقية ، فشفاؤها بالإسهال الذى يليق بكل خلط منها ، وكأنه ﷺ نبه بالعسل على المسهلات ، وبالحجامة على الفصد ، وقد قال بعض الناس : إن الفصد يدخل فى قوله : « شرطه محجم » . فإذا أعيا الدواء ، فآخر الطب الكى ، فذكره ﷺ فى الأدوية ؛ لأنه يستعمل عند غلبة الطباع لقوى الأدوية ، وحيث لا ينفع الدواء المشروب . وقوله : « وأنا أنهى أمتى عن الكى » ، وفى الحديث الآخر، « وما أحب أن أكتوى » (١) ، إشارة إلى أن يؤخر العلاج به حتى تدفع الضرورة إليه ،ولا يعجل التداوى به لما فيه من استعجال الألم الشديد فى دفع ألم قد يكون أضعف من ألم الكى ، انتهى كلامه .

وقال بعض الأطباء : الأمراض المزاجية : إما أن تكون بمادة ، أو بغير مادة ، والمادية منها : إما حارة ، أو باردة ، أو رطبة ، أو يابسة ، أو ما تركب منها ، وهذه الكيفيات الأربع ، منها كيفيتان فاعلتان : وهما الحرارة والبرودة ، وكيفيتان منفعلتان ؛ وهما الرطوبة واليبوسة ،ويلزم من غلبة إحدى الكيفيتين الفاعلتين استصحاب كيفية منفعلة معها ، وكذلك كان لكل واحد من الأخلاط الموجودة فى البدن ، وسائر المركبات كيفيتان : فاعلة ومنفعلة .

فحصل من ذلك أن أصل الأمراض المزاجية هى التابعة لأقوى كيفيات الأخلاط التى هى الحرارة والبرودة ، فجاء كلام النبوة فى أصل معالجة الأمراض التى هى الحارة والباردة على طريق التمثيل ، فإن كان المرض حارًا ، عالجناه بإخراج الدم ، بالفصد كان أو بالحجامة ؛ لأن فى ذلك استفراغًا للمادة ، وتبريدًا للمزاج . وإن كان باردًا عالجناه بالتسخين ، وذلك موجود فى العسل ، فإن كان يحتاج مع ذلك إلى استفراغ المادة الباردة ، فالعسل أيضًا يفعل فى ذلك لما فيه من الإنضاج ، والتقطيع ، والتلطيف ، والجلاء ، والتليين ، فيحصل بذلك استفراغ تلك المادة برفق وأمن من نكاية المسهلات القوية (٢) .

**وأما الكى :**

فلأن كل واحد من الأمراض المادية ، إما أن يكون حادًا فيكون سريع الإفضاء لأحد الطرفين ، فلا يحتاج إليه فيه ، وإما أن يكون مزمنًا ، وأفضل علاجه بعد الاستفراغ الكى فى الأعضاء التى يجوز فيها الكى ؛ لأنه لا يكون مزمنًا إلا عن مادة باردة غليظة قد رسخت فى العضو ، وأفسدت مزاجه ، وأحالت جميع ما يصل إليه إلى مشابهة جوهرها ، فيشتعل فى ذلك العضو ، فيستخرج بالكى تلك المادة من ذلك المكان الذى هو فيه بإفناء الجزء

(١) البخارى (٥٧٠٤) فى الطب ، باب : من اكتوى أو كوى غيره ، ومسلم (٢٢٠٥/ ٧١) فى السلام ، باب : لكل داء دواء ، واستحباب التداوى .
(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٥٠ ، ٥١ ) .

النارى الموجود بالكى لتلك المادة .

فتعلمنا بهذا الحديث الشريف أخذ معالجة الأمراض المادية جميعها ،كما استنبطنا معالجة الأمراض الساذجة من قوله ﷺ:« إن شدة الحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء » (١)(٢) .

**وأما الحجامة :**

ففى « سنن ابن ماجه » من حديث جبارة بن المغلس ، ـ وهو ضعيف ـ عن كثير بن سليم ، قال : سمعت أنس بن مالك يقول : قال رسول الله ﷺ :« ما مررت ليلة أسرى بى بملأ إلا قالوا : يا محمد ، مر أمتك بالحجامة » (٣) .

وروى الترمذى فى « جامعه » من حديث ابن عباس هذا الحديث وقال فيه : « عليك بالحجامة يا محمد » (٤) .

وفى « الصحيحين » : من حديث طاوس ، عن ابن عباس ، أن النبى ﷺ « احتجم وأعطى الحجام أجره » (٥) .

وفى « الصحيحين » أيضًا ، عن حميد الطويل ، عن أنس ، أن رسول الله ﷺ حجمه أبو طيبة ، فأمر له بصاعين من طعام ، وكلم مواليه ، فخففوا عنه من ضريبته ، وقال : « خير ما تداويتم به الحجامة » (٦) .

وفى « جامع الترمذى » عن عباد بن منصور ، قال : سمعت عكرمة يقول : كان لابن عباس غلمة ثلاثة حجامون ، فكان اثنان يغلان عليه ، وعلى أهله ،وواحد لحجمه ، وحجم أهله . قال : وقال ابن عباس : قال نبى الله ﷺ : « نعم العبد الحجام يذهب بالدم ، ويخف الصلب ، ويجلو البصر » ، وقال : إن رسول الله ﷺ حيث عرج به ، ما مر على ملأ من الملائكة إلا قالوا : « عليك بالحجامة » ، وقال : « إن خير ما تحتجمون فيه يوم سبع عشرة ، ويوم تسع عشرة ، ويوم إحدى وعشرين» ، وقال : « إن خير ما تداويتم به السعوط واللدود ، والحجامة والمشى» ، وإن رسول الله ﷺ لد فقال : « من

---

(١) البخارى (٥٧٢٥ ، ٥٧٢٦) فى الطب ، باب : الحمى من فيح جهنم .

(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٥١ ، ٥٢ ) .

(٣) ابن ماجه (٣٤٧٩) فى الطب ، باب : الحجامة .

(٤) الترمذى (٢٠٥٣) فى الطب ، باب : ما جاء فى الحجامة ، وقال : « حسن غريب » ، وضعفه الألبانى .

(٥) البخارى (٥٦٩١) فى الطب ، باب : السعوط ، ومسلم (١٢٠٢ / ٧٦) فى السلام ، باب : لكل داء دواء، واستحباب التداوى .

(٦) البخارى (٥٦٩٦) فى الطب ، باب : الحجامة من الداء ، ومسلم (١٥٧٧ / ٦٢) فى المساقاة ، باب : حل أجرة الحجامة .

لدنى » ؟ فكلهم أمسكوا ، فقال : « لا يبقى أحد فى البيت إلا لد إلا العباس » . قال : هذا حديث غريب ، ورواه ابن ماجه (١) .

**وأما منافع الحجامة** : فإنها تنقى سطح البدن أكثر من الفصد ، والفصد لأعماق البدن أفضل ، والحجامة تستخرج الدم من نواحى الجلد .

قلت : والتحقيق فى أمرها وأمر الفصد ، أنهما يختلفان باختلاف الزمان ، والمكان ، والأسنان ، والأمزجة ، فالبلاد الحارة ، والأزمنة الحارة،والأمزجة الحارة التى دم أصحابها فى غاية النضج الحجامة فيها أنفع من الفصد بكثير ، فإن الدم ينضج ويرق ويخرج إلى سطح الجسد الداخل ، فتخرج الحجامة ما لا يخرجه الفصد ، ولذلك كانت أنفع للصبيان من الفصد ، ولمن لا يقوى على الفصد ، وقد نص الأطباء على أن البلاد الحارة الحجامة فيها أنفع وأفضل من الفصد ، وتستحب فى وسط الشهر ، وبعد وسطه . وبالجملة فى الربع الثالث من أرباع الشهر ، لأن الدم فى أول الشهر لم يكن بعد قد هاج وتبيغ ، وفى آخره يكون قد سكن ، وأما فى وسطه وبعيده ، فيكون فى نهاية التزيد .

قال صاحب القانون : ويؤمر باستعمال الحجامة لا فى أول الشهر ؛ لأن الأخلاط لا تكون قد تحركت وهاجت ، ولا فى آخره لأنها تكون قد نقصت ، بل فى وسط الشهر حين تكون الأخلاط هائجة بالغة فى تزايدها لتزيد النور فى جرم القمر . وقد روى عن النبى ﷺ ، أنه قال : « خير ما تداويتم به الحجامة والفصد » . وفى حديث : « خير الدواء الحجامة والفصد » (٢) انتهى.

وقوله ﷺ : « خير ما تداويتم به الحجامة » إشارة إلى أهل الحجاز والبلاد الحارة ، لأن دماءهم رقيقة ، وهى أميل إلى ظاهر أبدانهم لجذب الحرارة الخارجة لها إلى سطح الجسد ، واجتماعها فى نواحى الجلد ، ولأن مسام أبدانهم واسعة ، وقواهم متخلخلة ، ففى الفصد لهم خطر ، والحجامة تفرق اتصالى إرادى يتبعه استفراغ كلى من العروق ، وخاصة العروق التى لا تفصد كثيرًا ،ولفصد كل واحد منها نفع خاص ، ففصد الباسليق : ينفع من حرارة الكبد والطحال والأورام الكائنة فيهما من الدم ، وينفع من أورام الرئة ، وينفع من الشوصة وذات الجنب وجميع الأمراض الدموية العارضة من أسفل الركبة إلى الورك .

---

(١) الترمذى (٢٠٥٣) فى الطب ، باب : ما جاء فى الحجامة ، وقال : « حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث عباد بن منصور » ، وابن ماجه (٣٤٧٨) فى الطب ، باب : الحجامة ، وضعفه الألبانى .

(٢) سبق تخريجه ص ٨٨ .

وفصد الأكحل : ينفع من الامتلاء العارض فى جميع البدن إذا كان دمويًا ، وكذلك إذا كان الدم قد فسد فى جميع البدن .

وفصد القيفال : ينفع من العلل العارضة فى الرأس والرقبة من كثرة الدم أو فساده .

وفصد الودجين : ينفع من وجع الطحال ، والربو ، والبهر ، ووجع الجبين .

والحجامة على الكاهل : تنفع من وجع المنكب والحلق .

والحجامة على الأخدعين : تنفع من أمراض الرأس ، وأجزائه ، كالوجه والأسنان والأذنين والعينين والأنف والحلق ، وإذا كان حدوث ذلك عن كثرة الدم أو فساده ، أو عنهما جميعًا . قال أنس رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ يحتجم فى الأخدعين والكاهل (١) .

وفى « الصحيحين » عنه : كان رسول الله ﷺ يحتجم ثلاثًا : واحدة على كاهله ، واثنتين على الأخدعين (٢) .

وفى « الصحيح» : عنه ، أنه احتجم وهو محرم فى رأسه لصداع كان به (٣) .

وفى « سنن ابن ماجه » عن على ، نزل جبريل على النبى ﷺ بحجامة الأخدعين والكاهل (٤).

وفى « سنن أبى داود » من حديث جابر ، أن النبى ﷺ احتجم فى وركه من وثءٍ كان به (٥) .

واختلف الأطباء فى الحجامة على نقرة القفا ، وهى القمحدوة .

وذكر أبو نعيم فى كتاب الطب النبوى حديثًا مرفوعًا : « عليكم بالحجامة فى جوزة القمحدوة ، فإنها تشفى من خمسة أدواءٍ » ، ذكر منها الجذام (٦) .

وفى حديث آخر : « عليكم بالحجامة فى جوزة القمحدوة ؛ فإنها شفاء من اثنين

---

(١) أبو داود (٣٨٦٠) فى الطب ، باب : فى موضع الحجامة ، و الترمذى (٢٠٥١) فى الطب ، باب : ما جاء فى الحجامة ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٣٤٨٣) فى الطب ، باب : موضع الحجامة .

(٢) الحديث وهم المؤلف رحمه الله فى عزوه إلى الصحيحين فإنه لم يخرجه إلا أصحاب السنن واستدركه الحاكم على البخارى ومسلم فى مستدركه ٤ / ٢١٠ ، وقال : « حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » .

(٣) البخارى (٥٦٩٩) فى الطب ، باب : الحجامة على الرأس .

(٤) ابن ماجه (٣٤٨٢) فى الطب ، باب : موضع الحجامة ، وفى الزوائد : « فى إسناده أسبغ بن نباتة الحنظلى وهو ضعيف » .

(٥) أبو داود (٣٨٦٣) فى الطب ، باب : متى تستحب الحجامة .

(٦) الجامع الصغير للسيوطى (٥٥٢٠) ، وعزاه إلى أبى نعيم .

وسبعين داء » (١) .

فطائفة منهم استحسنته وقالت : إنها تنفع من جحظ العين ، والنتوء العارض فيها ، وكثير من أمراضها ، ومن ثقل الحاجبين والجفن ، وتنفع من جربه. وروى أن أحمد بن حنبل احتاج إليها ، فاحتجم فى جانبى قفاه ، ولم يحتجم فى النقرة ، وممن كرهها صاحب « القانون » وقال : إنها تورث النسيان حقًا ، كما قال سيدنا ومولانا وصاحب شريعتنا محمد ﷺ ، فإن مؤخر الدماغ موضع الحفظ ، والحجامة تذهبه ، انتهى كلامه .

ورد عليه آخرون ، وقالوا : الحديث لا يثبت ، وإن ثبت فالحجامة إنما تضعف مؤخر الدماغ إذا استعملت لغير ضرورة ، فأما إذا استعملت لغلبة الدم عليه ، فإنها نافعة له طبًا وشرعًا ، فقد ثبت عن النبى ﷺ أنه احتجم فى عدة أماكن من قفاه بحسب ما اقتضاه الحال فى ذلك ، واحتجم فى غير القفا بحسب ما دعت إليه حاجته .

والحجامة تحت الذقن تنفع من وجع الأسنان والوجه والحلقوم ، إذا استعملت فى وقتها ، وتنقى الرأس والفكين ، والحجامة على ظهر القدم تنوب عن فصد الصافن ، وهو عرق عظيم عند الكعب ، وتنفع من قروح الفخذين والساقين ، وانقطاع الطمث ، والحكة العارضة فى الأنثيين،والحجامة فى أسفل الصدر نافعة من دماميل الفخذ ، وجربه وبثوره ، ومن النقرس والبواسير ، والفيل وحكة الظهر (٢) .

## فصل
## فى هديه فى أوقات الحجامة

روى الترمذى فى « جامعه » : من حديث ابن عباس يرفعه : « إن خير ما تحتجمون فيه يوم سابع عشرة ، أو تاسع عشرة ، ويوم إحدى وعشرين » (٣) .

وفيه عن أنس: كان رسول الله ﷺ يحتجم فى الأخدعين والكاهل ، وكان يحتجم لسبعة عشر ، وتسعة عشر ، وفى إحدى وعشرين (٤) .

وفى « سنن ابن ماجه » عن أنس مرفوعًا : « من أراد الحجامة فليتحر سبعة عشر ، أو تسعة عشر ، أو إحدى وعشرين ، لا يتبيغ بأحدكم الدم فيقتله » (٥) .

(١) الطبرانى فى الكبير ٨ / ٤٢ (٧٣٠٦) ، وقال الهيثمى فى المجمع ٥ / ٩٧ : « رجاله ثقات » .
(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٥٢ ـ ٥٨ ) .
(٣) الترمذى (٢٠٥٣) فى الطب ، باب : ما جاء فى الحجامة ، وقال :« حسن غريب » ، وضعفه الألبانى .
(٤) الترمذى (٢٠٥١) فى الطب ، باب : ما جاء فى الحجامة ، وقال : « حسن غريب » .
(٥) ابن ماجه (٣٤٨٦) فى الطب ، باب : فى أى الأيام يحتجم ، وفى الزوائد : « إن الإسناد ضعيف لضعف النهاس بن قهم » .

وفى « سنن أبى دواد » من حديث أبى هريرة مرفوعًا : « من احتجم لسبع عشرة ، أو تسع عشرة ، أو إحدى وعشرين ، كانت شفاء من كل داءٍ »(١) ، وهذا معناه من كل داء سببه غلبة الدم .

وهذه الأحاديث موافقة لما أجمع عليه الأطباء ، أن الحجامة فى النصف الثانى ، وما يليه من الربع الثالث من أرباعه أنفع من أوله وآخره ، وإذا استعملت عند الحاجة إليها نفعت أى وقت كان من أول الشهر وآخره .

قال الخلال : أخبرنى عصمة بن عصام ، قال : حدثنا حنبل ، قال : كان أبو عبد الله أحمد بن حنبل يحتجم أى وقت هاج به الدم ، وأى ساعة كانت .

وقال صاحب « القانون » : أوقاتها فى النهار : الساعة الثانية أو الثالثة ، ويجب توقيها بعد الحمام إلا فيمن دمه غليظ ،فيجب أن يستحم ، ثم يستجم ساعة ، ثم يحتجم ، انتهى .

وتكره عندهم الحجامة على الشبع ، فإنها ربما أورثت سددًا وأمراضًا رديئة ، لا سيما إذا كان الغذاء رديئًا غليظًا . وفى أثر : « الحجامة على الريق دواء ، وعلى الشبع داء ، وفى سبعة عشر من الشهر شفاء » .

واختيار هذه الأوقات للحجامة ، فيما إذا كانت على سبيل الاحتياط والتحرز من الأذى ، وحفظًا للصحة . وأما فى مداواة الأمراض ، فحيثما وجد الاحتياج إليها وجب استعمالها ، وفى قوله : « لا يتبيغ بأحدكم الدم فيقتله » ، دلالة على ذلك ، يعنى لئلا يتبيغ فحذف حرف الجر مع ( أن ) ، ثم حذفت ( أن ) ، والتبيغ : الهيج ، وهو مقلوب البغى ، وهو بمعناه ؛ فإنه بغى الدم وهيجانه ، وقد تقدم أن الإمام أحمد كان يحتجم أى وقت احتاج من الشهر .

وأما اختيار أيام الأسبوع للحجامة ، فقال الخلال فى « جامعه » : أخبرنا حرب بن إسماعيل ، قال : قلت لأحمد : تكره الحجامة فى شىء من الأيام ؟ قال : قد جاء فى الأربعاء والسبت .

وفيه: عن الحسين بن حسان ،أنه سأل أبا عبد الله عن الحجامة: أى يوم تكره ؟ فقال : فى يوم السبت ، ويوم الأربعاء ، ويقولون : يوم الجمعة .

وروى الخلال ، عن أبى سلمة وأبى سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة مرفوعًا : « من

(١) أبو داود (٣٨٦١) فى الطب ، باب : متى تستحب الحجامة .

احتجم يوم الأربعاء أو يوم السبت ، فأصابه بياض أو برص ، فلا يلومن إلا نفسه » (١) .

وقال الخلال : أخبرنا محمد بن على بن جعفر ، أن يعقوب بن بختان حدثهم ، قال : سئل أحمد عن النورة والحجامة يوم السبت ويوم الأربعاء ، فكرهها . وقال : بلغنى عن رجل أنه تنور ، واحتجم ـ يعنى يوم الأربعاء ـ فأصابه البرص . قلت له : كأنه تهاون بالحديث ؟ قال : نعم .

وفى كتاب « الأفراد للدارقطنى » ، من حديث نافع قال : قال لى عبد الله بن عمر : تبيغ بى الدم ، فابغ لى حجامًا ، ولا يكن صبيًا ولا شيخًا كبيرًا ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحجامة تزيد الحافظ حفظًا ، والعاقل عقلاً ، فاحتجموا على اسم الله تعالى ، ولا تحتجموا الخميس ، والجمعة ، والسبت والأحد ، واحتجموا الاثنين ، وما كان من جذام ولا برص ، إلا نزل يوم الأربعاء » (٢) . قال الدارقطنى : تفرد به زياد بن يحيى ، وقد رواه أيوب عن نافع ، وقال فيه : « واحتجموا يوم الاثنين والثلاثاء ، ولا تحتجموا يوم الأربعاء » (٣) .

وقد روى أبو داود فى « سننه » من حديث أبى بكرة ، أنه كان يكره الحجامة يوم الثلاثاء ، وقال : إن رسول الله ﷺ قال : « يوم الثلاثاء يوم الدم وفيه ساعة لا يرقأ فيها الدم » (٤) .

وفى ضمن هذه الأحاديث المتقدمة استحباب التداوى ، واستحباب الحجامة ، وأنها تكون فى الموضع الذى يقتضيه الحال ، وجواز احتجام المحرم ، وإن آل إلى قطع شىء من الشعر ، فإن ذلك جائز ، وفى وجوب الفدية عليه نظر ، ولا يقوى الوجوب ، وجواز احتجام الصائم ، فإن فى « صحيح البخارى » أن رسول الله ﷺ احتجم وهو صائم (٥) ، ولكن هل يفطر بذلك ، أم لا ؟ مسألة أخرى ، الصواب : الفطر بالحجامة ؛ لصحته عن رسول الله ﷺ من غير معارض ، وأصح ما يعارض به حديث حجامته وهو صائم ؛ ولكن لا يدل على عدم الفطر إلا بعد أربعة أمور . أحدها : أن الصوم كان فرضًا . الثانى : أنه كان مقيمًا . الثالث : أنه لم يكن به مرض احتاج معه إلى الحجامة . الرابع : أن هذا

---

(١) الحاكم فى المستدرك (٤ / ٤٠٩) وسكت عنه ، وقال الذهبى : « سليمان بن أرقم متروك » ، والبيهقى فى الكبرى (٩ / ٣٤٠) .

(٢ ، ٣) ابن ماجه (٣٤٨٧ ، ٣٤٨٨) فى الطب ، باب : فى أى الأيام يحتجم ، والحاكم فى المستدرك (٤ / ٤٠٩) ، وقال : « رواة هذا الحديث كلهم ثقات غير عثمان بن جعفر هذا فإنى لا أعرفه بعدالة ولا جرح » .

(٤ ، ٥) البخارى (٥٦٩٤) فى الطب ، باب : أى ساعة يحتجم ؟ واحتجم أبو موسى ليلاً ، وأبو داود (٢٣٧٢) فى الصوم ، باب : فى الرخصة فى ذلك ، والترمذى (٧٧٥) فى الصوم ، باب : ما جاء من الرخصة فى ذلك .

الحديث متأخر عن قوله : « أفطر الحاجم والمحجوم » (١) .

فإذا ثبتت هذه المقدمات الأربع ، أمكن الاستدلال بفعله ﷺ على بقاء الصوم مع الحجامة ، وإلا فما المانع أن يكون الصوم نفلا يجوز الخروج منه بالحجامة وغيرها ، أو من رمضان لكنه فى السفر ، أو من رمضان فى الحضر ، لكن دعت الحاجة إليها كما تدعو حاجة من به مرض إلى الفطر ،أو يكون فرضًا من رمضان فى الحضر من غير حاجة إليها ، لكنه مبقى على الأصل ، وقوله : « أفطر الحاجم والمحجوم » ناقل ومتأخر ، فيتعين المصير إليه ، ولا سبيل إلى إثبات واحدة من هذه المقدمات الأربع ، فكيف بإثباتها كلها .

وفيها دليل على استئجار الطبيب وغيره من غير عقد إجارة ، بل يعطيه أجرة المثل ، أو ما يرضيه .

وفيها دليل على جواز التكسب بصناعة الحجامة ، وإن كان لا يطيب للحر أكل أجرته من غير تحريم عليه ، فإن النبى ﷺ أعطاه أجره ، ولم يمنعه من أكله ، وتسميته إياه خبيثًا كتسميته للثوم والبصل خبيثين ، ولم يلزم من ذلك تحريمهما .

وفيها دليل على جواز ضرب الرجل الخراج على عبده كل يوم شيئًا معلومًا بقدر طاقته، وأن للعبد أن يتصرف فيما زاد على خراجه ، ولو منع من التصرف ، لكان كسبه كله خراجًا ولم يكن لتقديره فائدة ، بل ما زاد على خراجه ، فهو تمليك من سيده له يتصرف فيه كما أراد ، والله أعلم (٢) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى قطع العروق والكى

ثبت فى « الصحيح » من حديث جابر بن عبد الله ، أن النبى ﷺ بعث إلى أبى بن كعب طبيبا ، فقطع له عرقًا وكواه عليه (٣).

ولما رمى سعد بن معاذ فى أكحله حسمه النبى ﷺ ثم ورمت ، فحسمه الثانية (٤) . والحسم : هو الكى .

---

(١) البخارى معلقًا ( الفتح ٤ / ١٧٤) فى الصوم ، باب : فى الحجامة والقىء للصائم ، وأبو داود (٢٣٧١) فى الصوم ، باب : فى الصائم يحتجم ، وابن ماجه (١٦٨٠) فى الصيام ، باب : ما جاء فى الحجامة للصائم .

(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٥٨ ـ ٦٣ ) .

(٣) مسلم (٢٢٠٧ / ٧٣) فى السلام ، باب : لكل داء دواء ، واستحباب التداوى .

(٤) مسلم (٢٢٠٨ / ٧٥) فى السلام ، باب : لكل داء دواء ، واستحباب التداوى ، وأحمد ٣ / ٣١٢ ، ٣٨٦ .

وفى طريق آخر : أن النبى ﷺ كوى سعد بن معاذ فى أكحله بمشقص ، ثم حسمه سعد بن معاذ أو غيره من أصحابه .

وفى لفظ آخر : أن رجلا من الأنصار رمى فى أكحله بمشقص ، فأمر النبى ﷺ به فكوى .

وقال أبو عبيد: وقد أتى النبى ﷺ برجل نعت له الكى، فقال: « اكووه وارضفوه » (١). قال أبوعبيد : الرضف : الحجارة تسخن ، ثم يكمد بها .

وقال الفضل بن دكين : حدثنا سفيان ، عن أبى الزبير ، عن جابر: أن النبى ﷺ كواه فى أكحله .

وفى « صحيح البخارى » من حديث أنس، أنه كوى من ذات الجنب والنبى ﷺ حى(٢) .

وفى الترمذى ، عن أنس ، أن النبى ﷺ « كوى أسعد بن زرارة من الشوكة » (٣) ، وقد تقدم الحديث المتفق عليه وفيه : « وما أحب أن أكتوى » (٤) وفى لفظ آخر : « وأنا أنهى أمتى عن الكى » (٥) .

وفى « جامع الترمذى » وغيره عن عمران بن حصين ، أن النبى ﷺ نهى عن الكى قال : فابتلينا فاكتوينا فما أفلحنا ، ولا أنجحنا . وفى لفظ : نهينا عن الكى ، وقال : فما أفلحن ولا أنجحن (٦) .

قال الخطابى : إنما كوى سعدًا ليرقأ الدم من جرحه ، وخاف عليه أن ينزف فيهلك . والكى مستعمل فى هذا الباب ، كما يكوى من تقطع يده أو رجله .

وأما النهى عن الكى ، فهو أن يكتوى طلبًا للشفاء ، وكانوا يعتقدون أنه متى لم يكتو ، هلك ، فنهاهم عنه لأجل هذه النية .

---

(١) المصنف لعبد الرزاق (١٩٥١٧) .
(٢) البخارى (٥٧١٩ ـ ٥٧٢١) فى الطب ، باب : ذات الجنب .
(٣) الترمذى (٢٠٥٠) فى الطب ، باب : ما جاء فى الرخصة فى ذلك ، وقال : « حسن غريب » .
(٤) البخارى (٥٧٠٤) فى الطب ، باب : من اكتوى أو كوى غيره ، وفضل من لم يكتو ، ومسلم (٢٢٠٥ / ٧١) فى السلام ، باب : لكل داء دواء ، واستحباب التداوى
(٥) سبق تخريجه ص ٨٦ .
(٦) الترمذى (٢٠٤٩) فى الطب ، باب : ما جاء فى كراهية التداوى بالكى ، وقال : « حسن صحيح » ، وأبو داود (٣٨٦٥) فى الطب ، باب : فى الكى ، وابن ماجه (٣٤٩٠) فى الطب ، باب : الكى .

وقيل : إنما نهى عنه عمران بن حصين خاصة ؛ لأنه كان به ناصور ، وكان موضعه خطرًا ، فنهاه عن كيه ، فيشبه أن يكون النهى منصرفًا إلى الموضع المخوف منه ، والله أعلم .

وقال ابن قتيبة : الكى جنسان : كى الصحيح لئلا يعتل ، فهذا الذى قيل فيه : لم يتوكل من اكتوى ؛ لأنه يريد أن يدفع القدر عن نفسه .

والثانى : كى الجرح إذا نغل ، والعضو إذا قطع ، ففى هذا الشفاء .

وأما إذا كان الكى للتداوى الذى يجوز أن ينجع ، ويجوز ألا ينجع ، فإنه إلى الكراهة أقرب . انتهى .

وثبت فى « الصحيح » فى حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب أنهم «الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » (١) .

فقد تضمنت أحاديث الكى أربعة أنواع ، أحدها : فعله ؛ والثانى : عدم محبته له ، والثالث : الثناء على من تركه ،والرابع : النهى عنه ، ولا تعارض بينها بحمد الله تعالى ، فإن فعله يدل على جوازه ، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه . وأما الثناء على تاركه ، فيدل على أن تركه أولى وأفضل ، وأما النهى عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة ، أو عن النوع الذى لا يحتاج إليه ، بل يفعل خوفًا من حدوث الداء ، والله أعلم (٢) .

## فصل
## فى التأكيد على الشفاء بالعسل

الشفاء الحاصل من العسل قد حرمه الله كثيرا من الناس ، حتى صاروا يذمونه ويخشون غائلته من حرارته وحدته .ولا ريب أن كونه شفاء ، وكون القرآن شفاء ، والصلاة شفاء ، وذكر الله والإقبال عليه شفاء ، أمر لا يعم الطبائع والأنفس . فهذا كتاب الله هو الشفاء النافع ، وهو أعظم الشفاء ، وما أقل المستشفين به ، بل لا يزيد الطبائع الرديئة إلا رداءة ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا ، وكذلك ذكر الله والإقبال عليه والإنابة إليه والفزع إلى الصلاة كم قد شفى به من عليل ، وكم قد عوفى به من مريض ، وكم قام

(١) البخارى (٥٧٥٢) فى الطب ، باب : من لم يرق ، ومسلم (٢٢٠/ ٣٧٤) فى الإيمان ، باب : الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب

(٢) زاد المعاد (٤ / ٦٣ ـ ٦٦) .

مقام كثير من الأدوية التى لا تبلغ قريبًا من مبلغه فى الشفاء . وأنت ترى كثيرًا من الناس بل أكثرهم لا نصيب لهم من الشفاء بذلك أصلا ، ولقد رأيت فى بعض كتب الأطباء المسلمين فى ذكر الأدوية المفردة ذكر الصلاة ، ذكرها فى باب الصاد ، وذكر من منافعها فى البدن التى توجب الشفاء وجوها عديدة ، ومن منافعها فى الروح والقلب . وسمعت شيخنا أبا العباس ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول وقد عرض له بعض الألم ، فقال له الطبيب : أضر ما عليك الكلام فى العلم والفكر فيه والتوجه والذكر ، فقال : ألستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها لها قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض فإنه عدوها ، فإذا قويت عليه قهرته ؟ فقال له الطبيب : بلى ، فقال : إذا اشتغلت نفسى بالتوحه والذكر والكلام فى العلم وظفرت بما يشكل عليها منه فرحت به وقويت ، فأوجب ذلك دفع العارض هذا أو نحوه من الكلام .

والمقصود أن ترك كثير من الناس الاستشفاء بالعسل لا يخرجه عن كونه شفاء ، كما أن ترك أكثرهم الاستشفاء بالقرآن من أمراض القلوب لا يخرجه عن كونه شفاء لها ، وهو شفاء لما فى الصدور وإن لم يستشف به أكثر المرضى ، كما قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس ] فعم بالموعظة والشفاء وخص بالهدى والمعرفة ، فهو نفسه شفاء استشفى به أو لم يستشف به ، ولم يصف الله فى كتابه بالشفاء إلا القرآن والعسل ، فهما الشفاءان ، هذا شفاء القلوب من أمراض غيها وضلالها وأدواء شبهاتها وشهواتها ، وهذا شفاء للأبدان من كثير من أسقامها وأخلاطها وآفاتها . ولقد أصابنى أيام مقامى بمكة أسقام مختلفة ، ولا طبيب هناك ولا أدوية كما فى غيرها من المدن ، فكنت أستشفى بالعسل وماء زمزم ، ورأيت فيهما من الشفاء أمرًا عجيبًا . وتأمل إخباره ـ سبحانه وتعالى ـ عن القرآن بأنه نفسه شفاء ، وقال عن العسل ﴿ **فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ** ﴾ وما كان نفسه شفاء أبلغ مما جعل فيه شفاء ، وليس هذا موضع استقصاء فوائد العسل ومنافعه (١) .

## فصل
## فى بيان معنى نهى النبى ﷺ عن الكىّ

عن مطرف ـ وهو ابن طريف ـ عن عمران بن حصين رضي الله عنهما ، قال : نهى النبى ﷺ

(١) مفتاح دار السعادة (١ / ٢٥٠) .

عن الكى ، فاكتوينا ، فما أفلحنا ولا أنجحنا (١) .

وأخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث الحسن البصرى عن عمران (٢) .

ولفظ الترمذى : أن رسول الله ﷺ نهى عن الكى ، قال : فابتلينا فاكتوينا ، فما أفلحنا ولا أنجحنا .

ولفظ ابن ماجه : نهى رسول الله ﷺ فاكتويت ، فما أفلحت ولا أنجحت . وقال الترمذى : حسن صحيح .

وفيما قاله نظر . فقد ذكر غير واحد من الأئمة : أن الحسن لم يسمع من عمران بن حصين .

ذكر المنذرى قول الترمذى : حسن صحيح ، قال : وفيما قاله نظر ، وقد ذكر غير واحد من الأئمة : أن الحسن لم يسمع من عمران بن حصين .

وأخرجه ابن حبان فى صحيحه (٣) ، ثم قال بعده : الزجر عن الكى فى حديث عمران بن حصين : إنما هو عن الابتداء به من غير علة توجبه ، كما كانت العرب تفعله ، تريد به الوشم ، وحديث جابر فيه : إباحة استعماله لعلة تحدث من غير الاتكال عليه فى برئها، وفى هذا نظر .

وقالت طائفة: النهى من باب ترك الأولى؛ ولهذا جاء فى حديث السبعين الألف: « أنهم لا يكتوون ولا يسترقون » (٤) وفعله يدل على إباحته .

وهذا أقرب الأقوال . وحديث عمران يدل عليه ، فإنه قال : نهانا عن الكى فاكتوينا فلو كان نهيه للتحريم ، لم يقدموا عليه ، والله أعلم (٥) .

## فصل

## فى هديه ﷺ فى معالجة المرضى بترك إعطائهم ما يكرهونه من الطعام والشراب ، وأنهم لا يُكرهون على تناولهما

روى الترمذى فى « جامعه » ، وابن ماجه ، عن عقبة بن عامر الجهنى ، قال : قال

---

(١) أبو داود (٣٨٦٥) فى الطب ، باب : فى الكى .

(٢) سبق تخريجه ص ٩٥ .

(٣) ابن حبان (٦٠٤٩) .

(٤) سبق تخريجه ص ٩٦ .

(٥) تهذيب السنن (٥ / ٣٥٠ ، ٣٥١) .

رسول الله ﷺ : « لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب ، فإن الله عز وجل يطعمهم ويسقيهم » (١) .

قال بعض فضلاء الأطباء: ما أغزر فوائد هذه الكلمة النبوية المشتملة على حكم إلهية ، لا سيما للأطباء ، ولمن يعالج المرضى ، وذلك أن المريض إذا عاف الطعام أو الشراب ، فذلك لاشتغال الطبيعة بمجاهدة المرض ، أو لسقوط شهوته ، أو نقصانها لضعف الحرارة الغريزية أو خمودها ، وكيفما كان فلا يجوز حينئذ إعطاء الغذاء فى هذه الحالة .

واعلم أن الجوع إنما هو طلب الأعضاء للغذاء لتخلف الطبيعة به عليها عوض ما يتحلل منها ، فتجذب الأعضاء القصوى من الأعضاء الدنيا حتى ينتهى الجذب إلى المعدة ، فيحس الإنسان بالجوع ، فيطلب الغذاء ، وإذا وجد المرض ، اشتغلت الطبيعة بمادته وإنضاجها وإخراجها عن طلب الغذاء ،أو الشراب ، فإذا أكره المريض على استعمال شىء من ذلك ، تعطلت به الطبيعة عن فعلها ، واشتغلت بهضمه وتدبيره عن إنضاج مادة المرض ودفعه ، فيكون ذلك سببًا لضرر المريض ، ولاسيما فى أوقات البحران ، أو ضعف الحار الغريزى أو خموده،فيكون ذلك زيادة فى البلية، وتعجيل النازلة المتوقعة ، ولا ينبغى أن يستعمل فى هذا الوقت والحال إلا ما يحفظ عليه قوته ويقويها من غير استعمال مزعج للطبيعة البتة ، وذلك يكون بما لطف قوامه من الأشربة والأغذية ، واعتدل مزاجه كشراب اللينوفر ، والتفاح ، والورد الطرى ، وما أشبه ذلك ، ومن الأغذية مرق الفراريج المعتدلة الطيبة فقط،وإنعاش قواه بالأراييح العطرة الموافقة ،والأخبار السارة ، فإن الطبيب خادم الطبيعة ، ومعينها لا معيقها .

واعلم أن الدم الجيد هو المغذى للبدن ، وأن البلغم دم فج قد نضج بعض النضج ، فإذا كان بعض المرضى فى بدنه بلغم كثير،وعدم الغذاء ، عطفت الطبيعة عليه ، وطبخته ، وأنضجته ، وصيرته دمًا ، وغذت به الأعضاء ، واكتفت به عما سواه ، والطبيعة هى القوة التى وكلها الله سبحانه بتدبير البدن وحفظه وصحته ، وحراسته مدة حياته .

واعلم أنه قد يحتاج فى الندرة إلى إجبار المريض على الطعام والشراب ، وذلك فى الأمراض التى يكون معها اختلاط العقل ،وعلى هذا فيكون الحديث من العام المخصوص ، أو من المطلق الذى قد دل على تقييده دليل ، ومعنى الحديث : أن المريض قد يعيش بلا غذاء أيامًا لا يعيش الصحيح فى مثلها .

---

(١) الترمذى (٢٠٤٠) فى الطب، باب: ما جاء لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب وقال : « حسن غريب »، وابن ماجه (٣٤٤٤) فى الطب ، باب: لا تكرهوا المريض على الطعام ،وحسنه الألبانى (صحيح الجامع ٧٣١٦).

وفى قوله ﷺ : « فإن الله يطعمهم ويسقيهم » معنى لطيف زائد على ما ذكره الأطباء لا يعرفه إلا من له عناية بأحكام القلوب والأرواح ، وتأثيرها فى طبيعة البدن ، وانفعال الطبيعة عنها ، كما تنفعل هى كثيرًا عن الطبيعة ، ونحن نشير إليه إشارة ، فنقول : النفس إذا حصل لها ما يشغلها من محبوب أو مكروه أو مخوف ، اشتغلت به عن طلب الغذاء والشراب ، فلا تحس بجوع ولا عطش ، بل ولا حر ولا برد ، بل تشتغل به عن الإحساس المؤلم الشديد الألم ،فلا تحس به ، وما من أحد إلا وقد وجد فى نفسه ذلك أو شيئًا منه ، وإذا اشتغلت النفس بما دهمها ، وورد عليها ، لم تحس بألم الجوع ، فإن كان الوارد مفرحًا قوى التفريح ، قام لها مقام الغذاء ، فشبعت به ، وانتعشت قواها ، وتضاعفت ، وجرت الدموية فى الجسد حتى تظهر فى سطحه ، فيشرق وجهه ، وتظهر دمويته ، فإن الفرح يوجب انبساط دم القلب ، فينبعث فى العروق ، فتمتلئ به ، فلا تطلب الأعضاء حظها من الغذاء المعتاد لاشتغالها بما هو أحب إليها ، وإلى الطبيعة منه ، والطبيعة إذا ظفرت بما تحب، آثرته على ما هو دونه .

وإن كان الوارد مؤلمًا أو محزنًا أو مخوفًا ، اشتغلت بمحاربته ومقاومته ومدافعته عن طلب الغذاء ، فهى فى حال حربها فى شغل عن طلب الطعام والشراب . فإن ظفرت فى هذا الحرب ، انتعشت قواها ، وأخلفت عليها نظير ما فاتها من قوة الطعام والشراب ، وإن كانت مغلوبة مقهورة ، انحطت قواها بحسب ما حصل لها من ذلك ، وإن كانت الحرب بينها وبين هذا العدو سجالا ، فالقوة تظهر تارة وتختفى أخرى ، وبالجملة فالحرب بينهما على مثال الحرب الخارج بين العدوين المتقاتلين ، والنصر للغالب ، والمغلوب إما قتيل ، وإما جريح ، وإما أسير .

فالمريض : له مدد من الله تعالى يغذيه به زائدًا على ما ذكره الأطباء من تغذيته بالدم ، وهذا المدد بحسب ضعفه وانكساره وانطراحه بين يدى ربه عز وجل ، فيحصل له من ذلك ما يوجب له قربًا من ربه ، فإن العبد أقرب ما يكون من ربه إذا انكسر قلبه ، ورحمة ربه عندئذ قريبة منه ،فإن كان وليًا له ، حصل له من الأغذية القلبية ما تقوى به قوى طبيعته ، وتنتعش به قواه أعظم من قوتها،وانتعاشها بالأغذية البدنية ، وكلما قوى إيمانه وحبه لربه ، وأنسه به ، وفرحه به ، وقوى يقينه بربه ، واشتد شوقه إليه ورضاه به وعنه ، وجد فى نفسه من هذه القوة ما لا يعبر عنه ، ولا يدركه وصف طبيب ، ولا يناله علمه .

ومن غلظ طبعه ، وكثفت نفسه عن فهم هذا والتصديق به ، فلينظر حال كثير من عشاق الصور الذين قد امتلأت قلوبهم بحب ما يعشقونه من صورة ، أو جاه ، أو مال ،

أو علم ، وقد شاهد الناس من هذا عجائب فى أنفسهم وفى غيرهم .

وقد ثبت فى « الصحيح » : عن النبى ﷺ أنه كان يواصل فى الصيام . الأيام ذوات العدد ، وينهى أصحابه عن الوصال ويقول : « لست كهيئتكم إنى أظل يطعمنى ربى ويسقينى » (١) .

ومعلوم أن هذا الطعام والشراب ليس هو الطعام الذى يأكله الإنسان بفمه ، وإلا لم يكن مواصلا ، ولم يتحقق الفرق ، بل لم يكن صائمًا ، فإنه قال : « أظل يطعمنى ربى ويسقينى » .

وأيضًا ، فإنه فرق بينه وبينهم فى نفس الوصال ، وأنه يقدر منه على ما لا يقدرون عليه ، فلو كان يأكل ويشرب بفمه ، لم يقل : لست كهيئتكم ، وإنما فهم هذا من الحديث من قل نصيبه من غذاء الأرواح والقلوب ، وتأثيره فى القوة وإنعاشها ، واغتذائها به فوق تأثير الغذاء الجسمانى والله الموفق (٢) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى دفع ضرر الأغذية والفاكهة وإصلاحها بما يدفع ضررها ، ويقوى نفعها

ثبت فى « الصحيحين » من حديث عبد الله بن جعفر ، قال : رأيت رسول الله ﷺ يأكل الرطب بالقثاء (٣) .

والرطب : حار رطب فى الثانية ، يقوى المعدة الباردة ، ويوافقها ، ويزيد فى الباه ، ولكنه سريع التعفن ، معطش معكر للدم ، مصدع مولد للسدد ، ووجع المثانة ، ومضر بالأسنان ، والقثاء بارد رطب فى الثانية ، مسكن للعطش ، منعش للقوى بشمه لما فيه من العطرية ،مطفئ لحرارة المعدة الملتهبة ، وإذا جفف بزره ، ودق واستحلب بالماء ، وشرب ، سكن العطش ،وأدر البول ، ونفع من وجع المثانة . وإذا دق ونخل ، ودلك به الأسنان ، جلاها ، وإذا دق ورقه وعمل منه ضماد مع الميبختج ، نفع من عضة الكَلْب الكَلِبِ .

---

(١) البخارى (١٩٦٦) فى الصوم ، باب : التنكيل لمن أكثر الوصال ، ومسلم (١١٠٣ / ٥٧) فى الصيام ، باب : النهى عن الوصال فى الصوم .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٩٠ ـ ٩٤) .

(٣) البخارى (٥٤٤٠) فى الأطعمة ، باب : القثاء بالرطب ، ومسلم (٢٠٤٣ / ١٤٧) فى الأشربة ، باب : أكل القثاء بالرطب .

وبالجملة : فهذا حار ، وهذا بارد ، وفى كل منهما صلاح الآخر ، وإزالة لأكثر ضرره ، ومقاومة كل كيفية بضدها ، ودفع سورتها بالأخرى ، وهذا أصل العلاج كله ، وهو أصل فى حفظ الصحة ، بل علم الطب كله يستفاد من هذا . وفى استعمال ذلك وأمثاله فى الأغذية والأدوية إصلاح لها وتعديل ، ودفع لما فيها من الكيفيات المضرة لما يقابلها ، وفى ذلك عون على صحة البدن ، وقوته وخصبه ، قالت عائشة رضي الله عنها : سمنونى بكل شىء فلم أسمن ، فسمنونى بالقثاء والرطب ، فسمنت .

وبالجملة: فدفع ضرر البارد بالحار، والحار بالبارد، والرطب باليابس، واليابس بالرطب، وتعديل أحدهما بالآخر من أبلغ أنواع العلاجات، وحفظ الصحة، ونظير هذا ما تقدم من أمره بالسنا والسنوت ، وهو العسل الذى فيه شىء من السمن يصلح به السنا ، ويعدله، فصلوات الله وسلامه على من بعث بعمارة القلوب والأبدان، وبمصالح الدنيا والآخرة (١).

## فصل
## فى هديه ﷺ فى الحمية

الدواء كله شيئان : حمية وحفظ صحة . فإذا وقع التخليط ، احتيج إلى الاستفراغ الموافق ، وكذلك مدار الطب كله على هذه القواعد الثلاثة . والحمية : حميتان : حمية عما يجلب المرض ، وحمية عما يزيده ، فيقف على حاله ، فالأولى : حمية الأصحاء . والثانية : حمية المرضى ، فإن المريض إذا احتمى وقف مرضه عن التزايد ، وأخذت القوى فى دفعه . والأصل فى الحمية قوله تعالى : ﴿ **وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا** ﴾ [ النساء ٤٣ ، والمائدة : ٦] ، فحمى المريض من استعمال الماء ؛ لأنه يضره .

وفى « سنن ابن ماجه » وغيره عن أم المنذر بنت قيس الأنصارية ، قالت : دخل عَلَىَّ رسول الله ﷺ ومعه عَلِىٌّ ، وعلى ناقه من مرض ، ولنا دوالى معلقة ، فقام رسول الله ﷺ يأكل منها ، وقام على يأكل منها ، فطفق رسول الله ﷺ يقول لعلى : « إنك ناقه » حتى كف . قالت : وصنعت شعيراً وسلقًا ، فجئت به ، فقال النبى ﷺ لعلى : «من هذا أصب ، فإنه أنفع لك » وفى لفظ فقال : « من هذا فأصب ، فإنه أوفق لك » (٢) .

---

(١) زاد المعاد ( ٤ / ١٠٢ ، ١٠٣ ) .

(٢) ابن ماجه (٣٤٤٢) فى الطب ، باب : الحمية ، وأبو داود (٣٨٥٦) فى الطب ، باب : فى الحمية ، والترمذى (٢٠٣٧) فى الطب ، باب : ما جاء فى الحمية ، وقال : « حسن غريب » .والحديث « حسن » .

وفى « سنن ابن ماجه » أيضًا عن صهيب قال : قدمت على النبى ﷺ وبين يديه خبز وتمر ، فقال : « ادن فكل » ، فأخذت تمرًا فأكلت ، فقال : « أتأكل تمرًا وبك رمد » ؟ فقلت : يا رسول الله ، أمضغ من الناحية الأخرى ، فتبسم رسول الله ﷺ (١).

وفى حديث محفوظ عنه ﷺ : « إن الله إذا أحب عبدًا ، حماه من الدنيا ، كما يحمى أحدكم مريضه عن الطعام والشراب » . وفى لفظ : « إن الله يحمى عبده المؤمن من الدنيا » (٢) .

وأما الحديث الدائر على ألسنة كثير من الناس : الحمية رأس الدواء ، والمعدة بيت الداء ، وعودوا كل جسم ما اعتاد ، فهذا الحديث إنما هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب ، ولا يصح رفعه إلى النبى ﷺ ، قاله غير واحد من أئمة الحديث ، ويذكر عن النبى ﷺ . « أن المعدة حوض البدن ، والعروق إليها واردة ، فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة ، وإذا سقمت المعدة ، صدرت العروق بالسقم » (٣) .

وقال الحارث : رأس الطب الحمية ، والحمية عندهم للصحيح فى المضرة بمنزلة التخليط للمريض والناقه ، وأنفع ما تكون الحمية للناقه من المرض ، فإن طبيعته لم ترجع بعد إلى قوتها ، والقوة الهاضمة ضعيفة ، والطبيعة قابلة ، والأعضاء مستعدة ، فتخليطه يوجب انتكاسها ، وهو أصعب من ابتداء مرضه .

واعلم أن فى منع النبى ﷺ ،لعلى من الأكل من الدوالى ، وهو ناقه أحسن التدبير ، فإن الدوالى أقناء من الرطب تعلق فى البيت للأكل بمنزلة عناقيد العنب ، والفاكهة تضر بالناقه من المرض لسرعة استحالتها ، وضعف الطبيعة عن دفعها ، فإنها لم تتمكن بعد من قوتها ، وهى مشغولة بدفع آثار العلة ، وإزالتها من البدن وفى الرطب خاصة نوع ثقل على المعدة ، فتشتغل بمعالجته وإصلاحه عما هى بصدده من إزالة بقية المرض وآثاره ، فإما أن تقف تلك البقية ، وإما أن تتزايد ، فلما وضع بين يديه السلق والشعير ، أمره أن يصيب منه ، فإنه من أنفع الأغذية للناقه ،فإن فى ماء الشعير من التبريد والتغذية ، والتلطيف والتليين ، وتقوية الطبيعة ما هو أصلح للناقه ، ولا سيما إذا طبخ بأصول السلق ، فهذا من أوفق الغذاء لمن فى معدته ضعف ، ولا يتولد عنه من الأخلاط ما يخاف منه .

---

(١) ابن ماجه (٣٤٤٣) فى الطب ، باب : الحمية ، وفى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات » .
(٢) أحمد (٥ / ٤٢٧) ، والترمذى (٢٠٣٦) فى الطب ، باب : ما جاء فى الحمية ، وقال : « حسن غريب » .
(٣) ذكره صاحب مجمع الزوائد الهيثمى (٥ / ٨٩) ، وعزاه إلى الطبرانى فى الأوسط ، وقال : « فيه يحيى بن عبد الله البابلتى وهو ضعيف » .

وقال زيد بن أسلم : حمى عمر رضي الله عنه مريضًا له ، حتى إنه من شدة ما حماه كان يمص النوى .

وبالجملة : فالحمية من أنفع الأدوية قبل الداء ، فتمنع حصوله ، وإذا حصل فتمنع تزايده وانتشاره .

ومما ينبغي أن يعلم أن كثيرًا مما يحمى عنه العليل والناقه والصحيح ، إذا اشتدت الشهوة إليه ، ومالت إليه الطبيعة ، فتناول منه الشيء اليسير الذى لا تعجز الطبيعة عن هضمه ، لم يضره تناوله ، بل ربما انتفع به ، فإن الطبيعة والمعدة تتلقيانه بالقبول والمحبة ، فيصلحان مايخشى من ضرره ، وقد يكون أنفع من تناول ما تكرهه الطبيعة ، وتدفعه من الدواء ، ولهذا أقر النبى ﷺ صهيبًا وهو أرمد على تناول التمرات اليسيرة ، وعلم أنها لا تضره ، ومن هذا ما يروى عن على أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو أرمد ، وبين يدى النبى ﷺ تمر يأكله ، فقال : « يا على ، تشتهيه ؟ » ورمى إليه بتمرة ، ثم بأخرى حتى رمى إليه سبعًا ، ثم قال : « حسبك يا على » .

ومن هذا ما رواه ابن ماجه فى « سننه » من حديث عكرمة ، عن ابن عباس ، أن النبى ﷺ عاد رجلاً ، فقال له : « ما تشتهى » ؟ فقال : أشتهى خبز بر . وفى لفظ : أشتهى كعكًا ، فقال النبى ﷺ : « من كان عنده خبز بر فليبعث إلى أخيه » ، ثم قال : « إذا اشتهى مريض أحدكم شيئًا ، فليطعمه » (١) .

ففى هذا الحديث سر طبى لطيف ، فإن المريض إذا تناول ما يشتهيه عن جوع صادق طبيعى، وكان فيه ضرر ما ، كان أنفع وأقل ضررًا مما لا يشتهيه، وإن كان نافعًا فى نفسه، فإن صدق شهوته ، ومحبة الطبيعة يدفع ضرره ، وبغض الطبيعة وكراهتها للنافع ، قد يجلب لها منه ضررًا . وبالجملة : فاللذيذ المشتهى تقبل الطبيعة عليه بعناية ، فتهضمه على أحمد الوجوه ، سيما عند انبعاث النفس إليه بصدق الشهوة ، وصحة القوة ، والله أعلم (٢) .

---

(١) ابن ماجة (١٤٣٩) فى الجنائز ، باب: ما جاء فى عيادة المريض ، وفى الزوائد : « فى إسناده صفوان بن هبيرة ، ذكرة ابن حبان فى الثقات ، وقال النفيلى : لا يتابع على حديثه » .

(٢) زاد المعاد (٤ / ١٠٣ ـ ١٠٦) .

# فصل
## فى هديه ﷺ فى إصلاح الطعام الذى يقع فيه الذباب ، وإرشاده إلى دفع مضرات السموم بأضدادها

فى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم ، فامقلوه ، فإن فى أحد جناحيه داء ، وفى الآخر شفاء » (١) .

وفى « سنن ابن ماجه » عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله ﷺ قال : « أحد جناحى الذباب سم ، والآخر شفاء ، فإذا وقع فى الطعام ، فامقلوه ، فإنه يقدم السم ، ويؤخر الشفاء » (٢) .

هذا الحديث فيه أمران : أمر فقهى ، وأمر طبى ، فأما الفقهى ، فهو دليل ظاهر الدلالة جدًا على أن الذباب إذا مات فى ماء أو مائع ، فإنه لا ينجسه ، وهذا قول جمهور العلماء،ولا يعرف فى السلف مخالف فى ذاك . ووجه الاستدلال به أن النبى، أمر بمقله ، وهو غمسه فى الطعام ، ومعلوم أنه يموت من ذلك ، ولا سيما إذا كان الطعام حارًا . فلو كان ينجسه لكان أمرًا بإفساد الطعام ، وهو ﷺ إنما أمر بإصلاحه ، ثم عدى هذا الحكم إلى كل ما لا نفس له سائلة ، كالنحلة والزنبور ، والعنكبوت وأشباه ذلك ، إذ الحكم يعم بعموم علته ، وينتفى لانتفاء سببه ، فلما كان سبب التنجيس هو الدم المحتقن فى الحيوان بموته ، وكان ذلك مفقود فيما لا دم له سائل انتفى الحكم بالتنجيس لانتفاء علته .

ثم قال من لم يحكم بنجاسة عظم الميتة : إذا كان هذا ثابتًا فى الحيوان الكامل مع ما فيه من الرطوبات ، والفضلات ، وعدم الصلابة ، فثبوته فى العظم الذى هو أبعد عن الرطوبات والفضلات ، واحتقان الدم أولى ، وهذا فى غاية القوة ، فالمصير إليه أولى .

وأول من حفظ عنه فى الإسلام أنه تكلم بهذه اللفظة ، فقال : ما لا نفس له سائلة؛ إبراهيم النخعى ، وعنه تلقاها الفقهاء ـ والنفس فى اللغة : يعبر بها عن الدم ، ومنه نفست المرأة ـ بفتح النون ـ إذا حاضت ، ونفست ـ بضمها ـ إذا ولدت .

وأما المعنى الطبى ، فقال أبو عبيد : معنى امقلوه : اغمسوه ليخرج الشفاء منه ، كما

---

(١) البخارى (٥٧٨٢) فى الطب ، باب: إذا وقع الذباب فى الإناء ، ولم يعزه صاحب التحفة (١٠ / ٢٤٦) لمسلم ، وقد وهم المؤلف فى عزوه .

(٢) ابن ماجه (٣٥٠٤) فى الطب ، باب : يقع الذباب فى الإناء .

خرج الداء ، يقال للرجلين : هما يتماقلان ، إذا تغاطا فى الماء .

واعلم أن فى الذباب عندهم قوة سمية يدل عليها الورم ، والحكة العارضة عن لسعه ، وهى بمنزلة السلاح ، فإذا سقط فيما يؤذيه ، اتقاه بسلاحه ، فأمر النبى ﷺ أن يقابل تلك السمية بما أودعه الله سبحانه فى جناحه الآخر من الشفاء ، فيغمس كله فى الماء والطعام ، فيقابل المادة السمية المادة النافعة ، فيزول ضررها ، وهذا طب لا يهتدى إليه كبار الأطباء وأئمتهم ، بل هو خارج من مشكاة النبوة ، ومع هذا فالطبيب العالم العارف الموفق يخضع لهذا العلاج ، ويقرء لمن جاء به بأنه أكمل الخلق على الإطلاق ، وأنه مؤيد بوحى إلهى خارج عن القوى البشرية .

وقد ذكر غير واحد من الأطباء أن لسع الزنبور والعقرب إذا دلك موضعه بالذباب نفع منه نفعًا بينًا ، وسكنه ، وما ذاك إلا للمادة التى فيه من الشفاء ، وإذا دلك به الورم الذى يخرج فى شعر العين المسمى شعرة بعد قطع رؤوس الذباب ، أبرأه (١) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى علاج المرضى بتطييب نفوسهم وتقوية قلوبهم

روى ابن ماجه « فى سننه » من حديث أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخلتم على المريض ، فنفسوا له فى الأجل ، فإن ذلك لا يرد شيئًا ، وهو يطيب نفس المريض » (٢) .

وفى هذا الحديث نوع شريف جدًا من أشرف أنواع العلاج ، وهو الإرشاد إلى ما يطيب نفس العليل من الكلام الذى تقوى به الطبيعة ، وتنتعش به القوة ، وينبعث به الحار الغريزى ، فيتساعد على دفع العلة أو تخفيفها الذى هو غاية تأثير الطبيب .

وتفريح نفس المريض ، وتطييب قلبه ، وإدخال ما يسره عليه ، له تأثير عجيب فى شفاء علته وخفتها ، فإن الأرواح والقوى تقوى بذلك ، فتساعد الطبيعة على دفع المؤذى ، وقد شاهد الناس كثيرًا من المرضى تنتعش قواه بعيادة من يحبونه ، ويعظمونه ، ورؤيتهم لهم ، ولطفهم بهم ، ومكالمتهم إياهم ، وهذا أحد فوائد عيادة المرضى التى تتعلق بهم ، فإن فيها أربعة أنواع من الفوائد : نوع يرجع إلى المريض ، ونوع يعود على العائد ، ونوع

---

(١) زاد المعاد (٤ / ١١١ ـ ١١٣) .

(٢) ابن ماجه (١٤٣٨) فى الجنائز ، باب : ما جاء فى عيادة المريض .

يعود على أهل المريض ، ونوع يعود على العامة .

وفى هديه ﷺ أنه كان يسأل المريض عن شكواه ، وكيف يجده ويسأله عما يشتهيه ، ويضع يده على جبهته، وربما وضعها بين ثدييه ، ويدعو له ، ويصف له ما ينفعه فى علته ، وربما توضأ وصب على المريض من وضوئه ، وربما كان يقول للمريض : « لا بأس طهور إن شاء الله » (١) ، وهذا من كمال اللطف ، وحسن العلاج والتدبير .

## فصل

## فى هديه ﷺ فى علاج الأبدان بما اعتادته من الأدوية والأغذية دون ما لم تعتده

هذا أصل عظيم من أصول العلاج ، وأنفع شىء فيه ، وإذا أخطأه الطبيب ، أضر المريض من حيث يظن أنه ينفعه ، ولا يعدل عنه إلى ما يجده من الأدوية فى كتب الطب إلا طبيب جاهل ، فإن ملاءمة الأدوية والأغذية للأبدان بحسب استعدادها وقبولها ، وهؤلاء أهل البوادى والأكارون وغيرهم لا ينجع فيهم شراب اللينوفر والورد الطرى ولا المغلى ، ولا يؤثر فى طباعهم شيئًا ، بل عامة أدوية أهل الحضر وأهل الرفاهية لا تجدى عليهم ، والتجربة شاهدة بذلك ، ومن تأمل ما ذكرناه من العلاج النبوى ، رآه كله موافقًا لعادة العليل وأرضه ، وما نشأ عليه، فهذا أصل عظيم من أصول العلاج يجب الاعتناء به ، وقد صرح به أفاضل أهل الطب حتى قال طبيب العرب بل أطبهم الحارث بن كلدة ، وكان فيهم كأبقراط فى قومه : الحمية رأس الدواء ، والمعدة بيت الداء ، وعودوا كل بدن ما اعتاد ، وفى لفظ عنه : الأزم دواء ، والأزم : الإمساك عن الأكل يعنى به الجوع ، وهو من أكبر الأدوية فى شفاء الأمراض الامتلائية كلها بحيث إنه أفضل فى علاجها من المستفرغات إذا لم يخف من كثرة الامتلاء ، وهيجان الأخلاط ، وحدتها أو غليانها .

وقوله : المعدة بيت الداء ، المعدة : عضو عصبى مجوف كالقرعة فى شكلها ، مركب من ثلاث طبقات ، مؤلفة من شظايا دقيقة عصبية تسمى الليف ، ويحيط بها لحم ، وليف إحدى الطبقات بالطول ، والأخرى بالعرض ، والثالثة بالورب ، وفم المعدة أكثر عصبًا ، وقعرها أكثر لحمًا ، وفى باطنها خمل ، وهى محصورة فى وسط البطن ، وأميل إلى الجانب الأيمن قليلاً ، خلقت على هذه الصفة لحكمة لطيفة من الخالق الحكيم سبحانه ،

---

(١) البخارى (٥٦٦٢) فى المرضى ، باب : ما يقال للمريض وما يجيب .

وهى بيت الداء ، وكانت محلا للهضم الأول ، وفيها ينضج الغذاء وينحدر منها بعد ذلك إلى الكبد والأمعاء ، ويتخلف منه فيها فضلات قد عجزت القوة الهاضمة عن تمام هضمها ، إما لكثرة الغذاء ، أو لرداءته ، أو لسوء ترتيب فى استعماله ، أو لمجموع ذلك ، وهذه الأشياء بعضها مما لا يتخلص الإنسان منه غالبًا ، فتكون المعدة بيت الداء لذلك ، وكأنه يشير بذلك إلى الحث على تقليل الغذاء ، ومنع النفس من اتباع الشهوات ، والتحرز عن الفضلات .

وأما العادة فلأنها كالطبيعة للإنسان ، ولذلك يقال : العادة طبع ثان ، وهى قوة عظيمة فى البدن ، حتى إن أمرًا واحدًا إذا قيس إلى أبدان مختلفة العادات ، كان مختلف النسبة إليها . وإن كانت تلك الأبدان متفقة فى الوجوه الأخرى مثال ذلك أبدان ثلاثة حارة المزاج فى سن الشباب ، أحدها : عود تناول الأشياء الحارة ؛ والثانى : عود تناول الأشياء الباردة ، والثالث : عود تناول الأشياء المتوسطة ، فإن الأول متى تناول عسلا لم يضر به ، والثانى : متى تناوله ، أضر به ، والثالث : يضر به قليلا ، فالعادة ركن عظيم فى حفظ الصحة ، ومعالجة الأمراض ، ولذلك جاء العلاج النبوى بإجراء كل بدن على عادته فى استعمال الأغذية والأدوية وغير ذلك .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى تغذية المريض بألطف ما اعتاده من الأغذية

فى « الصحيحين » من حديث عروة عن عائشة ، أنها كانت إذا مات الميت من أهلها ، واجتمع لذلك النساء ، ثم تفرقن إلى أهلهن ، أمرت ببرمة من تلبينة فطبخت ، وصنعت ثريدًا ، ثم صبت التلبينة عليه،ثم قالت : كلوا منها ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « التلبينة مجمة لفؤاد المريض تذهب ببعض الحزن » (١) .

وفى « السنن » من حديث عائشة أيضًا ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالبغيض النافع التلبين » ، قالت : وكان رسول الله ﷺ إذا اشتكى أحد من أهله لم تزل البرمة على النار حتى ينتهى أحد طرفيه . يعنى يبرأ أو يموت (٢) .

---

(١) البخارى (٥٤١٧) فى الأطعمة ، باب : التلبينة ، ومسلم (٢٢١٦ / ٩٠) فى السلام ، باب : التلبينة مجمة لفؤاد المريض .

(٢) ابن ماجه (٣٤٤٦) فى الطب ، باب : التلبينة ، وضعفه الألبانى .

وعنها : كان رسول الله ﷺ إذا قيل له: إن فلانًا وجع لا يطعم الطعام، قال : « عليكم بالتلبينة فحسوه إياها » ، ويقول : « والذى نفسى بيده إنها تغسل بطن أحدكم كما تغسل إحداكن وجهها من الوسخ » (١) .

التلبين: هو الحساء الرقيق الذى هو فى قوام اللبن ، ومنه اشتق اسمه ، قال الهروى : سميت تلبينة لشبهها باللبن لبياضها ورقتها ، وهذا الغذاء هو النافع للعليل ، وهو الرقيق النضيج لا الغليظ النىء ، وإذا شئت أن تعرف فضل التلبينة ، فاعرف فضل ماء الشعير ، بل هى ماء الشعير لهم ، فإنها حساء متخذ من دقيق الشعر بنخالته ، والفرق بينها وبين ماء الشعير أنه يطبخ صحاحًا ، والتلبينة تطبخ منه مطحونًا ، وهى أنفع منه لخروج خاصية الشعير بالطحن ، وقد تقدم أن للعادات تأثيرًا فى الانتفاع بالأدوية والأغذية ، وكانت عادة القوم أن يتخذوا ماء الشعير منه مطحونًا لا صحاحًا ، وهو أكثر تغذية ، وأقوى فعلاً ، وأعظم جلاء ، وإنما اتخذه أطباء المدن منه صحاحًا ليكون أرق وألطف ، فلا يثقل على طبيعة المريض، وهذا بحسب طبائع أهل المدن ورخاوتها ، وثقل ماء الشعير المطحون عليها ، والمقصود : أن ماء الشعير مطبوخًا صحاحًا ينفذ سريعًا ، ويجلو جلاءً ظاهرًا ، ويغذى غذاءً لطيفًا ، وإذا شرب حارًا كان جلاؤه أقوى ، ونفوذه أسرع ، وإنماؤه للحرارة الغريزية أكثر ، وتلميسه لسطوح المعدة أوفق .

وقوله ﷺ فيها : « مجمة لفؤاد المريض » يروى بوجهين . بفتح الميم والجيم ، وبضم الميم ، وكسر الجيم ، والأول : أشهر ، ومعناه : أنها مريحة له ، أى : تريحه وتسكنه من الإجمام، وهو الراحة. وقوله : « تذهب ببعض الحزن » ، هذا ـ والله أعلم ـ لأن الغم والحزن يبردان المزاج ، ويضعفان الحرارة الغريزية لميل الروح الحامل لها إلى جهة القلب الذى هو منشؤها ، وهذا الحساء يقوى الحرارة الغريزية بزيادته فى مادتها ، فتزيل أكثر ما عرض له من الغم والحزن .

وقد يقال ـ وهو أقرب ـ : إنها تذهب ببعض الحزن بخاصية فيها من جنس خواص الأغذية المفرحة ، فإن من الأغذية ما يفرح بالخاصية ، والله أعلم .

وقد يقال : إن قوى الحزين تضعف باستيلاء اليبس على أعضائه ، وعلى معدته خاصة لتقليل الغذاء، وهذا الحساء يرطبها ، ويقويها ، ويغذيها ، ويفعل مثل ذلك بفؤاد المريض ، لكن المريض كثيرًا ما يجتمع فى معدته خلط مرارى ، أو بلغمى ، أو صديدى ، وهذا الحساء يجلو ذلك عن المعدة ويسروه ، ويحدره ، ويميعه ، ويعدل كيفيته ، ويكسر سورته ،

(١) ابن ماجه (٣٤٤٥) فى الطب ، باب : التلبينة ، وضعفه الألبانى ، وأحمد (٦ / ٧٩) .

فيريحها ولا سيما لمن عادته الاغتذاء بخبز الشعير ، وهى عادة أهل المدينة إذ ذاك ، وكان هو غالب قوته ، وكانت الحنطة عزيزة عندهم ، والله أعلم (١) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى الإرشاد إلى معالجة أحذق الطبيبين

ذكر مالك فى « موطئه » : عن زيد بن أسلم ، أن رجلاً فى زمان رسول الله ﷺ أصابه جرح ، فاحتقن الجرح الدم ، وأن الرجل دعا رجلين من بنى أنمار ، فنظروا إليه فزعما أن رسول الله ﷺ قال لهما : « أيكما أطب » ؟ فقال : أو فى الطب خير يا رسول الله ؟ فقال : « أنزل الدواء الذى أنزل الداء » (٢) .

ففى هذا الحديث أنه ينبغى الاستعانة فى كل علم وصناعة بأحذق من فيها فالأحذق ، فإنه إلى الإصابة أقرب .

وهكذا يجب على المستفتى أن يستعين على ما نزل به بالأعلم فالأعلم ؛ لأنه أقرب إصابة ممن هو دونه .

وكذلك من خفيت عليه القبلة،فإنه يقلد أعلم من يجده ، وعلى هذا فطر الله عباده ، كما أن المسافر فى البر والبحر إنما سكون نفسه ، وطمأنينته إلى أحذق الدليلين وأخبرهما ، وله يقصد ، وعليه يعتمد ، فقد اتفقت على هذا الشريعة والفطرة والعقل .

وقوله ﷺ :« أنزل الدواء الذى أنزل الداء » ، قد جاء مثله عنه فى أحاديث كثيرة ، فمنها ما رواه عمرو بن دينار ، عن هلال بن يساف ، قال : دخل رسول الله ﷺ على مريض يعوده ، فقال : « أرسلوا إلى طبيب » ، فقال قائل : وأنت تقول ذلك يا رسول الله ؟ قال : « نعم ، إن الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل له دواء » (٣).

وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة يرفعه : « ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء » (٤) .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ١١٦ ـ ١٢١ ) .

(٢) مالك فى الموطأ (٢ ٩٤٣ ، ٩٤٤) (١٢) فى العين ، باب : تعالج المريض ، وهو حديث مرسل له شواهد .

(٣) أحمد (١/ ٣٧١) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٨٧) : « رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح » .

(٤) البخارى (٥٦٧٨) فى الطب ، باب : ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ، ولم يعزه صاحب التحفة (١٠/ ٢٦٦) لمسلم .

واختلف فى معنى « أنزل الداء والدواء » ، فقالت طائفة : إنزاله إعلام العباد به ، وليس بشىء ، فإن النبى ﷺ أخبر بعموم الإنزال لكل داء ودواه ، وأكثر الخلق لا يعلمون ذلك ، ولهذا قال : « علمه من علمه ، وجهله من جهله » (١) .

وقالت طائفة : إنزالهما :خلقهما ووضعهما فى الأرض ،كما فى الحديث الآخر:« إن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء » ، وهذا وإن كان أقرب من الذى قبله ، فلفظة الإنزال أخص من لفظة الخلق والوضع ، فلا ينبغى إسقاط خصوصية اللفظة بلا موجب .

وقالت طائفة : إنزالهما بواسطة الملائكة الموكلين بمباشرة الخلق من داء ودواء وغير ذلك ، فإن الملائكة موكلة بأمر هذا العالم ، وأمر النوع الإنسانى من حين سقوطه فى رحم أمه إلى حين موته ، فإنزال الداء والدواء مع الملائكة ، وهذا أقرب من الوجهين قبله .

وقالت طائفة : إن عامة الأدواء والأدوية هى بواسطة انزال الغيث من السماء الذى تتولد به الأغذية ، والأقوات ، والأدوية ، والأدواء ، وآلات ذلك كله ، وأسبابه ومكملاته ، وما كان منها من المعادن العلوية ، فهى تنزل من الجبال ، وما كان منها من الأودية والأنهار والثمار ، فداخل فى اللفظ على طريق التغليب والاكتفاء عن الفعلين بفعل واحد يتضمنهما ، وهو معروف من لغة العرب ، بل وغيرها من الأمم ، كقول الشاعر :

علفتها تبنًا وماءً باردًا حتى غدت همالة عيناها

وقول الآخر :

ورأيت زوجك قد غدا متقلدًا سيفًا ورمحًا

وقول الآخر :

إذا ما الغانيات برزن يومًا وزججن الحواجب والعيونا

وهذا أحسن مما قبله من الوجوه والله أعلم .

وهذا من تمام حكمة الرب عز وجل ، وتمام ربوبيته ، فإنه كما ابتلى عباده بالأدواء ، أعانهم عليها بما يسره لهم من الأدوية ، وكما ابتلاهم بالذنوب أعانهم عليها بالتوبة ، والحسنات الماحية والمصائب المكفرة ، وكما ابتلاهم بالأرواح الخبيثة من الشياطين ، أعانهم عليها بجند من الأرواح الطيبة ، وهم الملائكة . وكما ابتلاهم بالشهوات أعانهم على قضائها بما يسره لهم شرعًا وقدراً من المشتهيات اللذيذة النافعة ، فما ابتلاهم سبحانه بشىء إلا أعطاهم ما يستعينون به على ذلك البلاء ، ويدفعونه به ، ويبقى التفاوت بينهم فى العلم بذلك ، والعلم بطريق حصوله والتوصل إليه ، وبالله المستعان (٢) .

---

(١) أحمد (١/ ٣٧٣) ، وقال الشيخ شاكر (٣٥٧٥): « إسناده صحيح » .
(٢) زاد المعاد ( ٤ / ١٣٢ ـ ١٣٥ ) .

## فصل
## في هديه ﷺ في تضمين من طب الناس ، وهو جاهل بالطب

روى أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ،من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه ، عن جده ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من تطبب ولم يعلم منه الطب قبل ذلك ، فهو ضامن » (١) .

هذا الحديث يتعلق به ثلاثة أمور : أمر لغوى ، وأمر فقهى ، وأمر طبى .

أما الأمر الشرعى ، فإيجاب الضمان على الطبيب الجاهل ، فإذا تعاطى علم الطب وعمله ، ولم يتقدم له به معرفة ، فقد هجم بجهله على إتلاف الأنفس ، وأقدم بالتهور على ما لم يعلمه ، فيكون قد غرر بالعليل ، فيلزمه الضمان لذلك ، وهذا إجماع من أهل العلم .

قال الخطابى : لا أعلم خلافًا فى أن المعالج إذا تعدى ، فتلف المريض كان ضامنًا ، والمتعاطى علمًا أو عملاً لا يعرفه متعد ، فإذا تولد من فعله التلف ضمن الدية ، وسقط عنه القود ، لأنه لا يستبد بذلك بدون إذن المريض وجناية المتطبب فى قول عامة الفقهاء على عاقلته .

قلت : الأقسام خمسة:

**أحدها** : طبيب حاذق أعطى الصنعة حقها ولم تجن يده ، فتولد من فعله المأذون فيه من جهة الشارع ، ومن جهة من يطبه تلف العضو أو النفس ، أو ذهاب صفة ، فهذا لا ضمان عليه اتفاقًا ، فإنها سراية مأذون فيه ، وهذا كما إذا ختن الصبى فى وقت ، وسنه قابل لختان ، وأعطى الصنعة حقها ، فتلف العضو أو الصبى ، لم يضمن ، وكذلك إذا بط من عاقل أو غيره ما ينبغى بطه فى وقته على الوجه الذى ينبغى فتلف به ، لم يضمن ، وهكذا سراية كل مأذون فيه لم يتعد الفاعل فى سببها ، كسراية الحد بالاتفاق . وسراية القصاص عند الجمهور خلافًا لأبى حنيفة فى إيجابه الضمان بها ، وسراية التعزير ، وضرب الرجل امرأته ، والمعلم الصبى، والمستأجر الدابة، خلافًا لأبى حنيفة والشافعى فى إيجابهما الضمان فى ذلك ، واستثنى الشافعى ضرب الدابة .

---

(١) أبو داود (٤٥٨٦) فى الديات ، باب : فيمن تطبب بغير علم فأعنت ، والنسائى (٤٨٣٠) فى القسامة ، باب : صفة شبه العمد وعلى من دية الأجنة ، وابن ماجه (٣٤٦٦) فى الطب ، باب : من تطبب ولم يُعلم منه طب .

وقاعدة الباب إجماعًا ونزاعًا : أن سراية الجناية مضمونة بالاتفاق ، وسراية الواجب مهدرة بالاتفاق ، وما بينهما ففيه النزاع ، فأبو حنيفة أوجب ضمانه مطلقًا ، وأحمد ومالك أهدرا ضمانه ، وفرق الشافعى بين المقدر،فأهدر ضمانه ، وبين غير المقدر فأوجب ضمانه ، فأبو حنيفة نظر إلى أن الإذن فى الفعل إنما وقع مشروطًا بالسلامة ، وأحمد ومالك نظرا إلى أن الإذن أسقط الضمان ، والشافعى نظر إلى أن المقدر لا يمكن النقصان منه ، فهو بمنزلة النص ،وأما غير المقدر كالتعزيرات ،والتأديبات ، فاجتهادية ، فإذا تلف بها ،ضمن ، لأنه فى مظنة العدوان .

**القسم الثانى** : متطبب جاهل باشرت يده من يطبه ، فتلف به ، فهذا إن علم المجنى عليه أنه جاهل لا علم له ، وأذن له فى طبه لم يضمن ، ولا تخالف هذه الصورة ظاهر الحديث ، فإن السياق وقوة الكلام يدل على أنه غر العليل ، وأوهمه أنه طبيب ، وليس كذلك ، وإن ظن المريض أنه طبيب ، وأذن له فى طبه لأجل معرفته ، ضمن الطبيب ما جنت يده ، وكذلك إن وصف له دواء يستعمله ، والعليل يظن أنه وصفه لمعرفته وحذقه فتلف به ، ضمنه ، والحديث ظاهر فيه أو صريح .

**القسم الثالث** : طبيب حاذق ، أذن له ، وأعطى الصنعة حقها ، لكنه أخطأت يده ، وتعدت إلى عضو صحيح فأتلفه ،مثل : أن سبقت يد الخاتن إلى الكمرة ، فهذا يضمن ، لأنها جناية خطأ ، ثم إن كانت الثلث فما زاد ، فهو على عاقلته ، فإن لم تكن عاقلة ، فهل تكون الدية فى ماله،أو فى بيت المال ؟ على قولين ،هما روايتان عن أحمد . وقيل:إن كان الطبيب ذميًا . ففى ماله ، وإن كان مسلمًا ، ففيه الروايتان ، فإن لم يكن بيت مال ، أو تعذر تحميل ، فهل تسقط الدية ، أو تجب فى مال الجانى ؟ فيه وجهان أشهرهما : سقوطها .

**القسم الرابع** : الطبيب الحاذق الماهر بصناعته ، اجتهد فوصف للمريض دواءً ، فأخطأ فى اجتهاده ، فقتله ،فهذا يخرج على روايتين : إحداهما : أن دية المريض فى بيت المال . والثانية: أنها على عاقلة الطبيب ، وقد نص عليهما الإمام أحمد فى خطأ الإمام والحاكم .

**القسم الخامس** : طبيب حاذق ، أعطى الصنعة حقها،فقطع سلعة من رجل أو صبى ، أو مجنون بغير إذنه ، أو إذن وليه ، أو ختن صبيًا بغير إذن وليه فتلف ، فقال أصحابنا : يضمن؛ لأنه تولد من فعل غير مأذون فيه ، وإن أذن له البالغ ، أو ولى الصبى والمجنون ، لم يضمن ، ويحتمل ألا يضمن ، مطلقًا لأنه محسن ، وما على المحسنين من سبيل .

وأيضًا فإنه إن كان متعديًا ، فلا أثر لإذن الولى فى إسقاط الضمان ، وإن لم يكن متعديًا ، فلا وجه لضمانه . فإن قلت : هو متعد عند عدم الإذن ، غير متعد عند الإذن ، قلت : العدوان وعدمه إنما يرجع إلى فعله هو ، فلا أثر للإذن وعدمه فيه ، وهذا موضع نظر .

والطبيب فى هذا الحديث يتناول من يطب بوصفه وقوله ، وهو الذى يخص باسم الطبائعى ، وبمروده ، وهو الكحال ، وبمبضعه ومراهمه وهو الجرائحى ، وبموساه وهو الخاتن ، وبريشته وهو الفاصد وبمحاجمه ومشرطه وهو الحجام ، وبخلعه ووصله ورباطه وهو المجبر ، وبمكواته وناره وهو الكواء ، وبقربته وهو الحاقن ، وسواء كان طبه لحيوان بهيم ، أو إنسان ، فاسم الطبيب يطلق لغة على هؤلاء كلهم ، وتخصيص الناس له ببعض أنواع الأطباء عرف حادث ، كتخصيص لفظ الدابة بما يخصها به كل قوم .

**والطبيب الحاذق : هو الذى يراعى فى علاجه عشرين أمرًا :**

**أحدها** : النظر فى نوع المرض من أى الأمراض هو ؟

**الثانى** : النظر فى سببه من أى شىء حدث ، والعلة الفاعلة التى كانت سبب حدوثه ما هى ؟

**الثالث** : قوة المريض ، وهل هى مقاومة للمرض ، أو أضعف منه ؟ فإن كانت مقاومة للمرض ، مستظهرة عليه ، تركها والمرض ، ولم يحرك بالدواء ساكنًا .

**الرابع** : مزاج البدن الطبيعى ما هو ؟

**الخامس** : المزاج الحادث على غير المجرى الطبيعى .

**السادس** : سن المريض .

**السابع** : عادته .

**الثامن** : الوقت الحاضر من فصول السنة وما يليق به .

**التاسع** : بلد المريض وتربته .

**العاشر** : حال الهواء فى وقت المرض .

**الحادى عشر** : النظر فى الدواء المضاد لتلك العلة .

**الثانى عشر** : النظر فى قوة الدواء ودرجته ، والموازنة بينها وبين قوة المريض .

**الثالث عشر** : ألا يكون كل قصده إزالة تلك العلة فقط ، بل إزالتها على وجه يأمن

معه حدوث أصعب منها ، فمتى كان إزالتها لا يأمن معها حدوث علة أخرى أصعب منها ، أبقاها على حالها ، وتلطيفها هو الواجب وهذا كمرض أفواه العروق ، فإنها متى عولج بقطعه وحبسه خيف حدوث ما هو أصعب منه .

**الرابع عشر** : أن يعالج بالأسهل فالأسهل ، فلا ينتقل من العلاج بالغذاء إلى الدواء إلا عند تعذره ، ولا ينتقل إلى الدواء المركب إلا عند تعذر الدواء البسيط ، فمن حذق الطبيب علاجه بالأغذية بدل الأدوية ، وبالأدوية البسيطة بدل المركبة .

**الخامس عشر** :أن ينظر فى العلة،هل هى مما يمكن علاجها أولا ؟ فإن لم يمكن علاجها، حفظ صناعته وحرمته ، لا يحمله الطمع على علاج لا يفيد شيئًا ، وإن مكن علاجها نظر هل يمكن زوالها أم لا ؟ فإن علم أنه لا يمكن زوالها ، نظر هل يمكن تخفيفها وتقليلها أم لا ؟ فإن لم يمكن تقليلها ، ورأى أن غاية الإمكان إيقافها وقطع زيادتها ، قصد بالعلاج ذلك ، وأعان القوة ، وأضعف المادة .

**السادس عشر** : ألا يتعرض للخلط قبل نضجه باستفراغ ، بل يقصد إنضاجه ، فإذا تم نضجه ، بادر إلى استفراغه .

**السابع عشر** : أن يكون له خبرة باعتلال القلوب والأرواح وأدويتها ، وذلك أصل عظيم فى علاج الأبدان ، فإن انفعال البدن وطبيعته عن النفس والقلب أمر مشهود ، والطبيب إذا كان عارفًا بأمراض القلب والروح وعلاجهما ، كان هو الطبيب الكامل ، والذى لا خبرة له بذلك وإن كان حاذقًا فى علاج الطبيعة وأحوال البدن نصف طبيب . وكل طبيب لا يداوى العليل ، بتفقد قلبه وصلاحه ، وتقوية روحه وقواه بالصدقة ، وفعل الخير ،والإحسان ، والإقبال على الله والدار الآخرة ، فليس بطبيب ، بل متطبب قاصر . ومن أعظم علاجات المرض فعل الخير والإحسان والذكر والدعاء ، والتضرع والابتهال إلى الله ، والتوبة ، ولهذا الأمور تأثير فى دفع العلل ، وحصول الشفاء أعظم من الأدوية الطبيعية ، ولكن بحسب استعداد النفس وقبولها وعقيدتها فى ذلك ونفعه .

**الثامن عشر** : التلطف بالمريض ، والرفق به ، كالتطلف بالصبى .

**التاسع عشر** : أن يستعمل أنواع العلاجات الطبيعية والإلهية ، والعلاج بالتخييل ، فإن لحذاق الأطباء فى التخييل أمورًا عجيبة لا يصل إليها الدواء ، فالطبيب الحاذق يستعين على المرض بكل معين .

**العشرون** : ـ وهو ملاك أمر الطبيب ـ أن يجعل علاجه وتدبيره دائرًا على ستة أركان: حفظ الصحة الموجودة ، ورد الصحة المفقودة بحسب الإمكان ، وإزالة العلة أو تقليلها بحسب الإمكان ، واحتمال أدنى المفسدتين لإزالة أعظمهما ، وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعظمهما، فعلى هذه الأصول الستة مدار العلاج ، وكل طبيب لا تكون هذه أخيته التى يرجع إليها ، فليس بطبيب ، والله أعلم .

ولما كان للمرض أربعة أحوال : ابتداء ، وصعود ، وانتهاء ، وانحطاط ، تعين على الطبيب مراعاة كل حال من أحوال المرض بما يناسبها ويليق بها ، ويستعمل فى كل حال ما يجب استعماله فيها . فإذا رأى فى ابتداء المرض أن الطبيعة محتاجة إلى ما يحرك الفضلات ويستفرغها لنضجها ، بادر إليه ، فإن فاته تحريك الطبيعة فى ابتداء المرض لعائق منع من ذلك ، أو لضعف القوة وعدم احتمالها للاستفراغ ، أو لبرودة الفصل ، أو لتفريط وقع ، فينبغى أن يحذر كل الحذر أن يفعل ذلك فى صعود المرض ؛ لأنه إن فعله تحيرت الطبيعة لاشتغالها بالدواء ، وتخلت عن تدبير المرض ومقاومته بالكلية ، ومثاله : أن يجىء إلى فارس مشغول بمواقعة عدوه ، فيشغله عنه بأمر آخر ، ولكن الواجب فى هذه الحال أن يعين الطبيعة على حفظ القوة ما أمكنه .

فإذا انتهى المرض ووقف وسكن ، أخذ فى استفراغه ، واستئصال أسبابه ، فإذا أخذ فى الانحطاط ، كان أولى بذلك ، ومثال هذا مثال العدو إذا انتهت قوته ، وفرغ سلاحه ، كان أخذه سهلا ، فإذا ولى وأخذ فى الهرب ، كان أسهل أخذًا ، وحدته وشوكته إنما هى فى ابتدائه ، وحال استفراغه ، وسعة قوته ، فهكذا الداء والدواء سواء .

**ومن حذق الطبيب** : أنه حيث أمكن التدبير بالأسهل ، فلا يعدل إلى الأصعب ، ويتدرج من الأضعف إلى الأقوى إلا أن يخاف فوت القوة حينئذ ، فيجب أن يبتدئ بالأقوى ، ولا يقيم فى المعالجة على حال واحدة فتألفها الطبيعة ، ويقل انفعالها عنه ، ولا تجسر على الأدوية القوية فى الفصول القوية ، وقد تقدم أنه إذا أمكنه العلاج بالغذاء ، فلا يعالج بالدواء ، وإذا أشكل عليه المرض أحار هو أم بارد ؟ فلا يقدم حتى يتبين له ، ولا يجربه بما يخاف عاقبته ، ولا بأس بتجربته بما لا يضر أثره .

وإذا اجتمعت أمراض ، بدأ بما تخصه واحدة من ثلاثة خصال :

**إحداها** : أن يكون برء الآخر موقوفًا على برئه كالورم والقرحة ، فإنه يبدأ بالورم .

**الثانية** : أن يكون أحدها سببًا للآخر،كالسدة والحمى العفنة ،فإنه يبدأ بإزالة السبب .

**الثالثة** : أن يكون أحدهما أهم من الآخر ، كالحاد والمزمن ، فيبدأ بالحاد ، ومع هذا فلا يغفل عن الآخر . وإذا اجتمع المرض والعرض ، بدأ بالمرض ، إلا أن يكون العرض أقوى كالقولنج ، فيسكن الوجع أولاً ،ثم يعالج السدة ، وإذا أمكنه أن يعتاض عن المعالجة بالاستفراغ بالجوع أو الصوم أو النوم ، لم يستفرغه ، وكل صحة أراد حفظها ، حفظها بالمثل أو الشبه ، وإن أراد نقلها إلى ما هو أفضل منها نقلها بالضد (١) .

## فصل

## فى هديه ﷺ فى التحرز من الأدواء المعدية بطبعها وإرشاده الأصحاء إلى مجانبة أهلها

ثبت فى « صحيح مسلم » من حديث جابر بن عبد الله ، أنه كان فى وفد ثقيف رجل مجذوم ، فأرسل إليه النبى ﷺ : « ارجع فقد بايعناك » (٢) .

وروى البخارى فى « صحيحه » تعليقًا من حديث أبى هريرة ،عن النبى ﷺ أنه قال : « فر من المجذوم كما تفر من الأسد » (٣) .

وفى « سنن ابن ماجه » من حديث ابن عباس ، أن النبى ﷺ قال : « لا تديموا النظر إلى المجذومين » (٤) .

وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ « لا يوردن ممرض على مصح » (٥) .

ويذكر عنه ﷺ : « كلم المجذوم ، وبينك وبينه قيد رمح أو رمحين » (٦) .

الجذام : علة رديئة تحدث من انتشار المرة السوداء فى البدن كله، فيفسد مزاج الأعضاء وهيئتها وشكلها ، وربما فسد فى آخره اتصالها حتى تتأكل الأعضاء وتسقط ، ويسمى داء الأسد .

---

(١) زاد المعاد ( ٤ / ١٣٥ ـ ١٤٦ ) .

(٢) مسلم (٢٢٣١ / ١٢٦) فى السلام ، باب : اجتناب المجذوم ونحوه .

(٣) البخارى (٥٧٠٧) فى الطب ، باب : الجذام .

(٤) ابن ماجه (٣٥٤٣) فى الطب ، باب : الجذام .

(٥) البخارى (٥٧٧٤) فى الطب ، باب : لا عدوى ، ومسلم (٢٢٢١ / ١٠٤) فى السلام ، باب : لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ، ولا نوء ولا غول ، ولا يورد ممرض على مصح .

(٦) أحمد (١ / ٧٨) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ١٠٣) : « فيه الفرج بن فضالة وثقه أحمد وغيره ، وضعفه النسائى وغيره ، وبقية رجاله ثقات إن لم يكن سقط من الإسناد أحد » .

وفى هذه التسمية ثلاثة أقوال للأطباء :أحدها :أنها لكثرة ما تعترى الأسد ، والثانى : لأن هذه العلة تجهم وجه صاحبها وتجعله فى سحنة الأسد ، والثالث : أنه يفترس من يقربه ، أو يدنو منه بدائه افتراس الأسد .

وهذه العلة عند الأطباء من العلل المعدية المتوارثة ، ومقارب المجذوم ، وصاحب السل يسقم برائحته ، فالنبى ﷺ لكمال شفقته على الأمة ، ونصحه لهم نهاهم عن الأسباب التى تعرضهم لوصول العيب والفساد إلى أجسامهم وقلوبهم ، ولا ريب أنه قد يكون فى البدن تهيؤ واستعداد كامن لقبول هذا الداء ، وقد تكون الطبيعة سريعة الانفعال قابلة للاكتساب من أبدان من تجاوره وتخالطه ، فإنها نقالة ، وقد يكون خوفها من ذلك ووهمها من أكبر أسباب إصابة تلك العلة لها،فإن الوهم فعال مستول على القوى والطبائع، وقد تصل رائحة العليل إلى الصحيح فتسقمه ، وهذا معاين فى بعض الأمراض ، والرائحة أحد أسباب العدوى ، ومع هذا كله فلا بد من وجود استعداد البدن وقبوله لذلك الداء ، وقد تزوج النبى ﷺ امرأة ، فلما أراد الدخول بها ،وجد بكشحها بياضًا ، فقال : « الحقى بأهلك » (١) .

وقد ظن طائفة من الناس أن هذه الأحاديث معارضة بأحاديث أخر تبطلها وتناقضها ، فمنها : ما رواه الترمذى ، من حديث جابر ، أن رسول الله ﷺ أخذ بيد رجل مجذوم ، فأدخلها معه فى القصعة،وقال:« كل بسم الله ثقة بالله ، وتوكلا عليه » ؛ ورواه ابن ماجه وبما ثبت فى « الصحيح »، عن أبى هريرة ،عن النبى ﷺ أنه قال « لا عدوى ولا طيرة » (٢) .

ونحن نقول : لا تعارض بحمد الله بين أحاديثه الصحيحة ، فإذا وقع التعارض ، فإما أن يكون أحد الحديثين ليس من كلامه ﷺ وقد غلط فيه بعض الرواة مع كونه ثقة بتًا ، فالثقة يغلط، أو يكون أحد الحديثين ناسخًا للآخر إذا كان مما يقبل النسخ، أو يكون التعارض فى فهم السامع،لا فى نفس كلامه ﷺ، فلا بد من وجه من هذه الوجوه الثلاثة.

وأما حديثان صحيحان صريحان متناقضان من كل وجه ، ليس أحدهما ناسخًا للآخر ، فهذا لا يوجد أصلا ، ومعاذ الله أن يوجد فى كلام الصادق المصدوق الذى لا يخرج من بين شفتيه إلا الحق، والآفة من التقصير فى معرفة المنقول ، والتمييز بين صحيحه ومعلوله، أو من القصور فى فهم مراده ﷺ ، وحمل كلامه على غير ما عناه به ،أو منهما معا ،

---

(١) أحمد ٣ / ٤٩٣ .

(٢) مسلم (٢٢٢٣ / ١١٢) فى السلام ، باب : الطيرة والفأل .

ومن هاهنا وقع من الاختلاف والفساد ما وقع ، وبالله التوفيق .

قال ابن قتيبة فى كتاب « اختلاف الحديث » له حكاية عن أعداء الحديث وأهله، قالوا: حديثان متناقضان رويتم عن النبى ﷺ أنه قال : « لا عدوى ولا طيرة » . وقيل له : إن النقبة تقع بمشفر البعير ، فيجرب لذلك الإبل . قال : « فما أعدى الأول » (١) ، ثم رويتم « لا يورد ذو عاهة على مصح ، وفر من المجذوم فرارك من الأسد ، وأتاه رجل مجذوم ليبايعه بيعة الإسلام، فأرسل إليه البيعة ، وأمره بالانصراف ، ولم يأذن له ، وقال : « الشؤم فى المرأة والدار والدابة » (٢) . قالوا : وهذا كله مختلف لا يشبه بعضه بعضًا .

قال أبو محمد : ونحن نقول : إنه ليس فى هذا اختلاف ، ولكل معنى منها وقت وموضع ، فإذا وضع موضعه زال الاختلاف .

والعدوى جنسان : أحدهما : عدوى الجذام ، فإن المجذوم تشتد رائحته حتى يسقم من أطال مجالسته ومحادثه، وكذلك المرأة تكون تحت المجذوم ، فتضاجعه فى شعار واحد ، فيوصل إليها الأذى ، وربما جذمت ، وكذلك ولده ينزعون فى الكبر إليه ، وكذلك من كان به سل ودق ونقب والأطباء تأمر أن لا يجالس المسلول ولا المجذوم ، ولا يريدون بذلك معنى العدوى ، وإنما يريدون به معنى تغير الرائحة ، وأنها قد تسقم من أطال اشتمامها ، والأطباء أبعد الناس عن الإيمان بيمن وشؤم ، وكذلك النقبة تكون بالبعير - وهو جرب رطب - فإذا خالط الإبل أو حاكها ، وأوى فى مباركها ، وصل إليها بالماء الذى يسيل منه ، وبالنطف نحو ما به ، فهذا هو المعنى الذى قال فيه النبى ﷺ : « لا يورد ذو عاهة على مصح » ، كره ، أن يخالط المعيوه الصحيح ، لئلا يناله من نطفه وحكته نحو مما به .

قال : وأما الجنس الآخر من العدوى ، فهو الطاعون ينزل ببلد ، فيخرج منه خوف العدوى ، وقد قال ﷺ : « إذا وقع ببلد ، وأنتم به ، فلا تخرجوا منه ، وإذا كان ببلد ، فلا تدخلوه » . يريد بقوله : لا تخرجوا من البلد إذا كان فيه كأنكم تظنون أن الفرار من قدر الله ينجيكم من الله ، ويريد إذا كان ببلد ، فلا تدخلوه ، أى : مقامكم فى الموضع الذى لا طاعون فيه أسكن لقلوبكم ، وأطيب لعيشكم ، ومن ذلك المرأة تعرف بالشؤم أو الدار ، فينال الرجل مكروه أو جائحة ، فيقول : أعدتنى بشؤمها ، فهذا هو العدوى الذى قال فيه رسول الله ﷺ : « لا عدوى » .

---

(١) مسلم (٢٢٢٠ / ١٠١) فى السلام ، باب : لا عدوى ولا طيرة ولا سفر .

(٢) البخارى (٥٠٩٣) فى النكاح ، باب : ما يتقى من شؤم المرأة ، ومسلم (٢٢٢٥ / ١١٥) فى السلام ، باب : الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم .

وقالت : فرقة أخرى : بل الأمر باجتناب المجذوم والفرار منه على الاستحباب، والاختيار ، والإرشاد ، أما الأكل معه ، ففعله لبيان الجواز ، وأن هذا ليس بحرام .

وقالت : فرقة أخرى : بل الخطاب بهذين الخطابين جزئى لا كلى ، فكل واحد خاطبه النبى ﷺ بما يليق بحاله ، فبعض الناس يكون قوى الإيمان ، قوى التوكل تدفع قوة توكله قوة العدوى ،كما تدفع قوة الطبيعة قوة العلة فتبطلها ، وبعض الناس لا يقوى على ذلك ، فخاطبه بالاحتياط والأخذ بالتحفظ ، وكذلك هو ﷺ فعل الحالتين معًا ، لتقتدى به الأمة فيهما ، فيأخذ من قوى من أمته بطريقة التوكل والقوة والثقة بالله ،ويأخذ من ضعف منهم بطريقة التحفظ والاحتياط ، وهما طريقان صحيحان . أحدهما : للمؤمن القوى ، والآخر للمؤمن الضعيف،فتكون لكل واحد من الطائفتين حجة وقدوة بحسب حالهم وما يناسبهم، وهذا كما أنه ﷺ كوى،وأثنى على تارك الكى، وقرن تركه بالتوكل ، وترك الطيرة ، ولهذا نظائر كثيرة ، وهذه طريقة لطيفة حسنة جدًا من أعطاها حقها ، ورزق فقه نفسه فيها ، أزالت عنه تعارضًا كثيرًا يظنه بالسنة الصحيحة .

وذهبت فرقة أخرى إلى أن الأمر بالفرار منه ، ومجانبته لأمر طبيعى ، وهو انتقال الداء منه بواسطة الملامسة والمخالطة والرائحة إلى الصحيح ، وهذا يكون مع تكرير المخالطة والملامسة له ، وأما أكله معه مقدارًا يسيرًا من الزمان لمصلحة راجحة فلا بأس به ، ولا تحصل العدوى من مرة واحدة ولحظة واحدة ، فنهى سدًا للذريعة ، وحماية للصحة ، وخالطه مخالطة ما للحاجة والمصلحة ، فلا تعارض بين الأمرين .

وقالت طائفة أخرى : يجوز أن يكون هذا المجذوم الذى أكل معه به من الجذام أمر يسير لا يعدى مثله ، وليس الجذمى كلهم سواء ، ولا العدوى حاصلة من جميعهم ، بل منهم من لا تضر مخالطته ، ولا تعدى ، وهو من أصابه من ذلك شىء يسير ، ثم وقف واستمر على حاله ، ولم يعد بقية جسمه ، فهو ألا يعدى غيره أولى وأحرى .

وقالت فرقة أخرى : إن الجاهلية كانت تعتقد أن الأمراض المعدية تعدى بطبعها من غير إضافة إلى الله سبحانه ، فأبطل النبى ﷺ اعتقادهم ذلك ، وأكل مع المجذوم ليبين لهم أن الله سبحانه هو الذى يمرض ويشفى ، ونهى عن القرب منه ليتبين لهم أن هذا من الأسباب التى جعلها الله مفضية إلى مسبباتها ، ففى نهيه إثبات الأسباب ، وفى فعله بيان أنها لا تستقل بشىء ، بل الرب سبحانه إن شاء سلبها قواها ، فلا تؤثر شيئًا ، وإن شاء أبقى عليها قواها فأثرت .

وقالت فرقة أخرى : بل هذه الأحاديث فيها الناسخ والمنسوخ ، فينظر فى تاريخها ،

فإن علم المتأخر منها ، حكم بأنه الناسخ ، وإلا توقفنا فيها .

وقالت فرقة أخرى : بل بعضها محفوظ ، وبعضها غير محفوظ ، وتكلمت فى حديث « لا عدوى » ، وقالت : قد كان أبو هريرة يرويه أولا ، ثم شك فيه فتركه ، وراجعوه فيه ، وقالوا : سمعناك تحدث به ، فأبى أن يحدث به .

قال أبو سلمة : فلا أدرى ، أنسى أبو هريرة ، أم نسخ أحد الحديثين الآخر ؟

وأما حديث جابر : أن النبى ﷺ أخذ بيد مجذوم ، فأدخلها معه فى القصعة ، فحديث لا يثبت ولا يصح ، وغاية ما قال فيه الترمذى : إنه غريب ، لم يصححه ولم يحسنه ، وقد قال شبعة وغيره : اتقوا هذه الغرائب . قال الترمذى : ويروى هذا من فعل عمر،وهو أثبت ، فهذا شأن هذين الحديثين اللذين عورض بهما أحاديث النهى ، أحدهما: رجع أبو هريرة عن التحديث به وأنكره ، والثانى : لا يصح عن رسول الله ﷺ ، والله أعلم ، وقد أشبعنا الكلام فى هذه المسألة فى كتاب « المفتاح » بأطول من هذا ، وبالله التوفيق (١) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى المنع من التداوى بالمحرمات

روى أبو داود فى « سننه » من حديث أبى الدرداء ﷺ قال : قال : رسول الله ﷺ :« إن الله أنزل الداء والدواء،وجعل لكل داءٍ دواءً،فتداووا،ولا تداووا بالمحرم » (٢).

وذكر البخارى فى « صحيحه » عن ابن مسعود : إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم (٣) .

وفى « السنن » : عن أبى هريرة ، قال :نهى رسول الله ﷺ عن الدواء الخبيث (٤) .

وفى « صحيح مسلم » عن طارق بن سويد الجعفى ، أنه سأل النبى ﷺ عن الخمر ، فنهاه ، أو كرهه أن يصنعها ، فقال : إنما أصنعها للدواء ، فقال : « إنه ليس بدواءٍ ، ولكنه داء » (٥) .

---

(١) زاد المعاد ( ٤ / ١٤٦ ـ ١٥٤ ) .

(٢) أبو داود (٣٨٧٤) فى الطب ، باب : فى الأدوية المكروهة .

(٣) البخارى تعليقا فتح البارى (١٠ / ٧٨) فى الأشربة ، باب شراب الحلواء والعسل .

(٤) أبو داود (٣٨٧٠) فى الطب ، باب : فى الأدوية المكروهة ، والترمذى (٢٠٤٥) فى الطب ، باب : ما جاء فيمن قتل نفسه بسمٍّ أو غيره ، وابن ماجه (٣٤٥٩) فى الطب ، باب : النهى عن الدواء الخبيث .

(٥) مسلم (١٩٨٤ / ١٢) فى الأشربة ، باب : تحريم التداوى بالخمر .

وفى « السنن » أنه ﷺ سئل عن الخمر يجعل فى الدواء ، فقال : « إنها داء وليست بالدواء » ، رواه أبو داود ، والترمذى (١) .

وفى « صحيح مسلم » عن طارق بن سويد الحضرمى ،قال : قلت : يا رسول الله ، إن بأرضنا أعنابًا نعتصرها فنشرب منها ، قال : « لا » فراجعته ، قلت : إنا نستشفى للمريض ، قال : « إن ذلك ليس بشفاء ولكنه داء » (٢) .

وفى « سنن النسائى » أن طبيبًا ذكر ضفدعًا فى دواء عند رسول الله ﷺ ، فنهاه عن قتلها (٣) .

ويذكر عنه ﷺ أنه قال : « من تداوى بالخمر ، فلا شفاه الله » (٤) .

المعالجة بالمحرمات قبيحة عقلا وشرعًا،أما الشرع فما ذكرنا من هذه الأحاديث وغيرها، وأما العقل ، فهو أن الله ـ سبحانه ـ إنما حرمه لخبثه ، فإنه لم يحرم علي هذه الأمة طيبًا عقوبة لها ، كما حرمه على بنى إسرائيل بقوله : ﴿ **فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ** ﴾ [ النساء : ١٦٠] ، وإنما حرم على هذه الأمة ما حرم لخبثه ، وتحريمه له حمية لهم ، وصيانة عن تناوله ، فلا يناسب أن يطلب به الشفاء من الأسقام والعلل ، فإنه وإن أثر فى إزالتها ، لكنه يعقب سقماً أعظم منه فى القلب بقوة الخبث الذى فيه ، فيكون المداوى به قد سعى فى إزالة سقم البدن بسقم القلب .

وأيضا ، فإن تحريمه يقتضى تجنبه والبعد عنه لكل طريق ، وفى اتخاذه دواءحض على الترغيب فيه وملابسته . وهذا ضد مقصود الشارع ، وأيضا فإنه داء كما نص عليه صاحب الشريعة ، فلا يجوز أن يتخذ دواء .

وأيضا ، فإنه يكسب الطبيعة والروح صفة الخبث ، لأن الطبيعة تنفعل عن كيفية الدواء انفعالاً بيناً ، فإذا كانت كيفيته خبيثة، اكتسبت الطبيعة منه خبثاً ، فكيف إذا كان خبيثاً فى ذاته ، ولهذا حرم الله سبحانه على عباده الأغذية والأشربة والملابس الخبيثة ، لما تكسب النفس من هيئة الخبث وصفته .

---

(١) أبو داود (٣٨٧٣) فى الطب ، باب : فى الأدوية المكروهة ، والترمذى (٢٠٤٦) فى الطب ، باب : ما جاء فى كراهة التداوى بالمسكر ، وقال : « حسن صحيح » .

(٢) الحديث وهم المؤلف ـ رحمه الله ـ فى عزوه لمسلم ، حيث إن الإمام مسلم لم يرو حديثًا لطارق بن سويد ، انظر التحفة (٤ / ٢٠٦) ، والحديث رواه ابن ماجه ( ٣٥٠٠) فى الطب ، باب : النهى أن يتداوى بالخمر .

(٣) النسائى (٤٣٥٥) فى الصيد والذبائح ، باب : فى الضفدع .

(٤) الجامع الصغير للسيوطى (٨٥٨١) بنحوه .

وأيضاً ، فإن فى إباحة التداوى به ، ولا سيما إذا كانت النفوس تميل إليه ذريعة إلى تناوله للشهوة واللذة، لاسيما إذا عرفت النفوس أنه نافع لها مزيل لأسقامها جالب لشفائها، فهذا أحب شىء إليها . والشارع سد الذريعة إلى تناوله لكل ممكن ، ولا ريب أن بين سد الذريعة إلى تناوله ، وفتح الذريعة إلى تناوله تناقضاً وتعارضاً .

وأيضاً ، فإن فى هذا الدواء المحرم من الأدواء ما يزيد على ما يظن فيه من الشفاء، ولنفرض الكلام فى أم الخبائث التى ما جعل الله لنا فيها شفاء قط ، فإنها شديدة المضرة بالدماغ الذى هو مركز العقل عند الأطباء ، وكثير من الفقهاء والمتكلمين . قال أبقراط فى أثناء كلامه فى الأمراض الحادة :

ضرر الخمرة بالرأس شديد ؛ لأنه يسرع الارتفاع إليه . ويرتفع بارتفاعه الأخلاط التى تعلو فى البدن ، وهو كذلك يضر بالذهن .

وقال صاحب « الكامل » : إن خاصية الشراب الإضرار بالدماغ والعصب .

وأما غيره من الأدوية المحرمة فنوعان :

**أحدهما** : تعافه النفس ولا تنبعث لمساعدته الطبيعة على دفع المرض به كالسموم ، ولحوم الأفاعى وغيرها من المستقذرات ، فيبقى كلا على الطبيعة مثقلاً لها ، فيصير حينئذ داء لا دواء .

**والثانى** : ما لا تعافه النفس كالشراب الذى تستعمله الحوامل مثلاً ، فهذا ضرره أكثر من نفعه ، والعقل يقضى بتحريم ذلك ، فالعقل والفطرة مطابق للشرع فى ذلك .

وهاهنا شر لطيف فى كون المحرمات لا يستشفى بها ، فإن شرط الشفاء بالدواء تلقيه بالقبول ، واعتقاد منفعته ، وما جعل الله فيه من بركة الشفاء ، فإن النافع هو المبارك ، وأنفع الأشياء أبركها من الناس أينما كان هو الذى ينتفع به حيث حل ، ومعلوم أن اعتقاد المسلم تحريم هذه العين مما يحول بينه وبين اعتقاد بركتها ومنفعتها ، وبين حسن ظنه بها ، وتلقى طبعه لها بالقبول ، بل كلما كان العبد أعظم إيمانًا ، كان أكره لها وأسوأ اعتقادًا فيها، وطبعه أكره شىء لها ، فإذا تناولها فى هذه الحال ، كانت داء له لا دواء إلا أن يزول اعتقاد الخبث فيها ، وسوء الظن والكراهة لها بالمحبة ، وهذا ينافى الإيمان ، فلا يتناولها المؤمن قط إلا على وجه داء ، والله أعلم (١) .

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٥٤ ـ ١٥٨) .

## وأيضـــًا

إنه نهى عن التداوى بالخمر وإن كانت مصلحة التداوى راجحة على مفسدة ملابستها سدًا لذريعة قربانها واقتنائها يحبه النفوس لها فحسم عليها المادة حتى فى تناولها على وجه التداوى وهذا من أبلغ سد الذرائع (١) .

## فصل
## فى الأدوية المكروهة

عن أبى هريرة ﷺ قال : نهى رسول الله ﷺ عن الدواء الخبيث (٢) .

وأخرجه الترمذى وابن ماجه (٣) .

وفى حديث الترمذى وابن ماجه : « يعنى السم » .

وذكر بعضهم : أن خبث الدواء يكون من وجهين :

**أحدهما** : خبث النجاسة ؛ وهو أن يدخله المحرم ، كالخمر ، ولحم ما لا يؤكل من الحيوان .

**والثانى** : أن يكون خبيثًا من جهة الطعم والمذاق ، ولا ينكر أن يكون كره ذلك لما فيه من المشقة على الطباع ، ولتكره النفس إياه (٤) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى حفظ الصحة

لما كان اعتدال البدن وصحته وبقاؤه إنما هو بواسطة الرطوبة المقاومة للحرارة ، فالرطوبة مادته ، والحرارة تنضجها ، وتدفع فضلاتها ، وتصلحها ، وتلطفها ، وإلا

---

(١) إعلام الموقعين (٣ / ١٩٢) .

(٢) أبو داود (٣٨٧٠) فى الطب ، باب : فى الأدوية المكروهة .

(٣) الترمذى (٢٠٤٥) فى الطب ، باب : ما جاء فيمن قتل نفسه بسم أو غيره ، وابن ماجه (٣٤٥٩) فى الطب ، باب : النهى عن الدواء الخبيث .

(٤) تهذيب السنن (٥ / ٣٥٥) .

أفسدت البدن ولم يمكن قيامه ، وكذلك الرطوبة هى غذاء الحرارة ، فلولا الرطوبة ، لأحرقت البدن وأيبسته وأفسدته ، فقوام كل واحدة منهما بصاحبتها ، وقوام البدن بهما جميعًا ، وكل منهما مادة للأخرى ، فالحرارة مادة للرطوبة تحفظها وتمنعها من الفساد والاستحالة ، والرطوبة مادة للحرارة تغذوها وتحملها ، ومتى مالت إحداهما إلى الزيادة على الأخرى، حصل لمزاج البدن الانحراف بحسب ذلك، فالحرارة دائمًا تحلل الرطوبة ، فيحتاج البدن إلى ما به يخلف عليه ما حللته الحرارة ـ لضرورة بقائه ـ وهو الطعام والشراب، ومتى زاد على مقدار التحلل ، ضعفت الحرارة عن تحليل فضلاته ، فاستحالت مواد رديئة ، فعاثت فى البدن ، وأفسدت ، فحصلت الأمراض المتنوعة بحسب تنوع موادها وقبول الأعضاء واستعدادها ، وهذا كله مستفاد من قوله تعالى : ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا** ﴾ [ الأعراف : ٣١] ، فأرشد عباده إلى إدخال ما يقيم البدن من الطعام والشراب عوض ما تحلل منه ، وأن يكون بقدر ما ينتفع به البدن فى الكمية والكيفية ، فمتى جاوز ذلك كان إسرافًا ، وكلاهما مانع من الصحة جالب للمرض ، أعنى عدم الأكل والشرب ، أو الإسراف فيه .

فحفظ الصحة كله فى هاتين الكلمتين الإلهيتين ، ولا ريب أن البدن دائمًا فى التحلل والاستخلاف ، وكلما كثر التحلل ضعفت الحرارة لفناء مادتها ، فإن كثرة التحلل تفنى الرطوبة ، وهى مادة الحرارة ، وإذا ضعفت الحرارة ، ضعف الهضم ، ولا يزال كذلك حتى تفنى الرطوبة ، وتنطفىء الحرارة جملة ، فيستكمل العبد الأجل الذى كتب الله له أن يصل إليه .

فغاية علاج الإنسان لنفسه ولغيره حراسة البدن إلى أن يصل إلى هذه الحالة ، لا أنه يستلزم بقاء الحرارة والرطوبة اللتين بقاء الشباب والصحة والقوة بهما ، فإن هذا مما لم يحصل لبشر فى هذه الدار ، وإنما غاية الطبيب أن يحمى الرطوبة عن مفسداتها من العفونة وغيرها ، ويحمى الحرارة عن مضعفاتها ، ويعدل بينهما بالعدل فى التدبير الذى به قام بدن الإنسان ، كما أن به قامت السماوات والأرض وسائر المخلوقات ، إنما قوامها بالعدل ، ومن تأمل هدى النبى ﷺ وجده أفضل هدى يمكن حفظ الصحة به ، فإن حفظها موقوف على حسن تدبير المطعم والمشرب ،والملبس والمسكن ، والهواء والنوم ، واليقظة والحركة ، والسكون والمنكح ، والاستفراغ والاحتباس ، فإذا حصلت هذه على الوجه المعتدل الموافق الملائم للبدن والبلد والسن والعادة ، كان أقرب إلى دوام الصحة أو غلبتها إلى انقضاء الأجل .

ولما كانت الصحة والعافية من أجل نعم الله على عبده، وأجزل عطاياه ، وأوفر منحه ، بل العافية المطلقة أجل النعم على الإطلاق ، فحقيق لمن رزق حظًا من التوفيق مراعاتها وحفظها وحمايتها عما يصادها، وقد روى البخاري في « صحيحه » من حديث ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » (١) .

وفي الترمذي وغيره من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أصبح معافى في جسده ، آمنًا في سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا » (٢) .

وفي الترمذي أيضًا من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم ، أن يقال له : ألم نصح لك جسمك ، ونروك من الماء البارد » (٣) .

ومن هاهنا قال من قال من السلف في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾ [ التكاثر ] ، قال : عن الصحة .

وفي « مسند الإمام أحمد » أن النبي ﷺ قال للعباس: « يا عباس ، يا عم رسول الله ، سل الله العافية في الدنيا والآخرة » (٤) .

وفيه عن أبي بكر الصديق ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سلوا الله اليقين والمعافاة ، فما أوتي أحد بعد اليقين خيرًا من العافية » (٥) .

فجمع بين عافيتي الدين والدنيا، ولا يتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية ، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه .

وفي « سنن النسائي » من حديث أبي هريرة يرفعه : « سلوا الله العفو والعافية والمعافاة ، فما أوتي أحد بعد يقين خيرًا من معافاة » (٦) . وهذه الثلاثة تتضمن إزالة الشرور الماضية بالعفو ، والحاضرة بالعافية ، والمستقبلة بالمعافاة ، فإنها تتضمن المداومة

---

(١) البخاري (٦٤١٢) في الرقاق ، باب : ما جاء في الرقاق وأن لا عيش إلا عيش الآخرة .
(٢) الترمذي (٢٣٤٦) في الزهد ، باب : في التوكل على الله ، وقال : « حسن غريب » ، ابن ماجه (٤١٤١) في الزهد ، باب : القناعة .
(٣) الترمذي (٣٣٥٨) في التفسير ، باب : ومن سورة التكاثر ، وقال : « حديث غريب » .
(٤) أحمد ١ / ٢٠٩ ، وقال الشيخ شاكر (١٧٨٣) : « إسناده صحيح » .
(٥) أحمد ١ / ٣ ، وقال : الشيخ شاكر (٦) : « إسناده صحيح » .
(٦) النسائي في الكبرى (١٠٧١٧) في عمل اليوم والليلة ، باب : مسألة المعافاة من حديث أبي بكر الصديق .

والاستمرار على العافية .

وفى الترمذى مرفوعًا : « ما سئل الله شيئًا أحب إليه من العافية » (١) .

وقال عبد الرحمن بن أبى ليلى : عن أبى الدرداء ، قلت : يا رسول الله ! لأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر ، فقال رسول الله ﷺ : « ورسول الله يحب معك العافية » .

ويذكر عن ابن عباس أن أعرابيًا جاء إلى رسول الله ﷺ ، فقال له : ما أسأل الله بعد الصلوات الخمس ؟ فقال : « سل الله العافية » ، فأعاد عليه ، فقال له فى الثالثة : « سل الله العافية فى الدنيا والآخرة » .

وإذا كان هذا شأن العافية والصحة ، فنذكر من هديه ﷺ فى مراعاة هذه الأمور ما تبين لمن نظر فيه أنه أكمل هدى على الإطلاق ينال به حفظ صحة البدن والقلب ، وحياة الدنيا والآخرة ، والله المستعان ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فأما المطعم والمشرب ، فلم يكن من عادته ﷺ حبس النفس على نوع واحد من الأغذية لا يتعداه إلى ما سواه ، فإن ذلك يضر بالطبيعة جدًا ، وقد يتعذر عليها أحيانًا ، فإن لم يتناول غيره ، ضعف أو هلك ، وإن تناول غيره ، لم تقبله الطبيعة ، واستضر به ، فقصرها على نوع واحد دائمًا ـ ولو أنه أفضل الأغذية ـ خطر مضر .

بل كان يأكل ما جرت عادة أهل بلده بأكل من اللحم ، والفاكهة ، والخبز ، والتمر ، وغيره مما ذكرناه فى هديه فى المأكول ، فعليك بمراجعته هناك .

وإذا كان فى أحد الطعامين كيفية تحتاج إلى كسر وتعديل ، كسرها وعدلها بضدها إن أمكن ، كتعديل حرارة الرطب بالبطيخ ، وإن لم يجد ذلك ، تناوله على حاجة وداعية من النفس من غير إسراف ، فلا تتضرر به الطبيعة .

وكان إذا عافت نفسه الطعام لم يأكله ، ولم يحملها إياه على كره ، وهذا أصل عظيم فى حفظ الصحة ، فمتى أكل الإنسان ما تعافه نفسه ، ولا يشتهيه ، كان تضرره به أكثر من انتفاعه: قال أبو هريرة : ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قط ، إن اشتهاه أكله ، وإلا تركه ، ولم يأكل منه (٢) . ولما قدم إليه الضب المشوى لم يأكل منه فقيل له : أهو حرام ؟ قال :

---

(١) الترمذى (٣٥١٥) فى الدعوات ، باب : ٨٥ ، وقال : « غريب » .

(٢) البخارى (٥٤٠٩) فى الأطعمة ، باب:ما عاب النبى ﷺ طعامًا ،ومسلم (٢٠٦٤ / ١٨٧) فى الأشربة ، باب : لا يعيب الطعام .

« لا ، ولكن لم يكن بأرض قومى ، فأجدنى أعافه » (١) ، فراعى عادته وشهوته ، فلما لم يكن يعتاد أكله بأرضه ، وكانت نفسه لا تشتهيه ، أمسك عنه ، ولم يمنع من أكله من يشتهيه ، ومن عادته أكله .

وكان يحب اللحم ، وأحبه إليه الذراع ، ومقدم الشاة ، ولذلك سم فيه ، وفى « الصحيحين » : أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع ، وكانت تعجبه » (٢) .

وذكر أبو عبيدة وغيره عن ضباعة بنت الزبير ، أنها ذبحت فى بيتها شاة ، فأرسل إليها رسول الله ﷺ أن أطعمينا من شاتكم ، فقالت للرسول : ما بقى عندنا إلا الرقبة ، وإنى لأستحى أن أرسل بها إلى رسول الله ﷺ ، فرجع الرسول فأخبره ، فقال : « ارجع إليها فقل لها أرسلى بها ، فإنها هادية الشاة وأقرب إلى الخير ، وأبعدها من الأذى » (٣) .

ولا ريب أن أخف لحم الشاة لحم الرقبة ، ولحم الذراع والعضد ، وهو أخف على المعدة ، وأسرع انهضامًا ، وفى هذا مراعاة الأغذية التى تجمع ثلاثة أوصاف أحدها : كثرة نفعها وتأثيرها فى القوى . الثانى : خفتها على المعدة ، وعدم ثقلها عليها . الثالث : سرعة هضمها ، وهذا أفضل ما يكون من الغذاء ، والتغذى باليسير من هذا أنفع من الكثير من غيره .

وكان يحب الحلواء والعسل ، وهذه الثلاثة ـ أعنى : اللحم والعسل والحلواء ـ من أفضل الأغذية ، وأنفعها للبدن والكبد والأعضاء ، وللاغتذاء بها نفع عظيم فى حفظ الصحة ولا ينفر منها إلا من به علة وآفة .

وكان يأكل الخبز مأدومًا ما وجد له إدامًا ، فتارة يأدمه باللحم ويقول : « هو سيد طعام أهل الدنيا والآخرة » . رواه ابن ماجه وغيره (٤) وتارة بالبطيخ ، وتارة بالتمر ، فإنه وضع تمرة على كسرة شعير ، وقال : « هذا إدام هذه » (٥) . وفى هذا من تدبير الغذاء أن خبز الشعير بارد يابس ، والتمر حار رطب على أصح القولين ، فأدم خبز الشعير به من

---

(١) البخارى (٥٥٣٧) فى الذبائح ، والصيد ، باب : الضب ، ومسلم (١٩٤٦ / ٤٤) فى الصيد والذبائح ، باب : إباحة الضب .

(٢) البخارى (٣٣٤٠) فى الأنبياء ، باب : قول الله عز وجل : ﴿ولقد أرسلنا نوح إلى قومه﴾ ، ومسلم (١٩٤ / ٣٢٧) فى الإيمان ، باب : أدنى أهل الجنة منزلة فيها .

(٣) أحمد (٦ / ٣٦٠ ، ٣٦١) ، والطبرانى فى الكبير (٢٤ / ٣٣٧) (٨٤٤) .

(٤) ابن ماجه (٣٣٠٥) فى الأطعمة ، باب : اللحم ، وفى الزوائد : « فى إسناده أبو شجعة وابن أخيه مسلمة بن عبد الله لم أر من جرحهما ولا وثقهما . . . » .

(٥) أبو داود (٣٢٥٩) فى الأيمان والنذور ، باب : الرجل يحلف ألا يتأدم .

أحسن التدبير ، لا سيما لمن تلك عادتهم ، كأهل المدينة ، وتارة بالخل ، ويقول : « نعم الإدام الخل » وهذا ثناء عليه بحسب مقتضى الحال الحاضر ، لا تفضيل له على غيره ، كما يظن الجهال ، وسبب الحديث أنه دخل على أهله يومًا ، فقدموا له خبزًا ، فقال : « هل عندكم من إدام ؟ » قالوا : ما عندنا إلا خل ، فقال : « نعم الإدام الخل » (١) .

والمقصود : أن أكل الخبز مأدومًا من أسباب حفظ الصحة ، بخلاف الاقتصار على أحدهما وحده ، وسمى الأدم أدمًا : لإصلاحه الخبز ، وجعله ملائمًا لحفظ الصحة ، ومنه قوله فى إباحته للخاطب النظر : إنه أحرى أن يؤدم بينهما ، أى أقرب إلى الالتئام والموافقة ، فإن الزوج يدخل على بصيرة ، فلا يندم .

وكان يأكل من فاكهة بلده عند مجيئها ، ولا يحتمى عنها ، وهذا أيضًا من أكبر أسباب حفظ الصحة ، فإن الله ـ سبحانه ـ بحكمته جعل فى كل بلدة من الفاكهة ما ينتفع به أهلها فى وقته ، فيكون تناوله من أسباب صحتهم وعافيتهم ، ويغنى عن كثير من الأدوية ، وقل من احتمى عن فاكهة بلده خشية السقم إلا وهو من أسقم الناس جسمًا ، وأبعدهم من الصحة والقوة .

وما فى تلك الفاكهة من الرطوبات ، فحرارة الفصل والأرض وحرارة المعدة تنضجها وتدفع شرها إذا لم يسرف فى تناولها ، ولم يحمل منها الطبيعة فوق ما تحتمله ، ولم يفسد بها الغذاء قبل هضمه ولا أفسدها بشرب الماء عليها ، وتناول الغذاء بعد التحلى منها ، فإن القولنج كثيرًا ما يحدث عند ذلك ، فمن أكل منها ما ينبغى فى الوقت الذى ينبغى على الوجه الذى ينبغى ، كانت له دواءً نافعًا (٢) .

## فصل

## فى هديه ﷺ فى هيئة الجلوس للأكل

صح عنه أنه قال : « لا آكل متكئا » (٣) ، وقال : « إنما أجلس كما يجلس العبد ، وآكل كما يأكل العبد » (٤) .

وروى ابن ماجه فى « سننه » أنه نهى أن يأكل الرجل وهو منبطح على وجهه (٥) .

---

(١) مسلم (٢٠٥٢ / ١٦٦) فى الأشربة ، باب : فضيلة الخل والتأدم به ، وأبو داود (٣٨٢١) فى الأطعمة ، باب فى الخل ، والترمذى (١٨٤٠) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى الخل ، وقال : « هذا أصح من حديث مبارك ابن سعيد » .

(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٢١٣ ـ ٢٢٠ ) .

(٣) البخارى (٥٣٩٨) فى الأطعمة ، باب : الأكل متكئا .

(٤) أبو داود (٣٧٧٥) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى الجلوس على مائدة عليها بعض ما يكره .

(٥) ابن ماجه (٣٣٧٠) فى الأطعمة ، باب : النهى عن الأكل منبطحًا .

وقد فسر الاتكاء بالتربع ، وفسر الاتكاء على الشىء ، وهو الاعتماد عليه ، وفسر بالاتكاء على الجنب ، والأنواع الثلاثة من الاتكاء ، فنوع منها يضر بالآكل ، وهو الاتكاء على الجنب ، فإنه يمنع مجرى الطعام الطبيعى عن هيئته ، ويعوقه عن سرعة نفوذه إلى المعدة ويضغط المعدة ، فلا يستحكم فتحها للغذاء ، وأيضًا فإنها تميل ولا تبقى منتصبة ، فلا يصل الغذاء إليها بسهولة .

وأما النوعان الآخران : فمن جلوس الجبابرة المنافى للعبودية ؛ ولهذا قال : « آكل كما يأكل العبد » وكان يأكل وهو مقعن (١)،ويذكر عنه أنه كان يجلس للأكل متوركًا على ركبتيه ، ويضع بطن قدمه اليسرى على ظهر قدمه اليمنى تواضعًا لربه عز وجل ، وأدبًا بين يديه ، واحترامًا للطعام وللمؤاكل ، فهذه الهيئة أنفع هيئات الأكل وأفضلها ؛ لأن الأعضاء كلها تكون على وضعها الطبيعى الذى خلقها الله ـ سبحانه ـ عليه مع ما فيها من الهيئة الأدبية ، وأجود ما اغتذى الإنسان إذا كانت أعضاؤه على وضعها الطبيعى ، ولا يكون كذلك إلا إذا كان الإنسان منتصبًا الانتصاب الطبيعى ، وأردأ الجلسات للأكل الاتكاء على الجنب ، لما تقدم من أن المرىء ، وأعضاء الازدراد تضيق عند هذه الهيئة ، والمعدة لا تبقى على وضعها الطبيعى ؛ لأنها تنعصر مما يلى البطن بالأرض ، ومما يلى الظهر بالحجاب الفاصل بين آلات الغذاء ، وآلات التنفس .

وإن كان المراد بالاتكاء الاعتماد على الوسائد والوطاء الذى تحت الجالس ، فيكون المعنى أنى إذا أكلت لم أقعد متكئًا على الأوطية والوسائد ، كفعل الجبابرة ، ومن يريد الإكثار من الطعام ، لكنى آكل بلغة كما يأكل العبد .

وكان يأكل بأصابعه الثلاث ، وهذا أنفع ما يكون من الأكلات ، فإن الأكل بأصبع أو أصبعين لا يستلذ به الآكل ، ولا يمريه ، ولا يشبعه إلا بعد طول ، ولا تفرح آلات الطعام والمعدة بما ينالها فى كل أكلة ، فتأخذها على إغماض ، كما يأخذ الرجل حقه حبة أو حبتين أو نحو ذلك ، فلا يلتذ بأخذه ، ولا يسر به ، والأكل بالخمسة والراحة يوجب ازدحام الطعام على آلاته ، وعلى المعدة،وربما انسدت الآلات فمات ،وتغصب الآلات على دفعه ، والمعدة على احتماله ، ولا يجد له لذة ولا استمراء ، فأنفع الأكل أكله ﷺ ، وأكل من اقتدى به بالأصابع الثلاث .

ومن تدبر أغذيته ﷺ ، وما كان يأكله ، وجده لم يجمع قط بين لبن وسمك ، ولا بين لبن وحامض ، ولا بين غذاءين حارين ، ولا باردين ، ولا لزجين ، ولا قابضين ، ولا

(١) مسلم (٢٠٤٤/١٤٨) فى الأشربة ، باب : استحباب تواضع الآكل وصفة قعوده .

مسهلين ، ولا غليظين ، ولا مرخيين ، ولا مستحيلين إلى خلط واحد ، ولا بين مختلفين كقابض ومسهل ، وسريع الهضم وبطيئه ، ولا بين شوى وطبيخ ، ولا بين طرى وقديد ، ولا بين لبن وبيض، ولا بين لحم ولبن ، ولم يكن يأكل طعامًا فى وقت شدة حرارته ، ولا طبيخًا بائتًا يُسخن له بالغد ، ولا شيئًا من الأطعمة العفنة والمالحة ، كالكوامخ والخللات ، والملوحات ، وكل هذه الأنواع ضار مولد لأنواع من الخروج عن الصحة والاعتدال .

وكان يصلح ضرر بعض الأغذية ببعض إذا وجد إليه سبيلا ، فيكسر حرارة هذا ببرودة هذا،ويبوسة هذا برطوبة هذا ، كما فعل فى القثاء والرطب ،وكما كان يأكل التمر بالسمن، وهو الحيس ، ويشرب نقيع التمر يلطف به كيموسات الأغذية الشديدة .

وكان يأمر بالعشاء ولو بكفّ من تمر ، ويقول : « ترك العشاء مهرمة » ، ذكره الترمذى فى « جامعه » ، وابن ماجه فى « سننه » (١) .

وذكر أبو نعيم عنه أنه كان ينهى عن النوم على الأكل ، ويذكر أنه يقسى القلب ، ولهذا فى وصايا الأطباء لمن أراد حفظ الصحة : أن يمشى بعد العشاء خطوات ولو مائة خطوة ، ولا ينام عقبه ، فإنه مضر جدًا ، وقال مسلموهم : أو يصلى عقيبه ليستقر الغذاء بقعر المعدة ، فسهل هضمه ، ويجود بذلك .

ولم يكن من هديه ﷺ أن يشرب على طعامه فيفسده ، ولا سيما إن كان الماء حارًا أو باردًا، فإنه ردىء جدًا ، قال الشاعر :

لا تكـن عند أكـل سخن وبـرد ... ودخـول الحمـام تشرب مـاء
فـإذا مـا اجتنبت ذلـك حقـًا ... لم تخف ما حييت فى الجوف داء

ويكره شرب الماء عقيب الرياضة،والتعب،وعقيب الجماع وعقيب الطعام وقبله، وعقيب أكل الفاكهة ، وإن كان الشرب عقيب بعضها أسهل من بعض ، وعقب الحمام ، وعند الانتباه من النوم،فهذا كله مناف لحفظ الصحة،ولا اعتبار بالعوائد،فإنها طبائع ثوان (٢).

## فصل

## فى هديه ﷺ فى الشراب بما ينفع البدن

وأما هديه فى الشراب ، فمن أكمل هدى يحفظ به الصحة ، فإنه كان يشرب العسل

---

(١) الترمذى (١٨٥٦) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى فضل العشاء ، وقال : « منكر » ، وابن ماجه (٣٣٥٥) فى الأطعمة ، باب : ترك العشاء .

(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٢٢٠ _ ٢٢٤ ) .

الممزوج بالماء البارد،وفى هذا من حفظ الصحة ما لا يهتدى إلى معرفته إلا أفاضل الأطباء ، فإن شربه ولعقه على الريق يذيب البلغم ، ويغسل خمل المعدة ، ويجلو لزوجتها ، ويدفع عنها الفضلات ، ويسخنها باعتدال ، ويفتح سددها ، ويفعل مثل ذلك بالكبد والكلى والمثانة ، وهو أنفع للمعدة من كل حلو دخلها ، وإنما يضر بالعرض لصاحب الصفراء لحدته وحدة الصفراء ، فربما هيجها ، ودفع مضرته لهم بالخل ، فيعود حينئذ لهم نافعًا جدًا ، وشربه أنفع من كثير من الأشربة المتخذة من السكر أو أكثرها ، ولا سيما لمن لم يعتد هذه الأشربة ، ولا ألفها طبعه ، فإنه إذا شربها لا تلائمه ملاءمة العسل ، ولا قريبًا منه ، والمحكم فى ذلك العادة ، فإنها تهدم أصولاً ، وتبنى أصولاً .

وأما الشراب إذا جمع وصفى الحلاوة والبرودة ، فمن أنفع شىء للبدن ، ومن أكبر أسباب حفظ الصحة ، وللأرواح والقوى ، والكبد والقلب عشق شديد له ، واستمداد منه ، وإذا كان فيه الوصفان ، حصلت به التغذية ، وتنفيذ الطعام إلى الأعضاء ، وإيصاله إليها أتم تنفييذ .

والماء البارد رطب يقمع الحرارة ، ويحفظ على البدن رطوباته الأصلية ، ويرد عليه بدل ما تحلل منها ، ويرقق الغذاء وينفذه فى العروق .

واختلف الأطباء : هل يغذى البدن ؟ على قولين : فأثبتت طائفة التغذية به بناءً على ما يشاهدونه من النمو والزيادة والقوة فى البدن به ، ولا سيما عند شدة الحاجة إليه .

قالوا : وبين الحيوان والنبات قدر مشترك من وجوه عديدة منها : النمو والاغتذاء والاعتدال ، وفى النبات قوة حس تناسبه ، ولهذا كان غذاء النبات بالماء ، فما ينكر أن يكون للحيوان به نوع غذاء ، وأن يكون جزءًا من غذائه التام .

قالوا : ونحن لا ننكر أن قوة الغذاء ومعظمه فى الطعام ، وإنما أنكرنا ألا يكون للماء تغذية البتة. قالوا:وأيضًا الطعام إنما يغذى بما فيه من المائية، ولولاها لما حصلت به التغذية .

قالوا : ولأن الماء مادة حياة الحيوان والنبات ، ولا ريب أن ما كان أقرب إلى مادة الشىء ، حصلت به التغذية ، فكيف إذا كانت مادته الأصلية ، قال الله تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ [ الأنبياء : ٣٠] ، فكيف ننكر حصول التغذية بما هو مادة الحياة على الإطلاق ؟

قالوا : وقد رأينا العطشان إذا حصل له الرى بالماء البارد ، تراجعت إليه قواه ونشاطه وحركته ، وصبر عن الطعام ، وانتفع بالقدر اليسير منه ، ورأينا العطشان لا ينتفع بالقدر

الكثير من الطعام ، ولا يجد به القوة والاغتذاء ، ونحن لا ننكر أن الماء ينفذ الغذاء إلى أجزاء البدن ، وإلى جميع الأعضاء ، وأنه لا يتم أمر الغذاء إلا به ، وإنما ننكر على من سلب قوة التغذية عنه البتة ، ويكاد قوله عندنا يدخل فى إنكار الأمور الوجدانية .

وأنكر طائفة أخرى حصول التغذية به ، واحتجت بأمور يرجع حاصلها إلى عدم الاكتفاء به ، وأنه لا يقوم مقام الطعام ، وأنه لا يزيد فى نمو الأعضاء ، ولا يخلف عليها بدل ما حللته الحرارة ، ونحو ذلك مما لا ينكره أصحاب التغذية ، فإنهم يجعلون تغذيته بحسب جوهره ، ولطافته ورقته ، وتغذيه كل شيء بحسبه ، وقد شوهد الهواء الرطب البارد اللين اللذيذ يغذى بحسبه ،والرائحة الطيبة تغذى نوعًا من الغذاء ، فتغذية الماء أظهر وأظهر .

والمقصد : أنه إذا كان باردًا ، وخالطه ما يحليه كالعسل أو الزبيب ، أو التمر أو السكر ، كان من أنفع ما يدخل البدن ، وحفظ عليه صحته ، فلهذا كان أحب الشراب إلى رسول الله ﷺ البارد الحلو . والماء الفاتر ينفخ ، ويفعل ضد هذه الأشياء .

ولما كان الماء البائت أنفع من الذى يشرب وقت استقائه ، قال النبى ﷺ وقد دخل إلى حائط أبى الهيثم بن التيهان : « هل من ماء بات فى شنة ؟ » فأتاه به ، فشرب منه ، رواه البخارى ولفظه : « إن كان عندك ماء بات فى شنة وإلا كرعنا » (١) .

والماء البائت بمنزلة العجين الخمير ، والذى شرب لوقته بمنزلة الفطير ، وأيضًا فإن الأجزاء الترابية والأرضية تفارقه إذا بات ، وقد ذكر أن النبى ﷺ كان يستعذب له الماء ، ويختار البائت منه . وقالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يستقى له الماء العذب من بئر السقيا (٢) .

والماء الذى فى القرب والشنان ، ألذ من الذى يكون فى آنية الفخار والأحجار وغيرهما ، ولا سيما أسقية الأدم ، ولهذا التمس النبى ﷺ ماء بات فى شنة دون غيرها من الأوانى ، وفى الماء إذا وضع فى الشنان ، وقرب الأدم خاصة لطيفة لما فيها من المسام المنفتحة التى يرشح منها الماء ، ولهذا كان الماء فى الفخار الذى يرشح ألذ منه ، وأبرد فى الذى لا يرشح ، فصلاة الله وسلامه على أكمل الخلق ، وأشرفهم نفسًا ، وأفضلهم هديًا فى كل شيء ، لقد دل أمته على أفضل الأمور وأنفعها لهم فى القلوب والأبدان ، والدنيا

---

(١) البخارى (٥٦٢٢) فى الأشربة ، باب : الكرع فى الحوض .

(٢) أبو داود (٣٧٣٥) فى الأشربة ، باب : فى إيكاء الآنية ،والحاكم فى المستدرك (٤ / ١٣٨) وقال : « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » .

والآخرة .

قالت عائشة : كان أحب الشراب إلى رسول الله ﷺ الحلو البارد » (١) .

وهذا يحتمل أن يريد به الماء العذب ، كمياه العيون والآبار الحلوة ، فإنه كان يستعذب له الماء ، ويحتمل أن يريد به الماء الممزوج بالعسل ، أو الذى نقع فيه التمر أو الزبيب . وقد يقال ـ وهو الأظهر : يعمهما جميعًا .

وقوله فى الحديث الصحيح : « إن كان عندك ماء بات فى شن وإلا كرعنا » ، فيه دليل على جواز الكرع ، وهو الشرب بالفم من الحوض والمقراة ونحوها ، وهذه ـ والله أعلم ـ واقعة عين دعت الحاجة فيها إلى الكرع بالفم ، أو قاله مبينًا لجوازه ، فإن من الناس من يكرهه ، والأطباء تكاد تحرمه ، ويقولون : إنه يضر بالمعدة ، وقد روى فى حديث لا أدرى ما حاله عن ابن عمر ، أن النبى ﷺ نهانا أن نشرب على بطوننا ، وهو الكرع ، ونهانا أن نغترف باليد الواحدة وقال : « لا يلغ أحدكم كما يلغ الكلب ، ولا يشرب بالليل من إناء حتى يختبره إلا أن يكون مخمراً » (٢) .

وحديث البخارى أصح من هذا ، وإن صح ، فلا تعارض بينهما ، إذ لعل الشرب باليد لم يكن يمكن حينئذ ، فقال : وإلا كرعنا ، والشرب بالفم إنما يضر إذا انكب الشارب على وجهه وبطنه ، كالذى يشرب من النهر والغدير ، فأما إذا شرب منتصبًا بفمه من حوض مرتفع ونحوه ، فلا فرق بين أن يشرب بيده أو بفمه .

وكان من هديه الشرب قاعدًا ، هذا كان هديه المعتاد ، وصح عنه أنه نهى عن الشرب قائمًا ، وصح عنه أنه أمر الذى شرب قائمًا أن يستقىء ، وصح عنه أنه شرب قائمًا .

قالت طائفة : هذا ناسخ للنهى ، وقالت طائفة : بل مبين أن النهى ليس للتحريم ، بل للإرشاد وترك الأولى ، وقالت طائفة : لا تعارض بينهما أصلا ، فإنه إنما شرب قائمًا للحاجة ، فإنه جاء إلى زمزم ، وهم يستقون منها ، فاستقى فناولوه الدلو ، فشرب وهو قائم ، وهذا كان موضع حاجة .

وللشرب قائمًا آفات عديدة منها : أنه لا يحصل به الرى التام ، ولا يستقر فى المعدة حتى يقسمه الكبد على الأعضاء ، وينزل بسرعة وحدة إلى المعدة ، فيخشى منه أن يبرد

---

(١) أحمد (٦ / ٣٨) ، والترمذى (١٨١٦) فى الأشربة ، باب : ما جاء أن الشراب كان أحب إلى رسول الله ﷺ ، وقال : « هذا أصح من حديث ابن عيينة رحمه الله » .

(٢) ابن ماجه (٣٤٣١) فى الأشربة ، باب : الشرب بالأكف والكرع ، وفى الزوائد : « فى إسناده بقية وهو مدلس وقد عنعنه » .

حرارتها ،ويشوشها،ويسرع النفوذ إلى أسفل البدن بغير تدريج ، وكل هذا يضر بالشارب ، وأما إذا فعله نادراً أو لحاجة ، لم يضره ، ولا يعترض بالعوائد على هذا ، فإن العوائد طبائع ثوان ، ولها أحكام أخرى ، وهى بمنزلة الخارج عن القياس عند الفقهاء .

وفى « صحيح مسلم » من حديث أنس بن مالك ، قال : كان رسول الله ﷺ يتنفس فى الشراب ثلاثًا ، ويقول : « إنه أروى وأمرأ وأبرأ » (١) .

الشراب فى لسان الشارع وحملة الشرع : هو الماء ، ومعنى تنفسه فى الشراب : إبانته القدح عن فيه ، وتنفسه خارجه ، ثم يعود إلى الشراب ، كما جاء مصرحًا به فى الحديث الآخر : « إذا شرب أحدكم فلا يتنفس فى القدح ، ولكن ليبن الإناء عن فيهِ » (٢) .

وفى هذا الشرب حكم جمة ،وفوائد مهمة ، وقد نبه ﷺ على مجامعها بقوله : « إنه أروى وأمرأ وأبرأ » فأروى : أشد ريا ، وأبلغه وأنفعه ، وأبرأ : أفعل من البرء ، وهو الشفاء ، أى يبرئ من شدة العطش ودائه لتردده على المعدة الملتهبة دفعات ، فتسكن الدفعة الثانية ما عجزت الأولى عن تسكينه ، والثالثة ما عجزت الثانية عنه ، وأيضًا فإنه أسلم لحرارة المعدة ، وأبقى عليها من أن يهجم عليها البارد وهلة واحدة ، ونهلة واحدة .

وأيضًا ، فإنه لا يروى لمصادفته لحرارة العطش لحظة ، ثم يقلع عنها ، ولما تكسر سورتها وحدتها ، وإن انكسرت لم تبطل بالكلية بخلاف كسرها على التمهل والتدريج .

وأيضًا ، فإنه أسلم عاقبة ، وآمن غائلة من تناول جميع ما يروى دفعة واحدة ، فإنه يخاف منه أن يطفئ الحرارة الغريزية بشدة برده ، وكثرة كميته ، أو يضعفها فيؤدى ذلك إلى فساد مزاج المعدة والكبد ، وإلى أمراض رديئة ، خصوصًا فى سكان البلاد الحارة ، كالحجاز واليمن ونحوهما ، أو فى الأزمنة الحارة كشدة الصيف ، فإن الشرب وهلة واحدة مخوف عليهم جدًا،فإن الحار الغريزى ضعيف فى بواطن أهلها ،وفى تلك الأزمنة الحارة .

وقوله : « وأمرأ » : هو أفعل من مرئ الطعام والشراب فى بدنه : إذا دخله ، وخالطه بسهولة ولذة ونفع . ومنه : ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ [ النساء : ٤] ، هنيئًا فى عاقبته ، مريئًا فى مذاقه . وقيل : معناه أنه أسرع انحداراً عن المرىء لسهولته وخفته عليه ، بخلاف الكثير ، فإنه لا يسهل على المرىء انحداره .

---

(١) مسلم (٢٠٢٨ / ١٢٣) فى الأشربة ،باب: كراهة التنفس فى نفس الإناء ،واستحباب التنفس ثلاثا خارج الإناء .
(٢) الترمذى (١٨٨٨) فى الأشربة ، باب : ما جاء فى كراهية النفخ فى الشرب ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٣٤٢٧) فى الأشربة ، باب : التنفس فى الإناء ، وأحمد (٣ / ٢٦) .

ومن آفات الشرب نهلة واحدة أنه يخاف منه الشرق بأن ينسد مجرى الشراب لكثرة الوارد عليه ، فيغص به ، فإذا تنفس روايدًا ، ثم شرب ، أمن من ذلك .

ومن فوائده : أن الشارب إذا شرب أول مرة تصاعد البخار الدخانى الحار الذى كان على القلب والكبد لورود الماء البارد عليه ،فأخرجته الطبيعة عنها ، فإذا شرب مرة واحدة ، اتفق نزول الماء البارد ، وصعود البخار ، فيتدافعان ويتعالجان ، ومن ذلك يحدث الشرق والغصة ولا يتهنأ الشارب بالماء ، ولا يمرئه ، ولا يتم ريه ، وقد روى عبد الله بن المبارك ، والبيهقى،وغيرهما عن النبى ﷺ : « إذا شرب أحدكم فليمص الماء مصًا ، ولا يعب عبًا ، فإنه من الكباد » .

والكباد ـ بضم الكاف وتخفيف الباء ـ هو وجع الكبد ، وقد علم بالتجربة أن ورود الماء جملة واحدة على الكبد يؤلمها ويضعف حرارتها ، وسبب ذلك المضادة التى بين حرارتها ، وبين ما ورد عليها من كيفية المبرود وكميته ، ولو ورد بالتدريج شيئًا فشيئًا ، لم يضاد حرارتها ، ولم يضعفها ، وهذا مثاله صب الماء البارد على القدر ، وهى تفور ، لا يضرها صبه قليلاً قليلاً ، وقد روى الترمذى فى « جامعه » عنه ﷺ : « لا تشربوا نفسًا واحدًا كشرب البعير ، ولكن اشربوا مثنى وثلاث ، وسموا إذا أنتم شربتم واحمدوا إذا أنتم فرغتم » (١) .

وللتسمية فى أول الطعام والشراب ، وحمد الله فى آخره تأثير عجيب فى نفعه واستمرائه ، ودفع مضرته .

قال الإمام أحمد : إذا جمع الطعام أربعًا ، فقد كمل : إذا ذكر اسم الله فى أوله ، وحمد الله فى آخره ، وكثرت عليه الأيدى ، وكان من حل .

وقد روى مسلم فى « صحيحه » : من حديث جابر بن عبد الله ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « غطوا الإناء ، وأوكوا السقاء ، فإن فى السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء ، أو سقاء ليس عليه وكاء إلا وقع فيه من ذلك الداء » (٢) . وهذا مما لا تناله علوم الأطباء ومعارفهم ، وقد عرفه من عرفه من عقلاء الناس بالتجربة . قال الليث بن سعد أحد رواة الحديث : الأعاجم عندنا يتقون تلك الليلة فى السنة فى كانون الأول منها .

---

(١) الترمذى (١٨٨٥) فى الأشربة ، باب : ما جاء فى التنفس فى الإناء ، وقال : « غريب » .

(٢) مسلم (٢٠١٤/ ٩٩١) فى الأشربة ، باب : الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء .

وصح عنه أنه أمر بتخمير الإناء ولو أن يعرض عليه عوداً [1] وفى عرض العود عليه من الحكمة ، وأنه لا ينسى تخميره ، بل يعتاده حتى بالعود ، وفيه : أنه ربما أراد الدبيب أن يسقط فيه ، فيمر على العود ، فيكون العود جسراً له يمنعه من السقوط فيه .

وصح عنه : أنه أمر عند إيكاء الإناء بذكر اسم الله ، فإن ذكر اسم الله عند تخمير الإناء يطرد عنه الشيطان ، وإيكاؤه يطرد عنه الهوام ، ولذلك أمر بذكر اسم الله فى هذين الموضعين لهذين المعنيين .

وروى البخارى فى « صحيحه » من حديث ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ نهى عن الشرب من فى السقاء [2] .

وفى هذا آداب عديدة :

منها : أن تردد أنفاس الشارب فيه يكسبه زهومة ورائحة كريهة يعاف لأجلها .

ومنها : أنه ربما غلب الداخل إلى جوفه من الماء ، فتضرر به .

ومنها : أنه ربما كان فيه حيوان لا يشعر به ، فيؤذيه .

ومنها : أن الماء ربما كان فيه قذاة أو غيرها لا يراها عند الشرب ، فتلج جوفه .

ومنها : أن الشرب كذلك يملأ البطن من الهواء ، فيضيق عن أخذ حظه من الماء ، أو يزاحمه ، أو يؤذيه ، ولغير ذلك من الحكم .

فإن قيل : فما تصنعون بما فى « جامع الترمذى » : أن رسول الله ﷺ دعا بإدواة يوم أحد ، فقال : « اخنث فم الإداوة » ، ثم شرب منها من فيها [3] ؟ قلنا نكتفى فيه بقول الترمذى : هذا حديث ليس إسناده بصحيح ، وعبد الله بن عمر العمرى يضعف من قبل حفظه ، ولا أدرى سمع من عيسى أو لا انتهى . يريد عيسى بن عبد الله الذى رواه عنه ، عن رجل من الأنصار .

وفى « سنن أبى داود » من حديث أبى سعيد الخدرى ، قال : نهى رسول الله ﷺ عن الشرب من ثلمة القدح ، وأن ينفخ فى الشراب [4]، وهذا من الآداب التى تتم بها

---

(١) البخارى (٥٦٢٣) فى الأشربة ، تغطية الإناء ، ومسلم (٢٠١٢/ ٩٦١) فى الأشربة ، الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء .

(٢) البخارى (٥٦٢٩) فى الأشربة ، باب : الشرب من فم السقاء .

(٣) أبو داود (٣٧٢١) فى الأشربة ، باب : اختناث الأسقية ، والترمذى (١٨٩١) فى الأشربة ، باب : ما جاء فى الرخصة فى ذلك .

(٤) أبو داود (٣٧٢٢) فى الأشربة ، باب : الشرب من ثلمة القدح .

مصلحة الشارب ، فإن الشرب من ثلمة القدح فيه عدة مفاسد :

**أحدها** : أن ما يكون على وجه الماء من قذى أو غيره يجتمع إلى الثلمة بخلاف الجانب الصحيح .

**الثانى** : أنه ربما شوش على الشارب ، ولم يتمكن من حسن الشرب من الثلمة .

**الثالث** : أن الوسخ والزهومة تجتمع فى الثلمة ، ولا يصل إليها الغسل ، كما يصل إلى الجانب الصحيح .

**الرابع** : أن الثلمة محل العيب فى القدح ، وهى أردأ مكان فيه ، فينبغى تجنبه ، وقصد الجانب الصحيح ، فإن الردىء من كل شىء لا خير فيه ، ورأى بعض السلف رجلاً يشترى حاجة رديئة ، فقال : لا تفعل أما علمت أن الله نزع البركة من كل ردىء .

**الخامس** : أنه ربما كان فى الثلمة شق أو تحديد يجرح فم الشارب ، ولغير هذه من المفاسد .

وأما النفخ فى الشراب، فإنه يكسبه من فم النافخ رائحة كريهة يعاف لأجلها، ولاسيما إن كان متغير الفم . وبالجملة : فأنفاس النافخ تخالطه ؛ ولهذا جمع رسول الله ﷺ بين النهى عن التنفس فى الإناء والنفخ فيه فى الحديث الذى رواه الترمذى وصححه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : نهى رسول الله ﷺ أن يتنفس فى الإناء ، أو ينفخ فيه [١] .

فإن قيل : فما تصنعون بما فى « الصحيحين » من حديث أنس ، أن رسول الله ﷺ كان يتنفس فى الإناء ثلاثا [٢] قيل :نقابله بالقبول والتسليم،ولا معارضة بينه وبين الأول ، فإن معناه أنه كان يتنفس فى شربه ثلاثًا ، وذكر الإناء لأنه آلة الشرب ، وهذا كما جاء فى الحديث الصحيح :أن إبراهيم ابن رسول الله ﷺ مات فى الثدى [٣]،أى فى مدة الرضاع .

وكان ﷺ يشرب اللبن خالصًا تارة ، ومشوبًا بالماء أخرى ، وفى شرب اللبن الحلو فى تلك البلاد الحارة خالصًا ومشوبًا نفع عظيم فى حفظ الصحة ، وترطيب البدن ، ورى الكبد ، ولاسيما اللبن الذى ترعى دوابه الشيح والقيصوم ، والخزامى وما أشبهها ، فإن لبنها غذاء مع الأغذية ،وشراب مع الأشربة ، ودواء مع الأدوية . وفى « جامع الترمذى »

(١) الترمذى (١٨٨٨) فى الأشربة ، باب : ما جاء كراهية النفخ فى الشراب ، وقال : « حسن صحيح » .

(٢) البخارى (٥٦٣١) فى الأشربة ، باب : الشرب بنفسين أو ثلاثة ، ومسلم (٢٠٢٨ / ١٢٢) فى الأشربة ، باب : كراهة التنفس فى نفس الإناء .

(٣) مسلم (٢٣١٦ / ٦٣) فى الفضائل ، باب : رحمته ﷺ الصبيان والعيال .

عنه ﷺ : « إذا أكل أحدكم طعامًا فليقل : اللهم بارك لنا فيه ، وأطعمنا خيراً منه ، وإذا سقى لبنًا فليقل : الهم بارك لنا فيه ، وزدنا منه ، فإنه ليس شيء يجزئ من الطعام والشراب إلا اللبن » . قال الترمذى : هذا حديث حسن (١) .

وثبت فى « صحيح مسلم » أنه ﷺ كان ينبذ له أول الليل ، ويشربه إذا أصبح يومه ذلك ، والليلة التى تجيء ، والغد ، والليلة الأخرى ، والغد إلى العصر ، فإن بقى منه شيء سقاه الخادم ، أو أمر به فصب (٢) وهذا النبيذ : هو ما يطرح فيه تمر يحليه ، وهو يدخل فى الغذاء والشراب ، وله نفع عظيم فى زيادة القوة ، وحفظ الصحة ، ولم يكن يشربه بعد ثلاث خوفًا من تغيره إلى الإسكار (٣) .

## فصل
## فى تدبيره ﷺ لأمر الملبس بما ينفع البدن

وكان من أتم الهدى ، وأنفعه للبدن ، وأخفه عليه ، وأيسره لبسًا وخلعًا ، وكان أكثر لبسه الأردية والأزر ، وهى أخف على البدن من غيرها ، وكان يلبس القميص ، بل كان أحب الثياب إليه . وكان هديه فى لبسه لما يلبسه أنفع شيء للبدن، فإنه لم يكن يطيل أكمامه، ويوسعها ، بل كانت كم قميصه إلى الرسغ: لا يجاوز اليد ، فتشق على لابسها ، وتمنعه خفة الحركة والبطش ، ولا تقصر عن هذه ، فتبرز للحر والبرد ، وكان ذيل قميصه وإزاره إلى أنصاف الساقين لم يتجاوز الكعبين ، فيؤذى الماشى ويؤوده ، ويجعله كالمقيد ، ولم يقصر عن عضلة ساقيه ، فتنكشف ويتأذى بالحر والبرد ، ولم تكن عمامته بالكبيرة التى يؤذى الرأس حملها ، ويضعفه ويجعله عرضة للضعف والآفات ، كما يشاهد من حال أصحابها ، ولا بالصغيرة التى تقصر عن وقاية الرأس من الحر والبرد ، بل وسطا بين ذلك ، وكان يدخلها تحت حنكه ، وفى ذلك فوائد عديدة : فإنها تقى العنق الحر والبرد ، وهو أثبت لها ، ولا سيما عند ركوب الخيل والإبل ، والكر والفر ، وكثير من الناس اتخذ الكلاليب عوضًا عن الحنك ، ويا بعد ما بينهما فى النفع والزينة ، وأنت إذا تأملت هذه اللبسة وجدتها من أنفع اللبسات وأبلغها فى حفظ صحة البدن وقوته ، وأبعدها من التكلف والمشقة على البدن .

وكان يلبس الخفاف فى السفر دائمًا ، أو أغلب أحواله لحاجة الرجلين إلى ما يقيهما

(١) الترمذى (٣٤٥٥) فى الدعوات ، باب : ما يقول إذا أكل طعامه ، وقال : « حسن » .
(٢) مسلم (٢٠٠٤ / ٧٩) فى الأشربة ، باب : إباحة النبيذ الذى لم يشتد .
(٣) زاد المعاد ( ٤ / ٢٢٤ ـ ٢٣٧ ) .

من الحر والبرد ، وفى الحضر أحيانًا .

وكان أحب ألوان الثياب إليه البياض ، والحبرة ، وهى البرود المحبرة ، ولم يكن من هديه لبس الأحمر ، ولا الأسود ، ولا المصبغ ، ولا المصقول ، وأما الحلة الحمراء التى لبسها ،فهى الرداء اليمانى الذى فيه سواد وحمرة وبياض ، كالحلة الخضراء ، فقد لبس هذه وهذه ، وقد تقدم تقرير ذلك ، وتغليط من زعم أنه لبس الأحمر القانى بما فيه كفاية (١) .

## فصل
## فى تدبيره ﷺ لأمر المسكن بما ينفع البدن

لما علم ﷺ أنه على ظهر سير ، وأن الدنيا مرحلة مسافرٍ ينزل فيها مدة عمره ، ثم ينتقل عنها إلى الآخرة ، لم يكن من هديه وهدى أصحابه ، ومن تبعه الاعتناء بالمساكن وتشييدها ، وتعليتها وزخرفتها وتوسيعها ، بل كانت من أحسن منازل المسافر تقى الحر والبرد ، وتستر عن العيون ، وتمنع من ولوج الدواب ، ولا يخاف سقوطها لفرط ثقلها ، ولا تعشش فيها الهوام لسعتها ولا تعتور عليها الأهوية والرياح المؤذية لارتفاعها ، وليست تحت الأرض فتؤذى ساكنها ، ولا فى غاية الارتفاع عليها ، بل وسط ، وتلك أعدل المساكن وأنفعها ، وأقلها حرًا وبردًا ، ولا تضيق عن ساكنها ، فينحصر ، ولا تفضل عنه بغير منفعة ولا فائدة،فتأوى الهوام فى خلوها ،ولم يكن فيها كنف تؤذى ساكنها برائحتها ، بل رائحتها من أطيب الروائح لأنه كان يحب الطيب ، ولا يزال عنده ، وريحه هو من أطيب الرائحة ، وعرقه من أطيب الطيب ، ولم يكن فى الدار كنيف تظهر رائحته ، ولا ريب أن هذه من أعدل المساكن وأنفعها وأوفقها للبدن ، وحفظ صحته (٢) .

## فصل
## فى تدبيره ﷺ لأمر النوم واليقظة بما ينفع البدن

من تدبر نومه ويقظته ﷺ ، وجده أعدل نوم ، وأنفعه للبدن والأعضاء والقوى ، فإنه كان ينام أول الليل ، ويستيقظ فى أول النصف الثانى ، فيقوم ويستاك ، ويتوضأ ويصلى ما كتب الله له ، فيأخذ البدن والأعضاء والقوى حظها من النوم والراحة ، وحظها من الرياضة مع وفور الأجر ، وهذا غاية صلاح القلب والبدن ، والدنيا والآخرة .

ولم يكن يأخذ من النوم فوق القدر المحتاج إليه ، ولا يمنع نفسه من القدر المحتاج إليه

(١) زاد المعاد ( ٤ / ٢٣٧ ، ٢٣٨ ) .
(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٢٣٨ ، ٢٣٩ ) .

منه ، وكان يفعله على أكمل الوجوه ، فينام إذا دعته الحاجة إلى النوم على شقه الأيمن ، ذاكرًا الله حتى تغلبه عيناه ، غير ممتلئ البدن من الطعام والشراب ، ولا مباشرٍ بجنبه الأرض ، ولا متخذٍ للفرش المرتفعة ، بل له ضجاع من أدم حشوه ليف ، وكان يضطجع على الوسادة ، ويضع يده تحت خده أحيانًا .

ونحن نذكر فصلا فى النوم والنافع منه والضار ، فنقول :

النوم حالة للبدن يتبعها غور الحرارة الغريزية والقوى إلى باطن البدن لطلب الراحة ، وهو نوعان : طبيعى وغير طبيعى ، فالطبيعى : إمساك القوى النفسانية عن أفعالها ، وهى قوى الحس والحركة الإرادية ، ومتى أمسكت هذه القوى عن تحريك البدن استرخى ، واجتمعت الرطوبات والأبخرة التى كانت تتحلل وتتفرق بالحركات واليقظة فى الدماغ الذى هو مبدأ هذه القوى ، فيتخدر ويسترخى ، وذلك النوم الطبيعى .

وأما النوم غير الطبيعى ، فيكون لعرض أو مرض ، وذلك بأن تستولى الرطوبات على الدماغ استيلاء لا تقدر اليقظة على تفريقها ، أو تصعد أبخرة رطبة كثيرة كما يكون عقيب الامتلاء من الطعام والشراب فتثقل الدماغ وترخيه ، فيتخدر ، ويقع إمساك القوى النفسانية عن أفعالها ، فيكون النوم .

وللنوم فائدتان جليلتان :

**إحداهما** : سكون الجوارح وراحتها مما يعرض لها من التعب ، فيريح الحواس من نصب اليقظة ، ويزيل الإعياء والكلال .

**والثانية** : هضم الغذاء ، ونضج الأخلاط ؛ لأن الحرارة الغريزية فى وقت النوم تغور إلى باطن البدن ، فتعين على ذلك ، ولهذا يبرد ظاهره ويحتاج النائم إلى فضل دثار .

وأنفع النوم : أن ينام على الشق الأيمن ، ليستقر الطعام بهذه الهيئة فى المعدة استقراراً حسنًا ، فإن المعدة أميل إلى الجانب الأيسر قليلاً ، ثم يتحول إلى الشق الأيسر قليلاً ليسرع الهضم بذلك لاستمالة المعدة على الكبد ، ثم يستقر نومه على الجانب الأيمن ، ليكون الغذاء أسرع انحدارًا عن المعدة ، فيكون النوم على الجانب الأيمن بداءة نومه ونهايته ، وكثرة النوم على الجانب الأيسر مضر بالقلب بسبب ميل الأعضاء إليه ، فتنصب إليه المواد .

وأردأ النوم النوم على الظهر ، ولا يضر الاستلقاء عليه للراحة من غير نوم ، وأردأ منه أن ينام منبطحًا على وجهه ، وفى « المسند » و « سنن ابن ماجه » عن أبى أمامة قال : مر النبى ﷺ على رجل نائم فى المسجد منبطح على وجهه ، فضربه برجله ، وقال : « قم

أو اقعد ، فإنها نومة جهنمية » (١) .

قال أبقراط فى كتاب « التقدمة » : وأما نوم المريض على بطنه من غير أن يكون عادته فى صحته جرت بذلك ، فذلك يدل على اختلاط عقل ، وعلى ألم فى نواحى البطن ، قال الشراح لكتابه: لأنه خالف العادة الجيدة إلى هيئة رديئة من غير سبب ظاهر ولا باطن .

والنوم المعتدل ممكن للقوى الطبيعية من أفعالها ، مريح للقوة النفسانية ، مكثر من جوهر حاملها ، حتى إنه ربما عاد بإرخائه مانعًا من تحلل الأرواح .

ونوم النهار ردىء يورث الأمراض الرطوبية والنوازل،ويفسد اللون، ويورث الطحال ، ويرخى العصب ، ويكسل ، ويضعف الشهوة إلا فى الصيف وقت الهاجرة ، وأردؤه نوم أول النهار ، وأردأ منه النوم آخره بعد العصر ، ورأى عبد الله بن عباس ابنًا له نائمًا نومة الصبحة ، فقال له : قم ، أتنام فى الساعة التى تقسم فيها الأرزاق ؟

وقيل : نور النهار ثلاثة : خلق ، وحرق ، وحمق ، فالخلق : نومة الهاجرة ، وهى خلق رسول الله ﷺ.والحرق : نومة الضحى ، تشغل عن أمر الدنيا والآخرة . والحمق : نومة العصر . قال بعض السلف : من نام بعد العصر ، فاختلس عقله ، فلا يلومن إلا نفسه . وقال الشاعر :

ألا أن نومات الضحى تورث الفتى خبالاً ونومات العصير جنون

ونوم الصبحة يمنع الرزق ؛ لأن ذلك وقت تطلب فيه الخليقة أرزاقها ، وهو وقت قسمة الأرزاق،فنومه حرمان إلا لعارض أو ضرورة ،وهو مضر جدًا بالبدن لإرخائه البدن ، وإفساده للفضلات التى ينبغى تحليلها بالرياضة ، فيحدث تكسرًا وعيًا وضعفًا . وإن كان قبل التبرز والحركة والرياضة وإشغال المعدة بشىء ، فذلك الداء العضال المولد لأنواع من الأدواء .

والنوم فى الشمس يثير الداء الدفين ، ونوم الإنسان بعضه فى الشمس ، وبعضه فى الظل ردىء ، وقد روى أبو داود فى « سننه » من حديث أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان أحدكم فى الشمس فقلص عنه الظل ، فصار بعضه فى الشمس ، وبعضه فى الظل فليقم » (٢) .

---

(١) ابن ماجه (٣٧٢٥) فى الأدب ، باب : النهى عن الاضطجاع على الوجه ، وفى الزوائد : « الوليد بن جميل لينه أبو زرعة . . . » .

(٢) أبو داود (٤٨٢١) فى الأدب ، باب : الجلوس بين الظل والشمس .

وفى « سنن ابن ماجه » وغيره من حديث بريدة بن الحصيب ، أن رسول الله ﷺ نهى أن يقعد الرجل بين الظل والشمس [١] . وهذا تنبيه على منع النوم بينهما .

وفى « الصحيحين » عن البراء بن عازب ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ،ثم قل : اللهم إنى أسلمت نفسى إليك،ووجهت وجهى إليك ،وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك ، إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت،واجعلهن آخر كلامك، فإن مت من ليلتك، مت على الفطرة » [٢] .

وفى « صحيح البخارى » عن عائشة أن رسول الله ﷺ ، كان إذا صلى ركعتى الفجر يعنى سنتها ـ اضطجع على شقه الأيمن [٣] .

وقد قيل : إن الحكمة فى النوم على الجانب الأيمن ، ألا يستغرق النائم فى نومه ؛ لأن القلب فيه ميل إلى جهة اليسار ، فإذا نام على جنبه الأيمن ، طلب القلب مستقره من الجانب الأيسر ، وذلك يمنع من استقرار النائم واستثقاله فى نومه ، بخلاف قراره فى النوم على اليسار ، فإنه مستقره ، فيحصل بذلك الدعة التامة ، فيستغرق الإنسان فى نومه ، ويستثقل ، فيفوته مصالح دينه ودنياه .

ولما كان النائم بمنزلة الميت ، والنوم أخو الموت ـ ولهذا يستحيل على الحى الذى لا يموت ، وأهل الجنة لا ينامون فيها ـ كان النائم محتاجًا إلى من يحرس نفسه ، ويحفظها مما يعرض لها من الآفات ، ويحرس بدنه أيضًا من طوارق الآفات ، وكان ربه وفاطره تعالى هو المتولى لذلك وحده ، علم النبى ﷺ النائم أن يقول كلمات التفويض والالتجاء ، والرغبة والرهبة ، ليستدعى بها كمال حفظ الله له ، حراسته لنفسه وبدنه ، وأرشده مع ذلك إلى أن يستذكر الإيمان ، وينام عليه ، ويجعل التكلم به آخر كلامه ، فإنه ربما توفاه الله فى منامه ، فإذا كان الإيمان آخر كلامه دخل الجنة ، فتضمن هذا الهدى فى المنام مصالح القلب والبدن والروح فى النوم واليقظة ، والدنيا والآخرة ، فصلوات الله وسلامه على من نالت به أمته كل خير .

وقوله : « أسلمت نفسى إليك » ، أى : جعلتها مسلمة لك تسليم العبد المملوك نفسه

---

(١) ابن ماجه (٣٧٢٢) فى الأدب ، باب : الجلوس بين الظل والشمس ، وفى الزوائد : « إسناد حديث ابن بريدة حسن » .

(٢) البخارى (٦٣١١) فى الدعوات ، باب : إذا بات طاهرًا ، ومسلم (٢٧١٠ / ٥٦) فى الذكر والدعاء والتوبة ، والاستغفار ، باب : ما يقول عند النوم وأخذ المضجع .

(٣) البخارى (١١٦٠) فى التهجد ، باب : الضجعة على الشق الأيمن بعد ركعتى الفجر .

إلى سيده ومالكه ، وتوجيه وجهه إليه يتضمن إقباله بالكلية على ربه ، وإخلاص القصد والإرادة له ، وإقراره بالخضوع والذل والانقياد ، قال تعالى : ﴿ **فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ** ﴾ [ آل عمران : ٢٠] . وذكر الوجه إذ هو أشرف ما فى الإنسان ، ومجمع الحواس ، وأيضًا ففيه معنى التوجه والقصد من قوله :

أستغفر الله ذنبًا لست محصيه ... رب العباد إليه الوجه والعمل

وتفويض الأمر إليه رده إلى الله ـ سبحانه ـ وذلك يوجب سكون القلب وطمأنينته ، والرضى بما يقضيه ويختاره له مما يحبه ويرضاه ، والتفويض من أشرف مقامات العبودية ، ولا علة فيه ، وهو من مقامات الخاصة خلافًا لزاعمى خلاف ذلك .

وإلجاء الظهر إليه سبحانه يتضمن قوة الاعتماد عليه ، والثقة به ، والسكون إليه ، والتوكل عليه ، فإن من أسند ظهره إلى ركن وثيق ، لم يخف السقوط .

ولما كان للقلب قوتان : قوة الطلب ، وهى الرغبة ، وقوة الهرب ، وهى الرهبة ، وكان العبد طالبًا لمصالحه ، هاربًا من مضاره ، جمع الأمرين فى هذا التفويض والتوجه ، فقال : رغبة ورهبة إليك ، ثم أثنى على ربه ، لأنه لا ملجأ للعبد سواه ، ولا منجا له منه غيره ، فهو الذى يلجأ إليه العبد لينجيه من نفسه ، كما فى الحديث الآخر : « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك » (١) ، فهو ـ سبحانه ـ الذى يعيد عبده وينجيه من بأسه الذى هو بمشيئته وقدرته ، فمنه البلاء ، ومنه الإعانة ، ومنه ما يطلب النجاة منه ، وإليه الالتجاء فى النجاة ، فهو الذى يلجأ إليه فى أن ينجى مما منه ، ويستعاذ به مما منه ، فهو رب كل شىء ، ولا يكون شىء إلا بمشيئته : ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ** ﴾ [ الأنعام : ١٧] ، ﴿ **قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً** ﴾ [ الأحزاب : ١٧] ، ثم ختم الدعاء بالإقرار بالإيمان بكتابه ورسوله الذى هو ملاك النجاة ، والفوز فى الدنيا والآخرة ، فهذا هديه فى نومه .

لو لم يقل إنى رسول لكا ... ن شاهد فى هديه ينطق

وأما هديه فى يقظته ، فكان يستيقظ إذا صاح الصاروخ وهو الديك ، فيحمد الله تعالى ويكبره ، ويهلله ويدعوه ، ثم يستاك ، ثم يقوم إلى وضوئه ، ثم يقف للصلاة بين يدى ربه مناجيًا له بكلامه ، مثنيًا عليه ، راجيًا له ، راغبًا راهبًا ، فأى حفظٍ لصحة القلب والبدن ، والروح والقوى ، ولنعيم الدنيا والآخرة فوق هذا (٢) .

---

(١) مسلم (٤٨٦ / ٢٢٢) فى الصلاة ، باب : ما يقال فى الركوع والسجود .

(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٢٣٩ ـ ٢٤٦ ) .

## فصل
## فى تدبيره ﷺ لأمر الحركة والسكون بما ينفع البدن

وأما تدبير الحركة والسكون ، وهو الرياضة ، فنذكر منها فصلاً يعلم منه مطابقة هديه فى ذلك لأكمل أنواعه وأحمدها وأصوبها ، فنقول :

من المعلوم افتقار البدن فى بقائه إلى الغذاء والشراب ، ولا يصير الغذاء بجملته جزءًا من البدن ، بل لا بد أن يبقى منه عند كل هضم بقية ما ، إذا كثرت على ممر الزمان اجتمع منها شىء له كمية وكيفية ، فيضر بكميته بأن يسد ويثقل البدن ، ويوجب أمراض الاحتباس ، وإن استفرغ تأذى البدن بالأدوية ؛ لأن أكثرها سمية ، ولا تخلو من إخراج الصالح المنتفع به ، ويضر بكيفيته ، بأن يسخن بنفسه ، أو بالعفن ، أو يبرد بنفسه ، أو يضعف الحرارة الغريزية عن إنضاجه .

وسدد الفضلات لا محالة ضارة تركت ، أو استفرغت ، والحركة أقوى الأسباب فى منع تولدها ، فإنها تسخن الأعضاء ، وتسيل فضلاتها ، فلا تجتمع على طول الزمان ، وتعود البدن الخفة والنشاط ، وتجعله قابلاً للغذاء ، وتصلب المفاصل ، وتقوى الأوتار والرباطات ، وتؤمن جميع الأمراض المادية وأكثر الأمراض المزاجية إذا استعمل القدر المعتدل منها فى وقته ، وكان باقى التدبير صوابًا .

ووقت الرياضة بعد انحدار الغذاء ، وكمال الهضم ، والرياضة المعتدلة هى التى تحمر فيها البشرة ، وتربو ويتندى بها البدن ، وأما التى يلزمها سيلان العرق فمفرطة ، وأى عضو كثرت رياضته قوى ، وخصوصًا على نوع تلك الرياضة ، بل كل قوة فهذا شأنها ، فإن من استكثر من الحفظ قويت حافظته ، ومن استكثر من الفكر قويت قوته المفكرة ، ولكل عضو رياضة تخصه ، فللصدر القراءة ، فليبتدئ فيها من الخفية إلى الجهر بتدريج . ورياضة السمع بسمع الأصوات ، والكلام بالتدريج ، فينتقل من الأخف إلى الأثقل ، وكذلك رياضة اللسان فى الكلام ، وكذلك رياضة البصر ، وكذلك رياضة المشى بالتدريج شيئًا فشيئًا .

وأما ركوب الخيل ، ورمى النشاب ، والصراع ، والمسابقة على الأقدام ، فرياضة للبدن كله ، وهى قالعة لأمراض مزمنة ، كالجذام والاستسقاء ، والقولنج .

ورياضة النفوس بالتعلم والتأدب ، والفرح والسرور ، والصبر ، والثبات ، والإقدام

والسماحة ، وفعل الخير ، ونحو ذلك مما ترتاض به النفوس ، ومن أعظم رياضتها : الصبر والحب ، والشجاعة والإحسان ، فلا تزال ترتاض بذلك شيئًا فشيئًا حتى تصير لها هذه الصفات هيئات راسخة ، وملكات ثابتة .

وأنت إذا تأملت هديه ﷺ ، في ذلك ، وجدته أكمل هدى حافظ للصحة والقوى ، ونافع فى المعاش والمعاد .

ولا ريب أن الصلاة نفسها فيها من حفظ صحة البدن ، وإذابة أخلاطه وفضلاته ما هو من أنفع شىء له سوى ما فيها من حفظ صحة الإيمان ، وسعادة الدنيا والآخرة ، وكذلك قيام الليل من أنفع أسباب حفظ الصحة ، ومن أمنع الأمور لكثير من الأمراض المزمنة ، ومن أنشط شىء للبدن والروح والقلب ، كما فى « الصحيحين » عن النبى ﷺ ، أنه قال: « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة: عليك ليل طويل ، فارقد ، فإن هو استيقظ ، فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ ، انحلت عقدة ثانية ، فإن صلى انحلت عقده كلها ، فأصبح نشيطًا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » (١) .

وفى الصوم الشرعى من أسباب حفظ الصحة ورياضة البدن والنفس ما لا يدفعه صحيح الفطرة .

وأما الجهاد وما فيه من الحركات الكلية التى هى من أعظم أسباب القوة ، وحفظ الصحة ، وصلابة القلب والبدن، ودفع فضلاتهما ، وزوال الهم والغم والحزن ، فأمر إنما يعرفه من له منه نصيب ، وكذلك الحج ، وفعل المناسك ، وكذلك المسابقة على الخيل ، وبالنصال ، والمشى فى الحوائج ، وإلى الإخوان ، وقضاء حقوقهم ، وعيادة مرضاهم ، وتشييع جنائزهم ،والمشى إلى المساجد للجمعات والجماعات ، وحركة الوضوء والاغتسال ، وغير ذلك .

وهذا أقل ما فيه الرياضة المعينة على حفظ الصحة ، ودفع الفضلات . وأما ما شرع له من التوصل به إلى خيرات الدنيا والآخرة ، ودفع شرورهما ، فأمر وراء ذلك .

فعلمت أن هديه فوق كل هدى فى طب الأبدان والقلوب ، وحفظ صحتهما ، ودفع أسقامهما ، ولا مزيد على ذلك لمن قد أحضر رشده ، وبالله التوفيق (٢) .

---

(١) البخارى (١١٤٢) فى التهجد ، باب : عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل ، ومسلم (٧٧٦ / ٢٠٧) فى صلاة المسافرين ، باب : ما روى فى من نام الليل أجمع حتى أصبح .

(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٢٤٦ ـ ٢٤٨ ) .

# فصل
## فى هديه ﷺ لأمر الجماع بما ينفع البدن

وأما الجماع والباه ، فكان هديه فيه أكمل هدى ، يحفظ به الصحة وتتم به اللذة وسرور النفس ، ويحصل به مقاصده التى وضع لأجلها ، فإن الجماع وضع فى الأصل لثلاثة أمور هى مقاصده الأصلية :

**أحدها** : حفظ النسل ، ودوام النوع إلى أن تتكامل العدة التى قدر الله بروزها إلى هذا العالم .

**الثانى** : إخراج الماء الذى يضر احتباسه واحتقانه بجملة البدن .

**الثالث** : قضاء الوطر ، ونيل اللذة ، والتمتع بالنعمة ، وهذه وحدها هى الفائدة التى فى الجنة ، إذ لا تناسل هناك ، ولا احتقان يستفرغه الإنزال .

وفضلاء الأطباء يرون أن الجماع من أحد أسباب حفظ الصحة . قال جالينوس : الغالب على جوهر المنى النار والهواء ، ومزاجه حار رطب ؛ لأن كونه من الدم الصافى الذى تغتذى به الأعضاء الأصلية ، وإذا ثبت فضل المنى ، فاعلم أنه لا ينبغى إخراجه إلا فى طلب النسل ، أو إخراج المحتقن منه ، فإنه إذا دام احتقانه ، أحدث أمراضًا رديئة ، منها : الوسواس ، والجنون ، والصرع ، وغير ذلك ، وقد يبرئ استعماله من هذه الأمراض كثيرًا ، فإنه إذا طال احتباسه ، فسد واستحال إلى كيفية سمية توجب أمراضًا رديئة ؛ ولذلك تدفعه الطبيعة بالاحتلام إذا كثر عندها من غير جماع .

وقال بعض السلف : ينبغى للرجل أن يتعاهد من نفسه ثلاثًا : ألا يدع المشى ، فإن احتاج إليه يومًا قدر عليه ، وينبغى ألا يدع الأكل ، فإن أمعاءه تضيق ، وينبغى ألا يدع الجماع ، فإن البئر إذا لم تنزح ، ذهب ماؤها . وقال محمد بن زكريا : من ترك الجماع مدة طويلة ، ضعفت قوى أعصابه ، وانسدت مجاريها ، وتقلص ذكره . قال : ورأيت جماعة تركوه لنوع من التقشف ، فبردت أبدانهم ، وعسرت حركاتهم ، ووقعت عليهم كآبة بلا سبب ، وقلت شهواتهم وهضمهم ، انتهى .

ومن منافعه : غض البصر ، وكف النفس ، والقدرة على العفة عن الحرام ، وتحصيل ذلك للمرأة ، فهو ينفع نفسه فى دنياه وأخراه ، وينفع المرأة ، ولذلك كان ﷺ يتعاهده ويحبه ، ويقول : « حبب إلى من دنياكم : النساء والطيب » (١) .

(١) النسائى (٣٩٣٩) فى عشرة النساء ، باب : حب النساء ، وأحمد (٣ / ١٢٨) .

وفى كتاب « الزهد » للإمام أحمد فى هذا الحديث زيادة لطيفة ، وهى : « أصبر عن الطعام والشراب ، ولا أصبر عنهن » .

وحث على التزويج أمته فقال : « تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم » (١) .

وقال ابن عباس : خير هذه الأمة أكثرها نساء .

وقال : « إنى أتزوج النساء ، وأنام وأقوم ، وأصوم وأفطر ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » (٢) .

وقال : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحفظ للفرج ، ومن لم يستطع ، فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » (٣) .

ولما تزوج جابر ثيبًا قال له : « هلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك » (٤) .

وروى ابن ماجه فى « سننه » : من حديث أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أراد أن يلقى الله طاهرًا مطهرًا ، فليتزوج الحرائر » (٥) .

وفى « سننه » أيضًا من حديث ابن عباس يرفعه ، قال : « لم نر للمتحابين مثل النكاح » (٦) .

وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر ، قال: قال رسول الله ﷺ : « الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » (٧) .

وكان ﷺ يحرض أمته على نكاح الأبكار الحسان ، وذوات الدين ، وفى « سنن النسائى » عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أى النساء خير ؟ قال : « التى تسره

---

(١) أبو داود (٢٠٥٠) فى النكاح ، باب : النهى عن تزويج من لم يلد من النساء ، والنسائى (٣٢٢٧) فى النكاح ، باب : كراهية تزويج العقيم .

(٢) البخارى (٥٠٦٣) فى النكاح ، باب : الترغيب فى النكاح ، ومسلم (١٤٠١ / ٥) فى النكاح ، باب : استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه .

(٣) البخارى (٥٠٦٥) فى النكاح ، باب : قول النبى ﷺ من استطاع الباءة فليتزوج ، ومسلم (١٤٠٠ / ١) فى النكاح ، باب : استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة .

(٤) البخارى (٥٠٧٩) فى النكاح ، باب : تزويج الثيبات ، ومسلم (٧١٥ / ١١٠) فى المساقاة ، باب : بيع البعير واستثناء ركوبه .

(٥) ابن ماجه (١٨٦٢) فى النكاح ، باب: تزويج الحرائر والولود ،وفى الزوائد :« إسناده ضعيف ؛ لضعف كثير بن سليم ، وسلام هو ابن سليمان بن ثوار ، وقال ابن عدى : عنده مناكير ، وقال العقيلى: فى حديثه مناكير » .

(٦) ابن ماجه (١٨٤٧) فى النكاح ،باب:ما جاء فى فضل النكاح ، وفى الزوائد: « إسناده صحيح ورجاله ثقات » .

(٧) مسلم (١٤٦٧ / ٦٤) فى الرضاع ، باب : خير متاع الدنيا المرأة الصالحة .

إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه فيما يكره فى نفسها وماله » (١) .

وفى « الصحيحين » عنه ، عن النبى ﷺ قال : « تنكح المرأة لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين ، تربت يداك » (٢) .

وكان يحث على نكاح الولود ، ويكره المرأة التى لا تلد ، كما فى « سنن أبى داود » عن معقل بن يسار ، أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال : إنى أصبت امرأة ذات حسب وجمال ، وإنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال : « لا » ، ثم أتاه الثانية : ، فنهاه ، ثم أتاه الثالثة ، فقال : « تزوجوا الودود الولود ، فإنى مكاثر بكم » (٣) .

وفى الترمذى عنه مرفوعًا : « أربع من سنن المرسلين : النكاح ، والسواك والتعطر ، والحناء » (٤) روى فى « الجامع » بالنون والياء (٥) . وسمعت أبا الحجاج الحافظ يقول : الصواب : أنه الختان ، وسقطت النون من الحاشية ، وكذلك رواه المحاملى عن شيخ أبى عيسى الترمذى .

ومما ينبغى تقديمه على الجماع ملاعبة المرأة ، وتقبيلها ، ومص لسانها ، وكان رسول الله ﷺ يلاعب أهله ، ويقبلها .

وروى أبو داود فى « سننه » أنه ﷺ كان يقبل عائشة ، ويمص لسانها (٦) .

ويذكر عن جابر بن عبد الله قال : نهى رسول الله ﷺ عن المواقعة قبل الملاعبة .

وكان ﷺ ربما جامع نساءه كلهن بغسل واحد ، وربما اغتسل عند كل واحدة منهن ، فروى مسلم فى « صحيحه » عن أنس ، أن النبى ﷺ ، كان يطوف على نسائه بغسل واحد (٧) .

وروى أبو داود فى « سننه » عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ ، أن رسول الله ﷺ طاف على نسائه فى ليلة ، فاغتسل عند كل امرأة منهن غسلاً ، فقلت : يا رسول الله ، لو اغتسلت غسلاً واحدًا ، فقال : « هذا أزكى وأطهر وأطيب » (٨) .

---

(١) النسائى (٣٢٣١) فى النكاح ، باب : أى النساء خير .

(٢) البخارى (٥٠٩٠) فى النكاح ، باب : الأكفاء فى الدين ، ومسلم (١٤٦٦ / ٥٣) فى الرضاع ، باب : استحباب نكاح ذات الدين .

(٣) أبو داود (٢٠٥٠) فى النكاح ،باب : النهى عن تزويج من لم يلد من النساء .

(٤) الترمذى (١٠٨٠) فى النكاح ،باب : ما جاء فى فضل التزويج والحث عليه ، وقال : « حسن غريب » .

(٥) أحمد (٥ / ٤٢١) .

(٦) أبو داود (٢٣٨٦) فى الصوم ، باب الصائم يبلع الريق .

(٧) مسلم (٣٠٩ / ٢٨) فى الحيض ، باب : جواز نوم الجنب .

(٨) أبو داود (٢١٩) فى الطهارة ، باب : الوضوء لمن أراد أن يعود .

وشرع للمجامع إذا أراد العود قبل الغسل الوضوء بين الجماعين ، كما روى مسلم فى « صحيحه » من حديث أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أتى أحدكم أهله ، ثم أراد أن يعود فليتوضأ » (١) .

وفى الغسل والوضوء بعد الوطء من النشاط ، وطيب النفس ، وإخلاف بعض ما تحلل بالجماع ، وكمال الطهر والنظافة ، واجتماع الحار الغريزى إلى داخل البدن بعد انتشاره بالجماع ، وحصول النظافة التى يحبها الله ، ويبغض خلافها ما هو من أحسن التدبير فى الجماع ، وحفظ الصحة والقوى فيه .

وأنفع الجماع : ما حصل بعد الهضم ، وعند اعتدال البدن فى حره وبرده ، ويبوسته ورطوبته ، وخلائه وامتلائه . وضرره عند امتلاء البدن أسهل وأقل من ضرره عند خلوه ، وكذلك ضرره عند كثرة الرطوبة أقل منه عند اليبوسة ، وعند حرارته أقل منه عند برودته ، وإنما ينبغى أن يجامع إذا اشتدت الشهوة ، وحصل الانتشار التام الذى ليس عن تكلف ولا فكر فى صورة ، ولا نظر متتابع ، ولا ينبغى أن يستدعى شهوة الجماع ويتكلفها ، ويحمل نفسه عليها ، وليبادر إليه إذا هاجت به كثرة المنى ، واشتد شبقه ، وليحذر جماع العجوز والصغيرة التى لا يوطأ مثلها، والتى لا شهوة لها ،والمريضة ، والقبيحة المنظر ، والبغيضة ، فوطء هؤلاء يوهن القوى ، ويضعف الجماع بالخاصية ، وغلط من قال من الأطباء : إن جماع الثيب أنفع من جماع البكر ، وأحفظ للصحة ، وهذا من القياس الفاسد ، حتى ربما حذر منه بعضهم ، وهو مخالف لما عليه عقلاء الناس ، ولما اتفقت عليه الطبيعة والشريعة.

وفى جماع البكر من الخاصية وكمال التعلق بينها وبين مجامعها ، وامتلاء قلبها من محبته، وعدم تقسيم هواها بينه وبين غيره، ما ليس للثيب. وقد قال النبى ﷺ لجابر : « هلا تزوجت بكرًا » (٢) ،وقد جعل الله ـ سبحانه ـ من كمال نساء أهل الجنة من الحور العين، أنهن لم يطمثهن أحد قبل من جعلن له من أهل الجنة ، وقالت عائشة للنبى ﷺ : أرأيت لو مررت بشجرة قد أرتع فيها ،وشجرة لم يرتع فيها ، ففى أيهما كنت ترتع بعيرك ؟ قال : « فى التى لم يرتع فيها » (٣) ، تريد أنه لم يأخذ بكرًا غيرها .

وجماع المرأة المحبوبة فى النفس يقل إضعافه للبدن مع كثرة استفراغه للمنى ، وجماع البغيضة يحل البدن ،ويوهن القوى مع قلة استفراغه ،وجماع الحائض حرام طبعًا وشرعًا ،

(١) مسلم (٣٠٨ / ٢٧) فى الحيض ، باب : جواز نوم الجنب .
(٢) سبق تخريجه ص ١٤٨ .
(٣) البخارى (٥٠٧٧) فى النكاح ،باب : نكاح الأبكار .

فإنه مضر جدًا ، والأطباء قاطبة تحذر منه .

وأحسن أشكال الجماع أن يعلو الرجل المرأة ، مستفرشًا لها بعد الملاعبة والقبلة ، وبهذا سميت المرأة فراشًا ، كما قال ﷺ : « الولد للفراش » (١) ، وهذا من تمام قوامية الرجل على المرأة ، كما قال تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ [ النساء : ٣٤ ] ، وكما قيل :

إذا رمتها كانت فراشًا يقلنى وعند فراغى خاد يتملق

وقد قال تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [ البقرة : ١٨٧ ] ، وأكمل اللباس وأسبغه على هذه الحال ، فإن فراش الرجل لباس له ، وكذلك لحاف المرأة لباس لها ، فهذا الشكل الفاضل مأخوذ من هذ الآية ، وبه يحسن موقع استعارة اللباس من كل من الزوجين للآخر . وفيه وجه آخر ، وهو أنها تنعطف عليه أحيانًا ، فتكون عليه كاللباس ، قال الشاعر :

إذا ما الضجيع ثنى جيدها تثنت فكانت عليه لباسا

وأردأ أشكاله أن تعلوه المرأة ، ويجامعها على ظهره ، وهو خلاف الشكل الطبيعى الذى طبع الله عليه الرجل والمرأة ، بل نوع الذكر والأنثى .

وفيه من المفاسد ، أن المنى يتعسر خروجه كله ، فربما بقى فى العضو منه فيتعفن ويفسد ، فيضر ،وأيضًا : فربما سال إلى الذكر رطوبات من الفرج . وأيضًا ، فإن الرحم لا يتمكن من الاشتمال على الماء واجتماعه فيه ، وانضمامه عليه لتخليق الولد . وأيضًا ، فإن المرأة مفعول بها طبعًا وشرعًا ، وإذا كانت فاعلة خالفت مقتضى الطبع والشرع ، وكان أهل الكتاب إنما يأتون النساء على جنوبهن على حرف ، ويقولون : هو أيسر للمرأة .

وكانت قريش والأنصار تشرح النساء على أقفائهن ، فعابت اليهود عليهم ذلك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾(٢) [ البقرة : ٢٢٣] .

وفى « الصحيحين » عن جابر ، قال : كانت اليهود تقول : إذا أتى الرجل امرأته من دبرها فى قبلها ، كان الولد أحول ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ . وفى لفظ لمسلم : « إن شاء مجبية ، وإن شاء غير مجبية ، غير أن

(١) البخارى (٢٧٤٥) فى الوصايا ، باب: قول الموصى لوصيه : تعاهد ولدى ، ومسلم (٣٦/١٤٥٧) فى الرضاع ، باب : الولد للفراش وتوقى الشبهات .

(٢) أبو داود (٢١٦٤) فى النكاح ، باب فى جامع النكاح .

ذلك في صمام واحد » (١).

والمجبية :المنكبة على وجهها ، والصمام الواحد: الفرج، وهو موضع الحرث والولد.

وأما الدبر : فلم يبح قط على لسان نبي من الأنبياء ، ومن نسب إلى بعض السلف إباحة وطء الزوجة في دبرها،فقد غلط عليه ،وفي « سنن أبي داود » عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ملعون من أتى المرأة في دبرها » (٢) .

وفي لفظ لأحمد وابن ماجه : « لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها » (٣).

وفي لفظ للترمذي وأحمد : « من أتى حائضًا أو امرأة في دبرها أو كاهنا ، فصدقه ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » (٤) .

وفي لفظ للبيهقي : « من أتى شيئًا من الرجال والنساء في الأدبار فقد كفر » .

وفي « مصنف وكيع » : حدثني زمعة بن صالح ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن عمرو بن دينار ، عن عبد الله بن يزيد ، قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا يستحيي من الحق ،لا تأتوا النساء في أعجازهن » وقال مرة : « في أدبارهن » (٥) .

وفي الترمذي : عن علي بن طلق ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تأتوا النساء في أعجازهن ، فإن الله لا يستحيي من الحق » (٦) .

وفي « الكامل » لابن عدي :من حديثه عن المحاملي ، عن سعيد بن يحيى الأموي ، قال : حدثنا محمد بن حمزة ، عن زيد بن رفيع ، عن أبي عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود يرفعه : « لا تأتوا النساء في أعجازهن » (٧) .

(١) البخاري (٤٥٢٨) في التفسير ، باب : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ ، ومسلم (١٤٣٥ / ١١٧) في النكاح ، باب : جواز جماعه امرأته في قبلها من قدامها ومن ورائها من غير تعرض للدبر .

(٢) أبو داود (٢١٦٢) في النكاح ، باب : في جامع النكاح .

(٣) ابن ماجه (١٩٢٣) في النكاح ، باب النهي عن إتيان النساء في أدبارهن ، وفي الزوائد : « إسناده صحيح ؛ لأن الحارث بن مخلد ذكره ابن حبان في الثقات ، وباقي رجال الإسناد ثقات . قال السندي : والحديث قد رواه أبو داود والترمذي بلفظ قريب من هذا » ، وأحمد ٢ / ٢٧٢ .

(٤) الترمذي (١٣٥) في الطهارة ،باب:ما جاء في كراهية إتيان الحائض،وقال الشيخ أحمد شاكر:«حديث صحيح» .

(٥) الحديث ذكره الهيثمي في المجمع (٤ / ٣٠١) وقال : « رواه أبو يعلى والطبراني في الكبير والبزار ورجال أبي يعلى رجال الصحيح ، خلا يعلى بن اليمان وهو ثقة » .

(٦) الترمذي (١١٦٤) في الرضاع ، باب : ما جاء في كراهية إتيان النساء في أدبارهن ، وقال : « حسن » ، والنسائي في الكبرى (٩٠٢٣) في عشرة النساء ،باب:ذكر حديث علي بن طلق والحديث عن علي بن طلق .

(٧) الكامل في الضعفاء لابن عدي (٣ / ٢٠٦) .

وروينا فى حديث الحسن بن على الجوهرى ، عن أبى ذر مرفوعًا : « من أتى الرجال أو النساء فى أدبارهن ، فقد كفر » .

وروى إسماعيل بن عياش ، عن سهيل بن أبى صالح ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر يرفعه : « استحيوا من الله ، فإن الله لا يستحيى من الحق ، لا تأتوا النساء فى حشوشهن » . ورواه الدارقطنى من هذه الطريق ولفظه : إن الله لا يستحيى من الحق ، لا يحل مأتاك النساء فى حشوشهن » (١) .

وقال البغوى : حدثنا هدبة ، حدثنا همام ، قال : سئل قتادة عن الذى يأتى امرأته فى دبرها ؟ فقال : حدثنى عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن رسول الله ﷺ قال : « تلك اللوطية الصغرى » (٢) .

وقال أحمد فى « مسنده » : حدثنا عبد الرحمن ، قال : حدثنا همام ، أخبرنا عن قتادة ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، فذكره (٣) .

وفى « المسند » أيضًا عن ابن عباس ، أنزلت هذه الآية : ﴿ **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ** ﴾ فى أناس من الأنصار ، أتوا رسول الله ﷺ فسألوه ، فقال : « ائتها على كل حال إذا كان فى الفرج » (٤) .

وفى « المسند » أيضًا عن ابن عباس ،قال :جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، هلكت ، فقال : « وما الذى أهلكك ؟ » قال : حولت رحلى البارحة ، قال : فلم يرد عليه شيئًا ، فأوحى الله إلى رسوله : ﴿ **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ** ﴾ أقبل وأدبر ، واتق الحيضة والدبر » (٥) .

وفى الترمذى : عن ابن عباس مرفوعًا : « لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة فى الدبر » (٦) .

وروينا من حديث أبى على الحسن بن الحسين بن دوما ، عن البراء بن عازب يرفعه : « كفر بالله العظيم عشرة من هذه الأمة : القاتل ، والساحر ، والديوث ، وناكح المرأة فى دبرها ، ومانع الزكاة ، ومن وجد سعة فمات ولم يحج ، وشارب الخمر ، والساعى فى

---

(١) الدارقطنى (٣ / ٢٨٨) (١٦٠) .
(٢) شرح معانى الآثار (٣ / ٤٤) .
(٣) أحمد (٢ / ١٨٢) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٦٧٠٦) : « إسناده صحيح » .
(٤) أحمد (١ / ٢٩٧) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٢٤١٤) : « إسناده ضعيف » .
(٥) أحمد (١ / ٢٩٧) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٢٧٠٣) : « إسناده صحيح » .
(٦) الترمذى (١١٦٥) فى الرضاع ، باب : ما جاء فى كراهية إتيان النساء فى أدبارهن ، وقال : « حسن غريب».

الفتن ، وبائع السلاح من أهل الحرب ، ومن نكح ذات محرم منه » (١) .

وقال عبد الله بن وهب : حدثنا عبد الله بن لهيعة عن مشرح بن هاعان ، عن عقبة ابن عامر ، أن رسول الله ﷺ قال : « ملعون من يأتى النساء فى محاشهن ـ يعنى : أدبارهن » (٢) .

وفى « مسند الحارث بن أبى أسامة » من حديث أبى هريرة وابن عباس ،قالا : خطبنا رسول الله ﷺ قبل وفاته ، وهى آخر خطبة خطبها بالمدينة حتى لحق بالله عز وجل ، وعظنا فيها وقال : « من نكح امرأة فى دبرها أو رجلا أو صبيًا ، حشر يوم القيامة ، وريحه أنتن من الجيفة يتأذى به الناس حتى يدخل النار ، وأحبط الله أجره ، ولا يقبل منه صرفًا ولا عدلاً ، ويدخل فى تابوت من نار ، ويشد عليه مسامير من نار » قال أبو هريرة : هذا لمن لم يتب .

وذكر أبو نعيم الأصبهانى ، من حديث خزيمة بن ثابت يرفعه : « إن الله لا يستحيى من الحق ، لا تأتوا النساء فى أعجازهن » (٣) .

وقال الشافعى : أخبرنى عمى محمد بن على بن شافع ، قال : أخبرنى عبد الله بن على بن السائب ، عن عمرو بن أحيحة بن الجلاح ، عن خزيمة بن ثابت ، أن رجلاً سأل النبى ﷺ عن إتيان النساء فى أدبارهن ، فقال : « حلال » ، فلما ولى ،دعاه فقال:« كيف قلت ، فى أى الخربتين أو فى أى الخرزتين ، أو فى أى الخصفتين أمن دبرها فى قبلها ؟ فنعم . أم من دبرها فى دبرها ، فلا ، إن الله لا يستحيى من الحق ، لا تأتوا النساء فى أدبارهن » (٤) .

قال الربيع : فقيل للشافعى : فما تقول ؟ فقال : عمى ثقة، وعبد الله بن على ثقة ، وقد أثنى على الأنصارى خيرًا ، يعنى عمرو بن الجلاح ، وخزيمة ممن لا يشك فى ثقته ، فلست أرخص فيه ، بل أنهى عنه .

قلت : ومن هاهنا نشأ الغلط على من نقل عنه الإباحة من السلف والأئمة ، فإنهم أباحوا أن يكون الدبر طريقًا إلى الوطء فى الفرج ، فيطأ من الدبر لا فى الدبر ، فاشتبه على السامع « من » بـ « فى » ولم يظن بينهما فرقًا ، فهذا الذى أباحه السلف والأئمة ، فغلط عليهم الغالط أقبح الغلط وأفحشه .

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى (٦٢٦٣) ، وعزاه لابن عساكر ، وقال : « ضعيف » .
(٢) الكامل فى الضعفاء لابن عدى (٤/١٤٨) .
(٣) حلية الأولياء (٨/ ٣٧٦) ، وقال : « غريب من حديث طاوس » .
(٤) ترتيب مسند الشافعى (٢ / ٢٩) (٩٠) فى النكاح ، باب : فى ما يتعلق بعشرة النساء .

وقد قال تعالى : ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ [ البقرة : ٢٢٢] قال مجاهد : سألت ابن عباس عن قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ فقال : تأتيها من حيث أمرت أن تعتزلها يعنى فى الحيض . وقال على بن أبى طلحة عنه ، يقول : فى الفرج ، ولا تعده إلى غيره .

وقد دلت الآية على تحريم الوطء فى دبرها من وجهين : أحدهما : أنه أباح إتيانها فى الحرث ، وهو موضع الولد لا فى الحش الذى هو موضع الأذى ، وموضع الحرث هو المراد من قوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ الآية قال : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُم ﴾ [ البقرة : ٢٢٣] وإتيانها فى قبلها من دبرها مستفاد من الآية أيضًا؛ لأنه قال : ﴿ أَنَّىٰ شِئْتُم ﴾ أى: من أين شئتم من أمام أو من خلف . قال ابن عباس : فأتوا حرثكم ، يعنى: الفرج .

وإذا كان الله حرم الوطء فى الفرج لأجل الأذى العارض ، فما الظن بالحش الذى هو محل الأذى اللازم مع زيادة المفسدة بالتعرض لانقطاع النسل والذريعة القريبة جدًا من أدبار النساء إلى أدبار الصبيان .

وأيضًا ، فللمرأة حق على الزوج فى الوطء ، ووطؤها فى دبرها يفوت حقها ، ولا يقضى وطرها ، ولا يحصل مقصودها .

وأيضًا ،فإن الدبر لم يتهيأ لهذا العمل ، ولم يخلق له ، وإنما الذى هيئ له الفرج ، فالعادلون عنه إلى الدبر خارجون عن حكمة الله وشرعه جميعًا .

وأيضًا ،فإن ذلك مضر بالرجل،ولهذا ينهى عنه عقلاء الأطباء من الفلاسفة وغيرهم ، لأن للفرج خاصية فى اجتذاب الماء المحتقن وراحة الرجل منه ، والوطء فى الدبر لا يعين على اجتذاب جميع الماء ، ولا يخرج كل المحتقن لمخالفته للأمر الطبيعى.

وأيضًا ، يضر من وجه آخر ، وهو إحواجه إلى حركات متعبة جدًا لمخالفته للطبيعة .

وأيضًا ، فإنه محل القذر والنجو ، فيستقبله الرجل بوجهه ، ويلابسه .

وأيضًا ، فإنه يضر بالمرأة جدًا ، لأنه وارد غريب بعيد عن الطباع ، منافر لها غاية المنافرة .

وأيضًا ، فإنه يحدث الهم والغم ، والنفرة عن الفاعل والمفعول .

وأيضًا ، فإنه يسود الوجه ، ويظلم الصدر ، ويطمس نور القلب ،ويكسو الوجه وحشة تصير عليه كالسيماء يعرفها من له أدنى فراسة .

وأيضًا ، فإنه يوجب النفرة والتباغض الشديد ، والتقاطع بين الفاعل والمفعول ، ولابد .

وأيضًا ، فإنه يفسد حال الفاعل والمفعول فسادًا لا يكاد يرجى بعده صلاح ، إلا أن يشاء الله بالتوبة النصوح .

وأيضًا ، فإنه يذهب بالمحاسن منهما ، ويكسوهما ضدها ، كما يذهب بالمودة بينهما ، ويبدلهما بها تباغضًا وتلاعنًا .

وأيضًا ، فإنه من أكبر أسباب زوال النعم ، وحلول النقم ، فإنه يوجب اللعنة والمقت من الله ، وإعراضه عن فاعله ، وعدم نظره إليه ، فأى خير يرجوه بعد هذا ، وأى شر يأمنه ، وكيف حياة عبد قد حلت عليه لعنة الله ومقته ، وأعرض عنه بوجهه ، ولم ينظر إليه .

وأيضًا ، فإنه يذهب بالحياء جملة ، والحياء هو حياة القلوب ، فإذا فقدها القلب ، استحسن القبيح ، واستقبح الحسن ، وحينئذ فقد استحكم فساده .

وأيضًا ، فإنه يحيل الطباع عما ركبها الله ، ويخرج الإنسان عن طبعه إلى طبع لم يركب الله عليه شيئًا من الحيوان،بل هو طبع منكوس ، وإذا نكس الطبع انتكس القلب ، والعمل ، والهدى ، فيستطيب حينئذ الخبيث من الأعمال والهيئات ، ويفسد حاله وعمله وكلامه بغير اختياره .

وأيضًا ، فإنه يورث من الوقاحة والجرأة مالا يورثه سواه .

وأيضًا ، فإنه يورث من المهانة والسفال والحقارة ما لا يورثه غيره .

وأيضًا : فإنه يكسو العبد من حلة المقت والبغضاء ، وازدراء الناس له ، واحتقارهم إياه ، واستصغارهم له ما هو مشاهد بالحس ، فصلاة الله وسلامه على من سعادة الدنيا والآخرة فى هديه واتباع ما جاء به ، وهلاك الدنيا والآخرة فى مخالفة هديه وما جاء به .

**والجماع الضار** : نوعان ؛ ضار شرعًا ، وضار طبعًا ، فالضار شرعًا : المحرم ، وهو مراتب بعضها أشد من بعض . والتحريم العارض منه أخف من اللازم ، كتحريم الإحرام ، والصيام ، والاعتكاف ، وتحريم المظاهر منها قبل التكفير ، وتحريم وطء الحائض ونحو ذلك ، ولهذا لا حد فى هذا الجماع .

وأما اللازم : فنوعان ، نوع لا سبيل إلى حله البتة ، كذوات المحارم ، فهذا من أضر الجماع ،وهو يوجب القتل حدًا عند طائفة من العلماء،كأحمد بن حنبل رحمه الله وغيره ،

وفيه حديث مرفوع ثابت (١) .

والثانى : ما يمكن أن يكون حلالاً ، كالأجنبية ، فإن كانت ذات زوج ، ففى وطئها حقان ، حق لله ، وحق للزوج ، فإن كانت مكرهة ، ففيه ثلاثة حقوق ، وإن كان لها أهل وأقارب يلحقهم العار بذلك صار فيه أربعة حقوق ، فإن كانت ذات محرم منه ، صار فيه خمسة حقوق ، فمضرة هذا النوع بحسب درجاته فى التحريم .

**وأما الضار طبعًا** : فنوعان أيضًا : نوع ضار بكيفيته كما تقدم ، ونوع ضار بكميته كالإكثار منه، فإنه يسقط القوة ، ويضر بالعصب ، ويحدث الرعشة ، والفالج ، والتشنج، ويضعف البصر وسائر القوى ، ويطفئ الحرارة الغريزية ، ويوسع المجارى ، ويجعلها مستعدة للفضلات المؤذية .

وأنفع أوقاته ، ما كان بعد انهضام الغذاء فى المعدة وفى زمان معتدل لا على جوع ، فإنه يضعف الحار الغريزى ،ولا على شبع ، فإنه يوجب أمراضًا شديدة ، ولا على تعب ، ولا إثر حمام ، ولا استفراغ ، ولا انفعال نفسانى كالغم والهم والحزن وشدة الفرح .

وأجود أوقاته بعد هزيع من الليل إذا صادف انهضام الطعام،ثم يغتسل أو يتوضأ، وينام عليه ، وينام عقبه، فتراجع إليه قواه،وليحذر الحركة والرياضة عقبه،فإنها مضرة جدًا (٢).

## فصل
## فى هديه ﷺ فى حفظ الصحة بالطِّيب

لما كانت الرائحة الطيبة غذاء الروح ، والروح مطية القوى ، والقوى تزداد بالطيب ، وهو ينفع الدماغ والقلب ، وسائر الأعضاء الباطنية ، ويفرح القلب ، ويسر النفس ويبسط الروح ، وهو أصدق شيء للروح ، وأشده ملاءمة لها ، وبينه وبين الروح الطيبة نسبة قريبة ، كان أحد المحبوبين من الدنيا إلى أطيب الطيبين صلوات الله عليه وسلامه .

وفى « صحيح البخارى » أنه ﷺ كان لا يرد الطيب (٣) .

---

(١) أبو داود (٤٤٥٧) فى الحدود ، باب : فى الرجل يزنى بحريمه ، والترمذى (١٣٦٢) فى الأحكام ، باب : فيمن تزوج امرأة أبيه ، وقال : « حسن غريب » ، وابن ماجه (٢٦٠٧) فى الحدود ، باب : من تزوج امرأة أبيه من بعده .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٢٤٩ ـ ٢٦٥) .

(٣) البخارى (٥٩٢٩) فى اللباس ، باب : من لم يرد الطيب .

وفى « صحيح مسلم » عنه ﷺ : « من عرض عليه ريحان ، فلا يرده فإنه طيب الريح ، خفيف المحمل »(١) .

وفى « سنن أبى داود » والنسائى ، عن أبى هريرة رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ : « من عرض عليه طيب ، فلا يرده ، فإنه خفيف المحمل طيب الرائحة »(٢) .

وفى « مسند البزار » : عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا أفناءكم وساحاتكم ، ولا تشبهوا باليهود يجمعون الأكب فى دورهم »(٣) . الأكب : الزبالة .

وذكر ابن أبى شيبة ، أنه ﷺ كان له سكة يتطيب منها .

وصح عنه أنه قال : « إن لله حقًا على كل مسلم أن يغتسل فى كل سبعة أيام، وإن كان له طيب أن يمس منه »(٤) .

وفى الطيب من الخاصية ، أن الملائكة تحبه ، والشياطين تنفر عنه ، وأحب شىء إلى الشياطين الرائحة المنتنة الكريهة ، فالأرواح الطيبة تحب الرائحة الطيبة ، والأرواح الخبيثة تحب الرائحة الخبيثة ، وكل روح تميل إلى ما يناسبها ، فالخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات ، وهذا وإن كان فى النساء والرجال ، فإنه يتناول الأعمال والأقوال،والمطاعم والمشارب ، والملابس والروائح ، إما بعموم لفظه ، أو بعموم معناه(٥) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى حفظ صحة العين

روى أبو داود فى « سننه » عن عبد الرحمن بن النعمان بن معبد بن هوذة الأنصارى، عن أبيه ،عن جدة رضي الله عنه ،أن رسول الله ﷺ أمر بالإثمد المروح عند النوم ،وقال: « ليتقه الصائم »(٦) ، قال أبو عبيد : المروح : المطيب بالمسك .

---

(١) مسلم (٢٢٥٣ / ٢٠) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب استعمال المسك ، وإنه أطيب الطيب .

(٢) أبو داود (٤١٧٢) فى الترجل ، باب : فى رد الطيب ، والنسائى (٥٢٥٩) فى الزينة ، باب : الطيب .

(٣) انظر الترمذى (٢٧٩٩) فى الأدب ، باب : ما جاء فى النظافة وقال : « حديث غريب » .

(٤) البخارى (٨٨٠) فى الجمعة ، باب : الطيب للجمعة من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ : « الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم ، أو يستن وأن يمس طيبا إن وجد » .

(٥) زاد المعاد ( ٤ / ٢٧٨ ـ ٢٨٠ ) .

(٦) أبو داود (٢٣٧٧) فى الصوم ، باب : فى الكحل عند النوم للصائم .

وفى « سنن ابن ماجه » وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت للنبى ﷺ مكحلة يكتحل منها ثلاثًا فى كل عين (١) .

وفى الترمذى : عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا اكتحل يجعل فى اليمنى ثلاثًا ، يبتدئ بها ، ويختم بها ، وفى اليسرى ثنتين (٢) .

وقد روى أبو داود عنه ﷺ : « من اكتحل فليوتر » (٣) ، فهل الوتر بالنسبة إلى العينين كلتيهما ،فيكون فى هذه ثلاث،وفى هذه ثنتان ، واليمنى أولى بالابتداء والتفضيل ، أو هو بالنسبة إلى كل عين ، فيكون فى هذه ثلاث ، وفى هذه ثلاث ، وهما قولان فى مذهب أحمد وغيره .

وفى الكحل حفظ لصحة العين ، وتقوية للنور الباصر ، وجلاء لها ، وتلطيف للمادة الرديئة ، واستخراج لها مع الزينة فى بعض أنواعه ، وله عند النوم مزيد فضل لاشتمالها على الكحل ، وسكونها عقيبه عن الحركة المضرة بها ، وخدمة الطبيعة لها ، وللإثمد من ذلك خاصية .

وفى « سنن ابن ماجه » عن سالم عن أبيه يرفعه : « عليكم بالإثمد ؛ فإنه يجلو البصر ، وينبت الشعر » (٤) .

وفى كتاب أبى نعيم : « فإنه منبتة للشعر ، مذهبة للقذى ، مصفاة للبصر » (٥) .

وفى « سنن ابن ماجه » أيضًا :عن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه : « خير أكحالكم الإثمد ، يجلو البصر ، وينبت الشعر (٦) (٧) .

---

(١) ابن ماجه (٣٤٩٩) فى الطب ، باب : من اكتحل وترًا ، والترمذى (١٧٥٧) فى اللباس ، باب : ما جاء فى الاكتحال ، وقال : « حسن غريب » ، وأحمد ١ / ٣٥٤ ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٣٣١٨) : « إسناده صحيح » .

(٢) الترمذى (١٧٥٧) فى اللباس ، باب : ما جاء فى الاكتحال بلفظ « . . . كانت له مكحلة يكتحل بها كل ليلة ثلاثة فى هذه وثلاثة فى هذه » ، وقال : « حسن غريب » .

(٣) أبو داود (٣٥) فى الطهارة ، باب : الاستتار فى الخلاء .

(٤) ابن ماجه (٣٤٩٥) فى الطب ، باب : الكحل بالإثمد ، وفى الزوائد : « فى إسناد حديث ابن عمر مقال ؛ لأن عثمان بن عبد الملك ، قال فيه أبو حاتم : منكر الحديث . . .» .

(٥) أبو نعيم فى « الحلية » (٣ / ١٧٨) .

(٦) ابن ماجه (٣٤٩٧) فى الطب ، باب : الكحل بالإثمد .

(٧) زاد المعاد (٤ / ٢٨٠ _ ٢٨٢) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى علاج الحمى

ثبت فى « الصحيحين » عن نافع ، عن ابن عمر ، أن النبى ﷺ قال : « إنما الحمى أو شدة الحمى من فيح جهنم ، فأبردوها بالماء » (١) .

وقد أشكل هذا الحديث على كثير من جهلة الأطباء ، ورأوه منافيًا لدواء الحمى وعلاجها ، ونحن نبين بحول الله وقوته وجهه وفقهه ، فنقول : .

خطاب النبى ﷺ نوعان : عام لأهل الأرض ، وخاص ببعضهم ، فالأول : كعامة خطابه ، والثانى : كقوله : « لا تستقبلوا القبلة بغائط ، ولا بول ، ولا تستدبروها ، ولكن شرقوا ، أو غربوا » (٢) فهذا ليس بخطاب لأهل المشرق والمغرب ولا العراق ، ولكن لأهل المدينة وما على سمتها ، كالشام وغيرها ، وكذلك قوله : « ما بين المشرق والمغرب قبلة » (٣) .

وإذا عرف هذا ، فخطابه فى هذا الحديث خاص بأهل الحجاز ، وما والاهم ، إذ كان أكثر الحميات التى تعرض لهم من نوع الحمى اليومية العرضية الحادثة عن شدة حرارة الشمس ، وهذه ينفعها الماء البارد شربًا واغتسالاً ، فإن الحمى حرارة غريبة تشتعل فى القلب ، وتنبث منه بتوسط الروح والدم فى الشرايين والعروق إلى جميع البدن ، فتشتعل فيه اشتعالاً يضر بالأفعال الطبيعية ، وهى تنقسم إلى قسمين : عرضية : وهى الحادثة إما عن الورم ، أو الحركة ، أو إصابة حرارة الشمس ، أو القيظ الشديد ونحو ذلك .

ومرضية : وهى ثلاثة أنواع ، وهى لا تكون إلا فى مادة أولى ، ثم منها يسخن جميع البدن ، فإن كان مبدأ تعلقها بالروح سميت حمى يوم ؛ لأنها فى الغالب تزول فى يوم ، ونهايتها ثلاثة أيام ، وإن كان مبدأ تعلقها بالأخلاط سميت عفنية ، وهى أربعة أصناف : صفراوية ، وسوداوية ، وبلغمية ، ودموية ، وإن كان مبدأ تعلقها بالأعضاء الصلبة

---

(١) البخارى (٥٧٢٣) فى الطب ، باب : الحمى من فيح جهنم ، ومسلم (٢٢٠٩ / ٧٨) فى السلام ، باب : لكل داء دواء واستحباب التداوى .

(٢) البخارى (٣٩٤) فى الصلاة ، باب : قبلة أهل المدينة وأهل الشام والشرق ، ليس فى المشرق ولا فى المغرب قبلة ، ومسلم (٢٦٤ / ٥٩) فى الطهارة ، باب : الاستطابة .

(٣) الترمذى (٣٤٤) فى الصلاة ، باب : ما جاء أن ما بين المشرق والمغرب قبلة ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (١٠١١) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : القبلة ، والبيهقى فى الكبرى (٢ / ٩) .

الأصلية ، سميت حمى دق ، وتحت هذه الأنواع أصناف كثيرة .

وقد ينتفع البدن بالحمى انتفاعًا عظيمًا لا يبلغه الدواء ، وكثيرًا ما يكون حمى يوم ، وحمى العفن سببًا لإنضاج مواد غليظة لم تكن تنضج بدونها ، وسببًا لتفتح سدد لم يكن تصل إليها الأدوية المفتحة .

وأما الرمد الحديث والمتقادم ، فإنها تبرئ أكثر أنواعه برءًا عجيبًا سريعًا ، وتنفع من الفالج، واللقوة ، والتشنج الامتلائى ، وكثيرًا من الأمراض الحادثة عن الفضول الغليظة .

وقال لى بعض فضلاء الأطباء : إن كثيرًا من الأمراض نستبشر فيها بالحمى ، كما يستبشر المريض بالعافية ، فتكون الحمى فيه أنفع من شرب الدواء بكثير ، فإنها تنضج من الأخلاط والمواد الفاسدة ما يضر بالبدن ، فإذا أنضجتها صادفها الدواء متهيئة للخروج بنضاجها ، فأخرجها ، فكانت سببًا للشفاء .

وإذا عرف هذا ، فيجوز أن يكون مراد الحديث من أقسام الحميات العرضية ، فإنها تسكن على المكان بالانغماس فى الماء البارد ، وسقى الماء البارد المثلوج ، ولا يحتاج صاحبها مع ذلك إلى علاج آخر ، فإنها مجرد كيفية حارة متعلقة بالروح ، فيكفى فى زوالها مجرد وصول كيفية باردة تسكنها ، وتخمد لهبها من غير حاجة إلى استفراغ مادة ، أو انتظار نضج .

ويجوز أن يراد به جميع أنواع الحميات ، وقد اعترف فاضل الأطباء جالينوس : بأن الماء البارد ينفع فيها ، قال فى المقالة العاشرة من كتاب « حيلة البرء » : ولو أن رجلاً شابًا حسن اللحم ، خصب البدن فى وقت القيظ ، وفى وقت منتهى الحمى ، وليس فى أحشائه ورم ، استحم بماء بارد ، أو سبح فيه ، لا نتفع بذلك . قال : ونحن نأمر بذلك بلا توقف .

وقال الرازى فى كتابه الكبير : إذا كانت القوة قوية ، والحمى حادة جدًا ، والنضج بين ولا ورم فى الجوف ، ولا فتق ، ينفع الماء البارد شربًا ، وإن كان العليل خصب البدن والزمان حار ، وكان معتادًا لاستعمال الماء البارد من خارج ، فليؤذن فيه .

وقوله : « الحمى من فيح جهنم » هو شدة لهبها ، وانتشارها ،ونظيره: قوله : « شدة الحر من فيح جهنم » ، وفيه وجهان :

**أحدهما** : أن ذلك أنموذج ورقيقة اشتقت من جهنم ليستدل بها العباد عليها ، ويعتبروا بها ، ثم إن الله سبحانه قدر ظهورها بأسباب تقتضيها ، كما أن الروح والفرح والسرور

واللذة من نعيم الجنة أظهرها الله فى هذه الدار عبرة ودلالة،وقدر ظهورها بأسباب توجبها.

**والثانى** : أن يكون المراد التشبيه ، فشبه شدة الحمى ولهبها بفيح جهنم ، وشبه شدة الحر به أيضًا تنبيهًا للنفوس على شدة عذاب النار ،وأن هذه الحرارة العظيمة مشبهة بفيحها، وهو ما يصيب من قرب منها من حرها .

وقوله : « فأبردوها » ، روى بوجهين : بقطع الهمزة وفتحها ، رباعى : من أبرد الشيء : إذا صيره باردًا ، مثل أسخنه : إذا صيره سخنًا .والثانى : بهمزة الوصل مضمومة من برد الشيء يبرده ، وهو أفصح لغة واستعمالا ، والرباعى لغة رديئة عندهم قال :

إذا وجدت لهيب الحب فى كبدى أقبلت نحو سقاء القوم أبترد

هبنى بردت ببرد الماء ظاهره فمن لنار على الأحشاء تتقد

وقوله : « بالماء » ، فيه قولان : أحدهما : أنه كل ماء وهو الصحيح .والثانى : أنه ماء زمزم ، واحتج أصحاب هذا القول بما رواه البخارى فى « صحيحه » ، عن أبى جمرة نصر بن عمران الضبعى ، قال : كنت أجالس ابن عباس بمكة ، فأخذتنى الحمى ، فقال : أبردها عنك بماء زمزم،فإن رسول الله ﷺ قال: « إن الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء ـ أو قال ـ بماء زمزم » (١) . وراوى هذا قد شك فيه ، ولو جزم به لكان أمرًا لأهل مكة بماء زمزم ، إذ هو متيسر عندهم ، ولغيرهم بما عندهم من الماء .

ثم اختلف من قال : إنه على عمومه هل المراد به الصدقة بالماء ، أو استعماله ؟ على قولين ، والصحيح أنه استعمال ، وأظن أن الذى حمل من قال : المراد الصدقة به أنه أشكل عليه استعمال الماء البارد فى الحمى ، ولم يفهم وجهه مع أن لقوله وجهًا حسنًا ، وهو أن الجزاء من جنس العمل ، فكما أخمد لهيب العطش عن الظمآن بالماء البارد ، أخمد الله لهيب الحمى عنه جزاء وفاقًا ، ولكن هذا يؤخذ من فقه الحديث وإشارته ، وأما المراد به فاستعماله .

وقد ذكر أبو نعيم وغيره من حديث أنس يرفعه : « إذا حم أحدكم ، فليرش عليه الماء البارد ثلاث ليال من السحر » (٢).

وفى « سنن ابن ماجه » عن أبى هريرة يرفعه : « الحمى كير من كير جهنم ، فنحوها

(١) البخارى (٣٢٦١) فى بدء الخلق ، باب : صفة النار وأنها مخلوقة .

(٢) انظر الحاكم فى المستدرك (٤ / ٢٠٠) ، وقال : « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . . . » .

عنكم بالماء البارد » (١) .

وفى « المسند » وغيره، من حديث الحسن ؛ عن سمرة يرفعه : « الحمى قطعة من النار، فأبردوها عنكم بالماء البارد ، وكان رسول الله ﷺ إذا حم دعا بقربة من ماء ، فأفرغها على رأسه فاغتسل (٢) .

وفى « السنن » : من حديث أبى هريرة قال : ذكرت الحمى عند رسول الله ﷺ ، فسبها رجل ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تسبها فإنها تنفى الذنوب ، كما تنفى النار خبث الحديد » (٣) .

لما كانت الحمى يتبعها حمية عن الأغذية الرديئة ، وتناول الأغذية والأدوية النافعة ، وفى ذلك إعانة على تنقية البدن ، ونفى أخباثه وفضوله ، وتصفيته من مواده الرديئة ، وتفعل فيه كما تفعل النار فى الحديد فى نفى خبثه ، وتصفية جوهره ، كانت أشبه الأشياء بنار الكير التى تصفى جوهر الحديد ، وهذا القدر هو المعلوم عند أطباء الأبدان .

وأما تصفيتها القلب من وسخه ودرنه ، وإخراجها خبائثه ، فأمر يعلمه أطباء القلوب ، ويجدونه كما أخبرهم به نبيهم رسول الله ﷺ ، ولكن مرض القلب إذا صار مأيوسًا من برئه ، لم ينفع فيه هذا العلاج .

فالحمى تنفع البدن والقلب ، وما كان بهذه المثابة فسبه ظلم وعدوان ، وذكرت مرة وأنا محمومٌ قول بعض الشعراء يسبها :

زارت مكفرة الذنوب وودعت تبًا لها من زائرٍ ومودع
قالت وقد عزمت على ترحالها ماذا تريد فقلت أن لا ترجعى

فقلت : تبًا له إذ سب ما نهى رسول الله ﷺ عن سبه ، ولو قال :

زارت مكفرة الذنوب لصبها أهلاً بها من زائرٍ ومودع
قالت وقد عزمت على ترحالها ماذا تريد فقلت : أن لا تقلعى

لكان أولى به ، ولأقلعت عنه ، فأقلعت عنى سريعًا ، وقد روى فى أثر لا أعرف حاله

---

(١) ابن ماجه (٣٤٧٥) فى الطب ، باب: الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء ، وفى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات » .

(٢) لم نجده فى أحمد ، وانظر : الطبرانى فى الكبير (٧ / ٢٢٧) (٦٩٤٦) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٩٧) : « رواه الطبرانى والبزار وفيه إسماعيل بن مسلم وهو متروك » .

(٣) ابن ماجه (٣٤٦٩) فى الطب ، باب : الحمى ، وفى الزوائد : « فى إسناده موسى بن عبيدة وهو ضعيف » .

« حمى يوم كفارة سنة » ، وفيه قولان : أحدهما : أن الحمى تدخل فى كل الأعضاء والمفاصل ، وعدتها ثلاثمائة وستون مفصلا ، فتكفر عنه ـ بعدد كل مفصل ـ ذنوب يوم . والثانى : أنها تؤثر فى البدن تأثيراً لا يزول بالكلية إلى سنة ،كما قيل فى قوله ﷺ : « من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين يومًا » (١) : إن أثر الخمر يبقى فى جوف العبد ، وعروقه ، وأعضائه أربعين يومًا والله أعلم .

قال أبو هريرة : ما من مرض يصيبنى أحب إلى من الحمى ، لأنها تدخل فى كل عضو منى ، وإن الله سبحانه يعطى كل عضو حظه من الأجر .

وقد روى الترمذى فى « جامعه » من حديث رافع بن خديج يرفعه : « إذا أصابت أحدكم الحمى ـ وإن الحمى قطعة من النار ـ فليطفئها بالماء البارد ، ويستقبل نهرًا جاريًا ، فليستقبل جرية الماء بعد الفجر وقبل طلوع الشمس ، وليقل بسم الله ،اللهم اشف عبدك ، وصدق رسولك ، وينغمس فيه ثلاث غمسات ثلاثة أيام ، فإن برئ ، وإلا ففى خمس ، فإن لم يبرأ فى خمس ، فسبع ، فإن لم يبرأ فى سبع فتسع ، فإنها لا تكاد تجاوز تسعًا بإذن الله » (٢) .

قلت : وهو ينفع فعله فى فصل الصيف فى البلاد الحارة على الشرائط التى تقدمت ، فإن الماء فى ذلك الوقت أبرد ما يكون لبعده عن ملاقاة الشمس ، ووفور القوى فى ذلك الوقت لما أفادها النوم ، والسكون ، وبرد الهواء ، فتجتمع فيه قوة القوى ، وقوة الدواء ، وهو الماء البارد على حرارة الحمى العرضية ، أو الغب الخالصة ، أعنى التى لا ورم معها ، ولا شىء من الأعراض الرديئة والمواد الفاسدة ، فيطفئها بإذن الله ، لا سيما فى أحد الأيام المذكورة فى الحديث ، وهى الأيام التى يقع فيها بحران الأمراض الحادة كثيراً ، سيما فى البلاد المذكورة لرقة أخلاط سكانها ، وسرعة انفعالهم عن الدواء النافع (٣) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى علاج استطلاق البطن

فى « الصحيحين » : من حديث أبى المتوكل ، عن أبى سعيد الخدرى ، أن رجلا أتى

(١) ابن ماجه (٣٣٧٧) فى الأشربة ، باب : من شرب الخمر لم تقبل له صلاة ، وأحمد (٢ / ١٨٩) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٦٧٧٣) : « إسناده صحيح » .
(٢) الترمذى (٢٠٨٤) فى الطب ، باب (٣٣) ، وقال : « غريب » ، عن ثوبان .
(٣) زاد المعاد ( ٤ / ٢٥ ـ ٣٢ ) .

النبى ﷺ ،فقال : إن أخى يشتكى بطنه : وفى رواية : استطلق بطنه ، فقال : « اسقه عسلا » ، فذهب ثم رجع ، فقال : قد سقيته ، فلم يغن عنه شيئًا وفى لفظ : فلم يزده إلا استطلاقًا مرتين أو ثلاثًا ، كل ذلك يقول له : « اسقه عسلا » ، فقال له فى الثالثة أو الرابعة : « صدق الله ، وكذب بطن أخيك » (١) .

وفى « صحيح مسلم » فى لفظ له : إن أخى عرب بطنه (٢) ، أى فسد هضمه ، واعتلت معدته ، والاسم العرب بفتح الراء ، والذرب أيضًا .

والعسل فيه منافع عظيمة ، فإنه جلاء للأوساخ التى فى العروق والأمعاء وغيرها ، محلل للرطوبات أكلاً وطلاءً ، نافع للمشايخ وأصحاب البلغم ، ومن كان مزاجه باردًا رطبًا ، وهو مغذٍ ملين للطبيعة ، حافظ لقوى المعاجين ولما استودع فيه ، مذهب لكيفيات الأدوية الكريهة ، منقٍ للكبد والصدر ، مدر للبول ، موافق للسعال الكائن عن البلغم ، وإذا شرب حارًا بدهن الورد ، نفع من نهش الهوام ، وشرب الأفيون ، وإن شرب وحده ممزوجًا بماء نفع من عضة الكَلْب الكَلِب ، وأكل الفطر القتال ، وإذا جعل فيه اللحم الطرى ، حفظ طراوته ثلاثة أشهر ، وكذلك إن جعل فيه القثاء ، والخيار ، والقرع ، والباذنجان ، ويحفظ كثيرًا من الفاكهة ستة أشهر ، ويحفظ جثة الموتى ، ويسمى الحافظ الأمين ،وإذا لطخ به البدن المقمل والشعر ، قتل قمله وصئبانه ، وطول الشعر ، وحسنه ، ونعمه ، وإن اكتحل به ، جلا ظلمة البصر ، وإن استن به ، بيض الأسنان وصقلها ، وحفظ صحتها ، وصحة اللثة ، ويفتح أفواه العروق ، ويدر الطمث ، ولعقه على الريق يذهب البلغم ، ويغسل خمل المعدة ، ويدفع الفضلات عنها ، ويسخنها تسخينًا معتدلاً ، ويفتح سددها ، ويفعل ذلك بالكبد والكلى والمثانة ، وهو أقل ضررًا لسدد الكبد والطحال من كل حلو .

وهو مع هذا كله مأمون الغائلة ، قليل المضار ، مضر بالعرض للصفراويين ، ودفعها بالخل ونحوه ، فيعود حينئذ نافعًا له جدًا .

وهو غذاء مع الأغذية،ودواء مع الأدوية ،وشراب مع الأشربة ، وحلو مع الحلوى ، وطلاء مع الأطلية ، ومفرح مع المفرحات ، فما خلق لنا شىء فى معناه أفضل منه ، ولا مثله ، ولا قريبًا منه ، ولم يكن معول القدماء إلا عليه ، وأكثر كتب القدماء لا ذكر فيها للسكر البتة ، ولا يعرفونه،فإنه حديث العهد حدث قريبًا ، وكان النبى ﷺ يشربه بالماء على

---

(١ ، ٢) البخارى (٥٦٨٤) فى الطب ، باب : الدواء بالعسل ، ومسلم (٢٢١٧ / ٩١) فى السلام ، باب : التداوى بسقى العسل .

الريق ، وفى ذلك سر بديع فى حفظ الصحة لا يدركه إلا الفطن الفاضل ، وسنذكر ذلك إن شاء الله عند ذكر هديه فى حفظ الصحة .

وفى « سنن ابن ماجه » مرفوعًا من حديث أبى هريرة : « من لعق العسل ثلاث غدوات كل شهر ، لم يصبه عظيم من البلاء » (١) ،وفى أثر آخر : « عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن » (٢) فجمع بين الطب البشرى والإلهى ، وبين طب الأبدان ، وطب الأرواح ، وبين الدواء الأرضى والدواء السمائى .

إذا عرف هذا ، فهذا الذى وصف له النبى ﷺ العسل ، كان استطلاق بطنه عن تخمة أصابته عن امتلاء ، فأمره بشرب العسل لدفع الفضول المجتمعة فى نواحى المعدة والأمعاء ، فإن العسل فيه جلاء ، ودفع للفضول وكان قد أصاب المعدة أخلاط لزجة ، تمنع استقرار الغذاء فيها للزوجتها ، فإن المعدة لها خمل كخمل القطيفة ، فإذا عقلت بها الأخلاط اللزجة،أفسدتها وأفسدت الغذاء ، فدواؤها بما يجلوها من تلك الأخلاط ، والعسل جلاء ، والعسل من أحسن ما عولج به هذا الداء ، لا سيما إن مزج بالماء الحار .

وفى تكرار سقيه العسل معنى طبى بديع ، وهو أن الدواء يجب أن يكون له مقدار ، وكمية بحسب حال الداء ، إن قصر عنه ، لم يزله بالكلية ، وإن جاوزه ، أوهى القوى ، فأحدث ضرراً آخر ، فلما أمره أن يسقيه العسل ، سقاه مقداراً لا يفى بمقاومة الداء ، ولا يبلغ الغرض ، فلما أخبره ، علم أن الذى سقاه لا يبلغ مقدار الحاجة ، فلما تكرر ترداده إلى النبى ﷺ ، أكد عليه المعاودة ليصل إلى المقدار المقاوم للداء ، فلما تكررت الشربات بحسب مادة الداء ، برأ ، بإذن الله ، واعتبار مقادير الأدوية ، وكيفياتها ، ومقدار قوة المرض والمريض من أكبر قواعد الطب .

وفى قوله ﷺ:« صدق الله وكذب بطن أخيك » ،إشارة إلى تحقيق نفع هذا الدواء ، وأن بقاء الداء ليس لقصور الدواء فى نفسه،ولكن لكذب البطن، وكثرة المادة الفاسدة فيه ، فأمره بتكرار الدواء لكثرة المادة .

وليس طبه ﷺ كطب الأطباء ، فإن طب النبى ﷺ متيقن قطعى إلهى ، صادر عن الوحى ، ومشكاة النبوة ، وكمال العقل ، وطب غيره ، أكثره حدس وظنون ، وتجارب ، ولا ينكر عدم انتفاع كثير من المرضى بطب النبوة ، فإنه إنما ينتفع به من تلقاه بالقبول ،

---

(١) ابن ماجه (٣٤٥٢) فى الطب ، باب : العسل ، وفى الزوائد « إسناده لين ، ومع ذلك فهو منقطع ، قال البخارى : لم نعرف لعبد الحميد سماعًا من أبى هريرة » .

(٢) ابن ماجه (٣٤٥٢) فى الطب ، باب : العسل ، وفى الزوائد : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » .

واعتقاد الشفاء به ، وكمال التلقى له بالإيمان والإذعان ، فهذا القرآن الذى هو شفاء لما فى الصدور ـ إن لم يتلق هذا التلقى ـ لم يحصل به شفاء الصدور من أدوائها ، بل لا يزيد المنافقين إلا رجسًا إلى رجسهم ، ومرضًا إلى مرضهم ، وأين يقع طب الأبدان منه ، فطب النبوة لا يناسب إلا الأبدان الطيبة ، كما أن شفاء القرآن لا يناسب إلا الأرواح الطيبة والقلوب الحية ، فإعراض الناس عن طب النبوة كإعراضهم عن الاستشفاء بالقرآن الذى هو الشفاء النافع ، وليس ذلك لقصور فى الدواء ، ولكن لخبث الطبيعة ، وفساد المحل ، وعدم قبوله ، والله الموفق .

وقد اختلف الناس فى قوله تعالى : ﴿ **يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ** ﴾ [ النحل : ٦٩] ، هل الضمير فى « فيه » راجع إلى الشراب ، أو راجع إلى القرآن ؟ على قولين : الصحيح : رجوعه إلى الشراب ، وهو قول ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والأكثرين ، فإنه هو المذكور ، والكلام سيق لأجله ، ولا ذكر للقرآن فى الآية ، وهذا الحديث الصحيح وهو قوله : « صدق الله » كالصريح فيه ، والله تعالى أعلم (١) .

## فصل

## فى هديه ﷺ فى الطاعون ، وعلاجه ، والاحتراز منه

فى « الصحيحين » عن عامر بن سعد بن أبى وقاص ، عن أبيه ، أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد : ماذا سمعت من رسول الله ﷺ فى الطاعون ؟ فقال أسامة : قال رسول الله ﷺ : « الطاعون رجز أرسل على طائفة من بنى إسرائيل ، وعلى من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به بأرض ، فلا تدخلوا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا منها فرارًا منه » (٢) .

وفى « الصحيحين » أيضًا : عن حفصة بنت سيرين ، قالت : قال أنس بن مالك : قال رسول الله ﷺ : « الطاعون شهادة لكل مسلم » (٣) .

الطاعون من حيث اللغة : نوع من الوباء ، قاله صاحب « الصحاح » ، وهو عند أهل

---

(١) زاد المعاد ( ٣٢ ـ ٣٦ ) .

(٢) البخارى (٣٤٧٣) فى الأنبياء ، باب ( ٥٤) ، ومسلم (٢٢١٨/ ٩٢) فى السلام ، باب : الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها .

(٣) البخارى (٥٧٣٢) فى الطب ، باب : ما يذكر فى الطاعون ، ومسلم (١٩١٦ / ١٦٦) فى الإمارة ، باب : بيان الشهداء .

الطب : ورم رديء قتال يخرج معه تلهب شديد مؤلم جدًا يتجاوز المقدار فى ذلك ، ويصير ما حوله فى الأكثر أسود أو أخضر ، أو أكمد ، ويؤول أمره إلى التقرح سريعًا ، وفى الأكثر ، يحدث فى ثلاثة مواضع : فى الإبط ، وخلف الأذن ، والأرنبة ، وفى اللحوم الرخوة .

وفى أثر عن عائشة أنها قالت للنبى ﷺ :الطعن قد عرفناه ،فما الطاعون ؟ قال:« غدة كغدة البعير يخرج فى المراق والإبط » (١).

قال الأطباء: إذا وقع الخراج فى اللحوم الرخوة ، والمغابن ، وخلف الأذن والأرنبة ، وكان من جنس فاسد ، سمى طاعونًا ، وسببه دم رديء مائل إلى العفونة والفساد ، مستحيل إلى جوهر سمى ، يفسد العضو ويغير ما يليه ، وربما رشح دما وصديدًا ، ويؤدى إلى القلب كيفية رديئة ، فيحدث القيء والخفقان والغشى ، وهذا الاسم وإن كان يعم كل ورم يؤدى إلى القلب كيفية رديئة حتى يصير لذلك قتالاً ؛ فإنه يختص به الحادث فى اللحم الغددى ، لأنه لرداءته لا يقبله من الأعضاء إلا ما كان أضعف بالطبع ، وأردؤه ما حدث فى الإبط وخلف الأذن لقربهما من الأعضاء التى هى أرأس ، وأسلمه الأحمر ، ثم الأصفر ، والذى إلى السواد ، فلا يفلت منه أحد .

ولما كان الطاعون يكثر فى الوباء ، وفى البلاد الوبيئة ، عبر عنه بالوباء ، كما قال الخليل : الوباء : الطاعون ، وقيل : هو كل مرض يعم ، والتحقيق أن بين الوباء والطاعون عمومًا وخصوصًا ، فكل طاعون وباء ، وليس كل وباء طاعونًا ، وكذلك الأمراض العامة أعم من الطاعون ، فإنه واحد منها ، والطواعين خراجات وقروح وأورام رديئة حادثة فى المواضع المتقدم ذكرها .

قلت : هذه القروح ، والأورام ، والجراحات ، هى آثار الطاعون ،وليست نفسه ، ولكن الأطباء لما لم تدرك منه إلا الأثر الظاهر ، جعلوه نفس الطاعون .

والطاعون يعبر به عن ثلاثة أمور :

**أحدها** :هذا الأثر الظاهر ، وهو الذى ذكره الأطباء .

**والثانى** : الموت الحادث عنه ، وهو المراد بالحديث الصحيح فى قوله : « الطاعون شهادة لكل مسلم » .

**والثالث** : السبب الفاعل لهذا الداء ، وقد ورد فى الحديث الصحيح : « أنه بقية رجز

(١) أحمد (٦ / ١٤٥) .

أرسل على بنى إسرائيل »[(١)] ، وورد فيه « أنه وخز الجن » ، وجاء أنه دعوة نبى .

وهذه العلل والأسباب ليس عند الأطباء ما يدفعها ، كما ليس عندهم ما يدل عليها ، والرسل تخبر بالأمور الغائبة ، وهذه الآثار التى أدركوها من أمر الطاعون ليس معهم ما ينفى أن تكون بتوسط الأرواح ، فإن تأثير الأرواح فى الطبيعة وأمراضها وهلاكها أمر لا ينكره إلا من هو أجهل الناس بالأرواح وتأثيراتها ، وانفعال الأجسام وطبائعها عنها ، والله سبحانه قد جعل لهذه الأرواح تصرفًا فى أجسام بنى آدم عند حدوث الوباء ،وفساد الهواء ، كما يجعل لها تصرفًا عند بعض المواد الرديئة التى تحدث للنفوس هيئة رديئة ، ولا سيما عند هيجان الدم ، والمرة السوداء ، وعند هيجان المنى ، فإن الأرواح الشيطانية تتمكن من فعلها بصاحب هذه العوارض ما لا تتمكن من غيره ، ما لم يدفعها دافع أقوى من هذه الأسباب من الذكر ،والدعاء ، والابتهال والتضرع ، والصدقة ، وقراءة القرآن ، فإنه يستنزل بذلك من الأرواح الملكية ما يقهر هذه الأرواح الخبيثة ، ويبطل شرها ويدفع تأثيرها ، وقد جربنا نحن وغيرنا هذا مراراً لا يحصيها إلا الله، ورأينا لاستنزال هذه الأرواح الطيبة واستجلاب قربها تأثيراً عظيمًا فى تقوية الطبيعة ، ودفع المواد الرديئة ، وهذا يكون قبل استحكامها وتمكنها ، ولا يكاد ينخرم ، فمن وفقه الله ، بادر عند إحساسه بأسباب الشر إلى هذه الأسباب التى تدفعها عنه ، وهى له من أنفع الدواء ، وإذا أراد الله عز وجل إنفاذ قضائه وقدره ، أغفل قلب العبد عن معرفتها وتصورها وإرادتها ، فلا يشعر بها ، ولا يريدها ، ليقضى الله فيه أمرا كان مفعولاً .

وسنزيد هذا المعنى ـ إن شاء الله تعالى ـ إيضاحًا وبيانًا عند الكلام على التداوى بالرقى ، والعوذ النبوية ، والأذكار ، والدعوات ، وفعل الخيرات ، ونبين أن نسبة طب الأطباء إلى هذا الطب النبوى ، كنسبة طب الطرقية والعجائز إلى طبهم ، كما اعترف به حذاقهم وأئمتهم ، ونبين أن الطبيعة الإنسانية أشد شىء انفعالاً عن الأرواح ، وأن قوى العوذ ، والرقى ، والدعوات ، فوق قوى الأدوية ، حتى إنها تبطل قوى السموم القاتلة .

والمقصود : أن فساد الهواء جزء من أجزاء السبب التام ، والعلة الفاعلة للطاعون ، فإن فساد جوهر الهواء الموجب لحدوث الوباء وفساده ،يكون لاستحالة جوهره إلى الرداءة ، لغلبة إحدى الكيفيات الرديئة عليه ، كالعفونة ، والنتن والسمية فى أى وقت كان من أوقات السنة ، وإن كان أكثر حدوثه فى أواخر الصيف، وفى الخريف غالبًا لكثرة اجتماع

---

(١) مسلم (٢٢١٨ / ٩٧) فى السلام ، باب : الطاعون والطيرة والكهانة ، وأحمد (٤ / ٣٩٥) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ٣١٤ ، ٣١٥) : « رواه أحمد بأسانيد ، ورجال بعضها رجال الصحيح » .

الفضلات المرارية الحادة وغيرها فى فصل الصيف، وعدم تحللها فى آخره ، وفى الخريف لبرد الجو ، وردغة الأبخرة والفضلات التى كانت تتحلل فى زمن الصيف ، فتنحصر ، فتسخن، وتعفن ، فتحدث الأمراض العفنة ، ولا سيما إذا صادفت البدن مستعدًا ، قابلاً ، رهلاً ، قليل الحركة ، كثير المواد ، فهذا لا يكاد يفلت من العطب .

وأصح الفصول فيه فصل الربيع ، قال بقراط : إن فى الخريف أشد ما تكون من الأمراض ، وأقتل ، وأما الربيع ، فأصح الأوقات كلها وأقلها موتًا ، وقد جرت عادة الصيادلة ، ومجهزى الموتى أنهم يستدينون ، ويتسلفون فى الربيع والصيف على فصل الخريف ، فهو ربيعهم ، وهم أشوق شىء إليه ، وأفرح بقدومه ، وقد روى فى حديث : « إذا طلع النجم ارتفعت العاهة عن كل بلد »(١) ، وفسر بطلوع الثريا ، وفسر بطلوع النبات زمن الربيع ، ومنه ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ ﴾ [ الرحمن ] فإن كمال طلوعه وتمامه يكون فى فصل الربيع ، وهو الفصل الذى ترتفع فيه الآفات .

وأما الثريا ، فالأمراض تكثر وقت طلوعها مع الفجر وسقوطها .

قال التميمى فى كتاب « مادة البقاء » : أشد أوقات السنة فسادًا ، وأعظمها بلية على الأجساد وقتان ، أحدهما : وقت سقوط الثريا للمغيب عند طلوع الفجر ، والثانى : وقت طلوعها من المشرق قبل طلوع الشمس على العالم ، بمنزلة من منازل القمر ، وهو وقت تصرم فصل الربيع وانقضائه ، غير أن الفساد الكائن عند طلوعها أقل ضررًا من الفساد الكائن عند سقوطها .

وقال أبو محمد بن قتيبة : يقال : ما طلعت الثريا ، ولا نأت إلا بعاهة فى الناس والإبل ، وغروبها أعوه من طلوعها .

وفى الحديث قول ثالث ـ ولعله أولى الأقوال به ـ أن المراد بالنجم: الثريا، وبالعاهة : الآفة التى تلحق الزروع والثمار فى فصل الشتاء وصدر فصل الربيع ، فحصل الأمن عليها عند طلوع الثريا فى الوقت المذكور ، ولذلك نهى ﷺ عن بيع الثمرة وشرائها قبل أن يبدو صلاحها . والمقصود : الكلام على هديه ﷺ عند وقوع الطاعون .

وقد جمع النبى ﷺ للأمة فى نهيه عن الدخول إلى الأرض التى هو بها ، ونهيه عن الخروج منها بعد وقوعه كمال التحرز منه ، فإن فى الدخول فى الأرض التى هو بها تعرضًا

---

(١) أحمد (٢ / ٣٤١) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤ /١٠٦) : « فيه عسل بن سفيان ، وثقه ابن حبان وقال : يخطئ ويخالف ، وضعفه جماعة ، وبقية رجاله رجال الصحيح » ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٨٤٧٦):« إسناده ضعيف » .

للبلاء ، وموافاة له فى محل سلطانه ، وإعانة للإنسان على نفسه ، وهذا مخالف للشرع والعقل ، بل تجنب الدخول إلى أرضه من باب الحمية التى أرشد الله سبحانه إليها ، وهى حمية عن الأمكنة ، والأهوية المؤذية .

وأما نهيه عن الخروج من بلده ، ففيه معنيان :

**أحدهما** : حمل النفوس على الثقة بالله ، والتوكل عليه ، والصبر على أقضيته، والرضى بها .

**والثانى** : ما قاله أئمة الطب : أنه يجب على كل محترز من الوباء أن يخرج عن بدنه الرطوبات الفضلية ، ويقلل الغذاء ، ويميل إلى التدبير المجفف من كل وجه إلا الرياضة والحمام ، فإنهما مما يجب أن يحذرا ، لأن البدن لا يخلو غالبًا من فضل ردىء كامن فيه ، فتثيره الرياضة والحمام ، ويخلطانه بالكيموس الجيد ، وذلك يجلب علة عظيمة ، بل يجب عند وقوع الطعاون السكون والدعة ، وتسكين هيجان الأخلاط ، ولا يمكن الخروج من أرض الوباء والسفر منها إلا بحركة شديدة ، وهى مضرة جدًا ، هذا كلام أفضل الأطباء المتأخرين ، فظهر المعنى الطبى من الحديث النبوى ، وما فيه من علاج القلب والبدن وصلاحهما .

فإن قيل : ففى قول النبى ﷺ : « لا تخرجوا فرارًا منه » ، ما يبطل أن يكون أراد هذا المعنى الذى ذكرتموه ، وأنه لا يمنع الخروج لعارض ، ولا يحبس مسافرًا عن سفره ؟ قيل : لم يقل أحد ، طبيب ولا غيره : إن الناس يتركون حركاتهم عند الطواعين ، ويصيرون بمنزلة الجمادات ، وإنما ينبغى فيه التقلل من الحركة بحسب الإمكان ، والفار منه لا موجب لحركته إلا مجرد الفرار منه ، ودعته وسكونه أنفع لقلبه وبدنه ، وأقرب إلى توكله على الله تعالى ، واستسلامه لقضائه ، وأما من لا يستغنى عن الحركة ، كالصناع ، والأجراء ، والمسافرين ، والبرد ، وغيرهم ، فلا يقال لهم : اتركوا حركاتكم جملة ، وإن أمروا أن يتركوا منها ما لا حاجة لهم إليه ، كحركة المسافر فارًا منه والله تعالى أعلم .

وفى المنع من الدخول إلى الأرض التى قد وقع بها عدة حكم :

**أحدها** : تجنب الأسباب المؤدية ، والبعد منها .

**الثانى** : الأخذ بالعافية التى هى مادة المعاش والمعاد .

**الثالث** : أن لا يستنشقوا الهواء الذى قد عفن وفسد فيمرضون .

**الرابع** : أن لا يجاوروا المرضى الذين قد مرضوا بذلك ، فيحصل لهم بمجاورتهم من

جنس أمراضهم .

وفى « سنن أبى داود » مرفوعًا : « إن من القرف التلف » (١) .

قال ابن قتيبة : القرف مداناة الوباء ، ومداناة المرضى .

**الخامس** : حمية النفوس عن الطيرة والعدوى ، فإنها تتأثر بهما ، فإن الطيرة على من تطير بها ، وبالجملة ففى النهى عن الدخول فى أرضه الأمر بالحذر والحمية ، والنهى عن التعرض لأسباب التلف ،وفى النهى عن الفرار منه الأمر بالتوكل ، والتسليم ، والتفويض ، فالأول : تأديب وتعليم ، والثانى : تفويض وتسليم .

وفى الصحيح: أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام،حتى إذا كان بسرغ،لقيه أبو عبيدة ابن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام ، فاختلفوا ، فقال لابن عباس : ادع لى المهاجرين الأولين ، قال : فدعوتهم ، فاستشارهم ، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام ، فاختلفوا ، فقال له بعضهم : خرجت لأمر ، فلا نرى أن ترجع عنه ، وقال آخرون : معك بقية الناس ، وأصحاب رسول الله ﷺ ، فلا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال عمر: ارتفعوا عنى ، ثم قال : ادع لى الأنصار ، فدعوتهم له ، فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين ، واختلفوا كاختلافهم ، فقال : ارتفعوا عنى ، ثم قال : ادع لى من هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم له ، فلم يختلف عليه منهم رجلان ، قالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء ، فأذن عمر فى الناس إنى مصبح على ظهر ، فأصبحوا عليه ، فقال أبو عبيدة بن الجراح ، يا أمير المؤمنين ، أفرارًا من قدر الله تعالى ؟ قال : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفر من قدر الله تعالى إلى قدر الله تعالى ، أرأيت لو كان لك إبل فهبطت واديًا له عدوتان ، إحداهما خصبة ، والأخرى جدبة ،ألست إن رعيتها الخصبة رعيتها بقدر الله تعالى،وإن رعيتها الجدبة رعيتها بقدر الله تعالى ؟ قال :فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبًا فى بعض حاجاته ، فقال : إن عندى فى هذا علمًا ، سمعت من رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا فرارًا منه ، وإذا سمعتم به بأرضٍ فلا تقدموا عليه » (٢) (٣) .

---

(١) أبو داود (٣٩٢٣) فى الطب ، باب : فى الطيرة ، وضعفه الألبانى .

(٢) مسلم (٢٢١٩ / ٩٨) فى السلام ، باب : الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها .

(٣) زاد المعاد ( ٤ / ٣٦ ـ ٤٥ ) .

## فصل

## في هديه ﷺ في داء الاستسقاء وعلاجه

في « الصحيحين » : من حديث أنس بن مالك ، قال : « قدم رهط من عرينة وعكل على النبي ﷺ فاجتووا الدنية ، فشكوا إلى النبي ﷺ فقال : « لو خرجتم إلى إبل الصدقة فشربتم من أبوالها وألبانها ، ففعلوا ، فلما صحوا ، عمدوا إلى الرعاة فقتلوهم ، واستاقوا الإبل ،وحاربوا الله ورسوله،فبعث رسول الله ﷺ في آثارهم ،فأخذوا ، فقطع أيديهم ، وأرجلهم ، وسمل أعينهم ، ألقاهم في الشمس حتى ماتوا » (١) .

والدليل على أن هذا المرض كان الاستسقاء ، ما رواه مسلم في « صحيحه » في هذا الحديث أنهم قالوا : إنا اجتوينا المدينة ، فعظمت بطوننا ، وارتهشت أعضاؤنا ، وذكر تمام الحديث .

والجوى : داء من أدواء الجوف ، والاستقساء : مرض مادي سببه مادة غريبة باردة تتخلل الأعضاء فتربو لها إما الأعضاء الظاهرة كلها ، وإما المواضع الخالية من النواحي التي فيها تدبير الغذاء والأخلاط ، وأقسامه ثلاثة : لحمي ، وهو أصعبها ، وزقي ، وطبلي .

ولما كانت الأدوية المحتاج إليها في علاجه هي الأدوية الجالبة التي فيها إطلاق معتدل ، وإدرار بحسب الحاجة ، وهذه الأمور موجودة في أبوال الإبل وألبانها ، أمرهم النبي ﷺ بشربها ، فإن في لبن اللقاح جلاءً وتليينًا ، وإدرارًا وتلطيفًا ، وتفتيحًا للسدد ، إذ كان أكثر رعيها الشيح ، والقيصوم ، والبابونج ، والأقحوان ، والإذخر ، وغير ذلك من الأدوية النافعة للاستسقاء .

وهذا المرض لا يكون إلا مع آفة في الكبد خاصة ، أو مع مشاركة ، وأكثرها عن السدد فيها ، ولبن اللقاح العربية نافع من السدد لما فيه من التفتيح ، والمنافع المذكورة .

قال الرازي : لبن اللقاح يشفي أوجاع الكبد ، وفساد المزاج . وقال الإسرائيلي : لبن اللقاح أرق الألبان ، وأكثرها مائية وحدة ، وأقلها غذاء ، فلذلك صار أقواها على تلطيف الفضول ، وإطلاق البطن ، وتفتيح السدد ، ويدل على ذلك ملوحته اليسيرة التي فيه لإفراط حرارة حيوانية بالطبع ، ولذلك صار أخص الألبان بتطرية الكبد ، وتفتيح سددها ،

---

(١) البخاري (٦٨٠٢) في الحدود ، باب : المحاربين من أهل الكفر والردة ، ومسلم (١٦٧١ / ٩) في القسامة ، باب : حكم المحاربين والمرتدين .

وتحليل صلابة الطحال إذا كان حديثًا ، والنفع من الاستسقاء خاصة إذا استعمل لحرارته التى يخرج بها من الضرع مع بول الفصيل ، وهو حار كما يخرج من الحيوان ، فإن ذلك مما يزيد فى ملوحته ، وتقطيعه الفضول ، وإطلاقه البطن ، فإن تعذر انحداره وإطلاقه البطن ، وجب أن يطلق بدواء مسهل .

قال صاحب القانون : ولا يلتفت إلى ما يقال : من أن طبيعة اللبن مضادة لعلاج الاستسقاء . قال : واعلم أن لبن النوق دواء نافع لما فيه من الجلاء برفق ، وما فيه من خاصية ، وأن هذا اللبن شديد المنفعة ، فلو أن إنسانًا أقام عليه بدل الماء والطعام شفى به ، وقد جرب ذلك فى قوم دفعوا إلى بلاد العرب ، فقادتهم الضرورة إلى ذلك فعوفوا ، وأنفع الأبوال : بول الجمل الأعرابى ، وهو النجيب ، انتهى .

وفى القصة : دليل على التداوى والتطبب ، وعلى طهارة بول مأكول اللحم ، فإن التداوى بالمحرمات غير جائز ، ولم يؤمروا مع قرب عهده بالإسلام بغسل أفواههم ، وما أصابته ثيابهم من أبوالها للصلاة ، وتأخير البيان لا يجوز عن وقت الحاجة .

وعلى مقاتلة الجانى بمثل ما فعل ، فإن هؤلاء قتلوا الراعى ،وسملوا عينيه ، ثبت ذلك فى « صحيح مسلم » .

وعلى قتل الجماعة ، وأخذ أطرافهم بالواحد .

وعلى أنه إذا اجتمع فى حق الجانى حد وقصاص استوفيا معًا ، فإن النبى ﷺ قطع أيديهم وأرجلهم حدًا لله على حرابهم ، وقتلهم لقتلهم الراعى .

وعلى أن المحارب إذا أخذ المال ، وقتل ، قطعت يده ورجله فى مقام واحد وقتل .

وعلى أن الجنايات إذا تعددت تغلظت عقوباتها ، فإن هؤلاء ارتدوا بعد إسلامهم ، وقتلوا النفس ، ومثلوا بالمقتول ، وأخذوا المال ، وجاهروا بالمحاربة .

وعلى أن حكم ردء المحاربين حكم مباشرهم ، فإنه من المعلوم أن كل واحد منهم لم يباشر القتل بنفسه ، ولا سأل النبى ﷺ عن ذلك .

وعلى أن قتل الغيلة يوجب قتل القاتل حدًا فلا يسقطه العفو،ولا تعتبر فيه المكافأة ، وهذا مذهب أهل المدينة ، وأحد الوجهين فى مذهب أحمد ، اختاره شيخنا ، وأفتى به .

## فصل
## فى هديه فى علاج الجرح

فى « الصحيحين » : عن أبى حازم ، أنه سمع سهل بن سعد يسأل عما دووى به جرح رسول الله ﷺ يوم أحد ، فقال : « جرح وجهه ، وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة على رأسه ، وكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم ، وكان على بن أبى طالب يسكب عليها بالمجن ، فلما رأت فاطمة الدم لا يزيد إلا كثرة ، أخذت قطعة حصير ، فأحرقتها حتى إذا صارت رماداً ألصقته بالجرح فاستمسك الدم » (١) ، برماد الحصير المعمول من البردى ، وله فعل قوى فى حبس الدم ؛ لأن فيه تجفيفًا قويًا ، وقلة لذع ، فإن الأدوية القوية التجفيف إذا كان فيها لذع هيجت الدم وجلبته ،وهذا الرماد إذا نفخ وحده ، أو مع الخل فى أنف الراعف قطع رعافه .

وقال صاحب القانون: البردى ينفع من النزف ويمنعه ، ويذر على الجراحات الطرية أكلة الفم ، ويحبس نفث الدم ، ويمنع القروح الخبيثة أن تسعى (٢) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى علاج الصرع

أخرجا فى « الصحيحين » من حديث عطاء بن أبى رباح ، قال : قال ابن عِباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ قلت : بلى . قال : هذه المرأة السوداء ، أتت النبى ﷺ فقالت : إنى أصرع ، وإنى أتكشف ، فادع الله لى ، فقال : « إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله لك أن يعافيك »، فقالت : أصبر . قالت : فإنى أتكشف ، فادع الله ألا أتكشف ، فدعا لها » (٣) .

قلت: الصرع صرعان: صرع من الأرواح الخبيثة الأرضية ،صرع من الأخلاط الرديئة .

---

(١) البخارى (٢٩١١) فى الجهاد ، باب : لبس البيضة ، ومسلم (١٧٩٠ / ١٠١) فى الجهاد والسير ، باب غزوة أحد .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٤٦ ـ ٥٠) .

(٣) البخارى (٥٦٥٢) فى المرضى ، باب : فضل من يصرع من الريح ، ومسلم (٢٥٧٧ / ٥٥) فى البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم .

والثانى : هو الذى يتكلم فيه الأطباء فى سببه وعلاجه .

وأما صرع الأرواح ، فأئمتهم وعقلاؤهم يعترفون به ، ولا يدفعونه ، ويعترفون بأن علاجه بمقابلة الأرواح الشريفة الخيرة العلوية لتلك الأرواح الشريرة الخبيثة فتدافع آثارها ، وتعارض أفعالها وتبطلها ، وقد نص على ذلك بقراط فى بعض كتبه ، فذكر بعض علاج الصرع ، وقال : هذا إنما ينفع من الصرع الذى سببه الأخلاط والمادة ، وأما الصرع الذى يكون من الأرواح ، فلا ينفع فيه هذا العلاج .

وأما جهلة الأطباء وسقطهم وسفلتهم ، ومن يعتقد بالزندقة فضيلة ، فأولئك ينكرون صرع الأرواح ، ولا يقرون بأنها تؤثر فى بدن المصروع ، وليس معهم إلا الجهل ، وإلا فليس فى الصناعة الطبية ما يدفع ذلك ، والحس والوجود شاهد به ، وإحالتهم ذلك على غلبة بعض الأخلاط ، هو صادق فى بعض أقسامه لا فى كلها .

وقدماء الأطباء كانوا يسمون هذا الصرع : المرض الإلهى ، وقالوا : إنه من الأرواح ، وأما جالينوس وغيره ، فتأولوا عليهم هذه التسمية ، وقالوا : إنما سموه بالمرض الإلهى لكون هذه العلة تحدث فى الرأس ، فتضر بالجزء الإلهى الطاهر الذى مسكنه الدماغ .

وهذا التأويل نشأ لهم من جهلهم بهذه الأرواح وأحكامها ، وتأثيراتها ، وجاءت زنادقة الأطباء فلم يثبتوا إلا صرع الأخلاط وحده .

ومن له عقل ومعرفة بهذه الأرواح وتأثيراتها يضحك من جهل هؤلاء وضعف عقولهم.

وعلاج هذا النوع يكون بأمرين :

أمر من جهة المصروع ، وأمر من جهة المعالج ، فالذى من جهة المصروع يكون بقوة نفسه ، وصدق توجهه إلى فاطر هذه الأرواح وبارئها ، والتعوذ الصحيح الذى قد تواطأ عليه القلب واللسان ، فإن هذا نوع محاربة ، والمحارب لا يتم له الانتصاف من عدوه بالسلاح إلا بأمرين : أن يكون السلاح صحيحًا فى نفسه جيدًا ، وأن يكون الساعد قويًا ، فمتى تخلف أحدهما لم يغن السلاح كثير طائل ، فكيف إذا عدم الأمران جميعًا : يكون القلب خرابًا من التوحيد ، والتوكل ، والتقوى ، والتوجه ، ولا سلاح له .

**والثانى** : من جهة المعالج ، بأن يكون فيه هذان الأمران أيضًا ، حتى إن من المعالجين من يكتفى بقوله : « اخرج منه » ، أو بقول : « بسم الله » ، أو بقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، والنبى ﷺ كان يقول : « اخرج عدو الله أنا رسول الله » (١) .

---

(١) ابن ماجه (٣٥٤٨) فى الطب ، باب : الفزع والأرق وما يتعوذ منه ، وفى الزوائد : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات . . . » .

وشاهدت شيخنا يرسل إلى المصروع من يخاطب الروح التى فيه ، ويقول : قال لك الشيخ : اخرجى ، فإن هذا لا يحل لك ، فيفيق المصروع ، وربما خاطبها بنفسه ، وربما كانت الروح ماردة فيخرجها بالضرب ، فيفيق المصروع ولا يحس بألم ، وقد شاهدنا نحن وغيرنا منه ذلك مراراً .

وكان كثيرًا ما يقرأ فى أذن المصروع : ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)** ﴾ [ المؤمنون : ١١٥] .

وحدثنى أنه قرأها مرة فى أذن المصروع ، فقالت الروح: نعم ،ومد بها صوته .قال : فأخذت له عصا ، وضربته بها فى عروق عنقه حتى كلت يداى من الضرب ، ولم يشك الحاضرون أنه يموت لذلك الضرب . ففى أثناء الضرب قالت : أنا أحبه ، فقلت لها : هو لا يحبك ، قالت :أنا أريد أن أحج به ، فقلت لها : هو لا يريد أن يحج معك ، فقالت : أنا أدعه كرامة لك ، قال : قلت : لا ولكن طاعة لله ولرسوله ، قالت : فأنا أخرج منه ، قال: فقعد المصروع يلتفت يمينًا وشمالاً ، وقال : ما جاء بى إلى حضرة الشيخ ، قالوا له : وهذا الضرب كله فقال : وعلى أى شىء يضربنى الشيخ ولم أذنب ، ولم يشعر بأنه وقع به ضرب البتة .

وكان يعالج بآية الكرسى ، وكان يأمر بكثرة قراءتها المصروع ومن يعالجه بها ، وبقراءة المعوذتين .

وبالجملة فهذا النوع من الصرع ، وعلاجه لا ينكره إلا قليل الحظ من العلم والعقل والمعرفة ، وأكثر تسلط الأرواح الخبيثة على أهله تكون من جهة قلة دينهم ، وخراب قلوبهم وألسنتهم من حقائق الذكر ، والتعاويذ ، والتحصنات النبوية والإيمانية ، فتلقى الروح الخبيثة الرجل أعزل لا سلاح معه ، وربما كان عريانًا فيؤثر فيه هذا .

ولو كشف الغطاء ، لرأيت أكثر النفوس البشرية صرعى هذه الأرواح الخبيثة ، وهى فى أسرها وقبضتها تسوقها حيث شاءت ، ولا يمكنها الامتناع عنها ولا مخالفتها ، وبها الصرع الأعظم الذى لا يفيق صاحبه إلا عند المفارقة والمعاينة ، فهناك يتحقق أنه كان هو المصروع حقيقة ، وبالله المستعان .

وعلاج هذا الصرع باقتران العقل الصحيح إلى الإيمان بما جاءت به الرسل ، وأن تكون الجنة والنار نصب عينيه وقبله قلبه،ويستحضر أهل الدنيا ، وحلول المثلات والآفات بهم ، ووقوعها خلال ديارهم كمواقع القطر،وهم صرعى لا يفيقون ، وما أشد داء هذا الصرع ،

ولكن لما عمت البلية به بحيث لا يرى إلا مصروعًا ، لم يصر مستغربًا ولا مستنكرًا ، بل صار لكثرة المصروعين عين المستنكر المستغرب خلافه .

فإذا أراد الله بعبد خيرًا أفاق من هذه الصرعة ، ونظر إلى أبناء الدنيا مصروعين حوله يمينًا وشمالاً على اختلاف طبقاتهم ، فمنهم من أطبق به الجنون ، ومنهم من يفيق أحيانًا قليلة ، ويعود إلى جنونه ، ومنهم من يفيق مرة ، ويجن أخرى ، فإذا أفاق عمل عمل أهل الإفاقة والعقل ، ثم يعاوده الصرع فيقع فى التخبط .

وأما صرع الأخلاط ، فهو علة تمنع الأعضاء النفسية عن الأفعال والحركة والانتصاب منعًا غير تام ، وسببه خلط غليظ لزج يسد منافذ بطون الدماغ سدة غير تامة ، فيمتنع نفوذ الحس والحركة فيه وفى الأعضاء نفوذًا تامًا من غير انقطاع بالكلية ، وقد تكون لأسباب أخر كريح غليظ يحتبس فى منافذ الروح ، أو بخار ردىء يرتفع إليه من بعض الأعضاء ، أو كيفية لاذعة ، فينقبض الدماغ لدفع المؤذى ، فيتبعه تشنج فى جميع الأعضاء ، ولا يمكن أن يبقى الإنسان معه منتصبًا بل يسقط ، ويظهر فى فيه الزبد غالبًا .

وهذه العلة تعد من جملة الأمراض الحادة باعتبار وقت وجوده المؤلم خاصة ، وقد تعد من جملة الأمراض المزمنة باعتبار طول مكثها ، وعسر برئها لا سيما إن تجاوز فى السن خمسًا وعشرين سنة ، وهذه العلة فى دماغه ، وخاصة فى جوهره ، فإن صرع هؤلاء يكون لازمًا .قال أبقراط : إن الصرع يبقى فى هؤلاء حتى يموتوا .

إذا عرف هذا ، فهذه المرأة التى جاء الحديث أنها كانت تصرع وتتكشف ، يجوز أن يكون صرعها من هذا النوع ، فوعدها النبى ﷺ الجنة بصبرها على هذا المرض ، ودعا لها ألا تتكشف ، وخيرها بين الصبر والجنة ، وبين الدعاء لها بالشفاء من غير ضمان ، فاختارت الصبر والجنة .

وفى ذلك دليل على جواز ترك المعالجة والتداوى ، وأن علاج الأرواح بالدعوات والتوجه إلى الله يفعل ما لا يناله علاج الأطباء ، وأن تأثيره وفعله ، وتأثر الطبيعة عنه وانفعالها أعظم من تأثير الأدوية البدنية ، وانفعال الطبيعة عنها ، وقد جربنا هذا مرارًا نحن وغيرنا ، وعقلاء الأطباء معترفون بأن لفعل القوى النفسية ، وانفعالاتها فى شفاء الأمراض عجائب ، وما على الصناعة الطبية أضر من زنادقة القوم ، وسفلتهم ، وجهالهم .
والظاهر : أن صرع هذه المرأة كان من هذا النوع ، ويجوز أن يكون من جهة الأرواح ، ويكون رسول الله ﷺ قد خيرها بين الصبر على ذلك مع الجنة ، وبين الدعاء لها بالشفاء ، فاختارت الصبر والستر ، والله أعلم (١) .

(١) زاد المعاد ( ٤ / ٦٦ ـ ٧١ ) .

# فصل
# في هديه ﷺ في علاج عرق النسا

روى ابن ماجه في « سننه » من حديث محمد بن سيرين،عن أنس بن مالك ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « دواء عرق النسا ألية شاة أعرابية تذاب ، ثم تجزأ ثلاثة أجزاء ، ثم يشرب على الريق في كل يوم جزء » (١) .

عرق النساء : وجع يبتدئ من مفصل الورك ، وينزل من خلف على الفخذ ، وربما على الكعب ، وكلما طالت مدته ، زاد نزوله ، وتهزل معه الرجل والفخذ ، وهذا الحديث فيه معنى لغوي ، ومعنى طبي . فأما المعنى اللغوي ، فدليل على جواز تسمية هذا المرض بعرق النسا خلافًا لمن منع هذه التسمية ، وقال : النسا هو العرق نفسه ، فيكون من باب إضافة الشيء إلى نفسه وهو ممتنع .

وجواب هذا القائل من وجهين :

**أحدهما** : أن العرق أعم من النسا ، فهو من باب إضافة العام إلى الخاص نحو : كل الدراهم أو بعضها .

**الثاني** : أن النسا : هو المرض الحال بالعرق ، والإضافة فيه من باب إضافة الشيء إلى محله وموضعه . قيل : وسمي بذلك لأن ألمه ينسى ما سواه ، وهذا العرق ممتد من مفصل الورك ، وينتهي إلى آخر القدم ، وراء الكعب من الجانب الوحشي فيما بين عظم الساق والوتر .

وأما المعنى الطبي فقد تقدم أن كلام رسول الله ﷺ نوعان :

**أحدهما** : عام بحسب الأزمان ، والأماكن ، والأشخاص ، والأحوال .

**والثاني** : خاص بحسب هذه الأمور أو بعضها ، وهذا من هذا القسم ، فإن هذا خطاب للعرب ، وأهل الحجاز ، ومن جاورهم ، ولا سيما أعراب البوادي ، فإن هذا العلاج من أنفع العلاج لهم ، فإن هذا المرض يحدث من يبس ، وقد يحد من مادة غليظة لزجة ، فعلاجها بالإسهال والألية الخاصيتان : الإنضاج ، والتليين ، ففيها الإنضاج ، والإخراج، وهذا المرض يحتاج علاجه إلى هذين الأمرين ، وفي تعيين الشاة الأعرابية لقلة

(١) ابن ماجه (٣٤٦٣) في الطب ، باب : دواء عرق النسا ، وفي الزوائد : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » .

فضولها ، وصغر مقدارها ، ولطف جوهرها ، وخاصية مرعاها لأنها ترعى أعشاب البر الحارة ، كالشيح ، والقيصوم ، ونحوهما ، وهذه النباتات إذا تغذى بها الحيوان ، صار فى لحمه من طبعها بعد أن يلطفها تغذيه بها ، ويكسبها مزاجًا ألطف منها ، ولا سيما الألية ، وظهور فعل هذه النباتات فى اللبن أقوى منه فى اللحم ، ولكن الخاصية التى فى الألية من الإنضاج والتليين لا توجد فى اللبن ، وهذا كما تقدم أن أدوية غالب الأمم والبوادى هى الأدوية المفردة ، وعليه أطباء الهند .

وأما الروم واليونان ، فيعتنون بالمركبة ، وهم متفقون كلهم على أن من مهارة الطبيب أن يداوى بالغذاء ، فإن عجز فبالمفرد ، فإن عجز فبما كان أقل تركيبًا .

وقد تقدم أن غالب عادات العرب وأهل البوادى الأمراض البسيطة ، فالأدوية البسيطة تناسبها ، وهذا لبساطة أغذيتهم فى الغالب ، وأما الأمراض المركبة فغالبًا ما تحدث عن تركيب الأغذية وتنوعها واختلافها فاختيرت لها الأدوية المركبة ، والله تعالى أعلم (١) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى علاج يبس الطبع ، واحتياجه إلى ما يمشيه ويلينه

روى الترمذى فى « جامعه » وابن ماجه فى « سننه » من حديث أسماء بنت عميس ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « بماذا كنت تستمشين » ؟ قالت : بالشبرم ، قال : « حار جار » قالت : استمشيت بالسنا ، فقال : « لو كان شىء يشفى من الموت لكان السنا » (٢) .

وفى « سنن ابن ماجه » عن إبراهيم بن أبى عبلة ، قال : سمعت عبد الله ابن أم حرام ، وكان قد صلى مع رسول الله ﷺ القبلتين يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عليكم بالسنا والسنوت ، فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام » ، قيل : يا رسول الله ! وما السام ؟ قال : « الموت » (٣) .

قوله : « بماذا كنت تستمشين » ؟ أى : تلينين الطبع حتى يمشى ، ولا يصير بمنزلة الواقف ، فيؤذى باحتباس النجو ، ولهذا سمى الدواء المسهل مشيًا على وزن فعيل ،

(١) زاد المعاد ( ٤ / ٧١ ـ ٧٣ ) .

(٢) الترمذى (٢٠٨١) فى الطب ، باب : ما جاء فى السنا ، وقال : « حسن غريب » ، وابن ماجه (٣٤٦١) فى الطب ، باب : دواء المشى ، وضعفه الألبانى .

(٣) ابن ماجه (٣٤٥٧) فى الطب ، باب : السنا والسنوت ، وفى الزوائد : « فى إسناده عمرو بن بكر السكسكى قال فيه ابن حبان : روى عن إبراهيم بن أبى عبلة الأوابد والطامات لا يحل الاحتجاج به ، لكن قال الحاكم : « إنه إسناد صحيح » .

وقيل : لأن المسهول يكثر المشى والاختلاف للحاجة وقد روى : « بماذا تستشفين » ؟ فقالت : بالشبرم ، وهو من جملة الأدوية اليتوعية ، وهو قشر عرق شجرة ، وهو حار يابس فى الدرجة الرابعة ، وأجوده المائل إلى الحمرة ، الخفيف الرقيق الذى يشبه الجلد الملفوف ، وبالجملة فهو من الأدوية التى أوصى الأطباء بترك استعمالها لخطرها ، وفرط إسهالها .

وقوله ﷺ : « حار جار » ويروى : « حار يار » ، قال أبو عبيد : وأكثر كلامهم بالياء . قلت : وفيه قولان :

**أحدهما** : أن الحار الجار ـ بالجيم : الشديد الإسهال ، فوصفه بالحرارة ، وشدة الإسهال وكذلك هو ، قاله أبو حنيفة الدينورى .

**والثانى** ـ وهو الصواب : أن هذا من الإتباع الذى يقصد به تأكيد الأول ، ويكون بين التأكيد اللفظى والمعنوى ،ولهذا يراعون فيه إتباعه فى أكثر حروفه ، كقولهم :حسن بسن ، أى : كامل الحسن ، وقولهم : حسن قسن بالقاف ، ومنه شيطان ليطان ، وحار جار ، مع أن فى الجار معنى آخر،وهو الذى يجر الشىء الذى يصيبه من شدة حرارته وجذبه له ، كأنه ينزعه ويسلخه . ويار : إما لغة فى جار ، كقولهم : صهرى وصهريج ، والصهارى والصهاريج ، وإما إتباع مستقل .

وأما السنا ، ففيه لغتان : المد والقصر ، وهو نبت حجازى أفضله المكى ، وهو دواء شريف مأمون الغائلة ، قريب من الاعتدال ، حار يابس فى الدرجة الأولى ، يسهل الصفراء والسوداء ، ويقوى جرم القلب ، وهذه فضيلة شريفة فيه ، وخاصيته النفع من الوسواس السوداوى ، ومن الشقاق العارض فى البدن ، ويفتح العضل وينفع من انتشار الشعر ، ومن القمل والصداع العتيق ، والجرب ، والبثور ، والحكة ، والصرع ، وشرب مائه مطبوخًا أصلح من شربه مدقوقًا ، ومقدار الشربة منه ثلاثة دراهم ، ومن مائة خمسة دراهم،وإن طبخ معه شىء من زهر البنفسج والزبيب الأحمر المنزوع العجم كان أصلح .

قال الرازى : السناء والشاهترج يسهلان الأخلاط المحترقة ، وينفعان من الجرب والحكة ، والشربة من كل واحد منهما من أربعة دراهم إلى سبعة دارهم .

وأما السنوت، ففيه ثمانية أقوال ؛ أحدها : أنه العسل. والثانى : أنه رب عكة السمن يخرج خططًا سوداء على السمن ، حكاهما عمرو بن بكر السكسكى . الثالث : أنه حب يشبه الكمون وليس به ، قاله ابن الأعرابى ، الرابع : أنه الكمون الكرمانى ، والخامس :

أنه الرازيانج ، حكاهما أبو حنيفة الدينورى عن بعض الأعراب . السادس : أنه الشبت . السابع : أنه التمر حكاهما أبو بكر بن السنى الحافظ . الثامن : أنه العسل الذى يكون فى زقاق السمن ، حكاه عبد اللطيف البغدادى ، قال بعض الأطباء : وهذا أجدر بالمعنى ، وأقرب إلى الصواب ، أى : يخلط السناء مدقوقًا بالعسل المخالط للسمن ، ثم يلعق فيكون أصلح من استعماله مفردًا لما فى العسل والسمن من إصلاح السنا ، وإعانته له على الإسهال . والله أعلم .

وقد روى الترمذى وغيره من حديث ابن عباس يرفعه : « إن خير ما تداويتم به السعوط واللدود والحجامة ، والمشى » (١) والمشى : هو الذى يمشى الطبع ويلينه ويسهل خروج الخارج (٢) .

## فصل

## فى هديه ﷺ فى علاج حكة الجسم وما يولد القمل

فى « الصحيحين » من حديث قتادة ، عن أنس بن مالك قال : رخص رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام رضي الله عنهما فى لبس الحرير لحكة كانت بهما .

وفى رواية : أن عبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام رضي الله عنهما ، شكوا القمل إلى النبى ﷺ فى غزاة لهما ، فرخص لهما فى قميص الحرير ، ورأيته عليهما » (٣) .

هذا الحديث يتعلق به أمران : أحدهما : فقهى ، والآخر طبى .

**فأما الفقهى** : فالذى استقرت عليه سنته ﷺ إباحة الحرير للنساء مطلقًا ، وتحريمه على الرجال إلا لحاجة ومصلحة راجحة ، فالحاجة إما من شدة البرد ، ولا يجد غيره ، أو لا يجد سترة سواه ومنها : لباسه للجرب ، والمرض ، والحكة وكثرة القمل كما دل عليه حديث أنس هذا الصحيح .

والجواز : أصح الروايتين عن الإمام أحمد ، وأصح قولى الشافعى ؛ إذ الأصل عدم التخصيص ، والرخصة إذا ثبتت فى حق بعض الأمة لمعنى تعدت إلى كل من وجد فيه ذلك المعنى ، إذ الحكم يعم بعموم سببه .

---

(١) الترمذى (٢٠٤٧) فى الطب ، باب :ما جاء فى السعوط وغيره ، وقال : « حسن غريب » ، وضعفه الألبانى .

(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٧٣ ـ ٧٦ ) .

(٣) البخارى (٢٩١٩ ـ ٢٩٢٢) فى الجهاد ، باب : الحرير فى الحرب ، ومسلم (٢٠٧٦ / ٢٤ ـ ٢٦) فى اللباس والزينة ، باب : إباحة لبس الحرير للرجل ، إذا كان به حكة أو نحوها .

ومن منع منه ، قال : أحاديث التحريم عامة ، وأحاديث الرخصة يحتمل اختصاصها بعبد الرحمن بن عوف والزبير ، ويحتمل تعديها إلى غيرهما وإذا احتمل الأمران ، كان الأخذ بالعموم أولى ، ولهذا قال بعض الرواة فى هذا الحديث : فلا أدرى أبلغت الرخصة من بعدهما ، أم لا ؟

والصحيح : عموم الرخصة ، فإنه عرف خطاب الشرع فى ذلك ما لم يصرح بالتخصيص ، وعدم إلحاق غير من رخص له أولاً به ، كقوله لأبى بردة فى تضحيته بالجذعة من المعز : « تجزيك ولن تجزى عن أحد بعدك » وكقوله تعالى لنبيه ﷺ فى نكاح من وهبت نفسها له : ﴿ **خَالِصَةً لَكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [ الأحزاب : ٥٠ ] .

وتحريم الحرير : إنما كان سداً للذريعة ، ولهذا أبيح للنساء ، وللحاجة ، والمصلحة الراجحة ، وهذه قاعدة ما حرم لسد الذرائع ، فإنه يباح عند الحاجة والمصلحة الراجحة ، كما حرم النظر سداً لذريعة الفعل ، وأبيح منه ما تدعو إليه الحاجة والمصلحة الراجحة ، وكما حرم التنفل بالصلاة فى أوقات النهى سداً لذريعة المشابهة الصورية بعباد الشمس ، وأبيحت للمصلحة الراجحة ، وكما حرم ربا الفضل سداً لذريعة ربا النسيئة ، وأبيح منه ما تدعو إليه الحاجة من العرايا ، وقد أشبعنا الكلام فيما يحل ويحرم من لباس الحرير فى كتاب « التحبير لما يحل ويحرم من لباس الحرير » .

**وأما الأمر الطبى** : فهو أن الحرير من الأدوية المتخذة من الحيوان ، ولذلك يعد فى الأدوية الحيوانية ، لأن مخرجه من الحيوان ، وهو كثير المنافع ، جليل الموقع ، ومن خاصيته تقوية القلب،وتفريحه ، والنفع من كثير من أمراضه ، ومن غلبة المرة السوداء ، والأدواء الحادثة عنها ، وهو مقو للبصر إذا اكتحل به ، والخام منه ـ وهو المستعمل فى صناعة الطب ـ حار يابس فى الدرجة الأولى ، وقيل : حار رطب فيها : وقيل : معتدل ، وإذا اتخذ منه ملبوس كان معتدل الحرارة فى مزاجه ، مسخناً للبدن ، وربما برد البدن بتسمينه إياه .

قال الرازى : الإبريسم أسخن من الكتاب ، وأبرد من القطن ، يربى اللحم ، وكل لباس خشن ، فإنه يهزل ، ويصلب البشرة وبالعكس .

قلت : والملابس ثلاثة أقسام ؛ قسم يسخن البدن ويدفئه ، وقسم يدفئه ولا يسخنه ، وقسم لا يسخنه ولا يدفئه ، وليس هناك ما يسخنه ولا يدفئه ، إذ ما يسخنه فهو أولى بتدفئته ، فملابس الأوبار والأصواف تسخن وتدفئ ، وملابس الكتان والحرير والقطن تدفئ ولا تسخن ، فثياب الكتان باردة يابسة ، وثياب الصوف حارة يابسة ، وثياب القطن

معتدلة الحرارة ، وثياب الحرير ألين من القطن وأقل حرارة منه .

قال صاحب « المنهاج » : ولبسه لا يسخن كالقطن ، بل هو معتدل ، وكل لباس أملس صقيل ، فإنه أقل إسخانًا للبدن ، وأقل عونًا فى تحلل ما يتحلل منه ، وأحرى أن يلبس فى الصيف ، وفى البلاد الحارة .

ولما كانت ثياب الحرير كذلك، وليس فيها شىء من اليبس والخشونة الكائنين فى غيرها، صارت نافعة من الحكة ، إذ الحكة لا تكون إلا عن حرارة ويبس وخشونة ، فلذلك رخص رسول الله ﷺ للزبير وعبد الرحمن فى لباس الحرير لمداواة الحكة ، وثياب الحرير أبعد عن تولد القمل فيها ، إذ كان مزاجها مخالفة لمزاج ما يتولد منه القمل .

وأما القسم الذى لا يدفئ ولا يسخن ، فالمتخذ من الحديد والرصاص ، والخشب والتراب ، ونحوها ، فإن قيل : فإذا كان لباس الحرير أعدل اللباس وأوفقه للبدن ، فلماذا حرمته الشريعة الكاملة الفاضلة التى أباحت الطيبات ، وحرمت الخبائث ؟

قيل : هذا السؤال يجيب عنه كل طائفة من طوائف المسلمين بجواب ، فمنكرو الحكم والتعليل لما رفعت قاعدة التعليل من أصلها لم يحتاجوا إلى جواب عن هذا السؤال .

ومثبتو التعليل والحكم ـ وهم الأكثرون ـ منهم من يجيب عن هذا بأن الشريعة حرمته لتصبر النفوس عنه ، وتتركه لله ، فتثاب على ذلك لا سيما ولها عوض عنه بغيره .

ومنهم من يجيب عنه بأنه خلق فى الأصل للنساء ، كالحلية بالذهب ، فحرم على الرجال لما فيه من مفسدة تشبه الرجال بالنساء ، ومنهم من قال : حرم لما يورثه من الفخر والخيلاء والعجب ، ومنهم من قال : حرم لما يورثه بملامسته للبدن من الأنوثة والتخنث ، وضد الشهامة والرجولة ، فإن لبسه يكسب القلب صفة من صفات الإناث ، ولهذا لا تكاد تجد من يلبسه فى الأكثر إلا وعلى شمائله من التخنث والتأنث والرخاوة ما لا يخفى ، حتى لو كان من أشهم الناس وأكثرهم فحولية ورجولية، فلا بد أن ينقصه لبس الحرير منها، وإن لم يذهبها، ومن غلظت طباعه وكثفت عن فهم هذا، فليسلم للشارع الحكيم ،ولهذا كان أصح القولين: أنه يحرم على الولى أن يلبسه الصبى لما ينشأ عليه من صفات أهل التأنيث .

وقد روى النسائى من حديث أبى موسى الأشعرى ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله أحل لإناث أمتى الحرير والذهب ، وحرمه على ذكورها » وفى لفظ : « حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتى ، وأحل لإناثهم » (١) .

---

(١) النسائى (٥١٤٨) فى الزينة ، باب : تحريم الذهب على الرجال .

وفى « صحيح البخارى » عن حذيفة قال : نهى رسول الله ﷺ عن لبس الحرير والديباج ، وأن يجلس عليه ، وقال : « هو لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة » (١) (٢) .

# فصل
## فى هديه ﷺ فى علاج ذات الجنب

روى الترمذى فى « جامعه » من حديث زيد بن أرقم ، أن النبى ﷺ قال : « تداووا من ذات الجنب بالقسط البحرى والزيت » (٣) .

وذات الجنب عند الأطباء نوعان : حقيقى وغير حقيقى ، فالحقيقى : ورم حار يعرض فى نواحى الجنب فى الغشاء المستبطن للأضلاع ، وغير الحقيقى : ألم يشبهه يعرض فى نواحى الجنب عن رياح غليظة مؤذية تحتقن بين الصفاقات ، فتحدث وجعًا قريبًا من وجع ذات الجنب الحقيقى ، إلا أن الوجع فى هذا القسم ممدود ، وفى الحقيقى ناخس .

قال صاحب « القانون » : قد يعرض فى الجنب ، والصفاقات ، والعضل التى فى الصدر ، والأضلاع ، ونواحيها أورام مؤذية جدًا موجعة ، تسمى شوصة وبرسامًا ، وذات الجنب،وقد تكون أيضًا أوجاعًا فى هذه الأعضاء ليست من ورم ، ولكن من رياح غليظة ، فيظن أنها من هذه العلة ، ولا تكون منها . قال : واعلم أن كل وجع فى الجنب قد يسمى ذات الجنب اشتقاقًا من مكان الألم ، لأن معنى ذات الجنب صاحبة الجنب ، والغرض به هاهنا وجع الجنب ، فإذا عرض فى الجنب ألم عن أى سبب كان نسب إليه ، وعليه حمل كلام بقراط فى قوله : إن أصحاب ذات الجنب ينتفعون بالحمام ، قيل : المراد به كل من به وجع جنب ، أو وجع رئة من سوء مزاج ، أو من أخلاط غليظة ، أو لذاعة من غير ورم ولا حمى .

قال بعض الأطباء : وأما معنى ذات الجنب فى لغة اليونان ، فهو ورم الجنب الحار ، وكذلك ورم كل واحد من الأعضاء الباطنة ، وإنما سمى ذات الجنب ورم ذلك العضو إذا كان ورمًا حارًا فقط .

ويلزم ذات الجنب الحقيقى خمسة أعراض :وهى الحمى والسعال ، والوجع الناخس ،

---

(١) البخارى (٥٨٣٠) فى اللباس ، باب : لبس الحرير للرجال وقدر ما يجوز منه .
(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٧٦ ـ ٨١ ) .
(٣) الترمذى (٢٠٧٩) فى الطب ، باب : ما جاء فى دواء ذات الجنب ، وقال : « حسن غريب صحيح » ، وضعفه الألبانى .

وضيق النفس ، والنبض المنشارى .

والعلاج الموجود فى الحديث ، ليس هو لهذا القسم ، لكن للقسم الثانى الكائن عن الريح الغليظة ، فإن القسط البحرى - وهو العود الهندى على ما جاء مفسرًا فى أحاديث أخرى - صنف من القسط إذا دق دقًا ناعمًا ، وخلط بالزيت المسخن ، ودلك به مكان الريح المذكور ، أو لعق ، كان دواءً موافقًا لذلك ، نافعًا له ، محللاً لمادته ، مذهبًا لها ، مقويًا للأعضاء الباطنة ، مفتحًا للسدد ، والعود المذكور فى منافعه كذلك .

قال المسبحى : العود : حار يابس ، قابض يحبس البطن ، ويقوى الأعضاء الباطنة ، ويطرد الريح ، ويفتح السدد ، نافع من ذات الجنب ، ويذهب فضل الرطوبة ، والعود المذكور جيد للدماغ . قال : ويجوز أن ينفع القسط من ذات الجنب الحقيقة أيضًا إذا كان حدوثها عن مادة بلغمية لا سيما فى وقت انحطاط العلة ، والله أعلم .

وذات الجنب : من الأمراض الخطرة ؛ وفى الحديث الصحيح : عن أم سلمة ، أنها قالت : بدأ رسول الله ﷺ بمرضه فى بيت ميمونة ، وكان كلما خف عليه ، خرج وصلى بالناس ، وكان كلما وجد ثقلا قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » (١) ، واشتد شكواه حتى غمر عليه من شدة الوجع ، فاجتمع عنده نساؤه ، وعمه العباس ، وأم الفضل بنت الحارث وأسماء بنت عميس ، فتشاوروا فى لده، فلدوه وهو مغمور ،فلما أفاق قال: « من فعل بى هذا ، هذا من عمل نساء جئن من هاهنا » ، وأشار بيده إلى أرض الحبشة ، وكانت أم سلمة وأسماء لدتاه ،فقالوا : يا رسول الله ، خشينا أن يكون بك ذات الجنب . قال : « فبم لددتمونى » ؟ قالوا : بالعود الهندى ، وشىء من ورس ، وقطرات من زيت . فقال : « ما كان الله ليقذفنى بذلك الداء » ، ثم قال : « عزمت عليكم ألا يبقى فى البيت أحد إلا لد إلا عمى العباس » (٢).

وفى « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها قالت : لددنا رسول الله ﷺ ، فأشار ألا تلدونى ، فقلنا : كراهية المريض للدواء ، فلما أفاق قال : « ألم أنهكم أن تلدونى ، لا يبقى منكم أحد إلا لد غير عمى العباس ، فإنه لم يشهدكم » (٣) .

قال أبو عبيد عن الأصمعى : اللدود ما يسقى الإنسان فى أحد شقى الفم ، أخذ من

---

(١) البخارى (٦٦٤) فى الأذان ، باب :حد المريض أن يشهد الجماعة ، ومسلم (٤١٨ / ٩٠) فى الصلاة ، باب : استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما من يصلى بالناس ، عن عائشة .

(٢) المصنف لعبد الرزاق (٩٧٥٤) .

(٣) البخارى (٥٧١٢) فى الطب ، باب : اللدود ، ومسلم (٢٢١٣ / ٨٥) فى السلام ، باب : كراهة التداوى باللدود .

لديدى الوادى ، وهما جانباه ، وأما الوجور : فهو فى وسط الفم .

قلت: واللدود ـ بالفتح : هو الدواء الذى يلد به ، والسعوط : ما أدخل من أنفه .

وفى هذا الحديث من الفقه معاقبة الجانى بمثل ما فعل سواء ، إذا لم يكن فعله محرمًا لحق الله ، وهذا هو الصواب المقطوع به لبضعة عشر دليلاً قد ذكرناها فى موضع آخر ، وهو منصوص أحمد ، وهو ثابت عن الخلفاء الراشدين ، وترجمة المسألة بالقصاص فى اللطمة والضربة، وفيها عدة أحاديث لا معارض لها البتة ، فيتعين القول بها (١) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى علاج الصداع والشقيقة

روى ابن ماجه فى « سننه » حديثًا فى صحته نظر : أن النبى ﷺ كان إذا صدع ، غلف رأسه بالحناء ، ويقول : « إنه نافع بإذن الله من الصداع » (٢) .

والصداع : ألم فى بعض أجزاء الرأس أو كله ، فما كان منه فى أحد شقى الرأس لازمًا يسمى شقيقة ، وإن كان شاملاً لجميعه لازمًا ، يسمى بيضة وخودة تشبيهًا ببيضة السلاح التى تشتمل على الرأس كله ، وربما كان فى مؤخر الرأس أو فى مقدمه .

وأنواعه كثيرة ، وأسبابه مختلفة ، وحقيقة الصداع سخونة الرأس ، واحتماؤه لما دار فيه من البخار يطلب النفوذ من الرأس ، فلا يجد منفذًا ، فيصدعه كما يصدع الوعى إذا حمى ما فيه وطلب النفوذ ، فكل شىء رطب إذا حمى ، طلب مكانًا أوسع من مكانه الذى كان فيه ، فإذا عرض هذا البخار فى الرأس كله بحيث لا يمكنه التفشى والتحلل ، وجال فى الرأس ، سمى السدر .

والصداع يكون عن أسباب عديدة :

**أحدها** : من غلبة واحد من الطبائع الأربعة .

**والخامس** : يكون من قروح تكون فى المعدة ، فيألم الرأس لذلك الورم لاتصال العصب المنحدر من الرأس بالمعدة .

**والسادس** : من ريح غليظة تكون فى المعدة ، فتصعد إلى الرأس فتصدعه .

**والسابع** : يكون من ورم فى عروق المعدة ، فيألم الرأس بألم المعدة للاتصال الذى بينهما.

---

(١) زاد المعاد ( ٤ / ٨١ ـ ٨٤ ) .

(٢) ابن ماجه (٣٥٠٢) فى الطب ، باب : الحناء .

**والثامن** : صداع يحصل عن امتلاء المعدة من الطعام ، ثم ينحدر ويبقى بعضه نيًّا ، فيصدع الرأس ويثقله .

**والتاسع** :يعرض بعد الجماع لتخلخل الجسم،فيصل إليه من حر الهواء أكثر من قدره .

**والعاشر** : صداع يحصل بعد القىء والاستفراغ ، إمام لغلبة اليبس ، وإما لتصاعد الأبخرة من المعدة إليه .

**والحادى عشر** : صداع يعرض عن شدة الحر وسخونة الهواء .

**والثانى عشر** : ما يعرض عن شدة البرد ، وتكاثف الأبخرة فى الرأس وعدم تحللها .

**والثالث عشر** : ما يحدث من السهر وعدم النوم .

**والرابع عشر** : ما يحدث من ضغط الرأس وحمل الشىء الثقيل عليه .

**والخامس عشر** : ما يحدث من كثرة الكلام ، فتضعف قوة الدماغ لأجله .

**والسادس عشر** : ما يحدث من كثرة الحركة والرياضة المفرطة .

**والسابع عشر** : ما يحدث من الأعراض النفسانية ، كالهموم ، والغموم ، والأحزان ، والوساوس ، والأفكار الرديئة .

**والثامن عشر** : ما يحدث من شدة الجوع ، فإن الأبخرة لا تجد ما تعمل فيه ، فتكثر وتتصاعد إلى الدماغ فتؤلمه .

**والتاسع عشر** : ما يحدث عن ورم فى صفاق الدماغ ، ويجد صاحبه كأنه يضرب بالمطارق على رأسه .

**والعشرون** : ما يحدث بسبب الحمى لاشتعال حرارتها فيه فيتألم ، والله أعلم .

وسبب صداع الشقيقة مادة فى شرايين الرأس وحدها حاصلة فيه ، أو مرتقية إليها ، فيقبلها الجانب الأضعف من جانبيه ، وتلك المادة إما بخارية ، وإما أخلاط حارة أو باردة ، وعلامتها الخاصة بها ضربان الشرايين ، وخاصة فى الدموى ، وإذا ضبطت بالعصائب ، ومنعت من الضربان ، سكن الوجع .

وقد ذكر أبو نعيم فى كتاب « الطب النبوى » له : أن النوع كان يصيب النبى ﷺ ، فيمكث اليوم واليومين ، ولا يخرج .

وفيه : عن ابن عباس قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، وقد عصب رأسه بعصابة .

وفى « الصحيح » ، أنه قال فى مرض موته : « وارأساه » (١) وكان يعصب رأسه فى مرضه ، وعصب الرأس ينفع فى وجع الشقيقة وغيرها من أوجاع الرأس .

وعلاجه يختلف باختلاف أنواعه وأسبابه ، فمنه ما علاجه بالاستفراغ ، ومنه ما علاجه بتناول الغذاء ، ومنه ما علاجه بالسكون والدعة ، ومنه ما علاجه بالضمادات ، ومنه ما علاجه بالتبريد ، ومنه ما علاجه بالتسخين ، ومنه ما علاجه بأن يجتنب سماع الأصوات والحركات .

إذا عرف هذا ، فعلاج الصداع فى هذا الحديث بالحناء ، هو جزئى لا كلى ، وهو علاج نوع من أنواعه ، فإن الصداع إذا كان من حرارة ملهبة ، ولم يكن من مادة يجب استفراغها ، نفع فيه الحناء نفعًا ظاهرًا ، وإذا دق وضمدت به الجبهة مع الخل ، سكن الصداع ، وفيه قوة ،موافقة للعصب إذا ضمد به ، سكنت أوجاعه ، وهذا لا يختص بوجع الرأس ، بل يعم الأعضاء وفيه قبض تشد به الأعضاء ، وإذا ضمد به موضع الورم الحار والملتهب ، سكنه .

وقد روى البخارى فى « تاريخه » وأبو داود فى « السنن » أن رسول الله ﷺ ما شكى إليه أحد وجعًا فى رأسه إلا قال له : « احتجم » ، ولا شكى إليه وجعًا فى رجليه إلا قال له : « اختضب بالحناء » (٢) .

وفى الترمذى : عن سلمى أم رافع خادمة النبى ﷺ قالت : كان لا يصيب النبى ﷺ قرحة ولا شوكة إلا وضع عليها الحناء » (٣) .

والحناء بارد فى الأول ، يابس فى الثانية ، وقوة شجر الحناء وأغصانها مركبة من قوة محللة اكتسبها من جوهر فيها مائى ، حار باعتدال ، ومن قوة قابضة اكتسبتها من جوهر فيها أرضى بارد .

ومن منافعه أنه محلل نافع من حرق النار ، وفيه قوة موافقة للعصب إذا ضمد به ، وينفع إذا مضغ من قروح الفم والسلاق العارض فيه ، ويبرئ القلاع الحادث فى أفواه الصبيان ، والضماد به ينفع من الأورام الحارة الملهبة ، ويفعل فى الجراحات فعل دم الأخوين ، وإذا خلط نوره مع الشمع المصفى ، ودهن الورد ، ينفع من أوجاع الجنب .

---

(١) البخارى (٥٦٦٦) فى المرضى ، باب :ما رخص للمريض أن يقول : إنى وجع أو وارأساه أو اشتد بى الوجع .

(٢) أبو داود (٣٨٥٨) فى الطب ، باب : فى الحجامة .

(٣) الترمذى (٢٠٥٤) فى الطب ، باب : ما جاء فى التداوى بالحناء ، وقال : « حسن غريب » .

ومن خواصه أنه إذا بدأ الجدرى يخرج بصبى ، فخضبت أسافل رجليه بحناء ، فإنه يؤمن على عينيه أن يخرج فيها شىء منه ، وهذا صحيح مجرب لا شك فيه ، وإذا جعل نوره بين طى ثياب الصوف طيبها ،ومنع السوس عنها ،وإذا نقع ورقه فى ماء عذب يغمره ، ثم عصر وشرب من صفوه أربعين يومًا كل يوم عشرون درهمًا مع عشرة دراهم سكر ، ويغذى عليه بلحم الضأن الصغير ، فإنه ينفع من ابتداء الجذام بخاصية فيه عجيبة .

وحكى أن رجلا تشققت أظافير أصابع يده ، وأنه بذل لمن يبرئه مالاً ، فلم يجد ، فوصفت له امرأة ، أن يشرب عشرة أيام حناء ، فلم يقدم عليه ، ثم نقعه بماء وشربه ، فبرأ ورجعت أظافيره إلى حسنها .

والحناء إذا ألزمت به الأظفار معجونًا حسنها ونفعها ،وإذا عجن بالسمن وضمد به بقايا الأورام الحارة التى ترشح ماء أصفر،نفعها ونفع من الجرب المتقرح المزمن منفعة بليغة ، وهو ينبت الشعر ويقويه ،ويحسنه ، ويقوى الرأس ،وينفع من النفاطات ، والبور العارضة فى الساقين والرجلين ، وسائر البدن (١) .

## فصل

## فى هديه ﷺ فى علاج العذرة ، وفى العلاج بالسعوط

ثبت عنه فى « الصحيحين » أنه قال:« خير ما تداويتم به الحجامة ،والقسط البحرى ، ولا تعذبوا صبيانكم بالغمز من العذرة » (٢) .

وفى « السنن » و« المسند » عنه من حديث جابر بن عبد الله قال : دخل رسول الله ﷺ على عائشة ، وعندها صبى يسيل منخراه دمًا ، فقال : « ما هذا ؟ » . فقالوا : به العذرة ، أو وجع فى رأسه ،فقال:« ويلكن لا تقتلن أولادكن أيما امرأة أصاب ولدها عذرة أو وجع فى رأسه ، فلتأخذ قسطًا هنديًا فلتحكه بماء ، ثم تسعطه إياه » فأمرت عائشة رضي الله عنها فصنع ذلك بالصبى ، فبرأ (٣) .

قال أبو عبيد عن أبى عبيدة : العذرة : تهيج فى الحلق من الدم ، فإذا عولج منه ،

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٨٤ ـ ٩٠) .

(٢) البخارى (٥٦٩٦) فى الطب ، باب : الحجامة من الداء ، ومسلم ( ١٥٧٧ / ٦٢) فى المساقاة ، باب : حل أجرة الحجامة .

(٣) أحمد (٣ / ٣١٥) ،وأبو يعلى (١٩١٢) ، وقال : الهيثمى فى المجمع (٥ / ٩٢) : « رجاله رجال الصحيح » .

قيل : قد عذر به ، فهو معذور ، انتهى . وقيل : العذرة : قرحة تخرج فيما بين الأذن والحلق ، وتعرض للصبيان غالبًا .

وأما نفع السعوط منها بالقسط المحكوك ، فلأن العذرة مادتها دم يغلب عليه البلغم ، لكن تولده فى أبدان الصبيان أكثر ، وفى القسط تجفيف يشد اللهاة ويرفعها إلى مكانها ، وقد يكون نفعه فى هذا الداء بالخاصية ، وقد ينفع فى الأدواء الحارة ، والأدوية الحارة بالذات تارة ، وبالعرض أخرى ، وقد ذكر صاحب القانون » فى معالجة سقوط اللهاة : القسط مع الشب اليمانى وبزر المرو .

والقسط البحرى المذكور فى الحديث : هو العود الهندى ، وهو الأبيض منه ، وهو حلو ، وفيه منافع عديدة ، وكانوا يعالجون أولادهم بغمز اللهاة ، وبالعلاق ، وهو شىء يعلقونه على الصبيان ، فنهاهم النبى ﷺ عن ذلك ، وأرشدهم إلى ما هو أنفع للأطفال ، وأسهل عليهم .

والسعوط : ما يصب فى الأنف ، وقد يكون بأدوية مفردة ومركبة تدق وتنخل وتعجن وتجفف، ثم تحل عند الحاجة، ويسعط بها فى أنف الإنسان، وهو مستلق على ظهره ، وبين كتفيه ما يرفعهما لتنخفض رأسه ، فيتمكن السعوط من الوصول إلى دماغه ، ويستخرج ما فيه من الداء بالعطاس ، وقد مدح النبى ﷺ التداوى بالسعوط فيما يحتاج إليه فيه .

وذكر أبو داود فى « سننه » أن النبى ﷺ استعط (١) (٢) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى علاج المفؤود

روى أبو داود فى « سننه » من حديث مجاهد ، عن سعد ، قال : مرضت مرضًا ، فأتانى رسول الله ﷺ يعودنى ، فوضع يده بين ثديى حتى وجدت بردها على فؤادى ، وقال لى : « إنك رجل مفؤود فأت الحارث بن كلدة من ثقيف ، فإنه رجل يتطبب ، فليأخذ سبع تمرات من عجوة المدينة ، فليجأهن بنواهن ، ثم ليلدك بهن » (٣) .

المفؤود : الذى أصيب فؤاده ، فهو يشتكيه ، كالمبطون الذى يشتكى بطنه .

---

(١) أبو داود (٣٨٦٧) فى الطب ، باب : فى السعوط .
(٢) زاد المعاد (٤/ ٩٤ ـ ٩٦) .
(٣) أبو داود (٣٨٧٥) فى الطب ، باب : تمرة العجوة ، وضعفه الألبانى .

واللدود ما سقاه الإنسان من أحد جانبى الفم ، وفى التمر خاصية عجيبة لهذا الداء ، ولا سيما تمر المدينة ، ولا سيما العجوة منه . وفى كونها سبعًا خاصية أخرى ، تدرك بالوحى ، وفى « الصحيحين » : من حديث عامر بن سعد بن أبى وقاص ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « من تصبح بسبع تمراتٍ من تمر العالية لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر » (١) .

وفى لفظ : « من أكل سبع تمرات مما بين لابتيها حين يصبح ، لم يضره سم حتى يمسى » (٢) .

والتمر حار فى الثانية ، يابس فى الأولى . وقيل : رطب فيها . وقيل : معتدل ، وهو غذاء فاضل حافظ للصحة لا سيما لمن اعتاد الغذاء به ، كأهل المدينة وغيرهم ، وهو من أفضل الأغذية فى البلاد الباردة والحارة التى حرارتها فى الدرجة الثانية ، وهو لهم أنفع منه لأهل البلاد الباردة ، لبرودة بواطن سكانها ، وحرارة بواطن سكان البلاد الباردة ، ولذلك يكثر أهل الحجاز واليمن والطائف ، وما يليهم من البلاد المشابهة لها من الأغذية الحارة ما لا يتأتى لغيرهم ، كالتمر والعسل ، وشاهدناهم يضعون فى أطعمتهم من الفلفل والزنجبيل كما يأكل غيرهم الحلوى ، ولقد شاهدت من يتنقل به منهم كما يتنقل بالنقل ؛ ويوافقهم ذلك ولا يضيرهم لبرودة أجوافهم ، وخروج الحرارة إلى ظاهر الجسد ، كما تشاهد مياه الآبار تبرد فى الصيف ، وتسخن فى الشتاء ، وكذلك تنضج المعدة من الأغذية الغليظة فى الشتاء ما لا تنضجه فى الصيف .

وأما أهل المدينة ، فالتمر لهم يكاد أن يكون بمنزلة الحنطة لغيرهم ، وهو قوتهم ومادتهم ، وتمر العالية من أجود أصناف تمرهم ، فإنه متين الجسم ، لذيذ الطعم ، صادق الحلاوة ، والتمر يدخل فى الأغذية والأدوية والفاكهة ، وهو يوافق أكثر الأبدان ، مقو للحار الغريزى ،ولا يتولد عنه من الفضلات الرديئة ما يتولد عن غيره من الأغذية والفاكهة، بل يمنع لمن اعتاده من تعفن الأخلاط وفسادها .

وهذا الحديث من الخطاب الذى أريد به الخاص ، كأهل المدينة ومن جاورهم ، ولا ريب أن للأمكنة اختصاصًا بنفع كثير من الأدوية فى ذلك المكان دون غيره ، فيكون الدواء الذى قد ينبت فى هذا المكان نافعًا من الداء ، ولا يوجد فيه ذلك النفع إذا نبت فى مكان

---

(١) البخارى (٥٧٦٩) فى الطب ، باب : الدواء بالعجوة للسحر ، ومسلم (٢٠٤٧ / ١٥٥) فى الأشربة ،باب : فضل تمر المدينة .

(٢) مسلم (٢٠٤٧ / ١٥٤) فى الأشربة ، باب : فضل تمر المدينة .

غيره لتأثير نفس التربة أو الهواء ، أو هما جميعًا ، فإن للأرض خواص وطبائع يقارب اختلافها اختلاف طبائع الإنسان ، وكثير من النبات يكون فى بعض البلاد غذاء مأكولاً ، وفى بعضها سمًا قاتلاً ، ورب أدوية لقوم أغذية لآخرين ، وأدوية لقوم من أمراض هى أدوية لآخرين فى أمراض سواها ، وأدوية لأهل بلدٍ لا تناسب غيرهم ، ولا تنفعهم .

وأما خاصية السبع ، فإنها قد وقعت قدرًا وشرعًا ، فخلق الله عز وجل السماوات سبعًا ، والأرضين سبعًا ، والأيام سبعًا ، والإنسان كمل خلقه فى سبعة أطوار ، وشرع الله سبحانه لعباده الطواف سبعًا ، والسعى بين الصفا والمروة سبعًا ، ورمى الجمار سبعًا ، وتكبيرات العيدين سبعًا فى الأولى . وقال ﷺ: « مروهم بالصلاة لسبع » (١) . « وإذا صار للغلام سبع سنين خير بين أبويه » (٢) ، فى رواية ، وفى رواية أخرى : « أبوه أحق به من أمه » (٣) ، وفى ثالثة : « أمه أحق به » (٤) ، وأمر النبى ﷺ فى مرضه أن يصب عليه من سبع قرب (٥) ، وسخر الله الريح على قوم عاد سبع ليال ، ودعا النبى ﷺ أن يعينه الله على قومه بسبع كسبع يوسف (٦) ، ومثل الله ـ سبحانه ـ ما يضاعف به صدقة المتصدق بحبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والسنابل التى رآها صاحب يوسف سبعًا ، والسنين التى زرعوها دأبًا سبعًا ، وتضاعف الصدقة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ويدخل الجنة من هذه الأمة بغير حساب سبعون ألفًا .

فلا ريب أن لهذا العدد خاصية ليست لغيره ، والسبعة جمعت معانى العدد كله وخواصه ، فإن العدد شفع ووتر . والشفع : أول وثان ، والوتر : كذلك ، فهذه أربع مراتب : شفع أول ، وثان . ووتر أول وثان ، ولا تجتمع هذه المراتب فى أقل من سبعة ، وهى عدد كامل جامع لمراتب العدد الأربعة ، أعنى الشفع والوتر ، والأوائل والثوانى ،

(١) أبو داود (٤٩٤) فى الصلاة ، باب : متى يؤمر الغلام بالصلاة ، والترمذى (٤٠٧) فى الصلاة ، باب : ما جاء متى يؤمر الصبى بالصلاة ، وقال : « حسن صحيح » .

(٢) الذى ثبت عنه ﷺ أنه خير غلامًا بين أبيه وأمه ، وانظر : أبا داود (٢٢٧٧) فى الطلاق ، باب : من أحق بالولد، والترمذى (١٣٥٧) فى الأحكام ، باب: ما جاء فى تخيير الغلام بين أبويه إذا افترقا ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٢٣٥١) فى الأحكام ، باب تخيير الصبى بين أبويه ، ولم يرد عنه ﷺ فى تحديد السن شىء .

(٣) ابن ماجه (٢٣٥٢) فى الأحكام ، باب : تخيير الصبى بين أبويه ، وفى الزوائد : « إسناده ضعيف ، قال الدارقطنى : عبد الحميد بن سلمة أبوه وجده لا يعرفون » ، والبيهقى فى الكبرى (٨ / ٣ ، ٤ ) . وهذه الروايات فيمن كان أبوه أحدهما مسلم والآخر كافر .

(٤) أبو داود (٢٢٧٦) فى الطلاق ، باب : من أحق بالولد ، وأحمد ( ٢ / ١٨٢) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٦٧٠٧) : « إسناده صحيح » ، والبيهقى فى الكبرى (٨ / ٤ ، ٥ ) .

(٥) البخارى (٤٤٤٢) فى المغازى ، باب : مرض النبى ﷺ ووفاته .

(٦) البخارى (١٠٠٧) فى الاستسقاء ، باب : دعاء النبى ﷺ « اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » .

ونعنى بالوتر الأول الثلاثة ، وبالثانى الخمسة ، وبالشفع الأول الاثنين ، وبالثانى الأربعة ، وللأطباء اعتناء عظيم بالسبعة ، ولا سيما فى البحارين . وقد قال بقراط : كل شىء من هذا العالم ، فهو مقدر على سبعة أجزاء ، والنجوم سبعة ، والأيام سبعة ، وأسنان الناس سبعة ، أولها طفل إلى سبع ،ثم صبى إلى أربع عشرة ، ثم مراهق ، ثم شاب ، ثم كهل ، ثم شيخ ، ثم هرم إلى منتهى العمر ، والله تعالى أعلم بحكمته وشرعه ، وقدره فى تخصيص هذا العدد ، هل هو لهذا المعنى أو لغيره ؟

ونفع هذا العدد من هذا التمر من هذا البلد من هذه البقعة بعينها من السم والسحر ، بحيث تمنع إصابته ، من الخواص التى لو قالها بقراط وجالينوس وغيرهما من الأطباء ، لتلقاها عنهم الأطباء بالقبول والإذعان والانقياد ، مع أن القائل إنما معه الحدس والتخمين والظن ، فمن كلامه كله يقين ، وقطع وبرهان ، ووحى أولى أن تتلقى أقواله بالقبول والتسليم ، وترك الاعتراض ، وأدوية السموم تارة تكون بالكيفية ، وتارة تكون بالخاصية كخواص كير من الأحجار والجواهر واليواقيت ، والله أعلم .

ويجوز نفع التمر المذكور فى بعض السموم ، فيكون الحديث من العام المخصوص ، ويجوز نفعه لخاصية تلك البلد ، وتلك التربة الخاصة من كل سم ، ولكن هاهنا أمر لابد من بيانه،وهو أن من شرط انتفاع العليل بالدواء قبوله ،واعتقاد النفع به ، فتقبله الطبيعة ، فتستعين به على دفع العلة ، حتى إن كثيراً من المعالجات ينفع بالاعتقاد ، وحسن القبول ، وكمال التلقى ، وقد شاهد الناس من ذلك عجائب ، وهذا لأن الطبيعة يشتد قبولها له ، وتفرح النفس به ، فتنتعش القوة ، ويقوى سلطان الطبيعة ، وينبع الحار الغريزى ، فيساعد على دفع المؤذى ، وبالعكس يكون كثير من الأدوية نافعًا لتلك العلة ، فيقطع عمله سوء اعتقاد العليل فيه ، وعدم أخذ الطبيعة له بالقبول ، فلا يجدى عليها شيئًا . واعتبر هذا بأعظم الأدوية والأشفية ، وأنفعها للقلوب والأبدان ، والمعاش والمعاد ، والدنيا والآخرة ، وهو القرآن الذى هو شفاء من كل داء ، كيف لا ينفع القلوب التى لا تعتقد فيه الشفاء والنفع ، بل لا يزيدها إلا مرضًا إلى مرضها ، وليس لشفاء القلوب دواء قط أنفع من القرآن ، فإنه شفاؤها التام الكامل الذى لا يغادر فيها سقمًا إلا أبرأه ، ويحفظ عليها صحتها المطلقة ، ويحميها الحمية التامة من كل مؤذ ومضر ، ومع هذا فإعراض أكثر القلوب عنه ، وعدم اعتقادها الجازم الذى لا ريب فيه أنه كذلك ، وعدم استعماله ، والعدول عنه إلى الأدوية التى ركبها بنو جنسها حال بينها وبين الشفاء به،وغلبت العوائد ،واشتد الإعراض ، وتمكنت العلل والأدواء المزمنة من القلوب ، ويربى المرضى والأطباء على علاج بنى جنسهم

وما وضعه لهم شيوخهم ، ومن يعظمونه ويحسنون به ظنونهم ، فعظم المصاب ، واستحكم الداء ، وتركبت أمراض وعلل أعيا عليهم علاجها، وكلما عالجوها بتلك العلاجات الحادثة تفاقم أمرها ، وقويت ، ولسان الحال ينادى عليهم :

ومن العجائب والعجائب جمة قرب الشفاء وما إليه وصول
كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول (١)

## أيضـــًا

عن مجاهد ـ وهو ابن جبر ـ عن سعد ـ وهو ابن أبى وقاص رضي الله عنه قال : مرضت مرضًا . أتانى رسول الله ﷺ يعودنى ، فوضع يده بين ثديى ، حتى وجدت بردها على فؤادى ، فقال : « إنك رجل مفؤود ، ائت الحارث بن كلدة ، أخا ثقيف ، فإنه رجل يتطبب ، فليأخذ سبع تمرات من عجوة المدينة ، فليجأهن بنواهن ، ثم ليلدك بهن » (٢) .

قال أبو حاتم الرازى : لم يدرك مجاهد سعدًا ، إنما يروى عن مصعب بن سعد ، قال أبو زرعة الرازى : مجاهد عن سعد : مرسل .

وهذا ظاهره : أنه مختص بتمر المدينة،وأما حديث عائشة: فرواه مسلم فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : « فى عجوة العالية شفاء ، وأنها ترياق أول البكرة » (٣) .

وظاهر هذا : اختصاصها بعجوة العالية .

وقد روى النسائى فى سننه من حديث الأعمش عن أبى نضرة عن أبى سعيد وجابر عن النبى ﷺ : « العجوة من الجنة ، وهى شفاء من السم » (٤) .

وأخرج عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة عن النبى ﷺ مثله (٥) .

فقيل : هذا يختص بالمدينة ، لعظم بركتها ، لا أن ذلك عام فى كل تمر .

وقيل : مختص بعجوة العالية (٦) .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٩٦ ـ ١٠١) .
(٢) أبو داود (٣٨٧٥) فى الطب ، باب : فى تمرة العجوة ، وضعفه الألبانى ، والطبقات الكبرى (٣ / ١٠٨) .
(٣) مسلم (٢٠٤٨ / ١٥٦) فى الأشربة ، باب : فضل تمر المدينة .
(٤) النسائى فى الكبرى (٦٧١٧ ، ٦٧١٨) فى الأطعمة ، باب : عجوة العالية .
(٥) النسائى فى الكبرى (٦٧١٥ ، ٦٧١٦) فى الأطعمة ، باب : عجوة العالية .
(٦) تهذيب السنن (٥ / ٣٥٨ ، ٣٥٩) .

# فصل

## فى هديه ﷺ فى علاج الرمد بالسكون ، والدعة ، وترك الحركة ، والحمية مما يهيج الرمد

ذكر أبو نعيم فى كتاب « الطب النبوى » : أنه ﷺ كان إذا رمدت عين امرأة من نسائه لم يأتها حتى تبرأ عينها .

الرمد : ورم حار يعرض فى الطبقة الملتحمة من العين ، وهو بياضها الظاهر ، وسببه انصباب أحد الأخلاط الأربعة ، أو ريح حارة تكثر كميتها فى الرأس والبدن ، فينبعث منها قسط إلى جوهر العين ، أو ضربة تصيب العين ، فترسل الطبيعة إليها من الدم والروح مقدارًا كثيرًا ، تروم بذلك شفاءها مما عرض لها ، ولأجل ذلك يرم العضو المضروب ، والقياس يوجب ضده .

واعلم أنه كما يرتفع من الأرض إلى الجو بخاران ، أحدهما : حار يابس ، والآخر : حار رطب ، فينعقدان سحابًا متراكمًا ، ويمنعان أبصارنا من إدراك السماء ، فكذلك يرتفع من قعر المعدة إلى منتهاها مثل ذلك ، فيمنعان النظر ، ويتولد عنهما علل شتى ، فإن قويت الطبيعة على ذلك ودفعته إلى الخياشيم ، أحدث الزكام ، وإن دفعته إلى اللهاة والمنخرين أحدث الخناق ، وإن دفعته إلى الجنب ، أحدث الشوصة ، وإن دفعته إلى الصدر ، أحدث النزلة ، وإن انحدر إلى القلب ، أحدث الخبطة ، وإن دفعته إلى العين أحدث رمدًا ، وإن انحدر إلى الجوف ، أحدث السيلان ، وإن دفعته إلى منازل الدماغ أحدث النسيان ، وإن ترطبت أوعية الدماغ منه ،وامتلأت به عروقه أحدث النوم الشديد ، ولذلك كان النوم رطبًا ، والسهر يابسًا ، وإن طلب البخار النفوذ من الرأس ، فلم يقدر عليه ، أعقبه الصداع والسهر ، وإن مال البخار إلى أحد شقى الرأس ، أعقبه الشقيقة ، وإن ملك قمة الرأس ووسط الهامة ، أعقبه داء البيضة ، وإن برد منه حجاب الدماغ ، أو سخن ، أو ترطب وهاجت منه أرياح ، أحدث العطاس ، وإن أهاج الرطوبة البلغمية فيه حتى غلب الحار الغريزى، أحدث الإغماء والسكات، وإن أهاج المرة السوداء حتى أظلم هواء الدماغ ، أحدث الوسواس ، وإن فاض ذلك إلى مجارى العصب ، أحدث الصرع الطبيعى ،وإن

ترطبت مجامع عصب الرأس وفاض ذلك فى مجاريه ، أعقبه الفالج ، وإن كان البخار من مرة صفراء ملتهبة محمية الدماغ ، أحدث البرسام ، فإن شركه الصدر فى ذلك ، كان سرساماً ، فافهم هذا الفصل .

والمقصود : أن أخلاط البدن والرأس تكون متحركة هائجة فى حال الرمد ، والجماع مما يزيد حركتها وثورانها ، فإنه حركة كلية للبدن والروح والطبيعة ، فأما البدن ، فيسخن بالحركة لا محالة ، والنفس تشتد حركتها طلباً للذة واستكمالها ، والروح تتحرك تبعاً لحركة النفس والبدن ، فإن أول تعلق الروح من البدن بالقلب ، ومنه ينشأ الروح ، وتنبث فى الأعضاء وأما حركة الطبيعة ، فلأجل أن ترسل ما يجب إرساله من المنى على المقدار الذى يجب إرساله .

وبالجملة : فالجماع حركة كلية عامة يتحرك فيها البدن وقواه ، وطبيعته وأخلاطه ، والروح والنفس ، فكل حركة فهى مثيرة للأخلاط مرققة لها توجب دفعها وسيلانها إلى الأعضاء الضعيفة ، والعين فى حال رمدها أضعف ما تكون ، فأضر ما عليها حركة الجماع.

قال بقراط فى كتاب « الفصول » : وقد يدل ركوب السفن أن الحركة تثور الأبدان . وهذا مع أن فى الرمد منافع كثيرة ، منها ما يستدعيه من الحمية والاستفراغ ، وتنقية الرأس والبدن من فضلاتهما وعفوناتهما ، والكف عما يؤذى النفس والبدن من الغضب ، والهم والحزن ،والحركات العنيفة ، والأعمال الشاقة . وفى أثر سلفى : لا تكرهوا الرمد ، فإنه يقطع عروق العمى .

ومن أسباب علاجه ملازمة السكون والراحة ، وترك مس العين والاشتغال بها ، فإن أضداد ذلك يوجب انصباب المواد إليها ، وقد قال بعض السلف : مثل أصحاب محمد مثل العين ، ودواء العين ترك مسها ، وقد روى فى حديث مرفوع ، الله أعلم به : « علاج الرمد تقطير الماء البارد فى العين » وهو من أنفع الأدوية للرمد الحار ، فإن الماء دواء بارد يستعان به على إطفاء حرارة الرمد إذا كان حاراً ، ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لامرأته زينب وقد اشتكت عينها : لو فعلت كما فعل رسول الله ﷺ كان خيراً لك وأجدر أن تشفى ، تنضحين فى عينك الماء ، ثم تقولين : « أذهب البأس رب الناس ، واشف أنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً » (١) . وهذا خاص ببعض البلاد ، وبعض أوجاع العين ، فلا يجعل كلام النبوة الجزئى الخاص كلياً عاماً ، ولا الكلى العام

---

(١) أبو داود (٣٨٨٣) فى الطب،باب : فى تعليق التمائم ، وابن ماجه (٣٥٣٠) فى الطب ، باب : تعليق التمائم.

جزئيًا خاصًا ، فيقع من الخطأ ، وخلاف الصواب ما يقع ، والله أعلم .

## فصل

## في هديه ﷺ في علاج الخدران الكلي الذي يجمد معه البدن

ذكر أبو عبيد في « غريب الحديث » من حديث أبي عثمان النهدي : أن قومًا مروا بشجرة فأكلوا منها ، فكأنما مرت بهم ريح ، فأجمدتهم ، فقال النبي ﷺ : « قرسوا الماء في الشنان ، وصبوا عليهم فيما بين الأذانين » ، ثم قال أبو عبيد : قرسوا : يعني بردوا . وقول الناس : قد قرس البرد ، إنما هو من هذا بالسين ليس بالصاد . والشنان : الأسقية والقرب : الخلقان ، يقال للسقاء : شن ، وللقربة : شنة . وإنما ذكر الشنان دون الجدد لأنها أشد تبريدًا للماء ، وقوله : « بين الأذانين » ، يعني أذان الفجر والإقامة ، فسمى الإقامة أذانًا ، انتهى كلامه .

قال بعض الأطباء : وهذا العلاج من النبي ﷺ من أفضل علاج هذا الداء إذا كان وقوعه بالحجاز ، وهي بلاد حارة يابسة ، والحار الغريزي ضعيف في بواطن سكانها ، وصب الماء البارد عليهم في الوقت المذكور ـ وهو أبرد أوقات اليوم ـ يوجب جمع الحار الغريزي المنتشر في البدن الحامل لجميع قواه ، فيقوى القوة الدافعة ، ويجتمع من أقطار البدن إلى باطنه الذي هو محل ذاك الداء ، ويستظهر بباقي القوى على دفع المرض المذكور، فيدفعه بإذن الله عز وجل ، ولو أن بقراط ، أو جالينوس ، أو غيرهما ، وصف هذا الدواء لهذا الداء ، لخضعت له الأطباء ، وعجبوا من كمال معرفته (١) .

## فصل

## في هديه ﷺ في علاج البثرة

ذكر ابن السني في كتابه عن بعض أزواج النبي ﷺ قالت : دخل على رسول الله ﷺ وقد خرج في أصبعي بثرة ، فقال :« عندك ذريرة ؟ قلت : نعم . قال : « ضعيها عليها ، وقولي : اللهم مصغر الكبير ، ومكبر الصغير ، صغر ما بي » (٢) .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ١٠٧ ـ ١١٠ ) .

(٢) النسائي في الكبرى (١٠٨٧٠) في عمل اليوم والليلة ، باب : ما يقول على البثرة ، وأحمد (٥ / ٣٧٠) ، والحاكم في المستدرك (٤ / ٢٠٧ ) ، وقال : « صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي .

الذريرة : داوء هندى يتخذ من قصب الذريرة ، وهى حارة يابسة تنفع من أورام المعدة والكبد والاستسقاء ، وتقوى القلب لطيبها .

وفى « الصحيحين » عن عائشة أنها قالت : طيبت رسول الله ﷺ بيدى بذريرة فى حجة الوداع للحل والإحرام » (١) .

والبثرة: خراج صغير يكون عن مادة حارة تدفعها الطبيعة،فتسترق مكانًا من الجسد تخرج منه ، فهى محتاجة إلى ما ينضجها ويخرجها ، والذريرة أحد ما يفعل بها ذلك ، فإن فيها إنضاجًا وإخراجًا مع طيب رائحتها ، مع أن فيها تبريدًا للنارية التى فى تلك المادة ، وكذلك قال صاحب « القانون »: إنه لا أفضل لحرق النار من الذريرة بدهن الورد والخل (٢) .

## فصل

## فى هديه ﷺ فى علاج الأورام ، والخراجات التى تبرأ بالبط والبزل

يذكر عن على أنه قال : دخلت مع رسول الله ﷺ على رجل يعوده بظهره ورم ، فقالوا : يا رسول الله ، بهذه مدة . قال : « بطوا عنه » ، قال على : فما برحت حتى بطت ، والنبى ﷺ شاهد (٣) .

ويذكر عن أبى هريرة،أن النبى ﷺ أمر طبيبًا أن يبط بطن رجل أجوى البطن ،فقيل : يا رسول الله ، هل ينفع الطب ؟ قال:« الذى أنزل الداء ، أنزل الشفاء ، فيما شاء » (٤) .

الورم : مادة فى حجم العضو لفضل مادة غير طبيعية تنصب إليه ، ويوجد فى أجناس الأمراض كلها ، والمواد التى تكون عنها من الأخلاط الأربعة ، والمائية ، والريح ، وإذا اجتمع الورم سمى خراجًا ، وكل ورم حار يؤول أمره إلى أحد ثلاثة أشياء : إما تحلل ، وإما جمع مدة ، وإما استحالة إلى الصلابة ، فإن كانت القوة قوية ، استولت على مادة الورم وحللته ، وهى أصلح الحالات التى يؤول حال الورم إليها ، وإن كانت دون ذلك ، أنضجت المادة ، وأحلتها مدة بيضاء ، فتحت لها مكانًا أسالتها منه ، وإن نقصت عن ذلك أحالت المادة مدة غير مستحكمة النضج ، وعجزت عن فتح مكان فى العضو تدفعها منه ، فيخاف على العضو الفساد بطول لبثها فيه ، فيحتاج حينئذ إلى إعانة الطبيب بالبط ، أو غيره

(١) البخارى (٥٩٣٠) فى اللباس ، باب : الذريرة ، ومسلم (١١٨٩ / ٣٥) فى الحج ، باب : الطيب للمحرم عند الإحرام .

(٢) زاد المعاد ( ٤ / ١١٣ ، ١١٤ ) .

(٣) أبو يعلى (٤٥٤) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ١٠٢) : « فيه أبو الربيع السمان ، وهو ضعيف » .

(٤) أحمد (٥ / ٣٧١) ، وابن أبى شيبة (٧ / ٣٥٩) .

لإخراج تلك المادة الرديئة المفسدة للعضو .

وفى البط فائدتان :

**إحداهما** : إخراج المادة الرديئة المفسدة .

**والثانية** : منع اجتماع مادة أخرى إليها تقويها .

وأما قوله فى الحديث الثانى : « إنه أمر طبيبًا أن يبط بطن رجل أجوى البطن » ، فالجوى يقال على معان منها : الماء المنتن الذى يكون فى البطن يحدث عنه الاستسقاء .

وقد اختلف الأطباء فى بزله لخروج هذه المادة ، فمنعته طائفة منهم لخطره ، وبعد السلامة معه ، وجوزته طائفة أخرى ، وقالت : لا علاج له سواه ، وهذا عندهم إنما هو فى الاستسقاء الزقى ، فإنه كما تقدم ثلاثة أنواع : طبلى ، وهو الذى ينتفخ معه البطن بمادة ريحية إذا ضربت عليه سمع له صوت كصوت الطبل ، ولحمى : وهو الذى يربو معه لحم جميع البدن بمادة بلغمية تفشو مع الدم فى الأعضاء،وهو أصعب من الأول ، وزقى : وهو الذى يجتمع معه فى البطن الأسفل مادة رديئة يسمع لها عند الحركة خضخضة الماء فى الزق ، وهو أردأ أنواعه عند الأكثرين من الأطباء ، وقالت طائفة : أردأ أنواعه اللحمى لعموم الآفة به .

ومن جملة علاج الزقى إخراج ذلك بالبزل ، ويكون ذلك بمنزلة فصد العروق لإخراج الدم الفاسد ، لكنه خطر ، وإن ثبت هذا الحديث ، فهو دليل على جواز بزله ، والله أعلم (١) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى علاج السم الذى أصابه بخيبر من اليهود

ذكر عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك : أن امرأة يهودية أهدت إلى النبى ﷺ شاة مصلية بخيبر ، فقال : « ما هذه » ؟ قالت : هدية ، وحذرت أن تقول : من الصدقة ، فلا يأكل منها ، فأكل النبى ﷺ ، وأكل الصحابة ، ثم قال : « أمسكوا » ، ثم قال للمرأة : « هل سممت هذه الشاة » ؟ قالت : من أخبرك بهذا ؟ قال:« هذا العظم لساقها »،وهو فى يده ؟ قالت : نعم .قال : « لم ؟ » قالت : أردت إن كنت كاذبًا أن يستريح منك الناس ، وإن كنت نبيًا لم يضرك ، قال :

(١) زاد المعاد ( ٤ / ١١٤ ـ ١١٦) .

فاحتجم النبى ﷺ ثلاثة على الكاهل ، وأمر أصحابه أن يحتجموا ، فاحتجموا ، فمات بعضهم [١] .

وفى طريق أخرى: واحتجم رسول الله ﷺ على كاهله من أجل الذى أكل من الشاة، حجمه أبو هند بالقرن والشفرة ، وهو مولى لبنى بياضة من الأنصار ، وبقى بعد ذلك ثلاث سنين حتى كان وجعه الذى توفى فيه ، فقال : « مازلت أجد من الأكلة التى أكلت من الشاة يوم خيبر حتى كان هذا أوان انقطاع الأبهر منى » فتوفى رسول الله ﷺ شهيدًا ، قاله موسى بن عقبة [٢] .

معالجة السم تكون بالاستفراغات ، وبالأدوية التى تعارض فعل السم وتبطله ، إما بكيفياتها ، وإما بخواصها ، فمن عدم الدواء ، فليبادر إلى الاستفراغ الكلى وأنفعه الحجامة، ولا سيما إذا كان البلد حارًا ، والزمان حارًا ، فإن القوة السمية تسرى إلى الدم ، فتنبعث فى العروق والمجارى حتى تصل إلى القلب ، فيكون الهلاك ، فالدم هو المنفذ الموصل للسم إلى القلب والأعضاء ، فإذا بادر المسموم ، وأخرج الدم ، خرجت معه تلك الكيفية السمية التى خالطته ، فإن كان استفراغًا تامًا لم يضره السم ، بل إما أن يذهب ، وإما أن يضعف فتقوى عليه الطبيعة ، فتبطل فعله أو تضعفه .

ولما احتجم النبى ﷺ ، احتجم فى الكاهل ، وهو أقرب المواضع التى يمكن فيها الحجامة إلى القلب ، فخرجت المادة السمية مع الدم لا خروجًا كليًا ، بل بقى أثرها مع ضعفه لما يريد الله ـ سبحانه ـ من تكميل مراتب الفضل كلها له ، فلما أراد الله إكرامه بالشهادة ، ظهر تأثير ذلك الأثر الكامن من السم ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً ، وظهر سر قوله تعالى لأعدائه من اليهود: ﴿ **أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** (٨٧) ﴾ [ البقرة ] ، فجاء بلفظ « كذبتم » بالماضى الذى قد وقع منه، وتحقق ، وجاء بلفظ : « تقتلون » بالمستقبل الذى يتوقعونه وينتظرونه ، والله أعلم [٣] .

## فصل

## فى هديه ﷺ فى علاج السحر الذى سحرته اليهود به

قد أنكر هذا طائفة من الناس ، وقالوا : لا يجوز هذا عليه ، وظنوه نقصًا وعيبًا ،

(١) عبد الرزاق (١٩٨١٤) .

(٢) البخارى معلقًا (٤٤٢٨) ( الفتح ٨ / ١٣١) .

(٣) زاد المعاد ( ٤ / ١٢١ ـ ١٢٣ ) .

وليس الأمر كما زعموا ، بل هو من جنس ما كان يعتريه ﷺ من الأسقام والأوجاع ، وهو مرض من الأمراض، وإصابته به كإصابته بالسم لا فرق بينهما ، وقد ثبت فى « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها ،أنها قالت: سحر رسول الله ﷺ حتى إن كان ليخيل إليه أنه يأتى نساءه ، ولم يأتهن ، وذلك أشد ما يكون من السحر (١) .

قال القاضى عياض: والسحر مرض من الأمراض، وعارض من العلل يجوز عليه ﷺ، كأنواع الأمراض مما لا ينكر ، ولا يقدح فى نبوته ، وأما كونه يخيل إليه أنه فعل الشىء ولم يفعله ، فليس فى هذا ما يدخل عليه داخلة فى شىء من صدقه ، لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا ، وإنما هذا فيما يجوز طروه عليه فى أمر دنياه التى لم يبعث لسببها ، ولا فضل من أجلها ، وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر ، فغير بعيد أنه يخيل إليه من أمورها ما لا حقيقة له ، ثم ينجلى عنه كما كان .

والمقصود : ذكر هديه فى علاج هذا المرض ، وقد روى عنه فيه نوعان :

**أحدهما** ـ وهو أبلغهما : استخراجه وإبطاله ، كما صح عنه ﷺ أنه سأل ربه ـ سبحانه ـ فى ذلك ، فدل عليه ، فاستخرجه من بئر ، فكان فى مشط ومشاطة ، جف طلعة ذكر (٢) ، فلما استخرجه ، ذهب ما به ، حتى كأنما أنشط من عقال ، فهذا من أبلغ ما يعالج به المطبوب ، وهذا بمنزلة إزالة المادة الخبيثة وقلعها من الجسد بالاستفراغ .

**والنوع الثانى** : الاستفراغ فى المحل الذى يصل إليه أذى السحر ، فإن للسحر تأثيرا فى الطبيعة، وهيجان أخلاطها ، وتشويش مزاجها ، فإذا ظهر أثره فى عضو ، وأمكن استفراغ المادة الرديئة من ذلك العضو ، نفع جدًا .

وقد ذكر أبو عبيد فى كتاب « غريب الحديث » له بإسناده ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، أن النبى ﷺ احتجم على رأسه بقرن حين طب (٣) قال أبو عبيد : معنى طب : أى سحر .

وقد أشكل هذا على من قل علمه ، وقال : ما للحجامة والسحر ، وما الرابطة بين هذا الداء وهذا الدواء ، ولو وجد هذا القائل بقراط ، أو ابن سينا ، أو غيرهما قد نص على هذا العلاجة ، لتلقاه بالقبول والتسليم ، وقال : قد نص عليه من لا يشك فى معرفته وفضله .

---

(١ ، ٢) البخارى (٥٧٦٥) فى الطب ، باب : هل يستخرج السحر ؟، ومسلم (٢١٨٩ / ٤٣) فى السلام ، باب : السحر .

(٣) غريب الحديث للهروى (٤٣١٢) .

فاعلم أن مادة السحر الذى أصيب به ﷺ انتهت إلى رأسه إلى إحدى قواه التى فيه بحيث كان يخيل إليه أنه يفعل الشىء ولم يفعله ، وهذا تصرف من الساحر فى الطبيعة والمادة الدموية بحيث غلبت تلك المادة على البطن المقدم منه ، فغيرت مزاجه عن طبيعته الأصلية .

والسحر : هو مركب من تأثيرات الأرواح الخبيثة ، وانفعال القوى الطبيعية عنها ، وهو أشد ما يكون من السحر ، ولا سيما فى الموضع الذى انتهى السحر إليه ، واستعمال الحجامة على ذلك المكان الذى تضررت أفعاله بالسحر من أنفع المعالجة إذا استعملت على القانون الذى ينبغى .

قال بقراط : الأشياء التى ينبغى أن تستفرغ يجب أن تستفرغ من المواضع التى هى إليها أميل بالأشياء التى تصلح لاستفراغها .

وقالت طائفة من الناس : إن رسول الله ﷺ لما أصيب بهذا الداء ، وكان يخيل إليه أنه فعل الشىء ولم يفعله ، ظن أن ذلك عن مادة دموية أو غيرها مالت إلى جهة الدماغ ، وغلبت على البطن المقدم منه ، فأزالت مزاجه عن الحالة الطبيعية له ، وكان استعمال الحجامة إذ ذاك من أبلغ الأدوية ، وأنفع المعالجة ، فاحتجم ، وكان ذلك قبل أن يوحى إليه أن ذلك من السحر ، فلما جاءه الوحى من الله تعالى ، وأخبره أنه قد سحر ، عدل إلى العلاج الحقيقى وهو استخراج السحر وإبطاله،فسأل الله ـ سبحانه ـ فدله على مكانه ، فاستخرجه،فقام كأنما أنشط من عقال ،وكان غاية هذا السحر فيه إنما هو فى جسده ، وظاهر جوارحه،لا على عقله وقبله،ولذلك لم يكن يعتقد صحة ما يخيل إليه من إتيان النساء،بل يعلم أنه خيال لا حقيقة له،ومثل هذا قد يحدث من بعض الأمراض،والله أعلم .

ومن أنفع علاجات السحر الأدوية الإلهية ، بل هى أدويته النافعة بالذات ، فإنه من تأثيرات الأرواح الخبيثة السفلية ، ودفع تأثيرها يكون بما يعارضها ويقاومها من الأذكار ، والآيات ، والدعوات التى تبطل فعلها وتأثيرها ، وكلما كانت أقوى وأشد ، كانت أبلغ فى النشرة،وذلك بمنزلة التقاء جيشين مع كل واحد منهما عدته وسلاحه ،فأيهما غلب الآخر ، قهره ، وكان الحكم له ، فالقلب إذا كان ممتلئًا من الله مغمورًا بذكره ، وله من التوجهات والدعوات والأذكار والتعوذات ورد لا يخل به يطابق فيه قلبه لسانه ، كان هذا من أعظم الأسباب التى تمنع إصابة السحر له ، ومن أعظم العلاجات له بعد ما يصيبه .

وعند السحرة : أن سحرهم إنما يتم تأثيره فى القلوب الضعيفة المنفعلة ، والنفوس الشهوانية التى هى معلقة بالسفليات ، ولهذا فإن غالب ما يؤثر فى النساء ، والصبيان ،

والجهال ، وأهل البوادى ، ومن ضعف حظه من الدين والتوكل والتوحيد ، ومن لا نصيب له من الأوراد الإلهية والدعوات والتعوذات النبوية .

وبالجملة :فسلطان تأثيره فى القلوب الضعيفة المنفعلة التى يكون ميلها إلى السفليات ، قالوا : والمسحور هو الذى يعين على نفسه ، فإنا نجد قلبه متعلقًا بشىء كثير الالتفات إليه ، فيتسلط على قلبه بما فيه من الميل والالتفات ، والأرواح الخبيثة إنما تتسلط على أرواح تلقاها مستعدة لتسلطها عليها بميلها إلى ما يناسب تلك الأرواح الخبيثة،وبفراغها من القوة الإلهية ، وعدم أخذها للعدة التى تحاربها بها، فتجدها فارغة لا عدة معها، وفيها ميل إلى ما يناسبها ، فتتسلط عليها ، ويتمكن تأثيرها فيها بالسحر وغيره ، والله أعلم (١) .

## فائـــدة

قال (٢) فى رواية منها فى الرجل تأتيه المرأة المسحورة فيطلق عنها السحر ، قال : لا بأس . وحدثنا إسماعيل بن علية عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة قال : سألت سعيد بن المسيب عن المرأة تأتى الرجل فيطلق عنها السحر ،فقال : لا بأس ، فقلت لأحمد : أحدث بهذا عنك ، قال : نعم . وقال فى رواية المروزى : حممت ، فكتب لى فى الحمى : بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله وبالله ومحمد رسول الله **﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾** [ الأنبياء ]. اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، أشف صاحب هذا الكتاب بحولك وقوتك وجبريتك إله الحق، آمين، وقال فى رواية عبد الله : يكتب للمرأة إذا عسر عليها الولادة فى جام أو شىء نظيف : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين ، **﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾** [النازعات ] ، **﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾** [ الأحقاف : ٣٥ ] ، ثم تسقى وينضح بما بقى دون سرتها ، وقال فى رواية الكوسج: يكره التفل فى الرقية،ولا بأس بالنفخ ، وقال فى رواية صالح : الحقنة إذا كانت لضرورة فلا بأس ، وقال فى رواية المروزى : الحقنة إن اضطر إليها فلا بأس . قال المروزى : ووصف لأبى عبد الله ففعل (٣) .

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٢٤ ـ ١٢٧ ) .

(٢) أى الإمام أحمد ـ رحمه الله .

(٣) بدائع الفوائد (٤/١٢٢ ، ١٢٣) .

# فصل
# في هديه ﷺ في الاستفراغ بالقيء

روى الترمذي في « جامعه » عن معدان بن أبي طلحة ، عن أبي الدرداء ، أن النبي ﷺ قاء ، فتوضأ فلقيت ثوبان في مسجد دمشق ، فذكرت له ذلك ، فقال : صدق ، أنا صببت له وضوءه ، قال الترمذي : وهذا أصح شيء في الباب [١].

القيء أحد الاستفراغات الخمسة التي هي أصول الاستفراغ، وهي الإسهال ، والقيء ، وإخراج الدم ، وخروج الأبخرة والعرق ، وقد جاءت بها السنة .

فأما الإسهال: فقد مرَّ في حديث « خير ما تداويتم به المشي » وفي حديث « السنا » .

وأما إخراج الدم ، فقد تقدم في أحاديث الحجامة .

وأما استفراغ الأبخرة ، فنذكره عقيب هذا الفصل إن شاء الله .

وأما الاستفراغ بالعرق، فلا يكون غالبًا بالفصد، بل بدفع الطبيعة له إلى ظاهر الجسد ، فيصادف المسام مفتحة ، فيخرج منها .

والقيء استفراغ من أعلى المعدة، والحقنة من أسفلها ، والدواء من أعلاها وأسفلها ، والقيء : نوعان : نوع بالغلبة والهيجان ، ونوع بالاستدعاء والطلب ، فأما الأول : فلا يسوغ حبسه ودفعه إلا إذا أفرط وخيف منه التلف، فيقطع بالأشياء التي تمسكه، وأما الثاني: فأنفعه عند الحاجة إذا روعي زمانه وشروطه التي تذكر .

وأسباب القيء عشرة :

**أحدها** : غلبه المرة الصفراء ، وطفوها على رأس المعدة ، فتطلب الصعود .

**الثاني** : من غلبة بلغم لزج قد تحرك في المعدة ، واحتاج إلى الخروج .

**الثالث**: أن يكون من ضعف المعدة في ذاتها، فلا تهضم الطعام، فتقذفه إلى جهة فوق .

**الرابع** : أن يخالطها خلط رديء ينصب إليها ، فيسيء هضمها ، ويضعف فعلها .

**الخامس** : أن يكون من زيادة المأكول أو المشروب على القدر الذي تحتمله المعدة ، فتعجز عن إمساكه ، فتطلب دفعه وقذفه .

---

(١) الترمذي (٨٧) في الطهارة ، باب : ما جاء في الوضوء من القيء والرعاف .

**السادس** : أن يكون من عدم موافقة المأكول والمشروب لها ، وكراهتها له ، فتطلب دفعه وقذفه .

**السابع** : أن يحصل فيها ما يثور الطعام بكيفيته وطبيعته ، فتقذف به .

**الثامن** : القرف ، وهو موجب غثيان النفس وتهوعها .

**التاسع** : من الأعراض النفسانية ، كالهم الشديد ، والغم ، والحزن ، وغلبة اشتغال الطبيعة والقوى الطبيعية به ، واهتمامها بوروده عن تدبير البدن ، وإصلاح الغذاء ، وإنضاجه ، وهضمه ، فتقذفه المعدة ، وقد يكون لأجل تحرك الأخلاط عند تخبط النفس ، فإن كل واحد من النفس والبدن ينفعل عن صاحبه ، ويؤثر فى كيفيته .

**العاشر** : نقل الطبيعة بأن يرى من يتقيأ ، فيغلبه هو القىء من غير استدعاء ، فإن الطبيعة نقالة .

وأخبرنى بعض حذاق الأطباء ، قال : كان لى ابن أخت حذق فى الكحل ، فجلس كحالاً ، فكان إذا فتح عين الرجل ، ورأى الرمد وكحله ، رمد هو ، وتكرر ذلك منه ، فترك الجلوس . قلت له : فما سبب ذلك قال : نقل الطبيعة ، فإنها نقالة ، قال : وأعرف آخر ، كان رأى خراجًا فى موضع من جسم رجل يحكه . فحك هو ذلك الموضع، فخرجت فيه خراجة . قلت : وكل هذا لابد فيه من استعداد الطبيعة ، وتكون المادة ساكنة فيها غير متحركة ، فتتحرك لسبب من هذه الأسباب ، فهذه أسباب لتحرك المادة لا أنها هى الموجبة لهذا العارض .

ولما كانت الأخلاط فى البلاد الحارة ، والأزمنة الحارة ترق وتنجذب إلى فوق ، كان القىء فيها أنفع ،ولما كانت فى الأزمنة الباردة والبلاد الباردة تغلظ ، ويصعب جذبها إلى فوق ، كان استفراغها بالإسهال أنفع .

وإزالة الأخلاط ودفعها تكون بالجذب والاستفراغ ، والجذب يكون من أبعد الطرق ، والاستفراغ من أقربها ، والفرق بينهما أن المادة إذا كانت عاملة فى الانصباب أو الترقى لم تستقر بعد ، فهى محتاجة إلى الجذب ، فإن كانت متصاعدة جذبت من أسفل ، وإن كانت منصبة جذبت من فوق ،وأما إذا استقرت فى موضعها ، استفرغت من أقرب الطرق إليها ، فمتى أضرت المادة بالأعضاء العليا ، اجتذبت من أسفل ، ومتى أضرت بالأعضاء السفلى ، اجتذبت من فوق ، ومتى استقرت ، استفرغت من أقرب مكان إليها ، ولهذا احتجم النبى ﷺ على كاهله تارة ، وفى رأسه أخرى ، وعلى ظهر قدمه تارة ، فكان يستفرغ مادة الدم

المؤذى من أقرب مكان إليه . والله أعلم .

والقىء ينقى المعدة ويقويها ، ويحد البصر ،ويزيل ثقل الرأس ، وينفع قروح الكلى ، والمثانة ، والأمراض المزمنة كالجذام والاستسقاء ، والفالج والرعشة ، وينفع اليرقان .

وينبغى أن يستعمله الصحيح فى الشهر مرتين متواليتين من غير حفظ دور ، ليتدارك الثانى ما قصر عنه الأول ، وينقى الفضلات التى انصبت بسببه ، والإكثار منه يضر المعدة ، ويجعلها قابلة للفضول ، ويضر بالأسنان والبصر والسمع ، وربما صدع عرقًا ، ويجب أن يجتنبه من به ورم فى الحلق ، أو ضعف فى الصدر ، أو دقيق الرقبة ، أو مستعد لنفث الدم ، أو عسر الإجابة له .

وأما ما يفعله كثير ممن يسىء التدبير ، وهو أن يمتلئ من الطعام ، ثم يقذفه ، ففيه آفات عديدة ، منها : أنه يجعل الهرم ، ويوقع فى أمراض رديئة ، ويجعل القىء له عادة ، والقىء مع اليبوسة ، وضعف الأحشاء ، وهزال المراق ، أو ضعف المُستقىء خطر .

وأحمد أوقاته الصيف والربيع دون الشتاء والخريف ، وينبغى عند القىء أن يعصب العينين ، ويقمط البطن ، ويغسل الوجه بماء بارد عند الفراغ ، وأن يشرب عقيبه شراب التفاح مع يسير من مصطكى ، وماء الورد ينفعه نفعًا مبينا .

والقىء يستفرغ من أعلى المعدة ، ويجذب من أسفل ، والإسهال بالعكس ، قال أبقراط : وينبغى أن يكون الاستفراغ فى الصيف من فوق أكثر من الاستفراغ بالدواء ، وفى الشتاء من أسفل (١).

## فصل
## فى هديه ﷺ فى علاج القَمْل الذى فى الرأس وإزالته

فى « الصحيحين » عن كعب بن عجرة ، قال : كان بى أذى من رأسى ، فحملت إلى رسول الله ﷺ والقمل يتناثر على وجهى ، فقال : « ما كنت أرى الجهد قد بلغ بك ما أرى » (٢)،وفى رواية : فأمره أن يحلق رأسه ، وأن يطعم فرقاً بين ستة ، أو يهدى شاة ، أو يصوم ثلاثة أيام (٣) .

(١) زاد المعاد (٤/ ١٢٨ ـ ١٣٢) .

(٢) البخارى (١٨١٦) فى المحصر ، باب : الإطعام فى الفدية نصف صاع .

(٣) البخارى (١٨١٤) فى المحصر ، باب : قول الله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا ﴾ [ البقرة : ١٩٦] ، ومسلم (١٢٠١ / ٨٣ ، ٨٤) فى الحج ، باب : جواز حلق الرأس للمحرم .

القمل يتولد فى الرأس والبدن من شيئين : خارج عن البدن وداخل فيه ، فالخارج : الوسخ والدنس المتراكم فى سطح الجسد ، والثانى من خلط ردىء عفن تدفعه الطبيعة بين الجلد واللحم ، فيتعفن بالرطوبة الدموية فى البشرة بعد خروجها من المسام ، فيكون منه القمل ، وأكثر ما يكون ذلك بعد العلل والأسقام ، وبسبب الأوساخ ، وإنما كان فى رؤوس الصبيان أكثر لكثرة رطوباتهم وتعاطيهم الأسباب التى تولد القمل ، ولذلك حلق النبى ﷺ رؤوس بنى جعفر .

ومن أكبر علاجه: حلق الرأس لتنفتح مسام الأبخرة ، فتتصاعد الأبخرة الرديئة ، فتضعف مادة الخلط ، وينبغى أن يطلى الرأس بعد ذلك بالأدوية التى تقتل القمل ، وتمنع تولده .

وحلق الرأس ثلاثة أنواع : أحدها: نسك وقربة . والثانى : بدعة وشرك ، والثالث : حاجة ودواء ، فالأول : الحلق فى أحد النسكين ، الحج أو العمرة ، والثانى حلق الرأس لغير الله سبحانه ، كما يحلقها المريدون لشيوخهم ، فيقول أحدهم : أنا حلقت رأسى لفلان ، وأنت حلقته لفلان ، وهذا بمنزلة أن يقول : سجدت لفلان ، فإن حلق الرأس خضوع وعبودية وذل ، ولهذا كان من تمام الحج ، حتى إنه عند الشافعى ركن من أركانه لا يتم إلا به ، فإنه وضع النواصى بين يدى ربها خضوعًا لعظمته ، وتذللاً لعزته ، وهو من أبلغ أنواع العبودية؛ ولهذا كانت العرب إذا أرادت إذلال الأسير منهم وعتقه ، حلقوا رأسه وأطلقوه ، فجاء شيوخ الضلال والمزاحمون للربوبية الذين أساس مشيختهم على الشرك والبدعة ، فأرادوا من مريديهم أن يتعبدوا لهم ، فزينوا لهم حلق رؤوسهم لهم ، كما زينوا لهم السجود لهم ، وسموه بغير اسمه ، وقالوا : هو وضع الرأس بين يدى الشيخ،ولعمر الله إن السجود لله هو وضع الرأس بين يديه سبحانه ، وزينوا لهم أن ينذروا لهم ، ويتوبوا لهم، ويحلفوا بأسمائهم، وهذا هو اتخاذهم أربابًا وآلهة من دون الله، قال تعالى: **﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾** [ آل عمران ] .

وأشرف العبودية عبودية الصلاة ،وقد تقاسمها الشيوخ والمتشبهون بالعلماء والجبابرة ، فأخذ الشيوخ منها أشرف ما فيها ، وهو السجود ، وأخذ المتشبهون بالعلماء منها الركوع ، فإذا لقى بعضهم بعضًا ركع له كما يركع المصلى لربه سواء ، وأخذ الجبابرة منهم القيام ، فيقوم الأحرار والعبيد على رؤوسهم عبودية لهم ، وهم جلوس ، وقد نهى رسول الله

ﷺ عن هذه الأمور الثلاثة على التفصيل ، فتعاطيها مخالفة صريحة له ، فنهى عن السجود لغير الله وقال: « لا ينبغى لأحد أن يسجد لأحد » (١) . وأنكر على معاذ لما سجد له وقال : « مه » ، وتحريم هذا معلوم من دينه بالضرورة ، وتجويز من جوزه لغير الله مراغمة لله ورسوله ، وهو من أبلغ أنواع العبودية ، فإذا جوز هذا المشرك هذا النوع للبشر ، فقد جوز العبودية لغير الله، وقد صح أنه قيل له : الرجل يلقى أخاه أينحنى له ؟ قال : « لا »، قيل: أيلتزمه ويقبله قال : « لا » قيل : أيصافحه ؟ قال : « نعم » (٢) .

وأيضًا ، فالانحناء عند التحية سجود ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا** ﴾ [البقرة : ٥٨] أى منحنين ، وإلا فلا يمكن الدخول على الجباه ، وصح عنه النهى عن القيام ، وهو جالس ، كما تعظم الأعاجم بعضها بعضًا ، حتى منع من ذلك فى الصلاة ، وأمرهم إذا صلى جالسًا أن يصلوا جلوسًا ، وهم أصحاء لا عذر لهم ، لئلا يقوموا على رأسه وهو جالس ، مع أن قيامهم لله ، فكيف إذا كان القيام تعظيمًا وعبودية لغيره ـ سبحانه .

والمقصود : أن النفوس الجاهلة الضالة أسقطت عبودية الله ـ سبحانه ـ وأشركت فيها من تعظمه من الخلق ، فسجدت لغير الله ، وركعت له ، وقامت بين يديه قيام الصلاة ، وحلفت بغيره ، ونذرت لغيره ، وحلقت لغيره ، وذبحت لغيره ، وطافت لغير بيته ، وعظمته بالحب ، والخوف ، والرجاء ، والطاعة ، كما يعظم الخالق ، بل أشد ، وسوت من تعبده من المخلوقين برب العالمين ، وهؤلاء هم المضادون لدعوة الرسل ، وهم الذين بربهم يعدلون ، وهم الذين يقولون ـ وهم فى النار مع آلهتهم يختصمون : ﴿**تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)** ﴾ [ الشعراء : ٩٨] ، وهم الذين قال فيهم : ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ [ البقرة: ١٦٥] . وهذا كله من الشرك ، والله لا يغفر أن يشرك به ، فهذا فصل معترض فى هديه فى حلق الرأس ولعله أهم مما قصد الكلام فيه ، والله الموفق (٣) .

---

(١) أحمد (٥ / ٢٢٧ ، ٢٢٨) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤/ ٣١٢) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٢) الترمذى (٢٧٢٨) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى المصافحة ، وقال : « حسن » ، وابن ماجه (٣٧٠٢) فى الأدب ، باب : المصافحة .

(٣) زاد المعاد (٤ / ١٥٨ ـ ١٦٢) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى علاج المصاب بالعين

روى مسلم فى « صحيحه » عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « العين حق ، ولو كان شىء سابق القدر ، لسبقته العين » (١) .

وفى « صحيحه » أيضًا عن أنس ، أن النبى ﷺ رخص فى الرقية من الحمة والعين والنملة (٢) .

وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « العين حق »(٣).

وفى « سنن أبى داود » عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان يؤمر العائن فيتوضأ ، ثم يغتسل منه المعين (٤) .

وفى « الصحيحين » عن عائشة قالت: أمرنى النبى ﷺ، أو أمر أن نسترقى من العين(٥).

وذكر الترمذى ، من حديث سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار عن عروة بن عامر ، عن عبيد بن رفاعة الزرقى ، أن أسماء بنت عميس ، قالت : يا رسول الله ، إن بنى جعفر تصيبهم العين أفأسترقى لهم ؟ فقال : « نعم ، فلو كان شىء يسبق القضاء لسبقته العين » قال الترمذى: « حديث حسن صحيح » (٦) .

وروى مالك ـ رحمه الله: عن ابن شهاب، عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف، قال : رأى عامر بن ربيعة سهل بن حنيف يغتسل ، فقال : والله ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة ! قال : فلبط سهل ، فأتى رسول الله ﷺ عامرًا ، فتغيظ عليه وقال : « علام يقتل أحدكم أخاه ألا بركت اغتسل له »، فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه، وأطراف رجليه، وداخلة إزاره فى قدح ، ثم صب عليه ، فراح مع الناس (٧) .

---

(١) مسلم (٢١٨٨ / ٤٢) فى السلام ، باب : الطب والمرض والرقى .

(٢) مسلم (٢١٩٦ / ٥٧) فى السلام ، باب : استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة .

(٣) البخارى (٥٧٤٠) فى الطب ، باب : العين حق ، ومسلم (٢١٨٧ / ٤١) فى السلام ، باب : الطب والمرض والرقى .

(٤) أبو داود (٣٨٨٠) فى الطب ، باب : ما جاء فى العين .

(٥) البخارى (٥٧٣٨) فى الطب ، باب : رقية العين ، ومسلم (٢١٩٥ / ٥٥) فى السلام ، باب : استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة .

(٦) الترمذى (٢٠٥٩) فى الطب ، باب : ما جاء فى الرقية من العين .

(٧) الموطأ (٢ / ٩٣٩) (٢) فى العين ، باب : الوضوء من العين .

وروى مالك ـ رحمه الله ـ أيضًا عن محمد بن أبى أمامة بن سهل ، عن أبيه هذا الحديث ، وقال فيه : « إن العين حق ، توضأ له » فتوضأ له (١) .

وذكر عبد الرزاق ، عن معمر ،عن ابن طاووس ، عن أبيه مرفوعًا : « العين حق ، ولو كان شىء سابق القدر لسبقته العين ، وإذا استغسل أحدكم فليغتسل » (٢) ، ووصله صحيح .

قال الزهرى : يؤمر الرجل العائن بقدح ، فيدخل كفه فيه ، فيتمضمض ، ثم يمجه فى القدح ، ويغسل وجهه فى القدح ، ثم يدخل يده اليسرى ، فيصب على ركبته اليمنى فى القدح ، ثم يدخل يده اليمنى ، فيصب على ركبته اليسرى ، ثم يغسل داخلة إزاره ، ولا يوضع القدح فى الأرض ثم يصب على رأس الرجل الذى تصيبه العين من خلفه صبة واحدة .

والعين عينان : عين إنسية ، وعين جنية ، فقد صح عن أم سلمة ، أن النبى ﷺ رأى فى بيتها جارية فى وجهها سفعة ، فقال : « استرقوا لها ، فإن بها النظرة » (٣) .

قال الحسين بن مسعود الفراء : وقوله : « سفعة » : أى نظرة ، يعنى : من الجن ، يقول : بها عين أصابتها من نظر الجن أنفذ من أسنة الرماح .

ويذكر عن جابر يرفعه : « إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر » (٤) .

وعن أبى سعيد ، أن النبى ﷺ كان يتعوذ من الجان ، ومن عين الإنسان (٥) .

فأبطلت طائفة ممن قل نصيبهم من السمع والعقل أمر العين ، وقالوا : إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها ، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ، ومن أغلظهم حجابًا ، وأكثفهم طباعًا ، وأبعدهم معرفة عن الأرواح والنفوس ، وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها ، وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا تدفع أمر العين ، ولا تنكره ، وإن اختلفوا فى سببه وجهة تأثير العين .

---

(١) الموطأ (٢ / ٩٣٨) (١) فى الكتاب والباب السابقين .

(٢) عبد الرزاق (١٩٧٧٠) .

(٣) البخارى (٥٧٣٩) فى الطب ، باب : رقية العين ، ومسلم (٢١٩٧ / ٥٩) فى السلام ، باب : استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة .

(٤) حلية الأولياء (٧ / ٩٠) ، وتاريخ بغداد (٩ / ٢٤٤) ، والكامل فى ضعفاء الرجال (٦ / ٤٠٨) .

(٥) الترمذى (٢٠٥٨) فى الطب ، باب : ما جاء فى الرقية بالمعوذتين ،وقال : « حسن غريب » ، والنسائى (٥٤٩٤) فى الاستعاذة ، باب : الاستعاذة من عين الجان ، وابن ماجه (٣٥١١) فى الطب ، باب : من استرقى من العين .

فقالت طائفة : إن العائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الرديئة ، انبعث من عينه قوة سمية تتصل بالمعين ، فيتضرر ، قالوا : ولا يستنكر هذا ، كما لا يستنكر انبعاث قوة سمية من الأفعى تتصل بالإنسان ، فيهلك ، وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعى أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك ، فكذلك العائن .

وقالت فرقة أخرى: لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة غير مرئية، فتتصل بالمعين ، وتتخلل مسام جسمه ، فيحصل له الضرر .

وقالت فرقة أخرى : قد أجرى الله العادة بخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين العائن لمن يعينه من غير أن يكون منه قوة ولا سبب ولا تأثير أصلاً ، وهذا مذهب منكرى الأسباب والقوى والتأثيرات فى العالم ، وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب العلل والتأثيرات والأسباب ، وخالفوا العقلاء أجمعين .

ولا ريب أن الله ـ سبحانه ـ خلق فى الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة ، وجعل فى كثير منها خواص ، وكيفيات مؤثرة ، ولا يمكن لعاقل إنكار تأثير الأرواح فى الأجسام ، فإنه أمر مشاهد محسوس ، وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرة شديدة إذا نظر إليه من يحتشمه ويستحى منه،ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه إليه، وقد شاهد الناس من يسقم من النظر وتضعف قواه ، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح ، ولشدة ارتباطها بالعين ينسب الفعل إليها ، وليست هى الفاعلة ، وإنما التأثير للروح ، والأرواح مختلفة فى طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها ، فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بينًا ؛ ولهذا أمر الله ـ سبحانه ـ رسوله أن يستعيذ به من شره ، وتأثير الحاسد فى أذى المحسود أمرٌ لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية ، وهو أصل الإصابة بالعين ، فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة،وتقابل المحسود ،فتؤثر فيه بتلك الخاصية ، وأشبه الأشياء بهذا الأفعى ، فإن السم كامن فيها بالقوة ، فإذا قابلت عدوها ، انبعثت منها قوة غضبية ، وتكيفت نفسها بكيفية خبيثة مؤذية ، فمنها ما تشتد كيفيتها وتقوى حتى تؤثر فى إسقاط الجنين ، ومنها ما تؤثر فى طمس البصر ، كما قال النبى ﷺ فى الأبتر ، وذى الطفيتين من الحيات : « إنهما يلتمسان البصر ، ويسقطان الحبل » (١) .

ومنها ، ما تؤثر فى الإنسان كيفيتها بمجرد الرؤية من غير اتصال به ، لشدة خبث تلك النفس ، وكيفيتها الخبيثة المؤثرة ، والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية ، كما يظنه

---

(١) البخارى (٣٢٩٧) فى بدء الخلق ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ [ البقرة : ١٦٤] ، ومسلم (١٢٩/٢٢٣٣) فى السلام ، باب : قتل الحيات وغيرها .

من قل علمه ومعرفته بالطبيعة والشريعة ، بل التأثير يكون تارة بالاتصال ، وتارة بالمقابلة ، وتارة بالرؤية ، وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه ، وتارة بالأدعية والرقى والتعوذات ، وتارة بالوهم والتخيل ، ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية ، بل قد يكون أعمى ، فيوصف له الشيء ، فتؤثر نفسه فيه ، وإن لم يره .

وكثير من العائنين يؤثر فى المعين بالوصف من غير رؤية ، وقد قال تعالى لنبيه : ﴿**وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ**﴾ [ القلم : ٥١] .

وقال : ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)** ﴾ [ سورة الفلق ] ، فكل عائن حاسد وليس كل حاسد عائنًا ، فلما كان الحاسد أعم من العائن ، كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن ، وهى سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعين تصيبه تارة وتخطئه تارة ، فإن صادفته مكشوفًا لا وقاية عليه ، أثرت فيه ، ولابد ، وإن صادفته حذرًا شاكى السلاح لا منفذ فيه للسهام ، لم تؤثر فيه ، وربما ردت السهام على صاحبها ، وهذا بمثابة الرمى الحسى سواء ، فهذا من النفوس والأرواح ، وذاك من الأجسام والأشباح ، وأصله من إعجاب العائن بالشيء ، ثم تتبعه كيفية نفسه الخبيثة ، ثم تستعين على تنفيذ سمها بنظرة إلى المعين .

وقد يعين الرجل نفسه ، وقد يعين بغير إرادته ، بل بطبعه ، وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنسانى، وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء: إن من عرف بذلك، حبسه الإمام ، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت ، وهذا هو الصواب قطعًا .

والمقصود : العلاج النبوى لهذه العلة ، وهو أنواع ، وقد روى أبو داود فى « سننه » عن سهل بن حنيف ، قال : مررنا بسيل ، فدخلت ، فاغتسلت فيه ، فخرجت محمومًا ، فنمى ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « مروا أبا ثابت يتعوذ » ، قال : فقلت : يا سيدى ، والرقى صالحة ؟فقال : « لا رقية إلا فى نفس، أو حمة أو لدغة » (١) .

والنفس : العين، يقال : أصابت فلانًا نفس ، أى : عين ، والنافس : العائن . واللدغة ـ بدال مهملة وغين معجمة ـ وهى ضربة العقرب ونحوها .

فمن التعوذات والرقى الإكثار من قراءة المعوذتين ، وفاتحة الكتاب ، وآية الكرسى ، ومنها التعوذات النبوية .

---

(١) أبو داود (٣٨٨٨) فى الطب ، باب : ما جاء فى الرقى ، وضعفه الألبانى .

نحو : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق .

ونحو : أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة .

ونحو : أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر ما ينزل من السماء ، ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ فى الأرض ، ومن شر ما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر طوارق الليل إلا طارق يطرق بخير يا رحمن .

ومنها : أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون .

ومنها : اللهم إنى أعوذ بوجهك الكريم ، وكلماتك التامات من شر ما أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت تكشف المأثم والمغرم ، واللهم إنه لا يهزم جندك ، ولا يخلف وعدك ، سبحانك وبحمدك .

ومنها : أعوذ بوجه الله العظيم الذى لا شىء أعظم منه ، وبكلماته التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، وأسماء الله الحسنى ، ما علمت منها وما لم أعلم ، من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر كل ذى شر لا أطيق شره ، ومن شر كل ذى شر أنت آخذ بناصيته ، إن ربى على صراط مستقيم .

ومنها : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، عليك توكلت ، وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، أعلم أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علمًا ، وأحصى كل شىء عددًا ، اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، وشر الشيطان وشركه ، ومن شر كل دابة آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم .

وإن شاء الله قال : تحصنت بالله الذى لا إله إلا هو ، إلهى وإله كل شىء ، واعتصمت بربى ورب كل شىء ، وتوكلت على الحى الذى لا يموت ، واستدفعت الشر بلا حول ولا قوة إلا بالله ، حسبى الله ونعم الوكيل ، حسبى الرب من العباد ، حسبى الخالق من المخلوق ، حسبى الرازق من المرزوق ، حسبى الذى هو حسبى ، حسبى الذى بيده ملكوت كل شىء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، حسبى الله وكفى ، سمع الله لمن دعا ، ليس وراء الله مرمى، حسبى الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم .

ومن جرب هذه الدعوات والعوذ ، عرف مقدار منفعتها ، وشدة الحاجة إليها ، وهى

تمنع وصول أثر العائن ، وتدفعه بعد وصوله بحسب قوة إيمان قائلها ، وقوة نفسه ، واستعداده ، وقوة توكله وثبات قلبه ، فإنها سلاح ، والسلاح بضاربه .

وإذا كان العائن يخشى ضرر عينه وإصابتها لمعين ، فليدفع شرها بقوله : الله بارك عليه ، كما قال النبى ﷺ لعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حنيف : « ألا بركت » أى : قلت : اللهم بارك عليه .

ومما يدفع به إصابة العين قول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، روى هشام بن عروة ، عن أبيه ، أنه كان إذا رأى شيئًا يعجبه ، أو دخل حائطًا من حيطانه ، قال : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله .

ومنها : رقية جبريل عليه السلام للنبى ﷺ التى رواها مسلم فى « صحيحه » « باسم الله أرقيك ، من كل شىء يؤذيك ، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك ، باسم الله أرقيك » (١) .

ورأى جماعة من السلف أن تكتب له الآيات من القرآن ، ثم يشربها . قال مجاهد : لا بأس أن يكتب القرآن ويغسله ، ويسقيه المريض ، ومثله عن أبى قلابة . ويذكر عن ابن عباس : أنه أمر أن يكتب لامرأة تعسر عليها ولادها أثر من القرآن ، ثم يغسل وتسقى . وقال أيوب : رأيت أبا قلابة كتب كتابًا من القرآن ، ثم غسله بماء، وسقاه رجلاً كان به وجع .

ومنها : أن يؤمر العائن بغسل مغابنه وأطرافه وداخلة إزاره ، وفيه قولان : أحدهما : أنه فرجه . والثانى : أنه طرف إزاره الداخل الذى يلى جسده من الجانب الأيمن ، ثم يصب على رأس المعين من خلفه بغتة ، وهذا مما لا يناله علاج الأطباء ، ولا ينتفع به من أنكره ، أو سخر منه ، أو شك فيه ، أو فعله مجربًا لا يعتقد أن ذلك ينفعه .

وإذا كان فى الطبيعة خواص لا تعرف الأطباء عللها البتة ، بل هى عندهم خارجة عن قياس الطبيعة تفعل بالخاصية ، فما الذى ينكره زنادقتهم وجهلتهم من الخواص الشرعية ، هذا مع أن فى المعالجة بهذا الاستغسال ما تشهد له العقول الصحيحة ، وتقر لمناسبته ، فاعلم أن ترياق سم الحية فى لحمها ، وأن علاج تأثير النفس الغضبية فى تسكين غضبها ، وإطفاء ناره بوضع يدك عليه ، والمسح عليه ، وتسكين غضبه ، وذلك بمنزلة رجل معه شعلة من نار ، وقد أراد أن يقذفك بها ، فصببت عليها الماء ، وهى فى يده حتى طفئت ،

(١) مسلم (٢١٨٦ / ٤٠) فى السلام ، باب : الطب والمرض والرقى .

ولذلك أمر العائن أن يقول : « اللهم بارك عليه » ليدفع تلك الكيفية الخبيثة بالدعاء الذى هو إحسان إلى المعين ، فإن دواء الشىء بضده ، ولما كانت هذه الكيفية الخبيثة تظهر فى المواضع الرقيقة من الجسد ، لأنها تطلب النفوذ ، فلا تجد أرق من المغابن، وداخلة الإزار، ولاسيما إن كان كناية عن الفرج ،فإذا غسلت بالماء ، بطل تأثيرها وعملها ؛ وأيضًا فهذه المواضع للأرواح الشيطانية بها اختصاص .

والمقصود : أن غسلها بالماء يطفئ تلك النارية ، ويذهب بتلك السمية.

وفيه أمر آخر ، وهو وصول أثر الغسل إلى القلب من أرق المواضع وأسرعها تنفيذًا ، فيطفئ تلك النارية والسمية بالماء ، فيشفى المعين ، وهذا كما أن ذوات السموم إذا قتلت بعد لسعها، خف أثر اللسعة عن الملسوع ، ووجد راحة ، فإن أنفسها تمد أذاها بعد لسعها ، وتوصله إلى الملسوع ، فإذا قتلت ، خف الألم ، وهذا مشاهد ، وإن كان من أسبابه فرح الملسوع ، واشتفاء نفسه بقتل عدوه ، فتقوى الطبيعة على الألم ، فتدفعه .

وبالجملة : غسل العائن يذهب تلك الكيفية التى ظهرت منه ، وإنما ينفع غسله عند تكيف نفسه بتلك الكيفية .

فإن قيل : فقد ظهرت مناسبة الغسل ، فما مناسبة صب ذلك الماء على المعين قيل : هو فى غاية المناسبة ، فإن ذلك الماء ماء طفئ به تلك النارية ، وأبطل تلك الكيفية الرديئة من الفاعل ، فكما طفئت به النارية القائمة بالفاعل طفئت به ، وأبطلت عن المحل المتأثر بعد ملابسته للمؤثر العائن ، والماء الذى يطفأ به الحديد يدخل فى أدوية عدة طبيعية ذكرها الأطباء، فهذا الذى طفئ به نارية العائن ، لا يستنكر أن يدخل فى دواء يناسب هذا الداء ، وبالجملة : فطب الطبائعية وعلاجهم بالنسبة إلى العلاج النبوى ، كطب الطرقية بالنسبة إلى طبهم ، بل أقل ، فإن التفاوت الذى بينهم وبين الأنبياء أعظم ، وأعظم من التفاوت الذى بينهم وبين الطرقية بما لا يدرك الإنسان مقداره ، فقد ظهرت لك عقد الإخاء الذى بين الحكمة والشرع ، وعدم مناقضة أحدهما للآخر ، والله يهدى من يشاء إلى الصواب ، ويفتح لمن أدام قرع باب التوفيق منه كل باب ، وله النعمة السابغة ، والحجة البالغة .

ومن علاج ذلك أيضًا والاحتراز منه ستر محاسن من يخاف عليه العين بما يردها عنه ، كما ذكر البغوى فى كتاب « شرح السنة » : أن عثمان رضي الله عنه رأى صبيًا مليحًا ، فقال : دسموا نونته ، لئلا تصيبه العين ، ثم قال فى تفسيره : ومعنى : دسموا نونته : أى : سودوا نونته ،والنونة : النقرة التى تكون فى ذقن الصبى الصغير .

وقال الخطابى فى « غريب الحديث » له عن عثمان : إنه رأى صبيًا تأخذه العين ، فقال :دسموا نونته . فقال أبو عمرو : سألت أحمد بن يحيى عنه ، فقال : أراد بالنونة : النقرة التى فى ذقنه . والتدسيم : التسويد ، أراد : سودوا ذلك الموضع من ذقنه ، ليرد العين . قال : ومن هذا حديث عائشة أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم ، وعلى رأسه عمامة دسماء ، أى : سوداء ، أراد الاستشهاد على اللفظة ، ومن هذا أخذ الشاعر قوله :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيه من العين

ومن الرقى التى ترد العين ما ذكر عن أبى عبد الله الساجى ، أنه كان فى بعض أسفاره للحج أو الغزو على ناقة فارهة،وكان فى الرفقة رجل عائن ،قلما نظر إلى شىء إلا أتلفه ، فقيل لأبى عبد الله : احفظ ناقتك من العائن ، فقال : ليس له إلى ناقتى سبيل ، فأخبر العائن بقوله ، فتحين غيبة أبى عبد الله ، فجاء إلى رحله ، فنظر إلى الناقة ، فاضطربت وسقطت ، فجاء أبو عبد الله ، فأخبر أن العائن قد عانها ، وهى كما ترى ، فقال : دلونى عليه ، فدل ، فوقف عليه ، وقال : بسم الله ، حبس حابس ، وحجر يابس، وشهاب قابس ، رددت عين العائن عليه ، وعلى أحب الناس إليه ، ﴿ **فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)** ﴾ [ الملك ] ، فخرجت حدقتا العائن ، وقامت الناقة لا بأس بها (١) .

# فصل

## فى هديه ﷺ فى العلاج العام لكل شكوى بالرقية الإلهية

روى أبو داود فى « سننه » : من حديث أبى الدرداء ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من اشتكى منكم شيئًا ، أو اشتكاه أخ له فليقل : ربنا الله الذى فى السماء ، تقدس اسمك ، أمرك فى السماء والأرض كما رحمتك فى السماء ، فاجعل رحمتك فى الأرض ، واغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين ، أنزل رحمة من رحمتك ، وشفاء من شفائك على هذا الوجع ، فيبرأ بإذن الله » (٢) .

وفى « صحيح مسلم » عن أبى سعيد الخدرى ،أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ فقال : يا محمد ، اشتكيت ؟ فقال : « نعم » ، فقال جبريل عليه السلام : « باسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك ، من شر كل نفس أو عين حاسدٍ الله يشفيك ، باسم الله أرقيك » (٣) .

(١) زاد المعاد ( ٤ / ١٦٢ ـ ١٧٤ ) .

(٢) أبو داود (٣٨٩٢) فى الطب ، باب : كيف الرقى ، وضعفه الألبانى .

(٣) سبق تخريجه ص ٢١٥ .

فإن قيل : فما تقولون فى الحديث الذى رواه أبو داود : « لا رقية إلا من عين ، أو حمة » والحمة : ذوات السموم كلها .

فالجواب : أنه ﷺ لم يرد به نفى جواز الرقية فى غيرها ، بل المراد به : لا رقية أولى وأنفع منها فى العين والحمة ، ويدل عليه سياق الحديث ، فإن سهل بن حنيف قال له لما أصابته العين : أو فى الرقى خير ؟ فقال : « لا رقية إلا فى نفس أو حمة » ويدل عليه سائر أحاديث الرقى العامة والخاصة ، وقد روى أبو داود من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا رقية إلا من عين أو حمة أو دم يرقأ » (١) .

وفى « صحيح مسلم » عنه أيضًا : رخص رسول الله ﷺ فى الرقية من العين والحمة والنملة (٢) (٣) .

## وأيضـًا

عن عائشة ﵂ قالت : كان النبى ﷺ يقول للإنسان ـ إذا اشتكى ـ يقول بريقه ، ثم قال به فى التراب : « تربة أرضنا ، بريق بعضنا ، يشفى سقيمنا بإذن ربنا » (٤) . وأخرجه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه (٥) .

وفى الصحيحين عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يأمرها أن تسترقى من العين » (٦).

وفى الصحيحين عن أم سلمة : أن النبى ﷺ قال لجارية فى بيت أم سلمة ، رأى بوجهها سفعة ، فقال : « بها نظرة ، فاسترقوا لها » (٧) يعنى بوجهها صفرة .

وفى صحيح مسلم عن جابر قال: رخص رسول الله ﷺ لآل حزم فى رقية الحية (٨) .

وقال لأسماء بنت عميس : ما لى أرى أجسام بنى أخى ضارعة ، أتصيبهم الحاجة ؟ قالت : لا ، ولكن العين تسرع إليهم ، قال : « ارقيهم » ، قال : فعرضت عليه ، فقال :

---

(١) أبو داود (٣٨٨٩) فى الطب ، باب : ما جاء فى الرقى ، وضعفه الألبانى .

(٢) مسلم (٢١٩٦ / ٥٧) فى السلام ، باب : استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة .

(٣) زاد المعاد (٤ / ١٧٤ ، ١٧٥) .

(٤) أبو داود (٣٨٩٥) فى الطب ، باب : كيف الرقى .

(٥) البخارى (٥٧٤٥، ٥٧٤٦) فى الطب ، باب : رقية النبى ﷺ ، ومسلم (٢١٩٤ / ٥٤ ) فى السلام ، باب : استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة،والنسائى فى الكبرى (١٠٨٦٢) فى عمل اليوم والليلة ، باب : ذكر رقية رسول الله ﷺ ، وابن ماجه (٣٥٢١) فى الطب ، باب : ما عوّذ به النبى ﷺ وما عُوّذ منه .

(٦) سبق تخريجه ص ٢١٠ . (٧) سبق تخريجه ص ٢١١ .

(٨) مسلم (٢١٩٩ / ٦١) فى السلام ، باب : استحباب الرقية من العين ، والنملة والحمة والنظرة .

« ارقيهم » (١) .

وفى صحيح مسلم أيضًا عن جابر قال : لدغت رجلا منا عقرب ، ونحن جلوس مع رسول الله ﷺ ، فقال رجل : يا رسول الله ، أرقى له ؟ قال : « من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل » (٢) .

وأما ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث جابر : أن رسول الله ﷺ نهى عن الرقى (٣) ، فهذا لا يعارض هذه الأحاديث ، فإنه إنما نهى عن الرقى التى تتضمن الشرك ، وتعظيم غير الله ـ سبحانه ـ كغالب رقى أهل الشرك .

والدليل على هذا : ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث عوف بن مالك الأشجعى قال : كنا نرقى فى الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله ، كيف ترى فى ذلك ؟ فقال : « اعرضوا على رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك » (٤) .

وفى حديث النهى أيضًا : ما يدل على ذلك .

فإن جابرًا قال : نهى رسول الله ﷺ عن الرقى ، فجاء آل عمرو بن حزم إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ، إنه كانت عندنا رقية نرقى بها من العقرب ، وإنك نهيت عن الرقى ، قال : « فاعرضوها على » ، فعرضوها عليه ، فقال : « ما أرى بها بأسًا ، من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه » رواه مسلم (٥) .

وهذا المسلك فى هذه الأحاديث وأمثالها : فيما يكون المنهى عنه نوعًا ، والمأذون فيه نوعًا آخر ، وكلاهما داخل تحت اسم واحد من تفطن له زال عنه اضطراب كثير ، يظنه من لم يحط علمًا بحقيقة المنهى عنه من ذلك الجنس ، والمأذون فيه متعارضًا ، ثم يسلك مسلك النسخ ، أو تضعيف أحد الأحاديث .

وأما هذه الطريقة فلا يحتاج صاحبها إلى ركوب طريق النسخ، ولا تعسف أنواع العلل.

وقد يظهر فى كثير من المواضع ، مثل هذا الموضع ، وقد يدق ويلطف فيقع الاختلاف بين أهل العلم ، والله يسعد بإصابة الحق من يشاء ، وذلك فضله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم (٦) .

---

(١) مسلم (٢١٩٨ / ٦٠) فى الكتاب والباب السابقين .
(٢) مسلم (٢١٩٩ / ٦٢) فى الكتاب والباب السابقين . (٣) مسلم فى الموضع السابق .
(٤) مسلم (٢٢٠٠ / ٦٤) فى السلام ، باب : لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك .
(٥) مسلم (٢١٩٩ / ٦٣) فى السلام ، باب : استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة .
(٦) تهذيب السنن (٢ / ٣٦٦ ، ٣٦٧) .

# فصل
## فى هديه ﷺ فى رقية اللديغ بالفاتحة

أخرجا فى « الصحيحين » من حديث أبى سعيد الخدرى ، قال : انطلق نفر من أصحاب النبى ، فى سفرة سافروها حتى نزلوا على حى من أحياء العرب ، فاستضافوهم ، فأبوا أن يضيفوهم ، فلدغ سيد ذلك الحى ، فسعوا له بكل شىء لا ينفعه شىء ، فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعلهم أن يكون عند بعضهم شىء ، فأتوهم ، فقالوا : يا أيها الرهط ، إن سيدنا لدغ ، وسعينا له بكل شىء لا ينفعه ، فهل عند أحدٍ منكم من شىء ؟ فقال بعضهم : نعم والله إنى لأرقى، ولكن استضفناكم، فلم تضيفونا ، فما أنا براقٍ حتى تجعلوا لنا جعلاً فصالحوهم على قطيع من الغنم ، فانطلق يتفل عليه ، ويقرأ الحمد لله رب العالمين ، فكأنما نشط فى عقال ، فانطلق يمشى وما به قلبة ، قال : فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذى رقى: لا تفعلوا حتى نأتى رسول الله ﷺ ،فنذكر له الذى كان ، فننظر ما يأمرنا ، فقدموا على رسول الله ﷺ ، فذكروا له ذلك ، فقال : « وما يدريك أنها رقية ؟ » ، ثم قال : « قد أصبتم ، اقسموا واضربوا لى معكم سهمًا » (١) .

وقد روى ابن ماجه فى « سننه » من حديث على قال : قال رسول الله ﷺ : « خير الدواء القرآن » (٢) .

ومن المعلوم أن بعض الكلام له خواص ومنافع مجربة ،فما الظن بكلام رب العالمين ، الذى فضله على كل كلام كفضل الله على خلقه الذى هو الشفاء التام ،والعصمة النافعة ، والنور الهادى ، والرحمة العامة ، الذى لو أنزل على جبل لتصدع من عظمته وجلالته . قال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ الإسراء : ٨٢] ، و « من » هاهنا لبيان الجنس لا للتبعيض ، هذا أصح القولين ، كقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [ الفتح : ٢٩] وكلهم من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فما الظن بفاتحة الكتاب التى لم ينزل فى القرآن ، ولا فى التوراة ،

---

(١) البخارى (٥٩٤٧) فى الطب ، باب : النفث فى الرقية ، ومسلم (٢٢٠١ / ٦٥) فى السلام ، باب : جواز أخذ الأجرة على الرقية .

(٢) ابن ماجه (٣٥٠١) فى الطب ، باب : الاستشفاء بالقرآن وفى الزوائد : « فى إسناده الحارث الأعور ، وهو ضعيف » ، وضعفه الألبانى .

ولا فى الإنجيل ، ولا فى الزبور مثلها ، المتضمنة لجميع معانى كتب الله ، المشتملة على ذكر أصول أسماء الرب ـ تعالى ـ ومجامعها ، وهى الله ، والرب ، والرحمن ، وإثبات المعاد ، وذكر التوحيدين : توحيد الربوبية ، وتوحيد الإلهية ، وذكر الافتقار إلى الرب ـ سبحانه فى طلب الإعانة وطلب الهداية ، وتخصيصه ـ سبحانه ـ بذلك ، وذكر أفضل الدعاء على الإطلاق وأنفعه وأفرضه، وما العباد أحوج شىء إليه ، وهو الهداية إلى صراطه المستقيم، المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه ، والاستقامة عليه إلى الممات ، ويتضمن ذكر أصناف الخلائق وانقسامهم إلى منعم عليه بمعرفة الحق ، والعمل به ، ومحبته ، وإيثاره ، ومغضوب عليه بعدوله عن الحق بعد معرفته له ، وضال بعدم معرفته له ، وهؤلاء أقسام الخليقة مع تضمنها لإثبات القدر ، والشرع ، والأسماء ، والصفات ، والمعاد ، والنبوات ، وتزكية النفوس ، وإصلاح القلوب ، وذكر عدل الله وإحسانه ، والرد على جميع أهل البدع والباطل ، كما ذكرنا ذلك فى كتابنا الكبير « مدارج السالكين » فى شرحها ، وحقيق بسورة هذا بعض شأنها ، أن يستشفى بها من الأدواء ، ويرقى بها اللديغ .

وبالجملة فما تضمنته الفاتحة من إخلاص العبودية والثناء على الله ، وتفويض الأمر كله إليه ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ، وسؤاله مجامع النعم كلها ، وهى الهداية التى تجلب النعم ، وتدفع النقم ، من أعظم الأدوية الشافية الكافية .

وقد قيل : إن موضع الرقية : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [ الفاتحة : ٥] ، ولا ريب أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء ، فإن فيهما من عموم التفويض والتوكل ، والالتجاء والاستعانة ، والافتقار والطلب ، والجمع بين أعلى الغايات ، وهى عبادة الرب وحده ، وأشرف الوسائل وهى الاستعانة به على عبادته ما ليس فى غيرها ، ولقد مر بى وقت بمكة سقمت فيه ، وفقدت الطبيب والدواء ، فكنت أتعالج بها ، آخذ شربة من ماء زمزم ، وأقرؤها عليها مرارًا ، ثم أشربه ، فوجدت بذلك البرء التام ، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع ، فأنتفع بها غاية الانتفاع .

وفى تأثير الرقى بالفاتحة وغيرها فى علاج ذوات السموم سر بديع ، فإن ذوات السموم أثرت بكيفيات نفوسها الخبيثة ، كما تقدم ، وسلاحها وحماتها التى تلدغ بها ، وهى لا تلدغ حتى تغضب ، فإذا غضبت ، ثار فيها السم ، فتقذفه بآلتها ، وقد جعل الله سبحانه لكل داء دواء ، ولكل شىء ضدًا ، ونفس الراقى تفعل فى نفس المرقى بين نفسيهما فعل وانفعال ، كما يقع بين الداء والدواء ، فتقوى نفس الراقى وقوته بالرقية على ذلك الداء ،

فيدفعه بإذن الله ، ومدار تأثير الأدوية والادواء على الفعل ، والانفعال ، وهو كما يقع بين الداء والدواء الطبيعيين ، يقع بين الداء والدواء الروحانيين ، والروحانى والطبيعى ، وفى النفث والتفل استعانة بتلك الرطوبة والهواء، والنفس المباشر للرقية، والذكر والدعاء، فإن الرقية تخرج من قلب الراقى وفمه ، فإذا صاحبها شىء من أجزاء باطنه من الريق والهواء والنفس ، كانت أتم تأثيرًا ، وأقوى فعلاً ونفوذًا ، ويحصل بالازدواج بينهما كيفية مؤثرة شبيهة بالكيفية الحادثة عند تركيب الأدوية .

وبالجملة : فنفس الراقى تقابل تلك النفوس الخبيثة ، وتزيد بكيفية نفسه ، وتستعين بالرقية وبالنفث على إزالة ذلك الأثر ، وكلما كانت كيفية نفس الراقى أقوى ، كانت الرقية أتم ، واستعانته بنفثه كاستعانة تلك النفوس الرديئة بلسعها .

وفى النفث سر آخر ، فإنه مما تستعين به الأرواح الطيبة والخبيثة ، ولهذا تفعله السحرة كما يفعله أهل الإيمان . قال تعالى : ﴿**وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ** ④﴾ [ الفلق ] ، وذلك لأن النفس تتكيف بكيفية الغضب والمحاربة ، وترسل أنفاسها سهمًا لها ، وتمدها بالنفث والتفل الذى معه شىء من الريق مصاحب لكيفية مؤثرة ، والسواحر تستعين بالنفث استعانةً بينة ، وإن لم تتصل بجسم المسحور ، بل تنفث على العقدة وتعقدها ، وتتكلم بالسحر ، فيعمل ذلك فى المسحور بتوسط الأرواح السفلية الخبيثة ، فتقابلها الروح الزكية الطيبة بكيفية الدفع والتكلم بالرقية ، وتستعين بالنفث ، فأيهما قوى كان الحكم له ، ومقابلة الأرواح بعضها لبعض، ومحاربتها وآلتها من جنس مقابلة الأجسام ، ومحاربتها وآلتها سواء ، بل الأصل فى المحاربة والتقابل للأزواح والأجسام وآلاتها وجندها ، ولكن من غلب عليه الحس لا يشعر بتأثيرات الأرواح وأفعالها وانفعالاتها لاستيلاء سلطان الحس عليه ، وبعده من عالم الأرواح ، وأحكامها ، وأفعالها .

والمقصود :أن الروح إذا كان قوية وتكيفت بمعانى الفاتحة، واستعانت بالنفث والتفل ، قابلت ذلك الأثر الذى حصل من النفوس الخبيثة ، فأزالته والله أعلم (١) .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ١٧٦ ـ ١٧٨) .

# فصل
## فى بيان اشتمال الفاتحة على الشفاءين : شفاء القلوب ، وشفاء الأبدان

فأما اشتمالها على شفاء القلوب : فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال ، فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين : فساد العلم ، وفساد القصد .

ويترتب عليهما داءان قاتلان ، وهما الضلال والغضب ، فالضلال نتيجة فساد العلم . والغضب نتيجة فساد القصد ، وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها ، فهداية الصراط المستقيم : تتضمن الشفاء من مرض الضلال ، ولذلك كان سؤال هذه الهداية : أفرض دعاء على كل عبد ، وأوجبه عليه كل يوم وليلة ، فى كل صلاة ، لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة ، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه .

والتحقيق بـ ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴿٥﴾ ﴾ [ الفاتحة ] علمًا ومعرفة ، وعملاً وحالاً : يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد ، فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية ، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعى قصده فاسدا، وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته : من المشركين ، ومتبعى الشهوات ، الذين لا غاية لهم وراءها ، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأى طريق كان من حق أو باطل ، فإذا جاء الحق معارضًا فى طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم ، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل ، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه فى الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى ، وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان ، فإذا لم يجدوا منه بدًا أعطوه السكة والخطبة وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ ، وإن جاء الحق ناصرًا لهم وكان لهم صالوا به وجالوا ، وأتوا إليه مذعنين ، لا لأنه حق ، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم ، وانتصارهم به ﴿ **وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ** ﴿٤٨﴾ **وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ** ﴿٤٩﴾ **أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴿٥٠﴾ ﴾ [ النور ] .

والمقصود : أن قصد هؤلاء فاسد فى غاياتهم ووسائلهم ، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التى طلبوها ، واضمحلت وفنيت ، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات ، وهم أعظم الناس ندامة وتحسرا ، إذا حق الحق وبطل الباطل ، وتقطعت بهم أسباب الوصل التى

كانت بينهم ، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة ، وهذا يظهر كثيرًا فى الدنيا ، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله . ويشتد ظهوره وتحققه فى البرزخ ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء ، إذا حقت الحقائق ، وفاز المحقون وخسر المبطلون ، وعلموا أنهم كانوا كاذبين ، وكانوا مخدوعين مغرورين ، فيا له هناك من علم لا ينفع عالمه ، ويقين لا ينجى مستيقنه .

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى ، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه ، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه ، وهى من أعظم القواطع عنه، فحاله أيضًا كحال هذا ، وكلاهما فاسد القصد ، ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء « إياك نعبد وإياك نستعين » .

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء : عبودية الله لا غيره ، بأمره وشرعه ، لا بالهوى ، ولا بآراء الرجال وأوضاعهم ، ورسومهم ، وأفكارهم ، بالاستعانة على عبوديته به ، لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره .

فهذه هى أجزاء ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ فإذا ركبها الطبيب اللطيف، العالم بالمرض، واستعملها المريض حصل بها الشفاء التام ، وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها ، أو اثنين أو أكثر .

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان ، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولا بد، وهما الرياء، والكبر، فدواء الرياء بـ ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ ودواء الكبر بـ ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ .

وكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ تدفع الرياء ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ تدفع الكبرياء .

فإذا عوفى من مرض الرياء بـ ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ ومن مرض الكبرياء والعجب بـ ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ ومن مرض الضلال والجهل بـ ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ⁽٦⁾ ﴾ [ الفاتحة : ٦] عوفى من أمراضه وأسقامه ، ورفل فى أثواب العافية ، وتمت عليه النعمة ،وكان من المنعم عليهم ﴿ **غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ** ﴾ [ الفاتحة : ٧] وهم أهل فساد القصد ،الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه ﴿**وَلا الضَّالِّينَ** ﴾ [ الفاتحة : ٧] وهم أهل فساد العلم ،الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه .

وحق لسورة تشتمل على هذين الشفاءين : أن يستشفى بها من كل مرض ؛ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذى هو أعظم الشفاءين ، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى ، كما سنبينه، فلا شىء أشفى للقلوب التى عقلت عن الله وكلامه، وفهمت عنه فهمًا خاصًا،

اختصها به ، من معانى هذه السورة .

وأما تضمنها لشفاء الأبدان : فنذكر منه ما جاءت به السنة ، وما شهدت به قواعد الطب ، ودلت عليه التجربة .

فأما ما دلت عليه السنة : ففى الصحيح من حديث أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى : أن ناسًا من أصحاب النبى ﷺ مروا بحى من العرب ، فلم يقروهم ، ولم يضيفوهم ، فلدغ سيد الحى ، فأتوهم ، فقالوا : هل عندكم من رقية ، أو هل فيكم من راق ؟ فقالوا : نعم ، ولكنكم لم تقرونا ، فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلا ، فجعلوا لهم على ذلك قطيعًا من الغنم ، فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب ، فقام كأن لم يكن به قلبة ، فقلنا : لا تعجلوا حتى نأتى النبى ﷺ . فأتيناه ، فذكرنا له ذلك ، فقال : « ما يدرك أنها رقية ؟ كلوا ، واضربوا لى معكم بسهم » (١) .

فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه ، فأغنته عن الدواء ، وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء .

هذا مع كون المحل غير قابل، إما لكون هؤلاء الحى غير مسلمين ، أو أهل بخل ولؤم ، فكيف إذا كان المحل قابلاً .

وأما شهادة قواعد الطب بذلك : فاعلم أن اللدغة تكون من ذوات الحمات والسموم ، وهى ذوات الأنفس الخبيثة التى تتكيف بكيفية غضبية ، تثير فيها سمية نارية ، يحصل بها اللدغ، وهى متفاوتة بحسب تفاوت خبث تلك النفوس وقوتها وكيفيتها ، فإذا تكيفت أنفسها الخبيثة بتلك الكيفية الغضبية أحدث لها ذلك طبيعة سمية ، تجد راحة ولذة فى إلقائها إلى المحل القابل ، كما يجد الشرير من الناس راحة ولذة فى إيصال شره إلى من يوصله إليه ، وكثير من الناس لا يهنأ له عيش فى يوم لا يؤذى فيه أحدًا من بنى جنسه، ويجد فى نفسه تأذيًا بحمل تلك السمية والشر الذى فيه ، حتى يفرغه فى غيره ، فيبرد عند ذلك أنينه ، وتسكن نفسه ، ويصيبه فى ذلك نظير ما يصيب من اشتدت شهوته إلى الجماع ، فيسوء خلقه ، وتثقل نفسه حتى يقضى وطره ، هذا فى قوة الشهوة ، وذاك فى قوة الغضب .

وقد أقام الله تعالى بحكمته السلطان وازعًا لهذه النفوس الغضبية ، فلولا هو لفسدت الأرض وخربت ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)** ﴾ [ البقرة ] وأباح الله ـ بلطفه ورحمته ـ لهذه النفوس من الأزواج وملك اليمين ما يكسر حدتها .

(١) سبق تخريجه ص ٢٢١ .

والمقصود : أن هذه النفوس الغضبية إذا اتصلت بالمحل القابل أثرت فيه ، ومنها ما يؤثر فى المحل بمجرد مقابلته له ، وإن لم يمسه ، فمنها ما يطمس البصر ، ويسقط الحبل .

ومن هذا نظر العائن، فإنه إذا وقع بصره على المعين حدثت فى نفسه كيفية سمية أثرت فى المعين بحسب عدم استعداده ، وكونه أعزل من السلاح ، وبحسب قوة تلك النفس ، وكثير من هذه النفوس يؤثر فى المعين إذا وصف له،فتتكيف نفسه وتقابله على البعد فيتأثر به، ومنكر هذا ليس معدوداً من بنى آدم إلا بالصورة والشكل ، فإذا قابلت النفس الزكية العلوية الشريفة التى فيها غضب وحمية للحق هذه النفوس الخبيثة السمية ، وتكيفت بحقائق الفاتحة وأسرارها ومعانيها ، وما تضمنته من التوحيد والتوكل ، والثناء على الله ، وذكر أصول أسمائه الحسنى، وذكر اسمه الذى ما ذكر على شر إلا أزاله ومحقه ، ولا على خير إلا نماه وزاده ، دفعت هذه النفس بما تكيفت به من ذلك أثر تلك النفس الخبيثة الشيطانية ، فحصل البرء ، فإن مبنى الشفاء والبرء على دفع الضد بضده ، وحفظ الشىء بمثله ، فالصحة تحفظ بالمثل ، والمرض يدفع بالضد ، أسباب ربطها بمسبباتها الحكيم العليم خلقًا وأمرًا ، ولا يتم هذا إلا بقوة من النفس الفاعلة ، وقبول من الطبيعة المنفعلة ، فلو لم تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرقية ، ولم تقو نفس الراقى على التأثير، لم يحصل البر .

فهنا أمور ثلاثة : موافقة الدواء للداء ، وبذل الطبيب له ، وقبول طبيعة العليل ، فمتى تخلف واحد منها لم يحصل الشفاء ، وإذا اجتمعت حصل الشفاء ولا بد بإذن الله ـ سبحانه وتعالى .

ومن عرف هذا كما ينبغى تبين له أسرار الرقى ، وميز بين النافع منها وغيره ورقى الداء بما يناسبه من الرقى ، وتبين له أن الرقية براقيها وقبول المحل ، كما أن السيف بضاربه مع قبول المحل للقطع ، وهذه إشارة مطلعة على ما وراءها لمن دق نظره ، وحسن تأمله ، والله أعلم .

وأما شهادة التجارب بذلك : فهى أكثر من أن تذكر ، وذلك فى كل زمان ، وقد جربت أنا من ذلك فى نفسى وفى غيرى أموراً عجيبة ، ولا سيما مدة المقام بمكة ، فإنه كان يعرض لى آلام مزعجة بحيث تكاد تقطع الحركة منى وذلك فى أثناء الطواف وغيره ، فأبادر إلى قراءة الفاتحة وأمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط ، جربت ذلك مراراً عديدة وكنت آخذ قدحا من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مرارا فأشربه فأجد به من النفع والقوة ما

لم أعهده مثله فى الدواء ،والأمر أعظم من ذلك ولكن بحسب قوة الإيمان وصحة اليقين ، والله المستعان (١) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى علاج لدغة العقرب بالرقية

روى ابن أبى شيبة فى « مسنده » ، من حديث عبد الله بن مسعود، قال : بينا رسول الله ﷺ يصلى ، إذ سجد فلدغته عقرب فى أصبعه ،فانصرف رسول الله ﷺ وقال: « لعن الله العقرب ما تدع نبيا ولا غيره »، قال : ثم دعا بإناء فيه ماء وملح ، فجعل يضع موضع اللدغة فى الماء والملح ، ويقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، والمعوذتين حتى سكنت (٢) .

ففى هذا الحديث العلاج بالدواء المركب من الأمرين : الطبيعى والإلهى ، فإن فى سورة الإخلاص من كمال التوحيد العلمى الاعتقادى ، وإثبات الأحدية لله ، المستلزمة نفى كل شركة عنه ، وإثبات الصمدية المستلزمة لإثبات كل كمال له مع كون الخلائق تصمد إليه فى حوائجها، أى: تقصده الخليقة ، وتتوجه إليه، علويها وسفليها ، ونفى الوالد والولد، والكفء عنه المتضمن لنفى الأصل ، والفرع والنظير ، والمماثل مما اختصت به وصارت تعدل ثلث القرآن ، ففى اسمه الصمد إثبات كل الكمال وفى نفى الكفء التنزيه عن الشبيه والمثال ، وفى الأحد نفى كل شريك لذى الجلال ، وهذه الأصول الثلاثة هى مجامع التوحيد .

وفى المعوذتين الاستعاذة من كل مكروه جملة وتفصيلاً ، فإن الاستعاذة من شر ما خلق تعم كل شر يستعاذ منه ، سواء كان فى الأجسام أو الأرواح ، والاستعاذة من شر الغاسق وهو الليل ، وآيته وهو القمر إذا غاب ، تتضمن الاستعاذة من شر ما ينتشر فيه من الأرواح الخبيثة التى كان نور النهار يحول بينها وبين الانتشار ، فلما أظلم الليل عليها وغاب القمر ، انتشرت وعاثت .

والاستعاذة من شر النفاثات فى العقد تتضمن الاستعاذة من شر السواحر وسحرهن .

والاستعاذة من شر الحاسد تتضمن الاستعاذة من النفوس الخبيثة المؤذية بحسدها ونظرها .

(١) مدارج السالكين (١ / ٥٢ ـ ٥٨) .

(٢) انظر : الطبرانى فى الصغير (٢ / ٢٣ ) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ١١٤) : « إسناده حسن » .

والسورة الثانية : تتضمن الاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن ، فقد جمعت السورتان الاستعاذة من كل شر ، ولهما شأن عظيم فى الاحتراس والتحصن من الشرور قبل وقوعها، ولهذا أوصى النبى ﷺ عقبة بن عامر بقراءتهما عقب كل صلاة، ذكره الترمذى فى « جامعه » (١)، وفى هذا سر عظيم فى استدفاع الشرور من الصلاة إلى الصلاة. وقال : ما تعوذ المتعوذون بمثلهما . وقد ذكر أنه ﷺ سحر فى إحدى عشرة عقدة ، وأن جبريل نزل عليه بهما ، فجعل كلما يقرأ آية منهما انحلت عقدة ، حتى انحلت العقد كلها ، وكأنما نشط من عقال . وأما العلاج الطبيعى فيه ، فإن فى الملح نفعًا لكثير من السموم ، ولا سيما لدغة العقرب ، قال صاحب « القانون » : يضمد به مع بذر الكتان للسع العقرب ، وذكره غيره أيضًا ، وفى الملح من القوة الجاذبة المحللة ما يجذب السموم ويحللها ، ولما كان فى لسعها قوة نارية تحتاج إلى تبريد وجذب وإخراج جمع بين الماء المبرد لنار اللسعة ، والملح الذى فيه جذب وإخراج ، وهذا أتم ما يكون من العلاج وأيسره وأسهله ، وفيه تنبيه على أن علاج هذا الداء بالتبريد والجذب والإخراج ، والله أعلم .

وقد روى مسلم فى « صحيحه » عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، ما لقيت من عقرب لدغتنى البارحة فقال : « أما لو قلت حين أمسيت : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم تضرك » (٢) .

واعلم أن الأدوية الطبيعية الإلهية تنفع من الداء بعد حصوله ، وتمنع من قوعه ، وإن وقع لم يقع وقوعًا مضرًا ، وإن كان مؤذيًا، والأدوية الطبيعية إنما تنفع ، بعد حصول الداء ، فالتعوذات والأذكار ، إما أن تمنع وقوع هذه الأسباب ، وإما أن تحول بينها وبين كمال تأثيرها بحسب كمال التعوذ وقوته وضعفه ، فالرقى والعوذ تستعمل لحفظ الصحة ، ولإزالة المرض ، أما الأول : فكما فى « الصحيحين » من حديث عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفث فى كفيه ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين ، ثم يمسح بهما وجهه ، وما بلغت يده من جسده (٣) .

وكما فى حديث عوذة أبى الدرداء المرفوع : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم » ، وقد تقدم وفيه: « من قالها أول نهاره لم تصبه مصيبة

(١) الترمذى (٢٩٠٢) فى فضائل القرآن ، باب : ما جاء فى المعوذتين ، وقال : « حسن صحيح » .
(٢) مسلم (٢٧٠٩) فى الذكر والدواء ، باب : فى التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره .
(٣) البخارى (٥٧٤٨) فى الطب ، باب : النفث فى الرقية ، مسلم (٢١٩٢ / ٥٠) فى السلام ، باب : رقية المريض بالمعوذات والنفث .

حتى يمسى ، ومن قالها آخر نهاره لم تصبه مصيبة حتى يصبح » (١) .

وكما فى « الصحيحين » : « من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » (٢) .

وكما فى « صحيح مسلم » عن النبى ﷺ : « من نزل منزلاً فقال : « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك » (٣) .

وكما فى « سنن أبى داود » أن رسول الله ﷺ كان فى السفر يقول بالليل: « يا أرض، ربى وربك الله ، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك ، وشر ما يدب عليك ، أعوذ بالله من أسد وأسود ، ومن الحية والعقرب ، ومن ساكن البلد ، ومن والدٍ وما ولد » (٤) .

وأما الثانى : فكما تقدم من الرقية بالفاتحة ، والرقية للعقرب وغيرها مما يأتى (٥) .

## فصل

## فى هديه ﷺ فى رقية النملة

قد تقدم من حديث أنس الذى فى « صحيح مسلم » أنه ﷺ رخص فى الرقية من الحمة والعين والنملة .

وفى « سنن أبى داود » عن الشفاء بنت عبد الله ، قالت : دخل على رسول الله ﷺ وأنا عند حفصة ، فقال : « ألا تُعلِّمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة » (٦) .

النملة: قروح تخرج فى الجنبين ، وهو داء معروف ، وسمى نملة ؛ لأن صاحبه يحس فى مكانه كأن نملة تدب عليه وتعضه، وأصنافها ثلاثة ، قال ابن قتيبة وغيره : كان المجوس يزعمون أن ولد الرجل من أخته إذا خط على النملة ، شفى صاحبها ، ومنه قول الشاعر :

ولا عيب فينا غير عرف لمعشر كرام وأنا لا نخط على النمل

وروى الخلال : أن الشفاء بنت عبد الله كانت ترقى فى الجاهلية من النملة ، فلما هاجرت إلى النبى ﷺ وكانت قد بايعته بمكة ، قالت : يا رسول الله ، إنى كنت أرقى فى الجاهلية من النملة ، وإنى أريد أن أعرضها عليك ، فعرضت عليه فقالت : بسم الله

(١) كنز العمال (٣٥٨٣) وعزاه إلى الديلمى عن أبى الدرداء ، والأذكار للنووى (٢٢١) .
(٢) البخارى (٥٠٠٩) فى فضائل القرآن ، باب: فضل سورة البقرة ،ومسلم (٨٠٨ / ٢٥٥) فى صلاة المسافرين ، باب : فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة .
(٣) مسلم (٢٧٨٠٨ / ٥٤) فى الذكر والدعاء ، باب : فى التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره .
(٤) أبو داود (٢٦٠٣) فى الجهاد ، باب : ما يقول الرجل إذا نزل المنزل .
(٥) زاد المعاد ( ٤ / ١٨٠ ـ ١٨٤ ) .
(٦) أبو دواد (٣٨٨٧) فى الطب ، باب : ما جاء فى الرقى .

ضلت حتى تعود من أفواهها ، ولا تضر أحدًا ، اللهم اكشف البأس رب الناس ، قال : ترقى بها على عود سبع مرات، وتقصد مكانًا نظيفًا، وتدلكه على حجر بخل خمر حاذق ، وتطليه على النملة ، وفى الحديث : دليل على جواز تعليم النساء الكتابة (١) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى رقية الحية

قد تقدم قوله : « لا رقية إلا فى عين ، أو حمة » ، الحمة : بضم الحاء وفتح الميم وتخفيفها . وفى سنن ابن ماجه من حديث عائشة : رخص رسول الله ﷺ فى الرقية من الحية والعقرب (٢) . ويذكر عن ابن شهاب الزهرى قال : لدغ بعض أصحاب رسول الله ﷺ حية ، فقال النبى ﷺ : « هل من راق ؟ » فقالوا : يا رسول الله ، إن آل حزم كانوا يرقون رقية الحية ، فلما نهيت عن الرقى تركوها ، فقال :« ادعوا عمارة بن حزم » ، فدعوه ، فعرض عليه رقاه ، فقال : « لا بأس بها » فأذن له فيها فرقاه (٣) (٤) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى علاج الوجع بالرقية

روى مسلم فى « صحيحه » عن عثمان بن أبى العاص ، أنه شكى إلى رسول الله ﷺ وجعًا يجده فى جسده منذ أسلم ، فقال النبى ﷺ : « ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل :بسم الله ثلاثًا ،وقل سبع مرات:أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » (٥) ففى هذا العلاج من ذكر الله ، والتفويض إليه ، والاستعاذة بعزته وقدرته من شر الألم ما يذهب به ، وتكراره ليكون أنجع وأبلغ ، كتكرار الدواء لإخراج المادة ، وفى السبع خاصية لا توجد فى غيرها ، وفى « الصحيحين » : أن النبى ﷺ كان يعوذ بعض أهله ، يمسح بيده اليمنى ، ويقول : « اللهم رب الناس، أذهب الباس ، واشف أنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقمًا » (٦). ففى هذه الرقية توسل إلى الله بكمال ربوبيته

(١) زاد المعاد ( ٤ / ١٨٤ ، ١٨٥ ) .
(٢) ابن ماجه (٣٥١٧) فى الطب ، باب : رقية الحية والعقرب .
(٣) مسلم (٢١٩٩ / ٦١) فى السلام ، باب: استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة .
(٤) زاد المعاد ( ٤ / ١٨٥ ) .
(٥) مسلم (٢٢٠٢) فى السلام ، باب : استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء .
(٦) البخارى (٥٧٥٠) : فى الطب ، باب : مسح الراقى الوجع بيده اليمنى ، ومسلم (٢١٩١ / ٤٦) فى السلام ، باب : استحباب رقية المريض .

وكمال رحمته بالشفاء ، وأنه وحده الشافى ، وأنه لا شفاء إلا شفاؤه ، فتضمنت التوسل إليه بتوحيده وإحسانه وربوبيته (١) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى علاج حر المصيبة وحزنها

قال تعالى : ﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)** ﴾ [ البقرة ] ، وفى « المسند » عنه ﷺ أنه قال : « ما من أحد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خير منها ، إلا أجاره الله فى مصيبته ، وأخلف له خيراً منها » (٢) .

وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب ، وأنفعه له فى عاجلته وآجلته ، فإنها تتضمن أصلين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته :

**أحدهما** : أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل حقيقة ، وقد جعله عند العبد عارية ، فإذا أخذه منه ،فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير ، وأيضًا فإنه محفوف بعدمين : عدم قبله ، وعدم بعده ، وملك العبد له متعة معارة فى زمن يسير ، وأيضًا فإنه ليس الذى أوجده عن عدمه،حتى يكون ملكه حقيقة ، ولا هو الذى يحفظه من الآفات بعد وجوده ، ولا يبقى عليه وجوده ، فليس له فيه تأثير ، ولا ملك حقيقى ، وأيضًا فإنه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد المأمور المنهى ، لا تصرف الملاك ، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق أمر مالكه الحقيقى .

**والثانى** : أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق ، ولا بد أن يخلف الدنيا وراء ظهره ، ويجىء ربه فردًا كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة ، ولكن بالحسنات والسيئات ، فإذا كانت هذه بداية العبد وما خوله ونهايته ، فكيف يفرح بموجود ، أو يأسى على مفقود ، ففكره فى مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء .

**ومن علاجها** : أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه . قال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا**

(١) زاد المعاد ( ٤ / ١٨٨ ) .
(٢) أحمد (٤ / ٢٧) .

يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾ [ الحديد ] .

**ومن علاجها** : أن ينظر إلى ما أصيب به ، فيجد ربه قد أبقى عليه مثله ، أو أفضل منه ، وادخر له - إن صبر ورضى - ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة ، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هى .

**ومن علاجها** : أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسى بأهل المصائب ، وليعلم أنه فى كل وادٍ بنو سعد ، ولينظر يمنة ،فهل يرى إلا محنة ؟ ثم ليعطف يسرة ، فهل يرى إلا حسرة؟ ، وأنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى ، إما بفوات محبوب ، أو حصول مكروه ، وأن شرور الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل ،إن أضحكت قليلاً، أبكت كثيراً ، وإن سرت يومًا ، ساءت دهرًا ، وإن متعت قليلا ، منعت طويلا ، وما ملأت دارًا خيرة إلا ملأتها عبرة ، ولا سرته بيوم سرور إلا خبأت له يوم شرور ، قال ابن مسعود ﷺ : لكل فرحة ترحة ، وما ملئ بيت فرحًا إلا ملئ ترحًا . وقال ابن سيرين : ما كان ضحك قط إلا كان من بعده بكاء .

وقالت هند بنت النعمان : لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم ملكًا ، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن أقل الناس، وأنه حق على الله ألا يملأ دارًا خيرة إلا ملأها عبرة.

وسألها رجل أن تحدثه عن أمرها ، فقالت : أصبحنا ذا صباح ، وما فى العرب أحد إلا يرجونا ، ثم أمسينا وما فى العرب أحد إلا يرحمنا .

وبكت أختها حرقة بنت النعمان يومًا ، وهى فى عزها ، فقيل لها : ما يبكيك ، لعل أحدًا آذاك ؟ قالت : لا ، ولكن رأيت غضارة فى أهلى ، وقلما امتلأت دارٌ سرورًا إلا امتلأت حزنًا .

قال إسحاق بن طلحة : دخلت عليها يومًا ، فقلت لها : كيف رأيت عبرات الملوك ؟ فقالت : ما نحن فيه اليوم خير مما كنا فيه الأمس ، إنا نجد فى الكتب أنه ليس من أهل بيت يعيشون فى خيرة إلا سيعقبون بعدها عبرة ، وأن الدهر لم يظهر لقوم بيوم يحبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه ، ثم قالت :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

فأف لدنيا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرف

**ومن علاجها** : أن يعلم أن الجزع لا يردها ، بل يضاعفها ، وهو فى الحقيقة من تزايد المرض .

**ومن علاجها** : أن يعلم أن فوت ثواب الصبر والتسليم ، وهو الصلاة والرحمة والهداية التى ضمنها الله على الصبر ، والاسترجاع أعظم من المصيبة فى الحقيقة .

**ومن علاجها** : أن يعلم أن الجزع يشمت عدوه ، ويسوء صديقه ، ويغضب ربه ، ويسر شيطانه ، ويحبط أجره ، ويضعف نفسه ، وإذا صبر واحتسب أنضى شيطانه ، ورده خاسئًا ، وأرضى ربه ، وسر صديقه ، وساء عدوه ، وحمل عن إخوانه ، وعزاهم هو قبل أن يعزوه ، فهذ هو الثبات والكمال الأعظم ، لا لطم الخدود وشق الجيوب ، والدعاء بالويل والثبور ، والسخط على المقدور .

**ومن علاجها** : أن يعلم أن ما يعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف ما كان يحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقى عليه ، ويكفيه من ذلك بيت الحمد الذى يبنى له فى الجنة على حمده لربه واسترجاعه ، فينظر : أى المصيبتين أعظم ؟ مصيبة العاجلة ، أو مصيبة فوات بيت الحمد فى جنة الخلد ، وفى الترمذى مرفوعًا : « يود ناس يوم القيامة أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض فى الدنيا لما يرون من ثواب أهل البلاء » (١) .

وقال بعض السلف : لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس .

**ومن علاجها** : أن يروح قلبه بروح رجاء الخلف من الله ، فإنه من كل شىء عوض إلا الله ، فما منه عوض كما قيل :

من كل شىء إذا ضيعته عوض    وما من الله إن ضيعته عوض

**ومن علاجها** : أن يعلم أن حظه من المصيبة ما تحدثه له ، فمن رضى ، فله الرضا ، ومن سخط ، فله السخط ، فحظك منها ما أحدثته لك ، فاختر خير الحظوظ أو شرها ، فإن أحدثت له سخطًا وكفرًا ، كتب فى ديوان الهالكين ، وإن أحدثت له جزعًا وتفريطًا فى ترك واجب ، أو فعل محرم ، كتب فى ديوان المفرطين ، وإن أحدثت له شكاية ، وعدم صبر ، كتب فى ديوان المغبونين ، وإن أحدثت له اعتراضًا على الله ، وقدحًا فى حكمته ، فقد قرع باب الزندقة أو ولجه ، وإن أحدثت له صبرًا وثباتًا لله، كتب فى ديوان الصابرين ، وإن أحدثت له الرضا عن الله، كتب فى ديوان الراضين، وإن أحدثت له الحمد والشكر ، كتب فى ديوان الشاكرين ، وكان تحت لواء الحمد مع الحمادين ، وإن أحدثت له محبة واشتياقًا إلى لقاء ربه ، كتب فى ديوان المحبين المخلصين .

---

(١) الترمذى (٢٤٠٢) فى الزهد ، باب : عظم ثواب أهل البلاء يوم القيامة ، وقال : « حديث لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه » .

وفى « مسند الإمام أحمد » والترمذى ، من حديث محمود بن لبيد يرفعه : « إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » ، زاد أحمد : « ومن جزع فله الجزع » (١) .

**ومن علاجها** : أن يعلم أنه وإن بلغ فى الجزع غايته، فآخر أمره إلى صبر الاضطرار ، وهو غير محمود ولا مثاب ، قال بعض الحكماء : العاقل يفعل فى أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام ، ومن لم يصبر صبر الكرام ، سلا سلو البهائم . وفى « الصحيح » مرفوعًا : « الصبر عند الصدمة الأولى » (٢) . وقال الأشعث بن قيس : إنك إن صبرت إيمانًا واحتسابًا ، وإلا سلوت سلو البهائم .

**ومن علاجها** : أن يعلم أن أنفع الأدوية له موافقة ربه وإلهه فيما أحبه ورضيه له ، وأن خاصية المحبة وسرها موافقة المحبوب،فمن ادعى محبة محبوب ، ثم سخط ما يحبه ، وأحب ما يسخطه ، فقد شهد على نفسه بكذبه ، وتمقت إلى محبوبه .

وقال أبو الدرداء : إن الله إذا قضى قضاء ، أحب أن يرضى به ، وكان عمران بن حصين يقول فى علته : أحبه إلى أحبه إليه ، وكذلك قال أبو العالية .

وهذا دواء وعلاج لا يعمل إلا مع الحبين ، ولا يمكن كل أحد أن يتعالج به .

**ومن علاجها** : أن يوازن بين أعظم اللذتين والتمتعين ، وأدومهما : لذة تمتعه بما أصيب به ، ولذة تمتعه بثواب الله له ، فإن ظهر له الرجحان ، فآثر الراجح ، فليحمد الله على توفيقه ، وإن آثر المرجوح من كل وجه ، فليعلم أن مصيبته فى عقله وقلبه ودينه أعظم من مصيبته التى أصيب بها فى ديناه .

**ومن علاجها** : أن يعلم أن الذى ابتلاه بها أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين ، وأنه سبحانه لم يرسل إليه البلاء ليهلكه به ، ولا ليعذبه به ، ولا ليجتاحه ، وإنما افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه ، وليسمع تضرعه وابتهاله ، وليراه طريحًا ببابه ، لائذًا بجنابه ، مكسور القلب بين يديه ، رافعًا قصص الشكوى إليه .

قال الشيخ عبد القادر : يا بنى ، إن المصيبة ما جاءت لتهلكك ، وإنما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك ، يا بنى ، القدر سبع والسبع لا يأكل الميتة .

والمقصود : أن المصيبة كير العبد الذى يسبك به حاصله ، فإما أن يخرج ذهبًا أحمر ،

---

(١) الترمذى (٢٣٩٦) فى الزهد،باب:ما جاء فى الصبر على البلاء ، وقال « حسن غريب »،وأحمد (٥ / ٤٢٧) .

(٢) البخارى (١٣٠٢) فى الجنائز ، باب : الصبر عند الصدمة الأولى ، ومسلم (١٩٢٦ / ١٤) فى الجنائز ، باب الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى .

وإما أن يخرج خبثًا كله ، كما قيل :

سبكناه ونحسبه لجينًا      فأبدى الكير عن خبث الحديد

فإن لم ينفعه هذا الكير فى الدنيا ، فبين يديه الكير الأعظم ، فإذا علم العبد أن إدخاله كير الدنيا ومسبكها خير له من ذلك الكير والمسبك ، وأنه لا بد من أحد الكيرين ، فليعلم قدر نعمة الله عليه فى الكير العاجل .

**ومن علاجها** : أن يعلم أنه لولا محن الدنيا ومصائبها ، لأصاب العبد ـ من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ـ ما هو سبب هلاكه عاجلاً وآجلاً ، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده فى الأحيان بأنواع من أدوية المصائب ، تكون حمية له من هذه الأدواء ، وحفظًا لصحة عبوديته ، واستفراغًا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه ، فسبحان من يرحم ببلائه ويبتلى بنعمائه كما قيل :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت      ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

فلولا أنه ـ سبحانه ـ يداوى عباده بأدوية المحن والابتلاء ، لطغوا ، وبغوا ، وعتوا ، والله ـ سبحانه ـ إذا أراد بعبد خيرًا سقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله يستفرغ به من الأدواء المهلكة ، حتى إذا هذبه ونقاه وصفاه ، أهله لأشرف مراتب الدنيا ، وهى عبوديته ، وأرفع ثواب الآخرة ، وهو رؤيته وقربه .

**ومن علاجها** : أن يعلم أن مرارة الدنيا هى بعينها حلاوة الآخرة ، يقلبها الله سبحانه كذلك ، وحلاوة الدنيا بعينها مرارة الآخرة ، ولأن ينتقل من مرارة منقطعة إلى حلاوة دائمة خير له من عكس ذلك ، فإن خفى عليك هذا ، فانظر إلى قول الصادق المصدوق : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » (١) .

وفى هذا المقام تفاوتت عقولُ الخلائق ، وظهرت حقائق الرجال ، فأكثرهم آثر الحلاوة المنقطعة على الحلاوة الدائمة التى لا تزول ، ولم يحتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد ، ولا ذل ساعة لعز الأبد ، ولا محنة ساعة لعافية الأبد ، فإن الحاضر عنده شهادة ، والمنتظر غيب ، والإيمان ضعيف ،وسلطان الشهوة حاكم ، فتولد من ذلك إيثار العاجلة ، ورفض الآخرة ، وهذا حال النظر الواقع على ظواهر الأمور ، وأوائلها ومبادئها ، وأما النظر الثاقب الذى يخرق حجب العاجلة ، ويجاوزه إلى العواقب والغايات ، فله شأن آخر .

فادع نفسك إلى ما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته من النعيم المقيم ، والسعادة الأبدية ،

---

(١) مسلم (٢٨٢٢ / ١ ) فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها .

والفوز الأكبر ، وما أعد لأهل البطالة والإضاعة من الخزى والعقاب والحسرات الدائمة ، ثم اختر أى القسمين أليق بك ، وكل يعمل على شاكلته، وكل أحد يصبو إلى ما يناسبه ، وما هو الأولى به ، ولا تستطل هذا العلاج ، فشدة الحاجة إليه من الطبيب والعليل دعت إلى بسطه ، وبالله التوفيق (١) .

## فصل

## فى هديه ﷺ فى علاج الكرب والهم والغم والحزن

أخرجا فى « الصحيحين » من حديث ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات السبع ورب الأرض رب العرش الكريم » (٢) .

وفى « جامع الترمذى » عن أنس ، أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر ، قال : « يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث » (٣) .

وفيه : « عن أبى هريرة ، أن النبى ، ، كان إذا أهمه الأمر ، رفع طرفه إلى السماء فقال : « سبحان الله العظيم »، وإذا اجتهد فى الدعاء قال : « يا حى يا قيوم » (٤) .

وفى « سنن أبى داود » عن أبى بكرة ،أن رسول الله ﷺ قال : « دعوات المكروب : اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله ، لا إله إلا أنت » (٥) .

وفيها أيضًا عن أسماء بنت عميس قالت : قال لى رسول الله ﷺ : « ألا أعلمك كلمات تقوليهن عند الكرب ، أو فى الكرب : الله ربى لا أشرك به شيئًا » (٦) ، وفى رواية أنها تقال سبع مرات (٧) .

وفى « مسند الإمام أحمد » عن ابن مسعود ، عن النبى ﷺ قال : « ما أصاب عبدًا

(١) زاد المعاد ( ٤ / ١٨٨ ـ ١٩٦ ) .
(٢) البخارى (٦٣٤٥) فى الدعوات، باب : الدعاء عند الكرب ، ومسلم (٢٧٣٠ / ٨٣) فى الذكر والدعاء ، باب : دعاء الكرب .
(٣) الترمذى (٣٥٢٢) فى الدعوات ، باب : (٩٢) ، وقال : « غريب » .
(٤) الترمذى (٣٤٣٦) فى الدعوات ، باب : ما جاء ما يقول عند الكرب ، و قال : « حسن غريب » .
(٥) أبو داود (٥٠٩٠) فى الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح .
(٦) أبو داود (١٥٢٥) فى الصلاة، باب : فى الاستغفار .
(٧) الطبرانى فى الأوسط (٦١١٩) .

هم ولا حزن فقال : « اللهم إنى عبدك ، ابن عبدك ، ابن أمتك ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدًا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ، إلا أذهب الله حزنه وهمه ، وأبدله مكانه فرحًا » (١) .

وفى الترمذى عن سعد بن أبى وقاص ، قال : قال رسول الله ﷺ : « دعوة ذى النون إذ دعا ربه وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجيب له » (٢) .

وفى رواية : « إنى لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج الله عنه : كلمة أخى يونس » (٣) .

وفى « سنن أبى داود » عن أبى سعيد الخدرى قال : دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له : أبو أمامة ، فقال : « يا أبا أمامة ، ما لى أراك فى المسجد فى غير وقت الصلاة ؟ » فقال : هموم لزمتنى ، وديون يا رسول الله ، فقال : « ألا أعلمك كلامًا إذا أنت قلته أذهب الله عز وجل همك وقضى دينك ؟ » قلت : بلى يا رسول، قال: « قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ،وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » قال : ففعلت لك ، فأذهب الله عز وجل همى ، وقضى عنى دينى (٤) .

وفى « سنن أبى داود » عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ « من لزم الاستغفار ، جعل الله له من كل هم فرجًا ، ومن كل ضيق مخرجًا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » (٥) .

وفى « المسند » أن النبى ﷺ كان إذا حزبه أمر،فزع إلى الصلاة (٦) ، وقد قال تعالى : ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ** ﴾ [ البقرة : ٤٥ ] .

وفى « السنن » : « عليكم بالجهاد ، فإنه باب من أبواب الجنة ، يدفع الله به عن

(١) أحمد (١ / ٤٥٢) .
(٢) الترمذى (٣٥٠٥) فى الدعوات ، باب : (٨٢) .
(٣) كنزل العمال (٣٤٢٧) وعزاه لابن السنى فى عمل اليوم والليلة عن سعد .
(٤) أبو داود (١٥٥٥) فى الزكاة ، باب : فى الاستعاذة .
(٥) أبو داود (١٥١٨) فى الصلاة ، باب : فى الاستغفار .
(٦) أحمد (٥ / ٣٨٨) .

النفوس الهم والغم » (١) .

ويذكر عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ : « من كثرت همومه وغمومه ، فليكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله » (٢) .

وثبت في « الصحيحين » أنها كنز من كنوز الجنة (٣) .

وفي الترمذي : أنها باب من أبواب الجنة (٤) .

هذه الأدوية تتضمن خمسة عشر نوعًا من الدواء ، فإن لم تقو على إذهاب داء الهم والغم والحزن ، فهو داء قد استحكم ، وتمكنت أسبابه ، ويحتاج إلى استفراغ كلي :

**الأول** : توحيد الربوبية .

**الثاني** : توحيد الإلهية .

**الثالث** : التوحيد العلمي الاعتقادي .

**الرابع** : تنزيه الرب تعالى عن أن يظلم عبده ، أو يأخذه بلا سبب من العبد يوجب ذلك .

**الخامس** : اعتراف العبد بأنه هو الظالم .

**السادس** : التوسل إلى الرب تعالى بأحب الأشياء ، وهو أسماؤه وصفاته ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات : الحي القيوم .

**السابع** : الاستعانة به وحده .

**الثامن** : إقرار العبد له بالرجاء .

**التاسع** : تحقيق التوكل عليه ، والتفويض إليه ، والاعتراف له بأن ناصيته في يده يصرفها كيف يشاء ، وأنه ماض فيه حكمه ، عدل فيه قضاؤه .

**العاشر** : أن يرتع قلبه في رياض القرآن ، ويجعله لقلبه كالربيع للحيوان ، وأن

---

(١) البيهقي في الكبرى (٩ / ٢٠) في السير ، باب : أصل فرض الجهاد ، وأحمد (٥ / ٣١٩) ، والطبراني في الأوسط (٨٣٣٤) .

(٢) الأحكام النبوية في الصناعة الطبية للكحال ٧ / ١٧٩ .

(٣) البخاري (٦٤٠٩) في الدعوات ، باب : قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، ومسلم (٤ ٢٧٠/ ٤٤ ) في الذكر والدعاء ، باب : استحباب خفض الصوت بالذكر .

(٤) الترمذي (٣٥٨١) في الدعوات ، باب : في فضل لا حول ولا قوة إلا بالله » وقال : « صحيح غريب من هذا الوجه » .

يستضيء به فى ظلمات الشبهات والشهوات ، وأن يتسلى به عن كل فائت ، ويتعزى به عن كل مصيبة ، ويستشفى به من أدواء صدره ، فيكون جلاء حزنه وشفاء همه وغمه .

**الحادى عشر** : الاستغفار .

**الثانى عشر** : التوبة .

**الثالث عشر** : الجهاد .

**الرابع عشر** : الصلاة .

**الخامس عشر** : البراءة من الحول والقوة وتفويضهما إلى من هما بيده (١) .

## فصل

## فى بيان جهة تأثير هذه الأدوية فى هذه الأمراض

خلق الله ـ سبحانه ـ ابن آدم وأعضاءه ، وجعل لكل عضو منها كمالاً إذا فقده أحس بالألم ، وجعل لملكها وهو القلب كمالاً ، إذا فقده ، حضرته أسقامه وآلامه من الهموم والغموم والأحزان .

فإذا فقدت العين ما خلقت له من قوة الإبصار وفقدت الأذن ما خلقت له من قوة السمع ، واللسان ما خلق له من قوة الكلام ، فقدت كمالها .

والقلب : خلق لمعرفة فاطره ومحبته وتوحيده والسرور به، والابتهاج بحبه ، والرضا عنه ، والتوكل عليه ، والحب فيه ، والبغض فيه ، والموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، ودوام ذكره ، وأن يكون أحب إليه من كل ما سواه ، وأرجى عنده من كل ما سواه ، وأجل فى قلبه من كل ما سواه ، ولا نعيم له ولا سرور ولا لذة ، بل ولا حياة إلا بذلك ، وهذا له بمنزلة الغذاء والصحة والحياة ، فإذا فقد غذاءه وصحته وحياته ، فالهموم والغموم والأحزان مسارعة من كل صوب إليه ، ورهن مقيم عليه .

ومن أعظم أدوائه : الشرك والذنوب والغفلة ، والاستهانة بمحابه ومراضيه ، وترك التفويض إليه ، وقلة الاعتماد عليه ، والركون إلى ما سواه ، والسخط بمقدوره ، والشك فى وعده ووعيده .

وإذا تأملت أمراض القلب ، وجدت هذه الأمور وأمثالها هى أسبابها لا سبب لها سواها ، فدواؤه الذى لا دواء له سواه ما تضمنته هذه العلاجات النبوية من الأمور المضادة لهذه الأدواء ، فإن المرض يزال بالضد والصحة تحفظ بالمثل ، فصحته تحفظ بهذه الأمور

---

(١) زاد المعاد ( ٤ / ١٩٦ ـ ٢٠١ ) .

النبوية ، وأمراضه بأضدادها .

فالتوحيد : يفتح للعبد باب الخير والسرور واللذة والفرح والابتهاج ، والتوبة استفراغ لأخلاط المواد الفاسدة التى هى سبب أسقامه ، وحمية له من التخليط ، فهى تغلق عنه باب الشرور ، فيفتح له باب السعادة والخير بالتوحيد ، ويغلق باب الشرور بالتوبة والاستغفار .

قال بعض المتقدمين من أئمة الطب : من أراد عافية الجسم ، فليقلل من الطعام والشراب ، ومن أراد عافية القلب ، فليترك الآثام . وقال ثابت بن قرة : راحة الجسم فى قلة الطعام ، وراحة الروح فى قلة الآثام ، وراحة اللسان فى قلة الكلام .

والذنوب للقلب بمنزلة السموم، إن لم تهلكه أضعفته ، ولا بد ، وإذا ضعفت قوته ، لم يقدر على مقاومة الأمراض ، قال طبيب القلوب عبد الله بن المبارك :

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

فالهوى أكبر أدوائها، ومخالفته أعظم أدويتها،والنفس فى الأصل خلقت جاهلة ظالمة، فهى لجهلها تظن شفاءها فى اتباع هواها ، وإنما فيه تلفها وعطبها ، ولظلمها لا تقبل من الطبيب الناصح ،بل تضع الداء موضع الدواء فتعتمده،وتضع الدواء موضع الداء فتجتنبه ، فيتولد من بين إيثارها للداء ، واجتنابها للدواء أنواع من الأسقام والعلل التى تعيى الأطباء ، ويتعذر معها الشفاء ، والمصيبة العظمى ، أنها تركب ذلك القدر ، فتبرئ نفسها ، وتلوم ربها بلسان الحال دائمًا ، ويقوى اللوم حتى يصرح به اللسان .

وإذا وصل العليل إلى هذه الحال ، فلا يطمع فى برئه إلا أن تتداركه رحمة من ربه ، فيحييه حياة جديدة ، ويرزقه طريقة حميدة ، فلهذه كان حديث ابن عباس فى دعاء الكرب مشتملاً على توحيد الإلهية والربوبية ، ووصف الرب سبحانه بالعظمة والحلم ، وهاتان الصفتان مستلزمتان لكمال القدرة والرحمة ، والإحسان والتجاوز ، ووصفه بكمال ربوبيته للعالم العلوى والسفلى ، والعرش الذى هو سقف المخلوقات وأعظمها ، والربوبية التامة تستلزم توحيده ، وأنه الذى لا تنبغى العبادة والحب والخوف والرجاء والإجلال والطاعة إلا له ، وعظمته المطلقة تستلزم إثبات كل كمال له ، وسلب كل نقص وتمثيل عنه ، وحمله يستلزم كمال رحمته وإحسانه إلى خلقه .

فعلم القلب ومعرفته بذلك توجب محبته وإجلاله وتوحيده ، فيحصل له من الابتهاج

واللذة والسرور ما يدفع عنه ألم الكرب والهم والغم ، وأنت تجد المريض إذا ورد عليه ما يسره ويفرحه ، ويقوى نفسه ، كيف تقوى الطبيعة على دفع المرض الحسى ، فحصول هذا الشفاء للقلب أولى وأحرى .

ثم إذا قابلت بين ضيق الكرب وسعة هذه الأوصاف التى تضمنها دعاء الكرب ، وجدته فى غاية المناسبة لتفريج هذا الضيق ،وخروج القلب منه إلى سعة البهجة والسرور ، وهذه الأمور إنما يصدق بها من أشرقت فيه أنوارها ، وباشر قلبه حقائقها .

وفى تأثير قوله : « يا حى يا قيوم ، برحمتك أستغيث » (١) فى دفع هذا الداء مناسبة بديعة ، فإن صفة الحياة متضمنة لجميع صفات الكمال ، مستلزمة لها ، وصفة القيومية متضمنة لجميع صفات الأفعال ، ولهذا كان اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى : هو اسم الحى القيوم ، والحياة التامة تضاد جميع الأسقام والآلام ، ولهذا لما كملت حياة أهل الجنة لم يلحقهم هم ولا غم ولا حزن ولا شىء من الآفات ، ونقصان الحياة تضر بالأفعال ، وتنافى القيومية ، فكمال القيومية لكمال الحياة ، فالحى المطلق التام الحياة لا تفوته صفة الكمال البتة ، والقيوم لا يتعذر عليه فعل ممكن البتة ، فالتوسل بصفة الحياة والقيومية له تأثير فى إزالة ما يضاد الحياة ، ويضر بالأفعال .

ونظير هذا توسل النبى ﷺ إلى ربه بربوبيته لجبريل وميكائيل وإسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، فإن حياة القلب بالهداية ، وقد وكل الله ـ سبحانه ـ هؤلاء الأملاك الثلاثة بالحياة ، فجبريل موكل بالوحى الذى هو حياة القلوب ، وميكائيل بالقطر الذى هو حياة الأبدان والحيوان ، وإسرافيل بالنفخ فى الصور الذى هو سبب حياة العالم وعود الأرواح إلى أجسادها ، فالتوسل إليه سبحانه بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة ، له تأثير فى حصول المطلوب .

والمقصود : أن لاسم الحى القيوم تأثيرًا خاصًا فى إجابة الدعوات ،وكشف الكربات ، وفى « السنن » و« صحيح أبى حاتم » مرفوعًا :« اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾ [ البقرة ]، وفاتحة آل عمران ﴿ الٓمٓ (١) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) ﴾ ، وقال الترمذى : حديث صحيح (٢) .

وفى « السنن » و« صحيح ابن حبان » أيضًا :من حديث أنس أن رجلاً دعا ، فقال :

---

(١) الترمذى (٣٥٢٤) فى الدعوات ، باب : (٩٢) ، وقال : « غريب » .

(٢) أبو داود (١٤٩٦) فى الصلاة ، باب:الدعاء ، والترمذى (٣٤٧٨) فى الدعوات ، باب:(٦٥) ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٣٨٥٥) فى الدعاء ، باب : اسم الله الأعظم .

اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان ، بديع السماوات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حى يا قيوم ، فقال النبى ﷺ :« لقد دعا الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » (١) .

ولهذا كان النبى ﷺ إذا اجتهد فى الدعاء قال : « يا حى يا قيوم » .

وفى قوله : « اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله لا إله إلا أنت » (٢) من تحقيق الرجاء لمن الخير كله بيديه والاعتماد عليه وحده ، وتفويض الأمر إليه ، والتضرع إليه ، أن يتولى إصلاح شأنه ، ولا يكله إلى نفسه ، والتوسل إليه بتوحيده مما له تأثير قوى فى دفع هذا الداء ، وكذلك قوله : « الله ربى لا أشرك به شيئًا » .

وأما حديث ابن مسعود : « اللهم إنى عبدك ابن عبدك » ، ففيه من المعارف الإلهية ، وأسرار العبودية ما لا يتسع له كتاب، فإنه يتضمن الاعتراف بعبوديته وعبودية آبائه وأمهاته، وأن ناصيته بيده يصرفها كيف يشاء ، فلا يملك العبد دونه لنفسه نفعًا ولا ضرًا ، ولا موتًا ولا حياةً ، ولا نشوراً ، لأن من ناصيته بيد غيره ، فليس إليه شىء من أمره ، بل هو عانٍ فى قبضته ، ذليل تحت سلطان قهره .

وقوله : « ماضٍ فىّ حكمك عدلٌ فىّ قضاؤك » (٣) متضمن لأصلين عظيمين عليهما مدار التوحيد :

**أحدها** : إثبات القدر ، وأن أحكام الرب تعالى نافذة فى عبده ماضية فيه ، لا انفكاك له عنها ، ولا حيلة له فى دفعها .

**والثانى** : أنه ـ سبحانه ـ عدل فى هذه الأحكام ، غير ظالم لعبده ، بل لا يخرج فيها عن موجب العدل والإحسان ، فإن الظلم سببه حاجة الظالم ، أو جهله ، أو سفهه، فيستحيل صدوره ممن هو بكل شىء عليم ، ومن هو غنى عن كل شىء ، وكل شىء فقير إليه ، ومن هو أحكم الحاكمين ، فلا تخرج ذرة من مقدوراته عن حكمته وحمده ، كما لم تخرج عن قدرته ومشيئته ، فحكمته نافذة حيث نفذت مشيئته وقدرته ، ولهذا قال نبى

---

(١) أبو داود (١٤٩٥) فى الصلاة ، باب : الدعاء ، وابن ماجه (٣٨٥٨) فى الدعاء ، باب : اسم الله الأعظم ، وابن حبان (٨٩٠) .

(٢) أبو داود (٥٠٩٠) فى الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح ، وأحمد (٥ / ٤٢) .

(٣) أحمد (١ / ٣٩١) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ١٣٩) : « رجال أحمد وأبى يعلى رجال اصحيح غير أبى سلمة الجهنى ، وقد وثقه ابن حبان » وقال الشيخ أحمد شاكر (٣٧١٢) : « إسناده صحيح » .

الله هود صلى الله على نبينا وعليه وسلم ، وقد خوفه قومه بآلهتهم : ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [ هود ]، أى : مع كونه سبحانه آخذًا بنواصى خلقه وتصريفهم كما يشاء ، فهو على صراط مستقيم لا يتصرف فيهم إلا بالعدل والحكمة ، والإحسان والرحمة . فقوله : « ماض فى حكمك » ، مطابق لقوله : ﴿ مَا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ ، وقوله : « عدل فى قضاؤك » (١) مطابق لقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [ هود : ٥٧] ، ثم توسل إلى ربه بأسمائه التى سمى بها نفسه ما علم العباد منها وما لم يعلموا . ومنها : ما استأثره فى علم الغيب عنده ، فلم يطلع على عليه ملكًا مقربًا ، ولا نبيًا مرسلاً ، وهذه الوسيلة أعظم الوسائل ، وأحبها إلى الله، وأقربها تحصيلاً للمطلوب .

ثم سأله أن يجعل القرآن لقلبه كالربيع الذى يرتع فيه الحيوان ، وكذلك القرآن ربيع القلوب ، وأن يجعله شفاء همه وغمه ، فيكون له بمنزلة الدواء الذى يستأصل الداء ، ويعيد البدن إلى صحته واعتداله ، وأن يجعله لحزنه كالجلاء الذى يجلو الطبوع والأصدية وغيرها فأحرى بهذا العلاج إذا صدق العليل فى استعماله أن يزيل عنه داءه ، ويعقبه شفاء تامًا ، وصحة وعافية ، والله الموفق .

وأما دعوة ذى النون : فإن فيها من كمال التوحيد والتنزيه للرب تعالى، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهم، والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله ـ سبحانه ـ فى قضاء الحوائج ، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله ، وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه، والاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب ، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله ، واستقالته عثرته ، والاعتراف بعبوديته ، وافتقاره إلى ربه ، فهاهنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها : التوحيد ، والتنزيه ، والعبودية ، والاعتراف .

وأما حديث أبى أمامة : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن » (٢) ، فقد تضمن الاستعاذة من ثمانية أشياء ، كل اثنين منها قرينان مزدوجان ، فالهم والحزن أخوان ، والعجز والكسل أخوان ، والجبن والبخل أخوان ، وضلع الدين وغلبة الرجال أخوان ، فإن المكروه المؤلم إذا ورد على القلب، فإما أن يكون سببه أمرًا ماضيًا ، فيوجب له الحزن ،

(١) سبق تخريجه ص ٢٣٧ .
(٢) البخارى (٥٤٢٥) فى الأطعمة ، باب : الحيس .

وإن كان أمراً متوقعاً فى المستقبل،أوجب الهم ، وتخلف العبد عن مصالحه وتفويتها عليه ، إما أن يكون من عدم القدرة وهو العجز ، أو من عدم الإرادة وهو الكسل ، وحبس خيره ونفعه عن نفسه وعن بنى جنسه ، إما أن يكون منع نفعه ببدنه ، فهو الجبن ، أو بماله ، فهو البخل ، وقهر الناس له إما بحق ، فهو ضلع الدين ، أو بباطل فهو غلبة الرجال ، فقد تضمن الحديث الاستعاذة من كل شر ، وأما تأثير الاستغفار فى دفع الهم والغم والضيق ، فلما اشترك فى العلم به أهل الملل وعقلاء كل أمة أن المعاصى والفساد توجب الهم والغم ، والخوف والحزن ، وضيق الصدر ، وأمراض القلب ، حتى إن أهلها إذا قضوا منها أوطارهم، وسئمتها نفوسهم ، ارتكبوها دفعاً لما يجدونه فى صدورهم من الضيق والهم والغم ، كما قال شيخ الفسوق :

وكأس شربت على لذةٍ وأخرى تداويت منها بها

وإذا كان هذا تأثير الذنوب والآثام فى القلوب ، فلا دواء لها إلا التوبة والاستغفار .

وأما الصلاة ، فشأنها فى تفريح القلب وتقويته ، وشرحه وابتهاجه ولذته أكبر شأن ، وفيها من اتصال القلب والروح بالله ، وقربه والتنعم بذكره، والابتهاج بمناجاته ، والوقوف بين يديه ، واستعمال جميع البدن وقواه وآلاته فى عبوديته ، وإعطاء كل عضو حظه منها ، واشتغاله عن التعلق بالخلق وملابستهم ومحاوراتهم ، وانجذاب قوى قلبه وجوارحه إلى ربه وفاطره ، وراحته من عدوه حالة الصلاة ما صارت به من أكبر الأدوية والمفرحات والأغذية التى لا تلائم إلا القلوب الصحيحة ، وأما القلوب العليلة ، فهى كالأبدان لا تناسبها إلا الأغذية الفاضلة .

فالصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة ، ودفع مفاسد الدنيا والآخرة ، وهى منهاة عن الإثم ، ودافعة لأدواء القلوب ، ومطردة للداء على الجسد ، ومنورة للقلب ، ومبيضة للوجه ، ومنشطة للجوارح والنفس ، وجالبة للرزق ، ودافعة للظلم،وناصرة للمظلوم ،وقامعة لأخلاط الشهوات ، وحافظة للنعمة ، ودافعة للنقمة ، ومنزلة للرحمة ، وكاشفة للغمة ، ونافعة من كثير من أوجاع البطن ،وقد روى ابن ماجه فى « سننه » من حديث مجاهد، عن أبى هريرة قال : رآنى رسول الله ﷺ وأنا نائم أشكو من وجع بطنى ، فقال لى : « يا أبا هريرة ، أشكمت درد ؟ » قال : قلت : نعم يا رسول الله ، قال : « قم فصل ، فإن فى الصلاة شفاء » (١) . وقد روى هذا الحديث موقوفاً على أبى هريرة ، وأنه هو الذى قال ذلك لمجاهد ، وهو أشبه ، ومعنى هذه اللفظة

(١) ابن ماجه (٣٤٥٨) فى الطب ، باب : الصلاة شفاء ، وضعفه الألبانى .

بالفارسى : أيوجعك بطنك ؟

فإن لم ينشرح صدر زنديق الأطباء بهذا العلاج ،فيخاطب بصناعة الطب ، ويقال له : الصلاة رياضة النفس والبدن جميعًا ، إذ كانت تشتمل على حركات وأوضاع مختلفة من الانتصاب ، والركوع ، والسجود والتورك ، والانتقالات وغيرها من الأوضاع التى يتحرك معها أكثر المفاصل ، وينغمز معها أكثر الأعضاء الباطنة ، كالمعدة ، والأمعاء ، وسائر آلات النفس ، والغذاء ، فما ينكر أن يكون فى هذه الحركات تقوية وتحليل للمواد ، ولاسيما بواسطة قوة النفس وانشراحها فى الصلاة ، فتقوى الطبيعة ، فيندفع الألم ، ولكن داء الزندقة والإعراض عما جاءت به الرسل ، والتعوض عنه بالإلحاد داء ليس له دواء إلا نارٌ تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى .

وأما تأثير الجهاد فى دفع الهم والغم ، فأمر معلوم بالوجدان ، فإن النفس متى تركت صائل الباطل وصولته واستيلاءه ، اشتد همها وغمها ، وكربها وخوفها ، فإذا جاهدته لله أبدل الله ذلك الهم والحزن فرحًا ونشاطًا وقوة ، كما قال تعالى: ﴿ **قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ** ﴾ [التوبة]، فلا شىء أذهب لجوى القلب وغمه وهمه وحزنه من الجهاد ، والله المستعان .

وأما تأثير « لا حول ولا قوة إلا بالله » فى دفع هذا الداء ، فلما فيها من كمال التفويض والتبرى من الحول والقوة إلا به ، وتسليم الأمر كله له ، وعدم منازعته فى شىء منه ، وعموم ذلك لكل تحول من حال إلى حال فى العالم العلوى والسفلى ، والقوة على ذلك التحول،وأن ذلك كله بالله وحده ،فلا يقوم لهذه الكلمة شىء ، وفى بعض الآثار ، إنه ما ينزل ملك من السماء ، ولا يصعد إليها إلا بلا حول ولا قوة إلا بالله ، ولها تأثير عجيب فى طرد الشيطان ، والله المستعان (١) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى علاج الفزع ، والأرق المانع من النوم

روى الترمذى فى « جامعه » عن بريدة قال : شكى خالد إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله، ما أنام الليل من الأرق ،فقال النبى ﷺ: « إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم رب السماوات السبع وما أظلت،ورب الأرضين وما أقلت،ورب الشياطين وما أضلت ، كن لى جاراً من شر خلقك كلهم جميعًا أن يفرط على أحد منهم،أو يبغى على ، عز جارك،

(١) زاد المعاد ( ٤ / ٢٠١ ـ ٢١١ ) .

وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك »(١) .

وفيه أيضًا : عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم من الفزع : « أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه ، وعقابه ، وشر عباده ، ومن همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون » ، قال : وكان عبد الله بن عمرو يعلمهن من عقل من بنيه ومن لم يعقل كتبه ، فأعلقه عليه (٢) ، ولا يخفى مناسبة هذه العوذة لعلاج هذا الداء (٣) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى علاج داء الحريق وإطفائه

يذكر عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيتم الحريق فكبروا ، فإن التكبير يطفئه » (٤) ، لما كان الحريق سببه النار ، وهى مادة الشيطان التى خلق منها ، وكان فيه من الفساد العام ما يناسب الشيطان بمادته وفعله كان للشيطان إعانة عليه ، وتنفيذ له ، وكانت النار تطلب بطبعها العلو والفساد ، وهذان الأمران وهما العلو فى الأرض والفساد هما هدى الشيطان ، وإليهما يدعو ، وبهما يملك بنى آدم ، فالنار والشيطان كل منهما يريد العلو فى الأرض والفساد ، وكبرياء الرب ـ عز وجل ـ تقمع الشيطان وفعله .

ولهذا كان تكبير الله ـ عز وجل ـ له أثر فى إطفاء الحريق،فإن كبرياء الله ـ عز وجل ـ لا يقوم لها شىء ، فإذا كبّر المسلم ربه ،أثر تكبيره فى خمود النار وخمود الشيطان التى هى مادته ، فيطفئ الحريق وقد جربنا نحن وغيرنا هذا ، فوجدناه كذلك ، والله أعلم (٥).

---

(١) الترمذى (٣٥٢٣) فى الدعوات ، باب : ( ٩١) ، وقال : ليس إسناده بالقوى ، والحكم بن ظهير قد ترك حديثه بعض أهل الحديث » .

(٢) الترمذى (٣٥٢٨) فى الدعوات، باب : (٩٤) ، وقال : حسن غريب » .

(٣) زاد المعاد ( ٤ / ٢١١ ، ٢١٢ ) .

(٤) المطالب العالية للحافظ ابن حجر (٣٤٢٤) ، وقال : « مرسل حسن » ، والضعفاء الكبير للعقيلى ٢ / ٢٩٦) ، والكامل فى ضعفاء الرجل لابن عدى ٤ / ١٥١ .

(٥) زاد المعاد (٤ / ٢١٢ ، ٢١٣ ) .

# فصل
## فى هديه ﷺ فى علاج العشق

هذا مرض من أمراض القلب ، مخالف لسائر الأمراض فى ذاته وأسبابه وعلاجه ، وإذا تمكن واستحكم ، عز على الأطباء دواؤه ، وأعيى العليل داؤه ، وإنما حكاه الله سبحانه فى كتابه عن طائفتين من الناس : من النساء وعشاق الصبيان المردان ، فحكاه عن امرأة العزيز فى شأن يوسف ، وحكاه عن قوم لوط ، فقال تعالى إخبارًا عنهم لما جاء الملائكة لوطًا : ﴿ **وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)** ﴾ [ الحجر ] .

وأما ما زعمه بعض من لم يقدر رسول الله ﷺ حق قدره أنه ابتلى به فى شأن زينب بنت جحش ، وأنه رآها فقال: « سبحان مقلب القلوب » وأخذت بقلبه ، وجعل يقول لزيد ابن حارثة : «أمسكها»، حتى أنزل الله عليه : ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ** ﴾(١) [الأحزاب : ٣٧] ، فظن هذا الزاعم أن ذلك فى شأن العشق ، وصنف بعضهم كتابًا فى العشق ، وذكر فيه عشق الأنبياء ، وذكر هذه الواقعة ، وهذا من جهل هذا القائل بالقرآن وبالرسل ، وتحميله كلام الله ما لا يحتمله ، ونسبته رسول الله ﷺ إلى ما برأه الله منه ، فإن زينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة ، وكان رسول الله ﷺ قد تبناه ، وكان يدعى زيد بن محمد وكانت زينب فيها شمم وترفع عليه ، فشاور رسول الله ﷺ فى طلاقها ، فقال له رسول الله ﷺ : « أمسك عليك زوجك واتق الله » وأخفى فى نفسه أن يتزوجها إن طلقها زيد ، وكان يخشى من قالة الناس أنه تزوج امرأة ابنه ، لأن زيدًا كان يدعى ابنه ، فهذا هو الذى أخفاه فى نفسه ، وهذه هى الخشية من الناس التى وقعت له ، ولهذا ذكر سبحانه هذه الآية يعدد فيها نعمه عليه لا يعاتبه فيها ، وأعلمه أن لا ينبغى له أن

---

(١) خبر باطل وكذب على رسول الله ﷺ أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٨ / ٨٠ ، ٨١ ) ، ترجمة (٤١٣٢) ، والحاكم ( ٤ / ٢٣ ) .

يخشى الناس فيما أحل الله له ، وأن الله أحق أن يخشاه ، فلا يتحرج ما أحله له لأجل قول الناس ، ثم أخبره أنه سبحانه زوجه إياها بعد قضاء زيد وطره منها لتقتدى أمته به فى ذلك ، ويتزوج الرجل بامرأة ابنه من التبنى ، لا امرأة ابنه لصلبه ، ولهذا قال فى آية التحريم : ﴿ **وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُم** ﴾ [ النساء : ٢٣ ] .وقال فى هذه السورة: ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُم** ﴾ [ الأحزاب : ٤٠] وقال فى أولها : ﴿**وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ** ﴾ [ الأحزاب : ٤ ] ، فتأمل هذا الذب عن رسول الله ﷺ ، ودفع طعن الطاعنين عنه ، وبالله التوفيق .

نعم،كان رسول الله ﷺ يحب نساءه ،وكان أحبهن إليه عائشة ﵂ ، ولم تكن تبلغ محبته لها ولا لأحد سوى ربه نهاية الحب ، بل صح أنه قال : « لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً » [١]،وفى لفظ:«وإن صاحبكم خليل الرحمن » [٢].

وعشق الصور إنما تبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله تعالى ، المعرضة عنه ، المتعوضة بغيره عنه ، فإذا امتلأ القلب من محبة الله والشوق إلى لقائه ، دفع ذلك عن مرض عشق الصور ، ولهذا قال تعالى فى حق يوسف : ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)** ﴾ [ يوسف ] ، فدل على أن الإخلاص سبب لدفع العشق وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التى هى ثمرته ونتيجته ، فصرف المسبب صرف لسببه ،ولهذا قال بعض السلف :العشق حركة قلب فارغ ، يعنى فارغًا مما سوى معشوقه ، قال تعالى : ﴿ **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ** ﴾ [ القصص : ١٠ ] أى : فارغًا من كل شىء إلا من موسى لفرط محبتها له ، وتعلق قلبها به .

والعشق مركب من أمرين : استحسان للمعشوق ، وطمع فى الوصول إليه ، فمتى انتفى أحدهما انتفى العشق ، وقد أعيت علة العشق على كثير من العقلاء ، وتكلم فيها بعضهم بكلام يرغب عن ذكره إلى الصواب .

فنقول : قد استقرت حكمة الله ـ عز وجل ـ فى خلقه وأمره على وقوع التناسب والتآلف بين الأشباه ، وانجذاب الشىء إلى موافقه ومجانسه بالطبع ، وهروبه من مخالفه ،

---

(١) البخارى (٣٦٥٦) فى فضائل الصحابة ، باب : قول النبى ﷺ : « لو كنت متخذًا خليلا » .
(٢) مسلم ( ٢٣٨٣ / ٧ ) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل الصديق ﵁ .

ونفرته عنه بالطبع ، فسر التمازج والاتصال فى العالم العلوى والسفلى ، إنما هو التناسب والتشاكل ، والتوافق ، وسر التباين والانفصال ، إنما هو بعدم التشاكل والتناسب ، وعلى ذلك قام الخلق والأمر ، فالمثل إلى مثله مائل ، وإليه صائر ، والضد عن ضده هارب ، وعنه نافر ، وقد قال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ﴾ [ الأعراف : ١٨٩] ، فجعل سبحانه علة سكون الرجل إلى امرأته كونها من جنسه وجوهره ، فعلة السكون المذكور ـ وهو الحب ـ كونها منه ، فدل على أن العلة ليست بحسن الصورة ، ولا الموافقة فى القصد والإرادة ، ولا فى الخلق والهدى ، وإن كانت هذه أيضًا من أسباب السكون والمحبة .

وقد ثبت فى « الصحيح » عن النبى ﷺ أنه قال : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » (١) . وفى « مسند الإمام أحمد » وغيره فى سبب هذا الحديث : أن امرأة بمكة كانت تضحك الناس ، فجاءت إلى المدينة ، فنزلت على امرأة تضحك الناس ، فقال النبى ﷺ : « الأرواح جنود مجندة » الحديث (٢) .

وقد استقرت شريعته سبحانه أن حكم الشىء حكم مثله ، فلا تفرق شريعته بين متماثلين أبدًا،ولا تجمع بين متضادين ، ومن ظن خلاف ذلك ، فإما لقلة علمه بالشريعة ، وإما لتقصيره فى معرفة التماثل والاختلاف ،وإما لنسبته إلى شريعته ما لم ينزل به سلطانًا ، بل يكون من آراء الرجل ، فبحكمته وعدله ظهر خلقه وشرعه ، وبالعدل والميزان قام الخلق والشرع ، وهو التسوية بين المتماثلين ، والتفريق بين المختلفين .

وهذا كما أنه ثابت فى الدنيا ،فهو كذلك يوم القيامة قال تعالى: ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)** ﴾ [ الصافات ] .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعده الإمام أحمد ـ رحمه الله : أزواجهم أشباههم ونظراؤهم .

وقال تعالى : ﴿ **وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧)** ﴾ [ التكوير ] أى : قرن كل صاحب عمل

---

(١) مسلم ( ٢٦٣٨ / ١٥٩ ) فى البر والصلة والآداب ، باب : الأرواح جنود مجندة .
(٢) أحمد ( ٢ / ٢٩٥ ، ٥٢٧ ) .

بشكله ونظيره ، فقرن بين المتحابين فى الله فى الجنة ، وقرن بين المتحابين فى طاعة الشيطان فى الجحيم ، فالمرء مع من أحب شاء أو أبى ، وفى « مستدرك الحاكم » وغيره عن النبى ﷺ : « لا يحب المرء قومًا إلا حشر معهم » (١) .

والمحبة أنواع متعددة : فأفضلها وأجلها : المحبة فى الله ولله ، وهى تستلزم محبة ما أحب الله ، وتستلزم محبة الله ورسوله .

ومنها محبة الاتفاق فى طريقة،أو دين ، أو مذهب ، أو نحلة أو قرابة ، أو صناعة ، أو مراد ما .

ومنها: محبة لنيل غرض من المحبوب ،إما من جاهه أو من ماله أو من تعليه وإشاده ، أو قضاء وطر منه ،وهذه هى المحبة العرضية التى تزول بزوال موجبها،فإن من ودك لأمر ، ولى عنك عند انقضائه .

وأما محبة المشاكلة والمناسبة التى بين المحب والمحبوب ، فمحبة لازمة لاتزول إلا لعارض يزيلها ،ومحبة العشق من هذا النوع ، فإنها استحسان روحانى ، وامتزاج نفسانى ، ولا يعرض فى شىء من أنواع المحبة من الوسواس والنحول ، وشغل البال ، والتلف ما يعرض من العشق .

**فإن قيل** : فإذا كان سبب العشق ما ذكرتم من الاتصال والتناسب الروحانى ، فما باله لا يكون دائمًا من الطرفين ، بل تجده كثيرًا من طرف العاشق وحده ، فلو كان سببه الاتصال النفس والامتزاج الروحانى ، لكانت المحبة مشتركة بينهما .

**فالجواب** : أن السبب قد يتخلف عنه مسببه لفوات شرط ، أو لوجود مانع ، وتخلف المحبة من الجانب الآخر لا بد أن يكون لأحد ثلاثة أسباب :

**الأول** : علة فى المحبة ، وأنها محبة عرضية لا ذاتية ، ولا يجب الاشتراك فى المحبة العرضية ، بل قد يلزمها نفرة من المحبوب .

**الثانى** : مانع يقوم بالمحب يمنع محبة محبوبه له ، إما فى خُلُقه ، أو فى خَلْقه أو هديه أو فعله ، أوهيئته أو غير ذلك .

---

(١) الحاكم فى المستدرك ( ٤ / ٣٨٤ ) .

**الثالث** : مانع يقوم بالمحبوب يمنع مشاركته للمحب فى محبته ، ولولا ذلك المانع ، لقام به من المحبة لمحبه مثل ما قام بالآخر ، فإذا انتفت هذه الموانع ، وكانت المحبة ذاتية ، فلا يكون قط إلا من الجانبين ، ولولا مانع الكبر والحسد ، والرياسة والمعاداة فى الكفار ، لكانت الرسل أحب إليهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، ولما زال هذا المانع من قلوب أتباعهم ، كانت محبتهم لهم فوق محبة الأنفس والأهل والمال .

والمقصود : أن العشق لما كان مرضًا من الأمراض ، كان قابلاً للعلاج ، وله أنواع من العلاج ، فإن كان مما للعاشق سبيل إلى وصل محبوبه شرعًا وقدراً ، فهو علاجه ، كما ثبت فى « الصحيحين » من حديث ابن مسعود ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإن له وجاء » (١) ، فدل المحب على علاجين : أصلى ، وبدلى ، وأمره بالأصلى ، وهو العلاج الذى وضع لهذا الداء ، فلا ينبغى العدول عنه إلى غيره ما وجد إليه سبيلاً .

وروى ابن ماجه فى « سننه » عن ابن عباس ﷺ ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لم نر للمتحابين مثل النكاح » (٢) ، وهذا هو المعنى الذى أشر إليه ـ سبحانه ـ عقيب إحلال النساء حرائرهن وإمائهن عند الحاجة بقوله : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا** (٢٨) ﴾ [ النساء ] . فذكر تخفيفه فى هذا الموضع ، وإخباره عن ضعف الإنسان يدل على ضعفه عن احتمال هذه الشهوة ، وأنه ـ سبحانه ـ خفف عنه أمرها بما أباحه له من أطايب النساء مثنى وثلاث ورباع ، وأباح له ما شاء مما ملكت يمينه ، ثم أباح له أن يتزوج بالإماء إن احتاج إلى ذلك علاجًا لهذه الشهوة وتخفيفًا عن هذا الخلق الضعيف ، ورحمة به .

وإن كان لا سبيل للعاشق إلى وصال معشوقه قدرًا أو شرعًا ، أو هو ممتنع عليه من الجهتين ، وهو الداء العضال ، فمن علاجه إشعار نفسه اليأس منه ، فإن النفس متى يئست من الشىء استراحت منه ، ولم تلتفت إليه ، فإن لم يزل مرض العشق مع اليأس ، فقد انحرف الطبع انحرافًا شديدًا ، فينتقل إلى علاج آخر ، وهو علاج عقله بأن يعلم بأن تعلق

(١) البخارى (١٩٠٥) فى الصوم ، باب : الصوم لمن خاف على نفسه العزلة ، ومسلم ( ١٤٠٠/ ١ ) فى النكاح ، باب : استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة .

(٢) ابن ماجه (١٨٤٧) فى النكاح ، باب:ما جاء فى فضل النكاح ، وفى الزوائد:« إسناده صحيح ورجاله ثقات » .

القلب بما لا مطمع فى حصوله نوع من الجنون ، وصاحبه بمنزلة من يعشق الشمس ، وروحه متعلقة بالصعود إليها والدوران معها فى فلكها ، وهذا معدود عند جميع العقلاء فى زمرة المجانين .

وإن كان الوصال متعذرًا شرعًا لا قدرًا ، فعلاجه بأن ينزله منزلة المتعذر قدرًا ، إذ ما لم يأذن فيه الله ، فعلاج العبد ونجاته موقوف على اجتنابه ، فليشعر نفسه أنه معدوم ممتنع لا سبيل له إليه ، وأنه بمنزلة سائر المحالات ، فإن لم تجبه النفس الأمارة ، فليتركه لأحد أمرين إما خشية ، وإما فوات محبوب هو أحب إليه ، وأنفع له ، وخير له منه ، وأدوم لذة وسرورًا ، فإن العاقل متى وازن بين نيل محبوب سريع الزوال بفوات محبوب أعظم منه ، وأدوم ، وأنفع ، وألذ أو بالعكس ، ظهر له التفاوت ، فلا تبع لذة الأبد التى لا خطر لها بلذة ساعة تنقلب آلامًا ، وحقيقتها أنها أحلام نائم ، أو خيال لا ثبات له ،فتذهب اللذة ، وتبقى التبعة ، وتزول الشهوة ، وتبقى الشقوة .

الثانى : حصول مكروه أشق عليه من فوات هذا المحبوب ، بل يجتمع له الأمران ، أعنى : فوات ما هو أحب إليه من هذا المحبوب ، وحصول ما هو أكره إليه من فوات هذا المحبوب ، فإذا تيقن أن فى إعطاء النفس حظها من هذا المحبوب هذين الأمرين ، هان عليه تركه ، ورأى أن صبره على فوته أسهل من صبره عليهما بكثير ، فعقله ودينه ، ومروءته وإنسانيته ، تأمره باحتمال الضرر اليسير الذى ينقلب سريعًا لذة وسرورًا ،وفرحًا لدفع هذين الضررين العظيمين . وجهله وهواه ، وظلمه وطيشه ، وخفته يأمره بإيثار هذا المحبوب العاجل بما فيه جالبًا عليه ما جلب ، والمعصوم من عصمه الله .

فإن لم تقبل نفسه هذا الدواء ، ولم تطاوعه لهذه المعالجة ، فلينظر ما تجلب عليه هذه الشهوة من مفاسد عاجلته ، وما تمنعه من مصالحها ، فإنها أجلب شىء لمفاسد الدنيا ، وأعظم شىء تعطيلاً لمصالحها ، فإنها تحول بين العبد وبين رشده الذى هو ملاك أمره ، وقوام مصالحه .

فإن لم تقبل نفسه هذا الدواء ، فليتذكر قبائح المحبوب ، وما يدعوه إلى النفرة عنه ، فإنه إن طلبها وتأملها وجدها أضعاف محاسنه التى تدعو إلى حبه ، وليسأل جيرانه عما خفى عليه منها ، فإن المحاسن كما هى داعية الحب والإرادة ، فالمساوئ داعية البغض

والنفرة ، فيوازن بين الداعيين ، وليحب أسبقهما وأقربهما منه بابًا ، ولا يكن من غره لون جمال على جسم أبرص مجذوم وليجاوز بصره حسن الصورة إلى قبح الفعل ، وليعبر من حسن المنظر والجسم إلى قبح المخبر والقلب .

فإن عجزت عنه هذه الأدوية كلها لم يبق له إلا صدق اللجأ إلى من يجيب المضطر إذا دعاه ، وليطرح نفسه بين يديه على بابه ، مستغيثًا به ، متضرعًا ، متذللاً ، مستكينًا ، فمتى وفق لذلك ، فقد قرع باب التوفيق ، فليعف وليكتم ، ولا يشبب بذكر المحبوب ، ولا يفضحه بين الناس ويعرضه للأذى ، فإنه يكون ظالمًا معتديًا .

ولا يغتر بالحديث الموضوع على رسول الله ﷺ الذى رواه سويد بن سعيد ، عن على بن مسهر ، عن أبى يحيى القتات ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبى ﷺ ، ورواه عن أبى مسهر أيضًا ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، عن النبى ﷺ ، ورواه الزبير بن بكار، عن عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون ، عن عبد العزيز ابن أبى حازم ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبى أنه قال: « من عشق ، فعف، فمات فهو شهيد » وفى رواية : « من عشق وكتم وعف وصبر ، غفر الله له ، وأدخله الجنة » (١) .

فإن هذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ، ولا يجوز أن يكون من كلامه ، فإن الشهادة درجة عالية عند الله ، مقرونة بدرجة الصديقية ، ولها أعمال وأحوال ، هى شرط فى حصولها ، وهى نوعان :

عامة وخاصة : فالخاصة : الشهادة فى سبيل الله .

والعامة : خمس مذكورة فى « الصحيح » ليس العشق واحدًا منها .

وكيف يكون العشق الذى هو شرك فى المحبة ، وفراغ القلب عن الله ،وتمليك القلب والروح ، والحب لغيره تنال به درجة الشهادة ، هذا من المحال ، فإن إفساد عشق الصور للقلب فوق كل إفساد ، بل هو خمر الروح الذى يسكرها ، ويصدها عن ذكر الله وحبه ، والتلذذ بمناجاته ، والأنس به ، ويوجب عبودية القلب لغيره ، فإن قلب العاشق متعبد

---

(١) تاريخ بغداد ( ٥ / ١٥٦ ، ٢٦٢ ) ، والقارى فى الأسرار المرفوعة (٥٠٨) .

لمعشوقه ، بل العشق لب العبودية ، فإنها كمال الذل ، والحب والخضوع والتعظيم ، فكيف يكون تعبد القلب لغير الله مما تنال به درجة أفاضل الموحدين وساداتهم ، وخواص الأولياء ، فلو كان إسناد هذا الحديث كالشمس ، كان غلطًا ووهمًا ، ولا يحفظ عن رسول الله ﷺ لفظ العشق فى حديث صحيح البتة .

ثم إن العشق منه حلال ، ومنه حرام ، فكيف يظن بالنبى ﷺ أنه يحكم على كل عاشق يكتم ويعف بأنه شهيد ، فترى من يعشق امرأة غيره ، أو يعشق المردان والبغايا ، ينال بعشقه درجة الشهداء ، وهل هذا إلا خلاف المعلوم من دينه ﷺ بالضرورة ؟ كيف والعشق مرض من الأمراض التى جعل الله سبحانه لها الأدوية شرعًا وقدرًا ، والتداوى منه إما واجب إن كان عشقًا حرامًا ، وإما مستحب .

وأنت إذا تأملت الأمراض والآفات التى حكم رسول الله ﷺ لأصحابها بالشهادة ، وجدتها من الأمراض التى لا علاج لها ، كالمطعون ، والمبطون ، والمجنون ، والحريق ، والغريق ، وموت المرأة يقتلها ولدها فى بطنها ، فإن هذه بلايا من الله لا صنع للعبد فيها ، ولا علاج لها ، وليست أسبابها محرمة ، ولا يترتب عليها من فساد القلب وتعبده لغير الله ما يترتب على العشق، فإن لم يكف هذا فى إبطال نسبة هذا الحديث إلى رسول الله ﷺ ، فقلد أمة الحديث العالمين به وبعلله ، فإنه لا يحفظ عن إمام واحد منهم قط أنه شهد له بصحة ، بل ولا بحسن ، كيف وقد أنكروا على سويد هذا الحديث ، ورموه لأجله بالعظائم واستحل بعضهم غزوه لأجله . قال أبو أحمد بن عدى فى « كامله » : هذا الحديث أحد ما أنكر على سويد ، وكذلك قال البيهقى : إنه مما أنكر عليه ، وكذلك قال ابن طاهر فى « الذخيرة » وذكره الحاكم فى « تاريخ نيسابور » وقال : أنا أتعجب من هذا الحديث ، فإنه لم يحدث به عن غير سويد ، وهو ثقة ، وذكره أبو الفرج ابن الجوزى فى كتاب « الموضوعات » ، وكان أبو بكر الأزرق يرفعه أولاً عن سويد ، فعوتب فيه ، فأسقط النبى ﷺ وكان لا يجاوز به ابن عباس رضي الله عنهما .

ومن المصائب التى لا تحتمل جعل هذا الحديث من حديث هشام بن عروة عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبى ﷺ. ومن له أدنى إلمام بالحديث وعلله ، لا يحتمل هذا البتة ، ولا يحتمل أن يكون من حديث الماجشون عن ابن أبى حازم ، عن ابن أبى نجيح ، عن

مجاهد ، عن ابن عباس ﷺ مرفوعًا ، وفى صحته موقوفًا على ابن عباس نظر ، وقد رمى الناس سويد بن سعيد راوى هذا الحديث بالعظائم ، وأنكره عليه يحيى بن معين وقال : هو ساقط كذاب ،لو كان لى فرس ورمح كنت أغزوه ، وقال الإمام أحمد : متروك الحديث ، وقال النسائى : ليس بثقة ، وقال البخارى : كان قد عمى فيلقن ما ليس من حديثه ، وقال ابن حبان : يأتى بالمعضلات عن الثقات يجب مجانبة ما روى ، انتهى . وأحسن ما قيل فيه قول أبى حاتم الرازى : إنه صدوق كثير التدليس ، ثم قول الدارقطنى : هو ثقة غير أنه لما كبر كان ربما قرئ عليه حديث فيه بعض النكارة فيجيزه انتهى ، وعيب على مسلم إخراج حديثه ، وهذه حاله ، ولكن مسلم روى من حديثه ما تابعه عليه غيره ، ولم ينفرد به ، ولم يكن منكرًا ولا شاذًا بخلاف هذا الحديث ، والله أعلم (١) .

## فصل
## فى ذكر شىء من الأدوية والأغذية المفردة
## التى جاءت على لسانه ﷺ مرتبه على حروف المعجم
## ( حرف الهمزة )

**إثمد:**

هو حجر الكحل الأسود ، يؤتى به من أصبهان ، وهو أفضله ، ويؤتى به من جهة المغرب أيضًا ، وأجوده السريع التفتيت الذى لفتاته بصيص ، وداخله أملس ليس فيه شىء من الأوساخ .

ومزاجه بارد يابس ينفع العين ويقويها ، ويشد أعصابها ، ويحفظ صحتها ، ويذهب اللحم الزائد فى القروح ويدملها ، وينقى أوساخها ، ويجلوها ، ويذهب الصداع إذا اكتحل به مع العسل المائى الرقيق ، وإذا دق وخلط ببعض الشحوم الطرية ، ولطخ على حرق النار ، لم تعرض فيه خشكريشة ، ونفع من التنفط الحادث بسببه ، وهو أجود إكحال العين لا سيما للمشايخ،والذين قد ضعفت أبصارهم إذا جعل معه شىء من المسك .

---

(١) زاد المعاد ( ٤ / ٢٦٥ ـ ٢٧٨ ) .

**أترج :**

ثبت فى « الصحيح » : عن النبى ، أنه قال : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة ، طعمها طيب ، وريحها طيب » (١) .

فى الأترج منافع كثيرة ، وهو مركب من أربعة أشياء : قشر ، ولحم ، وحمض ، وبزر ، ولكل واحد منها مزاج يخصه ، فقشره حار يابس ، ولحمه حار رطب ، وحمضه بارد يابس ، وبزره حار يابس .

ومن منافع قشره : أنه إذا جعل فى الثياب منع السوس ، ورائحته تصلح فساد الهواء والباء ، ويطيب النكهة إذا أمسكه فى الفم ، ويحلل الرياح ، وإذا جعل فى الطعام كالأبازير ، أعان على الهضم . قال صاحب « القانون » : وعصارة قشره تنفع من نهش الأفاعى شربًا ، وقشره ضمادًا ، وحراقة قشره طلاء جيد للبرص . انتهى .

وأما لحمه : فملطف لحرارة المعدة ، نافع لأصحاب المرة الصفراء ، قامع للبخارات الحارة . وقال الغافقى : أكل لحمه ينفع البواسير ، انتهى .

وأما حمضه : فقابض كاسر للصفراء ، ومسكن للخفقان الحار ، نافع من اليرقان شربًا واكتحالاً ، قاطع للقىء الصفراوى ، مشهٍ للطعام ، عاقل للطبيعة ، نافع من الإسهال الصفراوى ، وعصارة حمضه يسكن غلمة النساء ، وينفع طلاء من الكلف ، ويذهب بالقوباء ، ويستدل على ذلك من فعله فى الحبر إذا وقع فى الثياب قلعه ، وله قوة تلطف ، وتقطع ، وتبرد ، وتطفئ حرارة الكبد ، وتقوى المعدة ، وتمنع حدة المرة الصفراء ، وتزيل الغم العارض منها ، وتسكن العطش .

وأما بزره : فله قوة محللة مجففة ، وقال ابن ماسويه : خاصية حبه النفع من السموم القاتلة إذا شرب منه وزن مثقال مقشرًا بماء فاتر ، وطلاء مطبوخ ، وإن دق ووضع على موضع اللسعة ، نفع ، وهو ملين للطبيعة ، مطيب للنكهة ، وأكثر هذا الفعل موجود فى قشره ، وقال غيره : خاصية حبه النفع من لسعات العقارب إذا شرب منه وزن مثقالين مقشرًا بماء فاتر ، وكذلك إذا دق ووضع على موضع اللدغة . وقال غيره : حبه يصلح

(١) البخارى (٥٠٢٠) فى فضائل القرآن ، باب : فضل القرآن على سائر الكلام ، ومسلم (٧٩٧ / ٢٤٣) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : فضيلة حافظ القرآن .

للسموم كلها ، وهو نافع من لدغ الهوام كلها .

وذكر أن بعض الأكاسرة غضب على قوم من الأطباء ، فأمر بحبسهم ، وخيرهم أدمًا لا يزيد لهم عليه ، فاختاروا الأترج ، فقيل لهم : لم اخترتموه على غيره ؟ فقالوا : لأنه فى العاجل ريحان، ومنظره مفرح ، وقشره طيب الرائحة ، ولحمه فاكهة ، وحمضه أدم ، وحبه ترياق ، وفيه دهن .

وحقيق بشىء هذه منافعه أن يشبه به خلاصة الوجود ،وهو المؤمن الذى يقرأ القرآن ، وكان بعض السلف يحب النظر إليه لما فى منظره من التفريح .

**أَرُزّ :**

فيه حديثان باطلان موضوعان على رسول الله ﷺ ، أحدهما : أنه « لو كان رجلاً ، لكان حليمًا » ، الثانى : « كل شىء أخرجته الأرض ففيه داء وشفاء إلا الأرز ، فإنه شفاء لا داء فيه » ذكرناهما تنبيهًا وتحذيرًا من نسبتهما إليه ﷺ .

وبعد فهو حار يابس ، وهو أغذى الحبوب بعد الحنطة ، وأحمدها خلطًا ، يشد البطن شدًا يسيرًا ، ويقوى المعدة ، ويدبغها ، ويمكث فيها ، وأطباء الهند تزعم أنه أحمد الأغذية وأنفعها إذا طبخ بألبان البقر ، وله تأثير فى خصب البدن ، وزيادة المنى ، وكثرة التغذية ، وتصفية اللون .

**أرز :**

بفتح الهمزة وسكون الراء : وهو الصنوبر ، ذكره النبى ﷺ فى قوله : « مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع ، تفيئها الرياح ، تقيمها مرة ، وتميلها أخرى ، ومثل المنافق مثل الأرزة لا تزال قائمة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة » (١) ، وحبه حار رطب ، وفيه إنضاج وتليين ، وتحليل ، ولذع يذهب بنقعه فى الماء ، وهو عسر الهضم ، وفيه تغذية كثيرة ، وهو جيد للسعال ، ولتنقية رطوبات الرئة ، ويزيد فى المنى ، ويولد مغصًا ، وترياقه حب الرمان المز .

**إذخر:**

ثبت فى « الصحيح » عنه ﷺ أنه قال فى مكة :« لا يختلى خلاها » ، فقال لـه

---

(١) البخارى (٥٦٤٣) فى المرضى ، باب : ما جاء فى كفارة المرض ، ومسلم (٢٨١٠ / ٥٩) فى صفات المنافقين ، باب : مثل المؤمن كالزرع .

العباس رضي الله عنه : إلا الإذخر يا رسول الله ، فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقال : « إلا الإذخر » (١) .

والإذخر حار فى الثانية ، يابس فى الأولى ، لطيف مفتح للسدد ، وأقواه العروق ، يدر البول والطمث، ويفتت الحصى ويحلل الأورام الصلبة فى المعدة والكبد والكليتين شربًا وضمادًا ،وأصله يقوى عمود الأسنان والمعدة ، ويسكن الغثيان ، ويعقل البطن (٢) .

## ( حرف الباء )

**بطيخ :**

روى أبو داود والترمذى ، عن النبى ﷺ،أنه كان يأكل البطيخ بالرطب،يقول:« نكسر حر هذا ببرد هذا ، وبرد هذا بحر هذا » (٣).

وفى البطيخ عدة أحاديث لا يصح منها شىء غير هذا الحديث الواحد والمراد به الأخضر ، وهو بارد رطب ،وفيه جلاء ، وهو أسرع انحدارًا عن المعدة من القثاء والخيار ، وهو سريع الاستحالة إلى أى خلط كان صادفه فى المعدة ، وإذا كان آكله محرورًا انتفع به جدًا ، وإن كان مبرودًا دفع ضره بيسير من الزنجبيل ونحوه ، وينبغى أكله قبل الطعام ، ويتبع به ، وإلا غثى وقيأ ، وقال بعض الأطباء إنه قبل الطعام يغسل البطن غسلاً ، ويذهب بالداء أصلاً .

**بلح :**

روى النسائى وابن ماجه فى « سننهما » من حديث هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « كلوا البلح بالتمر ، فإن الشيطان إذا نظر إلى ابن آدم يأكل البلح بالتمر يقول : بقى ابن آدم حتى أكل الحديث بالعتيق » (٤) . وفى رواية

(١) البخارى (١٨٣٣) فى جزاء الصيد ، باب : لا ينفر صيد الحرم ، ومسلم (١٣٥٣ / ٤٤٥) فى الحج ، باب : تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام .

(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٢٨٣ ـ ٢٨٦ ) .

(٣) أبو داود (٣٨٣٦) فى الأطعمة ،باب:فى الجمع بين لونين فى الأكل ، والترمذى (١٨٤٣) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى أكل البطيخ بالرطب ، وقال : « حسن غريب » .

(٤) النسائى فى الكبرى (٦٧٢٤) فى الأطعمة ، باب : البلح بالتمر ، وابن ماجه (٣٣٣٠) فى الأطعمة ، باب : أكل البلح بالتمر ، وضعفه الألبانى .

رواية : « كلوا البلح بالتمر ، فإن الشيطان يحزن إذا رأى ابن آدم يأكله يقول : عاش ابن آدم حتى أكل الجديد بالخلق » ، رواه البزار فى « مسنده » وهذا لفظه .

قلت : الباء فى الحديث بمعنى: مع،أى كلوا هذا مع هذا ، قال بعض أطباء الإسلام : إنما أمر النبى ﷺ بأكل البلح بالتمر،ولم يأمر بأكل البسر مع التمر ، لأن البلح بارد يابس ، والتمر حار رطب ، ففى كل منهما إصلاح للآخر ، وليس كذلك البسر مع التمر ، فإن كل واحد منهما حار ، وإن كانت حرارة التمر أكثر ، ولا ينبغى من جهة الطب الجمع بين حارين أو باردين ، كما تقدم . وفى هذا الحديث : التنبيه على صحة أصل صناعة الطب ، ومراعاة التدبير الذى يصلح فى دفع كيفيات الأغذية والأدوية بعضها ببعض ، ومراعاة القانون الطبى الذى تحفظ به الصحة .

وفى البلح برودة ويبوسة ، وهو ينفع الفم واللثة والمعدة ، وهو ردىء للصدر والرئة بالخشونة التى فيه ، بطىء فى المعدة يسير التغذية ، وهو للنخلة كالحصرم لشجرة العنب ، وهما جميعًا يولدان رياحًا ، وقراقر ، ونفخًا ، ولا سيما إذا شرب عليهما الماء ، ودفع مضرتهما بالتمر ، أو بالعسل والزبد .

**بسر:**

ثبت فى « الصحيح »:أن أبا الهيثم بن التيهان،لما ضافه النبى ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، جاءهم بعذق ـ وهو من النخلة كالعنقود من العنب ـ فقال له : « هلا انتقيت لنا من رطبه » فقال : « أحببت أن تنتقوا من بسره ورطبه » (١) .

والبسر حار يابس ، ويبسه أكثر من حره ، ينشف الرطوبة ، ويدبغ المعدة ويحبس البطن ، وينفع اللثة والفم ، وأنفعه ما كان هشا وحلوًا ، وكثرة أكله وأكل البلح يحدث السدد فى الأحشاء .

**بيض :**

ذكر البيهقى فى « شعب الإيمان » أثرًا مرفوعًا : أن نبيًا من الأنبياء شكى إلى الله

---

(١) مسلم (٢٠٣٨ / ١٤٠) فى الأشربة ، باب : جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك ، والترمذى (٢٣٦٩) فى الزهد ، باب : ما جاء فى معيشة أصحاب النبى ﷺ وقال : « حسن صحيح » .

سبحانه الضعف ، فأمره بأكل البيض ، وفى ثبوته نظر ، ويختار من البيض الحديث على العتيق ، وبين الدجاج على سائر بيض الطير ، وهو معتدل يميل إلى البرودة قليلاً .

قال صاحب « القانون » : ومُحُّـهُ : حار رطب ، يولد دمًا صحيحًا محمودًا ، ويغذى غذاءً يسيرًا ، ويسرع الانحدار من المعدة إذا كان رخوًا ، وقال غيره : مح البيض : مسكن للألم، مملس للحلق وقصبة الرئة ، نافع للحلق والسعال وقروح الرئة والكلى والمثانة ، مذهب للخشونة ، لا سيما إذا أخذ بدهن اللوز الحلو ، ومنضج لما فى الصدر ، ملين له ، مسهل لخشونة الحلق ، وبياضه إذا قطر فى العين الوارمة ورمًا حارًا ، برده ، وسكن الوجع ، وإذا لطخ به حرق النار أو ما يعرض له ، لم يدعه يتنفط ، وإذا لطخ به الوجع ، منع الاحتراق العارض من الشمس ، وإذا خلط بالكندر ، ولطخ على الجبهة ، نفع من النزلة .

وذكره صاحب « القانون » فى الأدوية القلبية ، ثم قال : وهو ـ وإن لم يكن من الأدوية المطلقة ـ فإنه مما له مدخل فى تقوية القلب جدًا أعنى الصفرة ، وهى تجمع ثلاثة معان : سرعة الاستحالة إلى الدم ، وقلة الفضلة ، وكون الدم المتولد منه مجانسًا للدم الذى يغذو القلب خفيفًا مندفعًا إليه بسرعة، ولذلك هو أوفق ما يتلافى به عادة الأمراض المحللة لجوهر الروح .

**بصل :**

روى أبو داود فى « سننه » : عن عائشة رضي الله عنها ، أنها سئلت عن البصل ، فقالت : إن آخر طعام أكله رسول الله ﷺ كان فيه بصل (١) ، وثبت عنه فى « الصحيح » أنه منع آكله من دخول المسجد (٢) .

والبصل : حار فى الثالثة ، وفيه رطوبة فضلية ينفع من تغير المياه ، ويدفع ريح السموم ، ويفتق الشهوة ويقوى المعدة ، ويهيج الباه ، ويزيد فى المنى ، ويحسن اللون ، ويقطع البلغم ، ويجلو المعدة ، وبزره يذهب البهق ، ويدلك به حول داء الثعلب ، فينفع

(١) أبو داود (٣٨٢٩) فى الأطعمة ، باب : فى أكل الثوم ، وضعفه الألبانى .
(٢) البخارى (٥٤٥١) فى الأطعمة ، باب : ما يكره من الثوم والبقول ، ومسلم (٥٦٢ / ٧٠) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : من أكل ثومًا أو بصلا أو كراثا أو نحوه .

جدًا ،وهو بالملح يقلع الثآليل ، وإذا شمة من شرب دواء مسهلاً منعه من القىء والغثيان ، وأذهب رائحة ذلك الدواء ، وإذا استعط بمائه ، نقى الرأس ، ويقطر فى الأذن لثقل السمع والطنين والقيح ، والماء الحادث فى الأذنين ،وينفع من الماء النازل من العينين اكتحالاً يكتحل ببزره مع العسل لبياض العين ، والمطبوخ منه كثير الغذاء ينفع من اليرقان والسعال ، وخشونة الصدر ، ويدر البول ، ويلين الطبع ، وينفع من عضة الكلب غير الكلب إذا نطل عليها ماؤه بملح وسذاب ، وإذا احتمل، فتح أفواه البواسير .

وأما ضرره : فإن يورث الشقيقة ، ويصدع الرأس ، ويولد أرياحًا ، ويظلم البصر ، وكثرة أكله تورث النسيان ، ويفسد العقل ، ويغير رائحة الفم والنهكة ، ويؤذى الجليس ، والملائكة ، وإماتته طبخًا تذهب بهذه المضرات منه .

وفى السنن أنه ﷺ أمر آكله وآكل الثوم أن يميتهما طبخًا (١) ويذهب رائحته مضغ ورق السذاب عليه .

**باذنجان :**

فى الحديث الموضوع المختلق على رسول الله ﷺ :« الباذنجان لما أكل له » (٢) ، وهذا الكلام مما يستقبح نسبته إلى آحاد العقلاء ، فضلا عن الأنبياء ، وبعد ، فهو نوعان : أبيض وأسود ، وفيه خلاف ، هل هو بارد أو حار ؟ والصحيح : أنه حار ، وهو مولد للسوداء والبواسير ، والسدد والسرطان والجذام ، ويفسد اللون ويسوده ، ويضر بنتن الفم ، والأبيض منه المستطيل عار من ذلك (٣) .

## ( حرف التاء )

**تمر :**

ثبت فى « الصحيح » عنه ﷺ : « من تصبح بسبع تمرات (٤) ـ وفى لفظ : من تمر

(١) النسائى (٧٠٨) فى المساجد ، باب : من يخرج من المسجد ، وابن ماجه (٣٣٦٣) فى الأطعمة ، باب : أكل الثوم والبصل والكراث .

(٢) المنار المنيف (٥٤) ، والأسرار المرفوعة (١١٢) ، وقال : « باطل لا أصل له » .

(٣) زاد المعاد ( ٤ / ٢٨٦ ـ ٢٩١ ) .

(٤) البخارى (٥٧٦٩) فى الطب،باب:الدواء بالعجوة،ومسلم (٢٠٤٧/ ١٥٥) فى الأشربة ، باب:فضل تمر المدينة .

العالية ـ لم يضره ذلك اليوم سم ، ولا سحر » (١) . وثبت عنه أنه قال : « بيت لا تمر فيه جياع أهله » (٢). وثبت عنه أكل التمر بالزبد ، وأكل التمر بالخبز ، وأكله مفردًا (٣) .

وهو حار فى الثانية ، وهل هو رطب فى الأولى ، أو يابس فيها ؟ على قولين . وهو مقو للكبد ، ملين للطبع ، يزيد فى الباه ، ولا سيما مع حب الصنوبر ، ويبرئ من خشونة الحلق،ومن لم يعتده كأهل البلاد الباردة فإن يورث لهم السدد ، ويؤذى الأسنان ، ويهيج الصداع ، ودفع ضرره باللوز والخشخاش ، وهو من أكثر الثمار تغذية للبدن بما فيه من الجوهر الحار الرطب ،وأكله على الريق يقتل الدود ، فإنه مع حرارته فيه قوة ترياقية ، فإذا أديم استعماله على الريق ، خفف مادة الدود ، وأضعفه وقلله ، أو قتله ، وهو فاكهة وغذاء ، ودواء وشراب وحلوى .

**تين :**

لما لم يكن التين بأرض الحجاز والمدينة ، لم يأت له ذكر فى السنة ، فإن أرضه تنافى أرض النخل ، ولكن قد أقسم الله به فى كتابه ، لكثرة منافعه وفوائده ، والصحيح : أن المقسم به : هو التين المعروف .

وهو حار ، وفى رطوبته ويبوسته قولان ، وأجوده : الأبيض الناضج القشر ، يجلو رمل الكلى والمثانة ، ويؤمن من السموم ، وهو أغذى من جميع الفواكه وينفع خشونة الحلق والصدر ، وقصبة الرئة ،ويغسل الكبد والطحال ، وينقى الخلط البلغمى من المعدة ، ويغذو البدن غذاءً جيدًا ، إلا أنه يولد القمل إذا أكثر منه جدًا .

ويابسه يغذو وينفع العصب ، وهو مع الجوز واللوز محمود ، قال جالينوس : وإذا أكل مع الجوز والسذاب قبل أخذ السم القاتل ، نفع ، وحفظ من الضرر .

ويذكر عن أبى الدرداء : أهدى إلى النبى ﷺ طبق من تين ، فقال : « كلوا » وأكل منه ، وقال : لو قلت : إن فاكهة نزلت من الجنة قلت هذه ، لأن فاكهة الجنة بلا عجم ، فكلوا منها فإنها تقطع البواسير ، وتنفع من النقرس » . وفى ثبوت هذا نظر .

واللحم منه أجود ، ويعطش المحرورين ، ويسكن العطش الكائن عن البلغم المالح ،

---

(١) فتح البارى (١٠ / ٢٣٩) .

(٢) مسلم (٢٠٤٦ / ١٥٣) فى الأشربة ، باب : فى إدخال التمر ونحوه من الأقوات للعيال .

(٣) أبو داود (٣٨٣٧) فى الأطعمة ، باب : فى الجمع بين لونين فى الأكل ، وابن ماجه (٣٣٣٤) فى الأطعمة ، باب : التمر بالزبد .

وينفع السعال المزمن ، ويدر البول ، ويفتح سدد الكبد والطحال ، ويوافق الكلى والمثانة ، ولأكله على الريق منفعة عجيبة فى تفتيح مجارى الغذاء، وخصوصًا باللوز والجوز ، وأكله مع الأغذية الغليظة ردىء جدًا ،والتوت الأبيض قريب منه،لكنه أقل تغذية وأضر بالمعدة .

**تلبينة :**

قد تقدم أنها ماء الشعير المطحون ، وذكرنا منافعها ، وأنها أنفع لأهل الحجاز من ماء الشعير الصحيح (١) (٢) .

## ( حرف الثاء )

**ثلج :**

ثبت فى « الصحيح » : عن النبى ﷺ أنه قال : « اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد » (٣) .

وفى هذا الحديث من الفقه : أن الداء يداوى بضده ، فإن فى الخطايا من الحرارة والحريق ما يضاده الثلج والبرد ، والماء البارد ، ولا يقال : إن الماء الحار أبلغ فى إزالة الوسخ ، لأن فى الماء البارد من تصليب الجسم وتقويته ما ليس فى الحار ، والخطايا توجب أثرين : التدنيس والإرخاء ، فالمطلوب مداواتها بما ينظف القلب ويصلبه ، فذكر الماء البارد والثلج والبرد إشارة إلى هذين الأمرين .

وبعد ، فالثلج بارد على الأصح ،وغلط من قال : حار ، وشبهته تولد الحيوان فيه ، وهذا لا يدل على حرارته ، فإنه يتولد فى الفواكه الباردة ، وفى الخل ، وأما تعطيشه ، فلتهييجه الحرارة لا لحرارته فى نفسه ، ويضر المعدة والعصب ، وإذا كان وجع الأسنان من حرارة مفرطة ، سكنها .

**ثوم :**

هو قريب من البصل ، وفى الحديث : « من أكلهما فليمتهما طبخًا » (٤) ، وأهدى إليه طعام فيه ثوم ، فأرسل به إلى أبى أيوب الأنصارى ، فقال : يا رسول الله ، تكرهه

---

(١) انظر ص ١٠٨ .

(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٢٩١ ـ ٢٩٣ ) .

(٣) مسلم (٥٩٨ / ١٤٧) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة .

(٤) مسلم (٥٦٧ / ٧٨) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : نهى من أكل ثومًا أو بصلاً أو كراثًا ونحوهما ، وابن ماجه (١٠١٤) فى إقامة الصلاة ، باب : من أكل الثوم فلا يقربن المسجد .

وترسل به إلى ؟ فقال : « إنى أناجى من لا تناجى » (١) .

وبعد فهو حار يابس فى الرابعة ، يسخن تسخينًا قويًا ، ويجفف تجفيفًا بالغًا ، نافع للمبرودين،وله مزاجه بلغمى ،ولمن أشرف على الوقوع فى الفالج ، وهو مجفف للمنى ، مفتح للسدد ، محلل للرياح الغليضة ، هاضم للطعام ، قاطع للعطش ، مطلق للبطن ، مدر للبول ،يقوم فى لسع الهوام وجميع الأورام البارد مقام الترياق ، وإذا دق وعمل منه ضماد على نهش الحيات ، أو على لسع العقارب ، نفعها وجذب السموم منها ، ويسخن البدن ، ويزيد فى حرارته ، ويقطع البلغم ، ويحلل النفخ ، ويصفى الحلق ، ويحفظ صحة أكثر الأبدان،وينفع من تغير المياه ، والسعال المزمن ، ويؤكل نيئًا ومطبوخًا ومشويًا ، وينفع من وجع الصدر من البرد ، ويخرج العلق من الحلق ، وإذا دق مع الخل والملح والعسل ، ثم وضع على الضرس المتآكل ، فتته وأسقطه ، وعلى الضرس الوجع سكن وجعه ، وإن دق منه مقدار درهمين ، وأخذ مع ماء العسل ، أخرج البلغم والدود ، وإذا طلى بالعسل على البهق ، نفع .

ومن مضاره :أنه يصدع ، ويضر الدماغ والعينين ، ويضعف البصر والباه ، ويعطش ، ويهيج الصفراء ، ويجيف رائحة الفم ، ويذهب رائحته أن يمضغ عليه ورق السذاب .

**ثريد :**

ثبت فى « الصحيحين » عنه ﷺ أنه قال : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » (٢) .

والثريد وإن كان مركبًا ، فإنه مركب من خبز ولحم ، فالخبز أفضل الأقوات ، واللحم سيد الإدام ، فإذا اجتمعا لم يكن بعدهما غاية .

وتنازع الناس أيهما أفضل ؟ والصواب أن الحاجة إلى الخبز أكثر وأعم ، واللحم أجل وأفضل ، وهو أشبه بجوهر البدن من كل ما عداه ، وهو طعام أهل الجنة ، وقد قال تعالى لمن طلب البقل ، والقثاء ، والفوم ، والعدس ، والبصل : ﴿**قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ**﴾ [ البقرة : ٦١] ، وكثير من السلف على أن الفوم الحنطة ، وعلى هذا فالآية نص على أن اللحم خير من الحنطة (٣) .

(١) البخارى (٨٥٥) فى الأذان ، باب : ما جاء فى الثوم النئ والبصل والكراث ، ومسلم (٥٦٤ / ٧٣) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : نهى من أكل ثوما أو بصلاً .

(٢) البخارى (٣٧٧٠) فى فضائل الصحابة ، باب : فى فضل عائشة رضي الله عنها ، ومسلم (٢٤٤٦ / ٨٩) فى فضائل الصحابة ، باب : فى فضل عائشة رضي الله عنها .

(٣) زاد المعاد ( ٤ / ٢٩٣ ـ ٢٩٦ ) .

## ( حرف الجيم )

**جمار :**

قلب النخل ، ثبت فى « الصحيحين » : عن عبد الله بن عمر قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ جلوس ، إذ أتى بجمار نخلة فقال النبى ﷺ : « إن من الشجر شجرة مثل الرجل المسلم لا يسقط ورقها . . . » الحديث (١) ، والجمار : بارد يابس فى الأولى ، يختم القروح ،وينفع من نفث الدم،واستطلاق البطن ، وغلبة المرة الصفراء وثائرة الدم ، وليس بردىء الكينوس ويغذو غذاء يسيرًا يسيرًا ،وهو بطىء الهضم ، وشجرته كلها منافع ، ولهذا مثلها النبى ﷺ بالرجل المسلم لكثرة خيره ومنافعه .

**جبن :**

فى « السنن » عن عبد الله بن عمر قال:« أتى النبى ﷺ بجبنة فى تبوك فدعا بسكين، وسمى وقطع » . رواه أبو داود (٢) ، وأكله الصحابة ﷺ بالشام ، والعراق ، والرطب منه غير المملوح جيد للمعدة ، هين السلوك فى الأعضاء ، يزيد فى اللحم ، ويلين البطن تليينًا معتدلاً والمملوح أقل غذاء من الرطب ، وهو ردىء للمعدة مؤذ للأمعاء والعتيق يعقل البطن ، وكذا المشوى ، وينفع القروح ، ويمنع الإسهال .

وهو بارد رطب،فإن استعمل مشويًا ، كان أصلح لمزاجه ، فإن النار تصلحه وتعدله ، وتلطف جوهره ، وتطيب طعمه ورائحته ، والعتيق المالح ، حار يابس ، وشيه يصلحه أيضًا بتلطيف جوهره ، وكسر حرافته لما تجذبه النار منه من الأجزاء الحارة اليابسة المناسبة لها ، والمملح منه يهزل ، ويولد حصاة الكلى والمثانة ، وهو ردىء للمعدة ، وخلطه بالملطفات أردأ بسبب تنفيذها له إلى المعدة (٣) .

## ( حرف الحاء )

**حناء :**

قد تقدمت الأحاديث فى فضله ، وذكر منافعه ، فأغنى عن إعادته (٤).

---

(١) البخارى (٥٤٤٤) فى الأطعمة ، باب : أكل الجمار ، ومسلم (٢٨١١) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : مثل المؤمن مثل النخلة .

(٢) أبو داود (٣٨١٩) فى الأطعمة ، باب : فى أكل الجبن .

(٣) زاد المعاد ( ٤ / ٢٩٦ ـ ٢٩٧ ) .

(٤) انظر ص ١٨٩ .

**الحبة السوداء :**

ثبت فى « الصحيحين » : من حديث أبى سلمة ، عن أبى هريرة ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال : عليكم بهذه الحبة السوداء ، فإن فيها شفاء من كل داء إلا السام »(١) . والسام : الموت .

الحبة السوداء : هى الشونيز فى لغة الفرس ، وهى الكمون الأسود وتسمى الكمون الهندى ، قال الحربى عن الحسن : إنها الخردل ، وحكى الهروى : أنها الحبة الخضراء ثمرة البطم ، وكلاهما وهم والصواب : أنها الشونيز .

وهى كثيرة المنافع جدًا ، وقوله : « شفاء من كل داء » ، مثل قوله تعالى : ﴿ **تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا** ﴾ [ الأحقاف : ٢٥] أى : كل شىء يقبل التدمير ونظائره ، وهى نافعة من جميع الأمراض الباردة ، وتدخل فى الأمراض الحارة اليابسة بالعرض ، فتوصل قوى الأدوية الباردة الرطبة إليها بسرعة تنفيذها إذا أخذ يسيرها .

وقد نص صاحب « القانون » وغيره ، على الزعفران فى قرص الكافور لسرعة تنفييذه وإيصاله قوته ، وله نظائر يعرفها حذاق الصناعة ، ولا تستبعد منفعة الحار فى أمراض حارة بالخصية ، فإنك تجد ذلك فى أدوية كثيرة ، منها : الأنزروت وما يركب معه من أدوية الرمد ، كالسكر وغيره من المفردات الحارة ، والرمد ورم حار باتفاق الأطباء ، وكذلك نفع الكبريت الحار جدًا من الجرب .

والشونيز حار يابس فى الثالثة ، مذهب للنفخ ، مخرج لحب القرع ، نافع من البرص وحمى الربع والبلغمية مفتح للسدد ، ومحلل للرياح ،مجفف لبلة المعدة ورطوبتها ، وإن دق وعجن بالعسل ، وشرب بالماء الحار ، أذاب الحصاة التى تكون فى الكليتين والمثانة ، ويدر البول والحيض واللبن إذا أديم شربه أيامًا ، وإن سخن بالخل ، وطلى على البطن ، قتل حب القرع ، فإن عجن بماء الحنظل الرطب ، أو المطبوخ ، كان فعله فى إخراج الدود أقوى ، ويجلو ويقطع ، ويحلل ، ويشفى من الزكام البارد إذا دق وصير فى خرقة ، واشتم دائمًا ، أذهبه .

ودهنه نافع لداء الحية ، ومن الثآليل والخيلان ، وإذا شرب منه مثقال بماء ، نفع من البهر وضيق النفس ، والضماد به ينفع من الصداع البارد ، وإذا نقع منه سبع حبات عددًا فى لبن امرأة ، وسعط به صاحب اليرقان ، نفعه نفعًا بليغًا .

---

(١) البخارى (٥٦٨٨) فى الطب ، باب : الحبة السوداء ، ومسلم (٢٢١٥ / ٨٨) فى السلام ، باب : التداوى بالحبة السوداء .

وإذا طبخ بخل ، وتمضمض به ، نفع من وجع الأسنان عن برد ، وإذا استعط به مسحوقًا ، نفع من ابتداء الماء العارض فى العين ، وإن ضمد به مع الخل ، قلع البثور والجرب المتقرح ، وحلل الأورام البلغمية المزمنة ، والأورام الصلبة ، وينفع من اللقوة إذا تسعط بدهنه ، وإذا شرب منه مقدار نصف مقال إلى مثقال ، نفع من لسع الرتيلاء ، وإن سحق ناعمًا وخلط بدهن الحبة الخضراء ، وقطر منه فى الأذن ثلاث قطرات ، نفع من البرد العارض فيها والريح والسدد .

وإن قلى ،ثم دق ناعمًا ، ثم نقع فى زيت ، وقطر فى الأنف ثلاث قطرات أو أربع ، نفع من الزكام العارض معه عطاس كثير .

وإذا أحرق وخلط بشمع مذاب بدهن السوسن ، أو دهن الحناء ، وطلى به القروح الخارجة من الساقين بعد غسلها بالخل ، نفعها وأزال القروح .

وإذا سحق بخل،وطلى به البرص والبهق الأسود ، والحزاز الغليظ ، نفعها وأبرأها .

وإذا سحق ناعمًا ، واستف منه كل يوم درهمين بماء بارد من عضه كَلْبٌ كَلِبٌ قبل أن يفرغ من الماء ، نفعه نفعًا بليغًا ، وأمن على نفسه من الهلاك . وإذا استعط بدهنه ، نفع من الفالج والكزاز ، وقطع موادهما ، وإذا دخن به ، طرد الهوام .

وإذا أذيب الأنزروت بماء ، ولطخ على داخل الحلقة ، ثم ذر عليها الشونيز ، كان من الذرورات الجيدة العجيبة النفع من البواسير ، ومنافعه أضعاف ما ذكرنا ، والشربة منه درهمان ، وزعم قوم أن الإكثار منه قاتل .

**حرير :**

قد تقدم أن النبى ﷺ أباحه للزبير ، ولعبد الرحمن بن عوف من حكة كانت بهما ، وتقدم منافعه ومزاجه ، فلا حاجة إلى إعادته (١) .

**حرف :**

قال أبو حنيفة الدينورى : هذا هو الحب الذى يتداوى به وهو الشفاء الذى جاء فيه الخبر عن النبى ﷺ ، ونباته يقال له :الحرف ، وتسميه العامة : الرشاد ، وقال أبو عبيد : الثُّفَّاء : هو الحرف .

قلت : والحديث الذى أشار إليه ، ما رواه أبو عبيد وغيره ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبى ﷺ أنه قال : « ماذا فى الأمرين من الشفاء ؟ الصبر والثُّفَّاء » (٢) رواه

---

(١) انظر : ص ١٨٤ وما بعدها .

(٢) البيهقى فى الكبرى (٣٤٦) فى الضحايا ، باب : أدوية النبى ﷺ ، وعزاه لأبى داود فى المراسيل .

أبو داود فى المراسيل .

وقوته فى الحرارة واليبوسة فى الدرجة الثالثة ، وهو يسخن ، ويلين البطن ، ويخرج الدود وحب القرع ، ويحلل أورام الطحال ، ويحرك شهوة الجماع ، ويجلو الجرب المتقرح والقوباء .

وإذا ضمد به مع العسل ، حلل ورم الطحال ، وإذا طبخ مع الحناء أخرج الفضول التى فى الصدر ، وشربه ينفع من نهش الهوام ولسعها ، وإذا دخن به فى موضع ، طرد الهواء عنه ، ويمسك الشعر المتساقط ، وإذا خلط بسويق الشعير والخل ، وتضمد به ، نفع من عرق النسا ، وحلل الأورام الحارة فى آخرها .

وإذا تضمد به مع الماء والملح أنضج الدماميل ، وينفع من الاسترخاء فى جميع الأعضاء ،ويزيد فى الباه،ويشهى الطعام ، وينفع الربو ، وعسر التنفس ، وغلظ الطحال ، وينقى الرئة ، ويدر الطمث ، وينفع من عرق النسا ، ووجع حُقِّ الورك مما يخرج من الفضول ، إذا شرب أو احتقن به ، ويجلو ما فى الصدر والرئة من البلغم اللزج .

وإن شرب منه بعد سحقه وزن خمسة دراهم بالماء الحار ، أسهل الطبيعة ، وحلل الرياح ، ونفع من وجع القولنج البارد السبب ، وإذا سحق وشرب ، نفع من البرص .

وإن لطخ عليه وعلى البهق الأبيض بالخل ، نفع منهما ، وينفع من الصداع الحاد من البرد والبلغم ، وإن قلى ، وشرب ، عقل الطبع لا سيما إذا لم يسحق لتحلل لزوجته بالقلى ، وإذا غسل بمائه الرأس ، نقاه من الأوساخ والرطوبات اللزجة .

قال جالينوس : قوته مثل قوة بزر الخردل ، ولذلك قد يسخن به أوجاع الورك المعروفة بالنسا ، وأوجاع الرأس ، وكل واحد من العلل التى تحتاج إلى التسخين ، كما يسخن بزر الخردل ، وقد يخلط أيضًا فى أدوية يسقاها أصحاب الربو من طريق أن الأمر فيه معلوم أنه يقطع الأخلاط الغليظة تقطيعًا قويًا ، كما يقطعها بزر الخردل ، لأنه شبيه به فى كل شىء .

**حلبة :**

يذكر عن النبى ﷺ ، أنه عاد سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه بمكة ، فقال : ادعوا له طبيبًا ، فدعى الحارث بن كلدة ، فنظر إليه ، فقال : ليس عليه بأس ، فاتخذوا له فريقة ، وهى الحلبة مع تمر عجوة رطب يطبخان ، فيحساهما ، ففعل ذلك ، فبرئ .

وقوة الحلبة من الحرارة فى الدرجة الثانية ، ومن اليبوسة فى الأولى ، وإذا طبخت

بالماء ، لينت الحلق والصدر والبطن ، وتسكن السعال والخشونة والربو ، وعسر النفس ، وتزيد فى الباه ، وهى جيدة للريح والبلغم والبواسير ، محدرة الكيموسات المرتبكة فى الأمعاء ، وتحلل البلغم اللزج من الصدر ، وتنفع من الدبيلات وأمراض الرئة ، وتستعمل لهذه الأدواء فى الأحشاء مع السمن والفانيذ .

وإذا شربت مع وزن خمسة دراهم فُوَّة (١) ،أدرت الحيض ، وإذا طبخت ، وغسل بها الشعر جعدته ، وأذهبت الحزاز . ودقيقها إذا خلط بالنطرون والخل ، وضمد به ، حلل ورم الطحال ، وقد تجلس المرأة فى الماء الذى طبخت فيه الحلبة ، فتنتفع به من وجع الرحم العارض مع ورم فيه ، وإذا ضمد به الأورام الصلبة القليلة الحرارة ، نفعتها وحللتها ، وإذا شرب ماؤها ، نفع من المغص العارض من الريح ، وأزلق الأمعاء .

وإذا أكلت مطبوخة بالتمر ، أو العسل ، أو التين على الريق ، حللت البلغم اللزج العارض فى الصدر والمعدة ، ونفعت من السعال المتطاول منه . وهى نافعة من الحصر ، مطلقة للبطن ، وإذا وضعت على الظفر المتشنج أصلحته ، ودهنها ينفع إذا خلط بالشمع من الشقاق العارض من البرد ، ومنافعها أضعاف ما ذكرنا .

وذكر عن القاسم بن عبد الرحمن ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « استشفوا بالحلبة » (٢) . وقال بعض الأطباء : لو علم الناس منافعها ، لاشتروها بوزنها ذهبًا (٣) .

## ( حرف الخاء )

### خبز :

ثبت فى « الصحيحين » ، عن النبى ﷺ أنه قال : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يكفؤ أحدكم خبزته فى السفر نزلا لأهل الجنة » (٤) .

وروى أبو داود فى « سننه » : من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ الثريد من الخبز ، والثريد من الحيس (٥) .

---

(١) هو نبات له عروق دقاق طوال حمر يصبغ ويداوى بها .

(٢) الفوائد المجموعة للشوكانى (٣١) فى الأطعمة والأشربة ، والمنار المنيف (٦٣) .

(٣) زاد المعاد ( ٤ / ٢٩٧ ـ ٣٠٣ ) .

(٤) البخارى (٦٥٢٠) فى الرقاق ، باب : يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ومسلم (٢٧٩٢ / ٣٠) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : نزل أهل الجنة .

(٥) أبو داود (٣٧٨٣) فى الأطعمة ، باب : فى أكل الثريد .

وروى أبو داود فى « سننه » أيضًا ، من حديث ابن عمر ﵄ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « وددت أن عندى خبزة بيضاء من برة سمراء ملبقة بسمن ولبن » ، فقام رجل من القوم فاتخذه ، فجاء به ، فقال : « فى أى شيء كان هذا السمن ؟» فقال : فى عكة ضب ، فقال : « ارفعه » (١) .

وذكر البيهقى من حديث عائشة ﵂ ترفعه : « أكرموا الخبز ، ومن كرامته ألا ينتظر به الإدام » (٢) ، والموقوف أشبه ، فلا يثبت رفعه ، ولا رفع ما قبله .

وأما حديث النهى عن قطع الخبز بالسكين ، فباطل لا أصل له عن رسول الله ﷺ ، وإنما المروى : النهى عن قطع اللحم بالسكين ، ولا يصح أيضًا .

قال مهنا : سألت أحمد عن حديث أبى معشر ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ﵂ ، عن النبى ﷺ : « لا تقطعوا اللحم بالسكين ، فإن ذلك من فعل الأعاجم » (٣) . فقال : ليس بصحيح ، ولا يعرف هذا ، وحديث عمرو بن أمية خلاف هذا ، وحديث المغيرة - يعنى بحديث عمرو بن أمية : كان النبى ﷺ يحتز من لحم الشاة (٤) ، وبحديث المغيرة : أنه لما أضافه أمر بجنبٍ فشوى ، ثم أخذ الشفرة ، فجعل يحز (٥) .

وأحمد أنواع الخبز أجودها اختمارًا وعجنًا ، ثم خبز التنور أجود أصنافه ، وبعده خبز الفرن ، ثم خبز المَلَّة فى المرتبة الثالثة ، وأجوده ما اتخذ من الحنطة الحديثة .

وأكثر أنواعه تغذية خبز السميذ ، وهو أبطؤها هضمًا لقلة نخالته ، ويتلوه خبز الحوارى ، ثم الخشكار .

وأحمد أوقات أكله فى آخر اليوم الذى خبز فيه ، واللين منه أكثر تليينًا وغذاء وترطيبًا وأسرع انحدارًا ، واليابس بخلافه .

ومزاج الخبز من البر حار فى وسط الدرجة الثانية ، وقريب من الاعتدال فى الرطوبة واليبوسة ، واليبس يغلب على ما جففته النار منه ، والرطوبة على ضده .

---

(١) أبو داود (٣٨١٨) فى الأطعمة ، باب : فى الجمع بين لونين من الطعام .

(٢) الطبرانى فى الكبير (٢٢ / ٣٣٥) (٨٤٠) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٣٧) : « فيه خلف بن يحيى قاض الرى ، وهو ضعيف وأبو سكينة قال ابن المدينى : لاصحبة له » .

(٣) أبو داود (٣٧٧٨) فى الأطعمة ، باب : فى أكل اللحم ، وضعفه الألبانى .

(٤) البخارى (٥٤٠٨) فى الأطعمة ، باب : قطع اللحم بالسكين ، ومسلم (٣٥٥/ ٩٣) فى الطهارة ، باب : نسخ الوضوء مما مست النار .

(٥) أبو داود (١٨٨) فى الطهارة ، باب : فى ترك الوضوء مما مست النار .

وفى خبز الحنطة خاصية ، وهو أنه يسمن سريعًا ، وخبز القطائف يولد خلطًا غليظًا ، والفتيت نفاخ بطىء الهضم ، والمعمول باللبن مسدد كثير الغذاء ، بطىء الانحدار .

وخبز الشعير بارد يابس فى الأولى ، وهو أقل غذاء من خبز الحنطة .

**خل :**

روى مسلم فى « صحيحه » : عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ سأل أهله الإدام ، فقالوا : ما عندنا إلا الخل ، فدعا به ، وجعل يأكل ويقول :« نعم الإدام الخل ،نعم الإدام الخل » (١) ، وفى « سنن ابن ماجه » عن أم سعد رضي الله عنها عن النبى ﷺ : « نعم الإدام الخل ، اللهم بارك فى الخل ، فإنه كان إدام الأنبياء قبلى ، ولم يفتقر بيت فيه الخل » (٢) .

والخل مركب من الحرارة ، والبرودة أغلب عليه ، وهو يابس فى الثالثة ، قوى التجفيف ، ويمنع من انصباب المواد ، ويلطف الطبيعة ، وخل الخمر ينفع المعدة الملتهبة ، ويقمع الصفراء ، ويدفع ضرر الأدوية القتالة ، ويحلل اللبن والدم إذا جمدا فى الجوف ، وينفع الطحال،ويدبغ المعدة ، ويعقل البطن ،ويقطع العطش ،ويمنع الورم حيث يريد أن يحدث ، ويعين على الهضم ، ويضاد البلغم ، ويلطف الأغذية الغليظة ، ويرق الدم .

وإذا شرب بالملح ، نفع من أكل الفطر القتال ، وإذا احتسى ، قطع العلق المتعلق بأصل الحنك ، وإذا تمضمض به مسخنًا ، نفع من وجع الأسنان ، وقوى اللثة .

وهو نافع للداحس ، إذا طلى به ، والنملة والأورام الحارة ، وحرق النار ، وهو مشهٍ للأكل ، مطيب للمعدة ، صالح للشباب ، وفى الصيف لسكان البلاد الحارة .

**خلال :**

فيه حديثان لا يثبتان :

**أحدهما** : يروى من حديث أبى أيوب الأنصارى يرفعه : « يا حبذا المتخللون من الطعام ، إنه ليس شىء أشد على الملك من بقية تبقى فى الفم من الطعام » (٣) وفيه واصل ابن السائب،قال البخارى والرازى: منكر الحديث،وقال النسائى والأزدى: متروك الحديث .

---

(١) مسلم (٢٠٥٢ / ١٦٦) فى الأشربة ، باب : فضيلة الخل والتأدم به .

(٢) ابن ماجه (٣٣١٨) فى الأطعمة ، باب : الائتدام بالخل ، وقال الألبانى : « موضوع » .

(٣) أحمد (٥ / ٤١٦) ، والطبرانى فى الكبير (٤ / ١٧٧) (٤٠٧٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ٢٤٠) :« فى إسنادهما واصل الرقاشى ، وهو ضعيف » .

**الثاني** : يروى من حديث ابن عباس ، قال عبد الله بن أحمد : سألت أبى عن شيخ روى عنه صالح الوحاظى يقال له : محمد بن عبد الملك الأنصارى ، حدثنا عطاء ، عن ابن عباس ، قال : نهى رسول الله ﷺ أن يتخلل بالليط والآس ، وقال : « إنهما يسقيان عروق الجذام » ، فقال أبى : رأيت محمد بن عبد الملك ـ وكان أعمى ـ يضع الحديث ويكذب .

وبعد ، فالخلال نافع للثة والأسنان ، حافظ لصحتها ، نافع من تغير النكهة ، وأجوده ما اتخذ من عيدان الأخلة ، وخشب الزيتون والخلاف ، والتخلل بالقصب والآس والريحان ، والبزروج مضر [1] .

## ( حرف الدال )

**دهن :**

روى الترمذى فى كتاب « الشمائل » من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته ، ويكثر القناع كأنه ثوبه ثوب زيات [2] .

الدهن يسد مسام البدن ، ويمنع ما يتحلل منه ، وإذا استعمل بعد الاغتسال بالماء الحار ، حسن البدن ورطبه ، وإن دهن به الشعر حسنه وطوله ، ونفع من الحصبة ، ودفع أكثر الآفات عنه .

وفى الترمذى : من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا : « كلوا الزيت وادهنوا به » [3].

والدهن فى البلاد الحارة ، كالحجاز ونحوه من آكد أسباب حفظ الصحة وإصلاح البدن ، وهو كالضرورى لهم ، وأما البلاد الباردة ، فلا يحتاج إليه أهلها ، والإلحاح به فى الرأس فيه خطر بالبصر .

وأنفع الأدهان البسيطة : الزيت ، ثم السمن ، ثم الشيرج .

وأما المركبة : فمنها بارد ورطب ، كدهن البنفسج ينفع من الصداع الحار ، وينوم أصحاب السهر ، ويرطب الدماغ ، وينفع من الشقاق ، وغلبة اليبس ، والجفاف ، ويطلى به الجرب ، والحكة اليابسة ، فينفعها ويسهل حركة المفاصل ، ويصلح لأصحاب الأمزجة الحارة فى زمن الصيف ، وفيه حديثان باطلان موضوعان على رسول الله ﷺ ، أحدهما :

---

(١) زاد المعاد ( ٤ / ٣٠٣ ـ ٣٠٧ ) .

(٢) الشمائل المحمدية ص ٤٤ . بشرح محمد خليل الخطيب .

(٣) الترمذى (١٨٥١ ، ١٨٥٢) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى أكل الزيت ، وقال : « حديث غريب » .

« فضل دهن البنفسج على سائر الأدهان ، كفضلى على سائر الناس » ،والثانى : « فضل دهن البنفسج على سائر الأدهان ، كفضل الإسلام على سائر الأديان » .

ومنها : حار رطب ، كدهن البان ، وليس دهن زهره ، بل دهن يستخرج من حب أبيض أغبر نحو الفستق ، كثير الدهنية والدسم ، وينفع من صلابة العصب ، ويلينه ، وينفع من البرش والنمش ،والكلف والبهق ،ويسهل بلغمًا غليظًا ، ويلين الأوتار اليابسة ، ويسخن العصب ، وقد روى فيه حديث باطل مختلق لا أصل له : « ادهنوا بالبان ، فإنه أحظى لكم عند نسائكم » . ومن منافعه أنه يجلو الأسنان ، ويكسبها بهجة ، وينقيها من الصدأ ، ومن مسح به وجهه وأطرافه لم يصبه حصى ولا شقاق ، وإذا دهن به حقوه ومذاكيره وما والاها ، نفع من برد الكليتين ، وتقطير البول (١) .

## (حرف الذال )

**ذريرة :**

ثبت فى « الصحيحين » : عن عائشة رضي الله عنها قالت : طيبت رسول الله ﷺ بيدى ، بذريرة فى حجة الوداع لحله وإحرامه (٢) . تقدم الكلام فى الذريرة ومنافعها وماهيتها ، فلا حاجة لإعادته (٣) .

**ذباب :**

تقدم فى حديث أبى هريرة المتفق عليه فى أمره ﷺ بغمس الذباب فى الطعام إذا سقط فيه لأجل الشفاء الذى فى جناحه ، وهو كالترياق للسم الذى فى الجناح الآخر ، وذكرنا منافع الذباب هناك (٤) .

**ذهب :**

روى أبو داود ، والترمذى : « أن النبى ﷺ رخص لعرفجة بن أسعد لما قطع أنفه يوم الكلاب،واتخذ أنفًا من ورق ، فأنتن عليه، فأمره النبى ﷺ أن يتخذ أنفًا من ذهب » (٥) ، وليس لعرفجة عندهم غير هذا الحديث الواحد .

الذهب : زينة الدنيا ، وطلسم الوجود ، ومفرح النفوس ، ومقوى الظهور ، وسر

---

(١) زاد المعاد ( ٤ / ٣٠٧ ـ ٣٠٩ ) .

(٢) البخارى (٥٩٣٠) فى اللباس ، باب : الذريرة ، ومسلم (١١٨٩ / ٣٥) فى الحج ، باب : الطيب للمحرم عند الإحرام .

(٣) انظر : ص ١٩٩ .

(٤) انظر : ص ١٠٥ .

(٥) أبو داود (٤٢٣٢ ـ ٤٢٣٤) فى الخاتم، باب :ما جاء فى ربط الأسنان بالذهب، والترمذى (١٧٧٠) فى اللباس ، باب : ما جاء فى شد الأسنان بالذهب ، وقال : « حسن غريب » .

الله فى أرضه ، ومزاجه فى سائر الكيفيات ، وفيه حرارة لطيفة تدخل فى سائر المعجونات اللطيفة والمفرحات ، وهو أعدل المعادن على الإطلاق وأشرفها .

ومن خواصه أنه إذا دفن فى الأرض ، لم يضره التراب ، ولم ينقصه شيئًا ، وبرادته إذا خلطت بالأدوية ، نفعت من ضعف القلب ، والرجفان العارض من السوداء ، وينفع من حديث النفس ، والحزن ، والغم ، والفزع ، والعشق ، ويسمن البدن ، ويقويه ، ويذهب الصفار ، ويحسن اللون ، وينفع من الجذام ، وجميع الأوجاع والأمراض السوداوية ، ويدخل بخاصية فى أدوية داء الثعلب ، وداء الحية شربًا وطلاءً ، ويجلو العين ويقويها ، وينفع من كثير من أمراضها ، ويقوى جميع الأعضاء .

وإمساكه فى الفم يزيل البخر ، ومن كان به مرض يحتاج إلى الكى ، وكوى به ، لم يتنفط موضعه ، ويبرأ سريعًا ، وإن اتخذ منه ميلاً واكتحل به ، قوى العين وجلاها ، وإذا اتخذ منه خاتم فصه منه وأحمى ، وكوى به قوادم أجنحة الحمام ، ألفت أبراجها ، ولم تنتقل عنها .

وله خاصية عجيبة فى تقوية النفوس ، لأجلها أبيح فى الحرب والسلاح منه ما أبيح ، وقد روى الترمذى من حديث مزيدة العصرى ﷺ ، قال : دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح ، وعلى سيفه ذهب وفضة (١) .

وهو معشوق النفوس التى متى ظفرت به ، سلاها عن غيره من محبوبات الدنيا ، قال تعالى : **﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾** [ آل عمران : ١٤] .

وفى « الصحيحين » : عن النبى ﷺ : « لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لابتغى إليه ثانيًا ، ولو كان له ثان ، لابتغى إليه ثالثًا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلاّ التراب ، ويتوب الله على من تاب » (٢) .

هذا وإنه أعظم حائل بين الخليقة وبين فوزها الأكبر يوم معادها ، وأعظم شىء عصى الله به ، وبه قطعت الأرحام ، وأريقت الدماء ، واستحلت المحارم ، ومنعت الحقوق ، وتظالم العباد ، وهو المرغب فى الدنيا وعاجلها ، والمزهد فى الآخرة وما أعده الله لأوليائه

---

(١) الترمذى (١٦٩٠) فى الجهاد ، باب : ما جاء فى السيوف وحليتها ، وقال: « حسن غريب » ،وضعفه الألبانى ، انظر : الإرواء (٨٢٢) .

(٢) البخارى (٦٤٣٧ ، ٦٤٣٩) فى الرقاق ، باب : ما يتقى من فتنة المال ،ومسلم (١٠٤٨ /١١٦، ١٠٤٩ / ١١٨) فى الزكاة ، باب : لو أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغى ثالثا .

فيها ، فكم أميت به من حق ، وأحيى به من باطل ، ونصر به ظالم ، وقهر به مظلوم ، وما أحسن ما قال فيه الحريرى :

تبًا لـه مـن خـادع ممـاذق أصفـر ذى وجهيـن كالمنافـق
يبـدو بوصفيـن لعيـن الرامـق زينـة معشـوق ولـون عاشـق
وحبـه عنـد ذوى الحقائـق يدعـو إلـى ارتكـاب سخـط الخالـق
لـولاه لـم تقطـع يميـن السـارق ولا بـدت مظلمـة مـن فاسـق
ولا اشمـأز باخـل مـن طـارق ولا اشتكـى المطـول مطـل العائـق
ولا استعيـذ مـن حسـود راشـق وشـر مـا فيـه مـن الخلائـق
أن ليـس يغنـى عنـك فـى المضايـق إلا إذا فـر فـرار الآبـق (١)

## (حرف الراء)

رطب :

قال الله تعالى لمريم : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ [ مريم : ٢٥] .

وفى « الصحيحين » عن عبد الله بن جعفر ، قال : رأيت رسول الله ﷺ يأكل القثاء بالرطب (٢) .

وفى « سنن أبى داود » عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ يفطر على رطبات قبل أن يصلى ، فإن لم تكن رطبات فتمرات ، فإن لم تكن تمرات ، حسا حسوات من ماء (٣) .

طبع الرطب طبع المياه حار رطب ، يقوى المعدة الباردة ويوافقها ، ويزيد فى الباه ، ويخصب البدن ، ويوافق أصحاب الأمزجة الباردة ، ويغذو عذاء كثيراً .

وهو من أعظم الفاكهة موافقة لأهل المدينة وغيرها من البلاد التى هو فاكهتهم فيها ، وأنفعها للبدن،وإن كان من لم يعتده يسرع التعفن فى جسده ،ويتولد عنه دم ليس بمحمود ، ويحدث فى إكثاره منه صداع وسوداء ، ويؤذى أسنانه ، وإصلاحه بالسكذجين ونحوه .

---

(١) زاد المعاد ( ٤ / ٣٠٩ ـ ٣١٢ ) .

(٢) البخارى (٥٤٤٠) فى الأطعمة ، باب : القثاء بالرطب ، ومسلم (٢٠٤٣/١٤٧) فى الأشربة ، باب : أكل القثاء بالرطب .

(٣) أبو داود (٢٣٥٦) فى الصوم ، باب : ما يفطر عليه .

وفى فطر النبى ﷺ فى الصوم عليه ، أو على التمر ، أو الماء تدبير لطيف جدًا ، فإن الصوم يخلى المعدة من الغذاء ، فلا تجد الكبد فيها ما تجذبه وترسله إلى القوى والأعضاء ، والحلو أسرع شىء وصولاً إلى الكبد ، وأحبه إليها ، ولا سيما إن كان رطبًا ، فيشتد قبولها له ، فتنتفع به هى والقوى ، فإن لم يكن ، فالتمر لحلاوته وتغذيته ، فإن لم يكن ، فحسوات الماء تطفىء لهيب المعدة ، وحرارة الصوم ، فتتنبه بعده للطعام ، وتأخذه بشهوة .

**ريحان :**

قال تعالى : ﴿ **فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩)** ﴾ [ الواقعة ] ، وقال تعالى : ﴿ **وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢)** ﴾ [ الرحمن ] .

وفى « صحيح مسلم » عن النبى ﷺ : « من عرض عليه ريحان ، فلا يرده ، فإنه خفيف المحمل طيب الرائحة » [(١)] .

وفى « سنن ابن ماجه » : من حديث أسامة رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « ألا مشمر للجنة ، فإن الجنة لا خطر لها ، هى ورب الكعبة ،نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة فى مقام أبدًا ، فى حبرة ونضرة ، فى دور عالية سليمة بهية » ، قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن المشمرون لها قال : « قولوا : إن شاء الله تعالى » ، فقال القوم : إن شاء الله [(٢)] .

الريحان كل نبت طيب الريح ، فكل أهل بلد يخصونه بشىء من ذلك ، فأهل الغرب يخصونه بالآس ، وهو الذى يعرفه العرب من الريحان ، وأهل العراق والشام يخصونه بالحبق .

فأما الآس ، فمزاجه بارد فى الأولى ، يابس فى الثانية ، وهو مع ذلك مركب من قوى متضادة ، والأكثر فيه الجوهر الأرضى البارد ، وفيه شىء حار لطيف ، وهو يجفف تجفيفًا قويًا ، وأجزاؤه متقاربة القوة ، وهى قوة قابضة حابسة من داخل وخارج معًا .

وهو قاطع للإسهال الصفراوى ، دافع للبخار الحار الرطب إذا شم ، مفرح للقلب تفريحًا شديدًا ، وشمه مانع للوباء ، وكذلك افتراشه فى البيت .

---

(١) مسلم (٢٢٣٥ / ٢٠) فى الألفاظ من الأدب ، باب : استعمال الطيب ، وأنه أطيب الطيب ، وكراهة رد الريحان والطيب .

(٢) ابن ماجه (٤٣٣٢) فى الزهد ، باب : صفة الجنة ، وفى الزوائد : « فى إسناده مقال ، والضحاك المغافرى الدمشقى ، ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال الذهبى فى طبقات التهذيب : مجهول ، وسليمان بن موسى مختلف فيه ، وباقى رجال الإسناد ثقات » ، وضعفه الألبانى .

ويبرئ الأورام الحادثة فى الحالبين إذا وضع عليها ، وإذا دق ورقه وهو غض وضرب بالخل ، ووضع على الرأس ، قطع الرعاف ، وإذا سحق ورقه اليابس ، وذر على القروح ذوات الرطوبة نفعها ، ويقوى الأعضاء الواهية إذا ضمد به ، وينفع داء الداحس ، وإذا ذر على البثور والقروح التى فى اليدين والرجلين ، نفعها .

وإذا دلك به البدن قطع العرق ، ونشف الرطوبات الفضلية ، وأذهب نتن الإبط ، وإذا جلس فى طبيخه ، نفع من خراريج المقعدة والرحم ، ومن استرخاء المفاصل ، وإذا صب على كسور العظام التى لم تلتحم ، نفعها .

ويجلو قشور الرأس وقروحه الرطبة ، وبثوره ، ويمسك الشعر المتساقط ويسوده ، وإذا دق ورقه ، وصب عليه ماء يسير ، وخلط به شيء من زيت أو دهن الورد ، وضمد به وافق القروح الرطبة والنملة والحمرة ، والأورام الحادة ، والشرى والبواسير .

وحبه نافع من نفث الدم العارض فى الصدر والرئة ، دابغ للمعدة وليس بضار للصدر ولا الرئة لجلاوته ، وخاصيته النفع من استطلاق البطن مع السعال ، وذلك نادر فى الأدوية ، وهو مدر للبول ، نافع من لدغ المثانة ، وعض الرتيلاء ، ولسع العقارب ، والتخلل بعرقه مضر ، فليحذر .

وأما الريحان الفارسى الذى يسمى الحبق ، فحار فى أحد القولين ، وينفع شمه من الصداع الحار إذا رش عليه الماء ، ويبرد ، ويرطب بالعرض ، وبارد فى الآخر ، وهل هو رطب أو يابس ؟ على قولين ، والصحيح : أنه فيه من الطبائع الأربع ، ويجلب النوم ، وبزره حابس للإسهال الصفراوى ، ومسكن للمغص ، مقو للقلب ، نافع للأمراض السوداوية .

**رمان :**

قال تعالى : ﴿ **فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ** ﴿٦٨﴾ ﴾ [ الرحمن ] .

ويذكر عن ابن عباس موقوفًا ومرفوعًا : « ما من رمان من رمانكم هذا إلا وهو ملقح بحبة من رمان الجنة » والموقوف أشبه ، وذكر حرب وغيره عن على أنه قال : « كلوا الرمان بشحمه ، فإنه دباغ المعدة » .

حلو الرمان حار رطب ، جيد للمعدة ، مقو لها بما فيه من قبض لطيف ، نافع للحلق والصدر والرئة ، جيد للسعال ، وماؤه ملين للبطن ، يغذو البدن غذاء فاضلا يسيرًا ، سريع التحلل لرقته ولطافته ، ويولد حرارة يسيرة فى المعدة وريحًا ،ولذلك يعين على الباه ،

ولا يصلح للمحمومين ، وله خاصة عجيبة إذا أكل الخبز يمنعه من الفساد فى المعدة .

وحامضه بارد يابس ، قابض لطيف ، ينفع المعدة الملتهبة ، ويدر البول أكثر من غيره من الرمان ، ويسكن الصفراء ، ويقطع الإسهال ، ويمنع القىء ، ويلطف الفضول .

ويطفئ حرارة الكبد ، ويقوى الأعضاء ، نافع من الخفقان الصفراوى ، والآلام العارضة للقلب ، وفم المعدة ،ويقوى المعدة ، ويدفع الفضول عنها ويطفئ المرة الصفراء والدم .

وإذا استخرج ماؤه بشحمه،وطبخ بيسير من العسل حتى يصير كالمرهم ، واكتحل به ، قطع الصفرة من العين ، ونقاها من الرطوبات الغليظة ،وإذا لطخ على اللثة ، نفع من الأكلة العارضة لها ، وإن استخرج ماؤهما بشحمهما ، أطلق البطن ، وأحدر الرطوبات العفنة المرية ، ونفع من حميات الغب المتطاولة .

وأما الرمان المز ، فمتوسط طبعًا وفعلاً بين النوعين ، وهذا أميل إلى لطافة الحامض قليلاً ، وحب الرمان مع العسل طلاء للداحس والقروح الخبيثة ، وأقماعه للجراحات ، قالوا : ومن ابتلع ثلاثة من جنبذ الرمان فى كل سنة ، أمن من الرمد سنته كلها (١) .

## ( حرف الزاى )

**زيت :**

قال تعالى : ﴿ **يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ** ﴾ [ النور : ٣٥] .

وفى الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال: « كلوا الزيت وادهنوا به ، فإنه من شجرة مباركة » (٢) .

وللبيهقى وابن ماجه أيضًا :عن ابن عمر رضي الله عنهما ،قال:قال رسول الله ﷺ : « ائتدموا بالزيت ، وادهنوا به ، فإنه من شجرة مباركة » (٣) .

الزيت حار رطب فى الأولى ، وغلط من قال : يابس ، والزيت بحسب زيتونه ، فالمعتصر من النضيج أعدله وأجوده ، ومن الفج فيه برودة ويبوسة ، ومن الزيتون الأحمر

---

(١) زاد المعاد ( ٤ / ٣١٢ـ ٣١٦ ) .

(٢) سبق تخريجه ص ٢١٣ ، وابن ماجه (٣٣٢٠) فى الأطعمة ، باب الزيت ، وفى الزوائد : « فى إسناده عبد الله ابن سعيد المقبرى ، قال فى تقريب التهذيب : متروك » .

(٣) ابن ماجه (٣٣١٩) فى الأطعمة ، باب : الزيت .

متوسط بين الزيتين ، ومن الأسود يسخن ويرطب باعتدال ، وينفع من السموم ، ويطلق البطن ، ويخرج الدود ، والعتيق منه أشد تسخينًا وتحليلاً ، وما استخرج منه بالماء ، فهو أقل حرارة ، وألطف وأبلغ فى النفع ، وجميع أصنافه ملينة للبشرة ، وتبطئ الشيب .

وماء الزيتون المالح يمنع من تنفط حرق النار ، ويشد اللثة ، وورقه ينفع من الحمرة ، والنملة ، والقروح الوسخة ، والشرى ، ويمنع العرق ، ومنافعه أضعاف ما ذكرنا .

**زبد :**

روى أبو داود فى « سننه » ، عن ابنى بسر السلميين ﭬ قالا : دخل علينا رسول الله ﷺ، فقدمنا له زبدًا وتمرًا ، وكان يحب الزبد والتمر (١) .

الزبد حار رطب ، فيه منافع كثيرة ، منها الإنضاج والتحليل ، ويبرئ الأورام التى تكون إلى جانب الأذنين والحالبين ، وأورام الفم ، وسائر الأورام التى تعرض فى أبدان النساء والصبيان إذا استعمل وحده ، وإذا لعق منه ، نفع من نفث الدم الذى يكون من الرئة ، وأنضج الأورام العارضة فيها .

وهو ملين للطبيعة والعصب والأورام الصلبة العارضة من المرة السوداء والبلغم ، نافع من اليبس العارض فى البدن ، وإذا طلى به على منابت أسنان الطفل ، كان معينًا على نباتها وطلوعها ، وهو نافع من السعال العارض من البرد واليبس ، ويذهب القوباء والخشونة التى فى البدن، ويلين الطبيعة ، ولكنه يضعف شهوة الطعام ، ويذهب بوخامته الحلو ، كالعسل والتمر ، وفى جمعه ﷺ بين التمر وبينه من الحكمة إصلاح كل منهما بالآخر .

**زبيب :**

روى فيه حديثان لا يصحان . أحدهما : « نعم الطعام الزبيب يطيب النكهة ، ويذيب البلغم » . والثانى : « نعم الطعام الزبيب يذهب النصب ، ويشد العصب ، ويطفئ الغضب ، ويصفى اللون ، ويطيب النكهة » . وهذا أيضًا لا يصح فيه شىء عن رسول الله ﷺ .

وبعد : فأجود الزبيب ما كبر جسمه ، وسمن شحمه ولحمه ، ورق قشره ، ونزع عجمه ، وصغر حبه .

وجرم الزبيب حار رطب فى الأولى ، وحبه بارد يابس ، وهو كالعنب المتخذ منه :

(١) أبو داود (٣٨٣٧) فى الأطعمة ، باب : فى الجمع بين لونين فى الأكل .

الحلو منه حار ، والحامض قابض بارد ، والأبيض أشد قبضًا من غيره ، وإذا أكل لحمه ، وافق قصبة الرئة ، ونفع من السعال ، ووجع الكلى ، والمثانة ، ويقوى المعدة ، ويلين البطن .

والحلو اللحم أكثر غذاء من العنب ، وأقل غذاء من التين اليابس ، وله قوة منضجة هاضمة قابضة محللة باعتدال ، وهو بالجملة يقوى المعدة والكبد والطحال ، نافع من وجع الحلق والصدر والرئة والكلى والمثانة ، وأعدله أن يؤكل بغير عجمه .

وهو يغذى غذاء صالحًا ، ولا يسدد كما يفعل التمر ، وإذا أكل منه بعجمه كان أكثر نفعًا للمعدة والكبد والطحال ، وإذا لصق لحمه على الأظافير المتحركة أسرع قلعها ، والحلو منه وما لا عجم له نافع لأصحاب الرطوبات والبلغم ، وهو يخصب الكبد ، وينفعها بخاصيته .

وفيه نفع للحفظ : قال الزهرى : من أحب أن يحفظ الحديث ، فليأكل الزبيب . وكان المنصور يذكر عن جده عبد الله بن عباس : عجمه داء ، ولحمه دواء .

**زنجبيل :**

قال تعالى : ﴿ **وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً** ⑰ ﴾ [ الإنسان :] . وذكر أبو نعيم فى كتاب « الطب النبوى » من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ قال : أهدى ملك الروم إلى رسول الله ﷺ جرة زنجبيل ، فأطعم كل إنسان قطعة ، وأطعمنى قطعة .

الزنجبيل حار فى الثانية ، رطب فى الأولى ، مسخن معين على هضم الطعام ، ملين للبطن تليينًا معتدلاً ، نافع من سدد الكبد العارضة عن البرد والرطوبة ، ومن ظلمة البصر الحادثة عن الرطوبة أكلاً واكتحالاً ، معين على الجماع ، وهو محلل للرياح الغليظة الحادثة فى الأمعاء والمعدة .

وبالجملة فهو صالح للكبد والمعدة الباردتى المزاج ، وإذا أخذ منه مع السكر وزن درهمين بالماء الحار ، أسهل فضولاً لزجة لعابية ، ويقع فى المعجونات التى تحلل البلغم وتذيبه .

والمزى منه حار يابس يهيج الجماع ، ويزيد فى المنى ، ويسخن المعدة والكبد ، ويعين على الاستمراء ، وينشف البلغم الغالب على البدن ، ويزيد فى الحفظ ، ويوافق برد الكبد والمعدة ،ويزيل بلتها الحادثة عن أكل الفاكهة ، ويطيب النكهة ، ويدفع به ضرر الأطعمة الغليظة الباردة (١) .

---

(١) زاد المعاد ( ٤ / ٣١٦ ـ ٣٢٠ ) .

## ( حرف السين )

**سنا :**

قد تقدم (١) ، وتقدم سنوت أيضًا (٢)،وفيه سبعة أقوال ، أحدها:أنه العسل . الثانى : أنه رب عكة السمن يخرج خططًا سوداء على السمن .الثالث : أنه حب يشبه الكمون ، وليس بكمون . الرابع:الكمون الكرمانى . الخامس : أنه الشبت ، السادس : أنه التمر . السابع : أنه الرازيانج .

**سفرجل :**

روى ابن ماجه فى « سننه » من حديث إسماعيل بن محمد الطلحى ، عن نقيب بن حاجب ، عن أبى سعيد ، عن عبد الملك الزبيرى ، عن طلحة بن عبيد الله ﷺ قال : دخلت على النبى ﷺ وبيده سفرجلة ،فقال :« دونكها يا طلحة ، فإنها تجم الفؤاد » (٣) .

ورواه النسائى من طريق آخر،وقال : أتيت النبى ﷺ وهو فى جماعة من أصحابه ، وبيده سفرجلة يقلبها ، فلما جلست إليه ، دحا بها إلى ثم قال : « دونكها أبا ذر ، فإنها تشد القلب ، وتطيب النفس ، وتذهب بطخاء الصدر » .

وقد روى فى السفرجل أحاديث أخر ، هذا أمثلها ، ولا تصح .

والسفرجل بارد يابس ، ويختلف فى ذلك باختلاف طعمه ، وكله بارد قابض ، جيد للمعدة ، والحلو منه أقل برودة ويبسا ، وأميل إلى الاعتدال ، والحامض أشد قبضًا ويبسًا وبرودة ، وكله يسكن العطش والقيء ، ويدر البول ، ويعقل الطبع ، وينفع من قرحة الأمعاء ، ونفث الدم ، والهيضة ، وينفع من الغثيان ، ويمنع من تصاعد الأبخرة إذا استعمل بعد الطعام ، وحراقة أغصانه وورقه المغسولة كالتوتياء فى فعلها .

وهو قبل الطعام يقبض ، وبعده يلين الطبع ، ويسرع بانحدار الثفل ، والإكثار منه مضر بالعصب ، ومولد للقولنج ، ويطفئ المرة الصفراء المتولدة فى المعدة .

وإن شوى كان أقل لخشونته ، وأخف ، وإذا قور وسطه ، ونزع حبه ، وجعل فيه العسل ، وطين جرمه بالعجين ، وأودع الرماد الحار ، نفع نفعًا حسنًا .

---

(١) انظر : ص ١٨٠ ، ١٨١ . (٢) انظر : ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(١) ابن ماجه (٣٣٦٩) فى الأطعمة ، باب : أكل الثمار ، وفى الزوائد : « فى إسناده عبد الملك الزبيرى مجهول ، وقال المزى فى الأطراف ، والذهبى فى الكاشف ، وأبو سعيد : يكره ، قاله فى الكاشف » .

وأجود ما أكل مشويًا أو مطبوخًا بالعسل ، وحبه ينفع من خشونة الحلق ، وقصبة الرئة ، وكثير من الأمراض ، ودهنه يمنع العرق ، ويقوى المعدة ، والمربى منه يقوى المعدة والكبد ، ويشد القلب ، ويطيب النفس .

ومعنى تجم الفؤاد : تريحه ، وقيل : تفتحه وتوسعه ، من جمام الماء ، وهو اتساعه وكثرته ، والطخاء للقلب مثل الغيم على السماء ، قال أبو عبيد : الطخاء ثقل وغشى ، تقول : ما فى السماء طخاء ، أى : سحاب وظلمة .

**سواك :**

فى « الصحيحين » عنه ﷺ : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » (١) .

وفيهما : أنه ﷺ ، كان إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك (٢) .

وفى « صحيح البخارى » تعليقًا عنه ﷺ: « السواك مطهرة للفهم مرضاة للرب » (٣) .

وفى « صحيح مسلم » : أنه ﷺ كان إذا دخل بيته ، بدأ بالسواك (٤) .

والأحاديث فيه كثيرة ، وصح عنه من حديث أنه استاك عند موته بسواك عبد الرحمن ابن أبى بكر (٥) ، وصح عنه أنه قال : « أكثرت عليكم فى السواك» (٦) .

وأصلح ما اتخذ السواك من خشب الأراك ونحوه ، ولا ينبغى أن يؤخذ من شجرة مجهولة ، فربما كانت سمًا ، وينبغى القصد فى استعماله ، فإن بالغ فيه ، فربما أذهب طلاوة الأسنان وصقالتها ، وهيأها لقبول الأبخرة المتصاعدة من المعدة والأوساخ ، ومتى استعمل باعتدال ، جلا الأسنان ، وقوى العمود ، وأطلق اللسان ، ومنع الحفر ، وطيب النكهة ، ونقى الدماغ ، وشهى الطعام .

وأجود ما استعمل مبلولاً بماء الورد،ومن أنفعه أصول الجوز. قال صاحب « التيسير »: زعموا أنه إذا استاك به المستاك كل خامس من الأيام ، نقى الرأس ، وصفى الحواس ، وأحد الذهن .

---

(١) البخارى (٨٨٧) فى الجمعة ، باب : السواك يوم الجمعة ، ومسلم (٢٥٢ / ٤٢) فى الطهارة ، باب : السواك .

(٢) البخارى (٨٨٩) فى الجمعة ، باب : السواك يوم الجمعة ، ومسلم (٢٥٥ / ٤٦) فى الطهارة ، باب : السواك .

(٣) البخارى معلقًا ( الفتح ٤ / ١٥٨) فى الصيام ، باب : سواك الرطب واليابس للصائم .

(٤) مسلم (٢٠٥٣ / ٤٤) فى الطهارة ، باب : السواك .

(٥) البخارى (٤٤٣٨) فى المغازى ، باب : مرض النبى ﷺ ووفاته .

(٦) البخارى (٨٨٨) فى الجمعة ، باب : السواك يوم الجمعة .

وفى السواك عدة منافع : يطيب الفم ،ويشد اللثة ، ويقطع البلغم ، ويجلو البصر ، ويذهب بالحفر ، ويصح المعدة ، ويصفى الصوت ، ويعين على هضم الطعام ، ويسهل مجارى الكلام ، وينشط للقراءة ، والذكر والصلاة ، ويطرد النوم ، ويرضى الرب ، ويعجب الملائكة ، ويكثر الحسنات .

ويستحب كل وقت ، ويتأكد عند الصلاة والوضوء ، والانتباه من النوم ، وتغيير رائحة الفم ، ويستحب للمفطر والصائم فى كل وقت لعموم الأحاديث فيه ، ولحاجة الصائم إليه ، ولأنه مرضاة الرب ، ومرضاته مطلوبة فى الصوم أشد من طلبها فى الفطر ، ولأنه مطهرة للفم ، والطهور للصائم من أفضل أعماله .

وفى « السنن » : عن عامر بن ربيعة رضى الله عنه ، قال : رأيت رسول الله ﷺ ما لا أحصى يستاك ،وهو صائم [(١)] وقال البخارى : قال ابن عمر: يستاك أول النهار وآخره .

وأجمع الناس على أن الصائم يتمضمض وجوبًا واستحبابًا ، والمضمضة أبلغ من السواك ، وليس لله غرض فى التقرب إليه بالرائحة الكريهة ، ولا هى من جنس ما شرع التعبد به ، وإنما ذكر طيب الخلوف عند الله يوم القيامة حثًا منه على الصوم ، لا حثًا على إبقاء الرائحة ، بل الصائم أحوج إلى السواك من المفطر .

وأيضًا ، فإن رضوان الله أكبر من استطابته لخلوف فم الصائم .

وأيضًا ، فإن محبته للسواك أعظم من محبته لبقاء خلوف فم الصائم .

وأيضًا ، فإن السواك لا يمنع طيب الخلوف الذى يزيله السواك عند الله يوم القيامة ، بل يأتى الصائم يوم القيامة ، وخلوف فمه أطيب من المسك علامة على صيامه ، ولو أزاله بالسواك ، كما أن الجريح يأتى يوم القيامة ، ولون دم جرحه لون الدم ، وريحه ريح المسك ، وهو مأمور بإزالته فى الدنيا .

وأيضًا ، فإن الخلوف لا يزول بالسواك،فإن سببه قائم ، وهو خلو المعدة عن الطعام ، وإنما يزول أمره ، وهو المنعقد على الأسنان واللثة .

وأيضًا ، فإن النبى ﷺ علم أمته ما يستحب لهم فى الصيام ، وما يكره لهم ، ولم يجعل السواك من القسم المكروه ، وهو يعلم أنهم يفعلونه ، وقد حضهم عليه بأبلغ ألفاظ العموم والشمول ، وهم يشاهدونه يستاك وهو صائم مرارًا كثيرة تفوت الإحصاء ، ويعلم أنهم يقتدون به ، ولم يقل لهم يومًا من الدهر : لا تستاكوا بعد الزوال ، وتأخير البيان عن

(١) أبو داود (٢٣٦٤) فى الصوم ، باب السواك للصائم ، وضعفه الألبانى .

وقت الحاجة ممتنع ، والله أعلم .

**سمن :**

روى محمل بن جرير الطبرى بإسناده ، من حديث صهيب يرفعه : « عليكم بألبان البقر ، فإنها شفاء ، وسمنها دواء ، ولحومها داء » رواه عن أحمد بن الحسن الترمذى ، حدثنا محمد بن موسى النسائى ، حدثنا دفاع بن دغفل السدوسى ، عن عبد الحميد بن صيفى بن صهيب ، عن أبيه عن جده ، ولا يثبت ما فى هذا الإسناد (١) .

والسمن حار رطب فى الأولى ، وفيه جلاء يسير ، ولطافة وتفشية الأورام الحادثة من الأبدان الناعمة ، وهو أقوى من الزبد فى الإنضاج والتليين ، وذكر جالينوس : أنه أبرأ به الأورام الحادثة فى الأذن ، وفى الأرنبة ، وإذا دلك به موضع الأسنان ، نبتت سريعًا ، وإذا خلط مع عسل ولوز مر ، جلا ما فى الصدر والرئة ، والكيموسات الغليظة اللزجة ، إلا أنه ضار بالمعدة ، سيما إذا كان مزاج صاحبها بلغميا .

وأما سمن البقر والمعز ، فإنه إذا شرب مع العسل نفع من شرب السم القاتل ، ومن لدغ الحيات والعقارب ، وفى كتاب ابن السنى : عن على بن أبى طالب ﷺ قال : لم يستشف الناس بشيء أفضل من السمن .

**سمك :**

روى الإمام أحمد بن حنبل ، وابن ماجه فى « سننه » : من حديث عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ أنه قال: « أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد ، والكبد والطحال » (٢) .

أصناف السمك كثيرة ، وأجوده ما لذ طعمه ، وطاب ريحه ، وتوسط مقداره ، وكان رقيق القشر ، ولم يكن صلب اللحم ولا يابسه ، وكان فى ماء عذب جار على الحصباء ، ويغتذى بالنبات لا الأقذار ، وأصلح أماكنه ما كان فى نهر جيد الماء ، وكان يأوى إلى الأماكن الصخرية ، ثم الرملية ، والمياه الجارية العذبة التى لا قذر فيها ، ولا حمأة ، الكثير الاضطراب والتموج ، المكشوفة للشمس والرياح .

والسمك البحرى فاضل ، محمود ، لطيف، الطرى منه بارد رطب ، عسر الانهضام ، يولد بلغمًا كثيرًا ، إلا البحرى وما جرى مجراه ، فإنه يولد خلطًا محمودًا ، وهو يخصب

(١) الحاكم فى المستدرك (٤ / ٤٠٤) ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبى : سيف وهاه ابن حبان .

(٢) ابن ماجه (٣٢١٨) فى الصيد ، باب : صيد الحيتان والجراد ، وفى الزوائد : فى إسناده عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وهو ضعيف ، وأحمد (٢ / ٩٧) ، وقال : الشيخ أحمد شاكر (٥٧٢٣) : « إسناده ضعيف » .

البدن ، ويزيد المنى ، ويصلح الأمزجة الحارة .

وأما المالح ، فأجوده ما كان قريب العهد بالتملح ، وهو حار يابس ، وكلما تقادم عهده ازداد حره ويبسه ، والسلور منه كثير اللزوجة ، ويسمى الجرى ، واليهود لا تأكله ، وإذا أكل طريًا ، كان مليّنًا للبطن ، وإذا ملح وعتق وأكل ، صفى قصبة الرئة ، وجود الصوت ، وإذا دق ووضع من خارج ، أخرج السلى والفضول من عمق البدن من طريق أن له قوة جاذبة .

وماء ملح الجرى المالح إذا جلس فيه من كانت به قرحة الأمعاء فى ابتداء العلة ، وافقه بجذبه المواد إلى ظاهر البدن ، وإذا احتقن به ، أبرأ من عرق النسا .

وأجود ما فى السمك ما قرب من مؤخرها ، والطرى السمين منه يخصب البدن لحمه وودكه ، وفى « الصحيحين » : من حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال : بعثنا النبى ﷺ فى ثلاثمائة راكب ، وأميرنا أبو عبيدة بن الجراح ، فأتينا الساحل ، فأصابنا جوع شديد ، حتى أكلنا الخبط ، فألقى لنا البحر حوتًا يقال لها : عنبر ، فأكلنا منه نصف شهر ، وائتدمنا بودكة حتى ثابت أجسامنا ، فأخذ أبو عبيدة ضلعًا من أضلاعه ، وحمل رجلاً على بعيره ، ونصبه ، فمر تحته (١) .

**سلق :**

روى الترمذى وأبو داود ، عن أم المنذر ، قالت : دخل على رسول الله ﷺ ومعه على ﷺ ، ولنا دوال معلقة ، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يأكل وعلى معه يأكل ، فقال رسول الله ﷺ: « مه يا على فإنك ناقه »، قالت : فجعلت لهم سلقًا وشعيرًا ، فقال النبى ﷺ : « يا على فأصب من هذا ، فإنه أوفق لك »، قال الترمذى : حديث حسن غريب (٢).

السلق حار يابس فى الأولى ، وقيل : رطب فيها ، وقيل : مركب منهما ، وفيه برودة ملطفة، وتحليل ، وتفتيح ، وفى الأسود منه قبض ونفع من داء الثعلب ، والكلف ، والحزاز ، والثآليل إذا طلى بمائه ، ويقتل القمل ، ويطلى به القوباء مع العسل ، ويفتح سدد الكبد والطحال ، وأسوده يعقل البطن ، ولا سيما مع العدس ، وهما رديئان ، والأبيض ، يلين مع العدس ، ويحقن بمائه للإسهال ، وينفع من القولنج مع المرى والتوابل ، وهو قليل الغذاء ، ردىء الكيموس ، يحرق الدم ، ويصلحه الخل والخردل ، والإكثار منه يولد القبض والنفخ (٣) .

---

(١) البخارى (٥٤٩٤) فى الذبائح والصيد ، باب : قول الله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ ﴾ ، ومسلم (١٩٣٥ / ١٨) فى الصيد والذبائح ، باب : إباحة ميتات البحر .

(٢) أبو داود (٣٨٥٦) فى الطب ، باب : فى الحمية ، والترمذى (٢٠٣٧) فى الطب ، باب : ما جاء فى الحمية .

(٣) زاد المعاد ( ٤ / ٣٢٠ ـ ٣٢٧ ) .

## ( حرف الشين )

**شونيز :**

هو الحبة السوداء ، وقد تقدم فى حرف الحاء .

**شبرم :**

روى الترمذى ، وابن ماجه فى « سننهما » : من حديث أسماء بنت عميس ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « بماذا كنت تستمشين ؟ » قالت :بالشبرم ، قال :« حار جار » (١) .

الشبرم شجر صغير وكبير ، كقامة الرجل وأرجح ، له قضبان حمر ملمعة ببياض ، وفى رؤوس قضبانه جمة من ورق ، وله نور صغار أصفر إلى البياض ، يسقط ويخلفه مراود صغار فيها حب صغير مثل البطم ،فى قدره ، أحمر اللون ، ولها عروق عليها قشور حمر ، والمستعمل منه قشر عروقه ، ولبن قضبانه .

وهو حار يابس فى الدرجة الرابعة ، ويسهل السوداء ، والكيموسات الغليظة ، والماء الأصفر ، والبلغم ، مكرب ، مغث ، والإكثار منه يقتل ، وينبغى إذا استعمل أن ينقع فى اللبن الحليب يومًا وليلة ، ويغير عليه اللبن فى اليوم مرتين أو ثلاثًا ، ويخرج ، ويجفف فى الظل ، ويخلط معه الورود والكثيراء ، ويشرب بماء العسل ، أو عصير العنب ، والشربة منه ما بين أربع دوانق إلى دانقين على حسب القوة، قال حنين : أما لبن الشبرم ، فلا خير فيه ، ولا أرى شربه البتة ، فقد قتل به أطباء الطرقات كثيرًا من الناس .

**شعير :**

روى ابن ماجه : من حديث عائشة ، قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أخذ أحدًا من أهله الوعك ، أمر بالحساء من الشعير ، فصنع ، ثم أمرهم فحسوا منه ، ثم يقول : « إنه ليرتو فؤاد الحزين ، ويسرو فؤاد السقيم كما تسرو إحداكن الوسخ بالماء على وجهها » (٢) ، ومعنى يرتوه : يشده ويقويه ، ويسرو : يكشف ، ويزيل .

وهذا هو ماء الشعير المغلى ، وهو أكثر غذاء من سويقه ، وهو نافع للسعال ، وخشونه الحلق ، صالح لقمع حدة الفضول ، مدر للبول ، جلاء لما فى المعدة ، قاطع

(١) الترمذى (٢٠٨١) فى الطب ، باب : ما جاء فى السنا ، وابن ماجه (٣٤٦١) فى الطب ، باب : دواء المشى ، وضعفه الألبانى .

(٢) ابن ماجه (٣٤٤٥) فى الطب ، باب : التلبينة ، وضعفه الألبانى.

للعطش ، مطفئ للحرارة ، وفيه قوة يجلو بها ويلطف ويحلل .

وصفته : أن يؤخذ من الشعير الجيد المرضوض مقدار ، ومن الماء الصافى العذب خمسة أمثاله ، ويلقى فى قدر نظيف ، ويطبخ بنار معتدلة إلى أن يبقى منه خمساه ، ويصفى ، ويستعمل منه مقدار الحاجة محلا .

**شواء :**

قال الله تعالى : فى ضيافة خليله إبراهيم عليه السلام لأضيافه : ﴿ **فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ** (٦٩) ﴾ [ هود : ٦٩] والحنيذ : المشوى على الرضف ، وهى الحجارة المحماة .

وفى الترمذى : عن أم سلمة رضي الله عنها ، أنها قربت إلى رسول الله ﷺ جنبًا مشويًا ، فأكل منه ثم قام إلى الصلاة ولم يتوضأ ، قال الترمذى : حديث صحيح (١) .

وفيه أيضًا : عن عبد الله بن الحارث قال : أكلنا مع رسول الله ﷺ شواء فى المسجد (٢) . وفيه أيضًا : عن المغيرة بن شعبة قال :ضفت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ، فأمر بجنب ، فشوى ، ثم أخذ الشفرة فجعل يحز لى بها منه قال : وجاء بلال يؤذن للصلاة فألقى الشفرة فقال : « ما له تربت يداه » (٣) .

أنفع الشواء شواء الضأن الحولى ، ثم العجل اللطيف السمين ، وهو حار رطب إلى اليبوسة ، كثير التوليد للسوداء ، وهو من أغذية الأقوياء والأصحاء والمرتاضين ، والمطبوخ أنفع وأخف على المعدة ، وأرطب منه ، ومن المطجن .وأردؤه المشوى فى الشمس ، والمشوى على الجمر خير من المشوى باللهب، وهو الحنيذ .

**شحم :**

ثبت فى « المسند » : عن أنس ، أن يهوديًا أضاف رسول الله ﷺ ، فقدم له خبز شعير وإهالة سنخة (٤) ، والإهالة : الشحم المذاب والألية ، والسنخة : المتغيرة .

وثبت فى « الصحيح » : عن عبد الله بن مغفل ، قال : دلى جراب من شحم يوم خيبر ، فالتزمته وقلت : والله لا أعطى أحدًا منه شيئًا ، فالتفت ، فإذا رسول الله ﷺ يضحك ، ولم يقل شيئًا (٥) .

---

(١) الترمذى (١٨٢٩) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى أكل الشواء ، وقال : « حسن صحيح غريب » .

(٢) أحمد (٤ / ١٩٠) وفى إسناده ابن لهيعة وهو سئ الحفظ .

(٣) أحمد (٤ / ٢٥٢) ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (١٨٨) .

(٤) أحمد (٣ / ٢١١ ، ٢٧٠) ، والترمذى (١٢١٥) فى البيوع ، باب : ما جاء فى الرخصة فى الشراء إلى أجل ، وقال : « حسن صحيح » .

(٥) البخارى (٣١٥٣) فى فرض الخمس ، باب : ما يصيب من الطعام فى أرض الحرب ، ومسلم (١٧٧٢ / ٧٢) فى الجهاد والسير ، باب : جواز الأكل من الغنيمة فى دار الحرب .

أجود الشحم ما كان من حيوان مكتمل ، وهو حار رطب ، وهو أقل رطوبة من السمن ، ولهذا لو أذيب الشحم والسمن كان الشحم أسرع جمودًا ، وهو ينفع من خشونة الحلق ، ويرخى ويعفن ، ويدفع ضرره بالليمون المملوح ، والزنجبيل ، وشحم المعز أقبض الشحوم ، وشحم التيوس أشد تحليلاً ، وينفع من قروح الأماء ، وشحم العنز أقوى فى ذلك ، ويحتقن به للسحج والزحير (١) .

## ( حرف الصاد )

### صلاة :

قال الله تعالى : ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)** ﴾ [البقرة ] ، وقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)** ﴾ [البقرة ] ، وقال تعالى : ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢)** ﴾ [ طه ] .

وفى « السنن » كان رسول الله ﷺ ، إذا حزبه أمر ، فزع إلى الصلاة (٢) .

وقد تقدم ذكر الاستشفاء بالصلاة من عامة الأوجاع قبل استحكامها (٣) .

والصلاة مجلبة للرزق ، حافظة للصحة ، دافعة للأذى مطردة للأدواء ، مقوية للقلب ، مبيضة للوجه ، مفرحة للنفس ، مذهبة للكسل ، منشطة للجوارح ، ممدة للقوى ، شارحة للصدر ، مغذية للروح ، منورة للقلب ، حافظة للنعمة ، دافعة للنقمة، جالبة للبركة ، مبعدة من الشيطان ، مقربة من الرحمن .

وبالجملة : فلها تأثير عجيب فى حفظ صحة البدن والقلب ، وقواهما ، ودفع المواد الرديئة عنهما ، وما ابتلى رجلان بعاهة أو داء أو محنة أو بلية إلا كان حظ المصلى منهما أقل ، وعاقبته أسلم .

وللصلاة تأثير عجب فى دفع شرور الدنيا ، ولا سيما إذا أعطيت حقها من التكميل ظاهرًا وباطنًا ، فما استدفعت شرور الدنيا والآخرة ، ولا استجلبت مصالحهما بمثل الصلاة، وسر ذلك أن الصلاة صلة بالله عز وجل ، وعلى قدر صلة العبد بربه عز وجل تفتح عليه

---

(١) زاد المعاد ( ٤ / ٣٢٨ ـ ٣٣١ ) .

(٢) أبو داود (١٣١٩) فى الصلاة ، باب : وقت قيام النبى ﷺ من الليل عن حذيفة والنسائى (٥٩٩) فى المواقيت ، باب : الحال التى نجمع فيها بين الصلاتين عن ابن عمر .

(٣) انظر : ص ٢٤٤ .

من الخيرات أبوابها ، وتقطع عنه من الشرور أسبابها ، وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه عز وجل ، والعافية والصحة ، والغنيمة والغنى ، والراحة والنعيم ، والأفراح والمسرات ، كلها محضرة لديه ، ومسارعة إليه .

## صبّر :

« الصبر نصف الإيمان » (١) ، فإنه ماهية مركبة من صبر وشكر ، كما قال بعض السلف : الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾ [ إبراهيم ] .

والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ،وهو ثلاثة أنواع :صبر على فرائض الله ، فلا يضيعها،وصبر عن محارمه فلا يرتكبها ،وصبر على أقضيته وأقداره ، فلا يتسخطها ، ومن استكمل هذه المراتب الثلاث ، استكمل الصبر ، ولذة الدنيا والآخرة ونعيمها ، والفوز والظفر فيهما ، لا يصل إليه أحد إلا على جسر الصبر ، كما لا يصل أحد إلى الجنة إلا على الصراط ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : خير عيش أدركناه بالصبر ، وإذا تأملت مراتب الكمال المكتسب فى العالم ، رأيتها كلها منوطة بالصبر ، وإذا تأملت النقصان الذى يذم صاحبه عليه ، ويدخل تحت قدرته ، رأيته كله من عدم الصبر ، فالشجاعة والعفة ، والجود والإيثار ، كله صبر ساعة .

فالصبر طلسم على كنز العلى        من حل ذا الطلسم فاز بكنزه

وأكثر أسقام البدن والقلب ، إنما تنشأ عن عدم الصبر ، فما حفظت صحة القلوب والأبدان والأرواح بمثل الصبر ، فهو الفاروق الأكبر ، والترياق الأعظم ، ولو لم يكن فيه إلا معية الله مع أهله،فإن الله مع الصابرين ومحبته لهم،فإن الله يحب الصابرين ، ونصره لأهله ، فإن النصر مع الصبر ، وإنه خير لأهله ، ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [ النحل ] ، وإنه سبب الفلاح : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [ آل عمران ] .

## صَبِر :

روى أبو داود فى كتاب المراسيل ، من حديث قيس بن رافع القيسى ، أن رسول الله ﷺ قال : ماذا فى الأمرين من الشفاء ؟ الصبر والثفاء » (٢) ، وفى « السنن لأبى داود :

---

(١) أبو نعيم فى الحلية (١ / ٣٤) ، وضعفه الحافظ ابن حجر فى الفتح (١ / ٤٥) .

(٢) البيهقى فى الكبرى (٩ / ٣٤٦) ، وعزاه إلى أبى داود فى المراسيل .

من حديث أم سلمة ، قالت : دخل على رسول الله ﷺ حين توفى أبو سلمة ، وقد جعلت عليه صبرًا ، فقال : « ماذا يا أم سلمة ؟ » فقلت : إنما هو صبر يا رسول الله ، ليس فيه طيب ، قال : « إنه يشب الوجه ، فلا تجعليه إلا بالليل » ونهى عنه بالنهار (١) .

الصبر كثير المنافع ، لاسيما الهندى منه ، ينقى الفضول الصفراوية التى فى الدماغ وأعصاب البصر ، وإذا طلى على الجبهة والصدغ بدهن الورد ، نفع من الصداع ، وينفع من قروح الأنف والفم ، ويسهل السوداء والماليخوليا .

والصبر الفارسى يذكى العقل ، ويمد الفؤاد ، وينقى الفضول الصفراوية والبلغمية من المعدة إذا شرب منه ملعقتان بماء ، ويرد الشهوة الباطلة والفاسدة ، وإذا شرب فى البرد ، خيف أن يسهل دمًا .

**صوم :**

الصوم جنة من أدواء الروح والقلب والبدن ، منافعه تفوت الإحصاء ، وله تأثير عجيب فى حفظ الصحة ، وإذابة الفضلات ، وحبس النفس عن تناول مؤذياتها ، ولا سيما إذا كان باعتدال وقصد فى أفضل أوقاته شرعًا ، وحاجة البدن إليه طبعًا .

ثم إن فيه من إراحة القوى والأعضاء ما يحفظ عليها قواها ، وفيه خاصية تقتضى إيثاره ، وهى تفريحه للقلب عاجلاً وآجلاً ، وهو أنفع شىء لأصحاب الأمزجة الباردة والرطبة ، وله تأثير عظيم فى حفظ صحتهم .

وهو يدخل فى الأدوية الروحانية والطبيعية ، وإذا راعى الصائم فيه ما ينبغى مراعاته طبعًا وشرعًا ، عظم انتفاع قلبه وبدنه به ، وحبس عنه المواد الغريبة الفاسدة التى هو مستعد لها ، وأزال المواد الرديئة الحاصلة بحسب كماله ونقصانه ، ويحفظ الصائم مما ينبغى أن يتحفظ منه ،ويعينه على قيامه بمقصود الصوم وسره وعلته الغائية ، فإن القصد منه أمر آخر وراء ترك الطعام والشراب ، وباعتبار ذلك الأمر اختص من بين الأعمال بأنه لله سبحانه ، ولما كان وقاية وجنة بين العبد وبين ما يؤذى قلبه وبدنه عاجلاً وآجلاً ، قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)** ﴾ [ البقرة ]، فأحد مقصودى الصيام الجنة والوقاية ، وهى حمية عظيمة النفع ، والمقصود الآخر : اجتماع القلب والهم على الله تعالى ، وتوفير قوى النفس على محابه وطاعته (٢) .

---

(١) أبو داود (٢٣٠٥) فى الطلاق ، باب : فيما تجتنبه المعتدة فى عدتها ، وضعفه الألبانى .
(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٣٣١ ـ ٣٣٥ ) .

## ( حرف الضاد )

### ضب :

ثبت فى « الصحيحين » : من حديث ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ سئل عنه لما قدم إليه ، وامتنع من أكله : أحرام هو ؟ فقال : « لا ولكن لم يكن بأرض قومى ، فأجدنى أعافه ، وأكل بين يديه وعلى مائدته وهو ينظر » (١) .

وفى « الصحيحين » : من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، عنه ﷺ أنه قال : « لا أحله ولا أحرمه » (٢) .

وهو حار يابس،يقوى شهوة الجماع،وإذا دق ، ووضع على موضع الشوكة اجتذبها .

### ضفدع :

قال الإمام أحمد : الضفدع لا يحل فى الدواء ، نهى رسول الله ﷺ عن قتلها ، يريد الحديث الذى رواه فى « مسند » من حديث عثمان بن عبد الرحمن رضي الله عنه ، أن طبيبًا ذكر ضفدعًا فى دواء عند رسول الله ﷺ فنهاه عن قتلها (٣) .

قال صاحب القانون : من أكل من دم الضفدع أو جرمه ، ورم بدنه وكمد لونه ، وقذف المنى حتى يموت ، ولذلك ترك الأطباء استعماله خوفًا من ضرره ، وهى نوعان : مائية وترابية ، والترابية يقتل أكلها (٤) .

## ( حرف الطاء )

### طيب :

ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حبب إلى من دنياكم : النساء والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » (٥) .

---

(١) البخارى (٥٥٣٧) فى الذبائح والصيد ، باب : الضب ، ومسلم (١٩٤٦ / ٤٤) فى الصيد والذبائح ، باب : إباحة الضب .

(٢) البخارى (٥٥٣٦) فى الذبائح والصيد ، باب : الضب ، ومسلم (١٩٤٣/٣٩) فى الصيد والذبائح ، باب : إباحة الضب .

(٣) أحمد (٣ / ٤٥٣) ، وأبو داود (٥٢٦٩) ، فى الأدب ، باب : فى قتل الضفدع ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود .

(٤) زاد المعاد ( ٤ / ٣٣٥ ـ ٣٣٦ ) .

(٥) النسائى (٣٩٤٠) فى عشرة النساء ، باب : حب النساء ، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر فى التلخيص الحبير (١٥٣٠) انظره مفصلا .

وكان ﷺ يكثر التطيب ، وتشتد عليه الرائحة الكريهة ، وتشق عليه ، والطيب غذاء الروح التى هى مطية القوى تتضاعف وتزيد بالطيب ، كما تزيد بالغذاء والشراب ، والدعة والسرور ، ومعاشرة الأحبة ، وحدوث الأمور المحبوبة ، وغيبة من تسر غيبته ، ويثقل على الروح مشاهدته ، كالثقلاء والبغضاء ، فإن معاشرتهم توهن القوى ، وتجلب الهم والغم ، وهى للروح بمنزلة الحمى للبدن ، وبمنزلة الرائحة الكريهة ، ولهذا كان مما حبب الله ـ سبحانه ـ الصحابة بنهيهم عن التخلق بهذا الخلق فى معاشرة رسول الله ﷺ لتأذيه بذلك ، فقال : ﴿ **إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ** ﴾ [ الأحزاب : ٥٣] .

والمقصود أن الطيب كل من أحب الأشياء إلى رسول الله ﷺ ، وله تأثير فى حفظ الصحة ، ودفع كثير من الآلام ، وأسبابها بسبب قوة الطبيعة به .

**طين :**

ورد فيه أحاديث موضوعة لا يصح منها شيء مثل حديث « من أكل الطين ، فقد أعان على قتل نفسه » ومثل حديث « يا حميراء لا تأكلى الطين فإنه يعصم البطن، ويصفر اللون، ويذهب بهاء الوجه » (١) .

وكل حديث فى الطين فإنه لا يصح ، ولا أصل له عن رسول الله ﷺ ، إلا أنه ردىء مؤذ ، يسد مجارى العروق ، وهو بارد يابس ، قوى التجفيف ، ويمنع استطلاق البطن ، ويوجب نفث الدم وقروح الفم .

**طلح :**

قال تعالى : ﴿ **وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩)** ﴾ [ الواقعة ] ، قال أكثر المفسرين : هو الموز ، والمنضود : هو الذى قد نضد بعضه على بعض ، كالمشط ، وقيل : الطلح : الشجر ذو الشوك ، نضد مكان كل شوكه ثمرة ، فثمره قد نضد بعضه إلى بعض ، فهو مثل الموز ، وهذا القول أصح، ويكون من ذكر الموز من السلف أراد التمثيل لا التخصيص والله أعلم .

وهو حار رطب ، أجوده النضيج الحلو ، ينفع من خشونة الصدر والرئة والسعال ، وقروح الكليتين ، والمثانة ، ويدر البول ، ويزيد فى المنى ، ويحرك الشهوة للجماع ، ويلين البطن ، ويؤكل قبل الطعام ، ويضر المعدة ، ويزيد فى الصفراء والبلغم ، ودفع

(١) الموضوعات لابن الجوزى (٣ / ٣١ ، ٣٣) .

ضرره بالسكر أو العسل .

**طلع :**

قال تعالى : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) ﴾ [ ق ] وقال تعالى : ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) ﴾ [ الشعراء ] .

طلع النخل : ما يبدو من ثمرته فى أول ظهوره ، وقشره يسمى الكفرى ، والنضيد : المنضود الذى قد نضد بعضه على بعض ، وإنما يقال له : نضيد ما دام فى كفراه ، فإذا انفتح فليس بنضيد .

وأما الهضيم : فهو المنضم بعضه إلى بعض ، فهو كالنضيد أيضًا ، وذلك يكون قبل تشقق الكفرى عنه .

والطلع نوعان : ذكر وأنثى ، والتلقيح هو أن يؤخذ من الذكر ، وهو مثل دقيق الحنطة ، فيجعل فى الأنثى ، وهو التأبير ، فيكون ذلك بمنزلة اللقاح بين الذكر والأنثى ، وقد روى مسلم فى « صحيحه » : عن طلحة بن عبيد الله ﷺ ، قال : مررت مع رسول الله ﷺ فى نخل ، فرأى قومًا يلقحون ، فقال : « ما يصنع هؤلاء ؟ » قالوا : يأخذون من الذكر فيجعلونه فى الأنثى ، قال : « ما أظن ذلك يغنى شيئًا » ، فبلغهم ، فتركوه ، فلم يصلح ، فقال النبى ﷺ : « إنما هو ظن ، فإن كان يغنى شيئًا ، فاصنعوه ، فإنما أنا بشر مثلكم ، وإن الظن يخطئ ويصيب ، ولكن ما قلت لكم عن الله عز وجل ، فلن أكذب على الله » (١) . انتهى .

طلع النخل ينفع من الباه ، ويزيد فى المباضعة ، ودقيق طلعه إذا تحملت به المرأة قبل الجماع أعان على الحبل إعانة بالغة ، وهو فى البرودة واليبوسة فى الدرجة الثانية ، يقوى المعدة ويجففها ، ويسكن ثائرة الدم مع غلظة وبطء هضم .

ولا يحتمله إلا أصحاب الأمزجة الحارة ، ومن أكثر منه فإنه ينبغى أن يأخذ عليه شيئًا من الجوارشات الحارة ، وهو يعقل الطبع ، ويقوى الأحشاء ، والجمار يجرى مجراه ، وكذلك البلح ، والبسر ، والإكثار منه يضر بالمعدة والصدر ، وربما أورث القولنج ، وإصلاحه بالسمن ، أو بما تقدم ذكره (٢) .

---

(١) مسلم (٢٣٦١ / ١٣٩) فى الفضائل ، باب : وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره النبى ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأى .

(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٣٣٦ ـ ٣٣٩ ) .

## ( حرف العين )

**عنب :**

فى « الغيلانيات » من حديث حبيب بن يسار ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : رأيت رسول الله ﷺ يأكل العنب خرطًا . قال أبو جعفر العقيلى : لا أصل لهذا الحديث، قلت : وفيه داود بن عبد الجبار أبو سليم الكوفى ، قال يحيى بن معين : كان يكذب .

ويذكر عن رسول الله ﷺ أنه كان يحب العنب والبطيخ .

وقد ذكر الله سبحانه العنب فى ستة مواضع من كتابه فى جملة نعمه التى أنعم بها على عباده فى هذه الدار وفى الجنة ، وهو من أفضل الفواكه وأكثرها منافع ، وهو يؤكل رطبًا ويابسًا ، وأخضر ويانعًا ، وهو فاكهة مع الفواكه ، وقوت مع الأقوات ، وأدم مع الإدام ،ودواء مع الأدوية،وشراب مع الأشربة ، وطبعه طبع الحبات : الحرارة والرطوبة ، وجيده الكبار المائى ، والأبيض أحمد من الأسود إذا تساويا فى الحلاوة ، والمتروك بعد قطفه يومين أو ثلاثة أحمد من المقطوف فى يومه ، فإنه منفخ مطلق للبطن ، والمعلق حتى يضمر قشره جيد للغذاء ، مقو للبدن ، وغذاؤه كغذاء التين والزبيب ، وإذا ألقى عجم العنب كان أكثر تليينًا للطبيعة ، والإكثار منه مصدع للرأس ، ودفع مضرته بالرمان المز .

ومنفعة العنب يسهل الطبع ، ويسمن ، ويغذو جيده غذاء حسنًا ، وهو أحد الفواكه الثلاث التى هى ملوك الفواكه ، هو والرطب والتين .

**عسل :**

قد تقدم ذكر منافعه (١) . قال ابن جريج : قال الزهرى : عليك بالعسل ، فإنه جيد للحفظ ، وأجوده أصفاه وأبيضه ، وألينه حدة ،وأصدقه حلاوة ، وما يؤخذ من الجبال والشجر له فضل على ما يؤخذ من الخلايا ، وهو بحسب مرعى نحله .

**عجوة :**

فى « الصحيحين » : من حديث سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « من تصبح بسبع تمرات عجوة ، لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر » (٢) .

---

(١) انظر : ص ١٦٥ .

(٢) البخارى (٥٤٤٥) فى الأطعمة ، باب : العجوة ، ومسلم (٢٠٤٧ / ١٥٤) فى الأشربة ، باب : فضل تمر المدينة .

وفى « سنن النسائى » وابن ماجه : من حديث جابر ، وأبى سعيد رضي الله عنهما ، عن النبى ﷺ : « العجوة من الجنة ، وهى شفاء من السم ، والكمأة من المن ، وماؤها شفاء للعين » (١) .

وقد قيل : إن هذا فى عجوة المدينة ، وهى أحد أصناف التمر بها ، ومن أنفع تمر الحجاز على الإطلاق ، وهو صنف كريم ، ملذذ ، متين للجسم والقوة ، من ألين التمر وأطيبه وألذه ، وقد تقدم ذكر التمر وطبعه ومنافعه فى حرف التاء ، والكلام على دفع العجوة للسم والسحر ، فلا حاجة لإعادته .

**عنبر :**

تقدم فى « الصحيحين » من حديث جابر ، فى قصة أبى عبيدة ، وأكلهم من العنبر شهرًا ، وأنهم تزودوا من لحمه وشائق إلى المدينة ، وأرسلوا منه إلى النبى ﷺ (٢) ، وهو أحد ما يدل على أن إباحة ما فى البحر لا يختص بالسمك ، وعلى أن ميتته حلال ، واعترض على ذلك بأن البحر ألقاه حيًا ، ثم جزر عنه الماء ، فمات ، وهذا حلال ، فإن موته بسبب مفارقته للماء ، وهذا لا يصح ، فإنهم إنما وجدوه ميتًا بالساحل ، ولم يشاهدوه قد خرج عنه حيًا ، ثم جزر عنه الماء .

وأيضًا : فلو كان حيًا لما ألقاه البحر إلى ساحله ، فإنه من المعلوم أن البحر إنما يقذف إلى ساحله الميت من حيواناته لا الحى منها .

وأيضًا : فلو قدر احتمال ما ذكروه لم يجز أن يكون شرطًا فى الإباحة ، فإنه لا يباح الشىء مع الشك فى سبب إباحته ، ولهذا منع النبى ﷺ من أكل الصيد إذا وجده الصائد غريقًا فى الماء للشك فى سبب موته ، هل هو الآلة أم الماء ؟وأما العنبر الذى هو أحد أنواع الطيب ، فهو من أفخر أنواعه بعد المسك ، و أخطأ من قدمه على المسك ، وجعله سيد أنواع الطيب ، وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال فى المسك : « هو أطيب الطيب » (٣) ، وسيأتى إن شاء الله تعالى ذكر الخصائص والمنافع التي خص بها المسك ، حتى إنه طيب الجنة ، والكثبان التى هى مقاعد الصديقين هناك من مسك لا من عنبر . والذى غر هذا القائل أنه لا يدخله التغير على طول الزمان ، فهو كالذهب ، وهذا لا يدل على أنه أفضل من المسك ، فإنه بهذه الخاصية الواحدة لا يقاوم ما فى المسك من الخواص.

---

(١) النسائى فى الكبرى (٦٦٧٦ ، ٦٦٧٧) فى الأطعمة ، باب : الكمأة ، وابن ماجه (٣٤٥٣) فى الطب ، باب : الكمأة والعجوة .

(٢) سبق تخريجه ص ٢٨٥ .

(٣) مسلم (٢٢٥٢ / ١٩) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : استعمال المسك وأنه أطيب الطيب .

وبعد فضروبه كثيرة وألوانه مختلفة ، فمنه الأبيض ، والأشهب ، والأحمر ، والأصفر ، والأخضر ، والأزرق ، والأسود ، وذو الألوان . وأجوده : الأشهب ، ثم الأزرق ، ثم الأصفر ، وأردؤه : الأسود وقد اختلف الناس فى عنصره ، فقالت طائفة : هو نبات ينبت فى قعر البحر ، ، فيبتلعه بعض دوابه ، فإذا ثملت منه قذفته رجيعًا ، فيقذفه البحر إلى ساحله ، وقيل : طل ينزل من السماء فى جزائر البحر ، فتلقيه الأمواج إلى الساحل ، وقيل : روث دابة بحرية تشبه البقرة . وقيل: بل هو جفاء من جفاء البحر ، أى : زبد .

وقال صاحب « القانون » : هو فيما يظن ينبع من عين فى البحر ، والذى يقال : إنه زبد البحر ، أو روث دابة بعيد ، انتهى .

ومزاجه حار يابس ، مقو للقلب ،والدماغ ، والحواس ، وأعضاء البدن نافع من الفالج ، واللقوة ، والأمراض البلغمية ، وأوجاع المعدة الباردة ، والرياح الغليظة ، ومن السدد إذا شرب ، أو طلى به من خارج ، وإذا تبخر به ، نفع من الزكام والصداع ، والشقيقة الباردة .

### عود:

العود الهندى نوعان ، أحدهما : يستعمل فى الأدوية وهو الكست ، ويقال له : القسط ، وسيأتى فى حرف القاف . الثانى : يستعمل فى الطيب ، ويقال له : الألوة ، وقد روى مسلم فى « صحيحه »:عن ابن عمر رضي الله عنهما ،أنه كان يستجمر بالألوة غير مطراة ، وبكافور يطرح معها ، ويقول : هكذا كان يستجمر رسول الله ﷺ (١) ، وثبت عنه فى صفة نعيم أهل الجنة « مجامرهم الألوة (٢) والمجامر : جمع مجمر وهو ما يتجمر به من عود وغيره ، وهو أنواع . أجودها : الهندى ، ثم الصينى ، ثم القمارى ، ثم المندلى ، وأجوده: الأسود والأزرق الصلب الرزين الدسم ، وأقله جودة : ما خف وطفا على الماء ، ويقال : إنه شجر يقطع ويدفن فى الأرض سنة ، فتأكل الأرض منه ما لا ينفع ، ويبقى عود الطيب ، لا تعمل فيه الأرض شيئًا ، ويتعفن منه قشره وما لا طيب فيه .

وهو حار يابس فى الثالثة ، يفتح السدد ، ويكسر الرياح ، ويذهب بفضل الرطوبة ، ويقوى الأحشاء والقلب ويفرحه ، وينفع الدماغ ، ويقوى الحواس ، ويحبس البطن ،

---

(١) مسلم (٢٢٥٤ / ٢١) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : استعمال المسك وأنه أطيب الطيب .

(٢) البخارى (٣٣٢٧) فى الأنبياء ، باب : خلق آدم وذريته ، ومسلم (٢٨٣٤/ ١٤) فى الجنة ،صفة نعيمها وأهلها ، باب : أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، وصفاتهم وأزواجهم .

وينفع من سلس البول الحادث عن برد المثانة .

قال ابن سمجون : العود ضروب كثيرة يجمعها اسم الألوة ، ويستعمل من داخل وخارج ، ويتجمر به مفردًا ومع غيره ، وفى الخلط للكافور به عند التجمير معنى طبى ، وهو إصلاح كل منهما بالآخر ، وفى التجمر مراعاة جوهر الهواء وإصلاحه ، فإنه أحد الأشياء الستة الضرورية التى فى صلاحها صلاح الأبدان .

**عدس :**

قد ورد فيه أحاديث كلها باطلة على رسول الله ﷺ ، لم يقل شيئًا منها ، كحديث : « إنه قدس على لسان سبعين نبيًا » وحديث « إنه يرق القلب ، ويغزر الدمعة ، وإنه مأكول الصالحين » ، وأرفع شىء جاء فيه ، وأصحه أنه شهوة اليهود التى قدموها على المن والسلوى ، وهو قرين الثوم والبصل فى الذكر .

وطبعه طبع المؤنث ، بارد يابس ، وفيه قوتان متضادتان . إحداهما : يعقل الطبيعة ، والأخرى : يطلقها وقشره حر يابس فى الثالثة ، حريف مطلق للبطن ، وترياقه فى قشره ، ولهذا كان صحاحه أنفع من مطحونه ، وأخف على المعدة ، وأقل ضررًا ، فإن لبه بطىء الهضم لبرودته ويبوسته ، وهو مولد للسوداء ، ويضر بالماليخوليا ضررًا بينًا ، ويضر بالأعصاب والبصر .

وهو غليظ الدم ، وينبغى أن يتجنبه أصحاب السوداء ، وإكثارهم منه يولد لهم أدواء رديئة ، كالوسواس والجذام ، وحمى الربع ، ويقلل ضرره السلق والإسفاناخ ، وإكثار الدهن ، وأردأ ما أكل بالنمكسود وليتجنب خلط الحلاوة به ، فإنه يورث سددًا كبدية ، وإدمانه يظلم البصر لشدة تجفيفه ، ويعسر البول ، ويوجب الأورام الباردة ، والرياح الغليظة وأجوده الأبيض السمين ، السريع النضج .

وأما ما يظنه الجهال أنه كان سماط الخليل الذى يقدمه لأضيافه ، فكذب مفترى ، وإنما حكى الله عنه الضيافة بالشواء ، وهو العجل الحنيذ .

وذكر البيهقى ،عن إسحاق قال :سئل ابن المبارك عن الحديث الذى جاء فى العدس ، أنه قدس على لسان سبعين نبيًا ، فقال : ولا على لسان نبى واحد ، وإنه لمؤذ منفخ ، من حدثكم به ؟ قالوا: سلم بن سالم ،فقال: عمن ؟ قالوا: عنك . قال: وعنى أيضًا ؟! (١).

---

(١) زاد المعاد ( ٤ / ٣٣٩ _ ٣٤٥ ) .

## ( حرف الغين )

**غيث :**

مذكور فى القرآن فى عدة مواضع ، وهو لذيذ الاسم على السمع ، والمسمى على الروح والبدن ، تبتهج الأسماع بذكره ، والقلوب بوروده ، وماؤه أفضل المياه ، وألطفها وأنفعها وأعظمها بركة ،ولاسيما إذا كان من سحاب راعد ،واجتمع فى مستنقعات الجبال ، وهو أرطب من سائر المياه ، لأنه لم تطل مدته على الأرض ، فيكتسب من يبوستها ،ولم يخالطه جوهر يابس ، ولذلك يتغير ويتعفن سريعًا للطافته وسرعة انفعاله ، وهل الغيث الربيعى ألطف من الشتوى أو بالعكس فيه قولان .

قال من رجح الغيث الشتوى : حرارة الشمس تكون حينئذ أقل ، فلا تجتذب من ماء البحر إلا ألطفه ، والجو صاف وهو خال من الأبخرة الدخانية ، والغبار المخال للماء ، وكل هذا يوجب لطفه وصفاءه ، وخلوه من مخالط .

قال من رجح الربيعى : الحرارة توجب تحلل الأبخرة الغليظة ، وتوجب رقة الهواء ولطافته ، فيخف بذلك الماء ، وتقل أجزاؤه الأرضية ، وتصادف وقت حياة النبات والأشجار وطيب الهواء .

وذكر الشافعى رحمه الله عن أنس بن مالك ﷺ ، قال:كنا مع رسول الله ﷺ ، فأصابنا مطر ، فحسر رسول الله ﷺ ثوبه ، وقال : « إنه حديث عهد بربه » (١) (٢) .

## ( حرف الفاء )

**فاتحة الكتاب :**

وأم القرآن ، والسبع المثانى ، والشفاء التام ، والدواء النافع ، والرقية التامة ، ومفتاح الغنى والفلاح ، وحافة القوة ، ودافعة الهم والغم والخوف والحزن لمن عرف مقدارها وأعطاها حقها ،وأحسن تنزيلها على دائه ، وعرف وجه الاستشفاء والتداوى بها ، والسر الذى لأجله كانت كذلك ولما وقع بعض الصحابة على ذلك ، رقى بها اللديغ ، فبرأ

(١) مسلم (٨٩٨ / ١٣) فى صلاة الاستسقاء ، باب : الدعاء فى الاستسقاء .
(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٣٤٦ ) .

لوقته ، فقال له النبى ﷺ : « وما أدراك أنها رقية » (١) .

ومن ساعده التوفيق ، وأعين بنور البصيرة حتى وقف على أسرار هذه السورة ، وما اشتملت عليه من التوحيد ، ومعرفة الذات والأسماء والصفات والأفعال ، وإثبات الشرع والقدر والمعاد ، وتجريد توحيد الربوبية والإلهية ، وكمال التوكل والتفويض إلى من له الأمر كله ، وله الحمد كله ، وبيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، والافتقار إليه فى طلب الهداية التى هى أصل سعادة الدارين ، وعلم ارتباط معانيها بجلب مصالحهما ، ودفع مفاسدهما ، وأن العاقبة المطلقة التامة ، والنعمة الكاملة منوطة بها ، موقوفة على التحقيق بها ، أغنته عن كير من الأدوية والرقى ، واستفتح بها من الخير أبوابه ، ودفع بها من الشر أسبابه .

وهذا أمر يحتاج استحداث فطرة أخرى ، وعقل آخر ، وإيمان آخر ، وتالله لا تجد مقالة فاسدة ، ولا بدعة باطلة إلا وفاتحة الكتاب متضمنه لردها وإبطالها بأقرب الطرق ، وأصحها وأوضحها ، ولا تجد بابًا من أبواب المعارف الإلهية ، وأعمال القلوب وأدويتها من عللها وأسقامها إلا وفى فاتحة الكتاب مفتاحه، وموضع الدلالة عليه ، ولا منزلاً من منازل السائرين إلى رب العالمين إلا وبدايته ونهايته فيها .

ولعمر الله إن شأنها لأعظم من ذلك ، وهى فوق ذلك . وما تحقق عبد بها ، واعتصم بها ، وعقل عمن تكلم بها ، وأنزلها شفاء تامًا ، وعصمة بالغة ، ونورًا مبينًا ، وفهمها وفهم لوازمها كما ينبغى ووقع فى بدعة ولا شرك ، ولا أصابه مرض من أمراض القلوب إلا لمامًا ، غير مستقر .

هذا ، وإنها المفتاح الأعظم لكنوز الأرض ، كما أنها المفتاح لكنوز الجنة ، ولكن ليس كل واحد يحسن الفتح بهذا المفتاح ، ولو أن طلاب الكنوز وقفوا على سر هذه السورة ، وتحققوا بمعانيها ، وركبوا لهذا المفتاح أسنانًا ، وأحسنوا الفتح به ، لوصلوا إلى تناول الكنوز من غير معاوق ، ولا ممانع .

ولم نقل هذا مجازفة ولا استعارة، بل حقيقة ، ولكن لله تعالى حكمة بالغة فى إخفاء هذا السر عن نفوس أكثر العالمين ، كما له حكمة بالغة فى إخفاء كنوز الأرض عنهم ، والكنوز المحجوبة قد استخدم عليها أرواح خبيثة شيطانية تحول بين الإنس وبينها ، ولا تقهرها إلا أرواح علوية شريفة غالبة لها بحالها الإيمانى ، معها منه أسلحة لا تقوم لها الشياطين ، وأكثر نفوس الناس ليست بهذه المثابة ، فلا يقاوم تلك الأرواح ولا يقهرها ،

(١) البخارى (٥٧٢٦) فى الطب ، باب : الرقى بفاتحة الكتاب .

ولا ينال من سلبها شيئًا ، فإن من قتل قتيلاً فله سلبه .

**فاغية :**

هو نور الحناء ، وهى من أطيب الرياحين،وقد روى البيهقى فى كتابه « شعب الإيمان » من حديث عبد الله بن بريدة ، عن أبيه ﷺ يرفعه : « سيد الرياحين فى الدنيا والآخرة الفاغية » (١) وروى فيه أيضًا ، عن أنس بن مالك ﷺ قال : « كان أحب الرياحين إلى رسول الله ﷺ الفاغية » (٢) . والله أعلم بحال هذين الحديثين ، فلا نشهد على رسول الله ﷺ بما لا نعلم صحته .

وهى معتدلة فى الحر واليبس ، فيها بعض القبض ، وإذا وضعت بين طى ثياب الصوف حفظتها من السوس ،وتدخل فى مراهم الفالج والتمدد ، ودهنها يحلل الأعضاء ، ويلين العصب .

**فضة :**

ثبت أن رسول الله ﷺ كان خاتمه من فضة ، وفصه منه (٣) ، وكانت قبيعة سيفه فضة (٤) ، ولم يصح عنه فى المنع من لباس الفضة والتحلى بها شىء البتة ، كما صح عنه المنع من الشرب فى آنيتها ، وباب الآنية أضيق من باب اللباس والتحلى ، ولهذا يباح للنساء لباسًا ، وحلية ما يحرم عليهن استعماله آنية ، فلا يلزم من تحريم الآنية تحريم اللباس والحلية .

وفى « السنن » عنه:« وأما الفضة فالعبوا بها لعبًا » (٥) . فالمنع يحتاج إلى دليل يبينه ، إما نص أو إجماع،فإن ثبت أحدهما ، وإلا ففى القلب من تحريم ذلك على الرجال شىء ، والنبى ﷺ أمسك بيده ذهبًا ، وبالأخرى حريرًا ، وقال : « هذان حرام على ذكور أمتى ، حل لإناثهم » (٦) .

والفضة سر من أسرار الله فى الأرض،وطلسم الحاجات ،وإحسان أهل الدنيا بينهم ، وصاحبها مرموق بالعيون بينهم ، معظم فى النفوس ، مصدر فى المجالس ، لا تغلق دونه الأبواب ، ولا تمل مجالسته ، ولا معاشرته ، ولا يستثقل مكانه ، تشير الأصابع إليه ،

---

(١) البيهقى فى شعب الإيمان (٦٠٧٦) . (٢) البيهقى فى شعب الإيمان (٦٠٧٤) .

(٣) البخارى (٥٨٧٠) فى اللباس ، باب : فص الخاتم .

(٤) أبو داود (٢٥٨٣) فى الجهاد ، باب : فى السيف يحلى ، والترمذى (١٦٩١) فى الجهاد ، باب : ما جاء فى السيوف وحليتها .

(٥) أبو داود (٤٢٣٦) فى الفتن والملاحم ، باب : ما جاء فى الذهب للنساء ، وأحمد (٢ / ٣٣٤) .

(٦) الترمذى (١٧٢٠) فى اللباس ، باب : ما جاء فى الحرير والذهب ، وقال « حسن صحيح » ، والنسائى (٥١٤٨) فى الزينة ، باب : تحريم الذهب على الرجال ، وأحمد (٤ / ٣٩٢ ، ٣٩٣) .

وتعقد العيون نطاقها عليه ،إن قال سمع قوله ، وإن شفع قبلت شفاعته ، وإن شهد زكيت شهادته ، وإن خطب فكفء لا يعاب ، وإن كان ذا شيبة بيضاء فهى أجمل عليه من حلة الشباب .

وهى من الأدوية المفرحة النافعة من الهم والغم والحزن ، وضعف القلب وخفقانه ، وتدخل فى المعاجين الكبار ، وتجتذب بخاصيتها ما يتولد فى القلب من الأخلاط الفاسدة ، خصوصًا إذا أضيفت إلى العسل المصفى والزعفران .

ومزاجها إلى اليبوسة والبرودة ، ويتولد عنها من الحرارة والرطوبة ما يتولد ، والجنان التى أعدها الله عز وجل لأوليائه يوم يلقونه أربع : جنتان من ذهب ، وجنتان من فضة ، آنيتهما وحليتهما وما فيهما . وقد ثبت عنه ﷺ فى « الصحيح » من حديث أم سلمة أنه قال:« الذى يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم » (١) .

وصح عنه ﷺ أنه قال : « لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا فى صحافهما ، فإنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة » (٢) .

فقيل : علة التحريم تضييق النقود ، فإنها إذا اتخذت أوانى فاتت الحكمة التى وضعت لأجلها من قيام مصالح بنى آدم ، وقيل : العلة الفخر والخيلاء ، وقيل : العلة كسر قلوب الفقراء والمساكين إذا رأوها وعاينوها .

وهذه العلل فيها ما فيها ، فإن التعليل بتضييق النقود يمنع من التحلى بها وجعلها سبائك ونحوها مما ليس بآنية ولا نقد ، والفخر والخيلاء حرام بأى شىء كان ، وكسر قلوب المساكين لا ضابط له ، فإن قلوبهم تنكسر بالدور الواسعة ، والحدائق المعجبة ، والمراكب الفارهة ، والملابس الفاخرة ، والأطعمة اللذيذة ، وغير ذلك من المباحات ، وكل هذه علل منتقضة ، إذ توجد العلة ، ويتخلف معلولها .

فالصواب أن العلة ـ والله أعلم ـ ما يكسب استعمالها القلب من الهيئة ، والحالة المنافية للعبودية منافاة ظاهرة ، ولهذا علل النبى ﷺ بأنها للكفار فى الدنيا ، إذ ليس لهم نصيب من العبودية التى ينالون بها فى الآخرة نعيمها ، فلا يصلح استعمالها لعبيد الله فى الدنيا ، وإنما يستعملها من خرج عن عبوديته ، ورضى بالدنيا وعاجلها من الآخرة (٣) .

---

(١) البخارى (٥٦٣٤) فى الأشربة ، باب : آنية الفضة ، ومسلم (٢٠٦٥ / ١) فى اللباس والزينة ، باب : تحريم استعمال أوانى الذهب والفضة .

(٢) البخارى (٥٦٣٣) فى الأشربة ، باب : آنية الفضة ، ومسلم (٢٠٦٧ / ٤) فى اللباس والزينة ، باب : تحريم استعمال إناء الذهب والفضة .

(٣) زاد المعاد ( ٤ / ٣٤٧ ـ ٣٥١ ) .

## ( حرف القاف )

**قرآن :**

قال الله تعالى : ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [ الإسراء : ٨٢] ، والصحيح : أن « من » هاهنا ، لبيان الجنس لا للتبعيض ، وقال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ** ﴾ [ يونس : ٥٧] .

فالقرآن هو شفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية ، وأدواء الدنيا والآخرة ، وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به ، وإذا أحسن العليل التداوى به ، ووضعه على دائه بصدق وإيمان ، وقبول تام ، واعتقاد جازم ، واستيفاء شروطه ، لم يقاومه الداء أبدًا .

وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذى لو نزل على الجبال ، لصدعها ، أو على الأرض ، لقطعها ، فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفى القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه ، والحمية منه لمن رزقه الله فهمًا فى كتابه ، وقد تقدم فى أول الكلام على الطب بيان إرشاد القرآن العظيم إلى أصوله ومجامعه التى هى حفظ الصحة والحمية ، واستفراغ المؤذى ، والاستدلال بذلك على سائر أفراد هذه الأنواع .

وأما الأدوية القلبية ، فإنه يذكرها مفصلة ، ويذكر أسباب أدوائها وعلاجها . قال : ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ** ﴾ [ العنكبوت : ٥١] ، فمن لم يشفه القرآن ، فلا شفاه الله ، ومن لم يكفه ، فلا كفاه الله .

**قثاء :**

فى « السنن » : من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان يأكل القثاء بالرطب ، ورواه الترمذى وغيره (١) .

القثاء بارد رطب فى الدرجة الثانية ،مطفئ لحرارة المعدة الملتهبة ، بطيء الفساد فيها ، نافع من وجع المثانة ، ورائحته تنفع من الغشى ، وبزره يدر البول ، وورقه إذا اتخذ ضمادًا ، نفع من عضة الكلب ، وهو بطيء الانحدار عن المعدة ، وبرده مضر ببعضها ، فينبغى أن يستعمل معه ما يصلحه ويكسر برودته ورطوبته ، كما فعل رسول الله ﷺ إذ

---

(١) أبو داود (٣٨٣٥) فى الأطعمة ،باب:فى الجمع بين لونين فى الأكل ، والترمذى (١٨٤٤) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى أكل القثاء بالرطب ، وابن ماجه (٣٣٢٥) فى الأطعمة ، باب : القثاء والرطب يجمعان .

أكله بالرطب ، فإذا أكل بتمر أو زبيب أو عسل عدله .

**قسط وكست :**

بمعنى واحد . وفى « الصحيحين » : من حديث أنس رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ « خير ما تداويتم به الحجامة والقسط البحرى » (١) .

وفى « المسند » : من حديث أم قيس ، عن النبى ﷺ : « عليك بهذا العود الهندى ، فإن فيه سبعة أشفية منها ذات الجنب » (٢) .

القسط : نوعان . أحدهما : الأبيض الذى يقال له : البحرى . والآخر : الهندى ، وهو أشدهما حرًا ، والأبيض ألينهما ، ومنافعهما كثيرة جدًا .

وهما حاران يابسان فى الثالثة ، ينشفان البلغم ، قاطعان للزكام ، وإذا شربا ، نفعا من ضعف الكبد والمعدة ومن بردهما ، ومن حمى الدور والربع ، وقطعا وجع الجنب ، ونفعا من السموم ، وإذا طلى به الوجة معجونًا بالماء والعسل ، قلع الكلف . وقال جالينوس : ينفع من الكزاز ، ووجع الجنبين ، ويقتل حب القرع .

وقد خفى على جهال الأطباء نفعه من وجع ذات الجنب ، فأنكروه ، ولو ظفر هذا الجاهل بهذا النقل عن جالينوس لنزله منزلة النص ، كيف وقد نص كثير من الأطباء المتقدمين على أن القسط يصلح للنوع البلغمى من ذات الجنب ، ذكره الخطابى عن محمد ابن الجهم .

وقد تقدم (٣) أن طب الأطباء بالنسبة إلى طب الأنبياء أقل من نسبة طب الطرقية والعجائز إلى طب الأطباء ، وأن بين ما يلقى بالوحى ، وبين ما يلقى بالتجربة ، والقياس من الفرق أعظم مما بين القدم والفرق .

ولو أن هؤلاء الجهال وجدوا دواء منصوصًا عن بعض اليهود والنصارى والمشركين من الأطباء ، لتلقوه بالقبول والتسليم ، ولم يتوقفوا على تجربته .

نعم نحن لا ننكر أن للعادة تأثيرًا فى الانتفاع بالدواء وعدمه،فمن اعتاد دواء وغذاء ، كان أنفع له ، وأوفق ممن لم يعتده ، بل ربما لم ينتفع به من لم يعتده .

وكلام فضلاء الأطباء وإن كان مطلقًا ، فهو بحسب الأمزجة والأزمنة ، والأماكن والعوائد ، وإذا كان التقييد بذلك لا يقدح فى كلامهم ومعارفهم ، فكيف يقدح فى كلام

(١) البخارى (٥٦٩٦) فى الطب ، باب : الحجامة من الداء ، وأحمد (٣ / ١٠٧) .
(٢) البخارى (٥٦٩٢) فى الطب ، باب : السعوط بالقسط الهندى والبحرى ، وأحمد (٦ / ٣٥٦) .
(٣) انظر : ص ١٦٩ .

الصادق المصدوق ، ولكن نفوس البشر مركبة على الجهل والظلم ، إلا من أيده الله بروح الإيمان ، ونور بصيرته بنور الهدى .

**قصب السكر :**

جاء فى بعض ألفاظ السنة الصحيحة فى الحوض « ماؤه ، أحلى من السكر » (١) ، ولا أعرف السكر فى الحديث إلا فى هذا الموضع .

والسكر حادث لم يتكلم فيه متقدمو الأطباء ، ولا كانوا يعرفونه ، ولا يصفونه فى الأشربة ، وإنما يعرفون العسل ، ويدخلونه فى الأدوية ، وقصب السكر حار رطب ينفع من السعال ، ويجلو الرطوبة والمثانة ، وقصبة الرئة ، وهو أشد تليينًا من السكر ، وفيه معونة على القىء ، ويدر البول ، ويزيد فى الباه ، قال عفان بن مسلم الصفار ، من مص قصب السكر بعد طعامه ، لم يزل يومه أجمع فى سرور ، انتهى . وهو ينفع من خشونة الصدر والحلق إذا شوى ، ويولد رياحًا دفعها بأن يقشر ، ويغسل بماء حار ، والسكر حار رطب على الأصح ، وقيل : بارد ، وأجوده : الأبيض الشفاف الطبرزد ، وعتيقه ألطف من جديده ، وإذا طبخ ونزعت رغوته ، سكن العطش والسعال ، وهو يضر المعدة التى تولد فيها الصفراء لاستحالته إليه ، ودفع ضرره بماء الليمون أو النارنج ، أو الرمان اللفان .

وبعض الناس يفضله على العسل لقلة حرارته ولينه ، وهذا تحامل منه على العسل ، فإن منافع العسل أضعاف منافع السكر ، وقد جعله الله شفاء ودواء ، وإدامًا وحلاوة ، وأين نفع السكر من العسل : من تقوية المعدة ، وتليين الطبع ، وإحداد البصر ، وجلاء ظلمته ، ودفع الخوانيق بالغرغرة به ، وإبرائه من الفالج واللقوة ، ومن جميع العلل الباردة التى تحدث فى جميع البدن من الرطوبات ، فيجذبها من قعر البدن ، ومن جميع البدن ، وحفظ صحته وتسمينه وتسخينه ،و الزيادة فى الباه ، والتحليل والجلاء ، وفتح أفواه العروق ، وتنقية المعى و إحدار الدود ، ومنع التخم وغيره من العفن ، والأدم النافع ، وموافقة من غلب عليه البلغم والمشايخ وأهل الأمزجة الباردة ، وبالجملة : فلا شىء أنفع منه للبدن ، وفى العلاج وعجز الأدوية ، وحفظ قواها ، وتقوية المعدة إلى أضعاف هذه المنافع ، فأين للسكر مثل هذه المنافع والخصائص أو قريب منها ؟ (٢) .

---

(١) مسلم (٢٤٧ / ٣٦) فى الطهارة ، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل فى الوضوء ، بلفظ : « وأحلى من العسل باللبن » .

(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٣٥٢ ـ ٣٥٦ ) .

# ( حرف الكاف )

## كتاب للحمى :

قال المروزى : بلغ أبا عبد الله أنى حممت ، فكتب لى من الحمى رقعة فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله ، وبالله ، محمد رسول الله ، قلنا : يا نار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم ، وأرادوا به كيدًا ، فجعلناهم الأخسرين ، اللهم رب جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، اشف صاحب هذا الكتاب بحولك وقوتك وجبروتك ، إله الحق آمين .

قال المروزى : وقرأ على أبى عبد الله ـ وأنا أسمع ـ أبو المنذر عمرو بن مجمع ، حدثنا يونس بن حبان ، قال : سألت أبا جعفر محمد بن على أن أعلق التعويذ ، فقال : إن كان من كتاب الله أو كلام عن نبى الله فعلقه واسشف به ما استطعت . قلت : أكتب هذه من حمى الربع : باسم الله ، وبالله ، ومحمد رسول الله إلى آخره ؟ قال : أى نعم .

وذكر أحمد عن عائشة ﵂ وغيرها ، أنهم سهلوا فى ذلك .

قال حرب : ولم يشدد فيه أحمد بن حنبل . قال أحمد : وكان ابن مسعود يكرهه كراهة شديدة جدًا . وقال أحمد وقد سئل عن التمائم تعلق بعد نزول البلاء ؟ قال : أرجو أن لا يكون به بأس .

قال الخلال : وحدثنا عبد الله بن أحمد ، قال : رأيت أبى يكتب التعويذ للذى يفزع ، وللحمى بعد وقوع البلاء .

## كتاب لعسر الولادة :

قال الخلال : حدثنى عبد الله بن أحمد ، قال : رأيت أبى يكتب للمرأة إذا عسر عليها ولادتها فى جام أبيض ، أو شىء نظيف ، يكتب حديث ابن عباس ﵁ : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين : ﴿ **كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ** ﴾ [ الأحقاف : ٣٥ ] ، ﴿**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا** (٤٦) ﴾ [ النازعات : ٤٦] .

قال الخلال : أنبأنا أبو بكر المروزى ، أن أبا عبد الله جاءه رجل فقال : يا أبا عبد الله ، تكتب لامرأة قد عسر عليها ولدها منذ يومين ؟ فقال : قل له : يجىء بجام واسع ، وزعفران ، ورأيته يكتب لغير واحد . ويذكر عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : مر عيسى

صلى الله على نبينا وعليه وسلم على بقرة قد اعترض ولدها فى بطنها ، فقالت : يا كلمة الله ، ادع الله لى أن يخلصنى مما أنا فيه ، فقال : يا خالق النفس من النفس ، ويا مخلص النفس من النفس، ويا مخرج النفس من النفس ، خلصها . قال : فرمت بولدها ، فإذا هى قائمة تشمه . قال : فإذا عسر على المرأة ولدها ، فاكتبه لها . وكل ما تقدم من الرقى ، فإن كتابته نافعة .

ورخص جماعة من السلف فى كتابة بعض القرآن وشربه ، وجعل ذلك من الشفاء الذى جعل الله فيه .

**كتاب آخر لذلك :** يكتب فى إناء نظيف : ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤** ﴾ [ الانشقاق ] ،وتشرب منه الحامل ، ويرش على بطنها .

**كتاب للرعاف :**

كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يكتب على جبهته : ﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ** ﴾ [ هود : ٤٤] . وسمعته يقول : كتبتها لغير واحد فبرأ ، فقال : ولا يجوز كتابتها بدم الراعف كما يفعله الجهال ؛ فإن الدم نجس ، فلا يجوز أن يكتب به كلام الله تعالى .

**كتاب آخر له :** خرج موسى عليه السلام برداء ، فوجد شعَيبًا ، فشده بردائه : ﴿ **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩** ﴾ [ الرعد ] .

**كتاب آخر للحزاز.**

يكتب عليه : ﴿ **فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ** ﴾ [ البقرة : ٢٦٦] بحول الله وقوته .

**كتاب آخر له :** عند اصفرار الشمس يكتب عليه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٨** ﴾ [الحديد : ٢٨]

**كتاب آخر للحمى المثلثة :**

يكتب على ثلاث ورقات لطاف : بسم الله فرت ، بسم الله مرت ، بسم الله قلت ، ويأخذ كل يوم ورقة ، ويجعلها فى فمه ، ويبتلعها بماء .

**كتاب آخر لعرق النسا :**

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم رب كل شيء ، ومليك كل شيء ، وخالق كل شيء، أنت خلقتنى ، وأنت خلقت النسا ، فلا تسلطه على بأذى ، ولا تسلطنى عليه بقطع ، واشفنى شفاء لا يغادر سقمًا ، لا شافى إلا أنت .

**كتاب للعرق الضارب :**

روى الترمذى فى « جامعه » : من حديث ابن عباس ﭭ ، أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم من الحمى ، ومن الأوجاع كلها أن يقولوا : « بسم الله الكبير ، أعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار ، ومن شر حر النار » (١) .

**كتاب لوجع الضرس :**

يكتب على الخد الذى يلى الوجع : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** (٢٣) ﴾ [ الملك ] ، وإن شاء كتب : ﴿ **وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (١٣) ﴾ [ الأنعام ] .

**كتاب للخراج :**

يكتب عليه : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا** (١٠٥) **فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا** (١٠٦) **لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا** (١٠٧) ﴾ [ طه ] .

**كمأة :**

ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : « الكمأة من المن ، وماؤها شفاء للعين » ، أخرجاه فى « الصحيحين » (٢) .

قال ابن الأعرابى: « الكمأة »: جمع ، واحده « كمء » . وهذا خلاف قياس العربية ، فإن ما بينه وبين واحده التاء ، فالواحد منه بالتاء ، وإذا حذفت كان للجمع ، وهل هو جمع ، أو اسم جمع ؟ على قولين مشهورين ، قالوا : ولم يخرج عن هذا إلا حرفان : كمأة وكمء ، وجبأة وجبء، وقال غير ابن الأعرابى: بل هى على القياس ، « الكمأة »

---

(١) الترمذى (٢٠٧٥) فى الطب ، باب : (٢٦) ، وقال : « غريب ، لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن إسماعيل ابن أبى حبيبة ، وإبراهيم يضعف فى الحديث » .

(٢) البخارى (٥٧٠٨) فى الطب ، باب : المن شفاء للعين ، ومسلم (٢٠٤٩ / ١٥٧) فى الأشربة ، باب : فضل الكمأة .

للواحد ، « والكمء » للكثير ، وقال غيرهما : « الكمأة » تكون واحدًا وجمعًا .

واحتج أصحاب القول الأول بأنهم قد جمعوا كمئًا على أكمؤ ، قال الشاعر :

ولقد جنيتك أكمؤًا وعساقلاً ولقد نهيتك عن بنات الأوبر

وهذا يدل على أن « كمء » مفرد ، « وكمأة » جمع .

والكمأة تكون فى الأرض من غير أن تزرع ، وسميت كمأة لاستتارها ، ومنه كمأ الشهادة : إذا سترها وأخفاها ، والكمأة مخفية تحت الأرض ، لا ورق لها ولا ساق ، ومادتها من جوهر أرضى بخارى محتقن فى الأرض نحو سطحها ، يحتقن ببرد الشتاء ، وتنميه أمطار الربيع ، فيتولد ويندفع نحو سطح الأرض متجسدًا ؛ ولذلك يقال لها : جدرى الأرض ، تشبيهًا بالجدرى فى صورته ومادته ؛ لأن مادته رطوبة دموية ، فتندفع عند سن الترعرع فى الغالب ، وفى ابتداء استيلاء الحرارة ونماء القوة .

وهى مما يوجد فى الربيع ، ويؤكل نيئًا ومطبوخًا ، وتسميها العرب : نبات الرعد ؛ لأنها تكثر بكثرته ، وتنفطر عنها الأرض ،وهى من أطعمة أهل البوادى ، وتكثر بأرض العرب ، وأجودها ما كانت أرضها رملية قليلة الماء .

وهى أصناف: منها صنف قتال يضرب لونه إلى الحمرة يحدث الاختناق .

وهى باردة ورطبة فى الدرجة الثالثة ، رديئة للمعدة ، بطيئة الهضم ، وإذا أدمنت أورثت القولنج والسكتة والفالج ، ووجع المعدة ، وعسر البول ، والرطبة أقل ضررًا من اليابسة ، ومن أكلها فليدفنها فى الطين الرطب ، ويسلقها بالماء والملح والصعتر ، ويأكلها بالزيت والتوابل الحارة ، لأن جوهرها أرضى غليظ ، وغذاؤها ردىء ، لكن فيها جوهر مائى لطيف يدل على خفتها ، والاكتحال بها نافع من ظلمة البصر والرمد الحار ، وقد اعترف فضلاء الأطباء بأن ماءها يجلو العين ، وممن ذكره المسيحى ، وصاحب القانون وغيرهما .

وقوله ﷺ : « الكمأة من المن » ، فيه قولان :

أحدهما : أن المن الذى أنزل على بنى إسرائيل لم يكن هذا الحلو فقط ، بل أشياء كثيرة منَّ الله عليهم بها من النبات الذى يوجد عفوًا من غير صنعة ولا علاج ولا حرث ، فإن « المنَّ » مصدر بمعنى المفعول ، أى : « ممنون » به ، فكل ما رزقه الله العبد عفوًا بغير كسب منه ولا علاج فهـو مَنٌّ محض ، وإن كانت سائر نعمه منًا منه على عبده ، فخص منها ما لا كسب له فيه ولا صنع باسم المن ، فإنه « منٌّ » بلا واسطة العبد ، وجعل

سبحانه قوتهم بالتيه الكمأة ، وهى تقوم مقام الخبز ، وجعل أدمهم السلوى ، وهو يقوم مقام اللحم ، وجعل حلواهم الطل الذى ينزل على الأشجار يقوم لهم مقام الحلوى ، فكمل عيشهم .

وتأمل قوله ﷺ : « الكمأة من المن الذى أنزله الله على بنى إسرائيل » ، فجعلها من جملته ، وفردًا من أفراده ، والترنجبين الذى يسقط على الأشجار نوع من المن ، ثم غلب استعمال المن عليه عرفًا حادثًا .

والقول الثانى : أنه شبَّه الكمأة بالمن المنزل من السماء ؛ لأنه يجمع من غير تعب ولا كلفة ولا زرع بزر ولا سقى .

فإن قلت : فإن كان هذا شأن الكمأة،فما بال هذا الضرر فيها ، ومن أين أتاها ذلك ؟ فاعلم أن الله سبحانه أتقن كل شىء صنعه ، وأحسن كل شىء خلقه ، فهو عند مبدأ خلقه برىء من الآفات والعلل ، تام المنفعة لما هيئ وخلق له ، وإنما تعرض له الآفات بعد ذلك بأمور أخر من مجاورة ، أو امتزاج واختلاط ، أو أسباب أخر تقتضى فساده ، فلو ترك على خلقته الأصلية من غير تعلق أسباب الفساد به لم يفسد .

ومن له معرفة بأحوال العالم ومبدئه يعرف أن جميع الفساد؛فى جوه ونباته وحيوانه وأحوال أهله حادث بعد خلقه بأسباب اقتضت حدوثه ، ولم تزل أعمال بنى آدم ومخالفتهم للرسل تحدث لهم من الفساد العام والخاص ما يجلب عليهم من الآلام ، والأمراض ، والأسقام ، والطواعين ، والقحوط ، والجدوب ، وسلب بركات الأرض ، وثمارها ، ونباتها ، وسلب منافعها أو نقصانها ،أمورًا متتابعة يتلو بعضها بعضًا ، فإن لم يتسع علمك لهذا فاكتف بقوله تعالى : ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ** ﴾ [ الروم : ٤١ ] ونزِّل هذه الآية على أحوال العالم ، وطابق بين الواقع وبينها ، وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت فى الثمار والزرع والحيوان ، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخر متلازمة ، بعضها آخذ برقاب بعض ، وكلما أحدث الناس ظلمًا وفجورًا ، أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل فى أغذيتهم وفواكههم ، وأهويتهم ومياههم ، وأبدانهم وخلقهم ، وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ، ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم .

ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هى اليوم،كما كانت البركة فيها أعظم ، وقد روى الإمام أحمد بإسناده : أنه وجد فى خزائن بعض بنى أمية صرة فيها حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليها : هذا كان ينبت أيام العدل ، وهذه القصة ذكرها فى « مسنده » على أثر حديث رواه .

وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة بقية عذاب عذبت به الأمم السالفة ، ثم بقيت منها بقية مرصدة لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم ،حكمًا قسطًا ، وقضاء عدلاً ، وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا بقوله فى الطاعون:« إنه بقية رجز ـ أو عذاب ـ أرسل على بنى إسرائيل » .

وكذلك سلط الله سبحانه وتعالى الريح على قوم سبع ليالٍ وثمانية أيام ، ثم أبقى فى العالم منها بقية فى تلك الأيام ، وفى نظيرها عظة وعبرة .

وقد جعــل الله سبحانه أعــمال البر والفاجر مقتضيات لآثارها فى هذا العالم اقتضاء لابد منه ، فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سببًا لمنع الغيث من السماء ، والقحط والجدب ، وجعل ظلم المساكين ، والبخس فى المكاييل والموازين ، وتعدى القوى على الضعيف سببًا لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استرحموا ، ولا يعطفون إن استعطفوا ، وهم فى الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت فى صور ولاتهم ، فإن الله سبحانه بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم فى قوالب وصور تناسبها ، فتارة بقحط وجدب ، وتارة بعدو ، وتارة بولاة جائرين ، وتارة بأمراض عامة ، وتارة بهموم وآلام وغموم تحضرها نفوسهم لا ينفكون عنها ، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنها ، وتارة بتسليط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزًا ، لتحق عليهم الكلمة ، وليصير كل منهم إلى ما خلق له ، والعاقل يسير بصيرته بين أقطار العالم فيشاهده ، وينظر مواقع عدل الله وحكمته ، وحينئذ يتبين له أن الرسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة ، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون،وإلى دار البوار صائرون ، والله بالغ أمره ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لأمره ، وبالله التوفيق .

وقوله ﷺ فى الكمأة : « وماؤها شفاء للعين » ، فيه ثلاث أقوال :

**أحدها** : أن ماءها يخلط فى الأدوية التى يعالج بها العين ، لا أنه يستعمل وحده . ذكره أبو عبيد .

**الثانى** : أنه يستعمل بحتًا بعد شيها ، واستقطار مائها ؛ لأن النار تلطفه وتنضجه ، وتذيب فضلاته ورطوبته المؤذية ، وتبقى المنافع .

**الثالث** :أن المراد بمائها الماء الذى يحدث به من المطر،وهو أول قطر ينزل إلى الأرض ، فتكون الإضافة إضافة اقتران ، لا إضافة جزء . ذكره ابن الجوزى ، وهو أبعد الوجوه وأضعفها .

وقيل : إن استعمل ماؤها لتبريد ما فى العين ، فماؤها مجردًا شفاء ، وإن كان لغير

ذلك ، فمركب مع غيره .

وقال الغافقى : ماء الكمأة أصلح الأدوية للعين إذا عجن به الإثمد واكتحل به ، ويقوى أجفانها ، ويزيد الروح الباصرة قوة وحدة ، ويدفع عنها نزول النوازل .

**كباث :**

فى « الصحيحين » : من حديث جابر بن عبد الله ﷺ ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ نجنى الكباث ، فقال : « عليكم بالأسود منه ، فإنه أطيبه » (١) .

الكباث ـ بفتح الكاف ، والباء الموحدة المخففة ، والثاء المثلثة : ثمر الأراك ، وهو بأرض الحجاز ، وطبعه حار يابس،ومنافعه كمنافع الأراك ؛ يقوى المعدة ، ويجيد الهضم ، ويجلو البلغم ، وينفع من أوجاع الظهر ، وكثير من الأدواء . قال ابن جلجل : إذا شرب طحينه أدر البول ، ونقى المثانة ، وقال ابن رضوان : يقوى المعدة ، ويمسك الطبيعة .

**كتم :**

روى البخارى فى « صحيحه » عن عثمان بن عبد الله بن موهب ، قال : دخلنا على أم سلمة ﷺ ، فأخرجت إلينا شعرًا من شعر رسول الله ﷺ ، فإذا هو مخضوب بالحناء والكتم (٢).

وفى « السنن الأربعة » عن النبى ﷺ أنه قال : « إن أحسن ما غيرتم به الشيب الحناء والكتم » (٣) .

وفى « الصحيحين » عن أنس ﷺ ،أن أبا بكر ﷺ اختضب بالحناء والكتم (٤) .

وفى سنن أبى داود عن ابن عباس ﷺ ، قال : مر على النبى ﷺ رجل قد خضب بالحناء فقال : « ما أحسن هذا ؟ » فمر آخر قد خضب بالحناء والكتم ، فقال : « هذا أحسن من هذا » ،فمر آخر قد خضب بالصفرة ، فقال : « هذا أحسن من هذا كله » (٥) .

---

(١) البخارى (٥٤٥٣) فى الأطعمة ، باب : الكباث وهو ورق الأراك ، ومسلم (٢٠٥٠ / ١٦٣) فى الأشربة ، باب : فضيلة الأسود من الكباث

(٢) البخارى (٥٨٩٧) فى اللباس ، باب : ما يذكر فى الشيب .

(٣) أبو داود (٤٢٠٥) فى الترجل ، باب : فى الخضاب ، والترمذى (١٧٥٣) فى اللباس ، باب : ما جاء فى الخضاب ، وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى (٥٠٧٨) فى الزينة ، باب : الخضاب بالحناء والكتم ، وابن ماجه (٣٦٢٢) فى اللباس ، باب : الخضاب بالحناء .

(٤) البخارى (٥٨٩٤) فى اللباس ، باب : ما يذكر فى الشيب ، ومسلم (٢٣٤١ / ١٠١) فى الفضائل ، باب : شيبه ﷺ .

(٥) أبو داود (٤٢١١) فى الخاتم ، باب : ما جاء فى خضاب الصفرة ، وضعفه الألبانى .

قال الغافقى : « الكتم » نبت ينبت بالسهول ، ورقه قريب من ورق الزيتون ، يعلو فوق القامة ، وله ثمر قدر حب الفلفل ، فى داخله نوى ، إذا رضخ اسودَّ ، وإذا استخرجت عصارة ورقه،وشرب منها قدر أوقية قيَّـأ قيئًا شديدًا ، وينفع عن عضة الكلب ، وأصله إذا طبخ بالماء كان منه مداد يكتب به .

وقال الكندى : بزر الكتم إذا اكتحل به ، حلل الماء النازل فى العين وأبرأها .

وقد ظن بعض الناس أن الكتم هو الوسمة ، وهى ورق النيل ، وهذا وهم ، فإن الوسمة غير الكتم ، قال صاحب « الصحاح » : « الكتم » بالتحريك : نبت يخلط بالوسمة يختضب به . قيل : والوسمة نبات له ورق طويل يضرب لونه إلى الزرقة ، أكبر من ورق الخلاف ، يشبه ورق اللوبيا ، وأكبر منه ، يؤتى به من الحجاز واليمن .

فإن قيل:قد ثبت فى « الصحيح » عن أنس ﷺ،أنه قال:لم يختضب النبى ﷺ .

قيل : قد أجاب أحمد بن حنبل عن هذا وقال : قد شهد به غير أنس ﷺ على النبى ﷺ أنه خضب ، وليس من شهد بمنزلة من لم يشهد ، فأحمد أثبت خضاب النبى ﷺ ، ومعه جماعة من المحدثين ، ومالك أنكره .

فإن قيل:فقد ثبت فى «صحيح مسلم » النهى عن الخضاب بالسواد؛فى شأن أبى قحافة لما أتى به ورأسه ولحيته كالثغامة بياضًا،فقال: « غيروا هذا الشيب وجنبوه السواد » (١) . والكتم يسود الشعر .

فالجواب من وجهين :

**أحدهما** : أن النهى عن التسويد البحت ، فأما إذا أضيف إلى الحناء شىء آخر ؛ كالكتم ونحوه ،فلا بأس به،فإن الكتم والحناء يجعل الشعر بين الأحمر والأسود ، بخلاف الوسمة فإنها تجعله أسود فاحمًا ، وهذا أصح الجوابين .

**الجواب الثانى** : أن الخضاب بالسواد المنهى عنه خضاب التدليس ؛ كخضاب شعر الجارية ، والمرأة الكبيرة ، تغر الزوج ، والسيد بذلك ، وخضاب الشيخ يغر المرأة بذلك ، فإنه من الغش والخداع ، فأما إذا لم يتضمن تدليسًا ولا خداعًا فقد صح عن الحسن والحسين ﷺ أنهما كان يخضبان بالسواد ، ذكر ذلك ابن جرير عنهما فى كتاب « تهذيب الآثار » ، وذكره عن عثمان بن عفان ، وعبد الله بن جعفر ، وسعد بن أبى وقاص ،

---

(١) مسلم (٢١٠٢ / ٧٨) فى اللباس والزينة ، باب : استحباب خضاب الشيب بصفرة أو حمرة وتحريمه بالسواد .

وعقبة بن عامر ، والمغيرة بن شعبة ، وجرير بن عبد الله ، وعمرو بن العاص ، وحكاه عن جماعة من التابعين ، منهم : عمرو بن عثمان ، وعلى بن عبد الله بن عباس ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وعبد الرحمن بن الأسود، وموسى بن طلحة ، والزهرى ، وأيوب ، وإسماعيل بن معدى كرب ، وحكاه ابن الجوزى عن محارب بن دثار ، ويزيد ، وابن جريج، وأبى يوسف ، وأبى إسحاق ، وابن أبى ليلى ، وزياد بن علاقة ، وغيلان ابن جامع ، ونافع بن جبير ، وعمرو بن على المقدمى ، والقاسم بن سلام .

**كرم :**

شجرة العنب ، وهى الحبلة ، ويكره تسميتها كرمًا ؛ لما روى مسلم فى « صحيحه » عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يقولن أحدكم للعنب الكرم ، الكرم الرجل المسلم » (١) . وفى رواية : « إنما الكرم قلب المؤمن » (٢) ، فى أخرى : « لا تقولوا : الكرم ، وقولوا : العنب والحبلة » (٣) .

وفى هذا معنيان :

**أحدهما** : أن العرب كانت تسمى شجرة العنب الكرم ؛ لكثرة منافعها وخيرها ، فكره النبى ﷺ تسميتها باسم يهيج النفوس على محبتها ومحبة ما يتخذ منها من المسكر ، وهو أم الخبائث ، فكره أن يسمى أصله بأحسن الأسماء وأجمعها للخير .

**والثانى** : أنه من باب قوله:« ليس الشديد بالصرعة » (٤) ، و« ليس المسكين بالطواف » (٥)، أى : أنكم تسمون شجرة العنب كرمًا لكثرة منافعه ، وقلب المؤمن أو الرجل المسلم أولى بهذا الاسم منه ، فإن المؤمن خير كله ونفع ، فهو من باب التنبيه والتعريف لما فى قلب المؤمن من الخير،والجود ، والإيمان ، والنور ، والهدى ، والتقوى ، والصفات التى يستحق بها هذا الاسم أكثر من استحقاق الحبلة له .

وبعد : فقوة الحبلة باردة يابسة ، وورقها وعلائقها وعرموشها مبرد فى آخر الدرجة الأولى ، وإذا دقت وضمد بها من الصداع سكنته ، ومن الأورام الحارة والتهاب المعدة ، وعصارة قضبانه إذا شربت سكنت القىء ، وعقلت البطن ، وكذلك إذا مضغت قلوبها

(١) مسلم (٢٢٤٧ / ٦) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : كراهة تسمية العنب كرما .
(٢) مسلم (٢٢٤٧ / ٧) فى الكتاب والباب السابقين .
(٣) مسلم (٢٢٤٨ / ١٢) فى الكتاب والباب السابقين .
(٤) البخارى (٦١١٤) فى الأدب، باب : الحذر من الغضب ، ومسلم (٢٦٠٩ / ١٠٧) فى البر والصلة والآداب ، باب : فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأى شىء يذهب الغضب .
(٥) مسلم (١٠٣٩ / ١٠١ ) فى الزكاة ، باب : المسكين الذى لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه .

الرطبة ، وعصارة ورقها ، تنفع من قروح الأمعاء ، ونفث الدم وقيئه ، ووجع المعدة ، ودمع شجره الذى يحمل على القضبان ،كالصمغ إذا شرب أخرج الحصاة ، وإذا لطخ به ، أبرأ القوب والجرب المتقرح وغيره ، وينبغى غسل العضو قبل استعمالها بالماء والنطرون ، وإذا تمسح بها مع الزيت حلق الشعر ، ورماد قضبانه إذا تضمد به مع الخل ودهن الورد والسذاب نفع من الورم العارض فى الطحال ، وقوة دهن زهرة الكرم قابضة شبيهة بقوة دهن الورد ، ومنافعها كثيرة قريبة من منافع النخلة .

**كرفس :**

روي فى حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من أكله ثم نام عليه ، نام ونكهته طيبة ، وينام آمناً من وجع الأضراس والأسنان » ، وهذا باطل على رسول الله ﷺ ، ولكن البستانى منه يطيب النكهة جدًا ، وإذا علق أصله فى الرقبه نفع من وجع الأسنان .

وهو حار يابس ، وقيل : رطب مفتح لسداد الكبد والطحال ، وورقه رطبًا ينفع المعدة والكبد الباردة ، ويدر البول ، والطمث ، ويفتت الحصاة ، وحبه أقوى فى ذلك ، ويهيج الباه ،وينفع من البخر . قال الرازى : وينبغى أن يجتنب أكله إذا خيف من لدغ العقارب.

**كراث :**

فيه حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ، بل هو باطل موضوع : « من أكل الكراث ثم نام عليه نام آمنًا من ريح البواسير ، واعتزله الملك لنتن نكهته حتى يصبح »(١) .

وهو نوعان : نبطى وشامى ، فالنبطى : البقل الذى يوضع على المائدة ، والشامى : الذى له رؤوس ، وهو حار يابس مصدع ، وإذا طبخ وأكل ، أو شرب ماؤه ، نفع من البواسير الباردة ، وإن سحق بزره وعجن بقطران ، وبخرت به الأضراس التى فيها الدود نثرها وأخرجها ، ويسكن الوجع العارض فيها ، وإذا دخنت المقعدة ببزره خفت البواسير ، هذا كله فى الكراث النبطى .

وفيه مع ذلك فساد الأسنان واللثة ، ويصدع ، ويرى أحلامًا رديئة ، ويظلم البصر ، وينتن النكهة ، وفيه إدرار للبول والطمث ، وتحريك للباه ، وهو بطيء الهضم (٢) .

---

(١) تنزيه الشريعه المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة (٢ / ٢٦٦) .

(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٣٥٦ ـ ٣٧١ ) .

## ( حرف اللام )

### لحم :

قال الله تعالى : ﴿ **وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ** ﴿٢٢﴾ ﴾ [ الطور ] . وقال : ﴿ **وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ** ﴿٢١﴾ ﴾ [ الواقعة : ٢١] .

وفى « سنن ابن ماجه » من حديث أبى الدرداء ، عن رسول الله ﷺ : « سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم » (١) ، ومن حديث بريدة يرفعه : « خير الإدام فى الدنيا والآخرة اللحم » (٢) .

وفى « الصحيح » عنه ﷺ : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » (٣). والثريد : الخبز واللحم ، قال الشاعر :

إذا ما الخبز تأدمه بلحم فذاك _ أمانة الله _ الثريد

وقال الزهرى : أكل اللحم يزيد سبعين قوة . وقال محمد بن واسع : اللحم يزيد فى البصر ، ويروى عن على بن أبى طالب رضي الله عنه : كلوا اللحم ؛ فإنه يصفى اللون ويخمص البطن ، ويحسن الخلق ، وقال نافع : كان ابن عمر إذا كان رمضان لم يفته اللحم ، وإذا سافر لم يفته اللحم ، ويذكر عن على : من تركه أربعين ليلة ساء خلقه .

وأما حديث عائشة رضي الله عنها ، الذى رواه أبو داود مرفوعًا : « لا تقطعوا اللحم بالسكين ؛ فإنه من صنيع الأعاجم ، وانهسوه فإنه أهنأ وأمرأ » (٤) .فردَّه الإمام أحمد بما صح عنه ﷺ من قطعه بالسكين فى حديثين ، وقد تقدما .

واللحم أجناس ، يختلف باختلاف أصوله وطبائعه ، فنذكر حكم كل جنس وطبعه ومنفعته ومضرته .

---

(١) ابن ماجه (٣٣٠٥) فى الأطعمة ، باب : اللحم ، وفى الزوائد : « فى إسناده أبو مشجعة وابن أخيه مسلمة بن عبد الله ، لم أر من جرحهما ولا من وثقهما ، وسليمان بن عطاء ضعيف » ، قال السندى : قلت : قال الترمذى : « وقد اتهم بالوضع » .

(٢) الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة للشوكانى ص ١٦٨ .

(٣) البخارى (٣٧٦٩) فى فضائل الصحابة ،باب: فضل عائشة رضي الله عنها ، ومسلم (٢٤٣١/ ٧٠) فى فضائل الصحابة ، باب : فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها .

(٤) أبو داود (٣٧٧٨) فى الأطعمة ، باب : فى أكل اللحم ، وضعفه الألبانى .

**لحم الضأن :**

حار فى الثانية ، رطب فى الأولى ، جيده الحولى ، يولد الدم المحمود القوى لمن جاد هضمه ، يصلح لأصحاب الأمزجة الباردة والمعتدلة ، ولأهل الرياضات التامة فى المواضع والفصول الباردة ، نافع لأصحاب المرة السوداء ، يقوى الذهن والحفظ ، ولحم الهرم والعجيف ردىء ، وكذلك لحم النعاج ، وأجوده لحم الذكر الأسود منه ، فإنه أخف وألذ وأنفع ، والخصى أنفع وأجود ، والأحمر من الحيوان السمين أخف وأجود غذاء ، والجذع من المعز أقل تغذية ، ويطفو فى المعدة .

وأفضل اللحم عائذه بالعظم ، والأيمن أخف وأجود من الأيسر ، والمقدم أفضل من المؤخر ، وكان أحب الشاة إلى رسول الله ﷺ مقدمها ، وكل ما علا منه سوى الرأس كان أخف وأجود مما سفل ، وأعطى الفرزدق رجلاً يشترى له لحمًا وقال له : خذ المقدم ، وإياك والرأس والبطن ، فإن الداء فيهما ، ولحم العنق جيد لذيذ ، سريع الهضم خفيف ، ولحم الذراع أخف اللحم وألذه وألطفه وأبعده من الأذى ، وأسرعه انهضامًا .

وفى « الصحيحين » : أنه كان يعجب رسول الله ﷺ (١) ، ولحم الظهر كثير الغذاء ، يولد دمًا محمودًا ، وفى « سنن ابن ماجه » مرفوعًا : « أطيب اللحم لحم الظهر » (٢) .

**لحم المعز :**

قليل الحرارة ، يابس ، وخلطه المتولد منه ليس بفاضل وليس بجيد الهضم ، ولا محمود الغذاء ، ولحم التيس ردىء مطلقًا ، شديد اليبس ، عسر الانهضام ، مولد للخلط السوداوى .

قال الجاحظ : قال لى فاضل من الأطباء: يا أبا عثمان ، إياك ولحم المعز ، فإنه يورث الغم ، ويحرك السوداء ، ويورث النسيان ، ويفسد الدم ، وهو والله يخبل الأولاد .

وقال بعض الأطباء : إنما المذموم منه المسن ، ولا سيما للمسنين ، ولا رداءة فيه لمن اعتاده ، وجالينوس جعل الحولى منه من الأغذية المعتدلة المعدِّلة للكيموس المحمود ، وإناثه أنفع من ذكوره .

وقد روى النسائى فى « سننه » : عن النبى ﷺ : « أحسنوا إلى الماعز وأميطوا عنها

---

(١) البخارى (٣٣٤٠) فى الأنبياء ، باب : قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ ، ومسلم (١٩٤ / ٣٢٧) فى الإيمان ، باب : أدنى أهل الجنة منزلة فيها .

(٢) ابن ماجه (٣٣٠٨) فى الأطعمة ، باب : أطايب اللحم ، وضعفه الألبانى .

الأذى فإنها من دواب الجنة » (١) ، وفى ثبوت هذا الحديث نظر ، وحكم الأطباء عليه بالمضرة حكم جزئى ليس بكلى عام ، وهو بحسب المعدة الضعيفة ، والأمزجة الضعيفة التى لم تعتده ، واعتادت المأكولات اللطيفة ، وهؤلاء أهل الرفاهية من أهل المدن ، وهم القليلون من الناس .

**لحم الجدى :**

قريب إلى الاعتدال ، خاصة ما دام رضيعًا ، ولم يكن قريب العهد بالولادة ، وهو أسرع هضمًا لما فيه من قوة اللبن ، ملين للطبع ، موافق لأكثر الناس فى أكثر الأحوال ، وهو ألطف من لحم الجمل ، والدم المتولد عنه معتدل .

**لحم البقر :**

بارد يابس ، عسر الانهضام ، بطيء الانحدار ، يولد دمًا سوداويًا ، لا يصلح إلا لأهل الكدِّ والتعب الشديد ، ويورث إدمانه الأمراض السوداوية ؛ كالبهق والجرب ، والقوباء والجذام ، وداء الفيل ، والسرطان ، والوسواس ، وحمى الربع ، وكثير من الأورام ، وهذا لمن لم يعتده ، أو لم يدفع ضرره بالفلفل والثوم والدارصينى ، والزنجبيل ونحوه ، وذكره أقل برودة ، وأنثاه أقل يبسًا ، ولحم العجل ـ ولا سيما السمين ـ من أعدل الأغذية وأطيبها وألذها وأحمدها ، وهو حار رطب ، وإذا انهضم غذى غذاء قويًا .

**لحم الفرس :**

ثبت فى « الصحيح » عن أسماء رضي الله عنها قالت : نحرنا فرسًا فأكلناه على عهد رسول الله ﷺ (٢) ، وثبت عنه ﷺ أنه أذن فى لحوم الخيل ، ونهى عن لحوم الحمر . أخرجاه فى « الصحيحين » (٣) .

ولا يثبت عنه حديث المقدام بن معدى كرب رضي الله عنه أنه نهى عنه ، قاله أبو داود وغيره من أهل الحديث (٤) .

واقترانه بالبغال والحمير فى القرآن لا يدل على أن حكم لحمه حكم لحومها بوجه من

---

(١) مسند البزار (١٣٢٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ٦٩) : « وأعله بسعيد بن محمد ، ولعله الوراق ، فإن كان هو الوراق فهو ضعيف » ، ولم نقف عليه فى النسائى .

(٢) البخارى (٥٥١٩) فى الذبائح والصيد ، باب: لحوم الخيل ، ومسلم (١٩٤٢ / ٣٨) فى الصيد والذبائح ، باب : فى أكل لحوم الخيل .

(٣) البخارى (٥٥٢٠) فى الذبائح والصيد ، باب: لحوم الخيل ،ومسلم (١٩٤١ / ٣٦) فى الصيد والذبائح ، باب : فى أكل لحوم الخيل .

(٤) أبو داود (٣٧٩٠) فى الأطعمة، باب : فى أكل لحوم الخيل ، وضعفه الألبانى .

الوجوه،كما لا يدل على أن حكمها فى السهم فى الغنيمة حكم الفرس ،والله سبحانه يقرن فى الذكر بين المتماثلات تارة ،وبين المختلفات ، وبين المتضادات ، وليس فى قوله : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ [ النحل : ٨] ما يمنع من أكلها،كما ليس فيه ما يمنع من غير الركوب من وجوه الانتفاع،وإنما نص على أجلِّ منافعها؛وهو الركوب،والحديثان فى حلها صحيحان لا معارض لهما ، وبعد : فلحمها حار يابس ، غليظ سوداوى مضر لا يصلح للأبدان اللطيفة .

**لحم الجمل :**

فرق ما بين الرافضة وأهل السنة ، كما أنه أحد الفروق بين اليهود وأهل الإسلام ، فاليهود والرافضة تذمه ولا تأكله ، وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام حله ، وطالما أكله رسول الله ﷺ وأصحابه حضرًا وسفرًا .

ولحم الفصيل منه من ألذ اللحوم وأطيبها وأقواها غذاء ، وهو لمن اعتاده بمنزلة لحم الضأن لا يضرهم البتة ، ولا يولد لهم داء ، وإنما ذمه بعض الأطباء بالنسبة إلى أهل الرفاهية من أهل الحضر الذين لم يعتادوه ، فإن فيه حرارة ويبسًا ، وتوليدًا للسوداء ، وهو عسر الانهضام ، وفيه قوة غير محمودة ؛ لأجلها أمر النبى ﷺ بالوضوء من أكله فى حديثين صحيحين لا معارض لهما ، ولا يصح تأويلهما بغسل اليد ؛ لأنه خلاف المعهود من الوضوء فى كلامه ﷺ ، لتفريقه بينه وبين لحم الغنم ، فخير بين الوضوء وتركه منها ، وحتم الوضوء من لحوم الإبل ، ولو حمل الوضوء على غسل اليد فقط ، لحمل على ذلك فى قوله : « من مس فرجه فليتوضأ » (١) .

وأيضًا : فإن آكلها قد لا يباشر أكلها بيده بأن يوضع فى فمه ، فإن كان وضؤوه غسل يده فهو عبث ، وحَمْلٌ لكلام الشارع على غير معهوده وعرفه ، ولا يصح معارضته بحديث: « كان آخر الأمرين من رسول الله ﷺ ترك الوضوء مما مست النار »؛لعدة أوجه :

**أحدها** : أن هذا عام ، والأمر بالوضوء ، منها خاص .

**الثانى** : أن الجهة مختلفة ، فالأمر بالوضوء منها بجهة كونها لحم إبل سواء كان نيئًا ، أو مطبوخًا ، أو قديدًا ، ولا تأثير للنار فى الوضوء ،وأما ترك الوضوء مما مست النار ففيه بيان أن مس النار ليس بسبب للوضوء ، فأين أحدهما من الآخر ؟ هذا فيه إثبات سبب الوضوء ، وهو كونه لحم إبل ، وهذا فيه نفى لسبب الوضوء ، وهو كونه ممسوس النار،

(١) أبو داود (١٨١) فى الطهارة ، باب : الوضوء من مس الذكر ، والترمذى (٨٢) فى الطهارة ، باب : الوضوء من مس الذكر ، وقال : « حسن صحيح » .

فلا تعارض بينهما بوجه .

**الثالث** : أن هذا ليس فيه حكاية لفظ عام عن صاحب الشرع ، وإنما هو إخبار عن واقعة فعل فى أمرين،أحدهما :متقدم على الآخر ، كما جاء ذلك مبينًا فى نفس الحديث ، أنهم قربوا إلى النبى ﷺ لحمًا فأكل ، ثم حضرت الصلاة فتوضأ فصلى ، ثم قربوا إليه فأكل ، ثم صلى ولم يتوضأ ، فكان آخر الأمرين منه ترك الوضوء مما مست النار ، هكذا جاء الحديث ، فاختصره الراوى لمكان الاستدلال ، فأين فى هذا ما يصلح لنسخ الأمر بالوضوء منه ، حتى لو كان لفظًا عامًا متأخرًا مقاومًا لم يصلح للنسخ ، ووجب تقديم الخاص عليه ، وهذا فى غاية الظهور .

**لحم الضبِّ :**

تقدم الحديث فى حله ، ولحمه حار يابس ، يقوى شهوة الجماع .

**لحم الغزال :**

الغزال أصلح الصيد وأحمده لحمًا ، وهو حار يابس ، وقيل : معتدل جدًا ، نافع للأبدان المعتدلة الصحيحة ، وجيده الخشف .

**لحم الظبى :**

حار يابس فى الألوى،مجفف للبدن،صالح للأبدان الرطبة،قال صاحب « القانون » : وأفضل لحوم الوحش لحم الظبى مع ميله إلى السوداوية .

**لحم الأرنب :**

ثبت فى « الصحيحين » عن أنس بن مالك قال : أنفجنا أرنبًا فسعوا فى طلبها ، فأخذوها ، فبعث أبو طلحة بوركها إلى رسول الله ﷺ فقبله (١) .

**لحم الأرنب** : معتدل إلى الحرارة واليبوسة ، وأطيبها وركها ، وأحمده أكل لحمها مشويًا ، وهو يعقل البطن ، ويدر البول ، ويفتت الحصى ، وأكل رؤوسها ينفع من الرعشة .

**لحم حمار الوحش :**

ثبت فى « الصحيحين » من حديث أبى قتادة رضي الله عنه ، أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ

---

(١) البخارى (٥٥٣٥) فى الذبائح والصيد ، باب : الأرنب ، ومسلم (١٩٥٣/٥٣) فى الصيد والذبائح ، باب : إباحة الأرنب .

فى بعض عمره ، وأنه صاد حمار وحش ، فأمرهم النبى ﷺ بأكله وكانوا محرمين ، ولم يكن أبو قتادة محرمًا (١) .

وفى « سنن ابن ماجه » عن جابر قال : أكلنا زمن خيبر الخيل وحمر الوحش (٢) .

لحمه حار يابس ، كثير التغذية ، مولد دمًا غليظًا سوداويًا ، إلا أن شحمه نافع مع دهن القسط لوجع الظهر والريح الغليظة المرخية للكلى ، وشحمه جيد للكلف طلاء ، وبالجملة فلحوم الوحوش كلها تولد دمًا غليظًا سوداويًا ،وأحمده الغزال ، وبعده الأرنب .

**لحوم الأجنة :**

غير محمودة لاحتقان الدم فيها ، وليست بحرام ؛ لقوله ﷺ : « ذكاة الجنين ذكاة أمه » (٣) .

ومنع أهل العراق من أكله إلا أن يدركه حيًا فيذكيه ، وأوّلو الحديث على أن المراد به أن ذكاته كذكاة أمه . قالوا : فهو حجة على التحريم ، وهذا فاسد ، فإن أول الحديث أنهم سألوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، نذبح الشاة فنجد فى بطنها جنينًا ،أفنأكله ؟ فقال : « كلوه إن شئتم فإن ذكاته ذكاة أمه » .

وأيضًا ، فالقياس يقتضى حله ، فإنه ما دام حملا فهو جزء من أجزاء الأم ، فذكاتها ذكاة لجميع أجزائها ، وهذا هو الذى أشار إليه صاحب الشرع بقوله : « ذكاته ذكاة أمه » ، كما تكون ذكاتها ذكاة سائر أجزائها ، فلو لم تأت عنه السنة الصريحة بأكله ، لكان القياس الصحيح يقتضى حله .

**لحم القديد :**

فى « السنن » من حديث ثوبان رضي الله عنه قال : ذبحت لرسول الله ﷺ شاة ونحن مسافرون ، فقال : « أصلح لحمها » فلم أزل أطعمه منه إلى المدينة (٤) .

**القديد** : أنفع من النمكسود ، ويقوى الأبدان، ويحدث حكة ، ودفع ضرره بالأبازير الباردة الرطبة، ويصلح الأمزجة الحارة والنمكسود : حار يابس مجفف ، جيده من السمين

---

(١) البخارى (٥٤٩٠) فى الذبائح والصيد ، باب : ما جاء فى التصيد ، ومسلم (١١٩٦ / ٥٧) فى الحج ، باب : تحريم الصيد للمحرم .

(٢) ابن ماجه (٣١٩١) فى الذبائح ، باب : لحوم الخيل .

(٣) أبو داود (٢٨٢٧) فى الضحايا ، باب : ما جاء فى ذكاة الجنين .

(٤) أبو داود (٢٨١٤) فى الضحايا ، باب: فى المسافر يضحى ،والحديث رواه مسلم (١٩٧٥ / ٣٥) فى الأضاحى ، باب : بيان ما كان من النهى عن أكل لحوم الأضاحى .

الرطب ، يضر بالقولنج ، ودفع مضرته طبخه باللبن والدهن ، ويصلح للمزاج الحار الرطب .

**لحوم الطير :**

قال الله تعالى : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [ الواقعة ] .

وفى « مسند البزار » وغيره مرفوعًا : « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه ، فيخر مشويًا بين يديك » (١) .

ومنه حلال ، ومنه حرام ، فالحرام ذو المخلب ؛ كالصقر والبازى والشاهين ، وما يأكل الجيف؛ كالنسر والرخم واللقلق ، والعقعق ، والغراب الأبقع والأسود الكبير ، وما نهى عن قتله كالهدهد والصرد ، وما أمر بقتله كالحدأة والغراب .

والحلال أصناف كثيرة ، فمنه :

**الدجاج** : ففى « الصحيحين » من حديث أبى موسى ، أن النبى ﷺ أكل لحم الدجاج (٢) .

وهو حار رطب فى الأولى ، خفيف على المعدة ، سريع الهضم ، جيد الخلط ، يزيد فى الدماغ والمنى ، ويصفى الصوت ، ويحسن اللون ، ويقوى العقل ، ويولد دمًا جيدًا ، وهو مائل إلى الرطوبة ، ويقال : إن مداومة أكله تورث النقرس ، ولا يثبت ذلك .

ولحم الديك أسخن مزاجًا ، وأقل رطوبة ، والعتيق منه دواء ينفع القولنج والربو والرياح الغليظة إذا طبخ بماء القرطم والشبت ، وخصيها محمود الغذاء ، سريع الانهضام ، والفراريج سريعة الهضم ، ملينة للطبع ، والدم المتولد منها دم لطيف جيد .

**لحم الدراج** : حار يابس فى الثانية ، خفيف لطيف ، سريع الانهضام ، مولد للدم المعتدل ، والإكثار منه يحد البصر .

**لحم الحجل** : يولد الدم الجيد ، سريع الانهضام .

**لحم الإوز** : حار يابس ردىء الغذاء إذا اعتيد ، وليس بكثير الفضول .

**لحم البط** : حار رطب ، كير الفضول ، عسر الانهضام ، غير موافق للمعدة .

**لحم الحبارى**: فى «السنن » من حديث بريه بن عمر بن سفينة ،عن أبيه ،عن جده رضي الله عنه

---

(١) مسند البزار (٣٥٣٢) ،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤١٧):« فيه حميد بن عطاء الأعرج ، وهو ضعيف » .

(٢) البخارى (٥٥١٨) فى الذبائح والصيد ، باب : لحم الدجاج ، ومسلم (١٦٤٩/٩) فى الأيمان ، باب : ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها أن يأتى الذى هو خير ويكفِّر عن يمينه .

قال : أكلت مع رسول الله ﷺ لحم حبارى (١) .

وهو حار يابس ، عسر الانهضام ، نافع لأصحاب الرياضة والتعب .

**لحم الكركى** : يابس خفيف ، وفى حره وبرده خلاف ، يولد دمًا سوداويًا ، ويصلح لأصحاب الكد والتعب ، وينبغى أن يترك بعد ذبحه يومًا أو يومين ، ثم يؤكل .

**لحم العصافير والقنابر** : روى النسائى فى « سننه » من حديث عبد الله بن عمرو ﵁ ، أن النبى ﷺ قال : « ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقه بغير حقه إلا سأله الله عز وجل عنها » ، قيل : يا رسول الله ، وما حقه ؟ قال : « تذبحه فتأكله ، ولا تقطع رأسه وترمى به » (٢).

وفى « سننه » أيضًا : عن عمرو بن الشريد ، عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قتل عصفوراً عبثًا ، عج إلى الله يقول : يا رب إن فلانا قتلنى عبثًا ، ولم يقتلنى لمنفعة » (٣) .

ولحمه حار يابس ، عاقل للطبيعة ، يزيد فى الباه ، ومرقه يلين الطبع ، وينفع المفاصل، وإذا أكلت أدمغتها بالزنجبيل والبصل هيجت شهوة الجماع، وخلطها غير محمود .

**لحم الحمام** : حار رطب ، وحشيه أقل رطوبة ، وفراخه أرطب خاصية ، وما ربى فى الدور وناهضه أخف لحمًا ، وأحمد غذاء ، ولحم ذكورها شفاء من الاسترخاء ، والخدر والسكتة والرعشة ، وكذلك شم رائحة أنفاسها ، وأكل فراخها معين على النساء ، وهو جيد للكلى ، يزيد فى الدم ، وقد روى فيها حديث باطل لا أصل له عن رسول الله ﷺ : أن رجلا شكى إليه الوحدة ، فقال : « اتخذ زوجًا من الحمام » ، وأجود من هذا الحديث أنه ﷺ رأى رجلا يتبع حمامة ، فقال : « شيطان يتبع شيطانة » (٤) .

وكان عثمان بن عفان ﵁ فى خطبته يأمر بقتل الكلاب وذبح الحمام .

**لحم القطا** : يابس ، يولد السوداء ، ويحبس الطبع ، وهو من شر الغذاء ، إلا أنه ينفع من الاستسقاء .

**لحم السمانى** : حار يابس ينفع المفاصل ، ويضر بالكبد الحار، ودفع مضرته بالخل

---

(١) أبو داود (٣٧٩٧) فى الأطعمة ، باب : فى أكل لحم الحبارى ، وضعفه الألبانى .

(٢) النسائى (٤٣٤٩) فى الصيد ، باب : إباحة أكل العصافير ، وضعفه الألبانى .

(٣) النسائى (٤٤٦) فى الصيد ، باب : من قتل عصفوراً بغير حقها .

(٤) أبو داود (٤٩٤٠) فى الأدب ، باب : فى اللعب بالحمام .

والكسفرة ، وينبغى أن يجتنب من لحوم الطير ما كان من الآجام والمواضع العفنة ، ولحوم الطير كلها أسرع انهضامًا من المواشى ، وأسرعها انهضامًا أقلها غذاء ، وهى الرقاب والأجنحة ، وأدمغتها أحمد من أدمغة المواشى .

**الجراد :**

فى « الصحيحين » عن عبد الله بن أبى أوفى قال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد [1] .

وفى « المسند » عنه : « أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد ، والكبد والطحال » يروى مرفوعًا وموقوفًا على ابن عمر رضي الله عنه [2] .

وهو حار يابس، قليل الغذاء ،وإدامة أكله تورث الهزال ، وإذا تبخر به نفع من تقطير البول وعسره ، وخصوصًا للنساء ، ويتبخر به للبواسير ، وسمانه يشوى ويؤكل للسع العقرب ، وهو ضار لأصحاب الصرع ، ردىء الخلط ، وفى إباحة ميتته بلا سبب قولان ، فالجمهور على حله،وحرمه مالك ، ولا خلاف فى إباحة ميتته إذا مات بسبب ؛ كالكبس ، والتحريق ونحوه .

وينبغى ألا يداوم على أكل اللحم،فإنه يورث الأمراض الدموية والامتلائية، والحميات الحادة ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إياكم واللحم ، فإن له ضراوة كضراوة الخمر . ذكره مالك فى « الموطأ» عنه [3] ، وقال أبقراط : لا تجعلوا أجوافكم مقبرة للحيوان .

**اللبن :**

قال الله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ** (٦٦) ﴾ [ النحل ] ،وقال فى الجنة: ﴿ **فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ** ﴾ [ محمد : ١٥] . وفى « السنن » مرفوعًا: « من أطعمه الله طعامًا فليقل : اللهم بارك لنا فيه وارزقنا خيرًا منه ،ومن سقاه الله لبناً فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ؛ فإنى لا أعلم ما يجزئ من الطعام والشراب إلا اللبن » [4] .

---

(١) البخارى (٥٤٩٥) فى الذبائح والصيد ، باب : أكل الجراد ، ومسلم (١٩٥٢/ ٥٢) فى الصيد والذبائح ، باب : إباحة الجراد .

(٢) أحمد (٢ / ٩٧) ، وابن ماجه (٣٣١٤) فى الأطعمة ، باب : الكبد والطحال .

(٣) مالك فى الموطأ (٢ / ٩٣٥) (٣٦) فى صفة النبى ﷺ ، باب : ما جاء فى أكل اللحم .

(٤) أبو داود (٣٧٣٠) فى الأشربة ، باب : ما يقول إذا شرب اللبن ، وابن ماجه (٣٣٢٢) فى الأطعمة ، باب : اللبن .

اللبن وإن كان بسيطًا فى الحس، إلا أنه مركب فى أصل الخلقة تركيبًا طبيعيًا من جواهر ثلاثة : الجبنية ، والسمنية ، والمائية ، فالجبنية : باردة رطبة ، مغذية للبدن ، والسمنية : معتدلة الحرارة والرطوبة ملائمة للبدن الإنسانى الصحيح ، كثيرة المنافع ، والمائية : حارة رطبة ، مطلقة للطبيعة ، مرطبة للبدن ، واللبن على الإطلاق أبرد وأرطب من المعتدل ، وقيل : قوته عند حلبه الحرارة والرطوبة ، وقيل : معتدل فى الحرارة والبرودة .

وأجود ما يكن اللبن حين يحلب ، ثم لا يزال تنقص جودته على ممر الساعات ، فيكون حين يحلب أقل برودة ، وأكثر رطوبة ، والحامض بالعكس ، يختار اللبن بعد الولادة بأربعين يومًا، وأجوده ما اشتد بياضه ، وطاب ريحه ، ولذ طعمه ، وكان فيه حلاوة يسيرة ، ودسومة معتدلة ، واعتدل قوامه فى الرقة والغلظ ، وحُلِبَ من حيوان فتى صحيح ، معتدل اللحم ، محمود المرعى والمشرب .

وهو محمود يولد دمًا جيدًا ، ويرطب البدن اليابس ، ويغذو غذاء حسنًا ، وينفع من الوسواس والغم والأمراض السوداوية ، وإذا شرب مع العسل نقى القروح الباطنة من الأخلاط العفنة،وشربه مع السكر يحسن اللون جدًا،والحليب يتدارك ضرر الجماع، ويوافق الصدر والرئة ، جيد لأصحاب السل ،ردىء للرأس والمعدة ، والكبد والطحال ، والإكثار منه مضر بالأسنان واللثة ؛ ولذلك ينبغى أن يتمضمض بعده بالماء ، وفى « الصحيحين » : أن النبى ﷺ شرب لبنًا ، ثم دعا بماء فتمضمض وقال : « إن له دسمًا » (١) .

وهو ردىء للمحمومين ، وأصحاب الصداع ، ومؤذ للدماغ ، والرأس الضعيف ، والمداومة عليه تحدث ظلمة البصر والغشاء ، ووجع المفاصل ، وسدة الكبد ، والنفخ فى المعدة والأحشاء ، وإصلاحه بالعسل والزنجبيل المربى ونحوه ، وهذا كله لمن لم يعتده .

**لبن الضأن** : أغلظ الألبان وأرطبها ، وفيه من الدسومة والزهومة ما ليس فى لبن الماعز والبقر ، يولد فضولاً بلغميًا ، ويحدث فى الجلد بياضًا إذا أدمن استعماله ؛ ولذلك ينبغى أن يشاب هذا اللبن بالماء ليكون ما نال البدن منه أقل ، وتسكينه للعطش أسرع ، وتبريده أكثر .

**لبن المعز** : لطيف معتدل ، مطلق للبطن ، مرطب للبدن اليابس ، نافع من قروح الحلق ، والسعال اليابس ، ونفث الدم .

واللبن المطلق أنفع المشروبات للبدن الإنسانى؛ لما اجتمع فيه من التغذية والدموية ،

(١) البخارى (٢١١) فى الوضوء ، باب : هل يمضمض من اللبن ؟ ومسلم (٣٥٨ / ٩٥) فى الحيض، باب : نسخ الوضوء مما مست النار .

ولاعتياده حال الطفولية ، وموافقته للفطرة الأصلية ، وفى « الصحيحين » : أن رسول الله ﷺ أتى ليلة أسرى به بقدح من خمر ، وقدح من لبن ، فنظر إليهما ، ثم أخذ اللبن ، فقال جبريل : الحمد لله الذى هداك للفطرة ، لو أخذت الخمر ، غوت أمتك » (١) ، والحامض منه بطىء الاستمراء ، خام الخلط ، والمعدة الحارة تهضمه وتنتفع به .

**لبن البقر** : يغذو البدن ويخصبه ، ويطلق البطن باعتدال ، وهو من أعدل الألبان وأفضلها وبين لبن الضأن ولبن المعز فى الرقة والغلظ والدسم ، وفى السنن من حديث عبد الله بن مسعود يرفعه : « عليكم بألبان البقر ، فإنها تَرُمُّ من كل الشجر » (٢) .

**لبن الإبل** : تقدم ذكره فى أول الفصل ، وذكره منافعه ، فلا حاجة لإعادته .

**لبان :**

هو الكندر ، قد ورد فيه عن النبى ﷺ : « بخروا بيوتكم باللبان والصعتر » ، ولا يصح عنه ، ولكن يروى عن علىٍّ أنه قال لرجل شكا إليه النسيان : عليك باللبان ، فإنه يشجع القلب ، ويذهب بالنسيان ، ويذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن شربه مع السكر على الريق جيد للبول والنسيان ، ويذكر عن أنس رضي الله عنه أنه شكا إليه رجلٌ النسيانَ ، فقال : عليك بالكندر وانقعه من الليل ، فإذا أصبحت فخذ منه شربة على الريق ، فإنه جيد للنسيان.

ولهذا سبب طبيعى ظاهر ، فإن النسيان إذا كان لسوء مزاج بارد رطب يغلب على الدماغ فلا يحفظ ما ينطبع فيه ، نفع منه اللبان ، وأما إذا كان النسيان لغلبة شىء عارض أمكن زواله سريعًا بالمرطبات . والفرق بينهما أن اليبوسى يتبعه سهر ، وحفظ الأمور الماضية دون الحالية ، والرطوبى بالعكس .

وقد يحدث النسيان أشياء بالخاصية ، كحجامة نقرة القفا ، وإدمان أكل الكسفرة الرطبة ، والتفاح الحامض ، وكثرة الهم والغم ، والنظر فى الماء الواقف والبول فيه ، والنظر إلى المصلوب ، والإكثار من قراءة ألواح القبور ، والمشى بين جملين مقطورين ، وإلقاء القمل فى الحياض ، وأكل سؤر الفأر ، وأكثر هذا معروف بالتجربة .

والمقصود: أن اللبان مسخن فى الدرجة الثانية، ومجفف فى الأولى ، وفيه قبض يسير،

---

(١) البخارى (٥٥٧٦) فى الأشربة ، باب : قوله تعالى : ﴿ إنما الخمر والميسر ... ﴾ ، ومسلم (١٦٨ / ٩٢) فى الأشربة ، باب : جواز شرب اللبن .

(٢) أحمد (٤ / ٣١٥) ، والحاكم فى المستدرك (١٩٧١٤) .

وهو كثير المنافع ، قليل المضار، فمن منافعه : أن ينفع من قذف الدم ونزفه ، ووجع المعدة ، واستطلاق البطن ، ويهضم الطعام ، ويطرد الرياح ، ويجلو قروح العين ، وينبت اللحم فى سائر القروح ، ويقوى المعدة الضعيفة ويسخنها ، ويجفف البلغم ، وينشف رطوبات الصدر ، ويجلو ظلمة البصر ، ويمنع القروح الخبيثة من الانتشار ، وإذا مضغ وحده ، أو مع الصعتر الفارسى جلب البلغم ، ونفع من اعتقال اللسان ، ويزيد فى الذهن ويذكيه ، وإن بخر به ماء ، نفع من الوباء ، وطيب رائحة الهواء [1] .

---

(١) زاد المعاد ( ٤ / ٣٧١ ـ ٣٨٨ ) .

## ( حرف الميم )

**ماء :**

مادة الحياة ، وسيد الشراب، وأحد أركان العالم ، بل ركنه الأصلى ، فإن السماوات خلقت من بخاره ، والأرض من زبده ، وقد جعل الله منه كل شيء حي .

وقد اختلف فيه : هل يغذو ، أو ينفذ الغذاء فقط ؟ على قولين ، وقد تقدما ، وذكرنا القول الراجح ودليله .

وهو بارد رطب ، يقمع الحرارة ، ويحفظ على البدن رطوباته ، ويرد عليه بدل ما تحلل منه ، ويرقق الغذاء ، وينفذه في العروق .

وتعتبر جودة الماء من عشرة طرق :

**أحدها** : من لونه ، بأن يكون صافيًا .

**الثاني** : من رائحته ، بألا تكون له رائحة البتة .

**الثالث** : من طعمه ، بأن يكون عذب الطعم حلوه ، كماء النيل والفرات .

**الرابع** : من وزنه ، بأن يكون خفيفًا رقيق القوام .

**الخامس** : من مجراه ، بأن يكون طيب المجرى والمسلك .

**السادس** : من منبعه ، بأن يكون بعيد المنبع .

**السابع** : من بروزه للشمس والريح ، بألا يكون مختفيًا تحت الأرض فلا تتمكن الشمس والريح من قصارته .

**الثامن** : من حركته ، بأن يكون سريع الجرى والحركة .

**التاسع** : من كثرته ، بأن يكون له كثرة يدفع الفضلات المخالطة له .

**العاشر** : من مصبه ، بأن يكون آخذًا من الشمال إلى الجنوب ، أو من المغرب إلى المشرق .

وإذا اعتبرت هذه الأوصاف ، لم تجدها بكمالها إلا فى الأنهار الأربعة : النيل ، والفرات ، وسيحون ، وجيحون .

وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « سيحان ،

وجيحان ، والنيل ، والفرات ، كل من أنهار الجنة » (١) .

وتعتبر خفة الماء من ثلاثة أوجه ، أحدها : سرعة قبوله للحر والبرد ، قال أبقراط : الماء الذى يسخن سريعًا ، ويبرد سريعًا أخف المياه ، الثانى : بالميزان ، الثالث : أن تبل قطنتان متساويتا الوزن بماءين مختلفين ، ثم يجففا بالغًا ، ثم توزنا ، فأيتهما كانت أخف فماؤها كذلك .

والماء وإن كان فى الأصل باردًا رطبًا ، فإن قوته تنتقل وتتغير لأسباب عارضة توجب انتقالها ، فإن الماء المكشوف للشمال المستور عن الجهات الأخر يكون باردًا ، وفيه يبس مكتسب من ريح الشمال ، وكذلك الحكم على سائر الجهات الأخر .

والماء الذى ينبع من المعادن يكون على طبيعة ذلك المعدن، ويؤثر فى البدن تأثيره ، والماء العذب نافع للمرضى والأصحاء، والبارد منه أنفع وألذ، ولا ينبغى شربه على الريق ، ولا عقيب الجماع ، ولا الانتباه من النوم ، ولا عقيب الحمام ، ولا عقيب أكل الفاكهة ، وقد تقدم ، وأما على الطعام فلا بأس به إذا اضطر إليه ، بل يتعين ولا يكثر منه ، بل يتمصصه مصًا ، فإنه لا يضره البتة ، بل يقوى المعدة ، وينهض الشهوة ، ويزيل العطش .

والماء الفاتر ينفخ ويفعل ضد ما ذكرناه ، وبائته أجود من طريه وقد تقدم، والبارد ينفع من داخل أكثر من نفعه من خارج، والحار بالعكس، وينفع البارد من عفونة الدم، وصعود الأبخرة إلى الرأس،ويدفع العفونات، ويوافق الأمزجة والأسنان والأزمان والأماكن الحارة، ويضر على كل حالة تحتاج إلى نضج وتحليل ، كالزكام والأورام ، والشديد البرودة منه يؤذى الأسنان ، والإدمان عليه يحدث انفجار الدم والنزلات وأوجاع الصدر .

والبارد والحار بإفراط ضاران للعصب ولأكثر الأعضاء ؛ لأن أحدها محلل ، والآخر مكثف ، والماء الحار يسكن لذع الأخلاط الحادة ، ويحلل وينضج ، ويخرج الفضول ، ويرطب ويسخن ، ويفسد الهضم شربه ، ويطفو بالطعام إلى أعلى المعدة ويرخيها ، ولا يسرع فى تسكين العطش ، ويذبل البدن ، ويؤدى إلى أمراض رديئة ، ويضر فى أكثر الأمراض ، على أنه صالح للشيوخ ، وأصحاب الصرع ، والصداع البارد ، والرمد ، وأنفع ما استعمل من خارج .

ولا يصح فى الماء المسخن بالشمس حديث ولا أثر، ولا كرهه أحد من قدماء الأطباء ، ولا عابوه ، والشديد السخونة يذيب شحم الكلى ، وقد تقدم الكلام على ماء الأمطار فى

---

(١) مسلم (٢٨٣٩ / ٢٦) فى الجنة وصفة نعيمها ، باب : ما جاء فى الدنيا من أنهار الجنة ، ولم يعزه صاحب التحفة (٩/ ٤٣٤) إلا لمسلم ، وقد وهم المصنف فى عزوه للبخارى .

حرف العين .

**ماء الثلج والبرد :**

ثبت فى « الصحيحين » عن النبى ﷺ أنه كان يدعو فى الاستفتاح وغيره : « اللهم اغسلنى من خطاياى بماء الثلج والبرد » (١) .

الثلج له فى نفسه كيفية حادة دخانية ، فماؤه كذلك ، وقد تقدم وجه الحكمة فى طلب الغسل من الخطايا بمائه لما يحتاج إليه القلب من التبريد والتصليب والتقوية ، ويستفاد من هذا أصل طب الأبدان والقلوب ، ومعالجة أدوائها بضدها .

وماء البرد ألطف وألذ من ماء الثلج ، وأما ماء الجمد وهو الجليد ، فبحسب أصله .

والثلج يكتسب كيفية الجبال والأرض التى يسقط عليها فى الجودة والرداءة ، وينبغى تجنب شرب الماء المثلوج عقيب الحمام والجماع والرياضة والطعام الحار، ولأصحاب السعال، ووجع الصدر ، وضعف الكبد ، وأصحاب الأمزجة الباردة .

**ماء الآبار والقنى :**

مياه الآبار قليلة اللطافة ، وماء القنى المدفونة تحت الأرض ثقيل ؛ لأن أحدهما محتقن لا يخلو عن تعفن ، والآخر محجوب عن الهواء، وينبغى ألا يشرب على الفور حتى يصمد للهواء ، وتأتى عليه ليلة، وأردؤه ما كانت مجاريه من رصاص ، أو كانت بئره معطلة ، ولا سيما إذا كانت تربتها رديئة ، فهذا الماء وبىء وخيم .

**ماء زمزم :**

سيد المياه وأشرفها وأجلها قدرًا ، وأحبها إلى النفوس وأغلاها ثمنًا ، وأنفسها عند الناس ، وهو هزمة جبريل وسقيا الله إسماعيل (٢).

وثبت فى « الصحيح » عن النبى ﷺ،أنه قال لأبى ذر وقد أقام بين الكعبة وأستارها أربعين ما بين يوم وليلة،ليس له طعام غيره؛ فقال النبى ﷺ : « إنها طعام طعم » (٣) وزاد غير مسلم بإسناده : « وشفاء سقم » (٤) .

---

(١) البخارى (٧٧٤) فى الأذان ، باب:ما يقول بعد التكبير ، ومسلم (٥٩٨ / ١٤٧) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة .

(٢) الدارقطنى (٢ / ٢٨٩) (٢٣٨) ، والحاكم فى المستدرك (١ / ٤٧٣) وقال : « صحيح الإسناد إن سلم من الجارودى ولم يخرجاه ووافقه الذهبى » .

(٣) مسلم (٢٤٧٣) / ١٣٢) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل أبى ذر .

(٤) البيهقى فى الكبرى (١٤٨١٥) ، والهيثمى فى المجمع (٣ / ٢٨٩) وقال : « رواه البزار والطبرانى فى الصغير ، ورجال البزار رجال الصحيح » .

وفى « سنن ابن ماجه » من حديث جابر بن عبد الله، عن النبى ﷺ أنه قال : « ماء زمزم لما شرب له » (١)، وقد ضعف هذا الحديث طائفة بعبد الله بن المؤمل راويه عن محمد ابن المنكدر ، وقد روينا عن عبد الله بن المبارك ، أنه لما حج أتى زمزم ، فقال : اللهم إن ابن أبى الموالى حدثنا عن محمد بن المنكدر ، عن جابر رضي الله عنه ، عن نبيك ﷺ أنه قال : « ماء زمزم لما شرب له » ، وإنى أشربه لظمأ يوم القيامة . وابن أبى الموالى ثقة ، فالحديث إذا حسنٌ ، وقد صححه بعضه ، وجعله بعضه موضوعًا ، وكلا القولين فيه مجازفة .

وقد جربت أنا وغيرى من الاستشفاء بماء زمزم أمورًا عجيبة ، واستشفيت به من عدة أمراض فبرأت بإذن الله، وشاهدت من يتغذى به الأيام ذوات العدد قريبًا من نصف الشهر، أو أكثر ، ولا يجد جوعًا ، ويطوف مع الناس كأحدهم ، وأخبرنى أنه ربما بقى عليه أربعين يومًا وكان له قوة يجامع بها أهله ، ويصوم ويطوف مرارًا .

**ماء النيل :**

أحد أنهار الجنة ، أصله من وراء جبال القمر فى أقصى بلاد الحبشة ، من أمطار تجتمع هناك ، وسيول يمد بعضها بعضًا ، فيسوقه الله تعالى إلى الأرض الجرز التى لا نبات لها ، فيخرج به زرعًا، تأكل منه الأنعام والأنام ، ولما كانت الأرض التى يسوقه إليها إبليزًا صلبة ، إن أمطرت مطر العادة لم ترو ، ولم تتهيأ للنبات ، وإن أمطرت فوق العادة ضرت المساكن والساكن ، وعطلت المعايش والمصالح ، فأمطر البلاد البعيدة ، ثم ساق تلك الأمطار إلى هذه الأرض فى نهر عظيم ، وجعل سبحانه زيادته فى أوقات معلومة على قدر رى البلاد وكفايتها ، فإذا أروى البلاد وعمها ، أذن ـ سبحانه ـ بتناقصه وهبوطه لتتم المصلحة بالتمكن من الزرع ، واجتمع فى هذا الماء الأمور العشرة التى تقدم ذكرها ، وكان من ألطف المياه وأخفها وأعذبها وأحلاها .

**ماء البحر :**

ثبت عن النبى ﷺ أنه قال فى البحر : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » (٢) ، وقد جعله الله سبحانه ملحًا أجاجًا ، مرًا زعاقًا ، لتمام مصالح من هو على وجه الأرض من الآدميين والبهائم ، فإنه دائم راكد كثير الحيوان ، وهو يموت فيه كثيرًا ولا يقبر ، فلو كان

---

(١) ابن ماجه (٣٠٦٢) فى المناسك ، باب : الشرب من زمزم ، وفى الزوائد : « إسناده ضعيف ؛لضعف عبد الله ابن المؤمل ، وقد أخرجه الحاكم فى المستدرك من طريق ابن عباس ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد » .

(٢) أبو داود (٨٣) فى الطهارة ، باب : الوضوء بماء البحر ، والترمذى (٦٩) فى الطهارة ، باب : ما جاء فى ماء البحر أنه طهور ، وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى (٥٩) فى الطهارة ، باب : ماء البحر ، وابن ماجه (٣٨٦) فى الطهارة ، باب : الوضوء بماء البحر .

حلوًا لأنتن من إقامته وموت حيواناته فيه وأجاف ، وكان الهواء المحيط بالعالم يكتسب منه ذلك ، وينتن ويجيف ، فيفسد العالم ، فاقتضت حكمة الرب سبحانه وتعالى أن جعله كالملاحة التى لو ألقى فيه جيف العالم كلها وأنتانه وأمواته لم تغيره شيئًا ، ولا يتغير على مكثه من حين خلق،وإلى أن يطوى الله العالم ، فهذا هو السبب الغائى الموجب لملوحته ، وأما الفاعلى ، فكون أرضه سبخة مالحة .

وبعد ، فالاغتسال به نافع من آفات عديدة فى ظاهر الجلد ، وشربه مضر بداخله وخارجه، فإنه يطلق البطن ، ويهزل ، ويحدث حكة وجربًا ، ونفخًا وعطشًا ، ومن اضطر إلى شربه فله طرق من العلاج يدفع بها مضرته .

منها : أن يجعل فى قدر ، ويجعل فوق القدر قصبات وعليها صوف جديد منفوش ، ويوقد تحت القدر حتى يرتفع بخارها إلى الصوف، فإذا كثر عصره ، ولا يزال يفعل ذلك حتى يجتمع له ما يريد،فيحصل فى الصوف من البخار ما عذب ، ويبقى فى القدر الزعاق.

ومنها : أن يحفر على شاطئه حفرة واسعة يرشح ماؤه إليها ،ثم إلى جانبها قريبًا منها أخرى ترشح هى إليها ، ثم ثالثة إلى أن يعذب الماء ، وإذا ألجأته الضرورة إلى شرب الماء الكدر فعلاجه أن يلقى فيه نوى المشمش ، أو قطعة من خشب الساج ، أو جمرًا متلهبًا يطفأ فيه ، أو طينًا أرمنيًا ، أو سويق حنطة ، فإن كدرته ترسب إلى أسفل .

**مسك :**

ثبت فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى ﷺ ،عن النبى ﷺ أنه قال:« أطيب الطيب المسك » (١) .

وفى « الصحيحين » عن عائشة ﷺ : كنت أطيب النبى ﷺ قبل أن يحرم ويوم النحر قبل أن يطوف بالبيت بطيب فيه مسك (٢) .

**المسك** : ملك أنواع الطيب ، وأشرفها وأطيبها ، وهو الذى تضرب به الأمثال ، ويشبه به غيره ، ولا يشبه بغيره ، وهو كثبان الجنة ، وهو حار يابس فى الثانية ، يسر النفس ويقويها ، ويقوى الأعضاء الباطنة جميعها شربًا وشمًا ، والظاهرة إذا وضع عليها . نافع للمشايخ والمبرودين ، لا سيما زمن الشتاء ، جيد للغشى والخفقان ، وضعف القوة

---

(١) مسلم (٢٢٥٢ / ١٩) فى الألفاظ ، باب : استعمال المسك وأنه أطيب الطيب .

(٢) البخارى (١٥٣٩) فى الحج ، باب : الطيب عند الإحرام ، ومسلم (١١٧٩ / ٣٣) فى الحج ، باب : الطيب للمحرم عند الإحرام .

بإنعاشه للحرارة الغريزية ، ويجلو بياض العين ، وينشف رطوبتها ، ويفش الرياح منها ومن جميع الأعضاء ، ويبطل عمل السموم ، وينفع من نهش الأفاعى ، ومنافعه كثيرة جدًا ، وهو من أقوى المفرحات .

**مرزنجوش** : ورد فيه حديث لا نعلم صحته : « عليك بالمرزنجوش فإنه جيد للخشام » (١) ، والخشام : الزكام .

وهو حار فى الثالثة يابس فى الثانية ، ينفع شمه من الصداع البارد ، والكائن عن البلغم،والسوداء، والزكام ، والرياح الغليظة ، ويفتح السدد الحادثة فى الرأس والمنخرين ، ويحل أكثر الأورام الباردة ،فينفع من أكثر الأورام والأوجاع الباردة الرطبة ، وإذا احتمل ، أدر الطمث ، وأعان على الحبل ، وإذا دق ورقه اليابس وكمد به ، أذهب آثار الدم العارض تحت العين ، وإذا ضمد به مع الخل نفع لسعة العقرب .

ودهنه نافع لوجع الظهر والركبتين، ويذهب بالإعياء ، ومن أدمن شمه لم ينزل فى عينيه الماء ، وإذا استعط بمائه مع دهن اللوز المر ، نفع سدد المنخرين ، ونفع من الريح العارضة فيها ، وفى الرأس .

**ملح :**

روى ابن ماجه فى « سننه » من حديث أنس يرفعه : « سيد إدامكم الملح » (٢) ، وسيد الشىء : هو الذى يصلحه ويقوم عليه،وغالب الإدام إنما يصلح بالملح ،وفى « مسند البزار » مرفوعًا : « سيوشك أن تكونوا فى الناس مثل الملح فى الطعام ، ولا يصلح الطعام إلا بالملح » (٣) .

وذكر البغوى فى « تفسيره » عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا : « إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض : الحديد ،والنار ، والماء ، والملح » ، والموقوف أشبه .

الملح يصلح أجسام الناس وأطعمتهم،ويصلح كل شىء يخالطه حتى الذهب والفضة ، وذلك أن فيه قوة تزيد الذهب صفرة ، والفضة بياضًا ، وفيه جلاء وتحليل ، وإذهاب للرطوبات الغليظة ، وتنشيف لها ، وتقوية للأبدان ، ومنع من عفونتها وفسادها ، ونفع

---

(١) كنز العمال (١٧٣٤٥) ، وعزاه لابن السنى ، وأبى نعيم فى الطب .

(٢) ابن ماجه (٣٣١٥) فى الأطعمة ، باب : الملح ، وفى الزوائد : « فى إسناده عيسى بن أبى عيسى الخياط ، قال فى تهذيب التهذيب : متروك » .

(٣) الطبرانى فى الكبير (٧/٢٦٨) (٧٠٩٨)، ومسند البزار (٢٧٧٠)، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢١) : « إسناد الطبرانى حسن » ، وانظره مفصلاً فى السلسلة الضعيفة للألبانى (١٧٦٢) .

من الجرب المتقرح .

وإذا اكتحل به قلع اللحم الزائد من العين ، ومحق الظفرة ، والأندارانى أبلغ فى ذلك، ويمنع القروح الخبيثة من الانتشار ، ويحدر البراز ، وإذا دلك به بطون أصحاب الاستسقاء نفعهم ، وينقى الأسنان،ويدفع عنها العفونة ، ويشد اللثة ويقويها ، ومنافعه كثيرة جداً .

(١) زاد المعاد ( ٤ / ٣٨٨ ـ ٣٩٧ ) .

## ( حرف النون )

**نخل :**

مذكور فى القرآن فى غير موضع ،وفى « الصحيحين » عن ابن عمر ﷺ ، قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ أتى بجمار نخلة ، فقال النبى ﷺ : « إن من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم لا يسقط ورقها ، أخبرونى ما هى ؟ » فوقع الناس فى شجر البوادى ، فوقع فى نفسى أنها النخلة ، فأردت أن أقول : هى النخلة ، ثم نظرت فإذا أنا أصغر القوم سنًا فسكتُّ ، فقال رسول الله ﷺ : « هى النخلة » ، فذكرت ذلك لعمر، فقال : لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا (١) .

ففى هذا الحديث إلقاء العالم المسائل على أصحابه ، وتمرينهم ، واختبار ما عندهم .

وفيه ضرب الأمثال والتشبيه .

وفيه ما كان عليه الصحابة من الحياء من أكابرهم وإجلالهم ، وإمساكهم عن الكلام بين أيديهم .

وفيه فرح الرجل بإصابة ولده ، وتوفيقه للصواب .

وفيه أنه لا يكره للولد أن يجيب بما يعرف بحضرة أبيه ، وإن لم يعرفه الأب ، وليس فى ذلك إساءة أدب عليه .

وفيه ما تضمنه تشبيه المسلم بالنخلة من كثرة خيرها ، ودوام ظلها ، وطيب ثمرها ، ووجوده على الدوام .

وثمرها يؤكل رطبًا ويابسًا ، وبلحًا ويانعًا ، وهو غذاء ودواء وقوت وحلوى ، وشراب وفاكهة ، وجذوعها للبناء والآلات والأوانى، ويتخذ من خوصها الحصر والمكاتل والأوانى والمراوح ، وغير ذلك ، ومن ليفها الحبال والحشايا وغيرها ، ثم آخر شىء نواها علف للإبل ، ويدخل فى الأدوية والأكحال ، ثم جمال ثمرتها ونباتها وحسن هيئتها ، وبهجة منظرها ، وحسن نضد ثمرها ، وصنعته وبهجته ، ومسرة النفوس عند رؤيته ، فرؤيتها مذكرة لفاطرها وخالقها ، وبديع صنعته ، وكمال قدرته ، وتمام حكمته ، ولا شىء أشبه بها من الرجل المؤمن ، إذ هو خير كله ، ونفع ظاهر وباطن .

---

(١) البخارى (٥٤٤٨) فى الأطعمة ، باب : بركة النخلة ، ومسلم (٢٨١١ / ٦٣) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : مثل المؤمن مثل النخلة .

وهى الشجرة التى حن جذعها إلى رسول الله ﷺ لما فارقه شوقًا إلى قربه ، وسماع كلامه ، هى التى نزلت تحتها مريم لما ولدت عيسى عليه السلام ، وقد ورد فى حديث فى إسناده نظر : « أكرموا عمتكم النخلة ، فإنها خلقت من الطين الذى خلق منه آدم » (١) .

وقد اختلف الناس فى تفضيلها على الحبلة أو بالعكس على قولين ، وقد قرن الله بينهما فى كتابه فى غير موضع ، وما أقرب أحدهما من صاحبه ، وإن كان كل واحد منهما فى محل سلطانه ومنبته ، والأرض التى توافقه أفضل وأنفع .

**نرجس :**

فيه حديث لا يصح : « عليكم بشم النرجس ، فإن فى القلب حبة الجنون والجذام والبرص لا يقطعها إلا شم النرجس » (٢) .

وهو حار يابس فى الثانية ، وأصله يدمل القروح الغائرة إلى العصب ، وله قوة غسالة جالية جابذة ، وإذا طبخ وشرب ماؤه أو أكل مسلوقًا ، هيج القىء ، وجذب الرطوبة من قعر المعدة ، وإذا طبخ مع الكرسنة والعسل نقى أوساخ القروح ، وفجر الدبيلات العسرة النضج .

وزهره معتدل الحرارة لطيف ينفع الزكام البارد ، وفيه تحليل قوى ، ويفتح سدد الدماغ والمنخرين ، وينفع من الصداع الرطب والسوداوى ، ويصدع الرؤوس الحارة ، والمحرق منه إذا شق بصله صليبًا ، وغرس ، صار مضاعفًا ، ومن أدمن شمه فى الشتاء أمن من البرسام فى الصيف ، وينفع من أوجاع الرأس الكائنة من البلغم والمرة السوداء ، وفيه من العطرية ما يقوى القلب والدماغ ،وينفع من كثير من أمراضها ، وقال صاحب التيسير : شمه يذهب بصرع الصبيان .

**نورة :**

روى ابن ماجه من حديث أم سلمة رضي الله عنها ، أن النبى ﷺ كان إذا اطلى بدأ بعورته ، فطلاها بالنورة ، وسائرَ جسده ، أهلُه (٣) ، وقد ورد فيها عدة أحاديث هذا أمثلها .

قيل : إن أول من دخل الحمام وصنعت له النورة ؛ سليمان بن داود ، وأصلها :

---

(١) الجامع الصغير (١٤٣٢) وعزاه لابن أبى حاتم وابن السنى وأبى نعيم ، وقال :« ضعيف » ، وأبو يعلى (٤٥٥) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٩٢) : « فيه مسرور بن سعيد التميمى وهو ضعيف » .

(٢) الأحكام النبوية فى الصناعة الطبية للكحال (٢ / ١١٣) ، والطب النبوى للذهبى (٩٢) .

(٣) ابن ماجه (٣٧٥١) فى الأدب ، باب : الاطلاء بالنورة ، وفى الزوائد : « هذا حديث رجاله ثقات ، وهو منقطع ، وحبيب بن أبى ثابت لم يسمع من أم سلمة ، قاله أبو زرعة » .

كلس جزآن، وزرنيخ جزء ، يخلطان بالماء، ويتركان فى الشمس أو الحمام بقدر ما تنضج ، وتشتد زرقته ، ثم يصلى به ، ويجلس ساعة ريثما يعمل ، ولا يمس بماء ، ثم يغسل ، ويطلى مكانها بالحناء لإذهاب ناريتها .

**نبق :**

ذكر أبو نعيم فى كتابه « الطب النبوى » مرفوعًا : « إن آدم لما أهبط إلى الأرض كان أول شى أكل من ثمارها النبق » ،وقد ذكر النبى ﷺ النبق فى الحديث المتفق على صحته : أنه رأى سدرة المنتهى ليلة أسرى به ، وإذا نبقها مثل قلال هجر (١) .

والنبق ثمر شجر السدر يعقل الطبيعة ، وينفع من الإسهال ، ويدبغ المعدة ، ويسكن الصفراء ، ويغذو البدن ، ويشهى الطعام ، ويولد بلغمًا ، وينفع الذرب الصفراوى ، وهو بطىء الهضم ، وسويقه يقوى الحشا ، وهو يصلح الأمزجة الصفراوية ، وتدفع مضرته بالشهد . واختلف فيه ، هل هو رطب أو يابس ؟ على قولين . والصحيح : أن رطبه بارد رطب ، ويابسه بارد يابس (٢) .

---

(١) البخارى (٣٢٠٧) فى بدء الخلق ، باب : ذكر الملائكة ، ومسلم (١٦٤ / ٢٦٤) فى الإيمان ، باب : الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلاة .

(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٣٩٧ ـ ٤٠٠ ) .

# ( حرف الهاء )

**هندبا :**

ورد فيها ثلاثة أحاديث لا تصح عن رسول الله ﷺ ، ولا يثبت مثلها ، بل هى موضوعة أحدها: « كلوا الهندباء ولا تنفضوه؛ فإنه ليس يوم من الأيام إلا وقطرات من الجنة تقطر عليه » ، الثانى : « من أكل الهندباء ثم نام عليها لم يحل فيه سم ولا سحر » ، الثالث : « ما من ورقة من ورق الهندباء إلا وعليها قطرة من الجنة » (١) .

وبعد فهي مستحيلة المزاج ،منقلبة بانقلاب فصول السنة ، فهى فى الشتاء باردة رطبة ، وفى الصيف حارة يابسة ، وفى الربيع والخريف معتدلة ، وفى غالب أحوالها تميل إلى البرودة واليبس ، وهى قابضة مبردة ، جيدة للمعدة ، وإذا طبخت وأكلت بِخَلٍ عقلت البطن وخاصة البرى منها ، فهى أجود للمعدة ، وأشد قبضًا ، وتنفع من ضعفها .

وإذا تضمد بها سلبت الالتهاب العارض فى المعدة ، وتنفع من النقرس ، ومن أورام العين الحارة ، وإذا تضمد بورقها وأصولها نفعت من لسع العقرب ، وهى تقوى المعدة ، وتفتح السدد العارضة فى الكبد ، وتنفع من أوجاعها ؛ حارها وباردها ، وتفتح سدد الطحال والعروق والأحشاء ، وتنقى مجارى الكلى .

وأنفعها للكبد أمرُّها ، وماؤها المعتصر ينفع من اليرقان السددى ، ولا سيما إذا خلط به ماء الرازيانج الرطب ، وإذا دق ورقها ، ووضع على الأورام الحارة بردها وحللها ، ويجلو ما فى المعدة ، ويطفئ حرارة الدم والصفراء ، وأصلح ما أكلت غير مغسولة ولا منفوضة ؛ لأنها متى غسلت أو نفضت فارقتها قوتها، وفيها مع ذلك قوة ترياقية تنفع من جميع السموم .

وإذا اكتحل بمائها نفع من العشا ، ويدخل ورقها فى الترياق، وينفع من لدغ العقرب ، ويقاوم أكثر السموم ،وإذا اعتصر ماؤها ،وصب عليه الزيت ، خلص من الأدوية القتالة ، وإذا اعتصر أصلها ، وشرب ماؤه،نفع من لسع الأفاعى ، ولسع العقرب، ولسع الزنبور ، ولبن أصلها يجلو بياض العين (٢) .

(١) الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة للشوكانى (ص ١٦٥ ، ١٦٦) .
(٢) زاد المعاد ( ٤ / ٤٠٠ ـ ٤٠٢ ) .

## ( حرف الواو )

**ورس :**

ذكر الترمذى فى « جامعه » من حديث زيد بن أرقم ، عن النبى ﷺ ، أنه كان ينعت الزيت والورس من ذات الجنب ، قال قتادة : يلد به ، ويلدُّ من الجانب الذى يشتكيه (١) .

وروى ابن ماجه فى « سننه » من حديث زيد بن أرقم أيضًا ، قال : نعت رسول الله ﷺ من ذات الجنب ورسًا وقسطًا وزيتًا يلد به (٢) .

وصح عن أم سلمة ﵂ قالت : كانت النفساء تقعد بعد نفاسها أربعين يومًا ، وكانت إحدانا تطلى الورس على وجهها من الكلف (٣) .

قال أبو حنيفة اللغوى : الورس يزرع زرعًا ، وليس ببرى ، ولست أعرفه بغير أرض العرب ، ولا من أرض العرب بغير بلاد اليمن .

وقوته فى الحرارة واليبوسة فى أول الدرجة الثانية ، وأجوده الأحمر اللين فى اليد ، القليل النخالة ، ينفع من الكلف والحكة ، والبثور الكائنة فى سطح البدن إذا طلى به ، وله قوة قابضة صابغة ، وإذا شرب نفع من الوضح ، ومقدار الشربة منه وزن درهم .

وهو فى مزاجه ومنافعه قريب من منافع القسط البحرى ، وإذا لطخ به على البهق والحكة والبثور والسفعة نفع منها ، والثوب المصبوغ بالورس يقوى على الباه .

**وسمة :**

هى ورق النيل ، وهى تسود الشعر ، وقد تقدم قريبًا ذكر الخلاف فى جواز الصبغ بالسواد ومن فعله (٤) .

---

(١) الترمذى (٢٠٧٨) فى الطب ، باب : ما جاء فى دواء ذات الجنب ، وقال : « حسن صحيح » .

(٢) ابن ماجه (٣٤٦٧) فى الطب ، باب : دواء ذات الجنب ، وضعفه الألبانى .

(٣) أبو داود (٣١١) فى الطهارة ، باب : ما جاء فى وقت النفساء ، والترمذى (١٣٩) فى الطهارة ، باب : ما جاء فى كم تمكث النفساء ، وقال : « غريب » .

(٤) زاد المعاد ( ٤ / ٤٠٢ ، ٤٠٣ ) .

## ( حرف الياء )

**يقطين :**

وهو الدباء والقرع، وإن كان اليقطين أعم، فإنه في اللغة: كل شجر لا تقوم على ساق ؛ كالبطيخ والقثاء والخيار ، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) ﴾ [ الصافات ] .

فإن قيل : ما لا يقوم على ساق يسمى نجمًا لا شجرًا ، والشجر : ما له ساق . قاله أهل اللغة . فكيف قال : ﴿ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ ؟

فالجواب : أن الشجر إذا أطلق ، كان ما له ساق يقوم عليه ، وإذا قيد بشيء تقيد به ، فالفرق بين المطلق والمقيد في الأسماء باب مهم عظيم النفع في الفهم ، ومراتب اللغة .

واليقطين المذكور في القرآن هو نبات الدباء ، وثمره يسمى الدباء والقرع ، وشجرة اليقطين ، وقد ثبت في « الصحيحين » من حديث أنس بن مالك ، أن خياطًا دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه ، قال أنس رضي الله عنه : فذهبت مع رسول الله ﷺ ، فقرب إليه خبزًا من شعير ، ومرقًا فيه دباء وقديد ، قال أنس : فرأيت رسول الله ﷺ يتتبع الدباء من حوالي الصحفة ، فلم أزل أحب الدباء من ذلك اليوم (١) .

وقال أبو طالوت : دخلت على أنس بن مالك رضي الله عنه وهو يأكل القرع ، ويقول : يا لك من شجرة ما أحبك إلي لحب رسول الله ﷺ إياك .

وفي « الغيلانيات » من حديث هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ : « يا عائشة إذا طبخت قدرًا ، فأكثروا فيها من الدباء ، فإنها تشد قلب الحزين » (٢) .

اليقطين بارد رطب ، يغذو غذاء يسيرًا ، وهو سريع الانحدار ، وإن لم يفسد قبل الهضم ، تولد منه خلط محمود ، ومن خاصيته أنه يتولد منه خلط محمود مجانس لما يصحبه ، فإن أكل بالخردل تولد منه خلط حريف ، وبالملح خلط مالح ، ومع القابض قابض ، وإن طبخ بالسفرجل غذا البدن جيدًا .

وهو لطيف مائي يغذو غذاء رطبًا بلغميًا ، وينفع المحرورين ، ولا يلائم المبرودين ،

---

(١) البخاري (٥٤٣٦) في الأطعمة ، باب المرق ، ومسلم (٢٠٤١ / ١٤٤) في الأشربة ، باب : جواز أكل المرق واستحباب أكل اليقطين .

(٢) الأحكام النبوية في الصناعة الطبية للكحال (٢ / ٨١) .

ومن الغالب عليه البلغم ، وماؤه يقطع العطش ، ويذهب الصداع الحار إذا شرب أو غسل به الرأس ، وهو ملين للبطن كيف استعمل ، ولا يتداوى المحرورون بمثله ، ولا أعجل منه نفعًا .

ومن منافعه : أنه إذا لطخ بعجين ، وشوى فى الفرن أو التنور ، واستخرج ماؤه وشرب ببعض الأشربة اللطيفة ، سكن حرارة الحمى الملتهبة ، وقطع العطش ، وغذى غذاء حسنًا ، وإذا شرب بترنجبين وسفرجل مربى أسهل صفراء محضة .

وإذا طبخ القرع ، وشرب ماؤه بشىء من عسل ، وشىء من نطرون ، أحدر بلغمًا ومرة معًا ، وإذا دق وعمل منه ضماد على اليافوخ نفع من الأورام الحارة فى الدماغ .

وإذا عصرت جرادته ، وخلط ماؤها بدهن الورد ، وقطر منها فى الأذن ، نفعت من الأورام الحارة ، وجرادته نافعة من أورام العين الحارة ، ومن النقرس الحار ، وهو شديد النفع لأصحاب الأمزجة الحارة والمحمومين ، ومتى صادف فى المعدة خلطًا رديئًا استحال إلى طبيعته وفسد ، وولد فى البدن خلطًا رديئًا ، ودفع مضرته بالخل والمرى .

وبالجملة فهو من ألطف الأغذية ، وأسرعها انفعالاً ، ويذكر عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يكثر من أكله (١) .

## فصل
## فى المحاذر والوصايا الكلية النافعة للبدن

وقد رأيت أن أختم الكلام فى هذا الباب بفصل مختصر عظيم النفع فى المحاذر ، والوصايا الكلية النافعة ،ورأيت لابن ماسويه فصلاً فى كتاب « المحاذير » نقلته بلفظه،قال :

من أكل البصل أربعين يومًا وكلف ، فلا يلومن إلا نفسه .

ومن افتصد ، فأكل مالحًا فأصابه بهق أو جرب ، فلا يلومن إلا نفسه .

ومن جمع فى معدته البيض والسمك ، فأصابه فالج أو لقوة ، فلا يلومن إلا نفسه .

ومن دخل الحمام وهو ممتلئ فأصابه فالج ، فلا يلومن إلا نفسه .

ومن جمع فى معدته اللبن والسمك فأصابه جذام ، أو برص أو نقرس ، فلا يلومن إلا نفسه .

(١) زاد المعاد ( ٤ / ٤٠٣ ـ ٤٠٥ ) .

ومن جمع فى معدته اللبن والنبيذ فأصابه برص أو نقرس ، فلا يلومن إلا نفسه .

ومن احتلم فلم يغتسل حتى وطئ أهله فولدت مجنونًا أو مخبلاً ، فلا يلومن إلا نفسه .

ومن أكل بيضًا مسلوقًا باردًا وامتلأ منه ، فأصابه ربو ، فلا يلومن إلا نفسه .

ومن جامع ، فلم يصبر حتى يفرغ فأصابه حصاة ، فلا يلومن إلا نفسه .

ومن نظر فى المرآة ليلاً فأصابه لقوة أو أصابه داء ، فلا يلومن إلا نفسه .

وقال ابن بختيشوع : احذر أن تجمع البيض والسمك ؛ فإنهما يورثان القولنج ، والبواسير ، ووجع الأضراس .

وإدامة أكل البيض يولد الكلف فى الوجه ، وأكل المملوحة والسمك المالح ، والافتصاد بعد الحمام يولد البهق والجرب .

إدامة أكل كلى الغنم يعقر المثانة ، الاغتسال بالماء البارد بعد أكل السمك الطرى يولد الفالج .

وطء المرأة الحائض يولد الجذام ، الجماع من غير أن يهريق الماء عقيبه يولد الحصاة ، طول المكث فى المخرج يولد الداء الدوى .

قال أبقراط : الإقلال من الضار خير من الإكثار من النافع .

وقال : استديموا الصحة بترك التكاسل عن التعب ، وبترك الامتلاء من الطعام والشراب .

وقال بعض الحكماء : من أراد الصحة ، فليجود الغذاء ، وليأكل على نقاء ، وليشرب على ظمأ ، وليقلل من شرب الماء ، ويتمدد بعد الغذاء ، ويتمش بعد العشاء ، ولا ينم حتى يعرض نفسه على الخلاء ، وليحذر دخول الحمام عقيب الامتلاء ، ومرة فى الصيف خير من عشر فى الشتاء ، وأكل القديد اليابس معين على الفناء ، ومجامعة العجائز تهرم أعمار الأحياء ، وتسقم أبدان الأصحاء ، ويروى هذا عن على رضي الله عنه ، ولا يصح عنه ، وإنما بعضه من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب ، وكلام غيره .

**وقال الحارث** : من سرة البقاء ـ ولا بقاء ـ فليباكر الغداء ، وليعجل العشاء ، وليخفف الرداء ، وليقل غشيان النساء .

وقال الحارث : أربعة أشياء تهدم البدن : الجماع على البطنة ، ودخول الحمام على

الامتلاء ، وأكل القديد ، وجماع العجوز .

ولما احتضر الحارث اجتمع إليه الناس ، فقالوا: مرنا بأمر ننتهى إليه من بعدك ، فقال : لا تتزوجوا من النساء إلا شابة ، ولا تأكلوا من الفاكهة إلا فى أوان نضجها ، ولا يتعالجن أحدكم ما احتمل بدنه الداء ، وعليكم بتنظيف المعدة فى كل شهر ؛ فإنها مذيبة للبلغم ، مهلكة للمرة ، منبتة للحم ، وإذا تغدى أحدكم فلينم على إثر غدائه ساعة ، وإذا تعشى فليمش أربعين خطوة .

وقال بعض الملوك لطبيبه : لعلك لا تبقى لى ، فصف لى صفة آخذها عنك ، فقال : لا تنكح إلا شابة ، ولا تأكل من اللحم إلا فتيًا ، ولا تشرب الدواء إلا من علة ، ولا تأكل الفاكهة إلا فى نضجها ، وأجد مضغ الطعام ، وإذا أكلت نهارًا فلا بأس أن تنام ، وإذا أكلت ليلاً فلا تنم حتى تمشى ولو خمسين خطوة ، ولا تأكلن حتى تجوع ، ولا تتكارهن على الجماع ، ولا تحبس البول ، وخذ من الحمام قبل أن يأخذ منك ، ولا تأكلن طعامًا وفى معدتك طعام،وإياك أن تأكل ما تعجز أسنانك عن مضغه فتعجز معدتك عن هضمه ، وعليك فى كل أسبوع بقيئة تنقى جسمك ، ونعم الكنز الدم فى جسدك ، فلا تخرجه إلا عند الحاجة إليه ، وعليك بدخول الحمام ؛ فإنه يخرج من الأطباق ما لا تصل الأدوية إلى إخراجه .

وقال الشافعى :

أربعة تقوى البدن : أكل اللحم ، وشم الطيب ، وكثرة الغسل من غير جماع ، ولبس الكتان .

وأربعة توهن البدن : كثرة الجماع ، وكثرة الهم ، وكثرة شرب الماء على الريق ، وكثرة أكل الحامض .

وأربعة تقوى البصر : الجلوس حيال الكعبة ، والكحل عند النوم ، والنظر إلى الخضرة ، وتنظيف المجلس .

وأربعة توهن البصر : النظر إلى القذر ، وإلى المصلوب ، وإلى فرج المرأة ، والقعود مستدبر القبلة .

وأربعة تزيد فى الجماع : أكل العصافير ، والإطريفل ، والفستق ، والخروب .

وأربعة تزيد فى العقل : ترك الفضول من الكلام ، والسواك ، ومجالسة الصالحين ، ومجالسة العلماء .

وقال أفلاطون : خمس يذبن البدن وربما قتلن : قصر ذات اليد ، وفراق الأحبة ، وتجرع المغايظ ، ورد النصح ، وضحك ذوى الجهل بالعقلاء .

وقال طبيب المأمون: عليك بخصال ، مَنْ حفظها فهو جدير ألا يعتل إلا علة الموت : لا تأكل طعامًا وفى معدتك طعام، وإياك أن تأكل طعامًا تتعب أضراسك فى مضغه ، فتعجز معدتك عن هضمه، وإياك وكثرة الجماع ؛ فإنه يطفئ نور الحياة ، وإياك ومجامعة العجوز ؛ فإنه يورث موت الفجأة ، وإياك والفصد إلا عند الحاجة إليه ، وعليك بالقىء فى الصيف .

ومن جوامع كلمات أبقراط قوله : كل كثير فهو معاد للطبيعة .

وقيل لجالينوس : مالك لا تمرض ؟ فقال : لأنى لم أجمع بين طعامين رديئين ، ولم أدخل طعامًا على طعام ، ولم أحبس فى المعدة طعامًا تأذيت به .

وأربعة أشياء تمرض الجسم : الكلام الكثير ، والنوم الكثير ، والأكل الكثير ، والجماع الكثير .

فالكلام الكثير : يقلل مخ الدماغ ويضعفه ، ويعجل الشيب .

والنوم الكثير : يصفر الوجه ، ويعمى القلب ، ويهيج العين ، ويكسل عن العمل ، ويولد الرطوبات فى البدن .

والأكل الكثير يفسد فم المعدة ، ويضعف الجسم ، ويولد الرياح الغليظة ، والأدواء العسرة .

والجماع الكثير : يهدُّ البدن ، ويضعفُ القوى ، ويجفف رطوبات البدن ، ويرخى العصب ، ويورث السدد ، ويعم ضرره جميع البدن ، ويخص الدماغ لكثرة ما يتحلل به من الروح النفسانى ، وإضعافه أكثر من إضعاف جميع المستفرغات ، ويستفرغ من جوهر الروح شيئًا كثيرًا .

وأنفع ما يكون إذا صادف شهوة صادقة من صورة جميلة حديثة السن حلالا مع سن الشبوبية ، وحرارة المزاج ورطوبته ، وبعد العهد به، وخلاء القلب من الشواغل النفسانية ، ولم يفرط فيه ، ولم يقارنه ما ينبغى تركه معه من امتلاء مفرط ، أو خواء ، أو استفراغ ، أو رياضة تامة ، أو حر مفرط ، أو برد مفرط ، فإذا راعى فيه هذه الأمور العشرة ، انتفع به جدًا ، وأيها فُقِدَ فَقَدْ حصل له من الضرر بحسبه ، وإن فقدت كلها أو أكثرها ، فهو الهلاك المعجل .

والحمية المفرطة فى الصحة كالتخليط فى المرض ، والحمية المعتدلة نافعة ، وقال

جالينوس لأصحابه : اجتنبوا ثلاثًا ، وعليكم بأربع ، ولا حاجة بكم إلى طبيب : اجتنبوا الغبار ، والدخان ، والنتن ، وعليكم بالدسم ، والطيب ، والحلوى ، والحمام ، ولا تأكلوا فوق شبعكم ، ولا تتخللوا بالباذروج ، والريحان ، ولا تأكلوا الجوز عند المساء ، ولا ينم من به زكمة على قفاه ،ولا يأكل من به غم حامضًا ، ولا يسرع المشى من افتصد ، فإنه مخاطرة الموت ، ولا يتقيأ من تؤلمه عينه ، ولا تأكلوا فى الصيف لحمًا كثيرًا ، ولا ينم صاحب الحمى الباردة فى الشمس ، ولا تقربوا الباذنجان العتيق المبزر ، ومن شرب كل يوم فى الشتاء قدحًا من ماء حار ، أمن من الأعلال ، ومن دلك جسمه فى الحمام بقشور الرمان أمن من الجرب والحكة ، ومن أكل خمس سوسنات مع قليل مصطكى رومى ، وعود خام ، ومسك ، بقى طول عمره لا تضعف معدته ولا تفسد ، ومن أكل بزر البطيخ مع السكر نظف الحصى من معدته ، وزالت عنه حرقة البول (١) .

## فصل

أربعة تهدم البدن : الهم ، والحزن ، والجوع ، والسهر .

وأربعة تفرح : النظر إلى الخضرة ، وإلى الماء الجارى ، والمحبوب ، والثمار .

وأربعة تظلم البصر : المشى حافيًا ، والتصبح والتمسى بوجه البغيض والثقيل ، والعدو ، وكرة البكاء ، وكثرة النظر فى الخط الدقيق .

وأربعة تقوى الجسم : لبس الثوب الناعم ، ودخول الحمام المعتدل ، وأكل الطعام الحلو والدسم ، وشم الروائح الطيبة .

وأربعة تيبس الوجه ، وتذهب ماءه وبهجته وطلاوته : الكذب ، والوقاحة ، وكثرة السؤال عن غير علم ، وكثرة الفجور .

وأربعة تزيد فى ماء الوجه وبهجته : المروءة ، والوفاء ، والكرم ، والتقوى .

وأربعة تجلب البغضاء والمقت : الكبر ، والحسد ، والكذب ، والنميمة .

وأربعة تجلب الرزق : قيام الليل ، وكثرة الاستغفار بالأسحار ، وتعاهد الصدقة ، والذكر أول النهار وآخره .

وأربعة تمنع الرزق : نوم الصبحة ، وقلة الصلاة ، والكسل ، والخيانة .

وأربعة تضر بالفهم والذهن : إدمان أكل الحامض والفواكه ، والنوم على القفا ، والهم ، والغم .

(١) زاد المعاد ( ٤ / ٤٠٥ ـ ٤٠٨ ) .

وأربعة تزيد فى الفهم : فراغ القلب ، وقلة التملى من الطعام والشراب ، وحسن تدبير الغذاء بالأشياء الحلوة والدسمة ، وإخراج الفضلات المثقلة للبدن .

ومما يضر بالعقل: إدمان أكل البصل ، والباقلا ، والزيتون ، والباذنجان، وكثرة الجماع ، والوحدة ، والأفكار ، والسكر ، وكثرة الضحك ، والغم .

قال بعض أهل النظر : قطعت فى ثلاث مجالس ، فلم أجد لذلك علة إلا أنى أكثرت من أكل الباذنجان فى أحد تلك الأيام، ومن الزيتون فى الآخر، ومن الباقلا فى الثالث (١) .

## فصل

قد أتينا على جملة نافعة من أجزاء الطب العلمى والعملى ، لعل الناظر لا يظفر بكثير منها إلا فى هذا الكتاب ، وأريناك قرب ما بينها وبين الشريعة ، وأن الطب النبوى نسبة طب الطبائعيين إليه أقل من نسبة طب العجائز إلى طبهم .

والأمر فوق ما ذكرناه ، وأعظم مما وصفناه بكثير ، ولكن فيما ذكرناه تنبيه باليسير على ما وراءه ، ومن لم يرزقه الله بصيرة على التفصيل ، فليعلم ما بين القوة المؤيدة بالوحى من عند الله ، والعلوم التى رزقها الله الأنبياء ، والعقول والبصائر التى منحهم الله إياها ، وبين ما عند غيرهم .

ولعل قائلاً يقول : ما لهدى الرسول ﷺ ، وما لهذا الباب ، وذكر قوى الأدوية ، وقوانين العلاج، وتدبير أمر الصحة ؟

وهذا من تقصير هذا القائل فى فهم ما جاء به الرسول ﷺ ، فإن هذا وأضعافه وأضعاف أضعافه من فهم بعض ما جاء به ، وإرشاده إليه ، ودلالته عليه ، وحسن الفهم عن الله ورسوله مَنٌّ يمن الله به على من يشاء من عباده .

فقد أوجدناك أصول الطب الثلاثة فى القرآن ، وكيف تنكر أن تكون شريعة المبعوث بصلاح الدنيا والآخرة مشتملة على صلاح الأبدان ، كاشتمالها على صلاح القلوب ، وأنها مرشدة إلى حفظ صحتها ، ودفع آفاتها بطرق كلية قد وكل تفصيلها إلى العقل الصحيح ، والفطرة السليمة بطريق القياس والتنبيه والإيماء ، كما هو فى كثير من مسائل فروع الفقه ، ولا تكن ممن إذا جهل شيئًا عاداه .

---

(١) زاد المعاد ( ٤ / ٤١٢ ، ٤١٣ ) .

ولو رزق العبد تضلعًا من كتاب الله وسنة رسوله ،وفهمًا تامًا فى النصوص ولوازمها ، لاستغنى بذلك عن كل كلام سواه ، ولاستنبط جميع العلوم الصحيحة منه.

فمدار العلوم كلها على معرفة الله وأمره وخلقه ، وذلك مسلم إلى الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، فهم أعلم الخلق بالله وأمره وخلقه وحكمته فى خلقه وأمره . وطب أتباعهم أصح وأنفع من طب غيره ، وطب أتباع خاتمهم وسيدهم ، وإمامهم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أكمل الطب وأصحه وأنفعه ، ولا يعرف هذا إلا من عرف طب الناس سواهم وطبهم ، ثم وازن بينهما ، فحينئذ يظهر له التفاوت ، وهم أصح الأمم عقولاً وفطرًا ، وأعظمهم علمًا ، وأقربهم فى كل شىء إلى الحق ؛ لأنهم خيرة الله من الأمم ، كما أن رسولهم خيرته من الرسل ، والعلم الذى وهبهم إياه والحلم والحكمة أمر لايدانيهم فيه غيرهم ،وقد روى الإمام أحمد فى « مسنده » من حديث بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده رضي الله عنه ، قال :قال رسول الله ﷺ:« أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله » (١) ،فظهر أثر كرامتها على الله سبحانه فى علومهم وعقولهم ، وأحلامهم وفطرهم ، وهم الذين عرضت عليهم علوم الأمم قبلهم وعقولهم ، وأعمالهم ودرجاتهم ، فازدادوا بذلك علمًا وحلمًا وعقولاً إلى ما أفاض الله سبحانه وتعالى عليهم من علمه وحلمه .

ولذلك كانت الطبيعة الدموية لهم ، والصفراوية لليهود ، والبلغمية للنصارى ؛ ولذلك غلب على النصارى البلادة ، وقلة الفهم والفطنة ، وغلب على اليهود الحزن والهم والغم والصغار ،وغلب على المسلمين العقل والشجاعة ،والفهم والنجدة، والفرح والسرور.

وهذه أسرار وحقائق إنما يعرف مقدارها من حسن فهمه ،ولطف ذهنه ، وغزر علمه ، وعرف ما عند الناس ، وبالله التوفيق (٢) .

## فصل
## فى ذكر طرف من فتاويه ﷺ فى الطب

. سأله ﷺ أعرابى ، فقال : يا رسول الله ، أنتداوى ؟ قال : « نعم ، فإن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء ؛ علمه من علمه ، وجهله من جهله » ، ذكره أحمد .

---

(١) أحمد ( ٥ / ٥ ) ، وحسَّنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (٤٢٨٨) .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٢٨٣ ـ ٤١٥) .

وفى السنن أن الأعراب قالت : يا رسول الله ، ألا نتداوى ؟ قال : « نعم ، عباد الله تداووا ؛ فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء ؛ أو دواء ؛ إلا داء واحدًا » قالوا : يا رسول الله ، وما هو ؟ قال : « الهرم » (١) .

وسئل ﷺ فقيل له : أرأيت رقى نسترقيها ؛ ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقيها ؛ هل ترد من قدر الله شيئًا ؟ قال : « هى من قدر الله » ذكره الترمذى .

وسئل ﷺ : هل يغنى الدواء شيئًا ؟ فقال : « سبحان الله ! وهل أنزل الله تبارك وتعالى من داء فى الأرض إلا جعل له شفاء » ذكره أحمد (٢) .

وسئل ﷺ عن السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب من أمته ، فقال : « هم الذين لا يسترقون ،ولا يتطيرون ، ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون » متفق عليه (٣) .

وسأله ﷺ آل عمرو بن حزم ، فقالوا : إنه كانت عندنا رقية نرقى بها من العقرب ، وإنك نهيت عن الرقى ،قال:« اعرضوا على رقاكم » ، قال : فعرضوا عليه ، فقال : « ما أرى بأسًا ، من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل » . ذكره مسلم (٤) .

واستفتاه عثمان بن أبى العاص رضي الله عنه ، وشكا إليه وجعًا يجده فى جسده منذ أسلم ، فقال : « ضع يدك على الذى يألم من جسدك وقل :باسم الله ثلاثًا ، وقل :سبع مرات : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » ذكره مسلم (٥) .

وسئل ﷺ : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، الرجل يبتلى على حسب دينه ، فإن كان رقيق الدين ابتلى على حسب ذلك ، وإن كان صلب الدين ابتلى على حسب ذلك ؛ فما يزال البلاء بالرجل حتى يمشى على وجه الأرض ، وما عليه » . ذكره أحمد ، وصححه الترمذى (٦) .

وذكر ابن ماجه أنه سئل: أى الناس أشد بلاء ؟ قال: «الأنبياء»، قلت: يا رسول الله،

---

(١) أبو داود (٣٨٥٥) فى الطب ، باب : فى الرجل يتداوى .

(٢) أحمد (٥ / ٣٧١) .

(٣) البخارى (٥٧٥٢) فى الطب ، باب : من لم يرق ، ومسلم (٢٢٠ / ٣٧٤) فى الإيمان ، باب : الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب .

(٤) مسلم (٢٢٠٠ / ٦٤) فى السلام ، باب : لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك .

(٥) مسلم (٢٢٠٢ / ٦٧) فى السلام ، باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء .

(٦) أحمد (١ / ١٧٢) ، والترمذى (٢٣٩٨) فى الزهد ، باب : ما جاء فى الصبر على البلاء ، وقال : « حسن صحيح » .

ثم من ؟ قال : « ثم الصالحون ، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة تحويه ، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالعافية » (١) .

وسأله ﷺ رجل : أرأيت هذه الأمراض التى تصيبنا ما لنا بها ؟

قال : « كفارات » ، قال أبو سعيد الخدرى ﷺ : وإن قلت ؟ قال : « وإن شوكة فما فوقها » ، فدعا أبو سعيد على نفسه ألا يفارقه الوعك حتى يموت ، وألا يشغله عن حج ، ولا عن عمرة ، ولا جهاد فى سبيل الله ، ولا صلاة مكتوبة فى جماعة ، فما مسه إنسان إلا وجد حره حتى مات ، ذكره أحمد (٢) .

وقال أسامة ﷺ : شهدت الأعراب يسألون النبى ﷺ أعلينا حرج فى كذا ؟ أعلينا حرج فى كذا ؟ فقال: « عباد الله ، وضع الله الحرج إلا من اقترض من عرض أخيه شيئًا ، فذلك هو الحرج »، فقالوا: يا رسول الله ، هل علينا من جناح أن نتداوى ؟ قال : « تداووا عباد الله، فإن الله لم يضع داء إلا وضع معه شفاء ، إلا الهرم » ، قالوا : يا رسول الله ، ما خير ما أعطى العبد ؟ قال : « حسن الخلق » ، ذكره ابن ماجه (٣) .

وسئل ﷺ عن الرقى ، فقال : « اعرضوا على من رقاكم » ، ثم قال : « لا بأس بما ليس فيه شرك » ، ذكره مسلم .

وسأله ﷺ طبيب عن ضفدع يجعلها فى دواء ، فنهى النبى ﷺ عن قتلها ، ذكره أهل السنن (٤) .

وشكا إليه ﷺ الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف القمل ، فأفتاهم بلبس قميص الحرير ، ذكره البخارى فى صحيحه (٥) .

وأفتى ﷺ أن من تطبب ، ولم يعرف منه طب ، فهو ضامن (٦) ، وهو يدل بمفهومه على أنه إذا كان طبيبًا ، وأخطأ فى تطبيبه ، فلا ضمان عليه .

وشكا إليه ﷺ المشاة فى طريق الحج تعبه وضعفهم عن المشى، فقال لهم : « استعينوا

---

(١) ابن ماجه (٤٠٢٤) فى الفتن ، باب : الصبر على البلاء ، وفى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات » .

(٢) أحمد (٣ / ٢٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ٣٠٤ ، ٣٠٥) : « رجاله ثقات » .

(٣) ابن ماجه (٣٤٣٦) فى الطب ، باب : ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ، وفى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات ، وقد روى بعضه أبو داود والترمذى أيضًا » .

(٤) أبو داود (٣٨٧١) فى الطب ، باب : فى الأدوية المكروهة .

(٥) البخارى (٥٨٣٩) فى اللباس ، باب : ما يرخص للرجال من الحرير للحكة .

(٦) ابن ماجه (٣٤٦٦) فى الطب ، باب : من تطبب ولم يعلم منه طب .

بالنسل ، فإنه يقطع عنك الأرض وتخفون له » ، قالوا : ففعلنا ، فخففنا له ، والنسل : العدو مع تقارب الخطا، ذكر ابن مسعود الدمشقى أن هذا الحديث فى مسلم ، وليس فيه ، وإنما هو زيادة فى حديث جابر الطويل الذى رواه مسلم فى صفة حج النبى ﷺ ، وإسناده حسن (١) .

وسألته ﷺ أسماء بنت عميس رضي الله عنها ، فقالت : يا رسول الله ، إن ولد جعفر تسرع إليهم العين،أفأسترقى لهم ؟ قال : « نعم ، فإنه لو كان شىء سابق القدر لسبقته العين » ، ذكره أحمد (٢) .

وعند مالك عن حميد بن قيس المكى قال : دخل على رسول الله ﷺ بابنى جعفر بن أبى طالب،فقال لحاضنتهما :« ما لى أراهما ضارعين ؟ » فقالت : إنه لتسرع إليهما العين ، ولم يمنعنا أن نسترقى لهما إلا أنا لا ندرى ما يوافقك من ذلك ، فقال : « استرقوا لهما ، فإنه لو سبق شىء القدر لسبقته العين » (٣) .

وسئل ﷺ عن النشرة ، فقال :« هى من عمل الشيطان » ذكره أحمد وأبو داود (٤) ، والنشرة : حسل السحر عن المسحور .

وهى نوعان : حل سحر بسحر مثله ، وهو الذى من عمل الشيطان ؛ فإن السحر من عمله ، فيتقرب إليه الناشر المنتشر بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور ، والثانى : النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة ، فهذا جائز ، بل مستحب ، وعلى النوع المذموم يحمل قول الحسن : لا يحل السحر إلا ساحر .

وسئل ﷺ عن الطاعون ، فقال : « عذابًا كان يبعثه الله على من كان قبلكم ، فجعله الله رحمة للمؤمنين ، ما من عبد يكون فى بلد ويكون فيه،فيمكث لا يخرج صابراً محتسبًا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد » ذكره البخارى (٥) .

وسأله ﷺ فروة بن مسيك رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله ، إنا بأرض يقال لها إبين ، وهى ريفنا وميرتنا ، وهى وبية أو قال : وباها شديد ، فقال رسول الله ﷺ : « دعها عنك ، فإن من القرف التلف » (٦) .

---

(١) مسلم (١٢١٨/٤٧) فى الحج ، باب : حجة النبى ﷺ .
(٢) أحمد (٦/٤٣٨) .
(٣) مالك فى الموطأ (٢ / ٩٣٩) (٣) فى العين ، باب : الرقية من العين .
(٤) أبو داود (٣٨٦٨) فى الطب ، باب : فى النشرة ، وأحمد (٣ / ٢٩٤) .
(٥) البخارى (٥٧٣٤) فى الطب ، باب : أجر الصابر على الطاعون .
(٦) أبو داود (٣٩٢٣) فى الطب ، باب : فى الطيرة ، وأحمد (٣ / ٤٥١) ، وضعفه الألبانى .

وفيه دليل على نوع شريف من أنواع الطب ، وهو استصلاح التربة والهواء ، كما ينبغى استصلاح الماء ، والغذاء ، فإن بصلاح هذه الأربعة يكون صلاح البدن واعتداله .

وقال ﷺ : « لا طيرة ، وخيرها الفأل » ، قيل : يا رسول الله ، وما الفأل ؟ قال : « الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم » . متفق عليه (١).

وفى لفظ لهما: « لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبنى الفأل ». قالوا : وما الفأل ؟ قال : « كلمة طيبة » (٢) .

ولما قال : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة » . قال له رجل : أرأيت البعير يكون به الجرب ، فتجرب الإبل ؟ قال : « ذاك القدر ، فمن أجرب الأول ؟ » ذكره أحمد (٣) .

ولا حجة فى هذا لمن أنكر الأسباب ، بل فيه إثبات القدر ، ورد الأسباب كلها إلى الفاعل الأول ، إذ لو كان كل سبب مستندًا إلى سبب قبله ، لا إلى غاية لزم التسلسل فى الأسباب ، وهو ممتنع ، فقطع النبى ﷺ التسلسل بقوله : « فمن أعدى الأول » ، إذ لو كان الأول قد جرب بالعدوى والذى قبله كذلك ، لا إلى غاية لزم التسلسل الممتنع .

وسألته ﷺ امرأة ، فقالت : يا رسول الله ، دار سكناها والعدد كثير ، والمال وافر ، فقل العدد وذهب المال ، فقال : « دعوها ذميمة » ذكره مالك مرسلا (٤) .

وهذا موافق لقوله ﷺ : « إن كان الشؤم فى شىء فهو فى ثلاثة : فى الفرس ، وفى الدار ، والمرأة » (٥). وهو إثبات لنوع خفى من الأسباب ، ولا يطلع عليه أكثر الناس ، ولا يعلم إلا بعد وقوع مسببه ، فإن من الأسباب ما يعلم سببيته قبل وقوع مسببه ، وهى الأسباب الظاهرة ، ومنها ما لا يعلم سببيته إلا بعد وقوع مسببه وهى الأسباب الخفية ، ومنه قول الناس : فلان مشؤوم الطلعة ، ومدور الكعب ، ونحوه ، فالنبى ﷺ أشار إلى هذا النوع ولم يبطله ، وقوله : « إن كان الشؤم فى شىء فهو فى ثلاثة » ، تحقيق لحصول الشؤم فيها ،وليس نفيًا لحصوله من غيرها ، كقوله: « إن كان فى شىء تتداوون به شفاء ،

---

(١) البخارى (٥٧٥٤) فى الطب ، باب : الطيرة ، ومسلم (٢٢٣/ ١١٠) فى السلام ، باب :الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم .

(٢) البخارى (٥٦٧٦) فى الطب ، باب : لا عدوى ، ومسلم (٢٢٢٤ / ١١١) فى السلام ، باب : الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم .

(٣) أحمد (٢ / ٤٣٤) والبخارى (٥٧٧٥) فى الطب ، باب : لا عدوى .

(٤) مالك فى الموطأ (٢ / ٩٧٢) (٢٣) فى الاستئذان ، باب : ما ينفى من الشؤم ، وقال ابن عبد البر : « هذا حديث محفوظ عن أنس وغيره » .

(٥) مسلم (٢٢٢٣ / ١١٥) فى السلام ، باب : الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم .

ففى شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو لذعة بنار ،ولا أحب الكى » ذكره البخارى [١] .

وقال : « من ردته الطيرة من حاجته فقد أشرك » ، قالوا : يا رسول الله ، وما كفارة ذلك ؟ قال :« أن يقول :اللهم لا طير إلا طيرك،ولا خير إلا خيرك » ذكره أحمد [٢] [٣] .

(١) البخارى (٥٦٨٠) فى الطب ، باب : الشفاء فى ثلاث .

(٢) أحمد (٢ / ٢٢٠) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٧٠٤٥) : « إسناده صحيح » .

(٣) إعلام الموقعين (٤ / ٤٨٥ ـ ٤٩١) .

# كتاب

# المفاضلات

# فصل
## فى التخيير بين الأنبياء

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبى ﷺ ، قال : « ما ينبغى لعبد أن يقول : إنى خير من يونس بن متى ». وأخرجه البخارى ومسلم (١).

وفى حديث ابن عباس - فى بعض طرق البخارى فيه عن النبى ﷺ - فيما يرويه عن ربه عز وجل : « لا ينبغى لعبد . . . » الحديث (٢). ورواه مسلم من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال - يعنى الله عز وجل : « لا ينبغى لعبد لى أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » (٣) .

وفى رواية: « لعبدى » (٤).

وفى حديث ابن عباس نسبه إلى أبيه.

وفى صحيح البخارى عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال: « لا يقولن أحدكم : إنى خير من يونس بن متى » (٥).

وعنه أيضا عن النبى ﷺ قال: « ما ينبغى لعبد أن يكون خيراً من يونس بن متى» (٦).

وفى لفظ آخر: « أن يقول: أنا خير من يونس بن متى » ذكره البخارى أيضاً (٧).

وفى صحيح البخارى عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » ، ونحوه فى الصحيحين من حديث أبى هريرة (٨).

وأخرج البخارى أيضاً عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: « خفف على داود القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج ، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل

---

(١) البخارى (٣٤١٣) فى الأنبياء ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، ومسلم (٢٣٧٧/١٦٧) فى الفضائل ، باب : فى ذكر يونس عليه السلام ، وقول النبى ﷺ: « لا ينبغى لعبد أن يقول . . . » .

(٢) البخارى (٣٤١٦) فى الأنبياء ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

(٣، ٤) مسلم (٢٣٧٦/١٦٦) فى الفضائل ،باب: فى ذكر يونس عليه السلام،وقول النبى ﷺ: « لا ينبغى لعبد . . . » .

(٥) البخارى (٤٨٠٤) فى الأنبياء ، باب: قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

(٦) البخارى (٤٨٠٤) فى التفسير ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

(٧) البخارى (٣٤١٣) فى الأنبياء، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

(٨) البخارى (٣٣٨٢) فى الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ﴾، ومسلم (٢٣٧٨/١٦٨) فى الفضائل ، باب: من فضائل يوسف عليه السلام .

يده » (١) .

والمراد بالقرآن هاهنا: الزبور. كما أريد بالزبور القرآن فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُون** ﴾ [الأنبياء:١٠٥ ] ، وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « أنا سيد ولد آدم، وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع، وأول مشفع » وأخرجه مسلم (٢).

قد يتوهم كثير من الناس أن بين الحديثين خلافا.

وذلك أنه قد أخبر فى حديث أبى هريرة أنه « سيد ولد آدم »،والسيد أفضل من المسود،وقال فى حديث ابن عباس ﷺ :« ما ينبغى لعبد أن يقول:أنا خير من يونس بن متى».

والأمر فى ذلك بين ،ووجه التوفيق بين الحديثين واضح.

وذلك أن قوله ﷺ:« أنا سيد ولد آدم »إنما هو إخبار عما أكرمه الله به من الفضل والسؤدد ،وتحدث بنعمة الله عليه،وإعلام لأمته وأهل دعوته مكانه عند ربه ،ومحله من خصوصيته ،ليكون إيمانهم بنبوته واعتقادهم لطاعته على حسب ذلك ،وكان بيان هذا لأمته،وإظهاره لهم:من اللازم له ،والمفروض عليه.

فأما قوله فى يونس صلوات الله عليه وسلامه:فقد يتأول على وجهين:

**أحدهما**:أن يكون قوله:« ما ينبغى لعبد » إنما أراد به من سواه من الناس،دون نفسه.

**والوجه الآخر**:أن يكون ذلك عاماً مطلقاً فيه،وفى غيره من الناس ،ويكون هذا القول منه على الهضم من نفسه ، وإظهار التواضع لربه.

يقول : لا ينبغى لى أن أقول : أنا خير منه ؛ لأن الفضيلة التى نلتها كرامة من الله سبحانه ، وخصوصية منه:لم أنلها من قبل نفسى ،ولا بلغتها بحولى وقوتى ،فليس لى أن أفتخر بها ، إنما يجب على أن أشكر عليها ربى.

وإنما خص يونس بالذكر ـ فيما نرى والله أعلم ـ لما قصه الله تعالى علينا من شأنه،وما كان من قلة صبره على أذى قومه،فخرج مغاضباً لهم، ولم يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل.

قلت: وهذا أولى الوجهين وأشبههما بمعنى الحديث ، فقد جاء من غير هذا الطريق أنه ﷺ قال : « ما ينبغى لنبى أن يقول : إنى خير من يونس بن متى » (٣) ، فعمَّ به الأنبياء

---

(١) البخارى (٣٤١٧) فى الأنبياء ، باب : قول الله تعالى : ﴿ **وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا** ﴾ .

(٢) مسلم (٢٢٧٨/٣) فى الفضائل ، باب : تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق.

(٢) أبو داود (٤٦٧٠) فى السنة ،باب:فى التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

كلهم، فدخل هو فى جملتهم [١].

## فصل
## فى المفاضلة بين عائشة وفاطمة رضي الله عنهما وغير ذلك

الخلاف فى كون عائشة أفضل من فاطمة أو فاطمة أفضل : إذا حرر محل التفضيل صار وفاقا، فالتفضيل بدون التفصيل لا يستقيم. فإن أريد بالفضل كثرة الثواب عند الله عز وجل فذلك أمر لا يطلع عليه إلا بالنص ؛ لأنه بحسب تفاضل أعمال القلوب لا بمجرد أعمال الجوارح ،وكم من عاملين أحدهما أكثر عملا بجوارحه، والآخر أرفع درجة منه فى الجنة .وإن أريد بالتفضيل التفضل بالعلم ، فلا ريب أن عائشة أعلم وأنفع للأمة ، وأدت إلى الأمة من العلم مالم يؤد غيرها ، واحتاج إليها خاص الأمة وعامتها وإن أريد بالتفضيل شرف الأصل وجلالة النسب ،فلا ريب أن فاطمة أفضل ، فإنها بضعة من النبى ﷺ، وذلك اختصاص لم يشركها فيه غير إخوتها. وإن أريد السيادة ، ففاطمة سيدة نساء الأمة. وإذا ثبتت وجوه التفضيل وموارد الفضل وأسبابه صار الكلام بعلم وعدل.

وأكثر الناس إذا تكلم فى التفضيل لم يفصل جهات الفضل ولم يوازن بينهما، فيبخس الحق. وإن انضاف إلى ذلك نوع تعصيب وهوى لمن يفضله تكلم بالجهل والظلم .وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن مسائل عديدة من مسائل التفضيل، فأجاب فيها بالتفصيل الشافى. فمنها أنه سئل عن تفضيل الغنى الشاكر على الفقير الصابر أو العكس ، فأجاب بما يشفى الصدور، فقال: أفضلهما أتقاهما لله، فإن استويا فى التقوى استويا فى الدرجة.

ومنها: أنه سئل عن عشر ذى الحجة والعشر الأواخر من رمضان أيهما أفضل ؟ فقال : أيام عشر ذى الحجة أفضل من أيام العشر من رمضان، والليالى العشر الأواخر من رمضان أفضل من ليالى عشر ذى الحجة. وإذا تأمل الفاضل اللبيب هذا الجواب وجده شافيا كافيا، فإنه ليس من أيام العمل فيها أحب إلى الله من أيام عشر ذى الحجة ، وفيها يوم عرفة ويوم النحر ويوم التروية . وأما ليالى عشر رمضان فهى ليالى الإحياء التى كان رسول الله ﷺ يحييها كلها، وفيها ليلة خير من ألف شهر. فمن أجاب بغير هذا التفصيل لم يمكنه أن يدلى بحجة صحيحة.

ومنها :أنه سئل عن ليلة القدر وليلة الإسراء بالنبى ﷺ أيهما أفضل؟ فأجاب بأن ليلة الإسراء أفضل فى حق النبى ﷺ، وليلة القدر أفضل بالنسبة إلى الأمة ، فحظ النبى الذى اختص به ليلة المعراج منها أكمل من حظه من ليلة القدر، وحظ الأمة من ليلة القدر أكمل

(١) تهذيب السنن (٧/ ٣٩ ـ ٤٢) .

من حظهم من ليلة المعراج وإن كان لهم أعظم حظ ، لكن الفضل والشرف والرتبة العليا إنما حصلت فيها لمن أسرى به ﷺ.

ومنها: أنه سئل عن يوم الجمعة ويوم النحر، فقال: يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع ، ويوم النحر أفضل أيام العام، وغير هذا الجواب لا يسلم صاحبه من الاعتراض الذى لا حيلة له فى دفعه.

ومنها: أنه سئل عن خديجة وعائشة أمَّى المؤمنين ، أيهما أفضل؟ فأجاب بأن سبق خديجه وتأثيرها فى أول الإسلام ونصرها وقيامها فى الدين ، لم تشركها فيه عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين، وتأثير عائشة فى آخر الإسلام وحمل الدين وتبليغه إلى الأمة وإدراكها من العلم ، مالم تشركها فيه خديجة ولا غيرها مما تميزت به عن غيرها. فتأمل هذا الجواب الذى لوجئت بغيره من التفضيل مطلقا لم تخلص من المعارضة.

ومنها: أنه سئل عن صالحى بنى آدم والملائكة أيهما أفضل ؟ فأجاب بأن صالحى البشر أفضل باعتبار كمال النهاية ، والملائكة أفضل باعتبار البداية ، فإن الملائكة الآن فى الرفيق الأعلى، منزهون عما يلابسه بنو آدم، مستغرقون فى عبادة الرب. ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر، وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير حال صالحى البشر أكمل من حال الملائكة ، بهذا التفصيل يتبين سر التفضيل ، وتتفق أدلة الفريقين، ويصالح كل منهم على حقه.

فعلى المتكلم فى هذا الباب أن يعرف أسباب الفضل أولا، ثم درجاتها ونسبة بعضها إلى بعض والموازنة بينها ثانيا، ثم نسبتها إلى من قامت به ثالثا ، كثرة وقوة ، ثم اعتبار تفاوتها بتفاوت محلها رابعا. فرب صفة هى كمال لشخص وليست كمالا لغيره ، بل كمال غيره بسواها، فكمال خالد بن الوليد بشجاعته وحروبه ، وكمال ابن عباس بفقهه وعلمه ، وكمال أبى ذر بزهده وتجرده عن الدنيا ، فهذه أربع مقامات يضطر إليها المتكلم فى درجات التفضيل. وتفضيل الأنواع على الأنواع أسهل من تفضيل الأشخاص على الأشخاص، وأبعد من الهوى والغرض. وهاهنا نكتة خفية لا ينتبه لها إلا من بصره الله، وهى أن كثيرا ممن يتكلم فى التفضيل يستشعر نسبته وتعلقه بمن يفضله ولو على بعد ، ثم يأخذ فى تقريظه وتفضيله ، وتكون تلك النسبة والتعلق مهيجة له على التفضيل والمبالغة فيه، واستقصاء محاسن المفضل ، والإغضاء عما سواها ويكون نظره فى المفضل عليه بالعكس. ومن تأمل كلام أكثر الناس فى هذا الباب رأى غالبه غير سالم من هذا وهذا، مناف لطريقة العلم والعدل التى لا يقبل الله سواها ، ولا يرضى غيرها. ومن هذا تفضيل كثير من أصحاب المذاهب والطرائق وأتباع الشيوخ ، كل منهم لمذهبه وطريقته أو شيخه ، وكذلك الأنساب والقبائل والمدائن والحرف والصناعات ، فإن كان الرجل ممن لايشك فى

علمه وورعه خيف عليه من جهة أخرى،وهو أنه يشهد حظه ونفعه المتعلق بتلك الجهة ، ويغيب عن نفع غيره بسواها ؛ لأن نفعه مشاهد له أقرب إليه من علمه بنفع غيره ، فيفضل ما كان نفعه وحظه من جهته باعتبار شهوده ذلك وغيبته عن سواه ، فهذه نكت جامعة مختصرة إذا تأملها المنصف عظم انتفاعه بها، واستقام له نظره ومناظرته ،والله الموفق (١).

## فصل
## فى فضل بعض الأزمنة والأمكنة

وأما قوله(٢): وخص بعض الأزمنة والأمكنة وفضل بعضها على بعض مع تساويها. . . إلخ،فالمقدمة الأولى صادقة،والثانية كاذبة ، وما فضل بعضها على بعض إلا لخصائص قامت بها اقتضت التخصيص ،وما خص ـ سبحانه ـ شيئاً إلا بمخصص ،ولكنه قد يكون ظاهراً ،وقد يكون خفياً ،واشتراك الأزمنة والأمكنة فى مسمى الزمان والمكان كاشتراك الحيوان فى مسمى الحيوانية والإنسان فى مسمى الإنسانية،بل وسائر الأجناس فى المعنى الذى يعمها ،وذلك لا يوجب استوائها فى أنفسها .والمختلفات تشترك فى أمور كثيرة،والمتفقات تتباين فى أمور كثيرة ،والله ـ سبحانه ـ أحكم وأعلم من أن يفضل مثلا على مثل من كل وجه بلا صفة تقتضى ترجيحه ، هذا مستحيل فى خلقه وأمره.

كما أنه ـ سبحانه ـ لا يفرق بين المماثلين من كل وجه ، فحكمته وعدله تأبى هذا وهذا،وقد نزه ـ سبحانه ـ نفسه عمن يظن به ذلك ،وأنكر عليه زعمه الباطل،وجعله حكماً منكراً ،ولو جاز عليه ما يقول هؤلاء لبطلت حججه وأدلته ، فإن مبناها على أن حكم الشىء حكم مثله ،وعلى ألا يسوى بين المختلفين ،فلا يجعل الأبرار كالفجار ،ولا المؤمنين كالكفار ،ولا من أطاعه كمن عصاه ،ولا العالم كالجاهل ،وعلى هذا مبنى الجزاء ، فهو حكمه الكونى والدينى ، وجزاؤه الذى هو ثوابه وعقابه ، وبذلك حصل الاعتبار ،ولأجله ضربت الأمثال ،وقصت علينا أخبار الأنبياء وأممهم ، ويكفى فى بطلان هذا المذهب المتروك الذى هو من أفسد مذاهب العالم أنه يتضمن مساواة ذات جبريل لذات إبليس ،وذات الأنبياء لذات أعدائهم ، ومكان البيت العتيق بمكان الحشوش وبيوت الشياطين ،وأنه لافرق بين هذه الذوات فى الحقيقة،وإنما خصت به هذه الذات عن هذه الذات بما خصت به لمحض المشيئة المرجحة مثلا على مثل بلا موجب،بل قالوا ذلك فى جميع الأجسام،وأنها متماثلة ، فجسم المسك عندهم مساو لجسم البول والعذرة ، وإنما امتاز عنه بصفة عرضية.وجسم الثلج عندهم مساو لجسم النار فى الحقيقة، وهذا مما خرجوا به عن صريح المعقول ،وكابروا

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٦١ ـ ١٦٤).

(٢) أى : قول نافى القياس .

فيه الحس،وخالفهم فيه جمهور العقلاء من أهل الملل والنحل ،وما سوى الله بين جسم السماء وجسم الأرض، ولا بين جسم النار وجسم الماء ، ولا بين جسم الهواء وجسم الحجر، وليس مع المنازعين فى ذلك إلا الاشتراك فى أمر عام ، وهو قبول الانقسام وقيام الأبعاد الثلاثة ، والإشارة الحسية ونحو ذلك مما لا يوجب التشابه ، فضلا عن التماثل ، وبالله التوفيق (١).

## فصل
## فى المفاضلة بين حجرة النبى ﷺ والكعبة

قال ابن عقيل: سألنى سائل : أيّما أفضل حجرة النبى ﷺ أو الكعبة ؟ فقلت : إن أردت مجرد الحجرة فالكعبة أفضل ، وإن أردت وهو فيها فلا والله ، ولا العرش وحملته ولا جنة عدن ولا الأفلاك الدائرة ، لأن بالحجرة جسدا لو وزن بالكونين لرجح (٢) .

## فصل
## فى أفضل العبادة

أهل مقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ لهم فى أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق ، فهم فى ذلك أربعة أصناف :

**الصنف الأول** : عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها علىٰ النفوس وأصعبها.

قالوا : لأنه أبعد الأشياء عن هواها ، وهو حقيقة التعبد .

قالوا : والأجر على قدر المشقة ، ورووا حديثًا لا أصل له : « أفضل الأعمال أحمرها » أى أصعبها وأشقها .

وهؤلاء : هم أهل المجاهدات والجور على النفوس .

قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك، إذ طبعها الكسل والمهانة ، والإخلاد إلى الأرض، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق .

**الصنف الثانى** : قالوا : أفضل العبادات التجرد ، والزهد فى الدنيا ، والتقلل منها غاية الإمكان ، واطّراح الاهتمام بها ، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها.

---

(١) إعلام الموقعين (٢ / ١٤٧ ـ ١٤٩ ) .

(٢) بدائع الفوائد (٣ / ١٣٥ ، ١٣٦ ) .

ثم هؤلاء قسمان :

**فعوامهم** : ظنوا أن هذا غاية ، فشمروا إليه وعملوا عليه ، ودعوا الناس إليه ، وقالوا : هو أفضل من درجة العلم والعبادة ، فرأوا الزهد فى الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

**وخواصهم** : رأوا هذا مقصودًا لغيره ، وأن المقصود به عكوف القلب على الله ، وجمع الهمة عليه ، وتفريغ القلب لمحبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والاشتغال بمرضاته . فرأوا أن أفضل العبادات فى الجمعية على الله ، ودوام ذكره بالقلب واللسان ، والاشتغال بمراقبته ، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له .

ثم هؤلاء قسمان : فالعارفون المتبعون منهم : إذا جاء الأمر والنهى بادروا إليه ولو فرَّقهم وأذهب جمعيتهم . والمنحرفون منهم يقولون : المقصود من العبادة جمعية القلب على الله ، فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه . وربما يقول قائلهم :

يطالَب بالأوراد من كان غافلا     فكيف بقلب كل أوقاته ورد ؟

ثم هؤلاء أيضًا قسمان : منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته ، ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل ، وتعلم العلم النافع لجمعيته .

وسأل بعض هؤلاء شيخًا عارفًا ، فقال : إذا أذن المؤذن وأنا فى جمعيتى على الله ، فإن قمت وخرجت تفرقت ، وإن بقيت على حالى بقيت على جمعيتى .

فما الأفضل فى حقى ؟

فقال : إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم ، وأجب داعى الله، ثم عد إلى موضعك . وهذا لأن الجمعية على الله حظ الروح والقلب ، وإجابة الداعى حق الرب ، ومن آثر حظ روحه على حق ربه فليس من أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ .

**الصنف الثالث** : رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعد ، فرأوه أفضل من ذى النفع القاصر ، فرأوا خدمة الفقراء ، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل،فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبى ﷺ : « الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله » رواه أبو يعلى (١).

واحتجوا بأن عمل العباد قاصر على نفسه ، وعمل النفّاع متعد إلى الغير ، وأين أحدهما من الآخر ؟ .

---

(١) أبو يعلى (٣٣١٥) ، وقال الهيثمى فى المجمع ٨ / ١٩٤ : « فيه يوسف بن عطيه الصفار ، وهو متروك » .

قالوا : ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

قالوا : وقد قال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب رضي الله عنه : « لأن يهدى الله بك رجلا واحدًا خير لك من حُمر النعم » (١) . وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدى . واحتجوا بقوله ﷺ : « من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء » (٢) .

واحتجوا بقوله ﷺ : « إن الله وملائكته يصلون على معلمى الناس الخير » (٣) ، وبقوله ﷺ : « إن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض ، حتى الحيتان فى البحر ، والنملة فى جحرها » (٤) .

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله ، وصاحب النفع لا ينقطع عمله ، مادام نفعه الذى نسب إليه .

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ، ونفعهم فى معاشهم ومعادهم ، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب ؛ ولهذا أنكر النبى ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد ، وترك مخالطة الناس ، ورأى هؤلاء التفرق فى أمر الله ، ونفع عباده ، والإحسان إليهم ، أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك .

**الصنف الرابع** : قالوا : إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب فى كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته . فأفضل العبادات فى وقت الجهاد ؛ الجهاد ، وإن آل إلى ترك الأوراد ، من صلاة الليل وصيام النهار ، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض ، كما فى حالة الأمن .

والأفضل فى وقت حضور الضيف ـ مثلا : القيام بحقه ، والاشتغال به عن الورد المستحب ، وكذلك فى أداء حق الزوجة والأهل .

---

(١) البخارى (٢٩٤٢) فى الجهاد ، باب : دعاء النبى ﷺ الناس إلى الإسلام ، ومسلم (٢٤٠٦ / ٣٤ ) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل على بن أبى طالب رضي الله عنه .

(٢) مسلم (٢٦٧٤ / ١٦) فى العلم ، باب : من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة ، وأبو داود (٤٦٠٩) فى السنة ، باب : لزوم السنة ، وأحمد (٢ / ٣٩٧) .

(٣) الترمذى (٢٦٨٥) فى العلم ، باب : ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ، وقال : « غريب » .

(٤) أبو داود : (٣٦٤١) فى العلم ، باب : الحث على طلب العلم ، والترمذى (٢٦٨٢) فى العلم ، باب : ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ، وقال : « ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة »، وابن ماجه (٢٢٣) فى المقدمة ، باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم . كلهم بدون ذكر « والنملة فى جحرها » .

والأفضل فى أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن ، والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل فى وقت استرشاد الطالب ، وتعليم الجاهل : الإقبال على تعليمه والاشتغال به .

والأفضل فى أوقات الأذان : ترك ما هو فيه من ورده ، والاشتغال بإجابة المؤذن .

والأفضل فى أوقات الصلوات الخمس : الجد والنصح فى إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها فى أول الوقت ، والخروج إلى الجامع ، وإن بعد كان أفضل .

والأفضل فى أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه ، أو البدن ، أو المال : الاشتغال بمساعدته ، وإغاثة لهفته ، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك .

والأفضل فى وقت قراءة القرآن : جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه ، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به ، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره ، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك .

والأفضل فى وقت الوقوف بعرفة : الاجتهاد فى التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك .

والأفضل فى أيام عشر ذى الحجة : الإكثار من التعبد ، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد ، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين .

والأفضل فى العشر الأخير من رمضان : لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدى لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم ، وإقرائهم القرآن ، عند كثير من العلماء .

والأفضل فى وقت مرض أخيك المسلم أو موته : عيادته ، وحضور جنازته وتشييعه ، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك .

والأفضل فى وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك : أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دون الهرب منهم ، فإن المؤمن الذى يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذى لا يخالطهم ولا يؤذونه .

والأفضل خلطتهم فى الخير فهى خير من اعتزالهم فيه ، واعتزالهم فى الشر فهو أفضل من خلطتهم فيه . فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قَلَّله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم .

فالأفضل فى كل وقت وحال : إيثار مرضاة الله فى ذلك الوقت والحال ، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه .

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق ، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد . فمتى خرج أحدهم عن النوع الذى تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته ، فهو يعبد الله على وجه واحد ، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض فى تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت ، فمدار تعبده عليها ، فهو لا يزال متنقلاً فى منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى . فهذا دأبه فى السير حتى ينتهى سيره . فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد رأيته معهم ، وإن رأيت المجاهدين رأيتهم ، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم ، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم . فهذا هو العبد المطلق ، الذى لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه ، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات ، بل هو على مراد ربه ، ولو كانت راحة نفسه ولذتها فى سواه .

فهذا هو المتحقق : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ حقًا ، القائم بهما صدقًا ، مَلْبَسه ما تهيأ ، ومأكله ما تيسر ، واشتغاله بما أمر الله به فى كل وقت بوقته ، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليًا ، لا تملكه إشارة ، ولا يتعبده قيد ، ولا يستولى عليه رسم ، حر مجرد ، دائر مع الأمر حيث دار ، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه ، ويدور معه حيث استقلت مضاربه ، يأنس به كل محق ، ويستوحش منه كل مبطل ، كالغيث حيث وقع نفع ، وكالنخلة لا يسقط ورقها ، وكلها منفعة حتى شوكها ، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله ، والغضب إذا انتهكت محارم الله . فهو لله وبالله ومع الله ، قد صحب الله بلا خلق ، وصحب الناس بلا نفس ، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين ، وتخلى عنهم ، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها . فواهًا له ! ما أغْرَبه بين الناس ! وما أشدَّ وحشته منهم ! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به ، وطمأنينته وسكونه إليه !! والله المستعان ، وعليه التكلان (١) .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٨٥ ـ ٩٠) .

# فصل

## فى المفاضلة بين حاستى السمع والبصر

لما كان للسمع والبصر من الإدراك ما ليس لغيرهما من الأعضاء ، كانا فى أشرف جزء من الإنسان وهو وجهه ، وكانا من أفضل ما فى الإنسان من الأجزاء والأعضاء والمنافع .

واختلف فى الأفضل منهما ؟ فقالت طائفة ـ منهم أبو المعالى وغيره : السمع أفضل . قالوا : لأن به تنال سعادة الدنيا والآخرة ، فإنها إنما تحصل بمتابعة الرسل وقبول رسالاتهم، وبالسمع عرف ذلك ، فإن من لا سمع له لا يعلم ما جاؤوا به . وأيضًا ، فإن السمع يدرك به أجل شيء وأفضله ، وهو كلام الله تعالى الذى فضله على الكلام كفضل الله على خلقه ، وأيضًا ، فإن العلوم إنما تنال بالتفاهم والتخاطب ولا يحصل ذلك إلا بالسمع . وأيضًا ، فإن مدركه أعم من مدرك البصر ، فإنه يدرك الكليات والجزئيات ، والشاهد والغائب ، والموجود والمعدوم ، والبصر لا يدرك إلا بعض المشاهدات ، والسمع يسمع كل علم ، فأين أحدهما من الآخر ؟ ولو فرضنا شخصين : أحدهما يسمع كلام الرسول ولا يرى شخصه ، والآخر بصير يراه ولا يسمع كلامه لصممه ، هل كانا سواء ؟ وأيضًا ففاقد البصر إنما يفقد إدراك بعض الأمور الجزئية المشاهدة ، ويمكنه معرفتها بالصفة ولو تقريبًا ، وأما فاقد السمع فالذى فاته من العلم لا يمكن حصوله بحاسة البصر ولو قريبًا . وأيضًا ، فإن ذم الله تعالى للكفار بعدم السمع فى القرآن أكثر من ذمه لهم بعدم البصر ، بل إنما يذمهم بعدم البصر تبعًا لعدم العقل والسمع . وأيضًا ، فإن الذى يورده السمع على القلب من العلوم لا يلحقه فيه كلال ولا سآمة ولا تعب مع كثرته وعظمه ، والذى يورده البصر عليه يلحقه فيه الكلال والضعف والنقص ، وربما خشى صاحبه على ذهابه مع قلته ونزارته بالنسبة إلى السمع .

وقالت طائفة ـ منهم ابن قتيبة : بل البصر أفضل . فإن أعلى النعيم وأفضله وأعظمه لذة هو النظر إلى الله فى الدار الآخرة ، وهذا إنما ينال بالبصر وهذه وحدها كافية فى تفضيله. قالوا : وهو مقدمة القلب وطليعته ورائده ، فمنزلته منه أقرب من منزلة السمع ، ولهذا كثيرًا ما يقرن بينهما فى الذكر بقوله: ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ** ﴿٢﴾ ﴾ [ الحشر : ٢١ ]، فالاعتبار بالقلب والبصر بالعين ، وقال تعالى : ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾ [الأنعام : ١١٠]، ولم يقل وأسماعهم ، وقال تعالى : ﴿ **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴿٤٦﴾ ﴾ [ الحج ] ، وقال تعالى : ﴿ **قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ** ﴿٨﴾ **أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ** ﴿٩﴾ ﴾ [ النازعات ]، وقال تعالى: ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴿١٩﴾ ﴾

[ غافر ] ، وقال فى حق رسوله : ﴿ **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ** ⑪ ﴾ [ النجم ]، ثم قال: ﴿ **مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ** ⑰ ﴾ [ النجم ] .

وهذا يدل على شدة الوصلة والارتباط بين القلب والبصر ، ولهذا يقرأ الإنسان ما فى قلب الآخر من عينه وهذا كثير فى كلام الناس نظمه ونثره ، وهو أكثر من أن نذكره هنا ، ولما كان القلب أشرف الأعضاء : كان أشدها ارتباطًا به وأشرف من غيره . قالوا : ولهذا يأتمنه القلب ما لا يأتمن السمع عليه ، بل إذا ارتاب من جهة عرض ما يأتيه به على البصر ليزكيه أم يرده ، فالبصر حاكم عليه مؤتمن عليه . قالوا : ومن هذا ؛ الحديث الذى رواه أحمد فى مسنده مرفوعًا : « ليس المخبر كالمعاين » (١) . قالوا : ولهذا أخبر الله ـ سبحانه ـ موسى أن قومه افتتنوا من بعده وعبدوا العجل ، فلم يلحقه فى ذلك ما لحقه عند رؤية ذلك ومعاينته من إلقاء الألواح وكسرها ؛ لفوت المعاينة على الخبر . قالوا : وهذا إبراهيم خليل الله ، يسأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، وقد علم ذلك بخبر الله له ، ولكن طلب أفضل المنازل وهى طمأنينة القلب . قالوا : ولليقين ثلاث مراتب : أولها للسمع ، وثانيها للعين ، وهى المسماة بعين اليقين وهى أفضل من المرتبة الأولى وأكمل . قالوا : وأيضًا ، فالبصر يؤدى إلى القلب ويؤدى عنه ، فإن العين مرآة القلب ، يظهر فيها ما يحبه من المحبة والبغض ، والموالاة والمعاداة ، والسرور والحزن ، وغيرها . وأما الأذن فلا تؤدى عن القلب شيئًا البتة ، وإنما مرتبتها الإيصال إليه حسب ، فالعين أشد تعلقا به .

والصواب أن كلا منهما له خاصية فضل بها الآخر ، فالمدرك بالسمع أعم وأشمل ، والمدرك بالبصر أتم وأكمل .فالسمع له العموم والشمول ، والبصر له الظهور والتمام وكمال الإدراك ، وأما نعيم أهل الجنة فشيئان : أحدهما : النظر إلى الله ، والثانى : سماع خطابه وكلامه ، كما رواه عبد الله بن أحمد فى المسند وغيره : كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن إذا سمعوه من الرحمن عز وجل . ومعلوم أن سلامه عليهم وخطابه لهم ومحاضرته إياهم ـ كما فى الترمذى وغيره ـ لا يشبهها شىء قط ، ولا يكون أطيب عندهم منها ؛ ولهذا يذكر ـ سبحانه ـ فى وعيد أعدائه أنه لا يكلمهم ، كما يذكر احتجابه عنهم ولا يرونه ، فكلامه أعلى نعيم أهل الجنة ، والله أعلم (٢) .

## وأيضًا

اختلف ابن قتيبة وابن الأنبارى فى السمع والبصر ، أيهما أفضل ؟ ففضل ابن قتيبة

(١) أحمد (١ / ٢١٥ ، ٢٧١ ) ، بلفظ: « ليس الخبر كالمعاينة » ، وقال الهيثمى فى المجمع: « رجاله الصحيح » .
(٢) مفتاح دار السعادة (١ / ١٠٥، ١٠٦) .

السمع ، ووافقه طائفة ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ** (١) **إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾** ﴾ [ يونس ] . قال : فلما قرن بذهاب السمع ذهاب العقل ولم يقرن بذهاب النظر إلا ذهاب البصر ، كان دليلا على أن السمع أفضل . قال ابن الأنبارى : هذا غلط ، وكيف يكون السمع أفضل ؟ وبالبصر يكون الإقبال والإدبار والقرب إلى النجاة والبعد من الهلاك ، وبه جمال الوجه ، وبذهابه شينه ، وفى الحديث : « من أذهبت كريمتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثوابا دون الجنة » (٢) .

وأجاب عما ذكره ابن قتيبة بأن الذى نفاه الله تعالى مع السمع بمنزلة الذى نفاه عن البصر ، إذ كأنه أراد إبصار القلوب ولم يرد إبصار العيون ، والذى يبصره القلب هو الذى يعقله ؛ لأنها نزلت فى قوم من اليهود كانوا يستمعون كلام النبى ﷺ فيقفون على صحته ثم يكذبونه ، فأنزل الله فيهم : ﴿ **أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ** ﴾ أى المعرضين ﴿ **وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ** ﴾ بعين نقص ﴿ **أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ** ﴾ أى المعرضين ﴿ **وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾** ﴾ قال : ولا حجة فى تقديم السمع على البصر هنا ، فقد أخبر فى قوله تعالى : ﴿ **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ** ﴾ [ هود : ٢٤ ] .

قلت واحتج مفضلو السمع بأن به ينال غاية السعادة من سمع كلام الله وسماع كلام رسوله . قالوا : وبه حصلت العلوم النافعة . قالوا : وبه يدرك الحاضر والغائب ، والمحسوس والمعقول ، فلا نسبة لمدرك البصر إلى مدرك السمع . قالوا : ولهذا يكون فاقده أقل علما من البصر ، بل قد يكون فاقد البصر أحد العلماء الكبار بخلاف فاقد صفة السمع، فإنه لم يعهد من هذا الجنس عالم البتة .

قال مفضلو البصر : أفضل النعيم النظر إلى الرب تعالى وهو يكون بالبصر ، والذى يراه البصر لا يقبل الغلط ، بخلاف ما يسمع فإنه يقع فيه الغلط والكذب والوهم ، فمدرك البصر أتم وأكمل . قالوا: وأيضًا ، فمحله أحسن وأكمل وأعظم عجائب من محل السمع، وذلك لشرفه وفضله .

قال شيخنا : والتحقيق أن السمع له مزية والبصر له مزية ، فمزية السمع العموم والشمول ، ومزية البصر كمال الإدراك وتمامه ، فالسمع أعم وأشمل ، والبصر أتم وأكمل. فهذا أفضل من جهة شمول إدراكه وعمومه ، وهذا أفضل من جهة كمال إدراكه وتمامه (٣) .

---

(١) فى المطبوعة : « يستمع » ، والصواب ما أثبتناه . (٢) أحمد (٣/ ٢٨٣) .
(٣) بدائع الفوائد ( ٣ / ١٦٤ ، ١٦٥ ) .

## وأيضا

إن حاسة « السمع » أفضل من حاسة « البصر » لشدة تعلقها بالقلب ، وعظم حاجته إليها، وتوقف كماله عليها ، ووصول العلوم إليه بها ، وتوقف الهدى على سلامتها.

ورجحت طائفة حاسة « البصر» لكمال مدركها، وامتناع الكذب فيه ، وزوال الريب والشك به ، ولأنه عين اليقين ، وغاية مدرك حاسة « السمع » علم اليقين ، وعين اليقين أفضل وأكمل من علم اليقين ؛ ولأن متعلقها رؤية وجه الرب عز وجل فى دار النعيم ، ولا شيء أعلى وأجل من هذا التعلق .

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بين الطائفتين حكمًا حسنًا ، فقال: المدرك بحاسة « السمع » أعم وأشمل ، والمدرك بحاسة « البصر » أتم وأكمل ، فللسمع العموم والشمول ، والإحاطة بالموجود والمعدوم ، والحاضر والغائب ، والحسى والمعنوى ، وللبصر التمام والكمال (١) .

## فصل
## فى أفضل الذكر

أفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان ،وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده؛لأن ذكر القلب يثمر المعرفة ،ويهيج المحبة ،ويثير الحياء ،ويبعث على المخافة،ويدعو إلى المراقبة ،ويزع عن التقصير فى الطاعات ،والتهاون فى المعاصى والسيئات،وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئاً من هذه الآثار ،وإن أثمر شيئاً منها ،فثمرة ضعيفة (٢).

## فصل
## فى أن الذكر أفضل من الدعاء

الذكر أفضل من الدعاء؛ لأن الذكر ثناء على الله عز وجل بجميل أوصافه وآلائه،والدعاء سؤال العبد حاجته ،فأين هذا من هذا؟

ولهذا جاء فى الحديث:« من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين: » (٣).

---

(١) مدارج السالكين ( ٢/ ٤٠٩) .

(٢) الوابل الصيب (١٨١) .

(٣) الترمذى (٢٩٢٦) فى ثواب القرآن ، باب: ماجاء كيف كان قراءة النبى ﷺ ، وقال : « حديث حسن غريب »، والدارمى (٢/ ٤٤١) فى فضائل القرآن، باب: فضل كلام الله على سائر الكلام.

ولهذا كان المستحب فى الدعاء أن يبدأ الداعى بحمد الله تعالى ، والثناء عليه بين يدى حاجته ، ثم يسأل حاجته ، كما فى حديث فضالة بن عبيد: أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو فى صلاته لم يحمد الله تعالى ولم يصل على النبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: « لقد عجل هذا» ، ثم دعاه فقال له أو لغيره: « إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه عز وجل والثناء عليه، ثم يصلى على النبى ﷺ، ثم يدعو بعد بما شاء » رواه الإمام أحمد، والترمذى وقال: حديث حسن صحيح. ورواه الحاكم فى صحيحه (١).

وهكذا دعاء ذى النون عليه السلام الذى قال فيه النبى ﷺ : « دعوة أخى ذى النون ، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته : ﴿ **لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] » (٢). وفى الترمذى : « دعوة أخى ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت : ﴿ **لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] فإنه لم يدع بها مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له » (٣).

وهكذا عامة الأدعية النبوية على قائلها أفضل الصلاة والسلام.

ومنه قوله ﷺ فى دعاء الكرب: « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم » (٤).

ومنه حديث بريدة الأسلمى الذى رواه أهل السنن ، وابن حبان فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو وهو يقول: اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك الله لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فقال : « والذى نفسى بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى»(٥).

وروى أبو داود، والنسائى من حديث أنس أنه كان مع النبى ﷺ جالساً ورجل يصلى ثم دعا: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان ، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حى يا قيوم. فقال النبى ﷺ: « لقد دعا الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » (٦).

---

(١) الترمذى (٣٤٧٧) فى الدعوات ، باب: جامع الدعوات عن النبى ﷺ، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأحمد (٦/ ١٨)، والحاكم فى المستدرك (١/ ٢٣٠)، وقال: « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه ».

(٢، ٣) الترمذى (٣٥٠٥) فى الدعوات ، باب: (٨٢) ، وسكت عنه.

(٤) البخارى (٦٣٤٥) فى الدعوات ، باب: الدعاء عند الكرب ، ومسلم (٢٧٣٠/ ٨٣) فى الذكر والدعاء، باب: دعاء الكرب، والترمذى (٣٤٣٥) فى الدعوات ، باب : فيما جاء عند الكرب ، وقال: « هذا حديث حسن صحيح».

(٥) أبو داود (١٤٩٣) فى الصلاة ، باب: الدعاء ، والترمذى (٣٤٧٥) فى الدعوات ، باب: جامع الدعوات عند النبى ﷺ ، وقال : « حسن غريب »، وابن حبان (٢٣٨٣/ موارد ).

(٦) أبو داود (١٤٩٥) فى الصلاة ، باب: الدعاء ، والنسائى (١٣٠٠) فى السهو ، باب: الذكر بعد الدعاء.

فأخبر النبى ﷺ أن الدعاء يستجاب إذا تقدمه هذا الثناء والذكر ، وأنه اسم الله الأعظم، فكان ذكر الله عز وجل والثناء عليه أنجح ما طلب به العبد حوائجه ،وهذه فائدة أخرى من فوائد الذكر والثناء ،أنه يجعل الدعاء مستجاباً.

فالدعاء الذى يتقدمه الذكر والثناء ، أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد ، فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته ، وافتقاره واعترافه ، كان أبلغ فى الإجابة وأفضل ، فإنه يكون قد توسل المدعو بصفات كماله وإحسانه وفضله ، وعرض بل صرح بشدة حاجته وضرورته وفقره ومسكنته ،فهذا المقتضى منه ،وأوصاف المسؤول مقتضى من الله ، فاجتمع المقتضى من السائل ،والمقتضى من المسؤول فى الدعاء ، وكان أبلغ وألطف موقعاً ، وأتم معرفة وعبودية (١).

وأنت ترى فى الشاهد ـ ولله المثل الأعلى ـ أن الرجل إذا توسل إلى من يريد معروفه بكرمه وجوده وبره،وذكر حاجته هو، وفقره ومسكنته ، كان أعطف لقلب المسؤول،وأقرب لقضاء حاجته.

فإذا قال له : أنت جودك قد سارت به الركبان ، وفضلك كالشمس لا تنكر ، ونحو ذلك ، وقد بلغت بى الحاجة والضرورة مبلغاً لا صبر معه ونحو ذلك،كان أبلغ فى قضاء حاجته من أن يقول ابتداء: أعطنى كذا وكذا.

## فصل
## فى بيان أن قراءة القرآن أفضل من الذكر

قراءة القرآن أفضل من الذكر ،والذكر أفضل من الدعاء ،هذا من حيث النظر إلى كل منهما مجرداً.

وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل،بل يعينه ،فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل،وهذا كالتسبيح فى الركوع والسجود ، فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما ، بل القراءة فيهما منهى عنها نهى تحريم أو كراهة ،وكذلك التسميع والتحميد فى محلهما أفضل من القراءة ،وكذلك التشهد ،وكذلك: «رب اغفر لى وارحمنى واهدنى وعافنى وارزقنى» بين السجدتين أفضل من القراءة ،وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة ـ ذكر التهليل،والتسبيح والتكبير ،والتحميد ـ أفضل من الاشتغال عنه بالقراءة ،وكذلك إجابة المؤذن،والقول كما يقول أفضل من القراءة ،وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل

(١) الوابل الصيب (١٨٢ ـ ١٨٥) .

الله تعالى على خلقه ، لكن لكل مقام مقال ، متى فات مقاله فيه وعدل عنه إلى غيره ، اختلت الحكمة ،وفاتت المصلحة المطلوبة منه .

وهكذا الأذكار المقيدة بمحال مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة ،والقراءة المطلقة أفضل من الأذكار المطلقة ،اللهم إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر أو الدعاء أنفع له من قراءة القرآن ، مثاله: أن يتفكر فى ذنوبه ،فيحدث ذلك له توبة واستغفاراً ،أو يعرض له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن ، فيعدل إلى الأذكار والدعوات التى تحصنه وتحوطه.

وكذلك أيضاً قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة أو ذكر لم يحضر قلبه فيهما ، وإذا أقبل على سؤالها والدعاء لها ، اجتمع قلبه كله على الله تعالى،وأحدث له تضرعاً وخشوعاً وابتهالاً ، فهذا قد يكون اشتغاله بالدعاء ـ والحالة هذه ـ أنفع ، وإن كان كل من القراءة والذكر أفضل وأعظم أجراً.

وهذا باب نافع يحتاج إلى فقه نفس ، وفرقان بين فضيلة الشىء فى نفسه وبين فضيلته العارضة ، فيعطى كل ذى حق حقه ، ويوضع كل شىء موضعه.

فللعين موضع ،وللرجل موضع ،وللماء موضع ،وللحم موضع ،وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التى هى نظام الأمر والنهى ،والله تعالى الموفق.

وهكذا الصابون والأشنان ،أنفع للثوب فى وقت ،والتجمير وماء الورد وكيّه أنفع له فى وقت.

وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يوماً: سئل بعض أهل العلم: أيما أنفع للعبد ، التسبيح أو الاستغفار ؟فقال: إذا كان الثوب نقياً ، فالبخور وماء الورد أنفع له، وإن كان دنساً فالصابون والماء الحار أنفع له، فقال لى رحمه الله تعالى: فكيف والثياب لا تزال دنسة ؟

ومن هذا الباب: أن سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن ،ومع هذا فلا تقوم مقام آيات المواريث ،والطلاق،والخلع ،والعدد ونحوها ،بل هذه الآيات فى وقتها وعند الحاجة إليها أنفع من تلاوة سورة الإخلاص.

ولما كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذكر والدعاء ،وهى جامعة لأجزاء العبودية على أتم الوجوه ، كانت أفضل من كل من القراءة والذكر والدعاء بمفرده ، لجمعها ذلك كله مع عبودية سائر الأعضاء.

فهذا أصل نافع جداً، يفتح للعبد باب معرفة مراتب الأعمال وتنزيلها منازلها ،لئلا يشتغل بمفضولها عن فاضلها ، فيربح إبليس الفضل الذى بينهما ، أو ينظر إلى فاضلها فيشتغل به عن مفضولها وإن كان ذلك وقته ، فتفوته مصلحة بالكلية ، لظنه أن اشتغاله بالفاضل أكثر ثواباً وأعظم أجراً.

وهذا يحتاج إلى معرفة بمراتب الأعمال وتفاوتها ومقاصدها ، وفقه فى إعطاء كل عمل

منها حقه ، وتنزيله فى مرتبته ، وتفويته لما هو أهم منه ، أو تفويت ما هو أولى منه وأفضل ، لإمكان تداركه والعود إليه ، وهذا المفضول إن فات لا يمكن تداركه ، فالاشتغال به أولى ـ وهذا كترك القراءة لردّ السلام ، وتشميت العاطس ـ وإن كان القرآن أفضل ؛ لأنه يمكنه الاشتغال بهذا المفضول والعود إلى الفاضل ، بخلاف ما إذا اشتغل بالقراءة فاتته مصلحة رد السلام وتشميت العاطس ، وهكذا سائر الأعمال إذا تزاحمت .والله تعالى الموفق (١).

## فصل
## فى المفاضلة بين الذاكر والمجاهد

فى الترمذى أيضاً عن النبى ﷺ ، عن الله عز وجل أنه يقول: « إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو ملاق قرنه » (٢) وهذا الحديث هو فصل الخطاب فى التفضيل بين الذاكر والمجاهد ، فإن الذاكر المجاهد أفضل من الذاكر بلا جهاد والمجاهد الغافل ، والذاكر بلا جهاد أفضل من المجاهد الغافل عن الله تعالى. فأفضل الذاكرين المجاهدون ، وأفضل المجاهدين الذاكرون (٣).

## فصل
## فى المفاضلة بين العنب والنخل

وقد اختلف الناس فى العنب والنخل: أيهما أفضل وأنفع؟ واحتجت كل طائفة بما فى أحدهما من المنافع.

والقرآن قد قدم النخيل على الأعناب فى موضع، وقدم الأعناب عليها فى موضع، وأفرد النخيل عن الأعناب، ولم يفرد العنب عن النخيل.

وفصل الخطاب فى المسألة: أن كل واحد منهما فى الموضع الذى يكثر فيه ويقل وجود الآخر، أفضل وأنفع.

فالنخيل بالمدينة والعراق وغيرهما أفضل وأنفع من الأعناب فيها .

والأعناب فى الشام ونحوها أفضل وأنفع من النخيل بها.

ولا يقال: فما تقولون إذا استويا فى بلدة ؟ فإن هذا لا يوجد؛ لأن الأرض التى يطيب النخيل فيها ويكون سلطانه ووجوده غالبا ، لا يكون للعنب بها سلطان، ولا تقبله تلك الأرض. وكذلك أرض العنب لا تقبل النخيل ، ولا يطيب فيها.

والله ـ سبحانه ـ قد خص كل أرض بخاصية من النبات والمعدن، والفواكه وغيرها، فهذا فى موضعه أفضل وأطيب وأنفع ، وهذا فى موضعه كذلك (٤).

---

(١) الوابل الصيب (١٨٧ ـ ١٨٩).

(٢) الترمذى (٣٥٨٠) فى الدعوات ، باب: (١١٩) ، وقال: « هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه ».

(٣) الوابل الصيب (٧٨ ـ ٧٩).

(٤) تهذيب السنن (٧/ ٢٧٢).

## وأيضا

قد اختلف الناس فى أيهما أنفع وأفضل، وصنف الجاحظ فى المحاكمة بينهما مجلداً، فأطال فيها الحجاج والتفضيل من الجانبين.

وفصل النزاع فى ذلك: أن النخل فى معدنه ومحل سلطانه أفضل من العنب وأعم نفعا وأجدى على أهله، كالمدينة والحجاز والعراق. والعنب فى معدنه ومحل سلطانه أفضل وأعم نفعا وأجدى على أهله، كالشام والجبال والمواضع الباردة التى لا تقبل النخيل، وحضرت مرة فى مجلس بمكة فيه من أكابر البلد، فجرت هذه المسألة، وأخذ بعض الجماعة الحاضرين يطنب فى تفضيل النخل وفوائده، وقال فى أثناء كلامه: ويكفى فى تفضيله أنا نشترى بنواه العنب، فكيف يفضل عليه ثمر يكون نواه ثمنا له؟ وقال آخر من الجماعة: قد فصل النبى ﷺ النزاع فى هذه المسألة، وشفى فيها بنهيه عن تسمية شجر العنب ـ كرما، وقال: «الكرم قلب المؤمن» (١)، فأى دليل أبين من هذا؟ وأخذوا يبالغون فى تقرير ذلك.

فقلت للأول: ما ذكرته من كون نوى التمر ثمناً للعنب فليس بدليل، فإن هذا له أسباب: أحدها: حاجتكم إلى النوى للعلف، فيرغب صاحب العنب فيه لعلف ناضحه وحمولته. الثانى: أن نوى العنب لا فائدة فيه ولا يجتمع. الثالث: أن الأعناب عندكم قليلة جداً، والتمر أكثر شىء عندكم، فيكثر نواه فيشترى به الشىء اليسير من العنب، وأما فى بلاد فيها سلطان العنب فلا يشترى بالنوى منه شىء، ولا قيمة لنوى التمر فيها.

وقلت لمن احتج بالحديث: هذا الحديث من حجج فضل العنب؛ لأنهم كانوا يسمونه شجرة الكرم لكثرة منافعه وخيره، فإنه يؤكل رطبا ويابساً، وحلوا وحامضاً، وتجنى منه أنواع الأشربة والحلوى والدبس وغير ذلك، فسموه كرما لكثرة خيره، فأخبرهم النبى ﷺ أن قلب المؤمن أحق منه بهذه التسمية؛ لكثرة ما أودع الله فيه من الخير والبركة، والرحمة واللين، والعدل والإحسان، والنصح وسائر أنواع البر والخير التى وضعها الله فى قلب المؤمن، فهو أحق بأن يسمى كرما من شجر العنب، ولم يرد النبى ﷺ إبطال ما فى شجر العنب من المنافع والفوائد، وأن تسميته كرماً كذب، وأنها لفظة لا معنى تحتها، كتسمية الجاهل عالماً، والفاجر براً، والبخيل سخيا، ألا ترى أنه لم ينف فوائد شجر العنب، وإنما أخبر عنه أن قلب المؤمن أغزر فوائد وأعظم منافع منها.

هذا الكلام أو قريب منه جرى فى ذلك المجلس، وأنت إذا تدبرت قول النبى ﷺ: «الكرم قلب المؤمن» وجدته مطابقا لقوله فى النخلة: «مثلها مثل المسلم» فشبه النخلة

---

(١) البخارى (٦١٨٣) فى الأدب، باب: قول النبى ﷺ: «إنما الكرم قلب المؤمن»، ومسلم (٢٢٤٧/٧) فى الألفاظ باب: كراهة تسمية العنب كرما.

بالمسلم فى حديث ابن عمر (١) وشبه المسلم بالكرم فى الحديث الآخر، ونهاهم أن يخصوا شجر العنب باسم الكرم دون قلب المؤمن. وقد قال بعض الناس: فى هذا معنى آخر، وهو أنه نهاهم عن تسمية شجر العنب كرما ؛ لأنه يقتنى منه أم الخبائث، فيكره أن يسمى باسم يرغب النفوس فيها، ويحضهم عليها من باب سد الذرائع فى الألفاظ. وهذا لا بأس به، لولا أن قوله: « فإن الكرم قلب المؤمن » كالتعليل لهذا النهى ، والإشارة إلى أنه أولى بهذه التسمية من شجر العنب، ورسول الله ﷺ أعلم بما أراد من كلامه، فالذى قصده هو الحق.

وبالجملة، فالله ـ سبحانه ـ عدد على عباده من نعمه عليهم ثمرات النخيل والأعناب ، فساقها فيما عدده عليهم من نعمه. والمعنى الأول أظهر من المعنى الآخر إن شاء الله، فإن أم الخبائث تتخذ من كل ثمر كالنخيل ، كما قال تعالى: ﴿ **وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا** ﴾ [ النحل: ٦٧ ] . وقال أنس : نزل تحريم الخمر وما بالمدينة من شراب الأعناب شىء ، وإنما كان شراب القوم الفضيخ المتخذ من التمر ، فلو كان نهيه ﷺ عن تسمية شجر العنب كرما لأجل المسكر لم يشبه النخلة بالمؤمن ؛ لأن المسكر يتخذ منها، والله أعلم (٢).

## فصل
## فى المفاضلة بين مداد العلماء ودم الشهداء

وقد اختلف فى تفضيل مداد العلماء على دم الشهداء وعكسه ،وذكر لكل قول وجوه من التراجيح والأدلة. ونفس هذا النزاع دليل على تفضيل العلم ومرتبته، فإن الحاكم فى هذه المسألة هو العلم فيه وإليه، وعنده يقع التحاكم والتخاصم ، والمفضل منهما من حكم له بالفضل.

فإن قيل: فكيف يقبل حكمه لنفسه؟ قيل: وهذا أيضا دليل على تفضيله وعلو مرتبته وشرفه ، فإن الحاكم إنما لم يسغ أن يحكم لنفسه لأجل مظنة التهمة ، والعلم لا تلحقه تهمة فى حكمه لنفسه ، فإنه إذا حكم ، حكم بما تشهد العقول والنظر بصحته وتتلقاه بالقبول ، ويستحيل حكمه لتهمة ، فإنه إذا حكم بها انعزل عن مرتبته وانحط عن درجته ، فهو الشاهد المزكى العدل، والحاكم الذى لا يجور ولا يعزل.

فإن قيل: فماذا حكمه فى هذه المسألة التى ذكرتموها ؟ قيل : « هذه المسألة كثر فيها الجدال ، واتسع المجال ، وأدلى كل منهما بحجته ، واستعلى بمرتبته . والذى يفصل النزاع ويعيد المسألة إلى مواقع الإجماع الكلام فى أنواع مراتب الكمال ، وذكر الأفضل منهما،

(١) البخارى (٧٢) فى العلم ، باب :الفهم فى العلم ، ومسلم (٢٨١١/ ٦٤) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب: مثل المؤمن مثل النخلة.
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٣٠، ٢٣٢).

والنظر فى أى هذين الأمرين أولى به وأقرب إليه. فهذه الأصول الثلاثة تبين الصواب، ويقع بها فصل الخطاب. فأما مراتب الكمال فأربع ؛ النبوة والصديقية والشهادة والولاية ، وقد ذكرها الله سبحانه فى قوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) ﴾ [ النساء ] ، وذكر تعالى هؤلاء الأربع فى سورة الحديد، فذكر تعالى الإيمان به وبرسوله، ثم ندب المؤمنين إلى أن تخشع قلوبهم لكتابه ووحيه، ثم ذكر مراتب الخلائق شقيهم وسعيدهم ، فقال: ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) ﴾ [ الحديد ] ، وذكر المنافقين قبل ذلك فاستوعبت هذه الآية أقسام العباد شقيهم وسعيدهم.

والمقصود: أنه ذكر فيها المراتب الأربعة؛ الرسالة والصديقية والشهادة والولاية ، فأعلى هذه المراتب النبوة والرسالة، ويليها الصديقية ، فالصديقون هم أئمة أتباع الرسل، ودرجتهم أعلى الدرجات بعد النبوة ، فإن جرى قلم العالم بالصديقية وسال مداده بها كان أفضل من دم الشهيد الذى لم يلحقه فى رتبة الصديقية، وإن سال دم الشهيد بالصديقية وقطر عليها كان أفضل من مداد العالم الذى قصر عنها، فأفضلهما صديقهما ، فإن استويا فى الصديقية استويا فى المرتبة ، والله أعلم. والصديقية هى كمال الإيمان بما جاء به الرسول ، علماً وتصديقا وقياما به ، فهى راجعة إلى نفس العلم، فكل من كان أعلم بما جاء به الرسول وأكمل تصديقا له كان أتم صديقية، فالصديقية شجرة أصولها العلم، وفروعها التصديق ، وثمرتها العمل ، فهذه كلمات جامعة فى مسألة العالم والشهيد وأيهما أفضل [(١)].

## فصل
## فى المفاضلة بين العلم والمال

وفضل العلم على المال يعلم من وجوه:

**أحدها**: أن العلم ميراث الأنبياء ، والمال ميراث الملوك والأغنياء.

**والثانى**: أن العلم يحرس صاحبه، وصاحب المال يحرس ماله.

**والثالث**: أن المال تذهبه النفقات ، والعلم يزكو على النفقة.

**الرابع**: أن صاحب المال إذا مات فارقه ماله، والعلم يدخل معه قبره.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٨٠ ، ٨١).

**الخامس**: أن العلم حاكم على المال، والمال لا يحكم على العلم.

**السادس**: أن المال يحصل للمؤمن والكافر والبر والفاجر، والعلم النافع لا يحصل إلا للمؤمن.

**السابع**: أن العالم يحتاج إليه الملوك فمن دونهم، وصاحب المال إنما يحتاج إليه أهل العدم والفاقة.

**الثامن**: أن النفس تشرف وتزكو بجمع العلم وتحصيله وذلك من كمالها وشرفها، والمال يزكيها ولا يكملها ولا يزيدها صفة كمال، بل النفس تنقص وتشح وتبخل بجمعه والحرص عليه، فحرصها على العلم عين كمالها، وحرصها على المال عين نقصها.

**التاسع**: أن المال يدعوها إلى الطغيان والفخر والخيلاء، والعلم يدعوها إلى التواضع والقيام بالعبودية، فالمال يدعوها إلى صفات الملوك، والعلم يدعوها إلى صفات العبيد.

**العاشر**: أن العلم جاذب موصل لها إلى سعادتها التى خلقت لها، والمال حجاب بينها وبينها.

**الحادى عشر**: أن غنى العلم أجلّ من غنى المال، فإن غنى المال غنى بأمر خارجى عن حقيقة الإنسان، لو ذهب فى ليلة أصبح فقيرا معدما، وغنى العلم لا يخشى عليه الفقر، بل هو فى زيادة أبداً، فهو الغنى العالى حقيقة، كما قيل:

غنيت بلا مال عن الناس كلهم وإن الغنى العالى عن الشىء لا به

**الثانى عشر**: أن المال يستعبد محبه وصاحبه فيجعله عبداً له، كما قال النبى ﷺ: «تعس عبد الدينار والدرهم...» الحديث [1]، والعلم يستعبده لربه وخالقه، فهو لا يدعوه إلا إلى عبودية الله وحده.

**الثالث عشر**: أن حب العلم وطلبه أصل كل طاعة، وحب الدنيا والمال وطلبه أصل كل سيئة.

**الرابع عشر**: أن قيمة الغنى ماله، وقيمة العالم علمه. فهذا متقوم بماله، فإذا عدم ماله عدمت قيمته، وبقى بلا قيمة، والعالم لا تزول قيمته بل هى فى تضاعف وزيادة دائما.

**والخامس عشر**: أن جوهر المال من جنس جوهر البدن، وجوهر العلم من جنس جوهر الروح، كما قال يونس بن حبيب: علمك من روحك، ومالك من بدنك، والفرق بين الأمرين كالفرق بين الروح والبدن.

**السادس عشر**: أن العالم لو عرض عليه بحظه من العلم الدنيا بما فيها لم يرضها عوضاً

---

(١) البخارى (٢٨٨٦) فى الجهاد: ، باب: الحراسة فى الغزو فى سبيل الله، وابن ماجه(٤١٣٥) فى الزهد، باب: فى المكثرين.

من علمه، والغنى العاقل إذا رأى شرف العلم وفضله وابتهاجه بالعلم وكماله به يود لو أن له علمه بغناه أجمع.

**السابع عشر**: أنه ما أطاع الله أحد قط إلا بالعلم، وعامة من يعصيه إنما يعصيه بالمال.

**الثامن عشر**: أن العالم يدعو الناس إلى الله بعلمه وحاله، وجامع المال يدعوهم إلى الدنيا بحاله وماله.

**التاسع عشر**: أن غنى المال قد يكون سبب هلاك صاحبه كثيراً، فإنه معشوق النفوس، فإذا رأت من يستأثر بمعشوقها عليها سعت فى هلاكه كما هو الواقع، وأما غنى العلم فسبب حياة الرجل وحياة غيره به، والناس إذا رأوا من يستأثر عليهم به ويطلبه أحبوه وخدموه وأكرموه.

**العشرون**: أن اللذة الحاصلة من غنى، إما لذة وهمية وإما لذة بهيمية، فإن صاحبه التذ بنفس جمعه وتحصيله فتلك لذة وهمية خيالية، وإن التذ بإنفاقه فى شهواته فهى لذة بهيمية، وأما لذة العلم فلذة عقلية روحانية، وهى تشبه لذة الملائكة وبهجتها، وفرق ما بين اللذتين.

**الحادى والعشرون**: أن عقلاء الأمم مطبقون على ذم الشره فى جمع المال الحريص عليه، وتنقصه والإزراء به، ومطبقون على تعظيم الشره فى جمع العلم وتحصيله، ومدحه ومحبته، ورؤيته بعين الكمال.

**الثانى والعشرون**: أنهم مطبقون على تعظيم الزاهد فى المال، المعرض عن جمعه؛ الذى لا يلتفت إليه، ولا يجعل قلبه عبداً له، ومطبقون على ذم الزاهد فى العلم الذى لا يلتفت إليه، ولا يحرص عليه.

**الثالث والعشرون**: أن المال يمدح صاحبه بتخليه منه وإخراجه، والعلم إنما يمدح بتخليه به واتصافه به.

**الرابع والعشرون**: أن غنى المال مقرون بالخوف والحزن، فهو حزين قبل حصوله، خائف بعد حصوله، وكلما كان أكثر كان الخوف أقوى، وغنى العلم مقرون بالأمن والفرح والسرور.

**الخامس والعشرون**: أن الغنى بماله لابد أن يفارقه غناه ويتعذب ويتألم بمفارقته، والغنى بالعلم لا يزول ولا يتعذب صاحبه ولا يتألم، فلذة الغنى بالمال لذة زائلة منقطعة يعقبها الألم، ولذة الغنى بالعلم لذة باقية مستمرة لا يلحقها ألم.

**السادس والعشرون**: أن استلذاذ النفس وكمالها بالغنى استكمال بعارية مؤداة، فتجملها بالمال تجمل بثوب مستعار، لابد أن يرجع إلى مالكه يوما ما، وأما تجملها بالعلم

وكمالها به فتجمل بصفة ثابتة لها ،راسخة فيها لا تفارقها.

**السابع والعشرون:** أن الغنى بالمال هو عين فقر النفس ، والغنى بالعلم هو غناها الحقيقى، فغناها بعلمها هو الغنى ،وغناها بمالها هو الفقر.

**الثامن والعشرون:** أن من قدم وأكرم لماله إذا زال ماله زال تقديمه وإكرامه،ومن قدم وأكرم لعلمه لا يزداد إلا تقديما وإكراما.

**التاسع والعشرون:** أن تقديم الرجل لماله هو عين ذمه، فإنه نداء عليه بنقصه،وأنه لولا ماله لكان مستحقاً للتأخر والإهانة،وأما تقديمه وإكرامه لعلمه فإنه عين كماله، إذ هو تقديم له بنفسه وبصفته القائمة به ،لا بأمر خارج عن ذاته.

**الوجه الثلاثون:** أن طالب الكمال بغنى المال كالجامع بين الضدين،فهو طالب ما لاسبيل له إليه ، وبيان ذلك: أن القدرة صفة كمال ، وصفة الكمال محبوبة بالذات ، والاستغناء عن الغير أيضا صفة كمال محبوبة بالذات ،فإذا مال الرجل بطبعه إلى السخاوة والجود وفعل المكرمات فهذا كمال مطلوب للعقلاء ، محبوب للنفوس وإذا التفت إلى أن ذلك يقتضى خروج المال من يده ، وذلك يوجب نقصه واحتياجه إلى الغير،وزوال قدرته ،نفرت نفسه عن السخاء والكرم والجود واصطناع المعروف ، وظن أن كماله فى إمساك المال،وهذه البلية أمر ثابت لعامة الخلق لا ينفكون عنها،فلأجل ميل الطبع إلى حصول المدح والثناء والتعظيم بحب الجود والسخاء والمكارم ، ولأجل فوت القدرة الحاصلة بسبب إخراجه والحاجة المنافية لكمال الغنى يحب إبقاء ماله،ويكره السخاء والكرم والجود،فيبقى قلبه واقفاً بين هذين الداعيين ،يتجاذبانه ويعتوران عليه، فيبقى القلب فى مقام المعارضة بينهما ، فمن الناس من يترجح عنده جانب البذل والجود والكرم، فيؤثره على الجانب الآخر.ومنهم من يترجح عنده جانب الإمساك وبقاء القدرة والغنى ،فيؤثره فهذان نظران للعقلاء.ومنهم من يبلغ به الجهل والحماقة إلى حيث يريد الجمع بين الوجهين ، فيعد الناس بالجود والسخاء والمكارم طمعاً منه فى فوزه بالمدح والثناء على ذلك ، وعند حضور الوقت لا يفى بما قال فيستحق الذم، ويبذل بلسانه ويمسك بقلبه ويده ، فيقع فى أنواع القبائح والفضائح.

وإذا تأملت أحوال أهل الدنيا من الأغنياء رأيتهم تحت أسر هذه البلية وهم غالباً يبكون ويشكون.وأما غنى العلم فلا يعرض له شيء من ذلك، بل كلما بذله ازداد ببذله فرحاً وسروراً وابتهاجاً،وإن فاتته لذة أهل الغنى وتمتعهم بأموالهم فهم أيضاً قد فاتتهم لذة أهل العلم وتمتعهم بعلومهم وابتهاجهم بها ، فمع صاحب العلم من أسباب اللذة ما هو أعظم وأقوى وأدوم من لذة الغنى، وتعبه فى تحصيله وجمعه وضبطه أقل من تعب جامع المال،فجمعه وألمه دون ألمه، كما قال تعالى للمؤمنين ـ تسلية لهم بما ينالهم من الألم والتعب

فى طاعته ومرضاته: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)﴾ [ النساء ] .

**الحادى والثلاثون**: أن اللذة الحاصلة من المال والغنى إنما هى حال تجدده فقط ، وأما حال دوامه فإما أن تذهب تلك اللذة وإما أن تنقص ، ويدل عليه أن الطبع يبقى طالباً لغنى آخر حريصاً عليه، فهو يحاول تحصيل الزيادة دائما، فهو فى فقر مستمر غير منقض ولو ملك خزائن الأرض ، ففقره وطلبه وحرصه باق عليه، فإنه أحد المنهومين اللذين لا يشبعان، فهو لا يفارقه ألم الحرص والطلب. وهذا بخلاف غنى العلم والإيمان ، فإن لذته فى حال بقائه مثلها فى حال تجدده بل أزيد ، وصاحبها وإن كان لا يزال طالباً للمزيد حريصاً عليه ، فطلبه وحرصه مستصحب للذة الحاصل، ولذة المرجو المطلوب، ولذة الطلب وابتهاجه وفرحه به.

**الثانى والثلاثون**: أن غنى المال يستدعى الإنعام على الناس والإحسان إليهم ، فصاحبه إما أن يسد على نفسه هذا الباب، وإما أن يفتحه عليه، فإن سده على نفسه اشتهر عند الناس بالبعد من الخير والنفع ، فأبغضوه وذموه واحتقروه ، وكل من كان بغيضاً عند الناس حقيراً لديهم كان وصول الآفات والمضرات إليه أسرع من النار فى الحطب اليابس ، ومن السيل فى منحدره. وإذا عرف من الخلق أنهم يمقتونه ويبغضونه ولا يقيمون له وزناً، تألم قلبه غاية التألم، وأحضر الهموم والغموم والأحزان، وإن فتح باب الإحسان والعطاء ، فإنه لا يمكنه إيصال الخير والإحسان إلى كل أحد، فلا بد من إيصاله إلى البعض وإمساكه عن البعض، وهذا يفتح عليه باب العداوة والمذمة من المحروم والمرحوم . أما المحروم فيقول: كيف جاد على غيرى وبخل على، وأما المرحوم فإنه يلتذ ويفرح بما حصل له من الخير والنفع، فيبقى طامعاً مستشرفاً لنظيره على الدوام ، وهذا قد يتعذر غالباً فيفضى ذلك إلى العداوة الشديدة والمذمة؛ ولهذا قيل: اتق شر من أحسنت إليه. وهذه الآفات لا تعرض فى غنى العلم، فإن صاحبه يمكنه بذله للعالم كلهم، واشتراكهم فيه، والقدر المبذول منه باق لآخذه لا يزول، بل يتجر به، فهو كالغنى إذا أعطى الفقير رأس مال يتجر به حتى يصير غنياً مثله.

**الوجه الثالث والثلاثون**: أن جمع المال مقرون بثلاثة أنواع من الآفات والمحن: نوع قبله، ونوع عند حصوله ، ونوع بعد مفارقته.

**فأما النوع الأول**: فهو المشاق والأنكاد والآلام التى لا يحصل إلا بها.

**وأما النوع الثانى**: فمشقة حفظه وحراسته، وتعلق القلب به، فلا يصبح إلا مهموماً، ولا يمسى إلا مغموما ، فهو بمنزلة عاشق مفرط المحبة قد ظفر بمعشوقه، والعيون من كل جانب ترمقه، والألسن والقلوب ترشقه، فأى عيش ولذة لمن هذه حاله، وقد علم أن أعداءه وحساده لا يفترون عن سعيهم فى التفريق بينه وبين معشوقه، وإن لم يظفروا هم به دونه، ولكن

مقصودهم أن يزيلوا اختصاصه به دونهم،فإن فازوا به وإلا استووا فى الحرمان فزال الاختصاص المؤلم للنفوس،ولو قدروا على مثل ذلك مع العالم لفعلوه،ولكنهم لما علموا أنه لا سبيل إلى سلب علمه عمدوا إلى جحده وإنكاره ؛ ليزيلوا من القلوب محبته وتقديمه والثناء عليه،فإن بهر علمه وامتنع عن مكابرة الجحود والإنكار رموه بالعظائم ،ونسبوه إلى كل قبيح ليزيلوا من القلوب محبته ،ويسكنوا موضعها النفرة عنه وبغضه،وهذا شغل السحرة بعينه ،فهؤلاء سحرة بألسنتهم ، فإن عجزوا له عن شيء من القبائح الظاهرة رموه بالتلبيس والتدليس،والدوكرة والرياء،وحب الترفع وطلب الجاه، وهذا القدر من معاداة أهل الجهل والظلم للعلماء مثل الحر والبرد لا بد منه، فلا ينبغى لمن له مسكة عقل أن يتأذى به ،إذ لا سبيل له إلى دفعه بحال فليوطن نفسه عليه،كما يوطنها على برد الشتاء وحر الصيف.

**والنوع الثالث من آفات الغنى** :ما يحصل للعبد مفارقته من تعلق قلبه به،وكونه قد حيل بينه وبينه ،والمطالبة بحقوقه،والمحاسبة على مقبوضه ومصروفه من أين اكتسبه وفى ماذا أنفقه؟وغنى العلم والإيمان مع سلامته من هذه الآفات فهو كفيل بكل لذة وفرحة وسرور، ولكن لا ينال إلا على جسر من التعب والصبر والمشقة.

**الرابع والثلاثون**:أن لذة الغنى بالمال مقرونة بخلطة الناس،ولو لم يكن إلا خدمه وأزواجه وسراريه وأتباعه ، إذ لو انفرد الغنى بماله وحده من غير أن يتعلق بخادم أو زوجة أو أحد من الناس لم يكمل انتفاعه بماله ولا التذاذه به،وإذا كان كمال لذته بغناه موقوفا على اتصاله بالغير ، فذلك منشأ الآفات والآلام ولو لم يكن الا اختلاف الناس وطبائعهم وإرادتهم فقبيح هذا حسن ذاك، ومصلحة ذاك مفسدة هذا ، ومنفعة هذا مضرة ذاك وبالعكس ، فهو مبتلى بهم، فلابد من وقوع النفرة والتباغض والتعادى بينهم وبينه،فإن إرضاءهم كلهم محال،وهو جمع بين الضدين،وإرضاء بعضهم وإسخاط غيره سبب الشر والمعاداة ، وكلما طالت المخالطة ازدادت أسباب الشر والعداوة وقويت ، وبهذا السبب كان الشر الحاصل من الأقارب والعشراء أضعاف الشر الحاصل من الأجانب والبعداء،وهذه المخالطة إنما حصلت من جانب الغنى بالمال،أما إذا لم يكن فيه فضيلة لهم فإنهم يتجنبون مخالطته ومعاشرته،فيستريح من أذى الخلطة والعشرة،وهذه الآفات معدودة فى الغنى بالعلم.

**الخامس والثلاثون**:أن المال لا يراد لذاته وعينه ،فإنه لا يحصل بذاته شيء من المنافع أصلا، فإنه لا يشبع ولايروى ولا يدفئ ولا يمتع ، وإنما يراد لهذا الأشياء،فإنه لما كان طريقا إليها أريد إرادة الوسائل ومعلوم أن الغايات أشرف من الوسائل،فهذه الغايات إذا أشرف منه،وهى مع شرفها بالنسبة إليه ناقصة دنيئة. ،وقد ذهب كثير من العقلاء إلى أنها لا حقيقة لها،وإنما هى دفع الألم فقط،فإن لبس الثياب مثلا إنما فائدته دفع التألم بالحر والبرد والريح

وليس فيها لذة زائدة على ذلك، وكذلك الأكل إنما فائدته دفع ألم الجوع، ولهذا لو لم يجد ألم الجوع لم يستطب الأكل، وكذلك الشرب مع العطش، والراحة مع التعب. ومعلوم أن فى مزاولة ذلك وتحصيله ألما وضرراً، ولكن ضرره وألمه أقل من ضرر ما يدفع به وألمه، فيحتمل الإنسان أخف الضررين دفعا لأعظمهما. وحكى عن بعض العقلاء أنه قيل له ـ وقد تناول قدحا كريها من الدواء: كيف حالك معه؟ قال: أصبحت فى دار بليات ، أدافع آفات بآفات.

وفى الحقيقة، فلذات الدنيا من المآكل والمشارب واللبس والمسكن والمنكح من هذا الجنس، واللذة التى يباشرها الحس ويتحرك لها الجسد وهى الغاية المطلوبة له من لذة المنكح والمأكل شهوتى البطن والفرج، ليس لهما ثالث البتة إلا ماكان وسيلة إليهما وطريقا إلى تحصيلهما ، وهذه اللذة منغصة من وجوه عديدة، منها: أن تصور زوالها وانقضائها وفنائها يوجب تنغصها ، ومنها: أنها ممزوجة بالآفات ، ومعجونة بالآلام، محتاطة بالمخاوف. وفى الغالب تفى آلامها بطيبها، كما قيل:

قايست بين جمالها وفعالها فإذا الملاحة بالقباحة لا تفى

ومنها: الأراذل من الناس وسقطهم يشاركون فيها كبراءهم وعقلاءهم، بل يزيدون عليهم فيها أعظم زيادة وأفحشها، فنسبتهم فيها إلى الأفاضل كنسبة الحيوانات البهيمية إليهم، فمشاركة الأراذل وأهل الخسة والدناءة فيها وزيادتهم على العقلاء فيها مما يوجب النفرة والإعراض عنها، وكثير من الناس حصل له الزهد فى المحبوب والمعشوق منها بهذه الطريق ، وهذا كثير فى أشعار الناس ونثرهم، كما قيل:

سأترك حبها من غير بغض ولـكن لكثرة الشركاء فيـه

إذا وقع الذباب على طعام رفعت يدى ونفسى تشتهيه

وتجتنب الأسود ورود ماء إذا كان الكلاب يلغن فيه

وقيل لزاهد: ما الذى زهدك فى الدنيا؟ فقال: خسة شركائها، وقلة وفائها، وكثرة جفائها. وقيل لآخر فى ذلك، فقال: مامددت يدى إلى شىء منها إلا وجدت غيرى قد سبقنى إليه، فأتركه له.

ومنها: أن الالتذاذ بموقعها إنما هو بقدر الحاجة إليها والتألم بمطالبة النفس لتناولها، وكلما كانت شهوة الظفر بالشىء أقوى كانت اللذة الحاصلة بوجوده أكمل، فلما لم تحصل تلك الشهوة لم تحصل تلك اللذة، فمقدار اللذة الحاصلة فى الحال مساو لمقدار الحاجة والألم والمضرة فى الماضى، وحينئذ يتقابل اللذة الحاصلة والألم المتقدم فيتساقطان، فتصير اللذة كأنها لم توجد، ويصير بمنزلة من شق بطن رجل ثم خاطه وداواه بالمراهم، أو بمنزلة من ضربه عشرة أسواط وأعطاه عشرة دراهم، ولاتخرج لذات الدنيا غالبا عن ذلك، ومثل هذا لا يعد لذة ولا سعادة ولا كمالا ، بل هو بمنزلة قضاء الحاجة من البول والغائط ، فإن الإنسان

يتضرر بثقله، فإذا قضى حاجته استراح منه، فأما أن يعد ذلك سعادة وبهجة ولذة مطلوبة فلا.

ومنها: أن هاتين اللذتين اللتين هما آثر اللذات عند الناس، ولا سبيل إلى نيلهما إلا بما يقترن بهما قبلهما وبعدهما من مباشرة القاذورات، والتألم الحاصل عقيبهما. مثال لذة الأكل، فإن العاقل لو نظر إلى طعامه حال مخالطته ريقه وعجنه به لنفرت نفسه منه، ولو سقطت تلك اللقمة من فيه لنفر طبعه من إعادتها إليه ، ثم إن لذته به إنما تحصل فى مجرى نحو الأربع الأصابع، فإذا فصل عن ذلك المجرى زال تلذذه به، فإذا استقر فى معدته وخالطه الشراب وما فى المعدة من الأجزاء الفضلية فإنه حينئذ يصير فى غاية الخسة، فإن زاد على مقدار الحاجة أورث الأدواء المختلفة على تنوعها، ولولا أن بقاءه موقوف على تناوله لكان تركه ـ والحالة هذه ـ أليق به، كما قال بعضهم:

لولا قضاء جرى نزهت أنملتى     عن أن تلم بمأكول ومشروب

وأما لذة الوقاع فقدرها أبين من أن نذكر آفاته، ويدل عليه أن أعضاء هذه اللذة هى عورة الإنسان التى يستحيا من رؤيتها وذكرها ، وسترها أمر فطر الله عليه عباده، ولا تتم لذة المواقعة إلا بالاطلاع عليها وإبرازها، والتلطخ بالرطوبات المستقذرة المتولدة منها، ثم إن تمامها إنما يحصل بانفصال النطفة وهى اللذة المقصودة من الوقاع، وزمنها يشبه الآن الذى لا ينقسم ، فصعوبة تلك المزاولة والمحاولة والمطاولة والمراوضة والتعب لأجل لذة لحظة كمد الطرف، فأين مقايسة بين هذه اللذة وبين التعب فى طريق تحصيلها. وهذا يدل على أن هذه اللذة ليست من جنس الخيرات والسعادات والكمال الذى خلق له العبد ولا كمال له بدونه، بل ثم أمر وراء ذلك كله قد هيئ له العبد وهو لا يفعلن له، لغفلته عنه، وإعراضه عن التفتيش على طريقه حتى يصل إليه ، يسوم نفسه مع الأنعام السائمة:

قد هيؤوك لأمر لو فطنت له     فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وموقع هذه اللذات من النفس كموقع لذة البراز من رجل احتبس فى موضع لايمكنه القيام إلى الخلاء ، وصار مضطراً إليه ، فإنه يجد مشقة شديدة وبلاء عظيما ، فإذا تمكن من الذهاب إلى الخلاء وقدر على دفع ذلك الخبيث المؤذى ، وجد لذة عظيمة عند دفعه وإرساله ، ولا لذة هناك إلا راحته من حمل ما يؤذيه حمله . فعلم أن هذه اللذات إما أن تكون دفع آلام، وإما أن تكون لذات ضعيفة خسيسة مقترنة بآفات ترى مضرتها عليه، وهذا كما يعقب لذة الوقاع من ضعف القلب، وخفقان الفؤاد، وضعف القوى البدنية والقلبية، وضعف الأرواح، واستيلاء العفونة على كل البدن وإسراع الضعف والخور إليه، واستيلاء الأخلاط عليه لضعف القوة عن دفعها وقهرها.

ومما يدل على أن هذه اللذات ليست خيرات وسعادات وكمالا: أن العقلاء من جميع الأمم مطبقون على ذم من كانت هى نهمته وشغله، ومصرف همته وإرادته، والإزراء به

وتحقير شأنه، وإلحاقه بالبهائم، ولا يقيمون له وزنا ، ولو كانت خيرات وكمالا لكان من صرف إليها همته أكمل الناس. ومما يدل على ذلك أن القلب الذى قد وجه قصده وإرادته إلى هذه اللذات لا يزال مستغرقًا فى الهموم والأحزان، وما يناله من اللذات فى جنب هذه الآلام كقطرة فى بحر، كما قيل: سروره وزن حبة وحزنه قنطار، فإن القلب يجرى مجرى مرآة منصوبة على جدار، وذلك الجدار ممر لأنواع المشتهيات والمللذوذات والمكروهات، وكلما مر به شيء من ذلك ظهر فيه أثره، فإن كان محبوبا مشتهيا مال طبعه إليه، فإن لم يقدر على تحصيله تألم وتعذب بفقده ، وإن قدر على تحصيله تألم فى طريق الحصول بالتعب والمشقة ومنازعة الغير له، ويتألم حال حصوله خوفاً من فراقه، وبعد فراقه خوفا على ذهابه. وإن كان مكروها له ولم يقدر على دفعه، تألم بوجوده ، وإن قدر على دفعه اشتغل بدفعه ففاتته مصلحة راجحة الحصول ، فيتألم لفواتها. فعلم أن هذا القلب أبداً مستغرق فى بحار الهموم والغموم والأحزان، وأن نفسه تضحك عليه وترضيه بوزن ذرة من لذته فيغيب بها عن شهوده القناطير من ألمه وعذابه، فإذا حيل بينه وبين تلك اللذة ولم يبق له إليها سبيل، تجرد ذلك الألم وأحاط به، واستولى عليه من كل جهاته، فقل ماشئت فى حال عبد قد غيب عنه سعده وحظوظه وأفراحه، وأحضر شقوته وهمومه وغمومه وأحزانه، وبين العبد وبين هذه الحال أن ينكشف الغطاء، ويرفع الستر ، وينجلى الغبار، ويحصل ما فى الصدور، فإذا كانت هذه غاية اللذات الحيوانية التى هى غاية جمع الأموال وطلبها، فما الظن بقدر الوسيلة؟

وأما غنى العلم والإيمان فدائم اللذة، متصل الفرحة، مقتض لأنواع المسرة والبهجة، لايزول فيحزن، ولا يفارق فيؤلم ، بل أصحابه كما قال الله تعالى فيهم: ﴿ **لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** (٦٢) ﴾ [ يونس ] .

**السادس والثلاثون**: أن غنى المال يبغض الموت ولقاء الله فإنه لحبه لماله يكره مفارقته ويحب بقاءه ليتمتع به، كما شهد به الواقع. وأما العلم فإنه يحبب للعبد لقاء ربه ، ويزهده فى هذه الحياة النكدة الفانية.

**السابع والثلاثون**: أن الأغنياء يموت ذكرهم بموتهم ، والعلماء يموتون ويبقى ذكرهم، كما قال أمير المؤمنين فى هذا الحديث: مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون مابقى الدهر. فخزان الأموال أحياء كأموات، والعلماء بعد موتهم أموات كأحياء.

**الثامن والثلاثون**: أن نسبة العلم إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، فالروح ميتة حياتها بالعلم، كما أن الجسد ميت حياته بالروح، فالغنى بالمال غايته أن يزيد فى حياة البدن، وأما العلم فهو حياة القلوب والأرواح ، كما تقدم تقريره.

**التاسع والثلاثون**: أن القلب ملك البدن، والعلم زينته وعدته وماله، وبه قوام ملكه، والملك لابد له من عدد وعدة ومال وزينة، فالعلم هو مركبه وعدته وجماله. وأما المال

فغايته أن يكون زينة وجمالا للبدن إذا أنفقه فى ذلك، فإذا خزنه ولم ينفقه لم يكن زينة ولا جمالا بل نقصاً ووبالا. ومن المعلوم أن زينة الملك به وما به قوام ملكه أجل وأفضل من زينة رعيته وجمالهم، فقوام القلب بالعلم كما أن قوام الجسم بالغذاء.

**الوجه الأربعون**: أن القدر المقصود من المال هو ما يكفى العبد ويقيمه، ويدفع ضرورته حتى يتمكن من قضاء جهازه ومن التزود لسفره إلى ربه عز وجل، فإذا زاد على ذلك شغله وقطعه عن السفر وعن قضاء جهازه وتعبية زاده، فكان ضرره عليه أكثر من مصلحته، وكلما ازداد غناه به ازداد تثبيطا وتخلفا عن التجهز لما أمامه. وأما العلم النافع فكلما ازداد منه ازداد فى تعبية الزاد، وقضاء الجهاز، وإعداد عدة المسير. والله الموفق وبه الاستعانة ولا حول ولا قوة إلا به، فعدة هذا السفر هو العلم والعمل، وعدة الإقامة جمع الأموال والادخار، ومن أراد شيئا هيأ له عدته، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)**﴾ [التوبه] (١).

## فصل
## فى تفضيل العمل بالرماح عن الصلاة النافلة

الرماح للمقاتلة بمنزلة الصياصى للوحوش، تدفع بها من يقصدها وتحارب بها، وقد نص الإمام أحمد على أن العمل بالرمح أفضل من الصلاة النافلة فى الأمكنة التى يحتاج فيها إلى الجهاد (٢).

## فصل
## فى المفاضلة بين السماء والأرض

اختلف الناس: هل السماء أشرف من الأرض أم الأرض أشرف من السماء ؟ فالأكثرون على الأول واحتج من فضل الأرض بأن الله أنشأ منها أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين، وبأنها مساكنهم ومحلهم أحياء وأمواتا، وبأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما أراد إظهار فضل آدم للملائكة قال: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [البقرة: ٣٠]، فأظهر فضله عليهم بعلمه واستخلافه فى الأرض، وبأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وضعها بأن جعلها محل بركاته عموما وخصوصاً، فقال: ﴿**وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ**﴾ [فصلت: ١٠]، ووصف الشام بالبركة فى ست آيات ووصف بعضها بأنها مقدسة، ففيها الأرض المباركة والمقدسة والوادى المقدس، وفيها بيته الحرام ومشاعر الحج والمساجد التى هى بيوته ـ سبحانه ـ والطور الذى كلم عليه كليمه ونجيه، وبإقسامه ـ سبحانه ـ بالأرض عموما وخصوصا أكثر

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٢٩ ـ ١٣٦).

(٢) الفروسية (ص ٦٩).

من إقسامه بالسماء، فإنه أقسم بالطور، والبلد الأمين، والتين والزيتون. ولما أقسم بالسماء أقسم بالأرض معها، وبأنه ـ سبحانه ـ خلقها قبل خلق السماء، كما دلت عليه سورة ﴿**حم السجدة**﴾، وبأنها مهبط وحيه، ومستقر كتبه ورسله، ومحل أحب الأعمال إليه وهو الجهاد، والصدقة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومغايظة أعدائه، ونصر أوليائه، وليس فى السماء من ذلك شيء، وبأن ساكنيها من الرسل والأنبياء والمتقين أفضل من سكان السماء من الملائكة ، كما هو مذهب أهل السنة ، فمسكنهم أشرف من مسكن الملائكة ، وبأن ما أودع فيها من المنافع والأنهار والثمار والمعارف والأقوات والحيوان والنبات ماهو من بركاتهم، لم يودع فى السماء مثله ، وبأن الله ـ سبحانه ـ قال : ﴿ **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠)** ﴾ [الذاريات ] . ثم قال: ﴿ **وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)** ﴾ [ الذاريات ] ، فجعل الأرض محل آياته والسماء محل رزقه ، ولو لم يكن له فيها إلا بيته وبيت خاتم أنبيائه ورسله حيا وميتا ، وبأن الأرض جعلها الله قرارا ، وبساطا ، ومهادا ، وفراشا ، وكفاتا ، ومادة للساكن ؛ لملابسه وطعامه وشرابه ومراكبه وجميع آلاته ، ولا سيما إذا أخرجت بركتها وازينت، وأنبتت من كل زوج بهيج.

قال المفضلون للسماء يكفى فى فضلها: أن رب العالمين ـ سبحانه ـ فيها، وأن عرشه وكرسيه فيها، وأن الرفيق الأعلى الذى أنعم الله عليه فيها، وأن دار كرامته فيها، وأنها مستقر أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين يوم الحشر، وأنها مطهرة مبرأة من كل شر وخبث ودنس يكون فى الأرض؛ ولهذا لاتفتح أبوابها للأرواح الخبيثة، ولا يلج ملكوتها، ولأنها مسكن من لا يعصون الله طرفة عين ، فليس فيها موضع أربع أصابع إلا وملك ساجد أوقائم، وبأنها أشرف مادة من الأرض وأوسع وأنور وأصفى وأحسن خلقة وأعظم آيات ، وبأن الأرض محتاجة فى كمالها إليها ولا تحتاج هى إلى الأرض؛ ولهذا جاءت فى كتاب الله فى غالب المواضع مقدمة على الأرض، وجمعت وأفردت الأرض، فبشرفها وفضلها أتى بها مجموعة، وأما الأرض فلم يأت بها إلا مفردة ، وحيث أريد تعدادها قال : ﴿ **وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ** ﴾ [الطلاق : ١٢ ] ، وهذا القول هو الصواب، والله سبحانه وتعالى أعلم [١].

## فصل
## فى أفضل الصبر

كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم الصلاة والسلام ـ على ما نالهم فى الله باختيارهم وفعلهم ومقاومتهم قومهم أكمل من صبر أيوب على ما ناله فى الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبباً عن فعله.

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٢٣، ٢٤).

وكذلك كان صبر إسماعيل الذبيح ،وصبر أبيه إبراهيم ـ عليهما السلام ـ على تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف (١).

## فصل
## فى المفاضلة بين اليقين والحضور

قد اختلف فى تفضيل اليقين على الحضور،والحضور على اليقين. فقيل:الحضور أفضل لأنه وطنات،واليقين خطرات،وبعضهم رجح اليقين وقال:هو غاية الإيمان.والأول رأى أن اليقين ابتداء الحضور ، فكأنه جعل اليقين ابتداء والحضور دواماً.

وهذا الخلاف لايتبين ، فإن اليقين لا ينفك عن الحضور،ولا الحضور عن اليقين ، بل فى اليقين من زيادة الإيمان ومعرفة تفاصيله وشعبه وتنزيلها منازلها ،ماليس فى الحضور،فهو أكمل منه من هذا الوجه،وفى الحضور من الجمعية وعدم التفرقة والدخول فى الفناء ماقد ينفك عنه اليقين ، فاليقين أخص بالمعرفة،والحضور أخص بالإرادة ،والله أعلم (٢).

## فصل
## فى تفاضل العقول

العقل عقلان؛ عقل غريزة:وهو أب العلم ومربيه ومثمره،وعقل مكتسب مستفاد:وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته. فإذا اجتمعا فى العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء،واستقام له أمره،وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب،وإذا فقد أحدهما فالحيوان البهيم أحسن حالا منه،وإذا انفرد انتقص الرجل بنقصان أحدهما.

ومن الناس من يرجح صاحب العقل الغريزى،ومنهم من يرجح صاحب العقل المكتسب . والتحقيق:أن صاحب العقل الغريزى الذى لاعلم ولاتجربة عنده آفته التى يؤتى منها الإحجام وترك انتهاز الفرصة؛لأن عقله يعقله عن انتهاز الفرصة لعدم علمه بها،وصاحب العقل المكتسب يؤتى من الإقدام،فإن علمه بالفرص وطرفها يلقيه على المبادرة إليها،وعقله الغريزى لا يطيق رده عنه ،فهو غالباً يؤتى من إقدامه،والأول من إحجامه،فإذا رزق العقل الغريزى عقلاً إيمانياً مستفاداً من مشكاة النبوة لا عقلاً معيشياً نفاقياً يظن أربابه أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون، فإنهم يرون العقل أن يرضوا الناس على طبقاتهم ويسالموهم،ويستجلبوا مودتهم ومحبتهم،وهذا مع أنه لاسبيل إليه فهو إيثار للراحة والدعة ومؤنة الأذى فى الله والموالاة فيه والمعاداة فيه،وهو وإن كان أسلم عاجلة فهو الهلك فى الآجلة،فإنه ما ذاق طعم الإيمان من لم يوال فى الله ويعاد فيه،فالعقل كل العقل ما أوصل إلى رضا الله ورسوله، والله الموفق المعين (٣).

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٦٩).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٩٩).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١١٧).

# فصل
# فى المفاضلة بين الصبر والشكر

حكى أبو الفرج بن الجوزى فى ذلك ثلاثة أقوال:

**أحدها**: أن الصبر أفضل.

**والثانى**: أن الشكر أفضل.

**والثالث**: أنهما سواء، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت.

ونحن نذكر ما احتجت به كل فرقة، وما لها وعليها فى احتجاجها، بعون الله وتوفيقه.

**قال الصابرون**: قد أثنى الله ـ سبحانه ـ على الصبر وأهله، ومدحه، وأمر به، وعلق عليه خير الدنيا والآخرة، وقد ذكره الله فى كتابه فى نحو تسعين موضعاً.

ويكفى فى فضله قوله ﷺ: « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر »[1]، فذكر ذلك فى معرض تفضيل الصبر ورفع درجته على الشكر؛ فإنه ألحق الشاكر بالصابر وشبهه به، ورتبة المشبه به أعلى من رتبة المشبه. وهذا كقوله: « مدمن الخمر كعابد وثن »[2]، ونظائر ذلك.

قالوا: وإذا وازنا بين النصوص الواردة فى الصبر والواردة فى الشكر وجدنا نصوص الصبر أضعافها. ولهذا لما كانت الصلاة والجهاد أفضل الأعمال كانت الأحاديث فيهما فى سائر الأبواب، فلا تجد الأحاديث النبوية فى باب أكثر منها فى باب الصلاة والجهاد.

قالوا: وأيضاً، فالصبر يدخل فى كل باب، بل فى كل مسألة من مسائل الدين؛ ولهذا كان من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

قالوا: وأيضاً، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ علق على الشكر الزيادة، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [ابراهيم:٧]. وعلق على الصبر الجزاء بغير حساب. وأيضاً، فإنه ـ سبحانه ـ أطلق جزاء الشاكرين، فقال: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾ [آل عمران]، وقيد جزاء الصابرين بالإحسان، فقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [النحل].

---

(١) الترمذى (٢٤٨٦) فى صفة القيامة والرقائق والورع، باب: (٤٣)، وقال « هذا حديث حسن غريب »، وأحمد (٤/ ٣٤٣).

(٢) النسائى (٢٥٦٢) فى الزكاة، باب: المنان بما أعطى، وابن ماجه (٣٣٧٥) فى الأشربة، باب: مدمن الخمر، وفى الزوائد: « محمد بن سليمان ضعفه النسائى وابن عدى... إلخ »، وأحمد (١/ ٢٧٢).

قالوا: وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى: « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم؛ فإنه لى وأنا أجزى به » (١). وفى لفظ: « كل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به». وما ذاك إلا لأنه صبر النفس ومنعها من شهواتها، كما فى الحديث نفسه: « يدع شهوته وطعامه وشرابه من أجلى» (٢). ولهذا قال النبى ﷺ ـ لمن سأله عن أفضل الأعمال: « عليك بالصوم؛ فإنه لا عدل له» (٣).

ولما كان الصبر حبس النفس عن إجابة داعى الهوى، وكان هذا حقيقة الصوم، فإنه حبس النفس عن إجابة داعى شهوة الطعام والشراب والجماع، فسر الصبر فى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] أنه الصوم. وسمى رمضان شهر الصبر. وقال بعض السلف: الصوم نصف الصبر. وذلك أن الصبر حبس النفس عن إجابة داعى الشهوة والغضب؛ فإن النفس تشتهى الشىء لحصول اللذة بإدراكه وتغضب لنفرتها من المؤلم لها، والصوم صبر عن مقتضى الشهوة فقط، وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب. ولكن من تمام الصوم وكماله صبر النفس عن إجابة داعى الأمرين. وقد أشار إلى ذلك النبى ﷺ فى الحديث الصحيح، وهو قوله: « إذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يجهل، ولا يصخب، فإن أحداً سابه أو شاتمه، فليقل: إنى صائم » (٤)، فأرشد ﷺ إلى تعديل قوى الشهوة والغضب، وأن الصائم ينبغى له أن يحتمى من إفسادهما لصومه، فهذه تفسد صومه، وهذه تحبط أجره، كما قال فى الحديث الآخر: « من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » (٥).

قالوا: ويكفى فى فضل الصبر على الشكر قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)﴾ [المؤمنون] ؛ فجعل فوزهم جزاء صبرهم، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ [البقرة]، لا شىء يعدل معيته لعبده، كما قال بعض العارفين: ذهب الصابرون بخير الدنيا والآخرة؛ لأنهم نالوا معية الله. وقال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ

---

(١) البخارى (٥٩٢٧) فى اللباس، باب: مايذكر فى المسك، ومسلم (١١٥١/ ١٦١) فى الصيام، باب: حفظ اللسان للصائم.

(٢) ابن ماجه (١٦٣٨) فى الصيام، باب: ماجاء فى فضل الصيام، وأحمد (٢/ ٤٤٣).

(٣) النسائى (٢٢٢٢) فى فضل الصيام، باب: ذكر الاختلاف على محمد بن أبى يعقوب، وأحمد (٥/ ٢٤٩).

(٤) مسلم (١١٥١/ ١٦٣) فى الصيام، باب: فضل الصيام، وابن ماجه (١٦٩١) فى الصيام، باب: ماجاء فى الغيبة والرفث للصائم، وأحمد (٢/ ٣٥٦).

(٥) البخارى (١٩٠٣) فى الصوم، باب: من لم يدع قول الزور والعمل به فى الصوم، والترمذى (٧٠٧) فى الصوم، باب: ماجاء فى التشديد فى الغيبة للصائم، وقال: « حسن صحيح »، وأحمد (٢/ ٤٥٢).

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨] ، وهذا يتضمن الحراسة والكلاءة والحفظ ؛ للصبر لحكمه.

وقد وعد الصابرين بثلاثة أشياء،كل واحد خير من الدنيا وما عليها ،وهى صلواته تعالى عليهم ورحمته لهم،وتخصيصهم بالهداية فى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ [ البقرة ] ، وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم،وأخبر أن الصبر من عزم الأمور فى آيتين من كتابه ، وأمر رسوله أن يتشبه بصبر أولى العزم من الرسل، وقد تقدم ذكر ذلك.

قالوا: وقد دل الدليل على أن الزهد فى الدنيا والتقلل منها مهما أمكن أفضل من الاستكثار منها،والزهد فيها حال الصابر،والاستكثار منها حال الشاكر،قالوا: وقد سئل المسيح ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عن رجلين مرا بكنز ، فتخطاه أحدهما ولم يلتفت إليه،وأخذه الآخر وأنفقه فى طاعة الله تعالى ،أيهما أفضل؟فقال: الذى لم يلتفت إليه وأعرض عنه أفضل عند الله.

قالوا: ويدل على صحة هذا أن النبى ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فلم يأخذها،وقال: « بل أجوع يوماً وأشبع يوماً » (١)،ولو أخذها لأنفقها فى مرضاة الله وطاعته،فآثر مقام الصبر عنها والزهد فيها.

قالوا: وقد علم أن الكمال الإنسانى فى ثلاثة أمور: علوم يعرفها،وأعمال يعمل بها،وأحوال ترتب له على علومه وأعماله .وأفضل العلم والعمل والحال: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله،والعمل بمرضاته ، وانجذاب القلب إليه بالحب والخوف والرجاء. فهذا أشرف ما فى الدنيا،وجزاؤه أشرف ما فى الآخرة،وأجل المقاصد معرفة الله ومحبته والأنس بقربه،والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره. وهذا أجل سعادة الدنيا والآخرة، وهذا هو الغاية التى تطلب لذاتها،وإنما يشعر العبد تمام الشعور بأن ذلك عين السعادة إذا انكشف له الغطاء وفارق الدنيا ودخل الآخرة،وإلا فهو فى الدنيا. وإن شعر بذلك ببعض الشعور. فليس شعوره به كاملاً ؛للمعارضات التى عليه،والمحن التى امتحن بها،وإلا فليست السعادة فى الحقيقة سوى ذلك. وكل العلوم والمعارف تبع لهذه المعرفة مرادة لأجلها ، وتفاوت العلوم فى فضلها بحسب إفضائها إلى هذه المعرفة وبعدها؛فكل علم كان أقرب إفضاء إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته، فهو أعلى مما دونه وكذلك حال القلب،فكل حال كان أقرب إلى المقصود الذى خلق له ، فهو أشرف مما دونه ، وكذلك الأعمال،فكل عمل كان أقرب إلى تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره. ولهذا كانت الصلاة والجهاد من أفضل الأعمال لقرب إفضائها إلى المقصود. وهكذا يجب أن يكون؛فإن كلما كان الشىء أقرب إلى الغاية كان أفضل من البعيد عنها. فالعمل المعد للقلب المهيئ له لمعرفة الله وأسمائه

(١) الترمذى (٢٣٤٧) فى الزهد،باب: ماجاء فى الكفاف والصبر عليه،وقال: « حسن ».

وصفاته ومحبته وخوفه ورجائه أفضل مما ليس كذلك. وإذا اشتركت عدة أعمال فى هذا الإفضاء، فأفضلها أقربها إلى هذا المفضى. ولهذا اشتركت الطاعات فى هذا الإفضاء، فكانت مطلوبة لله. واشتركت المعاصى فى حجب القلب وقطعه عن هذه الغاية، فكانت منهياً عنها. وتأثير الطاعات والمعاصى بحسب درجاتها.

وها هنا أمر ينبغى التفطن له ،وهو أنه قد يكون العمل المعين أفضل منه فى حق غيره؛ فالغنى الذى بلغ له مال كثير ونفسه لا تسمح ببذل شىء منه، فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة. والشجاع الشديد الذى يهاب العدو سطوته ، وقوفه فى الصف ساعة وجهاده أعداء الله أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع. والعالم الذى قد عرف السنة والحلال والحرام وطرق الخير والشر، مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم فى دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح. وولى الأمر الذى قد نصبه الله للحكم بين عباده ،جلوسه ساعة للنظر فى المظالم ، وإنصاف المظلوم من الظالم، وإقامة الحدود ،ونصر المحق ، وقمع المبطل ، أفضل من عبادة سنين من غيره. ومن غلبت عليه شهوة النساء، فصومه له أنفع وأفضل من ذكر غيره وصدقته. وتأمل تولية النبى ﷺ لعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما من أمرائه وعماله ،وترك تولية أبى ذر ، بل قال له: « إنى أراك ضعيفاً ،وإنى أحب لك ما أحب لنفسى: لا تؤمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم » [1] ، وأمره وغيره بالصيام ، وقال : « عليك بالصوم ؛ فإنه لا عدل له » [2]، وأمر آخر بألا يغضب [3]، وأمر ثالثاً بألا يزال لسانه رطباً من ذكر الله [4]. ومتى أراد الله بالعبد كمالاً وفقه لاستفراغ وسعه فيما هو مستعد له قابل له قد هيئ له؛ فإذا استفرغ وسعه بز على غيره وفاق الناس فيه، كما قيل:

ما زال يسبق حتى قال حاسده    هذا طريق إلى العلياء مختصر

وهذا كالمريض الذى يشكو وجع البطن مثلاً، إذا استعمل دواء ذلك الداء انتفع به، وإذا استعمل دواء وجع الرأس لم يصادف داءه. فالشح المطاع مثلاً من المهلكات ولا يزيله صيام مائة عام ولا قيام ليلها. وكذلك داء اتباع الهوى والإعجاب بالنفس، لا يلائمه كثرة قراءة القرآن واستفراغ الوسع فى العلم والذكر والزهد، وإنما يزيله إخراجه من القلب بضده. ولو

(١) مسلم (١٨٢٦/ ١٧) فى الإدارة، باب: كراهة الإمارة لغير ضرورة ، وأبو داود (٢٨٦٨) فى الوصايا، باب: ماجاء فى الدخول فى الوصايا، والنسائى (٣٦٦٧) فى الوصايا، باب :النهى عن الولاية على مال اليتيم.

(٢) سبق تخريجه ص ٣٨٨ .

(٣) البخارى (٦١١٦) فى الأدب ، باب: وقال الله تعالى: ﴿ **جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** ﴾، والترمذى (٢٠٢٠) فى البر والصلة، باب: ماجاء فى كثرة الغضب ، وقال: « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وأحمد (٢/ ٣٦٢).

(٤) الترمذى (٣٣٧٥) فى الدعوات ، باب: ماجاء فى فضل الذكر، وقال: « هذا حديث غريب من هذا الوجه»، وأحمد (٤/ ١٨٨) .

قيل: أفضل: الخبز أو الماء؟ لكان الجواب: أن هذا فى موضعه أفضل ، وهذا فى موضعه أفضل.

وإذا عرفت هذه القاعدة، فالشكر ببذل المال عمل صالح يحصل به للقلب حال، وهو زوال البخل والشح بسبب خروج الدنيا منه؛ فتهييء لمعرفة الله ومحبته. فهو دواء للداء الذى فى القلب يمنعه من المقصود. وأما الفقير الزاهد، فقد استراح من هذا الداء والدواء، وتوفرت قوته على استفراغ الوسع فى حصول المقصود.

ثم أوردوا على أنفسهم سؤالاً، فقالوا: فإن قيل: فقد حث الشرع على الأعمال وانفصلوا عنه بأن قالوا الطبيب: إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء يراد لعينه، ولا أنه أفضل من الشفاء الحاصل به. ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب، ومرض القلوب مما لا يشعر به غالباً ؛فوقع الحث على العمل المقصود ، وهو شفاء القلب . فالفقير الآخذ لصدقتك يستخرج منك داء البخل ، كالحجام يستخرج منك الدم المهلك.

قالوا: وإذا عرف هذا عرف أن حال الصابر حال المحافظ على الصحة والقوة ، حال الشاكر وحال المتداوى بأنواع الأدوية لإزالة مواد السقم.

## فصل

قال الشاكرون: لقد تعديتم طوركم ، وفضلتم مقاماً غيره أفضل منه، وقدمتم الوسيلة على الغاية ، والمطلوب لغيره على المطلوب لنفسه ، والعمل الكامل على الأكمل، والفاضل على الأفضل ، ولم تعرفوا للشكر حقه، ولا وفيتموه مرتبته ، وقد قرن تعالى ذكره الذى هو المراد من الخلق بذكره ، وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر ، والصبر خادم لهما ، ووسيلة إليهما، وعوناً عليهما، وقال تعالى: **﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ(١٥٢)﴾** [ البقرة].

وقرن سبحانه الشكر بالإيمان ، وأخبر أنه لا غرض له فى عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به ، فقال : **﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾** [ النساء: ١٤٧]، أى إن وفيتم ما خلقتم له، وهو الشكر والإيمان ، فما أصنع بعذابكم ؟!.

هذا وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده، فقال: **﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ(٥٣)﴾** [ الأنعام ].

وقسم الناس إلى شكور وكفور ، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله ، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى فى الإنسان: **﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) ﴾** [الإنسان ].

وقال نبيه سليمان: **﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾** [النمل ].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ [إبراهيم ]

وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧].

وهذا كثير في القرآن، يقابل ـ سبحانه ـ بين الشكر والكفر فهو ضده ، قال تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ(١٤٤)﴾ [آل عمران ]. الشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان ، فلم ينقلبوا على أعقابهم.

وعلق ـ سبحانه ـ المزيد بالشكر ، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره.

وقد وقف ـ سبحانه ـ كثيراً من الجزاء على المشيئة، كقوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ [التوبة:٢٨] ، وقوله في الإجابة: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ [الأنعام:٤١] ، وقوله في الرزق : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ﴾ [ البقرة : ٢١٢ ] ، وفي المغفرة : ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [آل عمران : ١٢٩]، والتوبة: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ [التوبة:١٥]، وأطلق جزاء الشكر إطلاقاً حيث ذكر ، كقوله : ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)﴾ [آل عمران:١٤٥] ، ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ(١٤٤) ﴾ [آل عمران ] .

ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر ، أنه من أجل المقامات وأعلاها ، جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه؛ فقال : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ(١٧)﴾ [الأعراف ].

ووصف الله ـ سبحانه ـ الشاكرين بأنهم قليل من عباده ، فقال تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(١٣)﴾ [سبأ ].

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ، أنه سمع رجلاً يقول : اللهم اجعلني من الأقلين. فقال : ما هذا ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله قال: ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ(٤٠)﴾ [هود ]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(١٣)﴾[سبأ ]، وقال: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤] ؛ فقال عمر: صدقت.

وقد أثنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر، فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا(٣)﴾ [الإسراء ]. وفي تخصيص نوح ها هنا بالذكر ، وخطاب العباد بأنهم ذريته ، إشارة إلى الاقتداء به ؛ فإنه أبوهم الثاني؛ فإن الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلاً إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ(٧٧)﴾ [الصافات ]. فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر ؛ فإنه كان عبداً شكوراً.

وقد أخبر ـ سبحانه ـ إنما يعبده من شكره ؛فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته؛ فقال: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)﴾ [البقرة ].

وأمر عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر، فقال تعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾ [ الإعراف ].

وأول وصية وصى بها الإنسان بعدما عقل عنه بالشكر له وللوالدين ، فقال : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)﴾ [ لقمان ].

وأخبر أن رضاه فى شكره، فقال: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧].

وأثنى ـ سبحانه ـ على خليله إبراهيم بشكر نعمه ، فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١)﴾ [النحل]، فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة ،أى قدوة يؤتم به فى الخير،وأنه قانتاً لله ، والقانت هو المطيع المقيم على طاعته ،والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه ، ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه ، فجعل الشكر غاية خليله.

وأخبر ـ سبحانه ـ أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره ، بل هو الغاية التى خلق عبيده لأجلها: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [ النحل ]؛فهذه غاية الخلق وغاية الأمر فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)﴾ [ آل عمران ]. ويجوز أن يكون قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تعليلاً لقضائه لهم بالنصر ،ولأمره لهم بالتقوى ،ولهما معاً،وهو الظاهر؛فالشكر غاية الخلق والأمر. وقد صرح ـ سبحانه ـ بأنه غاية أمره وإرساله الرسول فى قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾ [ البقرة ].

قالوا: فالشكر مراد لنفسه ،والصبر مراد لغيره. والصبر إنما حمد لإفضائه وإيصاله إلى الشكر ؛فهو خادم الشكر.

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ:أنه قام حتى تفطرت قدماه ،فقيل له:أتفعل

هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: « أفلا أكون عبداً شكوراً » (١).

وثبت في المسند والترمذي: أن النبي ﷺ قال لمعاذ: « والله إني لأحبك ، فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » (٢).

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا أبو معاوية وجعفر بن عون، عن هشام بن عروة ، قال: كان من دعاء النبي ﷺ: « اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » (٣).

قال: وحدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا المؤمل بن إسماعيل ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا حميد الطويل ، عن طلق بن حبيب ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «أربع من أعطيهن ، فقد أعطى خير الدنيا والآخرة: قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً ، وبدناً على البلاء صابراً ، وزوجة لا تبغيه خوناً في نفسها ولا في مال » (٤).

وذكر أيضاً ، من حديث القاسم بن محمد ، عن عائشة ، عن النبي ﷺ، قال: « ما أنعم الله على عبد نعمة ، فعلم أنها من عند الله، إلا كتب الله له شكرها. وما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر الله له قبل أن يستغفره. وإن الرجل يشترى الثوب بالدينار ، فيلبسه، فيحمد الله ، فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له » (٥).

وقد ثبت في صحيح مسلم، عنه ﷺ أنه قال: « إن الله ليرضى عن العبد: يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها » (٦) . فكان هذا الجزاء العظيم، الذي هو أكبر أنواع الجزاء، كما قال تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢] ، في مقابلة شكره بالحمد.

وذكر ابن أبي الدنيا، من حديث عبدالله بن صالح: حدثنا أبو زهير يحيى بن عطارد القرشي، عن أبيه ، قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يرزق الله عبداً الشكر فيحرمه الزيادة»(٧)؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال الحسن البصري: « إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذاباً». ولهذا كانوا يسمون الشكر « الحافظ »؛ لأنه يحفظ النعم الموجودة ، و« الجالب »؛

(١) البخاري (١١٣٠) في التهجد ، باب: قيام النبي ﷺ الليل ، ومسلم (٢٨١٩/ ٧٩) في صفات المنافقين وأحكامهم، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة.

(٢) أبو داود (١٥٢٢) في الصلاة ، باب: في الاستغفار ولم يعزه صاحب التحفة (٨/ ٤٠٦) إلا لأبي داود والنسائي، وأحمد (٥/ ٢٤٥).

(٣) ابن أبي الدنيا ، في كتاب الشكر رقم (٤).

(٤) ابن أبي الدنيا ، في كتاب الشكر رقم (٣٥).

(٥) ابن أبي الدينا، في كتاب الشكر رقم (٤٧).

(٦) مسلم (٢٧٣٤/ ٨٩) في الذكر والدعاء والاستغفار ، باب: استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب.

(٧) ابن أبي الدنيا ، في كتاب الشكر رقم (٣).

لأنه يجلب النعم المفقودة.

وذكر ابن أبى الدنيا عن على بن أبى طالب ﷺ: أنه قال لرجل من همذان :إن النعمة موصولة بالشكر ،والشكر يتعلق بالمزيد ،وهما مقرونان فى قرن؛فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد.

وقال عمر بن عبدالعزيز:قيدوا نعم الله بشكر الله.

وكان يقال:الشكر قيد النعم.

وقال مطرف بن عبد الله:لأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر.

وقال الحسن :أكثروا من ذكر هذه النعم ،فإن ذكرها شكر. وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه، فقال : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾ [ الضحى ] .والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته؛ فإن ذلك شكرها بلسان الحال.

وقال على بن الجعدى :سمعت سفيان الثورى يقول:إن داود عليه الصلاة والسلام قال:الحمد لله حمداً كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله ،فأوحى الله إليه:يا داود أتعبت الملائكة.

وقال شعبة:حدثنا المفضل بن فضالة ، عن أبى رجاء العطاردى ،قال:خرج علينا عمران بن الحصين وعليه مطرف خز لم نره عليه قبل ولا بعد ،فقال:إن رسول الله ﷺ قال: « إذا أنعم الله على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » (١).

وفى صحيفة عمرو بن شعيب ،عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال: « كلوا واشربوا وتصدقوا فى غير مخيلة ولا سرف ؛فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » (٢).

وذكر شعبة ،عن أبى إسحاق ،عن أبى الأحوص ،عن أبيه ،قال:أتيت رسول الله ﷺ وأنا قشف الهيئة ،فقال: « هل لك من مال ؟» قال:قلت:نعم. قال: « من أى المال؟» قلت:من كل المال قد آتانى الله ؛من الإبل والخيل والرقيق والغنم ،قال: « فإذا آتاك الله مالاً فلير عليك » (٣) .

وفى بعض المراسيل: « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده فى مأكله ومشربه ».

---

(١) الترمذى (٢٨١٩) فى الأدب ،باب:ماجاء أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ،وقال: « حديث حسن ».

(٢) النسائى (٢٥٥٩) فى الزكاة ، باب:الاختيال فى الصدقة ،وابن ماجه (٣٦٠٥) فى اللباس ، باب:البس ما شئت.

(٣) الترمذى (٢٠٠٦) فى البر والصلة ، باب :ماجاء فى الإحسان ،وقال: « حديث حسن صحيح »،وأحمد (١٣٧/٤).

وروى عبد الله بن يزيد المقرى ،عن أبى معمر ،عن بكير بن عبدالله رفعه: « من أعطى خيراً فرؤى عليه سمى حبيب الله محدثاً بنعمة الله ،ومن أعطى خيراً ولم ير عليه سمى بغيض الله معادياً لنعمة الله » (١).

وقال فضيل بن عياض: كان يقال: من عرف نعمة الله بقلبه ،وحمده بلسانه ،لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة ؛لقول الله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم ﴾ [ إبراهيم:٧] . وقال: من شكر النعمة أن يحدث بها.

وقد قال تعالى: « يا بن آدم ،إذا كنت تتقلب فى نعمتى ،وأنت تتقلب فى معصيتى، فاحذرنى لأصرعك بين معاصى ،يا بن آدم اتقنى ونم حيث شئت ».

وقال الشعبى: الشكر نصف الإيمان ،واليقين الإيمان كله.

وقال أبو قلابة: لا تضركم دنيا شكرتموها.

وقال الحسن: إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر ،فإذا شكروه كان قادراً على أن يزيدهم ،وإذا كفروه كان قادراً على أن يبعث نعمته عليهم عذاباً.

وقد ذم الله ـ سبحانه ـ الكنود ،وهو الذى لا يشكر نعمه ؛قال الحسن: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود ۝٦ ﴾ [العاديات ]، يعد المصائب وينسى النعم . وقد أخبر النبى ﷺ أن النساء أكثر أهل النار بهذا السبب. قال: « لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ،ثم رأت منك شيئاً، قالت: مارأيت منك خيراً قط » (٢). فإذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج، وهى فى الحقيقة من الله ،فكيف بمن ترك شكر نعمة الله ؟!

يا أيها الظالم فى فعله والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى تشكو المصيبات وتنسى النعم

ذكر ابن أبى الدنيا من حديث أبى عبد الرحمن السلمى، عن الشعبى ،عن النعمان بن بشير ،قال: قال رسول الله ﷺ : « التحدث بالنعمة شكر وتركها كفر ،ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير ،ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله ،والجماعة بركة ،والفرقة عذاب» (٣).

وقال مطرف بن عبد الله :نظرت فى العافية والشكر ،فوجدت فيهما خير الدنيا والآخرة، ولأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر.

ورأى بكر بن عبد الله المزنى حمالاً عليه حمله ، وهو يقول: الحمد لله ، أستغفر

(١) ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر (٥٤).

(٢) البخارى (٢٩) فى الإيمان ،باب: كفران العشر ، ومسلم (٩٠٧/١٧) فى الكسوف ،باب: ما عرض على النبى (ﷺ) فى صلاة الكسوف .

(٣) ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر رقم (٦٣).

الله، قال: فانتظرته حتى وضع ما على ظهره، وقلت له: أما تحسن غير هذا؟ قال: بلى أحسن خيراً كثيراً؛ أقرأ كتاب الله، غير أن العبد بين نعمة وذنب؛ فأحمد الله على نعمه السابغة، وأستغفره لذنوبى. فقلت: الحمال أفقه من بكر.

وذكر الترمذى، من حديث جابر بن عبدالله ﷺ، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا. فقال: « قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن رداً منكم؛ كنت كلما أتيت على قوله: ﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ [الرحمن]، قالوا: لا بشىء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد » (١).

وقال مشعر: لما قيل لآل داود: ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا**﴾ [سبأ: ١٣]، لم يأت على القوم ساعة إلا وفيهم مصل.

وقال عون بن عبدالله: قال بعض الفقهاء: إنى رأيت فى أمرى، لم أر خيراً إلا شر معه إلا المعافاة والشكر؛ فرب شاكر فى بلائه؛ ورب معافى غير شاكر، فإذا سألتم الله فاسألوهما جيمعاً.

وقال أبو معاوية: لبس عمر بن الخطاب قميصاً، فلما بلغ ترقوته قال: الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى، وأتجمل به فى حياتى. ثم مد يديه، فنظر شيئاً يزيد على يديه فقطعه، ثم أنشأ يحدث، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من لبس ثوباً (أحسبه جديداً) فقال حين يبلغ ترقوته، أو قال قبل أن يبلغ ركبتيه مثل ذلك، ثم عمد إلى ثوبه الخلق فكسا به مسكيناً، لم يزل فى جوار الله، وفى ذمة الله، وفى كنف الله، حياً وميتاً، ما بقى من ذلك الثوب سلك» (٢).

وقال عون بن عبدالله: لبس رجل قميصاً جديداً، فحمد الله، فغفر له. فقال رجل: ارجع حتى أشترى قميصاً فألبسه وأحمد الله.

وقال شريح: ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله فيها ثلاث نعم: ألا تكون كانت فى دينه، وألا تكون أعظم مما كانت، وأنها لابد كائنة فقد كانت.

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: ما قلب عمر بن عبد العزيز بصره إلى نعمة أنعم الله بها عليه إلا قال: اللهم إنى أعوذ بك أن أبدل نعمتك كفراً، وأن أكفرها بعد أن عرفتها، وأن أنساها ولا أثنى بها.

وقال روح بن القاسم: تنسك رجل فقال لا آكل الخبيص لا أقوم بشكره. فقال

---

(١) الترمذى (٣٢٩١) فى تفسير القرآن، باب: ومن سورة الرحمن.

(٢) أبو داود (٤٠٢٠) فى أول كتاب اللباس، والترمذى (٣٥٦٠) فى الدعوات، باب: فى دعاء النبى (ﷺ) وقال: « غريب »، وابن ماجه (٣٥٥٧) فى اللباس، باب: ما يقول الرجل إذا لبس ثوبا جديدا وضعفه الألبانى.

الحسن: هذا أحمق، وهل يقوم بشكر الماء البارد؟

وفى بعض الآثار الإلهية، يقول الله عز وجل: «ابن آدم، خيرى إليك نازل، وشرك إلى صاعد، أتحبب إليك بالنعم، وتتبغض إلى بالمعاصى، ولا يزال ملك كريم قد عرج إلى منك بعمل قبيح».

قال ابن أبى الدنيا: حدثنى أبو على، قال: كنت أسمع جاراً لى يقول فى الليل: يا إلهى، خيرك على نازل وشرى إليك صاعد، كم من ملك كريم قد صعد إليك منى بعمل قبيح، وأنت مع غناك عنى تتحبب إلىَّ بالنعم، وأنا مع فقرى إليك وفاقتى أتمقت إليك بالمعاصى، وأنت فى ذلك تخبرنى وتسترنى وترزقنى.

وكان أبو المغيرة إذا قيل له: كيف أصبحت يا أبا محمد؟ قال: أصبحنا مغرقين فى النعم، عاجزين عن الشكر، يتحبب إلينا ربنا وهو غنى عنا، ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون.

وقال عبدالله بن ثعلبة: إلهى من كرمك أنك تطاع ولا تعصى، ومن حلمك أنك تعصى وكأنك لا ترى، وأى زمن لم يعصك فيه سكان أرضك وأنت بالخير عواد.

وكان معاوية بن قرة إذا لبس ثوباً جديداً قال: بسم الله والحمد لله.

وقال أنس بن مالك: ما من عبد توكل بعبادة الله إلا عزم الله السموت والأرض تعبر رزقه، فجعله فى أيدى بنى آدم يعملونه حتى يدفع عنه إليه. فإن العبد قبله أوجب عليه الشكر، وإن أباه وجد الغنى الحميد عباداً فقراء يأخذون رزقه ويشكرون له.

وقال يونس بن عبيد: قال رجل لأبى تميمة: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بين نعمتين، ولا أدرى أيتهما أفضل: ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يعيرنى بها أحد، ومودة قذفها الله فى قلوب العباد لا يبلغها عملى.

وروى ابن أبى الدنيا: عن سعيد المقبرى، عن أبيه، عن عبدالله بن سلام: أن موسى عليه السلام قال: يا رب، ما الشكر الذى ينبغى لك؟ قال: لا يزال لسانك رطباً من ذكرى.

وروى سهيل بن أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة رضي الله عنه، قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبى ﷺ، فانطلقنا معه، فلما طعم وغسل يديه، قال: «الحمد لله الذى يطعم ولا يطعم، من علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا، وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع ربى ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه، الحمد الذى أطعم من الطعام، وسقى من الشراب وكسى من العرى، وهدى من الضلالة، وبصر من العمى، وفضل على كثير من خلقه تفضيلاً؛ الحمد لله رب العالمين» (١).

---

(١) النسائى فى السنن الكبرى (١٠١٣٣) فى عمل اليوم والليلة، باب: مايقول إذا غسل يديه، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٤٦) وقال: «صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى وابن حبان (٥١٩٦)، وابن أبى الدنيا، فى كتاب الشكر رقم (١٥).

وفى مسند الحسن بن الصلاح ،من حديث أنس بن مالك ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: « ما أنعم الله على عبد نعمة فى أهل ولا مال أو ولد، فيقول :ما شاء الله لا قوة إلا بالله ،فيرى فيه آفة دون الموت » (١).

ويذكر عن عائشة :أن النبى ﷺ دخل عليها ،فرأى كسرة ملقاة فمسحها ،وقال: « يا عائشة، أحسنى جوار نعم الله؛ فإنها قلما نفرت عن أهل بيت فكادت أن ترجع إليهم »، ذكره ابن أبى الدنيا (٢).

وقال الإمام أحمد :حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا صالح ،عن أبى عمران الجونى ، عن أبى الخلد ،قال: قرأت فى مسألة داود أنه قال: « يا رب ،كيف لى أن أشكر وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمك؟ .قال: فأتاه الوحى: يا داود أليس تعلم أن الذى بك من النعم منى؟ قال: بلى يا رب. قال: فإنى أرضى بذلك منك شكراً » (٣).

وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا أبو موسى الأنصارى ،حدثنا أبو الوليد ،عن سعيد بن عبد العزيز ، قال: كان دعاء داود: «سبحان مستخرج الشكر بالعطاء، ومستخرج الدعاء بالبلاء».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية ،حدثنى الأعمش ،عن المنهال ،عن عبد الله بن الحارث ، قال : أوحى الله إلى داود : « أحبنى ، وأحب عبادتى ، وحببنى إلى عبادى. قال : يارب هذا حبك وحب عبادتك. فكيف أحببك إلى عبادك ؟ قال: تذكرنى عندهم؛ فإنهم لا يذكرون منى إلا الحسن؛ فجل جلال ربنا ،وتبارك اسمه ،وتعالى جده، وتقدست أسماؤه ،وجل ثناؤه، ولا إله غيره ».

وقال أحمد: حدثنا عبدالرزاق بن عمران ،قال: سمعت وهبا يقول: وجدت فى كتاب آل داود: « بعزتى ، إن من اعتصم بى ،فإن كادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن ، فإنى أجعل له من بين ذلك مخرجاً. ومن لم يعتصم بى ،فإنى أقطع يديه من أسباب السماء، وأخسف به من تحت قدميه الأرض ،فأجعله فى الهواء ،ثم أكله إلى نفسه. كفى بى لعبدى مالاً؛ إذا كان عبدى فى طاعتى أعطيته قبل أن يسألنى ،وأجبته قبل أن يدعونى ،وإنى أعلم بحاجته التى ترفق به نفسه ».

وقال أحمد: حدثنا يسار، حدثنا حفص، حدثنا ثابت ،قال: كان داود عليه السلام قد جزأ

---

(١) الطبرانى فى الأوسط (٤٢٦١) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/١٤٣) : « فيه عبد الملك بن زرارة وهو ضعيف » ، والبيهقى فى االشعب (٤٣٦٩) ،وابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر رقم (١).

(٢) ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر رقم (٢).

(٣) البيهقى فى الشعب (٤٤١٤)، وابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر رقم (٥).

ساعات الليل والنهار على أهله ،فلم يكن ساعة من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى فيها. قال: فعمهم تبارك وتعالى فى هذه الآية: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [ سبأ ].

قال أحمد: وحدثنا جابر بن زيد ،عن المغيرة بن عيينة ،قال داود: يارب هل بات أحد من خلقك الليلة أطول ذكراً لك منى؟ فأوحى الله إليه: نعم ،الضفدع. وأنزل الله عليه: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [ سبأ ]. قال: يارب ،كيف أطيق شكرك ، وأنت الذى تنعم على ، ثم ترزقنى على النعمة الشكر ، ثم تزيدنى نعمة بعد نعمة؛ فالنعم منك ،والشكر منك؛ فكيف أطيق شكرك ؟ قال: الآن عرفتنى يا داود.

قال أحمد :وحدثنا عبد الربيع بن صبيح ،عن الحسن ،قال: نبى الله داود: إلهى ،لو أن لكل شعرة منى لسانين يسبحانك الليل والنهار والدهر ما وفيت حق نعمة واحدة.

وذكر ابن أبى الدنيا ، عن أبى عمران الجونى ، عن أبى الخلد ، قال : قال موسى: يارب، كيف لى أن أشكرك وأصغر نعمة وضعتها عندى من نعمك لا يجازى بها عملى ؟ قال: فأتاه الوحى :يا موسى الآن شكرتنى.

قال بكر بن عبد الله: ما قال عبد قط :الحمد لله ، إلا وجبت عليه نعمة بقوله: الحمد لله ، فجزاء تلك النعمة أن يقول: الحمد لله ، فجاءت نعمة أخرى فلا تنفد نعم الله.

وقال الحسن: سمع نبى الله رجلاً يقول: « الحمد لله بالإسلام ، فقال: « إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة » (١).

وقال خالد بن معدان: سمعت عبد الملك بن مروان يقول: ما قال عبد كلمة أحب إلى الله وأبلغ فى الشكر عنده من أن يقول: الحمد لله الذى أنعم علينا وهدانا للإسلام .

وقال سليمان التيمى: إن الله ـ سبحانه ـ أنعم على عبده على قدره ،وكلفهم الشكر على قدرتهم.

وكان الحسن إذا ابتدأ حديثه يقول الحمد لله ، اللهم ربنا لك الحمد ، بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا وفرجت عنا؛ لك الحمد بالإسلام والقرآن ،ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة ،كبت عدونا وبسطت رزقنا ،وأظهرت أمننا ،وجمعت فرقتنا ، وأحسنت معافاتنا؛ ومن كل ما سألناك ربنا أعطيتنا ؛ فلك الحمد على ذلك حمداً كثيراً ،لك

---

(١) ابن أبى الدنيا ،فى كتاب الشكر رقم (٩).

الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا فى قديم أو حديث، أو سر أو علانية، أو خاصة أو عامة، أو حى أو ميت، أو شاهد أو غائب، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت.

وقال الحسن: قال موسى: يا رب، كيف يستطيع آدم أن يؤدى شكر ما صنعت إليه؛ خلقته بيدك، ونفخت فيه من روحك، وأسكنته جنتك، وأمرت الملائكة فسجدوا له؟ فقال: يا موسى، علم أن ذلك منى فحمدنى عليه؛ فكان ذلك شكر ما صنعت إليه.

وقال سعد بن مسعود الثقفى: إنما سمى نوح عبداً شكوراً، لأنه لم يلبس جديداً ولم يأكل طعاماً إلا حمد الله.

وكان على بن أبى طالب إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده، وقال: يا لها من نعمة لو يعلم العباد شكرها.

وقال مخلد بن الحسين: كان يقال: الشكر ترك المعاصى.

وقال أبو حازم: كل نعمة لا تقرب من الله فهى بلية.

وقال سليمان: ذكر النعم يورث الحب لله.

وقال حماد بن زيد: حدثنا ليث، عن أبى بردة، قال: قدمت المدينة، فلقيت عبدالله بن سلام، فقال لى: ألا تدخل بيتاً دخله النبى ﷺ ونطعمك سويقاً وتمراً؟ ثم قال: إن الله إذا جمع الناس غدا، ذكرهم بما أنعم عليهم. فيقول العبد: ما آية ذلك؟ فيقول: آية ذلك أنك كنت فى كربة كذا وكذا قد دعوتنى فكشفتها، وآية ذلك أنك كنت فى سفر كذا وكذا فاستصحبتنى فصحبتك. قال: يذكره حتى يذكر. فيقول: آية ذلك أنك خطبت فلانة ابنة فلان وخطبها معك خطاب فزوجتك ورددتهم. يقف عبده بين يديه، فيعدد عليه نعمه، فبكى، ثم بكى، ثم قال: إنى لأرجوالله ألا يقعد عبداً بين يديه فيعذبه.

وروى ليث بن أبى سليم، عن عثمان، عن ابن سيرين، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالنعم يوم القيامة والحسنات والسيئات، فيقول عز وجل لنعمة من نعمه: خذى حقك من حسناته، فما تترك له من حسنة إلا ذهبت بها» (١).

وقال بكر بن عبدالله المزنى: ينزل بالعبد الأمر، فيدعو الله، فيصرف عنه، فيأتيه الشيطان، فيضعف شكره، يقول: إن الأمر كان أيسر مما تذهب إليه. قال: أو لا يقول العبد: كان الأمر أشد مما أذهب إليه، ولكن الله صرفه عنى.

---

(١) ابن أبى الدنيا، فى كتاب الشكر رقم (٢٤).

وذكر ابن أبى الدنيا، عن صدقة بن يسار، قال: بينما داود عليه السلام فى محرابه، إذ مرت به ذرة، فنظر إليها وفكر فى خلقها وعجب منها، وقال: ما يعبؤ الله بهذه؟ فأنطقها الله فقالت: يا داود، أتعجبك نفسك؛ فوالذى بيده لأنا على ما آتانى الله من فضل أشكر منك على ما آتاك من فضله.

وقال أيوب: إن من أعظم نعمة الله على عبده أن يكون مأمونا على ما جاء به النبى ﷺ.

وقال سفيان الثورى: كان يقال: ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة.

وقال زاذان: ما يجب لله على ذى النعمة بحق، ألا يتوصل بها إلى معصية.

قال ابن أبى الدنيا: أنشدنى محمود الوراق:

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة ... على له فى مثلها يجب الشكر
فكيف وقوع الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها ... وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلا له فيه منة ... تضيق بها الأوهام والبر والبحر

وقد روى الدراوردى، عن عمرو بن أبى عمرو، عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: إن المؤمن عندى بمنزلة كل خير، يحمدنى وأنا أنزع نفسه من بين جنبيه» (١).

ومر محمد بن النكدر بشاب يغامز امرأة فقال: يا فتى، ما هذا جزاء نعم الله عليك.

وقال حماد بن سلمة عن ثابت قال: قال أبو العالية: إنى لأرجو ألا يهلك عبد بين اثنتين: نعم يحمد الله عليها، وذنب يستغفر منه.

وكتب ابن السماك إلى محمد بن الحسن حين ولى القضاء بالرقة: أما بعد، فلتكن التقوى من بالك على كل حال، وخف الله من كل نعمة أنعم بها عليك من قلة الشكر عليها مع المعصية بها؛ فإن فى النعم حجة وفيها تبعة، فأما الحجة بهافالمعصية بها، وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها. فعفى الله عنك كلما ضيعت من شكر، أو ركبت من ذنب، أو قصرت من حق.

ومر الربيع بن أبى راشد برجل به زمانة، فجلس يحمد الله ويبكى، قيل له: ما

---

(١) ابن أبى الدنيا، فى كتاب الشكر رقم (٨٣).

يبكيك؟قال: ذكرت أهل الجنة وأهل النار ،فشبهت أهل الجنة بأهل العافية وأهل النار بأهل البلاء. فذلك الذى أبكانى.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ: « إذا أحب أحدكم أن يرى قدر نعمة الله عليه فلينظر إلى من تحته ،ولا ينظر إلى من فوقه » (١). قال عبد الله بن المبارك: أخبرنى يحيى بن عبدالله ،قال: سمعت أبى قال: سمعت أبا هريرة فذكره.

وقال ابن المبارك: حدثنا يزيد بن إبراهيم ،عن الحسن، قال: قال أبو الدرداء: من لم يعرف نعمة الله عليه إلا فى مطعمه ومشربه ،فقد قل عمله وحضر عذابه.

قال ابن المبارك: أخبرنا مالك بن أنس ،عن اسحق بن عبد الله بن أبى طلحة ،عن أنس رضي الله عنه ،قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه سلم على رجل ،فرد عليه السلام ،فقال عمر للرجل: كيف أنت؟قال الرجل: أحمد إليك الله ،قال: هذا أردت الذى منك.

قال ابن المبارك: وأخبرنا مسعود عن علقمة بن مرقد ،عن ابن عمر رضي الله عنهما ،قال: لعلنا نلتقى فى يوم مرارا يسأل بعضنا عن بعض ولم يرد بذلك إلا ليحمد الله عز وجل.

وقال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [ لقمان: ٢٠] قال: لا إله إلا الله. وقال ابن عيينة: ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم لا إله إلا الله، قال: وإن لا إله إلا الله لهم فى الآخرة كالماء فى الدنيا.

وقال بعض السلف فى خطبته يوم عيد: أصبحتم زهرا وأصبح الناس غبراً ،أصبح الناس ينسجون وأنتم تلبسون، وأصبح الناس يعطون وأنتم تأخذون ،وأصبح الناس ينتجون وأنتم تركبون، وأصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون؛ فبكى وأبكاهم.

وقال عبدالله بن قرط الأزدى - وكان من الصحابة - على المنبر وكان يوم أضحى ورأى على الناس ألوان الثياب: يا لها من نعم ما أشبعها ،ومن كرامة ما أظهرها ،ما زال عن قوم شيئا أشد من نعمة لا يستطيعون ردها ،وإنما تثبت النعمة بشكر المنعم عليه للمنعم.

وقال سلمان الفارسى رضي الله عنه: إن رجلا بسط له من الدنيا، فانتزع ما فى يديه ،فجعل يحمد الله ويثنى عليه، حتى لم يكن له فراش إلا بارية. قال: فجعل يحمد الله ويثنى عليه، وبسط لآخر من الدنيا ،فقال لصاحب البارية: أرأيتك أنت على ما نحمد الله؟

---

(١) مسلم (٩/٢٩٦٣) فى أول الزهد والرقائق ،والترمذى (٢٥١٣) فى صفة القيامة والرقائق والورع ، باب: (٥٨) ، وقال: « هذا حديث حسن صحيح »، وابن ماجه (٤١٤٢) فى الزهد ،باب: القناعة.

قال: أحمده على ما لو أعطيت به ما أعطى الخلق لم أعطهم إياه. قال: وما ذاك؟ قال: أرأيتك بصرك، أرأيتك لسانك، أرأيتك يديك، أرأيتك رجليك.

وجاء رجل إلى يونس بن عبيد، يشكو ضيق حاله، فقال له يونس: أيسرك ببصرك هذه مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيديك مائة ألف؟ قال: لا، قال: فبرجليك مائة ألف؟ قال: لا، قال: فذكره نعم الله عليه، فقال يونس: أرى عندك مئين الألوف وأنت تشكو الحاجة.

وكان أبو الدرداء يقول: الصحة الملك.

وقال جعفر بن محمد ﷺ: فقد أبى بغلة له، فقال: إن ردها الله لأحمدنه بمحامد يرضاها. فما لبث أن أتى بسرجها ولجامها، فكربها فلما استوى عليها وضم إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء فقال: الحمد لله لم يزد عليها، فقيل له فى ذلك، فقال: هل تركت وأبقيت شيئا جعلت الحمد كله لله.

وروى ابن أبى الدنيا، من حديث سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن أبيه، عن جده، قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً من الأنصار، وقال: «إن سلمهم الله وغنمهم فإن لله على فى ذلك شكراً»، قال: فلم يلبثوا أن غنموا وسلموا، فقال بعض أصحابه: سمعناك تقول: «إن سلمهم الله وغنمهم فإن لله على فى ذلك شكراً؟»، قال: «قد فعلت؛ اللهم لك الحمد شكراً، ولك المن فضلاً» (١).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال محمد بن المنكدر لأبى حازم: يا أبا حازم، ما أكثر من يلقانى فيدعو لى بالخير، ما أعرفهم وما صنعت إليهم خيراً قط؟ فقال أبو حازم: لا تظن أن ذلك من قبلك، ولكن انظر إلى الذى ذلك من قبله فاشكره، وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [ مريم ].

وقال على بن الجعد: حدثنا عبدالعزيز بن أبى سلمة الماجشون، حدثنى من أصدقه: أن أبا بكر الصديق ﷺ كان يقول فى دعائه: أسألك تمام النعمة فى الأشياء كلها، والشكر لك عليها حتى ترضى وبعد الرضا، والخيرة فى جميع ما تكون فيه الخيرة، بجميع ميسر الأمور كلها لا معسورها كريم.

وقال الحسن: ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله إلا كان ما أعطى أكثر مما أخذ. قال ابن أبى الدنيا: وبلغنى عن سفيان بن عيينة أنه قال: هذا خطأ لا يكون فعل العبد

(١) ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر رقم (١٠٤).

أفضل من فعل الله ،ثم قال: وقال بعض أهل العلم: إنما تفسير هذا أن الرجل إذا أنعم الله عليه نعمة وهو ممن يجب عليه أن يحمده عرفه ما صنع به فيشكر الله كما ينبغى له أن يشكره ،فكان الحمد له أفضل.

قلت: لا يلزم الحسن ما ذكر عن ابن عيينة،فإن قوله: الحمد لله ، نعمة من نعم الله، والنعمة التى حمد الله عليها أيضاً نعمة من نعم الله ، وبعض النعم أجل من بعض؛فنعمة الشكر أجل من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها،والله أعلم. وهذا لا يستلزم أن يكون فعل العبد أفضل من فعل الله ،وإن دل على أن فعل العبد للشكر قد يكون أفضل من بعض مفعول الله ،وفعل العبد هو مفعول الله ،ولا ريب أن بعض مفعولاته أفضل من بعض.

وقال بعض أهل العلم: لنعم الله علينا فيما زوى عنا من الدنيا أفضل من نعمه علينا فيما بسط لنا منها ؛وذلك أن الله لم يرض لنبيه الدنيا؛فإن أكون فيما رضى الله لنبيه وأحب له ، أحب إلى من أن أكون فيما كره له وسخطه.

وقال ابن أبى الدنيا: بلغنى عن بعض العلماء أنه قال: ينبغى للعالم أن يحمد الله على ما زوى عنه من شهوات الدنيا ،كما يحمده على ما أعطاه ،وأين يقع ما أعطاه الله، والحساب يأتى عليه ، إلى ما عافاه الله ولم يبتله به ، فيشغل قلبه ويتعب جوارحه ، فيشكر الله على سكون قلبه وجمع همه.

وحدث عن ابن أبى الحوارى قال: جلس فضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة إلى الصباح يتذاكران النعم ،فجعل سفيان يقول: أنعم الله علينا فى كذا وكذا ،أنعم الله علينا فى كذا فعل بنا كذا.

وحدثنا عبدالله بن داود عن سفيان فى قوله: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) ﴾ [ الأعراف ] ،قال: يسبغ عليهم النعم ،ويمنعهم الشكر. وقال غير سفيان: كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة . وسئل ثابت البنانى عن الاستدراج ،فقال: ذلك مكر الله بالعباد المضيعين. وقال يونس فى تفسيرها : إن العبد إذا كانت له عند الله منزلة ،فحفظها وبقى عليها،ثم شكر الله بما أعطاه ،أعطاه أشرف منها. وإذا هو ضيع الشكر استدرجه الله ،وكان تضييعه الشكر استدراجاً. وقال أبو حازم: نعمة الله فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطانى منها ،إنى رأيته أعطاها أقواماً فحصكلوا،وكل نعمة لا تقرب من الله فهى بلية. وإذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره.

وذكر كاتب الليث ، عن هقل ،عن الأوزاعى ، أنه وعظهم ، فقال فى موعظته: أيها الناس، تقووا بهذه النعم التى أصبحتم فيها ،على الهرب من نار الله الموقدة التى تتطلع على الأفئدة ،فإنكم فى دار الثوى فيها قليل وأنتم فيها مرجون خلائف من بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا أنفعها وزهرتها؛فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمد أجساماً وأعظم آثاراً، فقطعوا الجبال،وجابوا الصخور ،ونقبوا فى البلاد مؤيدين ببطش شديد وأجسام كالعماد، فما لبثت الأيام والليالى أن طوت مددهم ،وعفت آثارهم ،وأخوت منازلهم،وأنست ذكرهم ، فما تحس منهم من أحد ، ولا تسمع لهم ركزاً.كانوا يلهون آمنين،لبيات قوم غافلين،أو لصباح قوم نادمين.ثم إنكم قد علمتم الذى نزل بساحتهم بياتاً من عقوبة الله ، فأصبح كثير منهم فى دارهم جاثمين ،وأصبح الباقون ينظرون فى آثارهم نقمة ،وزوال نعمة ،ومساكن خاوية ، فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ،وعبرة لمن يخشى . وأصبحتم من بعدهم فى أجل منقوص ، ودنيا مقبوضة ، وزمان قد ولى عفوه وذهب رخاؤه؛فلم يبق منه إلا حمأة شر ،وصبابة كدر ،وأهاويل عبر ،وعقوبات غير ، وإرسال فتن ، وتتابع زلازل ،ورذلة خلف.بهم ظهر الفساد فى البر والبحر.ولا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل،وغره طول الأجل ،وتبلغ بطول الأمانى ،نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن وعى إنذاره وعقل بشراه فمهد لنفسه.

وكان يقال:الشكر ترك المعصية.

وقال ابن المبارك:قال سفيان:ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة.

وكان مروان بن الحكم إذ ذكر الإسلام قال:بنعمة ربى وصلت إليه ،لا بما قدمت يداى،ولا بإرادتى إنى كنت خاطئاً.

وكم من مدخل لو مت فيه ... لكنت فيه نكالاً فى العشيرة
وقيت السوء والمكروه فيه ... وظفرت بنعمة منه كبيرة
وكم من نعمة لله تمسى ... وتصبح فى العيان وفى السريرة

ودعى عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى قوم على ريبة ،فانطلق ليأخذهم ،فتفرقوا قبل أن يبلغهم،فأعتق رقبة شكراً لله ألا يكون جرى على يديه خزى مسلم.

قال يزيد بن هارون:أخبرنا أصبغ بن يزيد أن نوحاً ﷺ كان إذا خرج من الخلاء قال: الحمد لله الذى أذاقنى لذته ،وأبقى منفعته فى جسدى ، وأذهب عنى أذاه؛ فسمى عبداً شكوراً.

وقال ابن أبى الدنيا:حدثنى العباس بن جعفر ، عن الحارث بن شبل ، قال : حدثتنا أم النعمان:أن عائشة حدثتها عن النبى ﷺ:أنه لم يقم عن خلاء قط إلا قاله (١).

---

(١) ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر رقم (١٢٤).

وقال رجل لأبى حازم: ما شكر العينين يا أبا حازم ؟قال: إنى رأيت بهما خيراً أعلنته، وإن رأيت بهما شراً سترته. قال: فما شكر الأذنين؟قال: إن سمعت بهما خيراً وعيته، وإن سمعت بهما شراً دفعته. قال: فما شكر اليدين ؟قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقاً لله هو فيهما. قال: فما شكر البطن؟قال: أن يكون أسفله طعاماً، وأعلاه علماً. قال: فما شكر الفرج ؟قال: قال الله: ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)** ﴾ [المؤمنون].

قال: فما شكر الرجلين ؟ قال: إن علمت ميتاً تغبطه استعملت بهما عمله، وإن مقته رغبت عن عمله وأنت شاكر لله.

وأما من شكر بلسانه، ولم يشكر بجميع أعضائه، فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه، فما ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر.

وذكر عبد الله بن المبارك: أن النجاشى أرسل ذات يوم إلى جعفر وأصحابه، فدخلوا عليه وهو فى بيت عليه خلقان جالس على التراب، قال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلما رأى ما فى وجوهنا قال: إنى أبشركم بما يسركم؛ إنه جاءنى من نحو أرضكم عين لى فأخبرنى أن الله قد نصر نبيه ﷺ، وأهلك عدوه، وأسر فلان وفلان، وقتل فلان وفلان. التقوا بواد يقال له بدر، كثير الأراك، كأنى أنظر إليه كنت أرعى به لسيدى رجل من بنى ضمرة. فقال له جعفر: ما بالك جالساً على التراب، ليس تحتك بساط، وعليك هذه الأخلاق، قال: إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى ﷺ أن حقاً على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعاً عندما أحدث الله لهم من نعمه، فلما أحدث الله لى نصر نبيه أحدثت لله هذا التواضع.

وقال حبيب بن عبيد: ما ابتلى الله عبداً ببلاء إلا كان له عليه فيه نعمة ألا يكون أشد منه.

وقال عبدالملك بن إسحاق: ما من الناس إلا مبتلى بعافية لينظر كيف شكره، أو بلية لينظر كيف صبره.

وقال سفيان الثورى: لقد أنعم الله على عبد فى حاجة أكثر من تضرعه إليه فيها.

وكان رسول الله ﷺ إذا جاءه أمر يسره خر لله ساجداً شكراً له عز وجل، ذكره أحمد (١).

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: خرج علينا النبى ﷺ، فتوجه نحو صدقته، فدخل

---

(١) لم نعثر عليه عند أحمد، وهو عند أبى داود (٢٧٧٤) فى الجهاد، باب: فى سجود الشكر.

فاستقبل القبلة فخر ساجداً ، فأطال السجود ، فقلت: يا رسول الله، سجدت سجدة حسبت أن يكون الله قد قبض نفسك فيها، فقال: « إن جبريل أتانى فبشرنى أن الله عز وجل يقول لك: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه، فسجدت لله شكراً». ذكره أحمد (١).

وعن سعد بن أبى وقاص ﷺ قال: خرجنا مع النبى ﷺ من مكة نريد المدينة ، فلما كنا قريباً من عزور ، نزل ثم رفع يديه ودعا الله ساعة ، ثم خر ساجداً فمكث طويلاً ، ثم قام فرفع يديه ساعة، ثم خر ساجداً ـ فعله ثلاثاً ـ وقال: « إنى سألت ربى وشفعت لأمتى ، فأعطانى ثلث أمتى ، فخررت ساجداً شكراً لربى ، ثم رفعت رأسى فسألت ربى لأمتى فأعطانى ثلث أمتى ، فخررت ساجداً لربى ، ثم رفعت رأسى فسألت ربى فأعطانى الثلث الآخر؛ فخررت ساجداً لربى ». رواه أبو داود (٢).

وذكر محمد بن إسحاق فى كتاب « الفتوح » قال: لما جاء المبشر يوم بدر بقتل أبى جهل استحلفه رسول الله ﷺ ثلاثة أيمان بالله الذى لا إله إلا هو لقد رأيته قتيلاً ، فحلف له؛ فخر رسول الله ﷺ ساجداً .

وذكر سعيد بن منصور: أن أبا بكر الصديق ﷺ سجد حين جاءه قتل مسيلمة.

وذكر أحمد: أن علياً ﷺ سجد حين وجد ذات الثدية فى الخوارج.

وسجد كعب بن مالك فى عهد النبى ﷺ لما بشر بتوبة الله عليه ـ والقصة فى الصحيحين(٣).

فإن قيل: فنعم الله دائماً مستمرة على العبد، فما الذى اقتضى تخصيص النعمة الحادثة بالشكر دون الدائمة ، وقد تكون المستدامة أعظم؟ .

قيل الجواب من وجوه:

**أحدها**: أن النعمة المتجددة تذكر بالمستدامة، والإنسان موكل بالأدنى.

**الثانى**: أن هذه النعمة المتجددة تستدعى عبودية مجددة ، وكان أسهلها على الإنسان وأحبها إلى الله السجود شكراً له.

**الثالث**: أن المتجددة لها وقع فى النفوس، والقلوب بها أعلق؛ ولهذا يهنى بها ويعزى بفقدها.

---

(١) أحمد (١/ ١٩١)، وقال الهيثمى فى المجمع (٢/ ٢٩٠): « رجاله ثقات ».

(٢) أبو داود (٢٧٧٥) فى الجهاد ، باب: فى سجود الشكر ، وضعفه الألبانى.

(٣) البخارى (٤٤١٨) فى المغازى . باب: حديث كعب بن مالك ، وقول الله عز وجل ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ [ التوبة : ١١٨ ] ، ومسلم (٢٧٦٩/ ٥٣) فى التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبه.

**الرابع**: أن حدوث النعم توجب فرح النفس وانبساطها، وكثيراً ما يجر ذلك إلى الأشر والبطر، والسجود ذل لله وعبودية وخضوع. فإذا تلقى به نعمه لسروره وفرح النفس وانبساطها، فكان جديراً بدوام تلك النعمة. وإذا تلقاها بالفرح الذى لا يحبه الله والأشر والبطر، كما يفعله الجهال عندما يحدث الله لهم من النعم، كانت سريعة الزوال، وشيكة الانتقال، وانقلبت نقمة، وعادت استدراجاً. وقد تقدم أمر النجاشى، فإن الله إذا أحدث لعبده نعمة أحب أن يحدث لها تواضعاً. وقال العلاء بن المغيرة: بشرت الحسن بموت الحجاج، وهو مختف؛ فخر لله ساجداً.

## فصل

ومن دقيق نعم الله على العبد، التى لا يكاد يفطن لها، أنه يغلق عليه بابه، فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب، يسأله شيئاً من القوت؛ ليعرفه نعمته عليه.

وقال سلام بن أبي مطيع: دخلت على مريض أعوده، فإذا هو يئن، فقلت له: اذكر المطروحين على الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم. قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعته يقول لنفسه: اذكرى المطروحين فى الطريق، اذكرى من لا مأوى له ولا له من يخدمه.

وقال عبد الله بن أبى نوح: قال لى رجل على بعض السواحل: كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملك بما تحب؟ قلت: ما أحصى ذلك كثرة. قال: فهل قصدت إليه فى أمر كربك فخذلك؟ قلت: لا والله، ولكنه أحسن إلى وأعاننى قال: فهل سألته شيئاً فلم يعطكه؟ قلت: وهل منعنى شيئاً سألته؟ ما سألته شيئاً قط إلا أعطانى، ولا استعنت به إلا أعاننى. قال: أرأيت لو أن بعض بنى آدم فعل بك بعض هذه الخلال، ما كان جزاؤه عندك؟ قلت: ما كنت أقدر له مكافأة ولا جزاء. قال: فربك أحق وأحرى أن تدأب نفسك له فى أداء شكره، وهو المحسن قديماً وحديثاً إليك، والله لشكره أيسر من مكافأة عباده؛ إنه تبارك وتعالى رضى من العباد بالحمد شكراً.

وقال سفيان الثورى: ما كان الله لينعم على عبد فى الدنيا فيفضحه فى الآخرة، ويحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه.

وقال ابن أبى الحوارى: قلت لأبى معاوية: ما أعظم النعمة علينا فى التوحيد، نسأل الله ألا يسلبنا إياه، قال: يحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه، والله أكرم من أن ينعم بنعمة إلا أتمها، ويستعمل بعمل إلا قبله.

وقال ابن أبى الحوارى: قالت لى امرأة: أنا فى بيتى قد شغل قلبى، قلت: وما هو؟ قالت: أريد أن أعرف نعم الله على فى طرفة عين، أو أعرف تقصيرى عن شكر النعمة

على فى طرفة عين. قلت: تريدين ما لا تهتدى إليه عقولنا.

وقال ابن زيد: إنه ليكون فى المجلس الرجل الواحد يحمد الله عز وجل، فيقضى لذلك المجلس حوائجهم كلهم. قال: وفى بعض الكتب التى أنزلها الله تعالى أنه قال: سروا عبدى المؤمن؛ فكان لا يأتيه شىء إلا قال: الحمد لله ما شاء الله. قال: روعوا عبدى المؤمن ؛ فكان لا يطلع عليه طليعة من طلائع المكروه إلا قال: الحمد لله ، الحمد لله. فقال الله تبارك وتعالى: إن عبدى يحمدنى حين روعته كما يحمدنى حين سررته ، أدخلوا عبدى دار عزى كما يحمدنى على كل حالاته.

وقال وهب: عبد الله عابد خمسين عاماً ، فأوحى الله إليه: إنى قد غفرت لك، قال: أى رب وما تغفر لى ولم أذنب؟ فأذن الله لعرق فى عنقه يضرب عليه ، فلم ينم ولم يصل ، ثم سكن فنام ، ثم أتاه ملك فشكا إليه فقال: ما لقيت من ضربان العرق ! فقال الملك: إن ربك يقول: إن عبادتك خمسين سنة تعدل سكون العرق.

وذكر ابن أبى الدنيا: أن داود قال: يا رب، أخبرنى ما أدنى نعمك على ، فأوحى الله إليه: يا داود ، تنفس فتنفس . قال: هذا أدنى نعمى عليك.

## فصل

ويدل على فضل الشكر على الصبر، أن الله سبحانه يحب أن يسأل العافية ، وما يسأل شيئاً أحب إليه من العافية ، كما فى المسند عن أبى صالح ، عن أبى هريرة رضي الله عنه ، قال: قام أبو بكر رضي الله عنه على المنبر ، ثم قال: سلوا الله العافية؛ فإنه لم يعط عبداً بعد اليقين خيراً من العافية.

وفى حديث آخر: « إن الناس لم يعطوا فى هذه الدنيا شيئاً أفضل من العفو والعافية؛ فسلوهما الله عز وجل » (١).

وقال لعمه العباس: « يا عم، أكثر من الدعاء بالعافية » (٢). وفى الترمذى ، قلت: يا رسول الله ، علمنى شيئاً أسأله الله؟ قال: « سل الله العافية »، فمكثت أياماً ثم جئت فقلت: علمنى شيئاً أسأله الله ؟ فقال لى: « يا عباس، يا عم رسول الله ﷺ، سل الله العافية فى الدنيا والآخرة » (٣).

وقال فى دعائه يوم الطائف: « إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، غير أن عافيتك

---

(١) أحمد (١/ ٨) لفظ: « إن الناس لم يعطوا فى الدنيا خيرا من اليقين والمعافاة » وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده ضعيف ؛ لانقطاعه ».

(٢) الطبرانى فى الكبير (١١٩٨)، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٧٨): « فيه هلال بن خباب وهو ثقة وقد ضعفه جماعة ، و بقية رجاله ثقات ».

(٣) الترمذى (٣٥١٤) فى الدعوات ، باب: (٨٥)، لفظ : « سلوا الله العافية » وقال: « صحيح ».

أوسع لى » (١)، فلاذ بعافيته ، كما استعاذ بها فى قوله: « أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك » (٢).

وفى حديث آخر: « سلوا الله العفو والعافية والمعافاة » (٣). وهذا السؤال يتضمن العفو عما مضى ، والعافية فى الحال ، والمعافاة فى المستقبل بدوام العافية واستمرارها.

وكان عبد الأعلى التيمى يقول: أكثروا من سؤال الله العافية؛ فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذى لا يأمن البلاء ، وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس ، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم، ولو كان البلاء يجر إلى خير ما كنا من رجال البلاء؛ إنه رب بلاء قد أجهد فى الدنيا وأخزى فى الآخرة ؛ فما يؤمن من أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقى له فى بقية عمره من البلاء ما يجهده فى الدنيا ويفضحه فى الآخرة ، ثم يقول بعد ذلك: الحمد لله الذى إن نعد نعمه لا نحصيها، وإن نذأب له عملاً لا نجزيها ، وإن نعمر فيها لا نبليها.

ومر رسول الله ﷺ برجل يسأل الله الصبر ، فقال : « لقد سألت البلاء فاسأل العافية» (٤)، وفى صحيح مسلم: أنه ﷺ عاد رجلاً قد هفت ـ أى هزل ـ فصار مثل الفرخ؛ فقال ﷺ: « هل كنت تدعو الله بشىء أو تسأله إياه ؟» قال: نعم ، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبنى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: « سبحانه لا تطيقه ولا تستطيعه، أفلا قلت: اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار»، فدعا الله له فشفاه (٥).

وفى الترمذى ، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه ، قال: دعاء حفظته من رسول الله لا أدعه: « اللهم اجعلنى أعظم شكرك، وأكثر ذكرك ، وأتبع نصيحتك ، وأحفظ وصيتك » (٦).

وقال شيبان: كان الحسن إذا جلس مجلساً يقول: لك الحمد بالإسلام، ولك الحمد بالقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال؛ بسطت رزقنا ، وأظهرت أمننا ، وأحسنت معافاتنا ، ومن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٨).

(٢) مسلم (٤٨٦/ ٢٢٢) فى الصلاة ، باب: ما يقال فى الركوع والسجود ، وأبو داود (٨٧٩) فى الصلاة ، باب: فى الدعاء فى الركوع والسجود، والترمذى (٣٤٩٣) فى الدعوات باب: (٨٦) ، وقال: « حديث حسن ».

(٣) الترمذى (٣٥٥٨) فى الدعوات ، باب: (١٠٦)، بلفظ: « اسألوا الله العفو والعافية فإن أحدا لم يعط بعد اليقين خيرا من العافية » ، وقال : « حديث غريب من هذا الوجه » ، وابن ماجه (٣٨٤٨) فى الدعاء ، باب: الدعاء بالعفو والعافية ـ بدون لفظ المعافاة ، وأحمد ( ١ / ٣ ) بلفظ : « سلوا الله العفو والعافية واليقين فى الآخرة والأولى» ، وقال الشيخ شاكر: « إسناده صحيح ».

(٤) الترمذى (٣٥٢٧) فى الدعوات ، باب: (٩٣)، وقال: « حسن ».

(٥) مسلم (٢٦٨٨/ ٢٣) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة فى الدنيا.

(٦) أحمد (٢/ ٣١١) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٧٥): « رواه أحمد من طريق أبى يزيد المدنى . . . وبقية رجالهما ثقات ».

كل ما سألناك أعطيتنا ؛فلك الحمد كثيراً كما تنعم كثيراً ؛ أعطيت خيراً كثيراً ،وصرفت شراً كثيراً؛فلوجهك الجليل الباقى الدايم الحمد.

وكان بعض السلف يقول:اللهم ما أصبح بنا من نعمة ،أو عافية ،أو كرامة فى دين،أو دنيا جرت علينا فيما مضى وهى جارية علينا فيما بقى ؛فإنها منك وحدك لا شريك لك؛فلك الحمد بذلك علينا ،ولك المن ولك الفضل،ولك الحمد عدد ما أنعمت به علينا وعلى جميع خلقك لا إله إلا أنت.

وقال مجاهد:إذا كان ابن عمر فى سفر،فطلع الفجر رفع صوته ونادى:سمع سامع بحمد الله ونعمه وحسن بلائه علينا ـ ثلاثاً ـ اللهم صاحبنا فأفضل علينا ،عائذ بالله من النار،ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ ثلاثاً ـ .

وذكر الإمام أحمد:أن الله ـ سبحانه ـ أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى،كن يقظان مرتاداً لنفسك أخدانا ،وكل خدن لا يواتيك على مسرتى فلا تصحبه؛فإنه عدو لك،وهو يقسى قلبك،وأكثر من ذكرى حتى تستوجب الشكر وتستكمل المزيد.

وقال الحسن:خلق الله آدم حين خلقه ،فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى،وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى،فدبوا على وجه الأرض منهم الأعمى والأصم المبتلى؛فقال آدم:يا رب ألا سويت بين ولدى؟قال:يا آدم إنى أريد أن أشكر.

وفى السنن عنه ﷺ:« من قال حين يصبح:اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر ، إلا أدى شكر ذلك اليوم.ومن قال ذلك حين يمسى،فقد أدى شكر ليلته » (١).

ويذكر عن النبىﷺ :« من ابتلى فصبر ، وأعطى فشكر ، وظلم فغفر ، وظلم فاستغفر؛أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » (٢).

ويذكر عنه ﷺ : أنه أوصى رجلاً بثلاث ، فقال : « أكثر من ذكر الموت يشغلك عما سواه ، وعليك بالدعاء فإنك لا تـدرى متى يستجاب لك ، وعليك بالشكر فإن الشكر زيادة » (٣).

ويذكر عنه ﷺ:أنه كان إذا أكل قال:« الحمد لله الذى أطعمنى وسقانى وهدانى،وكل بلاء حسن أبلانى ، الحمد لله الرازق ذى القوة المتين ؛ اللهم لا تنزع منا صالحاً أعطيتنا

---

(١) أبو داود (٥٠٧٣) فى الأدب ،باب:مايقول إذا أصبح ،وضعفه الألبانى ،وابن حبان (٢٣٦١/موارد ) فى الأذكار، باب :مايقول إذا أصبح .

(٢) البيهقى فى شعب الإيمان (٤٤٣١) ،والطبرانى فى الكبير (٦٦١٣) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٨٧):« فيه أبو داود الأعمى ، وهو متروك ».

(٣) حلية الأولياء (٧/ ٣٠٥).

ولا صالحاً رزقتنا ، واجعلنا لك من الشاكرين » (١) . ويذكر عنه ﷺ : أنه إذا أكل قال : « الحمد لله الذى أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجا» (٢).

وكان عروة بن الزبير إذا أتى بطعام لم يزل مخمراً حتى يقول هذه الكلمات :الحمد لله الذى هدانا وأطعمنا وسقانا ونعمنا،الله أكبر. اللهم ألفتنا نعمتك ونحن بكل شر فأصبحنا وأمسينا بخير،نسأل تمامها وشكرها ،لا خير إلا خيرك،ولا إله غيرك،إله الصالحين ورب العالمين . . . الحمد لله ،لا إله إلا الله ، ما شاء الله لا قوة إلا بالله . . . اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار.

وقال وهب بن منبه : رؤوس النعم ثلاثة : فأولها نعمة الإسلام التى لا تتم نعمه إلا بها ، والثانية نعمة العافية التى لا تطيب الحياة إلا بها ، والثالثة نعمة الغنى التى لا يتم العيش إلا به.

وقدم سعيد الجريرى من الحج فجعل يقول:أنعم الله علينا فى سفرنا بكذا وكذا،ثم قال:تعداد النعم من الشكر.

ومر وهب بمبتلى أعمى مجذوم ، مقعد عريان ، به وضح،وهو يقول : الحمد لله على نعمه،فقال رجل كان مع وهب:أى شيء بقى عليك من النعمة تحمد الله عليها؟فقال له المبتلى:ارم ببصرك إلى أهل المدينة،فانظر إلى كثرة أهلها،أفلا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيرى.

ويذكر عن النبى ﷺ أنه قال:«إذا أنعم الله على عبد نعمة فحمده عندها،فقد أدى شكرها» (٣).

وذكر على بن أبى طالب رضي الله عنه:أن بختنصر أتى بدانيال،فأمر به فحبس فى جب وأضرى أسدين ثم خلى بينهما وبينه،ثم فتح عليه بعد خمسة أيام فوجده قائماً يصلى والأسدان فى ناحية الجب لم يعرضا له؛فقال له:ما قلت حين دفع عنك؟قال: قلت:«الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ،والحمد لله الذى لا يخيب من رجاه ،والحمد لله الذى لا يكل من توكل عليه إلى غيره،والحمد لله الذى هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل،والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا،والحمد لله الذى يكشف عنا ضرنا بعد كربتنا،والحمد لله الذى يجزى بالإحسان إحساناً،والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة ».

ويذكر عنه ﷺ أنه كان إذا نظر فى المرآة قال : «الحمد لله الذى أحسن خلقى

---

(١) الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٤٦)،وقال:« صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه »ووافقه الذهبى ،وابن حبان (١٣٥٢/ موارد ).

(٢) أبو داود (٣٨٥١) فى الأطعمة ،باب:مايقول الرجل إذا طعم،وابن حبان (١٣٥١/ موارد).

(٣) ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر (١٧٢).

وخلقى، وزان منى ما شان من غيرى» (١).

وقال ابن سيرين: كان ابن عمر يكثر النظر فى المرآة، وتكون معه فى الأسفار، فقلت له: ولم ؟ قال: أنظر فما كان فى وجهى زين فهو فى وجه غيرى شين أحمد الله عليه.

وسئل أبو بكر بن أبى مريم: ما تمام النعمة؟ قال: أن تضع رجلاً على الصراط ورجلاً فى الجنة.

وقال بكر بن عبد الله. يا ابن آدم، إن أردت أن تعرف قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك.

وقال مقاتل فى قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، قال: أما الظاهرة فالإسلام، وأما الباطنة فستره عليكم المعاصى.

وقال ابن شوذب: قال عبد الله ـ يعنى ابن مسعود رضي الله عنه: إن لله على أهل النار منة لو شاء أن يعذبهم بأشد من النار لعذبهم.

وقال أبو سليمان الدارانى: جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل فيه خصالا ؛ الكرم ، والسخاء ، والحلم ، والرأفة ، والرحمة ، والشكر ، والبر ، والصبر.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : من رأى صاحب بلاء فقال: « الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به ، وفضلنى عليك وعلى جميع خلقه تفضيلا » فقد أدى شكر تلك النعمة .

وقال عبد الله ابن وهب: سمعت عبد الرحمن بن زيد يقول: الشكر يأخذ بجذم الحمد وأصله وفرعه ، قال : ينظر فى نعم الله : فى بدنه ، وسمعه ، وبصره ، ويديه ، ورجليه ، وغير ذلك ، ليس من هذا شىء إلا فيه نعمة من الله ، حق على العبد أن يعمل فى النعمة التى هى فى بدنه لله فى طاعته ، ونعمة أخرى فى الرزق ، وحق عليه أن يعمل لله فيما أنعم عليه به من الرزق بطاعته ؛ فمن عمل بهذا كان قد أخذ بجذم الشكر وأصله وفرعه.

وقال كعب : ما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا ، فشكرها لله وتواضع بها لله، إلا أعطاه الله نفعها فى الدنيا ، ورفع له بها درجة فى الأخرى. وما أنعم الله على عبد نعمة فى الدنيا ، فلم يشكرها لله ولم يتواضع بها ، إلا منعه الله نفعها فى الدنيا ، وفتح له طبقات من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه.

وقال الحسن : من لا يرى لله عليه نعمة إلا فى مطعم أو مشرب أو لباس ، فقد قصر عليه وحضر عذابه.

---

(١) انظر تخريجه مفصلاً فى الإرواء (١/ ١١٤) (٧٤).

وقال الحسن يوماً لبكر المزنى : هات يا أبا عبدالله دعوات لإخوانك ؛ فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبى ﷺ ، ثم قال : والله ما أدرى أى النعمتين أفضل على وعليكم : أنعمة المسلك أم نعمة المخرج إذا أخرجه منا ؟قال الحسن : إنها لمن نعمة الطعام.

وقالت عائشة رضي الله عنها : ما من عبد يشرب الماء القراح ، فيدخل بغير أذى ويخرج الأذى، إلا وجب عليه الشكر.

قال الحسن : يا لها من نعمة تدخل كل لذة وتخرج مسرحاً ، لقد كان ملك من ملوك هذه القرية يرى الغلام من غلمانه يأتى الحب فيكتال منه ثم يجرجر قائماً ، فيقول : يا ليتنى مثلك ما يشرب حتى يقطع عنه العطش ، فإذا شرب كان له فى تلك الشربة موتات يا لها من نعمة.

وكتب بعض العلماء إلى أخ له : أما بعد ، فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا تحصيه مع كثرة ما تعصيه ، فما ندرى أيهما نشكر : أجميل ما يستر أم قبيح ما ستر.

وقيل للحسن : ها هنا رجل لا يجالس الناس ، فجاء إليه فسأله عن ذلك ، فقال : إنى أمسى وأصبح بين ذنب ونعمة ، فرأيت أن أشغل نفسى عن الناس بالاستغفار من الذنب والشكر لله على النعمة ؛ فقال له الحسن :أنت عندى يا عبد الله أفقه من الحسن ، فالزم ما أنت عليه.

وقال ابن المبارك : سمعت علياً بن صالح يقول فى قوله تعالى : ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾ [ إبراهيم:٧]،قال : أى من طاعتى ، والتحقيق أن الزيادة من النعم ، وطاعته من أجل نعمه.

وذكر ابن أبى الدنيا : أن محارب بن دثار ،كان يقوم بالليل ويرفع صوته أحياناً : أنا الصغير الذى ربيته فلك الحمد ، وأنا الضعيف الذى قويته فلك الحمد ،وأنا الفقير الذى أغنيته فلك الحمد ، وأنا الصعلوك الذى مولته فلك الحمد ، وأنا العزب الذى زوجته فلك الحمد ، وأنا الساغب الذى أشبعته فلك الحمد ، وأنا العارى الذى كسوته فلك الحمد ، وأنا المسافر الذى صاحبته فلك الحمد ، وأنا الغائب الذى رددته فلك الحمد ، وأنا الراجل الذى حملته فلك الحمد ، وأنا المريض الذى شفيته فلك الحمد ، وأنا السائل الذى أعطيته فلك الحمد ، وأنا الداعى الذى أجبته فلك الحمد. ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً.

وكان بعض الخطباء يقول فى خطبته : اختط لك الأنف فأقامه وأتمه فأحسن تمامه ، ثم أدار منك الحدقة فجعلها بجفون مطبقة ،وبأشفار معلقة ، ونقلك من طبقة إلى طبقة ، وحنن عليك قلب الوالدين برقة ومقة ؛ فنعمه عليك مورقة ، وأياديه بك محدقة.

وكان بعض العلماء يقول فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا** ﴾

[إبراهيم:٣٤]: سبحان من لم يجعل لحد معرفة نعمه إلا العلم بالتقصير عن معرفتها ،كما لم يجعل لحد إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك ؛ فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكراً ، كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله إيماناً ،علماً منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك.

وقال عبدالله بن المبارك : أخبرنا مثنى بن الصباح ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه، عن جده قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خصلتان من كانتا فيه كتبه الله صابراً شاكراً ،ومن لم يكونا فيه لم يكتبه الله صابراً شاكراً : من نظر فى دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به ، ومن نظر فى دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه ؛ كتبه الله صابراً شاكراً. ومن نظر فى دينه إلى من هو دونه ونظر فى دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته منه ؛ لم يكتبه الله صابراً شاكراً » ،وبهذا الإسناد عن عبد الله بن عمرو موقوفاً عليه : أربع خصال من كن فيه بنى الله له بيتاً فى الجنة : من كان عصمة أمره لا إله إلا الله ، وإذا أصابته مصيبة قال إنا لله وإنا إليه راجعون ، وإذا أعطى شيئاً قال الحمد لله ،وإذا أذنب قال أستغفر الله.

وقال ابن المبارك : عن شبل ، عن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** ﴿٣﴾ ﴾ [ الاسراء ]،قال : لم يأكل شيئاً إلا حمد الله عليه ، ولم يشرب شراباً قط إلا حمد الله عليه ، ولم يبطش بشىء قط إلا حمد الله عليه ـ فأثنى الله عليه أنه كان عبداً شكوراً.

وقال محمد بن كعب : كان نوح إذا أكل قال الحمد لله ، وإذا شرب قال الحمد لله ، وإذا لبس قال الحمد لله ،وإذا ركب قال الحمد لله ـ فسماه الله عبداً شكوراً.

وقال ابن أبى الدنيا : بلغنى عن بعض الحكماء قال : لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغى ألا يعصى لشكر نعمته.

ولله تبارك وتعالى على عبده نوعان من الحقوق لا ينفك عنهما :

**أحدهما** : أمره ونهيه اللذان هما محض حقه عليه.

**والثانى** : شكر نعمه التى أنعم بها عليه. فهو ـ سبحانه ـ يطالبه بشكر نعمه ،وبالقيام بأمره ؛ فمشهد الواجب عليه لا يزال يشهده تقصيره وتفريطه وأنه محتاج إلى عفو الله ومغفرته ،فإن لم يداركه بذلك هلك. وكلما كان أفقه فى دين الله كان شهوده للواجب عليه أتم وشهوده لتقصيره أعظم. وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة ،بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله. وأكثر الديانين لا يعبؤون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس. وأما الجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والنصيحة لله ورسوله وعباده، ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه ؛ فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم ، فضلاً عن أن

يريدوا فعلها ، وفضلاً عن أن يفعلوها ، وأقل الناس ديناً وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات ، وإن زهد فى الدنيا جميعهاً. وقل أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره لله ، ويغضب لحرماته ، ويبذل عرضه فى نصرة دينه. وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند الله من هؤلاء. وقد ذكر أبو عمر وغيره : أن الله تعالى أمر ملكاً من الملائكة أن يخسف بقرية ، فقال : يا رب إن فيهم فلاناً العابد الزاهد ، قال : به فابدأ ، وأسمعنى صوته ؛ إنه لم يتمعر وجهه فى يوما قط.

وأما شهود النعمة ، فإنه لا يدع له رؤية حسنة من حسناته أصلاً ، ولو عمل أعمال الثقلين ، فإن نعم ـ سبحانه ـ أكثر من أعماله ، وأدنى نعمة من نعمه تستنفد عمله ؛ فينبغى للعبد ألا يزال ينظر فى حق الله عليه.

قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج ، حدثنا جرير بن حازم ، عن وهب ، قال : بلغنى أن نبى الله موسى عليه السلام مر برجل يدعو ويتضرع ، فقال: يارب ، ارحمه ، فإنى قد رحمته ، فأوحى الله إليه : لو دعانى حتى تنقطع قواه ما استجبت له حتى ينظر فى حقى عليه.

فمشاهدة العبد النعمة والواجب لا تدع له حسنة يراها ؛ ولا يزال مزرياً على نفسه ذاماً لها ؛ وما أقربه من الرحمة إذا أعطى هذين المشهدين حقهما ، والله المستعان (١).

## فصل
## فى الفصل بين الفريقين فى أمر الصبر والشكر

كل من الصبر والشكر داخل فى حقيقة الآخر ، لا يمكن وجوده إلا به. وإنما يعبر عن أحدهما باسمه الخاص به باعتبار الأغلب عليه والأظهر منه ، وإلا فحقيقة الشكر إنما يلتئم من الصبر والإرادة والفعل ؛ فإن الشكر هو العمل بطاعة الله وترك معصيته ، والصبر أصل ذلك. فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر ، وإذا كان الصبر مأموراً به ، فأداؤه هو الشكر.

فإن قيل : فهذا يفهم منه اتحاد الصبر والشكر ، وأنهما اسمان لمسمى واحد ، وهذا محال عقلاً ولغة وعرفاً ، وقد فرق الله سبحانه بينهما.

قيل : بل هما معنيان متغايران ، وإنما بينا تلازمهما وافتقار كل واحد منهما فى وجود ماهيته إلى الآخر ، ومتى تجرد الشكر عن الصبر بطل كونه شكراً ، وإذا تجرد الصبر عن الشكر بطل كونه صبراً. أما الأول فظاهر ، وأما الثانى إذا تجرد عن الشكر كان كفوراً ، ومنافاة الكفور للصبر أعظم من منافاة السخوط.

---

(١) عدة الصابرين (١٤٤ ـ ١٨٧ ).

فإن قيل : بل هاهنا قسم آخر ، وهو ألا يكون كفوراً ولا شكوراً ، بل صابراً على مضض وكراهة شديدة ، فلم يأت بحقيقة الشكر ، ولم يخرج عن ماهية الصبر.

قيل : كلامنا فى الصبر المأمور به الذى هو طاعة ، لا فى الصبر الذى هو تجلد كصبر البهائم. وصبر الطاعة لا يأتى به إلا شاكر ، ولكن اندرج شكره فى صبره ، فكان الحكم للصبر. كما اندرج صبر الشكور فى شكره ، فكان الحكم للشكر. فمقامات الإيمان لا تعدم بالتنقل فيها ، بل تندرج وينطوى الأدنى فى الأعلى ، كما يندرج الإيمان فى الإحسان ، وكما يندرج الصبر فى مقامات الرضا لا أن الصبر يزول ، ويندرج الرضا فى التفويض ، ويندرج الخوف والرجاء فى الحب لا أنهما يزولان. فالمقدور الواحد يتعلق به الشكر والصبر، سواء كان محبوباً أو مكروهاً ، فالفقر مثلاً يتعلق به الصبر ، وهو أخص به لما فيه من الكراهة ، ويتعلق به الشكر لما فيه من نعمة. فمن غلب شهود نعمته وتلذذ به واستراح واطمأن إليه عده نعمة يشكر عليها. ومن غلب شهود ما فيه من الابتلاء والضيق والحاجة عده بلية يصبر عليها ، وعكسه الغنى.

على أن الله ـ سبحانه ـ ابتلى العباد بالنعم كما ابتلاهم بالمصائب ، وعد ذلك كله ابتلاء ، فقال : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [ الأنبياء: ٣٥] ، وقال: ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [ الفجر ] وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) ﴾ [ الكهف ] ، وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [ الملك: ٢]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧)﴾ [هود ] فأخبر ـ سبحانه ـ أنه خلق العالم العلوى والسفلى ، وقدر أجل الخلق ، وخلق ما على الأرض ؛ للابتلاء والاختبار. وهذا الابتلاء إنما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم فى الخير والشر والسراء والضراء. فالابتلاء من النعم من الغنى والعافية والجاه والقدرة ، وتأتى الأسباب أعظم الابتلاءين. والصبر على طاعة الله أشق الصبرين ، كما قال الصحابة ﷺ : ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر. والنعمة بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسبابها، وأذى الخلق ، قد يكون أعظم النعمتين ، وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر على أضدادها.

فالرب تعالى ، يبتلى بنعمه ، وينعم بابتلائه. غير أن الصبر والشكر حالتان لازمتان للعبد فى أمر الرب ونهيه وقضائه وقدره ، لا يستغنى عنهما طرفة عين ، والسؤال عن أيهما أفضل ، كالسؤال عن الحس والحركة أيهما أفضل ، وعن الطعام والشراب أيهما أفضل ، وعن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل ، فالمأمور لا يؤدى إلا بصبر وشكر ، والمحظور لا يترك إلا بصبر وشكر. وأما المقدور الذى يقدر على العبد من المصائب ، فمتى صبر عليه

اندرج شكره فى صبره كما يندرج صبر الشاكر فى شكره.

ومما يوضح هذا أن الله ـ سبحانه ـ امتحن العبد بنفسه وهواه ، أوجب عليه جهادهما فى الله ، فهو فى كل وقت فى مجاهدة نفسه حتى تأتى بالشكر المأمور به ، ويصبر عن الهوى المنهى عن طاعته ؛ فلا ينفك العبد عنهما أغنياً كان أو فقيراً ، معافى أو مبتلى.

وهذه هى مسألة الغنى الشاكر والفقير الصابر ـ أيهما أفضل ؟وللناس فيها ثلاثة أقوال، وهى التى حكاها أبو الفرج بن الجوزى وغيره فى عموم الصبر والشكر ، أيهما أفضل. وقد احتجت كل فرقة بحجج وأدلة على قولها.

والتحقيق أن يقال أفضلهما أتقاهما لله تعالى ، فإن فرض استوائهما فى التقوى استويا فى الفضل ، فإن الله سبحانه لم يفضل بالفقر والغنى ، كما لم يفضل بالعافية والبلاء ، وإنما فضل بالتقوى ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [ الحجرات:١٣]. وقد قال ﷺ: « لا فضل لعربى على عجمى ،ولا فضل لعجمى على عربى ، إلا بالتقوى. الناس من آدم ، وآدم من تراب » (١).

والتقوى مبنية على أصلين : الصبر والشكر. وكل من الغنى والفقير لا بد له منهما ، فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل.

فإن قيل : فإذا كان صبر الفقير أتم ، وشكر الغنى أتم ، فأيهما أفضل ؟

قيل : أتقاهما لله فى وظيفته ومقتضى حاله. ولا يصح التفضيل بغير هذا البتة ؛ فإن الغنى قد يكون أتقى لله فى شكره من الفقير فى صبره ، وقد يكون الفقير أتقى لله فى صبره من الغنى فى شكره ؛ فلا يصح أن يقال هذا بغناه أفضل ،ولا هذا بفقره أفضل. ولا يصح أن يقال هذا بالشكر أفضل من هذا بالصبر ،ولا بالعكس ؛ لأنهما مطيتان للإيمان لابد منهما. بل الواجب أن يقال: أقومهما بالواجب والمندوب هو الأفضل ؛ فإن التفضيل تابع لهذين الأمرين ، كما قال تعالى فى الأثر الإلهى:«ما تقرب إلى عبدى بمثل مدوامة ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » (٢). فأى الرجلين كان أقوم بالواجبات وأكثر نوافل كان أفضل.

فإن قيل: فقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال:« يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وذلك خمسمائة عام » (٣).

---

(١) الطبرانى فى الأوسط (٤٧٤٩) ،وقال الهيثمى فى المجمع (٨/٧٨):« رواه البزار بنحوه ، ورجال البزار رجال الصحيح ».

(٢) الترمذى (٢٩١١) فى فضائل القرآن،باب:(١٧) ،وقال:« غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » ،وأحمد (٦/٢٥٦).

(٣) أبو داود (٣٦٦٦) فى العلم،باب:فى القصص ،وضعفه الألبانى ،والترمذى (٢٣٥٤) فى الزهد،باب:ماجاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ،وقال « حسن صحيح»،وابن ماجه (٤١٢٢) فى الزهد ،باب:منزلة الفقراء ، وأحمد (٣/ ٦٣).

قيل : هذا لا يدل على فضلهم على الأغنياء فى الدرجة وعلو المنزلة وإن سبقوهم بالدخول ؛ فقد يتأخر الغنى والسلطان العادل فى الدخول لحسابه ، فإذا دخل كانت درجته أعلى ومنزلته أرفع ، كسبق الفقير القفل فى المضائق وغيرها ، ويتأخر صاحب الأحمال بعده.

فإن قيل : فقد قال النبى ﷺ للفقراء لما شكوا إليه زيادة عمل الأغنياء عليهم بالعتق والصدقة : « ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه أدركتم به من سبقكم »، فدلهم على التسبيح والتحميد والتكبير عقب كل صلاة فلما سمع الأغنياء ذلك عملوا به ، فذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال :« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (١). وهذا يدل على ترجيح حال الغنى الشاكر. قيل: هذا حجة للقول الذى نصرناه ،وهو أن أفضلهما أكثرهما نوافل ، فإن استويا استويا ،وها هنا قد ساوى الأغنياء الفقراء فى أعمالهم المفروضة والنافلة ، وزادوا عليهم بنوافل العتق والصدقة وفضلوهم بذلك ؛ فساووهم فى صبرهم على الجهاد والأذى فى الله والصبر على المقدور ،وزادوا عليهم بالشكر بنوافل المال. فلو كان للفقراء بصبرهم نوافل تزيد على نوافل الأغنياء لفضلوهم بها.

فإن قيل :إن النبى ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوز الدنيا فردها ، وقال :« بل أشبع يوماً وأجوع يوماً » (٢). وقال هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ، ولم يشبع من خبز البر ، ومات ودرعه مرهونة عند يهودى على طعام أخذه لأهله.

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا الأعمش ، عن عبادة بن القعقاع ، عن أبى زرعة ، عن أبى هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن محمد ، حدثنا عباد بن عباد ،حدثنا مجالد بن سعيد ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة رضي الله عنها ،قالت: دخلت علىّ امرأة من الأنصار، فرأت فراش النبى ﷺ عباءة مثنية ، فرجعت إلى منزلها ، فبعثت إلى بفراش حشوه الصوف ، فدخل على رسول الله فقال:« ما هذا؟»، فقلت: فلانة الأنصارية ، دخلت على ،فرأت فراشك ، فبعثت إلى بهذا ،فقال:« رديه »،فلم أرده ، وأعجبنى أن يكون فى بيتى ،حتى قال لى ذلك ثلاث مرات .فقال:« يا عائشة ، رديه ، فوالله لو شئت

---

(١) البخارى (٨٤٣) فى الأذان ، باب: الذكر بعد الصلاة ،ومسلم (٥٩٥/ ١٤٢) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته.

(٢) سبق تخريجه ص (٣٨٩).

(٣) البخارى (٦٤٦٠) فى الرقاق ، باب: كيف كان عيش النبى ( ص )،ومسلم (١٠٥٥/ ١٩) فى أول الزهد والرقائق.

لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة »(١)، فرددته. ولم يكن الله ـ سبحانه ـ ليختار لرسوله إلا الأفضل ،هذا مع أنه لو أخذ الدنيا لأنفقها كلها فى مرضاة الله ،ولكان شكره بها فوق شكر جميع العالمين.

قيل :احتج بحال رسول الله ﷺ كل واحدة من الطائفتين. والحق أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جمع له بين كليهما على أتم الوجوه ،وكان سيد الأغنياء الشاكرين ،وسيد الفقراء الصابرين ؛ فحصل له الصبر على الفقر ما لم يحصل لأحد سواه ،ومن الشكر على الغنى مالم يحصل لغنى سواه. فمن تأمل سيرته وجد الأمر كذلك ؛ فكان ﷺ أصبر الخلق فى مواطن الصبر ، وأشكر الخلق فى مواطن الشكر ،وربه تعالى كمل له مراتب الكمال ، فجعله في أعلي رتب الأغنياء الشاكرين ،وفى أعلى مراتب الفقراء الصابرين. قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى] ، وأجمع المفسرون أن العائل هو الفقير، يقال: عال الرجل يعيل إذا افتقر ،وأعال يعيل إذا صار ذا عيال، مثل : لبن وأثمر وأثرى إذا صار ذا لبن وثمر وثروة، وعال يعول إذا جار، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۝٣﴾ [ النساء ]. وقيل: المعنى ألا تكثر عيالكم. والقول هو الأول لوجوه :

**أحدها** :أنه لا يعرف فى اللغة عال يعول إذا كثر عياله ،وإنما المعروف فى ذلك عال يعيل ، وأما عال يعول فهو بمعنى الجور ليس إلا. هذا الذى ذكره أهل اللغة قاطبة.

**الثانى** : أنه ـ سبحانه ـ قابل ذلك بالعدل ، الذى نقلهم عند خوفهم من فقده إلى الواحدة والتسرى بما شاؤوا من ملك أيمانهم ،ولا يحسن هنا التعليل بعدم العيال.

**يوضحه الوجه الثالث**: أنه ـ سبحانه ـ نقلهم عند الخوف من عدم القسط فى نكاح اليتامى إلى من سواهن من النساء ؛ لئلا يقعوا فى ظلم أزواجهم اليتامى ،وجوز لهم نكاح الواحدة وما فوقها إلى الأربع ، ثم نقلهم عند خوف الجور وعدم العدل فى القسمة إلى الواحدة ، أو النوع الذى لا قسمة عليهم فى الاستمتاع بهن ـ وهن الإماء ـ فانتظمت الآية ببيان الجائز من نكاح اليتامى والبوالغ ، والأولى من ذينك القسمين عند خوف العدل ؛ فما لكثرة العيال مدخل هاهنا البتة.

**يوضحه الوجه الرابع** : أنه لو كان المحذور كثرة العيال لما نقلهم إلى ما شاؤوا من كثرة الإماء بلا عدد ، فإن العيال كما يكونون من الزوجات يكونون من الإماء ،ولا فرق فإنه لم ينقلهم إلى إماء الاستخدام بل إلى إماء الاستفراش.

**يوضحه الوجه الخامس** : أن كثرة العيال ليس أمراً محذوراً مكروهاً للرب تعالى كيف وخير هذه الأمة أكثرها نساء ،وقد قال النبى ﷺ:« تزوجوا الودود الولود ؛ فإنى مكاثر

(١) أحمد فى الزهد رقم (١٤).

بكم الأمم » (١) ، فأمر بنكاح الولود ليحصل منها ما يكاثر به الأمم يوم القيامة.

والمقصود أنه سبحانه جعل نبيه غنياً شاكراً بعد أن كان فقيراً صابراً ، فلا تحتج به طائفة حالها إلا كان للطائفة الأخرى أن تحتج به أيضاً لحالها.

فإن قيل : فقد كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه من الشاكرين ، وقد قال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا عمارة ، عن ثابت ، عن أنس رضي الله عنه ، قال : بينما عائشة في بيتها سمعت صوتاً في المدينة ، فقالت : ما هذا ؟ فقالوا: عير لعبد الرحمن قدمت من الشام تحمل من كل شيء ، قال: وقد كانت سبعمائة بعير ، فارتجت المدينة من الصوت ، فقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً » ، فبلغ ذلك عبد الرحمن فقال: إن استطعت لأدخلها قائما، فجعلها بأحمالها وأقتابها كلها في سبيل الله.

قيل : قد قال الإمام أحمد : هذا الحديث كذب منكر. قالوا: وعمارة يروى أحاديث مناكير ، وقال أبو حاتم الرازى: عمارة بن زاذان لا يحتج به.

قال أبو الفرج : وقد روى الجراح بن منهال بإسناده عن عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ قال له: « يا ابن عوف ، إنك من الأغنياء ، وإنك لا تدخل الجنة إلا زحفاً ، فأقرض ربك يطلق قدميك » ، قال أبو عبدالرحمن النسائى ، هذا حديث موضوع ، والجراح متروك الحديث. وقال يحيى : ليس حديث الجراح بشيء ، وقال ابن المدينى: لا يكتب حديثه ، وقال ابن حبان : كان يكذب ، وقال الدارقطنى : متروك.

فإن قيل : فما تصنعون بالحديث الذى رواه البيهقى من حديث أحمد بن على بن إسماعيل بن محمد : حدثنا سليمان بن عبدالرحمن : أخبرنى خالد بن يزيد بن أبى مالك، عن أبيه ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « يا ابن عوف ، إنك من الأغنياء ، ولن تدخل الجنة إلا زحفاً؛ فأقرض الله يطلق قدميك » ، قال: وما الذى أقرض يا رسول الله ؟ قال: « تتبرأ مما أمسيت فيه». قال : أمن كله أجمع يا رسول الله؟ قال: « نعم ». فخرج وهو يهتم بذلك ، فأتاه جبريل فقال: مر ابن عوف فليضف الضيف ، وليطعم المساكين ، وليبدأ بمن يعول ، وليعط السائل ، فإذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه.

قيل : هذا حديث باطل لا يصح عن رسول الله ﷺ، فإن أحد رواته خالد بن يزيد بن أبى مالك. قال الإمام أحمد: ليس بشيء، وقال ابن معين: واه. وقال النسائى: غير ثقة ، وقال الدارقطنى: ضعيف ، وقال يحيى بن معين: لم يرض أن يكذب على أبيه حتى كذب على الصحابة.

---

(١) أبو داود (٢٠٥٠) فى النكاح ، باب : النهى عن تزويج من لم يلد من النساء ، والنسائى (٣٢٢٧) فى النكاح ، باب: كراهية تزويج العقيم ، وأحمد (٣/ ١٥٨ ، ٢٤٥).

فإن قيل: فما تصنعون بالحديث الذى قاله الإمام أحمد: حدثنا الهذيل بن ميمون، عن مطرح بن يزيد، عن عبيد الله بن زحر، عن على بن يزيد، عن القاسم، عن أبى أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: « دخلت الجنة فسمعت خشفة بين يدى، قلت: ما هذا؟ قال: بلال. فمضيت فإذا أكثر أهل الجنة فقراء المهاجرين وذرارى المسلمين. ولم أر فيها أحداً أقل من الأغنياء والنساء. قيل لى: أما الأغنياء فهم فى الباب يحاسبون ويمحصون، وأما النساء فألهاهن الأحمران: الذهب والحرير. ثم خرجنا من أحد أبواب الجنة الثمانية، فلما كنت عند الباب أتيت بكفة فوضعت فيها ووضعت أمتى فى كفة فرجحت بها، ثم أتى بأبى بكر فوضع فى كفة وجىء بجميع أمتى فوضعوا فى كفة فرجح أبو بكر، ثم أتى بعمر فوضع فى كفة ووضع أمتى فى كفة فرجح عمر، وعرضت على أمتى رجلا رجلاً؛ فجعلوا يمرون واستبطأت عبد الرحمن بن عوف، ثم جاء بعد الإياس فقلت: عبد الرحمن، فقال: بأبى وأمى يا رسول الله، والذى بعثك بالحق ما خلصت إليك حتى ظننت إنى لا أصل إليك إلا بعد المشيبات، قلت: وما ذاك؟ قال من كثرة مالى أحاسب فأمحص ».

قيل: هذا حديث لا يحتج باسناده، وقد أدخله أبو الفرج هو الذى قبله فى كتاب «الموضوعات». وقال: أما عبيد الله بن زحر، فقال يحيى: ليس بشىء، وعلى بن يزيد متروك، وقال ابن حبان: عبيد الله يروى الموضوعات عن الأثبات، وإذا روى عن على بن يزيد أتى بالطامات، وإذا اجتمع فى إسناد خبر عبيد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم بن عبدالرحمن لم يكن متن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم.

قال أبو الفرج: وبمثل هذا الحديث الباطل يتعلق جملة المتزهدين، ويرون أن المال مانع من السبق إلى الخير، ويقولون: إذا كان ابن عوف يدخل الجنة زحفاً لأجل ماله، كفى ذلك فى ذم المال، والحديث لا يصح، وحاشا عبد الرحمن المشهود له بالجنة أن يمنعه ماله من السبق؛ لأن جمع المال مباح، وإنما المذموم كسبه من غير وجهه ومنع الحق الواجب فيه، وعبدالرحمن منزه عن الحالين؛ وقد خلف طلحة ثلاثمائة حمل من الذهب؛ وخلف الزبير وغيره؛ ولو علموا أن ذلك مذموم لأخرجوا الكل. وكم قاص يتسوف بمثل هذا الحديث يحث على الفقر ويذم الغنى، فلله در العلماء الذين يعرفون الصحيح ويفهمون الأصول. انتهى.

قلت: وقد بالغ فى رد هذا الحديث، وتجاوز الحد فى إدخاله فى الأحاديث الموضوعة المختلفة على رسول الله ﷺ. وكأنه استعظم احتباس عبد الرحمن بن عوف ـ وهو أحد السابقين الأولين المشهود لهم ـ عن السبق إليها، ودخول الجنة حبواً، ورأى ذلك مناقضاً لسبقه ومنزلته التى أعدها الله له فى الجنة. وهذا وهم منه رحمه الله.

وهب أنه وجد السبيل إلى الطعن فى هذين الخبرين، أفيجد سبيلاً إلى القدح فى حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم

بنصف يوم وهو خمسمائة عام ». قال الترمذى: حديث حسن صحيح [١].

وفى حديث ابن عمر الذى رواه مسلم فى صحيحه عن النبى ﷺ: « إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً » [٢].

وفى مسند الإمام أحمد ، عنه ، عن النبى ﷺ: « هل تدرون أول من يدخل الجنة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: « فقراء المهاجرين الذين يتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء » [٣].

وفى جامع الترمذى ، من حديث جابر رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال: « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً » [٤].

فهذا الحديث وأمثاله صحيح صريح فى سبق فقراء الصحابة إلى الجنة لأغنيائهم ، وهم فى السبق متفاوتون ، فمنهم من يسبق خمسمائة عام ، ومنهم من يسبق بأربعين عاماً ، ولا يقدح ذلك فى منزلة المتأخرين فى الدخول ؛ فإنهم قد يكونون أرفع منزلة ممن سبقهم إلى الدخول وإن تأخروا بعدهم للحساب ؛ فإن الإمام العادل يوقف للحساب ويسبقه من لم يل شيئاً من أمور المسلمين إلى الجنة. فإذا دخل الإمام العادل بعده كانت منزلته أعلى من منزلة الفقير ، بل يكون أقرب الناس من الله منزلة ، كما فى صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ قال: « المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا » [٥]. وفى الترمذى ، من حديث أبى سعيد الخدرى ، عن النبى ﷺ: « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة، وأقربهم منه مجلساً ، إمام عادل. وأبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً، إمام جائر» [٦].

فالإمام العادل والغنى ، قد يتأخر دخول كل منهما للحساب ، ويكون بعد الدخول أرفع منزل من الفقير السابق. ولا يلزم من احتباس عبد الرحمن بن عوف لكثرة ماله حتى يحاسبه عليه، ثم يلحق برسول الله ﷺ وأصحابه ـ غضاضة عليه، ولا نقص من مرتبته ، ولا يضاد ذلك سبقه وكونه مشهوداً له بالجنة.

وأما حديث دخوله الجنة زحفاً ، فالأمر كما قال فيه الإمام أحمد ـ رحمه الله: إنه كذب منكر. وكما قال النسائى : إنه موضوع. ومقامات عبد الرحمن ، وجهاده ، ونفقاته

---

(١) سبق تخريجه ص ٤١٩.

(٢) مسلم (٢٩٧٩/٣٧) فى أول كتاب الزهد والرقائق.

(٣) أحمد (١٦٨/٢)، وقال الهيثمى فى المجمع (٢٦٢/١٠): « رجاله ثقات ».

(٤) الترمذى (٢٣٥٥) فى الزهد ، باب: ماجاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ، وقال: « حسن ».

(٥) مسلم (١٨٢٧/١٨) فى الإمارة ، باب: فضيلة الإمام العادل .

(٦) الترمذى (١٣٢٩) فى الأحكام، باب: ماجاء فى الإمام العادل، وقال: « حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

العظيمة،وصدقاته ،تقتضى دخوله مع المارين كالبرق أو كالطرف أو كأجاويد الخيل ،ولا يدعه يدخلها زحفاً. والله ـ سبحانه ـ كما هو خالق الخلق،فهو خالق ما به غناهم وفقرهم؛فخلق الغنى والفقر ليبتلى بهما عباده أيهم أحسن عملاً ،وجعلهما سبباً للطاعة والمعصية والثواب والعقاب ، قال تعالى : **﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)﴾** [الأنبياء]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بالشدة والرخاء ،والصحة والسقم ،والغنى والفقر ،والحلال والحرام ،وكلها بلاء.

وقال ابن يزيد: نبلوكم بما تحبون وما تكرهون ؛لننظر كيف صبركم وشكركم فيما تحبون وما تكرهون.

وقال الكلبى: بالشر: بالفقر والبلاء ،والخير: بالمال والولد.

فأخبر ـ سبحانه ـ أن الغنى والفقر مطيتا الابتلاء والامتحان ،وقال تعالى: **﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾** [الفجر]. فأخبر ـ سبحانه ـ أنه يبتلى عبده بإكرامه له ،وبتنعيمه له،وبسط الرزق عليه ؛كما يبتليه بتضييق الرزق وتقديره عليه ،وإن كليهما إبتلاء منه وامتحان. ثم أنكر ـ سبحانه ـ على من زعم أن بسط الرزق وتوسعته إكرام من الله لعبده وإن تضييقه عليه إهانة منه له ؛فقال: « كلا »،أى ليس الأمر كما يقول الإنسان،بل قد ابتلى بنعمتى وأنعم ببلائى. وإذا تأملت ألفاظ الآية ،وجدت هذا المعنى يلوح على صفحاتها ظاهراً للمتأمل. وقال تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾** [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: **﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾** [الكهف]. فأخبر ـ سبحانه ـ أنه زين الأرض بما عليها من المال وغيره للابتلاء والامتحان ،كما أخبر أنه خلق الموت والحياة لذلك ،وخلق السموات والأرض لهذا الابتلاء أيضاً.

فهذه ثلاثة مواضع فى القرآن،يخبر فيها ـ سبحانه ـ أنه خلق العالم العلوى والسفلى وما بينهما ،وأجل العالم ،وأجل أهله ،وأسباب معائشهم ،التى جعلها زينة للأرض من : الذهب ،والفضة ،والمساكن ،والملابس ،والمراكب،والزروع ،والثمار ،والحيوان ، والنساء،والبنين،وغير ذلك . كل ذلك خلقه للابتلاء والامتحان ؛ليختبر خلقه أيهم أطوع له وأرضى فهو الأحسن عملاً.

وهذا هو الحق ،الذى خلق به وله السموات والأرض وما بينهما ،وغايته الثواب والعقاب ،وفواته وتعطيله هو العبث الذى نزه الله نفسه عنه،وأخبر أنه يتعالى عنه ،وأن

ملكه الحق وتفرده بالإلهية وحده وبربوبية كل شيء ،ينفى هذا الظن الباطل والحساب الكاذب ،كما قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١٦) ﴾ [المؤمنون ]؛فنزه ـ سبحانه ـ نفسه عن ذلك ، كما نزهها عن الشريك والولد والصاحبة ،وسائر العيون والنقائص من: السنة،والنوم ، واللغوب،والحاجة، واكترائه بحفظ السموات والأرض ،وتقدم الشفعاء بين يديه بدون إذنه،كما يظنه أعداؤه المشركون الذين يخرجون عن علمه جزئيات العالم أو شيئاً منها. فكما أن كماله المقدس وكمال أسمائه وصفاته يأبى ذلك ويمنع منه،فكذلك يبطل خلقه لعباده عبثاً وتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يردهم إليه،فيثيب محسنهم بإحسانه ومسيئهم بإساءته ،ويعرف المبطلون منهم أنهم كانوا كاذبين ، ويشهدهم أن رسله وأتباعهم كانوا أولى بالصدق والحق منهم. فمن أنكر ذلك ،فقد أنكر إلهيته وربوبيته وملكه الحق ،وذلك عين الجحود والكفر به ـ سبحانه ـ كما قال المؤمن لصاحبه الذى حاوره فى المعاد وأنكره: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) ﴾ [الكهف ]:فأخبر أن إنكاره للمعاد كفر بذات الرب سبحانه. وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ [الرعد:٥]. وذلك أن إنكار المعاد يتضمن إنكار قدرة الرب وعلمه وحكمته وملكه الحق وربوبيته وإلهيته ،كما أن تكذيب رسله وجحد رسالتهم يتضمن ذلك أيضاً ؛فمن كذب رسله وجحد المعاد فقد أنكر ربوبيته سبحانه ،ونفى أن يكون رب العالمين.

والمقصود: أنه ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الغنى والفقر مطيتين للابتلاء والامتحان ، ولم ينزل المال لمجرد الاستمتاع به ،كما فى المسند عنه ﷺ قال: « يقول الله تعالى: إنا نزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ،ولو كان لابن آدم واد من مال لابتغى له ثانياً ،ولو كان له ثان لابتغى له ثالثاً،ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب » (١). فأخبر ـ سبحانه ـ أنه أنزل المال ليستعان به على إقامة حقه بالصلاة ،وإقامة حق عباده بالزكاة ،لا للاستمتاع والتلذذ كما تأكل الأنعام. فإذا زاد المال عن ذلك أو خرج عن هذين المقصودين،فإن الغرض والحكمة التى أنزل لها كان التراب أولى به،فرجع هو والجوف الذى امتلأ به بما خلق له من الإيمان والعلم والحكمة ، فإنه خلق لأن يكون وعاء لمعرفة ربه والإيمان به ومحبته وذكره ،وأنزل عليه من المال ما يستعين به على ذلك. فعطل الجاهل بالله،وبأمر الله ، وبتوحيد الله ، وبأسمائه وصفاته،جوفه عما خلق له،وملأه بمحبة المال الفانى الذاهب الذى هو ذاهب عن صاحبه أو بالعكس ،وجمعه والاستكثار منه. ومع ذلك فلم يمتلئ ،بل ازداد فقراً وحرصاً إلى أن امتلأ جوفه بالتراب الذى خلق منه،فرجع إلى مادته الترابية التى خلق منها هو

(١) أحمد (٥/ ٢١٩).

وماله. ولم تتكمل مادته بامتلاء جوفه من العلم والإيمان الذى بهما كماله وفلاحه وسعادته فى معاشه ومعاده.

فالمال إن لم ينفع صاحبه ضره ولابد، وكذلك العلم والملك والقدرة ،كل ذلك إن لم ينفعه ضره. فإن هذه الأمور وسائل لمقاصد يتوسل بها إليها فى الخير والشر، فإن عطلت عن التوسل بها إلى المقاصد والغايات المحمودة توسل بها إلى أضدادها. فأربح الناس من جعلها وسائل إلى الله والدار الآخرة ،وذلك الذى ينفعه فى معاشه ومعاده. وأخسر الناس من توسل بها إلى هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة، فخسر الدنيا والآخرة. فهذا لم يجعل الوسائل مقاصد، ولو جعلها كذلك لكان خاسراً ،لكنه جعلها وسائل إلى ضد ماجعلت له، فهو بمثابة من توسل بأسباب اللذة إلى أعظم الآلام وأدوائها.

فالأقسام أربعة لا خامس لها:

**أحدها** : معطل الأسباب معرض عنها.

**الثانى** : مكب عليها واقف مع جمعها وتحصيلها.

**الثالث** : متوصل بها إلى ما يضره ولا ينفعه فى معاشه ومعاده .

فهؤلاء الثلاثة فى الخسران.

**الرابع** :متوصل بها إلى ما ينفعه فى معاشه ومعاده وهو الرابح.

قال تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٦)** ﴾ [هود ].

وقد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس، حيث فهموا منها أن من كان له إرادة فى الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد. ثم اختلفوا فى معناها، فقالت طائفة ـ منهم ابن عباس: من كان يريد تعجيل الدنيا، فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب. قالوا: والآية فى الكفار خاصة على قول ابن عباس.

وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وسدمه ونبته وطلبه ،جازاه الله فى الدنيا بحسناته، ثم يفضى إلى الآخرة وليس حسنة يجازى بها. وأما المؤمن فيجزى فى الدنيا بحسناته، ويثاب عليها فى الآخرة.

قال هؤلاء: فالآية فى الكفار بدليل قوله: ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٦)** ﴾ [هود ]. قالوا: المؤمن من يريد الدنيا والآخرة، فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أبي صالح عنه : نزلت في أهل القبلة.

وقال مجاهد: هم أهل الرياء.

وقال الضحاك: من عمل صالحاً من أهل الإيمان من غير تقوى عجل له ثواب عمله في الدنيا.

واختار الفراء هذا القول وقال: من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثوابه ولم يبخس.

وهذا القول أرجح ، ومعنى الآية على هذا: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها. وهذا لا يكون مؤمناً ؛ فإن العاصي والفاسق ولو بالغا في المعصية والفسق فإيمانهما يحملها على أن يعملا أعمال البر لله ، فيريدان بأعمال البر وجه الله وإن عملا بمعصيته . فأما من لم يرد بعمله وجه الله ، وإنما أراد به الدنيا وزينتها ، فهذا لا يدخل في دائرة أهل الإيمان.

وهذا هو الذي فهمه معاوية من الآية، واستشهد بها على حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة: القارئ الذي قرأ القرآن ليقال: فلان قارئ، والمتصدق الذي أنفق أمواله ليقال : فلان جواد ، والغازي الذي قتل في الجهاد ليقال: هو جريء.

وكما أن خيار خلق الله هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون ، فشرار الخلق من تشبه بهم وليس منهم. فمن تشبه بأهل الصدق والإخلاص وهو مراء كمن تشبه بالأنبياء وهو كاذب.

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني محمد بن إدريس ، قال : أخبرني عبدالحميد بن صالح، حدثنا قطن بن الحباب، عن عبدالوارث ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله عز وجل للدنيا، وفرقة يعبدون رياء وسمعة ، وفرقة يعبدونه لوجهه ولداره . فيقول للذين كانوا يعبدونه للدنيا: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي ؟ فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك الدنيا، فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئاً ، اذهبوا بهم إلى النار. ويقول للذين كانوا يعبدون رياء وسمعة ، بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك رياء وسمعة، فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئاً، اذهبوا بهم إلى النار . ويقول للذين كانوا يعبدونه لوجهه وداره: بعزتي وجلالي ومكاني ، ما أردتم بعبادتي ؟ فيقولون : بعزتك وجلالك ـ وجهك ودارك . فيقول : صدقتم ، اذهبوا بهم إلى الجنة » (١).

---

(١) انظر: الدر المنثور (٣/ ٣٢٣) ، وعزاه للبيهقي في الشعب.

هذا حديث غنى عن الإسناد،والقرآن والسنة شاهدان بصدقه،ويدل على صحة هذا القول فى الآية قوله تعالى: ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ [هود:١٥]،وذلك على أنها فى قوم لهم أعمال لم يريدوا بها وجه الله ، وإنما أرادوا بها الدنيا ، ولها عملوا فوفاهم الله ثواب أعمالهم فيها من غير بخس ،وأفضوا إلى الآخرة بغير عمل يستحقون عليه الثواب.وهذا لا يقع ممن يؤمن بالآخرة إلا كما يقع منه كبائر الأعمال وقوعاً عارضاً يتوب منه ويراجع التوحيد.

وقال ابن الأنبارى:فعلى هذا القول المعنى فى قوم من أهل الإسلام يعملون العمل الحسن لتستقيم به دنياهم غير متفكرين فى الآخرة ،كان جزاؤهم عليها النار،إذا لم يريدوا بها وجه الله ،ولم يقصدوا التماس ثوابه وأجره.

ثم أورد صاحب هذا القول على أنفسهم سؤالاً،قالوا:فإن قيل:الآية الثانية على هذا القول توجب تخليد المؤمن المريد بعمله الدنيا فى النار.

وأجابوا عنه : بأن ظاهر الآية يدل على أن من راءى بعمله ، ولم يلتمس به ثواب الآخرة، بل كانت نيته الدنيا،فإن الله يبطل إيمانه عند الموافاة ،فلا يوافى ربه بالإيمان. قالوا:ويدل عليه قوله: ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) ﴾ [هود ]. وهذا يتناول أصل الإيمان وفروعه.

وأجابت فرقة أخرى:بأن الأية لا تقتضى الخلود الأبدى فى النار،وإنما تقتضى أن الذى يستحقونه فى الآخرة النار،وأنهم ليس لهم عمل صالح يرجون به النجاة.فإذا كان مع أحدهم عمود التوحيد ،فإنه يخرج به من النار مع من يخرج من أصحاب الكبائر الموحدين:وهذا هو جواب ابن الأنبارى وغيره.

والآية بحمد الله لا إشكال فيها،والله ـ سبحانه ـ ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهو النار،وأخبر بحبوط عمله وبطلانه ،فإذا أحبط ما ينجو به وبطل ،لم يبق معه ما ينجيه.فإن كان معه إيمان لم يرد به الدنيا وزينتها ،بل أراد الله به والدار الآخرة،لم يدخل هذا الإيمان فى العمل الذى حبط وبطل ،وأنجاه إيمانه من الخلود فى النار،وإن دخلها بحبوط عمله الذى به النجاة المطلقة.

والإيمان إيمانان:إيمان يمنع من دخول النار،وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله يبتغى بها وجهه وثوابه.وإيمان يمنع الخلود فى النار ، ،وإن كان مع المرائى شىء منه وإلا كان من أهل الخلود.

فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد ، والله الموفق . وذلك قوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ(٢٠) ﴾ [الشورى ]،ومنه قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ

**جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩)﴾** [الإسراء].

فهذه ثلاث مواضع من القرآن ،يشبه بعضها بعضاً ،ويصدق بعضها بعضاً ،وتجتمع على معنى واحد: وهو أن من كانت الدنيا مراده ،ولها يعمل فى غاية سعيه ،لم يكن له فى الآخرة نصيب. ومن كانت الآخرة مراده ،ولها عمل،وهى غاية سعيه ،فهى له.

بقى أن يقال: فما حكم من يريد الدنيا والآخرة ؛ فإنه داخل تحت حكم الإرادتين ، فبأيهما يلحق؟

قيل :من هاهنا نشأ الإشكال،وظن من ظن من المفسرين أن الآية فى حق الكافر؛فإنه هو الذى يريد الدنيا دون الآخرة ،وهذا غير لازم طرداً ولا عكساً؛فإن بعض الكفار قد يريد الآخرة ،وبعض المسلمين قد لا يكون مراده إلا الدنيا،والله تعالى قد علق السعادة بإرادة الآخرة ،والشقاوة بإرادة الدنيا ، فإذا تجردت الإرادتان تجرد موجبهما ومقتضاهما ، وإن اجتمعتا فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور ، والطاعة والمعصية،والإيمان والشرك فى العبد ،وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل: **﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾** [آل عمران:١٥٢]. وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة،ولم يكن فيهم منافق. ولهذا قال عبدالله مسعود ﷺ :ما شعرت أن أحد أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا،حتى كان يوم أحد ونزلت هذه الآية. والذين أريدوا فى هذه الآية ،هم الذين أخلوا مركزهم،الذى أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه ،وهم من خيار المسلمين ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز،والإقبال على كسب الغنائم،بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها ، فهذه الإرادة لون ، وإرادة هؤلاء لون.

وها هنا أمر يجب التنبيه له ، وهو أنه لا يمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر دون الآخرة مع الإيمان بالله ورسوله ولقائه أبداً ؛فإن الإيمان بالله والدار الآخرة يستلزم إرادة العبد لرحمة الله والدار الآخرة بأعماله؛فحيث كان مراده بها الدنيا فهذا لا يجامع الإيمان أبداً ،وإن جامع الإقرار والعلم فالإيمان وراء ذلك ،والإقرار والمعرفة حاصلان لمن شهد الله سبحانه له بالكفر مع هذه المعرفة كفرعون وثمود واليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوه كما عرفوا أبناءهم من أكفر الخلق. فإرادة الدنيا وعاجلها بالأعمال،قد تجامع هذه المعرفة والعلم،ولكن الإيمان الذى وراء ذلك لابد أن يريد صاحبه بأعماله الله والدار الآخرة. والله المستعان.

## فصل

والمقصود :أنه ـ سبحانه ـ جعل الغنى والفقر ابتلاء وامتحاناً للشكر والصبر، والصدق والكذب، والإخلاص والشرك، قال تعالى: **﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم﴾** [المائدة:٤٨]، وقال تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٥﴾ [التغابن ].

فجعل الدنيا عرضاً عاجلاً ومتاع غرور، وجعل الآخرة دار جزاء وثواب، وحف الدنيا بالشهوات وزينها بها، كما قال تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۝١٤﴾ [آل عمران ].

فأخبر ـ سبحانه ـ أن هذا الذى زين به الدنيا من ملاذها وشهواتها، وما هو غاية أمانى طلابها ومؤثريها على الآخرة، وهو سبعة أشياء: النساء اللاتى هن أعظم زينتها وشهواتها وأعظمها فتنة، والبنين الذين بهم كمال الرجل وفخره وكرمه وعزه، والذهب والفضة اللذين هما مادة الشهوات على اختلاف أجناسها وأنواعها، والخيل المسومة التى هى عز أصحابها وفخرهم وحصونهم وآلة قهرهم لأعدائهم فى طلبهم وهربهم، والأنعام التى منها ركوبهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم وغير ذلك من مصالحهم، والحرث الذى هو مادة قوتهم وقوت أنعامهم ودوابهم وفاكهتهم وأدويتهم وغير ذلك.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا، ثم شوق عباده إلى متاع الآخرة، وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى، فقال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝١٥﴾ [آل عمران ].

ثم ذكر ـ سبحانه ـ من يستحق هذا المتاع، ومن هم أهله الذين هم أولى به، فقال: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝٢٦ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ۝٢٧﴾ [آل عمران ].

فأخبر ـ سبحانه ـ أن ما أعد لأوليائه المتقين من متاع الآخرة خير من متاع الدنيا، وهو نوعان: ثواب يتمتعون به، وأكبر منه وهو رضوانه عليهم، قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد: ٢٠]، فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهداً لأولى البصائر، وإنها لعب ولهو تلهو بها النفوس وتلعب بها الأبدان، واللعب واللهو لا حقيقة لهما، وأنهما مشغلة للنفس مضيعة للوقت، يقطع بها الجاهلون العمر

فيذهب ضائعاً فى غير شىء. ثم أخبر أنها زينة زينت للعيون وللنفوس ، فأخذت بالعيون والنفوس استحساناً ومحبة، ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها، لأبغضتها، ولآثرت عليها الآخرة ، ولما آثرتها على الآجل الدائم الذى هو خير وأبقى.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا المسعودى ، عن عمرو بن مرة ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبدالله رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ، قال: « ما لى وللدنيا ، إنما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب قال فى ظل شجرة ، فى يوم صائف ثم راح وتركها » (١).

وفى جامع الترمذى ، من حديث سهل بن سعد ، قال: قال رسول الله ﷺ: « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء ». قال الترمذى: حديث صحيح (٢).

وفى صحيح مسلم ، من حديث المستورد بن شداد ، قال رسول الله ﷺ: « ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم، فلينظر بم يرجع ـ وأشار بالسبابة» (٣).

وفى الترمذى من حديثه، قال: كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة، فقال رسول الله ﷺ: « أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها؟» قالوا: ومن هوانها ألقوها يا رسول الله، قال: « فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها» (٤).

وفى الترمذى، أيضاً ، من حديث أبى هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ، عالماً أو متعلماً » (٥). والحديثان حسنان.

قال الإمام أحمد: حدثنا هيثم بن خارجة ، أنبأنا إسماعيل بن عياش بن عبدالله بن دينار النهرانى ، قال: قال عيسى عليه السلام للحواريين: بحق أقول لكم: إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة ، وإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين ، بحق أقول لكم: إن شركم عملاً عالم يحب الدنيا ويؤثرها على الآخرة ، إنه لو يستطيع جعل الناس كلهم فى عمله مثله.

وقال أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، قال: أخبرنى سعيد بن عبدالعزيز ، عن مكحول، قال: قال عيسى بن مريم عليه السلام: يا معشر الحواريين ، أيكم يستطيع أن يبنى على موج البحر

---

(١) أحمد (١/ ٤٤١) ، وصححه أحمد شاكر.

(٢) الترمذى (٢٣٢٠) فى الزهد ، باب: ماجاء فى هوان الدنيا على أهلها ، وقال: « صحيح غريب من هذا الوجه».

(٣) مسلم (٢٨٠٨/ ٥٥) فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب: فناء الدنيا.

(٤) الترمذى (٢٣٢١) فى الزهد، باب: ما جاء فى هوان الدنيا على أهلها ، وقال: « حسن ».

(٥) الترمذى (٢٣٢٢) فى الزهد ، باب: (١٤)، وقال: « حسن غريب ».

داراً؟ قالوا: يا روح الله ، ومن يقدر على ذلك؟ قال: إياكم والدنيا ، فلا تتخذوها قراراً.

وفي كتاب « الزهد » لأحمد بن حنبل أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يقول: بحق أقول لكم: إن أكل الخبز وشرب الماء العذب ونوماً على المزابل مع الكلاب كثير لمن يريد أن يرث الفردوس.

وفي المسند عنه ﷺ: « إن الله ضرب طعام ابن آدم مثلاً للدنيا وإن قزحه وملحه فلينظر إلى ماذا يصير » (١).

ثم أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ عنها أنها يفاخر بعضنا بعضاً بها ، فيطلبها ليفخر بها على صاحبه ، وهذا حال كل من طلب شيئاً للمفاخرة من مال أو جاه أو قوة أو علم أو زهد.

والمفاخرة نوعان: مذمومة ومحمودة ، فالمذمومة مفاخرة أهل الدنيا بها، والمحمودة أن يطلب المفاخرة في الآخرة. فهذه من جنس المنافسة المأمور بها ، وهي أن الرجل ينفس على غيره بالشيء ويغار أن يناله دونه ويأنف من ذلك ويحمى أنفه له، يقال نفست عليه لشيء أنفسه نفاسة إذا ضننت به ولم تحب أن يصير إليه دونك ، والتنافس تفاعل من ذلك ، كأن كل واحد من المتنافسين يريد أن يسبق صاحبه إليه، وحقيقة المنافسة الرغبة التامة والمبادرة والمسابقة إلى الشيء النفيس.

ثم أخبر تعالى عنها أنها تكاثر في الأموال والأولاد ، فيحب كل واحد أن يكاثر بني جنسه في ذلك ، ويفرح بأن يرى نفسه أكثر من غيره مالاً وولداً ، وأن يقال فيه ذلك. وهذا من أعظم ما يلهي النفوس عن الله والدار الآخرة ، كما قال تعالى: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤)**﴾ [التكاثر]. والتكاثر في كل شيء، فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة ، فهو داخل في حكم هذه الآية. فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال ، ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم، فيجمعه تكاثراً وتفاخراً. وهذا أسوأ حالاً عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه ؛ فإنه جعل أسباب الآخرة الدنيا ، وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن مصير الدنيا وحقيقتها ، وأنها بمنزلة غيث أعجب الكفار نباته، والصحيح ـ إن شاء الله ـ أن الكفار هم الكفار بالله ، وذلك عرف القرآن حيث ذكروا بهذا النعت في كل موضع ، ولو أراد الزراع لذكرهم باسمهم الذي يعرفون به ، كما ذكرهم به في قوله: ﴿**يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ**﴾ [ الفتح:٢٩]، وإنما خص الكفار به ؛ لأنهم أشد إعجاباً بالدنيا ؛ فإنها دارهم التي لها يعملون ويكدحون ، فهم أشد إعجاباً بزينتها وما فيها ـ من المؤمنين.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ عاقبة هذا النبات ، وهو اصفراره ويبسه ، وهذا آخر الدنيا ومصيرها

---

(١) أحمد (٣/ ٤٥٢) ، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٩١): « رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح ».

ولو ملكها العبد من أولها إلى آخرها فنهايتها ذلك. فإذا كانت الآخرة انقلبت الدنيا واستحالت إلى عذاب شديد أو مغفرة من الله وحسن ثوابه وجزائه ،كما قال على بن أبى طالب: الدنيا دار صدق لمن صدقها ،ودار عافية لمن فهم عنها ،ومطلب نجح لمن سالم. فيها مساجد أنبياء الله ،ومهبط وحيه ،ومصلى ملائكته ،ومتجر أوليائه. فيها اكتسبوا الرحمة، وربحوا فيها العافية ،فمن ذا يذمها وقد آذنت بنيها ، ونعت نفسها وأهلها ،فتمثلت ببلائها وشوقت بسرورها إلى السرور تخويفاً وتحذيراً وترغيباً ،فذمها قوم غداة الندامة، وحمدها آخرون ذكرتهم فذكروا ووعظتهم فاتعظوا ؛ فيا أيها الذام للدنيا المغتر بتغريرها متى استذمت إليك ؟ بل متى غرتك ؟ .أبمنازل آبائك فى الثرى؟أم بمضاجع أمهاتك فى البلا؟كم رأيت موروثاً ؟ كم عللت بكفيك عليلاً ؟ كم مرضت مريضاً بيديك تبتغى له الشفاء وتستوصف له الأطباء ثم لم تنفعه شفاعتك ولم تسعفه طلبتك ؟ مثلت لك الدنيا غداة مصرعه مصرعك ومضجعه مضجعك، ثم التفت إلى المقابر ،فقال: يا أهل الغربة ،ويا أهل التربة، أما الدور فسكنت، وأما الأموال فقسمت ،وأما الأزواج فنكحت، فهذا خبر ما عندنا، فهاتوا خبر ما عندكم. ثم التفت إلينا فقال: أما لو أذن لهم لأخبروكم أن خير الزاد التقوى.

فالدنيا فى الحقيقة لا تذم ،وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها، وهى قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار، ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها ،وهو الغالب على اسمها ،صار لها اسم الذم عند الإطلاق ،وإلا فهى مبنى الآخرة ومزرعتها ،ومنها زاد الجنة ،وفيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ومحبته وذكره ابتغاء مرضاته وخير عيش ناله أهل الجنة فى الجنة إنما كان بما زرعوه فيها. وكفى بها مدحاً وفضلاً لأولياء الله فيها من قرة العيون ،وسرور القلوب، وبهجة النفوس ،ولذة الأرواح ،والنعيم الذى لا يشبهه نعيم ،بذكره ومعرفته ومحبته وعبادته ،والتوكل عليه ،والإنابة إليه، والأنس به ،والفرح بقربه ،والتذلل له، ولذة مناجاته والإقبال عليه ،والاشتغال به عمن سواه وفيها كلامه ووحيه وهداه وروحه الذى ألقاه من أمره ،فأخبر به من شاء من عباده.

ولهذا فضل ابن عقيل وغيره هذا على نعيم الجنة ، وقالوا: هذا حق الله عليهم وذاك حظهم ونعيمهم ،وحقه أفضل من حقهم ،قالوا: والإيمان والطاعة أفضل من جزائه.

والتحقيق أنه لا يصح التفضيل بين أمرين فى دارين مختلفين. ولو أمكن اجتماعهما فى دار واحدة لأمكن طلب التفضيل. والإيمان والطاعة فى هذه الدار أفضل ما فيها، ودخول الجنة والنظر إلى وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والفوز برضاه أفضل ما فى الآخرة. فهذا أفضل ما فى هذه الدار ،وهذا أفضل ما فى الدار الأخرى. ولا يصح أن يقال: فأى الأمرين أفضل؟ فهذا أفضل الأسباب، وهذا أفضل الغايات، وبالله التوفيق.

ولما وصف ـ سبحانه ـ حقيقة الدنيا ،وبين غايتها ونهايتها وانقلابها فى الآخرة إلى

عذاب شديد ومغفرة من الله وثواب ـ أمر عباده بالمسابقة والمبادرة إلى ما هو خير وأبقى، وأن يؤثروه على الفانى المنقطع المشوب بالإنكاد والتنغيص.

ثم أخبر أن ذلك فضله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم ، وقال تعالى: **﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥)﴾** [الكهف ].

ثم ذكر ـ سبحانه ـ أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، وأن الباقيات الصالحات ، وهى الأعمال والأقوال الصالحة التى يبقى ثوابها ويدوم جزاؤها خير ما يؤمله العبد ويرجو ثوابه، وقال تعالى : **﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾**

[يونس]

ولما أخبر عباده عن آفات هذه الدار دعا عباده إلى دار السلام التى سلمت من التغير والاستحالة والزوال والفناء ، وعم عباده بالدعوة إليها عدلاً، وخص من شاء بالهداية إلى طريقها فضلاً.

وأخبر ـ سبحانه ـ أن الأموال والأولاد لا تقرب الخلق إليه، وإنما يقربهم إليه تقوى الله ومعاملته فيهم ، وحذر سبحانه عباده أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكره. وأخبر أن من فعل ذلك فهو الخاسر حقيقة، لا من قل ماله وولده فى الدنيا.

ونهى نبيه ﷺ أن يمد عينيه إلى ما متع به أهل الدنيا فيها فتنة لهم واختباراً . وأخبر أن رزقه الذى أعده له فى الآخرة خير وأبقى من هذا الذى متعوا به. وأخبر سبحانه أنه آتاه السبع المثانى والقرآن العظيم، وذلك خير وأفضل مما متع به أهل الدنيا فى دنياهم، وجعل ما آتاه مانعاً له من مد عينيه إلى ذلك. فهذا العطاء فى الدنيا، وما ادخر له من رزق الآخرة ، خير مما متع به أهل الدنيا؛ فلا تمدن عينيك.

## فصل

وإذا عرف أن الغنى والفقر، والبلاء والعافية ، فتنة وابتلاء من الله لعبده ، يمتحن بها صبره وشكره ـ علم أن الصبر والشكر مطيتان للإيمان لا يحمل إلا عليهما ، ولا بد لكل مؤمن منهما ، وكل منهما فى موضعه أفضل ، فالصبر فى مواطن الصبر أفضل ، والشكر فى مواضع الشكر أفضل. هذا إن صح مفارقة كل واحد منهما للآخر ، وأما إذا كان الصبر جزء مسمى الشكر ، والشكر جزء مسمى الصبر، وكل منها حقيقة مركبة من الأمرين معاً كما تقدم

بيانه ، فالتفضيل بينهما لا يصح إلا إذا جرد أحدهما عن الآخر. وذلك فرض ذهني يقدره الذهن، ولا يوجد في الخارج.

ولكن يصح على وجه ، وهو أن العبد قد يغلب صبره على شكره الذي هو قدر زائد على مجرد الصبر من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ،فلا يبقى فيه اتساع لغير صبر النفس على ما هو فيه لقوة الوارد وضيق المحل ، فتنصرف قواه كلها إلى كف النفس وحبسها لله. وقد يغلب شكره بالأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة على قوة كفه لنفسه وحبسها لله ، فتكون قوة إرادته وعمله أقوى من قوة امتناعه وحبس نفسه.

واعتبر هذا بشخصين :أحدهما حاكم على نفسه متمكن من حبسها عن الشهوات ، قليل التشكي للمصيبات،وذلك جل عمله. وآخر كثير الإعطاء لفعل الخير القاصر والمتعدي، سمح النفس ببذل المعروف. وآخر ضعيف النفس ، عن قوة الصبر.

فللنفس قوتان: قوة الصبر والكف وإمساك النفس ، وقوة البذل وفعل الخير والإقدام على فعل ما تكمل به. وكمالها باجتماع هاتين القوتين فيها.

والناس في ذلك أربع طبقات: فأعلاهم من اجتمعت له القوتان ، وسفلتهم من عدم القوتين ، ومنهم من قوة صبره أكمل من قوة فعله وبذله ، ومنهم من هو بالعكس في ذلك.

فإذا فضل الشكر على الصبر ،فإما أن يكون باعتبار ترجيح مقام على مقام ، وإما أن يكون باعتبار تجريد كل من الأمرين عن الآخر وقطع النظر عن اعتباره. وتمام إيضاح هذا بمسألة الغني الشاكر والفقير الصابر،فلنذكر لها باباً يخصها ، ويكشف عن الصواب فيها [1].

## فصل
## في الغني الشاكر والفقير الصابر
## أيهما أفضل؟ وما هو الصواب في ذلك؟

هذه مسألة كثر فيها النزاع بين الأغنياء والفقراء ، واحتجت كل طائفة على الأخرى بما لم يمكنها دفعه من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار ، ولذلك يظهر للمتأمل تكافؤ الطائفتين؛ فإن كلا منهما أدلت بحجج لا تدفع ،والحق لا يعارض بعضه بعضاً ، بل يجب اتباع موجب الدليل أين كان ، وقد أكثر الناس في المسألة من الجانبين ،وصنفوا فيها من الطرفين ، وتكلم الفقهاء والفقراء والأغنياء والصوفية وأهل الحديث والتفسير لشمول معناها

---

(١) عدة الصابرين (١٩١ ـ ٢١٦).

وحقيقتها للناس كلهم ، وحكوا عن الإمام أحمد فيها روايتان ،ذكرهما أبو الحسين فى كتاب « التمام » فقال : مسألة الفقير الصابر أفضل من الغنى الشاكر فى أصح الروايتين ، وفيه رواية ثانية الغنى الشاكر أفضل . وبها جماعة منهم ابن قتيبة ، ووجه الأولى واختارها أبو إسحاق بن شاقلا والوالد السعيد.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [ الفرقان: ٧٥].

قال محمد بن على بن الحسين: الغرفة : الجنة بما صبروا ،قال:على الفقر فى الدنيا.

وعن أنس عن النبى ﷺ قال:« اللهم أحينى مسكيناً ،وأمتنى مسكيناً ،واحشرنى فى زمرة المساكين يوم القيامة ». قالت عائشة: ولم يا رسول الله ؟ قال : « إنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً . يا عائشة ، لا تردى المسكين ولو بشق تمرة. يا عائشة ، أحبى المساكين وقربيهم؛ فإن الله يقربك يوم القيامة » (١).

قلت : لا حجة له فى واحدة من الحجتين ، أما الآية فالصبر فيها يتناول صبر الشاكر على طاعته ، وصبره عن معصيته ، وصبر المبتلى بالفقر وغيره على بلائه. ولو كان المراد بها الصبر على الفقر وحده لم يدل رجحانه على الشكر ؛ فإن القرآن كما دل على جزاء الصابرين دل على جزاء الشاكرين أيضاً ، كما قال تعالى: ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [ آل عمران: ١٤٥] ، ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. بل قد أخبر أن رضاه فى الشكر ، ورضاه أكبر من جزائه بالجنات وما فيها ، وإذا جزى الله الصابرين الغرفة بما صبروا لم يدل ذلك على أنه لا يجزى الشاكرين الغرفة بما شكروا.

وأما الحديث فلا حجة لوجهين:

**أحدهما** :أنه لا يحتج بإسناده ؛ فإنه من رواية محمد بن ثابت الكوفى عن الحارث بن النعمان ، والحارث هذا لم يحتج به أصحاب الصحيح ، بل قال فيه البخارى : منكر الحديث. ولذلك لم يصحح الترمذى حديثه هذا ،ولا حسنه ،ولا سكت عنه ،بل حكم بغرابته.

**الجواب الثانى** :إن الحديث لو صح لم يدل على مطلوبهم ؛فإن المسكنة التى يحبها الله من عبده ليست مسكنة فقر المال ، بل مسكنة القلب ، وهى انكساره وذله وخشوعه وتواضعه لله ،وهذة المسكنة لا تنافى الغنى ،ولا يشترط لها الفقر؛فإن انكسار القلب لله،ومسكنته لعظمته وجلاله وكبريائه وأسمائه وصفاته ، أفضل وأعلى من مسكة عدم المال،كما أن صبر الواحد عن معاصى الله طوعاً واختياراً وخشية من الله ومحبة له أعلى من صبر الفقير العاجز. وقد آتى الله جماعة من أنبيائه ورسله الغنى والملك،ولم يخرجهم ذلك عن المسكنة لله.

---

(١) الترمذى (٢٣٥٢) فى الزهد ، باب:ما جاء فى فضل الفقر ،وقال:« حسن غريب ».

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا الجريرى ، عن أبى السليل ، قال: كان داود النبى ﷺ يدخل ، فينظر أغمص حلقة من بنى إسرائيل ، فيجلس إليهم ، ثم يقول: مسكين بين ظهرانى مساكين. هذا مع ما آتاه الله من الملك والغنى والبسطة زيادة على النبوة.

قال أبو الحسن : وروى أبو برزة الأسلمى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فقراء المسلمين ليدخلون الجنة قبل أغنيائهم بمقدار أربعين خريفاً حتى يتمنى أغنياء المسلمين يوم القيامة أنهم كانوا فقراء فى الدنيا ».

قلت: هذا الحديث ثابت عن النبى ﷺ من رواية جماعة من الصحابة، منهم أبو هريرة وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله ، وروى عن أبى سعيد وأنس بن مالك ، ولا يدل ذلك على علو درجتهم إذا دخلوا الجنة قبل الأغنياء ، بل إنما يدل على السبق لعدم ما يحاسبون عليه . ولا ريب أن ولى الأمر العادل يتأخر دخوله للحساب ، وكذلك الغنى الشاكر، ولا يلزم من تأخر دخولهما نزول درجتهما عن درجة الفقير كما تقدم. وإنما تمنى الأغنياء أنهم كانوا فى الدنيا فقراء ، فإن صحت هذه اللفظة لم تدل على انحطاط درجتهم، كما يتمنى القاضى العادل فى بعض المواطن يوم القيامة أن لم يقض بين اثنين فى تمرة لما يرى من شدة الأمر ، فمنزلة الفقر والخمول ، ومنزلة السلامة ، ومنزلة الغنى والولاية، ومنزلة الغنيمة أو العطب .

قال أبو الحسن: وروى ابن عمر أن النبى ﷺ قام فى أصحابه فقال: « أى الناس خير؟» فقال بعضهم: غنى يعطى حق نفسه وماله ، فقال ﷺ: « نعم الرجل هذا وليس به ، ولكن خير الناس مؤمن فقير يعطى على جهد » (١).

قلت : لم يذكر لهذا الحديث إسناد فينظر فيه ، وحديث لا يعلم حاله لا يحتج به ، ولو صح لم يكن فيه دليل؛ لأنه تضمن تفضيل فقير يتصدق من جهد ، فمعه فقر الصابرين وغنى الشاكرين ؛ فقد جمع بين موجب التفضيل وسببه. ولا ريب أن هذا أفضل الأقسام الثلاثة ، ودرهمه الواحد يسبق مائة ألف درهم من غيره ، كما قال النبى ﷺ: « سبق درهم مائة ألف درهم »، قالوا: يا رسول الله ، كيف سبق درهم مائة ألف درهم؟ قال: « رجل كان له درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به ، وآخر له مال كثير فأخذ من عرضه مائة ألف فتصدق بها». رواه النسائى، من حديث صفوان بن عيسى ، حدثنا بن عجلان ، عن زيد بن أسلم ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة رضي الله عنه (٢).

وذكر البيهقى، من حديث الثورى، عن أبى إسحاق، عن الحارث، عن على رضي الله عنه ،

---

(١) تاريخ أصفهان (١/ ٢١٧).

(٢) النسائى (٢٥٢٧) فى الزكاة ، باب: جهد المقل.

قال : جاء ثلاثة نفر إلى النبى ﷺ ، فقال أحدهم :كانت لى مائة أوقية فتصدقت منها بعشر أواق، وقال الآخر:كانت لى مائة دينار فتصدقت منها بعشر دنانير ، وقال الآخر:كان لى عشرة دنانير فتصدقت منها بدينار ، فقال : « كلكم فى الأجر سواء؛ كلكم قد تصدق بعشر ماله » (١).

وقال أبو سعيد بن الأعرابى :حدثنا ابن أبى العوام ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا أبو الأشهب ، عن الحسن ،قال:قال رجل لعثمان بن عفان رضي الله عنه :ذهبتم يا أصحاب الأموال بالخير ؛ تتصدقون ، وتعتقون ،وتحجون ، وتنفقون. فقال عثمان:وإنكم لتغبطوننا وإنا لنغبطكم ،قال:فوالله لدرهم ينفقه أحد من جهد خير من عشرة آلاف درهم ؛ غيض من فيض.

وفى سنن أبى داود من حديث الليث ، عن أبى الزبير ، عن يحيى بن جعدة ، عن أبى هريرة ، أنه قال: يا رسول الله ، أى الصدقة أفضل ؟ قال : « جهد المقل ،وابدأ بمن تعول » (٢).

وفى المسند وصحيح ابن حبان، من حديث أبى ذر رضي الله عنه ،قال:قلت: يا رسول الله، أى الصدقة أفضل ؟ قال:« جهد من مقل » (٣).

وفى سنن النسائى ، من حديث الأوزاعى ، عن عبيد بن عمير ، عن عبد الله بن حبشى:أن النبى ﷺ سئل:أى الأعمال أفضل ؟ قال:« إيمان لا شك فيه ، وجهاد لا غلول فيه، وحجة مبرورة » ، قيل : فأى الصلاة أفضل ؟ قال : « طول القيام » ، قيل : فأى الصدقة أفضل ؟ قال : « جهد من مقل » ، قيل : فأى الهجرة أفضل ؟ قال : « من هجر ما حرم الله عليه » ، قيل:فأى الجهاد أفضل ؟ قال: « من أهريق دمه وعقر جواده » (٤).

وهده الأحاديث كلها،تدل على أن صدقة جهد المقل أفضل من صدقة كثير المال ببعض ماله الذى لا يتبين أثر نقصانه عليه وإن كان كثيراً ؛ لأن الأعمال تتفاضل عند الله بتفاضل ما فى القلوب لا بكثرتها وصورها ، بل بقوة الداعى وصدق الفاعل وإخلاصه وإيثاره الله على نفسه؛فأين صدقة من آثر الله على نفسه برغيف هو قوته إلى صدقة من أخرج مائة ألف درهم من بعض ماله غيضاً من فيض؟ فرغيف هذا درهمه فى الميزان أثقل من مائة ألف هذا . والله المستعان.

واحتجوا بما رواه ابن عدى ، من حديث سليمان بن عبدالرحمن ، حدثنا خالد بن

---

(١) البيهقى فى الكبرى (٤/ ١٨٢).

(٢) أبو داود (١٦٧٦) فى الزكاة ، باب:الرجل يخرج من ماله .

(٣) أحمد (٥/ ١٧٨) ،وابن حبان (٣٣٣٥) عن أبى هريرة.

(٤) النسائى (١٢٦٥) فى الزكاة ، باب :جهد المقل.

يزيد، عن أبيه ، عن عطاء ، سمع أبا سعيد الخدرى، يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « اللهم توفنى فقيراً ، ولا توفنى غنياً ».

وهذا الحديث لا يصح ؛ فإن خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن مالك الدمشقى أجمعوا على ضعفه وعدم الاحتجاج بحديثه ، قال أحمد : ليس بشىء وقال ابن معين: واه. ونسبه يحيى إلى الكذب ، وقد تقدم فيه.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عن هذه المسألة ، فقال : قد تنازع كثير من المتأخرين فى الغنى الشاكر والفقير الصابر ، أيهما أفضل ؛ فرجح هذا طائفة من العلماء والعباد ، ورجح هذا طائفة أخرى من العلماء والعباد ، وحكى فى ذلك عن الإمام أحمد روايتان. وأما الصحابة والتابعون ﷺ ، فلم ينقل عن أحد منهم تفضيل أحد الصنفين على الآخر. وقد قالت طائفة ثالثة ليس لأحدهما على الأخرى فضيلة إلا بالتقوى ، فأيهما أعظم إيماناً وتقوى كان أفضل، فإن استويا فى ذلك استويا فى الفضيلة. قال: وهذا أصح الأقوال؛ لأن نصوص الكتاب والسنة إنما تفضل بالإيمان والتقوى ، وقد قال تعالى: ﴿ **إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا** ﴾ [ النساء: ١٣٥] . وقد كان فى الأنبياء والسابقين الأولين من الأغنياء من هو أفضل من أكثر الفقراء ، وكان فيهم من الفقراء من هو أفضل من أكثر الأغنياء ، والكاملون يقومون بالمقامين فيقومون بالشكر والصبر على التمام ، كحال نبينا ﷺ وحال أبى بكر وعمر ﷺ.

ولكن قد يكون الفقر لبعض الناس أنفع ، والغنى لآخرين أنفع ، كما تكون الصحة لبعضهم أنفع والمرض لبعضهم أنفع ، كما فى الحديث الذى رواه البغوى وغيره عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : « إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك ؛ إنى أدبر عبادى ، إنى بهم خبير بصير» (١).

وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: « إن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل الأغنياء» (٢)، وفى الحديث الآخر: لما علم للفقراء الذكر عقب الصلاة سمع بذلك الأغنياء ، فقالوا مثل ما قالوا؛ فذكر ذلك الفقراء للنبى ﷺ ، فقال: « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (٣). فالفقراء يتقدمون فى دخول الجنة لخفة الحساب عليهم ، والأغنياء يؤخرون لأجل الحساب عليهم. ثم إذا حوسب أحدهم فإن كانت حسناته أعظم من حسنات الفقير كانت درجته فى الجنة

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير (٢/٢٤٨).

(٢) الدارمى (٢٨٤٤) فى الرقائق ، باب فى دخول الفقراء الجنة قبل الأغنياء.

(٣) البخارى (٨٤٤) فى الأذان ، باب: الذكر بعد الصلاة ، ومسلم (٥٩٥/١٤٢) فى المساجد ، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة . . . إلخ.

فوقه،وإن تأخر فى الدخول كما أن السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ومنهم عكاشة بن محصن ،قد يدخل الجنة بحساب من يكون أفضل من أحدهم فى الدرجات.لكن أولئك استراحوا من تعب الحساب.فهذا فى الفقر المذكور فى الكتاب والسنة،وهو ضد الغنى الذى يبيح أخذ الزكاة أو الذى لا يوجب الزكاة.

ثم قد صار فى اصطلاح كثير من الناس الفقر عبارة عن الزهد والعبادة والأخلاق ، ويسمون من اتصف بذلك فقيراً وإن كان ذا مال ، ومن لم يتصف بذلك قالوا:ليس بفقير،وإن لم يكن له مال.وقد يسمى هذا المعنى تصوفاً ،ومن الناس من يفرق بين مسمى الفقير والصوفى ،ثم من هؤلاء من يجعل مسمى الفقير أفضل ،ومنهم من يجعل مسمى الصوفى أفضل.والتحقيق فى هذا الباب ،أنه لا ينظر إلى الألفاظ المحدثة ، بل ينظر إلى ما جاء به الكتاب والسنة من الأسماء والمعانى ،والله قد جعل وصف أوليائه الإيمان والتقوى ، فمن كان نصيبه من ذلك أعظم كان أفضل ،والأغنياء بما سوى ذلك ، والله أعلم.

## فصل
## فى ذكر ما احتجت به الفقراء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار

قالت الفقراء :لم يذكر الله ـ سبحانه ـ الغنى والمال فى القرآن إلا على أحد وجوه:

**الأول**: على وجه الذم، كقوله تعالى: ﴿ **كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)** ﴾ [العلق]

وقوله: ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ**﴾ [ الشورى:٢٧].

وقوله: ﴿**وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)**﴾ [ الزخرف].

وقال تعالى: ﴿**فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)**﴾ [ التوبة ].

وقال تعالى: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [الكهف:٤٦].

وقال: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**﴾ [ آل عمران:١٤]. الآية ،ونظائر ذلك كثيرة.

**الوجه الثاني**:أن يذكره على وجه الابتلاء والامتحان ،كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ**

**وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾** [التغابن: ١٥].

وقال تعالى : **﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ۝٥٥ ﴾** [المؤمنون ].

وقال تعالى مخبراً عن ابتلائه بالغنى كما ابتلى بالفقر : **﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ ﴾** [ الفجر ].

وقال تعالى: **﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥ ﴾** [ الأنبياء].

**الوجه الثالث** :إخباره ـ سبحانه وتعالى ـ أن الأموال والأولاد لا تقرب إليه شيئاً، وإنما يقرب إليه الإيمان والعمل الصالح ،كما قال: **﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ۝٣٧ ﴾** [سبأ]

**الوجه الرابع** :إخباره أن الدنيا والغنى والمال ،وإنما جعلها متعة لمن لا نصيب له فى الآخرة ،أن الآخرة جعلها للمتقين ،فقال تعالى :**﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١ ﴾** [طه ] وقال تعالى :**﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾** [الأحقاف: ٢٠]. وإلى هذا المعنى أشار النبى ﷺ بقوله لعمر:« أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة » ،وسيأتى الحديث.

**الوجه الخامس**:أنه ـ سبحانه ـ لم يذكر المترفين وأصحاب الثروة إلا بالذم، كقوله: **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥ ﴾** [ الواقعة ] ،قوله: **﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾** [ الإسراء : ١٦ ] ،وقوله تعالى : **﴿ لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ۝١٣ ﴾** [ الأنبياء ] .

**الوجه السادس**: أنه ـ سبحانه ـ ذم محب المال، فقال: **﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ ﴾** [ الفجر ] ،فذمهم بحب المال وعيرهم به.

**الوجه السابع** :أنه ـ سبحانه ـ ذم متمنى الدنيا والغنى والسعة فيها ،ومدح من أنكر عليهم وخالفهم ، فقال تعالى عن أغنى أهل زمانه :**﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ۝٨٠ ﴾** [ القصص ] . فأخبروا

أن ما عند الله خير من الدنيا لمن آمن وعمل صالحاً ،ولا يلقى هذه الوصية ،وهى الكلمة التى تكلم بها الذين أوتوا العلم ،أو المثوبة والجنة التى دل عليها قوله: ﴿ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ [القصص : ٨٠ ] ، والسيرة والطريقة التى دل عليها قوله: ﴿ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [القصص : ٨٠ ]، وعلى كل حال لا يلقى ذلك إلا الصابرون على الفقر وعن الدنيا وشهواتها وما أترف فيه الأغنياء، وقد شهد الله سبحانه لهم أنهم من أهل العلم دون الذين تمنوا الدنيا وزينتها.

**الوجه الثامن**:أنه ـ سبحانه ـ أنكر على من ظن أن التفضيل يكون بالمال الذى يحتاج إليه لإقامة الملك، فكيف بما هو زيادة وفضلة ؟ فقال: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ [البقرة:٢٤٧]. فرد الله ـ سبحانه ـ قولهم،وأخبر سبحانه أن الفضل ليس بالمال كما توهموه ،وأن الفضل بالعلم لا بالمال ،وقال سبحانه: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس ]، ففضله ورحمته العلم والإيمان والقرآن ، والذى يجمعونه هو المال وأسبابه ، ومثله قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾ [ الزخرف ].

**الوجه التاسع** : أنه ـ سبحانه ـ أخبر أن التكاثر فى جمع المال وغيره ألهى الناس وشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها ، وتوعدهم على ذلك ، فقال تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) ﴾ [ التكاثر ]. فأخبر ـ سبحانه ـ أن التكاثر شغل أهل الدنيا ،وألهاهم عن الله والدار الآخرة ،حتى حضرهم الموت ، فزاروا المقابر ،ولم يفيقوا من رقدة من ألهاهم التكاثر. وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذاناً بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين فى القبور ،وأنهم فيها بمنزلة الزائرين ، يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها ،كما كانوا فى الدنيا كذلك زائرين لها غير مستقرين فيها ،ودار القرار هى الجنة أو النار ،ولم يعين سبحانه المتكاثر به ،بل ترك ذكره ، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشىء لا المتكاثر به ،كما يقال:شغلك اللعب واللهو ولم يذكر ما يلعب ويلهو به. وأما إرادة الإطلاق ،وهو كل ما تكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لا يبتغى به وجه الله أو عمل لا يقربه إلى الله ، فكل هذا من التكاثر الملهى عن الله والدار الآخرة.

وفى صحيح مسلم، من حديث عبدالله بن الشخير ، أنه قال:انتهيت إلى النبى ﷺ ، وهو يقرأ: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) ﴾ [التكاثر ]، وقال: « يقول ابن آدم: مالى مالى ، وهل لك

من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت ،أو أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت »(١).

ثم أوعد ـ سبحانه ـ من ألهاه التكاثر وعيداً مؤكداً ،إذا عاين تكاثره هباء منثوراً ،وعلم دنياه التى كاثر بها إنما كانت خداعاً وغروراً ،فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له ، وخسر هنالك تكاثره كما خسر أمثاله ،وبدا له من الله ما لم يكن فى حسابه ،وصار تكاثره الذى شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه ،فعذب بتكاثره فى دنياه ، ثم عذب به فى البرزخ ، ثم يعذب به يوم القيامة. فكان أشقى بتكاثره ،إذا أفاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة ، فلم يفر من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين ، ولم يحفظ به من علوه به فى الدنيا بأن حصل مع الأسفلين ؛ فيا له تكاثراً ما أقله؟! ورزءاً ما أجله؟! ومن غنى جالباً لكل فقر؟! وخيراً توصل به إلى كل شر؟! يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه: يا ليتنى قدمت لحياتى ، وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتى: ﴿ **رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا**﴾ [المؤمنون ]،تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها،ورجعة يسألها فلا يجاب إليها.

وتأمل قوله أولاً: ﴿**رَبِّ**﴾ استغاث بربه ،ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدى ربه تبارك وتعالى ، فقال: ﴿ **ارْجِعُونِ**﴾ ، ثم ذكر سبب سؤال الرجعة ،وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه ،فيقال له: ﴿**كَلاَّ**﴾ ،لا سبيل لك إلى الرجعى وقد عمرت ما يتذكر فيه من تذكر.

ولما كان شأن الكريم الرحيم ، أن يجيب من استغاث ،وأن يفسح له فى المهلة ؛ ليتذكر ما فاته ، أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها ، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحاً لو أجيب ، وإنما ذلك شىء يقوله لسانه ، وأنه لو رد لعاد لما نهى عنه ، وأنه من الكاذبين ؛ فحكمه أحكم الحاكمين ، وعزته وعمله وحمده يأبى إجابته إلى ما سأل ؛ فإنه لا فائدة فى ذلك ، ولو رد لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)** ﴾ [الأنعام ].

وقد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية ،وما أوردوا ،فراجع أقوالهم تجدها لا تشفى عليلاً ،ولا تروى غليلاً. ومعناها أجل وأعظم مما فسروا به ،ولم يتفطنوا لوجه الإضراب بـ ﴿ **بَلْ** ﴾ ،ولا للأمر الذى بدا لهم وكانوا يخفونه ،وظنوا أن الذى بدا لهم العذاب، فلما لم يروا ذلك ملتئماً مع قوله ﴿ **مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ**﴾ ، فقدروا مضافاً محذوفاً

---

(١) مسلم (٢٩٥٨/٣) فى أول كتاب الزهد والرقائق.

وهو خير ما كانوا يخفون من قبل ،فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه ،وهو أن القوم لم يكونوا يخفون شركهم ،بل كانوا يظهرونه ويدعون إليه ويحاربون عليه. ولما علموا أن هذا وارد عليهم قالوا: إن القوم فى بعض موارد القيامة ومواطنها أخفوا شركهم وجحدوه ،وقالوا: والله ربنا ما كنا مشركين ،فلما وقفوا على النار بدا لهم جزاء ذلك الذى أخفوه. قال الواحدى: وعلى هذا أهل التفسير. ولم يصنع أرباب هذا القول شيئاً فإن السياق والإضراب بـ ﴿ بَلْ ﴾، والإخبار عنهم بأنهم ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [ الأنعام: ٢٨]، وقولهم: ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ﴾ ،لا يلتئم بهذا الذى ذكروه ،فتأمله.

وقالت طائفة منهم الزجاج: بل بدا للأتباع ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعث.

وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير ، وفيه من التكلف ما ليس بخاف ، وأجود من هذا ما فهمه المبرد من الآية قال : كأن كفرهم لم يكن بادياً لهم إذ خفيت عليهم مضرته . ومعنى كلامه أنهم لما خفيت عليهم مضرة عاقبته ووباله فكأنه كان خفياً عنهم لم تظهر لهم حقيقته، فلما عاينوا العذاب ظهرت لهم حقيقته وشره. قال: وهذا كما تقول لمن كنت حدثته فى أمر قبل: وقد ظهر لك الآن ما كنت قلت لك ،وقد كان ظاهراً له قبل هذا. ولا يسهل أن يعبر عن كفرهم وشركهم الذى كانوا ينادون به على رؤوس الأشهاد ، ويدعون إليه كل حاضر وباد ،بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم. ولا يقال لمن أظهروا الظلم والفساد وقتل النفوس والسعى فى الأرض بالفساد أنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته وخفائها عليه.

فمعنى الآية ،والله أعلم بما أراد من كلامه ،أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها وعلموا أنهم داخلوها ،تمنوا أنهم يردون إلى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته ولا يكذبون رسله ،فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك ،وأنهم ليس فى طبائعهم وسجاياهم الإيمان ،بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب ،وأنهم لو ردوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله،وأخبر أنهم كاذبون فى زعمهم أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا.

فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها ،تبين معنى الإضراب بـ ﴿ بَلْ ﴾، وتبين معنى الذى بدا لهم والذى كانوا يخفونه والحامل لهم على قولهم ﴿ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ [ الأنعام : ٢٧ ] .فالقوم كانوا يعلمون أنهم كانوا فى الدنيا على باطل ،وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله وتيقنوا ذلك وتحققوه ،ولكنهم أخفوه ولم يظهروه بينهم ، بل تواصوا بكتمانه ،فلم يكن الحامل لهم على تمنى الرجوع والإيمان ، معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل ؛فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه ،وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم أنهم على باطل ،وأن الرسل على الحق ،فعاينوا ذلك عياناً بعد أن كانوا يكتمونه ويخفونه ، فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالإيمان ،ولعادوا إلى الكفر والتكذيب ، فإنهم لم يتمنوا الإيمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل ،وإنما تمنوا لما عاينوا العذاب الذى لا طاقة لهم باحتماله ،وهذا كمن كان يخفى محبة شخص ومعاشرته

وهو يعلم أن حبه باطل ،وأن الرشد فى عدوله عنه ،فقيل له: إن اطلع عليه وليه عاقبك، وهو يعلم ذلك ويكابر ويقول:بل محبته ومعاشرته هى الصواب ،فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة،تمنى أن يعفى من العقوبة وأنه لا يجتمع به بعد ذلك ، وفى قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاودة بعد معاينة العقوبة ، بل بعد أن مسته وأنهكته ، فظهر له عند العقوبة ما كان يخفى من معرفته بخطئه وصواب ما نهاه عنه، ولو ردَّ لعاد لما نهى عنه.

وتأمل مطابقة الإضراب لهذا المعنى، وهو نفى قولهم لو رددنا لآمنا وصدقنا ؛ لأنه ظهر لنا الآن أن ما قاله الرسل هو الحق ،أى ليس كذلك ،بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه وكنتم تخفونه ،فلم يظهر لكم شيء لتكونوا عالمين به لتعذروا ،بل ظهر لكم ما كان معلوماً وكنتم تتواصون بإخفائه وكتمانه. .والله أعلم.

ولا تستطل هذا الفصل المعترض فى أثناء هذه المسألة ،فلعله أهم منها وأنفع ،وبالله التوفيق. فلنرجع إلى تمام الكلام فيها.

وقوله: ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ ﴾ [ التكاثر ] ،جوابه محذوف دل عليه ما تقدم ، أى لما ألهاكم التكاثر. وإنما وجد هذا التكاثر وإلهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين، وهو العلم الذى يصل به صاحبه إلى حد الضروريات التى لا يشك ولا يمارى فى صحتها وثبوتها،ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرته ، لما ألهاه عن موجبه، ويرتب أثره عليه؛ فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه قد لا يكفى فى تركه. فإذا صار له علم اليقين،كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد فإذا صار عين يقين كجملة المشاهدات، كان تخلف موجبه عنه من أندر شيء. وفى هذا المعنى قال حسان بن ثابت رضي الله عنه فى أهل بدر:

سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم      لو يعلمون يقين العلم ما ساروا

وقوله: ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾ [ التكاثر ]، قيل : تأكيد لحصول العلم كقوله: ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ۝٥ ﴾ [ النبأ ] ، وقيل :ليس تأكيداً ، بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت ، والعلم الثانى فى القبر ـ هذا قول الحسن ومقاتل ، ورواه عطاء عن ابن عباس.

ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه:

**أحدها** :أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل،وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الإخلال بالفصاحة.

**الثانى** :توسط ( ثم ) بين العلمين ،وهى مؤذنة بتراخى ما بين المرتبتين زماناً وخطراً.

**الثالث** : أن هذا القول مطابق للواقع ؛ فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه،ثم يعلم فى القبر وما بعده ذلك علماً هو فوق الأول .

**الرابع** : أن علياً بن أبى طالب رضي الله عنه وغيره من السلف ، فهموا من الآية عذاب القبر. قال الترمذى: حدثنا أبو كريب ، حدثنا حكام بن سليم الرازى ، عن عمرو بن قيس، عن الحجاج بن المنهال عمر عن زر عن على رضي الله عنه ، قال: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾. قال الواحدى : يعنى أن معنى قوله : ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فى القبر.

**الخامس** : أن هذا مطابق لما بعده من قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ ، فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعين اليقين، وتقدم الأولى وتراخى الثانية عنها. ثم ختم السورة بالإخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد والنون الثقيلة عن سؤال النعيم. فكل أحد يسأل عن نعيمه الذى كان فيه فى الدنيا: هل ناله من حلاله ووجهه أم لا ؟

فإذا تخلص هذا السؤال سئل سؤالاً آخر: هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا ؟ فالأول سؤال عن سبب استخراجه والثانى عن محل صرفه، كما فى جامع الترمذى، من حديث عطاء بن أبى رباح، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ قال: « لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن ماذا عمل فيما علم » (١).

وفيه أيضاً عن أبى برزة قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه » . قال : هذا حديث صحيح (٢) .

وفيه أيضاً ، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن أول ما يسئل عنه العبد يوم القيامة ـ يعنى من النعيم ـ أن يقال له: ألم نصح جسمك ونرويك من الماء البارد؟» (٣).

وفيه أيضاً، من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه لما نزلت: ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾ ، قال الزبير: يا رسول الله، فأى النعيم نسأل عنه ؟ وإنما هو الأسودان التمر والماء. قال: « أما إنه سيكون ». قال: هذا حديث حسن (٤).

وعن أبى هريرة نحوه، وقال: إنما هو الأسودان العدو حاضر، سيوفنا على عواتقنا. قال: « إن ذلك سيكون». وقوله: « إن ذلك سيكون »، إما أن يكون المراد به أن النعيم

(١) الترمذى (٢٤١٦) فى صفة القيامة . . . إلخ ، باب : فى القيامة ، وقال: « غريب ».

(٢) الترمذى (٢٤١٧) فى صفة القيامة . . . إلخ ، باب : فى القيامة.

(٣) الترمذى (٣٣٥٨) فى تفسير القرآن ، باب: ومن سورة التكاثر وقال : « غريب ».

(٤) الترمذى (٣٣٥٦) فى تفسير القرآن ، باب ومن سورة التكاثر.

سيكون ويحدث لكم ، وإما أن يرجع إلى السؤال، أى أن السؤال يقع عن ذلك. وإن كان تمراً وماء فإنه من النعيم. ويدل عليه قوله ﷺ فى الحديث الصحيح ـ وقد أكلوا معه رطباً ولحماً وشربوا من الماء البارد: « هذا من النعيم الذى تسألون عنه يوم القيامة » (١)، فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه.

وفى الترمذى ،من حديث أنس ﷺ، عن النبى ﷺ قال: « يجاء بالعبد يوم القيامة كأنه بذج (٢)، فيوقف بين يدى الله تعالى ،فيقول الله: أعطيتك وخولتك وأنعمت عليك، فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب جمعته وثمرته فتركته أوفر ما كان فارجعنى آتيك به، فإذا عبيد لم يقدم خيراً فيمضى به إلى النار » (٣).

وفيه من حديث أبى سعيد وأبى هريرة ﷺ قالا: قال رسول الله ﷺ: « يؤتى بالعبد يوم القيامة ،فيقول الله: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً ،وسخرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس وترتع، أفكنت تظن أنك ملاق يومك هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتنى ». قال: هذا حديث صحيح (٤).

وقد زعم طائفة من المفسرين أن هذا الخطاب خاص بالكفار ،وهم المسؤولون عن النعيم. وذكر ذلك عن الحسن ومقاتل، واختار الواحدى ذلك ،واحتج بحديث أبى بكر لما نزلت هذه الآية: قال لرسول الله: أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت أبى الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب وماء عذب ،أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذى نسأل عنه؟ فقال رسول الله ﷺ: « إنما ذلك الكفار » ثم قرأ: ﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ [سبأ:١٧]. قال الواحدى: والظاهر يشهد بهذا القول؛ لأن السورة كلها خطاب المشركين وتهديد لهم. والمعنى أيضاً يشهد بهذا القول ،وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم حيث أشركوا به وعبدوا غيره ،فاستحقوا أن يسألوا عما أنعم به عليهم توبيخاً لهم ، هل قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة ؟ ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم . قال: وهذا معنى قول مقاتل، وهو قول الحسن قال: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار.

قلت :ليس فى للفظ ،ولا فى السنة الصحيحة ،ولا فى أدلة العقل، ما يقتضى اختصاص الخطاب بالكفار ،بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء التكاثر له ،فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك. ويدل

---

(١) الترمذى (٢٣٦٩) فى الزهد، باب : ماجاء فى معيشة أصحاب النبى ﷺ ، وقال : « حسن صحيح غريب » ، وأحمد (٣/ ٣٣٨).

(٢) البذج: ولد الضأن.

(٣) الترمذى (٢٤٢٧) فى صفة القيامة والرقائق والورع ، باب: رقم (٦)، وقال: « إسماعيل بن مسلم يضعف فى الحديث من قبل حفظه ».

(٤) الترمذى (٢٤٢٨) فى صفة القيامة والرقائق والورع ، باب: رقم (٦).

على ذلك قول النبى ﷺ عند قراءة هذه السورة: « يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ؟» الحديث، وهو فى صحيح مسلم (١). وقائل ذلك قد يكون مسلماً، وقد يكون كافراً، ويدل عليه أيضاً الأحاديث التى تقدمت ، وسؤال الصحابة النبى ﷺ وفهمهم العموم، حتى قالوا له: وأى نعيم نسأل عنه؟ وإنما هو الأسودان ، فلو كان الخطاب مختصاً بالكفار لبين لهم ذلك ، وقال : ما لكم ولها ، إنما هى للكفار . فالصحابة فهموا النعيم ، والأحاديث صريحة فى النعيم ، والذى أنزل عليه القرآن أقرهم على فهم العموم .

وأما حديث أبى بكر الذى احتج به أرباب هذا القول ، فحديث لا يصح. والحديث الصحيح فى تلك القصة يشهد ببطلانه، ونحن نسوقه بلفظه؛ ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبى بكر وعمر، فقال: « ما أخرجكما من بيوتكما فى هذه الساعة ؟» قالا: الجوع يا رسول الله. قال: « وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما . قوما»، فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار ، فإذا هو ليس فى بيته ، فلما رأته امرأته قالت: مرحباً وأهلاً ، فقال لها رسول الله ﷺ: « وأين فلان؟» قالت : ذهب يستعذب لنا من الماء ، إذ جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ، فقال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً منى، قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب ، فقال: كلوا من هذا، فأخذ المدية. فقال له رسول الله ﷺ: « إياك والحلوبة»، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا ، فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر: « والذى نفسى بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة؛ أخرجكم من بيوتكم الجوع ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم » (٢). فهذا الحديث الصحيح صريح فى تعميم الخطاب ، وأنه غير مختص بالكفار.

وأيضاً ، فالواقع يشهد بعدم اختصاصه ، وأن الإلهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيراً، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر. وخطاب القرآن عام لمن بلغه ، وإن كان أول من دخل فيه المعاصرين لرسول الله ﷺ ، فهو متناول لمن بعدهم. وهذا معلوم بضرورة الدين، وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المتأخرين، فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ونظائره ، كما دخل تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين ، فقوله: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١﴾ [التكاثر] خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف ، وهم فى الإلهاء والتكاثر درجات لايحصيها إلا الله.

فإن قيل : فالمؤمنون لم يلههم التكاثر، ولهذا لم يدخلوا فى الوعيد المذكور لمن ألهاه؟

---

(١) سبق تخريجه ص ٤٤٤ .

(٢) مسلم ( ٢٠٣٨ / ١٤٠ ) فى الأشربة .

قيل : هذا هو الذى أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار ؛لأنه لم يمكنهم حمله على العموم،ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد فخصوهم به.وجواب هذا:أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان،على طريقة القرآن فى تناول الذم له من حيث هو إنسان ، كقوله: ﴿ وَكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾ [الإسراء ] ، ﴿وَكَانَ الإنسَانُ قَتُوراً (١٠٠) ﴾ [الإسراء] ، ﴿ إِنَّ الإنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود (٦)﴾ [العاديات ]، ﴿ وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]، ﴿إِنَّ الإنسَانَ لَكَفُور (١٥) ﴾ [الزخرف ] ونظائره كثيرة. فالإنسان من حيث هو عار عن كل خير العلم النافع والعمل الصالح،وإنما الله ـ سبحانه ـ هو الذى يكمله بذلك ويعطيه إياه،وليس له ذلك من نفسه ، بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم،والظلم المضاد للعدل، وكل علم وعدل وخير فيه ، فمن ربه لا من نفسه . فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته التى هى له من نفسه ، ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له وجعله مريداً للآخرة مؤثراً لها على التكاثر بالدنيا ، فإن أعطاه ذلك وإلا فهو ملته بالتكاثر فى الدنيا ولا بد .

وأما احتجاجه بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار،فيقال:الوعيد المذكور مشترك ، وهو العلم عند معاينة الآخرة. فهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلاً له فى الدنيا، وليس فى قوله: ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُون (٢) ﴾ [ التكاثر ]. ما يقتضى دخول النار،فضلاً عن التخليد فيها.وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها؛فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عياناً.وقد أقسم الرب تبارك وتعالى أنه لابد أن يراها الخلق كلهم:مؤمنهم وكافرهم ،وبرهم وفاجرهم.فليس فى جملة هذه السورة ما ينفى عموم خطابهم.وأما ما ذكره عن الحسن،أنه لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار.فباطل قطعاً إما عليه وإما منه،والأحاديث الصحيحة الصريحة ترده ، وبالله التوفيق .

ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها ،وما تضمنته من تحذير الملهى،وانطباق معناها على أكثر الخلق ، يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار، ولا يليق ذلك بها . ويكفى فى ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها ، والله أعلم .

وتأمل ما فى هذا العتاب الموجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن زار القبور ،ولم يستيقظ من نوم الإلهاء ،بل أرقد التكاثر قلبه،فلم يستفق منه إلا وهو فى عسكر الأموات،وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود.

وتأمل تعليقه ـ سبحانه ـ الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثر به، ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها.وأيضاً فإن التكاثر تفاعل،وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر صاحبه،فيكون أكثر منه فيما يكاثره به، والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للكاثر،كما قيل :

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العـزة للـكاثر

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره، كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحاب ، ولم تضرهم ؛ إذ لم يتكاثروا بها. وكل من كاثر إنساناً فى دنياه أو جاهه أو غير ذلك، شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة.

فالنفوس الشريفة العلوية ، ذات الهمم العالية ، إنما تكاثر بما يدوم عليها نفعه ، وتكمل به وتزكو، وتصير مفلحة ، فلا تحب أن يكثرها غيرها فى ذلك وينافسها فى هذه المكاثرة ويسابقها إليها. فهذا هو التكاثر الذى هو غاية سعادة العبد، وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم.

فهذا تكاثر مله عن الله والدار الآخرة ، وهو صائر إلى غاية القلة ، فعاقبة هذا التكاثر قل وفقر وحرمان. والكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال يذكر بالله ولقائه ، وعاقبته الكثرة الدائمة التى لا تزول ولا تفنى وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولاً وأحسن منه عملاً وأغزر علماً. وإذا رأى غيره أكثر منه فى خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كاثره بخصلة أخرى هو قادر على المكاثرة بها. وليس هذا التكاثر مذموماً ولا قادحاً فى إخلاص العبد ، بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات.

وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج رضي الله عنهم فى تصاولهم بين يدى رسول الله ﷺ، ومكاثرة بعضهم لبعض فى أسباب مرضاته ونصره . وكذلك كانت حال عمر مع أبى بكر رضي الله عنهما . فلما تبين له مدى سبقه له قال : والله لا أسابقك إلى شىء أبداً .

ومن تأمل حسن موقع « كلا » فى هذا الموضع ؛ فإنها تضمنت ردعاً لهم، وزجراً عن التكاثر ، ونفياً وإبطالاً لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعزتهم وكمالهم به؛ فتضمنت اللفظة نهياً ونفياً . وأخبرهم ـ سبحانه ـ أنهم لابد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علماً بعد علم ، وأنهم لابد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التى ألهتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية ، وأنه ـ سبحانه ـ لابد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم: من أين استخرجوها ؟! وفيما صرفوها ؟

فلله ما أعظمها من سورة ! وأجلها وأعظمها فائدة ! وأبلغها موعظة وتحذيراً! وأشدها ترغيباً فى الآخرة وتزهيداً فى الدنيا على غاية اختصارها ، وجزالة ألفاظها، وحسن نظمها! فتبارك من تكلم بها حقاً ، وبلغها رسوله عنه وحياً.

وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حى، زائرين غير مستوطنين ، بل هم مستودعون فى المقابر مدة ، وبين أيديهم دار القرار. فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين، فكيف بهم وهم فى الطريق فى هذه الدار؟! فهم فيها عابروا سبيل إلى محل الزيارة ، ثم منتقلون من محل الزيارة إلى المستقر . فهاهنا ثلاثة أمور : عبور السبيل فى هذه الدنيا ، وغايته زيارة القبور ، وبعدها النقلة إلى دار القرار .

# فصل

فلنرجع إلى تمام المناظرة. قالوا: فالله تعالى حمى أولياءه، عن الدنيا وصانهم عنها، ورغب بهم عنها؛ تكريماً لهم، وتطهيراً عن أدناسها، ورفعة عن دناءتها، وذماً لهم. وأخبرهم بهوانها عليه، وسقوط قدرها عنده. وأعلمهم أن بسطها فتنة، وأنه سبب الطغيان والفساد فى الأرض، وإلهاء التكاثر بها عن طلب الآخرة، وأنها متاع الغرور. وذم محبيها ومؤثريها. وأخبر أن من أرادها أو أراد زينتها وحرثها فليس له فى الآخرة من نصيب. وأخبر أن بسطها فتنة وابتلاء لا كرامة ومحبة، وأن إمداد أهلها به ليس مسارعة لهم فى الخيرات، وأنها لا تقرب إليه ولا تزلف لديه. وأنه لولا تتابع الناس فى الكفر لأعطى الكفار منها فوق مناهم، ووسعها عليهم أعظم التوسعة، بحيث يجعل سقوف بيوتهم وأبوابهم ومعارجهم وسررهم كلها من فضة. وأخبر أنه زينها لأعدائه، ولضعفاء العقول الذين لا نصيب لهم فى الآخرة، ونهى رسوله عن مد عينيه إليها وإلى ما متع به أهلها. وذم من أذهب طيباته فيها واستمتع بها. وقال لنبيه: ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** (٣) ﴾ [الحجر]. وفى هذا تنزيه لما منعه أولياءه من التمتع بالدنيا وكثرة الأكل فيها، وتأديب لمن بسط له فيها ألا يطغى فيها، ولا يعطى نفسه شهواتها ولا يتمتع بها. وذم - سبحانه - محبيها، المفتخرين بها، والمكاثرين بها، الظانين أن الفضل والكرامة فى سعتها وبسطها، فأكذبهم الله - سبحانه - وأخبر أنه ليس كما قالوه ولا توهموه. ومثلهم لعباده بالأمثلة التى تدعو كل لبيب عاقل إلى الزهد فيها وعدم الوثوق بها والركون إليها. فأحضر صورتها وحقيقتها فى قلوبهم بما ضربه لها مثلاً: كماء أنزله من السماء فخالط نبات الأرض، فلما أخذت به الأرض زخرفها وتزينت بأنواع النبات، أتاها أمره؛ فجعل تلك الزينة يبساً هشيماً تذروه الرياح كأن لم يكن قط منه شيء. وأخبر - سبحانه عن فنائها وسرعة انقضائها، وأنه إذا عاين العبد الآخرة فكأنه لبث فيها ساعة من نهار أو يوماً أو بعض يوم. ونهى - سبحانه - عباده أن يغتروا بها، وأخبرهم أنها لهو ولعب، وزينة وتفاخر، وتكاثر ومتاع غرور، وطريق ومعبر إلى الآخرة، وأنها عرض عاجل لا بقاء له، ولم يذكر مريدها بخير قط، بل حيث ذكره ذمه، وأخبر أن مريدها مخالف لربه تعالى فى إرادته؛ فالله يريد شيئاً، ومريد الدنيا يريد خلافه؛ فهو مخالف لربه بنفس إرادته. وكفى بهذا بعداً عنه سبحانه. وأخبر - سبحانه - عن أهل النار أنهم إنما دخلوها بسبب غرور الدنيا وأمانيها لهم.

قالوا: وهذا كله تزهيد لهم منه سبحانه فيها، وترغيب فى التقلل منها ما أمكن.

قالوا: وقد عرضها - سبحانه - وعرض مفاتيح كنوزها على أحب الخلق إليه وأكرمهم عليه عبده ورسوله محمد ﷺ، فلم يردها ولم يخترها. ولو آثرها وأرادها، لكان أشكر الخلق

بما أخذه منها، وأنفقه كله فى مرضاة الله وسبيله قطعاً. بل اختار التقلل منها، وصبر على شدة العيش فيها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن محمد، حدثنا عباد - يعنى ابن عباد - حدثنا مجالد بن سعيد، عن الشعبى، عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: دخلت علىَّ امرأة من الأنصار، فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية، فرجعت إلى منزلها فبعثت إلى بفراش حشوه الصوف. فدخل علىَّ رسول الله ﷺ فقال: « ما هذا؟» ، فقلت: فلانة الأنصارية دخلت على فرأت فراشك، فبعثت إلىَّ بهذا، فقال: « رديه »، فلم أرده، وأعجبنى أن يكون فى بيتى، حتى قال ذلك ثلاث مرات؛ فقال: « يا عائشة، رديه والله لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة » (١).

وعرض عليه مفاتيح كنوز الدنيا، فلم يأخذها، وقال: « بل أجوع يوماً وأشبع يوماً؛ فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك » (٢).

وسأل ربه أن يجعل رزق أهله قوتاً، كما فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » (٣). وفيهما عنه قال: « والذى نفس أبى هريرة بيده ما شبع نبى الله وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا » (٤).

وفى صحيح البخارى، عن أنس رضي الله عنه: ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفاً مرققاً ولا شاة سميطاً قط حتى لحق بربه (٥).

وفى صحيحه أيضاً عنه، قال: خرج رسول الله ﷺ ولم يشبع من خبز الشعير (٦).

وفى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض (٧).

---

(١) أحمد فى الزهد (١٤).

(٢) الترمذى (٢٣٤٧) فى الزهد، باب: ما جاء فى الكفاف والصبر عليه، وقال: « حديث حسن »، وأحمد (٥/٢٥٤).

(٣) البخارى (٦٤٦٠) فى الرقاق، باب: كيف كان عيش النبى ﷺ... إلخ، ومسلم (١٠٥٥/١٢٦) فى الزكاة، باب: فى الكفاف والقناعة.

(٤) البخارى (٥٣٧٤) فى الأطعمة، باب: قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [ البقرة: ١٧٢]، ومسلم (٢٩٧٦/ ٣٣) فى أول كتاب الزهد.

(٥) البخارى (٥٤٢١) فى الأطعمة، باب: شاة مسموطة والكتف والجنب.

(٦) البخارى (٥٤١٤) فى الأطعمة، باب: النفخ فى الشعير عن أبى هريرة.

(٧) البخارى (٥٤١٦) فى الأطعمة، باب النفخ فى الشعير، ومسلم (٢٩٧٠/ ٢٠) فى أول كتاب الزهد.

وفى صحيح مسلم عن عمر رضي الله عنه : لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم ما يجد دقلاً يملأ بطنه (١).

وفى المسند والترمذى،عن ابن عباس رضي الله عنهما :كان رسول الله ﷺ يبيت الليالى المتتابعات طاوياً وأهله لا يجدون عشاء ،وكان أكثر خبزهم خبز الشعير.قال الترمذى:هذا حديث حسن صحيح (٢).

وفى الترمذى،من حديث أبى أمامة : ما كان يفضل أهل بيت رسول الله ﷺ خبز الشعير (٣).

وفى المسند ، عن عائشة رضي الله عنها : والذى بعث محمداً بالحق ما رأى منخلاً ،ولا أكل خبزاً منخولاً منذ بعثه الله عز وجل إلى أن قبض.قال عروة:فقلت:فكيف كنتم تأكلون الشعير؟قالت:كنا نقول أف ـ أى تنفخه ـ فيطير ما طار ونعجن الباقى (٤).

وفى صحيح البخارى ،عن أنس،قال:لقد رهن رسول الله ﷺ درعه بشعير.ولقد سمعته يقول:« ما أصبح لآل محمد صاع ولا أمسى،وإنهم لتسعة أبيات» (٥).

وفى مسند الحارث،عن أبى أسامة ،عن أنس:أن فاطمة رضي الله عنها جاءت بكسرة خبز إلى النبى ﷺ،فقال:« ما هذه الكسرة يا فاطمة؟» قالت:قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة ،فقال:« أما أنه أول طعام دخل فى فم أبيك منذ ثلاثة أيام » (٦).

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا عبد الواحد بن أيمن ، عن أبيه ، عن جابر رضي الله عنه ، قال : لما حفر رسول الله ﷺ الخندق أصابهم جهد شديد حتى ربط النبى ﷺ على بطنه حجراً من الجوع.

وقد أسرف أبوحاتم بن حبان فى تقاسيمه فى رد هذا الحديث ، وبالغ فى إنكاره ، وقال:المصطفى أكرم على ربه من ذلك .وهذا من وهمه،وليس فى هذا ما ينقص مرتبته عند ربه ، بل ذلك رفعة له،وزيادة فى كرامته ، وعبرة لمن بعده من الخلفاء والملوك وغيرهم. وكأن أبا حاتم لم يتأمل سائر الأحاديث فى معيشة النبى ﷺ،وهل ذلك إلا من أعظم شواهد صدقه؟فإنه لو كان كما يقول أعداؤه وأعداء ربه أنه ملك طالب ملك ودنيا

---

(١) مسلم (٢٩٧٨/ ٣٦) فى أول كتاب الزهد.

(٢) الترمذى (٢٣٦٠) فى الزهد ، باب: ماجاء فى معيشة النبى ﷺ وأهله ،وأحمد (١/ ٢٥٥).

(٣) الترمذى ( ٢٣٥٩ ) فى الزهد ، باب : ما جاء فى معيشة النبى ﷺ وأهله ، وقال : « حسن صحيح غريب . . .إلخ » .

(٤) أحمد (٦/ ٧١).

(٥) البخارى (٢٥٠٨) فى الرهن ، باب:الرهن فى الحضر. . . إلخ.

(٦) انظر:أحمد (٣/ ٢١٣).

لكان عيشه عيش الملوك وسيرته سيرتهم. ولقد توفاه الله وإن درعه مرهونة عند يهودى على طعام أخذه لأهله. وقد فتح الله عليه بلاد العرب، وجبيت إليه الأموال، ومات ولم يترك درهماً واحداً ولا ديناراً ولا شاة ولا بعيراً ولا عبداً ولا أمة.

قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد بن مطرف، عن أبى حازم، عن عروة: أنه سمع عائشة تقول: كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد فى بيت من بيوت رسول الله ﷺ نار. قلت: يا خالة؛ فعلى أى شىء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين: التمر والماء (١).

وقد تقدم حديث أبى هريرة فى قصة أبى الهيثم بن التيهان، وأنه خرج رسول الله ﷺ من بيته، فرأى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: « ما أخرجكما؟» قالا: الجوع، قال: « وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما » (٢).

وذكر أحمد من حديث مسروق، قال: دخلت على عائشة، فدعت لى بطعام، وقالت: ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكى إلا بكيت؟ قال: قلت: لم؟. قالت: أذكر الحال التى فارق عليها رسول الله ﷺ الدنيا، والله ما أشبع فى يوم مرتين من خبز البر حتى قبض.

وفيه عنها: ما أشبع رسول الله ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض (٣). والحديثان صحيحان.

وفيه أيضاً، عنها: ما شبع آل محمد من خبز ما دون ثلاثة أيام حتى لحق بالله عز وجل (٤).

وفى الصحيحين، عن أبى هريرة: ما شبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثاً تباعاً من خبز البر حتى فارق الدنيا (٥).

وفى الترمذى، عن ابن عباس، قال: كان النبى ﷺ يبيت الليالى طاوياً وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير (٦).

وفيه أيضاً، عن أنس، عنه ﷺ: « لقد أخفت فى الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت علىّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام يأكله

(١) أحمد (٦/ ٨٦).
(٢) سبق تخريجه ص ٤٤٩.
(٣) أحمد (٦/ ٤٢).
(٤) أحمد (٦/ ١٥٦).
(٥) سبق تخريجه ص ٤٥٣.
(٦) سبق تخريجه ص ٤٥٤.

إلا شيء يواريه إبط بلال (١). والحديثان صحيحان.

وفيه أيضاً، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن أبي طلحة رضي الله عنه، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، ورفعنا عن بطوننا حجراً حجراً، فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه حجرين (٢).

وفيه أيضاً، عن علقمة، عن عبدالله رضي الله عنه، قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء. فقال: «ما لي وللدنيا، وما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها» (٣). حديث صحيح.

وفيه عن علي رضي الله عنه، قال: خرجت في يوم شات من بيت رسول الله ﷺ، وقد أخذت إهاباً معطوناً، فجوبت وسطه، وأدخلته في عنقي، فشددت به وسطي، فحزمته بخوص من النخل، وإني لشديد الجوع، ولو كان في بيت رسول الله ﷺ طعام لطعمت منه، فخرجت ألتمس شيئاً، فمررت بيهودي في مال له، وهو يسقي ببكرة له، فاطلعت عليه من ثلمة من الحائط، فقال: ما لك يا أعرابي وهل لك في كل دلو بثمرة؟ قلت: نعم، فافتح الباب حتى أدخل، ففتح فدخلت، فأعطاني دلوه، فكلما نزعت دلواً أعطاني تمرة، حتى امتلأت كفي، أرسلت دلوه، وقلت: حسبي، فأكلها، ثم جرعت من الماء فشربت، ثم جئت الماء فوجدت رسول الله ﷺ فيه.

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لقد رأيتنا نغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا الحبلة وهذا التمر(٤). والحبلة: ثمر العضاة ذات الشوك. وهو حديث صحيح.

وكان ﷺ يصلي من الليل أحياناً، وعليه كساء صوف، بعضه عليه وبعضه على عائشة (٥). قال الحسن: أثمان ستة دراهم أو سبعة.

وقال أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا أبو زائدة، حدثنا عطاء، عن أبيه عن علي، قال: جهز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل وقربة ووسادة من أدم حشوها ليف (٦). والخميل: الكساء الذي خمل.

---

(١) الترمذي (٢٤٧٢) في صفة القيامة والرقائق والودع، باب: رقم (٣٤)، وقال: «حسن غريب».

(٢) الترمذي (٢٣٧١) في الزهد، باب: ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ، وقال: «غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٣) الترمذي (٢٣٧٧) في الزهد، باب: رقم (٤٤)، وقال: «حسن صحيح».

(٤) البخاري (٥٤١٢) في الأطعمة، باب: ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون، ومسلم (٢٩٦٦/ ١٢) في أول كتاب الزهد.

(٥) أحمد (٦/ ١٢٥).

(٦) أحمد (١/ ٨٤) وقال الشيخ أحمد شاكر (٦٤٣): «إسناده صحيح».

قال : وحدثنا بهز بن أسد ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن حميد ،قال: قال أبو بردة: دخلت على عائشة ، فأخرجت إلينا إزاراً غليظاً مما يصنع باليمن وكساء من هذه التى تدعونها الملبدة ،فقالت: قبض رسول الله ﷺ فى هذين الثوبين (١).

قالوا : ولو كان الغنى مع الشكر أفضل من الفقر مع الصبر ، لاختاره رسول الله ﷺ إذ عرضت عليه الدنيا ، ولأمره ربه أن يسأله إياه ، كما أمره أن يسأله زيادة العلم. ولم يكن رسول الله ﷺ ليختار إلا ما اختاره الله له ،ولم يكن الله ليختار له إلا الأفضل ؛إذ كان أفضل خلقه وأكملهم.

قالوا : وقد أخبر النبى ﷺ أن خير الرزق ما كان بقدر كفاية العبد،فلا يعوزه ما يضره ولا يفضل عنه ما يطيعه ويلهيه. قال الإمام أحمد: حدثنا ابن مهدى ، حدثنا همام،عن قتادة،عن خليد العصرى،عن أبى الدرداء ، قال: قال رسول الله ﷺ: « ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ؛ فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى. ولا آبت شمس قط إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللهم اعط منفقاً خلفاً ،واعط ممسكاً تلفاً » (٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ، حدثنا أسامة بن زيد ، عن محمد بن عبد الرحمن ابن أبى لبيبة ، عن سعد بن مالك رضي الله عنه،قال: قال رسول الله ﷺ : « خير الرزق ما يكفى،وخير الذكر الخفى» (٣).

وتأمل جمعه فى هذا الحديث بين رزق القلب والبدن ،ورزق الدنيا والآخرة ،وإخباره أن خير الرزقين ما لم يتجاوز الحد ؛ فيكفى من الذكر إخفاؤه ؛ فإن زاد على الإخفاء خيف على صاحبه الرياء والتكبر به على الغافلين،وكذلك رزق البدن إذا زاد على الكفاية خيف على صاحبه الطغيان والتكاثر.

قالوا: وقد غبط رسول الله ﷺ المتقلل من الدنيا ما لم يغبط به الغنى. قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع،حدثنا على بن صالح ،عن أبى المهلب،عن عبيد الله بن زحر،عن على ابن يزيد ، عن القاسم،عن أبى أمامة رضي الله عنه،قال: قال رسول الله ﷺ: « إن أغبط أوليائى عندى: مؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظ من صلاة ، أحسن عبادة ربه ، وكان غامضاً فى الناس لا يشار إليه بالأصابع ، فعجلت منيته ،وقل تراثه ،وقلت بواكيه » (٤). قال عبدالله ابن أحمد: سألت أبى: ما تراثه ؟قال: ميراثه.

---

(١) البخارى (٥٨١٨) فى اللباس ، باب :الأكسية والخمائص ، ومسلم (٢٠٨٠/ ٣٥) فى اللباس ، باب التواضع فى اللباس. . .إلخ ، وأحمد (٦/ ٣٢).

(٢) أحمد (٥/ ١٩٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٥٨):« رواه الطبرانى فى الكبير. . . إلخ.

(٣) أحمد (١/ ١٧٢) وقال أحمد شاكر (١٤٧٧):« إسناده ضعيف ».

(٤) أحمد (٥/ ٢٥٢).

قالوا :وحمية الله لعبده المؤمن عن الدنيا ، إنما هو من محبته له وكرامته. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد ، حدثنا سليمان بن بلال ،عن عمرو بن أبى عمرو ، عن عاصم بن عمرو بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ﷺ :أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله تبارك وتعالى يحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه ، كما تحمون مرضاكم الطعام والشراب تخافون عليهم» (١).

قالوا :وقل أن يقع إعطاء الدنيا وتوسعتها إلا استدراجاً من الله ، لا إكراماً ومحبة لمن أعطاه. قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان ، حدثنا رشد بن سعد ، عن حرملة بن عمران الثجيبى ، عن عقبة بن مسلم ، عن عقبة بن عامر ﷺ ،عن النبى ﷺ قال: « إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه وما يحب ، فإنما هو استدراج » (٢)، ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

قالوا : ولهوان الدنيا على الله منعها أكثر أوليائه وأحبائه. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش ، عن سالم بن أبى الجعد ،قال: قال رسول الله ﷺ: « إن من أمتى لو أتى باب أحدكم فسأله ديناراً لم يعطه إياه ، ولو سأله فلساً لم يعطه إياه ، ولو سأل الله تعالى الجنة لأعطاها إياه ، ولو سأله الدنيا لم يعطها إياه ،وما يمنعها إياه لهوانه عليه . . . ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره» (٣). وهذا يدل على أنه إنما يمنعه إياه لهوانها عليه لا لهوانه هو عليه ؛ ولهذا يعطيه أفضل منها وأجل؛ فإن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ؛ ولا يعطى الآخرة إلا من يحب.

قالوا :وقد أخبرهم النبى ﷺ: أن أقربهم منه مجلساً ذوو التقلل من الدنيا الذين لم يستكثروا منها.

قال الإمام أحمد :حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا محمد بن عمرو ،قال: سمعت عراك ابن مالك ، يقول: قال أبو ذر: إنى لأقربكم مجلساً من رسول الله ﷺ يوم القيامة؛ وذلك إنى سمعته يقول: « إن أقربكم منى مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئة ما تركته فيها » (٤)، وأنه والله ما منكم من أحد إلا وقد تشبث منها بشىء غيرى.

قالوا :وقد غبط النبى ﷺ من كان عيشه كفافاً، وأخبر بفلاحه. قال الإمام أحمد، حدثنا عبدالله بن يزيد ،حدثنا حيوة ،قال: أخبرنى أبو هانئ أن أبا على الحبشى أخبره أنه سمع

---

(١) أحمد (٥/ ٤٢٨).

(٢) أحمد (٤/ ١٤٥).

(٣) انظر: كنز العمال (٥٩٤٢).

(٤) أحمد (٥/ ١٦٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٣٠): « رجاله ثقات إلا أن عراك بن مالك قال لم يسمع من أبى ذر فيما أحسب ».

فضالة بن عبيد يقول : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع » (١).

وذكر أيضاً ، من حديث عبدالله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه» (٢).

قالوا :ولو لم يكن فى التقلل إلا خفة الحساب لكفى به فضلاً عن الغنى. قال عبدالله ابن الإمام أحمد: حدثنا بيان بن الحكم ، حدثنا محمد بن حاتم ،قال: حدثنى بشر بن الحارث ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن هشام ،عن الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يحاسب بهن العبد: ظل خص يستظل به، وكسرة يشد بها صلبه ،وثوب يوارى عورته » (٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سيار ، حدثنا جعفر ، حدثنا ليث ، عن أبى عثمان ،قال: لما افتتح المسلمون جوجى ، دخلوا يمشون فيها ، وأكداس الطعام فيها أمثال الجبال ،وكان رجل يمشى إلى جنب سلمان، فقال: يا أبا عبدالله ،ألا ترى إلى ما فتح الله علينا؟ألا ترى إلى ما أعطانا الله ؟فقال سلمان: وما يعجبك مما ترى؟ إلى جنب كل حبة مما ترى حساب !

قالوا :وقد شهد النبى ﷺ لأصحابه: أنهم يوم فقرهم وفاقتهم خير منهم يوم غناهم وبسط الدنيا عليهم. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد أبو الأشهب، عن الحسن ،قال: قال نبى الله ﷺ: « يا أهل الصفة ، كيف أنتم ؟، قالوا: نحن بخير. قال: « أنتم اليوم خير أم يوم تغدو على أحدكم جفنة وتروح أخرى، ويغدو فى حلة ويروح فى أخرى، وتسترون فى بيوتكم مثل أستار الكعبة؟» ،قالوا: يا نبى الله ،نحن يومئذ خير ؛يعطنا ربنا تبارك وتعالى فنشكر. قال: « بل أنتم اليوم خير »(٤). فهذا صريح فى أنهم فى وقت صبرهم على فقرهم خير منهم فى وقت غناهم مع الشكر.

وقال عبدالله بن أحمد: حدثنا ابن ذر ، حدثنا حفص بن غياث ، عن داود بن أبى هند، عن أبى حرب بن أبى الأسود ،عن طلحة البصرى، قال: قدمت المدينة ولم يكن لى بها معرفة ، فكان يجرى علينا مد من تمر بين اثنين ،فصلى بنا رسول الله ﷺ صلاة ،فهتف به هاتف من خلفه فقال: يا رسول الله ،وقد حرق بطوننا التمر ،وعزفت عنا الكنف ، فخطب فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « والله لو أجد لكم اللحم والخبز لأطعمتكوه ، وليأتين عليكم زمان تغدو على أحدكم الجفان وتراح، ولتلبسن بيوتكم مثل أستار الكعبة » . قالوا:

(١) أحمد (٦/ ١٩).
(٢) أحمد (٢/ ١٦٨) وقال أحمد شاكر (٦٥٧٢): « إسناده صحيح ».
(٣) انظر :الدر المنثور (٦/ ٣٩١).
(٤) أورده الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٢٦) وقال: « رواه الطبرانى ورجاله ، رجال الصحيح غير أبى جعفر الخطمى وهو ثقة ».

يا رسول الله، نحن اليوم خير منا أو يومئذ؟ قال: « بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ ؛ يضرب بعضكم رقاب بعض» (١).

قال الإمام أحمد : وحدثنا عبد الوهاب ، عن سعيد ، عن قتادة ، قال : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ دخل على أهل الصفة فذكر نحوه.

قالوا : ولو لم يكن فى الغنى والمال إلا أنه فتنة ، وقل من سلم من إصابتها له وتأثيرها فى دينه ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [ التغابن: ١٥]. وفى الترمذى، من حديث كعب بن عياض، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن لكل أمة فتنة ، وفتنة أمتى المال». قال: هذا حديث حسن صحيح (٢).

قالوا : والمال يدعو إلى النار، والفقر يدعو إلى الجنة . قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا أبو الأشهب، حدثنا سعيد بن أيمن مولى كعب بن سور، قال: بينما رسول الله ﷺ يحدث أصحابه ، إذا رجل من الفقراء فجلس إلى جنب رجل من الأغنياء ، فكأنه قبض من ثيابه عنه ؛ فقال رسول الله: « أخشيت يا فلان أن يغدو غناك عليه أو يغدو فقره عليك ؟»، قال: يا رسول الله، وشر الغنى؟ قال: « نعم، إن غناك يدعوك إلى النار، وإن فقره يدعوه إلى الجنة »، قال: فما ينجينى منه؟ قال: « تواسيه ». قال: إذن أفعل ، فقال لآخر: لا أرجها فيه، قال: « فاستغفر وادع لأخيك » (٣).

قالوا : وحق الغنى أعظم من أن يقوم العبد بشكره ، وقد روى الترمذى فى جامعه ، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه: أن النبى ﷺ قال: « ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال: بيت يسكنه ، وثوب يوارى به عورته ، وجلف الخبز ، والماء » قال: هذا حديث حسن صحيح (٤).

وفى صحيح مسلم ، عن أبى أمامة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « يا بن آدم ، إنك إن تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف ، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى» (٥).

وفى صحيحه أيضاً ، من حديث أبى نضرة ، عن أبى سعيد رضي الله عنه، قال: بينما نحن فى سفر مع رسول الله ، إذ جاء رجل على راحلة له ، فجعل يضرب يميناً وشمالاً ، فقال رسول الله ﷺ: « من كان معه فضل من ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل من زاد ، فليعد به على من لا زاد له »(٦). قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى

---

(١) أحمد (٣/ ٤٨٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٢٥، ٣٢٦): « رواه الطبرانى والبزار بنحوه... ورجال البزار رجال الصحيح غير محمد بن عثمان العقيلى وهو ثقة » ولم يعزه للإمام أحمد.

(٢) الترمذى (٢٣٣٦) فى الزهد ، باب: ما جاء أن فتنة هذه الأمة فى المال، وقال: « صحيح غريب ».

(٣) الزهد للإمام أحمد (٧٠).

(٤) الترمذى (٢٣٤١).

(٥) مسلم (١٠٣٦/ ٩٧) فى الزكاة ، باب : بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح».

(٦) مسلم (١٧٢٨/ ١٨) فى اللقطة ، باب: استحباب المواساة بفضول المال.

ظننا أنه لا حق لأحد منا فى فضل.

قالوا :فهذا وضع النظر فى تفضيل الغنى الشاكر ببذل الفضل كله؛وأما غنى يمتع بأنواع الفضل ،ويشكر بالواجب وبعض المستحب ، فكيف يفضل على فقير صابر راض عن الله فى فقره؟!.

قالوا :وقد أقسم رسول الله ﷺ لأصحابه ، وهم أئمة الشاكرين ، أنه لا يخاف عليهم الفقر،وإنما يخاف عليهم الغنى ؛ ففى الصحيحين من حديث عمرو بن عوف ـ وكان شهد بدرا ـ أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتى بجزيتها ، وكان رسول الله ﷺ صالح أهل البحرين ، وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمى ، فقدم أبو عبيدة بمال من البحر ، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة ، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف ، فتعرضوا له ، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: « أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء من البحرين؟»، فقالوا: أجل، يا رسول الله .قال: « أبشروا وأملوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنى أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوا فيها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » (١).

قال الإمام أحمد: حدثنا روح ، حدثنا هشام ، عن الحسن ،قال: قيل لأبى ثعلبة الخشنى: أين دنياكم والتى كنتم تعدون يا أصحاب محمد؟ قال: ليبشر الآخر بدنيا قد ظلت تأكل ،والله الذى لا إله إلا هو، الإيمان كما تأكل النار الحطب الجزل .

وقال أحمد :حدثنا يزيد ، حدثنا هشام بن حسان، قال :سمعت الحسن، يقول: والله ما أحد من الناس بسط الله له دنياه ، فلم يخف أن يكون قد مكر به فيها ، إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه. وما أمسكها الله عن عبده، فلم يظن أنه قد خير له فيها، إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه.

قالوا: وقد مر على النبى ﷺ فقير وغنى ،فقال عن الفقير: « هذا خير من ملء الأرض مثل هذا » (٢). روى البخارى فى صحيحه ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه ،قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: « ما تقولون فى هذا؟»، فقالوا :حرى إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع ،وإن قال أن يسمع، قال :ثم سكت ، فمر رجل من فقراء المسلمين ، فقال: « ما تقولون فى هذا؟ » ، قالوا :حرى إن خطب ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: « هذا خير من ملء الأرض مثل هذا » (٣).

(١) البخارى (٣١٥٨) فى الجزية والموادعة ، باب: الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب ،ومسلم (٢٩٦١/٦) فى أول كتاب الزهد والرقائق.

(٢) أحمد (١٥٧/٥)،وابن أبى شيبة (١٦١٦٣) فى الزهد ،باب : كلام لقمان عليه السلام.

(٣) البخارى (٥٠٩١) فى النكاح ، باب: الأكفاء فى الدين . . . إلخ.

وقد بشر رسول الله ﷺ الفقراء الصابرين بما لم يبشر به الأغنياء ؛ ففى الترمذى من حديث فضالة بن عبيد: أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم فى الصلاة من الخصاصة (١) ، وهم أصحاب الصفة ، حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين ، فإذا صلى رسول الله ﷺ انصرف إليهم وقال : « لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة » (٢) . قال فضالة: وأنا يومئذ مع رسول الله ﷺ، وبشرهم بسبقهم الأغنياء إلى الجنة.

وقد اختلفت الروايات فى مدة هذا السبق؛ ففى صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عمر: أنه جاء ثلاثة نفر فقالوا: يا أبا محمد ، والله ما نقدر على شيء: لا نفقة ، ولا دابة ، ولا متاع. فقال لهم: ما شئتم ، وإن شئتم رفعتم إلينا فأعطيناكم ما يسَّر الله لكم، وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان، وإن شئتم صبرتم ؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً »، قالوا: نصبر ولا نسأل شيئاً (٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن أبى هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: « يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم ، وهو خمسمائة عام» قال الترمذى: حديث حسن صحيح (٤).

وفى الترمذى أيضاً ، من حديث أبى سعيد، قال : قال رسول الله ﷺ : « فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة ». وهو حديث حسن (٥).

وفيه أيضاً، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً» (٦). وهو حديث حسن، وهو موافق لحديث عبدالله بن عمر، ولحديث أنس الذى فى الترمذى: «إن المساكين يدخلون قبل الأغنياء بأربعين خريفاً»(٧).

فهؤلاء ثلاثة : جابر ، وأنس ، وعبد الله بن عمر. وقد اتفقوا على الأربعين. وهذا أبو هريرة وأبو سعيد ، قد اتفقا على التقدير بخمسمائة سنة. ولا تعارض بين هذه الأحاديث ؛ إذ التأخر والسبق درجات بحسب الفقر والغنى فمنهم من يسبق بأربعين ، ومنهم من يسبق بخمسمائة. ولا يتقيد السبق بهذا المقدار، بل يزيد عليه وينقص.

---

(١) خصاصة : فاقة وحاجة .

(٢) الترمذى (٢٣٦٨) فى الزهد ، باب: ما جاء فى معيشة أصحاب النبى ﷺ ، وقال: « صحيح».

(٣) مسلم (٢٩٧٩/٣٧) فى أول كتاب الزهد والرقائق.

(٤) الترمذى (٢٣٥٤) فى الزهد، باب : ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم، وقال : « صحيح»، وأحمد (٢/ ٢٩٦).

(٥) الترمذى (٢٣٥١) فى الزهد ، باب: ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ».

(٦) الترمذى (٢٣٥٥) فى الزهد ، باب : ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ، وقال: « حسن ».

(٧) الترمذى (٢٣٥٢) فى الزهد ، باب : ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ، وقال: « غريب ».

وقد روى أبو داود فى سننه ، من حديث أبى هريرة ، عن النبى ﷺ :« إن أول الأمة دخولاً إلى الجنة أبو بكر الصديق ﷺ » (١). ومعلوم أن المدة التى بينه وبين إخوانه من فقراء المهاجرين لا تطول ،وأنها أطول مدة بين دخوله وبين دخول آخر من يدخل الجنة.

وقد روى الإمام أحمد فى مسنده من حديث عبدالله بن عمر ﷺ ،عن النبى ﷺ أنه قال:« هل تدرون أول من يدخل الجنة؟»،قالوا:الله ورسوله أعلم. قال:« فقراء المهاجرين،الذين تتقى بهم المكاره ؛يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء. تقول الملائكة:يا ربنا ، نحن ملائكتك وخزنتك وسكان سماواتك ،لا تدخلهم الجنة قبلنا. فيقول:عبادى لا يشركون بى شيئاً ؛يتقى بهم المكاره،يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء. فعند ذلك تدخل عليهم الملائكة من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » (٢).

وقال الإمام أحمد:حدثنا حسين بن محمد ، ثنا دويد ، عن مسلم بن بشير ، عن عكرمة ،عن ابن عباس ﷺ ،قال :قال رسول الله ﷺ:« التقى مؤمنان على باب الجنة، مؤمن غنى ومؤمن فقير ،كانا فى الدنيا ، فأدخل الفقير الجنة ،وحبس الغنى ما شاء الله أن يحبس ، ثم أدخل الجنة ، فلقيه الفقير ، فيقول : أى أخى ، ماذا حبسك؟والله لقد احتبست حتى خفت عليك ؟! فيقول : أى أخى ، وإنى حبست بعدك محبساً فظيعاً كريهاً ما وصلت إليك حتى سال منى من العرق ما لو ورده ألف بعير كلها أكلت حمصاً لصدرت عنه رواء » (٣).

وقال الطبرانى فى معجمه:حدثنا محمد بن عبدالله الحضرمى وعلى بن سعيد الرازى،قالا:حدثنا على بن بهرام العطار، حدثنا عبدالملك بن أبى كريمة ، عن الثورى ، عن محمد بن زيد ، عن أبى حازم ، عن أبى هريرة ﷺ،قال :سمعت رسول الله ﷺ يقول:« إن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم ، وذلك خمسمائة سنة»،فقال رجل :أمنهم أنا يا رسول الله؟قال:« إن تغديت رجعت على عشاء ،وإذا تعشيت يبيت معك غداء ؟»،قال:نعم. قال : « لست منهم » ، فقام رجل فقال:أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال:« هل سمعت ما قلنا لهذا؟» قال:نعم ،ولست كذلك. قال:« هل تجد ثوباً ستيراً سوى ما عليك؟» قال:نعم. قال:« فلست منهم ». فقام آخر فقال:أمنهم أنا يا رسول الله ؟فقال:«هل سمعت ما قلت لهذين قبلك ؟» قال :نعم ،قال : « هل تجد قرضاً

---

(١) أبو داود (٤٦٥٢) فى السنة ، باب :فى الخلفاء ، وضعفه الألبانى.

(٢) أحمد (٢/ ١٦٨) ، وقال الشيخ شاكر (٦٥٧٠):« إسناده صحيح ».

(٣) أحمد (١/ ٣٠٤) ،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٦٦) : « فيه دويد غير منسوب. . . وبقية رجاله رجال الصحيح غير مسلم بن بشير وهو ثقة ».

كلما شئت أن تستقرض؟» قال: نعم قال: « فلست منهم » ، فقام آخر فقال: أمنهم أنا يا رسول الله؟ فقال: « هل سمعت ما قلت لهؤلاء؟» قال: نعم ، قال: « تقدر أن تكتسب؟» ، قال: نعم. قال: « فلست منهم » ، قال: فقام خامس فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ فقال: « سمعت ما قلت لهؤلاء؟» ، قال: نعم ، قال: « هل تمسى عن ربك راضياً وتصبح كذلك؟» ، قال: نعم ، قال: « فأنت منهم » ، قال النبى ﷺ: « إن سادات المؤمنين فى الجنة من إذا تغدى لم يجد عشاء ، وإذا تعشى لم يبت عنده غداء ، وإن استقرض لم يجد قرضاً ، وليس له فضل كسوة إلا ما يوارى به ما لا يجد منه بداً ، ولا يقدر على أن يكتسب ما يعيش به ، ويمسى عن الله راضياً ويصبح راضياً: ﴿ **فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** ﴾ [النساء: ٦٩] (١). قال الطبرانى: هذا حديث غريب من حديث سفيان الثورى عن محمد بن زيد يقال: هو العبدى ، تفرد به عبد الملك.

قلت: محمد هذا هو العبدى ، وثَّقه قوم وضعَّفه آخرون ؛ قال الدارقطنى: ليس بالقوى. وقال أبو حاتم: صالح الحديث. وذكره ابن حبان فى الثقات. وروى له الترمذى وابن ماجه. وفى هذه الطبقة محمد بن زيد الشامى يروى عن أبى سلمة بن عبدالرحمن، وهو متروك ، ونخاف أن يكون هذا هو ؛ فالثورى لم ينسبه، وإنما يقال هو العبدى... والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا هشام الدستوائى ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن عامر العقيلى ، عن أبيه ، عن أبى هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: « عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة ، وأول ثلاثة يدخلون النار. فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة: فالشهيد ؛ وعبد مملوك لم يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه ، وفقير متعفف ذو عيال. وأما أول ثلاثة يدخلون النار: فأمير مسلَّط ، وذو ثروة من مال لا يؤدى حق الله فى ماله ، وفقير فخور ». وروى الترمذى منه ذكر الثلاثة الذين يدخلون الجنة فقط (٢).

قالوا: ويكفى فى فضل الفقير أن عامة أهل الجنة الفقراء ، وعامة أهل النار الأغنياء. قال الإمام أحمد: حدثنا عبدالله بن محمد بن أبى شيبة ، حدثنا شريك ، عن أبى إسحاق ، عن السائب بن مالك ، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: « اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء » (٣).

---

(١) الطبرانى فى الأوسط (٨٨٦٥) قريبًا منه ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٦٣): « فيه عدى بن الفضل التيمى مولاهم وهو ضعيف .... ».

(٢) الترمذى (١٦٤٢) فى فضائل الجهاد ، باب: ماجاء فى ثواب الشهداء ، وقال: « حسن » وأحمد (٢/ ٤٧٩).

(٣) أحمد (٢/ ١٧٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٦٤): « إسناده جيد ».

وفى صحيح البخارى ،عن أبى رجاء ،قال: جاء عمران بن حصين إلى امرأته من عند رسول الله ﷺ،فقالت : حدثنا ما سمعت من النبى ﷺ: ،فقال: إنه ليس من حديث ! فلم تدعه ( أو قال ) فأغضبته ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « نظرت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ،ونظرت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء » (١).

وفى الصحيحين ، من حديث أسامة بن زيد : أن رسول الله ﷺ قال: « قمت على باب الجنة ،فإذا عامة من دخلها المساكين ، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء» (٢).

وفى صحيح مسلم ،عن ابن عباس : أن النبى ﷺ اطلع فى النار فرأى أكثر أهلها النساء، واطلع فى الجنة فرأى أكثر أهلها الفقراء (٣).

قالوا : ويكفى فى فضل الفقراء أن كل أحد يتمناه يوم القيامة من الأغنياء . قال الإمام أحمد : حدثنا عبدالله بن نمير ،حدثنا إسماعيل - يعنى ابن خالد - عن نفيع ،عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ: « ما من أحد يوم القيامة غنى ولا فقير إلا ود أن ما كان أوتى فى الدنيا قوتاً » (٤). قال البخارى : يتكلمون فى نفيع . وهذا أليق ما قيل فيه.

قالوا : وقد صرح رسول الله ﷺ فى تفضيل الفقراء فى غير حديث ،فمنها ما تقدم من حديث سهل بن سعد. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية ،حدثنا الأعمش ، عن زيد ابن وهب ،عن أبى ذر رضي الله عنه وقال: قال رسول الله ﷺ: « يا أبا ذر ،ارفع بصرك فانظر أرفع رجل تراه فى المسجد ». قال: فنظرت فإذا رجل جالس عليه حلة له. قال : فقلت : هذا، قال: فقال : « يا أبا ذر ،ارفع بصرك فانظر أوضع رجل تراه فى المسجد »، قال : فنظرت فإذا رجل ضعيف عليه أخلاق، قال: فقلت: هذا ، قال : فقال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده ،لهذا أفضل عند الله يوم القيامة من قراب الأرض من هذا » (٥).

قال : حدثنا وكيع ووافقه زائد ،حدثنا الأعمش ،عن سليمان بن يسار ،عن خرشة بن الحر ،عن أبى ذر ،فذكره ،وقال : « لهذا خير عند الله يوم القيامة من ملء الأرض مثل هذا » . قال الإمام أحمد : وحدثنا أبو معاوية ، ووافقه يعلى ، قال: حدثنا الأعمش ، عن زيد بن وهب ،عن أبى ذر ،فذكره.

قالوا : والذى يفصل بيننا فى هذه المسألة ويشفى العليل : أن الفقر يوفر أجر صاحبه ومنزلته عند الله . والغنى ولو شكر، فإن ما ناله فى الدنيا بغناه يحسب عليه من ثوابه يوم

---

(١) البخارى (٥١٩٨) فى النكاح ، باب كفران العشير.

(٢) البخارى (٥١٩٦) فى النكاح، باب (٨٧) ، ومسلم (٢٧٣٦/ ٩٣) ،فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء . . . إلخ.

(٣) مسلم (٢٧٣٧) فى الكتاب والباب السابقين.

(٤) أحمد (٣/ ١١٧). (٥) أحمد (٥/ ١٧٠).

القيامة ،وإن تناوله بأحل وجه ، فقليل الفضل فى الدنيا ناقص من كثير الآخرة.

وفى صحيح مسلم ، من حديث عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من غازية فى سبيل الله ، فيصيبون الغنيمة ، إلا تعجلوا ثلثى أجرهم من الآخرة ، ويبقى لهم الثلث . وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم » (١).

وفى الصحيحين ، عن خباب بن الأرت رضي الله عنه ، قال: هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله ، فوقع أجرنا على الله. فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً ،منهم مصعب بن عمير رضي الله عنه، قتل يوم أحد وترك بردة ، فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه ، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه ؛ فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطى رأسه ، ونجعل على رجليه شيئًا من الإذخر. ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهديها (٢).

وفى الصحيحين ، عن قيس بن أبى حازم، قال: دخلنا على خباب نعوده ،وقد اكتوى سبع كيات ، فقال :إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا. وذكر الحديث (٣).

وقال سعيد بن منصور :حدثنا معاوية ، عن الأعمش ،عن مجاهد ،عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :ما أوتى عبد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان عليه كريماً.

وفى صحيح البخارى ، عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، قال : أوتى عبد الرحمن رضي الله عنه بطعام وكان صائماً ، فقال : قتل مصعب بن عمير ، وهو خير منى ، وكفن فى بردة : إن غطى رأسه بدت رجلاه ، وإن غطى رجلاه بدا رأسه . وقتل حمزة رضي الله عنه ، وهو خير منى ، فلم يوجد له كفن إلا بردة. ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط. أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا . وقد خشيت أن يكون عجلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا ، ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام (٤) .

قال أبو سعيد الأعرابى: وليس عبد الرحمن بن عوف وخباب قالا ذلك دون غيرهما ؛ لقد قاله الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ، وكرهوا ما فتح الله عليهم من الدنيا وأشفقوا منه، وعلموا أن ما اختاره الله لنبيه كان أفضل ، وأن ما أخروا له كان أنقص .ومنهم : أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وأبو عبيدة، وعمار بن ياسر ، وسلمان، وعبد الله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وأبو هشام بن عتبة، وجماعة لم نذكرهم للاختصار رضي الله عنهم .

---

(١) مسلم (١٩٠٦/ ١٥٤) فى الإمارة ، باب :بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم.

(٢) البخارى (١٢٧٦) فى الجنائز، باب : إذا لم يجد كفنا . . . إلخ، ومسلم (٩٤٠/ ٤٤) فى الجنائز، باب :فى كفن الميت.

(٣) البخارى (٥٦٧٢) فى المرضى ، باب : تمنى المريض الموت ، ومسلم (٢٦٨١/ ١٢) فى الذكر والدعاء ، باب : كراهة تمنى الموت . . . إلخ.

(٤) البخارى (٤٠٤٥) فى المغازى ،باب: غزوة أحد.

فأما أبو بكر رضي الله عنه ، فحدثنا ابن أبى الدنيا ، حدثنا عبدالرحمن بن أبان الطائى ، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوراث ،حدثنا عبد الواحد بن زيد ،حدثنى سليمان ،عن مرة ، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه ، قال :كنا مع أبى بكر الصديق رضي الله عنه ، فدعا بشراب ، فأتى بماء وعسل،فلما أدناه من فيه ،بكى وبكى حتى أبكى أصحابه ،فسكتوا وما سكت ، ثم عاد وبكى ، حتى ظنوا أنهم لم يقدروا على مسألته ،قال:ثم مسح عينيه ،فقالوا :يا خليفة رسول الله ، ما أبكاك ؟ فقال : كنت مع رسول الله ، فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ، ولم أر معه أحداً ، فقلت : يا رسول الله ، ما الذى تدفع عن نفسك ؟ قال : « هذه الدنيا مثلت لى ، فقلت لها : إليك عنى ، ثم رجعت ، فقالت : إنك إن أفلت منى فلن يفلت منى من بعدك » (١).

وذكر ليث ، عن ابن سعد ، عن صالح بن كيسان ، عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف ، عن أبيه : أن أبا بكر رضي الله عنه قال فى مرضه الذى مات فيه : إنى وليت أمركم وإنى لست بخيركم ، وكلكم ورم أنفه من ذلك أن يكون هذا الأمر له ، وذلك لما رأيت الدنيا قد أقبلت وأقبلت ولم تقبل حتى يتخذوا نضائد الحرير وستور الديباج ، وحتى يألم أحدكم من الاضطجاع على الصوف كما يألم من الاضطجاع على الحسك والسعدان ، ثم أنتم أول ضال بالناس . تصفقون يميناً وشمالاً .ما هذا الطريق أخطأت إنما هو البحر أو الفجر ،والله لئن يقدم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا.

وذكر محمد بن عطاء بن خباب، قال: كنت جالساً مع أبى بكر ، فرأى طائراً، فقال : طوبى لك يا طائر ، تأكل من هذا الشجر ، ثم تبعر ، ثم لا تكون شيئاً ، وليس عليك حساب ؛ وددت أنى مكانك . فقلت له : أتقول هذا وأنت صديق رسول الله ﷺ ؟ !

وأما عمر رضي الله عنه ، فإنه لما أتى بكنوز كسرى بكى ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : ما الذى يبكيك ، يا أمير المؤمنين ؛ فوالله إن هذا ليوم شكر ويوم سرور ويوم فرح ؟! فقال عمر : إن هذا لم يعطه قوم إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء.

ودخل عليه أبو سنان الدؤلى ،وعنده نفر من المهاجرين ،فأرسل عمر إلى سفط أتى به من قلعة بالعراق ،وكان فيه خاتم ، فأخذه بعض ولده فأدخله فى فيه ، فانتزعه عمر منه ثم بكى ، فقال له من عنده : لم تبكى وقد فتح الله لك وأظهرك وأقر عينك؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى

---

(١) ابن أبى الدنيا ،فى كتاب ذم الدنيا رقم (١١).

يوم القيامة » (١) ، وأنا مشفق من ذلك .

قال أبو سعيد : وجدت فى كتاب بخط يدى ، عن أبى داود ، قال: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا حماد ، حدثنا يونس ، عن الحسن: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى بقلنسوة بغزوة كسرى بين يديه ، وفى القوم سراقة بن مالك ، فألقى إليه سوارى كسرى ، فجعلهما فى يديه فبلغا منكبيه ، فلما رآهما فى يد سراقة قال : الحمد لله سوار كسرى بن هرمز فى يد سراقة بن مالك بن جعشم أعرابى من بنى مدلج. اللهم، قد علمت أن رسولك قد كان يحب أن يصيب مالاً فينفقه فى سبيلك وعلى عبادك ، فزويت ذلك عنه نظراً منك له واختياراً ؛ اللهم إنى أعوذ بك أن يكون هذا مكر منك بعمر . ثم قال : ﴿ **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ (٥٦)** ﴾ [ المؤمنون ].

والمقصود : أن سعة الدنيا وبسطها، تعجيل من أصل الآخرة: وتضييق من سعتها .
قال عبدالرزاق: أنبأنا معمر ، عن الزهرى، عن ابن أبى صغيرة، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: لما كان يوم أحد أشرف النبى ﷺ على الشهداء الذين قتلوا يومئذ ، فقال: « إنى شهيد على هؤلاء فزملوهم بدمائهم » (٢). قال معمر : وأخبره فيمن سمع الحسن يقول : قال النبى ﷺ: « هؤلاء قد مضوا ، وقد شهدت عليهم ، لم يأكلوا من أجورهم شيئاً ، وإنكم قد أكلتم من أجوركم ، وإنى لا أدرى ما تحدثون بعدى » (٣).

وقال ابن المبارك : أخبرنا جرير بن حازم ، قال: سمعت الحسن يقول: خرج رسول الله ﷺ بأصحابه إلى بقيع الغرقد ، فقال : « السلام عليكم يا أهل القبور ، لو تعلمون ما نجاكم الله منه مما هو كائن بعدكم ! ». ثم أقبل على أصحابه فقال : « هؤلاء خير منكم ». فقالوا: يا رسول الله ، إخواننا ؛ أسلمنا كما أسلموا ، وهاجرنا كما هاجروا، وجاهدنا كما جاهدوا، وأتوا على آجالهم فمضوا فيها، وبقينا فى آجالنا ؛ فما يجعلهم خيراً منا ؟ فقال: « إن هؤلاء خرجوا من الدنيا ، ولم يأكلوا من أجورهم شيئاً ، وخرجوا وأنا شهيد عليهم ، وأنتم قد أكلتم من أجوركم، ولا أدرى ما تحدثون بعدى » ، قال : فلما سمعها القوم ، والله عقلوها ، وانتفعوا بها ؛ فقالوا : وإنا لمحاسبون بما أصبنا من الدنيا بعدهم ، وإنه لمنتقص به من أجورنا . فأكلوا طيباً ، وأنفقوا قصداً ، وقدموا فضلاً.

وقال عبد الله بن أحمد : قرأت على أبى هذا الحديث: حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا إسرائيل، عن ثوير، عن مجاهد ، عن ابن عمر، قال: ما أعطى رجل من الدنيا إلا نقص من

---

(١) أحمد (١/ ١٦) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٣٩): « إسناده حسن ».
(٢) النسائى (٢٠٠٢) فى الجنائز ، باب: مواراة الشهيد فى دمه ، وأحمد (٥/ ٤٣١).
(٣) مصنف عبد الرزاق (٩٥٨١) فى الجهاد ، باب: الصلاة على الشهيد وغسله.

درجته.

قالوا: وقد صرح سادات الأغنياء بأنهم ابتلوا بالضراء فصبروا، وابتلوا بالسراء فلم يصبروا، قال ذلك عبد الرحمن وغيره، وكان هذا مصداقاً لما رواه مصعب بن سعد عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لأنا من فتنة السراء أخوف عليكم من فتنة الضراء؛ إنكم ابتليتم بالضراء فصبرتم، وإن الدنيا حلوة خضرة» (١).

قالوا: وها هنا قضيتان صادقتان، بهما يتبين الفضل، إحداهما: أن الأكثرين هم الأقلون. وقد تقدم الدليل عليها بما فيه الكفاية. وأما الثانية: ففي الصحيحين، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال: خرجت ليلة من الليالى، فإذا رسول الله ﷺ يمشى وحده ليس معه إنسان. قال: فظننت أنه يكره أن يمشى معه أحد، فجعلت أمشى فى ظل القمر، فالتفت فرآنى، فقال: من هذا؟ قلت: أبو ذر جعلنى الله فداك، قال: «يا أبا ذر، تعال فمشيت معه ساعة»، فقال: «إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلا من أعطاه الله خيراً فنفخ فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيراً» (٢). وذكر الحديث.

قالوا: ولو كان الغنى أفضل من الفقر لما حض الله رسوله على الزهد فى الدنيا والإعراض عنها، وذم الحرص عليها والرغبة فيها، بل كان ينبغى أن يحض عليها وعلى اكتسابها والإكثار منها، كما حض على اكتساب الفضائل التى بها كمال العبد من العلم والعمل. فلما حض على الزهد فيها والتقلل، دل على أن الزاهدين فيها المتقللين منها أفضل الطائفتين. وقد أخبر أنها لو ساوت عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء (٣)، وأنها أهون على الله من السخلة الميتة على أهلها (٤)، وأن مثلها فى الآخرة كمثل ما يعلق بأصبع من أدخل أصبعه فى البحر (٥)، وأنها ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم (٦)، وأنها سجن المؤمنين وجنة

---

(١) أبو يعلى (٧٨٠)، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٤٨، ٢٤٩): «رواه البزار وفيه رجل لم يسم، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٢) البخارى (٦٤٤٣) فى الرقاق، باب: المكثرون هم المقلون، ومسلم (٩٤/ ٣٢) فى الزكاة، باب: الترغيب فى الصدقة.

(٣) الترمذى (٢٣٢٠) فى الزهد، باب: ما جاء فى هوان الدنيا على الله عز وجل، وقال: «صحيح غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه (٤١١٠) فى الزهد، باب: مثل الدنيا، وفى الزوائد: «فى إسناده زكريا بن منظور، وهو ضعيف... إلخ».

(٤) الترمذى (٢٣٢١) فى الكتاب والباب السابقين، وقال: «حديث المستورد حديث حسن»، وابن ماجه (٤١١١) فى الكتاب والباب السابقين.

(٥) الترمذى (٢٣٢٣) فى الزهد، باب: (١٥)، وقال: «حسن صحيح... إلخ»، وابن ماجه (٤١٠٨) فى الزهد، باب: مثل الدنيا.

(٦) الترمذى (٢٣٢٢) فى الزهد، باب: (١٤)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٤١١٢) فى الزهد، باب: مثل الدنيا.

الكافرين(١). وأمر العبد أن يكون فيها كأنه غريب أو عابر سبيل (٢)، ويعد نفسه من أهل القبور، وإذا أصبح فلا ينتظر المساء، وإذا أمسى فلا ينتظر الصباح ونهى عن اتخاذ ما يرغب فيها (٣) ، ولعن عبدالدينار وعبد الدرهم ، ودعا عليه بالتعس والانتكاس ، وعدم إقالة العثرة بالانتقاش (٤).

وأخبر أنها خضرة حلوة(٥)،أى تأخذ العيون بخضرتها،والقلوب بحلاوتها. وأمر باتقائها والحذر منها،كما يتقى النساء ويحذر منهن (٦). وأخبر أن الحرص عليها وعلى الرياسة والشرف يفسد الدين كإفساد الذئبين الضاريين إذا أرسلا فى زريبة غنم أو أشد إفساداً (٧). وأخبر أنه فى الدنيا كراكب استظل تحت شجرة فى يوم صائف ثم راح وتركها (٨). وهذه فى الحقيقة حال سكان الدنيا كلهم،ولكن هو ﷺشهد هذه الحال وعمى عنها بنو الدنيا. ومر بهم وهم يعالجون خصاً لهم قد وهى ،فقال: « ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك» (٩) وأمر بستر على بابه فنزع،وقال: « إنه يذكرنى الدنيا » (١٠).وأعلم الناس أنه ليس لأحد منهم حق فى سوى بيت يسكنه ،وثوب يوارى عورته،وقوت يقيم صلبه (١١).وأخبر أن الميت يتبعه أهله وماله وعمله ،فيرجع أهله وماله ويبقى عمله (١٢).وأخبر أن للمتخوض فيما شاءت نفسه من مال الله بغير حق النار يوم القيامة (١٣).وأقسم أنه لا يخاف الفقر على

---

(١) مسلم (٢٩٥٦/ ١) فى أول كتاب الزهد والرقائق ،والترمذى (٢٣٢٤) فى الزهد ، باب:ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ،وقال: « حسن صحيح ».

(٢) البخارى (٦٤١٦) فى الرقاق ،باب:قول النبى ﷺ : « كن فى الدنيا كأنك غريب . . .إلخ» ،والترمذى (٢٣٣٣) فى الزهد ،باب:ما جاء فى قصر الأمل ،وابن ماجه (٤١١٤) فى الزهد ،باب:مثل الدنيا.

(٣) الترمذى (٢٣٢٨) فى الزهد ،باب:(٢٠) وقال: « حسن ».

(٤) البخارى (٢٨٨٧) فى الجهاد ،باب :الحراسة فى الغزو فى سبيل الله ،وابن ماجه (٤١٣٦) فى الزهد ،باب:فى المكثرين

(٥) البخارى (٢٨٤٢) فى الجهاد ، باب:فضل النفقة فى سبيل الله ،ومسلم (١٠٥٢/ ٢٢) فى الزكاة ، باب:تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا،وابن ماجه (٤٠٠٠) فى الفتن ،باب فتنة النساء.

(٦) مسلم (٢٧٤٢/ ٩٩) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار،باب:أكثر أهل الجنة الفقراء. . .إلخ،والترمذى (٢١٩١) فى الفتن،باب:ما جاء ما أخبر النبىﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة ،وابن ماجه (٤٠٠٠) فى الفتن ، باب: فتنة النساء.

(٧) الترمذى (٢٣٧٦) فى الزهد ، باب : (٤٣) ، وقال: « حسن صحيح »،وأحمد (٣/ ٤٥٦).

(٨) الترمذى (٢٣٧٧) فى الزهد،باب : (٤٤) ،وقال: « حسن صحيح »، وابن ماجه (٤١١٠) فى الزهد ،باب:مثل الدنيا.

(٩) أبو داود (٥٢٣٦) فى الأدب ،باب:ما جاء فى البناء ،والترمذى (٢٣٣٥) فى الزهد،باب:ماجاء فى قصر الأمل،وقال : « حسن صحيح ».

(١٠) الترمذى (٢٤٦٨) فى صفة القيامة والرقائق والورع،باب:(٣٢) ،وقال: « حسن صحيح غريب ».

(١١) الترمذى (٢٣٤١) فى الزهد ، باب : (٣٠) ، وقال : « حسن صحيح ».

(١٢) البخارى (٦٥١٤) فى الرقائق ،باب:سكرات الموت،ومسلم (٢٩٦٠/ ٥)فى الزهد والرقائق.

(١٣) الترمذى (٢٣٧٤) فى الزهد ،باب :ما جاء فى أخذ المال ،وقال: « حسن صحيح » .

أصحابه ، وإنما يخاف عليهم الدنيا وتنافسهم فيها وإلهائها لهم [١]،وأخبر أنه ليس لابن آدم من ماله إلا ما أكل فأفنى ،أو لبس فأبلى ،أو تصدق فأمضى [٢]. وأخبر أن حسب ابن آدم من الدنيا لقيمات يقمن صلبه ،فإن لم يقتصر عليها ،فثلث بطنه لطعامه ،وثلثه لشرابه، وثلثه لنفسه [٣]. وفى هذا الحديث: الإرشاد إلى صحة القلب والبدن والدين والدنيا.

وأخبر أن غنى العبد فيها غنى نفسه لا كثرة عرضه [٤] . وسأل الله أن يجعل رزقه فيها قوتاً [٥] ، وغبط من كان رزقه فيها كفافاً بعد أن هدى للإسلام [٦].

وأخبر أن من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ،وشتت عليه شمله ،ولم يأته منها إلا ما كتب له [٧]. وعرض عليه ربه أن يجعل له بطحاء مكة ذهباً ،فقال: « لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ،فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ،وإذا شبعت حمدتك وشكرتك » [٨]. وأعلمهم أن: « من أصبح منهم آمناً فى سربه ، معافى فى جسده ،عنده قوت يومه ،فكأنما حيزت له الدنيا » [٩]. وأخبر أن بذل العبد ما فضل عن حاجته خير له، وإمساكه شر له ،وأنه لا يلام على الكفاف[١٠]. ونهى أمته أن ينظر أحدهم إلى من هو فوقه فى الدنيا ،وأمره أن ينظر إلى من هو دونه فى الدنيا [١١].

---

(١) البخارى (٤٠١٥) فى المغازى ، باب: (١٢) ، ومسلم (٦/٢٩٦١) فى الزهد والرقائق.

(٢) مسلم (٣/٢٩٥٨) فى الزهد والرقائق ،والترمذى (٢٣٤٢) فى الزهد ، باب:٣١،وقال :« حسن صحيح »، والنسائى (٣٦١٣) فى الوصايا ،باب:الكراهية فى تأخير الوصايا.

(٣) الترمذى (٢٣٨٠) فى الزهد ، باب :ما جاء فى كراهية كثرة الأكل ،وقال:«حسن صحيح »،وابن ماجه (٣٣٤٩) فى الأطعمة ،باب:الاقتصاد فى الأكل وكراهة الشبع.

(٤) البخارى (٦٤٤٦) فى الرقائق ،باب:الغنى غنى النفس ،ومسلم (١٠٥١/ ١٢٠) فى الزكاة ،باب:ليس الغنى عن كثرة العرض.

(٥) البخارى (٦٤٦٠) فى الرقائق ، باب:كيف كان عيش النبى. . .إلخ،ومسلم (١٢٦/١٠٥٥) فى الزكاة ، باب:فى الكفاف والقناعة .

(٦) مسلم (١٠٥٥/ ١٢٥) فى الزكاة ،باب:فى الكفاف والقناعة ،وأحمد (١٦٨/٢).

(٧) الترمذى (٢٤٦٥) فى صفة القيامة والرقائق والورع ، باب : (٢٣٠) ،وابن ماجه (٤١٠٥) فى الزهد ، باب: الهم بالدنيا، وفى الزوائد : « إسناده صحيح ،ورجاله ثقات » ، وأحمد (١٨٣/٥).

(٨) الترمذى (٢٣٤٧) فى الزهد ، باب:ما جاء فى الكفاف والصبر عليه ،وقال : « حسن » ، وضعفه الألبانى ، وأحمد (٢٥٤/٥).

(٩) الترمذى (٢٣٤٦) فى الزهد ،باب:(٣٤)،وقال:« حسن غريب» ،وابن ماجه (٤١٤١) فى الزهد ،باب:القناعة.

(١٠) مسلم (٩٧/١٠٣٦) فى الزكاة ، باب :بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى . . . إلخ ،والترمذى (٢٣٤٣) فى الزهد ،باب :(٣٢) ،وقال :« حسن صحيح ».

(١١) البخارى (٦٤٩٠) فى الرقاق،باب:لينظر إلى من هو أسفل منه،ولا ينظر إلى من هو فوقه ،ومسلم (٩/٢٩٦٣) فى الزهد والرقائق.

وأخبر أنه لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة وضر (١) ، مثلها مثل ما يخرج من ابن آدم عند خلائه ، إن كان أوله طيباً لذيذاً فهذا آخره (٢) . وأخبر أن عباد الله ليسوا بالمتنعمين فيها(٣) ؛ فإن أمامهم دار النعيم ؛ فهم لا يرضون بنعيمهم فى الدنيا عوضاً من ذلك النعيم. وأخبر أن نجاة أول هذه الأمة بالزهد واليقين ،وهلكة آخرها بالبخل وطول الأمل (٤). وكان يقول: « لبيك لا عيش إلا عيش الآخرة » (٥). وأخبر أنه تعالى إذا أحب عبداً حماه الدنيا كما يحمى الإنسان مريضه من الطعام والشراب (٦). ودخل على عثمان بن مظعون وهو فى الموت ، فأكب عليه يقبله ويقول: « رحمك الله يا عثمان ،ما أصبت من الدنيا ،ولا أصابت منك » (٧) ، فغبطه بذلك. وكان يقول : « الزهد فى الدنيا يريح القلب والبدن ، والرغبة فى الدنيا تطيل الهموم والحزن » (٨). وكان يقول : « من جعل الهموم كلها هماً واحداً كفاه الله سائر همومه ، ومن تشعبت به الهموم فى أحوال الدنيا لم يبال الله فى أى أوديتها هلك » (٩).

وأخبر أنه : « يؤتى يوم القيامة بأنعم الناس كان فى الدنيا ،فيقول الله عز وجل: أصبغوه فى النار صبغة ، ثم يؤتى به ، فيقول: يا بن آدم ، هل أصبت نعيماً قط ؟ هل رأيت قرة عين قط؟هل أصبت سروراً قط ؟فيقول: لا وعزتك. ثم يقول : ردوه إلى النار ، ثم يؤتى بأشد الناس كان بلاء فى الدنيا وأجهدهم جهداً، فيقول تبارك وتعالى: أصبغوه فى الجنة صبغة ، فيصبغ فيها ،ثم يؤتى به ،فيقول :يا ابن آدم ، هل رأيت ما تكره قط ؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت شيئاً قط أكرهه » (١٠).

وفى حديث مناجاة موسى،الذى رواه الإمام أحمد فى كتاب « الزهد »:حدثنا

---

(١) ابن ماجه (٤٠٣٥) فى الفتن ،باب :شدة الزمان ،وفى الزوائد :« إسناده صحيح ، ورجاله ثقات ».

(٢) الطبرانى فى الكبير (٦١١٩) ،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٩١):« رجاله رجال الصحيح ».

(٣) أحمد (٥/ ٢٤٣) ،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٥٣) : « رجاله ثقات ».

(٤) الطبرانى فى الأوسط (٧٦٥٠) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٨٩) : « رجاله وثقوا ، على ضعف فى بعضهم».

(٥) البخارى (٤٠٩٩) فى المغازى ، باب :غزوة الخندق وهى الأحزاب ،ومسلم (١٢٨/١٨٠٥) فى الجهاد والسير، باب: غزوة الأحزاب وهى الخندق.

(٦) الترمذى (٢٠٣٦) فى الطب ، باب:ما جاء فى الحمية ،وقال:« حسن غريب ».

(٧) كنز العمال (٣٣١٠) ،وحلية الأولياء (١/ ١٠٥).

(٨) الطبرانى فى الأوسط (٦١٢٠) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٨٩) : « فيه أشعث بن بزار ولم أعرفه ،وبقية رجاله وثقوا على ضعف فيهم ».

(٩) ابن ماجه (٢٥٧) فى المقدمة ، باب :الانتفاع بالعلم والعمل به،وفى الزوائد :« إسناده ضعيف ،فيه نهشل بن سعيد ، قيل : إنه يروى المناكير ،قيل :بل الموضوعات ».

(١٠) مسلم (٢٨٠٧/ ٥٥) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب :صبغ أنعم أهل الدنيا فى النار. . .إلخ ، وأحمد (٣/ ٢٠٣).

إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل ، حدثنا عبد الصمد بن معقل ، قال: سمعت وهب بن منبه ، فذكره ، وفيه: ولا تعجبكما زينته ولا ما متع به ، ولا تمدان إلى ذلك أعينكما؛ فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين. وإني لو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة ، يعلم فرعون - حين ينظر إليها - أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما ، فعلت ، ولكنى أرغب بكما عن نعيمها ذلك وأزويه عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائى ، وقديماً ما خرت لهم فى ذلك ؛ فإنى لأزودهم عن نعيمها ورخائها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن مراعى الهلكة ، وإنى لأجنبهم سلوتها وغيشها كما يجنب الراعى الشفيق إبله عن مبارك الغرة ، وما ذلك لهوانهم على ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالماً موفراً لم تكلمه الدنيا ولم يطغه الهوى ، واعلم أنه لم يتزين لى العباد بزينة هى أبلغ من الزهد فى الدنيا ؛ فإنها زينة المتقين ، عليهم منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، أولئك أوليائى حقاً. فإذا لقيتهم ، فاخفض لهم جناحك ، وذلل لهم قلبك ولسانك. وذكر الحديث.

وقال أحمد: حدثنا عون بن جابر ، قال: سمعت محمد بن داود، عن أبيه ، عن وهب، قال: قال الحواريون: يا عيسى ، من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟ قال: الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس عاجلها ، فأماتوا منها ما يخشون أن يميتهم، وتركوا ما علموا أن سيتركهم؛ فصار استكثارهم منها استقلالاً ، وذكرهم إياها فواتاً ، وفرحهم بما أصابوا منها حزناً ، فما عرضهم من نائلها رفضوه ، وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه ، خلقت الدنيا عندهم فليسوا يجددونها ، وخربت بينهم فليسوا يعمرونها ، وماتت فى صدورهم فليسوا يحيونها ، يهدمونها فيبنون بها آخرتهم ، ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم ، رفضوها فكانوا بها هم الفرحين ، ونظروا إلى أهلها صرعى قد حلت بهم المثلات، فأحيوا ذكر الموت ، وأماتوا ذكر الحياة ، يحبون الله ويحبون ذكره، ويستضيئون بنوره ويضيئون به، لهم خبر عجيب ، وعندهم الخبر العجيب ، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، وبهم علم الكتاب وبه عملوا ، ليسوا يرون نائلاً مع ما نالوا، ولا أماناً دون ما يرجون ، ولا خوفا دون ما يحذرون.

وحدثنا روح ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، قال : قيل لعيسى ابن مريم : يا رسول الله ، لو اتخذت حماراً تركبه لحاجتك ؟ قال: أنا أكرم على الله من أن يجعل لى شيئاً يشغلنى به. وقال: اجعلوا كنوزكم فى السماء؛ فإن قلب المرء عند كنزه ، وقال: اتقوا فضول الدنيا؛ فإن فضول الدنيا عند الله رجز. وقال : يا بنى إسرائيل اجعلوا بيوتكم كمنازل الأضياف، فما لكم فى العالم من منزل، إن أنتم إلا عابرى سبيل. وقال: يا معشر الحواريين، أيكم يستطيع أن يبنى على موج البحر داراً ؟ قالوا: يا روح الله ، من يقدر على ذلك ؟! قال: إياكم والدنيا ، فلا تتخذوها قراراً. وقال : أكل الخبز البر ، وشرب ماء عذب ، ونوم على المزابل مع الكلاب كثير ، لمن يريد أن يرث الفردوس.

قال أحمد: وحدثنا بهز ، عن الأعمش ، عن خيثمة، قال: قال المسيح بشدة: ما يدخل الغنى الجنة. وقال المسيح: حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ، ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة. وقال: يا بنى إسرائيل ، تهاونوا بالدنيا تهن عليكم ، وأهينوا الدنيا تكرم عليكم الآخرة ، ولا تكرموا الدنيا تهن عليكم الآخرة ؛ فإن الدنيا ليست بأهل الكرامة وكل يوم تدعو إلى الفتنة والخسارة.

وقال إسحاق بن هانئ فى مسائله : قال أبو عبد الله ـ وأنا أخرج من داره ـ قال الحسن: أهينوا الدنيا، فوالله لأهنأ ما تكون حين تهان. وقال الحسن: والله ما أبالى شرقت أم غربت. قال: وقال لى أبو عبد الله :يا إسحاق ، ما أهون الدنيا على الله عز وجل. وقال : الدنيا قليلها يجزى وكثيرها لا يجزى.

قالوا : وقد تواتر عن السلف أن حب الدنيا رأس الخطايا وأصلها ، وقد روى فيه حديث مرفوع لا يثبت ، ولكنه يروى عن المسيح ، قال عبد الله بن أحمد: حدثنا عبيد الله ابن عمر القواريرى، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنى أبى، عن بديل بن ميسرة ، قال : حدثنى جعفر بن خرفاش: أن عيسى ابن مريم عليه السلام قال: رأس الخطيئة حب الدنيا ، والنساء حبالة الشيطان ، والخمر جماع كل شر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عمر بن سعد أبو داود الحفرى، عن سفيان، قال: كان عيسى ابن مريم يقول : حب الدنيا أصل كل خطيئة ، والمال فيه داء كثير . قالوا : وما داؤه ؟ قال: لا يسلم من الفخر والخيلاء . قالوا : فإن سلم ؟ قال : يشغله إصلاحه عن ذكر الله عز وجل.

قالوا: وذلك معلوم بالتجربة والمشاهدة ؛ فإن حبها يدعو إلى خطيئة ظاهرة وباطنة ، ولاسيما خطيئة يتوقف تحصيلها عليها، فيسكر عاشقها حبها عن علمه بتلك الخطيئة وقبحها، وعن كراهتها واجتنابها، وحبها يوقع فى الشبهات ، ثم فى المكروهات ، ثم فى المحرمات. وطالما أوقع فى الكفر ، بل جميع الأمم المكذبة لأنبيائهم إنما حملهم على كفرهم وهلاكهم حب الدنيا ؛ فإن الرسل لما نهوهم عن الشرك والمعاصى التى كانوا يكسبون بها الدنيا حملهم حبها على مخالفتهم وتكذيبهم.

فكل خطيئة فى العالم أصلها حب الدنيا ، ولا تنس خطيئة الأبوين قديماً ؛ فإنما كان سببها حب الخلود فى الدنيا. ولا تنس ذنب إبليس وسببه حب الرياسة التى محبتها شر من محبة الدنيا ، وبسببها كفر فرعون وهامان وجنودهما ، وأبو جهل وقومه واليهود ؛ فحب الدنيا والرياسة هو الذى عمر النار بأهلها ، والزهد فى الدنيا والرياسة هو الذى عمر الجنة بأهلها ، والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بشرب الخمر بكثير ، وصاحب هذا السكر لا يفيق منه إلا فى ظلمة اللحد ، ولو انكشف عنه غطاؤه فى الدنيا لعلم ما كان فيه من السكر، وأنه أشد من سكر الخمر.

والدنيا تسحر العقول أعظم سحر. قال الإمام أحمد : حدثنا سيار ،حدثنا جعفر، قال: سمعت مالك بن دينار يقول : اتقوا السحارة ، اتقوا السحارة ؛ فإنها تسحر قلوب العلماء.

وقال يحيى بن معاذ الرازى:الدنيا خمر الشيطان ،من سكر منها فلا يفيق إلا فى عسكر الموتى نادماً بين الخاسرين . وأقل ما فى حبها أنه يلهى عن حب الله وذكره. ومن ألهاه ماله عن ذكر الله فهو من الخاسرين ،وإذا ألهاه القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان وصرفه حيث أراد. ومن فقهه فى الشر أنه يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه أنه يفعل فيها الخير وقد تعبد لها قلبه ، فأين يقع ما يفعله من البر مع تعبده لها ؟ وقد لعنه رسول الله ﷺ ودعا عليه ، فقال : « لعن عبد الدينار والدرهم »(١) ، وقال : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم : إن أعطى رضى وإن منع سخط »(٢). وهذا تفسير منه ﷺ وبيان لعبوديتها.

وقد عرضت الدنيا على النبى ﷺ بحذافيرها وتعرضت له ، فدفع فى صدرها باليدين، وردها على عقبيها ، ثم عرضت بعده على أصحابه وتعرضت لهم ،فمنهم من سلك سبيله ودفعها عنه وهم القليل ، ومنهم من استعرضها وقال:ما فيك ؟ قالت: فى الحلال والشبهة والمكروه والحرام ، فقالوا : هاتى حلالك ولا حاجة لنا فيما عداه ، فأخذوا حلالها ، ثم تعرضت لمن بعدهم فطلبوا حلالها فلم يجدوه فطلبوا مكروهها وشبهها،فقالت: قد أخذه من قبلكم ، فقالوا:هاتى حرامك ،فأخذوه ، فطلبه من بعدهم ، فقالت:هو فى أيدى الظلمة قد استأثروا به عليكم فتحملوا على تحصيله منهم بالرغبة والرهبة ؛ فلا يمد فاجر يده إلى شىء من الحرام إلا وجد أفجر منه وأقوى قد سبقه إليه. هذا وكلهم ضيوف وما بأيديهم عارية ، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه : ما أصبح أحد فى الدنيا إلا ضيف وماله عارية ، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة.

## فصل

قالوا :وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا ومفسداً للدين من وجوه:

**أحدها** : أن حبها يقتضى تعظيمها ،وهى حقيرة عند الله ، ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقر الله.

**وثانيها** :أن الله لعنها ومقتها وأبغضها إلا ما كان له فيها،ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه ، فقد تعرض للفتنة ومقته وغضبه.

---

(١) الترمذى (٢٣٧٥) فى الزهد ، باب:(٤٢) ،وقال :« حسن غريب من هذا الوجه . . . إلخ ».
(٢) سبق تخريجه ص ١٢٢.

**وثالثها** : أنه إذا أحبها صيرها غايته ، وتوسل إليها بالأعمال التى جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة ، فعكس الأمر وقلب الحكمة ،فانعكس قلبه وانعكس سيره إلى وراء. فهاهنا أمران : أحدهما : جعل الوسيلة غاية . والثانى : التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا. وهذا شر معكوس من كل وجه ،وقلب منكوس غاية الانتكاس.وهذا هو الذى انطبق عليه ـ حذو القذة بالقذة ـ قوله تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)** ﴾ [ هود ] ، وقوله تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨)** ﴾ [الإسراء ] ، وقوله تعالى : ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)** ﴾ [ الشورى ] . فهذه ثلاث آيات يشبه بعضها بعضاً ،وتدل على معنى واحد ، وهو أن من أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة ،فحظه ما أراد ،وهو نصيبه ليس له نصيب غيره.

والأحاديث عن رسول الله ﷺ مطابقة لذلك مفسرة له ،كحديث أبى هريرة رضي الله عنه،فى الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار:« الغازى ،والمتصدق ، والقارئ ، الذين أرادوا بذلك الدنيا والنصيب ».وهو فى صحيح مسلم (١).

وفى سنن النسائى ، عن أبى أمامة رضي الله عنه، قال:جاء رجل إلى النبى ﷺ ، فقال:يا رسول الله ،رجل غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ :« لا شىء له»، فأعادها ثلاث مرات.يقول له رسول الله:« لا شىء له».ثم قال:« إن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه» (٢)؛ فهذا قد بطل أجره وحبط عمله، مع أنه قصد حصول الأجر؛ لما ضم إليه قصد الذكر بين الناس ، فلم يخلص عمله لله،فبطل كله.

وفى مسند الإمام أحمد،عن أبى هريرة:أن رجلاً قال:يا رسول الله ،الرجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرض الدنيا ؟فقال له رسول الله ﷺ:« لا أجر له»،فأعظم الناس ذلك ،وقالوا للرجل:عد لرسول الله ﷺ لعله لم يفهم ، فعاد فقال:يا رسول الله،الرجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرض الدنيا؟فقال رسول الله ﷺ:« لا أجر له » ،ثم أعاد الثالثة ،فقال رسول الله:« لا أجر له » (٣).

وفى المسند أيضاً ،وسنن النسائى،عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه،قال:إن رسول الله ﷺ قال: « من غزا فى سبيل الله عز وجل وهو لا ينوى فى غزاته إلا عقالاً فله ما نوى » (٤).

---

(١) مسلم (١٩٠٥/ ١٥٢) فى الإمارة ، باب:من قاتل للرياء والسمعة استحق النار.

(٢) النسائى (٣١٤٠) فى الجهاد ، باب :من غزا يلتمس الأجر والذكر .

(٣) أحمد (٢/ ٣٦٦) ،وقال الشيخ أحمد شاكر (٧٨٨٧):« إسناده صحيح ».

(٤) النسائى (٣١٣٩) فى الجهاد،باب:من غزا فى سبيل الله ولم ينو من غزاته إلا عقالا،وأحمد (٥/ ٣١٥).

وفى المسند والسنن ، عن يعلى بن منبه ،قال:كان رسول اللهﷺ يبعثنى فى سرايا ، فبعثنى ذات يوم فى سرية ،وكان رجلاً يركب بغلاً فقلت له:ارحل؛فإن النبى ﷺ قد بعثنى فى سرية ،فقال:ما أنا بخارج معك حتى تجعل لى ثلاثة دنانير ، ففعلت ، فلما رجعت من غزاتى ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال النبى:« ليس له من غزاته هذه ومن دنياه وآخرته إلا ثلاثة دنانير » (١).

وفى سنن أبى داود:أن عبد الله بن عمر ﷺ قال : يا رسول الله ، أخبرنى عن الجهاد والغزو ، فقال: « يا عبد الله بن عمر ، إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً ، وإن قاتلت مرائياً مكاثراً بعثك الله مرائياً مكاثراً.يا عبد الله بن عمر ، على أى حال قاتلت أو قتلت بعثك الله على تلك الحال » (٢).

وفى المسند أو السنن ، عن أبى أيوب ﷺ ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنها ستفتح عليكم الأمصار،وتضربون فيها بعوثاً ،فيكره الرجل منكم البعث ، فيخلص من قومه ويعرض نفسه على القبائل يقول:من أكفيه بعث كذا وكذا ، ألا وذلك الأخير إلى آخر قطرة من دمه » (٣) ، فانظر محبة الدنيا ، ماذا حرمت هذا المجاهد من الأجر،وأفسدت عليه عمله ، وجعلته أول الداخلين إلى النار.

**ورابعها** :أن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه فى الآخرة ؛ لاشتغاله عنه بمحبوبه. والناس هاهنا مراتب:فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه، ومنهم من يشغله عن الواجبات التى تجب عليه لله ولخلقه؛فلا يقوم بها ظاهراً ولا باطناً ، ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات ، ومنهم من يشغله عن واجب يعارض تحصيلها وإن قام بغيره ،ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب فى الوقت الذى ينبغى على الوجه الذى ينبغى ؛ فيفرط فى وقته وفى حقوقه ، ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه فى الواجب وتفريغه لله عند أدائه ؛ فيؤديه ظاهراً لا باطنًا . وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها ؟ هذا من أندرهم وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد ، وهو تفريغ القلب لحب الله، ولسانه لذكره ، وجمع قلبه على لسانه ، وجمع لسانه وقلبه على ربه.فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة ولابد ، كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا، وفى هذا حديث قد روى مرفوعاً : « من أحب دنياه أضر بآخرته ،ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما بقى على ما يفنى » (٤).

**وخامسها**: أن محبتها تجعلها أكثر هم العبد ؛ وقد روى الترمذى ، من حديث أنس بن

---

(١) أبو داود (٢٥٢٧) فى الجهاد ، باب: فى الرجل يغزو بأجير ليخدم ، وأحمد (٤/ ٢٢٣).

(٢) أبو داود (٢٥١٩) فى الجهاد ، باب:من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، وضعفه الألبانى.

(٣) أبو داود (٢٥٢٥) فى الجهاد ، باب:فى الجعائل فى الغزو ،وضعفه الألبانى ، وأحمد (٥/١٣/٤).

(٤) أحمد (٤/ ٤١٢) ،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٥٢):« رواه البزار والطبرانى ورجاله ثقات ».

مالك ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت الآخرة أكبر همه ؛ جعل الله غناه فى قلبه. وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهى راغمة. ومن كانت الدنيا أكبر همه؛ جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ،ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له » (١).

**وسادسها** : أن محبها أشد الناس عذاباً بها ،وهو معذب فى دوره الثلاث: يعذب فى الدنيا بتحصيلها والسعى فيها ومنازعة أهلها ،وفى دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها،وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبداً ، ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه ؛ فهذا أشد الناس عذابا فى قبره ؛ يعمل الهم والغم والحزن والحسرة فى روحه ما تعمل الديدان وهوام الأرض فى جسمه ، كما قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدثنا عبد الصمد بن معقل ، عن وهب بن منبه: أن حزقيل كان فيمن سبى بختنصر ، فذكر عنه حديثاً طويلاً ،وفى آخره قال: فبينما أنا نائم على شط الفرات ، إذ أتانى ملك ،فأخذ برأسى ، فاحتملنى حتى وضعنى بقاع من الأرض ، قد كانت معركة ،قال: وإذا فيه عشرة آلاف قتيل قد بددت الطير والسباع لحومهم وفرقت أوصالهم ، قال لى: إن قوماً يزعمون أن من مات منهم أو قتل فقد انفلت منى وذهبت عنه قدرتى فادعهم،قال حزقيل: فدعوتهم فإذا كل عظم قد أقبل إلى مفصله الذى انقطع منه ، ما الرجل بصاحبه بأعرف من العظم بمفصله الذى فارق ، حتى أم بعضها بعظائم نبت عليها اللحم ، ثم نبت عليها العروق ،ثم انبسطت الجلود ،وأنا أنظر إلى ذلك. ثم قال: ادع أرواحهم .قال: فدعوتها ،فإذا كل روح قد أقبل إلى جسده الذى فارق، فلما جلسوا سألتهم: فيم كنتم؟ قالوا: إنا لما متنا وفارقنا الحياة لقينا ملك ، فقال: هلموا أعمالكم،وخذوا أجوركم ،كذلك سنتنا فيكم ، وفيمن كان قبلكم ،وفيمن هو كائن بعدكم. قال: فنظر فى أعمالنا ، فوجدنا نعبد الأوثان، فسلط الدود على أجسادنا وجعلت الأرواح تألم ،وسلط الغم على أرواحنا وجعلت أجسادنا تألم ، فلم نزل كذلك نعذب حتى دعوتنا.

ولا يستريح عاشق الدنيا ،فقولهم : كنا نعبد الأوثان ، فسيان عبادة الأثمان وعبادة الأوثان؛ تعس عبد الدينار ،تعس عبد الدرهم.

والمقصود: أن محب الدنيا يعذب فى قبره ويعذب يوم لقاء ربه ،قال تعالى : ﴿ **فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)** ﴾ [ التوبة ]. قال بعض السلف : يعذبهم بجمعها وتزهق أنفسهم بحبها ؛ وهم كافرون بمنع حق الله فيها.

**وسابعها** : أن عاشقها ومحبها الذى يؤثرها على الآخرة ، من أسفه الخلق وأقلهم عقلاً؛ إذ آثر الخيال على الحقيقة ،والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم الدائم،

(١) الترمذى (٢٤٦٥) فى صفة القيامة والرقائق والورع ،باب :(٣٠) .

والدار الفانية على الدار الباقية ،وباع حياة الأبد فى أوغد عيش بحياة إنما هى أحلام نوم أو كظل زائل. إن اللبيب بمثلها لا يخدع ،كما نزل أعرابى بقوم ،فقدموا له طعاماً فأكل،ثم قام إلى ظل خيمة فنام ، فاقتلعوا الخيمة فأصابته فانتبه ،وهو يقول:

وإن امرؤ دنياه أكبر همه لمستمسك منها بحبل غرور

وكان بعض السلف يتمثل بهذا البيت :

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها إن اغتراراً بظل زائل حمق

قال يونس بن عبدالأعلى:ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى فى منامه ما يكره وما يحب ،فبينما هو كذلك انتبه.

وقال ابن أبى الدنيا:حدثنى أبو على الطائى ،حدثنا عبدالرحمن البخارى،عن ليث، قال: رأى عيسى ابن مريم الدنيا فى صورة عجوز عليها من كل زينة ،فقال :كم تزوجت ؟ قالت: لا أحصيهم. قال:فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك ؟ قالت: بل كلهم قتلته. فقال عيسى: بؤساً لأزواجك الباقين ،كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين؟! تهلكينهم واحداً واحداً ولا يكونون منك على حذر !

أرى أشقياء النـاس لا يسأمـونها على أنهم فيهـا عـراة وجـوع

أراها وإن كانت تحـب فإنهـا سحابة صيف عـن قليل تقشع

أشبه الأشياء بالدنيا الظل ، تحسب له حقيقة ثابتة وهو فى تقلص وانقباض ، إن تتبعته لتدركه فلا تلحقه. وأشبه الأشياء بها السراب ، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً، ووجد الله عنده فوفاه حسابه ،والله سريع الحساب. وأشبه الأشياء بها المنام،يرى فيه العبد ما يحب وما يكره ،فإذا استيقظ علم أن ذلك لا حقيقة له. وأشبه الأشياء بها عجوز شوهاء قبيحة المنظر والمخبر ،غدارة بالأزواج ، تزينت للخطاب بكل زينة وسترت كل قبيح، فاغتر بها من لم يجاوز بصره ظاهرها ، فطلب النكاح ، فقالت: لا مهر إلا نقد الآخرة؛ فإننا ضرتان واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح ؛ فآثر الخطاب العاجلة ،وقالوا: ما على من واصل حبيبته من جناح. فلما كشف قناعها ،وحل إزارها ،إذا كل آفة وبلية ؛فمنهم من طلق واستراح ،ومنهم من اختار المقام ، فما استتمت ليلة عرسه إلا بالعويل والصياح.

تالله لقد أذن مؤذنها على رؤوس الخلائق بحى على غير الفلاح ،فقام المجتهدون والمسلمون لها،فواصلوا فى طلبها الغدو بالرواح ،وسروا ليلهم فلم يحمد القوم السرى عند الصباح،طاروا فى صيدها فما رجع أحد منهم إلا وهو مكسور الجناح ،فوقعوا فى شبكتها فأسلمتهم للذباح.

قال ابن أبى الدنيا: حدثنا محمد بن على بن شفيق ، حدثنا إبراهيم بن الأشعث ،قال

سمعت الفضيل بن عياض، قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء، زرقاء، أنيابها بادية، مشوه خلقها؛ فتشرف على الخلائق، فيقال: أتعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال: هذه الدنيا التى تشاجرتم عليها، بها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم. ثم يقذف بها فى جهنم فتنادى: يا رب أين أتباعى وأشياعى؟ فيقول الله عز وجل: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها.

قال ابن أبى الدنيا: وحدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا عوف عن أبى العلاء قال: رأيت فى النوم عجوزاً كبيرة عليها من كل زينة الدنيا، والناس عكوف عليها متعجبون ينظرون إليها، فجئت أنظر فتعجبت من نظرهم إليها وإقبالهم عليها، فقلت لها: ويلك من أنت؟ قالت: أما تعرفنى؟ قلت لا، قالت أنا الدنيا، قال: قلت: أعوذ بالله من شرك. قالت: فإن أحببت أن تعاذ من شرى فابغض الدرهم.

قال ابن أبى الدنيا: وحدثنى إبراهيم بن سعيد الجوهرى، حدثنا سفيان بن عيينة قال: قال لى أبو بكر بن عياش: رأيت الدنيا فى النوم عجوزا مشوهة شمطاء تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون، فلما كانت بحذائى أقبلت على، فقالت: لو ظفرت بك صنعت بك ما صنعت بهؤلاء. ثم بكى أبو بكر.

قال: وحدثنا محمد بن على: حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل قال: بلغنى أن رجلاً عرج بروحه قال: فإذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة الحلى والثياب، وإذا هى لا يمر بها أحد إلا جرحته. وإذا هى أدبرت كانت أحسن شىء رآه الناس. وإذا أقبلت أقبح شىء عجوز شمطاء زرقاء عمشاء. فقلت: أعوذ بالله. قالت: لا والله لا يعيذك الله حتى تبغض الدرهم. قال: قلت: من أنت؟ قالت: أنا الدنيا.

ووصف على رضي الله عنه الدنيا فقال: دار من صح فيها هرم، ومن سقم فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فتن، فى حلالها الحساب، وفى حرامها النار. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له.

وذكر ابن أبى الدنيا: أن الحسن كتب إلى عمر بن عبدالعزيز: أما بعد، فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أنزل آدم إليها عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغناء فيها فقرها، لها فى كل حال قتيل، تذل من أعزها، وتفقر من جمعها، هى كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه. فكن فيها كمداو جراحاته يحتمى قليلاً مخافة ما يكره طويلاً، ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء. فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة التى قد تزينت بخدعها، وفتنت بغرورها، وخيلت بآمالها، وشوقت لخطابها، فأصبحت كالعروس المجلوة، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهى لأزواجها كلهم قاتلة، فلا الباقى بالماضى معتبر، ولا الآخر بالأول مزدجر، والعارف بالله حين أخبره عنها مذكر، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر، وطغى ونسى المعاد، فشغل فيها

لبه حتى زلت عنها قدمه ، فعظمت ندامته ،وكبرت حسرته ،واجتمع عليه سكرات الموت وألمه، وحسرات الفوت ونغصه، فذهب منها فى كمد ، ولم يدرك منها ما طلب ولم يرح نفسه من التعب ، فخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد،فاحذرها يا أمير المؤمنين،وأسر ما تكون فيها ، أحذر ما تكون لها. فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه ،السار فيها غذاء ضار ،وقد وصل الرخاء منها بالبلاء.وجعل البقاء فيها إلى فناء،فسرورها مشوب بالحزن ، ما يرجع منها ما ولى فأدبر ،ولا يدرى ما هو آت فينتظر. أمانيها كاذبة ،وآمالها باطلة ،وصفوها كدر ،وعيشها نكد. فلو كان الخالق لها لم يخبر عنها خبراً ولم يضرب لها مثلاً لكانت قد أيقظت النائم الغافل،فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر وفيها واعظ ، فما لها عند الله عز وجل قدر ولا وزن ،وما نظر إليها منذ خلقها. ولقد عرضت على نبينا ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا تنقصه عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها ،وكره أن يحب ما أبغض الله خالقه،أو يرفع ما وضع مليكه ،فزواها عن الصالحين اختياراً ،وبسطها لأعدائه اغتراراً ،فيظن المغرور بها القادر عليها أنه أكرم بها ، ونسى ماصنع الله بمحمد ﷺ حين شد الحجر على بطنه.

وقال الحسن أيضاً: ابن آدم ،لا تعلق قلبك فى الدنيا فتعلقه بشر معلق ،اقطع حبالها وغلق أبوابها ،حسبك يا بن آدم منها ما يبلغك المحل ،وكان يقول: إن قوماً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب ،فأهينوها فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها. هيهات هيهات،ذهبت الدنيا وبقيت الأعمال قلائد فى الأعناق.

وقال المسيح عليه السلام : لا تتخذوا الدنيا رباً فتتخذكم عبيداً ، واعبروها ولا تعمروها، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ،ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً. ما سكنت الدنيا فى قلب عبد إلا التاط قلبه منها بثلاثة: شغل لا ينفك عناؤه،وفقر لا يدرك غناؤه،وأمل لا يدرك منتهاه. والدنيا طالبة مطلوبة،فطالب الآخرة تطلبة الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجىء الموت فيأخذ بعنقه. يا معشر الحواريين، ارضوا بدنو الدنيا مع سلامة الدين ،كما رضى أهل الدنيا بدنو الدين مع سلامة الدنيا .

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنا هارون بن عبد الله ، حدثنا سيار ،حدثنا جعفر ،حدثنا مالك بن دينار قال: قال أبو هريرة رضي الله عنه : الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله تعالى إلى يوم يفنيها،تنادى ربها: يا رب ، لم تبغضنى ، فيقول : اسكتى يا لا شىء ، اسكتى يا لا شىء.

وقال الفضيل: تجىء الدنيا يوم القيامة فتتبختر فى زينتها ونضرتها. فتقول: يا رب ، اجعلنى لأحسن عبادك داراً، فيقول: لا أرضاك له،أنت لا شىء فكونى هباء منثوراً.

## فصل
## فى ذكر أمثلة تبين حقيقة الدنيا

**المثال الأول** : للعبد ثلاثة أحوال: حالة لم يكن فيها شيئاً وهى ما قبل أن يوجد ، وحالة أخرى وهى من ساعة موته إلى ما لا نهاية له فى البقاء السرمدى، فلنفسه وجود بعد خروجها من البدن، إما فى الجنة وإما فى النار ، ثم تعاد إلى بدنه فيجازى بعمله ويسكن إحدى الدارين فى خلود دائم ، ثم بين هاتين الحالتين ـ وهى ما بعد وجوده وما قبل موته ـ حالة متوسطة وهى أيام حياته ، فلينظر إلى مقدار زمانها وأنسبه إلى الحالتين ، يعلم أنه أقل من طرفة عين فى مقدار عمر الدنيا ،ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ،ولم يبال كيف تقضت أيامه فيها ؛ فى ضر وضيق أو فى سعة ورفاهية ؛ولهذا لم يضع رسول الله ﷺ لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ، وقال : « مالى وللدنيا ، إنما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب قال فى ظل شجرة ثم راح وتركها » (١). وقال: « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بما يرجع » (٢). وإلى هذا أشار المسيح عليه السلام بقوله: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها ، وهذا مثل صحيح ،فإن الحياة معبر إلى دار الآخرة ؛والمهد هو الركن الأول للقنطرة ، واللحد هو الركن الثانى على آخرها ، ومن الناس من قطع نصف القنطرة كان فلا بد من العبور ، فمن وقف يبنى على القنطرة ويزينها بأصناف الزينة وهو يستحث العبور، فهو فى غاية الجهل والحمق.

**المثال الثانى** : شهوات الدنيا فى القلب كشهوات الأطعمة فى المعدة ، وسوف يجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا فى قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا انتهت فى المعدة غايتها ، وكما أن الأطعمة كلما كانت ألذ طعماً وأكثر دسماً وأكثر حلاوة كان رجيعها أقذر ، فكذلك كل شهوة كانت فى النفس ألذ وأقوى فالتأذى بها عند الموت أشد ، كما أن تفجع الإنسان بمحبوبه إذا فقده يقوى بقدر محبة المحبوب.

وفى المسند أن النبى ﷺ قال للضحاك بن سفيان: « ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ، ثم تشرب عليه الماء واللبن » ، قال : بلى، قال: « فإلام يصير ؟ » ، قال : إلى ما قد علمت ، قال: « إن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم » (٣).

كان بعض السلف يقول لأصحابه: انطلقوا حتى أريكم الدنيا ،فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم.

---

(١) سبق تخريجه ص ١٢٢ .

(٢) سبق تخريجه ص ١٢١ .

(٣) سبق تخريجه ص ١٢٤ .

**المثال الثالث**: لها ولأهلها فى اشتغالها بنعيمها عن الآخرة ،وما يعقبهم من الحسرات ـ مثل أهلها فى غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة ،فانتهت بهم إلى جزيرة،فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة ،وحذرهم الإبطاء ،وخوفهم مرور السفينة ، فتفرقوا فى نواحى الجزيرة ، فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة ،فصادف المكان خالياً،فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده ،ووقف بعضهم فى الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة ، ويسمع نغمات طيورها ،ويعجبه حسن أحجارها،ثم حدثته نفسه بفوت السفينة وسرعة مرورها وخطر ذهابها ،فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً فجلس فيه ،وأكب بعضهم على تلك الحجارة المستحسنة والأزهار الفائقة فجعل منها حمله،فلما جاء لم يجد فى السفينة إلا مكاناً ضيقاً ، وزاده حمله ضيقاً ، فصار محموله ثقلاً عليه ووبالاً ،ولم يقدر على نبذه ،بل لم يجد من حمله بداً ولم يجد له فى السفينة موضعاً ، فحمله على عنقه ،وندم على أخذه، فلم تنفعه الندامة؛ ثم ذبلت الأزهار ، وتغيرت رائحتها ،وآذاه نتنها.وتولغ بعضهم فى تلك الغياض، ونسى السفينة ،وأبعد فى نزهته ،حتى أن الملاح نادى بالناس عند دفع السفينة فلم يبلغه صوته لاشتغاله بملاهيه ، فهو تارة يتناول من الثمر ، وتارة يشم تلك الأزهار ،وتارة يعجب من حسن الأشجار،وهو على ذلك خائف من سبع يخرج عليه،غير منفك من شوك يتشبث فى ثيابه ويدخل فى قدميه ،أو غصن يجرح بدنه،أو عوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته ، أوصوت هائل يفزعه ، ثم من هؤلاء من لحق السفينة ولم يبق فيها موضع فمات على الساحل.ومنهم من شاله لهو فافترسته السباع ونهشته الحيات.ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك.فهذا مثال أهل الدنيا فى اشتغالهم بحظوظهم العاجلة،ونسيانهم موردهم وعاقبة أمرهم.وما أقبح بالعاقل أن تغره أحجار ونبات يصير هشيماً قد شغل باله وعوقه عن نجاته ولم يصحبه.

**المثال الرابع**: لاغترار الناس بالدنيا وضعف إيمانهم بالآخرة.قال ابن أبى الدنيا:حدثنا إسحاق بن إسماعيل ،حدثنا روح بن عبادة،حدثنا هشام بن حسان ،عن الحسن،قال:بلغنى أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه:« إنما مثلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أم ما بقى،أنفدوا الزاد ،وحسروا الظهر، وبقوا بين ظهرانى المفازة ،لا زاد ولا حمولة ،فأيقنوا بالهلكة.فبينما هم كذلك،إذ خرج عليهم رجل فى حلة يقطر رأسه ،فقالوا :إن هذا قريب عهد بريف ،وما جاءكم هذا إلا من قريب .فلما انتهى إليهم ، قال: يا هؤلاء علام أنتم؟ قالوا: على ما ترى. قال: أرأيتم إن هديتكم على ماء رواء ورياض خضر ، ما تجعلون لى ؟ قالوا: لا نعصيك شيئاً. قال: عهودكم ومواثيقكم بالله.قال:فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً.قال فأوردهم ماء ورياضاً خضراء.قال:فمكث فيهم ما شاء الله ثم قال:يا هؤلاء الرحيل، قالوا: إلى أين ؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم ورياض ليست كرياضكم. قال: فقال جل القوم وهم أكثرهم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده ، وما نصنع بعيش هو خير من هذا ؟

قال : وقالت طائفة وهم أقلهم: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه شيئاً، وقد صدقكم فى أول حديثه ؛ فوالله ليصدقنكم فى آخره. فراح بمن اتبعه وتخلف بقيتهم ، فبادرهم عدوهم فأصبحوا بين أسير وقتيل »(١).

**المثال الخامس** : للدنيا وأهلها ، ما مثلها به النبى ﷺ كظل شجرة ،والمرء مسافر فيها إلى الله ،فاستظل فى ظل تلك الشجرة فى يوم صائف،ثم راح وتركها(٢). فتأمل حسن هذا المثال،ومطابقته للواقع سواء؛فإنها فى خضرتها كشجرة ،وفى سرعة انقضائها وقبضها شيئاً فشيئاً كالظل،والعبد مسافر إلى ربه ،والمسافر إذا رأى شجرة فى يوم صائف لا يحسن به أن يبنى تحتها داراً ولا يتخذها قراراً ،بل يستظل بها بقدر الحاجة ،ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق.

**المثال السادس** : تمثيله لها ﷺ بمدخل أصبعه فى اليم (٣)،فالذى يرجع به أصبعه من البحر هو مثل الدنيا بالنسبة إلى الآخرة. وهذا أيضاً من أحسن الأمثال؛فإن الدنيا منقطعة فانية ،ولو كانت مدتها أكثر مما هى ،والآخرة أبدية لا انقطاع لها،ولا نسبة للمحصور إلى غير المحصور، بل لو فرض أن السموات والأرض مملوءتان خردلاً ،وبعد كل ألف سنة طائر ينقل خردلة لفنى الخردل ، والآخرة لا تفنى. فنسبة الدنيا إلى الآخرة فى التمثيل ،كنسبة خردلة واحدة إلى ذلك الخردل. ولهذا لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر،وأشجار الأرض كلها أقلام يكتب بها كلام الله،لنفدت الأبحر والأقلام ،ولم تنفد كلمات الله؛لأنها لا بداية لها،ولا نهاية لها ،والأبحر والأقلام متناهية.

قال الإمام أحمد وغيره :لم يزل الله متكلماً إذا شاء ،وكماله المقدس مقتض لكلامه، وكماله من لوازم ذاته فلا يكون إلا كاملاً،والمتكلم أكمل ممن لا يتكلم. وهو ـ سبحانه ـ لم يلحقه كلل ولا تعب ولا سآمة من الكلام. وهو يخلق ويدبر خلقه بكلماته ؛ فكلماته هى التى أوجد بها خلقه وأمره. وذلك حقيقة ملكه وربوبيته وإلهيته. وهو لا يكون إلا رباً ملكاً إلها لا إله إلا هو . والمقصود أن الدنيا نفس من أنفاس الآخرة ، وساعة من ساعاتها.

**المثال السابع** :ما مثلها به ﷺ فى الحديث المتفق على صحته من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه : قال: قال رسول الله ﷺ، فخطب الناس فقال:« لا والله ما أخشى عليكم إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا ». فقال رجل: يا رسول الله ، أو يأتى الخير بالشر ؟ فصمت رسول الله ﷺ ، ثم قال: « كيف قلت ؟ » ، قال: يا رسول الله ، أو يأتى الخير

---

(١) ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الدنيا رقم (٨٨).

(٢) سبق تخريجه ص ١٢٢.

(٣) سبق تخريجه ص ١٢١.

بالشر ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الخير لا يأتى إلا بالخير ، وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم ، إلا آكلة الخضر أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها ، استقبلت الشمس فثلطت (١) وبالت ، ثم اجترت فعادت فأكلت. فمن أخذ مالاً بحقه بورك فيه ، ومن أخذ مالاً بغير حقه فمثله كمثل الذى يأكل ولا يشبع » (٢) . فأخبر ﷺ أنه إنما يخاف عليهم الدنيا ، وسماها زهرة فشبهها بالزهر فى طيب رائحته وحسن منظره وقلة بقائه ، وأن وراءه ثمراً خيراً وأبقى منه.

وقوله: « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم »، هذا من أحسن التمثيل المتضمن للتحذير من الدنيا والانهماك عليها والمسرة فيها ؛ وذلك أن الماشية يروقها نبت الربيع ، فتأكل منها بأعينها، فربما هلكت حبطاً. والحبط: انتفاخ بطن الدابة من الامتلاء أو من المرض، يقال: حبط الرجل ـ والدابة تحبط حبطاً إذا أصابه ذلك ، ولما أصاب الحارث بن مازن بن عمرو بن تميم ذلك فى سفره ، فمات حبطاً ، فنسب الحبطى كما يقال : السلمى. فكذلك الشرهة فى المال يقتله شرهه وحرصه. فإن لم يقتله قارب أن يقتله. وهو قوله: « أو يلم». وكثير من أرباب الأموال، إنما قتلتهم أموالهم ؛ فإنهم شرهوا فى جمعها واحتاج إليها غيرهم ، فلم يصلوا إليها بقتلهم أو ما يقاربه من إذلالهم وقهرهم.

وقوله: « إلا آكلة الخضر». هذا تمثيل لمن أخذ من الدنيا حاجته ، مثله بالشاة الآكلة من الخضر بقدر حاجتها: « أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها». وفى لفظ آخر: « امتدت خاصرتاها » ، وإنما تمتد من امتلائها من الطعام. وثنى الخاصرتين لأنهما جانبا البطن.

وفى قوله: « استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت »، ثلاث فوائد:

**إحداها**: أنها لما أخذت حاجتها من المرعى ، تركته وبركت مستقبلة الشمس؛ لتستمرئ بذلك ما أكلته.

**الثانية** : أنها أعرضت عما يضرها من الشره فى المرعى، وأقبلت على ما ينفعها من استقبال الشمس ، التى يحصل لها بحرارتها إنضاج ما أكلته وإخراجه.

**الثالثة** : أنها استفرغت بالبول والثلط ما جمعته من المرعى فى بطنها ، فاستراحت بإخراجه ، ولو بقى فيها لقتلها. فكذلك جامع المال مصلحته أن يفعل به كما فعلت هذه الشاة.

وأول الحديث: « مثل الشره فى جمع الدنيا الحريص على تحصيلها»، فمثاله مثال للدابة التى حملها شره الأكل على أن يقتلها حبطاً أو يلم إذا لم يقتلها ؛ فإن الشره الحريص إما

---

(١) ثلط البعير : إذا ألقى بعره رقيقًا .

(٢) البخارى (٦٤٢٧) فى الرقاق ، باب :ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ، ومسلم (١٠٥٢/ ١٢٢)فى الزكاة، باب :تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا ، وأحمد (٣/ ٢١).

هالك وإما قريب من الهلاك. فإن الربيع ينبت أنواع البقول والعشب ، فتستكثر منه الدابة حتى ينتفخ بطنها ، لما جاوزت حد الاحتمال ، فتنشق أمعاؤها وتهلك . كذلك الذى يجمع الدنيا من غير حلها ،ويحبسها أو يصرفها فى غير حقها.

وآخر الحديث: مثل للمقتصد بآكلة الخضر الذى تنتفع الدابة بأكله ،ولم يحملها شرهها وحرصها على تناولها منه فوق ما تحتمله ، بل أكلت بقدر حاجتها .وهذا مثل الذى أخذ ما يحتاج إليه ثم أقبل على ما ينفعه.وضرب بول الدابة وثلطها مثلاً لإخراجه المال فى حقه؛حيث يكون حبسه وإمساكه مضراً به،فنجا من وبال جمعه بأخذ قدر حاجته منه،ونجا من وبال إمساكه باخراجه،كما نجت الدابة من الهلاك بالبول والثلط.

وفى هذا الحديث إشارة إلى الاعتدال والتوسط بين الشره فى المرعى القاتل بكثرته، وبين الإعراض عنه وتركه بالكلية فتهلك جوعاً.

وتضمن الخبر أيضاً إرشاد المكثر من المال إلى ما يحفظ عليه قوته وصحته فى بدنه وقلبه ،وهو الإخراج منه وإنفاقه ،ولا يحبسه فيضره حبسه. وبالله التوفيق.

**المثال الثامن**: ما رواه عمرو بن شعيب ، عن أبيه ،عن سليمان بن يسار ، عن ميمونة، قالت: قال رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص: « الدنيا خضرة حلوة ؛ فمن اتقى الله فيها وأصلح ،وإلا فهو كالآكل ولا يشبع.وبين الناس فى ذلك كبعد الكوكبين: أحدهما يطلع المشرق والآخر يغيب فى المغرب » (١) . فنبه بخضرتها على استحسان العيون لها ، وبحلاوتها على استجلاء الصدور لها،وبتلك الخضرة والحلاوة زينت لأهلها وحببت إليهم ، لا سيما وهم مخلوقون منها وفيها،كما قيل:

ونحن بنو الدنيا ومنها نباتنا وما أنت منه فهو شىء محبب

وجعل الناس فيها قسمين: أحدهما؛ مصلح متقٍ ، فهذا تقواه وإصلاحه لا يدعانه ينهمك عليها ويشره فيها ويأخذها من غير حلها ويضعها فى غير حقها ،فإن لم يتق ويصلح صرف نهمته وقواه وحرصه إلى تحصيلها ،فكان كالذى يأكل ولا يشبع.وهذا من أحسن الأمثلة؛فإن المقصود من الأكل حفظ الصحة والقوة ،وذلك تابع لقدر الحاجة ،وليس المقصود منه ذاته ونفسه.فمن جعل نهمته فوق مقصوده لم يشبع ؛ولهذا قال الإمام أحمد: الدنيا قليلها يجزى وكثيرها لا يجزى.وأخبر عن تفاوت الناس فى المنزلتين ـ أعنى منزلة التقوى والإصلاح،ومنزلة الأكل والشره ـ وأن بين الرجلين فى ذلك كما بين الكوكبين الغارب فى الأفق والطالع منه ،وبين ذلك منازل متفاوتة.

**المثال التاسع**: ما تقدم من حديث المستورد بن شداد قال: كنت مع الركب الذين وقفوا

---

(١) كنز العمال (٦٢٠٠).

مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة. فقال رسول الله ﷺ: « أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها ؟ » قالوا: ومن هوانها ألقوها يا رسول الله، قال: « فوالذى نفس محمد بيده للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها » (١). قال الترمذى: حديث حسن صحيح. فلم يقتصر ﷺ على تمثيلها بالسخلة الميتة، بل جعلها أهون على الله منها.

وفى مسند الإمام أحمد فى هذا الحديث: « فوالذى نفسى بيده، الدنيا عند الله أهون عليه من تلك السخلة على أهلها » (٢)؛ فأكد ذلك بالقسم الصادق. فإذا كان مثلها عند الله أهون وأحقر من سخلة ميتة على أهلها، فمحبها وعاشقها أهون على الله من تلك السخلة، وكونها سخلة أهون عليهم من كونها شاة كبيرة؛ لأن تلك بما انتفعوا بصوفها أو دبغوا جلدها، وأما ولد شاة صغيرة ميت ففى غاية الهوان. والله المستعان.

**المثال العاشر**: مثلها مثل البحر، والذى لا بد للخلق كلهم من ركوبه؛ ليقطعوه إلى الساحل الذى فيه دورهم وأوطانهم ومستقرهم، ولا يمكن قطعه إلا فى سفينة النجاة؛ فأرسل الله رسله لتعرف الأمم اتخاذ سفن النجاة، وتأمرهم بعملها وركوبها، وهى: طاعة رسله، وعبادته وحده، وإخلاص العمل له، والتشمير للآخرة وإرادتها، والسعى لها سعيها.

فنهض الموفقون وركبوا السفينة، ورغبوا عن خوض البحر؛ لما علموا أنه لا يقطع خوضاً ولا سباحة. وأما الحمقاء فاستصعبوا عمل السفينة وآلاتها والركوب فيها، وقالوا: نخوض البحر، فإذا عجزنا قطعناه سباحة، وهم أهل الدنيا فخاضوه، فلما عجزوا عن الخوض أخذوا فى السباحة حتى أدركهم الغرق. ونجا أصحاب السفينة كما نجوا مع نوح عليه السلام، وغرق أهل الأرض.

فتأمل هذا المثل، وحال أهل الدنيا فيها، يتبين لك مطابقته للواقع. وقد ضرب هذا المثل للدنيا والآخرة والقدر والأمر؛ فإن القدر بحر والأمر فيه سفينة لا ينجو إلا من ركبها.

**المثال الحادى عشر**: مثالها مثال إناء مملوء عسلاً، رآه الذباب، فأقبل نحوه؛ فبعضه قعد على حافة الإناء، وجعل يتناول من العسل حتى أخذ حاجته ثم طار؛ وبعضه حمله الشره على أن رمى بنفسه فى لجة الإناء ووسطه، فلم يدعه انغماسه فيه أن يتهنأ به إلا قليلاً حتى هلك فى وسطه.

**المثال الثانى عشر**: مثال حب قد نثر على وجه الأرض، وجعلت كل حبة فى فخ،

---

(١) الترمذى (٢٣٢١) فى الزهد، باب: ما جاء فى هوان الدنيا على الله عز وجل، وابن ماجه (٤١١١) فى الزهد، باب: مثل الدنيا.

(٢) أحمد (٤/ ٢٢٠)، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٩٠): « رواه أبو يعلى والبزار، وفيه محمد بن مصعب وقد وثق على ضعفه، وبقية رجالهم رجال الصحيح ».

وجعل حول ذلك الحب ، حب ليس فى فخاخ،فجاءت الطير ، فمنها من قنع بالجوانب ولم يرم نفسه فى وسط الحب فأخذ حاجته ومضى ، ومنها من حمله الشره على اقتحام معظم الحب ، فما استتم اللقاط إلا وهو يصيح من أخذه الفخ له.

**المثال الثالث عشر** : كمثل رجل أوقد ناراً عظيمة ، فجعلت الفراش والجنادب يرون ضوئها فيقصدونها ويتهافتون فيها ، ومن له علم بحالها جعل يستضىء ويستدفىء بها من بعيد. وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المثل بعينه فى الحديث الذى رواه مالك بن اسماعيل ، عن حفص بن حميد، عن عكرمة ،عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن عمر، عن النبى ﷺ قال : « إنى ممسك بحجزكم عن النار وتتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب ويوشك أن أرسل بحجزكم». وفى لفظ آخر: « مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله، جعلت للفراش والجنادب يتقاحمن فيها ،فأنا آخذ بحجزكم عن النار ،وأنتم تغلبونى وتقاحمون فيها » (١) ، وهذا المثال منطبق على أهل الدنيا المنهمكين فيها ،فالرسل تدعوهم إلى الآخرة ، وهم يتقاحمون فى الدنيا تقاحم الفراش.

**المثال الرابع عشر**:مثل قوم خرجوا فى سفر بأموالهم وأهليهم ، فمروا بواد مشعب كثير المياه والفواكه ، فنزلوا به وضربوا خيمهم ، وبنوا هنالك الدور والقصور ، فمر بهم رجل يعرفون نصحه وصدقه وأمانته ، فقال:إنى رأيت بعينى هاتين الجيش خلف هذا الوادى وهو قاصدكم ، فاتبعون أسلك لكم على غير طريق العدو فتنجوا منه.فأطاعته طائفة قليلة ، فصاح فيهم:يا قوم النجاة النجاة ، أتيتم أتيتم ،وصاح السامعون له بأهليهم وأولادهم وعشائرهم ،فقالوا:كيف نرحل من هذا الوادى وفيه مواشينا وأموالنا ودورنا وقد استوطناه ؟ فقال لهم الناصح:لينج كل واحد منكم بنفسه مما خف عليه من متاعه ،وإلا فهو مأخوذ وماله مجتاح.فثقل على أصحاب المجد والأموال ورؤساء القوم النقلة ومفارقة ما هم فيه من النعيم والرفاهية والدعة ،وقال كل أحمق:لى أسوة بالقاعدين ، فهم أكثر منى مالاً وأهلاً ، فما أصابهم أصابنى معهم ، ونهض الأقلون مع الناصح، ففازوا بالنجاة، وصبح الجيش أهل الوادى فقتلهم واجتاح أموالهم.

وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المثل بعينه فى الحديث المتفق على صحته ، من حديث أبى بردة ، عن أبى موسى ، عن النبىﷺ قال:« إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم ،إنى رأيت الجيش بعينى،وأنا النذير العريان ؛ فالنجاة النجاة . فأطاعه طائفة من قومه ،فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا. وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم،فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم.فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت

---

(١) البخارى (٦٤٨٣) فى الرقاق ، باب:الانتهاء عن المعاصى ،ومسلم (١٨/٢٢٨٤) فى الفضائل ، باب:شفقته ﷺ على أمته ومبالغته فى تحذيرهم مما يضرهم.

به، ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق »(١).

**المثال الخامس عشر**: رجل هيأ داراً وزينها، ووضع فيها من جميع الآلات، ودعا الناس إليها؛ فكلما دخل داخل أجلسه على فراش وثير، وقدم إليه طبقاً من ذهب عليه لحم، ووضع بين يديه أوان مفتخرة فيها من كل ما يحتاج إليه، وأخدمه عبيده ومماليكه؛ فعرف العاقل أن ذلك كله متاع صاحب الدار وملكه وعبيده، فاستمتع بتلك الآلات والضيافة مدة منامه فى الدار، ولم يعلق قلبه بها، ولا حدث نفسه بتملكها، بل اعتمد مع صاحب الدار ما يعتمده الضيف، يجلس حيث أجلسه، ويأكل ما قدمه له، ولا يسأل عما وراء ذلك؛ اكتفاء منه بعلم صاحب الدار وكرمه، وما يفعله مع ضيوفه؛ فدخل الدار كريماً وتمتع فيها كريما، وفارقها كريماً، ورب الدار غير ذام له. وأما الأحمق، فحدث نفسه بسكنى الدار، وحوز تلك الآلات إلى ملكه، وتصرفه فيها بحسب شهوته وإرادته؛ فتخير المجلس لنفسه؛ وجعل ينقل تلك الآلات إلى مكان فى الدار يخبئها فيه، وكلما قدم إليه ربها شيئاً أو آلة حدث نفسه بملكه واختصاصه به عن سائر الأضياف، ورب الدار يشاهد ما يصنع، وكرمه يمنعه من إخراجه من داره، حتى إذا ظن أنه استبد بتلك الآلات، وملك الدار، وتصرف فيها وفى آلاتها تصرف المالك الحقيقى، واستوطنها واتخذها داراً له، أرسل إليه مالكها عبيده، فأخرجوه منها إخراجاً عنيفاً، وسلبوه كل ما هو فيه، ولم يصحبه من تلك الآلات شىء، وحصل على مقت رب الدار وافتضاحه عنده وبين مماليكه وحشمه وخدمه.

فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل؛ فإنه مطابق للحقيقة. والله المستعان.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كل أحد فى هذه الدنيا ضيف وماله عارية، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة.

وفى الصحيحين، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: مات ابن لأبى طلحة من أم سليم، فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة حتى أكون أنا أحدثه، فجاء فقربت إليه عشاء، فأكل وشرب، وقال: ثم تصنعت له أحسن ما كنت تصنع قبل ذلك فوقع بها. فلما رأت أنه قد شبع وأصاب. قالت: يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسب ابنك. قال: فغضب؛ قال: تركتينى تلطخت، ثم أخبرتينى بابنى. فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان منها؛ فقال رسول الله ﷺ: « بارك الله لكما فى ليلتكما» (٢). وذكر الحديث.

---

(١) البخارى (٦٤٨٢) فى الرقاق، باب: الانتهاء عن المعاصى، ومسلم (٢٢٨٣/١٦) فى الفضائل، باب: شفقته ﷺ على أمته ومبالغته فى تحذيرهم مما يضرهم.

(٢) مسلم (٢١٤٤/١٠٧) فى فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبى طلحة الأنصارى رضي الله عنه، ولم يعزه صاحب التحفة (١/١٣٨) إلا لمسلم.

**المثال السادس عشر**: قوم سلكوا مفازة، ففاجأهم العطش، فانتهوا إلى البحر، وماؤه أمر شيء وأملحه، فلشدة عطشهم لم يجدوا مرارته وملوحته، فشربوا منه، فلم يرووا، وجعلوا كلما ازدادوا شرباً ازدادوا ظمأ، حتى تقطعت أمعاؤهم وماتوا عطشاً. وعلم عقلاؤهم أنه مر مالح، وأنه كلما ازداد الشارب منه ازداد ظمؤه، فتباعدوا عنه مسافة حتى وجدوا أرضاً حلوة، فحفروا فيها قليباً، فنبع لهم ماء عذب فرات، فشربوا وعجنوا وطبخوا، ونادوا إخوانهم الذين على حافة البحر: هلموا إلى الماء الفرات. وكان منهم المستهزئ، ومنهم المعرض الراضي بما هو فيه، وكان المجيب واحداً بعد واحد. وهذا المثل بعينه قد ضربه المسيح عليه السلام، فقال: مثل طالب الدنيا كمثل شارب البحر؛ كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله.

**المثال السابع عشر**: مثل الإنسان ومثل ماله وعمله وعشيرته، مثل رجل له ثلاثة إخوة، فقضى له سفر بعيد طويل لابد له منه فدعا إخوته الثلاثة، وقال: قد حضر ما ترون من هذا السفر الطويل، وأحوج ما كنت إليكم الآن، فقال أحدهم: أنا كنت أخاك إلى هذه الحال، ومن الآن فلست بأخ ولا صاحب، وما عندى غير هذا. فقال له: لم تغن عنى شيئاً. فقال للآخر: ما عندك؟ فقال: كنت أخاك وصاحبك إلى الآن، وأنا معك حتى أجهزك إلى سفرك وتركب راحلتك، ومن هنالك لست لك بصاحب. فقال له: أنا محتاج إلى مرافقتك فى مسيرى. فقال: لا سبيل لك إلى ذلك. فقال: لم تغن عنى شيئاً، فقال للثالث: ما عندك أنت؟ فقال: كنت صاحبك فى صحتك ومرضك، وأنا صاحبك الآن، وصاحبك إذا ركبت راحلتك، وصاحبك فى مسيرك؛ فإن سرت، سرتُ معك، وإن نزلت نزلت معك، وإذا وصلت إلى بلدك كنت صاحبك فيها لا أفارقك أبداً، فقال: إن كنت لأهون الأصحاب على، وكنت أوثر عليك صاحبيك، فليتنى عرفت حقك وآثرتك عليهما.

فالأول ماله، والثانى أقاربه وعشيرته وأصحابه، والثالث عمله. وقد روى فى هذا المثل بعينه حديث مرفوع، لكنه لا يثبت. رواه أبو جعفر العقيلى فى كتاب «الضعفاء» من حديث ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة.. وعن ابن المسيب، عن عائشة مرفوعاً. وهو مثل صحيح فى نفسه مطابق للواقع.

**المثال الثامن عشر**: وهو من أحسن الأمثلة؛ ملك بنى داراً، لم ير الراؤون، ولم يسمع السامعون أحسن ولا أوسع ولا أجمع لكل ملاذ النفوس منها، ونصب لها طريقاً، وبعث داعياً يدعو الناس إليها، وأقعد على الطريق امرأة جميلة قد زينت بأنواع الزينة، وألبست أنواع الحلى والحلل، وممر الناس كلهم عليها، وجعل لها أعواناً وخدماً تحت يدها ويد أعوانها زاداً للمارين السائرين إلى الملك فى تلك الطريق، وقال لها ولأعوانها: من غض طرفه عنك، ولم يشتغل بك عنى، وابتغى منك زاداً يوصله إلى، فاخدميه وزوديه، ولا تعوقيه عن سفره إلى، بل أعينيه بكل ما يبلغه فى سفره، ومن مد إليك عينيه، ورضى

بك،وآثرك على ،وطلب وصالك؛فسوميه سوء العذاب ،وأوليه غاية الهوان،واستخدميه ، واجعليه يركض خلفك ركض الوحش . ومن يأكل منك ، فاخدعيه به قليلاً ، ثم استرديه منه واسلبيه إياه كله ، وسلطى عليه أتباعك وعبيدك . وكلما بالغ فى محبتك وتعظيمك وإكرامك ، فقابليه بأمثاله قلى وإهانة وهجراً ،حتى تتقطع نفسه عليك حسرات.

فتأمل هذا المثال ،وحال خطاب الدنيا ،وخطاب الآخرة ، والله المستعان.وهذا المثل مأخوذ من الأثر المروى عن الله عز وجل :« يا دنيا اخدمى من خدمنى ،واستخدمى من خدمك».

**المثال التاسع عشر** :ملك خط مدينة فى أصلح المواضع،وأحسنها هواء ،وأكثرها مياهاً،وشق أنهارها ،وغرس أشجارها ،وقال لرعيته :تسابقوا إلى أحسن الأماكن فيها،فمن سبق إلى مكان فهو له ،ومن تخلف سبقه الناس إلى المدينة فأخذوا منازلهم وتبوؤا مساكنهم فيها وبقى من أصحاب الحسرات.ونصب لهم ميدان السباق،وجعل على الميدان شجرة كبيرة ،لها ظل مديد ،وتحتها مياه جارية ،وفى الشجرة من كل أنواع الفواكه،وعليها طيور عجيبة الأصوات ،وقال لهم:لا تغتروا بهذه الشجرة وظلها؛فعن قليل،تجتث من أصلها ،ويذهب ظلها،وينقطع ثمرها ،وتموت أطيارها.وأما مدينة الملك،فأكلها دائم ، وظلها مديد ،ونعيمها سرمدى ،وفيها ما لا عين رأت ،ولا أذن سمعت،ولا خطر على قلب بشر.فسمع الناس بها،فخرجوا فى طلبها على وجوههم،فمروا بتلك الشجرة على أثر تعب ونصب وحر وظمأ ، فنزلوا كلهم تحتها ، واستظلوا بظلها،وذاقوا حلاوة ثمرها ، وسمعوا نغمات أطيارها ؛ فقيل لهم : إنما نزلتم تحتها لتحموا أنفسكم ، وتضمروا مراكبكم للسباق ،فتهيؤوا للركوب وكونوا على أهبة ، فإذا صاح النفير استدركتم حلبة السباق ، فقال الأكثرون : كيف ندع هذا الظل الظليل،والماءالسلسبيل، والفاكهة النضجة ، والدعة،والراحة ، ونقتحم هذه الحلبة فى الحر، والغبار ، والتعب ، والنصب ، والسفرالبعيد،والمفاوز المعطشة التى تنقطع فيها الأمعاء ؟ وكيف نبيع النقد الحاضر بالنسيئة الغائبة إلى الأجل البعيد ، ونترك ما نراه إلى ما لا نراه ؟ وذرة منقودة فى اليد أولى من ذرة موعودة بعد غد ،خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به ،ونحن بنو اليوم،وهذا عيش حاضر كيف نتركه لعيش غائب فى بلد بعيد لا ندرى متى نصل إليه ؟ ونهض من كل ألف واحد ، وقالوا:والله ما مقامنا هذا فى ظل زائل ، تحت شجرة ، قد دنا قلعها وانقطاع ثمرها وموت أطيارها ،ونترك المسابقة إلى الظل الظليل الذى لا يزول ،والعيش الهنىء الذى لا ينقطع إلا من أعجز العجز ،وهل يليق بالمسافر إذا استراح تحت ظل أن يضرب خباءه عليه،ويتخذه وطنه ؛ خشية التأذى بالحر والبرد ؟وهل هذا إلا أسفه السفه ؟فالسباق السباق والبدار البدار.

حكم المنية فى البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار

اقضوا مآربكم سراعاً إنما أعماركم سفر من الأسفار
وتراكضوا خيل السباق وبادروا أن تسترد فإنهن عوار
ودعوا الإقامة تحت ظل زائل أنتم على سفر بهذى الدار
من يرجو طيب العيش فيها إنما يبنى الرجاء على شفير هار
والعيش كل العيش بعد فراقها دار أهل السبق أكرم دار

فاقتحموا حلقة السباق ، ولم يستوحشوا من قلة الرفاق ، وساروا فى ظهور العزائم، ولم تأخذهم فى سيرهم لومة لائم. والمتخلف فى ظل الشجرة نائم. فوالله ما كان إلا قليل حتى ذوت أغصان تلك الشجرة ، وتساقطت أوراقها ، وانقطع ثمرها ، ويبست فروعها، وانقطع مشربها ؛ فقلعها قيمها من أصلها ، فأصبح أهلها فى حر السموم يتقلبون، وعلى ما فاتهم من العيش فى ظلها يتحسرون. أحرقها قيمها فصارت هى وما حولها ناراً تلظى ، وأحاطت النار بمن تحتها ، فلم يستطع أحد منهم الخروج منها ، فقالوا: أين الركب الذين استظلوا معنا تحت ظلها ثم راحوا وتركوه ؟ فقيل لهم: ارفعوا أبصاركم تروا منازلهم. فرأوهم من البعد فى قصور مدينة الملك وغرفها ، يتمتعون بأنواع اللذات ، فتضاعفت عليهم الحسرات ألا يكونوا معهم ، وزاد تضاعفها بأن حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقيل هذا جزاء المتخلفين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل].

**المثال العشرون** : ما مثلها به النبى ﷺ من الثوب الذى شق وبقى معلقاً بخيط فى آخره، فما بقاء ذلك الخيط ؟ قال ابن أبى الدنيا: حدثنى الفضل بن جعفر ، حدثنا وهب بن حماد ، حدثنا يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا أبو سعيد خلف بن حبيب ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره ، فبقى معلقاً بخيط فى آخره ، فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع » (١).

وإن أردت لهذا المثل زيادة إيضاح ، فانظر إلى ما رواه أحمد فى مسنده ، من حديث أبى نضرة ، عن أبى سعيد ، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العصر نهاراً ، ثم قام فخطبنا، فلم يترك شيئاً قبل قيام الساعة إلا أخبر به ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، وجعل الناس يلتفتون إلى الشمس: هل بقى منها شىء ؟ فقال: « ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه » (٢).

وروى حفص بن غياث ، عن ليث ، عن المغيرة بن حكيم ، عن ابن عمر ، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعف، فقال: « ما بقى من الدنيا

(١) ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الدنيا رقم (٢٢١).
(٢) الترمذى (٢١٩١) فى الفتن ، باب : ما أخبر النبى ﷺ وأصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وأحمد (٣/ ١٩).

إلا مثل ما بقى من يومنا هذا فيما مضى منه » [(١)].

وروى ابن أبى الدنيا ، عن إبراهيم بن سعد ، حدثنا موسى بن خلف ، عن قتادة ، عن أنس : أن رسول الله ﷺ خطب عند مغرب الشمس ، فقال: « ما بقى من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه » [(٢)].

فالدنيا كلها كيوم واحد ، بعث رسول الله ﷺ فى آخره قبل غروب شمسه بيسير.

وقال جابر وأبو هريرة رضي الله عنهما ، عنه ﷺ : « بعثت أنا والساعة كهاتين » ، وقرن بين أصابعه السبابة والوسطى [(٣)].

وكان بعض السلف يقول : تصبروا ؛ فإنما هى أيام قلائل ، وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت ، وإنه قد نعيت إليكم أنفسكم ، والموت حبس لابد منه ، والله بالمرصاد ، وإنما تخرج هذه النفوس على آخر سورة الواقعة [(٤)].

**المثال الحادى والعشرون** : مثال الدنيا كحوض كبير ملىء ماء ، وجعل مورداً للأنام والأنعام ، فجعل الحوض ينقص على كثرة الوارد ، حتى لم يبق منه إلا كدر فى أسفله ، قد بالت فيه الدواب ، وخاضته الناس والأنعام. كما روى مسلم فى صحيحه عن عتبة بن غزوان : أنه خطبهم فقال فى خطبته: إن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها ، وإنكم منتقلون عنها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم. وقال عبد الله بن مسعود : إن الله تعالى جعل الدنيا كلها قليلاً ، فما بقى منها إلا قليل من قليل . ومثل ما بقى منها : كالثغب شرب صفوه وبقى كدره . الثغب: الغدير.

**المثال الثانى والعشرون** : قوم سكنوا مدينة مدة من الزمان ، فكثرت فيها الأحداث والآفات ، وطرقها المحن ، وأغارت عليها عساكر الجور والفساد ؛ فبنى ملكهم مدينة فى محل لا يطرقه آفة ولا عائقة ، وعزم على تخريب المدينة الأولى، فأرسل إلى سكانها فنودى فيهم بالرحيل بعد ثلاث ، ولا يتخلف منهم أحد، وأمرهم أن ينقلوا إلى مدينة الملك الثانية خير ما فى تلك المدينة وأنفعه وأجله من الجواهر واللآلئ والذهب والفضة، وما خف حمله من المتاع وعظم قدره وصلح للملوك ، وأرسل إليهم الأدلاء وآلات النقل ، ونهج لهم

---

(١) أحمد (٢/ ١٣٣) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٦١٧٣): « إسناده صحيح ».

(٢) ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الدنيا رقم (٢٢٠).

(٣) البخارى (٦٥٠٥) فى الرقاق ، باب : قول النبى ﷺ : « بعثت أنا والساعة كهاتين » ، ومسلم (٦٨٧/ ٤٣) فى الجمعة ، باب: تخفيف الصلاة والخطبة.

(٤) ابن ماجه (٤١٠٢) فى الزهد ، باب: الزهد فى الدنيا ، وفى الزوائد: « فى إسناده خالد بن عمرو ، وهو ضعيف متفق على ضعفه ».

الطريق ،ونصب لهم الأعلام ،وتابع الرسل يستحثونهم بعضهم فى أثر بعض،فانقسموا فرقاً ،فالأقلون علموا قصر مدة مقامهم فى تلك المدينة ،وتيقنوا أنهم إن لم يبادروا بتحصيل خير ما فيها وحمله إلى مدينة الملك ،وإلا فاتهم ذلك فلم يقدروا عليه ،فرأوا غبناً أن يقطعوا تلك المدة فى جمع المفضول والاشتغال به عن الفاضل ،فسألوا عن خير ما فى المدينة وأنفسه وأحبه إلى الملك وأنفعه فى مدينته ،فلما عرفوه لم يلتفتوا إلى ما دونه ، ورأوا أن أحدهم إذا وافى بجوهرة عظيمة كانت أحلى إلى الملك من أن يوافيه بأحمال كثيرة من الفلوس والحديد ونحوها. فكان هممهم فى تحصيل ما هو أحب إلى الملك وأنفس عنده ولو قل فى رأى الآخرين.

وأقبلت فرقة أخرى على تعبئة الأحمال المحملة،وتنافسوا فى كثرتها ،وهم على مراتب؛ فمنهم من أحماله أثمان ،ومنهم من أحماله دون ذلك ،على قدر هممهم وما يليق بهم ،لكن هممهم مصروفة إلى تعبئة الأحمال والانتقال من المدينة.

وأقبلت فرقة أخرى على عمارة القصور فى تلك المدينة والاشتغال بطيباتها ولذاتها ونزهها ،وحاربوا العازمين على النقلة ،وقالوا: لا ندعكم تأخذون من متاعنا شيئاً ،فإن شاركتمونا فى عمارة المدينة واستيطانها وعيشنا فيها ،وإلا لم نمكنكم من النقلة ،ولا من شيء من المتاع .فوقعت الحرب بينهم،فقاتلوا السائرين ،فعمدوا إلى أكل أموالهم وأهليهم وما نقموا منهم إلا بسيرهم إلى دار الملك وإجابة داعيه ،والرغبة عن تلك الدار متى أمرهم بتركها ،وأقبلت فرقة أخرى على التنزه والبطالة والراحة والدعة ،وقالوا: لا نتعب أنفسنا فى عمارتها ولا ننقل منها ،ولا نعارض من أراد النقلة ،ولا نحاربهم ،ولا نعاونهم. وكان للملك فيها قصر فيه حريم له ،وقد أحاط عليه سوراً ،وأقام عليه حرساً ،ومنع أهل المدينة من قربانه ،وطاف به القاعدون ،فلم يجدوا فيه باباً يدخلون منه ،فغدوا على جدرانه فنقبوها ، ووصلوا إلى حريمه ،فأفسدوهم ، ونالوا منهم ما أسخط الملك وأغضبه وشق عليه ، ولم يقتصروا على ذلك حتى دعوا غيرهم إلى إفساد حريمه والنيل منهم.

فبينما هم على تلك الحال ،وإذا بالنفير قد صاح فيهم كلهم،فلم يمكن أحد منهم من التخلف ،فحملوا على تلك الحال ،وأحضروا بين يدى الملك ،فاستعرضهم واحداً واحداً،وعرضت بضائعهم وما قدموا به من تلك المدينة عليه،فقبل منها ما يصلح له،وأعاض أربابه أضعاف أضعاف قيمته وأنزلهم منازلهم من قربه ،ورد منها ما لا يصلح له،وضرب به وجوه أصحابه ،وقابل من نقب حماه وأفسد حريمه بما يقابل به المفسدون ؛ فسألوا الرجعة إلى المدينة ؛ ليعمروا قصره ، ويحفظوا حريمه ،ويقدموا عليه من البضائع بمثل ما قدم به التجار ،فقال: هيهات قد خربت المدينة خراباً لا تعمر بعده أبداً ،وليس بعدها إلا المدينة التى لا تخرب أبداً.

وقد مثلت الدنيا بمنام ، والعيش فيها بالحلم ، والموت باليقظة . ومثلت بمزرعة،

والعمل فيها بالبذور ، والحصاد يوم المعاد. ومثلت بدار ، لها بابان: باب يدخل منه الناس ، وباب يخرجون منه. ومثلت بحية ناعمة الملمس ، حسنة اللون ، وضربتها الموت. ومثلت بطعام مسموم، لذيذ الطعم ، طيب الرائحة ، من تناول منه بقدر حاجته كان فيه شفاؤه ، ومن زاد على حاجته كان فيه حتفه. ومثلت بالطعام فى المعدة إذا أخذت الأعضاء منه حاجتها ، فحبسه قاتل أو مؤذ ، ولا راحة لصاحبه إلا فى خروجه كما أشار إليه النبى ﷺ فى آكلة الخضر. ومثلت بامرأة من أقبح النساء ، قد انتقبت على عينين فتنت بهما الناس . وهى تدعو الناس إلى منزلها ، فإذا أجابوها ، كشفت لهم عن منظرها ، وذبحتهم بسكاكينها ، وألقتهم فى الحفر ، وقد سلطت على عشاقها تفعل بهم ذلك قديماً وحدثناً. والعجب أن عشاقها يرون إخوانهم صرعى قد حلت بهم الآفات ، وهم ينافسون فى وحديثا: ﴿ **وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ** (٤٥) ﴾ [ إبراهيم ] . ويكفى فى تمثيلها ما مثلها الله ـ سبحانه ـ فى كتابه ، فهو المثل المنطبق عليها.

قالوا : وإذا كان هذا شأنها ، فالتقلل منها ، والزهد فيها ، خير من الاستكثار منها والرغبة فيها.

قالوا : ومن المعلوم أنه لا تجتمع الرغبة فيها مع الرغبة فى الله والدار الآخرة أبداً. ولا تسكن هاتان الرغبتان فى مكان واحد إلا وطردت إحداهما الأخرى واستبدت بالمسكن ، ولا تجتمع ابنة رسول الله ﷺ وابنة عدو الله عند رجل واحد أبداً.

قالوا : ويكفى أن رسول الله ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوزها ، ولو أخذها لكان أشكر خلق الله بها ، ولم تنقصه مما له عند الله شيئاً ، فاختار جوع يوم وشبع يوم ، ومات ودرعه مرهونة على طعام لأهله.

قالوا : وقد انقسم الناس بعد رسول الله ﷺ أربعة أقسام : قسم : لم يريدوا الدنيا ولم تردهم ، كالصديق ومن سلك سبيله . وقسم: أرادتهم الدنيا ولم يردوها ، كعمر بن الخطاب ومن سلك سبيله. وقسم : أرادوا الدنيا وأرادتهم ، كخلفاء بنى أمية ومن سلك سبيلهم، حاشا عمر بن عبدالعزيز فإنها أرادته ولم يردها. وقسم : أرادوها ولم تردهم ، كمن أفقر الله منها يده ، وأسكنها فى قلبه وامتحنه بجمعها. ولا يخفى أن خير الأقسام القسم الأول. والثانى إنما فضل لأنه لم يردها ؛ فالتحق بالأول.

قالوا : قد سأل رجل رسول الله ﷺ أن يدله على عمل إذا فعله أحبه الله وأحبه الناس ، فقال له: « ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس[١] ». ، فلو كان الغنى لدله عليه.

---

(١) ابن ماجه (٤١٠٢) فى الزهد ، باب : الزهد فى الدنيا ، وفى الزوائد « فى إسناده خالد بن عمرو ، وهو ضعيف متفق اعلى ضضعفه »

قالوا : وقد شرع الله ـ سبحانه ـ قتال الكفار ، وشرع الكف عن الرهبان لا عتزالهم عن الدنيا وزهدهم فيها ، فمضت السنة بألا يقاتلوا ولا يضرب عليهم جزية. هذا وهم أعداؤه وأعداء رسله ودينه ! فعلم أن الزهد فيها عند الله بمكان.

قالوا : وكذلك استقرت حكمته فى شرعه على أن عقوبة الواجد أعظم من عقوبة الفاقد ، فهذا الزانى المحصن عقوبته الرجم ، وعقوبة من لم يحصن الجلد والتغريب . وهكذا يكون ثواب الفاقد أعظم من ثواب الواجد .

قالوا : وكيف يستوى عند الله ـ سبحانه ـ ذلة الفقر وكسرته ، وخضوعه وتجرع مرارته، وتحمل أعبائه ومشاقه ، وعزة الغنى ولذته، وصولته ، والمتمتع بلذاته، ومباشرة حلاوته؟! فبعين الله ما يتحمل الفقراء من مرارة فقرهم وصبرهم ورضاهم به عن الله ربهم تبارك وتعالى. وأين أجر مشقة المجاهدين ، إلى أجر عباده القاعدين فى الأمن والدعة والراحة ؟

قالوا : وكيف يستوى أمران: أحدهما: حفت به الجنة ، والثانى: حفت به النار؟ فإن أصل الشهوات من قبل المال ، وأصل المكاره من قبل الفقر.

قالوا : والفقير لا ينفك فى خصاصة من مضض الفقر والجوع والعرى والحاجة وآلام الفقر، وكل واحد منها يكفر ما يقارفه من السيئات. وذلك زيادة على أجره بأعمال البر؛ فقد شارك الأغنياء بأعمال البر ، وامتاز عنهم بما يكفر سيئاته. وما امتازوا به عليه من الإنفاق والصدقة والنفع المتعدى ، فله سبيل إلى لحاقهم فيه ، وله مثل أجورهم ، وهو أن يعلم الله من نيته أنه لو أوتى مثل ما أوتوه. لفعل كما يفعلون ، فيقول: لو أن لى مالاً لعملت بأعمالهم، فهو بنيته ، وأجرهما سواء ، كما أخبر به الصادق المصدوق فى الحديث الصحيح، الذى رواه الإمام أحمد والترمذى من حديث أبى كبشة الأنمارى (١).

قالوا : والفقير فى الدنيا بمنزلة المسجون ؛ إذ هو ممنوع عن الوصول إلى شهواته وملاذها. والغنى متخلص من هذا السجن. وقد قال النبى ﷺ: « الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر » (٢)، فالغنى إن لم يسجن نفسه عن دواعى الغنى وطغيانه ، وأرسلها فى ميادين شهواتها، كانت الدنيا جنة له ، فإنما نال الفضل بتشبهه بالفقير الذى هو فى سجن فقره.

قالوا : وقد ذم الله ورسوله من عجلت له طيباته فى الحياة الدنيا ، وإنه لحرى أن يكون عوضاً عن طيبات الآخرة أو منقصة لها ولابد ، كما تقدم بيانه ، بخلاف من استكمل طيباته

---

(١) الترمذى (٢٣٢٥) فى الزهد ، باب: مثل الدنيا مثل أربعة نفر ، وقال: « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٤٢٢٨) فى الزهد ، باب: النية ، وأحمد (٤/ ٢٣٠).

(٢) مسلم (٢٩٥٦/ ١) فى أول الزهد والرقائق ، والترمذى (٢٣٢٤) فى الزهد ، باب: ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، وقال: « حسن صحيح »، وابن ماجه (٤١١٣) فى الزهد ، باب: مثل الدنيا ، وأحمد (٢/ ٣٢٣).

فى الآخرة لما منع منها فى الدنيا ،وأتى رسول الله ﷺ بسويق لوز ،فأبى أن يشربه، وقال:« هذا شراب المترفين » (١).

قالوا :وقد سئل الحسن البصرى ،فقيل له:رجلان أحدهما تارك للدنيا ،والآخر يكتسبها ويتصدق بها ؟فقال:التارك لها أحب إلى.

قالوا :وقد سئل المسيح قبله عن هذه المسألة:عن رجلين مر أحدهما بلبنة ذهب فتخطاها ولم يلتفت إليها ،ومر بها الآخر فأخذها وتصدق بها.فقال:الذى لم يلتفت إليها أفضل.ويدل على هذا أن رسول الله ﷺ مر بها ولم يلتفت إليها ،ولو أخذها لأنفقها فى سبيل الله.

قالوا :والفقير الفقيه فى فقره يمكنه لحاق الغنى فى جميع ما ناله بغناه ، بنيته وقوله ، فيساويه فى أجره ، ويتميز عنه بعدم الحساب بعدم المال ؛ فساواه بثوابه ، وتخلص من حسابه ، كما تميز عنه بسبقه إلى الجنة بخمسمائة عام ، وتميز عنه بثواب صبره على ألم الفقر وخصاصته.

قال الإمام أحمد:حدثنا عبادة بن مسلم ،حدثنى يونس بن خباب ،عن أبى البحترى الطائى ،عن أبى كبشة،قال:سمعت رسول الله ﷺ يقول:« ثلاث أقسم عليهن ،وأحدثكم حديثاً فاحفظوه ؛فأما الثلاث التى أقسم عليهن:فإنه ما نقص مال عبد من صدقة ،ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عز وجل بها عزاً ،ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر.وأما الذى أحدثكم حديثاً فاحفظوه ـ كأنه قال :إنما الدنيا لأربعة نفر؛عبد رزقه الله مالاً وعلماً ، فهو يتقى فيه ربه ،ويصل فيه رحمه ،ويعلم فيه لله حقاً ،فهذا بأفضل المنازل عند الله ؛وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً ،فهو يقول:لو كان لى مال عملت فيه بعمل فلان.قال:فأجرهما سواء؛وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً ،فهو يتخبط فى ماله بغير علم،لا يتقى فيه ربه ،ولا يصل فيه رحمه ،ولا يعلم لله فيه حقاً،فهذا بأخبث المنازل عند الله ؛وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً ،فهو يقول:لو كان لى مال لفعلت بفعل فلان،قال:فهو بنيته ووزرهما سواء » (٢).فلما فضل الغنى بفعله ألحق الفقير الصادق بنيته.والغنى هناك إنما نقص بتخلفه عن العمل ،والفقير إنما نقص بسوء نيته.فلم ينفع الغنى غناه مع التخلف ،ولا ضر الفقير فقره مع حسن النية ،ولا نفعه فقره مع سوء نيته.

قالوا : ففى هذا بيان كاف شاف فى المسألة ،حاكم بين الفريقين ،وبالله التوفيق.

---

(١) الزهد لابن المبارك (٢/ ٥٥).

(٢) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة .

# فصل
# فى ذكر ما احتجت به الأغنياء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار

**قالت الأغنياء** : لقد أجلبتم علينا أيها الفقراء بخيل الأدلة ورجلها ،ونحن نعلم أن عندكم مثلها وأكثر من مثلها ،ولكن توسطتم بين التطويل والاختصار ،وظننتم أنها حكمت لكم بالفضل دون ذوى اليسار ،ونحن نحاكمكم إلى ما حاكمتمونا إليه ،ونعرض بضاعتنا على من عرضتم بضاعتكم عليه ،ونضع أدلتنا وأدلتكم فى ميزان الشرع والعقل الذى لا يعزل،فحينئذ يتبين لنا ولكم الفاضل من المفضول ،ولكن أخرجوا من بيننا من تشبه بالفقراء الصادقين الصابرين ،ولبس لباسهم على قلب أحرص الناس على الدنيا وأشحهم عليها ، وأبعدهم من الفقر والصبر،من كل مظهر للفقر مبطن للحرص،غافل عن ربه ،متبع لهواه، مفرط فى أمر معاده ،قد جعل زى الفقر صناعة ،وتحل بما هو أبعد الناس منه بضاعة ،أو فقير حاجة فقره اضطراراً لا اختياراً ،فزهده زهد إفلاس لا زهد رغبة فى الله والدار الآخرة، أو فقير يشكو ربه بلسان قاله وحاله ،غير راض عن ربه فى فقره بل إن أعطى رضى ، وإن منع سخط ، شديد اللهف على الدنيا والحسرة عليها ،وهو أفقر الناس فيها،فهو أرغب شىء فيها ،وهى أزهد شىء فيه . وأخرجوا من بيننا ذا الثروة الجموع المنوع ، المتكاثر بماله المستأثر به ، الذى عض عليه بناجذه ؛ وثنى عليه خاصره ، يفرح بزيادته ، ويأسى على نقصانه. فقلبه به مشغوف ، وهو على تحصيله ملهوف ، إن عرض سوق الإنفاق والبذل أعطى قليلاً وأكدى ، وإن دعى إلى الإيثار أمعن فى الحرب جداً ، وأخلصونا وإخواننا من سباق الطائفتين ، وسادات الفريقين الذين تسابقوا إلى الله والدار الآخرة بإيمانهم وأحوالهم ، ونافسوا فى القرب منه بأعمالهم وأموالهم ، فقلوبهم عاكفة عليه ، وهمتهم إلى المسابقة إليه. ينظر غنيهم إلى فقيرهم ،فإذا رآه قد سبقه إلى عمل صالح شمر إلى اللحاق به،وينظر فقيرهم إلى غنيهم فإذا رآه قد فاقه بإنفاق فى طاعة الله أنفق هو من أعماله وأقواله وصبره وزهده نظير ذلك أو أكثر منه. فهؤلاء إخواننا الذين تكلم الناس فى التفضيل بينهم وأيهم أعلى درجة ،وأما أولئك فإنما ينظر أيهم تحت الآخر فى العذاب وأسفل منه. . .والله المستعان.

إذا عرف هذا ،فقد مدح الله ـ سبحانه ـ فى كتابه أعمالاً ،وأثنى على أصحابها ،ولا تحصل إلا بالغنى: كالزكاة ،والإنفاق فى وجوه البر ،والجهاد فى سبيل الله بالمال ،وتجهيز الغزاة ،وإغاثة المحاويج ،وفك الرقاب ،والإطعام فى زمن المسغبة.

وأين يقع صبر الفقير من فرحة الملهوف المضطر المشرف على الهلاك إذا أعانه الغنى ونصره على فقره ومخمصته ؟وأين يقع صبره من نفع الغنى بماله فى نصرة دين الله وإعلاء

كلمته وكسر أعدائه ؟

وأين يقع صبر أبى ذر على فقره ،إلى شكر الصديق ربه ،وشرائه المعذبين فى الله وأعناقهم ،وإنفاقه على نصره الإسلام ،حين قال النبى ﷺ :« ما نفعنى مال أحد ما نفعنى مال أبى بكر »(١) .

وأين يقع صبر أهل الصفة من إنفاق عثمان بن عفان تلك النفقات العظيمة ،التى قال له رسول الله ﷺ فى بعضها:« ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم »(٢)،ثم قال:« غفر الله لك يا عثمان ، ما أسررت وما أعلنت وما أخفيت وما أبديت »(٣) أو كما قال.

وإذا تأملتم القرآن ،وجدتم الثناء فيه على المنفقين أضعاف الثناء على الفقراء الصابرين.وقد شهد رسول الله ﷺ بأن اليد العليا خير من اليد السفلى ،وفسر اليد العليا بالمعطية ،والسفلى بالسائلة(٤).وقد عدد الله ـ سبحانه ـ على رسوله ﷺ من نعمه أن أغناه بعد فقره ،وكان غناه هو الحالة التى نقله إليها ،وفقره الحاله التى نقله منها.وهو سبحانه كان ينقله من الشىء إلى ما هو خير منه.وقد قيل فى قوله تعالى:﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ④﴾ [الضحى]،أن المراد به الحالتان: أى كل حالة خير لك مما قبلها ،ولهذا أعقبه بقوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤﴾ [الضحى] فهذا يدخل فيه عطاؤه فى الدنيا والآخرة.

قالوا :والغنى مع الشكر زيادة فضل ورحمة:﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ⑩⑤﴾ [ البقرة ].

قالوا :والأغنياء الشاكرون سبب لطاعة الفقراء الصابرين ؛لتقويتهم إياهم بالصدقة عليهم والإحسان عليهم ،وإعانتهم على طاعاتهم ، فلهم نصيب وافر من أجور الفقراء ، زيادة إلى نصيبهم من أجر الإنفاق وطاعاتهم التى تخصهم ،كما فى صحيح ابن خزيمة ، من رواية سلمان الفارسى رضي الله عنه، عن النبى ﷺ ،وذكر شهر رمضان،فقال:« من فطر فيه صائماً كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار.وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شىء »(٥). فقد حاز الغنى الشاكر أجر صيامه ومثل أجر الفقير الذى فطره.

---

(١) ابن ماجه (٩٤) فى المقدمة ، باب :فى فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ، .وقال فى الزوائد :« إسناده إلى أبى هريرة فيه مقال. . .»،وأحمد (٢/ ٢٥٣).

(٢) الترمذى (٣٧٠١) فى المناقب ، باب :فى مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه،وقال:« حسن غريب من هذا الوجه » ، وأحمد (٥/ ٦٣).

(٣) كنز العمال (٣٢٨٤٧).

(٤) البخارى (٢٧٥٠) فى الوصايا ، باب : تأويل قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ ، ومسلم (١٠٣٥/ ٩٦) فى الزكاة ، باب :بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح.

(٥) صحيح ابن خزيمة (١٨٨٧) فى الصيام ، باب :فضائل شهر رمضان إن صح الخبر.

قالوا : ولو لم يكن للغنى الشاكر إلا فضل الصدقة التى لما تفاخرت الأعمال كان الفخر لها عليهن ، كما ذكر النضر بن شميل ،عن قرة ، عن سعيد بن المسيب :أنه حدث عن عمر بن الخطاب ؛ قال : ذكر أن الأعمال الصالحة تتباهى ، فتقول الصدقة : أنا أفضلكم.

قالوا : والصدقة وقاية بين العبد وبين النار ؛ والمخلص المسر بها مستظل بها يوم القيامة فى ظل العرش.

وقد روى عمرو بن الحارث ويزيد بن أبى حبيب ، عن أبى الخير ، عن عقبة بن عامر ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: « إن الصدقة لتطفئ على أهلها حر القبور ، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة فى ظل صدقته » (١) .

وقال يزيد بن أبى حبيب ، عن أبى الخير ،عن عقبة يرفعه : كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس. قال: يزيد وكان أبو الخير لا يأتى عليه يوم إلا تصدق فيه ولو بكعكة أو بصلة.

وفى حديث معاذ عن النبى ﷺ: « والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار» (٢).

وروى البيهقى ، من حديث أبى يوسف القاضى ، عن المختار بن فلفل ،عن أنس يرفعه: « باكروا بالصدقة ، فإن البلاء لا يتخطى الصدقة » (٣).

وفى الصحيحين ، من حديث أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ،قال: « إذا تصدق العبد من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا طيباً ـ أخذها الله بيمينه فيربيها لأحدهم ،كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله ، حتى تكون مثل الجبل العظيم » (٤). وفى لفظ للبيهقى فى هذا الحديث: «حتى أن التمرة أو اللقمة لتكون أعظم من أحد » (٥).

وقال محمد بن المنكدر: من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان. وقد روى مرفوعاً من غير وجه.

وإذا كان الله ـ سبحانه ـ قد غفر لمن سقى كلباً على شدة ظمئه ، فكيف بمن سقى العطاش، وأشبع الجياع ، وكسى العراة من المسلمين ؟وقد قال رسول الله ﷺ: « اتقوا النار

---

(١) كنز العمال (١٥٩٩٦) ،وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣/ ١١٣) وقال: « رواه الطبرانى فى الكبير وفيه ابن لهيعة وفيه كلام ».

(٢) الترمذى (٢٦١٦) فى الإيمان ، باب : ما جاء فى حرمة الصلاة ، وقال: « حسن صحيح »، وابن ماجه (٣٩٧٣) فى الفتن ، باب : كف اللسان فى الفتنة ، وأحمد (٥/ ٢٤٨).

(٣) البيهقى فى السنن الكبرى (٤/ ١٨٩).

(٤) البخارى (٧٤٣٠) فى التوحيد ، باب : قول الله تعالى ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [ المعارج: ٤] ، ومسلم (١٠١٤/ ٦٣) فى الزكاة ، باب : قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.

(٥) البيهقى فى السنن الكبرى (٤/ ١٩٠، ١٩١).

ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » (١). فجعل الكلم الطيب عوضاً عن الصدقة لمن لا يقدر عليها.

قالوا : وأين لذة الصدقة والإحسان ، وتفريحهما القلب ، وتقويتهما إياه ، وما يلقى الله - سبحانه - للمتصدقين من المحبة والتعظيم فى قلوب عباده ، والدعاء لهم والثناء عليهم، وإدخال المسرات عليهم ، من أجر الصبر على الفقر؟ نعم إن له لأجراً عظيماً ، لكن الأجر درجات عند الله .

قالوا : وأيضاً ، فالصدقة والإحسان والإعطاء وصف الرب تعالى ، وأحب عباده إليه من اتصف بذلك ، كما قال النبى ﷺ : « الخلق عيال الله ، فأحب الخلق إليه أنفعهم لعياله» (٢).

قالوا : وقد ذكر الله - سبحانه - أصناف السعداء ، فبدأ بالمتصدقين أولهم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ [الحديد]، فهؤلاء أصناف السعداء ، ومقدموهم المصدقين والمصدقات.

قالوا : وفى الصدقة فوائد ومنافع لا يحصيها إلا الله ؛ فمنها أنها تتقى مصارع السوء، وتدفع البلاء ، حتى أنها لتدفع عن الظالم. قال إبراهيم النخعى: وكانوا يرون أن الصدقة تدفع عن الرجل الظلوم ، وتطفىء الخطيئة ، وتحفظ المال ، وتجلب الرزق ، وتفرح القلب، وتوجب الثقة بالله وحسن الظن به ، كما أن البخل يوجب سوء الظن بالله، وترغم الشيطان - يعنى الصدقة - وتزكى النفس وتنميها ، وتحبب العبد إلى الله وإلى خلقه ، وتستر عليه كل عيب ، كما أن البخل يغطى عليه كل حسنة ، وتزيد فى العمر ، وتستجلب أدعية الناس ومحبتهم ، وتدفع عن صاحبها عذاب القبر ، وتكون عليه ظلاً يوم القيامة ، وتشفع له عند الله ، وتهون عليه شدائد الدنيا والآخرة ، وتدعو إلى سائر أعمال البر فلا تستعصى عليه. . وفوائدها ومنافعها أضعاف ذلك.

قالوا : ولو لم يكن فى النفع والإحسان إلا أنه صفة الله ، وهو - سبحانه - يحب من اتصف بموجب صفاته وآثارها ؛ فيحب العليم والجواد والحى والستير ، والمؤمن القوى أحب إليه من المؤمن الضعيف ، ويحب العدل والعفو والرحيم والشكور والبر والكريم؛

---

(١) البخارى (٦٠٢٣) فى الأدب ، باب : طيب الكلام ، ومسلم (١٠١٦/ ٦٨) فى الزكاة ، باب : الحث على الصدقة ولو بشعه تمرة أو كلمة طيبة ، وأنها حجاب من النار.

(٢) أبو يعلى (٣٣١٥) ، والبزار (١٩٤٩) باب : قضاء الحوائج ، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٩٤): « رواه أبو يعلى والبزار وفيه يوسف بن عطية الصغار وهو متروك.

فصفته الغنى والجود ،ويحب الغنى الجواد.

قالوا : ويكفى فى فضل النفع المتعدى بالمال : أن الجزاء عليه من جنس العمل ، فمن كسى مؤمناً كساه الله من حلل الجنة ،ومن أشبع جائعاً أشبعه الله من ثمار الجنة ، ومن سقى ظمآناً سقاه الله من شراب الجنة ،ومن أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار حتى فرجه بفرجه ،ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ،والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه.

قالوا :ونحن لا ننكر فضيلة الصبر على الفقر ،ولكن أين تقع من هذه الفضائل ،وقد جعل الله لكل شىء قدراً.

قالوا :وقد جعل رسول الله ﷺ الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر (١) ومعلوم أنه إذا تعدى شكره إلى الإحسان إلى الغير ازداد درجة أخرى؛فإن الشكر يتضاعف إلى ما لا نهاية له ؛ بخلاف الصبر فإن له حداً يقف عليه.وهذا دليل مستقل فى المسألة ،يوضحه:أن الشاكر أفضل من الراضى الذى هو أعلى من الصابر.فإذا كان الشاكر أفضل من الراضى،الذى هو أفضل من الصابر ،كان أفضل من الصابر فى درجتين.

قالوا :وفى الصحيحين ،من حديث الزهرى ، عن سالم ، عن أبيه وقال:قال رسول الله ﷺ:« لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل والنهار» (٢).فجعل الغنى مع الإنفاق بمنزلة القرآن مع القيام به.

قالوا :وقد صرح فى حديث أبى كبشة الأنمارى:أن صاحب المال إذا عمل فى ماله بعمله ،واتقى فيه ربه ،ووصل به رحمه ،وأخرج منه حق الله فهو فى أعلى المنازل عند الله . وهذا تصريح فى تفضيله . وجعل الفقير الصادق إذا نوى أن يعمل بعمله ،وقال ذلك بلسانه ثانياً ،وإنه بنيته وقوله ،وأجرهما سواء.فإن كلا منهما نوى خيراً وعمل ما يقدر عليه ، فالغنى نواه ونفذه بعمله ،والفقير العالم نواه ونفذه بلسانه ، فاستويا فى الأجر من هذه الجهة ،ولا يلزم من استوائهما فى أصل الأجر استواؤهما فى كيفيته وتفاصيله ؛ فإن الأجر على العمل والنية له مزية على الأجر على مجرد النية التى قارنها القول.ومن نوى الحج ،ولم يكن له مال يحج به ،وإن أثيب على ذلك،فإن ثواب من باشر أعمال الحج مع النية له مزية عليه.

---

(١) الفتح (٩/ ٥٨٢) معلقا ،والترمذى (٢٤٨٦) فى صفة القيامة ،باب :(٤٣) ،وقال:« حسن غريب ».

(٢) البخارى (٧٥٢٩) فى التوحيد ، باب:قول النبى (ﷺ) رجل آتاه الله القرآن. . .إلخ »،ومسلم (٨١٥/ ٢٦٦) فى صلاة المسافرين ،باب :فضل من يقوم بالقرآن. . .إلخ.

وإذا أردت فهم هذا ، فتأمل قول النبى ﷺ : « من سأل الله الشهادة صادقاً من قلبه بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه » (١). ولا ريب أن ما حصل للمقتول فى سبيل الله من ثواب الشهادة تزيد كيفيته وصفاته على ما حصل لناوى ذلك إذا مات على فراشه وإن بلغ منزلة الشهيد. فههنا أجران : أجر وقرب ، فإن استويا فى أصل الأجر، لكن الأعمال التى قام بها العامل تقتضى أثراً زائداً وقرباً خاصاً ، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء ، وقد قال ﷺ: « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول فى النار » ، قالوا : هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال: « إنه أراد قتل صاحبه » (٢). فاستويا فى دخول النار ، ولا يلزم استواؤهما فى الدرجة ومقدار العذاب ؛ فاعط ألفاظ رسول الله ﷺ حقها ونزلها منازلها يتبين لك المراد.

يوضح هذا: أن فقراء المهاجرين شكوا إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ؛ يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضول أموال يحجون بها ويعتمرون ، ويجاهدون ويتصدقون. قال: « أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم ، وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟»، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: « تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ». فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله. فقال رسول الله ﷺ: « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (٣). فلو كانوا يلحقون بهم فى مقدار الأمر بمجرد النية لقال لهم: انووا أن تفعلوا مثل فعلهم فتنالوا مثل أجرهم ، فلما أعاضهم عما فاتهم من ثواب الصدقة والعتق والحج والاعتمار بما يحصل نظيره بالذكر ، علم أن الأغنياء قد فضلوهم بالإنفاق ، فلما شاركوهم فى الذكر بقيت مزية الإنفاق ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ أن الامتياز لم يزل ، وأنهم قد ساوونا فى الذكر كما ساوونا فى الصوم والصلاة ؛ فأخبرهم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. فلو كان لهم سبيل إلى مساواتهم من كل وجه بالنية والقول لدلهم عليها.

قالت الفقراء: هذا الحديث حجة لنا إذا فهم على الحقيقة ؛ وذلك أن معناه أنهم وإن كانوا قد ساووكم فى الإيمان والإسلام والصلاة والصيام ، ثم فضلوكم فى الإنفاق ، ففى التكبير والتسبيح والتهليل ما يلحقكم بدرجتهم ، وقد ساويتموهم أيضاً بحسن النية ؛ إذ لو أمكنكم لأنفقتم مثلهم. وفى بعض ألفاظ هذا الحديث: « إن أخذتم به سبقتم من قبلكم ولم

---

(١) أبو داود (٢٥٤١) فى الجهاد ، باب: فيمن سأل الله تعالى الشهادة ، وابن ماجه (٢٧٩٧) فى الجهاد ، باب : القتال فى سبيل الله سبحانه وتعالى.

(٢) البخارى (٣١) فى الإيمان ، باب : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ ﴾ [الحجرات: ٩ ] ، ومسلم (٢٨٨٨/ ١٤) فى الفتن وأشرط الساعة ، باب: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما.

(٣) سبق تخريجه ص ( ٤٢٠ ).

يلحقكم من بعدكم ». وهذا يدل على أن الأغنياء لا يلحقونهم ، وإن قالوا مثل قولهم، وقولهﷺ: « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» ،معناه أن فضل الله ليس مقصوراً عليكم دونهم ،فكما آتاكم الله من فضله بالذكر ،كذلك يؤتيهم إياه إذا عملوا مثلكم أيضاً؛فأنتم فهمتم من الفضل التخصيص ،فوضعتموه فى غير موضعه. وإنما معناه العموم والشمول ،وأن فضله عام شامل للأغنياء والفقراء ،فلا تذهبون به دونهم؛فأين فى هذا الحديث التفضيل لكم علينا ؟

قالوا :ويحتمل قوله : « ذلك فضل الله » ثلاثة أمور: **أحدها**: سبقهم لكم بالإنفاق ، **والثانى**: مساواتكم لهم فى فضيلة الذكر فلم تختصوا به دونهم ، **والثالث**: سبقكم لهم إلى الجنة بنصف يوم. وهذا وإن كان لا ذكر له فى هذه الرواية فهو مذكور فى بعض طرقه. قال البزار فى مسنده: حدثنا الوليد بن عمر ،حدثنا محمد بن الزبزقان، حدثنا موسى ابن عبيدة، عن عبدالله بن دينار ،عن ابن عمر ،قال: اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول اللهﷺ ما فضل به أغنياؤهم ،فقالوا :يا رسول الله، إخواننا صدقوا تصديقنا، وآمنوا إيماننا، وصاموا صيامنا ،ولهم أموال يتصدقون منها ،ويصلون منها الرحم ،وينفقونها فى سبيل الله ، ونحن مساكين لا نقدر على ذلك ،فقال: « ألا أخبركم بشىء إذا أنتم فعلتموه أدركتم مثل فضلهم؟ قولوا الله أكبر فى دبر كل صلاة إحدى عشرة مرة ، والحمد لله مثل ذلك ، ولا إله إلا الله مثل ذلك ، وسبحان الله مثل ذلك، تدركون مثل فضلهم»، ففعلوا، فذكروا ذلك للأغنياء ،ففعلوا مثل ذلك، فرجع الفقراء إلى رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له، فقالوا: هؤلاء إخواننا فعلوا مثل ما نقول ،فقال: « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. . . يا معشر الفقراء ،ألا أبشركم أن الفقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام » . وتلا موسى بن عبيدة: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج] .

قالوا : فهذا خبر واحد ،وكلام متصل ،ذكره بشارة لهم عندما ذكروا مساواة الأغنياء لهم فى القول المذكور ، فأشبه أن يرجع الفضل إلى سبق الفقراء للأغنياء ،وأنهم بهذه البشارة مخصصون ؛فكان السبق لهم دون غيرهم ،وإن ساووهم فى القول ،وساووهم فى الإنفاق بالنية ،كما فى حديث أبى كبشة المتقدم ،وحصلت لهم مزية الفقراء.

قالت الأغنياء :لقد بالغتم فى صرف الحديث عن مقصوده إلى جهتكم ،وهو صريح فى تفضيل هذا الحديث لمن أنصف ؛فإن قوله: « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» خرج جواباً للفقراء عن قولهم: إن أهل الدثور قد ساووهم فى الذكر كما ساووهم فى الصلاة والصوم والإيمان ،وبقيت مزية الإنفاق ،ولم يحصل لهم ما يلحقهم فيها ،وما علمتنا من الذكر قد لحقونا فيه ،فقال لهم حينئذ: « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ». وهذا صريح جداً فى مقصوده ،فلما انكسر القوم لتحقيق السبق بالإنفاق الذى عجزوا عنه ،أخبرهم بالبشارة

بالسبق إلى دخول الجنة بنصف يوم ،وأن هذا السبق فى مقابلة ما فاتكم من فضيلة الغنى والإنفاق. ولكن لا يلزم من ذلك رفعتهم عليهم فى المنزلة والدرجة ؛فهؤلاء السبعون ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ـ من الموقوفين للحساب ـ من هو أفضل منه أكثرهم وأعلى من درجة.

قالوا :وقد سمى ـ سبحانه ـ المال خيراً فى غير موضع من كتابه ،كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠]، وقوله: ﴿إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات ]. وأخبر رسول الله ﷺ أن الخير لا يأتى إلا بالخير ـ كما تقدم ـ وإنما يأتى بالشر معصية الله فى الخير لا نفسه. وأعلم الله ـ سبحانه ـ أنه جعل المال قواماً للأنفس وأمر بحفظها ،ونهى أن يأتى السفهاء من النساء والأولاد وغيرهم ،ومدحه النبى ﷺ بقوله: « نعم المال الصالح مع المرء الصالح» (١).

وقال سعيد بن المسيب: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله ،يكف به وجهه عن الناس ،ويصل به رحمه ،ويعطى حقه. وقال أبو إسحاق السبيعى: كانوا يرون السعة عوناً على الدين. وقال محمد بن المنكدر: نعم العون على التقى الغنى ،وقال سفيان الثورى: المال فى زماننا هذا سلاح المؤمن. وقال يوسف بن سباط: ما كان المال فى زمان منذ خلقت الدنيا أنفع منه فى هذا الزمان ،والخير كالخيل ،لرجل أجر، ولرجل ستر ،وعلى رجل وزر.

قالوا : وقد جعل الله ـ سبحانه ـ المال سبباً لحفظ البدن ، وحفظه سبب لحفظ النفس، التى هى محل معرفة الله والإيمان به ،وتصدق رسله ومحبته والإنابة إليه ،فهو سبب عمارة الدنيا والآخرة. وإنما يذم منه ما استخرج من غير وجهه ،وصرف فى غير حقه، واستعبد صاحبه ، وملك قلبه ، وشغله عن الله والدار الآخرة. فيذم منه ما يتوسل به صاحبه إلى المقاصد الفاسدة ، أو شغله عن المقاصد المحمودة. فالذم للجاعل لا للمجعول. قال النبى ﷺ: « تعس عبد الدينار، تعس عبدالدرهم »(٢). فذم عبدهما دونهما.

قال الإمام أحمد: حدثنا صفوان ،عن يزيد من ميسرة ،قال: كان رجل ممن مضى وجمع مالاً فأوعى ، ثم أقبل على نفسه وهو فى أهله ، فقال: أنعم سنين. فأتاه ملك الموت، فقرع الباب فى صورة مسكين ، فخرجوا إليه ،فقال: ادعوا لى صاحب الدار. فقالوا: يخرج سيدنا إلى مثلك! ثم مكث قليلاً، ثم عاد فقرع الدار ،وصنع مثل ذلك، وقال: أخبروه أنى ملك الموت. فلما سمع سيدهم قعد فزعاً ، وقال: لينوا له الكلام. قالوا: ما تريد غير سيدنا ،بارك الله فيك. قال: لا ،فدخل عليه فقال: قم فأوص ما

---

(١) أحمد (٤/١٩٧) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤/٦٧): « رجال أحمد رجال الصحيح ».

(٢) سبق تخريجه ص ٤٧٠ ..

كنت موصياً ؛فإنى قابض نفسك قبل أن أخرج. قال: فصرخ أهله وبكوا ،ثم قال: افتحوا الصناديق ،وافتحوا أوعية المال. ففتحوها جميعاً، فأقبل على المال يلعنه ويسبه ،يقول: لعنت من مال ؛أنت الذى أنسيتنى ربى وشغلتنى عن العمل لآخرتى ،حتى بلغنى أجلى؛ فتكلم المال فقال: لا تسبنى ،ألم تكن وضيعاً فى أعين الناس فرفعتك؟ ألم ير عليك من أثرى ، وكنت تحضر سدد الملوك والسادة فتدخل ويحضر عباد الله الصالحون فلا يدخلون ؟ ألم تكن تخطب بنات الملوك والسادة فتنكح ويخطب عباد الله الصالحون فلا ينكحون؟ ألم تكن تنفقنى فى سبيل الخبث فلا أتعاصى ولو أنفقتنى فى سبيل الله لم أتعاص عليك؟وأنت ألوم منى؛إنما خلقت أنا وأنتم يا بنى آدم من تراب ، فمنطلق ببر ومنطلق بإثم. . . فهكذا يقول المال فاحذروا.

وفى أثر يقول الله تبارك وتعالى: « أموالنا رجعت إلينا ،سعد بها من سعد وشقى بها من شقى».

قالوا : ومن فوائد المال أنه قوام العبادات والطاعات ، وبه قام سوق بر الحج والجهاد، وبه حصل الإنفاق الواجب والمستحب ،وبه حصلت قربات العتق والوقف وبناء المساجد والقناطر وغيرها ،وبه يتوصل إلى النكاح الذى هو أفضل من التخلى لنوافل العبادة، وعليه قام سوق المروءة ،وبه ظهرت صفة الجود والسخاء ،وبه وفيت الأعراض، وبه اكتسبت الإخوان والأصدقاء ،وبه توصل الأبرار إلى الدرجات العلى ومرافقة الذين أنعم الله عليهم؛ فهو مرقاة يصعد بها إلى أعلى غرف الجنة ،ويهبط منها إلى أسفل سافلين ،وهو مقيم مجد الماجد ، كان بعض السلف يقول : لا مجد إلا بفعال ،ولا فعال إلا بمال. وكان بعضهم يقول: اللهم إنى من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى.

وهو من أسباب رضا الله عن العبد كما كان من أسباب سخطه عليه. وهؤلاء الثلاثة الذين ابتلاهم الله به: الأبرص، والأقرع، والأعمى. نال به الأعمى رضا ربه، ونالا به سخطه.

والجهاد ذروة سنام العمل ،وتارة يكون بالنفس ،وتارة يكون بالمال. وربما كان الجهاد بالمال أنكى وأنفع ،وبأى شىء فضل عثمان على علّى ،وعلىٌّ أكثر جهاداً بنفسه وأسبق إسلاماً من عثمان ؟ وهذا الزبير وعبد الرحمن بن عوف ،أفضل من جمهور الصحابة ،مع الغنى الوافر ،وتأثيرهما فى الدين أعظم من تأثير أهل الصفة.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعته ،وأخبر أن ترك الرجل ورثته أغنياء خير له من تركهم فقراء (١). وأخبر أن صاحب المال لن ينفق نفقة يبتغى بها وجه الله إلا ازداد بها درجة

(١) البخارى (٢٧٤٢) فى الوصايا ، باب: أن يترك ورثته أغنياء. . .إلخ، ومسلم (١٦٢٨/ ٥) فى الوصية، باب: الوصية بالثلث.

ورفعة . وقد استعاذ رسول الله ﷺ من الفقر وقرنه بالكفر ، فقال: « اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر » (١) . فإن الخير نوعان : خير الآخرة والكفر مضاده ، وخير الدنيا والفقر مضاده ؛ فالفقر سبب عذاب الدنيا ، والكفر سبب عذاب الآخرة ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل إعطاء الزكاة وظيفة الأغنياء ، وأخذها وظيفة الفقراء ، وفرق بين اليدين شرعا وقدراً، وجعل يد المعطى أعلى من الآخذ ، وجعل الزكاة أوساخ المال ، ولذلك حرمها على أطيب خلقه وعلى آله صيانة لهم وتشريفاً ورفعاً لأقدراهم.

ونحن لا ننكر أن رسول الله ﷺ كان فقيراً ثم أغناه الله ، والله فتح عليه وخوله، ووسع عليه ، وكان يدخر لأهله قوت سنة ، ويعطى العطايا التى لم يعطها أحد غيره وكان يعطى عطاء من لا يخاف الفقر ، ومات عن فدك والنضير وأموال خصه الله بها . وقال تعالى : ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [ الحشر:٧]. فنزهه ربه سبحانه عن الفقر الذى يسوغ الصدقة، وعوضه عما نزعه عنه بأشرف المال وأحله وأفضله، وهو ما أخذه بظل رمحه وقائم سيفه من أعداء الله ، الذين كان مال الله بأيديهم ظلماً وعدواناً. فإنه خلق المال ليستعان به على طاعته، وهو بأيدى الكفار والفجار ظلماً وعدواناً ، فإذا رجع إلى أوليائه وأهل طاعته فاء إليهم ما خلق لهم. ولكن لم يكن غنى رسول الله ﷺ وملكه من جنس غنى بنى الدنيا وأملاكهم ؛ فإن غناهم بالشىء ، وغناه ﷺ عن الشىء ، وهو الغنى العالى ، وملكهم ملك يتصرفون فيه بحسب إرادتهم ، وهو ﷺ إنما يتصرف فى ملكه تصرف العبد الذى لا يتصرف إلا بأمر سيده.

فجمع الله ـ سبحانه ـ له بين أعلى أنواع الغنى وأشرف أنواع الفقر ، فكمل له مراتب الكمال ؛ فليست إحدى الطائفتين بأحق من الأخرى.

فكان ﷺ فى فقره أصبر خلق الله وأشكرهم ، وكذلك فى غناه. والله تعالى جعله قدوة للأغنياء والفقراء ، وأى غنى أعظم من غنى من عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض، وعرض عليه أن يجعل له الصفا ذهباً ، وخير بين أن يكون ملكاً نبياً ، وبين أن يكون عبداً نبياً ، فاختار أن يكون عبداً نبياً. ومع هذا فجبيت إليه أموال جزيرة العرب واليمن ، فأنفقها كلها ولم يستأثر منها بشىء ، بل تحمل عيال المسلمين ودينهم ، فقال: « من ترك مالاً فلورثته، ومن ترك كلا فإلى وعلى » (٢).

فرفع الله ـ سبحانه ـ قدره أن يكون من جملة الفقراء الذين تحل لهم الصدقة ، كما نزهه أن يكون من جملة الأغنياء الذين أغناهم بالأموال الموروثة ، بل أغناه به عن سواه ،

---

(١) النسائى (١٣٤٧) فى السهو ، باب :التعوذ فى دبر الصلاة ، وأحمد (٥/٣٦).

(٢) البخارى (٥٣٧١) فى النفقات ، باب :قول النبى (ﷺ): « من ترك كلاً أو ضياعا فإلى » ، ومسلم (١٦١٩/١٧) فى الفرائض ، باب :من ترك مالاً فلورثته .

وأغنى قلبه كل الغنى ، ووسع عليه غاية السعة ؛ فأنفق غاية الإنفاق ، وأعطى أجل العطايا ، ولا استأثر بالمال ،ولا اتخذ منه عقاراً ولا أرضاً ،ولا ترك شاة ولا بعيراً ولا عبداً ولا أمة ولا ديناراً ولا درهماً.

فإذا احتج الغنى الشاكر بحاله ﷺ ،لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يفعل فعله .كما أن الفقير الصابر إذا احتج بحاله ﷺ ،لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يصبر صبره،ويترك الدنيا اختياراً لا اضطراراً.فرسول الله وفى كل مرتبة من مرتبتى الفقر والغنى حقها وعبوديتها.وأيضاً ، فإن الله ـ سبحانه ـ أغنى به الفقراء ،فما نالت أمته الغنى إلا به،وأغنى الناس من صار غيره به غنياً.

قال على بن أبى رباح اللخمى :كنت عند مسلمة بن مخلد الأنصارى ،وهو يومئذ على مصر ،وعبد الله بن عمرو بن العاص جالس معه ، فتمثل مسلمة ببيت من شعر أبى طالب ،فقال :لو أن أبا طالب رأى ما نحن فيه اليوم من نعمة الله وكرامته ،لعلم أن ابن أخيه سيد قد جاء بخير.فقال عبدالله بن عمرو :ويومئذ كان سيداً كريماً قد جاء بخير ،فقال مسلمة:ألم يقل الله تعالى: **﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾** [الضحى ].فقال عبدالله بن عمرو :أما اليتيم فقد كان يتيماً من أبويه ،وأما العيلة فكل ما كان بأيدى العرب إلا القلة ،يقول :إن العرب كانت كلها مقلة حتى فتح الله عليه وعلى العرب الذين أسلموا ودخلوا فى دين الله أفواجاً،ثم توفاه الله قبل أن يتلبس منها بشىء ومضى وتركها ،وحذر منها ومن فتنتها ،قال :وذلك معنى قوله: **﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾** [الضحى:٥].فلم تكن الدنيا لترضيه ، وهو لا يرضاها كلها لأمته وهو يحذر منها ، وتعرض عليه فيأباها ،وإنما هو ما يعطيه من الثواب ،وما يفتح عليه وعلى أمته من ملك كسرى وقيصر ،ودخول الناس فى الإسلام ،وظهور الدين ؛إذ كان ذلك محبته ورضاه صلوات الله وسلامه عليه.

وروى سفيان الثورى ،عن الأوزاعى ،عن إسماعيل بن عبد الله بن عباس ،عن النبى ﷺ قال:« رأيت ما هو مفتوح بعدى كفراً كفراً فسرنى ذلك فنزلت: **﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾** . قال : أعطنى ألف قصر من لؤلؤ ، ترابها المسك ، فى كل قصر ما ينبغى له» (١).

قالوا :وما ذكرتم من الزهد فى الدنيا والتقلل منها ،فالزهد لا ينافى الغنى ،بل زهد الغنى أكمل من زهد الفقير ؛فإن الغنى زهد عن قدرة ، والفقير عن عجز ، وبينهما بعد

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى (٧/ ٦١).

بعيد. وقد كان رسول الله ﷺ فى حال غناه أزهد الخلق ، وكذلك إبراهيم الخليل كان كثير المال ، وهو أزهد الناس فى الدنيا .

وقد روى الترمذى فى جامعه ، من حديث أبى ذر ، عن النبى ﷺ قال: « الزهادة فى الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعته ، ولكن الزهادة فى الدنيا ألا تكون بما فى يديك أوثق بما فى يد الله ، وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فى ثوابها لو أنها بقيت لك» (١).

وسئل الإمام أحمد: عن الرجل يكون معه ألف دينار ، وهل يكون زاهداً ؟ قال : نعم، بشرط ألا يفرح إذا زادت ، ولا يحزن إذا نقصت.

وقال بعض السلف: الزاهد من لا يغلب الحلال شكره ، ولا الحرام صبره.

وهذا من أحسن الحدود: حقيقة مركبة من الصبر والشكر ، فلا يستحق اسم الزاهد من لا يتصف بهما. فمن غلب شكره لما وسع عليه من الحلال ، وصبره لما عرض له من الحرام، فهو الزاهد على الحقيقة ، بخلاف من غلب عليه الحلال شكره والحرام صبره ، فكان شكره وصبره مغلوبين ؛ فإن هذا ليس بزاهد.

وسمعت شيخ الإسلام يقول: الزهد تركك ما لا ينفعك ، والورع تركك ما يضرك.

فالزهد فراغ القلب من الدنيا لا فراغ اليدين منها ، ويقابله الشح والحرص ، وهو ثلاثة أقسام: زهد فى الحرام ، وزهد فى الشبهات والمكروهات ، وزهد فى الفضلات. فالأول فرض، والثانى فضل ، والثالث متوسط بينهما بحسب درجة الشبهة، وإن قويت التحق بالأول، وإلا فبالثالث. وقد يكون الثالث واجباً بمعنى أنه لابد منه ، وذلك لمن شمر إلى الله والدار الآخرة ؛ فزهد الفضيلة يكون ضرورة ، فإن إرادة الدنيا فادحة فى إرادة الآخرة ، ولا يصح للعبد مقام الإرادة حتى يفرد طلبه وإرادته ومطلوبه ، فلا ينقسم المطلوب ولا الطلب.

أما توحيد المطلوب: ألا يتعلق طلبه وإرادته بغير الله وما يقرب إليه ويدنى منه. وأما توحيده فى الطلب: أن يستأصل الطلب والإرادة نوازع الشهوات وجواذب الهوى، وتسكن الإرادة فى أقطار النفس ، فتملأها ، فلا يدع فيها فضلاً لغير الانجذاب إلى جانب الحق جل جلاله ، فتتمخض الإرادة له. ومتى تمحضت كان الزهد لصاحبها ضرورة ؛ فإنه يفرغه لعمارة وقته ، وجمع قلبه على ما هو بصدده ، وقطع مواد طمعه مواد اللاتى هى من أفسد شيء للقلب ، بل أصل المعاصى والفساد والفجور كله من الطمع. فالزهد يقطع مواده ، ويفرغ البال ، ويملأ القلب ، ويستحث الجوارح ، ويذهب الوحشة التى بين العبد ، وبين ربه، ويجلب الأنس به ، ويقوى الرغبة فى ثوابه إن ضعف عن الرغبة فى قربه والدنو منه

(١) الترمذى (٢٣٤٠) فى الزهد ، باب :ما جاء فى الزهادة فى الدنيا ، وقال: « حديث غريب . . . إلخ».

وذوق حلاوة معرفته ومحبته.

فالزاهد أروح الناس بدناً وقلباً. فإن كان زهده وفراغه من الدنيا قوة له فى إرادة الله والدار الآخرة ،بحيث فرغ قلبه لله ،وجعل حرصه على التقرب إليه ،وشحه على وقته أن يضيع منه شيء فى غير ما هو أرضى لله وأحب إليه كان من أنعم الناس عيشاً ،وأقرهم عيناً ، وأطيبهم نفساً ،وأفرحهم قلباً. فإن الرغبة فى الدنيا تشتت القلب ، وتبدد الشمل، وتطيل الهم والغم والحزن ؛ فهى عذاب حاضر يؤدى إلى عذاب منتظر أشد منه،وتفوت على العبد من النعم أضعاف ما يروم تحصيله بالرغبة فى الدنيا.

قال الإمام أحمد :حدثنا الهيثم بن جميل ، حدثنا ـ يعنى ابن مسلم ـ عن إبراهيم ـ يعنى ابن ميسرة ـ عن طاوس ،قال:قال رسول الله ﷺ:«إن الزهد فى الدنيا يريح القلب والبدن،وإن الرغبة فى الدنيا تطيل الهم والحزن» (١).

وإنما تحصل الهموم والغموم والأحزان من جهتين :إحداهما الرغبة فى الدنيا والحرص عليها ،والثانى: التقصير فى أعمال البر والطاعة. قال عبدالله بن أحمد:حدثنى بيان بن الحكم ،حدثنا محمد بن حاتم ،عن بشر بن الحارث قال:حدثنا أبو بكر بن عياش ،عن ليث ، عن الحكم ،قال:قال رسول الله ﷺ:« إذا قصر العبد بالعمل إبتلاه الله عز وجل بالهم».

وكما أن الرغبة فى الدنيا أصل المعاصى الظاهرة ، فهى أصل معاصى القلب من التسخط والحسد والكبر والفخر والخيلاء والتكاثر. وهذا كله من امتلاء القلب بها لا من كونها فى اليد ،وامتلاء القلب بها ينافى الشكر ،ورأس الشكر تفريغ القلب منها.

وامتداد المال كامتداد العمر والجاه ؛ فخيركم فى الدنيا من طال عمره وحسن عمله ، فهكذا من امتد ماله وكثر به خيره. فعمر المرء وماله وجاهه: إما أن يرفعه درجات،وإما أن يضعه درجات.

وسر المسألة :أن طريق الفقر والتقلل طريق سلامة مع الصبر ، وطريق الغنى والسعة فى الغالب طريق عطب ، فإنى اتقى الله فى ماله ووصل به رحمه ، وأخرج منه حق الله، وليس مقصوراً على الزكاة ، بل من حقه إشباع الجائع ،وكسوة العارى ،وإغاثة الملهوف ، وإعانة المحتاج والمضطر ، فطريقه طريق غنيمة ،وهى فوق السلامة.

فمثل صاحب الفقر ،كمثل مريض قد حبس بمرضه عن أغراضه ، فهو يثاب على حسّن صبره على حبسه. وأما الغنى ،فخطره عظيم فى جمعه وكسبه وصرفه ، فإذا سلم كسبه،وحسن أخذه من وجهه وصرفه فى حقه ،كان أنفع له.

فالفقير كالمتعبد المنقطع عن الناس ، والغنى المنفق فى وجوه الخير كالمعين والمجاهد

---

(١) الزهد للإمام أحمد (١٠).

والمعلم والمجاهد . ولهذا جعله النبى ﷺ قرين الذى أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها ، فهو أحد المحسودين اللذين لا ثالث لهما . والجهلة يغبطون المنقطع المتخلى المقصور النفع على نفسه ،ويجعلونه أولى بالحسد من المتفق والعالم المعلم.

فإن قيل :فأيهما أفضل:من يختار الغنى المتصدق والإنفاق فى وجوه البر ،أم من يختار الفقر والتقلل ليبعد عن الفتنة ويسلم من الآفة ويرفه قلبه على الاستعداد للآخرة فلا يشغله بالدنيا ،أم من لا يختار لا هذا ولا ذاك ، بل يختار ما اختاره الله له فلا يعين باختياره واحداً من الأمرين؟

قيل :هذا موضع اختلف فيه حال السلف الصالح،فمنهم من اختار المال للجهاد به والإنفاق وصرفه فى وجوه البر ،كعبد الرحمن بن عوف وغيره من مياسير الصحابة.وكان قيس بن سعد يقول:اللهم إنى من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى ،ومنهم من اختار الفقر والتقلل كأبى ذر وجماعة من الصحابة معه ،وهؤلاء نظروا إلى آفات الدنيا وخشوا الفتنة بها ،وأولئك نظروا إلى مصالح الإنفاق وثمراته العاجلة والآجلة.والفرقة الثالثة لم تختر شيئاً ،بل كان اختيارها ما اختاره الله لها.

وكذلك اختيار طول البقاء فى الدنيا لإقامة دين الله وعبادته ،فطائفة اختارته وتمنته ؛ وطائفة أحبت الموت ولقاء الله والراحة من الدنيا ،وطائفة ثالثة لم تختر هذا ولا ذاك ، بل اختارت ما يختاره الله لها،وكان اختيارهم سلفاً بما يريده الله دون مراد معين منهم ، وهى حال الصديق رضي الله عنه ؛ فإنهم قالوا له فى مرض موته:ألا ندعو لك الطبيب؟فقال:قد رآنى ، فقالوا:فما قال لك؟ قال : قال لى : إنى فعال لما أريد .

والأولى حال موسى عليه السلام؛فإنه لما جاء ملك الموت لطمه ففقأ عينه.ولم يكن ذلك حباً منه للدنيا والعيش فيها ،ولكن لينفذ أوامر ربه ،ويقيم دينه ،ويجاهد أعداءه ،فكأنه قال لملك الموت أنت عبد مأمور ،وأنا عبد مأمور ،وأنا فى تنفيذ أوامر ربى وإقامة دينه.فلما عرضت عليه الحياة الطويلة ،وعلم أن الموت بعدها ،اختار ما اختاره الله له.

وأما نبينا صلوات الله وسلامه عليه ،فإن ربه أرسل إليه يخيره ،وكان أعلم الخلق بالله،فعلم أن ربه تبارك وتعالى يحب لقاءه ويختاره له ،فاختار لقاء الله.ولو علم أن ربه يحب له البقاء فى الدنيا لتنفيذ أوامره وإقامة دينه ،لما اختار غير ذلك ،فكان اختياره تابعاً لاختيار ربه عز وجل.فكما أنه لما خيره ربه عز وجل بين أن يكون ملكاً نبياً ،وبين أن يكون

عبداً نبياً ،وعلم أن ربه يختار له أن يكون عبداً نبياً ـ اختار ما اختاره الله له. فكان اختياره فى جميع أموره تابعاً لاختيار الله له. ولهذا يوم الحديبية احتمل ما احتمل من تلك الحال فى ذاك الوقت ،ووفى هذا المقام حقه، ولم يثبت عليه من كل وجه إلا الصديق. فلم يكن له اختيار سوى ما اختاره الله له ولأصحابه من تلك الحال التى تقر الأعين منها. فكان راضياً بها مختارا لها ، مشاهداً اختيار ربه لها. وهذه غاية العبودية؛ فشكر الله له ذلك، وجعل شكرانه ما بشره به فى أول سورة الفتح حتى هنأه الصحابة به ،وقالوا: هنيئاً لك يا رسول الله. وحق له أن يهنأ بأعظم ما هنئ به بشر صلوات الله وسلامه عليه.

ومما ينبغى أن يعلم أن كل خصلة من خصال الفضل، قد أحل الله رسولهﷺ فى أعلاها ،وخصه بذروة سنامها. فإذا احتجت بحاله فرقة من فرق الأمة التى تعرفت تلك الخصال وتقاسمتها على فضلها على غيرها ،أمكن الفرقة الأخرى أن تحتج به على فضلها أيضاً.

فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف. احتج به العلماء على مثل ما احتج به أولئك.

وإذا احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم ،احتج به الداخلون فى الدنيا والولاية وسياسة الرعية لإقامة دين الله وتنفيذ أمره.

وإذا احتج به الفقير الصابر ،احتج به الغنى الشاكر.

وإذا احتج به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها ،واحتج به العارفون على فضل المعرفة.

وإذا احتج به أرباب التواضع والحلم ،احتج به أرباب العز والقهر المبطلين والغلظة عليهم والبطش بهم.

وإذا احتج به أرباب الوقار والهيبة والرزانة ،احتج به أرباب الخلق الحسن والمزاح المباح الذى لا يخرج عن الحق وحسن العشرة للأهل والأصحاب.

وإذا احتج به أصحاب الصدع بالحق والقول به فى المشهد والغيب ،احتج به أصحاب المداراة والحياء والكرم أن يبادروا الرجل بما يكرهه فى وجهه.

وإذا احتج به المتورعون على الورع المحمود ،احتج به الميسرون المسهلون الذين لا يخرجون عن سعة شريعته ويسرها وسهولتها.

وإذا احتج به من صرف عنايته إلى إصلاح دينه وقلبه ،احتج به من راعى إصلاح بدنه

ومعيشته ودنياه ؛ فإنه ﷺ بعث لصلاح الدنيا والدين.

وإذا احتج به من لم يعلق قلبه بالأسباب ولا ركن إليها ،احتج به من قام بالأسباب ووضعها مواضعها وأعطاها حقها.

وإذا احتج به من جاع وصبر على الجوع ،احتج به من شبع وشكر ربه على الشبع.

وإذا احتج به من أخذ بالعفو والصفح والاحتمال ،احتج به من انتقم فى مواضع الانتقام.

وإذا احتج به من أعطى لله ووالى لله ،احتج به من منع لله وعادى لله.

وإذا احتج به من لم يدخر شيئاً لغد ،احتج به من يدخر لأهله قوت سنة.

وإذا احتج به من يأكل الخشن من القوت والأدم كخبز الشعير والخل ،احتج به من يأكل اللذيذ الطيب كالشوى والحلوى والفاكهة والبطيخ ونحوه.

وإذا احتج به من سرد الصوم ،احتج به من سرد الفطر فكان يصوم حتى يقال لا يفطر ،ويفطر حتى يقال لا يصوم.

وإذا احتج به من رغب عن الطيبات والمشتهيات ،احتج به من أحب أطيب ما فى الدنيا هو النساء والطيب.

وإذا احتج به من ألان جانبه وخفض جناحه لنسائه ،احتج به من أدبهن وآلمهن وطلق وهجر وخيرهن.

وإذا احتج به من ترك مباشرة أسباب المعيشة بنفسه ،احتج به من باشرها بنفسه فآجر واستأجر وباع واشترى واستسلف وأدان ورهن.

وإذا احتج به من يحتنب النساء بالكلية فى الحيض والصيام ،احتج به من يباشر امرأته وهى حائض بغير الوطء ومن يقبل امرأته وهو صائم.

وإذا احتج به من رحم أهل المعاصى بالقدر ،احتج به من أقام عليهم حدود الله فقطع السارق ورجم الزانى وجلد الشارب.

وإذا احتج به من أرباب الحكم بالظاهر ،احتج به أرباب السياسة العادلة المبنية على القرائن الظاهرة؛فإنه حبس فى تهمة وعاقب فى تهمة. وأخبر عن نبى الله سليمان: أنه عليه السلام حكم بالولد للمرأة بالقرينة الظاهرة مع اعترافها لصاحبتها به. فلم يحكم بالاعتراف الذى ظهر له بطلانه بالقرينة. وترجم أبو عبد الرحمن على الحديث ترجمتين : إحدهما :

قال: التوسعة للحاكم أن يقول للشيء الذى لا يفعله: افعله: ؛ليستبين به الحق ،ثم قال: الحكم بخلاف ما يعترف به المحكوم عليه ،إذا تبين للحاكم أن الحق غير ما اعترف به. وكذلك الصحابة عملوا بالقرائن فى حياته وبعده ،فقال على رضي الله عنه للمرأة التى حملت كتاب حاطب: لتخرجن الكتاب أو لأجردنك. وحد عمر رضي الله عنه فى الزنا بالحبل ،وفى الخمر بالرائحة. وحكى الله سبحانه عن شاهد يوسف حكاية مقرر غير منكر أنه حكم بقرينة شق القميص من دبر على براءته. وقال ﷺ لابن أبى الحقيق وقد زعم أن النفقة أذهبت كنز حى ابن أخطب: « العهد قريب ،والمال أكثر من ذلك» (١). فاعتبر قرينتين دالتين على بقاء المال، وعاقبه حتى أقر به. وجوز لأولياء القتيل أن يحلفوا على رجل أنه قتله ويقتلونه به بناء على القرائن المرجحة صدقهم. وشرع الله سبحانه رجم المرأة إذا شهد عليها زوجها فى اللعان وأبت أن تلاعن للقرينة الظاهرة على صدقه.

وشريعته ﷺ طافحة بذلك لمن تأملها ، فالحكم بالقرائن الظاهرة من نفس شريعته وما جاء به ،فهو حجة لقضاة الحق وولاة العدل ،كما أنه حجة على قضاة السوء وولاة الجور، والله المستعان.

والمقصود بهذا الفصل: أنه ليس الفقراء الصابرون بأحق به ﷺ من الأغنياء الشاكرين ، وأحق الناس به أعلمهم بسنته وأتبعهم لها ، وبالله التوفيق (٢).

## وأيضا

أما مسألة: « الفقير الصابر والغنى الشاكر » وترجيح أحدهما على صاحبه ،فعند أهل التحقيق والمعرفة: أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى ، وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال والحقائق. فالمسألة أيضا فاسدة فى نفسها ،فإن التفضيل عند الله تعالى بالتقوى وحقائق الإيمان لا بفقر ولا غنى ، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣]، ولم يقل: أفقركم ولا أغناكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه :والفقر والغنى ابتلاء من الله لعبده، كما قال تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)**﴾ [الفجر ] أى: ليس كل من وسعت عليه وأعطيته أكون قد أكرمته ،ولا كل من ضيقت عليه وقترت أكون قد أهنته ،فالإكرام أن يكرم

---

(١) البيهقى فى السنن الكبرى (٩/ ١٣٧)، وابن حبان (١٦٩٧ موارد ).

(٢) عدة الصابرين (٢١٧/ ٣٢٢) .

الله العبد بطاعته والإيمان به ومحبته ومعرفته ،والإهانة أن يسلبه ذلك. قال ـ يعنى ـ ابن تيمية: ولا يقع التفاضل بالغنى والفقر بل بالتقوى ، فإن استويا فى التقوى استويا فى الدرجة. سمعته يقول ذلك.

وتذاكروا هذه المسألة عند يحيى بن معاذ .فقال: لا يوزن غدا الفقر ولا الغنى ،وإنما يوزن الصبر والشكر.

وقال غيره :هذه المسألة محال من وجه آخر وهو :أن كلا من الغنى والفقير لابد له من صبر وشكر ،فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر،بل قد يكون نصيب الغنى وقسطه من الصبر أوفر لأنه يصبر عن قدرة ،فصبره أتم من صبر من يصبر عن عجز. ويكون شكر الفقير أتم ؛ لأن الشكر هو استفراغ الوسع فى طاعة الله ، والفقير أعظم فراغا للشكر من الغنى ،فكلاهما لا تقوم قائمة إيمانه إلا على ساقى الصبر والشكر.

نعم ،الذى يحكى الناس من هذه المسألة :فرعا من الشكر ، وفرعا من الصبر ، وأخذوا فى الترجيح بينهما ،فجردوا غنياً منفقاً متصدقاً باذلاً ماله فى وجوه القرب شاكرا الله عليه،وفقيرا متفرغا لطاعة الله ،ولأوراد العبادات من الطاعات صابرا على فقره ،فهل هو أكمل من ذلك الغنى أم الغنى أكمل منه؟

فالصواب فى مثل هذا : أن وأكملها أطوعهما ، فإن تساوت طاعتهما تساوت درجاتهما، والله أعلم (١).

---

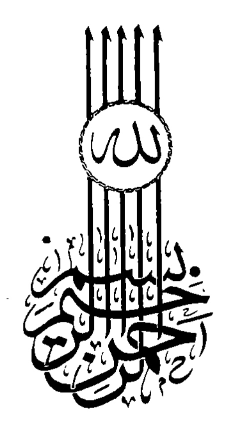
(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٤٢).

موسوعة الأعمال الكاملة
للإمام ابن قيم الجوزية




جمعه ووثّق نُصوصه وخرّج أحاديثه
**يُسري السّيّد محمّد**

## الجُزءُ الرَّابعُ

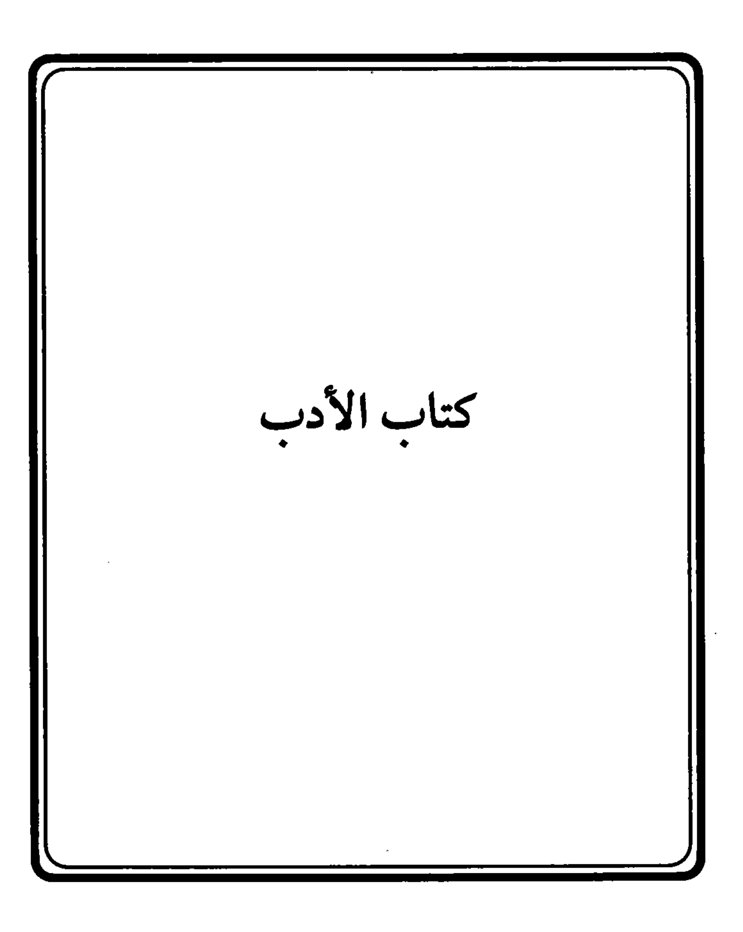



جامع الآداب

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م




دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة
الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب:٢٣٠
ت:٢٢٥٦٢٢٠/ ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤/ ٠٥٠
المكتبة: أمام كلية الطب ت٢٢٤٩٥١٣/ ٠٥٠
E-Mail : DAR ELWAFA @ HOTMAIL. COM



# كتاب الأدب

## فصل
## فى الرحمة

**المشهد العاشر** [1]: **مشهد الرحمة** : فإن العبد إذا وقع فى الذنب خرج من قلبه تلك الغلظة والقسوة والكيفية الغضبية التى كانت عنده لمن صدر منه ذنب ، حتى لو قدر عليه لأهلكه ، وربما دعا الله عليه أن يهلكه ويأخذه ، غضباً منه لله ، وحرصًا على ألا يعصى، فلا يجد فى قلبه رحمة للمذنبين الخاطئين ، ولا يراهم إلا بعين الاحتقار والازدراء ، ولا يذكرهم إلا بلسان الطعن فيهم ، والعيب لهم والذم . فإذا جرت عليه المقادير وخُلى ونفسه استغاث الله والتجأ إليه ، وتململ بين يديه تململ السليم ، ودعاه دعاء المضطر ، فتبدلت تلك الغلظة على المذنبين رقة ، وتلك القساوة على الخاطئين رحمة وليناً ، مع قيامه بحدود الله ، وتَبَدَّلَ دعاؤه عليهم دعاء لهم ، وجعل لهم وظيفة من عمره ، يسأل الله أن يغفر لهم .

فما أنفعه له من مشهد ! وما أعظم جدواه عليه . والله أعلم .

## فصل
## فى افتقار الخلق لله عز وجل

**المشهد الحادى عشر** [2] : **مشهد العجز والضعف** : وأنه [3] أعجز شىء عن حفظ نفسه وأضْعَفُه ، وأنه لا قوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه ، فيشهد قلبَه كريشة مُلْقاة بأرضِ فلاةٍ تُقَلّبها الرياح يميناً وشمالاً ، ويشهد نفسه كراكب سفينة فى البحر تَهيج بها الرياح وتتلاعب بها الأمواج ، ترفعها تارة ، وتخفضها تارة أخرى . تجرى عليه أحكام القدر ، وهو كالآلة طريحاً بين يدى ولَيه ، مُلقى ببابه ، واضعا خَدَّه على ثَرَى أعتابه ، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ليس له من نفسه إلا الجهلُ والظلم وآثارهما ومقتضياتهما ، فالهلاك أدنى إليه من شِراك نعله كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع ، لا يردها عنها إلا الراعى ، فلو تخلَّى عنها طَرْفة عين لتقاسموها أعضاءً .

وهكذا حال العبد ملقى بين الله وبين أعدائه ، من شياطين الإنس والجن ، فإن حماه منهم وكَفَّهم عنه لم يجدوا إليه سبيلا ، وإن تخلى عنه ووكَلَه إلى نفسه طرفة عين لم

(١ ، ٢) من مشاهد الخلق فى المعصية .
(٣) أى : المخلوق .

ينقسم عليهم ، بل هو نصيب من ظَفَر به منهم .

وفى هذا المشهد يعرف نفسه حقاً ، ويعرف ربه ، وهذا أحد التأويلات للكلام المشهور: « من عرف نفسه عرف ربه » ، وليس هذا حديثاً عن رسول الله ﷺ ، إنما هو أثر إسرائيلى بغير هذا اللفظ أيضاً : « يا إنسان ، اعرف نفسك تعرف ربك » وفيه ثلاث تأويلات :

**أحدها** : أن من عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة ، ومن عرفها بالعجز عرف ربه بالقدرة ، ومن عرفها بالذل عرف ربه بالعز ، ومن عرفها بالجهل عرف ربه بالعلم . فإن الله ـ سبحانه ـ استأثر بالكمال المطلق ، والحمد والثناء ، والمجد والغنى ، والعبد فقير ناقص محتاج ، وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه : ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله .

**التأويل الثانى** : أن من نظر إلى نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة والإرادة والكلام والمشيئة والحياة ، عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولى به ، فمعطى الكمال أحق بالكمال ، فكيف يكون العبد حياً متكلماً سميعاً بصيرًا مريداً عالما ، يفعل باختياره، ومَنْ خَلَقَه وأوجده لا يكون أولى بذلك منه ، فهذا من أعظم المحال ، بل مَنْ جعل العبد متكلما أولى أن يكون هو متكلما ، ومن جعله حياً عليما سميعاً بصيراً فاعلاً قادراً ، أولى أن يكون كذلك .

فالتأويل الأول من باب الضد ، وهذا من باب الأولوية .

**والتأويل الثالث** : أن هذا من باب النفى ، أى كما أنك لا تعرف نفسك التى هى أقرب الأشياء إليك ، فلا تعرف حقيقتها ، ولا ماهيتها ولا كيفيتها ، فكيف تعرف ربك وكيفية صفاته ؟ .

والمقصود : أن هذا المشهد يُعَرِّفُ العبد أنه عاجز ضعيف ، فتزول عنه رعونات الدعاوى ، والإضافات إلى نفسه ، ويعلم أنه ليس له من الأمر شىء ، إن هو إلا محض القهر والعجز والضعف .

**المشهد الثانى عشر (١) : مشهد الذل ، والانكسار ، والخضوع ، والافتقار للرب جل جلاله** : فيشهد فى كل ذَرَّةٍ من ذَرَّاته الباطنة والظاهرة : ضرورة تامة ، وافتقاراً تامًا إلى ربه ووليه ، ومن بيده صلاحه وفلاحه ، وهداه وسعادته . وهذه الحال التى تحصل لقلبه لا

(١) من مشاهد الخلق فى المعصية .

تنال العبارة حقيقتها، إنما تدرك بالحصول . فيحصل لقلبه كَسْرةَ خاصة لا يشبهها شىء ، بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل الذى لا شىء فيه ، ولا به ولا منه ، ولا فيه منفعة ، ولا يرغَب فى مثله . وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه وقيّمه، فحينئذ يستكثر فى هذا المشهد ما من ربه إليه من الخير ، ويرى أنه لا يستحق قليلاً منه ولا كثيراً . فأىّ خير ناله من الله استكثره على نفسه ، وعلم أن قَدْره دونه ، وأن رحمة ربه هى التى اقتضت ذكره به ، وسياقته إليه . واستقلّ ما من نفسه من الطاعات لربه ، ورآها ـ ولو ساروت طاعات الثقلين ـ من أقل ما ينبغى لربه عليه،واستكثر قليل معاصيه وذنوبه ؛ فإن الكَسْرة التى حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله .

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور ؛ وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه ! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه ! وذرة من هذا ونَفَس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المدِلّين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم . وأحب القلوب إلى الله ـ سبحانه ـ قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة ، وملكته هذه الذلة . فهو ناكس الرأس بين يدى ربه ، لا يرفع رأسه إليه حياء وخجلا من الله .

قيل لبعض العارفين : أيسجد القلب ؟ قال : نعم ، يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء ، فهذا سجود القلب .

فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه ، وإذا سجد القلب لله ـ هذه السجدة العظمى ـ سجدت معه جميع الجوارح ، وعنا الوجه حينئذ للحى القيوم ، وخشع الصوت والجوارح كلها ، وذل العبد وخضع واستكان، ووضع خده على عتبة العبودية ، ناظراً بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم . فلا يُرَى إلا متملقا لربه ، خاضعا له ، ذليلا مستعطفاً له ، يسأله عطفه ورحمته ، فهو يترضى ربه كما يترضى المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له ، الذى لا غنى له عنه ، ولا بد له منه ،فليس له هَمٌّ غير استرضائه واستعطافه ؛ لأنه لا حياة له ولا فلاح إلا فى قربه ورضاه عنه ، ومحبته له، يقول : كيف أُغضِب مَنْ حياتى فى رضاه ؟ وكيف أعدل عمن سعادتى وفلاحى وفوزى فى قربه وحبه وذكره ؟

وصاحب هذا المشهد : يشهد نفسه كرجل كان فى كَنَف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس ، ويربيه أحسن التربية ، ويرقيه على درجات الكمال أتم ترقية ، وهو القَيِّم بمصالحه كلها ، فبعثه أبوه فى حاجة له ، فخرج عليه فى طريقه عدو ، فأسره وكَتَّفه وشَدَّه وَثاقا ، ثم ذهب به إلى بلاد الأعداء فسامه سوء العذاب ، وعامله بضد ما كان أبوه

يعامله به . فهو يتذكر تربية والده وإحسانه إليه الفَيْنَة بعد الفينة ،فتهيج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأى حاله ، ويتذكر ما كان عليه وكل ما كان فيه . فبينا هو فى أسر عدوه يَسومه سوء العذاب ، ويريد نَحْره فى آخر الأمر ، إذ حانت منه التفاتة إلى نحو ديار أبيه، فرأى أباه منه قريب ، فسعى إليه ، وألقى نفسه عليه ، وانطرح بين يديه ، يستغيث : يا أبتاه ، يا أبتاه ، يا أبتاه ! انظر إلى ولدك وما هو فيه . ودموعه تستبق على خديه ، قد اعتنقه والتزمه ، وعدوه فى طلبه ، حتى وقف على رأسه ، وهو ملتزم لوالده ممسك به ، فهل تقول : إن والده يسلمه مع هذه الحال إلى عدوه ، ويخلى بينه وبينه ؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده ، ومن الوالدة بولدها ؟ إذا فَرَّ عبد إليه ، وهرب من عدوه إليه ، وألقى بنفسه طريحاً ببابه ، يُمَرِّغ خَدَّه فى ثَرى أعتابه باكيا بين يديه ، يقول : يارب، يارب ، ارحم من لا راحم له سواك ، ولا ناصر له سواك ، ولا مؤوى له سواك ، ولا مغيث له سواك . مسكينك وفقيرك ، وسائلك ومؤملك ومرجيك ، لا ملجأ له ولا منجا له منك إلا إليك ، أنت معاذه وبك ملاذه .

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يَجبُر الناس عظما أنت كاسره ... ولا يهيضون عظما أنت جابره (١)

## فصل
## فى منزلة الإنابة

إن من نزل فى منزل « التوبة » وقام فى مقامها نزل فى جميع منازل الإسلام ، فإن «التوبة » الكاملة متضمنة لها ، وهى مندرجة فيها ، ولكن لابد من إفرادها بالذكر والتفصيل، تبيناص لحقائقها وخواصها وشروطها .

فإذا استقرت قدمه فى منزل « التوبة » نزل بعده منزل « الإنابة » ، وقد أمر الله تعالى بها فى كتابه ، وأثنى على خليله بها ، فقال : ﴿ **وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ** ﴾ [ الزمر : ٥٤ ] ، وقال ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ** (٧٥)﴾ [ هود ] وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة ، فقال : ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا** ﴾ إلى أن قال ﴿**تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ** (٨) ﴾ [ ق ] ، وقال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ** (١٣) ﴾ [ غافر] وقال تعالى : ﴿ **مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ** ﴾

---

(١) مدارج السالكين ( ١ / ٤٢٦ ـ ٤٣٠ ) .

الآية [ الروم : ٣١ ] فـ ﴿منيبين﴾ منصوب على الحال من الضمير المستكن فى قوله ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [ الروم : ٣٠ ] ؛ لأن هذا الخطاب له ولأمته ، أى أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه ، نظيره قوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ [ الطلاق : ١ ] ويجوز أن يكون حالاً من المفعول فى قوله : ﴿ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [ الروم : ٣٠] أى فطرهم منيبين إليه . فلو خُلُّوا وفطرهم لما عَدَلَت عن الإنابة إليه ، ولكنها تَحوَّل وتتغير عما فُطرت عليه . كما قال ﷺ : « مـا مـن مولود إلا يولد على الفـطرة (١) ـ وفى رواية : على الملة ـ حتى يعرب عنه لسانه » (٢) ، وقال عن نبيه داود : ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ ص : ٢٤]، وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة ، فقال : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ﴾ [ ق : ٣١ ـ ٣٤ ] ، وأخبر ـ سبحانه ـ أن البشرى منه إنما هى لأهل الإنابة ، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ [ الزمر : ١٧ ] .

و « الإنابة » إنابتان : إنابة لربوبيته ؛وهى إنابة المخلوقات كلها ، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر ، قال الله تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ [الروم: ٣٣] فهذا عامّ فى حق كل داع أصابه ضر ، كما هو الواقع . وهذه « الإنابة » لا تستلزم الإسلام،بل تجامع الشرك والكفر ، كما قال تعالى فى حق هؤلاء : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ [ الروم ] فهذا حالهم بعد إنابتهم .

و« الإنابة » الثانية إنابة أوليائه ؛ وهى إنابة لإلهيته ، إنابة عبودية ومحبة . وهى تتضمن أربعة أمور : محبته ، والخضوع له ، والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه . فلا يستحق اسم « المنيب » إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع . وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك .

وفى اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم ، و« المنيب » إلى الله : المسرع إلى مرضاته ، الراجع إليه كل وقت ، المتقدم إلى محابه .

قال صاحب المنازل : « الإنابة فى اللغة : الرجوع . وهى ههنا الرجوع إلى الحق .

وهى ثلاثة أشياء : الرجوع إلى الحق إصلاحا ، كما رجع إليه اعتذارا . والرجوع

(١) البخارى (١٣٥٩) فى الجنائز ، باب : إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه ، ومسلم (٢٦٥٨ / ٢٢) فى القدر ، باب : معنى كل مولود يولد على الفطرة ، وأحمد (٢ / ٣١٥) .

(٢) مسلم (٢٦٥٨ / ٢٣ مكرر ) ، والترمذى (٢١٣٨) فى القدر ، باب : ما جاء كل مولود يولد على الفطرة ، وأحمد (٢ / ٢٥٣) .

إليه وفاء ، كما رجع إليه عهدا ، والرجوع إليه حالا ، كما رجعت إليه إجابة » .

لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته ، كان من تتمة ذلك : رجوعه إليه بالاجتهاد ، والنصح فى طاعته ، كما قال : ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا** ﴾ [ الفرقان : ٧٠ ] ، وقال : ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا** ﴾ [ البقرة : ١٦٠ ] ، فلا تنفع توبة وبطالة ، فلابُدَّ من توبة وعمل صالحٍ : تركٍ لما يكره ، وفعل لما يحب ، تَخلٍ عن معصيته ، وتحلٍ بطاعته .

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده،كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك، فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولا .فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانياً ، والدين كله : عهد ووفاء ؛ فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته ، فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته ، أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كلم موسى ، وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل ، وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء ، فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم ، وعلى هؤلاء بالتعلم . ومدح الموفين بعهده ، وأخبر بما لهم عنده من الأجر ، فقال : ﴿ **وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [الفتح : ١٠ ] وقال : ﴿ **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً** ﴿٣٤﴾ ﴾ [ الإسراء ] ، وقال : ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ** ﴾ [ النحل : ٩١ ] وقال : ﴿ **وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا** ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة ، وعهودهم مع الخلق .

وأخبر النبى ﷺ : أن من علامات النفاق « الغدر بعد العهد » (١) .

فما أناب إلى الله من خان عهده وغدر به ، كما أنه لم يُنِبْ إليه من لم يدخل تحت عهده . فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به .

وقوله : « والرجوع إليه حالا ، كما رجعت إليه إجابة » .

أى هو ـ سبحانه ـ قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قولا ، فلا بد من الإجابة حالا تُصَدِّق به المقال ، فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها . وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله ، فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال ، فارجع إليه إجابة بالحال . قال

---

(١) البخارى (٣٤) فى الإيمان ، باب : علامة المنافق ، ومسلم (٥٨ / ١٠٦) فى الإيمان ، باب : بيان خصال المنافق ، وأبو داود (٤٦٨٨) فى السنة ، باب : الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، والترمذى (٢٦٣٢) فى الإيمان ، باب : ما جاء فى علامة المنافق ، والنسائى (٥٠٢٠) فى الإيمان ، باب : علامة المنافق ، وأحمد (٢ / ١٨٩) .

الحسن: ابن آدم ،لك قول وعمل . وعملك أولى بك من قولك . ولك سريرة وعلانية . وسريرتك أملك بك من علانيتك .

## فصل

قال : « وإنما يستقيم الرجوع إليه إصلاحاً بثلاثة أشياء : بالخروج من التبعات ، والتوجُّع للعثرات ، واستدراك الفائتات » .

والخروج من التبعات : هو بالتوبة من الذنوب التى بين العبد وبين الله ، وأداء الحقوق التى عليه للخلق ، والتوجع للعثرات يحتمل شيئين :

**أحدهما** : أن يتوجع لعثرته إذا عثر ، فيتوجع قلبه وينصدع ، وهذا دليل على إنابته إلى الله . بخلاف من لا يتألم قلبه ، ولا ينصدع من عثرته ، فإنه دليل على فساد قلبه وموته .

**الثانى** : أن يتوجع لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر ، حتى كأنه هو الذى عثر بها ولا يشمت به ، فهو دليل على رِقَّة قلبه وإنابته .

واستدراك الفائتات : هـو استدراك ما فاته من طاعة وقربة بأمثالها ، أو خير منها ولاسيما فى بقية عمره ، عند قرب رحيله إلى الله ، فبقية عمر المؤمن لا قيمة لها ، يستدرك بها ما فات ، ويُحيى بها ما أمات .

## فصل

قال : « وإنما يستقيم الرجوع إليه عهداً : بثلاثة أشياء : بالخلاص من لذة الذنب ، وبترك الاستهانة بأهل الغفلة ؛ تخوفاً عليهم ، مع الرجاء لنفسك ، وبالاستقصاء فى رؤية علة الخدمة » .

إذا صَفَتْ له الإنابة إلى ربه تخلص من الفكرة فى لذة الذنب. وعاد مكانها ألماً وتوجعاً لذكره ، والفكرة فيه ، فما دامت لذة الفكرة فيه موجودة فى قلبه ، فإنابته غير صافية .

فإن قيل : أى الحالين أعلى ؟ حال من يجد لذة الذنب فى قلبه ، فهو يجاهدها لله ، ويتركها من خوفه ومحبته وإجلاله أو حال من ماتت لذة الذنب فى قلبه وصار مكانها ألماً وتوجعاً وطمأنينة إلى ربه ، وسكوناً إليه، والتذاذاً بحبه ، وتنعماً بذكره ؟ .

قيل : حال هذا أكمل وأرفع ، وغاية صاحب المجاهدة : أن يجاهد نفسه حتى يصل إلى مقام هذا ومنزلته ، ولكنه يتلوه فى المنزلة والقرب ومنوط به .

فإن قيل : فأين أجر مجاهدة صاحب اللذة ، وتركه محابَّه لله ، وإيثاره رضى الله على هواه ؟ وبهذا كان النوع الإنسانى أفضل من النوع الملكى عند أهل السنة وكانوا خير البرية ، والمطمئن قد استراح من ألم هذه المجاهدة وعوفى منها ، فبينهما من التفاوت ما بين درجة المعافَى والمبتلى . قيل : النفس لها ثلاثة أحوال : الأمر بالذنب ، ثم اللوم والندم منه ، ثم الطمأنينة إلى ربها والإقبال بكليتها عليه ، وهذه الحال أعلى أحوالها ، وأرفعها ، وهى التى يشمر إليها المجاهد ، وما يحصل له من ثواب مجاهدته وصبره فهو لتشميره إلى درجة الطمأنينة إلى الله ، فهو بمنزلة راكب القفار والمهامه والأهوال ،ليصل إلى البيت فيطمئن قلبه برؤيته والطواف به ،والآخر بمنزلة من هو مشغول به طائفاً وقائماً ، وراكعاً وساجداً ، ليس له التفات إلى غيره ، فهذا مشغول بالغاية ، وذاك بالوسيلة ، وكل له أجر ، ولكن بين أجر الغايات وأجر الوسائل بَوْن .

وما يحصل للمطمئن من الأحوال والعبودية والإيمان فوق ما يحصل لهذا المجاهد نفسه فى ذات الله ، وإن كان أكثر عملا ، فقدر عمل المطمئن المنيب بجملته وكيفيته أعظم، وإن كان هذا المجاهد أكثر عملا ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فما سبق الصديق الصحابة بكثرة عمل ، وقد كان فيهم من هو أكثر صياماً وحجاً وقراءة وصلاة منه ، ولكن بأمر آخر قام بقلبه ، حتى إن أفضل الصحابة كان يسابقه ولا يراه إلا أمامه .

ولكن عبودية مجاهد نفسه على لذة الذنب والشهوة قد تكون أشق ، ولا يلزم من مشقتها تفضيلها فى الدرجة ، فأفضل الأعمال الإيمان بالله ، والجهاد أشق منه وهو تاليه فى الدرجة ،ودرجة الصديقين أعلى من درجة المجاهدين والشهداء ، وفى مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبى ﷺ ذكر الشهداء فقال : « إن أكثر شهداء أمتى لأصحاب الفُرُش ، ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته » (١) .

## فصل

ومن علامات الإنابة: ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم،مع فتحك باب الرجاء

---

(١) أحمد (١ / ٣٩٧) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٣٠٥) فى الجهاد ، باب : رب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته : « رواه أحمد هكذا ولم أره ذكر ابن مسعود وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف ، والظاهر أنه مرسل ورجاله ثقات » .

لنفسك ، فترجو لنفسك الرحمة ، وتخشى على أهل الغفلة النقمة ، ولكن ارجُ لهم الرحمة . واخش على نفسك النقمة ، فإن كنت لابد مستهيناً بهم ماقتاً لهم ؛ لانكشاف أحوالهم لك ، ورؤية ما هم عليه ، فكن لنفسك أشد مقتاً منك لهم ، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك .

قال بعض السلف : لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس فى ذات الله ، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً .

وهذا الكلام لا يفقه معناه إلا الفقيه فى دين الله ، فإن من شهد حقيقة الخلق ، وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم ،بل تفريطهم ، وإضاعتهم لحق الله ، وإقبالهم على غيره ، وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفانى ـ لم يجد بدأ من مقتهم ، ولا يمكنه غير ذلك البتة . ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره ، وكان على بصيرة من ذلك : كان لنفسه أشد مقتاً واستهانة ، فهذا هو الفقيه .

وأما الاستقصاء فى رؤية علل الخدمة : فهو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس ، وتمييز حق الرب منها من حظ النفس . ولعل أكثرها ـ أو كلها ـ أن تكون حظاً لنفسك وأنت لا تشعر .

فلا إله إلا الله ، كم فى النفوس من علل وأغراض وحظوظ تمنع الأعمال : أن تكون لله خالصة ، وأن تصل إليه ؟ وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر البتة ، وهو غير خالص لله ، ويعمل العمل والعيون قد استدرارت عليه نطاقا ، وهو خالص لوجه الله ، ولا يميز هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب العالمون بأدوائها وعللها .

فبين العمل وبين القلب مسافة . وفى تلك المسافة قُطَّاع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء ، ولا زهد فى الدنيا ولا رغبة فى الآخرة ، ولا نور يفرق به بين أولياء الله وأعدائه ، وبين الحق والباطل ، ولا قوة فى أمره . فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرف ، ورأى الحق والباطل ، وميز بين أولياء الله وأعدائه ، وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال .

ثم بين القلب وبين الرب مسافة ، وعليها قطاع تمنع وصول العمل إليه ، من كبر وإعجاب وإدلال ، ورؤية العمل ، ونسيان المنة ، وعلل خفية لو استقصى فى طلبها لرأى العجب . ومن رحمة الله تعالى : سترها على أكثر العمال ، إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها ، من اليأس والقنوط والاستحسار ، وترك العمل ، وخمود العزم ،

وفتور الهمة ؛ ولهذا لما ظهرت « رعاية » أبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى واشتغل بها العباد ، عطلت منهم مساجد كانوا يعمرونها بالعبادة والطبيب الحاذق يعلم كيف يطب النفوس ، فلا يعمر قصراً ويهدم مصراً .

## فصل

قال (١) : «وإنما يستقيم الرجوع إليه حالا بثلاثة أشياء : بالإياس من عملك ، وبمعاينة اضطرارك ، وشَيْم برق لطفه بك » .

الإياس من العمل يفسر بشيئين :

**أحدهما** : أنه إذا نظر بعين الحقيقة إلى الفاعل الحق ، والمحرك الأول ، وأنه لولا مشيئته لما كان منك فعل ، فمشيئته أوجبت فعلك لا مشيئتك ـ بقى بلا فعل ، فههنا تنفع مشاهدة القدر ، والفناء عن رؤية الأعمال .

**والثانى** : أن تيأس من النجاة بعملك ، وترى النجاة إنما هى برحمته تعالى وعمله وفضله،كما فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « لن ينجى أحداً منكم عمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » (٢) فالمعنى يتعلق ببداية الفعل ، والثانى بغايته ومآله .

وأما معاينة الاضطرار : فإنه إذا أيس من عمله بداية ، وأيس من النجاة به نهاية ، شهد به فى كل ذرة منه ضرورة تامة إليه . وليست ضرورته من هذا الجهة وحدها .

بل من جميع الجهات . وجهات ضرورته لا تنحصر بعدد ، ولا لها سبب ، بل هو مضطر إليه بالذات ، كما أن الله عز وجل غنى بالذات ، فإن الغنى وصف ذاتى للرب ، والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتى للعبد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه :

والفقر لى وصف ذات لازم أبداً كما للغنى أبداً وصف له ذاتى وأما شَيم برق لطفه بك : فإنه إذا تحقق له قوة ضرورية ، وأيس من عمله والنجاة به ، نظر إلى ألطاف الله وشام برقها ، وعلم أن كل ما هو فيه وما يرجوه وما تقدم له : لطف من الله به ، ومنة

(١) أى صاحب المنازل .

(٢) مسلم (٢٨١٦ / ٧٦) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى .

مَنٍّ بها عليه ، وصدقة تصدق بها عليه بلا سبب منه ، إذ هو المحسن بالسبب والمسبب ، والأمر له من قبل ومن بعد ، وهو الأول والآخر ، لا إله غيره . ولا رب سواه (١) .

## فصل
## فى منزلة الرياضة

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » : « منزلة الرياضة » .

هى تمرين النفس على الصدق والإخلاص .

قال صاحب المنازل : « هى تمرين النفس على قبول الصدق » .

وهذا يراد به أمران : تمرينها على قبول الصدق إذا عرضه عليها فى أقواله وأفعاله وإرادته ، فإذا عرض عليها الصدق قبلته وانقادت له وأذعنت له .

والثانى : قبول الحق ممن عرضه عليه ، قال الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** (٣٣)﴾ [ الزمر ] ، فلا يكفى صدقك ، بل لابد من صدقك وتصديقك للصادقين . فكثير من الناس يصدق ، ولكن يمنعه من التصديق كِبْر أو حسد ، أو غير ذلك .

قال : « وهى على ثلاث درجات : رياضه العامة ، وهى تهذيب الأخلاق بالعلم ، وتصفية الأعمال بالإخلاص ، وتوفير الحقوق فى المعاملة » .

أما تهذيب الأخلاق بالعلم : فالمراد به إصلاحها وتصفيتها بموجب العلم ، فلا يتحرك بحركة ظاهرة أو باطنة إلا بمقتضى العلم ، فتكون حركات ظاهره وباطنه موزونة بميزان الشرع .

وأما تصفية الأعمال بالإخلاص : فهو تجريدها عن أن يشوبها باعث لغير الله ، وهى عبارة عن توحيد المراد ، وتجريد الباعث إليه .

وأما توفير الحقوق فى المعاملة : فهو أن تعطى ما أمرت به من حق الله وحقوق العباد كاملا موفراً ، قد نَصَحْتَ فيه صاحب الحق غاية النصح ، وأرضيته كل الرضى ، ففزت بحمده لك وشكره .

ولما كانت هذه الثلاثة شاقة على النفس جداً : كان تكلفها رياضة ، فإذا اعتادها

---

(١) مدراج السالكين (١ / ٤٣٣ ـ ٤٤٠) .

صارت خُلُقا .

قال : « ورياضة الخاصة : حسم التفرق ، وقطع الالتفات إلى المقام الذى جاوزه ، وإبقاء العلم يجرى مجراه » .

يريد بحسم التفرق : قطع ما يفرق قلبك عن الله بالجمعية عليه ، والإقبال بكليتك إليه ، حاضراً معه بقلبك كله ، لا تلتفت إلى غيره .

وأما قطع الالتفات إلى المقام الذى جاوزه : فهو ألا يشتغل باستحسان علوم ذلك المقام ولذته واستحسانه ، بل يلهَى عنه معرضاً مقبلا على الله ، طالباً للزيادة ، خائفاً أن يكون ذلك المقام له حجابا يقف عنده عن السير . فهمته حفظه . ليس له قوة ولا همة أن ينهض إلى ما فوقه . ومن لم تكن همته التقدم فهو فى تأخر ولا يشعر ، فإنه لا وقوف فى الطبيعة ، ولا فى السير ، بل إما إلى قدام ، وإما إلى وراء . فالسالك الصادق لا ينظر إلى ورائه . ولا يسمع النداء إلا من أمامه لا من ورائه .

وأما إبقاء العلم يجرى مجراه : فالذهاب مع داعى العلم أين ذهب به ، والجرى معه فى تياره أين جرى .

وحقيقة ذلك : الاستسلام للعلم ، وألا تعارضه بجمعية ، ولا ذوق ، ولا حال ، بل امض معه حيث ذهب ، فالواجب تسليط العلم على الحال ، وتحكيمه عليه ، وألا يعارض به .

وهذا صعب جداً إلا على الصادقين من أرباب العزائم ، فلذلك كان من أنواع الرياضة.

ومتى تمرنت النفس عليه وتعودته صار خلقاً . وكثير من السالكين إذا لاحت له بارقة، أو غلبه حال أو ذوق : خلى العلم وراء ظهره ، ونبذه وراءه ظهريا ، وحكَّم عليه الحال . هذا حال أكثر السالكين ، وهى حال أهل الانحراف الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ؛ ولهذا عظمت وصية أهل الاستقامة من الشيوخ بالعلم والتمسك به .

## فصل

قال : « ورياضة خاصة الخاصة : تجريد الشهود ، والصعود إلى الجمع ، ورفض المعارضات ، وقطع المعاوضات » .

أما تجريد الشهود ، فنوعان ؛ أحدهما : تجريده عن الالتفات إلى غيره . والثانى :

تجريده عن رؤيته وشهوده .

وأما الصعود إلى الجمع : فيعنى به الصعود عن معانى التفرقة إلى الجمع الذاتى ، وهذا يحتمل أمرين :

**أحدهما** : أن يصعد عن تفرقة الأفعال إلى وحدة مصدرها .

**والثانى** : أن يصعد عن علائق الأسماء والصفات إلى الذات . فإن شهود الذات بدون علائق الأسماء والصفات عندهم هو حضرة الجمع ، وهذا موضع مزلة أقدام، ومضلة أفهام ، لابد من تحقيقه . فتقول :

التفرقة تفرقتان : تفرقة فى المفعولات ، وتفرقة فى معانى الأسماء والصفات . والجمع جمعان : جمع فى الحكم الكونى ، وجمع ذاتى .

فالجمع فى الحكم الكونى : اجتماع المفعولات كلها فى القضاء والقدر والحكم . والجمع الذاتى : اجتماع الأسماء والصفات فى الذات .

فالذات واحدة جامعة للأسماء والصفات .

والقدر :جامع لجميع المقضيات والمقدورات ، والشهود مترتب على هذا وهذا .

فشهود اجتماع الكائنات فى قضائه وقدره ـ وإن كان حقا ـ فهو لا يعطى إيمانا ، فضلا عن أن يكون أعلى مقامات الإحسان . والفناء فى هذا الشهود : غايته فناء فى توحيد الربوبية الذى لا ينفع وحده ، ولا بد منه .

وشهود اجتماع الأسماء والصفات ، فى وحدة الذات : شهود صحيح . وهو شهود مطابق للحق فى نفسه .

وأما الصعود عن شهود تفرقة الأسماء والصفات وعلائقها إلى وحدة الذات المجردة : فغايته أن يكون صاحبه معذوراً لضيق قلبه . وأما أن يكون محموداً فى شهوده ذاتاً مجردة عن كل اسم وصفة وعن علائقها فكلا ولما .

وأى إيمان يعطى ذلك ؟ وأى معرفة ؟ وإنما هو سلب ونفى فى الشهود ، كالسلب والنفى فى العلم والاعتقاد ، فنسبته إلى الشهود كنسبة نفى الجهمية وسلبهم إلى الأخبار ، لكن الفرق بينهما : أن ذلك السلب فى العلم والاعتقاد ، مخالف للحق الثابت فى نفس الأمر ، وكذب على الله ، ونفى لما يستحقه من صفات كماله ونعوت جلاله ، ومعانى أسمائه الحسنى .

وأما هذا السلب : ففى الشعور به للصعود منه إلى الجمع الذاتى ، مع الإيمان به ، والاعتراف بثبوته ، فهذا لون وذاك لون .

والكمال شهود الأمر على ما هو عليه ، ويشهد الذات موصوفة بصفات الجلال ، منعوتة بنعوت الكمال . وكلما كثر شهوده لمعانى الأسماء والصفات كان أكمل.

نعم ، قد يعذر فى الفناء فى الذات المجردة ؛ لقوة الوارد ، وضعف المحل عن شهود معانى الأسماء والصفات .

فتأمل هذا الموضع ، وأعطه حقه ، ولا يَصُدَّنك عن تحقيق ذلك ما يحيل عليه أرباب الفناء من الكشف والذوق . فإنا لا ننكره ، بل نقرّ به ، ولكن الشأن فى مرتبته ، وبالله التوفيق .

وأما رفض المعارضات : فيحتمل أمرين :

**أحدهما** :ما يعارض شهوده الجمعي من التفرقات ، وهو مراده .

**والثانى** : ما يعارض إرادته من الإرادات ، وما يعارض الله من المرادات ، وهذا أكمل من الأول ، وأعلى منه .

وأما قطع المعاوضات : فهو تجريد المعاملة عن إرادة المعارضة ، بل يجردها لذاته ، وأنه أهل أن يعبد ولو لم يحصل لعابده عوض منه . فإنه يستحق أن يعبد لذاته لا لعلة ، ولا لعوض ولا لمطلوب . وهذا أيضاً موضع لابد من تجريده .

فيقال : ملاحظة المعارضة ضرورية للعامل ، وإنما الشأن فى ملاحظة الأعواض وتباينها، فالمحب الصادق الذى قد تجرد عن ملاحظة عوض قد لاحظ أعظم الأعواض ، وشمر إليها ، وهى قربه من الله ووصوله إليه ، واشتغاله به عما سواه ، والتنعم بحبه ولذة الشوق إلى لقائه . فهذه أعواض لابد للخاصة منها ، وهى من أجل مقاصدهم وأغراضهم ، ولا تقدح فى مقاماتهم ، وتجريد عبودياتهم ، بل أكملهم عبودية أشدهم التفاتا إلى هذه الأعواض .

نعم طلب الأعواض المنفصلة المخلوقة ـ من الجاه ، والمال ، والرياسة ، والملك ـ أو طلب الحور العين والقصور والولدان ، ونحو ذلك بالنسبة إلى تلك الأعواض التى تطلبها الخاصة معلولة ، وهذا لا شك فيه إذا تجرد طلبهم لها .

أما إذا كان مطلوبهم الأعظم الذاتى : هو قربه والوصول إليه ، والتنعم بحبه ، والشوق إلى لقائه ، وانضاف إلى هذا طلبهم لثوابه المخلوق المنفصل : فلا علة فى هذه

العبودية بوجه ما ، ولا نقص ، وقد قال النبى ﷺ : « حولها ندندن » (١) يعنى الجنة ، وقال : « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » (٢) .

ومعلوم أن هذا مسكن خاصة الخاصة ، وسادات العارفين . فسؤالهم إياه ليس علة فى عبوديتهم ، ولا قدحا فيها .

وقد استوفينا ذكر هذا الموضع فى ( كتاب سفر الهجرتين ) عند الكلام على المقامات .

ويحتمل أن يريد الشيخ بقطع المعاوضات : أن تشهد أن الله ما أعطاك شيئاً معاوضة، بل إنما أعطاك تفضلا وإحسانا ، لا لعوض يرجوه منك ، كما يكون عطاء العبد للعبد ، وإنما نتكلم فيما من العبد ، مما يؤمر بالتجرد عنه ، كتجرده عن التفرقة والمعاوضة ، فهذا أليق المعنيين بكلامه ، والله أعلم (٣) .

## فصل
## فى منزلة السماع

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » : منزلة « السماع » .

وهو اسم مصدر كالنبات ، وقد أمر الله به فى كتابه ، وأثنى على أهله ، وأخبر أن البشرى لهم ، فقال تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا** ﴾ [ المائدة : ١٠٨ ] وقال ﴿ **وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا** ﴾ [ التغابن : ١٦ ] ، وقال : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ** ﴾ [ النساء : ٤٦ ] ، وقال ﴿ **فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨)** ﴾ [ الزمر ] ، وقال : ﴿ **وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا** ﴾ [ الأعراف : ٢٠٤ ] ، وقال : ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ** ﴾ [ المائدة : ٨٣ ] .

---

(١) أبو داود (٧٩٢) فى الصلاة ، باب : فى تخفيف الصلاة ، وابن ماجه (٩١٠) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : ما يقال فى التشهد والصلاة على النبى ﷺ ، وقال فى الزوائد : « إسناده صحيح ، ورجاله ثقات » ، وأحمد (٣/ ٤٧٤) .

(٢) البخارى (٢٧٩٠) فى الجهاد ، باب : درجات المجاهدين فى سبيل الله ، والترمذى (٢٥٣٠) فى صفة الجنة ، باب : ما جاء فى صفة درجات الجنة ، وأحمد (٢ / ٣٣٥) .

(٣) مدارج السالكين (١ / ٤٧٥ ـ ٤٨١) .

وجعل الإسماع منه والسماع منهم دليلاً على علم الخير فيهم ، وعدم ذلك دليلاً على عدم الخير فيهم ، فقال : ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ(٢٣)﴾ [ الأنفال ] .

وأخبر عن أعدائه : أنهم هجروا السماع ونهوا عنه ، فقال : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [ فصلت : ٢٦ ] .

فالسماع رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه . وكم فى القرآن من قوله : ﴿أفلا يسمعون﴾، وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الآية [ الحج : ٤٦ ] .

فالسماع أصل العقل ، وأساس الإيمان الذى انبنى عليه . وهو رائده وجليسه ووزيره، ولكن الشأن كل الشأن فى المسموع .وفيه وقع خبط الناس واختلافهم ، وغلط منهم من غلط .

وحقيقة « السماع » تنبيه القلب على معانى المسموع . وتحريكه عنها : طلباً وهرباً وحباً وبغضاً ، فهو حادٍ يحدو بكل أحد إلى وطنه ومألفه .

وأصحاب السماع ، منهم : من يسمع بطبعه ونفسه وهواه ، فهذا حظه من مسموعه: ما وافق طبعه .

ومنهم : من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله ، فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته .

ومنهم : من يسمع بالله ، لا يسمع بغيره ، كما فى الحديث الإلهى الصحيح : « فبى يسمع ، وبى يبصر »(١) ، وهذا أعلى سماعا ، وأصح من كل أحد .

والكلام فى « السماع » ـ مدحاً وذماً ـ يحتاج فيه إلى معرفة صورة المسموع ، وحقيقته وسببه ، والباعث عليه ، وثمرته وغايته . فبهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر « السماع » ويتميز النافع منه والضار ، والحق والباطل ، والممدوح والمذموم .

فأما « المسموع » فعلى ثلاثة أضرب :

**أحدها** : مسموع يحبه الله ويرضاه ،وأمر به عباده،وأثنى على أهله،ورضى عنهم به .

---

(١) البخارى (٦٥٠٢) فى الرقاق ، باب : التواضع ، بلفظ : « كنت سمعه الذى يسمع به . . . » أما لفظ : « فبى يسمع ، وبى يبصر ، ذكرها ابن حجر فى الفتح (١١ / ٣٤٤) .

**الثانى** : مسموع يبغضه ويكرهه ، ونهى عنه ، ومدح المعرضين عنه .

**الثالث** : مسموع مباح مأذون فيه ، لا يحبه ولا يبغضه ، ولا مدح صاحبه ولا ذمه ، فحكمه حكم سائر المباحات : من المناظر ، والمشام ، والمطعومات ، والملبوسات المباحة . فمن حرم هذا النوع الثالث فقد قال على الله ما لا يعلم ، وحرم ما أحل الله . ومن جعله دينا وقُربةً يتقرب به إلى الله ، فقد كذب على الله ، وشرع دينا لم يأذن به الله ، وضاهأ بذلك المشركين .

## فصل

**فأما النوع الأول** : فهو السماع الذى مدحه الله فى كتابه ، وأمر به وأثنى أصحابه ، وذم المعرضين عنه ولعنهم . وجعلهم أضل من الأنعام سبيلا ، وهم القائلون فى النار : **﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾** [ الملك ] وهو سماع آياته المتلوّة التى أنزلها على رسوله . فهذا السماع أساس الإيمان الذى يقوم عليه بناؤه ، وهو على ثلاثة أنواع : سماع إدراك : بحاسة الأذن ، وسماع فهم وعقل ، وسماع فهم وإجابة وقبول . والثلاثة فى القرآن .

فأما سماع الإدراك : ففى قوله تعالى حكاية عن مؤمنى الجن قولهم : **﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾** [ الجن ] ، وقوله : **﴿ يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى ﴾** [ الأحقاف : ٣٠ ]، فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والإجابة وأما سماع الفهم : فهو المنفى عن أهل الإعراض والغفلة بقوله تعالى : **﴿ فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾** [ الروم : ٥٢] ، وقوله : **﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾** [فاطر : ٢٢ ] .

فالتخصيص ههنا لإسماع الفهم والعقل ، وإلا فالسمع العام الذى قامت به الحجة : لا تخصيص فيه ، ومنه قوله تعالى **﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾** [ الانفال ] أى لو علم الله فى هؤلاء الكفار قبولاً وانقيادا لأفهمهم ، وإلا فهم قد سمعوا سَمْع الإدراك **﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾** أى ولو أفهمهم لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموا ؛ لأن فى قلوبهم من داعى التولى والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه .

وأما سماع القبول والإجابة : ففى قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين : أنهم قالوا ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [ النور : ٥١ ] فإن هذا سمع قبول وإجابة مثمر للطاعة .

والتحقيق : أنه متضمن للأنواع الثلاثة ، وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسموع وفهموه، واستجابوا له .

ومن سمع القبول : قوله تعالى ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُم ﴾ [ التوبة :٤٧ ] أى قابلون منهم مستجيبون لهم ، هذا أصح القولين فى الآية .

وأما قول من قال : عيون لهم وجواسيس ، فضعيف ، فإنه ـ سبحانه ـ أخبر عن حكمته فى تثبيطهم عن الخروج : بأن خروجهم يوجب الخبال والفساد ، والسعى بين العسكر بالفتنة ، وفى العسكر من يقبل منهم ، ويستجيب لهم ، فكان فى إقعادهم عنهم لطفا بهم ورحمة ، حتى لا يقعوا فى عَنَت القبول منهم .

أما اشتمال العسكر على جواسيس وعيون لهم : فلا تعلق له بحكمة التثبيط والإقعاد. ومعلوم أن جواسيسهم وعيونهم منهم ، وهو ـ سبحانه ـ قد أخبر أنه أقعدهم لئلا يسمعوا بالفساد فى العسكر ، ولئلا يبغوهم الفتنة ، وهذه الفتنة إنما تندفع بإقعادهم ، وإقعاد جواسيسهم وعيونهم .

وأيضا، فإن الجواسيس إنما تسمى«عيونا»هذا المعروف فى الاستعمال لا تسمى سماعين.

وأيضاً ، فإن نظير قوله تعالى فى إخوانهم اليهود : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [ المائدة : ٤٢ ] أى قابلون له .

والمقصود : أن سماع خاصة الخاصة المقربين : هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة إدراكاً وفهماً ، وتدبراً ، وإجابة . وكل سماع فى القرآن مدحَ الله أصحابه وأثنى عليهم ، وأمر به أولياءه : فهو هذا السماع .

وهو سماع الآيات لا سماع الأبيات ، وسماع القرآن لا سماع مزامير الشيطان ، وسماع كلام رب الأرض والسماء لا سماع قصائد الشعراء ، وسماع المراشد لا سماع القصائد ، وسماع الأنبياء والمرسلين لا سماع المغنين والمطربين .

فهذا السماع حاد يحدو القلوب ، إلى جوار علام الغيوب ، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح ، ومحرك يثير ساكن العزمات إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات ، ومناد ينادى للإيمان،ودليل يسير بالركب فى طريق الجنان ، وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح ، من قِبل فالق الإصباح « حَيّ على الفلاح ، حَيّ على الفلاح » .

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشاداً لحجة ، وتبصرة لعبرة ، وتذكرة لمعرفة ، وفكرة فى آية ، ودلالة على رشد ، ورداً على ضلالة ، وإرشاداً من غَى ، وبصيرة من عمى ، وأمراً بمصلحة ، ونهياً عن مضرة ومفسدة ، وهداية إلى نور ، وإخراجاً من ظلمة، وزجراً عن هوى ، وحثاً على تقى ، وجلاء لبصيرة ، وحياة لقلب ، وغذاء ودواء وشفاء، وعصمة ونجاة ، وكشف شبهة ، وإيضاح برهان ، وتحقيق حق ، وإبطال باطل .

ونحن نرضى بحكم أهل الذوق فى سماع الأبيات والقصائد ، ونناشدهم بالذى أنزل القرآن هدى وشفاء ونورا وحياة : هل وجدوا ذلك ـ أو شيئاً منه ـ فى الدف والمزمار ؟ ونغمة الشادن ومطربات الألحان ؟ والغناء المشتمل على تهيج الحب المطلق الذى يشترك فيه محب الرحمن ، ومحب الأوطان ، ومحب الإخوان ، ومحب العلم والعرفان ، ومحب الأموال والأثمان ، ومحب النسوان والمردان ، ومحب الصلبان . فهو يثير من قلب كل مشتاق ومحب لشىء ساكنه ، ويزعج قاطنه ، فيثور وجده ، ويبدو شوقه ، فيتحرك على حسب ما فى قلبه من الحب والشوق والوجد بذلك المحبوب كائناً ما كان ؛ ولهذا تجد لهؤلاء كلهم ذوقاً فى السماع ، وحالا ووجدا وبكاء .

ويالله العجب ! أى إيمان ونور وبصيرة وهدى ومعرفة تحصل باستماع أبيات بألحان وتوقيعات . لعل أكثرها قيلت فيما هو محرم يبغضه الله ورسوله ، ويعاقب عليه : من غزل وتشبيب بمن لا يحل له من ذكر أو أنثى ؟ فإن غالب التغزل والتشبيب : إنما هو فى الصور المحرمة . ومن أندر النادر تغزل الشاعر وتشبيبه فى امرأته ، وأمته وأم ولده ، مع أن هذا واقع لكنه كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود ، فكيف يقع لمن له أدنى بصيرة وحياة قلب : أن يتقرب إلى الله ، ويزداد إيماناً وقرباً منه وكرامة عليه ، بالتذاذه بما هو بغيض إليه ، مقيت عنده ، يمقت قائله والراضى به ؟ وتترقى به الحال حتى يزعم أن ذلك أنفع لقلبه من سماع القرآن والعلم النافع ، وسنة نبيه ﷺ ؟ ! .

يالله ! إن هذا القلب مخسوف به ، ممكور به منكوس . لم يصلح لحقائق القرآن وأذواق معانيه ، ومطالعة أسراره، فبلاه بقران الشيطان ، كما فى معجم الطبرانى وغيره ـ مرفوعاً وموقوفاً : « إن الشيطان قال : يارب ، اجعل لى قرآناً . قال : قرآنك الشعر . قال: اجعل لى كتاباً . قال كتابك الوشم . قال : اجعل لى مؤذناً . قال : مؤذنك المزمار ، قال : اجعل لى بيتاً . قال بيتك الحمام ، قال : اجعل لى مصائد . قال : مصائدك

---

(١) الطبرانى فى الكبير ٨ / ٢٤٥ (٧٨٣٧) ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨ / ١٢٢) فى الأدب ، باب : ما جاء فى الشعر والشعراء وقال : « رواه الطبرانى وفيه على بن يزيد الألهانى وهو ضعيف » .

النساء. قال اجعل لى طعاماً . قال طعامك ما لم يذكر عليه اسمى »[1] والله سبحانه وتعالى أعلم .

# فصل

## القسم الثانى من السماع :

ما يبغضه الله ويكرهه . ويمدح المعرض عنه . وهو سماع كل ما يضر العبد فى قلبه ودينه ، كسماع الباطل كله ، إلا إذا تضمن رده وإبطاله والاعتبار به وقَصَدَ أن يعلم به حسن ضده ، فإن الضد يظهر حسنة الضد ، كما قيل :

وإذا سمعتُ إلى حديثك زادنى      حباً له : سمعى حديث سواكا

وكسماع اللغو الذى مدح التاركين لسماعه ، والمعرضين عنه بقوله : ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ** ﴾ [ القصص: ٥٥ ] ، وقوله : ﴿**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا**﴾ [ الفرقان : ٧٢].

قال محمد بن الحنفية :هو الغناء ، وقال الحسن أو غيره : أكرموا نفوسهم عن سماعه.

قال ابن مسعود « الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » ، وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته ، فإنه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو لا يشعر .

ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره فى قلبه ، فإنه ما اجتمع فى قلب عبد قط محبة الغناء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخرى ، وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن على أهل الغناء وسماعه ، وتَبَرُّمهم به ، وصياحهم بالقارئ إذا طول عليهم ، وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرأه ، فلا تتحرك ولا تطرب ، ولا تهيج منها بواعث الطلب . فإذا جاء قرآن الشيطان فلا إله إلا الله ، كيف تخشع منهم الأصوات ، وتهدأ الحركات ، وتسكن القلوب وتطمئن ، ويقع البكاء والوجد ، والحركة الظاهرة والباطنة ، والسماحة بالأثمان والثياب ، وطيب السهر ، وتمنى طول الليل ، فإن لم يكن هذا نفاقاً فهو أخيَّة النفاق وأساسه .

تُلِىَ الكتاب فأطرقوا ،لا خِيفة      لكنه إطراق ساه لاهى
وأتى الغناء فكالذباب ترقصوا      والله مارقصوا من أُجل الله
دُفٌّ ، ومزمار ، ونغمة      فمتى شهدتَ عبادة بملاهى

---

(١) الطبرانى فى الكبير ٨ / ٢٤٥ ( ٧٨٣٧ ) ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ( ٨ / ١٢٢ ) فى الأدب ، باب ما جاء فى الشعر والشعراء ، وقال: رواه الطبرانى ، وفيه على بن يزيد الألهانى وهو ضعيف .

ثقل الكتاب عليهمُ لما رأوا تقييده بأوامر ونواهى
وعليهمُ خَفَّ الغنا لما رأوا إطلاقه فى اللهو دون مناهى
يا فِرْقَةً ماضَرَّ دينَ محمد وَجَنَى عليه ومَلَّه إلا هى
سمعوا له رَعْدًا وبَرْقًا إذ حوى زجراً وتخويفاً بفعل مناهى
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن شهواتها . ياويحها المتناهى
وأتى السماع موافقاً أغراضها فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه
أين المساعد للهوى من قاطع أسبابه عند الجهول الساهى
إن لم يكن خمر الجسوم . فإنه خمر العقول مماثل ومضاهى
فانظر إلى النشوان عند شرابه وانظر إلى النشوان عند تلاهى
وانظر إلى تمزيق ذا أثوابه من بعد تمزيق الفؤاد اللاهى
فاحكم بأى الخمرتين أحق الـ تحريم والتأثيم عند الله

وكيف يكون السماع الذى يسمعه العبد بطبعه وهواه ، أنفع له من الذى يسمعه بالله ولله وعن الله ؟ فإن زعموا أنهم يسمعون هذا السماع الغنائى الشعرى كذلك . فهذا غاية اللبس على القوم ، فإنه إنما يسمع بالله وعن الله ما يحبه الله ويرضاه ؛ ولهذا قلنا : إنه لا يتحرر الكلام فى هذه المسألة إلا بعد معرفة صورة المسموع وحقيقته ومرتبته ، فقد جعل الله لكل شىء قدرا ، ولن يجعل الله مَنْ شربه ونصيبه وذوقه ووجده من سماع الآيات البينات ، كمن نصيبه وشربه وذوقه ووجده من سماع الغناء والأبيات .

ومن أعجب العجائب : استدلال من استدل على أن هذا السماع من طريق القوم ، وأنه مباح : بكونه مستلذاً طبعاً ، تلذه النفوس ، وتستروح إليه ، وأن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب ، والجمل يقاسى تعب السير ومشقة الحمولة ، فيهون عليه بالحداء ، وبأن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه ، وزيادة فى خلقه ، وبأن الله ذم الصوت الفظيع ، فقال ﴿ **إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ⑲ ﴾ [ لقمان ] وبأن الله وصف نعيم أهل الجنة ،فقال فيه : ﴿ **فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ** ⑮ ﴾ [ الروم ] . وأن ذلك هو السماع الطيب ، فكيف يكون حراماً وهو فى الجنة ؟ وبأن الله تعالى ما أذن لشىء كأذَنه ـ أى كاستماعه ـ لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن . وبأن أبا موسى الأشعرى استمع النبى ﷺ إلى صوته ،

وأثنى عليه بحسن الصوت ، وقال : « لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود » (١) فقال له أبو موسى : « لو علمت أنك استمعت لحبرته لك تحبيرا » أى زينته لك وحسنته ، وبقوله ﷺ : « زينوا القرآن بأصواتكم » (٢) وبقوله ﷺ : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » (٣)والصحيح : أنه من التغنى بمعنى تحسين الصوت . وبذلك فسره الإمام أحمد ـ رحمة الله ـ فقال : يحسنه بصوته ما استطاع .

وبأن النبى ﷺ أقر عائشة على غناء القَينتين يوم العيد . وقال لأبى بكر : « دعهما ، فإن لكل قوم عيدا ، وهذا عيدنا أهلَ الإسلام »(٤) .

وبأنه ﷺ أذن فى العرس فى الغناء وسماه لهواً ، وقد سمع رسول الله ﷺ الحداء . وأذن فيه . وكان يسمع أنساً والصحابة ، وهم يرتجزون بين يديه فى حفر الخندق :

نحن الذين بايعوا محمد ... على الجهاد ما بقينا أبدا

ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة ، وحدا به الحادى فى منصرفه من خيبر ، فجعل يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الذين قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا
ونحن إن صِيح بنا . أتينا ... وبالصياح عوَّلوا علينا

ونحن عن فضلك ما استغنينا

(١) البخارى (٥٠٤٨) فى فضائل القرآن ، باب : حُسْن الصوت بالقراءة للقرآن ، ومسلم (٧٩٣ / ٢٣٦) فى صلاة المسافرين ، باب : استحباب تحسين الصوت بالقرآن ، والترمذى (٣٨٥٥) فى المناقب ، باب : فى مناقب أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه .

(٢) البخارى معلقا ( الفتح ١٣ / ٥١٨) وأبو داود (١٤٦٨) فى الصلاة ، باب : استحباب الترتيل فى القراءة ، والنسائى (١٠١٥) فى الافتتاح ، باب : تزيين القرآن بالصوت ، وابن ماجه (١٣٤٢) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : فى حسن الصوت بالقرآن ، وأحمد (٤ / ٢٨٣) .

(٣) البخارى (٧٥٢٧) فى التوحيد ، باب : قول الله تعالى : ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ وأبو داود (١٤٧٣) فى الصلاة ، باب : استحباب الترتيل فى القراءة ، بمعناه .

(٤) البخارى (٩٥٢) فى العيدين ، باب : سنة العيدين لأهل الإسلام ، وابن ماجه (١٨٩٨) فى النكاح ، باب : الغناء والدف ، وأحمد (٦ / ١٨٦ ، ١٨٧) كلهم دون لفظة : « وأهل الإسلام » .

فدعا لقائله .

وسمع قصيدة كعب بن زهير ، وأجازه ببردة .

واستنشد الأسود بن سريع قصائد حَمِدَ بها ربه .

واستنشد من شعر أمية بن أبى الصلت مائة قافية .

وأنشده الأعشَى شيئاً من شعره فسمعه .

وصَدَّق لبيداً فى قوله .

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

ودعا لحسان أن يؤيده الله بروح القدس ما دام ينافح عنه ، وكان يعجبه شعره . وقال له : « اهْجُهم ، وروح القدُس معك » (١) .

وأنشدته عائشة قول أبى كبير الهذلى :

ومبـرأ مـن كـل غُبَّـر حيضة     وفسـاد مرضـعة وداء مُغـيل
وإذا نظـرت إلـى أسِرّة وجهه     برقـت كبـرق العـارض المتهلل

وقالت : « أنت أحق بهذا البيت » فسُرَّ بقولها .

وبأن ابن عمر ﷺ رخص فيه ، وعبد الله بن جعفر ، وأهل المدينة ، وبأن كذا وكذا ولياً لله حضروه وسمعوه ، فمن حرمه فقد قدح فى هؤلاء السادة القدوة الأعلام .

وبأن الإجماع منعقد على إباحة أصوات الطيور المطربة الشجية ، فلذة سماع صوت الآدمى أولى بالإباحة ، أو مساوية .

وبأن السماع يحدو روح السامع وقلبه إلى نحو محبوبه ، فإن كان محبوبه حرامًا كان السماع معيناً له على الحرام ، وإن كان مباحاً كان السماع فى حقه مباحا ، وإن كانت محبته رحمانية كان السماع فى حقه قربة وطاعة ؛ لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويقويها ويهيجها .

وبأن التذاذ الأذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن ، والشم بالروائح الطيبة، والفم بالطعوم الطيبة ، فإن كان هذا حراماً كانت جميع هذه اللذات والإدراكات محرمة .

---

(١) البخارى (٤١٢٣ ، ٤١٢٤) فى المغازى ، باب : مرجع النبى ﷺ من الأحزاب ، ومسلم (٢٤٨٦ / ١٥٣) فى فضائل الصحابة ، باب : فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه ، وأحمد (٤ / ٢٨٦) .

فالجواب : أن هذه حَيْدة عن المقصود ، وروغان عن محل النزاع ، وتعلق بما لا متعلق به ، فإن جهة كون الشيء مستلذاً للحاسة ملائما لها ، لا يدل على إباحته ولا تحريمه ، ولا كراهته ولا استحبابه ؛ فإن هذه اللذة تكون فيما فيه الأحكام الخمسة : تكون فى الحرام ، والواجب ، والمكروه ، والمستحب ، والمباح . فكيف يستدل بها على الإباحة من يعرف شروط الدليل ، ومواقع الاستدلال ؟ .

وهل هذا إلا بمنزلة من استدل على إباحة الزنا بما يجده فاعله من اللذة ، وأن لذته لا ينكرها من له طبع سليم ، وهل يستدل بوجود اللذة والملاءمة على حل اللذيذ الملائم أحد؟ وهل خلت غالب المحرمات من اللذات ؟ وهل أصوات المعازف التى صح عن النبى ﷺ تحريمها ، وأن فى أمته من سيستحلها بأصح إسناد (١) ، وأجمع أهل العلم على تحريم بعضها . وقال جمهورهم : بتحريم جملتها ـ إلا لذيذة تلذ السمع ؟ وهل فى التذاذ الجمل والطفل بالصوت الطيب دليل على حكمه : من إباحة ، أو تحريم ؟

وأعجب من هذا : الاستدلال على الإباحة بأن الله خلق الصوت الطيب ، وهو زيادة نعمة منه لصاحبه .

فيقال : والصورة الحسنة الجميلة ، أليست زيادة فى النعمة ، والله خالقها ، ومعطى حسنها ؟ أفيدل ذلك على إباحة التمتع بها ، والالتذاذ على الإطلاق بها ؟ وهل هذا إلا مذهب أهل الإباحة الجارين مع رسوم الطبيعة ؟

وهل فى ذم الله لصوت الحمار ما يدل على إباحة الأصوات المطربات بالنغمات الموزونات ، والألحان اللذيذات ، من الصور المستحسنات ، بأنواع القصائد المنغمات ، بالدفوف والشبابات ؟ ! .

وأعجب من هذا : الاستدلالُ على الإباحة بسماع أهل الجنة ، وما أجدر صاحبه أن يستدل على إباحة الخمر بأن فى الجنة خمراً ، وعلى حل لباس الحرير بأن لباس أهلها حرير ، وعلى حِلّ أوانى الذهب والفضة والتحلى بهما للرجال : بكون ذلك ثابتاً وجود النعيم به فى الجنة .

فإن قال : قد قام الدليل على تحريم هذا ، ولم يقم على تحريم السماع .

قيل : هذا استدلال آخر غير استدلال بإباحته لأهل الجنة ، فعلم أن استدلالكم بإباحته لأهل الجنة استدلال باطل ، لا يرضى به محصل .

(١) البخارى (٥٥٩٠) فى الأشربة ، باب : ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه .

وأما قولكم : « لم يقم دليل على تحريم السماع » .

فيقال لك : أى السماعات تعنى ؟ وأى المسموعات تريد؟ فالسماعات والمسموعات منها : المحرم ، والمكروه ، والمباح ، والواجب ، والمستحب ، فعيّن نوعاً يقع الكلام فيه نفياً وإثباتا .

فإن قلت : سماع القصائد ، قيل لك : أى القصائد تعنى ؟ ما مُدح به الله ورسوله ودينه وكتابه ، وهجى به أعداؤه ؟ .

فهذه لم يزل المسلمون يروونها ويسمعونها ويتدارسونها ، وهى التى سمعها رسول الله ﷺ وأصحابه وأثاب عليها ، وحرض حساناً عليها ، وهى التى غَرَّت أصحاب السماع الشيطانى ، فقالوا : تلك قصائد ، وسماعنا قصائد ، فنعم إذن . والسنة كلام ، والبدعة كلام ، والتسبيح كلام ، والغيبة كلام ، والدعاء كلام ، والقذف كلام ، ولكن هل سمع رسول الله ﷺ وأصحابه سماعكم هذا الشيطانى المشتمل على أكثر من مفسدة مذكورة فى غير هذا الموضع ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى بعضها ؟ .

ونظير هذا : ماغرهم من استحسانه ﷺ الصوت الحسن بالقرآن ، وأَذَنه له وإذنه فيه، ومحبة الله له .

فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان والمردان وغيرهم ، بالغناء المقرون بالمعازف والشاهد ، وذكر القَدّ والنهد والخصر ، ووصف العيون وفعلها ، والشعر الأسود ، ومحاسن الشباب ، وتوريد الخدود ، وذكر الوصْل والصد ، والتجنى والهجران ، والعتاب والاستعطاف ، والاشتياق ، والقلق والفراق ، وما جرى هذا المجرى . مما هو أفسد للقلب من شرب الخمر ، بما لا نسبة بينهما ، وأى نسبة لمفسدة سكر يوم ونحوه إلى سكرة العشق التى لا يستفيق الدهر صاحبها إلا فى عسكر الهالكين ، سليباً حريباً ، أسيراً قتيلا؟.

وهل تقاس سكرة الشراب بسكرة الأرواح بالسماع ؟ وهل يظن بحكيم أن يحرم سكرًا لمفسدة فيه معلومة ، ويبيح سكراً مفسدته أضعاف أضعاف مفسدة الشراب ؟ حاشا أحكم الحاكمين .

فإن نازعوا فى سكر السماع ، وتأثيره فى العقول والأرواح ، خرجوا عن الذوق والحس ،وظهرت مكابرة القوم ، فكيف يحمى الطبيب المريض عما يشوش عليه صحته ، ويبيح له ما فيه أعظم السقم ؟ والمنصف يعلم أنه لا نسبة بين سقم الأرواح بسكر الشراب، وسقمها بسكر السماع ، وكلامنا مع واجد لافاقد . فهو المقصود بالخطاب .

وأعجب من هذا : استدلالكم على إباحة السماع ـ المركب مما ذكرنا من الهيئة الاجتماعية ـ بغناء بنيتين صغيرتين دون البلوغ ، عند امرأة صبية فى يوم عيد وفرح ، بأبيات من أبيات العرب ، فى وصف الشجاعة والحروب ، ومكارم الأخلاق والشيم . فأين هذا من هذا ؟ .

والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم ، فإن الصديق الأكبر رضي الله عنه سمى ذلك « مزموراً من مزامير الشيطان » ، وأقره رسول الله ﷺ على هذه التسمية ، ورخص فيه لجويريتين غير مكلفتين ، ولا مفسدة فى إنشادهما ، ولا استماعهما . أفيدل هذا على إباحة ما تعملونه وتعلمونه من السماع المشتمل على مالا يخفى ؟ فياسبحان الله ، كيف ضلت العقول والأفهام ؟ .

وأعجب من هذا كله : الاستدلال على إباحته بما سمعه رسول الله ﷺ من الحداء المشتمل على الحق والتوحيد ، وهل حرم أحد مطلق الشعر ، وقوله واستماعه ؟ فكم فى هذا التعلق ببيوت العنكبوت ؟ .

وأعجب من هذا : الاستدلال على إباحته بإباحة أصوات الطيور اللذيذة . وهل هذا إلا من جنس قياس الذين قالوا : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ [ البقرة : ٢٧٥] وأين أصوات الطيور إلى نغمات الغيد الحسان ، والأوتار والعيدان ، وأصوات أشباه النساء من المردان ، والغناء بما يحدو الأرواح والقلوب ، إلى مواصلة كل محبوبة ومحبوب ؟ وأين الفتنة بهذا إلى الفتنة بصوت القِمْرى والبلبل والهزاز ونحوها ؟ .

بل نقول : لو كانا سواء لكان اتخاذ هذا السماع قربة وطاعة تستنزل به المعارف والأذواق والمواجيد ، وتحرك به الأحوال بمنزلة التقرب إلى الله بأصوات الطيور ، ومعاذ الله أن يكونا سواء .

والذى يفصل النزاع فى حكم هذه المسألة ثلاث قواعد ، من أهم قواعد الإيمان والسلوك ، فمن لم يبن عليها فبناؤه على شفا جُرُف هار :

**القاعدة الأولى :**

أن الذوق والحال والوجد: هل هو حاكم أو محكوم عليه ، فيحكم عليه بحاكم آخر ، ويتحاكم إليه ؟ .

فهذا منشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة ، حيث جعلوه حاكما، فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتنع ، وفيما هو صحيح وفاسد ، وجعلوه محكًا للحق

والباطل، فنبذوا لذلك موجب العلم والنصوص ، وحكموا فيها الأذواق والأحوال والمواجيد ، فعظم الأمر ، وتفاقم الفساد والشر ، وطمست معالم الإيمان والسلوك المستقيم ، وانعكس السير ، وكان إلى الله ، فصيروه إلى النفوس ، فالناس المحجوبون عن أذواقهم يعبدون الله ، وهؤلاء يعبدون نفوسهم .

ومن العجب : أنهم دخلوا فى أنواع الرياضات والمجاهدات والزهد ، ليتجردوا عن شهوات النفوس وحظوظها ، فانتقلوا من شهوات إلى شهوات أكبر منها ، ومن حظوظ إلى حظوظ أحط منها . وكان حالهم فى شهوات نفوسهم التى انتقلوا عنها أكمل ، وحال أربابها خير من حال هؤلاء ؛ لأنهم لم يعارضوا بها العلم ، ولا قدموها على النصوص ، ولا جعلوها ديناً وقربة ، ولا ازدروا من أجلها العلم وأهله . والشهوات التى انتقلوا إليها جعلوها أعلى ما يشمرون إليها ، فهى قبلة قلوبهم ، فهم حولها عاكفون ، واقفون مع حظوظهم من الله ، فانون بها عن مراد الله منهم ، الناس يعبدون الله ، وهم يعبدون أنفسهم ، عائبون على أهل الحظوظ والشهوات ومزدرون لهم . وهم أعظم الناس حظوظاً. وإنما زهدوا فى حظ إلى حظ أعلى منه ، وإنما تركوا شهوة لشهوة أحط .

فليتدبر اللبيب هذا الموضع فى نفسه وفى غيره ، فكل ما خالف مراد الله الدينى من العبد فهو حظه وشهوته ، مالاً كان ، أو رياسة ، أو صورة ، أو حالا ، أو ذوقاً ، أو وجداً .

ثم من قدمه على مراد الله فهو أسوأ حالا ممن عرف أنه نقص ومحنة ، وأن مراد الله أولى بالتقديم منه ، فهو يتوب منه كل وقت إلى الله .

ثم إنه وقع من تحكيم الذوق من الفساد مالا يعلمه إلا الله ، فإن الأذواق مختلفة فى أنفسها ، كثيرة الألوان ، متباينة أعظم التباين ، فكل طائفة لهم أذواق وأحوال ومواجيد ، بحسب معتقداتهم وسلوكهم .

فالقائلون بوحدة الوجود لهم ذوق وحال ووجد فى معتقدهم بحسبه ، والنصارى لهم ذوق فى النصرانية بحسب رياضتهم وعقائدهم ، وكل من اعتقد شيئاً أو سلك سلوكا ـ حقاً كان أو باطلا ـ فإنه إذا ارتاض وتجرد ، لزمه . وتمكن من قلبه ، وبقى له فيه حال وذوق ووجد . فيذوق من توزن الحقائق إذن ويعرف الحق من الباطل .

وهذا سيد أهل الأذواق والمواجيد ، والكشوف والأحوال ، من هذه الأمة المحدَّث المكاشف ـ عمر رضي الله عنه ـ لا يلتفت إلى ذوقه ووجده ومخاطباته فى شىء من أمور الدين ،

حتى ينشد عنه الرجال والنساء والأعراب . فإذا أخبروه عن رسول الله ﷺ بشيء لم يلتفت إلى ذوقه ، ولا إلى وجده وخطابه ، بل يقول : « لو لم نسمع بهذا لقضينا بغيره » ، ويقول : « أيها الناس ، رجل أخطأ وامرأة وأصابت » ، فهذا فعل الناصح لنفسه وللأمة رضي الله عنه ، ليس كفعل من غش نفسه والدين والأمة .

**القاعدة الثانية :**

أنه إذا وقع النزاع فى حكم فعل من الأفعال ، أو حال من الأحوال ، أو ذوق من الأذواق . هل هو صحيح أو فاسد ؟ وحق أو باطل ؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين ، وهى وحيه الذى تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه . وتعرض عليه وتوزن به ، فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول ، وما أبطله ورده فهو الباطل المردود ، ومن لم يَبْنِ على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله ، فليس على شىء من الدين ، وإن وإن . وإنما معه خدع وغرور : ﴿ **كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (٣٩) ﴾ [ النور ] .

**القاعدة الثالثة :**

إذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شىء هل هو الإباحة أو التحريم ؟ فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته ، فإن كان مشتملا على مفسدة راجحة ظاهرة ، فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته ، بل العلم بتحريمه من شرعه قطعى ، ولا سيما إذا كان طريقاً مفضيا إلى ما يغضب الله ورسوله موصلا إليه عن قرب ، وهو رُقْية لهورائد وبَريد . فهذا لا يشك فى تحريمه أولو البصائر ، فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر ؛ لأنه يسوق النفس إلى السكر الذى يسوقها إلى المحرمات ثم يبيح ما هو أعظم منه سَوْقاً للنفوس إلى الحرام بكثير ؟ فإن الغناء ـ كما قال ابن مسعود رضي الله عنه ـ هو « رقية الزنا » ، وقد شاهد الناس أنه ما عاناه صبى إلا وفسد ، ولا امرأة إلا وبغت ، ولا شاب إلا وإلا ، ولا شيخ إلا وإلا . والعيان من ذلك يغنى عن البرهان ، ولا سيما إذا جمع هيئة تحدوا النفوس أعظم حَدْوٍ إلى المعصية والفجور ، بأن يكون على الوجه الذى ينبغى لأهله ، من المكان والإمكان، والعُشراء والإخوان ،وآلات المعازف: من اليَراع ، والدُّف ، والأوتار والعيدان . وكان القَوَّال شادنا شَجِىَّ الصوت ، لطيف الشمائل من المردان أو النسوان ،وكان القول فى العشق والوصال ، والصد والهجران .

ودارت كـؤوس الـهوى بينهم فلسـت تـرى فيـهم صاحيا
فـكـلٌ عـلى قـدر مشـروبه وكـل أجاب الـهوى الداعـيا
فـمالوا سكارى ،وسكـارَ من تـناول أمَّ الـهـوى خـالـيا
وجـار عـلـى القـوم ساقيـهم ولـم يؤثـروا غـيره ساقـيا
فـمزَّق مـنهم قلوبًا غـدت لـباسا عـلـيه يُرى ضـافيا
فـلـم يستفيقوا إلى أن أتـى إلـيهـم مـنادى الـلقا داعـيا
أجيبـوا . فـكـل امرئ مـنكم عـلـى حـالـهِ ربَّه لاقـيا
هنـالـك تـعلـم مـنْ حـمأة شَرِبْتَ مـع القوم ، أم صافيا ؟
وبـالـله لابـد قبـل اللـقا ستـعلم ذا إن تـكُ واعـيا
لابـد تـصـحـو فإما هـنا وإمـا هنـاك فـكـن راضـيا

## فصل

وإذا لم يكن بُدٌّ من المحاكمة إلى الذوق ، فهلم نحاكمك إلى ذوق لاننكره نحن ولا أنت ، غير هذه الأذواق التى ذكرناها .

فالقلب يعرض له حالتان: حالة حزن وأسف على مفقود ،وحالة فرح ورضا بموجود ، وله بمقتضى هاتين الحالتين عبوديتان .

وله بمقتضى الحالة الأولى : عبودية الرضاء ، وهى للسابقين . والصبر ، وهى لأصحاب اليمين .

وله بمقتضى الحالة الثانية : عبودية الشكر . والشاكرون فيها أيضاً نوعان :

سابقون ، وأصحاب يمين . فاقتطعته النفس والشيطان عن هاتين العبوديتين ، بصوتين أحمقين فاجرين ، هما للشيطان لا للرحمن : صوت الندب والنياحة عند الحزن وفوات المحبوب ، وصوت اللهو والمزمار والغناء عند الفرح وحصول المطلوب ، فعوضَّه الشيطان بهذين الصوتين عن تينك العبوديتين .

وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المعنى بعينه فى حديث أنس رضي الله عنه : « إنما نهيتُ عن

صوتين أحمقين ، فاجرين : صوت ويْلٍ عند مصيبة ، وصوت مزمار عند نعمة » (١) .

ووافق ذلك راحة من النفس وشهوة ولذة ، وسَرَتْ فيها تلك الرقائق حتى تَعبَّد بها من قَلَّ نصيبه من النور النبوى ، وقَلَّ مشربه من العين المحمدية ، وانضاف ذلك إلى صدق وطلب وإرادة مضادة لشهوات أهل الغى وأهل البطالة ، ورأوا قساوة قلوب المنكرين لطريقتهم ، وكثافة حجبهم ، وغلظة طباعهم ، وثقل أرواحهم ، وصادف ذلك تحريكا لسواكنهم ، وانقيادا للواعج الحب ، وإزعاجاً للنفوس إلى أوطانها الأولى ، ومعاهدها التى سبيت منها ، والنفوس الطالبة المرتاضة السائرة لابد لها من محرك يحركها ، وحادٍ يحدوها ، وليس لها من حادى القرآن عوض عن حادى السماع .

فتركب من هذه الأمور : إيثار منهم للسماع ، ومحبة صادقة له ، تزول الجبال عن أماكنها ولا تفارق قلوبهم ، إذ هو مثير عزماتهم ومحرك سواكنهم ، ومزعج بواطنهم .

فدواء صاحب مثل هذا الحال : أن ينقل بالتدريج إلى سماع القرآن بالأصوات الطيبة، مع الإمعان فى تفهم معانيه ، وتدبر خطابه قليلا قليلا ، إلى أن ينخلع من قلبه سماع الأبيات ، ويلبس محبة سماع الآيات ، ويصير ذوقه وشربه وحاله ووجده فيه . فحينئذ يعلم هو من نفسه : أنه لم يكن على شىء ، ويتمثل حينئذ بقول القائل :

وكنت أرى أنْ قد تناهى بى الهوى ... إلى غاية ما فوقها لى مطلب
فلما تلاقينا وعاينت حسنها ... تيقنت أنى إنما كنت ألعب

ومنافاة النوح للصبر والغناء للشكر أمر معلوم بالضرورة من الدين ، لا يمترى فيه إلا أبعد الناس من العلم والإيمان ، فإن الشكر هو الاشتغال بطاعة الله لا بالصوت الأحمق الفاجر ، الذى هو للشيطان . وكذلك النوح ضد الصبر ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فى النائحة ـ وقد ضربها حتى بدا شعرها ـ وقال : « لا حرمة لها ، إنها تأمر بالجزع ، وقد نهى الله عنه . وتنهى عن الصبر ، وقد أمر الله به ، وتفتن الحى وتؤذى الميت ، وتبيع عبرتها ، وتبكى شَجْو غيرها » .

ومعلوم عند الخاصة والعامة أن فتنة سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنة النوح بكثير، والذى شاهدناه ـ نحن وغيرنا ـ وعرفناه بالتجارب أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو فى قوم ، وفشت فيهم ، واشتغلوا لها ، إلا سلط الله عليهم العدو وبلوا بالقَحْط والجَدْب

---

(١) الترمذى (١٠٠٥) فى الجنائز ، باب : ما جاء فى الرخصة فى البكاء على الميت ، وقال : « حديث حسن » .

وولاة السوء ، والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر ، والله المستعان .

ولا تستطل كلامنا فى هذه المنزلة ، فإن لها عند القوم شأناً عظيما .

وأما قولهم : « من أنكر على أهله فقد أنكر على كذا وكذا ولى لله » فحجة عامية ، نعم إذا أنكر أولياء الله على أولياء الله كان ماذا ؟ فقد أنكر عليهم من أولياء الله من هو أكثر منهم عدداً ، وأعظم عند الله وعند المؤمنين منهم قدرا، وأقرب بالقرون المفضلة عهدا . وليس من شرط ولى الله العصمة ، وقد تقاتل أولياء الله فى صِفين بالسيوف ، ولما سار بعضهم إلى بعض كان يقال : سار أهل الجنة إلى أهل الجنة ، وكونُ ولى الله يرتكب المحظور والمكروه متأوّلا أو عاصيا لا يمنع ذلك من الإنكار عليه ، ولا يخرجه عن أصل ولاية الله . وهيهات هيهات أن يكون أحد من أولياء الله المتقدمين حضر هذا السماع المحدث المبتدع ، المشتمل على هذه الهيئة التى تفتن القلوب ، أعظم من فتنة المشروب ، وحاشا أولياء من ذلك ، وإنما السماع الذى اختلف فيه مشايخ القوم : اجتماعهم فى مكان خال من الأغيار يذكرون الله ، ويتلون شيئاً من القرآن ، ثم يقوم بينهم قوال ينشدهم شيئاً من الأشعار المزهدة فى الدنيا ، المرغبة فى لقاء الله ومحبته ، وخوفه ورجائه ، والدار الآخرة ، وينبههم على بعض أحوالهم من يقظة أو غفلة ، أو بُعد أو انقطاع ، أو تأسف على فائت ، أو تدارك لفارط ، أو وفاء بعهد ، أو تصديق بوعد ، أو ذكر قلق وشوق ، أو خوف فرقة أو صد ، وما جرى هذا المجرى .

فهذا السماع الذى اختلف فيه القوم ، لا سماع المكاء والتصدية ، والمعازف والخمريات، وعشق الصور من المردان والنسوان ، وذكر محاسنها ووصالها وهجرانها ، فهذا لو سئل عنه من سئل من أولى العقول لقضى بتحريمه ، وعلم أن الشرع لا يأتى بإباحته ، وأنه ليس على الناس أضر منه ، ولا أفسد لعقولهم وقلوبهم وأديانهم وأموالهم وأولادهم وحريمهم منه ، والله أعلم .

## فصل

قال صاحب المنازل : « السماع على ثلاث درجات : سماع العامة ؛ وهو ثلاثة أشياء : إجابة زجر الوعيد رغبة ، وإجابة دعوة الوعد جهداً ، وبلوغ مشاهدة المنة استبصاراً » .

الوعيد: يكون على ترك المأمور وفعل المحظور، وإجابة داعيه: هو العمل بالطاعة .

وقوله : « رغبة » يعنى امتثالاً لكون الله تعالى أمر ونهى وأوعد .

وحقيقة الرجاء : الخوف والرجاء ، فيفعل ما أمر به على نور الإيمان ، راجياً للثواب، ويترك ما نهى عنه على نور الإيمان خائفاً من العقاب .

وفى الرغبة فائدة أخرى ؛ وهى أن فعله يكون فعل راغب مختار ، لا فعل كاره ، كأنما يساق إلى الموت وهو ينظر .

وأما إجابة الوعد جهداً : فهو امتثال الأمر طلباً للوصول إلى الموعود به ، باذلاً جهده فى ذلك ، مستفرغاً فيه قواه .

وأما بلوغ مشاهدة المنة استبصاراً : فهو تنبيه السامع فى سماعه إلى أن جميع ما وصله من خير فمن منة الله عليه ، وبفضله عليه من غير استحقاق منه ، ولا بذل عوض استوجب به ذلك . كما قال تعالى : ﴿ **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴿١٧﴾ ﴾ [ الحجرات ] وكذلك يشهد أن ما زوى عنه من الدنيا ، أو ما لحقه منها من ضرر وأذى فهو مِنَّةٌ ـ أيضاً ـ من الله عليه من وجوه كثيرة، ويستخرجها الفكر الصحيح ، كما قال بعض السلف : « يا بن آدم ، لا تدرى أى النعمتين عليك أفضل : نعمته فيما أعطاك ، أو نعمته فيما زَوَى عنك ؟ » ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لا أبالى على أى حال أصبحت أو أمسيت ، إن كان الغنى ، إن فيه لَلشُّكْر ، وإن كان الفقر ، إن فيه لَلصبّر » وقال بعض السلف : « نعمته فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لى منها ، إنى رأيته أعطاها قوما فاغتروا » .

إذا عَـمَّ بالسـراء أعـقب شكرها ... وإن مَسَّ بالـضـراء أعـقبها الأجـر
ومـا منـهـما إلا لـه فـيه نعـمة ... تضيق بها الأوهام والبَرُّ والبحر

فإن قلت : فهل يشهد مِنَّتَه فيما لحقه من المعصية والذنب ؟

قلت : نعم . إذا اقترن بها التوبة النصوح ، والحسنات الماحية ، كانت من أعظم المنن عليه .

## فصل

قال : « وسماع الخاصة : ثلاثة أشياء ؛ شهود المقصود فى كل رمز ، والوقوف على الغاية فى كل حين ، والخلاص من التلذذ بالتفرق » .

والمقصود فى كل رمز : هو الرب تبارك وتعالى ، فإن المسموع كله يُعَرِّف به وبصفاته

وأسمائه ، وأفعاله وأحكامه ، ووعده وعيده ، وأمره ونهيه ، وعدله وفضله ، وهذا الشهود ينال بالسماع بالله ولله وفى الله ومن الله .

أما السماع به : فألا يسمع وفيه بقية من نفسه ، فإن كانت فيه بقية قطعها كمال تعلقه بالمسموع ، فيكون سماعه بقيوميته مجرداً من التفاته إلى نفسه .

وأما السماع له : فأن يجرد النفس فى السماع من كل إرادة تزاحم مراد الله منه ، وتجمع قوى سمعه على تحصيل مراد الله من المسموع .

وأما السماع فيه : فشأن آخر ؛ وهو تجريد ما لا يليق نسبته إلى الحق من وصف ، أو سمة أو نعت ، أو فعل ، مما هو لائق بكماله ، فيثبت له ما يليق بكماله من المسموع ، وينزهه عما لا يليق به .

وهذا الموضع لم يتخلص فيه إلا الراسخون فى العلم والمعرفة بالله ، وأضل الله عنه أهل التحريف والتعطيل ، والتشبيه والتمثيل : ﴿ **فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** (٢١٣) ﴾ [ البقرة ] .

وأما السماع منه : فإنما يتصور بواسطة . فهو سماع مقيد . وأما المطلق : فلا مطمع فيه فى عالم الفناء ، إلا لمن اختصه الله برسالاته وبكلامه ، ولكن السماع لكلامه كالسماع منه ، فإنه كلامه الذى تكلم به حقًا ، فمن سمعه فليقدر نفسه كأنه يسمعه من الله .

هذا هو السماع من الله ، لا سماع أرباب الخيال ، ودعوى المحال ، القائل أحدهم : نادانى فى سرى ، وخاطبنى ، وقال لى : يا ليت شعرى من المنادى لك ؟ ومن المخاطِب، يا مخدوع يا مغرور ؟ فما يدريك ، أنداء شيطانى ، أم رحمانى ؟ وما البرهان على أن المخاطِب لك هو الرحمن ؟

نعم ، نحن لا ننكر النداء والخطاب والحديث ، وإنما الشأن فى المنادى المخاطب المحدث ، فهاهنا تسكب العبرات .

وبالجملة ، فمن قرئ عليه القرآن فليقدر نفسه كأنما يسمعه من الله يخاطبه به ، فإذا حصل له ـ مع ذلك ـ السماع به وله وفيه ، ازدحمت معانى المسموع ولطائفه وعجائبه على قلبه ، وازدلفت إليه بأيهما يبدأ ، فما شئت من علم وحكمة ، وتعرف وبصيرة ، وهداية وغيرة .

وأما الوقوف على الغاية فى كل حين : فهو التطلب والسفر إلى الغاية المقصودة

بالمسموع الذى جعل وسيلة إليها ، وهو الحق ـ سبحانه ـ فإنه غاية كل مطلب : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) ﴾ [ النجم ] ، وليس وراء الله مرمى ، ولا دونه مستقر ، ولا تَقَرُّ العين بغيره البتة ، وكل مطلوب سواه فظل زائل ، وخيال مفارق مائل ، وإن تمتع به صاحبه فمتاع الغرور .

وأما الخلاص من التلذذ بالتفرق : فالتفرق فى معانى المسموع ، وتنقل القلب فى منازلها يوجب له لذة ، كما هو المألوف فى الانتقال ،فليتخلص من لذة تفرقه التى هى حظه ، إلى الجمعية على المسموع به وله ومنه .

ولم يقل الشيخ : « من التفرق » فإن المسموع إنما يدرك معناه ويفهم بالتفرق لتنوعه ، ولكن ليتخلص من لذته لا منه ؛ لئلا يكون مع حظه ، وهذا من لطف أحوال السامعين المخلصين .

## فصل

قال : « وسماع خاصة الخاصة : سماع ينفى العلل عن الكشف ، ويصل الأبد إلى الأزل ، ويرد النهايات إلى الأول » .

فالكشف : هو مكافحة القلب لحقيقة المسموع . وعلله أمران :

**أحدهما** : الشبه التى تنتفى بهذه المكافحة ، فلا تبقى معها شبهة ، فهذا هو عين اليقين .

**والثانى** : نفى الوسائط بين السامع والمسموع ، فيغيب بمسموعه عنها ، ويفنى عن شهودها ، ويفنى عن شهود فنائه عنها ، بحيث يشهده هو المسمع لا الواسطة وهو الهادى، فمنه الإسماع ، ومنه الهداية ، ومنه الابتداء ، وإليه الانتهاء .

وأما وصله الأبد إلى الأزل : فهذا إن ـ أخذ على ظاهره ـ فهو محال ؛ لأن الأبد والأزل متقابلان تقابل التناقض ، فإيصال أحدهما إلى الآخر عين المحال ، وإنما مراده : أن ما يكون فى الأبد موجوداً مشهوداً فقد كان فى الأزل معلوماً مقدراً ، فعاد حكم الأبد إلى الأزل علماً وحقيقة ، وصار الأزلى أبدياً ، كما كان الأبدى أزليًا فى العلم والحكم .

وإيضاح ذلك : أن الأبد ظهر فيه ما كان كامناً فى الأزل خافياً ، فانتهى الأمر كله إلى علمه وحكمه وحكمته ، وذلك أزلى . وهذا رد النهايات إلى الأول ، فتصير الخاتمة هى

عين السابقة ، والله تعالى هو الأول والآخر ، وكل ما كان ويكون آخراً فمردود إلى سابق علمه وحكمه ، فرجع الأبد إلى الأزل ، والنهايات إلى الأول ، والله أعلم (١) .

## فصل
## فى الغناء والآلات

ومن مكايد عدو الله ومصايده ، التى كاد بها من قَلَّ نصيبه من العلم والعقل والدِّين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين : سماع المُكاءِ ، والتَّصْدِيَة ، والغناء بالآلات المحرَّمة ، الذى يَصُدُّ القلوب عن القرآن ، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان . فهو قرآن الشيطان ، والحجاب الكثيف عن الرحمن ، وهو رقْيَة اللواط والزِّنا ، وبه يَنالُ العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى . كاد به الشيطان النفوس المبطلة، وحَسَّنه لها مكراً منه وغرورا ، وأوحى إليها الشُّبَه الباطلة على حُسْنه فقبلتْ وَحْيه واتخذت لأجله القرآن مَهْجورا ، فلو رأيتهم عند ذيَّاك السماع وقد خَشَعَتْ منهم الأصوات ، وهدأت منهم الحركات ، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه ، وانصبَّت انصبابةً واحدة إليه ، فتمايلوا له ولا كتمايل النَّشْوان ، وتكسَّروا فى حركاتهم ورَقْصهم ، أرأيت تكسُّر المخانيث والنسوان ؟ ويحقُّ لهم ذلك ، وقد خالط خُمارُه النفوسَ ، ففعل فيها أعظم ما يفعله حُمَيَّا الكؤوس . فلغير الله ، بل للشيطان ، قلوبٌ هناكَ تمزَّق ، وأثواب تُشَقَّق ، وأموال فى غير طاعة الله تُنْفَق ، حتى إذا عمل السكر فيهم عمله ، وبلغ الشيطان منهم أُمنيته وأَمَله ، واستفزَّهم بصوته وحيِلِه ، وأجْلَب عليهم برجْلِه وخيْلِه ، وخزَ فى صدورهم وَخزًا ، وأزَّهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزا ، فطَوْرًا يجعلهم كالحمير حول المدَارِ ، وتارة كالدِّباب ترقص وسَطَ الديار .

فيارحمتا للسقوف والأرض من دَكِّ تلك الأقدام ، وياسَوأتا من أشباه الحمير والأنعام، وياشماتة أعداء الإسلام بالدين يزعمون أنهم خواصُّ الإسلام . قضوا حياتهم لذة وطربًا ، واتخذوا دينهم لهوًا ولعباً ، مَزامير الشيطان أحبُّ إليهم من استماع سُور القرآن ، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حَرَّك له ساكناً ، ولا أزعج له قاطنًا، ولا أثار فيه وَجْدًا، ولا قدح فيه من لواعجِ الشوق إلى الله زَنْدَا ، حتى إذا تُلَِي عليه قرآنُ الشيطان ،

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٨١ ـ ٥٠٥) .

وولَجَ مَزْمورُه سَمْعَه ، تفجَّرت يَنابيعُ الوَجْد من قلبه على عينيه فجرَتْ ، وعلى أقدامه فَرقَصتْ ، وعلى يديه فصفَّقت ، وعلى سائر أعضائه فاهتزَّت وطَرِبت ، وعلى أنفاسه فتصاعدت ، وعلى زَفَراته فتزايدت ، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت . فيا أيها الفاتن المفتون، والبائع حَظَّه من الله بنصيبه من الشيطان صَفْقة خاسرٍ مَغْبون ، هلاَّ كانت هذه الأشجانُ ، عند سماع القرآن ؟ وهذه الأذواق والمواجيد ، عند قراءة القرآن المجيد ؟ وهذه الأحوال السَّنِيَّات ، عند تلاوة السورَ والآيات ؟ ولكن كل امرئ يَصْبو إلى ما يناسبه، ويميل إلى ما يشاكله ، والجِنْسِيَّةُ علة الضم قدَراً وشرعا ، والمشاكلة سبب الميل عقلا وطبعاً، فمن أين هذا الإخاء والنسب ؟ لولا التعلقُ من الشيطان بأقوى سبب . ومن أين هذه المصالحة التي أوقعت في عَقْدِ الإيمان وعهد الرحمن خللا؟ ﴿ **أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا** (٥٠) ﴾ [ الكهف ] ولقد أحسن القائل :

تلى الكتاب فأطرقوا لا خيفة ... لكنه إطراق ساه لاهى
وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا ... والله ما رقصوا لأجل الله
دف ومزمار ونغمة شادنٍ ... فمتى رأيت عبادة بملاهى؟
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا ... تقييده بأوامر ونواهى
سمعوا له رعداً وبرقا إذ حوى ... زجرا وتخويفا بفعل مناهى
ورأوه أعظمَ قاطعٍ للنفس عن ... شهواتها يا ذبحها المتناهى
وأتى السماع موافقاً أغراضها ... فلأجل ذاك غدا عظيمَ الجاه
أين المساعد للهوى من قاطع ... أسبابه عند الجهول الساهى ؟
إن لم يكن خمر الجسوم فإنه ... خمر العقول مماثل ومضاهى
فانظر إلى النشوان عند شرابه ... وانظر إلى النسوان عند ملاهى
وانظر إلى تـمزيق ذا أثوابه ... مـن بعـد تمزيق الفؤاد اللاَّهى

واحكم فأى الخمرتين أحق بالتحريم ، والتأثيم عند الله ؟

وقال آخر :

برئنا إلـى الله مـن معشر ... بهم مـرض مـن سماع الغنا
وكم قلت يا قوم أنتم عـلى ... شَفاجرف مـا بـه مـن بنا

شـفا جـرف تحـته هـوة إلى درك كـم به مـن عنا ؟
وتكرار ذا النصح منا لهم لنعذر فيهم إلى ربنا
فلما استهانوا بتنبيهنا رجعنا إلى الله في أمرنا
فعشنا على سنة المصطفى وماتوا على تنتنا تنتنا

ولم يزل أنصار الإسلام وأئمه الهدى ، تصيح بهؤلاء من أقطار الأرض ، وتُحذّر من سلوك سبيلهم ، واقتفاء آثارهم ، من جميع طوائف الملة .

قال الإمام أبو بكر الطرطوسى فى خطبة كتابه ، فى تحريم السماع :

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، ونسأله أن يُرينا الحق حقا فنتبعه ، والباطل باطلا فنَجتَنبه ، وقد كان الناس فيما مضى يستسر أحدهم بالمعصية إذا واقعها ، ثم يستغفر الله ويتوب إليه منها ، ثم كثر الجهل ، وقل العلم ، وتناقص الأمر ، حتى صار أحدهم يأتى المعصية جهاراً ، ثم ازداد الأمر إدباراً ، حتى بلغنا أن طائفة من إخواننا المسلمين ـ وفقنا الله وإياهم ـ استزلهم الشيطان ، واستغوى عقولهم فى حب الأغانى واللهو ، وسماع الطقطقة والنقير ، واعتقدته من الدين الذى يقربهم إلى الله وجاهرت به جماعة المسلمين وشاقت سبيل المؤمنين ، وخالفت الفقهاء والعلماء وحملة الدين ، ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً** (١١٥) ﴾ [ النساء ] ، فرأيت أن أوضح الحق ، وأكشف عن شبه أهل الباطل ، بالحجج التى تضمنها كتاب الله ، وسنة رسوله ، وأبدأ بذكر أقاويل العلماء الذين تدور الفتيا عليهم فى أقاصى الأرض ودانيها ، حتى تعلم هذه الطائفة أنها قد خالفت علماء المسلمين فى بدعتها ، والله ولى التوفيق .

ثم قال : أما مالك فإنه نهى عن الغناء ، وعن استماعه ، وقال : « إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له أن يردها بالعيب » .

وسئل مالك ـ رحمه الله : عما يُرخّص فيه أهلُ المدينة من الغناء ؟ فقال : « إنما يفعله عندنا الفُسّاق » .

قال : وأما أبو حنيفة : فإنه يكره الغناء ، ويجعله من الذنوب .

وكذلك مذهب أهل الكوفة : سُفيان ، وحَمّاد ، وإبراهيم ، والشّعْبى ، وغيرهم ،

لا اختلاف بينهم فى ذلك ، ولا نعلم خلافا أيضًا بين أهل البَصْرة فى المنع منه .

قلت : مذهب أبى حنيفة فى ذلك من أشدّ المذاهب ، وقوله فيه أغلظُ الأقوال . وقد صرح أصحابه بتحريم سماع الملاهى كلها ، كالمِزْمار ، والدُّفّ ، حتى الضرب بالقضيب ، وصرحوا بأنه معصية ، يوجب الفسق ، وترد به الشهادة ، وأبلغ من ذلك أنهم قالوا : إن السماع فسقٌ ، والتلذذ به كفرٌ، هذا لفظهم ، ورووَا فى ذلك حديثًا لا يصح رفعه .

قالوا : ويجب عليه أن يجتهد فى ألا يسمعه إذا مر به ، أو كان فى جواره .

وقال أبو يوسف فى دار يسمع منها صوت المعازف والملاهى : « ادخل عليهم بغير إذنهم ؛ لأن النهى عن المنكر فرض ، فلو لم يجز الدخول بغير إذن لامتنع الناس من إقامة الفرض » .

قالوا : ويتقدم إليه الإمام إذا سمع ذلك من داره ، فإن أصر حبسه أو ضربه سياطا ، وإن شاء أزعجه عن داره .

وأما الشافعى : فقال فى كتاب أدب القضاء : « إن الغناء لهو مكروه ، يشبه الباطل والمحال ومن استكثر منه فهو سَفيه ترد شهادته » .

وصرح أصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه ، وأنكروا على من نسب إليه حله ، كالقاضى أبى الطيب الطبرى ، والشيخ إبى إسحاق ، وابن الصباغ .

قال الشيخ أبو إسحاق فى التنبيه : ولا تصح ـ يعنى الإجارة ـ على منفعة محرمة ، كالغناء والزمر ، وحمل الخمر ، ولم يذكر فيه خلافًا .

وقال فى المهذب : ولا يجوز على المنافع المحرمة ؛ لأنه محرم ، فلا يجوز أخذ العوض عنه كالميتة والدم .

فقد تضمن كلام الشيخ أموراً .

**أحدها** : أن منفعة الغناء بمجرده منفعة محرمة .

**الثانى** : أن الاستئجار عليها باطل .

**الثالث** : أن أكل المال به أكل مال بالباطل ، بمنزلة أكله عوضًا عن الميتة والدم .

**الرابع** : أنه لا يجوز للرجل بَذْل ماله للمغنّى ، ويحرم عليه ذلك ، فإنه بذل ماله فى مقابلة محرم ، وأن بذله فى ذلك كبذله فى مقابلة الدم والميتة .

**الخامس** : أن الزمر حرام

وإذا كان الزمر ، الذى هو أخف آلات اللهو ، حراما ، فكيف بما هو أشد منه ؟ كالعود ، والطنبور ، واليراع . ولا ينبغى لمن شم رائحة العلم أن يتوقف فى تحريم ذلك ، فأقل ما فيه أنه من شعار الفساق وشاربى الخمور .

وكذلك قال أبو زكريا النووى فى روضته :

**القسم الثانى** : أن يغنى ببعض آلات الغناء ، بما هو من شعار شاربى الخمر ، وهو مطرب كالطنبور والعود والصنج ، وسائر المعازف ، والأوتار . يحرم استعماله ، واستماعه. قال : وفى اليراع وجهان ، صحح البغوى التحريم .

ثم ذكر عن الغزالى الجواز . قال : والصحيح تحريم اليراع ، وهو الشبابة .

وقد صنف أبو القاسم الدولعى كتابا فى تحريم اليراع .

وقد حكى أبو عمرو بن الصلاح الإجماع على تحريم السماع ، الذى جمع الدف والشبابة والغناء ، فقال فى فتاويه :

وأما إباحة هذا السماع وتحليله ، فليعلم أن الدف والشبابة والغناء إذا اجتمعت ، فاستماع ذلك حرام ، عند أئمة المذاهب وغيرهم من علماء المسلمين . ولم يثبت عن أحد - ممن يعتد بقوله فى الإجماع والاختلاف - أنه أباح هذا السماع والخلاف المنقول عن بعض أصحاب الشافعى إنما نقل فى الشبابة منفردة ، والدف منفردا ، فمن لا يحصل ، أولا يتأمل ، ربما اعتقد خلافا بين الشافعيين فى هذا السماع الجامع هذا الملاهى ، وذلك وَهم بيِّن من الصائر إليه ، تنادى عليه أدلة الشرع والعقل ، مع أنه ليس كل خلاف يستروح إليه، ويعتمد عليه ، ومن تتبع ما اختلف فيه العلماء ، وأخذ بالرخص من أقاويلهم ، تزندق أو كاد . قال : وقولهم فى السماع المذكور : إنه من القربان والطاعات ، قول مخالف لإجماع المسلمين ، ومن خالف إجماعهم فعليه ما فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** (١١٥) ﴾ [ النساء ] .

وأطال الكلام فى الرد على هاتين الطائفتين اللتين بلاء الإسلام منهم : المحللون لما حرم الله ، والمتقربون إلى الله بما يباعدهم عنه .

والشافعى وقدماء أصحابه ، والعارفون بمذهبه من أغلظ الناس قولا فى ذلك .

وقد تواتر عن الشافعى أنه قال : « خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة ، يسمونه التغبير ، يصدون به الناس عن القرآن » .

فإن كان هذا قوله فى التغبير ، وتعليله : أنه يصد عن القرآن ، وهو شعر يزهد فى الدنيا ، يغنى به مغن ، فيضرب بعض الحاضرين بقضيب على نطع أو مخدة على توقيع غناءه ، فليت شعرى ما يقول فى سماع التغبير عنده كتفلة فى بحر ، قد اشتمل على كل مفسدة ، وجمع كل محرم ، فالله بين دينه كل متعلم مفتون ، وعابد جاهل .

قال سفيان بن عيينة : « كان يقال : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون » .

ومن تأمل الفساد الداخل على الأمة وجده من هذين المفتونين .

وأما مذهب الإمام أحمد : فقال عبد الله ابنه : « سألت أبى عن الغناء ؟ فقال : الغناء ينبت النفاق فى القلب ، لا يعجبنى » ثم ذكر قول مالك : « إنما يفعله عندنا الفساق» .

قال عبد الله : « وسمعت أبى يقول : سمعت يحيى القطان يقول : لو أن رجلا عمل بكل رخصة ، بقول أهل الكوفة فى النبيذ ، وأهل المدينة فى السماع ، وأهل مكة فى المتعة ، لكان فاسقًا » .

قال أحمد : وقال سليمان التيمى :« لو أخذت برخصة كل عالم ، أو زلة كل عالم ، اجتمع فيك الشر كله » .

ونص على كسر آلات اللهو كالطنبور وغيره ، إذا رآها مكشوفة ، وأمكنه كسرها وعنه فى كسرها إذا كانت مغطاة تحت ثيابه وعلم بها روايتان منصوصتان .

ونص فى أيتام ورثوا جارية مغنية ، وأرادوا بيعها ، فقال : « لا تباع إلا على أنها ساذجة ؛ فقالوا : إذا بيعت مغنية ساوت عشرين ألفًا أو نحوها ، وإذا بيعت ساذجة لا تساوى ألفين ؛ فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة » .

ولو كانت منفعة الغناء مباحة لما فوت هذا المال على الأيتام .

وأما سماعه من المرأة الأجنبية ، أو الأمرد فمن أعظم المحرمات ، وأشدها فساداً للدين .

قال الشافعى رحمه الله : « وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها ، فهو سفيه ترد شهادته » وأغلظ القول فيه . وقال : « هو دياثة ، فمن فعل ذلك كان ديوثا » .

قال القاضى أبو الطيب : وإنما جعل صاحبها سفيهاً ؛ لأنه دعا الناس إلى الباطل ، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيها فاسقًا .

قال : وكان الشافعى يكره التغبير ، وهو الطقطقة بالقضيب ، ويقول : « وضعته الزنادقة ليشغلوا به عن القرآن » .

قال : « وأما العود والطنبور وسائر الملاهى فحرام ، ومستمعه فاسق ، واتباع الجماعة أولى من اتباع رجلين مطعون عليهما » .

قلت : يريد بهما إبراهيم بن سعد ، وعبيد الله بن الحسن . فإنه قال : « وما خالف فى الغناء إلا رجلان: إبراهيم بن سعد ، فإن الساجى حكى عنه : أنه كان لا يرى به بأسا ، والثانى : عبيد الله بن الحسن العَنبرى ، قاضى البصرة ، وهو مطعون فيه » .

قال أبو بكر الطرطوسى : وهذه الطائفة مخالفة لجماعة المسلمين ؛ لأنهم جعلوا الغناء ديناً وطاعة ، ورأت إعلانه فى المساجد والجوامع ، وسائر البقاع الشريفة ، والمشاهد الكريمة ، وليس فى الأمة من رأى هذا الرأى .

قلت : ومن أعظم المنكرات : تمكينهم من إقامة هذا الشعار الملعون هو وأهله فى المسجد الأقصى ، عشية عرفة ، ويقيمونه أيضا فى مسجد الخيف أيام منى ، وقد أخرجناهم منه بالضرب والنفى مراراً ، ورأيتهم يقيمونه بالمسجد الحرام نفسه ، والناس فى الطواف ، فاستدعيت حزب الله وفرقنا شملهم ، ورأيتهم يقيمونه بعرفات ، والناس فى الدعاء ، والتضرع ، والابتهال والضجيج إلى الله ، وهم فى هذا السماع الملعون باليراع والدف والغناء .

فإقرار هذه الطائفة على ذلك فسق يقدح فى عدالة من أقرهم ومنصبه الدينى .

وما أحسن ما قال بعض العلماء وقد شاهد هذا وأفعالهم :

ألا قل لهم قول عبد نصوح ... وحق النصيحة أن تستمع
متى علم الناس فى ديننا ... بأن الغناء سنة تتبع ؟
وأن يأكل المرء أكل الحما ... ر ويرقص فى الجمع حتى يقع ؟
وقالوا سكرنا بحب الإله ... وما أسكر القوم إلا القصع
كذاك البهائم إن أُشبعت ... يرقصها ريها والشبع
ويسكره الناى ثم الغنا ... وَيس لو تليت ما انصدع
فيا للعقول ويا للنهى ... ألا منكر منكم للبدع ؟
تهان مساجدنا بالسما ... ع وتكرم عن مثل ذاك البيع ؟

وقال آخر ، وأحسن ما شاء :

ذهب الرجال وحال دون مجالهم زمر من الأوباش والأنذال
زعموا بأنهم على آثارهم ساروا ، ولكن سيرة البطال
لبسوا الدلوق مرقعا وتقشفوا كتقشف الأقطاب والأبدال
قطعوا طريق السالكين وغوروا سبل الهدى بجهالة وضلال
عمروا ظواهرهم بأثواب التقى وحشوا بواطنهم من الأدغال
إن قلت قال الله قال رسوله همزوك همز المنكر المتغالى
أو قلت قد قال الصحابة، والأولى تبعوهم فى القول والأعمال
أو قلت قال الآل آل المصطفى صلى عليه الله أفضل آل
أو قلت قال الشافعى وأحمد وأبو حنيفة والإمام العالى
أو قلت قال صحابهم من بعدهم فالكل عندهم كشبه خيال
ويقول قلبى قال لى عن سره عن سر سرِّى عن صفا أحوالى
عن حضرتى عن فكرتى عن خلوتى عن شاهدى عن واردى عن حالى
عن صفو وقتى عن حقيقة مشهدى عن سر ذاتى عن صفات فعالى
دعوى إذا حققتها ألفيتها ألقاب زور لفقت بمحال
تركوا الحقائق والشرائع واقتدوا بظواهر الجهال والضلال
جعلوا المرا فتحاً وألفاظ الخنا شطحا وصالوا صولة الإدلال
نبذوا كتاب الله خلف ظهورهم نبذ المسافر فضلة الأكال
جعلوا السماع مطية لهواهم وغلوا فقالوا فيه كل محال
هو طاعة هو قربة هو سنة صدقوا لذاك الشيخ ذى الإضلال
شيخ قديم صادهم بتحيل حتى أجابوا دعوة المحتال
هجروا له القرآن والأخبار والآثار إذ شهدت لهم بضلال
ورأوا سماع الشعر أنفع للفتى من أوجه سبع لهم بتوال
تالله ما ظفر العدو بمثلها من مثلهم واخيبة الآمال

نصب الحبال لهم فلم يقعوا بها ... فأتى بذا الشرك المحيط الغالى
فإذا بهم وسط العرين ممزقى ... الأثواب والأديان والأحوال
لا يسمعون سوى الذى يهوونه ... شغلا به عن سائر الأشغال
ودعوا إلى ذات اليمين فأعرضوا ... عنها وسار القوم ذات شمال
خروا على القرآن عند سماعه ... صما وعميانا ذوى إهمال
وإذا تلا القارى عليهم سورة ... فأطالها عدوه فى الأثقال
ويقول قائلهم أطلت وليس ذا ... عشر ، فخفف أنت ذو إملال
هذا وكم لغو وكم صخب وكم ... ضحك بلا أدب ولا إجمال
حتى إذا قام السماع لديهم ... خشعت له الأصوات بالإجلال
وامتدت الأعناق تسمع وحى ذا ... ك الشيخ من مترنم قوال
وتحركت تلك الرؤوس وهزها ... طرب وأشواق لنيل وصال
فهنالك الأشواق والأشجان ... والأحوال لا أهلا بذى الأحوال
تالله لو كانوا صحاة أبصروا ... ماذا دهاهم من قبيح فعال
لكنما سكر السماع أشد من ... سكر المدام وذا بلا إشكال
فإذا هما اجتمعا لنفس مرة ... نالت من الخسران كل منال
يا أمة لعبت بدين نبيها ... كتلاعب الصبيان فى الأوحال
أشمتمو أهل الكتاب بدينكم ... والله لن يرضوا بذى الأفعال
كم ذا نُعَيَّرُ منهم بفريقكم ... سرا وجهرا عند كل جدال ؟
قالوا لنا دين عبادة أهله ... هذا السماع فذاك دين محال
بل لا تجىء شريعة بجوازه ... فسلوا الشرائع تكتفوا بسؤال
لو قلتمو فسق ،ومعصية ،وتز ... يين من الشيطان للأنذال
ليصد عن وحى الإله ودينه ... وينال فيه حيلة المحتال
كنا شهدنا أن ذا دين أتى ... بالحق ، دين الرسل لا بضلال
والله منهم قد سمعنا ذا إلى ... الآذان من أفواههم بمقال

وتمام ذاك القول بالحيل التى ... فسخت عقود الدين فسخ فصال
جعلته كالثوب المهلهل نسجه ... فيه تفصله من الأوصال
ما شئت من مكر ومن خدع ومن ... حيل وتلبيس بلا إقلال
فاحتل على إسقاط كل فريضة ... وعلى حرام الله بالإحلال
واحتل على المظلوم يقلب ظالما ... وعلى الظلوم بضد تلك الحال
واقلب وحَوِّل فالتحيل كله ... فى القلب والتحويل ذو إعمال
إن كنت تفهم ذا ظفرت بكل ما ... تبغى من الأفعال والأقوال
واحتل على شرب المدام وسمها ... غير اسمها واللفظ ذو إجمال
واحتل على أكل الربا واهجر شنا ... عة لفظه واحتل على الأبدال
واحتل على الوطء الحرام ولا تقل ... هذا زناً وانكح رخى البال
واحتل على حل العقود وفسخها ... بعد اللزوم وذاك ذو إشكال
إلا على المحتال فهو طبيبها ... يا محنة الأديان بالمحتال
واحتل على نقض الوقوف، وعودها ... طلقا ولا تستحى من إبطال
فكر وقدر ثم فصل بعد ذا ... فإذا غلبت فلج فى الإشكال
واحتل على الميراث ، فانزعه م ... الوراث ثم ابلع جميع المال
قد أثبتوا نسبًا وحصراً فيكم ... حتى تحوز الإرث للأموال
واعمد إلى تلك الشهادة واجعل الـ ... إبطال همك تحظ بالإبطال
فالحصر إثبات ونفى غير معلوم ... وهذا موضع الإشكال
واحتل على مال اليتيم فإنه ... رزق هنى من ضعيف الحال
لاسوطه تخشى ولا من سيفه ... والقول قولك فى نفاذ المال
واحتل على أكل الوقوف فإنها ... مثل السوائب ربة الإهمال
فأبو حنيفة عنده هى باطل ... فى الأصل لم تحتج إلى إبطال
فالمال مال ضائع أربابه ... هلكوا فخذ منه بلا مكيال
وإذا تصح بحكم قاض عادل ... فشروطها صارت إلى اضمحلال

قد عطل الناس الشروط وأهملوا ... مقصودها فالكل فى إهمال
وتمام ذاك قضاتنا وشهودنا ... فاسأل بهم ذا خبرة بالحال
أما الشهود فهم عدول عن طريق ... العدل فى الأقوال والأفعال
زوراً وتنميقًا وكتمانًا ... وتلبيساً ، وإسرافاً بأخذ نوال
ينسى شهادته ويحلف إنه ... ناس لها ، والقلب ذو إغفال
فإذا رأى المنقوش ، قال : ذكرتها ... يا للمذكر جئت بالآمال
ويقول قائلهم : أخوض النار فى ... نزر يسير ؟ ذاك عين خبال
ثقل لى الميزان ، إنى خائض ... للمنكبين أجر بالأغلال
أما القضاة فقد تواتر عنهم ... ما قد سمعت فلا تفه بمقال
ماذا تقول لمن يقول حكمت أنك ... فاسق أو كافر فى الحال؟
فإذا استغثت أغثت بالجلد الذى ... قد طرقوه كمثل طرق نعال
فيقول طق فتقول قط فتعارضا ... ويكون قول الجلد ذا إعمال
فأجارك الرحمن من ضرب ومن ... عرض ومن كذب وسوء مقال
هذا ونسبة ذاك أجمعه إلى ... دين الرسول وذا من الأموال
حاشا رسول الله يحكم بالهوى ... والجهل تلك حكومة الضلال
والله لو عرضت عليه كلها ... لاجتثها بالنقض والإبطال
إلا التى منها يوافق حكمه ... فهو الذى يلقاه بالإقبال
أحكامه عدل وحق كلها ... فى رحمة ومصالح وحلال
شهدت عقول الخلق قاطبة بما ... فى حكمه من صحة وكمال
فإذا أتت أحكامه ألفينها ... وفق العقول تزيل كل عقال
حتى يقول السامعون لحكمه ... ما بعد هذا الحق غير ضلال
لله أحكام الرسول وعدلها ... بين العباد ونورها المتلالى
كانت بها فى الأرض أعظم رحمة ... والناس فى سعد وفى إقبال
أحكامهم تجرى على وجه السدا ... د وحالهم فى ذاك أحسن حال

أمنًا وعـــــزا فى هـدى وتراحـم وتواصل ومـــحـبـــة وجـــلال
فـتـغـيـرت أوضـاعـها حـتى غـدت منـكورة بـتلـوث الأعـــمـــال
فـتـــغـيـرت أعـــمـالهم وتـبـدلت أحـوالـهم بالنقص بـعـد كـمـال
لو كـــان دين الله فـيـــهم قـائـمـاً لرأيتــهـم فى أحــسن الأحــوال
وإذا همـــو حكمـــوا بحكم جـــائر حـكمـــــــوا لمنكره بـكل وبـال
قالوا : أتنكر حكم شرع محمد ؟ حـاشا لذا الشـرع الشريف العـالى
عجت فـروج الناس ، ثم حقـوقهم لـله بـالـبكـرات والآصــــــال
كم تســـتــحـل بكل حكـم باطل لا يرتـضـيــه ربنا المتـعـــالى
والكل فى قعر الجحيم سوى الذى يقـــضـى بديـن اللـه لا لنـوال
أو مـا سـمـعت بأن ثـلثـيـهم غـدا فى النار فى ذاك الـزمـان الخـالى؟
وزمـــاننا هذا ، فـــربك عـــالم هل فـيه ذاك الثلث أم هو خـالى ؟
يا بـاغى الإحــســـان يطلـب ربه ليـــفـــوز منه بغـــاية الآمـــال
انظر إلـى هدى الصــحـابة والذى كـــانوا عليـه فـى الزمـان الخـــالى
واسلك طريق القـوم أين تيـممـوا خـذ يمنة مـا الدرب ذات شـمـال
تالله مـا اختـاروا لأنفسهم سـوى سـبل الهـدى فى القـول والأفعـال
درجـوا عـلى نهج الرسـول وهديه وبه اقـــتـدوا فى سـائـر الأحـوال
نعم الرفـيق لطالب يبـغـى الهـدى فـمـآلـه فى الحـشـر خـيـر مـآل
القـــانـتــين المخـبـتـين لـربهم النـاطقـيـن بأصـدق الأقـــوال
التـــاركـــيـن لكل فـــعـل سيء والعـــاملين بـأحـسـن الأعـمـــال
أهواؤهـم تبع لـدين نبـــيـــهم وسـواهـم بالضـد فـى ذى الحـال
مــاشـــانهـم فى دينهـم نقص ولا فى قـولهم شطح الجـهـول الغـالى
عـــملوا بما علـمـوا ولـم يتكلفـوا فلذاك مـا شـابـوا الهـدى بضـلال
وسـواهم بالضـــد فى الأمـرين قـد تركـوا الهدى ودعوا إلـى الإضلال
فـــهم الأدلة للحـيـارى من يسـر بهــداهم لم يخش مـن إضـــلال

وهم النجوم هداية وإضاءة وعلو منزلة وبعد منال
يمشون بين الناس هونًا نطقهم بالحق ، لا بجهالة الجهال
حلما وعلمًا مع تقى وتواضع ونصيحة مع رتبة الإفضال
يحيون ليلهم بطاعة ربهم بتلاوة وتضرع وسؤال
وعيونهم تجرى بفيض دموعهم مثل انهمال الوابل الهطال
فى الليل رهبان وعند جهادهم لعدوهم من أشجع الأبطال
وإذا بدا علم الرهان رأيتهم يتسابقون بصالح الأعمال
بوجوههم أثر السجود لربهم وبها أشعة نوره المتلالى
ولقد أبان لك الكتاب صفاتهم فى سورة الفتح المبين العالى
وبرابع السبع الطوال صفاتهم قوم يحبهم ذوو إدلال
وبراءة والحشر فيها وصفهم وبهل أتى وبسورة الأنفال

هذا السماع الشيطانى المضاد للسماع الرحمانى ، له فى الشرع بضعة عشر اسمًا :
اللهو ، واللغو ، والباطل ، والزور ، والمكاء ، والتصدية ، ورقية الزنا ، وقرآن الشيطان ، ومنبت النفاق فى القلب ، والصوت الأحمق ، والصوت الفاجر ، وصوت الشيطان ، ومزمور الشيطان ، والسمود :

أسماؤه دلت على أوصافه تبا لذى الأسماء والأوصاف

فنذكر مخازى هذه الأسماء ، ووقوعها عليه فى كلام الله وكلام رسوله ، والصحابة ، ليعلم أصحابه وأهله بما به ظفروا ، وأى تجارة رابحة خسروا :

فدع صاحب المزمار والدف والغنا وما اختاره عن طاعة الله مذهبا
ودعه يعش فى غيه وضلاله على تاتنا يحيا ويبعث أشيبا
وفى تنتنا يوم المعاد نجاته إلى الجنة الحمراء يدعى مقربا
سيعلم يوم العرض أى بضاعة أضاع وعند الوزن ماخف أو ربا
ويعلم ما قد كان فيه حياته إذا حصلت أعماله كلها هبا

دعـاه الهـدى والغى من ذا يجيبه؟ فـقال لداعـى الغـى أهـلاً ومـرحبـا
وأعرض عن داعى الهدى ، قائلا له هـواي إلـى صـوت المعازف قد صبا
يــراع ودف بالـصنــوج وشـــاهـد وصـوت مـغن صـوته يقنـص الـطبا
إذا مــا تــغنــى فالــظبـاء تجيـبه إلـى أن تـراهـا حـوله تـشبـه الـدبـا
فــما شئت مـن صيد بغير تـطارد ووصـل حبيب كـان بالهـجر عـذبـا
فــيا آمرى بالرشـد لو كنت حاضرا لـكـان تـوالـى الـلهـو عـندك أقـربا

فالاسم الأول : اللهو ، ولهو الحديث .

قال تعلى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧)** ﴾ [ لقمان ] .

قال الواحدى وغيره : أكثر المفسرين : على أن المراد بلهو الحديث : الغناء ، قاله ابن عباس فى رواية سـعيد بن جبير ومـقسم عنه ، وقاله عبد الله بن مـسعود ، فى رواية أبى الصهباء عنه ، وهو قول مجاهد وعكرمة .

وروى ثور بن أبى فاخـتة عن أبيه عن ابن عباس فى قـوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ** ﴾ قال : «هو الرجل يشترى الجارية تغنيه ليلا ونهاراً » .

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد : « هو اشتراء المغنى والمغنية بالمال الكثير ، والاستماع إليه ، وإلى مثله من الباطل » وهذا قول مكحول .

وهذا اختيار أبى إسحاق أيضاً .

وقال : أكثر ما جاء فى التفـسير : أن لهو الحديث ههنا هو الغناء ؛ لأنه يلهى عن ذكر الله تعالى .

قـال الواحدى : قـال أهل المعـانى : ويدخل فى هذا كل من اخـتار اللهـو ، والغناء والمزاميـر والمعازف على القرآن ، وإن كـان اللفظ قد ورد بالشراء ، فلفظ الشـراء يذكر فى الاستبدال ، والاخـتيار ، وهو كثير فى القرآن . قال : ويدل على هذا : مـا قاله قتادة فى هذه الآية « لعله ألا يكون أنـفق مالاً » ، قـال : « وبحـسب المرء من الضـلالة أن يختـار حديث الباطل على حديث الحق » .

قال الواحدى : وهذه الآية على هذا التفسير تدل على تحريم الغناء ، ثم ذكر كلام الشافعى فى رد الشهادة بإعلان الغناء .

قال : وأما غناء القينات : فذلك أشد ما فى الباب ، وذلك لكثرة الوعيد الوارد فيه ، وهو ما روى أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « من سمع إلى قينة صب فى أذنيه الآنك يوم القيامة » (١) الآنك : الرصاص المذاب .

وقد جاء تفسير لهو الحديث بالغناء مرفوعاً إلى النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

ففى مسند الإمام أحمد ، ومسند عبد الله بن الزبير الحميدى ، وجامع الترمذى من حديث أبى أمامة ، والسياق للترمذى : أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : «لا تبيعوا القينات ، ولا تشتروهن ، ولا تعلموهن ، ولا خير فى تجارة فيهن ، وثمنهن حرام. فى مثل هذا دلت هذه الآية ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ (٢) وهذا الحديث وإن كان مداره على عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد الإلهانى عن القاسم، فعبيد الله بن زحر ثقة ، والقاسم ثقة ، وعلى ضعيف ، إلا أن للحديث شواهد ومتابعات، فنذكرها إن شاء تعالى ، ويكفى تفسير الصحابة والتابعين للهو الحديث : بأنه الغناء ، فقد صح ذلك عن ابن عباس ، وابن مسعود .

قال أبو الصهباء : « سألت ابن مسعود عن قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ** ﴾ فقال : والله الذى لا إله غيره هو الغناء ـ يرددها ثلاث مرات » .

وصح عن ابن عمر رضي الله عنهما: « أنه الغناء » .

قال الحاكم أبو عبد الله فى التفسير ، من كتاب المستدرك : « ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل عند الشيخين : حديث مسند » .

وقال فى موضع آخر من كتابه : « هو عندنا فى حكم المرفوع » .

وهذا ، وإن كان فيه نظر ، فلا ريب أنه أولى بالقبول من تفسير من بعدهم . فهم أعلم الأمة بمراد الله عز وجل من كتابه ، فعليهم نزل ، وهم أول من خوطب به من الأمة، وقد شاهدوا تفسيره من الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم علمًا وعملا ، وهم العرب الفصحاء على الحقيقة ، فلا يعدل عن تفسيرهم ما وجد إليه سبيل .

---

(١) كنز العمال (٤٠٦٦٩) وعزاه لابن صصرى فى أماليه ، وابن عساكر .

(٢) الترمذى (٣١٩٥) فى تفسير القرآن ، باب : ومن سورة لقمان وقال : « غريب » ، وأحمد (٥ / ٢٦٤) ، ومسند الحميدى (٩١٠) .

ولا تعارض بين تفسير « لهو الحديث » بالغناء ، وتفسيره : بأخبار الأعاجم وملوكها ، وملوك الروم ، ونحو ذلك مما كان النضر بن الحارث يحدث به أهل مكة ، يشغلهم به عن القرآن، فكلاهما لهو الحديث ؛ ولهذا قال ابن عباس : « لهو الحديث : الباطل والغناء ».

فمن الصحابة من ذكر هذا ، ومنهم من ذكر الآخر ، ومنهم من جمعهما .

والغناء أشد لهواً ، وأعظم ضرراً من أحاديث الملوك وأخبارهم ، فإنه رقية الزنا ، ومنبت النفاق ، وشرك الشيطان ، وخمرة العقل . وصده عن القرآن أعظم من صد غيره من الكلام الباطل ، لشدة ميل النفوس إليه ، ورغبتها فيه .

إذا عرف هذا ، فأهل الغناء ، ومستمعوه لهم نصيب من هذا الذم ، بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن ، وإن لم ينالوا جميعه ، فإن الآيات تضمنت ذم من استبدل لهو الحديث بالقرآن ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً ، وإذا يتلى عليه القرآن ولى مستكبراً كأن لم يسمعه ، كأن فى أذنيه وقرا ، وهو الثقل والصمم ، وإذا علم منه شيئًا استهزأ به، فمجموع هذا لا يقع إلا من أعظم الناس كفراً ، وإن وقع بعضه للمغنِّين ومستمعيهم ، فلهم حصة ونصيب من هذا الذم .

يوضحه : أنك لا تجد أحداً عنى بالغناء وسماع آلاته ، إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى ، علمًا وعملاً ، وفيه رغبة من استماع القرآن إلى استماع الغناء ، بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن عدل عن هذا إلى ذاك ، وثقل عليه سماع القرآن ، وربما حمله الحال على أن يسكت القارئ ويستطيل قراءته ، ويستزيد المغنى ويستقصر نوبته ، وأقل ما فى هذا : أن يناله نصيب وافر من هذا الذم ، إن لم يحظ به جميعه .

والكلام فى هذا مع من فى قلبه بعض حياة يحس بها ، فأما من مات قلبه ، وعظمت فتنته ، فقد سد على نفسه طريق النصيحة : **﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** [المائدة : ٤١ ]

## فصل

الاسم الثانى والثالث : الزور ، واللغو .

قال تعالى : **﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) ﴾** [ الفرقان ] .

قال محمد بن الحنفية : « الزور ههنا الغناء » وقاله ليث عن مجاهد . وقال الكلبى : لا يحضرون مجالس الباطل .

واللغو فى اللغة : كل ما يلغى ويطرح ، والمعنى : لا يحضرون مجالس الباطل . وإذا مروا بكل ما يلغى من قول وعمل . أكرموا أنفسهم أن يقفوا عليه ، أو يميلوا إليه . ويدخل فى هذا : أعياد المشركين ، كما فسرها به السلف ، والغناء ، وأنواع الباطل كلها .

قال الزجاج : « لا يجالسون أهل المعاصى ، ولا يمالئونهم عليها ، ومروا مر الكرام الذين لا يرضون باللغو ؛ لأنهم يكرمون أنفسهم عن الدخول فيه ، والاختلاط بأهله » .

وقد روى أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : مر بلهو فأعرض عنه ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « إن أصبح ابن مسعود لكريمًا » [1] .

وقد أثنى الله ـ سبحانه ـ على من أعرض عن اللغو إذا سمعه بقوله : ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ** ﴾ [ القصص : ٥٥ ] .

وهذه الآية ، وإن كان سبب نزولها خاصًا ، فمعناها عام ، متناول لكل من سمع لغواً فأعرض عنه ، وقال بلسانه أو بقلبه لأصحابه : « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » .

وتأمل كيف قال سبحانه : ﴿ **لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ** ﴾ [ الفرقان : ٧٢ ] ولم يقل : بالزور ؛ لأن « يشهدون » بمعنى : يحضرون ، فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور ، فكيف بالتكلم به ، وفعله ؟ والغناء من أعظم الزور .

والزور : يقال على الكلام الباطل ، وعلى العمل الباطل ، وعلى العين نفسها ، كما فى حديث معاوية لما أخذ قصة من شعر يوصل به ، فقال « هذا الزور » ، فالزور : القول: والفعل ، والمحل .

وأصل اللفظة من الميل . ومنه الزور ، بالفتح . ومنه : زرت فلانًا ، إذا ملت إليه، وعدلت إليه ، فالزور : ميل عن الحق الثابت إلى الباطل الذى لا حقيقة له قولا وفعلا .

## فصل

الاسم الرابع : الباطل .

والباطل : ضد الحق ، يراد به المعدوم الذى لا وجود له ، والموجود الذى مضرة

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ١٣١) ، والدر المنثور (٥ / ٨٠ ، ٨١ ) .

وجوده أكثر من منفعته .

فمن الأول : قول الموحد : كل إله سوى الله باطل . ومن الثانى قوله : السحر باطل .والكفر باطل ، قال تعالى : ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾ [ الإسراء : ٨١ ]

فالباطل إما معدوم لا وجود له ، وإما موجود لا نفع له . فالكفر ، والفسوق ، والعصيان والسحر ، والغناء ، واستماع الملاهى : كله من النوع الثانى .

قال ابن وهب : أخبرنى سليمان بن بلال عن كثير بن زيد : أنه سمع عبيد الله يقول للقاسم بن محمد : « كيف ترى فى الغناء ؟ فقال له القاسم : هو باطل . فقال : قد عرفت أنه باطل ، فكيف ترى فيه ؟ فقال القاسم : أرأيت الباطل ، أين هو ؟ قال فى النار، قال : فهو ذاك » .

وقال رجل لابن عباس رضي الله عنهما : « ما تقول فى الغناء ، أحلال هو ، أم حرام ؟ فقال : لا أقول حراما إلا ما فى كتاب الله . فقال : أفحلال هو ؟ فقال : ولا أقول ذلك . ثم قال له : أرأيت الحق والباطل ، إذا جاءا يوم القيامة ، فأين يكون الغناء ؟ فقال الرجل : يكون مع الباطل ، فقال له ابن عباس : اذهب فقد أفتيت نفسك » .

فهذا جواب ابن عباس رضي الله عنهما عن غناء الأعراب ، الذى ليس فيه مدح الخمر والزنا واللواط ، والتشبيب بالأجنبيات ، وأصوات المعازف والآلات المطربات ، فإن غناء القوم لم يكن فيه شىء من ذلك ، ولو شاهدوا هذا الغناء لقالوا فيه أعظم قول ، فإن مضرته وفتنته فوق مضرة شرب الخمر بكثير ، وأعظم من فتنته .

فمن أبطل الباطل أن تأتى شريعة بإباحته ، فمن قاس هذا على غناء القوم فقياسه من جنس قياس الربا على البيع ، والميتة على المذكاة ، والتحليل الملعون فاعله على النكاح الذى هو سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وهو أفضل من التخلى لنوافل العبادة ، فلو كان نكاح التحليل جائزاً فى الشرع لكان أفضل من قيام الليل ، وصيام التطوع ، فضلا أن يلعن فاعله .

## فصل

وأما اسم المكاء والتصدية ، فقال تعالى عن الكفار : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [ الأنفال : ٣٥ ] .

قال ابن عباس ، وابن عمر . وعطية ، ومجاهد ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة «المكاء : الصفير ، والتصدية : التصفيق » .

وكذلك قال أهل اللغة : المكاء : الصفير . يقال : مكا ، يمكو ، مكاء . إذا جمع يديه ثم صفر فيهما . ومنه : مكت است الدابة ، إذا خرجت منها الريح بصوت . ولهذا جاء على بناء الأصوات ، الكرغاء ، والعوا ، والثغاء . قال ابن السكيت : الأصوات كلها مضمومة ، إلا حرفين : النداء ، والغناء .

وأما التصدية : فهى فى اللغة : التصفيق . يقال : صدى يصدى تصدية ، إذا صفق بيديه . قال حسان بن ثابت ، يعيب المشركين بصفيرهم وتصفيقهم :

إذا قـــام المـلائـــكـــة انـبــعثـتم صلاتـكم التـصـدى والـمكـاء

وهكذا الأشباه . يكون المسلمون فى الصلوات الفرض والتطوع ، وهم فى الصفير والتصفيق .

قال ابن عباس « كانت قريش يطوفون بالبيت عراة ، ويصفرون ويصفقون » .

وقال مجاهد « كانوا يعارضون النبى ﷺ فى الطواف ويصفرون ويصفقون ، يخلطون عليه طوافه وصلاته » ونحوه عن مقاتل .

ولا ريب أنهم كانوا يفعلون هذا وهذا .

فالمتقربون إلى الله بالصفير والتصفيق أشباه النوع الأول ، وإخوانهم المخلطون به على أهل الصلاة والذكر والقراءة أشباه النوع الثانى .

قال ابن عرفة ، وابن الأنبارى : المكاء والتصدية ليسا بصلاة ، ولكن الله تعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التى أمروا بها :المكاء والتصدية . فألزمهم ذلك عظيم الأوزار ، وهذا كقولك :زرته ، فجعل جفائى صلتى ، أى أقام الجفاء ، مقام الصلة .

والمقصود :أن المصفقين والصفارين فى يراع أو مزمار ونحوه فيهم شبه من هؤلاء ، ولو أنه مجرد الشبه الظاهر ، فلهم قسط من الذم ، بحسب تشبههم بهم ؛ وإن لم يتشبهوا بهم فى جميع مكائهم وتصديتهم ، والله ـ سبحانه ـ لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه فى الصلاة إذا نابهم أمر ، بل أمروا بالعدول عنه إلى التسبيح ؛ لئلا يتشبهوا بالنساء ، فكيف إذا فعلوه لا لحاجة ، وقرنوا به أنواعا من المعاصى قولاً وفعلا ؟

## فصل

وأما تسميته رقية الزنى، فهو اسم موافق لمسماه ، ولفظ مطابق لمعناه ، فليس فى رقى الزنى أنجع منه ، وهذه التسمية معروفة عن الفضيل بن عياض .

قال ابن أبى الدنيا : أخبرنا الحسين بن عبد الرحمن قال : قال فضيل بن عياض : «الغناء رقية الزنى » .

قال: وأخبرنا إبراهيم بن محمد المروزى عن أبى عثمان الليثى قال قال يزيد بن الوليد: « يا بنى أمية ، إياكم والغناء ، فإنه ينقص الحياء ، ويزيد فى الشهوة ،ويهدم المروءة ، وإنه لينوب عن الخمر ، ويفعل ما يفعل السكر ، فإنه كنتم لابد فاعلين فجنبوه النساء ، فإن الغناء داعية الزنى » .

قال :وأخبرنى محمد بن الفضل الأزدى قال : نزل الحطيئة برجل من العرب ، ومعه ابنته مليكة ، فلما جنه الليل سمع غناء . فقال لصاحب المنزل :كف هذا عنى ، فقال وما تكره من ذلك ؟ فقال : إن الغناء رائد من رادة الفجور ، ولا أحب أن تسمعه هذه ، يعنى ابنته ، فان كففته وإلا خرجت عنك .

ثم ذكر عن خالد بن عبد الرحمن قال : « كنا فى عسكر سليمان بن عبد الملك ، فسمع غناء من الليل ، فأرسل إليهم بكرة ، فجىء بهم . فقال :إن الفرس ليصهل فتستودق له الرمكة وإن الفحل ليهدر فتضبع له الناقة ، وإن التيس لينب فتستحرم له العنز ، وإن الرجل ليتغنى فتشتاق إليه المرأة . ثم قال :اخصوهم ، فقال عمر بن عبد العزيز : هذه المثلة ، ولا تحل ، فخل سبيلهم قال . فخلى سبيلهم » .

قال : وأخبرنا الحسين بن عبد الرحمن قال:قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : « جاور الحطيئة قومًا من بنى كلب ، فمشى ذو الدِّين منهم بعضهم إلى بعض ، وقالوا : يا قوم ، إنكم قد رميتم بداهية هذا الرجل شاعر ، والشاعر يظن فيحقق ، ولا يستأنى فيتثبت ، ولا يأخذ الفضل فيعفو ،فأتوه وهو فى فناء خبائه ، فقالوا :يا أبا مليكة ، إنه قد عظم حق علينا بتخطيك القبائل إلينا،وقد أتيناك لنسأل عما تحب ، فنأتيه ، وعما تكره ، فنزدجر عنه، فقال :جنبونى ندى مجلسكم ، ولا تسمعونى أغانى شبيبتكم ، فإن الغناء رقية الزنى » .

فإذا كان هذا الشاعر المفتون اللسان ، الذى هابت العرب هجاءه خاف عاقبة الغناء ، وأن تصل رقيته إلى حرمته ، فما الظن بغيره ؟

ولا ريب أن كل غيور يجنب أهله سماع الغناء ، كما يجنبهن أسباب الريب ، ومن طرق أهله إلى سماع رقية الزنى فهو أعلم بالإثم الذى يستحقه .

ومن الأمر عند القوم : أن المرأة إذا استصعبت على الرجل اجتهد أن يسمعها صوت الغناء ، فحينئذ تعطى الليان .

وهذا لأن المرأة سريعة الانفعال للأصوات جداً ، فإن كان الصوت بالغناء ، صار انفعالها من وجهين : من جهة الصوت ، ومن جهة معناه . ولهذا قال النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لأنجشة حاديه : « يا أنجشة ، رويدك ، رفقًا بالقوارير » (١) يعنى النساء .

فأما إذا اجتمع إلى هذه الرقية الدف . والشبابة ، والرقص بالتخنث والتكسر . فلو حبلت المرأة من غناء لحبلت من هذا الغناء .

فلعمر الله ، كم من حرة صارت بالغناء من البغايا ، وكم من حر أصبح به عبداً للصبيان أو الصبايا ، وكم من غيور تبدل به اسمًا قبيحًا بين البرايا ، وكم من ذى غنى وثروة أصبح بسببه على الأرض بعد المطارف والحشايا ، وكم من معافى تعرض له فأمسى ، وقد حلت به أنواع البلايا ، وكم أهدى للمشغوف به من أشجان وأحزان ، فلم يجد بدا من قبول تلك الهدايا ، وكم جرع من غصة وأزال من نعمة ، وجلب من نقمة ، وذلك منه من إحدى العطايا ، وكم خبأ لأهله من آلام منتظرة ، وغموم متوقعة ، وهموم مستقبلة .

فسل ذا خبرة ينبيك عنه ... لتعلم كم خبايا فى الزوايا
وحاذر إن شغفت به سهامًا ... مريشة بأهداب المنايا
إذا ما خالطت قلبًا كئيبًا ... تمزق بين أطباق الرزايا
ويصبح بعد أن قد كان حرا ... عفيف الفرج عبداً للصبايا
ويعطى من به يغنى غناء ... وذلك منه من شر العطايا

---

(١) البخارى (٦١٦١) فى الأدب ، باب : ما جاء فى قول الرجل : « ويلك ، ومسلم (٢٣٢٣/ ٧٠) فى الفضائل ، باب : رحمة النبى ﷺ للنساء ، وأحمد (٣ / ١٠٧) .

## فصل

وأما تسميته : منبت النفاق ، فقال على بن الجعد : حدثنا محمد بن طلحة عن سعيد ابن كعب المروزى عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : « الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء الزرع » .

وقال شعبة : حدثنا الحكم عن حماد عن إبراهيم قال : قال عبد الله بن مسعود : «الغناء ينبت النفاق فى القلب » (١) .

وهو صحيح عن ابن مسعود من قوله . وقد روى عن ابن مسعود مرفوعاً . رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الملاهى .

قال : أخبرنا عصمة بن الفضل حدثنا حرمى بن عمارة حدثنا سلام بن مسكين حدثنا شيخ عن أبى وائل عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » (٢) .

وقد تابع حرمى بن عمارة عليه بهذا الإسناد والمتن مسلم بن إبراهيم .

قال أبو الحسين بن المنادى فى كتاب أحكام الملاهى : حدثنا محمد بن على بن عبد الله بن حمدان المعروف بحمدان الوراق ،حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا سلام بن مسكين ـ فذكر الحديث . فمداره على هذا الشيخ المجهول . وفى رفعه نظر . والموقوف أصح .

فإن قيل :فما وجه إنباته للنفاق فى القلب من بين سائر المعاصى ؟

قيل : هذا من أدل شىء على فقه الصحابة فى أحوال القلوب وأعمالها ، ومعرفتهم بأدويتها وأدوائها ، وأنهم هم أطباء القلوب ، دون المنحرفين عن طريقتهم ، الذين داووا أمراض القلوب بأعظم أدوائها . فكانوا المداوى من السقم بالسم القاتل ، وهكذا والله فعلوا بكثير من الأدوية التى ركبوها ، أو بأكثرها ، فاتفق قلة الأطباء ، وكثرة المرضى ، وحدوث أمراض مزمنة لم تكن فى السلف ، والعدول عن الدواء النافع ، الذى ركبه الشارع ، وميل المريض إلى ما يقوى مادة المرض ، فاشتد البلاء وتفاقم الأمر ، وامتلأت الدور والطرقات والأسواق من المرضى ، وقام كل جهول يطبب الناس .

فاعلم أن للغناء خواص لها تأثير فى صبغ القلب بالنفاق ، ونباته فيه نبات الزرع بالماء.

---

(١ ،٢) البيهقى فى الكبرى (١٠ / ٢٢٣) فى الشهادات ، باب : الرجل يغنى فيتخذ الغناء صناعة .

فمن خواصه : أنه يلهى القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره ، والعمل بما فيه ، فإن القرآن والغناء لا يجتمعان فى القلب أبداً . لما بينهما من التضاد ، فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى ، ويأمر بالعفة ، ومجانبة شهوات النفوس ، وأسباب الغى ، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان ، والغناء يأمر بضد ذلك كله ، ويحسنه ، ويهيج النفوس إلى شهوات الغى ، فيثير كامنها ، ويزعج قاطنها ، ويحركها إلى كل قبيح ، ويسوقها إلى وصل كل مليحة ومليح . فهو والخمر رضيعا لبان،وفى تهييجهما على القبائح فرسا رهان ، فإنه صنو الخمر رضيعه ونائبه وحليفه ، وخدينه وصديقه ، عقد الشيطان بينهما عقد الإخاء الذى لا يفسخ ، وأحكم بينهما شريعة الوفاء التى لا تنسخ ، وهو جاسوس القلب ، وسارق المروءة، وسوس العقل ، يتغلغل فى مكامن القلوب ، ويطلع على سرائر الأفئدة ، ويدب إلى محل التخيل ، فيثير ما فيه من الهوى والشهوة ، والسخافة ، والرقاعة ، والرعونة ، والحماقة فبينا ترى الرجل وعليه سمة الوقار وبهاء العقل ،وبهجة الإيمان،ووقار الإسلام ، وحلاوة القرآن ، فإذا استمع الغناء ومال إليه نقص عقله ، وقل حياؤه ، وفارقه بهاؤه ، وتخلى عنه وقاره ، وفرح به شيطانه ، وشكا إلى الله تعالى إيمانه ، وثقل عليه قرآنه . وقال : يا رب ، لا تجمع بينى وبين قرآن عدوك فى صدر واحد ، فاستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه ، وأبدى من سره ما كان يكتمه ، وانتقل من الوقار والسكينة إلى كثرة الكلام والكذب ، والزهزهة والفرقعة بالأصابع ، فيميل برأسه ، ويهز منكبيه ، ويضرب الأرض برجليه ، ويدق على أم رأسه بيديه ، ويثب وثبات الدباب ، ويدور دوران الحمار حول الدولاب ، ويصفق بيديه تصفيق النسوان ، ويخور من الوجد ولا كخوار الثيران ، وتارة يتأوه تأوه الحزين ، وتارة يزعق زعقات المجانين ، ولقد صدق الخبير به من أهله حيث يقول :

أتذكر ليلة وقد اجتمعنا ... على طيب السماع إلى الصباح ؟
ودارت بيننا كأس الأغانى ... فأسكرت النفوس بغير راح
فلم تر فيهم إلا نشاوى ... سروراً والسرور هنا صاحى
إذا نادى أخو اللذات فيه ... أجاب اللهو حى على السماح
ولم نملك سوى المهجات شيئًا ... أرقناها لألحاظ الملاح

وقال بعض العارفين : السماع يورث النفاق فى قوم ، والعناد فى قوم ، والكذب فى قوم ، والفجور فى قوم ، والرعونة فى قوم .

وأكثر ما يورث عشق الصور ، واستحسان الفواحش ، وإدمانه يثقل القرآن على

القلب، ويكرهه إلى سماعه بالخاصية ، وإن لم يكن هذا نفاقا فما للنفاق حقيقة .

وسر المسألة : أنه قرآن الشيطان فلا يجتمع هو وقرآن الرحمن فى قلب أبدا ، وأيضا فإن أساس النفاق : أن يخالف الظاهر الباطن وصاحب الغناء بين أمرين ، إما أن يتهتك فيكون فاجرا ، أو يظهر النسك فيكون منافقا ، فإنه يظهر الرغبة فى الله والدار الآخرة وقلبه يغلى بالشهوات ، ومحبة ما يكرهه الله ورسوله : من أصوات المعازف ، وآلات اللهو، وما يدعو إليه الغناء ويهيجه ، فقلبه بذلك معمور ، وهو من محبة ما يحبه الله ورسوله وكراهة ما يكرهه قفز ، وهذا محض النفاق .

وأيضا ، فإن الإيمان قول وعمل : قول بالحق ، وعمل بالطاعة ، وهذا ينبت على الذكر، وتلاوة القرآن ، والنفاق قول الباطل ، وعمل البغى ، وهذا ينبت على الغناء .

وأيضا ، فمن علامات النفاق ، قلة ذكر الله ، والكسل عند القيام إلى الصلاة ، ونقر الصلاة ، وقل أن تجد مفتونا بالغناء إلا وهذا وصفه .

وأيضا ، فإن النفاق مؤسس على الكذب ، والغناء من أكذب الشعر ، فإنه يحسن القبيح ويزينه ، ويأمر به ، ويقبح الحسن ويزهد فيه ، وذلك عين النفاق .

وأيضا ، فإن النفاق غش ومكر وخداع ، والغناء مؤسس على ذلك .

وأيضا ، فإن المنافق يفسد من حيث يظن أنه يصلح ، كما أخبر الله ـ سبحانه ـ بذلك عن المنافقين وصاحب السماع يفسد قلبه وحاله من حيث يظن أنه يصلحه ، والمغنى يدعو القلوب إلى فتنة الشهوات ، والمنافق يدعوها إلى فتنة الشبهات . قال الضحاك « الغناء مفسدة للقلب مسخطة للرب » .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى مؤدب ولده « ليكن أول ما يعتقدون من أدل بغض الملاهى ، التى بدؤها من الشيطان ، وعاقبتها سخط الرحمن ، فإنه بلغنى عن الثقات من أهل العلم : أن صوت المعازف ، واستماع الأغانى ، واللهج بها ينبت النفاق فى القلب،كما ينبت العشب على الماء » .

فالغناء يفسد القلب ، وإذا فسد القلب هاج فيه النفاق .

وبالجملة ، فإذا تأمل البصير حال أهل الغناء ، وحال أهل الذكر والقرآن ، تبين له حذق الصحابة ومعرفتهم بأدواء القلوب ، وأدويتها، وبالله التوفيق .

# فصل

وأما تسميته قرآن الشيطان ، فمأثور عن التابعين ، وقد روى فى حديث مرفوع .

قال قتادة « لما أهبط إبليس قال : يا رب ، لعنتنى ، فما عملى ؟ قال :السحر. قال : فما قرآنى ، قال : الشعر . قال : فما كتابى ؟ قال : الوشم ، قال فما طعامى ؟ قال : كل ميتة ، وما لم يذكر اسم الله عليه ، قال : فما شرابى ؟ قال : كل مسكر . قال : فأين مسكنى ؟ قال : الأسواق . قال : فما صوتى ؟ قال : المزامير ،قال : فما مصايدى ؟ قال : النساء » .

هذا . والمعروف فى هذا وقفه . وقد رواه الطبرانى فى معجمه من حديث أبى أمامة مرفوعا إلى النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم .

وقال ابن أبى الدنيا ، فى كتاب مكايد الشيطان وحيله : حدثنا أبو بكر التميمى حدثنا ابن أبى مريم ، حدثنا يحيى بن أيوب قال : حدثنا ابن زحر عن على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة ، عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « إن إبليس لما أنزل إلى الأرض قال يارب ، أنزلتنى إلى الأرض ، وجعلتنى رجيما ، فاجعل لى بيتًا ، قال : الحمام ، قال:فاجعل لى مجلسًا ، قال : الأسواق ومجامع الطرقات قال : فاجعل لى طعاما . قال:كل ما لم يذكر اسم الله عليه . قال : فاجعل لى شرابا ،قال : كل مسكر ، قال : فاجعل لى مؤذنًا ، قال : المزمار ، قال : فاجعل لى قرآنا ، قال الشعر ، قال : فاجعل لى كتابا . قال:الوشم. قال : فاجعل لى حديثًا. قال : الكذب . قال : فاجعل لى رسلا ، قال : الكهنة ، قال : فاجعل لى مصايد . قال النساء » (١) .

وشواهد هذا الأثر كثيرة . فكل جملة منه لها شواهد من السنة ، أو من القرآن فكون السحر من عمل الشيطان شاهده قوله تعالى ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ** ﴾ [ البقرة ١٠٢ ] .

وأما كون الشعر قرآنه، فشاهده :ما رواه أبو داود فى سننه من حديث جبير بن مطعم: أنه رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يصلى ، فقال :الله أكبر كبيراً، الله أكبر كبيراً ، الله أكبر كبيرًا ، الحمد لله كثيراً ، الحمد لله كثيرًا ، الحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ـ ثلاثا ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : من نفخه ،

---

(١) الطبرانى فى الكبير ٨ / ٢٤٥ (٧٨٣٧) ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨ / ١٢٢) فى الأدب ، باب : ما جاء فى الشعر والشعراء وقال : « رواه الطبرانى وفيه على بن يزيد الألهانى وهو ضعيف » .

ونفثه ، وهمزه ، قال : نفثه : الشعر ، ونفخه : الكبر ، وهمزه :الموتة » (١).

ولما علم الله رسوله ، وهو كلامه ، صانه عن تعليم قرآن الشيطان . وأخبر أنه لا ينبغي له ، فقال ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ [ يس :٦٩ ] .

وأما كون الوشم كتابه ، فإنه من عمله وتزيينه ؛ ولهذا لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الواشمة والمستوشمة (٢) فلعن الكاتبة والمكتوب عليها .

وأما كون الميتة ومتروك التسمية طعامه ، فإن الشيطان يستحل الطعام ، إذا لم يذكر عليه اسم الله ، ويشارك آكله ، والميتة لا يذكر عليها اسم الله تعالى ، فهى وكل طعام لا يذكر عليه اسم الله عز وجل من طعامه ؛ ولهذا لما سأل الجن الذين آمنوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الزاد ، قال : « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه » (٣) فلم يبح لهم طعام الشياطين ، وهو متروك التسمية .

وأما كون المسكر شرابه ، فقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ [ المائدة : ٩٠ ] فهو يشرب من الشراب الذى عمله أولياؤه بأمره ، وشاركهم فى عمله . فيشاركهم فى عمله وشربه ، وإثمه ، وعقوبته .

وأما كون الأسواق مجلسه ، ففى الحديث الآخر : « أنه يركز رايته بالسوق » (٤)؛ ولهذا يحضره اللغو واللغط والصخب والخيانة والغش . وكثير من عمله ، وفى صفة النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى الكتب المتقدمة : « أنه ليس صخابا بالأسواق » (٥).

وأما كون الحمام بيته ، فشاهده كونه غير محل للصلاة ، وفى حديث أبى سعيد : «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام » (٦) ؛ ولأنه محل كشف العورات ، وهو بيت

---

(١) أبو داود (٧٦٤) فى الصلاة ، باب : ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ، وضعفه الألبانى .

(٢) البخارى (٥٩٣٧) فى اللباس ، باب : وصل الشعر ، ومسلم (٢١٢٤ / ١١٩) فى اللباس والزينة ، باب : تحريم فعل الواصلة والمستوصلة . . . إلخ ، وأبو داود (٤١٦٨) فى الترجل ، باب : فى صلة الشعر ، والترمذى (١٧٥٩) فى اللباس ، باب : ما جاء فى مواصله الشعر ، والنسائى (٥٠٩٥) فى الزينة ، باب : المستوصلة ، وابن ماجه (١٩٨٧) فى النكاح ، باب : الواصلة والواشمة ، وأحمد (٢ / ٢١) .

(٣) مسلم (٤٥٠ / ١٥٠) فى الصلاة ، باب : الجهر بالقراءة فى الصبح والقراءة على الجن ، والترمذى (٣٢٥٨) فى تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الأحقاف ، وأحمد (١ / ٤٣٦) .

(٤) أبو داود (١٠٥١) فى الصلاة ، باب : فضل الجمعة بمعناه ، وضعفه الألبانى .

(٥) الترمذى (٢٠١٦) فى البر والصلة،باب:ما جاء فى خلق النبى ﷺ وقال:«حسن صحيح »،وأحمد (٦/ ١٧٤).

(٦) أبو داود (٤٩٢) فى الصلاة ، باب : فى المواضع التى لا تجوز فيها الصلاة ، والترمذى (٣١٧) فى الصلاة ، باب : ما جاء أن الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام ، وقال : « حديث فيه اضطراب » ، وابن ماجه (٧٤٥) فى المساجد والجماعات ، باب : المواضع التى تكره فيها الصلاة ، وأحمد (٣ / ٨٣) .

مؤسس على النار ، وهى مادة الشيطان التى خلق منها .

وأما كون المزمار مؤذنه ، ففى غاية المناسبة ، فإن الغناء قرآنه ، والرقص والتصفيق ـ اللذان هما المكاء والتصدية ـ صلاته ، فلابد لهذه الصلاة من مؤذن وإمام ومأموم ، فالمؤذن المزمار ، والإمام المغنى ، والمأموم الحاضرون .

وأما كون الكذب حديثه ، فهو الكاذب ، الآمر بالكذب ، المزين له ، فكل كذب يقع فى العالم فهو من تعليمه وحديثه .

وأما كون الكهنة رسله ؛ فلأن المشركين يهرعون إليهم ، ويفزعون إليهم فى أمورهم العظام ، ويصدقونهم ، ويتحاكمون إليهم ، ويرضون بحكمهم ، كما يفعل أتباع الرسل بالرسل ، فإنهم يعتقدون أنهم يعلمون الغيب ، ويخبرون عن المغيبات التى لا يعرفها غيرهم، فهم عند المشركين بهم بمنزلة الرسل ، فالكهنة رسل الشيطان حقيقة ، أرسلهم إلى حزبه من المشركين وشبههم بالرسل الصادقين ، حتى استجاب لهم حزبه ، ومثل رسل الله بهم لينفر عنهم ، ويجعل رسله هم الصادقين العالمين بالغيب ، ولما كان بين النوعين أعظم التضاد ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » (١) .

فإن الناس قسمان : أتباع الكهنة ، وأتباع رسل الله . فلا يجتمع فى العبد أن يكون من هؤلاء وهؤلاء ، بل يبعد عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بقدر قربه من الكاهن ، ويكذب الرسول بقدر تصديقه للكاهن .

وقوله: اجعل لى مصايد ، قال : مصايدك النساء ، فالنساء أعظم شبكة له ، يصطاد بهن الرجال .

والمقصود : أن الغناء المحرم قرآن الشيطان .

ولما أراد عدو الله أن يجمع عليه نفوس المبطلين قرنه بما يزينه من الألحان المطربة ، وآلات الملاهى والمعازف ، وأن يكون من امرأة جميلة ، أو صبى جميل ، ليكون ذلك أدعى إلى قبول النفوس لقرآنه ، وتعوضها به عن القرآن المجيد .

---

(١) الترمذى (١٣٥) فى الطهارة ، باب : ما جاء فى كراهية إتيان الحائض ، وابن ماجه (٦٣٩) فى الطهارة وسننها ، باب : النهى عن إتيان الحائض ، وأحمد (٢ / ٤٠٨) .

# فصل

وأما تسميته بالصوت الأحمق ، والصوت الفاجر ، فهى تسمية الصادق المصدوق ، الذى لا ينطق عن الهوى .

فروى الترمذى من حديث ابن أبى ليلى عن عطاء عن جابر رضي الله عنه قال : خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مع عبد الرحمن بن عوف إلى النخل ، فإذا ابنه إبراهيم يجود بنفسه ، فوضعه فى حجره ، ففاضت عيناه ، فقال عبد الرحمن : أتبكى ، وأنت تنهى الناس ؟ قال : « إنى لم أنه عن البكاء ، وإنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نغمة : لهو ولعب ومزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة : خمش وجوه ، وشق جيوب ، ورنة ، وهذا هو رحمة ، ومن لا يرحم لا يرحم ، لولا أنه أمر حق ، ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق أولنا ، لحزنا عليك حزنًا هو أشد من هذا ، «وإنا بك لمحزونون ، تبكى العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب » قال الترمذى : هذا حديث حسن (١) .

فانظر إلى هذا النهى المؤكد ، بتسميته صوت الغناء صوتا أحمق ، ولم يقتصر على ذلك حتى وصفه بالفجور ، ولم يقتصر على ذلك حتى سماه من مزامير الشيطان ، وقد أقر النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أبا بكر الصديق على تسمية الغناء مزمور الشيطان فى الحديث الصحيح (٢)، فإن لم يستفد التحريم من هذا لم نستفده من نهى أبدا .

وقد اختلف فى قوله : « لا تفعل » وقوله : « نهيت عن كذا » أيهما أبلغ فى التحريم؟

والصواب بلا ريب : أن صيغة « نهيت » أبلغ فى التحريم ؛ لأن « لا نفعل » يحتمل النهى وغيره ، بخلاف الفعل الصريح .

فكيف يستجيز العارف إباحة ما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وسماه صوتا أحمق فاجرا ، ومزمور الشيطان ، وجعله والنياحة التى لعن فاعلها أخوين ؟ وأخرج النهى عنهما مخرجا واحدا ، ووصفهما بالحمق والفجور وصفًا واحدا .

---

(١) الترمذى (١٠٠٥ ) فى الجنائز ، باب : ما جاء فى الرخصة فى البكاء على الميت .

(٢) مسلم (٨٩٢ / ١٦) فى صلاة العيدين ، باب : الرخصة فى اللعب الذى لا معصية فيه ، وابن ماجه (١٨٩٨) فى النكاح ، باب : الغناء والدف .

وقال الحسن : « صوتان ملعونان : مزمار عند نغمة ، ورنة عند مصيبة » .

وقال أبو بكر الهذلى « قلت للحسن : أكان نساء المهاجرات يصنعن ما يصنع النساء اليوم ؟ قال : لا ، ولكن ههنا خمش وجوه ، وشق جيوب ، ونتف أشعار، ولطم خدود ، ومزامير شيطان ، صوتان قبيحان فاحشان : عند نغمة إن حدثت ، وعند مصيبة إن نزلت ، ذكر الله المؤمنين فقال : ﴿**وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)**﴾ [ المعارج ] ، وجعلتم أنتم فى أموالكم حقًّا معلوما للمغنية عند النغمة ، والنائحة عند المصيبة » .

## فصل

وأما تسميته صوت الشيطان ، فقد قال تعالى للشيطان وحزبه : ﴿**قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤)**﴾ [ الإسراء ]

قال ابن أبى حاتم فى تفسيره : حدثنا أبى أخبرنا أبو صالح ـ كاتب الليث ـ حدثنا معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس : ﴿ **وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ** ﴾ [ الإسراء : ٦٤ ] قال : « كل داع إلى معصية » .

ومن المعلوم أن الغناء من أعظم الدواعى إلى المعصية ؛ ولهذا فسر صوت الشيطان به .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى أخبرنا يحيى بن المغيرة ، أخبرنا جرير ، عن ليث ، عن مجاهد : ﴿ **وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ** ﴾ قال : « استزل منهم من استطعت » قال : « وصوته الغناء ، والباطل » .

وبهذا الإسناد إلى جرير عن منصور عن مجاهد قال : « صوته هو المزامير » .

ثم روى بإسناد عن الحسن البصرى قال : « صوته هو الدف » .

وهذه الإضافة إضافة تخصيص ، كما أن إضافة الخيل والرجل إليه كذلك ، فكل متكلم بغير طاعة الله ، ومصوت بيراع أو مزمار ، أو دف حرام ، أو طبل . فذلك صوت الشيطان ، وكل ساع فى معصية الله على قدميه فهو من رجله ، وكل راكب فى معصية

الله فهو من خيالته ، كذلك قال السلف ، كما ذكر ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : « رجله كل رجل مشت فى معصية الله » .

وقال مجاهد : « كل رجل يقاتل فى غير طاعة الله فهو من رجله » .

وقال قتادة : « إن له خيلا ورجلا من الجن والإنس » .

## فصل

وأما تسميته مزمور الشيطان ، ففى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل على النبى صلى الله عليه وآله وسلم وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث ، فاضطجع على الفراش، وحول وجهه ، ودخل أبو بكر رضي الله عنه ، فانتهرنى ، وقال : مزمار الشيطان عند النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ؟ فأقبل عليه رسول الله وآله وسلم ، فقال : «دعهما » فلما غفل غمزتهما ، فخرجتا (١) .

فلم ينكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على أبى بكر تسمية الغناء مزمار الشيطان ، وأقرهما ؛ لأنهما جاريتان غير مكلفتين تغنيان بغناء االأعراب ، الذى قيل فى يوم حرب بعاث من الشجاعة ،والحرب . وكان اليوم يوم عيد ، فتوسع حزب الشيطان فى ذلك إلى صوت امرأة جميلة أجنبية ، أو صبى أمرد صوته فتنة ، وصورته فتنة ، يغنى بما يدعو إلى الزنى والفجور ، وشرب الخمر ، مع آلات اللهو التى حرمها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى عدة أحاديث مع التصفيق والرقص ، وتلك الهيئة المنكرة التى لا يستحلها أحد من أهل الأديان فضلا عن أهل العلم والإيمان ، ويحتجون بغناء جويريتين غير مكلفتين بنشيد الأعراب ، ونحوه فى الشجاعة ونحوها ، فى يوم عيد ، بغير شبابة ولا دف ، ولا رقص ولا تصفيق ، ويدعون المحكم الصريح ؛ لهذا المتشابه ، وهذا شأن كل مبطل .

نعم ، نحن لا نحرم ولا نكره مثل ما كان فى بيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على ذلك الوجه ، وإنما نحرم نحن وسائر أهل العلم والإيمان السماع المخالف لذلك، وبالله التوفيق .

---

(١) البخارى (٩٤٩) فى العيدين ، باب : الحراب والدرق يوم العيد ، ومسلم (٨٩٢ / ١٩) فى العيدين ، باب : الرخصة فى اللعب الذى لا معصية فيه .

## فصل

وأما تسميته بالسمود ، فقد قال تعالى : ﴿ **أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٦١)** ﴾ [ النجم ] قال عكرمة عن ابن عباس : « السمود : الغناء فى لغة حمير » . يقال : اسمدى لنا ، أى غنى لنا ، وقال أبو زُبَيد :

وكـأن العزيـف فيـها غـناء    للنـدامـى مـن شارب مسمود

قال أبو عبيدة : « المسمود : الذى غنى له » وقال عكرمة : « كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا . فنزلت هذه الآية » .

وهذا لا يناقض ما قيل فى هذه الآية من أن « السمود » الغفلة والسهو عن الشىء ، قال المبرد : هو الاشتغال عن الشىء بهم ، أو فرح ، يتشاغل له ، وأنشد :

رمـى الحـدثـان نسوة آل حـرب    بمـقـدار سـمـدن له سـمودا

وقال ابن الأنبارى : السامد اللاهى ، والسامد الساهى ، والسامد المتكبر ، والسامد القائم .

وقال ابن عباس ، فى الآية : « وأنتم مستكبرون » وقال الضحاك : « أشرون بطرون» .

وقال مجاهد : « غضاب مبرطمون » وقال غيره « لاهون غافلون معرضون » .

فالغناء يجمع هذا كله ، ويوجبه .

فهذه أربعة عشر اسمًا ، سوى اسم الغناء .

## فصل

فى بيان تحريم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الصريح لآلات اللهو والعازف ، وسياق الأحاديث فى ذلك .

عن عبد الرحمن بن غنم قال : حدثنى أبو عمر ، أو أبو مالك الأشعرى ﵁ أنه سمع النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول : « ليكونن من أمتى قوم يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف » [١] هذا حديث صـحيح ، أخرجه البخارى فى صحيحه محتجا

(١) البخارى (٥٥٩٠) فى الأشربة ، باب : ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه .

به . وعلقه تعليقًا مجزوما به ، فقال : « باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه ، وقال هشام بن عمار : حدثنا صدقة بن خالد حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر حدثنا عطية بن قيس الكلابى حدثنى عبد الرحمن بن غنم الأشعرى قال حدثنى أبو عامر ، أو أبو مالك الأشعرى ـ والله ما كذبنى ـ أنه سمع النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول : « ليكونن من أمتى أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف ، ولينزلن أقوام إلى جنب علم ، يروح عليهم بسارحة لهم ، يأتيهم لحاجة ، فيقولوا : ارجع إلينا غداً ، فيبيتهم الله تعالى ويضع العلم ، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة »(١) .

ولم يصنع من قدح فى صحة هذا الحديث شيئًا ، كابن حزم ، نصرة لمذهبه الباطل فى إباحة الملاهى ، وزعم أنه منقطع ؛ لأن البخارى لم يصل سنده به .

وجواب هذا الوهم من وجوه :

**أحدها** : أن البخارى قد لقى هشام بن عمار وسمع منه ، فإذا قال : « قال هشام » فهو بمنزلة قوله « عن هشام ».

**الثانى** : أنه لو لم يسمع منه فهو لم يستجز الجزم به عنه إلا وقد صح عنه أنه حدث به . وهذا كثيراً ما يكون لكثرة من رواه عنه عن ذلك الشيخ وشهرته . فالبخارى أبعد خلق الله من التدليس .

**الثالث**:أنه أدخله فى كتابه المسمى بالصحيح محتجا به،فلولا صحته عنده لما فعل ذلك.

**الرابع** : أنه علقه بصيغة الجزم ، دون صيغة التمريض ؛ فإنه إذا توقف فى الحديث أو لم يكن على شرطه يقول : « ويروى عن رسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم » ويذكر عنه » ونحو ذلك ، فإذا قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » فقد جزم وقطع بإضافته إليه .

**الخامس** : أنا لو أضربنا عن هذا كله صفحًا فالحديث صحيح متصل عند غيره .

قال أبو داود فى كتاب اللباس : حدثنا عبد الوهاب بن نجدة حدثنا بشر بن بكر عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر حدثنا عطية بن قيس قال :سمعت عبد الرحمن بن غنم الأشعرى قال : حدثنا أبو عامر أو أبو مالك ، فذكره مختصراً . رواه أبو بكر الإسماعيلى فى كتابه الصحيح مسنداً ، فقال : أبو عامر . ولم يشك .

ووجه الدلالة منه:أن المعازف هى آلات اللهو كلها. لا خلاف بين أهل اللغة فى ذلك.

---

(١) سبق تخريجه ص ٧١ .

ولو كانت حلالا ذمهم على استحلاها ، ولما قرن استحلالها استحلال الخمر والخز ، فإن كان بالحاء والراء المهملتين ، فهو استحلال الفروج الحرام . وإن كان بالخاء والزاى المعجمتين فهو نوع من الحرير ، غير الذى صح عن الصحابة لبسه . إذ الخز نوعان . أحدهما : من حرير . والثانى : من صوف . وقد روى هذا الحديث بالوجهين .

وقال ابن ماجه فى سننه :حدثنا عبد الله بن سعيد عن معاوية بن صالح عن حاتم بن حريث عن ابن أبى مريم عن عبد الرحمن بن غنم الأشعرى عن أبى مالك الأشعرى ﷺ قال : قال : رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « ليشربن ناس من أمتى الخمر،يسمونها بغير اسمها ، يعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات ، يخسف الله بهم الأرض ، ويجعل منهم قردة وخنازير » (١) وهذا إسناد صحيح . وقد توعد مستحلى المعازف فيه بأن يخسف الله بهم الأرض ، ويمسخهم قردة وخنازير ، وإن كان الوعيد على جميع هذه الأفعال ، فلكل واحد قسط فى الذم والوعيد .

وفى الباب عن سهل بن سعد الساعدى ، وعمران بن حصين ، وعبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن عباس ، وأبى هريرة ، وأبى أمامة الباهلى ، وعائشة أم المؤمنين ، وعلى بن أبى طالب ، وأنس بن مالك ، وعبد الرحمن بن سابط ، والغازى بن ربيعة :

ونحن نسوقها لتقر بها عيون أهل القرآن ، وتشجى بها حلوق أهل سماع الشيطان .

فأما حديث سهل بن سعد ، فقال ابن أبى الدنيا : أخبرنا الهيثم بن خارجة ، حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد الساعدى قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « يكون فى أمتى خسف وقذف ومسخ » ، قيل : يا رسول الله ، متى ؟ قال: « إذا ظهرت المعازف والقينات واستحلت الخمرة » (٢) .

وأما حديث عمران بن حصين . فرواه الترمذى من حديث الأعمش عن هلال بن يساف عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « يكون فى أمتى قذف وخسف ومسخ »، فقال رجل من المسلمين : متى ذاك ، يا رسول الله ؟ قال : « إذا ظهرت القيان ، والمعازف ، وشربت الخمور » قال الترمذى : هذا حديث غريب (٣) .

---

(١) ابن ماجه (٤٠٢٠) فى الفتن ، باب : العقوبات .

(٢) ابن ماجه (٤٠٦٠) فى الفتن ، باب الخسوف ، وفى الزوائد : « إسناده ضعيف ؛ لضعف عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم » .

(٣) الترمذى (٢٢١٢) فى الفتن ، باب : ما جاء فى علامة حلول المسخ والخسف .

وأما حديث عبد الله بن عمرو ، فروى أحمد فى مسنده وأبو داود عنه أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « إن الله تعالى حرم على أمتى الخمر والميسر والكوبة والغبيراء، وكل مسكر حرام » (١) .

وفى لفظ آخر لأحمد : « إن الله حرم على أمتى الخمر والميسر والمزر والكوبة والقنين » (٢) .

وأما حديث ابن عباس ، ففى المسند أيضًا : عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « إن الله حرم الخمر والميسر والكوبة ، وكل مسكر حرام » (٣) ، والكوبة : الطبل . قاله سفيان .وقيل : البربط . والقنين : هو الطنبور بالحبشية . والتقنين : الضرب به ، قاله ابن الأعرابى .

وأما حديث أبى هريرة ﷺ ، فرواه الترمذى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « إذا اتخذ الفىء دولا ، والأمانة مغنما ، والزكاة مغرمًا ، وتعلم العلم لغير الدين وأطاع الرجل امرأته ، وعق أمه ، وأدنى صديقه ، وأقصى أباه ، وظهرت الأصوات فى المساجد ، وساد القبيلة فاسقهم ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وظهرت القينات والمعازف ، وشربت الخمر ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء ، وزلزلة وخسفًا ، ومسخًا ، وقذفًا . وآيات تتابع كنظام بال قطع سلكه فتتابع » (٤) قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا عبد الله بن عمر الجشمى ، حدثنا سليمان بن سالم أبو داود ، حدثنا حسان بن أبى سنان ، عن رجل ، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « يمسخ قوم من هذه الأمة فى آخر الزمان قردة وخنازير » . قالوا : يا رسول الله ، أليس يشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسوال الله ، قال : « بلى ، ويصومون ويصلون ، ويحجون » . قيل :فما بالهم؟ قال : «اتخذوا المعازف والدفوف والقينات ، فباتوا على شربهم ولهوهم ، فأصبحوا وقد مسخوا قردة وخنازير » (٥) .

وأما حديث أبى أمامة الباهلى ،فهو فى مسند أحمد والترمذى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال:« يبيت طائفة من أمتى على أكل وشرب،ولهو ولعب ، ثم يصبحون

(١) أبو داود (٣٦٨٥) فى الأشربة ، باب : النهى عن المسكر ، وأحمد (٢ / ١٥٨) .
(٢) أحمد (٢ / ١٦٥) .
(٣) أحمد (١ / ٢٧٤) ، وصححه الشيخ شاكر (٢٤٧٦) .
(٤) الترمذى (٢٢١١) فى الفتن ، باب : ما جاء فى علامة حلول المسخ والخسف .
(٥) الدر المنثور (٢ / ٣٢٤) وعزاه لابن أبى الدنيا .

قردة وخنازير ، ويبعث على أحياء من أحيائهم ريح ، فينسفهم كما نسف من كان قبلكم ، باستحلالهم الخمر ، وضربهم بالدفوف ، واتخاذهم القينات » (١) في إسناده فرقد السبخي، وهو من كبار الصالحين ، ولكنه ليس بقوى في الحديث . وقال الترمذى : تكلم فيه يحيى بن سعيد وقد روى عنه الناس .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا عبد الله بن عمر الجشمى ، حدثنا جعفر بن سليمان ، حدثنا فرقد السبخي ، حدثنا قتادة ، عن سعيد بن المسيب قال : حدثني عاصم بن عمرو البجلي ، عن أبي أمامة ، عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « يبيت قوم من هذه الأمة على طعم ، وشرب ولهو ، فيصبحون وقد مسخوا قردة وخنازير ، وليصيبنهم خسف وقذف حتى يصبح الناس فيقولون : خسف الليلة بدار فلان ، خسف الليلة ببنى فلان ، وليرسلن عليهم حجارة من السماء ، كما أرسلت على قوم لوط ، على قبائل فيها ، وعلى دور فيها ، وليرسلن عليهم الريح العقيم التى أهلكت عاداً ، بشربهم الخمر ، وأكلهم الربا واتخاذهم القينات ، وقطيعتهم الرحم » (٢) .

وفى مسند أحمد من حديث عبيد الله بن زحر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ، عن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « إن الله بعثنى رحمة وهدى للعالمين ،وأمرنى أن أمحق المزامير والكبارات ، يعنى البرابط ، والمعازف والأوثان ، التى كانت تعبد فى الجاهلية » (٣) قال البخارى : عبيد الله بن زحر ثقة ، وعلى بن يزيد ضعيف . والقاسم بن عبد الرحمن أبو عبد الرحمن ثقة .

وفى الترمذى ومسند أحمد بهذا الإسناد بعينه : أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « لا تبيعوا القينات ، ولا تشتروهن ، ولا تعلموهن ، ولا خير فى تجارة فيهن، وثمنهن حرام » (٤) . وفى مثل هذا نزلت هذه الآية : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [ لقمان : ٦ ] .

وأما حديث عائشة رضي الله عنها ، فقال ابن أبى الدنيا : حدثنا الحسن بن محبوب ، حدثنا أبو النضر هاشم بن القاسم ، حدثنا أبو معشر عن محمد بن المنكدر ، عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « يكون فى أمتى

---

(١) أحمد (٥ / ٢٥٩) .

(٢) الدر المنثور (٢ / ٣٢٤) وعزاه لابن أبى الدنيا .

(٣) أحمد (٥ / ٢٥٧) .

(٤) الترمذى (٣١٩٥) فى تفسير القرآن ، باب : ومن سورة لقمان ، وقال : « هذا حديث غريب » ، وأحمد (٥ / ٢٦٤) .

خسف ومسخ وقــذف » ، قــالت عائشة : يا رسول الله ، وهم يقولون لا إله إلا الله ؟ فقال : « إذا ظهرت القينات ، وظهر الزنى ، وشربت الخمر ، ولبس الحرير ، كان ذا عند ذا »(١) .

وقال ابن أبى الدنيا أيضاً : حدثنا محمد بن ناصح ، حدثنا بقية بن الوليد ، عن يزيد ابن عبد الله الجهنى ، حدثنى أبو العلاء ، عن أنس بن مالك أنه دخل على عائشة رضي الله عنها ورجل معه ، فقال لها الرجل : « يا أم المؤمنين ، حدثينا عن الزلزلة . فقالت : إذا استباحوا الزنى ، وشربوا الخمر ، وضربوا بالمعازف ، غار الله فى سمائه . فقال : تزلزلى بهم ، فإن تابوا وفزعوا وإلا هدمتها عليهم ، قال : قلت : يا أم المؤمنين ، أعذاب لهم ؟ قالت : بل موعظة ورحمة وبركة للمؤمنين ، ونكال وعذاب وسخط على الكافرين ، قال أنس : ما سمعت حديثًا بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنا أشد به فرحًا منى بهذا الحديث .

وأما حديث على ، فقال ابن أبى الدنيا أيضًا : حدثنا الربيع بن تغلب ، حدثنا فرج بن فضالة ، عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن على ، عن على رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: « إذا عملت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء » . قيل: يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : « إذا كان المغنم دولا ، والأمانة مغنمًا ، والزكاة مغرمًا ، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه ، وبر صديقه وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات فى المساجد ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وشربت الخمور ، ولبس الحرير ، واتخذت القيان ، ولعن آخر هذه الأمة أولها . فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء وخسفًا ومسخًا » (٢) .

وحدثنا عبد الجبار بن عاصم قال : حدثنا أبو طالب قال :حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن عبد الرحمن التميمى ، عن عباد بن أبى على ، عن على رضي الله عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال : « تمسخ طائفة من أمتى قردة وطائفة خنازير ، ويخسف بطائفة ، ويرسل على طائفة الريح العقيم ، بأنهم شربوا الخمر ، ولبسوا الحرير ، واتخذوا القيان ، وضربوا بالدفوف » (٣) .

وأما حديث أنس رضي الله عنه . فقال ابن أبى الدنيا: حدثنا أبو عمرو هارون بن عمر القرشى، حدثنا الخصيب بن كثير عن أبى بكر الهذلى ، عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « ليكونن فى هذه الأمة خسف وقذف ومسخ ،

(١ ـ ٣) الدر المنثور (٢ / ٣٢٤) وعزاه لابن أبى الدنيا .

وذاك إذا شربوا الخمور ، واتخذوا القينات ، وضربوا بالمعازف »(١) .

قال : وأنبأنا أبو إسحاق الأزدى ، حدثنا إسماعيل بن أبى أويس ، حدثنى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أحد ولد أنس بن مالك ، وعن غيره ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « ليبيتن رجال على أكل وشرب وعزف ، فيصبحون على أرائكهم ممسوخين قردة وخنازير »(٢) .

وأما حديث عبد الرحمن بن سابط ، فقال ابن أبى الدنيا : حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا جرير ، عن أبان بن تغلب ، عن عمرو بن مرة ، عن عبد الرحمن بن سابط قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « يكون فى أمتى خسف وقذف ومسخ » ، قالوا : فمتى ذاك ، يا رسول الله ؟ قال : « إذا أظهروا المعازف ، واستحلوا الخمور »(٣) .

وأما حديث الغازى بن ربيعة ، فقال ابن أبى الدنيا : حدثنا عبد الجبار بن عاصم ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن عبيد الله بن عبيد ، عن أبى العباس الهمدانى ، عن عمارة ابن راشد عن الغازى بن ربيعة ـ رفع الحديث ـ قال : « ليمسخن قوم وهم على أريكتهم قردة وخنازير ، بشربهم الخمر ، وضربهم بالبرابط والقيان »(٤) .

قال ابن أبى الدنيا : وحدثنا عبد الجبار بن عاصم قال : حدثنى المغيرة بن المغيرة ، عن صالح بن خالد ـ رفع ذلك إلى النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ أنه قال : «ليستحلن ناس من أمتى الحرير والخمر والمعازف ، وليأتين الله على أهل حاضر منهم عظيم بجبل حتى ينبذه عليهم ويمسخ آخرون قردة وخنازير »(٥) .

قال ابن أبى الدنيا : حدثنا هارون بن عبيد الله ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا أشرس أبو شيبان الهذلى قال : قلت لفرقد السبخى : أخبرنى يا أبا يعقوب ، من تلك الغرائب التى قرأت فى التوراة . فقال : «يا أبا شيبان ، والله ما أكذب على ربى ـ مرتين أو ثلاثا ـ لقد قرأت فى التوراة : ليكونن مسخ وخسف وقذف فى أمة محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى أهل القبلة ، قال : قلت : يا أبا يعقوب ، ما أعمالهم ، قال : باتخاذهم القينات وضربهم بالدفوف ولباسهم الحرير والذهب ، ولئن بقيت حتى ترى أعمالا ثلاثة ، فاستيقن ، واستعد واحذر ، قال : قلت : ما هى ؟ قال : إذا تكافأ الرجال بالرجال والنساء بالنساء ورغبت العرب فى آنية العجم فعند ذلك : قلت له: العرب خاصة ؟ قال : لا بل أهل القبلة ، ثم قال : والله ليقذفن رجال من السماء بحجارة يشدخون بها فى طرقهم وقبائلهم ، كما فعل بقوم لوط ،وليمسخن آخرون قردة وخنازير ، كما فعل ببنى

(١ ـ٥) الدر المنثور (٢ / ٣٢٤) وعزاهم لابن أبى الدنيا .

إسرائيل ، وليخسفن بقوم كما خسف بقارون » .

وقد تظاهرت الأخبار بوقوع المسخ فى هذه الأمة ، وهو مقيد فى أكثر الأحاديث بأصحاب الغناء ، وشاربى الخمر ، وفى بعضها مطلق .

قال سالم بن أبى الجعد : « ليأتين على الناس زمان يجتمعون فيه على باب رجل ينتظرون أن يخرج إليهم ، فيطلبون إليه حاجة ، فيخرج إليهم وقد مسخ قرداً أو خنزيراً ، وليمرن الرجل على الرجل فى حانوته يبيع ، فيرجع إليه وقد مسخ قرداً أو خنزيراً » .

وقال أبو هريرة ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يمشى الرجلان إلى الأمر يعملانه ، فيمسخ أحدهما قرداً أو خنزيرًا ، فلا يمنع الذى نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمضى إلى شأنه ذلك حتى يقضى شهوته ، وحتى يمشى الرجلان إلى الأمر يعملانه ، فيخسف بأحدهما ، فلا يمنع الذى نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمشى لشأنه ذلك ، حتى يقضى شهوته منه » .

وقال عبد الرحمن بن غنم : « سيكون حيان متجاورين ، فيشق بينهما نهر ،فيستقيان منه ، قبسهم واحد ، يقبس بعضهم من بعض ، فيصبحان يوما من الأيام قد خسف بأحدهما والآخر حى » .

وقال عبد الرحمن بن غنم أيضاً : « يوشك أن يقعد اثنان على رحًا يطحنان ، فيمسخ أحدهما والآخر ينظر » .

وقال مالك بن دينار : « بلغنى أن ريحًا تكون فى آخر الزمان وظلمًا ، فيفزع الناس إلى علمائهم ، فيجدونهم قد مسخوا » .

قال بعض أهل العلم : إذا اتصف القلب بالمكر والخديعة والفسق ، وانصبغ بذلك صبغًا تاما ، وصار صاحبه على خلق الحيوان الموصوف بذلك : من القردة ، والخنازير ، وغيرهما ، ثم لا يزال يتزايد ذلك الوصف فيه حتى يبدو على صفحات وجهه بدوا خفيا ، ثم يقوى ويتزايد حتى يصير ظاهراً على الوجه ، ثم يقوى حتى يقلب الصورة االظاهرة ، كما قلب الهيئة الباطنة ، ومن له فراسة تامة يرى على صور الناس مسخًا من صور الحيوانات التى تخلقوا بأخلاقها فى الباطن ، فقل أن ترى مختالا مكاراً مخادعا ختاراً إلا وعلى وجهه مسخة قرد ، وقل أن ترى رافضيا إلا على وجهه مسخة خنزير ، وقل أن ترى شرهًا تهمًا ، نفسه نفس كلبية إلا وعلى وجهه مسخة كلب . فالظاهر مرتبط بالباطن أتم ارتباط ، فإذا استحكمت الصفات المذمومة فى النفس قويت على قلب الصورة الظاهرة ،

ولهذا خوف النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من سابق الإمام فى الصلاة بأن يجعل الله صورته صورة حمار (١) ،لمشابهته للحمار فى الباطن ، فإنه لم يستفد بمسابقة الإمام إلا فساد صلاته ، وبطلان أجره ، فإنه لا يسلم قبله ، فهو شبيه بالحمار فى البلادة ، وعدم الفطنة .

إذا عرف هذا ، فأحق الناس بالمسخ هؤلاء الذين ذكروا فى هذه الأحاديث ، فهم أسرع الناس مسخًا قردة وخنازير ، لمشابهتهم لهم فى الباطن ، وعقوبات الرب تعالى ـ نعوذ بالله منها ـ جارية على وفق حكمته وعدله .

وقد ذكر شبه المغنين والمفتونين بالسماع الشيطانى ، ونقضناها نقضًا وإبطالا فى كتابنا الكبير فى السماع ، وذكرنا الفرق بين ما يحركه سماع الأبيات وما يحركه سماع الآيات ، وذكرنا الشبه التى دخلت على كثير من العباد فى حضوره حتى عدوه من القرب فمن أحب الوقوف على ذلك مستوفىً فى ذلك الكتاب وإنما أشرنا ههنا إلى نبذة يسيره فى كونه من مكايد الشيطان ، وبالله التوفيق (٢).

## وأيضاً

من أقوى أسباب السكر الموجبة له سماع الأصوات المطربة من جهتين ؛ من جهة أنها فى نفسها توجب اللذة قوية ينغمر معها العقل ، ومن جهة أنها تحرك النفس إلى نحو محبوبها كائنا ما كان ، فيحصل بتلك الحركة الشوق والطلب مع التخيل للمحبوب وإدناء صورته إلى القلب واستيلائها على الفكرة لذة عظيمة تقهر العقل، فتجتمع لذة الألحان ولذة الأشجان ؛ ولهذا يقرن المعنيون بهذه اللذات سماع الألحان بالشراب كثيراً ليكمل لهم السكرة فى هذا الحال ما لا يجدونه بدونها .

فالخمر شراب النفوس ، والألحان شراب الأرواح ، ولاسيما إذا اقترن بها من الأقوال ما فيه ذكر المحبوب ووصف حال المحب على مقتضى الحال التى هو فيها ، فيجتمع سماع الأصوات الطيبة وإدراك المعانى المناسبة ، وذلك أقوى بكثير من اللذة الحاصلة بكل واحد

(١) البخارى (٦٩١) فى الأذان ، باب : إثم من رفع رأسه قبل الإمام ، ومسلم (٤٢٧ / ١١٤) فى الصلاة ، باب: تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما ، وأبو داود (٦٢٣) فى الصلاة ، باب : التشديد فيمن يرفع رأسه قبل الإمام ، والترمذى (٨٥٢) فى الصلاة ، باب : ما جاء من التشديد فى الذى يرفع رأسه قبل الإمام ، والنسائى (٨٢٨) فى الإمامة ، باب : مبادرة الإمام ، وابن ماجه (٩٦١) فى إقامة الصلاة ، باب : النهى أن يسبق الإمام بالركوع والسجود ، وأحمد (٢ / ٢٦٠) .

(٢) إغاثة اللهفان (١ / ٢٢٤ ـ ٢٦٨) .

منها على انفراد ، فتستولى اللذة على النفس والروح والبدن أتم استيلاء ، فيحدث غاية السكر [(١)] .

## فصل
## فى منزلة الحَزَن

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الحزن » .

وليست من المنازل المطلوبة ، ولا المأمور بنزولها ، وإن كان لابد للسالك من نزولها ، ولم يأت « الحزن » فى القرآن إلا منهيًا عنه ، أو منفيًا .

فالمنهى عنه : كقوله تعالى ﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا** ﴾ [ آل عمران : ١٣٩ ] وقوله : ﴿ **وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [ النحل : ١٢٧ ] فى غير موضع ، وقوله : ﴿ **لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [ التوبة : ٤٠ ] والمنفى كقوله : ﴿ **فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [ البقرة : ٣٨ ] .

وسر ذلك : أن « الحزن » موقف غير مسير ، ولا مصلحة فيه للقلب ، وأحب شىء إلى الشيطان : أن يحزن العبد ليقطعه عن سيره ، ويوقفه عن سلوكه ،قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [ المجادلة : ١٠ ] ونهى النبى ﷺ الثلاثة « أن يتناجى اثنان منهم دون الثالث ؛ لأن ذلك يحزنه » [(٢)] .

فالحزن ليس بمطلوب ، ولا بمقصود ، ولا فيه فائدة . وقد استعاذ منه النبى ﷺ ، فقال : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن » [(٣)] فهو قرين . والفرق بينهما : أن المكروه الذى يرده على القلب ، إن كان لما يستقبل : أورثه الهم ، وإن كان لما مضى : أورثه الحزن ، وكلاهما مضعف للقلب عن السير ، مفتر للعزم .

ولكن نزول منزلته ضرورى بحسب الواقع ؛ ولهذا يقول أهل الجنة إذا دخلوها ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ**﴾ [ فاطر : ٣٤ ] فهذا يدل على أنهم كان يصيبهم فى الدنيا الحزن ، كما يصيبهم سائر المصائب التى تجرى عليهم بغير اختيارهم .

---

(١) روضة المحبين (١٥٣) .

(٢) البخارى (٦٢٩٠) فى الاستئذان ، باب : إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة ، ومسلم (٢١٨٤ / ٣٧) فى السلام ، باب : تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث ، وأحمد ( ١ / ٤٣١ ، ٤٣٢) .

(٣) البخارى (٦٣٦٣) فى الدعوات ، باب : التعوذ من غلبة الرجال ، وأبو داود (١٥٤١) فى الصلاة ، باب : فى الاستعاذة .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [ التوبة ] فلم يمدحوا على نفس الحزن، وإنما مدحوا على نفس الحزن، وإنما مدحوا على ما دل عليه الحزن من قوة إيمانهم ، حيث تخلفوا عن رسول الله ﷺ لعجزهم عن النفقة ، ففيه تعريض بالمنافقين الذين لم يحزنوا على تخلفهم، بل غبطوا نفوسهم به .

وأما قوله ﷺ فى الحديث الصحيح :« ما يصيب المؤمن من هم ولا نصب ، ولا حزن إلا كفر الله به من خطاياه » (١) فهذا يدل على أنه مصيبة من الله يصيب بها العبد ، يكفر بها من سيئاته، لا يدل على أنه مقام ينبغى طلبه واستيطانه .

وأما حديث هند بن أبى هالة ، فى صفة النبى ﷺ : « إنه كان متواصل الأحزان » فحديث لا يثبت ، وفى إسناده من لا يعرف.

وكيف يكون متواصل الأحزان ، وقد صانه الله عن الحزن على الدنيا وأسبابها ،ونهاه عن الحزن على الكفار ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ فمن أين يأتيه الحزن ؟

بل كان دائم البشر ، ضحوك السن ، كما فى صفته « الضحوك القتال » صلوات الله وسلامه عليه.

وأما الخبر المروى:« إن الله يحب كل قلب حزين » فلا يعرف إسناده، ولا من رواه ، ولا تعلم صحته .

وعلى تقدير صحته : فالحزن مصيبة من المصائب ، التى يبتلى الله بها عبده ، فإذا ابتلى به العبد فصبر عليه ، أحب صبره على بلائه .

وأما الأثر الآخر : « إذا أحب الله عبداً ، نصب فى قلبه نائحة ، وإذا أبغض عبداً جعل فى قلبه مزماراً » فأثر إسرائيلى . قيل : إنه فى التوراة ، وله معنى صحيح ، فإن المؤمن حزين على ذنوبه ، والفاجر لاه لاعب ، مترنم فرح .

وأما قوله تعالى عن نبيه إسرائيل : ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [ يوسف : ٨٤] فهو إخبار عن حاله بمصابه بفقد ولده ،وحبيبه ،وأنه ابتلاه بذلك كما ابتلاه بالتفريق بينه وبينه .

وأجمع أرباب السلوك : على أن حزن الدنيا غير محمود إلا أبا عثمان الحيرى ، فإنه

---

(١) البخارى (٥٦٤١ ، ٥٦٤٢) فى المرضى ، باب : ما جاء فى كفارة المرض ، ومسلم (٢٥٧٣ / ٥٢ ) فى البر والصلة والآداب ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك .

قال : الحزن بكل وجه فضيلة ، وزيادة للمؤمن ، ما لم يكن بسبب معصية . قال : لأنه إن لم يوجب تخصيصًا ، فإنه يوجب تمحيصًا .

فيقال : لا ريب أنه محنة وبلاء من الله ، بمنزلة المرض والهم والغم ، وأما إنه من منازل الطريق : فلا ، والله سبحانه أعلم .

## فصل

قال صاحب المنازل : « الحزن توجع لفائت ، وتأسف على ممتنع » .

يريد : أن ما يفوت الإنسان قد يكون مقدوراً له ، وقد لا يكون ، فإن كان مقدوراً توجع لفوته ، وإن كان غير مقدور تأسف لامتناعه .

قال : « وله ثلاث درجات . الأولى : حزن العامة ، وهو حزن على التفريط فى الخدمة ، وعلى التورط فى الجفاء ، وعلى ضياع الأيام » .

التفريط فى الخدمة عندهم : فوق التفريط فى العمل وتضييعه ، بل هذا الحزن يكون مع القيام والعمل ؛ فإن الخدمة ـ عندهم ـ من باب الأخلاق والآداب ، لا من بال الأفعال، وهى حق العبودية ، وأدبها وواجبها ، وصاحب هذا الحزن بالأولى : أن يحزن لتضييع العمل .

وأما التورط فى الجفاء : فهو أيضًا أخص من المعصية بارتكاب المحظور ؛ لأنه قد يكون لفقد أنس سابق مع الله ، فإذا تـوارى عنه تورط فـى الجفوة ، فإن الشيخ ذكـر « الحزن » فى قسم الأبواب ، وهو عنده من قسم البدايات .

وأما تضييع الأيام : فنوعان أيضًا ؛ تضييعها بخلوها عن الطاعات ، وتضييعها بخلوها عن مواجيد الإيمان ، وذوق حلاوته ، والأنس بالله ، وحسن الصحبة معه .

فكل واحد من الثلاثة نوعان لأهل البداية ، وللسالكين المتوسطين . وكلامه يعم النوعين ، وإن كان بالثانى أخص .

قال : « الدرجة الثانية : حزن أهل الإرادة ، وهو حزن على تعلق القلب بالتفرقة ، وعلى اشتغال النفس عن الشهود . وعلى التسلى عن الحزن » .

تعلق القلب بالتفرقة : هو عدم الجمعية فى الحضور مع الله ، وتشتيت الخواطر فى أودية المرادات .

وأما اشتغال النفس عن الشهود ، فهو نوعان ؛ اشتغالها عن الذكر الذى يوجب الشهود ويثمره بغيره .

والثانى : اشتغالها عن الشهود ؛ لضعف الذكر ، أو لضعف القلب عن الشهود ، أو لمانع آخر ، ولكن إذا قهر الشهود النفس لم تتمكن من التشاغل عنه إلا بقاهر يقهرها عنه .

وأما التسلى عن الحزن : فيعنى أن وجود الحزن فى القلب دليل على الإرادة والطلب، ففقده والتسلى عنه نقص ، فيحزن على فقد الحزن ، كما يبكى على فقد البكاء، ويخاف من عدم الخوف . وهذا فيه نظر ، وإنما يحمد الحزن على فقد الحزن ، أما إذا اشتغل عن الحزن بفرح محمود ـ وهو الفرح بفضل الله ورحمته ـ فلا معنى للحزن على فوات الحزن .

قال صاحب المنازل : « وليست الخاصة من مقام الحزن فى شىء ؛ لأن الحزن فقد ، والخاصة أهل وجدان » .

وهذا إن أراد به : أنه لا ينبغى لهم تعمد الحزن : فصحيح . وإن أراد به : لا يعرض لهم حزن : فليس كذلك ، والحزن من لوازم الطبيعة ، ولكن ليس هو بمقام .

قال : « الدرجة الثالثة من الحزن : التحزن للمعارضات دون الخواطر . ومعارضات القصود . واعتراضات الأحكام » .

هذه ثلاثة أمور ، بحسب الشهود والإرادة .

الأول : حزن المعارضات . فإن القلب يعترضه وارد الرجاء مثلا ، فلم ينشب أن يعارضه وارد الخوف وبالعكس ، ويعترضه وارد البسط ، فلم ينشب أن يعترضه وارد القبض ، ويرد عليه وارد الأنس . فيعترضه وارد الهيبة ، فيوجب له اختلاف هذه المعارضات عليه حزنًا لا محالة .

وليست هذه المعارضات من قبيل الخواطر ، بل هى من قبيل الواردات الإلهية ، فلذلك قال : « دون الخواطر » فإن معارضات الخواطر غير هذا .

وعند القوم : هذا من آثار الأسماء والصفات ، واتصال أشعة أنوارها بالقلب ، وهو المسمى عندهم بالتجلى .

وأما معارضات القصود : فهى أصعب ما على القوم ، وفيه يظهر اضطرارهم إلى العلم فوق كل ضرورة ، فإن الصادق يتحرى فى سلوكه كله أحب الطرق إلى الله ، فإنه سالك به وإليه ، فيعترضه طريقان لا يدرى أيهما أرضى لله وأحب إليه .

فمنهم : من يحكم العلم بجهده استدلالاً ، فإن عجز فتقليداً ، فإن عجز عنهما سكن ينتظر ما يحكم له به القدر ، ويخلى باطنه من المقاصد جملة .

ومنهم . من يلقى الكل على شيخه . إن كان له شيخ .

ومنهم : من يلجأ إلا الاستخارة والدعاء ، ثم ينتظر ما يجرى به القدر .

وأصحاب العزائم يبذلون وسعهم فى طلب الأرضى علمًا ومعرفة ، فإن أعجزهم قنعوا بالظن الغالب ، فإن تساوى عندهم الأمران ، قدموا أرجحهما مصلحة .

ولترجيح المصالح رتب متفاوتة . فتارة تترجح بعموم النفع ، وتارة تترجح بزيادة الإيمان ، وتارة تترجح بمخالفة النفس ، وتارة تترجح باستجلاب مصلحة أخرى لا تحصل من غيرها ، وتارة تترجح بأمنها من الخوف من مفسدة لا تؤمن فى غيرها .

فهذه خمس جهات من الترجيح ، قل أن يعدم واحدة منها .

فإن أعوزه ذلك كله تخلى عن الخواطر جملة ، وانتظر ما يحركه به محرك القدر ، وافتقر إلى ربه ، افتقار مستنزل ما يرضيه ويحبه . فإذا جاءته الحركة استخار الله ، وافتقر إليه افتقاراً ثانياً ، خشية أن تكون تلك الحركة نفسية أو شيطانية ، لعدم العصمة فى حقه ، واستمرار المحنة بعدوه ، مادام فى عالم الابتلاء والامتحان ، ثم أقدم على الفعل .

فهذا نهاية ما فى مقدور الصادقين .

ولأهل الجهاد فى هذا من الهداية والكشف ما ليس لأهل المجاهدة ؛ ولهذا قال الأوزاعى وابن المبارك: « إذا اختلف الناس فى شيء فانظروا ما عليه أهل الثغر » يعنى أهل الجهاد ؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**(٦٩) ﴾ [ العنكبوت ] .

وأما اعتراضات الأحكام : فيجوز أن يريد بالأحكام : الأحكام الكونية ، وهو أظهر ، وأن يريد بها الأحكام الدينية ، فإن أرباب الأحوال يقع منهم اعتراضات على الأحكام الجارية عليهم بخلاف ما يريدونه ، فيحزنون عند إدراكهم لتلك الاعتراضات على ما صدر منهم من سوء الأدب ، وتلك الاعتراضات هى إرادتهم خلاف ما جرى لهم به القدر ، فيحزنون على عدم الموافقة ، وإرادة خلاف ما أريد بهم .

وإن كان المراد به: الأحكام الدينية : فإنهم تعرض لهم أحوال لا يمكنهم الجمع بينهما وبين أحكام الأمر فلا يجدون بداً من القيام بأحكام الأمر ، ولابـد أن يعرض لهم اعتراض

خفى أو جلى ، بحسب انقطاعهم عن الحال بالأمر ، فيحزنون لوجود هذه المعارضة ، فإذا قاموا بأحكام الأمر ، ورأوا أن المصلحة فى حقهم ذلك ، وحمدوا عاقبته : حزنوا على تسرعهم على المعارضة . فالتسليم لداعى العلم واجب ، ومعارضة الحال من قبيل الإرادات والعلل ، فيحزن على نفيهما فيه ، والله أعلم (١) .

## فصل
## فى منزلة الهمَّة

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الهمة » .

وقد صدرها صاحب المنازل بقوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) ﴾ [ النجم ] .

وأما وجه تصدير « الهمة » بها : فهو الإشارة إلى أن همته ﷺ ما تعلقت بسوى مشهوده ، وما أقيم فيه ، ولو تجاوزته همته : لتبعها بصره .

و « الهمة » فعلة من الهم ، وهو مبدأ الإرادة ، ولكن خصوها بنهاية الإرادة ، فالهم مبدؤها ، والهمة نهايتها .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : فى بعض الآثار الإلهية يقول الله تعالى : « إنى لا أنظر إلى كلام الحكيم . وإنما أنظر إلى همته » .

قال : والعامة تقول : قيمة كل امرئ ما يحسن . والخاصة تقول : قيمة كل امرئ ما يطلب . يريد : أن قيمة المرء همته ومطلبه .

قال صاحب المنازل : « الهمة : ما يملك الانبعاث للمقصود صرفًا ، لا يتمالك صاحبها ، ولا يلتفت عنها » .

قوله : « يملك الانبعاث للمقصود » أى يستولى عليه كاستيلاء المالك على المملوك ، و« صرفًا » أى خالصًا صرفا .

والمراد : أن همة العبد إذا تعلقت بالحق تعالى طلبًا صادقًا خالصًا محضًا ، فتلك هى الهمة العالية ، التى « لا يتمالك صاحبها » أى لا يقدر على المهلة . ولا يتمالك صبره لغلبة سلطانه عليه ، وشدة إلزامها إياه بطلب المقصود « ولا يلتفت عنها » إلى ما سوى أحكامها، وصاحب هذه الهمة : سريع وصوله وظفره بمطلوبه ، ما لم تعقه العوائق ،

---
(١) مدارج السالكين (١ / ٥٠٥ ـ ٥١١ ) .

وتقطعه العلائق ، والله أعلم .

## فصل

قال : « وهى على ثلاث درجات ؛ الدرجة الأولى : همة تصون القلب عن وحشة الرغبة فى الفانى ، وتحمله على الرغبة فى الباقى ، وتصفيه من كدر التوانى » .

« الفانى » الدنيا وما عليها ، أى يزهد القلب فيها وفى أهلها ، وسمى الرغبة فيها «وحشة » ؛ لأنها وأهلها توحش قلوب الراغبين فيها ، وقلوب الزاهدين فيها .

أما الراغبون فيها : فأرواحهم وقلوبهم فى وحشة من أجسامهم ، إذا فاتها ما خلقت له ، فهى فى وحشة لفواته .

وأما الزاهدون فيها : فإنهم يرونها موحشة لهم ؛ لأنها تحول بينهم وبين مطلوبهم ومحبوبهم ، ولا شىء أوحش عند القلب مما يحول بينه وبين مطلوبه ومحبوبه ؛ لذلك من نازع الناس أموالهم ، وطلبها منهم : أوحش شىء إليهم وأبغضه .

وأيضًا ، فالزاهدون فيها : إنما ينظرون إليها بالبصائر ، والراغبون : ينظرون إليها بالأبصار ، فيستوحش الزاهد مما يأنس به الراغب ،كما قيل :

وإذا أفاق القلب واندمل الهوى رأت القلوب ولم تر الأبصار

وكذلك هذه الهمة تحمله على الرغبة فى الباقى لذاته ، وهو الحق سبحانه ، والباقى بإبقائه : هو الدار الآخرة .

« وتصفيه من كدر التوانى » أى تخلصه وتمحصه من أوساخ الفتور والتوانى ، الذى هو سبب الإضاعة والتفريط ، والله أعلم .

## فصل

قال : الدرجة الثانية : همة تورث أنفة من المبالاة بالعلل ، والنزول على العمل والثقة بالأمل » .

« العلل » ههنا : هى علل الأعمال من رؤيتها ، أو رؤية ثمراتها وإرادتها ، ونحو ذلك ، فإنها عندهم علل .

فصاحب هذه الهمة : يأنف على همته وقلبه من أن يبالى بالعلل ، فإن همته فوق

ذلك ، فمبالاته بها ، وفكرته فيها : نزول من الهمة .

وعدم هذه المبالاة : إما لأن العلل لم تحصل له ؛ لأن علو همته حال بينه وبينها ، فلا يبالى بما لم يحصل له ، وإما لأن همته وسعت مطلوبه ، وعلوه يأتى على تلك العلل ، ويستأصلها ، فإنه إذا علق همته بما هو أعلى منها تضمنتها الهمة العالية ، فاندرج حكمها فى حكم الهمة العالية ، وهذا موضع غريب عزيز جداً ، وما أدرى قصده الشيخ أو لا ؟

وأما أنفته من النزول على العمل : فكلام يحتاج إلى تقييد وتبيين ، وهو أن العالى الهمة مطلبه فوق مطلب العمال والعباد ، وأعلى منه ، فهو يأنف أن ينزل من سماء مطلبه العالى ، إلى مجرد العمل والعبادة ، دون السفر بالقلب إلى الله ، ليحصل له ويفوز به ، فإنه طالب لربه تعالى طلبًا تاما بكل معنى واعتبار فى عمله ، وعبادته ومناجاته ، ونومه ويقظته ، وحركته وسكونه ، وعزلته وخلطته ، وسائر أحواله ، فقد انصبغ قلبه بالتوجه إلى الله تعالى أيما صبغة .

وهذا الأمر إنما يكون لأهل المحبة الصادقة ، فهم لا يقنعون بمجرد رسوم الأعمال ، ولا بالاقتصار على الطلب حال العمل فقط .

وأما أنفته من الثقة بالأمل ، فإن الثقة توجب الفتور والتوانى ، وصاحب هذه الهمة: ليس من أهل ذلك ، كيف ؟ وهو طائر لا سائر ، والله أعلم .

## فصل

قال : « الدرجة الثالثة : همة تتصاعد عن الأحوال والمعاملات ، وتزرى بالأعواض والدرجات ، وتنحو عن النعوت نحو الذات » .

أى هذه الهمة أعلى من أن يتعلق صاحبها بالأحوال التى هى آثار الأعمال والواردات، أو يتعلق بالمعاملات . وليس المراد تعطيلها ، بل القيام بها مع عدم الالتفات إليها ، والتعلق بها .

ووجه صعود هذه المهمة عن هذا : ما ذكره من قوله : « وتزرى بالأعواض والدرجات، وتنحو عن النعوت نحو الذات » أى صاحبها لا يقف عند عوض ولا درجة ، فإن ذلك نزول من همته ، ومطلبه أعلى من ذلك ، فإن صاحب هذه الهمة قد قصر همته على المطلب الأعلى ، الذى لا شيء أعلى منه . والأعواض والدرجات دونه ، وهم يعلم أنه إذا حصل له فهناك كل عوض ودرجة عالية .

وأما نحوها « نحو الذات » فيريد به : أن صاحبها لا يقتصر على شهود الأفعال والأسماء والصفات ، بل الذات الجامعة لمتفرقات الأسماء والصفات والأفعال ، كما تقدم ، والله أعلم (١) .

# فصل
## في منزلة الغيرة

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الغيرة » .

قال الله تعالى ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** ﴾ [ الأعراف : ٣٣] وفى الصحيح عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أحد أغير من الله ، ومن غيرته : حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وما أحد أحب إليه المدح من الله ، ومن أجل ذلك: أثنى على نفسه ، وما أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك : أرسل الرسل مبشرين ومنذرين » (٢) .

وفى الصحيح أيضًا ، من حديث أبى سلمة ، عن أبى هريرة ﷺ ،أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يغار ، وإن المؤمن يغار ،وغيرة الله : أن يأتى العبد ما حرم عليه»(٣).

وفى الصحيح أيضًا : أن النبى ﷺ قال : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ لأنا أغير منه ، والله أغير منى » (٤) .

ومما يدخل فى الغيرة قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥)** ﴾ [ الإسراء ] .

قال السرى لأصحابه : أتدرون ما هذا الحجاب ؟ حجاب الغيرة ، ولا أحد أغير من الله ، إن الله تعالى لم يجعل الكفار أهلا لفهم كلامه ، ولا أهلا لمعرفته وتوحيده ومحبته، فجعل بينهم وبين رسوله وكلامه وتوحيده حجابًا مستوراً عن العيون ، غيرة عليه أن يناله من ليس أهلا به .

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ٣ ـ ٦) .
(٢) مسلم (٢٧٦٠ / ٣٥) فى التوبة ، باب : غيرة الله تعالى .
(٣) مسلم (٢٧٦١ / ٣٦) فى التوبة ، باب : غيرة الله تعالى .
(٤) البخارى (٧٤١٦) فى التوحيد ، باب : قول النبى ﷺ : « لا شخص أغير من الله » .

و « الغيرة » منزلة شريفة عظيمة جداً ، جليلة المقدار ، ولكن الصوفية المتأخرين منهم من قلب موضوعها ، وذهب بها مذهبًا أخر باطلا ، سماه « غيرة » فوضعها فى غير موضعها . ولبس عليه أعظم تلبيس .

« والغيرة » نوعان : غيرة من الشىء ، وغيرة على الشىء .

والغيرة من الشىء : هى كراهة مزاحمته ومشاركته لك فى محبوبك .

والغيرة على الشىء : هى شدة حرصك على المحبوب أن يفوز به غيرك دونك أو يشاركك فى الفوز به .

و« الغيرة » أيضًا نوعان : غيرة العبد من نفسه على نفسه ، كغيرته من نفسه على قلبه، ومن تفرقته على جمعيته ، ومن إعراضه على إقباله ، ومن صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة . وهذه الغيرة خاصية النفس الشريفة الزكية العلوية ، وما للنفس الدنية المهيمنة فيها نصيب ، وعلى قدر شرف النفس وعلو همتها تكون هذه الغيرة .

ثم « الغيرة » أيضًا نوعان : غيرة الحق تعالى على عبده، وغيرة العبد لربه لا عليه . فأما غيرة الرب على عبده : فهى ألا يجعله للخلق عبداً ، بل يتخذه لنفسه عبداً ، فلا يجعل له فيه شركاء متشاكسين ، بل يفرده لنفسه ، ويضن به على غيره ، وهذه أعلى الغيرتين .

وغيرة العبد لربه ، نوعان أيضًا : غيرة من نفسه ، وغيرة من غيره . فالتى من نفسه: ألا يجعل شيئًا من أعماله وأقواله وأحواله وأوقاته وأنفاسه لغير ربه ؛ والتى من غيره : أن يغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون ، ولحقوق إذا تهاون بها المتهاونون .

وأما الغيرة على الله : فأعظم الجهل وأبطل الباطل ، وصاحبها من أعظم الناس جهلاً، وربما أدت بصاحبها إلى معاداته وهو لا يشعر ، وإلى انسلاخه من أصل الدين والإسلام ، وربما كان صاحبها شراً على السالكين إلى الله من قطاع الطريق ، بل هو من قطاع طريق السالكين حقيقة ، وأخرج قطع الطريق فى قالب الغيرة . وأين هذا من الغيرة لله ؟ التى توجب تعظيم حقوقه ، وتصفية أعماله وأحواله لله ؟ فالعارف يغار لله ، والجاهل يغار على الله . فلا يقال : أنا أغار على الله ، ولكن أنا أغار لله .

وغيرة العبد من نفسه : أهم من غيرته من غيره ، فإنك إذا غرت من نفسك صحت لك غيرتك لله من غيرك ، وإذا غرت له من غيرك ، ولم تغر من نفسك : فالغيرة مدخولة معلولة ولا بد ، فتأملها وحقق النظر فيها .

فليتأمل السالك اللبيب هذه الكلمات فى هذا المقام ، الذى زلت فيه أقدام كثير من السالكين ، والله الهادى والموفق المثبت .

كما حكى عن واحد من مشهورى الصوفية ، أنه قال : لا أستريح حتى لا أرى من يذكر الله ، يعنى غيرة عليه من أهل الغفلة وذكرهم .

والعجب أن هذا يعد من مناقبه ومحاسنه .

وغاية هذا : أن يعذر فيه لكونه مغلوبًا على عقله ، وهو من أقبح الشطحات . وذكر الله على الغفلة وعلى كل لحال : خير من نسيانه بالكلية . والألسن متى تركت ذكر الله ـ الذى هو محبوبها ـ اشتغلت بذكر ما يبغضه ويمقت عليه ، فأى راحة للعارف فى هذا ؟ وهل هو إلا أشق عليه ، وأكره إليه ؟

وقول آخر : لا أحب أن أرى الله ولا أنظر إليه . فقيل له : كيف ؟ قال : غيرة عليه من نظر مثلى .

فانظر إلى هذه الغيرة القبيحة ، الدالة على جهل صاحبها ، مع أنه فى خفارة ذله وتواضعه وانكساره واحتقاره لنفسه .

ومن هذا ما يحكى عن الشبلى : أنه لما مات ابنه دخل الحمام ونور لحيته ، حتى أذهب شعرها كله . فكل من أتاه معزيا ، قال : إيش هذا يا أبا بكر ؟ قال : وافقت أهلى فى قطع شعورهم . فقال له بعض أصحابه : أخبرنى لم فعلت هذا ؟ فقال : علمت أنهم يعزوننى على الغفلة . ويقولون : آجرك الله ، ففديت ذكرهم لله على الغفلة بلحيتى .

فانظر إلى هذه الغيرة المحرمة القبيحة ، التى تضمنت أنواعًا من المحرمات : حلق الشعر عند المصيبة ، وقد قال رسول الله ﷺ: « ليس منا من حلق وسلق وخرق » (١) أى حلق شعره ، ورفع صوته بالندب والنياحة . وخرق ثيابه .

ومنها : حلق اللحية ، وقد أمر رسول الله ﷺ بإعفائها وتوفيرها (٢) .

ومنها :منع إخوانه من تعزيته ونيل ثوابها .

---

(١) مسلم (١٠٤ / ١٦٧) فى الإيمان ، باب : تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب ، وأبو داود (٣١٣٠) فى الجنائز، باب : فى النوح ، والنسائى (١٨٦١) فى الجنائز ، باب : السلق ، وابن ماجه (١٥٨٦) فى الجنائز ، باب : ما جاء فى النهى عن ضرب الخدود ، وأحمد (٤ /٣٩٦) .

(٢) البخارى (٥٨٩٣) فى اللباس ، باب : إعفاء اللحى ، ومسلم (٢٥٩ / ٥٢) . فى الطهارة ، باب : خصال الفطرة ، وأحمد (٢ / ١٦) .

ومنها : كراهته لجريان ذكر الله على ألسنتهم بالغفلة . وذلك خير بلا شك من ترك ذكره .

فغاية صاحب هذا : أن تغفر له هذه الذنوب ويعفى عنه ، وأما أن يعد ذلك فى مناقبه، وفى الغيرة المحمودة : فسبحانك . هذا بهتان عظيم .

ومن هذا : ما ذكر عن أبى الحسين النووى : أنه سمع رجلا يؤذن . فقال : طعنه وسم الموت .

وسمع كلبًا ينبح ، فقال : لبيك وسعديك. فقالوا له : هذا ترك للدين .

وصدقوا والله ، يقول للمؤذن فى تشهده : طعنه .وسم الموت . ويلبى نباح الكلب؟

فقال : أما ذاك فكان يذكر الله عن رأس الغفلة ، وأما الكلب : فقد قال تعالى **﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾** [ الإسراء : ٤٤ ] .

فيالله ! ماذا ترى رسول الله ﷺ يواجه هذا القائل لو رآه يقول ذلك أو عمر بن الخطاب ، أو من عد ذلك فى المناقب والمحاسن ؟ !

وسمع الشبلى رجلا يقول : جل لله . فقال : أحب أن تجله عن هذا .

وأذن مرة .فلما بلغ الشهادتين ، قال : لولا أنك أمرتنى ما ذكرت معك غيرك . وقال بعض الجهال من القوم : « لا إله إلا الله » من أصل القلب ، و« محمد رسول الله » من القرط .

ونحن نقول : محمد رسول الله ، من تمام قول لا إله إلا الله . فالكلمتان تخرجان من أصل القلب ، من مشكاة واحدة ، لا تتم إحداهما إلا بالأخرى .

## فصل

قال صاحب المنازل « باب الغيرة » قال الله تعالى ـ حاكيا عن نبيه سليمان عليه السلام: **﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ (٣٣)﴾** [ ص ] .

ووجه استشهاده بالآية : أن سليمان عليه السلام كان يحب الخيل ، فشغله استحسانها ، والنظر إليها ـ لما عرضت عليه ـ عن صلاة النهار ، حتى توارت الشمس بالحجاب ، فلحقته الغيرة لله من الخيل ، إذ استغرقه استحسانها ، والنظر إليها عن خدمة مولاه وحقه ، فقال: « ردوها على » فطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف غيرة لله .

قال : « الغيرة : سقوط الاحتمال ضنا ، والضيق عن الصبر نفاسة » .

أى عجز الغيور عن احتمال ما يشغله عن محبوبه،ويحجبه عنه ضنا به ـ أى بخلاً به ـ أن يعتاض عنه بغيره ، وهذا البخل : هو محض الكرم عند المحبين الصادقين .

وأما « الضيق عن الصبر نفاسة » فهو أن يضيق ذرعه بالصبر عن محبوبه ، وهذا هو الصبر الذى لا يذم من أنواع الصبر سواه ، أو ما كان من وسيلته .والحامل له على هذا الضيق : مغالاته بمحبوبه ، وهى النفاسة . فإنه ـ لمنافسته ورغبته ـ لا يسامح نفسه بالصبر عنه . و « المنافسة » هى كمال الرغبة فى الشىء ، ومنع الغير منه : إن لم يمدح فيه المشاركة ، والمسابقة إليه إن مدحت فيه المشاركة . قال تعالى : ﴿ **وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** ﴾ [المطففين : ٢٦ ] وبين « المنافسة » و « الغبطة » جمع وفرق ، وبينهما وبين « الحسد » أيضا جمع وفرق .

فالمنافسة : تتضمن : مسابقة واجتهاداً وحرصاً ، والحسد : يدل على مهانة الحاسد وعجزه ، وإلا فنافس من حسدته . فلذلك أنفع لك من حسده ، كما قيل :

إذا أعجبتك خلال امرئ ... فكنه يكن منك ما يعجبك
فليس على الجود والمكرما ... ت إذا جئتها حاجب يحجبك

و « الغبطة » تتضمن نوع تعجب وفرح للمغبوط ، واستحسان لحاله .

## فصل

قال : « وهى على ثلاث درجات ؛ الدرجة الأولى : غيرة العابد على ضائع يستر ضياعه . ويستدرك فواته ، ويتدارك قواه » .

«العابد » هو العامل ـ بمقتضى العلم النافع ـ للعمل الصالح . فغيرته على ما ضاع عليه من عمل صالح ، فهو يسترد ضياعه بأمثاله . ويجبر ما فاته من الأوراد والنوافل وأنواع القرب بفعل أمثالها ، من جنسها وغير جنسها ، فيقضى ما ينفع فيه القضاء ، ويعوض ما يقبل العوض . ويجبر ما يمكن جبره .

وقوله : « ويستدرك فواته » الفرق بين استرداد ضائعه ، واستدراك فائته ، أن الأول: يمكن أن يسترد بعينه ، كما إذا فاته الحج فى عام تمكن منه ، فأضاعه فى ذلك العام: استدركه فى العام المقبل ، وكذلك إذا أخر الزكاة عن وقت وجوبها استدركها بعد تأخيرها ،

ونحو ذلك .

وأما الفائت : فإنما يستدرك بنظيره . كقضاء الواجب المؤقت إذا فات وقته . أو يكون مراده باسترداد الضايع ، واستدراك الفائت : نوعى التفريط فى الأمر والنهى . فيسترد ضائع هذا بقضائه وفعل أمثاله . ويستدرك فائت هذا ـ أى سالفه ـ بالتوبة والندم .

وأما « تدارك قواه » فهو أن يتدارك قوته ببذلها فى الطاعة قبل أن تتبدلل بالضعف ، فهو يغار عليها : أن تذهب فى غير طاعة الله ، ويتدارك قوى العمل الذى لحقه الفتور عنه بأن يكسوه قوة ونشاطًا غيرة له وعليه ، فهذه غيرة العباد على الأعمال ، والله أعلم .

## فصل

قال : الدرجة الثانية : غيرة المريد ، وهى غيرة على وقت فات ، وهى غيرة قاتلة ، فإن الوقت وحى التقضى ، أبى الجانب ، بطى الرجوع » .

و « المريدون » هم أرباب الأحوال ، « والعباد » أرباب الأوراد والعبادات ، وكل مريد عابد ، وكل عابد مريد ، لكـــن القوم خصوا أهل المحبة وأذواق حقائق الإيمان باسم «المريد » وخصوا أصحاب العمل المجرد باسم « العابد » وكل مريد لا يكون عابداً فزنديق، وكل عابد لا يكون مريداً فمراء .

و « الوقت » عند العابد : هو وقت العبادة والأوراد . وعند المريد : هو وقت الإقبال على الله ، والجمعية عليه ، والعكوف عليه بالقلب كله .

و « الوقت » أعز شىء عليه ، يغار عليه أن ينقضى بدون ذلك ، فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه البتة ؛ لأن الوقت الثانى قد استحق واجبه الخاص ، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تداركه . كما فى المسند مرفوعا : « من أفطر يوماً من رمضان ، متعمداً من غير عذر : لم يقضه عنه صيام الدهر ، وإن صامه » [1] .

وقوله : « وهى غيرة قاتلة » يعنى : مضرة ضرراً شديدا بينا يشبه القتل ؛ لأن حسرة الفوت قاتلة ، ولاسيما إذا علم المتحسر : أنه لا سبيل له إلى الاستدراك .

وأيضاً ، فالغيرة على التفويت تفويت آخر ، كما يقال : الاشتغال بالندم على الوقت الفائت تضييع للوقت الحاضر؛ ولذلك يقال: الوقت سيف ، إن لم تقطعه ، وإلا قطعك.

---

(١) أحمد ( ٢ / ٤٤٢ ) . وإسناده حسن كما فى المسند ( ٩٦٦٧ ) .

ثم بين الشيخ السبب فى كون هذه الغيرة قاتلة . فقال : « فإن الوقت وحى التقضى» أى سريع الانقضاء ، كما تقول العرب : « الوحا الوحا ، العجل العجل » والوحى الإعلام فى خفاء وسرعة . ويقال : جاء فلان وحيا أى مجيئًا سريعًا ، فالوقت منقض بذاته ، منصرم بنفسه ، فمن غفل عن نفسه تصرمت أوقاته ، وعظم فواته ، واشتدت حسراته ، فكيف حاله إذا علم عند تحقق الفوت مقدار ما أضاع ، وطلب الرجعى فحيل بينه وبين الاسترجاع ، وطلب تناول الفائت ، وكيف يرد الأمس فى اليوم الجديد ؟ **﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾** [ سبأ : ٥٢ ] ومنع مما يحبه ويرتضيه ، وعلم أن ما اقتناه ليس مما ينبغى للعاقل أن يقتنيه ، وحيل بينه وبين ما يشتهيه .

فياحسرات ما إلى رد مثلها ... سبيل ولو ردت لهان التحسر
هى الشهوات اللاء كانت تحولت ... إلى حسرات حين عز التصبر
فلو أنها ردت بصبر وقوة ... تحولن لذات وذو اللب يبصر

ويقال : إن أصعب الأحوال المنقطعة : انقطاع الأنفاس ، فإن أربابها إذا صعد النفس الواحد صعدوه إلى نحو محبوبهم ، صاعداً إليه ، متلبسًا بمحبته والشوق إليه ، فإذا أرادوا دفعه لم يدفعوه حتى يتبعوه نفسًا آخر مثله ، فكل أنفاسهم بالله ، وإلى الله متلبسة بمحبته، والشوق إليه والأنس به ، فلا يفوتهم نفس من أنفاسهم مع الله إلا إذا غلبهم النوم ، وكثير منهم يرى فى نومه : أنه كذلك ، لالتباس روحه وقلبه ، فيحفظ عليه أوقات نومه ويقظته ، ولا تستنكر هذه الحال ، فإن المحبة إذا غلبت فى القلب وملكته : أوجبت له ذلك لا محالة .

والمقصود : أن الواردات سريعة الزوال ، تمر أسرع من السحاب ، وينقضى الوقت بما فيه ، فلا يعود عليك منه إلا أثره ، وحكمه ، فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك ، فإنه عائد عليك لا محالة ؛ ولهذا يقال للسعداء : **﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾** [ الحاقة ] ، ويقال للأشقياء : **﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾** [ غافر ] .

## فصل

قال: « الدرجة الثالثة:غيرة العارف على عين غطاها غين ، وسر غشيه رين ونفس علق برجاء ، أو التفت إلى عطاء » .

أى : يغار على بصيرة غطاها ستر أو حجاب ، فإن « الغين » بمنزلة الغطاء والحجاب، وهو غطاء رقيق جداً . وفوقه « الغيم » وهو لعموم المؤمنين ، وفوقه « الرين . والران » وهو للكفار .

وقوله : « وشر غشيه رين » أى حجاب أغلظ من الغيم الأول .

و « السر » ههنا : إما اللطفية المدركة من الروح ، وإما الحال التى بين العبد وبين الله عز وجل، فإذا غشيه رين النفس والطبيعة استغاث صاحبه ،كما يستغيث المعذب فى عذابه ، غيرة على سره من ذلك الرين .

وقوله : « ونفس علق برجاء ، والتفت إلى عطاء » .

يعنى : أن صاحب النفس يغار على نفسه إذا تعلق برجاء من ثواب منفصل ، ولم يتعق بإرادة الله ومحبته ، فإن بين النفسين كما بين متعلقهما .

وكذلك قوله : « أو التفت إلى عطاء » يعنى : أنه يلتفت إلى عطاء من دون الله فيرضى به ، ولا ينبغى أن يتعلق إلا بالله ، ولا يلتفت إلا إلى المعطى الغنى الحميد ، وهو الله وحده ، والله أعلم (١) .

## فصل

## فى بيان الأمور المضادة للصبر والمنافية له والقادحة فيه

لما كان الصبر حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله ، والقلب عن التسخط ، والجوارح عن اللطم وشق الثياب ونحوها ـ كان ما يضاده واقعًا على هذه الجملة ، فمنه الشكوى إلى المخلوق ، فإذا شكى العبد ربه إلى مخلوق مثله فقد شكى من يرحمه إلى من لا يرحمه ، ولا تضاده الشكوى إلى الله فى شكاية يعقوب إلى الله مع قوله : ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** ﴾ [ يوسف : ١٨ ] وأما إخبار المخلوق بالحال ، فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل إلى زوال ضروره ، لم يقدح ذلك فى الصبر : كإخبار المريض للطبيب بشكايته ، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله ، وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه . وقد كان النبى ﷺ إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ، ويقول : « كيف

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٢ ـ ٥١) .

نجدك؟ »[(١)] ، وهذا استخبار منه واستعلام بحاله .

وأما الأنين : فهل يقدح في الصبر؟ فيه روايتان عن الإمام أحمد، قال أبو الحسين : أصحهما الكراهة لما روى عن طاوس أنه كان يكره الأنين في المرض .

وقال مجاهد : كل شيء يكتب على ابن آدم مما يتكلم حتى أنينه في مرضه ، قال هؤلاء: وإن الأنين شكوى بلسان الحال ينافي الصبر . وقال عبد الله ابن الإمام أحمد : قال لي في مرضه الذى توفى فيه : أخرج إلى كتاب عبد الله بن إدريس. فأخرجت الكتاب، فقال : أخرج أحاديث ليث بن أبي سليم ، فأخرجت أحاديث ليث ، فقال : اقرأ على أحاديث ليث ، قال : قلت لطلحة : أن طاوس كان يكره الأنين في المرض ، فما سمع له أنين حتى مات . فما سمعت أبى أنَّ في مرضه إلى أن توفى .

والرواية الثانية :أنه لا يكره ولا يقدح في الصبر . قال بكر بن محمد عن أبيه : سئل أحمد عن المريض يشكو ما يجد من الوجع ، فقال : تعرف فيه شيئًا عن رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، حديث عائشة : « وارأساه » ، وجعل يستحسنه .

وقال المروزى : دخلت على أبي عبد الله وهو مريض ، فسألته ، فتغرغرت عيناه ، وجعل يخبرني ما مر به في ليلته من العلة .

والتحقيق أن الأنين على قسمين : أنين شكوى فيكره ، وأنين استراحة وتفريج فلا يكره ، والله أعلم .

وقد روى في أثر : أن المريض إذا بدأ بحمد الله، ثم أخبر بحاله ، لم يكن شكوى . وقال شقيق البلخى : من شكى من مصيبة نزلت به إلى غير الله ، لم يجد في قلبه حلاوة لطاعة الله أبداً .

والشكوى نوعان : شكوى بلسان القال ، وشكوى بلسان الحال ، ولعلها أعظمها ؛ ولهذا أمر النبي ﷺ من أنعم عليه أن يظهر نعمة الله عليه . وأعظم من ذلك من يشتكى ربه وهو بخير ؛ فهذا أمقت الخلق عند ربه .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا كهمس ، عن عبد الله بن شقيق، قال : قال كعب الأحبار : إن من حسن العمل سبحة الحديث ، ومن شر العمل التحذيف.

---

(١) الترمذى (٩٨٣) ، وقال : « حسن غريب » .

قيل لعبد الله : ما سبحة الحديث ؟ قال : سبحان الله بحمده فى خلال الحديث . قيل : فما التحذيف ؟ قال : يصبح الناس بخير ، فيسألون ، فيزعمون أنهم بشر !

ومما ينافى الصبر شق الثياب عند المصيبة ، ولطم الوجه ، والضرب بإحدى اليدين على الأخرى ، وحلق الشعر ، والدعاء بالويل ؛ ولهذا برئ النبى ﷺ ممن سلق وحلق وخرق(١) ، سلق : رفع صوته عند المصيبة ، وحلق رأسه ، وشق ثيابه ، ولا ينافيه البكاء والحزن ، قال الله تعالى عن يعقوب : ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [ يوسف : ٨٤] . قال قتادة : كظيم على الحزن فلم يقل إلا خيراً .

وقال حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « ما كان من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان » (٢) .

وقال هشيم ، عن عبد الرحمن بن يحيى ،عن حسان بن أبى جبلة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من بث فلم يصبر » (٣) .

وقال خالد بن أبى عثمان : مات ابن لى فرآنى سعيد بن جبير متقعنا ، فقال : إياك والتقنيع ، فإنه من الاستكانة .

وقال بكر بن عبد الله المزنى : كان يقال من الاستكانة الجلوس فى البيت بعد المصيبة.

وقال عبيد بن عمير : ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب ، ولكن الجزع القول السيئ والظن السيئ .

وسئل القاسم بن محمد عن الجزع ، فقال : القول السيئ والظن السيئ .

ومات ابن لبعض قضاة البصرة ، فاجتمع إليه العلماء والفقهاء ، فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره ، فأجمعوا أنه إذا ترك شيئًا مما كان يصنعه فقد جزع .

وقال الحسين بن عبد العزيز الحورى : مات ابن لى نفيس ، فقلت لأمه : اتقى الله واحتسبيه ، واصبرى ، فقالت : مصيبتى به أعظم من أن أفسدها بالجزع .

وقال عبد الله بن المبارك : أتى رجل يزيد بن يزيد وهو يصلى وابنه فى الموت ، فقال: ابنك يقضى وأنت تصلى ؟ ! فقال : إن الرجل إذا كان له عمل يعمله فتركه يومًا

(١) سبق تخرجه ص ٩٠ .
(٢) أحمد (١ / ٢٣٧ ، ٢٣٨) ، وصححه الشيخ شاكر (٢١٢٧) .
(٣) الدر المنثور (٤ / ٣١) .

واحداً كان ذلك خللاً فى عمله .

وقال ثابت : أصيب عبد الله بن مطرف بمصيبة فرأيته أحسن شيء شارعة وأطيبه ريحًا، فذكرت له ما رأيت ، فقال : تأمرنى يا أبا محمد أن أستكين للشيطان وأريه أنه قد أصابنى سوء ؟ ! والله يا أبا محمد ، لو كانت لى الدنيا كلها ثم أخذها منى ثم سقانى شربة يوم القيامة ما رأيتها ثمنًا لتلك الشربة .

ومما يقدح فى الصبر إظهار المصيبة ، والتحدث بها . وكتمانها رأس الصبر .

وقال الحسن بن الصباح فى مسنده : حدثنا خلف بن تميم ، حدثنا زافر بن سليمان ، عن عبد العزيز بن أبى رواد ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من البر كتمان المصائب والأمراض والصدقة » (١) . وذكر أنه : « من بث الصبر فلم يصبر » . وروى من وجه آخر عن الحسن يرفعه : « من البر كتمان المصائب ، وما صبر من بث » (٢).

ولما نزل فى إحدى عينى عطاء الماء ، مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله ، حتى جاء ابنه يومًا من قبل عينيه ، فعلم أن الشيخ قد أصيب .

ودخل رجل على داود الطائى فى فراشه فرآه يرجف ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال : مه ، لا تعلم بهذا أحداً . وقد أقعد قبل ذلك أربعة أشهر لا يعلم بذلك أحد .

وقال مغيرة : شكى الأحنف إلى عمه وجع ضرسه ، فكرر ذلك عليه ، فقال : ما تكرر على ، لقد ذهبت عينى منذ أربعين سنة فلما شكوتها إلى أحد .

ويضاد الصبر الهلع ، وهو الجزع عند ورود المصيبة ، والمنع عند ورود النعمة . قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)** ﴾ [المعارج ] . وهذا تفسير الهلوع .

قال الجوهرى : الهلع أفحش الجزع ، وقد هلع بالكسر فهو هلع وهلوع .

وفى الحديث : « شر ما فى العبد شح هالع وجبن خالع » (٣) .

قلت : هنا أمران : أمر لفظى ، وأمر معنوى :

---

(١) الكامل فى الضعفاء (٣ / ٢٣٤) . (٢) انظر : الدر المنثور (٣ / ٣١) .

(٣) أبو داود (٢٥١١) فى الجهاد ، باب : فى الجرأة والجُبن ، وأحمد (٢ / ٣٠٢) ، وصححه الشيخ شاكر (٧٩٩٧) .

**فأما اللفظى** : فإنه وصف الشح بكونه هالعاً ، والهالع صاحبه ، وأكثر ما يسمى هلوعًا، ولا يقال هالع له ؛ فإنه لا يتعدى ؛ ففيه وجهان :

**أحدهما** : أنه على النسب كقولهم : ليل نائم ،وسر كاتم ، ونهار صائم ، ونوم عاصف . كله عند سيبويه على النسب ، أى ذو كذا كما قالوا تامر ولابن .

**والثانى** : أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع . . له نظير .

**وأما المعنوى** : فإن الشح والجبن أردى صفتين فى العبد ؛ ولا سيما إذا كان شحه هالعاً . . أى ملق له فى الهلع ، وجبنه خالعاً . . أى قد خلع قلبه من مكانه ، فلا سماحة ولا شجاعة ولا نفع بماله ولا ببدنه ، كما يقال : لا طعنة ولا جفنة ؛ ولا يطرد ولا يشرد، بل قد قمعه وصغره وحقره ودساه الشح والخوف والطمع والفزع . وإذا أردت معرفة الهلوع ، فهو الذى إذا أصابه الجوع مثلاً أظهر الاستجاعة وأسرع بها ، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها ، وإذا أصابه القهر أظهر الاستطامة والاستكانة وباء بها سريعًا ، وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية ، وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعًا ، وإذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح ، فلا احتمال ولا أفضال ، وهذا كله من صغر النفس . ودناءتها وتدسيسها فى البدن وإخفائها وتحقيرها ، والله المستعان [١] .

## فصل
## فى أعجب الصبر

أعجب الصبر صبر المحبين ، قال الشاعر :

والصبر يحمد فى المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يحمد

وقف رجل على الشبلى فقال : أى الصبر أشد على الصابرين ؟ قال : الصبر فى الله، فقال السائل : لا فقال : الصبر لله ، قال : لا ، قال : فالصبر مع الله ، قال : لا، قال : فما هو ؟ قال : الصبر عن الله ، فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه تزهق ، قال الشاعر :

والصبرُ عنك فمذموم عواقبه ... والصبر فى سائر الأشياء محمود[٢]

(١) عدة الصابرين (٣٢٣ ـ ٣٢٨) .

(٢) روضة المحبين (٤٣٥ ـ ٤٣٦) .

# فصل
# فى آداب مخاطبة الرؤساء

كثير من الناس يطلب من صاحبه بعد نيله درجة الرياسة الأخلاق التى كان يعامله بها قبل الرياسة ، فلا يصادفها فينتقض ما بينهما من المودة ، وهذا من جهل الصاحب الطالب للعادة ، وهو بمنزلة من يطلب من صاحبه إذا سكر أخلاق الصاحى وذلك غلط ، فإن للرياسة سكرة كسكرة الخمر أو أشد ، ولو لم يكن للرياسة سكرة لما اختارها صاحبها على الآخرة الدائمة الباقية ، فسكرتها فوق سكرة القهوة بكثير ، ومحال أن يرى من السكران أخلاق الصاحى وطبعه ؛ ولهذا أمر الله تعالى أكرم خلقه عليه بمخاطبة رئيس القبط بالخطاب اللين ، فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعا وعقلا وعرفا ؛ ولذلك تجد الناس كالمفطورين عليه ، وهكذا كان النبى ﷺ يخاطب رؤساء العشائر والقبائل وتأمل امتثال موسى لما أمر به كيف قال لفرعون : ﴿**هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩)**﴾ [ النازعات ] فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض ، لا مخرج الآمر ، وقال : ﴿ **إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ** ﴾ ، ولم يقل : إلى أن أزكيك ، فنسب الفعل إليه هو ، وذكر لفظ التزكى دون غيره لما فيه من البركة والخير والنماء ، ثم قال : ﴿ **وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ** ﴾ ، أكون كالدليل بين يديك الذى يسير أمامك ، وقال : ﴿ **إِلَىٰ رَبِّكَ** ﴾ استدعاء لإيمانه بربه الذى خلقه ورزقه ، ورباه بنعمه صغيرا ويافعا وكبيرا ، وكذلك قول إبراهيم الخليل لأبيه : ﴿**يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا**﴾ [مريم : ٤٢] فابتدأ خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره ، ولم يسمه باسمه ، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال فقال : ﴿ **لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا** ﴾ ولم يقل : لا تعبد ، ثم قال : ﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ**﴾ [مريم :٤٣] فلم يقل به : إنك جاهل لا علم عندك، بل عدل عن هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدل على هذا المعنى فقال﴿ **جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ**﴾ ثم قال : ﴿ **فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا**﴾ [ مريم :٤٣ ]وهذا مثل قول موسى لفرعون: ﴿ **وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩)** ﴾ [ النازعات] ، ثم قال : ﴿ **يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)**﴾ [ مريم ] فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه ، كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه . وقال : ﴿ **يَمَسَّكَ** ﴾ فذكر لفظ المس الذى هو

ألطف من غيره ، ثم نكر العذاب، ثم ذكر الرحمن ولم يقل : الجبار ولا القهار ، فأى خطاب ألطف وألين من هذا، ونظير هذا خطاب صاحب يس لقومه حيث قال : ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) ﴾ [ يس ] . ونظير ذلك قول نوح لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [ نوح ] ، وكذلك سائر خطاب الأنبياء لأمتهم فى القرآن إذا تأملته وجدته ألين خطاب وألطفه ، بل خطاب الله لعباده وألطف خطاب وألينه ، كقوله وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ الآيات [ البقرة : ٢١]، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ [ الحج : ٧٣] ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾ [ فاطر ] ، وتأمل ما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) ﴾ [الكهف ] من اللطف الذى سلب العقول ، وقوله: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) ﴾ [ الزخرف ] على أحد التأويلين ! أى نترككم فلا ننصحكم ولا ندعوكم ، ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم . وتأمل لطف خطاب نذر الجن لقومهم وقولهم: ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) ﴾ [الأحقاف] (١) .

## فصل
## فى تقبيل يد السلطان

عوتب ابن عقيل فى تقبيل يد السلطان حين صافحه فقال : أرأيتم لو كان والدى فعل ذلك فقبلت يده أكان خطأ أم واقعا موقعه ؟ قالوا : بلى ، قال : فالأب يربى ولده تربية خاصة والسلطان يربى العالم تربية عامة ، فهو بالإكرام أولى ، ثم قال : « وللحال الحاضرة حكم من لابسها ، وكيف يطلب من المبتلى بها ما يطلب من الخالى عنها » (٢) .

(١) بدائع الفوائد (٣ / ١٣٢ ـ ١٣٤) .
(٢) بدائع الفوائد (٣ / ١٧٦) .

## فصل
## فى عدم المؤاخذة حال الغضب

من دقيق الورع ألا يقبل المبذول حال هيجان الطبع من حزن أو سرور ، فذلك كبذل السكران ، ومعلوم أن الرأى لا يتحقق الا مع اعتدال المزاج ، ومتى بذل باذل فى تلك الحال يعقبه ندم ، ومن هنا لا يقضى القاضى وهو غضبان ، وإذا أردت اختبار ذلك فاختبر نفسك فى كل مواردك من الخير والشر ، فالبدار بالانتقام حال الغضب يعقب ندما ، وظالما ندم المسرور على مجازفته فى العطاء ، وود أن لو كان اقتصر ، وقد ندم الحسن على تمثيله بابن ملجم [١] .

## فصل
## فى النهى عن الغضب

سأله ﷺ رجل فقال : قل لى قولا ينفعنى الله به وأقلل ، لعلّى أفعله ، فقال : « لا تغضب » ، فردد مراراً كل ذلك يقول : « لا تغضب » [٢] [٣] .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى السلام

ثبت عنه ﷺ فى « الصحيحين » عن أبى هريرة : « أن أفضل الإسلام وخيره إطعام الطعام ، وأن تقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف » [٤] .

وفيهما أن آدم عليه الصلاة والسلام لما خلقه الله قال له : اذهب إلى أولئك النفر من الملائكة ، فسلم عليهم ، واستمع ما يحيونك به ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال :

---

(١) بدائع الفوائد (٣ / ١٣٦) .

(٢) البخارى (٦١١٦) فى الأدب ، باب : الحذر من الغضب ، والترمذى (٢٠٢٠) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى كثرة الغضب ، وأحمد (٢ / ٣٦٢) .

(٣) إعلام الموقعين (٤ / ٤٠١ ، ٤٠٢) .

(٤) البخارى (١٢) فى الإيمان ، باب : إطعام الطعام من الإسلام ، ومسلم (٣٩ / ٦٣) فى الإيمان ، باب : بيان تفاضل الإسلام ، وهما عن عبد الله بن عمرو وليس عن أبى هريرة .

السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه « ورحمة الله » (١).

وفيهما أنه ﷺ أمر بإفشاء السلام وأخبرهم أنهم إذا أفشوا السلام بينهم تحابوا ، وأنهم لا يدخلون الجنة حتى يؤمنوا ، ولا يؤمنون حتى يتحابوا (٢) .

وقال البخارى فى « صحيحه » : قال عمار : ثلاث من جمعهن ، فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالم ، والإنفاق من الإقتار .

وقد تضمنت هذه الكلمات أصول الخير وفروعه ، فإن الإنصاف يوجب عليه أداء حقوق الله كاملة موفرة ، وأداء حقوق الناس كذلك وألا يطالبهم بما ليس له ، ولا يحملهم فوق وسعهم ، ويعاملهم بما يحب أن يعاملوه به ، ويعفيهم مما يحب أن يعفوه منه ، ويحكم لهم وعليهم بما يحكم به لنفسه وعليها ، ويدخل فى هذا إنصافه نفسه من نفسه ، فلا يدعى لها ما ليس لها ، ولا يخبثها بتدنيسه لها ، وتصغيره إياها ، وتحقيرها بمعاصى الله، وينميها ويكبرها ويرفعها بطاعة الله وتوحيده ، وحبه وخوفه ، ورجائه ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، وإيثار مرضاته ومحابه على مراضى الخلق ومحابهم ، ولا يكون بها مع الخلق ولا مع الله ، بل يعزلها من البين كما عزلها الله ، ويكون بالله لا بنفسه فى حبه وبغضه ، وعطائه ومنعه ، وكلامه وسكوته ، ومدخله ومخرجه ، فينجى نفسه من البين، ولا يرى لها مكانة يعمل عليها ، فيكون ممن ذمهم الله بقوله : ﴿ **اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ** ﴾ [ الأنعام : ١٣٥ ] ، فالعبد المحض ليس لله مكانة يعمل عليها ، فإنه مستحق المنافع والأعمال لسيده ، ونفسه ملك لسيده ، فهو عامل على أن يؤدى إلى سيده ما هو مستحق له عليه ، ليس له مكانة أصلا، بل قد كوتب على حقوق منجمة، كلما أدى نجمًا حل عليه نجم آخر ، ولا يزال المكاتب عبداً ما بقى عليه شيء من نجوم الكتابة .

والمقصود : أن إنصافه من نفسه يوجب عليه معرفة ربه ، وحقه عليه ، ومعرفة نفسه، وما خلقت له ، وألا يزاحم بها مالكها ، وفاطرها ويدعى لها الملكة والاستحقاق، ويزاحم مراد سيده ، ويدفعه بمراده هو ، أو يقدمه ويؤثر عليه ، أو يقسم إرادته بين مراد سيده ومراده ، وهى قسمة ضيزى ، مثل قسمة الذين قالوا : ﴿ **هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا**

(١) البخارى (٣٣٢٦) فى أحاديث الأنبياء ، باب : خلق آدم وذريته ، ومسلم (٢٨٤١ / ٢٨) فى الجنة وصفة نعيمها، باب : يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير .

(٢) مسلم (٥٤ / ٩٣) فى الإيمان ، باب : بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ، ولم يعزه صاحب التحفة إلا لمسلم (٩ / ٣٧٨ ، ٣٧٩) .

**يَحْكُمُونَ﴾** [ الأنعام : ١٣٦ ] .

فلينظر العبد لا يكون من أهل هذه القسمة بين نفسه وشركائه وبين الله لجهله وظلمه وإلا لبس عليه ، وهو لا يشعر ، فإن الإنسان خلق ظلومًا جهولاً ، فكيف يطلب الإنصاف ممن وصفه الظلم والجهل ؟ ! وكيف ينصف الخلق من لم ينصف الخالق ؟ ! كما فى أثر إلهى يقول الله عز وجل : « ابن آدم ، ما أنصفتنى ، خيرى إليك نازل ، وشرك إلى صاعد ، كم أتحبب إليك بالنعم ، وأنا غنى عنك ، وكم تتبغض إلى بالمعاصى وأنت فقير إلى ، ولايزال الملك الكريم يعرج إلى منك بعمل قبيح » .

وفى أثر آخر : « ابن آدم ما أنصفتنى ، خلقتك وتعبد غيرى ، وأرزقك وتشكر سواى » .

ثم كيف ينصف غيره من لم ينصف نفسه ، وظلمها أقبح الظلم ، وسعى فى ضررها أعظم السعى ، ومنعها أعظم لذاتها من حيث ظن أنه يعطيها إياها . فأتعبها كل التعب ، وأشقاها كل الشقاء من حيث ظن أنه يريحها ويسعدها ، وجد كل الجد فى حرمانها حظها من الله ، وهو يظن أنه ينيلها حظوظها .ودساها كل التدسية ، وهو يظن أنه يكبرها وينميها ، وحقرها كل التحقير ، وهو يظن أنه يعظمها ، فكيف يرجى الإنصاف ممن هذا إنصافه لنفسه ؟ ! إذا كان هذا فعل العبد بنفسه ، فماذا تراه بالأجانب يفعل .

والمقصود : أن قول عمار رضي الله عنه : ثلاث من جمعهن ، فقد جمع الإيمان : الإنصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالم ، والإنفاق من الإقتار ، كلام جامع لأصول الخير وفروعه .

وبذل السلام للعالم يتضمن تواضعه وأنه لا يتكبر على أحد ، بل يبذل السلام للصغير والكبير ، والشريف والوضيع ، ومن يعرفه ومن لا يعرفه ، والمتكبر ضد هذا ، فإنه لا يرد السلام على كل من سلم عليه كبراً منه وتيهاً ، فكيف يبذل السلام لكل أحد .

وأما الإنفاق من الإقتار ، فلا يصدر إلا عن قوة ثقة بالله ، وأن الله يخلفه ما أنفقه، وعن قوة يقين ، وتوكل ، ورحمة ، وزهد فى الدنيا ، وسخاء نفس بها ، ووثوق بوعد من وعده مغفرة منه وفضلاً ، وتكذيبًا بوعد من يعده الفقر ، ويأمر بالفحشاء ، والله المستعان .

## فصل

وثبت عنه ﷺ أنه مر بصبيان ، فسلم عليهم ، ذكره مسلم (١) .

وذكر الترمذى فى « جامعه » عنه ﷺ مر يومًا بجماعة نسوة ، فألوى بيده بالتسليم .

وقال أبو داود : عن أسماء بنت يزيد مر علينا النبى فى نسوة ، فسلم علينا ، وهى رواية حديث الترمذى ، والظاهر أن القصة واحدة وأنه سلم عليهن بيده (٢) .

وفى « صحيح البخارى » : أن الصحابة كانوا ينصرفون من الجمعة فيمرون على عجوز فى طريقهم ، فيسلمون عليها ، فتقدم لهم طعامًا من أصول السلق والشعير (٣).

وهذا هو الصواب فى مسألة السلام على النساء يسلم على العجوز وذوات المحارم دون غيرهن .

## فصل

وثبت عنه فى « صحيح البخارى » وغيره تسليم الصغير على الكبير ، والمار على القاعد ، والراكب على الماشى ، والقليل على الكثير (٤) .

وفى « جامع الترمذى » عنه : يسلم الماشى على القائم (٥) .

وفى « مسند البزار » عنه : يسلم الراكب على الماشى ، والماشى على القاعد ، والماشيان أيهما بدأ ، فهو أفضل (٦) .

وفى « سنن أبى داود » عنه : « إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام » (٧).

---

(١) مسلم (٢١٦٨ / ١٤) فى السلام ، باب : استحباب السلام على الصبيان .

(٢) أبو داود (٥٢٠٤) فى الأدب ، باب : فى السلام على النساء ، والترمذى (٢٦٩٧) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى التسليم على النساء ، وقال : « حديث حسن » .

(٣) البخارى (٦٢٤٨) فى الاستئذان ، باب : تسليم الرجال على النساء والنساء على الرجال .

(٤) البخارى (٦٢٣١) فى الاستئذان ، باب : تسليم القليل على الكثير ، ومسلم (٢١٦٠ / ١) فى السلام ، باب: يسلم الراكب على الماشى .

(٥) الترمذى (٢٧٠٥) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى تسليم الراكب على الماشى . وقال : « حسن صحيح » .

(٦) الهيثمى فى المجمع (٨ / ٣٩) فى الأدب ، باب : فيمن يسن البداءة بالسلام من الراكب وغيره ، وقال : «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح » .

(٧) أبو داود (٥١٩٧) فى الأدب ، باب : فى فضل من بدأ بالسلام .

وكان من هديه ﷺ السلام عند المجىء إلى القوم ، والسلام عند الانصراف عنهم ، وثبت عنه أنه قال : « إذا قعد أحدكم ، فليسلم ، وإذا قام ، فليسلم ، وليست الأولى أحق من الآخرة » (١) .

وذكر أبو داود عنه : « إذا لقى أحدكم صاحبه فليسلم عليه ، فإن حال بينهما شجرة أو جدار ، ثم لقيه ، فليسلم عليه أيضاً » (٢).

وقال أنس : كان أصحاب رسول الله ﷺ يتماشون ، فإذا استقبلتهم شجرة أو أكمة ، تفرقوا يميناً وشمالاً ، وإذا التقوا من ورائها ، سلم بعضهم على بعض (٣) .

ومن هديه ﷺ أن الداخل إلى المسجد يبتدئ بركعتين تحية المسجد ، ثم يجيء فيسلم على القوم ، فتكون تحية المسجد قبل تحية أهله ، فإن تلك حق الله تعالى ، والسلام على الخلق هو حق لهم ، وحق الله فى مثل هذا أحق بالتقديم ، بخلاف الحقوق المالية ، فإن فيها نزاعًا معروفًا ، والفرق بينهما حاجة الآدمى وعدم اتساع الحق المالى لأداء الحقين ، بخلاف السلام .

وكانت عادة القوم معه هكذا ، يدخل أحدهم المسجد ، فيصلى ركعتين ، ثم يجىء ، فيسلم على النبى ﷺ ، ولهذا جاء فى حديث رفاعة بن رافع أن النبى ﷺ بينما هو جالس فى المسجد يومًا قال رفاعة : ونحن معه إذا جاء رجل كالبدوى ، فصلى ،فأخفَّ صلاته ، ثم انصرف فسلم على النبى ﷺ ، فقال النبى ﷺ : « وعليك فارجع ، فصل ، فإنك لم تصل » ، وذكر الحديث(٤) ، فأنكر عليه صلاته ، ولم ينكر عليه تأخير السلام عليه ﷺ إلى ما بعد الصلاة .

وعلى هذا : فيسن لداخل المسجد إذا كان فيه جماعة ثلاث تحيات مترتبة : أن يقول عند دخوله : بسم الله والصلاة على رسول الله ، ثم يصلى ركعتين تحية المسجد ، ثم يسلم على القوم .

---

(١) أبو داود (٥٢٠٨) فى الأدب ، باب : فى السلام إذا قام من المجلس ، والترمذى (٢٧٠٦) فى الاستئذان ، باب : فى التسليم عند القيام وعند القعود ، وقال « حسن » ، وأحمد (٢ / ٢٣٠ ) .

(٢) أبو داود (٥٢٠٠) فى الأدب ، باب : فى الرجل يفارق الرجل ثم يلقاه أيسلم عليه ؟ .

(٣) البخارى فى الأدب المفرد (١٠١١) . وذكر الهيثمى فى المجمع (٨ / ٣٧) فى الأدب ، باب : تكرار السلام عند اللقاء ، وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط واسناده حسن » .

(٤) الترمذى (٣٠٢) فى الصلاة ، باب : ما جاء فى وصف الصلاة ، وقال : « حديث رفاعة بن رافع حديث حسن » .

## فصل

وكان إذا دخل على أهله بالليل ، يسلم تسليمًا لا يوقظ النائم . ويسمع اليقظان ، ذكره مسلم (١) .

## فصل

وذكر الترمذي عنه ﷺ : « السلام قبل الكلام » (٢) .

وفي لفظ آخر : « لا تدعوا أحداً إلى الطعام حتى يسلم » (٣) .

وهذا وإن كان إسناده وما قبله ضعيفًا ، فالعمل عليه .

وقد روى أبو أحمد بإسناد أحسن منه من حديث عبد العزيز بن أبي رواد ، عن نافع، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « السلام قبل السؤال ، فمن بدأكم بالسؤال قبل السلام ، فلا تجيبوه » (٤) .

ويذكر عنه أنه كان لا يأذن لمن لم يبدأ بالسلام . ويذكر عنه :« لا تأذنوا لمن لم يبدأ بالسلام » (٥) .

وأجود منها ما رواه الترمذي عن كلدة بن حنبل ، أن صفوان بن أمية بعثه بلبن ولبأ وجداية وضغابيس إلى النبي ﷺ ، والنبي ﷺ بأعلى الوادي قال: فدخلت عليه ، ولم أسلم، ولم أستأذن ، فقال النبي ﷺ : « ارجع فقل : السلام عليكم ، أأدخل ؟ » ، قال: هذا حديث حسن غريب (٦) .

---

(١) مسلم (٢٠٥٥ / ١٧٤) في الأشربة ، باب : إكرام الضيف وفضل إيثاره .

(٢) الترمذي (٢٦٩٩) في الاستئذان ، باب : ما جاء في السلام قبل الكلام ، وقال : « هذا حديث منكر لا نعرفه إلا من هذا الوجه » .

(٣) انظر : الترمذي (٥ / ٥٧) .

(٤) الطبراني في الأوسط (٤٢٩) ، وذكره الهيثمي في المجمع ( ٨ / ٣٥) في الأدب ، باب : فيمن سأل ولم يسلم ، وقال : « رواه الطبراني في الأوسط وفيه هارون بن محمد أبو الطيب وهو كذاب » .

(٥) الهيثمي في المجمع (٨ / ٣٥) في الأدب ، باب : فيمن سأل ولم يسلم ، وقال : « رواه أبو يعلى وفيه من لم أعرفه » .

(٦) الترمذي ( ٢٧١٠) في الاستئذان ، باب : ما جاء في التسليم قبل الاستئذان . وقال : « حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن جريج » .

وكان إذا أتى باب قوم ، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن ، أو الأيسر ، فيقول : « السلام عليكم ، السلام عليكم » (١) .

## فصل

وكان يسلم بنفسه على من يواجهه ، ويحمل السلام لمن يريد السلام عليه من الغائبين عنه(٢) ، ويتحمل السلام لمن يبلغه إليه ، كما تحمل السلام من الله عز وجل على صديقة النساء خديجة بنت حويلد رضي الله عنها لما قال له جبريل : « هذه خديجة قد أتتك بطعام ، فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت فى الجنة » (٣) .

وقال للصديقة الثانية بنت الصديق عائشة رضي الله عنها : « هذا جبريل يقرأ السلام » فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ، يرى ما لا أرى (٤) .

## فصل

وكان هديه انتهاء السلام إلى « وبركاته » ، فذكر النسائى عنه أن رجلاً جاء فقال : السلام عليكم ، فرد عليه النبى ﷺ وقال : « عشرة » ثم جلس ، ثم جاء آخر ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد عليه النبى ﷺ وقال : « عشرون » ثم جلس وجاء آخر، فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد عليه رسول الله ﷺ ، وقال : « ثلاثون» رواه النسائى ، والترمذى من حديث عمران بن حصين ، وحسنه (٥) .

وذكره أبو داود من حديث معاذ بن أنس، وزاد فيه : « ثم أتى آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته فقال : « أربعون » فقال : هكذا تكون الفضائل»(٦). ولا يثبت هذا الحديث ، فإن له ثلاث علل :

(١) أبو داود (٥١٨٦) فى الأدب ، باب : كم مرة يسلم الرجل فى الاستئذان .
(٢) مسلم (١٨٩٤ / ١٣٤) فى الإمارة ، باب : فضل إعانة الغازى فى سبيل الله .
(٣) البخارى (٣٨٢٠) فى مناقب الأنصار ، باب : تزويج النبى ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها ،ومسلم ( ٢٤٣٢ / ٧ ) فى فضائل الصحابة ، باب : فضل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها .
(٤) البخارى (٣٧٦٨) فى فضائل الصحابة ، باب : فضل عائشة رضي الله عنه ، ومسلم (٢٤٤٧ / ٩٠) فى فضائل الصحابة ، باب : فى فضل عائشة رضي الله عنها .
(٥) الترمذى (٢٦٨٩) فى الاستئذان ، باب : ما ذكر فى فضل السلام ، وقال : « حسن صحيح غريب من هذا الوجه » ، والنسائى فى الكبرى (١٠١٦٩) فى عمل اليوم والليلة ، باب : ثواب السلام .
(٦) أبو داود (٥١٩٦) فى الأدب ، باب : كيف السلام ؟ وضعفه الألبانى .

**إحداها** : أنه من رواية أبى مرحوم عبد الرحيم بن ميمون ، ولا يحتج به .

**الثانى** : أن فيه أيضًا سهل بن معاذ وهو أيضًا كذلك .

**الثالثة** : أن سعيد بن أبى مريم أحد رواته لم يجزم بالرواية ، بل قال : أظن أنى سمعت نافع بن يزيد .

وأضعف من هذا الحديث الآخر عن أنس : كان رجل يمر بالنبى ﷺ يقول : السلام عليك يا رسول الله ، فيقول له النبى ﷺ : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه » فقيل له : يا رسول الله ، تسلم على هذا سلامًا ما تسلمه على أحد من أصحابك ؟ فقال : « وما يمنعنى من ذلك ، وهو ينصرف بأجر بضعة عشر رجلاً » وكان يرعي على أصحابه (١) .

## فصل

وكان من هديه ﷺ أن يسلم ثلاثًا كما فى « صحيح البخارى » عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا حتى تفهم عنه ، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم ثلاثًا (٢) .

ولعل هذا كان هديه فى السلام على الجمع الكثير الذين لا يبلغهم سلام واحد ، أو هديه فى إسماع السلام الثانى والثالث ، إن ظن أن الأول لم يحصل به الإسماع ، كما سلم لما انتهى إلى منزل سعد بن عبادة ثلاثًا ،فلما لم يجبه أحد رجع(٣) . وإلا فلو كان هديه الدائم التسليم ثلاثًا لكان أصحابه يسلمون عليه كذلك ، وكان يسلم على كل من لقيه ثلاثًا ، وإذا دخل بيته ثلاثًا ، ومن تأمل هديه ، علم أن الأمر ليس كذلك ، وأن تكرار السلام كان منه أمراً عارضًا فى بعض الأحيان ، والله أعلم .

## فصل

وكان يبدأ من لقيه بالسلام ، وإذا سلم عليه أحد ، رد عليه مثل تحيته أو أفضل منها على الفوز من غير تأخير ، إلا لعذر ، مثل حالة الصلاة ، وحالة قضاء الحاجة .

(١) الأذكار للنووى (٦٢١) فى السلام والاستئذان ، باب : كيفية السلام .
(٢) البخارى (٩٥) فى العلم ، باب : من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه .
(٣) البخارى فى الأدب المفرد (١٠٧٣) باب : إذا سلم الرجل على الرجل فى بيته .

وكان يسمع المسلم رده عليه ، ولم يكن يرد بيده ولا رأسه ولا أصبعه إلا فى الصلاة، فإنه كان يرد على من سلم عليه إشارة ، ثبت ذلك عنه فى عدة أحاديث،ولم يجئ عنه ما يعارضها إلا بشىء باطل لا يصح عنه كحديث يرويه أبو غطفان رجل مجهول ، عن أبى هريرة عنه ﷺ:«من أشار فى صلاته إشارة تفهم عنه،فليعد صلاته » (١) .قال الدارقطنى : قال لنا ابن أبى داود : أبو غطفان هذا رجل مجهول . والصحيح عن النبى ﷺ أنه كان يشير فى الصلاة ، رواه أنس وجابر وغيرهما عن النبى ﷺ (٢) .

# فصل

وكان هديه فى ابتداء السلام أن يقول : « السلام عليكم ورحمة الله » وكان يكره أن يقول المبتدئ : عليك السلام .

قال أبو جرى الهجيمى : أتيت النبى ﷺ فقلت : عليك السلام يا رسول الله ، فقال: « لا تقل عليك السلام ، فإن عليك السلام تحية الموتى » حديث صحيح (٣) .

وقد أشكل هذا الحديث على طائفة ، وظنوه معارضًا لما ثبت عنه ﷺ فى السلام على الأموات بلفظ : « السلام عليكم » بتقديم السلام ، فظنوا أن قوله : « فإن عليك السلام تحية الموتى » إخبار عن المشروع ، وغلطوا فى ذلك غلطًا أوجب لهم ظن التعارض ، وإنما معنى قوله : « فإن عليك السلام تحية الموتى » إخبار عن الواقع ، لا المشروع ، أى : إن الشعراء وغيرهم يحيون الموتى بهذه اللفظة ، كقول قائلهم :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ... ورحمته ما شاء أن يترحما
فما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما

فكره النبى ﷺ أن يحيى بتحية الأموات ، ومن كراهته لذلك لم يرد على المسلم بها .

وكان يرد على المسلم « وعليك السلام » بالواو ، وبتقديم « عليك » على لفظ السلام.

وتكلم الناس هاهنا فى مسألة ، وهى لو حذف الراد « الواو » فقال : « عليك

(١) أبو داود (٩٤٤) فى الصلاة ، باب : الإشارة فى الصلاة ، وضعفه الألبانى .
(٢) الدارقطنى ٢ / ٨٣ ، ٨٤ (٢) فى الجنائز ، باب : الإشارة فى الصلاة .
(٣) أبو داود (٥٢٠٩) فى الأدب ، باب : كراهية أن يقول : عليك السلام ، والترمذى (٢٧٢٢) فى الاستئذان ، باب: ما جاء فى كراهة أن يقول : عليك السلام مبتدئا .

السلام» هل يكون صحيحًا ؟ فقالت طائفة منهم المتولى وغيره : لا يكون جوابًا ، ولا يسقط به فرض الرد ؛ لأنه مخالف لسنة الرد ، ولأنه لا يعلم : هل هو رد ، أو ابتداء تحية؟ فإن صورته صالحة لهما ، ولأن النبى ﷺ قال : « إذا سلم عليكم أهل الكتاب ، فقولوا : وعليكم » (١) فهذا تنبيه منه على وجوب الواو فى الرد على أهل السلام ، فإن « الواو » فى مثل هذا الكلام تقتضى تقرير الأول ، وإثبات الثانى ، فإذا أمر بالواو فى الرد على أهل الكتاب الذين يقولون : السام عليكم ، فقال : « إذا سلم عليكم أهل الكتاب ، فقولوا : وعليكم » فذكرها فى الرد على المسلمين أولى وأحرى .

وذهبت طائفة أخرى إلى أن ذلك رد صحيح ، كما لو كان بالواو ،ونص عليه الشافعى رحمه الله فى كتابه الكبير ، واحتج لهذا القول بقوله تعالى : ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ** ﴾ [ الذاريات : ٢٤ ] أى : سلام عليكم ، لا بد من هذا ، ولكن حسن الحذف فى الرد ، لأجل الحذف فى الابتداء ، واحتجوا بما فى « الصحيحين » عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم طوله ستون ذراعًا ، فلما خلقه ، قال له : اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة ، فاستمع ما يحيونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم فقالوا : السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله » (٢) . فقد أخبر النبى ﷺ أن هذه تحيته وتحية ذريته ، قالوا : ولأن المسلم عليه مأمور أن يحيى المسلم بمثل تحيته عدلاً ، وبأحسن منها فضلاً ، فإذا رد عليه بمثل سلامه ، كان قد أتى بالعدل .

وأما قوله : « إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم » فهذا الحديث قد اختلف فى لفظة « الواو » فيه ، فروى على ثلاثة أوجه ، أحدها : بالواو ، قال أبو داود: كذلك رواه مالك عن عبد الله بن دينار ، ورواه الثورى عن عبد الله بن دينار ، فقال فيه : « فعليكم » وحديث سفيان فى « الصحيحين » ورواه النسائى من حديث ابن عيينة عن عبد الله بن دينار بإسقاط « الواو » ، وفى لفظ لمسلم والنسائى : فقل : «عليك» بغير واو .

وقال الخطابى : عامة المحدثين يروونه « وعليكم » بالواو ، وكان سفيان بن عيينة يرويه « عليكم » بحذف الواو ، وهو الصواب ، وذلك أنه إذا حذف الواو ، صار قولهم

(١) مسلم (٢١٦٣ /٦) فى السلام ، باب : النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام ، وأبو داود (٥٢٠٧) فى الأدب، باب : فى السلام على أهل الذمة .
(٢) سبق تخريجه ص ١٠٣ .

الذى قالوه بعينه مردوداً عليهم ، وبإدخال الواو يقع الاشتراك معهم ، والدخول فيما قالوا، لأن الواو حرف للعطف والاجتماع بين الشيئين . انتهى كلامه .

وما ذكره من أمر الواو ليس بمشكل ، فإن « السام » الأكثرون على أنه الموت ، والمسلم والمسلم عليه مشتركون فيه ، فيكون فى الإتيان بالواو بيان لعدم الاختصاص ، وإثبات المشاركة ، وفى حذفها إشعار بأن المسلم أحق به وأولى من المسلم عليه وعلى هذا فيكون الإتيان بالواو هو الصواب ، وهو أحسن من حذفها ، كما رواه مالك وغيره ، ولكن قد فسر السام بالسآمة ، وهى الملالة وسآمة الدين ، قالوا : وعلى هذا فالوجه حذف الواو ولا بد ، ولكن هذا خلاف المعروف من هذه اللفظة فى اللغة ؛ ولهذا جاء فى الحديث : « إن الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام » (١) .

ولا يختلفون أنه الموت ، وقد ذهب بعض المتحذلقين إلى أنه يرد عليهم السلام بكسر السين ، وهى الحجارة ، جمع سلمة ، ورد هذا الرد متعين .

## فصل فى هديه ﷺ فى السلام على أهل الكتاب

صح عنه ﷺ أنه قال :« لا تبدؤوهم بالسلام،وإذا لقيتموهم فى الطريق، فاضطروهم إلى أضيق الطريق » لكن قد قيل : إن هذا كان فى قضية خاصة لما ساروا إلى بنى قريظة قال : « لا تبدؤوهم بالسلام » فهل هذا حكم عام لأهل الذمة مطلقًا ، أو يختص بمن كانت حاله بمثل حال أولئك ؟ هذا موضع نظر ، ولكن قد روى مسلم فى « صحيحه » من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم فى الطريق ، فاضطروه إلى أضيقه » (٢) . والظاهر أن هذا حكم عام .

وقد اختلف السلف والخلف فى ذلك ، فقال أكثرهم : لا يبدؤون بالسلام ، وذهب آخرون إلى جواز ابتدائهم كما يرد عليهم ، روى ذلك عن ابن عباس ،وأبى أمامة وابن محيريز ، وهو وجه فى مذهب الشافعى رحمه الله ، لكن صاحب هذا الوجه قال : يقال له : السلام عليك فقط بدون ذكر الرحمة ، وبلفظ الإفراد : وقالت طائفة : يجوز الابتداء

---

(١) البخارى (٥٦٨٨) فى الطب ، باب : الحبة السوداء ، ومسلم (٢٢١٥ / ٨٨) فى السلام ، باب : التداوى بالحبة السوداء .

(٢) مسلم (٢١٦٧ / ١٣) فى السلام ، باب : النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام ، وأبو داود (٥٢٠٥) فى الأدب، باب : فى السلام على أهل الذمة ، والترمذى (١٦٠٢) فى السير ، باب : ما جاء فى التسليم على أهل الكتاب .

لمصلحة راجحة من حاجة تكون له إليه ،أو خوف من أذاه ، أو لقرابة بينهما ، أو لسبب يقتضي ذلك، يروى ذلك عن إبراهيم النخعي ، وعلقمة . وقال الأوزاعي : إن سلمت ، فقد سلم الصالحون ، وإن تركت ، فقد ترك الصالحون

واختلفوا في وجوب الرد عليهم ، فالجمهور على وجوبه ، وهو الصواب ، وقالت طائفة : لا يجب الرد عليهم ، كما لا يجب على أهل البدع وأولى ، والصواب الأول ، والفرق أنا مأمورون بهجر أهل البدع تعزيراً لهم ، وتحذيراً منهم ، بخلاف أهل الذمة .

## فصل

وثبت عنه ﷺ أنه مر على مجلس فيه أخلاط من المسلمين ، والمشركين عبدة الأوثان، واليهود ، فسلم عليهم (١) .

وصح عنه أنه كتب إلى هرقل وغيره : « السلام على من اتبع الهدى » (٢) .

## فصل

ويذكر عنه ﷺ أنه قال : « يجزئ عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ، ويجزئ عن الجلوس أن يرد أحدهم » (٣) ، فذهب إلى هذا الحديث من قال : إن الرد فرض كفاية يقوم فيه الواحد مقام الجميع ، لكن ما أحسنه لو كان ثابتًا ، فإذا هذا الحديث رواه أبو داود من رواية سعيد بن خالد الخزاعي المدني ، قال أبو زرعة الرازي : مدني ضعيف. وقال أبو حاتم الرازي : ضعيف الحديث ، وقال البخاري : فيه نظر . وقال الدارقطني : ليس بالقوي .

## فصل

وكان من هديه ﷺ إذا بلغه أحد السلام عن غيره أن يرد عليه وعلى المبلغ ، كما في « السنن » أن رجلاً قال له : إن أبي يقرئك السلام ، فقال له : « عليك وعلى أبيك

---

(١) البخاري (٦٢٥٤) في الاستئذان ، باب : التسليم في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين ، ومسلم (١٧٩٨ / ١١٦) في الجهاد والسير ، باب : في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين .

(٢) البخاري (٦٢٦٠) في الاستئذان ، باب : كيف يكتب إلى أهل الكتاب ؟

(٣) أبو داود (٥٢١٠) في الأدب ، باب : ما جاء في رد الواحد عن الجماعة .

السلام » (١) .

وكان من هديه ترك السلام ابتداء ورداً على من أحدث حدثًا حتى يتوب منه ، كما هجر كعب بن مالك وصاحبيه ، وكان كعب يسلم عليه ، ولا يدرى هل حرك شفتيه برد السلام عليه أم لا ؟ (٢) .

وسلم عليه عمار بن ياسر ، وقد خلقه أهله بزعفران ، فلم يرد عليه ، فقال : «اذهب فاغسل هذا عنك » (٣) . وهجر زينب بنت جحش شهرين وبعض الثالث لما قال لها: « أعطى صفية ظهراً لما اعتل بعيرها » فقالت : أنا أعطى تلك اليهودية ؟ ! ذكرهما أبو داود (٤) (٥) .

## فصل
## فى إفشاء السلام

عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تُؤمنوا ولا تؤمنون حتى تحابوا ، أفلا أدُلُّكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » .

أخرجه مسلم والترمذى وابن ماجه (٦) .

وقد أخرجا فى الصحيحين عن البراء بن عازب ﷺ قال : أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع : أمرنا بعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وتشميت العاطس ، ونصر الضعيف ، وعون المظلوم ، وإفشاء السلام ، وإبراء القسم (٧) .

---

(١) أبو داود (٥٢٣١) فى الأدب ، باب : فى الرجل يقول : فلان يقرئك السلام .

(٢) البخارى (٦٢٥٥) فى الاستئذان ، باب : من لم يسلم على من اقترف ذنبا ، ومسلم (٢٧٦٩ / ٥٣) فى التوبة، باب : حديث توبة كعب بن مالك .

(٣) أبو داود (٤١٧٦) فى الترجل ، باب : فى الخلوق للرجال.

(٤) أبو داود (٤٦٠٢) فى السنة ، باب : ترك السلام على أهل الأهواء ، وضعفه الألبانى .

(٥) زاد المعاد (٢ / ٤٠٦ ـ ٤٢٨) .

(٦) مسلم ( ٥٤ / ٩٣ ) فى الإيمان ، باب : بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ، والترمذى (٢٦٨٨) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى إفشاء السلام ، وابن ماجه (٦٨) فى المقدمة ، باب : فى الإيمان .

(٧) البخارى (٦٢٣٥) فى الاستئذان ، باب : إفشاء السلام ، ومسلم (٢٠٦٦ / ٣) فى اللباس والزينة ، باب : تحريم استعمال الذهب والفضة على الرجال .

وفى جامع الترمذى عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول « يا أيها الناس ، أفشوا السلام وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » قال الترمذى : حديث صحيح (١) .

وفى الموطأ بإسناد صحيح عن الطفيل بن أبى بن كعب : أنه كان يأتى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، فيغدو معه إلى السوق ، قال : فإذا غدونا إلى السوق لم يمر عبد الله على سقاط ولا صاحب بيعة ولا مسكين ؛ ولا أحـد إلا سلم عليه ، قال الطفيل : فجئت عبد الله بن عمر يومًا ، فاستتبعنى إلى السوق ، فقلت له : وما تصنع بالسوق وأنت لا تقف على البيع ، ولا تسأل عن السلع ، ولا تسوم بها ، ولا تجلس فى مجالس السوق ؟ قال : وأقول : اجلس بنا هاهنا نتحدث .

قال : فقال لى عبد الله بن عمر : يا أبا بطن ـ وكان الطفيل ذا بطن ـ إنما نغدو من أجل السلام نسلم على من لقينا (٢) .

## فصل
## فى حكم رد السلام على من يستحق الهجر

وقوله (٣) : وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول : هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ؟ فيه دليل على أن الرد على من يستحق الهجر غير واجب ، إذا لو وجب الرد لم يكن بد من إسماعه (٤) .

## فصل
## فى كيفية رد السلام على اليهود

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن اليهود إذا سلم عليكم أحدهم فإنما يقول : السام عليكم فقولوا : وعليكم » (٥).

قال أبو داود : وكذلك ، رواه مالك عن عبد الله بن دينار (٦) . ورواه الثورى عن

(١) الترمذى (٢٤٨٥) فى صفة القيامة ، باب : ٤٢ . (٢) تهذيب السنن (٨ / ٦٧) .
(٣) أى قول كعب بن مالك رضي الله عنه. (٤) زاد المعاد (٣ / ٥٨٠) .
(٥) أبو داود (٥٢٠٦) فى الأدب ، باب : فى السلام على أهل الذمة .
(٦) مالك فى الموطأ ٢ / ٩٦٠ (٣) فى السلام ، باب : ما جاء فى السلام على اليهودى والنصرانى .

عبد الله بن دينار ، قال فيه : «وعليكم » (١) .

وأخرجه الترمذى والنسائى ، ولفظ الترمذى وفى لفظ لمسلم والنسائى : « فقل : عليك» (٢) بغير واو .

وحديث مالك ـ الذى أشار إليه أبو داود ـ أخرجه البخارى فى صحيحه(٣) .

وحديث سفيان الثورى : أخرجه البخارى ومسلم . وأخرجه النسائى من حديث سفيان بن عيينة بإسقاط الواو (٤).

وقال الخطابى : هكذا يرويه عامة المحدثين : « وعليكم » بالواو . وكان سفيان بن عيينة يرويه : « عليكم » بحذف الواو ، وهو الصواب .

وذلك أنه إذا حذف الواو : صار قولهم الذى قالوه بعينه ، مردودا عليهم . وبإدخال الواو : يقع الاشتراك معهم ، والدخول فيما قالوه ؛ لأن الواو حرف العطف والاجتماع بين الشيئين .

و « السام » فسره بالموت . هذا آخر كلامه .

وقد أخرجه مسلم والترمذى والنسائى من حديث إسماعيل بن جعفر عن عبد الله بن دينار ، بغير واو أيضا .

وقال غيره : أما من فسر « السام » بالموت : فلا تبعد الواو ، ومن فسره بالسآمة ـ وهى الملالة ، أى تسأمون دينكم ـ فإسقاط الواو هو الوجه .

واختار بعضهم :أن يرد عليهم السلام ـ بكسر السين ـ وهى الحجارة .

وقال غيره : الأول أولى ؛ لأن السنة وردت بما ذكرنا ، ولأن الرد إنما يكون بجنس المردود ، لا بغيره .

---

(١) أبو داود تحت رقم (٥٢٠٦) فى الأدب ، باب : فى السلام على أهل الذمة ، والتمهيد لابن عبد البر (١٦ / ٩٥) فى السلام ، باب : ما جاء فى السلام على اليهودى والنصرانى .

(٢) الترمذى (١٦٠٣) فى السير ، باب : ما جاء فى التسليم على أهل الكتاب ، والنسائى فى الكبرى (١٠٢١٠) فى عمل اليوم والليلة ، باب : ما يقول لأهل الكتاب إذا سلموا عليه ، ومسلم (٢١٦٤ / ٨) فى السلام ، باب : النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام .

(٣) البخارى (٦٢٥٧) فى الاستئذان ، باب : كيف الرد على أهل الذمة بالسلام .

(٤) البخارى (٦٩٢٨) فى استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ، باب : إذا عرض الذمى أو غيره بسب النبى ﷺ ولم يصرح بلفظ:« عليك بدون واو» ومسلم (٢١٦٤/٩) فى السلام ، باب:النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام . والنسائى فى الكبرى (١٠٢١١) فى عمل اليوم والليلة ، باب : ما يقول لأهل الكتاب إذا سلموا عليه .

قلت : معنى ما أشار إليه الخطابى : فى قوله : « لأن الواو حرف العطف والجمع بين الشيئين » أن الواو فى مثل هذا تقتضى تقرير الجملة الأولى وزيادة الثانية عليها ، كما إذا قلت : زيد كاتب ، فقال المخاطب : وشاعر وفقيه : اقتضى ذلك تقرير كونه كاتبًا ، وزيادة كونه شاعراً وفقيها ، وكذلك إذا قلت لرجل : فلان أخوك . فقال : وابن عمى : كان ذلك تقريراً لكونه أخاه وزيادة كونه ابن عمه .

ومن هنا استنبط أبو القاسم السهيلى : أن عدة أصحاب ، الكهف سبعة ، قال : لأن الله تعالى حكى قول من قال ثلاثة ،وخمسة،ولم يذكر الواو فى قوله ﴿رابِعُهُم ﴾ [الكهف : ٢٢ ] ﴿ سَادِسُهُم ﴾ وحكى قول من قال : إنهم سبعة ، ثم قال : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُم﴾ قال : لأن الواو عاطفة على كلام مضمر ، تقديره : نعم ، وثامنهم كلبهم .

وذلك : أن قائلا لو قال : إن زيداً شاعر ، فقلت له : وفقيه ، كنت قد صدقته ، كأنك قلت : نعم ، هو كذلك ، وفقيه أيضًا .

وفى الحديث : سئل رسول الله ﷺ : أنتوضأ بما أفضلت الحمر ؟ قال : « وبما أفضلت السباع » يريد : نعم ، وبما أفضلت السباع . خرجه الدارقطنى (١) .

وفى التنزيل ﴿ وَارزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرِ﴾ [ البقرة : ١٢٦ ] هو من هذا الباب .

وفيما قاله السهيلى نظر ؛ فإن هذا إنما يتم إذا كان حرف العطف بين كلامين لمتكلمين، وهو نظير ما استشهد به من الآى .

وأما إذا كان متكلم واحد : لم يلزم ذلك ، كما إذا قلت : زيد فقيه وكاتب وشاعر ، والآية ليس فيها : أن كلامهم انتهى إلى قوله : ﴿ سَبْعَةٌ ﴾ ثم قررهم الله على ذلك ، ثم قال : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُم﴾ [ الكهف : ٢٢ ] بل سياق الآية يدل على أن الجملتين من كلامهم ؛ وأن جميعه داخل تحت الحكاية ، فهو كقول من قبلهم مع اقترانه بالواو .

وأما هذا الحديث فى رد السلام فإدخال الواو فيه لا يقتضى اشتراكا معهم فى مضمون هذا الدعاء ؛ وإن كان كلامين لمتكلمين ،بل غايته : التشريك فى نفس الدعاء .

وهذا ، لأن الدعاء الأول قد وجد منهم ، وإذا رد عليهم نظيره : حصل الاشتراك فى نفس الدعاء ، ولا يستلزم ذلك الاشتراك معهم فى مضمونه ومقتضاه . إذ غايته : أنا نرد

---

(١) الدارقطنى ١ / ٦٢ (٢) فى الطهارة ، باب : الآسار .

عليكم كما قلتم لنا .

وإذا كان « السام » معناه الموت ـ كما هو المشهور فيه ـ فالاشتراك ظاهر . والمعنى : أنا لسنا نموت دونكم ، بل نحن نموت وأنتم أيضاً تموتون ، فلا محذور فى دخول الواو على كل تقدير ، وقد تقدم أن أكثر الأئمة رواه بالواو (١) .

## فصل
## فى حكم إلقاء السلام على من يبول

وكان ﷺ إذا سلم عليه أحد وهو يبول لم يرد عليه ذكره مسلم فى « صحيحه » عن ابن عمر (٢).

وروى البزار فى « مسنده » فى هذه القصة : أنه رد عليه ثم قال : « إنما رددت عليك خشية أن تقول : سلمت عليه فلم يرد على سلامًا فإذا رأيتنى هكذا فلا تسلم على ، فإنى لا أرد عليك السلام » .

وقد قيل : لعل هذا كان مرتين ، وقيل : حديث مسلم أصح لأنه من حديث الضحاك بن عثمان عن نافع عن ابن عمر وحديث البزار من رواية أبى بكر ـ رجل من أولاد عبد الله بن عمر ـ عن نافع عنه . قيل : وأبو بكر هذا : هو أبو بكر بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر وروى عنه مالك وغيره والضحاك أوثق منه (٣) (٤) .

## فصل
## فى بيان حقيقة لفظة « السلام »

فحقيقتها البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب، وعلى هذا المعنى تدور تصاريفها . فمن ذلك قولك : سلمك الله ، وسلم فلان من الشر . ومنه : دعاء المؤمنين على الصراط : رب سلم ، اللهم سلم . ومنه : سلم الشىء لفلان أى خلص له وحده فخلص من ضرر الشركة فيه ، قال تعالى : ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ**

(١) تهذيب السنن (٨ / ٧٥ ـ ٧٧ ) .
(٢) مسلم (٣٧٠ / ١١٥) فى الحيض ، باب : التيمم .
(٣) انظر : المنتقى لابن الجارود ص ٢٧ .
(٤) زاد المعاد (١ / ١٧٣ ـ ١٧٤ ) .

﴿ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ [ الزمر : ٢٩] أى خالصا له وحده لا يملكه معه غيره . ومنه : السلم ضد الحرب ، قال تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ [ الأنفال : ٦١ ] ، لأن كلا من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر ؛ ولهذا يبنى منه على المفاعلة ، فيقال : المسالمة مثل المشاركة . ومنه القلب السليم ، وهو النقى من الغل والدغل . وحقيقته الذى قد سلم لله وحده فخلص من دغل الشرك وغله ، ودغل الذنوب والمخالفات ، بل هو المستقيم على صدق حبه وحسن معاملته ، فهذا هو الذى ضمن له النجاة من عذابه والفوز بكرامته ومنه أخذ الإسلام ، فإنه من هذه المادة ؛ لأنه الاستسلام والانقياد لله والتخلص من شوائب الشرك ، فسلم لربه وخلص له كالعبد الذى سلم لمولاه ليس فيه شركاء متشاكسون ؛ ولهذا ضرب ـ سبحانه ـ هذين المثلين للمسلم المخلص الخالص لربه والمشرك به . ومنه : السلم : للسلف ، وحقيقته : العوض المسلم فيه ؛ لأن من هو فى ذمته قد ضمن سلامته لربه ، ثم سمى العقد سلما وحقيقته ما ذكرناه .

فإن قيل : فهذا ينتقض بقولهم للديغ : سليما ؟ قيل : ليس هذا بنقص له،بل طرد لما قلناه ، فإنهم سموه سليما باعتبار ما يهمه ويطلبه ويرجو أن يؤول إليه حاله من السلامة ، فليس عنده أهم من السلامة ولا هو أشد طلبا منه لغيرها ، فسمى سليما لذلك ، وهذا من جنس تسميتهم المهلكة مفازة ؛ لأنه لا شىء أهم عند سالكها من فوزه منها ، أى نجاته ، فسميت مفازة لأنه يطلب الفوز منها ، وهذا أحسن من قولهم : إنما سميت مفازة ، وسمى اللديغ سليما تفاؤلا ، وإن كان التفاؤل جزء هذا المعنى الذى ذكرناه وداخل فيه ، فهو أعم وأحسن .

فإن قيل : فكيف يمكنكم رد السلم إلى هذا الأصل؟

قيل : ذلك ظاهر ؛ لأن الصاعد إلى مكان مرتفع لما كان متعرضا للهوى والسقوط طالبًا للسلامة راجيًا لها سميت الآلة التى يتوصل بها إلى غرضه سلما لتضمنها سلامته ؛ إذ لو صعد بتكلف من غير سلم لكان عطبه متوقعا ، فصح أن السلم من هذا المعنى .

ومنه تسمية الجنة بدار السلام . وفى إضافتها إلى السلام ثلاثة أقوال :

أحدها أنها إضافة إلى مالكها السلام ـ سبحانه . الثانى : أنها إضافة إلى تحية أهلها ؛ فإن تحيتهم فيها سلام . الثالث : أنها إضافة إلى معنى السلامة ، أى دار السلامة من كل آفة ونقص وشر ، والثلاثة متلازمة وإن كان الثالث أظهرها ، فإنه لو كانت الإضافة إلى مالكها لأضيفت إلى اسم من أسمائه غير السلام ، وكان يقال : دار الرحمن ، أو

دار الله، أو دار الملك ونحو ذلك ، فإذا عهدت إضافتها إليه ثم جاء دار السلام حملت على المعهود ، وأيضا فإن المعهود فى القرآن إضافتها إلى صفتها أو إلى أهلها . أما الأول فنحو: دار القرار ، دار الخلد ، جنة المأوى ، جنات النعيم ، جنات الفردوس . وأما الثانى فنحو: دار المتقين ، ولم تعهد إضافتها إلى اسم من أسماء الله فى القرآن ، فالأولى حمل الإضافة على المعهود فى القرآن ، وكذلك إضافتها إلى التحية ضعيف من وجهين ؛ ضعيف من وجهين ؛ أحدهما : أن التحية بالسلام مشتركة بين دار الدنيا والآخرة وما يضاف إلى الجنة لا يكون إلا مختصا بها كالخلد والقرار والبقاء . الثانى : أن من أوصافها غير التحية ما هو أكمل منها مثل كونها دائمة وباقية ، ودار الخلد والتحية عارضة عند التلاقى والتزاور، بخلاف السلامة من كل عيب ونقص وشر ؛ فإنها من أكمل أوصافها المقصودة على الدوام التى لا يتم النعيم فيها إلا به ، فإضافتها إليه أولى ، وهذا ظاهر .

## فصل
## فى إطلاق ( السلام ) على الله تعالى اسمًا

وإذا عرف هذا ، فإطلاق السلام على الله تعالى اسما من أسمائه هو أولى من هذا كله ، وأحق بهذا الاسم من كل مسمى به ؛ لسلامته ـ سبحانه ـ من كل عيب ونقص من كل وجد ، فهو السلام الحق بكل اعتبار ، والمخلوق سلام بالإضافة ، فهو ـ سبحانه ـ سلام فى ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم ، وسلام فى صفاته من كل عيب ونقص، وسلام فى أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة ، بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار ، فعلم أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه ، وهذا هو حقيقة التنزيه الذى نزه به نفسه ونزهه به رسوله ، فهو السلام من الصاحبة والولد ، والسلام من النظير والكفء والسمى والمماثل ، والسلام من الشريك ؛ ولذلك إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلامًا مما يضاد كمالها ، فحياته سلام من الموت ومن السنة والنوم .

وكذلك قيوميته ، وقدرته سلام من التعب واللغوب ، وعلمه سلام من عزوب شىء عنه أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر وتفكر ، وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة ، وكلماته سلام من الكذب والظلم ، بل تمت كلماته صدقا وعدلا ، وغناه سلام من الحاجة إلى غيره بوجه ما ، بل كل ما سواه محتاج إليه وهو غنى عن كل ما سواه ، وملكه سلام من منازع فيه أو مشارك أو معاون مظاهر أو شافع عنده بدون إذنه ،

وإلهيته سلام من مشارك له فيها ، بل هو الله الذى لا إله إلا هو ، وحلمه وعفوه وصفحه ومغفرته وتجاوزه سلام من أن يكون عن حاجة منه أو ذل أو مصانعة كما يكون من غير ، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه .

وكذلك عذابه وانتقامه وشدة بطشه وسرعة عقابه سلام من أن يكون ظلمًا أو تشفيًا أو غلظة أو قسوة ، بل هو محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء مواضعها ، وهو مما يستحق عليه الحمد والثناء ، كما يستحقه على إحسانه وثوابه ونعمه ، بل لو وضع الثواب موضع العقوبة لكان مناقضا لحكمته ولعزته ، فوضعه العقوبة موضعها هو من حمده وحكمته وعزته ، فهو سلام مما يتوهم أعداؤه والجاهلون به من خلاف حكمته ، وقضاؤه وقدره سلام من العنت والجور والظلم ومن توهم وقوعه على خلاف الحكمة البالغة ، وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم ، وخلاف حكمته ، بل شرعه كله حكمة ورحمة ومصلحة وعدل .

وكذلك عطاؤه سلام من كونه معاوضة أو لحاجة إلى المعطى ، ومنعه سلام من البخل وخوف الإملاق ، بل عطاؤه إحسان محض لا لمعاوضة ولا لحاجة ، ومنعه عدل محض وحكمة لا يشوبه بخل ولا عجز ، واستواؤه وعلوه على عرشه سلام من أن يكون محتاجًا إلى ما يحمله أو يستوى عليه بل العرش محتاج إليه ، وحملته محتاجون إليه ، فهو الغنى عن العرش وعن حملته وعن كل ما سواه ، فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر ولا حاجة إلى عرش ولا غيره ، ولا إحاطة شىء ـ سبحانه وتعالى ـ بل كان ـ سبحانه ـ ولا عرش ولم يكن به حاجة إليه ، وهو الغنى الحميد ، بل استواؤه على عرشه واستيلاؤه على خلقه من موجبات ملكه وقهره من غير حاجة إلى عرش ولا غيره بوجه ما ، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا سلام مما يضاد علوه وسلام مما يضاد غناه ، وكماله سلام من كل ما يتوهم معطل أو مشبه وسلام من أن يصير تحت شىء أو محصوراً فى شىء ، تعالى الله ربنا عن كل ما يضاد كماله ، وغناه وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل ، وموالاته لأولياءه سلام من أن تكون عن ذل كما يوالى المخلوق المخلوق ، بل هى موالاة رحمة وخير وإحسان وبر ، كما قال : ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ** ﴾ [ الإسراء : ١١١ ] فلم ينف أن يكون له ولى مطلقا بل نفى أن يكون له ولى من الذل .

وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق للمخلوق من كونها محبة حاجة إليه أو تملق له أو انتفاع بقربه ، وسلام مما يتقوله المعطلون فيها ، وكذلك ما

أضافه إلى نفسه من اليد والوجه فإنه سلام عما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل ، فتأمل كيف تضمن اسمه السلام كل ما نزه عنه تبارك وتعالى ، وكم ممن حفظ هذا الاسم لا يدرى ما تضمنه من هذه الأسرار والمعانى والله المستعان المسؤول أن يوفق للتعليق على الأسماء الحسنى على هذا النمط ، إنه قريب مجيب (١) .

## فصل

## فى معنى السلام المطلوب عند التحية

فيه قولان مشهوران :

**أحدهما** : أن المعنى اسم السلام عليكم ، والسلام هنا هو الله عز وجل .ومعنى الكلام: نزلت بركة اسمه عليكم وحلت عليكم ، ونحو هذا .

واحتج أصحاب هذا القول بحجج منها : ما ثبت فى الصحيح أنهم كانوا يقولون فى الصلاة : السلام على الله قبل عباده ، السلام على جبريل ، السلام على فلان . فقال النبى ﷺ : « لا تقولوا : السلام على الله ، فإن الله هو السلام ، ولكن قولوا : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » (٢) فنهاهم النبى ﷺ أن يقولوا : السلام على الله لأن السلام على المسلم عليه دعاء له ، وطلب أن يسلم ، والله تعالى هو المطلوب منه لا المطلوب له ، وهو المدعو لا المدعو له ، فيستحيل أن يسلم عليه ، بل هو المسلم على عباده ، كما سلم عليهم فى كتابه حيث يقول : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١)﴾ [ الصافات ] وقوله : ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩)﴾ [ الصافات ] ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ ﴾ [ الصافات : ٧٩ ] ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) ﴾ [ الصافات ] وقال فى يحيى : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ ﴾ [ مريم : ١٥ ] ، وقال لنوح : ﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ [ هود : ٤٨ ] ، ويسلم يوم القيامة على أهل الجنة كما قال تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [ يس ] فقولا منصوب على المصدر ، وفعله ما تضمنه سلام من القول ؛ لأن السلام قول .

وفى مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجه من حديث محمد بن المنكدر عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور من فوقهم ، فرفعوا

---

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٣٣ ـ ١٣٧) .

(٢) البخارى (٦٢٣٠) فى الاستئذان ، باب : السلام اسم من أسماء الله تعالى .

رؤوسهم فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم ، وقال : يا أهل الجنة ، سلام عليكم ، ثم قرأ قوله : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [ يس ] ثم يتوارى عنهم فتبقى رحمته وبركته عليهم فى ديارهم » (١) .

وفى سنن ابن ماجه مرفوعا : « أول من يسلم عليه الحق يوم القيامة عمر » (٢) ، وقال تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ﴾ [ الأحزاب : ٤٤ ] ، فهذا تحيتهم يوم يلقونه تبارك وتعالى ، ومحال أن تكون هذه تحية منهم له فإنهم أعرف به من أن يسلموا عليه وقد نهوا عن ذلك فى الدنيا ، وإنما هذا تحية منه لهم ، والتحية هنا مضافة إلى المفعول ، فهى التحية التى يحيون بها لا التحية التى يحيونه هم بها ، ولولا قوله تعالى فى سورة يس : ﴿ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [ يس : ٥٨ ] لاحتمل أن تكون التحية لهم من الملائكة كما قال تعالى : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم ﴾ [ الرعد ] ولكن هذا سلام الملائكة إذا دخلوا عليهم وهم فى منازلهم من الجنة يدخلون مسلمين عليهم ، وأما التحية المذكورة فى قوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ﴾ فتلك تحية لهم وقت اللقاء ، كما يحيى الحبيب حبيبه إذا لقيه ، فماذا حرم المحجوبون عن ربهم يومئذ.

يكفى الذى غاب عنك غيبته    فذاك ذنب عقابه فيه

والمقصود : أن الله تعالى يطلب منه السلام فلا يمتنع فى حقه أن يسلم على عباده ، ولا يطلب له فلذلك لا يسلم عليه . وقوله ﷺ : « إن الله هو السلام » صريح فى كون السلام اسما من أسمائه ، قالوا : فإذا قال المسلم : سلام عليكم ، كان معناه اسم السلام عليكم .

ومن حججهم : ما رواه أبو داود من حديث ابن عمر : أن رجلا سلم على النبى ﷺ فلم يرد عليه حتى استقبل الجدار ، ثم تيمم ورد عليه ، وقال : « إنى كرهت أن أذكر الله إلا على طهر » (٣) ، قالوا : ففى هذا الحديث بيان أن السلام ذكر الله ، وإنما يكون ذكرا إذا تضمن اسما من أسمائه .

ومن حججهم أيضا : أن الكفار من أهل الكتاب لا يبدؤون بالسلام ، فلا يقال لهم : سلام عليكم . ومعلوم أنه لا يكره أن يقال لأحدهم : سلمك الله ، وما ذاك إلا أن السلام اسم من أسماء الله ، فلا يسوغ أن يطلب للكافر حصول بركة ذلك الاسم عليه .

---

(١) ابن ماجه ( ١٨٤ ) فى المقدمة ، باب : فيما أنكرت الجهمية ، وضعفه الألبانى .

(٢) ابن ماجه ( ١٠٤ ) فى المقدمة ، باب : فضل عمر رضي الله عنه .

(٣) أبو داود (١٦ ، ١٧ ) فى الطهارة ، باب : أيرد السلام وهو يبول ؟

فهذه حجج كما ترى قوية ظاهرة .

**القول الثانى** : أن السلام مصدر بمعنى السلامة ، وهو المطلوب المدعو به عند التحية .

ومن حجة أصحاب هذا القول : أنه يذكر بلا ألف ولام ، بل يقول المسلم : سلام عليكم . ولو كان اسما من أسماء الله لم يستعمل كذلك ، بل كان يطلق عليه معرفا كما يطلق عليه سائر أسمائه الحسنى فيقال : « السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر » ، فإن التنكير لا يصرف اللفظ إلى معين ، فضلا عن أن يصرفه إلى الله وحده ، بخلاف المعرف فإنه ينصرف إليه تعيينا إذا ذكرت أسماؤه الحسنى .

ومن حججهم أيضا : أن عطف الرحمة والبركة عليه فى قوله : « سلام عليكم ورحمة الله وبركاته » يدل على أن المراد به المصدر ، ولهذا عطف عليه مصدرين مثله .

ومن حججهم أيضا : أنه لو كان السلام هنا اسما من أسماء الله لم يستقم الكلام إلا بإضمار وتقدير يكون به مقيدا ، ويكون المعنى : بركة اسم السلام عليكم ، فإن الاسم نفسه ليس عليهم . ولو قلت : اسم الله عليك ، كان معناه : بركة هذا الاسم ونحو ذلك من التقدير ، ومعلوم أن هذا التقدير خلاف الأصل ولا دليل عليه .

ومن حججهم أيضًا : أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبرا ودعاء ؛ ولهذا كان السلام أمانًا لتضمنه معنى السلامة ، وأمن كل واحد من المسلم والراد عليه من صاحبه ، قالوا : فهذا يدل على أن السلام مصدر بمعنى السلامة وحذفت تاؤه لأن المطلوب هذا الجنس لا المرة الواحدة منه والتاء تفيد التحديد .

وفصل الخطاب فى هذه المسألة أن يقال : الحق فى مجموع القولين ، فكل منهما بعض الحق والصواب فى مجموعهما ، وإنما نبين ذلك بقاعدة قد أشرنا إليها مرارا وهى : أن من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل فى كل مطلوب ويتوسل إليه بالاسم المقتضى لذلك المطلوب المناسب لحصوله، حتى كأن الداعى مستشفع إليه متوسل إليه به ، فإذا قال : « رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الغفور » فقد سأله أمرين وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه ، وكذلك قول النبى ﷺ لعائشة ـ وقد سألته ما تدعو به إن وافقت ليلة القدر: «قولى: اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عنى»(١). وكذلك قوله للصديق ـ وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به: «اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما

---

(١) الترمذى (٣٥١٣) فى الدعوات ، باب : ٨٥ ، وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى فى الكبرى (١٠٧٠٨) فى عمل ياليوم والليلة ، باب : ما يقول إذا وافق ليلة القدر ، وابن ماجه (٣٨٥٠) فى الدعاء ، باب : الدعاء بالعفو والعافية ، وأحمد (٦ / ١٧١) .

كثيرا ، وإنه لا يغفر الذنوب الا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم » (١) . وهذا كثير جدا فلا نطول بإيراد شواهده .

وإذا ثبت هذا فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التى هى أهم ما عند الرجل ، أتى فى لفظها بصيغة اسم من أسماء الله وهو السلام الذى يطلب منه السلامة ، فتضمن لفظ السلام معنيين : أحدهما ذكر الله كما فى حديث ابن عمر ، والثانى طلب السلامة وهو مقصود المسلم ، فقد تضمن « سلام عليكم » اسما من أسماء الله وطلب السلامة منه ، فتأمل هذه الفائدة .وقريب من هذا ما روى عن بعض السلف أنه قال فى آمين : إنه اسم من أسماء الله تعالى ، وأنكر كثير من الناس هذا القول ، وقالوا : ليس فى أسمائه آمين ، ولم يفهموا معنى كلامه ، فإنه إنما أراد أن هذه الكلمة تتضمن اسمه تبارك وتعالى ؛ فإن معناها استجب وأعط ما سألناك ، فهى متضمنة لاسمه مع دلالتها على الطلب ، وهذا التضمن فى « سلام عليكم » أظهر ؛ لأن السلام من أسمائه تعالى ، فهذا كشف سر المسألة.

## فصل

إذا عرف هذا ، فالحكمة فى طلبه عند اللقاء دون غيره من الدعاء ، أن عادة الناس الجارية بينهم أن يحيى بعضهم بعضًا عند لقائه ، وكل طائفة لهم فى تحيتهم ألفاظ وأمور اصطلحوا عليها ، وكانت العرب تقول فى تحيتهم بينهم فى الجاهلية : أنعم صباحا وأنعموا صباحًا ، فيأتون بلفظة ( أنعموا ) من النعمة بفتح النون ، وهى طيب العيش والحياة ، ويصلونها بقولهم صباحا لأن الصباح فى أول النهار ، فإذا حصلت فيه النعمة استصحب حكمها ، واستمرت اليوم كله فخصوها بأوله إيذانا بتعجيلها وعدم تأخرها ، إلى أن يتعالى النهار ، وكذلك يقولون :أنعموا مساء فإن الزمان هو صباح ومساء ، فالصباح فى أول النهار إلى بعد انتصافه ، والمساء من بعد انتصافه إلى الليل ؛ ولهذا يقول الناس : صبحك الله بخير ومساك الله بخير ، فهذا معنى : أنعم صباحا ومساء ، إلا أن فيه ذكر الله . وكانت الفرس يقولون فى تحيتهم : هزا رساله ميمابى ، أى تعيش ألف سنة ، وكل أمة لهم تحية من هذا الجنس أو ما أشبهه ، ولهم تحية يخصون بها ملوكهم من هيئات خاصة عند دخولهم عليهم كالسجود ونحوه وألفاظ خاصة تتميز بها تحية الملك من تحية السوقة ،

---

(١) البخارى (٨٣٤) فى الأذان ، باب : الدعاء قبل السلام ، ومسلم (٢٧٠٥ / ٤٨) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : استحباب خفض الصوت بالذكر .

وكل ذلك مقصودهم به الحياة ونعيمها ودوامها ، ولهذا سميت تحية وهى تفعلة من الحياة كتكرمة من الكرامة ، لكن أدغم المثلان ، فصار تحية ، فشرع الملك القدوس السلام تبارك وتعالى لأهل الإسلام تحية بينهم « سلام عليكم » وكانت أولى من جميع تحيات الأمم التى منها ما هو محال وكذب ، نحو قولهم : تعيش ألف سنة ، وما هو قاصر المعنى مثل : أنعم صباحًا ، ومنها ما لا ينبغى إلا لله مثل السجود ، فكانت التحية بالسلام أولى من ذلك كله لتضمنها السلامة التى لا حياة ولا فلاح إلا بها ، فهى الأصل المقدم على كل شيء ، ومقصود العبد من الحياة إنما يحصل بشيئين ، بسلامته من الشر ، وحصول الخير كله ، والسلامة من الشر مقدمة على حصول الخير وهى الأصل ، ولهذا إنما يهتم الإنسان بل كل حيوان بسلامته أولا ، ثم غنيمته ثانيا ، على أن السلامة المطلقة تتضمن حصول الخير ،فإنه لو فاته حصل له الهلاك والعطب أو النقص والضعف . ففوات الخير يمنع حصول السلامة المطلقة ، فتضمنت السلامة نجاته من كل شر وفوزه بالخير ،فانتظمت الأصلين اللذين لا تتم الحياة إلا بهما مع كونها مشتقة من اسمه السلام ومتضمنة له ، وحذفت التاء منها لما ذكرنا من إرادة الجنس لا السلامة الواحدة . ولما كانت الجنة دار السلامة من كل عيب وشر وآفة ، بل قد سلمت من كل ما ينغص الحياة ، كانت تحية أهلها فيها سلام ، والرب يحييهم فيها بالسلام ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب : ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾ [الرعد ] فهذا سر التحية بالسلام عند اللقاء . وأما عند المكاتبة فلما كان المراسلان كل منهما غائب عن الآخر ورسول إليه كتابه يقوم مقام خطابه له ، استعمل فى مكاتبته له من السلام ما يستعمله معه لو خاطبه لقيام الكتاب مقام الخطاب [1] .

## فصل
## فى الحكمة فى تقديم السلام فى جانب المسلم وفى جانب الراد تقديم المسلم عليه

إن فى ذلك فوائد عديدة : أحدها : الفرق بين الرد والابتداء ، فإنه لو قال له فى الرد : السلام عليكم ،أو سلام عليكم؛لم يعرف أهذا رد لسلامه عليه أم ابتداء تحية منه ؟ فإذا قال : عليك السلام ، عرف أنه قد رد عليه تحيته ، ومطلوب المسلم من المسلم عليه أن

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٤٠ ـ ١٤٥) .

يرد عليه سلامه ، ليس مقصوده أن يبدأه بسلام كما ابتدأه به ؛ ولهذا السر ـ والله أعلم ـ نهى النبى ﷺ المسلم عليه بقوله : عليك السلام عن ذلك فقال : « لا تقل : عليك السلام، فإن عليك السلام تحية الموتى » (١) أفلا ترى كيف نهاه النبى ﷺ عن ابتداء السلام بصيغة الرد التى لا تكون إلا بعد تقديم سلام ، وليس فى قوله : « فإنها تحية الموتى » ما يدل على أن المشروع فى تحايا الموتى كذلك .

وإذا كانوا قد اعتمدوا الفرق بين سلام المبتدئ وسلام الراد خصوا المبتدئ بتقديم السلام ؛لأنه هو المقصود ، وخصوا الراد بتقديم الجار والمجرور

الفائدة الثانية وهى : أن سلام الراد يجرى مجرى الجواب؛ولهذا يكتفى فيه بالكلمة المفردة الدالة على أختها،فلو قال : ( وعليك ) لكان متضمنا للرد كما هو المشروع فى الرد على أهل الكتاب، مع أنا مأمورون أن نرد على من حيانا بتحية مثل تحيته ، وهذا من باب العدل الواجب لكل أحد ، فدل على أن قول الراد : ( وعليك ) مماثل لقول المسلم : ( سلام عليك ) ، لكن اعتمد فى حق المسلم إعادة اللفظ الأول بعينه تحقيقا للمماثلة ودفعا لتوهم المسلم عدم رده عليه ؛ لاحتمال أن يرد عليك شيء آخر . وأما أهل الكتاب فلما كانوا يحرفون السلام ولا يعدلون فيه ، وربما سلموا سلاما صحيحا غير محرف ، ويشتبه الأمر فى ذلك على الراد ، ندب إلى اللفظ المفرد المتضمن لرده عليهم نظير ما قالوه ، ولم تشرع له الجملة التامة لأنها إما أن تتضمن من التحريف مثل ما قالوا ولا يليق بالمسلم تحريف السلام الذى هو تحية أهل الإسلام،ولاسيما وهو ذكر الله لأجل تحريف الكافر له ، وإما أن يرد سلاما صحيحا غير محرف مع كون المسلم محرفا للسلام فلا يستحق الرد الصحيح ، فكان العدول إلى المفرد ـ وهو ( عليك ) ـ هو مقتضى العدل والحكمة ، مع سلامته من تحريف ذكر الله ، فتأمل هذه الفائدة البديعة .

والمقصود : أن الجواب يكفى فيه قولك : ( وعليك ) ، وإنما كمل تكميلا للعدل وقطعا للتوهم .

الفائدة الثالثة : وهى أقوى مما تقدم ؛ أن المسلم لما تضمن سلامه الدعاء للمسلم عليه بوقوع السلامة عليه وحلولها عليه ، وكان الرد متضمنا لطلب أن يحل عليه من ذلك مثل ما دعا به ، فإنه إذا قال : ( وعليك السلام ) كان معناه : وعليك من ذلك مثل ما طلبت لى ، كما إذا قال : غفر الله لك ، فإنك تقول له : ولك يغفر ، ويكون هذا أحسن من

(١) أبو داود (٥٢٠٩) فى الأدب ، باب: كراهية أن يقول : عليك السلام .

قولك : وغفر لك وكذا إذا قال : رحمة الله عليك ، تقول : وعليك . وإذا قال : عفا الله عنك ، تقول : وعنك . وكذلك نظائره ؛ لأن تجريد القصد إلى مشاركة المدعو للداعى فى ذلك الدعاء لا إلى إنشاء دعاء مثل ما دعا به ، فكأنه قال : ولك أيضا ، وعنك أيضا ، أى وأنت مشارك لى فى ذلك مماثل لى فيه ، لا أنفرد به عنك ، ولا أختص به دونك ، ولا ريب أن هذا المعنى يستدعى تقديم المشارك المساوى فتأمله (١) .

## فصل
## فى الحكمة فى تسليم الله عز وجل على أنبيائه ورسله عليهم السلام

ما الحكمة فى تسليم الله على أنبيائه ورسله ، والسلام هو طلب ودعاء ، فكيف يتصور من الله ؟

فهذا سؤال له شأن ينبغى الاعتناء به ولا يهمل أمره ، وقل من يدرك سره إلا من رزقه الله فهما خاصا وعناية ، وليس هذا من شأن أبناء الزمان الذين غاية فاضلهم نقلا أن يحكى قيلا وقالا ، وغاية فاضلهم بحثا أن يبدى احتمالا ويبرز أشكالا ، وأما تحقيق العلم كما ينبغى :

فللحروب أناس قائمون بها ... وللدواوين كتاب وحسّاب

وقد كان الأولى بنا الإمساك وكف عنان القلم ، وأن نجرى معهم فى ميدانهم ، ونخاطبهم بما يألفونه ، وألا نجلو عرائس المعانى على ضرير ، ولا نزف خودها إلى عنين ، ولكن هذه سلعة وبضاعة لها طلاب ، وعروس لها خطاب ، فستصير إلى أهلها ، وتهدى إلى بعلها، ولا تستطل الخطابة فإنها نفثة مصدور ، فلنرجع إلى المقصود فنقول :

لا ريب أن الطلب يتضمن أموراً ثلاثة طالبا ، ومطلوبا ، ومطلوبا منه . ولا تتقوم حقيقته إلا بهذه الأركان الثلاثة ، وتغاير هذه ظاهر إذا كان الطالب يطلب شيئا من غيره كما هو الطلب المعروف ، مثل من يأمر غيره وينهاه ويستفهمه ، وأما إذا كان طالبا من نفسه فهنا يكون الطالب هو المطلوب منه ، ولم يكن هنا إلا ركنان طالب ومطلوب ، والمطلوب منه هو الطالب منه .

فإن قيل : كيف يعقل اتحاد الطالب والمطلوب منه وهما حقيقتان متغايرتان ، فكما لا

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٥٢ ـ ١٥٤).

يتحد المطلوب والمطلوب منه، ولا المطلوب والطالب فكذلك لا يتحد الطالب والمطلوب منه، فكيف يعقل طلب الإنسان من نفسه ؟ قيل: هذا هو الذى أوجب غموض المسألة وإشكالها، ولابد من كشفه وبيانه، فنقول :

الطلب من باب الإرادات والمريد كما يريد من غيره أن يفعل شيئا ، فكذلك يريد من نفسه هو أن يفعله ، والطلب النفسى وإن لم يكن الإرادة فهو أخص منها ، والإرادة كالجنس له ، فكما يعقل أن يكون المريد يريد من نفسه فكذلك يطلب من نفسه ، وللفرق بين الطلب والإرادة ، وما قيل فى ذلك مكان غير هذا . والمقصود : أن طلب الحى من نفسه أمر معقول يعلمه كل أحد من نفسه ، وأيضا فمن المعلوم أن الإنسان يكون آمر لنفسه ناهيا لنفسه ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾ [ يوسف :٥٣] ، وقال : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾** ﴾ [النازعات]، وقال الشاعر :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

وهذا أكثر من إيراد شواهده ، فإذا كان معقولا أن الإنسان يأمر نفسه وينهاها ، والأمر والنهى طلب مع أن فوقه آمراً وناهيا ، فكيف يستحيل ممن لا آمر فوقه ولا ناه أن يطلب من نفسه فعل ما يحبه وترك ما يبغضه ، وإذا عرف هذا عرف سر سلامه تبارك وتعالى على أنبيائه ورسله ، وأنه طلب من نفسه لهم السلامة ، فإن لم يتسع لهذا ذهنك فسأزيدك إيضاحا وبيانا وهو :

أنه قد أخبر ـ سبحانه ـ فى كتابه أنه كتب على نفسه الرحمة ، وهذا إيجاب منه على نفسه ، فهو الموجب وهو متعلق الإيجاب الذى أوجبه ، فأوجب بنفسه على نفسه ، وقد أكد النبى ﷺ هذا المعنى بما يوضحه كل الإيضاح ، ويكشف حقيقته بقوله فى الحديث الصحيح : «لما قضى الله الخلق كتب بيده على نفسه فى كتاب فهو عنده موضوع فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى » (١) ،وفى لفظ : « سبقت غضبى » (٢) .فتأمل كيف أكد هذا الطلب والإيجاب بذكر فعل الكتابة وصفة اليد ،وسحل الكتابة ،وأنه كتاب ، وذكر مستقر الكتاب وأنه عنده فوق العرش ، فهذا إيجاب مؤكد بأنواع من التأكيد ، وهو إيجاب منه على نفسه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [ الروم : ٤٧ ] فهذا حق

---

(١) البخارى (٧٤٠٤ ) فى التوحيد ، باب : قول الله تعالى : ﴿ **وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ** ﴾ ، ومسلم (٢٧٥١ / ١٤) فى التوبة ، باب : فى سعة رحمة الله تعالى .

(٢) البخارى (٧٤٥٣) فى التوحيد ، باب : قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ** ﴾ ، ومسلم (١٥/٢٧٥١) فى التوبة ، باب : فى سعة رحمة الله تعالى .

أحقه على نفسه ، فهو طلب وإيجاب على نفسه بلفظ الحق ولفظ على . ومنه قول النبى ﷺ فى الحديث الصحيح لمعاذ : « أتدرى ما حق الله على عباده ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » قلت: الله ورسوله أعلم ، قال : « حقهم عليه ألا يعذبهم بالنار »(١) . ومنه قوله ﷺ فى غير حديث : من فعل كذا وكذا كان حقا على الله أن يفعل به كذا وكذا فى الوعد والوعيد، فهذا الحق هو الذى أحقه على نفسه . ومنه الحديث الذى فى المسند من حديث أبى سعيد عن النبى ﷺ فى قول الماشى إلى الصلاة :« أسألك بحق ممشاى هذا وبحق السائلين عليك »، فهذا حق للسائلين عليه هو أحقه على نفسه ، لا أنهم هم أوجبوه ولا أحقوه ، بل أحق على نفسه أن يجيب من سأله ، كما أحق على نفسه فى حديث معاذ ألا يعذب من عبده ، فحق السائلين عليه أن يجيبهم ، وحق العابدين له أن يثيبهم ، والحقان هو الذى أحقها وأوجبهما ، لا السائلون ولا العابدون ، فإنه ـ سبحانه :

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعى لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ [ التوبة : ١١ ]، فهذا الوعد هو الحق الذى أحقه على نفسه وأوجبه . ونظير هذا ماأخبر به ـ سبحانه ـ من قسمه ليفعلنه نحو : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [ الحجر ] ، وقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [ مريم : ٦٨] وقوله : ﴿ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [ إبراهيم ] ، وقوله : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [ص ] ، وقوله :﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ [ آل عمران : ١٩٥ ] وقوله : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [ الأعراف ] إلى أمثال ذلك ، مما أخبر أن يفعله إخبارًا مؤكدا بالقسم ، والقسم فى مثل هذا يقتضى الحض والمنع بخلاف القسم على ما فعله تعالى ، مثل قوله : ﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [ يس ] والقسم على ثبوت ما ينكره المكذبون ، فإنه توكيد للخبر، وهو من باب القسم المتضمن للتصديق ، ولهذا يقول الفقهاء : اليمين ما

(١) البخارى (٢٨٥٦) فى الجهاد ، باب : اسم الفرس والحمار ، ومسلم (٣٠ / ٤٩) فى الإيمان ، باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا .

اقتضى حضا أو منعًا أو تصديقا أو تكذيبا ، فالقسم الذى يقتضى الحض والمنع هو من باب الطلب ؛ لأن الحض والمنع طلب ، ومن هذا ما أخبر به أنه لابد أن يفعله لسبق كلماته به كقوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [ الصافات ]، وقوله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [ هود : ١١٩ ] ، وقوله : ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ [ طه : ١٢٩ ] فهذا إخبار عما يفعله ويتركه أنه لسبق كلمته به فلا يتغير .

ومن هذا تحريمه ـ سبحانه ـ ما حرمه على نفسه ، كقوله ـ فيما يرويه عنه رسوله : «يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما » (١) ، فهذا التحريم نظير ذلك الإيجاب ،ولا يلتفت إلى ما قيل فى ذلك من التأويلات الباطلة ،فإن الناظر فى سياق هذه المواضع ومقصودها به يجزم ببعد المراد منها ، كقول بعضهم : إن معنى الإيجاب والكتابة فى ذلك كله هو إخباره به ، ومعنى : ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [ الأنعام : ١٢] أخبر بها عن نفسه ، وقوله : « حرمت الظلم على نفسى » أى أخبرت أنه لا يكون ، ونحو ذلك مما يتيقن المرء أنه ليس هو المراد بالتحريم ، بل الإخبار ههنا هو الإخبار بتحريمه وإيجابه على نفسه ، فمتعلق الخبر هو التحريم والإيجاب ، ولا يجوز إلغاء متعلق الخبر ، فإنه يتضمن إبطال الخبر ، ولهذا إذا قال القائل : أوجبت على نفسى صوما فإن متعلقه وجوب الصوم على نفسه ، فإذا قيل : إن معناه : أخبرت بأنى أصوم كان ذلك إلغاء وإبطالا لمقصود الخبر فتأمله .

وإذا كان معقولا من الإنسان أنه يوجب على نفسه ويحرم ويأمرها وينهاها مع كونه تحت أمر غيره ونهيه ، فالآمر الناهى الذى ليس فوقه آمر ولا ناه كيف يمتنع فى حقه أن يحرم على نفسه ، ويكتب على نفسه ، وكتابته على نفسه ـ سبحانه ـ تستلزم إرادته لما كتبه ومحبته له ورضاه به ، وتحريمه على نفسه يستلزم بغضه لما حرمه وكراهته له وإرادة ألا يفعله ، فإن محبته للفعل تقتضى وقوعه منه وكراهته لأن يفعله تمنع وقوعه منه ، وهذا غير ما يحبه ـ سبحانه ـ من أفعال عباده ويكرهه ، فإن محبة ذلك منهم لا تستلزم وقوعه ، وكراهته منهم لا تمنع وقوعه ، ففرق بين فعله هو ـ سبحانه ـ وبين فعل عباده الذى يقع مع كراهته وبغضه له ، ويتخلف مع محبته له ورضاه به ، بخلاف فعله هو ـ سبحانه ـ فهذا نوع وذاك نوع .

فتدبر هذا الموضع الذى هو مزلة أقدام الأولين والآخرين إلا من عصم الله وهداه إلى

(١) مسلم (٢٥٧٧ / ٥٥) فى البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظلم .

صراط مستقيم ، وتأمل أين تكون محبته وكراهته موجبة لوجود الفعل ومانعة من وقوعه ، وأين تكون المحبة منه والكراهة لا توجب وجود الفعل ولا تمنع وقوعه ، ونكتة المسألة هو الفرق بين ما يريد أن يفعله هو ـ سبحانه ـ وما لا يريد أن يفعله ، وبين ما يحبه من عبده أن يفعله العبد أو لا يفعله ، ومن حقق هذا المقام زالت شبهات ارتبكت فيها طوائف من النظار والمتكلمين والله الهادى إلى سواء السبيل (١) .

## فصل
## فى نهى النبى ﷺ عن قول : « عليك السلام »

نهى النبى ﷺ من قال له : ( عليك السلام ) عن ذلك ، وقال : « لا تقل : عليك السلام ، فإن عليك السلام تحية الموتى » (٢) . فما أكثر من ذهب عن الصواب فى معناه ، وخفى عليه مقصوده وسره ، فتعسف ضروبا من التأويلات المستنكرة الباردة ، ورد بعضهم الحديث وقال : قد صح عن النبى ﷺ أنه قال فى تحية الموتى : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين » (٣) قالوا :وهذا أصح من حديث النهى ، وقد تضمن تقديم ذكر لفظ ( السلام) فوجب المصير إليه .

وتوهمت طائفة أن السنة فى سلام الموتى أن يقال : عليكم السلام ، فرقا بين السلام على الأحياء والأموات . وهؤلاء كلهم إنما أتوا ما أتوه من عدم فهمهم لمقصود الحديث ، فإن قوله ﷺ : « عليك السلام تحية الموتى » ليس تشريعا منه وإخباراً عن أمر شرعى ، وإنما هو إخبار عن الواقع المعتاد الذى جرى على ألسنة الشعراء والناس ، فإنهم كانوا يقدمون اسم الميت على الدعاء ،كما قال قائلهم :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ... ورحمته ما شاء أن يترحما

وقول الذى رثى عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

عليك سلام من أمير وباركت ... يد الله فى ذاك الأديم الممزق

---

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٦٠ ـ ١٦٤) .

(٢) أبو داود (٥٢٠٩) فى الأدب ، باب : كراهية أن يقول : عليك السلام .

(٣) مسلم (٢٤٩ / ٣٩) فى الطهارة ، باب : استحباب إطالة الغرة والتحجيل فى الوضوء ، وأحمد (٢ / ٣٧٥) .

وهذا أكثر فى أشعارهم من أن نذكره ههنا ، والإخبار عن الواقع لا يدل على جوازه، فضلا عن كونه سنة ، بل نهيه عنه مع إخباره بوقوعه يدل على عدم مشروعيته ، وأن السنة فى السلم تقديم لفظه على لفظ المسلم عليه فى السلام على الأحياء وعلى الأموات ، فكما لا يقال فى السلام على الأحياء : عليكم السلام ، فكذلك لا يقال فى سلام الأموات ، كما دلت السنة الصحيحة على الأمرين ، وكأن الذى تخيله القوم من الفرق أن المسلم على غيره لما كان يتوقع الجواب،وأن يقال له : وعليك السلام ، بدؤوا باسم السلام على المدعو له ، توقعًا لقوله : وعليك السلام ، وأما الميت فما لم يتوقعوا منه ذلك قدموا المدعو له على الدعاء فقالوا : عليك السلام . وهذا الفرق لو صح كان دليلا على التسوية بين الأحياء والأموات فى السلام ، فإن المسلم على أخيه الميت يتوقع الجواب أيضًا . قال ابن عبد البر : ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : « ما من رجل يمر بقبر أخيه كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه ، إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام » (١) .

وبالجملة فهذا الخيال قد أبطلته السنة الصحيحة. وهنا نكتة بديعة ينبغى التفطن لها وهى أن السلام شرع على الأحياء والأموات بتقديم اسمه على المسلم عليهم ؛ لأنه دعاء بخير ، والأحسن فى دعاء الخير أن يتقدم الدعاء به على المدعو له،كقوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [ هود : ٧٣ ] ، وقوله:﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ﴾[ الصافات ] ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ ﴾ [ الصافات : ٧٩ ] ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [ الصافات ] ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [ الرعد : ٢٤ ] ، وأما الدعاء بالشر فيقدم فيه المدعو عليه على المدعو به غالبا ، كقوله تعالى لإبليس : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ [ ص : ٧٨ ] ، وقوله: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ [ الحجر : ٣٥ ] ، وقوله : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ [ الفتح : ٦ ] ، وقوله : ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ [ الشورى :١٦ ] ، وسر ذلك ـ والله أعلم ـ أن فى الدعاء بالخير قدموا اسم الدعاء المحبوب الذى تشتهيه النفوس وتطلبه ، ويلذ للسمع لفظه ، فيبدأ السمع بذكر الاسم المحبوب المطلوب ، ويبدأ القلب بتصوره ، فيفتح له القلب والسمع ، فيبقى السامع كالمنتظر لمن يحصل هذا وعلى من يحل،فيأتى باسمه فيقول : عليك أو لك ، فيحصل له من السرور والفرح ما يبعث على التحاب والتواد والتراحم الذى هو المقصود بالسلام .

وأما فى الدعاء عليه ففى تقديم المدعو عليه إيذان باختصاصه بذلك الدعاء ، وأنه عليه

(١) انظر : تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (٧ / ٢٩٢) .

وحده ، كأنه قيل له :هذا عليك وحدك لايشركك فيه السامعون ، بخلاف الدعاء بالخير ، فإن المطلوب عمومه وكل ما عم به الداعى كان أفضل .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : فضل عموم الدعاء على خصوصه كفضل السماء على الأرض ، وذكر فى ذلك حديثا مرفوعا عن على: أن النبى ﷺ مر به وهو يدعو فقال : « يا على ، عم ، فإن فضل العموم على الخصوص كفضل السماء على الأرض » .

وفيه فائدة ثانية أيضا وهى : أنه فى الدعاء عليه إذا قال له : « عليك » انفتح سمعه،وتشوف قلبه إلى أى شىء يكون عليه ، فإذا ذكر له اسم المدعو به صادف قلبه فارغا متشوفا لمعرفته ، فكان أبلغ فى نكايته . ومن فهم هذا فهم السر فى حذف الواو فى قوله تعالى : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [ الزمر : ٧١] ففاجأهم وبغتهم عذابها ،وما أعد الله فيها ،فهم بمنزلة من وقف على باب لا يدرى بما يفتح له من أنواع الشر ، إلا أنه متوقع منه شراً عظيما ،ففتح فى وجهه وفاجأه ما كان يتوقعه،وهذا كما تجد فى الدنيا من يساق إلى السجن، فإنه يساق إليه وبابه مغلق ، حتى إذا جاءه فتح الباب فى وجهه ففاجأته روعته وألمه ،بخلاف ما لو فتح له قبل مجيئه . وهذا بخلاف أهل الجنة فإنهم لما كانوا مساقين إلى دار الكرامة ، وكان من تمام إكرام المدعو الزائر أن يفتح له باب الدار فيجىء فيلقاه مفتوحا فلا يلحقه ألم الانتظار ، فقال فى أهل الجنة : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [ الزمر :٧٣ ] وحـذف الجواب تفخيما لأمره وتعظيما لشأنه ، على عادتهم فى حذف الجوابات لهذا المقصد .

وهذه الطريقة تريحك من دعوى زيادة الواو ومن دعوى كونها واو الثمانية ؛ لأن أبواب الجنة ثمانية ، فإن هذا لوصح فإنما يكون إذا كانت الثمانية منسوقة فى اللفظ واحدا بعد واحد فينتهون إلى السبعة ، ثم يستأنفون العدد من الثمانية بالواو وهنا لا ذكر للفظ الثمانية فى الآية ولا عدها فتأمله . على أن فى كون الواو تجىء للثمانية كلام ذكرناه فى الفتح المكى وبينا المواضع التى ادعى فيها أن الواو للثمانية وأين يمكن دعوى ذلك وأين يستحيل .

فإن قيل : فهذا ينتقض عليكم بأن سيد الخلائق ﷺ يأتى باب الجنة فيلقاه مغلقا حتى يستفتحه . قلنا من تمام إظهار شرفه وفضله على الخلائق ؛ أن الجنة تكون مغلقة فلا تفتح

لأهلها إلا على يديه ، فلو جاءها وصادفها مفتوحة فدخلها وأهلها، لم يعلم الداخلون أن فتحها كان على يديه، وأنه هو الذى استفتحها لهم. إلا ترى أن الخلق إذا راموا دخول باب مدينة أو حصن وعجزوا ويمكنهم فتحه ، حتى جاء رجل ففتحه لهم أحوج ما كانوا إلى فتحه ، كان فى ذلك من ظهور سيادته عليهم وفضله وشرفه ما لا يعلم لو جاء هو وهم فوجده مفتوحا . وقد خرجنا عن المقصود وما أبعدنا ، ولا تستطل هذه النكت ، فإنك لا تكاد تجدها فى غير هذا التعليق ، والله المان بفضله وكرمه (١) .

## فصل
## فى الحكمة فى اقتران الرحمة والبركة بالسلام

ما الحكمة فى اقتران الرحمة والبركة بالسلام ؟ فالجواب عنه أن يقال : لما كان الإنسان لا سبيل له إلى انتفاعه بالحياة إلا بثلاثة أشياء : أحدها : سلامته من الشر ومن كان ما يضاد حياته وعيشه ، والثانى : حصول الخير له ، والثالث : دوامه وثباته له ، فإن بهذه الثلاثة يكمل انتفاعه بالحياة ، شرعت التحية متضمنة للثلاثة . فقوله : ( سلام عليكم ) يتضمن السلامة من الشر ، وقوله : ( ورحمة الله ) يتضمن حصول الخير ، وقوله : ( وبركاته) يتضمن دوامه وثباته كما هو موضوع لفظ البركة ، وهو كثرة الخير واستمراره .

ومن هنا يعلم حكمة اقتران اسمه الغفور باسمه الرحيم فى عامة القرآن . ولما كانت هذه الثلاثة مطلوبة لكل أحد بل هى متضمنة لكل مطالبه ، وكل المطالب دونها وسائل إليها وأسباب لتحصيلها ، جاء لفظ التحية دالا عليها بالمطابقة تارة وهو كمالها ،وتارة دالا عليها بالتضمن ، وتارة دالا عليها باللزوم ، فدلالة اللفظ عليها مطابقة إذا ذكرت بلفظها ، ودلالته بالتضمن إذا ذكر السلام والرحمة ، فإنهما يتضمنان الثالث ، ودلالته عليها باللزوم إذا اقتصر على السلام وحده ، فإنه يستلزم حصول الخير وثباته ، إذ لو عدم لم تحصل السلامة المطلقة ، فالسلامة مستلزمة لحصول الرحمة . وقد عرف بهذا فضل هذه التحية وكمالها على سائر تحيات الأمم ؛ ولهذا اختارها الله لعباده ، وجعلها تحيتهم بينهم فى الدنيا وفى دار السلام .

وقد بان لك أنها من محاسن الإسلام وكماله ،فإذا كان هذا فى فرع من فروع الإسلام، وهو التحية التى يعرفها الخاص والعام ، فما ظنك بسائر محاسن الإسلام وجلالته

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٧٢ ـ ١٧٥) .

وعظمته وبهجته التى شهدت بها العقول والفطر ،حتى أنها من أكبر الشواهد وأظهر البراهين الدالة على نبوة محمد ﷺ وكمال دينه وفضله وشرفه على جميع الأديان ، وأن معجزته فى نفس دعوته ،فلو اقتصر عليها كانت آية وبرهانا على صدقه ، وأنه لا يحتاج معها إلى خارق ولا آية منفصلة ، بل دينه وشريعته ودعوته وسيرته من أعظم معجزاته عند الخاصة من أمته ، حتى أن إيمانهم به إنما هو مستند إلى ذلك ، والآيات فى حقهم مقويات بمنزلة تظاهر الأدلة (١) .

## فصل

ما الحكمة فى تقديم السلام على النبى ﷺ فى الصلاة قبل الصلاة عليه وهلا وقعت البداءة بما بدأ الله به فى الآية ؟

فهذا سؤال له شأن لا ينبغى الإضراب عنه صفحا وتمشية ، والنبى ﷺ كان شديد التحرى لتقديم ما قدمه الله ، والبداءة بما بدأ به ، فلهذا بدأ بالصفا فى السعى وقال : «نبدأ بما بدأ الله به » (٢) . وبدأ بالوجه ، ثم اليدين ، ثم الرأس فى الوضوء ولم يخل ذلك مرة واحدة ، بل كان هذا وضوءه إلى أن فارق الدنيا ، لم يقدم منه مؤخرا، ولم يؤخر منه مقدما قط ، ولا يقدر أحد أن ينقل عنه خلاف ذلك ، لا بإسناد صحيح ولا حسن ولا ضعيف .

ومع هذا فوقع فى الصلاة والسلام عليه تقديم السلام وتأخير الصلاة، وذلك لسر من أسرار الصلاة نشير إليه بحسب الحال إشارة ، وهو : أن الصلاة قد اشتملت على عبودية جميع الجوارح والأعضاء مع عبودية القلب ، فلكل عضو منها نصيب من العبودية ، فجميع أعضاء المصلى وجوارحه متحركة فى الصلاة عبودية لله ، وذلا له ، وخضوعا ، فلما أكمل المصلى هذه العبودية وانتهت حركاته ، ختمت بالجلوس بين يدى الرب تعالى جلوس تذلل وانكسار وخضوع لعظمته عز وجل، كما يجلس العبد الذليل بين يدى سيده ، وكان جلوس الصلاة أخشع ما يكون من الجلوس، وأعظمه خضوعا وتذللا ، فأذن للعبد فى هذه الحال بالثناء على الله تبارك وتعالى بأبلغ أنواع الثناء ، وهو التحيات لله والصلوات والطيبات . وعادتهم إذا دخلوا على ملوكهم أن يحيوهم بما يليق بهم ، وتلك التحية تعظيم

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٧٨ ، ١٧٩) .

(٢) مسلم (١٢١٨ / ١٤٧) فى الحج ، باب : حجة النبى ﷺ ، وأبو داود (١٩٠٥) فى المناسك ، باب : صفة حجة النبى ﷺ ، والترمذى (٨٦٢) فى الحج ، باب : ما جاء أنه يبدأ بالصفا قبل المروة .

لهم وثناء عليهم ، والله أحق بالتعظيم والثناء من كل أحد من خلقه .

فجمع العبد فى قوله : التحيات والصلوات والطيبات أنواع الثناء على الله ، وأخبر أن ذلك له وصفا وملكا ، وكذلك الصلوات كلها لله ، فهو الذى يصلى له وحده لا لغيره ، وكذلك الطيبات كلها من الكلمات والأفعال كلها له ، فكلماته طيبات وأفعاله كذلك ، وهو طيب لا يصعد إليه إلا طيب ، والكلم الطيب إليه يصعد ، فكانت الطيبات كلها له ومنه وإليه ، له ملكا ووصفا ، ومنه مجيؤها وابتداؤها ، وإليه مصعدها ومنتهاها ، والصلاة مشتملة على عمل صالح وكلم طيب ، والكلم الطيب إليه يصعد ، والعمل الصالح يرفعه، فناسب ذكر هذا عند انتهاء الصلاة وقت رفعها إلى الله تعالى ، فلما أتى بهذا الثناء على الرب تعالى التفت إلى شأن الرسول الذى حصل هذا الخير على يديه ، فسلم عليه أتم سلام معرف باللام التى للاستغراق ، مقرونا بالرحمة والبركة . هذا هو أصح شىء فى السلام عليه فلا تبخل عليه بالألف واللام فى هذه المقام ، ثم انتقل إلى السلام على نفسه وعلى سائر عباد الله الصالحين ، وبدأ بنفسه لأنها أهم ، والإنسان يبدأ بنفسه ثم بمن يعول، ثم ختم هذا المقام بعقد الإسلام وهو التشهد بشهادة الحق ، التى هى أول الأمر وآخره ، وعندها كل الثناء والتشهد ، ثم انتقل إلى نوع آخر وهو الدعاء والطلب ، فالتشهد يجمع نوعى الدعاء : دعاء الثناء والخير ، ودعاء الطلب والمسألة ، والأول أشرف النوعين ؛ لأنه حق الرب ووصفه ، والثانى حظ العبد ومصلحته ، وفى الأثر : « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »(١) . لكن لما كانت الصلاة أتم العبادات عبودية وأكملها ، شرع فيها النوعين ، وقدم الأول منهما لفضله ، ثم انتقل إلى النوع الثانى وهو دعاء الطلب والمسألة فبدأ بأهمه وأجله وأنفعه له ، وهو طلب الصلاة من الله على رسوله ﷺ ، وهو من أجل أدعية العبد وأنفعها له فى دنياه وآخرته ، كما ذكرناه فى كتاب تعظيم شأن الصلاة على النبى ﷺ .

وفيه أيضا أن الداعى جعله مقدمة بين يدى حاجته وطلبه لنفسه ، وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المعنى فى قوله : « ثم لينتخب من الدعاء أعجبه إليه »(٢) ، وكذلك فى حديث فضالة بن عبيد : « إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ليصل على النبى ﷺ، ثم ليدع »(٣) . فتأمل كيف جاء التشهد من أوله إلى آخره مطابقا لهذا ، منتظما له

(١) الترمذى (٢٩٢٦) فى فضائل القرآن ، باب : ٢٥ وقال : « حسن غريب » .

(٢) البخارى (٨٣٥) فى الأذان ، باب : ما يتخير من الدعاء بعد التشهد ، ومسلم (٤٠٢ / ٥٥ ـ ٥٨ ) كلاهما بلفظ : « يتخير » .

(٣) الترمذى (٣٤٧٧) فى الدعوات ، باب : ٦٥ ، وقال : « حسن صحيح » ، وفى المطبوعة : « إذا دعا » ، والمثبت من الترمذى .

أحسن انتظام . فحديث فضالة هذا هوالذى كشف لنا المعنى وأوضحه وبينه ، فصلوات الله وسلامه على من أكمل به لنا دينه ، وأتم برسالته علينا نعمته ، وجعله رحمة للعالمين ، وحسرة على الكافرين (١) .

## فصل
## ما السر فى كون السلام فى آخر الصلاة

والجواب قد جعل الله لكل عبادة تحليلا منها ،فالتحليل من الحج بالرمى وما بعده ، وكذلك التحلل من الصوم بالفطر بعد الغروب .فجعل السلام تحليلا من الصلاة ، كما قال النبى ﷺ : « تحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم » (٢) . تحريمها هنا هو بابها الذى يدخل منه إليه ، وتحليلها بابها الذى يخرج به منها . فجعل التكبير باب الدخول ، والتسليم باب الخروج لحكمة بديعة بالغة ، يفهمها من عقل عن الله وألزم نفسه بتأمل محاسن هذا الدين العظيم ، وسافر فكره فى استخراج حكمه وأسراره وبدائعه ، وتغرب عن عالم العادة والألف ، فلم يقنع بمجرد الأشباح حتى يعلم ما يقوم بها من الأرواح ، فإن الله لم يشرع شيئا سدى ولا خلواً من حكمة بالغة ، بل فى طوايا ما شرعه وأمر به من الحكم والأسرار التى تبهر العقول ما يستدل به الناظر فيه على ما وراءه ، فيسجد القلب خضوعا وإذعانًا ، فنقول ـ وبالله التوفيق :

لما كان المصلى قد تخلى عن الشواغل ، وقطع جميع العلائق ، وتطهر وأخذ زينته وتهيأ للدخول على الله ومناجاته ، شرع له أن يدخل عليه دخول العبيد على الملوك ، فيدخل بالتعظيم والإجلال ، فشرع له أبلغ لفظ يدل على هذا المعنى ، وهو قول : الله أكبر ؛ فإن فى اللفظ من التعظيم والتخصيص والإطلاق فى جانب المحذوف المجرور بمن ما لا يوجد فى غيره ؛ ولهذا كان الصواب أن غير هذا اللفظ لا يقوم مقامه ، ولا يؤدى معناه، ولا تنعقد الصلاة إلا به ، كما هو مذهب أهل المدينة وأهل الحديث . فجعل هذا اللفظ واستشعار معناه ، والمقصود به باب الصلاة الذى يدخل العبد على ربه منه ،فإنه إذا استشعر بقلبه أن الله أكبر من كل ما يخطر بالبال ، استحيا منه أن يشغل قلبه فى الصلاة

---

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٧٨ ـ ١٨٠) .

(٢) أبو داود (٦١) فى الطهارة ، باب : فرض الوضوء ، والترمذى (٣) فى الطهارة ، باب : ما جاء أن مفتاح الصلاة الطهور ، وقال :« هذا الحديث أصح شىء فى هذا الباب وأحسنه » ، وابن ماجه (٢٧٥) فى الطهارة وسننها ، باب : مفتاح الصلاة الطهور ، وأحمد (١ / ١٢٣ ) .

بغيره ، فلا يكون موفيا لمعنى ( الله أكبر ) ولا مؤديا لحق هذا اللفظ ولا أتى البيت من بابه بل الباب عنه مسدود .

وهذا بإجماع السلف أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها وحضره بقلبه ، وما أحسن ما قال أبو الفرج ابن الجوازى فى بعض وعظه : حضور القلب أول منزل من منازل الصلاة ، فإذا نزلته انتقلت إلى بادية المعنى ، فإذا رحلت عنها أنحت بباب المناجاة ، فكان أول قرى الضيف اليقظة وكشف الحجاب لعين القلب ، فكيف يطمع فى دخول مكة من لا خرج إلى البادية ، وقد تبعث قلبك فى كل واد ، فربما تفجأك الصلاة وليس قلبك عندك ، فتبعث الرسول وراءه فلا يصادفه ، فتدخل فى الصلاة بغير قلب . والمقصود أنه قبيح بالعبد أن يقول بلسانه : الله أكبر ، وقد امتلأ قلبه بغير الله ، فهو قبلة قلبه فى الصلاة ، ولعله لا يحضر بين يدى ربه فى شىء منها ، فلو قضى حق الله أكبر ، وأتى البيت من بابه لدخل وانصرف بأنواع التحف والخيرات ، فهذا الباب الذى يدخل منه المصلى وهو التحريم.

وأما الباب الذى يخرج منه فهو باب السلام المتضمن أحد الأسماء الحسنى ، فيكون مفتتحا لصلاته باسمه تبارك وتعالى ، ومختما لها باسمه فيكون ذاكراً لاسم ربه أول الصلاة وآخرها ، فأولها باسمه ، وآخرها باسمه ،فدخل فيها باسمه وخرج منها باسمه مع ما فى اسم السلام من الخاصية والحكمة المناسبة لانصراف المصلى من بين يدى الله ، فإن المصلى ما دام فى صلاته بين يدى ربه فهو فى حماه ، الذى لا يستطيع أحد أن يخفره ، بل هو فى حمى من جميع الآفات والشرور ، فإذا انصرف من بين يديه تبارك وتعالى ابتدرته الآفات والبلايا والمحن ، وتعرضت له من كل جانب ، وجاءه الشيطان بمصائده وجنده ، فهو متعرض لأنواع البلايا والمحن ، فإذا انصرف من بين يدى الله مصحوبا بالسلام لا يزل عليه حافظ من الله إلى وقت الصلاة الأخرى .

وكان من تمام النعمة عليه أن يكون انصرفه من بين يديه ربه بسلام يستصحبه ، ويدوم له ويبقى معه ، فتدبر هذا السر الذى لو لم يكن فى هذا التعليق غيره لكان كافيا ، فكيف وفيه من الأسرار والفوائد ما لا يوجد عند أبناء الزمان والحمد فى ذلك لله وحده . فكما أن المنعم به هو الله وحده ، فالمحمود عليه هو الله وحده [1] .

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٩٥ ـ ١٩٧) .

## فصل
## فى ألفاظ الترحيب

قول الملائكة للنبى ﷺ ليلة الأسراء : مرحبا به[١] ، أصل فى استعمال هذه الألفاظ وما ناسبها عند اللقاء ، نحو : أهلا وسهلا ، ومرحبا ، وكرامة ، وخير مقدم ، وأيمن مورد ونحوها . ووقع الاقتصار منها على لفظ (مرحبا ) وحدها لاقتضاء الحال لها ؛ فإن الترحيب هو السعة ، وكان قد أفضى إلى واسع الأماكن ، ولم يطلق فيها (سهلا ) لأن معناه : وطئت مكانا سهلا ،والنبى ﷺ كان محمولا إلى السماء [٢].

## فصل
## فى هديه ﷺ فى الاستئذان

صح عنه ﷺ أنه قال : « الاستئذان ثلاث ، فإن أذن لك وإلا فارجع » [٣] .

وصح عنه ﷺ أنه قال : « إنما جعل الاستئذان من أجل البصر »[٤] .

وصح عنه ﷺ، أنه أراد أن يفقأ عين الذى نظر إليه من جحر فى حجرته ، وقال : «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر » [٥] .

وصح عنه أنه قال : «لوأن أمرأ اطلع عليك بغير إذن ، فخذفته بحصاة ففقأت عينه ، لم يكن عليك جناح » [٦] .

وصح عنه أنه قال : « من اطلع على قوم فى بيتهم بغير إذنهم ، فقد حل لهم أن

---

(١) البخارى (٣٣٤٢) فى الأنبياء ، باب : ذكر إدريس عليه السلام ، ومسلم (١٦٣ / ٢٦٣) فى الإيمان ، باب : الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات .

(٢) بدائع الفوائد (٣ / ٢٠٥) .

(٣) البخارى (٦٢٤٥) فى الاستئذان ، باب : التسليم والاستئذان ثلاثا ، ومسلم ( ٢١٥٣ / ٣٣ ) فى الآداب ، باب : الاستئذان .

(٤) البخارى (٦٢٤١) فى الاستئذان ، باب : الاستئذان من أجل البصر ، ومسلم ( ٢١٥٦ / ٤٠ ) فى الآداب ، باب : تحريم النظر فى بيت غيره .

(٥) البخارى (٦٩٠١) فى الديات ، باب : من اطلع فى بيت قوم ففقؤوا عينه فلا دية له ، ومسلم (٢١٥٦ / ٤١) فى الآداب ، باب : تحريم النظر فى بيت غيره .

(٦) البخارى (٦٩٠٢) فى الديات ، باب : من اطلع فى بيت قوم ففقؤوا عينه فلا دية له ، ومسلم (٢١٥٨ / ٤٤) فى الآداب ، باب : تحريم النظر فى بيت غيره .

يفقؤوا عينه » (١) .

وصح عنه أنه قال : « من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم ، ففقؤوا عينه ، فلا دية له ، ولا قصاص » (٢) .

وصح عنه : التسليم قبل الاستئذان فعلاً وتعليمًا ، واستأذن عليه رجل ، فقال : أألج ؟ فقال رسول الله ﷺ لرجل : « اخرج إلى هذا ، فعلمه الاستئذان » . فقال له : قل : « السلام عليكم ، أأدخل ؟ » .

فسمعه الرجل ، فقال : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فأذن له النبى ﷺ فدخل (٣) .

ولما استأذن عليه عمر رضي الله عنه ، وهو فى مشربته مؤلياً من نسائه ، قال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليكم ، أيدخل عمر ؟ (٤) .

وقد تقدم قوله ﷺ لكلدة بن حنبل لما دخل عليه ولم يسلم : « ارجع فقل : السلام عليكم أأدخل ؟ » (٥) .

وفى هذه السنن رد على من قال : يقدم الاستئذان على السلام ، ورد على من قال : إن وقعت عينه على صاحب المنزل قبل دخوله ، بدأ بالسلام ، وإن لم تقع عينه عليه ، بدأ بالاستئذان ، والقولان ، مخالفان للسنة .

وكان من هديه ﷺ إذا استأذن ثلاثًا ولم يؤذن له، انصرف، وهو رد على من يقول : إن ظن أنهم لم يسمعوا ، زاد على الثلاث ، ورد على من قال : يعيده بلفظ آخر ، والقولان مخالفان للسنة .

## فصل

وكان من هديه أن المستأذن إذا قيل له : من أنت ؟ يقول : فلان بن فلان ، أو يذكر كنيته ، أو لقبه ، ولا يقول : أنا ، كما قال جبريل للملائكة فى ليلة المعراج لما استفتح باب السماء فسألوه من ؟ فقال : جبريل . واستمر ذلك فى كل سماء سماء .

---

(١ ، ٢) النسائى (٤٨٦٠) فى القسامة ، باب : من اقتص وأخذ حقه دون السلطان . وأحمد (٢ / ٣٨٥) .

(٣) أبو داود (٥١٧٧) فى الأدب ، باب : كيف الاستئذان .

(٤) البخارى (٤٩١٣) فى التفسير ، باب : ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ ، ومسلم (١٤٧٩ / ٣٤) فى الطلاق ، باب: فى الإيلاء واعتزال النساء .

(٥) أبو داود (٥١٧٦) فى الأدب ، باب : كيف الاستئذان ، والترمذى (٢٧١٠) فى الاستئذان ، باب : ماجاء فى التسليم قبل الاستئذان ، وقال : « حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن جريج » .

وكذلك فى « الصحيحين » لما جلس النبى ﷺ فى البستان ، وجاء أبو بكر ﷺ ، فاستأذن فقال :« من ؟ » قال : أبو بكر ،ثم جاء عمر ، فاستأذن فقال : « من ؟ » قال : عمر ، ثم عثمان كذلك (١) .

وفى « الصحيحين » ، عن جابر ، أتيت النبى ﷺ ، فدققت الباب ، فقال : « من ذا؟ » فقلت : أنا ، فقال : «أنا أنا »كأنه كرهها (٢).

ولما استأذنت أم هانئ ، قال لها : « من هذه؟ » قالت : أم هانئ (٣) ، فلم يكره ذكرها الكنية ، وكذلك لما قال لأبى ذر : « من هذا؟ » قال : أبو ذر . وكذلك لما قال لأبى قتادة : « من هذا ؟ » قال : أبو قتادة .

## فصل

وقد روى أبو داود عنه ﷺ من حديث قتادة ، عن أبى رافع ،عن أبى هريرة : «رسول الرجل إلى الرجل إذنه » (٤) :وفى لفظ : «إذا دعى أحدكم إلى طعام ، ثم جاء مع الرسول ، فإن ذلك إذن له » (٥) . وهذا الحديث فيه مقال ، قال أبو على اللؤلؤى : سمعت أبا داود يقول : قتادة لم يسمع من أبى رافع . وقال البخارى فى «صحيحه »:وقال سعيد : عن قتادة ، عن أبى رافع ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ :« هو إذنه »،فذكره تعليقًا لأجل الانقطاع فى إسناده .

وذكر البخارى فى هذا الباب حديثًا يدل على أن اعتبار الاستئذان بعد الدعوة ، وهو حديث مجاهد عن أبى هريرة ، دخلت مع النبى ﷺ ، فوجدت لبنًا فى قدح ،فقال : «اذهب إلى أهل الصفة ، فادعهم إلى » قال : فأتيتهم ، فدعوتهم ، فأقبلوا ،فاستأذنوا ، فأذن لهم ، فدخلوا (٦) .

وقد قالت طائفة : بأن الحديثين على حالين ، فإن جاء الداعى على الفور من غير

---

(١) البخارى (٣٦٩٥) فى فضائل الصحابة ، باب : مناقب عثمان بن عفان ، ومسلم (٢٤٠٣/ ٢٨ ) فى فضائل الصحابة ، باب :من فضائل عثمان بن عفان ﷺ .

(٢) البخارى (٦٢٥٠) فى الاستئذان ، باب : إذا قال : من ذا ؟ قال : أنا ، ومسلم (٢١٥٥ / ٣٨ ، ٣٩) فى الآداب ، باب : كراهة قول المستأذن أنا ، إذا قيل من هذا ؟

(٣) البخارى (٢٨٠) فى الغسل ، باب : التستر فى الغسل عند الناس .

(٤) أبو داود (٥١٨٩) فى الأدب ، باب : فى الرجل يدعى أيكون ذلك إذنه ؟

(٥) أبو داود (٥١٩٠) فى الأدب ، باب : فى الرجل يدعى أيكون ذلك إذنه ؟

(٦) البخارى (٦٣٤٦) فى الاستئذان ، باب : إذا دعى الرجل فجاء هل يستأذن ؟

تراخ ،لم يحتج إلى استئذان ، وإن تراخى مجيؤه عن الدعوة ، وطال الوقت ، احتاج إلى استئذان .

وقال آخرون : إن كان عند الداعى من قد أذن له قبل مجىء المدعو ، لم يحتج إلى استئذان آخر ، وإن لم يكن عنده من قد أذن له ، لم يدخل حتى يستأذن .

وكان رسول الله ﷺ،إذا دخل إلى مكان يحب الانفراد فيه ،أمر من يمسك الباب، فلم يدخل عليه أحد إلا بإذن (١) .

## فصل

وأما الاستئذان الذى أمر الله به المماليك ،ومن لم يبلغ الحلم ، فى العورات الثلاث، قبل الفجر ، ووقت الظهيرة،وعند النوم ، فكان ابن عباس يأمر به ،ويقول :ترك الناس العمل بها ، فقالت طائفة : الآية منسوخة ، ولم تأت بحجة . وقالت طائفة : أمر ندب وإرشاد ، لا حتم وإيجاب ، وليس معها ما يدل على صرف الأمر عن ظاهره ، وقالت طائفة : المأمور بذلك النساء خاصة ، وأما الرجال ، فيستأذنون فى جميع الأوقات ، وهذا ظاهر البطلان ، فإن جمع « الذين » لا يختص به المؤنث ، وإن جاز إطلاقه عليهن مع الذكور تغليبًا . وقالت طائفة عكس هذا: إن المأمور بذلك الرجال دون النساء ،نظراً إلى لفظ « الذين » فى الموضعين ، ولكن سياق الآية يأباه فتأمله .

وقالت طائفة : كان الأمر بالاستئذان فى ذلك الوقت للحاجة ، ثم زالت ، والحكم إذا ثبت بعلة زال بزوالها ، فروى أبو داود فى « سننه » أن نفراً من أهل العراق قالوا لابن عباس : يا بن عباس ، كيف ترى هذه الآية التى أمرنا فيها بما أمرنا،ولا يعمل بها أحد : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [ النور : ٥٨ ] . فقال ابن عباس : إن الله حكيم رحيم بالمؤمنين ، يحب الستر وكان الناس ليس لبيوتهم ستور ولا حجال ، فربما دخل الخادم ، أو الولد أو يتيمة الرجل ، والرجل على أهله ، فأمرهم الله بالاستئذان فى تلك العورات ، فجـاءهم الله بالستور والخير ، فلم أر أحداً يعمل بذلك بعد (٢) .

وقد أنكر بعضهم ثبوت هذا عن ابن عباس ، وطعن فى عكرمة ، ولم يصنع شيئًا ،

---

(١) البخارى (٣٦٩٥) فى فضائل الصحابة ، باب : مناقب عثمان بن عفان ،ومسلم ( ٢٤٠٣ / ٢٩ ) فى فضائل الصحابه ، باب : من فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٢) أبو داود (٥١٩٢) فى الأدب ، باب : الاستئذان فى العورات الثلاث .

وطعن فى عمرو بن أبى عمرو مولى المطلب ، وقد احتج به صاحبا الصحيح ، فإنكار هذا تعنت واستبعاد لا وجه له.

وقالت طائفة : الآية محكمة عامة لا معارض لها ولا دافع ، والعمل بها واجب ، وإن تركه أكثر الناس .

والصحيح : أنه إن كان هناك ما يقوم مقام الاستئذان من فتح باب ؛ فتحه دليل على الدخول ، أو رفع ستر ، أو تردد الداخل والخارج ونحوه ، أغنى ذلك عن الاستئذان ، وإن لم يكن ما يقوم مقامه ، فلابد منه ، والحكم معلل لعلة قد أشارت إليها الآية ، فإذا وجدت وجد الحكم ، وإذا انتفت انتفى ، والله أعلم (١) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى العطاس

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا عطس وضع يده ، أو ثوبه على فيه ، وخفض ـ أو غض ـ بها صوته .شك يحيى ، وهو القطان . وأخرجه الترمذى ، وقال : حسن صحيح (٢) .

وقد أخرج الترمذى عن نافع أن رجلا عطس إلى جنب ابن عمر ، فقال : الحمد لله، والسلام على رسول الله ، قال ابن عمر : وأنا أقول : الحمد لله ، والسلام على رسول الله ، وليس هكذا علمنا رسول الله ﷺ أن نقول ، علمنا أن نقول : « الحمد لله على كل حال » وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث زياد بن الربيع (٣) .

وفى الترمذى أيضًا من حديث سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « لما خلق الله آدم ، ونفخ فيه الروح عطس ، فقال : الحمد لله ، فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: رحمك الله يا آدم ، اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملأ منهم جلوس، فقل : السلام عليكم ، قالوا : وعليك السلم ورحمة الله ، ثم رجع إلى ربه،فقال :إن هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم » وذكر الحديث .

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٤٢٨ .

(٢) أبو داود (٥٠٢٩) فى الأدب ، باب : فى العطاس ، والترمذى (٢٧٤٥) فى الأدب ، باب : ما جاء فى خفض الصوت ، وتخمير الوجه عند العطاس .

(٣) الترمذى (٢٧٣٨) فى الأدب ، باب : ما يقول العاطس إذا عطس.

وقـال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه [١] .

وقد روى من غير وجه عن النبى ﷺ، ورواه زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة [٢] .

وعن إياس بن سلمة بن الأكوع ، عن أبيه رضي الله عنه : أن رجلا عطس عند النبى ﷺ ، فقال له : « يرحمك الله » ، ثم عطس ، فقال النبى ﷺ : « الرجل مزكوم » . وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه [٣] .

هذا لفظ أبى داود ، ولفظ مسلم : « ثم عطس أخرى » ولفظ مسلم : « ثم عطس الثانية ، فقال : إنه مزكوم » .

وأما ابن ماجه : فلفظه: « يشمت العاطس ثلاثًا ، فما زاد فهو مزكوم » رواه عن على بن محمد حدثنا وكيع عن عكرمة بن عمار عن إياس بن سلمة عن أبيه عن النبى ﷺ. وهذا يوافق رواية أبى هريرة ، وعبيد بن رفاعة فى حد ذلك بالثلاث .

وأما الترمذى فلفظه فيه : عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : عطس رجل عند النبى ﷺ ، وأنا شاهد ، فقال رسول الله ﷺ : « يرحمك الله » ثم عطس الثانية ، أو الثالثة، فقال رسول الله ﷺ : « هذا رجل مزكوم » رواه من حديث سويد عن ابن المبارك عن عكرمة بن عمار .

ثم قال : حدثنا محمد بن يسار ، حدثنا يحيى بن يسار ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا عكرمة بن عمار ، عن إياس بن سلمة ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ نحوه ، إلا أنه قال له فى الثالثة « إنك مزكوم » .

قال الترمذى : وهذا أصح من حديث ابن المبارك ، وقد روى شعبة عن عكرمة بن عمار هذا الحديث نحو رواية يحيى بن سعيد [٤] .

وعن أنس رضي الله عنه ،قال : عطس رجلان عند النبى ﷺ ، فشمت أحدهما وترك

---

(١) الترمذى (٣٣٦٨) فى تفسير القرآن ، باب : ٩٤ .

(٢) تهذيب السنن ( ٧ / ٣٠٤) .

(٣) أبو داود (٥٠٣٧) فى الأدب ، باب : كم مرة يشمت العاطس ، ومسلم (٢٩٩٣ / ٥٥) فى الزهد والرقائق ، باب : تشميت العاطس ، والترمذى (٢٧٤٣) فى الأدب ، باب : ما جاء كم يشمت العاطس ، والنسائى فى الكبرى (١٠٠٥١) فى عمل اليوم والليلة ، باب : كم مرة يشمت ؟، وابن ماجه (٣٧١٤) فى الأدب ، باب : تشميت العاطس .

(٤) تهذيب السنن (٧ / ٣١٠) .

الآخر،قال : فقيل : يا رسول الله ، رجلان عطسا ، فشمت أحدهما ـ قال أحمد ، وهو ابن يونس ـ فشمت أحدهما وتركت الآخر ؟ فقال : « إن هذا حمد الله ، وإن هذا لم يحمد الله » .وأخرجه البخارى ومسلم والترمذى (١) .

وقد تقدم حديث أبى هريرة (٢) وفيه : «فإذا عطس أحدكم ، وحمد الله ،كان حقًا على مسلم سمعه أن يقول : يرحمك الله»(٣).

وترجم الترمذى على حديث أنس:(باب ما جاء فى إيجاب التشميت بحمد العاطس ).

وهذا يدل على أنه واجب عنده ، وهو الصواب ، للأحاديث الصريحة الظاهرة فى الوجوب من غير معارض ، والله أعلم .

فمنها :حديث أبى هريرة ، وقد تقدم .

ومنها :حديثه الآخر : « خمس تجب للمسلم على أخيه » وقد تقدم (٤) .

ومنها : حديث سالم بن عبيد ، وفيه : «وليقل له من عند : يرحمك الله » (٥) .

ومنها : ما رواه الترمذى عن على قال :قال رسول الله ﷺ: « للمسلم على المسلم ست بالمعروف : يسلم عليه إذا لقيه ، ويجبه إذا دعاه ،ويشمته إذا عطس ، ويعوده إذا مرض ويتبع جنازته إذا مات ،ويحب له ما يحب لنفسه »(٦) وقال : هذا حديث حسن ،قد روى من غير وجه عن النبى ﷺ ، وقد تكلم بعضهم فى الحارث الأعور ، وفى الباب عن أبى هريرة ، وأبى أيوب والبراء ، وأبى مسعود .

ومنها : مارواه الترمذى عن أبى أيوب : أن رسول الله ﷺ قال : «إذا عطس أحدكم فليقل : الحمد لله ،وليقل : على كل حال ، وليقل الذى يرد عليه : يرحمك الله، وليقل هو : يهديكم الله ويصلح بالكم » (٧) .

---

(١) أبو داود (٥٠٣٩) فى الأدب ، باب : فيمن يعطس ولايحمد الله، والبخارى (٦٢٢١ ) فى الأدب ، باب : الحمد للعاطس ،ومسلم (٢٩٩١ / ٥٣) فى الزهد والرقائق ، باب : تشميت العاطس كراهة التثاؤب ، والترمذى (٢٧٤٢) فى الأدب ، باب : ما جاء فى إيجاب التشميت بحمد العاطس .

(٢) انظر : تهذيب السنن (٧ / ٣٠٨) رقم (٤٨٦٨) .

(٣) الترمذى (٢٧٤٧) فى الأدب ، باب : ما جاء إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب ، وقال : «صحيح » .

(٤) أبو داود (٥٠٣٠) فى الأدب ، باب : فى العطاس .

(٥) أبو داود (٥٠٣١) فى الأدب ، باب : ماجاء فى تشميت العاطس ، والترمذى ( ٢٧٤٠ ) فى الأدب ، باب : ما جاء كيف تشميت العاطس،وقال: « هذا حديث اختلفوا فى روايته عن منصور ».

(٦) الترمذى (٢٧٣٦) فى الأدب ، باب : ما جاء فى تشميت العاطس.

(٧) الترمذى (٢٧٤١) فى الأدب ، باب: ماجاء كيف تشميت العاطس .

فهذه أربع طرق من الدلالة :

**أحدها**:التصريح بثبوت وجوب التشميت بلفظه الصريح ،الذى لايحتمل تأويلاً .

**الثانى** : إيجابه بلفظ الحق .

**الثالث** : إيجابه بلفظه « على الظاهرة فى الوجوب » .

**الرابع** : الأمر به ،ولا ريب فى إثبات واجبات كثيرة بدون هذه الطرق ، والله تعالى أعلم (١) .

## وأيضا

عطس رجل فقال :ما أقول يا رسول الله ؟ قال : « قل : الحمد لله » ، فقال القوم:ما نقول له يا رسول الله ؟ قال : « قولوا له: يرحمك الله»،قال : ما أقول لهم يا رسول الله ؟ قال : « قل لهم: يهديكم الله ويصلح بالكم ». ذكره أحمد (٢) (٣) .

## وأيضا

وكان من هديه ﷺ فى العطاس ما ذكره أبو داود والترمذى ، عن أبى هريرة : كان رسول الله ﷺ إذا عطس،وضع يده أو ثوبه على فيه،وخفض ، أو غض به صوته . قال الترمذى :حديث صحيح (٤).

ويذكر عنه ﷺ: أن التثاوب الشديد ، والعطسة الشديدة من الشيطان (٥) .

ويذكر عنه : إن الله يكره رفع الصوت بالتثاوب والعطاس (٦) .

وصح عنه : أنه عطس عنده رجل ، فقال له «يرحمك الله». ثم عطس أخرى ، فقال:«الرجل مزكوم ».هذا لفظ مسلم أنه قال فى المرة الثانية،وأما الترمذى: فقال فيه عن سلمة بن الأكوع : عطس رجل عند رسول الله ﷺ وأنا شاهد ،فقال رسول الله ﷺ :

---

(١) تهذيب السنن (٧ / ٣١١ ، ٣١٢) .

(٢) أحمد (٦ / ٧٩) .

(٣) إعلام الموقعين (٤ / ٢١١) .

(٤) سبق تخريجه ص ١٤٤ .

(٥) كنز العمال (٢٥٥١٣) وعزاه لابن السنى عن أم سلمة

(٦) كنز العمال(٢٥٥١٢) وعزاه أيضا لابن السنى عن ابن الزبير.

«يرحمك الله ».ثم عطس الثانية والثالثة ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا رجل مزكوم»(١).

قال الترمذى :هذا حديث حسن صحيح .

وقد روى أبو داود عن سعيد بن أبى سعيد ، عن أبى هريرة موقوفًا عليه : « شمت أخاك ثلاثًا ، فما زاد ،فهو زكام » (٢) .

وفى رواية عن سعيد : قال : لا أعلمه إلا أنه رفع الحديث إلى النبى ﷺ بمعناه . قال أبو داود : رواه أبو نعيم ، عن موسى بن قيس ، عن محمد بن عجلان،عن سعيد ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ؛ انتهى .

وموسى بن قيس هذا الذى رفعه هو الحضرمى الكوفى يعرف بعصفور الجنة . قال يحيى بن معين : ثقة . وقال أبو حاتم الرازى :لا بأس به .

وذكر أبو داود ، عن عبيد بن رفاعة الزرقى ، عن النبى ﷺ ،قال : «تشمت العاطس ثلاثا ، فإن شئت ، فشمته ، وإن شئت فكف » (٣).

ولكن له علتان : إحداهما: إرساله،فإن عبيداً هذا ليست له صحبة ، والثانية : أن فيه أبا خالد يزيد بن عبد الرحمن الدالانى ،وقد تكلم فيه .

وفى الباب حديث آخر ، عن أبى هريرة يرفعه : « إذا عطس أحدكم ، فليشمته جليسه ،فإن زاد على الثلاثة ، فهو مزكوم ،ولا تشمته بعد الثلاث » (٤) .

وهذا الحديث هو حديث أبى داود الذى قال فيه : رواه أبو نعيم ، عن موسى بن قيس ، عن محمد بن عجلان ، عن سعيد، عن أبى هريرة ، وهو حديث حسن .

فإن قيل : إذا كان به زكام ، فهو أولى أن يدعى له ممن لا علة به ؟ قيل : يدعى له كما يدعى للمريض ، ومن به داء ووجع .

وأما سنة العطاس الذى يحبه الله ، وهو نعمة ، ويدل على خفة البدن ، وخروج الأبخرة المحتقنة ، فإنما يكون إلى تمام الثلاث ، وما زاد عليها يدعى لصاحبه بالعافية .

وقوله فى هذا الحديث : « الرجل مزكوم » تنبيه على الدعاء له بالعافية ؛ لأن الزكمة علة ، وفيه اعتذار من ترك تشميته بعد الثلاث ، وفيه تنبيه له على هذه العلة ليتداركها ولا

---

(١) سبق تخريجه ص ١٤٥ .

(٢) أبو داود (٥٠٣٤) فى الأدب ، باب : كم مرة يشمت العاطس .

(٣) أبو داود (٥٠٣٦) فى الأدب ، باب : كم مرة يشمت العاطس ، وضعفه الألبانى .

(٤) أبو داود (٥٠٣٥) فى الأدب ، باب : كم مرة يشمت العاطس .

يهملها ، فيصعب أمرها ، فكلامه ﷺ كله حكمة ورحمة ، وعلم وهدى .

وقد اختلف الناس فى مسألتين :

**إحداهما** : أن العاطس إذا حمد الله ، فسمعه بعض الحاضرين دون بعض ، هل يسن لمن لم يسمعه تشميته ؟ فيه قولان ، والأظهر : أنه يشمته إذا تحقق أنه حمد الله ، وليس المقصود سماع المشمت للحمد ، وإنما المقصود نفس حمده ، فمتى تحقق ترتب عليه التشميت ، كما لو كان المشمت أخرس ، ورأى حركة شفتيه بالحمد . والنبى ﷺ قال : فإن حمد الله ، فشمتوه هذا هو الصواب .

**الثانية** : إذا ترك الحمد ، فهل يستحب لمن حضره أن يذكره الحمد ؟ قال ابن العربى : لا يذكره ، قال : وهذا جهل من فاعله . وقال النووى :أخطأ من زعم ذلك ،بل يذكره ، وهو مروى عن إبراهيم النخعى .قال : وهو من باب النصيحة ، والأمر بالمعروف ، والتعاون على البر والتقوى ،وظاهر السنة يقوى قول ابن العربى ، لأن النبى ﷺ لم يشمت الذى عطس ، ولم يحمد الله ، ولم يذكره ، وهذا تعزير له ، وحرمان لبركة الدعاء لما حرم نفسه بركة الحمد ، فنسى الله ، فصرف قلوب المؤمنين وألسنتهم عن تشميته والدعاء له ، ولو كان تذكيره سنة ، لكان النبى ﷺ أولى بفعلها وتعليمها ، والإعانة عليها .

## فصل

وصح عنه ﷺ : « أن اليهود كانوا يتعاطسون عنده ، يرجون أن يقول لهم : يرحمكم الله ، فكان يقول : يهديكم الله ويصلح بالكم »(١) (٢) .

## فصل
## من أسباب انشراح الصدر

منها : ترك فضول النظر ، والكلام، والاستماع ، والمخالطة، والأكل ، والنوم ، فإن

---

(١) أبو داود (٥٠٣٨) فى الأدب ، باب : كيف يشمت الذمى ، والترمذى (٢٧٣٩) فى الأدب ، باب : ما جاء كيف تشميت العاطس ، وقال : «حسن صحيح ».

(٢) زاد المعاد (٢ / ٤٣٩ ـ ٤٤٢) .

هذه الفضول تستحيل آلامًا وغمومًا ، وهمومًا فى القلب، تحصره ، وتحبسه ، وتضيقه ، ويتعذب بها ، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها ، فلا إله إلا الله ما أضيق صدر من ضرب فى كل آفة من هذه الآفات بسهم، وما أنكد عيشه، وما أسوأ حاله ، وما أشد حصر قلبه ،ولا إله إلا الله ، ما أنعم عيش من ضرب فى كل خصلة من تلك الخصال المحمودة بسهم ، وكانت همته دائرة عليها ،حائمة حولها ،فلهذا نصيب وافر من قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ** ﴿١٣﴾ ﴾ [الانفطار ]،ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى:﴿**وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ** ﴿١٤﴾﴾ [ الانفطار ]، وبينهما مراتب متفاوتة لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى (١) .

# فصل
## فيمن ليست له غيبة

عن أبى عبد الله الجشمى ، عن جندب ـ وهو ابن عبد الله البجلى رضي الله عنه ـ قال : جاء أعرابى ، فأناخ راحلته ثم عقلها ، ثم دخل المسجد ، فصلى خلف رسول الله ﷺ ، فلما سلم رسول الله ﷺ أتى راحلته ، فأطلقها ، ثم ركب ، ثم نادى : اللهم ارحمنى ومحمدًا ، ولا تشرك فى رحمتنا أحدًا ، فقال رسول الله ﷺ : « أتقولون هو أضل ، أم بعيره ؟ ألم تسمعوا إلى ما قال ؟ » قالوا : بلى (٢) .

أبو عبد الله ـ هذا ـ هو عباس الجشمى ،ذكره النسائى فى كتاب الكنى وقد أخرج الترمذى والنسائى وابن ماجة نحوًا منه من حديث أبى هريرة ، وليس الفصل الأخير (٣) .

وأخرجه البخارى ومسلم من حديث أنس بن مالك (٤) .

وإدخال أبى داود هذا الحديث هنا يريد : أن ذكر الرجل بما فيه فى موضع الحاجة ليس بغيبة مثل هذا ، ونظيره حديث عائشة المتفق عليه : « ائذنوا له ،فبئس أخو العشيرة » (٥)

---

(١) زاد المعاد (٢ / ٢٧).

(٢) أبو داود (٤٨٨٥) فى الأدب ، باب : من ليست له غيبة ، وقال الألبانى : « ضعيف ، بزيادة فقال : رسول الله . . . وهو صحيح بدونها وبزيادة أخرى » .

(٣) الترمذى (٣٤٧) فى الطهارة ، باب : ما جاء فى البول يصيب الأرض ، والنسائى (١٢١٧) فى السهو ، باب : الكلام فى الصلاة ، وابن ماجه (٥٢٩) فى الطهارة وسننها ، باب : الأرض يصيبها البول كيف تغسل .

(٤) البخارى (٢٢١) فى الوضوء ، باب : صب الماء على البول فى المسجد ، ومسلم (٢٨٤ / ٩٨ ـ ١٠٠) فى الطهارة ، باب : وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت فى المسجد .

(٥) البخارى (٦٠٥٤) فى الأدب ، باب : ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب ، ومسلم (٢٥٩١ / ٧٣) فى البر والصلة والآداب ، باب : مداراة من يتقى فحشه .

بوب عليه البخارى : «باب غيبة أهل الفساد والريب » وذكر فى الباب عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « ما أظن فلانًا وفلانًا يعرفان من ديننا شيئًا » (١) .

وفى الباب حديث فاطمة بنت قيس لها خطبها معاوية وأبو جهم ، فقال النبى ﷺ : «أما معاوية :فصعلوك ؛وأما أبو جهم : فلا يضع العصا عن عاتقه » (٢) .

وقالت هند للنبى ﷺ : « إن أبا سفيان رجل شحيح » (٣) .

وقال الأشعث بن قيس للنبى ﷺ فى خصمه : «إنه امرؤ فاجر » (٤) .

وقال الحضرمى بين يدى رسول الله ﷺ فى خصمه : «إنه رجل فاجر لا يبالى ما حلف عليه ، وليس يتورع من شىء » رواه مسلم (٥) .

وقد رد النبى ﷺ غيبة مالك بن الدخشم ـ وقال للقائل : إنه منافق لا يحب الله ورسوله : « لا تقل ذاك » (٦) .

ورد معاذ بن جبل غيبة كعب بن مالك لما قال الرجل فيه عند النبى ﷺ : حبسه النظر فى برديه ، والنظر فى عطفيه ، فقال معاذ : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ، ما علمنا عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله ﷺ (٧) والحديثان متفق عليهما .

وقد أخرج الترمذى عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال : « من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة » وقال : هذا حديث حسن (٨) (٩) .

---

(١) البخارى (٦٠٦٧) فى الأدب ، باب :ما يجوز من الظن .

(٢) مسلم (١٤٨٠ / ٣٦) فى الطلاق ، باب :المطلقة ثلاثا لا نفقة لها .ولم يعزه صاحب التحفة (١٢ / ٤٦٩) للبخارى .

(٣) البخارى (٥٣٦٤) فى النفقات ، باب : إذا لم ينفق الرجل ، فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف .

(٤) البخارى (٢٣٥٦ ، ٢٣٥٧) فى المساقاة ، باب : الخصومة فى البئر .

(٥) مسلم (١٣٩ / ٢٢٣) فى الإيمان ، باب : وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار .

(٦) البخارى (٤٢٥) فى الصلاة ، باب : المساجد فى البيوت ، ومسلم (٣٣ / ٢٦٣) فى المساجد ومواضع الصلاة، باب : الرخصة فى التخلف عن الجماعة بعذر .

(٧) البخارى (٤٤١٨) فى المغازى ، باب : حديث كعب بن مالك ، ومسلم (٢٧٦٩ / ٥٣) فى التوبة ، باب : حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه .

(٨) الترمذى (١٩٣١) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى الذب عن عرض المسلم .

(٩) تهذيب السنن (٧ / ٢١٦ ، ٢١٧) .

## فصل
## فيما يجوز من الغيبة

جواز قول الرجل فى غريمه ما فيه من العيوب عند شكواه ، وأن ذلك ليس بغيبة ـ ونظير ذلك قول الآخر فى خصمه: يا رسول الله،إنه فاجر لا يبالى ما حلف عليه (١) (٢).

## وأيضا

قال ابن منصور : قلت لأحمد : إن علم من الرجل الفجور أيخبر به الناس ؟ قال : بل يستر عليه ، إلا أن يكون داعية . وزاد إسحاق : يخبر عند الحاجة فى تعديل أو تجريح أو تزويج (٣) .

## فصل
## فيما يقول من اغتاب أخاه المسلم

يذكر عن النبى ﷺ : أن كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته تقول : « اللهم اغفر لنا وله » ذكره البيهقى فى كتاب « الدعوات الكبير » وقال : فى إسناده ضعف (٤) .

وهذه المسألة فيها قولان للعلماء ـ هما روايتان عن الإمام أحمد ـ وهما : هل يكفى فى التوبة من الغيبة الاستغفار للمغتاب ، أم لا بد من إعلامه وتحليله ؟

والصحيح أنه لا يحتاج إلى إعلامه ، بل يكفيه الاستغفار له وذكره بمحاسن ما فيه فى المواطن التى اغتابه فيها . وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره .

والذين قالوا : لا بد من إعلامه ، جعلوا الغيبة كالحقوق المالية ، والفرق بينهما ظاهر، فإن الحقوق المالية ينتفع المظلوم بعود نظير مظلمته إليه ، فإن شاء أخذها ، وإن شاء تصدق بها .

وأما فى الغيبة ، فلا يمكن ذلك ، ولا يحصل له بإعلامه إلا عكس مقصود الشارع ﷺ ، فإنه يوغر صدره ويؤذيه إذا سمع ما رمى به ، ولعله يهيج عداوته ولا يصفو له

(١) سبق تخريجه ص ١٥١ .
(٢) زاد المعاد (٥ / ٥٠٢) .
(٣) بدائع الفوائد (٤ / ٨٠) .
(٤) الخرائطى فى مساوئ الأخلاق ص ٩٢ رقم (٢١٢) .

أبداً، وما كان هذا سبيله ، فإن الشارع الحكيم ﷺ لا يبيحه ولا يجوزه ، فضلاً عن أن يوجبه ويأمر به ، ومدار الشريعة على تعطيل المفاسد وتقليلها ، لا على تحصيلها وتكميلها، والله تعالى أعلم (١) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى تسميه المولود

حديث قتادة عن الحسن، عن سمرة فى العقيقة : « تذبح يوم سابعه ويسمى » (٢) .
قال الميمونى : تذاكرنا لكم يسمى الصبى ؟ قال لنا أبو عبد الله : يروى عن أنس أنه يسمى لثلاثة ، وأما سمرة ، فقال يسمى فى اليوم السابع (٣) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى الأسماء والكنى

ثبت عنه ﷺ أنه قال : « إن أخنع اسم عند الله رجل يسمى ملك الأملاك ، لا ملك إلا الله » (٤) .

وثبت عنه أنه قال : « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها حارث وهمام ، وأقبحها حرب ومرة » (٥).

وثبت عنه أنه قال : « لا تسمين غلامك يساراً ولا رباحًا ولا نجيحًا ولا أفلح ، فإنك تقول : أثمت هو ؟ فلا يكون ، فيقال : لا » (٦) .

وثبت عنه أنه غير اسم عاصية ، وقال : « أنت جميلة » (٧) .

---

(١) الوابل الصيب (٣٢٠ ، ٣٢١) .
(٢) أبو داود (٢٨٣٨) فى الأضاحى ، باب : فى العقيقة .
(٣) زاد المعاد (٢ / ٣٣٣) .
(٤) البخارى (٦٢٠٥) فى الأدب ، باب : أبغض الأسماء إلى الله ، ومسلم (٢١٤٣ / ٢٠) فى الآداب ، باب : تحريم التسمى بملك الأملاك .
(٥) مسلم (٢١٣٢ / ٢) فى الآداب ، باب : النهى عن التكنى بأبى القاسم ، والترمذى (٢٨٣٣) فى الأدب ، باب: ما جاء ما يستحب من الأسماء .
(٦) مسلم (٢١٣٧ / ١٢) فى الآداب ، باب : كراهة التسمى بالأسماء القبيحة .
(٧) مسلم (٢١٣٩ / ١٤) فى الآداب ، باب : استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن . وأبو داود (٤٩٥٢) فى الأدب ، باب : فى تغيير الاسم القبيح .

وكان اسم جويرية برة ، فغيره رسول الله ﷺ باسم جويرية (١) .

وقالت زينب بنت أم سلمة : نهى رسول الله ﷺ أن يسمى بهذا الاسم ، فقال : « لا تزكوا أنفسكم ، الله أعلم بأهل البر منكم » (٢) .

وغير اسم أصرم بزرعة (٣) ، وغير اسم أبى الحكم بأبى شريح (٤).

وغير اسم حزن جد سعيد بن المسيب وجعله سهلاً فأبى ، وقال : « السهل يوطأ ويمتهن » (٥) .

قال أبو داود : وغير النبى ﷺ اسم العاص وعزيز وعتلة وشيطان والحكم وغراب وحباب وشهاب ، فسماه هشامًا ، وسمى حربًا سلمًا ، وسمى المضطجع المنبعث ، وأرضا عفرة سماها خضرة ، وشعب الضلالة سماه شعب الهدى ، وبنو الزنية سماهم بنى الرشدة، وسمى بنى مغوية بنى رشدة (٦) .

## فصل
## فى فقه هذا الفصل

لما كانت الأسماء قوالب للمعانى ، ودالة عليها ، اقتضت الحكمة أن يكون بينها وبينها ارتباط وتناسب ، وألا يكون المعنى معها بمنزلة الأجنبى المحض الذى لا تعلق له بها ، فإن حكمة الحكيم تأبى ذلك ، والواقع يشهد بخلافه ، بل للأسماء تأثير فى المسميات ، وللمسميات تأثر عن أسمائها فى الحسن والقبح ، والخفة والثقل ، واللطافة والكثافة ، كما قيل :

وقلما أبصرت عيناك ذا لقب ... إلا ومعناه إن فكرت فى لقبه

(١) مسلم (٢١٤٠ / ١٦) فى الآداب ، باب : استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن .
(٢) مسلم ( ٢١٤١ / ١٩) فى الآداب ، باب : استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن . وأبو داود (٤٩٥٣) فى الأدب ، باب : فى تغير الاسم القبيح .
(٣) أبو داود (٤٩٥٤) فى الأدب ، باب : فى تغير الاسم القبيح .
(٤) أبو داود (٤٩٥٥) فى الأدب ، باب : فى تغيير الاسم القبيح .
(٥) البخارى (٦١٩٠) فى الأدب ، باب : اسم الحزن ، وأبو داود (٤٩٥٦) فى الأدب ، باب : فى تغيير الاسم القبيح .
(٦) أبو داود تحت رقم (٤٩٥٦) فى الأدب ، باب : فى تغيير الاسم القبيح .

وكان ﷺ يستحب الاسم الحسن ، وأمر إذا أبردوا إليه بريداً أن يكون حسن الاسم حسن الوجه (١) وكان يأخذ المعانى من أسمائها فى المنام واليقظة ، كما رأى أنه وأصحابه فى دار عقبة بن رافع ، فأتوا برطب من رطب ابن طاب ، فأوله بأن لهم الرفعة فى الدنيا، والعاقبة فى الآخرة ، وأن الدين الذى قد اختاره الله لهم قد أرطب وطاب(٢) ، وتأول سهولة أمرهم يوم الحديبية من مجىء سهيل بن عمرو إليه (٣) .

وندب جماعة إلى حلب شاة ، فقام رجل يحلبها ، فقال : « ما اسمك ؟ » قال: «مرة» فقال : اجلس ، فقام آخر فقال : « ما اسمك ؟ » قال : أظنه حرب ، فقال: اجلس ، فقام آخر قال : « ما اسمك ؟ » فقال : يعيش ، فقال : « احلبها »(٤).

وكان يكره الأمكنة المنكرة الأسماء ، ويكره العبور فيها ، كما مر فى بعض غزواته بين جبلين ، فسأل عن اسميهما فقالوا : فاضح ومخز ، فعدل عنهما ، ولم يجز بينهما .

ولما كان بين الأسماء والمسميات من الارتباط والتناسب والقرابة ، ما بين قوالب الأشياء وحقائقها ، وما بين الأرواح والأجسام ، عبر العقل من كل منهما إلى الآخر ، كما كان إياس بن معاوية وغيره يرى الشخص ، فيقول : ينبغى أن يكون اسمه كيت وكيت ، فلا يكاد يخطئ ، وضد هذا العبور من الاسم إلى مسماه ، كما سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً عن اسمه ،فقال:جمرة ، فقال : واسم أبيك ؟ قال : شهاب ، قال : ممن ؟ قال: من الحرقة ، قال : فمنزلك ؟ قال بحرة النار ، قال : فأين مسكنك ؟ قال : بذات لظى : قال : اذهب فقد احترق مسكنك ، فذهب فوجد الأمر كذلك .

فعبر عمر من الألفاظ إلى أرواحها ومعانيها ، كما عبر النبى ﷺ من اسم سهيل إلى سهولة أمرهم يوم الحديبية ، فكان الأمر كذلك ، وقد أمر النبى ﷺ أمته بتحسين أسمائهم، وأخبر أنهم يدعون يوم القيامة بها ، وفى هذا ـ والله أعلم ـ تنبيه على تحسين الأفعال المناسبة لتحسين الأسماء ، لتكون الدعوة على رؤوس الأشهاد بالاسم الحسن ، والوصف المناسب له .

وتأمل كيف اشتق للنبى ﷺ من وصفه اسمان مطابقان لمعناه ، وهما أحمد ومحمد ،

(١) المقاصد الحسنة (٨٢) ، وذكره ابن عراق فى تنزيه الشريعة (١ / ٢٠٠) من القسم الثانى وعزاه للعقيلى من حديث أبى هريرة وقال : « لا يصح » .

(٢) مسلم (٢٢٧٠ / ١٨) فى الرؤيا ، باب : رؤيا النبى ﷺ ، وأبو داود (٥٠٢٥) فى الأدب ، باب : ما جاء فى الرؤيا ، وأحمد (٣ / ٢٨٦) .

(٣) البيهقى فى الكبرى (٩ / ٢٢٠) فى الجزية ، باب : المهادنة على النظر للمسلمين .

(٤) مالك فى الموطأ ٢ / ٩٧٣ (٢٤) فى الاستئذان ، باب : ما يكره من الأسماء .

فهو لكثرة ما فيه من الصفات المحمودة محمد ، ولشرفها وفضلها على صفات غيره أحمد ، فارتبط الاسم بالمسمى ارتباط الروح بالجسد ، وكذلك تكنيته ﷺ لأبى الحكم بن هشام بأبى جهل كنية مطابقة لوصفه ومعناه ، وهو أحق الخلق بهذه الكنية ، وكذلك تكنية الله عز وجل لعبد العزى بأبى لهب ، لما كان مصيره إلى نار ذات لهب ، كانت هذه الكنية أليق به وأوفق ، وهو بها أحق وأخلق .

ولما قدم النبى ﷺ المدينة ، واسمها يثرب لا تعرف بغير هذا الاسم ، غيره بطيبة (١) لما زال عنها ما فى لفظ يثرب من التثريب بما فى معنى طيبة من الطيب ، استحقت هذا الاسم، وازدادت به طيبًا آخر ، فأثر طيبها فى استحقاق الاسم ، وزادها طيبًا إلى طيبها .

وما كان الاسم الحسن يقتضى مسماه ، ويستدعيه من قرب، قال النبى ﷺ لبعض قبائل العرب وهو يدعوهم إلى الله وتوحيده : « يا بنى عبد الله ، إن الله قد حسن اسمكم واسم أبيكم » . فانظر كيف دعاهم إلى عبودية الله بحسن اسم أبيهم ، وبما فيه من المعنى المقتضى للدعوة ، وتأمل أسماء الستة المتبارزين يوم بدر كيف اقتضى القدر مطابقة أسمائهم لأحوالهم يومئذ ، فكان الكفار : شيبة ، وعتبة ، والوليد ، ثلاث أسماء من الضعف ، فالوليد له بداية الضعف ، وشيبة له نهاية الضعف ، كما قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً** ﴾ [الروم : ٥٤] ، وعتبة من العتب ، فدلت أسماؤهم على عتب يحل بهم ، وضعف ينالهم ، وكان أقرانهم من المسلمين : على ، وعبيدة ، والحارث ، رضي الله عنهم ، ثلاثة أسماء تناسب أوصافهم، وهى العلو ، والعبودية ، والسعى الذى هو الحرث فعلوا عليهم بعبوديتهم وسعيهم فى حرث الآخرة . ولما كان الاسم مقتضيًا لمسماه ، ومؤثراً فيه ، كان أحب الأسماء إلى الله ما اقتضى أحب الأوصاف إليه ، كعبد الله ، وعبد الرحمن ، وكان إضافة العبودية إلى اسم الله ، واسم الرحمن ، أحب إليه من إضافتها إلى غيرهما ، كالقاهر ، والقادر ، فعبد الرحمن أحب إليه من عبد القادر ، وعبد الله أحب إليه من عبد ربه ، وهذا لأن التعلق الذى بين العبد وبين الله إنما هو العبودية المحضة ، والتعلق الذى بين الله وبين العبد بالرحمة المحضة ، فبرحمته كان وجوده وكمال وجوده ، والغاية التى أوجده لأجلها أن يتأله له وحده محبة وخوفًا ، ورجاء وإجلالاً وتعظيمًا ، فيكون عبد لله وقد عبده لما فى اسم الله من معنى الإلهية التى يستحيل أن تكون لغيره ، ولما غلبت رحمته

---

(١) البخارى (١٨٧٢) فى فضائل المدينة ، باب : المدينة طابة ، ومسلم (١٣٩٢ / ٥٠٣) فى الحج ، باب : أحد جبل يحبنا ونحبه .

غضبه وكانت الرحمة أحب إليه من الغضب ، كان عبد الرحمن أحب إليه من عبد القاهر.

## فصل

ولما كان كل عبد متحركًا بالإرادة ، والهم مبدأ الإرادة ، ويترتب على إرادته حركته وكسبه ، كان أصدق الأسماء اسم همام واسم حارث ، إذ لا ينفك مسماهما عن حقيقة معناهما ، ولما كان الملك الحق لله وحده ، ولا ملك على الحقيقة سواه ، كان أخنع اسم وأوضعه عند الله ، وأغضبه له اسم « شاهان شاه » أى : ملك الملوك ، وسلطان السلاطين ، فإن ذلك ليس لأحد غير الله ، فتسمية غيره بهذا من أبطل الباطل ، والله لا يحب الباطل .

وقد ألحق بعض أهل العلم بهذا « قاضى القضاة » وقال : ليس قاضى القضاة إلا من يقضى الحق وهو خير الفاصلين ، الذى إذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن فيكون .

ويلى هذا الاسم فى الكراهة والقبح والكذب : سيد الناس ، وسيد الكل ، وليس ذلك إلا لرسول الله ﷺ خاصة ، كما قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» (١) فلا يجوز لأحد قط أن يقول عن غيره : إنه سيد الناس وسيد الكل ، كما لا يجوز أن يقول : إنه سيد ولد آدم .

## فصل

ولما كان مسمى الحرب والمرة أكره شىء للنفوس وأقبحها عندها ، كان أقبح الأسماء حربًا ومرة ، وعلى قياس هذا حنظلة وحزن ، وما أشبههما ، وما أجدر هذه الأسماء بتأثيرها فى مسمياتها ، كما أثر اسم « حزن » الحزونة فى سعيد بن المسيب وأهل بيته .

## فصل

ولما كان الأنبياء سادات بنى آدم ، وأخلاقهم أشرف الأخلاق ، وأعمالهم أصح الأعمال ، كانت أسماؤهم أشرف الأسماء ، فندب النبى ﷺ أمته إلى التسمى بأسمائهم ،

---

(١) مسلم (٢٢٧٨) فى الفضائل ، باب : تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق ، وأبو داود (٤٦٧٣) فى السنة ، باب : فى التخيير بين الأنبياء عليهم السلام .

كما فى سنن أبى داود والنسائى عنه « تسموا بأسماء الأنبياء » (١) . ولو لم يكن فى ذلك من المصالح إلا أن الاسم يذكر بمسماه ويقتضى التعلق بمعناه ، لكفى به مصلحة مع ما فى ذلك من حفظ أسماء الأنبياء وذكرها ، وألا تنسى ، وأن تذكر أسماؤهم بأوصافهم وأحوالهم .

## فصل

وأما النهى عن تسمية الغلام بـ : يسار وأفلح ونجيح ورباح ، فهذا لمعنى آخر قد أشار إليه فى الحديث ، وهو قوله : « فإنك تقول : أثمت هو ؟ فيقال :لا » (٢) ـ الله أعلم ـ هل هذه الزيادة من تمام الحديث المرفوع ، أو مدرجة من قول الصحابى ، وبكل حال فإن هذه الأسماء لما كانت قد توجب تطيراً تكرهه النفوس ، ويصدها عما هى بصدده، كما إذا قلت لرجل : أعندك يسار ، أو رباح ، أو أفلح ؟ قال :لا ،تطيرت أنت وهو من ذلك ، وقد تقع الطيرة لا سيما على المتطيرين ، فقل من تطير إلا ووقعت به طيرته ، وأصابه طائره ، كما قيل :

تعلم أنه لا طير إلا ... على متطير فهو الثبور

اقتضت حكمة الشارع ، الرؤوف بأمته ، الرحيم بهم ، أن يمنعهم من أسباب توجب لهم سماع المكروه أو وقوعه ، وأن يعدل عنها إلى أسماء تحصل المقصود من غير مفسدة ، هذا أولى ، مع ما ينضاف إلى ذلك من تعليق ضد الاسم عليه ، بأن يسمى يساراً من هو من أعسر الناس ، ونجيحًا من لا نجاح عنده ،ورباحًا من هو من الخاسرين ، فيكون قد وقع فى الكذب عليه وعلى الله، وأمر آخر أيضًا وهو أن يطالب المسمى بمقتضى اسمه ، فلا يوجد عنده ، فيجعل ذلك سببًا لذمه وسبه ، كما قيل :

سموك من جهلهم سديداً ... والله ما فيك من سداد
أنت الذى كونه فساداً ... فى عالم الكون والفساد

فتوصل الشاعر بهذا الاسم إلى ذم المسمى به ،ولى من أبيات :

---

(١) أبو داود (٤٩٥٠) فى الأدب ، باب : فى تغيير الأسماء ، والنسائى (٣٥٦٥) فى الخيل ، باب : ما يستحب من شبة الخيل ، وقال الألبانى : « صحيح ، دون قوله : تسموا بأسماء الأنبياء » .

(٢) تقدم تخريجه ص ١٥٣ .

وسميته صالحاً فاغتدى ... بضد اسمه فى الورى سائرا
وظن بأن اسمه ساتر ... لأوصافه فغدا شاهرا

وهذا كما أن من المدح ما يكون ذمًا وموجبًا لسقوط مرتبة الممدوح عند الناس ، فإنه يمدح بما ليس فيه ، فتطالبه النفوس بما مدح به ، وتظنه عنده ، فلا تجده كذلك ، فتنقلب ذمًا ، ولو ترك بغير مدح ، لم تحصل له هذه المفسدة ، ويشبه حاله حال من ولى ولاية سيئة ، ثم عزل عنها ، فإنه تنقص مرتبته عما كان عليه قبل الولاية ، وينقص فى نفوس الناس عما كان عليه قبلها ، وفى هذا قال القائل :

إذا ما وصفت امرءاً لا مرئ ... فلا تغل فى وصفه واقصد
فإنك إن تغل تغل الظنو ... ن فيه إلى الأمد الأبعد
فينقص من حيث عظمته ... لفضل المغيب عن المشهد

وأمر آخر : وهو ظن المسمى واعتقاده فى نفسه أنه كذلك ، فيقع فى تزكية نفسه وتعظيمها وترفعها على غيره ، وهذا هو المعنى الذى نهى النبى ﷺ لأجله أن تسمى « برة» وقال : « لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم » (١) .

وعلى هذا فتكره التسمية بـ : التقى ، والمتقى ، والمطيع ، والطائع ، والراضى ، والمحسن ، والمخلص ، والمنيب ، والرشيد ، والسديد ، وأما تسمية الكفار بذلك ، فلا يجوز التمكين منه ، ولا دعاؤهم بشيء من هذه الأسماء ، ولا الإخبار عنهم بها ، والله عز وجل يغضب من تسميتهم بذلك .

## فصل

وأما الكنية فهى نوع تكريم للمكنى وتنويه به ، كما قال الشاعر :

أكنيه حين أناديه لأكرمه ... ولا ألقبه والسوءة اللقب

وكنى النبى ﷺ صهيباً بأبى يحيى، وكنى علياً ؓ بأبى تراب إلى كنيته بأبى الحسن، وكانت أحب كنيته إليه ، وكنى أخا أنس بن مالك وكان صغيراً دون البلوغ بأبى عمير .

وكان هديه ﷺ تكنية من له ولد ، ومن لا ولد له ، ولم يثبت عنه أنه نهى عن كنية

(١) تقدم تخريجه ص ١٥٤ .

إلا الكنية بأبى القاسم ، فصح عنه أنه قال : « تسموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى » (١) .
فاختلف الناس فى ذلك على أربعة أقوال :

**أحدها** : أنه لا يجوز التكنى بكنيته مطلقًا ، سواد أفردها عن اسمه ، أو قرنها به ، وسواء محياه وبعد مماته ، وعمدتهم عموم هذا الحديث الصحيح وإطلاقه ، وحكى البيهقى ذلك عن الشافعى ، قالوا : لأن النهى إنما كان لأن معنى هذه الكنية والتسمية مختصة به ﷺ ، وقد أشار إلى ذلك بقوله : « والله لا أعطى أحداً ، ولا أمنع أحداً ، وإنما أنا قاسم، أضع حيث أمرت » (٢) . قالوا : ومعلوم أن هذه الصفة ليست على الكمال لغيره.

واختلف هؤلاء فى جواز تسمية المولود بقاسم ، فأجازه طائفة ، ومنعه آخرون ، والمجيزون نظروا إلى أن العلة عدم مشاركة النبى ﷺ فيما اختص به من الكنية ، وهذا غير موجود فى الاسم ، والمانعون نظروا إلى أن المعنى الذى نهى عنه فى الكنية موجود مثله هنا فى الاسم سواء ، أو هو أولى بالمنع ، قالوا :وفى قوله :« إنما أنا قاسم » إشعار بهذا الاختصاص .

**القول الثانى** : أن النهى إنما هو عن الجمع بين اسمه وكنيته ، فإذا أفرد أحدهما عن الآخر ، فلا بأس . قال أبو داود : باب من رأى ألا يجمع بينهما ، ثم ذكر حديث أبى الزبير عن جابر أن النبى ﷺ قال : « من تسمى باسمى فلا يتكن بكنيتى ، ومن تكنى بكنيتى فلا يتسم باسمى » (٣) .ورواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب (٤) . وقد رواه الترمذى أيضًا من حديث محمد بن عجلان عن أبيه عن أبى هريرة وقال : حسن صحيح ، ولفظه : نهى رسول الله ﷺ أن يجمع أحد بين اسمه وكنيته ، ويسمى محمداً أبا القاسم(٥) . قال أصحاب هذا القول : فهذا مقيد مفسر لما فى « الصحيحين » من نهيه عن التكنى بكنيته قالوا : ولأن فى الجمع بينهما مشاركة فى الاختصاص بالاسم والكنية ، فإذا أفرد أحدهما عن الآخر ، زال الاختصاص .

---

(١) البخارى (٦١٨٧) فى الأدب ، باب : قول النبى ﷺ:« سموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى »، ومسلم (٢١٣٤ / ٨) فى الآداب ، باب النهى عن التكنى بأبى القاسم ، وأبو داود (٤٩٦٥) فى الأدب ، باب : فى الرجل يتكنى بأبى القاسم .
(٢) البخارى (٣١١٧) فى فرض الخمس ، باب : قول الله تعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ ، وأبو داود (٢٩٤٩) فى الخراج والإمارة والفىء ، باب : فيما يلزم الإمام من أمر الرعية .
(٣) أبو داود (٤٩٦٦) فى الأدب ، باب : من رأى ألا يجمع بينهما ، وقال الألبانى : « منكر » .
(٤) الترمذى (٢٨٤٢) فى الأدب ، باب : ما جاء فى كراهية الجمع بين اسم النبى ﷺ وكنيته .
(٥) الترمذى (٢٨٤١) فى الأدب ، باب : ما جاء فى كراهية الجمع بين اسم النبى ﷺ وكنيته

**القول الثالث** : جواز الجمع بينهما وهو المنقول عن مالك ، واحتج أصحاب هذا القول بما رواه أبو داود ، والترمذى من حديث محمد بن الحنفية ، عن على رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، إن ولد لى ولد من بعدك أسميه باسمك وأكنيه بكنيتك ؟ قال : «نعم» قال الترمذى : حديث حسن صحيح (١) .

وفى سنن أبى داود عن قالت : جاءت امرأة إلى النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إنى ولدت غلامًا فسميته محمداً وكنيته أبا القاسم ، فذكر لى أنك تكره ذلك ، فقال : « ما الذى أحل اسمى وحرم كنيتى » أو « ما الذى حرم كنيتى وأحل اسمى » (٢) قال هؤلاء : وأحاديث المنع منسوخة بهذين الحديثين .

**القول الرابع** : أن التكنى بأبى القاسم كان ممنوعًا منه فى حياة النبى ﷺ ، وهو جائز بعد وفاته ، قالوا : وسبب النهى إنما كان مختصًا بحياته ، فإنه قد ثبت فى « الصحيح » من حديث أنس قال : نادى رجل بالبقيع : يا أبا القاسم ، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى لم أعنك ، إنما دعوت فلانًا ، فقال رسول الله ﷺ : « تسموا باسمى ، ولا تكنوا بكنيتى » (٣) . قالوا : وحديث على فيه إشارة إلى ذلك بقوله : إن ولد لى من بعدك ولد ، ولم يسأله عمن يولد له فى حياته ، ولكن قال على رضي الله عنه فى هذا الحديث : « وكانت رخصة لى » وقد شذ من لا يؤبه لقوله ، فمنع التسمية باسمه ﷺ قياسًا على النهى عن التكنى بكنيته ، والصواب أن التسمى باسمه جائز ، والتكنى بكنيته ممنوع منه ، والمنع فى حياته أشد ، والجمع بينهما ممنوع منه ، وحديث عائشة غريب لا يعارض بمثله الحديث الصحيح ، وحديث على رضي الله عنه فى صحته نظر ، والترمذى فيه نوع تساهل فى التصحيح ، وقد قال على إنها رخصة له ، وهذا يدل على بقاء المنع لمن سواه ، والله أعلم .

## فصل

وقد كره قوم من السلف والخلف الكنية بأبى عيسى ، وأجازها آخرون ، فروى أبو

---

(١) أبو داود (٤٩٦٧) فى الأدب ، باب : فى الرخصة فى الجمع بينهما ، والترمذى (٢٨٤٣) فى الأدب ، باب : ما جاء فى كراهية الجمع بين اسم النبى ﷺ وكنيته .

(٢) أبو داود (٤٩٦٨) فى الأدب ، باب : فى الرخصة فى الجمع بينهما ، وضعفه الألبانى .

(٣) البخارى (٣٥٣٧) فى المناقب ، باب : كنية النبى ﷺ ، ومسلم (٢١٣١ / ١) فى الآداب ، باب : النهى عن التكنى بأبى القاسم .

داود عن زيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب ضرب ابنًا له يكنى أبا عيسى ، وأن المغيرة بن شعبة تكنى بأبى عيسى ، فقال له عمر : أما يكفيك أن تكنى بأبى عبد الله ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ كنانى ، فقال : إن رسول الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وإنا لفى جَلْجَتِنَا فلم يزل يكنى بأبى عبد الله حتى هلك (١) .

وقد كنى عائشة بأم عبد الله (٢) ، وكان لنسائه أيضًا كنى كأم حبيبة ، وأم سلمة .

## فصل

ونهى رسول الله ﷺ عن تسمية العنب كرمًا (٣) . وقال : « الكرم قلب المؤمن »(٤)، وهذا لأن اللفظة تدل على كثرة الخير والمنافع فى المسمى بها ، وقلب المؤمن هو المستحق لذلك دون شجرة العنب ،ولكن:هل المراد النهى عن تخصيص شجرة العنب بهذا الاسم ، وأن قلب المؤمن أولى به منه ، فلا يمنع عن تسميته بالكرم كما قال فى « المسكين» و « الرقوب » و « المفلس » ، أو المراد أن تسميته بهذا مع اتخاذ الخمر المحرم منه وصف بالكرم والخير والمنافع لأصل هذا الشراب الخبيث المحرم ، وذلك ذريعة إلى مدح ما حرم الله وتهييج النفوس إليه ؟ هذا محتمل ، والله أعلم بمراد رسوله ﷺ ، والأولى ألا يسمى شجر العنب كرمًا .

## فصل

قال ﷺ : « لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم ، ألا وإنها العشاء ، وإنهم يسمونها العتمة » (٥) ، وصح عنه أنه قال : « لو يعلمون ما فى العتمة والصبح ، لأتوهما ولو حبوا »(٦) ، فقيل : هذا ناسخ للمنع ، وقيل بالعكس ، والصواب خلاف القولين ، فإن العلم بالتاريخ متعذر ، ولا تعارض بين الحديثين ، فإنه لم ينه عن إطلاق اسم العتمة

---

(١) أبو داود (٤٩٦٣) فى الأدب ، باب : فيمن يتكنى بأبى عيسى .

(٢) أبو داود (٤٩٧٠) فى الأدب ، باب : فى المرأة تكنى .

(٣) البخارى (٦١٨٢) فى الأدب ، باب : لا تسبوا الدهر .

(٤) البخارى (٦١٨٣) فى الأدب ، باب : قول النبى ﷺ : « إنما الكرم قلب المؤمن » ، ومسلم (٢٢٤٧ / ٩) فى الألفاظ من الأدب ، باب : كراهة تسمية العنب كرما .

(٥) البخارى (٥٦٣) فى مواقيت الصلاة ، باب : من كره أن يقال للمغرب والعشاء .

(٦) البخارى (٦١٥) فى الأذان ، باب : الاستهام فى الأذان ، ومسلم (٤٣٧ / ١٢٩) فى الصلاة ، باب : تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها .

بالكلية ، وإنما نهى عن أن يهجر اسم العشاء ، وهو الاسم الذى سماها الله به فى كتابه ، ويغلب عليها اسم العتمة ، فإذا سميت العشاء وأطلق عليها أحيانًا العتمة ، فلا بأس ، والله أعلم ، وهذا محافظة منه ﷺ على الأسماء التى سمى الله بها العبادات ، فلا تهجر، ويؤثر عليها غيرها ، كما فعله المتأخرون فى هجران ألفاظ النصوص ، وإيثار المصطلحات الحادثة عليها ، ونشأ بسبب هذا من الجهل والفساد ما الله به عليم ، وهذا كما كان يحافظ على تقديم ما قدمه الله وتأخير ما أخره ، كما بدأ بالصفا ، وقال : « أبدأ بما بدأ الله به»[١] وبدأ فى العيد بالصلاة ، ثم جعل النحر بعدها ، وأخبر أن « من ذبح قبلها ، فلا نسك له » [٢] تقديمًا لما بدأ الله به فى قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾ [ الكوثر ] وبدأ فى أعضاء الوضوء بالوجه ، ثم اليدين ، ثم الرأس ، ثم الرجلين ، تقديمًا لما قدمه الله ، وتأخيراً لما أخره ، وتوسيطًا لما وسطه ، وقدم زكاة الفطرعلى صلاة العيد تقديمًا لما قدمه فى قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [ الأعلى ] ونظائره كثيرة [٣].

## وأيضا

أشرف صفات العبد صفة العبودية ، وأحب أسمائه إلى الله اسم العبودية ، كما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : «أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » ، وأصدقها حارث وهمام ، وأقبحها حرب ومرة [٤] ،وإنما كان حارث وهمام أصدقها لأن لكل أحد لابد له من هم وإرادة وعزم ينشأ عنه حرث وفعله ،وكل أحد حارث وهمام ، وإنما كان أقبحها حرب ومرة لما فى مسمى هذين الاسمين من الكراهة ونفور العقل عنهما ، وبالله التوفيق [٥].

---

(١) مسلم (١٢١٧ / ١٤٧) فى الحج ، باب : حجة النبى ﷺ ، وأبو داود (١٩٠٥) فى الحج ، باب : صفة حجة النبى ﷺ ، والترمذى (٨٦٢) فى الحج ، باب : ما جاء أنه يبدأ بالصفا قبل المروة .
(٢) البخارى (٥٥٤٥) فى الأضاحى ، باب : سنة الأضحية ، ومسلم (١٩٦١ / ٧) فى الأضاحى ، باب : وقتها.
(٣) زاد المعاد (٢ / ٣٣٤ ـ ٣٥١) .
(٤) أبو داود (٤٩٥٠) فى الأدب ، باب : فى تغيير الأسماء ، وقال الألبانى : « صحيح دون قوله : تسموا بأسماء الأنبياء » .
(٥) روضة المحبين (٥٣) .

## فائدة

قال قائل : أرانى إذا دعيت باسمى دون لقبى شق ذلك على جدا ، بخلاف السلف فإنهم كانوا يدعون بأسمائهم : فقيل : له : هذا لمخالفة العادات ، لأن أنس النفوس بالعادة طبيعة ثابتة ، ولأن الاسم عن السلف لم يكن عندهم دالا على قلة رتبة المدعو ، واليوم صارت المنازل فى القلوب تعلم بإمارة الاستدعاء ، فإذا قصر دل على تقصير رتبته فيقع السخط لما وراء الاستدعاء ، فلما صارت المخاطبات موازين المقادير شق على المحطوط من رتبته قولا ، كما يشق عليه فعلا (١) .

## فصل
## فى تغيير الأسماء

عن عبد الله بن أبى زكرياء ، عن أبى الدرداء ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فأحسنوا أسماءكم » (٢) .

عبد الله بن أبى زكرياء : كنيته أبو يحيى ، خزاعى دمشقى ثقة عابد ، لم يسمع من أبى الدرداء . فالحديث منقطع . وأبوه أبو زكرياء : اسمه إياس بن يزيد .

وفى هذا الحديث : رد على من قال : إن الناس يوم القيامة إنما يدعون بأمهاتهم ، لا آبائهم ، وقد ترجم البخارى فى صحيحه لذلك ، فقال : «باب يدعى الناس بآبائهم » ، وذكر فيه حديث نافع عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: «الغادر يرفع له لواء يوم القيامة ؟ يقال له: هذه غدرة فلان ابن فلان » (٣) .

واحتج من قال بالأول : بما رواه الطبرانى فى معجمه من حديث سعيد بن عبد الله الأودى قال : « شهد أبا أمامة ـ وهو فى النزع ـ قال : إذا مت فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله ﷺ ، فقال : «إذا مات أحد من إخوانكم فسويتم التراب على قبره ، فليقم أحدكم على رأس قبره ، ثم ليقل: يا فلان ابن فلانة ، فإنه يسمعه ولا يجيبه ، ثم يقول : يا فلان ابن فلانة ، فإنه يقول : أرشدنا رحمك الله » فذكر الحديث، وفيه : فقال رجل :

---

(١) بدائع الفوائد (٣ / ١٧٨) .

(٢) أبو داود (٤٩٤٨) فى الأدب ، باب : فى تغيير الأسماء ، وضعفه الألبانى .

(٣) البخارى (٦١٧٧) فى الأدب ، باب : مايدعى الناس بآبائهم .

يا رسول الله ،فإن لم يعرف أمه ، قال :« فلينسبه إلى أمه حواء ، فلان بن حواء » [١] .

ولكن هذا الحديث متفق على ضعفه فلا تقوم به حجة ، فضلا عن أن يعارض به ما هو أصح منه .

وفى الصحيحين عن أبى موسى قال : ولد لى غلام ، فأتيت به النبى ﷺ ، فسماه إبراهيم ، وحنكه بتمرة .

زاد البخارى : « ودعا له بالبركة ، ودفعه إلى ، وكان أكبر ولد أبى موسى [٢] [٣] .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى حفظ المنطق واختيار الألفاظ

كان يتخير فى خطابه ، ويختار لأمته أحسن الألفاظ ، وأجملها ، وألطفها ، وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء ، والغلظة والفحش ، فلم يكن فاحشا ولا متفحشًا ولا صخابًا ، ولا فظًا .

وكان يكره أن يستعمل اللفظ الشريف المصون فى حق من ليس كذلك ، وأن يستعمل اللفظ المهين المكروه فى حق من ليس من أهله .

فمن الأول منعه أن يقال للمنافق : « يا سيدنا » ، وقال : « فإنه إن يك سيدًا ، فقد أسخطتم ربكم عز وجل » [٤] ، ومنعه أن تسمى شجرة العنب كرمًا ، ومنعه تسمية أبى جهل بأبى الحكم ، وكذلك تغييره لاسم أبى الحكم من الصحابة : بأبى شريح ، وقال : «إن الله هو الحكم ، وإليه الحكم » [٥] .

ومن ذلك نهيه للمملوك أن يقول لسيده أو لسيدته : ربى وربتى ، وللسيد أن يقول لمملوكه : عبدى ، ولكن يقول المالك : فتاى وفتاتى ، ويقول المملوك : سيدى

---

(١) الطبرانى فى الكبير ٨ / ٢٩٨ ، ٢٩٩ (٧٩٧٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ٣٢٧) : « وفيه من لم أعرفه جماعة » .

(٢) البخارى (٦١٩٨) فى الأدب ، باب : من سمى بأسماء الأنبياء ، ومسلم (٢١٤٥ / ٢٤) فى الآداب ، باب : استحباب تحنيك المولود عند ولادته .

(٣) تهذيب السنن (٧ / ٢٥٠ ، ٢٥١) .

(٤) أبو داود (٤٩٧٧) فى الأدب ، باب : لا يقول المملوك : « ربى وربتى » .

(٥) أبو داود (٤٩٥٥) فى الأدب ، باب : فى تغيير الاسم القبيح .

وسيدتى[1] ، وقال لمن ادعى أنه طبيب : « أنت رجل رفيق ، وطبيبها الذى خلقها »[2] ، والجاهلون يسمون الكافر الذى له علم بشىء من الطبيعة حكيماً ، وهو من أسفه الخلق .

ومن هذا قوله للخطيب الذى قال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى « بئس الخطيب أنت » [3] .

وأما القسم الثانى وهو أن تطلق ألفاظ الذم على من ليس من أهلها ، فمثل نهيه ﷺ عن سب الدهر ، وقال : « إن الله هو الدهر » وفى حديث آخر : « يقول الله عز وجل : يؤذينى ابن آدم فيسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الأمر أقلب الليل والنهار » [4] . وفى حديث آخر « لا يقولن أحدكم : يا خيبة الدهر » [5] .

فى هذا ثلاث مفاسد عظيمة .

**إحداها :** سبه من ليس بأهل أن يسب ، فإن الدهر خلق مسخر من خلق الله ، منقاد لأمره، مذلل لتسخيره ، فسابه أولى بالذم والسب منه .

**الثانية :** أن سبه متضمن للشرك ، فإنه إنما سبه لظنه أنه يضر وينفع ، وأنه مع ذلك ظالم قد ضر من لا يستحق الضرر ، وأعطى من لا يستحق العطاء ، ورفع من لا يستحق الرفعة ، وحرم من لا يستحق الحرمان ، وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة ، وأشعار هؤلاء الظلمة الخونة فى سبه كثيرة جداً . وكثير من الجهال يصرح بلعنه وتقبيحه .

**الثالثة :** أن السب منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال التى لو اتبع الحق فيها أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ، وإذا وقعت أهواؤهم ، حمدوا الدهر ، وأثنوا عليه. وفى حقيقة الأمر ، فرب الدهر تعالى هو المعطى المانع ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، والدهر ليس له من الأمر شىء ، فمسبتهم للدهر مسبة لله عز وجل ؛ ولهذا كانت مؤذية للرب تعالى ، كما فى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال :

---

(١) أبو داود (٤٩٧٥) فى الأدب ، باب : لا يقول المملوك : « ربى ، وربتى » .

(٢) أبو داود (٤٢٠٧) فى الترجل ، باب : فى الخضاب .

(٣) مسلم (٨٧٠ / ٤٨) فى الجمعة ، باب : تخفيف الصلاة والخطبة ، وأبو داود (١٠٩٩) فى الصلاة ، باب : الرجل يخطب على قوس .

(٤) البخارى (٧٤٩١) فى التوحيد ، باب : قول الله تعالى : « يريدون أن يبدلوا كلام الله »، ومسلم (٢٢٤٦ / ١) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : النهى عن سب الدهر ، وأبو داود (٥٢٧٤) فى الأدب ، باب : فى الرجل يسب الدهر .

(٥) البخارى (٦١٨١) فى الأدب ، باب : لا تسبوا الدهر ، ومسلم (٢٢٤٦ / ٤) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : النهى عن سب الدهر .

« قال الله تعالى : يؤذينى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر » فساب الدهر دائر بين أمرين لابد له من أحدهما . إما سبه لله ، أو الشرك به ، فإنه إذا اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك ، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذى فعل ذلك وهو يسب من فعله ، فقد سب الله .

ومن هذا قوله ﷺ « لا يقولن أحدكم : تعس الشيطان ، فإنه يتعاظم حتى يكون مثل البيت ، فيقول : بقوتى صرعته ، ولكن ليقل : بسم الله ، فإنه يتصاغر حتى يكون مثل الذباب » (١) .

وفى حديث آخر : « إن العبد إذا لعن الشيطان يقول : إنك لتلعن ملعنا »

ومثل هذا قول القائل : أخزى الله الشيطان ، وقبح الله الشيطان ، فإن ذلك كله يفرحه ويقول : علم ابن آدم أنى قد نلته بقوتى ، وذلك مما يعينه على إغوائه ، ولا يفيده شيئًا ، فأرشد النبى ﷺ من مسه شىء من الشيطان أن يذكر الله تعالى ، ويذكر اسمه ، ويستعيذ بالله منه ، فإن ذلك أنفع له ، وأغيظ للشيطان .

من ذلك : نهيه ﷺ أن يقول الرجل : « خبثت نفسى ، ولكن ليقل : لقست نفسى»(٢) ، ومعناهما واحد ، أى : غثت نفسى ، وساء خلقها ، فكره لهم لفظ الخبث لما فيه من القبح والشناعة ، وأرشدهم إلى استعمال الحسن ، وهجران القبيح ، وإبدال اللفظ المكروه بأحسن منه (٣) .

## فصل
## فى الفراسة

إن لم يكن لك فراسة أهل الإيمان فتدبر قوله تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم ﴾ [الفتح: ٢٩ ] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) ﴾ [ الحجر ] . قال ابن عباس وغيره : «هم المتفرسون الذين يأخذون بالسيما وهى العلامة » . وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُم ﴾ [ محمد : ٣٠ ] . فهذه ثلاث آيات فى الفراسة .

---

(١) أبو داود (٤٩٨٢) فى الأدب ، باب : لا يقال : خبثت نفسى .

(٢) البخارى (٦١٧٩) فى الأدب ، باب : لا يقل : « خبثت نفسى » ، ومسلم (٢٢٥٠ / ١٦) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : كراهة قول الإنسان : « خبثت نفسى » .

(٣) زاد المعاد (٢ / ٣٥٢ ـ ٣٥٦) .

واسمع قول المتوسمين من هذه الأمة . قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : «ما أضمر رجل شيئًا إلا أظهره الله على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه » ، ودخل عليه رجل فقال له عثمان :«يدخل أحدكم والزنا فى عينيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أوحى بعد رسول الله ﷺ ؟ قال : لا ، ولكن ما عمل آدمى عملاً إلا ألبسه الله رداءه » أو كما قال .

وقال ابن عباس : « إن للحسنة لنوراً فى القلب ، وضياء فى الوجه ، وقوة فى البدن وزيادة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الخلق ، وإن للسيئة لظلمة فى القلب ، وسوادًا فى الوجه ، وضعفًا فى البدن، ونقصًا فى الرزق ، وبغضة فى قلوب الخلق » . وهذا الأمر يكون كامنًا فى القلب فى الدنيا ، ويفيض على صفحات الوجه ، فيراه من له فراسة صادقة ، فإذا كان يوم القيامة صار هو الظاهر ورآه كل أحد عيانًا ، قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** ﴾ [ آل عمران : ١٠٦ ] ، وقال تعالى ﴿ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ** ﴾ [ الزمر : ٦٠ ]، وقال تعالى : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)** ﴾ [ القيامة ] ، فالأول : من نضرة النعيم ، وبهجته ، والثانى : من النظر ، وقال تعالى : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)** ﴾ [ عبس ] ، وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤)** ﴾ [ المطففين ] ، وقال تعالى ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧)** ﴾ [يونس]، وقال النبى ﷺ :« لا تزال المسألة بأحدهم حتى يجىء يوم القيامة وليس فى وجهه مزعة لحم » (١) ، وقال : « من سأل الناس وله ما يكفيه جاءت مسألته خدوشًا أو كدوحًا فى وجهه يوم القيامة » (٢) ، وقال : « أول زمرة تلج الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم كأشد كوكب فى السماء إضاءة » (٣) .

---

(١) مسلم (١٠٤٠ / ١٠٣) فى الزكاة ، باب : كراهة المسألة الناس ، وأحمد (٢ / ١٥) .

(٢) أبو داود (١٦٢٦ ) فى الزكاة ، باب : من يعطى من الصدقة ؟ وحد الغنى ، والترمذى (٦٥٠) فى الزكاة ، باب : ما جاء من تحل له الزكاة ، وقال : « حسن » ، والنسائى (٢٥٩٢) فى الزكاة ، باب : حد الغنى ، وأحمد (١ / ٣٨٨) .

(٣) البخارى (٣٣٢٧) فى الأنبياء ، باب : خلق آدم وذريته ، ومسلم (٢٨٣٤ / ١٦) فى الجنة وصفة نعيمها ، باب: أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر .

وأمثال هذا كثير مما فيه وصف وجوه أهل السعادة ، بالحسن والبهاء والجمال والنضرة، ووجوه أهل الشقاوة بالقبح والسواد والوحشة ، وأظهر هذه السمات على الوجوه سمة الصدق والكذب ، فإن الكذاب يكسى وجهه من السواد بحسب كذبه ، والصادق يكسى وجهه من البياض بحسب صدقه ؛ ولهذا روى عن عمر بن الخطاب أنه أمر بتعزير شاهد الزور بأن يسود وجهه ، ويركب مقلوباً على الدابة فإن العقوبة من جنس الذنب ، فلما سود وجهه بالكذب وقلب الحديث سود وجهه وقلب فى ركوبه ، وهذا أمر محسوس لمن له قلب ، فإن ما فى القلب من النور والظلمة والخير والشر يسرى كثيراً إلى الوجه والعين وهما أعظم الأعضاء ارتباطًا بالقلب .

وتأمل قوله تعالى : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [ محمد : ٣٠ ] ، فهذا التعريف داخل تحت المشيئة معلق بها ، ثم قال ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ [ محمد : ٣٠ ] فهذا قسم محقق لا شرط فيه ، وذلك أن ظهور ما فى قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره على وجهه ، لكنه يبدو فى الوجه بدواً خفيًا يراه الله ، ثم يقوى حتى يصير صفة فى الوجه يراها أصحاب الفراسة ، ثم يقوى حتى يظهر لجمهور الناس ، ثم يقوى حتى يمسخ الوجه على طبيعة الحيوان الذى هو على خلقه من قرد أو خنزير كما جرى على كثير من الأمم قبلنا ، ويجرى على بعض هذه الأمة، كما وعد به الصادق الذى لا ينطق عن الهوى (١) .

## فصل
## فى محاسن الفراسة

ومن محاسن الفراسة : أن الرشيد رأى فى دار حزمة خيزران . فقال لوزيره الفضل ابن الربيع : ما هذه ؟ قال : عروق الرماح يا أمير المؤمنين . ولم يقل : الخيزران ؛ لموافقة اسم أمه .

ونظير هذا: أن بعض الخلفاء سأل ولده ـ وفى يده مسواك ـ ما جمع هذا ؟ قال : ضد محاسنك يا أمير المؤمنين . وهذا من الفراسة فى تحسين اللفظ . وهو باب عظيم النفع، اعتنى به الأكابر والعلماء ، وله شواهد كثيرة فى السنة ، وهو من خاصية العقل والفطنة .

فقد روينا عن عمر رضي الله عنه : أنه خرج يعس المدينة بالليل ، فرأى ناراً موقدة فى

(١) الكلام على مسألة السماع (٣٦٩ ـ ٣٧٣ ) .

خباء،فوقف وقال : « يا أهل الضوء » وكره أن يقول : يا أهل النار .

وسأل رجلا عن شيء « هل كان ؟ » قال : لا ، أطال الله بقاءك ، فقال : « قد علمتم فلم تتعلموا ، هلا قلت : لا ، وأطال الله بقاءك » .

وسئل العباس : أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ فقال : هو أكبر منى ، وأنا ولدت قبله.

وسئل عن ذلك قباث بن أشيم ؟ فقال : رسول الله ﷺ أكبر منى، وأنا أسن منه .

وكان لبعض القضاة جليس أعمى ، فكان إذا أراد أن ينهض يقول : يا غلام ، اذهب مع أبى محمد . ولا يقول : خذ بيده . قال : والله ما أخل بها مرة واحدة .

ومن ألطف ما يحكى فى ذلك : أن بعض الخلفاء سأل رجلا عن اسمه ؟ فقال : سعد يا أمير المؤمنين ، فقال : أى السعود أنت ، قال : سعد السعود لك يا أمير المؤمنين ، وسعد الذابح لأعدائك ، وسعد بلع على سماطك ، وسعد الأخبية لسرك فأعجبه ذلك .

ويشبه هذا : أن معن بن زائدة دخل على المنصور ، فقارب فى خطوه . فقال له المنصور : كبرت سنك يا معن .قال : فى طاعتك يا أمير المؤمنين . قال : إنك لجلد . قال: على أعدائك . قال : وإن فيك لبقية . قال : وهى لك .

وأصل هذا الباب قوله تعالى : ﴿ **وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [ الإسراء : ٥٣ ] إذا كلم بعضهم بعضا بغير التى هى أحسن فرب حرب وقودها جثث وهام أهاجها قبيح الكلام .

وفى الصحيحين من حديث سهل بن حنيف قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يقولن أحدكم : خبثت نفسى . ولكن ليقل :لقست نفسى » (١) . وخبثت ولقست وعثت متقاربة فى المعنى . فكره رسول الله ﷺ لفظ « الخبث » لبشاعته ، وأرشدهم إلى العدول إلى لفظ هو أحسن منه وإن كان بمعناه ، تعليما للأدب فى المنطق وإرشادا إلى استعمال الحسن وهجر القبيح فى الأقوال ، كما أرشدهم إلى ذلك فى الأخلاق والأفعال (٢).

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٦٧ .

(٢) الطرق الحكمية (٤٢ ـ ٤٤) .

## فصل
## فى غسل اليدين عند الطعام

عن عبد الله بن عباس : أن رسول الله ﷺ خرج من الخلاء فقدم إليه طعام ، فقالوا: ألا نأتيك بوضوء ؟ فقال : « إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة » .

وأخرجه الترمذى والنسائى، وقال الترمذى : حديث حسن [١].

## فصل
## فى غسل اليد قبل الطعام

عن سلمان ، قال : قرأت فى التوراة : أن بركة الطعام الوضوء قبله ، فذكرت ذلك للنبى ﷺ ، فقال : « بركة الطعام : الوضوء قبله ، والوضوء بعده » . قال أبو داود : وهو ضعيف[٢] .

وأخرجه الترمذى ، وقال : لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث قيس بن الربيع .

وقيس بن الربيع : يضعف فى الحديث [٣] .

فى هذه المسألة قولان لأهل العلم :

**أحدهما** : يستحب غسل اليدين قبل الطعام .

**والثانى** : لا يستحب . وهما فى مذهب أحمد وغيره ، والصحيح : أنه لا يستحب .

وقال النسائى فى كتابه الكبير : باب ترك غسل اليدين قبل الطعام ، ثم ذكر من حديث ابن جريج عن سعيد بن الحويرث عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ تبرز ثم خرج ، فطعم ولم يمس ماء [٤] . وإسناده صحيح .

---

(١) أبو داود (٣٧٦٠) فى الأطعمة ، باب : فى غسل اليدين عند الطعام ، والترمذى (١٨٤٧) فى الأطعمة ، باب: فى ترك الوضوء قبل الطعام ، وقال ، « حسن صحيح » ، والنسائى (١٣٢) فى الطهارة ، باب : الوضوء لكل صلاة .

(٢) أبو داود (٣٧٦١) فى الأطعمة ، باب : فى غسل اليد قبل الطعام ، وضعفه الألبانى .

(٣) الترمذى (١٨٤٦) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى الوضوء قبل الطعام وبعده .

(٤) النسائى فى الكبرى (٦٧٣٦) فى آداب الأكل .

ثم قال : باب غسل الجنب يده إذا طعم ، وساق من حديث الزهرى عن أبى سلمة عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن ينام وهو جنب توضأ وضوءه للصلاة ، وإذا أراد أن يأكل غسل يديه (١) .

وهذا التبويب والتفصيل فى المسألة هو الصواب .

وقال الخلال فى الجامع : عن مهنا قال : سألت أحمد عن حديث قيس بن الربيع عن أبى هاشم عن زاذان ، عن سلمان ، عن النبى ﷺ : « بركة الطعام الوضوء قبله وبعده »؟ فقال لى أبو عبد الله : هو منكر . فقلت : ما حدث بهذا إلا قيس بن الربيع ؟قال : لا . وسألت يحيى بن معين ـ وذكرت له حديث قيس بن الربيع عن أبى هاشم عن زاذان عن سلمان ـ الحديث ، فقال لى يحيى معين : ما أحسن الوضوء قبل الطعام وبعده ، قلت له: بلغنى عن سفيان الثورى : أنه كان يكره الوضوء قبل الطعام .

وقال مهنا : سألت أحمد ، قلت : بلغنى عن يحيى بن سعيد أنه قال : كان سفيان يكره غسل اليد عند الطعام ، قلت : لم كره سفيان ذلك ؟ قال : لأنه من زى العجم ، وضعف أحمد حديث قيس بن الربيع .

قال الخلال : وأخبرنا أبو بكر المروذى قال : رأيت أبا عبد الله يغسل يديه قبل الطعام وبعده وإن كان على وضوء (٢) .

## فصل
## فى التسمية عند الأكل

الصحيح وجوب التسمية عند الأكل ، وهو أحد الوجهين لأصحاب أحمد وأحاديث الأمر بها صحيحة صريحة (٣) ولا معارض لها ، ولا إجماع يسوغ مخالفتها ويخرجها عن ظاهرها ، وتاركها شريكه الشيطان فى طعامه وشرابه (٤) .

---

(١) النسائى فى الكبرى (٢٥٥) فى الطهارة .
(٢) تهذيب السنن (٥ / ٢٩٧ ، ٢٩٨) .
(٣) البخارى (٥٣٧٦) فى الأطعمة ، باب : التسمية على الطعام ، والأكل باليمين ، ومسلم (٢٠٢٢ / ١٠٨) فى الأشربة ، باب : آداب الطعام والشراب وأحكامها .
(٤) زاد المعاد (٢ / ٣٩٧ ، ٣٩٨) .

# فصل
# هل تزول مشاركة الشيطان فى طعام الجماعة بتسمية أحدهم ؟

هاهنا مسألة تدعو الحاجة إليها وهى أن الآكلين إذا كانوا جماعة فسمَّى أحدهم ، هل تزول مشاركة الشيطان لهم فى طعامهم بتسميته وحده أم لا تزول إلا بتسمية الجميع ، فنص الشافعى على إجزاء تسمية الواحد عن الباقين وجعله أصحابه كرد السلام وتشميت العاطس، وقد يقال : لا ترفع مشاركة الشيطان للآكل إلا بتسميته هو ، ولا يكفيه تسمية غيره؛ولهذا جاء فى حديث حذيفة : إنا حضرنا مع رسول الله ﷺ طعامًا ، فجاءت جارية كأنما تدفع فذهبت لتضع يدها فى الطعام ، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها ، ثم جاء أعرابى كأنما يدفع فأخذ بيده ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان ليستحل الطعام ألا يذكر اسم الله عليه ، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها فأخذت بيدها ، فجاء بهذا الأعرابى ليستحل به فأخذت بيده ، والذى نفسى بيده ، إن يده لفى يدى مع يديهما » ثم ذكر اسم الله وأكل(١). ولو كانت تسمية الواحد تكفى لما وضع الشيطان يده فى ذلك الطعام .

ولكن قد يجاب بأن النبى ﷺ لم يكن قد وضع يده وسمى بعد ، ولكن الجارية ابتدأت بالوضع بغير تسمية ، وكذلك الأعرابى فشاركهما الشيطان ، فمن أين لكم أن الشيطان شارك من لم يسمِ بعد تسمية غيره ، فهذا مما لا يمكن أن يقال ، لكن قد روى الترمذى وصححه من حديث عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يأكل طعامًا فى ستة من أصحابه ، فجاء أعرابى فأكله بلقمتين ، فقال رسول الله ﷺ: « أما إنه لو سمى لكفاكم»(٢) . ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ وأولئك الستة سموا ، فلما جاء هذا الأعرابى فأكل ولم يسمِ شاركــه الشيطان من أكله ، فأكل الطعام بلقمتين ، ولو سمى لكفى الجميع .

وأما مسألة رد السلام وتشميت العاطس ففيها نظر ، وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا عطس أحدكم فحمد الله فحق على كل من سمعه أن يشمته » (٣) وإن سلم الحكم

---

(١) مسلم (٢٠١٧ / ١٠٢) فى الأشربة ، باب : آداب الطعام والشراب وأحكامهما ، وأبو داود (٣٧٦٦) فى الأطعمة ، باب : التسمية على الطعام .

(٢) الترمذى (١٨٥٨) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى التسمية على الطعام .

(٣) البخارى (٦٢٢٣) فى الأداب ، باب : ما يستحب من العطاس ، وما يكره من التثاؤب .

فيهما ، فالفرق بينهما وبين مسألة الأكل ظاهر ، فإن الشيطان إنما يتوصل إلى مشاركة الآكل فى أكله إذا لم يسم ، فإذا سمى غيره لم تجز تسمية من سمى عمن لم يسم من مقارنة الشيطان له فيأكل معه ، بل تقل مشاركة الشيطان بتسمية بعضهم ، وتبقى الشركة بين من لم يسم وبينه ، والله أعلم .

ويذكر عن جابر عن النبى ﷺ « من نسى أن يسمى على طعامه فليقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [ الإخلاص] إذا فرغ » (١) وفى ثبوت هذا الحديث نظر (٢) .

## فصل
## فى هديه ﷺ فى الطعام

وكان ﷺ إذا دخل على أهله ربما يسألهم : « هل عندكم طعام ؟ » وما عاب طعامًا قط، بل كان إذا اشتهاه أكله ، وإن كرهه تركه وسكت (٣) ، وربما قال : « أجدنى أعافه، إنى لا أشتهيه » (٤) .

وكان يمدح الطعام أحيانًا ، كقوله لما سأل أهله الإدام ، فقالوا : ما عندنا إلا خل ، فدعا به فجعل يأكل منه ويقول « نعم الأدم الخل » (٥) ، وليس فى هذا تفضيل له على اللبن واللحم والعسل والمرق وإنما هو مدح له فى تلك الحال التى حضر فيها ولو حضر لحم أو لبن ، كان أولى بالمدح منه ، وقال هذا جبراً وتطييبًا لقلب من قدمه ، لا تفضيلاً له على سائر أنواع الإدام .

وكان إذا قرب إليه طعام وهو صائم قال : « إنى صائم » (٦) ، وأمر من قرب إليه الطعام وهو صائم أن يصلى أى يدعو لمن قدمه وإن كان مفطراً أن يأكل منه (٧) .

---

(١) حلية الأولياء (١٠ / ١١٤) وقال : « لا أعلم أحدًا رواه عن أبى الزبير إلا حمزة » ، والموضوعات (٣ / ٣٤) .
(٢) زاد المعاد (٢ / ٣٩٨ ـ ٤٠٠) .
(٣) البخارى (٥٤٠٩) فى الأطعمة، باب:ما عاب النبى ﷺ طعامًا ، ومسلم (٢٠٦٤ / ١٨٧) فى الأشربة ، باب : لا يعيب الطعام .
(٤) البخارى (٥٤٠٠) فى الأطعمة ،باب:الشواء ،ومسلم (١٩٤٦/ ٤٤) فى الصيد والذبائح ،باب: إباحة الضب.
(٥) مسلم (٢٠٥٢ / ١٦٦) فى الأشربة ، باب : فضيلة الخل والتأدم به ، وأبو داود (٣٨٢٠) فى الأطعمة ، باب: فى الخل .
(٦) البخارى (١٩٨٢) فى الصوم ، باب : من زار قوما فلم يفطر عندهم .
(٧) مسلم (١٤٣١ /١٠٦) فى النكاح ، باب : الأمر بإجابة الداعى إلى دعوة ، وأبو داود (٢٤٦٠) فى الصوم ، باب : فى الصائم يدعى إلى وليمة .

وكان إذا دعى لطعام وتبعه أحد أعلم به رب المنزل ، وقال : « إن هذا تبعنا ، فإن شئت أن تأذن له وإن شئت رجع » (١) .

وكان يتحدث على طعامه ، وكما قال لربيبه عمر بن أبى سلمة وهو يؤاكله : « سم الله ، وكل مما يليك » (٢) .

وربما كان يكرر على أضيافه عرض الأكل عليهم مراراً كما يفعله أهل الكرم ، كما فى حديث أبى هريرة عند البخارى فى قصة شرب اللبن ،وقوله له مراراً : « اشرب » فما زال يقول : « اشرب » حتى قال : والذى بعثك بالحق لا أجد له مسلكاً (٣) .

وكان إذا أكل عند قوم لم يخرج حتى يدعو لهم ، فدعا فى منزل عبد الله بن بسر فقال : « اللهم بارك لهم فيما رزقتهم ، واغفر لهم وارحمهم » ذكره مسلم (٤) .

ودعا فى منزل سعد بن عبادة فقال : « أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة » (٥) .

وذكر أبو داود عنه ﷺ أنه لما دعاه أبو الهيثم بن التيهان هو وأصحابه فأكلوا ، فلما فرغوا قال : « أثيبوا أخاكم » قالوا : يا رسول الله ، وما إثابته ؟ قال : « إن الرجل إذا دخل بيته فأكل طعامه وشرب شرابه فدعوا له فذلك إثابته » (٦) .

وصح عنه ﷺ أنه دخل منزله ليلة فالتمس طعامًا فلم يجده ، فقال : « اللهم أطعم من أطعمنى ، واسق من سقانى » (٧) .

وذكر عنه أن عمر بن الحمق سقاه لبناً ، فقال : « اللهم أمتعه بشبابه » (٨) .

فمرت عليه ثمانون سنة لم ير شعرة بيضاء .

وكان يدعو لمن يضيف المساكين ويثنى عليهم ، فقال مرة : « ألا رجل يضيف هذا

---

(١) البخارى (٥٤٦١) فى الأطعمة ، باب : الرجل يدعى إلى طعام فيقول : وهذا معى » .

(٢) سبق تخريجه ص ١٧٢ .

(٣) البخارى (٦٤٥٢) فى الرقاق ، باب : كيف كان عيش النبى ﷺ وأصحابه .

(٤) مسلم (٢٠٤٢ / ١٤٦) فى الأشربة ، باب : استحباب وضع النوى خارج التمر .

(٥) أبو داود (٣٨٥٤) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى الدعاء لرب الطعام إذا أكل عنده .

(٦) أبو داود (٣٨٥٢) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى الدعاء لرب الطعام إذا أكل عنده ، وضعفه الألبانى .

(٧) مسلم (٢٠٥٥ / ١٧٤) فى الأشربة ، باب : إكرام الضيف وفضل إيثاره .

(٨) ابن أبى شيبة فى مصنفه ١١ / ٤٩٤ (١١٨٠٨) فى الفضائل .

رحمه الله » (١) ، وقال للأنصارى وامرأته اللذين آثرا بقوتهما وقوت صبيانهما ضيفهما: «لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة » (٢).

وكان لا يأنف من مؤاكلة أحد ، صغيراً كان أو كبيراً ، حراً أو عبداً ، أعرابياً أو مهاجراً ، حتى لقد روى أصحاب السنن عنه أنه أخذ بيد مجذوم فوضعها معه فى القصعة فقال : « كل بسم الله ، ثقة بالله ، وتوكلاً عليه » (٣).

وكان يأمر بالأكل باليمين وينهى عن الأكل بالشمال ويقول : « إن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله » (٤) . ومقتضى هذا تحريم الأكل بها وهو الصحيح ؛ فإن الآكل بها إما شيطان وإما شبه به .

وصح عنه أنه قال لرجل أكل عنده فأكل بشماله : « كل بيمينك » فقال : لا أستطيع، فقال : « لا استطعت » فما رفع يده إلى فيه بعدها(٥) .فلو كان ذلك جائزاً لما دعا عليه بفعله ، وإن كان كبره حمله على ترك امتثال الأمر ، فذلك أبلغ فى العصيان واستحقاق الدعاء عليه .

وأمر من شكوا إليه أنهم لا يشبعون : أن يجتمعوا على طعامهم ولا يتفرقوا ، وأن يذكروا اسم الله عليه يبارك لهم فيه (٦) .

وصح عنه أنه قال : « إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكله يحمده عليها ، ويشرب الشربة يحمده عليها » (٧) (٨) .

---

(١) مسلم (٢٠٥٤ / ١٧٣ م ) فى الأشربة ، باب : إكرام الضيف وفضل إيثاره .

(٢) البخارى (٤٨٨٩) فى التفسير ، باب : ويؤثرون على أنفسهم » ، ومسلم (٢٠٥٤ / ١٧٢) فى الأشربة ، باب: إكرام الضيف وفضل إيثاره .

(٣) أبو داود (٣٩٢٥) فى الطب ، باب : فى الطيرة ، والترمذى (١٨١٧) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى الأكل مع المجذوم ، وقال : « غريب » ، وابن ماجه (٣٥٤٢) فى الطب ، باب : الجذام .

(٤) مسلم (٢٠٢٠ / ١٠٥) فى الأشربة ، باب : آداب الطعام والشراب وأحكامهما ، وأبو داود (٣٧٧٦) فى الأطعمة ، باب : الأكل باليمين ، والترمذى (١٧٩٩) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى النهى عن الأكل والشرب بالشمال ، وأحمد (٢ / ٨) .

(٥) مسلم (٢٠٢١ / ١٠٧) فى الأشربة ، باب : آداب الطعام والشراب وأحكامهما ، وأحمد (٤ / ٤٦) .

(٦) أبو داود (٣٧٦٤) فى الأطعمة ، باب :فى الاجتماع على الطعام ، وابن ماجه (٣٢٨٦) فى الأطعمة ، باب : الاجتماع على الطعام ، وأحمد (٣ / ٥٠١) .

(٧) مسلم (٢٧٣٤ / ٨٩) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب ، والترمذى (١٨١٦) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى الحمد على الطعام إذا فرغ منه .

(٨) زاد المعاد (٢ / ٤٠٢ ـ ٤٠٦) .

## فائدة

## فى الكلام على الطعام

قال إسحاق بن هانئ : تعشيت مرة أنا وأبو عبد الله وقرابة لنا ، فجعلنا نتكلم وهو يأكل ، وجعل يمسح عند كل لقمة يده بالمنديل ، وجعل يقول عند كل لقمة : الحمد لله وبسم الله . ثم قال لى : أكل وحمد ، خير من أكل وصمت [١] .

## فصل

## فى استماع المادحين

ومنها [٢]:

استماع النبى ﷺ مدح المادحين له ، وترك الإنكار عليهم ، ولا يصحُّ قياس غيره عليه فى هذا ؛ لما بين المادحين والممدوحين من الفروق ، وقد قال : « احثوا فى وجوه المداحين التراب » [٣] [٤] .

## فائدة

سأل تلميذ أستاذه أن يمدحه فى رقعة إلى رجل ويبالغ فى مدحه بما هو فوق رتبته ، فقال : لو فعلت ذلك لكنت عند المكتوب إليه إما مقصرا فى الفهم ، حيث أعطيتك فوق حقك . أو متهما فى الإخبار فأكون كذابا ، وكلا الأمرين يضرك لأنى شاهدك ، وإذا قدح فى الشاهد بطل حق المشهود له [٥] .

---

(١) بدائع الفوائد (٤ / ١١٩) .

(٢) أى : مما يستفاد من غزوة تبوك .

(٣) مسلم (٢٠٠٢ / ٦٨ ، ٦٩) فى الزهد والرقائق ، باب : النهى عن المدح إذا كان فيه إفراط ، وأبو داود (٤٨٠٤) فى الأدب ، باب : فى كراهية التمادح ، والترمذى ( ٢٣٩٣ ) فى الزهد ، باب ما جاء فى كراهية المدحة والمداحين ، وابن ماجه (٣٧٤٢) فى الأدب ، باب : المدح ، وأحمد (٦ / ٥) .

(٤) زاد المعاد (٣ / ٥٧٣) .

(٥) بدائع الفوائد (٣ / ١٧٨) .

## فصل
## فى تحيّل المظلوم على مسبَّة الناس لظالمه لردعه

لا بأس للمظلوم أن يتحيل على مسبَّة الناس لظالمه والدعاء عليه ، والأخذ من عرضه، وإن لم يفعل ذلك بنفسه ، إذ لعل ذلك يردعه ويمنعه من الإقامة على ظلمه ، وهذا كما لو أخذ ماله ، فلبس أرث الثياب بعد أحسنها ، وأظهر البكاء والنحيب والتأوه .

أو آذاه فى جواره ، فخرج من داره ، وطرح متاعه على الطريق .

أو أخذ دابته ، فطرح حمله على الطريق ، وجلس يبكى ، ونحو ذلك ، فكل هذا مما يدعو الناس إلى لعن الظالم له ، وسبه والدعاء عليه ، وقد أرشد النبى ﷺ المظلوم بأذى جاره له إلى نحو ذلك .

ففى السنن ، ومسند الإمام أحمد من حديث أبى هريرة : أن رجلا شكا إلى النبى ﷺ من جاره ، فقال : « اذهب فاصبر » ، فأتاه مرتين ، أو ثلاثًا ، فقال : « اذهب ، فاطرح متاعك فى الطريق » ، فطرح متاعه فى الطريق ، فجعل الناس يسألونه ، فيخبرهم خبره ، فجعل الناس يلعنونه : فعل الله به وفعل ، فجاء إليه جاره ، فقال له : « ارجع لا ترى منى شيئًا تكرهه » : هذا لفظ أبى داود (١) (٢) .

## فصل
## فى بر الوالدين

عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ، من أبَرُّ؟قال : « أُمَّك، ثم أُمَّك ، ثم أُمك ، ثم أباك ، ثم الأقرب فالأقرب » (٣) . وقال رسول ﷺ : لا يسألُ رجل مولاه من فضل هو عنده ، فيمنعه إيَّاه ، إلا دُعى له يوم القيامة فضلُه الذى منعه شُجَاعُ أقرع » . وأخرجه الترمذى ، وقال : حسن (٤) .

---

(١) أبو داود (٥٣ / ٥) فى الأدب ، باب : فى حق الجوار ، ولم يعزه صاحب التحفة إلا لأبى داود (١٠ / ٢٥١).

(٢) إعلام الموقعين (٤ / ٢١ ـ ٢٢) .

(٣) أبو داود (٥١٣٩) فى الأدب ، باب : فى بر الوالدين .

(٤) الترمذى (١٨٩٧) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى بر الوالدين .

قال الإمام أحمد : للأم ثلاثة أرباع البر ، وقال أيضًا : « الطاعة للأب ، والبر للأم»، واحتج بحديث ابن عمر : « أطع أباك » لما أمره عمر بن الخطاب ﷺ بطلاق زوجته (١).

وقد روى ابن ماجه فى سننه من حديث القاسم بن محمد عن أبى أمامة : أن رجلا قال يا رسول الله ، ماحق الوالدين على ولدهما ؟قال : « هما جنتك ونارك » (٢) .

وأخرج أيضا عن أبى الدرداء سمع النبى ﷺ يقول : « الوالد أوسط أبواب الجنة فأضعْ ذلك الباب ، أو احفظه » (٣) (٤) .

## وأيضًا

وسأله ﷺ رجل : من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : « أمك » ، قال ثم من ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « أمك » ، وقال : ثم من ؟ قال : « أبوك » . متفق عليه (٥) . زاد مسلم : « ثم أدناك فأدناك » .

قال الإمام أحمد : للأم ثلاثة أرباع البر ، وقال أيضا : الطاعة للأب ، وللأم ثلاثة أرباع البر ،وعند الإمام أحمد قال : « ثم الأقرب فالأقرب » (٦) . وعند أبى داود أن رجلا سأل النبى ﷺ : من أبرُّ ؟ قال : « أمك ، وأباك ، وأختك ، وأخاك ، ومولاك الذى يلى ذاك، حق واجب ورحم موصولة » (٧) (٨).

---

(١) أحمد (٢ / ٢٠) ، وصححه الشيخ شاكر (٤٧١١) .

(٢) ابن ماجه (٣٦٦٢) فى الأدب ، باب : بر الوالدين ، وفى الزوائد : « قال ابن معين : على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة ، هى ضعيفة كلها » .

(٣) ابن ماجه (٣٦٦٣) فى الأدب ، باب : بر الوالدين .

(٤) تهذيب السنن (٨ / ٣٦) .

(٥) البخارى (٥٩٧١) فى الأدب ، باب : من أحق الناس بحسن الصحبة ، ومسلم (٢٥٤٨ / ١ ، ٢) فى البر والصلة والآداب ، باب : بر الوالدين ، وأنهما أحق به .

(٦) أحمد (٥ / ٣) .

(٧) أبو داود (٥١٤٠) فى الأدب ، باب : فى بر الوالدين ، وضعفه الألبانى .

(٨) إعلام الموقعين (٤ / ٤٤٦) .

## وأيضا

سأله ﷺ رجل عن الهجرة والجهاد معه ، فقال : « ألك والدان ؟ » قال : نعم ، قال : « فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما » . ذكره مسلم (١).

وسأله ﷺ آخر عن ذلك ، فقال : « ويحك أحية أمك » ؟ قال : نعم ، قال : «ويحك ! إلزم رجلها فثم الجنة » . ذكره ابن ماجه (٢).

وسأله ﷺ رجل من الأنصار : هل بقى علـى من بر أبوى شىء بعد موتهما ؟ قال : « نعم ، خصال أربع ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا من قبلهما ، فهو الذى بقى عليك من برهما بعد موتهما » . ذكره أحمد (٣) .

وسئل ﷺ :ما حق الوالدين على الولد ؟ فقال : «هما جنتك ونارك ».ذكره ابن ماجة (٤) (٥) .

## فصل
## فى بيان كيف يلعن الرجل والديه

عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « من الكبائر شتم الرجل والديه » ، قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه ، فيسب أمه » متفق عليه (٦) .

ولفظ البخارى :« إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه »، قيل : يا رسول الله كيف يلعن الرجل والديه؟ قال:« يسب أبا الرجل،فيسب أباه،ويسب أمه،فيسب أمه » .

فجعل رسول الله ﷺ الرجل سابًا لاعنا لأبويه بتسببه إلى ذلك ، وتوسله إليه وإن لم يقصده (٧) .

(١) مسلم (٢٥٤٩ / ٦ م ) فى البر والصلة والآداب ، باب : بر الوالدين وأنهما أحق به .

(٢) ابن ماجه (٢٧٨١) فى الجهاد ، باب : الرجل يغزو وله أبوان .

(٣) أحمد (٣ / ٤٩٨) .

(٤) سبق تخريجه ص ١٧٩ .

(٥) إعلام الموقعين (٤ / ٥٠٩ ، ٥١٠) .

(٦) البخارى (٥٩٧٣) فى الأدب ، باب : لا يسب الرجل والديه ، ومسلم (٩٠ / ١٤٦) فى الإيمان ، باب : بيان الكبائر وأكبرها .

(٧) إعلام الموقعين (٣ / ١٧٩) .

# فصل
# فى حق الضيف

إن للضيف حقًا على من نزل به ، وهو ثلاث مراتب : حق واجب ، وتمام مستحب، وصدقة من الصدقات ، فالحق الواجب يوم وليلة ، وقد ذكر النبى ﷺ المراتب الثلاثة فى الحديث المتفق على صحته من حديث أبى شريح الخزاعى ، أن رسول الله ﷺ قال : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه جائزته » ، قالوا : وما جائزته يا رسول الله؟ قال : « يومه وليلته ، والضيافة ثلاثة أيام ، فما كان وراء ذلك ، فهو صدقة ، ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يحرجه » (١) (٢) .

## وأيضا

سأله ﷺ عقبة بن عامر فقال: إنك تبعثنا ، فننزل بقوم لا يقروننا ، فما ترى ؟ قال : « إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغى للضيف فاقبلوا ، فإن لم يفعلوا ، فخذوا منهم حق الضيف الذى ينبغى لهم » . ذكره البخارى (٣) .وعند الترمذى : إنا نمر بقوم فلا يضيفوننا، ولا يؤدون ما لنا عليهم من الحق ، ولا نحن نأخذ منهم ، فقال : « إن أبوا إلا أن تأخذوا قرى فخذوه » (٤) . وعند أبى داود : « ليلة الضيف حق على كل مسلم ، فإن أصبح بفنائه محرومًا كان دينًا عليه ،إن شاء اقتضاه ، وإن شاء تركه » (٥) . وعنده أيضًا : « من نزل بقوم فعليهم أن يقروه ، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه » (٦) .

وهو دليل على وجوب الضيافة ، وعلى أخذ الإنسان نظير حقه ممن هو عليه إذا أبى

---

(١) البخارى (٦١٣٥) فى الأدب ، باب : حق الضيف ، ومسلم (٤٨ / ١٤ ، ١٥) فى اللقطة ، باب : الضيافة ونحوها .

(٢) زاد المعاد (٣ / ٦٥٨) .

(٣) البخارى (٦١٣٧) فى الأدب ، باب : حق الضيف .

(٤) الترمذى (١٥٨٩) فى السير ، باب : ما يحل من أموال أهل الذمة ، وقال « حسن » .

(٥) أبو داود (٣٧٥٠) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى الضيافة .

(٦) أبو داود (٣٨٠٤) فى الأطعمة باب : النهى عن أكل السباع .

دفعه ، وقد استدل به فى مسألة الظفر ، ولا دليل فيه ؛ لظهور سبب الحق ههنا ، فلا يتهم الآخذ .

وسأله ﷺ عوف بن مالك فقال : الرجل أمر به فلا يقرينى ولا يضيفنى ، ثم يمر بى أفأجزيه ؟ قال : « لا ، بل اقره » ، قال : ورآنى - يعنى النبى ﷺ - رث الثياب ، فقال : « هل لك من مال ؟ » قال : قلت : من كل المال قد أعطانى الله ، من الإبل والغنم ، قال : « فلير عليك » ذكره الترمذى (١).

وسئل ﷺ عن جائزة الضيف ، فقال : « يومه وليلته ، والضيافة ثلاثة أيام ، فما كان وراء ذلك فهو صدقة ، ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يحرجه . متفق عليه(٢) .

## فصل
## فى خطورة المسألة

وسمعته (٣) يقول : السؤال : هو ظلم فى حق الربوبية ، وظلم فى حق الخلق ، وظلم فى حق النفس .

أما فى حق الربوبية : فلما فيه من الذل لغير الله ، وإراقة ماء الوجه لغير خالقه ، والتعوض عن سؤاله بسؤال المخلوقين ، والتعرض لمقته إذا سأل وعنده ما يكفيه يومه .

وأما فى حق الناس : فبمنازعتهم ما فى أيديهم بالسؤال ، واستخراجه منهم ، وأبغض ما إليهم : من يسألهم ما فى أيديهم ، وأحب ما إليهم : من لا يسألهم ، فإن أموالهم محبوباتهم ، ومن سألك محبوبك فقد تعرض لمقتك وبغضك .

وأما ظلمه السائل نفسه : فحيث امتهنها وأقامها فى مقام ذل السؤال ، ورضى لها بذل الطلب ممن هو مثله ، أو لعل السائل خير منه وأعلى قدرًا ، وترك سؤال من ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، فقد أقام السائل نفسه مقام الذل وأهانها بذلك ، ورضى أن يكون شحاذاً من شحاذ مثله ، فإن من تشحذه فهو أيضًا شحاذ مثلك ، والله وحده هو الغنى الحميد .

فسؤال المخلوق للمخلوق سؤال الفقير للفقير، والرب تعالى كلما سألته كرمت عليه

(١) الترمذى (٢٠٠٦) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى الإحسان والعفو ، وقال : « حسن صحيح » .
(٢) إعلام الموقعين (٤ / ٤٧٥ ، ٤٧٦) .
(٣) أى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

ورضى عنك وأحبك. والمخلوق كلما سألته هنت عليه وأبغضك ومقتك وقلاك، كما قيل :

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبنى آدم حين يسأل يغضب

وقبيح بالعبد المريد : أن يتعرض لسؤال العبيد ، وهو يجد عند مولاه كل ما يريد . وفى صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعى رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ تسعة ـ أو ثمانية أو سبعة ـ فقال : « ألا تبايعون رسول الله ؟ » وكنا حديثى عهد ببيعة . فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله . ثم قال : « ألا تبايعون رسول الله ؟ » فبسطنا أيدينا وقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، فعلام نبايعك ؟ فقال : « أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، والصلوات الخمس ـ وأسر كلمة خفية ـ ولا تسألوا الناس شيئًا » (١) . قال : ولقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله إياه . وفى الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم » (٢) .

وفيهما أيضًا عنه : أن رسول الله ﷺ قال ـ وهو على المنبر ـ وذكر الصدقة والتعفف عن المسألة : « واليد العليا خير من اليد السفلى »(٣) واليد العليا : هى المنفقة ، والسفلى: هى السائلة .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من سأل الناس تكثراً فإنما يسأل جمراً ، فليستقل أو ليستكثر » (٤) .

وفى الترمذى عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المسألة كَدٌّ يكدُّ بِها الرجل وجهه ، إلا أن يسأل الرجل سلطانا ، أو فى الأمر الذى لابد منه » . قال الترمذى : حديث صحيح (٥) .

وفيه عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا : « من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن أنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل » (٦) .

---

(١) مسلم (١٠٤٣ / ١٠٨) فى الزكاة ، باب : كراهة المسألة للناس .

(٢) البخارى (١٤٧٤) فى الزكاة ، باب : من سأل الناس تكثرا ، ومسلم (١٠٤٠ / ٣) فى الزكاة ، باب : كراهة المسألة للناس .

(٣) البخارى (١٤٢٩) فى الزكاة ، باب : لا صدقة إلا عن ظهر غنى ، ولم يعزه صاحب التحفة (٦ / ٧٦) إلا للبخارى .

(٤) مسلم (١٠٤١ / ١٠٥) فى الزكاة ، باب : كراهة المسألة للناس .

(٥) الترمذى (٦٨١) فى الزكاة ، باب : فى النهى عن المسألة .

(٦) الترمذى (٢٣٢٦) فى الزهد ، باب : ما جاء فى الهم فى الدنيا وحبها ، وقال : « حسن صحيح غريب » .

وفى السنن والمسند عن ثوبان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من تكفل لى ألا يسأل الناس شيئًا أتكفل له بالجنة ؟ » فقلت : أنا ، فكان لا يسأل أحدًا شيئًا (١) .

وفى صحيح مسلم عن قبيصة ﷺ عن النبى ﷺ : « إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة ، فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك . ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله ، فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش أو قال : سداداً من عيش ـ ورجل أصابته فاقة ، حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجى من قومه : لقد أصابت فلانًا فاقة ، فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش ـ أو قال سداداً من عيش ـ فما سواهن من المسألة يا قبيصة فسحت ، يأكلها صاحبها سحتًا » (٢) (٣).

# فصل

## فيما جاء فى المزاح

عن أنس بن مالك ﷺ : أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، احملنى ، قال النبى ﷺ:« إنا حاملُوك على ولد ناقة » . قال ما أصنعُ بولد الناقة ؟ فقال النبى ﷺ : «وهل تلدُ الإبل إلا النوُّقُ ؟ » .وأخرجه الترمذى وقال : صحيح غريب (٤) .

وفى الصحيحين عن أنس : كان رسول الله ﷺ يخالطنا حتى يقول لأخ لى صغير : «يا أبا عمير ما فعل النغير » (٥) .

وقد أخرج الترمذى من حديث أسامة بن زيد عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال : قالوا : يا رسول الله : إنك تداعبنا ، قال : « إنى لا أقول إلا حقًا » . قال الترمذى : حديث حسن (٦) (٧) .

---

(١) أبو داود (١٦٤٣) فى الزكاة ، باب : كراهية المسأله ، ولم يعزه صاحب التحفة (٢ / ١٣٠) إلا لأبى داود ، وأحمد (٥ / ٢٧٦) .

(٢) مسلم (١٠٤٤ / ١٠٩) فى الزكاة ، باب : من تحل له المسألة .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ١٣١) .

(٤) أبو داود (٤٩٩٨) فى الأدب ، باب : ما جاء فى المزاح ، والترمذى (١٩٩١) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى المزاح .

(٥) البخارى (٦١٢٩) فى الآداب ، باب : الانبساط إلى الناس ،، ومسلم ( ٢١٥٠ / ٣ ) فى الآداب : استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه .

(٦) الترمذى (١٩٩٠) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى المزاح ، وقال : « حسن صحيح » .

(٧) تهذيب السنن (٧ / ٢٨٥) .

## فصل
## فى الرجل يقول : جعلنى الله فداك

عن أبى ذر رضي الله عنه ، قال : قال النبى ﷺ « أبا ذرٍ » ، فقلت : لبَّيك وسعديك يا رسول الله وأنا فداؤك (١) .

وقد أخرجا فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر ، فقال : « إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ، وبين ما عنده ، فاختار ما عنده » فبكى أبو بكر ، وقال : فديناك بآبائنا وأمهاتنا . الحديث (٢) .

وهذا كان بعد إسلام أبى قحافة ، فإنه خطب بهذه الخطبة قبيل وفاته ﷺ بقليل . وهذا أصح من حديث الزبير وأولى أن يؤخذ به منه ، والله أعلم(٣) .

## فصل
## فى قتل الأوزاغ

عن عامر بن سعد ـ وهو ابن أبى وقاص ـ عن أبيه رضي الله عنه ، قال : أمر رسول الله ﷺ بقتل الوزغ ـ وسماه فُوَيسقا . وأخرجه مسلم (٤) .

وفى صحيح البخارى عن أم شريك رضي الله عنها : أن النبى ﷺ أمر بقتل الوزغ ، وقال : «كان ينفخ على إبراهيم » (٥) .

وفى الصحيحين رضي الله عنها : استأمرت النبى ﷺ فى قتل الأوزاغ فأمر بقتلها (٦) (٧) .

---

(١) أبو داود (٥٢٢٦) فى الأدب ، باب : فى الرجل يقول : جعلنى الله فداك .

(٢) البخارى (٣٩٠٤) فى مناقب الأنصار ، باب : هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، ومسلم (٢٣٨٢ / ٢) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل أبى بكر الصديق رضي الله عنه .

(٣) تهذيب السنن (٨ / ٩١) .

(٤) ومسلم (٢٢٣٨ / ١٤٤) فى السلام ، باب : استحباب قتل الوزغ ورواه أبو داود (٥٢٦٢) فى الأدب ، باب : فى قتل الأوزاغ .

(٥) البخارى (٣٣٥٩) فى الأنبياء ، باب : قول الله تعالى : « واتخذ الله إبراهيم خليلا » .

(٦) البخارى (٣٣٠٧) فى بدء الخلق ، باب : خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال (بمعناه ) ، ومسلم (٢٢٣٧/ ١٤٣) فى السلام ، باب : استحباب قتل الوزغ .

(٧) تهذيب السنن (٨ / ١١٠) .

## فصل
## فى رد الوسوسة

عن أبى زُميل ،قال : سألت ابن عباس ، فقلت : ما شىءُ أُجدُه فى صدرى ؟ قال : ما هو ؟ قلت : والله لا أتكلَّم به ، قال : فقل لى : أشىء من شكٍّ ؟ قال ـ وضحك : قلت : ما نجا من ذلك أحد ، قال :حتى أنزل الله عز وجل ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ﴾ الآية [ يونس : ٩٤ ] قال : فإذا وجدت فى نفسك شيئًا فقل: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) ﴾ [ الحديد : ٣].

أبو زُميل : هو سماك بن الوليد الحنفى . وقد احتج به مسلم .

فى الصحيحين « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ، ما لم يتكلموا ، أو يعملوا به » (١) (٢) .

## فصل
## فى حكمه ﷺ فيما كان يهدى إليه

كان أصحابه ﷺ يهدون إليه الطعام وغيره مقبل منهم ، ويكافئهم أضعافها . وكانت الملوك تهدى إليه فيقبل هداياهم ، ويقسمها بين أصحابه ، ويأخذ منها لنفسه ما يختاره فيكون كالصفى الذى له من الغنم ، وفى « صحيح البخارى » : أن النبى ﷺ أهديت إليه أقبية ديباج مزررة بالذهب ، فقسمها فى ناس من أصحابه وعزل منها واحداً لمخرمة بن نوفل ، فجاء ومعه المسور ابنه فقام على الباب ، فقال : ادعه لى ، فسمع النبى ﷺ صوته فتلقاه به ، فاستقبله وقال : « : « يا أبا المسور ، خبأت هذا لك » (٣) .

وأهدى له المقوقس مارية أم ولده ، وسيرين التى وهبها لحسان ، وبغلة شهباء وحماراً.

وأهدى له النجاشى هدية فقبلها منه ، وبعث إليه هدية عوضها ،وأخبر أنه مات قبل

(١) البخارى (٦٦٦٤) فى الأيمان والنذور ، باب : إذا حدثت ناسيا فى الأيمان ، ومسلم (١٢٧ / ٢٠١) فى الإيمان ، باب : تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ، واللفظ لمسلم .
(٢) تهذيب السنن (٨ / ١١) .
(٣) البخارى (٣١٢٧) فى فرض الخمس ، باب : قسمة الإمام ما يقدم عليه .

أن تصل إليه وأنها ترجع ، فكان الأمر كما قال .

وأهدى له فروة بن نفاثة الجذامة بغلة بيضاء ركبها يوم حنين . ذكره مسلم (١) .

وذكر البخارى : أن ملك أيلة أهدى له بغلة بيضاء ، فكساه رسول ﷺ بردة وكتب لهم ببحرهم (٢) . وأهدى له أبو سفيان هدية فقبلها (٣) . وذكر أبو عبيد : أن عامر بن مالك ـ ملاعب الأسنة ـ أهدى للنبى ﷺ فرسًا فرده وقال : « إنا لا نقبل هدية مشرك » (٤) وكذلك قال لعياض المجاشعى : « إنا لا نقبل زبد المشركين »(٥) يعنى : رفدهم .

قال أبو عبيد: وإنما قبل هدية أبى سفيان لأنها كانت فى مدة الهدنة بينه وبين أهل مكة ، وكذلك المقوقس صاحب الإسكندرية إنما قبل هديته لأنه أكرم حاطب بن أبى بلتعة رسوله إليه ، وأقرَّ بنبوته ، ولم يؤيسه من إسلامه ، ولم يقبل ﷺ هدية مشرك محارب له قط .

## فصل

وأما حكم هدايا الأئمة بعده ، فقال سحنون من أصحاب مالك : إذا أهدى أمير الروم هدية إلى الإمام فلا بأس بقبولها ، وتكون له خاصة ، وقال الأوزاعى : تكون للمسلمين ويكافئه عليها من بيت المال . وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ وأصحابه : ما أهداه الكفار للإمام أو لأمير الجيش أو قواده فهو غنيمة ، حكمها حكم الغنائم (٦) .

## فصل
## فى إعطاء المبشرين

وفى نزع كعب ثوبيه وإعطائهما للبشير دليل على أن إعطاء المبشرين من مكارم الأخلاق والشيم ، وعادة الأشراف ، وقد أعتق العباس غلامه لما بشره أن عند الحجاج بن

(١) مسلم (١٧٧٥ / ٧٦) فى الجهاد والسير ، باب : فى غزوة حنين .
(٢) البخارى (٣١٦١) فى الجزية والموادعة ، باب : إذا وادع الإمام ملك القرية هل يكون ذلك لبقيتهم .
(٣) انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة (٢ / ١٧٩) .
(٤) فتح البارى (٥ / ٢٣٠) ، والطبرانى فى الكبير ١٩ / ٧٠ (١٣٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٦ / ١٢٩ ، ١٣٠ : « ورجاله رجال الصحيح » .
(٥) أبو داود (٣٠٥٧) فى الخراج والإمارة والفيء ، باب : فى الإمام يقبل هدايا المشركين ، والترمذى (١٥٧٧) فى السير ، باب : فى كراهية هدايا المشركين ، وقال : « حسن صحيح » ، وأحمد (٤ / ١٦٢) .
(٦) زاد المعاد (٥ / ٧٧ ـ ٧٩) .

علاط من الخبر عن رسول الله ﷺ ما يسره .

وفيه دليل على جواز إعطاء البشير جميع ثيابه .

وفيه دليل على استحباب تهنئة من تجددت له نعمة دينية ، والقيام إليه إذا أقبل ، ومصافحته ، فهذه سنة مستحبة ، وهو جائز لمن تجددت له نعمة دنيوية ، وأن الأولى أن يقال له : ليهنك ما أعطاك الله ، وما منَّ الله به عليك ، ونحو هذا الكلام ، فإن فيه تولية النعمة ربَّها والدعاء لمن نالها بالتهنى بها (١) .

## فصل
## فى العزل

جلس إلى عمر على والزبير وسعد رضي الله عنهم فى نفر من أصحاب رسول الله ﷺ وتذاكروا العزل ، فقالوا : لا بأس به ، فقال رجل : إنهم يزعمون أنها الموؤودة الصغرى ، فقال على رضي الله عنه : لا تكون موؤودة حتى تمر عليها التارات السبع : حتى تكون من سلالة من طين ، ثم تكون نطفة ، ثم تكون علقة ، ثم تكون مضغة ، ثم تكون عظامًا ، ثم تكون لحمًا ، ثم تكون خلقًا آخر . فقام عمر رضي الله عنه :صدقت أطال الله بقاءك . ولهذا احتج من احتج على جواز الدعاء للرجل بطول البقاء (٢) .

## فصل
## فى تَبَسُّم الغضبان والمسرور

التبسم قد يكون عن الغضب ، كما يكون عن التعجب والسرور فإن كلاً منهما يُوجب انبساط دم القلب وثورانه ، ولهذا تظهر حمرةُ الوجه لسرعة ثوران الدم فيه فينشأ عن ذلك السرور ، والغضب تعجُّب ضحك وتبسم ، فلايغتر المغتر بضحك القادر عليه فى وجهه ، ولا سيما عند المعتبة كما قيل :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تَظُنَّنَّ أن الليث مبتسم (٣)

(١) زاد المعاد (٣ / ٥٨٥) .
(٢) زاد المعاد (٥ / ١٤٥ ، ١٤٦) .
(٣) زاد المعاد (٣ / ٥٧٥ ، ٥٧٦) .

## فصل
## فى إنشاد الشعر للقادم

جواز إنشاد الشعر للقادم فرحًا وسروراً به ما لم يكن معه محرم من لهو ،كمزمار ، وشبابة وعود ، ولم يكن غناءً يتضمن رقْية الفواحش وما حرَّم الله ، فهذا لا يُحرمة أحد(١) .

## فصل
## فى آداب المرور على ديار المعذبين

إن من مرَّ بديار المغضوب عليهم والمعذبين لم ينبغ له أن يدخلها ولا يُقيم بها ، بل يسرع السير ،ويتقنع بثوبه حتى يجاوزها ، ولا يدخل عليهم إلا باكيًا معتبراً .

ومن هذا إسراعُ النبى ﷺ السير فى وادى مُحَسّر بين منى وعرفة فإنه المكان الذى أهلك الله فيه الفيل وأصحابه (٢) .

## فصل
## فى رد الكلام الباطل ولو كان لغير مُكلَّف

ومنها (٣) : ردُّ الكلام الباطل ولو نسب إلى غير مُكَلَّف ، فإنهم لما قالوا : خلأت القصواءُ ، يعنى حرنت وألَحّت فلم تسر والخلاء فى الإبل بكسر الخاء والمدّ ، نظير الحران فى الخيل ، فلما نسبوا إلى الناقة ما ليس من خُلُقها وطبعها ردَّهُ عليهم ، وقال : « ما خلأت وما ذاك لها بخلق » (٤) ثم أخبر ﷺ عن سبب بروكها وأن الذى حبس الفيل عن مكة حبسها للحكمة العظيمة التى ظهرت بسبب حبسها وما جرى بعده (٥) .

---

(١) زاد المعاد (٣ / ٥٧٢ ، ٥٧٣) .
(٢) زاد المعاد (٣ / ٥٦٠) .
(٣) أى من الفوائد فى قصة الحديبية .
(٤) البخارى (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) فى الشروط ، باب : الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، وكتابة الشروط.
(٥) زاد المعاد (٣ / ٣٠٢) .

## فصل
## فى أسباب الشكر

إنه ـ سبحانه ـ اقتضت حكمته وحمده أن فاوت بين عباده أعظم تفاوت وأبينه ؛ ليشكره منهم من ظهرت عليه نعمته وفضله ، ويعرف أنه قد حبى بالأنعام ، وخص دون غيره بالإكرام ، ولو تساووا جميعهم فى النعمة والعافية لم يعرف صاحب النعمة قدرها ولم يبذل شكرها ؛ إذ لا يرى أحداً إلا فى مثل حاله .

ومن أقوى أسباب الشكر وأعظمها استخراجًا له من العبد أن يرى غيره فى ضد حاله الذى هو عليها من الكمال والفلاح ، وفى الأثر المشهور : إن الله سبحانه لما رأى آدم ذريته وتفاوت مراتبهم قال : يا رب ، هلا سويت بين عبادك . قال : إنى أحب أن أشكر. فاقتضت محبته ـ سبحانه ـ لأن يشكر خلق الأسباب التى يكون شكر الشاكرين عندها أعظم وأكمل ، وهذا هو عين الحكمة الصادرة عن صفة الحمد (١) .

## فصل
## فى أداء الأمانة

قد روى أبو داود فى سننه من حديث يوسف بن ماهك قال : كنت أكتب لفلان نفقة أيتام كان وليهم ، فغالطوه بألف درهم ، فأداها إليهم ، فأدركت له من أموالهم مثلها ، فقلت: اقبض الألف الذى ذهبوا به منك ، قال : لا . حدثنى أبى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « أد الأمانة إلى مَنْ ائتمنك ، ولا تخن من خانك » (٢) .

وهذا ، وإن كان فى حكم المنقطع ، فإن له شاهداً من وجه آخر ، وهو حديث طلق ابن غنام : أخبرنا شريك وقيس عن أبى حصين عن أبى صالح عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك » (٣) . وقيس هو ابن الربيع ،وشريك ثقة ، وقد قوى حديثه بمتابعة قيس له ، وإن كان فيه ضعف .

---

(١) مفتاح دار السعادة (١ / ٦) .

(٢) أبو داود (٣٥٣٤) فى البيوع ، باب : فى الرجل يأخذ حقه من تحت يده .

(٣) أبو داود (٣٥٣٥) فى البيوع : باب : فى الرجل يأخذ حقه من تحت يده .

وله شاهد آخر من حديث أيوب بن سويد عن ابن شوذب ، عن أبى التياح ، عن أنس ﷺ عن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم نحوه ، وأيوب بن سويد ـ وإن كان فيه ضعف ـ فحديثه يصلح للاستشهاد به .

وله شاهد آخر ، وإن كان فيه ضعف ؛ فهو يقوى بانضمام هذه الأحاديث إليه . رواه يحيى بن أيوب عن إسحاق بن أسيد ، عن أبى حفص الدمشقى ، عن مكحول : أن رجلا قال لأبى أمامة الباهلى : الرجل استودعه الوديعة ، أو يكون لى عليه دين ، فيجحدنى ، ثم يستودعنى أو يكون له عندى الشىء ، أفأجحده ؟ فقال : لا ، سمعت رسول صلى الله تعالى وآله وسلم يقول : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك » (١) .

وله شاهد آخر مرسل . قال يحيى بن أيوب : عن ابن جريج عن الحسن ، عن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك»(٢) .

## فصل
## فى التفريق بين الأولاد فى المضاجع

إنه ﷺ أمر أن يفرق بين الأولاد فى المضاجع (٣) ، وألا يترك الذكر ينام مع الأنثى فى فراش واحد ؛ لأن ذلك قد يكون ذريعة إلى نسج الشيطان بينهما المواصلة المحرمة بواسطة اتحاد الفراش ، ولاسيما مع الطول ، والرجل قد يعبث فى نومه بالمرأة فى نومها إلى جانبه وهو لا يشعر ، وهذا أيضًا من ألطف سد الذرائع (٤) .

## فصل
## فى أن ترتب أحكام الدنيا والآخرة على ما كسبه القلب وعقد عليه

سأله صلى الله عليه وآله وسلم الحجاج بن علاط ، فقال : إن لى بمكة مالا ، وإن لى بها أهلا ، وإنى أريد أن آتيهم ، فأنا فى حل إن أنا نلت منك ، أو قلت شيئًا ؟ فأذن له

(١) البيهقى فى الكبرى (١٠ / ٢٧١) فى الدعوى والبينات ، باب : أخذ الرجل حقه ممن يمنعه إياه ، بنحوه .
(٢) إغاثة اللهفان (٢ / ٧٧ ، ٧٨) .
(٣) أبو داود (٤٩٥) فى الصلاة ، باب : متى يؤمر الغلام بالصلاة .
(٤) إعلام الموقعين (٣ / ١٩٤) .

رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء ، ذكره أحمد (١) .

وفيه دليل على أن الكلام إذا لم يرد به قائله معناه ، إما لعدم قصده له ، أو لعدم علمه به ، أو أنه أراد به غير معناه لم يلزمه ما لم يرده بكلامه ، وهذا هو دين الله الذى أرسل له رسوله ؛ ولهذا لم يلزم المكره على التكلم بالكفر الكفر ، ولم يلزم زائل العقل بجنون أو نوم أو سكر ما تكلم به ، ولم يلزم الحجاج بن علاط حكم ما تكلم به ؛ لأنه أراد به غير معناه ، ولم يعقد قلبه عليه ، وقد قال تعالى : ﴿ **لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ** ﴾ [ المائدة : ٨٩ ] ، وفى الآية الأخرى : ﴿ **وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُم** ﴾ [ البقرة : ٢٢٥ ] ، فالأحكام فى الدنيا والآخرة مرتبة على ما كسبه القلب ، وعقد عليه ، وأراده من معنى كلامه (٢) .

# فصل
## فيما جاء فى القيام

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه : أن أهل قريظة لما نزلوا على حكم سعد ، أرسل إليه النبى ﷺ ، فجاء على حمار أقمر ، فقال النبى ﷺ : « قوموا إلى سيدكم - أو إلى خيركم» فجاء حتى قعد إلى رسول الله ﷺ (٣) .

وأخرج الترمذى عن عائشة رضي الله عنها قالت : قدم زيد بن حارثة المدينة ، ورسول الله ﷺ فى بيتى ، فأتاه ، فقرع الباب ، فقام إليه النبى ﷺ يجر ثوبه ، فاعتنقه وقبله . وقال: حديث حسن (٤) .

وأخرج أيضًا بإسناد على شرط مسلم عن أنس قال : لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ، لما يعلمون من كراهيته لذلك . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه (٥).

وأخرج أيضًا من حديث سفيان - وهو الثورى - عن حبيب بن الشهيد عن أبى مجلز قال : خرج معاوية ، فقام عبد الله بن الزبير وابن صفوان حين رأوه ،فقال : اجلسا ،

---

(١) أحمد (٣ / ١٣٨ ، ١٣٩) .
(٢) إعلام الموقعين (٤ / ٤٠٣) .
(٣) أبو داود (٥٢١٥) فى الأدب ، باب : ما جاء فى القيام .
(٤) الترمذى (٢٧٣٢) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى المعانقة والقبلة وقال : « حسن غريب » .
(٥) الترمذى (٢٧٥٤) فى الأدب ، باب : ما جاء فى كراهية قيام الرجل للرجل .

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سره أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار» قال : هذا حديث حسن (١).

حدثنا هناد حدثنا أبو أسامة عن حبيب بن الشهيد عن أبى مجلز عن معاوية عن النبى ﷺ مثله (٢) .

وهذا الإسناد على شرط الصحيح ، قال : وفى الباب عن أبى أمامة .

وفيه رد على من زعم أن معناه : أن يقوم الرجل للرجل فى حضرته وهو قاعد ؛ فإن معاوية روى الخبر لما قاما له حين خرج .

وأما الأحاديث المتقدمة : فالقيام فيها عارض للقادم ، مع أنه قيام إلى الرجل للقائه ، لا قيامًا له ، وهو وجه حديث فاطمة .

فالمذموم : القيام للرجل ، وأما القيام إليه للتلقى إذا قدم : فلا بأس به ، وبهذا تجتمع الأحاديث . والله أعلم (٣).

## وأيضا

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ما رأيت أحداً كان أشبه سمتا وهديا ودلا - وقال الحسن : وهو الحلوانى - حديثًا وكلامًا ، ولم يذكر الحسن السمت والهدى والدل - برسول الله ﷺ فاطمة رضي الله عنها : كانت إذا دخلت عليه قام إليها ، فأخذ بيدها ، وقبلها وأجلسها فى مجلسه ، وكانت إذا دخل عليها قامت إليه وأخذت بيده ، وقبلته وأجلسته فى مجلسها . وأخرجه الترمذى والنسائى . وقال الترمذى : حسن غريب من هذا الوجه (٤).

وحكى عن شعبة قال : سألت عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة فقال : يعرف وينكر هذا آخر كلامه .

وهذا الحديث يرويه شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن صفون بن عسال . وفى نفس الحديث ، ما يدل على أنه منكر جداً ، فإن فيه : أنهم سألوه عن تسع

---

(١) الترمذى (٢٧٥٥) فى الأدب ، باب : ما جاء فى كراهية قيام الرجل للرجل .

(٢) الترمذى تحت رقم (٢٧٥٥) فى الأدب ، باب : ما جاء فى كراهية قيام الرجل للرجل .

(٣) تهذيب السنن (٨ / ٨٢ - ٨٤) .

(٤) أبو داود (٥٢١٧) فى الأدب ، باب : ما جاء فى القيام ، والترمذى (٣٨٧٢) فى المناقب ، باب : فضل فاطمة بنت محمد ﷺ ،والنسائى فى الكبرى (٨٣٦٩) ، فى المناقب ، باب:مناقب فاطمة بنت محمد ﷺ ( رضي الله عنها ) .

آيات بينات ؟ فقال لهم : « لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » إلى آخره [١] . والآيات التسع التى أرسل لها موسى إلى فرعون : إنما كانت آيات نبوته ، ومعجزات صدقه ، كالعصا ، واليد ، وباقى الآيات .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) ﴾ [ الإسراء ] .

فهده آيات النبوة قبل نزول آيات الحكم والشرع ، وهذا بين بحمد الله تعالى [٢] .

## فصل

## الرجل يقوم للرجل عن مجلسه

عن أبى الخصيب عن ابن عمر ﷺ قال : جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقام له رجلٌ عن مجلسه فذهب ليجلس فيه ، فنهاه رسول الله ﷺ [٣] .

وقال أبو داود : أبو الخصيب : زياد بن عبد الرحمن . هذا آخر كلامه . وهو بفتح الخاء المعجمة وكسر الصاد المهملة وسكون الياء آخر الحروف وبعدها باء بواحدة .

وقد أخرج الترمذى من حديث حماد بن زيد عن أيوب عن نافع عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : لا يقم أحدكم أخاه من مجلسه ثم يجلس فيه قال : وكان الرجل يقوم لابن عمر فما يجلس ، قال : هذا حديث حسن صحيح [٤] .

وحديث ابن عمر هذا فى الصحيحين ولفظه : نهى رسول الله ﷺ أن يقام الرجل من مجلسه ، ويجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا [٥] .

وفى صحيح مسلم عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يقم أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالفه إلى مقعده ، ولكن ليقل : افسحوا » [٦] [٧] .

---

(١) الترمذى (٢٧٣٣) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى قبلة اليد والرجل ، وقال : « حسن صحيح » .

(٢) تهذيب السنن (٨ / ٨٤ ـ ٨٦) .

(٣) أبو داود (٤٨٢٨) فى الأدب ، باب : فى الرجل يقوم للرجل من مجلسه .

(٤) الترمذى (٢٧٤٩ ، ٢٧٥٠) فى الأدب ، باب : كراهية أن يقام الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه .

(٥) البخارى (٦٢٧٠) فى الاستئذان ، باب: ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا ﴾ الآية،ومسلم (٢١٧٧ / ٢٧) فى السلام ،باب:تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذى سبق إليه .

(٦) مسلم (٢١٧٨ / ٣٠) فى السلام ، باب : تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذى سبق إليه .

(٧) تهذيب السنن (٧ / ١٨٤) .

## وأيضا

عن أبى مجلز قال : خرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر ، فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير ، فقال معاوية لابن عامر : اجلس ، فإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من أحبَّ أن يتمثَّل له الرِّجالُ قيامًا فليتبوأ مقعده من النار » . وأخرجه الترمذى . وقال : حسن (١) . هذا آخر كلامه .

وقد أخرج مسلم فى صحيحه من حديث أبى الزبير عن جابر: أنهم لما صلوا خلفه ﷺ. قال : فلما سلم قال : « إن كدتم آنفا أن تفعلوا فعل فارس والروم » الحديث (٢) .

وحمل أحاديث النهى عن القيام على مثل هذه الصورة ممتنع ، فإن سياقها يدل على خلافه ، وأنه ﷺ كان ينهى عن القيام له إذا خرج عليهم ، ولأن العرب لم يكونوا يعرفون هذا ، وإنما هو من فعل فارس والروم ، ولأن هذا لا يقال له : قيام للرجل إنما هو قيام عليه . ففرق بين القيام للشخص المنهى عنه ، والقيام عليه المشبه لفعل فارس والروم ، والقيام إليه عند قدومه الذى هو سنة العرب ، وأحاديث الجواز تدل عليه فقط (٣) .

## فصل
## فى النهى عن التكنية بأبى القاسم

قال أحمد فى رواية حنبل : لا يكنى ولده بأبى القاسم ؛ لأنه يروى عن النبى ﷺ أنه نهى عنه . وقال فى رواية على بن سعيد ـ وقد سأله عن الحديث : « تسموا باسمى ، ولا تكنوا بكنيتى » (٤) هو أن يجمع بين اسمه وكنيته أو يفرد أحدهما ، فقال آخر : الحديث : « تسموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى » ، وهذا موافق لرواية حنبل (٥) .

---

(١) أبو داود (٥٢٢٩) فى الأدب ، باب : فى قيام الرجل للرجل ، والترمذى (٢٧٥٥) فى الأدب ، باب : ما جاء فى كراهية قيام الرجل للرجل .

(٢) مسلم (٤١٣ ، ٨٤) فى الصلاة ، باب : ائتمام المأموم بالإمام .

(٣) تهذيب السنن (٨ / ٩٢ ، ٩٣) .

(٤) تقدم تخريجه ص ١٦٠ .

(٥) بدائع الفوائد (٤ / ٧٩) .

## فصل
## فى النهى عن حبس الطير

وسئل (١) عن حبس الطير لطيب نغمتها ، فقال : سفه وبطر ، يكفينا أن نقدم على ذبحها للأكل فحسب ، لأن الهواتف من الحمام ربما هتفت نياحة على الطيران وذكر أفراخها، أفيحسن بعاقل أن يعذب حيا ليترنم فيلتذ بنياحته ، وقد منع من هذا بعض أصحابنا وسموه سفها (٢) .

## فصل
## فى النهى عن اللعب بالنردشير

قول النبى ﷺ : « من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده فى لحم خنزير ودمه » (٣) ، سر هذا التشبيه ـ والله أعلم ـ أن اللاعب بها لما كان مقصوده بلعبه أكل المال بالباطل الذى هو حرام كحرمة لحم الخزير ،وتوصل إليه بالقمار ،وظن أن يفيده حل المال ، كان كالمتوصل إلى أكل لحم الخزير بذكاته . والنبى ﷺ شبه اللاعب بها بغامس فى لحم خنزير ودمه إذ هو مقدمة الأكل كما أن اللعب بها مقدمة آكل المال ؛فإن أكل بها المال كان كآكل لحم الخنزير ، والتشبه إنما وقع فى مقدمة هذا بمقدمة هذا ،والله أعلم (٤).

## فصل
## فى أكل الكراث والبصل والثوم

وسئل (٥) عن أكل الكراث والبصل فى السفر ، قال : إن كان من علة فأرجو ، وإن كان من غير ذلك فلا يأكل ، وأما الكراث فليس له كبير شىء ، وهو أهون من البصل . قيل له : فالثوم ؟ قال : إنما جاءت الكراهية فى الثوم والبصل ، فلا تأكل (٦) .

(١) أى ابن عقيل ـ شيخ الحنابلة .
(٢) بدائع الفوائد (٣ / ١٣٦) .
(٣) أبو داود (٤٩٣٩) فى الأدب ، باب : فى النهى عن اللعب بالنرد .
(٤) بدائع الفوائد (٣ / ١٩٨ ، ١٩٩) .
(٥) أى الإمام أحمد رحمه الله .
(٦) بدائع الفوائد (٤ / ٥٠) .

## فصل
## فى النهى عن خلوة النساء بالخصيان والمجبوبين

قال ابن عقيل : يحرم خلوة النساء بالخصيان والجبوبين ، إذ غاية ما تجد فيهم عدم العضو أو ضعفه ، ولا يمنع ذلك ، لإمكان الاستمتاع بحسبهم من القبلة واللمس والاعتناق . والخصى يقرع قرع الفحل ، والمجبوب يساحق . ومعلوم أن النساء لو عرض فيهن حب السحاق ومنعنا خلوة بعضهن ببعض ، فأولى أن يمنع خلوة من هو فى الأصل على شهوته للنساء (١) .

## فصل
## فى النهى عن الدخول على النساء

إنه ﷺ حرم الخلوة بالأجنبية ولو فى إقراء القرآن ، والسفر بها ، ولو فى الحج وزيارة الوالدين ، سداً لذريعة ما يحاذر من الفتنة وغلبات الطباع (٢) .

## وأيضا

إنه ﷺ نهى الرجال عن الدخول على النساء ؛ لأنه ذريعة ظاهرة (٣) .

## فصل
## فى غض البصر

إن الله أمر بغض البصر ـ وإن كان إنما يقع على محاسن الخلقة والتفكر فى صنع الله ـ سداً لذريعة الإرادة والشهوة المفضية إلى المحظور (٤).

## فصل
## فى النهى عن إدامة النظر إلى المجزومين

إنه ﷺ نهى عن إدامة النظر إلى المجزومين (٥) ، وهذا ـ والله أعلم ـ لأنه ذريعة إلى

---

(١) بدائع الفوائد (٣ / ١٥٧) .
(٢) إعلام الموقعين (٣ / ١٨٠) .
(٣) إعلام الموقعين (٣ / ١٩٥) .
(٤) إعلام الموقعين (٣ / ١٨٠) .
(٥) أحمد (١ / ٢٩٩) ، وصححه الشيخ شاكر (٢٧٢١) .

أن يصابوا بإيذائهم ، وهى من ألطف الذرائع . وأهل الطبيعة يعترفون به ، وهو جار على قاعدة الأسباب وأخبرنى رجل من علمائهم أنه جلس قرابة له يكحل الناس ، فرمد ثم برئ، فجلس يكحلهم ، فرمد مرارا ، قال : فعلمت أن الطبيعة تنتقل ، وأنه من كثرة ما يفتح عينيه فى أعين الرُّمْد نقلت الطبيعة الرمد إلى عينيه ، وهذا لابدَّ معه من نوع استعداد، وقد جبلت الطبيعة والنفس على التشبه والمحاكاة (١) .

## فصل
## فى النهى عن أن تنعت المرأةُ المرأةَ

إنه ﷺ نهى أن تنعت المرأةُ المرأةَ لزوجها حتى كأنه ينظر إليها (٢) . ولا يخفى أن ذلك سد للذريعة ، وحماية عن مفسدة وقوعها فى قلبه وميله إليها بحضور صورتها فى نفسه ، وكم ممن أحَبَّ غيره بالوصف قبل الرؤية (٣) .

## فصل
## فى النهى عن النظر إلى الأمة

وأما تحريم النظر إلى العجوز الحرة الشوهاء القبيحة وإباحته إلى الأمة البارعة الجمال ، فكذب على الشارع ، فأين حرم الله هذا ، وأباح هذا ، والله ـ سبحانه ـ إنما قال : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ** ﴾ [ النور : ٣٠ ] ، ولم يطلق الله ورسوله للأعين النظر إلى الإماء البارعات الجمال ، وإذا خشى الفتنة بالنظر إلى الأمة حرم عليه بلا ريب ، وإنما نشأت الشبهة أن الشارع شرع للحرائر أن يسترن وجوههن عن الأجانب ، وأما الإماء ، فلم يوجب عليهن ذلك ، لكن هذا فى إماء الاستخدام والابتذال ، وأما إماء التسرى اللاتى جرت العادة بصونهن ، وحجبهن ، فأين أباح الله ورسوله لهن أن يكشفن وجوههن فى الأسواق والطرقات ومجامع الناس ، وأذن للرجال فى التمتع بالنظر إليهن .

فهذا غلط محض على الشريعة ، وأكد هذا الغلط أن بعض الفقهاء ، سمع قولهم أن الحرة كلها عورة إلا وجهها وكفيها ، وعورة الأمة ما لا يظهر غالباً كالبطن والظهر والساق ، فظن أن ما يظهر غالبًا حكمه حكم وجه الرجل ، وهذا إنما هو فى الصلاة ، لا فى النظر، فإن العورة عورتان : عورة فى الصلاة ، وعورة فى النظر ، فالحرة لها أن تصلى مكشوفة

(١) إعلام الموقعين (٣ / ١٩٩) .
(٢) البخارى ( ٥٢٤٠ ) فى النكاح ، باب : لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها ، وأبو داود (٢١٥٠) فى النكاح ، باب : ما يؤمر به من غض البصر ، وأحمد ١ / ٣٨٧ .
(٣) إعلام الموقعين ( ٣ / ١٩٢ ) .

الوجه والكفين ، وليس لها أن تخرج فى الأسواق ، ومجامع الناس كذلك ، والله أعلم (١) .

# فصل
# فى حفظ المنطق

عن الأعرج ، عن أبى هريرة ﷺ ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « لا يقولن أحدكم : الكرم ، فإن الكرم : الرجل المسلم ، ولكن قولوا : حدائق الأعناب » .

وقد أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « لا تسموا العنب الكرم . فإن الكرم الرجل المسلم » (٢) .

وأخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث سعيد بن المسيب عن أبى هريرة بمعناه (٣) .

وأخرج مسلم من حديث وائل بن حجر : أن النبى ﷺ قال « لا تقولوا : الكرم . ولكن قولوا : العنب والحبلة » (٤) .

العرب تسمى شجر العنب كرما لكرمه ، والكرم كثرة الخير والمنافع والفوائد ، لسهولة تناولها من الكريم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [ لقمان : ١٠ ] ، وفى آية أخرى : ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [ ق : ٧ ] فهو كريم فى مخبره ، بهيج فى منظره ، وشجر العنب قد جمع وجوهًا ، من ذلك :

منها : تذليل ثمره لقاطفه .

ومنها : أنه ليس دونه شوك يؤذى مجتنيه .

ومنها : أنه ليس بممتنع على من أراده لعلو ساقه وصعوبته كغيره .

ومنها : أن الشجرة الواحدة منه ـ مع ضعفها ودقة ساقها ـ تحمل أضعاف ما تحمله غيرها .

---

(١) إعلام الموقعين (٢ / ٤٤ ـ ٤٥) وهو من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فى الرد على نفاة القياس.

(٢) أبو داود (٤٩٧٤) فى الأدب ، باب : فى الكرم وحفظ المنطق ، ومسلم (٢٢٤٧ /٨) فى الألفاظ من الأدب وغيره ، باب : كراهة تسمية العنب كرما.

(٣) البخارى (٦١٨٣) فى الأدب ، باب : قول النبى ﷺ : « إنما الكرم قلب المؤمن » ، ومسلم (٢٢٤٧ / ٧) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : كراهة تسمية العنب كرما .

(٤) مسلم (٢٢٤٨ / ١٢) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : كراهة تسمية العنب كرما .

ومنها : أن الشجرة الواحدة منه إذا قطع أعلاها أخلفت من جوانبها وفروعها ، والنخلة إذا قطع أعلاها ماتت ، ويبست جملة .

ومنها : أن ثمره يؤكل قبل نضجه ، وبعد نضجه ، وبعد يبسه .

ومنها : أنه يتخذ منه من أنواع الأشربة الحلوة والحامضة ، كالدبس والخل ، ما لا يتخذ من غيره ، ثم يتخذ من شرابه من أنواع الحلاوة والأطعمة والأقوات ما لا يتخذ من غيره ، وشرابه الحلال غذاء وقوت ومنفعة وقوة .

ومنها : أنه يدخر يابسه قوتًا وطعامًا وأدمًا .

ومنها : أن ثمره قد جمع نهاية المطلوب من الفاكهة من الاعتدال ، فلم يفرط إلى البرودة كالخوخ وغيره ، ولا إلى الحرارة كالتمر ، بل هو فى غاية الاعتدال ، إلى غير ذلك من فوائده فلما كان بهذه المنزلة سموه كرمًا ، فأخبرهم النبى ﷺ أن الفوائد والثمرات والمنافع التى أودعها الله قلب عبده المؤمن : ـ من البر ، وكثرة الخير ـ أعظم من فوائد كرم العنب ، فالمؤمن أولى بهذه التسمية منه .

فيكون معنى الحديث على هذا : النهى عن قصر اسم الكرم على شجر العنب ، بل المسلم أحق بهذا الاسم منه .

وقيل فى معنى النهى وجه آخر ، وهو : قصد النبى ﷺ سلب هذا الاسم المحبوب للنفوس التى يلذ لها سماعه عن هذه الشجرة التى تتخذ منها أم الخبائث ، فيسلبها الاسم الذى يدعو النفوس إليها ، ولاسيما فإن العرب قد تكون سمتها كرمًا ؛ لأن الخمر المتخذة منها تحث على الكرم وبذل المال ، فلما حرمها الشارع نفى اسم المدح عن أصلها ، وهو «الكرم» ، كما نفى اسم المدح عنها ، وهو الدواء ، فقال : «إنها داء وليست بدواء» (١) ومن عرف سر تأثير الأسماء فى مسماتها نفرة وميلا عرف هذا ، فسلبها النبى ﷺ هذا الاسم الحسن ، وأعطاه ما هو أحق منها ، وهو «قلب المؤمن» .

ويؤكد المعنى الأول : أن النبى ﷺ شبه المسلم بالنخلة ؛ لما فيها من المنافع والفوائد ، حتى إنها كلها منفعة ، لا يذهب منها شىء بلا منفعة ، حتى شوكها ، ولا يسقط عنها لباسها وزينتها ، كما لا يسقط عن المسلم زينته ، فجذوعها للبيوت والمساكن والمساجد وغيرها ، وسعفها للسقوف ، وغيرها ، وخوصها للحصر والمكاتل والآنية ، وغيرها ، ومسدها للحبال وآلات الشد والحل وغيرها ، وثمرها يؤكل رطبًا ويابسًا ، ويتخذ قوتًا وأدما، وهو أفضل المخرج فى زكاة الفطر تقربًا إلى الله ، وطهـرة للصائم ، ويتـخذ منه

---

(١) مسلم (١٩٨٤ / ١٢) فى الأشربة ، باب : تحريم التدواى بالخمر ، وأبو داود (٣٨٧٣) .

ما يتخذ من شراب الأعناب ، ويزيد عليه بأنه قوت وحده ، بخلاف الزبيب ، ونواه علف للإبل التى تحمل الأثقال إلى بلد لا يبلغه الإنسان إلا بشق النفس .

ويكفى فيه : أن نواه يشترى به العنب ، فحسبك بتمر نواه ثمن لغيره (١) .

## فصل
## فى ألفاظ كان ﷺ يكره أن تقال

فمنها : أن يقول : خبثت نفسى أو جاشت نفسى ، وليقل : « لقست » (٢) .

ومنها : أن يسمى شجر العنب كرما ، نهى عن ذلك وقال : لا تقولوا : الكرم ولكن قولوا : العنب والحبلة » (٣) .

وكره أن يقول الرجل : هلك الناس . وقال : « إذا قال ذلك ، فهو أهلكهم » (٤) . وفى معنى هذا : فسد الناس ، وفسد الزمان ونحوه .

ونهى أن يقال : ما شاء الله ، وشاء فلان ، بل يقال : ما شاء الله ، ثم شاء فلان . فقال له رجل : ما شاء الله وشئت . فقال : « اجعلتنى لله نداً ؟ ! قل : ما شاء الله وحده » (٥) .

وفى معنى هذا : لولا الله وفلان ، لما كان كذا ، بل هو أقبح وأنكر ، وكذلك : أنا بالله وبفلان ، وأعوذ بالله وبفلان ، وأنا فى حسب الله وحسب فلان ، وأنا متكل على الله وعلى فلان ، فقائل هذا ، قد جعل فلانًا ندًّا لله عز وجل .

ومنها : أن يقال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، بل يقول : مطرنا بفضل الله ورحمته (٦) .

ومنها : أن يحلف بغير الله . صح عنه ﷺ أنه قال : « من حلف بغير الله فقد

---

(١) تهذيب السنن (٧ / ٢٦٨ ـ ٢٧٢) .

(٢) البخارى (٦١٧٩) فى الأدب ، باب : لا يقل : « خبثت نفسى » ، ومسلم (٢٢٥٠ / ١٦) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : كراهة قول الإنسان خبثت نفسى .

(٣) مسلم (٢٢٤٨ / ١٢) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : كراهة تسمية العنب كرما .

(٤) مسلم (٢٦٢٣ / ١٣٩) فى البر والصلة والآداب ، باب : النهى من قول : هلك الناس ، وأبو داود (٤٩٨٣) فى الأدب ، باب : لا يقال خبثت نفسى ، وأحمد (٢ / ٢٧٢) .

(٥) أبو داود (٤٩٨٠) فى الأدب ، باب : لا يقال : خبثت نفسى ، وأحمد (١ / ٢٨٣) وهما بمعناه .

(٦) النسائى (١٥٢٥) فى الاستسقاء ، باب : كراهية الاستمطار بالكوكب .

أشرك » (١) .

ومنها : أن يقول فى حلفه : هو يهودى ، أو نصرانى ، أو كافر ، إن فعل كذا (٢).

ومنها : أن يقول لمسلم : يا كافر (٣) .

ومنها : أن يقول للسلطان : ملك الملوك (٤) وعلى قياسه قاضى القضاة .

ومنها : أن يقول السيد لغلامه وجاريته : عبدى ، وأمتى ، ويقول الغلام لسيده : ربى ، وليقل السيد : فتاى وفتاتى ، وليقل الغلام : سيدتى وسيدتى (٥) .

ومنها : سب الريح إذا هبت ، بل يسأل الله خبرها ، وخير ما أرسلت به ، ويعوذ بالله من شرها وشر ما أرسلت به (٦) .

ومنها : سب الحمى ، نهى عنه ، وقال : « إنها تذهب خطايا بنى آدم ، كما يذهب الكير خبث الحديد » (٧) .

ومنها : النهى عن سب الديك ، صح عنه ﷺ أنه قال : « لا تسبوا الديك ، فإنه يوقظ للصلاة » (٨) .

ومنها : الدعاء بدعوى الجاهلية ، والتعزى بعزائهم (٩)، كالدعاء إلى القبائل والعصبية

---

(١) أبو داود (٣٢٥١) فى الأيمان والنذور ، باب : فى كراهية الحلف بالآباء ، والترمذى (١٥٣٥) فى النذور والأيمان ، باب : ما جاء فى كراهية الحلف بغير الله ، وقال : « حسن » ، وأحمد (١ / ٦٩) .

(٢) أبو داود (٣٢٥٨) فى الأيمان والنذور ، باب : ما جاء فى الحلف بالبراة وبملة غير الإسلام ، والنسائى (٣٧٧٢) فى الأيمان والنذور ، باب : الحلف بالبراءة من الإسلام .

(٣) البخارى (٦١٠٣) فى الأدب ، باب : من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال .

(٤) البخارى (٦٢٠٥) فى الأدب ، باب : أبغض الأسماء إلى الله ، ومسلم (٢١٤٣ / ٢٠) فى الآداب ، باب : تحريم التسمى بملك الأملاك ، وبملك الملوك ، وأبو داود (٤٩٦١) فى الآداب ، باب : فى تغيير الاسم القبيح، والترمذى (٢٨٣٧) فى الأدب ، باب : ما يكره من الأسماء .

(٥) البخارى (٢٥٥٢) فى العتق ، باب : كراهية التطاول على الطريق ، ومسلم (٢٢٤٩ / ١٣ ـ ١٥) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد ، وأبو داود (٤٩٧٥)فى الأدب ، باب : لا يقول المملوك : « ربى ، وربتى » .

(٦) أبو داود (٥٠٩٧) فى الأدب ، باب : ما يقول إذا هاجت الريح ، والترمذى (٢٢٥٢) فى الفتن ، باب : ما جاء فى النهى عن سب الرياح ، وقال : « حسن صحيح » .

(٧) مسلم (٢٥٧٥ / ٥٣) فى البر والصلة والآداب ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك .

(٨) أبو داود (٥١٠١) فى الأدب ، باب : ما جاء فى الديك والبهائم ، وأحمد (٥ / ١٩٢ ، ١٩٣) .

(٩) أحمد (٥ / ١٣٦) .

لها وللأنساب ، ومثله التعصب للمذاهب ، والطرائق ، والمشايخ ، وتفضيل بعضها على بعض بالهوى والعصبية ، وكونه منتسبًا إليه ، فيدعو إلى ذلك ، ويوالى عليه، ويعادى عليه ، ويزن الناس به ، كل هذا من دعوى الجاهلية .

ومنها : تسمية العشاء بالعتمة (١) ، تسمية غالبة يهجر فيها لفظ العشاء .

ومنها : النهى عن سباب المسلم (٢) . وأن يتناجى اثنان دون الثالث(٣) . وأن تخبر المرأة زوجها بمحاسن امرأة أخرى (٤) .

ومنها : أن يقول فى دعائه : « اللهم اغفر لى إن شئت ، وارحمنى إن شئت » (٥).

ومنها : الإكثار من الحلف (٦) .

ومنها : كراهة أن يقول : قوس قزح (٧) ؛ لهذا الذى يرى فى السماء .

ومنها : أن يسأل أحداً بوجه الله (٨) .

ومنها : أن يسمى المدينة بيثرب (٩) .

ومنها : أن يسأل الرجل فيم ضرب امرأته (١٠) ، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

ومنها أن يقول : صمت رمضان كله ، أو قمت الليل كله (١١) .

ومن الألفاظ المكروهة : الإفصاح عن الأشياء التى ينبغى الكناية عنها بأسمائها

---

(١) البخارى (٥٤٧) فى مواقيت الصلاة ، باب : وقت العصر ، ومسلم (٦٣٨ / ٢١٨) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : وقت العشاء وتأخيرها .

(٢) البخارى (٦٠٤٤) فى الأدب ، باب : ما ينهى عن السباب واللعن ، ومسلم (٦٤ / ١١٦) فى الإيمان : باب: بيان قول النبى ﷺ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر .

(٣) البخارى (٦٢٨٨) فى الاستئذان ، باب : لا يتناجى اثنان دون الثالث ، ومسلم (٢١٨٤ / ٣٧) فى السلام ، باب : تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث .

(٤) البخارى (٥٢٤٠) فى النكاح ، باب : لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها ، وأبو داود (٢١٥٠) فى النكاح ، باب : ما يؤمر به من غض البصر .

(٥) البخارى (٦٣٣٩) فى الدعوات ، باب : ليعزم المسألة ، ومسلم (٢٦٧٩ / ٩) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : العزم بالدعاء .

(٦) مسلم (١٦٠٧ / ١٣٢) فى المساقاة ، باب : النهى عن الحلف فى البيع .

(٧) الأذكار للنووى (٩٦٩) ، وأبو نعيم فى الحلية (٢ / ٣٠٩) .

(٨) أبو داود (١٦٧١) فى الزكاة ، باب : كراهية المسألة بوجه الله تعالى ، وضعفه الألبانى .

(٩) أبو داود الطيالسى (٧٦١) .

(١٠) أبو داود (٢١٤٧) فى النكاح ، باب : فى ضرب النساء ، وضعفه الألبانى .

(١١) أبو داود (٢٤١٥) فى الصوم ، باب : من يقول : صمت رمضان كله . وضعفه الألبانى .

الصريحة .

ومنها : أن يقول : أطال الله بقاءك ، وأدام أيامك ، وعشت ألف سنة ، ونحو ذلك.

ومنها : أن يقول الصائم : وحق الذى خاتمه على فم الكافر .

ومنها : أن يقول للمكوس : حقوقًا . وأن يقول لما ينفقه فى طاعة الله :غرمت أو خسرت كذا وكذا : وأن يقول : أنفقت فى هذه الدنيا مالاً كثيراً .

ومنها : أن يقول المفتى : أحل الله كذا ، وحرم الله كذا فى المسائل الاجتهادية ، وإنما يقوله فيما ورد النص بتحريمه .

ومنها : أن يسمى أدلة القرآن والسنة ظواهر لفظية ومجازات ؛ فإن هذه التسمية تسقط حرمتها من القلوب ، ولا سيما إذا أضاف إلى ذلك تسمية شبه المتكلمين والفلاسفة قواطع عقلية ، فلا إله إلا الله ، كم حصل بهاتين التسميتين من فساد فى العقول والأديان ، والدنيا والدين .

ومنها : أن يحدث الرجل بجماع أهله ، وما يكون بينه وبينها (١) ، كما يفعله السفلة.

ومما يكره من الألفاظ : زعموا ، وذكروا ، وقالوا ، ونحوه . ومما يكره منها أن يقول للسلطان : خليفة الله ، أو نائب الله فى أرضه، فإن الخليفة والنائب إنما يكون عن غائب، والله ـ سبحانه ـ وتعالى خليفة الغائب فى أهله ، ووكيل عبده المؤمن .

وليحذر كل الحذر من طغيان « أنا » و « لى » و « عندى » ، فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتلى بها إبليس ، وفرعون ، وقارون . ﴿ **أَنَا خَيْرٌ مِّنْ** ﴾ [ ص : ٨٦ ] لإبليس ، و ﴿ **لِي مُلْكُ مِصْرَ** ﴾ [ الزخرف: ٥١ ] لفرعون ، و ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ [ القصص : ٧٨ ] لقارون . وأحسن ما وضعت « أنا » فى قول العبد : أنا العبد المذنب ، المخطئ ، المستغفر ، المعترف ونحوه و « لى » فى قوله : لى الذنب ، ولى الجرم ، ولى المسكنة ، ولى الفقر والذل . و « عندى » فى قوله : « اغفر لى جدى ، وهزلى ، وخطئى ، وعمدى ، وكل ذلك عندى » (٢) (٣) .

(١) مسلم (١٤٣٧ / ١٢٣) فى النكاح ، باب : تحريم إفشاء سر المرأة ، وأحمد (٣ / ٦٩) .
(٢) مسلم (٢٧١٩ / ٧٠) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : التعوذ من شر ما عمل .
(٣) زاد المعاد (٢ / ٤٦٨ ـ ٤٧٥) .

# فصل
# فى النهى عن الكذب

اختلف الفقهاء فى الكذب فى غير الشهادة ، هل هو من الصغائر أو من الكبائر ، على قولين : هما روايتان عن الإمام أحمد حكاهما أبو الحسين فى تمامه ، واحتج من جعله من الكبائر بأن الله ـ سبحانه ـ جعله فى كتابه من صفات شر البرية ، وهم الكفار والمنافقون فلم يصف به إلا كافراً أو منافقًا ، وجعله علم أهل النار وشعارهم ، وجعل الصدق علم أهل الجنة وشعارهم .

وفى الصحيح من حديث ابن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق ، فإنه يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ،وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا » (١) .

وفى الصحيحين مرفوعاً : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذ وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » (٢) .

وقال معمر عن أيوب عن ابن أبى مُلَيْكة عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما كان خلق أبغض إلى الرسول ﷺ من الكذب ، ولقد كان الرجل يكذب عنده بالكذبة ، فما تزال فى نفسه، حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة(٣) .

وقال مروان الطاطرى : ثنا محمد بن مسلم ، ثنا أيوب عن ابن أبى مليكة عن عائشة قالت : ما كان شيء أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب ، وما جرب على أحد كذبًا ، فرجع إليه ما كان ، حتى يعرف منه توبة حديث حسن رواه الحاكم فى المستدرك من طريق ابن وهب ، عن محمد بن مسلم ، عن أيوب ، عن ابن سيرين ، عن عائشة رضي الله عنها (٤).

وروى عبد الرزاق عن معمر ، عن موسى بن أبى شيبة : أن النبى ﷺ أبطل شهادة

---

(١) البخارى (٦٠٩٤) فى الأدب ، باب : قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾ .

(٢) البخارى (٦٠٩٥) فى الأدب ، باب: قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾ ، ومسلم (٥٩ / ١٠٧) فى الإيمان ، باب : بيان خصال المنافق .

(٣) الترمذى (١٩٧٣) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى الصدق والكذب ، وقال : « حسن » ، وأحمد (٦ / ١٥٢) .

(٤) الحاكم فى المستدرك (٤ / ٩٨) فى الأحكام ، باب : ظهور شهادة الزور من أشراط الساعة .

رجل فى كذبة كذبها (١) . وهو مرسل ، وقد ، احتج به أحمد فى إحدى الروايتين عنه ، وقال قيس بن أبى حازم : سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يقول : إياكم والكذب ، فإن الكذب مجانب للإيمان (٢) . يروى موقوفًا ومرفوعًا .

وروى شعبة عن سلمة بن كهل عن مصعب بن سعد عن أبيه ، قال : « المسلم يطبع على كل طبيعة غير الخيانة والكذب » (٣) ويروى مرفوعًا إليه .

وفى المسند والترمذى من حديث خريم بن فاتك الأسدى : أن رسول الله ﷺ صلى صلاة الصبح ؛ فلما انصرف قام قائما ، قال : « عدلت شهادة الزور الشرك بالله » ثلاث مرار ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ** ﴾ [ الحج : ٣١ ] (٤) .

وفى المسند من حديث عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال : « بين يدى الساعة تسليم الخاصة ، وفشو التجارة ، حتى تعين المرأة زوجها على التجارة ، وقطع الأرحام ، وشهادة الزور ، وكتمان شهادة الحق » (٥) .

وقال الحسن بن زياد اللؤلؤى : ثنا أبو حنيفة ، قال : كنا عند محارب بن دثار ، فتقدم إليه رجلان ، فادعى أحدهما على الآخر مالا ، فجحده المدعى عليه ، فسأله البينة ، فجاء رجل ،فشهد عليه ، فقال المشهود عليه : لا والله الذى لا إله إلا هو ، ما شهد على بحق ، وما علمته إلا رجلا صالحًا غير هذه الزلة ، فإنه فعل هذا لحقد كان فى قلبه على ، وكان محارب متكئًا ، فاستوى جالسًا ثم قال : ياذا الرجل ، سمعت ابن عمر يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليأتين على الناس يوم تشيب فيه الولدان ، وتضع الحوامل ما فى بطونها ، وتضرب الطير بأذنابها ، وتضع ما فى بطونها من شدة ذلك اليوم، ولا ذنب عليها،وإن شاهد الزور لا تقار قدماه على الأرض،حتى يقذف به فى النار »(٦) .

---

(١) عبد الرزاق فى المصنف (٢٠١٩٧) باب : الكذب والصدق وخطبة ابن مسعود .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى ( ٢٩٣١ ) ، وأشار لحسنه .

(٣) البيهقى فى الكبرى (١٠ / ١٩٧) فى الشهادات ، باب : من كان منكشف الكذب مظهره غير مستتر به لم تجز شهادته .

(٤) الترمذى ( ٢٣٠٠) فى الشهادات ، باب:ما جاء فى شهادة الزور، وقال : « هذا عندى أصح » ، وأحمد (٤ / ٣٢١) .

(٥) أحمد (١ / ٤١٩ ، ٤٢٠) ، وصححه الشيخ شاكر (٣٩٨٢) .

(٦) الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠ / ٣٣٨ ، ٣٣٩) فى البعث ، باب : ما جاء فى هول المطلع وشدة يوم القيامة، وقال : « وفى إسناده محمد بن الفرات وهو كذاب » وعزاه لأبى يعلى والطبرانى باختصار عنه .

فإن كنت شهدت بحق ، فاتق الله ،وأقم على شهادتك ، وإن كنت شهدت بباطل ، فاتق الله ، وغط رأسك واخرج من ذلك الباب .

وقال عبد الملك بن عمير : كنت فى مجلس محارب بن دثار ، وهو فى قضائه حتى تقدم إليه رجلان ، فادعى أحدهما على الآخر حقًا ، فأنكره ، فقال : ألك بينة ؟ فقال نعم ، ادع فلانًا . فقال المدعى عليه : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله إن شهد على ليشهد بزور ، ولئن سألنى عنه لأزكينه ، فلما جاء الشاهد ، قال محارب بن دثار : حدثنى عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إن الطير لتضرب بمناقيرها ،وتقذف ما فى حواصلها ، وتحرك ما فى أذنابها من هول يوم القيامة ، وإن شاهد الزور لا تقار قدماه على الأرض ، حتى يقذف به فى النار » (١) ثم قال للرجل : بم تشهد ؟ قال : كنت أشهدت على شهادة ، وقد نسيتها ، أرجع فأتذكرها ، فانصرف ولم يشهد عليه بشىء . ورواه أبو يعلى الموصلى فى مسنده ، فقال : ثنا محمد بن بكار ،ثنا زافر عن أبى على ، قال : كنت عند محارب بن دثار فاختصم إليه رجلان،فشهد على أحدهما شاهد ، فقال الرجل : لقد شهد على بزور ولئن سئلت عنه ليزكين وكان محارب متكئًا فجلس ، ثم قال : سمعت عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : « لا تزول قدما شاهد الزور من مكانها حتى يوجب الله له النار » (٢) . وللحديث طرق إلى محارب .

وأقوى الأسباب فى رد الشهادة والفتيا والرواية : الكذب ؛ لأنه فساد فى نفس آلة الشهادة والفتيا والرواية ، فهو بمثابة شهادة الأعمى على رؤية الهلال ، وشهادة الأصم الذى لا يسمع على إقرار المقر ، فإن اللسان الكذوب بمنزلة العضو الذى قد تعطل نفعه ، بل هو شر منه ، فشر ما فى المرء لسان كذوب ؛ ولهذا يجعل الله ـ سبحانه ـ شعار الكذب عليه يوم القيامة ، وشعار الكاذب على رسوله سواد وجوههم ،والكذب له تأثير عظيم فى سواد الوجه ، ويكسوه برقعًا من المقت يراد كل صادق فسيما الكاذب فى وجهه، ينادى عليه لمن له عينان ؛ والصادق يرزقه الله مهابة وجلالة فمن رآه هابه ، وأحبه ، والكاذب يرزقه إهانة ومقتًا ، فمن رآه مقته واحتقره ، وبالله التوفيق (٣) .

---

(١) الطبرانى فى الأوسط (٧٦١٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ٢٠٣) فى الأحكام ، باب : فى الشهود : « وفيه من لا أعرفه » .

(٢) الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٣٨ ، ٣٣٩) فى البحث ، باب : ما جاء فى هول المطلع وشدة يوم القيامة ، وعزاه لأبى يعلى وقال : « وفى إسناده محمد بن الفرات وهو كذاب » .

(٣) إعلام الموقعين (١ / ١٢٨ ـ ١٣١) .

## فصل
## فى مفاسد الكذب

الكذب متضمن لفساد نظام العالم ، ولا يمكن قيام العالم عليه ، لا فى معاشهم ولا فى معادهم ، بل هو متضمن لفساد المعاش والمعاد . ومفاسد الكذب اللازمة له معلومة عند خاصة الناس وعامتهم ، كيف وهو منشأ كل شر ، وفساد الأعضاء لسان كذوب .

وكم قد أزيلت بالكذب من دول وممالك ، وخربت به من بلاد ، واستلبت به من نعم، وتعطلت به من معايش ، وفسدت به مصالح ، وغرست به عداوات ، وقطعت به مودات ، وافتقر به غنى ، وذل به عزيز ، وهتكت به مصونة ، ورميت به محصنة ، وخلت به دور وقصور ، وعمرت به قبور ، وأزيل به أنس ، واستجلبت به وحشة ، وأفسد به بين الابن وأبيه ، وغاض بين الأخ وأخيه ، وأحال الصديق عدواً مبينًا ، ورد الغنى العزيز مسكينًا .

وكم فرق بين الحبيب وحبيبه فأفسد عليه عيشته ، ونغص عليه حياته . وكم جلا عن الأوطان . وكم سود من وجوه ، وطمس من نور ، وأعمى من بصيرة ، وأفسد من عقل، وغير من فطرة ، وجلب من معرة ، وقطعت به السبل ، وعفت به معالم الهداية ، ودرست به من آثار النبوة ، وخفيت به من مصالح العباد فى المعاش والمعاد .

وهذا وأضعافه ذرة من مفاسده ، وجناح بعوضة من مضاره ومصالحه ، إلا فيما يجلبه من غضب الرحمن ، وحرمان الجنان ، وحلول دار الهوان أعظم من ذلك .

وهل ملئت الجحيم إلا بأهل الكذب الكاذبين على الله وعلى رسوله ، وعلى دينه وعلى أوليائه ، المكذبين بالحق حمية وعصبية جاهلية (١) .

## فصل
## فى النهى عن الوقوف على الدابة

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إياى أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر ، فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، وجعل لكم الأرض ، فعليها فاقضوا حاجاتكم » (٢) .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢ / ٧٣) .

(٢) أبو داود (٢٥٦٧) فى الجهاد ، باب : فى الوقوف على الدابة .

فى إسناده إسماعيل بن عياش ، وفيه مقال . قال الخطابى : قد ثبت عن النبى ﷺ أنه خطب على راحلته واقفًا عليها ، فدل ذلك على أن الوقوف على ظهورها إذا كان لأرب، أو بلوغ وطر لا يدرك مع النزول إلى الأرض ، مباح ، وأشار إلى أن النهى إنما ـ ينصرف إلى استيطانها ، ويتخذها مقعداً ، فيتعبها ، ويضر بها من غير طائل ،والله أعلم .

وأما وقوف النبى ﷺ على راحلته فى حجة الوداع وخطبته عليها ، فذاك غير ما نهى عنه ، فإن هذا عارض لمصلحة عامة فى وقت ما ، لا يكون دائمًا ، ولا يلحق الدابة منه من التعب والكلال ما يلحقها من اعتياد ذلك لا لمصلحة ، بل يستوطنها ويتخذها مقعداً يناجى عليها الرجل ، ولا ينزل إلى الأرض ،فإن ذلك يتكرر ويطوف ، بخلاف خطبته ﷺ على راحلته ليسمع الناس ، ويعلمهم أمور الإسلام وأحكام النسك ، فإن هذا لا يتكرر ولا يطول ، ومصلحته عامة (١) .

# فصل
## فى النهى عن الشرب قائما

عن أنس أن رسول الله ﷺ نهى يأن يشرب الرجل قائمًا . وأخرجه مسلم والترمذى وابن ماجه بنحوه (٢) .

وقد خرج مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى : أن رسول الله ﷺ زجر عن الشرب قائمًا (٣) .

وفيه أيضًا : عن أبى هريرة : أن النبى ﷺ قال : « لا يشربن أحد منكم قائما ، فمن نسى فليستقى » (٤) .

وفى الصحيحين : عن ابن عباس قال : سقيت رسول الله ﷺ من زمزم ، فشرب وهو قائم (٥) .

---

(١) تهذيب السنن (٣/ ٣٩٤ ، ٣٩٥) .

(٢) أبو داود (٣٧١٧) فى الأشربة ، باب : فى الشرب قائما ، ومسلم (٢٠٢٤ / ١١٣) فى الأشربة ، باب : كراهية الشرب قائما ، والترمذى (١٨٧٩) فى الأشربة ، باب : ما جاء فى النهى عن الشرب قائما ، وابن ماجه (٣٤٢٤) فى الأشربة ، باب : الشرب قائما .

(٣) مسلم (٢٠٢٤ / ١١٢) فى الأشربة ، باب كراهية الشرب قائما .

(٤) مسلم (٢٠٢٦ / ١١٦) فى الأشربة ، باب : كراهية الشرب قائما .

(٥) البخارى (٥٦١٧) فى الأشربة ، باب : الشرب قائما ، ومسلم (٢٠٢٧ / ١١٧) فى الأشربة ، باب : فى الشرب من زمزم قائما .

وفى لفظ آخر : فحلف عكرمة : ما كان يومئذ إلا على بعير(١) .

فاختلف فى هذه الأحاديث .

فقوم سلكوا بها مسلك النسخ وقالوا : آخر الأمرين من رسول الله ﷺ : الشرب قائما ، كما شرب فى حجة الوداع .

وقالت طائفة : فى ثبوت النسخ بذلك نظر ؛ فإن النبى ﷺ لعله شرب قائما لعذر ، وقد حلف عكرمة : أنه كان حينئذٍ راكبًا ، وحديث على : قصة عين ، فلا عموم لها . وقد روى الترمذى عن عبد الرحمن بن أبى عمرة عن جدته كبشة قالت : دخل على رسول الله ﷺ ، وفى البيت قربة معلقة ، فشرب قائما ، فقمت إلى فيها فقطعته .

وقال الترمذى : حديث صحيح ، وأخرجه ابن ماجه (٢).

وروى أحمد فى مسنده عن أم سليم قالت : دخل على رسول الله ﷺ ، وفى البيت قربة معلقة ، فشرب منها ، وهو قائم ، فقطعت فاها ، فإنه لعندى (٣) .

فدلت هذه الوقائع على أن الشرب منها قائما كان لحاجة ، لكون القربة معلقة ، وكذلك شربه من زمزم أيضًا لعله لم يتمكن من القعود ، ولضيق الموضع ، أو لزحام وغيره .

وبالجملة ، فالنسخ لا يثبت بمثل ذلك .

وأما حديث ابن عمر : كنا على عهد رسول الله ﷺ نأكل ونحن نمشى ، ونشرب ونحن قيام . رواه الإمام أحمد وابن ماجه والترمذى وصححه (٤) ـ فلا يدل أيضًا على النسخ إلا بعد ثلاثة أمور : مقاومته لأحاديث النهى فى الصحة ، وبلوغ ذلك النبى ﷺ ، وتأخره عن أحاديث النهى ، بعد ذلك فهو حكاية فعل ، لا عموم لها ، فإثبات النسخ بهذا عسير ، والله أعلم (٥) .

---

(١) البخارى (٥٦١٨) فى الأشربة ، باب : من شرب وهو واقف على بعيره بمعناه .

(٢) الترمذى ( ١٨٩٢ ) فى الأشربة باب : ما جاء فى الرخصة فى ذلك ، وقال : « حسن صحيح غريب » ، وابن ماجه (٣٤٢٣) فى الأشربة ، باب : الشرب قائما .

(٣) أحمد (٦ / ٣٧٦) .

(٤) الترمذى (١٨٨٠) فى الأشربة ، باب : ما جاء فى النهى عن الشرب قائما ، وابن ماجه (٣٣٠١) فى الأطعمة، باب : الأكل قائما ، وأحمد (٢ / ١٠٨) .

(٥) تهذيب السنن (٥ / ٢٨١ ، ٢٨٢) .

# فصل
# فى النهى عن تعيير المسلم

قوله (١) : « وكل معصية عيرت بها أخاك فهى إليك » :يحتمل أن يريد به :إنها صائرة إليك ولابد أن تعملها ، وهذا مأخوذ من الحديث الذى رواه الترمذى فى جامعه عن النبى ﷺ : « من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله » (٢) . قال الإمام أحمد فى تفسير هذا الحديث : من ذنب قد تاب منه ، وأيضًا : ففى التعيير ضرب خفى من الشماتة بالمعير .

وفى الترمذى أيضًا مرفوعًا : « لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك » (٣).

ويحتمل أن يريد : أن تعييرك لأخيك بذنبه أعظ إثما من ذنبه وأشد من معصيته ، لما فيه من صولة الطاعة وتزكية النفس وشكرها ، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب وأن أخاك باء به . ولعل كسرته بذنبه ، وما أحدث له من الذلة والخضوع والإزراء على نفسه ، والتخلص من مرض الدعوى والكبر والعجب ، ووقوفه بين يدى الله ناكس الرأس ، خاشع الطرف،منكسر القلب ـ أنفع له وخير من صولة طاعتك وتكثرك بها والاعتداد بها ، والمنة على الله وخلقه بها .

فما أقرب هذا العاصى من رحمة الله ، وما أقرب هذا المدل من مقت الله ، فذنب تذل به لديه أحب إليه من طاعة تدل بها عليه ، وإنك إن تبيت نائمًا وتصبح نادمًا ، خير من أن تبيت قائمًا وتصبح معجبًا ، فإن المعجب لا يصعد له عمل . وإنك إن تضحك وأنت معترف خير من أن تبكى وأنت مدل . وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلين ، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلا هو فيك ولا تشعر .

فلله فى أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو ، ولا يطالعها إلا أهل البصائر ، فيعرفون منها بقدر ما تناله معارف البشر ، ووراء ذلك ما لا يطلع عليه الكرام الكاتبون ، وقد قال النبى ﷺ : « إذا زنت أمة أحدكم فليقم عليها الحد ولا يثرب » (٤). أى لا يعير من قول يوسف عليه السلام لإخوته : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ [ يوسف : ٩٢ ] ، فإن الميزان

---

(١) أى قول صاحب المنازل .

(٢) الترمذى (٢٥٠٥) فى صفة القيامة والرقائق والورع ، باب : ٥٣ ، وقال : « غريب وليس إسناده بمتصل » .

(٣) الترمذى (٢٥٠٦) فى صفة القيامة والرقائق والورع ، باب : ٥٤ ، وقال : « حسن غريب ».

(٤) البخارى (٦٨٣٩) فى الحدود ، باب : لا يثرب على الأمة إذا زنت ، ومسلم (١٧٠٣ / ٣٠) فى الحدود ، باب : رجم اليهود أهل الذمة فى الزنى .

بيد الله والحكم لله ، فالسوط الذى ضرب به هذا العاصى بيد مقلب القلوب ، والقصد إقامة الحد لا التعيير والتثريب . ولا يأمن كرات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله ، وقد قال الله تعالى لأعلم الخلق به وأقربهم إليه وسيلة : ﴿ **وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً** (٧٤)﴾ [ الإسراء ] ، وقال يوسف الصديق ﴿**وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [ يوسف : ٣٣ ] ، وكانت عامة يمين رسول الله ﷺ : « لا ومقلب القلوب»(١)، وقال : « ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه » ثم قال : « اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » (٢) (٣).

## فصل
## فى النهى عن الحسد

عن إبراهيم بن أسيد عن جده عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ـ أو قال : العشب » (٤) .

جد إبراهيم : لم يسم ، وذكر البخارى إبراهيم هذا فى التاريخ الكبير وذكر له هذا الحديث ، وقال : لا يصح .

وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى الزناد عن أنس : أن رسول الله ﷺ قال : «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، والصلاة نور المؤمن ، والصيام جنة من النار » (٥) .

ولما كان الحاسد يكره نعمة الله على عباده ، والمتصدق ينعم عليهم ، كانت صدقة هذا ونعمته تطفئ خطيئته وتذهبها ،وحسد هذا وكراهته نعمة الله على عباده : تذهب حسناته.

(١) البخارى (٧٣٩١) فى التوحيد ، باب : مقلب القلوب ، والترمذى (١٥٤٠) فى النذور والأيمان ، باب : ما جاء كيف كان يمين النبى ﷺ .

(٢) الترمذى (٢١٤٠) فى القدر ، باب : ما جاء أن القلوب بين أصبعى الرحمن وقال : « حسن » ، وابن ماجه (٣٨٣٤) فى الدعاء ، باب : دعاء رسول الله ﷺ وقال : فى الزوائد : « مدار الحديث على يزيد الرقاشى وهو ضعيف » .

(٣) مدارج السالكين (١ / ١٧٦ ـ ١٧٨) .

(٤) أبو داود (٤٩٠٣) فى الأدب ، باب : فى الحسد ، وضعفه الألبانى .

(٥) ابن ماجه (٤٢١٠) فى الزهد ، باب : الحسد . وفى الزوائد : « الجملة الأولى رواها أبو داود فى سننه من حديث أبى هريرة ، وإسناد حديث أنس بن مالك فيه عيسى بن أبى عيسى ، وهو ضعيف » .

ولما كانت الصلاة مركز الإيمان ، وأصل الإسلام ، ورأس العبودية ، ومحل المناجاة والقربة إلى الله ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو مصل ، وأقرب ما يكون منه فى صلاته، وهو ساجد ، كانت الصلاة نور المسلم .

ولما كان الصوم يسد عليه باب الشهوات ، ويضيق مجارى الشيطان ، ولاسيما باب الأخوفين : الفم والفرج ، اللذين ينشأ عنهما معظم الشهوات : كان كالجنة من النار ، فإنه يتترس به من سهام إبليس .

وفى الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : « لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، ولا تقاطعوا ، وكونوا عباد الله إخوانًا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث »(١) (٢).

## فصل
## فى النهى عن سب الموتى

عن عائشة رضي الله عنها عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات صاحبكُم فدعوه ، لا تقعُوا فيه » (٣) .

وقد روى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : « لا تسبوا الأموات ، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا » (٤) .

وأخرج النسائى من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال: « لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا » (٥) (٦).

(١) البخارى (٦٠٦٥) فى الأدب ، باب : ما ينهى عن التحاسد والتدابر ، ومسلم (٢٥٥٩ / ٢٣) فى البر والصلة والآداب ، باب : تحريم التحاسد والتباغض والتدابر .
(٢) تهذيب السنن (٧/ ٢٢٥ ، ٢٢٦) .
(٣) أبو داود (٤٨٩٩) فى الأدب ، باب : فى النهى عن سب الموتى .
(٤) البخارى (١٣٩٣) فى الجنائز ، باب : ما ينهى من سب الأموات .
(٥) النسائى (٤٧٧٥) فى القسامة ، باب : القود من اللطمة ، وضعفه الألبانى .
(٦) تهذيب السنن (٧/ ٢٢٤) .

## فصل
## فى النهى عن اللعن

عن أبى الدرداء رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد إذا لعن شيئًا صعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها ، ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها ، ثم تأخذ يمينًا وشمالاً ، فإذا لم تجد مساغًا إلى الذى لُعن ، فإن كان لذلك أهلاً ، وإلا رجعت إلى قائلها » (١) .

وفى الصحيحين عن ثابت بن الضحاك قال : قال رسول الله ﷺ : « لعن المؤمن كقتله » (٢) .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « لا ينبغى لصديق أن يكون لعانًا » (٣) .

وفى الترمذى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس المؤمن بالطعان ، ولا اللعان ، ولا الفاحش ، ولا البذى ، وقال : حديث حسن (٤) (٥).

## فصل
## فى لعن الأنواع دون الأعيان

جواز لعن أصحاب الكبائر بأنواعهم دون أعيانهم ، كما لعن ﷺ السارق (٦) ، ولعن آكل الربا وموكله (٧) ، ولعن شارب الخمر وعاصرها (٨) ، ولعن من عمل عمل قوم

(١) أبو داود (٤٩٠٥) فى الأدب ، باب : فى اللعن .
(٢) البخارى (٦٠٤٧) فى الأدب ، باب : ماينهى عن السباب واللعن ، ومسلم (١١٠ / ١٧٦ مكرر ) فى الإيمان، باب : غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه .
(٣) مسلم (٢٥٩٧ / ٨٤) فى البر والصلة والآداب ، باب : النهى عن لعن الدواب وغيرها .
(٤) الترمذى ((١٩٧٧) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى اللعنة ، وقال : « حسن غريب » .
(٥) تهذيب السنن ((٧ / ٢٢٨) .
(٦) البخارى (٦٧٨٣) فى الحدود ، باب : لعن السارق إذا لم يسم ، ومسلم (١٦٨٧ / ٧) فى الحدود ، باب : حد السرقة ونصابها .
(٧) البخارى (٥٩٦٢) فى اللباس ، باب : من لعن المصور ، وهو عن أبى جحيفة، ومسلم (١٥٩٧ / ١٠٥) فى المساقاة ، باب : لعن آكل الربا ومؤكله ، وهو عن عبد الله بن مسعود .
(٨) أبو داود (٣٦٧٤) فى الأشربة ، باب : العنب يعصر للخمر ، وابن ماجه (٣٣٨٠) فى الأشربة ، باب : لعنت الخمر على عشرة أوجه .

لوط(١) . ونهى عن لعن عبد الله حمار وقد شرب الخمر (٢) ، ولا تعارض بين الأمرين؛ فإن الوصف الذى علق عليه اللعن مقتض ، وأما المعين فقد يقوم به ما يمنع لحوق اللعن به من حسنات ماحية أو توبة ، أو مصائب مكفرة ، أو عفوٍ من الله عنه ، فتلعن الأنواع دون الأعيان (٣) .

## فصل
## فى النهى عن لعن البهيمة

عن عمران بن حصين أن النبى ﷺ كان فى سفر ، فسمع لعنةً ، فقال : « ما هذه ؟» قالوا : هذه فلانة ، لَعَنَتْ راحلتها ، فقال النبى ﷺ : « ضعُوا عنها ، فإنها ملعونة » ، فوضعوا عنها ، قال عمران : فكأنى أنظر إليها ناقة ورقاء » .وأخرجه مسلم والنسائى (٤).

والصواب أنه فعل ذلك عقوبة لها ؛لئلا تعود إلى مثل قولها ، وتلعن ما لا يستحق اللعن ، والعقوبة فى المال لمصلحة مشروعة بالاتفاق .

ولكن اختلفوا : هل نسخت بعد مشروعيتها أو لم يأت على نسخها حجة ؟ وقد حكى أبو عبد الله بن حامد عن بعض أصحاب أحمد أنه من لعن شيئا من متاعه زال ملكه عنه ، والله تعالى أعلم (٥) .

## فصل
## فى النهى عن تعاطى السيف مسلولا

إنه ﷺ نهى أن يتعاطى السيف مسلولا وما ذاك إلا أنه ذريعة إلى الإصابة بمكروه ، ولعل الشيطان يُعينه وينزع فى يده فيقع المحذور ويقرب منه (٦) .

---

(١) أحمد (١ / ٣٠٩) ، وصححه الشيخ شاكر (٢٨١٧) .
(٢) البخارى (٦٧٨٠) فى الحدود ، باب : ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج عن الله .
(٣) زاد المعاد (٥ / ٥٣) .
(٤) أبو داود (٢٥٦١) فى الجهاد ، باب:النهى عن لعن البهيمة ، ومسلم (٢٥٩٥ / ٨٠) فى البر والصلة والآداب ، باب : النهى عن لعن الدواب وغيرها ، والنسائى فى الكبرى (٨٨١٦) فى السير ، باب : لعن الإبل.
(٥) تهذيب السنن (٣ / ٣٩١) .
(٦) إعلام الموقعين (٣ / ١٩٧) .

## فصل
## فى النهى عن قول : لو

إنه ﷺ نهى الرجل بعد إصابة ما قدر له أن يقول : لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا، وأخبر أن ذلك ذريعة إلى عمل الشيطان ، فإنه لا يجدى عليه إلا الحزن والندم وضيقة الصدر والسخط على المقدور واعتقاد أنه كان يمكنه دفع المقدور لو فعل ذلك ، وذلك يضعف رضاه وتسليمه وتفويضه وتصديقه بالمقدور ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وإذا أعرض القلب عن هذا انفتح له عمل الشيطان .

وما ذاك لمجرد لفظ : لو ، بل لما قارنها من الأمور القائمة بقلبه المنافية لكمال الإيمان الفاتحة لعمل الشيطان ، بل أرشد العبد فى هذه الحال إلى ما هو أنفع له وهو الإيمان بالقدر والتفويض والتسليم للمشيئة الإلهية وأنه ما شاء الله كان ولا بد ، فمن رضى فله الرضى، ومن سخط فله السخط ، فصلوات الله وسلامه على من كلامه شفاء للصدور ، ونور للبصائر ، وحياة للقلوب ، وغذاء للأرواح ، وعلى آله ، فلقد أنعم به على عباده أتم نعمة، ومن عليهم به أعظم منة ، فلله النعمة ، وله المنة ، وله الفضل ، وله الثناء الحسن(١) .

## فصل
## فى النهى عن التفاخر بالأحساب

عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفخرها بالآباء : مؤمن تقى ، وفاجر شقى ، أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب، ليدعنَّ رجال فخرهم بأقوام ، إنما هم فحم من فحم جهنَّم ، أو ليكوننَّ أهون على الله من الجعلان التى تدفع بأنْفها النتن » . وأخرجه الترمذى ، وقال : حسن صحيح (٢).

الأنف : للإنسان وغيره . والجمع أنُف وأنوف وآناف .

الجُعَل :دُويبة معروفة ، وجمعها : جُعلان .

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٢٠٢) .

(٢) أبو داود (٥١١٦) فى الأدب ، باب : فى التفاخر بالأحساب ، والترمذى (٣٩٥٦) فى المناقب ، باب : فى فضل الشأم واليمن .

عُبِّيَّة الجاهلية ـ بضم العين المهملة وكسرها ـ قال الخطابي : « العبية » الكبر والنَّخْوة . وأصله من العبء ، وهو الثقل ، وأنكر بعضهم أن يكون من العَبء . وقال غيره : إن كانت بالضم : فهي من التعبية ؛ لأن المتكبر ذو تكلف وتعبية ، بخلاف من يسترسل على سجيته ، وإن كانت بالكسر : فهو من عُباب الماء وهو زخيره وارتفاعه .

وقد أخرج الترمذي من حديث عبد الله بن دينار عن ابن عمر :أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة ، فقال : « يا أيها الناس ، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية ، وتعاظمها بآبائها ، الناس رجلان : مؤمن تقي كريم على الله ، وفاخر شقي هين على الله والناس بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب » . قال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** (١٣)﴾ [ الحجرات ] ، وقال : هذا حديث غريب ، لا نعرفه من حديث عبد الله بن دينار إلا من هذا الوجه (١) . وعبد الله بن جعفر ـ والد علي يضعف ـ ضعفه يحيى بن معين وغيره .

وقال الترمذي أيضا من حديث الحسن عن سمرة يرفعه : « الحسب: المال ، والكرم : التقوى » . وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب (٢) (٣) .

## فصل
## في المحمود والمذموم من التفاخر

الافتخار نوعان : مذموم ومحمود ، فالمذموم : إظهار مرتبته على أبناء جنسه ترفعًا عليهم ، وهذا غير مراد . والمحمود : إظهار الأحوال السنية والمقامات الشريفة بوحًا بها ، أي تصريحًا وإعلانًا ، لا على وجه الفخر بل على وجه تعظيم النعمة والفرح بها وذكرها ونشرها والتحدث بها ، والترغيب فيها وغير ذلك من المقاصد في إظهارها ، كما قال النبي ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع مشفع ولا فخر » (٤) .

---

(١) الترمذي (٣٢٧٠) في تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الحجرات .

(٢) الترمذي (٣٢٧١) في تفسير القرآن الكريم ، باب : ومن سورة الحجرات .

(٣) تهذيب السنن (٨/ ١٥ ، ١٦) .

(٤) مسلم (٢٢٧٨ / ٣) في الفضائل ، باب : تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق ، وأبو داود (٤٦٧٣) في السنن، باب : في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وقال سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه : أنا أول من رمى بسهم فى سبيل الله . وقال أبو ذر رضي الله عنه : لقد أتى على كذا وكذا وإنى لثالث الإسلام . وقال على رضي الله عنه : إنه لعهد النبى الأمى إلىَّ : أنه لا يحبنى إلا مؤمن ، ولا يبغضنى إلا منافق . وقال عمر رضي الله عنه : وافقت ربى فى ثلاث . وقال على رضي الله عنه ـ وأشار إلى صدره : إن هاهنا علمًا جماً ،لو أصبت له حَمَلَة . وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أخذت من فى رسول الله ﷺ سبعين سورة ، وإن زيداً ليلعب مع الغلمان .وقال أيضا : ما من كتاب الله آية إلا وأنا أعلم أين نزلت ؟ وماذا أريد بها ، ولو أعلم أن أحدًا أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لرحلت إليه . وقال بعض الصحابة : لأن تختلف فى الأسنة أحب إلىَّ من أن أحدث نفسى فى الصلاة بغير ما أنا فيه .وهذا أكثر من أن يذكر .

والصادق تختلف عليه الأحوال ، فتارة يبوح بما أولاه ربه ومنَّ به عليه .لا يطيق كتمان ذلك ، وتارة يخفيه ويكتمه لا يطيق إظهاره ، فتارة يقبض وتارة يبسط وينشط ، وتارة يجد لسانًا قائلاً لا يسكت ، وتارة لا يقدر أن ينطق بكلمة ، وتارة تجده ضاحكًا مسرورًا ، وتارة باكيًا حزينًا ، وتارة يجد جمعية لا سبيل للتفرقة عليها ، وتارة تفرقة لا جمعية معها ، وتارة يقول : واطرباه : وأخرى يقول : واحرباه ؛ بخلاف من هو على لون واحد لا يوجد على غيره ، فهذا لون والصادق لون (١) .

## فصل
## فى النهى عن الاطلاع فى بيت قوم بغير إذنهم

من اطلع فى بيت قوم من ثقب أو شق فى الباب بغير إذنهم فنظر حرمة أو عورة ، فلهم خذفه وطعنه فى عينه ، فإن انقلعت عينه فلا ضمان عليهم . قال القاضى أبو يعلى : هذا ظاهر كلام أحمد أنهم يدفعونه ولا ضمان عليهم من غير تفصيل . وفصل ابن حامد فقال: يدفعه بالأسهل فالأسهل ، فيبدأ بقوله :انصرف واذهب وإلا نفعل بك كذا . قلت : وليس فى كلام أحمد ولا فى السنة الصحيحة ما يقتضى هذا التفصيل ، بل الأحاديث الصحيحة تدل على خلافه ، فإن فى « الصحيحين » عن أنس أن رجلاً اطلع من جحر فى بعض حجر النبى ﷺ ، فقام إليه بمشقص أو بمشاقص ، وجعل يختله ليطعنه(٢)، فأين

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٢٤) .

(٢) البخارى (٦٩٠٠) فى الديات ، باب : من اطلع فى بيت قوم ففقؤوا عينه فلا دية له ، ومسلم (٢١٥٧ / ٤٢) فى الآداب ، باب : تحريم النظر فى بيت غيره .

الدفع بالأسهل وهو ﷺ يختله أو يختبئ له ويختفى ليطعنه .

وفى« الصحيحين » أيضًا : من حديث سهل بن سعد أن رجلاً اطلع فى جحر فى باب النبى ﷺ ، وفى يد النبى ﷺ مدرى يحك به رأسه ، فلما رآه قال : « لو أعلم أنك تنظرنى لطعنت به فى عينك ، إنما جُعل الإذن من أجل البصر » (١) .

وفيهما أيضًا : عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن ، فخذفته بحصاة ففقأت عينه ، لم يكن عليك جناح » (٢) .

وفيهما أيضًا : « من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم ففقؤوا عينه ، فلا دية له ولا قصاص » (٣) . وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وقال : ليس هذا من باب دفع الصائل ، بل من باب عقوبة المعتدى المؤذى (٤) .

## فصل
## فى النهى عن قول : راعنا

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾ [البقرة : ١٠٤] : نهاهم ـ سبحانه ـ أن يقولوا هذه الكلمة ـ مع قصدهم بها الخير ـ لئلا يكون قولهم ذريعة إلى التشبه باليهود فى أقوالهم وخطابهم ؛ فإنهم كانوا يخاطبون بها النبى ﷺ ويقصدون بها السب ، يقصدون فاعلا من الرعونة ، فنهى المسلمون عن قولها ؛ سداً لذريعة المشابهة ، ولئلا يكون ذلك ذريعة إلى أن يقولها اليهود للنبى ﷺ تشبها بالمسلمين ، يقصدون بها غير ما يقصده المسلمون ، ولئلا يخاطب بلفظ يحتمل معنى فاسداً (٥) .

## فصل
## فى النهى عن البول فى الجُحْر

إنه ﷺ نهى عن البول فى الجحر ، وما ذاك إلا لأنه قد يكون ذريعة إلى خروج

(١) البخارى (٦٩٠١) فى الديات ، باب : من اطلع فى بيت قوم ففقؤوا عينه فلا دية له ، ومسلم (٢١٥٦ / ٤٠) فى الآداب ، باب : تحريم النظر فى بيت غيره .

(٢) البخارى (٦٩٠٢) فى الديات ، باب : من اطلع فى بيت قوم ففقؤوا عينه فلا دية له ، ومسلم (٢١٥٨ / ٤٣) فى الآداب ، باب : تحريم النظر فى بيت غيره .

(٣) النسائى (٤٨٦٠) فى القسامة ، باب : من اقتص وأخذ حقه دون السلطان ، وأحمد (٢ / ٣٨٥) ولم يعزه صاحب التحفة (٩ / ٣٠٧) للبخارى ومسلم .

(٤) زاد المعاد (٥ / ٤٠٥ ، ٤٠٦) .

(٥) إعلام الموقعين (٣ / ١٧٨) .

حيوان يؤذيه ، وقد يكون من مساكن الجن فيؤذيهم بالبول ، فربما آذوه (١) .

## فصل
## فى إطلاق السيد على البشر

اختلف الناس فى جواز إطلاق ( السيد ) على البشر ، فمنعه قوم ، ونقل عن مالك. واحتجوا بأنه ﷺ لما قيل له : يا سيدنا ، قال : « إنما السيد الله » (٢) . وجوز قوم ، واحتجوا بقول النبى ﷺ للأنصار : « قوموا إلى سيدكم » (٣) ، وهذا أصح من الحديث الأول . قال هؤلاء : السيد أحد ما يضاف إليه ، فلا يقال لتميمى : إنه سيد كندة ، ولا يقال لمالك : إنه سيد البشر . قال : وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم ، وفى هذا نظر ؛ فإن السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو بمعنى المالك والمولى والرب ، لا بالمعنى الذى يطلق على المخلوق والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم (٤) .

## فصل
## فى النهى عن قول : عبدى وأمتى

إنه ﷺ نهى الرجل أن يقول لغلامه وجاريته : عبدى ، وأمتى ، ولكن يقول : فتاى، وفتاتى (٥)، ونهى أن يقول لغلامه : وضىء ربك ، أطعم ربك(٦) ؛ سداً لذريعة الشرك فى اللفظ والمعنى ، وإن كان الرب هاهنا هو المالك كرب الدار ورب الإبل،فعدل عن لفظ ( العبد والأمة ) إلى لفظ (الفتى والفتاة ) ،ومنع من إطلاق لفظ الرب على

(١) إعلام الموقعين (٣ / ١٩٠) .
(٢) أبو داود (٤٨٠٦) فى الأدب ، باب : فى كراهية التمادح .
(٣) البخارى (٦٢٦٢) فى الاستئذان ، باب : قول النبى ﷺ : « قوموا إلى سيدكم » ، وأبو داود (٥٢١٥) فى الأدب ، باب : ما جاء فى القيام .
(٤) بدائع الفوائد (٣ / ٢١٣) .
(٥) البخارى (٢٥٥٢) فى العتق ، باب : كراهية التطاول على الرقيق ، ومسلم (٢٢٤٩ / ١٣) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب:حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد ، وأبو داود (٤٩٧٥) فى الأدب ، باب : لا يقول المملوك : « ربى وربتى » .
(٦) البخارى (٢٥٥٢) فى العتق ، باب : كراهية التطاول على الرقيق ، ومسلم (٢٢٤٩ / ١٥) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد .

السيد، حماية لجانب التوحيد ، وسداً لذريعة الشرك (١) .

## فصل
## فى النهى عن قول : خبثت نفسى

إنه ﷺ نهى أن يقول الرجل : خبثت نفسى ، ولكن ليقل : لقست نفسى(٢) ؛ سداً لذريعة اعتياد اللسان للكلام الفاحش ، وسداً لذريعة اتصاف النفس بمعنى هذا اللفظ ، فإن الألفاظ تتقاضى معانيها وتطلبها بالمشاكلة والمناسبة التى بين اللفظ والمعنى ؛ ولهذا قل من تجده يعتاد لفظاً إلا ومعناه غالب عليه ، فسد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذريعة الخبث لفظًا ومعنى ، وهذا أيضًا من ألطف الباب(٣) .

## فصل
## فى النهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو

إنه ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو (٤) ؛ فإنه ذريعة إلى أن تناله أيديهم كما علل به فى نفس الحديث (٥) .

## فصل
## فى قول : جمعنا الله وإياك فى مستقر رحمته

ومن مسائل أحمد بن أحرم بن خزيمة بن عباد بن عبد الله بن حسان بن عبد الله بن المغفل المزنى الصحابى :

سمعته وقال له رجل : جمعنا الله وإياك فى مستقر رحمته ، فقال : لا تقل هكذا .

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ١٩٤) .
(٢) سبق تخريجه ص ٢٠١ .
(٣) إعلام الموقعين (٣/ ١٩٤) .
(٤) البخارى (٢٩٩٠) فى الجهاد ، باب : كراهية السفر بالمصاحف إلى أرض العدو ، ومسلم (١٨٦٩ / ٩٢ ، ٩٣) فى الإمارة ، باب : النهى أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار إذا خيف وقوعه بأيديهم ، وأبو داود (٢٦١٠) فى الجهاد ، باب : فى المصحف يسافر به إلى أرض العدو .
(٥) إعلام الموقعين (٣/ ١٩٨) .

قلت : اختلف السلف فى هذه الدعوة ، وذكرها البخارى فى كتاب الأدب المفرد له ، وحكى عن بعض السلف أنه كرهها وقال : مستقر رحمته ذاته .هذا معنى كلامه وحجة من أجازها ولم يكرهها ، الرحمة هنا المراد الرحمة المخلوقة ومستقرها الجنة . وكان شيخنا يميل إلى هذا القول ، انتهى [١] .

## فصل

## فى النهى عن الاغتسال فى الخلاء بلا إزار

عن عطاء ـ وهو ابن أبى رباح ـ عن يعلى ـ وهو ابن أمية ـ أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يغتسل بالبراز بلا إزار ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ﷺ : « إن الله عز وجل حيى ستير يحب الحياء والستر ، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر » . وأخرجه النسائى[٢] .

وعن عطاء ، عن صفوان بن يعلى ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ بهذا الحديث . قال أبو داود : والأول أتم ، وأخرجه النسائى [٣] .

وأما الطريقان اللذان ذكرهما الترمذى : فأحدهما من طريق عبد الرزاق : حدثنا معمر عن أبى الزناد قال : أخبرنى ابن جرهد عن أبيه ـ فذكره ـ وقال الترمذى : هذا حديث حسن .

والطريق الثانية : من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل عن عبد الله بن جرهد الأسلمى عن أبيه عن النبى ﷺ : « الفخذ عورة » ثم قال : حسن غريب من هذا الوجه[٤] .

قال الترمذى : وفى الباب عن على ومحمد بن عبد الله بن جحش.

وحديث على: أشار إليه الترمذى : هو الذى ذكره أبو داود فى هذا الباب ، وقد

---

(١) بدائع الفوائد (٤ / ٧٢) .

(٢) أبو داود (٤٠١٢) فى الحمام ، باب : النهى عن التعرى ، والنسائى (٤٠٦) فى الغسل والتيمم ، باب : الاستتار عند الاغتسال .

(٣) أبو داود (٤٠١٣) فى الحمام ، باب : النهى عن التعرى ، والنسائى (٤٠٧) فى الغسل والتيمم ، باب : الاستتار عند الاغتسال .

(٤) الترمذى (٢٧٩٧ ، ٢٧٩٨) فى الأدب ، باب : ما جاء أن الفخذ عورة .

تقدم (١) .

وحديث محمد بن جحش : قد رواه الإمام أحمد فى مسنده ولفظه : مر رسول الله ﷺ على معمر وفخذاه مكشوفتان . فقال : « يامعمر ، غط فخذيك ، فإن الفخذين عورة» (٢) .

وفى مسند الإمام أحمد من حديث عائشة وحفصة ـ وهذا لفظ حديث عائشة : أن رسول الله ﷺ كان جالسًا كاشفًا عن فخذه ، فاستأذن أبو بكر ، فأذن له ، وهو على حاله، ثم استأذن عمر ، فأذن له ، وهو على حاله ، ثم استأذن عثمان فأرخى عليه ثيابه فلما قاموا قلت : يا رسول الله ، استأذن أبو بكر وعمر فأذنت لهما وأنت على حالك فلما استأذن عثمان أرخيت عليك ثيابك ؟ فقال : « يا عائشة ، ألا أستحى من رجل والله إن الملائكة لتستحى منه » (٣) .

وقد رواه مسلم فى صحيحه ، ولفظه عن عائشة : كان رسول الله ﷺ مضطجعًا كاشفًا عن فخذيه ، أو ساقيه . فاستأذن أبو بكر ، فأذن له ، وهو على تلك الحال ـ فذكر الحديث (٤) .

فهذا فيه الشك : هل كان كشفه عن فخذيه ، أو ساقيه؟

وحديث الإمام أحمد فيه الجزم بأنه كان كاشفًا عن فخذيه .

وفى صحيح البخارى من حديث أبى موسى الأشعرى : أن النبى ﷺ كان كاشفًا عن ركبتيه ـ فى قصة القف ـ فلما دخل عثمان غطاهما » (٥) .

وطريق الجمع بين هذه الأحاديث : ما ذكره غير واحد من أصحاب أحمد وغيرهم : أن العورة عورتان : مخففة ، ومغلظة ، فالمغلظة : السوأتان ، والمخففة : الفخذان .

ولا تنافى بين الأمر بغض البصر عن الفخذين لكونهما عورة ، وبين كشفهما لكونهما عورة مخففة ، والله تعالى أعلم (٦) .

---

(١) أى حديث عطاء رقم (٣٨٥٥) . انظر : تهذيب السنن (٦ / ١٥) ، أبو داود (٤٠١٥) فى الحمام ، باب : النهى عن التعرى ، وقال الألبانى : « ضعيف جدًا » .

(٢) أحمد (٥ / ٢٩٠) .

(٣) أحمد (٦ / ٦٢) .

(٤) مسلم (٢٤٠١ / ٢٦) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٥) البخارى معلقا ( الفتح ١ / ٤٧٨) فى الصلاة ، باب : ما يذكر فى الفخذ .

(٦) تهذيب السنن (٦ / ١٥ ـ ١٧) .

## فصل
## فى قول الرجل للرجل : فداك أبى وأمى

قلت (١) : يكره أن يقول الرجل للرجل فداك أبى وأمى ؟ قال (٢) : يكره أن تقول جعلنى الله فداك ولا بأس أن يقول : فداك أبى وأمى ، قال إسحاق : كما قال (٣) .

## وأيضا

قال أحمد فى رواية ابن منصور : يكره أن يقول للرجل : جعلنى الله فداك . ولا بأس أن يقول : فداك أبى وأمى (٤) .

## فصل
## فى النهى عن انحناء الرجل للرجل إذا لقيه

إن النبى ﷺ نهى الرجل أن ينحنى للرجل إذا لقيه (٥) ، كما يفعله كثير من المتسببين إلى العلم ممن لا علم له بالسنة ، بل يبالغون إلى أقصى حد الانحناء مبالغة فى خلاف السنة جهلا ، حتى يصير أحدهم بصورة الراكع لأخيه ، ثم يرفع رأسه من الركوع .

كما يفعل إخوانهم من السجود بين يدى شيوخهم الأحياء والأموات ؛ فهؤلاء أخذوا من الصلاة سجودها ، وأولئك ركوعها .

وطائفة ثالثة قيامها ، يقوم عليهم الناس وهم قعود كما يقومون فى الصلاة فتقاسمت الفرق الثلاث أجزاء الصلاة .

والمقصود أن النبى ﷺ نهى عن انحناء الرجل لأخيه ، سداً لذريعة الشرك ، كما نهى عن السجود لغير الله ، وكما نهاهم أن يقوموا فى الصلاة على رأس الإمام وهو جالس ، مع أن قيامهم عبادة لله تعالى ، فما الظن إذا كان القيام تعظيما للمخلوق وعبودية له ؟

---

(١) القائل : الفضل بن زياد القطان .
(٢) أى : الإمام أحمد رحمه الله .
(٣) بدائع الفوائد (٤ / ٨٠) .
(٤) بدائع الفوائد (٤ / ١٢٢) .
(٥) الترمذى (٢٧٢٨) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى المصافحة ، وقال : « حسن » ، وابن ماجه (٣٧٠٢) فى الأدب ، باب : المصافحة .

فالله المستعان (١) .

## فصل
## فى النهى عن التسمية بأفلح ونافع ورباح ويسار

إنه ﷺ نهى أن يسمى عبده بأفلح ونافع ورباح ويسار (٢) ؛ لأن ذلك قد يكون ذريعة إلى ما يكره من الطيرة بأن يقال ليس هاهنا يسار ، ولارباح ، ولا أفلح ، وإن كان إنما قصد اسم الغلام ، ولكن سداً لذريعة اللفظ المكروه الذى يستوحش منه السامع (٣) .

## فصل
## فى النهى عن التسمية باسم بَرَّة

أنه ﷺ نهى أن يسمى باسم برة (٤) ؛ لأنه ذريعه إلى تزكية النفس بهذا الاسم ، وإن كان إنما قصد العلمية (٥) .

## فصل جامع

قال معاذ : يا رسول الله ، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار ، قال : « لقد سألت عن عظيم ،وإنه ليسير على من يسره الله عليه ،تعبد الله ولا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » .

ثم قال : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ » قلت : بلى يا رسول الله ، قال : «الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل» .

ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله » .

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ١٩٩ ، ٢٠٠) .
(٢) أبو داود (٤٩٥٩) فى الأدب ، باب : فى تغيير الاسم القبيح .
(٣) إعلام الموقعين (٣/ ١٩٥) .
(٤) أبو داود (٤٩٥٣) فى الأدب ، باب : فى تغيير الاسم القبيح .
(٥) إعلام الموقعين (٣/ ١٩٥) .

ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » قلت : بلى يا رسول الله ، قال : « كف عليك هذا » ، وأشار إلى لسانه ، قلت : يا نبى الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال: « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم» . حديث صحيح (١) .

وسأله ﷺ أعرابى فقال : دلنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة ، قال : « تعبد الله لا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان»، فقال : والذى نفسى بيده لا أزيد على هذا ، ولا أنقص منه ، فلما ولى قال النبى ﷺ : « من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » . متفق عليه(٢).

وسأله ﷺ رجل آخر فقال : أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويبعدنى من النار ، فقال : « تعبد الله ولا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة ، وتصل الرحم » . متفق عليه (٣) .

وسأله أعرابى فقال : علمنى عملا يدخلنى الجنة ، فقال : « لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة ؛ أعتق النسمة ، وفك الرقبة » ، قال : أو ليسا واحداً ؟ قال : « لا، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين فى عتقها ، والمنحة الوكوف ، والفىء على ذى الرحم الظالم ، فإن لم تطق ذلك ، فأطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، فإن لم تطق ذلك ، فكف لسانك إلا من خير » . ذكره أحمد(٤) .

وسأله ﷺ رجل : ما الإسلام ؟ فقال : « أن يسلم قلبك لله ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » ،قال : فأى الإسلام أفضل ؟ قال : « الإيمان » ، قال : وما الإيمان ؟ قال:« تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت » ، قال: فأى الإيمان أفضل ؟ قال : « الهجرة » ، قال : وما الهجرة ؟ قال : « أن تهجر السوء » ، قال : فأى الهجرة أفضل ؟ قال : « الجهاد » ، قال : وما الجهاد ؟ قال : « أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم » ،

---

(١) الترمذى (٢٦١٦) فى الإيمان ، باب : ما جاء فى حرمة الصلاة ، وابن ماجه (٣٩٧٣) فى الفتن ، باب : كف اللسان فى الفتنة .

(٢) البخارى (١٣٩٧) فى الزكاة ، باب : وجوب الزكاة ، ومسلم (١٤ / ١٥) فى الإيمان ، باب : بيان الإيمان الذى يدخل به الجنة .

(٣) البخارى (١٣٩٦) فى الزكاة ، باب : وجوب الزكاة ، ومسلم (١٣ / ١٢) فى الإيمان ، باب : بيان الإيمان الذى يدخل به الجنة .

(٤) أحمد (٤ / ٢٩٩ ) .

قال : فأى الجهاد أفضل ؟ قال : « من عقر جواده ، وأهريق دمه ، ثم عملان هما أفضل الأعمال إلا من عمل بمثلهما ، حجة مبرورة أو عمرة » . ذكره أحمد(١) .

وسئل ﷺ :أى الأعمال أفضل ؟ فقال : « الإيمان بالله وحده ، ثم الجهاد ، ثم حجة مبرورة ، تفضل سائر العمل كما بين مطلع الشمس ومغربها » .

ذكره أحمد (٢) .

وسئل ﷺ أيضًا : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : « أن تحب لله ، وتبغض لله ، وتعمل لسانك فى ذكر الله » . قال السائل : وماذا يا رسول الله ؟ قال . « وأن تحب للناس ما تحب لنفسك ، وأن تقول خيراً أو تصمت »(٣) .

واختلف نفر من الصحابة فى أفضل الأعمال ؛فقال بعضهم : سقاية الحاج ، وقال بعضهم : عمارة المسجد الحرام ، وقال بعضهم : الحج ، وقال بعضهم : الجهاد فى سبيل الله ، فاستفتى عمر فى ذلك رسول الله ﷺ ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩)** ﴾ إلى قوله ﴿ **فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [ التوبة ] (٤) .

وسأله ﷺ رجل ، فقال : يا رسول الله ، شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وصليت الخمس ، وأديت زكاة مالى ، وصمت شهر رمضان ، فقال : « من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة ، هكذا ـ ونصب أصابعه ـ ما لم يعق والديه » . ذكره أحمد (٥) .

وسأله ﷺ آخر ، فقال : أرأيت إذا صليت المكتوبة ، وصمت رمضان ، وأحللت الحلال ، وحرمت الحرام ، ولم أزد على ذلك شيئًا ، أدخل الجنة ؟ قال : « نعم »، قال: والله لا أزيد على ذلك شيئًا . ذكره مسلم (٦) .

وسئل ﷺ : أى الأعمال خير ؟ قال : « أن تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من

(١) أحمد (٤ / ١١٤) . (٢) أحمد (٤ / ٣٤٢) .

(٣) أحمد (٥ / ٢٤٧) .

(٤) مسلم (١٨٧٩ / ١١١) فى الإمارة ، باب : فضل الشهادة فى سبيل الله ، وأحمد (٤ / ٢٦٩) .

(٥) الهيثمى فى المجمع (٨ / ١٥٠) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى العقوق وقال : « رواه أحمد والطبرانى بإسنادين ورجال أحد إسنادى الطبرانى رجاله رجال الصحيح » .

(٦) مسلم (١٦ / ٢٢) فى الإيمان ، باب : بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام .

عرفت وعلى من لم تعرف » . متفق عليه (١) .

وسأله ﷺ أبو هريرة ، فقال : إنى إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى ، فأنبئنى عن كل شىء ، فقال : « كل شىء خلق من ماء » ، قال : أنبئنى عن أمر إذا أخذت به دخلت الجنة ، قال : « أفش السلام ، وأطعم الطعام ،وصل الأرحام ، وقم بالليل والناس نيام ، ثم ادخل الجنة بسلام » . ذكره أحمد (٢) .

وسأله ﷺ آخر فشكا إليه قسوة قلبه ، فقال : « إذا أردت أن يلين قلبك ، فأطعم المسكين ، وامسح رأس اليتيم » (٣) .

وسئل ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ قال : « طول القيام » ، قيل : فأى الصدقة أفضل؟ قال : « جهد المقل » ، قيل : فأى الهجرة أفضل ؟ قال : « من هجر ما حرم الله عليه » ، قيل : فأى الجهاد أفضل ؟ قال : « من جاهد المشركين بماله ونفسه » ، قيل : فأى القتل أشرف ؟ قال : « من أهريق دمه وعقر جواده » . ذكره أبو داود (٤) .

وسئل ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ قال : « إيمان لا شك فيه ، وجهاد لا غلول فيه، وحج مبرور » (٥) .

وسأله ﷺ أبو ذر فقال : من أين أتصدق وليس لى مال ؟ قال : « إن من أبواب الصدقة التكبير ، وسبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، وأستغفر الله ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتعزل الشوكة عن طريق الناس والعظم والحجر ، وتهدى الأعمى ، وتسمع الأصم والأبكم ، حتى يفقه ، وتدل المستدل على حاجة له قد علمت مكانها ، وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث ، وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف ، كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك ، ولك من جماعك لزوجتك أجر » ، فقال أبو ذر : فكيف يكون لى أجر فى شهوتى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أرأيت لو كان لك ولد ؛ ورجوت أجره فمات ، أكنت تحتسب به ؟ » قلت : نعم ، قال : « أنت خلقته ؟ » قلت : بل الله خلقه ، قال : « فأنت هديته ؟ » قلت : بل الله هداه ، قال : « فأنت

---

(١) البخارى (٢٨) فى الإيمان ، باب : إفشاء السلام من الإسلام ، ومسلم (٣٩ / ٦٣) فى الإيمان ، باب : بيان تفاضل الإسلام ، وأى أموره أفضل .

(٢) أحمد (٢ / ٢٩٥) ، وصححه الشيخ شاكر (٧٩١٩) .

(٣) أحمد (٢ / ٢٦٣) ، وضعفه الشيخ شاكر (٧٥٦٦) .

(٤) أبو داود (١٤٤٩) فى الصلاة ، باب : فى فضل التطوع فى البيت ، وقال الشيخ الألبانى : « صحيح بلفظ : أى الصلاة » .

(٥) النسائى (٤٩٨٦) فى الإيمان ، باب : ذكر أفضل الأعمال .

كنت رزقته ؟ » قلت : بل الله كان يرزقه ، قال : « فكذلك ، فضعه فى حلاله وجنبه حرامه ، فإن شاء الله أحياه وإن شاء الله أماته ، فلك أجره » . ذكره أحمد (١) .

وسأل ﷺ أصحابه يومًا : « من أصبح منكم اليوم صائمًا ؟ » قال أبو بكر : أنا ، قال: « من اتبع منكم اليوم جنازة ؟ » قال أبو بكر : أنا ، قال : « من أطعم منكم اليوم مسكينًا ؟ » قال أبو بكر : أنا ، قال : « فمن عاد منكم اليوم مريضًا ؟ » قال أبو بكر : أنا، قال رسول الله ﷺ : « ما اجتمعن فى رجل إلا دخل الجنة » . ذكره مسلم (٢) .

وسئل ﷺ : يا رسول الله ، الرجل يعمل العمل فيستره ، فإذا اطلع عليه أعجبه ، فقال : « له أجران : أجر السر ، وأجر العلانية » . ذكره الترمذى (٣) .

وسأله ﷺ أبو ذر : يا رسول الله ، أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه ؟ قال : « تلك عاجل بشرى المؤمن » . ذكره مسلم (٤) .

وسأله ﷺ رجل :أى العمل أفضل ؟ فقال : « الإيمان بالله ، وتصديق به ، وجهاد فى سبيله » . قال : أريد أهون من ذلك يا رسول الله ، قال : « السماحة والصبر » ، قال : أريد أهون من ذلك ، قال : « لا تتهم الله تعالى فى شىء قضى لك » . ذكره أحمد(٥) .

وسأله ﷺ عقبة عن فواضل الأعمال ، فقال : « يا عقبة ، صل من قطعك ، وأعط من حرمك ، وأعرض من عمن ظلمك » . ذكره أحمد (٦) (٧) .

## وأيضًا

سأله ﷺ حمزة بن عبد المطلب فقال : اجعلنى على شىء أعيش به ، فقال رسول الله ﷺ : « يا حمزة ، نفس تحييها أحب إليك أم نفس تميتها ؟ » فقال : نفس أحييها ، قال : « عليك نفسك » .ذكره أحمد (٨) .

(١) أحمد (٥ / ١٦٨ ، ١٦٩) .
(٢) مسلم (١٠٢٨ / ١٢) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل أبى بكر الصديق رضي الله عنه .
(٣) الترمذى (٢٣٨٤) فى الزهد ، باب : عمل السر ، وقال : « حسن غريب » .
(٤) مسلم (٢٦٤٢ / ١٦٦) فى البر والصلة والآداب ، باب : إذا أثنى على الصالح فهى بشرى ولا تضره .
(٥) أحمد (٥ / ٣١٨ ، ٣١٩) .
(٦) أحمد (٤ / ١٤٨) .
(٧) إعلام الموقعين (٤ / ٣٨٩ ـ ٣٩٤) .
(٨) أحمد (٢ / ١٧٥) ، وصححه الشيخ شاكر (٦٦٣٩) .

وسئل ﷺ : ما عمل الجنة ؟ قال : « الصدق ، فإذا صدق العبد بر ، وإذا بر آمن ، وإذا آمن دخل الجنة » (١) .

وسئل ﷺ : ما عمل أهل النار ؟ قال : « الكذب ، إذا كذب العبد فجر ، وإذا فجر كفر ، وإذا كفر دخل النار » (٢) .

وسئل ﷺ عن أفضل الأعمال ، فقال : « الصلاة » ، قيل : ثم مه ؟ قال : «الصلاة»، ثلاث مرات ، فلما غلب عليه قال : « الجهاد فى سبيل الله » ، قال الرجل : فإن لى والدين ، قال : « آمرك بالوالدين خيراً » ، قال : والذى بعثك بالحق نبيًا لأجاهدن ولأتركهما ، فقال : « أنت أعلم » . ذكره أحمد (٣) .

وسئل ﷺ عن الغرف التى فى الجنة يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، لمن هى ؟ قال : « لمن ألان الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات لله قائمًا والناس نيام » (٤) .

وسأله ﷺ رجل : أرأيت إن جاهدت بنفسى ومالى فقتلت صابراً محتسبًا ، مقبلا غير مدبر ، أدخل الجنة ؟ قال : « نعم » ، فقال ذلك مرتين أو ثلاثًا . قال : « إلا إن مت وعليك دين وليس عندك وفاؤه » (٥) ، وأخبرهم بتشديد أنزل ، فسألوه عنه ، فقال : «الدين ، والذى نفسى بيده ، لو أن رجلا قتل فى سبيل الله ، ثم عاش ، ثم قتل فى سبيل الله ، ثم عاش ، ثم قتل فى سبيل الله ما دخل الجنة حتى يقضى دينه » . ذكرهما أحمد (٦) .

وسأله ﷺ رجل عن أخيه مات وعليه دين ، فقال : « هو محبوس بدينه ، فاقض عنه » ، فقال : يا رسول الله ، قد أديت عنه إلا دينارين ادعتهما امرأة وليس لها بينة ، فقال : « أعطها فإنها محقة » . ذكره أحمد (٧) .

وفيه دليل على أن الوصى إذا علم بثبوت الدين على الميت جاز له وفاؤه وإن لم تقم به بينة .

وسألوه ﷺ أن يُسَعر لهم ، فقال : « إن الله هو الخالق القابض الباسط الرازق ،

(١ ، ٢) أحمد (٢ / ١٧٦) وصححه الشيخ شاكر (٦٦٤١) .
(٣) أحمد (٢ / ١٧٢) ، وصححه الشيخ شاكر (٦٦٠٢) .
(٤) أحمد (٢ / ١٧٣) ، وصححه الشيخ شاكر (٦٦١٥) .
(٥) أحمد (٣ / ٣٢٥) .
(٦) أحمد (٥ / ٢٨٩ ، ٢٩٠) .
(٧) أحمد (٥ / ٧) .

وإنى لأرجو أن ألقى الله ، ولا يطلبنى أحد بمظلمة ظلمتها إياه فى دم أو مال » . ذكره أحمد (١) (٢) .

## وأيضًا

سأله ﷺ رجل ، فقال : إنى أصبت ذنبًا عظيما ، فهل لى من توبة ؟ فقال : « هل لك من أم ؟ » قال : لا ، قال : « فهل لك من خالة ؟ » قال : نعم . قال : « فبرها » . ذكره الترمذى وصححه (٣) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان رجل من الأنصار أسلم ، ثم ارتد ولحق بالمشركين ، ثم ندم فأرسل إلى قومه : سلوا لى رسول ﷺ هل لى من توبة ؟ فجاء قومه إلى النبى ﷺ فقالوا : هل له من توبة ؟ فنزلت : ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)﴾[آل عمران] فأرسل إليه فأسلم. ذكره النسائى (٤) .

وسئل ﷺ عن رجل أوجب فقال : « أعتقوا عنه » . ذكره أحمد وقوله : أوجب ، أى : فعل ما يستوجب النار .

وسئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [ العنكبوت : ٢٩] قال : «كانوا يخذفون أهل الطريق ، ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذى كانوا يأتونه » . ذكره أحمد(٥) .

وسئل ﷺ : أيكون المؤمن جبانًا ؟ قال : « نعم » ، قالوا : أيكون بخيلا : قال : «نعم » ، قالوا : أيكون كذابًا ؟ قال : « لا » . ذكره مالك (٦).

وسألته ﷺ امرأة ، فقالت : إن لى ضرة ، فهل على جناح إن تشبعت من زوجى غير الذى يعطينى ؟ فقال : « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور » . متفق عليه (٧) .

---

(١) أحمد (٣ / ١٥٦) . (٢) إعلام الموقعين (٤ / ٤١٠ ، ٤١١) .

(٣) الترمذى (١٩٠٤) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى بر الخالة .

(٤) النسائى (٤٠٦٨) فى تحريم الدم ، باب : توبة المرتد .

(٥) أحمد (٦ / ٣٤١) .

(٦) مالك فى الموطأ ٢ / ٩٩٠ (١٩) فى الكلام ، باب : ما جاء فى الصدق والكذب .

(٧) البخارى (٥٢١٩) فى النكاح ، باب : المتشبع بما لم ينل وما ينهى من افتخار الضرة ، ومسلم (٢١٣٠ / ١٢٧) فى اللباس والزينة ، باب : النهى عن التزوير فى اللباس وغيره ، والتشبع بما لم يعط .

وفى لفظ : أقول : إن زوجى أعطانى ما لم يعطنى .

وسأله ﷺ رجل فقال : هل أكذب على امرأتى ؟ قال : « لا خير فى الكذب » ، فقال : يا رسول الله أعدها ، وأقول لها ، فقال رسول الله ﷺ : « لا جناح » . ذكره مالك [١] [٢] .

(١) مالك فى الموطأ ٢ / ٩٨٩ (١٥) فى الكلام ، باب : ما جاء فى الصدق والكذب .

(٢) إعلام الموقعين (٤ / ٤٩٢ ، ٤٩٣) .

# كتاب الفروق والمفارقات

# فصل
# فى الفرق بين السماع والاستماع

السامع : هو الذى يصل الصوت إلى مسامعه من دون قصد إليه ، والمستمع : المصغى بسمعه إليه ، والأول غير مذموم فيما يذم استماعه ولا ممدوح فيما يمدح استماعه ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [ القصص : ٥٥ ] فمدحهم على الإعراض عنه ولم يذمهم على سماعه إذا كان عن غير قصد منهم . وقال النبى ﷺ : « من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، صب فى أذنيه الآنك يوم القيامة » (١) أو كما قال ، وكذلك ما رواه الحافظ أبو بكر ومحمد بن محمد بن سليمان الباغندى فى الجزء الثانى من حديثه حدثنا أبو نعيم هو عبيد الله بن هشام الحلبى ـ وقال فيه أبو حاتم : صدوق ـ حدثنا ابن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :« من قعد إلى قينة يسمع منها صب يوم القيامة فى أذنيه الآنك » (٢) وفى بعض ألفاظه : « من قعد إلى قينة يستمع منها » وكذلك ما مدح من المستمع إنما هو الاستماع والإصغاء كقوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾[ الزمر ] وقال : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [ الأحقاف : ٢٩] وقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا ﴾ [الأعراف : ٢٠٤ ] .

ولا يختص بحاسة السمع بل يتعلق بحاسة السمع ، ويتعلق بحاسة الشم والنظر واللمس كذلك ، فإن المحرم لا يحرم عليه شىء من الطيب إذا حملته الريح وألقته فى خياشيمه ولا يجب عليه سد أنفه كذلك ، وإنما الذى منع منه القصد لشمه واستنشاقه وتروحه وهذا شىء، ومجرد شمه من غير قصد شىء آخر ، وكذلك النظر إنما المحرم منه قصد النظر وإتباع النظرة النظرة ، لا نظر الفجاءة ؛ ولهذا قال النبى ﷺ : « ولا تتبع النظرة النظرة ، فإنما لك الأولى وليست لك الأخرى » (٣) ، وقال على : سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة فأمرنى أن أصرف بصرى (٤) وكذلك اللمس إنما المحرم منه قصد مس

(١) البخارى (٧٠٤٢) فى التعبير ، باب : من كذب فى حلمه .
(٢) كنز العمال (٤٠٦٦٩) ، والجامع الصغير للسيوطى ( ٨٤٢٨ ) وضعفه .
(٣) أبو داود (٢١٤٩) فى النكاح ، باب : ما يؤمر به من غض البصر، والترمذى (٢٧٧٧) فى الأدب ، باب : ما جاء فى نظرة المفاجأة ، وقال : « حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث شريك » ، وأحمد ( ٥ / ٣٥٣) .
(٤) مسلم(٢١٥٩ / ٤٥) فى الآداب، باب : نظر الفجاة ، وأبو داود (٢١٤٨) فى النكاح ، باب : ما يؤمر به من غض البصر ،وأحمد (٤ / ٣٥٨) ، كلهم عن جرير .

بشرته بشرة المحرم فلو وقعت بشرته على بشرة المحرم من غير قصد لزحمة أو غيرها لمن يكن ذلك حرما (١) .

## فصل
## فى الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب

قد جاء فى كتاب الله تعالى ذكرهما مقترنين ، وذكر كلا منهما منفرداً عن الآخر . فالمقترنان كقوله تعالى ـ حاكيًا من عباده المؤمنين : ﴿ **رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣)** ﴾ [ آل عمران ] ، والمنفرد كقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢)** ﴾ [ محمد ] ، وقوله فى المغفرة ﴿ **وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾ [ محمد : ١٥ ] ، وكقوله : ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا** ﴾ [آل عمران : ١٤٧ ] ونظائره .

فههنا أربعة أمور : ذنوب ، وسيئات ، ومغفرة ، وتكفير .

**فالذنوب** : المراد بها الكبائر . والمراد بالسيئات : الصغائر : وهى ما تعمل فيه الكفارة، من الخطأ وما جرى مجراه . ولهذا جعل لها التكفير . ومنه أخذت الكفارة . ولهذا لم يكن لها سلطان ولا عمل فى الكبائر فى أصح القولين . فلا تعمل فى قتل العمد. ولا فى اليمين الغموس فى ظاهر مذهب أحمد وأبى حنيفة والدليل على أن السيئات هى الصغائر ، والتكفير لها : قوله تعالى ﴿ **إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا (٣١)** ﴾ [ النساء ] وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان : مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » (٢) .

ولفظ « المغفرة » أكمل من لفظ « التكفير » . ولهذا كان مع الكبائر ، والتكفير مع الصغائر . فإن لفظ « المغفرة » يتضمن الوقاية والحفظ ، ولفظ « التكفير » يتضمن الستر والإزالة . وعند الإفراد يدخل كل منهما فى الآخر ، كما تقدم . فقوله تعالى : ﴿ **كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ** ﴾ يتناول صغائرها وكبائرها ، ومحوها ووقاية شرها . بل التكفير المفرد يتناول

---

(١) الكلام ( ٤١٣ ـ ٤١٥ ) .

(٢) مسلم (٢٣٣ / ١٦) فى الطهارة ، باب : الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر ، والترمذى (٢١٤) فى الصلاة ، باب : ما جاء فى فضل الصلوات الخمس، وابن ماجه (٥٩٨) فى الطهاره وسننها ، باب : تحت كل شعرة جنابة .

أسوأ الأعمال، كما قال تعالى : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ (١) [ الزمر : ٣٥] .

## فصل
## فى الفرق بين المنة والحجة

إن العبد بين منة من الله عليه ، وحجة منه عليه ، ولا ينفك عنهما . فالحكم الدينى متضمن لمنته وحجته ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [ آل عمران : ١٦٤ ] ، وقال : ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ [ الحجرات : ١٧ ] ، وقال : ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ [ الأنعام : ١٤٩ ] .

والحكم الكونى أيضًا متضمن لمنته وحجته ، فإذا حكم له كونًا حكمًا مصحوبًا باتصال الحكم الدينى به فهو مِنَّة عليه . وإن لم يصحبه الدينى فهو حجة منه عليه .

وكذلك حكمه الدينى إذا اتصل به حكمه الكونى . فتوفيقه للقيام به منة منه عليه . وإن تجرد عن حكمه الكونى صار حجة منه عليه . فالمنة : باقتران أحد الحكمين بصاحبه . والحجة : فى تجرد أحدهما عن الآخر . فكل علم صحبه عمل يرضى الله سبحانه فهو منة، وإلا فهو حجة .

وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهى منة ، وإلا فهى حجة . وكل حال صحبه تأثير فى نصرة دينه ، والدعوة إليه فهو منة منه ، وإلا فهو حجة .

وكل مال اقترن به إنفاق فى سبيل الله وطاعته ، لا لطلب الجزاء ولا الشكور ، فهو منة من الله عليه ، وإلا فهو حجة .

وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه ، وإلا فهو حجة .

وكل قبول فى الناس ، وتعظيم ومحبة له ، اتصل به خضوع للرب ، وذل وانكسار ، ومعرفة بعيب النفس والعمل ، وبذل النصيحة للخلق فهو منة ، وإلا فهو حجة .

وكل بصيرة وموعظة وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد ، اتصل به عبرة ومزيد فى العقل ، ومعرفة فى الإيمان فهى منة ، وإلا فهى حجة .

وكل حال مع الله تعالى ، أو مقام اتصل به السير إلى الله ، وإيثار مراده على مراد العبد ، فهو منة من الله . وإن صحبه الوقوف عنده والرضا به ، وإيثار مقتضاه ، من لذة

---

(١) مدارج السالكين (٣١٠ ـ ٣١٢) .

النفس به وطمأنينتها إليه ، وركونها إليه ، فهو حجة من الله عليه .

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر ، ويميز بين مواقع المنن والمحن ، والحجج والنعم . فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك . ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣)﴾ [ البقرة ] (١) .

## فصل
## فى الفرق بين النعمة المطلقة ومطلق النعمة

إن النعمة المطلقة هى الموجبة للفلاح الدائم ، وأما مطلق النعمة : فعلى المؤمن والكافر ، فكل الخلق فى نعمه . وهذا فصل النزاع فى مسألة : هل لله على الكافر من نعمة أم لا ؟ فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان ، ومطلق النعمة تكون للمؤمن والكافر ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [ إبراهيم ] .

والنعمة من جنس الإحسان ، بل هى الإحسان ، والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر ، والمؤمن والكافر .

وأما الإحسان المطلق : فللذين اتقوا والذين هم محسنون(٢) .

## فصل
## فى الفرق بين الشك والريب

الفرق بين الشك والريب من وجوه :

**أحدها:** أنه يقال : شك مريب ، ولا يقال : ريب مشكك .

**الثانى :** أن يقال : رابنى أمر كذا ، ولا يقال : شككنى .

**الثالث :** أنه يقال : رابه يريبه إذا أزعجه وأقلقه ، ومنه قول النبى ﷺ وقد مر بظبى خافت فى أصل شجرة : « لا يريبه أحد » (٣) . ولا يحسن هنا لا يشككه أحد .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ١٧٢ ، ١٧٣) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ١٢ ، ١٣) .

(٣) النسائى (٢٨١٨) فى الحج ، باب : ما يجوز للمحرم أكله من الصيد ، ومالك ١ / ٣٥١ (٧٩) فى الحج ، باب : ما يجوز للمحرم أكله من الصيد .

**الرابع** : أنه لا يقال للشاك فى طلوع الشمس أو فى غروبها أو دخول الشهر أو وقت الصلاة : هو مرتاب فى ذلك ، وإن كان شاكا فيه .

**الخامس** :أن الريب ضد الطمأنينة واليقين فهو قلق واضطراب وانزعاج ، كما أن اليقين والطمأنينة ثبات واستقرار .

**السادس** : يقال : رابنى مجيئه وذهابه وفعله ، ولا يقال : شككنى ، فالشك سبب الريب ، فإنه يشك أولا فيوقعه شكه فى الريب ، فالشك مبتدأ الريب ، كما أن العلم مبتدأ اليقين (١) .

## فصل
## فى الفرق بين دليل مشروعية الحكم ودليل وقوعه

الفرق بين دليل مشروعية الحكم وبين دليل وقوع الحكم: فالأول متوقف على الشارع، والثانى يعلم بالحس أو الخبر أو الزيادة ، فالأول الكتاب والسنة ليس إلا ، وكل دليل سواهما يستنبط منهما ، والثانى مثل العلم بسبب الحكم وشروطه وموانعه فدليل مشروعيته يرجع فيه إلى أهل العلم بالقرآن والحديث ، ودليل وقوعه يرجع فيه إلى أهل الخبرة بتلك الأسباب والشروط والموانع .

ومن أمثلة ذلك : بيع المغيب فى الأرض من السلجم والجزر والقلقاس وغيره ، فدليل المشروعية أو منعها موقوف على الشارع لا يعلم إلا من جهته ، ودليل سبب الحكم أو شروطه أو مانعه يرجع فيه إلى أصله ، فإذا قال المانع من الصحة : هذا غرر ؛ لأنه مستور تحت الأرض ، قيل :كون هذا غررًا أو ليس بغرر يرجع إلى الواقع لا يتوقف على الشرع ، فإنه من الأمور العادية المعلومة بالحس أو العادة ، مثل كونه صحيحًا أو سقيما وكبارا أو صغارا ونحو ذلك ، فلا يستدل على وقوع أسباب الحكم بالأدلة الشرعية كما لا يستدل على شرعيته بالأدلة الحسية ، فكون الشىء مترددا بين السلامة والعطب ، وكونه مما يجهل عاقبته وتطوى مغبته أو ليس كذلك ، يعلم بالحس أو العادة ، لا يتوقف على الشرع ، ومن استدل على ذلك بالشرع فهو كمن استدل على أن هذا الشراب مسكر بالشرع،وهذا ممتنع ، بل دليل إسكاره الحس ، ودليل تحريمه الشرع .

فتأمل هذه الفائدة ونفعها ، ولهذه القاعدة عبارة أخرى وهى : أن دليل سببية الوصف

(١) بدائع الفوائد (٤ / ١٠٦) .

غير دليل ثبوته ، فيستدل على سببيته بالشرع وعلى ثبوته بالحس أو العقل أو العادة ، فهذا شيء وذلك شيء (١) .

## فصل
## فى الفرق بين المسبية والأمة فى الاستمتاع

قد ذكر الإمام أحمد رضي الله عنه أن عبد الله بن عمر وقع فى سهمه يوم جَلولاء جارية كأن عنقها إبريق فضة ، قال عبد الله : « فما صبرت أن قبلتها والناس ينظرون » ، وبهذا احتج الإمام أحمد على جواز الاستمتاع من المسبية قبل الاستبراء بغير الوطء ، بخلاف الأمة المشتراة .

والفرق بينهما أن انفساخ الملك لا يتوهم فى المسبية ، بخلاف المشتراة ؛ فقد ينفسخ فيها الملك ، فيكون مستمتعًا بأمة غيره (٢) .

## فصل فى تفاوت درجات العشق
## والعشاق ثلاثة أقسام :

منهم من يعشق الجمال المطلق .

ومنهم من يعشق الجمال المقيد ، سواء طمع فى وصاله أو لا .

ومنهم من لا يعشق إلا من يطمع فى وصاله .

وبين هذه الأنواع الثلاثة تفاوت فى القوة والضعف .

فعاشق الجمال المطلق ، يهيم قلبه فى كل واد ، وله فى كل صورة جميلة مراد :

فَيَوْماً بِحزْوَى ، وَيَوْماً بِالْعَقِيقِ وبالْـ ... عَذِيبِ يَوْماً ، وَيَوْماً بِالْخُلَيْصَاءِ

وَتَارَةً يَنْتَحِي نَجْداً وآونَةً ... شِعْبَ الْعَقِيقِ وَطَوْراً قَصْرَ تَيْمَاءِ

فهذا عشقه أوسع ، ولكنه غير ثابت كثير التنقل .

يَهِيمُ بِهذَا ثُمَّ يَعْشَقُ غَيْرَهُ ... وَيَسْلاَهُمْ مِنْ وَقْتِهِ حِينَ يُصْبِحُ

وعاشق الجمال المقيد أثبت على معشوقه ، وأدوم محبة له ، ومحبته أقوى من محبة الأول ، لاجتماعهما فى واحد ، ولكن يضعفهما عدم الطمع فى الوصال ، وعاشق الجمال

---

(١) بدائع الفوائد (٤ / ١٥) .

(٢) الداء والدواء (٣٩٦) .

الذى يطمع فى وصاله أعقل العشاق ، وحبه أقوى ؛ لأن الطمع يحده ويقوِّيه [١] .

## فصل
## فى الفرق بين الشهادة والرواية

الفرق بين الشهادة والرواية : أن الرواية يعم حكمها الراوى وغيره على ممر الأزمان ، والشهادة تخص المشهود عليه وله ولا يتعداهما إلا بطريق التبعية المحضة ، فإلزام المعين يتوقع منه العداوة وحق المنفعة والتهمة الموجبة للرد ، فاحتيط لها بالعدد والذكورية وردت بالقرابة والعداوة وتطرق التهم ، ولم يفعل مثل هذا فى الرواية التى يعم حكمها ولا يخص، فلم يشترط فيها عدداً ولا ذكورية ، بل اشترط فيها ما يكون مغلبا على الظن صدق المخبر ، وهو العدالة المانعة من الكذب ، واليقظة المانعة من غلبة السهو والتخليط . ولما كان النساء ناقصات عقل ودين لم يكنَّ من أهل الشهادة ، فإذا دعت الحاجة إلى ذلك قويت المرأة بمثلها ؛ لأنه حينئذ أبعد من سهوها وغلطها ؛ لتذكير صاحبتها لها وأما اشتراط الحرية ففى غاية البعد ، ولا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا إجماع . وقد حكى أحمد عن أنس ابن مالك أنه قال : ما علمت أحدًا رد شهادة العبد والله تعالى يقبل شهادته على الأمم يوم القيامة ، فكيف لا يقبل شهادته على نظيره من المكلفين ، ويقبل شهادته على الرسول ﷺ فى الرواية ، فكيف لا يقبل على رجل فى درهم . ولا ينتقض هذا بالمرأة ؛ لأنها تقبل شهادتها مع مثلها لما ذكرناه ، والمانع من قبول شهادتها وحدها منتفٍ فى العبد وعلى هذه القاعدة مسائل :

**أحدها** : الإخبار عن رؤية هلال رمضان من اكتفى فيه بالواحد جعله رواية لعمومه للمكلفين ، فهو كالأذان ، ومن اشترط فيه العدد ألحقه بالشهادة ؛ لأنه لا يعم الأعصار ولا الأمصار بل يخص تلك السنة وذلك المصر فى أحد القولين ، وهذا ينتقض بالأذان نقضا لا محيص عنه .

**وثانيها** : الإخبار بالنسب بالقافة ، فمن حيث أنه خبر جزئى عن شخص جزئى يخص ولا يعم جرى مجرى الشهادة ، ومن جعله كالرواية غلط فلا مدخل لها هنا ، بل الصواب أن يقال : من حيث هو منتصب للناس انتصابا عامًا يستند إلى أمر يختص به دونهم من الأدلة والعلامات جرى مجرى الحاكم ، فقوله حكم لا رواية . ومن هذا الجرح للمحدث والشاهد ، هل يكتفى فيه بواحد إجراءً له مجرى الحكم ؟ أو لابد من اثنين إجراء له مجرى الشهادة على الخلاف ؟ وأما أن يجرى مجرى الرواية فغير صحيح ، وأما للرواية والجرح وإنما هو يجرحه باجتهاده لا بما يرويه عن غيره .

(١) الداء والدواء (٤٠٠ / ٤٠١) .

**ومنها** : الترجمة للفتوى والخط والشهادة وغيرها هل يشترط فيها التعدد ؟ مبنى على هذا ، ولكن بناؤه على الرواية والشهادة صحيح ولا مدخل للحكم هنا .

ومنها : التقويم للسلع ،من اشترط العدد رآه شهادة ، ومن لم يشترطه أجراه مجرى الحكم لا الراوية .

**ومنها** : القاسم ، هل يشترط تعدده على هذه القاعدة ؟ والصحيح الاكتفاء بالواحد ؛ لقصة عبد الله بن رواحة .

**ومنها** : تسبيح المصلى بالإمام ، هل يشترط أن يكون المسبح اثنين ؟ فيه قولان مبنيان على هذه القاعدة .

**ومنها** : المخبر عن نجاسة الماء ، هل يشترط تعدده ؟ فيه قولان .

**ومنها** : الخارص ، والصحيح فى هذا كله الاكتفاء بالواحد كالمؤذن وكالمخبر بالقبلة ، وأما تسبيح المأموم بإمامه ففيه نظر .

**ومنها** : المفتى يقبل واحدا اتفاقا .

**ومنها** : الإخبار عن قدم العيب وحدوثه عند التنازع ، والصحيح الاكتفاء فيه بالواحد كالتقويم والقائف ، وقالت المالكية لابد من اثنين ، ثم تناقضوا فقالوا : إذا لم يوجد مسلم قُبل من أهل الذمة (١) .

## فصل
## فى الفرق بين حقوق المالك وحقوق الملك

حقوق المالك شىء وحقوق الملك شىء آخر ، فحقوق المالك تجب لمن له على أخيه حق ، وحقوق الملك تتبع الملك ولا يراعى بها المالك . وعلى هذا ، حق الشفعة للذمى على المسلم من أوجبه جعله من حقوق الأملاك ، ومن أسقطه جعله من حقوق المالكين ، والنظر الثانى أظهر وأصح ؛لأن الشارع لم يجعل للذمى حقًا فى الطريق المشترك عند المزاحمة فقال : « إذا لقيتموهم فى طريق فاضطروهم إلى أضيقه » (٢) ، فكيف يجعل له حقا فى انتزاع الملك المختص به عند التزاحم ؟ وهذه حجة الإمام أحمد نفسه ، وأما حديث « لا شفعة لنصرانى » فاحتج به بعض أصحابه ، وهو أعلم من أن يحتج به، فإنه من كلام بعض التابعين (٣) .

---

(١) بدائع الفوائد (١ / ٥ ، ٦) .

(٢) أبو داود (٥٢٠٢) فى الأدب ، باب : فى السلام على أهل الذمة ، وأحمد ٢ / ٢٦٣ ، ٤٥٩ ، ٥٢٥ .

(٣) بدائع الفوائد (١ / ٢) .

## فصل
## فى الفرق بين تمليك المنفعة وتمليك الانتفاع

تمليك المنفعة شىء وتمليك الانتفاع شىء آخر ، فالأول يملك به الانتفاع والمعاوضة ، والثانى يملك به الانتفاع دون المعاوضة ، وعليها إجارة ما استأجره ؛ لأنه ملك المنفعة ، بخلاف المعاوضة على البضع فإنه لم يملكه وإنما ملك أن ينتفع به ، وكذلك إجارة ما ملك أن ينتفع به من الحقوق كالجلوس بالرحاب وبيوت المدارس والرُّبُط ونحو ذلك لا يملكها ؛ لأنه لم يملك المنفعة ، وإنما ملك الانتفاع . وعلى هذا الخلاف تُخَرَّجُ إجارة المستعار ، فمن منعها ـ كالشافعى وأحمد ومن تبعهما قال : لم يملك المنفعة ، وإنما ملك الانتفاع ، ومَن جوزها ـ كمالك ومن تبعه قال : هو قد مَلك المنفعة ؛ ولهذا يلزم عنده بالتوقيت ، ولو أطلقها لزمت فى مدة ينتفع بمثلها عرفا فليس له الرجوع قبلها (١) .

## فصل
## فى الفرق بين ثمرة الطاعة وثمرة المعصية

كل ما تولَّد من الطاعة فهو زيادة لصاحبها وقربة ، وكل ما تولَّد عن المعصية فهو خسران لصاحبه وبُعد ، قال تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)** ﴾ [ التوبة ] .

فأخبر ـ سبحانه ـ فى الآية الأولى : أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح .

وأخبر فى الثانية : أن أعمالهم الصالحة التى باشروها تكتب لهم أنفسها ، والفرق بينهما : أن الأول ليس من فعلهم ، وإنما تولد عنه ، فكتب لهم به عمل صالح ، والثانى

(١) بدائع الفوائد (١ /٣) .

نفس أعمالهم فكتب لهم [١] .

## فصل
## فى الفرق بين اللذة المذمومة واللذة المحمودة

اللذة والسرور والفرح أمر مطلوب فى نفسه ، بل هو مقصود كل حى وعاقل ، وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهى تذم إذا أعقبت ألماً أعظم منها ، أو منعت لذة خيراً منها وأجلَّ ، فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات ، وفَوَّتَتْ أعظم اللذات والمسرات ؟ وتحمد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لا تنغيص فيها ولا نكد بوجه ما ، وهى لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها ، قال الله تعالى : ﴿ **بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾** ﴾ [ الأعلى ] . وقال السحرة لفرعون لما آمنوا : ﴿ **فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾** ﴾ [ طه ] [٢] .

## فصل
## فى الفرق بين العلم والمعرفة

والفرق بين العلم والمعرفة لفظا ومعنى . أما اللفظ : ففعل المعرفة يقع على مفعول واحد . تقول : عرفت الدار ، وعرفت زيداً . قال تعالى ﴿ **فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ** ﴾ [يوسف : ٥٨ ] ، وقال ﴿ **يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ** ﴾ [ الأنعام : ٢٠ ] وفعل « العلم » يقتضى مفعولين ، كقوله تعالى : ﴿ **فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ** ﴾ [ الممتحنة: ١٠ ] وإن وقع على مفعول واحد ، كان بمعنى المعرفة، كقوله ﴿ **وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾ [ الأنفال : ٦٠ ] وأما الفرق المعنوى فمن وجوه :

**أحدها** : أن « المعرفة » تتعلق بذات الشىء ، و« العلم » يتعلق بأحواله .

فتقول : عرفت أباك ، وعلمته صالحًا عالمًا . ولذلك جاء الأمر فى القرآن بالعلم دون

---

(١) الداء والدواء (٣٤٤ ، ٣٤٥) .

(٢) الداء والدواء (٣٨٦) .

المعرفة ، كقوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [ محمد : ١٧] وقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [ المائدة : ٩٨ ] ، وقوله : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [ هود : ١٤ ] .

فالمعرفة : حضور صورة الشىء ومثاله العلمى فى النفس ، والعلم : حضور أحواله وصفاته ، ونسبتها إليه . فالمعرفة : تشبه التصور . والعلم : يشبه التصديق .

**الثانى** : أن « المعرفة » ـ فى الغالب ـ تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه .

فإذا أدركه قيل : عرفه ، أو تكون لما وصف له بصفات قامت فى نفسه . فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها ، قيل : عرفه ، قال الله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [ يونس : ٤٥ ] ، وقال تعالى: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨)﴾ [ يوسف : ٥٨] ، وقال ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ﴾ الأنعام : ٢٠] لما كانت صفاته معلومة عندهم ، فرأوه : عرفوه بتلك الصفات . وفى الحديث الصحيح : « إن الله تعالى يقول لآخر أهل الجنة دخولا : أتعرف الزمان الذى كنت فيه ؟ فيقول : نعم . فيقول : تَمنَّ . فيتمنى على ربه »[1] .

وقال تعالى : ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [ البقرة : ٨٩ ] فالمعرفة : تشبه الذكر للشىء . وهو حضور ما كان غائبًا عن الذكر ؛ ولهذا كان ضد المعرفة : الإنكار . وضد العلم : الجهل ، قال تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [ النحل : ٨٣] ويقال : عرف الحق فأقر به . وعرفه فأنكره .

**الثالث** : من الفرق : أن « المعرفة » تفيد تمييز المعروف عن غيره ، و « العلم » يفيد تمييز ما يوصف به عن غيره . وهذا الفرق غير الأول ، فإن ذاك يرجع إلى إدراك الذات وإدراك صفاتها . وهذا يرجع إلى تخليص الذات من غيرها ، وتخليص صفاتها من صفات غيرها .

**الرابع** : أنك إذا قلت : علمت زيداً ، لم يفد المخاطب شيئًا ؛ لأنه ينتظر بعد أن تخبره على أى حال علمته؟فإذا قلت: كريماً أو شجاعًا ، حصلت له الفائدة . وإذا قلت : عرفت زيداً ،استفاد المخاطب : أنك أثبته وميزته عن غيره . ولم يبق منتظراً لشىء آخر . وهذا الفرق فى التحقيق إيضاح للفرق الذى قبله .

---

(١) مسلم (١٨٦ / ٣٠٩) فى الإيمان ، باب : آخر أهل النار خروجًا ، والترمذى (٢٥٩٥) فى صفة جهنم ، باب: آخر أهل النار خروجًا .

الخامس : وهو فرق العسكرى فى فروقه ـ وفروق غيره : أن « المعرفة » علم بعين الشىء مفصلا عما سواه ، بخلاف « العلم » فإنه قد يتعلق بالشىء مجملاً . وهذا يشبه فرق صاحب المنازل ، فإنه قال : « المعرفة إحاطة بعين الشىء كما هو » وعلى هذا الحد : فلا يتصور أن يُعرف الله البتة . ويستحيل عليه هذا الباب بالكلية ، فإن الله ـ سبحانه ـ لا يحاط به علمًا ، ولا معرفة ولا رؤية . فهو أكبر من ذلك وأجل وأعظم ، قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) ﴾ [ طه ] بل حقيقة هذا الحد: انتفاء تعلق المعرفة بأكبر المخلوقات حتى بأظهرها ، وهو الشمس والقمر ، بل لا يصح أن يعرف أحد نفسه وذاته البتة .

والفرق بين « العلم » و « المعرفة » عند أهل هذا الشأن : أن « المعرفة » عندهم هى العلم الذى يقوم العالم بموجبه ومقتضاه ، فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده ، بل لا يصفون بالمعرفة إلا من كان عالمًا بالله ، وبالطريق الموصل إلى الله ، وبآفاتها وقواطعها (١) .

# فصل

## فى الفرق بين البدعة واتباع الهوى

إنه ـ سبحانه وتعالى ـ جمع بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض بالباطل (٢) ؛ لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به ، وهو الخوض ، أو يقع فى العمل بخلاف الحق والصواب ، وهو الاستمتاع بالخلاق ، فالأول : البدع ، والثانى : اتباع الهوى ، وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء ، وبهما كذبت الرسل وعُصى الربُّ ودُخلت النارُ ، وحَلت العقوبات ، فالأول من جهة الشبهات ، والثانى من جهة الشهوات ، ولهذا كان السلف يقولون : احذروا من الناس صنفين ؛ صاحب هوى فتنته هواه ، وصاحب دنيا أعجبته دنياه .

وكانوا يقولون : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ، ويعملون بخلافه ، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم .

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ٣٣٥ ـ ٣٣٧) .

(٢) يقصد قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ [ التوبة : ٦٩].

وفى صفة الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عن الدنيا : ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه . أتته البدع فنفاها ، والدنيا فأباها ، وهذه حال أئمة المتقين الذين وصفهم الله فى كتابه بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ﴾ [السجدة]، فبالصبر تترك الشهوات ، وباليقين تدفع الشبهات، كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ آخر العصر ، وقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) ﴾ [ص ] وفى بعض المراسيل : « إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات ، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات » (١) .

فقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ ﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات وهو داء العصاة .

وقوله : ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ إشارة إلى الشبهات ، وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات ، وكثيراً ما يجتمعان ، فقلَّ من تجده فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر فى عمله (٢) .

## فصل
## فى الفرق بين العبد الرسول والملك الرسول

إن الله ـ سبحانه ـ خيَّره ﷺ بين أن يكون عبدًا رسولاً ، وبين أن يكون ملكًا رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً .

والفرق بينهما أن العبدَ الرسولَ لا يتصرَّف إلا بأمر سيده ومُرْسِله ، والملك الرسول له أن يُعطىَ مَن يشاء ، ويمنعُ من يشاء ، كما قال تعالى للملك الرسول سليمان : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) ﴾ [ ص ] أى : أعطِ مَن شئت ، وامنع من شئت ، لا نحاسبك ، وهذه المرتبة هى التى عرضت على نبينا ﷺ فرغب عنها إلى ما هو أعلى منها، وهى مرتبة العبودية المحضة التى تصرُّف صاحبها فيها مقصور على أمر السيد فى كل دقيق وجليل (٣) .

---

(١) تذكرة الموضوعات للفتنى ص ١٨٨ .
(٢) إعلام الموقعين (١ / ١٤٨ ) .
(٣) زاد المعاد ( ٥ / ٨٣ ، ٨٤) .

## فصل
## فى الفرق بين هبة المرأة ليلتها لضرتها ، وهبتها لزوجها

إن للمرأة أن تهب ليلتها لضرتها ، فلا يجوز له جعلها لغير الموهوبة ، وإن وهبتها للزوج، فله جعلها لمن شاء منهن ، والفرق بينهما أن الليلة حق للمرأة ، فإذا أسقطتها ، وجعلتها لضرتها ، تعينت لها ، وإذا جعلتها للزوج ،جعلها لمن شاء من نسائه (١) .

## فصل
## فى الفرق بين قول الزوج « اختارى »
## وبين « أمرك بيدك »

فرق مالك بين « اختارى » وبين « أمرك بيدك » ، فجعل « أمـرك بيدك » تمليكا ، و« اختارى » تخييراً لا تمليكا .

قال أصحابه : وهو توكيل (٢) .

## فى الفرق بين تعليق الطلاق وتعليق العتق

فإن قيل : فما الفرق بين تعليق الطلاق وتعليق العتق ؟ فإنه لو قال : إن ملكت فلانًا فهو حر ، صحَّ التعليق وعتق بالملك ؟ قيل : فى تعليق العتق قولان ، وهما روايتان عن أحمد كما عنه روايتان فى تعليق الطلاق ، والصحيح من مذهبه الذى عليه أكثر نصوصه وعليه أصحابه : صحة تعليق العتق دون الطلاق .

والفرق بينهما : أن العتق له قوة وسراية ولا يعتمد نفوذ الملك ، فإنه ينفذ فى ملك الغير، ويصح أن يكون الملك سبباً لزواله بالعتق عقلاً وشرعًا ، كما يزول ملكه بالعتق عن ذى رحمه المحرم بشرائه ، وكما لو اشترى عبداً ليعتقه فى كفارة أو نذر أو اشتراه بشرط العتق ، وكل هذا يشرع فيه جعل الملك سبباً للعتق ، فإنه قربة محبوبة لله تعالى ، فشرع الله ـ سبحانه ـ التوسل إليه بكل وسيلة مقضية إلى محبوبه ، وليس كذلك الطلاق فإنه بغيض إلى الله ، وهو أبغض الحلال إليه ، ولم يجعل ملك البضع بالنكاح سبباً لإزالته

---

(١) زاد المعاد (٥ / ١٥٢) .

(٢) زاد المعاد (٥ / ٢٨٨) .

البتة .

وفرق ثان : أن تعليق العتق بالملك من باب نذر القرب والطاعات والتبرر، كقوله : لئن أتانى الله من فضله لأتصدقن بكذا وكذا . فإذا وجد الشرط لزمه ما علقه به من الطاعة المقصودة ، فهذا لون وتعليق الطلاق على الملك لون آخر (١) .

## فصل
## فى الفرق بين الشجاعة والقوة

وكثير من الناس تشتبه عليه الشجاعة بالقوة ، وهما متغايران ، فإن الشجاعة هى ثبات القلب عند النوازل وإن كان ضعيف البطش (٢) .

## فصل
## فى الفرق بين القاضى والمفتى

القاضى والمفتى مشتركان فى أن كلا منهما يجب عليه إظهار حكم الشرع فى الواقعة ، ويتميز الحاكم بالإلزام به وإمضائه ، فشروط الحاكم ترجع إلى شروط الشاهد والمفتى والوالى، فهو مخبر عن حكم الشارع بعلمه مقبول بعدالته منفذ بقدرته(٣) .

## فصل
## فى الفرق بين العائن والحاسد

العائن والحاسد يشتركان فى شىء ويفترقان فى شىء .

فيشتركان فى أن كل واحد منهما تتكيف نفسه وتتوجه نحو من يريد أذاه ، فالعائن تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته ، والحاسد يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضًا .

ويفترقان فى أن العائن قد يصيب من لا يحسده من جماد أو حيوان أو زرع أو مال ،

(١) زاد المعاد (٥ / ٢١٧ ، ٢١٨) .
(٢) الفروسية (٣٢) .
(٣) بدائع الفوائد (٤ / ٢٢) .

وإن كان لا يكاد ينفك من حسد صاحبه وربما أصابت عينه نفسه ؛ فإن رؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق مع تكيف نفسه بتلك الكيفية تؤثر فى المعين [١] .

## فصل
## فى الفرق بين الجنب والحائض

الحائض إذا انقطع دمها فهى كالجنب فيما يجب عليها ويحرم ، فيصح صومها وغسلها وتجب عليها الصلاة ، ولها أن تتوضأ وتجلس فى المسجد ، ويجوز طلاقها على أحد القولين إلا فى مسألة واحدة فإنها تخالف الجنب فيها وهى : جواز وطئها ؛ فإنه يتوقف على الاغتسال .

والفرق بينها وبين الجنب فى ذلك أن حدث الحيض أوجب تحريم الوطء وحدثه لا يزول إلا بالغسل ، بخلاف حدث الجنابة فإنه لا يوجب تحريم الوطء ، ولا يمكن ذلك فيه ألبتة . واستثنى بعض الفقهاء مسألة أخرى وهى نقض الشعر للغسل ، فإنه يجب على الحائض فى أحد القولين دون الجنب ، ولا حاجة إلى هذا الاستثناء ، فتأمله [٢] .

## فصل
## فى الفرق بين قتل تارك الصلاة وبين قتل الزانى والمحارب

الفرق بين قتل هذا [٣] حدًا ، وقتل الزانى والمحارب : أن قتل تارك الصلاة ، إنما هو على إصراره على الترك فى المستقبل ، وعلى الترك فى الماضى ، بخلاف المقتول فى الحد ، فإن سبب قتله الجناية المتقدمة على الحد ؛ لأنه لم يبق له سبيل إلى تداركها ، وهذا له سبيل الاستدراك بفعلها بعد خروج وقتها عند الأئمة الأربعة وغيرهم ، ومن يقول من أصحاب أحمد : لا سبيل له إلا الاستدراك ـ كما هو قول طائفة من السلف ـ يقول : القتل هاهنا على ترك ، فيزول الترك بالفعل : فأما الزنا والمحاربة ، فالقتل فيهما على فعل، والفعل الذى مضى لا يزول بالترك [٤] .

---

(١) بدائع الفوائد (٢ / ٢٣١) .
(٢) بدائع الفوائد (٣ / ٢٥٧) .
(٣) أى تارك الصلاة .
(٤) كتاب الصلاة (٢٠) .

# فصل
## فى الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة

الفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد فى نفسه وحاله مع غيره ، فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة داعى ما لا يحسن إن كان خلقًا له وملكة سمى صبراً ، وإن كان بتكلف وتمرن وتجرع لمرارته سمى تصبراً ، كما يدل عليه هذا البناء لغة ، فإنه موضوع للتكلف : كالتحلم والتشجع والتكرم والتحمل ونحوها .

وإذا تكلفه العبد واستدعاه صار سجية له ، كما فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : «ومن يتصبر يُصبره الله » (١) ، وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير التعفف له سجية، كذلك سائر الأخلاق .

وهى مسألة اختلف فيها الناس ، هل يمكن اكتساب واحد منها أم التخلق لا يصير خلقاً أبداً ؟ كما قال الشاعر :

يـراد مـن القـلب نسيانكـم ... وتأبى الطباع عـلى الـناقل

وقال آخر :

يـا أيهـا المتحلى غير شيمته ... إن التخلق يأتى دونـه الخـلق

فقبح التطبع شيمة المطبوع

قالوا : وقد فرغ الله ـ سبحانه ـ من الخفق والخلق والرزق والأجل .

وقالت طائفة أخرى : بل يمكن اكتساب الخلق كما يكتسب العقل والحلم والجود والسخاء والشجاعة والوجود شاهد بذلك .

وقالوا : والمزاولات تعطى الملكات ، ومعنى هذا : أن من زاول شيئاً واعتاده وتمرن عليه صار ملكة له وسجية وطبيعة . قالوا : والعوائد تنقل الطبائع ، فلا يزال العبد يتكلف التصبر حتى يصير الصبر له سجية ، كما أنه لا يزال يتكلف الحلم والوقار والسكينة والثبات حتى تصير له أخلاقاً بمنزلة الطبائع .

---

(١) البخارى (١٤٦٩) فى الزكاة ، باب : الاستعفاف عن المسألة ، ومسلم (١٠٥٣ / ١٢٤) فى الزكاة ، باب : فضل التعفف والصبر .

قالوا : وقد جعل الله ـ سبحانه ـ فى الإنسان قوة القبول والتعلم فنقل الطبائع عن مقتضياتها غير مستحيل ، غير أن هذا الانتقال قد يكون ضعيفاً فيعود العبد إلى طبعه بأدنى باعث ، وقد يكون قويًا ولكن لم ينقل الطبع ، فقد يعود إلى طبعه إذا قوى الباعث واشتد، وقد يستحكم الانتقال بحيث يستحدث صاحبه طبعاً ثانياً ، فهذا لا يكاد يعود إلى طبعه الذى انتقل عنه .

وأما الاصطبار : فهو أبلغ من التصبر ، فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب ، فالتصبر مبدأ الاصطبار ،كما أن التكسب مقدمة الاكتساب ، فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطباراً .

وأما المصابرة : فهى مقاومة الخصم فى ميدان الصبر ، فإنها مفاعلة تستدعى وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة ، قال الله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴿٢٠٠﴾﴾ [ آل عمران ] ، فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر فى نفسه ، والمصابرة وهى حاله فى الصبر مع خصمه ، والمرابطة وهى الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة ، فقد يصبر العبد ولا يصابر وقد يصابر ولا يرابط ، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى ، فأخبر ـ سبحانه ـ أن ملاك ذلك كله التقوى ، وأن الفلاح موقوف عليها فقال : ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴿٢٠٠﴾﴾ [ آل عمران ] ، فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذى يخاف هجوم العدو منه فى الظاهر ، فهى لزوم ثغر القلب ، لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته (١).

## فصل
## فى الفرق بين الأُمَّة والإمام

الفرق بين الأمة والإمام من وجهين :

**أحدهما** : أن « الإمام » كل ما يؤتم به ، سواء كان بقصده وشعوره أو لا ، ومنه سمى الطريق إماماً ، كقوله تعالى : ﴿ **وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ** ﴿٧٨﴾ **فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴿٧٩﴾﴾ [ الحجر ] أى بطريق واضح لا يخفى على السالك ، ولا يسمى الطريق أمة.

---

(١) عدة الصابرين (٣٦ ، ٣٧) .

**الثانى**:أن « الأمة » فيه زيادة معنى وهو الذى جمع صفات الكمال من العلم والعمل ، بحيث بقى فيها فردًا وحده ، فهو الجامع لخصال تفرقت فى غيره ، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها فى غيره . ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها ، وكذلك ضم أوله ، فإن الضمة من الواو ومخرجها ينضم عند النطق بها ، وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة ، ومنه الحديث : « إن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده » (١) فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة ، ومنه سميت الأمة التى هى آحاد الأمم ؛ لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو فى عصر واحد (٢) .

## فصل
## فى الفرق بين التفكر والتذكر

قال الحسن : ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت ، فإذا لها أسماع وأبصار .

فاعلم أن التفكر طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل منها ، هذا حقيقته ، فإنه لو لم يكن ثم مراد يكون مورداً للفكر استحال الفكر ؛ لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال ، وتلك المواد هى الأمور الحاصلة ، ولو كان المطلوب بها حاصلاً عنده لم يتفكر فيه .

فإذا عرف هذا فالمتفكر ينتقل من المقدمات والمبادئ التى عنده إلى المطلوب الذى يريده، فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغى إيثاره وما ينبغى اجتنابه ، فالتذكر هو مقصود التفكر وثمرته ، فإذا تذكر عاد بتذكره على تفكره فاستخرج ما لم يكن حاصلاً عنده ، فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره ، وبتذكره على تفكره ما دام عاقلاً ؛ لأن العلم والإرادة لا يقفان على حد بل هو دائماً سائر بين العلم والإرادة ، وإذا عرفت معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عمى القلب ، ويتذكر بها من غفلته ، فإن المضاد للعلم إما عمى القلب وزواله بالتبصر وإما غفلته وزواله بالتذكر (٣) .

---

(١) أحمد ١ / ١٨٩ ، ١٩٠ ، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٦٤٨) : « إسناده صحيح » .
(٢) مفتاح دار السعادة (١ / ١٧٤) . (٣) مفتاح دار السعادة ( ١ / ٢١٣ ) .

## فصل

## فى الفرق بين فعله سبحانه وبين فعل عباده الذى هو مفعوله

فرق بين فعله ـ سبحانه ـ الذى هو فعله وبين فعل عباده الذى هو مفعوله ، فمحبته تعالى وكراهته للأول توجب وقوعه وامتناعه ، وأما محبته وكراهته للثانى فلا توجب وقوعه ولا امتناعه ، فإنه يحب الطاعة والإيمان من عباده كلهم ، وإن لم تكن محبته موجبة لطاعتهم وإيمانهم جميعًا ، إذ لم يحب فعله الذى هو إعانتهم وتوفيقهم وخلق ذلك لهم ، ولو أحب ذلك لاستلزم طاعتهم وإيمانهم ، ويبغض معاصيهم وكفرهم وفسوقهم ، ولم تكن هذه الكراهة والبغض مانعة من وقوع ذلك منهم ، إذ لم يكره ـ سبحانه ـ خذلانهم وإضلالهم لما له فى ذلك من الغايات المحبوبة التى فواتها يستلزم فوات ما هو أحب إليه من إيمانهم وطاعتهم .

فالرب تعالى يحب من عباده الطاعة والإيمان ، ويحب مع ذلك من تضرعهم وتذللهم وتوبتهم واستغفارهم ومن توبته ومغفرته وعفوه وصفحه وتجاوزه ما هو ملزوم لمعاصيهم وذنوبهم ، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع ، وإذا عقل هذا فى حق المذنبين فيعقل مثله فى حق الكفار وإن خلقهم ، وإضلالهم لازم لأمور محبوبة للرب تعالى لم تكن تحصل إلا بوجود لازمها ، إذ وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع ، فكانت تلك الأمور المحبوبة والغايات المحمودة متوقفة على خلقهم وإضلالهم توقف الملزوم على لازمه .

ونكتة المسألة : الفرق بين ما هو فعل له تستلزم محبته وقوعه منه ، وبين ما هو مفعول له لا تستلزم محبته له وقوعه من عبده ، وإذا عرف هذا فالظلم والكفر والفسوق والعصيان وأنواع الشرور واقعة فى مفعولاته المنفصلة التى لا يتصف بها دون أفعاله القائمة به ، ومن انكشف له لهذا المقام فهم معنى قوله ﷺ : « والشر ليس إليك » (١) . فهذا الفرق العظيم يزيل أكثر الشبه التى حارت لها عقول كثير من الناس فى هذا الباب ، وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

فما فى مخلوقاته ومفعولاته تعالى من الظلم والشر فهو بالنسبة إلى فاعله المكلف الذى قام به الفعل ، كما أنه بالنسبة إليه يكون زنا وسرقة وعدواناً وأكلاً وشرباً ونكاحاً ، فهو

---

(١) مسلم (٧٧١ / ٢٠١) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ، والنسائى (٨٩٧) فى الافتتاح ، باب : الذكر والدعاء بين التكبير والقراءة .

الزانى السارق الآكل الناكح والله خالق كل فاعل وفعله ، وليست نسبة هذه الأفعال إلى خالقها كنسبتها إلى فاعلها الذى قامت به ، كما أن نسبة صفات المخلوقين إليه كطوله وقصره وحسنه وقبحه وشكله ولونه ليست كنسبتها إلى خالقها فيه . فتأمل هذا الموضع ، وأعط الفرق حقه وفرق بين النسبتين ، فكما أن صفات المخلوق ليست صفات لله بوجه وإن كان هو خالقها ، فكذلك أفعاله ليست أفعالاً لله تعالى ولا إليه وإن كان هو خالقها(١).

## فصل
## فى الفرق بين الفسق والمعصية

الفسق أخص بارتكاب النهى ، ولهذا يطلق عليه كثيرًا ، كقوله تعالى ﴿ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ﴾ [ البقرة : ٢٨٢] ، والمعصية أخص بمخالفة الأمر .

ويطلق كل منها على صاحبه ، كقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [ الكهف : ٥٠ ] ، فسمى مخالفته للأمر فسقا ، وقال : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ [ طه : ١٢١ ] ، فسمى ارتكابه للنهى معصية .

فهذا عند الإفراد ، فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر ، والآخر لمخالفة النهى (٢) .

## فصل
## فى الفرق بين الجد والعزم

الفرق بين الجد والعزم : أن « العزم » صدق الإرادة واستجماعها ، « والجد » صدق العمل وبذل الجهد فيه (٣) .

## فصل
## فى الفرق بين الحزن والهم

الفرق بينهما : أن المكروه الذى يرد على القلب ، إن كان لما يستقبل : أورثه الهم ، وإن كان لما مضى : أورثه الحزن . وكلاهما مضعف للقلب عن السير ، مُقَتِّرٌ للعزم (٤) .

(١) مفتاح دار السعادة (٢ / ١١١)
(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٦٢) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ٤٧٠) .
(٤) مدارج السالكين (١ / ٥٠٦) .

## فصل
## فى الفرق بين الكفر الأكبر والأصغر

الكفر نوعان: كفر أكبر ، وكفر أصغر. فالكفر الأكبر : هو الموجب للخلود فى النار . والأصغر : موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود (١) .

## فصل
## فى الفرق بين مفسدة العشق ومفسدة الفاحشة

لا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم (٢) ومفسدة الفاحشة ؛ فإن تلك ذنب كبير لفاعله حكم أمثاله ، ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك ،وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول : لأن أُبْتَلَى بالفاحشة مع تلك الصورة أحبُّ إلىَّ من أن أبتلى فيها بعشق يتعبد لها قلبى ويشغله عن الله (٣) .

## فصل
## فى الفرق بين الشح والبخل

الفرق بين الشح والبخل : أن الشح : هو شدة الحرص على الشىء ، والإحفاء فى طلبه ، والاستقصاء فى تحصيله ، وجشع النفس عليه . والبخل : منع إنفاقه بعد حصوله، وحبه وإمساكه ، فهو شحيح قبل حصوله بخيل بعد حصوله فالبخل ثمرة الشح ، والشح يدعو إلى البخل ، والشح كامن فى النفس ، فمن بخل فقد أطاع شحه ، ومن لم يبخل فقد عصى شحه ووُقِى شره ، وذلك هو المفلح : ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [ الحشر : ٩ ، التغابن : ١٦ ] (٤) .

## فصل
## فى الفرق بين الإيثار والأثرة

الفرق بين الإيثار والأثرة : أن الإيثار تخصيص الغير بما تريده لنفسك ، والأثرة

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٣٥) .
(٢) أى العشق .
(٣) الداء والدواء (٣٥٥) .
(٤) الوابل الصيب (٦٤) .

اختصاصك به على الغير ، وفى الحديث : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا (١) (٢) .

## فصل
## فى الفرق بين التوقى والحذر

التوقى والحذر متقاربان ، إلا أن « التوقى » فعل الجوارح و « الحذر » فعل القلب . فقد يتوقى العبد الشىء لا على وجه الحذر والخوف ولكن لأمور أخرى : من إظهار نزاهة وعزة وتصوف . أو اعتراض آخر ،كتوقى الذين لا يؤمنون بمعاد ولا جنة ولا نار ما يتوقونه من الفواحش والدناءة تصوناً عنها ورغبة بنفوسهم عن مواقعتها وطلبًا للمحمدة ونحو ذلك(٣) .

## فصل
## فى الفرق بين الرغبة والرجاء

الفرق بين الرغبة والرجاء : أن الرجاء طمع والرغبة طلب ، فهى ثمرة الرجاء فإنه إذا رجا الشىء طلبه،والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف، فمن رجا شيئا طلبه ورغب فيه ، ومن خاف شيئاً هرب منه (٤) .

## فصل
## فى الفرق بين الواثق بالله والمغرور به

الفرق بينهما : أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به ووثق بالله فى طلوع ثمرته وتنميتها وتزكيتها ، كغارس الشجرة وباذر الأرض ، والمغتر العاجز : قد فرط فيما أمر به ، وزعم أنه واثق بالله ، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود (٥).

---

(١) البخارى (٧١٩٩) فى الأحكام ، باب : كيف يبايع الإمام الناس ، ومسلم (١٧٠٩ / ٤١) فى الإمارة ، باب : وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية وتحريمها فى معصية .

(٢) طريق الهجرتين (٢٩٨) .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٢٣) .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٥٥) .

(٥) مدارج السالكين (٢ / ١٢٤) .

## فصل
## فى الفرق بين الحمد والشكر

تكلم الناس فى الفرق بين « الحمد » و « الشكر » أيهما أعلى وأفضل ؟ وفى الحديث « الحمد رأسَ الشكر ، فمن لم يحمد الله لم يشكره » (١) .

والفرق بينهما : أن « الشكر » أعم من جهة أنواعه وأسبابه وأخص من جهة متعلقاته، و« الحمد » أعم من جهة المتعلقات وأخص من جهة الأسباب .

ومعنى هذا : أن الشكر يكون بالقلب خضوعاً واستكانة ، وباللسان ثناء واعترافاً ، وبالجوارح طاعة وانقياداً ، ومتعلقه : النعم ، دون الأوصاف الذاتية ، فلا يقال : شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه وهو المحمود عليها ، كما هو محمود على إحسانه وعدله . والشكر يكون على الإحسان والنعم .

فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس ، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس ، فإن الشكر يقع بالجوارح ، والحمد يقع بالقلب واللسان (٢) .

## فصل
## فى الفرق بين ولاية النعت وولاية العين والذات

الفرق بين ولاية « النعت » وولاية « العين والذات » : أن النعت صفة ومن شاهد الصفة ، فلابد أن يشاهد متعلقاتها ، فإن النظر فى متعلقاتها يكسبه التعظيم للمتصف بها، فإن من شاهد العلم القديم الأزلى متعلقاً بسائر المعلومات التى لا تتناهى ـ من واجب وممكن ومستحيل ـ ومن شاهد الإرادة الموجبة لسائر الإرادات على تنوعها ـ من الأفعال والأعيان والحركات والأوصاف التى لا تتناهى ـ وشاهد القدرة التى هى كذلك وشاهد صفة الكلام الذى لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر وأشجار العالم كلها أقلام يكتب بها كلام الرب جل جلاله لفنيت البحار ونفدت الأقلام ، وكلام الله عز وجل لا ينفد ولا يفنى ـ فمن شاهد الصفات كذلك وجال قلبه فى عظمتها فهو مشغول بالصفات ، ومتفرق قلبه فى

---

(١) البيهقى فى شعب الإيمان (٤٣٣٥ ) ، ومصنف عبد الرزاق (١٩٥٧٤) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٢٤٦) .

متعلقاتها وتنوعها فى أنفسها . بخلاف من قصر نظره على نفس الذات وشاهد قدمها وبقاءها ، واستغرق قلبه فى عظمة تلك الذات بقطع النظر عن صفاتها ، فهو مشاهد للعين والأول مشاهد للصفات ، فالأول فى فرق وهذا فى جمع . فمن استغرق قلبه فى هذا المشهد استحق اسم « المشاهد » ، ووصف « المشاهدة » عند القوم إذا غاب عن إدراك رسمه وكل ما فيه من علم أو عمل أو حال (١) .

## فصل
## فى الفرق بين علم اليقين وعين اليقين

الفرق بين علم اليقين وعين اليقين كالفرق بين الخبر الصادق والعيان ، وحق اليقين فوق هذا .

وقد مثلت المراتب الثلاثة بمن أخبرك : أن عنده عسلا وأنت لا تشك فى صدقه ، ثم أراك إياه ، فازددت يقيناً ، ثم ذقت منه . فالأول : علم اليقين . والثانى : عين اليقين . والثالث : حق اليقين .

فعلمنا الآن بالجنة والنار : علم يقين . فإذا أزلفت الجنة فى الموقف للمتقين ، وشاهدها الخلائق ، وبرزت الجحيم للغاوين ، وعاينها الخلائق ، فذلك : عين اليقين . فإذا أدخل أهل الجنة وأهل النار النار ، فذلك حينئذ حق اليقين (٢) .

## فصل
## فى الفرق بين الشوق والمحبة

الفرق بينهما فرق ما بين الشىء وأثره ، فإن الحامل على الشوق هو المحبة ؛ ولهذا يقال : لمحبتى له اشتقت إليه ، وأحببته فاشتقت إلى لقائه . ولا يقال : لشوقى إليه أحببته ، ولا اشتقت إلى لقائه فأحببته ، فالمحبة بذر فى القلب ، والشوق بعض ثمرات ذلك البذر . وكذلك من ثمراتها حمد المحبوب ، والرضا عنه ، وشكره ، وخوفه ، ورجاؤه ، والتنعم بذكره ، والسكون إليه ، والأنس به ، والوحشة بغيره ، وكل هذه من أحكام المحبة وثمراتها ، وهو حياتها . فمنزلة الشوق من المحبة منزلة الهرب من البغضاء

(١) مدارج السالكين (٣ / ٢٣٢ ، ٢٣٣) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٠٣) .

والكراهة ، فإن القلب إذا أبغض الشيء وكرهه جد في الهرب منه ، وإذا أحبه جد في الهرب إليه وطلبه ، فهو حركة القلب في الظفر بمحبوبه ؛ ولشدة ارتباط الشوق بالمحبة يقع كل واحد منهما موقع صاحبه ، ويفهم منه ويعبر به عنه [١] .

## فصل
## في الفرق بين العز والذل

العز ضد الذل ، والذل أصله الضعف والعجز ، فالعز يقتضي كمال القدرة ؛ ولهذا يوصف به المؤمن ولا يكون ذمًا ، بخلاف الكبر. قال رجل للحسن البصري : إنك متكبر . فقال : لست بمتكبر ، ولكني عزيز . وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ المنافقون : ٨ ] وقال ابن مسعود : مازلنا أعزة منذ أسلم عمر . وقال النبي ﷺ : « اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين : عمر بن الخطاب ، أو أبي جهل بن هشام » [٢] وفي بعض الآثار : إن الناس يطلبون العزة في أبواب الملوك ، ولا يجدونها إلا في طاعة الله عز وجل . وفي الحديث : « اللهمَّ أَعِزنا بِطاعَتِك ، ولا تُذِلَّنا بِمَعْصِيَتِك » [٣] . وقال بعضهم: من أراد عزًا بلا سلطان، وكثرة بلا عشيرة ، وغنى بلا مال ، فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة .

فالعزة من جنس القدرة والقوة ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «المؤمنُ القويّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كلّ خير » [٤]. فالقدرة إن لم يكن معها حكمة بل كان القادر يفعل ما يريده بلا نظر في العاقبة ، ولا حكمة محمودة يطلبها بإرادته ويقصدها بفعله ، كان فعلها فسادا ، كصاحب شهوات الغيّ والظلم ، الذي يفعل بقوته ما يريده من شهوات الغي في بطنه وفرجه ومن ظلم الناس ، فإن هذا وإن كان له بقوة وعزة لكن لما لم يقترن بها حكمة كان ذلك معونة على شره وفساده [٥] .

---

(١) طريق الهجرتين (٣٢٨) .
(٢) الترمذي (٣٦٨١) في المناقب ، باب : في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقال : « حسن صحيح غريب » .
(٣) لم نقف عليه ، وفي الجواب الكافي لابن القيم أنه من دعاء بعض السلف .
(٤) مسلم (٢٦٦٤ / ٣٤ ) في القدر ، باب : في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله ، وابن ماجه (٧٩) في المقدمة ، باب : في القدر .
(٥) طريق الهجرتين (١٠٩) .

## فصل
## فى الفرق بين الشوق والاشتياق

قال أبو عبد الرحمن السلمى : سمعت النصراباذى يقول : للخلق كلهم مقام الشوق، وليس لهم مقام الاشتياق . ومن دخل فى حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار .وهذا يدل على أن الاشتياق عنده غير الشوق ، ولا ريب أن الاشتياق مصدر اشتاق يشتاق اشتياقا ، كما أن التشوق مصدر تشوق تشوقا ، والشوق فى الأصل اسم مصدر شاقه يشوقه شوقا مثل شاقه شوقا إذا دعاه إلى الاشتياق ، فالاشتياق مطاوع شاقه يقال : يشاقنى فاشتقت إليه . ثم صار الشوق اسم مصدر الاشتياق وغلب عليه حتى لا يفهم عند الإطلاق إلا الاشتياق القائم بالمشوق ، والمشوق هو الصب المشتاق ، والشائق هو الذى قام به وادعى الشوق .

فهاهنا ألفاظ الشوق والاشتياق والتشوق والشائق والمشوق والشيق. فهذه ستة ألفاظ : أحدها : الشوق ، وهو فى الأصل مصدر الفعل المتعدى شاقه يشوقه ، ثم صار اسم مصدر الاشتياق . اللفظ الثانى : الاشتياق ، وهو مصدر اشتاق اشتياقا ، والفرق بينه وبين الشوق هو الفرق بين المصدر واسم المصدر . اللفظ الثالث : التشوق ، وهو مصدر تشوق إذا اشتاق مرة بعد مرة كما يقال : تجرع وتعلم وتفهم : وهذا البناء مشعر بالتكلف وتناول الشىء على مهلة . اللفظ الرابع : الشائق ، وهو الداعى للمشوق إلى الاشتياق . اللفظ الخامس : المشوق ، وهو المشتاق الذى قد حصل له الشوق ، اللفظ السادس : الشيق ، وهو فيعل بمنزلة هين ولين ، وهو المشتاق .

فهذه فروق ما بين هذه الألفاظ ، وأما كون الاشتياق أبلغ من الشوق فهذا قد يقال فيه: إنه الأصل وهو أكثر حروفا من الشوق ، وهو يدل على المصدر والفاعل . وأما الشوق ففرع عليه لأنه اسم مصدر وأقل حروفا ، وهو إنما يدل على المصدر المجرد فهذه ثلاثة فروق منها ، والله أعلم [1] .

## فصل
## فيما تفترق فيه المرأة عن الرجل

إن مصلحة العبادات البدنية ، ومصلحة العقوبات الرجالُ والنساء مشتركون فيها ،

(١) طريق الهجرتين (٣٣٤) .

وحاجة أحد الصنفين إليها كحاجة الصنف الآخر ، فلا يليق التفريق بينهما ، نعم فرقت بينهما فى أَلْيَق المواضع بالتفريق ، وهو الجمعة والجماعة ، فخص وجوبهما بالرجال دون النساء ؛ لأنهن لسْن من أهل البروز ومخالطة الرجال .

وكذلك فرقت بينهما فى عبادة الجهاد التى ليس الإناث من أهلها ، وسوت بينهما فى وجوب الحج لاحتياج النوعين إلى مصلحته ، وفى وجوب الزكاة والصيام والطهارة .

وأما الشهادة ، فإنما جعلت المرأة فيها على النصف من الرجل لحكمة أشار إليها العزيز الحكيم فى كتابه ، وهى أن المرأة ضعيفة العقل ، قليلة الضبط لما تحفظه ، وقد فضل الله الرجال على النساء فى العقول والفهم والحفظ والتمييز ، فلا تقوم المرأة فى ذلك مقام الرجل ،وفى منع قبول شهادتها بالكلية إضاعة لكثير من الحقوق ، وتعطيل لها ، فكان من أحسن الأمور وألصقها بالعقول أن ضُمَّ إليها فى قبول الشهادة نظيرها لتذكرها إذا نسيت ، فتقوم شهادة المرأتين مقام شهادة الرجل ، ويقع من العلم أو الظن الغالب بشهادتهما ما يقع بشهادة الرجل الواحد .

وأما الدية ، فلما كانت المرأة أنقص من الرجل ،والرجل أنفع منها ، ويسد ما لا تسده المرأة من المناصب الدينية والولايات ، وحفظ الثغور والجهاد ، وعمارة الأرض، وعمل الصنائع التى لا تتم مصالح العالم إلا بها ، والذب عن الدنيا والدين ، لم تكن قيمتهما مع ذلك متساوية وهى الدية ؛ فإن دِية الحر جارية مجرى قيمة العبد وغيره من الأموال ، فاقتضت حكمة الشارع أن جعل قيمتها على النصف من قيمته لتفاوت ما بينهما .

فإن قيل : لكنكم نقضتم هذا ، فجعلتم ديتهما سواء فيما دون الثلث .

قيل : لا ريب أن السنة وردت بذلك كما رواه النسائى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « عَقْل المرأة مثل عَقْل الرجل ، حتى يبلغ الثلث من ديتها » (١) .

وقال سعيد بن المسيب : إن ذلك السنة ، وإن خالف فيه أبو حنيفة والشافعى والليث والثورى وجماعة ، وقالوا : هى النصف فى القليل والكثير ، ولكن السنة أولى .

والفرق فيما دون الثلث ، وما زاد عليه أن ما دونه قليل ، فجبرت مصيبة المرأة فيه بمساواتها للرجل ، ولهذا استوى الجنين الذكر والأنثى فى الدية لقلة ديته ، وهى الغُرَّة فنزل ما دون الثلث منزلة الجنين .

---

(١) النسائى (٤٨٠٥) فى القسامة ، باب : عقل المرأة ، وذكره الحافظ ابن حجر فى التلخيص الحبير (١٩٠٩) ، وضعفه الألبانى فى ضعيف النسائى وفى إرواء الغليل (٢٢٥٤) .

وأما الميراث ، فحكمة التفضيل فيه ظاهرة ، فإن الذكر أحوج إلى المال من الأنثى ؛ لأن الرجال قوَّامون على النساء ، والـذكرُ أنفع للميت فى حـياته من الأنثى ، وقد أشار ـ سبحانه وتعالى ـ إلى ذلك بقوله بعد أن فرض الفرائض،وفاوت بين مقاديرها : ﴿ **آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا** ﴾ [ النساء : ١١ ] ، وإذا كان الذكر أنفعَ من الأنثى وأحوج ، كان أحقَّ بالتفضيل .

فإن قيل : فهذا ينتقض بولد الأم .

قيل : بل طرد هذه التسوية بين ولد الأم ذكرهم وأنثاهم ، فإنهم إنما يرثون بالرحم المجرد ، فالقرابة التى يرثون بها قرابة أنثى فقط ، وهم فيها سواء ، فلا معنى لتفضيل ذكرهم على أنثاهم ، بخلاف قرابة الأب .

وأما العقيقة فأمر التفضيل فيها تابع لشرف الذكر ، وما ميزه الله به على الأنثى .

ولما كانت النعمة به على الوالد أتم ، والسرور والفرحة به أكمل ، وكان الشكران عليه أكثر ، فإنه كلما كثرت النعمة كان شكرها أكثر ، والله أعلم (١) .

## فصل
## فى الفرق بين الطمأنينة والسكينة

قال صاحب المنازل : « الطمأنينة : سكون يُقَوِّيه أمنٌ صحيح ، شبيه بالعيان . وبينها وبين السكينة فرقان :

**أحدهما** : أن « السكينة » صولة تورث خمود الهيبة أحيانا ، و« الطمأنينة » سكون أمن فى استراحة أنس .

**والثانى** : أن « السكينة » تكون نعتًا ، وتكون حينًا بعد حين ، و« الطمأنينة » لا تفارق صاحبها » .

« الطمأنينة » موجب السكينة ، وأثر من آثارها ، وكأنها نهاية السكينة .

فقوله : « سكون يقويه أمن » : أى سكون القلب مع قوة الأمن الصحيح الذى لا يكون أمن غرور . فإن القلب قد يسكن إلى أمن الغرور . ولكن لا يطمئن به لمفارقة ذلك السكون له . و « الطمأنينة » لا تفارقه ، فإنها مأخوذة من الإقامة . يقال : اطمأن بالمكان

---

(١) إعلام الموقعين (٢ / ١٤٥ ـ ١٤٧) .

والمنزل : إذا أقام به .

وسبب صحة هذا الأمن المقوى للسكون : شبهه بالعيان ، بحيث لا يبقى معه شيء من مجوزات الظنون والأوهام ، بل كأن صاحبه يعاين ما يطمئن به ، فيأمن به اضطراب قلبه وقلقه وارتيابه .

وأما الفرقان اللــــذان ذكرهما بينها وبين السكينة ، فحــاصل الفـــرق الأول : أن « السكينة» تصول على الهيبة الحاصلة فى القلب فتخمدها فى بعض الأحيان ، فيسكن القلب من انزعاج الهيبة بعض السكون . وذلك فى بعض الأوقات .

فليس حكمًا دائما مستمراً ، وهذا يكون لأهل « الطمأنينة » دائما ، ويصحبه الأمن والراحة بوجود الأنس . فإن الاستراحة فى « السكينة » قد تكون من الخوف والهيبة فقط ، والاستراحة فى منزل « الطمأنينة » تكون مع زيادة أنس ، وذلك فوق مجرد الأمن ، وقدر زائد عليه .

وحاصل الفرق الثانى : أن « الطمأنينة » مَلكة ، ومقام لا يُفارَق ، و « السكينة » تنقسم إلى سكينة هى مقام ونعت لا يزول ، وإلى سكينة تكون وقتًا دون وقت . هذا حاصل كلامه .

والذى يظهر لى فى الفرق بينهما أمران ، سوى ما ذكر :

**أحدهما** : أن ظفره وفوزه بمطلوبه الذى حصَّل له السكينة بمنزلة من واجهه عدو يريد هلاكه ، فهرب منه عدوه ، فسكن روعه . والطمأنينة بمنزلة حصن رآه مفتوحًا فدخله ، وأمن فيه ، وتقوى بصاحبه وعدته . فللقلب ثلاثة أحوال :

أحدها : الخوف والاضطراب والقلق من الوارد الذى يزعجه ويقلقه .

الثانى : زوال ذلك الوارد الذى يزعجه ويقلقه عنه وعدمه .

الثالث : ظفره وفوزه بمطلوبه الذى كان ذلك الوارد حائلا بينه وبينه .

وكل منهما يستلزم الآخر ويقارنه ، فالطمأنينة تستلزم السكينة ولا تفارقها ، وكذلك بالعكس ، لكن استلزام الطمأنينة للسكينة أقوى من استلزام السكينة للطمأنينة .

**الثانى** : أن « الطمأنينة » أعم ، فإنها تكون فى العلم والخبر به ، واليقين والظفر بالمعلوم ؛ ولهذا اطمأنت القلوب بالقرآن لما حصل لها الإيمان به ، ومعرفته والهداية به فى ظُلَم الآراء والمذاهب ، واكتفت به منها ، وحكَّمته عليها وعَزَلَتها ، وجعلت له الولاية

بأسرها كما جعلها الله . فيه خاصمت ، وإليه حاكمت ، وبه صالت ، وبه دفعت الشبه ، وأما « السكينة » فإنها ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه ، وسكونه [١] .

## فصل
## فى الفرق بين وتر الليل ووتر النهار

قد صحت السنة بالفَرق بين الوترين من وجوه كثيرة :

**أحدها** : الجمع بين الجهر والسر فى وتر النهار دون وتر الليل .

**الثانى** : وجوب الجماعة أو مشروعيتها فيه دون وتر الليل .

**الثالث** : أنه ﷺ فَعَلَ وتر الليل على الراحلة دون وتر النهار .

**الرابع** : أنه قال فى وتر الليل : إنه ركعة واحدة ، دون وتر النهار .

**الخامس** : أنه أوتر بتسع وسبع وخمس موصولة دون وتر النهار .

**السادس** : أنه نهى عن تشبيه وتر الليل بوتر النهار .

**السابع** : أن وتر الليل اسم للركعة وحدها ، ووتر النهار اسم لمجموع صلاة المغرب كما فى صحيح مسلم من حديث ابن عمر وابن عباس : أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «الوتر ركعة من آخر الليل » [٢] .

**الثامن** : أن وتر النهار فرض ، ووتر الليل ليس بفرض باتفاق الناس .

**التاسع** : أن وتر النهار يُقْضى بالاتفاق ، وأما وتر الليل فلم يَقمْ على قضائه دليل ، فإن المقصود منه قد فات فهو كتحية المسجد ورفع اليدين فى محل الرفع والقنوت إذا فات ، وقد توقف الإمام أحمد فى قضاء الوتر ، وقال شيخنا : لا يقضى قال : وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه كان إذا مَنَعه من قيام الليل نوم أو وجع صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة ، ولم يذكر الوتر » [٣] .

**العاشر** : أن المقصود من وتر الليل جعل ما تقدمه من الأشفاع كلها وتراً ، وليس

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٥١٤ ، ٥١٥) .

(٢) مسلم (٧٥٢ / ١٥٣) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : صلاة الليل مثنى مثنى ، والوتر ركعة من آخر الليل .

(٣) مسلم (٧٤٦ / ١٤٠ ) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : جامع صلاة الليل ، ومن نام عنه أو مرض .

المقصود منه إيتار الشفع الذى يليه خاصة ، وكان الأقْيَسُ ما جاءت به السنة أن يكون ركعة مفردة توتر جميع ما قبلها ، وبالله التوفيق (١) .

## فصل
## فى الفرق بين المُعَرِّض والمحتال

المعرِّض إنما يقصد باللفظ ما جُعل اللفظ دالا عليه ومثبتًا له فى الجملة ، فهو لم يخرج بتعريضه عن حدود الكلام ، فإن الكلام فيه الحقيقة والمجاز ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمفرد والمشترك ، والمتباين والمترادف ، وتختلف دلالته تارة ، بحسب اللفظ المفرد ، وتارة بحسب التأليف ، فأين هذا من الحيل التى يقصد بالعقد فيها ما لم يشرَع العقدُ له أصلا ، ولا هو مقتضاه ، ولا موجبه شرعا ولا حقيقةً ؟ !

**وفرق ثان** : وهو أن المعرِّض لو صرّح بقصده لم يكن باطلا ولا محرّمًا ، بخلاف المحتال ، فإنه لو صرًح بما قصدَه بإظهار صورة العقد ، كان محرّما باطلا ، فإن المرابى بالحيلة لو قال : بعتك مائةً حالّةً بمائة وعشرين إلى سنة ، كان حرامًا باطلاً ، وذلك عينُ مقصوده ، ومقصود الآخر .

وكذلك المقرِضُ لو قال : أقرضتك ألفاً على أن تعيُدها إلىَّ ومعها زيادة كذا وكذا ، كان حراماً باطلا ، وذلك نفسُ مقصوده .

وكذلك المحلّلُ لو قال : تزوجتها على أن أحِلَّها للطلّق ثلاثًا .

والمعرّض لو صرح بمقصوده لم يكن حراماً ، فأين أحدُهما من الآخر ؟

**وفرقٌ ثالث** : وهو أن المعرّض قصدَ بالقول ما يحتمله اللفظ ، أو يقتضيه . والمحتال قصدَ بالعقد ما لا يحتمله ، ولا جُعل مقتضياً له ، لا شرعاً ولا عرفاً ولا حقيقةً .

**وفرقٌ رابع** : وهو أن المعرّض مقصدهُ صحيح ، ووسيلته جائزة ، فلا حَجْر عليه فى مقصوده ، ولا فى وسيلته إلى مقصوده ، بخلاف المحتال ، فإن قصده أمرٌ محرم ، ووسيلته باطلة .

**وفرقٌ خامس** : وهو أن التعريضَ المباح ليس من مخادعة الله سبحانه فى شىء ، وإنما غايته أنه مخادعة لمخلوقٍ أباح الشارع مخادعته لظلمه ، جزاء له على ذلك ، ولا يلزم من

(١) إعلام الموقعين (٢ / ٤٠٠ ، ٤٠١) .

جواز مخادعة الظالم جواز مخادعة المحِقّ ، فما كان من التعريض مخالفاً لظاهر اللفظ فى نفسه كان قبيحاً إلا عند الحاجة ، وما لم يكن كذلك كان جائزاً إلا عند تضمن مفسدةٍ ، والذى يدخلُ فى الحيل المذمومة إنما هو الأول ، فالمعرض قاصدٌ لدفع الشر ، والمحتَالُ بالباطل قاصد لدفع الحق (١) .

## فصل
## فى الفرق بين محمد وأحمد

الفرق بين « محمد » و « أحمد » من وجهين :

**أحدهما** : أن « محمداً » هو المحمود حمداً بعد حمد ، فهو دال على كثرة حمد الحامدين له، وذلك يستلزم كثرة مُوجبات الحمد فيه و« أحمد » أفعل تفضيل من الحمد يدلُّ على أن الحمد الذى يستحقَّه أفضلُ مما يستحقه غيره ، فمحمد زيادة حمد فى الكمية ، و«أحمد » زيادة فى الكيفية ، فيحمد أكثر حمد وأفضل حمدٍ حَمِدَه البشر .

**الوجه الثانى** : أن « محمداً » هو المحمود حمداً متكرراً . و « أحمد » هو الذى حمدُه لربه أفضل من حمد الحامدين غيره ، فدلَّ أحد الاسمين وهو « محمد » على كونه محموداً، ودلَّ الاسم الثانى وهو « أحمد » على كونه أحمد الحامدين لربه (٢) .

## فصل
## فى الفرق بين الأقوال والأفعال فى الإكراه

الفرق بين الأقوال والأفعال فى الإكراه : أن الأفعال إذا وقعت لم ترتفع مفسدتها ، بل مفسدتها معها ، بخلاف الأقوال فإنها يمكن إلغاؤها (٣) .

## فصل
## فى الفرق بين الرضا والتوكل

الرضا بالتدبير ثمرة التوكل وموجبه لا أنه نفس التوكل فى المقدور ، يكشفه أمران :

---

(١) إغاثة اللهفان ( ٢ / ١٠٥ ، ١٠٦) .

(٢) جلاء الأفهام (١٤٧) .

(٣) زاد المعاد (٥ / ٢٠٥) .

التوكل قبل وقوعه ، والرضا به بعد وقوعه . ومن هنا قال بعضهم : حقيقة التوكل الرضا؛ لأنه لما كان ثمرته وموجبه استدل به عليه استدلالا بالأثر على المؤثر وبالمعلول على العلة ؛ ولهذا قال فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى وغيرهما عن النبى ﷺ أنه قال فى دعائه : « اللهم إنى أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق ، أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خير لى . اللهم وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك الحق فى الغضب والرضا ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت » (١) الحديث ، فقال : « وأسألك الرضا بعد القضاء » وأما التوكل فإنما يكون قبله(٢) .

# فصل

## فى الفرق بين الاسم والكنية واللقب

هذه الثلاثة وإن اشتركت فى تعريف المدعو بها ، فإنها تفترق فى أمر آخر ، وهو أن الاسم إما أن يفهِم مدحاً أو ذما ، أو لا يفهِم واحداً منهما .

فإن أفهم ذلك فهو اللقب ، وغالب استعماله فى الذَّمّ ،ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **وَلَا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ** ﴾ [الحجرات : ١١] ، ولا خلاف فى تحريم تلقيب الإنسان بما يكرهه ،سواء كان فيه أو لم يكن،وأما إذا عرف بذلك، واشتهر به :كالأعمش،والأشتر،والأصم، والأعرج،فقد اطَّرد استعماله على ألسنة أهل العلم قديماً وحديثاً،وسَهَّل فيه الإمام أحمد .

قال أبو داود فى مسائله : سمعت أحمد بن حنبل سئل عن الرجل يكون له اللقب ، لا يعرف إلا به ولا يكرهه ؟ قال : أليس يقال :سليمان الأعمش ، وحميد الطويل ؟ كأنه لايرى به بأساً .

قال أبو داود : سألت أحمد عنه مرة أخرى ، فرخَّص فيه ، قلت كان أحمد يكره أن يقول : الأعمش .قال الفضيل : يزعمون كأن يقول : سليمان .

وأما ألا يفهِم مدحاً ولا ذَمّا ،فإن صُدِّر بأب وأم فهو الكنية ، كأبى فلان وأم فلان، وإنِ لم يُصَدَّر بذلك ، فهو الاسم (٣) .

---

(١) النسائى (١٣٠٥) فى السهو ، باب : الدعاء بعد الذكر ، وأحمد ٤ / ٢٦٤ .

(٢) طريق الهجرتين (٣٤٠) .

(٣) تحفة المودود (١٥٧) .

## فصل
## فى الفرق بين المداراة والمداهنة

المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم ، والفرق بينهما : أن المدارى يتطلف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله ويتركه على هواه . فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق .

ولقد ضرب لذلك مثل مطابق وهو حال رجل به قرحة قد آلمته ، فجاءه الطبيب المداوى الرفيق فتعرف حالها ، ثم أخذ فى تليينها حتى إذا نضجت أخذ فى طبخها برفق وسهولة ، حتى أخرج ما فيها ، ثم وضع على مكانها من الدواء والمرهم ما يمنع فساده ويقطع مادته ، ثم تابع عليها بالمراهم التى تنبت اللحم ، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها ، ثم يشد عليها الرباط ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت . والمداهن قال لصاحبها : لا بأس عليك منها وهذه لا شىء فاسترها عن العيون بخرقه ثم آله عنها ، فلا تزال مدتها تقوى وتستحكم حتى عظم فسادها (١) .

## فصل
## فى الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق

الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق : أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء ، فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء وشهود نعم الله وجناياته هو ، فيخشع القلب لا محالة ، فيتبعه خشوع الجوارح . وأما خشوع النفاق فيبدو على الجوارح تصنعاً وتكلفاً والقلب غير خاشع .

وكان بعض الصحابة يقول : أعوذ بالله من خشوع النفاق ، قيل له : وما خشوع النفاق ؟ قال : أن يرى الجسد خاشعاً والقلب غير خاشع .

فالخاشع لله عبد قد خمدت نيران شهوته ، وسكن دخانها عن صدره ، فانجلى الصدر وأشرق فيه نور العظمة ، فماتت شهوات النفس للخوف والوقار الذى خشى به ، وخمدت الجوارح ، وتوقر القلب واطمأن إلى الله وذكره بالسكينة التى نزلت عليه من ربه ، فصار

---

(١) الروح (٣٤٥ ، ٣٤٦) .

مخبتاً له . والمخبت : المطمئن ؛ فإن الخبت من الأرض ما اطمأن فاستنقع فيه الماء ، فكذلك القلب المخبت قد خشع واطمأن كالبقعة المطمئنة من الأرض التى يجرى إليها الماء فيستقر فيها ، علامته أن يسجد بين يدى ربه إجلالا له وذلا وانكساراً بين يديه سجدة لا يرفع رأسه عنها حتى يلقاه . وأما القلب المتكبر فإنه قد اهتز بتكبره عربًا ، فهو كبقعة رابية من الأرض لا يستقر عليه الماء فهذا خشوع الإيمان .

وأما التماوت وخشوع النفاق فهو حال عند تكلف إسكان الجوارح تصنعاً ومراءاة ، ونفسه فى الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات ، فهو يتخشع فى الظاهر ، وحية الوادى وأسد الغابة رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة

## فصل
## فى الفرق بين شرف النفس والتيه

أما شرف النفس فهو صيانتها عن الدنايا والرذائل والمطامع التى تقطع أعناق الرجال ، فيربأ بنفسه عن أن يلقبها فى ذلك . بخلاف التيه ، فإنه خلق متولد بين أمرين : إعجابه بنفسه وإرادته بغيره ، فيتولد من بين هذين التيه ، والأول يتولد بين خلقين كريمين : إعزاز النفس وإكرامها وتعظيم مالكها وسيدها أن يكون عبده دنيًا وضيعاً خسيساً ، فيتولد من بين هذين الخلقين شرف النفس وصيانتها . وأصل هذا كله استعداد النفس وتهيؤها ، وإمداد وليها ومولاها لها ، فإذا فقد الاستعداد والإمداد فقد الخير كله .

## فصل
## فى الفرق بين الحمية والجفاء

فالحمية فطام النفس عن رضاع اللوم من ثدى هو مصب الخبائث والرذائل والدنايا ، ولو غزر لبنه وتهالك الناس عليه ، فإن لهم فطاماً تنقطع معه الأكباد حسرات فلا بد من الفطام، فإن شئت عجل وأنت محمود مشكور ، وإن شئت أخر وأنت غير مأجور . بخلاف الجفاء فإنه غلظة فى النفس وقساوة فى القلب وكثافة فى الطبع يتولد عنها خلق يسمى الجفاء .

## فصل
## فى الفرق بين التواضع والمهانة

والفرق بين التواضع والمهانة : أن التواضع يتولد من بين العلم بالله ـ سبحانه ـ ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله ، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عمله وآفاتها ، من بين ذلك كله خلق هو التواضع ، وهو إنكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة بعباده ، فلا يرى له على أحد فضلاً ، ولا يرى له عند أحد حقاً ، بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله ، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه .

وأما المهانة: فهى الدناءة والخسه وبذل النفس ، وابتذالها فى نيل حظوظها وشهواتها ، كتواضع السفل فى نيل شهواتهم ، وتواضع المفعول به للفاعل ، وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه . فهذا كله ضعة لا تواضع ، والله ـ سبحانه ـ يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة ، وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « وأوحى إلىّ : تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد » (١) .

والتواضع المحمود على نوعين :

**النوع الأول** : تواضع العبد عند أمر الله امتثالاً ، وعند نهيه اجتناباً . فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ فى أمره فيبدو منها نوع إباء وشراد هرباً من العبودية ، وتثبت عند نهيه طلباً للظفر بما منع منه ، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية .

**والنوع الثانى** : تواضعه لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه ، فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالى وتفرده بذلك وغضبه الشديد على من نازعه ذلك فتواضعت إليه نفسه ، وانكسر لعظمة الله قلبه،واطمأن لهيبته ، وأخبت لسلطانه ، فهذا غاية التواضع وهو يستلزم الأول من غير عكس ، والمتواضع حقيقة من رزق الأمرين ، والله المستعان .

## فصل
## فى الفرق بين القوة فى أمر الله والعلو فى الأرض

القوة فى أمر الله هى من تعظيمه وتعظيم أوامره وحقوقه حتى يقيمها للّه ، والعلو فى

---

(١) مسلم (٢٨٦٥/ ٦٤) فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار .

الأرض هو من تعظيم نفسه وطلب تفردها بالرياسةونفاذ الكلمة،سواء عز أمر الله أو هان ، بل إذا عارضه أمر الله وحقوقه ومرضاته فى طلب علوه لم يلتفت إلى ذلك ، وأهدره وأماته فى تحصيل علوه .

## فصل
## فى الفرق بين الحمية لله والحمية للنفس

وكذلك الحمية لله والحمية للنفس ، فالأولى يثيرها تعظيم الأمر والآمر . والثانية يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها ، فالحمية لله أن يحمى قلبه له من تعظيم حقوقه ، وهى حال عبد قد أشرق على قلبه نور سلطان الله فامتلأ قلبه بذلك النور ، فإذا غضب فإنما يغضب من أجل نور ذلك السلطان الذى ألقى على قلبه وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا غضب احمرت وجنتاه وبدا بين عينيه عرق بدره الغضب ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله .

وروى زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن موسى بن عمر : أنه صلى الله عليه وآله وسلم إذا غضب اشتعلت قلنسوته ناراً . وهذا بخلاف الحمية للنفس ، فإنها حرارة تهيج من نفسه لفوات حظها أو طلبه ، فإن الفتنة فى النفس ، والفتنة هى الحريق والنفس متلظية بنار الشهوة والغضب ، فإنما هما حرارتان تظهران على الأركان ؛ حرارة من قبل النفس المطمئنة أثارها تعظيم حق الله ، وحرارة من قبل النفس الأمارة أثارها استشعار فوت الحظ .

## فصل
## فى الفرق بين الجود والسرف

والفرق بين الجواد والمسرف : أن الجواد حكيم يضع العطاء مواضعه ، والمسرف مبذر، وقد يصادف عطاؤه موضعه وكثيراً لا يصادفه . وإيضاح ذلك : أن الله ـ سبحانه ـ بحكمته جعل فى الماء حقوقاً وهى نوعان : حقوق موظفة ، وحقوق ثانية .

**فالحقوق الموظفة** : كالزكاة والنفقات الواجبة على من تلزمه نفقته .

**والثانية** : كحق الضيف ، ومكافأة المهدى ، وما وقى به عرضه ونحو ذلك . فالجواد يتوخى بماله أداء هذه الحقوق على وجه الكمال ، طيبة بذلك نفسه ، راضية مؤملة للخلف

فى الدنيا والثواب فى العقبى ، فهو يخرج ذلك بسماحة قلب ، وسخاوة نفس ، وانشراح صدر . بخلاف المبذر ، فإنه يبسط يده فى ماله بحكم هواه وشهوته جزافاً لا على تقدير ، ولا مراعاة مصلحة ، وإن اتفقت له .

**فالأول** : بمنزلة من بذر حبة فى الأرض تنبت وتوخى ببذره مواضع المغل والإنبات ، فهذا لا يعد مبذراً ولا سفيهاً .

**والثانى** : بمنزلة من بذر حبة فى سباخ وغراز من الأرض وإن اتفق بذره فى محل النبات بذر بذراً متراكماً بعضه على بعض ، فذلك المكان البذر فيه ضائع معطل ، وهذا المكان بذراً متراكماً بعضه على بعض ، فلذلك يحتاج أن يقلع بعض زرعه ليصلح الباقى ، ولئلا تضعف الأرض عن تربيته . والله ـ سبحانه ـ هو الجواد على الإطلاق ، بل كل موجود فى العالم العلوى والسفلى بالنسبة إلى جوده أقل من قطرة فى بحار الدنيا وهى من جوده ، ومع هذا فإنما ينزل بقدر ما يشاء ، وجوده لا يناقض حكمته ، ويضع عطاءه مواضعه وإن خفى على أكثر الناس أن تلك مواضعه ، فالله يعلم حيث يضع فضله ، وأى المحال أولى به .

## فصل
## فى الفرق بين المهابة والكبر

والفرق بين المهابة والكبر : أن المهابة أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وإجلاله ، فإذا امتلأ القلب بذلك حل فيه النور ، ونزلت عليه السكينة ، وألبس رداء الهيبة ، فاكتسى وجهه الحلاوة والمهابة ، فأخذ بمجامع القلوب محبة ومهابة، فحنت إليه الأفئدة ، وقرت به العيون ، وأنست به القلوب . فكلامه نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور، وعمله نور ، وإن سكت علاه الوقار ، وإن تكلم أخذ بالقلوب والأسماع .

وأما الكبر : فأثر من آثار العجب والبغى من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم ، ترحلت منه العبودية ، ونزل عليه المقت ، فنظره إلى الناس شزر ، ومشيه بينهم تبختر ، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار ولا الإنصاف ،ذاهب بنفسه تيهاً ، لا يبدأ من لقيه بالسلام ، وإن رد عليه رأى أنه قد بالغ فى الإنعام عليه ، لا ينطلق لهم وجهه ، ولا يسعهم خلقه ، ولا يرى لأحد عليه حقاً ، ويرى حقوقه على الناس ، ولا يرى فضلهم عليه ويرى فضله عليهم ، لا يزداد من الله إلا بعداً ، ومن الناس إلا صغاراً أو بغضاً .

## فصل
## فى الفرق بين الصيانة والتكبر

والفرق بين الصيانة والتكبر : أن الصائن لنفسه بمنزلة رجل قد لبس ثوباً جديداً نقى البياض ذا ثمن ، فهو يدخل به على الملوك فمن دونهم ، فهو يصونه عن الوسخ والغبار والطبوع وأنواع الآثار إبقاء على بياضه ونقائه ، فتراه صاحب تعزز وهروب من المواضع التى يخشى منها عليه التلوث ، فلا يسمح بأثر ولا طبع ولا لوث يعلو ثوبه ، وإن أصابه شىء من ذلك على غرة بادر إلى قلعه وإزالته ومحو أثره .

وهكذا الصائن لقلبه ودينه ، تراه يجتنب طبوع الذنوب وآثارها ، فإن لها فى القلب طبوعاً وآثاراً أعظم من الطبوع الفاحشة فى الثوب النقى البياض ، ولكن على العيون غشاوة أن تدرك تلك الطبوع ، فتراه يهرب من مظان التلوث ويحترس من الخلق ويتباعد من تخالطهم ، مخافة أن يحصل لقلبه ما يحصل للثوب الذى يخالط الدباغين والذباحين والطباخين ونحوهم .

بخلاف صاحب العلو ، فإنه وإن شابه هذا فى تحرزه وتجنبه ، فهو يقصد أن يعلو رقابهم ، ويجعلهم تحت قدمه ، فهذا لون وذاك لون .

## فصل
## فى الفرق بين الشجاعة والجرأة

والفرق بين الشجاعة والجـرأة : أن الشجاعة من القلب ، وهى ثباته واستقراره عند المخاوف ، وهــو خلق يتولد من الصبر وحـسن الظن ، فإنه متى ظن الظفر وساعده الصبر ثبت ، كما أن الجبن يتولد من سوء الظن وعدم الصبر ، فلا يظن الظفر ولا يساعده الصبر. وأصل الجبن من سوء الظن ووسوسة النفس بالسوء ، وهــو ينشأ من الرئة ، فإذا ساء الظن ووسوسة النفس بالسوء انتفخت الرئة ، فزاحمت القلب فى مكانه ، وضيقت عليه حتى أزعجته عن مستقره ، فأصابه الزلازل والاضطراب لإزعاج الرئة له وتضييقها عليه؛ ولهذا جاء فى حديث عمرو بن العاص الذى رواه أحمد وغيره عن النبى صلى الله

عليه وآله وسلم : « شر ما فى المرء جبن خالع وشح هالع » (١) . فسمى الجبن خالعاً لأنه يخلع القلب عن مكانه ؛ لانتفاخ السحر وهو الرئة ، كما قال أبو جهل لعتبة بن ربيعة يوم بدر : انتفخ سحرك . فإذا قلب عن مكانه ضاع تدبير العقل فظهر الفساد على الجوارح ، فوضعت الأمور على غير مواضعها،فالشجاعة حرارة القلب وغضبه وقيامه وانتصابه وثباته، فإذا رأته الأعضاء كذلك أعانته ، فإنها خدم له وجنود ، كما أنه إذا ولى ولت سائر جنوده.

وأما الجرأة فهى إقدام سببه قلة المبالاة وعدم النظر فى العاقبة ، بل تقدم النفس فى غير موضع الإقدام يعرضه عن ملاحظة العارض ، فإما عليها وإما لها .

## فصل
## فى الفرق بين الحزم والجبن

وأما الفرق بين الحزم والجبن : فالحازم هو الذى قد جمع عليه همه وإراداته عقله ، ووزن الأمور بعضها ببعض فأعد لكل منها قرنه ، ولفظه الحزم تدل على القوة والإجماع . ومنه حزمة الحطب ، فحازم الرأى هو الذى اجتمعت له شؤون رأيه ، وعرف منها خير الخيرين وشر الشرين ، فأحجم فى موضع الإحجام رأياً وعقلاً لا جبناً ولا ضعفاً :

العاجز الرأى مضياع لفرصته ... حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

## فصل
## فى الفرق بين الاقتصاد والشح

وأما الفرق بين الاقتصاد والشح : أن الاقتصاد خلق محمود يتولد من خلقين : عدل وحكمة ، فبالعدل فى المنع والبذل وبالحكمة يضع كل واحد منهما موضعه الذى يليق به ، فيتولد من بينهما الاقتصاد وهو وسط بين طرفين مذمومين ، كما قال تعالى : ﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾ [الإسراء: ٢٩ ] ، وقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا** (٦٧)﴾ [ الفرقان ] ، وقال تعالى : ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا** ﴾ [ الأعراف : ٣١].

---

(١) أبو داود (٢٥١١) فى الجهاد ، باب : فى الجراءة والجبن ، وأحمد ٣٠٢/٢ ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٧٩٩٧): « إسناده صحيح » .

وأما الشح : فهو خلق ذميم يتولد من سوء الظن وضعف النفس ، ويمده وعد الشيطان حتى يصير هلعاً . والهلع شدة الحرص على الشيء والشره به ، فيتولد عنه المنع لبذله والجزع لفقده ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)** ﴾ [ المعارج ] .

## فصل
## فى الفرق بين الاحتراز وسوء الظن

والفرق بين الاحتراز وسوء الظن : أن المحترز بمنزلة رجل قد خرج بماله ومركوبه مسافراً ، فهو يحترز بجهده من كل قاطع للطريق وكل مكان يتوقع منه الشر ، وكذلك يكون مع التأهب والاستعداد وأخذ الأسباب التى بها ينجو من المكروه ، فالمحترز كالمتسلح المتدرع الذى قد تأهب للقاء عدوه ، وأعد له عدته ، فهمه فى تهيئة أسباب النجاة ومحاربة عدوه قد أشغلته عن سوء الظن به ، وكلما ساء به الظن أخذ فى أنواع العدة والتأهب .

وأما سوء الظن ، فهو امتلاء قلبه بالظنون السيئة بالناس حتى يطفح على لسانه وجوارحه ، فهم معه أبداً فى الهمز واللمز والطعن والعيب والبغض ، يبغضهم ويبغضونه، ويلعنهم ويلعنونه ، ويحذرهم ويحذرون منه ، فالأول يخالطهم ويحترز منهم ، والثانى يتجنبهم ويلحقه أذاهم ، الأول داخل فيهم بالنصيحة والإحسان مع الاحتراز ، والثانى خارج منهم مع الغش والدغل والبغض .

## فصل
## فى الفرق بين الفراسة والظن

والفرق بين الفراسة والظن : أن الظن يخطئ ويصيب ، وهو يكون مع ظلمة القلب ونوره وطهارته ونجاسته ؛ ولهذا أمر تعالى باجتناب كثير منه ، وأخبر أن بعضه إثم .

وأما الفراسة ، فأثنى على أهلها ومدحهم فى قوله تعالى : ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥)**﴾ [ الحجر ] . قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أى للمتفرسين ، وقال تعالى : ﴿**يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ**﴾ [ البقرة : ٢٧٣ ] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**﴾ [ محمد : ٣٠ ]. فالفراسة الصادقة

لقلب قد تطهر وتصفى وتنزه من الأدناس وقرب من الله ، فهو ينظر بنور الله الذى جعله فى قلبه . وفى الترمذى وغيره من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » (١) .

وهذه الفراسة نشأت له من قربه من الله ، فإن القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه ، وكان يلقيه من مشكاة قريبة من الله بحسب قربه منه ، وأضاء له النور بقدر قربه ، فرأى فى ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب ، كما ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال: « ما تقرب إلىَّ عبدى بمثل ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ،فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ،وبى يمشى » (٢) .

فأخبر ـ سبحانه ـ أن تقرب عبده منه يفيده محبته له، فإذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله،فسمع به ، وأبصر به ، وبطش به ، فصار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صور الحقائق على ما هى عليه ، فلا تكاد تخطئ له فراسة ، فإن العبد إذا أبصر بالله أبصر الأمر على ما هو عليه ، فإذا سمع بالله سمعه على ما هو عليه ، وليس هذا من علم الغيب بل علام الغيوب قذف الحق فى قلب قريب مستبشر بنوره ، غير مشغول بنقوش الأباطيل والخيالات والوساوس التى تمنعه من حصول صور الحقائق فيه،وإذا غلب على القلب النور فاض على الأركان وبادر من القلب إلى العين فكشف بعين بصره بحسب ذلك النور .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرى أصحابه فى الصلاة وهم خلفه كما يراهم وهم أمامه ، ورأى بيت المقدس عيانًا وهو بمكة ، ورأى قصور الشام ، وأبواب صنعاء ، ومدائن كسرى وهو بالمدينة يحفر الخندق ، ورأى أمراءه بمؤتة وقد أصيبوا وهو بالمدينة ، ورأى النجاشى بالحبشة لما مات وهو بالمدينة فخرج إلى المصلى فصلى عليه .

ورأى عمر سارية بنهاوند من أرض فارس هو وعساكر المسلمين وهم يقاتلون عدوهم، فناداه : يا سارية الجبل . ودخل عليه نفر من مذحج فيهم الأشتر النخعى ، فصعد فيه البصر وصوبه وقال : أيهم هذا ؟ قال : مالك بن الحارث ، فقال : ما له قاتله الله ، إنى

(١) الترمذى (٣١٢٧) فى تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الحجر ، وضعفه الألبانى ، انظر : السلسلة الضعيفة (١٨٢١) .

(٢) البخارى (٦٥٠٢) فى الرقاق ، باب : التواضع .

لأرى للمسلمين منه يوماً عصيباً .

ودخل عمرو بن عبيد على الحسن فقال هذا سيد الفتيان إن لم يحدث . وقيل : إن الشافعى ومحمد بن الحسن جلسا فى المسجد الحرام فدخل رجل فقال محمد : أتفرس أنه نجار ، فقال الشافعى : أتفرس أنه حداد ، فسألاه فقال : كنت حداداً وأنا اليوم أنجر . ودخل أبو الحسن البوشنجى والحسن الحداد على أبى القاسم المناوى يعودانه ، فاشتريا فى طريقهما بنصف درهم تفاحاً نسيئة ، فلما دخلا عليه قال : ما هذه الظلمة فخرجا وقالا : ما علمنا ، لعل هذا من قبل ثمن التفاح ، فأعطيا الثمن ثم عادا إليه ووقع بصره عليهما فقال : يمكن الإنسان أن يخرج من الظلمة بهذه السرعة ؟ أخبرانى عن شأنكما ، فأخبراه بالقصة فقال : نعم ، كان كل واحد منكما يعتمد على صاحبه فى إعطاء الثمن والرجل مستح منكما فى التقاضى .

وكان بين أبى زكريا النخشبى وبين امرأة سبب قبل توبته ، فكان يوماً واقفاً على رأس أبى عثمان الحيرى فتفكر فى شأنها ، فرفع أبو عثمان إليه رأسه وقال : ألا تستحى ؟ وكان شاه الكرمانى جيد الفراسة لا تخطئ فراسته ، وكان يقول : من غض بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعمر باطنه بدوام المراقبة ، وظاهره باتباع السنة ، وتعود أكل الحلال لم تخطئ فراسته .

وكان شاب يصحب الجنيد يتكلم على الخواطر ، فذكر للجنيد ، فقال : إيش هذا الذى ذكر لى عنك ؟ فقال له : أعتقد شيئاً ، فقال له الجنيد: اعتقدت ، فقال الشاب : اعتقدت كذا وكذا ، فقال الجنيد : لا ، فقال : فاعتقد ثانياً ، قال : اعتقدت ، فقال الشاب : اعتقدت كذا وكذا ، فقال الجنيد : لا ، قال : فاعتقد ثالثاً ، قال : اعتقدت ، قال الشاب : هو كذا وكذا ، قال : لا ، فقال الشاب : هذا عجب وأنت صدوق وأنا أعرف قلبى ، فقال الجنيد : صدقت فى الأولى والثانية والثالثة ، لكن أردت أن أمتحنك هل يتغير قلبك ؟

وقال أبو سعيد الخراز : دخلت المسجد الحرام ، فدخل فقير عليه خرقتان يسأل شيئاً ، فقلت فى نفسى : مثل هذا كَلٌّ على الناس ، فنظر إلىَّ وقال : ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ** ﴾ [ البقرة : ٢٣٥ ] قال : فاستغفرت فى سرى ، فنادانى وقال : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ** ﴾ [ الشورى : ٢٥ ] .

وقال إبراهيم الخواص : كنت فى الجامع ، فأقبل شاب طيب الرائحة ، حسن الوجه، حسن الحرمة ، فقلت لأصحابنا : يقع لى أنه يهودى ! فكلهم كره ذلك ، فخرجت وخرج الشاب ، ثم رجع إليهم فقال : إيش قال الشيخ فىَّ ؟ فاحتشموه ، فألح عليهم فقالوا :

قال : إنك يهودى ، فجاء فأكب على يدى فأسلم ، فقلت : ما السبب ؟ فقال : نجد فى كتابنا أن الصديق لا تخطئ فراسته ، فقلت : أمتحن المسلمين ، فتأملتهم ، فقلت: إن كان فيهم صديق ففى هذه الطائفة فلبست عليكم ، فلما اطلع هذا الشيخ علىَّ وتفرسنى علمت أنه صديق .

وهذا عثمان بن عفان دخل عليه رجل من الصحابة ، وقد رأى امرأة فى الطريق فتأمل محاسنها ، فقال له عثمان : يدخل أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه ، فقلت : أَوَحْىٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال : لا ، ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة .

فهذا شأن الفراسة ، وهى نور يقذفه الله فى القلب ، فيخطر له الشىء فيكون كما خطر له ، وينفذ إلى العين فترى ما لا يراه غيرها .

## فصل
## فى الفرق بين النصيحة والغيبة

والفرق بين النصيحة والغيبة :أن النصيحة يكون القصد فيها تحذير المسلم من مبتدع أو فتان أو غاش أو مفسد ، فتذكر ما فيه إذا استشارك فى صحبته ومعاملته والتعلق به كما قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمة بنت قيس وقد استشارته فى نكاح معاوية وأبى جهم فقال : « أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه » (١) ، وقال عن بعض أصحابه لمن سافر معه : إذا هبطت عن بلاد قومه فاحذره .

فإذا وقعت الغيبة على وجه النصيحة لله ورسوله وعباده المسلمين فهى قربة إلى الله من جملة الحسنات ، وإذا وقعت على وجه ذم أخيك وتمزيق عرضه والتفكه بلحمه والغض منه ؛ لتضع منزلته من قلوب الناس فهى الداء العضال ، ونار الحسنات التى تأكلها كما تأكل النار الحطب .

---

(١) مسلم (١٤٨٠ / ٣٦) فى الطلاق ، باب : المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها ، أبو داود (٢٢٨٤) فى الطلاق ، باب : فى نفقة المبتوتة ، والنسائى (٣٢٤٤) فى النكاح ، باب : خطبة الرجل إذا ترك الخاطب أو أذن له .

## فصل
## فى الفرق بين الهدية والرشوة

والفرق بين الهدية والرشوة وإن اشتبها فى الصورة : القصد ، فإن الراشى قصده بالرشوة التوصل إلى إبطال حق أو تحقيق باطل ، فهذا الراشى الملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإن رشا لدفع الظلم عن نفسه اختص المرتشى وحده باللعنة .

وأما المهدى ، فقصده استجلاب المودة والمعرفة والإحسان ، فإن قصد المكافأة فهو معاوض ، وإن قصد الربح فهو مستكثر .

## فصل
## فى الفرق بين الصبر والقسوة

والفرق بين الصبر والقسوة : أن الصبر خلق كسبى يتخلق به العبد ، وهو حبس النفس عن الجزع والهلع والتشكى ، فيحبس النفس عن التسخط ، واللسان عن الشكوى ، والجوارح عما لا ينبغى فعله ، وهو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية .

وأما القسوة ، فيبس فى القلب يمنعه من الانفعال ، وغلظة تمنعه من التأثر بالنوازل ، فلا يتأثر لغلظته وقساوته لا لصبره واحتماله .

وتحقيق هذا أن القلوب ثلاثة :

قلب قاس غليظ بمنزلة اليد اليابسة ؛ وقلب مائع رقيق جداً .

فالأول لا ينفعل بمنزله الحجر ، والثانى بمنزلة الماء وكلاهما ناقص .

وأصح القلوب : القلب الرقيق الصافى الصلب ، فهو يرى الحق من الباطل بصفائه ويقبله ويؤثره برقته ويحفظه ، ويحارب عدوه بصلابته . وفى الأثر : القلوب آنية الله فى أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها . وهذا القلب الزجاجى ، فإن الزجاجة جمعت الأوصاف الثلاثة، وأبغض القلوب إلى الله القلب القاسى ، قال تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [ الزمر : ٢٢ ] ، وقال تعالى : ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** ﴾ [البقرة : ٧٤ ] ، وقال تعالى: ﴿ **لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي**

﴿قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [ الحج :٥٣ ] فذكر القلبين المنحرفين عن الاعتدال ، هذا بمرضه، وهذا بقسوته ، وجعل إلقاء الشيطان عتمة لأصحاب هذين القلبين ورحمة لأصحاب الثالث، وهو القلب الصافى الذى ميز بين إلقاء الشيطان وإلقاء الملك بصفائه ، وقبل الحق بإخباته ورقته،وحارب النفوس المبطلة بصلابته وقوته ،فقال تعالى عقيب ذلك : ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤)﴾ [ الحج ] .

## فصل

## فى الفرق بين العفو والذل

والفرق بين العفو والذل : أن العفو إسقاط حقك جوداً وكرماً وإحساناً مع قدرتك على الانتقام فتؤثر الترك رغبة فى الإحسان ومكارم الأخلاق ، بخلاف الذل فإن صاحبه يترك الانتقام عجزاً وخوفاً ومهانة نفس ، فهذا مذموم غير محمود ، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالا منه ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) ﴾ [ الشورى ] .

فمدحهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك ، حتى إذا قدروا على من بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليه ندبهم إلى الخلق الشريف من العفو والصفح فقال : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾ [ الشورى ]. فذكر المقامات الثلاثة : العدل وأباحه ، والفضل وندب إليه ، والظلم وحرمه .

فإن قيل : فكيف مدحهم على الانتصار والعفو وهما متنافيان ؟

قيل : لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام وإنما مدحهم على الانتصار وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم ، فلما قدروا ندبهم إلى العفو . قال بعض السلف فى هذه الآية: كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا ، فمدحهم على عفو بعد قدرة ، لا على عفو ذل وعجز ومهانة ، وهذا هو الكمال الذى مدح ـ سبحانه ـ به نفسه فى قوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [ النساء :١٤٩ ] (١) ، ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ البقرة : ٢١٨ ] .

وفى أثر معروف : حملة العرش أربعة ؛اثنان يقولان : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك ، واثنان يقولان : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، لك

---

(١) فى المطبوعة « وكان الله عفواً قديرا » .

الحمد على عفوك بعد قدرتك . ولهذا قال المسيح ـ صلوات الله وسلامه عليه : ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴿١١٨﴾﴾ [ المائدة ] ، أى : إن غفرت لهم غفرت عن عزة وهى كمال القدرة ، وحكمة وهى كمال العلم ، فغفرت بعد أن علمت ما عملوا وأحاطت بهم قدرتك ، إذ المخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام وجهله بحقيقة ما صدر من المسىء ، والعفو عن المخلوق ظاهره ضيم وذل وباطنه عز ومهانة ، وانتقام ظاهره عز وباطنه ذل ، فما زاد الله بعفو إلا عزًا ، ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل ، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو ؛ ولهذا ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه قط ، وتأمل قوله سبحانه : ﴿ **هُمْ يَنتَصِرُونَ** ﴿٣٩﴾﴾ [ الشورى ] كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم ، لا أن غيرهم هو الذى ينصرهم .

ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالباً بل لا بد من المجاوزة ، شرع فيه ـ سبحانه ـ المماثلة والمساواة ، وحرم الزيادة ، وندب إلى العفو .

والمقصود : أن العفو من أخلاق النفس المطمئنة ، والذل من أخلاق الأمارة . ونكتة المسألة : أن الانتقام شىء والانتصار شىء ، فالانتصار : أن ينتصر لحق الله ومن أجله ، ولا يقوى على ذلك إلا من تخلص من ذل حظه ورق هواها ، فإنه حينئذ ينال حظًا من العز الذى قسم الله للمؤمنين ، فإذا بغى عليه انتصر من الباغى من أجل عز الله الذى أعزه به، غيرة على ذلك العز أن يستضام ويقهر ، وحمية للعبد المنسوب إلى العزيز الحميد أن يستذل، فهو يقول للباغى عليه : أنا مملوك من لا يذل مملوكه ولا يحب أن يذله أحد ، وإذا كانت نفسه الأمارة قائمة على أصولها لم تحب بعد طلبه إلا الانتقام والانتصار لحظها وظفرها بالباغى ، تشفياً فيه وإذلالاً له .

وأما النفس التى خرجت من ذل حظها ورق هواها إلى عز توحيدها وإنابتها إلى ربها ، فإذا نالها البغى قامت بالانتصار حمية ونصرة للعز الذى أعزها الله به ونالته منه ، وهو فى الحقيقة حمية لربها ومولاها .

وقد ضرب لذلك مثلا بعبدين من عبيد الغلة جرائين،ضرب أحدهما صاحبه،فعفا المضروب عن الضارب نصحاً منه لسيده وشفقة على الضارب أن يعاقبه السيد ، فلم يجشم سيده خلعه على عقوبته وإفساده بالضرب ، فشكر العافى على عفوه ووقع منه بموقع . وعبد آخر قد أقامه بين يديه وجمله وألبسه ثيابا يقف بها بين يديه ، فعمد بعض سواس الدواب وأضرابهم ولطخ تلك الثياب بالعذرة أو مزقها ، فلو عفا عمن فعل به ذلك لم يوافق عفوه رأى سيده ولا محبته ،وكان الانتصار أحب إليه وأوفق ،كأنه يقول: إنما فعل

بك هذا جرأة عليَّ واستخفافاً بسلطانى ، فإذا مكنه من عقوبته فأذله وقهره ولم يبق إلا أن يبطش به ، فذل وانكسر قلبه ، فإن سيده يحب منه ألا يعاقبه لحظة ، وأن يأخذ منه حق السيد فيكون انتصاره حينئذ لمحض حق سيده لا لنفسه.

كما روى عن على رضي الله عنه : أنه مر برجل فاستغاث به وقال : هذا منعنى حقى ولم يعطنى إياه ، فقال : أعطه حقه ، فلما جاوزهما لج الظالم ولطم صاحب الحق فاستغاث بعلى ، فرجع وقال : أتلك الغوث ، فقال له : استقد منه ، فقال : قد عفوت يا أمير المؤمنين ، فضربه على تسع درر وقال : قد عفا عنك من لطمته . وهذا حق السلطان ، فعاقبه على لما اجترأ على سلطان الله ولم يدعه .

ويشبه هذا قصة الرجل الذى جاء إلى أبى بكر رضي الله عنه فقال : احملنى ، فوالله لأنا أفرس منك ومن ابنك ، وعنده المغيرة بن شعبة ، فحسر عن ذراعه وصك بها أنف الرجل فسال الدم ، فجاء قومه إلى أبى بكر رضي الله عنه فقالوا :أقدنا من المغيرة ، فقال : أنا أقيدكم من وزعة الله ؟ لا أقيدكم منه . فرأى أبوبكر أن ذلك انتصاراً من المغيرة وحمية لله ، وللعز الذى أعز به خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليتمكن بذلك العز من حسن خلافته وإقامة دينه ، فترك قوده لاجترائه على عز الله وسلطانه الذى أعز به رسوله ودينه وخليفته ، فهذا لون ، والضرب حمية للنفس الأمارة لون .

## فصل
## فى الفرق بين سلامة القلب والبله والغفل

والفرق بين سلامة القلب والبله والغفل : أن سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته ، فيسلم قلبه من إرادته وقصده لا من معرفته به ، وهذا بخلاف البله والغفلة فإنها جهل وقلة معرفة. وهذا لا يحمد ، إذ هو نقص وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه ، والكمال أن يكون القلب عارفاً بتفاصيل الشر سليماً من إرادته . قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : لست بِخِبٍّ ولا يخدعنى الخب . وكان عمر أعقل من أن يخدع ، وأروع من أن يخدع ، وقال تعالى: ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(٨٩)** ﴾ [ الشعراء ] ، فهذا هو السليم من الآفات التى تعترى القلوب المريضة من مرض الشبهة التى توجب اتباع الظن ، ومرض الشهوة التى توجب اتباع ما تهوى الأنفس ، فالقلب السليم الذى سلم من هذا وهذا .

# فصل
# في الفرق بين الثقة والغرة

والفرق بين الثقة والغرة : أن الثقة سكون يستند إلى أدلة وأمارات يسكن القلب إليها، فكلما قويت تلك الأمارات قويت واستحكمت ولا سيما على كثرة التجارب وصدق الفراسة. واللفظة كأنها ـ والله أعلم ـ من الوثاق وهو الرباط ، فالقلب قد ارتبط بمن وثق به توكلاً عليه وحسن ظن به، فصار فى وثاق محبته ومعاملته والاستناد إليه والاعتماد عليه، فهو فى وثاقه بقلبه وروحه وبدنه ، فإذا سار القلب إلى الله وانقطع إليه تقيد بحبه وصار فى وثاق العبودية ، فلم يبق له مفزع فى النوائب ولا ملجأ غيره ، ويصير عدته وشدته وذخيرته فى نوائبه ، وملجأه فى نوازله ، ومستعانه فى حوائجه وضروراته .

وأما الغرة ، فهى حال المغتر الذى غرته نفسه وشيطانه وهواه ، وأمله الخائب الكاذب بربه ، حتى أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى . والغرور ثقتك بمن لا يوثق به ، وسكونك إلى من لا يسكن إليه ، ورجاؤك النفع من المحل الذى لا يأتى بخير ، كحال المغتر بالسراب ، قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (٣٩) ﴾ [ النور ] وقال تعالى فى وصف المغترين : ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا** (١٠٣) **الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** (١٠٤) ﴾ [ الكهف ] ، وهؤلاء إذا انكشف الغطاء وثبتت حقائق الأمور علموا أنهم لم يكونوا على شىء : ﴿ **وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴾ [ الزمر :٤٧] . وفى أثر معروف : إذا رأيت الله ـ سبحانه ـ يزيدك من نعمه وأنت مقيم على معصيته فاحذره ، فإنما هو استدراج يستدرجك به ، وشاهد هذا فى القرآن فى قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ** (٤٤) ﴾ [ الأنعام ] وهذا من أعظم الغرة أن تراه يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على ما يكره ، فالشيطان موكل بالغرور وطبع النفس الأمارة الاغترار فإذا اجتمع الرأى والبغى والرأى المحاج ، والشيطان الغرور والنفس المغترة ،لم يقع هناك خلاف . فالشياطين غروا المغترين بالله وأطمعوهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه فى عفوه وتجاوزه ، وحدثوهم بالتوبة ؛ لتسكن قلوبهم ، ثم دافعوهم بالتسويف حتى هجم الأجل، فأخذوا على أسوء أحوالهم، وقال تعالى: ﴿ **وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم**

بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) ﴾ [ الحديد ] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾ [ فاطر ] .

وأعظم الناس غرورا بربه من إذا مسه الله برحمة منه وفضل قال: هذا لى أى أنا أهله، وجدير به ومستحق له ،ثم قال : وما أظن الساعة قائمة . فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله، ثم زاد فى غروره فقال : ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى : يعنى الجنة والكرامة .فهكذا تكون الغرة بالله ، فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه ، وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه فلا يزال كذلك حتى يتردى فى آبار الهلاك .

## فصل
## فى الفرق بين الرجاء والتمنى

الفرق بين الرجاء والتمنى : أن الرجاء يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة فى الإتيان بأسباب الظفر والفوز .

والتمنى : حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ [ البقرة : ٢١٨] فطوى ـ سبحانه ـ بساط الرجاء إلا عن هؤلاء . وقال المغترون : إن الذين ضيعوا أوامره وارتكبوا نواهيه واتبعوا ما أسخطه وتجنبوا ما يرضيه أولئك يرجون رحمته ، وليس هذا ببدع من غرور النفس والشيطان لهم ، فالرجاء لعبد قد امتلأ قلبه من الإيمان بالله واليوم الآخر فمثل بين عينيه ما وعده الله تعالى من كرامته وجنته ، فامتد القلب مائلاً إلى ذلك شوقاً إليه ، وحرصاً عليه فهو شبيه بالماد عنقه إلى مطلوب قد صار نصب عينيه .

وعلامة الرجاء الصحيح : أن الراجي يخاف فوت الجنة وذهاب حظه منها ، بترك ما يخاف أن يحول بينه وبين دخولها ، فمثله مثل رجل خطب امرأة كريمة فى منصب وشرف إلى أهلها ، فلما آن وقت العقد واجتماع الأشراف والأكابر ، وإتيان الرجل إلى الحضور ، أعلم عشية ذلك اليوم ليتأهب للحضور ، فتراه المرأة وأكابر الناس فأخذ فى التأهب والتزين والتجمل فأخذ من فضول شعره ، وتنظف وتطيب ، ولبس أجمل ثيابه ، وأتى إلى تلك الدار متقياً فى طريقه كل وسخ ودنس وأثر يصيبه أشد تقوى حتى الغبار والدخان ، وما هو دون ذلك ، فلما وصل إلى الباب رحب به ربها ومكن له فى صدر الدار على الفراش والوسائد ،، ورمقته العيون وقصد بالكرامة من كل ناحية ، فلو أنه ذهب بعد أخذ هذه الزينة فجلس فى المزابل ، وتمرغ عليها وتمعك بها ، وتلطخ فى بدنه وثيابه بما عليها من

عذرة وقذر ، ودخل ذلك فى شعره وبشره وثيابه فجاء على تلك الحال إلى تلك الدار ، وقصد دخولها للوعد الذى سبق له ، فقام إليه البواب بالضرب والطرد والصياح عليه ، والإبعاد له من بابها ، وطريقها فرجع متحيراً خاسئاً ، فالأول حال الراجى ، وهذا حال المتمنى .

وإن شئت مثلت حال الرجلين بملك هو من أغير الناس وأعظمهم أمانة وأحسنهم معاملة ، لا يضيع لديه حق أحد وهو يعامل الناس من وراء ستر لا يراه أحد ، وبضائعه وأمواله وتجاراته وعبيده وإماؤه ، ظاهر بارز فى داره للمعاملين ، فدخل عليه رجلان فكان أحدهما يعامله بالصدق والأمانة والنصيحة ، لم يجرب عليه غشاً ولا خيانة ولا مكراً ، فباعه بضائعه كلها واعتمد مع مماليكه وجواريه ، ما يجب أن يعتمد معهم ، فكان إذا دخل إليه ببضاعة تخير له أحسن البضائع وأحبها إليه ، وإن صنعها بيده بذل جهده فى تحسينها وتنميتها ،وجعل ما خفى منها أحسن مما ظهر ويستلم المؤنة ممن أمره أن يستلمها منه ، وامتثل ما أمره به السفير وبينه فى مقدار ما يعمله؛ صفته وهيئته وشكله ورقته وسائر شؤونه .

وكان الآخر إذا دخل دخل بأخس بضاعة يجدها لم يخلصها من الغش ، ولا نصح فيها ولا اعتمد فى أمرها ما قاله المترجم عن الملك والسفير بينه وبين الصناع والتجار ، بل كان يعملها على ما يهواه هو ومع ذلك فكان يخون الملك فى داره ، إذ هو غائب عن عينه، فلا يلوح له طمع إلا خانه ، ولا حرمة للملك إلا مد بصره إليها ، وحرص على إفسادها ، ولا شيئاً يسخط الملك إلا ارتكبه إذا قدر عليه ، فمضيا على ذلك مدة .

ثم قيل : إن الملك يبرز اليوم لمعامليه حتى يحاسبهم ويعطيهم حقوقهم ، فوقف الرجلان بين يديه فعامل كل واحد منهما بما يستحقه .

فتأمل هذين المثلين ، فإن الواقع مطابق لهما ، فالراجى على الحقيقة لما صارت الجنة نصب عينه ورجاؤه وأمله امتد إليها قلبه وسعى لها سعيها ، فإن الرجاء هو امتداد القلب وميله وحقق رجاءه كمال التأهب وخوف الفوت والأخذ بالحذر .

وأصله من التنحى ورجا البئر : ناحيته ، وأرجاء السماء : نواحيها ،وامتداد القلب إلى المحبوب منقطعا عما يقطعه عنه ، هو تنح عن النفس الأمارة وأسبابها وما تدعو إليه ، وهذا الامتداد والميل والخوف من شأن النفس المطمئنة ، فإن القلب إذا انفتحت بصيرته فرأى الآخرة ، وما أعد الله فيها لأهل طاعته ، وأهل معصيته خاف وخف مرتحلا إلى الله والدار الآخرة ؛ وكان قبل ذلك مطمئناً إلى النفس ، والنفس إلى الشهوات والدنيا ، فلما انكشف عنه غطاء النفس خف وارتحل عن جوارها ، طالباً جوار العزيز الرحيم فى جنات النعيم ، ومن هاهنا صار كل خائف راجياً ، وكل راج خائفا ، فأطلق اسم أحدهما على

الآخر ، فإن الراجى قلبه قريب الصفة من قلب الخائف . هذا الراجى قد نحى قلبه عن مجاورة النفس والشيطان مرتحلا إلى الله ، قد رفع له من الجنة علم فشمر إليه وله ماداً إليه قلبه كله ، وهذا الخائف فار من جوارهما ملتجئ إلى الله من حبسه فى سجنهما فى الدنيا فيحبس معهما بعد الموت ويوم القيامة ، فإن المرء مع قرينه فى الدنيا والآخرة ، فلما سمع الوعيد ارتحل من مجاورة جار السوء فى الدارين ، فأعطى اسم الخائف . ولما سمع الوعد امتد واستطار شوقاً إليه وفرحا بالظفر به ، فأعطى اسم الراجى، وحالاه متلازمان لا ينفك عنهما، فكل راج خائف من فوات ما يرجوه، كما أن كل خائف راج أمنه مما يخاف ، فلذلك تداول الاسمان عليه ، قال تعالى : ﴿ **مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣)**﴾ [ نوح ] .

قالوا فى تفسيرها : لا تخافون لله عظمة . وقد تقدم أن الله ـ سبحانه ـ طوى الرجاء إلا عن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا ، وقد فسر النبى صلى الله عليه وآله وسلم الإيمان بأنه ذو شعب وأعمال ظاهرة وباطنة ، وفسر الهجرة بأنها هجرة ما نهى الله عنه ، والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله فقال : « المهاجر من هجر ما نهى عنه، والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله » .

والمقصود : أن الله ـ سبحانه ـ جعل أهل الرجاء من آمن وهاجر وجاهد وأخرج من سواهم من هذه الأمم .

وأما الأمانى : فإنها رؤوس أموال المفاليس ، أخرجوها فى قالب الرجاء ، وتلك أمانيهم ، وهى تصدر من قلب تزاحمت عليه وساوس النفس ، فأظلم من دخانها ، فهو يستعمل قلبه فى شهواتها ، وكلما فعل ذلك منته حسن العاقبة والنجاة ، وأحالته على العفو والمغفرة والفضل ، وأن الكريم لا يستوفى حقه ولا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة، ويسمى ذلك رجاء ، وإنما هو وسواس وأمانى باطلة ، تقذف بها النفس إلى القلب الجاهل فيستريح إليها ، قال تعالى : ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣)**﴾ [ النساء ] .

فإذا ترك العبد ولاية الحق ونصرته ترك الله ولايته ونصرته ، ولم يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا ، وإذا ترك ولايته ونصرته تولته نفسه والشيطان فصارا وليين له ، ووكل إلى نفسه فصار انتصاره لها بدلا من نصرة الله ورسوله ، فاستبدل بولاية الله ولاية نفسه وشيطانه ، وبنصرته نصرة نفسه وهواه ، فلم يدع للرجاء موضعا . فإذا قالت لك

النفس : أنا فى مقام الرجاء . فطالبها بالبرهان ، وقل : هذه أمنية فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، فالكيس يعمل أعمال البر على الطبع والرجاء ، والأحمق العاجز يعطل أعمال البر ويتكل على الأمانى التى يسميها رجاء . والله الموفق .

## فصل

## فى الفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها

والفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها : أن المتحدث بالنعمة مخبر عن صفات وليها ومحض جوده وإحسانه فهو مثن عليه بإظهارها والتحدث بها، شاكر له ناشر لجميع ما أولاه مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء ، وبعث النفس على الطلب منه دون غيره، وعلى محبته ورجائه فيكون راغبا إلى الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها .

وأما الفخر بالنعم ، فهو أن يستطيل بها على الناس ويريهم أنه أعز منهم وأكبر ، فيركب أعناقهم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة .

قال النعمان بن بشير : إن للشيطان مصالى وفخوخا ، وإن مصاليه وفخوخه البطش بنعم الله ، والكبر على عباد الله ، والفخر بعطية الله ، والهون فى غير ذات الله .

## فصل

## فى الفرق بين فرح القلب وفرح النفس

والفرق بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر ، فإن الفرح بالله ومعرفته ومحبته وكلامه من القلب ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [ الرعد : ٣٦ ] .

فإذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحى فأولياء الله وأتباع رسوله أحق بالفرح به ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) ﴾ [ التوبة ] .

وقال تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾[ يونس].

قال أبو سعيد الخدرى : فضل الله : القرآن ، ورحمته : أن جعلكم من أهله .

وقال هلال بن يساف : فضل الله ورحمته : الإسلام الذى هداكم إليه ، والقرآن الذى علمكم ، هو خير من الذهب والفضة الذى تجمعون .

وقال ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين :فضل الله : الإسلام ، ورحمته : القرآن ، فهذا فرح القلب وهو الإيمان ويثاب عليه العبد ، فإن فرحه به يدل على رضاه به، بل هو فوق الرضاء ، فالفرح بذلك على قدر محبته . فإن الفرح إنما يكون بالظفر بالمحبوب . وعلى قدر محبته يفرح بحصوله له . فالفرح بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه أفضل ما يعطيه بل هو أجل عطاياه . والفرح فى الآخرة بالله ولقائه بحسب الفرح به ومحبته فى الدنيا . فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة وضعفها فهذا شأن فرح القلب .

وله فرح آخر وهو فرحه بما منَّ الله به عليه من معاملته والإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه به ، وكلما تمكن فى ذلك قوى فرحه وابتهاجه ، وله فرحة أخرى عظيمة الوقع عجيبة الشأن ، وهى الفرحة التى تحصل له بالتوبة ، فإن لها فرحة عجيبة لا نسبة لفرحة المعصية إليها البتة ، فلو علم العاصى أن لذة التوبة وفرحتها تزيد على لذة المعصية وفرحتها أضعافا مضاعفة ، لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية ، وسر هذا الفرح إنما يعلمه من علم سر فرح الرب تعالى بتوبة عبده أشد فرح يقدر ، ولقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثلا ليس فى أنواع الفرح فى الدنيا أعظم منه ، وهو فرح رجل قد خرج براحلته التى عليها طعامه وشرابه فى سفر ففقدها فى أرض دوية مهلكة ، فاجتهد فى طلبها فلم يجدها ، فيئس منها فجلس ينتظر الموت حتى إذا طلع البدر رأى فى ضوئه راحلته ، وقد تعلق زمامها بشجرة ، فقال من شدة فرحه : « اللهم أنت عبدى وأنا ربك »(١) . أخطأ من شدة الفرح ، فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته .

فلا ينكر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة ، ولكن هاهنا أمر يجب التنبيه عليه ، وهو أنه لا يصل إلى ذلك إلا بعد ترحات ومضض ومحن ، لا تثبت لها الجبال ، فإن صبر لها ظفر بلذة الفرح ، وإن ضعف عن حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشىء وآخر أمره فوات ما آثره من فرحة المعصية ولذتها ، فيفوته الأمران ويحصل على ضد اللذة من الألم المركب من وجود المؤذى وفوت المحبوب ، فالحكم لله العلى الكبير .

(١) مسلم (٢٧٤٧ / ٧) فى التوبة ، باب : فى الحض على التوبة والفرح بها .

# فصل
# فى الفرق بين رقة القلب والجزع

والفرق بين رقة القلب والجزع : أن الجزع ضعف فى النفس وخوف فى القلب ، يمده شدة الطمع والحرص ، ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر ، وإلا فمتى علم أن المقدر كائن ولابد ، كان الجزع عناء محضا ، ومصيبة ثانية ، قال تعالى : **﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم﴾** [ الحديد ، ٢٣]، فمتى آمن العبد بالقدر وعلم أن المصيبة مقدرة فى الحاضر والغائب ، لم يجزع ولم يفرح ، ولا ينافى هذا رقة القلب ، فإنها ناشئة من صفة الرحمة التى هى كمال الله ـ سبحانه ـ إنما يرحم من عباده الرحماء ، وقد كان رسول الله ﷺ أرق الناس قلبا وأبعدهم من الجزع .

فرقة القلب رأفة ورحمة ، وجزعه مرض وضعف ، فالجزع حال قلب مريض بالدنيا قد غشيه دخان النفس الأمارة فأخذ بأنفاسه ، وضيق عليه مسالك الآخرة ، وصار فى سجن الهوى والنفس وهو سجن ضيق الأرجاء مظلم المسالك ، فانحصار القلب وضيقه يجزع من أدنى ما يصيبه ولا يحتمله ، فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعد ، وامتلأ من محبة الله وإجلاله رق ، وصارت فيه الرأفة والرحمة ، فتراه رحيما رقيق القلب بكل ذى قربى ومسلم ، يرحم النملة فى جحرها والطير فى وكره ، فضلا عن بنى جنسه ، فهذا أقرب القلوب من الله . قال أنس : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرحم الناس بالعيال » .

والله ـ سبحانه ـ إذا أراد أن يرحم عبداً أسكن فى قلبه الرأفة والرحمة ، وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمة والرأفة ، وأبدله بهما الغلظة والقسوة . وفى الحديث الثابت : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى » (١) ، وفيه : « من لا يرحم لا يرحم » (٢) . وفيه : « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » (٣)، وفيه « أهل الجنة ثلاثة : ذو

---

(١) أبو داود (٤٩٤٢) فى الأدب ، باب : فى الرحمة ، والترمذى (١٩٢٣) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى رحمة المسلمين ، وقال : « حسن » ، وأحمد ٢ / ٤٤٢ .

(٢) البخارى (٥٩٩٧) فى الأدب ، باب : رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ، ومسلم ( ٢٣١٨ / ٦٥) فى الفضائل ، باب : رحمته ﷺ بالصبيان والعيال وتواضعه ، وفضل ذلك .

(٣) أبو داود (٤٩٤١) فى الأدب ، باب : فى الرحمة ، والترمذى (١٩٢٤) فى البر والصلة ، باب : فى رحمة المسلمين ، وقال : « حسن صحيح » .

سلطان مقسط متصدق ، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذى قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال » (١).

والصديق ﷺ إنما فضل الأمة بما كان فى قلبه من الرحمة العامة زيادة على الصديقية؛ ولهذا أظهر أثرها فى جميع مقاماته حتى فى الأسارى يوم بدر ، واستقر الأمر على ما أشار به وضرب له صلى الله عليه وآله وسلم مثلا بعيسى وإبراهيم . والرب ـ سبحانه وتعالى ـ هو الرؤوف الرحيم ، وأقرب الخلق إليه أعظمهم رأفة ورحمة ،كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاته : وهذا باب لا يلجه إلا الأفراد فى العالم .

## فصل
## فى الفرق بين الموجدة والحقد

والفرق بين الموجدة والحقد : أن الوجد الإحساس بالمؤلم ، والعلم به وتحرك النفس فى رفعه فهو كمال .

وأما الحقد ، فهو إضمار الشر وتوقعه كل وقت ، فمن وجدت عليه فلا يزايل القلب أثره ، وفرق آخر وهو أن الموجدة لما ينالك منه ، والحقد لما يناله منك ، فالموجدة وجود ما نالك من أذاه ، والحقد توقع وجود ما يناله من المقابلة ،فالموجدة سريعة الزوال والحقد بطيء الزوال ، والحقد يجيء مع ضيق القلب ، واستيلاء ظلمة النفس ودخانها عليه بخلاف الموجدة فإنها تكون مع قوته وصلابته وقوة نوره وإحساسه .

## فصل
## فى الفرق بين المنافسة والحسد

والفرق بين المنافسة والحسد : أن المنافسة المبادرة إلى الكمال الذى تشاهد من غيرك ، فتنافسه فيه . حتى تلحقه أو تجاوزه ، فهى من شرف النفس وعلو الهمة ، وكبر القدر ، قال تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ المطففين ] .

وأصلها من الشيء النفيس الذى تتعلق به النفوس طلبا ورغبة ، فينافس فيه كل من

(١) مسلم (٢٨٦٥ / ٦٣) فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار .

النفسين الأخرى ، وربما فرحت إذا شاركتها فيه ، كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتنافسون فى الخير ، ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه ، بل يحض بعضهم بعضا عليه مع تنافسهم فيه ، وهى نوع من المسابقة ، وقد قال تعالى : ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ** ﴾ [ البقرة : ١٤٨ ] ، وقال تعالى : ﴿ **سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ** ﴾ [ الحديد : ٢١ ] .

وكان عمر بن الخطاب يسابق أبا بكر ﷺ فلم يظفر بسبقه أبدا ، فلما علم أنه قد استولى على الإمامة . قال : والله لا أسابقك إلى شىء أبدا ، وقال : والله ما سابقته إلى خير إلا وجدته قد سبقنى إليه .

والمتنافسان كعبدين بين يدى سيدهما يتباريان ويتنافسان فى مرضاته ويتسابقان إلى محابه ، فسيدهما يعجبه ذلك منهما ، ويحثهما عليه ، وكل منهما يحب الآخر ويحرضه على مرضاة سيده .

والحسد : خلق نفس ذميمة وضيعة ساقطة ، ليس فيها حرص على الخير ، فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها ، ويتمنى أن لو فاته كسبها حتى يساويها فى العدم ، كما قال تعالى : ﴿ **وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً** ﴾ [ النساء : ٨٩ ] ، وقال تعالى : ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾ [ البقرة :١٠٩ ] . فالحسود عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو ، والمنافس مسابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه فهو ينافس غيره ، أن يعلو عليه ويحب لحاقه به ، أو مجاوزته له فى الفضل . والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه فى النقصان ، وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة ، فمن جعل نصب عينيه شخصا من أهل الفضل والسبق فنافسه انتفع به كثيراً ، فإنه يتشبه به ويطلب اللحاق به والتقدم عليه ، وهذا لا نذمه وقد يطلق اسم الحسد على المنافسة المحمودة،كما فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم: « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار ، ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق »(١) .

فهذا حسد منافسة وغبطة يدل على علو همة صاحبه وكبر نفسه وطلبها للتشبه بأهل الفضل .

---

(١) مسلم (٨١٥ / ٢٦٦ ) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه .

# فصل
## فى الفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة

والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله : هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعى فى حظها ، فإن الناصح لله المعظم له المحب له ، يجب أن يطاع ربه فلا يعصى ، وأن تكون كلمته هى العليا وأن يكون الدين كله لله ، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه ، فقد ناصح الله فى عبوديته وناصح خلقه فى الدعوة إلى الله ، فهو يحب الإمامة فى الدين ، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إماما يقتدى به المتقون ، كما اقتدى هو بالمتقين ، فإذا أحب هذا العبد الداعى إلى الله أن يكون فى أعينهم جليلا ، وفى قلوبهم مهيبًا ، وإليهم حبيباً ، وأن يكون فيهم مطاعا لكى يأتموا به ويقتفوا أثر الرسول على يده ، لم يضره ذلك ، بل يحمد عليه ، لأنه داع إلى الله ،يحب أن يطاع ويعبد ويوحد ، فهو يحب ما يكون عوناً على ذلك موصلا إليه ؛ ولهذا ذكر ـ سبحانه ـ عباده الذين اختصهم لنفسه ، وأثنى عليهم فى تنزيله ، وأحسن جزاءهم يوم لقائه فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم ، ثم قال :

﴿ وَالَّـــذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَـــبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) ﴾ [ الفرقان ] . فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له ـ سبحانه ـ وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين له على طاعته وعبوديته . فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة ، فإنما سألوه ما يعاونون به المتقين على مرضاته وطاعته ، وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة فى الدين التى أساسها الصبر واليقين ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ﴾ [ السجدة ] . وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمن عليهم بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهراً وباطناً التى لا تتم الإمامة إلا بها .

وتأمل كيف نسبهم فى هذه الآيات إلى اسمه الرحمن جل جلاله ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنته ، وتأمل كيف جعل جزاءهم فى هذه السورة الغرف وهى المنازل العالية فى الجنة ، لما كانت الإمامة فى الدين من الرتب العالية ، بل من أعلى مرتبة يعطاها العبد فى الدين ، كان جزاؤه عليها الغرفة العالية فى الجنة ، وهذا بخلاف طلب الرياسة ، فإن طلابها يسعون فى تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو فى الأرض ، وتعبد القلوب لهم وميلها إليهم ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم ، مع

كونهم عالين عليهم قاهرين لهم ، فترتب على هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله من البغى والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة والحمية للنفس ، دون حق الله وتعظيم من حقره الله ، واحتقار من أكرمه الله ، ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك ، ولا تنال إلا به وبأضعافه من المفاسد ، والرؤساء فى عمى عن هذا ، فإذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه ، ولاسيما إذا حشروا فى صور الذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم، وتحقيراً وتصغيراً كما صغروا أمر الله وحقروا عباده .

## فصل

## فى الفرق بين الحب فى الله والحب مع الله

والفرق بين الحب فى الله والحب مع الله ـ وهذا من أهم الفروق ، وكل أحد محتاج بل مضطر إلى الفرق بين هذا وهذا ـ فالحب فى الله : هو من كمال الإيمان . والحب مع الله : هو عين الشرك .

والفرق بينهما أن المحب فى الحب تابع لمحبة الله ، فإذا تمكنت محبته من قلب العبد ، أوجبت تلك المحبة أن يحب ما يحبه الله ، فإذا أحب ما أحبه ربه ووليه ، كان ذلك الحب له ، وفيه كما يحب رسله وأنبياءه وملائكته وأولياءه ، لكونه تعالى يحبهم ويبغض من بغضهم ، لا لكونه تعالى يبغضهم . وعلامة هذا الحب والبغض فى الله أنه لا ينقلب بغضه لبغيض الله حباً لإحسانه إليه ، وخدمته له ، وقضاء حوائجه ، ولا ينقلب حبه لحبيب الله بغضاً إذا وصل إليه من جهته ما يكرهه ، ويؤلمه إما خطأ وإما عمداً ، مطيعًا لله فيه أو متأولا أو مجتهداً أو باغياً نازعاً بائناً .

والدين كله يدور على أربع قواعد : حب ، وبغض ، ويترتب عليهما فعل وترك ، فمن كان حبه وبغضه وفعله وتركه لله ، فقد استكمل الإيمان بحيث إذا أحب أحب لله ، وإذا أبغض أبغض لله ، وإذا فعل فعل لله ، وإذا ترك ترك لله ، وما نقص من إضافة هذه الأربعة نقص من إيمانه ودينه بحسبه ، وهذا بخلاف الحب مع الله فهو نوعان : نوع يقدح فى أصل التوحيد ، وهو شرك . ونوع يقدح فى كمال الإخلاص ومحبة الله ولا يخرج من الإسلام .

**فالأول** : كمحبة المشركين لأوثانهم وأندادهم ، قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ** ﴾ [ البقرة : ١٦٥] ، وهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم

وأصنامهم وآلهتم مع الله ، كما يحبون الله . فهذه محبة تأله وموالاة يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء ، وهذه المحبة هى محض الشرك الذى لا يغفره الله ولا يتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد وشدة بغضها وبغض أهلها ، ومعاداتهم ومحاربتهم ، وبذلك أرسل الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه ، وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية ، وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعاداهم فيه ، وفى مرضاته ، فكل من عبد شيئاً من لدن عرشه إلى قرار أرضه ، فقد اتخذ من دون الله إلهاً ولياً وأشرك به كائنًا ذلك المعبود ما كان ، ولابد أن يتبرأ منه أحوج ما كان إليه .

**والنوع الثانى** : محبة ما زينه الله للنفوس من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، فيحبها محبة شهوة كمحبة الجائع للطعام ، والظمآن للماء . فهذه المحبة ثلاثة أنواع ، فإن أحبها لله توصلا بها إليه واستعانة على مرضاته وطاعته ، أثيب عليها ، وكانت من قسم الحب لله توصلا بها إليه ، ويلتذ بالتمتع بها ، وهذا حال أكمل الخلق الذى حبب إليه من الدنيا النساء والطيب . لموافقة طبعه وهواه وإرادته ، ولم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه ، بل نالها بحكم الميل الطبيعى كانت من قسم المباحات ولم يعاقب على ذلك ، ولكن ينقص من كمال محبته لله والمحبة فيه ، وإن كانت هى مقصوده ومراده وسعيه فى تحصيلها أو الظفر بها ، وقدمها على ما يحبه الله ويرضاه منه كان ظالما لنفسه متبعاً لهواء .

فالأولى . محبة السابقين ، والثانية : محبة المقتصدين ، والثالثة : محبة الظالمين . فتأمل هذا الموضع وما فيه من الجمع والفرق ، فإنه معترك النفس الأمارة والمطمئنة ، والمهدى من هداه الله .

## فصل
## فى الفرق بين التوكل والعجز

والفرق بين التوكل والعجز : أن التوكل عمل القلب وعبوديته اعتماداً على الله وثقة به والتجاء إليه ، وتفويضا إليه ، ورضا بما يقضيه له لعلمه بكفايته ـ سبحانه ـ وحسن اختياره لعبده ، إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده فى تحصيلها، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعظم المتوكلين ، وكان يلبس لأمته ودرعه، بل ظاهر يوم أحد بين درعين ، واختفى فى الغار ثلاثاً ، فكان متوكلا فى السبب لا على السبب .

وأما العجز ، فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما ، فإما أن يعطل السبب عجزاً منه ويزعم أن ذلك توكل ، ولعمر الله إنه لعجز وتفريط ، وإما أن يقوم بالسبب ناظرًا إليه معتمدًا عليه غافلاً عن المسبب معرضاً عنه ، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر ، ولم يعلق قلبه به تعلقاً تاماً ،بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب. فهذا توكله عجز وعجزه توكل ، وهذا موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطا .

فأحد الطرفين : عطل الأسباب محافظة على التوكل .

والثانى : عطل التوكل محافظة على السبب .

والوسط : علم أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب ، فتوكل على الله فى نفس السبب ، وأما من عطل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور مخدوع متمن ، كمن عطل النكاح والتسرى وتوكل فى حصول الولد وعطل الحرث والبذر وتوكل فى حصول الزرع ، وعطل الأكل والشرب وتوكل فى حصول الشبع والرى . فالتوكل نظير الرجاء ، والعجز نظير التمنى .

فحقيقة التوكل : أن يتخذ العبد ربه وكيلا له ، قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله ، العالم بكفايته ونهضته ونصحه وأمانته وخبرته وحسن اختياره ، والرب ـ سبحانه ـ قد أمر عبده بالاحتيال وتوكل له أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه ، فأمره أن يحرث ويبذر ويسعى ويطلب رزقه فى ضمان ذلك ، كما قدره ـ سبحانه ـ ودبره واقتضته حكمته وأمره ألا يعلق قلبه بغيره ، بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه ، وأخبره أنه ـ سبحانه ـ المليء بالوكالة الوفى بالكفالة ، فالعاجز من رمى هذا كله وراء ظهره ، وقعد كسلان طالبا للراحة ، مؤثراً للدعة يقول : الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله ، وسيأتينى ما قدر لى على ضعفى ، ولن أنال ما لم يقدر لى مع قوتى ، ولو أنى هربت من رزقى كما أهرب من الموت للحقنى . فيقال له : نعم ، هذا كله حق ، وقد علمت أن الرزق مقدر ، فما يدريك كيف قدر لك بسعيك أم بسعى غيرك ، وإذا كان بسعيك فبأى سبب ومن أى وجه . وإذا خفى عليك هذا كله ، فمن أين علمت أنه يقدر لك إتيانه عفوا بلا سعى ولا كد ؟ فكم من شىء سعيت فيه فقدر لغيرك ، وكم من شىء سعى فيه غيرك فقدر لك رزقا ، فإذا رأيت هذا عيانا فكيف علمت أن رزقك كله بسعى غيرك .

وأيضاً ، فهذا الذى أوردته عليك النفس يجب عليك طرده فى جميع الأسباب مع

مسبباتها ، حتى فى أسباب دخول الجنة والنجاة من النار ، فهل يعطلها اعتماداً على التوكل، أم يقوم بها مع التوكل ، بلى لن تخلو الأرض من متوكل صبر نفسه لله ، وملأ قلبه من الثقة به ورجاءه وحسن الظن به ، فضاق قلبه مع ذلك عن مباشرة بعض الأسباب، فسكن قلبه إلى الله واطمأن إليه ، ووثق به ، وكان هذا من أقوى أسباب حصول رزقه ، فلم يعطل السبب ، وإنما رغب عن سبب إلى سبب أقوى منه ، فكان توكله أوثق الأسباب عنده ، فكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه وتضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب يمنعه من ذلك ، أو من كماله ، فلم يتسع قلبه للأمرين ، فأعرض عن أحدهما إلى الآخر .

ولا ريب أن هذا أكمل حالا ممن امتلأ قلبه بالسبب ، واشتغل به عن ربه ، وأكمل منهما من جمع الأمرين ، وهى حال الرسل والصحابة ، فقد كان زكريا نجارًا ، وقد أمر الله نوحاً أن يصنع السفينة ، ولم يكن فى الصحابة من يعطل السبب اعتمادا على التوكل، بل كانوا أقوم الناس بالأمرين . ألا ترى أنهم بذلوا جهدهم فى محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم ، وقاموا فى ذلك بحقيقة التوكل ، وعمروا أموالهم وأصلحوها ، وأعدوا لأهليهم كفايتهم من القوت ، اقتداء بسيد المتوكلين ، صلوات الله وسلامه عليه وآله .

## فصل
## فى الفرق بين الاحتياط والوسوسة

والفرق بين الاحتياط والوسوسة :أن الاحتياط الاستقصاء والمبالغة فى اتباع السنة ، وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من غير غلو ومجاوزة ولا تقصير ولا تفريط . فهذا هو الاحتياط الذى يرضاه الله ورسوله .

وأما الوسوسة ، فهى ابتداع ما لم تأت به السنة ، ولم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا أحد من الصحابة ، زاعما أنه يصل بذلك إلى تحصيل المشروع وضبطه، كمن يحتاط بزعمه ويغسل أعضاءه فى الوضوء فوق الثلاثة ، فيسرف فى صب الماء فى وضوئه وغسله، ويصرح بالتلفظ بنية الصلاة مرارا أو مرة واحدة ؛ ويغسل ثيابه مما لا يتيقن نجاسته احتياطا، ويرغب عن الصلاة فى نعله احتياطاً إلى أضعاف أضعاف هذا . مما اتخذه الموسوسون دينا وزعموا أنه احتياط ؛ وقد كان الاحتياط باتباع هدى رسول الله عليه

وآله وسلم وما كان عليه أولى بهم ، فإنه الاحتياط الذى من خرج عنه فقد فارق الاحتياط؛ وعدل عن سواء الصراط ؛ والاحتياط كل الاحتياط الخروج عن خلاف السنة ؛ ولو خالفت أكثر أهل الأرض بل كلهم .

## فصل
## فى الفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان

والفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان من وجوه :

**منها** : أن ما كان لله موافقاً لمرضاته وما جاء به رسوله فهو من الملك ، وما كان لغيره غير موافق لمرضاته فهو من إلقاء الشيطان .

**ومنها** : أن ما أثمر إقبالا على الله وإنابة إليه وذكراً له وهمة صاعدة إليه فهو من إلقاء الملك ، وما أثمر ضد ذلك فهو من الشيطان .

**ومنها** : أن ما أورث أنسا ونورا فى القلب وانشراحاً فى الصدر فهو من الملك ، وما أورث ضد ذلك فهو من الشيطان .

**ومنها** : أن ما أورث سكينة وطمأنينة فهو من الملك ، وما أورث قلقاً أو انزعاجاً واضطرابا فهو من الشيطان .

فالإلهام الملكى يكثر فى القلوب الطاهرة النقية التى قد استنارت بنور الله ؛ فالملك بها اتصال ، وبينه وبينها مناسبة ؛ فإنه طيب طاهر لا يجاور إلا قلباً يناسبه ؛ فتكون لمة الملك بهذا القلب أكثر من لمة الشيطان ، وأما القلب المظلم الذى قد اسود بدخان الشهوات والشبهات ، فإلقاء الشيطان ولمته به أكثر من لمة الملك .

## فصل
## فى الفرق بين الاقتصاد والتقصير

والفرق بين الاقتصاد والتقصير: أن الاقتصاد هو التوسط بين طرفى الإفراط والتفريط، وله طرفان هما ضدان له: تقصير ومجاوزة ، فالمقتصد قد أخذ بالوسط، وعدل عن الطرفين، قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا** (٦٧) ﴾ [ الفرقان ] ،

وقال تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [ الإسراء : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾ [ الأعراف : ٣١] .

والدين كله بين هذين الطرفين ،بل الإسلام قصد بين الملل ، والسنة قصد بين البدع ، ودين الله بين الغالى فيه والجافى عنه ، وكذلك الاجتهاد هو بذل الجهد وموافقة الأمر . والغلو مجاوزته وتعديه وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان،فإما إلى غلو ومجاوزة ، وإما تفريط وتقصير ، وهما آفتان لا يخلص منهما فى الاعتقاد والقصد والعمل إلا من مشى خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وترك أقوال الناس وآراءهم لما جاء به لا من ترك ما جاء به لأقوالهم وآرائهم ، وهذان المرضان الخطران قد استوليا على أكثر بنى آدم ، ولهذا حذر السلف منهما أشد التحذير ، وخوفوا من بُلى بأحدهما بالهلاك ، وقد يجتمعان فى الشخص الواحد،كما هو حال أكثر الخلق يكون مقصراً مفرطا فى بعض دينه، غاليا متجاوزاً فى بعضه ، والمهدى من هداه الله .

## فصل
## فى الفرق بين النصيحة والتأنيب

والفرق بين النصيحة والتأنيب : أن النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له وعليه ، فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة ، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه . والإحسان إلى خلقه . فيتلطف فى بذلها غاية التلطف ، ويحتمل أذى المنصوح ولائمته ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق والمريض المشبع مرضا. وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته ، ويتلطف فى وصول الدواء إليه بكل ممكن ، فهذا شأن الناصح .

وأما المؤنب ،فهو رجل قصده التعيير والإهانة وذم من أنبه وشتمه فى صورة النصح ، فهو يقول له : يا فاعل كذا وكذا ، يا مستحقا للذم والإهانة فى صورة ناصح مشفق ، وعلامة هذا : أنه لو رأى من يحبه ويحسن إليه على مثل عمل هذا أو شر منه لم يعرض له،ولم يقل له شيئا،ويطلب له وجوه المعاذير. فإن غلب قال : وأنى ضمنت له العصمة ، والإنسان عرضة للخطأ ومحاسنه أكثر من مساوئه ، والله غفور رحيم ، ونحو ذلك .

فيا عجبا ، كيف كان هذا لمن يحبه دون من يبغضه ؛ وكيف كان حظ ذلك منك

التأنيب فى صورة النصح ، وحظ هذا منك رجاء العفو والمغفرة ، وطلب وجوه المعاذير .

ومن الفرق بين الناصح والمؤنب: أن الناصح لا يعاديك إذا لم تقبل نصيحته ، وقال : قد وقع أجرى على الله، قبلت أو لم تقبل ، ويدعو لك بظهر الغيب ، ولا يذكر عيوبك ، ولا يبينها فى الناس ، والمؤنب بضد ذلك .

## فصل
## فى الفرق بين المبادرة والعجلة

والفرق بين المبادرة والعجلة : أن المبادرة انتهاز الفرصة فى وقتها ولا يتركها ، حتى إذا فاتت طلبها فهو لا يطلب الأمور فى أدبارها ولا قبل وقتها ، بل إذا حضر وقتها بادر إليها ووثب عليها وثوب الأسد على فريسته ، فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثمرة ، وقت كمال نضجها وإدراكها .

والعجلة : طلب أخذ الشىء قبل وقته ، فهو لشدة حرصه عليه بمنزلة من يأخذ الثمرة قبل أوان إدراكها .

فالمبادرة : وسط بين خلقين مذمومين : أحدهما : التفريط والإضاعة ، والثانى : الاستعجال قبل الوقت ؛ ولهذا كانت العجلة من الشيطان ، فإنها خفة وطيش ، وحدة فى العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم وتوجب له وضع الأشياء فى غير مواضعها ، وتجلب عليه أنواعا من الشرور ، وتمنعه أنواعا من الخير ، وهى قرين الندامة ، فقل من استعجل إلا ندم ، كما أن الكسل قرين الفوت والإضاعة .

## فصل
## فى الفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى

والفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى ـ وإن اشتبهت صورتهما: أن الإخبار بالحال : يقصد المخبر به قصداً صحيحًا من علم سبب إدانته ، أو الاعتذار لأخيه من أمر طلبه منه ، أو يحذره من الوقوع فى مثل ما وقع فيه فيكون ناصحا بإخباره له أو حمله على الصبر بالتأسى به ، كما يذكر عن الأحنف أنه شكا إليه رجل شكوى ، فقال : يابن أخى ، لقد

ذهب ضوء عينى من كذا وكذا سنة ، فما أعلمت به أحداً .

ففى ضمن هذا الإخبار من حمل الشاكى على التأسى والصبر ما يثاب عليه المخبر وصورته صورة الشكوى ، ولكن القصد ميز بينهما . ولعل من هذا قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم ـ لما قالت عائشة : وارأساه ، فقال : « بل أنا وارأساه » (١) أى الوجع القوى بى أنا دونك ، فتأسى بى فلا تشتكى . ويلوح لى فيه معنى آخر ، وهو أنها كانت حبيبة رسول الله ﷺ ، بل كانت أحب النساء إليه على الإطلاق ، فلما شكت إليه رأسها أخبرها أن بمحبها من الألم مثل الذى بها ، وهذا غاية الموافقة من المحب ومحبوبه ، يتألم بتألمه ، ويسر بسروره ، حتى إذا آلمه عضو من أعضائه آلم المحب ذلك العضو بعينه ، وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة .

فالمعنى الأول : يفهم أنك لا تشتكى واصبرى ، فبى من الوجع مثل ما بك ، فتأسى بى فى الصبر وعدم الشكوى .

والمعنى الثانى : يفهم إعلامها بصدق محبته لها : أى انظرى قوة محبتى لك كيف واسيتك فى ألمك ووجع رأسك ، فلم تكونى متوجعة وأنا سليم من الوجع ، يؤلمنى ما يؤلمك ، كما يسرنى ما يسرك .

كما قيل :

وإن أولى البرايا أن تواسيه عند السرور الذى واساك فى الحزن

وأما الشكوى، فالإخبار العارى عن القصد الصحيح، بل يكون مصدره السخط وشكاية المبتلى إلى غيره ، فإن شكا إليه ـ سبحانه وتعالى ـ لم يكن ذلك شكوى ، بل استعطاف وتملق واسترحام له، كقول أيوب: ﴿ رَبِّ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء ]، وقول يعقوب: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [ يوسف : ٨٦]، وقول موسى: « اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بك » (٢)، وقول سيد ولد آدم : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى ،

(١) أحمد (٦ / ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨) ، وأبو يعلى (٤٩٦٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٩ / ٣٥ ، ٣٦) : « رجال أحمد ثقات ، وفى إسناد أبى يعلى عوبد بن أبى عمران وثقه ابن حبان ، وضعفه الجمهور ، وقال بعضهم : متروك » .

(٢) الطبرانى فى الأوسط (٣٣٩٤) ، والصغير (٣٣٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ١٨٦) : « فيه من لم أعرفهم » .

وهوانى على الناس ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أو إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، غير أن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل على غضبك ، أو ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » (١) .

فالشكوى إلى الله ـ سبحانه ـ لا تنافى الصبر بوجه ، فإن الله تعالى قال عن أيوب : ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** (٤٤) ﴾ [ ص ]، مع إخباره عنه بالشكوى إليه فى قوله : ﴿ **مَسَّنِيَ الضُّرُّ** ﴾ ، وأخبر عن نبيه يعقوب أنه وعد من نفسه بالصبر الجميل ، والنبى إذا قال وفى ، مع قوله : ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ** ﴾ ولم يجعل ذلك نقصًا لصبره ، ولا يلتفت إلى غير هذا من ترهات القوم .

كما قال بعضهم : لما قال : مسنى الضر ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا** ﴾ . ولم يقل : صبورًا حيث قال : مسنى الضر .

وقال بعضهم : لم يقل : ارحمنى ، وإنما قال : أنت أرحم الراحمين ، فلم يزد على الإخبار بحاله ، ووصف ربه .

وقال : بعضهم : إنما شكا مس الضر ، حين ضعف لسانه عن الذكر ، فشكا مس ضر ضعف الذكر لا ضر المرض والألم .

وقال بعضهم : استخرج منه هذا القول ليكون قدوة للضعفاء من هذه الأمة ، وكأن هذا القائل رأى أن الشكوى إلى الله تنافى الصبر ، وغلط أقبح الغلط ، فالمنافى للصبر شكواه لا الشكوى إليه ، فالله يبتلى عبده ليسمع تضرعه ودعاءه والشكوى إليه ، ولا يحب التجلد عليه وأحب ما إليه انكسار قلب عبده بين يديه ، وتذلله له وإظهار ضعفه وفاقته وعجزه ، وقلة صبره ، فاحذر كل الحذر من إظهار التجلد عليه ، وعليك بالتضرع والتمسكن وإبداء العجز ، والفاقة والذل والضعف ، فرحمته أقرب إلى هذا القلب من اليد للفم (٢) .

---

(١) ابن هشام فى السيرة النبوية (٢ / ٦٨) ، فى سعى الرسول إلى الطائف وموقف ثقيف منه .
(٢) الروح (٣٤٧ ـ ٣٨٤) .

## فصل

## فى الفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين

الفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين : أن توحيد الرسل : إثبات صفات الكمال لله على وجه التفصيل وعبادته وحده لا شريك له فلا يجعل له ندًا فى قصد ولا حب ولا خوف ولا رجاء ، ولا لفظ ولا حلف ، ولا نذر ، بل يرفع العبد الأنداد له من قلبه وقصده ولسانه وعبادته ، كما أنها معدومة فى نفس الأمر لا وجود لها البتة ، فلا يجعل لها وجودًا فى قلبه ولا لسانه .

وأما توحيد المعطلين ، فنفى حقائق أسمائه وصفاته وتعطيلها ، ومن أمكنه منهم تعطيلها من لسانه عطلها،فلا يذكرها ولا يذكر آية تتضمنها ، ولا حديثًا يصرح بشىء منها ، ومن لم يمكنه تعطيل ذكرها سطا عليها بالتحريف ونفى حقيقتها،وجعلها اسمًا لا معنى له ، أو معناه من جنس الألغاز والأحاجى . على أن من طرد تعطيله منهم علم أنه يلزمه فيما حرف إليه النص من المعنى ، نظير ما فر منه سواء ، فإن لزم تمثيل أو تشبيه أو حدوث فى الحقيقة لزم فى المعنى الذى حمل عليه النص وإن لا يلزم فى هذا فهو أولى ألا يلزم فى الحقيقة ، فلما علم هذا لم يمكنه إلا تعطيل الجميع ، فهذا طرد لأصل التعطيل والمفرق أقرب منه ، ولكنه مناقض يتحكم بالباطل حيث أثبت لله بعض ما أثبته لنفسه ، ونفى عنه البعض الآخر .واللازم الباطل فيهما واحد ، واللازم الحق لا يفرق بينهما . والمقصود أنهم سموا هذا التعطيل توحيدًا،وإنما هو إلحاد فى أسماء الرب تعالى وصفاته وتعطيل لحقائقها .

## فصل

## فى الفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المعطلة

والفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المعطلة : أن الرسل نزهوه ـ سبحانه ـ عن النقائص والعيوب التى نزه نفسه عنها ، وهى المنافية لكماله وكمال ربوبيته وعظمته ، كالسنة والنوم والغفلة والموت واللغوب والظلم ، وإرادته والتسمى به والشريك والصاحبة والظهير والولد والشفيع بدون إذنه وأن يترك عباده سدى هملا ، وأن يكون خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا لا لثواب ولا عقاب ، ولا أمر ولا نهى ، وأن يسوى بين أوليائه وأعدائه ،

وبين الأبرار والفجار وبين الكفار والمؤمنين ، وأن يكون فى ملكه ما لا يشاء ، وأن يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه ، أو يكون لغيره معه من الأمر شىء ، أو يعرض له غفلة أو سهو أو نسيان . وأن يخلف وعده أو تبدل كلماته أو يضاف إليه الشر اسما أو وصفا أو فعلا ، بل أسماؤه كلها حسنى ،وصفاته كلها كمال ، وأفعاله كلها خير وحكمة ومصلحة . فهذا تنزيه الرسل لربهم .

وأما المعطلون ، فنزهوه عما وصف به نفسه من الكمال ، فنزهوه عن أن يتكلم أو يكلم أحدًا ونزهوه عن استوائه على عرشه ، وأن ترفع إليه الأيدى ، وأن يصعد إليه الكلم الطيب ، وأن ينزل من عنده شىء أو تعرج إليه الملائكة والروح ، وأن يكون فوق عباده ، وفوق جميع مخلوقاته عاليًا عليها،ونزهوه أن يقبض السموات بيده والأرض باليد الأخرى، وأن يمسك السموات على إصبع ، والأرض على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر على إصبع ، ونزهوه أن يكون له وجه ، وأن يراه المؤمنون بأبصارهم فى الجنة ، وأن يكلمهم ويسلم عليهم ويتجلى لهم ضاحكا ،وأن ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا ، فيقول : من يستغفرنى فأغفر له ، ومن يسألنى فأعطيه ، فلا نزول عندهم ولا قول ، ونزهوه أن يفعل شيئا لشىء ، بل أفعاله لا لحكمة ولا لغرض مقصود ، ونزهوه أن يكون تام المشيئة نافذ الإرادة ،بل يشاء الشىء ويشاء عباده خلافه ، فيكون ما شاء العبد دون ما شاء الرب ، ولا يشاء الشىء فيكون ما لا يشاء ، ويشاء ما لا يكون . وسموا هذا عدلا كما سموا ذلك التنزيه توحيدًا ، ونزهوه عن أن يُحِب أو يُحَب ، ونزهوه عن الرأفة والرحمة والغضب والرضا ، ونزهه آخرون عن السمع والبصر وآخرون عن العلم . ونزهه آخرون عن الوجود ، فقالوا : الذى فر إليه هؤلاء المنزهون من التشبيه والتمثيل ، يلزمنا فى الوجود فيجب علينا أن ننزهه عنه ، فهذا تنزيه الملحدين والأول تنزيه المرسلين.

## فصل

## فى الفرق بين حقائق الأسماء والصفات وبين التشبيه والتمثيل

والفرق بين إثبات حقائق الأسماء والصفات وبين التشبيه والتمثيل ، ما قاله الإمام أحمد ، ومن وافقه من أئمة الهدى : أن التشبيه والتمثيل : أن تقول : يد كيدى ، أو سمع كسمعى ، أو بصر كبصرى ، ونحو ذلك .

وأما إذا قلت : سمع وبصر ويد ووجه واستواء لا يماثل شيئًا من صفات المخلوقين ، بل بين الصفة والصفة من الفرق كما بين الموصوف والموصوف فأى تمثيل هاهنا ، وأى تشبيه لولا تلبيس الملحدين ، فمدار الحق الذى اتفقت عليه الرسل على أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تشبيه ولا تمثيل إثبات الصفات ونفى مشابهة المخلوقات ، فمن شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد حقائق ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، ومن أثبت له حقائق الأسماء والصفات ، ونفى عنه مشابهة المخلوقات ، فقد هدى إلى صراط مستقيم .

## فصل

## فى الفرق بين تجريد التوحيد وبين هضم أرباب المراتب

والفرق بين تجريد التوحيد ، وبين هضم أرباب المراتب : أن تجريد التوحيد : ألا يعطى المخلوق شيئًا من حق الخالق وخصائصه ، فلا يعبد ولا يصلى له ولا يسجد ولا يحلف باسمه ولا ينذر له ولا يتوكل عليه ولا يؤله ولا يقسم به على الله ، ولا يعبد ليقرب إلى الله زلفى ، ولا يساوى برب العالمين فى قول القائل : ما شاء الله وشئت ، وهذا منك ومن الله ، وأنا بالله وبك ، وأنا متوكل على الله وعليك ، والله لى فى السماء وأنت فى الأرض ، وهذا من صدقاتك وصدقات الله ، وأنا تائب إلى الله وإليك ، وأنا فى حسب الله وحسبك ، فيسجد للمخلوق كما يسجد المشركون لشيوخهم ، يحلق رأسه له ويحلف باسمه وينذر له ، ويسجد لقبره بعد موته ، ويستغيث به فى حوائجه ومهماته ، ويرضيه بسخط الله ، ولا يسخطه فى رضا الله ، ويتقرب إليه أعم مما يتقرب إلى الله ، ويحبه ويخافه ويرجوه أكثر مما يحب الله ويخافه ويرجوه أو يساويه ، فإذا هضم المخلوق خصائص الربوبية وأنزله منزلة العبد المحض الذى لا يملك لنفسه فضلا عن غيره ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورا، لم يكن هذا تنقصا له ولا حطا من مرتبته، ولو رغم المشركون.

وقد صح عن سيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » (١) ، وقال : « أيها

---

(١) البخارى (٣٤٤٥) فى الأنبياء ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ... ﴾ ، والدارمى (٢ / ٣٢٠) فى الرقائق ، باب : فى قول النبى ﷺ : « لا تطرونى » ، وأحمد (١ / ٢٣ ، ٤٧ ، ٥٥) .

الناس ، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي » (١) ، وقال : « لا تتخذوا قبري عيدا » (٢) ، وقال : « اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد » (٣) ، وقال : « لا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد » (٤) ، وقال له رجل : ما شاء الله وشئت ، فقال : « أجعلتني لله ندًا ؟ » (٥) ، وقال له رجل قد أذنب : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ، فقال : « عرف الحق لأهله » (٦)، وقد قال الله له : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [ آل عمران : ١٢٨] ، وقال : ﴿ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ [ آل عمران : ١٥٤] ، وقال : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ [ يونس : ٤٩] ، وقال : ﴿ قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) ﴾ [ الجن ] ، أي لن أجد من دونه من ألتجئ إليه وأعتمد عليه .

وقال لابنته فاطمة وعمه العباس وعمته صفية : « لا أملك لكم من الله شيئًا » (٧) ، وفي لفظ في الصحيح : « لا أغني عنكم من الله شيئا » (٨) . فعظم ذلك على المشركين بشيوخهم وآلهتهم وأبوا ذلك كله ، ادعوا لشيوخهم ومعبوديهم خلاف هذا كله ، وزعموا أن من سلبهم ذلك فقد هضمهم مراتبهم وتنقصهم ، وقد هضموا جانب الإلهية غاية الهضم وتنقصوه ، فلهم نصيب وافر من قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ﴾ [ الزمر ] .

---

(١) الطبراني في الكبير ٣ / ١٢٨ (٢٨٨٩) ، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٤) : « إسناده حسن » ، كلاهما بلفظ « لا ترفعوني فوق حقي . . . » .

(٢) أحمد ( ٢ / ٣٦٧ ) ، وأبو يعلى ( ٤٦٩ ) ، وقال الهيثمي في المجمع ( ٤ / ٦ ) : « فيه حفص بن إبراهيم الجعفري ، ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحا وبقية رجاله ثقات » ، ورواه أبو داود عن أبي هريرة (٢٠٤٢) في النكاح ، باب : زيارة القبور .

(٣) أحمد ( ٢ / ٢٤٦ ) ، وأبو يعلى (٨٤١) ، وقال الهيثمي في المجمع ٤ / ٥ : « فيه إسحاق بن أبي إسرائيل وفيه كلام لوقفه وبقية رجاله ثقات » .

(٤) الدارمي ( ٢ / ٢٩٥ ) في الرقائق ، باب : في تغيير الأسماء ، والحاكم في المستدرك ( ٣ / ٤٦٢ ، ٤٦٣ ) ، وقال : « خالفه حماد بن سلمة عن عبد الملك بن عمير » وسكت عنه الذهبي .

(٥) أحمد ( ١ / ٢١٤ ) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٨٣٩) : « إسناده صحيح » .

(٦) أحمد ( ١ / ٤٣٥ ) ، والطبراني في الكبير ١ / ٢٨٦ (٨٣٩) ، وقال الهيثمي في المجمع ( ١٠ / ٢٠٢ ) : « فيه محمد بن مصعب وثقه أحمد وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٧) مسلم (٢٠٤ / ٣٤٨) في الإيمان ، باب : في قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ ، وأحمد ٢ / ٣٣٣ ، ٣٩٩ .

(٨) البخاري (٣٧٥٣) في الوصايا ، باب : هل يدخل النساء والولد في الأقارب ؟ ومسلم (٢٠٦ / ٣٥١) في الإيمان ، باب : في قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ .

# فصل
# فى الفرق بين تجريد متابعة المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم وإهدار أقوال العلماء وإلغائها

والفرق بين تجريد متابعة المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم ، وإهدار أقوال العلماء وإلغائها : أن تجريد المتابعة ألا تقدم على ما جاء به قول أحد ، ولا رأيه كائنا من كان ، بل تنظر فى صحة الحديث أولا ، فإذا صح لك نظرت فى معناه ثانيًا ، فإذا تبين لك لم تعدل عنه ، ولو خالفك من بين المشرق والمغرب . ومعاذ الله أن تتفق الأمة على مخالفة ما جاء به نبيها ، بل لابد أن يكون فى الأمة من قال به ، ولو لم تعلمه فلا تجعل جهلك بالقائل به حجة على الله ورسوله ،بل اذهب إلى النص ولا تضعف . واعلم أنه قد قال به قائل قطعًا ، ولكن لم يصل إليك هذا ، مع حفظ مراتب العلماء وموالاتهم واعتقاد حرمتهم وأمانتهم واجتهادهم،فى حفظ الدين وضبطه . فهم دائرون بين الأجر والأجرين والمغفرة ، ولكن لا يوجب هذا إهدار النصوص وتقديم قول الواحد منهم عليها لشبهة أنه أعلم بها منك .

فإن كان كذلك فمن ذهب إلى النص أعلم به منك فهلا وافقته إن كنت صادقاً ، فمن عرض أقوال العلماء على النصوص ووزنها بها ، وخالف منها ما خالف النص لم يهدر أقوالهم ، ولم يهضم جانبهم بل اقتدى بهم ، فإنهم كلهم أمروا بذلك فمتبعهم حقًا من امتثل ما أوصوا به لا من خالفهم فخلافهم فى القول الذى جاء النص بخلافه ، أسهل من مخالفتهم فى القاعدة الكلية ، التى أمروا أو دعوا إليها من تقديم النص على أقوالهم .

ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم فى كل ما قال ، وبين الاستعانة بفهمه والاستضاءة بنور علمه ، فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه ولا طلب لدليله من الكتاب والسنة ، بل يجعل ذلك كالحبل الذى يلقيه فى عنقه يقلده به . ولذلك سمى تقليداً بخلاف من استعان بفهمه واستضاء بنور علمه فى الوصول إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل إلى الدليل الأول ، فإذا وصل إليه استغنى بدلالته عن الاستدلال بغيره ، فمن استدل بالنجم على القبلة فإنه إذا شاهدها لم يبق لاستدلاله بالنجم معنى .

قال الشافعى : أجمع الناس على أن ما استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد .

# فصل
# فى الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : أن أولياء الرحمن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وهم المذكورون فى أول سورة البقرة إلى قوله : ﴿ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾ [ البقرة ] وفى وسطها فى قوله : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝١٧٧ ﴾ [ البقرة ] ، وفى أول الأنفال إلى قوله : ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ ﴾ [ الأنفال ] ، وفى أول سورة المؤمنين إلى قوله : ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١ ﴾ [ المؤمنون ] وفى آخر سورة الفرقان . وفى قوله : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ إلى آخر الآية [ الأحزاب : ٣٥ ] ، وفى قوله : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝٦٣ ﴾[ يونس ]، وفى قوله : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝٥٢ ﴾ [ النور ] ، وفى قوله : ﴿ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣ ﴾ إلى قوله : ﴿ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ۝٣٥ ﴾ [ المعارج ] ، وفى قوله : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ ﴾ إلى آخر الآية [ التوبة : ١١٢ ] .

فأولياء الرحمن هم المخلصون لربهم المحكمون لرسوله فى الحرم والحل، الذين يخالفون غيره لسنته ، ولا يخالفون سنته لغيرها ، فلا يبتدعون ولا يدعون إلى بدعة ، ولا يتحيزون إلى فئة غير الله ورسوله وأصحابه ، ولا يتخذون دينهم لهوًا ولعبًا ولا يستحبون سماع الشيطان على سماع القرآن ، ولا يؤثرون صحبة الأفتان على مرضاة الرحمن ، ولا المعازف والمثانى ، على السبع المثانى .

برئنا إلى الله من معشر ... بهم مرض مورد للضنا
وكم قلت : يا قوم أنتم على ... شفا جرف من سماع الغنا
فلما استهانوا بتنبيهنا ... تركنا غويا وما قد جنا
وهل يستجيب لداعى الهدى ... غوىّ أصار الغنا ديدنا
فعشنا على ملة المصطفى ... وماتوا على تاننا تنتنا

ولا يشتبه أولياء الرحمن بأولياء الشيطان إلا على فاقد البصيرة والإيمان ، وأنى يكون

المعرضون عن كتابه وهدى رسوله وسنته المخالفون له إلى غيره أولياءه ، وقد ضربوا لمخالفته جأشا ، وعدلوا عن هدى نبيه وطريقته: ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) ﴾ [ الأنفال ] .

فأولياء الرحمن : المتلبسون بما يحب وليهم الداعون إليه المحاربون لمن خرج عنه .

وأولياء الشيطان : المتلبسون بما يحبه وليهم قولا وعملا ، يدعون إليه ويحاربون من نهاهم عنه ، فإذا رأيت الرجل يحب السماع الشيطانى ومؤذن الشيطان وإخوان الشياطين ، ويدعو إلى ما يحبه الشيطان من الشرك والبدع والفجور ، علمت أنه من أوليائه ، فإن اشتبه عليك فاكشفه فى ثلاثة مواطن فى صلاته ، ومحبته للسنة وأهلها ونفرته عنهم ودعوته إلى الله ورسله وتجريد التوحيد والمتابعة وتحكيم السنة ، فزنه بذلك لا تزنه بحال ، ولا كشف ولا خارق ، ولو مشى على الماء وطار فى الهواء .

## فصل
## فى الفرق بين الحال الإيمانى والحال الشيطانى

وبهذا يعلم الفرق بين الحال الإيمانى والحال الشيطانى: فإن الحال الإيمانى : ثمرة المتابعة للرسول والإخلاص فى العمل وتجريد التوحيد، ونتيجته منفعة المسلمين فى دينهم ودنياهم . وهو إنما يصح بالاستقامة على السنة والوقوف مع الأمر والنهى .

والحال الشيطانى: نسبته إما شرك أو فجور، وهو ينشأ من قرب الشياطين والاتصال بهم ومشابهتهم، وهذا الحال يكون لعباد الأصنام والصلبان والنيران والشيطان، فإن صاحبه لما عبد الشيطان خلع عليه حالا يصطاد به ضعفاء العقول والإيمان، ولا إله إلا الله، وكم هلك بهؤلاء من الخلق: ﴿ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [ الأنعام: ١٣٧]، فكل حال خرج صاحبه عن حكم الكتاب ، وما جاء به الرسول شيطانى كائنا ما كان ، وقد سمعت بأحوال السحرة وعباد النار وعباد الصليب، وكثير مما ينتسب إلى الإسلام ظاهراً وهو برىء منه فى الباطن، له نصيب من هذا الحال بحسب موالاته للشيطان ومعاداته للرحمن .

وقد يكون الرجل صادقا ولكن يكون ملبوسا عليه بجهله ، فيكون حاله شيطانيا مع زهد وعبادة وإخلاص ، ولكن لبس عليه الأمر لقلة علمه بأمور الشياطين والملائكة ، وجهله بحقائق الإيمان ، وقد حكى هؤلاء وهؤلاء من ليس منهم بل هو متشبه صاحب مخاييل ومخاريق ، ووقع الناس فى البلاء بسبب عدم التمييز بين هؤلاء وهؤلاء ، فحسبوا

كل سوداء تمرة ، وكل بيضاء شحمة ، والفرقان أعز ما فى هذا العالم ، وهو نور يقذفه الله فى القلب ،ويفرق به بين الحق والباطل،ويزن به حقائق الأمور خيرها وشرها وصالحها وفاسدها،فمن عدم الفرقان وقع ولابد فى إشراك الشيطان ،فالله المستعان وعليه التكلان .

## فصل
## فى الفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع والحكم المؤول الذى غايته أن يكون جائز الاتباع

والفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع والحكم المؤول الذى غايته أن يكون جائز الاتباع: أن الحكم المنزل هو الذى أنزله الله على رسوله وحكم به بين عباده وهو حكمه الذى لا حكم له سواه .

وأما الحكم المؤول ، فهو أقوال المجتهدين المختلفة ، التى لا يجب اتباعها ولا يكفر ولا يفسق من خالفها ، فإن أصحابها لم يقولوا :هذا حكم الله ورسوله ، بل قالوا : اجتهدنا برأينا،فمن شاء قبله ومن شاء لم يقبله، ولم يلزموا به الأمة ،بل قال أبو حنيفة : هذا رأيى فمن جاءنا بخير منه قبلناه .

ولو كان هو عين حكم الله لما ساغ لأبى يوسف ومحمد وغيرهما مخالفته فيه ، كذلك مالك استشاره الرشيد أن يحمل الناس على ما فى الموطأ ، فمنعه من ذلك . وقال : قد تفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى البلاد ، وصار عند كل قوم علم غير ما عند الآخرين .

وهذا الشافعى ينهى أصحابه عن تقليده ويوصيهم بترك قوله إذا جاء الحديث بخلافه . وهذا الإمام أحمد ينكر على من كتب فتاواه ودونها ، ويقول : لا تقلدنى ولا تقلد فلانا ولا فلانا ، وخذ من حيث أخذوا ، ولو علموا ﷺ أن أقوالهم يجب اتباعها لحرموا على أصحابهم مخالفتهم،ولما ساغ لأصحابهم أن يفتوا بخلافهم فى شىء ،ولما كان أحدهم يقول ثم يفتى بخلافه فيروى عنه فى المسألة القولان والثلاثة وأكثر من ذلك،فالرأى والاجتهاد أحسن أحواله أن يسوغ اتباعه والحكم المنزل لا يحل لمسلم أن يخالفه ولا يخرج عنه .

وأما الحكم المبدل : وهو الحكم بغير ما أنزل الله ، فلا يحل تنفيذه ولا العمل به ، ولا يسوغ اتباعه ، وصاحبه بين الكفر والفسوق والظلم (١) .

---

(١) الروح (٣٨٦ ـ ٣٩٤) .

# فصل
# فى الفرق بين مسميات النفس
## ( المطمئنة ـ اللوامة ـ الأمارة بالسوء )

قد وقع فى كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاثة أنفس، نفس مطمئنة، ونفس لوامة ، ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه ومنهم من تغلب عليه الأخرى ، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ** ﴿٢٧﴾ ﴾ [ الفجر ] وبقوله تعالى: ﴿ **لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴿١﴾ **وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴿٢﴾ ﴾ [ القيامة ]، وبقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾ [ يوسف : ٥٣]

والتحقيق أنها نفس واحدة ولكن لها صفات، فتسمى باعتبار كل صفة باسم، فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته، وللإنابة إليه والتوكل عليه، والرضا به والسكون إليه .

فإن سمة محبته وخوفه ورجائه منها قطيع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه، فيستغنى بمحبته عن حب ما سواه ، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ما سواه، فالطمأنينة إلى الله ـ سبحانه ـ حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه، وترد قلبه الشارد إليه حتى كأنه جالس بين يديه؛ يسمع به ويبصر به ويتحرك به ويبطش به، فتسرى تلك الطمأنينة فى نفسه وقلبه ومفاصله، وقواه الظاهرة والباطنة تجذب روحه إلى الله ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره وهو كلامه الذى أنزله على رسوله، كما قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴿٢٨﴾ ﴾ [ الرعد ] .

فإن طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتى بشىء سوى الله تعالى وذكره البتة، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه وبه غرور، والثقة به عجز . قضى الله ـ سبحانه وتعالى ـ قضاء لا مرد له أن من اطمأن إلى شىء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائنًا من كان، بل لو اطمأن العبد إلى علمه وحاله وعمله سلبه وزايله، وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه أغراضاً لسهام البلاء ليعلم عباده وأولياءه أن المتعلق بغيره مقطوع، والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع .

وحقيقة الطمأنينة التى تصير بها النفس مطمئنة: أن تطمئن فى باب معرفة أسمائه

وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذى أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان، وانشراح الصدر له ؛ وفرح القلب به. فإنه معرف من معرفات الرب ـ سبحانه ـ إلى عبده على لسان رسوله، فلا يزال القلب فى أعظم القلق والاضطراب فى هذا الباب حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده وعلوه على عرشه ، وتكلمه بالوحى بشاشة قلبه، فينزل عليه نزل الماء الزلال على القلب الملتهب بالعطش ، فيطمئن إليه ، ويسكن إليه، ويفرح به، ويلين له قلبه ومفاصله حتى كأنه شاهد الأمر كما أخبرت به الرسل ، بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس فى الظهيرة لعينه، فلو خالفه فى ذلك من بين شرق الأرض وغربها لم يلتفت إلى خلافهم .

وقال : إذا استوحش من الغربة قد كان الصديق الأكبر مطمئنا بالإيمان وحده وجميع أهل الأرض يخالفه وما نقص ذلك من طمأنينته شيئا . فهذا أول درجات الطمأنينة ، ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه .

وهذا أمر لا نهاية له، فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التى قام عليه بناؤه، ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة، حتى كأنه يشاهد ذلك كله عيانًا ، وهذا حقيقة اليقين الذى وصف به ـ سبحانه وتعالى ـ أهل الإيمان حيث قال: ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [ البقرة ] ، فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتى يطمئن القلب إلى ما أخبر الله ـ سبحانه ـ به عنها طمأنينته إلى الأمور التى لا يشك فيها ولا يرتاب.

فهذا هو المؤمن حقًا باليوم الآخر، كما فى حديث حارثة: أصبحت مؤمنًا حقًا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » قال: عزفت نفسى عن الدنيا وأهلها، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزًا ، وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وأهل النار يعذبون فيها . فقال : « عبد نور الله قلبه » (١) .

والطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان: طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها واعتقادها . وطمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجبه من آثار العبودية، مثاله: الطمأنينة إلى القدر وإثباته، والإيمان به يقتضى الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التى لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له على دفعها، فيسلم لها ويرضى بها ولا يسخط ولا يشكو ولا يضطرب إيمانه، فلا ييأس على ما فاته، ولا يفرح بما أتاه ؛ لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق، كما قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا

---

(١) الطبرانى فى الكبير ٣ / ٢٦٦ ( ٣٣٦٧) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٦٢) : « فيه ابن لهيعة ، وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه » .

﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [ الحديد ]، وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [ التغابن : ١١] ، قال غير واحد من السلف : هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها فى العلم ، وهى قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها ، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها كالسمع والبصر والعلم والرضا والغضب والمحبة ، فهذه طمأنينة الإيمان .

وأما طمأنينة الإحسان ، فهى الطمأنينة إلى أمره امتثالا وإخلاصًا ونصحًا ، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليدًا ، فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره، بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوساوس التى لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها ، فهذا كما قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « صريح الإيمان » (١) ، وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها ، ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة فى الظفر بالتوبة . وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين وباشر قلبه آثارهما ،فللتوبة طمأنينة تقابل ما فى المعصية من الانزعاج والقلق، ولو فتش العاصى عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب ، وإنما يوارى عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة،فإن لكل شهوة سكرًا يزيد على سكر الخمر ، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب .

ولهذا ترى العاشق والغضبان يفعل ما لا يفعله شارب الخمر، وكذلك بظهر من قلق الغفلة والإعراض إلى سكون الإقبال على الله وحلاوة ذكره،وتعلق الروح بحبه ومعرفته ، فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبدًا ، ولو أنصفت نفسها لرأتها إذا فقدت ذلك فى غاية الانزعاج والقلق والاضطراب ، ولكن يواريها السكر ، فإذا كشف الغطاء تبين له حقيقة ما كان فيه .

وها هنا سر لطيف يجب التنبيه عليه،والتنبه له،والتوفيق له بيد من أزمة التوفيق بيده، وهو أن الله ـ سبحانه ـ جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالا إن لم يحصل له فهو فى قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذى جعل له مثاله : كمال العين بالإبصار وكمال الأذن بالسمع ، وكمال اللسان بالنطق ، فإذا عدمت هذه الأعضاء القوى التى بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك ، وجعل كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته

(١) مسلم ( ١٣٢ / ٢٠٩ ) فى الإيمان ، باب : بيان الوسوسة فى الإيمان وما يقوله من وجدها ، وأبو داود (٥١١١) فى الأدب ، باب : فى رد الوسوسة ، وأحمد ( ٢ / ٤٤١ ) .

وابتهاجه فى معرفته سبحانه وإرادته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والشوق إليه والأنس به ، فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذابًا واضطرابًا من العين التى فقدت النور الباصر ومن اللسان الذى فقد قوة الكلام والذوق ، ولا سبيل له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال ، إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه ، وأن يكون هو وحده مستعانه على تحصيل ذلك ، فحقيقة الأمر أنه لا طمأنينة له بدون التحقق بإياك نعبد وإياك نستعين ، وأقوال المفسرين فى الطمأنينة ترجع إلى ذلك .

قال ابن عباس رضي الله عنهما المطمئنة : المصدقة ، وقال قتادة : هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله ، وقال الحسن : المصدقة بما قال الله تعالى . وقال مجاهد : هى النفس التى أيقنت بأن الله ربها ، المسلمة لأمره فيما هو فاعل بها . وروى منصور عنه ، قال : النفس التى أيقنت أن الله ربها وضربت جأشًا [1] لأمره وطاعته . وقال ابن أبى نجيح عنه : النفس المطمئنة المخبتة [2] إلى الله ، وقال أيضًا : هى التى أيقنت بلقاء الله ، فكلام السلف فى المطمئنة يدور على هذين الأصلين : طمأنينة العلم والإيمان ، وطمأنينة الإرادة والعمل .

فإذا اطمأنت من الشك إلى اليقين ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الغفلة إلى الذكر ، ومن الخيانة إلى التوبة،ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الكذب إلى الصدق ، ومن العجز إلى الكيس ، ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات ، ومن التيه إلى التواضع ، ومن الفتور إلى العمل ـ فقد باشرت روح الطمأنينة . وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة ، فهى أول مفاتيح الخير ، فإن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاد بمنزلة النائم بل أسوأ حالا منه ؛ فإن العاقل يعلم وعد الله ووعيده وما تتقاضاه أوامر الرب تعالى ونواهيه وأحكامه من الحقوق ، لكن يحجبه عن حقيقة الإدراك ويقعده عن الاستدراك سنة القلب وهى غفلته التى رقد فيها فطال رقوده ،وركد وأخلد إلى نوازع الشهوات فاشتد إخلاده وركوده ، وانغمس فى غمار الشهوات واستولت عليه العادات ومخالطة أهل البطالات،ورضى بالتشبه بأهل إضاعة الأوقات ، فهو فى رقاده مع النائمين ، وفى سكرته مع المخمورين ، فمتى انكشف عن قلبه سنة هذه الغفلة بزجرة من زواجر الحق فى قلبه استجاب فيها لواعظ الله فى قلب عبده المؤمن ، أو همة عليه أثارها معول الفكرة فى المحل القابل ، فضرب بمعول

---

(١) ضربت جأشًا : أى تثبت عند الشدائد ، ومعنى هذا أى أقبلت على طاعة الله سبحانه وتعالى وامتثلت أمره طاعة وحبًا لا قهرًا وكرهًا .

(٢) المخبتة : من الإخبات : الخشوع والاستكانة

فكره وكبر تكبيرة أضاءت له منها قصور الجنة ، فقال :

ألا يـا نفس ويحـك ساعدينى  بسعى منـك فى ظلـم الليالـى
لعلك فـى القيامـة أن تفـوزى  بطيب العيش فى تلك العلالى

فأثارت تلك الفكرة نوراً رأى فى ضوئه ما خلق له ، وما سيلقاه بين يديه من حين الموت إلى دخول دار القرار ،ورأى سرعة انقضاء الدنيا وعدم وفائها لبنيها،وقتلها لعشاقها ، وفعلها بهم أنواع المثلات ، فنهض فى ذلك الضوء على ساق عزه قائلا : ﴿ **يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ** ﴾ [الزمر : ٥٦] ، فاستقبل بقية عمره التى لا قيمة لها مستدركا بها ما فات ، محييًا بها ما أمات ، مستقيلا بها ما تقدم له من العثرات ، منتهزا فرصة الإمكان التى إن فاتت فاته جميع الخيرات .

ثم يلحظ فى نور تلك اليقظة وفود نعمة ربه عليه من حين استقر فى الرحم إلى وقته، وهو يتقلب فيها ظاهراً وباطنًا ، ليلا ونهاراً ، ويقظة ومناما ، سراً وعلانية ، فلو اجتهد فى إحصاء أنواعها لما قدر ، ويكفى أن أدناها نعمة النفس ، ولله عليه في كل يوم أربعة وعشرون ألف نعمة فما ظنك بغيرها .

ثم يرى فى ضوء ذلك النور أنه آيس من حصرها وإحصائها ، عاجز عن أداء حقها ، وإن المنعم بها إن طالبه بحقوقها استوعب جميع أعماله حق نعمة منها ، فيتيقن حينئذ أنه لا مطمع له فى النجاة إلا بعفو الله ورحمته وفضله .

ثم يرى فى ضوء تلك اليقظة أنه لو عمل أعمال الثقلين من البر لاحتقرها بالنسبة إلى جنب عظمة الرب تعالى ، وما يستحقه بجلال وجهه وعظم سلطانه ، هذا لو كانت أعماله منه ، فكيف وهى مجرد فضل الله ومنته وإحسانه حيث يسرها له وأعانه عليها ، وهيأه لها وشاءها منه وكونها،ولو لم يفعل ذلك لم يكن له سبيل إليها ، فحينئذ لا يرى أعماله منه ، وأن الله ـ سبحانه ـ لن يقبل عملا يراه صاحبه من نفسه حتى يرى عين توفيق الله له وفضله عليه ومنته ، وأنه من الله لا من نفسه ، وأنه ليس له من نفسه إلا الشر وأسبابه ، وما به من نعمة فمن الله وحده ، صدقة تصدق بها عليه ، وفضلا منه ساقه إليه، من غير أن يستحقه بسبب ويستأهله بوسيلة ، فيرى ربه ووليه ومعبوده أهلا لكل خير ، ويرى نفسه أهلا لكل شر ، وهذا أساس جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة ، وهو الذى يرفعها ويجعلها فى ديوان أصحاب اليمين .

ثم تبرق له فى نور تلك اليقظة بارقة أخرى ، يرى فى ضوئها عيوب نفسه وآفات عمله

وما تقدم له من الجنايات والإساءات وهتك الحرمات ، والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات ، فإذا انضم ذلك إلى شهود نعم الله عليه وأياديه لديه ، رأى أن حق المنعم عليه فى نعمه وأوامره لم يبق له حسنة واحدة يرفع بها رأسه ، فيطمئن قلبه ، وانكسرت نفسه،وخشعت جوارحه ، وسار إلى الله ناكس الرأس بين مشاهدة نعمه ومطالعة جناياته ، وعيوب نفسه وآفات عمله ، قائلا : « أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء لك بذنبى ، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » ، فلا يرى لنفسه حسنة ولا يراها أهلا لخير فيوجب له أمرين عظيمين .

**أحدهما** : استكثار ما من الله عليه .

**والثانى** : استقلال ما مَنَّه من الطاعة كائنة ما كانت .

ثم تبرق له بارقة أخرى يرى فى ضوئها عزة وقته وخطره وشرفه،وأنه رأس مال سعادته فيبخل به أن يضيعه فيما يقربه إلى ربه ، فإن فى إضاعته الخسران والحسرة ،والندامة ، وفى حفظه وعمارته الربح والسعادة ، فيشح بأنفاسه أن يضيعها فيما لا ينفعه يوم معاده .

ثم يلحظ فى ضوء تلك البارقة ما تقتضيه يقظته من سنة غفلته من التوبة ، والمحاسبة والمراقبة والغيرة لربه ، أن يؤثر عليه غيره ، وعلى حظه من رضاه وقربه وكرامته ببيعه بثمن بخس،فى دار سريعة الزوال . وعلى نفسه أن يملك رقها لمعشوق لو فكر فى منتهى حسنه ، ورأى آخره بعين بصيرة لأنف لها من محبته . فهذا كله من آثار اليقظة وموجباتها ، وهى أول منازل النفس المطمئنة التى نشأ منها سفرها إلى الله والدار الآخرة .

**وأما النفس اللوامة** : وهى التى أقسم بها سبحانه فى قوله : ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [ القيامة ] فاختلف فيها ، فقالت طائفة : هى التى لا تثبت على حال واحدة ،أخذوا اللفظة من التلوم وهو التردد ، فهى كثيرة التقلب والتلون وهى من أعظم آيات الله ، فإنها مخلوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون فى الساعة الواحدة فضلا عن اليوم والشهر والعام والعمر ألوانا متلونة ،فتذكر وتغفل ، وتقبل وتعرض ، وتلطف وتكثف ، وتنيب وتجفو ، وتحب وتبغض ، وتفرح وتحزن ، وترضى وتغضب ، وتطيع وتعصى ،وتتقى وتفجر ، إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها ، فهى تتلون كل وقت ألوانا كثيرة ، فهذا قول .

وقالت طائفة :اللفظة مأخوذة من اللوم،ثم اختلفوا فقالت فرقة : هى نفس المؤمن ، وهذا من صفاتها المجردة ، قال الحسن البصرى : إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائما يقول : ما أردت بهذا ؟ لم فعلت هذا ؟ كان غير هذا أولى ، ونحو هذا من الكلام .

وقال غيره : هى نفس المؤمن توقعه فى الذنب ثم تلومه عليه ، فهذا اللوم من الإيمان بخلاف الشقى ، فإنه لا يلوم نفسه على ذنب ، بل يلومها وتلومه على فواته .

وقالت طائفة : بل هذا اللوم للنوعين ، فإن كل أحد يلوم نفسه برًا كان أو فاجرًا ، فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته ، والشقى لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها .

وقالت فرقة أخرى : هذا اللوم يوم القيامة ، فإن كل أحد يلوم نفسه إن كان مسيئًا على إساءته ، وإن كان محسنًا على تقصيره .

وهذه الأقوال كلها حق ، ولا تنافى بينها ، فإن النفس موصوفة بهذا كله وباعتباره سميت لوامة ، لكن اللوامة نوعان :

**لوامة ملومة** : وهى النفس الجاهلة الظالمة التى يلومها الله وملائكته .

**ولوامة غير ملومة** : وهى التى لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره طاعة الله مع بذله جهده فهذه غير ملومة .

وأشرف النفوس من لامت نفسها فى طاعة الله،واحتملت ملام اللائمين فى مرضاته ، فلا تأخذها فيه لومة لائم . فهذه قد تخلصت من لوم الله ، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل فى الله ملام اللوام ،فهى التى يلومها الله عز وجل .

**وأما النفس الأمارة** : فهى المذمومة ، فإنها التى تأمر بكل سوء ، وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها . فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له ، كما قال ـ تعالى ـ حاكيًا عن امرأة العزيز : ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٥٣) ﴾ [ يوسف ] ،وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا** ﴾ [ النور : ٢١] ، وقال تعالى لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه : ﴿ **وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا** (٧٤) ﴾ [ الإسراء ] . وكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يعلمهم خطبة الحاجة : « الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له » (١) . فالشر كامن فى النفس وهو يوجب سيئات الأعمال ، فإن خلى الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال ، وإن وفقه الله وأعانه نجاه من ذلك كله ،

---

(١) أبو داود (٢١١٨) فى النكاح ، باب : فى خطبة النكاح ، والترمذى (١١٠٥) فى النكاح ، باب : ما جاء فى خطبة النكاح ، والنسائى (١٤٠٤) فى الجمعة ، باب : كيف الخطبة ، وأحمد (١ / ٣٩٣) .

فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

وقد امتحن الله ـ سبحانه ـ الإنسان بهاتين النفسين : الأمارة واللوامة ، كما أكرمه بالمطمئنة،فهى نفس واحدة تكون أمارة ثم لوامة ثم مطمئنة ، وهى غاية كمالها وصلاحها ، وأيد المطمئنة بجنود عديدة ، فجعل الملك قرينها وصاحبها الذى يليها ويسددها ، ويقذف فيها الحق ويرغبها فيه ويريها حسن صورته ، ويزجرها عن الباطل ويزهدها فيه ويريها قبح صورته ، وأمدها بما علمها من القرآن والأذكار وأعمال البر ، وجعل وفود الخيرات ومداد التوفيق تنتابها ويصل إليها من كل ناحية ، وكلما تلقتها بالقبول والشكر والحمد له ورؤية أوليته فى ذلك كله ازداد مددها ، فتقوى على محاربة الأمارة . فمن جندها وهو سلطان عساكرها وملكها الإيمان واليقين ، فالجيوش الإسلامية كلها تحت لوائه ناظرة إليه ، إن ثبت ثبتت وإن انهزم ولت على أدبارها . ثم أمراء هذا الجيش ومقدمو عساكره شعب الإيمان المتعلقة بالجوارح على اختلاف أنواعها ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونصيحة الخلق والإحسان إليهم بأنواع الإحسان ، وشعبه الباطنية المتعلقة بالقلب ؛ كالإخلاص والتوكل والإنابة والتوبة والمراقبة والصبر والحلم والتواضع والمسكنة وامتلاء القلب من محبة الله ورسوله وتعظيم أوامر الله وحقوقه والغيرة لله وفى الله والشجاعة والعفة والصدق والشفقة والرحمة ، وملاك ذلك كله الإخلاص والصدق فلا يتعب الصادق المخلص ، فقد أقيم على الصراط المستقيم فيسار به وهو راقد ، ولا يتعب من حرم الصدق والإخلاص فقد قطعت عليه الطريق واستهوته الشياطين فى الأرض حيران، فإن شاء فليعمل وإن شاء فليترك ، فلا يزيده عمله من الله إلا بعداً ، وبالجملة ، فما كان لله وبالله فهو من جند النفس المطمئنة .

وأما النفس الأمارة فجعل الشيطان قرينها وصاحبها الذى يليها ، فهو يعدها ويمنيها ، ويقذف فيها الباطل ، ويأمرها بالسوء ويزينه لها ، ويطيل فى الأمل ويريها الباطل فى صورة تقبلها وتستحسنها ، ويمدها بأنواع الإمداد الباطل من الأمانى الكاذبة والشهوات المهلكة، ويستعين عليها بهواها وإرادتها ، فمنه يدخل عليها ويدخل عليها كل مكروه ، فما استعان على النفوس بشىء هو أبلغ من هواها وإرادتها إليه .

وقد علم ذلك إخوانه من شياطين الإنس ، فلا يستعينون على الصور الممنوعة منهم بشىء أبلغ من هواهم وإراداتهم فإذا أعيتهم صورة طلبوا بجهدهم ما تحبه وتهواه ، ثم طلبوا بجهدهم تحصيله فاصطادوا به تلك الصورة ، فإذا فتحت لهم النفس باب الهوى دخلوا منه فجاسوا خلال الديار ، فعاثوا وأفسدوا وفتكوا وسبوا ، وفعلوا ما يفعله العدو

ببلاد عدوه إذا تحكم فيها ، فهدموا معالم الإيمان والقرآن والذكر والصلاة ، وخربوا المساجد ، وعمروا البيع والكنائس والحانات والمواخير ، وقصدوا إلى الملك فأسروه وسلبوه ملكه ونقلوه من عبادة الرحمن إلى عبادة البغايا والأوثان،ومن عز الطاعة إلى ذل المعصية ، ومن السماع الرحمانى إلى السماع الشيطانى ، ومن الاستعداد للقاء رب العالمين إلى الاستعـداد للقاء إخـوان الشياطين ، فبينا هو يراعى حقوق الله وما أمر به ، إذ صار يرعى الخنازير ، وبينما هو منتصب لخدمة العزيز الرحيم ، إذ صار منتصبا لخدمة كل شيطان رجيم .

**والمقصود** : أن الملك قرين النفس المطمئنة ، والشيطان قرين الأمارة ، وقد روى أبو الأحوص عن عطاء بن السائب ، عن مرة ، عن عبد الله قـال : قـال رسول الله ﷺ : « إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق،فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم » (١)، ثم قرأ: ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ** ﴾ [ البقرة : ٢٦٨] وقد رواه عمر عن عطاء بن السائب وزاد فيه عمر وقال : سمعنا فى هذا الحديث أنه كان يقال :إذا أحس أحدكم من لمة الملك شيئًا فليحمد الله وليسأله من فضله،وإذا أحس من لمة الشيطان شيئًا فليستغفر الله وليتعوذ من الشيطان (٢) .

---

(١) الترمذى (٢٩٨٨) فى التفسير ، باب : ومن سورة البقرة ، وقال : « حسن غريب ... » ، والنسائى فى الكبرى (١١٠٥١) فى التفسير ، باب : قوله تعالى : ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ** ﴾ .

(٢) الروح (٣٣٠ ـ ٣٤١) .